

تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ
المُسَمَّى

بِأَوْدَانِ أَهْلِ السُّنَنِ

تَصْنِيفُ
أَبِي مَنْصُورٍ مُحَمَّدِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْمَازِينِيِّ السَّمَرْقَنْدِيِّ الْحَنْفِيِّ
(ت ٥٣٢٢ هـ)

تَحْقِيقُ
فَاطِمَةَ يَوْسُفَ الْخَمِي

الْمَجْلَدُ الثَّانِي

مُؤَسَّسَةُ الرِّسَالَةِ نَاشِرُونَ

تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

الْمَكِّي

تَأْوِيلُ أَهْلِ السُّنَنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

غاية في كلمة



مؤسسة الرسالة ناشرون

مَنْشُورَات
مَرْوَانِ رَضْوَانِ دَعْبُول

هاتف: ٥٤٦٧٢١ - ٥٤٦٧٢٠

فاكس: ٥٤٦٧٢٢ (٩١١١)

ص ب: ١١٧٤٦

بغداد - لبنان

Resalah
Publishers

Tel: 546720 - 546721

Fax: (961) 546722

P.O. Box: 117460

Detroit - Lebanon

Email:

resalah@resalah.com

Web site:

<http://www.resalah.com>

جميع الحقوق محفوظة للنَّاشِر

الطبعة الأولى

١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م

ISBN 9953-32-096-9

حقوق الطبع محفوظة © ٢٠٠٤ م. لا يُسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو أي جزء منه. ولا يُسمح باقتباس أي جزء من الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.



اللهم

اجعلني ومن كانت له يد في

إخراج هذا الكتاب ومن يقرؤه ممن يردد

دعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام

﴿رَبَّنَا قَبَلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

فاطمة يوسف الخيمي

سورة المائدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبِهِ نَسْتَعِينُ

الآية ١

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ أجمع أهل التأويل على أن العقود ههنا، هي العهود. ثم العهود على قسمين؛ عهود في ما بين الخلق، أمر الله ﷻ بوفائها، وعهود في ما بينهم وبين ربهم؛ وهي المواثيق التي أخذ عليهم: من نحو الفرائض التي فرض الله عليهم والتذوي التي يتولون هم إيجابها، وغير ذلك أمر ﷻ بوفائها. وأما العهود التي في ما بينهم من نحو الأيمان وغيرها [فقد] ^(١) أمر بوفاء ذلك إذا لم يكن فيها معصية الرب كقوليه تعالى: ﴿وَلَا تَنفُسُوا الْآيَةَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١] أمر ههنا بوفاء الأيمان، ونهى عن تركها ونقضها. ثم جاء في الخبر أنه قال: «مَنْ خَلَفَ عَلَى يَمِينٍ، فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا فَلْيَاتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ، وَلْيُكَفِّرْ يَمِينَهُ» [مسلم: ١٦٥٠] أمر في ما فيه معصية بفسخها، أو أمر بوفاء ما لم يكن فيه معصية، ونهى عن نقضها بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفُسُوا الْآيَةَ﴾ الآية [النحل: ٩١].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما [أنه] ^(٢) قال: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ هي: العهود؛ هي ^(٣) ما أحل وما حرّم وما فرض وما حلّ في القرآن كله، وهي ^(٤) ما ذكرنا.

وقيل: إن العقود التي أمر الله تعالى بوفائها، هي العهود التي أخذ الله تعالى على أهل الكتاب: أن يؤمنوا بمحمد ﷺ ويأخذوا بشرايعه، ويعملوا بما جاء به، وهو كقوليه تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٨٧] وكقوليه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَبِيًّا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي﴾ الآية [المائدة: ١٢]. فالخطاب لهم على هذا التأويل لأنهم كانوا آمنوا به قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ، فلما بُعِثَ كفروا به.

وقوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْتَهِرِ﴾ قال بعضهم: هي الوحش، وهو قول الفراء. ألا ترى أنه قال: ﴿غَيْرِ مُحِلِّ الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ؟﴾ وقال الحسن: (هي الإبل والبقر والغنم) وقال آخرون: البهيمة كل مرْكوب.

لكن عندنا كل ما كُورِل مِنَ الْغَنَمِ وَالْوَحْشِ وَالصَّيْدِ وَغَيْرِهِ، وإن لم يُذكر. دليله ما استثنى: ﴿إِلَّا مَا يَتَلَبَّسُ عَلَيْكُمْ غَيْرِ مُحِلِّ الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ كأنه قال: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْتَهِرِ﴾ والصَّيْدُ ﴿إِلَّا مَا يَتَلَبَّسُ عَلَيْكُمْ﴾ مِنَ «الْبَيْتَةِ وَالذَّمِّ وَلَحْمِ الْخَنَزِيرِ وَمَا أَهْلُ الْبَيْتِ لَعَنُوا» وَكَانَ اللَّهُ بِهِ وَالْمُتَحَفِّقَةُ وَالْمَوْفُودَةُ الآية [المائدة: ٣] ﴿غَيْرِ مُحِلِّ الصَّيْدِ﴾ على أن الصَّيْدَ فِيهِ كَالْمَذْكُورِ، وإن لم يُذكر، لأنه استثنى الصَّيْدَ مِنْهُ.

وأبدأ إنما يُسْتَنْتَى الشَّيْءُ مِنَ الشَّيْءِ إِذَا كَانَ فِيهِ ذَلِكَ. وأما إذا لم يكن فلا معنى للإستثناء. فإذا استثنى الصَّيْدَ دَلَّ الإِسْتِثْنَاءُ عَلَى أَنَّ الصَّيْدَ فِيهِ، وإن لم يُذكر. ودلّ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [المائدة: ٢] على أن النَّهْيَ كَانَ عَنِ الإِضْطْيَادِ فِي حَالِ الإِحْرَامِ لَا عَنْ أَكْلِهِ لِأَنَّ لِلْمُحْرِمِ أَنْ يَأْكُلَ صَيْدًا صَادَهُ حَلَالًا ^(٥).

ودلّ قوله تعالى: ﴿غَيْرِ مُحِلِّ الصَّيْدِ﴾ على أن الصَّيْدَ قَدْ دَخَلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿غَيْرِ مُحِلِّ الصَّيْدِ﴾ على ما ذُكِرَ فِي مَا تَقَدَّمَ أَنَّ الْبَيَانَ فِي الْجَوَابِ يَدُلُّ عَلَى كَوْنِهِ فِي السُّؤَالِ [وإن لم يكن مذكوراً في السؤال] ^(٦). فعلى ذلك تدلُّ الثُّبُوتُ مِنَ الصَّيْدِ عَلَى كَوْنِهِ فِيهِ، والله أعلم.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم. هو. (٤) في الأصل وم. وهو. (٥) في الأصل وم: حلال. (٦) من م، ساقطة من الأصل.

وَيَحْتَمِلُ [قوله تعالى] ^(١) ﴿يَسْمَةُ الْاَنْثَى﴾ ثمانية ^(٢) الأزواج التي ذكرها في سورة الأنعام ﴿مِنَ الْاَنْثَى اثْنَتَيْنِ وَمِنَ الْاَنْثَى اثْنَتَيْنِ﴾ إلى آخر ما ذكر [الآية: ١٤٣]. والآية تدل على أن الذي أجل من البهائم الأنعام؛ منها ثمانية دل عليها قوله تعالى: ﴿وَالْاَنْثَى خَلْقًا لَكُمْ فِيهَا وَفءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: ٥]. ثم قوله ^(٣): ﴿وَالْخَيْلُ وَالْبِغَالُ وَالْحَمِيرُ اِتْرَکِبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: ٨] فصل ^(٤) بين الأنعام وبين الخيل والبغال والحمير؛ [خلق هذوا] ^(٥) للرکوب، والأنعام للأكل. وقوله تعالى: ﴿اِلَّا مَا يَتَلَطَّفُ عَلَيْكُمْ غَيْرِ مَحِلٍّ لِّلصَّيْدِ اَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ كأنه قال: أجلت لكم بهيمة الأنعام والصيد إلا ما يتلطف عليكم. يحتمل ﴿يَتَلَطَّفُ﴾ على الوغد أي يتلطف عليكم من بعد ما ذكر على إثره ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْبَيْتَةُ وَالَّذُومُ﴾ [المائدة: ٣] إلى آخره. ويحتمل ﴿اِلَّا مَا يَتَلَطَّفُ عَلَيْكُمْ﴾ وهو ما ذكر. وفي حرف ابن مسعود ^(٦) ﴿اِلَّا مَا يَتَلَطَّفُ عَلَيْكُمْ﴾ فيها في سورة الأنعام: ﴿قُلْ لَا اُجِدُ فِي مَا اُوْحِيَ اِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِهِ﴾ [الآية: ١٤٥] إلى آخره.

وقوله تعالى: ﴿اِنَّ اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ هذا، والله أعلم، أي إلى الله الحكم، يحكم بما يشاء من التحريم والتخليل في ما شاء على ما شاء، ليس إليكم الحكم ^(٧) عليه، وهذا ينفض قول [من يقول] ^(٨): لم يرد لأنه لو أراد لحكم، وبالله العظمة.

الآية ٢ وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعِيرَ اَللّٰهِ﴾ عن ابن عباس ^(٩) [أنه] ^(١٠) قال: كان المشركون يحجون البيت الحرام، ويهدون الهدايا، ويعظمون حرمة المشاعر، ويتحرون في حاجتهم، فأراد المسلمون أن يغيروا عليهم، فأنزل الله تعالى: ﴿لَا تَحْلُوا شَعِيرَ اَللّٰهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ يعني لا تستحلوا قتلاً فيه ﴿وَلَا الْمَذْيَ وَلَا الْفَلْتِ﴾ الآية. وقال غيره ^(١١): قوله تعالى: ﴿لَا تَحْلُوا شَعِيرَ اَللّٰهِ﴾ يعني المناسك؛ لا تستحلوا ترك شعائر الله. والشعائر من المناسك.

ألا ترى أن الله تعالى سمى كل نسل من الحج شعيرة ^(١٢) الله كقوله تعالى: ﴿اِنَّ الصَّغَا وَالزَّوْءَ مِنْ شَعَائِرِ اَللّٰهِ﴾ [البقرة: ١٥٨] وكقوله ^(١٣) تعالى: ﴿وَالَّذِي جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّنْ شَعَائِرِ اَللّٰهِ﴾ [الحج: ٣٦]. كل هذا من شعائر الله، وهن معالم الله في الحج.

وقيل: ﴿شَعِيرَ اَللّٰهِ﴾ فرائض الله؛ كأنه قال: لا تستحلوا ترك ما فرض الله عليكم. وقال الحسن: ﴿شَعِيرَ اَللّٰهِ﴾ دين ^(١٤) الله، وهو واحد، وقيل في قوله تعالى: ﴿جَعَلَ اَللّٰهُ اَلْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ حتى بلغ ﴿وَلَا الْمَذْيَ وَلَا الْفَلْتِ﴾ [هي حواجز أبقاها] ^(١٥) الله بين الناس من ^(١٦) الجاهلية؛ فكان الرجل لو جر جريرة، وارتكب كبيرة، ثم لجأ إلى حرم الله تعالى، لم يتناول، ولم يظلم، ولو لقي [المرء] ^(١٧) قاتل أبيه في الأشهر الحرم لم يتعرض له، وكان الرجل لو لقي الهدي مقلداً، وهو يأكل العصب من الجوع، لم يتعرض له، ولم يقرئه، وإذا ^(١٨) أراد [الحاج البيت يقلد البدنة] ^(١٩) فإدانة من شعر [تحرّمها، وتمنعها] ^(٢٠) ١٢٢ - / من الناس حتى يأتي [محلّه. تلك] ^(٢١) حواجز [أبقاها الله من الجاهلية أماناً لهم] ^(٢٢) والله أعلم.

ويحتمل قوله تعالى: ﴿لَا تَحْلُوا شَعِيرَ اَللّٰهِ﴾ أي لا تستحلوا ما أشعركم الله حرمة، وهو من الأعلام. ويحتمل أن يكون أراد به مشاعر الحرام الذي ذكرنا، وقال: لا تحلوا الحرام ولا الشهر الحرام ولا الهدي ولا القلايد؛ وهذه أمور كانت من قبل، فنسخ ^(٢٣) بقوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ الآية [التوبة: ٥].

وعن الشعبي أنه قال: لم ينسخ من المائدة غير هذه الآية؛ نسخها [قوله تعالى] ^(٢٤): ﴿اِنَّمَا الشُّرُكُوتُ جَسَدٌ فَلَا يَفْرُوُ السَّجْدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَائِمِهِمْ هَكَذَا﴾ [التوبة: ٢٨] وقوله تعالى: ﴿فَاِذَا اَسْلَخَ الْاَشْهُرُ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ الآية [التوبة: ٥].

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: الثمانية. (٣) في الأصل وم: قال. (٤) في الأصل وم: ففصل. (٥) في الأصل وم: خلقها. (٦) في الأصل وم: التحكم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: غيرهم. (١٠) في الأصل وم: شعائر. (١١) في الأصل وم: وقال. (١٢) أدرج قبلها في الأصل وم: قال. (١٣) في الأصل وم: فقال: حواجز أبقاها. (١٤) في الأصل وم: في. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٧) في الأصل وم: البيت يقلد. (١٨) في الأصل وم: فحرمه ومنعه. (١٩) في الأصل وم: أهله. (٢٠) في الأصل وم: أبقاها الله في الجاهلية أماناً. (٢١) في الأصل وم: فنسخ. (٢٢) ساقطة من الأصل وم.

وقالت عائشة رضي الله عنها إنها آخر ما أنزل، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه، وما وجدتم من حرام فحرّموه. وقوله تعالى: ﴿وَلَا الشَّهَرِ الْحَرَامَ﴾ هو ^(١) كقوله تعالى: ﴿يَتَقَلَّبُكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قَلِيلٌ﴾ [البقرة: ٢١٧] وقد ذكرنا أن الله ﷻ أطلق الحرام في الشهر الحرام بعد ما كان مَحْظُوراً بقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ الْمُسْتَرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]. وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا الْمَذْيَ وَلَا الْفَلْتِ﴾ فهو ^(٢) ما ذكرنا من صنيعهم في الجاهلية في ما ذكر ^(٣)، وفيه دليل لقول أصحابنا، رحمهم الله، حين ^(٤) قالوا: إن الغنم لا تُقْلَدُ، والإبل والبقر تُقْلَدُ لانه ذكر الهدي والقلايد، فدل أن من الهدي [ما] ^(٥) يُقْلَدُ.

[وقوله تعالى] ^(٦): ﴿وَلَا آتَيْنَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ أي آتين ^(٧) البيت الحرام ﴿يَتَتَوْنَ قَصَلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً﴾ قيل: إن المشركين كانوا يقصدون البيت الحرام، يلتبسون فضل الله ورضوانه بما يضلح لهم دنياهم كقوله تعالى: ﴿فَمِنْ أَلْسَانٍ مَنْ يَبْغُو رَيْتاً أَيْنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ [البقرة: ٢٠٠] وقد يجوز أن يكونوا إنما التمسوا، عند أنفسهم رضوان الله، أمر المؤمنين بالكف عنهم، وإن كانوا قد غلبوا في ترويج العباداة، فجعلوها لغير الله، كقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَرَبِّهَا نُوْفِ إِلَيْهِمْ أَفَعَمَلُهُمْ نِيلاً﴾ [هود: ١٥].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ دل هذا على أن التهي في قوله: ﴿غَيْرَ مُحِلِّ الصَّيْدِ﴾ [المائدة: ١] في أخذ الصيد والاضطيا ^(٨) في الإحرام لا أحله، وهو إباحة وإطلاق ما حُظِرَ عليهم بالإحرام، وإن كان ظاهره أمراً. ومعناه: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ﴾ لكم أن تضطادوا.

واضله أن كل أمر خرج على إثر مَحْظُورٍ فهو أمر إباحة وإطلاق ذلك المَحْظُورِ الْمُحَرَّمِ لا أمر إلزام وإيجاب من نحو قوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ [الجمعة: ٩] ثم قوله ^(٩) تعالى: ﴿وَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠] هو إطلاق المَحْظُورِ الْمُقَدَّمِ، وقوله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥٣] ثم قوله ^(١٠) تعالى: ﴿وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا إِذَا طَلَعْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾ [الأحزاب: ٥٣] أمر إطلاق وإباحة ما حُظِرَ عليهم، ومثله كثير في القرآن وما يكثر ذكره. وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَلَا آتَيْنَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ ولا تؤموا، وكذلك في حَرْفِهِ: قَامُوا ﴿صَبِيحاً طَيِّباً﴾ [المائدة: ٦].

وقيل في قوله تعالى: ﴿يَتَتَوْنَ قَصَلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً﴾ حُجَّتُهُمْ، فلا يُقْبَلُ مِنْهُمْ ^(١١) حَتَّى يُسَلِّمُوا، فَتَهَى اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ عَنْ قِتَالِهِمْ. وقال بعضهم: «إِنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْيَمَامَةِ، يُقَالُ لَهُ: شَرِيحٌ، وَذَلِكَ [أَنَّهُ أَتَى الْمَدِينَةَ] ^(١٢)»، فَدَخَلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: أَنْتَ مُحَمَّدُ النَّبِيُّ ﷺ؟ فَقَالَ: نَعَمْ. فَقَالَ: إِلَآمَ تَدْعُو؟ قَالَ: أَذْعُو إِلَى أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، [فَقَالَ شَرِيحٌ] ^(١٣): «هَذَا شَرْطٌ شَدِيدٌ، وَإِنْ لِي أَمْرَاءُ خَلْفِي، أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ، فَأَعْرِضْ عَلَيْهِمْ مَا اشْتَرَطْتَ عَلَيَّ، وَأَسْتَأْذِنُهُمْ فِي ذَلِكَ. فَإِنْ أَقْبَلُوا أَقْبَلْتُ، وَإِنْ أَذْبَرُوا أَذْبَرْتُ؛ فَأَكُونُ ^(١٤) مَعَهُمْ. ثُمَّ انْصَرَفَ خَارِجاً مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا خَرَجَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَقَدْ خَرَجَ مِنْ عِنْدِي بِعَقْبِي غَادِرٌ، وَلَقَدْ دَخَلَ عَلَيَّ بِوَجْهِ كَافِرٍ، وَمَا الرَّجُلُ بِمُسْلِمٍ، فَمَرَّ شَرِيحٌ بِسَرَحٍ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ [فَسَاقَهُ مَعَهُ] ^(١٥). فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْعَامِ الثَّانِي قَدِمَ شَرِيحٌ إِلَى مَكَّةَ، وَمَعَهُ تِجَارَةٌ عَظِيمَةٌ فِي حُجَّاجٍ، وَكَانَتِ الْعَرَبُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يُغَيِّرُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ. فَإِذَا كَانَ الشَّهْرُ الْحَرَامُ آمِنَ النَّاسُ كُلُّهُمْ بَعْضُهُمْ بَعْضاً؛ فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُسَافِرَ قَلَّدَ بَعِيرَهُ مِنَ الشَّغْرِ وَالْوَبَرِ ^(١٦)، فَيَأْمَنُ بِذَلِكَ الْهَدْيِ حَيْثُ مَا ذَهَبَ. فَلَمَّا سَمِعَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِحُجَّ شَرِيحٍ وَقُدُومِهِ إِلَى مَكَّةَ، أَرَادُوا ^(١٧) أَنْ يُغَيِّرُوا عَلَى شَرِيحٍ فَيَأْخُذُوا مَا [مَعَهُ، وَيَقْتُلُوهُ] ^(١٨) كما أغارَ شَرِيحٌ عَلَى سَرَحٍ أَهْلِ الْمَدِينَةِ

(١) في الأصل وم: وهو. (٢) في الأصل وم: وهو. (٣) ساقطة من م. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل: فآمين، في م: فآتين. (٨) في الأصل وم: واصطيا. (٩) في الأصل وم: قال. (١٠) في الأصل وم: قال. (١١) في الأصل وم: عنهم. (١٢) في الأصل وم: أتى بالمدينة. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: فكن. (١٥) في الأصل وم: فساقها معهم. (١٦) في الأصل وم: الوبر. (١٧) في الأصل وم: فأرادوا. (١٨) في الأصل وم: معهم ويقتلوه. وقد ذكرت هذه القصة في تفسير ابن جرير الطبري عن رجل آخر غير شريح، اسمه الحطم ٥٩/٦.

قَبْلَ ذَلِكَ، فَاسْتَأْذِنُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي ذَلِكَ، فَتَزَلَّتِ الْآيَةُ فِيهِمْ: ﴿لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ إِلَى آخِرِهِ، فَلَا نَذْرِي كَيْفَ كَانَتِ الْقِصَّةُ؟ وَلَيْسَ بِنَا إِلَى مَعْرِفَةِ الْقِصَّةِ حَاجَةً إِلَّا الْقَدْرَ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ [المائدة: ٨] كقولِهِ^(١) فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ يَأْمَنُوا كُوفًا قَوْمِينَ بِالْأَيْمَانِ شَهَادَةً لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا﴾ [الأنعام: ١٥٠].

ذَكَرَ فِي بَعْضِهَا الْإِغْتِيَاءَ، وَنَهَى عَنْهُ، وَهُوَ الْمُجَاوِزَةُ عَنِ الْحَدِّ الَّذِي حَدَّ لَهُمْ، وَذَكَرَ فِي بَعْضِهَا الْعَدْلَ، وَنَهَى عَنِ الظُّلْمِ وَالْجَوْرِ، ثُمَّ الْأَسْبَابَ [التي]^(٢) تَحْمِلُهُمْ، وَتَبْعُهُمْ عَلَى^(٣) الْإِغْتِيَاءِ وَالظُّلْمِ، وَتَمْنَعُ الْقِيَامَ بِالشَّهَادَةِ.

وَأَخْبَرَ أَلَّا تَمْنَعَكُمْ الْوَلَايَةَ وَالْقُرْبَ الْقِيَامَ بِالشَّهَادَةِ أَوْ طَمَعُ غِنَى أَوْ خَوْفُ فَقْرٍ. هَذِهِ الْوُجُوهُ الَّتِي ذَكَرْنَا تَمْنَعُ النَّاسَ الْقِيَامَ بِالشَّهَادَةِ، وَتَمْنَعُهُمْ^(٤) عَنِ الْجَوْرِ وَالْإِغْتِيَاءِ. فَتَنَاهُمُ اللَّهُ ﷻ أَنْ يَحْمِلَهُمْ بُغْضُ قَوْمٍ أَوْ عَدَاوَةُ أَحَدٍ عَلَى الْجَوْرِ وَالْإِغْتِيَاءِ، أَوْ تَمْنَعَهُمُ الشَّقَقَةُ^(٥) أَوْ الْقُرْبُ أَوْ طَمَعُ غِنَى أَحَدٍ أَوْ خَوْفُ فَقْرٍ الْقِيَامَ بِالشَّهَادَةِ وَمَا عَلَيْهِمْ مِنَ الْحَقِّ. وَأَمَرَ أَنْ يَجْعَلُوا كُلَّهُ لِلَّهِ بِقَوْلِهِ: ﴿كُونُوا قَوْمِينَ بِالْأَيْمَانِ شَهَادَةً لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٣٥].

فَإِذَا كَانَ كُلُّهُ لِلَّهِ قَدَّرَ أَنْ يَغْدِلَ فِي الْحُكْمِ، وَتَرَكَ مُجَاوِزَةَ الْحَدِّ الَّذِي حَدَّ لَهُ، وَقَدَّرَ عَلَى الْقِيَامَ بِالشَّهَادَةِ وَمَا ذَكَرَ، وَمَا يَمْنَعُ شَيْءٌ مِنَ ذَلِكَ الْقِيَامَ بِهِ مِنْ نَحْوِ مَا ذَكَرَ مِنَ الْبُغْضِ وَالْعَدَاوَةِ وَالْقُرْبِ وَالشَّقَقَةِ أَوْ طَمَعِ الْغِنَى وَخَوْفِ الْفَقْرِ. إِذَا جَعَلَ الْحُكْمَ لِلَّهِ عَدْلَ فِيهِ، وَمَنْعَهُ عَنِ الْجَوْرِ فِيهِ وَالْإِغْتِيَاءِ. وَكَذَلِكَ الشَّهَادَةُ إِذَا جَعَلَهَا اللَّهُ قَامَ بِأَدَائِهَا، وَلَوْ عَلَى نَفْسِهِ. أَمَّا ذَكَرَ [أَنَّهُ لَا]^(٦) يَمْنَعُهُ شَيْءٌ عَنِ الْقِيَامَ بِهِ مِنْ نَحْوِ مَا ذَكَرَ مِنَ الْبُغْضِ وَالْعَدَاوَةِ وَالْقُرْبِ وَالشَّقَقَةِ أَوْ طَمَعِ الْغِنَى أَوْ خَوْفِ الْفَقْرِ إِذَا جَعَلَ الْحُكْمَ لِلَّهِ تَعَالَى عَدْلَ فِيهِ، وَمَنْعَهُ عَنِ الْجَوْرِ فِيهِ وَالْإِغْتِيَاءِ.

وقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ كَانَ الْبِرُّ اسْمُ كُلِّ خَيْرٍ، وَالتَّقْوَىٰ هُوَ تَرْكُ كُلِّ شَرٍّ^(٧)، وَالْإِنْتِهَاءُ عَنْ كُلِّ شَرٍّ ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِلْمِ وَالْمُدْلَانِ﴾ أَلَا تَرَىٰ أَنَّهُ ذَكَرَ بِلِزَاءِ الْبِرِّ الْإِثْمَ، وَالتَّقْوَىٰ الْعُدْوَانَ؟ فَهَذَا يَبَيِّنُ أَنَّ الْبِرَّ اسْمٌ لِكُلِّ خَيْرٍ، وَالتَّقْوَىٰ هُوَ الْإِنْتِهَاءُ عَنْ كُلِّ شَرٍّ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ [التَّقْوَىٰ]^(٨) مَا ذَكَرَ فِي الْآيَةِ الْأُولَى، وَأَمَرَ بِهِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أَلَيْتَ لِحُرَامِ﴾. يَقُولُ: عَاوَنُوهُمْ عَلَى مَا يَأْتُونَ بِهِ مِنْ ذَلِكَ فَإِنَّهُمْ إِلَى الْبِرِّ يَقْصِدُونَ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِعْلُهُمْ بِرًّا لِعِبَادَتِهِمْ غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى. وَإِنَّمَا أَمَرُوا بِمُعَاوَنَتِهِمْ وَتَرَكَ التَّعَرُّضَ لَهُمْ إِنْ ثَبَتَ مَا ذَكَرَ فِي الْقِصَّةِ إِذَا أَجْرُمُوا، أَوْ قَلَّدُوا، أَوْ قَصَدُوا الْبَيْتَ الْحَرَامَ فِي الْوَقْتِ الَّذِي جَازَ أَنْ يُعَاهِدُوا فِيهِ كَمَا يَجُوزُ لَنَا مُعَاهَدَةُ أَهْلِ الْكِتَابِ عَلَى الْإِغْتِيَاءِ^(٩) لِكُنَائِسِهِمْ وَبَيْعِهِمْ، وَإِنْ كَانُوا يَنْقُضُونَ اللَّهَ فِيهَا لِأَنَّهُمْ يَدِينُونَ بِذَلِكَ، وَيَقْصِدُونَ بِهِ الْبِرَّ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ. فَلَمَّا أَمَرَ بِتَقْضِ عَهْدِهِ مُشْرِكِي الْعَرَبِ أَمَرَ بِمَنْعِهِمْ مِنْ دُخُولِ الْمَسْجِدِ وَأَنْ يَقْتُلُوا حَيْثُ وَجَدُوا.

إِلَى هَذَا الْمَعْنَى ذَهَبَ أَصْحَابُنَا، وَرَجَمَهُمُ اللَّهُ/١٢٢- ب/ تَعَالَى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، فِي فَرْقِهِمْ بَيْنَ شَهَادَةِ أَهْلِ الذِّمَّةِ عَلَى أَمْثَالِهِمْ وَشَهَادَةِ فَسَاقِ الْمُسْلِمِينَ، وَإِنَّ^(١٠) أَهْلَ الذِّمَّةِ مُتَدَيِّنُونَ بِكُفْرِهِمْ، وَالْفُسَاقُ مُتَدَيِّنُونَ^(١١) بِفِسْقِهِمْ. وَكَذَلِكَ فَرْقُهُمْ بَيْنَ مَا يَغْلِبُ عَلَيْهِ الْمُشْرِكُونَ مِنْ أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ وَبَيْنَ مَا يَغْلِبُ عَلَيْهِ الْفُسَاقُ مِنْهَا لِأَنَّ أَمْرَ الْمُتَدَيِّنِينَ^(١٢) بِدِينِ خَطِئٍ مُخَالِفٍ فِي الْحُكْمِ أَمْرَ الْمُقِرِّ بِالذَّنْبِ فِيهِ.

أَلَا تَرَىٰ أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ تُطْلَقَ لِمَنْ يُعَاقِدُونَهُ^(١٣) مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الصَّلَاةُ فِي كُنَائِسِهِمْ [وَبَيْعِهِمْ]^(١٤) وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ عِنْدَنَا مَعْصِيَةً حَرَامًا^(١٥)، وَلَا يَجُوزُ أَنْ تُطْلَقَ الْمَعْصِيَةُ لِفَسَاقِ الْمُسْلِمِينَ؟

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: قَالَ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: عَنْ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَتَبْعُهُمْ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: التَّفَقُّة. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: لَمْ. (٧) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: شَيْءٌ. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: نَعْرُضُ. (١٠) الرَّوَا سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: مُتَدَيِّنِينَ. (١٢) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: الْمُجْتَبِينَ. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: يُعَاقِدُونَ. (١٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٥) فِي الْأَصْلِ وَم: مَعْصِيَةٌ حَرَامٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي نعمة الله وعذابه في ترك ما أمركم به وارتكاب ما نهاكم عنه ﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنه في قوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاؤُ قَوْمٍ أَنْ سَدَّوْكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي لا يحملنكم بغض قوم لصدهم إياكم عن البيت، فتأثموا فيهم ﴿أَنْ تَعْتَدُوا﴾ فتقتلوهم، وتأخذوا أموالهم. وقال: ﴿وَتَعَادُوا عَلَى الْيَمِّ وَالْقَوَى﴾ البر هو ما أمرت به، والقوى الكف عما نهيت عنه. وقال: ﴿وَالْمَدُونِ﴾ هو المجاورة عن حد الله الذي ^(١) حده.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ قال بغضهم: لا يؤثمنكم بغض قوم ﴿أَنْ تَعْتَدُوا﴾. وقال آخرون: لا يحملنكم. وفيه لغتان: يُجرمنكم برفع ^(٢) الباء وينضبا ﴿يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ وهو ما ذكرنا.

الآية ٢

وقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُمِلَ إِلَيْهِ لِقَبْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ هو على الإضمار، والله أعلم؛ كانه قال: حرم عليكم أكل الميتة والدّم وأكل لحم الخنزير إلى آخر ما ذكر. ألا ترى أنه قال: يجوز الانتفاع بصوف الميتة وبغظيها. ذل أنه على الإضمار: إضمار: أكل. وأما الانتفاع بجلدها فلا ^(٣) يجوز إلا بغد الدباج لأن الجلد رتبا يشوى مع اللحم، فيؤكل، فهو حرام كاللحم، إلا أن يذبح ^(٤).

ثم في الآية دليل الإمتحان من وجهين:

أحدهما: إباحة التناول من جوفه وحظره: امتحن بخمره الخنزير والدّم، لم يحله بسبب ولا بغير سبب، وامتحن بجله الآخر بسبب، وحرم بسبب.

والثاني: امتحن بسبب حل لتفريق الطبع عنه لأن كل روح يتألم بالذبح واستخراج الروح منه، وجعل طبيعة كل أحد مما يتفرد عنه لما يتألم به لتطيب أنفسهم بذلك.

ثم جعل ما يخرج من الأرض كله حلالاً بلا سبب يكتسبون إلا ما لا يقدر على تناول منه لخوف الهلاك لأنه موات، لا تتفرد الطباع عنه.

ثم جعل أسباب الجمل أسباباً يكتسبون ^(٥) مما لا يعمل في استخراج ذلك الدّم المحرم منه حلّ أكله. وإذا لم يعمل في استخراج ذلك الدّم، فهلكت فيه، أفسده لأنه تلف فيه ما هو محرم، فأفسده، فاستخرج ذلك الدّم مما يطيب ذلك، وينفع عن الفساد إلا في طول الوقت، والذي هلك فيه الدّم يفسد في قليل الوقت.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِلَ إِلَيْهِ لِقَبْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ قال الكسائي: ﴿وَمَا أُمِلَ إِلَيْهِ لِقَبْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ أي ذكر وسمي عليه غير اسم الله مشتقة من استهلال الصبي، ومنه إهلال الهلال [وهلال المول] ^(٦) بالحج إذا لبي.

قال قتادة: كان أهل الجاهلية يخشون الشاة حتى إذا ماتت أكلوها. والكافر في الحقيقة يهل لغير الله لأنه لا يعرف الله حقيقة. لكنه أجاز ^(٧) ذبايح الكتابي لأنه يسمي عليه اسم الله تعالى ﴿وَالْمَوْدُةُ﴾ كانوا يضربون بالعصا حتى إذا ماتت ثم أكلوها ﴿وَالْمَرْدِيَّةُ﴾ كانت تردت في بئر أو من جبل، فماتت ^(٨) ﴿وَالطَّيْسَةُ﴾ كان الكباش يتناطحان، فيموت أحدهما، فيأكلونه ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾. كان أهل الجاهلية إذا قتل السبع من هذا، وأكل منه، أكلوا ما بقي. فقال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾.

ثم روي عن ابن عباس رضي الله عنه [أنه] ^(٩) قال: ﴿وَالْمُتَخِفَةُ وَالْمَوْدُةُ﴾ فما أذركت من هذا كله يتحرك بالذنب ^(١٠)، أو يظرف بالعين ^(١١)، فاذبح، واذكر اسم الله عليه، فهو حلال.

وروي عن علي رضي الله عنه [أنه] ^(١٢) قال: إذا طرقت بعينها، أو ركضت برجلها، أو حرّكت ذنبها، [فذبحها، فهو

(١) من م، في الأصل: الذين. (٢) هي قراءة ابن مسعود والأعمش، انظر المختصر في شواذ القرآن ص (٣١). (٣) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٤) إشارة إلى الحديث الشريف «أيما إهاب دبح فقد طهر» [الترمذي: ١٧٢٨]. (٥) في الأصل وم: يكسبون. (٦) في الأصل وم: وأهل المحل. (٧) في الأصل وم: أجز. (٨) في الأصل: تردى في بر أو في جبل فتموت، في م: تردى في بر أو من جبل فتموت. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، في الأصل: له بالذنب. (١١) في الأصل وم: له العين. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

تَذَكِّيَّةٌ^(١) وكذلك رُوِيَ عَنِ ابْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّهُ سَمِعَ عُبَيْدَ بْنَ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ: ذَلِكَ. وَكَانَهُ رُوِيَ مَرْفُوعاً عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَذَلِكَ.

وهذا، والله أعلم، إذا خَنَقَهَا، أو وَقَذَعَهَا^(٢)، يُغْمَى عَلَيْهَا. فإذا دَبَّحَهَا^(٣)، فَحَرَكْتَ ذَنْبَهَا، أو [طَرَفْتَ بِعَيْنَيْهَا]، أو رَكَضْتَ بِرِجْلَيْهَا، أَفَاقَتْ، فَاسْتَدَلَّ بِذَلِكَ عَلَى حَيَاتِهَا. وَلَيْسَ هَذَا كَسَاةَ يَنْزِعُ الذُّبُّ أَوْ السُّبُّ مَا فِي بَطْنِهَا، أو صَارَتْ^(٤) بِحَالٍ لَا تَتَحَامَلُ [فَاسْتَدَلَّ بِذَلِكَ أَنَّهَا حَيَّةٌ]^(٥)، وَإِنْ تَحَرَّكَتْ، أو طَرَفَتْ [بِعَيْنَيْهَا]^(٦)، فَإِنَّهَا لَا تُؤْكَلُ.

وَأَصْلُهُ أَنَّ كُلَّ مَا لَوْ [قُطِعَتْ عُرُوقُهَا]^(٧)، فَتَرَكْتَ^(٨)، فَمَاتَتْ، تَكُونُ مَيِّتَةً. فإذا أَدْرَكْتَ^(٩) فِي تِلْكَ الْحَالِ، فَذَكَّيْتُ^(١٠) كَانَتْ ذَكِّيَّةً، وَكُلُّ مَا لَوْ [صَارَتْ بِحَالٍ، وَمَاتَتْ كَمَا]^(١١) كَانَتْ ذَكِّيَّةً. فإذا أَدْرَكْتَ^(١٢) فِي تِلْكَ الْحَالِ، [فَذَكَّيْتُ مَا]^(١٣) كَانَتْ مَيِّتَةً. وَالمُتَرَدِّيةُ الْمُتَمَتِّعَةُ عَنِ الذَّبْحِ. فَالذَّبْحُ إِذَا دُبِحَ مِنْ غَيْرِ الذَّبْحِ يَجُوزُ أَكْلُهُ.

«رُوِيَ عَنِ [رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ أَنَّهُ]^(١٤) قَالَ: أَصَبْنَا إِبِلًا وَعَنْمًا، فَتَدَّ مِنْهَا بَعِيرٌ، فَرَمَاهُ رَجُلٌ بِسَهْمٍ، فَحَبَسَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ لِهَذِهِ الْإِبِلِ أَوَابِدَ كَأَوَابِدِ الْوَحْشِ. فإذا كَانَ غَلَبَكُمْ شَيْءٌ مِنْهَا فَاصْنَعُوا بِهِ هَكَذَا». [البخاري: ٣٠٧٥].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ أَنَّهُ قَالَ فِي الْبَعِيرِ يَتَرَدَّى فِي الْبَيْرِ^(١٥): إِذَا لَمْ يُقَدَّرْ عَلَى مَنَحَرِهِ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الصَّيْدِ، يُنَحَرُ^(١٦) مِنْ حَيْثُ أَدْرَكَ.

وَسُئِلَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ عَنْ بَعِيرٍ تَرَدَّى فِي بَيْرٍ، فَصَارَ أَعْلَاهُ اسْفَلَهُ؟ فَقَالَ: (فَقَطَعُوهُ أَعْضَاءَ، وَكُلُّوهُ). وَعَنِ ابْنِ عَمَرَ ﷺ رُوِيَ^(١٧) أَنَّهُ سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقِيلَ: هَلْ تَكُونُ الذُّكَاةُ إِلَّا فِي الْحَلْقِ وَاللِّبَةِ؟ فَقَالَ: «أَمَّا إِنَّكَ لَوْ طَعَنْتَ فِي فَخْذِهَا لِأَجْزَأَ عَنَّا، وَإِذَا دُكِّيَ بِغَيْرِ السَّكِينِ مِنْ نَحْوِ الْمَرْوَةِ وَالْقَصْبَةِ مِمَّا يَقْطَعُ يَجُوزُ». [أبو داود: ٢٨٢٥].

«وَرُوِيَ أَنَّ عَدِيَّ بْنَ حَاتِمٍ ﷺ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أُرْسِلُ كَلْبِي، فَيَأْخُذُ الصَّيْدَ، وَلَيْسَ مَعِيَ مَا أُذَكِّيهِ [بِهِ]^(١٨)، فَأَذْبَحُهُ بِالْمَرْوَةِ أَوْ الْقَصْبَةِ^(١٩). فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَمْرُ الدَّمِّ بِمَا شِئْتَ، وَادْكُرْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ» [أبو داود: ٢٨٢٤].

وكذلك رُوِيَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ وَرَوَى أَنَّ رَجُلًا أَشَاطَ دَمَ جُزُورٍ بِجَذَلٍ، فَسَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ [فَقَالَ]:^(٢٠) «إِنْ أَنْهَرْتَ الدَّمَ فَكُلْ» [البخاري: ٥٤٩٨]. وَعَنْ خَدِيجَةَ ﷺ [أَنَّهَا قَالَتْ]^(٢١): قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَذْبَحْ بِكُلِّ مَا أَفْرَى الْأَوْدَاجَ، وَأَهْرَاقِ الدَّمَ، مَا خَلَا السَّنَّ وَالظُّفْرَ» [الموطأ: ٤٨٩].

وإلى هذا يذهب أصحابنا، رَحِمَهُمُ اللَّهُ، فِي ذَلِكَ، وَيَرَوْنَ كُلَّ مَا أَنْهَرَ الدَّمَ مِنْ حَجَرٍ أَوْ مَرْوَةٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ مُدَكِّيً، وَيُؤْكَلُ، وَيَحْمِلُونَ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ «إِلَّا السَّنَّ وَالظُّفْرَ» عَلَى أَنَّهُمَا إِذَا كَانَا غَيْرَ مَنْزُوعَيْنِ لِأَنَّ ذَلِكَ خَنْقٌ، وَلَيْسَ بِذَّبْحٍ. تَفْسِيرُ ذَلِكَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ حِينَ^(٢٢) قَالَ: خَنْقٌ. وَفِي الْخَبَرِ بَيَانُ [الْأَلَةِ]^(٢٣) لِأَنَّهُ قَالَ: «كُلُّ مَا أَنْهَرَ الدَّمَ، وَأَفْرَى الْأَوْدَاجَ مَا خَلَا السَّنَّ وَالظُّفْرَ فَإِنَّهُمَا مُدَى الْحَبَسَةِ» [بنحوه البخاري: ٣٠٧٥] وَهُمْ إِنَّمَا كَانُوا يَذْبَحُونَ بِسِنٍّ أَوْ ظُفْرِ غَيْرِ مَنْزُوعَةٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا دُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ أَيِ لِلنُّصُبِ. قِيلَ: كَانُوا يَذْبَحُونَ لِلْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ الَّتِي يَعْبُدُونَهَا؛ يَتَقَرَّبُونَ بِذَلِكَ إِلَيْهَا كَمَا كَانَ أَهْلُ الْإِسْلَامِ يَتَقَرَّبُونَ بِالذَّبَائِحِ، يَذْبَحُونَهَا، إِلَى اللَّهِ، فَحَرَّمَ اللَّهُ ﷻ مَا كَانُوا يَذْبَحُونَ لِلنُّصُبِ ﴿وَمَا أَهْلُ لَيْعَةٍ لَيْعَةٍ اللَّهُ بِهِ﴾. لِمَا ذَكَّرْنَا أَنَّ الْأَمْرَ بِهِ خَرَجَ مَخْرَجَ قَبُولِ النِّعْمَةِ وَالشُّكْرِ لَهُ فِي مَا أَنْعَمَ مِنْ^(٢٤) عَظِيمِ النِّعَمِ. فإذا أَهْلَوْا بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ أَيِ لِغَيْرِ وَجْهِ اللَّهِ لَمْ يَقْبَلُوا نِعْمَهُ، وَوَجَّهُوا الشُّكْرَ إِلَى غَيْرِهِ، فَحَرَّمَ لِذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: فَهُوَ ذَكِّيَّة. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَأَوْقَذَعَهَا. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: ذَبَح. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: صَارَ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: بِذَلِكَ أَنَّهُ. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: قَطَعَ الْعُرُوقَ. (٨) سَاقِطَةٌ مِنْ م. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: أَدْرَكَ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: فَزَكَاه. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: صَارَ بِحَالٍ لَوْ مَاتَتْ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: أَدْرَكَ. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: فَزَكَاه. (١٤) فِي الْأَصْلِ وَم: نَافِعُ بْنُ خَدِيجَةَ، فِي م: نَافِعُ بْنُ خَدِيجٍ. (١٥) فِي الْأَصْلِ وَم: الْبَيْرُ. (١٦) فِي الْأَصْلِ وَم: يَنْحَرُهُ. (١٧) فِي الْأَصْلِ وَم: وَرَوَى. (١٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٩) فِي الْأَصْلِ وَم: وَالْقَصْبَةِ. (٢٠) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٢١) فِي الْأَصْلِ وَم: قَالَ. (٢٢) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٢٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٢٤) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: فِي.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْكَى﴾ قِيلَ: سِهَامُ الْعَرَبِ وَكِعَابُ فَارِسَ التي يَتَقَامَرُونَ بها. وقيل: الْأَزْلَامُ هي الْقِدَاحُ؛ كَانُوا يَتَقَسِمُونَ بها الْأُمُورَ. وَكَانَ الرَّجُلُ إِذَا أَرَادَ سَفَرًا/ ١٢٣ - أَخَذَ قَدْحًا، فَقَالَ: هَذَا يَأْمُرُهُ بِالْخُرُوجِ؛ [فَإِنْ هُوَ خَرَجَ] ^(١) فَهُوَ مُصِيبٌ فِي سَفَرِهِ خَيْرًا. وَيَأْخُذُ قَدْحًا آخَرَ، فيقول: هَذَا يَأْمُرُهُ بِالْمُكْتِ؛ فَإِنْ هُوَ خَرَجَ فَلَيْسَ بِمُصِيبٍ خَيْرًا فِي سَفَرِهِ. وَالْمُنِيعُ يَنْتَهُمَا. فَتَنَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ، وَاتَّبَعَ أَنَّ ذَلِكَ فَسَقٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَمُ فَسَقٌ﴾.

وعن الْحَسَنِ [أَنَّهُ] ^(٢) قَالَ: كَانُوا يَعْمِدُونَ إِلَى قِدَاحٍ، فَيَكْتَبُونَ عَلَى أَحَدِهَا: مُزْنِي، وَعَلَى الْآخَرِ: أَنْتَهِي، ثُمَّ يُجِيلُونَهَا إِذَا أَرَادُوا الْأَمْرَ. فَإِنْ خَرَجَ [الَّذِي] ^(٣) عَلَيْهِ: مُزْنِي مَضَى فِي وَجْهِهِ، وَإِنْ خَرَجَ الَّذِي عَلَيْهِ أَنْتَهِي لَمْ يَخْرُجْ.

قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْكِسَائِيُّ: إِنَّ فِي النَّهْيِ عَنِ الْعَمَلِ بِالْأَزْلَامِ دَلِيلَ النَّهْيِ عَنِ الْعَمَلِ بِالنُّجُومِ. فَإِذَا نُهِيَ عَنِ الْعَمَلِ بِقَوْلِ [الْمُسْتَفْسِمِينَ يَنْتَهُ] ^(٤) أَيْضًا عَنِ الْعَمَلِ بِقَوْلِ الْمُنْجَمَةِ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ حِينَ مَا يَقُولُ أَوْلَنَكَ، وَيَعْمَلُونَ بِهِ. لَكِنَّ الْمُنْجَمَةَ لَيْسُوا يَقُولُونَ: إِنَّ نَجْمَ كَذَا يَأْمُرُكُمْ كَذَا، وَنَجْمَ كَذَا يَنْهَى عَنْ كَذَا عَلَى مَا كَانَ يَفْعَلُ أَوْلَنَكَ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ ﷻ [قَدْ جَعَلَ] ^(٥) فِي النُّجُومِ أَعْلَامًا وَمَعَانِي يُدْرِكُونَ بِهَا، وَيُسْتَخْرِجُونَ أَشْيَاءَ تَحْتَمِلُ ذَلِكَ، وَتَكُونُ عَلَى مَا يَسْتَخْرِجُ أَهْلُ الْاجْتِهَادِ بِالْاجْتِهَادِ أَشْيَاءَ مِنْ مَعْنَى النُّصُوصِ وَأَحْكَامًا لَمْ تُذَكَّرْ فِي الْمُنْصُوصِ. فَعَلَى ذَلِكَ الْمُنْجَمَةُ يَجُوزُ أَنْ يَسْتَخْرِجُوا أَشْيَاءَ مِنَ النُّجُومِ بِدَلَالٍ وَمَعَانٍ تَكُونُ فِي النُّجُومِ، وَلَا عَيْبَ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ، وَلَا لَائِمَةٌ. وَإِنَّمَا اللَّائِمَةُ عَلَيْهِمْ فِي مَا يَخْكُمُونَ عَلَى اللَّهِ، وَيَشْهَدُونَ عَلَيْهِ.

قَالَ الْقُتَيْبِيُّ: الْأَزْلَامُ الْقِدَاحُ، وَاجْتِهَادُهَا زَلَمَ وَزَلَمَ. وَالِاسْتِقْسَامُ بِهَا أَنْ تُضْرَبَ. فَأُخِذَ الْإِسْتِقْسَامُ مِنَ الْقِسْمِ، وَهُوَ النَّصِيبُ، كَأَنَّهُ طَلَبُ النَّصِيبِ.

قَالَ أَبُو عَوَسَجَةَ: اسْتَقْسَمْتُ أَيِ ضَرَبْتُ بِالْقِدَاحِ، قَالَ: كَأَنَّهُ مِنَ الْقِسْمِ. وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: إِنَّمَا سُمِّيَ اسْتِقْسَامًا لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَطْلُبُونَ قِسْمَ الرِّزْقِ وَطَلَبَ الْحَوَائِجِ بِهَا، فَكَانُوا يَسْأَلُونَهَا أَنْ تُقْسِمَ لَهُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَمُ فَسَقٌ﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿يَسْقُ﴾ أَيِ الْعَمَلُ بِالْأَزْلَامِ وَالشَّهَادَةُ عَلَى اللَّهِ أَمْرٌ، فَذَلِكَ فَسَقٌ. وَعَلَى هَذَا مَنْ يَسْتَجِيزُ الْعَمَلُ بِالْقُرْعَةِ، لِأَنَّهُ يَقُولُ بِقُرْعٍ؛ فَمَنْ خَرَجَتْ قُرْعَتُهُ يُحْكَمُ لَهُ، فَإِنَّمَا يُحْكَمُ لَهُ بِأَمْرِ الْقُرْعَةِ، كَأَنَّ الْقُرْعَةَ تَأْمُرُهُ بِالْحُكْمِ بِهَذَا لِهَذَا، وَتَنْهَاهُ عَنِ الْحُكْمِ بِهَذَا لِهَذَا، فَهُوَ بِالْأَزْلَامِ وَالْقِدَاحِ الَّتِي نَهَى اللَّهُ عَنِ الْعَمَلِ بِذَلِكَ أَشْبَهُ، وَبِهَا أَمْثَلُ مِنْ غَيْرِهِ.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَمُ فَسَقٌ﴾ أَيِ التَّنَاولُ مِمَّا ذَكَرَ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ مِنَ الْمَيْتَةِ وَالدِّمِ وَلَحْمِ الْخَنَازِيرِ وَمَا أَهْلُ لَيْعٍ اللَّهِ بِهِ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النَّصَبِ وَمَا ذَكَرَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ مِنَ الْإِضْطِغَادِ فِي الْإِحْرَامِ وَالتَّنَاولِ مِنْهُ، ذَلِكَ كُلُّهُ فَسَقٌ، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷻ.

وقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾ إِنْهُمْ [كَانُوا] ^(٦) يَطْمَعُونَ دُخُولَ أَهْلِ الْإِسْلَامِ فِي دِينِهِمْ وَعَوْدَهُمْ، فَايَأْسَهُمُ اللَّهُ ﷻ مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ دِينَ الْإِسْلَامِ﴾ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاحْشَوْهُمْ أَمْتَهُمْ مِنْ ذَلِكَ. وقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ الْآيَةُ. قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: كَانَ دِينُهُمْ إِلَى ذَلِكَ الْيَوْمِ نَاقِصًا، فَحِينَئِذٍ كَمُلَ دِينُهُمْ. فَعَلَى رَأْيِهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَدْعُو الْخَلْقَ إِلَى دِينٍ نَاقِصٍ، وَمَنْ مَاتَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ﷻ مَاتُوا عَلَى دِينٍ نَاقِصٍ، وَيُحْشَرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى دِينٍ نَاقِصٍ، وَأَيُّ قَوْلٍ أَوْحَشَ مِنْ هَذَا وَأَسْمَحُ؟ وَقَالَ آخَرُ مِنْ أَصْحَابِهِ: كَانَ الدِّينُ كَامِلًا إِلَى ذَلِكَ الْوَقْتِ، فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ ﷻ بِالْفَرَاغِ، وَافْتَرَضَ عَلَيْهِمْ، صَارَ الدِّينُ نَاقِصًا إِلَى أَنْ يُؤَدُّوا الْفَرَائِضَ وَمَا افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ. فَعِنْدَ ذَلِكَ يَكْمُلُ. فَهَذَا الْقَوْلُ أَيْضًا فِي الْوَحْشَةِ وَالسَّمَاجَةِ وَالْقَبْحِ مِثْلُ الْأَوَّلِ، وَيُقَالُ لِأَبِي عُبَيْدَةَ: قُلْ أَيْضًا: إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ رِضْيِي لَهُمْ بِالْإِسْلَامِ قَبْلَ ذَلِكَ رِضًا.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: المقتسمين وينهى. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، ساقطة من الأصل.

والأصل في تأويل الآية [في] ^(١) وجوه:

أحدها: ﴿الْيَوْمَ أَكُنْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ أي برسوله وبعثه ﴿أَكُنْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ وبه أنتمت ﴿عَلَيْكُمْ يَفْتَحُ﴾.

[والثاني] ^(٢): قوله: ﴿الْيَوْمَ أَكُنْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ أي اليوم أظهرت لكم دينكم، ولم يكن قبل ذلك ظاهراً حتى قال رسول الله ﷺ: «نُصِرْتُ بِالرُّغْبِ مَسِيرَةَ شَهْرَيْنِ» [الطبراني في الكبير: ١١٠٥٦] وقال: «أَلَا لَا يَحْجُرُ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكُ» [البخاري: ٣٦٩] وذلك لإظهاره ولغلبة أهل الإسلام عليهم وأنه ^(٣) لم يكن هذا قبل ذلك.

[والثالث] ^(٤): قوله: ﴿الْيَوْمَ أَكُنْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ لما آمنا من العدو والعود إلى دين أولئك وإياي أولئك من رجوعهم إلى دين الكفر، وأي نعمة أنتم وأكمل من الأمن من العدو؟ ويقول الرجل: اليوم تم ملكي إذا أهلك ^(٥) عدوه، ولأمنه من عدوه، وإن كان لم يوصف ملكه قبل ذلك بالتقصان. فعلى ذلك هذا، والله أعلم.

[والرابع: قوله] ^(٦): ﴿الْيَوْمَ أَكُنْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ أي أمر دينكم بما أمروا بأمور وشرائع، لم يكونوا أمروا بها قبل ذلك. وهذا جائز.

وقوله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ أي أكرمتكم بالدين المرضي، وهو الإسلام، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَضَلُّرَ فِي مَخْصَصَةٍ﴾ قيل: المَخْصَصَةُ المَجَاعَةُ. وقال أبو عوسجة: رجلٌ خَمِصٌ أي جائع، وقال غيره: هو من ضيق البطن، وهو واحد لأنه من الجوع ما يضيِّق البطن.

وقوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾ قال بعضهم: ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾ أي مُتَعَمِّدٌ ^(٧) لإثم، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما وقال الكيساني: ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ﴾ غير متمايل، والجَنَفُ الميل. وكذلك قال القشيري. وقال أبو عوسجة أيضاً: الجَنَفُ الميل.

ثم قوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾ يَحْتَمِلُ [وجوهاً]:

أحدها ^(٨): قيل: ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ﴾ غير مُسْتَحِلٍّ أَكْلَ الْمَيْتَةِ في حال الإضطرار وما ^(٩) حُرِّمَ عليه التناول من الصيد. وقيل ^(١٠): ﴿غَيْرَ مُتَلَذِّذٍ وَلَا مُشْتَبِهٍ﴾ يتناول على التكره منه لا على التلذذ والشهوة. وقيل ^(١١) أيضاً: إنه لا يتناول إلا في حال الإضطرار كقوله ^(١٢) تعالى: ﴿فَمَنْ أَضَلُّرَ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ [البقرة: ١٧٣] والأنعام: ١٤٥ والنحل: ١١٥ وتفسير قوله تعالى: ﴿أَضَلُّرَ﴾ هذا، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفْوٌ رَحِيمٌ﴾ أي من رَحَمَتِهِ: أي جعل لكم التناول من المحرم، ورخص لكم؛ إذ له أن يترككم تموتون جوعاً كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَا كُنَّا عَلَيْهِمْ أَنْ أَفْتَلَوْا أَنْفُسَكُمْ﴾ الآية [النساء: ٦٦].

الآية ٤ وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَكُمْ﴾ ليس في السؤال بيان عم ^(١٣) كان سؤالهم؟ ولكن في الجواب البيان ^(١٤) والمراد من سؤالهم، فقال: ﴿أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾ دل قوله تعالى: ﴿أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾ أن سؤالهم كان عن الطيبات وما يضطاد من الجوارح.

ثم اختلف في قوله تعالى: ﴿أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾ قال بعضهم: من المحللات. لكنه بعيد لأنه قال تعالى: ﴿لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾ المحللات على هذا التأويل. لكنه يَحْتَمِلُ وجهين: أحدهما: أنه أحل لكم بأسباب تطيب بها أنفسكم من نحو الذبح والطبخ والخبز وغيره. لم يحل لكم ما تكره به أنفسكم: التناول منه غير مطبوخ ولا مذبوح ولا مشوي. ولكن أحل لكم بأسباب طابت بها أنفسكم: التناول منه، والله أعلم.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: يَحْتَمِلُ. (٣) في الأصل وم: وان. (٤) في الأصل وم: وَيَحْتَمِلُ. (٥) من م، في الأصل: ملك.

(٦) في الأصل وم: وقيل. (٧) في الأصل وم: معتمد. (٨) في الأصل وم: وجهين. (٩) في الأصل وم: و. (١٠) هذا هو الوجه الثاني.

(١١) هذا هو الوجه الثالث. (١٢) في الأصل وم: وكقوله. (١٣) في الأصل وم: مم. (١٤) في الأصل وم: بيان.

وَيَحْتَمِلُ^(١) وَجْهًا آخَرَ؛ وهو أن أخل لكم ما تطيب به طباعكم لا بما تنكروه طباعكم، وتنفرو عنه، والله أعلم.
وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ﴾ كانهم سألوا رسول الله ﷺ عَمَّ يَحِلُّ مِنَ الْجَوَارِحِ؟ فَذَكَرَ لَهُمْ ذَلِكَ مَعَ مَا ذُكِرَ فِي بَعْضِ الْقِصَةِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا أَمَرَ بِقَتْلِ الْكِلَابِ، فأتاه أناسٌ، فقالوا: ماذا يَحِلُّ لَنَا مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ الَّتِي أَمَرْتَ بِقَتْلِهَا؟ نَزَلَ^(٢) قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَسْتَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾ الآية.

وقيل: سَمَى جَوَارِحَ لِمَا يُكْتَسَبُ بِهَا، وَالْجَوَارِحُ مِنَ الْكَوَاسِبِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبَ / ب / الَّذِينَ أَجْرَحُوا النَّبِيِّاتِ﴾ [الجنابة: ٢١] قِيلَ: اكْتَسَبُوا، وَجَرَحَ كَسَبَ، وَقَالَ أَبُو عُيَيْدٍ: سُمِّيَتْ جَوَارِحَ لِأَنَّهَا صَوَائِدٌ، وَهُوَ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْكَنْسِ؛ يُقَالُ: فَلَانٌ جَارِحٌ أَهْلُهُ أَيْ كَاسِبُهُمْ. وَقَالَ غَيْرُهُ: سُمِّيَتْ جَوَارِحَ لِأَنَّهَا تُجْرَحُ، وَهُوَ مِنَ الْجِرَاحَةِ، فَإِذَا لَمْ يَجْرَحْ لَمْ يَحِلَّ صَيْدُهُ. وَاجْتَنَعَ مُحَمَّدٌ، رَحِمَهُ اللَّهُ، بِهَذَا الْمَعْنَى فِي صَيْدِ الْكَلْبِ إِذَا قَتَلَ. وَلَمْ يَجْرَحْ.

مسألة من كتاب الزِّيَادَاتِ: وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ ذَلِكَ مَا رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّ عَدِيَّ بْنَ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَا^(٣) الْيَغْرَاضُ؟ فَقَالَ: مَا أُصِيبَ بِعَرَضِهِ، فَلَا تَأْكُلُ، فَهُوَ وَفِيدٌ، وَمَا أُصِيبَ^(٤) بِحَدِّهِ فَكُلْ [البخاري: ٥٤٧٥].

وقوله تعالى: ﴿مُكَلِّينَ تَلَوْنَهُنَّ يَمَّا عَلَيْكُمْ اللَّهُ﴾ الآية، قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿مُكَلِّينَ﴾ هُنَّ الْكِلَابُ، يُكَالِلُنَّ الصَّيْدَ، وَقَالَ الْفُتَيْي: ﴿مُكَلِّينَ﴾ أَصْحَابُ الْكِلَابِ. وَكَذَلِكَ قَالَ الْفَرَّاءُ وَالْكِسَائِيُّ: الْمُكَلَّبُونَ هُمُ أَصْحَابُ الْكِلَابِ، وَالْمُكَلَّبُ: الْكَلْبُ الْمُعَلَّمُ.

وقوله تعالى: ﴿تَلَوْنَهُنَّ﴾ قَالَ الْحَسَنُ وَأَبُو بَكْرِ: تُفَرِّقُونَهُنَّ، يُقَالُ: [كَلَبْتُ ضَارِيَاتٍ]^(٥) عَلَى كِلَابٍ^(٦) الصَّيْدِ، وَهِيَ يُبِيحَانِ الصَّيْدَ، وَإِنْ أَكَلَ مِنْهُ الْكَلْبُ. فَعَلَى قَوْلِهِمَا يَصِحُّ تَأْوِيلُ الْإِضْرَاءِ^(٧)؛ إِذْ يُبِيحَانِ التَّنَاوُلَ وَإِنْ أَكَلَ مِنْهُ. [وَقَالَ:] تَوَدُّبُونَهُنَّ لِيُتَمَسَّكَنَّ^(٨) الصَّيْدَ لَكُمْ. وَهُوَ عِنْدَنَا عَلَى حَقِيقَةِ التَّعْلِيمِ لِيَتَعَلَّمَ مَسَكَ^(٩) الصَّيْدِ لَهُمْ.

وقوله تعالى: ﴿يَمَّا عَلَيْكُمْ اللَّهُ﴾ يَتَوَجَّهُ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: ﴿يَمَّا عَلَيْكُمْ اللَّهُ﴾ أَيْ مِمَّا جَعَلَ بَيْنَيْكُمْ بَحْثَ اخْتِمَالٍ تَعْلِيمٍ هَؤُلَاءِ، وَلَمْ يَجْعَلْ غَيْرَكُمْ مِنَ الْخَلَائِقِ مُخْتِمَلًا لِذَلِكَ وَلَا أَهْلًا. وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَمَّا عَلَيْكُمْ اللَّهُ﴾ أَنْ قَالَ لَكُمْ: عَلِّمُوهُمْ بِكَذَا، وَافْعَلُوا كَذَا. فَكَيْفَ مَا كَانَ فِيهِ دَلِيلٌ جَعَلَ الْعِلْمَ شَرْطًا فِيهِ.

ثُمَّ تَخْصِيصُ الْكِلَابِ بِالذِّكْرِ دُونَ غَيْرِهَا مِنَ الْأَشْيَاءِ، وَإِنْ كَانَتْ الْكِلَابُ وَغَيْرُهَا سَوَاءً إِذَا عَلَّمْتَ، لِخُبْرِ الْكِلَابِ وَمُخَالَطَتِهَا النَّاسَ حَتَّى جَاءَ التَّهْمِي عَنْ أَقْبَانِهَا، وَجَاءَ الْأَمْرُ بِقَتْلِهَا فِي وَقْتٍ لَمْ يَجِءْ بِمَثَلِهِ فِي سَائِرِ السَّبَاعِ لِيُعْلَمَ أَنَّ مَا كَسَبَ هَؤُلَاءِ مَعَ خُبْرِهَا، إِذَا كُنَّ مُعَلَّمَاتٍ^(١٠) يَحْتَمِلُ التَّنَاوُلَ مِنْهُمَا لَمْ يَجِءْ فِيهِ ذَلِكَ أُخْرَى.

وقوله تعالى: ﴿كُلُّوْا يَمَّا أَمْسَكَنَّ عَلَيْكُمْ وَأَذْكُرُوا أَنَّمَا اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ إِنَّمَا أَبَاحَ أَكْلَ مَا أَمْسَكَ عَلَى نَفْسِهِ لِأَنَّ الْكَلْبَ وَغَيْرَهُ مِنَ السَّبَاعِ مِنْ طِبَاعِهَا إِذَا أَخَذَتْ الصَّيْدَ تَأْخُذُهَا لِنَفْسِهَا، وَلَا تُضْبِرُ عَلَى الْآ تَتَنَاوَلُ مِنْهُ إِذَا أَخَذَتْ الصَّيْدَ، وَلَمْ تَتَنَاوَلْ مِنْهُ دَلَّ أَنَّهُ إِنَّمَا أَمْسَكَتْ لِصَاحِبِهِ. وَإِذَا تَنَاوَلَتْ مِنْهُ لَمْ تُنْسِكْ لِصَاحِبِهِ لِأَنَّ الْبَاقِي لَا يُذَرَى أَنَّهَا أَمْسَكَتْهُ لِصَاحِبِهِ أَوْ أَمْسَكَتْهُ لِنَفْسِهَا لَوْ قَتَلَ آخَرَ لَمَّا شَبِعَتْ^(١١).

وعلى ذلك جَاءَتْ الْأَثَارُ: رُوِيَ عَنْ عَدِيٍّ بْنِ حَاتِمٍ [أَنَّهُ]^(١٢) قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا قَوْمٌ نَنْصِيدُ بِهِذَا الْكِلَابَ وَالْبُرَاةَ، فَهَلْ يَحِلُّ لَنَا مِنْهَا؟ فَقَالَ: «يَحِلُّ لَكُمْ مَا» ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّينَ تَلَوْنَهُنَّ يَمَّا عَلَيْكُمْ اللَّهُ كُلُّوْا يَمَّا أَمْسَكَنَّ عَلَيْكُمْ﴾

(١) هذا هو الوجه الثاني. (٢) في الأصل رم: فنزل. (٣) في الأصل رم: من. (٤) في الأصل رم: أصاب. (٥) في الأصل رم: كلب مضرات. (٦) في الأصل رم: كلب. (٧) من م، في الأصل: الإضرع. (٨) في الأصل رم: وقال: تودبونهن ليمسكن. (٩) في الأصل رم: ليمسكن. (١٠) في الأصل رم: معلمين. (١١) في الأصل رم: طباعهم إذا أخذوا الصيد بأخذون لأنفسهم ولا يصيرون على أن لا يتناولون منه فإذا أخذوا الصيد ولم يتناول منه دل أنه إنما أمسك لصاحبه وإذا تناول منه لم يمسك لصاحبه لأن الباقي لا يدري أنه أمسك لصاحبه أو أمسك لنفسه لوقت آخر لما شبع. (١٢) ساقطة من الأصل رم.

مِمَّا عَلَّمْتُمْ مِنْ كَلْبٍ أَوْ بَارٍ، فَذَكَرْتَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ، قُلْتُ: وَإِنْ قُتِلَ [الصَّيْدُ] ^(١)؟ قَالَ: إِذَا قُتِلَ، وَلَمْ يَأْكُلْهُ، فَإِنَّمَا أَمْسَكَ عَلَيْكَ، وَإِنْ أَكَلَ فَلَا تَأْكُلْ فَإِنَّمَا أَمْسَكَ لِنَفْسِهِ ^(٢). فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ خَالَطَتْ كِلَابُنَا كِلَاباً أُخْرَى؟ قَالَ: إِذَا خَالَطَ كَلْبُكَ كِلَاباً فَلَا تَأْكُلْ فَإِنَّكَ إِنَّمَا ذَكَرْتَ اسْمَ اللَّهِ عَلَى كَلْبِكَ وَلَمْ تَذْكُرْهُ عَلَى كَلْبٍ غَيْرِكَ [البخاري: ٥٤٨٧ ومسلم: ١٩٢٩].

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: إِذَا أَكَلَ الْكَلْبُ فَلَيْسَ بِمُعَلِّمٍ. وَعَنْهُ أَيْضاً [أَنَّهُ] ^(٣) قَالَ: إِذَا أَكَلَ الْكَلْبُ مِنَ الصَّيْدِ فَلَا تَأْكُلْهُ، وَإِذَا أَكَلَ الصَّفَرُ فَكُلْ لَأَنَّ الْكَلْبَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَضْرِبَهُ، وَالصَّفَرُ لَا. وَعَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه [أَنَّهُ] ^(٤) قَالَ: إِذَا أَكَلَ الْكَلْبُ فَلَا تَأْكُلْ، وَاضْرِبْهُ.

وَقَدْ ذَكَرْنَا مِنَ الْأَخْبَارِ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْكَلْبَ إِذَا كَانَ غَيْرَ مُعَلِّمٍ يُؤْكَلُ صَيْدُهُ مِنْ خَبَرِ عَبْدِ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ: «قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنَّا قَوْمٌ نَتَّصِدُ» ^(٥) «بِهَذِهِ الْكِلَابِ، فَقَالَ: إِذَا أُرْسِلَتْ كِلَابُكَ الْمُعَلِّمَةُ، وَذَكَرْتَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا، فَكُلْ مِمَّا أَمْسَكَ عَلَيْكَ، وَإِنْ قُتِلَتْ، إِلَّا أَنْ يَأْكُلَ الْكَلْبُ، فَإِنْ أَكَلَ فَلَا تَأْكُلْ» [بنحوه البخاري: ٥٤٨٧].

وَعَلَى هَذَا يَخْرُجُ قَوْلُنَا: إِنَّهُ إِذَا أَكَلَ [الْكَلْبُ] ^(٦) مِنْ دَبِّهِ يُؤْكَلُ لِأَنَّهُ لَوْ أَمْسَكَهُ عَلَيْنَا كُنَّا لَا نَأْكُلْهُ؛ وَذَلِكَ مِنْ غَايَةِ تَعْلِيمِهِ لِأَنَّهُ تَنَاوَلَ الْحَيِّثَ، وَأَمْسَكَ الطَّيْبَةَ عَلَى صَاحِبِهِ. وَلَوْ كَانَ صَيْدَ الْكَلْبِ إِذَا أَكَلَ مِنْهُ خَلَالاً لَكَانَ الْمُعَلِّمُ وَغَيْرُ الْمُعَلِّمِ سَوَاءً، وَكَانَ مَا أَمْسَكَ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى صَاحِبِهِ سَوَاءً، لِأَنَّ كُلَّ الْكِلَابِ تَطْلُبُ الصَّيْدَ إِذَا أُرْسِلَتْ عَلَيْهِ، وَتُمْسِكُهُ حَتَّى يَمُوتَ، وَتَأْكُلُ مِنْهُ، إِلَّا الْمُعَلِّمَ مِنْهَا. فَمَا مَعْنَى الْمُعَلِّمِ مِنْهَا وَالتَّمْسِكِ عَلَى صَاحِبِهِ؟ لَوْ كَانَ الْأَمْرُ عَلَى مَا قَالَ مُحَالِفُنَا.

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: إِنْ عَلَّمَ الْكَلْبُ حَتَّى صَارَ لَا يَأْكُلُ مِنْ صَيْدٍ، ثُمَّ أَكَلَ مِنْ صَيْدٍ يَصِيدُ لَمْ يَجُزْ أَنْ يُؤْكَلَ مِنْ صَيْدِهِ الْأَوَّلِ إِذَا كَانَ بَاقِياً.

وَمَذْهَبُهُ عِنْدَنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَنَّ صَيْدَ الْكَلْبِ لَا يُؤْكَلُ حَتَّى يَكُونَ مُعَلِّماً. وَإِنْ أَمْسَكَ فِي أَوَّلِ مَا يُرْسَلُ، فَلَمْ يَأْكُلْ، فَإِذَا أَمْسَكَ مِرَاراً، ثُمَّ أَكَلَ، وَلَنَا أَكَلُهُ عَلَى إِمْسَاكِهِ عَنِ الْأَكْلِ، لَمْ يَكُنْ لِأَنَّهُ مَعْلُومٌ؛ إِذْ قَدْ يُمَسِكُ غَيْرُ الْمُعَلِّمِ لِلشَّبَعِ، وَلَوْ كَانَ مُعَلِّماً مَا أَكَلَهُ. فَاسْتَدِلَّ بِأَكْلِهِ فِي الرَّابِعَةِ عَلَى أَنَّ إِمْسَاكَهُ فِي الثَّلَاثَةِ كَانَ عَلَى غَيْرِ حَقِيقَةِ تَعْلِيمٍ.

وَهَذَا عِنْدَنَا فِي صَيْدٍ، يَقْرُبُ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ. فَمَا إِذَا كَثُرَ إِمْسَاكُهُ، ثُمَّ تَرَكَ إِرْسَالَهُ مُدَّةً، يَجُوزُ أَنْ يَنْسَى فِيهَا مَا عَلَّمَ، ثُمَّ أُرْسِلَ، فَأَكَلَ، فَلَيْسَ فِيهَا رَوَايَةٌ عَنْهُ. وَيَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: يُؤْكَلُ مَا بَقِيَ مِنْ صَيْدِهِ الْأَوَّلِ، وَيُفَرَّقُ بَيْنَ الْمَسَالَتَيْنِ بِأَنَّ الثَّانِي قَدْ يَنْسَى، وَالْأَوَّلُ يَتَعَدَّى مِنَ النَّسْيَانِ لِقَرَابٍ مَا بَيْنَ الصَّيْدَيْنِ فَلَا وَجْهَ إِلَّا أَنْ يُجْعَلَ غَيْرَ مُسْتَحْكِمِ التَّعْلِيمِ فِي صَيْدِ الْمُتَقَدِّمِ.

وَقَدْ ذَكَرْنَا فِي مَا تَقَدَّمَ أَنَّ الصَّفَرَ وَالْبَارِي مِنَ الْجَوَارِحِ، وَاسْتَدَلَّلْنَا عَلَى ذَلِكَ بِمَا أَوْضَحْنَا مَا لَيْسَ بِمُعَلِّمٍ مِنَ الطَّيْرِ لَا يُؤْكَلُ إِلَّا أَنْ تُذَرَّكَ ذَكَاتُهُ. ثُمَّ يَكُونُ تَعْلِيمُ الْبَارِي وَالصَّفَرِ بِإِجَابَتِهِ صَاحِبَهُ وَرُجُوعِهِ إِلَيْهِ، وَتَعْلِيمُ الْكِلَابِ تَرْكُ الْأَكْلِ مِنْهُ؛ لِأَنَّ الْبَارِي وَنَحْوَهُ مُسْتَوْجِبٌ عَنِ النَّاسِ، يَنْفَرُ طَبْعُهُ عَنْهُمْ، فَذَلِكَ ^(٧) «إِلْفَةُ النَّاسِ وَإِجَابَةُ أَصْحَابِهِ» ^(٨) عَلَى التَّعْلِيمِ، وَإِنْ أَكَلَ مِنْهُ. وَلَا يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ بِالتَّأْوُلِ مِنْهُ يَخْرُجُ عَنْ حَدِّ التَّعْلِيمِ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يُعَلَّمُ بِالْأَكْلِ مِنَ الصَّيْدِ.

وَأَمَّا الْكَلْبُ فَإِنَّهُ يَأْلَفُ النَّاسَ، وَلَا يَسْتَوْجِبُ، وَمِنْ طَبْعِهِ الْأَكْلُ إِذَا أَخَذَ الصَّيْدَ. فَذَلِكَ إِمْسَاكُهُ عَنِ التَّأْوُلِ مِنْهُ عَلَى أَنَّهُ مُعَلِّمٌ. وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه مَا يَدُلُّ عَلَى تَأْيِيدِ مَا ذَكَرْنَا؛ قَالَ: إِذَا أَكَلَ الصَّفَرُ فَكُلْ، وَإِنْ أَكَلَ الْكَلْبُ فَلَا تَأْكُلْ. وَعَنْ سَلْمَانَ كَذَلِكَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَالْقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ» يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: «وَالْقُوا اللَّهَ» فَلَا تَسْتَحِلُّوْا مَا لَمْ يُذَكَّرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهَا فَإِنَّمَا مِثْلُهُ. وَيَحْتَمِلُ: «وَالْقُوا اللَّهَ» فِي تَرْكِ مَا أَمَرَ وَنَهَى كُلُّهُ «إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ» وَتَحْتَمِلُ السَّرْعَةُ كِنَايَةً عَنِ الشَّدَّةِ: «سَرِيعُ الْحِسَابِ» شَدِيدُ الْعِقَابِ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: على نفسه. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: نصيد.

(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: فذل. (٨) في الأصل وم: أصحابهم.

فَالْمَجُوسِيَّةُ لَيْسَتْ عِنْدَنَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُتِبَ أَنْزَلُهُ مُبَارَكًا فَآتَيْنَاهُ وَأَتَيْنَا لَكُمْ زُخْرُونَ﴾ [١٥٥، ١٥٦] فَاخْبَرَ الله تعالى أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ طَائِفَتَانِ^(١)، فلا يجوزُ أَنْ يَجْعَلُوا ثَلَاثَ طَوَائِفَ؛ وذلك بخلاف ما دَلَّ عليه القرآن.

الْأَثَرُ أَنَّ رَجُلًا لَوْ قَالَ: إِنَّمَا لِي عَلَيْكَ يَا فَلَانُ بَرَاهِمَانِ، لَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يَذْمِيَ عَلَيْهِ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ. وَلَوْ قَالَ: إِنَّمَا لَقِيتُ الْيَوْمَ رَجُلَيْنِ، وَقَدْ لَقِيتُ ثَلَاثَةً، كَانَ كَاذِبًا؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: إِنَّمَا لَقِيتُ رَجُلَيْنِ كَقَوْلِهِ: لَقِيتُ الْيَوْمَ رَجُلَيْنِ. وَلَا يَجُوزُ مِثْلُ هَذَا فِي الْخَبَرِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لِأَنَّهُ الصَّادِقُ فِي خَبَرِهِ ﷺ؟

فَإِنْ قِيلَ: هَذَا شَيْءٌ حَكَاهُ اللَّهُ ﷻ عَنِ الْمُشْرِكِينَ، وَقَدْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونُوا غَلَطُوا، فَحَكَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ مَا قَالُوا. قِيلَ لَهُ: لَمْ يَحْكُ اللَّهُ تَعَالَى هَذَا الْقَوْلَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ، وَلَكِنْ قَطَعَ بِالْقُرْآنِ غُلُظَهُمْ، فَقَالَ: [﴿إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ﴾] لِئَلَّا يَقُولُوا: [﴿أَنْزَلَ﴾] الْكِتَابَ^(٢) عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَنُفْلِتَ^(٣)، فَهَذَا كَلَامُ اللَّهِ وَاجْتِبَاجُهُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، وَلَيْسَ حِكَايَةً عَنْهُمْ.

وَمِنْ الدَّلِيلِ أَنَّ الْمَجُوسِيَّةَ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَا قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ وَهُوَ فِي مَجْلِسٍ بَيْنَ الْغَيْبِ وَالْمَنْبَرِ: مَا أَدْرِي كَيْفَ أَصْنَعُ بِالْمَجُوسِ، وَلَيْسُوا بِأَهْلِ الْكِتَابِ؟ فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «سُئِلُوا بِالْمَجُوسِ سُئِلَ أَهْلُ الْكِتَابِ» [الطبراني ١٩: ٤٣٧ رقمه ١٠٥٩] صَرَّحَ عُمَرُ ﷺ بِأَنَّهُمْ لَيْسُوا بِأَهْلِ الْكِتَابِ، وَلَمْ يُنْكِرْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ ذَلِكَ عَلَيْهِ وَلَا أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ ﷺ فَلَوْ كَانُوا أَهْلَ كِتَابٍ لَمْ يَقُلْ: سُئِلُوا بِهِمْ سُئِلَ أَهْلُ الْكِتَابِ.

وَكذلك «رَوَى» عَنِ الْحَسَنِ بْنِ مُحَمَّدٍ أَنَّهُ قَالَ: كَتَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى مَجُوسِي فَجَرٍ، فَقَالَ: أَدْعُوكُمْ إِلَى الشَّهَادَةِ: أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ فَإِنْ أَسْلَمْتُمْ فَلَكُمْ مَا لَنَا وَعَلَيْكُمْ مَا عَلَيْنَا، وَمَنْ أَبَى فَقَلْبِيهِ الْجَزِيَّةُ، غَيْرَ أَكْلِي ذِيابِحَهُمْ وَلَا نَاكِحِي نِسَاءَهُمْ إِلَى هَذَا ذَهَبَ أَصْحَابُنَا، رَجَمَهُمُ اللَّهُ، فِي قَوْلِهِمْ: إِنَّ الْمَجُوسَ لَيْسُوا بِأَهْلِ كِتَابٍ.

وَأَمَّا نَصَارَى بَنِي ثَغْلِبَ فَإِنَّ عَلِيًّا ﷺ قَالَ: لَا تَجْلُ ذَبَائِحَ نَصَارَى فَإِنَّهُمْ لَيْسُوا بِأَهْلِ كِتَابٍ، وَقَرَأَ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَقْلُوبُوكَ الْكِتَابَ إِلَّا آثَانًا﴾ [البقرة: ٧٨] وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﷺ تَوَكَّلْ، وَقَرَأَ: ﴿وَمَنْ يَقُولُكُمْ يَنْتَهِكُوا فِيهِمْ﴾ [المائدة: ٥١].

وَالْآيَةُ الْأُولَى تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ لِأَنَّ اللَّهَ ﷻ قَدْ جَعَلَهُمْ مِنْهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨] فَحُكْمُهُمْ حُكْمُهُمْ؛ إِذْ أَخْبَرَ اللَّهُ ﷻ أَنَّهُمْ مِنْهُمْ. وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ أَيْضًا قَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ^(٤) قَالَ: «لَا يَتَخَلَّجَنَّ فِي صَدْرِكَ طَعَامٌ صَارَتْ فِيهِ النَّصْرَانِيَّةُ» [الترمذي: ١٥٦٥] لِأَنَّهُ عَمَّ فِيهِ النَّصَارَى، فَدَخَلَ فِيهِمْ عَرَبِيَّتُهُمْ وَعَجَمَتُهُمْ لِأَنَّهُمْ دَانُوا بِبَيْدِيهِمْ. وَكُلُّ مَنْ دَانَ بِبَيْدِي قَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ.

وَمِنْ الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ الْعَرَبَ، إِذَا دَانُوا بِبَيْدِي أَهْلِ الْكِتَابِ فَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، أَنَّ الْعَجَمَ لَمَّا أَسْلَمُوا صَارَ حُكْمُهُمْ حُكْمَ عَرَبِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ. فَإِذَا ارْتَدَّ أَحَدٌ مِنْهُمْ، وَسَأَلَ [سَائِلٌ] هَلْ تُؤْخَذُ مِنْهُ^(٥) الْجَزِيَّةُ كَمَا تُؤْخَذُ فِي الْإِنْتِدَاءِ [مِنْ الْمَجُوسِ]^(٦) لَمْ يُجِبْ إِلَى ذَلِكَ، وَقِيلَ لَهُ: إِمَّا أَنْ تُسْلِمَ، وَإِمَّا أَنْ تُقْتَلَ، فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ عَرَبِيٍّ مُسْلِمٍ لَوْ ارْتَدَّ عَنِ الْإِسْلَامِ. فَلَمَّا كَانَ حُكْمُ^(٧) الْعَجَمِيِّ إِذَا دَانَ بِبَيْدِي النَّبِيِّ ﷺ حُكْمَ الْعَرَبِ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ حُكْمُ الْعَرَبِيِّ إِذَا دَانَ بِبَيْدِي الْعَجَمِيِّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنْ يُجْعَلَ حُكْمُهُ حُكْمَهُمْ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّصْنَتَيْنِ مِنَ الَّذِينَ أَوْثَرَا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِنَّمَا اتَّبَعْتُمُ الْبُحْرَهُنَّ﴾ وقد يَخْلُلُنَا إِذَا لَمْ نُؤْتِ أَجْرَهُنَّ. دَلَّ أَنْ يَذْكُرَ الْحُكْمَ فِي حَالٍ لَا يُوْجِبُ حَظْرَهُ فِي حَالٍ أُخْرَى، فَهُوَ دَلِيلٌ لَنَا فِي جَوَازِ نِكَاحِ الْإِمَاءِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَإِنْ ذَكَرَ فِي الْآيَةِ الْمُخَصَّنَاتِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: طَائِفَتَيْنِ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنْزَلَ الْكِتَابَ لَلَا يَقُولُوا: [﴿إِنَّمَا أَنْزَلَ﴾]. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنْ يُوْخَذَ مِنْهُمْ. (٥) فِي م: فِي الْمَجُوسِ، فِي الْأَصْلِ: فِي الْمَجُوسِ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: حَكَمِي.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ الآية؛ أي ومن يكفر بالذي عليه الإيمان به، وهو المؤمن به أي الله، لأنه لا يكفر بالإيمان، ولكن يؤمن به، وهو كقوله تعالى: ﴿حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] أي المؤقن به، فعلى ذلك الأول؛ مغناه من يكفر بالذي عليه الإيمان به، وهو المؤمن به، ﴿فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ وبالله العظمة والهداية.

الآية ٦

وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ لو حُلبت الآية على ظاهرها لكان لا سبيل لأحد القيام بأداء ما فرض الله عليه من الصلاة لأنه كلما قام إلى الصلاة يلزمه الوضوء، فلا يزال ينقى فيه، لكنها على الإضمار؛ كأنه قال: يقال ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ وأنتم مخدشون ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ ولا ظاهر الآية يوجب ما ذكرنا. لكن الحديث مضمر فيه.

ومن الناس من يوجب الوضوء لكل صلاة بظاهر هذه الآية. وقد جاء من الصحابة رضي الله عنهم الفعل بذلك؛ روي عن أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم أنهم توضؤوا لكل صلاة/ ١٢٤ - ب/ وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم نَحْوُ ذَلِكَ.

وروي أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه صلى الظهر، ثم قعد في الرحبة. فلما حضرت العصر دعا بكوز من ماء، فغسل يديه ووجهه وذراعيه ورجليه، وشرب فضله، وقال: هكذا رايت رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يفعل، وقال: هذا وضوء من لم يُخْدِث. وروي عن عبيد بن عمير أنه كان يتوضأ لكل صلاة، وتأول هذه الآية.

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه يتوضأ لكل صلاة. فلما كان يوم فتح مكة صلى الصلوات كلها بوضوء واجد^(١) فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله إنك فعلت شيئاً لم تكن تفعله، قال: إني عنداً فَعَلْتُه يا عمر! [مسلم: ٢٧٧ وأحمد: ٣٥٨/٥]. وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه [أنه^(٢)] قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لولا أن أشق على أمتي لأمرت في كل صلاة الوضوء ومع كل وضوء السواك» [أحمد: ٤٦٠/٢].

وكل ما روي من الأخبار بالوضوء لكل صلاة، هو^(٣) على الفضل عندنا والاستيجاب لا على الحتم. ألا ترى أنه روي عن النبي أنه صلى الله عليه وسلم صلى الصلوات^(٤) كلها بوضوء واجد، وقال: إني فعلته عنداً. ذلك ما ذكرنا.

وقد يحتمل تأويل الآية مغنى آخر ما روي عن بغض الصحابة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أراق ماء، نكلمه، فلا يكلمنا، ونسلم عليه، فلا يرد علينا حتى يأتي أهله، فيتوضأ وضوءه للصلاة، فقلنا له في ذلك حتى نزلت آية الرخصة [في^(٥)] قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ فهذا يدل أن مغنى الآية على الإضمار ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ وأنتم مخدشون ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾.

وروي في تأويل الآية: إذا قُمْتُمْ مِنَ الْمَضْجِعِ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ. وقد رويت الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان ينام، ثم يصلي الضحى ولا يتوضأ، فسئل عن ذلك فقال: إني لست كأحد منكم؛ تنام عيناى ولا ينام قلبي، ولو أخذت لعلمت، [بنحو البخاري: ١١٤٧].

وروي عن صفوان بن عسال [أنه قال^(٦)]: «إذا كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر يأمُرنا ألا نترع خفافنا إذا أدخلناهما طاهرتين، ولا نخلفهما من غائط ولا بول إلا من جنابة» [النسائي: ٨٤/١].

فهذه الأحاديث توجب الوضوء من النوم مجتملاً. وجاء حديث آخر مفسراً بإيجاب الوضوء إذا نام مضطجعا؛ روي عن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ليس على من نام قاعدا وضوء حتى يضطجع. فإذا اضطجع استترحت مفاصله» [بنحو الترمذي: ٧٧] فهذه الأخبار التي جاءت مجتملة.

(١) في الأصل وم: واحدة. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وهو. (٤) من م، في الأصل: الصلاة. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من الأصل وم.

وقد جاءت الأخبار أنه إذا نام في الصلاة قائماً أو قاعداً أو ساجداً فلا وضوء عليه. فَيَذُلْ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ النَوْمَ فِي الصَّلَاةِ لَيْسَ بِحَدِيثٍ. وَرَوَى عَنْ عُمَرَ رضي الله عنه [أنه] ^(١) قَالَ: لَا يُوجِبُ الوُضُوءَ حَتَّى يَضَعَ الْجَنْبَ، وَيَنَامَ. فَهَذَا يُؤَيِّدُ [ما] ^(٢) قُلْنَا مَعَ مَا اجْتَمَعَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي أَنَّ الْوُضُوءَ لَيْسَ بِوَاجِبٍ عَلَى مَنْ قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ، وَهُوَ غَيْرُ مُحَدِّثٍ. فَكَانَ التَّائِيلُ مَا ذَكَّرْنَا.

وقوله تعالى: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ الْخَطَابُ مِنَ اللَّهِ ﷻ يَغْسِلُ الْوَجْهَ مَا يَعْرِفُ أَضْلَ ^(٣) الْوَجْهَ. فَالْتَّكَلُّمُ فِيهِ وَالتَّخْدِيدُ أَنَّهُ مِنْ كَذَا فَضْلُ تَكَلُّمٍ، وَالْأَمْرُ بِالْغَسْلِ يَرْجِعُ إِلَى مَا ظَهَرَ، وَعُرِفَ أَضْلُهُ ^(٤) أَنَّهُ وَجْهٌ.

وكذلك الْأَمْرُ بِمَسْحِ الرَّاسِ يَرْجِعُ إِلَى مَا عُرِفَ أَضْلُهُ ^(٥) أَنَّهُ رَأْسٌ، وَلَيْسَ كَالْأَذُنَيْنِ لِأَنَّ مَعْرِفَةَ الْأَذُنَيْنِ أَنَّهُمَا مِنَ الرَّاسِ سَمْعِي لَأَنَّهُمَا لَا تُعْرَفَانِ أَنَّهُمَا مِنَ الرَّاسِ إِلَّا بِالسَّمْعِ.

وكذلك الْأَمْرُ بِغَسْلِ الْيَدِ وَغَسْلِ الرَّجْلِ يَقَعُ عَلَى مَا يَعْرِفُ النَّاسُ. وَعُرِفَ النَّاسُ الْيَدَ إِلَى الْإِبْطِ وَالرَّجْلَ إِلَى الرُّكْبَةِ، فَخَرَجَ ذِكْرُ الْمَرَافِقِ فِي غَسْلِ الْأَيْدِي إِلَى مَا وَرَاءَ الْمَرَافِقِ، وَكَذَلِكَ ذِكْرُ الْكَعْبِ فِي الرَّجْلِ لِإِخْرَاجِ مَا وَرَاءَ الْكَعْبِ، لِأَنَّ اسْمَ الْيَدِ عَلَى الْإِطْلَاقِ يَقَعُ مِنْ أَطْرَافِ الْأَصَابِعِ إِلَى الْإِبْطِ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَرْبِلَكُمْ إِلَى الْكَمِيَيْنِ﴾ قَرُّوْا بِالنُّضْبِ، وَقَرُّوْهُ بِالْحَفْضِ ^(٦). قَالَ بَعْضُهُمْ: مَنْ قَرَأَ بِالنُّضْبِ فَهُوَ يَرْجِعُ إِلَى الْغَسْلِ نَسْقاً عَلَى الْوُجُوهِ، وَبِالْحَفْضِ إِلَى الْمَسْحِ مَسْحَ الْخِيفَةِ نَسْقاً عَلَى مَسْحِ الرَّاسِ. لَكِنْ هَذَا بَعِيدٌ لِأَنَّهُ تَنَاقُضٌ؛ لَا يَجُوزُ أَنْ يُؤْمَرَ ^(٧) بِالْغَسْلِ وَالْمَسْحِ جَمِيعاً، وَمَعْنَى الْحَفْضِ لِقُرْبِ جَوَارِهِ. يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ وَقَدْ يَجُوزُ ذَلِكَ نَحْوُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ عَلَيْهِمْ يَمَّا يُنْشَرُونَ وَحُورٌ عِينٌ﴾ [الواقعة: ٢١ و ٢٢ و ٢٣] فَمَنْ قَرَأَ بِالْحَفْضِ ^(٨) إِنَّمَا قَرَأَ ^(٩) لِقُرْبِ جَوَارِهِ بِالْحَفْضِ. فَعَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلُ.

ثُمَّ الْحِكْمَةُ بِالْأَمْرِ بِغَسْلِ هَذِهِ الْأَعْضَاءِ لِذِكْرِهِمْ تَطْهِيرَ بَاطِنِهِمْ. وَالْمَعْنَى فِي غَسْلِ هَذِهِ الْأَعْضَاءِ الظَّاهِرَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، بِرُجُوعِهِ ^(١٠):

أَحَدُهُمَا: شُكْرُ. أَمَّا الْيَدُ [فَلِئِمَّا] ^(١١) بِهَا يُتَنَازَلُ، وَيُقْبَضُ، وَأَمَّا الرَّجْلُ فَلِئِمَّا ^(١٢) بِهَا يُمَشَى، وَبِهَا يَصِلُ إِلَيْهِ. وَالْوَجْهُ مُجْمَعُ الْخَوَاسِ الَّتِي تُعْرَفُ عَظِيمَ نِعَمِ اللَّهِ ﷻ مِنْ نَحْوِ الْبَصَرِ وَالشَّمِّ ^(١٣) وَغَيْرِهِمَا مِنَ الْخَوَاسِ الَّتِي بِهَا يَكُونُ التَّلَذُّذُ وَالتَّشْبِيهُ.

وَالثَّانِي ^(١٤): أَمْرٌ بِذَلِكَ تَكْفِيراً لِمَا ارْتَكَبَ بِهِذِهِ الْخَوَاسِ مِنَ الْأَجْرَامِ لِأَنَّهُ بِهَا تُرْتَكَبُ جُلُ الْآثَامِ، وَبِهَا يُوَصَّلُ إِلَيْهَا مِنَ الْمَشْيِ وَالْقَبْضِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرْتُمْ﴾ قِيلَ فَاغْتَسِلُوا بِأَخِذِ الْجَنَابَةِ الظَّاهِرَةِ مِنَ الْبَدَنِ وَبِوَاطِئَتِهِ، وَالْحَدِيثُ لَا يَأْخُذُ إِلَّا الظَّاهِرَ مِنَ الْأَطْرَافِ لِأَنَّ السَّبَبَ الَّذِي يُوجِبُ الْجَنَابَةَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِاسْتِعْمَالِ جَمِيعِ مَا فِيهِ مِنَ الْقُوَّةِ. أَلَا تَرَى أَنَّهُ يَوْضَعُ إِذَا كَثُرَتْ، وَيَتْرَكَهُ يَفْقُوه. فَعَلَى ذَلِكَ أَخَذَ جَمِيعَ الْبَدَنِ ظَاهِرَهُ وَبَاطِنَهُ. وَأَمَّا الْحَدِيثُ فَإِنَّ سَبَبَهُ يَكُونُ بِظَوَاهِرِ هَذِهِ الْأَطْرَافِ مِنْ نَحْوِ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَالْحَدِيثِ، وَلَيْسَ بِاسْتِعْمَالِ كُلِّ الْبَدَنِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ كُنْتُمْ تَرْمَضُونَ أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَسْتُمْ عَلَى الْمَرْضَى وَالسَّفَرِ وَالْمَجِيءِ مِنَ الْغَائِطِ وَالْمَلَامَسَةِ. ثُمَّ الْحُكْمُ لَمْ يَتَّعَلَقْ بِاسْمِ الْمَرْضَى وَلَا بِاسْمِ السَّفَرِ وَلَكِنْ بِاسْمِ الْغَائِطِ، وَلَكِنْ كَانَ مُتَّعِلِقاً لِمَعْنَى فِيهِ دَلَالَةُ جَوَازِ الْقِيَاسِ لِأَنَّهُ ذَكَرَ الْغَائِطَ [وَالْمَجِيءَ مِنْهُ، وَالْغَائِطُ] ^(١٥) هُوَ الْمَكَانُ الَّذِي تُقْضَى فِيهِ، وَالْمُرَادُ مِنْهُ

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: أهل. (٤) في الأصل وم: أهل. (٥) في الأصل وم: أهل. (٦) قرأ نافع وابن عامر والكسائي وحفص بالفتح، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحزمة وأبو بكر خفصاً، انظر حجة القراءات ص (٢٢١). (٧) في الأصل وم: يأمر. (٨) قرأ حمزة والكسائي: وحور عين بالخفض، وقرأ الباقون بالرفع، انظر حجة القراءات ص (٦٩٥). (٩) في الأصل وم: قال. (١٠) في الأصل وم: لمعنيين. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل: لما، ساقطة من م (١٣) في الأصل وم: والنم. (١٤) في الأصل وم: أو. (١٥) من م، ساقطة من الأصل.

الْمَعْنَى، وهو قضاء الحاجات. فهذا أصل لنا أن النّص إذا ورد بمعنى، فوجد ذلك المعنى في غيره وجب ذلك الحكم في ذلك الغير. فإذا عديم الماء في المكان الذي يُعَدُّ، وإن لم يكن سقراً، يجوز التيمم فيه، وكذلك إذا خاف الضرر من الماء جاز له التيمم، يكون مريضاً لأنه ليس أباح ذلك، هذا هو المعنى الثاني للمريض بإسم المَرَضِ ولا بإسم السَّقَرِ، ولكن لمعنى فيه.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ لَسْتُمْ أَنْسَاءَ﴾ قد ذكرنا في ما تقدّم أن الملامسة هو الجماع. [كذلك] (١) روي عن علي وابن عباس رضي الله عنهما وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الملامسة والمباشرة والإفضاء والرفق والغشيان، كله جماع، ولكن الله كريم يكتفي.

وقوله تعالى: ﴿تَتَيَمَّمُوا صَيْدًا طَيِّبًا﴾ جعل الطهارة بالماء والتراب لأنه بهما معاش الخلق، وبهما قوام الأبدان حتى جعل جميع أغذية الخلق وجلّ مصالحهم منهما. فعلى ذلك جعل قيام هذه العبادات بهما، والله أعلم.

ثم الحكمة في وجوب الطهارة [في وجهين] (٢):

أحدهما: ما ذكرنا أن يذكرهم طهارة الباطن.

والثاني: تكفير (٣) لما ارتكبوا بهذه الجوارح من الأجرام، أو شكر (٤) لما أنعم عليهم من المنافع التي جعل لهم فيها من القَبْضِ والبَسْطِ والتَّأْوِيلِ والأَخْذِ والمَشْيِ وغير ذلك مما يكثر.

ثم الحكمة في جعل الطهارة في أطراف البدن للتزوين والتنظيف لأنه يقدم على الملك الجبار، ويقوم بين يديه ويتأجبه. ومن أتى ملكاً من ملوك الأرض يتكلف التنظيف والتزوين. ثم يدخل عليه. فعلى ذلك هذا، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَسْتُمْ أَنْسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَيْدًا طَيِّبًا﴾ قال عبد الله بن مسعود وعمر/ ١٢٥ - ١ / الملامسة ما دون الجماع، فلم يدخل الجنب في هذه الآية، وأوجباً (٥) عليه الغسل بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَأَطَهَّرُوا﴾ وجعل قول الله تعالى: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِ سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَابُوا﴾ [النساء: ٤٣] على مرور الجنب في المسجد. ولم يجعله (٦) على أنه يصلي إذا كان مسافراً، ولم يجد الماء. فهذا الذي منع عند الله أن يطلق للجنب أن يصلي بالتيمم على حال.

فأما علي وابن عباس رضي الله عنهما فجعلاهما جعلاً للتمس الذي ذكره الله تعالى في هذه الآية الجماع، وقال: كفى الله تعالى عن الجماع بالميسس والغشيان والمباشرة. وجعل (٧) قول الله تعالى: ﴿إِلَّا عَابِرِ سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَابُوا﴾ [النساء: ٤٣] في المسافر الذي لم يجد الماء، وهو جنب.

وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه إذا نزل للجنب من الجماع أن يتيمم (٨) إذا لم يجد الماء، فكان ذلك حجة على منع الجنب من التيمم.

ثم قول الشافعي قول ثالث خارج عن قول الصحابة والسلف رضي الله عنهم لأنه يزعم أن التمس هو الجماع وما دونه. فذلك ابتداء في الآية قولاً وتفسيراً خالف فيه ما روي في تفسيرها عن الصحابة [رضي الله عنهم] (٩) جملة والسلف. لذلك كان محيطاً.

وأضله أن الله تعالى ذكر الوضوء، وأمر به في الآية، وهو قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾ الآية، ولم يذكر [الحدث، وأمر] (١٠) بالإغتسال من الجنابة، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَأَطَهَّرُوا﴾ ولم يذكر من أي جنابة. ثم ذكر الحدث (١١) في قوله: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾ فعلى ذلك قوله تعالى: ﴿أَوْ لَسْتُمْ أَنْسَاءَ﴾ كان بياناً لما تقدّم من الأمر بالإغتسال من الجنابة، والله أعلم.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: وجهان. (٣) في الأصل وم: تكفيرا. (٤) في الأصل وم: شكرأ. (٥) في الأصل وم: وأوجبوا. (٦) في الأصل وم: يجعلوه. (٧) في الأصل وم: وجعل. (٨) في الأصل وم: يتيمموا. (٩) في الأصل رضي الله عنهم ساقطة من م. (١٠) في الأصل وم: الحديث وأمره. (١١) في الأصل وم: الحديث.

وقوله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ قِيلَ: أَصِيدُوا ﴿صَعِيدًا طَيِّبًا﴾. والصعيد هو وَجْهُ الأرض.

وقوله تعالى: ﴿طَيِّبًا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: الطَّيِّبُ مَا يُنْبِتُ مِنَ الزَّرْعِ وَغَيْرِهِ. وَقَالَ آخَرُونَ: الطَّيِّبُ هَهُنَا هو الطَّاهِرُ.

رَوَى عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ [أَنَّهُ] ^(١) قَالَ: «جُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، إِنَّمَا أَدْرَكَتْنِي الصَّلَاةُ تَيَمَّمْتُ وَصَلَّيْتُ، [البخاري: ٣٣٥] أَخْبَرَ أَنَّ الْأَرْضَ جُعِلَتْ ^(٢) لَهُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا. فَكَانَ قَوْلُهُ: «طَهُورًا» تَفْسِيرًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿طَيِّبًا﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿فَاتَسَحَّوْا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ قَدْ ذَكَرْنَا فِي مَا تَقَدَّمَ أَنَّ التَّيَمُّمَ ضَرْبَانِ: ضَرْبُهُ لِلْوُجُوْهِ وَضَرْبُهُ لِلْيَدَيْنِ إِلَى الْمِرْقَتَيْنِ.

وقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ يَحْتَمِلُ هَذَا وَجْهَيْنِ:

يَحْتَمِلُ مَا يُرِيدُ أَنْ يُضَيِّقَ عَلَيْكُمْ لِأَمْرِكُمْ بِحَمْلِ الْمَاءِ إِلَى حَيْثُ مَا كُنْتُمْ فِي الْأَسْفَارِ وَغَيْرِهِ. وَلَكِنْ جَعَلَ لَكُمْ التَّيَمُّمَ، وَرَخَّصَ لَكُمْ أَنْ تَوَدُّوا مَا قَرَضَ عَلَيْكُمْ بِهِ، وَلَمْ يُكَلِّفْكُمْ حَمْلَ الْمَاءِ فِي الْأَسْفَارِ وَغَيْرِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَوَجْهٌ آخَرُ: مَا أَرَادَ اللَّهُ بِمَا تَعَبَّدُكُمْ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ أَنْ يَجْعَلَ ﴿عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ وَلَكِنْ أَرَادَ مَا ذَكَرَ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ بِالتَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ بِهِ وَبِالرُّسُلِ ^(٣) جَمِيعًا. وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ ﴿يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْآثَامِ الَّتِي ارْتَكَبُوهَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُنَ الشَّرَّاتِ﴾ [هود: ١١٤] وَيَحْتَمِلُ التَّطَهِيرَ مِنَ الْأَخْذَاتِ وَالْجَنَابَاتِ كَمَا قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ.

وقوله تعالى: ﴿وَرَلَيْتُمْ يَتَمَتَّعُ عَلَيْكُمْ﴾ نَامَ مَا ذَكَرْنَا مِنَ التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ وَالْهِدَايَةِ لِدِينِهِ وَالتَّكْفِيرِ مِمَّا ارْتَكَبُوا. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ هَذَا فِي قَوْمٍ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّهُمْ يَمُوتُونَ عَلَى الْإِيمَانِ حِينَ أَخْبَرَ أَنَّهُ يَتِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْهِمْ.

الآية ٧

وقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أَمَرَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، بِشُكْرِ مَا أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْوَاعِ النِّعَمِ.

[وقوله تعالى] ^(٤): ﴿وَمِثْقَةُ الْأَلْدَى وَانْفَاقُكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ الْمِثْقَاقُ مِثْقَاقَ الْخَلْقَةِ ^(٥) وَشَهَادَتِهَا، إِذْ خَلَقَهُ كُلُّ أَحَدٍ تَشْهَدُ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ، وَيَحْتَمِلُ الْمِثْقَاقُ الَّذِي ذَكَرَ قَوْلَ مَا قَالُوهُ، وَقَبِلُوا مَا دُعُوا إِلَيْهِ.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: أَجَبْنَا دَعْوَتَكَ، وَأَطَعْنَا أَمْرَكَ. وَقَالَ آخَرُونَ: سَمِعْنَا قَوْلَكَ، وَأَطَعْنَا أَمْرَكَ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ﴾ فِي تَرْكِ مَا أَمَرَكُمْ رَبُّكُمْ وَارْتِكَابِ مَا نَهَاكُمْ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ وَهُوَ عَلَى الْوَعِيدِ.

الآية ٨

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ الْآيَةُ. يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ الْآيَةُ فِي الشَّهَادَةِ نَفْسِهَا، كَأَنَّهُ قَالَ كُونُوا ^(٦) شُهَدَاءَ لِلَّهِ، وَاجْعَلُوا الشَّهَادَةَ لَهُ. فَإِذَا فَعَلُوا هَذَا لَا يَمْنَعُهُمْ بَغْضُ أَحَدٍ وَلَا يَتَّهَمُونَ الْقِيَامَ بِهَا. نَذَبَهُمُ اللَّهُ أَنْ يَقُولُوا فِي الشَّهَادَةِ لِلَّهِ وَالْحُكْمِ لَهُ؛ يَحْكُمُ لِلْعَدْلِ كَمَا يَقُومُ لِلْوَلِيِّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ فِي بَيَانِ الْحَقِّ وَالْحُجَجِ وَتَغْلِيمِ الْأَحْكَامِ وَالشَّرَائِعِ؛ كَأَنَّهُ يَقُولُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، قُومُوا فِي بَيَانِ الْحُجَجِ وَالْحَقِّ وَتَغْلِيمِ الْأَحْكَامِ لِلَّهِ، لَا يَمْنَعُكُمْ بَغْضُ قَوْمٍ وَلَا رِضَاهُمْ عَلَى الْآبِيئِ الْحَقِّ لَهُمْ، وَلَا تَعْلَمُوا الْحُجَجَ وَالْأَحْكَامَ لَهُمْ إِنْ شَاءَ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ يَقُولُ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ^(٧) قَالَ: «وَلَا يَجْرِيَنَّكُمْ» أَيِ وَلَا يَحْمِلَنَّكُمْ «شَتَاتُ قَوِيٍّ» أَيِ بَغْضُ قَوْمٍ «عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا» فِيهِمْ. فَإِنَّمَا الْعَدْلُ لِلَّهِ فِي الرِّضَا وَالسُّخْطِ «اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى» يَقُولُ: قُولُوا الْعَدْلُ بِالْحَقِّ فَإِنَّهُ «أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى».

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: جعل. (٣) الواو ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ يَقُولُ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]. (٦) في الأصل وم: قوموا. (٧) ساقطة من الأصل وم.

وقوله تعالى: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ أي اعدلوا هو التقوى كقولہ تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] لأنَّ العَدْلَ لَيْسَ إِلَّا التَّقْوَى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في تركه ما أمركم به وازيكا ما نهاكم عنه ﴿إِنَّ اللَّهَ حَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وتُضْمِرُونَ مِنَ الْعَدْلِ وَالْجَوْرِ. خَرَجَ عَلَى الْوَعْدِ.

الآية ٩ وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قال بعضهم: هذه الآية هي صلة ما تقدم في قوله ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا كُتُوبًا قَوْمِيكَ لِلَّهِ شَهَادَةٌ بِالْقُسْطِ﴾ إلى آخر ما ذكرنا. فإذا فعلوا وقاموا في الشهادة والعَدْل في الْحُكْم كَانَ لَهُمْ مَا ذَكَرَ مِنَ الْوَعْدِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ولكن يَحْتَمِلُ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ؛ كَأَنَّهُ قَالَ ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وَغَدَا، ثُمَّ بَيَّنَّ مَا فِي ذَلِكَ الْوَعْدِ، فَقَالَ: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾؛ يَسْتُرُ عَلَى ذُنُوبِهِمْ، وَتَجَاوَزُ عَنْهَا ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ الْجَنَّةُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ فِي الدُّنْيَا لِذُنُوبِهِمْ ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ فِي الْآخِرَةِ الْجَنَّةُ، وَهُوَ مَا ذَكَرْنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٠ وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ قِيلَ: ﴿كَفَرُوا﴾ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴿وَكَذَّبُوا﴾ بِآيَاتِهِ؛ يَغْنِي مُحَمَّدًا صلی اللہ علیہ وسلم وَالْقُرْآنَ ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ وَقِيلَ: ﴿كَفَرُوا﴾ بِتَرْجِيدِ اللَّهِ ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ بِالْقُرْآنِ بِأَنَّهُ لَيْسَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَمِمَّا وَاحِدٌ. وَهَذَا يَدُلُّ أَنَّ الْآيَةَ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ. [خَرَجَتْ لَيْسَتْ] ^(١) عَلَى الصَّلَاةِ عَلَى مَا قَالُوا.

الآية ١١ وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ النِّعْمَةُ ^(٢) الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ كَفَّ الْأَعْدَاءِ عَنْهُمْ بَعْدَ مَا بَسَطُوا إِلَيْهِمْ أَيْدِيَهُمْ فِي جُمْلَةِ الْمُؤْمِنِينَ لِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ كَانُوا فِي ابْتِدَاءِ الْأَمْرِ مُخْتَفِينَ مَا بَيْنَ الْكُفْرَةِ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى إظهارِ الْإِسْلَامِ وَإِعْلَانِهِ، وَقَدْ هُمُوا بِقَتْلِ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ مَرَّةٍ. وَفِي مَا كَفَّ ﴿أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ مِثْلُ عَظِيمَةٍ عَلَيْنَا وَعَلَى جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ فِي قَوْمٍ خَاصٍّ؛ قَدْ أَحَاطُوا بِهِمْ، وَبَسَطُوا أَيْدِيَهُمْ إِلَيْهِمْ، وَمِمَّا يَقْتُلُهُمْ، فَكَفَّ اللَّهُ صلی اللہ علیہ وسلم بِفَضْلِهِ أَيْدِيَهُمْ عَنْهُمْ وَمَنَعَ ^(٣) أَيْدِيَهُمْ. ثُمَّ اخْتَلَفَ فِيهِ: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه [أَنَّهُ] ^(٤) قَالَ: هُمْ بَنُو قُرَيْظَةَ، وَبَسَطُوا أَيْدِيَهُمْ بِالْقَتْلِ، فَكَفَّ اللَّهُ تَعَالَى ١٢٥ - ب/ أَيْدِيَهُمْ عَنْهُمْ بِالْمَنَعِ.

وقيل: نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِ؛ دَخَلَ النَّبِيُّ صلی اللہ علیہ وسلم حَائِطًا لَهُمْ فِي النَّخْلِ، وَأَصْحَابُهُ رَأَوْا الْجِدَارَ، وَاسْتَعَانَهُمْ فِي مَغْرَمِ دِيَّةِ غَرَمَهَا، ثُمَّ قَامَ مِنْ عِنْدِهِمْ، فَاتَّصَرُّوا بَيْنَهُمْ بِقَتْلِهِ، فَخَرَجَ يَمْشِي الْفَقْرَى مُغْتَرِضًا يَنْظُرُ مِنْ خِفَتِهِمْ، ثُمَّ دَعَا أَصْحَابَهُ صلی اللہ علیہ وسلم إِلَيْهِ رَجُلًا رَجُلًا حَتَّى تَنَاهَوْا إِلَيْهِ. فَلَا نَذْرِي كَيْفَ مَا كَانَتْ الْقِصَّةُ؟ وَلَيْسَ لَنَا فِي مَعْرِفَةِ الْقِصَّةِ حَاجَةٌ بَعْدَ أَنْ نَعْرِفَ مِثْلَ اللَّهِ الَّتِي مَنَّ عَلَيْنَا بِكَفِّ الْأَعْدَاءِ عَنْهُمْ، وَتَشْكُرُ لَهُ عَلَى ذَلِكَ.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلَالَةٌ لِثَبَاتِ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ صلی اللہ علیہ وسلم لِأَنَّهُ أَخْبَرَ عَمَّا كَانَ مِنْهُمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَشْهَدَ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنَّهُ بِاللَّهِ عَلِيمٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّ اللَّهُ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أَي عَلَى اللَّهِ يَتَكَلَّلُ الْمُؤْمِنُونَ فِي كُلِّ أَمْرٍ، وَبِهِ يَقُونُ.

الآية ١٢ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، تَعْلِيمٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى هَذِهِ الْأُمَّةُ وَإِنْبَاءٌ مِنْهُ أَنَّهُ قَدْ أَخَذَ الْعُهُودَ وَالْمَوَاقِيقَ عَلَى الْأُمَّةِ السَّالِفَةِ كَمَا أَخَذَ مِنْكُمْ لِأَنَّهُ ذَكَرَ أَنَّهُ قَدْ أَخَذَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمِيثَاقَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ عَظِيمَةً الَّتِي وَافَقَكُمْ بِهَا﴾ الْآيَةُ [المائدة: ٧] ثُمَّ أَعْلَمَهُمْ بِمَا وَعَدَ لَهُمُ الثَّوَابَ إِنْ وَقَّاهُ بِتِلْكَ الْعُهُودِ وَالْمَوَاقِيقِ الَّتِي أَخَذَتْ عَلَيْهِمْ وَبِمَا أَوْعَدَ لَهُمُ مِنَ الْعِقَابِ إِنْ نَقَضُوا الْعُهُودَ الَّتِي أَخَذَ عَلَيْهِمْ لِيَكُونُوا عَلَى حَذَرٍ مِنْ نَقْضِهَا وَلِيُقِيمُوا عَلَى وَفَائِهَا: أَنْ ^(٥) يُقَالَ: إِنَّمَا ذَكَرَ مَا أَخَذَ عَلَى أُولَٰئِكَ مِنَ الْعُهُودِ وَالْمَوَاقِيقِ لِيَكُونَ ذَلِكَ آيَةً مِنْ آيَاتِ رِسَالَةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صلی اللہ علیہ وسلم لِأَنَّهُ إِخْبَارٌ عَنِ الْأُمَّةِ السَّالِفَةِ، وَهُوَ لَمْ يَشْهَدْهَا، وَلَا حَضَرَهَا، لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ إِنَّمَا عَلِمَ ذَلِكَ بِاللَّهِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: خَرَجَ لَيْسَ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: الْمَنَّةُ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَمِنْ. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) أَدْرَجَ قَبْلَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: وَ.

ثُمَّ تَحْتَمِلُ تِلْكَ الْعُهُودَ وَالْمَوَاقِيقَ الَّتِي أَخَذْتَ عَلَيْهِمْ مَا ذَكَرَ عَلَى إِثْرِهَا وَسِيَّاقِهَا، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ﴾ إِلَى آخِرِ مَا ذَكَرَ.

وَتَحْتَمِلُ مَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ [وَهُوَ إِخْلَالُ مَا] ^(١) اِخْلَ اللَّهُ وَتَحْرِيمُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَحُسْنُ مُوَازَنَتِهِمْ، ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ يَعْنِي مَلِكًا، وَهُمْ الَّذِينَ بَعَثَهُمُ مُوسَى إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ لِيَعْلَمُوا لَهُ عِلْمَهَا.

وَتَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونُوا ^(٢) اخْتَارُوا مِنْ بَيْنِهِمْ أُولَئِكَ، فَسَالُوا مُوسَى أَنْ يَجْعَلَهُمْ عَلَيْهِمْ قُدُوةً يَقْتَدُونَ بِهِمْ، وَيَعْلَمُونَهُمُ الدِّينَ وَالْأَحْكَامَ، وَيَأْخُذَ عَلَيْهِمُ الْمَوَاقِيقَ وَالْعُهُودَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي النَّقِيبِ؛ قَالَ بَعْضُهُمْ: النَّقِيبُ هُوَ الْمَلِكُ، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ عليه السلام وَقَالَ أَبُو عَوَسَجَةَ: النَّقِيبُ هُوَ الْمَنْظُورُ إِلَيْهِ وَالْمَضْدُورُ عَنْ رَأْيِهِ، وَهُوَ مِنْ وَجْهِ الْقَوْمِ، وَجَمْعُهُ النَّقَبَاءُ مِثْلُ الْعُرَاقَاءِ. وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: النَّقِيبُ الْأَمِيرُ وَالضَّامِنُ عَلَى الْقَوْمِ. وَقَالَ الْكِسَائِيُّ وَالْفَرَّاءُ: يُقَالُ مِنْهُ: نَقِيبٌ، عَلَيْهِ أَنْقَبٌ، نِقَابَةٌ، وَهُوَ فَوْقَ الْعَرِيفِ، وَيُقَالُ ^(٣) مِنَ الْعَرِيفِ: عَرَفْتُ عَلَيْهِمْ عَرَاقَةً، وَهُمْ النَّقَبَاءُ وَالْعُرَاقَاءُ وَالْمَنَاقِبُ، وَاجِدُهُمْ مَنَكِبٌ، وَهُمْ كَالْعَوْنِ يَكُونُ مَعَ الْعَرِيفِ. وَقَالَ الْقُتَيْبِيُّ: الْكَفِيلُ عَلَى الْقَوْمِ، وَالنَّقَابَةُ وَالنَّكَابَةُ شَيْهَتَانِ ^(٤) بِالْعَرَاقَةِ.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: قَالَ لِلنَّبِيَّاءِ ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ فِي النَّصْرِ وَالِدَّفْعِ عَنْكُمْ ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ﴾ إِلَى آخِرِ مَا ذَكَرَ، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ عليه السلام وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْوَعْدُ لِكُلِّ مَنْ قَامَ بِوَفَاءِ ذَلِكَ [مِنْ] ^(٥) النَّقَبَاءِ وَغَيْرِ النَّقَبَاءِ، وَمَا ذَكَرَ مِنَ الْوَعِيدِ فِي الْآيَةِ الَّتِي هِيَ عَلَى إِثْرِ هَذِهِ عَلَى كُلِّ مَنْ نَقَضَ ذَلِكَ الْعَهْدَ النَّقِيبُ وَغَيْرُ النَّقِيبِ.

ثُمَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

يَحْتَمِلُ أَنَّهُ أَرَادَ بِالصَّلَاةِ الْخُضُوعَ وَالنَّسَاءَ لَهُ وَبِالزَّكَاةِ تَزْكِيَةَ النَّفْسِ وَطَهَارَتَهَا، وَذَلِكَ فِي الْفِعْلِ؛ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ الْقِيَامُ بِهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ أَرَادَ بِالصَّلَاةِ الْمَعْرُوفَةَ الْمَعْهُودَةَ وَالزَّكَاةَ الْمَعْرُوفَةَ. فَبِهِ ذَلِيلٌ وَجُوبِ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ عَلَى الْأَمَمِ السَّالِقَةِ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمْسَتْمْ رُسُلِي﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ تُؤْمِنُوا بِرُسُلِي جَمِيعًا، وَلَا تُفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ: أَنْ تَكْفُرُوا بِبَعْضٍ، وَتُؤْمِنُوا بِبَعْضٍ كَقَوْلِهِمْ: ﴿تُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَتَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ [النساء: ١٥٠] ﴿وَعَزَّزْتُمُوهُمْ﴾ قَالَ الْقُتَيْبِيُّ وَأَبُو عَوَسَجَةَ، قَالَا: وَعَظَّمْتُمُوهُمْ، وَالتَّغْزِيرُ التَّعْظِيمُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: نَصَرْتُمُوهُمْ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عليه السلام [أَنَّهُ] ^(٦) قَالَ ﴿وَعَزَّزْتُمُوهُمْ﴾ أَعْتَمَّتُمُوهُمْ؛ يَعْنِي الْأَنْبِيَاءَ عليهم السلام.

[وقوله تعالى] ^(٧): ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [أَي صَادِقًا مِنْ كُلِّ أَنْفُسِكُمْ] [إِنْتَفَيْتُمْ بِهِ] ^(٨) وَجْهَ اللَّهِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [أَي مُحْتَسِبًا؛ طَيِّبَةً] ^(٩) [بِهِ أَنْفُسُكُمْ] ^(١٠). وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أَيْ جَعَلْتُمْ ^(١١) عِنْدَ اللَّهِ أَنْفُسَكُمْ أَيْدِي وَمَحَاسِنَ؛ تَسْتَوْجِبُونَ بِذَلِكَ الثَّوَابَ الْجَزِيلَ.

وقوله ^(١٢) تَعَالَى: ﴿لَا كُفْرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأَجْلَلَكُمْ جَسَدٌ تَجَرَّى مِنْ عَصِيهَا الْأَنْهَارُ﴾ وَعَدَّ لَهُمْ بِتَكْفِيرٍ ^(١٣) مَا أَرْتَكِبُوا مِنَ الْمَآثِمِ إِذَا قَامُوا بِوَفَاءِ مَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمَوَاقِيقِ.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: يكون. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم شبه. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل: ابتنى بها. (٩) ساقطة من م. (١٠) في الأصل وم: بها نفسا. (١١) في الأصل وم: اجعلوا. (١٢) في الأصل وم: ثم قال. (١٣) في الأصل وم: وتكفير.

ذَلِكَ أَي بَعْدَ الْمَوَاقِفِ وَالْمُؤَدِّ التي أَخَذَ عَلَيْهِمْ. وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أَي مَنْ كَفَرَ ﴿فَقَدْ سَلَ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أَي أَخْطَأَ سَوَاءَ السَّبِيلِ.

الآية ١٣ وقوله تعالى: ﴿يَمَّا تَقِفُهِمْ يَتَلَقَّهِمْ﴾ أَي يَنْقَضِصُهُمْ: قِيلَ: مَا زَائِدَةٌ؛ فَيَنْقَضِصُهُمْ ﴿يَتَلَقَّهِمْ لَمَّا تَقِفُ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿لَمَّا تَقِفُ﴾ أَي طَرَدْنَاهُمْ. وَالْمَلْعُونُ هُوَ الْمَطْرُودُ عَنْ كُلِّ خَيْرٍ. وَيَحْتَمِلُ ﴿لَمَّا تَقِفُ﴾ أَي دَعَوْنَا عَلَيْهِم بِاللَّعْنِ، ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ بِمَا نَزَعَ مِنْهَا الرَّحْمَةَ وَالرَّأْفَةَ إِذَا تَقَضَّوْا الْمُؤَدَّ، وَتَرَكُوا أَمْرَ اللَّهِ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخْبَرَ أَنَّهُ جَعَلَ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوا أَمْرَ اللَّهِ، وَأَطَاعُوا رَسُولَهُ، الرَّحْمَةَ ^(١) وَالرَّأْفَةَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوا رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: ٢٧] فَإِذَا نَزَعَتِ الرَّحْمَةُ صَارَتْ ﴿قَاسِيَةً﴾ ^(٢) بِإِسَاءَةٍ.

وقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونُوا يُغَيِّرُونَ تَأْوِيلَهُ، وَيَقُولُونَ: هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَيَحْتَمِلُ التَّخْرِيفُ تَحْرِيفَ النَّظْمِ وَالْمَثَلِ؛ [يَمْحُورُهُ، وَيَكْتُشِبُونَ] ^(٣) غَيْرُهُ ﴿وَسُوا حَقًّا مِمَّا دُكِّرُوا بِهِ﴾ قِيلَ: ضَيَّعُوا كِتَابَ اللَّهِ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ، وَنَقَضُوا عَهْدَهُ الَّذِي عَاهَدَ إِلَيْهِمْ، وَتَرَكُوا أَمْرَهُ.

وقوله تعالى: ﴿مِمَّا دُكِّرُوا بِهِ﴾ أَي وَعُطُوا بِهِ، وَقِيلَ: تَرَكُوا نَصِيحًا مِمَّا أُمِرُوا بِهِ فِي كِتَابِهِمْ مِنْ اتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ ﷺ. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَلْقٍ يَتَّبِعُونَ مِمَّا دُكِّرُوا بِهِ﴾ إِخْبَارٌ عَنْ تَمَرُّدِهِمْ فِي الْمَعَانِدَةِ وَكَوْنِهِمْ فِي الْخِيَانَةِ وَإِيَّاسٍ مِنْ إِيْمَانِهِمْ. ثُمَّ اسْتَنْتَى، فَقَالَ: ﴿إِلَّا قَلِيلًا يَتَّبِعُونَ﴾ وَهُمْ الَّذِينَ اسْلَمُوا مِنْهُمْ.

وقوله تعالى: ﴿فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ وَلَا تُكَافِئُهُمْ لِمَا آذَوْكَ. ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ مَنْسُوحٌ بِآيَةِ الْقِتَالِ فِي سُورَةِ [بَرَاءَةٍ] ^(٤) وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَقِيلُوا الَّذِينَ لَا يُمِشُونَ بِاللَّهِ﴾ [الآية: ٢٩]. وَيَحْتَمِلُ: ﴿فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ إِلَى أَنْ تُؤْمَرَ بِالْقِتَالِ، وَاللَّهُ أَغْلَمُ.

الآية ١٤ وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ﴾ أَي كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ، فَقَالُوا: بَلْ نَكُونُ نَصَارَى. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَصْرُكَ أَخَذْنَا مِنْهُمْ فَوَقَعُوا حَقًّا مِمَّا دُكِّرُوا بِهِ﴾ مَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ ﷻ عَلَيْهِ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ. وَقَدْ أَخَذَ الْمِيثَاقَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَذْكُرُوا يَمَّةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ﴾ [الآية المائدة: ٧] وَأَخَذَ الْمِيثَاقَ عَلَى الْيَهُودِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [المائدة: ١٢]. وَأَخْبَرَ أَيْضًا أَنَّهُ قَدْ أَخَذَ الْمِيثَاقَ عَلَى النَّصَارَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ أَخَذْنَا مِنْهُمْ فَوَقَعُوا حَقًّا مِمَّا دُكِّرُوا بِهِ﴾ وَتَقَدَّمَ ذِكْرُ الْمِيثَاقِ وَمَعْنَاهُ فِي غَيْرِ مَوَاضِعَ.

وقوله تعالى: ﴿فَوَقَعُوا حَقًّا مِمَّا دُكِّرُوا بِهِ﴾ يَحْتَمِلُ هَذَا وَجْهَيْنِ: يَحْتَمِلُ أَي تَرَكُوا حَقْلَهُمْ مِمَّا أُمِرُوا بِهِ مِنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ وَالْإِيْمَانِ بِالرُّسُلِ كُلِّهِمْ وَالتَّمَسُّكِ ^(٥) بِكِتَابِ ١٢٦ - أ / اللَّهُ تَعَالَى وَالْوَفَاءِ بِالْمُؤَدِّ التي عَاهَدَتْ ^(٦) إِلَيْهِمْ، فَتَرَكُوا ذَلِكَ كُلَّهُ، وَضَيَّعُوا.

وَيَحْتَمِلُ ﴿فَوَقَعُوا حَقًّا مِمَّا دُكِّرُوا بِهِ﴾ أَي لَمْ يَحْفَظُوا مَا وَعُطُوا. وقوله تعالى: ﴿فَأَعْرَبْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِنْ يَوْرُوا إِلَيْكُمْ﴾ قِيلَ: أَعْرَبْنَا أَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ. قَالَ الْحَسَنُ: مِنْ جِكَمِ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يُلْقِيَ بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ، وَيَجْعَلَ ^(٧) قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً، وَمِنْ جِكَمِهِ أَنْ يَكُونَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ رَأْفَةً وَرَحْمَةً.

وقال بَعْضُ الْمُعْتَزِلَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَعْرَبْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ أَي خَذَلْنَاهُمْ، وَتَرَكْنَاهُمْ. لَكِنْ هَذَا كُلُّهُ مِنْهُمْ اخْتِيَالٌ وَفِرَارٌ عَمَّا يَلْزَمُهُمْ مِنْ سُوءِ الْقَوْلِ وَقُبْحِهِ، فَيَقَالُ لَهُمْ: إِنْ شِئْتُمْ جَعَلْنَاهُمْ خِذْلَانًا، وَإِنْ شِئْتُمْ تَرَكْنَا جَعَلْنَاهُمْ ^(٨) مَا شِئْتُمْ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَالرَّحْمَةَ. (٢) فِي الْأَصْلِ: قَبِيَّةٌ وَهِيَ قِرَاءَةُ حِمَزَةٍ، انْظُرْ حِجَةَ الْقِرَاءَاتِ ص (٢٢٣). (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَمَحُوهُ وَيَكْتَسِبُونَ.

(٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَنَمَسَ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: عَهْدٌ. (٧) الْوَاقِعَةُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: جَعَلُوا.

ولكن هل كان من الله في ذلك صنع، أو أضاف ذلك إلى نفسه؟ ولا يفعل له في ذلك، ولا صنع له في ذلك. وذلك الحرف على غير إثبات الفعل فيه أو شيء حَرْفِ دَمْ، لا يجوز أن يُصِفَ ذلك إلى نفسه، ولا يفعل له في ذلك ولا صنع، فدل أن^(١) له فيه صنعا، وهو ما ذكرنا: أن خلق ذلك منهم. وكذلك في ما أضاف إلى نفسه [من جعل]^(٢) الرأفة والرحمة في قلوب المؤمنين. فلو لم يكن له في ذلك صنع لكان لا يُصِفُ ذلك إلى نفسه، وذلك الحرف حَرْفُ الْحَمْدِ والمدح.

فدل أن له فيه صنعا، وهو أن خلق الرأفة والرحمة في قلوب المؤمنين وخلق القساوة والعداوة في قلوب أولئك الكفرة، وبالله التوفيق.

وفي الآية دالة إثبات رسالة سيدنا محمد ﷺ لأنه أخبر أنه ألقى ﴿يَتَنَّهُمُ الْمَدَاوَةَ وَالْبَغْصَةَ إِنْ بَرَّ الْقَيْمَةُ﴾ وأخبر ألا ﴿تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَلْقٍ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ١٣] وكان كما قال على علم منهم أنه لا [يزال]^(٣) تَطَّلِعُ على ما في قلوبهم من الجبائنة والقساوة وغير ذلك من الأمور. فدل أنه بالله عليم ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ يُنْشِئُهُمُ اللَّهُ﴾ في الآخرة ﴿يَسَاءَ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ في الدنيا، وهو قول ابن عباس.

الآية ١٥

وقوله تعالى: ﴿يَتَأْخِذُ الْكِتَابَ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ الآية. قال ﷺ: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ ولم يقل: فلان بن فلان ليُعلم أن الرسل، عليهم الصلاة والسلام، ليسوا يُعرفون بالأسماء والأنساب، ولكن إنما يُعرفون بالآيات المعجزة والبراهين النيرة.

وفيه دليل أن من آمن بالرسل، ولم يعرف بأسمائهم إنما^(٤) يكون مؤمنا. ولم يؤخذ علينا معرفة أسماء الرسل، إنما أخذ علينا الإيمان بهم جملة. ألا ترى أن الله ﷻ لم يذكر في الكتاب الأنبياء والرسل جميعا واجدا فواحدا، ولا ذكر أسماءهم؟ إنما ذكر بعضا منهم. أفترى أن من لم يعرف أسماءهم لم يكن مؤمنا؟ هذا بعيد.

وفيه دالة إثبات رسالة سيدنا محمد ﷺ لأنه قال: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ وهم إذن كتموا ذلك، وأخفوه [أعني الرؤساء، فلم يُخبروا واجدا أنهم كتموا ذلك، وأخفوه]^(٥) حتى يتلغ الخبر إلى رسول الله ﷻ ولا كان رسول الله ﷻ اختلف إلى أحد منهم، أو أنظر في كتابهم قط ليُعلم ما كتموا. قلنا بين لهم ما قد كتموا، وأخفوا عن^(٦) الناس، دل ذلك لهم أنه إنما عليم ذلك بالله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ اختلف في تأويله وقراءته: قال بعضهم: يُبَيِّنُ بالتون وتعفو، كثيرا أي الله يُبَيِّنُ لهم كثيرا [مما يُخفون من الكتاب]^(٧) ويعفو [الله تعالى]^(٨) عن كثير إذا آمنوا، وزجفوا عما كانوا يُخفون، ويكتمون^(٩).

وقال آخرون: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ أي جميع ما كانوا يُخفون، ويعفو عن جميع ذلك.

وأما عندنا فقوله: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ بإلواء أي رسول الله يُبَيِّنُ لهم كثيرا [ويَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ] على قدر ما أذن له البيان لهم لأن الرسل إنما يأتون بالبراهين والحجج على قدر ما أذن لهم من الآيات. ألا ترى أن سحرة فرعون لما ألقوا ﴿جِئْتُمْ بِعِصَتِكُمْ﴾ [الشعراء: ٤٤] فصارت حيات، ولم يُلْقِ موسى عصاه حتى أذن الله له في ذلك، وهو قوله تعالى ﴿وَأَرْجِنَا إِلَى مُوسَى أَنَّ أَلْفَ عَصَاكَ إِذَا هِيَ تُلْقَىٰ يَأْتِكُنَّ﴾ [الأعراف: ١١٧] إنما أتى بالآية بعدما أذن له بذلك؟ فعلى ذلك قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا﴾ إنما يُبَيِّنُ على^(١٠) قدر ما أذن له بالبيان والحجة، والله أعلم.

(١) في الأصل وم: أنه. (٢) من م، في الأصل: ولا فعل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: أنه. (٥) من م، ساقطة من الأصل.
(٦) في الأصل وم: من. (٧) في الأصل: ما يخفون، في م: مما كنتم تخفون. (٨) ساقطة من م. (٩) لم أشر على هذه القراءة وقارنها.
(١٠) في الأصل وم: أن.

وقوله تعالى: ﴿يَمَّا كُنْتُمْ تُخَفُّونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿يَمَّا كُنْتُمْ تُخَفُّونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ مِنَ الشَّرَائِعِ وَالْأَحْكَامِ، وَيَحْتَمِلُ: كَتَمُوا مَا فِي الْكِتَابِ مِنْ بَقِيَّةِ^(١) مُحَمَّدٍ ﷺ وَصِفَتِهِ الْكَرِيمَةِ.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ هُوَ الْقُرْآنُ؛ سَمَاءُ نُورًا لِمَا يُوَضِّحُ، وَيُضِيءُ كُلَّ شَيْءٍ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ حَقِيقَتُهُ. وَعَلَى ذَلِكَ يَخْرُجُ قَوْلُهُ ﷺ ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية [النور: ٣٥] أَي بِهِ يَتَضَوَّى كُلُّ شَيْءٍ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ فِي الْحَقِيقَةِ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

الآية ١٦ وقوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿يَهْدِي بِهِ﴾ أَيِ اللَّهِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَيَحْتَمِلُ بِالْقُرْآنِ، أَيِ يَهْدِي اللَّهُ ﴿مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾ يَحْتَمِلُ رِضَاءَهُ.

وقوله تعالى: ﴿سُبُلَ السَّلَامِ﴾: ﴿السَّلَامِ﴾ قِيلَ: هُوَ اللَّهُ كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُتَّقِينَ﴾ الآية [الحشر: ٢٣] أَيِ بِهِ يَهْدِي ﴿سُبُلَ السَّلَامِ﴾ سَمَى سُبُلًا لِأَن سَبِيلَ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ كَثِيرًا فِي الظَّاهِرِ فَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ وَاحِدٌ. وَسَمَى سَبِيلَ الشَّيْطَانِ سُبُلًا، وَقَالَ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ الآية [الأنعام: ١٥٣] لِأَن سُبُلَهُ مُتَفَرِّقَةٌ مُخْتَلِفَةٌ لَيْسَتْ تَرْجِعُ إِلَى وَاحِدٍ. وَأَمَّا سَبِيلُ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ^(٢) سُبُلًا فِي الظَّاهِرِ فَهِيَ^(٣) تَرْجِعُ إِلَى وَاحِدٍ، وَهُوَ الْهَدَى وَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ.

الآية ١٧ وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ كَفَرُوا كَفَرًا مُكَابَرَةً وَمُعَانَدَةً لَا كُفْرَ شُبُهَةٍ وَجَهْلٍ لَأَنَّهُمْ أَقْرَبُوا أَنَّهُ ابْنُ مَرْيَمَ، ثُمَّ يَقُولُونَ: إِنَّهُ إِلَهٌ، فَإِذَا كَانَ هُوَ ابْنُ مَرْيَمَ، وَأَمُّهُ أَكْبَرُ مِنْهُ، فَمِنْ الْبَعِيدِ أَنْ يَكُونَ مَنْ هُوَ أَصْغَرُ مِنْهُ إِلَهًا لِمَنْ هُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ وَرَبًّا، وَإِلَّا الْكُفْرُ قَدْ يَكُونُ بِدُونِ ذَلِكَ الْقَوْلِ. لَكِنَّ التَّائِيلَ هُوَ مَا ذَكَرْنَا أَنَّهُمْ كَفَرُوا مُعَانَدَةً وَمُكَابَرَةً مَعَ إِقْرَارِهِمْ أَنَّهُ ابْنُ مَرْيَمَ حِينَ جَعَلُوا الْأَصْغَرَ إِلَهَ الْأَكْبَرِ وَرَبًّا.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ مَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَرَنَ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أَيِ لَا أَحَدٌ يَمْلِكُ مِنْ دُونِ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ إِهْلَاكَ الْمَسِيحِ وَأُمِّهِ^(٤)؛ أَيِ لَوْ كَانَ إِلَهًا كَمَا يَقُولُونَ لَكَانَ يَمْلِكُ دَفْعَ الْإِهْلَاكِ عَنْ نَفْسِهِ وَعَنْ أُمِّهِ وَمَنْ عِبَادَتِهِمْ^(٥) فِي الْأَرْضِ.

وقيل: ﴿مَنْ يَمْلِكُ﴾ أَنْ يَمْنَعَ ﴿مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ مِنْ عَذَابِهِ ﴿أَنْ يَهْلِكَ الْمَسِيحُ﴾ بِعَذَابٍ ﴿وَأُمَّهُ وَرَنَ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ بِعَذَابٍ أَرْمَوْتِ، وَمِمَّا وَاجِدٌ.

ثُمَّ عَظَّمَ نَفْسَهُ عَنْ قَوْلِهِمْ، وَنَزَّهَا جَمِيعًا ﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ فَقَالَ: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيِ كُلُّهُمْ عِبْدُهُ وَإِمَاؤُهُ، يَخْلُقُ مِنْ بَشَرٍ وَغَيْرِ بَشَرٍ ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أَيِ قَادِرٌ عَلَى خَلْقِ الْخَلْقِ مِنْ بَشَرٍ وَمِنْ غَيْرِ بَشَرٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٨ وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوا﴾ الآية. يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْقَوْلُ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ جَمِيعًا، وَلَكِنْ مَا كَانَ مِنْ أَحَدِ الْفَرِيقَيْنِ هَذَا، وَمِنَ الْفَرِيقِ^(٦) الْآخَرِ غَيْرُهُ، وَكَانَ كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَانًا﴾ [البقرة: ١١١] كَأَنَّ هَذَا الْقَوْلَ كَانَ [مِنْ^(٧)] كُلِّ فَرِيقٍ نَفَى دُخُولَ الْفَرِيقِ الْآخَرِ الْجَنَّةَ لَا أَنْ قَالُوا جَمِيعًا ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَانًا﴾.

وَيَحْتَمِلُ^(٨) أَنْ كَانَ مِنَ النَّصَارَى ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ﴾ لِمَا ذُكِرَ فِي بَعْضِ الْقِصَصِ أَنَّ عِيسَى، عَلَى نَبِينَا وَعَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، قَالَ لِقَوْمِهِ: «أَدْعُوكُمْ إِلَى أَبِي وَأَبِيكُمْ الَّذِي فِي السَّمَاءِ» فَقَالُوا عِنْدَ ذَلِكَ ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ﴾ وَكَانَ مِنَ الْيَهُودِ ﴿قَوْلُهُمْ^(٩)﴾: «نَحْنُ أَجْبَاءُ اللَّهِ».

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْقَوْلُ كُلُّهُ مِنْهُمْ^(١٠) جَمِيعًا؛ قَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوا﴾.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: نَعَتْ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: مُحَمَّد. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: كَانَتْ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: فَهُوَ. (٥) أُدْرَجَ فِي الْأَصْلِ وَم بَعْدَهَا: الْآيَةُ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: عِبْدُهُمَا. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: الْفَرِيقَيْنِ. (٨) سَاقَطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) الْوَاوُ سَاقَطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٠) سَاقَطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: مِنْهُمَا.

وقيل: إنهم قالوا ذلك في المنزلة/ ١٢٦ - ب/ والقدر عند الله تعالى؛ أي لهم عند الله من المنزلة والقدر كقدر الولد عند والده ومنزله عنده، ولا يعدبنا. فقال: ﴿قُلْ يَا مُحَمَّدٌ فَلِمَ يَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ إن كان ما تقولون حقاً، ﴿فَلِمَ يَذِّبُكُمْ﴾ حين جعل القرّة والخنازير، ولا أحد من الخلق يحتمل قلبه أن يكون ولده أو صديقه قرذاً أو خنزيراً. وقال: لا أحد يحتمل قلبه تغليب وليه وجبه بذنبه بالنار، وقد أفرزتم أنكم تعدبون في الآخرة قدر ما عبد آباؤكم العجل.

ثم قال: ﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾ أي من اتخذ ولداً وجباً [فإنما يتخذهُ] ^(١) من شكله وجنسه قاله تعالى إنما خلقكم من بشرٍ كغيركم ^(٢) من الخلق، وأنتم ومن في ذلك سواء، فكيف خصصتم أنفسكم بذلك؟ وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧] دليل أن من رفع أحداً من الرسل فوق قدره [فهو] ^(٣) في الكفر كمن حط عن قدره ومرتبته.

وقوله تعالى: ﴿يَتَغَيَّرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أي من تاب، واسلم ﴿وَيَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ من دام على الكفر، ومات عليه.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي كلهم عبيده وإماؤه وخلقه؛ يعظم نفسه عن قولهم: ﴿عَنَّا ابْنُ اللَّهِ وَاجِبُؤُهُ﴾ ولا أحد يتخذ عبده ولداً ولا جناً، فأنتم إذ أفرزتم أنكم عبيده كيف ادعيت البتة والمحبة؟ والله أعلم. وفي الآية دلالة رسالة نبينا محمد ﷺ لأنهم قالوا قولاً في ما بينهم، ثم أخبرهم رسول الله ﷺ بذلك ليعلم أنه إنما عرف ذلك بالله.

الآية ١٩

وقوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ مَذِّبَةً لَكُمْ رَسُولًا بَيْنَ لَكُمْ﴾ يحتمل قوله تعالى: ﴿بَيْنَ لَكُمْ﴾ ما كنتم تكتمون من بغيه ^(٤) وصفته، وتحرّفون كقولك تعالى: ﴿بَيْنَ لَكُمْ كَذِبًا مِمَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [المائدة: ١٥] ويحتمل: ﴿بَيْنَ لَكُمْ﴾ مما لكم وعليكم من الأحكام والشرائع. ويحتمل: ﴿بَيْنَ لَكُمْ﴾ مما كان عليه الأنبياء والرسل.

وقوله تعالى: ﴿عَلَى فِتْرَةِ الرُّسُلِ﴾ قيل: انقطاع من الرسل من لدن إسرائيل إلى عيسى ﷺ لأنه قيل: إنه كان [رسولاً على إثر] ^(٥) رسول، لم يكن بين رسولين انقطاع. فأخبر ﷺ أنه بعث محمداً ﷺ على حين ﴿فِتْرَةِ الرُّسُلِ﴾ ليس على انقطاع منهم، ولكن على ضعف أمور الرسل وآثارهم ^(٦) من الفتور؛ يقال: فتر يفتّر فتوراً. يخبر، والله أعلم، أنما بعث الرسول بعدما درس آثار الرسل، وضعفت ^(٧) ووقع في ما بينهم اختلاف للضعف ليبين لهم ما ذكر ﴿أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ يقطع احتجاجهم بذلك، وإن لم يكن لهم في الحقيقة، وهو كما قال: ﴿إِنَّمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] وكقوله: ﴿أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [الأعراف: ١٦٩] ﴿بَشِيرٍ﴾ بالجنة لمن أطاع ﴿وَنَذِيرٍ﴾ بالنار لمن عصاه [وقوله تعالى] ^(٨): ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يحتمل: ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من بعث الرسل على فترة منهم وإحياء ما درس من آثار الرسل وما ضعف من رؤسهم، والله أعلم.

الآية ٢٠

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقُولُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ الآية، يحتمل قوله: ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ ما ذكر من بعث الرسل والأنبياء ﷺ على فترة منهم. ويحتمل ما ذكر على إثرو، وهو قوله: ﴿إِذْ جَعَلْ فِيكُمْ أَرْبَابًا وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا تَمْيُتُونَ أَسَدًا مِنَ الْمَلَكِينَ﴾ كأنه يقول: اشكروا نعمتي التي أنعمت عليكم من جعل الأنبياء فيكم، ولم يكن ذلك لأمة ^(٩) من الخلق، وجعلكم ملوكاً تستنصرون من الأعداء لأن الملوك في بني إسرائيل هم الذين كانوا يتولون القتال وأمر الحرب مع الأعداء كقوله تعالى: ﴿أَبَتِ لَنَا مَلِكًا نُتَتَلَّ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦] فأخبر أنه جعل فيهم الأنبياء يعلمونهم أمور الدنيا والآخرة، ويحتاج غيرهم إلى معرفة ذلك؛ وإنما يعرفون ذلك بهم، وجعل فيهم ملوكاً يستنصرون من الأعداء، ويقهرونهم، فيقرون، ويشرفون في الدنيا والآخرة.

(١) في الأصل وم: أن يتخذ. (٢) في الأصل وم: كغيره. (٣) ساقطة من الأصل وم: (٤) في الأصل وم: نعت. (٥) في الأصل: رسول على إثر، في م: رسول على. (٦) الواو ساقطة من الأصل وم: (٧) في الأصل وم: وضعف. (٨) ساقطة من الأصل وم: (٩) من م، في الأصل: الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ مِنَ الْمَلَكِ﴾ يختص ما ذكر من الأنبياء والملوك فيهم. ويختص ما رزقهم في التبو من السن والسلوى وغيرهما^(١) من النعم. وقيل في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَكُمْ مِلَّةً﴾ أي جعلكم بحيث تملكون أنفسكم، وكنتم قبل ذلك تستعبدكم فزعون، وتتخذكم حولا لنفسيه، والله أعلم.

الآية ٢١

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُوا ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ قيل: قوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ قِتَالَ أَهْلِ تِلْكَ الْأَرْضِ لِيُسْلِمُوا، وهو كَقَوْلِهِ: ﴿وَقِيلُوا لَهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ [البقرة: ١٩٣] والآنفال: ٣٩ يغني الكفر. فعلى ذلك قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ قِتَالَ أَهْلِهَا لِيُسْلِمُوا، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿لَكُمْ﴾ أي عَلَيْكُمْ، وهذا جائز في اللغة كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَنْ أَسْأَلُكُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧] أي فَعَلَيْهَا. وقيل: قوله: ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ فتحها؛ أي إن أطلعتم أمر الله في ما أمركم به، وانتهيت عما نهاكم عنه، واجبتكم رسوله إلى ما دعاكم إليه؛ أي إذا فعلتم ذلك يفتح الله [لكم]^(٢) تلك الأرض، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي﴾ قيل: الشام، وقيل: غيرها. ثم سماها مرةً مقدسة ومرةً مباركة، وهو كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: ١] بكثرة الثمار والفواكه وسعة عيشها وكثرة ريعها. ويختص أن سماها مباركة لما كانت معين العباد والزهاد منزلة^(٣) عن الشرك وجميع الفواحش والمناكير، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِدُوا عَلَيْهِ آذَانًا﴾ هذا، والله أعلم، كناية عن الرجوع عن الدين وهو كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٤٤] وإنما صار ذلك كناية عن الرجوع عن الدين، والله أعلم، لما ذكرنا في أحد التأويلين أنه كتب عليهم قِتَالَ أَهْلِ تِلْكَ الْأَرْضِ، فتركوا أمر الله وطاعته. ويختص أن وعد الله لهم فتح تلك الأرض، فلم يصدقوا رسوله في ما أخبر عن الله من الفتح لهم، فكفروا بذلك.

وقوله تعالى: ﴿فَنَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾. يختص أن يكون ذلك لهم في الآخرة، ويختص في الدنيا منهزمين.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِدُوا عَلَيْهِ آذَانًا﴾ لا ترجعوا وراءكم، ولكن ادخلوها.

الآية ٢٢

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَمْشُونَ فِيهَا قَوْمًا جَوَارِينَ وَلَئِنْ لَمْ نَدْخُلْهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ يختص أن يكون هذا، والله أعلم، لما رأوا فزعون مع قومي وكثرة جنوده مع ادعاء ما ادعى من الربوبية لنفسيه لم يقدر على فتح تلك الأرض، وعجز عن غلبة أهلها وقهرهم وجعلهم تحت يديهم رأوا هؤلاء أنهم^(٤) لا يقدرون على ذلك مع ضعفهم في أنفسهم وقلة عددهم وقصور أسبابهم؛ لذلك استعوا عن الدخول فيها إلا بعد خروج من فيها من الجوارين عنها خوفاً منهم على أنفسهم. لكن موسى عليه السلام كان وعد لهم الفتح والنصرة مع ضعفهم وقلة عددهم إذا دخلوا فيها.

الآية ٢٣

وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبَّانِي مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابُ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ اختص في الرجلين اللذين قالا ذلك لهم؛ [قال]^(٥) قائلون: كان ذلك الرجلان من أولئك الذين نعتهم موسى، على نبينا وعليه الصلاة والسلام، إلى أهل تلك الأرض وأمرهم بالدخول فيها، وهما ممن قد ﴿أَتَمَّ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ من تصديق ما وعد لهم موسى من الفتح والنصرة، فقالا: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ صدقا^(٦) موسى بما وعد لهم من الفتح، وقال قائلون: كان ذلك الرجلان اللذان قالا ذلك لهم هما/ ١٢٧ - ١/ من أهل تلك الأرض؛ لأنهم إذا سمعوا أن موسى قصد نحوهم خافوا من ذلك. فذلك معنى قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَخَافُونَ أَنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمَا﴾ من الإسلام، فقالا: ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابُ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ لما علموا من خوف أهلها من موسى ومن معه وقهرهم.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي مصدقين بوعد موسى بالفتح لكم والنصر. ويختص ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فإن كل من توكل على الله، ووثق [بوا]^(٧) نصره الله، وجعله غالياً على عدوه، والله أعلم.

(١) في الأصل وم: وغيره. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: منزلة. (٤) في الأصل وم: أنه. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: صدقوا. (٧) ساقطة من الأصل وم.

وقوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ﴾ كَانَ الْمُرَادُ مِنَ الْبَابِ لَيْسَ نَفْسَ الْبَابِ وَلَكِنْ جِهَةً مِنَ الْجِهَاتِ الَّتِي يَكُونُ الدُّخُولُ عَلَيْهِمْ مِنْ تِلْكَ الْجِهَةِ أَوْفَقَ وَاهْوَنَ؛ ثَمَّ قَالَ ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ﴾ جِهَةً كَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٢٤

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَتَّبِعُونَ إِيَّاكَ لَن تَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا﴾ مَنْ تَعَرَّضَ لِرَسُولٍ مِنَ الرُّسُلِ بِمِثْلِ مَا (١) تَعَرَّضَ هَؤُلَاءُ لِمُوسَى ﴿إِنَّا لَن تَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا﴾ يَكْفُرُ لَأَنَّ مُوسَى ﷺ قَدْ وَعَدَ لَهُمُ النَّصْرَ وَالْفَتْحَ إِذَا دَخَلُوهَا، فَقَالُوا ﴿لَن تَدْخُلَهَا أَبَدًا﴾ لَمْ يُصَدِّقُوا مُوسَى ﷺ فِي مَا وَعَدَ لَهُمُ مِنَ الْفَتْحِ. وَمَنْ كَذَبَ رَسُولًا مِنَ الرُّسُلِ بِشَيْءٍ يُخْبِرُ فَهُوَ كَاذِبٌ.

وقوله تعالى: ﴿فَآذَهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا﴾ الْآيَةُ. ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿فَآذَهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا﴾ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْدُّخُولِ فِيهَا أَمْرٌ بِالْقِتَالِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ قِيلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَآذَهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا﴾ مِنْ وَجْهَيْنِ:

[أَحَدُهُمَا] (٢): قِيلَ: آذَهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَ وَخَذَكَ، وَلِيَعْنِكَ (٣) رَبُّكَ وَيَنْصُرَكَ، لِأَنَّكَ تَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ وَعَدَكَ فَتَحَهَا وَالنَّصْرَ عَلَيْهِمْ، فَالْوَاحِدُ وَالْجَمَاعَةُ فِيهَا سَوَاءٌ إِذَا كَانَ (٤) اللَّهُ نَاصِرَكَ وَمُعِينَكَ.

وَالثَّانِي: آذَهَبَ أَنْتَ وَاخْوَاكَ بِرَبِّكَ فَقَاتِلَا لِأَنَّهُمَا كَانَا جَمِيعًا مَأْمُورِينَ بِتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ لِأَنَّهُمَا إِذَا قَاتِلَا إِنَّمَا قَاتِلَا بِرَبِّهِمَا. وَتَجُوزُ الْإِضَافَةُ إِلَيْهِ وَالنِّسْبَةُ إِلَيْهِ لِمَا كَانَ يُفْعَلُ بِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِلَّا مَنَاسِيرَ﴾ اللَّهُ رَمَى [الأنفال: ١٧] هُمُ الْمُبَاشِرُونَ لِلْقَتْلِ وَالرَّمْيِ فِي الْحَقِيقَةِ، لَكِنَّهُ أُضِيفَ إِلَيْهِ بِنَصْرِهِ وَمُعُونَتِهِ قَتَلُوا وَرَمَوْا. فَعَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أُضِيفَ إِلَيْهِ لِمَا بِمُعُونَتِهِ وَنَصْرِهِ يُقَاتِلُونَ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا هُنَا قَائِدُونَ﴾ أَي لَيْسَ يُرِيدُ بِهِ الْقُدُودَ نَفْسَهُ، وَلَكِنْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، إِنَّا هُنَا مُنْتَظَرُونَ.

الآية ٢٥

وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ الْآيَةُ؛ يَحْتَمِلُ ﴿إِنِّي لَا أَمْلِكُ﴾ فِي الْإِجَابَةِ وَالطَّاعَةِ لَكَ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي، وَأَخِي أَيْضًا لِمَا عَرَفْتُ بِالْعِصْمَةِ الَّتِي أُعْطِيتَ لَهُ أَنْ يُجِيبَنِي، وَيُطِيعَنِي فِي ذَلِكَ. وَإِنَّمَا هَؤُلَاءِ قَائِلِي لَا أَمْلِكُ إِجَابَتَهُمْ وَلَا طَاعَتَهُمْ ﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

وَيَحْتَمِلُ (٥) ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي﴾ وَأَخِي أَيْضًا لَا يَمْلِكُ إِلَّا نَفْسَهُ، وَعَلَى الْإِضْمَارِ لِأَنَّهُمَا كَانَا جَمِيعًا رَسُولَيْنِ مَأْمُورَيْنِ بِتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَا﴾ الْآيَةُ [طه: ٤٤].

وقوله تعالى: ﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ قَالَ قَائِلُونَ: إِنَّمَا طَلَبَ مُوسَى ﷺ، الْفُرْقَةَ [بَيْنَهُمَا] (٦) وَبَيْنَ الَّذِينَ أَبَوُا الدُّخُولَ فِيهَا، وَقَالُوا ﴿لَن تَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا﴾ وَقَالَ قَائِلُونَ: إِنَّمَا طَلَبَ مُوسَى ﷺ الْفُرْقَةَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْجَبَابِرَةِ الَّذِينَ كَانُوا فِي الْأَرْضِ الَّتِي أُمِرُوا بِالْدُّخُولِ فِيهَا وَالْقِتَالِ مَعَهُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٢٦

وقوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ الْآيَةُ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ مِنَ الْجِزْمَانِ وَالْمَنْعِ هُوَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، لَيْسَ عَلَى التَّحْرِيمِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ﴾ [القصص: ١٢] لَيْسَ هُوَ مِنَ التَّحْرِيمِ الَّذِي هُوَ تَحْرِيمٌ حُكْمٌ، وَلَكِنْ مِنَ الْمَنْعِ وَالْجِزْمَانِ. فَعَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَالَ قَائِلُونَ ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ أَبَدًا، لَمْ يَدْخُلُوهَا حَتَّى مَاتُوا، لَكِنْ وُلِدَ لَهُمْ أَوْلَادٌ، فَلَمَّا مَاتُوا دَخَلَ أَوْلَادُهُمْ لِأَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿لَن تَدْخُلَهَا أَبَدًا﴾. وَقَالَ قَائِلُونَ: قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ أَي (٧) التَّوْبَةُ مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ؛ لَنْ يَتُوبُوا أَبَدًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً يَدُوهَا فِي الْأَرْضِ﴾ قَالِمُدَّةُ هُنَا لِلْيَتِيمِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، لَا يَقُولُهُ تَعَالَى: ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾.

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: هذا. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وليعنيك. (٤) من م، في الأصل: كانت. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، في الأصل: أو.

ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي النَّبِيِّ: قَالَ قَائِلُونَ: لَمْ يَكُنْ مُوسَى وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ مَعَهُمْ فِي النَّبِيِّ لِأَنَّ ذَلِكَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ كَانَ عُقُوبَةً، وَلَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ تَعَالَى يَعْذِبُ رَسُولَهُ بِذَنْبِ قَوْمِهِ لِأَنَّهُ لَمْ يُعَذِّبْ قَوْمًا^(١) بِتَكْذِيبِ الرَّسُولِ قَطُّ إِلَّا بَعْدَ مَا أَخْرَجَ الرَّسُولَ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ. فَعَلَى ذَلِكَ لَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مُوسَى يُعَذِّبُ بَعْضِيَانِ قَوْمِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَالَ آخَرُونَ: كَانَ مُوسَى مَعَهُمْ فِي^(٢) الْأَرْضِ مُقِيمًا، فِيهَا وَلَكِنَّ الْحَيْرَةَ وَالنَّبِيَّ كَانَتْ لِقَوْمِهِ؛ قِيلَ: كَانُوا يَرْجُلُونَ، ثُمَّ يَنْزِلُونَ مِنْ [حَيْثُ]^(٣) أَصْبَحُوا أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَكَانَ مَاوَاهُمْ [وَالْحَجَرُ]^(٤) الَّذِي كَانَ مَعَ مُوسَى، كَانَ^(٥) إِذَا نَزَلَ ضَرَبَهُ مُوسَى بِعَصَاهُ «فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ نَجْمًا» [البقرة: ٦٠] لِكُلِّ سَبِيطٍ عَيْنٌ، وَلَمْ يَكُنْ حَلٌّ [بِمُوسَى مَا كَانَ حَلٌّ]^(٦) بِقَوْمِهِ قَلِيلٌ وَلَا كَثِيرٌ. إِنَّمَا أَمَرَ بِالْمُقَامِ فِيهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ كَانَ بِهِ حَيْرَةٌ.

الآية ٢٧

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ﴾ وَقَالَ الْحَسَنُ وَغَيْرُهُ: لَمْ يَكُونَا ابْنَي آدَمَ مِنْ صُلْبِهِ، وَلَكِنْ كَانَا رَجُلَيْنِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ «قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ» قُرْبَانُ أَحَدِهِمَا «وَلَمْ يُقْبَلْ مِنَ الْآخَرِ» وَقَدْ^(٧) نَسَبَهُمَا إِلَى آدَمَ لِأَنَّ كُلَّ الْبَشَرِ وَلَدُ آدَمَ يَنْسَبُ إِلَيْهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَبْنِي آدَمَ» [الأعراف: ٢٦]... أَفْعَلُوا كَذَا، وَلَا تَفْعَلُوا كَذَا؛ لَيْسَ يُرِيدُ بِهِ وَلَدُ آدَمَ لِصُلْبِهِ [وَلِكَيْتَهُ يُرِيدُ]^(٨) الْبَشَرُ كُلَّهُ. فَعَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَأَمَّا ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْكَلْبِيُّ وَغَيْرُهُمَا مِنْ أَهْلِ الثَّوَابِلِ فَإِنَّهُمْ قَالُوا: إِنَّهُمَا كَانَا ابْنَي آدَمَ لِصُلْبِهِ؛ أَحَدُهُمَا يُسَمَّى قَابِيلَ وَالْآخَرُ هَابِيلَ، وَكَانَ لِكُلِّ وَاحِدٍ أُخْتُ وَلِدَتْ مَعَهُ فِي بَطْنٍ وَاحِدٍ، وَكَانَتْ إِحْدَاهُمَا جَمِيلَةً وَالْآخَرَى دَسِيمَةً، فَأَرَادَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا نِكَاحَ الْجَمِيلَةِ مِنْهُمَا، فَتَنَازَعَا فِي ذَلِكَ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: تَعَالَى نَقْرُبُ قُرْبَانًا، فَإِنْ تَقَبَّلَ قُرْبَانُكَ فَانْتَ أَحَقُّ بِهَا، وَإِنْ تَقَبَّلَ قُرْبَانِي فَأَنَا أَحَقُّ بِهَا، فَقَرَّبَا قُرْبَانَهُمَا، فَقَبِلَ قُرْبَانُ قَابِيلَ، فَحَسَدَهُ، فَهَمَّ أَنْ يَقْتُلَهُ. فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُقْبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ وَلَكِنْ لَا نَذْرِي كَيْفَ كَانَتْ [الْقِصَّةُ]^(٩)؟ وَفِيمَ كَانَتْ؟ وَكَانَا ابْنَي آدَمَ لِصُلْبِهِ أَوْ لَمْ يَكُونَا؟ وَلَيْسَ لَنَا إِلَى مَعْرِفَةِ هَذَا حَاجَةٌ إِنَّمَا حَاجَةٌ فِي هَذَا إِلَى مَعْرِفَةِ مَا فِيهِ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْعِلْمِ لِنَعْلَمَ ذَلِكَ، وَنَعْمَلَ بِهِ. فَهَوُا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، مَا ذَكَرَ فِي مَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَتَأْخَذُ الْكِتَابَ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ» [المائدة: ١٥] وَقَوْلِهِ^(١٠): ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى قَمَرٍ مِنَ الرُّسُلِ» [المائدة: ١٩] لِنَعْلَمُوا أَنَّهُ إِنَّمَا عَلِمَ ذَلِكَ بِاللَّهِ لَا بِأَحَدٍ مِنَ الْبَشَرِ لِأَنَّهُ إِنَّمَا بَعِثَ عِنْدَ دُرُوسِ آثَارِ الرُّسُلِ وَانْقِطَاعِ الْعُلُومِ، فَيَبَيِّنُ لَكُمْ^(١١) وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ.

فَبِهِ دَلِيلُ إِبْنَاتِ رَسُولَةِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ وَسُورَةُ الْمَائِدَةِ كَانَتْ أَكْثَرَهَا نَزَلَ^(١٢) فِي مُحَاطَبَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ لِأَنَّهُ يَقُولُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ: ﴿يَتَأْخَذُ الْكِتَابَ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ» [الآية: ١٥] ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى قَمَرٍ مِنَ الرُّسُلِ»^(١٣) [الآية: ١٩] يَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِالرُّسُلِ. وَنَزَلَتْ^(١٤) سُورَةُ الْأَنْعَامِ فِي مُحَاطَبَةِ أَهْلِ الشِّرْكِ لِأَنَّ فِيهَا دُعَاءَ إِلَى التَّوْحِيدِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ: يَحْتَمِلُ «بِالْحَقِّ» الْمَعْلُومِ الْمَعْرُوفِ عَلَى مَا كَانُوا لِنَعْلَمُوا أَنَّهُ بِاللَّهِ عَلِيمٌ، وَأَنَّهُ عَلِمَ سَمَائِيًّا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ هَذَا يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ: يَحْتَمِلُ: «إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ» قُرْبَانًا مِنْ أَتَقَى، لَا يَتَقَبَّلُ مَنْ لَمْ يَتَّقِ. وَإِلَى هَذَا يَذْهَبُ الْحَسَنُ، وَيَقُولُ^(١٥): كَانَا رَجُلَيْنِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ أَحَدُهُمَا مُؤْمِنٌ وَالْآخَرُ مُنَافِقٌ، فَتَنَازَعَا فِي شَيْءٍ، فَقَرَّبَا لِنَعْلَمَ الْمَحِقُّ مِنْهُمَا، فَتَقَبَّلَ مِنَ الْمُؤْمِنِ/ ١٢٧ - ب/ وَلَمْ يُقْبَلْ مِنَ الْآخَرِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: قَوْم. (٢) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: تِلْكَ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: فِي الْحَجَر. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: فَكَانَ. (٦) فِي الْأَصْلِ: حَلَّ بِمُوسَى بِمَا كَانَ حَلٌّ، سَاقِطَةٌ مِنْ م. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: وَإِنْ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَلَكِنْ. (٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: لَهُمْ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: نَزَلَتْ. (١٣) أُدْرِجَ قَبْلَ الْآيَةِ فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (١٤) فِي الْأَصْلِ وَم: نَزَلَ. (١٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ.

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الْأَصَمُ: كُنَّا رَجُلَيْنِ مُصَدِّقَيْنِ لَأَنَّ الْكَافِرَ لَا يَقْرُبُ الْقُرْبَانَ، لَكِنْ أَحَدُهُمَا كَانَ أَتَقَى قَلْبًا، فَتَقَبَّلَ قُرْبَانَهُ، وَالتَّقْوَى شَرْطٌ فِي قَبُولِ الْقَرَابِينَ وَغَيْرِهَا مِنَ الْقُرْبِ، كَقَوْلِهِ ﷺ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ وَالْكَافِرُ لَا يَقْرُبُ الْقُرْبَانَ. يُقَالُ: قَدْ تَقَرَّبَ لِمَا يَدْعِي مِنَ الدِّينِ أَنْ الَّذِي هُوَ حَقٌّ عَلَيْهِ، لِيُظْهَرَ الْمُحَقُّ مِنْهُمْ. أَلَا تَرَى أَنَّهُمْ يَدْعُونَ أَنْ فِيهِمْ مَنْ هُوَ أَحَقُّ بِالرِّسَالَةِ مِنْ مُحَمَّدٍ ﷺ يَقُولُهُمْ: ﴿لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرَيْنَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَبَاطِيلِ قَالُوها؟ وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

الآية ٢٨

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَمَّا بَسَطَ إِلَهُ يَدَهُ لِيَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ قَالَ بَعْضُ النَّاسِ: إِنَّ الْوَاجِبَ عَلَيْنَا أَنْ نَفْعَلَ مِثْلَ فِعْلِ أَوْلَيْكَ، لَا يَتَّبِعِي لِمَنْ أَرَادَ أَحَدُ قَتْلَهُ أَنْ يَقْتُلَهُ، وَلَكِنْ يَمْتَنِعُ^(١) عَنْ ذَلِكَ عَلَى مَا امْتَنَعَ أَحَدُ ابْنِي آدَمَ حِينَ^(٢) قَالَ لَهُ: لَا أَقْتُلُكَ فَقَالَ لَهُ الْآخَرُ: ﴿مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ وَاسْتَخْجُوا فِي ذَلِكَ بِأَخْبَارِ رُوَيْثَ: رُوِيَ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ [أَنَّهُ قَالَ]^(٣): كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا تَوَجَّهَ الْمُسْلِمَانِ بِسِنِّيهِمَا، فَقَتَلَ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ، فَهُمَا فِي النَّارِ، قَبِيلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: [هَذَا الْقَاتِلُ، فَمَا بَالُ]^(٤) الْمَقْتُولِ؟ فَقَالَ: إِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَقْتُلَ صَاحِبَهُ، [ابن ماجه: ٣٩٦٤].

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ [أَنَّهُ]^(٥) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ اسْتَظَنَّتْ أَنْ تَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ، وَلَا تَقْتُلَ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْفِتْلَةِ فَافْعَلْ» [أحمد ٥/٢٩٢].

وَعَنِ الْحَسَنِ ﷺ [أَنَّهُ]^(٦) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ ابْنِي آدَمَ ضَرَبَا لِهَذِهِ الْأُمَّةَ مَثَلًا فَخُذُوا بِالْخَيْرِ مِنْهُمَا» [ابن جرير الطبري في تفسيره ٦/١٩٩].

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ [أَنَّهُ]^(٧) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَيْفَ تَضَعُ يَا أَبَا ذَرٍّ إِذَا كَانَ بِالْمَدِينَةِ قَتْلٌ بِغَيْرِ حِجَارَةٍ؟ قَالَ: قُلْتُ: أَلَيْسَ سِلَاحِي، قَالَ: شَارَكْتَ الْقَوْمَ إِذَنْ، قَالَ: قُلْتُ: كَيْفَ أَضَعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: إِنْ خَشِيتَ أَنْ يَنْهَكَ شِعَاعُ السَّيْفِ فَأَلْقِ نَاحِيَةَ ثَوْبِكَ عَلَى وَجْهِكَ حَتَّى يَبُوءَ بِإِثْمِكَ وَإِنِّي بِهِ» [أبو داود: ٤٢٦١]. يَخْتَجُّونَ بِمِثْلِ هَذِهِ الْأَخْبَارِ.

وَقَالَ آخَرُونَ: لَهُ أَنْ يَقَاتِلَ إِذَا لَمْ يَتَّعِظْ صَاحِبُهُ بِاللَّهِ، وَأَرَادَ قَتْلَهُ، فَهُوَ فِي سَعَةِ مِنْ قَتْلِ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يَنْتَدِيَهُ بِالْقَتْلِ اسْتِذْلَالًا بِمَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِقِتَالِ أَهْلِ الْبَغْيِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَقَاتِلَا أَلَيْ تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الحجرات: ٩] فَصَارَ الْحُكْمُ فِي أَمْرِنَا مَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ بِهِ مِنْ قِتَالِ الْبَغَاةِ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا بَيْنَكُمْ سَبْعَةً وَنَهَابَكُمْ﴾ [المائدة: ٤٨]. عَلَى أَنَّ قِتَالَ الْمُشْرِكِينَ كَانَ مَحْظُورًا فِي أَوَّلِ مَبْعَثِ النَّبِيِّ ﷺ وَقَبْلَ ذَلِكَ بِأَوْقَاتٍ. وَقَالُوا: فَغَيْرُ مُنْكَرٍ أَنْ يَكُونَ الْوَقْتُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ كَانَ قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ، وَتَجْرِيدُ السَّيْفِ فِيهِ مَحْظُورًا، فَإِذَا كَانَ اللَّهُ فِي قِتَالِهِمْ وَقِتَالِ أَهْلِ الْبَغْيِ، فَصَارَ الْحُكْمُ فِي أَمْرِنَا مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ مِنْ قِتَالِ الْبَغَاةِ وَالْمُشْرِكِينَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَأَمَّا مَا اخْتَجُّوا بِهِ مِنَ الْأَخْبَارِ الَّتِي رُوِيَتْ مِنْ اقْتِتَالِ الْمُسْلِمِينَ وَأَشْبَاهِهَا فَإِنَّ ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، مَا اخْتَجُّوا بِهِ مِنَ الْأَخْبَارِ الَّتِي رُوِيَتْ فِي حَالِ الْفِتَنِ وَقِتَالِ الْفِتْنَتَيْنِ اللَّتَيْنِ لَا إِمَامَ فِيهِمَا يَسْتَحِقُّ الْإِمَامَةَ لِحِمِّيَّةٍ أَوْ أَمْرِ جَاهِلِيَّةٍ أَوْ عَصِيَّةٍ، فَهُمَا عَلَى خَطِّهِ. فَالضَّرْبُ فِي مِثْلِهِ مَا ذُكِرَ مِنَ الْأَخْبَارِ.

وَأَمَّا إِذَا كَانَ لِلنَّاسِ إِمَامٌ هُدًى، فَعَقَدُوا^(٨) لَهُ الْبَيْعَةَ، فَخَرَجَتْ عَلَيْهِ خَارِجَةٌ ظَالِمَةٌ، فَقَاتَلَهُمْ وَاجِبٌ اتِّبَاعًا لَعَلِّي ﷺ وَمَنْ خَارَبَ مَعَهُ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَهْلَ الْبَغْيِ وَالْخَوَارِجِ، فَهُوَ كَانَ لِاجْتِمَاعِ لَأَنَّ جَمِيعَ الطَّوَائِفِ قَدْ خَارَبُوهُمْ. وَرُوِيَتْ فِي ذَلِكَ آثَارٌ كَثِيرَةٌ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى هَذَا يَذْهَبُ مَنْ رَأَى قَتْلَ مَنْ يَهُمُّ بِهِ قِتْلَهُ.

الآية ٢٩

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ أَنْ تَرْجِعَ^(٩) بِقَتْلِكَ لِإِيَّايَ ﴿وَإِثْمِكَ﴾ الَّذِي عَمِلْتَهُ قَبْلَ قَتْلِي [إِيَّاكَ]^(١٠).

قَالَ الْقَتْبِيُّ: ﴿إِيَّايَ﴾ أَنْ تَقْتُلَنِي ﴿وَإِثْمِكَ﴾ مَا أَضْمَرْتُ فِي نَفْسِكَ مِنَ الْحَسَدِ وَالْعَدَاوَةِ. وَقَالَ الْحَسَنُ: تَرْجِعُ ﴿إِيَّايَ﴾

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: يَمْنَعُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: أَرَأَيْتَ. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: فَقَدْ عَقَدُوا. (٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

بِقَتْلِكَ إِنِّي **﴿وَإِنَّكَ﴾** يَغْنِي الْكُفْرَ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ، لَأَنَّهُ يَقُولُ: كَانَ أَحَدُهُمَا كَافِرًا، فَقَتَلَ صَاحِبَهُ، فَيَرْجِعُ بِالْكَفْرِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: **﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَبْنِيءَ بِنَاتِي وَإِنَّكَ﴾** يَجُوزُ أَنْ يُتَكَلَّمَ بِالْإِرَادَةِ عَلَى غَيْرِ تَحْقِيقِ الْفِعْلِ كَقَوْلِ الْقَائِلِ: أُرِيدُ أَنْ اسْقَطَ مِنَ السُّطْحِ، وَهُوَ لَا يُرِيدُ سُقُوطَهُ مِنْهُ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: **﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾** [الكهف: ٧٧] وَالْجِدَارُ لَا فِعْلَ لَهُ. فَإِذَا جَارَتْ إِضَافَةُ الْإِرَادَةِ إِلَى مَنْ لَا فِعْلَ لَهُ، يَكُونُ مِنْهُ، ذَلِكَ أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى حَقِيقَةِ الْفِعْلِ، وَلَكِنْ عَلَى مَا يَقَعُ أَنَّهُ يَكُونُ كَذَلِكَ، وَيُؤَوَّلُ أَمْرُهُ إِلَى ذَلِكَ، أَوْ أَرَادَ أَنْ يَبْنِيءَ بِنَاتِيهِ لِمَا عَلِمَ مِنْهُ أَنْ يَقْتُلَهُ، لَا مَحَالَةَ، وَيَعْصِي رَبَّهُ، أَرَادَ أَنْ يَبْنِيءَ بِنَاتِيهِ. وَذَلِكَ جَائِزٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٣٠

وقوله تعالى: **﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾** قَالَ الْقُشَيْبِيُّ: أَيِ شَاحِنَتُهُ، وَانْقَادَتْ لَهُ. وَقَالَ أَبُو عَوَسَجَةَ: **﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ﴾** أَيِ أَمَرَتْ، وَزَيَّنَتْ لَهُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: أَيِ شَجَعَتْهُ، وَأَعَانَتْهُ، وَكُلُّهُ يَرْجِعُ إِلَى وَاحِدٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: **﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْقَاسِيَةِ﴾** كَقَوْلِهِ ^(١) فِي آيَةِ أُخْرَى: **﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِيَةِ﴾** [المائدة: ٣١] يَخْتَمِلُ وَجْهَيْنِ: يَخْتَمِلُ أَصْبَحَ ثَانِيًا لِأَنَّ التَّدَامَةَ تَوْبَةً، وَذَلِكَ أَنَّ مَنْ أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَتَدِمَ عَلَيْهِ، كَانَ ذَلِكَ مِنْهُ تَوْبَةً. فَإِنْ لَمْ يَكُنْ تَوْبَةً فَتَأَوَّلُ قَوْلِهِ: **﴿فَأَصْبَحَ﴾** أَيِ بَضِيحٍ فِي الْآخِرَةِ **﴿مِنَ النَّادِيَةِ﴾**، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: **﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾** [المائدة: ١١٦] أَيِ يَقُولُ فِي الْآخِرَةِ، لَا أَنْ قَالَ لَهُ. فَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: **﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِيَةِ﴾** فِي الْآخِرَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَيُضِيحُ مِنَ الْخَاسِرِينَ.

الآية ٣١

وقوله تعالى: **﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوْءَ أَخِيهِ﴾** اسْتَدَلَّ مَنْ قَالَ: بِأَنَّ الْقِصَّةَ كَانَتْ فِي ابْنِ آدَمَ لِصُلْبِهِ بِقَوْلِهِ ^(٢) تَعَالَى: **﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوْءَ أَخِيهِ﴾** لِأَنَّ الْقِصَّةَ لَوْ كَانَتْ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يَكُنْ لِيَجْهَلَ دَفْنَ الْمَيِّتِ، إِذْ قَدْ رَأَى ذَلِكَ غَيْرَ مَرَّةٍ، وَعَايَنَهُ، فَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ فِي أَوَّلِ مَيِّتٍ جُعِلَتْ ^(٣) السُّنَّةُ فِيهِ.

وَقَالَ مَنْ قَالَ: إِنَّهُمَا كَانَا رَجُلَيْنِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ إِذْ قَدْ يَجُوزُ أَنْ يَخْفَى عَلَى الْمَرْءِ شَيْءٌ عَلِمَهُ قَبْلَ ذَلِكَ، وَعَايَنَهُ، إِذَا اشْتَدَّ بِهِ الْخَوْفُ، وَنَزَلَ بِهِ الْهَوْلُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: **﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾** [الآية: ١٠٩] وَقَدْ كَانَ لَهُمْ عِلْمٌ بِذَلِكَ، لَكِنْ دَعَبَ عَنْهُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي مَا أَخْبَرَ عَنْ بَحْثِ الثَّرَابِ فِي الْأَرْضِ؛ قَالَ الْحَسَنُ رضي الله عنه يَبْحَثُ الثَّرَابَ عَلَى ذَلِكَ الْمَيِّتِ لِيُرِيَ ذَلِكَ الْقَائِلَ، لَا أَنَّهُ كَانَ يَبْحَثُ الثَّرَابَ عَلَى غُرَابٍ آخَرَ عَلَى مَا ذَكَرْنَا فِي الْقِصَّةِ أَنَّ غُرَابًا قَتَلَ آخَرَ، ثُمَّ جَعَلَ يَبْحَثُ الثَّرَابَ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ ذَكَرَ السَّوَاءَ، وَلَيْسَ لِلْغُرَابِ سَوَاءٌ، وَالسَّوَاءُ الْعَوْرَةُ، لِكَيْتَهُ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوَاءَ أَخِيهِ ^(٤) [لَمْ يَذْكُرِ السَّوَاءَ فِي الْغُرَابِ، إِنَّمَا ذَكَرَهَا فِي أَخِيهِ، وَاخْبَرَ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ [يُرِيَهُ] ^(٥) كَيْفَ يُورِي سَوَاءَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: **﴿قَالَ يَتْلِفَنَّ أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِنْ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِي سَوْءَ أَخِي﴾** ^(٦) **﴿أَعْجَزْتُ﴾** فِي الْجِبَلَةِ **﴿أَنْ أَكُونَ مِنْ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِي سَوْءَ أَخِي﴾** ؟

الآية ٣٢

وقوله تعالى: **﴿وَمِنْ آيَاتِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُمْ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلُوا النَّفْسَ جَمِيعًا﴾** الْآيَةُ، يَخْتَمِلُ وَجُوهًا: يَخْتَمِلُ: أَنْ ^(٧) مَنْ اسْتَحْلَ قَتَلَ نَفْسَ حَرَمٍ اللَّهُ قَتَلَهَا بِغَيْرِ حَقٍّ فَكَأَنَّمَا اسْتَحْلَ قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا لِأَنَّهُ بِاسْتِحْلَالِ قَتْلِ نَفْسٍ مُحَرَّمٍ قَتَلَهَا، فَكَانَ كَاسْتِحْلَالِ قَتْلِ النَّاسِ جَمِيعًا لِأَنَّ [مَنْ يَكْفُرُ بِآيَةٍ] ^(٨) مِنْ كِتَابِ اللَّهِ يَصِيرُ كَافِرًا بِالْكَلِّ. فَعَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلِ: إِذَا اسْتَحْلَ قَتَلَ نَفْسٍ مُحَرَّمَةٍ يَصِيرُ كَأَنَّهُ اسْتَحْلَ قَتَلَ الْإِنْسَانِ كُلِّهَا.

وَيَخْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا فِي أَوَّلِ قَتِيلٍ قُتِلَ لَمْ يَكُنْ [قُتِلَ] ^(٩) قَبْلَ ذَلِكَ أَحَدٌ فَلَمَّا قَتَلَ هَذَا قَتِيلًا جَعَلَ النَّاسَ يَقْتُلُونَ بَعْدَ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: يَقُولُ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: جَعَلَ. (٤) فِي م: أَخِي. (٥) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من م. (٧) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: أَيِ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: يَكْفُرُ بِآيَاتِهِ. (٩) ساقطة من الأصل وَم.

ذَلِكَ / ١٢٨ - / بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَكَانَ ذَلِكَ وَاحِدًا. وَكَانَ مِنْهُ سُنَّةٌ اسْتَشَرَّ النَّاسُ بِهَا. فَهُوَ كَمَا رُوِيَ فِي الْخَبَرِ أَنَّ مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَبِيحَةً فَلَهُ وَزَرُهَا وَوَزُرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ وَزَرِهِمْ شَيْئًا، لَيْشْتَرِكَ هَذَا الْقَائِلُ فِي وَزْرِ قَتْلِ كُلِّ قَتِيلٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ بِغَيْرِ حَقٍّ، [أحمد ٤ : ٣٦١]. وَتَحْتَمِلُ الْآيَةُ وَجْهًا آخَرَ؛ وَهُوَ مَا قِيلَ: إِنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِ مِنَ الْقَتْلِ بِمِثْلِ مَا أَنَّهُ لَوْ قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا.

[وقوله تعالى] ^(١): «وَمَنْ أَحْيَاهَا» أَعْطَاهُ [الله] ^(٢) مِنَ الْآخِرِ بِمِثْلِ مَا لَوْ أَنَّهُ أَحْيَى النَّاسَ جَمِيعًا إِذَا أَحْيَاهَا فَلَمْ يَقْتُلْهَا، وَغَفَا عَنْهَا.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه [أنه] ^(٣) قَالَ: «مِنْ أَجْلِ» [أحيد] ^(٤) ابْنِي آدَمَ حِينَ قَتَلَ أَخَاهُ «كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُمْ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ» بِلا نَفْسٍ وَجَبَ عَلَيْهَا الْقِصَاصُ «أَوْ فَسَادًا فِي الْأَرْضِ» يَقُولُ: الشُّرْكُ فِي الْأَرْضِ «فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا» يَقُولُ: يُعَذَّبُ عَلَيْهَا كَمَا لَوْ أَنَّهُ لَوْ قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا بِهَا ^(٥)، وَهُوَ بِمِثْلِ الْأَوَّلِ.

وَعَنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ [أنه قرأ] ^(٦): «مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ» الْآيَةَ، وَقَالَ ^(٧): لَوْ لَمْ يَكُنْ يُؤْخَذُ فِي بَنِي إِسْرَءِيلَ أَرْضٌ إِنَّمَا كَانَ قِصَاصًا بِقِصَاصٍ، يَقُولُ: «مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادًا فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا» أَيِ مَنْ اسْتَنْقَذَ [نَفْسًا] ^(٨) مِنْ مَهْلَكَةٍ فَكَأَنَّمَا اسْتَنْقَذَ النَّاسَ جَمِيعًا فِي الْآخِرَةِ. وَيَقِيلُ: «وَمَنْ أَحْيَاهَا» بِالْعَفْوِ أَجَرَ فِي إِحْيَائِهَا كَمَا يُؤْجَرُ مَنْ أَحْيَى النَّاسَ جَمِيعًا؛ إِذْ عَلَى النَّاسِ مَعُونَةٌ ذَلِكَ. فَلِذَا غَفَا عَنْهَا فَكَأَنَّمَا غَفَا [عَنِ] ^(٩) النَّاسِ جَمِيعًا.

قَالَ الْحَسَنُ: «وَمَنْ أَحْيَاهَا» فِي الْآخِرِ، أَمَا وَاللَّهِ مَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُحْيِيَهَا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا؟ وَلَكِنَّهُ أُيِّدَ قَعْفًا. وَوَجْهٌ آخَرٌ: أَنَّهُ يُلْزَمُ النَّاسَ جَمِيعًا دَفْعَ ذَلِكَ عَنْ نَفْسِهِ وَمَعُونَتُهُ لَهُ. فَإِذَا قَتَلَهَا بِهَا ^(١٠) أَوْ سَعَى عَلَيْهَا بِالْفَسَادِ فَكَأَنَّمَا سَعَى بِذَلِكَ عَلَى النَّاسِ كَافَّةً. فَعَلَى ذَلِكَ مَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَى النَّاسَ جَمِيعًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: «وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِئُونَ» فِي الْآيَةِ قَوْلُهُ تَعْبِيرُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى تَكْذِيبِ الْكُفْرَةِ الْفَجْرَةِ إِثَاءً، وَأَنَّهُ لَيْسَ بِأَوَّلٍ مُكَذَّبٍ فِي الْحَقِّ، بَلْ كَانَتْ الرُّسُلُ مِنْ قَبْلُ يُكْذَّبُونَ فِي مَا يَأْتُونَ مِنَ الْآيَاتِ وَالْحُجُجِ وَالْبَيِّنَاتِ.

الآية ٣٣

وقوله تعالى: «إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا» الْآيَةَ، قَالَ بَعْضُهُمْ: الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الْكُفْرِ وَبَيَانَ الْحُكْمِ فِيهِمْ، وَهُوَ قَوْلُ الْحَسَنِ وَأَبِي بَكْرٍ الْأَصَمِّ، وَقَالَا: لِأَنَّ اللَّهَ ﷻ ذَكَرَ مُحَارَبَةَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَذَكَرَ السَّعْيَ فِي الْأَرْضِ بِالْفَسَادِ. وَكُلُّ كَافِرٍ قَدْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَذَكَرَ السَّعْيَ فِي الْأَرْضِ بِالْفَسَادِ، فَلِإِمَامٍ أَنْ يَقْتُلَهُمْ بِأَيِّ أَنْوَاعِ الْقَتْلِ شَاءَ مَا دَامَ الْحَرْبُ فِي مَا يَنْتَهُمُ قَائِمًا. فَإِذَا أُنْخَرُوا فِي الْأَرْضِ بِتَرْكِ ذَلِكَ يَمُرُّ عَلَيْهِمْ إِنْ شَاءَ. وَأَمَّا الْمُسْلِمُ إِذَا قَطَعَ الطَّرِيقَ، فَإِنَّهُ لَا يَقَالُ: إِنَّهُ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ. فَذَلِكَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الْكُفْرِ لِلْكُفْرِ لَا لِقَطْعِ الطَّرِيقِ.

وَقَالَ آخَرُونَ: نَزَلَتْ فِي الْمُشْرِكِينَ إِذَا قَطَعُوا الطَّرِيقَ عَلَى النَّاسِ، وَأَخَافُوهُمْ رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه [أنه] ^(١١) قَالَ: وَادَّعَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَبَا بُرْدَةَ هِلَالَ بْنَ عُوَيْمِرٍ الْأَسْلَمِيَّ فَجَاءَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ يُرِيدُونَ الْإِسْلَامَ، فَقَطَعَ الطَّرِيقَ عَلَيْهِمْ، فَتَزَلَّ جَبْرِيلُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْحَدِّ فِيهِمْ: أَنْ مَنْ قَتَلَ، وَلَمْ يَأْخُذْ الْمَالَ، قُتِلَ، وَمَنْ أَخَذَ الْمَالَ، وَلَمْ يَقْتُلْ، قُطِعَتْ يَدُهُ وَرِجْلُهُ مِنْ خِلَافٍ، وَمَنْ جَاءَ مُسْلِمًا هَذَا ^(١٢) بِالْإِسْلَامِ مَا كَانَ فِي الشُّرْكِ [القرطبي ٣ / ٢٦٦] فَذَلِكَ حَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه عَلَى أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الْمُوَاجِعِينَ غَيْرِ الْمُحَارِبِينَ.

وروي عن أنس [أنه] ^(١٣) قَالَ: «إِنْ أَنَسَا» ^(١٤) مِنْ عُكْلٍ أَوْ عُزْبَةٍ أَتَوْا النَّبِيَّ ﷺ فَشَكُّوا إِلَيْهِ الْجَهْدَ، فَبَعَثَ مَعَهُمْ بِلِقَاحِ وَرَاحٍ، وَقَالَ لَهُمْ: اشْرَبُوا أَلْبَانَهَا، وَتَدَاوَرُوا بِأَبْوَالِهَا، فَلَمَّا أَنْ صَحُّوا [مَقْتُلُوا] ^(١٥) رَاعِيَ النَّبِيِّ ﷺ وَاشْتَاوُوا الْإِبِلَ، وَارْتَدَّوْا

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: لهم. (٦) في الأصل وم: وقرا. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: لها. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في م: عدم. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: أناس. (١٥) ساقطة من الأصل وم.

عَنِ الْإِسْلَامِ، فَبَعَثَ فِي آثَارِهِمْ، فَأَتَى بِهِمْ بَعْدَ مَا تَرَجَّلَ بِهِمُ النَّهَارُ، فَأَمَرَ بِهِمْ، فَقُطِعَتْ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ، وَسُمِّلَتْ^(١) أَعْيُنُهُمْ، وَقُطِعَتْ^(٢) أَلْسِنَتُهُمْ، وَتُرِكُوا بِالْمَكَانِ حَتَّى مَاتُوا، فَتُرِلَتْ^(٣) الْآيَةُ. [البخاري: ٢٣٣].

وَرُوي عَنْ عَلِيٍّ عليه السلام مَا يُخَالِفُ هَذَا: رُوي أَنَّ حَارِثَةَ بْنَ بَدْرٍ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَسَعَى فِي الْأَرْضِ فَسَادًا، وَتَابَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقَدَّرَ عَلَيْهِ، فَكَتَبَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ إِلَى عَامِلِهِ بِالْبَصْرَةِ أَنَّ حَارِثَةَ [بَنَ بَدْرًا]^(٤) قَدْ تَابَ قَبْلَ أَنْ يُقَدَّرَ عَلَيْهِ، فَلَا تَتَعَرَّضْ لَهُ إِلَّا بِالْخَيْرِ.

الْأَثَرُ أَنَّ حَارِثَةَ [بَنَ بَدْرًا]^(٥) قَدْ تَابَ، أُطْلِقَ فِيهِ أَنَّهُ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ عليه السلام وَكَانَ مُؤْمِنًا؟ فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْحُكْمَ الَّذِي أُجْرِيَ عَلَى قُطَاعِ الطَّرِيقِ الْكَفَرَةِ يَجْرِي ذَلِكَ الْحُكْمُ فِي الْمُسْلِمِينَ إِذَا كَانَ مِنْهُمْ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مَعَ قُطْعِ الطَّرِيقِ عَلَى النَّاسِ وَإِخْفَائِهِ عَلَيْهِمْ. وَقَدْ يُتَوَهَّمُ أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الْحَرْبِ، وَقَدْ أُبِيحَ لَنَا قَتْلُ مَنْ ظَفِرْنَا بِهِ مِنْهُمْ كَيْفَ شِئْنَا، وَإِنْ لَمْ يُعِيدُوا فِي الْأَرْضِ، وَلَمْ يَقْطَعُوا الطَّرِيقَ.

وهذا يَدُلُّ [على]^(٦) أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ بِالْحُكْمِ فِي أَهْلِ الْكَفَرَةِ وَأَهْلِ الْإِسْلَامِ جَمِيعًا إِذَا سَعَوْا فِي الْأَرْضِ بِالْفَسَادِ. وَمِنْ الدَّلِيلِ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدُرُوا عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ٣٤] وَاجْتَمَعُوا أَنَّ الْكَافِرَ إِذَا قُتِلَ مُسْلِمًا، وَظَهَرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ، فَقَدَرْنَا عَلَيْهِ، وَأَسْرَنَاهُ، ثُمَّ أَسْلَمَ، أَنَّهُ يَزُولُ عَنْهُ الْقَتْلُ وَالْقَطْعُ وَالصُّلْبُ. فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ بِالْحُكْمِ فِي الْمُسْلِمِينَ لِأَنَّهُ يَخْتَلِفُ حُكْمُهُ إِذَا تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقَدَّرَ عَلَيْهِمْ، أَوْ بَعْدَ قَدَرْنَا عَلَيْهِمْ.

فَأَمَّا الَّذِينَ رَوَوْا^(٧) عَنِ النَّبِيِّ عليه السلام مِنْ فِعْلِ بِالْعَرَبِيِّينَ مِنْ نَحْوِ ابْنِ سَبْرِينَ وَغَيْرِهِ فَالْوَجِبُ عَلَى مَنْ ادَّعَى أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الْعَرَبِيِّينَ دَعْوَاهُ. وَكَانَ أَصْحَابُنَا، رَحِمَهُمُ اللَّهُ، يَذْهَبُونَ إِلَى مَا رُويَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عليه السلام وَيَزَوْنَ أَنْ يُؤْخَذَ الْمُحَارِبُ إِذَا تَابَ قَبْلَ أَنْ يُقَدَّرَ عَلَيْهِ بِمَا أَصَابَ مِنْ دَمٍ وَمَالٍ عَلَى سَبِيلِ الْقِصَاصِ، وَلَا يُصْلَبُ، وَلَا تُقَطَّعُ يَدُهُ وَرِجْلُهُ فِي مَا أَصَابَ مِنْ مَالٍ. فَكَانَتْهُمْ دَعْوَاهُ إِلَى أَنْ يُزَالَ الْحَدُّ الَّذِي لهُ عَلَى الْمُحَارِبِ بِتَوْبَتِهِ قَبْلَ أَنْ يُقَدَّرَ عَلَيْهِ، وَهُوَ مَا كَانَ إِلَى الْإِمَامِ إِقَامَتُهُ، وَلَا أَمْرٌ لِلْوَلِيِّ فِيهِ.

وَأَمَّا الْحُقُوقُ الَّتِي هِيَ لِلْعِبَادِ فَإِنَّ التَّوْبَةَ لَا تَعْمَلُ فِي إِبْطَالِهَا، وَلِكُلِّ ذِي حَقٍّ أَنْ يَأْخُذَ بِحَقِّهِ؛ لَا حَقٍّ لِلْإِمَامِ لِأَنَّ الْحَقَّ صَارَ لِلْوَلِيِّ دُونَ الْإِمَامِ.

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدُرُوا عَلَيْهِمْ﴾ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ السَّارِقَ إِذَا رَدَّ السَّرِقَةَ قَبْلَ أَنْ يُقَدَّرَ عَلَيْهِ أَنْ لَا تُقَطَّعَ عَلَيْهِ. وَكَذَلِكَ رَوَى بَعْضُ الْمُتَقَدِّمِينَ أَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَى تَائِبٍ قَطْعٌ. وَدَلَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ عَلَى أَنَّ السَّارِقَ فِي الْمِضَرِّ لَيْلًا وَنَهَارًا لَا يَكُونُ مُحَارِبًا، وَأَمَّا مَنْ سَارَقَ تُقَطَّعُ يَدُهُ دُونَ رَجُلِهِ لِأَنَّهُ ذَكَرَ السَّعْيَ فِي الْأَرْضِ بِالْفَسَادِ، وَالسَّارِقَ فِي الْمِضَرِّ لَا يُقَالُ: سَعَى فِي الْأَرْضِ. أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنْتَهَكُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [النساء: ١٠١] لَمْ يُرِدِ الضَّرْبَ فِي الْمِضَرِّ، وَلَكِنْ أَرَادَ الْأَسْفَارَ. فَعَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلِ.

وَأَمَّا الْكَلَامُ فِي الْقَتْلِ وَالصُّلْبِ وَالْقَطْعِ فَرُويَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عليه السلام [أَنَّهُ]^(٨) قَالَ: إِذَا حَارَبَ، وَقُتِلَ، وَاخْتَذَ الْمَالُ، قُطِعَتْ يَدُهُ وَرِجْلُهُ مِنْ خِلَافٍ، وَصُلِبَ. فَإِنْ قُتِلَ، وَلَمْ يَأْخُذْ الْمَالَ، قُتِلَ: وَإِنْ أَخَذَ الْمَالَ وَلَمْ يَقْتُلْ، قُطِعَتْ يَدُهُ وَرِجْلُهُ مِنْ خِلَافٍ. وَتَأْوِيلُ الْآيَةِ: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ الْوَاجِبَ عَلَى الْمُحَارِبِ مِنَ الْعُقُوبَةِ لَهُ عَلَى قَدْرِ جَنَاتِهِ، وَيَزَادُ فِي عُقُوبَتِهِ بِقَدْرِ زِيَادَتِهِ فِي جُرْمِهِ.

وَتَأْوِيلُ غَيْرِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْمُحَارِبِ الَّذِي يُصِيبُ الْمَالَ أَوْ^(٩) النَّفْسَ. وَإِذَا أَصَابَ الْأَمْرَيْنِ كَانَ لِلْإِمَامِ أَنْ يَقْتُلَهُ كَيْفَ شَاءَ؛ إِنْ شَاءَ قَتَلَهُ بِالسَّيْفِ قَتْلًا، وَإِنْ شَاءَ قَطَّعَ يَدَهُ وَرِجْلَهُ، ثُمَّ يَتْرُكُهُ حَتَّى يَمُوتَ، وَإِنْ شَاءَ صَلَبَهُ حَيًّا. ١٢٨ - ب. وَإِنْ أَبْطَأَ عَلَيْهِ الْمَوْتُ طَعِنَ بِالرَّمَاكِ حَتَّى يَمُوتَ. وَإِلَى هَذَا ذَهَبَ أَبُو حَنِيفَةَ عليه السلام. وَأَمَّا أَبُو يُونُسَ وَمُحَمَّدٌ، رَحِمَهُمَا اللَّهُ،

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَسَمِلَ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَطَّعَ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

(٦) فِي الْأَصْلِ وَم: رُوي. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ.

فَقَالَا^(١): إِذَا صَلَبَ لَمْ تُقَطَّعْ [يَدُهُ وَرِجْلُهُ]^(٢) مِنْ خِلَافٍ، وَجَعَلَا عُقُوبَتَهُ مُخْتَلِفَةً عَلَى قَدَرِ جَنَائِيهِ. فَإِنْ قِيلَ: فَمَا مَعْنَى التَّخْيِيرِ فِيهِ؟ قِيلَ مَعْنَاهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: أَنْ يُقْتَلَ بِالسَّيْفِ، أَوْ يُقْتَلَ بِالصَّلْبِ أَوْ يُقْتَلَ بِقَطْعِ الْيَدِ وَالرَّجْلِ.

وَأَصْلُهُ أَنْ حُرِفَ التَّخْيِيرُ إِذَا كَانَ فِي مُتَّفِقِ الْأَسْبَابِ يَخْرُجُ مَخْرَجَ التَّخْيِيرِ مِنْ نَحْوِ التَّخْيِيرِ فِي كَفَّارَةِ الْيَمِينِ وَكَفَّارَةِ الظَّهَارِ وَكَفَّارَةِ الْمُتَأَدِّي لِأَنْ سَبَّ وَجُوبِهِ وَاحِدٌ. وَإِذَا كَانَ فِي مُخْتَلَفِ الْأَسْبَابِ فَيَخْرُجُ مَخْرَجَ بَيَانِ الْحُكْمِ لِلْكُلِّ فِي نَفْسِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا يَنْذَرُ الْفَرِيقَيْنِ إِنَّمَا أَنْ تَعَذَّبَ وَإِنَّمَا أَنْ تُنْجِذَ فِيهِمْ حُسْبًا﴾ [الكهف: ٨٦] لَا يَحْتَمِلُ التَّخْيِيرَ. وَلَكِنَّهُ عَلَى بَيَانِ الْحُكْمِ لِكُلِّ فِي نَفْسِهِ لِأَنْ سَبَّ وَجُوبِهِ مُخْتَلِفٌ؛ فَتَأْوِيلُهُ: إِنَّمَا أَنْ تَعَذَّبَ مَنْ ظَلَمَ، [وَأَمَّا أَنْ] تَنْجِذَ الْحَسَنَ فِي مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ. أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿وَأَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحَسَنَةِ؟ [الكهف: ٨٧ و ٨٨] وَقَوْلُ مَنْ جَعَلَ الْحُكْمَ فِي مَنْ جَمَعَ الْقَتْلَ وَقَطَعَ الطَّرِيقَ أَقْرَبُ إِلَى التَّأْوِيلِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَمَنْ لَمْ يَجْمَعْ لَأَنَّهُ قَالَ ﷻ: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الْآيَةُ فَمَنْ حَارَبَ، وَافْسَدَ فِي الْأَرْضِ فَقَدْ أَتَى بِالْأَمْرَيْنِ لِأَنْ مُحَارَبَتَهُ أَنْ يُقْتَلَ، وَإِفْسَادُهُ فِي الْأَرْضِ [أَنْ] يَقَطَعَ الطَّرِيقَ. فَإِذَا جَمَعَ هُوَ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ يُجْمَعُ بَيْنَ عُقُوبَتَيْنِ. وَأَصْلُهُ أَنْ أَمَرَ قُطَاعِ الطَّرِيقِ مَحْمُولٌ عَلَى فَضْلِ تَغْلِيظِ مَنْ نَحْوِ مَا يُجْمَعُ بَيْنَ قَطْعِ الْيَدِ وَالرَّجْلِ فِي اخْتِذِ الْمَالِ، وَذَلِكَ لَا يُجْمَعُ فِي اخْتِذِ الْمَالِ فِي الْمِضَرِّ، وَمِنْ نَحْوِ الصَّلْبِ. وَذَلِكَ لَمْ يُجْعَلْ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْقَتْلِ فِي الْمِضَرِّ، فَذَلِكَ أَنَّهُ مَحْمُولٌ عَلَى فَضْلِ تَغْلِيظِ، فَجَازَ أَنْ يُجْمَعَ مَا ذَكَرْنَا.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزَاءُ فِي الدُّنْيَا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿أَوْ يُنْفَوْا﴾ عَلَى إِسْقَاطِ الْأَلِفِ، وَيَكُونُ فِي الْقَتْلِ وَالصَّلْبِ نَفْيُهُ إِذَا قُتِلَ، وَاخْتِذِ الْمَالِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: نَفْيُهُ أَنْ يُطْلَبَ^(٥) فَلَا يُقَدَّرُ عَلَيْهِ.

وعن الحسن [أَنَّهُ]^(٦) قَالَ: يُطْلَبُ^(٧) حَتَّى يَخْرُجَ مِنَ أَرْضِ الْإِسْلَامِ؛ وَذَلِكَ إِلَى الْإِمَامِ. وَأَصْلُهُ مَا ذَكَرْنَا أَنَّهُ إِذَا قُدِّرَ عَلَيْهِ، وَقَدْ قُتِلَ، وَاخْتِذِ الْمَالِ، يُقْتَلَ، وَفِي الْقَتْلِ نَفْيُهُ. وَإِذَا لَمْ يُقْتَلَ، وَلَمْ يَأْخُذْ، حُبْسَ إِنْ قُدِّرَ عَلَيْهِ، وَفِي الْحَبْسِ نَفْيُهُ، وَإِنْ لَمْ يُقَدَّرْ عَلَيْهِ يُطْلَبُ^(٨) حَتَّى يَبْرَحَ الطَّرِيقَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقول أبي عبيد جين^(٩) قَالَ: إِنَّهُ يُصَلَّبُ بَعْدَ الْقَتْلِ لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى عَنِ الْمَثَلَةِ، [فَيَقَالُ لَهُ: الْمَثَلَةُ]^(١٠) يُرَادُ بِهَا عَلَى مَا قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ، رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّ الصَّلْبَ جُعِلَ عُقُوبَتَهُ، وَالْمَيْتَ لَا يُعَاقَبُ، وَلَوْ جَازَ [لَهُ أَنْ يَقُولَ]^(١١) يُصَلَّبُ بَعْدَ الْقَتْلِ جَازَ لِغَيْرِهِ أَنْ يَقُولَ: تُقَطَّعُ يَدُهُ وَرِجْلُهُ بَعْدَ الْقَتْلِ، فَذَلِكَ بَعِيدٌ.

الآية ٣٤

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْرَأَ عَلَيْهِمُ﴾ قَدْ ذَكَرْنَا فِي مَا تَقَدَّمَ أَنَّ قُطَاعَ الطَّرِيقِ إِذَا تَابُوا، قَبْلَ أَنْ يُقَدَّرَ عَلَيْهِمْ سَقَطَتْ عَنْهُمْ الْحُدُودُ الَّتِي هِيَ لِلَّهِ تَعَالَى، لَا يُؤَاخِذُونَ بِهَا، وَلَيْسَتْ^(١٢) كَغَيْرِهَا مِنَ الْحُدُودِ الَّتِي تَلْزَمُ فِي غَيْرِ الْمُحَارَبَةِ. إِنَّ التَّوْبَةَ لَا يُعْمَلُ فِي إِسْقَاطِهَا لَوُجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ التَّوْبَةَ مِنْ غَيْرِ الْمُحَارَبِ لَا تَظْهَرُ حَقِيقَةً، فَإِذَا لَمْ تَظْهَرْ لَمْ يُعْمَلْ فِي إِسْقَاطِ مَا وَجَبَ، وَمِنْ الْمُحَارِبِ تَظْهَرُ لَأَنَّهُ فِي يَدَيْ نَفْسِهِ إِذَا تَرَكَ الْمُحَارَبَةَ وَالسَّغْيَ فِي الْأَرْضِ بِالْفَسَادِ، وَظَهَرَتْ مِنْهُ التَّوْبَةُ، فَلَمْ يُؤَاخِذْ بِهِ، وَفِي سَائِرِ الْحُدُودِ لَا تَظْهَرُ مِنْهُ تَرْكُ مَا كَانَ يَرْتَكِبُ لِذَلِكَ [افْتِرَاقًا].

وَالثَّانِي: أَنَّهُ لَوْ لَمْ يُقْتَلْ مِنْهُ ذَلِكَ^(١٣) لَتَمَادَى فِي السَّغْيِ بِالْفَسَادِ فِي حَقِّ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الضَّرَرِ أَكْثَرَ مِمَّا لَوْ أَخَذُوهُ^(١٤) بِذَلِكَ، فَاسْتَحْسِنَ^(١٥) قَبُولَ ذَلِكَ مِنْهُمْ وَذَرَأَ مَا وَجَبَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْحُدُودِ الَّتِي هِيَ لِلَّهِ تَعَالَى. وَأَمَّا الْحُقُوقُ الَّتِي هِيَ لِلْعِبَادِ فَذَلِكَ إِلَى الْأَوْلِيَاءِ؛ إِنْ شَاءُوا تَرَكَوْا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله^(١٦): «وَمَنْ جَاءَ مُسْلِمًا هَدَمَ بِالْإِسْلَامِ مَا كَانَ بِالشَّرْكِ» [القرطبي: ٢٦٦/٣] مَعْنَاهُ: إِذَا جَاءَ تَائِبًا لِأَنَّ الْحُدُودَ

(١) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم. (٣) في الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) و (٨) في الأصل وم. (٩) يصلب. (١٠) في الأصل وم. (١١) حيث. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) في الأصل وم. أن. (١٤) في الأصل وم. وليس. (١٥) من م، ساقطة من الأصل. (١٦) في الأصل وم. (١٧) في الأصل وم. (١٨) في الأصل وم. (١٩) في الأصل وم. (٢٠) في الأصل وم. (٢١) في الأصل وم. (٢٢) في الأصل وم. (٢٣) في الأصل وم. (٢٤) في الأصل وم. (٢٥) في الأصل وم. (٢٦) في الأصل وم. (٢٧) في الأصل وم. (٢٨) في الأصل وم. (٢٩) في الأصل وم. (٣٠) في الأصل وم. (٣١) في الأصل وم. (٣٢) في الأصل وم. (٣٣) في الأصل وم.

زَوَاجِرُ، وَالْإِسْلَامَ يَرِيدُ فِي الزَّخْرِ وَالتَّغْلِيظِ، فَلَا يَجُوزُ مَا كَانَ سَبَبًا لِلتَّغْلِيظِ [أَنْ يَكُونَ] ^(١) سَبَبًا لِإِسْقَاطِهِ. ذَلِكَ أَنَّ الْمَعْنَى مِنْهُ: مَنْ جَاءَ مُسْلِمًا تَائِبًا، وَاللَّهُ أَغْلَمُ.

الآية ٣٥ وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَهَا الْأَرْبَابُ أَمَّا اتَّقُوا اللَّهَ وَأَتَّبِعُوا الْوَسِيلَةَ﴾ يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ الْآيَةُ صَلََةً مَا مَضَى مِنَ الْآيَاتِ: مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَرَّبًا قَرَّبًا فَتَقَبَّلْ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧] أَخْبَرَ أَنَّهُ إِنَّمَا يَتَقَرَّبُ بِقُرْبَانِهِ الْمُتَّقِي، وَقَوْلُهُ ^(٢) تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الْآيَةُ [المائدة: ٣٣] ثُمَّ قَوْلُهُ ^(٣) تَعَالَى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَأَتَّبِعُوا الْوَسِيلَةَ﴾ أَيِ ابْتَغُوا بِتَقْوَى اللَّهِ عَنْ مَعَاصِيهِ الْقُرْبَةَ، وَالْوَسِيلَةُ الْقُرْبَةُ. وَكَذَلِكَ الزُّلْفَةُ. يُقَالُ: تَوَسَّلَ إِلَيَّ بِكَذَا أَيِ تَقَرَّبَ، وَهُوَ قَوْلُ الْقَتَنِ: ﴿وَأَزَلَفْتُ لَبَنَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠ وق: ٣١] أَيِ قُرِبَتْ.

وقوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ﴾ الْآيَةُ: يُحْتَمَلُ هَذَا وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: ﴿وَجَاهِدُوا﴾ أَنْفُسَكُمْ فِي صَرْفِهَا عَنْ مَعَاصِيهِ إِلَى طَاعَتِهِ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهِدُوا فِيْنَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

والثاني ^(٤): ﴿وَجَاهِدُوا﴾ مَعَ أَنْفُسِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ أَعْدَاءَ اللَّهِ فِي نُصْرَةِ دِينِهِ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

الآية ٣٦ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ﴾ كَانَ الَّذِي يَمْنَعُهُمْ عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالرُّسُلِ قَضَاءُ شَهَوَاتِهِمْ وَطَلَبُ الْعِزِّ وَالشَّرَفِ بِالْأَمْوَالِ، فَأَخْبَرَ: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ﴾ فِي صَرْفِ الْعَذَابِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ ﴿مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ﴾ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ. يَذْكُرُ هَذَا، وَاللَّهُ أَغْلَمُ، لِيَصْرِفُوا أَنْفُسَهُمْ عَنْ مَعَاصِي اللَّهِ وَالْخِلَافِ لَهُ بِأَذْنَى شَيْءٍ يَظْلُبُونَ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالشَّهَوَاتِ. وَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَوْ كَانَ ﴿لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ مَا نَفَعَهُمْ ذَلِكَ، ﴿وَمَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ﴾. وَالْحِكْمَةُ فِي هَذَا، وَاللَّهُ أَغْلَمُ، لِيَعْلَمُوا أَنَّ الْآخِرَةَ لَيْسَتْ بِدَارٍ تُقْبَلُ فِيهَا الرُّشَا كَمَا تُقْبَلُ فِي الدُّنْيَا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ذَلِكَ هَذَا عَلَى أَنَّ مِنَ الْعَذَابِ مَا لَا أَلَمَ فِيهِ مِنْ نَحْرِ الْحَبْسِ وَالْقَيْدِ. فَأَخْبَرَ أَنَّ عَذَابَ الْآخِرَةِ أَلِيمٌ كُلُّهُ، لَيْسَ كَعَذَابِ الدُّنْيَا، مِنْهُ مَا يَكُونُ أَلِيمًا، وَمِنْهُ مَا لَا يَكُونُ.

الآية ٣٧ وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ الْآيَةُ. يُحْتَمَلُ قَوْلُهُ ﷻ: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا﴾ مِنْهَا أَيِ يَظْلُبُونَ، وَيَسْأَلُونَ الْخُرُوجَ مِنْهَا مِنْ غَيْرِ عَمَلِ الْخُرُوجِ نَفْسِهِ. وَيَحْتَمَلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا﴾ مِنْهَا وَلَكِنْ يَرُدُّونَ، وَيُعَادُونَ إِلَى مَكَانِهِمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يُخْرِجُوا مِنْهَا مِنْ غَيْرِ أَعِيدُوا فِيهَا﴾ [الحج: ٢٢] أَيِ يَجْهَدُونَ فِي الْخُرُوجِ مِنْهَا ﴿أَعِيدُوا فِيهَا﴾ فِيهِ دَلِيلٌ أَنَّهُمْ يَعْمَلُونَ عَمَلَ الْخُرُوجِ. وَلَكِنْ يَرُدُّونَ، وَيُعَادُونَ فِيهَا.

الآية ٣٨ وقوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ الْآيَةُ عَامَّةٌ فِي السَّرَاقِ خَاصَّةٌ فِي السَّرِقَةِ لِأَنَّهُ يَدْخُلُ جَمِيعُ أَهْلِ الْخَطَابِ فِي ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ يَجُوزُ أَنْ يَدْخُلَ الْحَدُّ عَنْ بَعْضِ السَّرَاقِ إِذَا سَرَقُوا مِنْ ^(٥) مَحَارِمِهِمْ أَوْ مِمَّنْ لَهُ تَأْوِيلُ الْمُلْكِ فِي مَالِهِ أَوْ شِبْهُهُ ^(٦) التَّأْوِيلُ مِنْهُ لِأَنَّهُ إِذَا سَرَقَ مِمَّنْ لَيْسَ لَهُ ذَلِكَ التَّأْوِيلُ وَلَا تِلْكَ الشُّبْهَةُ، قُطِعَ. فَذَلِكَ أَنَّهَا عَامَّةٌ. وَعَلَى هَذَا يُخْرِجُ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ جِئَ ^(٧) سُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ أَحَاصُ هُوَ أَمِ عَامٌّ؟ فَقَالَ: لَا بَلْ عَامٌّ أَيِ عَامٌّ فِي السَّرَاقِ. أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ فِي خَبَرٍ آخَرَ جِئَ ^(٨) سُئِلَ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: مَا كَانَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ قُطِعَ؟ وَأَمَّا قَوْلُنَا فَحَاصٌّ ^(٩) فِي السَّرِقَةِ لِأَنَّهُ [لَا] ^(١٠) يُحْتَمَلُ قَلْبُ أَحَدٍ قَطَعَ الْيَدَ فِي الشَّيْءِ التَّائِبِ الْحَبِيسِ الَّذِي إِذَا أَخَذَ مِنْهُ. ذَلِكَ أَنَّ الْخِطَابَ بِذَلِكَ مِنَ اللَّهِ ﷻ رَجَعَ إِلَى سَرِقَةٍ لَا إِلَى كُلِّ مَا يَقَعُ عَلَيْهِ اسْمُ [السَّرِيقِ] ^(١١). وَكَذَلِكَ الْخِطَابُ بِقَطْعِ الْيَدِ رَجَعَ إِلَى بَعْضٍ، وَهُوَ الْكَفُّ وَإِنْ كَانَ اسْمُ الْيَدِ يَقَعُ مِنَ الْأَصَابِعِ إِلَى الْإِنْطِ، لِأَنَّ النَّاسَ مَعَ اخْتِلَافِهِمْ/ ١٢٩ - ١/

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وقال. (٣) في الأصل وم: قال. (٤) في الأصل وم: ويحتمل. (٥) في الأصل وم: عن. (٦) في الأصل وم: شبه. (٧) و(٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: خاص. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم.

اَتَّقُوا عَلَى أَنْ الْيَدَ لَا تُقَطَّعُ مِنَ الْإِبْطِ وَلَا مِنَ الْمِرْفَقِ لَكِنَّهُمْ اخْتَلَفُوا فِي مَا دُونَ ذَلِكَ. فَعَلَى قَوْلِ بَعْضِهِمْ تُقَطَّعُ الْأَصَابِعُ دُونَ الْكَفِّ. وَعِنْدَنَا أَنَّهُ تُقَطَّعُ الْأَصَابِعُ بِالْكَفِّ لِأَنَّهُ بِهَا يُقَبَضُ الشَّيْءُ، وَيُؤْخَذُ. فَخَرَجَ الْخَطَابُ بِالْقَطْعِ عَامًّا^(١)، وَالْمُرَادُ مِنْهُ رَجَعَ إِلَى بَعْضِ الْيَدِ دُونَ بَعْضٍ. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَقْطَعُ مِرْأَيْدِيَهُمَا﴾ فَخَرَجَ الْخَطَابُ بِالْقَطْعِ عَامًّا^(٢)، لَيْسَ فِيهِ بَيَانٌ مَنْ يَتَوَلَّى الْقَطْعَ؛ فَالْمُرَادُ مِنْهُ رَجَعَ إِلَى الْوَلَاةِ. فَهَذَا كُلُّهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ لَيْسَ فِي مَخْرَجِ عُمُومِ اللَّفْظِ دَلِيلُ عُمُومِ الْمُرَادِ، وَلَا فِي مَخْرَجِ خُصُوصِ اللَّفْظِ دَلِيلُ خُصُوصِهِ. بَلْ يُعْرَفُ ذَلِكَ كُلُّهُ بِدَلِيلِ يَقُومُ الْعُمُومُ بِدَلِيلِ الْعُمُومِ وَالْخُصُوصُ بِدَلِيلِ الْخُصُوصِ. فَهَذَا يَنْقُضُ قَوْلَ مَنْ يَقُولُ: إِنَّهُ عَلَى الْعُمُومِ حَتَّى يَقُومَ دَلِيلُ الْخُصُوصِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فَإِنْ قِيلَ لَنَا: لَيْسَ الْحِكْمَةُ فِي إِقَامَةِ الْحَذِّ فِي السَّرِقَةِ عَلَى مَا بِهِ تُكْتَسَبُ السَّرِقَةُ، وَهِيَ الْيَدُ؟ وَلَمْ يَقَمْ الْحَذُّ فِي سَائِرِ الْحُدُودِ فِي مَا بِهِ كَانَ احْتِسَابُهَا مِنْ نَحْوِ الْقِصَاصِ [فِي الزُّنَى]^(٣) وَغَيْرِهِ: إِنَّهُ إِذَا قُتِلَ [فُلَانٌ]^(٤) آخَرٌ لَا تُقَطَّعُ يَدُهُ، وَبِهَا كَانَ احْتِسَابُ الْقَتْلِ، وَكَذَا الزُّنَى لَمْ يَقَمْ الْحَذُّ عَلَى مَا بِهِ كَانَ الزُّنَى، بَلْ أُقِيمَ عَلَى غَيْرِ مَا بِهِ كَانَ ذَلِكَ الْفِعْلُ؟ وَفِي السَّرِقَةِ أُقِيمَ عَلَى مَا بِهِ كَانَ ذَلِكَ الْفِعْلُ خَاصَّةً؟ قِيلَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، لِيَحْتَلِينَ: إِمَّا لِقُصُورِ فِي الْإِسْتِيفَاءِ مِنَ الْحَقِّ أَوْ لِحُورِ الزِّيَادَةِ فِي الْإِسْتِيفَاءِ عَلَى الْحَقِّ لِأَنَّهُ إِذَا قُتِلَ، أَوْ قُطِعَتْ يَدُهُ، بَقِيَتْ لَهُ النَّفْسُ، وَقَدْ تَلَفَتْ نَفْسُ الْآخَرِ، فَكَانَ فِي ذَلِكَ قُصُورٌ فِي إِسْتِيفَاءِ الْحَقِّ. وَفِي الزُّنَى لَوْ أُقِيمَ بِهِ عَلَى الَّذِي بِهِ كَانَ احْتِسَابُ الْفِعْلِ لَخِيفَ تَلَفُ نَفْسِهِ بِهِ، فَكَانَ فِي ذَلِكَ إِسْتِيفَاءُ الزِّيَادَةِ عَلَى الْحَقِّ. وَأَمَّا السَّرِقَةُ فَإِنَّهُ امْتَكَنَ اسْتِيفَاءُ الْحَقِّ مِمَّا كَانَ بِهِ احْتِسَابُهَا عَلَى غَيْرِ قُصُورٍ يَقَعُ فِي الْإِسْتِيفَاءِ وَلَا خُورِ الزِّيَادَةِ فِي الْإِسْتِيفَاءِ. لِذَلِكَ كَانَ مَا ذُكِرَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فَإِنْ قِيلَ: مَا الْحِكْمَةُ فِي يَدٍ؛ قِيمَتُهَا أَلُوْفٌ بِسَرِقَةٍ عَشْرَةٌ؟ وَذَلِكَ مِمَّا لَا يُمَازِلُهُ فِي الظَّاهِرِ، وَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّ «وَمَنْ جَاءَ بِالْحَبِثَةِ فَلَا يَجْزِيهِ إِلَّا مِثْلُهَا» [الأنعام: ١٦٠ وَاغَاوِر: ٤٠] كَيْفَ جَزَى هَذَا بِأَضْعَافِ ذَلِكَ؟ قِيلَ: لِهَذَا جَوَابَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ جَزَاءَ الدُّنْيَا مِثْنَةٌ، يَمْتَحِنُ عِبَادَهُ بِأَنْوَاعِ الْمِحْنِ ابْتِدَاءً عَلَى غَيْرِ جَعْلِ ذَلِكَ جَزَاءً لِكَسْبِ يُكْتَسَبُ. فَمَنْ لَهُ الْإِمْتِحَانُ بِأَنْوَاعِ الْمِحْنِ عَلَى غَيْرِ جَعْلِهَا جَزَاءَ الشَّيْءِ كَانَ لَهُ الْإِمْتِحَانُ بِأَنْ يَجْعَلَ مَا يُسَاوِي أَلُوْفًا فَلَسًا^(٥) أَوْ حَبَّةً. وَبِاللَّهِ الْعِصْمَةُ وَالنَّجَاةُ.

وَالثَّانِي: أَنَّ لَيْسَ الْقَطْعُ فِي السَّرِقَةِ جَزَاءً مَا أَخَذَ مِنَ الْمَالِ، وَلَكِنَّهُ جَزَاءُ مَا هَتَكَ مِنَ الْحُرْمَةِ. أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: «جَزَاءُ مَا كَسَبَ» وَلَمْ يَقُلْ جَزَاءُ مَا أَخَذَ مِنَ الْأَمْوَالِ؟ فَيَجُوزُ أَنْ يَبْلُغَ جَزَاءُ هَتَاكَ تِلْكَ الْحُرْمَةِ قَطْعَ الْيَدِ، وَإِنْ قُصِرَ عِلْمُ الْبَشَرِ عَلَى ذَلِكَ لِأَنَّ مَقَادِيرَ الْمُقْبَوَاتِ إِنَّمَا يَعْرِفُهَا^(٦) مَنْ يَعْرِفُ مَقَادِيرَ الْأَجْرَامِ. وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْخَلَائِقِ يَحْتَمِلُ عِلْمُهُ مَبْلَغَ مَقَادِيرِ الْأَجْرَامِ. فَإِذَا لَمْ يَحْتَمِلْ عِلْمُهُمْ مَبْلَغَ مَقَادِيرِ عُقُوبَاتِهَا مَاذَا^(٧) كَانَ؟ فَحَقُّ الْقَوْلِ فِيهِ الْإِتْبَاعُ وَالتَّسْلِيمُ بَعْدَ الْعِلْمِ فِي الْإِتْبَاعِ أَنَّ اللَّهَ لَا يَجْزِي السَّيِّئَةَ إِلَّا بِمِثْلِهَا، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

ثُمَّ الْكَلَامُ فِي قَطْعِ الْيَمْنَى مَا رُوِيَ فِي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: فَأَقْطَعُوا أَيْمَانَهُمَا. وَعَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه [أَنَّهُ قَالَ]^(٨) إِذَا سَرَقَ الرَّجُلُ قُطِعَتْ يَدُهُ الْيَمْنَى. وَعَلَى ذَلِكَ اتَّفَقَ الْأَيْمَةُ^(٩).

ثُمَّ الْمَسْأَلَةُ فِي مَقْدَارِ السَّرِقَةِ، وَلَيْسَ فِي الْآيَةِ ذِكْرُ مَقْدَارِهَا. وَاخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي ذَلِكَ: فَقَالَ بَعْضُهُمْ: تُقَطَّعُ فِي رُبْعٍ دِينَارٍ قَصَاعِدًا. وَقَالَ آخَرُونَ: لَا تُقَطَّعُ الْيَدُ إِلَّا فِي عَشْرَةِ دَرَاهِمٍ قَصَاعِدًا أَوْ دِينَارٍ.

وَقَدْ رُوِيَ مِنَ الْأَخْبَارِ مَا اخْتَجَّ بِهِ كُلُّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ: رُوِيَ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم كَانَ يَقَطَّعُ فِي رُبْعٍ دِينَارٍ قَصَاعِدًا، وَعُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ يَقُولُ: كَانَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها تُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ: «لَا تُقَطَّعُ الْيَدُ إِلَّا فِي الْمِجَنِّ أَوْ فِي ثَمَنِهِ» [النسائي ٨١/٨] وَتَزَعُمُ أَنَّ قِيَمَةَ الْمِجَنِّ أَرْبَعَةُ دَرَاهِمٍ، فَذَلِكَ قَوْلُ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم كَانَ لَا يَقَطَّعُ الْيَدَ إِلَّا فِي ثَمَنِ الْمِجَنِّ. وَقَوْلُهَا^(١٠): (إِنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم كَانَ لَا يَقَطَّعُ الْيَدَ إِلَّا فِي رُبْعٍ دِينَارٍ) [يَدُلُّ عَلَى]^(١١) أَنَّ ثَمَنَ الْمِجَنِّ كَانَ عِنْدَهَا رُبْعَ دِينَارٍ، أَوْ لَا يَكُونُ كَذَلِكَ. وَعَلَى ذَلِكَ مَا رُوِيَ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَطَّعَ فِي مِجَنٍّ، قِيَمَتُهُ ثَلَاثَةُ دَرَاهِمٍ^(١٢).

(١) و (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: عَام. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَالزُّنَى. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: فَلَس. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: يَعْرِفُ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: فَذَا. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: الْأَمَةُ. (١٠) الرُّوَا سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١١) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٢) أُدْرِجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: الْعِبَارَةُ التَّالِيَةُ: فِي الْخَبَرِ أَنَّهُ قَطَّعَ فِي مِجَنٍّ.

وأما الثَّقُومُ فَأَمَّا هُوَ مِنْ عِنْدِ عَبْدِ اللَّهِ وَأَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عليه السلام أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَطَعَ فِي مَجَنٍّ، فَقِيلَ يَا أَبَا حُمْرَةَ كَمْ كَانَتْ؟ قَالَ: وَزَنَ خَمْسَةَ دَرَاهِمَ. هَذَا يُدَلُّ عَلَى أَنَّ الثَّقُومَ، كَانَ مِنْ [أَنَسٍ] ^(١): كَانَ ذَلِكَ كَثْفُومِ ابْنِ حُمْرٍ وَعَائِشَةَ عليها السلام وَلَيْسَ فِي الثَّقُومِ حُجَّةٌ فِي وَاحِدٍ مِنَ الْمُقَوِّمِينَ لِمُخَالَفَةِ كُلِّ وَاحِدٍ صَاحِبَهُ، وَأَمَّا قَوْمُهُ مِنْ قِبَلِ أَنْفُسِهِمْ. فَأَمَّا إِنْ كَانَ فِي مَجَنِّينَ مُخْتَلِفِينَ فَهُوَ عَلَى التَّنَاسُخِ. وَأَمَّا إِنْ كَانَ فِي مَجَنٍّ وَاحِدٍ فِي وَثْنَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ: فَإِنْ كَانَ فِي وَثْنَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ لَمْ يَكُنْ لِمُخَالَفَتِنَا فِيهِ حُجَّةٌ لِمَا يَحْتَمِلُ الزِّيَادَةُ وَالنَقْصَانُ عَلَى اخْتِلَافِ الْأَوَاقَاتِ. وَإِنْ كَانَ فِي مَجَنِّينَ مُخْتَلِفَيْنِ فَهُوَ عَلَى التَّنَاسُخِ، فَلَمْ يَظْهَرْ، فَلَا يُقَدَّمُ عَلَى الْقَطْعِ بِالشُّكِّ. ثُمَّ الْأَخْبَارُ الَّتِي تَمْنَعُ الْقَطْعَ بِدُونِ الْعَشْرَةِ مَا رُوِيَ عَنْ عُمَرُو بْنِ شُعَيْبٍ [أَنَّهُ] ^(٢) قَالَ: (دَخَلْتُ عَلَى سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّ أَصْحَابَكَ عُرْوَةَ وَمُحَمَّدَ بْنَ مُسْلِمٍ [وَفُلَانًا وَرَجُلًا] ^(٣) آخَرُ يَقُولُونَ: ثَمَنُ الْمَجَنِّ خَمْسَةُ دَرَاهِمٍ أَوْ ثَلَاثَةٌ، فَقَالَ: أَمَّا هَذَا فَقَدْ مَضَتْ السُّنَّةُ فِيهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عَشْرَةُ دَرَاهِمَ. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عليهما السلام [أَنَّهُ] ^(٤) قَالَ: (ثَمَنُ الْمَجَنِّ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عَشْرَةُ دَرَاهِمَ). وَعَنْ عُمَرُو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ كَانَ لَا يَقْطَعُ الْيَدَ إِلَّا فِي ثَمَنِ الْمَجَنِّ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ يُسَاوِي عَشْرَةَ دَرَاهِمَ. فَلَمَّا اخْتَلَفَ الْمُقَوِّمُونَ فِي قِيَمَةِ الْمَجَنِّ رَجَعْنَا إِلَى مَا رُوِيَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ جِبْنَ ^(٥) قَالَ: مَضَتْ السُّنَّةُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بِعَشْرَةِ دَرَاهِمَ وَإِنْ كَانَ مُرْسَلًا إِذْ لَا مُعَارِضَ لَهُ. وَيُؤَيِّدُ هَذَا مَا رُوِيَ عَنْ نُجَبَاءِ الصَّحَابَةِ عليهم السلام مِنْ نَعْرِ عُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عليهم السلام.

وَرُوِيَ أَنَّ عُمَرَ أَمَرَ بِسَارِقٍ، فَأَمَرَ [بِقَطْعِ يَدِهِ، فَقَالَ] ^(٦) عُثْمَانُ عليه السلام: سَرِقَتْهُ لَا تُسَاوِي عَشْرَةَ دَرَاهِمَ. فَأَمَرَ بِهَا فُقِوْثُ بِخَانِيَةِ ^(٧) دَرَاهِمَ، [فَقَالَ] ^(٨): (لَا تُقْطَعُ الْيَدُ إِلَّا فِي دِينَارٍ أَوْ عَشْرَةِ دَرَاهِمَ).

وَرُوِيَ عَنْ عَائِشَةَ عليها السلام [أَنَّهُ] ^(٩) قَالَتْ: لَمْ تَكُنِ الْيَدُ تُقْطَعُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فِي الشَّيْءِ الثَّانِيهِ. فَأَخَذَ أَصْحَابُنَا، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى، بِهَذِهِ الْأَخْبَارِ، وَلَمْ يَرَوْا قَطْعَ الْيَدِ بِدُونِ الْعَشْرَةِ لِأَنَّهُمْ مَعَ اخْتِلَافِهِمْ اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ الْيَدَ تُقْطَعُ فِي سَرِقَةِ عَشْرَةِ دَرَاهِمَ. وَاخْتَلَفُوا فِي وَجُوبِ الْقَطْعِ فِي مَا دُونَ الْعَشْرَةِ، وَهُوَ حَدُّ قَدْرَتِي لِلِإِشْكَالِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿جَزَاءُ مَا كَفَّأَنَّكَ مِنَ اللَّهِ﴾ الْآيَةُ، يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿تَكْلًا مِنَ اللَّهِ﴾ أَيِ عِظَةٍ ^(١٠) وَزَجْرًا مِنَ اللَّهِ لِغَيْرِهِ لِأَنَّ مَنْ عَازَى آخَرَ قُطِعَتْ يَدُهُ فِي سَرِقَةٍ اتَّعَظَ بِهِ، وَزَجْرُهُ ذَلِكَ عَنِ الْإِقْدَامِ عَلَيْهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٢٩

وقوله تعالى: ﴿فَن تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ﴾ الْآيَةُ أَيِ تَابَ عَنِ الشُّرْكِ، ﴿وَأَصْلَحَ﴾ مَا كَانَ يُفْسِدُهُ، وَيَرْتَكِبُهُ فِي حَالِ شُرْكِهِ ﴿فَلَمَّا تَابَ اللَّهُ بِتُوبِهِ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ رَحِيمٌ﴾ وَعَدَهُ الْمَغْفِرَةُ وَالرَّحْمَةُ إِذَا تَابَ عَنِ الشُّرْكِ، وَأَصْلَحَ مَا كَانَ يُفْسِدُهُ، وَيَرْتَكِبُهُ فِي حَالِ الشُّرْكِ حَتَّى لَا ^(١١) يُؤَاخِذَ بِشَيْءٍ وَمَا كَانَ يَرْتَكِبُهُ فِي حَالِ الشُّرْكِ، وَيَتَّقَاهُ إِذَا اسْلَمَ.

أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ يَنْتَهَوْا يُنْفِرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾؟ [الأنفال: ٢٨] وَالْمُسْلِمُ فِي حَالِ الْإِسْلَامِ إِذَا ارْتَكَبَ حَدًّا/ ١٢٩ - ب/ وَتَقَاطَعًا ^(١٢)، ثُمَّ تَابَ، أَوْجَدَ ^(١٣) بِهَا يَوْجَهَيْنِ:

أَخِذْهُمَا: أَنَّ الْكَافِرَ لَوْ أَوْجَدَ ^(١٤) بَعْدَ مَا اسْلَمَ بِمَا كَانَ ارْتَكَبَ فِي حَالِ الْكُفْرِ، وَتَقَاطَعًا، فَذَلِكَ يَنْتَعُهُ عَنِ الْإِسْلَامِ، وَيَزْجُرُهُ. فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَكَانَ فِي إِقَامَةِ ذَلِكَ وَالْأَخِذِ بِهَا مِنَ الْفَسَادِ أَكْثَرَ مِنَ الصَّلَاحِ، وَأَمَّا الْمُسْلِمُ إِذَا لَمْ يُؤَاخِذْ بِمَا ارْتَكَبَ، وَتَقَاطَعَتْ بَعْدَ التَّوْبَةِ يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْفَسَادِ مَا يَفْضَحُشُ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا ^(١٥) أُرِيدَ أَنْ يُقَامَ عَلَيْهِ الْحَدُّ تَابَ، فَسَقَطَ ذَلِكَ عَنْهُ، ثُمَّ عَادَ تَانِيًا ثُمَّ ثَالِثًا إِلَى مَا لَا يَنْتَاهِي. فَعَمِلَ فِي الْأَرْضِ بِكُلِّ الْفَسَادِ مِنْ غَيْرِ أَنْ لِحَقَّهُ ضَرَرٌ، لِذَلِكَ أَوْجَدَ بِهِ بَعْدَ التَّوْبَةِ، وَالْكَافِرَ لَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَالثَّانِي: أَنَّ الْكَافِرَ مَا يَرْتَكِبُ فِي حَالِ الْكُفْرِ إِنَّمَا يَرْتَكِبُهُ تَذْنِيًا بِإِذْنِ [يَدِينِ] ^(١٦) بِهِ. فَإِذَا رَجَعَ عَنْ ذَلِكَ الدِّينِ، وَدَانَ

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وفلان ورجل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: بقطعه قال. (٧) في الأصل وم: ثمانية. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، في الأصل: عظيمة. (١١) في الأصل وم: لم. (١٢) في الأصل وم: وتقاطعا. (١٣) في الأصل وم: أخذ. (١٤) في الأصل وم: أخذ. (١٥) في الأصل وم: كما. (١٦) ساقطة من الأصل وم.

بِإِذْنِ آخَرٍ، مَا يَكُونُ ذَلِكَ حَرَامًا فِي دِينِهِ الَّذِي تَمَسَّكَ بِهِ، تَرَكَ مَا كَانَ يَرْتَكِبُ فِي دِينِهِ الْأَوَّلِ تَذِينًا، فَيُظْهِرُ ذَلِكَ مِنْهُ، فَلَمْ يَقُلْ عَلَيْهِ لِمَا يَظْهَرُ مِنْهُ: تَرَكَ مَا تَعَاطَى قَبْلَ ذَلِكَ. وَأَمَّا الْمُسْلِمُ فَلَيْسَ يَتَعَاطَى مَا يَتَعَاطَى تَذِينًا بِإِذْنِ [بِإِذْنِ] (١) بِهِ، وَلَكِنَّهُ يَتَعَاظَاهُ شَهْوَةً، وَذَلِكَ مِمَّا لَا تَظْهَرُ مِنْهُ الثَّوْبَةُ حَقِيقَةً. لِذَلِكَ اخْتَلَفَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وفيه دليل جواز تأخير البيان لأنه قال تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً﴾ ولا يَحْتَمِلُ أَنْ يُبَيَّنَ لَهُ جَمِيعُ شَرَائِطِ السَّرِقَةِ الَّتِي يَجِبُ فِيهَا الْقَطْعُ وَفَتْ قَرَعِ الْخُطَابِ السَّمْعَ. فَذَلِكَ أَنَّهُ إِنَّمَا بَيَّنَّ لَهُ عَلَى قَدْرِ الْحَاجَةِ بَعْدَ السُّؤَالِ وَالْبَحْثِ عَنْهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَكَانَ جَمِيعُ مَا ذَكَرَ مِنَ الْعُقُوبَاتِ إِنَّمَا نَزَلَ فِي أَهْلِ الْكُفْرِ لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ كَانُوا يَتَعَاظُونَ ذَلِكَ دُونَ الْمُسْلِمِينَ، وَتَرَكَ عَامَّةَ الْعُقُوبَاتِ (٢) فِي الْمُسْلِمِينَ لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ [٧٤] يَرْغَبُونَ فِيهَا. وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المائدة: ٣٣] وَمَا ذَكَرَ فِي ابْنِي آدَمَ (٣) وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً﴾ [المائدة: ٣٨].

وَذَكَرَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: نَزَلَتْ فِي طُعْمَةِ بَنِي أُبَيْرِقٍ سَرَقَ دِرْعَ جَارِهِ، فَتَرَلَّتْ الْآيَةُ. وَعَلَى ذَلِكَ قَالَ عَامَّةُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ. ثُمَّ صَارَ الْحُكْمُ فِي الْمُسْلِمِينَ إِذَا ارْتَكَبُوا تِلْكَ الْأَجْرَامَ. وَفِيهِ دَلِيلُ جَوَازِ الْقِيَاسِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٤٠

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَكُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ هذا، والله أَعْلَمُ، عَلَى إِثْرِ قَوْلِهِ: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً﴾ [المائدة: ٣٨] وَعَلَى إِثْرِ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المائدة: ٣٣]. إِنَّ ﴿لَكُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وَلَهُ أَنْ ﴿يُعَذِّبَ مَنْ يَشَاءُ﴾ بَعْدَ الثَّوْبَةِ وَقَبْلَ الثَّوْبَةِ ﴿وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ وَلَا يُعَذِّبُ بَعْدَ الثَّوْبَةِ. وَذَلِكَ أَنَّ الْمُحَارِبَ إِذَا تَابَ قَبْلَ أَنْ يُقَدَّرَ عَلَيْهِ الْحَدُّ الَّذِي وَجِبَ فِي حَالِ الْمُحَارَبَةِ، وَالسَّارِقَ إِذَا تَابَ قَبْلَ أَنْ يُقَدَّرَ عَلَيْهِ الْأَخْذُ (٤) بِهِ أَخْبَرَ أَنَّ لَهُ أَنْ يُعَذِّبَ مَنْ يَشَاءُ.

وفيه نقض على الْمُعْتَرِضِ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: الصَّغِيرَةُ مُغْفُورَةٌ، لَيْسَ لَهُ أَنْ يُعَذِّبَ عَلَيْهَا، وَالْكَبِيرَةُ يُحْلَدُ صَاحِبُهَا فِي النَّارِ، لَيْسَ لَهُ أَنْ يَغْفِرَ عَنْهَا. فَلَوْ كَانَ عَلَى مَا قَالُوا لَذَهَبَ مَعْنَى التَّخْيِيرِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾. إِنَّ عَفَا عَفَا مَا عَلَيْهِ أَنْ يَغْفِرَ، وَكَذَلِكَ مَا عَذَّبَ مَا عَلَيْهِ أَنْ يُعَذِّبَ، فَتَذَهَبَ فَايِدَةُ التَّخْيِيرِ، وَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

الآية ٤١

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ [المائدة: ٤١]، يَحْتَمِلُ وَجُوهًا: أَحَدُهَا: أَلَا يَحْزَنْكَ كُفْرُ مَنْ كَفَرَ مِنْهُمْ، لَيْسَ عَلَى النَّبِيِّ عَنْ ذَلِكَ، وَلَكِنْ أَلَا يَحْتَمِلُ عَلَى نَفْسِهِ بِكُفْرِهِمْ مَا يَمْنَعُهُ عَنِ الْقِيَامِ بِأَمْرِهِ كَقَوْلِهِ (٥) تَعَالَى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ﴾ [فاطر: ٨] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَمَّا بَيَّعَ نَفْسُكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ مِمَّا يَشْتَدُّ بِهِ الْحُزَنُ بِكُفْرِهِمْ لِشِدَّةِ رَغْبَتِهِ فِي إِسْلَامِهِمْ. وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُسْكِرُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ أَي لَا يَحْزَنْكَ تَمَرُّدُ هَؤُلَاءِ وَتَكْذِيبُهُمْ إِيَّاكَ فَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرُكَ وَمُظْفِرُكَ (٦) عَلَيْهِمْ.

وَيَحْتَمِلُ ﴿لَا يَحْزَنْكَ﴾ صُنْعَ هَؤُلَاءِ الْكُفْرَةِ وَسُوءَ عَمَلِهِمْ فَإِنَّكَ لَا تُؤَاخِذُ بِصَنِيعِهِمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَؤُلَاءِ فَتَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا لَا يَحْزَنْكَ﴾ [النور: ٥٤] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَحْزَنْكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥].

وفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ دَلَالَةٌ تَفْضِيلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ لِأَنَّهُ تَعَالَى فِي جَمِيعِ مَا خَاطَبَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ وَ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ وَلَمْ يُخَاطَبْ (٧) بِاسْمِهِ، وَسَائِرُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: العبادات. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) هو قوله تعالى: ﴿وَأَقْلَعَتْ عَلَيْهِمْ نِيًّا أَبْنَى آدَمَ﴾ [المائدة: ٢٧]. (٥) في الأصل وم: أخذ. (٦) من م، في الأصل بقوله. (٧) من م، في الأصل: ونظرك. (٨) في الأصل وم: يخاطب.

وَالسَّلَامُ، إِنَّمَا خَاطَبَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ: ﴿يَهُودِيٍّ﴾ و﴿نَصْرَانِيٍّ﴾ وَ﴿مَنْ خَاطَبَ مِنْهُمْ، أَوْ ذَكَرَ [إِنَّمَا خَاطَبَهُمْ] ^(١) بِأَسْمَائِهِمْ.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ قال: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ ولم يقل: آمَنُوا بِأَفْوَاهِهِمْ لِيُعْلَمَ أَنَّ الْقَوْلَ بِهِ لَيْسَ مِنْ شَرْطِ الْإِيمَانِ، إِنَّمَا الْإِيمَانُ هُوَ تَصْدِيقُ الْقَلْبِ، لَكِنْ [يُعْبَرُ] ^(٢) بِهِ اللَّسَانُ عَنْ قَلْبِهِ. أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾؟ وَالْإِيمَانُ هُوَ التَّصْدِيقُ فِي اللَّغَةِ، لِأَنَّ ضِدَّهُ التَّكْذِيبُ، فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ ضِدُّ التَّكْذِيبِ التَّصْدِيقُ. [وَالْإِيمَانُ] ^(٣) يَكُونُ بِالْقَلْبِ حِينَ ^(٤) قَالَ ﷺ: ﴿وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ لَكِنَّ اللَّسَانَ يُعْبَرُ عَنْ ضَمِيرِهِ، فَهُوَ تَرْجُمَانُ الْقَلْبِ فِي مَا بَيَّنَّ الْخَلْقُ.

فهذا يَدُلُّ أَيْضًا عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ لَيْسَ هُوَ الْمَعْرِفَةُ لِأَنَّ الْإِيمَانَ لَوْ كَانَ مَعْرِفَةً لَكَانَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ ضِدُّهُ جَهْلًا. فَلَمَّا كَانَ ضِدُّ الْإِيمَانِ تَكْذِيبًا وَجَبَ أَنْ يَكُونَ ضِدُّ التَّكْذِيبِ التَّصْدِيقُ، وَالتَّصْدِيقُ وَالْإِيمَانُ فِي اللَّغَةِ سَوَاءٌ. وَلِأَنَّ الْمَعْرِفَةَ قَدْ تَقَعُ فِي الْقَلْبِ عَلَى غَيْرِ احْتِسَابٍ فِعْلِي، وَالتَّصْدِيقُ ^(٥) لَا يَكُونُ إِلَّا بِاحْتِسَابٍ تَرْكِ مُضَادَّتِهِ، وَهُوَ التَّكْذِيبُ. لِذَلِكَ قُلْنَا: إِنَّ الْإِيمَانَ لَيْسَ هُوَ الْمَعْرِفَةُ، وَلَكِنَّهُ تَصْدِيقٌ.

ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي هَؤُلَاءِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: هُمُ الْمُتَنَافِقُونَ الَّذِينَ كَانُوا يُظَاهِرُونَ الْإِيمَانَ بِاللِّسَانِ، وَقُلُوبُهُمْ ^(٦) كَافِرَةٌ، وَقَالَ آخَرُونَ، هُمُ الْيَهُودُ وَالْمُنَافِقُونَ ﴿الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَكَّوْنَ لِلْكَذِبِ وَبَدَّلُوا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ [عَلَى أَنَّهُ] ^(٧) فِي الْمُتَنَافِقِينَ.

وقوله تعالى: ﴿سَكَّوْنَ لِلْكَذِبِ سَكَّوْنَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ يَحْتَمِلُ: ﴿سَكَّوْنَ﴾ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ خَبْرَهُ ﴿سَكَّوْنَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ خَبْرَهُ بِالْكَذِبِ. وَمَعْنَاهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَنَّهُمْ كَانُوا يَسْتَمْعُونَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَبْرَهُ وَمَا يَقُولُ لَهُمْ، ثُمَّ يَأْتُونَ الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَيُخْبِرُونَهُمْ خِلَافَ خَبْرِهِ وَغَيْرَ مَا سَمِعُوا مِنْهُ.

وقيل: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: إِنَّ فِي التَّوْرَةِ كَذِبًا مِنَ الْأَحْكَامِ وَالشَّرَائِعِ، فَإِذَا سَمِعَ هَؤُلَاءِ مِنْ ذَلِكَ أَتَوْا أَوْلِيَّكَ الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَيَقُولُونَ: إِنَّهُ كَاذِبٌ، وَلَيْسَ فِي التَّوْرَةِ مَا يَقُولُ هُوَ، وَنَحْوُ ذَا. وَقِيلَ: إِنَّهُمْ كَانُوا طَلَاغِ الْكَفَرَةِ وَغِيوَانِ لَهُمْ. فَإِذَا أَتَى لَهُمْ خَبْرٌ يُخْبِرُونَ ضَعْفًا أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ خِلَافَ مَا أَتَاهُمْ نَحْوَ قَوْلِهِمْ ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣] [لَأَنَّهُمْ كَانُوا] ^(٨) يَخْشَوْنَهُمْ، لِئَلَّا يَغْزَوْهُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ مَوَاضِعِهِ﴾ يَحْتَمِلُ التَّحْرِيفَ وَجَهَيْنِ:

[يَحْتَمِلُ] ^(٩) تَبْدِيلَ الْكِتَابَةِ مِنَ الْأَصْلِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَوْلِيلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٩].

وَيَحْتَمِلُ تَغْيِيرَ الْمَعْنَى فِي الْعِبَارَةِ عَلَى غَيْرِ تَبْدِيلِ الْكِتَابِ؛ يُغَيِّرُونَ عَلَى السَّفَلَةِ وَالَّذِينَ لَا يَعْرِفُونَ غَيْرَ مَا فَهَمُوا مِنْهُ.

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا﴾ يَغْنَوْنَ بِ «هَذَا» مَا حَرَّفُوهُ، وَغَيَّرُوهُ «فَخَذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا» عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ: [أَنَّهُ] ^(١٠) قَالَ: نَزَلَتْ الْآيَةُ فِي رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ مِنَ الْيَهُودِ، زَيْنًا، وَإِنْ كَانَ حُكْمُ اللَّهِ فِي التَّوْرَةِ فِي الرَّثَى الرَّجْمِ، وَكَانُوا يَرْجُمُونَ الْوَضِيعَ مِنْهُمْ إِذَا رَثَى، وَلَا يَرْجُمُونَ الشَّرِيفَ، وَكَانَا فِي شَرَفٍ وَمَوْضِعٍ، وَكَانَا قَدْ أَخْصَنَا، فَكَرِهَتِ الْيَهُودُ رَجْمَهُمَا [وَكَانَ] ^(١١) فِي كِتَابِهِمُ الرَّجْمُ، وَكَانُوا أَرَادُوا أَنْ يَرْتَفِعَ الرَّجْمُ مِنْ بَيْنِهِمْ وَأَنْ يَكُونَ / ١٣٠ - حُدُّهُمْ الْجُلْدَ. فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا﴾ يَغْنَوْنَ الْجُلْدَ «وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا» فَكَتَبُوا بِذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَسَأَلُوا عَنْ ذَلِكَ،

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل: ربما والتصديق، في م: ربما التصديق. (٦) الواو ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: هذا وبدل. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل: كما، في م: كانوا. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنَا عَنِ الرَّانِيِّ وَالرَّانِيَّةِ إِذَا أَحْصَيْنَا مَا خَدَمَهُمَا؟ وَهَلْ تَجِدُ فِيهِمَا الرَّجْمَ فِي مَا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْكَ؟ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: وَهَلْ تَرْضَوْنَ بِقَضَائِي فِي ذَلِكَ؟ قَالُوا: نَعَمْ. فَنَزَلَ جِبْرِيلُ ﷺ وَقَالَ لَهُ: إِنَّ أَبَاكَ أَنْ يَأْخُذُوا بِهِ، فَاسْأَلَهُمْ عَنْ رَجُلٍ مِنْهُمْ، يُقَالُ لَهُ: ابْنُ صُورِيَا، وَوَصَفَهُ^(١) لَهُ، فَاجْعَلْهُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: نَعَمْ أَجِدُ فِي مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ أَنَّ الرَّانِيَّةَ وَالرَّانِيَّ، إِذَا أَحْصَيْنَا، وَقَجَرَا، فَإِنَّ عَلَيْهِمَا الرَّجْمَ، فَتَفَرَّوْا عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَنْتُمْ قَوْمٌ رَجُلًا شَابًا، صِفَتُهُ كَذَا، يُقَالُ لَهُ: ابْنُ صُورِيَا؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: قَائِي رَجُلٍ، هُوَ فِيكُمْ؟ قَالُوا: وَهُوَ أَغْلَمُ الْيَهُودِ عَلَى ظَهْرٍ^(٢) الْأَرْضِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى، قَالَ: فَأَرْسِلُوا إِلَيْهِ، فَقَعَلُوا، فَأَتَاهُمُ ابْنُ صُورِيَا، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَنْتَ ابْنُ صُورِيَا؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: أَنْتَ أَغْلَمُ الْيَهُودِ؟ قَالَ: كَذَلِكَ يَزْعُمُونَ. قَالَ: اجْعَلُوهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ. قَالُوا: نَعَمْ رَضِينَا بِهِ إِذَا رَضِيتَ. قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَأَنَّى تُشْرِكُ بِاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ^(٣) التَّوْرَةَ عَلَى مُوسَى؟ هَلْ تَجِدُونَ فِي كِتَابِكُمْ الَّذِي آتَاكُمْ بِهِ مُوسَى فِي التَّوْرَةِ الرَّجْمَ عَلَى مَنْ أَحْصَيْنَا؟ قَالَ ابْنُ صُورِيَا: نَعَمْ، وَالَّذِي ذَكَرْتَنِي لَوْلَا خَشْيَةُ أَنْ تُخْرِقَنِي النَّارَ إِنْ كَذَبْتُ، أَوْ غَيَّرْتَ، مَا اعْتَرَفْتُ لَكَ. فَبَقِيَ هَذَا وَجُوهٌ مِنَ الدَّلَائِلِ:

أَحَدُهَا: أَنْ سَأَلَهُمْ عَمَّا كَتَبُوا مِنَ الْأَحْكَامِ وَالْحُقُوقِ الَّتِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى لِيُظْهِرَ حَيَاتَتَهُمْ وَكَذِبَتَهُمْ فِي مَا كَتَبُوا مِنْ بَغْيٍ^(٤) رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَصِفَتِهِ، لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ إِنَّمَا عَرَفَ ذَلِكَ بِاللَّهِ. وَفِيهِ إِبْتَاهُ رِسَالَتِهِ.

وَالثَّانِي: أَنَّهُمْ طَلَبُوا مِنْهُ الرُّخْصَةَ وَالتَّخْفِيفَ فِي الْحَدِّ: أَنَّهُمْ عَرَفُوا أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، لَكِنَّهُمْ كَابَرُوا فِي الْإِنْكَارِ بَعْدَ مَا عَرَفُوا أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَقًّا. وَفِيهِ دَلَالَةٌ شَهَادَةً بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ لَأَنَّهُ قِيلَ شَهَادَةُ ابْنِ صُورِيَا عَلَيْهِمْ حِينَ^(٥) شَهِدَ بِالرَّجْمِ.

[وَالثَّلَاثُ: مَا]^(٦) قَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَحْرَمُونَ أَلْكَرَ مِنْ بَدَنِ مَرَأْسِهِ يَقُولُونَ إِنَّ أُورِثَتُهُ هَذَا فَخَذُوهُ﴾ الْآيَةُ إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي قَتِيلٍ قُتِلَ عَمْدًا بَيْنَ قَبِيلَتَيْنِ بَنِي قُرَيْظَةَ [وَبَنِي] النَّضِيرِ. وَكَانَ الْقَتِيلُ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ. وَكَانَ^(٧) بَنُو النَّضِيرِ إِذَا قَتَلُوا مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ، لَمْ يُعْطَوْهُمُ الْقَوْدَ، وَلَكِنْ يُعْطَوْنَهُمْ^(٨) الدِّيَّةَ، [وَإِذَا]^(٩) قَتَلَ بَنُو قُرَيْظَةَ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ لَمْ يَرْضَوْا إِلَّا بِالْقَوْدِ، يَتَعَزَّزُونَ عَلَيْهِمْ. فَقَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، فَأَرَادُوا أَنْ يَرْفَعُوا أَمْرَهُمْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْمُتَافِقِينَ: إِنَّ قَتِيلَكُمْ قُتِلَ عَمْدًا، وَأَنَا أَخْشَى عَلَيْكُمْ الْقَوْدَ. فَإِنْ كَانَ مُحَمَّدٌ أَمَرَكُمْ بِالدِّيَّةِ لِقَتِيلٍ مِنْكُمْ، فَأَعْطُوهُ ﴿وَرَأَى لَرَّ تَوَاتُوهَ فَاحْذَرُوا﴾ فَلَا نَذْرِي فِيهِمْ كَانَتْ الْقِصَّةُ؟ وَفِيهِ مِنَ الدَّلَائِلِ مَا ذَكَرْنَا مِنْ إِبْتَاهِ الرِّسَالَةِ وَالنَّبْوَةِ، وَاللَّهُ أَغْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ﴾ قِيلَ: مَنْ يُرِدِ اللَّهُ عَذَابَهُ وَأَهْلَاكَهُ فَلَا يَمْلِكُ أَحَدٌ دَفْعَ ذَلِكَ الْعَذَابِ عَنْهُ.

وقيل: الْفِتْنَةُ الْمِحْنَةُ أَيِ مَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَمْتَحِنَ بِالرَّجْمِ أَوْ الْقَتْلِ فَلَنْ يَمْلِكَ لَهُ أَحَدٌ رَفْعَ ذَلِكَ.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُظْهِرْ قُلُوبَهُمْ﴾ قَالَتِ الْمُعْتَرِلَةُ: قَوْلُهُ: ﴿لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُظْهِرْ قُلُوبَهُمْ﴾ تَأْوِيلُهُ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

[الْأَوَّلُ]^(١٠): يَحْتَمِلُ ﴿لَمْ يُرِدِ اللَّهُ﴾ أَيِ لَمْ يُظْهِرِ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ.

وَالثَّانِي: [يَحْتَمِلُ]^(١١) ﴿لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُظْهِرْ قُلُوبَهُمْ﴾ بِالشَّرْكِ وَالْكَفْرِ، وَذَلِكَ بَعِيدٌ لَأَنَّهُ كَيْفَ يُظْهِرُ بِالْكَفْرِ؟ وَبِالْكَفْرِ يَنْتَجِسُ.

لَكِنَّ الرُّجُوعَ عِنْدَنَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَيْكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُظْهِرْ قُلُوبَهُمْ﴾ أَيِ ﴿لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُظْهِرْ قُلُوبَهُمْ﴾ إِنْ عَلِمَ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ يَخْتَارُونَ مَا اخْتَارُوا، وَيُرِيدُونَ مَا أَرَادُوا فَإِنَّمَا أَرَادَ مَا كَانَ عَلِيمَ مِنْهُمْ [أَنَّهُمْ]^(١٢) يُرِيدُونَ مَا أَرَادُوا^(١٣)، وَإِنَّمَا أَرَادَ مَا كَانَ عَلِيمَ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ، وَيَخْتَارُونَ. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ﴾ إِنْ^(١٤) عَلِمَ أَنَّهُ يُرِيدُهَا، وَيَخْتَارُهَا فَإِنَّمَا يُرِيدُ مَا أَرَادَ هُوَ، وَيَخْتَارُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَصَفَ. (٢) فِي الْأَصْلِ: يَهُودِي عَلَى، فِي م: يَهُودِي عَلَى ظَهْرٍ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنْزَلَ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: نَعَتْ.

(٥) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: كَانَتْ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: يُعْطَوْنَهُمْ.

(١٠) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١١) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: أَرَادَ.

(١٤) فِي الْأَصْلِ وَم: مِنْ.

وظاهر الآية على المغترلة لأنه قال: ﴿لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَظْهَرَ قُلُوبُهُمْ﴾ وذلك ظاهر الخلاف، وبالله العزيمة وقوله تعالى: ﴿لَمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ الخِزْيُ في الدنيا القتل والعذاب والخزينة ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

الآية ٤٢

وقوله تعالى: ﴿سَتَعْلَمُونَ لِلْكَذِبِ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

يَحْتَمِلُ: ﴿سَتَعْلَمُونَ﴾ أَي مُسْتَعْمِلُونَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِيَعْرِفُوا، فَيَكْذِبُوا عَلَيْهِ.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿سَتَعْلَمُونَ لِلْكَذِبِ﴾ أَي قَائِلُونَ: مَا ^(١) أَلْقَى إِلَيْهِمْ مِنَ الْكَذِبِ كَانُوا يَقْبَلُونَ ^(٢)، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿أَكْتَلُونَ لِلشَّحْتِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: كُلُّ حَرَامٍ، هُوَ سُحْتٌ. وَإِنْ كَانَ السُّحْتُ اسْمَ كُلِّ حَرَامٍ فَذَلِكَ يَنْعَمُ كُلُّ حَرَامٍ وَجَمِيعُ الْكُفْرَةِ أَوْ أَكْثَرُهَا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: السُّحْتُ هُوَ الرِّشْوَةُ فِي الْحُكْمِ. فَإِنْ كَانَ السُّحْتُ هَذَا فَذَلِكَ يَرْجِعُ إِلَى رُؤَسَائِهِمُ الَّذِينَ يَحْكُمُونَ فِي مَا بَيْنَهُمْ، وَيَأْخُذُونَ عَلَى ذَلِكَ رِشْوَةً.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ جَاءَكَ فَاعْلَمْ أَنَّهُمْ أَوْ أَعْرَضُوا عَنْهُمْ﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ، قَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ عَلَى التَّخْيِيرِ إِذَا رَفَعُوا إِلَى الْإِمَامِ [أَمَرَهُمْ] ^(٣) إِنْ شَاءَ حَكَمَ بَيْنَهُمْ، وَإِنْ شَاءَ أَعْرَضَ، وَلَمْ يَحْكَمْ. [وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ] ^(٤) مَنْسُوخٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنْ أَعْلَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاتَّخِذْ لَهُمْ خُصْمًا إِنَّ اللَّهَ هُوَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَا أَصْبَرُوا لَهُمْ لَوِ كَفَرَ﴾ [الآية: ٤٩] أَمَرَ بِالْحُكْمِ بَيْنَهُمْ، إِذَا جَاءُوا، وَنَهَى أَنْ يَتَّبِعَ أَهْوَاءَهُمْ، وَفِي تَرْكِ الْحُكْمِ بَيْنَهُمْ اتِّبَاعُ هَوَاهُمْ. قَالُوا مَنْسُوخٌ بِهَذِهِ الْآيَةِ.

وَأَمَّا الْجَمْعُ بَيْنَهُمْ، وَهُوَ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُمْ أَوْ أَعْرَضُوا عَنْهُمْ﴾ فِي قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ دَخَلُوا دَارَ الْإِسْلَامِ بِأَمَانٍ، فَرَفَعُوا إِلَى الْإِمَامِ أَمْرَهُمْ، فَالْإِمَامُ بِالْخِيَارِ إِنْ شَاءَ رَدَّهُمْ إِلَى مَا مَنَعَهُمْ، وَتَقَضَّ عَلَيْهِمْ أَمَانُهُمْ، وَلَمْ يَحْكَمْ بَيْنَهُمْ، وَإِنْ شَاءَ [مَا] ^(٥) تَرَكَهُمْ، وَحَكَمَ بَيْنَهُمْ، فَذَلِكَ مَعْنَى التَّخْيِيرِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْ أَعْلَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاتَّخِذْ لَهُمْ خُصْمًا﴾ ذَلِكَ فِي أَهْلِ الذِّمَّةِ الرَّاضِينَ بِحُكْمِنَا، إِذَا رَفَعُوا إِلَى الْحَاكِمِ [أَمَرَهُمْ] ^(٦) يَجِبُ أَنْ يَحْكَمْ بَيْنَهُمْ، وَلَا يَرُدُّ عَلَيْهِمْ مَا طَلَبُوا مِنْ إِجْرَاءِ الْحُكْمِ عَلَيْهِمْ لِأَنَّهُمْ بِوَيْسَ لَهُ فَنَسَخَ مَا أُعْطِيَ لَهُمْ مِنَ الْعُهُودِ وَالْمَوَاقِيقِ، وَهُمْ قَدْ رَضُوا بِحُكْمِنَا. لِذَلِكَ أُلْزِمَ الْحُكْمَ بَيْنَهُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَعْرِضَ عَنْهُمْ فَكَانَ يَعْمُرُكَ شَيْئًا﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

يَحْتَمِلُ أَنْ يَقَعَ الْإِعْرَاضُ عَنْهُمْ مَرَقَعَ الْحَفَاءِ، وَيَعْدُوا ^(٧) ذَلِكَ جَفَاءً، فَأَمَّا ^(٨) نَبِيَّهُ ﷺ عَنْ أَنْ يَلْحَقَهُ ضَرَرٌ مِنْهُمْ.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَكَانَ يَعْمُرُكَ شَيْئًا﴾ أَي لَيْسَ عَلَيْكَ ضَرَرٌ مَا هُمْ فِيهِ؛ فَإِنَّمَا ضَرَرٌ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَيَتَلَكَّ مَا حُمِّلَتْ﴾ [النور: ٥٤] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٥٢].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ حَكَمْتَ فَاعْلَمْ أَنَّهُمْ بِالْفُسْطِ﴾ أَي بِالْعَدْلِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَوْنُوا قَوَّيْمِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾

[النساء: ١٣٥] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا حَكَمْتُ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَعْلَمُوا بِالْقَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

[وقوله تعالى] ^(٩): ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ أَي الْعَادِلِينَ فِي الْحُكْمِ.

الآية ٤٣

وقوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ يُعْجِبُ نَبِيَّهُ ﷺ [مِنْ] ^(١٠) شِدَّةِ سَفَهِهِمْ وَتَعَتُّبِهِمْ بِتَرْكِهِمُ الْحُكْمَ الَّذِي صَدَّقُوا وَطَلَبَ الْحُكْمَ بِمَا كَذَّبُوا لِأَنَّهُمْ صَدَّقُوا التَّوْرَةَ وَمَا فِيهَا مِنَ الْحُكْمِ، وَكَذَّبُوا مَا أَنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ، [عَلَيْهِ أَفْضَلُ/ ١٣٠ - ب/ الصَّلَوَاتِ] ^(١١). يَقُولُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: إِنَّهُمْ إِذَا لَمْ يَعْمَلُوا ^(١٢) بِالَّذِي صَدَّقُوا كَيْفَ يَعْمَلُونَ بِالَّذِي كَذَّبُوا؟ وَذَلِكَ تَعْجِيبٌ مِنْهُ لِإِيَّاهُ [مِنْ] ^(١٣) شِدَّةِ السَّفْهِ وَالتَّعَتُّبِ.

(١) فِي الْأَصْلِ: لَا، فِي م: لَمَّا. (٢) أَدْرَجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: لَمَّا أَلْقَى إِلَيْهِمْ مِنَ الْكَذِبِ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: لَكِنَّهُ. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيَعْدُونَ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: فَاثَمَةً. (٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٠) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١١) فِي م: ﷺ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: يَعْمَلُوا. (١٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

وقوله تعالى: ﴿فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ أي حُكْمُ اللَّهِ الذي تَنَازَعُوا فِيهِ، وَتَشَاجَرُوا رَجْمًا كَانَ أَوْ قِصَاصًا أَوْ مَا كَانَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

يَحْتَمِلُ: ﴿يَتَوَلَّى مِنْ بَعْدِ﴾ مَا تَحْكُمُ بَيْنَهُمْ عَمَّا حَكَمْتَ.

وَيَحْتَمِلُ: ﴿يَتَوَلَّى مِنْ بَعْدِ﴾ مَا عَرَفُوا مِنَ الْحُكْمِ عَلَيْهِمْ بِمَا فِي التَّوْرَةِ^(١).

الآية ٤٤

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْا النَّكَاسَ﴾ فِي مَا تَحْكُمُ عَلَيْهِمْ ﴿وَأَخْشَوْا﴾ أَمَّنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ شَرُّهُمْ وَنَكِبَتُهُمْ، وَأَمْرٌ أَنْ يَخْشَوْهُ، يَكْفِيهِ شَرُّهُمْ وَأَذَاهُمْ.

ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي ﴿وَالرَّيْبِيِّنَ وَالْأَخْبَارَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: الرَّبَائِيُونَ عُلَمَاءُ الْيَهُودِ، وَالْأَخْبَارُ عُلَمَاءُ النَّصَارَى، وَهُمَا وَاحِدٌ؛ سُمُّوا بِاسْمَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ. وَقِيلَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخْشَوْا النَّكَاسَ وَأَخْشَوْا﴾ إِنَّمَا خَاطَبَ عُلَمَاءَهُمْ؛ أَيْ ﴿فَلَا تَخْشَوْا النَّكَاسَ﴾ إِنْ تُخْبِرُوهُمْ بِالْحُكْمِ الَّذِي فِي التَّوْرَةِ ﴿وَأَخْشَوْا وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيَّتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ لَهُمْ خَرَجَ الْخِطَابِ بِهَذَا عَلَى التَّأْوِيلِ الثَّانِي.

[وقوله تعالى^(٢): ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ هَكَذَا مَنْ جَحَدَ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ، وَلَمْ يَرَهُ^(٣) حَقًّا فَهُوَ كَافِرٌ. ذَكَرَ فِي الْقِصَّةِ أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي قَتِيلٍ كَانَ بَيْنَ بَنِي قُرَيْظَةَ وَبَنِي النُّضِيرِ؛ إِنَّ بَنِي النُّضِيرِ إِذَا قَتَلُوا [مِنْ^(٤)] بَنِي قُرَيْظَةَ لَمْ [يُعْطَوْهُمْ الْقَوْدَ]^(٥)، وَلَكِنْ يُعْطَوْنَهُمُ الدِّيَةَ فَتَزُولُ ﴿وَكُنَّا عَلَيْهِمْ بِهَا أَنَّهُ النَّفْسُ بِالنَّفْسِ﴾.

الآية ٤٥

وقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا عَلَيْهِمْ بِهَا أَنَّهُ النَّفْسُ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنُ بِالْعَيْنِ﴾ إِلَى آخِرِهِ. أَخْبَرَ اللَّهُ ﷻ أَنَّهُ كَانَ كَتَبَ عَلَى أَهْلِ التَّوْرَةِ ﴿النَّفْسُ بِالنَّفْسِ﴾ وَقَدْ كَتَبَ عَلَيْنَا أَيْضًا قَتْلَ النَّفْسِ بِالنَّفْسِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٧٨] كَأَنَّهُ قَالَ: كَتَبْتُ^(٦) عَلَيْكُمُ الْقِصَاصَ فِي الْقَتْلِ بِالنَّفْسِ كَمَا كُنْتُ كَتَبْتُ عَلَيْهِمْ. وَأَمَّا الْقِصَاصُ فِي مَا دُونَ النَّفْسِ فَإِنَّهُ لَمْ يَسْنِ فِي الْآيَةِ الَّتِي أَخْبَرَ ﷻ أَنَّهُ كَتَبَ عَلَيْنَا الْقِصَاصَ فِي الْقَتْلِ.

ثُمَّ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْعَيْنُ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفُ بِالْأَنْفِ﴾ إِلَى مَا ذَكَرَ وَجْهَيْنِ:

يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ إِخْبَارًا عَمَّا كَانَ مَكْتُوبًا عَلَيْهِمْ مِنَ الْقِصَاصِ فِي مَا دُونَ النَّفْسِ كَالنَّفْسِ. أَلَا تَرَى أَنَّهُ قُرِئَ فِي بَعْضِ الْقِرَاءَاتِ بِالنُّصْبِ نَسَقًا^(٧) عَلَى الْأَوَّلِ؟

وَيَحْتَمِلُ عَلَى الْإِنْبِذَاءِ عَلَى غَيْرِ إِخْبَارٍ مِنْهُ، وَلَكِنْ عَلَى الْإِيجَابِ ابْتِدَاءً.

وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ نَصَّدَفَ بِهِ فَبُورَ كَفَّارَةً لَهُ﴾ لَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا فِي الْخَبَرِ لِأَنَّ ذَلِكَ تَرْغِيبٌ فِي الْعَفْوِ فِي الْحَادِثِ مِنَ الْوَقْتِ. ذَلِكَ أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى الْإِخْبَارِ، وَلَكِنْ عَلَى الْإِنْبِذَاءِ. أَلَا تَرَى أَكْثَرَ الْقُرَّاءِ قَرَأُوا بِالرَّفْعِ غَيْرَ قَوْلِهِ: ﴿النَّفْسُ بِالنَّفْسِ﴾ فَإِنَّهُ بِالنُّصْبِ؟

ثُمَّ ذَكَرَ ﴿وَالْعَيْنُ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفُ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنُ بِالْأُذُنِ﴾ وَلَمْ يَذْكُرِ الْيَدَ وَالرَّجْلَ. وَذَلِكَ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: لِمَ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْقِصَاصُ فِي الْيَدِ ظَاهِرًا^(٨)، فَيَسْتَدِلُّ بِوُجُوبِهِ فِي مَا هُوَ أَظْهَرُ مِنْهُ لِأَنَّ الْمُتَنَفِّعَ بِالْبَصَرِ وَالْأَنْفِ وَالسَّمْعِ لَيْسَ إِلَّا صَاحِبُهُ، وَقَدْ يَنْتَفِعُ غَيْرُهُ بِيَدِ آخَرَ وَبِرَجْلِهِ.

وَالثَّانِي: أَنْ يَكُونَ وَجُوبُ الْقِصَاصِ فِي الْيَدِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ﴾.

(١) ساقطة من م. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: ير. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: يرضوا إلا بالقود. انظر ما أدرج في بيان سبب نزول قوله تعالى: ﴿يَتَوَلَّى مِنْ بَعْدِ مَا يُبَيِّنُ﴾ [الآية: ٤١]. والحكم في القتل بين بني النضير وبين قريظة ص ٨٩، ٨٩. (٦) في الأصل وم: كتب. (٧) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر كلها بالنصب والجروح رفعا وقرأ نافع وعاصم وحمزة جميع ذلك بالنصب، وقرأ الكسائي كلها بالرفع. انظر حجة القراءات ص (٢٢٥). (٨) في الأصل وم: ظاهر.

ثُمَّ تَخْصِيصُ الْأَسْنَانِ بِوُجُوبِ الْقِصَاصِ دُونَ غَيْرِهَا مِنَ الْعِظَامِ لِأَنَّ الْأَسْنَانَ بَادِيَةٌ ظَاهِرَةٌ، وَيَقَعُ عَلَيْهَا الْبَصَرُ، وَيُقَدَّرُ^(١) عَلَى الْإِقْطِصَاصِ.

وَأَمَّا غَيْرُهَا مِنَ الْعِظَامِ مِمَّا لَا يَقَعُ عَلَيْهَا الْبَصَرُ، وَلَا يُقَدَّرُ عَلَى الْإِقْطِصَاصِ إِلَّا بَعْدَ كَسْرِ آخَرٍ وَقَطْعِ لَحْمٍ، لِذَلِكَ خُصِّبَ الْأَسْنَانُ بِالْإِقْطِصَاصِ دُونَ سَائِرِ الْعِظَامِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ فِيهِ دَلِيلُ وَجُوبِ الْقِصَاصِ فِي الْمَعْضِيِّ^(٢) الَّذِي لَا مَنَفْعَةَ فِيهِ سِوَى الْبَهَاءِ بِذَهَابِ الْبَهَاءِ لِأَنَّهُ ذَكَرَ الْأَنْفَ وَالْأُذُنَ، وَلَيْسَ فِي الْأَنْفِ وَالْأُذُنِ إِلَّا^(٣) ذَهَابُ الْبَهَاءِ، فَأَوْجِبَ فِي ذَهَابِ الْبَهَاءِ الْقِصَاصَ كَمَا أَوْجِبَ^(٤) فِي ذَهَابِ الْمَنَفْعَةِ. وَعَلَى هَذَا يَخْرُجُ قَوْلُنَا: وَجُوبُ الدِّيَةِ فِي ذَهَابِ الْبَهَاءِ عَلَى الْكَمَالِ كَوُجُوبِهَا فِي ذَهَابِ الْمَنَفْعَةِ عَلَى الْكَمَالِ. عَلَى [أَنْ]^(٥) أَهْلُ الْعِلْمِ مُجْتَمِعُونَ أَنَّ الْقِصَاصَ وَاجِبٌ بَيْنَ الرُّجَالِ الْأَخْرَارِ فِي الْعَيْنِ وَالْأَنْفِ وَالْأُذُنِ وَالسِّنِّ وَالْجُرُوحِ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا كَسْرُ عَظْمٍ إِذَا جُنِيَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ عَمْدًا تَخْدِيدُهُ. وَأَمَّا الْقِصَاصُ بَيْنَ الرُّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْعَبِيدِ وَالْأَخْرَارِ فِي مَا دُونَ النَّفْسِ فَأَهْلُ الْعِلْمِ اخْتَلَفُوا فِيهِ، وَكَانَ أَصْحَابُنَا، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى، لَا يَرَوْنَ الْقِصَاصَ بَيْنَهُمْ فِي ذَلِكَ، وَيَرَوْنَ الْقِصَاصَ فِي الْأَنْفُسِ. فَأَهْلُ الْعِلْمِ اخْتَلَفُوا فِيهِ. وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ جَمَاعَةً لَوْ قَتَلُوا رَجُلًا قُتِلُوا بِهِ، وَلَوْ قَطَعَ جَمَاعَةٌ يَدَ رَجُلٍ لَمْ تُقَطَّعْ أَيْدِيهِمْ. فَالْتِمَاضُ فِي النَّفْسِ غَيْرُ مُعْتَبَرٍ بِهِ، وَيُعْتَبَرُ فِي مَا دُونَ النَّفْسِ، وَقَدْ ذَكَرْنَا هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ فِي مَا تَقَدَّمَ ذِكْرًا كَافِيًا.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ صَاحِبُ الدَّمِ، كَفَّارَةٌ لِمَا كَانَ أَزْكَبَ هُوَ. وَعَلَى ذَلِكَ رُويَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ [أَنَّهُ]^(٦) قَالَ: «مَنْ تَصَدَّقَ بِدَمٍ فَمَا دُونَهُ كَانَ لَهُ كَفَّارَةٌ مِنْ يَوْمٍ وَلَيْدٌ إِلَى يَوْمٍ تَصَدَّقَ» [أَبُو يَعْلَى: ٦٨٦٩] وَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ يَغْنِي كَفَّارَةً لِلْقَاتِلِ إِذَا عَفَا الْوَلِيُّ؛ وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وَعَنْ مُجَاهِدٍ هُوَ كَفَّارَةٌ لِلجَّارِحِ وَأَجْرٌ لِلْمُتَصَدِّقِ عَلَى اللَّهِ. وَالْأَوَّلُ كَأَنَّهُ أَقْرَبُ وَأَشْبَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ هَذَا إِذَا تَرَكَ الْحُكْمَ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ جُحُودًا مِنْهُ فَهُوَ^(٧) كَافِرٌ.

الآية ٤٦

وقوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَرِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ أَيِ انْتَبَهْنَا ﴿عَلَى آثَرِهِمْ﴾ وَهُوَ مِنَ الْقَضَاءِ. وَقَوْلُهُ: ﴿عَلَى آثَرِهِمْ﴾ يَخْتَمِلُ وَجْهَيْنِ: يَخْتَمِلُ ﴿عَلَى آثَرِهِمْ﴾ الرُّسُلَ. وَيَخْتَمِلُ عَلَى آثَارِ الَّذِينَ أَنْزَلَ فِيهِمُ التَّوْرَةَ. وقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَهُ إِلَّا الْإِيجِلَ فِيهِ هَدًى وَنُورٌ﴾ مِنَ الضَّلَالَةِ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ ﴿وَنُورٌ﴾ لِمَنْ اسْتَنَارَهُ ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْوَرِثَةِ﴾ فَهَذَا يُدَلُّ أَنَّ الْكُتُبَ كَانَتْ مُصَدِّقَةً بَعْضُهَا بَعْضًا عَلَى بَعْدِ أَوْقَاتِ التَّوْرَةِ. جَلَّ اللَّهُ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ ﴿عَلُّوْا كِبْرًا﴾ [الْإِسْرَاءُ: ٤٣].

وقوله تعالى: ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ يَخْتَمِلُ: مَوْعِظَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ^(٨) لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ هُوَ الَّذِي يَتَّقِي بِهِ. وَأَمَّا غَيْرُ الْمُؤْمِنِ فَلَا يَتَّقِي بِهِ. وَيَخْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الَّذِينَ اتَّقَوْا الْمَعَاصِيَ كُلَّهَا.

وفي قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ عَفَا عَنْهُ﴾. ﴿فَمَنْ عَفَا عَنْهُ﴾ [البقرة: ١٧٨] دَلَالَةٌ [عَلَى]^(٩) أَنَّ الْقِصَاصَ لِلْعِبَادِ خَاصَّةً [حِينَ رَغَبَهُمْ]^(١٠) فِي الْعَفْوِ عَنْهُ وَالتَّرْكِ لَهُ. لَيْسَ كَالْحُدُودِ الَّتِي هِيَ لِلَّهِ لِأَنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ فِي الْحُدُودِ الْعَفْوَ وَلَا التَّصَدُّقَ بِهِ، وَذَكَرَهُ^(١١) فِي الْقِصَاصِ وَالْجَرَاحَاتِ. ذَلِكَ أَنَّ ذَلِكَ لِلْعَبْدِ؛ لَهُ تَرْكُهُ، وَسَائِرُ الْحُدُودِ لِلَّهِ، لَيْسَ لِأَحَدٍ إِبْطَالُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٤٧

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِيجِلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [الآية: ٤٤] وَفِي مَوْضِعٍ: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الآية: ٤٥] وَفِي

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل العفو. (٣) في الأصل وم: لا. (٤) في الأصل وم: أوجب، وأدرج قبل كلمة أوجب في الأصل وم: كما أوجب في ذهاب الهاء القصاص. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) أدرج بعدها في الأصل وم: ما ذكر. (٨) في الأصل وم: للمتقين. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: حيث رغبه. (١١) في الأصل وم: ذكر.

مَوْضِعُ ﴿الْقِسْفَتِ﴾ [الآية: ٤٧] فَاْمَنْكُنْ أَنْ يَكُونَ كُفْلٌ وَاحِدًا^(١)، مَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ جُحُودًا مِنْهُ لَهُ وَاسْتِخْفَافًا فَهُوَ كَافِرٌ ظَالِمٌ فَاسِقٌ. وَبِخْتِمَالٍ أَنْ يَكُونَ مَا ذَكَرَ مِنَ الْكُفْرِ بِتَرْكِ الْحُكْمِ بِهِ جُحُودًا مِنْهُ وَإِنْكَارًا وَمَا ذَكَرَ مِنَ الظُّلْمِ وَالْفِسْقِ فِي الْمُسْلِمِينَ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ﴾ إِلَى آخِرِ مَا ذَكَرَ [الآية: ٤٥]، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَنْ نَصَّدَّقْ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الآية: ٤٥] تَرَكَوا الْحُكْمَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ اتِّبَاعًا لِأَهْوَائِهِمْ^(٢) لَا جُحُودًا فَقَدْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ لِأَنَّ الظُّلْمَ هُوَ وَضْعُ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، وَالْفِسْقُ هُوَ الْخُرُوجُ عَنِ^(٣) الْأَمْرِ تَقْوِيلُهُ تَعَالَى: ﴿فَقَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠] أَيْ خَرَجَ. ثُمَّ يَجِيءُ أَنْ يَكُونَ هَذَا فِي حَالِ الْجَهْلِ وَالْعِلْمِ سَوَاءً لِأَنَّهُ إِذَا ١٣١ - ١/ ﴿لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [الآية: ٤٥] فَقَدْ وَضَعَ الشَّيْءَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، وَخَرَجَ عَنْ أَمْرِهِ. لَكِنْ هَذَا فِي الْقَوْلِ يُفْصَحُ أَنْ يُقَالَ: هُوَ ظَالِمٌ فَاسِقٌ. وَهُوَ إِنَّمَا يَفْعَلُ عَنْ جَهْلِ بِهِ، وَيَجُوزُ^(٤) أَنْ يُقَالَ: يَفْعَلُهُ يَفْعَلُ ظُلْمٌ وَفِسْقٌ. وَأَمَّا فِي الْقَوْلِ فَهُوَ قَبِيحٌ لِمَا ذَكَرْنَا.

[وقوله تعالى]^(٥): ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْأَرْبَعِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ فِيهِ مِنَ الْأَحْكَامِ: أَيْ حُكْمٍ كَانَ فَهُوَ مَا ذَكَرْنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٤٨

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ قَوْلُهُ ﴿بِالْحَقِّ﴾ قَدْ ذَكَرْنَا فِي مَا تَقَدَّمَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ.

وقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ قَدْ ذَكَرْنَا أَيْضًا.

وقوله تعالى: ﴿وَمُتَمِّمًا عَلَيْهِ﴾ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه [أَنَّهُ]^(٦) قَالَ: مُتَمِّمًا عَلَيْهِ، وَالْكَسَائِيُّ: الْمُتَمِّمُ الشَّدِيدُ. وَقِيلَ: الرَّزِيقُ عَلَى الشَّيْءِ، وَقِيلَ^(٧): هَيْمَنْ فَلَانَ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ، فَهُوَ مُتَمِّمٌ إِذَا كَانَ الْحَافِظَ لَهُ وَالرَّقِيبَ عَلَيْهِ. وَعَنِ الْحَسَنِ [أَنَّهُ]^(٨) قَالَ: ﴿وَمُتَمِّمًا عَلَيْهِ﴾ مُصَدِّقًا بِهَذِهِ الْكُتُبِ وَآمِنًا عَلَيْهَا. وَالْقَتَّابِيُّ قَالَ: آمِنًا عَلَيْهِ، وَأَبُو عَوْسَجَةَ قَالَ: مُسْلَطًا عَلَيْهِ. وَقِيلَ: مُفَسِّرًا يُفَسِّرُ التَّفْسِيرَ. وَقَالَ أَبُو بَكْرِ الْكِسَائِيُّ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمُتَمِّمًا﴾ هِيَ كَلِمَةٌ مَأْخُودَةٌ مِنْ كُتُبِهِمْ غَيْرُ مُعَرَّبَةٍ مِنْ لِسَانِ الْعَرَبِ. وَفِيهِ إِثْبَاتٌ رِسَالَتِهِ صلوات الله وسلاماته وَتَأْوِيلُهُ: هُوَ شَاهِدٌ وَحَافِظٌ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الْكُتُبِ وَمُصَدِّقٌ^(٩) لَهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَزَلَّتْ سِوَى مَا غَيْرُوا فِيهَا، وَخَرُفُوهُ لِيُمَيِّزَ الْمُغَيَّرَ مِنْهَا وَالْمُحَرَّفَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: ﴿وَمُتَمِّمًا عَلَيْهِ﴾ الْقُرْآنَ شَاهِدًا عَلَى الْكُتُبِ كُلِّهَا.

وقوله تعالى: ﴿فَأَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ بِخْتِمَالٍ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ مِنَ الرَّجْمِ فِي الرَّأْيِ الثَّيِّبِ عَلَى مَا ذَكَرَ فِي بَعْضِ الْقِصَصِ أَنَّهُمْ رَفَعُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلوات الله وسلاماته [أَمْرُهُمْ]^(١٠) فِي الرَّأْيِ وَالرَّأْيَةِ مِنْهُمْ، فَطَلَبُوا مِنْهُ الْجَلْدَ، وَكَانَ فِي كُتُبِهِمُ الرَّجْمُ ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ بِقَوْلِهِمْ: ﴿إِنْ أُرِيدْنَا هَذَا فَنَحْدُوهُ وَإِنْ لَمْ تَتَوَقَّهْ فَأَحْدُوهُ﴾ [المائدة: ٤١] أَوْ أَنْ يُقَالَ: ﴿فَأَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ مِنَ الْقَتْلِ لِأَنَّهُ ذَكَرَ فِي بَعْضِ الْقِصَصِ أَنَّ ابْنِي النَّضِيرِ^(١١) كَانُوا يَرَوْنَ لَأَنْفُسِهِمْ فَضِيلَةً عَلَى بَنِي قُرَيْظَةَ^(١٢)، وَكَانُوا إِذَا قَتَلُوا مِنْهُمْ أَحَدًا لَمْ يُعْطَوْهُمُ الْقَوْدَ، [وَلَكِنْ]^(١٣) يُعْطَوْنَهُمُ الدِّيَّةَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالْقِصَّةِ أَنْ كَيْفَ كَانَتْ؟ وَلَيْسَ بِنَا إِلَى مَعْرِفَةِ الْقِصَّةِ وَمَا هِيَ بِحَاجَةٍ بَعْدَ مَا أَوْدَعَ فِيهِ، وَأُذِرْ مِنَ الْمَعَانِي.

وقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَمَلْنَا بَيْنَكُمُ بَرْعَةً وَبَيْنَهُمَا﴾ الْآيَةُ، فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ نَهَا عَنْ اتِّبَاعِ أَهْوَائِهِمْ، وَقَدْ أَخْبَرَ صلوات الله وسلاماته: ﴿لِكُلِّ جَمَلْنَا بَيْنَكُمُ بَرْعَةً وَبَيْنَهُمَا﴾ وَقَدْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَا هُوَ أَوْ هُمْ سَرِيعَةً لَهُمْ؟ قِيلَ: بِخْتِمَالٍ النَّهْيِ عَنْ اتِّبَاعِ هَوَاهُمْ، لَا يَجُوزُ أَنْ يَهْوُوا الْحُكْمَ بِسَرِيعَةٍ، قَدْ نُسِخَ الْحُكْمُ بِهَا، لِمَا اغْتَادُوا الْعَمَلَ بِهَا. فَالْعَمَلُ بِالْمُعْتَادِ مِنَ الْحُكْمِ أَيْسَرُ، فَهَؤُلَاءِ ذَلِكَ، أَوْ كَانَ مَا نُسِخَ أَخْفَ، فَتَهْوُونَ، فَتَهَا عَنْ اتِّبَاعِ هَوَاهُمْ لِأَنَّ الْعَمَلَ بِالنُّسُوحِ حَرَامٌ. وَإِنْ كَانَ هُوَ فِي بَعْضٍ عَلَى غَيْرِهَا سَرَعٌ، وَفِي بَعْضٍ مَا سَرَعٌ، فَمَا^(١٤) نَهَى عَنِ اتِّبَاعِ هَوَاهُمْ بِمَا لَمْ يَسْرَعْ، فَلِئَلَّا نَهَى.

وقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَمَلْنَا بَيْنَكُمُ بَرْعَةً وَبَيْنَهُمَا﴾ وَلَيْسَ فِي نُسُخِ شَرِيعَةٍ بِشَرِيعَةٍ خُرُوجٍ عَنِ الْحِكْمَةِ؛ مِنْ غَرَفِ النَّسُخِ بَيَانُ مُتَنَهَى الْحُكْمِ إِلَى وَقْتٍ، لَيْسَ عَلَى مَا فَهَمَتِ الْيَهُودُ مِنَ الْبَدْوِ وَالرُّجُوعِ عَمَّا كَانُوا، وَقَدْ ذَكَرْنَا الْوَجْهَ فِي ذَلِكَ فِي مَا تَقَدَّمَ، مَا فِيهِ مُفْتِحٌ بِحَمْدِ اللَّهِ وَمَنْ قَوْلِهِ صلوات الله وسلاماته.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَاحِد. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: لَهُوَاهُمْ. (٣) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: عِنْد. (٤) الْوَاوُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: قَالَ. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: وَمُصَدِّقًا. (١٠) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: قُرَيْظَةَ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: النَّضِيرِ. (١٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٤) فِي الْأَصْلِ: مَا نَهَا، فِي م: فَلِئَلَّا نَهَى.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﷺ الشَّرْعَةُ هِيَ السَّبِيلُ، وَهِيَ الشَّرِيعَةُ، وَجَمَعَهَا شَرَائِعُ، وَبِهَا سُمِّيَتْ شَرَائِعُ الْإِسْلَامِ، وَكُلُّ شَيْءٍ شَرَعَتْ فِيهِ فَهُوَ شَرِيعَةٌ. وَقَالَ: الْإِنْتِهَاجُ السُّنَّةُ، وَالشَّرْعَةُ هِيَ السَّبِيلُ. وَقِيلَ: الشَّرْعَةُ السُّنَّةُ، وَالْإِنْتِهَاجُ السَّبِيلُ؛ يَعْنِي الطَّرِيقَ الْوَاضِحَ الَّذِي يَتَضَحُّ لِكُلِّ سَالِكٍ فِيهِ إِلَّا الْمَعَانِدَ وَالْمُكَابِرَ فَإِنَّهُ يَتْرُكُ السُّلُوكَ فِيهِ مُكَابَرَةً. يُخْبِرُ ﷺ وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَنَّهُ لَمْ يَتْرُكِ النَّاسَ حِيَارَى، لَمْ يُبَيِّنْ لَهُمُ الطَّرِيقَ الْوَاضِحَ يَسْلُكُونَ فِيهِ، بَلْ يُبَيِّنُ لَهُمُ مَا يَتَضَحُّ لَهُمْ، إِنْ لَمْ يُعَانِدُوا لَيَقْطَعَ لَهُمُ الْعُذْرَ وَالْجِحَاجَ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ جِحَاجٌ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعْتُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ:

قِيلَ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعْتُمْ﴾ جَمِيعاً عَلَى شَرِيعَةٍ وَاحِدَةٍ لَا تَنْسَخُ بِشَرِيعَةٍ أُخْرَى، لَكِنْ نَسَخَ بِشَرِيعَةٍ أُخْرَى لِفَضْلِ امْتِحَانِهِ، وَلِلَّهِ أَنْ يَمْتَحِنَ [عِبَادَهُ بِمَحْنٍ] ^(١) مُخْتَلِفَةٍ كَيْفَ شَاءَ وَبِمَا شَاءَ.

وقيل: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعْتُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أَي عَلَى دِينٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ، لَمْ يَجْعَلْ كَافِرًا وَلَا مُشْرِكًا، وَلَكِنْ امْتَحَنَكُمْ بِأَذْيَانٍ مُخْتَلِفَةٍ عَلَى مَا تَخْتَارُونَ، وَتُؤْثِرُونَ. ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي الْمَشِيقَةِ: قَالَتِ الْمُعْتَرِلَةُ: هِيَ مَشِيقَةُ الْجَبْرِ وَالْقَسْرِ. وَقَالَ أَصْحَابُنَا: الْمَشِيقَةُ مَشِيقَةُ الْإِخْتِيَارِ، وَقَدْ ذَكَرْنَاهَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ.

وقوله تعالى: ﴿فَاسْتَفِئُوا الْخَيْرَاتِ﴾ قِيلَ: سَابِقُوا يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ الْأَمَمِ كُلَّهَا بِالْخَيْرَاتِ. وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَاسْتَفِئُوا الْخَيْرَاتِ﴾ إِلَى مَا بِهِ تَسْتَوْجِبُونَ الْمَغْفِرَةَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الحديد: ٢١]. وَأَصْلُ قَوْلِهِ: ﴿فَاسْتَفِئُوا الْخَيْرَاتِ﴾ أَيِ اعْمَلُوا الْخَيْرَاتِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَعْمَلُوا صَالِحًا﴾ الآية، [المؤمنون: ٥١].

الآية ٤٩

وقوله تعالى: ﴿وَأَن أَعْلَمُ بَيْنَهُمْ بِمَا أَرْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ نَهَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَتَّبِعَ أَهْوَاءَهُمْ. وَالْوَجْهُ فِيهِ مَا ذَكَرْنَا أَنَّ الْعِصْمَةَ لَا تَمْنَعُ النَّهْيَ، بَلْ يُؤَيِّدُ؛ وَقَدْ ذَكَرْنَا فِي مَا تَقَدَّمَ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَرْجَعَ النَّهْيُ إِلَى غَيْرِهِ؛ وَيُرَادُ بِالنَّهْيِ وَالْأَمْرِ غَيْرُ الْمُخَاطَبِ بِهِ عَلَى مَا ذَكَرْنَا مِنْ عَادَةِ الْمُلُوكِ أَنَّهُمْ إِذَا خَاطَبُوا مَنْ هُوَ أَجَلُ عِنْدَهُمْ وَأَعْظَمُ [اثْبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ كَمَا طَلَبُوا مِنْكَ] ^(٢) الْجَلْدَ مَكَانَ الرَّجْمِ وَالذِّبَةَ مَكَانَ الْقِصَاصِ وَكَمَا رَأَى بَنُو النَّضِيرِ إِلَى أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْفَضْلِ عَلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَحْذَرَهُمْ أَلَّا يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَرْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَّا يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَرْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَن يَصُدُّوكَ عَنِ الْحُكْمِ﴾ ^(٣) أَلَّا يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَرْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَالْفِتْنَةُ هِيَ الْبِخْنَةُ، وَهِيَ تَتَوَجَّهُ إِلَى وَجُوهٍ، وَقَدْ ذَكَرْنَا الْوُجُوهَ فِيمَا تَقَدَّمَ.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ قَوْلَا فَاغْلَبْنَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ قَوْلَا﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا عَنِ الْحُكْمِ الَّذِي تَحْكُمُ بِمَا أَرْزَلَ اللَّهُ ^(٤) فَاغْلَبْنَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ اخْتَلَفَ فِيهِ:

قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّمَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ، لَا يُعَذِّبُهُمْ بِجَمِيعِ ذُنُوبِهِمْ.

وقَالَ آخَرُونَ: عَذَابُ الدُّنْيَا عَذَابٌ بِبَعْضِ الذُّنُوبِ لَيْسَ هُوَ عَذَابًا ^(٥) بِكُلِّ الذُّنُوبِ لِأَنَّهُ لَا يَدُومُ؛ وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَإِنَّهُمْ يُعَذِّبُونَ بِجَمِيعِ ذُنُوبِهِمْ لِأَنَّ عَذَابَ الْآخِرَةِ دَائِمٌ؛ فَهُوَ عَذَابٌ بِجَمِيعِ الذُّنُوبِ، وَعَذَابُ الدُّنْيَا زَائِلٌ؛ فَهُوَ عَذَابٌ بِبَعْضِ الذُّنُوبِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٥٠

وقوله تعالى: ﴿أَفَعَمَّ الْجَاهِلِيَّةَ يَنْفُرُونَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ هَذَا صَلَّةٌ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ أُرْسِلْتَ هَذَا فَخُذْهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَهُ فَاحْذَرُوا﴾ [الآية: ٤١] فَقَالَ ﷺ: ﴿أَفَعَمَّ الْجَاهِلِيَّةَ يَنْفُرُونَ﴾ وَقَالَ آخَرُونَ: رُويَ عَنِ [ابْنِ] ^(٦) عَبَّاسٍ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: أَفَعَمَّكُمْ ^(٧) فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَنْفُرُونَ عِنْدَكَ يَا مُحَمَّدُ فِي الْقُرْآنِ؟ يَعْنِي بَنِي النَّضِيرِ.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: أهواءهم في ما طلبوا منك من. (٣) في الأصل وم: أي. (٤) في الأصل وم: عذاب.

(٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: فحكمهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أَي لا أَحَدَ أَحْسَنَ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا عَلَى إِفْرَارِهِمْ أَنَّ اللَّهَ إِذَا حَكَّمَ لَا يَحْكُمُ إِلَّا بِالْعَدْلِ.

الآية ٥١

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ يَتَحَمَّلُونَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ وَجُوهًا:

[أَحَدُهَا] ^(١): يَتَحَمَّلُ: لَا تَتَّخِذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ فِي الدِّينِ؛ أَي لَا تَدِينُوا بِدِينِهِمْ فَإِنَّكُمْ إِذَا دِنْتُمْ بِدِينِهِمْ صِرْتُمْ أَوْلِيَاءَهُمْ ^(٢) فِي النَّصْرِ وَالْمَعُونَةِ.

[وَالثَّانِي] ^(٣): يَتَحَمَّلُ: لَا تَتَّخِذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ فِي النَّصْرِ وَالْمَعُونَةِ ^(٤) لِأَنَّهُمْ إِذَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ فِي النَّصْرِ وَالْمَعُونَةِ صَارُوا أَمْثَالَهُمْ ^(٥)، لِأَنَّهُمْ إِذَا نَصَرُوا الْكُفَّارَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَأَعَانُوهُمْ، فَقَدْ كَفَرُوا، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةَ دُونِكُمْ﴾ الْآيَةُ [آل عمران: ١١٨] نَهَاهُمْ أَنْ يَتَّخِذُوا أَوْلِيَاءَ مَوْضِعَ سِرِّهِمْ ١٣١ - ب/ وَخَفِيَّاتِهِمْ. فَعَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَالثَّالِثُ: [يَتَحَمَّلُ] ^(٦): ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ فِي الْمَكْسَبِ وَالْدُنْيَا فَإِنَّهُمْ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَمِيلُوا إِلَيْهِمْ، وَيَضُرُّوهُ عَنِ رَأْيِهِمْ فِي شَيْءٍ، فَذَلِكَ مِمَّا يُفْسِدُهُمْ، وَيُخْرِجُ شَهَادَتَهُمْ. فَهَذَا النَّهْيُ يَحْتَمِلُ هَذِهِ الْوُجُوهَ الثَّلَاثَةَ الَّتِي ذَكَرْنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَفِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ [عَلَى] ^(٧) أَنَّ الْكُفْرَ مِلَّةٌ وَاحِدَةٌ، وَإِنْ اخْتَلَفَتْ مَذَاهِبُهُمْ، فَالْوَاجِبُ أَنْ يَرِثَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِقَوْلِهِ ^(٨) تَعَالَى: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ﴾ كَمَا أَنَّ أَهْلَ الْإِسْلَامِ يَرِثُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَإِنْ اخْتَلَفَتْ مَذَاهِبُهُمْ.

أَلَا تَرَىٰ أَنَّهُ قَالَ ﷺ ^(٩) ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ﴾ الْآيَةُ [التوبة: ٧١] وَلَيْسَ ذَلِكَ بِدَاخِلٍ فِي قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ «لَا يَتَوَارَثُ أَهْلُ مِلَّتَيْنِ» [الترمذي: ٢١٠٨] لِمَا عَلَيْهِ الْآيَةُ أَنَّهُمْ كُلُّهُمْ مِلَّةٌ وَاحِدَةٌ؟ وَلَكِنْ أَحَدًا مِنْهُمْ لَا يَرِثُ الْمُسْلِمُ لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَتَوَارَثُ أَهْلُ مِلَّتَيْنِ» فَلَا إِسْلَامَ مِلَّةٌ حَقٌّ، وَالْكَفْرُ مِلَّةٌ بَاطِلٌ، وَلَا تَرِثُهُمْ، وَلَا يَرِثُونَنَا، وَمَا رَوَى [عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ] ^(١٠): «لَا تَرِثُ أَهْلُ الْكِتَابِ، وَلَا يَرِثُونَنَا إِلَّا أَنْ يَرِثَ الرَّجُلُ عَبْدَهُ وَأَمَتَهُ» [الطبراني في الأوسط: ٨٩١١] لَيْسَ بِمِيرَاثٍ؛ إِنَّمَا هُوَ مُلْكٌ كَانَ يَمْلِكُهُ قَبْلَ مَوْتِهِ، فَعَلَى ذَلِكَ بَعْدَ مَوْتِهِ. وَرَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «لَا يَرِثُ الْمُسْلِمُ الْكَافِرَ وَلَا الْكَافِرُ الْمُسْلِمَ» [البخاري: ٦٧٦٤].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّكُمْ يَتَوَلَّكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ الْوُجُوهُ الَّتِي ذَكَرْنَا: الْوَلَايَةُ فِي الدِّينِ وَالْوَلَايَةُ فِي النَّصْرِ وَالْمَعُونَةِ فَإِنَّهُمْ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ صَارُوا مِنْهُمْ فِي حُكْمِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالْوَلَايَةُ ^(١١) فِي الْمَكْسَبِ وَالْدُنْيَا [فَإِنَّهُمْ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ] ^(١٢) فَيَصِيرُونَ مِنْهُمْ فِي حُكْمِ الدُّنْيَا. فَإِنْ قِيلَ: أَلَيْسَ يَرِثُ الْمُسْلِمُ الْمُؤْتَدَّ؟ وَقَدْ قَالَ ﷺ ^(١٣): «وَمَنْ يَتَوَلَّكُمْ يَتَوَلَّكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ» أَخْبَرَ أَنَّ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ ^(١٤) مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَسَيَصِيرُ ^(١٥) مِنْهُمْ، وَنَحْنُ لَا تَرِثُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، كَيْفَ وَرِثَ مَنْ ضَادَّ ^(١٦) الْمُسْلِمِينَ؟ قِيلَ: مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ فِي الدِّينِ وَالْكَفْرَ لَا فِي الْحُكْمِ وَالْحَقُوقِ، لِأَنَّ الْمُؤْتَدَّ إِلَى النَّصْرَانِيَّةِ لَيْسَ بِمُتْرُوكٍ عَلَى دِينِهِ، فَلَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ تِلْكَ الْمِلَّةِ، وَإِنَّمَا الْمِلَّةُ مَا تَقَارَنَ عَلَى أَهْلِهَا.

أَلَا تَرَىٰ أَنَّ الْمُؤْتَدَّ لَا يَرِثُ النَّصْرَانِيَّ إِنْ كَانَ قَرِيبَهُ ^(١٧)؟ فَلَوْ كَانَتِ النَّصْرَانِيَّةُ لَهُ مِلَّةً وَرِثَهُ بِأَهْلِهَا لَأَنَّا نَعْلَمُ أَنَّ النَّصَارَى يَرِثُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَلَمَّا لَمْ يَرِثُوهُ دَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ مِلَّتِهِمْ، وَأَنَّ حُكْمَهُ فِي الْمِيرَاثِ حُكْمُ الْمِلَّةِ الَّتِي يُخْبِرُ عَنِ الرَّجُوعِ إِلَيْهَا. وَعَلَى ذَلِكَ جَاءَتِ الْأَثَارُ عَنِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل: أولياء. (٣) في م: و. (٤) ساقطة من الأصل. (٥) أدرج بعدد في الأصل بعد هذه الكلمة العبارة التالية: لأنهم إذا نصرروا أمثالهم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: كقولهِ. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: أو الولاية. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: تولاها. (١٥) في الأصل وم: صار. (١٦) في الأصل وم: صار. (١٧) في الأصل وم: كانوا أقرباء.

رُويَ عَنْ عَلِيٍّ عليه السلام أَنَّهُ أَنَبَى بِرَجُلٍ، ارْتَدَّ عَنِ الْإِسْلَامِ، فَعَرَضَ عَلَيْهِ الْإِسْلَامَ، فَأَبَى، فَضَرَبَ عُنُقَهُ، وَجَعَلَ مِيرَانَهُ لَوَرَثَتِهِ الْمُسْلِمِينَ. وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه كَذَلِكَ. وَرُويَ عَنْ زَيْدِ بْنِ نَابِتٍ مِثْلَهُ.
وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ قَدْ ذَكَرْنَاهُ فِي مَا تَقَدَّمَ.

الآية ٥٢ وقوله تعالى: ﴿مَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ هُمُ الْمُنَافِقُونَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَتَرْنَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٢٩ و ٣٠] وَهُوَ وَصَفُ الْمُنَافِقِينَ ﴿يَسْتَعِزُّونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْنُ أَنْ تُبَيِّنَا دَابَّةً﴾ كَانُوا يَظْهَرُونَ الْمَوَافَقَةَ لِلْمُسْلِمِينَ خَوْفًا مِنْهُمْ، وَفِي السَّرْمَعِ الْكُفْرَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ رَيْبٍ وَشَكٍّ، وَلَا دِينَ لَهُمْ، يَمِيلُونَ إِلَى مَنْ رَأَوْا السَّعَةَ مَعَهُمْ وَالْأَمْنَ، وَكَانُوا عَلَى شَكٍّ مِنْ أَمْرِ مُحَمَّدٍ عليه السلام وَرَيْبٍ ﴿نَحْنُ أَنْ تُبَيِّنَا دَابَّةً﴾ لَعَلَّ مُحَمَّدًا لَا يَنْصُرُ، وَلَا يَتِمُّ أَمْرُهُ، فَيَسْرُونَ^(١) فِي أَنْفُسِهِمُ الْمَوَافَقَةَ لِلْكَفْرِ وَالْفِشْ لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، وَيُظْهَرُونَ الْمَوَافَقَةَ لِلْمُؤْمِنِينَ لَمَّا كَانُوا يَسْتَمِعُونَ [إلى] ^(٢) رَسُولِ اللَّهِ عليه السلام بَعْدَ النَّصْرِ وَالظَّفَرِ، لِلْمُؤْمِنِينَ، لَكِنَّ ذَلِكَ لَا يَحَقِّقُ عِنْدَهُمْ، وَكَانُوا كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ [النساء: ١٤٣] وَكَانُوا يَنْتَظِرُونَ النَّصْرَ وَالظَّفَرَ، فَيَمِيلُونَ إِلَى حَيْثُ كَانَ النَّصْرُ وَالظَّفَرُ، فَيَقُولُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ إِنْ كَانَ الظَّفَرُ لَهُمْ: ﴿أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَوْذِرْكُمْ وَتَسْتَوِزُّونَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤١].

وقوله تعالى: ﴿فَمَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ أَيِ النَّصْرِ نَصْرُ مُحَمَّدٍ عليه السلام الظَّفَرُ لَهُ عَلَى أَعْدَائِهِ وَفَتْحُ الْبُلْدَانِ وَالْأَمْصَارِ وَإِظْهَارُ دِينِهِ دِينَ الْإِسْلَامِ عَلَى مَا رُويَ [عَنِ النَّبِيِّ عليه السلام] ^(٣): «نُصِرْتُ بِالرُّغْبِ مَسِيرَةَ شَهْرَيْنِ» [الطبراني في الكبير: ١١٠٥٦] وَعَلَى مَا فَتَحَ لَهُ الْبُلْدَانُ كُلُّهَا^(٤).

وقوله تعالى: ﴿أَزْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ قِيلَ: عَذَابٌ أَوْلَيْكَ الْكُفْرَ وَهَلَاكُهُمْ فِي الدُّنْيَا ﴿فَيَصْبَحُوا عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ تَذِيرًا﴾ عِنْدَ الْعَذَابِ وَالْهَلَاكِ، أَوْ يَنْدُمُونَ فِي الْآخِرَةِ لِمَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ بِمَا^(٥) أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْمَوَدَّةِ لَهُمْ وَالْعَدَاوَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وفي قوله: ﴿يَقُولُونَ نَحْنُ أَنْ تُبَيِّنَا دَابَّةً﴾ دَلَالَةٌ إِبْتِهَاثِ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ عليه السلام ^(٦) لِأَنَّهُ لَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَقُولُوا ﴿نَحْنُ أَنْ تُبَيِّنَا دَابَّةً﴾ مِنْ حَيْثُ يَسْمَعُ أَهْلُ الْإِسْلَامِ ذَلِكَ مِنْهُمْ. دَلَّ ذَلِكَ لَهُمْ أَنَّهُ إِنَّمَا عَرَفَ ذَلِكَ بِاللَّهِ [وَذَلِكَ مَا] ^(٧) أَخْبَرَ مِنَ الْوَعْدِ بِالنَّصْرِ لَهُ وَالظَّفَرِ، ثُمَّ كَانَ عَلَى مَا أَخْبَرَ^(٨) وَوَعَدَ، دَلَّ أَنَّهُ أَخْبَرَ^(٩) عَنِ اللَّهِ تَعَالَى.

الآية ٥٣ وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ لَمَّا ظَهَرَ نِفَاقُ أَهْلِ النِّفَاقِ، وَقِيلُوا^(١٠) وَانْتَضَحُوا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا نُفِغُوا أَخَذُوا وَفُتِلُوا نَقِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦١]. قَالَ الْمُؤْمِنُونَ عِنْدَ ذَلِكَ: ﴿أَمْوَلَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِيَّائِهِمْ لَمَعَكُمْ﴾ وَقَدْ كَانُوا يَظْهَرُونَ الْمَوَافَقَةَ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ عَلَى ذَلِكَ، وَيُضْمِرُونَ الْخِلَافَ لَهُمْ وَالْعَدَاوَةَ وَالْمَوَدَّةَ لِلْكَفَرَةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَخْلِفُونَكَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ [التوبة: ٧٤] [وَقَوْلِهِ تَعَالَى] ^(١١): ﴿أَمْوَلَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِيَّائِهِمْ لَمَعَكُمْ﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿حِطَّتْ أَعْيُنُهُمْ فَاصْبَحُوا ضَالِّينَ﴾ أَيِ ﴿حِطَّتْ أَعْيُنُهُمْ﴾ الَّتِي عَمِلُوهَا مِثْلُ^(١٢) إِسْرَارٍ ﴿مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [المائدة: ٥٢] إِذْ^(١٣) أَسْرَوْا فِي ذَلِكَ ﴿فَاصْبَحُوا﴾ أَيِ صَارُوا ﴿ضَالِّينَ﴾ بَعْدَ الْإِفْتِضَاحِ حِينَ^(١٤) ذَهَبَتْ مَنَافِعُهُمُ الَّتِي كَانَتْ قَبْلَ الْإِفْتِضَاحِ وَظَهَرِ نِفَاقِهِمْ. وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿حِطَّتْ أَعْيُنُهُمْ﴾ الَّتِي عَمِلُوهَا ظَاهِرًا مُرَآةً لِلنَّاسِ.

الآية ٥٤ وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾ إِنْ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ يَرْتَدَّ﴾ وَإِنْ كَانَ حَرْفُ تَوْجِيدٍ وَتَفْرِيدٍ فَإِنَّ الْمُرَادَ مِنْهُ الْجَمَاعَةُ وَالْعِصَابَةُ، وَلِأَنَّ الْوَاحِدَ أَوْ الْإِثْنَيْنِ إِذَا ارْتَدَّ عَنِ الْإِسْلَامِ يُؤْخَذُ، وَيُحْسَرُ، وَيُقْتَلُ، إِنْ أَمَى الْإِسْلَامَ، وَالْجَمَاعَةُ إِذَا ارْتَدَّ عَنِ الْإِسْلَامِ اخْتِيجَ إِلَى نَضْبِ الْحَرْبِ وَالْقِتَالِ عَلَى [مَا] ^(١٥) نُصِبَ مَعَ أَهْلِ الرَّدَّةِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَأَسْرُوا. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: فَكَلِمَهُمْ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: مَا. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: وَكَذَلِكَ بِمَا. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: أَخْبَرَهُ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: أَخْبَرَ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: قَتَلُوا. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: قَبْلَ. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: إِذَا. (١٤) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (١٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

وفي الآية دلالة إمامة أبي بكر الصديق عليه السلام لأن العرب لما ارتدت عن الإسلام بعد رسول الله ﷺ حاربهم، وكان هو ومن قام يحاربهم ممن أحب الله، وأحبه الله.

وَعَنِ الْحَسَنِ عليه السلام «سَوَّيْتُ لِلَّهِ يَوْمَ يُقَامُ يُجِيزُهُمْ وَيُجِيزُهُ». أَنَّهُ ^(١١) قَالَ، وَاللَّهِ [أَعْلَمُ: هُمْ:] أَبُو بَكْرٍ وَأَصْحَابُهُ عليهم السلام وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ مَسَدَعُونَ إِذَا قُومُوا إِلَى أُولَىٰ أَنفُسِهِمْ فَسَيَلَوْهُمْ أَوْ يُسَلِّمُوا فَإِنْ يَصِيحُوا فَهُمْ آجِرٌ كَمَا كُنْتُمْ» [الفتح: ١٦] يَذُلُّ عَلَىٰ إِمَامَةِ أَبِي بَكْرٍ عليه السلام لِأَنَّهُ كَانَ الدَّاعِيَ إِلَىٰ حَرْبِ أَهْلِ الرَّدَّةِ.

فإن^(٣) قيل: يجوز أن يكون النبي ﷺ هو الذي دعاهم قيل له: قال الله تعالى: ﴿قَدْ كُنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُفْشِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ [التوبة: ٨٣] فَمَحَالٌ أَنْ يَدْعُوهُمْ، فَيُطِيعُوا، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ كُنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾. فإن قيل: قد يجوز أن يكون عمر رضي الله عنه هو الذي دعاهم قيل له: فإن كان إمامته^(٤) عمر رضي الله عنه ثابتةً بـبَيِّنَاتٍ الْآيَةِ. وَإِذَا صَحَّتْ إِمَامَتُهُ صَحَّتْ إِمَامَةُ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه لَأَنَّهُ الْمُخْتَارُ لَهُ وَالْمُسْتَخْلَفُ. فَإِنْ قِيلَ: قد يجوز أن يكون علي رضي الله عنه هو الذي دعاهم إلى مُحَارَبَةِ مَنْ حَارَبَ، قِيلَ: قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿نَقُتِلُوهُمْ أَوْ يُقْتَلُوا﴾ [الفتح: ١٦] وَهَذِهِ صَفَةٌ مَنْ يُحَارَبُ/ ١٣٢ - / مِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ الَّذِينَ لَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ الْجِزْيَةُ. وَعَلِيٌّ رضي الله عنه إِنَّمَا حَارَبَ أَهْلَ الْبَغْيِ، وَهُمْ مُسْلِمُونَ. وَلَمْ يُحَارَبْ أَحَدٌ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ أَهْلَ الرَّدَّةِ غَيْرَ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه فَكَانَتْ^(٥) الْآيَةُ دَلِيلًا عَلَى صِحَّةِ إِمَامَتِهِ.

وقوله تعالى: ﴿تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ يَتَّقُوا لِلَّهِ الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾: ﴿تَوَكَّلْ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿تَمَسَّ﴾ [الآية: ٥٢] وال: عَسَى وَاجِبٌ. أَخْبَرَ
 أَنَّهُ ﴿يَتَّقِ اللَّهَ يَتَّقُوا لِلَّهِ الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ لِيَذِلَّهُمْ أَنْفُسَهُمْ فِي مُجَاهَدَةِ أَغْدَاءِ اللَّهِ وَتَرْكِهِمْ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَا يَمُ، فَذَلِكَ يُحِبُّهُمُ اللَّهُ لِأَنَّهُ لَا أَحَدٌ
 يَنْزِلُ نَفْسَهُ لِلْهَلَاكِ وَتَرْكِ لَوْمَةٍ لَا يَمُ إِلَّا [مَنْ يُجِبُونَ] ^(٦) اللَّهُ، وَيُحِبُّهُمُ اللَّهُ لِمَا أَتَى عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿يَتَجَاهَدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا
 يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ وَحُبُّهُمْ لِلَّهِ لِمَا بَذَلُوا أَنْفُسَهُمْ فِي مُجَاهَدَةِ أَغْدَائِهِ وَتَرْكِهِمْ لَوْمَةً لَا يَمُ. وَفِيهِ دَلَالَةٌ إِنْشَاءً إِمَامَةً أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
 لِأَنَّهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَتَى عَلَيْهِمْ: بِخُرُوجِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمُجَاهَدَةِ أَغْدَائِهِ. فَلَوْ كَانَ غَاصِبًا ذَلِكَ عَلَى عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَوْ كَانَ غَيْرَ مُحِقٍّ بِذَلِكَ
 لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يُنْشِئُ عَلَيْهِ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ كَانَ أَخَذَ مَا لَيْسَ لَهُ مُضْطَبِعًا حَقًّا لِعَمْرِهِ. وَمَنْ كَانَ هَذَا سَبِيلُهُ لَمْ يَكُنْ يَسْتَرْجِبُ كُلَّ هَذَا
 الشَّأْنِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى. فَهَذَا يَنْقُضُ عَلَى الرَّوَافِضِ قَوْلَهُمْ وَمَا رَوَى [عَنْ رَسُولِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ^(٧)]: «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلَيْهِ مَوْلَاهُ»
 [الترمذي: ٣٧١٣] وَغَيْرُهُ مِنَ الْأَخْبَارِ: وَذَلِكَ فِي الْوَقْتِ الَّذِي طَلَبَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْخِلَافَةَ، وَحَارَبَ عَلَيْهَا لِأَنَّهُ لَا يَحْتَمِلُ أَنْ
 يَغْلِبَهُ أَنْ لَهُ الْخِلَافَةَ فِي زَمَنِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَيَرَى الْحَقَّ لِنَفْسِهِ، ثُمَّ يَتْرُكُ طَلَبَهَا لِأَنَّهُ كَانَ مُضْطَبِعًا حَقَّ اللَّهِ عَلَيْهِ. فَدَلَّ سُكُوتُهُ
 وَتَرْكُ طَلَبِهِ عَلَى أَنَّ الْحَقَّ لَيْسَ لَهُ، وَلَكِنْ كَانَ لِأَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى الْغُفْوَةِ﴾ أي للمؤمنين أي ذوي^(٨) رَحْمَةٍ وَرَأْفَةٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿أَعَزَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي [ذوي مُشَاقَّةٍ]^(٩) شَدِيدَةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ، وَهُوَ مَا وَصَفَهُم بِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ اِخْتِلَافٌ فِيهِ:

قَالَ بَعْضُهُمْ: ذَلِكَ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَيِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾. وَقِيلَ: ذَلِكَ الْإِسْلَامُ ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ قَدْ ذَكَرْنَا هَذَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ.

الآية ٥٥

الآية ٥٥ وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية. قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ هُوَ صِلَةٌ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الآية: ٥١] وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ هَرُوكَ وَلِيًّا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ﴾ [الآية: ٥٧] هُوَ صِلَةٌ مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ. نَهَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَّخِذُوا ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ وَالَّذِينَ لَمْ يُؤْتُوا الْكِتَابَ أَوْلِيَاءَ فِي غَيْرِ آيَةٍ ^(١٠) مِنَ الْقُرْآنِ وَأَخْبَرَ أَنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ هُوَ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا، وَالْمُؤْمِنِينَ أَيْضًا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾

(١) في الأصل وم: هو. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: فإنه. (٤) من م، في الأصل: فإقامة. (٥) من م، في الأصل: لكانت.

(٦) في الأصل وم: لمن يحب. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: ذور. (٩) في الأصل وم: شاقة. (١٠) في الأصل وم: آي.

[التوبة: ٧١]. فَإِذَا كَانَ اللَّهُ ﷻ ﴿وَرَسُولُهُ﴾ أَوْلِيَاءَ لِمَنْ آمَنَ لَمْ يَتَّبِعْ أَنْ [يَتَّخِذَ الْمُؤْمِنُونَ] ^(١) الْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ. وَذَكَرَ فِي بَعْضِ الْقِصَّةِ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلَامٍ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: إِنَّ الْيَهُودَ أَظْهَرُوا لَنَا الْعِدَاةَ مِنْ أَجْلِ إِسْلَامِنَا، وَحَلَفُوا أَلَّا يُكَلِّمُونَا، وَلَا يُخَالِطُونَا فِي شَيْءٍ، وَمَنَّا زِلْنَا فِيهِمْ، وَإِنَّا لَا نَجِدُ مُتَحَدِّثًا دُونَ هَذَا الْمَسْجِدِ، فَتَزَلَّتِ الْآيَةُ، فَقَالُوا: قَدْ رَضِينَا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ أَوْلِيَاءَ. ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي نُزُولِهَا ^(٢): قَالَ بَعْضُهُمْ: نَزَلَتْ فِي شَأْنِ عَلِيٍّ ﷺ تَصَدَّقَ بِخَاتِمِهِ. وَهُوَ فِي الرُّكُوعِ. وَيَقُولُونَ: «خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا هُوَ بِمُسْكِينٍ، فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ [فَقَالَ: هَلْ أَغْطَاكَ أَحَدٌ شَيْئًا؟ قَالَ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ] مَاذَا؟ قَالَ: خَاتَمُ فَضَّةٍ. قَالَ: مَنْ أَغْطَاكَ؟ قَالَ: ذَلِكَ الرَّجُلُ الْقَائِمُ؛ يَغْنِي عَلَيَّ. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى أَيِّ حَالٍ أَغْطَاكَ؟ قَالَ: أَغْطَايِهِ، وَهُوَ رَاكِعٌ. فَكَبَّرَ النَّبِيُّ ﷺ وَدَعَا، لَهُ وَأَتَى عَلَيْهِ» [ابن الجوزي في زاد المسير ٢/ ٢٩٢].

فَاخْتَجَّ الرُّوَافِضُ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى تَفْصِيلِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ وَإِثْبَاتِ الْخِلَافَةِ لَهُ دُونَ غَيْرِهِ. وَيَقُولُونَ: نَزَلَتْ فِي شَأْنِهِ ﷺ لِمَا رَوَى عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ ﷺ [أَنَّهُ] ^(٣) قَالَ: تَصَدَّقَ عَلَيَّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ بِخَاتِمِهِ وَهُوَ رَاكِعٌ، فَتَزَلَّ [قَوْلُهُ تَعَالَى] ^(٤): ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ الْفَلَاحَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ كَاكِبُونَ﴾ [فَيُقَالُ لَهُمْ: هَبُوا] ^(٥) أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي شَأْنِهِ، وَلَيْسَ فِيهَا دَلَالَةٌ إِثْبَاتِ الْخِلَافَةِ فِي زَمَنِ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ ^(٦) ﷺ لِأَنَّا قَدْ ذَكَرْنَا فِي الْآيَةِ الْأُولَى مَا يَدُلُّ عَلَى إِثْبَاتِ الْإِمَامَةِ لَهُ فِي الْوَقْتِ الَّذِي كَانَ هُوَ إِمَامًا، وَنَحْنُ لَا نَجْعَلُ لِعَلِيٍّ، كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ، الْخِلَافَةَ لَهُ فِي الْوَقْتِ الَّذِي لَمْ يَرْتَفِعْ ^(٧) الْخِلَافَةُ لِأَنَّهُ رَوَى عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ هُوَ خَيْرُ النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَوْ كَلَامُ نَحْوِ هَذَا.

وَفِي الْخَبَرِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَوْ وَلَّيْتُمْ أَبَا بَكْرٍ لَوَجَدْتُمُوهُ قَوِيًّا فِي دِينِهِ ضَعِيفًا فِي بَدَنِهِ، وَلَوْ وَلَّيْتُمْ عُمَرَ لَوَجَدْتُمُوهُ قَوِيًّا فِي دِينِهِ وَبَدَنِهِ، وَلَوْ وَلَّيْتُمْ عَلِيًّا لَوَجَدْتُمُوهُ هَادِيًا مُهْدِيًا مُرْشِدًا» [أحمد ١: ١٠٩] فَتَقُولُ نَحْنُ عَلَى مَا كَانَ مِنْ عَلِيٍّ وَسَائِرِ الصَّحَابَةِ ﷺ مِنْ تَسْلِيمِ الْأَمْوَالِ إِلَى أَبِي بَكْرٍ وَتَقْرِضُهُمْ إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ مَنَازَعَةٍ ظَهَرَتْ عَنْ عَلِيٍّ، كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ، فِي ذَلِكَ ^(٨) لَوْ كَانَ الْحَقُّ لَهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ لَظَهَرَتْ مِنْهُ الْمَنَازَعَةُ عَلَى مَا ظَهَرَتْ فِي الْوَقْتِ الَّذِي كَانَ لَهُ، فَقَالُوا: لَأَنَّ عَلِيًّا ﷺ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْصَارٌ، وَفِي الْوَقْتِ الَّذِي ظَهَرَتْ الْمَنَازَعَةُ مِنْهُ وَالطَّلَبُ كَانَ لَهُ أَنْصَارٌ. قِيلَ: لَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْحَقُّ لَهُ فِيهَا، ثُمَّ لَا يَطْلُبُ لِمَا لَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْصَارٌ. أَلَا تَرَى أَنَّ أَبَا بَكْرٍ ﷺ مَعَ ضَعْفِهِ فِي بَدَنِهِ، خَرَجَ وَخَدَّ لِحَرْبِ أَهْلِ الرَّدَّةِ حَتَّى لَمَّا رَأَاهُ خَرَجَ وَخَدَّ جَبِيذَ تَبَعُوهُ؟ فَأَبُو بَكْرٍ لَمْ يَتْرُكْ الْحَقَّ لِعَدَمِ الْأَنْصَارِ مَعَ ضَعْفِهِ فِي بَدَنِهِ. فَعَلِيٌّ ﷺ مَعَ شِدَّتِهِ وَقُوَّتِهِ وَقُضْلِهِ عَلَيْهِ بِأَمْرِ الْحَرْبِ حَتَّى لَمْ يَبَارِزْ أَحَدًا مِنَ الْأَعْدَاءِ إِلَّا غَلَبَهُ، وَاهْلَكَهُ. فَكَيْفَ تَوَهَّمْتُمْ فِيهِ تَرْكَ طَلَبِ الْحَقِّ لِفَقْدِ الْأَنْصَارِ لَهُ وَالْأَغْوَانِ فِي ذَلِكَ؟ هَذَا لَعَمْرِي لَا يَتَوَهَّمُ فِي أَضْعَافِ أَضْعَافِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَضْلًا أَنْ يَتَوَهَّمُ فِي عَلِيٍّ ﷺ فَدَلَّ تَرْكَ طَلَبِ ذَلِكَ مِنْهُ عَلَى أَنَّهُ تَرَكَ لِمَا رَأَى الْحَقَّ [لَيْسَ] ^(٩) لَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَاجْتَبُوا بِمَا رَوَى عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ لِعَلِيٍّ: «أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى غَيْرَ أَنْ لَا نَبِيَّ بَعْدِي» [مسلم: ٢٤٠٤] وَهَارُونَ كَانَ خَلِيفَةَ [مُوسَى، وَمَا] ^(١٠) فَكُزِّمْتُ أَيْضًا أَنَّ عَلِيًّا ﷺ كَانَ خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. قِيلَ: لِهَذَا جَوَابَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ قَوْلَهُ «أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى» يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ فِي الْأُخُوَّةِ الَّتِي أَخَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَلَيْسَ فِي إِثْبَاتِ الْأُخُوَّةِ إِثْبَاتُ الْخِلَافَةِ لَهُ.

وَالثَّانِي: إِنَّ كَانَتْ لَهُ الْخِلَافَةُ فِي الْوَقْتِ الَّذِي كَانَ هُوَ، وَلَيْسَ فِي الْخَبَرِ جَعْلُ الْخِلَافَةِ لَهُ فِي الْأَوْقَاتِ كُلِّهَا. وَهَكَذَا جَوَابٌ مَا رَوَى عَنْهُ: «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ» [الترمذي: ٣٧١٣] وَاللَّهُ أَعْلَمُ. ثُمَّ إِنَّ الْحَدِيثَ الَّذِي رَوَى عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ ﷺ صَحِيحًا فِيهِ الْآيَةُ مَعْنِيَانِ: أَحَدُهُمَا: فَضِيلَةُ عَلِيٍّ، كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ، وَقَدْ كَانَ كَثِيرَ الْفَضَائِلِ مُسْتَكْمِلًا خِصَالِ الْخَيْرِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: يَتَّخِذُوا. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: نَزَلَتْ. (٣) م: م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: فَقَالَ لَهُمْ حَب. (٧) ساقطة من م. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: نَفْس. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: فَلَوْ. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) فِي الْأَصْلِ: مُوسَى مَا، فِي م: مَا.

وَالْآخَرُ: أَنَّ الْعَمَلَ الْيَسِيرَ فِي الصَّلَاةِ لَا يُفْسِدُهَا.

وَقَدْ رُوِيَ فِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ / ١٣٢ - ب/ أَنَّهُ جَلَعَ نَعْلَهُ فِي الصَّلَاةِ وَأَنَّهُ لَمَسَ لِحْيَتَهُ وَأَنَّهُ أَشَارَ بِيَدِهِ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْعَمَلِ الْيَسِيرِ فَعَلَهُ فِي الصَّلَاةِ. فَيُقَاسُ كُلُّ عَمَلٍ يَسِيرٍ عَلَى مَا ذَلَّ عَلَيْهِ الْحَبَرُ عَلَى جَوَازِ الصَّلَاةِ.

وفيه وَجْهٌ آخَرُ هُوَ أَنَّ صَدَقَةَ^(١) التَّطَوُّعِ تُسَمَّى زَكَاةً لِأَنَّ صَدَقَةَ عَلِيِّ ﷺ بِالْحَاثِمِ لَمْ تَكُنْ صَدَقَةً مَفْرُوضَةً، بَلْ كَانَتْ تَطَوُّعًا، فَسَمَّاهَا اللَّهُ زَكَاةً، وَإِنْ كَانَتْ تَطَوُّعًا. أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَمَا أَتَيْتُم مِّن ذَكْوَرٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ؟﴾ [الروم: ٣٩] فَسَمَّاهَا اللَّهُ زَكَاةً كَمَا سَمَّى صَلَاةَ الْفَرَضِ وَالتَّطَوُّعِ صَلَاةً، وَصَوْمَ التَّطَوُّعِ وَالْفَرَضِ صِيَامًا. فَعَلَى ذَلِكَ هَذَا. وَظَاهِرُ الْآيَةِ فِي جُمْلَةِ الْمُؤْمِنِينَ لَيْسَ عَلِيُّ ﷺ أَوَّلَى بِهَا مِنْ غَيْرِهِ. فَإِنْ [كَانَتْ فِيهِ نَزَلَتْ]^(٢) فَهُوَ مَا ذَكَرْنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٥٦

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْقَلِيلُ﴾ ظَاهِرُ هَذَا لَوْ صُرِفَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ كَانَ أَقْرَبَ لِأَنَّهُ كَانَ هُوَ الْغَالِبَ عَلَى أَهْلِ الرَّدَّةِ مِنْ أَوَّلِ مَا وَقَعَ بَيْنَهُمْ إِلَى آخِرِهِ. وَعَلِيُّ ﷺ إِنَّمَا صَارَ الْأَمْرُ لَهُ فِي آخِرِهِ حِينَ خَارَبَ الْخَوَارِجَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٥٧

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا هُزُوكًا وَلِبَاسًا إِلَى آخِرِهِ يَحْتَمِلُ النَّهْيَ عَنِ اتِّخَاذِ أَوْلِيكَ وَجُوهًا:

يَحْتَمِلُ [النَّهْيَ]^(٣) بَعْدَ مَا اتَّخَذُوا أَوْلِيَاءَ لَا فِي الدِّينِ وَلَكِنْ فِي بَعْضِ الْمَكَاسِبِ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ النَّهْيُ لِلْمُتَأَقِّبِينَ أَلَّا يَكُونُوا مَعَ أَوْلِيكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ. وَقَدْ ذَكَرْنَا هَذَا فِي مَا تَقَدَّمَ. وَالْحِزْبُ هُوَ الْعَوْنُ وَالتَّصَرُّفُ فِي الشُّعْبَةِ. قَالَ الْكِسَائِيُّ: تَقُولُ الْعَرَبُ: فَلَانِ حِزْبِي أَيْ نَاصِرِي وَعَوْنِي.

الآية ٥٨

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُزُوكًا وَلِبَاسًا يُخَبِّرُ نَبِيَّهُ ﷺ غَايَةَ سَفَهِهِمْ بِصَنِيعِهِمْ إِذَا نُودِيَ إِلَى الصَّلَاةِ لِأَنَّهُ دُكِرَ فِي الْقِصَّةِ أَنَّهُمْ إِذَا سَمِعُوا الْمُنَادِيَ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ [قَالَ رَجَاءُ بْنُ النَّصَارَى]^(٤) حُرِّقَ الْكَاذِبُ، وَقَالُوا: وَاللَّهِ مَا نَعْلَمُ أَهْلَ دِينٍ مِنْ هَذِهِ الْأَذْيَانِ أَقْلَ حَقًّا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْهُمْ؛ يَغْتَوْنُ مُحَمَّدًا ﷺ وَأَصْحَابَهُ ﷺ فَدَخَلَتْ خَادِمُهُمْ لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِي يَنَارُ وَهُمْ^(٥) نِيَامٌ، فَسَقَطَتْ شِرَارَةٌ، فَحَرَّقَتْ الْبَيْتَ وَاهْلَهُ^(٦).

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوَّةً لَا يَقُولُونَ﴾ نَفَى عَنْهُمْ الْعَقْلَ لِمَا لَمْ يَنْتَفِعُوا بِمَا عَقَلُوا، وَإِلَّا كَانُوا يَنْفَعُونَ. وَعَلَى ذَلِكَ يَخْرُجُ قَوْلُهُ [تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَفْئَادٌ لَا يَشْعُرُونَ بِهَا﴾]^(٧) [الأعراف: ١٧٩] إِنَّا نَعْلَمُ أَنَّهُمْ كَانُوا يُبْصِرُونَ، وَيَسْمَعُونَ. لَكِنْ نَفَى عَنْهُمْ لِمَا لَمْ يَنْتَفِعُوا بِالْبَصَرِ وَالسَّمْعِ وَاللِّسَانِ كَمَا لَيْسَ لَهُ ذَلِكَ فِي أَصْلِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَيَحْتَمِلُ وَجْهًا^(٨) آخَرَ، وَهُوَ أَنَّ شِدَّةَ بُغْضِهِمْ وَحَسَدِهِمْ لِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ تَمْنَعُهُمْ عَنْ فَهْمِ مَا حُوطِبُوا بِهِ، وَتَحُولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَعْرِفَةِ ذَلِكَ. كَانُوا كَمَا لَيْسَ لَهُمْ ذَلِكَ رَأْسًا.

الآية ٥٩

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَقِيمُونَ مِنَّا الْآيَةَ، قِيلَ: ﴿هَلْ تَقِيمُونَ مِنَّا﴾ تَطْلَعُونَ عَلَيْنَا، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ وَقِيلَ: هَلْ تَعْيَبُونَ عَلَيْنَا. وَقَالَ أَبُو عَوَسَجَةَ: ﴿هَلْ تَقِيمُونَ مِنَّا﴾ أَيْ تُتَكَبَّرُونَ مِنَّا، وَهُوَ يَرْجِعُ إِلَى وَاحِدٍ. وَالتَّقِيمُ هُوَ الْعَيْبُ وَالظَّنُّ، وَالْإِنْتِقَامُ هُوَ الْإِنْتِصَارُ. وَمَعْنَاهُ ﴿هَلْ تَقِيمُونَ مِنَّا﴾ إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلِ أَيَّ كَيْفَ تَطْلَعُونَ عَلَيْنَا، وَتَعْيَبُونَ، وَأَنْتُمْ مِمَّنْ قَدْ دُعِيتُمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِمَا أُنْزِلَ فِي الْكِتَابِ، وَأَنْتُمْ مِمَّنْ قَدْ أُوتِيتُمُ الْكِتَابَ، وَفِي كِتَابِكُمُ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَالْإِيمَانُ بِالْكِتَابِ كُلِّهَا؟ فَكَيْفَ تُتَكَبَّرُونَ الْإِيمَانِ بِذَلِكَ كُلِّهِ، وَتَعْيَبُونَ عَلَيْنَا وَلَا تَعْيَبُونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ بِفِسْقِكُمْ وَخُرُوجِكُمْ عَنِ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَعَمَّا^(٩) أَمَرَكُمْ كِتَابُكُمْ، وَدَعَاكُمْ إِلَيْهِ، وَنَهَاكُمْ عَمَّا أَنْتُمْ فِيهِ. وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا، هُوَ^(١٠)

(١) فِي الْأَصْلِ رَم: الصَّدَقَةُ. (٢) فِي الْأَصْلِ: كَانَ فِيهِ نَزْلٌ، فِي م: كَانَ فِيهِ نَزُولٌ. (٣) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٤) فِي الْأَصْلِ رَم: قَالُوا.

(٥) فِي الْأَصْلِ رَم: وَهُوَ. (٦) فِي الْأَصْلِ رَم: وَاحْتَرَقَ هُوَ وَاهْلُهُ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ رَم. (٨) فِي الْأَصْلِ رَم: وَجْه. (٩) فِي الْأَصْلِ رَم:

وَمَا. (١٠) فِي الْأَصْلِ رَم: وَهُوَ.

الْقُرْآنُ، وَهُوَ يُصَدِّقُ مَا قَبْلَهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ مِنَ الْكِتَابِ الْمُتَقَدِّمَةِ مِنَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ، وَهِيَ تُصَدِّقُ الْقُرْآنَ؛ بَعْضُهَا يُصَدِّقُ بَعْضًا؛ فَكَيْفَ تُتَكَبَّرُونَ الْإِيمَانَ بِهِ؟

الآية ٦٠

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ مُتَّبِعٍ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ وَعَذَابِ عَلَيْهِ﴾ الآية؛ ذَكَرَ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، عَلَى إِثْرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَلْ تَقُولُونَ مِمَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ عَلَى إِثْرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُزُوعًا وَلَمَّا﴾ الآية [الآية: ٥٨] وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَسْتَهْزِئُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ، وَيَضْحَكُونَ مِنْهُمْ، وَيَطْعَنُونَ فِي دِينِهِمْ، وَيَعْيَبُونَ عَلَيْهِمْ. فَقَالَ عَلَى إِثْرِ ذَلِكَ: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ﴾ أَيِ مِمَّا الْمُؤْمِنُونَ عَلَيْهِ؟ ﴿مُتَّبِعٍ عِنْدَ اللَّهِ﴾ قَالُوا: مَنْ؟ قَالَ: ﴿مَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَعَذَابُ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ الآية. فَمَنْ كَانَ هَذَا وَصْفُهُ فَهُوَ شَرٌّ مِمَّا عَلَيْهِ الْمُؤْمِنُونَ؛ وَقَدْ كَانَ فِيهِمْ جَمِيعُ ذَلِكَ مِمَّا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَلَعَنَهُمْ. أَيِ حَوْلَ جَوْهَرِهِمْ إِلَى أَفْجَحِ جَوَاهِرٍ وَأَوْحَشِيهَا، وَهِيَ الْقِرَدَةُ وَالْخَنَازِيرُ بِسُوءِ صَنِيعِهِمْ، أَوْ يَكُونُ ذَلِكَ عَلَى إِثْرِ قَوْلٍ مَا قَالُوا مَا ذُكِرَ فِي بَعْضِ الْقِصَصِ: وَاللَّهُ مَا نَعْلَمُ مِنْ أَهْلِ دِينٍ أَقْلَ حَقًّا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ هَؤُلَاءِ؛ يَغْتَوُونَ الْمُؤْمِنِينَ^(١)، لَا أَنَّهُمْ كَانُوا يَدْعُونَ أَنَّ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ لَهُمْ، وَلَيْسَ لَهُؤُلَاءِ دُنْيَا وَلَا آخِرَةٌ. قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ مُتَّبِعٍ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أَيِ ثَوَابًا ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ الآية، فَقَالُوا: مَنْ هُمْ؟ قَالَ ﴿مَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَعَذَابُ عَلَيْهِ وَالْمَلْعُونُ هُوَ الْمَطْرُودُ عَنِ الْخَيْرَاتِ. وَجَعَلَ مَنْ حَوْلَ جَوْهَرِهِ إِلَى جَوْهَرِ [الْقِرَدَةِ وَالْخَنَازِيرِ]^(٢) أَفْجَحِ جَوْهَرٍ فِي الطَّلَبِ وَالْعَقْلِ وَأَوْحَشَهُ.

[وقوله تعالى]^(٣): ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتُ﴾ بِغَيْبِ الشَّيْطَانِ ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا﴾ فِي الدُّنْيَا لِمَا حَوْلَ جَوْهَرِهِمْ إِلَى أَفْجَحِ جَوْهَرٍ فِي الْأَرْضِ مِنَ الدِّينِ لِمَ يُحَوِّلُ جَوْهَرَهُمْ إِلَى ذَلِكَ؛ إِذْ لَمْ يَرَوْا أَحَدًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ حَوْلَ جَوْهَرِهِ إِلَى جَوْهَرٍ مِنْ ذَكَرٍ، وَقَدْ رَأَوْا كَثِيرًا مِنْ أَوَائِلِهِمْ قَدْ حَوَّلُوا مِنْ جَوْهَرِهِمْ إِلَى هَذِهِ الْجَوَاهِرِ الْمُسْتَقْبَحَةِ فِي الطَّلَبِ الْمُؤَذَّبَةِ. وَيَحْتَمِلُ^(٤) أَنْ يَكُونَ عَلَى الْإِضْمَارِ عَلَى إِثْرِ أَمْرِ كَانَ، وَنَحْنُ لَمْ نَعْلَمْ بِهِ، فَتَزَلَّ عِنْدَ ذَلِكَ.

وَعَنِ الْحَسَنِ [أَنَّهُ]^(٥) قَالَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ﴾ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ، وَالَّذِينَ غَضِبَ عَلَيْهِمُ وَالَّذِينَ عَذَّبُوا الطَّاغُوتَ وَالَّذِينَ جَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ؛ مِنْهُمْ مَنْ جَعَلَهُ قِرَدًا^(٦)، وَمِنْهُمْ مَنْ أَبْقَى عَلَى جَوْهَرِهِ الَّذِي كَانَ ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ أَيِ اخْطَأَ طَرِيقًا وَدِينًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالْقِصَّةِ.

الآية ٦١

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلْنَا بِالْكَفْرِ وَمِمَّا قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ قِيلَ: إِنَّ الْآيَةَ فِي الْيَهُودِ، وَقِيلَ: إِنَّهَا فِي الْمُنَافِقِينَ، وَهِيَ فِي الْمُنَافِقِينَ أَشْبَهُ؛ ذَكَرَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَدْخُلُونَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَيُظْهِرُونَ الْمَوَافَقَةَ لَهُ، وَيُخْبِرُونَهُ أَنَّهُمْ يَجِدُونَ بَعَثَهُ ﷺ وَصِفَتَهُ فِي كُتُبِهِمْ، وَيُضْمِرُونَ الْخِلَافَ لَهُ فِي السِّرِّ، وَيَهْزَوْنَ^(٧) بِهِ. فَقَالَ عِنْدَ ذَلِكَ: ﴿وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَمِمَّا قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ أَخْبَرَ تَعَالَى ﷻ نَبِيَّهُ ﷺ أَنَّهُمْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ ذَلِكَ اسْتِهْزَاءً، وَعَلَى ذَلِكَ خَرَجُوا.

فَقَبِيهِ دَلَالَةُ إِبْنَاتِ رَسُولِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ لِأَنَّهُ أَخْبَرَ عَمَّا اضْمَرُّوا لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ إِنَّمَا عَلِمَ ذَلِكَ بِالَّذِي يَعْلَمُ الْغَيْبَ مَعَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ، وَيُضْمِرُونَ مِنَ الْكُفْرِ وَالْهَزْوَ.

الآية ٦٢

وقوله تعالى: ﴿وَرَأَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَّبِعُونَ فِي الْآثَرِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ الشَّحْتَ﴾ الآية. يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرَأَى كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ مِنْ مُلُوكِهِمْ وَعَوَامِهِمْ ﴿يَتَّبِعُونَ فِي الْآثَرِ﴾ أَيِ فِي قَوْلِ الْكُفْرِ ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾ هُوَ الْمَجَاوَزَةُ عَنِ الْحَدِّ الَّذِي حَدَّ لَهُمْ، وَيُسَارِعُونَ أَيْضًا فِي أَكْلِ الشَّحْتِ. وَالشَّحْتُ قِيلَ: هُوَ كُلُّ مُحَرَّمٍ، وَقِيلَ هُوَ الرِّشْوَةُ فِي الْحُكْمِ. وَعَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: الرِّشْوَةُ هِيَ الْكُفْرُ، وَأَمَّا الشَّحْتُ هُوَ أَنْ يَدْفَعَ^(٨) حَاجَةً أَخِيهِ إِلَى السُّلْطَانِ، لَأَيَّاكُلَهَا مَعَهُ^(٩)، وَقَدْ ذَكَرْنَا هَذَا فِي مَا تَقَدَّمَ^(١٠).

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: الْمُؤْمِنُونَ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: الْقِرَدَةُ وَالْخَنَازِيرُ وَهِيَ. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: قِرَدَةً. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: نَعْتَهُ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَهَزَوْا بِهِ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: يَرْفَعُ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: فَيَأْكُلُ عَنْدَهُ. (١١) كَانَ ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ (٤٢) مِنَ السُّورَةِ.

الآية ٦٣

[وقوله تعالى:] ^(١) «عَلَىٰ إِمْرٍ ذَٰلِكَ: ﴿لَوْلَا يَتَّبِعُهُمُ الرِّبَايُونُ وَالْأَخْبَارُ عَنْ قَوْلِهِ الْإِنَّمَا وَأَكْبَهُمْ﴾ ١٣٣ - ١ / اَلشَّحْتُ لِبَنِي مَا كَانُوا يَمْتَنُونَ» غَاتَبَ اللَّهُ ۖ الرِّبَايُونُ وَالْأَخْبَارُ عَلَىٰ تَرْكِهِمْ نَهَىٰ أَوْلِيَّكَ عَنْ صَنِيعِهِمْ وَاشْتِرَاقِهِمْ ^(٢) فِي الْإِنَّمَا شُرْعًا سَوَاءً لِيَعْلَمُوا أَنَّ الْعَامِلَ بِالْإِنَّمَا وَالْمَغْصِبَةِ وَالرَّاضِي بِهِ وَالتَّارِكُ النَّهْيَ عَنْ ذَٰلِكَ سَوَاءٌ. وَفِيهِ دَلَالَةٌ أَنَّ تَارِكَ النَّهْيِ عَنِ الْمُتَكَبِّرِ يُلْحَقُهُ مِنَ الْإِنَّمَا مَا يُلْحَقُ الْقَاعِلَ بِهِ.

[وقوله تعالى:] ^(٣) «الرِّبَايُونُ وَالْأَخْبَارُ» قَدْ ذَكَرْنَا فِي مَا تَقَدَّمَ.

الآية ٦٤

وقوله تعالى: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ» الآية. قَالَ الْحَسَنُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: «يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ» أَي مَخْبُوسَةٌ مَمْنُونَةٌ عَنْ تَغْلِيظِنَا لِقَوْلِهِمْ «عَنْ أَبْنَاءِ اللَّهِ وَأَجْبَتْهُ» [الآية: ١٨]. وقوله تعالى: «عَلَّتْ أَيْدِيهِمْ» فِي الْآخِرَةِ بِالسَّلَاسِلِ إِلَىٰ اغْنَاقِهِمْ. وقوله تعالى: «بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ». بِالْمَغْفِرَةِ وَالتَّعْذِيبِ «يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ» [البقرة: ٢٤٨] وَالْإِسْرَاءُ: ٢٩].

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ۖ قَوْلُهُمْ: «يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ» لَا يَغْنُونُ بِذَٰلِكَ أَنَّ يَدَهُ مُؤَقَّتَةٌ مَغْلُولَةٌ حَقِيقَةُ الْيَدِ وَالْغُلُّ، وَلَكِنْ وَصْفُهُ بِالْبُخْلِ، وَقَالُوا: أَمْسَكَ مَا عِنْدَهُ بُخْلًا مِنْهُ. تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَٰلِكَ.

وَقَالَ آخَرُونَ: إِنَّ اللَّهَ، تَبَارَكَ، وَتَعَالَى، قَدْ كَانَ يَسْطُ عَلَى الْيَهُودِ الرِّزْقَ فَكَانُوا ^(٤) مِنْ أَخْصَبِ النَّاسِ وَكَثَرِهِمْ خَيْرًا. فَلَمَّا عَصَوْا اللَّهَ فِي مُحَمَّدٍ، [عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَوَاتِ] ^(٥)، وَكَفَرُوا بِهِ، وَبَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا بِالنِّعْمَةِ، كَفَّتِ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ بَغْضُ الَّذِي كَانَ يَسْطُ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّعَةِ فِي الرِّزْقِ. فَعِنْدَ ذَٰلِكَ قَالُوا: «يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ» لَمْ يَقُولُوا: يَدُهُ مَغْلُولَةٌ إِلَىٰ عُنُقِهِ، وَلَكِنْ مُنْسَكَةٌ عَنْهُمْ الرِّزْقُ، فَلَا تَبْسُطُ كَمَا كَانَ يَبْسُطُ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَلَا تَحْمِلْ بَدَلَ مَغْلُولَةٍ إِلَيَّ عُنُقُكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ» [الإسراء: ٢٩] نَهَىٰ عَنِ الْبُخْلِ فِي الْإِنْفَاقِ، لَا أَنَّهُ أَرَادَ حَقِيقَةَ [عُلَّ يَدِهِ] ^(٦) إِلَىٰ عُنُقِهِ. فَعَلَىٰ ذَٰلِكَ قَوْلُهُمْ: «يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ» كِتَابَةً عَنِ الْبُخْلِ وَوَصْفٍ بِهِ، لَا حَقِيقَةَ الْغُلِّ، وَبِاللَّهِ الْعِصْمَةُ.

وَتَأْوِيلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: «عَلَّتْ أَيْدِيهِمْ» عَلَىٰ هَذَا التَّأْوِيلِ أَي أَيْدِيهِمْ هِيَ الْمُمنْسَكَةُ عَنِ الْإِنْفَاقِ، وَهُمْ الْمُوصَفُونَ بِالْبُخْلِ وَالشُّحِّ: «بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ» أَي نِعْمَةٌ مَبْسُوطَةٌ؛ يُوسِعُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ، وَيَقْتُرُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ. وَفِي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ ۖ بَلْ يَدَاهُ مُسْطَانِ. قَالَ الْفَرَّاءُ: يَقَالُ: وَجْهٌ مَبْسُوطٌ ^(٧)، وَوَجْهٌ مُسْطٌ.

ثُمَّ لَا يُحْتَمَلُ أَنْ يُفْهَمَ مِنْ إِضَافَةِ الْيَدِ إِلَى اللَّهِ مَا يُفْهَمُ مِنَ الْخَلْقِ لِمَا وَجَدَ إِضَافَةَ الْيَدِ إِلَى مَن لَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ لَهُ الْيَدُ. مِنْ ذَٰلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: «لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ» [فصلت: ٤٢]. لَا يُفْهَمُ مِنَ الْقُرْآنِ الْيَدُ كَمَا يُفْهَمُ مِنَ الْخَلْقِ فَعَلَىٰ ذَٰلِكَ لَا يَجُوزُ أَنْ يُفْهَمَ مِنْ إِضَافَةِ الْيَدِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى كَمَا يُفْهَمُ مِنَ الْخَلْقِ. أَلَا تَرَىٰ أَنَّهُ قَالَ: «ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَكَ» [الحج: ١٠] [وَقَالَ] ^(٨): «فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ» [الشورى: ٣٠] لَمْ يُفْهَمَ مِنْهُ الْيَدُ نَفْسُهَا؟ ^(٩) وَكَذَٰلِكَ قَوْلُهُ: «ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيكُمْ»؟ [آل عمران: ١٨٢] لَكِنْ أُضِيفَ ذَٰلِكَ إِلَى الْيَدِ لِمَا بِالْيَدِ يُقَدَّمُ، وَيُعْطَى، وَيَكْسَبُ. أَلَا تَرَىٰ أَنَّهُ قَالَ تَعَالَى: «لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ»؟ [الحجرات: ١] وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَمْ يُفْهَمَ مِنَ الْيَدِ نَفْسُهَا، وَلَكِنْ أُضِيفَ ذَٰلِكَ إِلَيْهِ لِمَا ذَكَرْنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: «وَلَوْ كُنَّا ظَاهِرِينَ لَكُنَّا عَنْ عَذَابِهِمْ مُّصْطَفَيْنَ» قِيلَ: عَذَّبُوا بِمَا قَالُوا: «يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ» وَاللَّعْنُ هُوَ الطَّرْدُ. كَأَنَّهُ قَالَ: طَرِدُوا عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَلَا يُؤْمِنُونَ ^(١٠)، فَمَاتُوا عَلَىٰ ذَٰلِكَ. فَذَٰلِكَ دَلِيلُ رِسَالَتِهِ، ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: «وَلِكَيْ يَذَّكَّرَ أَكْثَرُ مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» قِيلَ فِيهِ بَوَاحُشَانِ:

قِيلَ: يَزِيدُ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنَ الْقُرْآنِ كَثِيرًا مِنْهُمْ، يَغْنِي الْيَهُودَ «حُطْبَتَاكَ وَكُفْرًا».

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: ثُمَّ قَالَ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَأَشْرَكَهُمْ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: فَكَانَتْ. (٥) فِي م: ۖ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: عَنِ الْيَدِ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: مَبْسُوطَةٌ. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: نَفْسُهَا. (١٠) فِي الْأَصْلِ م: يُؤْمِنُوا.

وقيل: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَيْدًا مِنْهُمْ مَا أَزَلَّ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ مِنَ الْبَيَانِ عَمَّا تَرَكُوا مِنْ بَغْيِهِ وَصِفَتِهِ ^(١) [اللَّذِينَ كَانُوا] ^(٢) فِي كَيْدِهِمْ، وَمَا حَرَّفُوا فِيهِ، وَغَيْرُهُ مِنَ الْأَحْكَامِ. فَذَلِكَ مِمَّا زَادَهُمْ ﴿طَغَنَّا وَكُفَّرْنَا﴾.

قِيلَ: ﴿طَغَنَّا﴾ أَي تَمَادِيًا بِالْمَغْصَبَةِ ﴿وَكُفَّرْنَا﴾ بِالْقُرْآنِ. وَقِيلَ: الطُّغْيَانُ هُوَ الْعُذْرَانُ، وَهُوَ الْمَجَاوِزَةُ عَنِ الْحَدِّ الَّذِي حُدَّ. فَإِنْ قِيلَ: مَا مَعْنَى إِضَافَةِ زِيَادَةِ الطُّغْيَانِ إِلَى الْقُرْآنِ، وَالْقُرْآنُ لَا يَزِيدُ طُغْيَانًا وَلَا كُفْرًا؟ قِيلَ: إِضَافَةُ الْأَفْعَالِ إِلَى الْأَشْيَاءِ تَكُونُ لُجُوهً ^(٣) ثَلَاثَةٌ: مِنْهَا مَا يُضَافُ لِحَقِيقَةِ الْفِعْلِ لَهَا ^(٤). وَمِنْهَا مَا يُضَافُ لِلْأَحْوَالِ. وَمِنْهَا مَا يُضَافُ لِمَكَانٍ مَا بِهِ يَكُونُ الْفِعْلُ. وَهَهُنَا أُضِيفَ ذَلِكَ إِلَى الْقُرْآنِ لِمَا كَانَ فِيهِمْ مِنَ الطُّغْيَانِ وَالْكُفْرِ لِمَا كَانَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ بِالْكُفْرِ الَّذِي كَانَ فِيهِمْ. وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ أَشَلُّنَ كَيْدًا مِنَ النَّاسِ﴾ [إِبْرَاهِيمَ: ٣٦]. ﴿إِنَّهُمْ﴾ لَا يُضِلُّنَ أَحَدًا فِي الْحَقِيقَةِ، وَلَكِنْ لِمَا صَارُوا بِهِمْ ضَلَالًا، أُضِيفَ [الِإِضْلَالُ] ^(٥) إِلَيْهِمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَرَّضْنَاهُمْ لِأَلْحِقَؤُا الدُّنْيَا﴾ [الْأَنْعَامَ: ٧] وَالْحَيَاءُ الدُّنْيَا لَا تُعَرِّضُ أَحَدًا. وَلَكِنْ لِمَا لَوْ كَانَتْ لَهَا حَوَاسُّ لَكَانَ مَا بَدَتْ مِنَ الزُّبْنَةِ، لَعَرَّضَتْ.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ إِنَّكَ بِرِءٍ أَلَيْسَ﴾ اخْتَلَفُوا فِيهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَالَّذِينَ بَيْنَهُمُ﴾ بَيْنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى أَيْ لَا يُحِبُّ الْيَهُودِيُّ نَصْرَانِيًّا وَلَا النَّصْرَانِيُّ يَهُودِيًّا. وَقَالَ آخَرُونَ: ﴿بَيْنَهُمْ﴾ أَيْ بَيْنَ الْيَهُودِ؛ لِأَنَّ الْيَهُودَ عَلَى مَذَاهِبٍ مُخْتَلِفَةٍ وَأَهْوَاءٍ مُشْتَبِهَةٍ؛ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: ﴿عَزَّزْتُ أَبْنَؤُا اللَّهِ﴾ [التَّوْبَةُ: ٣٠] وَمِنْهُمْ مَنْ يَذْهَبُ مَذْهَبَ النَّسَبِ. هُمْ عَلَى أَهْوَاءٍ مُخْتَلِفَةٍ؛ فَبَيْنَهُمْ عَدَاوَةٌ وَبَغْضَاءٌ عَلَى مَا ذَكَرَ الْإِخْتِلَافَ الْوَاقِعَ بَيْنَهُمْ. ثُمَّ إِنْ مَعْنَى مَا أَضَافَ مِنَ الْإِقَاءِ الْعَدَاوَةُ بَيْنَهُمْ إِلَى نَفْسِهِ لَا يَخْلُو: إِمَّا أَنْ يَكُونَ لَهُ فِي نَفْسِ الْعَدَاوَةِ فِعْلُهُ. وَإِمَّا ^(٦) أَنْ يَكُونَ فِي سَبَبِ الْعَدَاوَةِ.

وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ لَهُ فِي فِعْلِ الْعَدَاوَةِ صُنْعٌ لِأَنَّهُ فَعَلَهُمْ، وَلَا فِي سَبَبِ الْعَدَاوَةِ أَيْضًا لِأَنَّ سَبَبَهَا ^(٧) الْإِخْتِلَافُ، وَالْإِخْتِلَافُ فَعَلُهُمْ أَيْضًا. فَإِذَا بَطَلَ أَنْ يَكُونَ لَهُ فِي وَاحِدٍ مِنْ هَذَيْنِ صُنْعٌ دَلَّ أَنْ لَهُ ذَلِكَ مِنَ الْوَجْهِ الْآخَرِ؛ وَهُوَ أَنْ خُلِقَ فِعْلُ الْعَدَاوَةِ وَسَبَبُ الْعَدَاوَةِ مِنْهُ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ.

فَإِنْ قِيلَ: ذَكَرَ هَهُنَا أَنَّهُ تَعَالَى أَلْقَى بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ، وَذَكَرَ فِي آيَةٍ أُخْرَى أَنَّ بَعْضَهُمْ أَرْبَاءُ بَعْضٍ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الْآيَةُ: ٥١] كَيْفَ يَجْمَعُ بَيْنَهُمَا؟ قِيلَ: ﴿أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ فِي أَصْلِ الدِّينِ، وَهُوَ الْكُفْرُ، وَبَيْنَهُمْ عَدَاوَةٌ لِإِخْتِلَافِ الْأَهْوَاءِ وَالْمَذَاهِبِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَفِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ لِإِمْتِنَانِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَا أَخْبَرَ أَنَّهُ أَلْقَى بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ. وَلَوْ كَانُوا عَلَى مَذْهَبٍ وَاحِدٍ، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ إِخْتِلَافٌ وَعَدَاوَةٌ لَكَانَ ذَلِكَ عَلَيْهِ أَشَدَّ، وَفِي الْمَقَامِ بَيْنَهُمْ أَضْعَبُ. لَكِنْ مَنْ عَلَيْهِ بِالْإِخْتِلَافِ فِي مَا بَيْنَهُمْ لَمَّا جَعَلَ الْإِخْتِلَافَ وَالتَّنَازُعَ سَبَبَ الْفُشْلِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنَزَعُوا فَنَفْسُكُمُ﴾ [الْأَنْفَالُ: ٤٦].

وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا ^(٨): كُلَّمَا أَرَادُوا مَكْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ عَلَى قَتْلِهِ أَطْفَأَ نَبِيَّهُ ﷺ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى مَكْرِهِ. وَالثَّانِي: كُلَّمَا انْتَصَبُوا لِلْحَرْبِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ واجتمعوا عليه، فَرَّقَ اللَّهُ شَمْلَهُمْ، وَجَعَلَهُمْ بِحَيْثُ لَا يَجْتَمِعُونَ عَلَى ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ أَيْضًا: أَحَدُهُمَا ^(٩): السَّعْيُ بِالْفَسَادِ عَلَى حَقِيقَةِ الْمَشْيِ عَلَى الْأَقْدَامِ، وَهُوَ مَا كَانُوا يَسْعَوْنَ فِي نَصَبِ الْحَرْبِ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَالِإِتِّصَالِ بِغَيْرِهِمْ مِنَ الْكُفْرَةِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِهِمْ، فَذَلِكَ هُوَ السَّعْيُ فِي الْأَرْضِ بِالْفَسَادِ. وَالثَّانِي: مَا كَتَمُوا مِنْ بَغْيٍ ^(١٠) الرُّسُولِ وَصِفَتِهِ، وَحَرَّفُوا مَا فِي كُتُبِهِمْ مِنْ أَعْلَامِ نُبُؤَتِهِ وَآيَاتِ رِسَالَتِهِ، وَدَعَوْا النَّاسَ إِلَى غَيْرِ مَا نَزَلَ فِيهِ؛ وَذَلِكَ سَعْيٌ فِي الْأَرْضِ بِالْفَسَادِ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: نَعْتُهُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: الَّتِي كَانَتْ. (٣) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: الْوَجْهُ. (٤) سَاقِطَةٌ مِنْ م. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: سَبَبُهُ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: يَحْتَمِلُ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: يَحْتَمِلُ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: نَعْتُهُ.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ لَأَنَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ، وَلَا يَرْضَى بِهِ.

الآية ٦٥

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا ۖ ۱۳۳ - ب/ وَاتَّقَوْا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سِيَائِهِمْ وَلَا لَكُنْهُمْ جَنَّةٌ الْقِيمِ﴾ عامل الله ﷻ خلقه معاملة أكرم الأكرمين حين^(١) وَعَدَ لَهُمُ الْمَغْفِرَةَ وَتَخْفِيرَ مَا ارْتَكَبُوا فِي حَالِ الْكُفْرِ قَوْلُهُمْ فِي اللَّهِ مِنَ الْقَبِيحِ الْوَحْشِيِّ، لَوْ آمَنُوا، وَاتَّقَوْا الَّذِي قَالُوا فِي اللَّهِ، وَهُوَ كَمَا قَالَ اللَّهُ: ﴿إِن يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: إِنَّهُ إِنْ تَابَ، وَرَجَعَ عَنْ صَيِّبِهِ، يَرْجِعْ عَنْ جَمِيعِ مَا كَانَ مِنْهُ، وَيَنْدَمَ عَلَى ذَلِكَ، وَيَتَمَنَّ أَنْ يَكُونَ مَا كَانَ مِنْهُ فِي تِلْكَ الْحَالِ مِنَ الشَّرِّ خَيْرًا. فَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ لِيَلِكَ يُبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠] لَأَنَّهُمْ يَنْدَمُونَ عَلَى تِلْكَ السَّيِّئَاتِ الَّتِي كَانَتْ مِنْهُمْ، وَيَتَمَنَّوْنَ أَنْ يَكُونَ الَّذِي كَانَ مِنْهُمْ فِي تِلْكَ الْحَالِ خَيْرًا لَا شَرًّا.

الآية ٦٦

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ يَخْتَمِلُ هَذَا وَجْهَيْنِ: يَخْتَمِلُ أَنَّهُمْ لَوْ عَمِلُوا بِمَا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَبِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْقُرْآنِ ﴿لَأَكَلُوا مِنْ﴾ كَذَا. وَيَخْتَمِلُ^(٢) ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ وَرَجَعُوا عَمَّا حَرَّفُوا فِيهِمَا^(٣)، وَغَيَّرُوهُ، وَكْتَمَوْهُ مِنْ بَغْيٍ^(٤) سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ وَصِفَتِهِ وَمَا فِيهِمَا^(٥) مِنَ الْأَحْكَامِ لَكَانَ لَهُمْ مَا ذَكَرَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ^(٦) كَانُوا يَخَافُونَ الضِّيقَ إِذَا اسْلَمُوا؛ وَهُوَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا إِن تَبِيعَ الْمَدَى مَعَكَ تُنْخَفِظَ مِنْ أَرْضِنَا﴾ [القصص: ٥٧] فَأَخْبَرَ اللَّهُ ﷻ أَنَّهُمْ لَوْ آمَنُوا، وَاتَّقَوْا الشَّرْكَ، لَوَسَّعَ عَلَيْهِمُ الْعَيْشَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَأَكَلُوا مِنْ قَوْعِهِمْ وَبَيْنَ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ لَيْسَ عَلَى حَقِيقَةِ الْأَكْلِ، وَلَكِنْ يَخْرُجُ عَلَى الْمُبَالَغَةِ فِي الْوَصْفِ وَالذِّكْرِ كَمَا يُقَالُ: فَلَانٌ مِنْ قَرْيَةٍ رَأْسِهِ إِلَى قَدِيمِهِ فِي نِعْمَةٍ [اليسر]^(٧) عَلَى حَقِيقَةٍ مَا وَصَفَ، وَلَكِنْ عَلَى الْمُبَالَغَةِ فِي الْوَصْفِ بِالسَّعَةِ. وَيَخْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عَلَى حَقِيقَةِ الْأَكْلِ.

أَمَّا مَا يَخْرُجُ مِنْ تَحْتِ الْأَرْجُلِ فَهُوَ مَا يَخْرُجُ مِنَ الْأَرْضِ مِنَ الْمَأْكُولِ وَالْمَشْرُوبِ، وَ﴿بَيْنَ قَوْعِهِمْ﴾ مِنَ الثَّمَارِ وَالْفَوَاكِهِ فَهُوَ^(٨) مِنَ الْأَشْجَارِ. وَيَخْتَمِلُ مَا ذَكَرَ ﴿بَيْنَ قَوْعِهِمْ﴾ الْجِبَالِ^(٩)، وَ﴿بَيْنَ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ الْأَرْضَ إِخْبَارًا أَنْ يَكُونَ [مَا أُنْزِلَ فِي] الْجِبَلِ وَالسَّهْلِ جَمِيعًا.

وقيل: ﴿لَأَكَلُوا مِنْ قَوْعِهِمْ﴾ أَي أَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِذْرَاءً وَ﴿بَيْنَ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ تُخْرِجُ الْأَرْضُ بَرَكَتَهَا، وَتُنْبِتُ الثَّمَرَةَ. وَقَالَ قَتَادَةُ: لَأَغْظَنَهُمُ الْأَرْضُ نَبَاتَهَا، وَالسَّمَاءُ بَرَكَتَهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾ قِيلَ فِيهِ بوجْهَيْنِ: [قِيلَ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾ مَنْ اسْلَمَ، وَقِيلَ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾ عَلَى كِتَابٍ لَمْ يُحَرِّفُوهُ، وَلَا غَيَّرُوهُ، وَلَا كَتَمُوا شَيْئًا، وَلَا سَعَوْا فِي الْأَرْضِ بِالْفَسَادِ عَلَى مَا عَمِلَ أَكْثَرُهُمْ مِنَ التَّحْرِيفِ وَالتَّغْيِيرِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٦٧

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ الْكُفْرِ كَانُوا عَلَى طَبَقَاتٍ ثَلَاثٍ: مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَقَوْلُهُمْ: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا﴾ [فصلت: ٢٦]، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يُخَوِّفُهُ، وَيَمْكُرُ بِهِ، لِيَقْتُلُوهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَغْرِضُ عَلَيْهِ النِّسَاءَ وَالْقُصُورَ لِيَتْرَكَ ذَلِكَ، وَالْأَيُّ يَدْعُوهُمْ إِلَى دِينِهِ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ.

كَانُوا عَلَى الْوُجُوهِ الَّتِي ذَكَرْنَا، فَأَمَرَ اللَّهُ ﷻ أَنْ يَقُومَ عَلَى تَبْلِيغِ رِسَالَتِهِ، وَالْأَيُّ يَنْتَعُهُ مَا يَخْشَى مِنْ مَكْرِهِمْ وَكَيْدِهِمْ عَلَى قَتْلِهِ. لِأَنَّ الْمَرْءَ قَدْ يَمْتَنِعُ عَنِ الْقِيَامِ بِمَا^(١٢) عَلَيْهِ إِذَا كُذِّبَ فِي الْقَوْمِ، وَلِحَقِّهِ أَذَى بِذَلِكَ^(١٣). فَأَمَرَ اللَّهُ ﷻ نَبِيَّهُ ﷺ بِتَبْلِيغِ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنْ م. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: فِيهَا. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: نَعَتْ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: فِيهَا. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنَّهُمْ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: يَخْرُجُ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: وَهَذَا الْجِبَالِ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: نَزَلَ. (١١) مِنْ م. فِي الْأَصْلِ: قِيلَ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: لَمَّا. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: لِذَلِكَ. (١٤) سَاقِطَةٌ مِنْ م.

ما أنزل إليه، وإن خشي على نفسه الهلاك أو التكذيب في القول والأذى وترك طلب الموالاة. أي لا تمنعك شيء من ذلك من تبليغ ما أنزل إليك.

أو أن يكون الأمر بتبليغ الرسالة في حادث الوقت أن تبليغ ما أنزل إليك من البيان كما بلغت تنزيلاً، وهو كقولهِ تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُلٍ إِلَّا يَلْسَانٍ قَوْمِهِ. لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤] أَخْبَرَ أَنَّهُ إِنَّمَا [أَرْسَلَ] (١) الرسل على لسان قومهم لِيُبَيِّنُوا لَهُمْ. فَعَلَى ذَلِكَ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ أي وإن [لم] (٢) تبليغ ما أنزل إليك لما تخشى من الهلاك والمكر بك فكأنك (٣) لم تبليغ الرسالة رأساً. لم يُعَذِّبْ نَبِيَّهُ ﷺ في ترك تبليغ الرسالة. وإن خاف على نفسه الهلاك، ليس كمن أكره على الكفر أبخ له أن يتكلم بكلام الكفر بعد أن يكون قلبه مطمئناً بالإيمان (٤) إذا خاف الهلاك على نفسه. ولم يُبَخْ له ترك تبليغ الرسالة، وإن خشي على نفسه الهلاك.

ذلك، والله أعلم، أن تبليغ الرسالة يتعلّق (٥) باللسان دون القلب، والإيمان تعلّق بالقلب دون اللسان. فإذا أكره على الكفر أبخ له التكلم به بعد أن يكون القلب على حاله مطمئناً بالإيمان.

وأما الرسالة فلا سبيل أن يبلغها إلا باللسان. لذلك لم يُبَخْ له تركها، وإن خاف (٦) الهلاك. ولهذا يدل قولنا في المكروه بالطلاق والعتاق: إنه إذا تكلم به عيّل لتعلّقهما باللسان دون القلب. فالإكراه لا يمنع نفاذ ما تعلّق باللسان دون القلب كالرسالة التي ذكرنا، والله أعلم.

ويَحْتَمِلُ قوله تعالى: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ﴾ أي لم تبليغ الرسالة في حادث فكان لم تبليغ في ما مضى أو إن لم تبليغ البيان كما بلغت التنزيل في ما بلغت الرسالة، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ دليل إثبات رسالته ﷺ لأنه ﷺ أَخْبَرَ أَنَّهُ عَصَمَهُ مِنَ النَّاسِ، فَكَانَ مَا قَالَ، فَذَلِكَ أَنَّهُ عَلِمَ ذَلِكَ بِاللَّهِ. وكذلك في قوله تعالى: ﴿مِنْ دُونِهِ. فَكَيْدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ﴾ [هود: ٥٥] كَانَ يَقُولُ بَيْنَ ظَهْرَانِي الْكُفْرَةَ (٧): كَيْدُونِي جَمِيعاً، ثُمَّ لَمْ يَلْحَقْهُ مِنْ كَيْدِهِمْ شَيْءٌ. دَلَّ أَنَّهُ كَانَ بِاللَّهِ تَعَالَى [مُعْتَصِماً] (٨).

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا [أَنهَا قَالَتْ] (٩): كَانَ النَّبِيُّ ﷺ [يُحَرِّسُهُ أَصْحَابُهُ] (١٠). فَلَمَّا نَزَلَ قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ قَالَ: «انصُرُوا إِلَى مَنَازِلِكُمْ فَإِنَّ اللَّهَ عَصَمَنِي مِنَ النَّاسِ» [القرطبي ٦/ ١٨٠] فَانصُرُوا.

ويَحْتَمِلُ قوله تعالى: ﴿يَبْلُغُ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي بلغ ما أنزل إليك من الآيات والحجج والبراهين التي جعلها الله أعلاماً لرسالتك وآثاراً لنبوتك، لِيُلْزِمَهُمُ الْحُجَّةَ بِذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٦٨

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُتْلِيَوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ لِبِتْدَاءِ الْكَلَامِ بِمِثْلِ هَذَا لَا (١١) عَنْ قَوْلٍ أَوْ دَعْوَى تَسْبِقُ، وَلَيْسَ فِي الْآيَةِ بَيَانٌ مَا كَانَ مِنْهُمْ مَا ادَّعَوْا أَنَّهُمْ عَلَى دِينِ اللَّهِ وَعَلَى وَلايَتِهِ، أَوْ مَا قَالُوا: ﴿وَحَقُّ آبَتُنَا اللَّهُ وَأَجَبْتُونَا﴾ [الآية: ١٨] أَوْ [مَا] (١٢) قَالُوا: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرًا﴾ [البقرة: ١١١] أَوْ نَحْوُ ذَلِكَ مِنْ أَمَانِيهِمْ وَدَعَاؤِهِمُ الَّتِي ادَّعَوْا لِأَنْفُسِهِمْ. فَقَالَ لِرَسُولِهِ: ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ ﴿لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُتْلِيَوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

قَالَ الْحَسَنُ: قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تُتْلِيَوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ أي حتى تُقِيمُوا مَا حَرَفْتُمْ، وَغَيَّرْتُمْ مِنَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ، وَبَدَلْتُمْ، وَتَسْتَوُوا عَلَى مَا أُنْزِلَ، وَتُؤْمِنُوا بِهِ. وَقَالَ غَيْرُهُ: قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تُتْلِيَوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ بِالشَّهَادَةِ وَالتَّصْدِيقِ لِمَا فِيهِمَا.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: كان. (٤) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْثَرَهُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦]. (٥) في الأصل وم: تعلق. (٦) في الأصل وم: خافه. (٧) في الأصل وم: الكفر. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: يحرس. (١١) من م، في الأصل: إلا. (١٢) من م، ساقطة من الأصل.

وعن ابن عباس رضي الله عنه [أنه قال] ^(١): «حَقَّ تَقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ» حَتَّى تَعْلَمُوا بِمَا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ مِنْ صِفَةِ مُحَمَّدٍ وَنَعْيِهِ وَتَبْعِيهِ وَتُؤَيِّدِهِ ﷺ وَتُبَيِّنُوهُ لِلنَّاسِ، وَلَا تَكْتُمُوهُ ^(٢). وَمَا ذَكَّرْنَا وَاجِدَ.

[وقوله تعالى] ^(٣): «وَمَا أَرْسَلْنَاكُمْ مِنْ رُسُلِكُمْ» مِنْ كُتُبِ أَنْبِيَائِكُمْ، وَحَتَّى تَقِيمُوا أَيْضاً مَا أُنْزِلَ مِنَ الْكُتُبِ كُتُبِ الرُّسُلِ اجْتَمَعَ. لِأَنَّ الْإِيمَانَ بِبَعْضِ الرُّسُلِ وَبِبَعْضِ الْكُتُبِ، وَالْكَفَرُ بِبَعْضٍ لَا يَنْفَعُ حَتَّى يُؤْمَنَ بِالرُّسُلِ كُلِّهِمْ وَبِالْكُتُبِ جُمْلَةً.

وقوله تعالى: «وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا» قَدْ ذَكَّرْنَا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: «وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ» الْقُرْآنُ مِنْ أَمْرِ الرَّجْمِ وَالْقِصَاصِ «طُغْيَانًا وَكُفْرًا».

وقَالَ بَعْضُهُمْ: «لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ» حَقَّ تَقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ «هُوَ [مَا] ^(٤) أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ ^(٥) أَنْ يُبَلِّغَ مَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: «يُبَلِّغُ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» [الآية: ٦٧]

وقوله تعالى: «فَلَا تَأْسَ عَلَى الْكَافِرِينَ» أَي لَا تَحْزَنْ عَلَى كُفْرِهِمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «لَكَ بِمَنْ تَبِعَ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ» [الشعراء: ٣] وَنَحْوُ قَوْلِهِ تَعَالَى / ١٣٤ - / ١: «فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتًا» [فاطر: ٨]

الآية ٦٩

وقوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا» قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه هُمُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْمَسِيحِ، وَلَمْ يُؤْمِنُوا قُلُوبُهُمْ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُمُ الَّذِينَ، آمَنُوا بِبَعْضِ الرُّسُلِ، لَمْ يَتَّسَمُوا بِالْيَهُودِيَّةِ، وَلَا بِالنَّصْرَانِيَّةِ «وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ» قَدْ ذَكَّرْنَا فِي مَا تَقَدَّمَ مِنْهُمْ.

وقوله تعالى: «مَنْ أَمَرَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» تَأْوِيلُ الْآيَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: وَإِنْ اخْتَلَفَتْ آدِيَانُهُمْ، وَتَفَرَّقَتْ مَذَاهِبُهُمْ، لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَمَا ذَكَرَ فَلَا خِلَافَ عَلَيْهِمْ بِمَا كَانَ مِنْهُمْ فِي حَالِ كُفْرِهِمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ» [الأنفال: ٣٨] «وَلَا هُمْ يَمُزُّونَ» عَلَى قُوَّةِ مَا أَعْطَاهُمْ أَي لَا يَقُوتُهُمْ ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٧٠

وقوله تعالى: «لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ» قَدْ أَخَذَ اللَّهُ ﷻ الْمِيثَاقَ عَلَى جَمِيعِ الْبَشَرِ وَخَصَّهُمْ بِهِ دُونَ غَيْرِهِمْ مِنَ الْخَلَائِقِ لِمَا رَكَّبَ فِيهِمْ مَا يَعْرِفُ كُلُّ بِي شَهَادَةِ الْخَلْقَةِ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ رَبِّهِ كَقَوْلِهِ ﷻ: «إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ» [الاحزاب: ٧٢].

ثُمَّ خَصَّ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْبَشَرِ بِفَضْلِ الْمِيثَاقِ كَمَا أَرْسَلَ إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ مِنْهُمْ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ رُسُلًا» وَكَأَنَّهُمْ قَدْ قَبِلُوا تِلْكَ الْمَوَاقِيقَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ» إِلَى آخِرِهِ [الآية: ١٢] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ» [البقرة: ٤٠] كَانَ مِنَ اللَّهِ عَهْدٌ، فَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ إِذَا أَوْفُوا بِعَهْدِهِ يُوفِ بِعَهْدِهِمْ.

وقوله تعالى: «كَلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ» فِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ أَنَّهُمْ كَانُوا يُخَالِفُونَ دِينَ الرُّسُلِ بِاجْتِمَاعِهِمْ لِمَا أَخَذُوا مِنْ اتِّبَاعِ أَهْوَائِهِمْ ^(٦)، وَأَنَّ الرُّسُلَ، وَإِنْ اخْتَلَفَتْ أَوَاقَاتُ مَجِيئِهِمْ، فَلَنَّهُمْ إِنَّمَا يَدْعُونَ بِاجْتِمَاعِهِمْ إِلَى دِينٍ وَاحِدٍ.

وقوله تعالى: «فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ» مِنْهُمْ مَنْ كَذَّبَ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَتَلَ. لَكِنَّ الْقَتْلَ إِنْ كَانَ قَهْرًا فِي الْأَنْبِيَاءِ غَيْرِ الرُّسُلِ لِأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ: «إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ» [غافر: ٥١] أَخْبَرَ أَنَّهُ يَنْصُرُ رُسُلَهُ، وَلَيْسَ فِي الْقَتْلِ نَصْرٌ. وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ» أَي فَرِيقًا قَصَدُوا قَتْلَهُمْ. وَقَدْ ذَكَّرْنَا هَذَا فِي مَا تَقَدَّمَ.

الآية ٧١

وقوله تعالى: «وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ» وَلَمْ يُبَيِّنْ مَا الْفِتْنَةُ الَّتِي حَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ؟ فَأَهْلُ ^(٧) التَّأْوِيلِ اخْتَلَفُوا فِيهَا: قَالَ قَائِلُونَ: الْفِتْنَةُ الْمِخْنَةُ الَّتِي فِيهَا الشَّدَّةُ؛ حَسِبُوا أَلَّا يَأْتِيَهُمُ الرُّسُلُ بِإِمْتِحَانِهِمْ عَلَى خِلَافِ هَوَاهُمْ. بَلْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ لِيُمْتَحِنُوا عَلَى خِلَافِ مَا أَخَذُوا مِنْ هَوَى أَنْفُسِهِمْ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: تكتُمونه. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في م: ﷻ. (٦) في الأصل وم: هَوَاهُمْ. (٧) في الأصل وم: قائل.

وقال بعضهم: قوله تعالى: ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِئْتَةً﴾ أي هلاك وعذاب تكذيبهم الرسل وقضدهم قصد قتلهم.
وقال ابن عباس رضي الله عنه ألا يكون شر. وقيل: ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِئْتَةً﴾ أي حسبوا ألا يبتلوا بتكذيبهم الرسل ويقتلهم
الأنبياء بالبلاء والقحط ﴿فَمَسُوا﴾ عن الهدى، فلم يصبروا ﴿وَمَسُوا﴾ عن الهدى فلم يسمعوا لما لم ينتفعوا به.
[وقوله تعالى: (١)] ﴿ثُمَّ تَابَ اللَّهُ﴾ فدفع عنهم البلاء، فلم يتوبوا بعد رفع البلاء.

ويحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِئْتَةً فَمَسُوا وَمَسُوا ثُمَّ عَمُوا وَمَسُوا﴾ ما ذكره
في آية أخرى، وهو قوله تعالى: ﴿وَقَعَيْنَا إِيَّاكَ بَيْنَ إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوكَ كِبَرًا﴾ إلى قوله
تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ الآية [الإسراء: ٤ و ٥ و ٦]. تابوا مرة، ثم رجعوا، ثم تابوا. فذلك قوله تعالى:
﴿فَمَسُوا وَمَسُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَمَسُوا﴾ الآية.

الآية ٧٢

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ الآية. يحتمل قوله ﷺ: ﴿لَقَدْ
كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا﴾ [وجهين:

أحدهما: (٢): أي كفروا بعباسي لأن عيسى كذبهم في قولهم (٣): إنه ابن الله بقوله: ﴿يَكُونُ إِسْرَءِيلَ أَقْبَدُوا اللَّهَ رَبِّي
وَرَبَّكُمْ﴾ الآية، وبقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ [آل عمران: ٥١] وبقوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ مَتَنِّي الْكِتَابَ﴾ الآية
[مريم: ٣٠]. أخبر أنه عبد الله ليس هو إلهاً ولا ابنة. تعالى الله عن ذلك.

والثاني: كفروا بعلومهم لأنهم علموا أنه ابن مريم، وسَمَوْهُ ابْنَ مَرْيَمَ، ثم قالوا: هو الله أو ابن الله. فإن كان ابن مريم
أنى تكون له ألوهية؟ فإذا كانت أمه لم تستحق الألوهية، وهي أقدم منه، كيف تكون لمن بعدها؟ ولكن لفسهيم قالوا ذلك.
تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ إذا حرم عليه الجنة صار مأواه النار.
وقيل: سُمِّيَ مَسِيحاً؛ قال الحسن: سُمِّيَ ذلك لأنه مفسوخ بالبركات، وسُمِّيَ الدجال مسيحاً لأنه مفسوخ باللغة.
وقيل: المسيح بمعنى الماسح، وذلك جائز: الفاعل بمعنى الفاعل؛ وهو ما كان يمسح المريض والاكتم، فيبترأ،
ويمسح الموتى، فيحيون، ويثل ذلك، فسُمِّيَ بذلك، والله أعلم.

والفعل بمعنى المفعول جائز أيضاً؛ يقال: جريح ومجروح، وقيل ومقتول. هذا كله جائز في اللغة.

الآية ٧٣

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [يحتمل وجهين:
أحدهما: (٤): كفروا بعلومهم [لأنهم] (٥) علموا بوحدانيته، فكيف يكون ثالث ثلاثة، وهو واحد؟ فإذا قالوا: هو الله،
فلا يكون هناك ثانٍ، ولا ثالث، وذلك تناقض في العقل.

والثاني: [كفروا لأنهم] (٦) لم يروا غير الله خلق السموات والأرض (٧)، ولا رأوا أحداً خلقهم سوى الله (٨)، كيف
سَمَوْا [من] (٩) دونه إلهاً، ولم يخلق ما ذكرنا؟ إنما خلق ذلك الله الذي لا إله غيره؛ وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا
اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ أي يعلمون أنه لا إله إلا الله، إله واحد. لكنهم يتعتون، ويكابرون في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَلَن لَّهٗ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ﴾ عما تقدم ذكره ﴿لَيَسَّرَ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنهُمْ عَذَابَ أَلِيمٍ﴾.

الآية ٧٤

وقوله تعالى: ﴿أَنَّا لَا يَتُوبُونَ إِلَّا اللَّهُ لَنَسْفَعُنَّكَ﴾ عن مقالتيهم الشرك؟ فإن فعلوا فإن الله ﴿عَمُّوْهُ
رَجِيمٌ﴾ كقوليه تعالى: ﴿إِن يَنْتَهُوا يُشْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] وبالله العزيمة.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم. قوله. (٣) في الأصل وم. قوله تعالى. (٤) ساقطة من الأصل وم.
(٥) في الأصل وم. أنهم. (٦) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَلَيَن سَأَلْتَهُمْ مِّنْ عِلَالٍ الْتَوَيْنِ وَالْأَرْضِ وَسَعَرَ النَّاسِ وَالْقَرَارَ يَقُولُ اللَّهُ﴾ [العنكبوت:
١٠٠ و ١٠١]. (٧) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَلَيَن سَأَلْتَهُمْ مِّنْ عِلَالٍ الْتَوَيْنِ يَقُولُ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]. (٨) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٧٥

وقوله تعالى: ﴿مَّا السَّيِّئُ بَرُّهُ إِلَّا رَسُولٌ﴾ في الآية دلالة المُحَاجَّةِ مَعَ الْفَرِيقَيْنِ لَفِي وَجْهَيْنِ: أَخَذَهُمَا: أَنَّهُمْ^(١) كَانُوا فَرِيقَيْنِ؛ أَحَدُ الْفَرِيقَيْنِ كَانُوا يَكْفُرُونَ أَنَّهُ رَسُولٌ، وَالْفَرِيقُ الْآخَرُ يَدْعُونَ لَهُ الرُّبُوبِيَّةَ وَالْأُلُوهِيَّةَ. فَقَالَ: إِنَّهُ ابْنُ مَرْيَمَ، وَابْنُ مَرْيَمَ لَا يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ إِلَهًا.

والثاني: أَخْبَرَ أَنَّهُ ﴿رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أَي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِ عِيسَى رُسُلٌ مَعَ آيَاتٍ وَبَرَاهِينٍ. لَمْ يَقُلْ أَخَذَ مِنَ الْأَمَمِ السَّالِفَةِ أَنَّهُمْ كَانُوا إِلَهًا، فَكَيْفَ قُلْتُمْ أَنْتُمْ بَأَنِّ عِيسَى إِلَهٌ؟ وَإِنْ كَانَ مَعَهُ آيَاتٌ وَبَرَاهِينٌ لِرِسَالَتِهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ صِدِّيقَةٌ﴾ قِيلَ: مُطَهَّرَةٌ مِنَ الْأَفْذَارِ كُلِّهَا صَالِحَةٌ. وَقِيلَ: ﴿صِدِّيقَةٌ﴾ تَشْبِيهُ النَّبِيِّينَ؛ وَذَلِكَ أَنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا أَنَاهَا، وَقَالَ: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٩] صَدَّقَتْهُ كَتَصْدِيقِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ الْمَلَائِكَةِ. وَأَمَّا سَائِرُ الْخَلَائِقِ إِنَّمَا يُصَدِّقُونَ الْمَلَائِكَةَ بِإِخْبَارِ الرُّسُلِ إِيَّاهُمْ، وَهِيَ إِنَّمَا صَدَّقَتْ جِبْرِيلَ بِإِخْبَارِهِ [إِيَّاهَا]^(٢) أَنَّهُ مَلَكٌ وَأَنَّهُ رَسُولٌ. لِذَلِكَ سُمِّيَتْ صِدِّيقَةً، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقيل: كُلُّ مُؤْمِنٍ صِدِّيقٌ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾ الآية [الحديد: ١٩].

وقوله تعالى: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ فِيهِ الْإِخْتِجَاجُ عَلَيْهِمْ مِنْ وَجْهَيْنِ:

أَخَذَهُمَا: أَنَّ الْجُوعَ كَانَ يَغْلِبُهُمَا، وَيَحُوجُّهُمَا إِلَى أَنْ يَذُقَا ذَلِكَ عَنْ نَفْسَيْهِمَا^(٣). وَمَنْ غَلَبَهُ الْجُوعُ، وَقَهَرَهُ، كَيْفَ يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ رَبًّا إِلَهًا؟.

والثاني: أَنَّهُمَا إِذَا اخْتَجَا إِلَى الطَّعَامِ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَذُقَهُمَا ذَلِكَ إِلَى إِذَالَةِ الْأَذَى عَنْ نَفْسَيْهِمَا^(٤) وَدَفْعِهِ وَالْقِيَامِ فِي اخْتِبَاتِ الْأَمَاكِنِ وَأَقْبَحِهَا. فَمَنْ دَفَعَ إِلَى ذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَهًا. تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

وقوله تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ بُنِيَ لَهُمُ الْأَبْتَاتُ﴾ وَالْآيَاتُ مَا ذَكَرَ مِنْ وَجْهَيْنِ^(٥) الْمُحَاجَّةِ عَلَيْهِمْ:

أَخَذَهُمَا^(٦): أَنَّهُ ابْنُ/ ١٣٤ - ب/ مَرْيَمَ؛ وَمَنْ كَانَ ابْنُ آخَرٍ لَا يَكُونُ إِلَهًا.

والثاني: مَنْ أَكَلَ الطَّعَامَ اخْتَجَا أَنْ يَذُقَ عَنْ نَفْسِهِ الْأَذَى، وَيَقُومَ فِي اخْتِبَاتِ مَكَانٍ. وَمَنْ كَانَ هَذَا أَمْرُهُ لَمْ يَكُنْ رَبًّا. وَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، آيَةٌ أَكْثَرُ وَلَا أَتَيْنُ اخْتِجَاجًا عَلَى النَّصَارَى^(٧) وَلَا أَقْطَعُ لِقَوْلِهِمْ [مِنْ]^(٨) هَذِهِ الْآيَةُ لِلْمَعْنَانِ^(٩) الَّتِي وَصَفْنَا.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْظِرْ أَلَّكَ يَوْفَكَوْكَ﴾ أَي مِنْ أَيْنَ يَكْذِبُونَ؟ قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: يُؤَفِّكُونَ يُضَرِّفُونَ، وَيُحَادِّثُونَ عَنِ الْحَقِّ. كُلُّ مَنْ صَرَفْتَهُ عَنْ شَيْءٍ فَقَدْ أَفَكْتَهُ. وَيُقَالُ: أَفَكْتُ الْأَرْضَ إِذَا صَرَفْتُ عَنْهَا الْقَطَرُ كَقَوْلِهِ^(١٠) تَعَالَى: ﴿يُؤَفِّكُ عَنْهُ مِنَ الْأَنْفُسِ﴾ [الذاريات: ٩].

وقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْكُرُونَ﴾ [الاحقاف: ٢٨] قَالَ: أَضَلُّهُمْ فَقَدْ صَرَفَهُمْ عَنِ الْهُدَى.

قَالَ أَبُو عَوَسَجَةَ: الْإِفْكُ عِنْدِي الصَّرْفُ عَنِ الْحَقِّ، وَفِي الْأَصْلِ: الْإِفْكُ الْكَذِبُ. وَقَالَ الْقُتَيْبِيُّ: ﴿يُؤَفِّكُونَ﴾ يُضَرِّفُونَ عَنِ الْحَقِّ، وَيَعْدِلُونَ. وَقِيلَ: ﴿أَلَّكَ يَوْفَكَوْكَ﴾ يُخَدِّعُونَ بِالْكَذِبِ.

الآية ٧٦

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُبَدِّلُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا﴾ إِنْ خَالَعْتُمُوهُ ﴿وَلَا نَفْعًا﴾ إِنْ أَطَعْتُمُوهُ. وَقِيلَ: يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا﴾ إِنْ كَانَ اللَّهُ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ﴿وَلَا نَفْعًا﴾ إِنْ أَحَلَّ^(١١) بِكُمْ الضَّرَّ أَيْ لَا تَمْلِكُونَ دَفْعَهُ عَنْكُمْ.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ لِيُنَبِّتَكُمْ عِيسَى إِلَهُ، تَعَالَى ﴿الْعَلِيمُ﴾ بِعِبَادَتِكُمْ غَيْرَ اللَّهِ. وَيَحْتَمِلُ ﴿السَّمِيعُ﴾ الْمُجِيبُ لِدَعَائِكُمْ ﴿الْعَلِيمُ﴾ لِنِيَّاتِكُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: لَأَنَّهُمْ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنْفُسُهُمَا. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنْفُسُهُمَا. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَجُوه. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: أَخَذَهُمَا. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: وَأُولَئِكَ. (٨) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٩) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: الْمَعْنَانِ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (١١) فِي م: حُلْ.

الآية ٧٧

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلِبُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ خَاطَبَ اللَّهُ ﷻ بِالنَّهْيِ عَنِ الْغُلُوِّ فِي الدِّينِ أَهْلَ الْكِتَابِ، لَمْ يُخَاطَبِ أَهْلَ الشَّرْكِ بِذَلِكَ فِي مَا خَاطَبَ كَقَوْلِهِ ^(١): ﴿يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلِبُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [النساء: ١٧١] وذلك أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ادَّعَوْا أَنَّهُمْ عَلَى دِينِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ كَانُوا مِنْ قَبْلُ، فَتَنَاهُمُ اللَّهُ ﷻ عَنِ الْغُلُوِّ فِي الدِّينِ. وَالْغُلُوُّ هُوَ الْمُجَاوِزَةُ عَنِ الْحَدِّ الَّذِي حُدَّ وَالْإِفْرَاطُ فِيهِ وَالتَّعَمُّقُ. فَكَانَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، قَالَ: لَا تُجَاوِزُوا فِي الدِّينِ الْحَدَّ الَّذِي حُدَّ فِيهِ بِنِسْبَتِهِ الْأُلُوهِيَّةِ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ وَالْعِبَادَةِ لَهُ.

وَأَمَّا أَهْلُ الشَّرْكِ فَإِنَّهُمْ يَغْبُدُونَ مَا يَسْتَحْسِنُونَ، وَيَتَرَكُونَ مَا يَسْتَقْبِحُونَ، لَيْسَ لَهُمْ دِينٌ، يَدِينُونَ بِهِ. وَأَمَّا هَؤُلَاءِ فَإِنَّهُمْ يَدْعُونَ أَنَّهُمْ عَلَى دِينِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ. كَذَلِكَ خَرَجَ الْخُطَابُ لَهُمْ بِذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا﴾ يَغْنِي مِنْ قَبْلِ الرُّسُولِ بِذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، ﴿وَأَسْأَلُوا كَثِيرًا﴾ أَيِ اتِّبَاعِهِمْ ﴿وَمَسَلُوا عَنْ مَوَازِينِ السَّيْلِ﴾ أَيِ عَنْ قَصْدِ طَرِيقِ الْهَدْيِ.

الآية ٧٨

وقوله تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ قَالَ بَغُضُّهُمْ: لُعِنُوا بِكُلِّ لِسَانٍ؛ لُعِنُوا عَلَى عَهْدِ مُوسَى ﷺ فِي التَّوْرَةِ وَعَلَى عَهْدِ دَاوُدَ فِي ^(٢) الزَّبُورِ وَعَلَى عَهْدِ عِيسَى فِي الْإِنْجِيلِ وَعَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ مُحَمَّدٍ، عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَوَاتِ وَأَكْمَلُ التَّحِيَّاتِ ^(٣) فِي الْقُرْآنِ، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه.

وَقِيلَ: مُسِيحُوا [بِدُعَاءِ الرُّسُلِ] ^(٤) بِمَا اعْتَدَوْا قِرْدَةً وَخَنَازِيرَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه الْقِرْدَةُ وَالْخَنَازِيرُ مِنْ نَسْلِ الدِّينِ مَسِيحُوا. وَقَالَ الْحَسَنُ: انْقَطَعَ ذَلِكَ النَّسْلُ. وَأَصْلُ اللَّغْنِ هُوَ الطَّرْدُ، كَأَنَّهُمْ طَرَدُوا عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ.

وَيَحْتَمِلُ تَخْصِيصُ اللَّغْنِ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ، ﷺ، كَانَ بِهِ غِلْظَةٌ وَخُسْرُونَةٌ، وَهُوَ الَّذِي كَانَ اتَّخَذَ الْأَسْلِحَةَ وَالْآلِاتِ الْحَرْبِ، وَعِيسَى كَانَ بِهِ لِينٌ وَرَفَقٌ لِيُغْلَمَ أَنَّ اللَّغْنَ الَّذِي كَانَ مِنْهُمَا كَانَ لَا غِنْدَانِيَهُمُ الْحُدُودَ حُدُودَ اللَّهِ وَعِضَابِيَهُمْ رَبَّهُمْ، وَكَانُوا مُسْتَوْجِبِينَ لِذَلِكَ [مُحَقِّقِينَ. وَلِذَلِكَ] ^(٥) اسْتَجِيبَ دُعَاؤُهُمْ عَلَيْهِمُ بِاللَّغْنِ؛ اغْنِي دُعَاءَ الرُّسُلِ رضي الله عنهم.

الآية ٧٩

وقوله تعالى: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ ذِكْرٌ فِي بَغْضِ الْقِصَّةِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه [أَنَّهُ] ^(٦) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمَّا وَقَعَتْ بَنُو إِسْرَءِيلَ فِي الْمَعَاصِي نَهَاَهُمْ عَلَمَاؤُهُمْ، فَلَمْ يَنْتَهُوا، فَجَالَسُوهُمْ فِي مَجَالِسِهِمْ، وَآكَلُوهُمْ، وَشَارِبُوهُمْ، فَضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، وَلَعَنَهُمْ» عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ، قَالَ: فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَكَانَ مُتَكِنًا، فَقَالَ: لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى تَأْطِرُوهُمْ عَلَى الْحَقِّ أَظْرًا، [أحمد ٣٩١/١] قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: يَغْنِي تَعَطُّفُهُمْ عَظْفًا. وَقَالَ غَيْرُهُ: حَتَّى تَكْسِرُوهُمْ كَسْرًا.

الآية ٨٠

وقوله تعالى: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَقُولُونَ كَفَرُوا﴾ قِيلَ: قَوْلُهُ: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ يَغْنِي الْمُنَافِقِينَ ﴿يَقُولُونَ كَفَرُوا﴾ يَغْنِي الْيَهُودَ ﴿يَقُولُونَ كَفَرُوا﴾ مِنْ مُّشْرِكِي الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ؛ كَانُوا يُظَاهِرُونَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَيُعَاوَنُونَ عَلَيْهِمْ، قَدْ كَانَ مِنَ الْقَرِيقِينَ جَمِيعًا ذَلِكَ.

وَيَحْتَمِلُ وَجْهًا آخَرَ: قَوْلُهُ: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ شَهِدَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿يَقُولُونَ كَفَرُوا﴾ يَغْنِي أَهْلَ الْكِتَابِ وَرُؤَسَاءَهُمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَسْأَلُوا كَثِيرًا﴾ الْآيَةُ [الآية: ٧٧] تَوَلَّى هَؤُلَاءِ أَوْلَئِكَ، وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ.

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أَيِ مَا قَدَّمَتْ أَنْفُسُهُمْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ.

الآية ٨١

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فِي الْمُنَافِقِينَ فِي أَحَدِ التَّأْوِيلَيْنِ. وَفِي تَأْوِيلٍ آخَرَ [فِي] ^(٧) الْيَهُودِ، أَيِ لَوْ صَدَّقَ هَؤُلَاءِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَمَّنُوا بِهِ، وَصَدَّقُوا مَا «أَنزَلَ إِلَيْهِ» الْقُرْآنَ مَا اتَّخَذُوا أَوْلَئِكَ أَوْلِيَاءَ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: بِقَوْلِهِ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٣) فِي م: رَسُولُنَا مُحَمَّدٌ ﷺ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: بِدُعَائِهِمْ. (٥) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم.

ثم يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا أَخَذُوا مِنْهُمُ آلِيَةَ﴾ فِي الدِّينِ أَوْ فِي النَّصْرِ وَالْمَعُونَةِ وَالْمُظَاهَرَةِ ﴿وَلَكِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسَقُوا﴾.

الآية ٨٢

وقوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَتْرَكُوا﴾ تَحْتَمِلُ الْآيَةُ وَجْهًا: تَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَا ذَكَرَ مِنْ شِدَّةِ الْعَدَاوَةِ ^(١) لِلَّذِينَ آمَنُوا قَوْمًا مَخْصُوصِينَ مِنْهُمْ، وَتَحْتَمِلُ الْيَهُودَ الَّذِينَ كَانُوا يَقْرُبُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ^(٢) وَأَصْحَابِهِ، هُمْ أَشَدُّ عَدَاوَةً لَهُمْ، وَتَحْتَمِلُ الْيَهُودَ جُمْلَةً.

فَهُوَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، عَلَى مَا كَانَ مِنْهُمْ مِنْ قَتْلِ الْأَنْبِيَاءِ وَتَكْذِيبِهِمْ إِيَّاهُمْ وَنُصْبِ الْقِتَالِ وَالْحَرْبِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَمَا كَانَ مِنْهُمْ مِنْ قَوْلِ الْوَحْشِ فِي اللَّهِ سُبْحَانَهُ مَا لَمْ يَسْتَقِمْ أَحَدٌ بِمِثْلِ مَا وَصَفُوا اللَّهَ ﷻ بِالْبُخْلِ وَالْفَقْرِ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ بَدَأَ اللَّهُ تَقْوَلُ﴾ [الآية: ٦٤] [وقوله تعالى] ^(٣): ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١] وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْقَوْلِ؛ وَذَلِكَ لِشِدَّةِ بُغْضِهِمْ وَعَدَاوَتِهِمْ وَقَسَاوَةِ قُلُوبِهِمْ. فَعَلَى ذَلِكَ كُلِّ مَنْ دَعَاهُمْ إِلَى دِينِ اللَّهِ تَعَالَى؛ فَهُمْ لَهُ أَشَدُّ عَدَاوَةً وَأَقْسَى قَلْبًا.

وَأَمَّا النَّصَارَى فَلَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ وَاحِدٌ مِمَّا كَانَ مِنَ الْيَهُودِ مِنْ ^(٤) قَتْلِ الْأَنْبِيَاءِ وَنُصْبِ الْحُرُوبِ وَالْقِتَالِ مَعَهُمْ. وَلَمْ يَرَوْا فِي مَذْهَبِهِمُ الْقِتَالَ وَلَا الْحَرْبَ، وَلَا كَانَ مِنْهُمْ مِنَ الْقَوْلِ الْوَحْشِ مَا كَانَ مِنَ الْيَهُودِ. بَلْ كَانَ فِيهِمُ اللَّيْنُ وَالرَّفَقُ حَتَّى حَمَلَتْهُمْ ذَلِكَ عَلَى الْقَوْلِ فِي عِيسَى مَا قَالُوا. وَذَلِكَ مِنْهُمْ لَهُ تَغْطِيمٌ فَوْقَ الْقَدْرِ الَّذِي جَعَلَ اللَّهُ لَهُ حَتَّى رَفَعُوهُ مِنْ قَدْرِ الْعُبُودَةِ إِلَى قَدْرِ الرُّبُوبِيَّةِ. لِذَلِكَ كَفَرُوا. وَإِلَّا كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ وَالْأَنْبِيَاءِ ﷺ مِنْ قَبْلُ.

أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيًّا وَرَهَبًا﴾ أَخْبَرَ ﷻ أَنَّ «مِنْهُمْ قِسِيًّا وَرَهَبًا» وَالرُّهْبَانُ هُمُ الْعَبَادَةُ وَقِيلَ: الْقِسِيُّونَ ^(٥) هُمُ الصَّدِيقُونَ. وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْيَهُودِ رُهْبَانٌ وَلَا قِسِيُّونَ ^(٦). لِذَلِكَ كَانَ النَّصَارَى أَقْرَبَ مَوَدَّةً وَالْيَهُودَ قَلْبًا مِنَ الْيَهُودِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ فِي قَوْمٍ مَخْصُوصِينَ مُشَارِإِ إِلَيْهِمْ، فَهُوَ ^(٧) مَا ذُكِرَ فِي الْقِصَّةِ أَنَّ بَنِي قُرَيْظَةَ وَالنَّصِيرَ كَانُوا يُعَاوِدُونَ، وَيُطَاهِرُونَ مُشْرِكِي الْقَرْبِ عَلَى قِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَيَأْمُرُونَهُمْ. بِذَلِكَ ظَاهَرُوا، وَأَعَانُوا لِمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِنَبِيِّ وَلَا كُتُبٍ / ١٣٥ - / قَطَّ عَلَى مَنْ قَدْ آمَنَ بِالْأَنْبِيَاءِ وَالْكِتَابِ جَمِيعًا؛ وَذَلِكَ لِسَفَاهِهِمْ وَشِدَّةِ تَعْتِيهِمْ حَتَّى قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَجْلَاهُمْ مِنْ بِلَادِهِمْ إِلَى أَرْضِ الشَّامِ. وَإِنْ [كَانَ ذَلِكَ فِي] ^(٨) قَوْمٍ يَقْرُبُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ فَهُوَ ^(٩) مَا كَانَ مِنَ يَهُودِ الْمَدِينَةِ حِينَ ^(١٠) بَاتَمُوا أَهْلَ مَكَّةَ عَلَى قِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكَانُوا غِيُونًا لَهُمْ عَلَيْهِمْ وَطَلَايِعَ. وَلَمْ يَذْكُرْ فِي قِصَّةِ مِنَ الْقِصَصِ أَنَّهُ كَانَ مِنَ ^(١١) النَّصَارَى [شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ] [لِذَلِكَ كَانُوا] ^(١٢) أَقْرَبَ مَوَدَّةً لِلْمُؤْمِنِينَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَمَا قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الثَّوِيلِ بِأَنَّ مَنْ اسْلَمَ مِنْهُمْ كَانَ أَقْرَبَ مَوَدَّةً لِلْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْيَهُودِ.

فَنَحْصِلُ هَذَا الْكَلَامَ أَنَّ الْمُؤْمِنَ أَقْرَبَ [مَوَدَّةً] ^(١٣) لِلْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْكَافِرِينَ، وَذَلِكَ لَا يُقِيدُ مَعْنَى.

الآية ٨٣

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْمِعُوا مَا أَنزَلَ إِلَّا إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ سُرُورًا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِمَّا ظَفَرُوا مِمَّا كَانُوا يَسْتَمْعُونَ مِنْ نَعْيِهِ ﷺ وَيُظْعِمُونَ مَنْ وَجَدُوا ^(١٤). وَقَدْ يَعْمَلُ السُّرُورُ هَذَا الْعَمَلَ إِذَا اشْتَدَّ بِهِ، وَفَرِحَ الْقَلْبُ، فَاضَتْ غَيْبُهُ سُرُورًا.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ حُزْنَ عَلَى قَوْمِهِمْ حِينَ ^(١٥) لَمْ يُؤْمِنُوا بَعْدَ أَنْ بَلَغَهُمْ مَا بَلَغَ هَؤُلَاءِ مِنْ أَعْلَامِ النَّبُوَّةِ وَأَثَارِ الرِّسَالَةِ إِشْفَاقًا عَلَيْهِمْ أَنْ كَيْفَ لَمْ يُؤْمِنُوا؟ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢] قَدْ فَاضَتْ [أَعْيُنُهُمْ] ^(١٦) أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﷻ وَاللَّهُ أَعْلَمُ ^(١٧).

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: عَدَاوَةً. (٢) م: فِي الْأَصْلِ: ﷺ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالُوا. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَمِنْ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: الْقِسِيِّينَ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: قِسِي. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: وَهُوَ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: ذَلِكَ عَنِ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: وَهُوَ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (١١) فِي م: فِي. (١٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١٣) سَاقِطَةٌ مِنْ م. (١٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَجَدَهُ. (١٥) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (١٦) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ.

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا﴾ بما أنزلت، واتبعنا الرسول ﴿فَاكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ قيل مع أصحاب محمد ﷺ وهو واحد.

ثم ذكر في القصة أنها نزلت في النجاشي وأصحابه. وقيل: نزلت في أربعين رجلاً من مسلمي أهل الإنجيل؛ بغضهم قديموا من أرض الحبشة، وبغضهم قديموا من أرض الشام، فسمعوا القرآن من النبي ﷺ فقالوا: ما أشبه هذا بالذي نحدث من حديث عيسى! فبكوا، وصدقوا، فنزلت الآية فيهم. فلا نذري كيف كانت القصة؟ وفي من نزلت؟ إذ ليس في الآية بيانه، وليس بنا إلى معرفة ذلك حاجة سوى ما فيه من شدوة رغبتهم في القرآن وسرورهم على ذلك.

الآية ٨٤

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ الحق يختلج الرسول ﷺ ويختلج القرآن، ويختلج كليهما^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَنُطْمَعُ أَنْ يَدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوِيِّ الْأَقْلِيَّةِ﴾ قال الحسن: قوله تعالى: ﴿وَنُطْمَعُ﴾ أي نعلم ﴿أَنْ يَدْخِلَنَا رَبُّنَا الْجَنَّةَ إِذَا آمَنَّا﴾ والله وما جاءنا من البَيِّنَاتِ قيل: ﴿وَنُطْمَعُ﴾ وهو الطمع والرضا أي نطمع، ونرجو ﴿أَنْ يَدْخِلَنَا رَبُّنَا﴾ في دين قوم صالحين. و ﴿الْقَوِيِّ الْأَقْلِيَّةِ﴾ يختلج ما ذكرنا من الأنبياء والرسل، ويختلج أصحاب محمد [صلوات الله عليه، وسلامه]^(٢).

الآية ٨٥

وقوله تعالى: ﴿فَالْتَبَهُمُ اللَّهُ يَمَّا قَالُوا﴾ الثناء الحسن في الدنيا حين^(٣) ذكرهم في القرآن، فيذكرون إلى يوم القيامة، ويثنى عليهم، وفي الآخرة الجنة ونعيمها ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ المحسن كانه هو الذي يتقي المعاصي، ويأتي بالخيرات والحسنات جميعاً؛ يفعل عملين جميعاً. والتقي هو الذي يتقي المعاصي والمكارة خاصة.

الآية ٨٦

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ قال بعضهم: الجحيم هو اسم مغظم النار. وقال غيرهم: هو اسم ذلك من ذركات النار، وكذلك السعير.

الآية ٨٧

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْزَمُوا صِلَابَكُمْ اللَّهُ لَكُمْ﴾ الآية ترد على المتشقة لأنه [ما]^(٤) نهانا أن نأكل طيبات ما أحل الله لنا، وهم يحرمون ذلك. وقال الله ﷻ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِبِئَارِهِمْ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الْأَرْزَاقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]. ثم لا فرق بين ما أحل الله لنا من الطيبات وتحريم ما حرم الله علينا من الخبائث. ثم يلزمهم ألا^(٥) يحرموا على أنفسهم تناول من الخبز والماء، وهما من أطيب الطيبات.

ألا ترى أن المرء قد يمل، ويسأم من غيرهما من الطيبات إذا أكثر [من]^(٦) ذلك، ولا يمل من الخبز والماء؟ دل أنهما من أطيب الطيبات. إلا أن يتنعموا من تناول من غيرهما إشاراً منهم غيرهم على أنفسهم لما يلحق القوم من المؤن^(٧) في غيرهما من الطيبات ولا يلحق في الخبز والماء، لأنهما موجودان، يجدهما كل أحد، ولا يجد غيرهما من الطيبات إلا من تحمل مؤنة عظيمة. فإن كان تركهم تناول منها لهذا الوجه فإنه لا بأس.

ويعد فإن الله تعالى جعل الأطعمة والأشربة والفواكه للبشر في الوقت والحال التي تطيب أنفسهم بها، وتلذذ، لأنه لم يجعل لهم في أول خروجها من الأرض، والشغل إنما أحل لهم بعد نضجها ونعيمها واتخاذها خبزاً وبلوغها في الطيب نهيته. وجعل للبهايم ذلك في أول ما يخرج. فإذا كان البشر حُصروا بذلك لم يجب أن يحرم ذلك، ويقتل ذلك الشخصيص والتفصيل، والله أعلم.

فإن قيل: إنما لم يتناول منها لما يُعجز عن شكر الله، لذلك يقتصر على ما يُقيم الرَّمَقَ فيه، قيل له: فيجب ألا يتزوج من النساء إلا أذنهنَّ جمالاً واختبرهنَّ سناً لأنها [تصونه من]^(٨) الفجور. فإن لم يكن في تزوج^(٩) المعجزة والقبايح وترك

(١) في الأصل وم: كلاهما. (٢) في م: ﷺ. (٣) في الأصل وم: حيث (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أن. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: المؤمن. (٨) من م، في الأصل: عن. (٩) في الأصل وم: تزوج.

الشَّبَابِ الْجَسَانَ زَهَادَةً فَلَيْسَ فِي أَكْلِ خُبْرِ الشَّعِيرِ وَتَرْكِ الْحُورِ وَالْمَيْدَةِ زَهَادَةً، وَلَكِنْ لِمَا خَافَ أَنْ تُذْجِلَهُ الرُّغْبَةُ فِي طَيِّبِ الطَّعَامِ فِي شُبْهَةِ مَكْسِيَةٍ. فَوَاجِبٌ عَلَيْهِ أَلَّا تُذْجِلَهُ فِي ذَلِكَ الْمَكْسَبِ، وَيَنْزَعُ نَفْسَهُ عَنْهُ، وَيَقْتَصِرَ عَلَى الْقَوْتِ الَّذِي لَا يَبْدُلُهُ مِنْهُ. وَقِيلَ: الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْهُمْ عُمَرُ وَعَلِيٌّ وَابْنُ مَسْعُودٍ وَعُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ وَالْمِقْدَادُ وَسَالِمٌ، رِضْوَانُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، وَهَؤُلَاءِ حَرَّمُوا عَلَى أَنْفُسِهِمُ الطَّعَامَ وَالنِّسَاءَ، وَهَمُّوا أَنْ يَقْطَعُوا مَذَاكِيرَهُمْ وَأَنْ يَلْبَسُوا الْمَسُوحَ، وَيَدْخُلُوا^(١) الصَّوَامِعَ، فَيَتَرَهَّبُوا^(٢) فِيهَا، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ «فَأَتَى مَنْزِلَ عُثْمَانَ، فَلَمْ يَجِدْهُمْ النَّبِيَّ ﷺ»^(٣) فَقَالَ: النَّبِيُّ ﷺ «لَا مَرَأَةَ عُثْمَانَ: أَحَقُّ مَا بَلَغَنِي عَنْ عُثْمَانَ وَأَصْحَابِهِ؟ قَالَتْ: مَا هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَأَخْبَرَهَا النَّبِيُّ ﷺ بِالَّذِي بَلَغَهُ، فَكَرِهَتْ أَنْ تُكَذِّبَ النَّبِيَّ ﷺ وَتُبْذِيَ عَلَى زَوْجِهَا، فَقَالَتْ: إِنْ كَانَ عُثْمَانُ أَخْبَرَكَ فَقَدْ صَدَقَكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ قَوْلِي لِزَوْجِكَ إِذَا جَاءَ: إِنَّهُ لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَسْتَنْ بِسِتْنَانَا، وَيَأْكُلُ مِنْ دَيْحَيْنَا» [بِنَحْوِ السِّيَاطِي فِي الدَّرِ الْمَشْهُورِ ١٣٩-١٤٢] فَلَمَّا رَجَعَ عُثْمَانُ وَأَصْحَابُهُ أَخْبَرَتْهُ امْرَأَتُهُ يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ عُثْمَانُ: وَاللَّهِ لَقَدْ بَلَغَ النَّبِيُّ ﷺ أَمْرُنَا، فَمَا أَعْجَبُ! فَذَرُّوا الَّذِي كَرِهَ، فَانْزَلَ اللَّهُ: «لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتٍ مَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ» الْآيَةَ. فَلَا تَذَرِي كَيْفَ كَانَتْ الْقِصَّةُ؟ وَلَكِنْ فِيهِ بَيَانٌ مَا ذَكَرْنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٨٨

وقوله تعالى: «وَكُلُوا مِنَّمَا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا» يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْحَلَالُ هُوَ الطَّيِّبُ، وَالطَّيِّبُ هُوَ الْحَلَالُ، سَمَاهُمَا بِاسْمَيْنِ، وَهُمَا وَاحِدٌ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَكُلُوا مِنَّمَا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا» بِالشَّرِيعَةِ وَالذِّينِ، وَ«طَيِّبًا» بِالطَّبِيعَةِ لِأَنَّ الْجِلَّ وَالْحُرْمَةَ مَعْرِفَتُهُمَا بِالشَّرِيعَةِ، وَالطَّيِّبُ مَا تَسْتَطِيعُ بِهِ الطَّبَائِعُ. وَفِي الْآيَةِ دَلِيلٌ أَنَّهُ قَدْ يَرْزُقُ مَا هُوَ خَبِيثٌ، لَيْسَ بِطَيِّبٍ، لِأَنَّهُ لَوْ [لَمْ] يَرْزُقْ لَمْ يَكُنْ لِشَرْطِ الْحَلَالِ وَالطَّيِّبِ مَعْنَى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: «وَأَتَقُوا اللَّهَ الْذِي أَنْشَأَ بِهِ مُؤْمِنُونَ» فِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ أَنَّ الْخُطَابَ لِلْمُؤْمِنِينَ لِأَنَّهُ قَالَ: «وَأَتَقُوا اللَّهَ الْذِي أَنْشَأَ بِهِ مُؤْمِنُونَ» وَلَمْ يَقُلْ: «وَأَتَقُوا اللَّهَ» إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، وَنَحْوُ هَذَا قَدْ سَمَاهُمْ مُؤْمِنِينَ مُطْلَقًا. دَلٌّ أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يُسَمَّى «وَأَتَقُوا اللَّهَ» وَ«لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتٍ مَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ» «الَّذِي أَنْشَأَ بِهِ مُؤْمِنُونَ» أَنَّهُ لَا يَجِلُّ، وَلَا يُحَرِّمُ، إِلَّا هُوَ. وَلَيْسَ/ ١٣٥ - ب/ إِلَى مَنْ [هُوَ]^(٦) دُونَهُ تَحْلِيلٌ أَوْ تَحْرِيمٌ.

الآية ٨٩

مَسْأَلَةٌ^(٧): اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي تَأْوِيلِ أَحْرَفِ ذِكْرَتْ فِي قَوْلِهِ ﷻ «لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِالْفُحْوَ فِي إِيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْتَانَ» إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى «لَمَّا كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» لِمَا لِلنَّاسِ حَاجَةٌ إِلَى مَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ مَا فِي كُلِّ حَرْفٍ مِنْهَا. إِنَّهُ لَمْ يَزَلْ تَنَازَعُ أَهْلُ الْفِقْهِ فِي أَحْكَامِهِ وَمَا يُعْلَمُ أَنَّ حَقَّ الْبَيَانِ فِي الْخُطَابِ لَا يَبْلُغُ مَا يَقْطَعُ مَوْضِعَ التَّنَازُعِ فِيهِ وَلَا يَحِثُّ يَبْلُغُ حَقِيقَةَ كُلِّ سَامِعٍ. وَإِنْ فِي شَرْطِ الْمَحْنِ بِالْأَسْبَابِ الَّتِي يُنْتَحَنُ بِهَا لُزُومُ الْفِكْرِ فِيهَا وَالتَّبَحُّثُ عَنْهَا [وَالسُّؤَالُ عَنْهَا الَّذِي]^(٨) خُصُّوا بِفَهْمِهَا بِسُؤَالِهِمْ^(٩): مَنْ وَلَّى الْإِبَانَةَ عَنْهَا وَمَقَابِلَتَهُمْ بِمَا سَبَقَ لَهُمُ الْعِلْمُ بِهَا، فِي مَعْرِفَةِ ذَلِكَ بَيَانٌ مَا خَفِيَ مِنْ مَعْنَى الَّذِي قَرَعَ سَمْعَهُ، أَوْ بَغْيَرِ ذَلِكَ وَمَا فِيهِ دَلِيلٌ ذَلِكَ؛ إِذْ لَا تَجُوزُ الْمَحْنَةُ بِالَّذِي لَا يَحْتَمِلُ الْوُسْعُ الْوُصُولَ إِلَيْهِ، وَلَا فِي جُمْلَةِ مَا بِهِ امْتَحَنَ إِضْاحَ ذَلِكَ لِمَا يُوجِبُ الْأَمْرُ بِفِعْلٍ مَا هُوَ عَنْهُ مَمْنُوعٌ، وَذَلِكَ بَعِيدٌ. بَلْ يَكُونُ الْبَيَانُ السَّمْعِيُّ عَلَى قَدْرِ الْبَيَانِ الْعَقْلِيِّ؛ إِنَّ مِنَ الْمَعَارِفِ مَا يَكُونُ بِالْحَوَاسِّ، وَمِنْهَا مَا يَبْهَمُ يُوَصَّلُ إِلَيْهَا إِمَّا بِالتَّعْلِيمِ وَإِمَّا بِالِاسْتِزْلَالِ، فَمِثْلُهُ حَقُّ السَّمْعِيِّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: «لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِالْفُحْوَ فِي إِيْمَانِكُمْ» [البقرة: ٢٢٥ والمائدة: ٨٩] إِنَّهُ ﷻ ذَكَرَ يَمِينًا لَا يُؤَاخِذُ فِيهَا فِي مَوْضِعَيْنِ مِنْ غَيْرِ أَنْ ذَكَرَ أَنَّهَا: أَيُّ يَمِينٍ هِيَ؟ وَلَا بِأَيِّ شَيْءٍ، لَا يُؤَاخِذُ فِيهَا؟ وَالْحَاجَةُ لِازِمَةٍ. إِنَّ ذَلِكَ فِي مَوْضِعِ الْإِيْمَانِ مِنْهُ، جَلٌّ، وَعَلَا، فِي الْعَفْوِ عَنْ أَمْرِ كَانَ لَهُ الْمُواخِذَةُ. وَحَقٌّ عَلَى السَّامِعِ مَعْرِفَةُ مَعْنَى اللَّهِ تَعَالَى لِشُكْرِهِ عَلَيْهَا.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيَدْخُلُونَ. (٢) فِي م: فَيَتَرَهَّبُونَ. (٣) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٤) فِي م: ﷺ. (٥) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) فِي م: وَقَوْلُهُ. (٨) فِي الْأَصْلِ: الَّذِي، فِي م: وَالسُّؤَالُ عَنْهَا الَّذِي. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: بِسُؤَالِهِمَا.

ثم معلوم أن اليمين لو كانت بالطلاق والعتاق كان صاحب ذلك يؤخذ بما روي عن نبي الله ﷺ: «أن ثلثاً جُدُّهُنَّ جُدَّ، وهزلهُنَّ جُدَّ: الطلاق والعتاق والنكاح» [أبو داود: ٢١٩٤]. واللاغي لا يقدو أمرين مع ما كان يلزمان بلا شرط، يصير به الموقوع حائفاً. وأغظم ما في دفع المؤاخذه في اليمين أن يدفع عنه اليمين، وهما يجبان دونهما، فيقعان من غير أن كان في الآية ذكر التفضيل. ولكن تجب معرفة حقيقة ذلك بالذي بيّنا من الخبر والنظر مع ما يعرف في ذلك خلافاً. وهذا يوضح أن المعفو في ما كانت الأيمان بالله تعالى.

فعلى ذلك ما نسق على ما لا يؤخذ من المؤاخذه؛ وذلك يمنع من احتج بإيجاب الكفارة على الحالف بالقرب من حيث كان ذلك منه يميناً. والله أوجب باليمين كفارة. وإنما ذلك في اليمين لا في اليمين بالقرب.

ثم كانت اليمين بالقرب: لو كانت على مخرج اليمين بالله لم يجب فيها شيء نحو أن نقول بالعق: لا أفعل كذا أو بالصلاة أو بالصيام، ولو قال: بالله يجب. ثبت أن وجوب ذلك وصيرورته يميناً كان بحق النذور.

وقد أمر الله ورسوله في النذور بالوفاء. فكذلك اليمين بها. ومما يبين ذلك أنه لو قال: إن فعل كذا فعليه قتل فلان أو إتلاف ماله إنه لا يلزمه شيء. ثبت أن ما لزم بحق لزوم ذلك في النذور. وحق ذلك الوفاء لا غير مع ما جاء الخبر بالامر بالحلف بالله والنهي عن الحلف بغيره. والنذور أبداً لا تكون بغيره. ثبت أن وجوب ذلك بحق النذر. فليذلك يجب الوفاء به، والله أعلم.

ثم الأصل في ذلك أن الحلف بغير الله يكون على قسمين: قسم ألا يجب فيه شيء وقسم أنه لو وجب لأوجب^(١) المسمى نحو الطلاق والعتاق في ما يجب. فلما كان في الحلف بالقرب في الذمة، وهو حلف بغير الله تعالى، يجب أن يكون الواجب في ذلك ما أوجب، والله أعلم.

ثم اختلف في معنى اللغو، فقال القوم: هو الإثم كقوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيًا﴾ [الواقعة: ٢٥] وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا﴾ [مريم: ٦٢].

ثم اختلف [في]^(٢) من قال بهذا على قولين:

أحدهما: أنه لا يؤخذ بالإثم في أيمانكم التي لم تعقدوها^(٣)، لكنها جرت على اللسان. ويمثل ذلك روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: هو قول الرجل: لا والله ما كان كذا. وبه قال أبو بكر الكيساني في تفسيره. وأيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُوَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥]. دل أن الأول بما يجري على اللسان دون ما يقصده قلبه.

والثاني: ألا يؤخذ بترك المحافظة في ما كان في المحافظة مأثم. دليله صلة ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْمَعُوا اللَّهَ عِزًّا لَيْتِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٤] فكأنهم يخرجون عن ترك المحافظة في ما سبق منهم الأيمان قبل النهي بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُصُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١] فنزل قوله تعالى: ﴿لَا يُوَاخِذُكُمْ اللَّهُ بِاللُّغُو فِي﴾ بغض أيمانكم إذا كان حفظها مأثماً؛ وذلك نحو ما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من حلف على يمين، قرأ غير ما خيراً منها، فليأت بالذي هو خير، وليكفر عن يمينه» [مسلم: ١٦٥٠].

وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُوَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ ولا يحتمل أن يؤخذ بالعقد، وهو به معظم ربه، ولكن لمحافظة ما «عقدتم الأيمان» إذا كانت المحافظة إثماً، وفي ما لم يكن فهو في قوله تعالى: ﴿وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [الآية: ٨٩] والله أعلم.

والى هذا يذهب سعيد بن جبير في تأويل الآية.

وقال قائلون^(٤): هو الشيء الذي لا حقيقة له نحو اللب. وعلى ذلك [قوله تعالى]^(٥): ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا﴾

(١) في الأصل وم: ليجب. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: تعتقدوها. (٤) هذا وجه ثان في معنى اللغو. (٥) ساقطة من الأصل وم.

فيهِ [فصلت: ٢٦] أَنَّهُمْ لَمْ يَقْصِدُوا تَحْقِيقَ أَمْرِ يُظْهِرُونَهُ، وَلَكِنْ قَصَدُوا التَّلْيِيسَ بِمَا نَطَقَ بِهِ: مَا كَانَ كَذَا. قِيلَ: لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَعْوًا بِإِطْلَاقِ كُلِّ مَا يُسْمَعُ فِيهَا فَهَوَ حَقٌّ وَحُكْمٌ.

ثُمَّ رَجَعَ تَأْوِيلُهُ إِلَى وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: يَجْرِي عَلَى اللِّسَانِ مِنْ غَيْرِ عَقْدٍ انْقَلَبَ عَلَى مَا مَرَّ بِهِ تَفْسِيرُهُ.

وَالثَّانِي: أَنْ يَكُونَ بِهِ الْحَلْفُ بِمَا لَا حَقِيقَةَ لَهُ عَلَى ظَنٍّ أَنْ حَقِيقَةَ مَا حَلَفَ عَلَيْهِ الْحَالِفُ كَمَا حَلَفَ.

وَكَذَلِكَ رَوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنِ رضي الله عنهما فِي تَأْوِيلِ الْآيَةِ.

ثُمَّ لَوْ كَانَتِ الْآيَةُ عَلَى التَّأْوِيلِ الْأَوَّلِ لَكَانَتْ فِي رَفْعِ الْمَائِمِ خَاصَّةً، وَهُوَ التَّأْوِيلُ الَّذِي ذَكَرَهُ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ رضي الله عنه.

وَأَمَّا الْكُفَّارَةُ فَهِيَ لازمةٌ عَلَى مَا ذُكِرَ فِي الْخَبَرِ الْمَرْفُوعِ فِي مَا ذَلِكَ، وَبِهَا هِيَ وَاجِبَةٌ لِلْحِنْثِ فِي الْيَمِينِ وَتَرْكِ الْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ، وَالْمَعْنَى فِي الْأَمْرَيْنِ مَوْجُودٌ. لِذَلِكَ لَزِمَتِ الْكُفَّارَةُ فِي الْوَجْهَيْنِ جَمِيعًا مَعَ مَا لَا بُدَّ مِنَ الْإِلْزَامِ فِي مَا أَخْطَأَ أَوْ تَعَمَّدَ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَكُنْ اسْتِثْنَاءً حَالًا مِنْهُمَا صَاحِبَةً. وَذَلِكَ مُبَيَّنٌّ أَنَّ ذَلِكَ لِلْحَلْفِ فِي عَقْدِ الْيَمِينِ أَوْ لِمَا يَخْرُجُ الْفِعْلُ مَخْرَجَ الْاسْتِحْقَاقِ إِذَا قُوِيَ بِفَعْلِهِ بِعَقْدٍ. وَإِنْ كَانَ الْمُسْلِمُ قَدْ عَصِمَ عَنْ ذَلِكَ الْوَجْهِ، فَأَمَرَ بِتَكْفِيرِ ذَلِكَ، وَذَلِكَ الْمَعْنَى مَوْجُودٌ فِي الْوَجْهَيْنِ. لِذَلِكَ لَزِمَتِ الْكُفَّارَةُ فِي الْأَمْرَيْنِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَلَوْ كَانَتْ عَلَى التَّأْوِيلِ الثَّانِي أَوْ عَلَى أَحَدٍ وَجْهَيْ تَأْوِيلٍ لَأَمْكَنَ أَنْ يُؤَاخَذَ بِالْمَائِمِ وَلَا بِالْكُفَّارَةِ جَمِيعًا.

وَالَّذِي يُبَيِّنُ أَنَّ هَذَا التَّأْوِيلَ أَنَّهُ ذَكَرَ الْمُواخَاذَةَ فِي الْآيَتَيْنِ:

أَحَدَهُمَا^(١): يَكْسِبُ الْقُلُوبَ.

[وَالثَّانِي: يَكْسِبُهَا]^(٢) تَعَمَّدَهَا. وَالْمُواخَاذَةُ بِوَيْتِهَا لَا بِالْحُقُوقِ وَالْكُفَّارَاتِ؛ إِذْ لَا يُؤَاخَذُ بِشَيْءٍ يَكْسِبُ الْقُلُوبَ خَاصَّةً كُفَّارَةً أَوْ حَقًّا يَوْجِبُ. وَإِنْ كَانَ قَدْ يُؤَاخَذُ لِذَلِكَ عِنْدَ أَفْعَالِ الْجَوَارِحِ. فَأَمَّا [مَا]^(٣) لَهُ خَاصَّةٌ فَلَا، وَقَدْ يَكُونُ بِهِ الطَّاعَةُ وَالْمَعْصِيَةُ.

وَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ، وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الاحزاب: ٥]. وَإِذَا ثَبَتَ أَنَّ ذَلِكَ فِي الْمَائِمِ فَلَا يُؤَاخَذُ. ثُمَّ لَا مَائِمَ فِي مَا ذُكِرَ مِنْ عَقْدِ الْيَمِينِ فِي الْعَهْدِ؛ إِذْ هُوَ يَخْرُجُ مَخْرَجَ التَّعْظِيمِ لِلَّهِ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْهُ الْإِيمَانُ عَنِ الرُّسُلِ، فَثَبَتَ أَنَّ الْمُواخَاذَةَ بِالْكُفَّارَةِ. فَلَا يُؤَاخَذُ بِهَا فِي اللَّغْوِ أَيْضًا.

وَأَيْدِ ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَ مَا لَا يُؤَاخَذُ مَرَّتَيْنِ، وَذَكَرَ الْمُواخَاذَةَ كَذَلِكَ. فَلَوْ كَانَتِ الْمُواخَاذَةُ بِوَاحِدٍ لَكَانَ الذِّكْرُ الْوَاحِدُ كَافِيًا. فَثَبَتَ/ ١٣٦ - أ/ أَنَّهُ بِأَمْرَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ.

فَعَلَى ذَلِكَ أَمْرُ الْعَفْوِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، مَعَ مَا أَنَّهُ قَدْ تَبَيَّنَ فِي آيَةِ الْمُعَاذَةِ كَيْفِيَّةُ الْمُواخَاذَةِ، وَلَمْ يُبَيِّنْ فِي كَسْبِ الْقُلُوبِ أَنْ يَكُونَ الْعَفْوُ عَمَّا جَرَى بِهِ بَيَانُ الْمُواخَاذَةِ أَحَقُّ مِنْهُ مِمَّا لَمْ يَجْزِ بِهِ، فَثَبَتَ أَنَّهُ فِي ذَنْعِ الْمُواخَاذَةِ بِالْكُفَّارَةِ.

وَلَوْ كَانَ عَلَى مَا يَقُولُهُ سَعِيدُ [ابْنِ جُبَيْرٍ]^(٤) لَكَانَتْ تَجِبُ الْكُفَّارَةُ بِمَا سَلَفَ بَيَانُهُ. لِذَلِكَ قُلْنَا: إِنَّ هَذَا أَحَقُّ بِالْآيَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ إِذَا ثَبَتَ أَنَّ اللَّغْوَ مِمَّا لَا تَجِبُ فِيهِ الْكُفَّارَةُ يَخْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ لَمْ تَجِبْ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَغْضَبِ اللَّهُ بِهِ، وَيَخْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ لَمْ تَجِبْ لِأَنَّهُ يَمِيتُهُ كَانَتْ عَلَى مَا كَانَتْ، الْحِنْثُ بِهِ مَعَهُ أَوْ قَبْلَهُ، فَيَمْنَعُ صِحَّةَ الْيَمِينِ. وَإِنْ أَطْلُقَ لَهَا الْإِسْمَ إِنْ كَانَتْ الْأَسْمَاءُ مُطْلَقَةً لِمَا فَسَدَ مِنَ الْعُقُودِ، وَصَحَّتْ. وَإِنَّمَا تَخْتَلِفُ لَهَا الْأَحْكَامُ وَالْمَقَاصِدُ مِنْهَا.

فَإِنْ كَانَ لِمَا لَمْ يَغْضَبِ اللَّهُ فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ فِي كُلِّ جَنْبٍ يُؤْمَرُ بِهِ، لَا تَجِبُ بِهِ الْكُفَّارَةُ. فَإِذَا جَرَتْ السُّنَّةُ بِإِجَابِهَا عَلَى

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: أَحَدُهُمَا، وَالْمَقْصُودُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥]. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَكَسِبَهَا، وَالْمَقْصُودُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ [المائدة: ٨٩]. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

الأمر بالجنث قد يجب أيضاً في ما كان فعل الجنث على حال خطأ أو لوم أو جنون أو فعل غير الحالف في ما الجنث به على تعمّد أن يأتّم بغيره، إذ قال الله ﷻ: ﴿وَلَا يَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤]... ثبّت أنها تجب لا لأنه لم يغص الله، ولكن للرجوع الذي ذكرته، والله أعلم.

ثم كان ذلك المعنى قائماً في اليمين الذي تعمّد عليه الكذب، وهو ما قيل: اليمين الغموس، يجب ألا تلزمه كفارة اليمين إنما يلزمه كفارة الجُرأة والمخالفة لله، والله أعلم.

وأيد هذا الأصل وجهان:

أحدهما: استواء الأمرين في اليمين المعقودة على الحادث في ما عصى من الجنث فيها، أو أطاع، أن يستويا في اليمين على الماضي في الوجهين جميعاً. فإذا لم تجب الكفارة في أحد الوجهين لم تجب في الآخر، والله أعلم.

والثاني: ما روي عن نبي الرحمة ﷺ في شأن اللعان بعد الفراغ منه: «إن الله يعلم أن أحدكما كاذب، فهل منكما تائب؟» [البخاري: ٤٧٤٧] ومعلوم أن صاحبتهما لو كانت تجب فيه الكفارة [لاختيج^(١)] إلى البيان عنها أكثر من صاحبتهما إلى بيان كذب أحدهما.

ثم لزوم التوبة إذ ذلك يعرفه كل سفيه وحكيم بلا سماع، والكفارة لا تعرف إلا بالسمع، ثبت أنها غير واجبة. وكذا الأخبار التي رويت في الخصمين أنه قضى لأحدهما حتى ذكر فيه الوعيد الشديد حتى أمرهما بالتساهم بينهما وأن يخلل كل واحد منهما الآخر، فلا يَحْتَمَلُ أن يكون فيه كفارة، ولا تبيين. وكذلك علم في الموضع الذي أمر بالجنث؛ إذ قد يشتبه على بعض من ليس له رؤية.

وقد قال إسحاق: أجمع المسلمون على ألا تجب فيه الكفارة. فقول من يوجبها ابتداء شرع ونصب حكم الله تعالى على الخلق، وهو لم يشرك في حكمه أحداً.

ثم الأصل في ذلك أن الأسباب التي ترفع العقود توجب الحُرُمَات إذا تأخرت^(٢) العقود وأسباب الجل؛ فهي على اختلافها متفقة على منع ابتدائها إذا قارنتها. فعلى ذلك أمر سبب الجنث. فلذلك تطلب اليمين والكفارة؛ وهي كفارة اليمين فلا تجب في ما لا يمين تجب فيها. وليس ذلك كالقول بمس السماء ونحو ذلك لأن اليمين في هذا على ما يكون. فسبب الجنث لم يفتقر بها، فصحت. لذلك اختلف الأمران.

وهذه المسألة توضح حال رجلين: [حال^(٣)] الشافعي في قوله: إن الكفارة تجب للجنث، وههنا لا جنث لما لم يصح العقد ليحنت فيه. ويكون الجنث أيضاً بعد العقد، ولم يكن مع ما كان النص بالكفارة في اليمين المعقودة^(٤) التي أمر فيها بالحفظ في هذه اليمين، وإنما يجب الحفظ عنها أن يخلت به، والله أعلم، وحال أبي عبيد حيث يوجب الكفارة بعقد اليمين. وعندة: اليمين الغموس يمين لا تجب فيها الكفارة. فهذا يوضح أن الكفارة تجب للذي يرد في اليمين لا لنفسها، والله أعلم.

ثم احتج قوم بوجوب الكفارة بعقد اليمين بقوله: ﴿وَلَكِنْ يُؤْخَذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْآيَاتِ﴾ ثم بقوله^(٥) ﴿فَكَفَّرْتُمُوهَا﴾ أي عندهم كفارة ما عقد من الإيمان بما فيها الإضافة. ولم يسبق غير ذلك العقد يضاف إليه.

وكقوله ذلك تسمية [عقد اليمين]^(٦) مع ما فيه وجهان من المعتبر:

أحدهما: ما روي عن رسول الله ﷺ لما رأى يحمزة الطغنة أقسم ليمنئن بكذا من قریش، فنزل النهي عن الرفاء بذلك، فكفر عن يمينه. ومعلوم أنه لا يحنث في يمينه إلا في الوقت الذي لا يَحْتَمِلُ بر مسألة في حياته. ثبت أنها كانت

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: تأخر. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: المعقود. (٥) في الأصل وم: قال.

(٦) في الأصل وم: المؤمنين.

لِيَمِينٍ. وكذا ما جاء: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ» إلى أَنْ قَالَ: «وَلْيُكْفَرْ عَنْ يَمِينِهِ» [مسلم: ١٦٥٠] إنما أُمِرَ بِتَكْفِيرِ يَمِينِهِ، والله أعلم.

والثاني: ذَكَرَ أَبُو عُبَيْدٍ أَنَّ اللَّهَ إِذَا نَهَى عَنِ الْوَعْدِ [فإنه لَا يَنْهَى] ^(١) إِلَّا بِالثَّنْيَا بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنْی فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾ ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣ و ٢٤] فذلك النَّهْيُ فِي الْيَمِينِ أَوْ كَذِّ وَاشْتَدُّ. فَمَنْ حَلَفَ بِلَا ثُنْيَا عَصَى اللَّهَ، فَتَلَزَمَهُ الْكُفَّارَةُ.

وَالْأَصْلُ عِنْدَنَا أَنَّ الْكُفَّارَةَ تَجِبُ لِلْجَنْثِ فِي الْيَمِينِ؛ إِذْ هِيَ كُفَّارَةٌ، وَالْكُفَّارَاتُ إِنَّمَا تَكُونُ لِلْسَّيِّئَاتِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تُكْفِّرُ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١] وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ. وَمِنْ الْبَعِيدِ فِي الْعَقْلِ تَكْفِيرُ الْحَسَنَاتِ، بَلِ الْحَسَنَاتُ تُكْفَرُ ^(٢) السَّيِّئَاتِ. وَالْجَنْثُ فِي التَّحْقِيقِ اسْمُ الْإِثْمِ. ثُمَّ مَعْنَى الذَّنْبِ فِيهِ، لِأَنَّهُ كَانَ عَاهِدَ اللَّهِ أَلَّا يَفْعَلَ كَذَا، فَفَعَلَهُ، يَخْرُجُ مَخْرَجَ نَقْضِ الْعَهْدِ فِيهِ، فَيَأْتِمُّ لَا بِالْعَهْدِ. وَلِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْتَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١].

وَفِي الْجُمْلَةِ أَمَرَ اللَّهُ أَنْ يُؤْفُوا بِعَهْدِهِ لَا أَنْ يَنْقُضُوا، وَقَدْ جُعِلَتِ الْيَمِينُ عَهْدَهُ، وَأَمَرْنَا بِوَفَائِهِ، فَتَقْضُهُ يُوجِبُ الْخُلْفَ فِي وَغْدِهِ وَالتَّقْضُ لِعَهْدِهِ، فَيَأْتِمُّ الْحَالِفُ لَا بِالْخُلْفِ. فَلِذَا تَجِبُ الْكُفَّارَةُ. وَلَوْ كَانَتْ لِلْيَمِينِ كُفَّارَةٌ لَكَانَ الْجَنْثُ أَحَقَّ أَنْ يُوجِبَ الْكُفَّارَةُ.

ثُمَّ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَنْ حَلَفَ أَنْ يُطِيعَ يَكُونُ بِوَ عَاصِيًا. ثَبَّتَ أَنَّ الْكُفَّارَةَ لَوْ كَانَتْ تَجِبُ لِلْيَمِينِ عَلَى الْمَغْصِيَةِ، لَوَجِبَ ^(٣) ثُمَّ حَتَّى كُفَّارَةً؛ بِمِثْلِهَا الْجَنْثُ فِيهَا. وَعَلَى ذَلِكَ رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: «أَنَّ مَنْ حَلَفَ عَلَى شَيْءٍ فَرَأَى غَيْرَهُ خَيْرًا مِنْهَا فَإِنَّمَا كُفَّارَتُهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَلْيُكْفَرْ عَنْ يَمِينِهِ» [مسلم ١٦٥٠] فَكَذَلِكَ تَكُونُ كُفَّارَةُ الْيَمِينِ لَوْ حُمِلَتْ أَنْ تَرْجِعَ عَنِ الْوَفَاءِ بِهَا.

وَأَمَّا كُفَّارَةُ مَا لَا وَجْهَ لِدَفْعِهِ؛ فَتَكُونُ ^(٤) بِالتَّوْبَةِ، وَالْحَسَنَةُ تُكْفَرُ لَا بِالرَّجُوعِ. وَعَلَى ذَلِكَ جَمِيعُ أَنْوَاعِ الْكُفَّارَاتِ أَنَّ مَا اخْتَمَلَ دَفْعَ الْمَغْصِيَةِ ^(٥) وَالرَّجُوعَ عَنْهُ وَنَقَضَ مَا قَدْ فَعَلَ، وَمَا لَا يَحْتَمِلُ، فَيُغْتَبَرُ ذَلِكَ. فَلَوْ كَانَ لِلْيَمِينِ كُفَّارَةٌ، فَكَانَتْ تَوْبَةً وَفُسْخًا لَا غَيْرَ، فَإِذَا أَوْجَبَ اللَّهُ غَيْرَ الرَّجُوعِ، ثَبَّتَ أَنَّ ذَلِكَ لِلْجَنْثِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ الدَّلِيلُ عَلَى ^(٦) أَنَّهُ لَا يَحْتَمِلُ إِيْجَابَ الْكُفَّارَةِ بِعَقْدِ الْيَمِينِ بِأَوْجِهِ ^(٧):

أَحَدُهَا: أَنَّ الْعَقْدَ يَخْرُجُ مَخْرَجَ التَّعْظِيمِ لِلَّهِ وَالتَّجْبِيلِ، جَعَلَهُ مَفْرَعًا إِلَيْهِ، وَمَأْمَنًا لِلْخَلْقِ عِنْدَهُ. وَلِذَلِكَ جُعِلَتِ الْإِيمَانُ لِدَفْعِ التَّهَمِ وَتَحْقِيقِ الْأَمْرِ لِلْخَلْقِ عِنْدَ الْحَالِفِينَ.

وَأَيْدَ ذَلِكَ أَوْجُهُ:

أَحَدُهَا: مَا رَوَى عَنْ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا حَلَفْتُمْ فَاحْلِفُوا بِاللَّهِ» [بنحوه مسلم ١٦٤٦/٣] وَقَالَ: «لَا تَحْلِفُوا بِأَبَائِكُمْ وَلَا بِأَطْوَاغِيَّتِ» [مسلم ١٦٤٨] فَحَذَّرَ الْحَلْفَ بِغَيْرِهِ بِمَا فِيهِ تَعْظِيمُ ذَلِكَ وَدَفْعُهُ عَنْ قُدْرِهِ، وَالزَّمَّ أَلَّا تَجْعَلُوا لِأَحَدٍ ذَلِكَ الْقَدْرَ إِلَّا لِلَّهِ ﷻ.

وَالثَّانِي: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْتَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١] وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَنْهَى عَنِ الرَّجُوعِ عَنِ الْمَغْصِيَةِ، وَيُؤَمَّرَ بِالْوَفَاءِ بِهَا.

وَالثَّلَاثُ: الْأَمْرُ الظَّاهِرُ عَنْ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ لِحَلْفِهِ وَقَسَمِهِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ، وَمَا ذُكِرَ فِي قِصَّةِ يَنْعُقُوبَ وَأَوْلَادِهِ وَأَمْرِ إِبْرَاهِيمَ، عَلَيْهِ/ ١٣٦ - ب/ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فِي شَأْنِ الْأَضْنَامِ وَأَمْرِ أَيُّوبَ عليه السلام لَمْ يُجْزَ أَنْ يَكُونَ عَصَاهُ بِفِعْلِهِمْ؛

(١) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: تَكْفِير. (٢) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: تَكْفِير. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: فَيَجِب. (٤) الْفَاءُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: الْحَقِيقَةُ. (٦) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: لَا. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْجُهُ.

وذلك ينهى عن جرأة من زعم أن الحالف عاصي بما ترك الثنيا. ومن ذكرنا من الأنبياء ﷺ قد تركوا الثنيا، وليس ذلك كالوعيد لأنه إلى نفسه يضيف الفعل، وهو يفعل تحت مشيئة الله تعالى.

وفي اليمين بالله يستغيث، وإليه يفرغ، فلذلك اختلف الأمران، والله أعلم.

والدليل على أنها لم تجب باليمين قول رسول الله ﷺ «من حلف على يمين، فرأى غيرها خيراً منها، فليأت بالخير»؛ وليكفر عن يمينه [مسلم: ١٦٥٠] أو قوله^(١): «من حلف على يمين فليكفر بيمينه وليأت بالخير».

ولو كانت الكفارة واجبة باليمين لكان لا^(٢) وجه للأمر بالذي يأتي، وهي واجبة. ويقول: «من حلف على يمين فليكفر عن يمينه» فإذا لم يقل، ولكن قال في ما كان، ثم حنث، ثبت أنها له تجب، والله أعلم.

وجه آخر اتفاق القول: إنه إذا كان مع اليمين بر فلا كفارة عليه، وإذا كان معها حنث تجب. فلو كانت تجب لليمين لكانت هي عند الوفاء أوجب. فالكفارة فيه تكون أوجب. فإذا لم يكن إذا بر ثبت أنها بالحنث وجبت، والله أعلم.

وايضاً ما أجمع [على]^(٣) أن من حلف ألا يقرب امرأته بشيء لا يلزمه، لو حنث به لم يلزم فيه حكم الإيلاء. فلو كانت الكفارة تجب باليمين لكان الحالف به عند الفراغ عن يمينه صار يحنث لا يلزمه من بعد شيء. فيجب أن يسقط حق الإيلاء. فإذا بقي عليه حكمه جاء بذلك كتاب، وجرت به السنة. ثبت أن القول بوجوبها قول مهجور^(٤)، والله أعلم.

ثم إذا ثبت هذا رجع تأويل الآية إلى وجهين:

أحدهما: قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ بُولِيْكُمْ﴾ بمحافظته ما عقدتم من الإيمان كقولوه: ﴿وَلَا تَقْسُوا الَّيْتَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١] فإن تركتم ذلك فكفارته كذا.

والثاني: أن يكون على إضمار حين^(٥) يؤخذكم بحنثكم في ما عقدتم. وذلك غير مدفوع في حق الكفارات كقوليه تعالى: ﴿فَإِنْ أَحْسَرْتُمْ﴾ الآية [البقرة: ١٩٦] وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ﴾ الآية [البقرة: ١٩٦] لا على الوجوب للعدو ولكن باستعمال الرخصة فيه، إذ لا يكون العذر سبباً لإيجاب. فمثله في الأول لا يكون تغظيم الرب سبب إيجاب الكفارة، فيصير الحنث فيه مضمراً، والله أعلم.

والإضافة إلى الإيمان على إرادة الحنث فيها كإضافة كفارة الفطر إلى الصيام والدم إلى الحج والسجود إلى الشهر^(٦)، وإن كانت الكفارات ليست لما أضيفت إليه. أي ذلك^(٧) ما ذكرنا، والله أعلم.

وتكفير رسول الله ﷺ بيمينه لأنه قد عصم عن المعصية، وفي الوفاء بذلك معصية، إذ نهى عنه، ويمينه كانت قبل النهي، فصار آيساً عن البر بذلك، وبذلك يكون الحنث لا يقدم إمكان الوفاء، لكن بغيره^(٨) إذ لا يؤمن منه العضيان؛ فذلك وقت إيايه عنه. ورسول الله ﷺ إذ قد عصم عن ذلك، فوقت إيايه وقت النهي، ولا قوة إلا بالله.

[وقوله تعالى]^(٩): ﴿فَكَفَّرْنَاهُ بِإِطْعَامِ عَشْرَةِ سَسَكِينَ﴾ في متعارف اللغة على التقريب ليأكلوا لا على التمليك. وكذلك الأمر المتعارف بين الخلق في ما ينسب بعضهم إلى بغض الإطعام.

وأي ذلك قوله تعالى: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ ولا تعرف التمليك في إطعام الأهل، ولا خطر ببال أحد ذلك. وقد عرفهم الله تعالى ما فرض عليهم بالذي كان علمه عند كل أحد معلوماً؛ إذ قل إنسان يخلو من أن يكون أهلاً لأحد، أو له أهل، فلا يحتمل أن ينظر بأحد الجهل به حتى يسأله، فيكون ذلك إلزام الفرض مع رفع وهم الجهل به عن العقول، ثم لا تعرف بها، والله أعلم.

والذي يوضح^(١٠) هذا من طريق العبارة أنه ذكر في ذلك إطعام عشرة مساكين. والمسكنة هي الحاجة، وحاجة

(١) في الأصل وم: قال. (٢) من م، في الأصل: إلا. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل: مجهور. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) من م، في الأصل: السجود. (٧) ادراج قبلها في الأصل: إلى. (٨) في الأصل وم: غيره. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، في الأصل: يوضع.

المسكين إلى الطعام، معلوم أنها تكون إلى أكله دون ملكه، وجهات حاجات الأملاك بما يعطى المساكين وغيرهم مع ما قدر ذلك بالكفاية والشبع. وحق ذلك في التقريب للتطعيم لا في التملك عليه، ولكن يجوز التملك بما به التمكن لذلك، فيجب بذلك الجواز بكل ما فيه تمكن ذلك بهما، أو ما كان، أو جواز التملك بحق التمكن لا يحق النضر مع ما كان في تملك الثمن الوصول إلى ما يختار الإغتنار، فإن ذلك أقرب إلى قضاء حاجته.

ولو كان الأمر على تملك المأكول خاصة لكان الدعاء والتقريب إليهم للملك أحق أن يجوز لوجهين: أحدهما: أنه أقرب إلى دفع الجوع وسد المسكنة من تملك بر لا يصل إليه إلا بعد تحمل المؤنة وطول المدة. والثاني: أن الكفارة جعلت بما ينفر عنه الطبع ليدقه ألم الإخراج من الملك والبذل، فيكفر ما أعطى نفسه من الشهوة التي لم يؤذن فيها. وكذلك معنى الحسنات المكفرة للسيئات.

ثم كان دعاء المساكين وجمعهم على الطعام وخدمتهم والقيام بما فيه الاختيار إليهم أشد على الطبع من التصديق^(١) عليهم، فيجيء أن يكون أقرب للتكفير به.

وعلى ذلك يجوز بذل الثمن لما فيه تحمل المكروه على الطبع كهو في الطعام، فيجوز مع ما إن جعل ذلك حقاً للمسكين [أن]^(٢) يخرج من عليه التسليم إليهم من طوع منهم. ويجوز مثله من التبادل في جميع الحقوق؛ فمثله عن الكفارات، والله أعلم. على أن الله تعالى قال: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ [البقرة: ١٩٦] ويجوز فيه غير ذلك النوع، وكذلك في كل الصدقات، والله أعلم.

ثم جعل ذلك أكلتين لوجهين:

أحدهما: القول بإطعام المساكين، ثم أريد به دفع المسكنة. والمسكين هو الخاضع، فأحق من يستحق اسم السائل يخضع للمسؤول بالسؤال.

وقد روي عن نبي الله ﷺ أنه قال في يوم الفطر «اغثوهم عن المسألة في مثل هذا اليوم» [الدارقطني ٢١١٤] ثم كان أقل ما أخبر فيه نصف صاع من جنطة. فعلى ذلك صدقة المسكين. ومثل ذلك إذا أطلعكم يكفي مرتين. وكذلك روي عن رسول الله ﷺ في كفارة المتأذي ثلاثة أضوع بين ستة مساكين. فمثل مقدار طعام المسكين في ما أريد [الإطعام قدراً]^(٣) ذلك. فمثله ما نحن فيه، وذلك يغدل أكلتين. وبه قال عمر وعلي^(٤).

والثاني^(٥): أنه قال: «من أوسط ما تطعمون أهليكم». والأوسط في ماله حدود ثلاثة: [يرجع ذلك إلى أوجه ثلاثة]^(٦):

أحدها: إلى الأوسط من صفات المأكول.

والثاني: إلى الأوسط من مقدار الأكل.

والثالث: إلى الوسط من أحوال الأكل. فالأول نحو الأجود والأزداً وبين ذلك، والثاني: نحو السرف والقتل وبين ذلك، والثالث: نحو مرة وثلاث مرات في يوم واحد وبين ذلك.

فإذا لم يثبت في خبر ما إليه رجع المراد فحق الاختياط أن يكون الوسط من الكل ليخرج بما فرض عليه. فلذلك^(٧) وجبت أكلتان مع ما حقيقة الواسط من الأنواع والمقادير لما لا منتهى لطريقه. وقد تُعرف حقيقة الأكثر والأقل من الوقت، فهو أن يعتبر، والله أعلم.

ثم كان الأمر في الظاهر بالإطعام، وأجمع على رجوع الأمر إلى الحد، وإن لم يذكر، فهو، والله أعلم، يحتمل أن يكون انتزع حده من حكم الكتاب من وجهين:

(١) من م، في الأصل وم: التصديق. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: لإطعام القدر. (٤) ساقطة من م. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: وذلك.

أَخَذَهُمَا: أَنَّ الْآيَةَ إِذَا كَانَتْ عَلَى مَا يُؤْكَلُ، وَيُطْعَمُ، كَانَ فِي مَا عَلَيْهِ الْعُرْفُ أَلَّا يُقَرَّبَ إِلَى آخِرِ مَا يُطْعَمُهُ، فَيَقْتَصِرَ عَلَى أَقْلٍ مَا يُسْتَحَقُّ/ ١٣٧ - أ/ اسْمُهُ. وَقَدْ يَتَصَدَّقُ بِالْقَلِيلِ فِي الْعُرْفِ. فَلِذَلِكَ فِي الْأَمْرِ بِهِ تَحْدِيدٌ، إِذَا كَانَ بِمَا يُعْرِفُ فِيهِ التَّحْدِيدُ. وَلِذَلِكَ يُذَكِّرُ فِيهِ التَّفْسِيرُ مَرْفُوعاً.

وَذَكَرَ فِي قِصَّةِ الْمُتَأَذِّي لِمَا لَيْسَ فِي لَفْظِهَا دَلَالَةُ الْحُدُودِ، وَفِي لَفْظِ الْإِطْعَامِ دَلَالَتُهُ؛ إِذْ فِيهِ عُرْفٌ، وَعَلَى هَذَا أَمْرٌ مَا جَاءَ مِنَ الْبَيَانِ فِي الصَّدَقَاتِ. وَلَمْ يُذَكَّرْ فِي الْإِطْعَامِ إِلَّا لِمَكَانِ التَّوَالِزِ. وَعَلَى هَذَا يَجِبُ أَنْ يَجُوزَ الْإِطْعَامُ أَيْضاً، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ تَمْلِيكٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَالثَّانِي: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ وَمَعْلُومٌ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ لَهُ وَاسِطٌ، فَهُوَ ذُو حُدُودٍ وَأَطْرَافٍ، عَلَى أَنَّهُ رُدُّ إِلَى طَعَامِ الْأَهْلِ، وَفِيهِ الْإِشْبَاعُ لَا مَحَالَةَ؛ لِذَلِكَ وَجِبَ الْقَوْلُ بِالْحَدِّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَإِذَا ثَبَتَ الْقَدْرُ فِيهِ بِحَقِّ الْخِطَابِ يَجِبُ^(١) وَضَلُ ذَلِكَ بِهِ لِيُعْرِفَ بِهِ حَقِيقَةُ^(٢) الْمَقْصُودِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ؛ وَكَأَنَّهُ قَالَ: ﴿إِطْعَامَ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ﴾ إِذْ إِطْعَامُ عَشْرَةٍ فِي الْعُرْفِ عِبَارَةٌ عَنْ قَدْرِ طَعَامِهِمْ، وَإِطْعَامُ عَشْرَةٍ عِبَارَةٌ عَنْ فِعْلِ الْإِطْعَامِ، وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّهُمَا ارْتِدَا جَمِيعاً، فَكَأَنَّهُمَا ذَكَرَا مَوْصُولَيْنِ، وَلَوْ تَوَهَّمْنَا ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ بِحَقِّ حِفْظِ الْعَدَدِ بَلْ بِحَقِّ حِفْظِ وَقْدَارِ ذَلِكَ الْعَدَدِ مِنَ الصِّيَامِ كَانَ مَذْفُوعاً إِلَى الْوَاحِدِ أَوْ أَكْثَرَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

لِذَلِكَ أَجَازَ أَصْحَابُنَا جَمْعَ الْكُلِّ فِي مَسْكِينٍ وَاحِدٍ عَشْرَةَ أَيَّامٍ، وَلَمْ يُجَيِّزُوا فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ فِي الْأَمْرِ عَلَى أَنْ يُغْدَى، وَيُغَشَّى. وَإِنْ كَانَ يَجُوزُ الدَّفْعُ لِمَا فِيهِ حَقُّ الْإِطْعَامِ، فَيَصِيرُ طَعَامٌ كَمَالِ ذَلِكَ، وَهُوَ قَدْرُ طَعَامِ مَسْكِينٍ، فَتَزُولُ عَنْهُ الْمَسْكِنَةُ، لَكِنَّ الْإِطْعَامَ فِيهِ لَا يَجُوزُ. وَإِذَا كَانَ حَقُّ مَا ذَكَرْتُ الْجَوَازَ قَفَّاسَةً لِمَعْنَى اغْتَرَضَ، فَمَنْعٌ؛ لِأَنَّهُ خَارِجٌ عَنْ أَنْ يُرَادَ لَهُ عَلَى ذَلِكَ؛ وَذَلِكَ كَخُرُوجِ بَعْضِ الْمَسَاكِينِ لِعِلَالٍ عَنِ الدَّفْعِ إِلَيْهِمْ؛ لَا لِأَنَّهُ لَوْ أُجِيزَ كَالْخِلَافِ لِلذَّكْرِ، فَيُثَلُّهُ الْأَوَّلُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَدَلِيلٌ آخَرٌ مِمَّا لَهُ جَزَى ذِكْرُ عَشْرَةٍ؛ لَا لِأَنَّهُ يَجْعَلُ الْعَشْرَةَ شَرْطاً أَنَّهُ مَعْلُومٌ بِالْمَعْنَى الَّذِي لَهُ جُعِلَ الدَّفْعُ إِلَيْهِمْ وَالْإِطْعَامُ لَهُمْ سَبَباً لِلْجَوَازِ أَنَّ ذَلِكَ بِحَيْثُ تَحْمُلُ الْمَكْرُوهَ عَلَى الطَّنِيعِ وَكَفَّ الْهَوَى عَنْ مِثْلِهَا وَإِذَا قَعَّ النَّفْسُ مَرَارَةَ الدَّفْعِ لِلَّهِ، جَلَّ ثَنَاؤُهُ، يُكْفَرُ مَا أَتْبَعَهَا هَوَاهَا، وَأَوْضَلَهَا إِلَى مَتَاهَا فِي مَا خَالَفَ اللَّهَ فِي فِعْلِهِ حِينَ^(٣) لَمْ يَفِ بِالْعَهْدِ الَّذِي عَاهَدَ اللَّهُ، أَوْ الزَّهْمُ نَفْسُهُ عَهْداً مِنْ مَنَعَ عَنِ الْوَفَاءِ، فَيَخْرُجُ فِعْلُهُ مَخْرَجَ فِعْلِ نَاقِضِ الْعَهْدِ وَمُخْلِفِ الْوَعْدِ بِاللَّهِ. وَذَلِكَ الْمَعْنَى فِي الْبَدَلِ لَا فِي مُرَاعَاةِ^(٤) الْعَدَدِ وَلَا فِي أَنَّهُ كَانَ حَقّاً لَهُمْ قَبْلَ الدَّفْعِ بَلْ بِاخْتِيَارِ الدَّفْعِ إِلَيْهِمْ يَجْعَلُهُمْ مُحَقِّقِينَ فِيهِ بِمَا لَهُ إِثَارٌ غَيْرُهُمْ وَالْخُرُوجُ عَنْ ذَلِكَ بِالْعِتْقِ وَالصِّيَامِ الَّذِي لَا يَعُودُ إِلَيْهِمْ نَفْعُهُ.

وَلَكِنَّ الْكَفَّارَةَ إِذَا جُعِلَتْ مِمَّا يُغْدَى، وَيُغَشَّى، وَنَحْوِ ذَلِكَ إِذَا أُرِيدَ الْخُرُوجُ بِهِ مِنْهُ بِمَسْكِينٍ وَاحِدٍ يَحْتَاجُ إِلَى تَحْدِيدِ الْأَيَّامِ وَمُرُورِ الْأَوْقَاتِ. وَفِي ذَلِكَ خَوْفٌ بَقَاءِ الذُّنُوبِ عَلَيْهِ. وَلَعَلَّهُ يُعَجِّلُهُ الْمَوْتُ^(٥)، فَيَبْقَى ذَنْبُهُ غَيْرَ مُكَفَّرٍ، جَعَلَ اللَّهُ لَهُ التَّكْفِيرَ فِي الْمَسَاكِينِ تَبْسِيراً وَتَمَكِيناً مِنَ الْخُرُوجِ الَّذِي رَكْنُهُ لَا لِقَوِّ مَعْنَى مِمَّا لَهُ التَّكْفِيرُ. فَلِذَلِكَ يَجُوزُ عَلَى مَا ذَكَرْتُ. وَهَذَا الْوَجْهُ يُوجِبُ مَنَعَ الْجَوَازِ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَبَعْدُ فَإِنَّهُ مَتَى أَطْعَمَ مَسْكِيناً بَقِيَ عَلَيْهِ خِطَابُ إِطْعَامِ تِسْعَةٍ؛ وَذَلِكَ لَوْ ابْتَدَأَ الْخِطَابُ بِتِسْعَةٍ مِمَّا يَتَضَمَّنُهُ الْخِطَابُ، فَكَذَلِكَ إِذَا كَانَ بَعْدَ إِسْقَاطِ الْوَاحِدِ مِنَ الْخِطَابِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. ثُمَّ لَوْ كَانَ الْعَدَدُ شَرْطاً لَكَانَ بُجُودُ مَعْنَى الْعَدَدِ فِي الْوَاحِدِ إِسْقَاطُهُ أَنَّ ذَلِكَ فِي مَوْضِعِ التَّكْفِيرِ وَالتَّطْهِيرِ، وَكُلُّ ذَلِكَ يَتَعَلَّقُ بِالْمَعْنَانِ مِمَّا ذَكَرَ فِيهَا مِنَ الْأَعْدَادِ نَحْوِ الْغَسْلِ مِنَ الْأَحْدَاثِ وَالْجَنَابَةِ وَالْأَنْجَاسِ، فَيُثَلُّهُ الْكَفَّارَةُ.

وَبَعْدُ فَإِنَّهُ مَعْلُومٌ أَنَّ لِكُلِّ مَسْكِينٍ قَدْرًا مِنَ الطَّعَامِ، ثُمَّ كَانَ الْقَدْرُ الْوَاحِدُ يَتَفَرَّقُ الْإِمْلَاقَ عَلَيْهِ يَسْتَوْجِبُ حَقَّ قَدْرِ الْعَشْرَةِ^(٦). فَعَلَى ذَلِكَ الْمَسْكِينُ الْوَاحِدُ بِمَا تَتَفَرَّقُ عَلَيْهِ الْمَسْكِنَةُ كُلَّ يَوْمٍ، وَتَتَجَدَّدُ الْحَاجَةُ يَصِيرُ عَدَدُ الْمَسَاكِينِ. وَذَلِكَ أَيْضاً

(١) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٢) مِنْ م، فِي الْأَصْل: حَقِيقَةٌ. (٣) فِي الْأَصْل: وَم: حَيْثُ. (٤) مِنْ م، فِي الْأَصْل: الْمُرَاعَاةُ. (٥) فِي الْأَصْل: وَم: الْمَيَّةُ. (٦) فِي الْأَصْل: وَم: الْعَشْرُ.

شَبِيهَ بِمَا رُوِيَ مِنَ الْإِسْتِنجَاءِ بِثَلَاثَةِ أَحْجَارٍ عَلَى اسْتِحْقَاقٍ كُلِّ حَرْفٍ مِنْ ذَلِكَ حَقٌّ حَجَرٍ عَلَى جِدَّةٍ مِنْ حَيْثُ كَانَ غَيْرُ مُسْتَنْجَى بِهِ. فَكَذَلِكَ مَا نَحْنُ فِيهِ؛ إِذْ لَهُ كُلُّ يَوْمٍ حَقٌّ مِنْكُمْ آخَرُ مِنْ جِئِن^(١) حَدَّثْتُ لَهُ حَاجَةً لَمْ تُدْفَعْ بِالْإِطْعَامِ الْأَوَّلِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَلَيْسَ كَالْأَعْدَادِ فِي الشَّهَادَةِ لِمَا جَعَلَ الْعَدَّةَ فِيهَا بِمَا يَلْحَقُ الْوَاحِدَ تَهْمَةً أَوَّلُهُ بِوَيْفَافَةِ التَّضَدِّيقِ أَوْ نَوْعِ عِبَادَةٍ فِي مَوْضِعِ الْحُكْمِ وَالْقَضَاءِ وَتَسْلِيمِ الْأَمْرِ لِغَيْرِهِ مِنَ الْحُجَجِ. وَفِي هَذَا مَعْنَى التَّكْفِيرِ قَدْ بَيَّنَّا. وَذَلِكَ كَمَعْنَى التَّطْهِيرِ فِي الَّذِي وَصَفْنَا. عَلَى أَنَّ الشَّهَادَةَ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي إِعَادَةُ الْأَوَّلِ، وَالْإِطْعَامُ هُوَ تَحْدِيدُ الدَّفْعِ، وَالوَاحِدُ قَدْ يَقُومُ فِي الشَّهَادَةِ مَقَامَ مِثْلِهِ إِذَا كَانَ لِكُلِّ حَقٍّ التَّحْدِيدُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَشْرَةَ مَسْكِينٍ﴾ مِنْ غَيْرِ ذِكْرِ الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ أَوْ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ أَوْ الصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ أَوْ قَدْرِ الْمَسْكِينَةِ أَوْ الْعِلْمِ الَّذِي بِهِ نَعْرِفُ. وَمَعْلُومٌ أَنَّ لِكُلِّ جِهَةٍ مِمَّا بَيَّنَّا حَدًّا بِالنَّاسِ إِلَى مَعْرِفَتِهِ حَاجَةً، وَلِلنَّاسِ فِي كُلِّ جِهَةٍ تَنَازُعًا^(٢)، وَالْإِجْتِهَادُ فِي الْوُقُوفِ عَلَى الْحَقِيقَةِ. عَلَى أَنَّ الْإِتِّفَاقَ، وَعَلَى أَنَّهُ لَمْ يُجْعَلِ الْأَمْرُ عَلَى الْإِسْمِ خَاصَّةً، وَأَنَّ الَّذِي هُوَ فِي حَدِّ الْفَقْرِ فِي مَا ذُكِرَ فِيهِ الْمَسْكِينُ وَالْفَقِيرُ، قَائِمٌ مَقَامَ الْمَسْكِينِ هَهُنَا فِي الْجَوَازِ لِيُعْلَمَ أَنَّ الْمَعْنَى فِيهِمْ مَقْصُودٌ، يَجِبُ طَلَبُهُ وَالْبَحْثُ عَنْهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ أَجْمَعَ أَنَّ الصَّغِيرَ الَّذِي قَدَّرَ لِقَمَّتِهِ لِقَمَّةَ الْكَبِيرِ لَمْ يَقُمْ فِي حَقِّ الْإِطْعَامِ إِلَّا مِنْ حَيْثُ التَّمْلِكُ؛ إِذِ الْجَمْعُ عَلَى أَقَلِّ الْمِقْدَارِ أَنَّهُ مُدٌّ، وَالْمُدُّ يَكْفِي عَشْرَةَ مِثْلَهُ، ثَبَتَ أَنَّهُ لَا إِلَى مِثْلِهِ رَجَعَ الْخِطَابُ. وَأَيَّدَ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ أَنَّ مِثْلَهُ لَا يَتَلَعُّ أَقَلُّ مَا يُطْعَمُ الْأَهْلَ. عَلَى أَنَّهُ لَوْ أُرِيدَ بِالْأَهْلِ الزَّوْجَةُ لَكَانَ مِثْلُهَا لَا يُطْعَمُهَا الزَّوْجُ، فَثَبَتَ أَنَّ الْمُرَادَ رَاجِعٌ إِلَى الْخُصُوصِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَالْأَصْلُ فِي ذَلِكَ مَا بَيَّنَّا مِنْ تَأَلُّمِ الطَّنْبِ بِدَفْعِ مِثْلِهِ، وَابْنُ يَوْمٍ يَمِيلُ الطَّنْبُ إِلَى إِرْضَاعِ مِثْلِهِ، بَلْ لَا يَحْتَمِلُ إِمَهَالَهُ. وَبَعْدُ فَإِنَّ مِثْلَهُ لَا يُطْعَمُ، فَثَبَتَ أَنَّ الْأَمْرَ رَاجِعٌ إِلَى وَاحِدٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَعَلَى مَا ذَكَّرْنَا قَالُوا فِي الْوَالِدَيْنِ وَالْوَلَدِ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِأَنَّ الطَّنْبَ يَأْتِي بِمَسْكِينَةٍ هَوَاءٍ لَا لِمَا بِهِ دَفْعُ الْمَسْكِينَةِ عَنْهُمْ، بَلْ جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى الطَّنْبَ بَيْنَ هَوَاءٍ بِحَيْثُ لَا يُحْتَمَلُ نَزُولُ الْبَلَاءِ وَالشَّدَّةِ بِهِمْ، وَبِحَيْثُ يَجْتَهِدُ كُلُّ يَدْفَعِ الضَّرَرَ عَنْهُمْ عَلَى مِثْلِ الدَّفْعِ عَنْ نَفْسِهِ وَتَبَذَلَ الْمَالِ لِصَوْنِ عِرْضِهِمْ حَتَّى لَقْدَ يُشْتَمُ مَنْ لَمْ يَتَعَاهَذْ مِنْهُمْ ذَلِكَ، وَيُلَامُ أَغْظَمَ اللَّوْمِ. وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ لَمْ يَتَضَمَّنْهُمْ هَذَا الْأَمْرُ؛ إِذْ هُمْ لَا يَهْدَأُ يَقُومُونَ بِذَلِكَ بِحَقِّ الطَّبِيعَةِ لَا بِأَمْرِ. وَقَدْ بَيَّنَّا وَجْهَ الْكُفَّارَةِ أَنَّهُ فِي مُخَالَفَةِ الطَّنْبِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَعَلَى ذَلِكَ مَا رُوِيَ عَنِ الَّذِي أَمَرَ بِتَفْرِيقِ زَكَاتِهِ، فَأَعْطَى ابْنَهُ، فَأَخْتَصَمَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا فُلَانُ: «لَكَ مَا نَوَيْتَ» وَقَالَ لِلْآخَرِ: «لَكَ مَا أَخَذْتَ» [البخاري ١٤٢٢] وَلَوْ كَانَ يَجُوزُ اخْتِيَارُ فِعْلِهِ لَكَانَ ذَلِكَ أَحَبَّ مَا صَارَ إِلَيْهِ، وَآثَرُ.

وَقَدْ رُوِيَ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَنْتَ وَمَالُكَ لِابْنِكَ» [ابن ماجه ٢٢٩٢] فَلَا يُحْتَمَلُ مَعَ هَذَا الْجَوَازُ بِالْإِخْتِيَارِ، وَيَصِيرُ مَا يَدْفَعُ إِلَى ابْنِهِ كَأَنَّهُ لِنَفْسِهِ دَفْعٌ. فَلِذَلِكَ لَمْ يَجُزْ.

وَالْأَصْلُ فِي هَذَا وَفِي الزَّكَاةِ أَنَّهَا حُقُوقٌ، جَعَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي الْأَمْوَالِ لِوَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: بِمَا ابْتَدَأَ اللَّهُ عِبِيدَهُ بِالنَّعْمِ، وَخَصَّهُمْ بِإِعْطَاءٍ مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ، وَمَالَتْ طِبَاعُهُمْ، فَاسْتَأْدَاهُمْ شُكْرَ ذَلِكَ بِالَّذِي جَعَلَ فِي طِبَاعِهِمُ التَّنْفَارَ عَنْهُ وَفِي أَنْفُسِهِمُ الْإِلْتِمَاسَ بِهِ مِنَ الْإِخْرَاجِ عَنِ الْمُلْكِ وَمَعُونَةَ مَنْ لَمْ يُكْرِمْنَهُمْ بِهِ وَلَا أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ بِهِ.

وَالثَّانِي: أَنْ يَكُونُوا قَرَفُوا مَأْتَمًا بِمَا أَعْطَوْا أَنْفُسَهُمْ هَهُنَا، وَأَوْصَلُوا^(٣) طِبَاعَهُمْ إِلَى هَوَاهَا بِغَيْرِ الرَّجْوِ الَّذِي أُذِنَ لَهُ فِي ذَلِكَ مِنْ هَوَاهُ فِي الْحَقِيقَةِ، وَهُوَ الَّذِي اخْتَصَّهُمْ، فَعَلَيْهِمُ الْخُرُوجُ بِمَا فَعَلُوا مِنَ الرَّجْوِ الَّذِي فِي الطَّنْبِ التَّنْفَارُ عَنْهُ، وَفِي النَّفْسِ/ ١٣٧ - ب/ الْأَلَمُ لِيُذَيِّقُوا أَنْفُسَهُمْ بَدَلًا^(٤) مَا أَعْطَوْهَا مِنَ اللَّذَّةِ الْمَرَارَةِ. فَمَنْ هُوَ مِنَ الْمُتَضَدِّقِ بِالْمَحَلِّ الَّذِي يَجْدُ بِهِ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: تَنَازُعَ. (٣) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: وَأَصْلُوا. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: بِالْدَالِ الْمَقْطُوعَةِ: بَدَلُ.

هذا فهو مُقَابِلُ مَا لَهُ أَكْرَمَ، وَبِهِ أَقْرَفَ. وَمَنْ لَا يَجِدُ بِهِ هَذَا فَلَيْسَ بِمُقَابِلِ ذَلِكَ، فَلَمْ يَفِ بِحَقِّهِ، فَلَمْ يُخْرِجْ مِمَّا عَلَيْهِ مِنَ الْقَرْضِ، وَإِنْ كَانَ اللَّهُ بِكُرْمِهِ وَجُودِهِ يَحِثُّ يُرْجَى [مِنَهُ الْعَفْوُ، وَمِنْهُ الْقَبُولُ] ^(١)، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَعَلَى ذَلِكَ عِنْدَنَا أَمْرُ الزَّوْجَيْنِ؛ إِذْ يُوجَدُ بَيْنَهُمَا فِي الْبَدَلِ شَهْوَةٌ وَمِلُّ الطَّبِيعَةِ؛ وَتَكُونُ الطَّبِيعَةُ، وَيَكُونُ التَّنَاقُحُ بِمِثْلِهِ عَلَى مَا ذُكِرَ التَّنَاقُحُ لِأَرْبَعَةِ أَوْجُو أَحَدَهَا: لِإِمَالِهَا، وَمَا كَذَلِكَ الْمَوْجُودُ فِي الطَّبَاعِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَعَلَى هَذَا الْمَعْنَى يُخْرِجُ أَمْرُ الشَّهَادَةِ، إِذْ هِيَ مُؤَسَّسَةٌ عَلَى دَفْعِ السَّهْمِ عَنِ الْمُدَّعِينَ. فَإِذَا رَجَعَتْ مَنَافِعُهُمْ إِلَى حُجَجِهِمْ تَمَكَّنَتْ فِيهِمْ ذَلِكَ، فَلَمْ تُقْبَلْ.

وَجُمْلَةُ ذَلِكَ أَنَّ الشَّهَادَةَ وَدَفْعَ الزَّكَّاتِ وَالْكَفَّارَاتِ بِحَقِّ الْأَمَانَاتِ، وَهِيَ بِحَيْثُ لِلْأَمْنَاءِ الْإِنْتِفَاعُ بِهَا. فَكُلُّ وَجَدَ فِيهِ انْتِفَاعُ الْمُؤْتَمِنِ، فَإِنَّهَا، لَهُ الْإِنْتِفَاعُ بِمَا تَمَانِعُ فِي الْعُرْفِ أَوْ بِمَا فِي الطَّبْعِ إِثَارُ نَفْعِهِ، فَكَانَ لَهُ فِيهِ مَا يَزُولُ جُعِلَ أَمِينًا، فَلَا تَبَيَّنَ لَهُ الْأَمَانَةُ فِيهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَعَلَى هَذَا يُخْرِجُ أَمْرُ الدَّفْعِ إِلَى الْمَكَايِبِ وَالشَّهَادَةِ لَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. ثُمَّ الدَّفْعُ إِلَى الْكَفَّارَةِ: الْقِيَاسُ أَنْ يَجُوزَ جَمِيعُ ذَلِكَ مِنْ حَيْثُ كَانَ الْمَعْنَى الَّذِي يَخْتَارُ فِي الدَّفْعِ إِلَيْهِمْ، أَوْ يَجِدُ مِنْ ثَقُلِ الطَّبْعِ وَأَلَمِ النَّفْسِ.

وَعَلَى ذَلِكَ أُجِيزَتْ عِنْدَنَا الْكَفَّارَاتُ. وَأَيْدِ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَبَدُّوا أَلْفَدَقْتُ﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَكْفُرُ عَنْكُمْ مِنْ سَبَائِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١] صَيَّرَ ^(٢) الصَّدَقَاتِ مُكْفَرَةً لِمَا ذَكَرَ. ثُمَّ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ فِي مَا قَالَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ مَذْنَبُهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٢] إِنَّ ذَلِكَ فِي التَّصَدُّقِ عَلَى أَهْلِ الْكُفْرِ؛ أَيْ لَا يَمْنَعُكَ ذَلِكَ. وَكَانَ عَلَى إِنْ الْوَعْدِ بِالتَّكْفِيرِ بِالصَّدَقَةِ، فَاثْمَنَ أَنْ يَكُونُوا هُمْ فِي ذَلِكَ مَعَ مَا كَانَتْ الْكَفَّارَاتُ جُعِلَتْ بِشَرْطِ الْمُسْكَنَةِ. وَبَيَّحَ فِي الْمُسْلِمِ دَفْعَ السُّؤَالِ، وَإِنْ كَانُوا كَفَرَةً، فَجَاثَرَ الدَّفْعُ إِلَيْهِمْ.

وَجُمْلَةُ ذَلِكَ أَنَّ ذَلِكَ بِمَا اخْتَارَ مِنْ إعطاءِ النَّفْسِ شَهَوَاتِهَا فِي مَا لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ. فَتَكُونُ كَفَّارَتُهَا بِالْكَفِّ عَنْ شَهَوَاتِهَا فِي مَا كَانَ يَجِلُّ، وَالبَدَلُ الَّذِي كَانَ يَسْغُوهُ مَنَعُ ذَلِكَ. وَذَلِكَ الْمَعْنَى مَوْجُودٌ، فِي ذَلِكَ عَلِيمٌ أَنْ [تَرَكَ] ^(٣) التَّصَدُّقَ عَلَيْهِمْ نَقَضُ مَا يُرَغَّبُ فِيهِ فِي الْإِسْلَامِ، لَمْ يَجْزِ الْمَنَعُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَأَمَّا الزَّكَّاتُ فَهِيَ ^(٤) مَخْصُوصَةٌ بِمَا جَاءَ مِنْ إِضَافَةِ الدَّفْعِ إِلَى مَا ^(٥) يُؤْخَذُ مِنْ غَنِيِّهِمْ، وَلِمَا بَيَّنَّ أَهْلُهَا، وَجَعَلَ أَهْلُهَا سَفَارَةً لِيَتَحَرَّوْا الْمَوَاضِعَ.

وَأَمَّا الْكَفَّارَاتُ [فَقَدْ] ^(٦) جُعِلَ عَلَى أَرْبَابِهَا إِيْجَابُهَا، وَالْخُرُوجُ عَنْهَا فِي تَخْيِيرِ أَهْلِهَا مَعَ مَا كَانَتْ الزَّكَّاتُ أَوْجَبَتْ بِهَا كَسْبُ بِحَقِّ الشُّكْرِ، وَحَقُّ الشُّكْرِ الْإِنْفَاقُ فِي الطَّاعَةِ. ثُمَّ كَانَ الْإِنْفَاقُ عَلَى مَنْ يُطِيعُ اللَّهَ بِوَيْحٍ مَخْرُجٍ مَخْرَجَ الْمَعُونَةِ عَلَى الطَّاعَةِ، وَعَلَى الْكَافِرِ لَا [فَلَا يَفْتَصِرُ] ^(٧) عَلَى شَرْطِ التَّمَامِ فِي مَعْنَى الشُّكْرِ، وَالْكَفَّارَةُ ^(٨) فِي حَقِّ إعطاءِ النَّفْسِ الشَّهْوَةَ، فَيَمْتَنِحُهَا بِإِخْرَاجِ مَا فِي شَهَوَاتِهَا الْمَنَعُ، وَذَلِكَ الْمَعْنَى مَوْجُودٌ فِي الْكَافِرِ عَلَى التَّمَامِ، لِذَلِكَ اخْتَلَفَا.

وَبَعْدَ فَإِنَّ الزَّكَّاتَ تَجِبُ بِهَا إِيْجَابٌ، وَقَدْ قَطَعَ اللَّهُ الْحَقُّ الَّذِي ذَلِكَ سَبِيلُهُ، ثُمَّ بَيَّنَّ مُخْتَلِفِي الْمُلْكِ بِحَقِّ الْمَوَارِيثِ. وَالْكَفَّارَاتُ تَجِبُ بِهَا اكْتِسَابُ. وَبَيَّنَّ الْفَرِيقَيْنِ فِي الْحُقُوقِ الْمُكْتَسَبَةِ اشْتِرَاكَ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

وَالْأَصْلُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الزَّكَّاتَ أَوْجَبَتْ فِي الْأَمْوَالِ حَقًّا لِلْفُقَرَاءِ. ثُمَّ هِيَ تُخْرِجُ إِلَى مَنْ أَوْجَبَ لَهُمْ؛ فَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ مَنْ أَوْجَبَتْ لَهُ لَمْ يُخْرِجْ عَلَى مِثْلِ حُقُوقِ الْمَوَارِيثِ لِلْفَرَاةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَالْكَفَّارَاتُ لَيْسَتْ بِوَاجِبَةٍ فِي الْأَمْوَالِ تُخْرِجُ، بَلْ يُنْظَرُ إِلَى وَقْتِ الدَّفْعِ وَالْقِيَامِ بِالتَّكْفِيرِ. فَإِنْ كَانَتْ لَهُ أَمْوَالٌ دَفَعَهَا مِنْهَا، وَإِلَّا لَيْسَتْ عَلَيْهِ، فَصَارَتْ الْحُقُوقُ كَأَنَّهَا بِالْأَمْرِ؛ إِذْ لَوْ تَوَقَّعَتْ وَقْتُ الْوُجُوبِ لَهُ الْغِنَى وَالْفَقْرُ لَكَانَ الْأَمْرُ لَا

(١) فِي الْأَصْلِ وَمِنْ: مِنَ الْعَفْوِ وَمِنْهُ الْقَبُولُ مِنْهُ. (٢) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ ﴿إِنْ تَبَدُّوا﴾. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَمِنْ. (٤) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: نَهْوٌ.

(٥) فِي الْأَصْلِ وَمِنْ: مِنْ. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَمِنْ. (٧) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: فَيَقْتَصِرُ. (٨) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: الْكَفَّارَةُ.

يَخْتَلِفُ^(١)، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ، وَلَهُ ابْتِدَاءُ التَّصَدُّقِ عَلَيْهِمْ بِحَقِّ التَّطَوُّعِ وَالتَّذَوُّرِ وَغَيْرِهَا، فَتَجُوزُ فِيهِمْ. وَالزُّكُوتُ إِذِ الدَّفْعُ مِنْهَا تَسْلِيمٌ إِلَى مَنْ كَانَ لَهُ الْحَقُّ اخْتِجَ فِي ذَلِكَ إِلَى مُبَيِّنِ ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَصَدَقَةُ الْفِطْرِ بِحَقِّ إظهارِ الشُّرُورِ وَدَفْعِ السُّؤَالِ كَمَا رُوِيَ عَنْ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَغْنَوْهُمْ عَنِ الْمَسْأَلَةِ فِي مِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ» [الدارقطني: ٢١١٤] لَا بِحَقِّ مَا كَانَ جُعِلَ فِي مَالِهِ يُخْرَجُ مِنْهُ، بَلْ بِحَقِّ الْمَعُونَةِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ فِي الْعَقُولِ لِكُلِّ سَائِلٍ وَلِخَاصَّةِ الدَّفْعِ^(٢) إِلَيْهِمْ لِيَتَمَتَّعُوا^(٣) هُمْ بِمَا فِيهِ شُرُورُ أَهْلِ الْإِسْلَامِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وأيضاً إِنَّ الزُّكُوتَ أَوْجِبَتْ فِي الْإِبْتِدَاءِ حَقّاً لِلْفُقَرَاءِ؛ إِذِ اللَّهُ ﷻ أَخْرَجَ أَرْزَاقَ الْخَلْقِ أَمْوَالاً^(٤) لِيَغْنِيَهُمْ، وَالزُّكُوتَ تَحْمِلُ كِفَايَةً مَنْ لَمْ يَمْلِكْهُمْ أَغْنَى تِلْكَ الْأَمْوَالِ، إِذْ لَمْ يَخْلُقْ ابْتِدَاءً [الرُّزْقُ لَهُمْ جُمْلَةً]^(٥). وَإِذَا كَانَ مَحَلُّ الزُّكُوتِ فِي الْإِبْتِدَاءِ، وَجَعَلَ لِأَهْلِهَا بِهَا الْغِنَى، وَاهْلُ الْكُفْرِ أَبَوْا قَبُولَ الدِّينِ الَّذِي ذَلِكَ حَقٌّ، وَجَعَلَ لِلْمُحْتَاجِينَ فِي أَمْوَالِ الْأَغْنِيَاءِ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِي مَذْهَبِهِمْ ذَلِكَ الْحَقُّ، بَلْ لَوْ كَانَ فِي أَمْوَالِ الْأَغْنِيَاءِ^(٦) مَذْهَبُهُمْ، وَلِأَهْلِ الْإِسْلَامِ أَنَّ ذَلِكَ الْحَقُّ فِي أَمْوَالِ أَغْنِيائِهِمْ، وَكَذَلِكَ مَنْ عَلَيْهِمُ الْحَقُّ قَبْلُوهُ بِالَّذِينَ لِأَهْلِهِ لَمْ يَدْخُلْ فِي ذَلِكَ غَيْرُهُمْ.

ثُمَّ كَانَتْ الْكُفَّارَاتُ وَالتَّذَوُّرُ وَنَحْوُهَا لَيْسَتْ بِمَعْمُولَةٍ بِالَّذِينَ لِحَقِّ الْفُقَرَاءِ، وَإِنَّمَا هِيَ وَاجِبَةٌ يَتَعَاطَى أَرْبَابُ مَنْ لَزِمَهُمْ لِيَتَقَرَّبُوا بِهَا إِلَى رَبِّهِمْ، وَيَخْرُجُوا بِهَا مِمَّا جَنَوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ^(٧). وَقَدْ جُعِلَ ذَلِكَ فِي جُمْلَةِ الصَّدَقَاتِ وَفِي أَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ الَّتِي لَا عِبْرَةَ فِيهَا لِمَنَافِعِ الْخَلْقِ، فَتَبَيَّنَ أَنَّهَا لَمْ تَجِبْ لَهُمْ، وَإِنَّمَا الشَّرْطُ عَلَيْهِمْ فِيهَا مَا يَكُونُ عِبَادَةً وَتُرْبَةً إِلَى اللَّهِ تَعَالَى.

وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الدَّفْعِ إِلَى مَسَاكِينِهِمْ تُرْبَةً وَعِبَادَةً فَجَازَتْ. وَعَلَى هَذَا يُخْرَجُ قَوْلُنَا فِي الْعِثْقِ. عَلَى أَنَّ قَوْلَنَا لِجَمِيعِ الْمُخَالِفِينَ لَنَا فِي هَذَا أَوْلَى؛ لِأَنَّ مَذْهَبَهُمْ اعْتِمَادُ الْعُمُومِ إِلَّا فِي قَدَرٍ مَا يَمْنَعُهُمْ عَنْ ذَلِكَ. وَالْعُمُومُ لِجَمِيعِ الْفِرَقِ كُلِّهِمْ بِاسْمِ الْمَسَاكِينِ وَاسْمِ تَخْرِيرِ الرَّقَبَةِ. وَلَا دَلِيلَ لَهُمْ عَلَى الْخُصُوصِ إِلَّا ضَرْبٌ مِنَ الْقِيَاسِ. وَمَنْ مَذْهَبُهُ أَنَّ إِخْرَاجَ بَعْضٍ مَا تَضَمَّنَتْهُ الْأَسْمَاءُ لَا يُوجِبُ خُصُوصَ ذَلِكَ، فَكَذَا يُلْزِمُهُمْ إِلَّا يَخْصُوا الْوُجُودَ بِالتَّخْصِصِ^(٨) فِي غَيْرِهِ. فَإِنَّ^(٩) ذَلِكَ أَبْعَدُ عَلَى أَنَّهُمْ أَجْمَعُونَ أَنَّ يُقَاسَ مَا لَيْسَ فِيهِ ذِكْرُ التَّابِعِ عَلَى الْمَذْكَورِ، فَمِثْلُهُ أَمْرُ الْإِيمَانِ. وَجُمْلَتُهُ^(١٠) أَنَّهُ قَدْ يَجُوزُ فِي الْعِثْقِ مَعَ قِيَامِ كَثِيرٍ مِنَ الْعُيُوبِ الَّتِي لَا تَحْتَمِلُ الْقَفِيرَ، فَعَيْبُ الدِّينِ الَّذِي يُنْكِيهِ أَحَقُّ. وَكَذَلِكَ مِنْ قَوْلِ الْجَمِيعِ أَنَّ الْعَجْزَ بِالْمَرَضِ عَنِ الْمَكَايِبِ لَا يَنْفَعُ؛ إِذْ هُوَ قَدْ يَزُولُ. فَالَّذِي لَا عَجْزَ فِيهِ، وَيُمْكِنُهُ اخْتِيَارُهُ، أَحَقُّ أَنْ يَجُوزَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ الْأَصْلُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى فِي الْكُفَّارَةِ الَّتِي جَعَلَ الْإِيمَانَ فِيهَا شَرْطاً ذَكَرَ الْعِثْقَ فِي ذَلِكَ فِي قَتْلِ ثَلَاثِ مَرَاتٍ^(١١)؛ ذَكَرَ فِي كُلِّ مَرَّةٍ تَخْرِيرَ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ، لَمْ يَدْعُ ذَكَرَ ذَلِكَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا لِلذِّكْرِ فِي نَوْعٍ مِنْ ذَلِكَ عَلَى قُرْبٍ مَا بَيَّنَّ أُولَئِكَ الْأَسْبَابُ. فَلَوْ كَانَ يَخْتَصِلُ الْإِقْتِصَارُ عَلَى بَيَانِ الْكِفَايَةِ دُونَ الْمُبَالَغَةِ أَوْ يَجِبُ ذَلِكَ فِي النَّظَرِ لَكَانَ يُذَكَّرُ مَرَّةً^(١٢) كِفَايَةً عَلَى نَحْوِ الصُّومِ. فَإِذَا لَمْ يَكْتَفِ عَلَى تَقَارُبِ الْمَعْنَى بَانَ أَنَّ ذَلِكَ نَوْعٌ مَا لَمْ يُؤَدَّنْ فِيهِ تَغْلِيْقُ الْحُكْمِ بِالْمَعْنَى. بَلْ لَوْ كَانَ مَادُونًا فِيهِ لَكَانَ يُوجَدُ فِي الْقَتْلِ مَعَانٍ لَا تُوجَدُ فِي غَيْرِ ذَلِكَ، فَلَا يَجُوزُ قِيَاسُ غَيْرِهِ عَلَيْهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: إِذْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُحْزَنُ إِلَّا يَحْزَنَ﴾ [غافر: ٤٠] ثُمَّ قَدْ جَعَلَ سَيِّئَةً^(١٣) الظَّهَارِ وَالْقَتْلَ عِثْقَ رَقَبَةٍ وَالصِّيَامَ صَوْمَ ﴿شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ [النساء: ٩٢] وَالمَجَادِلَةَ: ٣] فَكَيْفَ جَعَلَ مِثْلَ سَيِّئَةِ الْجَنَّةِ بِالْعِثْقِ عِثْقَ رَقَبَةٍ وَبِالصِّيَامِ [صَوْمٍ]^(١٤) ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ؟ فَلَوْ كَانَ [صَوْمٍ]^(١٥) ثَلَاثَةُ عَدِيلِ الْعِثْقِ، فَإِذَا زَادَ فِي الظَّهَارِ وَالْقَتْلِ ١٣٨ - أ/ فِي الْجَزَاءِ. نَقْلٌ^(١٦)، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ، لِذَلِكَ أَجْوِبَةُ ثَلَاثَةٌ:

[أَحَدُهَا]^(١٧): أَنَّ الْجَزَاءَ فِي الدُّنْيَا هُوَ مَا تَجُوزُ بِهِ الْجَنَّةُ ابْتِدَاءً لَا عَلَى الْجَزَاءِ. فَعَلَى ذَلِكَ يَجُوزُ فِيهِ الزِّيَادَةُ بِحَقِّ

(١) مَنْ م، فِي الْأَصْلِ: يَخْلَفُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: فِي الدَّفْعِ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: لِيَتَمَتَّعُوا. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: أَمْوَالًا. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: الْخَلْقُ لَهُمْ جُمْلَةٌ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: أَغْنِيَاءُ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: مَذْهَبُهُمْ. (٨) الْبَاءُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: إِنْ. (١٠) مَنْ م، فِي الْأَصْلِ: جَعَلْتَهُ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: فَرَقَ، وَالْآيَاتُ الْمَقْصُودَةُ فِي النَّسَاءِ: ٩٢ وَالْمَائِدَةِ: ٨٩ وَالْمَجَادِلَةِ: ٣. (١٢) الْآيَةُ الْمَقْصُودَةُ فِي النَّسَاءِ: ٨٩. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: سَبِيهِ. (١٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٦) فِي الْأَصْلِ وَم: نَقُولُ. (١٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

أهل مكة في غلبة الروم فارس، فقال النبي ﷺ: «زدنهم في الخطر، وأبعدنهم في الأجل» فكان ذلك، والنبي ﷺ بمكة في الوقت الذي لم يتفقد حكمه.

فأما في دار الإسلام فلا خلاف في أن ذلك لا يجوز إلا ما رخص فيه من الرهان في السبق في الدواب والإبل إذا كان الآخذ واحداً: إن سبق أخذ، وإن سبق لم يدفع شيء، وكذلك إن كان السبق بين الرجلين: أيهما سبق أخذ، وإن دخل بينهما فرس: إن سبق أخذ، وإن سبق [لم] ^(١) يُعْرَم صاحبه شيئاً، فهو جائز. ويسمى الداخل بينهما المحلل.

فأما الرخصة فيه فما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا سبق إلا في خف أو حافر أو نصال» [أبو داود ٢٥٧٤].

هذا الذي وصفنا، كله من الميسر، والأنصاب هي الأحجار، والأوثان التي كانوا ينصبونها، ويعبدونها، ويذبحون بها. وأما الأزلام فالقداح التي يستقسمون بها في أمورهم، ويستعملونها. ففيه دليل بطلان الحكم بالقرعة لأن الاستقسام بالقداح هو أن كانوا يجعلون الثمن على الذي خرج سهمه أخيراً، ويتصدقون بما اشتروا على الفقراء. ففيه إيجاب الثمن على الغير، فيجعلون الأمر إلى من ليس له تمييز. فعوتبوا على ذلك الحكم بالقرعة، تسلم ^(٢) إلى من ليس له تمييز بين المحق وغير المحق، فيلحق هذا ما لحق أولئك.

ثم أخبر أن ذلك كله «يمنع من عمل الشيطان» وليس في الحقيقة عمل الشيطان؛ لأن الشيطان لا يفعل هذا حقيقة. لكن نسب ذلك إليه لما يدعوهم إلى ذلك، ويؤثر لهم.

وكذلك قول موسى عليه السلام: «هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ» [القصص: ١٥] كذا، وكذلك قوله تعالى: «فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ» [البقرة: ٣٦] وهو، لعنه الله، لم يتوَلَّ إخراجهما، ولكن كان به سبب الإخراج والإذلال؛ وهو الدعاء إلى ذلك والمرأة لهما ^(٣)، فنسب ذلك إليه، والله أعلم.

الآية ٩١

وقوله تعالى: «إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ» هم في الظاهر لم يجتمعوا على العداوة والبغضاء، بل يكون اجتماعهم على الإلفة والمودة، على ذلك يجتمعهم في الابتداء. لكن لما شربوا، وأخذهم الشراب، وقعت ^(٤) بينهم العداوة. فكان قصده ^(٥) إلى جمعهم في الابتداء على المحبة والمودة لما ظهر منه في العاقبة من إيقاع العداوة بينهم وتفريق جمعهم. وهو كقوله تعالى: «يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ» [لقمان: ٢١]. ولو دعاهم إلى عذاب السعير لكانوا لا يجيبونه، لكن دعاهم إلى العمل الذي يوجب لهم عذاب السعير.

فعلَى ذلك هو يدعوهم إلى الاجتماع في الخمر والميسر إلى ما يوجب، ويوقع ^(٦) بينهم العداوة والبغضاء. ففيه أن الأعمال تنظر فيها العواقب كما روي [عن رسول الله ﷺ قوله] ^(٧): «الأعمال بالخواتيم» [البخاري: ٦٦٠٧].

وفي الآية دليل تحريم الخمر لأنه قال: «يمنع من عمل الشيطان» والرجس حرام كقوله تعالى: «فَإِنَّهُ رَجِسٌ أَوْ شَقَا» [الأنعام: ١٤٥]. وكذلك روي عن نبي الله ﷺ أنه قام، فخطب الناس، فقال: «أيها الناس إن الله يعرض على الخمر تعريضاً لا أدري لعله سينزل فيها أمراً» ثم قال: «يا أهل المدينة قد أنزل تحريم الخمر فمن كتب هذه الآية وعنده منها شيء فلا يشربها، ولا يبيعها، فسكبوها في طريق المدينة» [مسلم ١٥٧٨].

وعن عمر رضي الله عنه [أنه] ^(٨) قال لما نزل تحريم الخمر: اللهم بين لنا في الخمر بيان شفاء، فنزلت الآية التي في البقرة: «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ» [الآية: ٢١٩] فقرئت عليه، فقال عمر رضي الله عنه اللهم بين لنا في الخمر بيان شفاء، فنزلت الآية التي في النساء: «لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى» [الآية: ٤٣] فكان منادي رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة قال: لا يقرب الصلاة سكران، فدعي عمر رضي الله عنه ١٣٨ - ب/ فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بيان شفاء، فنزلت

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: تسليم. (٣) في الأصل وم: لهم. (٤) في الأصل وم: وقع. (٥) من م، في الأصل: تصدقوا. (٦) في الأصل وم: ويقع. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم.

الآية التي في المائدة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ [الآية: ٩١] فَدُعِيَ عُمَرُ رضي الله عنه فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ. فلما بَلَغَ: ﴿فَهَذَا أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ قَالَ انْتَهَيْنَا.

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه [أنه^(١)] قَالَ: كُنْتُ سَاقِيَ الْقَوْمِ، وَنَبِيذُنَا تَمُرٌ وَزَبِيبٌ وَبُسْرٌ، خَلَطْنَاهُ جَمِيعاً، فَبَيْنَا نَحْرُ كَذَلِكَ، وَالْقَوْمُ يَشْرَبُونَ، إِذْ دَخَلَ عَلَيْنَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ: مَا تَصْنَعُونَ؟ وَاللَّهِ لَقَدْ أَنْزَلَ تَحْرِيمَ الْخَمْرِ، فَأَهْرَفْنَا الْبَاطِلَةَ، وَكَفَّانَا [كُؤُوسَنَا]^(٢)، ثُمَّ خَرَجْنَا، فَوَجَدْنَا رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَائِماً عَلَى الْمِنْبَرِ، يَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَةَ، وَيُكْرِّرُهَا ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَهَذَا أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ فَالْخَلِيطَانِ حَرَامٌ. فَاجْتَمَعَ أَهْلُ الْعِلْمِ عَلَى أَنَّ الْخَمْرَ حَرَامٌ: قَلِيلُهَا وَكَثِيرُهَا، وَأَنَّ عَصِيرَ الْعِنَبِ، إِذَا غُلِيَ، وَاشْتَدَّ، فَصَارَ سَكْرًا، خَمْرًا.

وَاجْتَلَفُوا فِي مَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَشْرَبَةِ؛ فَكَانَ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَبُو يُوسُفَ، رَحِمَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى، يَقُولَانِ: مَا كَانَ مِنَ الْأَشْرَبَةِ نَبِيئاً مُتَّخِذاً مِنَ النَّخْلَةِ وَالْعِنَبِ فَهُوَ حَرَامٌ كَنَبِيذِ الْبُسْرِ وَالثَّمَرِ وَالزَّبِيبِ، إِذَا اسْكُرَّ كَثِيرُهُ، فَهُوَ حَرَامٌ عِنْدَهُمَا. وَعَلَى ذَلِكَ جَاءَ الْخَبَرُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ: «الْخَمْرُ مِنْ هَاتَيْنِ الشَّجَرَتَيْنِ: مِنَ النَّخْلَةِ وَالْعِنَبِ» [مسلم ١٩٨٥] فَلَا يَحْرُمُ، وَإِنْ كَانَ نَبِيئاً، إِلَّا الْمُسْكِرُ مِنْهُ؛ لِأَنَّ غَيْرَهُمَا مِنَ الْأَشْرَبَةِ قَدْ يَتَّخَذُ لِلشُّكْرِ^(٣)، وَإِنْ كَانَ فِي مَكَانٍ، لَا يَتَّخَذُ إِلَّا لِلشُّكْرِ، فَهُوَ مَكْرُوهٌ قَلِيلُهُ وَكَثِيرُهُ كَالْمُتَّخِذِ مِنَ النَّخْلَةِ وَالْعِنَبِ.

وَكَانَا يَقُولَانِ: مَا كَانَ مِنَ الْأَنْبِذَةِ مَطْبُوحاً فَهُوَ حَلَالٌ، وَإِنْ قُلَّ طَبَخُهُ، إِلَّا الْعَصِيرَ، فَإِنَّهُ لَا يَجِلُّ بِالطَّبَخِ حَتَّى يَذْهَبَ ثُلَاثُهُ، وَيَبْقَى ثُلَاثُهُ. وَكَانَا يُفَرِّقَانِ بَيْنَ الْعَصِيرِ وَغَيْرِهِ؛ فَإِنَّ الْعَصِيرَ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ غَيْرِهِ، وَإِنْ تَرَكَ بِحَالِهِ غُلِيَ، فَاسْكُرَ. فَإِذَا طَبَخَ حَتَّى يَذْهَبَ ثُلَاثُهُ أَوْ نِصْفُهُ فَهُوَ يَغْلِي، وَيُسْكِرُ؛ فَلَمْ يُخْرِجْهُ الطَّبَخُ مِنْ حَدِّهِ الْأَوَّلِ إِذَا كَانَ يُسْكِرُ قَبْلَ أَنْ يُطَبَخَ، وَهُوَ الْآنَ يُسْكِرُ بِنَفْسِهِ إِذْ لَمْ يُجْعَلْ فِيهِ شَيْءٌ غَيْرُهُ.

وَسَائِرُ مَا يَتَّخَذُ مِنَ الْأَنْبِذَةِ، إِنْ بَقِيَ، لَمْ^(٤) تَشْتَدَّ، وَلَمْ يُسْكِرْ حَتَّى يُلْقَى عَلَيْهِ الْمَاءُ، وَيُخْلَطَ بِهَا غَيْرُهُ، فَجَبْنِيذُ يُسْكِرُ، فَهِيَ يَمْلُ الْعَصِيرَ إِذَا ذَهَبَ ثُلَاثُهُ، وَبَقِيَ ثُلَاثُهُ، إِنْ بَقِيَ دَهْرًا، لَمْ يُسْكِرْ حَتَّى يُلْقَى عَلَيْهِ الْمَاءُ، فَجَبْنِيذُ يُسْكِرُ. فَإِذَا صَارَ الْعَصِيرُ فِي حَالٍ، إِنْ بَقِيَ مُدَّةٌ لَمْ يَغْلِ بِنَفْسِهِ حَتَّى يُلْقَى عَلَيْهِ غَيْرُهُ كَانَ بِمَنْزِلَةِ الزَّبِيبِ وَالثَّمَرِ إِذَا أُلْقِيَ عَلَيْهِمَا الْمَاءُ، فَطَبَخَا.

وَعَلَى ذَلِكَ مَا رَوَى عَنْ عُمَرَ رضي الله عنه فِي الطَّلَاءِ أَنَّهُ لَا يَجِلُّ حَتَّى يَذْهَبَ عَنْهُ سُلْطَانُهُ؛ يَقُولُ: إِذَا كَانَ يَغْلِي بِنَفْسِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُصَبَّ عَلَيْهِ الْمَاءُ فَفِيهِ سُلْطَانُهُ، فَإِذَا صَارَ لَا يَغْلِي بِنَفْسِهِ، وَهُوَ أَنْ يُطَبَخَ حَتَّى يَذْهَبَ ثُلَاثُهُ، فَقَدْ ذَهَبَ سُلْطَانُهُ.

وَرَوَى عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ وَمُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ وَأَبَا طَلْحَةَ رضي الله عنهم كَانُوا يَشْرَبُونَ مِنَ الطَّلَاءِ مَا ذَهَبَ ثُلَاثُهُ، وَبَقِيَ ثُلَاثُهُ. وَقَدْ وَصَفْنَا فَرَّقَ أَبِي حَنِيفَةَ وَأَبِي يُوسُفَ، رَحِمَهُمَا اللَّهُ، بَيْنَ الْمَطْبُوحِ وَبَيْنَ الْمُثْلَبِ وَالْمُنْصَفِ مِنَ الْعَصِيرِ.

وَأَمَّا فَرَقُهُمْ بَيْنَ الْمَطْبُوحِ مَا يَتَّخَذُ مِنَ النَّخْلَةِ وَالْعِنَبِ وَالثَّمَرِ مِنْهُ فَهُوَ الْخَمْرُ الَّتِي لَا خِلَافَ فِي تَحْرِيمِهَا فِي الْعَصِيرِ الَّتِي يَصِيرُ خَمْرًا. فَكُلُّ مَا كَانَ نَبِيئاً مِنَ الشَّجَرَتَيْنِ اللَّتَيْنِ سَمَّاهُمَا النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم فَهُوَ حَرَامٌ إِذَا اسْكُرَ. فَإِذَا كَانَ مَطْبُوحاً، فَقَدْ عُيِّلَ فِيهِ، خَرَجَ بِهِ مِنْ حَدِّ الْخَمْرِ.

فَإِنْ قِيلَ: يَجِبُ أَنْ يُقَاسَ ذَلِكَ عَلَى النَّبِيِّ لِأَنَّهُ يُسْكِرُ، وَفِيهِ صِفَاتُ الْخَمْرِ قِيلَ: الْخَمْرُ حُرِّمَتْ لِعَيْنِهَا لِمَا لَا تَتَّخَذُ إِلَّا لِلشُّكْرِ^(٥)، وَلَا يُقَاسُ عَلَيْهَا غَيْرُهَا. وَإِنَّمَا يُقَاسُ عَلَى مَا حَرَّمَ، وَحَلَّ لِإِعْلَافِ دُونَ مَا حَرَّمَ بِعَيْنِهِ. وَأَمَّا غَيْرُهُ مِنَ الْأَنْبِذَةِ فَإِنَّمَا يُحْرَمُ مِنْهُ الشُّكْرُ.

أَلَا تَرَى أَنَّهُ فِي الْخَبَرِ أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم لَمَّا بَعَثَ أَبَا مُوسَى وَمُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ قَالَ لَهُ أَبُو مُوسَى: إِنَّ شَرَابَنَا يُقَالُ لَهُ: الْبَنْعُ، فَمَا نَشْرَبُ مِنْهُ؟ وَمَا نَدْعُ؟ قَالَ: «اشْرَبُوا وَلَا تَسْكُرُوا» [البيهقي في الكبرى ٢٩٨/٨]

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: السكر. (٤) من م، في الأصل: لهم. (٥) في الأصل وم: السكر.

وعن ابن عباس رضي الله عنه [أنه] ^(١) قال: حُرِّمَتِ الْخَمْرُ بِعَيْنِهَا، قَلِيلُهَا وَكَثِيرُهَا، وَالشُّكْرُ مِنْ كُلِّ شَرَابٍ.

وعن علي رضي الله عنه [أنه] ^(٢) قال: فما أَسْكَرَ مِنَ النَّبِيذِ ثَمَانُونَ، وفي الْخَمْرِ قَلِيلُهَا وَكَثِيرُهَا ثَمَانُونَ.

فَدَلَّ قَوْلُ عَلِيٍّ رضي الله عنه فِي مَا أَسْكَرَ مِنَ النَّبِيذِ مَعْنَاهُ: فِي الشُّكْرِ ثَمَانُونَ. وَذَلِكَ يَدُلُّ أَنَّ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ: «كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ» [البخاري ٤٣٤٤ و ٤٣٤٥] أَنَّ الشُّكْرَ مِنْهُ حَرَامٌ.

وعن عُمَرَ رضي الله عنه أَنَّهُ أَتَى بِسُكْرَانٍ، قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّمَا تَشْرَبُ مِنْ نَبِيذِكَ الَّذِي فِي الْإِدَاوَةِ، فَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: لَسْتُ أَضْرِبُكَ عَلَى النَّبِيذِ، إِنَّمَا أَضْرِبُكَ عَلَى الشُّكْرِ. فَهَذِهِ الْأَخْبَارُ الَّتِي ذَكَرْنَا ذَلِكَ عَلَى تَحْرِيمِ الْخَمْرِ بِعَيْنِهَا وَالشُّكْرِ مِنْ كُلِّ شَرَابٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَيَصَّدَّقُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾ يدلُّ على تحريمها لأنه إذا سَكَرَ صَدَّ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ. وعن الصلاة.

الآية ٩٢ وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ فِي تَحْرِيمِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَالْأَزْلَامِ وَالْأَنْصَابِ ﴿وَاذْكُرُوا﴾ مَعْصِيَتَهَا ﴿إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عَنْ طَاعَتِهِمَا فِي مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ، وَحَذَّرَكُمْ عَنْهُ ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْبَيِّنُ﴾ فِي تَحْرِيمِ ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٩٣ وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ أَي شَرِبُوا مِنَ الْخَمْرِ قَبْلَ تَحْرِيمِهَا ﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا﴾ شَرِبَتْهَا بَعْدَ التَّحْرِيمِ ﴿وَمَا آمَنُوا﴾ أَي وَصَدَّقُوا بِالتَّحْرِيمِ ﴿ثُمَّ اتَّقَوْا﴾ شَرِبَتْهَا ﴿وَمَا آمَنُوا﴾ فِي حَادِثِ الْوَقْتِ ﴿وَأَحْسَنُوا﴾.

وَذَكَرَ فِي بَعْضِ الْقِصَصِ أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ قَالُوا: كَيْفَ بِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ مَاتُوا، وَمَنْ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ؟ فَتَزَلَّ ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ الْآيَةُ لَكِنْ هَذَا لَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ كَمَا ذَكَرَ لِأَنَّهُمْ شَرِبُوا الْخَمْرَ فِي وَقْتِ كَانَ شَرَابُهَا مُبَاحًا، وَلَمْ يَشْرَبُوا بَعْدَ تَحْرِيمِهَا. لَكِنْ هَذَا إِنْ كَانَ فَإِنَّمَا قَالُوا فِي أَنْفُسِهِمْ، فَتَزَلَّ أَنْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِي مَا شَرِبْتُمْ قَبْلَ تَحْرِيمِهَا بَعْدَ أَنْ اتَّقَيْتُمْ شَرِبَتْهَا بَعْدَ نَزُولِ حُرْمَتِهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقال بَعْضُهُمْ: إِنَّ فِي الْآيَةِ تَكَرُّرًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ لَكِنَّ الْوُجْهَ فِيهِ مَا ذَكَرْنَا لَيْسَ عَلَى التَّكَرُّارِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٩٤ وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْلُغُوا إِلَى الْقَيْدِ﴾ وَلَيْسَ فِيهِ بَيَانٌ أَنَّهُ ابْتُلِيَ بِالْأَمْرِ فِيهِ أَوْ بِالنَّهْيِ، لَكِنَّ بَيَانَهُ فِي آيَةٍ أُخْرَى؛ إِنَّمَا كَانَ الْإِبْتِلَاءُ بِالنَّهْيِ عَنِ الْإِضْطِيَادِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [الآية: ٢]. وَذَلِكَ هَذَا عَلَى أَنَّ الْمُحْرِمَ كَانَ مِنْهُيًّا عَنِ الْإِضْطِيَادِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ﴾ وَأَنَّ الْإِبْتِلَاءَ الَّذِي ذَكَرَ فِي الْآيَةِ كَانَ بِالنَّهْيِ عَنِ الْإِضْطِيَادِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي الْآيَةِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: النَّهْيُ ﴿بِشَيْءٍ مِنَ الْقَيْدِ﴾ لِأَهْلِ الْحَرَمِ. أَلَا تَرَى أَنَّهُ رُوِيَ فِي الْخَبَرِ [أَنَّهُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ]: «لَا يَنْفَرُ صَيْدُهَا، وَلَا يُخْتَلَى خِلَاهَا، وَلَا يُغْضَدُ شَجَرُهَا؟» [البخاري ١٨٣٣] فَكَانَ الْإِبْتِلَاءُ بِالنَّهْيِ عَنِ الصَّيْدِ لِأَهْلِ الْحَرَمِ لِمَا أَخْبَرَ أَنَّهُ «لَا يَنْفَرُ صَيْدُهَا». وَأَمَّا الْمُحْرِمُ فَإِنَّمَا نُهِيَ عَنِ الْإِضْطِيَادِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [الآية: ٢] وَبِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَقْتُلُوا الْقَيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ [الآية: ٩٥].

وقال آخَرُونَ: الْإِبْتِلَاءُ بِالنَّهْيِ عَنِ الْإِضْطِيَادِ لِلْمُحْرِمِينَ. وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَقْتُلُوا الْقَيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ [الآية: ٩٥] نَهْيٌ عَنْ قَتْلِهِ. وَمِنَافَ نَهْيٌ عَنْ أَخْذِهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَتَالَهُ أَيْدِيكُمْ﴾ [الآية: ٩٤] وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِشَيْءٍ مِنَ الْقَيْدِ﴾ أَي فِي بَعْضِ الصَّيْدِ دُونَ بَعْضٍ؛ لِأَنَّ الْمُحْرِمَ لَمْ يَنْهَ عَنْ أَخْذِ صَيْدِ الْبَحْرِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾ وَقَوْلِهِ ^(٤) تَعَالَى: ﴿وَمَنْ عَمَلَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ مَا دُمْتُ حُرْمًا﴾ [الآية: ٩٦]. فَذَلِكَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِشَيْءٍ مِنَ الْقَيْدِ﴾، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم. قال. (٤) في الأصل وم. وقال.

وَيُخْتَمَلُ عَلَى التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ كَأَنَّهُ قَالَ: لَيَبْلُغَنَّكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ مِنَ الصَّيْدِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.
ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: مَا تَنَالُهُ الْأَيْدِي هُوَ الْبَيْضُ، وَعَلَى هَذَا يَخْرُجُ قَوْلُنَا: إِنَّ
الْمُحْرِمَ مَنِّهِ عَنْ اخْتِذِ الْبَيْضِ. فَإِنْ أَخَذَ بَيْضاً فَإِنَّ عَلَيْهِ الْجَزَاءَ.

وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ مَا رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه؛ قَالَ: قَالَ: ١٣٩ - أ/ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «فِي بَيْضِ النَّعَامِ صِيَامٌ يَوْمَ أَوْ
إِطْعَامٍ مُسْكِينٍ» [البیهقي في الكبرى ٢٠٧/٥] وَعَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَضَى فِي بَيْضِ نَعَامٍ أَصَابَهُ مُحْرِمٌ
يَسْمِيهِ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه يَسْمِيهِ ^(١) أَوْ قِيمَتِهِ. وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه مِثْلَهُ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ﴾ هُوَ صَيْدُ الصَّغَارِ، وَهِيَ الْفِرَاحُ الَّتِي لَا تَطِيرُ، فَيُؤْخَذُ بِالْأَيْدِي.
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرِمَاحُكُمْ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: مَا رَمَيْتَ، وَطَعَنْتَ. وَقِيلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ﴾ مَا يُؤْخَذُ بِغَيْرِ
سِلَاحٍ ﴿وَرِمَاحُكُمْ﴾ مَا يُؤْخَذُ بِالسِّلَاحِ مِنْ نَحْوِ الثَّلِثِ وَالرِّمَاحِ وَغَيْرِهِمَا مِنَ السِّلَاحِ.

ثُمَّ فِي آيَةِ دَلَالَةٍ أَنَّ الْمُحْرِمَ قَدْ نُهِيَ عَنْ اخْتِذِ الصَّيْدِ، وَكَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَسْلُوا﴾ [الآية: ٢] وَالْإِضْطِیَادُ هُوَ
الْإِخْذُ لَا الْقَتْلُ. وَإِنَّمَا النُّهْيُ عَنِ الْقَتْلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ [الآية: ٩٥].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَخَافُ اللَّهََ مَخَافَةً بِالْقَنِيِّ﴾ لَيَعْلَمَ مَا قَدْ عَلِمَ أَنَّهُ يَكُونُ كَاتِباً، أَوْ يُقَالُ: لَيَعْلَمَ مَا قَدْ عَلِمَ غَائِباً عَنِ الْخَلْقِ
شَاهِداً كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عَلِمَ الْقَنِيِّ وَالشَّهَادَةُ﴾ [الأنعام: ٧٣ و ١٠٠].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ يَخَافُ بِالْقَنِيِّ﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿يَخَافُ بِالْقَنِيِّ﴾ بِغَيْبِ النَّاسِ أَيْ يَخَافُهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ
يَحْضَرُهُ أَخَذَ. وَقَالَ آخَرُونَ: يَخَافُ الْعَذَابَ بِالْإِخْبَارِ، وَإِنْ لَمْ يَشْهَدْ، وَيَصْذُقُ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أَيْ مَنْ اسْتَحْلَلَ قَتْلَ الصَّيْدِ بَعْدَ مَا وَرَدَ النَّهْيُ وَالتَّحْرِيمُ ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إِنْ شَاءَ
عَذَبَ، وَإِنْ شَاءَ عَفَا. وَإِذَا عَذَبَ كَانَ عَذَابُهُ أَلِيماً.

الآية ٩٥ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ أَيْ وَأَنْتُمْ مُحْرِمُونَ. الْآيَةُ فِي ظَاهِرِهَا عَلَى قَتْلِ
الصَّيْدِ كُلِّهِ. ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَخَّصَ فِي أَشْيَاءَ، أَذِنَ فِي قَتْلِهَا؛ فَيُقَالُ: فِي خَمْسٍ مِنَ الدَّوَابِّ لَا جُنَاحَ عَلَى مَنْ قَتَلَهُنَّ،
وَهُوَ مُحْرِمٌ فِي الْحَرَمِ: الْجِدَاةُ وَالْغُرَابُ وَالْعَقْرَبُ وَالْفَأْرَةُ وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ.

وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِقَتْلِ خَمْسٍ فَوَاسِقٍ فِي الْجَلِّ وَالْحَرَمِ: الْجِدَاةُ وَالْغُرَابُ وَالْعَقْرَبُ وَالْفَأْرَةُ وَالْكَلْبُ
الْعَقُورُ. وَفِي بَعْضِ النُّسخِ وَالْإِخْبَارِ: وَالذَّنْبُ، فَيُخْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْعَقُورُ: الذَّنْبُ.

وَرَوَى عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ عَمَّا يَقْتُلُ الْمُحْرِمُ، فَقَالَ: «الْحَيَّةُ وَالْعَقْرَبُ وَالْفُؤَيْسِقَةُ وَالْغُرَابُ
وَالْغِيلَةُ وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ وَالسُّبُعُ الْعَادِي» [أبو داود ١٨٤٨]. وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ الَّذِي أَمَرَ الْمُحْرِمَ بِقَتْلِهِ مَا قَتَلَ النَّاسَ، وَعَدَا
عَلَيْهِمْ مِثْلُ الْأَسَدِ وَالنَّمِرِ وَالذَّنْبِ. وَمَا كَانَ [مِنْ] ^(٢) السُّبُعِ لَا يَغْدُو مِثْلَ الضَّبِّ وَالنُّعْلَبِ وَالْحُرِّ وَمَا أَشْبَهَهُمْ فَلَا يَقْتُلُهُنَّ
الْمُحْرِمُ. فَإِنْ هُوَ قَتَلَ شَيْئاً مِنْهُنَّ فَدَاهُ. وَإِنْ قَتَلَ شَيْئاً مِنَ الطَّيْرِ سِوَى مَا ذَكَرَ فِي الْحَبْرِ فَعَلَيْهِ جَزَاؤُهُ.

وَفِي بَعْضِ الْإِخْبَارِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ [أَنَّهُ] ^(٣) قَالَ: «يَقْتُلُ الْمُحْرِمُ الْفَأْرَةَ فَإِنَّهَا تُوهِنُ الْمَشَقَّاءَ» [بسند صحيح البخاري
١٨٢٧ و ١٨٢٨]. وَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ: مَا قَتَلَ الْمُحْرِمُ مِنَ السُّبُعِ الَّذِي ^(٤) لَا يُوَكَّلُ لَحْمُهُ فَلَا فِدْيَةٌ عَلَيْهِ. فَكَانَ تَارِكاً لِظَاهِرِ
الْآيَةِ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾.

فَإِنْ اخْتِجَّ بِحَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَخَّصَ لِلْمُحْرِمِ فِي قَتْلِ خَمْسٍ مِنَ الدَّوَابِّ، وَذَلِكَ مَا لَا يُؤْكَلُ لَحْمُهُ،
قِيلَ: أَبَاحَ النَّبِيُّ ﷺ قَتْلَ الْخَمْسِ لِغَلَّةِ أَنَّهُ لَا يُؤْكَلُ لَحْمُهَا؟ فَإِنْ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَا الدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ؟ فَإِنْ قَالَ: لِأَنَّهَا لَا
تُؤْكَلُ، فَكُلُّ مَا لَا يُؤْكَلُ مِنَ الصَّيْدِ فَقَتْلُهُ مُبَاحٌ. فَيُقَالُ لَهُ: قَوْلُكَ: لَا يُؤْكَلُ، لَيْسَ بِغَلَّةٍ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يَزُولُ، لَا يَتَغَيَّرُ. وَالْغَلَّةُ
هِيَ الَّتِي تَخْدُثُ فِي وَقْتٍ، وَتَزُولُ فِي وَقْتٍ.

(١) فِي الْأَصْلِ: ثَمَنُهُ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: الَّتِي.

ولو كَانَ قولُ القائلِ : لا يُؤْكَلُ، عِلَّةٌ في ما لا يُؤْكَلُ، كَانَ قوله: يُؤْكَلُ، عِلَّةٌ في ما يُؤْكَلُ، وَكَانَ الشَّيْءُ عِلَّةً لِنَفْسِهَا. وَهَذَا بَيْنَ الْخَطَا. وَإِذَا لَمْ يَكُنْ تَحْرِيمُ أَكْلِ الْخُمْسَةِ الَّتِي أَذِنَ النَّبِيُّ ﷺ فِي قَتْلِهَا لِلْمُحْرِمِ عِلَّةً فِي إِطْلَاقِ قَتْلِهَا كَانَ الْقِيَاسُ عَلَيْهَا عَلَى مَا لَا يَحِلُّ أَكْلُهُ مُخْطِئاً لِأَنَّ الْقِيَاسَ إِنَّمَا يَكُونُ عَلَى الْعِلَلِ. وَمَا لَا عِلَّةَ فِيهِ لَا يَجُوزُ الْقِيَاسُ عَلَيْهِ. وَعِنْدَنَا أَنَّ هَذِهِ الْخُمْسَةَ الْمُسَمَّاةَ تَبْتَدِئُ الْمُحْرِمَ وَغَيْرَهُ بِالْأَذَى، وَإِنْ لَمْ يَبْتَدِئْهَا الْمُحْرِمُ. وَمَا سَوَى ذَلِكَ يَمَّا لَا يُؤْكَلُ لَحْمُهُ لَا يَكَادُ يَبْتَدِئُ بِالْأَذَى حَتَّى يَبْتَدِئَهَا الْإِنْسَانُ، فَجَبَّتْ تَعْرِضُ لَهُ.

وَيَبَيِّنُ ذَلِكَ أَنَّ الْجِدَاةَ رَبِّمَا أَغَارَتْ عَلَى اللَّحْمِ، تَرَاهُ فِي يَدَيِ الرَّجُلِ، وَالْغُرَابُ يَسْقُطُ عَلَى دُبُرِ الدَّابَّةِ^(١)، فَيُقْسِدُهُ، وَالْعَقْرَبُ تَقْصِدُ مَنْ تَلَدَّعُهُ، وَتَتَّبِعُ حَسَّهُ، وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ لَا يَكَادُ يَهْرُبُ مِنَ النَّاسِ كَمَا تَهْرُبُ السَّبَاعُ غَيْرُهُ.

فَأَمَّا الضَّبُعُ وَالْخَنْزِيرُ وَالذَّبُّبُ وَأَشْبَاهُهَا فَهِيَ تَرْهَبُ مِنْ بَنِي آدَمَ، وَلَا تَكَادُ تُؤْذِيهِمْ حَتَّى يَبْتَدِئَهَا بِالْأَذَى.

جَعَلْنَا الْعِلَّةَ فِي مَا رَخَّصَ النَّبِيُّ ﷺ لِلْمُحْرِمِ قَتْلَهُ مَا يَعْرِفُ مِنْ قَضِيهَا لِأَذَى الْمُحْرِمِ، وَأَنْ يُؤْذِيَهَا الْمُحْرِمُ إِنْ كَانَ مَعْرُوفاً فِيهَا مَعْلُوماً أَنَّهُ أَكْثَرُ شَأْنِهَا. فَلَمَّا لَمْ يَكُنْ فِي سَائِرِ الطَّيْرِ الْمُحَرَّمَةِ وَالسَّبَاعِ هَذِهِ الْعِلَّةُ، وَكَانَ الْمَعْرُوفُ فِيهَا أَنَّهُ لَا تَبْتَدِئُ بِالْأَذَى لَمْ يَجُزْ أَنْ تُشَبَّهَ بِالْخُمْسَةِ الْمُسَمَّاةِ فِي الْحَبْرِ. فَإِذَا ابْتَدَأَ مِنْهَا مُبْتَدِئُ الْمُحْرِمِ بِالْأَذَى كَانَ جَبَّتْ مِثْلَ الْخُمْسَةِ، فَجَارَ لَهُ قَتْلُهَا بِغَيْرِ فِدْيَةٍ.

وَيَعْدُ فَإِنَّ الَّذِي لَا يُؤْكَلُ لَحْمُهُ يُسَمَّى صَيْدَاً. وَالصَّيَادُونَ يَصِيدُونَهُ، فَكَانَ دَاخِلاً تَحْتَ عُمُومِ الْخِطَابِ. وَمَخَالَفُنَا تَارَكَ لِاضْلِهِ فِي الْعُمُومِ لِأَنَّهُ خَصَّ الْآيَةَ بِغَيْرِ دَلِيلٍ.

وَأَصْحَابُنَا، رَجَحَهُمُ اللَّهُ، يَجْعَلُونَ الصَّيْدَ كُلَّهُ مَخْظُوراً أَكِلَ أَوْ لَمْ يُؤْكَلْ إِلَّا مَا عَدَا مِنْهَا فَإِنْ قَتَلَهُ قَبْلَ أَنْ يَبْدُوَ عَلَيْهِ لَزْمُهُ الْفِدَاءِ. دَقُّوا فِي ذَلِكَ إِلَى مَا رَوِيَ فِي الْحَبْرِ خَبَرُ أَبِي سَعِيدٍ [الْخُدْرِيِّ]^(٢) عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: يَقْتُلُ الْمُحْرِمُ كَذَا وَكَذَا وَالسَّبْعَ الْعَادِي. فَالْعَادِي مَا يَبْدُو عَلَى الْمُحْرِمِ، وَإِلَى مَا رَوِيَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ طَالِبٍ ﷺ، وَغَيْرِهِ مَعَ مَا رَوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ جَعَلَ عَلَى الْمُحْرِمِ قَتْلَ ضَبْعٍ جَزَاءً. وَكَذَلِكَ عَنْ عُمَرَ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ عُمَرَ ﷺ وَهِيَ مِمَّا لَا تُؤْكَلُ.

وَعَنْ جَابِرٍ [أَنَّهُ]^(٣) قَالَ: سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الضَّبْعِ، فَقَالَ: هُوَ صَيْدٌ، وَفِيهِ كَبْشٌ. وَعَنْ عُمَرَ ﷺ كَذَلِكَ، وَابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ عُمَرَ ﷺ كَذَلِكَ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مِنْكُمْ مَتَعِدًا فَرْجَاءً نَبَلَ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ اخْتَلَفَ فِي الْآيَةِ فِي تَأْوِيلِهَا عَلَى وَجْهَيْنِ:

فَأَحَدُهُمَا: مَنْ جَعَلَ الْآيَةَ عَلَى ظَاهِرِهَا فَلَمْ يُوجِبْ فِي الْخَطَا كَفَّارَةً. عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ [أَنَّهُ]^(٤) قَالَ: إِذَا أَصَابَ الْمُحْرِمُ الصَّيْدَ خَطَاً فَلَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ. وَكَذَلِكَ رَوِيَ عَنْ عَطَاءٍ وَسَالِمٍ وَقَاسِمٍ أَنَّهُمْ قَالُوا: لَا شَيْءَ عَلَيْهِ، مِثْلَ قولِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: مَا قَالَهُ أَكْثَرُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ؛ قَالُوا: قوله تعالى ﴿وَمَنْ قَتَلَ مِنْكُمْ مَتَعِدًا﴾ لِقَتْلِهِ نَاسِيًا لِإِحْرَامِهِ فَذَلِكَ الَّذِي يُحْكَمُ عَلَيْهِ، وَهُوَ الْخَطَا الْمُكْفَرُ. وَإِنْ قَتَلَهُ مُتَعَمِّدًا لِقَتْلِهِ ذَاكِرًا لِإِحْرَامِهِ يُحْكَمُ^(٥) عَلَيْهِ. وَكَذَلِكَ رَوِيَ عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ: مُتَعَمِّدًا لِصَيْدِهِ نَاسِيًا لِإِحْرَامِهِ، وَقَالَ: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ مُتَعَمِّدًا لِلصَّيْدِ وَذَاكِرًا لِإِحْرَامِهِ. فَكَانَهُمْ دَهَبُوا إِلَى أَنَّ الْمُحْرِمَ لَا يَقْصِدُ قَضْدَ الصَّيْدِ، وَهُوَ ذَاكِرٌ لِإِحْرَامِهِ، أَحْسَنُوا الظَّنَّ بِهِ.

وعندنا لأن الإحرام يَمَّا لَا يَجُوزُ أَنْ يَخْفَى عَلَى الْمُحْرِمِ، وَيَنْسَى، لِأَنَّ لِلْمُحْرِمِ أَغْلَامًا؛ تُذَكِّرُهُ تِلْكَ الْأَعْلَامُ الْحَالِ الَّتِي هُوَ فِيهَا. وَعِنْدَنَا أَنَّ مَا لَا يَجُوزُ أَنْ يَنْسَى، وَيَخْفَى عَلَى الْمَرْءِ لَمْ يُغْذَرْ صَاحِبُهُ فِي نِسْيَانِهِ. وَعِنْدَنَا أَنَّ عَلَى قَاتِلِ الصَّيْدِ الْكَفَّارَةَ؛ عَمْدًا قَتْلَهُ، أَوْ خَطَاً.

وَلَيْسَتْ تَخْلُو الْآيَةَ مِنْ أَنْ تَكُونَ أَوْجَبَتْ الْكَفَّارَةَ عَلَى الْمُتَعَمِّدِ لِلْقَتْلِ النَّاسِي لِإِحْرَامِهِ كَمَا قَالَ الْحَسَنُ وَمُجَاهِدٌ، أَوْ تَكُونَ أَوْجَبَتْ الْكَفَّارَةَ عَلَى الْمُتَعَمِّدِ لِلْقَتْلِ ذَاكِرًا لِإِحْرَامِهِ أَوْلَى بِالْكَفَّارَةِ/١٣٩ - ب/ لِأَنَّ ذَنْبَهُ أَغْظَمَ وَجُرْمُهُ أَكْبَرُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: الدَّوَاب. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) أَدْرَجَ قَبْلَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: لَمْ.

فَإِنْ قِيلَ: إِنَّكُمْ لَا تُوجِبُونَ الْكَفَّارَةَ عَلَى قَاتِلِ النَّفْسِ عَمْدًا فَمَا مَنَعَ أَنْ يَكُونَ قَتْلُ الصَّيْدِ مِثْلَ ذَلِكَ؟ وَإِنْ كَانَ جُرْمُهُ^(١) أَعْظَمَ كَمَا قِيلَ [تَقُولُ]^(٢) إِنَّ قَاتِلَ النَّفْسِ عَمْدًا، وَإِنْ كُنَّا لَمْ نُوجِبْ عَلَيْهِ الْكَفَّارَةَ فَقَدْ أَوْجَبْنَا عَلَيْهِ الْقِصَاصَ، وَهُوَ أَعْظَمُ مِنَ الْكَفَّارَةِ. وَقَاتِلَ الصَّيْدِ عَمْدًا لِقَتْلِهِ ذَاكِرًا لِإِحْرَامِهِ، لَوْ أَرَلْنَا عَنْهُ الْكَفَّارَةَ فَلَا شَيْءَ عَلَيْهِ سِوَاهَا. لِذَلِكَ اخْتَلَفَا

ثُمَّ نَقُولُ: إِنَّا عَرَفْنَا الْحُكْمَ فِي قَتْلِ الصَّيْدِ فِي الْخَطَا؛ إِنَّمَا يُعْرَفُ بِغَيْرِهِ، وَلَيْسَ فِي ذِكْرِ الْحُكْمِ وَبَيَانِهِ فِي حَالٍ دَلِيلٌ نَفِيهِ فِي حَالٍ أُخْرَى. وَلَنَا عَلَى هَذَا فِي مَا تَقَدَّمَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ [أَقْوَال]^(٣) كَرِهْنَا إِعَادَتَهَا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ. ثُمَّ تَخْصِصُ ذِكْرُ الْكَفَّارَةِ فِي قَتْلِ الْعَمْدِ يَحْتَمِلُ وَجُوهًا:

أَحَدُهَا: أَنَّ الْكَفَّارَةَ فِي قَتْلِ النَّفْسِ إِنَّمَا ذُكِرَتْ فِي قَتْلِ الْخَطَا، لَمْ تُذَكَّرْ فِي قَتْلِ الْعَمْدِ لِيُعْلَمَ أَنَّهَا إِذَا وَجِبَتْ فِي الْعَمْدِ فَهِيَ^(٤) فِي الْخَطَا أَوْجِبٌ.

وَالثَّانِي: أَنَّ الْكَفَّارَةَ إِنَّمَا وَجِبَتْ بِجَنَائِيَّتِهِ عَلَى صَيِّدِ آمِنٍ بِهِ فِي الْحَرَمِ. وَكُلُّ ذِي أَمَانَةٍ إِذَا أَتَتْهُ الْإِمَانَةُ لَزِمَ الْعُرْمُ، عَمْدًا كَانَ إِتْلَافُهُ أَوْ خَطَا. فَعَلَى ذَلِكَ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَالثَّالِثُ: أَنَّ ذِكْرَ التَّخْيِيرِ فِي حَالِ الضَّرُورَةِ يَخْرُجُ مَخْرَجَ التَّوَسُّعِ وَالتَّخْفِيفِ عَلَى أَهْلِهَا. وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ فِي غَيْرِ حَالِ الضَّرُورَةِ، فَذَلَّ ذِكْرُهُ فِي غَيْرِ حَالِ الضَّرُورَةِ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ كَالْمَذْكُورِ فِي حَالِ الضَّرُورَةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ اخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي مَا يَجِبُ مِنَ الْمِثْلِ؛ فَقَالَ قَوْمٌ: فِي الظَّنِّ شَاءَ، وَفِي النَّعَامَةِ بَدَنَةً، وَفِي جِمَارِ الْوَحْشِ^(٥) بَقْرَةً، وَأَشْبَاهَ ذَلِكَ.

وَقَالَ آخَرُونَ: الْمِثْلُ قِيمَةُ الصَّيْدِ يَقْوَمُهُ عَذْلَانِ، فَيُوجِبَانِ قِيمَتَهُ دِرَاهِمَ، فَيَشْتَرِي بِتِلْكَ الدَّرَاهِمِ شَاءً، أَوْ يَجْعَلُهُ طَعَامًا، يَتَصَدَّقُ بِهِ؛ عَلَى كُلِّ مَسْكِينٍ نِصْفَ صَاعٍ، أَوْ يَصُومُ عَنْ كُلِّ نِصْفِ صَاعٍ يَوْمًا. وَقَالَ غَيْرُهُمْ: إِنْ بَلَغَ دَمًا ذَبَحَ شَاءَ، وَإِنْ لَمْ يَبْلُغْ دَمًا يَصَدَّقُ بِهِ.

وَأَمَّا قَوْلُنَا: إِنَّ الْمِثْلَ هُوَ الْقِيَمَةُ لَا الْمِثْلُ فِي رَأْيِ^(٦) الْعَيْنِ، ذَهَبْنَا فِي ذَلِكَ إِلَى وَجْهِ:

أَحَدُهَا: أَنَّ الْمُحْرِمَ إِذَا أَصَابَ صَيْدًا فِي هَذَا الْوَقْتِ حَكَمَ بِجَزَائِهِ حَكْمَانِ. فَلَوْ كَانَ مِثْلُ الظَّنِّ شَاءً فِي كُلِّ الدُّهُورِ وَالْأَوَاقِثِ كَانَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ وَالسَّلَفِ مِنَ الْحُكَمَاءِ فِي ذَلِكَ كَاتِبًا لَا يَخْتِاجُ إِلَى حُكْمٍ غَيْرِهِمْ. فَذَلَّ اجْتِمَاعُهُمْ عَلَى أَنَّ حُكْمَ الْحَكَمِيِّينَ بَاقٍ، وَعَلَى أَنَّ الْمِثْلَ غَيْرُ مُؤَقَّتٍ؛ بَلْ هُوَ مُخْتَلِفٌ عَلَى قَدْرِ الْأَزْمِنَةِ وَالْمَوَاضِعِ وَالْأَوَاقِثِ.

وَإِذَا جَعَلْنَا الْمِثْلَ قِيمَةً كَانَتْ الْحَاجَةُ إِلَى الْحَكَمِيِّينَ قَائِمَةً. وَإِذَا جَعَلْنَاهُ هَذِيًّا فَالْحَاجَةُ إِلَيْهَا زَائِلَةٌ. وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُعْطَلَ أَمْرُ الْحَكَمِيِّينَ، وَقَدْ ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ.

وَالثَّانِي: مَا أَجْمَعُوا عَلَيْهِ أَنَّ مَا لَا مِثْلَ لَهُ فِي الْأَنْعَامِ مِنَ الصَّيْدِ إِذَا أَصَابَهُ الْمُحْرِمُ فَعَلَيْهِ قِيمَتُهُ. فَإِذَا كَانَ الْمِثْلُ فِي بَعْضِ الصَّيْدِ قِيمَتُهُ فَهُوَ فِي كُلِّ الصَّيْدِ قِيمَتُهُ. وَكَذَلِكَ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ مِنَ السَّلَفِ أَنَّهُمْ قَالُوا ذَلِكَ. فَإِنْ قِيلَ: مَا لَا مِثْلَ لَهُ مِنَ النَّعَمِ لَا يُمَكِّنُ [تَقْدِيرًا]^(٧) قِيمَتَهُ أَكْثَرَ مِنْ قِيمَتِهِ. قِيلَ لَهُ: فَتَجْعَلُ ذَلِكَ مَثَلًا؟ فَإِنْ قَالَ: بَلَى، قِيلَ: فَقَدْ صَارَتْ الْقِيَمَةُ مَثَلًا فِي بَعْضِ الصَّيْدِ، فَمَا مَنَعَ أَنْ يَكُونَ مَثَلًا فِي كُلِّ الصَّيْدِ؟ فَإِنْ قَالَ: الْمِثْلُ هُوَ الْهَدْيُ فِي مَا لَهُ مِثْلٌ. فَأَمَّا مَا لَا مِثْلَ لَهُ مِنَ الْهَدْيِ فَلَيْسَ الْوَاجِبُ فِيهِ بِمِثْلٍ، إِنَّمَا ذَلِكَ قِيَمَةٌ. وَلَمْ يَجِبْ ذَلِكَ بِنَصِّ الْكِتَابِ، وَإِنَّمَا وَجِبَ ذَلِكَ بِنَصِّ الْكِتَابِ: الْمِثْلُ مِنَ الْهَدْيِ. فَأَمَّا مَا لَا مِثْلَ لَهُ فَإِنَّمَا وَجِبَتْ^(٨) قِيمَتُهُ بِالْإِجْمَاعِ.

قِيلَ لَهُ: حَدَّثَنَا عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ هَلْ دَخَلَ فِي عُمُومِ الْآيَةِ الْفَرْخُ وَنَحْوُهُ؟ فَيَكُونُ مِنْهَا عَنْ قَتْلِهِ. فَإِنْ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: فَإِذَا دَخَلَ الْفَرْخُ فِي عُمُومِ النَّهْيِ عَنْ قَتْلِ الصَّيْدِ فَهُوَ أَيْضًا دَاخِلٌ فِي عُمُومِ قَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مِنْكُمْ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: حَرَمَتُهُ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: فَهُوَ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: الْوَحْشِي.

(٦) فِي الْأَصْلِ وَم: دَار. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَجِبَ.

تَمَيِّدًا ﴿الآية﴾ فَإِنْ قَالَ: لَا يَدْخُلُ الْفَرْخُ فِي عُمُومِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ قِيلَ لَهُ: قَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَسْبِقُكُمْ اللَّهُ بِقَوْلِهِ بَيْنَ الصَّيْدِ تَنَافُؤًا أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ [الآية: ٩٤] قُرُونِي أَنْ^(١) ذَلِكَ فِي الْبَيْضِ وَالْفِرَاحِ. فَإِنْ لَمْ يَجْعَلِ الْفِرَاحَ وَلَا شَيْئًا مِنْهَا دَاخِلًا فِي الْآيَةِ فَمَا مَعْنَى الْآيَةِ؟ وَنَحْنُ لَا نَنَالُ بِأَيْدِينَا مِنَ الصَّيْدِ إِلَّا ضِعَافَهُ وَمَا يَعْجَزُ عَنِ الطَّيْرَانِ وَالْعَدْوِ مِنْهُ.

فَالْآيَةُ تُوجِبُ أَنَّ الصَّيْدَ كُلَّهُ قَدْ دَخَلَ فِي عُمُومِهَا مَا قُلْتُ قِيمَتَهُ وَمَا كَثُرَتْ. وَذَلِكَ يُوجِبُ أَنْ يَكُونَ الْوَاجِبُ مِنْ قِيمَةِ الْفَرْخِ وَالْمُضْفُورِ مِثْلًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَلَأَنَّ النُّعَامَةَ، لَا يَمِثِلُ لَهَا مِنَ النِّعَمِ، فَمَنْ أَوْجَبَ فِيهَا بَدَنَةً فَقَدْ أَوْجَبَ فِيهَا مَا لَيْسَ بِمِثْلِ لَهَا، وَلَا نَظِيرَ. وَمَنْ أَوْجَبَ فِيهَا قِيمَتَهَا فَقَدْ أَوْجَبَ مِثْلًا لَهَا، فَهُوَ مُوَافِقٌ لِلنَّصِّ عِنْدَنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وكَذَلِكَ الْمَوْجِبُ فِي الْحَمَامَةِ شَاءَ، لَا تُشْبِهُ الصَّيْدَ الْمَقْتُولَ فِي عَيْنِهِ وَلَا فِي صِفَتِهِ وَلَا فِي جَنْسِهِ، فَهُوَ غَيْرُ مُوجِبٍ الْمِثْلِ بَلِ الْمَوْجِبُ فِيهِ الْقِيمَةُ أَقْرَبُ إِلَى إِيْجَابِ الْمِثْلِ فِيهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ سُمِّيَ قِيمَةُ الشَّيْءِ مِثْلًا، وَلَيْسَتْ مِنْ جَنْسِهِ، وَإِنَّمَا الْمِثْلُ مَا كَانَ مِنْ جَنْسِ الشَّيْءِ؟ قِيلَ: قَدْ ذَكَّرْنَا أَنَّ قِيمَةَ مَا لَا يَمِثِلُ لَهُ مِنَ النِّعَمِ يُسَمَّى مِثْلًا، وَلَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ مِثْلًا﴾ وَإِذَا جَازَ أَنْ يُسَمَّى الصَّيَّامُ عَدْلًا لِلطَّعَامِ جَازَ أَنْ تُسَمَّى الْقِيمَةُ عَدْلًا لِلصَّيْدِ. وَإِنَّمَا صَارَ الصَّيَّامُ^(٢) عَدْلًا بِالتَّقْوِيمِ^(٣)، وَالْمِثْلُ وَالْعَدْلُ فِي الْمَعْنَى مُتَقَارِبَانِ^(٤)، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَلَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ وَلَوْ كَانَ الْمُرَادُ مِنَ الْمِثْلِ الْمَنْظُورِ فِي رَأْيِ الْعَيْنِ لَمْ يَكُنْ يَشْرُطُ ذَوِي عَدْلٍ فِيهِ مَعْنًى؛ لَأَنَّ الْمِثْلَ فِي رَأْيِ الْعَيْنِ يَغْرِهُ كُلُّ أَحَدٍ بِصِيرٍ فِيهِ، أَوْ لَمْ يَكُنْ. قَدْ لَمْ يَكُنْ مَا شَرَطَ مِنْ نَظَرِ ذَوِي عَدْلٍ بَاطِنٍ فِيهِ وَخَفِيِّ^(٥) مَا ظَهَرَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ تَأْوِيلُهُ مَا ذَكَّرْنَا: يَنْظُرُ إِلَى رَجُلَيْنِ عَدْلَيْنِ بِيَهْمَا مَعْرِفَةٍ^(٦) فِي ذَلِكَ، فَيَقُومَانِيهِ، ثُمَّ يَشْتَرِي بِهَا هَذَيْنِ، إِنْ شَاءَ، فَيَهْدِي، وَإِنْ لَمْ يَتْلُغْ هَذَيْنِ قَوْمَتِ الدَّرَاهِمِ طَعَامًا. فَإِنْ لَمْ يَجِدْ صَامَ مَكَانَ يَضْفِ صَاعَ يَوْمًا.

رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كَذَلِكَ وَالْحَسَنِ وَإِبْرَاهِيمَ وَالْقَاسِمَ^(٧) وَالسَّلَفَ جُمْلَةً.

وعندنا أنه مُخَيَّرٌ بَيْنَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الثَّلَاثَةِ؛ يَفْعَلُ أَيُّ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ شَاءَ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ فِي الْمُخَصَّرِ: ﴿وَلَا تَحْلِفُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَعِدْيُهُ مِنْ صِيَامِهِ أَوْ سَدَقَ أَوْ سَلَوُ﴾ [البقرة: ١٩٦] وَلَا خِلَافَ بَيْنَهُمَا^(٨) فِي أَنْ لِصَاحِبِ الْفِدْيَةِ فِي حَلْقِ الرَّأْسِ أَنْ يَفْعَلَ أَيُّ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ.

فَالوَاجِبُ أَنْ يَكُونَ فِي جَزَاءِ الصَّيْدِ مِثْلُهُ لِأَنَّ الْخِطَابَ خَرَجَ عَلَى حَرْفِ التَّخْيِيرِ، وَكَانَ سَبَبٌ وَجُوبِهِ وَاجِدًا فَهُوَ عَلَى التَّخْيِيرِ نَحْوُ كَفَّارَةِ الْيَمِينِ وَمَا ذَكَّرْنَا فِي دَفْعِ الْأَذَى عَنْ رَأْسِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿هَذَا يَبْلُغُ الْكَعْبَةَ﴾ شَرَعَ بُلُوغَ الْكَعْبَةِ، وَهُوَ لَا يَبْلُغُ نَفْسَ الْكَعْبَةِ، فَذَلِكَ أَنَّ الْمُرَادَ رَجَعَ إِلَى بُلُوغِهِ قُرْبَ الْكَعْبَةِ. وَعَلَى هَذَا يَخْرُجُ قَوْلُهُمْ فِي مَنْ حَلَفَ أَلَّا يَمُرَّ عَلَى بَابِ فُلَانٍ، فَمَرَّ بِقُرْبِ بَابِهِ حَيْثُ اسْتِدْلَالًا بِقَوْلِهِ: ﴿هَذَا يَبْلُغُ الْكَعْبَةَ﴾ لَمْ يَرِدْ بِهِ بُلُوغُهُ عَيْنَ الْكَعْبَةِ، وَلَكِنْ مَرَّ بِهَا أَوْ مَكَانِهَا. فَعَلَى ذَلِكَ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ يَقُولُ: ﴿يَحْكُمُ﴾ عَلَيْهِ بِمِثْلِهِ مِنَ النِّعَمِ حَيْثُ كَانَ. وَأَبُو حَنِيفَةَ يَقُولُ: ﴿يَحْكُمُ﴾ عَلَيْهِ بِقِيمَةِ الصَّيْدِ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي أَصَابَهُ فِيهِ. وَاخْتِلَافُهُمَا فِي هَذَا يَرْجِعُ إِلَى مَا اخْتَلَفَا فِيهِ مِنَ الْمِثْلِ عَيْنًا أَوْ قِيمَةً.

وقد رَوَى عَنْ عُمَرَ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَغَيْرِهِمَا أَنَّهُمْ حَكَمُوا فِي الظُّبْيِ شَاءَ، وَلَمْ يَسْأَلُوا عَنِ الْمَوْضِعِ الَّذِي أَصِيبَ، فَذَلِكَ تَرْكُهُمُ السُّؤَالَ عَنْ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْمَوَاضِعَ كُلَّهَا كَانَتْ عِنْدَهُمْ سَوَاءً، وَأَنَّهُمْ أَجْرَوْهُ مَجْرَى الْكَفَّارَاتِ دُونَ الْقِيَمِ. لِأَنَّهُمْ لَوْ أَجْرَوْا ذَلِكَ مَجْرَى ضَمَانِ الْقِيَمِ لَسَأَلُوا عَنْ أَمَاكِنِ الْجِنَايَاتِ إِذَا كَانَ الصَّيْدُ تَخْتَلِفُ قِيمَتُهُ، لَا تَسْتَوِي فِي ذَلِكَ الْأَمَاكِنِ كُلُّهَا. فَهَذَا يُؤَكِّدُ قَوْلَ مُحَمَّدٍ وَمَنْ رَافَقَهُ.

(١) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: أَنَّهُ. (٢) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ الْقِيَامُ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: بِالتَّقْدِيرِ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: مُتَقَارِبٌ. (٥) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: إِلَّا. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَمَعْرِقَةٌ. (٧) مِنْ م، الْوَاقِعَةُ مِنَ الْأَصْلِ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: بَيْنَهُمَا.

وأما عند/ ١٤٠ - أ/ أبي حنيفة، رَحِمَهُ اللهُ، أَنَّ الْمُلْكَ لِلْحَرَمِ فِي الصَّيْدِ، وَكُلٌّ مَنِ اثْلَفَ مُلْكَ آخَرَ، وَجَنَى عَلَى مَالٍ أَحَدٍ، وَإِنَّمَا يُنْظَرُ إِلَى قِيَمَتِهِ فِي الْمَكَانِ الَّذِي اثْلَفَهُ. فَقُلِيَ ذَلِكَ النَّظَرُ فِي الصَّيْدِ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي أَصَابَهُ.

ثمَّ الْمَسْأَلَةُ فِي جَزَاءِ الصَّيْدِ: أَيْنَ يُذْبَحُ؟ عَنْهُمْ جَمِيعًا لَا يَجُوزُ أَنْ يُذْبَحَ إِلَّا بِمَكَّةَ لِأَنَّهُ لَوْ جَازَ أَنْ يُذْبَحَ فِي غَيْرِ الْحَرَمِ حَيْثُ شَاءَ زَالَتْ فَائِدَةُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَذَا بَلِغُ الْكُفَّةِ﴾ وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ بَيْنَهُمْ خِلَافٌ.

وأما الطَّعَامُ وَالصَّيَامُ فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ لَمْ يَذْكُرْ فِيهِمَا مَوْضِعًا، وَلَا جَعَلَ لَهُمَا مَكَانًا، فَلَهُ أَنْ يُطْعِمَ، وَأَنْ يَصُومَ حَيْثُ شَاءَ. فَإِنْ قِيلَ: إِنَّ الْهَدْيَ يُذْبَحُ فِي الْحَرَمِ لِمَنْفَعَةِ أَهْلِ الْحَرَمِ بِهِ، وَيُتَصَدَّقُ بِهِ عَلَيْهِمْ، فَقُلِيَ ذَلِكَ الْإِطْعَامُ يَجِبُ أَنْ يُطْعَمَ أَهْلُ الْحَرَمِ لِأَنَّهُ جُعِلَ لِمَنْفَعَةِ لَهُمْ، قِيلَ: لَا خِلَافَ بَيْنَهُمْ أَنَّهُ لَوْ ذُبِحَ الْهَدْيُ فِي غَيْرِ الْحَرَمِ لَا يَجُوزُ؟ دَلٌّ أَنَّهُ لَا لِمَا ذَكَرَ، وَلَكِنْ لِمَا الْهَدَايَا لَا تُذْبَحُ إِلَّا بِمَكَّةَ.

أَلَا تَرَى مَا^(١) قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: عَلَيْهِ أَنْ يَهْدِيَ، لَيْسَ لَهُ أَنْ يُذْبَحَ إِلَّا بِمَكَّةَ؟ وَلَوْ قَالَ: عَلَيْهِ الْإِطْعَامُ وَالصَّدَقَةُ، لَهُ أَنْ يُتَصَدَّقَ حَيْثُ شَاءَ. دَلٌّ أَنَّ الْهَدْيَ مَخْصُوصٌ ذَبْحُهُ بِمَكَّةَ لَا يَجُوزُ فِي غَيْرِهَا^(٢). فَأَمَّا الصَّدَقَةُ فَإِنَّهَا تَجُوزُ فِي الْأَمَاكِنِ كُلِّهَا، لِذَلِكَ افْتَرَقَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿يَذُوقْ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ أَي لِنَالِ [عَاقِبَةٍ]^(٣) أَمْرِهِ وَالْمَةُ كَمَا نَالَ لَذَّتُهُ. وَقِيلَ: جَزَاءُ ذَنْبِهِ، وَهُوَ الْكَفَّارَةُ. وقوله تعالى: ﴿عَقَّا اللَّهَ عَمَّا سَلَفُ﴾ إِذَا تَابَ، وَرَجَعَ عَمَّا اسْتَحْلَلْ مِنْ قَتْلِ الصَّيْدِ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُعْقَرُ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ فَنَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ أَي مَنْ عَادَ إِلَى اسْتِحْلَالِ^(٤) الصَّيْدِ فِي الْحَرَمِ يَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ فِي النَّارِ. وَيَخْتَلِمْ مَنْ عَادَ إِلَى قَتْلِ الصَّيْدِ يَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ بِالْكَفَّارَةِ.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ أَي لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ. وَيُقَالُ: ﴿عَزِيزٌ﴾ أَي كُلُّ عِزٍّ عِنْدَ^(٥) عِزِّهِ ذَلٌّ، وَعَنْيَ أَي كُلُّ غِنَى عِنْدَ غِنَاهُ فَقَرٌّ، وَنَحْوُهُ، وَاللَّهُ أَغْلَمُ.

الآية ٩٦ وقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلْغَنَاءِ وَرَمِيَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ صَيْدَ الْبَحْرِ وَطَعَامَهُ حَلَالٌ لِلْمُحْرِمِ. ثُمَّ اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي تَأْوِيلِهِ؛ قَالَ بَعْضُهُمْ: صَيْدُهُ مَا صِيدَ، وَطَعَامُهُ مَا قَذَفَ الْبَحْرُ. كَذَلِكَ رُوِيَ عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: صَيْدُهُ مَا صِيدَ، وَطَعَامُهُ مَا قَذَفَ. وَعَنْ أَبِي بَكْرٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا^(٦) قَالَا: طَعَامُهُ مَا قَذَفَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: صَيْدُهُ مَا أُخِذَ طَرِيًّا، وَطَعَامُهُ: مَا تَرَوَّدَتْ فِي سَفَرِكَ.

ثُمَّ يَجِيءُ عَلَى قَوْلِ أَصْحَابِ الظُّوَاهِرِ أَنْ يَكُونَ كُلُّ صَيْدِ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ حَلَالًا مُبَاحًا بِظَاهِرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ﴾. وَكَذَلِكَ مَا رُوِيَ عَنْ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ [أَنَّهُ]^(٧) قَالَ: «هُوَ الظُّهُورُ مَاؤُهُ وَالْجُلُّ مَيْتَتُهُ» [أَبُو دَاوُدَ ٨٣] إِنَّهُ لَمْ يَخْصُصْ مَيْتَةً دُونَ مَيْتَةٍ وَلَا طَعَامًا دُونَ طَعَامٍ، غَيْرَ أَنَّ الْمُرَادَ عِنْدَنَا رَجَعَ إِلَى السَّمَكِ خَاصَّةً مَا رُوِيَ عَنْهُ ﷺ [أَنَّهُ]^(٨) قَالَ: «أُحِلَّتْ لَنَا مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ» [أَحْمَدُ: ٩٧/٢] أَمَّا الْمَيْتَتَانِ فَالْجَرَادُ وَالسَّمَكُ. دَلُّ الْخَبَرِ أَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْآيَةِ وَالْخَيْرِ رَجَعَ إِلَى السَّمَكِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَرَمِيَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا [أَنَّهُ]^(٩) قَالَ: بِهَيْمَةٍ^(١٠) لَا يَحِلُّ لَكَ أَنْ تَصِيدَهُ، وَلَا أَنْ تَأْكُلَهُ. وَرُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ مُحْرِمٌ، أَنَّهُ دُعِيَ إِلَى طَعَامِهِ، فَقَرَّبَ إِلَيْهِ بِعَقَابٍ^(١١) وَحَجَلٍ. فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ عَلِيٌّ قَامَ، وَقَامَ مَعَهُ نَاسٌ، فَقِيلَ لِصَاحِبِ الطَّعَامِ: مَا قَامَ هَذَا وَمَنْ مَعَهُ إِلَّا كِرَاهِيَةٌ لِطَعَامِكَ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ، فَجَاءَ، فَقَالَ: مَا كَرِهْتُمْ مِنْ هَذَا، مَا أَشْرَنَّا، وَلَا أَمْرَنَّا، وَلَا صِيدْنَا قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ﴿وَرَمِيَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ ثُمَّ انْطَلَقَ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَمِنْ: مَن. (٢) فِي الْأَصْلِ وَمِنْ: غَيْرِهِ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَمِنْ: (٤) أَدْرَجَ قَبْلَهَا فِي الْأَصْلِ: قَتَلَ. (٥) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: عِنْدَهُ. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَمِنْ: (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَمِنْ: (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَمِنْ: (٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَمِنْ: (١٠) فِي الْأَصْلِ وَمِنْ: بِهَيْمَةٍ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَمِنْ: يَغَابُ.

وعن عثمان رضي الله عنه ومثله، وقريب^(١) منه.

وأما عندنا فإنه يحل للمُحَرِّم أن يأكل لحْمَ الصَّيْدِ إذا لم يَصِدْ هو، ولا صيدَ له، ما رُوِيَ عن أبي قتادة رضي الله عنه أنه كان مع النَّبِيِّ ﷺ حتى إذا كان يَبْغِضُ الطَّرِيقَ بِمَكَّةَ يَخْتَلِفُ مَعَ أَصْحَابٍ لَهُ مُخْرِمِينَ، وهو غَيْرُ مُخْرِمٍ، فَرَأَى جِمَارَ وَخْشٍ، فَاسْتَوَى عَلَى قَرْبِهِ، فَسَأَلَ أَصْحَابَهُ أَنْ يُنَازِلُوهُ سَوَاطٍ، فَأَبَوْا، فَسَأَلَهُمْ رُفْعَهُ، فَآخَذَ، ثُمَّ اشْتَدَّ عَلَى الْجِمَارِ، فَقَتَلَهُ، فَأَكَلَ^(٢) مِنْهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ، وَأَبَى بَعْضُهُمْ. فَلَمَّا أَدْرَكُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَسَأَلُوهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنَّمَا هِيَ طَعْمَةٌ أَطْعَمَكُمُوهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ، وَقَالَ: هَلْ مَعَكُمْ مِنْ لَحْمِهِ شَيْءٌ؟

وفي خَبَرٍ آخَرَ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه [أنه]^(٣) قَالَ: عَقَرَ أَبُو قَتَادَةَ جِمَارَ وَخْشٍ، وَنَحْنُ مُخْرِمُونَ، وَهُوَ حَلَالٌ، فَأَكَلْنَا مِنْهُ، وَمَعَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

وفي خَبَرٍ آخَرَ عَنْ أَبِي قَتَادَةَ رضي الله عنه [أنه]^(٤) قَالَ: أَنِي أَصَبْتُ جِمَارَ وَخْشٍ، وَعِنْدِي مِنْهُ، فَقَالَ لِلْقَوْمِ: كُلُوا، وَهُمْ مُخْرِمُونَ. وفي بَعْضِ الْأَخْبَارِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه [أنه]^(٥) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «صَيْدُ الْبَرِّ حَلَالٌ لَكُمْ، وَأَنْتُمْ حُرْمٌ، مَا لَمْ تَصِيدُوهُ، أَوْ يُصَدَّ لَكُمْ» [أبو داود ١٨٥١] رَخَّصَ النَّبِيُّ ﷺ فِي أَكْلِ لَحْمِ الصَّيْدِ لِلْمُحَرِّمِ، إِذَا لَمْ يَصِدْ، وَلَمْ يُصَدَّ لَهُ. وبذلك أَخَذَ أَصْحَابُنَا.

وفي الآية دليلٌ لِقَوْلِنَا، وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ [الآية: ٩٥]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَزَمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا﴾ [الآية: ٩٦] فَمَنْعَنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَصْطِيَادَهُ. أَلَا تَرَى أَنَّ صَيْدَ مَا لَا يُؤْكَلُ لَحْمُهُ مَحْظُورٌ؟ فَذَلِكَ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الْإِصْطِيَادِ لَا فِي أَكْلِ لَحْمِهِ؛ لِأَنَّ لَحْمَ الصَّيْدِ مِنْ أَنْ يُصَادَ؛ فَالتَّحْرِيمُ غَيْرُ وَاقِعٍ عَلَيْهِ، لَيْسَ كَالْبَيْضِ قَدْ يَصِيرُ صَيْدًا، وَاللَّحْمُ لَيْسَ كَذَلِكَ، وَلِأَنَّ الْمُحَرِّمَ لَوْ أَتْلَفَ الْبَيْضَ غُرْمَ قِيَمَتِهَا، وَلَوْ^(٦) أَتْلَفَ لَحْمَ الصَّيْدِ لَمْ يَضْمَنْ شَيْئًا. فَمَا لَزِمَهُ الضَّمَانُ مُنْعٍ عَنْ أَكْلِهِ، وَمَا لَمْ يَلْزَمْهُ لَا، وَلِأَنَّهُ لَوْ حُرِّمَ عَلَى الْمُحَرِّمِ التَّشَاوُلُ مِنْ لَحْمِ صَيْدٍ، صَادَهُ حَلَالٌ [لَوْ جَبَّ أَنْ يُحَرَّمَ]^(٧) عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ التَّشَاوُلُ مِنْهُ؛ إِذْ هُمْ أَهْلُ حَرَمِ اللَّهِ، وَذَلِكَ بَعِيدٌ.

فَأَخَذَ أَصْحَابُنَا، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى، بِمَا رَوَيْنَا مِنَ الْأَخْبَارِ [وَالْأَحَادِيثِ عَنْ]^(٨) رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمِثْلِ^(٩) حَدِيثِ أَبِي قَتَادَةَ وَغَيْرِهِ، وَرَبَّمَا دَلَّ عَلَيْهِ ظَاهِرُ الْكِتَابِ، وَهُوَ قَوْلُ عُمَرَ وَعُثْمَانَ وَغَيْرِهِمَا^(١٠) رضي الله عنهم.

فَإِنْ قِيلَ: رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى الْمُحَرِّمَ عَنْ لَحْمِ الصَّيْدِ، وَفِي خَبَرٍ آخَرَ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ رضي الله عنه [أنه]^(١١) قَالَ: «أَهْدِي لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَضْوً»^(١٢) مِنْ لَحْمِ صَيْدٍ، فَرَدَّهُ، فَقَالَ: إِنَّا حُرْمٌ لَا نَأْكُلُهُ، [مُسْلِم ١١٩٥] وَفِي خَبَرٍ آخَرَ «أَنَّهُ سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ مُخْرِمٍ، أَتَيْ بِلَحْمِ صَيْدٍ [فَقَالَ: لَا يَأْكُلُ]^(١٣) مِنْهُ».

لَكِنَّ هَذَا الْحَدِيثَ يَجُوزُ أَنْ يُحْمَلَ عَلَى أَنَّ كَانَ صَيْدٌ بَعْدَ أَنْ أُحْرِمَ أَنْ يَكُونَ صَيْدٌ مِنْ أَجْلِهِ. وَإِذَا صَيْدٌ مِنْ أَجْلِهِ لَمْ يَحِلَّ لَهُ أَكْلُهُ. دَلِيلُهُ مِنْ خَبَرِ عُثْمَانَ رضي الله عنه: مَا أَمَرْتُ بِصَيْدٍ، وَلَا صَيْدَ مِنْ أَجْلِي، وَخَبَرِ جَابِرٍ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ [أنه]^(١٤) قَالَ: «لَحْمُ صَيْدِ الْبَرِّ حَلَالٌ لَكُمْ، وَأَنْتُمْ حُرْمٌ، مَا لَمْ تَصِيدُوهُ، أَوْ يُصَدَّ لَكُمْ» [أبو داود ١٨٥١]

ثُمَّ الْمَسْأَلَةُ فِي مَعْرِفَةِ صَيْدِ الْبَرِّ مِنَ الْبَحْرِ. قَالَ بَعْضُهُمْ: مَا كَانَ يَعِيشُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ فَلَا تَصِيدُهُ، وَمَا كَانَتْ^(١٥) حَيَاتُهُ فِي الْمَاءِ فَذَلِكَ الْبَحْرِيُّ. وَقَالَ آخَرُونَ: أَكْثَرُ مَا يَكُونُ فِي الْمَاءِ حَتَّى يُفْرَخَ. وَقَالَ غَيْرُهُمْ: صَيْدُ الْبَرِّ هُوَ الَّذِي أَخَذَهُ الصَّائِدُ حَيًّا، فَمَاتَ فِي يَدِهِ لَمْ يَحِلَّ [وَلَا يَحِلُّ إِلَّا إِذَا أَدْرَكَ زَكَاتَهُ بِتَرْكِتِهِ]^(١٦). فَكُلُّ مَا كَانَتْ هَذِهِ صِفَتُهُ فَهُوَ الْبَرِيُّ، وَإِنْ كَانَ يَعِيشُ فِي الْمَاءِ، وَمَا كَانَ الصَّائِدُ أَخَذَهُ حَيًّا، وَهُوَ يَعِيشُ فِي الْمَاءِ، فَمَاتَ فِي يَدِهِ، أَكَلَهُ، فَذَلِكَ صَيْدُ الْبَحْرِ، وَذَلِكَ السَّمَكُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَرِيبًا. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: فَأَكَلَهُ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

(٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَلَمْ. (٧) فِي الْأَصْلِ: لِيَجِبَ أَنْ يَخْرُجَ، فِي م: لِيَجِبَ أَنْ يَحْرَمَ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَعَنْ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: مِنْ.

(١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: وَغَيْرِهِ. (١١) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: عَضْوًا. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: قَالَ لَا نَأْكُلُهُ. (١٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

(١٥) فِي الْأَصْلِ وَم: كَانَ. (١٦) فِي الْأَصْلِ: إِذَا أَدْرَكَ زَكَاتَهُ إِلَّا بِتَرْكِتِهِ، فِي م: وَلَا يَحِلُّ إِذَا أَدْرَكَ زَكَاتَهُ بِتَرْكِتِهِ.

وفي ذلك وجه آخر؛ وهو أن كل ما ألفاه البحر، وقذفه، فمات، فحل لنا أكله، فذلك طعامه. وما لم يحل أكله فليس بطعامه. فما كان طعامه، وألفاه، فمات، فهو إذن صيد البحر. وما لا يحل أكله، إذا ألفاه، فليس بصيد البحر إذا صيد لأن الله تعالى أباح صيد البحر وطعامه. فما ليس/ ١٤٠ - ب/ بطعامه إذا ألفاه، فمات، فليس بصيد إذا أخذه حياً، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ﴾ في استئصال قتل الصيد في حال الإحرام بعد النهي. أو اتقوا الله في كل ما لا يحل ﴿أَلَدَّتْ إِلَيْهِ تَحْشُرُونَ﴾ فتجزون بأعمالكم إن خير فخير، وإن شر فشر.

ويختل قوله تعالى ﴿إِلَيْهِ تَحْشُرُونَ﴾ أي إلى حكمه تصيرون كقوليه تعالى: ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الفصل: ٧٠] والله أعلم.

الآية ٩٧ [وقوله تعالى] (١): ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَفَّكَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَنْتَ لِلنَّاسِ﴾ الآية. اختلف فيه: قال بعضهم: قوله تعالى: ﴿يَنْتَ لِلنَّاسِ﴾ أي ثباتاً للناس ودواماً لأن الله تعالى جعلها موضعاً لإقامة العبادات من نحو الحج والطواف والصلوات [إقامة حرمانه] (٢) والهدايا وغير ذلك من العبادات، جعلها ثابتة دائمة، لا تبدل، ولا تنسخ أبداً. فذلك معنى القيام للناس، والله أعلم.

وقال بعضهم ﴿يَنْتَا﴾ بمعنى قواماً أي جعلها قواماً لهم في معاشهم ومعادهم لأنه جعلها مأمناً لهم وملجأً حتى إن من ارتكب كبيرة، أو أجرم جريمة، ثم لجأ إليه؛ ثم لم يتعرض له بشيء من ذلك، ولا ينال (٣) منه. وكانوا إذا وجدوا هذياً مقلداً لم يتعرضوا له، وإن كانت حاجتهم إليه شديدة، ونحو هذا كثير مما يطول ذكره. وجعل فيها عبادات ومقصد ما لم يجعل في غيرها من البقاع من قضاء (٤) المناسك وغيرها.

وكذلك الشهر الحرام كان جعله مأمناً لهم، إذا دخلوا فيه يأمنون (٥) من كل خوف كان بهم. وجعل في الهدايا والفلايد منفعة لأهلها، فكان في ذلك قواماً لهم في معاشهم ومعادهم. وعن سعيد بن جبير [أنه قال] (٦): قال الله تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَفَّكَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَنْتَا لِلنَّاسِ﴾ شدة لدينهم.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِيَتْلَوْا﴾ أي ذلك الأمان، وما ذكرنا من جعل الكعبة قواماً لهم في معاشهم ومعادهم ﴿لِيَتْلَوْا أَنَّ اللَّهَ يَلْعَنُ مَا فِي الْأَشْمَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي على علم جعل هكذا قبل أن يكون.

وقال بعضهم: قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ أي ما سبق ذكره من تحريف الكتب وتغيير (٧) وتبديل بغي (٨) وصفته، أي على علم منه بالتحريف والتبديل، خلقكم لا عن جهل، ليمتحنكم، لما لا يضره كفر كافر، ولا ينفعه إيمان مؤمن. بل حاصل ضرر الكفر يرجع إلى الكافر، وحاصل نفع الإيمان يرجع إلى المؤمن.

الآية ٩٨ وقوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن عصاه، وخالف أمره، على ما علمتم أنه على علم منه كان جميع ما كان ﴿وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ واعلموا أيضاً أن ﴿اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لمن تاب، وأتاب إليه، ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [لأن من العقاب ما ليس بشديد، ومنه ما هو بشديد] (٩) وخاصة عقاب (١٠) الآخرة، لا انقضاء له، ولا قضاء، لذلك وصفه (١١) بالشدة، والله أعلم.

الآية ٩٩ وقوله تعالى: ﴿مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ فيه وجهان: أحدهما: رد (١٢) على من يقول: الموعظة لا تنفع، ولا تنجع فيه، إذا لم يكن الواعظ مستعملاً [لما يعط غيره] (١٣)؛ إذ ليس أحد من الخلق أشد استيعمالاً من الرسل ﷺ ثم لا تنفع مواعظهم وذكرهم قومهم، ولا تنجع فيهم لشؤمهم ولشدّة تعصيتهم.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل: وأراقه، في م: وإراقة حرمانه. (٣) في الأصل وم: يتناول. (٤) في الأصل وم: القضاء. (٥) من م، في الأصل: مامنون. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: وتغييره. (٨) في الأصل وم: نعته. (٩) في الأصل: لا من العقوبات ما ليس بشديد، في م: لأن العقاب منه ما ليس بشديد. (١٠) في الأصل وم: عقوبة. (١١) في الأصل وم: وصف. (١٢) في الأصل وم: رداً. (١٣) من م، في الأصل: لا يعط غير.

والثاني: إنباء أن ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ ولا ضَرَرَ عَلَيْهِمْ بِتَرْكِ الْقَوْمِ إِبَاجَتَهُمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٥٤].

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ ﴿مَا تُبْدُونَ﴾ مِنَ الْعَدَاوَةِ لِمُحَمَّدٍ ﷺ وَلِأَصْحَابِهِ وَنُصْبٍ^(١) الْحَرْبِ وَالْقِتَالِ مَعَهُمْ ﴿وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ مِنَ الْمَكْرِ لَهُ وَالْقَصْدِ لِقِتْلِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِيينَ﴾ [الأنفال: ٣٠] كَانُوا يَمْكُرُونَ، وَيَقْصِدُونَ قَصْدَ إِهْلَاكِهِ، لَكِنَّ اللَّهَ أَظْلَعُ رَسُولَهُ عَلَى مَكْرِهِمْ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ يَغْصِمُهُ مِنَ النَّاسِ، وَقَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿كَلِمَاتٌ أُوتُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْقَامًا اللَّهُ وَسِعُونَ فِي الْأَرْضِ مُكِدَاتٌ﴾ [الآية: ٦٤].

الآية ١٠٠ وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ الآية. يَخْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أحدهما: خَرَجَ عَنْ سُؤَالٍ قَدْ سَبَقَ مِنْهُمْ عَنْ كَثْرَةِ الْأَمْوَالِ لَمَّا رَأَوْا أَوْلَئِكَ كَانُوا يَسْتَكْبِرُونَ، وَيَجْتَمِعُونَ مِنْ حَيْثُ^(٢) يَجُلُّ، وَلَا يَجُلُّ، فَمَالَتْ أَنْفُسُهُمْ إِلَى ذَلِكَ، وَرَغِبَتْ، فَقَالَ: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ كَانَهُ قَالَ: إِنَّ الْقَلِيلَ مِنَ الطَّيِّبِ خَيْرٌ مِنَ الْكَثِيرِ مِنَ الْخَبِيثِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

والثاني: أَنَّهُمْ رَغِبُوا فِي عِبَادَةِ أَوْلَئِكَ مِنَ التَّرَهُّبِ وَالِاغْتِرَالِ عَنِ النَّاسِ لِدَفْعِ أَدَى خُبَيْثِهِمْ^(٣) عَنْهُمْ وَكَثْرَةِ مَا كَانُوا يَتَحَمَّلُونَ مِنَ الشَّدَائِدِ وَالْمَشَقَّةِ رَغِبُوا^(٤) فِي ذَلِكَ، وَهَمُّوا عَلَى ذَلِكَ عَلَى مَا ذُكِرَ فِي الْقِصَّةِ عَنْ بَغْضِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُمْ هَمُّوا أَنْ يَتَرَهَّبُوا، أَوْ يَغْتَرِلُوا عَنِ النَّاسِ، فَقَالَ ﷻ^(٥): ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ إِنَّ الْعَمَلَ الْقَلِيلَ مَعَ أَصْلِ طَيِّبٍ خَيْرٌ مِنَ الْكَثِيرِ مَعَ خُبْثٍ^(٦) الْأَصْلِ.

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فِي مَخَافَةِ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ ﴿يَتَأُولَى الْأَنْبَسِ﴾ فِيهِ دَلَالَةٌ أَنَّ اللَّهَ لَا يُخَاطَبُ أَحَدًا إِلَّا مَنْ كَمُلَ عَقْلُهُ، وَتَمَّ وَبِاللَّهِ الْعِصْمَةُ

الآية ١٠١ وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَنَّ الَّذِينَ مَسْأُلُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾ يَخْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ النَّهْيُ عَنِ السُّؤَالِ عَنْ أَشْيَاءَ^(٧)، عَنْ أَسْئَلَةٍ كَانَتْ مِنْهُمْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ حَاجَةً إِلَيْهَا، فَتُهَوَّ عَنْ ذَلِكَ إِلَى أَنْ تَقَعَ لَهُمْ الْحَاجَةُ. فَمِنْدَ ذَلِكَ يَسْأَلُونَ. كَانَتْهُمْ سَالُوهُ عَنِ الْبَيَانِ وَالِإِضْاحِ قَبْلَ أَنْ يَحْتَاجُوا إِلَيْهِ.

أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ ﷻ^(٨): ﴿وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ بُدِّ لَكُمْ﴾ الآية؟

وَيَخْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ خَرَجَ النَّهْيُ عَنِ السُّؤَالِ ابْتِدَاءً عَلَى غَيْرِ تَقَدُّمِ سُؤَالٍ كَانَ مِنْهُمْ. وَلَكِنْ نُهَوَّ عَنِ السُّؤَالِ عَنْهَا. ثُمَّ يَخْتَمِلُ بَعْدَ هَذَا أَنْ كَانَ عَلَى ابْتِدَاءِ سُؤَالٍ كَانَ مِنْ أَهْلِ التَّفَاقِي؛ يَسْأَلُونَ سُؤَالَ تَعَثُّبٍ لَا سُؤَالَ اسْتِشْرَافٍ؛ يَسْأَلُونَ عَنْ^(٩) آيَاتٍ بَعْدَ مَا ظَهَرَتْ لَهُمْ، وَبَيَّنَّتْ عَنْدهُمْ الْحَقِيقَ، وَعَرَفُوا أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَإِنْ كَانَ النَّهْيُ لِلْمُؤْمِنِينَ فَهُوَ مَا ذُكِرْنَا مِنْ سُؤَالِ الْبَيَانِ قَبْلَ وَقُوعِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ. وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷻ [عَنِ^(١٠) الْحَقِيقَ، فَقَالَ رَجُلٌ: أَفِي كُلِّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟] ﴿قَرَأَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷻ^(١١)﴾: ﴿لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ صَارَ مَفْرُوضًا، فَإِذَا صَارَ مَفْرُوضًا تَرَكْتُمْ، وَإِذَا تَرَكْتُمْ جَحَدْتُمْ، وَإِذَا جَحَدْتُمْ كَفَرْتُمْ﴾ [السيوطي في الدر المنثور ج ٣/ ٢٠٦]. لِأَنَّ مَنْ جَحَدَ قَرْضًا وَمِمَّا قَرَضَهُ اللَّهُ كَفَرَ، أَوْ كَلَامَ نَحْوِ هَذَا.

وَلَا يَجِبُ أَنْ يُفَسَّرَ هَذَا أَنَّهُ كَانَ فِي كَذَا؛ إِذْ لَيْسَ فِي كِتَابِ اللَّهِ بَيَانُهُ سِوَى أَنَّ فِيهِ النَّهْيُ عَنِ سُؤَالٍ مَا لَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷻ [أَنَّهُ^(١٢)] قَالَ: لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ، قَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا. ﴿إِنْ بُدِّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾ [عَنِ^(١٣) تَظْهَرُ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ] إِنَّ^(١٤) أَمْرَهُمُ الْعَمَلُ بِهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِذَلِكَ.

الآية ١٠٢ وقوله تعالى: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ النَّهْيَ عَنِ السُّؤَالِ فِي

(١) فِي الْأَصْلِ رَمَ: وَيَنْصَبُ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنْ م. (٣) فِي الْأَصْلِ رَمَ: أَنْفُسُهُمْ. (٤) فِي الْأَصْلِ رَمَ: فَرِغُوا. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ رَمَ. (٦) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: خَبِيثٌ. (٧) أُدْرِجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ رَمَ: خَرَجَ. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ رَمَ. (٩) فِي الْأَصْلِ رَمَ: مِنْهُ. (١٠) وَ (١١) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ رَمَ. (١٢) وَ (١٣) وَ (١٤) فِي الْأَصْلِ رَمَ: أَي.

الآيَ لِأَحَدٍ شَيْئِينَ: إِنَّمَا أَنْ يَسْأَلُوا [صَنِ الْآيَاتِ] ^(١) بَعْدَ مَا ظَهَرَتْ، وَتَبَيَّنَتْ ^(٢) لَهُمْ رِسَالَتُهُ: فَلَمَّا أَتَى بِهَا كَفَرُوا بِهَا. أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكَ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾. وَقَدْ كَانَ الْأَمَمُ السَّالِفَةُ يَسْأَلُونَ مِنَ الرُّسُلِ، عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، الْآيَاتِ بَعْدَ ظُهُورِهَا عِنْدَهُمْ؟

وَيَحْتَمِلُ مَا ذَكَرْنَا مِنْ قَوْلِهِمْ: أَيْنَ نَحْنُ؟ وَمَنْ أَبِي؟ وَمَنْ أَنَا؟ وَنَحْوِهِ. فَلَمَّا أَنْ أَخْبَرَهُمْ بِذَلِكَ كَفَرُوا بِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٠٢

وقوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِيَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَا حَامِيَةٍ﴾ أَي مَا جَعَلَ اللَّهُ قُرْبَانًا مِمَّا جَعَلُوا هُمْ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَجْعَلُونَ مَا ذَكَرَ مِنَ الْبَحِيرَةِ وَالسَّائِيَةِ وَمَا ذَكَرَ قُرْبَانًا يَتَقَرَّبُونَ بِذَلِكَ إِلَى الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا دُونَ اللَّهِ، فَقَالَ: مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا مِمَّا جَعَلْتُمْ أَنْتُمْ مِنَ الْبَحِيرَةِ وَالسَّائِيَةِ.

فقوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ﴾ وَمَا ذَكَرَ أَي مَا أَمَرَ بِذَلِكَ، وَلَا أَذِنَ بِهَا. قِيلَ: حَرَّمَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ مِنْهَا مَا حَرَّمُوهُ عَلَى نِسَائِهِمْ/ ١٤١ - أ/ دُونَ رَجَالِهِمْ، وَمِنْهَا مَا حَرَّمُوهُ عَلَى الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، وَمِنْهَا مَا جَعَلُوهُ لِأَلِهَتِهِمْ بِهِ.

ثُمَّ قِيلَ: الْبَحِيرَةُ: مَا كَانُوا يَجْدَعُونَ أَذَانَهَا، وَيَذْعُونَهَا لِأَلِهَتِهِمْ. وَالسَّائِيَةُ: مَا كَانُوا يُسَيِّبُونَهَا. وَالْوَصِيلَةُ: مَا كَانَتْ النَّاقَةُ إِذَا وَلَدَتْ ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى فِي بَطْنِ قَالُوا وَصَلَتْ أَخَاهَا، فَلَمْ يَذْبَحُوهَا، وَتَرَكُوهَا ^(٣) لِأَلِهَتِهِمْ.

قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: الْبَحِيرَةُ إِذَا تُبِجَتْ خَمْسَةُ أَبْطُنٍ قُطِعَتْ أَذَانُهَا، وَتُرِكَتْ. وَالسَّائِيَةُ إِذَا وَلَدَتْ خَمْسَةَ أَبْطُنٍ سُبِيَتْ، فَلَا تُرَدُّ عَنْ حَوْضٍ وَلَا عُلْفٍ. وَالْوَصِيلَةُ مِنَ الْغَنَمِ إِذَا وَلَدَتْ عَنَاقِينَ ثُرْكَ، وَإِذَا وَلَدَتْ عَنَاقًا وَجَذِيًا قَالُوا: وَصَلَتْ الْعَنَاقُ الْجَذِيَّ، وَتُرِكَ، وَإِذَا تُبِجَتْ [ذَكَرًا] ^(٤) ذُبِحَ، وَالْحَامِي إِذَا نُظِرَ إِلَى عَشْرَةٍ مِنْ وَلَدِهِ قِيلَ: حُمِيَ ظَهْرُهُ، فَلَا يُرْكَبُ، وَلَا يُحْمَلُ عَلَيْهِ شَيْءٌ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَلَا حَامٍ﴾ إِذَا ضَرَبَ [الْفَحْلُ] عَشْرًا تَرَكَهُ ^(٥) فَهُوَ الْحَامِي، وَالْحَامِي اسْمٌ. وَالسَّائِيَةُ مِنَ الْغَنَمِ عَلَى نَحْوِ ذَلِكَ، إِلَّا أَنَّهَا [مَا] ^(٦) وَلَدَتْ مِنْ وَلَدٍ بَيْنَهَا ^(٧) سِتَّةَ أَوْلَادٍ كَانَتْ عَلَى هَيْئَتِهَا، فَإِذَا وَلَدَتْ السَّابِعَ ذَكَرًا أَوْ ذَكَرَيْنِ، نُجِرَ، فَأَكَلَهُ رَجَالُهُمْ دُونَ نِسَائِهِمْ. وَإِنْ أَتَامَتْ بِذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى فَهِيَ ^(٨) وَصِيلَةٌ؛ يَتْرُكُ ذَبْحَ الذَّكَرِ بِالْأُنْثَى. وَإِنْ كَانَتْ أُنْثَى تَرُكَتْ.

وَقَالَ الْقُتَيْبِيُّ: الْبَحِيرَةُ النَّاقَةُ إِذَا تُبِجَتْ خَمْسَةُ أَبْطُنٍ، وَالْخَامِسُ ذَكَرٌ، نُجِرَ، فَأَكَلَهُ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ. وَإِنْ كَانَ الْخَامِسُ أُنْثَى شَقُّوا أُذُنَهَا، وَكَانَ حَرَامًا عَلَى النِّسَاءِ لَحْمُهَا وَلَبَنُهَا. فَإِذَا مَاتَتْ حَلَّتْ لِلنِّسَاءِ. وَالسَّائِيَةُ الْبَعِيرُ يُسَيَّبُ بِتَذْرِ يَكُونُ عَلَى الرَّجُلِ إِنْ سَلَّمَهُ اللَّهُ مِنْ مَرَضِهِ، أَوْ بَلَغَهُ مَنَزَلُهُ أَنْ يَقْعَلَ ذَلِكَ.

وَالْوَصِيلَةُ مِنَ الْغَنَمِ: كَانُوا إِذَا وَلَدَتْ الشَّاةُ سِتَّةَ أَبْطُنٍ نَظَرُوا، فَإِنْ كَانَ السَّابِعُ ذَكَرًا، ذُبِحَ، فَأَكَلَ مِنْهُ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ، وَإِنْ كَانَ ^(٩) أُنْثَى تَرُكَتْ فِي الْغَنَمِ، وَإِنْ أَتَامَتْ ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى ^(١٠) قَالُوا: وَصَلَتْ أَخَاهَا فَلَمْ يَذْبَحْ لِمَكَانِهَا، وَكَانَتْ ^(١١) لِحَوْمِهَا حَرَامًا عَلَى النِّسَاءِ، وَلَيْسَتْ ^(١٢) الْأُنْثَى حَرَامًا عَلَى النِّسَاءِ إِلَّا أَنْ يَمُوتَ مِنْهُمَا شَيْءٌ، فَيَأْكُلَهُ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ.

وَالْحَامِي الْفَحْلُ إِذَا رُكِبَ وَلَدٌ وَلَدِيٌّ، وَيُقَالُ: إِذَا تُبِجَ مِنْ صُلْبِهِ عَشْرَةُ أَبْطُنٍ قَالُوا: حُمِيَ ظَهْرُهُ، وَلَا يُرْكَبُ، وَلَا يُنْمَعُ مِنْ كَلَامٍ وَلَا مَاءٍ.

كَانُوا يُحَرِّمُونَ الْإِنْتِفَاعَ بِمَا ذَكَرْنَا، وَيَقُولُونَ: إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ ذَلِكَ عَلَيْنَا. وَهُوَ مَا ذُكِرَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَفِيعِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦] يُحَرِّمُونَ أَشْيَاءَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَيُضَيِّفُونَ تَحْرِيمَهَا إِلَى اللَّهِ.

ثُمَّ سَفَّهَ أَحْلَامَهُمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثَمِينَةً أَرْزُوحَ مِنَ السَّكَنِ اثْنَتَيْنِ وَمِنَ الْمَعَزِ اثْنَتَيْنِ قُلْ وَاللَّكْرَيْنِ حَرَّمَ أَرِ الْأَنْثَيْنِ أَمَّا

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: الْآيَاتِ عَنْهُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَتَبَيَّنَتْ. (٣) الْوَاقِ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: الْحَمَلُ مِنَ وَلَدِ الْبَحِيرِ. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) ادْرَجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: وَبَيْنَ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: فَهُوَ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: كَانَتْ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: ذَكَرًا. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَكَانَ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: لَيْسَ.

أَسْتَمْتَكْتَ عَلَيْهِ أَسَامُ الْأَنْثِيِّينَ [الأنعام: ١٤٣] لَمْ يَكُنْ تَحْرِيمُهُمْ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ بِالسَّمْعِ، وَلَكِنْ رِيَاءَ مِنْهُمْ وَتَنَجُّؤَ. وَاسْتَحْتَجَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَلَى ذَلِكَ الْوَجْهِ لِيُظْهِرَ قَسَادَ قَوْلِهِمْ مِنَ الْوَجْهِ الَّذِي ادَّعَوْا، فَقَالَ: ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الَّذِينَ هَرَمُوا﴾ فَإِنْ قَالُوا: الذَّكْرَيْنِ فَقَدْ كَانَ مِنَ الذَّكْرِ مَا لَمْ يُحَرِّمْ. فَإِنْ قَالُوا: أَتُنَى فَقَدْ كَانَ مِنَ الْأُنثَى لَمْ^(١) يَكُنْ فِيهَا تَحْرِيمٌ. فَبِهِ دَلِيلٌ أَنَّ الْحُكْمَ إِذَا كَانَ بِعِلَّةٍ يَجِبُ وَجُوبُ ذَلِكَ الْحُكْمِ مَا كَانَتْ تِلْكَ الْعِلَّةُ قَائِمَةً، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٠٤

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ الْآيَةُ كَانَتْهَا تَرَكْتُ فِي مُشْرِكِي الْعَرَبِ، وَكَانُوا أَهْلَ تَقْلِيدٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِالرُّسُلِ، وَلَا يَقْرَءُونَ بِهِمْ، إِنَّمَا يُقْلِدُونَ آبَاءَهُمْ فِي عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ. فَلِذَا مَا دَعَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْهِ، أَوْ دَعَاهُمْ أَحَدٌ إِلَى ذَلِكَ ﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [الآية: ١٠٤]، [وقالوا]^(٢): ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أَثَرٍ وَإِنَّا عَلَى أَثَرِهِمْ مُتَعَدِّتُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] وَنَحْوَ ذَلِكَ؛ يُقْلِدُونَ آبَاءَهُمْ فِي ذَلِكَ.

فَقَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿أَوَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ أَيِ تَتَّبِعُونَ آبَاءَكُمْ، وَتَقْتَدُونَ بِهِمْ، وَإِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ آبَاءَكُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا فِي أَمْرِ الدِّينِ، وَلَا يَهْتَدُونَ. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ أُولَوْا جُنُودًا بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ [الزخرف: ٢٤] تَتَّبِعُونَ آبَاءَكُمْ، وَتَقْتَدُونَ بِهِمْ، وَإِنْ جُنُودَكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ آبَاؤُكُمْ؛ يُسَفِّهُهُمْ فِي أَخْلَاقِهِمْ فِي تَقْلِيدِهِمْ آبَاءَهُمْ، وَإِنْ ظَهَرَ عِنْدَهُمْ أَنَّهُمْ عَلَى ضَلَالٍ وَبَاطِلٍ.

الآية ١٠٥

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ مَلَ إِذَا أَمْتَدَيْتُمْ﴾ ظَنَّنَا بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ الْآيَةَ دَقَعَتِ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالسُّنِّي^(٣) فِي تَرْكِ ذَلِكَ. وَلَيْسَ فِيهِ دَفْعُ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ. وَلَكِنْ إِنْبَاءٌ أَنْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي مَا يُرَدُّ، وَلَا يُقْبَلُ مِنَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ شَيْءٌ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ^(٤) تَعَالَى: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ﴾ [الأنعام: ٥٢] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكُمْ مَا جُمِلَ﴾ [الآية: النور: ٥٤] لَيْسَ فِيهِ رُخْصَةٌ تَرْكُ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ إِلَيْهِمْ وَدَفْعِهِ عَنْهُمْ. وَلَكِنْ إِخْبَارٌ أَنَّ لَيْسَ عَلَيْهِ فِي مَا يُرَدُّ وَتَرْكُ الْقَبُولِ شَيْءٌ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِن عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاءُ﴾ [الشورى: ٤٨] فَعَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ [الآية: ليس فيها]^(٥) رُخْصَةٌ دَلِيلُ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ مَلَ﴾ بِتَرْكِ قَبُولِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴿إِذَا أَمْتَدَيْتُمْ﴾ أَنْتُمْ بِالْأَمْرِ [بِالْمَعْرُوفِ]^(٦) وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ. بَلِ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاجِبٌ. وَبِذَلِكَ وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْأُمَّةَ بِقَوْلِهِ: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وَعَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ [أَنَّهُ]^(٧) قَالَ: «مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَلَمْ يُؤَزِرْ كَبِيرَنَا، وَلَمْ يَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَمْ يَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ فَلَيْسَ مِنَّا» [أبو داود ٤٩٤٣] وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَخَلَ عَلَيَّ، وَقَدْ حَضَرَهُ النَّفْسُ، فَتَوَضَّأَ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَقُمْتُ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ، فَصَعِدَ الْمِنْبَرُ، ثُمَّ قَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: مُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَوُا عَنِ الْمُنْكَرِ قَبْلَ أَنْ تَدْعُونِي فَلَا أُجِيبُكُمْ، وَتَسْأَلُونِي فَلَا أُعْطِيكُمْ، وَتَسْتَغِيثُونِي فَلَا أُغِيثُكُمْ، وَتَسْتَنْصِرُونِي فَلَا أَنْصُرُكُمْ» [أحمد: ١٥٩/٦].

وَعَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ [أَنَّهُ]^(٨) قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَقْرَأُونَ هَذِهِ الْآيَةَ، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا مُنْكَرًا فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ يُوشِكُ أَنْ يَعْصِيَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابِهِ»» [ابن ماجه ٤٠٠٥].

وقوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْآثِمَ﴾ [الآية: ٦٢] ثُمَّ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ عَلَى مَرَاتِبٍ مَعَ الْكُفْرَةِ بِالْقِتَالِ وَالْحَرْبِ وَمَعَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْيَدِ وَاللِّسَانِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَلَيْسَ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَلَمْ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: السَّعَةِ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: قَوْلُهُ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: فِي الْآيَةِ لَيْسَ فِيهِ. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى مَا دَفَعَ إِلَيْهِمَا. ثُمَّ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ قَدِمَا إِلَى أَهْلِهِ، قَدَعَا مَالَهُ إِلَى أَهْلِهِ. فَقَالَ الْوَرْتَةُ: لَقَدْ كَانَ مَعَهُ مِنَ الْمَالِ أَكْثَرُ مِمَّا أَتَيْتُمَا، فَاسْتَحْلَفُوهُمَا بِاللَّهِ: مَا دَفَعَ إِلَيْهِمَا غَيْرَ هَذَا؟ ثُمَّ قَدِمَ نَاسٌ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، فَسَأَلَهُمْ أَهْلَ الْمَيْتِ، فَأَخْبَرُوهُمْ أَنَّهُ هَلَكَ بِقَرَبَتِهِمْ [رجل] (١) وَتَرَكَ كَذَا وَكَذَا مِنَ الْمَالِ، فَعَلِمَ أَهْلُ الْمُتَوَفَّى أَنَّ قَدْ عَثَرُوا عَلَى أَنَّ الْمُسْلِمِينَ قَدْ اسْتَحَقُّوا إِنْمَاءً، فَانْطَلَقُوا إِلَى ابْنِ مَسْعُودٍ، فَأَخْبَرُوهُ بِالَّذِي كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ، فَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ: مَا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا قَدْ جَاءَ عَلَى الدَّلَالَةِ إِلَّا هَذِهِ الْآيَةُ، فَلَا أَنْ جَاءَ تَأْوِيلُهَا، فَأَمَرَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَخْلِفُوا بِاللَّهِ ﷻ لَا تَشْتَرِي بِهِ شَيْئًا وَلَوْ كَانَ قَارِئًا وَلَا تَكُنْ شَهِدَةً لِلَّهِ إِنْآ إِذَا لَمِنَ الْآيَتِينَ ﷻ.

ثُمَّ أَمَرَ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَنْ يَخْلِفُوا بِاللَّهِ: لَقَدْ تَرَكَ مِنَ الْمَالِ كَذَا وَكَذَا، وَلَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَةِ هَذَيْنِ الْمُسْلِمِينَ ﴿إِنْآ إِذَا لَمِنَ الْآيَتِينَ ﷻ﴾.

ثُمَّ أَمَرَ أَهْلَ الْمَيْتِ أَنْ يَخْلِفُوا بِاللَّهِ: أَنْ كَانَ مَا شَهِدَتْ بِهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى حَقًّا (٢)، فَحَلَفُوا، فَأَمَرَهُمْ ابْنُ مَسْعُودٍ [أَنْ] (٣) يَأْخُذُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَا شَهِدَتْ بِهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى. وَكَانَ ذَلِكَ فِي خِلَافَةِ عُمَانَ بْنِ عَفَانَ.

فَإِنْ ثَبَتَ هَذَا عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ فَهُوَ خِلَافٌ مَا رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَوْ يُعْطَى النَّاسُ بِدَعْوَاهُمْ لَادَّعَى قَوْمٌ دِمَاءَ قَوْمٍ وَأَمْوَالَهُمْ. [وَلَكِنَّ الْيَمِينَ عَلَى الْمُدَّعَى عَلَيْهِ] [مُسْلِم ١٧١١] وَقَالَ: «الْبَيِّنَةُ» (٤) عَلَى الْمُدَّعِي وَالْيَمِينَ عَلَى الْمُدَّعَى عَلَيْهِ» [الترمذي: ١٣٤١] وَهُوَ أَيْضًا غَيْرُ مُوَافِقٍ لِظَاهِرِ الْآيَةِ، فَلَا تَرَاهُ.

ثَبَتَ هَذَا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: كَانَ تَمِيمُ الدَّارِيُّ وَعَدِيُّ بْنُ بَدَاءٍ يَخْتَلِفَانِ إِلَى مَكَّةَ فِي التَّجَارَةِ، فَخَرَجَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَهْمٍ، فَتَوَفَّى بَارِضٍ، لَيْسَ فِيهَا مُسْلِمٌ، فَأَوْصَى إِلَيْهِمَا، قَدَعَا تَرِكَتَهُ إِلَى أَهْلِهِ، وَحَبَسَا جَامِعًا مِنْ قِصَّةٍ، فَاسْتَحْلَفَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا كُتُمْتُمَا، وَلَا أَظْلَعْتُمَا. ثُمَّ عَرَضَ [رَجُلَانِ] (٥) الْجَامَ بِمَكَّةَ، فَقَالَا: اشْتَرَيْنَاهُ مِنْ عَدِيِّ وَتَمِيمٍ، فَقَامَ رَجُلَانِ مِنَ أَوْلِيَاءِ السَّهْمِيِّ [فَقَالَا] (٦): «لَشَهَدَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَدَتَيْهِمَا» فَأَخَذَا الْجَامَ. وَفِيهِمْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ.

وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ الْيَمِينَ وَجِبَتْ عَلَى الْمُدَّعَى عَلَيْهِمَا لَمَّا ادَّعَى عَلَيْهِمُ الْوَرْتَةُ أَنَّهُمَا تَرَكََا بَعْضَ تَرِكََةِ الْمَيْتِ، وَفِيهِ أَنَّ الْإِنَاءَ لَمَّا ظَهَرَ ادَّعَاهُ (٧) تَمِيمٌ وَصَاحِبُهُ، وَهَذَانِ حُكْمَانِ مُوَافِقَانِ لِسَائِرِ الْأَحْكَامِ وَالسُّنَنِ. فَإِنْ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا ذُكِرَ فِي هَذَا فَلَيْسَ فِي الْآيَةِ نَسْخٌ، وَلَا فِيهَا مَا يُخَالِفُ الْأَحْكَامَ الظَّاهِرَةَ. وَلَيْسَ يَجُوزُ عِنْدَنَا أَنْ يَخْلِفَ الشَّاهِدَانِ إِنْ كَانَا كَافِرَيْنِ مَعَ شَهَادَتَيْهِمَا لِأَنَّ ظَاهِرَ الْآيَةِ نُسْخٌ، وَلَا فِيهَا أَحْكَامٌ تُوجِبُ الْيَمِينَ عَلَى الْعَدْلَيْنِ مِنَّا وَمِنْ غَيْرِنَا.

فَلَمَّا لَمْ يَجْزِ أَنْ يَخْلِفَ الشُّهُودُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْوَصِيَّةِ الَّتِي يَشْهَدُونَ لَهَا، وَإِنَّمَا يُحْلَفُونَ عَلَى شَيْءٍ إِنْ [ادَّعَى] أَنَّهُمَا حَبَسَاهُ (٨)، كَانَ سَبِيلُ الْكَفَّارَةِ كَذَلِكَ.

وَإِذَا كَانَتِ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي قِصَّةِ تَمِيمٍ وَصَاحِبِهِ، وَكَانَا نَضْرَاتَيْنِ، فَإِنَّ ذَلِكَ بَدَلٌ عَلَى أَنَّ شَهَادَةَ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ جَائِزَةٌ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: «أَتْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ يَنْكُرُ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ» فَمَعْنَى الْآيَةِ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَنْ يَكُونَ الْمَيْتُ خَلَفَ تَرِكَتَهُ عِنْدَ ذَمِّيَيْنِ عَلَى مَا ذُكِرَ فِي الْقِصَّةِ، وَقَالَا: تَرَكَ فِي أَيْدِينَا كَذَا وَكَذَا، وَادَّعَى الْوَرْتَةُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، وَاسْتَحْلَفَ الْمُدَّعَى عَلَيْهِمَا قَبْلَهُمْ، وَقَوْلُهُ: «تَحْبِسُونَهُمَا» عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ هُمَا (٩) الْمُدَّعَى عَلَيْهِمَا.

الآية ١٠٧

وقوله تعالى: «فَإِنْ عِزَّ عَلَيَّ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا» يُرِيدُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْهِمَا شَاهِدَانِ مِنَّا أَوْ مِنْهُمْ بِشَيْءٍ جَحْدَاهُ أَنَّهُ مِنْ تَرِكََةِ الْمَيْتِ، فَهَذَا اسْتِحْقَاقُ الْوَرْتَةِ. فَلِذَا قَالَ الْمُدَّعِي قَبْلَهُمَا: اشْتَرَيْنَاهُ مِنَ الْمَيْتِ فَعَلَى الْوَرْتَةِ أَنْ يَخْلِفُوا. فَهَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، مَعْنَى قَوْلِهِ: «فَتَاخَرَانِ يَتَوَاتَرَانِ مَقَامَهُمَا» لِأَنَّ الْوَرْتَةَ صَارُوا مُدَّعَى عَلَيْهِمْ، فَقَامُوا فِي هَذِهِ الْحَالِ فِي وُجُوبِ الْيَمِينَ عَلَيْهِمْ مَقَامَ الْأَوَّلِينَ لَمَّا كَانَتْ الدَّعْوَى عَلَيْهِمْ.

فَهَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَقْرَبُ الْوُجُوهِ فِي تَأْوِيلِ الْآيَةِ وَأَشْبَهَهَا؛ وَهُوَ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ، مَعْنَى مَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ وَإِنْ

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حق. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: لكن البيضة. (٥) ساقطة من الأصل وم.

(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: ادعى. (٨) في الأصل وم: ادعوا أنهم حبسوه. (٩) في الأصل وم: هو.

لم يَذْكُرْ تَفْسِيرَ قَوْلِهِ: ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ وهو، والله أَعْلَمُ، على غَيْرِ دِينِنَا لَأَنَّهُ ذَكَرَ الْمُؤْمِنِينَ جُمْلَةً. وَأَصْحَابُنَا لَا يُجِيزُونَ شَهَادَةَ أَهْلِ الْكُفْرِ فِي الْوَصِيَّةِ لِمُسْلِمٍ لَا فِي ضَرُورَةٍ وَلَا فِي غَيْرِهَا لِأَنَّهُمْ عَلَى اخْتِلَافِهِمْ اتَّفَقُوا فِي أَنَّ شَهَادَةَ الْكُفَّارِ لَا تَجُوزُ عَلَى غَيْرِ الْوَصِيَّةِ فِي حَالِ ضَرُورَةٍ وَلَا فِي غَيْرِهَا. فَشَهَادَتُهُمْ فِي الْوَصِيَّةِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِثْلُ ذَلِكَ.

وَأَمَّا أَنْ يَكُونَ تَأْوِيلُ الْآيَةِ: ﴿هَذِهِ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَمَدُكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ فِي بَيَانِ مَا يُجُوزُ شَهَادَةُ ذَوِي الْعَدْلِ مِنْهُمَا فِي الْحَضَرِ وَالسَّفَرِ فِي الْوَصِيَّةِ وَفِي غَيْرِ الْوَصِيَّةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَشْهَدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ [الطلاق: ٢] وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَشْهَدُوا / ١٤٢ - ١ / شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ الْآيَةُ [البقرة: ٢٨٢] هَذَا فِي السَّفَرِ وَالْحَضَرِ فِي الدِّينِ وَغَيْرِ الدِّينِ سَوَاءً. فَعَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلِ.

ثُمَّ ابْتَدَأَ الْحُكْمَ فِي غَيْرِهِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَوْ الْخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَسْبَبَتْكُمْ ثُمْبِيَّةُ الْمَوْتِ تَحْسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الْمَسَلَةِ﴾.

الآية ١٠٨

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ آدَنُ أَنْ يَأْتُوا بِالْشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهَيْهَا؟﴾ قِيلَ: فِي ذَلِكَ بَيَانُ أَنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَدْعَيْتَ عَلَيْهِ الْخِيَانَةَ، وَقَالَ هُوَ: مَا رَدَدْتُ مَا كَانَ فِي يَدِي فَإِنَّهُ لَا يَصْدُقُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَخْلِفَ. فَإِذَا عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَقْبَلُ قَوْلُهُ إِلَّا بِبَيِّنٍ كَانَ آخَرَى أَنْ يَقُولَ حَذِيراً مَنْ أَنْ يَخْلِفَ عَلَى كَذِبٍ، أَوْ يَبْرَحَ خَوْفًا مِنَ الْإِثْمِ فِي الْيَمِينِ، فَتُبَيِّنُ خِيَانَتَهُ. فَإِنْ قِيلَ: مَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿تَحْسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الْمَسَلَةِ فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرَبْتُمْ؟﴾ قِيلَ: يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عَلَى زِيَادَةِ التَّغْلِيظِ فِي الْيَمِينِ. وَلِلْحَاكِمِ أَنْ يُغْلِظَ فِي الْيَمِينِ عَلَى الْخَضَمِ إِذَا اتَّهَمَهُ بِأَكْثَرِ مِنْ هَذَا، وَهُوَ أَنْ يَخْضُرَ يَمِينَهُ جَمَاعَةً، إِذَا سَأَلَ الْخَضَمُ ذَلِكَ، أَوْ ذَكَرَ بَعْدَ الصَّلَاةِ لِمَا كَانَ ذَلِكَ الْوَقْتُ هُوَ وَقْتُ لِحُلُوسِ الْحَاكِمِ بَعْدَ صَلَاةِ الْفَجْرِ أَوْ بَعْدَ صَلَاةِ الْعَصْرِ عَلَى التَّغْلِيظِ.

وَإِنْ كَانَتْ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي مَا ذَكَرَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه فِي نَضْرَانِيَيْنِ فَقَدْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ أَمَرَ بِذَلِكَ تَغْلِيظًا عَلَيْهِمَا، وَهُمَا نَعِيمٌ وَصَاحِبُهُ، إِذْ كَانُوا يُعْظَمُونَ وَقْتُ غُرُوبِ الشَّمْسِ وَمَا قُرْبَ مِنْ ذَلِكَ وَوَقْتُ طُلُوعِهَا لِأَنَّهُ وَقْتُ عِبَادَتِهِمْ إِيَّاهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ عُرِيَ عَنْ أَنْهَذَا اسْتَحَقَّا لِمَا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: فَإِنْ أَطْلِعَ مِنْهُمَا عَلَى خِيَانَةِ أَنْهَذَا كُتْمًا، وَكَذِبًا، فَجَاءَ آخَرَانِ يَشْهَدَانِ عَلَى غَيْرِ مَا شَهِدَا عَلَيْهِ، أُجِيزَتْ شَهَادَةُ الْآخَرَيْنِ، وَأَبْطُلَتْ شَهَادَةُ الْأَوَّلَيْنِ.

قَالَ الْقُتَيْبِيُّ: ﴿فَإِنْ عُرِيَ﴾ أَيِ ظَهَرَ، وَقَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ عُرِيَ﴾ أَيِ عَلِمَ وَأُطْلِعَ عَلَيْهِ؛ يُقَالُ: عَثَرْتُ عَلَى فُلَانٍ وَعَلَى مَا يَقَعْلُ فُلَانٌ؛ أَيِ عَلِمْتُ بِهِ، وَأُطْلِعْتُ عَلَيْهِ، أَغْثَرُ غَثْرًا. وَكَذَلِكَ: ﴿أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ [الآية: ٢١] مِنْ هَذَا؛ أَيِ أَطْلَعْنَا عَلَيْهِمْ، وَأَعْلَمْنَاهُمْ بِمَكَانِهِمْ. وَيُقَالُ: أَغْثَرْتُ فُلَانًا عَلَى سِرِّ فُلَانٍ أَيِ أَعْلَمْتُهُ.

ثُمَّ وَعَظَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ، وَحَذَّرَهُمْ أَنْ يَفْعَلُوا مِثْلَ ذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا﴾ مَوَاعِظُهُ ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ مَا دَامُوا فِي فسقِهِمْ، أَوْ قَالَ ذَلِكَ لِقَوْمٍ عَلِمَ اللَّهُ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ عَنْ ذَلِكَ أَبَدًا.

الآية ١٠٩

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ ذَلَّ أَنَّهُ لَا لِمَا ذَكَرُوا، وَلَكِنْ لِلْوَجْهِينِ. قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: بَلْ إِنَّمَا يَقُولُونَ ذَلِكَ لِفَرْعِهِمْ مِنْ هَوْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَشِدَّةِ تَطْيِيرِ قُلُوبِهِمْ، وَتَذَلُّلِ أَفْئِدَتِهِمْ، فَيَقُولُونَ: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾.

فَلَوْ كَانَ ذَلِكَ مِنْهُمْ لِلْهَوْلِ وَالْفَرَجِ عَلَى مَا قَالَهُ أَهْلُ التَّأْوِيلِ لَكَانَ لَا تَنْهِيًا لَهُمْ الْإِجَابَةُ، وَقَدْ قَالُوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ ذَلَّ أَنَّهُ لَا لِمَا^(١) ذَكَرُوا، وَلَكِنْ لِلْوَجْهِينِ الْآخَرَيْنِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ سَأَلَهُمْ عَنْ حَقِيقَةِ إِجَابَةِ قَوْمِهِمْ لَهُمْ بِالضَّمَائِرِ؛ أَيِ لَمْ تَطْلِعْنَا عَلَى هَلَمِ الضَّمَائِرِ وَالْغُيُوبِ، فَانْتَ أَعْلَمُ بِذَلِكَ.

(١) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: لَانَهُ.

والثاني: أن أخذوا أمورا، وأبدعوها^(١) من ذات أنفسهم، فَنَسَبُوا ذَلِكَ إِلَى الرُّسُلِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَتَأْتِ قُلْتَ لِلنَّاسِ أَنْتَ دُونِ اللَّهِ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ ثَقُلْتُمْ فَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿مَا قُلْتَ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ [الآيتين: ١١٦ و ١١٧] كَأَنَّهُمْ قَالُوا: إِنَّ عِيسَى [صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَى نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِ السَّلَامُ]^(٢) هُوَ الَّذِي دَعَاهُمْ إِلَى ذَلِكَ، فَيَقُولُ لَهُمْ: ﴿مَاذَا أُجِيبْتُمْ﴾ فَقَالُوا ﴿لَا عَلَيْنَا لَكَ﴾ فِي مَا أَدْعُوا عَلَيْنَا مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي أَنْتَهَا ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَنُ الْغُيُوبِ﴾ بَأَنَّا لَمْ نَقُلْ لَهُمْ، وَلَمْ نَدْعُهُمْ إِلَى مَا أَدْعُوا مِنَ الْأُمُورِ.

على هذين الوجهين يَخْرُجُ تَأْوِيلُ الْآيَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَمِثْلُ هَذَا السُّؤَالِ لَهُمْ بِمَا أَخْبَرَ فِي آيَةٍ أُخْرَى أَنَّهُ يُسَالُّهُمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦] يُسَالُّ الرُّسُلَ عَنْ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ إِلَى قَوْمِهِمْ، وَيُسَالُّ قَوْمَهُمْ عَنْ إِجَابَتِهِمْ لَهُمْ لِيَقْطَعَ اخْتِجَاجَهُمْ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَمْرُ الْجِجَاجِ.

الآية ١١٠

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ أَذْكَرَ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِكَ وَالَّذِينَ عَلَىٰ عَرْشِهِ أَلْفُ مِائَةِ أَلْفٍ أَتَذْكُرُ﴾. وقوله^(٤): ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ الآية [مريم: ٣٠ و ٣١]. شَهِدَ فِي حَالِ طُفُولَتِهِ بِوَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى وَرُبُوبِيَّتِهِ وَإِخْلَاصِ عُبُودِيَّتِهِ لَهُ؛ وَذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَأَجَلُ مَنِيَّةٍ. وَمَا ذَكَرَهُ أَيْضًا: ﴿وَإِذْ عَلَّمْنَاكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾ الآية إِلَى آخِرِ مَا ذَكَرَ مِنْ إِحْيَاءِ الْمَوْتَى وَإِبْرَاءِ الْأَكْمَةِ وَالْأَبْرَصِ وَكَفِّ^(٥) بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْهُ عِنْدَ مَجِيئِ الْآيَاتِ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَتَّبِعُكَ مِنْ أَنثَاهِ﴾ [الآية: ٦٧]؛ فَفِيهِ أَعْظَمُ النِّعَمِ عَلَيْهِ. وَمَا ذَكَرَ أَيْضًا فِي بَغْضِ الْقِصَّةِ، إِنَّ ثَبُتَ، أَنَّ عِيسَى لَمَّا دَفَعَ [المُعَلِّمُ إِلَيْهِ الْكِتَابَ جَعَلَ]^(٦) يَقُولُ لَهُ: بِسْمِ، فَيَقُولُ هُوَ: بِسْمِ اللَّهِ، [فَإِذَا قَالَ]^(٧) الْمُعَلِّمُ: بِسْمِ اللَّهِ فَيَقُولُ هُوَ: الرَّحْمَنِ، وَإِذَا قَالَ: الرَّحْمَنِ فَيَقُولُ هُوَ: الرَّحِيمِ، فَيَقُولُ الْمُعَلِّمُ: كَيْفَ أَعْلَمُ مَنْ هُوَ [أَعْلَمُ]^(٨) مِنِّي. وَنَحْوُ هَذَا كَثِيرٌ مِمَّا يَكْثُرُ، وَيَطُولُ ذِكْرُهُ^(٩).

وَأَمَّا مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى وَالدِّيَةِ فَهُوَ^(١٠) مَا ذَكَرَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَنَقَلْنَاهَا رُبُّهَا يَقْبُولُ حَسَنًا وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ الآية [آل عمران: ٣٧] وَمَا ذَكَرَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَتَزَيَّرُ إِنَّ اللَّهَ أَسْطَفَاكَ وَطَهَّرَكَ وَامْطَازَكَ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢] طَهَّرَهَا مِنْ^(١١) جَمِيعِ مَا ابْتَلَىٰ بِهِ بَنَاتِ آدَمَ؛ فَذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ النِّعَمِ وَأَجَلُ الْمَنِيِّ.

ثُمَّ أَمَرَ عِيسَى بِشُكْرِ مَا أَنْعَمَ عَلَيْهِ وَعَلَى وَالدِّيَةِ حِينَ^(١٢) قَالَ: ﴿أَذْكَرَ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِكَ﴾ وَفِي ذِكْرِ النِّعَمِ شُكْرُهَا. وَأَمَرَ أَيْضًا بِشُكْرِ مَا أَنْعَمَ عَلَى وَالدِّيَةِ لِيُعْلَمَ أَنَّ عَلَى الْمَرْءِ شُكْرَ مَا أَنْعَمَ عَلَى وَالدِّيَةِ كَمَا يُلْزَمُ شُكْرَ مَا أَنْعَمَ عَلَى نَفْسِهِ.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَتَاكَ طُوحُورُ الْقُدُسِ﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: طُوحُورُ الْمُبَارَكِ الَّذِي بِهِ كَانَ يُخْبِي الْمَوْتَى، وَيُزِيلُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِدُعَائِهِ. وَقَالَ آهْلُ التَّأْوِيلِ: الرُّوحُ جِبْرِيلُ، وَالْقُدُسُ هُوَ اللَّهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَنَزَّلُ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣] أَي جِبْرِيلُ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ عَلَّمْنَاكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ قَالَ الْحَسَنُ: الْكِتَابُ وَالْحِكْمَةُ وَاحِدٌ: الْكِتَابُ هُوَ الْحِكْمَةُ، وَالْحِكْمَةُ هِيَ الْكِتَابُ لِأَنَّ جَمِيعَ كُتُبِ اللَّهِ كَانَ حِكْمَةً. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْكِتَابُ مَا يُكْتَبُ مِنَ الْعِلْمِ، وَالْحِكْمَةُ هِيَ مَا يُعْطَى الْإِنْسَانُ مِنَ الْعِلْمِ عَلَى غَيْرِ تَعَلُّمٍ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْكِتَابُ هُوَ مَا يُحْفَظُ، وَالْحِكْمَةُ هِيَ الْقِصَّةُ، وَهُوَ وَاحِدٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾ قَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ﴾ أَي تُصَوِّرُ، وَتُقَدِّرُ ﴿مِنَ الطِّينِ﴾

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَأَبْدَعُوهَا. (٢) فِي م: عِيسَى. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: مَا. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: إِلَى قَوْلِهِ. (٥) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: وَكَيْفَ.

(٦) فِي الْأَصْلِ وَم: إِلَى الْكِتَابِ جَعَلَ لَهُ الْمُعَلِّمُ. (٧) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: وَإِنْ. (٨) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: ذَكَرَهَا.

(١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: هُوَ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: عَنْ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ.

كَهَيِّتَةِ الطَّلْحِ ﴿١١٠﴾ كَانَ مِنْ عِيسَى لِيَكُونَ لَهُ آيَةٌ لِصِدْقِهِ وَنُبُوءِهِ. وعلى ذلك الآيات التي يأتي بها الرُّسُلُ لَيْسَتْ الرُّسُلُ يَأْتُونَ بِهَا فِي الْحَقِيقَةِ، بل كَانَ اللهُ هُوَ الْآتِي بِهَا وَالْمُنشِئُ تِلْكَ الْآيَاتِ حَقِيقَةً، لَكِنَّهُ يُجْرِيهَا عَلَى أَيْدِي الرُّسُلِ لِتَكُونَ آيَاتٍ صَدَقِهِمْ وَدَلَالَاتٍ رِسَالَتِهِمْ. فَأَمَّا أَنْ يَأْتِيَ الرُّسُلُ بِالْآيَاتِ وَالْحُجَجِ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ فَلَا.

وقوله تعالى: ﴿تَخْلُقُ﴾ ذَكَرَ التَّخْلِيقَ لِمَا تُسَمِّي الْعَرَبُ تَصْوِيرَ الشَّيْءِ وَتَقْدِيرَهُ^(١) تَخْلِيقًا. فَعَلَى ذَلِكَ خَرَجَ الْخِطَابُ، وَقَدْ ذَكَّرْنَا هَذَا فِي مَا تَقَدَّمَ.

وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَكْمَةَ﴾ قِيلَ: الْأَكْمَةُ الَّذِي يُوَلَّدُ أَعْمَى، وَأَمَّا الْأَعْمَى فَهُوَ الَّذِي يَذْهَبُ بَصَرُهُ بَعْدَ مَا كَانَ بَصِيرًا. وَقِيلَ: الْأَكْمَةُ هُوَ الَّذِي لَا حَقَقَ لَهُ، وَهُوَ مَا ذَكَّرْنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ/ ١٤٢ - ب/.

الآية ١١١ وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ وَالْحَوَارِيُّونَ قِيلَ: هُمْ خَوَاصُّهُ، وَكَذَلِكَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ هُمْ حَوَارِيُّوهُ. وَقَدْ ذَكَّرْنَا هَذَا، فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ^(٢)، الْإِخْتِلَافَ فِيهِ. ثُمَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ يَحْتَمِلُ الْوَحْيَ إِلَيْهِمْ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ أَوْحَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ عِيسَى ﷺ فَتَنَسَّبَ ذَلِكَ إِلَيْهِمْ، وَأُضِيفَ لِأَنَّ^(٣) الْوَحْيَ إِلَى عِيسَى كَالْوَحْيِ إِلَيْهِمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦] وَمَا أُنْزِلَ عَلَى كَذَا مَا أُنْزِلَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ كَالْمُنْزَلِ إِلَيْنَا. فَعَلَى ذَلِكَ الْوَحْيُ إِلَى عِيسَى هُوَ كَالْوَحْيِ إِلَيْهِمْ.

وَالثَّانِي: [أَنَّهُ]^(٤) أَوْحَى إِلَيْهِمْ وَحْيَ الْإِهَامِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّفْلِ﴾ [النحل: ٦٨] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَكَ أَنْ مَوْصٍ﴾ [القصص: ٧] وَنَحْوِهِ أَنَّهُ وَحْيَ الْإِهَامِ وَقَدْ ذُفِّ لَا وَحْيَ إِرْسَالٍ. وَالْقَذْفُ فِي الْقَلْبِ مِنْ غَيْرِ تَكْلُفٍ وَلَا كَسْبٍ، وَهُوَ الْإِخْطَارُ بِالْقَلْبِ عَلَى الشَّرْعَةِ ﴿أَنْ مَاسُوا بِ وَرَسُولِي﴾ وَالْخَطَرُ يَكُونُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَيَكُونُ مِنَ الشَّيْطَانِ. لَكِنْ مَا يَكُونُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى يَكُونُ خَيْرًا؛ يَتَبَيَّنُ ذَلِكَ فِي آخِرِهِ.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا آمَنَّا وَآمَنَّا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ؛ يَحْتَمِلُ قَالُوا لِعِيسَى: وَاشْهَدْ أَنْتَ عِنْدَ رَبِّكَ ﴿يَأْتِنَا مُسْلِمُونَ﴾ وَيَحْتَمِلُ أَنْ سَأَلُوا رَبَّهُمْ أَنْ يَكْتُبَهُمْ مَعَ الشَّاهِدِينَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا فَكُتِبَ عَلَيْكُمُ الشَّاهِدِينَ﴾ [الآية: ٨٣].

الآية ١١٢ وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ: قِيلَ: إِنَّ قَوْمًا سَأَلُوا^(٥) الْحَوَارِيَّينَ أَنْ يَسْأَلُوا عِيسَى ﷺ حَتَّى يَسْأَلَ رَبَّهُ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْهِمْ مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ لِأَنَّ الْحَوَارِيَّينَ قَدْ قُلْنَا: إِنَّهُمْ كَانُوا خَوَاصَّ عِيسَى ﷺ فَكَانَ كَمَنْ بَدَثَ لَهُ حَاجَةٌ إِلَى بَغْضِ الْمُلُوكِ فَإِنَّهُ إِنَّمَا يَرْفَعُ^(٦) إِلَى خَوَاصِّهِ؛ فَهُمْ الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ رَفْعَهَا إِلَى الْمَلِكِ. فَعَلَى ذَلِكَ رَفَعُوا حَاجَتَهُمْ إِلَى الْحَوَارِيَّينَ لِيَسْأَلُوا هُمْ نَبِيَّ اللَّهِ عِيسَى ﷺ لِيَسْأَلَ رَبَّهُ.

وَقَالَ آخَرُونَ: لَمْ يَسْأَلُهُمْ^(٧) قَوْمُهُمْ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ الْحَوَارِيَّينَ هُمُ الَّذِينَ سَأَلُوا عِيسَى ﷺ أَنْ يَسْأَلَ رَبَّهُ حَتَّى يُنْزِلَ عَلَيْهِمْ مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ.

لَكِنْ مُوَالَهُمْ^(٨) ذَلِكَ يَحْتَمِلُ [وُجُوهًا]:

أَحَدُهَا: [أَنَّهُ] سَأَلُوا ذَلِكَ لِمَا أَرَادُوا أَنْ يُشَاهِدُوا الْآيَةَ، وَلَمْ يَكُونُوا شَاهِدُوا قَبْلَ ذَلِكَ، فَاحْبَبُوا أَنْ يُشَاهِدُوهَا، وَإِنْ كَانُوا قَدْ آمَنُوا بِهِ، وَصَدَّقُوهُ مِنْ قَبْلُ [لِيَزِدُوا هُمْ]^(٩) بِذَلِكَ طَمَآنِينَةً وَيَقِينًا، وَهُوَ كَقَوْلِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ ﴿رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُنْزِلُ السَّمَاءَ قَالُوا أَوْلَمْ تَكُنْ تَزْمِنُ قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ [البقرة: ٢٦٠] لِمَا يَحْتَمِلُ أَنْ نَفْسُهُ كَانَتْ تُحَدِّثُ، وَتُتَنَازَعُ فِي ذَلِكَ، وَاحْبَبَ أَنْ يُعَايِنَ ذَلِكَ، وَيُشَاهِدَهُ لِيَزْدَادَ هُوَ^(١٠) طَمَآنِينَةً وَيَقِينًا. فَعَلَى ذَلِكَ أُولَئِكَ كَانَتْ^(١١) أَنْفُسُهُمْ تُحَدِّثُ، وَتُتَنَازَعُ فِي مُشَاهَدَةِ الْآيَاتِ، فَاحْبَبُوا أَنْ يُرِيَهُمْ بِذَلِكَ [لِيَزِدُوا هُمْ]^(١٢) طَمَآنِينَةً وَيَقِينًا وَصَلَابَةً فِي التَّصَدِيقِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) الروا ساقطة من الأصل وم. (٢) في تفسير الآية [٥٢]. (٣) من م، في الأصل: أن. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: من. (٦) من م، في الأصل: وقع. (٧) في الأصل وم: يسألوا. (٨) في الأصل وم: سألهم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: ليزداد لهم. (١١) في الأصل وم: له. (١٢) في الأصل وم: كان. (١٣) في الأصل وم: ليزداد لهم.

والثاني: يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عِيسَى يُخْبِرُهُمْ أَنَّ لَهُمْ كَرَامَةً وَمَنْزِلَةً عِنْدَ اللَّهِ، فَأَجَبُوا أَنْ يَعْرِفُوا مَنْزِلَتَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَكَرَامَتَهُمْ.

والثالث: سألوا ذلك ليعرفوا مَنْزِلَةَ عِيسَى ﷺ عِنْدَ اللَّهِ وَكَرَامَتَهُ؛ هَلْ يُجِيبُ رَبُّهُ دُعَاءَهُ إِذَا سَأَلَ رَبَّهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ؟

وإن كَانَ السُّؤَالُ مِنْ قَوْمٍ غَيْرِ الْخَوَارِجِينَ فَهُوَ لِمَا بَدَتْ لَهُمْ مِنَ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا، لَا يُعْلَمُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْخَبَرِ الصَّادِقِ.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ يُقْرَأُ بِالنَّاءِ وَالْيَاءِ جَمِيعاً^(١). فَمَنْ قَرَأَ بِالنَّاءِ ذَهَبَ فِي التَّأْوِيلِ إِلَى أَنَّ فِيهِ إِضْمَاراً؛

كَأَنَّهُمْ قَالُوا: هَلْ يَسْتَطِيعُ أَنْ تَسْأَلَ رَبَّكَ ﴿أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾. وَمَنْ قَرَأَ بِالْيَاءِ قَالَ: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ أَيِ هَلْ يُجِيبُ رَبُّكَ دُعَاءَكَ إِذَا دَعَوْتَهُ؟ ﴿أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾.

قَالَ الْفَرَاءُ: قَدْ يَكُونُ مِثْلُ هَذَا السُّؤَالِ عَلَى غَيْرِ الْجَهْلِ مِنَ السَّائِلِ بِالمَسْئُولِ لِأَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ فِي الْكَلَامِ: هَلْ يَسْتَطِيعُ فَلَانُ أَنْ يَقُومَ بِحَاجَتِنَا وَفِي أَمْرِنَا عَلَى عِلْمٍ مِنْهُ؟ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ عَلَى عِلْمٍ مِنْهُمْ أَنَّ عِيسَى يَسْتَطِيعُ السُّؤَالَ لِرَبِّهِ؟ لَكِنَّهُمْ قَالُوا ذَلِكَ لِمَا ذُكِرَ. وَذَلِكَ جَائِزٌ فِي اللُّغَةِ.

ويَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِالِاسْتِطَاعَةِ الْإِرَادَةُ؛ يَقُولُ الرَّجُلُ لِأَخَرٍ: لَا اسْتَطِيعُ أَنْ أَنْظُرَ إِلَى فَلَانٍ، وَهُوَ يَقْدِرُ النَّظَرَ، لَكِنَّهُ يُرِيدُ

بِذَلِكَ: لَا أُرِيدُ أَنْ أَنْظُرَ إِلَيْهِ. فَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ هَلْ يَأْذَنُ رَبُّكَ بِالسُّؤَالِ فِي ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أَيِ اتَّقُوا اللَّهَ؛ لَا تَسْأَلُوا شَيْئاً لَمْ يَأْذَنَ لَكُمْ فِي ذَلِكَ ﴿إِنْ كُنْتُمْ

مُؤْمِنِينَ﴾

الآية ١١٢ وقوله تعالى: ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَنَقْلَمَ قُلُوبَنَا﴾ قَوْلُهُ ﴿وَنَقْلَمَ قُلُوبَنَا﴾ يَدُلُّ أَنَّهُمْ سَأَلُوا ذَلِكَ لِمَا كَانَتْ تُحَدِّثُ أَنْفُسَهُمْ، وَتَنَازَعُ فِي مُشَاهَدَةِ آيَاتِ وَمُعَايِنَتِهَا، وَإِنْ كَانُوا صَدَّقُوا عِيسَى ﷺ فِي مَا يَقُولُ لَهُمْ، وَيُخْبِرُ عَنْ اللَّهِ لِلْمَعْنَى الَّتِي ذَكَرْنَا فِي إِبْرَاهِيمَ ﷺ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَتَلَمَّ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ اخْتَلَفَ فِي تِلَاوَتِهِ [وَفِي تَأْوِيلِهِ بِوَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: ^(٢) قَالَ بَعْضُهُمْ: بِالنَّصْبِ نَعْلَمُ، فِيهِ الْقِرَاءَةُ الظَّاهِرَةُ الْمَشْهُورَةُ، وَمَعْنَاهُ: وَأَنْ نَعْلَمَ مَا قَدْ صَدَقْتَنَا.

والثاني: [قَرَأَ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ: وَنَعْلَمُ، وَنَعْلَمُ، وَقَرَأَ الْأَعْمَشُ: وَتَعْلَمُ] ^(٣). [وَمَعْنَاهُ: ^(٤) أَنْ الْعِلْمَ بِالشَّيْءِ مِنْ جِهَةِ الْخَبَرِ رُبَّمَا تَعْتَرِضُهُ ^(٥) الْوَسَاوِسُ وَالشُّبُهَاتُ، فَطَلَبُوا آيَةً مِنْ جِهَةِ الْحَسَنِ وَالْعِيَانِ لِيَكُونَ ذَلِكَ أَذْقَعَ لِمَا يَعْتَرِضُ مِنَ الشُّبُهَاتِ وَالْوَسَاوِسِ.

وقوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أَيِ نَكُونُ عَلَيْهَا لِمَنْ أَنْكَرَهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ أَنَهَا نَزَلَتْ.

الآية ١١٤ وقوله تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ أَيِ طَعَاماً دَائِماً. قَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيداً﴾ أَيِ مُجْتَمِعاً، وَسُمِّيَ يَوْمَ الْعِيدِ [عِيداً] ^(٦) لِاجْتِمَاعِ الْخَلْقِ.

ثُمَّ قِيلَ: نَزَلَتْ يَوْمَ الْأَحَدِ، فَجَعَلُوا ذَلِكَ الْيَوْمَ يَوْمَ عِيدِهِمْ.

ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي نَزُولِ الْمَائِدَةِ [بِوَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: مَا ^(٧) قَالَ الْحَسَنُ: لَمْ ^(٨) تَنْزِلِ الْمَائِدَةُ لِأَنَّهُ سَأَلَ أَنْ تَكُونَ ﴿تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ وَنَحْنُ مِنْ آخِرِهِمْ، فَلَمْ يَكُنْ لَنَا مَا ذَكَرَ.

الآية ١١٥ والثاني: [قَوْلُهُ تَعَالَى] ^(٩) ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَدَّ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ وَقَدْ كَفَرَ مِنْهُمْ، ثُمَّ لَمْ يَظْهَرْ أَنَّهُ عَذَّبَهُمْ عَذَاباً لَمْ يُعَذِّبْ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ.

(١) قَرَأَ الْكَسَائِيُّ: يَسْتَطِيعُ بِالنَّاءِ، رِبَكٌ بِالنَّصْبِ وَقَرَأَ الْبَاقُونَ: يَسْتَطِيعُ بِالْيَاءِ، رِبَكٌ بِالرَّفْعِ، انْظُرْ حِجَةَ الْقِرَاءَاتِ ص (٢٤٠). (٢) فِي م.: وَفِي تَأْوِيلِهِ، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم، انْظُرْ مَعْجَمَ الْقِرَاءَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ (ج ٢ ص ٢٤٨). (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم. يَعْتَرِضُ. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: ثَم. (٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

وقال بعضهم: ليس فيه دلالة أنها لم تنزل لأنه يجوز أن يكون قوله: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ ما لم يأت النسخ. فكان لهم ذلك إلى أن يبعث نبينا محمداً ﷺ فتسحق ذلك يوم الجمعة. وقالوا: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَعِدُوا غَيْرَكُمْ بَعْضَ الْقِصَّةِ أَنْ مَنْ كَفَرَ مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ مَسْحَهُمْ خَنَازِيرَ. فَذَلِكَ تَغْدِيبٌ لَمْ يُعَذَّبْ أَحَدًا مِنَ الْمُتْلِينَ﴾.

وقيل: يَحْتَمِلُ قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَعِدُوا غَيْرَكُمْ بَعْضَ الْقِصَّةِ أَنْ مَنْ كَفَرَ مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ مَسْحَهُمْ خَنَازِيرَ. فَذَلِكَ تَغْدِيبٌ لَمْ يُعَذَّبْ أَحَدًا مِنَ الْمُتْلِينَ﴾. والله أعلم بذلك كله.

الآية ١١٦ وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَا أَنتَ فُلَانٌ لِّلنَّاسِ أَتَعِدُونِي وَإِنِّي لَآلِهَةٌ مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الآية. يَحْتَمِلُ هذا القول أوجه ثلاثة:

أحدها: أن كان هذا القول منه في الوقت الذي كان عيسى بين أظهرهم ليكون ذلك آية وحجة لمن تبعه على من زاع عن طريقه، وضل عن سبيل الهدى لأنه تبرأ أن يكون قال لهم ذلك.

ويَحْتَمِلُ أن يكون قال ذلك له وقت رفعه إلى السماء؛ قر^(١) عنده أن قومه يقولون ذلك القول بعد مفارقه قومه.

وقيل: يقول ذلك له يوم القيامة، ويكون قال بمعنى يقول كقولهِ تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ [غافر: ٤٩] وكقولهِ تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ قَالَوَا لَا عِلَّآ لَنَا﴾ [الآية: ١٠٩] أي^(٢) يقولون، وذلك جائز: قال بمعنى يقول. وذلك في القرآن كثير.

واتخاذهم عيسى وأمه إلهين قول متناقض لأنهم سمعوا أم عيسى. فإذا ثبت لها الأمومة بطل أن يكون إلهاً لأنه لا يكون ابن غيره إلهاً. لكنهم قوم سفهاء؛ يقولون ذلك عن سقو

[وقوله تعالى^(٣)]: ﴿سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّكَ﴾ أي لأنه لا ينبغي أن أقول ما ليس لي ذلك ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُمْ فَقَدْ عَلِمْتُمْ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ يتكلم على وجهين: أحدهما: يراؤ ما يضمن.

والثاني: على إرادة الذات. فإن كان الله، تعالى عن أن يوصف بالذات كما يوصف الخلق، دل أنما يراؤ ١٤٣ - أ/ بذلك غيره؛ وهو أن يقال: تعلم ما عندي، ولا أعلم ما عندك، أو يقول: تعلم ما كان مني، ولا أعلم على غيرك ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ أي أنت علام ما غاب عن الخلق.

الآية ١١٧ وقوله تعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ أي ما دعوتهم إلا ما أمرتني أن أدعوهم إليهم من التوحيد والعبادة لك.

وقوله تعالى: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ أي شاهداً عليهم. هذا يدل على أن ذلك القول كان منه وقت رفعه إلى السماء، ويكون يوم القيامة. ويقال: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ أي كنت عليهم حفيظاً ما كنت بين أظهرهم ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ بما أمرتهم من التوحيد والعبادة لك وشاهداً عليهم بما قالوا من البهتان.

وذكر في بعض القصص لما قال الله تعالى لعيسى: ﴿مَا أَنتَ فُلَانٌ لِّلنَّاسِ أَتَعِدُونِي وَإِنِّي لَآلِهَةٌ مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الآية: ١١٦] قيل: فارتعدت مفاصله، وخشي أن يكون قالها، فقال: ﴿سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّكَ﴾ إن كنت قلتم فقد علمتم الآية.

وذكر أيضاً: متكلمان يتكلمان يوم القيامة: نبي الله عيسى ابن مريم ﷺ وعدو الله إبليس، لعنه الله، فاما كلام عيسى ﷺ [فهو^(٤)] يقول الله تعالى: ﴿مَا أَنتَ فُلَانٌ لِّلنَّاسِ أَتَعِدُونِي وَإِنِّي لَآلِهَةٌ مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فيقول^(٥) عيسى ابن مريم: ﴿سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّكَ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الآيات: ١١٦ - ١١٨].

واما كلام اللعين فهو^(٦): ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ الآية [إبراهيم: ٢٢].

(١) في الأصل وم: قرر. (٢) في الأصل وم: أن. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: فقال. (٦) في الأصل وم: فيقول.

الآية ١١٨

وقوله تعالى: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَلَهُمْ عَذَابُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ اختلف فيه [برجوه]:

أحدها^(١): عن الحسن [أنه]^(٢) قال: يقول: ذلك في الآخرة: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ﴾ أي إن تُعَذِّبَ مَنْ مَاتَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ مِنَ الْقَوْلِ الرَّحِيشِ فِي اللَّهِ ﴿وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ﴾ أي وَإِنْ تَغْفِرَ لِمَنْ أَكْرَمْتَهُ^(٣) بالإسلام والهدى ﴿فإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ لأنَّ مِنْهُمْ مَنْ اسْلَمَ^(٤) مِنْ بَعْدِ هَذَا الْقَوْلِ الرَّحِيشِ فِي اللَّهِ.

وقال^(٥) آخرون: هذا القول كَانَ مِنْ عِيسَى فِي الدُّنْيَا: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ﴾ يقول: إن تُعَذِّبَ مَنْ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ الَّذِي كَانَ مِنْهُمْ ﴿فإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ﴾ لِمَنْ [أَكْرَمْتَهُ بِالْهُدَى]^(٦) ﴿فإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أَنْتَ الْعَزِيزُ، وَهُمْ عِبَادُكَ إِذْلَاءً.

وَفِي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ؛ وَهُوَ ظَاهِرٌ لِأَنَّهُ ذَكَرَ أَنَّهُ غَفُورٌ عَلَى إِنْثَرِ الْمَغْفِرَةِ.

وَرُوي فِي الْخَبَرِ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ كَانَ أَخْبَى لَيْلَةً بِقَوْلِهِ ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَلَهُمْ عَذَابُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ قَامَ، وَبِهِ سَجْدٌ، وَبِهِ قَعْدٌ، فَهُوَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، عَلَى التَّشْفُّعِ لَهُ وَالتَّضَرُّعِ إِلَيْهِ؛ كَأَنَّهُ قَالَ: إِنْ خَذَلْتَهُمْ فَمَنْ الَّذِي يَنْصُرُهُمْ، وَيَذْفَعُ ذَلِكَ عَنْهُمْ دُونَكَ، وَهُمْ عِبَادُكَ إِذْلَاءً؟ وَإِنْ أَكْرَمْتَهُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَمْنَعُكَ عَنْ إِكْرَامِهِمْ؟

وَالثَّالِثُ: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ﴾ فَلَكَ سُلْطَانٌ عَلَيْهِمْ. وَلَسْتَ أَنْتَ فِي تَعَذِّبِهِمْ إِيَّاهُمْ جَانِئاً لَأَنَّهُمْ عِبَادُكَ؛ لِأَنَّ الْجَوْرَ هُوَ الْمَجَاوِزَةُ عَنِ الْحَدِّ الَّذِي لَهُ إِلَى الْحَدِّ الَّذِي لَيْسَ لَهُ.

الآية ١١٩

وقوله تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا﴾ قِيلَ: قَالَ بِمَعْنَى يَقُولُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿يَوْمَ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ أَيِ الْيَوْمِ

يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَيَنْفَعُ صِدْقُ الصَّادِقِ أَيْضاً فِي الدُّنْيَا؛ لِأَنَّهُ إِذَا عُرِفَ بِالصَّدَقِ قَبْلَ قَوْلِهِ، وَإِنْ لَمْ يَظْهَرْ صِدْقُهُ فِي قَوْلِهِ.

ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي الصَّادِقِينَ مَنْ هُمْ؟ قَالَ بَعْضُهُمْ: هُمُ الْمُؤْمِنُونَ جُمْلَةً أَوْ يَوْمَئِذٍ يَنْفَعُ إِيْمَانُ الْمُؤْمِنِينَ وَتَوْحِيدُ الْمُؤَحِّدِينَ فِي الدُّنْيَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحديد: ١٩] وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الصَّادِقُونَ هُمُ الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ فِتْنَةً مِنْ بَيْنِهَا أَلَّا تَنْهَرُوا﴾ قَدْ ذَكَرْنَا فِي مَا تَقَدَّمَ ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ وَخَالِدِينَ أَبَداً وَاحِداً، لَكِنَّهُ يَذْكُرُ عَلَى التَّأَكِيدِ

وقوله تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ لِسَعْيِهِمْ فِي الدُّنْيَا ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بِالثَّوَابِ لِسَعْيِهِمْ. وَتَحْتَمِلُ ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بِمَا وَقَفَهُمْ عَلَى سَعْيِهِمْ الْمَحْمُودِ فِي الدُّنْيَا ﴿ذَلِكَ الْقَرَارُ الْعَظِيمُ﴾ لِأَنَّهُ لَيْسَ بَعْدَهُ خَوْفُ الْهَلَاكِ وَلَا خَوْفُ الْقَوْتِ، فَهُوَ الْقَوْرُ الْعَظِيمُ؛ لَيْسَ كَقَوْرِ الدُّنْيَا لِأَنَّهُ لَا يَذْهَبُ عَنْهُ خَوْفُ الْهَلَاكِ وَلَا خَوْفُ الْقَوْتِ.

الآية ١٢٠

وقوله تعالى: ﴿يَلِلَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ كَانَ خَرَجَ هَذَا عَلَى إِنْثَرِ قَوْلِهِ: ﴿أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُوا

رَأْسِي لِلدِّينِ﴾ أَيِ كَيْفَ يَتَّخِذُ أَرْبَاباً وَوَلَدَ لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَلِكُ مَا فِيهِنَّ مِنَ الْخَلْقِ، كُلُّهُمْ عَبِيدُهُ وَإِمَاؤُهُ، ﴿وَمَوْعِنٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لَا يَعْجِزُهُ شَيْءٌ؟ [وَاللَّهُ الْمُوفِيُّ]^(٧).



(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: أكرمت له. (٤) في الأصل وم: قرأ. (٥) هذا هو الوجه الثاني.

(٦) في الأصل وم: أكرمت له الهدى. (٧) في م: ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

سورة الأنعام

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١

[قوله تعالى: (١)] ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ الحمد هو الثناء عليه بما صنَّع إلى خلقه من الخير. ألا ترى أن الذم نقيضه في الشاهد؟ ويحمد المرء بما صنَّع من الخير، ويدم على ضده. فالتحميد هو تمجيد الرب والثناء عليه والشكر له بما أنعم عليه، والتسبيح هو تمجيد الرب وتنزيهه عما قالت الملحدة فيه من الولد وغيره. والتهليل هو تمجيد الرب وتنزيهه عما جعلوا له من الشركاء والأضداد والوصف له بالوحدانية والربوبية. والتكبير هو تمجيد الرب والوصف له بالعظمة والجلال وتنزيهه عما وصفوه بالعجز والضعف عن أن يكون بشيء من العظام البالية خلقاً.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ سَمَّهْمُ ۖ بما جعلوا له من الشركاء والأضداد على إقرارٍ منهم أنه خلق السموات والأرض (٢)، ولم يجعل (٣) له شركاء في خلقهما، وعلى علمٍ منهم أنه علَّق (٤) منافع الأرض بمنافع السماء مع بُعد ما بينهما، كيف جعلوا شركاء يُشركونهم في العبادة والربوبية؟

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [قال الحسن] (٥): الكفر والإيمان، وقال غيره من أهل التأويل: الليل والنهار. والنور في الحقيقة ما يكشف عما استتر من الأبصار إِبْصَارَ الوجوه وإِبْصَارَ القلوب. والظلمة (٦) ما تستر، وتُعطي على الأبصار إِبْصَارَ الوجوه وإِبْصَارَ القلوب. فالظلمة تجعل كل شيء مستوراً عليه، والنور يجعل كل شيء كان مستوراً ظاهراً باوياً عليه. هذا هو تفسير الظلمة والنور حقيقة.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَقُولُوكَ﴾ قيل: يُشركون مع ما بين لهم ما يدلُّ على وحدانية الرب وربوبيته، أي جعلوا كل ما يعبدونه دون الله عديلاً لله، وأثبتوا المعادلةَ بينه وبين الله تعالى، وليس لله تعالى عديل ولا نديد ولا شريك ولا ولد ولا صاحبة؛ تعالى الله عما يقول الظالمون ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣].

وقال الحسن: ﴿بِرَبِّهِمْ يَقُولُوكَ﴾ أي يكذبون.

الآية ٢

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ أي خلق آدم أبا البشر ﴿مِنْ طِينٍ﴾. فآما خلق بني آدم من ماء [فهو] (٧) كقولهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْوَ مِنْ طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢] أخبر الله أنه خلق آدم من الطين، وخلق بني آدم سيوى عيسى ۑ من النطفة، وخلق عيسى ۑ [لا] (٨) من الطين ولا من الماء ليَعْلَمُوا (٩) أنه قادر على إنشاء الخلق لا من شيء وأنه لا اختصاص للخلق بشيء، ولا ينكروا (١٠) أيضاً [أنه قادر على] (١١) إنشاء الخلق وإحيائهم وموتهم؛ وذلك لا يخلو إما أن صاروا تراباً أو ماء أو لا ذا ولا ذاً.

فإذا رأوا أنه خلق آدم من الطين، وخلق سائر الحيوان من الماء، وخلق عيسى ۑ لا من هذين، كيف أنكروا إنشاء الخلق/ ١٤٣ - ب/ بعد الموت، وهو لا يخلو من هذه الوجوه التي ذكرنا؟ فيكون دليلاً على مُنْكَرِي البعث بعد الموت وعلى الدهرية في إنشاء الخلق لا من شيء؛ فإنهم ينكرون ذلك، ويحيلونه. ولهذا وقَّعوا في القول بقدَمِ العالم، والله الهادي.

(١) في م: وقوله ۖ، ساقطة من الأصل. (٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَرَحَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١] ولقمان: ٢٥ والزمر: ٥٨ والزخرف: ٩٨. (٣) في الأصل و م: يجعلوا. (٤) في الأصل و م: تعلق. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل و م: والظلم. (٧) ساقطة من الأصل و م. (٨) ساقطة من الأصل و م. (٩) في الأصل و م: ليعلمن. (١٠) في الأصل و م: ينكرون. (١١) ساقطة من الأصل و م.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ أَنْ يُرَادَ بِهِ فِي خَلْقِ^(١) جَمِيعِ بَنِي آدَمَ وَإِضَافَةُ خَلْقِنَا إِلَى الطِّينِ، وَكَانَ الْخَلْقُ مِنَ الْمَاءِ لِمَا^(٢) أَبْقَى فِي خَلْقِنَا مِنْ قُوَّةِ ذَلِكَ الطِّينِ الَّذِي فِي آدَمَ وَأَتْرَوْهُ، وَإِنْ لَمْ يَرِهِ تِلْكَ الْقُوَّةُ وَذَلِكَ الْأَثَرُ. وَهَذَا كَمَا أَنَّ الْإِنْسَانَ يَرَى أَنَّهُ يَأْكُلُ، وَيَشْرَبُ، وَيَغْتَذِي، وَيَحْصُلُ بِهِ زِيَادَةُ قُوَّةٍ فِي سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَفِي جَمِيعِ جَوَارِحِهِ، وَقَدْ تَحَيَّ بِهَا جَمِيعُ الْجَوَارِحِ، وَإِنْ لَمْ يَرِ تِلْكَ الْقُوَّةَ، فَكَذَلِكَ هَذَا. وَيَحْتَمِلُ أَيْضاً عَلَى مَا رُوِيَ فِي الْقِصَّةِ أَنَّهُ يُمَارِجُ مَعَ التُّطْفَةِ شَيْءٌ مِنَ التُّرَابِ، فَيُؤَمِّرُ الْمَلَكُ بَأَن يَأْخُذَ شَيْئاً مِنَ التُّرَابِ مِنَ الْمَكَانِ الَّذِي حَكَّمَ أَنْ يُذَنَّنَ فِيهِ، فَيَخْلِطُ بِالتُّطْفَةِ، فَتَصِيرُ عَلَقَةً وَمُضْغَةً. فَإِنَّمَا نَسَبَهُمْ إِلَى التُّرَابِ لِهَذَا.

وَيَحْتَمِلُ النِّسْبَةُ إِلَى التُّرَابِ، وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا مِنَ التُّرَابِ، لِمَا أَنَّ أَضْلَهُمْ مِنَ التُّرَابِ، وَهُوَ آدَمُ.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُتَمِّسٌ﴾ فَالْقَضَاءُ يَتَوَجَّهُ إِلَى وَجْهِهِ؛ كُلُّهَا تَرْجِعُ إِلَى مَعْنَى انْقِطَاعِ الشَّيْءِ وَتَمَامِهِ؛ وَقَدْ يَكُونُ لابتداء فعل وإنشائه كقولهِ تعالى: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ [طه: ٧٢] [وَيُقَالُ: قَضَيْتُ هَذَا الثَّوبَ أَيِ عَلِمْتُهُ، وَأَحْكَمْتُهُ، وَقَدْ يَكُونُ بِمَعْنَى الْأَمْرِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَقَفَّيْ رَيْكَ أَلَّا تَقْبَدُوا إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الإسراء: ٢٣] أَيِ أَمَرَ رَبُّكَ لِأَنَّهُ أَمَرَ قَاطِعَ حَتْمٍ، وَقَدْ يَكُونُ بِمَعْنَى الْإِعْلَامِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَفَّيْنَا لَكُمْ فِيهِ إِسْرَءِيلَ﴾ [الإسراء: ٤] أَيِ أَعْلَمْنَاكُمْ إِعْلَاماً قَاطِعاً، وَقَدْ يَكُونُ لِبَيَانِ الْغَايَةِ وَالْإِنْتِهَاءِ مِنْهُ وَالْحَتْمِ كقولهِ تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْ أَجَلًا﴾ أَيِ حَتَمَ ذَلِكَ، وَاتَّمَّهُ، وَقَدْ^(٣) يَكُونُ غَيْرَ مَا ذَكَرْنَا.

ثم قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْ أَجَلًا﴾ يَحْتَمِلُ هَذَا كُلُّهُ مِثْلَ مِثْلِ الْأَمْرِ. ثُمَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْ أَجَلًا﴾ الْمَوْتُ ﴿وَأَجَلٌ مُتَمِّسٌ﴾ عِنْدَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. أَظْلَعْنَا عَلَى أَحَدِ الْأَجَلَيْنِ، وَهُوَ الْمَوْتُ لِأَنَّا نَرَى مَنْ يَمُوتُ، وَنُعَايِنُ، وَلَمْ يُظْلَعْنَا عَلَى الْآخَرِ، وَهُوَ السَّاعَةُ وَالْقِيَامَةُ. وَقِيلَ: ﴿ثُمَّ قَفَّيْ أَجَلًا﴾ أَجَلَ الدُّنْيَا مِنْ خَلْقِهِ^(٤) إِلَى أَنْ يَمُوتَ ﴿وَأَجَلٌ مُتَمِّسٌ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمُرُّونَ﴾ أَيِ تَشْكُونُ، وَتُكَذِّبُونَ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ.

الآية ٣

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، صَلَوةٌ قَوْلُهُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ فَإِذَا كَانَ خَالِقَهُمَا، لَمْ يَشْرُكْهُ أَحَدٌ فِي خَلْقِهِمَا كَانَ إِلَهَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَإِلَهَ مَنْ فِي الْأَرْضِ لَمْ يَشْرُكْهُ أَحَدٌ فِي أُلُوهِيَّتِهِ وَلَا رَبُوبِيَّتِهِ.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ أَيِ إِلَى اللَّهِ تَدْبِيرُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَحِفْظُهُ إِلَيْهِ لِأَنَّهُ هُوَ الْمُتَعَرِّضُ بِخَلْقِ ذَلِكَ كُلِّهِ، فَإِلَيْهِ حِفْظُ ذَلِكَ وَتَدْبِيرُهُ.

وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ: قِيلَ: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ﴾ مَا تُضْمِرُونَ فِي الْقُلُوبِ ﴿وَجَهْرَكُمْ﴾ مَا تَنْطَلِقُونَ ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ مِنَ الْأَفْعَالِ الَّتِي عَمِلْتِ الْجَوَارِحُ. أَخْبَرَ أَنَّهُ يَعْلَمُ ذَلِكَ كُلَّهُ بِخَصِيصِهِ^(٥) لِيُحَاسِبَهُمْ عَلَى ذَلِكَ كقولهِ: ﴿وَأَنْ تَبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] أَخْبَرَ أَنَّهُ يُحَاسِبُهُمْ بِمَا أَبْدَوْهُ وَمَا أَخْفَوْهُ. فَعَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلِ^(٦)؛ فِيهِ إِخْبَارٌ أَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ يُخَصِّصُهُ عَلَيْهِمْ، وَيُحَاسِبُهُمْ فِي ذَلِكَ لِيَكُونُوا عَلَى حَذَرٍ مِنْ ذَلِكَ وَخَوْفٍ.

وقيل: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ﴾ مَا خَلَقَ فِيهِمْ مِنَ الْأَسْرَارِ مِنْ نَحْوِ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَغَيْرِهِمَا لِأَنَّ الْبَشَرَ لَا يَعْرِفُونَ مَا هِيَ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ وَكَيْفِيَّتُهَا، وَلَا يُسِرُّونَ ذَلِكَ كَمَا يَسِرُّونَ غَيْرَهَا مِنَ الْأَشْيَاءِ، وَلَا يَعْرِفُونَ حَقَائِقَهَا. أَخْبَرَ أَنَّهُ يَعْلَمُ ذَلِكَ، وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ.

وقوله تعالى: ﴿وَجَهْرَكُمْ﴾ أَيِ الظُّوَاهِرِ مِنْكُمْ ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ مِنَ الْأَفْعَالِ وَالْأَقْوَالِ.

الآية ٤

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: حَق. (٢) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: لَا. (٣) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: وَيَكُونُ بَيَانُ الْغَايَةِ وَيَكُونُ الْأَمْرُ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: خَلَقَكَ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: بِخَصِيصِهَا. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: الْأَوَّلَى.

«آتَيْتُ» التوحيد^(١)، أو من آيات إنبات رسالة محمد ونُبُوته ﷺ في إنبات البعث والنشور بعد الموت لما أُخْبِرَ أَنَّهُ خَلَقَهُمْ مِنْ طِينٍ، فإذا ماتُوا صارُوا تُرَاباً. فإذا كَانَ^(٢) بَدْءُ إِنْسَانِيَّتِهِمْ مِنْ طِينٍ، فإذا عَادُوا إِلَيْهِ يُقَدَّرُ عَلَى إِنْسَانِيَّتِهِمْ ثَانِيًا، إِذْ لَيْسَ إِنْشَاءُ الثَّانِي بِأَعْسَرَ مِنَ الْأَوَّلِ.

ثم تَحْتَمِلُ الْآيَاتُ آيَاتِ الْقُرْآنِ، وَتَحْتَمِلُ الْآيَاتُ مَا كَانَ أَتَى بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْآيَاتِ سِوَى آيَاتِ الْقُرْآنِ. ثم أُخْبِرَ عَنْ تَعْتِيَتِهِمْ وَمُكَابَرَتِهِمْ بِقَوْلِهِ: «وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ» فإذا أَعْرَضُوا عَنْهَا لَمْ يَنْتَفِعُوا بِهَا لِيُعْلِمَ اللَّهُ^(٣) أَنَّهُ إِنَّمَا يَنْتَفِعُ بِالْآيَاتِ مَنْ تَأَمَّلَهَا، وَنَظَرَ فِيهَا لَا مَنْ أَعْرَضَ^(٤) عَنْهَا.

ثم سُورَةُ الْإِنْعَامِ إِنَّمَا نَزَلَتْ فِي مُحَاجَّةِ أَهْلِ الشِّرْكِ. وَلَوْ لَمْ يَكُنِ الْقُرْآنُ مُعْجِزًا كَانَتْ سُورَةُ الْإِنْعَامِ مُعْجِزَةً لَأَنهَا نَزَلَتْ فِي مُحَاجَّةِ أَهْلِ الشِّرْكِ فِي إنبَاتِ التَّوْحِيدِ وَالْأَلُوْهِيَّةِ لِلَّهِ وَالتَّبَعِثِ، فَكَيْفَ وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ الْقُرْآنَ آيَةً مُعْجِزَةً أَغْجَزَ الْبَشَرَ عَنِ [الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ]^(٥)؟ وَلَمْ يَكُنْ يَوْمَئِذٍ يُعْرِفُ التَّوْحِيدَ وَالتَّبَعِثَ، كَانُوا كُلُّهُمْ كُفَّارًا عَبْدَةً الْأَصْنَامِ وَالْأَوْتَانِ، لَا يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ رَسُولُ اللَّهِ [أَلَفَ ذَلِكَ]^(٦) وَأَنْشَأَ مِنْ ذَاتِ نَفْسِهِ لِيُعْلَمَ أَنَّهُ إِنَّمَا عَرَفَ ذَلِكَ بِاللَّهِ.

وفيه دلالة إنباتِ الْمُحَاجَّةِ فِي التَّوْحِيدِ وَالْمُنَاطَرَةِ فِيهِ لِأَنَّهُ أَكْثَرُهَا نَزَلَتْ فِي مُحَاجَّةِ أَهْلِ الشِّرْكِ، وَمَنْ كَانُوا أَهْلَ شِرْكِ، وَيُنْكِرُونَ التَّبَعِثَ وَالرَّسَالَهَ، فَتَزَلَّ أَكْثَرُهَا فِي مُحَاجَّتِهِمْ فِي التَّوْحِيدِ وَإنبَاتِ التَّبَعِثِ وَالرَّسَالَهَ.

وفيه أَنَّهُ إِذَا ثَبَتَ فُسَادُ قَوْلِ أَحَدِ الْخَصْمَيْنِ ثَبَتَتْ صِحَّةُ قَوْلِ الْآخَرِ لِأَنَّهُ إِبْرَاهِيمُ لَمَّا «قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْإِلَٰهَ» [الأنعام: ٧٦] أَثَبَتَ فُسَادَ عِبَادَةِ مَنْ يُعْبَدُ الْأَوَّلَ بِالْأَوَّلِ^(٧).

الآية ٥

وقوله تعالى: «فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ» يَحْتَمِلُ الْحَقُّ الْآيَاتِ الَّتِي كَانَ يَأْتِي بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ آيَاتِ التَّوْحِيدِ وَآيَاتِ التَّبَعِثِ، وَيَحْتَمِلُ الْقُرْآنَ. وَلَوْ لَمْ يَكُنْ يَأْتِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِآيَةٍ كَانَتْ نَفْسُهُ آيَةً عَظِيمَةً مِنْ أَوَّلِ نَشْأَتِهِ^(٨) إِلَى آخِرِ عُمُرِهِ لِأَنَّهُ عَصِمَ حَتَّى لَمْ يَأْتِ مِنْهُ مَا يَسْمُحُ^(٩)، وَنُسْتَفْبِحُ قَطُّ. فَذَلِكَ أَنَّ ذَلِكَ لِمَا جَعَلَهُ آيَةً فِي نَفْسِهِ وَمَوْضِعًا لِرِسَالَتِهِ. وَعَلَى ذَلِكَ إِجَابَةُ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي أَوَّلِ دَعْوَةٍ دَعَا إِلَى ذَلِكَ لِمَا كَانَ رَأَى مِنْهُ آيَاتٍ. فَلَمَّا دَعَاهُ أَجَابَهُ فِي ذَلِكَ مَعَ مَا كَانَ مَعَهُ آيَاتٌ عَظِيمَةٌ وَأَعْلَامٌ عَجِيبَةٌ.

وقوله تعالى: «فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ» مَعْنَاهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَنْ يَأْتِيَهُمْ، وَيَنْزِلَ بِهِمْ مَا نَزَلَ بِالْمُسْتَهْزِئِينَ. وَالْأَمْرُ أَنَّ مَا نَزَلَ بِالْمُسْتَهْزِئِينَ. وَلَكِنْ مَعْنَاهُ مَا ذَكَرْنَا: أَيِ يَنْزِلُ بِهِمْ، وَيَحُلُّ مَا نَزَلَ وَحُلُّ بِالْمُسْتَهْزِئِينَ. وَيَحْتَمِلُ وَجْهًا آخَرَ قَوْلُهُ: «فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ» وَهُوَ الْعَذَابُ، لِأَنَّ الرُّسُلَ كَانُوا يُوعِدُونَهُمْ أَنْ يَنْزِلَ بِهِمْ الْعَذَابُ بِتَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ. فَعِنْدَ ذَلِكَ يَسْتَهْزِئُونَ بِهِمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «عَجَلْنَا قُلُوبَنَا» [ص: ١٦] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَسَتَبْلُوكَ بِأَلْعَادٍ» [الحج: ٤٧] وَغَيْرِ ذَلِكَ «وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْلِكْ عَلَيْنَا حَبْكَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ آتِيَةٍ» [الأنفال: ٣٢] فَأُخْبِرَ أَنَّهُ يَنْزِلُ بِهِمْ ذَلِكَ كَمَا نَزَلَ بِأَوَّلِيكَ.

الآية ٦

وقوله تعالى: «إِنَّمَا يَزَاكُمُ اللَّهُ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ». وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الْكَيْسَانِيُّ: «إِنَّمَا يَزَاكُمُ اللَّهُ» قَدْ رَأَوْا أَنَا «أَهْلُكُمَا» مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ، وَهُوَ وَاحِدٌ؛ قَدْ رَأَوْا آثَارَ الَّذِينَ أَهْلَكُوا بِتَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ وَتَعْتِيَتِهِمْ وَمُكَابَرَتِهِمْ. لَكُنْهُمْ لَمْ يَغْتَبِرُوا بِذَلِكَ.

وقوله تعالى: «مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ» قَالَ بَعْضُهُمْ: أَعْطَيْنَاهُمْ مِنَ الْخَيْرِ وَالسَّعَةِ وَالْأَمْوَالِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ يَا أَهْلَ مَكَّةَ، أَيِ لَمْ نُعْطِكُمْ، ثُمَّ إِذَا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى، وَعَاقِبَتُهُمْ بِأَنْوَاعِ الْعُقُوبَةِ. وَيَحْتَمِلُ «مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ» مِنَ الْقُوَّةِ وَالشَّدَّةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً» [فصلت: ١٥] ثُمَّ مَعَ شِدَّةِ قُوَّتِهِمْ أَهْلَكُوا إِذْ^(١٠) كَذَّبُوا الرُّسُلَ. وَيَحْتَمِلُ وَجْهًا آخَرَ «مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ» أَيِ فِي قُلُوبِ النَّاسِ مِنْ تَفَاضُلِ الْقَوْلِ وَخُضُوعِ الْخَلْقِ لَانَّهُمْ كَانُوا ١٤٤ / ١ / مُلُوكًا

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: تَوْحِيد. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: كَانُوا. (٣) سَاقِطَةٌ مِنْ م. (٤) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: إِعْرَاض. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: إنبَات مِثْلَهُ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: ذَلِكَ أَلَف. (٧) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: بِالْأَفْوَال. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: نَشَاء. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: يَسْمَح. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: إِذَا.

وسلاطين الأرض من نحو نمرود وفرعون وعاد مع ما كانوا كذلك أهلِكُوا إِذْ^(١) كَذَّبُوا الرُّسُلَ. وأنتم يا هؤلاء ليس لكم شيء من ذلك أفلا تهلكون إذا كذبتم الرُّسُلَ؟

وإنما حملهم على تكذيب الرُّسُلِ، والله أعلم، لما كانوا ذوي^(٢) سعة وقوة، قرأوا^(٣) الخُصُوعَ لِمَن دُونَهُمْ في ذلك جوراً^(٤) غير حكمة، وإنما أخذوا ذلك من إبليس اللعين حين^(٥) قال عند أمره بالسجود لآدم: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢ وص: ٧٦]. فعلى ذلك هؤلاء الكفرة رأوا الأمر بالخُصُوعِ لمحمد ﷺ جوراً^(٦) منه حتى قالوا: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِزْزَاتٍ﴾ قال القتيبي: مِزْزَاتٍ بالمطر أي غزيراً من دَرٍّ يَدْرُ. وقال أبو عوسجة: أي دَرَّتْ عليهم السماء بالمطر أي كثر، ودام، وتتابع واحداً بعد واحد في وقت الحاجة ﴿وَجَعَلْنَا الْفَجْرَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِ﴾ أخبر عن سعة أولئك [وما]^(٧) أنعم عليهم من كثرة الأمطار والأنهار ما لم يكن ذلك لهؤلاء. ثم مع ما كان أعطاهم إِذْ^(٨) كَذَّبُوا الرُّسُلَ.

فإن قيل: ذَكَرَ إهلاك هؤلاء وخوف أولئك؛ ذلك بتكذيبهم الرُّسُلَ، وقد أهلك الرُّسُلَ والاولياء من قبل، قيل: لأن إهلاك أولئك إهلاك عقوبة وتغذيب لأنه كان أهلكهم إهلاكاً^(٩) استتصالي واستيعاب خارجاً من الطعن. لذلك كان ما ذكرنا.

الآية ٧

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَاسٍ فَلَسَوْهُ بِأَبْيَرٍ﴾ يُخْبِرُ لِشِدَّةِ تَعْتِبِهِمْ [أنهم، وإن أتوا]^(١٠) ما سألوا من الآيات لم يؤمنوا به، لأنهم كانوا سألوا رسول الله ﷺ أَنْ يَنْزِلَ كِتَاباً يُعَايِنُونَهُ^(١١)، وَيَقْرُؤُونَهُ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ بِرُفُوقِكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ﴾ [الإسراء: ٩٣] وكقولِهِ: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢] ونحوه من الآيات.

يقول: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَاسٍ﴾ أي في صحيفة مكتوبة^(١٢) يَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَمْ يُكْتَبْ فِي الْأَرْضِ، وَلَمْسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ، وَعَايِنُونَهُ، لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ، وَلَا صَدَّقُوهُ، وقالوا: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ يُصَبِّرُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، وَيُخْبِرُهُ بِشِدَّةِ تَعْتِبِهِمْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، وَإِنْ جِئْتُ بِكُلِّ آيَةٍ؛ إِذْ قَدْ آتَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا إِنْ تَأَمَّلُوا، وَلَمْ يَتَعَنَّتُوا دَلَّتْهُمْ عَلَى ذَلِكَ، لَكُنْهُمْ أَغْرَضُوا عَنْهَا، وَلَمْ يَتَأَمَّلُوا فِيهَا لِتَعْتِبِهِمْ وَشِدَّةِ مُكَابَرَتِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٨

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ إِنَّ مُشْرِكِي الْعَرَبِ كَانُوا لَا يَعْرِفُونَ الرُّسُلَ وَلَا الْكُتُبَ، وَلَا كَانُوا آمَنُوا بِرَسُولٍ وَلَا كِتَابٍ، فقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُ أَوْ رَأَى رَبُّنَا﴾ [الفرقان: ٢١] ونحوه من السُّوَالِ يَسْأَلُونَ إِنْزَالَ الْمَلَكِ.

ثم يَحْتَمِلُ سُؤْلُهُمْ إِنْزَالَ الْمَلَكِ لِمَا لَمْ يَكُونُوا رَأَوْا الرُّسُلَ يَكُونُونَ مِنَ الْبَشَرِ، وَإِنَّمَا رَأَوْا الرُّسُلَ، إِنْ كَانَ، يَكُونُ مَلَكاً، فقالوا: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُ﴾ [الفرقان: ٢١] وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ سُؤْلُهُمْ إِنْزَالَ الْمَلَكِ سُؤَالِ عِنَادٍ وَتَعْتِبٍ لَا سُؤَالِ طَلَبِ الرُّسُولِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَرْزَلْنَا مَلَكَ﴾ عَلَى مَا سَأَلُوا ﴿لَقُفِيَ الْأَمْرُ﴾ أَيِ إِنْ الْمَلَكُ إِذَا نَزَلَ عَلَى إِمْرِ سُؤَالِ الْعِنَادِ وَالتَّعْتِبِ لَنَزَلَ^(١٣) بِالْعَذَابِ وَالْهَلَاكِ، فَهَذَا يَبَيِّنُ أَنَّ سُؤْلَهُمْ سُؤَالِ تَعْتِبٍ وَعِنَادٍ.

وقوله تعالى: ﴿لَقُفِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ أَنَّهُمْ كَانُوا يَسْأَلُونَ إِنْزَالَ الْمَلَكِ آيَةً لِصِدْقِهِ ﷺ فَقَالَ: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَرْزَلْنَا مَلَكَ لَقُفِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾. أَيِ يَهْلِكُونَ لِأَنَّ الْآيَاتِ إِذَا نَزَلَتْ عَلَى إِمْرِ سُؤَالِ الْقَوْمِ، ثُمَّ خَالَفُوا تِلْكَ الْآيَاتِ، وَكَذَّبُوهَا، لَنَزَلَ بِهِمُ الْعَذَابُ وَالْهَلَاكُ. وَإِنْ جَاءَتِ الْآيَاتُ عَلَى غَيْرِ سُؤَالٍ، فَكَذَّبُوهَا، [يُمَهِّلُوهَا، وَلَا يُعَذِّبُوهَا]^(١٤) عِنْدَ تَكْذِيبِهِمْ إِيَّاهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) في الأصل وم: إذا. (٢) في الأصل وم: ذا. (٣) في الأصل وم: فلم يروا. (٤) في أ في الأصل: جوازاً. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) من م، في الأصل: جوازاً. (٧) في الأصل وم: و. (٨) في الأصل وم: إذا. (٩) في الأصل وم: هلاك. (١٠) في الأصل: وإن أتوا، في م: أنهم وإن أتوا. (١١) في الأصل وم: يعاينونه. (١٢) في الأصل وم: مكتوب. (١٣) في الأصل وم: ينزل. (١٤) في الأصل وم: يمهلون ولا يعذبون.

الآية ٩

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ قيل: آدميًا بشرًا. يَحْتَمِلُ هذا [وجهين]:

أحدهما^(١) أنه لو بعثنا الرسول ملكًا لجعلناه على صورة البشر. لأنه لو كان على صورة الملائكة لصعقوا، وذهبوا لأنه ليس في وسع البشر رؤية الملك على صورته.

ألا تَرَى أَنَّ جِبْرِيلَ عليه السلام إذا نَزَلَ على رسول الله ﷺ لم يَنْزِلْ على صورته، ولكن كان يَنْزِلُ على صورة البشر حتى ذُكِرَ أَنَّهُ كَانَ يَنْزِلُ إِلَيْهِ على صورة دحية الكلبي، وأنه متى رآه على صورته صعق^(٢)، وتغيَّر حاله. فإذا رَأَوْا ذلك في وجهه قالوا: إنه مَجْنُونٌ، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ ويكون فيه ما في رسول الله من اللبس به.

والثاني: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ لأنهم لا يَعْرِفُونَ صِدْقَهُ، فَيَحْتَاجُونَ إِلَى الدلائل والآيات تَدْلُهُمْ على أنه مَلَكٌ وعلى صِدْقِهِ. فذلك لا يَعْرِفُ إِلَّا بِالْبَشَرِ. لأنهم لا يَعْرِفُونَهُ، ولا [يَعْرِفُونَ]^(٣) صِدْقَهُ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَلْبَسَاءُ عَلَيْهِمْ مَا يَلِيكُونَ﴾ الآية قالوا: لا يجوز إضافة اللبس إلى الله إلا على المجازاة لللبس كالاستهزاء والمكر والخداع. ويَحْتَمِلُ قوله: ﴿وَلَلْبَسَاءُ عَلَيْهِمْ مَا يَلِيكُونَ﴾ أي لو جعلناه ملكًا ﴿وَلَلْبَسَاءُ عَلَيْهِمْ مَا﴾ لَبَسَ أولئك على صغفهم حين^(٤) قالوا: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤ و ٣٣] وقالوا^(٥): ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠ ويس: ١٥] وغير ذلك من الكلام. لكننا لا نفعل حتى لا يكون ذلك لبسًا؛ إذ ليس في وسعهم النظر إلى الملك ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا﴾ لكان ذلك لبسًا.

فإن قال لنا مُلْحِدٌ: في قوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْزَلْ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ [الأنعام: ٨] سألوا أن يَنْزِلَ على رسول الله ﷺ الملك، وقال: ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ وأنتم تقولون: إنه قد أنزل عليه الملك، وهو أخير لو أنزل عليه الملك لقضي الأمر، ولم يقض الأمر. كيف لا بأن لكم أنه إنما اخترع ذلك من نفسه، لا أن الله أنزل عليه^(٦)؟ قيل: إنهم إنما سألوا أن يَنْزِلَ عليهم الملك، وإن لم يُذكر في الآية السؤال ما ذكر في آية أخرى كقولهم: ﴿لَوْلَا أَنْزَلْ عَلَيْنَا مَائِكَتَةٌ أَوْ رَهْنٌ رَبِّي﴾ [الفرقان: ٢١]، وسألوا أن تأتيهم الملائكة، ويأتيه؛ قالوا: كيف يَخْصُ بَاتِيَانِ الملائكة دوننا؟ وهو كواحد منا كقوله: ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَائِكَتَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الحجر: ٧].

وهذا جائز أن يكون أسئلة لم تُذكر، ويكون في الجواب بيان ذلك على ما ذكرنا من قبل في غير موضع.

الآية ١٠

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَكَانَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ يُصْبِرُ رسوله على تكذيب قومه ليُعَلِّمَ أنه ليس هو أول مُكذَّب، ولكن قد كُذِّبَ الرُّسُلُ الذين من قبلك، ويُخْبِرُهُ أنه يَلْحَقُ هؤلاء بِتَكْذِيبِكَ كما لَحِقَ أولئك بِتَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ.

وقوله تعالى: ﴿فَكَانَ﴾ قال أبو عوسجة: حاق أي رجع، يقال: حاق يَحِيقُ حَيْقًا أي رَجَعَ عليهم. وقال الكسائي: حاق بهم أي احاط بهم، ونزل.

الآية ١١

وقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ ليس على الأمر بالسَّير في الأرض، ولكن على الإغْيَارِ والتَّفَكُّرِ في ما نَزَلَ بأولئك بِتَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ لأنه ﷻ أراهم آيات عقلية وسمعية، فلم يَنْفَعَهُمْ ذلك، فأراد أن يُرِيَهُمْ آيات حسية لِيَمْنَعَهُمْ ذلك عن التَّكْذِيبِ والعناد.

الآية ١٢

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَيْسَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلٌّ﴾ الآية يَحْتَمِلُ وجهين:

أحدهما: أن يَخْرُجَ مَخْرَجَ الْبَيَانِ لَهُمْ أنه ليس على الأمر [لأنه لو كان على الأمر]^(٧) لكان يَذْكُرُ سؤاله^(٨) لهم، ولم يَذْكُرْ أن سؤالهم لا يَحْتَمِلُ إِلَّا يُخْبِرُهُ ذلك. فلما لم يَذْكُرْ سؤاله لهم عن ذلك، ولا يَحْتَمِلُ أن يأمُرَهُ بالسؤال، ثم لا يُسأل، أو يُسأل هو، ولا [يُخْبِرُهُ، دَلٌّ]^(٩) أنه على البيان خَرَجَ لا على الأمر.

(١) في الأصل وم: وجوهاً. (٢) في الأصل وم: اصعق. (٣) ساقطة من الأصل وم: (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: و.

(٦) في الأصل وم: عليك. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) أدرج قبلها في الأصل: أن. (٩) في الأصل وم: يخبرونه فدل.

والثاني: على أمر سبق كقوله تعالى: ﴿قُلْ لِيِنَّ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿سَبِّحُوا لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٤ و ٨٥] وكقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِ مَلَكُوتِ كُلِّ شَيْءٍ﴾ إلى قوله: ﴿سَبِّحُوا لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨ و ٨٩] وكقوله^(١) تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٦] ونحوه كَانَ عَلَى أَمْرِ سَبْقٍ، فَيُخْبِرُهُمْ ۖ حَتَّى قَالُوا: اللَّهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّيْءَ وَالْقَمَرِ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [المنكسبوت: ٦١ و لقمان: ٢٥ و الزمر: ٣٨ و الزخرف: ٩] ذَلِكَ مُسْتَخْبِرٌ مِنْهُ إِيَّاهُمْ حَتَّى قَالُوا: ﴿اللَّهُ﴾.

وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي بِنِ كَعْبٍ ۖ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ. أَي سَلَهُمْ فَإِنْ أَجَابُوكَ، فَقَالُوا: لِلَّهِ، وَلَا فَقُلْ لَهُمْ أَنْتَ: لِلَّهِ.

وَقَالَ قَائِلُونَ: فَإِنْ سَأَلُوكَ: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾ قَالَ الْحَسَنُ: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾ لِلتَّوَابِينَ أَنْ يُدْخِلَهُمْ / ١٤٤ - ب / الْجَنَّةَ. لَا أَحَدٌ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ، إِنَّمَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِهِ. وَعَلَى ذَلِكَ جَاءَ الْخَبَرُ عَنْ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ أَحَدٌ الْجَنَّةَ إِلَّا بِرَحْمَتِهِ». قِيلَ: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ [مسلم ٢٨١٦ / ٧١ و... ٢٨١٨ / ٧٨].

وقيل: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾ أَنْ يَجْمَعَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؛ أَي مِنْ رَحْمَتِهِ أَنْ يَجْمَعَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ حَيْثُ جَعَلَ لِلْعَذْوِ عَذَابًا وَلِلْوَلِيِّ ثَوَابًا؛ أَي مِنْ رَحْمَتِهِ أَنْ يَجْمَعَهُمْ جَمِيعًا يُعَاقِبُ الْعَذْوِ، وَيُسَبِّحُ الْوَلِيِّ. وقيل: أَي مِنْ رَحْمَتِهِ أَنْ^(٢) جَعَلَ لَهُمُ الْجَمْعَ، فَأَوْعَدَ الْعَاصِيَ الْعَذَابَ، وَوَعَدَ الْمُطِيعَ الثَّوَابَ لِيَمْنَعَ الْعَاصِيَ بِذَلِكَ^(٣) عَنْ عِصْيَانِهِ وَلِيُرْغَبَ الْمُطِيعُ فِي طَاعَتِهِ. وَذَلِكَ مِنْ رَحْمَتِهِ.

وَقَالَ قَائِلُونَ: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾ لِأَمَّةٍ مُحَمَّدٍ أَلَّا يُعَذِّبَهُمْ عِنْدَ التَّكْذِيبِ، وَلَا يَسْتَأْصِلَهُمْ كَمَا عَذَّبَ غَيْرَهَا^(٤) مِنَ الْأُمَمِ، وَاسْتَأْصَلَهُمْ عِنْدَ التَّكْذِيبِ. فَالتَّأْخِيرُ الَّذِي أَخَّرَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنَ الرَّحْمَةِ الَّتِي كَتَبَ.

وقوله تعالى: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْيَاقِينَةِ﴾ قِيلَ: ﴿إِلَى﴾ صِلَةٌ، وَمَعْنَاهُ: لَيَجْمَعَنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وقيل: ﴿إِلَى يَوْمِ الْيَاقِينَةِ﴾ أَي لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَائِعُ النَّاسِ يَوْمَ لَا رَبَّ فِيهِ﴾ [آل عمران: ٩] وَقَالَ قَائِلُونَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ فِي الْقُبُورِ ﴿إِلَى يَوْمِ الْيَاقِينَةِ﴾ ثُمَّ لَيَجْمَعَنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالْقُرُونُ السَّالِفَةُ.

وقوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أَي لَا رَيْبَ فِي الْجَمْعِ وَبِالْبَغْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ عِنْدَ مَنْ يَعْرِفُ أَنَّ خَلْقَ الْخَلْقِ لِلْفَنَاءِ خَاصَّةً لَا لِلْبَغْثِ وَالْإِحْيَاءِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَالثَّوَابِ^(٥) وَالْعِقَابِ لَيْسَ بِحِكْمَةٍ.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ قَدْ ذَكَرْنَا.

الآية ١٣

وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ مَا سَكَنَ فِي الْآيِلِ وَالنَّهَارِ وَمَوَ السَّيِّعِ الْغَلِيْمُ﴾ فِي الْآيَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، إِنْبَاءً أَنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ تَحْتَ قَهْرِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَسُلْطَانِهِمَا مَقْهُورِينَ مَغْلُوبِينَ، إِذْ لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ مِنَ الْجَبَابِرَةِ وَالْقَرَاعَةِ الْإِمْتِنَاعُ عَنْهُمَا أَوْ صَرْفُ أَحَدِهِمَا إِلَى الْآخَرِ، بَلْ يُدْرِكَانِهِمَا شَأْوَا، أَوْ أَبَوَا، وَسُلْطَانُهُمَا جَارٍ عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ لِيَغْيَرُ فِيهِمَا تَدْبِيرًا وَأَنَّ قَهْرَهُمَا الْخَلْقَ وَسُلْطَانُهُمَا كَانَ بِسُلْطَانٍ مَنْ لَهُ التَّدْبِيرُ وَالْعِلْمُ. ثُمَّ جَرِيَانُهُمَا عَلَى سَنَنِ وَاحِدٍ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مُنْشِئَهُمَا وَاحِدٌ وَمُدَبِّرُهُمَا عَلِيمٌ حَكِيمٌ.

وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: ﴿وَلَكُمْ مَا سَكَنَ فِي الْآيِلِ وَالنَّهَارِ﴾ وَمَا اسْتَقَرَّ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الدُّوَابِّ وَالطَّيْرِ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، فَمِنْهَا مَا يَسْتَقِرُّ نَهَارًا، وَيَتَشَوِّبُ لَيْلًا، وَمِنْهَا مَا يَسْتَقِرُّ بِاللَّيْلِ، وَيَتَشَوِّبُ بِالنَّهَارِ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ۖ [أَنَّهُ]^(٦) قَالَ: ﴿وَلَكُمْ مَا سَكَنَ فِي الْآيِلِ وَالنَّهَارِ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ كُفَّارَ أَهْلِ مَكَّةَ أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَقَالُوا:

(١) فِي الْأَصْلِ وَ م: وَقَوْلُهُ. (٢) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: أَي. (٣) فِي الْأَصْلِ وَ م: ذَلِكَ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَ م: غَيْرُهُ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَ م: لِلثَّوَابِ. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَ م.

يا محمد إنا قد عَلِمْنَا أَنَّهُ مَا يَحْمِلُكَ عَلَىٰ هَذَا الَّذِي تَدْعُو إِلَيْهِ إِلَّا الْحَاجَةُ. فَتَنَحْنُ نَجْعَلُكَ فِي أَمْوَالِنَا حَتَّىٰ تَكُونَ أَغْنَانَا رَجُلًا، وَتَرْجِعَ عَمَّا أَنْتَ عَلَيْهِ، فَتَزَلْ: ﴿وَلَمْ يَأْتِ فِي الْبَيْتِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ [لمقالة^(١)] أولئك ﴿الْعَالِمُونَ﴾ مِنْ أَيْنَ يَرْزُقُهُمْ. لَكِنَّ الْوَجْهَ فِيهِ مَا ذَكَّرْنَا آنفًا أَنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ تَحْتَ قَهْرِهِمَا وَسُلْطَانِهِمَا. وَفِيهِمَا وَجْهٌ مِنَ الْحِكْمَةِ: أَحَدُهُمَا بَغْضُ مَا ذَكَّرْنَا لِيُعْلَمَ أَنَّ مُدْبِرَهُمَا وَاحِدٌ. وَفِيهِ نَقْضُ قَوْلِ الْفَلَاسِفَةِ لَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: الظُّلْمَةُ كَثَافَةٌ سِتَارَةٌ، وَالنُّورُ رَقِيقٌ ذَرَاكٌ. وَفِيهِمَا مِنَ الْمَنَافِعِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِيَأْسَوْا وَالنَّهَارَ سُبْحَانَا وَجَعَلَ الْبَهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٧] وَغَيْرُهَا^(٢) مِنَ الْمَنَافِعِ.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لِمَنْ دَعَا لَهُ ﴿الْعَالِمُونَ﴾ بِمَصَالِحِ الْخَلْقِ وَحَاجَتِهِمْ.

الآية ١٤

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَغْنَىٰ اللَّهُ أَكْبَدَ رَبِّي﴾ وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَانَ هَذَا صِلَةً قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ لِمَنْ مَنَافِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْزَاقِ﴾ قَالُوا اللَّهُ. فَإِذَا أَفْرَزْتُمْ أَنَّ ذَلِكَ كُلُّهُ لِلَّهِ فَكَيْفَ تَتَّخِذُونَ لَهُ شُرَكَاءَ، فَتَعْبُدُونَ غَيْرَ اللَّهِ؟ وَهُوَ ﴿فَاطِرُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْزَاقِ﴾ وَمُنْشِئُهُمَا وَمُنْشِئُ مَا فِيهِمَا. كَيْفَ صَرَفْتُمْ الْعِبَادَةَ إِلَىٰ غَيْرِ اللَّهِ؟

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُعْلِمُ وَلَا يُغْمِضُ﴾ قَالَ أَهْلُ التَّوَاوِيلِ: هُوَ يَرْزُقُ، وَلَا يَرْزُقُ، وَلَيْسَ كَمَنْ لَهُ عَبِيدٌ فِي الشَّاهِدِ يَرْزُقُهُمْ بَعْضُهُمْ بَعْضًا مَوَالِي مِنَ الْعَبِيدِ وَالْعَبِيدِ مِنَ السَّادَاتِ؛ يَنْتَفِعُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ. فَأَمَّا اللَّهُ ﷻ [فقد^(٣)] خَلَقَ الْخَلْقَ لَا لِمَنْفَعَةٍ نَفْسِهِو لِأَنَّهُ غَنِيٌّ بِذَاتِهِ، وَالْخَلْقُ فَقَرَاءٌ إِلَيْهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَتَأَيَّأُ النَّاسُ أَشْتَرُ الْفَقْرَاءِ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ قَالَ الْحَسَنُ: أَوَّلُ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ قَوْمِهِ. وَاضْلُهُ: ﴿إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ أَيِ أُمِرْتُ أَنْ أَسْلِمَ، وَاخْتَصَّصَ^(٤) أَنَا أَوَّلًا، ثُمَّ أَمَرْتُمْ بِذَلِكَ.

وَاخْتَجَّ بَغْضُ النَّاسِ بِظَاهِرِ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ الْإِسْلَامَ لَا يُلْزَمُ إِلَّا بِالْأَمْرِ وَالدُّعَاءِ إِلَيْهِ، وَقَالُوا: إِنَّ مَنْ مَاتَ قَبْلَ أَنْ يُؤْمَرَ بِهِ وَقَبْلَ أَنْ يُدْعَىٰ إِلَيْهِ فَإِنَّهُ لَا شَيْءَ عَلَيْهِ. وَعَلَىٰ ذَلِكَ مَنْ مَاتَ فِي وَاقْتِ الْفِتْرَةِ وَانْقِطَاعِ الرُّسُلِ وَالْوَحْيِ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ أَخْبَرَ أَنَّهُ أُمِرَ بِذَلِكَ. وَإِذَا لَمْ يَكُنْ ثُمَّ أَمُرٌ لَمْ يُلْزَمُ. لَكِنَّ الْوَجْهَ فِي الْآيَةِ مَا ذَكَّرْنَا؛ أَيِ أُمِرْتُ أَنْ أَسْلِمَ، وَاخْضَعَ أَوَّلًا، ثُمَّ أَمُرٌ غَيْرِي. فَإِذَا كَانَ التَّوَاوِيلُ هَذَا بَظَلَّ أَنْ يَكُونَ فِي ذَلِكَ حُجَّةٌ لَهُمْ.

الآية ١٥

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِكُفَّارِ أَهْلِ مَكَّةَ: ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾ أَيِ أَعْلَمُ ﴿إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ فَقَبِذْتُ غَيْرَهُ ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. هَذَا التَّوَاوِيلُ صَحِيحٌ، إِنْ كَانَ مَا ذَكَّرْنَا مِنْ سُؤْلِهِمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَعَرْضَهُمُ الْمَالَ عَلَيْهِ لِيَعُودَ، وَيَرْجِعَ إِلَىٰ دِينِهِمْ، فَيُخْرِجُ هَذَا عَلَى الْجَوَابِ.

وقال بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ عَلَى الْخَوْفِ. لَكِنَّ لِقَائِلَ أَنْ يَقُولَ: كَيْفَ خَافَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ، وَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ عَفَرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ؟ وَكَيْفَ قَالَ: ﴿إِنْ عَصَيْتُ﴾ وَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ عَصَمَهُ، وَعَفَرَ لَهُ؟ قِيلَ: يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ الْمَغْفِرَةُ لَهُ عَلَى شَرْطِ الْخَوْفِ. عَفَرَ لَهُ لِيَخَافَ عَذَابَهُ.

الآية ١٦

وقوله تعالى: ﴿مَنْ يُضَرْفُ عَلَيْهِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَجِمَهُ﴾ قَالَ بَعْضُ الْمُعْتَرِلَةِ: الرَّحْمَةُ ههنا الْجَنَّةُ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ فِي الْآخِرَةِ دَارَيْنِ: إِحْدَاهُمَا^(٥): النَّارُ، سَمَّاها سَخَطَةً، وَالْأُخْرَى: الْجَنَّةُ، سَمَّاها رَحْمَةً. وَإِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَىٰ هَذَا لِأَنَّهُمْ لَا يَصِفُونَ اللَّهَ بِالرَّحْمَةِ فِي الْأَزَلِ. فَعَلَى قَوْلِهِمْ يَكُونُ قَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ^(٦) قَالَ: «لَا يَدْخُلُ أَحَدُ الْجَنَّةِ إِلَّا بِرَحْمَتِي». قِيلَ: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَّقِمَنِي اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ، فَادْخُلْ فِيهَا [مسلم: ٧١/٢٨١٦ و ٧٨/٢٨١٨].

وعلى هَذَا يُخْرِجُ مَا سَمَّى الْمَطَرُ رَحْمَةً لِمَا بِرَحْمَتِهِ يَنْزِلُ^(٧)، وَكَذَا كُلُّ مَا سَمَّى رَحْمَةً فِي الشَّاهِدِ يُخْرِجُ عَلَى مَا ذَكَّرْنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: لِمَقَابِلَةِ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَغَيْرِهِ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم: (٤) فِي م: وَأَخْضَعَ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: أَحَدُهُمَا. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٧) إِنْشَارَةٌ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإَنْظُرْ إِلَى مَائِدَتِي رَحْمَتِي اللَّهُ كَيْفَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا...﴾ [الروم: ٥٠].

ثم قوله تعالى: ﴿مَنْ يُصِرَّ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ قِيلَ: ﴿مَنْ يُصِرَّ عَنْهُ﴾ العذاب ﴿يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَجِمَهُ﴾. وكذلك روي في حَرْفٍ خَفِصَةً: مَنْ يُصِرَّ عَنْهُ شَرُّ ذَلِكَ الْيَوْمِ فَقَدْ رَجِمَهُ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ يُصِرَّ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَجِمَهُ﴾ صَلَةً قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٥]. وكذلك روي عن ابن عباس رضي الله عنه [أنه] ^(١) قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي قُلْ لِكُفَّارِ أَهْلِ مَكَّةَ حِينَ يَدْعُونَكَ ^(٢) إِلَى دِينِهِمْ عَلَى مَا ذَكَرَ فِي بَعْضِ الْقِصَصِ﴾ ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿مَنْ يُصِرَّ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَجِمَهُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَذَلِكَ الْقَوْمُ الْآلِيْنَ﴾ وذلك الصَّرَفُ؛ يعني صَرَفُ الْعَذَابِ الْقَوْمُ الْمُيَسَّرِينَ. وإنما ذَكَرَهُ، والله أعلم، قَوْراً مُبِيناً لَأَنَّهُ قَوْمٌ دَائِمٌ، لَا زَوَالَ لَهُ، وَلَيْسَ كَقَوْمِ هَذِهِ الدُّنْيَا؛ يَكُونُ فِي وَفْتٍ، ثُمَّ يَزُولُ عَنْ قَرِيبٍ. وكذلك قَوْمُ الْآخِرَةِ.

الآية ١٧

وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَسْأَلَكَ اللَّهُ بَصُرَ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَسْأَلَكَ بِخَيْرٍ﴾ فيه إخبارٌ أَنَّ مَا يُصِيبُ الْعَبْدَ مِنَ الضَّرَرِ وَالْخَيْرِ إِنَّمَا يُصِيبُهُ بِهِ.

ثم الضَّرَرُ الْمَذْكُورُ فِي الْآيَةِ لَا يَخْلُو مِنْ أَنْ يُرَادَ سُقْمُ النَّفْسِ أَوْ ضَيْقُ الْعَيْشِ أَوْ شِدَّةٌ وَظَلَمٌ يَكُونُ مِنَ الْعِبَادِ لَا يَخْلُو مِنْ هَذِهِ الْأَوْجُوِّ الثَّلَاثَةِ. فإذا كَانَ كَذَلِكَ، دَلَّتْ ^(٣) إِسْأَفَهُ ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى عَلَى أَنَّ اللَّهَ فِيهِ فِعْلًا، وَهُوَ أَنْ خَلَقَ فِعْلًا ذَلِكَ مِنْهُمْ ﴿تَبَوَّأَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ مِنْ كَشَفِ الضَّرَرِ لَهُ وَالصَّرَفِ عَنْهُ وَإِصَابَةِ الْخَيْرِ، لَا يَمْلِكُ ذَلِكَ غَيْرُهُ.

الآية ١٨

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْغَايُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ وَهُوَ الْمَلِكُ الْمَلِكُ ^(٤) [فِي] هَذِهِ الْآيَةِ وَالْآيَةِ ١٤٥ - ١ / الْأُولَى ذَكَرَ أَضْلَ التَّوْحِيدِ لَأَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّ مَا يُصِيبُ الْعِبَادَ مِنَ الضَّرَرِ وَالشَّدَّةِ لَا كَاشِفَ لِذَلِكَ إِلَّا هُوَ، وَلَا يَدْفَعُ ذَلِكَ عَنْهُمْ، وَلَا يُصْرِفُ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مَا يُصِيبُهُمْ مِنَ الْخَيْرِ إِنَّمَا يُصِيبُ ذَلِكَ بِاللَّهِ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الْغَايُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ إخبارٌ أَنَّهُ قَاهِرٌ، يَقْهَرُ الْخَلْقَ عَزِيزٌ قَادِرٌ، وَلَهُ سُلْطَانٌ عَلَيْهِمْ، وَأَنَّهُمْ أَذِلَّةٌ تَحْتَ سُلْطَانِهِ. وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ إخبارٌ بِالْعُلُوِّ لَهُ وَالْعِظَمَةِ وَالتَّعَالِي عَنْ أَشْبَاءِ الْخَلْقِ ﴿وَهُوَ الْمَلِكُ﴾ يَضَعُ كُلَّ شَيْءٍ مَوْضِعَهُ ﴿لِلْقَدِيرِ﴾ بِمَا يُسِرُّونَ وَمَا يُفْلِتُونَ؛ إخبارٌ أَنَّهُ ^(٥) لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ وَأَنَّهُ يَمْلِكُ وَضَعُ كُلِّ شَيْءٍ مَوْضِعَهُ وَأَنَّ مَا يُصِيبُهُمْ مِنَ الضَّرَرِ وَالشَّدَّةِ إِنَّمَا يَكُونُ بِهِ لَا يَمْلِكُ أَحَدٌ صَرْفَهُ، وَأَنَّ مَا ضَرَّ أَحَدًا أَحَدًا فِي الشَّاهِدِ أَوْ نَفَعَهُ أَحَدًا أَحَدًا إِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ بِاللَّهِ فِي الْحَقِيقَةِ.

وَفِي هَذِهِ الْأَحْرُفِ إخبارٌ عَنْ أَضْلِ التَّوْحِيدِ، وَمَا يُخْتِاجُ إِلَيْهِ لِمَا ذَكَرْنَا مِنَ الْوَصْفِ لَهُ بِالْقُدْرَةِ وَالْقَهْرِ وَالْوَصْفِ لَهُ بِالْعُلُوِّ وَالْعِظَمَةِ وَالتَّعَالِي عَنْ أَشْبَاءِ الْخَلْقِ وَالْوَصْفِ لَهُ بِالْحُكْمَةِ فِي جَمِيعِ أَعْمَالِهِ وَالْعِلْمِ بِكُلِّ مَا كَانَ، وَيَكُونُ.

الآية ١٩

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَى شَيْءٌ أَكْبَرَ شَيْئًا﴾ كَانَ فِي الْآيَةِ إِضْمَارًا ^(٦)، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَنْ قُلْ يَا مُحَمَّدٌ ﴿قُلْ أَتَى شَيْءٌ أَكْبَرَ شَيْئًا﴾ فَيَقُولُونَ ﴿اللَّهُ﴾ لَأَنَّهُمْ كَانُوا يَقْرَءُونَ أَنَّهُ خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنَّهُ أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، لَكِنَّهُمْ يُسْرِكُونَ غَيْرَهُ فِي عِبَادَتِهِ، وَيَقُولُونَ: ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيَقْرَبُونَكَ إِلَى اللَّهِ رُلْفًا﴾ [الزمر: ٣] وَلَا كَانُوا يَقْرَءُونَ بِالْعِظَمَةِ وَالْجَلَالِ. فإذا سَأَلُوا ﴿قُلْ أَتَى شَيْءٌ أَكْبَرَ شَيْئًا قُلْ اللَّهُ﴾ فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ لَهُمْ ذَلِكَ يَقُولُونَ هُمْ أَيْضًا.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فِي كُلِّ اخْتِلَافٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ فِي التَّوْحِيدِ وَالتَّبَعِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَنَحْوِهِ. وَيَحْتَمِلُ: ﴿قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فِي كُلِّ حُجَّةٍ وَبُرْهَانٍ أَنَا هَا الرَّسُولُ إِلَيْهِمْ ^(٧).

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿قُلْ أَتَى شَيْءٌ أَكْبَرَ شَيْئًا﴾ دَلَالَةٌ أَنَّهُ يُقَالُ لَهُ شَيْءٌ لَأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَحْزَأْ أَنْ يُقَالُ لَهُ شَيْءٌ لَمْ يَسْتَنْبِ الشَّيْءَ مِنْهُ، وَكَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] أَنَّهُ شَيْءٌ لَأَنَّهُ ^(٨) لَا شَيْءَ فِي الشَّاهِدِ. إِنَّمَا يُقَالُ: إِنَّمَا لِلنَّفْيِ وَإِنَّمَا لِلتَّضْيِيقِ، فَلَا يَجُوزُ فِي الْغَائِبِ النَّفْيِ وَلَا التَّضْيِيقِ، دَلٌّ أَنَّهُ إِنَّمَا يُرَادُ بِالشَّيْءِ الْإِبْثَاتُ، لَا غَيْرُ، وَبِاللَّهِ الْعِظَمَةِ.

(١) ساقطة من الأصل و م. (٢) في الأصل و م: دعوك. (٣) في الأصل و م: فذل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل و م: أن.

(٦) في الأصل و م: إضمار. (٧) في الأصل و م: بهم. (٨) في الأصل و م: لن.

ذَكَرَ فِي بَعْضِ الْقِصَّةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلْ أَتَىٰ عَنْهُ أَكْبَرُ شَهَدَةٍ﴾ أَنْ رُؤَسَاءَ مَكَّةَ أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ أَمَا وَجَدَ اللَّهُ رَسُولًا يُزِيلُهُ عَنْكَ؟ مَا تَرَىٰ أَحَدًا يُصَدِّقُكَ بِمَا تَقُولُ. وَقَدْ سَأَلْنَا عَنْكَ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، فَرَعَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ لَكَ عَنْدهُمْ ذِكْرٌ وَلَا صِفَةٌ وَلَا مَبْعُثٌ، فَأَرِنَا مَنْ شَهِدَ لَكَ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ؟ فَقَالَ اللَّهُ ﷻ: يَا مُحَمَّدُ قُلْ لَهُمْ ﴿قُلْ أَتَىٰ عَنْهُ أَكْبَرُ شَهَدَةٍ﴾ يَقُولُ: أَغْضَمُ شَهَادَةٌ؟ يَعْنِي الْبُرْهَانُ: مُحَمَّدٌ حُجَّةٌ وَبُرْهَانٌ، وَكُلُّ نَبِيٍّ حُجَّةٌ وَبُرْهَانٌ. فَإِنْ أَجَابُوكَ، فَقَالُوا: اللَّهُ، وَلَا فَقُلْ لَهُمْ: اللَّهُ أَكْبَرُ شَهَادَةٌ مِنْ خَلْقِهِ. أَنِّي رَسُولُهُ، وَاللَّهُ ﴿شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فِي كُلِّ اخْتِلَافٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ: فِي التَّوْحِيدِ وَإِثْبَاتِ الرِّسَالَةِ وَالْبَعْثِ وَكُلِّ شَيْءٍ.

وَذَكَرَ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ أَنَّهُمْ لَمَّا قَالُوا: مَنْ يَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَكَ رَسُولًا؟ قَالُوا: فَهَلَا^(١) أَنْزَلَ إِلَيْكَ مَلَكٌ؟ فَقَالَ لِنَبِيِّهِ: قُلْ لَهُمْ ﴿قُلْ أَتَىٰ عَنْهُ أَكْبَرُ شَهَدَةٍ﴾ قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُرْسِلْ إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُذَيِّدَكُمْ بِهِ. وَمَنْ بَلَغَ إِلَيْكُمْ لِتَشْهَدُونَ أَنَّكَ مَعَ اللَّهِ، إِلَهًا آخَرًا قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَحِيدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ فَقَالُوا: اللَّهُ أَكْبَرُ شَهَادَةٌ مِنْ غَيْرِهِ، فَقَالَ اللَّهُ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ: ﴿اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ وَأَنَّهُ أَوْحِيَ ﴿وَأُرْسِلْ إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُذَيِّدَكُمْ بِهِ. وَمَنْ بَلَغَ﴾ الْقُرْآنُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فَهُوَ نَذِيرٌ لَهُ. ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: ﴿إِلَيْكُمْ لِتَشْهَدُونَ أَنَّكَ مَعَ اللَّهِ، إِلَهًا آخَرًا﴾ قَالُوا: نَعَمْ نَشْهَدُ. فَقَالَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ قُلْ لَهُمْ: ﴿لَا أَشْهَدُ﴾ بِمَا شَهِدْتُمْ، وَلَكِنْ أَشْهَدُ أَنَّمَا ﴿هُوَ إِلَهٌ وَحِيدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأُرْسِلْ إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُذَيِّدَكُمْ بِهِ. وَمَنْ بَلَغَ﴾ كَانَهُ قَالَ: أَوْحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ الَّذِي يَغْرِفُونَهُ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ جَاءَ لِأَنَّهُ قَالَ لَهُمْ: ﴿قَاتِلُوا بِسُورَةٍ مِنْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٣ ويونس: ٣٨] فَعَجَزُوا عَنْ إِتْيَانِ مِثْلِهِ، فَقَدْ عَجَزُوا عَنْ إِتْيَانِ مِثْلِهِ أَنَّهُمْ عَرَفُوا أَنَّهُ جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ كَانَهُ قَالَ: ﴿وَأُرْسِلْ إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُذَيِّدَكُمْ بِهِ. وَمَنْ بَلَغَ﴾ الْقُرْآنُ صَارَ رَسُولُ اللَّهِ نَذِيرًا يَبْلُغُ الْقُرْآنَ لِمَنْ بَلَغَهُ. فَإِذَا صَارَ نَذِيرًا يَبْلُغُ لِمَنْ بَلَغَهُ، وَإِنْ كَانَ هُوَ فِي أَقْصَى الدُّنْيَا، يَصِيرُ هُوَ نَذِيرًا فِي أَقْصَى الزَّمَانِ فِي كُلِّ زَمَانٍ. وَهُوَ، وَاللَّهُ أَغْلَمُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] وَرَسُولُ اللَّهِ هَادٍ لِقَوْمِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وَفِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ أَنَّ الْبَشَارَةَ وَالنَّذَارَةَ تَكُونَانِ بِبَعْثِ آخَرٍ يَنْبَشِرُ، أَوْ يُنْذِرُ. وَهُوَ دَلِيلٌ لِقَوْلِ أَصْحَابِنَا: إِنَّ مَنْ حَلَفَ: أَيُّ عَبْدٍ مِنْ عِبِيدِي، بِشَرْنِي بِكَذَا، فَهُوَ حُرٌّ، فَبَشَرُهُ بِرَسُولٍ بِكَتَابٍ فَيَكُونُ بَشَارَةً.

وقوله تعالى: ﴿إِلَيْكُمْ لِتَشْهَدُونَ أَنَّكَ مَعَ اللَّهِ، إِلَهًا آخَرًا﴾ هَذَا فِي الظَّاهِرِ اسْتِفْهَامٌ، وَلَكِنَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ إِيجَابٌ أَنَّكُمْ تَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ بَعْدَ مَا ظَهَرَ عِنْدَكُمْ آيَاتُ وَخُدَائِيَّتِهِ^(٣) وَحُجُجُ رُبُوبِيَّتِهِ^(٤) لَمَّا عَرَفْتُمْ أَنَّهُ خَالِقُكُمْ وَخَالِقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ؛ يَوْمَ تَعِيشُونَ، وَتَخَيُّونَ، وَيَوْمَ تَمُوتُونَ بَعْدَهَا^(٥) ظَهَرَ لَكُمْ هَذَا أَشْرَاقُكُمْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ. وَلَيْسَ ذَلِكَ لَكُمْ مِمَّا تُشْرِكُونَ فِي عِبَادَتِهِ وَالْوُحْيَةِ، وَأَنَا ﴿لَا أَشْهَدُ﴾ وَإِنَّمَا أَشْهَدُ أَنَّهُ ﴿إِلَهٌ وَحِيدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

الآية ٢٠

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَبَ بِمَوْتِهِمْ كَمَا يَعْرِفُونَ ابْنَاءَهُمْ﴾ قِيلَ: نَزَلَتْ سُورَةُ الْإِنْعَامِ فِي مُحَاجَّةِ أَهْلِ الشِّرْكِ إِلَّا آيَاتٍ نَزَلَتْ فِي مُحَاجَّةِ أَهْلِ الْكِتَابِ: إِحْدَاهَا هَذِهِ. وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ أَهْلُ الشِّرْكِ يَعْرِفُونَ أَنَّهُ رَسُولٌ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ، وَيَكُونُ الْكِتَابُ هُوَ الْقُرْآنُ هَهُنَا لَمَّا قَرَعَ أَسْمَاعَهُمْ هَذَا الْقُرْآنُ، وَأَمَرُوا أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ، فَعَجَزُوا عَنْهُ، أَوْ بِمَا كَانُوا يَخْتَلِفُونَ إِلَى أَهْلِ الْكِتَابِ، وَيَسْأَلُونَهُمْ عَنْ بَعْثِهِ^(٦) وَصِفَتِهِ، وَيُخْبِرُونَهُمْ أَنَّهُ رَسُولٌ كَمَا عَرَفَ أَهْلُ الْكِتَابِ بِوُجُودِ بَعْثِهِ^(٧) وَصِفَتِهِ، وَيُخْبِرُونَهُمْ فِي كِتَابِهِمْ.

وَرُويَ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّهُ قَالَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ: وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَنْزَلَ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ بِمَكَّةَ ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَبَ بِمَوْتِهِمْ كَمَا يَعْرِفُونَ ابْنَاءَهُمْ﴾ فَكَيْفَ يَا عَبْدَ اللَّهِ الْمَعْرِفَةُ؟ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: يَا عُمَرُ لَقَدْ عَرَفْتُهُ فَيَكُنْ جِئَ رَأْيُهُ كَمَا أَعْرِفُ ابْنِي إِذْ رَأَيْتُهُ مَعَ الصُّبْيَانِ يَلْعَبُ، وَأَنَا أَشَدُّ مَعْرِفَةً بِمُحَمَّدٍ مِنِّي لِابْنِي. فَقَالَ: كَيْفَ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: أَنَا أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَقٌّ مِنَ اللَّهِ، وَلَا أَدْرِي مَا صَنَعَ النَّسَاءُ؟ أَوْ مَا أَحْدَثَ النَّسَاءُ؟ وَقَدْ نَعْتُهُ فِي كِتَابِنَا. فَقَالَ عُمَرُ: صَدَقْتَ، وَأَصَبْتَ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَ: فَهَلْ لَا. (٢) فِي الْأَصْلِ وَ: وَأَنْذَرُ مِنْ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَ: وَخُدَائِيَّة. (٤) فِي الْأَصْلِ وَ: رُبُوبِيَّة. (٥) فِي الْأَصْلِ وَ: عَمَّا. (٦) فِي الْأَصْلِ وَ: نَعْتُهُ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَ: نَعْتُهُ.

الآية ٢١ وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ قال أهل التأويل: لا أحد ﴿أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ لكن هذا في الحقيقة كأنه سؤال واستفهام؛ كأنه قال: من أظلم من الظالمين؟ قال: من ﴿افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾. يقال: من فعل هذا؟ قال: فلان، أو من قال هذا؟ قال: فلان. فهو، والله أعلم، على السؤال والاستفهام. ثم قيل: الذين افتروا على الله كذباً أن معه شريكاً لقولهم: إن مع الله آلهة أخرى.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ قيل: محمد ﷺ وقيل القرآن ﴿إِنَّهُ لَا يُلْحِقُ الظَّالِمُونَ﴾ قال بعضهم: ﴿إِنَّهُ لَا يُلْحِقُ الظَّالِمُونَ﴾ بطلانهم. لكن عند قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُلْحِقُ الظَّالِمُونَ﴾ ما داموا في ظلمهم، ونقول^(١): لا يُلْحِقُ الظَّالِمُونَ إذا ختموا، وماتوا على الظلم والكفر.

الآية ٢٢ وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِجَامًا تَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّا سُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ ذكر ههنا شركاءكم؛ أضاف ذلك إليهم لأنهم كانوا من جنسهم وجوهرهم يفتنون كما يفتنون. وذكر في آية أخرى ﴿إِنَّا سُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ١٧٤].

الآية ٢٣ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ قال الحسن: الآية نزلت في المنافقين؛ وذلك أنهم كانوا يكذبون في الدنيا في ما بينهم، فظنوا أن يتروّج كذبهم في الآخرة كما كان يتروّج في الدنيا. وسماهم مشركين لأنهم كانوا أشركوا في السر، فقالوا: ﴿وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

وقال غيره من أهل التأويل: الآية / ١٤٥ - ب/ نزلت في أهل الشرك من العرب؛ وذلك أنهم كانوا يشركون مع الله آلهة، وكانوا يتكبرون البعث بعد الموت، ويتكبرون الرسالة. فلما أن عاينوا ذلك أنكروا أن يكونوا أشركوا غيره في الوحي ورؤيته.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ أي لم يكن افتتانهم في الدنيا بإفترائهم على الله الكذب وإشراك غيره^(٢) معه وتكذيبهم بآيات الله ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ في الآخرة ﴿وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

وذكر في بعض القصص أن المشركين في الآخرة لما رأوا كيف يتجاوز الله عن أهل التوحيد، فقال بعضهم لبعض: إذا سئلنا فقولوا: إنا كنا موحدين، فلما جمعهم الله وشركاءهم، فقال: ﴿إِنَّا سُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ في الدنيا بأنهم معي شركاء^(٣). [وقوله تعالى]^(٤) ﴿ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾ قال أهل التأويل: مغذرتهم وجوابهم. إلا^(٥) الكذب حين سئلوا، فقالوا: ﴿وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ تبرؤوا من ذلك.

الآية ٢٤ ثم قال الله تعالى: ﴿أَنزَلْنَا كَذِبًا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ من الشرك في الدنيا قيل: لما أنكروا أن يكونوا مشركين في الدنيا ختم الله على ألسنتهم، وشهدت الجوارح عليهم بالشرك. وقيل: ﴿أَنزَلْنَا كَذِبًا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ يقول: كيف صار وبأل كذبهم عليهم ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ واشتغل ﴿عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ يقولون؛ يكذبون.

واضله أنه يذكر نبيه شدة تعذيبهم وسفههم أنهم كيف يكذبون عند معاينة العذاب؟ فإذا كانوا يتأني منه ويبعد كانوا أشد تكذيباً وأكثر تعنتاً^(٦) لأنهم يطلبون الرد إلى الدنيا [كقولهم]^(٧) ﴿فَيَسْتَفْعِلُونَ لَنَا أَوْ تُرَدُّ فَعْمَلٌ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣] [وكقوله]^(٨) ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

الآية ٢٥ وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَعِجِلُ بِالْكَلِّ﴾ [يَحْتَمِلُ وَجْهًا]:

أحدها^(٩): كانوا يستعجلون إليه ليُجادلوه على ما ذكر ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَكَ يَجِدُوكَ وَتُحَدِّثُكَ﴾ دل هذا أنهم كانوا يستمعون إليه للمجادلة معه والمُحَصْرَةِ.

(١) في الأصل و م: ويقول (٢) من م، في الأصل: غير. (٢) في الأصل و م: شريك. (٤) ساقطة في الأصل و م. (٥) في الأصل و م: إلا. (٦) في الأصل و م: تعنتهم. (٧) و (٨) و (٩) ساقطة من الأصل و م.

وَعَرَضْتَ دِينًا، قَدْ عَلِمْتَ بَأْتُهُ مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينًا
لَوْلَا الدَّمَامَةُ، أَوْ أَحَادِثُ سَبَّةٍ لَوَجَدْتَنِي سَمْحًا بِذَلِكَ مَتِينًا^(١)

كَانَ يَنْهَى النَّاسَ عَنْ أَدَى مُحَمَّدٍ ﷺ وَيَتَبَاعَدُ هُوَ عَنْهُ، فَلَا يَتَّبِعُهُ فِي دِينِهِ، فَتَرَكَ هَذَا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ إِنْهُمْ بِذَلِكَ يَسْعَوْنَ فِي هَلَاكِ أَنْفُسِهِمْ.

الآية ٢٧

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ﴾ عَنِ الْحَسَنِ [أَنَّهُ^(٢)] قَالَ: سَتَرَى ﴿إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ﴾. وَفِي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ: وَلَوْ تَرَى إِذْ عَرَضُوا عَلَى النَّارِ. وَكَذَلِكَ فِي ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٣٠]: إِذْ عَرَضُوا عَلَى رَبِّهِمْ. وَلَوْلَا مَا رَوَى عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ وَقَفُوا: عَرَضُوا عَلَى النَّارِ، لَجَازَ^(٣) أَنْ يُحْمَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ﴾ أَيِ عِنْدَ النَّارِ أَوْ فِي النَّارِ: عَلَى مَكَانٍ عِنْدَ أَوْ مَكَانٍ فِي. وَذَلِكَ جَائِزٌ فِي اللَّغَةِ. وَلَكِنْ مَا رَوَى عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ أَغْنَانَا^(٤) عَنْ ذَلِكَ.

ثُمَّ يُحْتَمَلُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَنْ يَكُونَ هَذَا صِلَةً [قَوْلِهِ تَعَالَى]^(٥): ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسْطِيطِرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥] وَهَكَذَا الْوَاجِبُ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ أَنْ يَرْحَمَ عَذْوُهُ إِذَا كَانَ عَاقِبَتُهُ النَّارُ وَالتَّخَلُّدُ فِيهَا، وَالْأَيُّ يَطْلُبُ الْإِنْتِقَامَ مِنْهُ بِمَا كَانَ مِنْهُ بِمَكَانِهِ أَوْ أَنْ يُقَالَ: وَلَوْ تَرَاهُمْ ﴿إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ﴾ مِنَ الدَّلِّ وَالْخُضُوعِ لَرَجِمْتَهُمْ بِمَا كَانَ مِنْهُمْ مِنَ التَّكْبِيرِ وَالِاسْتِكْبَارِ فِي الدُّنْيَا، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُتَجَرِّمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة: ١٧] الْآيَةَ، أَخْبَرَ عَنْ ذَلِكَ وَخُضُوعِهِمْ فِي الْآخِرَةِ بِمَا كَانَ مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْإِسْتِكْبَارِ وَالِاسْتِكْبَافِ. فَعَلَى ذَلِكَ يُخْبِرُ نَبِيُّهُ عَمَّا يُصِيبُهُمْ مِنَ الدَّلِّ بِتَكْبِيرِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿فَقَالُوا يَلَيْلَتَنَا فَرْدٌ وَلَا تَكْذِبَ يَأْتِي رَبَّنَا وَلَكُونَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ تَمَنُّوا عِنْدَ مُعَايِنَتِهِمُ الْعَذَابَ الْعَوْدَ وَالرَّدَّ.

ثُمَّ فِيهِ دَلِيلَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُمْ عَرَفُوا أَنَّ مَا أَصَابَهُمْ بِتَكْذِيبِهِمُ الْآيَاتِ وَتَرْكِهِمُ الْإِيمَانَ حِينَ قَالُوا: ﴿يَلَيْلَتَنَا فَرْدٌ وَلَا تَكْذِبَ يَأْتِي رَبَّنَا﴾.

وَالثَّانِي: أَنَّ الْإِيمَانَ هُوَ التَّصْدِيقُ الْفَرْدُ لَا غَيْرَ لِأَنَّهُمْ فَرَعُوا عِنْدَ مُعَايِنَتِهِمُ الْعَذَابَ، تَمَنُّوا الرَّدَّ وَالْعَوْدَ إِلَى الدُّنْيَا أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، لَمْ يَفْرَعُوا إِلَى شَيْءٍ آخَرَ مِنَ الْخَيْرَاتِ. دَلٌّ أَنَّ الْإِيمَانَ هُوَ التَّصْدِيقُ الْفَرْدُ لَا غَيْرَ، وَأَنَّهُ ضِدُّ التَّكْذِيبِ. وَالتَّكْذِيبُ هُوَ فَرْدٌ. فَعَلَى ذَلِكَ التَّصْدِيقُ.

الآية ٢٨

وقوله تعالى: ﴿بَلْ بَدَأْتُمْ مَا كَانُوا يَخْشَوْنَ مِنْ قَبْلُ﴾ قِيلَ فِيهِ بِوُجُوهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْهُمْ مَنْ يَنْتَعِمُ إِلَيْكَ﴾ [الأنعام: ٢٥] إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْمُنَافِقِينَ. يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ بَدَأْتُمْ مَا كَانُوا يَخْشَوْنَ ١٤٦ - أ / مِنْ قَبْلُ﴾ وَهُوَ سِمَةُ^(٦) أَهْلِ النِّفَاقِ: أَنَّهُمْ يُظَاهِرُونَ الْمَوَافَقَةَ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَيُضْمِرُونَ الْخِلَافَ، وَيُخْشَوْنَ الْعِدَاوَةَ لَهُمْ.

وَيُحْتَمَلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ بَدَأْتُمْ مَا كَانُوا يَخْشَوْنَ مِنْ قَبْلُ﴾ رُؤْسَاءَهُمْ؛ كَانُوا عَرَفُوا فِي الدُّنْيَا أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، وَأَنَّ مَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ، هُوَ مِنَ اللَّهِ، وَعَرَفُوا أَنَّ الْبَعْثَ حَقٌّ، لَكِنَّهُمْ أَخَفُوا ذَلِكَ عَلَى أَتْبَاعِهِمْ، وَأَسْرَوْهُ، ثُمَّ ظَهَرُوا مَا كَانُوا يَخْشَوْنَ عَلَى أَتْبَاعِهِمْ.

وقيل: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ بَدَأْتُمْ مَا كَانُوا يَخْشَوْنَ مِنْ قَبْلُ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ حِينَ قَالُوا: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ﴾ [الأنعام: ٢٧] أَيِ حَبَسُوا؛ إِذِ الْوُقُوفُ حَبَسٌ، وَلَوْ وَقَفَ: حَبَسَ، وَالنَّارُ لَا يُوَقَّفُ عَلَيْهَا، بَلْ يَكُونُ فِيهَا كَمَا قَالَ ﷺ: ﴿لَهُمْ مِنْ قَوْفِهِمْ ظُلَلٌ مِثْلُ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهَا ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦] وَقَالَ: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ قَوْفِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١].

(١) أدرجت هذه الآيات في البحر المحيط مع اختلاف في اللفظ [٤٧١/٤]. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وإلا يجوز.

(٤) في الأصل وم: أغننا. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، في الأصل: ستة.

وَيَحْتَمِلُ الْوَقْفَ عِنْدَهَا قَبْلَ الدُّخُولِ فِي حَالِ الْحِسَابِ^(١) لِلْمَسَاءَلَةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَرْوَحَهُمُ﴾ الآية [الصافات: ٢٢]، وكَقَوْلِهِ^(٢) تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ ذُلُّهُمْ وَخُضُوعَهُمْ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ﴾ [السجدة: ١٢].

ولم يبين جواب لو. وقد يترك جواب لو إما يعلم: رَبُّمَا يُعْلَمُ بِالتَّأْمُلِ أو بالذِّكْرِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢] بِمَعْنَى ظَنَنْتُمْ أو على ما ذَكَرَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ نَحْوِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَلْبُهُ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾ [النور: ١٦] وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ١٠] إِنَّمَا يُجِيبُ لِ: لَوْ وَغَيْرِ ذَلِكَ. فَلَعَلَّ مَعْنَاهُ: لَوْ تَرَىٰ ذُلُّهُمْ بَعْدَ اسْتِكْبَارِهِمْ لَرَجَحْتَهُمْ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ، وَلَهَانَ عَلَيْكَ التَّصَبُّرُ لِأَذَاهُمْ، وَلَا شَفَقَتْ عَلَيْهِمْ.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ ما يَنْزِلُ بِهِمْ مِنْ نَقْمَةِ اللَّهِ؛ وَيَحِلُّ بِهِمْ مِنْ عَذَابِهِ لَعَلِمْتَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّهُ بِحِلْمِهِ^(٣) وَرَحْمَتِهِ يُغْلِي لَهُمْ، وَتُسْتَرْجَعُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ رَىٰ الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوَىٰ الْعَذَابُ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ١٦٥] وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ جَوَابُهُ فِي مَا ذَكَرَ مِنْ تَمَنِّيهِمْ الْعَوْدَ وَنَدَامَتِهِمْ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْهُمْ وَشِدَّةِ تَلَهُّفِهِمْ عَلَى ضَيِّعِهِمْ لَرَأَيْتَ ذَلِكَ كَافِيًا وَجُزْءًا بِالْغَا [إِذَا يَكُونُ مَا]^(٤) يَنْزِلُ بِهِمْ أَغْظَمَ عِنْدَكَ مِمَّا تَلْقَى مِنْهُمْ. وقد يَخْرُجُ الْخَطَابُ لِرَسُولِ اللَّهِ عَلَى تَقْصِينِ تَنْبِيهِ كُلِّ مُتَمَيِّزٍ وَتَذَكِيرِ كُلِّ مُتَأَمِّلٍ، وَاللَّهُ أَغْلَمُ.

[وقوله تعالى]^(٥): ﴿بَلَّغْنَا رُدُّهُ﴾ قِيلَ: إِلَى الدُّنْيَا، وَقِيلَ: إِلَى الْمِخْنَةِ مِنْ حَيْثُ لَا يُحْتَمَلُ كَوْنُ الدُّنْيَا بَعْدَ كَوْنِ الْآخِرَةِ. لَكِنْ هَذَا تَكَلُّفٌ تَحْقِيقِي مُرَادٍ قَوْمٍ ظَهَرَ سَفَهُهُمْ. وَلَعَلَّهُ لَيْسَ عَنْدهُمْ هَذَا التَّمْيِيزُ، أَوْ يَقُولُونَ سَفَهًا كَمَا قَالُوا كَذِبًا بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَتَّبِعُهُمُ الْكُذِبُونَ﴾.

[وقوله]^(٦): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [قَالَ الْحَسَنُ: بِدِينِ رَبَّنَا]^(٧). وَقَالَ قَوْمٌ: بِحُجَجِ رَبَّنَا، فَيَكُونُ فِي الْآيَةِ اغْتِرَافٌ أَنَّهُمْ عَلَى التَّعَسُّبِ كَذَّبُوا فِي الْأَوَّلِ لَا عَلَى الْجَهْلِ. وَإِنْ كَانَ تَمَّ آيَاتُ عَائِدُوها، وَهُمْ قَوْمٌ قَدْ سَبَقَ مِنَ اللَّهِ الْخَبَرُ عَنْهُمْ مِمَّا فِيهِ الْعِنَادُ مِنْهُمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُتَشَكِّكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]. وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى تَعَتُّبِهِمْ فِي الْقَوْلِ لِيَتَخَلَّصُوا^(٨) مِمَّا بُلُّوا بِجَمِيعِ مَا يَحْتَمِلُ وَسُوءُهُمْ، لَا أَنَّ ذَلِكَ كَذَلِكَ فِي قُلُوبِهِمْ. لِذَلِكَ، وَاللَّهُ أَغْلَمُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَتَّبِعُهُمُ الْكُذِبُونَ﴾.

ثم دَلَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكْذِبْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا وَلَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [على أمرين:

الأول:]^(٩) أَنَّهُمْ قَدْ عَرَفُوا أَنَّ الْإِيمَانَ هُوَ التَّصْدِيقُ.

والثاني: أَنَّهُمْ ذَكَرُوا الْآيَاتِ، وَالْآيَاتُ يُكَذَّبُ بِهَا، وَيُصَدَّقُ، لَا أَنْ يُعْمَلَ.

وَبَعْدَ ذَلِكَ الَّذِي فِي حَدِّ امْكِانِ الْإِتْيَانِ مِمَّا فَاتَ هُوَ التَّصْدِيقُ؛ إِذِ الْغَيْرُ لَوْ تَوَهَّمِ الْأَمْرَ لَوَجَدَ^(١٠) مَا سَبَقَ مِنَ التَّرَكِّ. وَالتَّصْدِيقُ لَوْ أَمَرَ فَهُوَ لِمَا سَبَقَ مِنَ التَّكْذِيبِ. عَلَى أَنَّهُ أَجْمَعُ لَا يُؤْمَرُ مَنْ آمَنَ بِقَضَاءِ مِمَّا فَاتَ، فَتَبَّتْ أَنَّهُمْ أَرَادُوا بِهِ التَّصْدِيقَ. وَفِيهِ أَنَّهُ اسْمٌ لِذَلِكَ حَتَّى عَرَفَهُ أَهْلُهُ وَغَيْرُ أَهْلِهِ مَعْرِفَةً وَاحِدَةً، وَاللَّهُ أَغْلَمُ.

[وقوله تعالى]^(١١): ﴿بَلَّ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُفْتَنُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ يَخْرُجُ عَلَى وَجْهِ:

أَخْذُهَا: عَلَى أَنَّ الْآيَةَ فِي أَهْلِ النِّفَاقِ تُظْهِرُ^(١٢) مَا قَدْ أَضْمَرُوا مِنَ الْكُفْرِ.

والثاني: أَنَّ تَكُونَ الْآيَةُ فِي رُؤُوسِ الْكُفَرَةِ الْعُلَمَاءِ بِالْبَغْثِ وَبِأَنَّ الرُّسُلَ يَكُونُونَ^(١٣) مِنَ الْبَشَرِ.

(١) من م، في الأصل: الحسنات. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: بحمله. (٤) من م، في الأصل: أو يكون لما. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل، (٨) من م، في الأصل: ليستخلصوا. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: ليجد. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: ظهر. (١٣) في الأصل وم: تكون.

[والثالث^(١)]: «أَنْ لَا شَرِيكَ لِيَّ؛ قَبْدًا لِلْأَتْبَاعِ^(٢)» ما كَانَ الرُّؤَسَاءُ يُخْفُونَ فِي الدُّنْيَا، وَيَخْتَمِلُ: وَيَبْدَأُ لَهُمْ مِنْ صَنِيعِهِمْ مَا قَدْ أَسْرَوْهُ، وَأَضْمَرُوهُ فِي أَنْفُسِهِمْ؛ ظَنُّوا أَلَّا يَطَّلِعَ عَلَى ذَلِكَ أَحَدٌ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَبْلَى الْكَافِرُ﴾ [الطَّارِق: ٩] وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَحَصِلَ مَا فِي الْأَشْدُّورِ﴾ [العَادِيَات: ١٠] وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَيَخْتَمِلُ: مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنَ الْخَلْقِ أَوْ يَبْدَأُ لَهُمْ ذَلِكَ بِالْجَزَاءِ.

[وقوله تعالى^(٣)]: ﴿وَلَوْ رُدُّوْا﴾ أَي إِلَى مَا تَمَتُّوا أَنْ يَرُدُّوْا إِلَيْهِ ﴿لَعَادُوا لِمَا هُمْ عَنْهُ﴾ أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْ عِلْمِهِ بِمَا قَدْ أَسْرَوْهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ أَنَّ مَا كَانَ فِي عِلْمِهِ أَنْ يَكُونَ، وَإِنْ كَانَ مِنْ حُكْمِهِ، أَلَّا يَرُدُّوْا فِي ذَلِكَ [أَنْ^(٤)] الْآيَةُ لَا تُضْطَرُّ صَاحِبُهَا، وَلَا قُوَّةٌ إِلَّا بِاللَّهِ.

وَقَالَ قَوْمٌ: إِنْ الْخُلُودُ يُلْزِمُ فِي النَّارِ بِمَا هُمْ فِي عِلْمِ اللَّهِ أَنَّهُمْ يُلْزَمُونَ مَا هُمْ عَلَيْهِ لَوْ مَكَثُوا لِلْأَبَدِ. وَقَالَ قَوْمٌ: إِذَا لَمْ يَجْزِ لُزُومُ الْعَذَابِ بِمَا لَمْ يَعْلَمْ اللَّهُ مِنَ الْعِنَادِ مِنْ أَحَدٍ لَوْ امْتَحَنَ بِمَا يَخْتَصُّ وَلَا يَخْلَافُ. فَعَلَى ذَلِكَ أَمْرُ الْخِلَافِ لَكُنَّ الْآيَةُ فِي خَاصِّ مِنْهُمْ، وَهُمْ الَّذِينَ اعْتَدَوْا، وَعَانَدُوا^(٥) الْحَقَّ بَعْدَ الْوُضُوحِ عَلَى مَا ذُكِرَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْكُفْرَةِ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ أَبَدًا. ثُمَّ أَمْهَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ. وَهَذَا بَيِّنٌ أَنْ لَيْسَ تَمْنَعُ الْإِعَادَةُ لِمَا يَعُودُونَ لَهُ لَوْ كَانَ تَخْتَمِلُ فِي الْحِكْمَةِ الْإِعَادَةُ؛ إِذْ قَدْ أَمْهَلَ، وَابْقَى عَلَى الْعِلْمِ بِذَلِكَ. فَعَلَى ذَلِكَ الْإِعَادَةُ. لَكِنَّهُ أَخْبَرَ عَنْ تَعْتِيهِمْ.

ثُمَّ ظَنَّتِ الْمُعْتَرِضَةُ أَنَّ اللَّهَ لَوْ عَلِمَ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ لَرَدَّهُمْ إِلَى ذَلِكَ؛ إِذْ بَيَّنَّ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، فَيَسْتَدِلُّونَ بِهَذَا أَنْ لَيْسَ لِلَّهِ قَبْضُ رُوحٍ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَقْبِضْهُ يُؤْمِنُ يَوْمًا مِنَ الدَّمْرِ. وَقَدْ بَيَّنَّا نَحْنُ أَنَّ ذَلِكَ لَا يُوجِبُ، إِنْ كَانَ أَوَّلُكَ فِي عِلْمِ، أَنْ يَعُودُوا إِلَى ذَلِكَ بِمَا قَدْ يَتْرَكَ فِي الدُّنْيَا مَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَلْزَمُ الْكُفْرَ، وَيَتَجَبَّى مِنَ الْمَهَالِكِ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَعُودُ. ثُمَّ قَدْ يَتْرَكَ مَنْ يَعُودُ إِلَى الْكُفْرِ عَلَى وُجُودِ مَا بِهِ السَّجَاءُ عَنْهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَبَعْدُ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿وَلَوْ سَئَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشُّورَى: ٢٧] فَبَيَّنَّ أَنَّهُ لَا^(٦) يَسْطُ لِيَتَلَا يَبْغُوا، وَقَالَ: ﴿وَلَوْ لَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ﴾ [الزَّخْرَف: ٢٣].

ثُمَّ قَدْ جَعَلَ [الْبَسْطَ]^(٧) لِكَثِيرٍ مِنْهُمْ ضَلَّ بِهِمْ قَوْمٌ نَحْوُ الْفَرَاغَةِ وَلِكَثِيرٍ مِنْهُمْ، وَقَدْ بَغَوْا فِي الْأَرْضِ إِذْ [لَوْ^(٨)] لَمْ يَكُنِ الْبَسْطُ لِفِرْعَوْنَ لَمْ يَكُنْ لِيُدْعَى الْإِلَهِيَّةُ. لَكِنَّ الْأَوَّلَ طَرِيقَ الْفَضْلِ يُفْضَلُ بِهِ، وَالثَّانِي طَرِيقَ الْعَدْلِ وَمَا يَجُوزُ فِي الْحِكْمَةِ. فَعَلَى ذَلِكَ الْإِمْهَالُ؛ يَبَيِّنُ ذَلِكَ مَا كَانَ اللَّهُ يَأْمُرُ بِقَتْلِ مَنْ لَعَنَهُ يُؤْمِنُ لَوْ أَمْهَلَ بِمَا نُدِبَ إِلَى الْقِتَالِ. وَلَا يَخْتَمِلُ أَنْ يَأْمُرَ فِي قَتْلِ مَنْ لَيْسَ لَهُ قَبْضُ رُوحِهِ. وَقَدْ يُبْقَى مَنْ بِهِ يَهْلِكُ، وَيُضِلُّ، وَإِنْ قَبْضُ كَثِيرًا مِنْهُمْ بِمَا يُضِلُّ بِهِ، لَوْ بَقِيَ، كَمَا قَالَ: ﴿فَخَيَّبْنَا أَنْ يُرَفِّقَهُمَا طَائِفَتًا وَكَفَرًا﴾ [الْكَهْف: ٨٠] وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَوَضَّحَتِ الْخَوَارِجُ بِهَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ كُلَّ مَنْ يَزْتَكِبُ كِبِيرَةً يَظْهَرُ مِنْهُ كَذِبُهُ فِي مَا وَعَدَ أَنَّهُ لَا يَقْعَلُ؛ إِذْ اللَّهُ سَمَاهُمْ كَذِبَةً بِمَا فِي عِلْمِهِ أَنَّهُمْ يَعُودُونَ إِلَى ذَلِكَ.

فَإِذَا تَقَرَّرَ عِنْدَنَا مِنْ أَحَدٍ نَكُوثٌ^(٩) مَا كَانَ فِي عَهْدِهِ وَإِيمَانِهِ أَنَّهُ يَزْتَكِبُ [مَا]^(١٠) يَظْهَرُ بِهِ كَذِبُهُ، فَذَلِكَ خَطَأٌ لِمَا لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَكَانَ الصَّغَائِرُ وَالْكِبَائِرُ وَاحِدَةً^(١١). وَمَنْ كَذَبَ فِي أَمْرِ الْكِبَائِرِ^(١٢) فِي الْعَهْدِ، أَوْ [رَدَّهُ، يَكْفُرُ]^(١٣)، وَمَنْ ارْتَكَبَ الصَّغِيرَةَ لَمْ يَصِرْ كَذَلِكَ^(١٤).

لَكِنَّ الْآيَةَ تُخْرِجُ عَلَى وَجْهِ:

أَخَذَهَا: أَنَهَا فِي قَوْمٍ أَرَادُوا بِذَلِكَ دَفْعَ الْعَذَابِ لَا أَنْ عَزَمُوا عَلَى مَا ذَكَرُوا. دَلِيلُهُ فَتَنَّتْهُمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ رَيْنَانًا كَمَا مُشْرِكِينَ﴾.

(١) فِي الْأَصْلِ وَ م: و. (٢) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: لَاتِبَاع. (٣) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٤) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٥) فِي الْأَصْلِ: وَعَنَدُوا. (٦) فِي الْأَصْلِ وَ م: لَوْ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَ م. (٨) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَ م: رَكُوب. (١٠) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَ م. (١١) فِي الْأَصْلِ وَ م: وَاحِدًا. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَ م: الصَّغَائِرُ. (١٣) فِي الْأَصْلِ: رَدَّ، وَيَكْفُرُ، فِي م: رَدَّ، يَكْفُرُ. (١٤) أَدْرَجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ وَ م الْعِبَارَةَ التَّالِيَةَ: فَعَلَى ذَلِكَ الْكِبَائِرُ.

والثاني: أنه ذَكَرَ كَذِبَهُمْ؛ انطلق الله جوارِحَهُمْ، فَصَدَّتْ عَلَيْهِمْ بِمَا كَتَمُوا مِنَ الشُّرْكِ، فَتَمَتُّوا عِنْدَ ذَلِكَ الْعَوْدِ وَالرَّدِّ.

والثالث^(١): ﴿بَدَأَ لَكُمْ﴾ ظَهَرَ لَهُمْ ﴿مَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ مِنْ بَغْيِ^(٢) مُحَمَّدٍ وَصَفِيٍّ ﷺ فِي الدُّنْيَا، وَكَتَمُوهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ تَعَلَّقَ بِظَاهِرِ هَذِهِ الْآيَةِ الْخَوَارِجُ وَالْمُغْتَرِلَةُ.

أَمَّا الْمُغْتَرِلَةُ فَإِنَّهُمْ قَالُوا: إِنَّمَا لَمَّا طَلَبُوا الرَّدَّ لَمْ يَرُدُّهُمْ لِمَا عَلِمَ أَنَّهُمْ لَوْ ﴿رُدُّوا لَعَادُوا﴾ إِلَى التَّكْذِيبِ ثَانِيًا. وَلَوْ عَلِمَ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ لَا يَعُودُونَ لَكَانَ لَا يَرُدُّهُمْ. فَدَلَّ أَنَّهُ إِنَّمَا لَمْ يَرُدُّهُمْ لِمَا عَلِمَ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ يَعُودُونَ إِلَى مَا كَانُوا مِنْ قَبْلُ. فَيَسْتَدِلُّونَ بِظَاهِرِ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ لَا يَفْعَلُ بِالْعَبِيدِ^(٣) إِلَّا الْأَصْلَحَ/١٤٦ - ب/ لَهُمْ فِي الدِّينِ. وَقَالُوا: لَوْ عَلِمَ مِنْهُمْ الْإِيمَانَ لَكَانَ لَا يَجُوزُ لَهُ إِلَّا يَرُدُّهُمْ. وَمِنْ قَوْلِهِمْ: إِنَّهُ إِذَا عَلِمَ مِنْ كَافِرٍ أَنَّهُ يُؤْمِنُ فِي آخِرِ عُمرِهِ لَمْ يُجْزَ لَهُ أَنْ يُبَيِّتَهُ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْمُخَايَلِ وَالْأَبَاطِيلِ.

وقالت الخوارج: اخْبَرَ أَنَّهُ لَوْ رَدُّهُمْ ﴿لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ وَسَمَّاهُمْ بِالْقَوْلِ كَاذِبِينَ لِمَا فِي عِلْمِهِ أَنَّهُمْ لَا يَفْعَلُونَ بِمَا يَقُولُونَ. فَعَلَى ذَلِكَ كُلِّ صَاحِبٍ كَبِيرَةٍ إِذَا كَانَ فِي اعْتِقَادِهِ الَّذِي أَظْهَرَهُ أَنَّهُ لَا يَأْتِي بِهَا، فَإِذَا أَتَى بِهَا يَصِيرُ فِي مَا اغْتَقَدَهُ كَاذِبًا. وَلِذَلِكَ يَجْعَلُونَ أَصْحَابَ الْكِبَايِرِ كَذِبَةً فِي الْقَوْلِ الْأَوَّلِ: إِنَّهُمْ لَا يَأْتُونَ بِهَا. وَعَلَى ذَلِكَ الْمُبَايَعَةُ بِقَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي خَلَقْتُكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلْتُمْ مِنْهَا قُبُورًا﴾. وَغَيْرَ ذَلِكَ يَجْعَلُونَهُ كَافِرًا.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿لَكَاذِبُونَ﴾ أَوْ ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿لَكَاذِبُونَ﴾ فِي قَوْلِهِمْ، وَيَكُونُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ؛ أَيْ يُضْمِرُونَ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِقَوْلِهِ تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَتَّبِعُكَ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] يَقُولُونَ ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ لَكُنْهُمْ لَمَّا أَضْمَرُوا خِلَافَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِهِمْ سَمَّاهُمْ كَاذِبِينَ. فَعَلَى ذَلِكَ هَؤُلَاءِ لَمَّا أَضْمَرُوا فِي أَنْفُسِهِمُ التَّكْذِيبَ، وَإِنْ رُدُّوا، فَهُمْ كَاذِبُونَ فِي ذَلِكَ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا﴾ [فِيهِ وَجُوهٌ]:

أَحَدُهَا: [٤٤] قِيلَ: إِلَى الدُّنْيَا، وَلَكِنْ رُدُّوا إِلَى الْخِيَةِ ثَانِيًا ﴿لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾.

والثاني: أنه ذَكَرَ كَذِبَهُمْ بِمَا اعْتَادُوا الْعِنَادَ، وَظَهَرَ مِنْهُمْ الْجُحُودُ فِي الْقَدِيمِ. فَبِذَلِكَ سَمَّاهُمْ كَذِبَةً كَمَا سَمَّى أَهْلَ النَّارِ كُفْرًا بِمَا كَانَ مِنْ كُفْرِهِمْ قَبْلَ أَنْ يَصِيرُوا إِلَيْهَا. فَعَلَى ذَلِكَ هَذَا.

والثالث: أَنْ يَكُونَ عَلَى الْخَبَرِ عَنْ عَاقِبَتِهِمْ أَنَّهُمْ يَصِيرُونَ كَاذِبِينَ لَوْ رُدُّوا، وَعَرِضَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ، وَبُعِثَ إِلَيْهِمْ^(٥) الرُّسُلُ بِالْآيَاتِ لَا أَنْ يَكْذِبُوا فِي ذَلِكَ الْوَعْدِ.

الآية ٢٩ وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنَّمَا هِيَ إِلهَاتُنَا الْأَدْنَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا هِيَ﴾ يَحْتَمِلُ: هِيَ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا، وَيَحْتَمِلُ: هِيَ الدُّنْيَا. ثُمَّ هَذَا الْقَوْلُ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الدَّهْرِ يُنْكِرُونَ الْبُعْثَ وَالْحَيَاةَ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَيَقُولُونَ: إِنَّ هَذَا الْخَلْقَ كَالنَّبَاتِ، يَنْبُتُ، ثُمَّ يَتَلَاشَى. فَعَلَى ذَلِكَ الْخَلْقُ، يَمُوتُونَ، وَيَصِيرُونَ تُرَابًا، ثُمَّ يَخْتِيرُونَ فِي الدُّنْيَا كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]. وَيَحْتَمِلُ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ كَانَ مِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ لِمَا لَمْ يَرَوْا إِلَّا الدَّهْرَ، وَلَمْ يُشَاهِدُوا غَيْرَهُ، فَقَالُوا أَنَّهُ لَيْسَ يُهْلِكُهُمْ إِلَّا ذَلِكَ الدَّهْرُ الَّذِي تَدُورُ الدُّنْيَا عَلَيْهِ. فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ مِنْهُمْ فَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ مِنْ كِبَرَاتِهِمْ، وَرُؤُوسَاؤُهُمْ عَلَى عِلْمٍ مِنْهُمْ بِذَلِكَ أَيْ بِالْبُعْثِ يَلْبَسُونَ عَلَى السُّفْلَةِ وَالْإِتْبَاعِ لِيَكُونُوا أَشَدَّ اتِّبَاعًا لَهُمْ وَانْقِيَادًا لَانَّهُمْ لَوْ أَغْلَمُوا الْإِتْبَاعَ بِالْبُعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ لَعَلَّهُمْ يَتَرَكُونَ طَاعَتَهُمْ وَاتِّبَاعَهُمْ لِمَا يَسْتَحِيلُونَ بِالْإِسْتِعْدَادِ لِلذِّكْرِ وَالْعَمَلِ لَهُ؛ فَفِي ذَلِكَ تَرَكُ اتِّبَاعَهُمْ وَطَاعَتَهُمْ.

الآية ٣٠ وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَقُولُ عَلَى رَبِّهِمْ﴾ أَيْ لِرَبِّهِمْ كَقَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّهِمُ الْآتِينَ﴾ [المطففين: ٦]

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: يَحْتَمِلُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: نَعَتْ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: الْعَبْدُ. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: عَلَيْهِمْ.

وكقولهِ تعالى: ﴿وَمَا ذُبحَ عَلَى النَّصِيبِ﴾ [المائدة: ٣] أي لِلنَّصِيبِ. وأصلُهُ ما رُوِيَ في حَرْفِ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَقُولُا﴾ ^(١) إِنْ عَرَضُوا ﴿عَلَى رَبِّهِمْ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ أي البَغْتُ بَعْدَ المَوْتِ لأنَّهُمْ كانوا يُنْكِرُونَ البَغْتَ، ويقولُونَ: إنه باطلٌ. ويَحْتَمِلُ بما كانوا أوعَدُوا بالعَذابِ إِنْ لم يُؤْمِنُوا، فَكَذَّبُوا ذلكَ، فقال: أَلَيْسَ ما أوعَدْتُمْ في الدنيا حَقًّا ^(٢)، فأقروا، فقالوا ﴿بَلَى وَرَبَّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ في الدنيا.

الآية ٣١

وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي كَذَّبُوا لِقَاءَ وَعْدِ اللَّهِ وَوَعِيدِهِ في الدنيا. وعلى ذلك يُخْرِجُ ما رُوِيَ في الحَبَرِ: ﴿مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ﴾ أي أَحَبَّ لِقَاءَ ما وَعَدَ اللَّهُ لَهُ ﴿وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ﴾ أي كَرِهَ ما وَعَدَ لَهُ. وأصلُهُ: ﴿مَنْ أَحَبَّ الرَّجُوعَ إِلَى اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ رُجُوعَهُ وَمَنْ كَرِهَ الرَّجُوعَ إِلَى اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ رُجُوعَهُ﴾ [البخاري ٦٥٠٧ و ٦٥٠٨] والمَحَبَّةُ لِلَّهِ اختيارُ أمرِهِ وطاعَتِهِ. وعلى ذلك ما رُوِيَ في الحَبَرِ عَنْ رسولِ اللَّهِ ﷺ [أنه] ^(٣) قال: «الدنيا جَنَّةُ الكافرِ يَلْعَبُ فيها، وَيَرْتَكِضُ في أمانِها، وَيَسْجُنُ المؤمنِ، وراحتُهُ بالموتِ» [مسلم: ٢٩٥٦].

وأصلُهُ أنها يسْجُنُ المؤمنِ؛ لأنَّ المؤمنَ يَمْنَعُهُ دينُهُ مِنْ قَضَاءِ شَهَوَاتِهِ لِمَا يَخافُ هَلَاكَهُ، وَيُحَذِّرُهُ عَمَّا يَفِيضُهُ إِلَى الهَلَاكِ. والكافرُ لا يَمْنَعُهُ شَيْءٌ مِنْ ذلكَ عَمَّا يَريدُ مِنْ قَضَاءِ شَهَوَاتِهِ في الدنيا، فتكونُ لَهُ كالجَنَّةِ وَلِلْمُؤْمِنِ كالسَّجَنِ على ما ذَكَرْنَا. وَيَحْتَمِلُ وَجْهاً آخَرَ وهو أَنَّ الكافرَ عِنْدَ المَوْتِ يُعَايِنُ مَكَانَهُ وما أوعَدَ لَهُ في النارِ؛ فَتَصِيرُ عِنْدَ ذلكَ الدنيا كالجَنَّةِ لَهُ؛ [يُريدُ الرَّجُوعَ إليها] ^(٤)، والمؤمنُ يُعَايِنُ مَوْضِعَهُ في الجَنَّةِ، فَتَصِيرُ [الدنيا] ^(٥) كالسَّجَنِ لَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَقَّقْ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَشَقَّةٌ﴾ قيل: سُمِّيَتِ القِيَامَةُ سَاعَةً لِسرْعَتِها لَيْسَتْ كالدنيا؛ لأنَّ في الدنيا تَتَغَيَّرُ فيها على المَرَّةِ الأحوالُ؛ يكونُ نَظْفَةً، ثم يصيرُ غَلْفَةً، ثم مُضْغَةً، ثم يصيرُ خَلْقاً آخَرَ، ثم إنساناً، ثم يكونُ طِفْلاً، ثم رجلاً؛ تَتَغَيَّرُ عليه الأحوالُ.

وأما القِيَامَةُ فإنها لا تَقُومُ على تَغْيِيرِ الأحوالِ؛ فَسُمِّيَتِ السَّاعَةُ لِسرْعَتِها بِهِمْ، وقيل: سُمِّيَتِ القِيَامَةُ السَّاعَةَ لأنها تَقُومُ في ساعةٍ، وهو كقولهِ تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧] وقيل: سُمِّيَتِ السَّاعَةُ لِما ^(٦) تَقُومُ سَاعَةً قَسَاعَةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَشَقَّةٌ﴾ أي فَجْأَةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَحْتَرِثْنَا عَلَى مَا قَرَرْنَا فِيهَا﴾ قيل: التَّحَرِيطُ هو التَّضْيِيعُ؛ فَيَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿مَا قَرَرْنَا فِيهَا﴾ أي ما ضَيَّعْنَا في الدنيا مِنَ المحاسِنِ والطاعاتِ، وَيَحْتَمِلُ: ضَيَّعْنَا في الآخِرَةِ مِنَ الثَّوابِ والجَزاءِ الجَزِيلِ بِكُفْرِهِمْ في الدنيا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ هو، والله أعلمُ، على التَّمْثِيلِ لَيْسَ على التَّحْقِيقِ؛ وهو يَحْتَمِلُ [وُجُوهاً]:

أحدها ^(٧): يَحْتَمِلُ أنه أَخْبَرَ أَنَّهُمْ ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ بما لَزِمُوا أَوْزَارَهُمْ وآثَامَهُمْ، لم يُفَارِقُوا قَطُّ؛ وَصَفَهُمْ بِالحَمْلِ على الظَّهِيرِ، وهو كقولهِ تعالى: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمَتْهُ طَلَبُهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء: ١٣]. ولكن لِمَا لَزِمَ ذلكَ صارَ كأنه في عُنُقِهِ.

والثاني: إنما ذَكَرَ الظَّهْرَ [لِما على الظَّهِيرِ] ^(٨) يُحْمَلُ ما يُحْمَلُ، فَكانَ كقولهِ تعالى: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمَتْهُ طَلَبُهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الشورى: ٣٠] [وكقولهِ تعالى] ^(٩): ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتْ أَيْدِيَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٢] لأنَّ الكُفْرَ لا يُكْتَسَبُ بالأَيْدِي، ولا يُقَدَّمُ بها، لكنَّ اكْتِسَابَ الشَّيْءِ وَتَقْدِيمَهُ لِمَا كانَ باليَدِ ذَكَرَ اكْتِسَابَ اليَدِ وَتَقْدِيمَهُ، وكقولهِ تعالى: ﴿فَتَبَدَّوْهُ وَرَأَى

(١) انظر ما ذكره المؤلف في تفسير الآية ٢٧ ص ١٠٦. (٢) في الأصل وم: حق. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم، يكره الرجوع. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، في الأصل: ما. (٧) في الأصل: على وجهين، في م: وجهين. (٨) في م: لما بالظهير، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: و.

ظُهُورِهِمْ ﴿آل عمران: ١٨٧﴾ إِنَّهُمْ لَمَّا تَرَكُوا الْعَمَلَ بِهِ وَالْإِنْتِفَاعَ صَارَ كَالْمَنْبُذِ وَرَاءَ الظُّهْرِ لَأَنَّهُ الَّذِي يُنْبَذُ وَرَاءَ الظُّهْرِ هُوَ الَّذِي لَا يُعْتَبَرُ بِهِ، وَلَا يُكْتَرَبُ إِلَيْهِ.

وَيَحْتَمِلُ وَجْهًا آخَرَ [هو ما ذُكِرَ] ^(١) فِي بَعْضِ الْقِصَصِ أَنَّهُ يَأْتِيهِ عَمَلُهُ الْحَبِيثُ عَلَى صُورَةِ قَيْحَةٍ، فَيَقُولُ لَهُ: كُنْتُ أَحْمِلُكَ فِي الدُّنْيَا بِاللَّذَاتِ وَالشَّهَوَاتِ، وَأَنْتَ الْيَوْمَ تَحْمِلُنِي، فَيَرْكَبُ ظَهْرَهُ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِينُونَ﴾.

الآية ٣٢ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَبِثٌ وَلَهُوَ﴾ أَيِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَاصَّةً لِأَنَّ الْعَمَلَ إِذَا لَمْ يَكُنْ لِعَاقِبَةٍ، تَتَأَمَّلُ، فَهُوَ عَبَثٌ، كَمَا بَانَ يَتَنَبَّأُ بِنَاءَ لَا لِعَاقِبَةٍ، يَتَأَمَّلُ، وَيَقْصِدُ [عَاقِبَةً] ^(٢) بُنْيَانِيَّةً، فَهُوَ لَبِثٌ عَبَثٌ. فَقَالَى ذَلِكَ [الْعَمَلُ فِي] ^(٣) الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لَا لِإِدَارٍ أُخْرَى، يَتَأَمَّلُ، وَيُرْجَى بِهِ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ لَيْسَ بِحِكْمَةٍ، وَإِنَّمَا هُوَ لَبِثٌ وَلَهُوَ. وَعَلَى ذَلِكَ يُخْرِجُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]. أَخْبَرَ أَنَّ خَلْقَهُ إِيَّاهُمْ إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلرُّجُوعِ إِلَيْهِ فِيهِ عَبَثٌ. فَقَالَى ذَلِكَ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِذَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ بَعَثٌ وَلَا حَيَاةٌ بَعْدَ الْمَوْتِ لِلثَّوَابِ وَالْعِقَابِ فَهُوَ لَبِثٌ وَلَهُوَ. وَاللَّهُوَ مَا يَقْصِدُ بِهِ قَضَاءُ الشَّهْوَةِ خَاصَّةً، لَا تَقْصِدُ بِهِ الْعَاقِبَةُ. وَاللَّبِثُ هُوَ الَّذِي لَا حَقِيقَةَ لَهُ، وَلَا مَقْصِدَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّذَارِ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أَيِ الدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ/ ١٤٧ - أ/ الشَّرْكَ وَالْفَوَاحِشُ كُلُّهَا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

وَأَضْلَهُ أَنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى مَا عِنْدَ أُولَئِكَ الْكَافِرَةِ لَبِثٌ وَلَهُوَ لِأَنَّهُمْ لَا يَبْعَثُ، وَلَا ثَوَابَ، وَلَا عِقَابَ، فَإِذَا كَانَ عَنْدهُمْ هَكَذَا، فَيَصِيرُ لَبِثًا وَلَهُوَ لِأَنَّهُ يَحْصُلُ إِنشَاءٌ لَا عَاقِبَةَ لَهُ، فَيَكُونُ كِبْنَاءِ الْبِنَاءِ الَّذِي ذَكَّرْنَا إِذَا كَانَتْ ^(٤) عَاقِبَتُهُ غَيْرَ مَقْصُودَةٍ، فَهُوَ لَا انْتِفَاعَ بِهِ.

الآية ٣٣ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، إِخْبَارٌ مِنْهُ نَبِيَّهُ ﷺ أَنَّهُ عَلَى ^(٥) عِلْمٍ مِنْهُ بِتَكْذِيبِهِمْ إِيَّاكَ [حين] ^(٦) بَعَثْتَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا، وَأَمَرَكَ بِتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ إِلَيْهِمْ، وَكَانَ عَالِمًا بِمَا يُلْحَقُكَ مِنَ الْحُزَنِ بِتَكْذِيبِهِمْ إِيَّاكَ، وَلَكِنْ بَعَثْتَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا مَعَ عِلْمٍ مِنْهُ بِهَذَا كُلِّهِ لِيُبَلِّغَهُمْ بِذِكْرِ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ لِيُعْلِمَ رَسُولَهُ أَنَّ لَا عُدْرَةَ لَهُ فِي تَرْكِ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ، وَإِنْ كَذَّبُوهُ فِي تَبْلِيغِهَا.

ثُمَّ الَّذِي يَحْمِلُهُ عَلَى الْحُزَنِ يَحْتَمِلُ وَجْهًا: يَحْتَمِلُ يُحْزِنُهُ أَفْرَاقُهُمْ وَكَذِبُهُمْ عَلَى اللَّهِ، أَوْ كَانَ يَحْزَنُ لِتَكْذِيبِ أَقْرَابِهِ وَعَشِيرَتِهِ إِيَّاهُ؛ فَإِنَّ أَكْثَرَهُ عَشِيرَتُهُ انْتَهَى الْخَبَرُ إِلَى الْأَبْعَدِينَ، فَيُكْذِّبُونَهُ، فَيَحْزَنُ لِذَلِكَ، أَوْ يَحْزَنُ حُزْنَ طَنَعٍ لِأَنَّهُ طَنَعَ كُلِّ أَحَدٍ، يَنْفَرُ عَنِ التَّكْذِيبِ، أَوْ كَانَ يَحْزَنُ إِشْفَاقًا عَلَيْهِمْ بِمَا يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعَذَابِ بِتَكْذِيبِهِمْ إِيَّاهُ وَأَذَاهُمْ لَهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ نَقِصَ نَفْسِكَ﴾ الْآيَةُ [الكهف: ٦، والشعراء: ٣] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتًا﴾ [فاطر: ٨].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ اخْتَلَفَ فِي تِلَاوَتِهِ ^(٧): قَرَأَ بَعْضُهُمْ بِالْخَفِيفِ، وَبَعْضُهُمْ بِالشَّدِيدِ وَالتَّثْقِيلِ؛ فَمَنْ قَرَأَ بِالْخَفِيفِ لَا يُكْذِّبُونَكَ أَيْ لَا يَجِدُونَكَ كَاذِبًا قَطُّ، وَمَنْ قَرَأَ بِالتَّثْقِيلِ ﴿لَا يُكْذِّبُونَكَ﴾ أَيْ لَا يَنْسِبُونَكَ إِلَى الْكَذِبِ، وَلَا يُكْذِّبُونَكَ فِي نَفْسِكَ. وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿لَا يُكْذِّبُونَكَ﴾ فِي السَّرِّ، وَلَكِنْ يَقُولُونَ ذَلِكَ فِي الْعَلَانِيَةِ. وَالتَّكْذِيبُ هُوَ أَنْ يَقَالَ: إِنَّكَ كَاذِبٌ.

[وَقَوْلُهُ تَعَالَى] ^(٨): ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ يَقَابِلْتُ اللَّهَ بِجَحْدُونَ﴾ [أَيِ عَادَةُ الظَّالِمِينَ] ^(٩) التَّكْذِيبُ بِآيَاتِ اللَّهِ. وَ﴿الظَّالِمِينَ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: ﴿الظَّالِمِينَ﴾ عَلَى نَعَمِ اللَّهِ؛ عَادَتُهُمُ التَّكْذِيبُ بِآيَاتِ اللَّهِ.

[وَالثَّانِي] ^(١٠) ﴿الظَّالِمِينَ﴾ عَلَى أَنْفُسِهِمْ لِأَنَّهُمْ وَضَعُوهَا فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا.

(١) فِي الْأَصْلِ وَ م: مَا ذَكَرَهُ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَ م. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَ م. (٤) فِي الْأَصْلِ وَ م: كَانَ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَ م: مِنْ. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَ م. (٧) قَرَأَ نَافِعٌ وَالْكَسَائِيُّ بِالْخَفِيفِ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِالشَّدِيدِ، انْظُرْ حُجَّةَ الْقُرَّاءَاتِ ص (٢٤٧). (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَ م. (٩) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَ م: وَ.

الآية ٣٤

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا﴾ يُخْبِرُ نَبِيَّهُ ﷺ وَيُصَبِّرُهُ عَلَى تَكْذِيبِهِمْ إِيَّاهُ وَأَظَاهَرَهُمُ الرِّسَالَةَ؛ يَقُولُ: لَسْتَ أَنْتَ أَوَّلُ مُكَذَّبٍ مِّنَ الرُّسُلِ، بَلْ كُذِّبَ إِخْوَانُكَ مِنْ قَبْلِكَ عَلَى تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ، فَصَبْرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا، وَأَوْدُوا، وَلَمْ يَتْرَكُوا تَبْلِيغَ الرِّسَالَةِ مَعَ تَكْذِيبِهِمْ إِيَّاهُمْ. فَعَلَى ذَلِكَ لَا عُدْرَ لَكَ فِي تَرْكِ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ، وَإِنْ كُذِّبُوكَ فِي التَّبْلِيغِ، وَيُؤْذُونَكَ؛ وَهُوَ مَا ذَكَّرْنَا أَنَّهُ يُخْبِرُهُ أَنَّهُ بَعَثَكَ رَسُولًا عَلَى عِلْمٍ مِنْهُ بِكُلِّ الَّذِي كَانَ مِنْهُمْ مِنَ التَّكْذِيبِ وَالْأَذَى.

وقوله تعالى: ﴿فَصَبْرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنْتَهُم تَمَرُّنَا﴾ أَخْبَرَ اللَّهُ أَنَّهُ نَصَرَ رَسُولَهُ. ثُمَّ يَحْتَمِلُ هَذَا النَّصْرُ وَجُوهًا: أَحَدُهَا: نَصْرُهُمْ إِذْ^(١) أَظْهَرَ حُجَجَهُ وَبَرَاهِينَهُ حَتَّى عَلِمُوا جَمِيعًا أَنَّهَا هِيَ الْحَقُّ وَالْبَرَاهِينُ وَأَنَّهُمْ رُسُلُ اللَّهِ، لَكِنَّهُمْ تَعَانَدُوا، وَكَابَرُوا. وَيَحْتَمِلُ^(٢) النَّصْرَ لَهُمْ بِمَا جَعَلَ آخِرَ أَمْرِهِمْ لَهُمْ، وَإِنْ كَانَ قَدْ أَصَابَهُمْ شِدَائِدٌ فِي بَدْءِ الْأَمْرِ، وَيَحْتَمِلُ نَصْرَهُمْ لَمَّا اسْتَأْصَلَ قَوْمَهُمْ، وَاهْلَكَهُمْ بِتَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ. وَفِي اسْتِصْصَالِ الْقَوْمِ وَاهْلَاكِهِ إِيَّاهُمْ وَإِقَاءِ الرُّسُلِ نَصْرَهُمْ. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١] وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَمُتَّصِرُونَ﴾ [الصافات: ١٧٢] يَخْرُجَانِ^(٣) عَلَى الْوُجُوهِ الَّتِي ذَكَّرْنَا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْذِلْ لِكَلِمَتِ اللَّهِ﴾ هُوَ مَا ذَكَّرْنَا مِنَ النَّصْرِ لَهُمْ وَاسْتِصْصَالِ قَوْمِهِمْ وَمَا أَوْعَدَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ. فَذَلِكَ كَلِمَاتُ اللَّهِ. وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿لِكَلِمَتِ اللَّهِ﴾ حُجَجَهُ وَبَرَاهِينَهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيُحِثُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ [يونس: ٨٢] أَيْ بِحُجَجِهِ وَأَيَّاتِهِ وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِثْلًا لِكَلِمَتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَوْلَ رَبِّي﴾ [الكهف: ١٠٩] أَيْ حُجَجِ رَبِّي.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَّبَائِ الرُّسُلِ﴾ يَحْتَمِلُ مَا ذَكَّرْنَا مِنْ إِهْلَاكِ الْقَوْمِ وَإِقَاءِ الرُّسُلِ قَدْ جَاءَكَ ذَلِكَ النَّبَأُ. وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَّبَائِ الرُّسُلِ﴾ مِنْ تَكْذِيبِ قَوْمِهِمْ لَهُمْ وَأَظَاهَرَهُمْ. فَإِنْ كَانَ هَذَا فِيهِ تَضْيِيقُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ [عَلَى مَا]^(٤) يَشُقُّ عَلَيْهِ كُفْرُ قَوْمِهِ وَإِعْرَاضُهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ حَتَّى كَادَتْ نَفْسُهُ تَنْتَلِفُ، وَتَهْلِكُ لِذَلِكَ إِشْفَاقًا عَلَيْهِمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ [فاطر: ٨] وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ بَخِخَ نَفْسُكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ يُشْفِقُ عَلَيْهِمْ بِتَرْكِهِمُ الْآيَاتِ لِمَا يُعَذِّبُونَ أَبَدًا فِي النَّارِ.

الآية ٣٥

فَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ إِذْ^(٥) كَانَ يَكْبُرُ عَلَيْهِ، وَيَنْتَقِلُ إِعْرَاضُهُمْ لَمَّا يَطْلُبُونَ مِنْهُ الْآيَاتِ. حَتَّى إِذَا جَاءَ بِهَا لَا يُؤْمِنُونَ مِنْ نَحْوِ مَا قَالُوا ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ بِرِيقِكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا تُفَرِّدُ﴾ [الإسراء: ٩٣] وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي سَأَلُوهَا.

فَطَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي إِيْمَانِهِمْ إِذَا جَاءَ بِمَا سَأَلُوا مِنَ الْآيَاتِ، فَكَانَ اللَّهُ عَالِمًا بِأَنَّهُ، وَإِنْ جَاءَتْهُمْ آيَاتٌ، لَمْ يُؤْمِنُوا. وَإِنَّمَا يَسْأَلُونَ سُؤَالَ تَعْتَبٍ لَا سُؤَالَ طَلَبٍ آيَاتٍ لِيَذِلُّهُمْ عَلَى الْهَدَى.

فَقَالَ عِنْدَ ذَلِكَ: ﴿إِنِ اسْتَطَعْتُ أَنْ تَبْلِيَنَّ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلْمًا فِي السَّمَاءِ﴾ أَيْ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنِ اسْتَطَعْتُ أَنْ تَبْلِيَنَّ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ﴾ نَهْيًا عَنِ الْحُزْنِ عَلَيْهِمْ؛ أَيْ لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ كُلُّ هَذَا الْحُزْنِ بِمَا يَنْزِلُ بِهِمْ، وَقَدْ تَعَلَّمُ صَنِيعَهُمْ وَسُوءَ مُعَامَلَتِهِمْ آيَاتِ اللَّهِ.

وَكَذَلِكَ رُوِيَ فِي الْقِصَّةِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ نَفَرًا مِنْ قُرَيْشٍ قَالُوا: يَا مُحَمَّدُ إِنَّا بَايَعْتَنِي عَنْ ذَلِكَ. كَمَا كَانَتْ الْأَنْبِيَاءُ تَأْتِي قَوْمَهَا بِالْآيَاتِ إِذَا سَأَلُوهُمْ^(٦)، فَإِنْ أَتَيْتَنَا آمَنَّا بِكَ، وَصَدَّقْنَاكَ. فَيَأْتِي اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بِمَا قَالُوا، فَاغْرَضُوا عَنْهُ، فَكَبُرَ ذَلِكَ عَلَيْهِ، وَشَقَّ، فَانْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنِ اسْتَطَعْتُ﴾ يَقُولُ: إِنَّ قَدَّرْتُ ﴿أَنْ تَبْلِيَنَّ﴾ يَقُولُ: إِنْ تَطَلَّبَ ﴿نَفَقًا فِي الْأَرْضِ﴾ كَنَفَقِ الْبِزْبُوعِ نَائِذًا أَوْ مَخْرَجًا، فَتَوَارَى فِيهِ^(٧) مِنْهُمْ ﴿أَوْ سُلْمًا فِي السَّمَاءِ﴾ يَكُونُ سَبِيًّا إِلَى صُعُودِ السَّمَاءِ، فَتَأْتِيهِمْ بِالْآيَةِ^(٨) الَّتِي سَأَلُوهَا فَاغْلُظْ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: أَيْ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: يَخْرُجَانِ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: سَأَلُوهُ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: مِنْهُ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: بَآيَةٍ.

قَالَ الْقُتَيْبِيُّ: النَّفَقُ فِي الْأَرْضِ: الْمَدْخَلُ، وَهُوَ السَّرْبُ، وَالسَّلْمُ فِي السَّمَاءِ: الْمَضَعُ. وَقَالَ أَبُو عَوَسَجَةَ: النَّفَقُ الْغَارُ، وَالْأَنْفَاقُ الْغَيْرَانُ، وَالْغَارُ وَاحِدٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ قَالَ الْحَسَنُ: أَيِ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ لَقَهَرَهُمْ عَلَى الْهُدَى، وَآخَرَهُمْ كَمَا فَعَلَ بِالْمَلَائِكَةِ [إِذْ مِنْ قَوْلِهِ: أَنَّ الْمَلَائِكَةَ] ^(١) مُجْبُورُونَ مَقْهُورُونَ. ثُمَّ هُوَ يُفْضِلُ الْمَلَائِكَةَ عَلَى الْبَشَرِ، وَيَجْعَلُ لَهُمْ مَنَاقِبَ، لَا يَجْعَلُ ذَلِكَ لِأَحَدٍ مِنَ الْبَشَرِ. فَلَوْ كَانَتْ الْمَلَائِكَةُ مُجْبُورِينَ مَقْهُورِينَ عَلَى ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ لَهُمْ كَبِيرُ مَنَاقِبَةٍ، فِي قَوْلِهِ اضْطِرَابٌ.

وَأَمَّا تَأْوِيلُهُ عِنْدَنَا: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ أَيِ لَجَعَلَهُمْ جَمِيعاً بِحَيْثُ اخْتَارُوا الْهُدَى، وَآثَرُوهُ عَلَى غَيْرِهِ. وَلَكِنْ لَمَّا عَلِمَ مِنْهُمْ أَنْ يَخْتَارُوا الْكُفْرَ عَلَى الْهُدَى لَمْ يَشَأْ أَنْ يَجْمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى، وَقَدْ ذَكَّرْنَا هَذَا فِي مَا تَقَدَّمَ إِلَّا يَكُونُ الْهُدَى فِي حَالِ الْقَهْرِ وَالْجَبْرِ، وَإِنَّمَا يَكُونُ فِي حَالِ الْإِخْتِيَارِ.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونُوا مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهًا؛ يَحْتَمِلُ ﴿فَلَا تَكُونُوا مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ وَحُكْمِهِ، وَيَحْتَمِلُ: ﴿فَلَا تَكُونُوا مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ مِنْ إِحْسَانِهِ وَقَضَائِهِ، أَيِ مِنْ إِحْسَانِهِ جَعَلَ لَهُمُ الْهُدَى، وَيَحْتَمِلُ: ﴿فَلَا تَكُونُوا مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أَنَّهُ يُؤْمِنُ بِكَ بَعْضُهُمْ، وَبَعْضُهُمْ لَا يُؤْمِنُ.

قَالَ أَبُو بَكْرِ الْكَيْسَانِيُّ فِي قَوْلِهِ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ ابْتِلَاهُمْ بِدُونِ مَا ابْتَلَاهُمْ بِهِ لِيَخْفَ عَلَيْهِمْ، فَيُجِيبُونَ بِأَجْمَعِهِمْ، أَوْ يَقُولُ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ لَوْفَقَهُمْ جَمِيعاً لِلْهُدَى، فَيَهْتَدُونَ، وَهُوَ قَوْلُنَا. لَكِنْ لَمْ يَشَأْ لِمَا ذَكَّرْنَا أَنَّهُ لَمْ يُؤَفِّقَهُمْ لِمَا عَلِمَ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ يَخْتَارُونَ الْكُفْرَ ^(٢).

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونُوا مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ بَأَنَّ اللَّهَ قَادِرٌ؛ لَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُمْ جَمِيعاً مُهْتَدِينَ. ثُمَّ مَعْلُومٌ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ مَغْضُوماً، لَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُ يَكُونُ مِنَ الْجَاهِلِينَ أَوْ مِنَ الشَّاكِرِينَ عَلَى مَا ذَكَرَ. وَلَكِنْ ذَكَرَ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، لِيُعْلِمَ أَنَّ الْعِصْيَانَ لَا تَرْفَعُ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ وَالْإِمْتِحَانَ، بَلْ تَزِيدُ. لِذَلِكَ كَانَ مَا ذَكَرَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٣٦

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ مَعْنَاهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَنْتَفِعُونَ بِمَا يَسْمَعُونَ، وَإِلَّا كَانُوا يَسْمَعُونَ جَمِيعاً. لَكِنَّ الْوَجْهَ فِيهِ مَا ذَكَّرْنَا: أَنَّهُ إِنَّمَا يُجِيبُ الَّذِينَ يَنْتَفِعُونَ بِمَا يَسْمَعُونَ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ [يَس: ١١] كَانَ النَّبِيُّ ﷺ / ١٤٧ - ب/ يُنذِرُ مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَمَنْ لَمْ يَتَّبِعْ. لَكِنْ انْتَفَعَ بِالْإِنْذَارِ مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ، وَلَمْ يَنْتَفِعْ مَنْ لَمْ يَتَّبِعْ، وَهُوَ مَا ذَكَرَ ﷺ: ﴿وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ نَفْعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذَّارِيَات: ٥٥] أَخْبَرَ أَنَّ ﴿الذِّكْرَ نَفْعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لَا تَنْفَعُ غَيْرَهُمْ ^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّوَفَّ يَسْمَعُهُمُ اللَّهُ﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَاللَّوَفَّ يَسْمَعُهُمُ اللَّهُ﴾ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يَرْجَعُونَ﴾. وَقَالَ قَاتِلُونَ: أَرَادَ بِالْحَوَثِ الْكُفَّارَ؛ سَمَى الْكَافِرَ مَيْتاً وَالْمُؤْمِنَ حَيّاً فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنَ الْقُرْآنِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الأنعام: ١٢٢] فَهُوَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَنْ جَعَلَ لِكُلِّ بَشَرٍ سَمْعَيْنِ وَبَصَرَيْنِ وَحَيَاتَيْنِ [سَمْعاً أَبَدِيّاً] ^(٤) فِي الْآخِرَةِ [وَبَصْراً أَبَدِيّاً] ^(٥) فِي الْآخِرَةِ. وَكَذَلِكَ جَعَلَ لِكُلِّ أَحَدٍ حَيَاتَيْنِ: حَيَاةَ الْآخِرَةِ وَحَيَاةَ مُنْقَضِيَةٍ ^(٦)، وَهِيَ حَيَاةُ الدُّنْيَا، وَكَذَلِكَ [جَعَلَ لِكُلِّ أَحَدٍ سَمْعاً أَبَدِيّاً] ^(٧) وَهُوَ سَمْعُ الْآخِرَةِ [وَسَمْعاً ذَا] ^(٨) مَدَّةٍ، لَهَا انْقِضَاءٌ، وَهُوَ سَمْعُ الدُّنْيَا. ثُمَّ نَفَى السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْحَيَاةَ عَنْ لَمْ يُذَكِّرْ بِهَذَا السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْحَيَاةِ الَّتِي جَعَلَ لَهَا فِي الدُّنْيَا، وَلَمْ يُبَيِّنْ سَمْعَ الْآبِدِيَّةِ لِأَنَّهُ إِنَّمَا جَعَلَ لَهُمْ هَذَا فِي الدُّنْيَا لِيُذَكِّرُوا بِهِذَا ذَاكَ.

وَكَذَلِكَ الْعُقُولُ الَّتِي رُكِّبَتْ فِي الْبَشَرِ إِنَّمَا رُكِّبَتْ لِيُذَكِّرُوا بِهَا، وَيُبَصِّرُوا ذَلِكَ الْآبِدِيَّ، وَإِلَّا كَانَ ^(٩) تَرْكِيبُ هَذِهِ الْعُقُولِ فِي الْبَشَرِ لِهَذِهِ الدُّنْيَا خَاصَّةً لَا لِعَوَاقِبِ تَتَأَمَّلُ لِلْجَزَاءِ وَالْعِقَابِ. فَالْبَهَائِمُ قَدْ تُذَكِّرُ بِالطَّبْعِ ذَلِكَ الْقَدْرَ، وَتَعْرِفُ مَا يُؤْتَى،

(١) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: الْكُفْرَةُ. (٣) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: فِيهِمَا. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: سَمْعٌ أَبَدِي. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيَصِرُ أَبَدِي. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: مُنْقَضَةٌ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: سَمْعٌ أَبَدِي. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَسَمْعٌ ذُو. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: كَانَتْ.

وَيُنْفَى^(١)، وما يَضْلُحُ لها. قَدْ لَأَنَّ تَرْكِيبَ الْعُقُولِ فِي مَنْ رَكَّبَ إِنَّمَا رَكَّبَ لَا لِمَا يُذْرِكُ هَذَا، إِذْ يُذْرِكُ ذَلِكَ الْمِقْدَارَ بِالطَّبْعِ مَنْ لَمْ يَرْكَبْ فِيهِ، وَهِيَ^(٢) الْبَهَائِمُ الَّتِي ذَكَّرْنَا.

وَالسَّنْعُ وَالْبَصَرُ وَالْحَيَاءُ قَدْ [جَعَلَهَا اللَّهُ]^(٣) فِي الدُّنْيَا لِمَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ، وَكَذَلِكَ جَعَلَ لَهُمُ اللِّسَانَ لِيَنْطَلِقَ بِحَوَائِجِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَيَعْرِفَ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ الْمُحَاجَّةَ^(٤) فِي الدُّنْيَا، وَيُذْرِكُ بِهِ الْأَزَلِيَّ. فَإِذَا لَمْ يَنْتَفِعُوا بِذَلِكَ أَزَالَ عَنْهُمْ ذَلِكَ، وَسَمَّاهُمُ الْعُمَى وَالصَّمَّ وَالْبُكْمَ. أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿مَنْ يَكْفُرْ عَنِّي﴾ [البقرة: ١٨ و ١٧١] لِمَا لَمْ يَنْتَفِعُوا بِذَلِكَ؟ أَلَا تَرَى أَنَّهُ إِذَا لَمْ يُذْرِكْ الْأَزَلِيَّ وَالْأَبَدِيَّ مِنْ ذَلِكَ سَمَّاهُ أَعْمَى حِينَ^(٥) قَالَ: ﴿رَبِّ لِمَ حَضَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا؟﴾ [طه: ١٢٥].

وَالْحَيَاءُ حَيَاتَانِ: مُكْتَسَبَةٌ، وَهِيَ الْحَيَاءُ الَّتِي تُكْتَسَبُ بِالْهُدَى وَالطَّاعَاتِ، وَحَيَاءٌ مُنْشَأَةٌ، وَهِيَ حَيَاءُ الْأَجْسَادِ. فَالْكَافِرُ لَهُ حَيَاءُ الْجَسَدِ، وَلَيْسَ لَهُ حَيَاءٌ مُكْتَسَبَةٌ. وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَلَهُ حَيَاتَانِ جَمِيعاً الْمُكْتَسَبَةُ وَالْمُنْشَأَةُ. فَسَمَّى كُلًّا بِالْأَسْمَاءِ^(٦) الَّتِي اكْتَسَبَهَا. فَالْمُؤْمِنُ اكْتَسَبَ أفعالاً طَيِّبَةً، فَسَمَّاهُ بِذَلِكَ، وَالْكَافِرُ اكْتَسَبَ أفعالاً قَبِيحَةً، فَسَمَّاهُ بِذَلِكَ.

الآية ٣٧ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً﴾ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ هَمَّاهُمُ الْعِنَادُ وَالْمُكَابَرَةُ؛ قَدْ كَانَ أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٍ عَقْلِيَّاتٍ وَسَمْعِيَّاتٍ وَحِسِّيَّاتٍ.

فَأَمَّا الْآيَاتُ الْعَقْلِيَّاتُ فَهِيَ^(٧) مَا ذَكَرَ: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ آلُ الْإِنْسِ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُوا بِمِثْلِهِ﴾ [الأنعام: ١١٨]. وَأَمَّا الْآيَاتُ السَّمْعِيَّاتُ فَهِيَ^(٨) مَا أَنْبَأَهُمْ عَنْ أَشْيَاءَ كَانَتْ غَائِبَةً عَنْهُمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ كَانَ لَهُ الْخِيَلُ إِلَى مَنْ يَعْلَمُهَا، وَيُنْبِئُهُ^(٩) عَنْهَا. وَالْآيَاتُ الْحِسِّيَّاتُ هِيَ مَا سَقَى أَقْوَاماً كَثِيرَةً بَلَدَيْنِ قَلِيلٍ مِنْ قَضْعَةٍ وَمَا قَطَعَ مَسِيرَةَ شَهْرَيْنِ بِلِيلَةٍ وَاحِدَةٍ، وَنَطَقَ الْعَتَاقُ الَّذِي [شُوي]^(١٠) لَهُ، وَحَنِينُ الْبَيْتَرِ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْأَشْيَاءِ وَمِمَّا يَكْتَرُ ذِكْرُهَا. لَكِنَّهُمْ عَانَدُوا، وَكَانَتْ هَمَّتُهُمُ الْعِنَادُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً﴾ الَّتِي سَأَلُوكَ ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يَحْتَمِلُ [رُجُوحاً]: أَحَدُهَا^(١١): يَحْتَمِلُ ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَنَّهُ [الو]^(١٢) أَنْزَلَ آيَةً عَلَى إِبْرَاهِيمَ السُّؤَالِ لِأَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْعَذَابَ، وَاسْتَأْصَلَهُمْ إِذَا عَانَدُوا.

وَالثَّانِي^(١٣): قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَنَّهُ لَا يُنْزِلُ الْآيَةَ إِلَّا عِنْدَ الْحَاجَةِ بِهِمْ إِلَيْهَا.

وَالثَّالِثُ^(١٤): لَا يَسْأَلُونَ الْآيَةَ لِيَعْلَمُوا، وَلَكِنْ يَسْأَلُونَ لِيَتَعَتَّبُوا.

وَالرَّابِعُ^(١٥): إِذَا أَنْزَلَ آيَةً عَلَى إِبْرَاهِيمَ السُّؤَالِ^(١٦)، فَلَمْ يَقْبَلُوهَا، وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهَا أَهْلَكَهُمْ عَلَى مَا ذَكَّرْنَا مِنْ سُنَّتِهِ فِي الْأَوَّلِينَ. وَلَكِنَّهُ وَعَدَ عَلَى إِنْقَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ^(١٧) إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

الآية ٣٨ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَنْبَغِي فِي الْأَرْضِ وَلَا فِ السَّمَاءِ أَنْ يَكُونَ هَذَا صِلَةً قَوْلِهِ: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً﴾ لِأَنَّهُ ذَكَرَ دَابَّةً، وَالدَّابَّةُ كُلُّ مَا يَذُبُّ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مِنْ ذِي الرُّوحِ، وَذَكَرَ الطَّائِرَ، وَهُوَ اسْمُ كُلِّ مَا يَطِيرُ فِي الْهَوَاءِ؛ لَمَّا كَانَ قَادِرًا عَلَى خَلْقِ هَذِهِ الْجَوَاهِرِ الْمُخْتَلِفَةِ وَسَوْقِ رِزْقِ كُلِّ مِنْهُمْ إِلَيْهِ [فَإِنَّهُ]^(١٨) لَقَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً، وَيَضْطَرُّهُمْ^(١٩) جَمِيعاً إِلَى الْقَبُولِ لَهَا وَالْإِقْرَارِ بِهَا. وَلَكِنَّهُ لَا يُنْزِلُ لِمَا لَيْسَتْ لَهُمُ الْحَاجَةُ إِلَيْهَا. وَالْآيَاتُ لَا تَنْزُلُ إِلَّا عِنْدَ وَقْعِ الْحَاجَةِ لَهُمْ إِلَيْهَا.

وَالِى هَذَا يَخْرُجُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ مِنَ النَّاسِ مَنْ اسْتَدَلَّ بِهِذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّ الْبَهَائِمَ وَالطَّيْرَ مُنْتَحَتَانِ حِينَ^(٢٠) قَالَ: ﴿إِلَّا أُمُّ أَثْنَالِكُمْ﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَبَقِيَ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَهُوَ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: جَعَلَ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: حَاجَةٌ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: بِأَسْمَاء. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: هِيَ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: هِيَ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيُنْبِئُهَا. (١٠) فِي م: سَوَى، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا. (١٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: يَحْتَمِلُ. (١٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ. (١٥) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (١٦) فِي الْأَصْلِ وَم: الرِّسُولُ. (١٧) فِي الْأَصْلِ وَم: الْآيَةُ. (١٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٩) فِي الْأَصْلِ وَم: لَاضْطَرُّوا. (٢٠) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ.

ثم اُخْتَلِفَ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْتُمْ أَنْتَ الْكَاذِبُ﴾ عن أبي هريرة رضي الله عنه [أنه^(١)] قال في قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْتُمْ أَنْتَ الْكَاذِبُ﴾ أي إلا سيُخْشَرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثم تَقْتَضِ البَهِائِمُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ. ثم يُقَالُ لَهَا: كُونِي تُرَابًا، فَعِنْدَ ذَلِكَ ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلْبَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ [النبا: ٤٠] كَالْبَهِائِمِ.

وعن ابن عباس رضي الله عنه [أنه^(٢)] قال: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُنْثِلَتْ مِنْهُ آيَةُ يَفْقَهُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ كَمَا يَفْقَهُ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ، وَهُمْ أَتَمُّ أَنْثِلَتْكُمْ﴾ في مَعْرِفَةِ مَا يُؤْتَى، وَيَتَّقَى.

وَيَحْتَمِلُ: ﴿إِلَّا أَنْتُمْ أَنْتَ الْكَاذِبُ﴾ في الْكُثْرَةِ وَالْعَدَدِ وَالْخَلْقِ، وَالصُّنُوفُ تُعْرَفُ بِالْأَسْمَاءِ كَمَا تُعْرَفُونَ أَنْتُمْ. وَأَصْلُهُ إِنَّمَا ذَكَرَ مِنَ الدَّوَابِّ وَالطَّيْرِ ﴿أَنْتُمْ أَنْتَ الْكَاذِبُ﴾ سَحَرَهَا لَكُمْ، لَمْ [يَكُنْ]^(٣) مِنْهُمْ مَا يَكُونُ مِنْكُمْ مِنَ الْعِنَادِ وَالْكَذِبِ لِلرُّسُلِ وَالْخُرُوجِ عَلَيْهِمْ، بَلْ خَاضِعَةٌ^(٤) لَكُمْ مُذَلَّلَةٌ^(٥)، تَنْتَفِعُونَ بِهَا.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا أَنْتُمْ أَنْتَ الْكَاذِبُ﴾ في مَعْرِفَةِ وَخَدَائِيقِهِ وَأَلْوَهِيَّتِهِ أَوْ حَقِّ الطَّاعَةِ لِلَّهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكَ إِلَّا بِسَبْحٍ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقوله تعالى: ﴿مَا قَرَأْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ اُخْتَلِفَ فِيهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿مَا قَرَأْنَا﴾ أي مَا تَرَكْنَا شَيْئًا إِلَّا وَقَدْ ذَكَرْنَا أَصْلَهُ فِي الْقُرْآنِ. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه [أنه^(٦)] قال: مَا تَرَكْنَا شَيْئًا إِلَّا قَدْ كَتَبْنَاهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ، وَهُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ. وَقِيلَ: ﴿مَا قَرَأْنَا﴾ مَا ضَمِينَا ﴿فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ مَا قَدْ تَقَعَّ لَكُمْ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ أَوْ مُنْفَعَةٌ إِلَّا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ فِي الْقُرْآنِ ﴿ثُمَّ لَكُمْ بِهِمْ يُخْشَرُونَ﴾ قِيلَ: الطَّيْرُ وَالْبَهِائِمُ يُخْشَرُونَ مَعَ الْخَلْقِ، وَقِيلَ: ﴿لَكُمْ بِهِمْ يُخْشَرُونَ﴾ يَنْبَغِي بَنِي آدَمَ.

الآية ٣٩

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ قَالَ الْحَسَنُ رضي الله عنه بِآيَاتِنَا دِينَنَا، وَقَالَ غَيْرُهُ بِآيَاتِنَا حُجَجِنَا: حُجَجِ وَخَدَائِيقِهِ وَأَلْوَهِيَّتِهِ وَحُجَجِ الرِّسَالَةِ وَالنُّبُوَّةِ. وَيَحْتَمِلُ آيَاتِ الْبُحْثِ؛ كَذَّبُوا بِذَلِكَ كُلِّهِ. وَقَدْ ذَكَرْنَا هَذَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ.

وقوله تعالى: ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ﴾ هُوَ مَا ذَكَرْنَا أَنَّهُ نَفَى عَنْهُمْ السَّمْعَ وَاللِّسَانَ وَالْبَصَرَ لِمَا لَمْ يَعْرِفُوا نِعْمَةَ السَّمْعِ وَنِعْمَةَ الْبَصَرِ وَنِعْمَةَ اللِّسَانِ. وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَجْعَلَ لَهُمُ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَاللِّسَانَ، ثُمَّ لَا يُكَلِّمُهُمْ مَا يَسْمَعُونَ بِالسَّمْعِ وَمَا يَنْظُرُونَ بِاللِّسَانِ.

دَلَّ أَنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى رَسُولٍ يَسْمَعُونَ مِنْهُ، وَيَسْتَمِعُونَ إِلَيْهِ، وَيَنْظُرُونَ مَا عَلَّمَهُمْ. فَإِذَا لَمْ يَعْرِفُوا صَارُوا كَمَا ذَكَرَ ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ عُمَى﴾ [البقرة: ١٨ و ١٧١] لِمَا لَمْ يَتَّفِعُوا بِهِ، وَلَمْ يَعْرِفُوا نِعْمَةَ الَّتِي جَعَلَ لَهُمْ فِي مَا ذَكَرَ، وَنَفَى عَنْهُمْ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَاللِّسَانَ لِمَا ذَكَرْنَا أَنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْحَيَاةَ عَلَى ضَرَبَيْنِ: مُكْتَسَبٍ وَمُنْثَلٍ، فَتَفَى عَنْهُمْ السَّمْعُ الْمُكْتَسَبُ وَالْبَصَرُ الْمُكْتَسَبُ وَالْحَيَاةُ الْمُكْتَسَبَةُ.

وقوله تعالى: ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: ^(٧) ظُلُمَاتُ الْجَهْلِ وَالْكُفْرِ.

وَالثَّانِي: هُمْ فِي ظُلُمَاتٍ؛ يَعْنِي ظُلُمَاتِ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْقَلْبِ، وَهُمْ فِي ظُلُمَاتَيْنِ جَمِيعًا فِي ظُلْمَةِ الْجَهْلِ وَالْكُفْرِ وَظُلْمَةِ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ظُلُمْتُ بَعْضًا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ [النور: ٤٠] وَالْمُؤْمِنُ فِي النُّورِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ [النور: ٣٥]

وقوله تعالى: ﴿مَنْ يَشَأْ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأْ اللَّهُ يُعْصِلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ يَهْدِيهِ. وَصَفَ ۞ نَفْسَهُ بِالْقُدْرَةِ، وَجَعَلَهُمْ جَمِيعًا مُقْلِبِينَ فِي مَشِيئَتِهِ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ شَاءَ لِبَعْضِهِمُ الْهُدَى. فَمَنْ قَالَ: إِنَّهُ شَاءَ لِلْكَافِرِ الْهُدَى، لَكِنْ لَمْ يَهْتَدُوا، أَوْ شَاءَ لِلْكَافِرِ الضَّلَالَةَ، فَهُوَ/ ١٤٨ - أ/ خِلَافُ مَا ذَكَرَهُ ۞ لِأَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ شَاءَ الضَّلَالَةَ لِمَنْ ضَلَّ، وَشَاءَ الْهُدَى لِمَنْ اهْتَدَى.

وَأَصْلُهُ أَنَّهُ إِذَا عَلِمَ مِنَ الْكَافِرِ أَنَّهُ يَخْتَارُ الْكُفْرَ، شَاءَ أَنْ يُضِلَّ، وَخَلَقَ فِعْلٌ ^(٨) الْكُفْرُ مِنْهُ. وَكَذَلِكَ إِذَا عَلِمَ مِنَ الْمُؤْمِنِ أَنَّهُ يَخْتَارُ الْإِيمَانَ وَالْإِهْتِدَاءَ، شَاءَ أَنْ يَهْدِي، وَخَلَقَ فِعْلٌ الْإِهْتِدَاءُ مِنْهُ.

(١) ساقطة من الأصل و م. (٢) ساقطة من الأصل و م. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: خاضعين. (٥) في الأصل وم:

مذللين. (٦) ساقطة من الأصل و م. (٧) في الأصل و م: يحتمل. (٨) من م، في الأصل: كل.

الآية ٤٠

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَاكَ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابَ اللَّهِ الَّذِي وَعَدْتُ لَكُمْ فِي الدُّنْيَا إِنْ يَأْتِيكُمْ السَّاعَةُ﴾^(١) لَأَنَّهُ كَانَ وَعْدُ لَهُمْ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ، وَكَانَ يُعَدُّ لَهُمْ أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، فَقَالَ: ﴿آتَيْنَاكُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابَ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ أَغَيَّرَ اللَّهُ تَدْعُونَ﴾ فِي دَفْعِ ذَلِكَ وَكَشْفِهِ عَنْكُمْ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أَنْ مَعَهُ شُرَكَاءُ وَالْهَيْءُ، وَ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أَنْ مَا تَعْبُدُونَ شُفَعَاؤُكُمْ^(٢) عِنْدَ اللَّهِ، أَوْ تَقْرِبُكُمْ عِبَادَتُكُمْ^(٣) إِلَيْهَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى.

وقوله تعالى: ﴿أَغَيَّرَ اللَّهُ تَدْعُونَ﴾ يَحْتَمِلُ حَقِيقَةَ الدَّعَاءِ عِنْدَ نَزُولِ الْبَلَاءِ، وَيَحْتَمِلُ الْعِبَادَةَ؛ أَيِ أَغَيَّرَ اللَّهُ تَعْبُدُونَ عَلَى رَجَاءِ الشَّفَاعَةِ لَكُمْ، وَقَدْ رَأَيْتُمْ أَنَّهُ لَمْ تَشْفَعْ لَكُمْ عِنْدَ نَزُولِ الْبَلَاءِ.

الآية ٤١

وقوله تعالى: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾^(٤) أَخْبَرَ أَنَّهُمْ لَا يَدْعُونَ غَيْرَ اللَّهِ فِي دَفْعِ ذَلِكَ وَكَشْفِهِ عَنْهُمْ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ إِلَى اللَّهِ يَتَضَرَّعُونَ فِي دَفْعِ ذَلِكَ عَنْهُمْ، وَهُوَ مَا ذَكَرَ ﷻ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَآهُ﴾ [الإسراء: ٦٧] وكقولِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ [الزمر: ٨] وكقولِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِ دَعَاؤُ اللَّهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

ذَكَرَ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَنْكُمْ إِذَا مَسَّتْكُمْ الشَّدَائِدُ وَالْبَلَايَا لَا تَفْزَعُونَ إِلَى الَّذِينَ تُشْرِكُونَ فِي عِبَادَتِهِ وَالْوَهْمِيَّةِ، كَيْفَ اشْرَكْتُمْ أُولَئِكَ فِي رُبُوبِيَّتِهِ فِي غَيْرِ الشَّدَائِدِ وَالْبَلَايَا؟ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ؟ أَيِ تَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ؟ أَيِ تَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ بِاللَّهِ مِنَ الْآلِهَةِ، فَلَا تَدْعُونَهُمْ أَنْ يَكْشِفُوا عَنْكُمْ.

الآية ٤٢

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَاتَّخَذْتَهُمُ الْبَاطِلَ وَالظَّالِمَ الْبَاسَ﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ: قَالَ بَعْضُهُمُ: الْبَاسَاءُ: الشَّدَائِدُ الَّتِي تُصِيبُهُمْ مِنَ الْعَذْرِ، وَالضَّرَاءُ: مَا يَحُلُّ بِهِمْ مِنَ الْبَلَاءِ وَالسَّقَمِ السَّمَائِيِّ، وَقَالَ بَعْضُهُمُ: الْبَاسَاءُ: هُوَ مَا يَحُلُّ بِهِمْ مِنَ الْفَقْرِ وَالْفَقْهِ وَالشَّدَّةِ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ [أَنَّهُ]^(٥) قَالَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَاتَّخَذْتَهُمُ الْبَاطِلَ وَالظَّالِمَ الْبَاسَ﴾ الرِّمَاءُ وَالْخَوْفُ، ﴿وَالظَّالِمَ﴾ الْبَلَاءُ وَالْجَوْعُ ﴿لَتَلْمِزَنَّ عَنْهُمْ﴾ أَيِ ابْتِلَاهُمْ بِهِذَا، أَوْ امْتَحَنَهُمْ ﴿لَتَلْمِزَنَّ عَنْهُمْ﴾ وَيرجعون.

الآية ٤٣

وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا؟ يَذْكُرُ فِي هَذَا أَنَّهُ قَدْ أَصَابَهُمُ الْبَلَاءُ وَالشَّدَّةُ، وَلَمْ يَتَضَرَّعُوا، وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ وَيَذْكُرُ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْآيَاتِ أَنَّهُ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَلَاءُ وَالشَّدَائِدُ تَضَرَّعُوا، وَرَجَعُوا عَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَآهُ﴾ [الإسراء: ٦٧] وقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِ﴾ [العنكبوت: ٦٥] وَغَيْرِهِمَا مِنَ الْآيَاتِ.

لَكِنْ يَحْتَمِلُ هَذَا وَجُوهًا:

أَنَّ هَذَا كَانَ مِنْ قَوْمٍ، وَالْأَوَّلُ كَانَ مِنْ قَوْمٍ آخَرِينَ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْكُفْرَةَ كَانُوا عَلَى أَحْوَالٍ وَمَنَازِلٍ: مِنْهُمْ مَنْ كَانَ عَلَى حَالٍ، فَإِذَا أَصَابَهُ خَيْرٌ أَظْمَأَنَّ بِهِ، وَإِذَا زَالَ عَنْهُ، وَتَحَوَّلَ، تَغَيَّرَ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَبْعُدُ اللَّهُ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ الْآيَةُ [الحج: ١١].

وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَضَرَّعُ، وَيَلِينُ قَلْبُهُ إِذَا أَصَابَهُ الشَّدَّةُ وَالْبَلَاءُ، وَعِنْدَ السَّعَةِ وَالنُّعْمَةِ [يَصِيرُ]^(٦) قَاسِي الْقَلْبِ مُعَانِدًا، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿دَعَاؤُ اللَّهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ [العنكبوت: ٦٥] وكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَآهُ﴾ [الإسراء: ٦٧].

وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ قَرِحًا عِنْدَ الرَّحْمَةِ، وَعِنْدَ الْبَلَاءِ وَالشَّدَّةِ كَفُورًا حَزِينًا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُونُ مِنَّا كَفُورًا﴾ [هود: ٩].

(١) فِي الْأَصْلِ وَ: يَا نَبِيَّكُمْ. (٢) إِشَارَةٌ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]. (٣) إِشَارَةٌ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ إِلَّا لِيُقَرَّبُوا إِلَى اللَّهِ وَالْقُرْبَى﴾ [الزمر: ٣]. (٤) فِي الْأَصْلِ وَ: ثُمَّ. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَ: ثُمَّ. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَ: ثُمَّ.

ومنهم من كان لا يخضع، ولا يتضرع في الأحوال كلها لا عند الشدة والبلاء ولا عند الرخاء والنعمة، ويقولون: إن مثل هذا يصيب غيرنا، وقد ﴿مَسَّ آفَاتَنَا الْفَرَقَةُ وَالسَّرَّةُ﴾ [الأعراف: ٩٥].

كانوا على أحوال مختلفة ومنازل متفرقة؛ فيشبه أن يكون قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ في القوم الذين لم يتضرعوا عندما أصابتهم الشدائد والبلايا.

وجائز أن يكونوا تضرعوا عند حلول الشدائد؛ فإذا انقطع ذلك، وارتفع، عادوا إلى ما كانوا من قبل كقولهم تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغْتُمْ إِلَى آلِ بْنِ إِدْرِيسَ إِذَا هُمْ يَتْرُكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

ويشبه أن يكون قوله تعالى: ﴿لَمَلَهُمْ بَعَثَرُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] في ما بينهم وبين ربهم، وهذا في ما بينهم وبين الرسل لأن الرسل كانوا يدعون إلى أن يقرؤا برسالتهم، ويصدقوهم في ما يقولون لهم، ويخبرون، فتكبروا عليهم، وأقروا الله، وتضرعوا إليه؛ تكبروا عليهم، ولم يتكبروا على الله.

ويحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ في الأمم السالفة إخباراً منهم أنهم لم يتضرعوا.

ويحتمل قوله أيضاً: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ وجهين:

أحدهما: أنهم لم يتضرعوا إذ جاءهم بأس الله، ولكن عاندوا، وثبتوا على ما كانوا عليه.

والثاني: تضرعوا عند نزول بأسه، لكن إذا ذهب ذلك، وزال عادوا إلى ما كانوا عليه، فيصير كأنه قال: فلولا لزموا التضرع إذ جاءهم بأسنا.

وقوله تعالى: ﴿وَرَبِّينَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَسْمُكُونَ﴾ أي زين لهم صنيعهم الذي صنعوا، ويقولون: إن هذا كان يصيب أهل الخير، ويصيب آباءنا، وهم كانوا أهل خير وصلاح، أو زين لهم الشيطان ما كانوا يعملون من الشرك والتكذيب، ويقول لهم: إن الذي أنتم عليه حق.

الآية ٤٤ وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا شَاؤَا مَا دُكِّرُوا بِهِ﴾ يحتمل ابتداء ترك؛ أي تركوا الإجابة إلى ما دُعوا، وتركوا ما أمروا به، ويحتمل ﴿فَلَمَّا شَاؤَا مَا دُكِّرُوا بِهِ﴾ من الشدائد والبلايا.

[وقوله تعالى^(١)]: ﴿فَنَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابٌ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتمل وجهين: يحتمل ﴿أَبْوَابٌ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مما يحتاجون إليه ﴿حَقٌّ إِذَا فُوحَا بِمَا أُرْوُوا أَخَذْتَهُمْ بَقَّةً﴾.

ويحتمل ﴿فَلَمَّا شَاؤَا مَا دُكِّرُوا بِهِ﴾ أي تركوا ما وعظوا به؛ يعني بالأمم الخالية وما دعاهم الرسل، فكذبوهم ﴿فَنَحْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي أنزلنا عليهم ﴿أَبْوَابٌ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من أنواع الخير بعد الضرر والشدّة الذي كان نزل بهم.

[وقوله تعالى^(٢)]: ﴿حَقٌّ إِذَا فُوحَا بِمَا أُرْوُوا أَخَذْتَهُمْ بَقَّةً إِذَا هُمْ ثَائِلُونَ﴾ اختلف فيه: قال بعضهم: [المبليس^(٣)] الآيس من كل خير، وقال^(٤) القتيبي: المبليس الآيس الملقى يديه، وقال أبو عوسجة: المبليس هو الحزين المغتم الآيس من الرخمة وغيرها من الخير، وقال الفراء: المبليس هو المنقطع الحجة. وقيل: لذلك سمي إبليس، لعنه الله، إبليس لما آيس من رحمة الله.

الآية ٤٥ وقوله تعالى: ﴿فَنَقُطِعْ دَائِرَ الْقَوَمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ قيل: استؤصل القوم الذين ظلموا بالهلاك جميعاً، والظلم هنا الشرك، وقيل: ﴿فَنَقُطِعْ دَائِرَ الْقَوَمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي أضلهم، وقيل: ﴿دَائِرَ الْقَوَمِ﴾ أي آخرهم، وكله واحد؛ وذلك أنه إذا هلك آخرهم، وقطعوا، فقد استؤصلوا. ويشبه أن يكون قوله: ﴿فَنَقُطِعْ دَائِرَ الْقَوَمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي قطع انتحارهم وتكبرهم الذي كانوا يفتخرون به، ويتكبرون.

وقوله تعالى: ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الحمد في هذا الموضع على إثر ذلك الهلاك يخرج على وجوه:

(١) ساقطة من الأصل و م. (٢) ساقطة من الأصل و م. (٣) الزا ساقطة من الأصل و م.

أحدها: الحمد^(١) إنما يُذكر على إثر ذلك للكرامة والنعمة؛ لكن ههنا، وإن كان نعمة وإحلاماً، فيكون للأولياء كرامة ونعمة؛ لأن ملاك العدو يُعد من أعظم الكرامة والنعمة من الله. فإذا كان في ذلك شرٌّ للأعداء والانتقام، فيكون خيراً للأولياء وكرامة. وما من شرٍّ يكون لأحدٍ إلا ويجوز أن يكون في ذلك خيراً^(٢) لآخر. فيكون الحمد في الحاصل في الخير والنعمة.

والثاني: أنه يجوز أن يكون في الهلاك نفسه الحمد، إذا كان الهلاك بالظلم لأنه ملاك بحق؛ إذ الله أن يهلكهم. ولم يكن الهلاك على الظلم خارجاً عن الحكمة، فيحمد الله [وله]^(٣) في كل فعلٍ حكمة.

والثالث: يقول: ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على إظهار حُججه بهلاكهم.

الآية ٤٦

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَبَصَرَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنَ لَّهِ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ﴾ اختُلف: فيه: قال بغضهم: يراد بأخذ السمع والبصر والخم على القلوب أخذ منافع هذه الأشياء: أي أخذ منافع سمعكم ومنافع بصركم ومنافع عقولكم ﴿مَنَ لَّهِ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ﴾ بمنافع سمعكم ومنافع بصركم ومنافع عقولكم؟ فإذا كانت الأصنام والأوثان التي تعبدون من دون الله، وتُشركون / ١٤٨ - ب/ في ألوهيته وربوبيته، لا يملكون رد تلك^(٤) المنافع التي أخذ الله عنكم، فكيف تعبدونها، وتُشركون في ألوهيته؟

وقيل: يراد بأخذ السمع والبصر وما ذكر أخذ أغنيها^(٥) وأنفسها؛ أي لو أخذ الله سمعكم وبصركم وعقولكم لا يملك ما تعبدون رد هذه الأشياء إلى ما كانت^(٦)؛ لا يملكون رد السمع إلى ما كان ولا رد البصر والعقل الذي كان إلى ما كان، فكيف تعبدون دونه، وتُشركون في ألوهيته؟ يسفه أحلامهم، [مع ما]^(٧) يعلمون أن^(٨) ما يعبدون، ويجعلون لهم الألوهية، لا يملكون نفعاً ولا ضرراً، ومع^(٩) ما يعرفون ذلك منهم يجعلونهم^(١٠) آلهة معه.

وقوله تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ تُصَرِّفُ الْأَنْتِ﴾ أي نبين لهم الآيات في خطيئهم في عبادة هؤلاء وإشراكهم في ألوهيته ﴿ثُمَّ هُمْ يَصِدُّونَ﴾ أي يغرصون عن تلك الآيات.

الآية ٤٧

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَعَثَ أَوْ جَهَنَّمَ هَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ معناه، والله أعلم: أنهم يعلمون أن العذاب لا يأتي، ولا يأخذ إلا الظالم، ثم أنهم ظلمة لعبادتهم غير الله مع عليهم أنهم لا يملكون نفعاً ولا ضرراً يسألون العذاب بقوله: ﴿سَأَلَ سَائِلًا بِذَابٍ قَاتِلٍ﴾ [المعارج: ١] وقوله: ﴿وَسَتَجِدُنَا بِالْعَذَابِ﴾ [الحج: ٤٧] وقوله: ﴿عَمَلٌ لَّنَا قَطْنَا قَبْلَ بَوْرِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦].

الآية ٤٨

وقوله تعالى: ﴿وَمَا رَزَيْلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أخبر أنه لم يرسل الرسل إلا مع بشارة لأهل الطاعة ونذارة لأهل^(١١) مغيصيته. وفيه أن الرسل ليس إليهم الأمر والنهي إنما إليهم إبلاغ الأمر والنهي.

ثم بين البشارة، فقال: ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لا خوف عليهم لما ليس لذلك قوت^(١٢)، ولا زوال؛ ليس كغروب الدنيا ونعيمها لأنه^(١٣) على شرف القوت والزوال ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لأنه سرور، لا يشوبه الحزن، ليس كسرور الدنيا، يكون مشوباً بالحزن والخوف.

الآية ٤٩

[وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَسْتَهْزِئُ بِالْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ هذه هي^(١٤) النذارة.

وقوله تعالى: ﴿يَسْتَهْزِئُ بِالْعَذَابِ﴾ ذكر المس، والله أعلم، لما لم يفارقهم العذاب، ولا يزال عنهم. والفسق في هذا الموضع الكفر والشرك، وما ذكر من الظلم هو ظلم شرك وكفر.

(١) في الأصل وم: ولا الحمد. (٢) في الأصل وم: خير. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: ذلك. (٥) من م، في الأصل: عينها. (٦) في الأصل وم: كان. (٧) في الأصل وم: لما. (٨) في الأصل وم: أنه. (٩) في الأصل وم: فمع. (١٠) في الأصل وم: يجعلون لهم. (١١) من م، في الأصل: الأهل. (١٢) من م، في الأصل: فوق. (١٣) في الأصل وم: أنه. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) من م، في الأصل: في.

الآية ٥٠

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ لم يَحْتَمِلْ ما قال ابن عباس عليه السلام حين^(١) قال: إنهم قالوا لرسول الله ﷺ: [لم]^(٢) لم يُزَلَّ اللهُ عليك^(٣) كَثْرًا تَسْتَفِينِي بِهِ، فإنك مُحتاجٌ، ولا جَعَلَ لَكَ جَنَّةٌ تَأْكُلُ منها، فَتَشْبَعُ مِنَ الطَّعَامِ، فإنك تَجوعُ. فَتَزَلَّ عند ذلك هذا.

لا يُحْتَمَلُ أَنْ يَقُولُوا لَهُ ذَلِكَ، فيقول لهم: إني مَلَكٌ، وليس عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ فَإِنْ كَانَ مِنَ السُّؤَالِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَإِنَّمَا يَكُونُ عَلَى سُؤَالٍ سَأَلُوا لِأَنْفُسِهِمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تَنْزِلَ مِنَ السَّمَاءِ بَنِيَّاءَ﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَجِيلٍ وَعَنْبٍ فَتَفْجِرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا [الإسراء: ٩٠ و ٩١] وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْئَلَةِ الَّتِي سَأَلُوهُ لِأَنْفُسِهِمْ، فَتَزَلَّ عند ذلك ما ذَكَرَ.

فهذا لَعْمَرِي يَحْتَمِلُ [وَجْهَيْنِ]:

أحدهما: يقول^(٤) لهم: لَيْسَ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ، فَأَجْعَلْ لَكُمْ هَذَا ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنْ مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَى إِلَيَّ﴾.

والثاني: جائزٌ أَنْ يَكُونَ النَّبِيُّ ﷺ أَوْعَدَهُمْ بِالْعَذَابِ، وَخَوَّفَهُمْ، فَسَأَلُوا الْعَذَابَ اسْتِهْزَاءً وَتَكْذِيبًا، فَقَالُوا: مَتَى يَكُونُ؟ كَقَوْلِهِمْ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الملك: ٢٥] فَقَالَ عند ذلك ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ وَمَفَاتِيحُهَا: أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ الْعَذَابَ مَتَى شِئْتُ ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ مَتَى وَفَتْ نُزُولَ الْعَذَابِ عَلَيْكُمْ؟ ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنْ مَلَكٌ﴾ نَزَلَتْ مِنَ السَّمَاءِ بِالْعَذَابِ، إِنَّمَا أَنَا رَسُولٌ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ [إِنْ أَتَيْتُ أَي] ^(٥) مَا أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَى إِلَيَّ هَذَا مُحْتَمَلٌ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ عَلَى إِثْرِ ذَلِكَ نَزَلَ.

وَيَحْتَمِلُ وَجْهًا آخَرَ؛ وَهُوَ أَنَّهُ يُخْبِرُ ابْتِدَاءً، أَيِ ﴿لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ لِأَنِّي لَوْ قُلْتُ: عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ، وَأَنَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ، وَإِنِّي مَلَكٌ، كَانَ ذَلِكَ أَشَدَّ اتِّبَاعًا وَارْغَبًا وَاتَّقَرُّ لِبَاعْتِي. لَكِنْ يَقُولُ أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، يُوْحَى إِلَيَّ، مَا أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَى إِلَيَّ، لِتَعْلَمُوا أَنِّي صَادِقٌ وَمُحِقٌّ فِي مَا أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنْ مَلَكٌ﴾ يَغْلَمُ بِالِاحْاطَةِ.

إِنَّ هَذَا وَنَحْوَهُ خَرَجَ عَلَى الْجَوَابِ لِأَسْئَلَةٍ كَانَتْ مِنْهُمْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَكِنْ لَسْنَا نَعْلَمُ مَا كَانَتْ تِلْكَ الْأَسْئَلَةُ؛ كَانَتْ مِنْ أَوْلَئِكَ حَتَّى كَانَ هَذَا جَوَابًا لَهُمْ، فَلَا نَفْسُرُ، وَلَكِنْ نَقِفُ مَخَافَةَ الشَّهَادَةِ عَلَى اللَّهِ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ جَوَابًا لِمَا ذَكَرَ فِي آيَةٍ أُخْرَى، وَهُوَ قَوْلُهُمْ: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تَنْزِلَ مِنَ السَّمَاءِ بَنِيَّاءَ﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَجِيلٍ وَعَنْبٍ [الإسراء: ٩٠ و ٩١] فَقَالَ عند ذلك: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ جَوَابًا لِسُّؤَالٍ وَقَبِ السَّاعَةِ أَوْ وَقَبِ نُزُولِ الْعَذَابِ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنْ مَلَكٌ﴾ جَوَابٌ لِقَوْلِهِمْ: ﴿أَوْ تَرَفُّقٌ فِي السَّمَاءِ﴾ [الإسراء: ٩٣] فَقَالَ عند ذلك: لَا أَقُولُ: إِنِّي ﴿أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ حَتَّى أَعْلَمَ وَقَبْتُ نُزُولَ الْعَذَابِ أَوْ قِيَامَ السَّاعَةِ ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنْ مَلَكٌ﴾ حَتَّى أَرَى فِي السَّمَاءِ.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ أَيِ تَعْرِفُونَ أَنَّهُ لَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى أَيِ مَنْ عَمِيَ وَالْبَصِيرُ أَيِ مَنْ لَمْ يَغْمَ بَصَرُهُ. كَيْفَ لَا تَعْرِفُونَ أَنَّهُ لَا يَسْتَوِي مَنْ عَمِيَ عَنِ الْآيَاتِ وَمَنْ لَمْ يَغْمَ عَنْهَا؟ أَوْ نَقُولُ: [إِذَا لَمْ يَسْتَوِ] ^(٦) الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ كَيْفَ يَسْتَوِي مَنْ يَتَعَمَّى عَنِ الْحَقِّ وَمَنْ لَمْ يَتَعَمَّ؟ ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ أَنَّهُمَا لَا يَسْتَوِيَانِ؟

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ فِي آيَاتِ اللَّهِ وَمَا ذَكَّرْكُمْ، أَوْ نَقُولُ: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ فِي [مَا] ^(٧) وَعَظْمُكُمْ.

الآية ٥١

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْسِرُوا إِلَىٰ رَيْبِهِمْ لَيْسَ لَهُمْ دُونِي وَلَا شَفِيعٌ﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ:

(١) فِي الْأَصْلِ وَ م: حَيْثُ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَ م. (٣) فِي الْأَصْلِ وَ م: عَلَيْكُمْ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَ م: يَقُولُ. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَ م.

(٦) فِي الْأَصْلِ: إِنَّا لَمْ يَسْتَوِ، فِي م: إِذَا لَمْ يَسْتَوِ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَ م.

قَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ صِلَةُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِيَ خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾. يَاسُ الْكَفَرَةَ عَمَّا سَأَلُوا مِنَ الْأَشْيَاءِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ أَمَرَ بِإِنذَارِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ، وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ^(١)؛ أَيِ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ يُخْشَرُونَ إِلَى رَبِّهِمْ، وَأَنْ لَيْسَ لَهُمْ وَلِيُّ يَدْفَعُ عَنْهُمْ مَا يَحُلُّ بِهِمْ، وَلَا شَفِيعَ يَسْأَلُ لَهُمْ مَا لَمْ يُعْطُوا.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ تَخْصِيصُ الْأَمْرِ بِإِنذَارِ الْمُؤْمِنِينَ لِمَا كَانَ الْإِنذَارُ يَنْفَعُهُمْ، وَلَا يَنْفَعُ غَيْرَهُمْ. وَلَيْسَ فِيهِ [أَنَّهُ]^(٢) لَا يُنْذَرُ غَيْرُهُمْ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَوِّفَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ [يس: ١١] لَيْسَ فِيهِ [يَبَانَ]^(٣) أَنَّهُ لَا يُنْذَرُ مَنْ لَمْ يَتَّبِعِ الذِّكْرَ، وَلَا خَوِّفَ الرَّحْمَنَ. (وَلَكِنْ أَنْبَأَ أَنَّهُ إِنَّمَا يَنْفَعُ هَؤُلَاءِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْغَافِلِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥] أَخْبَرَ أَنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا تَنْفَعُ أَوْلَئِكَ؛ يُنْذَرُ الْفَرِيقَيْنِ: مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَمَنْ لَمْ يَتَّبِعْ وَمَنْ تَنْفَعُ وَمَنْ لَمْ يَنْفَعْ^(٤)).

وَيَكُونُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ يَعْنِي لَيْسَ لَأَوْلَئِكَ أَوْلِيَاءُ وَلَا شُفَعَاءُ لَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وَيَقُولُونَ^(٥): ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣] وَنَحْوَهُ؛ أَخْبَرَ أَنَّ ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾.

الآية ٥٢

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَأُ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُمْ﴾ يُذَكِّرُ فِي بَعْضِ الْقِصَّةِ أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانُوا يَسْبِقُونَ إِلَى مَجْلِسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَيَجْلِسُونَ قَرِيبًا مِنْهُ، فَيَجِيءُ أَشْرَافُ الْقَوْمِ وَسَادَاتُهُمْ، وَقَدْ أَخَذَ^(٦) أَوْلَئِكَ الْمَجْلِسَ، فَيَجْلِسُ هَؤُلَاءِ نَاجِيَةً، فَقَالُوا: نَحْنُ نَجِيءُ، فَتَجْلِسُ نَاجِيَةً، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: إِنَّا سَادَاتُ قَوْمِكَ وَأَشْرَافُهُمْ، فَلَوْ أَذْنَبْنَا مِنْكَ الْمَجْلِسَ، فَهَمْ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ، يُعَاتِبُ نَبِيَّهُ ﷺ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَقْرَأُ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ الْآيَةَ. [إِلَى]^(٧) هَذَا يَذْهَبُ عَامَّةُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ. لَكِنَّهُ بَعِيدٌ؛ يَسْبِقُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِلَى أَوْحَشٍ [فِعْلٍ]^(٨) وَأَوْحَشُ قَوْلٍ^(٩) مَا لَوْ كَانَ فِيهِ إِسْقَاطُ بُرْهَانٍ وَرِسَالَتِهِ؛ إِذْ لَا يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرُبُ أَعْدَاءَهُ، وَيُذْنِبُ مَجْلِسَهُمْ مِنْهُ، وَيُبْعَدُ الْأَوْلِيَاءَ/ ١٤٩ - هَذَا لَا يَفْعَلُهُ سَفِيهُ فَضْلًا أَنْ يَفْعَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُصْطَفَى عَلَى جَمِيعِ بَرِيَّتِهِ، أَوْ يَخْطُرُ بِبَالِهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، أَوْ^(١٠) كَانَ فِيهِ مَا يَجِدُ الْكَفَرَةَ عَلَيْهِ مَطْعَنًا؛ يَقُولُونَ: يَدْعُو النَّاسُ إِلَى التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ بِهِ وَالِاتِّبَاعَ لَهُ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ، وَاجَابُوهُ، وَطَرَدَهُمْ، وَابْعَدَ مَجْلِسَهُمْ مِنْهُ.

هَذَا لَعْمَرِي مَذْمُوعٌ فِي عَقْلِ كُلِّ عَاقِلٍ. وَلَكِنْ، [إِنْ كَانَ، فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ]^(١١) مِنْهُمْ طَلَبٌ^(١٢) ذَلِكَ؛ طَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يُذْنِبَ مَجْلِسَهُمْ، وَيُبْعَدَ أَوْلَئِكَ؛ هَذَا يُحْتَمَلُ. وَأَمَّا أَنْ يَهْمُ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ أَوْ خَطَرُ بِيَالِهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَلَا يُحْتَمَلُ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ هَذَا مِنَ اللَّهِ ابْتِدَاءً تَأْدِيبٌ وَتَعْلِيمٌ؛ يُعَلِّمُ رَسُولُهُ صُحْبَةَ أَصْحَابِهِ وَمُعَامَلَتَهُ مَعَهُمْ كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَمِيرَ نَفْسِكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ [الكهف: ٢٨]، [وَلِهِيَ عَنْ]^(١٣) أَنْ يَمُدَّ عَيْنِيهِ إِلَى مَا مَنَعَ أَوْلَئِكَ كَقَوْلِهِ: ﴿لَا تَدْنُ عَيْنُكَ﴾ الْآيَةَ [الحجر: ٨٨]، وَيُخْبِرُهُ عَنْ عَظِيمِ قَدْرِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ. وَقَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ الْعِصْمَةَ لَا تَمْنَعُ الْحَظَرَ، بَلِ الْعِصْمَةُ تَزِيدُ فِي النَّهْيِ وَالزَّجْرِ.

وَأَخْبَرَ أَنَّ لَيْسَ عَلَيْهِ ﴿مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابٍ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ، وَعَلَيْهِمُ الْإِجَابَةُ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَمَا عَلَيْكُمْ مَا تَحْمِلْتُمْ﴾ [النور: ٥٤].

وقوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ يُشَبِّهُ أَنْ يَكُونُوا يَجْتَمِعُونَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي كُلِّ غَدَاةٍ وَمَسَاءٍ، فَيَسْمَعُونَ مِنْهُ، ثُمَّ يَقْتَرِفُونَ عَلَى مَا عَلَيْهِ أَمْرُ النَّاسِ مِنَ الْاجْتِمَاعِ كُلِّ غَدَاةٍ وَمَسَاءٍ عِنْدَ الْفُقَهَاءِ وَأَهْلِ الْعِلْمِ.

(١) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنْ م. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: أَخَذُوا. (٦) فِي م: وَإِلَى، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٧) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: النَّاسُ وَأَفْحَشَهُ، فِي م: فَعَلَ وَأَوْحَشَهُ. (٨) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: النَّاسُ وَأَفْحَشَهُ، فِي م: فَعَلَ وَأَوْحَشَهُ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (١١) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١٢) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: يَغْلِبُ. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَلِهِيَ.

وجائز أن يكون ذكر الغداة والعشي كناية عن الليل كله وعن النهار جملة كقوله تعالى: ﴿وَالصَّحَى﴾ ﴿وَاللَّيْلَ إِذَا سَجَى﴾ [الضحى: ٢١] ليس يريد بالضحى الضحوة خاصة ولكن [يريد^(١)] النهار كله. ألا ترى أنه قال: ﴿وَاللَّيْلَ إِذَا سَجَى﴾؟ ذكر الليل دلالة على أنه كان الضحى كناية عن النهار جملة. فعلى ذلك [ذكر^(٢)] الغداة والعشي يجوز أن يكون كناية عن الليل والنهار جملة^(٣)، والله أعلم.

وجائز أن يكونوا أصحاب الجرف والمكاسب لا يتفرغون للاجتماع إلى رسول الله ﷺ والاستماع منه في عامة النهار، ولكن يجتمعون إليه، ويستمعون منه بالغداة والعشي، فكان ذكر الغداة والعشي لذلك أو لما ذكرنا.

وجائز أن يكون المراد بذكر الغداة والعشي صلاة الغداة وصلاة العشاء؛ يقول: ﴿وَلَا تَقْرُؤْ﴾ من يشهد هاتين الصلاتين، وإنما يشهدهما أهل الإيمان. وأما أهل النفاق فإنهم لا يشهدون هاتين الصلاتين. ويحتمل ما ذكرنا.

وقوله تعالى: ﴿فَطَرَدَهُمْ فَكَوَّنَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الظلم^(٤)] على وجوه: ظلم كفر، وظلم شرك، وظلم يكون بدونهما^(٥)؛ وهو أن يمنع [أحد، أو يؤخذ منه حق^(٦)] بغير حق. فهو كله ظلم. والظلم ههنا، والله أعلم، يشبه أن يكون هو وضع الحكمة في غير أهلها؛ لأنه لو كان منه ما ذكر من طرد أولئك وإدناء أولئك، لم يكونوا أهلاً للحكمة، ويجوز أن يوصف واضح الحكمة في غير موضعها بالظلم على ما روي في الخبر أن «من وضع الحكمة في غير أهلها فقد ظلمها، ومن منعها عن أهلها فقد ظلمهم».

الآية ٥٣ وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ وقوله ﴿وَكَذَلِكَ﴾ لا يتكلم إلا عن أمر سبق؛ فهو، والله أعلم، يحتمل أن يقول لما قالوا: يا محمد أَرْضَيْتَ بِهِؤَلَاءِ الْأَعْبِدَ مِنْ قَوْمِكَ؟ أَفَتَحْنُ نَكُونُ تَبَعًا لِهَؤُلَاءِ؟ ونحن سادة القوم وأشرافهم، فقال عند ذلك: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي كما فضلتكم على هؤلاء في أمر الدنيا، فكذلك فضلتهم عليكم في أمر الدين، ويكونون^(٧) هم المقرين إلى رسول الله ﷺ والمُذْنِبِينَ مَجْلِسُهُمْ إِلَيْهِ، وأنتم أتباعهم في أمر الدين، وإن كانوا هم أتباعكم في أمر الدنيا، وذلك^(٨) امتحان بغضهم ببعض.

ويحتمل وجهاً آخر؛ وهو أن يقال: كما كان له امتحان كل في نفسه ابتداءً بخنة كقوله تعالى: ﴿وَيَلْبِسْكُمْ بِالْثَغِيرِ وَتَنَزَّهَ﴾ [الأنبياء: ٣٥] وكقوله تعالى: ﴿وَيَلْبِسْكُمْ بِالْمَسِيحِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨] وكقوله^(٩) تعالى: ﴿وَلَتَلْبَسَنَّكُمْ بَنُو إِسْرَءِيلَ مِنَ الْغُفْرِ وَالْجُوعِ﴾ الآية [البقرة: ١٥٥]، فعلى ذلك له أن يمتحن بعضكم ببعض.

وأشد المحن أن يؤمر المتبوع ومن يرى لنفسه فضلاً بالخضوع للتابع ومن هو دونه. عنده يشد ذلك عليه، ويتعذر كما^(١٠) كانوا يرون هم لأنفسهم الفضل والمترلة في أمر الدنيا، فظنوا أنهم كذلك يكونون في أمر الدين.

وعلى ذلك يخرج، لما امتحن إبليس بالسجود لآدم رأى لنفسه فضلاً عليه، قوله^(١١): ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢ و ١٣]، ولم ير الخضوع لمن دونه عدلاً وحكمة، فصار ما صار.

فعلى ذلك هؤلاء لم يروا أولئك الضعفة أن يكونوا متبوعين عدلاً وحكمة، [وظنوا أنهم]^(١٢) لما كانوا مفضلين في أمر الدنيا، وكان لهؤلاء إليهم حاجة يكونون في أمر الدين كذلك، ويقولون: ﴿لَوْ كُنَّا خَيْرًا مِمَّا سَبَقُونَا إِلَيْكَ﴾ [الأحقاف: ١١] ونحوه من الكلام.

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُوا أَهْؤُلَاءِ مِثْلُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيِّنَاتٍ﴾ قال بعضهم: هو موصول بالأول بقوله: ﴿فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ يقول الكافر قول الكفر والمؤمن قول الإيمان ثم ابتداء، فقال هؤلاء: أي يقول الكفرة: ﴿أَهْؤُلَاءِ مِثْلُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيِّنَاتٍ﴾ وقال بعضهم: قوله: ﴿أَهْؤُلَاءِ مِثْلُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيِّنَاتٍ﴾ ليس بمفصول من قوله: ﴿يَقُولُوا﴾ ولكن موصول به ﴿يَقُولُوا﴾ يعني الكفرة ﴿أَهْؤُلَاءِ مِثْلُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيِّنَاتٍ﴾.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم. بدونه. (٦) في الأصل وم. أحداً حقه أو أخذ من حقاً. (٧) في الأصل وم. ويكون. (٨) في الأصل وم. وكذلك. (٩) في الأصل وم. وقوله. (١٠) في الأصل وم. لما. (١١) في الأصل وم. فقال. (١٢) من م، في الأصل: وأنهم.

ثم يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿أَهْتَدَىٰ مَرَكٌ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ بالحِفْظِ بِالتَّقْرِيبِ والإِدْنَاءِ فِي الْمَجْلِسِ وَجَعْلِهِمْ مَتَّبِعِينَ مِنْ بَيْنِنَا بَعْدَ مَا كَانُوا أَتْبَاعًا لَنَا؟ فَقَالَ عِنْدَ ذَلِكَ: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ أَي عَرَفَ هَؤُلَاءِ نِعْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى، وَوَجَّهُوا شُكْرَ نِعْمِهِ إِلَيْهِ، وَأَنْتُمْ وَجَّهْتُمْ شُكْرَ نِعْمِهِ إِلَى غَيْرِهِ بَعْدَ مَا عَرَفْتُمْ أَنَّهُ هُوَ الْمُنْعِمُ عَلَيْكُمْ وَالْمُسْتَدِي إِلَيْكُمْ.

الآية ٥٤

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ﴾ هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ التَّنْهِيَّ عَنِ الطَّرْدِ لَيْسَ لِلإِبْعَادِ خَاصَّةً فِي الْمَجْلِسِ، وَلَكِنْ فِي كُلِّ شَيْءٍ: فِي بَشَاشَةِ الْوُجُوهِ وَاللُّطْفِ فِي الْكَلَامِ وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لِأَنَّهُ قَالَ ﴿قُلْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ هُوَ أَنْ يَبْدَأَهُمُ بِالسَّلَامِ؛ فَذَلِكَ الَّذِي كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أَي لَمْ يَأْخُذْهُمْ^(١) فِي أَوَّلِ مَا وَقَعُوا فِي الْمَعْصِيَةِ، وَلَكِنْ أَمَهَّلَهُمْ إِلَى وَثْقَتِ، وَجَعَلَ لَهُمُ الْمَخْرَجَ مِنْ ذَلِكَ بِالتَّوْبَةِ. وَعَلَى ذَلِكَ مَا رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: فَتَحَّ اللَّهُ لِلْعَبِيدِ التَّوْبَةَ إِلَى أَنْ يَأْتِيَهُ الْمَوْتُ.

وقوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا يَجْهَلُونَ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أَي كُلُّ ﴿مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا يَجْهَلُونَ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فَإِنَّهُ^(٢) يَغْفِرُ لَهُ مَا كَانَ مِنْهُ. وَمَنْ قَرَأَهَا بِالنَّصْبِ^(٣) عَطَفَهُ عَلَى ﴿الرَّحْمَةَ﴾^(٤).

وجائزُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أَي كَتَبَ عَلَى خَلْقِهِ الرَّحْمَةَ أَنْ يَرْحَمَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا. وَجَائِزٌ مَا ذَكَرْنَا أَنَّهُ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَي أَوْجَبَ أَنْ يَرْحَمَ، وَيَغْفِرَ لِمَنْ تَابَ^(٥).

وقوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا يَجْهَلُونَ﴾ جَائِزٌ أَنْ تَكُونَ الْآيَةُ فِي الْكَافِرِ إِذَا تَابَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَهُ مَا كَانَ مِنْهُ فِي حَالِ الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِيشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ الْآيَةُ [آل عمران: ١٣٥] وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ يَنْتَهَوْا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

وجائزُ أَنْ تَكُونَ فِي الْمُؤْمِنِ^(٦)، ثُمَّ ذَكَرَ عَمَلًا يَجْهَلُونَ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ يَفْعَلُ بِالْجَهْلِ، لِأَنَّ الْفِعْلَ فِعْلُ الْجَهْلِ، وَإِنْ كَانَ فِعْلُهُ لَمْ يَكُنْ عَلَى الْجَهْلِ، وَكَذَلِكَ مَا ذَكَرَ مِنَ النَّسْيَانِ وَالْخَطَا فِي الْفِعْلِ لِأَنَّ فِعْلَهُ فِعْلُ نَاسٍ وَفِعْلُ مُخْطِئٍ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْهُ الْكَافِرُ عَلَى النَّسْيَانِ وَالْخَطَا. وَإِلَّا لَوْ كَانَ عَلَى حَقِيقَةِ الْخَطَا وَالنَّسْيَانِ لَكَانَ لَا يُوَازِئُ بِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾ لَكِنَّ الزُّجْعَ مَا ذَكَرْنَا أَنَّ الْفِعْلَ فِعْلُ نَسْيَانٍ وَخَطَا، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ نَاسِيًّا وَلَا مُخْطِئًا فِيهِ. وَعَلَى ذَلِكَ فِعْلُ جَهْلٍ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ جَاهِلًا، وَالْفِعْلُ فِعْلُ جَهْلٍ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ بِالْجَهْلِ.

وَالْمُؤْمِنُ جَمِيعٌ مَا يَتَعَاطَى مِنَ الْمَسَاوِي يَكُونُ لِبُجَاهَالَةٍ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَفْعَلُ / ١٤٩ - ب/ السُّوءَ لَغَيْرِ^(٧) شَهْوَةٍ أَوْ لِلْإِغْتِمَادِ عَلَى كَرَمٍ بِهِ بِالْعَفْوِ عَنْ ذَلِكَ، أَوْ يَفْعَلُ السُّوءَ عَلَى نِيَّةِ التَّوْبَةِ وَالْعَزْمِ عَلَيْهَا فِي آخِرِهِ. عَلَى هَذِهِ الْوُجُوهِ الثَّلَاثَةُ يَقَعُ الْمُؤْمِنُ فِي الْمَعْصِيَةِ. وَأَمَّا عَلَى التَّعَمُّدِ فَلَا يَفْعَلُ.

الآية ٥٥

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْأَنْبِيَاءَ وَالْمُجْرِمِينَ﴾ قُرِئَ^(٨) بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ جَمِيعًا؛ فَمَنْ قَرَأَ بِالتَّاءِ نَصَبَ السَّبِيلِ لِيَجْعَلَ الْخُطَابَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَي لِيَتَعَرَّفَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ، وَمَنْ قَرَأَ بِالْيَاءِ رَفَعَ السَّبِيلَ؛ كَانَهُ قَالَ: ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ الْأَنْبِيَاءَ وَجُوهًا﴾.

[أحدها]^(٩): أَي تُبَيِّنُ الْآيَاتِ مَا يَعْرِفُ السَّامِعُونَ أَنَّهَا آيَاتٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ غَيْرُ مُخْتَرَعَةٍ مِنْ عِنْدِ الْخَلْقِ وَلَا مُفْتَرَاةٌ مَا تُبَيِّنُ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ مِنْ سَبِيلِ الْمُتَّقِينَ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: يَأْخُذُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنَّهُ. (٣) انْظُرْ حِجَةَ الْقِرَاءَاتِ ص (٢٥٢). (٤) أَدْرَجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: قَوْلُهُ: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنْتُمْ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا يَجْهَلُونَ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لِذَلِكَ. (٥) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: يَشَاءُ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: الْمُؤْمِنِينَ. (٧) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: لَضَمَرِ. (٨) انْظُرْ حِجَةَ الْقِرَاءَاتِ ص (٢٥٣). (٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

والثاني: ﴿تَفَصَّلَ الْآيَاتِ﴾ ما بالخلق حاجة إليها وإلى معرفتها.

والثالث: نُبِّئُ مِنَ الْآيَاتِ مَا نُبِّئُ بَيْنَ الْمُخْتَلِفِينَ أَي بَيْنَ سَبِيلِ الْمُجْرِمِينَ وَبَيْنَ سَبِيلِ الْمُهْتَدِينَ.

[وقوله تعالى^(١)] ﴿وَلَنَسْتَبَيِّنَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ تأويله ما ذكرنا أن من قرأ بالتاء حملته على خطاب رسول الله ﷺ بالتاء أي نُبِّئُ مِنَ الْآيَاتِ لِتَعْرِفَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ بِالنُّصْبِ. ومن قرأ بالياء نُبِّئُ مِنَ الْآيَاتِ لِيَتَّبِعَنَّ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ مِنْ سَبِيلِ غَيْرِ الْمُجْرِمِينَ، والله أعلم.

الآية ٥٦

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ مغناه، والله أعلم: إِنِّي نُهَيْتُ بِمَا أَكْرَمْتُ مِنَ الْعَقْلِ وَاللُّبِّ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، أَوْ يَقُولُ: إِنِّي نُهَيْتُ بِمَا أَكْرَمْتُ مِنَ الْوَحْيِ وَالرَّسَالَةِ ﴿أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.

[وقوله تعالى^(٢)] ﴿قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ ثم أخبر أن ما يعبدون هم من دُونِ اللَّهِ إِنَّمَا يَعْبُدُونَ أَتْبَاعاً لِهَوَىٰ أَنفُسِهِمْ، وَإِنَّمَا يَعْبُدُ هُوَ لَيْسَ يَتَّبِعُ هَوَىٰ نَفْسِهِ، وَإِنَّمَا يَتَّبِعُ الْحُجَّةَ وَالسَّمْعَ وَمَا يَسْتَحْسِنُهُ الْعَقْلُ.

أَلَا تَرَىٰ أَنَّهُ قَالَ: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾؟ [الأنعام: ٥٧] أَي عَلَى حُجَّةٍ مِنْ رَبِّي؛ يُخْبِرُ أَنْ مَا يَعْبُدُ هُوَ^(٣) أَنْ يَعْبُدَ أَتْبَاعاً لِلْحُجَّةِ وَالْعَقْلِ، وَمَا يَعْبُدُونَ أَتْبَاعاً لِهَوَىٰ أَنفُسِهِمْ. وَمَا يَتَّبِعُ بِالْهَوَىٰ: يَجُوزُ أَنْ يُتْرَكَ^(٤) أَتْبَاعُهُ، وَيَتَّبِعُ غَيْرُهُ لِمَا تَهْوَىٰ النَّفْسُ^(٥) هَذَا، وَلَا تَهْوَى الْأَوَّلَ. وَأَمَّا مَا يَتَّبِعُ بِالْحُجَّةِ وَالسَّمْعِ وَمَا يَسْتَحْسِنُهُ^(٦) الْعَقْلُ فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُتْرَكَ أَتْبَاعُهُ، وَيَتَّبِعُ غَيْرُهُ.

وفيه تعرض لسفاههم لأنه قال: ﴿قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ أَي لَوِ اتَّبَعْتُ أَهْوَاءَكُمْ لَضَلَلْتُ إِذَنْ، وَأَنْتُمْ، إِذَا اتَّبَعْتُمْ أَهْوَاءَكُمْ لِيُعَذِّبَكُمْ غَيْرَ اللَّهِ، ضَلَالًا، وَلَسْتُمْ بِالْمُهْتَدِينَ، فَهُوَ غَرَضُ^(٧) التَّنْفِيهِ لَهُمْ وَالشَّمُّ مِنْهُ.

الآية ٥٧

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ قِيلَ عَلَى بَيَانٍ مِنْ رَبِّي وَحُجَّةٍ، وَقِيلَ: عَلَى دِينٍ مِنْ رَبِّي.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ قِيلَ: بِالْقُرْآنِ، وَقِيلَ: الْعَذَابُ مَا أَوْعَدْتُكُمْ.

وقوله تعالى: ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعِجِلُونَ بِهِ﴾ أَي الْعَذَابُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَسَّاتِلُكُمْ بِالْعَذَابِ﴾ [الحج: ٤٧] وَغَيْرِهِ، فَقَالَ: ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعِجِلُونَ بِهِ﴾ مِنَ الْعَذَابِ.

ثم هذا يدلُّ على أن قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ﴾ [الأنعام: ٥٠] أَنَّ الْمُرَادَ بِالْخَزَائِنِ الْعَذَابُ؛ أَي لَيْسَ عِنْدِي ذَلِكَ إِنَّمَا ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ، وَعِنْدَهُ ذَلِكَ؛ وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ أَلْحَمُّ إِلَّا إِلَهُ﴾ أَي مَا الْحُكْمُ وَالْقَضَاءُ إِلَّا لِلَّهِ، [أَي مَا الْحَقُّ]^(٨) ﴿يَقْضُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِّلِينَ﴾ اخْتَلَفَ فِي تِلَاوَتِهِ وَتَأْوِيلِهِ:

قَرَأَ بَعْضُهُمْ بِالضَّادِ وَآخَرُونَ بِالصَّادِ^(٩)؛ فَمَنْ قَرَأَ بِالضَّادِ: ﴿يَقْضُ﴾ يَقُولُ: يُبَيِّنُ الْحَقُّ لِأَنَّ الْقَضَاءَ هُوَ الْبَيَانُ، وَقَالَ آخَرُ: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِّلِينَ﴾ أَي خَيْرُ الْمُبَيِّنِينَ. وَمَنْ قَرَأَ بِالضَّادِ يَقُولُ: يَقْضِي يَحْكُمُ. ثُمَّ اخْتَلَفَ فِيهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ أَي يَقْضِي بِالْحَقِّ، وَكَذَلِكَ رَوَى فِي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ أَنَّهُ قَرَأَ: يَقْضِي بِالْحَقِّ، وَقِيلَ: فِيهِ إِضْمَارٌ أَي يَقْضِي، وَيَحْكُمُ، وَحُكْمُهُ الْحَقُّ ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِّلِينَ﴾ أَي الْقَاضِينَ^(١٠)، وَالْفَضْلُ وَالْقَضَاءُ وَاحِدٌ؛ لِأَنَّهُ بِالْقَضَاءِ يُفْصَلُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٥٨

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعِجِلُونَ بِهِ لَقُفِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: [١١] ﴿لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعِجِلُونَ بِهِ﴾ مِنَ الْعَذَابِ ﴿لَقُفِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ لِأَهْلَكْتُكُمْ. وَقِيلَ ﴿لَقُفِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي

(١) ساقطة من الأصل و م. (٢) ساقطة من الأصل و م. (٣) في الأصل و م: هم. (٤) في الأصل و م: ينزل. (٥) في الأصل و م: نفسه. (٦) من م، في الأصل: يحسنه. (٧) في الأصل: تعرض. في م: تعريض. (٨) ساقطة من م. (٩) انظر حجة القراءات ص (٢٥٤). (١٠) من م، في الأصل: الفاضلين. (١١) ساقطة من الأصل و م.

وَيَبَيِّنْكُمْ أَيَّ لَعْنَتُهُ لَكُمْ بِالْقَضَاءِ فِي مَا بَيَّنَّا؛ يُخْبِرُ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ وَجَلَمِوْهُ، أَيُّ لَوْ كَانَ بِيَدِي لَأَرْسَلْتُ عَلَيْكُمْ، لَكِنَّ اللَّهَ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ يُؤَخِّرُ ذَلِكَ عَنْكُمْ.

ثُمَّ فِيهِ نَقْضٌ عَلَى الْمُعْتَرِزَةِ فِي قَوْلِهِمْ: إِنَّ^(١) اللَّهَ لَا يَفْعَلُ بِالْعَبْدِ إِلَّا الْأَضْلَحَ فِي الدِّينِ، لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعِجِلُونَ بِهِ لَفُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ ثُمَّ لَا يُحْتَمَلُ أَنْ تَأْخِيرَ الْعَذَابَ وَالْهَلَاكَ خَيْرَ لَهُمْ وَأَضْلَحُ، ثُمَّ هُوَ يُهْلِكُهُمْ، وَيَكُونُ عِقَابًا لِيُغَيِّرَهُمْ وَرَجْرًا لَهُمْ. ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخَّرَ ذَلِكَ الْعَذَابَ عَنْهُمْ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ شَرٌّ لَهُمْ، فَقَدْ أُنْزِلَ اللَّهُ أَنْ يَفْعَلَ بِالْعَبْدِ مَا لَيْسَ ذَلِكَ بِأَضْلَحَ لَهُ فِي الدِّينِ.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ أَيُّ عَلِيمٍ بِمَنْ الظَّالِمُ مِنَّا، وَهُمْ كَانُوا ظَلَمَةً.

الآية ٥٩

وقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ صِلَةً قَوْلِهِ: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ﴾ [الأنعام: ٥٠] وَصِلَةً قَوْلِهِ: ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعِجِلُونَ بِهِ﴾ [الأنعام: ٥٧]. كَانُوا يَطْلُبُونَ مِنْهُ ﷺ وَيَسْأَلُونَهُ أَشْيَاءَ مِنَ التَّوْبِيعِ فِي الرِّزْقِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا كَانَ يَعِدُهُمْ مِنَ الْكِرَامَةِ وَالْمَنْزِلَةِ وَالسَّعَةِ، وَكَانَ يُوعِدُهُمْ بِالْعَذَابِ، وَيُخَوِّفُهُمْ بِالْهَلَاكِ، فَيَسْتَعِجِلُونَ ذَلِكَ مِنْهُ مَا وَعَدَ لَهُمْ، فَقَالَ: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ لَيْسَ ذَلِكَ عِنْدِي، لَا يَعْلَمُ ذَلِكَ إِلَّا هُوَ.

وَمَفَاتِحُ مِنَ الْمَفْتَحِ لَيْسَ مِنَ الْمِفْتَاحِ، يَكُونُ جَمْعُهُ مَفَاتِيحَ. وَالْفَتْحُ، يُقَالُ فِي النَّصْرِ وَالْمَعُونَةِ، يُقَالُ: فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِلَدَةً كَذَا، أَيُّ نَصَرَهُ، وَجَعَلَهُ غَالِبًا عَلَيْهِمْ، وَيُقَالُ فِي مَا يُخْدَعُهُ، وَيُسْتَفَادُ^(٢) مِنْهُ: فَتَحَ فُلَانٌ عَلَى فُلَانٍ بَابَ كَذَا، أَيُّ عَلَّمَهُ عِلْمَ ذَلِكَ.

وقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ أَيُّ عِنْدَهُ [مَا]^(٣) يُسْتَفَادُ ذَلِكَ، وَمِنْهُ يَكُونُ. وَمَنْ نَصَرَ آخَرَ فَإِنَّمَا يَنْصُرُ بِهِ، وَمَنْ عَلَّمَ آخَرَ فَإِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بِهِ، وَمَنْ وَسَّعَ عَلَى^(٤) آخَرَ رِزْقًا فَإِنَّمَا يُوسِّعُهُ بِاللَّهِ. كُلُّ هَذَا يُشْبِهُ أَنْ يُخْرِجَ تَأْوِيلُ الْآيَةِ.

وقوله تعالى: ﴿وَيَتْلُو مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ هَذَا يُحْتَمَلُ وَجُوهًا:

[أَحَدُهَا]^(٥): يُحْتَمَلُ ﴿مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أَيُّ ﴿وَيَتْلُو مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ مِنَ الدُّوَابِّ وَمَا يَسْكُنُ فِيهَا مِنْ ذَوِي الرُّوحِ: كَثَرَتْهَا وَعَدَّدَهَا وَصَغِيرَهَا، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ.

وَالثَّانِي: ﴿وَيَتْلُو مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أَيُّ يَعْلَمُ رِزْقَ كُلِّ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَيَعْلَمُ حَاجَتَهُ، ثُمَّ يَسُوقُ إِلَى كُلِّ مِنْ ذَلِكَ رِزْقَهُ. يُخْبِرُ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ لَمَّا ضَمِنَ لِلْخَلْقِ لِكُلِّ مِنْهُمْ رِزْقَهُ يَسُوقُ إِلَيْهِ رِزْقَهُ مِنْ غَيْرِ تَكْلُفٍ وَلَا طَلَبٍ كَمَا يَسُوقُ أَرْزَاقًا مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ مِنْ غَيْرِ طَلَبٍ وَلَا تَكْلُفٍ، لَا تَضِيقُ قُلُوبُهُمْ لِذَلِكَ، فَمَا بِالْكُفِّ تَضِيقُ قُلُوبَكُمْ عَلَى ذَلِكَ، وَقَدْ ضَمِنَ ذَلِكَ لَكُمْ كَمَا ضَمِنَ لِأَوَّلِكُمْ؟

وَالثَّالِثُ: ﴿وَيَتْلُو مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ مِنْ اخْتِلَاطِ الْأَقْطَارِ بِغَضِهَا بِغَضِ وَمِنْ دَخُولِ بَعْضِهَا فِي بَعْضٍ؛ يُخْرِجُ هَذَا عَلَى الرَّعِيدِ أَنَّهُ لَمَّا كَانَ عَالِمًا بِهَذَا كُلِّهِ يَعْلَمُ بِأَعْمَالِكُمْ وَمَقَاصِدِكُمْ. فَإِنْ قِيلَ: هَذَا الَّذِي ذَكَرَ، كُلُّهُ فِي الظَّاهِرِ دَعْوَى، فَمَا الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّهُ كَذَلِكَ؟ قِيلَ: اتِّسَاقُ التَّدْبِيرِ فِي كُلِّ شَيْءٍ وَأَتَارُؤُهُ فِيهِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ بِتَدْبِيرٍ وَاحِدٍ لِأَنَّهُ أَتَارُؤُ التَّدْبِيرِ فِي كُلِّ شَيْءٍ وَأَتَسَاقِيهِ عَلَى سَنَنِ وَاحِدَةٍ ظَاهِرَةٌ بِأَدِيَّةٍ. فَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى مَا ذَكَرَ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا رَهْبَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ الْآيَةُ. وَيَحْتَمِلُ الْكِتَابُ هَهُنَا التَّقْدِيرَ وَالْحُكْمَ. اخْتَلَفَ فِيهِ: قِيلَ: قَوْلُهُ ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أَيُّ مَحْفُوظٍ كُلُّهُ عِنْدَهُ؛ يَقُولُ الرَّجُلُ لِآخَرَ: عَمَلُكَ كُلُّهُ عِنْدِي مَكْتُوبٌ؛ يُرِيدُ الْحِفْظَ، أَيُّ مَحْفُوظٌ عِنْدِي، وَذَلِكَ جَائِزٌ فِي الْكَلَامِ، وَقِيلَ: الْكِتَابُ هَهُنَا هُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ أَيُّ كُلُّهُ مُبَيَّنٌ فِيهِ.

(١) فِي م: بَانَ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: يَسْتَفِيدُ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: إِلَى. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

وَقَالَ الْحَسَنُ، رَجَعَهُ اللهُ: إِنَّ اللهَ يُخْرِجُ كِتَابًا فِي كُلِّ لَيْلَةِ الْقَدْرِ، وَيَذْفَعُهُ^(١) إِلَى الْمَلَائِكَةِ، وَفِيهِ مَكْتُوبٌ كُلُّ مَا يَكُونُ فِي تِلْكَ السَّنَةِ لِيَحْفَظُوهُ^(٢) / ١٥٠ - أ/ على ما يكون، أو كلامٌ نَجْوُ هذا، والله أعلم.

الآية ٦٠

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَلَّكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ وَقَالَ بَغُضُّ أَهْلِ الْكَلَامِ: إِنَّ لِكُلِّ حَاسَّةٍ مِنْ هَذِهِ الْحَوَاسِّ رُوحًا، يُقْبَضُ عِنْدَ النَّوْمِ، ثُمَّ يُرَدُّ إِلَيْهَا سَوَى رُوحِ الْحَيَاةِ، فَإِنَّهُ لَا يُقْبَضُ، لِأَنَّهُ يَكُونُ أَصَمَّ بَصِيرًا مُتَكَلِّمًا نَاطِقًا، وَيَكُونُ أَغْمَى سَمِيعًا، وَيَكُونُ أَخْرَسَ سَمِيعًا بَصِيرًا. فَتَبَّتْ أَنَّ لِكُلِّ حَاسَّةٍ مِنْ حَوَاسِّ النَّفْسِ رُوحًا عَلَى جِدَةٍ، يُقْبَضُ عِنْدَ النَّوْمِ، ثُمَّ يُرَدُّ إِلَيْهَا، إِذَا ذَهَبَ النَّوْمُ.

وَأَمَّا الرُّوحُ الَّذِي بِهِ يُخَيِّى النَّفْسَ فَإِنَّهُ لَا يُقْبَضُ ذَلِكَ مِنْهُ إِلَّا عِنْدَ انْقِضَاءِ أَجَلِهِ، وَهُوَ الْمَوْتُ. وَقَالَتِ الْفَلَاسِفَةُ: الْحَوَاسُّ هِيَ الَّتِي تُذَكِّرُ صُورَ الْأَشْيَاءِ بِطَبِيعَتِهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَلَّكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ فِيهِ دَلَالَةٌ أَنَّ لَيْسَ ذِكْرُ الْحُكْمِ فِي حَالٍ أَوْ تَخْصِيصُ الشَّيْءِ فِي حَالٍ دَلَالَةٌ سَقُوطِ ذَلِكَ فِي حَالٍ أُخْرَى، لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ لَيْسَ فِيهِ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ مَا جَرَحْنَا بِاللَّيْلِ، بَلْ يَعْلَمُ مَا يَكُونُ مِنَّا بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ جَمِيعًا، وَلَيْسَ فِيهِ أَنَّهُ لَا يَتَوَقَّأَنَّ بِالنَّهَارِ، وَالْأَلَا نَجْرَحُ بِاللَّيْلِ، لَكِنَّهُ ذَكَرَ الْجُرْحَ بِالنَّهَارِ وَالْوَفَاةَ بِاللَّيْلِ لِمَا أَنَّ الْغَالِبَ مِمَّا يُبْصَرُ إِنَّمَا يَكُونُ بِالنَّهَارِ. فَعَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلِ. ثُمَّ فِيهِ دَلَالَةٌ أَنَّ النَّاسِمَ غَيْرَ مُخَاطَبٍ فِي حَالِ نَوْمِهِ جِئْنَ^(٣) ذَكَرَ الْوَعِيدَ فِي مَا يَجْرَحُونَ بِالنَّهَارِ، وَلَمْ يَذْكُرْ بِاللَّيْلِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿جَرَحْتُمْ﴾ أَيِ أَثْمَمْتُمْ ﴿بِالنَّهَارِ﴾. وَقِيلَ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا﴾ كَيْسَبْتُمْ ﴿بِالنَّهَارِ﴾. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ يَبْتَلِيكُمْ فِيهِ﴾ يُسْتَدَلُّ بِقَوْلِهِ: ﴿يَتَوَلَّكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ ثُمَّ يَبْتَلِيكُمْ فِيهِ عَلَى الْإِحْيَاءِ بَعْدَ الْمَوْتِ لِأَنَّهُ يَذْهَبُ أَرْوَاحُ هَذِهِ الْحَوَاسِّ، ثُمَّ يُرَدُّهَا إِلَيْهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَبْقَى^(٤)، فَكَيْفَ تُتَكَبَّرُونَ الْبَغْثَ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَإِنْ لَمْ يَبْقَ مِنْ أَثَرِ لِلْحَيَاةِ^(٥)؟

ثُمَّ الْقَوْلُ فِي الْجَمْعِ بَعْدَ التَّفَرُّقِ مِمَّا الْخَلْقُ يَفْعَلُ ذَلِكَ، وَيَقْدِرُ عَلَيْهِ، نَحْوُ مَا يَجْمَعُ مِنَ التَّرَابِ الْمُتَفَرِّقِ، فَيَجْعَلُهُ طِينًا، وَرَفْعَ الْبِنَاءِ مِنْ مَكَانٍ وَرُضْعِهِ فِي مَكَانٍ آخَرَ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ جَمْعِ بَعْضٍ إِلَى بَعْضٍ وَتَرْكِيبِ بَعْضٍ عَلَى بَعْضٍ، فَذَلِكَ أَنَّ الْأَعْجُوبَةَ فِي رَدِّ مَا ذَهَبَ كُلُّهُ حَتَّى لَمْ يَبْقَ لَهُ أَثَرٌ لَا فِي جَمْعٍ [وَلَا فِي] تَفَرُّقٍ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ يَبْتَلِيكُمْ فِيهِ﴾ أَيِ يُوقِظُكُمْ، وَيُرَدُّ إِلَيْكُمْ أَرْوَاحُ الْحَوَاسِّ ﴿لِيَقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ أَيِ مُسَمًّى الْعُمُرِ إِلَى الْمَوْتِ ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُبْتَلِيكُمْ مِمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ خَرَجَ هَذَا عَلَى الْوَعِيدِ لِمَا ذَكَرْنَا لِيَكُونُوا عَلَى حَذَرٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْإِلَهِ وَالْبَحْرِ [الأنعام: ٥٩] يَعْلَمُ [كُلُّ] مَا يَغِيبُ عَنِ الْخَلْقِ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ، لِأَنَّهُ عَالِمٌ بِذَاتِهِ، لَا يَخْجُبُهُ شَيْءٌ، لَيْسَ [عِلْمُهُ]^(٨) كَعِلْمِ مَنْ يَعْلَمُ بغيرِهِ، فَيَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعِلْمِ بِالْأَشْيَاءِ الْحُجُبُ وَالْأَسْتَارُ. فَأَمَّا اللهُ ﷻ [فَهُوَ]^(٩) عَالِمٌ بِذَاتِهِ، لَا [يَخْجُبُ] عِلْمَهُ^(١٠) شَيْءٌ، وَلَا يَكُونُ لَهُ حِجَابٌ عَنْ شَيْءٍ.

الآية ٦١

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ فِيهِ جَمِيعُ مَا يَحْتَاجُ أَهْلُ التَّوْحِيدِ [إِلَيْهِ]^(١١) لِأَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ قَاهِرٌ لِحَلْفِهِ، وَهُمْ مَقْهُورُونَ. وَمِنْ الْبَعِيدِ أَنْ يُشْبِهَ الْقَاهِرُ الْمَقْهُورَ بِشَيْءٍ، أَوْ يُشْبِهَ الْمَقْهُورُ الْقَاهِرَ بِوَجْهِ، أَوْ يَكُونَ شَرِيكَ الْقَاهِرِ فِي مَعْنَى، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ قَاهِرًا مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ، وَلَا كَانَ الْخَلْقُ مَقْهُورًا فِي الْوُجُوهِ كُلِّهَا. فَإِذَا كَانَ اللهُ قَاهِرًا بِذَاتِهِ الْخَلْقُ كُلُّهُ كَانَتْ أَثَارُ قَهْرِهِ فِيهِمْ ظَاهِرَةً وَأَعْلَامُ سُلْطَانِهِ فِيهِمْ بَادِيَةً عَلَى تَعَالِيهِ عَنِ الْأَشْيَاءِ وَالْأَضْدَادِ وَأَنَّهُ كَمَا وَصَفَ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيَذْفَعُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: لِيَحْفَظُوهُمْ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: بَقِيَ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: الْحَيَاةُ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: مَا. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: يَحْجُبُهُ. (١١) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ يكون على وجهين:

أحدهما: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ﴾ وهو ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾.

والثاني: على التقديم والتأخير؛ وهو فوق عباده القاهِر. ويَحْتَمِلُ قوله: ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ بالنَّصْرِ لَهُمُ والمَعُونَةُ والدَّفْعُ عَنْهُمْ كقوله: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي بالنَّصْرِ والمَعُونَةُ والعَظَمَةُ والرَّفْعَةُ والجَلَالُ ونَفَاذُ السُّلْطَانِ والرُّبُوبِيَّةِ.

وقوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أحدهما] ^(١): أخبر أنه القاهر فوق عباده وأنه أرسل عليهم الحَفَظَةَ لِيَعْلَمُوا أَنَّ إِرْسَالَ الحَفَظَةِ عَلَيْهِمْ لا لِحَاجَةٍ لَهُ؛ لَمْ يَكُنْ قَاهِرًا لِأَنَّ مَنْ وَقَعَتْ لَهُ حَاجَةٌ صَارَ مَقْهُورًا تَحْتَ قَهْرِ آخَرٍ. فالله، تعالى أن تَمَسَّهُ حَاجَةٌ، أو يُصِيبَهُ [مِثْلُ مَا يُصِيبُ الخَلْقَ]، بل وإنما أَرْسَلَهُمْ عَلَيْهِمْ لِحَاجَةِ الخَلْقِ ^(٢)، إمَّا امْتِحَانًا مِنْهُ لِلْحَفَظَةِ عَلَى مُحَافَظَةِ أَعْمَالِ الْعِبَادِ والكِتَابَةِ عَلَيْهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَقَعَ لَهُ فِي ذَلِكَ حَاجَةٌ، يَمْتَحِنُهُمْ بِذَلِكَ ^(٣). ولِلَّهِ أَنْ يَمْتَحِنَ عِبَادَهُ بِمَا شَاءَ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَحْنِ، وَإِنْ أَكْرَمَهُمْ، وَوَصَفَهُمْ بِالطَّاعَةِ فِي الْأَحْوَالِ كُلِّهَا بِقَوْلِهِ تعالى: ﴿لَا يَمَسُّونَ اللَّهُ مَا أَتَاهُمْ وَيَقُولُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التَّحْرِيمُ: ٦] وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

والثاني: [يرسل الحَفَظَةَ] ^(٤) عَلَيْهِمْ بِمُحَافَظَةِ أَعْمَالِهِمْ والكِتَابِ عَلَيْهِمْ لِيَكُونُوا عَلَى حَذَرٍ فِي ذَلِكَ؛ [وَذَلِكَ] ^(٥) فِي الرُّجْرِ ابْتِلَافٌ وَاتِّخَاذٌ [نَظَرًا] ^(٦) لِأَنَّ مَنْ عَلِمَ أَنَّ عَلَيْهِ رَقِيبًا فِي عَمَلِهِ وَفِعْلِهِ كَانَ أَحْذَرُ فِي ذَلِكَ [الْعَمَلِ وَالنَّظَرِ] ^(٧) فِيهِ وَاحْفَظَ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ يَعْلَمُ كُلُّ مُسْلِمٍ أَنَّ اللَّهَ عَالِمُ الْغَيْبِ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ، عَالِمٌ بِمَا كَانَ مِنْهُمْ، وَبِمَا يَكُونُ أَنْ يَكُونَ، وَمَتَى يَكُونُ؟

ثم اخْتَلَفَ فِي الحَفَظَةِ هُنَا: قَالَ بَعْضُهُمْ: هُمُ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تعالى: ﴿وَرَأَى عَلَيْكُمْ كَتُوبَيْنَ﴾ ﴿كِرَامًا كَتِيبَيْنَ﴾ ﴿يَتْلُونَ مَا تُنْقَلُونَ﴾ [الْإِنْفِطَارُ: ١٠ و ١١ و ١٢] يَكْتُبُونَ أَعْمَالَهُمْ، وَيَحْفَظُونَ عَلَيْهِمْ. وَقَالَ آخَرُونَ: هُمُ الَّذِينَ يَحْفَظُونَ أَنْفَاسَ الخَلْقِ وَيَعُدُّونَ عَلَيْهِمْ إِلَى وَقْتِ انْقِضَائِهَا وَقَنَائِهَا، ثُمَّ تَقْبِضُ مِنْهُ الرُّوحَ، وَيَمُوتُ.

أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ عَلَى إِثْرِهِ: ﴿حَقًّا إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾؟ دَلٌّ عَلَى أَنَّ الحَفَظَةَ هُنَا هُمُ الَّذِينَ سُلْطُوا عَلَى حِفْظِ الْأَنْفَاسِ وَالْعَدِّ عَلَيْهِمْ إِلَى وَقْتِ الْمَوْتِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثم فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿حَقًّا إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ دَلَالَةٌ خَلَقِ أَعْمَالِ الْعِبَادِ؛ لِأَنَّهُ ذَكَرَ مَجِيءَ الْمَوْتِ وَتَوَفِّي الرُّسُلِ، وَقَالَ: خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ، وَمَجِيءُ الْمَوْتِ هُوَ تَوَفِّي الرُّسُلِ ^(٨)، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ خَلَقَ الْمَوْتَ. دَلٌّ أَنَّهُ خَلَقَ تَوَفِّيَهُمْ ^(٩). فَاحْتَالَ بَعْضُ الْمُعْتَزِّلَةِ فِي هَذَا، وَقَالَ: إِنَّ الْمَلَكَ هُوَ الَّذِي يَنْزِعُ الرُّوحَ، وَيَجْمَعُهُ فِي مَوْضِعٍ، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ يَتْلِفُهُ، وَيُهْلِكُهُ. فَلَأَنْ كَانَ مَا قَالَ فَادِنٌ لَا يَمُوتُ بِتَوَفِّي الرُّسُلِ أَبَدًا؛ لِأَنَّهُمْ إِذَا نَزَعُوا، وَجَمَعُوا فِي مَوْضِعٍ، تَزَادَتْ حَيَاةُ الْمَوْضِعِ الَّذِي جَمَعُوا فِيهِ، لِأَنَّهُ اجْتَمَعَ كُلُّ رُوحِ النَّفْسِ فِي ذَلِكَ. فَإِنْ لَمْ يَكُنْ، دَلٌّ أَنَّ ذَلِكَ خَبَالٌ. وَالرُّجُوعُ فِيهِ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الدَّلَالَةِ، وَهُوَ ظَاهِرٌ بِحَمْدِ اللَّهِ؛ يَغْرِهُ كُلُّ عَاقِلٍ، يَتَأَمَّلُ فِيهِ، وَلَمْ يَعَانِدْ ^(١٠)، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

ثم اخْتَلَفَ فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ مَلَكُ الْمَوْتِ وَحْدَهُ، وَإِنْ خَرَجَ الْكَلَامُ مَخْرَجَ الْعُمُومِ بِقَوْلِهِ: ﴿رُسُلُنَا﴾ وَالْمُرَادُ مِنْهُ الْخُصُوصُ: أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿قُلْ بِتَوَفَّيْكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي ذُكِّرَكُمْ﴾ [السَّجْدَةُ: ١١] أَخْبَرَ أَنَّهُ الْمُوَكَّلُ وَالْمُسَلَّطُ عَلَى ذَلِكَ؟

وَقَالَ آخَرُونَ: يَتَوَفَّاهُ أَغْوَانُ مَلَكِ [الْمَوْتِ] ^(١١)، ثُمَّ يَقْبِضُهُ مَلَكُ الْمَوْتِ، وَيَتَوَفَّاهُ. وَقَالَ قَائِلُونَ: يَكُونُ مَعَهُ مَلَائِكَةٌ تَقْبِضُ الْأَنْفَاسَ، وَيَتَوَفَّاهُ مَلَكُ الْمَوْتِ. لَكِنَّ ذَلِكَ لَا يُدْرَى ^(١٢) أَنْ كَيْفَ هُوَ؟ وَلَيْسَ بِنَا إِلَى مَعْرِفَةِ ذَلِكَ حَاجَةٌ، وَلَكِنْ إِلَى مَعْرِفَةِ مَا ذَكَرْنَا.

(١) ساقطة من الأصل و م. (٢) من م، في الأصل: الخلق. (٣) في الأصل و م: على ذلك. (٤) في الأصل و م: يرسله. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، في الأصل: وذلك. (٨) أدرج بعدها في الأصل و م: هو مجيء الموت. (٩) من م، في الأصل: الموت لهم. (١٠) من م، في الأصل: يعاندوا. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل: تدري، في م: تدري.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُعْرِطُونَ﴾ فيه إخبار عن شدة طاعة الملائكة ربهم، وأن الرافة لا تأخذهم في ما فيه تأخير أمر الله وتفریطه، لأن من دخل على من في الترع أخذته من الرافة ما لو ملك حياته لبذل له. فاجبر أنهم ﴿لَا يُعْرِطُونَ﴾ في ما أمروا، ولا يؤخروه لتعطيهم أمر الله وشدة طاعتهم له.

وعلى ذلك وصفهم: ﴿غَلَّظَ شِدَادَ لَا يَصُونُ اللَّهُ مَا أَمَرَهُمْ وَيَقْمُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ / ١٥٠ - ب / [التحریم: ٦]. وقال: ﴿لَا يَسْقُونَهُم بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧] وقال: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحِيرُونَ﴾ ﴿يُسْحُونَ أَيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩ و ٢٠].

الآية ٦٢ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ﴾ ذكر الرد إلى الله، وأنه مولاهم الحق، وإن كانوا في الأحوال كلها مردودين إلى الله، وكان مولاهم الحق في الدنيا والآخرة. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَيَرْزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [إبراهيم: ٢١] وكذلك قوله: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ﴾ [غافر: ١٦] كان الملك له في الدنيا والآخرة، وكانوا بارزين له جميعاً في الأوقات كلها إما كانوا أصحاب الشكوك، فازتفع ذلك عنهم، وخلص بؤرهم وردهم إلى الله خالصاً لا شك فيه. وكذلك كان الملك في الدنيا والآخرة [وفي الأيام] (١) كلها، لكن نازعه (٢) غيره في الملك في الدنيا، ولا أحد ينازعه في ذلك اليوم في الملك ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ﴾ كان مولاهم الحق في الأوقات كلها والأحوال. ولكن عند ذلك يظهر لهم أنه كان مولاهم الحق. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ﴾ يختل رُدُّوا إلى ما وعد لهم، وأوعده.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخُكْمُ﴾ يختل قوله ﴿أَلَا لَهُ الْخُكْمُ﴾ في تأخير الموت والحياة وقبض الأرواح وتوفي الأنفس. ويختل قوله: ﴿لَهُ الْخُكْمُ﴾ في التغذيب في النار والثواب والعقاب، ليس يذفع ذلك عنهم دافع سواه، ولا ينازعه أحد في الحكم.

[وقوله تعالى] (٣): ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [روى عن الحسن أنه] (٤) قال: هو سريع العقاب لأنه إنما يحاسب ليُعذب لما روي [عن رسول الله ﷺ أنه قال] (٥): ﴿مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِبَ﴾ [البخاري: ٦٥٣٦]، ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ لأنه لا يحاسب عن حفظ ولا تفكير، ولا يشغله شيء، وأما غيره فإنما يحاسب عن حفظ وتفكير وعن شغل، فهو أسرع الحاسبين، ولا يشغله شيء.

الآية ٦٣ وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يُنْجِيكَ مِنْ ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ ليس هذا على الأمر له، ولكن على المحاجة كقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الروم: ٤٢] ليس على الأمر بالسير ولكن على الإغتيار بأولئك الذين كانوا من قبل والنظر في آثارهم وإعلامهم كيف صاروا بتكذيبهم الرسل؟ وماذا أصابهم بذلك؟ فعلى ذلك هذا فيه الأمر بالمحاجة معهم في آياتهم أنه ﴿مَنْ يُنْجِيكَ مِنْ ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ آياتكم التي تعبدون من دون الله، وتشركونها في ألوهيته وربوبيته؟ أم الله الذي خلقكم؟ فسمرهم (٦) حتى قالوا: هو الذي ينجينا من ذلك.

فقال تعالى: ﴿قُلْ اللَّهُ يُنْجِيكُمْ مِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾ [الأنعام: ٦٤] فإذا كان هو الذي ينجيك من هذا، لا آلهتكم التي تعبدونها، فكذلك هو الذي ينجيك من كل كَرْبٍ ومن كل شدة.

ويختل قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يُنْجِيكَ مِنْ ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ قوله (٧): ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ [الأنعام: ٢١ و...] أي لا أحد أظلم؛ تخافون على آلهتكم الهلاك كما تخافون على أنفسكم، فلا أحد سواه ينجيك من ذلك ومن كل كَرْبٍ.

قال أبو بكر الكيساني: هم عرّفوا في الدنيا أنه هو الذي ينجيه في الآخرة، ويهلكهم. وهم (٨) هكذا عرّفوا الله في الدنيا، ولم يعرفوه في الآخرة.

(١) في الأصل: وفي الأمر، في م: وفي الأيام. (٢) في الأصل وم: نازع. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: عن الحسن. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: فسرحهم. (٧) في الأصل وم: كقولهم. (٨) في الأصل وم: وهو.

ثم اختلف في ظلمات البر والبحر: قال بغضهم: الظلمات هي الشدايد والكروب التي تصيبهم بالسلوك في البر والبحر، وقال آخرون: الظلمات [هي الأسفار] ^(١) لأن أسفار البحار والمغاور إنما تقطع بأعلام السماء؛ فإذا أظلمت ^(٢) السماء بقوا متخبرين لا يعرفون إلى أي ناحية يسلكون، ومن أي طريق يأخذون. فعند ذلك يدعون الله ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾.

قال الحسن: التضرع هو ما يرفع به الصوت، والخفية هي ما يدعى سراً، وهو من الإخفاء. وفي حرف ابن مسعود: تذرعون تضرعاً وخيفة ^(٣)؛ وهي من الخوف. قال الكلبي: في خفض وسكون وتضرع إلى الله.

وقوله تعالى: ﴿لَيْنَ أَمْنًا مِنْ هَؤُلَاءِ لَنُكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ قال أبو بكر: قوله تعالى: ﴿لَنُكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أي لا نوجه الشكر إلى غيرك. والشكر ههنا هو التوحيد؛ أي لئن أنجيتنا لنكونن من الموحدين لك من بعد؛ لأنهم كانوا يؤحدون الله في ذلك الوقت. لكنهم إذا نجوا من ذلك أشركوا غيره.

ألا ترى أنه قال: ﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْكِرُونَ﴾؟ [الأنعام: ٦٤].

الآية ٦٤ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْكِرُونَ﴾ بعد علمكم أن الأصنام التي تعبدونها لم تملك الشفاعة لكم ولا الزلفى إلى الله ^(٤)؛ يذكر سفلتهم في عبادتهم الأوثان على علم منهم أنها لا تشفع، ولا تملك دفع شيء عنهم.

الآية ٦٥ وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلِيَسَّكُمْ شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ اختلف في نزول الآية في من نزلت؟ في مشركي العرب؟ وهو قول أبي بكر الأصم لأنها نزلت على إثر آيات، نزلت في أهل الشرك: من ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدَ خَزَائِنِ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ﴾ [الأنعام: ٥٠] وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ﴾ الآية [الأنعام: ٤٦] وقوله: ﴿هُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقَّ﴾ [الأنعام: ٦١ و٦٢] هذه الآيات كلها نزلت في أهل الشرك. فهذه كذلك نزلت فيهم، لأنها ذكرت على إثرها، ولأن سورة الأنعام نزل أكثرها في محاجة أهل الشرك [إلا] ^(٥) آيات منها نزلت في أهل الكتاب، وسورة المائدة نزل أكثرها في محاجة أهل الكتاب.

ومنهم من يقول: نزلت في أهل الإسلام، وهو قول أبي بن كعب؛ وقال: من أرتع؛ فجاء منهم اثنتان بعد وفاة رسول الله ﷺ ألبسهم شيعاً، وأذيق بغضهم بأس بغض: أما ليس الشيع فهي ^(٦) الأهواء المختلفة، ويذيق بغضهم بأس بغض هو السيف والقتل؛ هذان قد كانا في المسلمين. وبقيت ^(٧) اثنتان، لا بد وإعتان. ومنهم من يقول: كانت ^(٨) اثنتان في المشركين من أهل الكتاب، واثنتان في أهل الإسلام؛ وهو قول الحسن؛ قال: قد ظهر في أهل الإسلام الأهواء المختلفة والقتل والفتن، وأما اللتان ^(٩) في أهل الشرك من أهل الكتاب فهما ^(١٠) الخسف في الأرض والحجارة من السماء.

ثم اختلف في قوله تعالى: ﴿عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلِيَسَّكُمْ شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنه [أنه] ^(١١) قال: ﴿عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ أي من أمرائكم ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ أي من سفليكم؛ لأن الفتنة ونحوها إنما تهب من الأمراء الجائرة ومن أتباعهم، وقوله تعالى: ﴿أَوْ يَلِيَسَّكُمْ شَيْعًا﴾ قال: الأهواء المختلفة، وقوله تعالى: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ أي يسلط بغضهم ^(١٢) على بغض بالقتل ^(١٣) والعذاب.

ومن قال بأن الآية نزلت في أهل الشرك يقول: كان في أشياعهم ذلك كله؛ أما العذاب من فوق فهو ^(١٤) الحصب بالحجارة كما فعل يقوم لوط ومن تحت أرجلهم، فهو ^(١٥) الخسف كما فعل بقارون، ومن معه.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ يَلِيَسَّكُمْ شَيْعًا﴾ يقول: فرقاً وأحزاباً. وكانت اليهود والنصارى فرقاً مختلفة؛ اليهود فرقاً والنصارى

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أظلم. (٣) في الأصل وم: وخفية. انظر معجم الفراءات القرآنية: ج ٢٧٨/٢ (٤) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿هَؤُلَاءِ شَتَّكَوْا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وقوله: ﴿مَا تَبَدُّهُمْ إِلَّا لِقَائِ اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: هي. (٧) في الأصل وم: وبقي. (٨) في الأصل وم: كان. (٩) في الأصل وم: اللذان. (١٠) في الأصل وم: هو. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: عليهم. (١٣) في الأصل وم: القتل. (١٤) في الأصل وم: هو. (١٥) في الأصل وم: وهو.

كذلك كقوليه: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْعَمَلُومَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْبَيْعَةِ﴾ [المائدة: ٦٤] وقوليه: ﴿فَأَعْرَبْنَا بَيْنَهُمُ الْعَمَلُومَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْبَيْعَةِ﴾ [المائدة: ١٤].

وقوله تعالى: ﴿وَيَذِيقُ بَعْضُكُمُ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ هو الحرب والقتال. وقول^(١) الحسن ما ذكرنا أنه ظهر في أهل الإسلام الأهواء المختلفة، وظهر الحرب والنزول. وأما الخسف والحصب فلم يظهر، فهو في أهل الشرك.

ويحتمل قوله تعالى: ﴿عَذَابًا مِّن قَوْلِكُمْ﴾ من السماء أرسله^(٢) عليهم، لأنهم قد أقرروا أنه رفع السماء^(٣). فمن قدر على رفع شيء يقدّر على إرساله، [ويحتمل^(٤)] قوله ﴿أَوْ مِّن تَحْتِ آيَاتِكُمْ﴾ [الخسف]^(٥) لأنهم عرفوا أنه بسط الأرض^(٦). ومن ملك بسط شيء يملك طيه، ويخيف بهم.

وقوله تعالى: / ١٥١ - / ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ قيل: أي نرد. والآيات كل مزدجرة، أو نقول: ﴿كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ ليَعْلَمَ كُلُّ صِدْقِهَا وَحَقِيقَتِهَا أَنهَا مِنَ اللَّهِ جَاءَتْ.

[وقوله تعالى]^(٧): ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُوْا﴾ يحتمل وجوهاً:

[أخذها]^(٨): صرّفها ليفقهوا. وذلك يرجع إلى المؤمنين خاصة.

والثاني: ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُوْا﴾ أي ليُلمزهم أن يفقهوا، وقد أُلزم الكل أن يفقهوا. لكن من لم يفقه إنما لم يفقه لأنه نظر إليه بعين الاستخفاف.

والثالث: ﴿نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ أي نُصَرِّفُ الرُّسُلَ^(٩)، ونُبَلِّغُهَا إِلَيْهِمْ عَلَى رَجَاءٍ^(١٠) أن يفقهوا: لكي يفقهوا، إن نظروا فيها، وتأملوها. وذكر لعل لأن منهم من فقه، ومنهم من لم يفقه.

الآية ٦٦

[وقوله تعالى]^(١١): ﴿وَكَذَّبَ بَنُو قَوْمِكَ﴾ يحتمل بـ ﴿بَنُو﴾ بالقرآن، ويحتمل بما ذكر من الآيات، ويحتمل الإيمان بـ ﴿وَقَوْمُ آلِهَةٍ﴾، ﴿وَكَذَّبَ بَنُو قَوْمِكَ﴾ وهم آحق أن يصدّقوك بما جئت به وإنبايهم لأنك نشأت بين أظهرهم، فلم تأخذ كذباً^(١٢) قط، ولا زاوكت تخلف^(١٣) إلى أحد، يعلمك، فهم آحق أن يصدّقوك بما جئت وإنبايهم، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِرَكِيلٍ﴾ قال عامة أهل التأويل: الوكيل: الحفيظ، والوكيل: هو القائم في الأمر؛ أي لست بقائم عليكم لأكرهكم على التوحيد والإيمان، شئتم، أو أبيئتم. ولست بحافظ على أعمالكم، إنما عليّ التبليغ كقوليه تعالى: ﴿مَّا عَلَّ الرُّسُلُ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [المائدة: ٩٩].

الآية ٦٧

وقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ نَبَرٍ مُّسْتَفَرٍّ﴾ قال بعضهم: لكل أمر حقيقة، وقيل: لكل خبر غاية ينتهي إليها^(١٤). ويحتمل أن يكون صلة قوله تعالى: ﴿لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِرَكِيلٍ﴾ [﴿لِكُلِّ نَبَرٍ مُّسْتَفَرٍّ﴾ أي ﴿لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِرَكِيلٍ﴾]^(١٥) لكن ﴿لِكُلِّ نَبَرٍ مُّسْتَفَرٍّ﴾ في أغنى أموالكم، وأسبي ذراريكم كقوليه تعالى: ﴿لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ [إلا من تولى وكفر] [الغاشية: ٢٢ و ٢٣].

ويحتمل قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بَنُو قَوْمِكَ﴾ أي بما كان وعد، وأوعد، والله أعلم.

وفي قوله تعالى: ﴿أَوْ يَلْسَنُكُمْ شَيْعًا وَيُذِيقُ بَعْضُكُمُ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ دلالة نقض المعتزلة لأننا نعلم أن للخلق حقيقة الفعل في القتل والحرب والأهواء المختلفة. ثم أضاف ذلك إلى نفسه. دل أن له صنعا في أفعالهم، وليس كما تقول المعتزلة: إنه^(١٦) لا يملك ذلك. وكذلك ما ذكر من إضافة تلييس الشيع إلى ردّ لقولهم لأنهم يقولون: هم يختلفون، وقد أخبر أنه هو يجعلهم شيعاً. وذلك ظاهر النقض عليهم لأنه أخبر أنه يذيق بعضهم بأس بعض، وهم يقولون: هو لا يذيق، ولكن ذلك القاتل

(١) من م، في الأصل: وهو. (٢) في الأصل وم: أرسلها. (٣) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿رَفَعْنَا سَنَاطِطَ هَبْطِ رَبِّكَ﴾ [الرعد: ٢]. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا جَعَلْنَا لَكُمُ الْأَرْضَ سَاطِعًا﴾ [نوح: ١٩]. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: الرسول. (١٠) في الأصل وم: جاء. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: كذب. (١٣) في الأصل وم: أن نختلف. (١٤) في الأصل وم: إليه. (١٥) من م، ساقطة من الأصل. (١٦) في الأصل وم: لأنه.

أو الضارب أو المعتذب هو يُذيقُهُمْ دُونَ رَبِّ الْعَالَمِينَ. وكذلك قوله تعالى: ﴿فَتَلَوْتُمْ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤] وَهُمْ يَقُولُونَ: هو لا يُعَذِّبُهُمْ، ولكنَّ الْخَلْقَ يُعَذِّبُونَهُمْ. وكذلك قوله تعالى: ﴿أَنْ يُعَذِّبَكَ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِيكَ﴾ [التوبة: ٥٢] وَهُمْ يَقُولُونَ: [هو لا يَمْلِكُ] ^(١) تعذيبَهُمْ بأيديهم. وذلك ردٌّ لظاهر ^(٢) الآية، وتركها حَيَّةً ^(٣).

الآية ٦٨

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَتْ الْآيَاتُ بَحُورُونَ فِي أَيَّانٍ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿يَخُوضُونَ فِي أَيَّانٍ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ﴾ أي يَكْفُرُونَ بِهَا، وَيَسْتَهْزِئُونَ بِهَا كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ النَّسَاءِ: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يَكْفُرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الآية: ١٤٠] فَيَكُونُ الْخَوْضُ فِي آيَاتِ اللَّهِ ^(٤) الْكُفْرَ بِهَا وَالِاسْتِهْزَاءَ بِهَا، وَيَكُونُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ﴾ أي لَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ كَمَا قَالَ: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ ^(٥) إِذَا مَثَلُهُمْ. [النساء: ١٤٠].

وقوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ﴾ يَخْتَمِلُ النَّهْيُ عَنِ الْقُعُودِ مَعَهُمْ عَلَى مَا ذَكَرَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ﴾ وَيَحْتَمِلُ الْإِعْرَاضُ الصَّفْحَ عَنْهُمْ وَتَرْكُ الْمَجَازَاةِ لِمَسَاوِيهِمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ﴾ [الزخرف: ٨٩] وَكَقَوْلِهِ ^(٦) تَعَالَى: ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَعَظَّمَهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣] [فِيهِ النَّهْيُ] ^(٧) عَنِ الْقُعُودِ مَعَهُمْ، وَفِيهِ الْأَمْرُ بِالتَّبْلِيغِ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا يُشِيطُكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ مَغْنَاهُ، وَاللَّهُ أَغْلَمُ: أَنَّ الشَّيْطَانَ إِذَا أَنَاكَ الْقُعُودَ مَعَهُمْ بَعْدَ ذِكْرِ الذِّكْرَى [فَلَا تَقْعُدْ] ^(٨) وَمَغْنَاهُ النَّهْيُ بَعْدَمَا أَنَاةَ الشَّيْطَانُ: أَي لَا تَكُنْ بِالْمَحَلِّ الَّذِي يَجِدُ الشَّيْطَانُ إِلَيْكَ سَبِيلًا فِي ذَلِكَ.

الآية ٦٩

وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ إِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ قِيلَ: فِيهِ رُخْصَةُ الْجُلُوسِ مَعَهُمْ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا عَلَيْكَ مِنْ إِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ إِسَابِكُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٥٢] ثُمَّ نُسِخَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يَكْفُرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [النساء: ١٤٠].

وَكَانَ النَّهْيُ عَنْ مُجَالَسَتِهِمْ لَيْسَ الْجُلُوسُ نَفْسَهُ، وَلَكِنْ مَا ذَكَرْنَا مِنْ خَوْضِهِمْ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِالِاسْتِهْزَاءِ بِهَا وَالْكُفْرِ بِهَا، هُوَ الَّذِي كَانَ يَحْمِلُهُمْ عَلَى ذَلِكَ، لَيْسَ إِلَّا يَجُوزُ أَنْ تُجَالِسُوهُمْ، وَكَذَلِكَ مَا نَهَانَا أَنْ نُسَبِّحَهُمْ لَيْسَ إِلَّا يَجُوزُ لَنَا أَنْ نُسَبِّحَهُمْ، وَلَكِنْ لِمَا كَانَ سَبًّا لِإِتَائِهِمْ هُوَ الَّذِي يَحْمِلُهُمْ عَلَى سَبِّ اللَّهِ ^(٩) وَلَعَلَّكَ ذِكْرُ اللَّهِ لَمَّا هُمْ يَقُولُونَ.

يَخْتَمِلُ النَّهْيُ عَنِ الْقُعُودِ مَعَهُمْ [وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا:] ^(١٠) أَنَّهُ نَهَى هَؤُلَاءِ عَنِ الْقُعُودِ مَعَهُمْ لِمَا كَانَ أَهْلُ الثَّفَاقِ يُجَالِسُونَهُمْ، وَيَسْتَهْزِئُونَ بِالْآيَاتِ، وَيَكْفُرُونَ بِهَا، فَتَهُى هَؤُلَاءِ عَنْ ذَلِكَ لِيَرْتَدِّعَ أَهْلُ الثَّفَاقِ عَنْ مُجَالَسَتِهِمْ.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ نَهَى الْمُؤْمِنِينَ عَنْ مُجَالَسَتِهِمْ لِيَمْتَنِعُوا عَنْ صَنِيعِهِمْ حَيَاءً مِنْهُمْ لِأَنَّهُمْ لَوْ امْتَنَعُوا عَنْ مُجَالَسَتِهِمْ، لَمَنَعَهُمْ ^(١١) ذَلِكَ عَنِ الْإِسْتِهْزَاءِ بِهَا وَالْكُفْرِ بِهَا لِمَا كَانُوا يَرْعَوْنَ فِي مُجَالَسَةِ الْمُؤْمِنِينَ، فَيَتَذَكَّرُونَ عِنْدَ قِيَامِهِمْ عَنْهُمْ، فَيَتَّقُونَ الْخَوْضَ وَالِاسْتِهْزَاءَ، وَالْأَوَّلُ ^(١٢) يَخَافُونَ أَنْ يُغَرِّقُوا فِي النَّاسِ بِتَرْكِ الْمُؤْمِنِينَ مُجَالَسَتَهُمْ ^(١٣)، فَيَحْمِلُهُمْ ذَلِكَ عَلَى الْكُفْرِ عَنِ الْإِسْتِهْزَاءِ بِالْآيَاتِ وَبِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

الآية ٧٠

وقوله تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِبَآءٍ وَلَهُوَ﴾ [فيه وجهان:

أَحَدُهُمَا] ^(١٤): أَي وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينًا لِبَآءٍ وَلَهُوَ دِينًا لَهُمْ عَلَى التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: هَؤُلَاءِ يَمْلِكُ. (٢) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: الظَّاهِر. (٣) فِي الْأَصْلِ: خَائِبًا، فِي م: حَدِيثًا. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) الرَّاو سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَفِيهِ الْأَمْرُ بِالتَّبْلِيغِ فَيَنْهَى. (٧) مِنْ م، أَدْرَجْتَ فِي الْأَصْلِ بَعْدَ: الْقُعُودِ مَعَهُمْ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَجُوهًا. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: فَيَمْنَعُهُمْ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: وَلَا. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: يَصْرِفُوكَ فِي النَّاسِ بِتَرْكِ مُجَالَسَتِهِمُ الْمُؤْمِنِينَ. (١٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

والثاني: اتَّخَذُوا اللَّعِبَ وَاللَّهُوَ دِينَهُمْ حَتَّى لَا يُفَارِقُوا اللَّعِبَ وَاللَّهُوَ؛ لِأَنَّ الدِّينَ إِنَّمَا يُتَّخَذُ لِلْأَبَدِ. فَعَلَى ذَلِكَ اتَّخَذَ^(١) أُولَئِكَ اللَّعِبَ وَاللَّهُوَ لِلْأَبَدِ كَالدِّينِ. ثُمَّ هُوَ يُخْرِجُ عَلَى وَجْهِهِ:

أَحَدُهَا: اتَّخَذُوا دِينَهُمْ عِبَادَةً مَا لَا يَنْفَعُ، وَلَا يَضُرُّ، وَلَا يَنْصُرُ، وَلَا يَنْصُرُ، وَلَا يَنْصُرُ، وَلَا يَنْصُرُ، وَمَنْ عِنْدَهُ^(٢)، هَذَا وَضَعُهُ، وَاتَّخَذَ ذَلِكَ دِينًا، فَهُوَ عَابَثٌ لَا عِبَّ.

والثاني: اتَّخَذُوا دِينَهُمْ مَا هُوَ أَنفُسُهُمْ، وَدَعَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ إِلَيْهِ، وَمَنْ اتَّخَذَ دِينَهُ يَهْوَى نَفْسَهُ وَمَا دَعَتْهُ نَفْسُهُ إِلَيْهِ، فَهُوَ عَابَثٌ لَا عِبَّ.

والثالث: صَارَ دِينُهُمْ لَعِبًا وَعَبَثًا لِأَنَّهُمْ كَانُوا لَا يُؤْمِنُونَ بِالْعِبَثِ. وَمَنْ لَمْ يَقْصِدْ بِدِينِهِ الَّذِي دَانَ بِهِ عَابَثٌ فَهُوَ عَابَثٌ مُبْطِلٌ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ الآية: ﴿المؤمنون: ١١٥﴾ صَيَّرَ عَدَمَ الرَّجُوعِ إِلَيْهِ عَبَثًا.

وقوله تَعَالَى: ﴿وَعَرَّضْنَاهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أَيِ شَغَلْنَاهُمْ مَا اخْتَارُوا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْمِيلِ إِلَيْهَا عَنِ النَّظَرِ فِي الْآيَاتِ وَالْبَرَاهِينِ وَالْحُجَجِ، أَوْ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿وَعَرَّضْنَاهُمْ﴾ أَيِ اغْتَرَّضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا؛ أَصَافَ^(٣) التَّغْرِيرَ إِلَى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِمَا بِهَا اغْتَرَّضُوا، وَاللَّهُ أَغْلَمُ.

وقوله تَعَالَى: ﴿وَذَكَّرَ بِهِ﴾ أَنْ تُبَسَّلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ. قِيلَ ﴿وَذَكَّرَ بِهِ﴾ قَبْلَ ﴿أَنْ تُبَسَّلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾ وَإِنَّمَا يُذَكِّرُهُمْ بِهَذَا لِئَلَّا يَقُولُوا غَدًا: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢] وَأَضَلَّ الْإِنْسَانَ الْإِهْلَاكَ أَوْ الْإِسْلَامَ لِلْجَنَائَةِ وَالْهَلَاكِ. ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَنْ تُبَسَّلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾:

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ [رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ] أَنَّهُ^(٤) قَالَ: أَنْ تُفَضَّحَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ. وَقِيلَ ﴿تُبَسَّلُ﴾ تُؤْخَذُ، وَتُخْبَسُ، وَهُوَ قَوْلُ قَتَادَةَ، وَكَذَلِكَ قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَتَبْلَوْا بِمَا كَسَبْتُمْ﴾. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ [رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ] أَنَّهُ قَالَ^(٥) ﴿أَتَبْلَوْا﴾ أَيِ فُضِّحُوا عَلَى مَا قَالَ فِي ﴿تُبَسَّلُ﴾. وَعَنِ الْحَسَنِ [أَنَّهُ قَالَ] ^(٦): ﴿تُبَسَّلُ﴾ أَيِ تُسَلِّمُ لِلْهَلَكَةِ. وَعَنِ الْكِسَانِيِّ: [أَنَّهُ قَالَ] ^(٧) ﴿تُبَسَّلُ﴾ تُجْزَى ﴿نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾. وَقَالَ الْقَرَاءُ: ﴿تُبَسَّلُ﴾ تُرْمَنُ.

وَأَضَلَّ الْإِنْسَانَ هُوَ الْإِسْلَامُ؛ وَتَفْسِيرُهُ مَا ذَكَرَ عَلَى إِفْرِهِ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾. كَمَا يَكُونُ بَعْضُهُمْ شَفِيعًا لِبَعْضٍ فِي الدُّنْيَا وَأَعْوَانًا لَهُمْ وَأَنْصَارًا فِي دَفْعِ الْمَضَارِّ وَالْمُظَالِمِ عَنْهُمْ وَجَرِّ الْمَنَافِعِ إِلَيْهِمْ. وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَإِنَّ كُلَّ نَفْسٍ تُسَلِّمُ بِمَا كَسَبَتْ ١٥١ - ب/ لَا شَفِيعَ لَهَا، وَلَا وَلِيٍّ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَرَى الَّذِينَ مِنْ أَيْدِيهِ﴾ [عبس: ٣٤] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَكْبَرُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا كَرَّةً﴾ [البقرة: ١٦٧] وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ تُسَلِّمُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَى كَسْبِهَا؛ لَا شَفِيعَ لَهَا، وَلَا وَلِيٍّ.

وقوله تَعَالَى: ﴿وَذَكَّرَ بِهِ﴾ يَنْحَتَمِلُ بِالْقُرْآنِ وَالْآيَاتِ. وَيَنْحَتَمِلُ ﴿بِهِ﴾ أَيِ بِاللَّهِ، أَيِ عِظَ بِهِ [قَبْلَ] ^(٨) أَنْ تَهْلِكَ ﴿نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾.

وقوله تَعَالَى: ﴿وَلَنْ تَجِدَ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذُ بِهَا﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: الْعَدْلُ الْفِدَاءُ، يَقُولُ: وَإِنْ فَدَتْ نَفْسٌ كُلَّ الْفِدَاءِ لِيَتَّخِلَصَ بِمَا حُمِّلَ بِهَا لَمْ يُؤْخَذْ، وَلَمْ يُقْبَلْ مِنْهَا ذَلِكَ. وَقَالَ الْخَسَنُ: الْعَدْلُ كُلُّ عَمَلٍ الْبِرِّ وَالْخَيْرِ؛ أَيِ وَإِنْ عَمِلْتَ كُلَّ عَمَلٍ الْبِرِّ وَالْخَيْرِ مِنَ الْفِدَاءِ وَالتَّوْبَةِ لَمْ يُقْبَلْ مِنْهَا ذَلِكَ.

يُخْبِرُ أَنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَيْسَتْ بِدَارِ الْعَمَلِ، وَلَا يُقْبَلُ فِيهَا الرُّشَا كَمَا تُقْبَلُ فِي الدُّنْيَا. وَآخِرُهَا لَا يَكُونُ شَفَعَاءُ، يَشْفَعُونَ^(٩) لَهُمْ، وَلَا أَوْلِيَاءُ يَنْصُرُونَهُمْ. لَيْسَتْ^(١٠) كَالدُّنْيَا؛ لِأَنَّ مَنْ أَصَابَهُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا شَيْءٌ، أَوْ حَلَّ بِهِ عَذَابٌ أَوْ غَرَامَةٌ فَإِنَّمَا يَدْفَعُ بِأَخْذِي هَذِهِ الْخِلَالِ: إِنَّمَا^(١١) بِشَفَعَاءِ يَشْفَعُونَ وَإِنَّمَا^(١٢) بِأَوْلِيَاءِ يَنْصُرُونَهُ وَإِنَّمَا^(١٣) بِالرُّشَا.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: اتَّخَذُوا. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: عِنْدَهُ. (٣) أَدْرَجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ: إِلَى. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: فَيُشْفَعُونَ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: لَيْسَ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: وَإِنَّمَا. (١١) وَ(١٢) وَ(١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ.

فَاخْبَرَ أَنَّ الْآخِرَةَ لَيَسْتَ بَدَارٍ تُقْبَلُ فِيهَا الرُّشَا، فَتَذْفَعُ مَا حَلَّ بِهِمْ، أَوْ أَوْلِيَاءُ يَنْصُرُونَهُمْ فِي دَفْعِ ذَلِكَ، أَوْ شُفَعَاءُ يَشْفَعُونَ لَهُمْ. فَإِنْ قِيلَ: مَا مَعْنَى ذِكْرِ الْعَذْلِ وَالْفِدَاءِ، وَلَيْسَ عِنْدَهُ مَا يَقْدِي وَمَا يَنْدُلُ وَمَا يُمَكِّنُ مِنَ الْعَمَلِ؟ قِيلَ: مَعْنَاهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَيْ لَرُّ مُكِّنَ لَهُمْ مِنَ الْفِدَاءِ مَا يَقْدُونَ فِي دَفْعِ ذَلِكَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ، وَمُكِّنَ لَهُمْ مِنَ الْعَمَلِ مَا لَوْ عَمِلُوا، لَمْ يُقْبَلْ ذَلِكَ مِنْهُمْ.

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ قِيلَ: الْحَمِيمُ هُوَ مَاءٌ حَارٌّ، يَنْتَهِي حَرُّهُ، يُغْلِي مَا فِي الْبَطْنِ إِذَا وَصَلَ إِلَيْهِ، فَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ مِنَ الشَّرَابِ مَا ذَكَرُوا لَوْ تَنَازَلُوا فِي الدُّنْيَا مِنَ الشَّرَابِ الْمُحَرَّمِ، فَكَانَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ الْحَمِيمَ مَكَانَ ذَلِكَ وَالْعَذَابَ الْأَلِيمَ لِمَا أَغْطَوْا أَنْفُسَهُمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ الشَّهَوَاتِ وَاللَّذَاتِ جَزَاءَ ذَلِكَ.

الآية ٧١

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ يَحْتَمِلُ هَذَا وَجْهًا:

[أَحَدُهَا] ^(١): أَنْ يَكُونَ أُولَئِكَ الْكُفَرَةُ دَعَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ إِلَى عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ الَّتِي كَانُوا يَعْْبُدُونَهَا، فَقَالَ عِنْدَ ذَلِكَ: أَنْعَبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا، وَلَا يَضُرُّنَا بَعْدَمَا عَبَدْنَا اللَّهَ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْعَنَا وَضَرَرَنَا.

وَالثَّانِي ^(٢): كَانِ أَهْلُ الْكُفْرِ يَدْعُونَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ الَّتِي كَانُوا يَعْْبُدُونَهَا إِمَّا طَمَعًا بِشَيْءٍ يَبْذُلُونَهُ ^(٣) لِيَرْجِعُوا إِلَى عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ عَنْ عِبَادَةِ [اللَّهِ وَإِنَّمَا] ^(٤) تَخْوِيفًا مِنْهُمْ لَهُمْ. فَقَالَ: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿قُلْ أَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ نَفْعَنَا، إِنْ عَبَدْنَاهُ، وَلَا يَمْلِكُ ضَرَرَنَا، إِنْ تَرَكْنَا عِبَادَتَهُ.

وَعَنِ ^(٥) ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا [أَنَّهُ قَالَ] ^(٦) ﴿قُلْ أَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ هَذَا مَثَلُ ضَرْبَةِ اللَّهِ لِلْأَصْنَامِ الَّتِي عَبَدُوهَا دُونَ اللَّهِ وَمَنْ يَدْعُو إِلَيْهَا، وَلِلدُّعَاةِ الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى عِبَادَتِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ ضَلَّ بِهِ الطَّرِيقَ، فَإِنَّهُ ضَالٌّ، إِذَا نَادَاهُ مُنَادٌ: يَا فَلَانُ ابْنَ فَلَانٍ، هَلُمَّ إِلَى الطَّرِيقِ.

وقوله تعالى: ﴿وَوَرَدُ عَلَى أَهْلَانَا﴾ فِي الْكُفْرِ وَالشَّرِكِ ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ﴾ يَقُولُ: مَثَلُهُمْ، إِنْ كَفَرُوا بَعْدَ الْإِيمَانِ، كَمَثَلِ رَجُلٍ كَانَ مَعَ قَوْمٍ عَلَى الطَّرِيقِ، فَضَلَّ الطَّرِيقَ، فَحَيَّرَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ، وَأَصْحَابُهُ عَلَى الطَّرِيقِ، فَجَعَلُوا يَدْعُوهُ إِلَيْهِمْ؛ يَقُولُونَ ﴿أَتَيْنَا﴾ فَإِنَّا عَلَى الطَّرِيقِ. قَالَ: فَلَمْ يَأْتِيَهُمْ. فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ تَبِعَكُمْ بَعْدَ الْمَعْرِفَةِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَمُحَمَّدٌ ﷺ هُوَ الَّذِي يَدْعُوهُمْ إِلَى الطَّرِيقِ، وَهُوَ الْهُدَى.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمَثَلُ الَّذِي ضَرَبَهُ مِنْ وَجْهِ آخَرَ؛ وَهُوَ أَنَّ مَثَلُ هَؤُلَاءِ كَمَثَلِ مَنْ كَانَ فِي بَعْضِ الْمَقَاوِزِ وَالْبَرَارِي، فَضَلَّ الطَّرِيقَ، فَذَهَبَ بِهِ الْغِيْلَانُ حَتَّى أَوْقَعُوا فِي الْهَلَكَةِ، وَهُوَ الَّذِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ.

وَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُوهُ إِلَى الْهُدَى أَتَيْنَا﴾ أَنَّهُ مَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ مُشْرِكٍ وَمُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُوهُ. أَمَّا الْمُؤْمِنُ فَلَهُ أَصْحَابٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ﴿يَدْعُوهُ إِلَى الْهُدَى﴾ وَالْكَافِرُ [تَدْعُوهُ الشَّيَاطِينُ] ^(٧) إِلَى الشَّرِكِ. هَذَا أَشْبَهُ أَنْ يُحْمَلَ عَلَيْهِ.

لَكِنْ أَهْلُ التَّأْوِيلِ حَمَلُوا عَلَى مَا ذَكَرْنَا؛ قَالَ قَتَادَةُ: هَذِهِ خُصُومَةٌ، عَلَّمَهَا اللَّهُ مُحَمَّدًا يُخَاصِمُ بِهَا أَهْلَ الشَّرِكِ؛ لِأَنَّ سُورَةَ الْإِنْعَامِ نَزَلَتْ أَكْثَرُهَا فِي مُحَاجَّةِ أَهْلِ الشَّرِكِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: اسْتَهْوَتْهُ: أَضَلَّتْهُ. قَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ: أَيْ ذَهَبَتْ بِهِ، اسْتَهْوَتْهُ، وَأَهْوَتْهُ، وَاحِدٌ، أَيْ دَعَتْهُ إِلَى الْهَلَكَةِ، وَقِيلَ: أَضَلَّتْهُ.

وقوله تعالى: ﴿وَوَرَدُ عَلَى أَهْلَانَا﴾ أَيْ تَرْجِعُ عَنِ الْإِيمَانِ إِلَى الشَّرِكِ بَعْدَ أَنْ هَدَانَا اللَّهُ.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِيَّاكَ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى﴾ قِيلَ: بَيَانُ اللَّهِ هُوَ الْهُدَى ^(٨)، وَقِيلَ: إِنْ دِينَ اللَّهِ، هُوَ الْهُدَى ^(٩).

وقوله تعالى: ﴿وَأَمْرَنَا لِإِسْلَامِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قِيلَ: هَذَا صِلَةٌ قَوْلِهِ: ﴿قُلْ أَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَوَرَدُ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: يَحْتَمِلُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: يَبْذُلُونَهُمْ. (٤) فِي الْأَصْلِ: أَوْ، فِي م: اللَّهُ أَوْ. (٥) هَذَا هُوَ الرَّجُلُ الثَّالِثُ. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: يَدْعُوهُ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: الْبَيَانُ. (٩) أَدْرَجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: وَهُوَ الدِّينُ.

عَنْ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى أُنْفِثْنَا قُلُوبَنَا هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى وَأُزَيِّرْنَا لِنُفْسِهِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾

الآية ٧٢ [وقوله تعالى] ^(١): ﴿وَأَنْ أَقْبِمُوا لَنَا الْقَوْلَ وَآتَقُوا﴾. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَيْسَ عَلَى الصَّلَاةِ، وَلَكِنْ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ ﴿وَأُزَيِّرْنَا لِنُفْسِهِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وَقُلْ لَهُمْ: ﴿وَأَنْ أَقْبِمُوا لَنَا الْقَوْلَ وَآتَقُوا﴾ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُعْشَرُونَ ﴿قَدْ ذَكَّرْنَا﴾

الآية ٧٣ وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ قِيلَ: قَوْلُهُ: ﴿بِالْحَقِّ﴾ أَيِ ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ لَمْ يَخْلُقْهَا بِاطِلًا كَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطُلًا﴾ [ص: ٢٧] قِيلَ: لَمْ يَخْلُقْهُمَا بِاطِلًا، وَلَكِنْ خَلَقَهُمَا بِالْحَقِّ.

وهو يَحْتَمِلُ وجوهاً:

[أحدها] ^(٢): قِيلَ: خَلَقَهُمَا لِلْعَاقِبَةِ لِأَنَّ كُلَّ أَمْرٍ لَا عَاقِبَةَ لَهُ، هُوَ بِاطِلٌ، لَيْسَ بِحَقٍّ؛ فَإِنَّمَا خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِلْعَاقِبَةِ، وَذَلِكَ لِأَمْرِ عَظِيمٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿يَوْمَ يَقُومُ آدَامُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٥ و ٦].

وقيل ^(٣): قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بِالْحَقِّ﴾ أَيِ خَلَقَهُمَا لِيَمْتَحِنَ فِيهِمَا وَلِيَمْنَحَ سُكَّانِيهَا، لَمْ يَخْلُقْهُمَا لِغَيْرِ شَيْءٍ.

وقيل ^(٤): ﴿بِالْحَقِّ﴾ أَيِ خَلَقَهُمَا بِالْحِكْمَةِ؛ مَنْ نَظَرَ فِيهِمَا، وَتَدَبَّرَ لِدَلَالَةِ ^(٥) عَلَى أَنَّ لَهُمَا خَالِقًا وَمُدَبِّرًا أَوْ لِدَلَالَةِ ^(٦) عَلَى أَنَّ مُدَبِّرَهُمَا وَمُنْشِئَهُمَا وَاحِدٌ، فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَكَانَ خَلَقَهُمَا ﴿بِالْحَقِّ﴾ بِالْحِكْمَةِ وَالْعِلْمِ.

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [فيه وجوه]:

أحدها: ^(٧) قَدْ ذَكَّرْنَا أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿كُنْ﴾ هُوَ أَوْجَزُ كَلَامٍ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ؛ يُعْبَرُ بِهِ، فَيَفْهَمُ ^(٨) مِنْهُ، لَا أَنَّ كَانَ مِنَ اللَّهِ كَافٌ أَوْ نُونٌ، لَكِنَّهُ ذِكْرٌ ^(٩) وَاللَّهُ أَعْلَمُ، لِيَعْلَمُوا أَنَّ لَيْسَ عَلَى اللَّهِ فِي الْإِحْيَاءِ وَالْإِنْشَاءِ بَعْدَ الْمَوْتِ مُؤَنَّةٌ كَمَا لَمْ يَكُنْ عَلَى الْخَلْقِ فِي التَّكَلُّمِ بـ ﴿كُنْ﴾ مُؤَنَّةٌ، وَلَا يَضَعُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ. فَعَلَى ذَلِكَ لَيْسَ عَلَى اللَّهِ فِي الْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ مُؤَنَّةٌ وَلَا صُعُوبَةٌ.

والثاني: ذَكَرَ هَذَا لِسُرْعَةِ نَفَاذِ الْبَعْثِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَبْعَثُكُمْ إِلَّا كَفِّينَ وَجِدَةً﴾ أَخْبَرَ أَنَّ خَلْقَهُمْ ^(١٠) وَبَعْثَهُمْ لَيْسَ إِلَّا كَخَلْقِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَبَعْثِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَنَفْثِ النَّفَسِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧] يُخْبِرُ لِسُرْعَةِ نَفَاذِ ^(١١) السَّاعَةِ وَبَعْثِهِمْ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الرَّجُلَ قَدْ يَلْمَحُ الْبَصَرَ، وَهُوَ لَا يَشْعُرُ بِهِ. فَعَلَى ذَلِكَ الْقِيَامَةُ، قَدْ تَقُومُ، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ.

والثالث: يَذْكُرُ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَنَّ الْبَعْثَ بَعْدَ الْمَوْتِ [هُوَ إِحْيَاءٌ] ^(١٢)، وَالْإِحْيَاءُ إِعَادَةٌ، وَإِعَادَةُ الشَّيْءِ عِنْدَهُمْ أَهْوَنُ مِنْ إِبْتِدَاءِ إِنْشَاءٍ. وَعَلَى ذَلِكَ يُخْرِجُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] أَيِ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ عِنْدَهُمْ.

وقوله تعالى: ﴿قَوْلَهُ الْحَقُّ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿قَوْلَهُ الْحَقُّ﴾ أَيِ الْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ حَقٌّ عَلَى مَا أَخْبَرَ، وَيَحْتَمِلُ ﴿قَوْلَهُ الْحَقُّ﴾ أَيِ ذَلِكَ الْقَوْلِ مِنْهُ حَقٌّ، يَكُونُ كَمَا ذَكَرَ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ﴾ مُلْكُ ذَلِكَ الْيَوْمِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]. وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الحج: ٥٦] ذَكَرَ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، لِمَا [لَا يُنَازَعُهُ] ^(١٣) أَحَدٌ فِي مُلْكِ ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَقَدْ نَازَعَهُ الْجَبَابِرَةُ فِي الْمُلْكِ فِي الدُّنْيَا، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مُلْكٌ وَلَا أُلُوهِيَّةٌ ^(١٤).

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ﴾ أَيِ مُلْكِ جَمِيعِ الْمُلُوكِ لَهُ فِي الْحَقِيقَةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْمَلِكُ مَنْ تَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦].

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: الْبَيَان. (٣) هَذَا هُوَ الْوَجْهُ الثَّانِي. (٤) هَذَا هُوَ الْوَجْهُ الثَّالِث. (٥) مِنْ م فِي الْأَصْلِ: لَهُ لَا. (٦) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: لَهُ لَا. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: فِيهِمْ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: ذَكَرَ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: قَوْلُهُمْ. (١١) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: نَفَاذَ. (١٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٣) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: يَتَنَازَعُ. (١٤) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: أُلُوهِيَّةٌ.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي السُّورِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: النَّفْخُ هُوَ الرُّوحُ، والرُّوحُ مِنَ الرِّيحِ، والرُّوحُ إِنَّمَا يَدْخُلُ [كقوله تعالى^(١)]: ﴿فَنَفْخُكَ فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ [التحریم: ١٢] وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا يَكُونُ هُنَاكَ / ١٥٢ - أ/ فِي الْحَقِيقَةِ نَفْخٌ، وَلَكِنْ يَذْكُرُهُ^(٢) لِسُرْعَةِ نَفَاذِ السَّاعَةِ؛ لِأَنَّ الرَّجُلَ قَدْ يَنْتَفَسُ، وَهُوَ لَا يَشْعُرُ بِهِ، فَذَكَرَ هَذَا لِسُرْعَةِ نَفَاذِ السَّاعَةِ، لِأَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَسْرَعَ جَرَيَانًا وَنَفَاذًا مِنَ الرِّيحِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ عَلَى حَقِيقَةِ النَّفْخِ، وَهُوَ مَا ذَكَرْنَا.

وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمُ الْقَتِيبُ﴾ أَي يَغْلَمُ مَا يُغَيِّبُ الْخَلْقُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ ﴿وَالشَّهَادَةُ﴾ مَا يَشْهَدُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا. وَيَحْتَمِلُ ﴿عَلَيْهِمُ الْقَتِيبُ﴾ أَي يَغْلَمُ مَا يَكُونُ، إِذَا كَانَ كَيْفَ كَانَ؟ أَوْ يَغْلَمُ وَثَّتْ كَوْنِهِ ﴿وَالشَّهَادَةُ﴾ مَا كَانَ، وَشَوْهَدٌ يُخْبِرُ أَنَّهُ لَا يَغَيِّبُ عَنْهُ شَيْءٌ، وَلَا يَغْرُبُ مِنْهُ ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلْقِ مَا فِيهَا. ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ فِي بَعْثِهِمْ. وَالْحَكِيمُ هُوَ وَاضِعُ الشَّيْءِ مَوْضِعَهُ. ﴿الْحَيِيرُ﴾ بِكُلِّ شَيْءٍ.

الآية ٧٤

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ إِذْذَكَ﴾ قِيلَ: آزَرُ هُوَ اسْمُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ ﷺ وَالْحَسَنُ يَقْرَأُ: آزَرُ بِالرَّفْعِ^(٣)، وَيَجْعَلُهُ اسْمَ أَبِيهِ. وَقَالَ آخَرُونَ: هُوَ اسْمُ صَنْمٍ، فَهُوَ عَلَى التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ كَأَنَّهُ قَالَ: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ اتَّخِذْ آزَرَ أَصْنَامًا آلِهَةً؟

وقوله تعالى: ﴿اتَّخِذْ﴾ اسْتِعْظَامًا لِمَا يَغْبُذُ مِنَ الْأَصْنَامِ دُونَ اللَّهِ؛ لِأَنَّ مِثْلَ هَذَا إِنَّمَا يَقَالُ عَلَى الْعَظِيمِ مِنَ الْفِعْلِ. وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الْكِسَائِيُّ: قَوْلُهُ: ﴿إِذْذَكَ﴾ قِيلَ: هُوَ اسْمٌ عَبَثٌ عِنْدَهُمْ كَأَنَّهُ قَالَ: يَا ضَالًّا اتَّخِذْ أَصْنَامًا آلِهَةً؟ كَقَوْلِ الرَّجُلِ لِآخَرٍ: يَا ضَالًّا. وَلَيْسَ لَنَا إِلَى مَعْرِفَةِ ذَلِكَ حَاجَةٌ [أَن]^(٤) كَانَ اسْمُ أَبِيهِ أَوْ اسْمُ صَنْمٍ.

وفي الآية دلالة أَنَّ أَبَاهُ كَانَ مِنْ رُؤَسَاءِ قَوْمِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنِّي أَرَأَيْتَكَ إِذْذَكَ قَوْلَكَ فِي صَلَاتِي ثَلَاثِينَ﴾ وفيه دلالة أَنَّ لَا بَأْسَ لِلرَّجُلِ أَنْ يَشْتُمَ أَبَاهُ لِمَكَانِ رِيٍّ؛ لِأَنَّ إِبْرَاهِيمَ ﷺ سَمَاهُ ضَالًّا. وفيه دلالة أَنَّ الْإِيمَانَ وَالتَّوْحِيدَ يَلْزَمُ أَهْلَ الْفِتْرَةِ لِأَنَّ إِبْرَاهِيمَ ﷺ سَمَاهُمْ ضَلَالًا، [وَجَعَلَ ضَلَالَهُمْ]^(٥) لَا شَكَّ فِيهِ، وَلَا شُبْهَةً؛ وَهُوَ مَا ذَكَرَ فِي آيَةٍ أُخْرَى جِئْنَا^(٦) عَبْدًا مَا ذَكَرَ بِقَوْلِهِ^(٧): ﴿يَتَابَتِ لِي قَبْدٌ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يَبْصُرُ وَلَا يَقْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢] هَذَا الضَّلَالُ الْبَيِّنُ.

الآية ٧٥

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ﴾ ذَكَرَ ﴿وَكَذَلِكَ﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ، عَلَى مَعْنَى كَمَا أَرَيْنَاكَ ﴿مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وَالْآيَاتِ. كَذَلِكَ كُنَّا أَرَيْنَا إِبْرَاهِيمَ. ﴿وَنُرَى﴾ بِمَعْنَى أَرَيْنَا، وَذَلِكَ جَائِزٌ فِي اللَّغَةِ. وَكَذَلِكَ لَا تُذَكَّرُ إِلَّا عَلَى تَقْدِيمِ شَيْءٍ. لَكِنَّ الْوَجْهَ فِيهِ مَا ذَكَرْنَا: كَمَا أَرَيْنَاكَ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنَ الْآيَاتِ وَالْحُجَجِ وَالتَّبَاهِينِ كَذَلِكَ كُنَّا أَرَيْنَا إِبْرَاهِيمَ.

وقوله تعالى: ﴿مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: سُلْطَانُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَقِيلَ: الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالْكَوَاكِبُ، وَقِيلَ: فُرَجَتْ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ حَتَّى نَظَرَ إِلَى مَا تَحْتَ الْعَرْشِ، وَمَا فِيهِنَّ، وَكَذَلِكَ فُرَجَتْ لَهُ الْأَرْضُونَ حَتَّى رَأَى مَا فِيهِنَّ، وَقِيلَ: ﴿مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خُبْرُ إِبْرَاهِيمَ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، مِنَ الْجَبَابِرَةِ فِي سَرَبٍ، فَجَعَلَ اللَّهُ فِي أَصَابِعِهِ رِزْقًا، فَإِذَا مَصَّ إِضْبَعًا مِنْ أَصَابِعِهِ وَجَدَ مِنْهَا رِزْقًا، فَلَمَّا خَرَجَ أَرَاهُ اللَّهُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، فَكَانَ ذَلِكَ ﴿مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وَمَلَكُوتُ الْأَرْضِ الْجِبَالُ وَالْبَحَارُ وَالْأَشْجَارُ. وَقِيلَ: نَظَرَ إِلَى مُلْكِ اللَّهِ فِيهَا حَتَّى نَظَرَ إِلَى مَكَانِهِ، وَرَأَى الْجَنَّةَ، وَفُتِحَتْ لَهُ الْأَرْضُونَ حَتَّى نَظَرَ إِلَى أَسْفَلِ الْأَرْضِينَ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا آتَيْنَهُ أُجُورًا فِي الدُّنْيَا﴾ [العنكبوت: ٢٧] قِيلَ^(٨): أَرَى مَكَانَهُ فِي الْجَنَّةِ، وَقِيلَ: أَجْرُهُ الثَّنَاءُ الْحَسَنُ.

وقال أبو عَوَسَجَةَ: مَلَكُوتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنَ الْمُلْكِ، وَكَذَلِكَ قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ، وَهُوَ كَجَبَرُوتٍ وَرَحْمُوتٍ وَزَهْبُوتٍ، فَكَذَلِكَ مَلَكُوتُ. وَأَضْلُهُ مَا ذُكِرَ مِنَ الْآيَاتِ وَالْعَجَائِبِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُتَوَقِّينَ﴾ الْإِيقَانُ بِالشَّيْءِ هُوَ الْعِلْمُ بِالشَّيْءِ حَقِيقَةً بَعْدَ الْإِسْتِذْلَالِ وَالنَّظَرِ فِيهِ وَالتَّدَبُّرِ. وَلِذَلِكَ لَا يُوصَفُ اللَّهُ بِالْيَقِينِ، وَلَا يَجُوزُ لِلَّهِ أَنْ يَقَالَ: مُوقِنٌ لِمَا ذَكَرْنَا: هُوَ الْعِلْمُ الَّذِي يَقْبُ^(٩) الْإِسْتِذْلَالَ وَذَلِكَ مِنْهُيَّ عَنْهُ.

(١) ساقطة من الأصل و م. (٢) في الأصل و م: يذكر. (٣) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٢/ ٢٨٣. (٤) ساقطة من الأصل و م. (٥) ساقطة من الأصل و م. (٦) في الأصل و م: حيث. (٧) في الأصل و م: حيث قال. (٨) في الأصل و م: قال. (٩) في الأصل و م: يعقب.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ وقيل في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ﴾ أي كما أريناك^(١) مَلَكُوت ما ذَكَرَ، فقوله: نُرِي بِمَعْنَى أَرَيْنَا^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ لَهُ وَجْهَانِ:

أحدهما: أنه كما أريناك ما أيقنت به أن الربوبية لله، وأنه الواحد لا شريك له من الآيات والأدلة، أراه أيضاً ما ذَكَرَ حتى أيقن. فهو، والله أعلم، على التفسيرية بين الأسباب الدالة^(٣) على الوحدانية لله، والربوبية في المعنى، وإن كانت بآياتها^(٤) مُخْتَلِفَةً، وعلى أن طريق المعرفة الاستدلال بما أنشأ الله من الدلالة لا السمع والجس، وإن كان في حجة السمع تأكيد.

والثاني: أن يكون يُريه على ما أظهر من الحجج على قومه، وهو كقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ [الأنعام: ٨٣] وأعطاه ما أراه، وأشعر قلبه من الحجج التي ألزم قومه بما أنطق بها الله ﷻ بلسانه، يلزم حُججَهُ خَلْقَهُ، والله الموفق.

[وقوله تعالى^(٥)]: ﴿مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ المُلْك في الحقيقة من الوجه الذي يكون آية للإيقان ودليلاً للإحاطة بالحق. ثم اختلف في وجه ذلك.

فمنهم من قال: هو ما أري بصره؛ أعني بصر الوجه نحو الذي ذَكَرَ مِنْ فَتْحِ السَّمَاءِ حتى أري ما فيها من العجائب والآيات إلى العرش أو [حين مد]^(٦) الأرض حتى رأى ما فيها من أنواع الخلق إلى الثرى أو حيث بلغ.

ومنهم من قال: رفع السماء حتى كانت الأرض بمن فيها رأياً العين، وكان له ﷻ مثل هذا من الأمور نحو أمر الناس بالهجرة^(٧) إلى حيث لا ضرع، ولا زرع، وما جعل رزقه في أصابعه، وأمر بلوغ صورته في قوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ [الحج: ٢٧] أن كان ما سمع منه، والله أعلم.

ومنهم من قال هو ما أري بصر قلبه من وجوه البر وأنواع الأدلة عند التأمل في خلق الله بالكفر من غيره^(٨) إن كان في الخلق تغيير على الأحوال التي كانت عليه. وهو أحق بأن^(٩) يكون له في الذي كان كفاية عن حدوث أحوال تدل على أنها^(١٠) حُجج الله يستدل بها على قوله^(١١) من الوجه الذي جعل لجميع الخلق لا من جهة خصوص الآيات. فثبت أن ذلك كان له بهذا الوجه.

ثم هو يُخرِّج على وجوه: منها ما رأى من تسخير القمر والشمس والنجوم وقطعها في كل يوم وليلة أطراف السماء والأرض جميعاً ومسيرها فوق الأرض إلى أن يعود كل إلى مظلعه؛ يسير كل ذلك ما فوق الأرض إلى السماء.

ومنها^(١٢) استواء أحوال ذلك على ما عليه حد في كل عام وشهر لا يزداد، ولا ينقص، ولا يتقدم، ولا يتأخر، مع عظيم ما بها من المنافع لأنواع دواب الأرض والطير جميعاً ما يوفى كل متأملاً أن مثل هذا لا يعمل بالطبع إلا أن يكون له مُدَبِّرٌ حكيم، جعله بذلك^(١٣) الطبع، وسواه على ما شاء من الحد، وألا يسبق الأمر على التدبير والحكمة إلا أن يكون مُدَبِّرٌ ذلك بحيث لا يحتاج إلى معين، ولا يجوز أن يكون له منه منافع.

ثم^(١٤) هو يذاته عليم قدير على ما في الأرض من تدبير الليل والنهار؛ يتعاقبان أبداً، ويسيران؛ يقهران ما فيها من الجبابرة والفراغة حتى إن اجتهد جمع أهل الأرض على زيادة أو نقصان أو تقديم أو تأخير لما لهم من الحاجة أو بما فيهم من القوة والقدرة مع معونة الجمع لهم في ذلك لما تهيأ^(١٥) لهم، ولا بلغ توهم أحد من احتمال ذلك؛ حتى يصير

(١) في الأصل و م: إينانك. (٢) من م، في الأصل: أريناه. (٣) في الأصل و م: الدلالة. (٤) في الأصل و م: لإينانها. (٥) ساقطة من الأصل و م. (٦) في الأصل و م: حيث قدر. (٧) في الأصل و م: الهجرة. (٨) في الأصل و م: غير. (٩) في الأصل و م: من أن. (١٠) في الأصل و م: إذ هو. (١١) في الأصل و م: على قومه. (١٢) في الأصل و م: و، وهو الوجه الثاني. (١٣) في الأصل و م: ذلك. (١٤) هذا هو الوجه الثالث. (١٥) في الأصل و م: يتها.

عند وجود كلِّ كائنٍ الآخر لم يكن قط، ثم عند القود إليهم كأنه لم يفارقهم قط مع ما لجميع أهل الأرض بهما من المنافع، وعليهم منهما^(١) أنواع مضار، ولهما سلطان على أعمالهم^(٢) على ما فيهما من التسخير والتذليل الذي كلُّ مظهر بالآخر، إذا جاء سلطانه، وبلغ حدّه، وليس في واحد منهما امتناع من قهر الآخر، وإن كان هو الظاهر القويّ جزيّاً جميعاً على حدّ واحد وسنّ ١٥٢ - ب/ واحدة، ولا على ما دلّ عليه الأولى مع ما فيهما من أثر البعث^(٣) ظاهر، لا يختل أن يخجله إلا سفيه معاند، والله أعلم.

ثم النور والظلمة والظل ونحو ذلك الذي يتبسط ساعة على جميع أطراف السماء والأرض؛ يستر واحد كلَّ شيء، ويبيد آخر عن كلِّ شيء، ويحيط الثالث بكلِّ شيء. ثم تعلّق منافع الأهل بها على اختلافها بالسماء والأرض على تباعد ما بينهما وبالسّهل والجبل والبحر والبر على تضاد معانيها.

وعلى ذلك جميع الأمور؛ فكان ﴿بما أري من المعنى وغيره من الموقنين أن لا إله إلا الله، وجّه إليه نفسه، وأن كلَّ شيء، نسب إليه الألوهية، محال أن يكون منه^(٤)، أو له إمكان ذلك، ولا قوة إلا بالله.

الآيات ٧٦ - ٧٩ وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ إلى قوله: ﴿مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ تكلّموا في تأويل الآية على أوجه ثلاثة:

فمنهم من جعل الأمر على ما عليه الظاهر أنه عارف بربه حق المعرفة إلى أن عرفت من الوجه الذي بان له عند الفراغ من آخر ما نسب إليه الربوبية أنه لا يعرف من جهة ذلك الحواسّ ووقوعها عليه، ولكن من جهة الآيات وآثار العقل، فقال: ﴿إِلَىٰ وَجْهَتِي وَجْهِي لِيَذِيَ فَطَرَتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية [الأنعام: ٧٩].

لكن أهل هذا القول اختلفوا على وجوه ثلاثة:

أحدها: ما روي في التفسير أنه ربي في السرّ، ولم يكن نظر إلى شيء من خلق السماء، فنظر من^(٥) باب السرّ في أول الليل، فرأى الزهرة بضوئها وتلاّثها، وكان في علمه أنه له ربّ، وأنه يرى، فلم ير أضواء^(٦) منها ولا أنور، فقال: ﴿هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ﴾ وله علم أن السرّ دائم، لا يزول، فقال: ﴿لَا أَحِبُّ الْآيَاتِ﴾ بمعنى: ليس هذا يربّ كقولهم^(٧) ﴿سُبْحَنَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ ذَلِكَ مِنْ أَوَّلِيَّةٍ﴾ [الفرقان: ١٨] أي ليس لنا، وقول عيسى حين^(٨) ﴿قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ﴾ [المائدة: ١١٦] بمعنى: ما قلت ذلك.

ولكن أهل التفسير حملوا الأقول على غيبيّته بنفسه، وهو عندنا على غيبيّته بسلطان^(٩) القمر، وقهر سلطان القمر، لما طلع سلطان النجم.

وعنده أن الرب لا يقهر، وأن سلطانه لا يزول. وعلى ذلك أمر القمر والشمس بظلمة الليل. وفي ذلك أنه لو كان عنده أن الرب لا يقهر، وأن سلطانه لا يزول، وأنه لا يرى، لأنكر من ذلك الوجه أن يكون ربّه، بل أقرّ به، وأنكر الأقول والزوال. وهذا ينقض قول من يصفه بالزوال والانتقال من حال إلى حال.

ومنهم^(١٠) من يقول: كان هذا منه في وقت، لم يكن جرى عليه القلم، سمع الخلق يقولون^(١١) في خلق السماء والأرض ونحو ذلك، ويشيرون ذلك إلى الله. وعلى ذلك أمر جميع أهل الشرك كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّيْءَ وَالْفَرَ لِقَوْلِ اللَّهِ﴾ [العنكبوت: ٦١ و...]. وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْآرْضُ﴾ إلى قوله: ﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٩١] ثم رآهم عبدوا الأصنام، وسَمَوْها آلهة، فتأمل، فوجدّها لا تسمع، ولا تبصر، ولا تنفع، ولا تضر، فعلم^(١٢) أن مثلها لا يختل أن يكون يخلق ما ذكر، وإن الذي ذلك فغله لعلّي عظيم، يجب طلب معرفته من العلو بما كان يسمع نسبة

(١) في الأصل وم: فيها. (٢) في الأصل وم: أعمارهم. (٣) في الأصل وم: أمرا. (٤) في الأصل وم: فيه. (٥) في الأصل وم: عن. (٦) في الأصل وم: ضوء. (٧) في الأصل وم: بقوله. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: في سلطان. (١٠) هذا هو الوجه الثاني من وجوه أقوال أهل التأويل في هذه الآية. (١١) في الأصل وم: يقول. (١٢) في الأصل وم: علم.

الملائكة إلى السماء ونزول الغيث منها ومجيء الثور والظلمة وكل أنواع البركات وغيرها منها. فَصَرَفَ تَذْيِيرَ الطَّلَبِ الذي نَسَبَ إِلَيْهِ الخَلْقَ إليها، ثم أَوَّلَ ما أَخَذَ في التَّأَمُّلِ والتَّنَظُّرِ لم يَقَعْ بَصَرُهُ على أَحْسَنَ وَابْتَهَى مِنَ الذي ذَكَرَ، فَظَنَّ ذَلِكَ.

ثم لما قَهَرَ، وقد كَانَ عَليمَ أَنَّ خَالِقَ مَنْ ذَكَرَ لَا يَجُوزُ أَنْ يُقَهَّرَ، فَمِنَ ذَلِكَ عَلِمَ أَنَّهُ لَيْسَ هُوَ، وَقَالَ: ﴿لَيْتَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾^(١) إلى أَنْ قَهَرَ اللَّيْلَ ضَوْءَ الشَّمْسِ، أَوْ صَارَتْ بِحَيْثُ لَا يَجْرِي لَهُ السُّلْطَانُ، أَوْ رَأَى فِي الكُلِّ آثَارَ التَّشْخِيرِ والتَّذَلُّلِ، وَلَمْ يَرِ فِيهَا أَعْلَامَ مَنْ لَهُ الْأَمْرُ والخَلْقُ، فَعَلِمَ أَنَّ الرَّبَّ لَا يُدْرِكُ مِنْ ذَلِكَ الْوَجْهَ، وَلَا يُعْرِفُ مِنْ جِهَةِ الْحَوَاسِّ، فَرَجَعَ إِلَى مَا سَمِعَ مِنْ أَنَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ، فَوَجَّهَ نَفْسَهُ إِلَيْهِ بِالْعُبُودِيَّةِ، وَاعْتَرَفَ لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ بِمَا فِي الخَلْقِ مِنْ آثَارِ ذَلِكَ وَفِي الْقَوْلِ مِنْ تَسْمِيَةِ مَنْ لَهُ الخَلْقُ رَبًّا وإِلَهًا، فَأَمَّنَ بِهِ. وَذَلِكَ كَانَ أَوَّلَ أَحْوَالِ اخْتِمَالِهِ عَلمَ الاستِدْلَالِ وَتُلُوغَةِ الْمَبْلَغِ الذي مَنْ بَلَغَهُ يَجْرِي عَلَيْهِ الْخَطَابُ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

وَمِنْهُمْ^(٢) مَنْ قَالَ: إِنَّهُ كَانَ بِالْعَاقِلِ جَرَى عَلَيْهِ الْقَلَمُ، وَقَدْ كَانَ رَأَى مَا ذَكَرَ غَيْرَ مَرَّةٍ، لَكِنَّ اللَّهَ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَهْدِيَهُ أَلْهَمَهُ ذَلِكَ، وَأَلْقَى فِي نَفْسِهِ، فَانْتَبَهَ انْتِبَاهَ الْإِنْسَانِ بِشَيْءٍ كَانَ عَنْهُ غَافِلًا مِنْ قَبْلُ، فَرَأَى كوكبًا أَحْمَرَ يَطْلُعُ عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ، فَرَاعَاهُ إِلَى أَنْ أَقْبَلَ، فَأَرَادَ مِنَ اللَّهِ قُرْبَةً، وَعَلِمَ أَنَّ رَبَّهُ لَا يَزُولُ، وَلَا يَتَغَيَّرُ، فَفَزِعَ إِلَيْهِ، وَقَالَ: ﴿لَا أُحِبُّ الْآلِيلَةَ﴾ وكَذَا ذَكَرَ فِي الْقَمَرِ وَالشَّمْسِ إِلَى أَنْ عَرَفَهُ اللَّهُ، فَتَبَرَّأَ^(٣) مِمَّا كَانُوا يُشْرِكُونَ، وَتَوَجَّهَ^(٤) بِالتَّوْحِيدِ والْعِبَادَةِ إِلَيْهِ.

وإلى هذا التَّأْوِيلِ ذَهَبَ الْحَسَنُ، وَإِلَى الْأَوَّلِ [مَا]^(٥) رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه.

والثَّانِي: قَالَ بِهِ جَمَاعَةٌ أَهْلُ الْكَلَامِ، وَنَحْنُ نَتَّبِعُ إِلَى أَنْ نَجْعَلَهُ رَجُلًا بِالْعَاقِلِ جَرَى عَلَيْهِ الْقَلَمُ، وَهُوَ كَانَ عَنِ اللَّهِ بِهِذِهِ الْعَقْلَةِ حَتَّى يَتَوَقَّعَهُ فِي مَعْنَى نَجْمٍ أَوْ قَمَرٍ أَوْ شَمْسٍ مَعَ مَا يَرَى فِيهَا الظُّهُورَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ وَالْأَوَّلُ^(٦) بَعْدَ الْوُجُودِ ثُمَّ آثَارَ التَّشْخِيرِ وَالْعَجْزِ عَنِ التَّذْيِيرِ بِمَا هُوَ فِي جَهْدٍ وَبِلَاءٍ وَمَنْ لَهُ يَفْعَلُ فِي رَاحَةٍ وَسُرُورٍ. ثُمَّ [لَا]^(٧) يَرَى فِي شَيْءٍ مِنَ الْعَالَمِ أَنَّ^(٨) لَهُ مَعْنَى يَدُلُّ عَلَى رُجُوعِ التَّذْيِيرِ، فَيَتَحَقَّقُ لَهُ الْقَوْلُ بِذَلِكَ، وَاللَّهُ يَصِفُهُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِذْ جَاءَ رَبُّكَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصَّافَاتِ: ٨٤]. وَقِيلَ: ﴿سَلِيمٍ﴾ مِنَ الشُّرْكِ، لَمْ يَشْبَهُ شَيْءًا.

وَقَالَ: ﴿وَبَلَّغْنَاكَ حُجَّتَنَا إِذْ تَبَيْتَنَّا إِتْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ [الْأَنْعَامِ: ٨٣] وَمَا يَذْكُرُونَهُ إِنَّمَا أَنَا عَلَى نَفْسِي؛ إِذْ هُوَ فِي الْعَقْلَةِ عَنْهَا وَالْجَهْلِ بِمَنْ لَهُ الْآيَاتُ، وَقَدْ قَالَ أَيْضًا: ﴿وَكَذَلِكَ رَأَى إِتْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الْأَنْعَامِ: ٧٥] وَمَعْلُومٌ أَنَّ ذَلِكَ عَلَى مُعَايَنَةٍ أَوْ ذَلِكَ قَدْ أَرَى كُلًّا مَنَّا.

وَلَكِنْ عَلَى مَا بَيَّنْتُ مِنَ الْوَجْهَيْنِ، وَفِيهِمَا حَقِيقَةٌ، وَلَيْسَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَيْكُونَ مِنَ الْتَّوْقِينَ﴾ دَلَالَةٌ لِلشُّكِّ فِي الْإِبْتِدَاءِ وَالْجَهْلِ فِي الْحَالِ الَّتِي يُحْتَمَلُ بِهِ رضي الله عنه وَلَكِنْ عَلَى أَنَّهُ عَلَى ذَلِكَ الْوَجْهِ يَكُونُ الْإِيقَانُ بِمَنْ لَا تَقَعُ عَلَيْهِ الْحَوَاسُّ، وَلَا^(٩) تُوجِبُ عِلْمُهُ الضَّرُورَاتِ، إِنَّمَا هُوَ الْإِسْتِدْلَالُ بِالْآثَارِ أَوْ تَلَقِّي الْأَخْبَارِ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

وَذَلِكَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِمِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ [الرَّعْدِ: ٢] لَا عَنْ وَضْعٍ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَبُخِّرِيَهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَكِ الثُّورِ﴾ [الْمَائِدَةِ: ١٦] لَا أَنَّ كَانُوا^(١٠) مِنْ قَبْلُ فِي الظُّلُمَاتِ، وَقَوْلُ يُوسُفَ: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [يُوسُفَ: ٣٧] لَا عَنْ كَوْنِهِ فِيهَا. وَهَكَذَا أَمْرُ الْإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ الْعَبْدُ فِي كُلِّ وَقْتٍ مُوقِنًا بِاللَّهِ وَأَنَّ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، لَا عَنْ شَكِّ فِي مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْوَقْتِ وَالْجَهْلِ. فَمِثْلُهُ أَمْرُ إِبْرَاهِيمَ رضي الله عنه.

وَالْوَجْهُ الثَّانِي مِمَّا تُكَلِّمُ فِي التَّأْوِيلِ أَنْ يَكُونَ إِبْرَاهِيمُ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، كَانَ مُؤْمِنًا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ عَارِفًا بِرَبِّهِ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ، وَلَكِنَّهُ كَلَّمَ قَوْمَهُ كَلَامَ مُسْتَذِرٍّ بِإِظْهَارِ الْمُتَابَعَةِ لَهُمْ عَلَى هَوَاهُمْ، فَيَكُونُونَ بِهِ أَوْلَى وَإِلَيْهِ أَمِيلٌ. وَذَلِكَ أَبْلَغُ فِي الْحِجَاجِ وَالطَّفِّ فِي الْمَكِيدَةِ، فَيُبَيِّنُ لَهُمْ مَا^(١١) أَرَادَ مِنْ غَيْرِ جِهَةِ النِّقْصِ وَالْعِنَادِ، فَبَدَأَ بِتَعْظِيمِ مَا عَظَّمُوهُ؛ إِذْ هُمْ قَوْمٌ كَانُوا

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: لَمَنْ قَهَرَ وَذَلِكَ. (٢) هَذَا هُوَ الْوَجْهُ الثَّالِثُ مِنْ وَجْهِهِ أَقْوَالُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: فَيَتَبَرَّأَ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَجْه. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: وَالْأَقْوَالُ. (٧) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: وَلَوْ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: قَالُوا. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: مِنْ.

يُعْظَمُونَ النُّجُومَ، وبالعلم بأمرها أَخْبَرُوا نَعْرُودَ بِوِلَادَةِ مَنْ يَهْلِكُ عَلَى يَدِهِ هُوَ، وَيَزُولُ مُلْكُهُ، وهذا كما ذَكَرَ أَنَّهُ ﴿تَنْظَرُ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ [الصفات: ٨٨] فِي مَقَائِسِهَا وَعِلْمِهَا نَظْرٌ^(١) إِلَيْهَا، ثُمَّ قَالَ الَّذِي ذَكَرَ لَا مِنْ حَيْثُ عِلْمُ النُّجُومِ، وَلَكِنْ مِنْ حَيْثُ عِلْمُهُ أَنَّهُ يَمُوتُ، وَمَنْ يَمُوتُ يَسْقَمُ، لَكِنْ أَرَاهُمْ الْمُوَافَقَةَ فِي الْعِلْمِ الَّذِي لَهُمْ فِي ذَلِكَ الْبَابِ دَعَايَ.

فكَذَلِكَ مَا نَحْنُ فِيهِ. وَعَلَى ذَلِكَ أَمْرُ الْبُدِّ الَّذِي كَانَ يَغْبُدُهُ^(٢) قَوْمٌ، عَظُمَتَهُ [الْحَوَارِيُّونَ الَّذِينَ]^(٣) أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ حَتَّى أَظْمَأْتُوا، وَصَدَرُوا عَنْ تَذْيِيرِهِ، وَبُلُوا بِعَذَابٍ^(٤)، وَكَادَ يُحِيطُ بِهِمْ، فَدَعَاهُمْ إِلَى دُعَاءِ الْبُدِّ لِيَكْشِفَ لَهُمْ، إِذْ لَيْمِلُوهُ يَغْبُدُ، حَتَّى أَيْسُوا، فَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ، فَكَشَفَ عَنْهُمْ، فَأَمَّنُوا بِهِ. فَمِثْلُهُ الْأَوَّلُ.

وَالِىَ هَذَا التَّأْوِيلِ يَذْهَبُ الْقُتَيْبِيُّ، لَكِنَّهُ ذَكَرَ أَنَّهُمْ كَانُوا أَصْحَابَ نُجُومٍ وَكَهَانَةٍ. وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ: لَا يَغْبُدُ النَّجْمُ^(٥)، وَلَا يَرَاهُ رَبِّي، كَيْفَ أَظْهَرَ الْمُوَافَقَةَ بِتَسْمِيَةِ النَّجْمِ رَبِّيًّا؟ ثُمَّ التَّقْصُصُ عَلَيْهِ/ ١٥٣ - أ/ بِالْأَوَّلِ؟ وَلَكِنْ عَلَى ذَلِكَ لَوْ كَانَ فَإِنَّمَا كَانَ فِي قَوْمٍ يَغْبُدُونَ النُّجُومَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، فَأَلْزَمَهُمْ بِالْأَوَّلِ؛ إِذْ فِيهِ تَسْخِيرٌ وَعَلَبَةٌ سُلْطَانِ.

وهذا الوجه يجوز أن يظهر على إضمار معنى، في نفسه مُسْتَقِيمٌ، كَالْمُكْرَهُ عَلَى عِبَادَةِ صَلِيبٍ، يَقْصِدُ قَصْدَ عِبَادَةِ اللَّهِ، وَالْمُكْرَهُ عَلَى شَيْءٍ مُحَمَّدٍ ﷺ يَقْصِدُ قَصْدَ مُحَمَّدٍ آخِرٍ، يُصَوِّرُهُ فِي وَفْقِهِ وَنَحْوُ ذَلِكَ. وَهُوَ عَلَى مَا ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَكُمْ كَيْدُكُمْ هَذَا تَتْلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَطْفَؤُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣] عَلَى جَعْلِ أَنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ شَرْطًا فِي نَفْسِهِ فِي قَوْلِهِ ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَكُمْ كَيْدُكُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣] وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقيل في الاستدراج من غير هذا الوجه على التسليم أنهم أهل كهانة^(٦) ونجوم؛ وهو أنه لما رآهم يَغْبُدُونَ الأصنام والأوثان دعاهم من طريق المَقَابِلَةِ، إِذْ هُمْ مَالُوا إِلَى ذَلِكَ بِمَا رَأَوْا مِنْ حُسْنٍ فِي الْمُبْصَرِّ بِمَا قَدْ زُرْنَ بِأَنْوَاعِ الزُّيْنِ^(٧) وَحُلِيِّ أَنْوَاعِ الْحُلِيِّ، فَأَرَاهُمْ أَنَّهُ يَغْبُدُ النَّجْمَ، وَمَا ذَكَرَ^(٨)، وَأَنَّ الَّذِي ذَكَرَ أَحْسَنَ وَأَعْظَمَ نُورًا وَضِيَاءً؛ إِذْ هُوَ بِجَوْهَرِهِ وَنَفْسِهِ كَذَلِكَ، وَمَا كَانُوا يَغْبُدُونَ بِمَا فَعَلُوا بِهِ، وَجَعَلُوهُ^(٩) كَذَلِكَ، لِيَكْرَهُ إِلَيْهِمْ عِبَادَتُهُمْ الْأَصْنَامَ، وَيَسْتَفِيدُوا عَنْهَا اغْتَاذُوهَ بِالْمَعْنَى الَّذِي ذَكَرْتُ، ثُمَّ أَلْزَمَهُمْ فَسَادَ مَا مَالُوا إِلَيْهِ، وَقَبِلُوا مِنْهُ قَبْلَ أَنْ يَقَرَّ ذَلِكَ فِي قُلُوبِهِمْ، وَتَظْمِنَ إِلَى ذَلِكَ أَنْفُسُهُمْ بِمَا أَظْهَرَ مِنْ فَسَادِ أَنْ يَكُونَ الَّذِي بِذَلِكَ الْوَصْفِ مِنَ التَّسْخِيرِ أَوْ مُلْكِهِ عَلَى شَرَفِ الزُّوَالِ، أَوْ يَصِيرَ بِحَيْثُ يَقَرُّ فِي قُلُوبِهِمْ عِبَادَةُ مَنْ لَا يَشْهَدُونَهُ وَقَتَ الْعِبَادَةِ، فَيُلْزِمُهُمْ عَلَى ذَلِكَ عِبَادَةَ الْمُسْتَحَقِّ لَهَا^(١٠)، أَوْ أَنْ يَقُولَ: إِذَا كَانَتِ النُّجُومُ وَمَا ذَكَرَ مِنْ ضِيَائِهَا وَنُورِهَا وَكَثْرَةِ مَنَافِعِ الْحَلْقِ بِهَا لَمْ يَضْلُخْ لَهَا الْأُلُوهِيَّةُ عِنْدَ الْجَمِيعِ بِالْأَوَّلِ وَالتَّسْخِيرِ. فَالَّذِي كَانُوا يَغْبُدُونَ عَلَى مَا [سَخَرُوهُ كَانَ]^(١١) تَحْتَ الْبَشَرِ ذَلِيلًا^(١٢)؛ لَا يَسْمَعُ، وَلَا يُبْصِرُ، وَلَا يَنْفَعُ، أَحَقُّ أَلَّا يَكُونَ لَهُ الرُّبُوبِيَّةُ، وَأَلَّا يُوجَّهَ إِلَيْهِ الْعُبُودَةُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. فَهَذَا النُّوعُ مِنَ الْإِسْتِدْرَاجِ فِي مَا لَوْ ظَهَرَ لَهُمْ^(١٣) لَمْ يَكُونُوا يَتَّخِذُونَ النُّجُومَ أَرْبَابًا يَغْبُدُونَهَا، وَكَذَلِكَ الَّذِي ذَكَرَهُ الْقُتَيْبِيُّ.

والتأويل الثالث للآية يُخْرِجُ مَخْرَجَ الْإِنْكَارِ وَالِاسْتِهْزَاءِ. وَيَكُونُ فِي ذَلِكَ مَعْنَى الْإِسْتِدْرَاجِ؛ إِذْ هُوَ الْإِلْزَامُ مِنْ حَيْثُ لَا يُشْعَرُ بِهِ أَوْ تَقْصُصُ أَسْبَابِ الشُّبْهِ دَرَجَةً فَدَرَجَةً فِي حُلُولِ الْوَقْتِ وَحُلُولِ الْمَقْصُودِ وَتَعَاطِي ذَلِكَ الْإِبْتِدَاءِ بِالْكَشْفِ عَنِ الْأَسْبَابِ.

ثُمَّ قِيلَ فِي هَذَا بِأَوْجُوهٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُمْ كَانُوا يَغْبُدُونَ النُّجُومَ وَمَا ذَكَرَ، وَيَدْعُونَ إِلَى ذَلِكَ الْأَوْلَادَ وَالصَّبِيَّانَ، وَإِبْرَاهِيمَ مِنْهُمْ فِي مَا كَانُوا يَدْعُونَهُ إِلَيْهِ. فَقَالَ لَمَّا رَأَى النَّجْمَ: هَذَا الَّذِي تَغْبُدُونَ رَبِّي، أَيِ إِلَى عِبَادَتِهِ تَدْعُونَنِي، أَيِ هَذَا رَبِّي الَّذِي تَدْعُونَنِي إِلَى عِبَادَتِهِ. فَلَمَّا رَأَاهُ طَالِعًا سَابِحًا غَائِبًا ثَبَّتَ عِنْدَهُ أَنَّهُ مَسْخَرٌ، فَقَالَ: لَا أَحِبُّ عِبَادَتَهُ. لَكِنَّ ذَا قَدْ يَكُونُ فِي خَاصِّ نَفْسِهِ مُتَفَكِّرًا فِي الَّذِي دَعَاؤُهُ

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: لأنه. (٢) في الأصل وم: يعبدكم. (٣) في الأصل وم: الحواري الذي. (٤) في الأصل وم: بعد. (٥) من م، في الأصل: النجوم. (٦) في الأصل وم: كفاية. (٧) من م، في الأصل الذي. (٨) في الأصل: ذكروا. (٩) في الأصل وم: وجعلوا. (١٠) من م، في الأصل: ما. (١١) في الأصل وم: سخرهم. (١٢) في الأصل وم: آذلاء. (١٣) في الأصل وم: أنهم.

إِلَيْهِ لِيَعْرِفَ فَعَقَ قَوْلَهُمْ مِنَ الْوَجْهِ الَّذِي يُقَرُّ ذَلِكَ فِي الْقُلُوبِ إِذَا قَابَلَهُمْ. وَقَدْ يَكُونُ فِي مَلَأِ مِنْهُمْ، يُظْهِرُ لَهُمْ قَوْلَهُ: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦ و ٧٧ و ٧٨] عَلَى إِضْمَارٍ: تَدْعُونِي إِلَيْهِ، لِيُزِمَهُمْ بِمَا بَانَ لَهُ فَسَادُ الرُّبُوبِيَّةِ، فَيَكُونُ اسْتِزْجَارًا أَيْضًا لِأَنَّهُ الزَّمَمُ بَعْدَ ظُهُورِ الْوِفَاقِ مِنْهُ لَهُمْ، وَقَدْ يَكُونُ ذَكَرَ هَذَا الَّذِي تَدْعُونِي [إِلَيْهِ] رَبِّي سِرًّا، وَيَهْزَأُ بِهِمْ بِإِظْهَارِ الْمُوَافَقَةِ؛ يُبَيِّنُ لَهُمْ ذَلِكَ بِمَا الزَّمَمُ أَنَّ الْإِبْتِدَاءَ لَمْ يَكُنْ عَلَى الْمُسَاعَدَةِ، إِذْ ذَلِكَ الْمَعْنَى الَّذِي بِهِ الزَّمَمُ كَانَ ظَاهِرًا عِنْدَهُ فِي الْإِبْتِدَاءِ وَعِنْدَهُمْ جَمِيعًا.

والثاني: أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ عَلَى مَا يُقَالُ: هَذَا فَلَانُ الَّذِي تُخْبِرُونَنِي عَنْهُ، بِمَعْنَى أَهَذَا هُوَ؟ عَلَى إِنْكَارِ أَنَّهُ لَيْسَ بِالْمَحَلِّ الَّذِي أَخْبَرْتُمُونِي عَنْهُ، أَوْ عَلَى الْإِسْتِفْهَامِ لِيُقَرَّرَ عَنْهُ، أَوْ عَلَى الْوَجْهِينِ كَانِ، وَقَدْ هَرَى بِهِمْ، وَظَهَرَ فِي الْمُتَعَقِّبِ أَنَّ الْأَوَّلَ كَانَ^(٢) عَلَى الْهَزْءِ بِهِمْ وَالْإِنْكَارِ أَوْ الْإِسْتِفْهَامِ؛ وَذَلِكَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خَلَقُوا كَخَلْقِهِ﴾ [الرعد: ١٦] عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يَخْلُقُوا كَخَلْقِهِ، يُوضِّحُ قَوْلَهُ: ﴿قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦] فِي الْأَوَّلِ ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾.

والثالث^(٣): أَنْ يَكُونَ هَذَا يُضَمَّرُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ أَي رَبُّ هَذَا رَبِّي إِلَى آخِرِ مَا ذَكَرَ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهِ عِنْدَهُمْ أَنَّهُ لَا تَلِيْقُ الرُّبُوبِيَّةُ بِالَّذِي ظَنُّوا أَنَّهُ سَاعَدَهُمْ عَلَيْهِ. ثُمَّ قَدْ بَيَّنَّا الدَّلِيلَ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ كَافِرًا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مَعَ مَا قَدْ ثَبَتَتْ عِصْمَةُ الرُّسُلِ عَنِ الْكِبَائِرِ؛ فَكَيْفَ يُبْلَوْنَ بِالْكَفْرِ؟ وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. وَكُلُّ مَمَكَّنٍ فِيهِ الْكُفْرُ شَرِيكَ أَمثَالِهِ، فَلَا وَجْهَ لِتَخْصِيصِ الْأَصْلِ.

ثُمَّ جُمِلَتْ ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ، سُبْحَانَهُ، لَوْ أَرَادَ أَنْ يُبَيِّنَ حَقِيقَةَ الْحَالِ، أَوْ كَانَتْ بِنَا إِلَى مَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ ذَلِكَ مِنَ الْمُرَادِ وَالْوَقْتِ الْحَاجَةِ^(٤) فِي أَمْرِ الدِّينِ لَكَانَ يُبَيِّنُ ذَلِكَ، أَوْ يَرُدُّ فِي ذَلِكَ [حَدِيثًا]^(٥) عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَكِنَّ الْعِلْمَ بِحَقِيقَةِ ذَلِكَ، إِذْ هُوَ عِلْمُ الشَّهَادَةِ بِمَا لَيْسَ لَنَا وَعَلَيْنَا [إِلِلُّوَصُولَ إِلَيْهِ عَمَلٌ تَحَالُفٌ]^(٦)، وَلَا تُكَلِّفُ الشَّهَادَةَ بِوَقْتِ الْقَوْلِ. وَمَا يُمْكِنُ فِيهِ، فَحَقُّهُ أَنْ يُتَأَمَّلَ وَجْهَ الْحِكْمَةِ فِي ذِكْرِ الْقِصَّةِ وَمَا فِيهَا مِنَ الْحُجَّةِ فِي أَمْرِ الدِّينِ فَهُوَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، يَخْرُجُ عَلَى وَجْهِ:

أَخَذَهَا: عَلَى جَعْلِ ذَلِكَ حُجَّةً لِرِسَالَةِ رَسُولِهِ؛ إِذْ هُوَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ، وَنَبِيُّ اللَّهِ نَشَأَ بِمَكَّةَ، وَلَمْ يَكُنْ ثُمَّ مَنْ يَعْلَمُ ذَلِكَ، وَلَا فَارَقَ قَوْمَهُ [وَلَا]^(٧) اخْتَلَفَ إِلَى مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْأَنْبَاءِ بِتَوَارِيهِمْ كُتِبَ الْأَنْبِيَاءُ، وَلَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَمْنَنُ يَخْطُ بِبَيْمِينِهِ^(٨)، وَيَقِفُ عَلَى الْمَكْتُوبِ. دَلَّ أَنَّهُ عَلِمَهُ بِاللَّهِ ﷻ مَعَ مَا كَانَ فِي الْقِصَّةِ [مِنْ]^(٩) حُجَجِ التَّوْحِيدِ وَدَفْعِ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَتَسْفِيهِ أَهْلِ ذَلِكَ، لَمْ يَخْتَمِلْ أَنْ يَكُونَ تَغْلِيْمٌ مِثْلَ ذَلِكَ مِنَ الدَّافِعِينَ لِذَلِكَ، الْمُدَّعِينَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ الْيَهُودِيَّةَ وَالنَّصْرَانِيَّةَ.

[وَالثَّانِي: أَنْ]^(١٠) كُتِبَتْهُمْ بِغَيْرِ لِسَانِهِ، وَفِي الْعِبَادَةِ بِلسَانِ [آخَرٍ]^(١١) يُوهِمُ الْإِخْتِلَافَ وَالتَّغْيِيرَ، فَلَا يَخْتَمِلُ الْإِخْتِجَاجَ بِمِثْلِهِ مَا يَخْتَمِلُ الْإِنْكَارَ وَالدَّفْعَ، وَفِيهِ اسْتِعْطَافٌ قَوْمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ هُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ بِمَا يَدْعُوهُمْ إِلَى دِينِ آبَائِهِمْ، مَعَ مَا كَانُوا هُمْ أَصْحَابُ تَقْلِيدٍ وَحِفْظِ آثَارِ الْأَبَاءِ، فَالزَّمَمُ الْقَوْلَ فِي آبَائِهِمْ بِمَا لَا [يُدْفَعُ بِهِمُ الْقَوْلَ بِغَيْرِ الَّذِي قَالُوا]^(١٢)؛ إِذْ إِبْرَاهِيمُ ﷺ عِنْدَ جَمِيعِ الْمُشْرِكِينَ إِمَامٌ، يُؤْتَمُّ بِهِ، أَحَقُّ مِنْ كُلِّ أَبِي، مَعَ مَا كَانَ كُلُّ مَوْلُودٍ عَلَى دِينِهِ مَذْكُورًا مَحْفُوظًا فِي الْخَلْقِ، وَمَنْ خَالَفَهُمْ فَهُوَ مَمْنُوحٌ الْأَسْمَ وَالذِّكْرَ جَمِيعًا. فَكَانَ فِي ذَلِكَ اعْظَمُ الدَّلِيلِ أَنَّ هَؤُلَاءِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ أَحَقُّ بِالتَّقْلِيدِ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ. وَعَلَى ذَلِكَ اتِّفَاقُ أَهْلِ الْكِتَابِ عَلَى مُوَالَاةِ إِبْرَاهِيمَ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَهَيَّأَ لَهُمْ دَفْعُ مَا اثْبَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ تَوْحِيدِهِ وَلَا مَا قَرَّ عَنْهُمْ مِنْ دِينِهِ بِشَيْءٍ يَجِدُونَهُ خِلَافًا لِذَلِكَ فِي كُتُبِهِمْ.

والثالث: أَنَّ إِبْرَاهِيمَ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، صَرَفَتْ مَعْرِفَةَ الرَّبِّ مِنْ جِهَةِ خَلْقِهِ، وَدَانَ بِدِينِهِ مِنْ جِهَةِ النَّظَرِ فِي الْآيَاتِ وَالتَّحْقِيقِ عَنْهَا دُونَ أَنْ يُقَلَّدَ أَبَاهُ أَوْ قَوْمَهُ لِيَعْرِفَ سَبِيلَ طَلَبِ الْحَقِّ، وَوَجَّهَ أَتْبَاعَهُ لِيَكُونَ ذَلِكَ تَذَكُّرًا لِجَمِيعِ ذُرِّيَّتِهِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَ: فِيهِ. (٢) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: لَكَانَ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَ: يَجُوزُ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَ: وَالْحَاجَةُ. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَ: فِي الْأَصْلِ وَ: بِالْوَصُولِ عَمَلٌ تَحَالَفٌ. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَ: م. (٧) فِي الْأَصْلِ: بَيْمِينًا. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَ: (٩) فِي الْأَصْلِ وَ: (١٠) فِي الْأَصْلِ وَ: وَبَعْدَ فَاذَنْ. (١١) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَ: م. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَ: مَعْرِفَتُهُمُ الْقَوْلَ بِغَيْرِ الَّذِي قَالُوا.

والرابع: أنه ذَكَرَ الْحَبَرَ عَنْ أَحْوَالِهِ بِمَخْرَجٍ: ظَاهِرُهُ يُؤْهِمُ الْمَكْرُوهَ؛ وَلَهُ وَجْهُ الصَّرْفِ إِلَى مَا [لَيْسَ فِيهِ نِفَارُ الطَّبْعِ مِنْهُ وَلَا تَأْبٌ] ^(١) لِلْعَقْلِ لِيَمْتَحِنَ عِبَادَهُ بِالْقَوْلِ فِيهِ وَالْوَقْفِ فِي أَمْرِهِ.

والخامس: لِيُعْلَمَ أَنَّ الْمُحَاجَّةَ فِي الدِّينِ قَدَرٌ مَا تَحْتَمِلُهُ الْعُقُولُ لِازِمَةٍ؛ إِذْ بِهَا أَفْحَمَ إِبْرَاهِيمَ قَوْمَهُ، وَأَظْهَرَ دِينَ رَبِّهِ، فَيَبْطُلُ بِذَلِكَ قَوْلُ كَثِيرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ يَكْزَهُونَ الْمُنَاطَرَةَ فِي الدِّينِ، وَيَرَوْنَ فِي ذَلِكَ تَقْلِيدَ الْأَسْنَافِ أَوْ ظَوَاهِرَ مَا جَاءَ بِهِ الْأَنَارُ الَّتِي فِي أَتْبَاعِ أَمْثَالِهَا تَنَاقُضٌ عِنْدَ / ١٥٣ - ب/ الْعُقَلَاءِ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

والسادس: أَنَّ الْمُنَاطَرَةَ تَكُونُ بَوَاجِهَيْنِ: يَطْلُبُ ^(٢) الدَّلَالَةَ فِي إِبْثَابِ الْقَوْلِ وَيُظَاهِرُ الْفَسَادَ بِمَا يَتِمَكَّنُ فِيهِ مِنَ الْغَيْبِ؛ إِذْ هُوَ رَدٌّ مَا ادَّعَا مِنَ الرُّبُوبِيَّةِ فِي مَنْ ذَكَرُوا ^(٣) بِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ آثَارِ التَّدْبِيرِ لغيرِهِ؛ وَلِذَلِكَ ^(٤) قَالَ فِي الْأَصْنَامِ: ﴿لِمَ تَقْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢] وَقَالَ: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [يس: ٢٢] وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ ﴿الَّذِي خَلَقَنِي﴾ [الشعراء: ٧٨]. فَمَرَّةً أَبْطَلَ قَوْلَهُمْ بِالْمَعْنَى الَّذِي بِضَدِّهِ اخْتِجَّ، وَامْرَأَةً بِالْمَعْنَى الَّذِي فِيهِ إِبْثَابُ الْحَقِيقَةِ ^(٥). وَجَائِزٌ فِي كُلِّ ذَلِكَ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ: مَا الدَّلِيلُ عَلَى مَا تَدْعُونَ لِمَا تَذْكُرُونَ مِنَ الرُّبُوبِيَّةِ؟

والسابع: جَوَازُ التَّسْلِيمِ بِإِظْهَارِ الْمَوَافَقَةِ، وَإِنْ كَانَ الْمُسْلِمُ بِحَقِيقَةِ ذَلِكَ مُنْكَرًا، وَلَهُ دَافِعًا ^(٦)، إِذَا كَانَ فِي الْمُسَاعَدَةِ بِذَلِكَ فِي الظَّاهِرِ نَيْلَ الْفُرْصَةِ وَالظَّفَرِ بِالْبُغْيَةِ؛ إِذْ عَلَى ذَلِكَ خَرَجَ مُنَاطَرَتُهُ قَوْمَهُ، وَعَلَى ذِكْرِ مَا اخْتِجَّ بِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿رَبِّكَ الَّذِي يُخَيِّئُ وَيَنْبِئُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] إِذْ قَالَ خَصْمُهُ: ﴿أَنَا أَنِّي وَأُمِّيَّتٌ﴾ [البقرة: ٢٥٨] وَعَلَى ^(٧) إِقْبَالِهِ عَلَى حُجَّةٍ هِيَ أَوْضَحُ مِنْ ذَلِكَ وَأَفْهَرُ لِلْعَقْلِ وَالزَّمِّ فِي الطَّبْعِ، فَقَالَ: ﴿فَلَيْكَ اللَّهُ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

والثامن: أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يُهْمِلِ الْقَوْمَ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَزْمَةِ دُونَ أَنْ يَجْعَلَ ^(٨) لَهُمْ إِدْلِيلًا لِلْحَقِّ يَظْفَرُونَ بِهَا لَوْ تَأَمَّلُوا، وَلَا أَلَزَمَ خَلْقَهُ فِي زَمَانٍ مِنَ الْأَزْمَانِ بِشَيْءٍ، لَوْ بُحِثَ عَنْهُ، لَا يُوقَفُ عَلَيْهِ، وَلَا يُتَهَيَّأُ لَهُ. وَلِذَلِكَ أَظْهَرَ الْحُجَجَ، وَأَنَارَ ^(٩) الْبَيِّنَاتِ لِيُعْلَمَ أَنَّهُ جَعَلَ أَوَامِرَهُ كُلَّهَا تَالِيَةً لِإِدْلِيلِهِ وَالْبَرَاهِينِ لِيَقْطَعَ بِهَا عُذْرَ مَنْ تَأَبَّى نَفْسَهُ الْقِيَامَ بِهِ.

والتاسع: أَنْ يُعْلَمَ أَنَّهُ لَا أَحَدٌ يَقُومُ بِالْحِجَاجِ، وَلَا يَنْطِقُ بِحُسْنِ الْبَيَانِ إِلَّا بِعَطِيَّةِ اللَّهِ وَامْتِنَانِهِ عَلَيْهِ بِمَا يَنْطِقُ بِهِ لِسَانُهُ، وَيُوقَفُهُ لِلْقِيَامِ بِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَرَبِّكَ حُجَّجْنَا وَاتَّبَعْنَا لِإِزْمِيسَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ [الأنعام: ٨٣].

ثم العاشر: أَنْ يَكُونَ بِفَضْلِهِ ثَنَاءُ الدَّرَجَاتِ فِي أَمْرِ دِينِهِ، وَيُرْتَقَى إِلَى مَنَازِلِ الْفَضْلِ وَالشَّرَفِ بِمَشِيتِهِ كَمَا قَالَ: ﴿رَفَعَ دَرَجَتِي مِّنْ لَّنَاءٍ﴾ [الأنعام: ٨٣] وَأَنَّهُ مَتَى شَاءَ الرَّفْعُ كَانَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقد قَالَ بَعْضُ أَصْحَابِنَا: الْإِمَامَةُ فِي تَأْوِيلِ الْآيَةِ، رَغْمَ أَنَّهُمْ أَخَذُوهُ مِنْ شَرْحِ، عَلَى أَنَّ تَأْوِيلَ النُّجْمِ الْمَآذُونِ وَتَأْوِيلَ ^(١٠) الْقَمَرِ اللَّاحِقِ وَتَأْوِيلَ ^(١١) الشَّمْسِ الْإِمَامِ؛ بِمَعْنَى أَنَّهُ قَالَ [عَنِ الْمَآذُونِ] ^(١٢): ﴿هَذَا رَقِّي﴾ يَعْنِي بِهِ رَبِّ الثَّرِيَّةِ؛ رَبَّاهُ بِالْعِلْمِ. وَقَوْلُهُ ^(١٣) ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ أَيِ فَنِيَ مَا عِنْدَهُ، رَغِبَ عَنْهُ، وَقَالَ: ﴿لَا أُحِبُّ﴾ ثُمَّ ظَهَرَ بِاللَّاحِقِ ثُمَّ كَذَلِكَ بِالْإِمَامِ.

ثُمَّ تَوَجَّهَ نَحْوَ التَّالِيِ بِالْقَبُولِ؛ إِذِ التَّالِيِ عَنْهُمْ، هُوَ الَّذِي يَظُنُّ مَا ذُكِرَ. فَلَمَّا جَاوَزَ دَرَجَةَ الْمَوْمِ، وَهُوَ الْإِمَامُ، صَارَ إِلَى دَرَجَةِ الرِّسَالَةِ، وَهُوَ الْقَائِلُ عَنِ ^(١٤) التَّالِيِ بِالْحَبَالِ، وَالْمُصَوِّرُ لِلشَّرَائِعِ عَنْهُمْ، فَأَلْزَمُوا بِهِذَا عِبَادَةَ أَرْبَابٍ.

وَأَنَّ الْإِرْتِفَاعَ مِنْ دَرَجَةٍ إِلَى دَرَجَةٍ بِأَوَّلِ ذَلِكَ، وَذَلِكَ أَمْرٌ مُتَنَاقِضٌ عَلَى الْمُتَأَمَّلِ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا فَنِيَ مَا عِنْدَ الْمَآذُونِ صَارَ إِلَى اللَّاحِقِ، وَاللَّاحِقِ ^(١٥) كَانَ بِهِ مَآذُونًا، فَلَمْ يَكُنِ الثَّانِي بِمَا يَصِيرُ إِلَيْهِ أَخْمَدٌ مِنَ الْأَوَّلِ؛ إِذْ مَا كَانَ بِهِ صَارَ مَآذُونًا، وَلَوْ كَانَ ثُمَّ دَرَجَةُ أُخْرَى.

فَأَمَّا أَنْ يَكُونَ يَنَالُ ^(١٦) تِلْكَ فِي الْوَقْتِ الَّذِي يُلْقَى الْمَآذُونُ ذَلِكَ إِلَى غَيْرِهِ، أَوْ لَا؛ فَإِنْ كَانَ لَا يُنَالُ فَلَا اسْتِفَافَ مِنَ الْمَآذُونِ حِينَ ^(١٧) امْتَنَعَ عَمَّا يُلْقِيهِ ^(١٨) إِلَى الدَّرَجَةِ الثَّانِيَةِ، وَبَلَّغَهُ ^(١٩) غَيْرُهُ، وَإِنَّمَا يَنَالُ مَعَهُ فِي دَرَجَةِ الْمَوْمِ.

(١) فِي الْأَصْلِ: فِيهِ نِفَارٌ عَنْهُ الطَّبْعُ وَلَا تَأْبٍ، فِي م: لَيْسَ فِيهِ نِفَارٌ مِنْهُ لِلطَّبْعِ وَلَا تَأْبٍ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: لَطْلُبُ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: ذَكَرَ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَكَذَلِكَ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: فِي ثَبَاتِ فِيهِ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَاقِعًا. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: جَعَلَ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: وَأَنَارَ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: لِلْمَآذُونِ. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: مِنْ. (١٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَالْمَآذُونِ. (١٥) فِي الْأَصْلِ وَم: بَيَانٌ. (١٦) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (١٧) فِي الْأَصْلِ وَم: يَقْبَلُهُ. (١٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَبَلَغَ. (١٩) فِي الْأَصْلِ وَم: وَبَلَغَ.

فكيف قال: لا أجبهُ، وهو إثر الذي ذلك وَضَعَهُ؟ ثم كيف قال: ﴿لَا أُجِبُّ﴾ ذهاب ما به أَخِذَ بِحَبْلِهِ عَنِ الْآخِذِ مِنَ الْآخِرِ؟ وكيف صارَ رَبُّهُ قَبْلَ أَنْ يُرَبِّيَهُ؟ فلما رباه تَبَرَّأَ مِنْ رُبُوبِيَّتِهِ، وَآثَرَ رَبًّا آخَرَ. فإذا عاقِبَةُ شُكْرِهِ سَفَى رَبُّهُ فِي شَأْنِهِ كُفْرَانُهُ بِهِ. وكذلك [أمره]^(١) دَرَجَةً فَدَرَجَةً حَتَّى يَكْفُرَ بِالتَّالِي. ثم بالعقل يَصِيرُ إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ. وهو الرَّبُّ فِي الْإِنْتِدَاءِ وَالْإِنْتِهَاءِ؛ لَا رَبَّ سِوَاهُ ﷻ عَنِ الشُّرَكَاءِ؛ إِذْ إِلَيْهِ حَاصِلُ الْأَمْرِ وَمَصِيرُ الْخَلْقِ. ولو كَانَ [كُلُّ]^(٢) مُرْتَقِي حَدًّا يَرْتَقِيهِ^(٣) آخَرُ لَكَانَتْ تِلْكَ الْحُدُودُ، وَيَكُونُ^(٤) أَبَدًا آخِرُهَا، فَيَكُونُ الْكُلُّ تَوَالِيًا^(٥) أَوْ نَظْفًا، وَيَبْطُلُ الْأَوَّلُ وَالْمَادُونُونَ وَالْآيَمَةُ جَمِيعًا. وقد كَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيَّا، كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ، عَنْ هَذَا الْخِيَالِ، وَعَصَمَهُ عَنْ هَذَا الرَّسْوَاسِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ.

الآية ٨٠

[وقوله تعالى]^(٦): ﴿وَسَخَّطَ قَوْمَهُ﴾ ذَكَرَ مُحَاجَّةَ قَوْمِهِ، وَلَمْ يُبَيِّنْ فِيْمَ حَاجُّوهُ؟ لَكِنْ فِي الْجَوَابِ بَيَانٌ أَنَّ الْمُحَاجَّةَ فِي مَا كَانَتْ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَتَعْبُجُونِي فِي اللَّهِ﴾ ثُمَّ تَحْتِمِلُ الْمُحَاجَّةَ ﴿فِي اللَّهِ﴾ فِي تَوْجِيدِ اللَّهِ وَدِينِهِ، وَتَحْتِمِلُ فِي أَمْرِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ.

وَذَكَرَ فِي بَعْضِ الْقِصَصِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ [أنه]^(٧) قَالَ: ﴿وَسَخَّطَ قَوْمَهُ﴾ فِي آلِهَتِهِمْ، وَخَوْفُهُمْ بِهَا، وَقَالُوا: إِنَّا نَخَافُ آلِهَتَنَا، وَأَنْتَ تَسْتُخْئِمُنَا، وَلَا تَعْبُدُهَا، إِنْ تَحْبَلُكَ وَتَقْسُدُكَ [ظاهران]^(٨)، وَذَلِكَ مُحْتَمَلٌ، وَهُوَ كَقَوْلِ قَوْمِ هُودٍ لِهُودٍ ﷺ: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ [هود: ٥٤].

ثُمَّ قَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ: لِمَ تَخَافُونَ أَنْتُمْ مِنْهَا؟ قَالُوا كَيْفَ [لا]^(٩) نَخَافُ، وَنَحْنُ نَعْبُدُهَا؟ قَالَ: إِنَّكُمْ تُسْأَلُونَ بَيْنَ الصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ وَالذَّكْرِ وَالْأُنْثَى. أَمَّا تَخَافُونَ الْكَبِيرَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ بِالصَّغِيرِ، وَمَا تَخَافُونَ الذَّكْرَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ بِالْأُنْثَى.

وَيَحْتِمِلُ أَنَّهُمْ خَوْفُهُ بِاللَّهِ بِتَرْكِ عِبَادَةِ آلِهَتِهِمْ لِمَا كَانُوا يَقُولُونَ: ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٢٣] وَيَقُولُونَ: ﴿هَؤُلَاءِ شَفَعَتُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] [فَخَوَّفُوا بِهَا]^(١٠) إِبْرَاهِيمَ بِتَرْكِ عِبَادَتِهِمْ لِمَا كَانَ عَنْدهُمْ أَنَّ عِبَادَتَهُمْ إِيَّاهَا تُقَرِّبُهُمْ إِلَى اللَّهِ زُلْفَى، وَتَرْكُ الْعِبَادَةِ لَهَا يُبْعِدُهُمْ. فَقَالَ: ﴿وَقَدْ هَدَانِي وَإِلَّا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾.

وَيَحْتِمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ هَدَانِي﴾ الدِّينَ وَالتَّوْحِيدَ، وَهَدَانِي طَاعَتَهُ وَالْإِتْبَاعَ لِأَمْرِهِ. فَقَالَ كَيْفَ أَخَافُ ﴿وَقَدْ هَدَانِي﴾؟ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ هَذَا يَحْتِمِلُ [وجهين]:

أَخَذَهُمَا^(١١): لَا أَخَافُ إِلَّا إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي فِي شَيْءٍ، فَعِنْدَ ذَلِكَ أَخَافُ. وَأَمَّا إِذَا هَدَانِي رَبِّي فإِنِّي [لا]^(١٢) أَخَافُ بِتَرْكِ عِبَادَتِهِمْ..

وَالثَّانِي: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي﴾ إِلَّا أَنْ يَبْتَلِيَنِي رَبِّي بِشَيْءٍ مِنَ الْمَعْصِيَةِ؛ فَعِنْدَ ذَلِكَ أَكُونُ فِي مَشِيئَتِهِ؛ إِنْ شَاءَ عَذَّبَنِي، وَإِنْ شَاءَ لَمْ يُعَذِّبَنِي.

وقوله تعالى: ﴿وَمَعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أَي عِلْمُ ذَلِكَ كُلِّهِ عَنْدهُ، عَصِيَتْ، أَوْ أَطَعْتُ.

الآية ٨١

وقوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ بِاللَّهِ مِنَ الْأَصْنَامِ ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ يَقُولُ عَذْرًا فِي كِتَابِهِ: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ﴾ أَي أَهْلُ أَمٍّ^(١٣) أَنْتُمْ؟ ﴿أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أَنَا أَعْبُدُ إِلَهًا وَاحِدًا، وَأَنْتُمْ تَعْبُدُونَ آلِهَةً شَتَّى.

وقيل: إِنَّهُمْ كَانُوا يُخَوِّفُونَهُ بِتَرْكِ عِبَادَةِ آلِهَتِهِمْ وَعَدَمِ^(١٤) إِشْرَاقِهِ إِيَّاهَا فِي عِبَادَةِ اللَّهِ، فَقَالَ: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ أَنْتُمْ بِاللَّهِ مِنَ الْآلِهَةِ ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ غَيْرُهُ﴾ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا أَي حُجَّةً بَانَ مَعَهُ شَرِيكًا. ثُمَّ قَالَ: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ﴾ أَنَا أَمٍّ^(١٥) أَنْتُمْ؟ مَنْ عَبَدَ إِلَهًا وَاحِدًا [أَمَّنْ عَنْدهُ أَمٍّ]^(١٦) مَنْ عَبَدَ آلِهَةً شَتَّى صِغَارًا

(١) ساقطة من الأصل و م. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل و م: يرتقي. (٤) الواو ساقطة من الأصل و م. (٥) في الأصل و م: توالي. (٦) ساقطة من الأصل و م. (٧) ساقطة من الأصل و م. (٨) ساقطة من الأصل و م. (٩) لا: ساقطة من الأصل و م. (١٠) في الأصل و م: فخرها. (١١) ساقطة من الأصل و م. (١٢) ساقطة من الأصل و م. (١٣) في الأصل و م: و. (١٤) في الأصل و م: و. (١٥) في الأصل و م: و. (١٦) في الأصل و م: أن يأمن عنده.

وَكِبَاراً ذُكُوراً وَإِنَّا نَأْتِيهِمْ فِي السَّحَابِ بِمِائِدَاتٍ مِّنْ ذُكُورٍ مَّطْوِيَاتٍ لِّئَلَّا يُصِلُوا إِلَى شَيْءٍ مِنْهَا وَلِيَذْكُرُوا لِقَاءَ رَبِّهِمْ فِي الْحَقِّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۚ وَلَئِنْ أَقْبَلْتُمْ عِبَادَتِي فَلَا تَتَّبِعُوا فِي دِينِكُمْ مَّا شَاءُوا وَلَئِنْ أَقْبَلْتُمْ عِبَادَتِي فَلَا تَتَّبِعُوا فِي دِينِكُمْ مَّا شَاءُوا وَلَئِنْ أَقْبَلْتُمْ عِبَادَتِي فَلَا تَتَّبِعُوا فِي دِينِكُمْ مَّا شَاءُوا

الآية ٨٢ **فَقِيلَ: رَدِّ عَلَيْهِ قَوْمُهُ، فَقَالُوا: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بَرٌّ وَاحِدٌ، يَمْلِكُ الضَّرَّ وَالنَّفْعَ ﴿وَلَهُ يَلْبِسُوا إِيْمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ قِيلَ: لَمْ يَخْلُطُوا تَصَدِيقَهُمْ وَإِيْمَانَهُمْ بِشِرْكٍ، وَلَمْ يَعْبُدُوا غَيْرَهُ دُونَهُ ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَأْمَنُ لَهُمْ مَهْجُودٌ﴾ مِنَ الضَّلَالَةِ وَالشِّرْكِ. قِيلَ: الظُّلْمُ ههنا الشِّرْكُ.**

قِيلَ: رُويَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه [أنه]^(٤٤) قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ^(٥٠)، فَإِنَّا لَا يَظْلِمُ نَفْسَهُ؟ قَالَ: لَيْسَ / ١٥٤ - / ذَلِكَ، إِنَّمَا هُوَ الشُّرْكُ. أَوَلَمْ تَسْمَعُوا مَا قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ: ﴿يَبْنِيُّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾؟ [لقمان: ١٣].

وَعَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه [أنه] ^(١٦) قَالَ لِأَصْحَابِهِ: مَا تَقُولُونَ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ... ﴿الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَيْنَا﴾ [فصلت: ٣٠] ثُمَّ عَمِلُوا لَهُ، وَاسْتَقَامُوا عَلَى أَمْرِهِ، وَ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ أَي لَمْ يَذْنِبُوا، فَقَالَ: وَلَقَدْ حَمَلْتُمُونَا عَلَى أَمْرٍ شَدِيدٍ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ بِشْرِكٍ، وَ﴿الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَيْنَا﴾ عَلَيْهَا، فَلَمْ يَغْدِلُوا عَنْهَا بِشْرِكٍ وَلَا غَيْرِهِ.

فَإِنْ ثَبَّتَ هَذِهِ الْأَخْبَارُ فَهُوَ مَا ذَكَرَ فِيهَا أَنَّ الظُّلْمَ هُوَ الشَّرُّ. وَإِلَّا اخْتَمَلَ الظُّلْمُ مَا دُونَ الشَّرِّ؛ أَنَّ مَنْ لَمْ يَظْلِمِ، وَلَمْ يُذْنِبْ، فَهُوَ فِي أَمْنٍ مِنَ اللَّهِ، وَمَنْ ارْتَكَبَ ذَنْبًا أَوْ ظَلَمًا فَلَهُ الْخَوْفُ؛ وَهُوَ [فِي] ^(٧) مَشِيئَةِ اللَّهِ؛ إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ، وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ، وَعَفَا عَنْهُ.

الآية ٨٣ وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ الآية يَنْقُضُ قَوْلَ مَنْ يَقُولُ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ غَيْرَ مُؤْمِنٍ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ وَغَيْرَ^(٨) عَارِفٍ بِرَبِّهِ؛ لِأَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ آتَاهُ حُجَّتَهُ عَلَى قَوْمِهِ. وَلَوْ كَانَ هُوَ عَلَى مَا قَالُوا لَكَانَتِ الْحُجَّةُ الَّتِي [آتَاهُ] ^(٩) عَلَيْهِ. فَلَمَّا أَخْبَرَ أَنَّهُ [آتَاهُ] ^(١٠) حُجَّتَهُ عَلَى قَوْمِهِ دَلَّ أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى مَا قَالُوا. لَكِنْ كَانَ عَارِفًا بِرَبِّهِ مُخْلِصًا لَهُ عَلَى مَا سَبَقَ ذِكْرُهُ.

فَإِنْ قَالَ قَاتِلْ: إِنَّ الْحُجَّةَ الَّتِي أُخِذَ أَنَّهُ آتَاهَا ﴿إِذْ رَمَيْتَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ قَوْلُهُ: ﴿وَحَاجَّتُمْ قَوْمَهُ﴾ قَالَ أَتَحْتَجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَيْتُنِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ؟ [الأنعام: ٨٠] إِلَى آخِرِ مَا ذَكَرَ، فَيُقَالُ: إِنَّ هَذِهِ لَيْسَتْ بِمُحَاجَّةٍ إِنَّمَا هُوَ تَقْرِيرُ التَّوْحِيدِ وَالِدِّينِ. أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾؟ وَالْمُحَاجَّةُ مَا ذَكَرَ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦] وَقَوْلِهِ: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩]، وَغَيْرُهَا مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي فِيهَا وَصَفَ تَوْحِيدَ الرَّبِّ ﷻ وَالْوَهْيِيَّةِ وَفَسَادَ الْكُفَرِ.

مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ اتَّبِعُونِ مَا تَنحِبُونَ﴾ [وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَحْمِلُونَ]؟ [الصفات: ٩٥ و ٩٦] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَمْ يَتَّبِعْ مَا لَا يَشْعُرُ وَلَا يَفْقَهُ شَيْئًا﴾؟ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُوهُمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾؟ [الشعراء: ٧٢ - ٨٠].

وفيه نقض قول المعتزلة لأنه قال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ والإيتاء هو الإعطاء، والنجوم والشمس والقمر وما ذكر كانت. دل أن الذي أتى إبراهيم هو مُحاجَّتُهُ قَوْمَهُ بما ذكّرنا، واحتجاجُهُ عليهم بذلك؛ دل أن له في مُحاجَّةِ إبراهيم قَوْمَهُ ضَنْعاً حين^(١) أضاف إلى نفسه، وهو أن خَلَقَ مُحاجَّتَهُ قَوْمَهُ، وبالله العصمة، وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا

(١) في الأصل وم: أو أن يقال. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: و. (٩) في الأصل وم: أناها. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل وم: حيث.

مَاتَيْنَاهَا لِإِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ۖ وَالَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ، وَهُوَ مَا بَيَّنَّ سَفَهَهُمْ فِي عِبَادَتِهِمُ الْأَصْنَامَ حِينَ^(١) قَالَ [فِي غَيْرِ آيَةٍ، وَرَدَّ عَلَى^(٢)] نَمْرُودَ قَوْلَهُ^(٣): «أَنَا أُخِي. وَأُمِيتُ» إِلَى آخِرِ الْآيَةِ [البقرة: ٢٥٨].

وقوله تعالى: «تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ» فِيهِ أَيْضاً دَلَالَةٌ تَقْضِي قَوْلَ الْمُعْتَزَلَةِ لَانْهَمْ يَقُولُونَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ شَاءَ لِكُلِّ أَحَدٍ أَنْ يَبْلُغَ الْمَبْلَغَ الَّذِي إِذَا بَلَغَ ذَلِكَ يَصْلُحُ لِلنَّبُوءَةِ وَالرَّسَالَةِ. لَكِنَّهُمْ شَاؤُوا أَلَّا يَبْلُغُوا ذَلِكَ الْمَبْلَغَ؛ يَجْعَلُونَ الْمَشِيشَةَ فِي ذَلِكَ إِلَى أَنْفُسِهِمْ دُونَ اللَّهِ. وَاللَّهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ يَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن يَشَاءُ، وَهُمْ يَقُولُونَ: لَا يَفْدُرُ أَنْ يَرْفَعَ، بَلْ هُمْ يَمْلِكُونَ^(٤) أَنْ يَرْفَعُوا دَرَجَاتٍ أَنْفُسِهِمْ. فَذَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ مَنْ نَالَ دَرَجَةً أَوْ فَضِيلَةً إِنَّمَا يَنَالُ بِفَضْلِ اللَّهِ وَمَنُّهُ.

ثم قوله تعالى: «تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ»، تَحْتَمِلُ الدَّرَجَاتِ [وُجُوهاً]: تَحْتَمِلُ النُّبُوَّةَ، وَتَحْتَمِلُ الدَّرَجَاتِ^(٥) فِي الْآخِرَةِ أَنْ تَرْفَعَ لَهُمْ، وَتَحْتَمِلُ الذِّكْرَ وَالشَّرَفَ فِي الدُّنْيَا لِمَا يَذْكُرُونَ فِي الْمَلَامِ مِنَ الْخَلْقِ.

وقوله تعالى: «إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ» أَي «حَكِيمٌ» فِي خَلْقِ الْخَلَائِقِ؛ خَلَقَ خَلْقاً يَدُلُّ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ، وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ مُدَبِّرٌ لَيْسَ بِمُبْطِلٍ فِي خَلْقِهِمْ، ثُمَّ «عَلِيمٌ» بِأَعْمَالِهِمْ، وَ«عَلِيمٌ» بِمَصَالِحِ الْخَلْقِ وَبِمَا يَصْلُحُ. وَالْحَكِيمُ هُوَ الَّذِي لَا يَلْحَقُهُ الْخَطَأُ فِي التَّدْبِيرِ.

الآية ٨٤ وقوله تعالى: «وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ» يَحْتَمِلُ مَا ذَكَرْنَا مِنْ رَفْعِ الدَّرَجَاتِ مَا ذَكَرَ مِنْ هَبَةِ هَؤُلَاءِ. وَفِيهِ دَلِيلٌ أَنَّ مَا يَكُونُ لَهُ مِنَ الْفَضْلِ فِي هَبَةِ أَوْلَادِهِ يَكُونُ ذَلِكَ فِي أَوْلَادِهِ.

وقوله تعالى: «كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ» وَالْهِدَايَةُ هِدَايَتَانِ: هِدَايَةُ إِصَابَةِ الْحَقِّ وَهِدَايَةُ الْعِلْمِ بِالْحَقِّ؛ وَهِيَ هِدَايَةُ الْبَيَانِ، فَهَذِهِ الْهِدَايَةُ مِمَّا يَشْتَرِكُ فِيهَا الْمُسْلِمُ وَالْكَافِرُ جَمِيعاً. وَأَمَّا هِدَايَةُ إِصَابَةِ الْحَقِّ فَهِيَ خَاصَّةٌ بِالرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالْمُسْلِمِينَ. وَالْهِدَايَةُ هَهُنَا هِيَ إِصَابَةُ الْحَقِّ لَا الْعِلْمُ بِالْحَقِّ لِأَنَّهُمْ اشْتَرَكُوا جَمِيعاً فِي الْعِلْمِ بِالْحَقِّ: [الْكَافَرُ وَالْمُسْلِمُونَ]^(٦). [وقوله تعالى]^(٧): «وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ» قِيلَ: ذُرِّيَّةُ إِبْرَاهِيمَ، وَقِيلَ: ذُرِّيَّةُ نُوحٍ؛ كَانُوا جَمِيعاً مِنْ ذُرِّيَّةِ نُوحٍ: إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ ذَكَرَ مِنَ الرُّسُلِ.

وقوله تعالى: «وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ» أَي «وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ» بِالذِّكْرِ وَالشَّرَفِ وَالنَّشَاءِ الْحَسَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَمَا جَزَى هَؤُلَاءِ الرُّسُلَ بِالذِّكْرِ وَالشَّرَفِ وَالنَّشَاءِ الْحَسَنِ فِي مَلَأِ النَّاسِ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُذَكِّرُوا فِي مَلَأِ الْمَلَائِكَةِ كَمَا ذَكَرُوا فِي مَلَأِ الْخَلْقِ فِي الْأَرْضِ. وَيَحْتَمِلُ «وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ» فِي الْآخِرَةِ بِالثَّوَابِ وَرَفْعِ الدَّرَجَاتِ وَالْجَزَاءِ الْجَزِيلِ. ذَكَرَ فِي فَرِيقٍ أَنَّهُ كَذَلِكَ «نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ».

الآية ٨٥ وَذَكَرَ فِي فَرِيقٍ آخَرَ «كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ».

الآية ٨٦ وَذَكَرَ فِي فَرِيقٍ آخَرَ: «وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ» وَهَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، لَيْسَ عَلَى تَخْصِيصِ كُلِّ فَرِيقٍ بِمَا ذَكَرَ مِنَ الذِّكْرِ، وَلَكِنْ عَلَى الْجَمْعِ أَنَّهُمْ مُحْسِنُونَ صَالِحُونَ مُفَضَّلُونَ عَلَى الْعَالَمِينَ.

ثُمَّ يَحْتَمِلُ التَّفْضِيلُ لَهُمْ بِالنُّبُوَّةِ أَنَّهُمْ فَضَّلُوا عَلَى الْعَالَمِينَ بِالنُّبُوَّةِ. وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُمْ كَانُوا مُتَفَضِّلِينَ عَلَى الْعَالَمِينَ بِالْإِحْسَانِ وَالصَّلَاحِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ رِسَالَةٌ وَلَا نُبُوَّةٌ. ثُمَّ يَحْتَمِلُ أَنَّهُ سَمَّاهُمْ مُحْسِنِينَ بِاخْتِيَارِهِمُ الْحَالَ الَّتِي كَانُوا أَهْلًا لِلرَّسَالَةِ وَالنُّبُوَّةِ. فَإِنْ كَانَ هَذَا فَهَؤُلَاءِ الرُّسُلُ خَاصَّةٌ. وَيَحْتَمِلُ [قَوْلُهُ تَعَالَى: «الْمُحْسِنِينَ»] [الآية: ٨٤] مُحْسِنِينَ^(٨) بِاخْتِيَارِهِمُ الْهِدَايَةَ وَإِصَابَةَ الْحَقِّ. فَإِنْ كَانَ هَذَا فَهُوَ مِمَّا يَشْتَرِكُ الْأَنْبِيَاءُ وَأَهْلُ الْإِسْلَامِ فِيهِ.

الآية ٨٧ وقوله تعالى: «وَمِن آبَائِهِمْ ذُرِّيَّتِهِمْ وَإِبْرَاهِيمَ» أَمَّا آبَاؤُهُمْ فَمَنْ^(٩) تَقَدَّمَ عَنْهُمْ وَذُرِّيَّتُهُمْ مَنْ تَأَخَّرَ عَنْهُمْ وَإِخْوَانُهُمُ الَّذِينَ يُقَارِنُونَهُمْ. وَقِيلَ: ذُرِّيَّتُهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ وَقِيلَ: الْمُؤْمِنُونَ مِنْ بَعْدِهِمْ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: آيَ وَعَلَى. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ قَالَ. (٤) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: يَقُولُونَ. (٥) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: الْكَافِرُ وَالْمُسْلِمُ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: مُحْسِنِينَ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: مَنْ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَخْبَيْنَاكَ بِالنُّبُوَّةِ وَالرَّسَالَةِ﴾ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿فَذَلِكَ لَهُمْ خَاصَّةٌ. وَنَحْتَمِلُ﴾ وَأَخْبَيْنَاكَ بِالنُّبُوَّةِ وَدِينِ الْإِسْلَامِ؛ فَذَلِكَ يَعْمُ الْأَنْبِيَاءَ وَالْمُؤْمِنِينَ^(١) جميعاً. لِأَنَّهُ اجْتَبَاهُمْ بِذَلِكَ جَمِيعاً. وَنَحْتَمِلُ ﴿وَأَخْبَيْنَاكَ﴾ بِمَا ذَكَرَ مِنْ رَفْعِ الدَّرَجَاتِ وَالْفَضَائِلِ، وَيَكُونُ صِلَةً قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ﴾ [الأنعام: ٨٣] ذَلِكَ أَيْضاً يَعْمُ الرُّسُلَ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَاللَّهُ أَغْلَمُ بِذَلِكَ.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ﴾ الْآيَةُ دَلَالَةٌ أَنَّ مِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ مَنْ لَمْ يَخْتَبِهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمِنَ﴾ إِذْ مِنْ هُوَ حَرْفُ التَّبْعِيضِ.

الآية ٨٨ وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ هَدَى اللَّهُ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أَي ذَلِكَ الْهُدَى الَّذِي هَدَى هَؤُلَاءِ، فَيَهْدَاهُمْ اهْتَدَوْا.

وفي الْآيَةِ نَقَضُ قَوْلِ الْمُعْتَزِلَةِ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ شَاءَ أَنْ يَهْدِيَ الْخَلَائِقَ كُلَّهُمْ، لَكِنْ لَمْ يَهْتَدُوا. وَعَلَى قَوْلِهِمْ: لَمْ يَكُنْ مِنَ اللَّهِ إِلَى الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ مِنَ الْهِدَايَةِ وَالْفَضْلِ إِلَّا كَانَ ذَلِكَ إِلَى جَمِيعِ الْكُفْرَةِ. فَالْآيَةُ تَكُونُ مَسْئُومَةً الْفَائِذَةِ عَلَى قَوْلِهِمْ لِأَنَّهُ ذَكَرَ أَنَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَهُمْ يَقُولُونَ: شَاءَ أَنْ يَهْدِيَ الْكُلَّ، لَكِنْ لَمْ يَهْتَدُوا. فَإِنْ كَانَ كَمَا ذَكَرُوا لَمْ يَكُنْ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَن يَشَاءُ﴾ فَائِذَةٌ. دَلٌّ أَنَّهُ مِنَ الْخَلَائِقِ مَنْ قَدْ شَاءَ أَلَّا يَهْدِيَهُمْ إِذَا عَلِمَ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ / ١٥٤ - ب/ لَا يَهْتَدُونَ، وَلَا يَخْتَارُونَ الْهُدَى، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْشُونَ﴾ هَذَا نَبَأٌ عَنِ الْحُكْمِ فِيهِمْ لَوْ أَشْرَكُوا. إِلَّا أَنَّهُمْ لَا يُشْرِكُونَ لِأَنَّ اللَّهَ قَدْ عَصَمَهُمْ، وَاخْتَارَهُمْ لِرِسَالَتِهِ، وَاخْتَصَّهُمْ لِنُبُوَّتِهِ، فَلَا يُحْتَمَلُ أَنْ يُشْرِكُوا. لَكِنْ ذَكَرَ هَذَا لِيَعْلَمُوا أَنَّ حُكْمَهُ وَاحِدٌ فِي مَنْ أَشْرَكَ فِي اللَّهِ غَيْرُهُ: وَضِعاً كَانَ، أَوْ شَرِيفاً.

وقوله تعالى: ﴿لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْشُونَ﴾ مِنَ الْحَسَنَاتِ وَالْخَيْرَاتِ الَّتِي كَانَتْ قَبْلَ الْإِشْرَاكِ.

الآية ٨٩ وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ قِيلَ: الْكِتَابُ الَّتِي أَعْطَى الرُّسُلَ ﴿وَالْمُكْرَ﴾ قِيلَ: الْعِلْمُ وَالْفَهْمُ، وَقِيلَ: الْأَحْكَامُ الَّتِي أَعْطَاهُمْ ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾ هِيَ أَنْبَاءُ الْغَيْبِ. وَقَدْ ذَكَرْنَا.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءُ﴾ قِيلَ: ﴿بِهَا﴾ كِنَايَةٌ عَنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ وَالنُّبُوَّةِ الَّتِي ذَكَرَ، وَقِيلَ: ﴿بِهَا﴾ كِنَايَةٌ عَنِ الْكِتَابِ الَّتِي أُنْزِلَتْ عَلَى الرُّسُلِ، وَقِيلَ: هِيَ كِنَايَةٌ عَنِ الْآيَاتِ وَالْحُجَجِ الَّتِي أَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءُ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءُ﴾ يَغْنِي أَهْلَ مَكَّةَ ﴿فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [يَغْنِي] ^(٢) أَهْلَ الْمَدِينَةِ مِنَ الْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرِينَ، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَقِيلَ: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءُ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ يَغْنِي مَنْ عُدَّ مِنَ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ. وَقِيلَ: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءُ﴾ يَغْنِي أَهْلَ قُرَيْشٍ ^(٣) وَأَهْلَ صُلَيْكٍ ^(٤) ﴿فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا﴾ مِنْ غَيْرِ أَهْلِ قُرَيْشٍ وَصُلَيْكٍ ﴿لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾. وَقِيلَ: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءُ﴾ يَغْنِي أَهْلَ زَمَانِكَ ﴿فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا﴾ مَنْ تَقَدَّمَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَجَادِيهِمْ ﴿لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾. وَقِيلَ: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءُ﴾ يَغْنِي أَهْلَ الْأَرْضِ ﴿فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا﴾ يَغْنِي أَهْلَ السَّمَاءِ ﴿لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ قَالَ الْحَسَنُ، رَحِمَهُ اللَّهُ، ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءُ﴾ يَغْنِي أُمَّتَكَ فَقَدْ وَكَّلَ اللَّهُ بِهَا النَّبِيِّينَ وَالصَّالِحِينَ مِنَ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ ﴿لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [وَهُوَ كَمَا ذَكَرْنَا، وَاللَّهُ أَغْلَمُ] ^(٥).

الآية ٩٠ وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَيُهْدِيهِمْ مُّتَدَبِّرِينَ﴾ يَخْتَمِلُ ﴿فَيُهْدِيهِمْ﴾ الَّذِي ^(٦) هَدَوْا أُمَّتَهُمْ اهْدِ أَنْتَ أُمَّتَكَ. وَنَحْتَمِلُ: ﴿فَيُهْدِيهِمْ﴾ الَّذِي ^(٧) هَدَوْا هُمْ اهْتَدِ أَنْتَ بِأَمْرِهِ ﷺ بِالْأَمْرِ بِالْإِقْدَاءِ بِإِخْوَانِهِ الَّذِينَ مَضَوْا مِنَ الرُّسُلِ. وَالْهُدَى

(١) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: وَبِالْمُؤْمِنِينَ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: قُرَيْشٌ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَصَلَتْكَ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَاللَّهُ أَغْلَمُ بِذَلِكَ وَهُوَ كَمَا ذَكَرْنَا. (٦) وَ(٧) فِي الْأَصْلِ وَم: الَّذِينَ.

هو اسم ما يُزَانُ به، ليس هو اسم الأفعال، فلا ^(١) يُقَالُ لِتَارِكٍ ^(٢) الصلاة والزكاة والصيام ذلك ^(٣)، إنما يُقَالُ ذَلِكَ لِمَنْ دَانَ بِضِدِّ الْهُدَى. أَمَرَ رَسُولُهُ أَنْ يُتَدَيَّ بِهِمْ بِذَلِكَ. وذلك ^(٤) يَدُلُّ عَلَى [إِنْ] ^(٥) الأنبياء والرسل كانوا على دين واحد، وأن الدين لا يَحْتَمِلُ النسخ والتغيير. أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾؟ [الشورى: ١٣] وذلك ^(٦) يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الدِّينَ وَاحِدٌ، لَا يَحْتَمِلُ النسخ، وأما الشرائع فهي مُخْتَلِفَةٌ لَأَنَّهَا تَحْتَمِلُ النسخ، وَيَحْتَمِلُ الْأَمْرُ بِالْإِفْتِدَاءِ بِهِمْ مَا ذَكَرَ.

[وقوله تعالى] ^(٧): ﴿يَهْدِيهِمْ أَفْتَدَهُ قَدْ لَا أَمْتَلَكُم عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي أَفْتَدَ بِمَنْ تَقَدَّمَ مِنَ الرُّسُلِ، وَلَا تَأْخُذْ عَلَى تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ أَجْرًا كَمَا لَمْ يَأْخُذُوا هُمْ. وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ لَا أَمْتَلَكُم عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ دَلِيلُ نَقْصِ قَوْلِ مَنْ يُجِيزُ اخْتِذَ الْأَجْرِ عَلَى تَعْلِيمِ الْقُرْآنِ وَالْعِلْمِ وَرِوَايَةِ الْحَدِيثِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْعِبَادَاتِ ^(٨). وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمْ تَتْلُوهُمْ أُجْرًا فَهُمْ يَنْفَرُونَ﴾ [الطور: ٤٠] كَانَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، يَجْعَلُ لَهُمُ الْعُذْرَ فِي تَرْكِ الْإِجَابَةِ لَهُ بِمَا يَلْحَقُهُمْ مِنْ ثِقَلِ الْأَجْرِ وَالْعُرْمِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وفيه أيضاً دلالة نقص مذنب القرامطة لأنهم يَفْرَضُونَ ^(٩) مَذْمَبَهُمْ عَلَى النَّاسِ، وَيَأْخُذُونَ مِنْهُمْ الْمَوَائِقَ وَالْجُفْلَ فِي ذَلِكَ. وَإِنَّمَا أَخَذَ الْمَوَائِقَ مِنَ الرُّسُلِ عَلَى تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ إِلَى قَوْمِهِمْ، وَأَمَرَهُمْ ^(١٠) بِتَالِيفِ قُلُوبِ الْخَلْقِ. وَفِي اخْتِذِ الْجُفْلِ مِنْهُمْ نُفُورَ قُلُوبِهِمْ وَطَبَاعِهِمْ عَنْ ذَلِكَ.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ أي ما هذا القرآن إِلَّا ذِكْرٌ أَي عِظَةٌ وَرَجَرٌ لِلْعَالَمِينَ.

الآية ٩١

وقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ قِيلَ: تَرَلَّتْ سُورَةُ الْأَنْعَامِ فِي مُحَاجَّةِ أَهْلِ الشُّرْكِ إِلَّا آيَاتِ تَرَلَّتْ فِي مُحَاجَّةِ أَهْلِ الْكِتَابِ:

إِخْدَاهَا ^(١١): هَذِهِ ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ الْآيَةُ، وَذِكْرٌ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُمُ﴾ الْآيَةُ [الزمر: ٦٧] ثُمَّ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: مَا عَرَفُوا اللَّهَ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ، وَقَالَ غَيْرُهُمْ: مَا عَظَّمُوا اللَّهَ حَقَّ عَظَمَتِهِ؛ ذَكَرُوا أَنَّ هَؤُلَاءِ لَمْ يُعَظِّمُوا اللَّهَ حَقَّ عَظَمَتِهِ، وَلَا عَرَفُوهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ. وَمَنْ يَقْدِرُ أَنْ يَعْرِفَ [اللَّهُ] ^(١٢) حَقَّ مَعْرِفَتِهِ؟ أَوْ مَنْ يَقْدِرُ أَنْ يَعْبُدَ اللَّهَ حَقَّ عِبَادَتِهِ؟

وَكَذَلِكَ رُوِيَ فِي الْخَبَرِ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ يَقُولُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا رَبَّنَا مَا عَبْدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ مَعَ مَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦] وَقَالَ: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩] فَهُمْ مَعَ هَذَا كُلِّهِ يَقُولُونَ: مَا عَبْدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ. وَمَنْ يَقْدِرُ أَنْ يَعْرِفَهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ، أَوْ يُعَظِّمَهُ ^(١٣) حَقَّ عَظَمَتِهِ؟ وَلَكِنْ تَأْوِيلُهُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: أَيِ مَا عَرَفُوا اللَّهَ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ الَّتِي تُعَرَّفُ بِالْإِسْتِدْلَالِ، وَلَا عَظُمُوهُ حَقَّ عَظَمَتِهِ الَّتِي تُعَظَّمُ بِالْإِسْتِدْلَالِ. أَلَا لَا أَحَدٌ ^(١٤) يَقْدِرُ أَنْ يَعْرِفَ اللَّهَ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ، وَلَا يُعَظِّمَهُ ^(١٥) حَقَّ عَظَمَتِهِ حَقِيقَةً!

وهو يَخْرُجُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ وَلَا اتَّقَوْا [اللَّهُ] ^(١٦) حَقَّ تَقْوَاهُ مِمَّا كُلَّفُوا بِهِ، وَأَطَاعُوهُ، وَمِمَّا جَرَى الْأَمْرُ بِذَلِكَ. وَإِنَّمَا تَجْرِي الْكُلْفَةُ مِنْهُ عَلَى قَدْرِ الطَّاقَةِ وَالْوُسْعِ، أَلَا لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يُعَظِّمَ رَبَّهُ حَقَّ عَظَمَتِهِ، وَلَا اتَّقَاهُ ^(١٧) حَقَّ تَقْوَاهُ. وَلَكِنْ مَا ذَكَرْنَا وَمِمَّا جَرَتْ الْكُلْفَةُ.

وَالثَّانِي: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ وَلَا [اتَّقُوا اللَّهَ] ^(١٨) حَقَّ تَقَاتِهِ عَلَى الْقَدْرِ الَّذِي يَعْمَلُونَ لِأَنْفُسِهِمْ؛ أَيِ لَوْ اجْتَهَدُوا فِي تَقْوَاهُ وَتَعْظِيمِهِ ^(١٩) الْقَدْرَ الَّذِي لَوْ كَانَ ذَلِكَ الْعَمَلُ لَهُمْ، فَيَجْتَهِدُونَ، وَيَبْلُغُ جَهْدُهُمْ ذَلِكَ [لَكَانُوا مُتَّقِينَ] ^(٢٠).

(١) الغاء ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: التارك. (٣) في الأصل وم: هناك. (٤) الواو ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، في الأصل: أخبر وذلك. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، في الأصل: العباد. (٩) في الأصل وم: يعرضون. (١٠) في الأصل وم: وأمرنا. (١١) في الأصل وم: أحدها. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: يعظموه. (١٤) من م، في الأصل: حد. (١٥) في الأصل وم: عظمه. (١٦) ساقطة من الأصل وم. (١٧) في الأصل وم: اتقى. (١٨) ساقطة من الأصل وم. (١٩) في الأصل وم: عظمته. (٢٠) في الأصل وم: فقد اتقوا.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ لو كان هؤلاء في الحقيقة أهل الكتاب ما أنكروا الرُّسُل ولا الكتب لأن أهل الكتاب يؤمنون ببعض الرُّسُل وببعض الكتب، وإن كانوا يكفرون ببعض. لكن أنكروا الرُّسُل لما كانوا أهل نفاق. ويكون من اليهود أهل نفاق كما يكون من أهل الإسلام. كانوا يُظهرون الموافقة لهم، ويُضيمون الخلاف لهم والمُوالاة لأهل الشرك، ويُظاهرون المشركين عليه. فأطلع الله رسوله على نفاقهم ليُعلم قومهم خلافهم، وأن ما كان من تحريف الأحكام وتغييرها وبكتمان بعث^(١) محمد [عليه أفضل الصلوات]^(٢) وصفته إنما كان من هؤلاء.

وذكر في بعض القصص أنها نزلت في شأن مالك بن الصنف، وكان سميناً، فدخل على رسول الله ﷺ يوماً فقال له رسول الله ﷺ: هل تجد في التوراة أن الله يبعث كل حبر سمين، فقال له النبي ﷺ: فانت حبر سمين يبعثك الله، فغضب، فقال: ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ﴾ أنكروا الرُّسُل والكتب جميعاً، فأكذبه به تعالى، وأظهر نفاقه عند قومه. فقال: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قُرْآنًا وَيَجْعَلُونَهُ قُرْآنًا﴾ قيل: ﴿يَجْعَلُونَهُ قُرْآنًا﴾ يعني صُحُفًا، ثم تكتبونه^(٣) في الصحف، ثم تنكرون أنه ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ أي فالذي كنتم تكتبونه: أن لم ينزل ﴿اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ ﴿يُدُونَهَا وَتُخْفَوْنَ كَثِيرًا﴾ / ١٥٥ - / [تكتبون ما تُظهرون]^(٤) في الصحف ما ليس فيه صفة رسول الله [وبعته]^(٥) ﴿وَتُخْفَوْنَ مَا فِيهِ صِفَتُهُ وَبُعْثُهُ﴾^(٦)، وتغيرون. وقيل: ﴿يُدُونَهَا﴾ أي تُظهرون قراءتها ﴿وَتُخْفَوْنَ كَثِيرًا﴾ مما فيه بعثه^(٧) [ﷺ]^(٨)، وما^(٩) فيه من الأحكام التي لا تطيب فيها أنفسهم من أمر الرِّجَم والقصاص وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾ سَمَى ﷻ جميع كتبه ﴿نُورًا وَهُدًى﴾ وهو نور من الظلمات، أي يرفع الشبهات، ويُجليها، وهدى من الضلالات أي بياناً ودليلاً من الحيرة والهلاك، وبالله العظمة والنجاة. وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مَا لَمْ تَلَّمُوا﴾ قال مجاهد: الآية في المسلمين؛ يقول: علموا ما لم تعلموا ولا آباؤهم. وقال الحسن: الآية في الكفرة؛ أي ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مَا لَمْ تَلَّمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ من تحريف أولئك الكتاب وتغييرهم إياه. وقيل: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مَا لَمْ تَلَّمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ يعلمه ﴿مَا تَلَّمْتُمْ﴾.

ثم قال: ﴿ثُمَّ دَرَّاهُمْ﴾ قال بعضهم: قوله تعالى: ﴿قُلْ اللَّهُ﴾ هو صلة قوله: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا﴾؟ يا محمد ﴿قُلْ اللَّهُ﴾ أنزله على موسى. وقيل: صلة قوله: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا﴾؟ قل: يا محمد ﴿اللَّهُ﴾ ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مَا لَمْ تَلَّمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ قال: قل يا محمد الله علمكم. ويَحْتَمِلُ أن يكون ﷻ سخرهم حتى قالوا ذلك، فكان ذلك حجة عليهم.

[وقوله]^(١٠) تعالى: ﴿ثُمَّ دَرَّاهُمْ فِي خَوَاصِمٍ بَلَعْنَهُمْ﴾ هذا يَحْتَمِلُ [زوجين]:

أحدهما^(١١): ﴿دَرَّاهُمْ﴾ ولا تكافئهم بصنيعهم كقوله تعالى: ﴿فَأَعَفَّ عَنْهُمْ وَاصْفَحَ﴾ [المائدة: ١٣].

والثاني: أنه قد أقام عليهم الحجج، وظهرت عندهم البراهين، لكنهم كابرُوا، وعاندُوا، فامرَهُ أن يَدْرَاهُمْ، ولا يُقيم عليهم الآيات والحجج بعد ذلك. ولكن تدعوهم إلى التوحيد، لا تذر دعاءهم إلى التوحيد، ولكن [عليك أن]^(١٢) تذرهم، ولا تُقيم عليهم الحجج.

وقوله تعالى: ﴿فِي خَوَاصِمٍ﴾ أي في باطلهم وتكذيبهم ﴿يَتَمَهُونَ﴾.

الآية ٩٢ وقوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ قيل: القرآن ﴿أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ سَمَاءُ مَرَّةً مُبَارَكًا، وَمَرَّةً هُدًى وَرَحْمَةً، وَمَرَّةً شِفَاءً، وَمَجِيدًا، وَكَرِيمًا، وَحَكِيمًا. وليس يوصف هو في الحقيقة ب: نور ولا مبارك ولا رحمة ولا هدى ولا

(١) في الأصل وم: نعت. (٢) في م: ﷺ. (٣) في الأصل وم: كتبتموه. (٤) في الأصل وم: يقولون يظهرون ما. (٥) في م: ونعت، ساقطة من الأصل. (٦) في م: ونعت. (٧) في م: نعت. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: أي ما. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في م: وجهين يحتمل، ساقطة من الأصل. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

شفاء، ولا مَجِيد ولا كَرِيم ولا حَكِيم لانه صِفَةٌ، ولا يَكُونُ لِلصَّفَةِ صِفَةٌ تُوصَفُ بها، ولو كَانَ هو في الْحَقِيقَةِ نُورًا وَرَحْمَةً وَهُدًى أَوْ مَا ذَكَرَ.

فلَمَّا ذَكَرَ أَنَّهُ ﴿عَمِي﴾ عَلَى بَغْضٍ^(١)، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ يَزِيدُهُمْ^(٢) بِذَلِكَ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ، دَلَّ أَنَّهُ لَيْسَ هو في الْحَقِيقَةِ كَذَلِكَ، لَأنَّهُ لو كَانَ كَذَلِكَ لَكَانَ لِكُلِّ أَحَدٍ. لَكِنْ سَمَاءُ بِهِذِهِ الْأَسْمَاءِ؛ سَمَاءُ نُورًا لِمَا يَصِيرُ نُورًا لِلْمُسْتَرَشِدِينَ، وَيُصِيرُ شِفَاءً وَرَحْمَةً لِلْمُتَّقِينَ^(٣) لِيَشْفُوا الدَّاءَ الَّذِي يَحُلُّ فِي الدِّينِ، وَسَمَاءُ رُوحًا لِمَا يُخْبِي بِهِ الدِّينَ، وَسَمَاءُ حَكِيمًا لِمَا يَصِيرُ مَنْ عَرَفَ بَوَاطِنَهُ، وَاتَّبَعَهُ، حَكِيمًا. وَكَذَلِكَ سَمَاءُ مَجِيدًا كَرِيمًا لِمَا يَدْعُو الْخَلْقَ إِلَى الْمَجْدِ وَالْكَرَمِ؛ فَمَنْ اتَّبَعَهُ تَخَلَّقَ بِأَخْلَاقٍ حَمِيدَةٍ، فَيَصِيرُ مَجِيدًا كَرِيمًا. وَسَمَاءُ مُبَارَكًا لِمَا بِهِ تُنَالُ كُلُّ بَرَكَةٍ، وَالْبَرَكَةُ اسْمٌ لِكُلِّ مَا يُشِيرُ، وَيَنْمُو فِي الْحَادِثِ؛ فَمَنْ اتَّبَعَهُ نَالَ بِهِ كُلُّ بِرٍّ وَخَيْرٍ وَكُلِّ ثَمَرَةٍ، وَنَمَا فِي الْحَادِثِ. هَذَا وَجْهُ الْوَصْفِ بِمَا ذَكَرْنَا.

وقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مِنَ الْكُتُبِ لَأنَّهُ كَانَ يَدْعُو الْخَلْقَ إِلَى مَا كَانَتْ تَدْعُو سَائِرُ الْكُتُبِ الَّتِي أَنْزَلَهَا [الله]^(٤) عَلَى الرُّسُلِ مِنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ وَالنَّهْيِ عَنْ إِشْرَاكِ غَيْرِهِ فِي الْأَلُوهِيَّةِ وَالرُّبُوبِيَّةِ، وَتَدْعُو إِلَى كُلِّ عَدْلٍ وَإِحْسَانٍ، وَتَنْهَى عَنْ كُلِّ فَاحِشَةٍ وَمُنْكَرٍ. وَكَذَلِكَ سَائِرُ الْكُتُبِ دَعَتْ الْخَلْقَ إِلَى دُعَاءِ هَذَا؛ لَمْ يُخَالِفْ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، بَلْ كَانَتْ مُوَافِقَةً بَعْضُهَا الْبَغْضُ. لِذَلِكَ قَالَ: ﴿مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [والله أَعْلَمُ]^(٥).

وقوله تعالى: ﴿وَلَنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ قِيلَ^(٦): أُمُّ الْقُرَى مَكَّةُ، وَسُمِّيَتْ أُمُّ الْقُرَى لِوُجْهِينِ:

أَخَذَهُمَا: لِأَنَّهُا مُتَقَدِّمَةٌ، وَمِنْهَا دُجِيَّتِ الْأَرْضُ عَلَى مَا ذَكَرَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ.

والثَّانِي: سُمِّيَتْ أُمُّ الْقُرَى لِأَنَّهُا مَقْصِدُ الْخَلْقِ فِي الْحَجِّ؛ وَفِيهَا تُقْضَى^(٧) الْمَنَاسِكُ، وَإِلَيْهَا يَقْصِدُونَ، وَيُؤْمِنُونَ، وَإِلَيْهَا يَتَوَجَّهُونَ فِي الصَّلَوَاتِ. وَهِيَ مَقْصِدُ أَهْلِ الْقُرَى. وَقوله ﷻ ﴿وَلَنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى﴾ أَيِ أَهْلِ أُمِّ الْقُرَى.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ فَإِنْ قِيلَ: أَخْبَرَ أَنَّ مَنْ آمَنَ بِالْبَعْثِ يُؤْمِنُ بِهَذَا الْكِتَابِ، وَأَهْلُ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْبَعْثِ، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِهِ، فَمَا مَعْنَاهُ؟ قِيلَ: يَخْتَمِلُ هَذَا وَجُوهًا:

أَخَذَهَا: أَنْ يَكُونَ هَذَا مِنْ قَوْمٍ مَخْصُوصِينَ؛ إِذَا آمَنُوا بِالْبَعْثِ آمَنُوا بِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦ ويس: ١٠] هَذَا مِنْ قَوْمٍ مَخْصُوصِينَ، لِأَنَّهُ قَدْ آمَنَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ بِالْإِنْذَارِ. فَعَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلِ.

والثَّانِي: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ بِالْعِلْمِ وَالْحُجَجِ آمَنُوا بِالْقُرْآنِ لِأَنَّ الْقُرْآنَ جَاءَ فِي تَأْيِيدِ حُجَجِ الْبَعْثِ وَتَأْكِيدِهِ فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُؤْمِنُوا بِمَا يُؤَيِّدُهُ الْقُرْآنُ، وَلَا يُؤْمِنُوا بِالْقُرْآنِ.

والثَّالِثُ: يَخْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ إِخْبَارًا عَنْ أَوَائِلِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ بِالْبَعْثِ بِالْآيَاتِ وَالْحُجَجِ وَاعْتَبَرُوا فِيهِ. فَلَمَّا جَاءَ آمَنُوا بِهِ، وَامْتَنَ أَنْ تَكُونَ الْآيَةُ فِي الْمُؤْمِنِينَ [لَأنَّهُ]^(٨) أَخْبَرَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِالْآخِرَةِ، وَآمَنُوا بِالْقُرْآنِ. أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿وَهُمْ عَلَى صَلَاحٍ مِمَّا قُلُوبُهُمْ؟﴾

وَيَخْتَمِلُ ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ يَحِقُّ لَهُمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِالْقُرْآنِ لِأَنَّهُ بِهِ يُتَزَوَّدُ لِلْآخِرَةِ. وَيَخْتَمِلُ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْوُجُوهِ.

الآية ٩٣

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ هَذَا فِي الظَّاهِرِ اسْتِفْهَامٌ وَسُؤَالٌ لَمْ يُذَكَّرْ لَهُ جَوَابٌ. لَكِنْ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فَسَّرُوا، فَقَالُوا: لَا أَحَدٌ ﴿أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ وَهَذَا جَوَابٌ لَهُ، هُوَ تَفْسِيرُهُ. لَكِنْ تَرَكَ ذَكَرَ الْجَوَابِ لِمَعْرِفَةِ أَهْلِ الْخِطَابِ بِهِ، وَقَدْ يَكُونُ^(٩) الْجَوَابُ لِمَعْرِفَةِ أَهْلِهِ بِهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أَكْثَرُهُمْ قَدْ ظَلَمُوا، أَوْ كُلُّهُمْ قَدْ ظَلَمُوا. لَكِنْ كَأَنَّهُ قَالَ: لَا أَحَدٌ أَفْحَشُ ظُلْمًا مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ لِأَنَّهُ يَتَقَلَّبُ فِي أَنْعَمِ اللَّهِ فِي لَيْلِهِ وَنَهَارِهِ وَإِحْسَانِهِ فَهُوَ أَفْحَشُ ظُلْمًا، وَأَوْحَشُ كَذِبًا.

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَلَيْهِمْ عَمَى﴾ [فصلت: ٤٤]. (٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا الَّذِيْنَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرْمَرٌ فَرَادَيْنَاهُمُ بِرِجْسٍ إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَكَانُوا فِي رِجْسٍ لِّكَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ﴾ [التوبة: ١٢٥]، في الأصل وم: يزداد. (٣) من م، في الأصل للمتبعين. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: وقيل. (٧) من م، في الأصل تقتضى. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: يقول.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ قَالَ أُوْحَىٰ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ في الآية دلالة أن نافي الرسالة عَمَّنْ له الرسالة في الإفتاء على الله والكذب كمدعي الرسالة لتفسيه، وليست له الرسالة. سواء كلاهما مُفْتَرٍ على الله كذِباً. وكذلك مَنْ ادَّعى أنه يُنْزِلُ مثل ما أنزل الله، أو مَنْ ادَّعى أنه لم يُنْزِلِ الله شيئاً، فهو في الإفتاء على الله كالذي ادَّعى أنه يُنْزِلُ مثل ما أنزل الله: النافي والمُدَّعي في ذلك سواء شُرْعاً. فعلى ذلك يكون نافي^(١) الشيء ومُثَبِّتُه في إقامة الحجة والدليل سواء، والله أعلم.

وذكر أهل التأويل أن قوله تعالى: ﴿أَوْ قَالَ أُوْحَىٰ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ نَزَلَ في مُسَيِّمَةِ الكَذَّابِ، ونَزَلَ قوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ في عبد الله بن سَعْدٍ^(٢) بن أبي سَرْجٍ. لكن ليس لنا إلى مَعْرِفَةِ هذا حاجة؛ هُم وغيرهم وَمَنْ ادَّعى، واَفْتَرَى على الله كذِباً، سواء في الوعيد.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ ادَّعى بَعْضُهُمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ مثل ما قال الله إنكاراً مِنْهُمْ له كقولهِ تعالى: ﴿وَإِذَا نُنْزِلُ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا مَا سَمِعْنَا لَوْ كُنَّا نَفْقَهُ مِثْلَ هَذَا﴾ [الأنفال: ٣١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ﴾ عن ابن عباس^(٣) قال: قوله تعالى: ﴿فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ سَكَرَاتُهُ وَغَشِيَاتُهُ ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ يَقُولُ مَلَكُ الْمَوْتِ وَأَعْوَانُهُ الَّذِينَ مَعَهُ مِنْ مَلَائِكَةِ الْعَذَابِ ﴿بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ يَقُولُ: ضَارِبُو ﴿أَيْدِيهِمْ﴾ أَنْفُسَهُمْ؛ يَقُولُونَ لَهَا: اخْرُجِي؛ يَغْنِي الأرواح؛ وهو قوله تعالى: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ﴾ وهو عند الموت. وكذلك يَقُولُ قَتَادَةُ: وَقَالَ الْحَسَنُ: ذَلِكَ فِي النَّارِ فِي الآخِرَةِ: ضَرْبُ الْوُجُوهِ وَالْأَذْبَارِ^(٤).

وقوله تعالى: ﴿فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ أي كَثْرَةُ الْعَذَابِ وَشِدَّتُهُ؛ يُقَالُ لِلشَّيْءِ الْكَثِيرِ الْغَمَرُ، وهو كقولهِ تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ أَلَمَاتٌ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ ١٥٥ - ب/ [إبراهيم: ١٧] أي أسباب الموت. ولو كَانَ هناك مَوْتُ يَمُوتُ لِشِدَّةِ الْعَذَابِ.

وقوله تعالى: ﴿بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ بِضَرْبِ الْوُجُوهِ وَالْأَذْبَارِ ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ﴾ عَلَى حَقِيقَةِ الْخُرُوجِ مِنْهَا كقولهِ تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرِجُوا مِنْ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة: ٣٧] والأوَّلُ لَيْسَ عَلَى حَقِيقَةِ الْخُرُوجِ، ولكن كما يُقَالُ عند نزولِ الشَّدَائِدِ: أَخْرِجْ نَفْسَكَ. وقال مُجَاهِدٌ: هذا فِي الْقِتَالِ بِضَرْبِ الْمَلَائِكَةِ وَجُوهَهُمْ وَأَذْبَارَهُمْ، يَغْنِي الْإِسْتِثْنَاءُ. ولكنه يَكُونُ، وهو قول ابن عباس^(٥) وقَتَادَةُ، عند الموت.

قال أبو عَوَسَجَةَ: غَمَرَاتُ الْمَوْتِ: سَكَرَاتُهُ وَشِدَائِدُهُ، وَالْغَمَرُ هُوَ الْمَاءُ الْكَثِيرُ، وَالْغَمَرُ الْحِفْظُ وَالْغَمَرُ الَّذِي لَمْ يُجْرَبِ الْأُمُورَ، وَالْغَمَرُ الدَّسَمُ، وَالْغَمَرُ الْقَدْحُ الصَّغِيرُ مِنَ الْخَشَبِ، وَغَمَرَةُ الْحَرْبِ وَسُطْحُهَا.

وقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ قِيلَ: عَذَابُ الْهُونِ لَا رَأْفَةَ فِيهِ، وَلَا رَحْمَةً، أَيِ الشَّدَائِدِ ﴿يَمَّا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ بَأَنَّ مَعَهُ شَرِيكاً وَالْهَيْهَ ﴿وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِنَا تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أَنَّهُ لَمْ يُنْزِلْ شَيْئاً، وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ بِشَيْءٍ، وَإِنَّمَا أُوْحَى إِلَيْهِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْإِفْتِرَاءِ الَّذِي ذَكَرُوا، وَبِاللهِ الْعِصْمَةُ.

الآية ٩٤

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يَحْتَمِلُ هذا، والله أعلم، وجوهاً:

[أحدها: ^(٦)] أي أَعَزَّنَاكُمْ، وَبَعَثْنَاكُمْ فُرَادَى بِلا مُعِينٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ بِلا مُعِينٍ وَلَا نَاصِرٍ.

والثاني: أَعِيدَكُمْ وَأَبْعَثَكُمْ فُرَادَى بِلا أَعْوَانٍ وَلَا شَفْعَاءَ يَشْفَعُونَ لَكُمْ، وَيُعِينُ^(٧) بَعْضُكُمْ بَعْضاً، كَمَا خَلَقْنَاكُمْ فِي الْإِبْدَاءِ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ شَفْعَاءُ وَلَا أَعْوَانٌ.

وقيل^(٨): يَبْعَثُكُمْ، وَيُعِيدُكُمْ بِلا مَالٍ وَلَا شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا وَآيَةٍ كَمَا خَلَقَكُمْ فِي الْإِبْدَاءِ، وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ مَالٌ وَلَا شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا وَآيَةٍ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَ: فِي. (٢) فِي الْأَصْلِ وَ: مَسْعُود. (٣) ساقطة من الأصل وَ: م. (٤) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يَتَضَرَّعُونَ وَجُوهَهُمْ رَاقِبَةٌ﴾ [الأنفال: ٥٠ ومحمد: ٢٧]. (٥) ساقطة من الأصل وَ: م. (٦) الواو ساقطة من الأصل وَ: م. (٧) هذا هو الوجه الثالث.

وجائز^(١) أن يكون قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَى﴾ ليس معكم ما تفتخرون به من الخدم والأموال والقرابات التي افتخرتم في الدنيا ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

وجائز^(٢) أن [يكون^(٣)] قوله ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ منفصلاً [عن^(٤)] قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَى﴾ فيكون^(٥) جواب سؤال: أن كيف بُعث^(٦)؟ فقال: بُعثون^(٧) كما خلقناكم أول مرة.

وقوله تعالى: ﴿وَرَكَّبْنَا مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ [وجهين]:
أحدهما: [٨] تَرَكَّبْتُمْ ﴿مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ ولا تلتفتون إليه، ولا تنظرون، كالمنبوذ وراء ظهركم. إنما نظرکم إلى أعمالکم التي قَدَّمْتُمُوهَا.

والثاني: لم تَقْدُمُوا ﴿مَا خَوَّلْنَاكُمْ﴾ ولم تَتَفَعَّلُوا منه، بل تَرَكَّبْتُمُوهُ^(٩) ﴿وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ لا تَتَفَعَّلُونَ^(١٠). إنما مَنَعْتُمْكُم ما قَدَّمْتُمُوهُ، وأنْفَقْتُمْ منه.

وقوله تعالى: ﴿مَا خَوَّلْنَاكُمْ﴾ قيل: أعطيناكم، وقيل: رزقناكم، وقيل: مكناكم، وهو واحد.
وقوله تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ دَعَيْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ إنهم كانوا يجعلون لله شركاء في عبادته وألوهيته، ويقولون: ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] ويقولون ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٢٣].
يقول الله تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ دَعَيْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ لله في عبادتكم، ورعيتهم أنهم شفعاءكم عند الله، بل شغلوا هم بأنفسهم؛ يُخَيِّرُ عَنْ سَفْهِهِمْ وَقَلَّةِ نَظَرِهِمْ مِنْهُمْ.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَقَطَ بَيْنَكُمْ﴾ قرئ بالرفع والنصب جميعاً^(١١)؛ فمن قرأ بالرفع يقول: لقد نَقَطَ نواصلكم، ومن قرأ بالنصب يقول: لقد نَقَطَ ما كان بينكم من النواصل وتعاون بغضكم^(١٢) بغضاً في هذه الدنيا؛ إنهم كانوا يتعارفون، ويتناصرون^(١٣).

يُخَيِّرُ أَنْ ذَلِكَ كُلُّهُ يَنْقَطِعُ فِي الْآخِرَةِ، وَيَصِيرُ بَعْضُهُمْ أَعْدَاءُ لِبَعْضٍ، وَيَتَّبِعُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ نَبَّأَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا [البقرة: ١٦٦] وكقوله تعالى: ﴿الْأَخِلَاءَ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] وكقوله تعالى: ﴿وَأَنذَا خَيْرَ النَّاسِ أَكَلُوا لَمْ أَعْدَاءَهُ وَكَانُوا يَمَادِنَهُمْ كَذِبِينَ﴾ [الأحقاف: ٦] وكقوله تعالى: ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ الآية [مريم: ٨٢] يصير المعبودون أَعْدَاءَ لِلْمَعْبُودِينَ، وتَصِيرُ الْوُضْلَةُ وَالْمَوَدَّةُ الَّتِي فِي مَا بَيْنَهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا عَدَاوَةً، وَالرُّحْمُ وَالْقَرَابَةُ [التي كانت بَيْنَهُمْ مُنْقَطِعَةً]^(١٤) حَتَّى يَفِرَّ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْآزِفُ مِنْ لَيْبِهِ﴾ [زَيْدٍ وَأَبِيهِ] [عبس: ٣٤ و ٣٥].

وقوله تعالى: ﴿مَا كُنْتُمْ تَرْعَوْنَ﴾ أي دَهَبَ عَنْكُمْ، وبَطَلَ ﴿مَا كُنْتُمْ تَرْعَوْنَ﴾ أَنَّهُمْ شُفَعَاؤُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ، وبالله العِصْمَةُ وَالنَّجَاةُ.

الآية ٩٥ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْغَيْثِ وَالنَّوَى﴾ قيل: ﴿فَالِقُ الْغَيْثِ وَالنَّوَى﴾ كما قال الله تعالى: ﴿فَالِقُ الْغَيْثِ وَالنَّوَى﴾ [الأنعام: ١٤] وكقوله تعالى: ﴿أَوَّلَ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُبْدِيهَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِصُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء: ٥١] أي خَلَقَكُمْ؛ يُخَيِّرُ أَنَّهُ ﴿فَالِقُ الْغَيْثِ وَالنَّوَى﴾ خَصَّ الْحَبَّ [والنوى] بالذِّكْرِ لِمَا مِنْهُمَا خَلَقَ جَمِيعٌ مَا فِي الدُّنْيَا مِنَ الْأَنْزَالِ وَالْحُبُوبِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [النساء: ١] مِنْهُ مَا خَلَقَ مَا فِي الدُّنْيَا مِنَ الْبَشَرِ، فَأَصَافَ ذَلِكَ إِلَيْهِ. فَقُلِيَ ذَلِكَ لِمَا خَلَقَ هَذِهِ الْأَنْزَالَ كُلُّهَا مِنَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، وَمِنْهُمَا^(١٦) أَخْرَجَ، أَصَافَ إِلَيْهِ^(١٧) ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) هذا هو الوجه الرابع. (٢) هذا هو الوجه الخامس. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: لكن. (٦) في الأصل وم: يبعثون. (٧) أدرج قبلها في الأصل وم: أي. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: تركتم. (١٠) في الأصل وم: تتفعَّلوا. (١١) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٢/ ٢٩٦. (١٢) في الأصل وم: بعضهم. (١٣) أدرج بعدها في الأصل وم: بعضهم بعضاً. (١٤) في الأصل وم: الذي مات بينهم منقطعاً. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) من م، في الأصل: ومنها. (١٧) في الأصل وم: إليهما.

وَيَخْتَمِلُ لَيْسَ بِإِخْبَارٍ عَنِ ابْتِدَاءِ إِنْشَاءٍ، وَلَكِنْ إِخْبَارٌ عَنْ لُطْفِهِ [وَقُدْرَتِهِ] ^(١). وَالْقَلْبُ هُوَ الشَّقُّ. يُخْبِرُ أَنَّهُ يَشَقُّ النَوَاةَ مَعَ شِدَّتِهَا وَصَلَابَتِهَا، وَيُخْرِجُ مِنْهَا نَبْتًا أَخْضَرَ لَيِّنًا مَا لَوْ اجْتَمَعَ كُلُّ الْخَلَائِقِ عَلَى إِنْفَادِهِ وَإِخْرَاجِ مِثْلِهِ مِنْ غَيْرِ أَدَى يُصِيبُ ذَلِكَ النَّبْتَ مَا قَدَرُوا عَلَيْهِ؛ يُخْبِرُ عَنْ لُطْفِهِ وَقُدْرَتِهِ. أَيْ مَنْ قَدَرَ عَلَى هَذَا [أَفَهُوَ قَادِرٌ] ^(٢) عَلَى إِعَادَةِ الْخَلْقِ وَبَعْثِهِمْ بَعْدَ إِمَاتَتِهِمْ وَإِفْنَائِهِمْ، وَإِنْ لَمْ يَبْقَ لَهُمْ أَثَرٌ، مَا قَدَرَ عَلَى هَذَا؛ يُعَرِّفُهُمْ قُدْرَتَهُ أَنَّهَا غَيْرُ مُقَدَّرَةٍ بِقُدْرَةِ الْخَلْقِ وَبِقُوَّتِهِمْ، بَلْ خَارِجَةٌ عَنْ قُوَّتِهِمْ لِأَنَّ قُوَّتَهُ وَقُدْرَتَهُ ذَاتِيَّةٌ أَرْزَلَةٌ بِلَا سَبَبٍ، وَقُوَّتُهُمْ وَقُدْرَتُهُمْ بِأَسْبَابٍ. وَكَذَلِكَ مَا يَشَقُّ مِنَ الْوَرَقِ الضَّعِيفِ اللَّيِّنِ [مِنْ] ^(٣) الشَّجَرِ وَالشَّخْلِ مَعَ شِدَّتِهِ وَصَلَابَتِهِ مَا لَوْ اجْتَمَعَ الْخَلَائِقُ كُلُّهُمْ عَلَى شَقِّ ذَلِكَ الشَّجَرِ بِذَلِكَ الْوَرَقِ مَعَ لَيِّنِهِ مَا قَدَرُوا عَلَيْهِ؛ يُعَرِّفُهُمْ لُطْفَهُ وَقُدْرَتَهُ أَنَّهُ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ.

وفيه أَنَّ ذَلِكَ فِعْلٌ وَاحِدٌ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ فِعْلٌ عَدَدٌ لَكَانَ إِذَا أَرَادَ هَذَا شَقَّهُ مَنَعَ الْآخَرَ عَنْ ذَلِكَ. وفيه أَنَّهُ عَلَى تَذْيِيرٍ خَرَجَ لَا جُزْأً فَإِنَّ ^(٤) اتَّفَقَ ذَلِكَ فِي كُلِّ عَامٍ عَلَى قَدَرٍ وَاحِدٍ.

وقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ إِنَّ الْحَبَّ وَالنَّوَى الَّتِي ذَكَرَ مَيِّتٌ يُخْرِجُ ^(٥) مِنْهَا النَّبَاتَ الْأَخْضَرَ حَيًّا، ثُمَّ يُمِيتُ ذَلِكَ، وَيُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا وَنَوَى ^(٦). وفيه دَلَالَةٌ الْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ؛ يَقُولُ: إِنَّ الَّذِي قَدَرَ عَلَى إِخْرَاجِ النَّبَاتِ الْأَخْضَرَ الْحَيِّ مِنْ حَبَّةٍ مَيِّتَةٍ وَنَوَاةٍ مَيِّتَةٍ، وَلَيْسَ فِيهَا مِنْ أَثَرِ ذَلِكَ الْحَيِّ شَيْءٌ، لِقَادَرٍ أَنْ يَبْعَثَهُمْ، وَيُخَيِّمَهُمْ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَإِنْ لَمْ يَبْقَ مِنْ أَثَرِ الْحَيَاةِ شَيْءٌ. وَقَدْ ذَكَرْنَا هَذَا فِي مَا تَقَدَّمَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنْتَ تُؤْكِنُ﴾ أَيْ ذَلِكُمْ الَّذِي يَفْعَلُ ذَلِكَ؛ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى، لَا الْأَصْنَامُ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا، وَأَشْرَكْتُمْ فِي عِبَادَتِكُمْ اللَّهَ ^(٧) وَالْوَهْيِيَّةِ. أَيْ حُجَّةٌ تَضَرِّفُكُمْ عَمَّا ذَكَرْ؟ أَيْ حُجَّةٌ لَكُمْ فِي صَرْفِ الْأَلُوْهِيَّةِ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ وَفِي ^(٨) صَرْفِ الْعِبَادَةِ إِلَى الْأَصْنَامِ؟

وقوله تعالى: ﴿فَأَنْتَ تُؤْكِنُ﴾ قِيلَ: فَأَنْتَ تُضَرِّفُونَ عَمَّا ذَكَرْ مِنْ دَلَالَاتٍ وَخَدَائِثٍ وَالْوَهْيِيَّةِ وَرُبُوبِيَّةِ. وَالْإِفْكَ هُوَ الصَّرْفُ فِي اللَّغَةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُؤْفِكَ عَنِ الْمَوْتِ﴾ [الاحقاف: ٢٢] أَيْ لِنُضَرِّفْنَا. وَقِيلَ: ﴿تُؤْكِنُ﴾ تُكَذِّبُونَ؛ أَيْ مَا الَّذِي حَمَلَكُمْ عَلَى الْكَذِبِ؟ وَالْكَذِبُ وَالصَّرْفُ وَاحِدٌ فِي الْحَقِيقَةِ، لِأَنَّ الْكَذِبَ هُوَ صَرْفُ قَوْلِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ، وَهُمَا وَاحِدٌ.

الآية ٩٦

وقوله تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ هُوَ يَخْتَمِلُ الْوَجْهَيْنِ اللَّذَيْنِ ذَكَرْتُهُمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَالِقُ الْيَمِّ وَالنَّوَى﴾ [يَخْتَمِلُ الْإِخْبَارَ] ^(١) مِنْ ابْتِدَاءِ خَلْقِهِ، وَيَخْتَمِلُ الشَّقُّ أَيْ يَشَقُّ النَّهَارَ مِنَ اللَّيْلِ وَاللَّيْلَ مِنَ النَّهَارِ بَعْدَ مَا تَلَفَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا، وَلَمْ ^(٢) يَبْقَ لَهُ أَثَرٌ. فَفِيهِ دَلِيلُ الْبَعْثِ وَالْإِحْيَاءِ بَعْدَ الْمَوْتِ؛ أَيْ إِنَّ الَّذِي قَدَرَ عَلَى إِنْشَاءِ النَّهَارِ مِنَ اللَّيْلِ وَاللَّيْلِ مِنَ النَّهَارِ بَعْدَ مَا تَلَفَ، وَذَهَبَ أَثَرُهُ لِقَادِرٍ عَلَى إِنْشَاءِ الْخَلْقِ وَبَعْثِهِمْ بَعْدَ الْمَوْتِ وَذَهَابِ آثَارِهِمْ.

وقوله تعالى: ﴿وَجَمَلَ أَيْلَ سَكَاةٍ﴾ وَرَاحَةً لِلْخَلْقِ ﴿وَجَمَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبي: ١١] لَهُمْ يَعِيشُونَ فِيهِ، وَجَعَلَهُمَا آيَاتٍ مِنْ آيَاتِ رُبُوبِيَّةِ وَوَحْدَانِيَّةِ مُسَخَّرِينَ يَغْلِبَانِ الْخَلَائِقَ، وَيَقْهَرَانِهِمْ، وَيَكُونُونَ / ١٥٦ - / تَحْتَ سُلْطَانِهِمَا، وَيَجْرِيَانِ عَلَى سَنَنِ وَاحِدَةٍ أَنْ لَهُمَا مُدَبَّرٌ خَالِفٌ عَلَيْهِمَا، وَلَوْ كَانَا يَجْرِيَانِ بِطَبَاعِهِمَا لَكَانَ يَخْتَلِفُ جَرَيَانُهُمَا، [وَلَوْ لَمْ يَتَّسِقْ عَدْلُ اتِّسَاقِهِمَا وَجَرَيَانِهِمَا] ^(٣) مَجْرَى وَاحِدًا لَكَانَ ^(٤) لَغَيْرِ فِيهِمَا تَذْيِيرٌ ^(٥). وَكَذَلِكَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ جَعَلَهُمَا مُسَخَّرِينَ لِمَنَافِعِ الْخَلْقِ لِنُضْجِ الْأَنْزَالِ وَنَبْعِهَا وَلِمَعْرِفَةِ عَدَدِ الْأَيَّامِ وَالشُّهُورِ وَالسَّنِينَ، وَيَجْرِيَانِ مَجْرَى وَاحِدًا وَمَسْلَكًا وَاحِدًا غَيْرَ مُخْتَلِفٍ؛ دَلَّ ذَلِكَ أَنَّهُمَا كَانَا بِمُدَبَّرٍ عَلَيْهِمَا حَكِيمٍ.

وفي قوله تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَمَلَ أَيْلَ سَكَاةٍ﴾ دَلَالَةٌ نَقْضِ الْمُعْتَرِزَةِ لِأَنَّ الْإِصْبَاحَ هُوَ فِعْلُ الْخَلْقِ لِأَنَّهُ مُضَدَّرٌ أَصْبَحَ، وَكَذَلِكَ السَّكْنُ هُوَ فِعْلُ الْخَلْقِ، ثُمَّ أَضَافَ ذَلِكَ كُلَّهُ إِلَى نَفْسِهِ، دَلَّ أَنَّهُ خَالِقُ أَعْمَالِهِمْ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: لقادر. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: فيخرج.
(٦) في الأصل وم: والنواة. (٧) في الأصل وم: لله. (٨) في الأصل وم: ولا. (٩) في الأصل وم: و. (١٠) في الأصل وم: خبر. (١١) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) في الأصل وم: أن. (١٤) في الأصل وم: تذييراً.

وقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا﴾ اختلف فيه: قال أبو عبيد: هو من الحساب، وهو حساب وحُسابان مثل شهاب وشهبان، وهو كقولهِ تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرُ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥]، وقيل: ﴿حُسْبَانًا﴾ أي جريانا يجريان، ويدوران أبداً، لا يستريحان؛ دل أنهما كانا [ليسا] ^(١) بغير مُسَخَّرين لِلْخَلْقِ لأنهما لو كانا يطباعيهما لكانا يستريحان، وقيل: ﴿حُسْبَانًا﴾ أي ضياء كقولهِ تعالى: ﴿جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرُ نُورًا﴾ [يونس: ٥] والله أعلم بذلك.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أي ذلك الجريان الذي ذكر، وتلك المنافع التي جعلت فيهما ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾ قال الحسن: ﴿الْعَزِيزُ﴾ هو الذي لا يُعْجِزُهُ شيء، و﴿الْعَزِيزُ﴾ هو الذي يُعْزِزُ كُلَّ عَزِيزٍ. وقال بغض أهل التأويل ﴿الْعَزِيزُ﴾ المنيع في سُلْطَانِهِ الْمُتَّقِمُ مِنْ أَعْدَائِهِ ﴿الْعَلِيمُ﴾ بمصالح الخلق وبما كان، ويكون، وبخوائجهم، وبالله التوفيق.

الآية ٩٧ وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ والمراد منه الظلمات. وذكر في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٣] وأراد بالظلمات الشدائد والأحوال التي تُصِيبُهُمْ. ألا ترى أنه قال ﴿تَدْعُونَهُ نَقْرَةً وَخَفِيَةً؟﴾ [الأنعام: ٦٣] عند الشدائد والأحوال كانوا يدعون ربهم ﴿نَقْرَةً وَخَفِيَةً﴾ [الأنعام: ٦٣] على ما ذكرهم منها عظيم سُلْطَانِهِ وَقُدْرَتِهِ لِمَا يَدْفَعُ عَنْهُمْ الشدائد والأحوال التي تنزل بهم. إنما ^(٢) الدافع عنهم ذلك لا هؤلاء الأصنام التي يعبُدون دون الله، ويُشْرِكُونَهَا فِي عِبَادَتِهِ.

ويذكر في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ عظيم ما أنعم عليهم بما جعل لهم في السماء نجوماً لِيَهْتَدُوا بِهَا لِلطَّرِيقِ وَالْمَسَالِكِ فِي الْبَحَارِ وَالْبَرَارِ عِنْدَ اشْتِيَاقِهَا عَلَيْهِمْ.

وفيه دليل وخداية الرب وتدبيره وحكمته لأنه جعل في السماء أدلة يهتدون بها، ويستدلون على معرفة الطريق مع بُعد ما بينهما من المسافة، وتسوية أسباب الأرض بأسباب السماء، وتعلق منافع بعضها ببعض ليعلموا أنه كان بواجب مدبر عليم حكيم؛ إذ لو كان يعدد أو يمن لا تدبير له [ولا] ^(٣) حكمة لا يَحْتَمِلُ ذلك، ولم يتيسق ما ذكرنا. دل أنه بالواجد العليم الحكيم مع علمهم أن الأصنام التي يعبُدونها، ويُشْرِكُونَهَا ^(٤) في عبادته لا تقدر ^(٥) على ذلك، لكنهم يعبُدونها، ويُشْرِكُونَهَا فِي الرُّبُوبِيَّةِ سَفَهًا مِنْهُمْ وَعِنَادًا، وبالله العصمة والتوفيق.

وفي قوله تعالى: ﴿فَالِقُ الْغَيْثِ وَالنَّوَى﴾ وقوله تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ وقوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا﴾ وغير ذلك من الآيات التي ذكر تذكير نعمه وإحسانه إليهم لِيَسْتَاذِي ^(٦) بذلك شكره وجعل السني له.

وجائز أن يستدل به على تذكير قدرته وسُلْطَانِهِ أَنَّ مَنْ قَدَرَ عَلَى مَا ذَكَرَ لَا يَحْتَمِلُ أَنْ يُعْجِزَهُ شَيْءٌ. وفيه تذكير تدبيره وعلمه وحكمه على ما ذكرنا من اتساق الأمور والأحوال على سنن ^(٧) واحد.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾ قيل: صرَفْنَا الآيات أي صرَفْنَا كُلَّ آيَةٍ إِلَى مَوْضِعِهَا الَّذِي يَكُونُ لَهُمْ دليلاً عند الحاجة إليها. وقيل: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي لقوم يتتبعون بعلمهم؛ فإذا انتفعوا بها صارت الآيات لهم لأن من انتفع بشيء يصير ذلك له. لذلك ذكر ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ لأنهم ^(٨) إذا لم يتتبعوها ^(٩) لم تصير الآيات لهم.

الآية ٩٨ وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ فيه دلالة أنه ﴿بَيِّدٌ وَبِيدٌ﴾ [البروج: ١٣] من غير شيء لأنه أخبر أنه خلق البشر كله من نفس واحدة. والخلائق كلها لو اجتمعوا ما [قدروا على ذلك] ^(١٠)، ولم تكن الخلائق بأجمعهم في تلك النفس الواحدة. دل أنه قادر على الابتداء والإعادة لا من شيء؛ إذ لم يكن لترك النفس التي خلق الخلائق منها تقدمة شيء.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: بما. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: وأشركوا. (٥) في الأصل: لا يقدرون، في م: لا يقدرون. (٦) في الأصل وم: يستادي. (٧) في الأصل وم: والحال على أمر. (٨) من م، في الأصل: أنهم. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: احتملت الأرض.

وقوله تعالى: ﴿فَسَتَرْتُ وَفُتِحْتُ﴾ قَالَ الْحَسَنُ: ﴿فَسَتَرْتُ﴾ فِي الْآخِرَةِ يَعْلَمُ الَّذِي خَتَمَ بِهِ؛ إِنْ خَتَمَ بِعَمَلِ الْخَيْرِ يَبْقَى^(١) أَبَدًا فِي الْخَيْرِ، وَإِنْ خَتَمَ بِشَرٍّ يَبْقَى^(٢) أَبَدًا فِي الشَّرِّ. ﴿وَفُتِحْتُ﴾ فِي أَجَلِهِ؛ يَنْتَقِلُ مِنْ وَقْتٍ إِلَى وَقْتٍ وَمِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ. وَقِيلَ: ﴿فَسَتَرْتُ﴾ فِي الدُّنْيَا، وَيُشَبَّهُ أَنْ يَكُونَ ﴿فَسَتَرْتُ وَفُتِحْتُ﴾ فِي كُلِّ [وَقْتٍ. وَكُلِّ حَالٍ، هُوَ] ^(٣) مُسْتَقَرٌّ فِي حَالِ الْقِيَامِ حَتَّى يَنْتَقِلَ إِلَى حَالٍ أُخْرَى ﴿وَفُتِحْتُ﴾ فِي الْآخِرَةِ بِالْجَزْأِ لِأَعْمَالِهِمْ الَّتِي عَمِلُوا ﴿وَفُتِحْتُ﴾ فِي الدُّنْيَا. وَيَخْتَمِلُ ﴿فَسَتَرْتُ﴾ بِاللِّبَالِي ﴿وَفُتِحْتُ﴾ فِي الْآخِرَةِ بِالنَّهَارِ، وَالْأَوَّلُ لِيَنبِي آدَمَ خَاصَّةً.

ثم قوله تعالى: ﴿لَقَوْمٍ يَتَفَكَّهُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧] وقوله تعالى ﴿لَقَوْمٍ يَتَفَكَّهُونَ﴾ الْفَقْهُ هُوَ مَعْرِفَةُ الشَّيْءِ بِمَنْفَعَتِهِ الدَّالِّ عَلَى نَظِيرِهِ. وَالْعِلْمُ مَا يُعْرِفُ بِتَفْصِيلِهِ. وَلِهَذَا لَا يُقَالُ [عَنِ اللَّهِ] ^(٤) فَقِيهٌ، وَيُقَالُ: عَالِمٌ لِأَنَّهُ عَالِمٌ بِالْأَشْيَاءِ بِذَاتِهِ لَا بِإِغْتِيَابِهَا وَنَظَائِرِهَا وَذَلَالِهَا.

الآية ٩٩

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يُذَكِّرُهُمْ عَظِيمَ مَنِّهِ بِمَا يُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنَ الْمَاءِ، وَيُخْرِجُ بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ، كَمَا ذَكَّرَهُمْ مِنَ النِّعَمِ بِمَا جَعَلَ لَهُمْ مِنَ الشَّمْسِ وَالشُّجُومِ ﴿لِيَتَذَكَّرُوا فِيهَا﴾ الظُّلُمَاتِ وَاشْتِيَاءِ الطَّرِيقِ، وَمَا جَعَلَ اللَّيْلَ لِلسُّكُونِ وَالرَّاحَةَ وَالنَّهَارَ لِلْعَمَلِ وَالثَّقَلِ، وَمَا جَعَلَ لَهُمْ مِنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَجَعَلَ لَهُمْ فِيهِمَا مِنَ الْمَنَافِعِ مِنْ نَضِجِ الْأَنْزَالِ وَالزُّرُوعِ وَنَبِيْهَا وَمَعْرِفَةِ عَدَدِ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ وَالْأَجَالِ الَّتِي أَنْعَمَ عَلَيْهَا عَلَيْهِمْ لِيَلَّا يُوجِّهُوا شُكْرَ هَذِهِ النِّعَمِ إِلَى غَيْرِهِ، وَلَا يَتَّخِذُوا آلِهَةً^(٥) سِوَاهُ.

وقد ذَكَّرْنَا أَنَّ سُورَةَ الْأَنْعَامِ نَزَلَتْ أَكْثَرَهَا فِي مُحَاجَّةِ أَهْلِ الشِّرْكِ فِي إِبْطَالِ الْوَحْدَانِيَّةِ^(٦) وَالْأَلُوْهِيَّةِ لِلَّهِ وَإِبْطَالِ الرِّسَالَةِ وَالنَّبُوَّةِ [لِلْمُحَمَّدِ ﷺ] ^(٧) وَإِبْطَالِ الْبَغْيِ بَعْدَ الْمَوْتِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَنْكُرُونَ ذَلِكَ كُلَّهُ.

وقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يَخْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مَا بِالْخَلْقِ حَاجَةٌ إِلَيْهِ لِيُعْلَمَ أَنَّ كُلَّ مَا يُخْرُجُ فِي الْأَرْضِ أَصْلُهُ مِنَ الْمَاءِ، بِهِ يَنْبُتُ مِمَّا يَكُونُ غِذَاءَ الْبَشَرِ وَغِذَاءَ الْحَيَوَانِ كُلِّهِمْ وَالطَّيُورِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠] يُذَكِّرُهُمْ عَظِيمَ مَا جَعَلَ لَهُمْ فِي الْمَاءِ مِنَ الْمَنَافِعِ عَلَى مَا أَخْبَرَ أَنَّهُ بِهِ يُخْرِجُ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ، وَبِهِ حَيَاةُ كُلِّ شَيْءٍ. ثُمَّ مِنَ الْأَوَاقَاتِ مَا لَوْ نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَا لَمْ يَنْبُت. دَلٌّ أَنَّهُ إِنَّمَا يَنْبُتُ بِتَذْيِيرٍ غَيْرِ، لَا بِالْمَاءِ.

وقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾ قِيلَ بِهِ: يُخْرُجُ أَوَّلَ مَا يُخْرُجُ خَضِرًا؛ يَكُونُ ابْتِدَاءُ كُلِّ نَبْتٍ أَخْضَرَ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ إِلَى لَوْنٍ [آخَرَ] ^(٨) يُخْبِرُ عَنْ لُطْفِهِ وَصُنْعِهِ بِمَا يُخْرِجُ مِنَ الْحَبِّ مُتَرَاكِبًا بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ مَا لَوْ اجْتَمَعَ الْخَلَائِقُ كُلُّهُمْ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى تَرْكِيبِ مِثْلِهِ لِيَعْلَمُوا أَنَّ لِيُغَيِّرَ فِي ذَلِكَ تَذْيِيرًا وَصُنْعًا.

وفيه دلالة أنه قد يَنْشِئُ الْأَشْيَاءَ مِنْ لَا شَيْءٍ، وَلَا سَبَبٍ، وَإِنْ كَانَ قَدْ أَنْشَأَ بَعْضُهَا بِسَبَابٍ نَحْوُ أَنْ أَخْرَجَ مِنْ ذَلِكَ النَّبَاتِ الْأَخْضَرَ حُبًّا، وَلَمْ تَكُنِ الْحُبُّوبُ فِي النَّبَاتِ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى إِنْشَاءِ الْأَشْيَاءِ لَا مِنْ شَيْءٍ وَلَا سَبَبٍ.

وفيه تَقْضُ قَوْلِ الدُّهْرِيَّةِ فِي كَوْنِ الْأَشْيَاءِ فِي شَيْءٍ وَاحِدٍ، كَمَا هِيَ لَا تَخْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عَشْرَةُ آلَافٍ نَوَاقٍ أَوْ حَبَّةٍ فِي نَوَاقٍ وَاحِدَةٍ، أَوْ تَكُونَ الشَّجَرَةُ مَعَ طَوْلِهَا وَغِلَظَتِهَا وَعَظِيمِهَا فِي نَوَاقٍ وَاحِدَةٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّخْلِ﴾ أَيِ يُخْرِجُ مِنَ النَّخْلِ طَلْعُهَا بِالْمَاءِ. وَفِيهِ مِنْ عَظِيمِ لُطْفِهِ وَتَذْيِيرِهِ أَنْ جَعَلَ النَّخْلَ وَالْأَشْجَارَ يَسْرُبُ ١٥٦ - ب/ بِعُرْوِهَا الْمَاءَ، ثُمَّ يَنْشِيرُ فِي أَصْلِهَا إِلَى أَغْصَانِهَا، ثُمَّ يُخْرِجُ مِنْهُ، وَيُظْهِرُ خَضِرًا لِيُعْلَمَ عَظِيمُ تَذْيِيرِهِ وَلُطْفِهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَاتَرًا دَائِبَةً﴾ قِيلَ: الْفِتَوَانُ الْعُدُوقُ، يَكُونُ فِيهَا الثَّمَرُ وَالشَّمَارُ، وَاجِدُهَا قَتْوًا.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: يَبْقَى. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: يَبْقَى. (٣) فِي الْأَصْلِ: وَقْتُ وَكُلِّ وَقْتٍ. فِي م: حَالٌ وَكُلِّ وَقْتٍ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: لَه. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: إِنِّهَا. (٦) أُدْرِجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: لَه. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

وقوله تعالى: ﴿ذَاتِيَّةٌ﴾ قَالَ الْحَسَنُ: ﴿ذَاتِيَّةٌ﴾ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ مُجْتَمِعَةٌ غَيْرُ مُتَفَرِّقَةٍ عَلَى مَا يَكُونُ مِنَ الْأَعْنَابِ وَالشَّمْرِ وَالْحُبُوبِ. فَإِنْ كَانَ هَذَا فِيهِ فِي الْكُلِّ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿ذَاتِيَّةٌ﴾ قَرِيبَةٌ مُلْتَزِمَةٌ بِالْأَرْضِ، يَنَالُهَا^(١) الْقَائِمُ وَالْقَاعِدُ جَمِيعاً. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿فَتَوَاتٌ ذَاتِيَّةٌ﴾ قِصَارُ النَّخْلِ اللَّاصِقَةُ غُذُوقِهَا بِالْأَرْضِ.

وقوله تعالى: ﴿وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ أَيِ أَخْرَجَ الْمَاءُ جَنَاتٍ وَكُرُومَهَا ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ﴾ قِيلَ: أَخْرَجَ بِالْمَاءِ أَيْضاً الزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَقَبَرٌ مُتَشَبِّهُ﴾ أَيِ يُشْبِهُ زَرْقُ الزَّيْتُونَ فِي النَّظَرِ وَرَقُّ الرُّمَّانِ ﴿وَعَبَرٌ مُتَشَبِّهُ﴾ تَمَرُهُمَا^(٢) فِي اللَّوْنِ وَالطَّعْمِ. وَلَكِنْ هُوَ عَلَى الْكُلِّ عَلَى كُلِّ الثَّمَارِ، وَلَا يُشْبِهُ بَعْضُهُ بَعْضاً؛ مِنْهَا مَا يُشْبِهُ سَاقِ هَذَا بِسَاقِ آخَرَ، وَالثَّمَارِ وَالْحُبُوبِ مُخْتَلِفَةٌ^(٣)، وَمِنْهَا مَا يُشْبِهُ فِي اللَّوْنِ، وَالطَّعْمُ مُخْتَلِفٌ، وَمِنْهَا مَا يُشْبِهُ فِي الطَّعْمِ، وَاللُّونُ مُخْتَلِفٌ؛ لِيَعْلَمُوا أَنَّ لِغَيْرِ فِي ذَلِكَ تَذْيِيراً وَصُنْعاً لَطِيفاً، لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ بِالْمَاءِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ بِالْمَاءِ لَكَانَ لَا يَخْتَلِفُ كُلُّ هَذَا الْإِخْتِلَافِ فِي اللَّوْنِ وَالطَّعْمِ وَالزَّرْقِ دَلٌّ أَنَّهُ كَانَ كَذَلِكَ بِغَيْرِ: عَلِيمٌ مُدَبِّرٌ حَكِيمٌ؛ أَنْشَأَ عَلَى مَا أَرَادَ بِلُطْفِهِ.

وقوله تعالى: ﴿أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْوِهِ إِذَا تَغَيَّرَ﴾ يَخْتَلِفُ الْأَمْرُ بِالنَّظَرِ [وَجِهَيْنِ]:

أَخَذَهُمَا^(٤): ﴿أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْوِهِ إِذَا تَغَيَّرَ﴾ كَيْفَ^(٥) يَقْبَلُهَا، وَيُحَوِّلُهَا مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ وَمِنْ لَوْنٍ إِلَى لَوْنٍ؟

والثَّانِي^(٦): أَنَّهُ يَخْرُجُ فِي سَاعَةٍ لَطِيفَةٍ مَا لَوْ اجْتَمَعَ الْخَلَائِقُ عَلَى تَقْدِيرِهِ وَمَعْرِفَتِهِ أَنْ كَمْ خَرَجَ؟ وَأَيُّ مِقْدَارٍ خَرَجَ؟ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ؛ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى إِحْيَاءِ الْخَلْقِ بِمَرَّةٍ وَاحِدَةٍ.

وفي إِنْزَالِ الْمَطَرِ مِنَ السَّمَاءِ مَعَ بَعْثِهَا آيَةً عَجِيبَةً وَحِكْمَةً بِالْعَقْلِ؛ وَهُوَ أَنْ يُنْزِلَهُ وَاحِداً، لَا يَخْتَلِطُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ مَعَ كَثْرَةِ الْمَطَرِ وَازْدِحَامِهِ وَيُعْدِ السَّمَاءَ. وَلَوْ اجْتَمَعَ الْخَلَائِقُ عَلَى حِفْظِ مِثْلِهِ مَا قَدَّرُوا عَلَيْهِ. دَلٌّ عَلَيْهِ أَنَّهُ كَانَ بِمُدَبِّرٍ عَلِيمٍ حَكِيمٍ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ قَدْ ذَكَرْنَا أَنَّهَا تَصِيرُ آيَاتٍ لِمَنْ صَدَّقَ بِهَا، وَأَمَّنْ. وَأَمَّا مَنْ عَانَدَ، وَكَابَرَ، وَلَمْ يَتَأَمَّلْ فِيهَا، لَمْ يَفْهَمْ مَا فِيهَا مِنْ عَجِيبِ آيَاتِهِ وَعَظِيمِ مَنَنِهِ.

وفي قوله تعالى: ﴿أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْوِهِ إِذَا تَغَيَّرَ﴾ وَجِهَانِ آخَرَانِ مِنَ الْحِكْمَةِ:

[أَخَذَهُمَا]^(٧): ﴿أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ أَنَّهُ أَوَّلُ مَا يَخْرُجُ يَخْرُجُ عَلَى لَوْنٍ وَاحِدٍ وَعَلَى قَدَرٍ وَاحِدٍ وَعَلَى طَعْمٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ تَخْتَلِفُ ألْوَانُهَا وَطُعُومُهَا^(٨)، وَتَتَفَاوَتْ أَقْدَارُهَا لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ كَانَ بِتَدْبِيرٍ وَاحِدٍ عَلِيمٍ حَكِيمٍ قَادِرٍ عَلَى خَلْقِ الْأَشْيَاءِ بِلا سَبَبٍ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ بِسَبَبٍ، لَا يَتَدَبَّرُ فِيهِ، كَانَ سَبَبٌ هَذَا كُلُّهُ وَاحِداً، فَيَجِيءُ أَنْ يَخْرُجَ كُلُّهُ عَلَى سَنَنِ وَاحِدٍ. دَلٌّ أَنَّهُ خَالِقٌ بِذَاتِهِ لَا بِسَبَبٍ^(٩).

والثَّانِي^(١٠): ﴿أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْوِهِ إِذَا تَغَيَّرَ﴾ أَنَّهُ جَعَلَ مَا يَطِيبُ مِنْهُ لِلْبَشَرِ، وَعَلَّمَهُمْ أَسْبَاباً يَتَّخِذُونَ بِهَا الْعُلْيَابَ مِنْ ذَلِكَ مِنْ نَحْوِ النَّضِجِ وَالطَّبَخِ وَغَيْرِهِ، وَجَعَلَ لِغَيْرِهِمْ مِنَ الْحَيَوَانِ كَمَا هُوَ خَارِجٌ مِنَ الْأَرْضِ لِيَعْلَمُوا أَنَّ غَيْرَهُمْ مِنَ الْحَيَوَانِ وَالِدَوَابِّ إِنَّمَا جَعَلَهُمْ لِمَنَافِعِ الْبَشَرِ مُسَخَّرِينَ لَهُمْ، وَأَنَّ الْبَشَرَ هُمُ الْمَفْضُودُونَ فِي خَلْقِ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا، وَبِاللَّهِ الْحَوْلُ وَالْقُوَّةُ، وَلَهُ الْمِنَّةُ وَالْفَضْلُ.

الآية ١٠٠

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ أَيِ قَالُوا: اللَّهُ شُرَكَاءُ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾ [النحل: ٥٧] أَيِ يَقُولُونَ: لِلَّهِ الْبَنَاتُ، أَوْ وَصَفُوا اللَّهَ؛ دَلِيلُهُ مَا ذَكَرَ فِي آخِرِهِ ﴿سُبْحَنَكَ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ دَلٌّ هَذَا أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ أَيِ وَصَفُوهُ^(١١) بِالشُّرَكَاءِ وَالْوَلَدِ.

وقوله تعالى: ﴿شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: هَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَبَاً﴾ [الصافات: ١٥٨]. وَقِيلَ: إِنَّهُمْ لَمْ يَعْبُدُوا الْجِنَّ، وَلَا قَصَدُوا قَصْدَ عِبَادَةِ الشَّيْطَانِ جِئِينَ^(١٢) قَالَ: ﴿بَيْنَهُمَا آدَمُ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُرْ عَدُوٌّ

(١) فِي الْأَصْلِ وَ: م. يَنَالُهُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَ: م. ثَمَرَتِهَا. (٣) فِي الْأَصْلِ وَ: م. مُخْتَلَفٌ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَ: م. وَجُوهَا أَيْ. (٥) فِي الْأَصْلِ: أَيْ كَيْفَ، فِي م: أَنْ كَيْفَ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَ: م. وَ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَ: م. أَنْ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَ: م. طَعْمُهَا. (٩) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: سَبَبٌ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَ: م. وَالثَّالِثُ: أَنْ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَ: م. وَصَفُوا. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَ: م. حَيْثُ.

مُتَّبِعِينَ [يس: ٦٠] لَأَنَّ جَمِيعَ أَهْلِ الْكُفْرِ^(١) عَلَى اخْتِلَافِ مَذَاهِبِهِمْ يَبْغُضُونَ الشَّيْطَانَ، وَيَلْتَمِعُونَ^(٢) عَلَيْهِ. وَلَكِنْ مَغْنَاهُ أَنَّ الشَّيْطَانَ هُوَ الَّذِي دَعَاهُمْ إِلَى عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ؛ فَإِذَا عَبَدُوا الْأَصْنَامَ بِدُعَائِهِ فَكَأَنَّهُمْ عَبَدُوهُ؛ إِذْ بِأَمْرِهِ وَيُدْعَايِهِ يَعْبُدُونَهَا، أَوْ كَمَا رُوِيَ فِي الْحَبَرِ أَنَّ الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَطْلُعُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ، فَإِذَا عَبَدُوهَا فَكَأَنَّهُمْ عَبَدُوا الشَّيْطَانَ، مِثْلُ هَذَا يُخْتَمَلُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فَإِنْ قِيلَ: فَإِذَا صَارُوا كَأَنَّهُمْ عَبَدُوا الشَّيْطَانَ وَمَنْ ذَكَرَ مِنَ الْجِنِّ بِدُعَائِهِمْ إِلَى ذَلِكَ وَبِأَمْرِهِمْ بِذَلِكَ حَتَّى نَسَبَ، وَأَصَافَ الْعِبَادَةَ إِلَيْهِمْ، كَيْفَ لَا صَارَ الْمُؤْمِنُونَ كَأَنَّهُمْ عَبَدُوا الرَّسُلَ؟ كَأَنَّهُمْ إِنَّمَا عَبَدُوا اللَّهَ بِدُعَاءِ الرَّسُلِ وَبِأَمْرِهِمْ؟ قِيلَ: لَأَنَّ الرَّسُلَ إِنَّمَا دَعَوْهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ، وَأَمَرُوهُمْ بِذَلِكَ. وَأَمَّا أَوْلَئِكَ فَإِنَّمَا دَعَوْهُمْ إِلَى عِبَادَةِ مَنْ ذَكَرَ مِنْ ذَاتِ أَنْفُسِهِمْ.

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ إِيحَابًا لِأَوْلِيَائِهِ وَتَذْكِيرٌ لَهُمْ حُسْنِ صَنِيعِهِ إِلَى أَعْدَائِهِ مِنَ الْإِنْعَامِ عَلَيْهِمْ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ، وَفُتِحَ صَنِيعُ أَوْلَئِكَ إِلَيْهِ مِنْ وَصْفِهِمْ إِيَّاهُ بِالْوَلَدِ وَالشُّرَكَاءِ [لِيُعَامِلُوهُمْ مُعَامِلَةً]^(٣) الْأَعْدَاءِ أَوْ مُعَامِلَةً أَمْثَالِهِمْ. [وَقَوْلُهُ تَعَالَى]^(٤): ﴿وَسَلَفَهُمْ﴾ [يَخْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا:]^(٥) يَعْلَمُونَ أَنَّهُ هُوَ خَلَقَهُمْ، ثُمَّ يُشْرِكُونَ غَيْرَهُ فِي أُلُوهِيَّتِهِ وَعِبَادَتِهِ، لَا يُوجِّهُونَ شُكْرَ نِعَمِهِ إِلَيْهِ^(٦).

وَالثَّانِي: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَسَلَفَهُمْ﴾ أَيِ خَلَقَ هَذِهِ الْأَصْنَامَ الَّتِي يَعْبُدُونَهَا، [وَيَعْلَمُونَ أَنَهَا]^(٧) مَخْلُوقَةٌ مُسَخَّرَةٌ مَذَلَّةٌ. فَمَعَ مَا يَعْلَمُونَ^(٨) هَذَا يُشْرِكُونَ فِي أُلُوهِيَّتِهِ وَعِبَادَتِهِ. فَكَيْفَ يَكُونُ الْمَخْلُوقُ الْمُسَخَّرُ شَرِيكًا لَهُ؟

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَحَرِّقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِقَبْرِ عَذِيبٍ﴾ هُمْ كَانُوا فِرْقًا وَأَصْنَافًا؛ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ بَأَنَّ عِيسَى ابْنُهُ، وَهُمْ النَّصَارَى، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ بَأَنَّ عَزِيرًا ابْنُهُ، وَهُمْ الْيَهُودُ^(٩)، وَقَالَ مُشْرِكُو الْعَرَبِ: الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى﴾ [عَلَّكَ إِذَا فُسِّتَ صَبْرَكَ] [النجم: ٢١ و ٢٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾ [الطور: ٣٩] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [الزخرف: ١٧] فَإِذَا أَنْفَقْتُمْ^(١٠) أَنْتُمْ مِنَ الْبَنَاتِ كَيْفَ نَسَبْتُمْ [الْبَنَاتِ]^(١١) إِلَيْهِ؟

وَفِي^(١٢) الْآيَةِ يُضَيِّرُ رَسُولُ اللَّهِ عَلَى آذَانِهِمْ؛ يَقُولُ: مَعَ كَثْرَةِ مَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنَ النِّعَمِ وَالْمَنْنِ يُشْرِكُونَ فِي عِبَادَتِهِ غَيْرَهُ، فَأَنْتَ إِذَا لَمْ يَكُنْ مِنْكَ إِلَيْهِمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ أَوَّلَى أَنْ تُضَيِّرَ عَلَى آذَانِهِمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَقْتَرِعُونَ﴾ أَيِ يَعْلَمُونَ هُمْ أَنَّ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَا شَرِيكٌ. وَلَكِنْ كَانُوا يُكَابِرُونَ. وَيَخْتَمِلُ ﴿يَقْتَرِعُونَ﴾ عَلَى جَهْلِ يَقُولُونَ ذَلِكَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ هُوَ حَرْفٌ تَعْظِيمٌ وَتَنْزِيهِ؛ جَعَلَهُ^(١٣) فِي مَا بَيْنَ الْخَلْقِ، بِوَيْعُظْمُونِ، وَبِهِ يَنْفَعُونَ كُلَّ غَيْبٍ فِيهِ. فَقُلِيَ ذَلِكَ ذِكْرُهُ^(١٤) عِنْدَ وَصْفِ الْكُفْرِ [اللَّهُ]^(١٥) بِالْوَلَدِ وَالشَّرِيكِ وَالْغُيُوبِ تَنْزِيهًا [وَتَبْرِيئًا مِنْ]^(١٦) كُلِّ غَيْبٍ وَصَفْوَةٍ [بِهِ]^(١٧) وَتَعَالَى عَنْ جَمِيعِ مَا قَالُوا فِيهِ، وَهُوَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، كَمَا يَقُولُونَ: مَعَاذَ اللَّهِ تَعْظِيمًا وَتَبْرِيئًا مِنْ^(١٨) ذَلِكَ.

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ نَقَضَ قَوْلَ الْمُعْتَزَلَةِ^(١٩): إِنَّ صِفَاتِ اللَّهِ لَيْسَتْ إِلَّا وَصَفَ الْوَاصِفِينَ. قُلُوا لَمْ يَكُنْ إِلَّا وَصَفَ الْوَاصِفِينَ لَا غَيْرَ لَكَانَ لَا مَعْنَى لَدَمْ بَعْضُ الْوَاصِفِينَ وَحَمْدُ بَعْضِهِمْ. ثَبَتَ أَنَّ فِي ذَلِكَ صِفَةً سِوَى وَصْفِ الْوَاصِفِينَ.

(١) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: الْكُفْرَةُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: يَلْتَمِعُونَ. (٣) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: لِيُعَامِلُونَ. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: أَيِ. (٦) أَدْرَجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: مُعَامِلَةُ الْأَعْدَاءِ أَوْ مُعَامِلَةُ أَمْثَالِهِمْ وَخَلَقَهُمْ أَيِ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ هُوَ خَلَقَهُمْ وَيُشْرِكُونَ غَيْرَهُ فِي أُلُوهِيَّتِهِ وَعِبَادَتِهِ لَا يُوجِّهُونَ شُكْرَ نِعَمِهِ إِلَيْهِ. (٧) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٨) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: يَعْلَمُونَ. (٩) إِيحَابًا إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]. (١٠) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: أَنْفَقْتُمْ. (١١) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١٢) الْوَائِ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: جَعَلَ. (١٤) فِي الْأَصْلِ وَم: ذَكَرَ. (١٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَتَبْرئةً عَنْ. (١٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٨) فِي الْأَصْلِ وَم: عَنْ. (١٩) أَدْرَجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: لِقَوْلِهِمْ.

الآية ١٠١

وقوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَفَنُكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾ قوله: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي أنشأهما بلا احتذاء/ ١٥٧ - / ولا امتثال بغير. هذا يردُّ على القرامطة قولهم؛ لأنهم يقولون: فهو مُبدِع، ويقولون: المُبدِع الثاني هو أوَّلُ مَخْلُوقٍ خُلِقَ مِنْهُ جَمِيعُ الْعَالَمِ. فلو كَانَ أَوَّلُ خَلْقٍ خُلِقَ مُبدِعاً فهو مُبدِع. والإبداع هو إحداث شيء، لم يسبق له أصل ولا مثال. ولهذا ما يقال لِمَنْ أَخَذَ فِي دِينِهِ شَيْئاً: مُبتَدِعٌ لَأَنَّهُ أَخَذَ فِيهِ شَيْئاً لَمْ يَسْبِقْ لَهُ أَصْلٌ وَلَا مِثَالٌ.

وقوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَفَنُكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾ [يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أحدهما أن^(١) مَنْ قَدَّرَ عَلَى إبداع السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا عَنْ أَصْلٍ سَبَقَ وَلَا عَنْ مِثَالٍ تَقَدَّمَ فَأَتَى تَقَعُّهُ لِهَاجَتِهِ إِلَى الْوَلَدِ؟ وَالْوَلَدُ فِي الشَّاهِدِ إِنَّمَا يَتَّخِذُ لِأَخْدَى خِصَالٍ ثَلَاثَ: إمَّا لِلانْتِصَارِ عَلَى الْأَعْدَاءِ وَالْإِنْتِقَامِ مِنْهُمْ وَإِمَّا لِيَوْخَشِيَةَ تَأْخِذِهِمْ، وَإِمَّا لِحَاجَةٍ تَمَسُّهُمْ. فَاللهُ، سُبْحَانَهُ، يَتَعَالَى عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، فَأَتَى يَتَّخِذُ وَلَدًا؟

والثاني: ﴿أَفَنُكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً أَي تَعْرِفُونَ أَنَّ الْوَلَدَ لَا يَكُونُ فِي الشَّاهِدِ إِلَّا عَنْ صَاحِبَةٍ، وَلَيْسَتْ لَهُ صَاحِبَةٌ، فَأَتَى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ؟ كَانَ الْخِطَابُ كَانَ فِي قَوْمٍ يَتَفَوَّنُ عَنْهُ الصَّاحِبَةُ لِلشَّهَوَاتِ الَّتِي مُكِنَتْ فِيهِمْ؛ فَالشَّهْوَةُ هِيَ الَّتِي تَقْهَرُ الْمَرْءَ، وَتَحْمِلُهُ عَلَى الْحَاجَةِ.

وقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فِيهِ نَقْضٌ قَوْلِ الْمُعْتَزَلَةِ لِأَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ. وَعَلَى قَوْلِهِمْ: لَمْ يَخْلُقْ جُزْءاً مِنْ أَلْفِ جُزْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ؛ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَخْلُقْ أَفْعَالَ الْعِبَادِ وَلَا حَرَكَاتِهِمْ وَلَا سَكَاتِهِمْ وَلَا قِيَامَهُمْ وَلَا قُعُودَهُمْ وَلَا شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ.

ثم لَا يَجُوزُ أَنْ تُصَرَّفَ الْآيَةُ إِلَى الْخُصُوصِ، وَهِيَ ^(٢) تَخْرُجُ مَخْرَجَ الْعُمُومِ ^(٣)، وَلَوْ جَازَ أَنْ يُصَرَّفَ هَذَا إِلَى ^(٤) شَيْءٍ دُونَ شَيْءٍ لِمَجَازٍ لَغَيْرِهِمْ أَنْ يُصَرِّفُوا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ إِلَى شَيْءٍ دُونَ شَيْءٍ.

وكذلك قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦ والزمر: ٦٢] [هو رَدٌّ] ^(٥) عَلَى قَوْلِ الْمُعْتَزَلَةِ: هُوَ خَالِقُ بَعْضِ الْأَشْيَاءِ، لَيْسَ هُوَ بِخَالِقِ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا عَلَى مَا أَخْبَرَ فَلَان. [فلو] ^(٦) جَازَ صَرْفُهُ إِلَى بَعْضِ الْأَشْيَاءِ دُونَ بَعْضٍ لَجَازَ أَيْضاً صَرْفُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢] ... إِلَى بَعْضِ دُونَ بَعْضٍ [لأنه] ^(٧) حَفِظَ بَعْضُ الْأَشْيَاءِ، وَلَمْ يَحْفَظِ الْكُلُّ. فَإِنَّ لَمْ يَجْزِ هَذَا لِأَنَّهُ ^(٨) خَرَجَ مَخْرَجَ الْعُمُومِ ^(٩)، فَعَلَى ذَلِكَ لَا يَجُوزُ صَرْفُ الْأَوَّلِ إِلَى بَعْضِ دُونَ [بَعْضٍ] ^(١٠) لِأَنَّهُ عُمُومٌ ^(١١). وَلَئِنْ جَازَ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ الْعَبْدَ هُوَ خَالِقُ ذَلِكَ جَازَ أَنْ يُقَالَ: هُوَ خَالِقُ الْكُلِّ وَالْقَادِرُ عَلَيْهِ؛ فَهَذَا سَمْعٌ بَيِّنٌ، نَسْأَلُ اللَّهَ الْعِظَمَةَ عَنِ السَّرَفِ فِي الْقَوْلِ وَالزَّيْغِ عَنِ الْحَقِّ، فَإِنَّهُ لَا حَوْلَ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

الآية ١٠٢

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أَيِ ابْتَدَعَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا ذَكَرَ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَنِيِّ وَالنَّعَمِ الَّتِي أَنْعَمَ عَلَيْهُمْ مِنْ نَحْوِ مَا جَعَلَ لَهُمْ مِنَ النُّجُومِ لِيَهْتَدُوا بِهَا فِي الظُّلُمَاتِ وَمَا ذَكَرَ أَنَّهُ أَنْشَأَهُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَمَا ذَكَرَ مِنْ إِنْزَالِ الْمَاءِ مِنَ السَّمَاءِ وَإِخْرَاجِ مَا أَخْرَجَ بِهِ مِنَ النَّبَاتِ وَالشَّجَرِ وَالْحَبُوبِ وَالْأَعْنَابِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ عَجِيبِ حِكْمَتِهِ؛ ذَلِكَ كُلُّهُ بِاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ مُنْشِئُ ذَلِكَ كُلِّهِ ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ أَيِ إِلَيْهِ وَجْهًا شُكْرًا نِعْمًا، وَلَا تُوجِّهُوا ^(١٢) إِلَى غَيْرِهِ.

قال ^(١٣) الْكِسَائِيُّ: أَيِ بَدِيعِ السَّمَوَاتِ وَبَادِعِ السَّمَوَاتِ وَاجِدٌ كَمَا يُقَالُ: عَالِمٌ وَعَلِيمٌ، وَبَدَعٌ، وَابْتَدَعَ، بِمَعْنَى وَاجِدٍ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ مِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١].

الآية ١٠٣

وقوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ﴾ قِيلَ: كُنِيَ بِالْأَبْصَارِ عَنِ الْخَلْقِ؛ كَأَنَّهُ قَالَ: لَا يُدْرِكُهُ الْخَلْقُ، وَهُوَ يُدْرِكُ الْخَلْقَ، وَإِنَّمَا كُنِيَ بِالْأَبْصَارِ عَنِ الْخَلْقِ لِمَا بِالْأَبْصَارِ تُدْرِكُ الْأَشْيَاءَ، وَيُحَاطُ بِهَا لِذَلِكَ كَانَ مَعْنَى الْكِتَابَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: أَي. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَهُوَ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: الْاِمْتِدَاح. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: عَلَى. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.
(٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: أَنَّهُ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: الْاِمْتِدَاح. (١٠) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: اِمْتِدَاح. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: تَوَجَّهُوا. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: قَالَهُ.

وقيل: هو على حقيقة الإبصار لكنه بصر القلب لما به تقع المعارف. فإن كان بصر الوجه فيه دليل إثبات الرؤية لأنه نفى عنه الإدراك. فلو لم يكن لنفي الإدراك معنى، لأنه لا يذكرك ما لا يرى، ذلك^(١) نفى الإدراك على أن هناك رؤية. لكنه لا يذكرك، ولا يحاط به على ما ذكر ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]؛ إذ من الأشياء الظاهرة ما يقع عليها البصر يكون لها سر، وفيها خفي، من نحو البصر والسمع والأنف واليد وغير ذلك من الأشياء مما لا تذكرك حقيقة ماهيتها وكيفيتها، ولا تقديرها.

يبصر بالبصر أشياء لا تعرف حقيقة كيفية البصر ولا ماهيته، وكذلك السمع لا يدرى أنه كيف؟ ولا يسمع؟ وكذلك هذا في كل جارحة وحاسة تجد اليد^(٢) حشونة الشيء الذي تمسه ولينه، لا تعرف بم تجد ذلك، وتعرفه؟ وكذلك الكلام من اللسان والشم من الأنف لا يدرى ما هو؟ ولا كيف؟ وبم تجد تلك الرائحة والشم؟

فإذا كانت معارف الخلق في الأشياء الظاهرة التي يقع عليها البصر لا تذكرك حقيقة ماهيتها ولا تعرف كيفيةها، ولا يحاط بها علماً، فالله^(٣) الذي يحكمه وضع ذلك، ويلطفه ركب، ابتعد عن الإدراك وأخرى ألا يحاط به، ولا يذكرك. وهذا يراد على المجسمة مذهبهم لأنهم يصورون ربهم في قلوبهم، ويؤمنونه، فعلى ذلك يغبدونه؛ فهم مشبهة.

وأضله أن الله، تبارك، وتعالى، عرف بالآيات والدلائل لا بالمشحوسات والمشاهدات. وكل شيء سبيل معرفته الآيات والدلائل فهو غير محاط به ولا مذكرك، فهو على ما وصف نفسه [بقوله تعالى]^(٤) ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠] [وقوله تعالى]^(٥): ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] لأن الإدراك والإحاطة [لا تعرف]^(٦) بالمشحوسات إنما^(٧) تعرف بالآيات والدلائل.

وعلى ذلك جاءت دلائل الرسل نحو ما قال موسى حين سأله فرعون: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾ [طه: ٤٩ و ٥٠] وما^(٨) قال: ﴿إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُبْعَثُ قَالِ أَنَا أَنبِيءُ قَالِ إِبْرَاهِيمُ قَالَتْ أَنَّى يَأْتِيكُمُ الْبَشَرُ مِنْ الْمَشْرِيقِ قَالَتْ بَيْنَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨] [هاتان دلتان]^(٩) على ألوهيته وخدائيه من جهة الآيات والدلائل لا من غيرها^(١٠). وعلى ذلك دل الله الخلق على معرفة وخدائيه وربوبيته بقوله^(١١) تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا﴾ [الأنعام: ٩٧] وقوله^(١٢) تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ﴾ [يونس: ٥] وقوله^(١٣) تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَبَاتٌ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩٩] إلى آخر ما ذكر دلهم على ما يعرفون ألوهيته من جهة الآيات والدلائل لا من جهة ما تقع الإحاطة والإدراك، وبالله الهداية والرشاد.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ قيل ﴿اللَّطِيفُ﴾ في أفعاليه ﴿الْخَبِيرُ﴾ بخلفه وباعمالهم، وقيل: ﴿اللَّطِيفُ﴾ البار الرحيم، وقيل: ﴿اللَّطِيفُ﴾ هو العلیم بخصيائ الأشياء و﴿الْخَبِيرُ﴾ بظواهر الأشياء. ثم هو ﴿اللَّطِيفُ﴾ العظيم، والعظيم في الشاهد غير اللطيف، واللطيف غير العظيم لأن العظيم في الشاهد هو الذي به كثافة، واللطيف ما يلطف في نفسه، ويرق، وكل واحد منهما مما يناقض الآخر؛ ليعلم أنه لطيف عظيم لا من الوجه التي تعرف في الخلق. وكذلك قوله تعالى: ﴿الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣] وهو أول وآخر، وظاهر وباطن. وفي الخلق من كان أولاً لم يكن آخر، ومن كان ظاهراً لم يكن باطناً ليعلم أنه أول وآخر وظاهر وباطن لا من الوجه الذي يعرف، ويفهم من الخلق، ولكن مما^(١٤) وصف نفسه.

الآية ١٠٤

وقوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:]

أخذهما: [١٥] قيل: بينات من ربكم، وقيل: البصائر الهدى [وهي]^(١٦) بصائر في قلوبهم، وليست ببصائر الرؤوس،

(١) في الأصل وم: فدل. (٢) في الأصل وم: اليوم. (٣) من م، في الأصل: والله. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: إنما تقع. (٧) في الأصل وم: لا بما. (٨) في الأصل وم: و. (٩) في الأصل وم: دلا. (١٠) في الأصل وم: غيره. (١١) في الأصل وم: وقال. (١٢) في الأصل وم: وقال. (١٣) في الأصل وم: ما. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) ساقطة من الأصل وم.

وهو قول عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، وَقِيلَ ﴿بَصَائِرُ﴾ أَي بَيَانٌ، وهو واحدٌ، وَقِيلَ: ﴿بَصَائِرُ﴾ شَوَاهِدٌ؛ أَي قد جاءكم مِنَ اللَّهِ شَوَاهِدٌ تَدُلُّكُمْ عَلَى أَلُوهِيَّتِهِ؛ وهو كقولِهِ تعالى: ﴿بِآيَاتِنَا عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة: ١٤] أَي بِلِ الْإِنْسَانِ مَنْ نَفْسُهُ بَصِيرَةٌ أَي شَاهِدَةٌ، تَشْهَدُ كُلُّ جَارِحَةٍ مِنْهُ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَأَلُوهِيَّتِهِ.

أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؟ [النور: ٢٤] هذا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، لَأَنَّهُمْ كَانُوا يُقْلِدُونَ آبَاءَهُمْ فِي عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ / ١٥٧ - ب/ وَالْأَصْنَافِ، وَيَقُولُونَ: ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣] ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] فيقول: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ مِنَ الْآيَاتِ وَالرُّسُلِ مَا لَوْ اتَّبَعْتُمُوهُمْ لَكُنْتُمْ أَكْثَرًا شُفَعَاءَ عِنْدَ اللَّهِ.

والثاني: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ مَا لَوْ تَفَكَّرُوا، وَتَدَبَّرُوا، وَنَظَرُوا فِيهَا، لَعَرَفُوا أَنَّهَا بَصَائِرُ مِنَ اللَّهِ؛ لِأَنَّ الْبَشَرَ أَتَشَوُّوا بِحَيْثُ يَنْظُرُونَ فِي الْعَجِيبِ مِنَ الْأَشْيَاءِ. فَكَانُوا عَلَى أَمْرَيْنِ؛ مِنْهُمْ مَنْ نَظَرَ، وَتَفَكَّرَ، وَعَرَفَ أَنَّهَا بَصَائِرُ، لَكِنَّهُ عَانَدٌ، وَكَابَرٌ، وَلَمْ يَعْمَلْ بِهَا، وَمِنْهُمْ مَنْ تَرَكَ النَّظَرَ فِيهَا، فَعَمِيَ عَنْهَا، مَا لَوْ تَفَكَّرُوا، وَنَظَرُوا، لَتَبَيَّنَ لَهُمْ.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ. وَمَنْ عَمِيَ﴾ أَي أَبْصَرَ الْحَقَّ وَالْهُدَى، وَعَمِيَ بِهِ، فَلِنَفْسِهِ عَمِلَ، وَمَنْ أَبْصَرَ، وَعَمِيَ عَنْهَا، أَي تَرَكَ الْعَمَلَ، فَعَمَلَهَا تَرَكَ، كقولِهِ تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ. وَمَنْ أَسَاءَ فَلِنَفْسِهِ﴾ [الجاثية: ١٥] فَإِنْ قِيلَ: ذَكَرَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢] أَخْبَرَ أَنَّ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَمَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ، وَهَهُنَا يَقُولُ: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ. وَمَنْ عَمِيَ فَلِنَفْسِهِ﴾ ذَكَرَ عَمِيَ عَنْهَا، فَكَيْفَ وَجْهَ التَّوْفِيقِ بَيْنَهُمَا؟

قِيلَ: يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَمِيَ﴾ بَعْدَ [مَا] تَبَيَّنَ لَهُ، فَتَرَكَ الْعَمَلَ بِهَا ﴿فَعَمَلَهَا﴾ لِأَنَّهُ أَبْصَرَهَا، وَعَرَفَ أَنَّهَا مِنَ اللَّهِ، لَكِنَّهُ عَانَدٌ^(٢)، وَكَابَرٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَا عَلَيْكُمْ مِنْ خَبَرٍ﴾ أَي ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ فَلَيْسَ عَلَيْنَا إِلَّا التَّبْلِيغُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [المائدة: ٩٩].

الآية ١٠٥ وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ أَي نَرُدُّهَا فِي الْوُجُوهِ الَّتِي تَتَبَيَّنُ لِقَوْمٍ يَطْلُبُونَ الْبَيَانَ، أَوْ نَقُولُ: ﴿نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ أَي نَضَعُ كُلَّ آيَةٍ، وَنُضَرِّفُهَا إِلَى الْوُجُوهِ الَّتِي يَكُونُ بِالْخَلْقِ حَاجَةً إِلَيْهَا.

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ فِيهِ لُغَاتٌ^(٣): دَرَسْتُ، وَدَارَسْتُ، وَدَرَسْتُ؛ وَدَرَسْتُ قَرَأْتُ، وَدَارَسْتُ تَعَلَّمْتُ، وَقِيلَ: دَارَسْتُ أَهْلَ الْكِتَابِ: جَادَلْتُهُمْ، وَدَرَسْتُ بِالْجَزْمِ قِيلَ: تَقَادَمَتْ. فَهَذَا الْإِخْتِلَافُ فِيهِ لِإِخْتِلَافِ قَوْلِ كَانٍ مِنَ الْكُفَرَةِ لِرَسُولِ اللَّهِ؛ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: ﴿مَا هَذَا إِلَّا إِنْكَ تَفْتَرِي﴾ [سبا: ٤٣] وَهُوَ تَأْوِيلُ: ﴿دَرَسْتُ﴾ فَعَلَى إِخْتِلَافِ تَأْوِيلِهِمْ خَرَجَتْ الْقِرَاءَةُ.

ثم اِخْتَلَفَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلْيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ فَهُوَ صِلَةُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ ﴿وَلْيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ وَقَالَ الْحَسَنُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلْيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ أَي ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ ﴿وَلْيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ لِأَنَّ [مِنْ]^(٤) قَوْلِهِ: أَنَّهُ بَعَثَ الرُّسُلَ، وَأَنْزَلَ الْكِتَابَ لِيَكُونَ مِنَ الْكَافِرِ^(٥) قَوْلُ كُفِّرَ وَمِنَ الْمُؤْمِنِ قَوْلُ إِيْمَانٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ يَخْرُجُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، عَلَى التَّعْجِيبِ، يُعْجِبُ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ قُبْحِ صَنِيعِ الْكُفَرَةِ وَسُوءِ مُعَامَلَتِهِمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ جَاءَ بِصَائِرٍ^(٦) مِنْ رَبِّهِمْ وَبَيِّنَاتٍ وَحُجَجٍ، ثُمَّ هُمْ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ يَسْتَقْبِلُونَهَا بِالرَّدِّ وَالتَّكْذِيبِ وَهُوَ مَا قُلْنَا: إِنَّ اللَّهَ ذَكَرَ نِعْمَةً عَلَيْهِمْ بِمَا أَنْشَأَ لَهُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ وَالْجَنَاطِ وَالْمَعْرُوشَاتِ وَالزَّرْعِ وَالتَّجِيلِ وَمَا أَخْبَرَ عَنْهُ، وَقَدْ عَلِمُوا ذَلِكَ كُلَّهُ ثُمَّ ﴿وَجَعَلُوا لَهُمْ﴾ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِمْ هَذَا^(٧) ﴿شُرَكَاءَ الَّذِينَ خَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٠] وَلَا بَيِّنَةٌ. فَهُوَ عَلَى التَّعْجِيبِ أَنَّهُمْ كَيْفَ جَعَلُوا لَهُ شُرَكَاءَ، وَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ الَّذِي جَعَلَ هَذَا كُلَّهُ لَهُمْ، هُوَ اللَّهُ.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، في الأصل: عاند. (٣) انظر حجة القراءات (٢٦٤). ومعجم القراءات القرآنية (٣٠٤/٢). (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، في الأصل: الكافرين. (٦) من م، في الأصل: بصائرهم. (٧) من م، في الأصل: لرد.

فَعَلَىٰ ذَٰلِكَ هَذِهِ الْآيَةُ أَنَّهُمْ كَيْفَ قَدَّرُوهُ بِالْدرَاسَةِ، وَقَدْ تَبَيَّنَ لَهُمْ صِدْقُهُ وَأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ بِالْآيَاتِ فِي الدَّلَائِلِ وَبِمَا كَانَ لَا يَخُطُّ كِتَابًا، وَلَا شَهِدُوهُ يَخْتَلِفُ إِلَى مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ ذَٰلِكَ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنُنَبِّئَنَّ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي لِنَبِيِّنَا؛ بِنَبِيِّ الْقُرْآنِ، وَقِيلَ: الْبَصَائِرُ الَّتِي ذَكَرَ لِقَوْمٍ يَتَّبِعُونَ بِعِلْمِهِمْ.

الآية ١٠٦ وقوله تعالى: ﴿أَتَبَعَكَ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ فَإِنْ قِيلَ: مَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾؟ وَإِنَّمَا أُوْحِيَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ، وَيَكْفِي قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَتَبَعَكَ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ﴾. قِيلَ^(١) مَعْنَاهُ عَلَى الْإِضْمَارِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، كَأَنَّهُ قَالَ لِلَّذِي أُوْحِيَ إِلَيْهِ عَلَى يَدَيْهِ: قُلْ ﴿أَتَبَعَكَ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ ثُمَّ أَمَرَ نَبِيَّهُ بِاتِّبَاعِ مَا أُوْحِيَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ، أَيْ اغْمَلْ بِمَا أُوْحِيَ.

ثُمَّ الْأَمْرُ بِالْعَمَلِ يَخْتَمِلُ وَجْهَيْنِ: يَخْتَمِلُ الْأَمْرُ بِالْإِغْتِقَادِ بِذَٰلِكَ، وَيَخْتَمِلُ [الْعَمَلُ نَفْسُهُ]^(٢) أَيْ اغْمَلْ. وَشُبْهُ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ^(٣) بِالْإِتِّبَاعِ اتِّبَاعَ مَا أُوْحِيَ إِلَيْهِ صِدْقًا فِي الْخَبَرِ وَعَدْلًا فِي الْحُكْمِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] قِيلَ: صِدْقًا فِي الْأَخْبَارِ وَعَدْلًا فِي الْأَحْكَامِ. فَعَلَى ذَٰلِكَ أَمْكَنَ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ بِالْإِتِّبَاعِ اتِّبَاعَ مَا أُوْحِيَ إِلَيْهِ صِدْقًا فِي الْأَخْبَارِ وَعَدْلًا فِي الْأَحْكَامِ.

ثُمَّ عَلَى مَا أَمَرَ نَبِيَّهُ بِاتِّبَاعِ مَا أُوْحِيَ [إِلَيْهِ]^(٤) مِنْ رَبِّهِ أَمْرًا أَتَتْهُ كَذَلِكَ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الأعراف: ٣] [وَنَهَايَهُمْ عَنِ اتِّبَاعِ]^(٥) مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ. فَعَلَى مَا نَهَايَهُمْ عَنِ اتِّخَاذِ أَوْلِيَاءَ [مِنْ]^(٦) دُونِهِ قَالَ فِي الْآيَةِ الَّتِي أَمَرَ رَسُولَهُ بِاتِّبَاعِ مَا أُوْحِيَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ، فَقَالَ: ﴿أَتَبَعَكَ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [وقوله تعالى]^(٧): ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ وَاحِدًا، لِأَنَّهُ أَمَرَ بِاتِّبَاعِ مَا أُوْحِيَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ، وَنَهَى أَنْ يَتَّبَعَ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ، لِأَنَّهُ أَخْبَرَ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْرَضَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ يَخْتَمِلُ أَمْرُهُ بِالْإِعْرَاضِ عَنِ الْمُشْرِكِينَ وَجُوهًا: يَخْتَمِلُ أَلَّا تُكَافِئَهُمْ عَلَى أَذَاهُمْ، وَلَكِنْ أَصْبِرْ، وَيَخْتَمِلُ الْإِعْرَاضُ عَنْهُمْ النَّهْيُ عَنْ قِتَالِهِمْ كَأَنَّهُ نَهَى عَنْ قِتَالِهِمْ فِي وَقْتٍ، وَيَخْتَمِلُ^(٨) أَنْ تَكُونَ الْآيَةُ فِي قَوْمٍ خَاصٍّ، قَالَ أَعْرَضَ عَنْهُمْ فَإِنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، وَلَا يُقِيمُ عَلَيْهِمُ الْآيَاتِ وَالْحُجَجَ لِمَا عَلِمَ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ^(٩) لَا يُؤْمِنُونَ.

ثُمَّ عَلَى مَا أَمَرَ نَبِيَّهُ بِالْإِعْرَاضِ عَنْهُمْ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ أَيْضًا بِالْإِعْرَاضِ عَنْهُمْ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ [القصص: ٥٥].

الآية ١٠٧ وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ قَالَتِ الْمُعْتَرِلَةُ: الْمَشِيشَةُ ههنا مَشِيشَةٌ قَهْرٌ وَجَبَرٌ؛ أَيْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْجَزَهُمْ، وَمَنْعَهُمْ عَنِ الشَّرْكِ عَلَى دَفْعِ الْإِتِّبَاعِ وَالْإِمْنِحَانِ.

وَأَمَّا عِنْدَنَا فَالْمَشِيشَةُ^(١٠) مَشِيشَةُ اخْتِيَارٍ وَطَرَعِ^(١١) عَلَى قِيَامِ الْإِتِّبَاعِ وَالْإِمْنِحَانِ. وَبَعْدُ فَإِنَّ مَشِيشَةَ الْجَبْرِ هِيَ خِلْفَةٌ، وَقَدْ كَانُوا جَمِيعًا غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِالْخِلْفَةِ، فَلَا مَعْنَى لِتَأْوِيلِهِمُ الَّذِي تَأَوَّلُوا، ثُمَّ لَا يَخْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ مَشِيشَةً قَهْرٍ وَقَسْرٍ لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ فِي حَالِ الْجَبْرِ وَالْقَهْرِ إِمَانًا وَلَا كُفْرًا، إِنَّمَا يَكُونُ ذَٰلِكَ فِي حَالِ الْإِخْتِيَارِ وَالطَّرَعِ؛ لِأَنَّ الْجَبَرَ وَالْقَهْرَ يَمْنَعُ مَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ فِعْلٌ حَقِيقَةً، بَلْ يَتَحَوَّلُ^(١٢) الْفِعْلُ مِنْهُ، وَيَسْقُطُ، وَيَتَبَيَّنُ لِلَّذِي جَبَرَ، وَقَهَرَ، وَذَٰلِكَ^(١٣) بَعِيدٌ، فَذَلَّ أَنْهُ مَا ذَكَرْنَا، وَبِاللَّهِ الرَّشَادُ.

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِرَكِيلٍ﴾ دَلَالَةٌ أَنَّ طَرِيقَ الْإِسْلَامِ الْإِفْضَالُ وَالْإِنْعَامُ، وَلِلَّهِ أَنْ يَخُصَّ بِهِ مَنْ كَانَ أَهْلًا لِلْإِفْضَالِ وَالْإِنْعَامِ بِاللِّطَائِفِ الَّتِي عِنْدَهُ، وَيَحْرِمُ ذَٰلِكَ، وَلَهُ أَنْ يَجْعَلَ بَعْضَهُمْ أَهْلًا لِذَٰلِكَ إِفْضَالًا مِنْهُ، وَلَا يَجْعَلَ الْبَعْضَ عَدْلًا مِنْهُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَلَكِنْ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: نَفْسُ الْعَمَلِ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: بِالْأَمْرِ. (٤) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٥) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: أَمَرَهُمْ بِاتِّبَاعِ. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) الْوَائِ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٩) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: لَأَنْهَمُ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: الْمَشِيشَةُ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَالطَّرَعِ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: تَحَوَّلَ. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: فَذَٰلِكَ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِرُكِيلٍ﴾ أي لم يُؤَخِّدْ عَلَيْكَ حِفْظُ أَعْمَالِهِمْ، أو [لا] ^(١) تُسْأَلُ أَنْتَ عَنْ صَنِيعِهِمْ، إنما عَلَيْكَ التَّبْلِيغُ، وهو كقولهِ تعالى: ﴿وَمَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٥٢] وكقولهِ ^(٢) تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَيْهِ مَا مِثْلُ بَعْضِ مَا خُلِّفْتُمْ﴾ [النور: ٥٤] ونحوهُ. وقيل: الحَفِيفُ والوَكِيلُ واحد. وقيل: الوَكِيلُ هو الكَفِيلُ، وقد ذَكَرْنَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ فِي مَا تَقَدَّمَ.

(الآية ١٠٨) وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ نَهَانَا عَنْ سَبِّ مَنْ يَسْتَحِقُّ السَّبَّ مَخَافَةَ سَبِّ مَنْ لَا يَسْتَحِقُّ، وقد أَمَرْنَا بِقِتَالِهِمْ، وَإِذَا قَاتَلْنَاهُمْ قَاتِلُونَا. وقيل: سَبُّ الْمُؤْمِنِينَ بِغَيْرِ حَقٍّ مِنَ الْمَنَاقِبِ. وكذلك أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِتَّبْلِيغِ الرِّسَالَةِ وَالثَّلَاوَةِ عَلَيْهِمْ، وَإِنْ كَانُوا يَسْتَقْبِلُونَهُ بِالتَّكْذِيبِ.

وقيل ^(٣): السَّبُّ لَوْلَاكَ [مُبَاحٌ] ^(٤) غَيْرُ مَفْرُوضٍ، [وَالْقِتَالُ مَعَهُمْ فَرَضٌ] ^(٥) وكذلك التَّبْلِيغُ فَرَضٌ، يُبْلَغُ ^(٦) إِلَيْهِمْ، وَإِنْ كَانُوا يُنْكِرُونَ مَا يُبْلَغُونَ ^(٧)، وكذلك الْقِتَالُ نَفَاتِلُهُمْ، وَإِنْ كَانَ فِي ذَلِكَ إِهْلَاكٌ أَنْفُسِنَا.

وَأَصْلُهُ أَنْ مَا خَرَجَ الْأَمْرُ بِهِ مَخْرَجَ ^(٨) الْإِبَاحَةِ فَإِنَّهُ ^(٩) يُنْهَى عَمَّا يَتَوَلَّدُ مِنْهُ، وَيَخْذُلُ، وَمَا كَانَ الْأَمْرُ بِهِ أَمْرَ فَرَضٍ وَلَزُومٍ، فَلَا ^(١٠) يُنْهَى عَنِ الْمُتَوَلَّدِ مِنْهُ وَالْحَادِثِ. وَيَجُوزُ / ١٥٨ - أُنْ يُسْتَدَلُّ بِهَذَا عَلَى تَأْيِيدِ مَذْهَبِ أَبِي حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ: مَنْ ^(١١) قَطَعَ يَدَ آخَرٍ بِقِصَاصٍ، فَمَاتَ فِي ذَلِكَ، أُجِزَ بِالذِّبَةِ. وَإِذَا قَطَعَ الْيَدَ بِحَدٍّ، لَزِمَتْهُ، فَمَاتَ، لَمْ يُؤْخَذْ بِهِ؛ لِأَنَّهُ أُبِيحَ لَهُ قَطْعُ يَدِهِ، وَالْقِصَاصُ لَمْ يَفْرَضْ عَلَيْهِ [الْمَوْتُ] ^(١٢) وَفِي الْحَدِّ يَلْزَمُ إِقَامَةُ الْحَدِّ لِلَّهِ، فَإِذَا كَانَ قِيَامُهُ بِفِعْلٍ، أُبِيحَ لَهُ الْفِعْلُ، يُنْهَى عَمَّا يَتَوَلَّدُ مِنْهُ، وَيُؤْخَذُ بِهِ، وَإِذَا كَانَ قِيَامُهُ بِفِعْلٍ، فَرَضَ عَلَيْهِ، لَمْ يُؤْخَذْ بِمَا تَوَلَّدَ مِنْهُ.

وَعَلَى هَذَا يَخْرُجُ قَوْلُهُ فِي الْأَمْرِ بِالْخِتَانِ، إِذَا تَوَلَّدَ مِنْ ذَلِكَ الْمَوْتُ، لِأَنَّهُ أَمْرٌ بِإِقَامَةِ الشَّيْءِ، وَكَذَلِكَ الْأَمْرُ بِالْحِجَامَةِ، لِأَنَّهُ يَفْرَضُ عَلَيْهِ الْحِجَامَةُ فِي حَالٍ إِذَا خَافَ عَلَيْهِ الْهَلَاكُ إِذَا لَمْ يُنْجَحْ ^(١٣).

وَأَمَّا الْأَمْرُ بِالذَّقِّ وَغَيْرِهِ وَمَا يُشَاكِلُهُ فَأَمْرٌ ^(١٤) إِبَاحَةٌ لَا أَمْرٌ إلْزَامٌ؛ لِذَلِكَ ضَمِنَ مَا تَوَلَّدَ مِنْهُ.

فَعَلَى ذَلِكَ السَّابِ ^(١٥) الَّذِي يَسُبُّ آلِهَتَهُمْ؛ إِذَا حَمَلَهُمْ ذَلِكَ عَلَى سَبِّ اللَّهِ ﷻ وَسَبِّ رَسُولِهِ ﷺ لَا يُسَبُّونَ، وَإِنْ كَانُوا مُسْتَحِقِّينَ لِذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَنْهَى الرَّجُلُ أَنْ يُعَوِّدَ نَفْسَهُ السَّبَّ. فَعَلَى ذَلِكَ يَجُوزُ أَنْ يُنْهَوْا عَنْ سَبِّ آلِهَتِهِمْ مَخَافَةَ الْإِعْتِيَادِ؛ لِذَلِكَ نُهُوا عَنْ سَبِّ آلِهَتِهِمْ.

ثُمَّ ذَكَرَ فِي الْقِصَّةِ أَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانُوا يُسَبُّونَ آلِهَتَهُمْ، فَيَسُبُّونَ «اللَّهِ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ» وَذَكَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ذَكَرَ آلِهَتَهُمْ بِسُوءٍ، فَقَالُوا: لَنَنْتَهِيَنَّ عَنْ ذَلِكَ أَوْ لَنَهْجُونَ رَبَّكَ. عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: وَذَلِكَ جِئْنِ قَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ الْآيَةُ [الأنبياء: ٩٨] فَقَالُوا عِنْدَ ذَلِكَ مَا قَالُوا، فَنَزَلَ [قَوْلُهُ] تَعَالَى ^(١٦): ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الْآيَةُ. وَلَكِنْ لَا تَذَرِي كَيْفَ كَانَتْ الْقِصَّةُ، وَلَكِنْ فِيهِ مَا ذَكَرْنَا.

وقوله تعالى: ﴿عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ قَالَ الْكِسَائِيُّ وَأَبُو عَوَسَجَةَ «عَدْوًا» مِنَ الْإِعْتِدَاءِ، وَهُوَ مُجَاوِزَةُ الْحَدِّ. وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو عَدْوًا بِالرَّفْعِ ^(١٧)، وَقَالَ: إِنَّمَا الْعَدُوُّ مِنْ عَدُوِّ الرَّجُلَيْنِ، وَكَذَلِكَ قَالَ فِي يُونُسَ: «بَقِيًا وَعَدْوًا» [الآية: ٩٠]. وَقِيلَ: فَلَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «لَا تَسُبُّوا رَبَّكُمْ» فَأَمْسَكُوا عَنْ سَبِّ آلِهَتِهِمْ.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ قَالَ أَبُو بَكْرِ الْكِسَائِيُّ: إِنَّهُ صَلَّةٌ قَوْلُهُ «وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ» إِنَّهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ هَذِهِ الْأَصْنَامَ وَالْأَوْثَانَ، [رَجَاءُ أَنْ تُقَرَّبَهُمْ] ^(١٨) عِبَادَتَهُمْ إِيَّاهَا إِلَى اللَّهِ لِأَنَّهُمْ

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) أدرج قبلها في م: وقيل. (٧) في الأصل وم: يبلغهم. (٨) في الأصل: نخرج. (٩) من م، في الأصل: أنه. (١٠) في الأصل وم: لا. (١١) في الأصل وم: أن. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: يحتجم. (١٤) في الأصل وم: أمر. (١٥) في الأصل وم: السب. (١٦) ساقطة من الأصل وم. (١٧) هي قراءة بعض المكيين، انظر مختصر في شواذ القرآن (٤٠) ومعجم القراءات القرآنية (٣٠٧/٢). (١٨) في الأصل: أن تقرب، في م: رجاء أن تقرب.

كَانُوا يَعْبُدُونَهَا، وَتَخَذُونَهَا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ، فَإِذَا سَبَّوا معبودَهُمْ فَكَأَنَّهُمْ سَبُّوا ﴿اللَّهُ عَدُوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ إِذِ الْعِبَادَةُ فِي الْحَقِيقَةِ لِلَّهِ، فَيَرْجِعُ سَبُّهُمْ إِلَيْهَا إِلَى اللَّهِ. لِذَلِكَ كَانَ مَعْنَى السَّبِّ. فَقَالَ: فَجَعَلَى ذَلِكَ رَجَعَ قَوْلُهُ: ﴿كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَلَيْهِمْ﴾ حَتَّى امْتَنَعُوا عَنْ سَبِّ اللَّهِ. فَذَلِكَ الَّذِي زَيْنَ لَهُمْ عَمَلَهُمْ.

وَقَالَ الْحَسَنُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَلَيْهِمْ﴾ أَي زَيْنًا عَلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِي مَا أَمَرُوا بِهِ، وَفَرَضَ، وَوَجَبَ^(١) عَلَيْهِمْ أَنْ يَفْعَلُوا إِلَّا فِي مَا يُفَرِّضُ، وَلَا يَجِلُّ لَهُمْ أَنْ يَفْعَلُوا. وَكَذَلِكَ يَقُولُ جَعَلَ بَيْنَ حَرْبٍ وَغَيْرِهِ مِنَ الْمُغْتَرَلَةِ: إِنَّهُ زَيْنٌ عَلَيْهِمْ عَمَلُهُمُ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَفْعَلُوا، أَوْ يَأْتُوا بِهِ^(٢). وَأَمَّا مَا لَا يَتَّبِعِي أَنْ يَكُونَ^(٣) فَلَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَبَّ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانُ وَزَيْنًا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرِهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ الْآيَةَ [الحجرات: ٧] ذَكَرَ فِي الْإِيمَانِ التَّزْيِينَ وَفِي الْكُفْرِ التَّكْرِيهَ. وَيَقُولُونَ: إِنَّهُ أَضَافَ التَّزْيِينَ إِلَى الشَّيْطَانِ بِقَوْلِهِ: ﴿زَيْنًا لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨ ...] وَقَوْلِهِ: ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَأَ لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥].

فَالشَّيْطَانُ يُزَيِّنُ لَهُمُ الْمَعَاصِيَ وَالْفُسُوقَ، فَلَا يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ يُزَيِّنُ لَهُمْ مَا يُزَيِّنُ الشَّيْطَانُ. فَذَلِكَ أَنَّهُ إِنَّمَا يُزَيِّنُ لَهُمْ مَا يُؤْمَرُونَ بِهِ، وَفَرَضَ عَلَيْهِمْ، وَلَكِنْ يُضَافُ إِلَيْهِ التَّزْيِينُ مَا أُضِيفَ إِلَيْهِ حَرْفُ الْإِضْلَالِ وَالْإِغْوَاءِ. وَأَمَّا عِنْدَنَا فَالتَّزْيِينُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

[أحدهما: ^(٤)] تَبْيِينُ مِنْ طَرِيقِ الْآيَاتِ وَالْبَرَاهِينِ، فَذَلِكَ لَا يُحْتَمَلُ فِعْلُ الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ أَنْ يَكُونَ مُزَيِّنًا مِنْ جِهَةِ الْآيَاتِ وَالْحُجَجِ.

وَالثَّانِي: تَزْيِينٌ فِي الطَّبَاعِ بِالشَّهَوَاتِ وَالْأَمَانِي، وَفِعْلُ كُلِّ أَحَدٍ مُزَيِّنٌ بِالشَّهْوَةِ وَالْحَاجَةِ الَّتِي مُكِنَتْ فِيهِ. وَلَا شَكَّ أَنَّ كُلَّ كَافِرٍ لَوْ سُئِلَ عَنْ فِعْلِهِ الْكُفْرَ وَالضَّلَالَ، يَقُولُ: هَذَا الَّذِي زَيْنَ لِي، وَلَيْسَ إِضَافَةُ فِعْلِ التَّزْيِينِ إِلَى اللَّهِ بِأَكْبَرَ وَأَبْعَدَ مِنْ إِضَافَةِ الْإِضْلَالِ وَالْإِغْوَاءِ، وَقَدْ ذَكَرْنَا مَعْنَى إِضَافَةِ الْإِضْلَالِ وَالْإِغْوَاءِ إِلَيْهِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ. فَتَعَالَى ذَلِكَ التَّزْيِينُ. وَيَقُولُ أَيْضًا: إِنَّ التَّزْيِينَ تَزْيِينٌ وَعِدٌّ وَثَوَابٌ؛ فَالْكَافِرُ مَتَى يُؤْمِنُ بِالْوَعْدِ فِي الْآخِرَةِ وَالثَّوَابِ فِيهَا؟ وَهُوَ لَيْسَ يُؤْمِنُ فَهَذَا بَعِيدٌ. وَلَا يُحْتَمَلُ مَا قَالَ الْكَيْسَانِيُّ أَيْضًا لِأَنَّهُ لَا كُلُّ الْكُفَرَةِ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ لِتَقَرُّبِهِمْ ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ زُلْفَى، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُعِيرُونَ^(٥) أَنْ لَهُمْ خَالِقًا وَرَبًّا.

وَيُحْتَمَلُ إِضَافَةُ التَّزْيِينِ إِلَى الشَّيْطَانِ عَلَى جِهَةِ التَّمَنِّيِ وَالشَّهْوَةِ كَقَوْلِهِ ﴿مَا هُمْ بِنَعْمٍ وَلَا بِنِقَمٍ﴾ [المجادلة: ١٤] وَإِضَافَتُهُ إِلَى اللَّهِ عَلَى الْقُدْرَةِ عَلَيْهَا وَالسُّلْطَانِ، أَوْ أَنْ يَخْلُقَ أَعْمَالَهُمْ مُزَيَّنَةً عِنْدَهُمْ مُسَوَّلَةً، وَإِضَافَةُ فِعْلِ الضَّلَالِ وَالْفُتُورَةِ إِلَى الشَّيْطَانِ عَلَى الدَّعَاءِ إِلَيْهِ وَالتَّرْغِيبِ فِيهِ وَإِضَافَتُهُ إِلَى اللَّهِ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ فِعْلَ الضَّلَالِ مِنْهُمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ﴾ قَدْ ذَكَرْنَا ﴿فَيُنْزِلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ فِي جَزِيلِ الثَّوَابِ أَوْ فِي أَلِيمِ عَذَابٍ، فَهُوَ عَلَى الْوَعْدِ.

الآية ١٠٩

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنصَرُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ قَالُوا: ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ بِاللَّهِ؛ فَهَذَا يُخْرِجُ عَلَى وَجْهِ:

أَحَدُهَا: أَنَّ الْجَنَّةَ فِي الْيَمِينِ يُخْرِجُ مُخْرَجَ الْإِسْتِخْفَافِ وَالتَّهَاقُوتِ، وَإِنْ كَانَ فِي الْيَمِينِ التَّعْظِيمُ، وَفِي الْجَنَّةِ اسْتِخْفَافٌ، وَفِي الْيَمِينِ بِاللَّهِ جَهْدُ الْيَمِينِ. وَيَحْتَمَلُ وَجْهَيْنِ سِوَى هَذَا:

أَحَدُهُمَا^(٦): مَا قِيلَ: إِنَّ الْكُفَرَةَ كَانُوا لَا يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِلَّا عِنْدَ الْعَظِيمِ مِنَ الْأُمُورِ، [وَفِي^(٧)] الْجَلِيلِ مِنْهَا كَانُوا يَخْلِفُونَ بِدُونِهِ، فَسُمِّيَ الْيَمِينُ بِاللَّهِ جَهْدُ الْيَمِينِ تَعْظِيمًا لِلَّهِ وَتَبْجِيلًا.

وَالثَّانِي: يُحْتَمَلُ أَنَّهُمْ كَانُوا يَخْلِفُونَ بِأَشْيَاءَ، وَيُؤَكِّدُونَ الْيَمِينَ بِاللَّهِ، وَيُسَدِّدُونَهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنفُسُوا الْآيَةَ بَدًا تَوَكِّدُهَا﴾ [النحل: ٩١].

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيَجِب. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: بِهَا. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: يَقُول. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَذَلِكَ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

وقوله تعالى: ﴿لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ قيل: إنهم كانوا يُفْسِمُونَ ﴿جَهَدَ أَيْسَرَهُمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ كانوا يسألون رسول الله ﷺ آيات لئِنْ جَاءَتْهُمْ يُؤْمِنُوا^(١) بها مِنْ نَجْوٍ مَا قَالُوا: ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفُوكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُكُمْ﴾ [الإسراء: ٩٠] وكقولهم: ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفُوكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُكُمْ﴾ [الإسراء: ٩٣] وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ. فَقَالَ ﴿قُلْ﴾^(٢) يَا مُحَمَّدُ ﴿إِنَّمَا الْآيَةُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ هو الذي يُرْسِلُهَا، وَأَنَا لَا أُمْلِكُ إِسْرَالَهَا وَلَا إِزْرَالَهَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٠] وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ إِبْنَاءٍ مِنْهُ أَنَّهُ لَا يَغْلِبُكَ إِزْرَالُ مَا كَانُوا يَسْأَلُونَهُ مِنَ الْآيَاتِ.

ثم قال: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ: قَالَ الْحَسَنُ وَأَبُو بَكْرِ الْأَصَمُّ: إِنَّهُ خَاطَبَ [المؤمنين]^(٣) وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَهْلُ الْقَسَمِ الَّذِينَ^(٤) أَقْسَمُوا ﴿يَا اللَّهُ جَهَدَ أَيْسَرَهُمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ فَقَالَ: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ أَيِ مَا يَذَرِكُمْ [أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ إِذَا جَاءَتْهُمْ]^(٥) آيَةٌ، ثُمَّ اسْتَأْنَفَ، فَقَالَ إِنَّهَا: ﴿إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وَهَكَذَا كَانَ يَقْرَأُ الْحَسَنُ بِالْخَفْضِ^(٦) إِنَّهَا: ﴿إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ عَلَى الْإِسْتِثْنَاءِ وَالْإِبْنَاءِ.

وقال غيرهما^(٧) مِنْ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: الْخَطَابُ لِأَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ^(٨) لَمَّا قَالُوا: ﴿لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ ظَنُّوا أَنَّهُمْ لَمَّا أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ إِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ؛ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ، وَيُؤْمِنُونَ عَلَى مَا يَقُولُونَ، فَقَالَ لَهُمْ: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ عَلَى طَرَحٍ ﴿لَا﴾ أَيِ مَا يَذَرِكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ يُؤْمِنُونَ. وَيُحْتَمَلُ فِيهِ وَجْهٌ آخَرُ عَلَى الْإِضْمَارِ؛ كَأَنَّهُ قَالَ: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ فَاغْلَمُوا ﴿أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ عَلَى الْوَقْفِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ ثُمَّ ابْتَدَأَ، فَقَالَ: اغْلَمُوا ﴿أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وَهَذَا كَأَنَّهُ أَقْرَبُ. وَيَحْتَمِلُ [وَجْهَيْنِ آخَرَيْنِ]:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ أَهْلَ الْإِسْلَامِ قَالُوا: [٩] إِنَّهُمْ إِنْ^(١٠) جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَا يُؤْمِنُوا^(١١)، فَقَالَ عِنْدَ ذَلِكَ: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ خَاطَبَ بِهِ هَؤُلَاءِ: ﴿أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وَالثَّانِي: أَنَّهُمْ وَإِنْ آمَنُوا بِهَا إِذَا جَاءَتْ فَتَقَلَّبَ أَفْئِدَتُهُمْ ١٥٨ - ب/ مِنْ بَعْدُ. وَعَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ أَنَّ خَلْقَ تَقَلُّبِ أَفْئِدَتِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] أَيِ خَلْقَ زَيْغٍ قُلُوبِهِمْ، فَكَذَلِكَ الْأَوَّلُ.

وقوله تعالى: ﴿وَتَقَلَّبَ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ﴾ أَيِ تَقَلَّبَ أَفْئِدَتُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ بِالْحُجَجِ وَالْآيَاتِ، وَتَرَدُّدُهَا، فَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

وقال أَهْلُ التَّأْوِيلِ: ﴿وَتَقَلَّبَ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ﴾ أَيِ نَحْوِ يَتَنَّهُمْ وَبَيْنَ الْإِيمَانِ لَوْ جَاءَتْهُمْ تِلْكَ الْآيَاتُ فَلَا يُؤْمِنُونَ كَمَا حُلْنَا يَتَنَّهُمْ وَبَيْنَ الْإِيمَانِ أَوَّلَ مَرَّةٍ.

وَيَحْتَمِلُ وَجْهًا آخَرَ؛ وَهُوَ أَنَّ يَقْلَبَ فِي أَفْئِدَتِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ آيَاتِ وَخَدَائِثِهِ وَالْوَهْيِيَّةِ، فَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

ثُمَّ تَخْصِيصُ الْأَفْئِدَةِ وَالْأَبْصَارِ دُونَ غَيْرِهَا^(١٢) مِنْ الْجَوَارِحِ لِأَنَّ الْقَلْبَ وَالْبَصَرَ لَا يَقَعُ إِلَّا عَلَى مَا يَشْهَدُ كُلُّ عَلَى وَخَدَائِثِهِ اللَّهِ وَالْوَهْيِيَّةِ.

وقوله تعالى: ﴿كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ هَؤُلَاءِ، وَإِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ فَإِنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ [بِهَا]^(١٣) كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا أَوَّلَهُمْ مِنَ الْأَمَمِ الْخَالِيَةِ لَمَّا سَأَلُوا الْآيَاتِ قَبْلَهُمْ، فَكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا، وَإِنْ جَاءَتْهُمْ الْآيَةُ بَعْدَ السُّؤَالِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: يُؤْمِنُونَ. (٢) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: الَّذِي. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: إِنَّكُمْ تَوْمِنُونَ إِذَا جَاءَتْكُمْ. (٦) قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو وَأَبُو بَكْرٍ: إِنَّهَا بِكَسْرِ الْأَلِفِ وَقَرَأَ الْبَاقُونَ ﴿أَنَّهَا﴾ بِالْفَتْحِ، أَنْظَرُ حُجَّةَ الْقُرْآنِ (٢٦٥) وَمَعْجَمُ الْقُرْآنِ الْقُرْآنِيَّةِ (٣٠٨/٢). (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: غَيْرِهِمْ. (٨) مِنَ الْأَصْلِ وَم: أَنَّهُمْ. (٩) فِي الْأَصْلِ: وَجْهًا آخَرَ وَهُوَ أَنَّ كَانَ أَقْرَبَ فَقَالُوا، فِي م: وَجْهًا آخَرَ وَهُوَ أَنَّ أَهْلَ الْإِسْلَامِ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: وَإِنْ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: غَيْرِهِمْ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: غَيْرِهِمْ. (١٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

وقال غيرهم: قوله تعالى: ﴿كَمَا لَوْ يُؤْمِنُؤُا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي قد جاءتهم آيات قبل هذا على غير سؤال، فلم يؤمنوا بها، فكذلك، وإن جاءتهم بالسؤال فلا يؤمنون.

ويَحْتَمِلُ وَجْهًا آخَرَ؛ وهو أن مشركي العرب كانوا يُقْسِمُونَ بالله أنه إن جاءهم نذير يؤمنوا^(١) به، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَقْسُوا بِاللَّهِ جَهْدَ آيْتِهِمْ لِيَبْلُغَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٢] يَسْغُون، والله أعلم، اليهود والنصارى؛ أي لو جاءهم نذير ليكوننَّ^(٢) أهدى من اليهود والنصارى ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر: ٤٢] يُخْبِرُ أنهم كما لم يؤمنوا بالنذير عند سؤالهم النذير في الابتداء، إذا جاءهم نذير، فكذلك أيضاً لا يؤمنون عند سؤالهم الآيات. وإن جاءتهم آيات، يُخْبِرُ نَبِيَّهُ أَنَّهُمْ لَيْسُوا بِسَالُونَ الْآيَاتِ اسْتِزْشَادٍ، ولكن يسألون سؤال عناد ومكابرة. وهذا التأويل كان أقرب.

وقوله تعالى: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ إذا علم أنهم لا يؤمنون تركهم في ظلمت ضلالتهم يعمهون، ويختبرون. والعَمَّةُ الحيرة في اللغة.

الآية ١١١

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا زُلْنَا إِلَى الْمَلِئِكَةِ لَمَلَكْنَا لَقُلْنَا لَآئِهِمْ أَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩] ثم قال: ﴿وَلَوْ أَنَّا زُلْنَا إِلَى الْمَلِئِكَةِ﴾ الآية أَخْبَرَ أَنَّهُمْ وَإِنْ [زُلْنَا]^(٣) إِلَيْهِمُ الْآيَاتِ بَعْدَ السُّؤَالِ مِنْهُمْ الْآيَاتِ مِنْ إِنْزَالِ الْمَلَائِكَةِ وَتَكْلِيمِ الْمَوْتَى فَإِنَّهُمْ^(٤) لَا يُؤْمِنُونَ؛ إِذْ سَأَلَهُمُ الْآيَاتِ سُؤَالَ تَعْتِيتِ وَاسْتِزْهَاءٍ وَعِنَادٍ لَا سُؤَالَ اسْتِزْشَادٍ لِأَنَّهُمْ قَدْ جَاءَهُمْ آيَاتٌ، لَوْ لَمْ يُعَانِدُوا لَآمَنُوا. ثُمَّ إِذْ عَلِمَ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَأَنَّ مَا يَسْأَلُونَ، إِنَّمَا يَسْأَلُونَ سُؤَالَ تَعْتِيتٍ وَعِنَادٍ، جَعَلَ فِيهِمْ خِصَالًا عَلَى الْخِذْلَانِ مِنْ قِسَاوَةِ الْقَلْبِ حَتَّى أَخْبَرَ أَنَّ قُلُوبَهُمْ أَقْسَى مِنَ الْحِجَارَةِ وَمِنْ نَحْوِ الْبُغْضِ وَالْجَهَالَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْخِصَالِ مَا يَدُلُّ عَلَى مَا ذَكَّرْنَا، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَمْرُجُونَ﴾ [الحجر: ١٤] عَنْ تَعْتِيتِهِمْ وَمُكَابَرَتِهِمْ.

وفيه دليل على أن الآيات لا تَضْطَرُّ أَهْلَهَا إِلَى^(٥) الْإِيمَانِ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿وَلَوْ أَنَّا زُلْنَا إِلَى الْمَلِئِكَةِ لَمَلَكْنَا لَقُلْنَا لَآئِهِمْ أَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ وَحَسَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا. لِأَنَّهُ لَوْ كَانَتْ آيَةٌ تَضْطَرُّهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ لَكَانَتْ هَذِهِ.

وهذا يدل على أن مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِن تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ فَيَنْسُخُ الْكِتَابَ ثُمَّ نُنَزِّلُ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لَمَّا خَصَّيْنَا﴾ [الشعراء: ٤] أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآيَةِ. وَلَكِنْ إِذَا شَاءَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَآمَنُوا، وَلَوْ كَانَتْ الْآيَاتُ تَضْطَرُّ أَهْلَهَا إِلَى الْإِيمَانِ بَلْ لَكَانَ لَا آيَةَ أَعْظَمُ مِنْ [مُعَايِنَةِ]^(٦) الْقِيَامَةِ، وَلَا آيَتَيْنِ مِنْهَا.

ثم أَخْبَرَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ لَوْ ﴿وَدُّوا لِمَادُوا لِأَنَّهُمْ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] وَقَالَ: ﴿ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُنْكَرِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] قَدْ كَذَّبُوا عِنْدَ مُعَايِنَتِهِمُ الْقِيَامَةَ وَالْعَذَابَ. فَبِهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْآيَةَ لَا تَضْطَرُّ أَهْلَهَا إِلَى^(٧) الْخُضُوعِ بِالْذَّلَالِ الَّتِي ذَكَّرْنَا.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ قَالَ الْحَسَنُ: هَذِهِ الْمَشِيتَةُ مَشِيتَةُ الْقُدْرَةِ؛ أَيِ لَوْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُعْجِزَهُمْ حَتَّى يُؤْمِنُوا، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ﴾ ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ﴾ [يس: ٦٦ و ٦٧] وَنَحْوُهُ. فَهَذِهِ الْمَشِيتَةُ مَشِيتَةُ الْقُدْرَةِ. لَكِنَّا نَقُولُ: إِنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ لَوْ شَاءَ أَنْ يَمَسَخَهُمْ لَمَسَخَهُمْ، وَقَالَ أَيْضًا: إِنَّهُ لَوْ شَاءَ أَنْ يَهْدِيَهُمْ لَهَادَهُمْ، وَلَوْ شَاءَ أَنْ يَهْتَدُوا لَاهْتَدَوْا. وَكَذَلِكَ يَقُولُ الْمُعْتَزِلَةُ: إِنَّ الْمَشِيتَةَ ههنا مَشِيتَةُ الْقَهْرِ وَالْجَبْرِ، وَقَدْ ذَكَّرْنَا أَلَّا يَكُونُ فِي حَالِ الْقَهْرِ وَالْجَبْرِ إِيْمَانٌ، فَيَصِيرُ عَلَى قَوْلِهِمْ ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أَنْ يُؤْمِنُوا، فَأَمَنُوا، فَلَا يَكُونُ إِيْمَانًا.

وقوله تعالى: ﴿وَحَسَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلًا﴾ اخْتَلَفَ فِي تِلَاوَتِهِ وَتَأْوِيلِهِ. [رَوَى عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ^(٨)] قَالَ: قَبْلًا مُقَابِلَةً^(٩)

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: يُؤْمِنُونَ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: لِيَكُونُوا. (٣) م، ساقطة من الأصل. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: إِنَّهُمْ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: عَلَى. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: عَلَى. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: عَنِ الْحَسَنِ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: عَيْنًا، انظر حجة القراءات (٢٦٧) ومجمع القراءات القرآنية (٣١١/٢).

وَعَنْ قَتَادَةَ^(١): قَبْلَ عِيَانًا حَتَّى يُعَايِنُوا ذَلِكَ مُعَايِنَةً ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أَنْ يُؤْمِنُوا، قِيُومُوا. وَعَنْ مُجَاهِدٍ ﴿قَبْلًا﴾ أَيِ أَنْوَاجٍ ﴿قَبْلًا﴾.

وَفِي حَرْفِ أَبِي عَمْرٍو بْنِ الْعَلَاءِ: ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلًا﴾ يَقُولُ: جَبِيلًا فَجَبِيلًا، وَفِي حَرْفِ أَبِي [بْنِ كَنْبٍ]^(٢): ﴿قَبْلًا﴾ أَيِ [جَمْعٍ قَبِيلٍ]^(٣). وَقَالَ الْقُتَيْبِيُّ ﴿قَبْلًا﴾ أَيِ جَمَاعَةٍ جَمَاعَةً وَ﴿قَبْلًا﴾ أَيِ أَضْأَفًا.

وَيُقَالُ: الْقَبِيلُ الْكَفِيلُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ تَأْتِي بِلَهُ اللَّهِ وَالْمَلَكِ قَبِيلًا﴾ [الْإِسْرَاءُ: ٩٢] أَيِ ضَمِينًا كَفِيلًا. قَالَ الْكِسَائِيُّ: مَنْ قَرَأَهَا ﴿قَبْلًا﴾ فَقَدْ يَكُونُ جَمْعُ الْقَبِيلِ مِثْلَ الْجَبِيلِ وَالْجَبَلِ، وَقَدْ يَكُونُ الْقَبْلُ أَيْضًا مِنْ مَعْنَى الْإِقْبَالِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَنْزِلُ قَبْلُ﴾ وَقَوْلِهِ^(٤): ﴿يَنْزِلُ دُبُرُ﴾ [يُوسُفُ: ٢٦ و ٢٧] وَمَنْ قَرَأَهَا قَبْلًا أَرَادَ مُعَايِنَةً.

وَقَالَ أَبُو عَوَسَجَةَ: كُلُّ شَيْءٍ: قَبْلٌ^(٥)، يُقَالُ: أَنَا نَاسُ قَبْلًا أَيِ كُلُّهُمْ وَقَبْلًا مِنَ الْمُقَابَلَةِ.

وَتَأْوِيلُهُ مَا ذَكَرْنَا: أَنْ لَوْ فَعَلْنَا هَذَا كُلَّهُ مِنْ أَنْزَالِ الْمَلَائِكَةِ إِلَيْهِمْ وَتَكْلِيمِ الْمَوْتَى إِيَّاهُمْ ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فَاخْبَرُوهُمْ بِالَّذِي يَقُولُ مُحَمَّدٌ: إِنَّهُ حَقٌّ ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ بِوَيْلٍ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ لَهُمْ الْإِيمَانُ، قِيُومُوا.

وَفِيهِ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الدَّلِيلِ أَنَّ الْآيَاتِ لَا تَضْطَرُّ أَهْلَهَا إِلَى الْإِيمَانِ بِهَا ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أَنْ يُؤْمِنُوا، فَجَبِيلًا يُؤْمِنُونَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ أَيِ لَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَتَّقِفُونَ بِعِلْمِهِمْ.

الآية ١١٢ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ قِيلَ: كَمَا جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ مِنْ قَبْلُ عَدُوًّا كَذَلِكَ يَجْعَلُ لَكَ عَدُوًّا.

ثُمَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ قَالَ الْحَسَنُ: إِنَّ مِنْ حِكْمِ اللَّهِ أَنْ يَبْعَثَ رَسُولًا، وَأَنْ كُلُّ مَنْ اتَّبَعَ رَسُولَهُ يَكُونُ وَلِيًّا لَهُ، وَمَنْ عَصَى رَسُولَهُ يَكُونُ عَدُوًّا لَهُ. هَذَا حُكْمُ اللَّهِ فِي الْكُلِّ.

وَقَالَ جَعْفَرُ بْنُ حَرْبٍ وَالْكَفَيْيُّ وَغَيْرُهُمَا^(٦) مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ: إِنَّ قَوْلَهُ: ﴿جَعَلْنَا﴾ أَيِ خَلَقْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا اخْتَارُوا مِنَ الْكُفْرِ وَالْعَدَاوَةِ، يُقَالُ: جَعَلَ فُلَانًا^(٧) كَذَا، إِذَا كَانَ مُسَلِّطًا عَلَى ذَلِكَ، وَهُوَ يَقْدِرُ أَنْ يَمْنَعَهُ ذَلِكَ. وَيَصِيرُ التَّأْوِيلُ عَلَى قَوْلِ الْمُعْتَزِلَةِ: أَيِ لَمْ نَجْعَلْ لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا، وَلَكِنْ هُمْ جَعَلُوا أَنْفُسَهُمْ أَعْدَاءَ لِكُلِّ نَبِيٍّ.

وَقُلْنَا نَحْنُ: إِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ [يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: ^(٨) خَلَقْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدَاوَةً كُلَّ عَدُوٍّ. وَالْجَعْلُ مِنَ اللَّهِ الْخَلْقُ كَقَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ [الْأَنْبِيَاءُ: ٣٢] وَقَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ﴾ [الْإِسْرَاءُ: ١٢] وَقَوْلِهِ: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [طه: ٥٣]. كُلُّ: جَعَلَ أَضْيَفَ إِلَى اللَّهِ فَهُوَ خَلَقَ. فَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ أَيِ خَلَقْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدَاوَةً كُلَّ عَدُوٍّ. وَلَوْ كَانَ الْجَعْلُ^(٩) عَلَى مَا قَالَ الْحَسَنُ وَمَا قَالَ أَوْلَكَ مِنَ التَّخْلِيَةِ لَكَانَ يَجُوزُ أَنْ يُضَافَ فِعْلُ الْكُفْرِ وَفِعْلُ الضَّلَالِ إِلَى اللَّهِ، وَذَلِكَ بَعِيدٌ.

وَالثَّانِي: لَمْ يُؤَفَّقْ لَهُمْ فِعْلَ الْوِلَايَةِ لَمَّا عَلِمَ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ يَخْتَارُونَ فِعْلَ الْعَدَاوَةِ عَلَى فِعْلِ الْوِلَايَةِ.

وَقَوْلُهُ ١٥٩ - أ/ تَعَالَى: ﴿شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: الشَّيَاطِينُ كُلُّهُمْ تَكُونُ مِنَ الْجِنِّ، ثُمَّ إِنَّهُمْ يُرْحَوْنَ إِلَى الْإِنْسِ، فَيَكُونُونَ هُمْ الَّذِينَ يَدْعُونَ الْخَلْقَ إِلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَيَكُونُ مِنَ الْجِنِّ وَخِيًّا إِلَى الْإِنْسِ، وَمِنْ الْإِنْسِ إِلَى الْخَلْقِ قَوْلًا وَدُعَاءً.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: يَكُونُ مِنَ الْجِنِّ شَيْطَانِينَ، تَدْعُو شَيْطَانِينَ الْجِنِّ إِلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَهُوَ شَيْطَانٌ، وَكَذَلِكَ كُتِبَ الْكُفْرَةُ وَرُؤُسَاؤُهُمُ الَّذِينَ كَانُوا يَدْعُونَ أَتْبَاعَهُمْ وَسَفَلَتَهُمْ إِلَى الْكُفْرِ، وَالضَّلَالِ مِنْهُمْ شَيْطَانِيْنَهُمْ. أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ

(١) أَدْرَجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: كَذَلِكَ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: قَبِيلَةٌ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: قَبْلًا. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَغَيْرِهِمْ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: فُلَانًا. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: أَيِ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: الْحَكْمُ.

جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْثَرَ مُجْرِمِينَ ﴿١١٢﴾ [الأنعام: ١٢٣] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ أُتُّمُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ [البقرة: ١٦٦] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَتْ أَذْنَبْتُهُمْ لَأَزِيدَنَّهُمْ رَهًا مَثَلَهُ أَصْلًا قَاتِلًا﴾ [الأعراف: ٣٨] وَغَيْرُهُ مِنَ الْآيَاتِ؟

إِنَّ كُلَّ مَنْ دَعَا غَيْرَهُ [إِلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ] ^(١) وَالْكَفْرِ بِهِ، فَهُوَ شَيْطَانٌ، وَالشَّيْطَانُ هُوَ الْبَعِيدُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، شَطْرَ أَيِّ بَعْدٍ. وَقِيلَ: إِنَّ إِبْلِيسَ وَكُلَّ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ [يُضِلُّوهُمْ]، وَيَدْعُوهُمْ ^(٢) إِلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَكُلَّ ^(٣) شَيَاطِينِ الْجِنِّ [يُضِلُّوهُمْ] ^(٤)، وَهُوَ تَأْوِيلُ الْأَوَّلِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُوحَىٰ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ أَيُّ يُزَيِّنُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ الْقَوْلَ غُرُورًا؛ يَغُرُّونَ بِهِ. قَالَ الْقُتَيْبِيُّ، رَحِمَهُ اللَّهُ، ﴿زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ مَا زَيَّنَ مِنْهُ، وَحُسْنَ، وَمَوْهَ، وَقَالَ: وَأَصْلُ الزُّخْرُفِ الذَّهَبُ، وَيُقَالُ: زَخَّرْتُ الشَّيْءَ حَسَنَةً. قَالَ أَبُو عَرَسَجَةَ: الْوَحْيُ أَنْ يُوحَىَ ^(٥) بَيْنَهُ أَوْ يَشْفَقَهُ، وَهُوَ ^(٦) إِشَارَةٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ لَخَلَقَهُمْ خَلْقًا، لَمْ يُرْكَبْ فِيهِمْ ^(٧) الشَّهَوَاتِ وَالْحَاجَاتِ حَتَّى أَطَاعُوهُ، وَلَمْ يَغْضُوهُ كَمَا خَلَقَ الْمَلَائِكَةَ، لَمْ يُرْكَبْ فِيهِمْ الشَّهَوَاتِ وَالْحَاجَاتِ وَالْأَمَانِيُّ، فَلَمْ يَغْضُوهُ. وَقَالَتِ الْمُتَنَزِّلَةُ ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ لَأَعْجَزَهُمْ، وَقَهَرَهُمْ حَتَّى لَا يَقْدِرُوا عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ وَالْكَفْرِ بِهِ، فَأَمَنُوا، وَاهْتَدَوْا، إِنَّهُ ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ لَهَذَاهُمْ، فَاهْتَدَوْا، وَلَكِنْ لَمَّا عَلِمَ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ يَخْتَارُونَ الضَّلَالَ عَلَى الْهُدَى شَاءَ أَلَّا يَهْدِيَهُمْ. وَقَدْ ذَكَرْنَا فَبَحْثَ تَأْوِيلِهِمُ الْآيَةَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَذَرَهُمْ وَمَا بَقَاؤُهُمْ﴾ هَذَا يَخْرُجُ عَلَى الزَّعِيدِ لَهُمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَرَهُمْ يَاصْكُلُوا﴾ [الحجر: ٣] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠] كَذَا؛ أَيُّ ذَرَهُمْ وَمَا يَخْتَارُونَ فَإِنَّكَ تَرَاهُمْ فِي الْعَذَابِ.

الآية ١١٣ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَسَمْتَ لَإِثْنِ أَفْئِدَةٍ الَّذِينَ﴾ قِيلَ: وَلِتَمِيلَ قُلُوبُ ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ إِلَى زُخْرُفِ الْقَوْلِ الَّذِي يُوَافِقُ هَوَاهُمْ، وَكُلُّ مَنْ ظَفِرَ بِمَا يُوَافِقُ هَوَاهُ فَإِنَّهُ يَرْضَى بِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا﴾ [يونس: ٧] لَأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ، وَلَا يَرْجُونَ لِقَاءَهُ، وَكَانَ هَمُّهُمْ هَذِهِ الدُّنْيَا، وَرَضُوا بِهَا ﴿وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا﴾. وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَسَمْتَ لَإِثْنِ﴾ أَيُّ إِلَى الْكِتَابِ ﴿أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أَيُّ لَيْسَ [مِثْلُهُمْ مِثْلَ قَبُولِ] ^(٨) مِنْهُمْ، وَلَكِنْ مِثْلُ طَلَبِ الطَّغْنِ فِيهِ. وَهَكَذَا [كَانَ مِثْلُ] ^(٩) أُولَئِكَ الْكَفَرَةِ، وَعَادَتُهُمْ طَلَبُ الطَّغْنِ، وَالْأَوَّلُ أَشْبَهُ.

ثُمَّ إِنَّ كَانَ زُخْرُفُ الْقَوْلِ الَّذِي أَوْحَى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ مِنْ كِبَرَانِهِمْ وَعُظَمَانِهِمْ فَقَدْ أَشْرَكَ تَعَالَى هَؤُلَاءِ بِأُولَئِكَ ^(١٠) فِي الْكَذِبِ الَّذِي كَانَ مِنْهُمْ؛ كَانَ مِنَ الْكِبَرَاءِ الدَّعَاءُ إِلَى ذَلِكَ، وَمِنْ الْأَتْبَاعِ الرِّضَا وَالْإِجَابَةُ، وَكَانَ مِنْهُمْ الثَّرَيُّينَ وَالزُّخْرَفَةَ، وَمِنْ الْأَتْبَاعِ الْقَبُولَ وَالرِّضَا بِهِ؛ فَقَدْ اشْتَرَكُوا ^(١١) جَمِيعًا فِي ذَلِكَ الْكَذِبِ بِالْقَوْلِ ^(١٢) الْغُرُورِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَيَقْرَفُوا مَا هُمْ مُتَقَرِّفُونَ﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ؛ قَالَ قَائِلُونَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَيَقْرَفُوا﴾ يَغْنِي هَؤُلَاءِ الْأَتْبَاعَ مَا هُمْ مُتَقَرِّفُونَ أَيُّ لِيَكْتَسِبَ ^(١٣) هَؤُلَاءِ الْأَتْبَاعُ مِنَ الْكَذِبِ مَا كَانَ أُولَئِكَ مُكْتَسِبِينَ ^(١٤) مِنَ الْكَذِبِ.

وَقِيلَ: ﴿وَلَيَقْرَفُوا﴾ أُولَئِكَ الْمُتَبَوِّغُونَ مِنَ الْكَذِبِ ﴿مَا هُمْ مُتَقَرِّفُونَ﴾ يَغْنِي هَؤُلَاءِ الْأَتْبَاعَ مُتَقَرِّفُونَ مِنَ الْقَوْلِ الْغُرُورِ وَالزُّخْرُفِ.

ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي الْإِقْتِرَافِ؛ قَالَ بَعْضُهُمْ: الْإِكْتِسَابُ: اكْتِسَابُ كُلِّ شَيْءٍ، وَقَالَ قَائِلُونَ: الْإِقْتِرَافُ، هُوَ مَوَافَقَةُ الذَّنْبِ وَالْإِثْمِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: مَعْصِيَةٍ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: يَضِلُّونَهُمْ وَيَدْعُونَهُمْ. (٣) الْوَائِي سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: يَضِلُّونَهُمْ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: يَحْيِي. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَهِيَ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ: مِثْلُ قَبُولِهِمْ، فِي م: مِثْلُ قَبُولِ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: كَانَتْ. (١٠) الْبَاءُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: اشْتَرَكُوا. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: كَالْقَوْلِ. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: لِيَكْتَسِبُوا. (١٤) فِي الْأَصْلِ وَم: مَكْتَسِبُونَ.

الآية ١١٤

وقوله تعالى: ﴿أَفَتَعْتَبِرُ اللَّهُ ابْتِغَاءَ حُكْمٍ؟﴾ كَانَ أَوْلَٰئِكَ الْكَفَرَةُ دَعَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِلَىٰ حُكْمٍ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مُنَازَعَةٍ، وَقَعَتْ بَيْنَهُمْ: إِمَّا فِي الرِّسَالَةِ وَإِمَّا فِي الْكِتَابِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ﴿أَفَتَعْتَبِرُ اللَّهُ ابْتِغَاءَ حُكْمٍ؟﴾ نَمَّ بَيِّنٌ، فَقَالَ: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ كَيْفَ ابْتِغَاءَ حُكْمًا غَيْرَ اللَّهِ ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ مَا تَعْلَمُونَ أَنَّهُ نَزَّلَ مَا عَجَزَ الْخَلَائِقُ عَنْ إِتْيَانِ مِثْلِهِ؟

نَمَّ اخْتَلَفَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مُفَصَّلًا﴾ [قِيلَ ﴿مُفَصَّلًا﴾] ^(١) بِالْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ مَا يَعْرِفُ كُلُّ عَاقِلٍ، لَمْ يُكَابِرْ عَقْلُهُ، أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ نَزَّلَ.

وقيل: ﴿مُفَصَّلًا﴾ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالتَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ، يَقُولُ: ابْتِغَاءَ ^(٢) حُكْمًا غَيْرَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ، وَقَدْ أَنْزَلَ كِتَابًا مُفَصَّلًا وَمُبَيِّنًا، فِيهِ وَغَدٌ وَوَعِيدٌ؟ وَقِيلَ: ﴿مُفَصَّلًا﴾ مُفَرَّقًا أَيَّ أَنْزَلَهُ بِالْفَارِقِ، لَمْ يَنْزِلْهُ مَجْمُوعًا جُمْلَةً، مَا يَقَعُ بِمَسَامِيعِ كُلِّ أَحَدٍ عِلْمُ ذَلِكَ وَبَيَانُهُ. فَأَنَّى يَقَعُ إِلَى الْحَاجَةِ إِلَى حُكْمٍ غَيْرِهِ؟

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَلَيْسَ لَهُمْ الْكِتَابُ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ: قِيلَ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَلَيْسَ لَهُمْ الْكِتَابُ﴾ أَيِ ^(٣) أَهْلِ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ؟ وَقِيلَ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَلَيْسَ لَهُمْ الْكِتَابُ﴾ يَغْنِي مَنْ أُعْطِيَ هَذَا ﴿الْكِتَابُ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ لَمَّا عَجَزُوا عَنْ إِتْيَانِ مِثْلِهِ وَتَأْلِيْفِهِ.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُتَمَرِّينَ﴾ يَخْتَمِلُ ﴿فَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُتَمَرِّينَ﴾ أَنَّهُمْ قَدْ عَجَزُوا مَا فِي كِتَابِهِمْ مِنَ الْأَحْكَامِ وَمِنْ بَغْيِكَ ^(٤) وَصِفَتِكَ. وَيَخْتَمِلُ: ﴿فَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُتَمَرِّينَ﴾ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ نَزَّلَ، مَعَ عِلْمِهِ أَنَّ رَسُولَهُ لَا يَكُونُ مِنَ الْمُتَمَرِّينَ، لِيَعْلَمَ الْخَلْقُ أَنَّهُ إِذَا نَهَى رَسُولُهُ عَنْ مِثْلِ هَذَا، فَغَيْرُهُ أَحَقُّ أَنْ يُخَاطَبَ مَنْ طَلَبَ حُكْمَ غَيْرِهِ، وَيَقُولُ: ﴿فَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُتَمَرِّينَ﴾ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ.

الآية ١١٥

وقوله تعالى: ﴿وَوَكَّلْتَ لَكُم رَّبَّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ قِيلَ: ﴿صِدْقًا﴾ فِي الْأَنْبَاءِ ﴿وَعَدْلًا﴾ فِي الْأَحْكَامِ؛ ثُمَّتْ أَنْبَاءُ بِالصِّدْقِ وَأَحْكَامُهُ بِالْعَدْلِ حَتَّى يَعْرِفَ كُلُّ أَحَدٍ صِدْقَ أَنْبَاءِهِ وَعَدْلَ أَحْكَامِهِ. وَقِيلَ: ﴿وَوَكَّلْتَ لَكُم رَّبَّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ بِالْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ لِمَا يَعْرِفُ كُلُّ مَنْ تَأَمَّلَ فِيهَا، وَنَظَرَ صِدْقَهَا وَعَدْلَهَا، أَنَهَا مِنْ اللَّهِ.

وقوله تعالى: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ﴾ هَذَا تَفْسِيرُ التَّمَامِ أَنَّهَا تَمَّتْ تَمَامًا ^(٥)، لَا يَرُدُّ عَلَيْهَا النَّقْضُ وَلَا الْجَوْرُ وَلَا الْخُلْفُ، لَيْسَتْ ^(٦) كَكَلِمَاتِ الْخَلْقِ أَنهَا تُبَدَّلُ، وَتُنْقَضُ، وَتُمنَعُ، لِمَا يَكُونُ فِيهَا مِنَ النُّقْصَانِ وَالْفَسَادِ، فَإِنَّمَا تُبَدَّلُ، وَتُنْقَضُ. وَيَعْجِزُونَ عَنْ وِفَاءٍ مَا وَعَدُوا، وَيُمنَعُونَ عَنْ ذَلِكَ. فَاللَّهُ، تَعَالَى، يَتَعَالَى عَنْ أَنْ يُبَدَّلَ كَلِمَاتِهِ، أَوْ يَمْنَعَ عَنْ وِفَاءٍ مَا وَعَدَ، وَأَنبَاءٍ، [أَوْ يَجُورَ] ^(٧) فِي حُكْمِهِ. وَيَجُوزُ أَنْ يُسْتَدَلَّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَوَكَّلْتَ لَكُم رَّبَّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ لِقَوْلِ أَصْحَابِنَا حِينَ ^(٨) قَالُوا: مَنْ قَالَ لِأَمْرَاتِهِ: أَنْتِ طَالِقٌ، أَتَمَّ الطَّلَاقِ وَأَعَدَلَ الطَّلَاقِ، فَإِنَّهُ يَقَعُ بِمَا وَافَقَ السُّنَّةَ، لَيْسَ يَرْجِعُ ذَلِكَ إِلَى الْعَدْلِ ^(٩)؛ لِأَنَّهُ أَخْبَرَ أَنْ تَمَّتْ كَلِمَتُهُ صِدْقًا وَعَدْلًا، وَالْمُوَافِقُ لِلْسُّنَّةِ هُوَ الْحَقُّ، وَهُوَ الْعَدْلُ. وَيَخْتَمِلُ ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ﴾ لَا مُبَدِّلَ لِحُجَجِهِ وَبَرَاهِينِهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أَيِ ﴿السَّمِيعُ﴾ بِمَا أَلْقَى الشَّيْطَانُ، وَأَوْحَى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ﴿الْعَلِيمُ﴾ بِأَفْعَالِ هَؤُلَاءِ وَاجَابَتِهِمْ إِيَّاهُمْ. وَأَهْلُ التَّأْوِيلِ يَضْرِفُونَ إِلَى خَاصٍّ مِنَ الْقَوْلِ: بَعْضُهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَوَكَّلْتَ لَكُم رَّبَّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩ والسجدة: ١٣]. وَقَالَ آخَرُونَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَعَاهُ أَهْلُ الْكُفْرِ إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ.

وَلَكِنْ هُوَ يَرْجِعُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، إِلَى كُلِّ نَبِيٍّ وَوَعْدٍ وَوَعِيدٍ وَكُلِّ خَيْرٍ يُخْبِرُ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم. ابْتِغَاءَ. (٣) في الأصل وم. إِلَى. (٤) في الأصل وم. نَعْتِكَ. (٥) من م، في الأصل: تَمَام. (٦) في الأصل وم: لَيْسَ، وأُدرِجَ قَبْلُهَا فِي الْأَصْلِ م: أَنَهَا. (٧) في الأصل وم: إِذْ يَجُوز. (٨) في الأصل وم: حَيْث. (٩) في الأصل وم: الْعَدْلُ.

الآية ١١٦

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْعَمْ أَكْثَرَ مِنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية دلالة أن أكثر أهل الأرض كانوا ضلالاً وعبادة الأوثان والأصنام لأنه قال: ﴿أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يُضِلُّوكَ﴾ لأنهم إلى أهل الضلال كانوا يدعونهم. ثم الخطاب، وإن كان لرسول الله في الظاهر، فهو لكل^(١) مؤمن؛ إذ معلوم أن رسوله لا يطيعهم في ما يدعونهم إلى عبادة الأوثان. [وفيه أن في الأرض من كان^(٢) يعبد الله، وكان على دين الأنبياء والرسل.

وقوله تعالى/١٥٩- ب/: ﴿وَلَا تَطْعَمْ أَكْثَرَ مِنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ذكر في القصة أن أهل الكفر دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة الأوثان، [وأنهم]^(٣) يقولون: إنهم يعبدون الله في الحقيقة كقولهم: ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٢٣] وكقولهم^(٤): ﴿هَؤُلَاءِ شُعْرَتُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وأنهم^(٥) يعبدون الأوثان، ويرتكبون الفواحش، ويقولون: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] فأخبر رسوله أنك لو أطعت هؤلاء إلى ما يدعونك من عبادة هذه الأصنام [الأصلوك، فما هم]^(٦) إلا ظناً يظنون كقوله: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ أي ما يتبعون إلا الظن ﴿وَلَنْ هُمْ إِلَّا يَخْضَعُونَ﴾ ما هم إلا يكذبونك على الله في قولهم: إن ذلك يقربهم ﴿إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٢٣] وقولهم: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨].

الآية ١١٧

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ يعلم من يزيغ، ويضل عن سبيله، ويعلم من يهتدي به. وفي^(٧) قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ دلالة على أنه على علم منه بالضلال والتكذيب؛ بعث الرسل إليهم، وأرسل الكتب لا عن جهل منه، لكن صار بعث من بعث من الرسل والكتب إليهم حكمته على علم منه بما يكون منهم؛ لأنه إنما يبعث ليمكان الرسل إليهم ولحاجتهم.

الآية ١١٨

وقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ أَنْتُمْ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِي مُؤْمِنِينَ﴾ صرّف أهل التاويل الآية إلى أهل الكفر، وقالوا: ما بالكم تأكلون ذبائحكم التي ذبحتم، ولا تأكلون مما ذكر عليه اسم^(٨) الله، وزكّاه؛ صرّفوا الخطاب به إلى أهل الشرك، والأشبه أن يصرّف الخطاب به إلى أهل الإسلام لأنه ذكر في آخرو: ﴿إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِي مُؤْمِنِينَ﴾. ومثل هذا لا يذكر في أهل الشرك، إنما ذكر الخطاب [إلى]^(٩) أهل الإسلام كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَنْفُسِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ٢٢٨] وقوله تعالى: ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨] ونحوه من الآيات.

فعلى ذلك الأشبه أن يصرّف الخطاب بها إلى أهل الإسلام؛ كان قوم^(١٠) من أهل الإسلام منعوا أنفسهم عن تناول من هذه الذبائح واللحوم، فنهوا عن ذلك نحو ما روي في بعض القصة أن نقرأ من أصحاب رسول الله ﷺ هموا أن يخصصوا^(١١) أنفسهم، وألا يخطوا أنفسهم شهواتها، وألا يتناولوا^(١٢) من الطيبات، فنهوا عن ذلك. وقيل: فيهم نزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٧] فيشبه أن يكون قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ أَنْتُمْ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ فيهم، أو لما علم أن قوماً من المتشقة والمتزهدة^(١٣) يحرمون ذلك على أنفسهم، فنهوا عن ذلك.

فإن كان [هذا]^(١٤) ما قال أهل التاويل فهو، والله أعلم، كأنه قال: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ أَنْتُمْ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِي مُؤْمِنِينَ﴾ بما تعلمون أن الخلق والأمر له، وقد أنشأ لكم من الآيات ما تعلمون ذلك، فكيف تحرمون ما^(١٥) ذكر اسم الله عليه؟

(١) في الأصل وم: كل. (٢) في الأصل: في الأرض كان من، في م: في الأرض وفيه أن في الأرض كان من. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: ويقولون. (٥) في الأصل وم: كأنهم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، في الأصل: في. (٨) في الأصل وم: تأكلوا ما ذبح. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: قوماً. (١١) في الأصل وم: يخصصوا. (١٢) في الأصل وم: يتناول. (١٣) في الأصل وم: والمتوصدة. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: مما.

الآية ١١٩

ثم أَمَرَ بِأَكْلِ مَا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ [عليه]^(١)، وعائِبَ عَنِ تَرْكِ مَا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ [عليه]^(٢) بقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ؟ وَلَمْ يُبَيِّنْ بِمَ؟ وَبِأَيِّ وَجْهِ؟ بِالدُّبْحِ أَوْ بِغَيْرِهِ. وكذلك قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَلَقَدْ لَئِينَ أَوْثَرُوا الْكِتَابَ حِلَّ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٥] ولم يُبَيِّنْ مِنْ أَيِّ وَجْهِ؟ لَكِنَّ النَّاسَ اتَّفَقُوا عَلَى صَرْفِ ذَلِكَ إِلَى الدُّبْحِ، فَكَانَ الدُّبْحُ مُضْمَرًا فِيهِ؛ كَأَنَّهُ قَالَ: فَكُلُوا مِمَّا دُبِحَ بِذِكْرِ اسْمِ اللَّهِ عَلَيْهِ.

ثم لَا يَخْلُو اتِّفَاقُهُمْ بِمَعْرِفَةِ ذَلِكَ؛ إِمَّا أَنْ عَرَفُوا ذَلِكَ بِالسَّمَاعِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، وَإِمَّا أَنْ عَرَفُوا ذَلِكَ بِتَوَازُلِ الْأَحْكَامِ، إِذْ لَيْسَ فِي الْآيَةِ بَيَانُ ذَلِكَ. فَكَيْفَ مَا كَانَ فِيهِ دَلَالَةٌ نَقْضِ قَوْلٍ مَنْ يَقُولُ بَأَنَّ مَنْ عَرَفَ تَوَازُلَ الْأَحْكَامِ، أَوْ كَانَ عِنْدَهُ دِرَآئَةُ، يَفْسُقُ لِأَنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ هَهُنَا التَّوَازُلَ وَلَا السَّمَاعَ. ذَلِكَ أَنَّهُ لَا يَفْسُقُ إِنْ كَانَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ ذِكْرًا لِمَكَانٍ قَوْلِ الْوُثْنِيَّةِ لِأَنَّهُمْ يُحَرِّمُونَ الدُّبَائِحَ، وَيَقُولُونَ: لَيْسَ مِنَ الْحِكْمَةِ إِيْلَامُ مَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ، أَوْ ذِكْرًا لِمَكَانٍ قَوْلٍ مَنْ يَقُولُ: إِنَّكُمْ أَكَلْتُمْ مَا تَذْبَحُونَ بَأَيْدِيكُمْ، وَلَا تَأْكُلُونَ مَا يُؤَلِّي اللَّهُ قَتْلَهُ.

ثم قوله تعالى: ﴿تَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: ١٢١] أَبَاحَ مِنَ الْأَنْعَامِ مَا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَخَطَرَ مَا لَمْ يَذْكُرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَنَهَى عَنْ أَكْلِهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ ويقولون: ﴿وَمَا أُحِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٣ و...]. جَعَلَ الْمُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ [به]^(٤) مَيْتَةً حَرَامًا، وَجَعَلَ الْمَذْكُورَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ذِكْرًا حَلَالًا، فَذَلِكَ أَنَّ التَّسْمِيَةَ شَرْطٌ فِي حِلِّ الدُّبْحِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ شَرْطًا فِي حِلِّ الدُّبْحِ لَمْ يَكُنِ الْمُهِلُّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ مَيْتَةً حَرَامًا، وَلِأَنَّهُ سَمِيَ مَا لَمْ يَذْكُرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ فَنَسَقًا؛ وَالْفِسْقُ هُوَ الْخُرُوجُ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠]، فَذَلِكَ أَنَّ التَّسْمِيَةَ شَرْطٌ فِيهَا. وَلِهَذَا يَحِلُّ^(٥) لَنَا دُبَائِحُ أَهْلِ الْكِتَابِ إِذَا سَمِعْنَاهُمْ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَإِنْ كَانُوا لَا يَذْكُرُونَ فِي الْحَقِيقَةِ غَيْرَ اللَّهِ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ اللَّهَ حَقِيقَةً، وَلَكِنْ إِذَا ذَكَّرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ يَحِلُّ لَنَا.

وَلَا يَحِلُّ [لَنَا]^(٦) دُبَائِحُ أَهْلِ الشِّرْكِ؛ لِأَنَّ أَهْلَ الشِّرْكِ لَا يَرَوْنَ الدُّبَائِحَ رَأْسًا؛ يَذْمَوْنَ مَذْهَبَ الزُّنَادِقَةِ، وَالزُّنَادِقَةُ لَا يَرَوْنَ الدُّبَائِحَ؛ يَقُولُونَ لَنَا: تَقُولُونَ: إِنَّ رَبَّكُمْ رَجِيمٌ حَكِيمٌ، وَلَيْسَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَوْ الرَّحْمَةِ أَنْ يَأْمُرَ أَحَدًا بِذْبَحِ آخَرَ، وَيَقْتُلَهُ، فَيَأْكُلُونَ الْمَيْتَةَ، وَلَا يَرَوْنَ أَكْلَ الدُّبْحِ، وَيَقُولُونَ: لَيْسَ هَذَا أَمْرٌ مَنْ كَانَ مُوَصِّفًا بِالرَّحْمَةِ أَوْ بِالْحِكْمَةِ.

لَكِنَّا نَقُولُ: [إِنَّ ذَلِكَ فِي أَمْرَيْنِ:]

أَحَدُهُمَا: [٧] أَنَّ كَرَاهَةَ الدُّبْحِ وَالتَّفُورِ عَنْهُ تُفُورُ طَبْعٍ، [وَكَرَاهَتُهُ كَرَاهَةُ الطَّبْعِ لَا كَرَاهَةُ الْعَقْلِ]^(٨)؛ [يَجُوزُ أَنْ يُبَاحَ] [أَمْرٌ]^(٩) لِمَا يُغْفَبُ نَفْعًا فِي الْمُتَغَفَّبِ نَحْوُ مَا يُبَاحُ الْإِفْتِسَادُ وَالْحِجَامَةُ وَالتَّدَاوِي بِأَدْوِيَةٍ كَرِيهَةٍ لِتَنْفَعِ يَغْفَبُ، وَيُؤْمَلُ^(١٠)، وَإِنْ كَانَ الطَّبْعُ يَكْرَهُهُ، وَيَتَفَرَّعُ عَنْهُ^(١١)، وَلَيْسَ هُوَ مِمَّا يَقْبَحُهُ الْعَقْلُ. إِنَّ مَا لَا يَجُوزُ أَنْ يُبَاحَ فِعْلُهُ، وَيُؤْمَرُ بِهِ، مِمَّا يَقْبَحُهُ الْعَقْلُ، [وَيَكْرَهُهُ الْعَقْلُ]^(١٢).

وَأَمَّا كَرَاهَةُ الطَّبْعِ وَتَفُورُهُ فَإِنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يُبَاحَ لِمَا ذَكَّرْنَا، وَتَرْتَفِعُ ذَلِكَ بِالْعَادَةِ. فَعَلَى ذَلِكَ الدُّبْحُ^(١٣)؛ كَرَاهَتُهُ [لَيْسَتْ]^(١٤) كَرَاهَةُ الْعَقْلِ وَتَفُورُهُ.

وَالثَّانِي: أَنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ كُلَّهَا إِنَّمَا [خُلِقَتْ لَنَا، وَسُخِّرَتْ] لِمَتَاعِنَا، لَمْ تُخْلَقْ لِأَنْفُسِهَا. فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ^(١٥) يَحِلُّ لَنَا ذُبْحُهَا وَالتَّأَوُّلُ مِنْهَا بِأَمْرِ الَّذِي أَنْشَأَهَا، وَسَخَّرَهَا^(١٦) لَنَا.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) أدرج قبلها في الأصل: لم، وفي م: ما. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل: وكراهة طبع لا كراهة العقل مما يكرهه الطبع وينفر عنه، وفي م: وكراهته كراهة طبع يكرهه وينفر عنه. (٩) ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل: ويتأمل. (١١) ساقطة من م. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) في الأصل وم: الذبيحة. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: خلق لنا، وسخر. (١٦) في الأصل وم: كذلك. (١٧) في الأصل وم: لنا وسخر.

وَبَعْدُ فَإِنَّ مَذْهَبَهُمْ أَنَّ الْعَالَمَ إِنَّمَا كَانَ بَامْتِزَاجِ النُّورِ وَالظُّلُمَةِ، وَالرُّوحِ مِنَ الثُّورَانِي، وَالْجِسْمِ مِنَ الظُّلْمَانِي. ففِي الذَّبْحِ اسْتِخْرَاجُ الرُّوحِ وَرَدُّهُ إِلَى أَصْلِهِ؛ إِذْ مِنْ قَوْلِهِمْ: إِنَّهُ يَرْجِعُ كُلُّ إِلَى أَصْلِهِ فِي الْعَاقِبَةِ عَلَى مَا كَانَ فِي الْأَوَّلِ. وَأَمَّا جَوَابُ^(١) مَا قَالَهُ أَهْلُ الشُّرْكِ: أَكَلْتُمْ مَا ذَبَحْتُمْ أَنْتُمْ، وَتَرَكْتُمْ ذَبِيحَةَ اللَّهِ [فَفِي وَجْهَيْنِ]^(٢):

أَحَدُهُمَا: مَا قَالَهُ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: إِنَّ الْخَلْقَ لَهُ، وَلَهُ الْحُكْمُ عَلَيْهِمْ، فَاحْلُ لَهُمْ هَذَا، وَحَرِّمْ عَلَيْهِمْ هَذَا.

وَالثَّانِي: تَعَبَّدْنَا بِذِكْرِ اسْمِهِ عَلَيْهَا، فَصَارَ اسْمُ اللَّهِ إِقَامَةً عِبَادَةٍ تَعَبَّدْنَا بِهَا، وَفِي مَا لَمْ نَذْكُرْ لَمْ تَكُنْ عِبَادَةً. كَذَلِكَ حَلَّ لَنَا مَا كَانَ فِي ذَلِكَ إِقَامَةً عِبَادَةٍ، وَلَمْ يَحِلَّ لَنَا مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ^(٣) إِقَامَةً عِبَادَةٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ أَنْتُمْ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ هو في الظاهر أمر. لكن الأمر الذي يَرْجِعُ إِلَى شَهَوَاتِ النَّفْسِ وَلَذَائِهَا فَإِنَّهُ يَخْرُجُ عَلَى وَجْهَيْنِ؛ إِمَّا أَنْ يَخْرُجَ عَلَى بَيَانٍ مَا يَحِلُّ وَالتَّهْنِ عَمَّا^(٤) لَا يَحِلُّ. فَهَهُنَا خَرَجَ عَلَى مَا يَحِلُّ، وَتَحْرِيمٍ مَا لَا يَحِلُّ؛ كَأَنَّهُ قَالَ: كُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ هو صِلَةُ قَوْلِهِ: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ أَنْتُمْ اللَّهُ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ أَي مَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا كَذَا، وَقَدْ بَيَّنَّ^(٥) لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْمَيْتَةِ وَالدِّمِ وَلَحْمِ الْخِنْزِيرِ إِلَّا مَا اضْطَرَزْتُمْ إِلَيْهِ.

قَالَ الْحَسَنُ: لَهُ أَنْ يَتَنَاوَلَ مِنَ الْمَيْتَةِ حَتَّى يَشْبَعَ؛ لِأَنَّهُ أَحَلَّ لَهُ التَّنَاوُلَ. وَعَلَى قَوْلِنَا: لَا يَحِلُّ لَهُ الشَّبْعُ؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا أَحَلَّ عِنْدَ ١٦٠ - أ/ الاضْطِرَارَّ لَا الشَّبْعَ. وَيَقُولُ الْحَسَنُ: لَوْ تَرَكَ التَّنَاوُلَ مِنْهَا حَتَّى هَلَكَ لَا شَيْءَ عَلَيْهِ؛ يَقُولُ: إِنَّمَا أُحِلَّتْ لَهُ رُخْصَةٌ وَرَحْمَةٌ، وَلَيْسَ عَلَى مَنْ لَمْ يَفْعَلْ بِالرُّخْصِ إِثْمٌ.

وَلَكِنْ عِنْدَنَا: أَنَّهَا أُبْحِثَ فِي حَالِ الْإِضْطِرَارِّ؛ فَإِذَا تَرَكَ التَّنَاوُلَ مِنْهَا حَتَّى هَلَكَ صَارَ مُلْقِيًا نَفْسَهُ فِي التَّهْلُكَةِ، وَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْنَا أَنْ نَهْلِكَ أَنْفُسَنَا، أَوْ نُلْقِيَهَا فِي التَّهْلُكَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥] وَلَا فَرْقَ بَيْنَ تَرْكِ التَّنَاوُلِ مِنَ الْمَيْتَةِ، وَقَدْ أَحَلَّ لَنَا التَّنَاوُلَ مِنْ غَيْرِهَا^(٦) مِنَ الْأَطْعِمَةِ الْمُحَلَّلَةِ، أَوْ [أَنْ]^(٧) نَاتِي بِأَسْبَابِ إِتْلَافِ النَّفْسِ، فَهُمَا سَوَاءٌ.

ويقول أيضاً: لَهُ أَنْ يَتَنَاوَلَ عِنْدَ الْإِضْطِرَارِّ مِنْ مَالٍ غَيْرِهِ بِلَا بَدَلٍ. وَإِذَا نَهَى صَاحِبُهُ عَنْ ذَلِكَ يَضْمَنُ بَدَلَ ذَلِكَ بِالْغَا مَا بَلَغَ، فَهَذَا بَعِيدٌ لَا يَجُوزُ أَنْ يَتَنَاوَلَ مِنْ^(٨) مَالٍ غَيْرِهِ، وَلَا يَلْزَمُهُ الْبَدَلُ. وَإِذَا نَهَا عَنْ ذَلِكَ يَلْزَمُهُ الْبَدَلُ؛ لِأَنَّ مَنْ كَانَ لَهُ حَقٌّ فِي التَّنَاوُلِ مِنْ مَالٍ آخَرَ بِغَيْرِ بَدَلٍ، ثُمَّ إِذَا نَهَى، أَوْ مُنِعَ، يَلْزَمُهُ الْبَدَلُ. دَلَّ أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ التَّنَاوُلُ إِلَّا بِبَدَلٍ، وَقَدْ ذَكَّرْنَا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا كَثِيرًا لِيُحِلُّوا بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ دَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ الْكُلَّ مِنْهُمْ لَمْ يَكُونُوا يُضِلُّونَ، وَلَكِنَّ الْبَغْضَ هُمُ الْأَيْمَةُ مِنْهُمْ وَالرُّؤَسَاءُ؛ لِأَنَّ الْأَتْبَاعَ مِنْهُمْ كَانُوا لَا يُضِلُّونَ النَّاسَ إِنَّمَا [كَانَ يُضِلُّهُمْ]^(٩) الْكِبَرَاءُ مِنْهُمْ وَالْعُظَمَاءُ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْكَرِينَ﴾ وَقَدْ ذَكَّرْنَا هَذَا فِي مَا تَقَدَّمَ.

الآية ١٢٠ وقوله تعالى: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِنِّمِ وَبَاطِنَهُ﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ: قِيلَ: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِنِّمِ﴾ بِظَاهِرِ الْجَوَارِحِ وَبَاطِنِهَا؛ ظَاهِرُ الْجَوَارِحِ مِنْ نَحْوِ الْيَدِ وَالرَّجْلِ وَاللِّسَانِ وَالْعَيْنِ، وَبَاطِنُ الْجَوَارِحِ الْقُلُوبُ وَالصَّمَائِرُ. وَقِيلَ: ذَرُوا الْإِنِّمَ فِي مَلَأٍ مِنَ الْخَلْقِ وَفِي الْخَلَاءِ. وَقِيلَ: ظَاهِرُ الْإِنِّمَ مَا ذَكَّرْنَا، وَبَاطِنُهُ الرُّنَى.

قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْكَيْسَانِيُّ: كَأَنَّهُ قَالَ: وَذَرُوا الْمَائِمَ كُلَّهَا، مَا ظَهَرَ مِنْهَا، وَمَا بَطَنَ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْآلِيَةَ يَكْسِبُونَ الْإِنِّمَ سَبْجَرُونَ مِمَّا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ لَا يُتْرَكُونَ وَمَا عَمِلُوا، وَلَكِنْ يُجْزَوْنَ جَزَاءَ مَا

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: الْجَوَاب. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَجْهَان. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: فِيهَا. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: عَلَى مَا. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: بَيِّن، وَهُوَ إِشَارَةٌ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خَرَجْتَ عَلَيْكُمْ أَلَيْتَهُ﴾ [المائدة: ٣]. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: غَيْرِهِ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: عَنْ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: كَانُوا يَضِلُّونَ.

عَمِلُوا مِنَ الْإِثْمِ، وَهُوَ وَعِيدٌ [لأنهم^(١)] يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ، وَيُصِرُّونَ عَلَيْهِ، وَلَا يَتُوبُونَ، وَلَا يَنْقَلِبُونَ عَنْهُ حَتَّى [إِذَا^(٢)] مَاتُوا عَلَى ذَلِكَ ﴿سَيَجْزِيَنَّهُمْ﴾ ذَكَرَ.

الآية ١٣١

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ أَسْمُ اللَّهِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ الْمَيْتَةُ، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ رحمته الله وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ مَا ﴿أَهْلَ بِهِ، لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٣ و...].

وَقُلْنَا نَحْنُ: هُوَ مَا ﴿لَمْ يَذْكُرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ لِأَنَّ اللَّهَ قَدْ صَرَّحَ بِتَحْرِيمِ الْمَيْتَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ لَا أَهْلُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ [المائدة: ٣] وَصَرَّحَ بِهِ بِتَحْرِيمِ مَا ﴿أَهْلَ بِهِ، لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَهْلَ بِهِ، لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٣ و...] تَضْرِيحًا^(٣) فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ [إِذَا^(٤)] رَجَعُ هَذَا الْخِطَابُ إِلَى تَحْرِيمِ مَا ﴿لَمْ يَذْكُرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾.

وَكَذَلِكَ صَرَّحَ بِتَحْرِيمِ الْمَيْتَةِ وَمَا أَهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَا أَهْلُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ [الأنعام: ١٤٥] كَانَ لَا يَجِدُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، ثُمَّ وَجَدَ مَا ﴿لَمْ يَذْكُرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ مُحَرَّمًا فِي حَادِثِ الْوَقْتِ. وَكَذَلِكَ وَجَدَ^(٥) كُلُّ ذِي نَابٍ مِنَ السَّبَاعِ وَكُلُّ ذِي مَخْلَبٍ مِنَ الطَّيْرِ مُحَرَّمًا فِي حَادِثِ الْوَقْتِ. كَانَ لَا يَجِدُ فِي تِلْكَ^(٦) الْأَوْقَاتِ مُحَرَّمًا إِلَّا مَا ذَكَرَ، ثُمَّ وَجَدَ أَشْيَاءَ مُحَرَّمَةً مِنْ بَعْدُ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ مِنْ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ جِئْنَا قَالُوا: مَا قَتَلْتُمْ، وَذَبَحْتُمْ أَنْتُمْ، فَتَأْكُلُونَهُ، وَمَا قَتَلَ رَبُّكُمْ فَتَحَرِّمُونَهُ، وَأَنْتُمْ تَعْظُمُونَ رَبُّكُمْ، وَهُوَ مِنْ زُخْرَفِ [القول]^(٧) الَّذِي يُوجِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ وَمَا ذَكَرُوا أَنَّ ﴿أَشْيَاءَ لِيُوحُونَ إِلَهُ أَوْلِيَائِهِمْ لِيَجْبِلُوهُمْ﴾.

لَكِنَّا نَقُولُ: [فِيهِ وَجْهٌ]:

أَحَدُهَا: [٨] أَنَّ مَا ذُبِحَ، وَقُتِلَ، ذُبِحَ اللَّهُ وَقُتِلَ بِهِ أَيْضًا، فَقَدْ أُذِنَ لَنَا بِأَكْلِ بَعْضِ الذَّبِيحِ، وَحَرَّمَ أَكْلَ بَعْضٍ. وَلِلَّهِ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ؛ لَهُ أَنْ يَأْذُنَ فِي أَكْلِ بَعْضٍ وَتَحْرِيمِ أَكْلِ بَعْضٍ عَلَى مَا أُذِنَ لَنَا فِي أَكْلِ بَعْضٍ مَا خَلَقَ لَنَا مِنَ الْأَنْعَامِ، وَلَمْ يَأْذُنْ فِي أَكْلِ بَعْضٍ. فَعَلَى ذَلِكَ قَدْ أُذِنَ فِي أَكْلِ بَعْضٍ مَا ذُبِحَ بِهِ، وَقُتِلَ، وَلَمْ يَأْذُنْ فِي بَعْضٍ. وَهُوَ كُلُّهُ ذُبِحَ بِاللَّهِ وَقُتِلَ بِهِ، وَلَهُ ذَلِكَ.

وَالثَّانِي: أَنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُ لَهُ مُلْكُهُ، وَلَا يُقَالُ لِأَحَدٍ فِي مُلْكِهِ: لِمَ فَعَلْتَ ذَا؟ وَلَمْ تَفْعَلْ ذَا؟ إِنَّمَا يُقَالُ ذَلِكَ فِي غَيْرِ مُلْكِهِ كَشَرِيكَ يَقُولُ لِشَرِيكَ: لِمَ تُعْطِي حَقِّي، وَلَمْ تُؤْفَرْ عَلَيَّ نَصِيبِي، فَأَمَّا أَنْ يَقُولَ: لِي^(٩) مُلْكٌ فِي مُلْكِهِ فَلَا.

وَالثَّلَاثُ: مَا ذَكَرْنَا أَنَّ^(١٠) تَعَبَّدْنَا بِذِكْرِ اسْمِ اللَّهِ عَلَيْهِ عِبَادَةً، لِذَلِكَ لَمْ يَجُزْ هَذَا.

وقوله تعالى: ﴿وَأِنَّهُمْ لَفِئَ شِقَاقٍ﴾ أَخْبَرَ أَنَّ^(١١) مَا ﴿لَمْ يَذْكُرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ فَسَقَ كَمَا أَخْبَرَ أَنَّ التَّائُولَ مِنَ الْمَيْتَةِ ﴿وَمَا أَهْلَ بِهِ، لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٣ و...] فَسَقَ، وَالْفِسْقُ هُوَ الْخُرُوجُ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ. وَالَّذِي تَرَكَ ذِكْرَ اسْمِ اللَّهِ عَلَيْهِ خَارِجٌ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى كَالْمَيْتَةِ الَّتِي ذَكَرْنَا.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ فَكَيْفَ يَجُوزُ لَكُمْ أَنْ تُظْلِفُوا أَكْلَ الذَّبِيحَةِ إِذَا تَرَكَ ذِكْرَ اسْمِ اللَّهِ نَائِبِيًّا؟ لِأَنَّ الذَّبَائِحَ إِنَّمَا هِيَ مِنْ عَمَلِ الْقَضَائِينَ وَالضَّبَّائِينَ؛ فَهُمْ لَمْ يَعُودُوا أَنْفُسَهُمْ ذِكْرَ اسْمِ اللَّهِ حَتَّى يُؤَاخِذُوا^(١٢) بِهَا عَلَى حِفْظِ ذَلِكَ.

وهذا أضلنا: أَنَّ [مَنْ^(١٣)] لَمْ يَعُودْ نَفْسَهُ فِعْلًا يُعَذَّرُ فِي تَرْكِهِ، وَارْتِكَابُهُ فِي حَالِ السَّهْوِ وَالنَّسْيَانِ كَالْأَكْلِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ نَائِبِيًّا؛ لِأَنَّهُ عَوْدَ نَفْسِهِ الْأَكْلَ وَالشُّرْبَ، وَالصُّومُ هُوَ الْكَفُّ عَمَّا اغْتَادَ، فَعُذِرَ فِي التَّائُولِ مِنْهُ وَالْعَوْدُ إِلَى الْعَادَةِ عَلَى السَّهْوِ؛ لِأَنَّهُ يَشْتَدُّ عَلَى النَّاسِ حِفْظُ النَّفْسِ عَلَى خِلَافِ الْعَادَةِ، وَلِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿وَأِنَّهُمْ لَفِئَ شِقَاقٍ﴾ وَلَا خِلَافَ فِي أَنَّ مَنْ

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: نصريح. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، في الأصل: وجه.

(٦) في الأصل وم: ذلك. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: في ذي. (١٠) في الأصل وم: أنه.

(١١) في الأصل وم: أنه. (١٢) في الأصل وم: يؤاخذون. (١٣) من م، ساقطة من الأصل.

نَسِيَ أَنْ يُسَمِّيَ اللَّهَ عَلَى ذَبِيحَةٍ فَلَيْسَ بِفَاسِقٍ، وَإِنَّمَا يَفْسُقُ مَنْ تَرَكَهَا عَامِداً. فَذَلِكِ أَنَّ الْخِطَابَ بِالْآيَةِ رَجَعَ إِلَى الذَّبِيحَةِ الَّتِي تَرَكَتِ التَّسْمِيَةَ عَمداً.

فَإِنْ قِيلَ: لَيْسَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرَأَيْتُمْ لَيْسَ﴾ يُرِيدُ بِهِ أَنْ الَّذِي يَأْكُلُ مِنْهَا إِذَا لَمْ يُسَمِّ اللَّهَ عَلَيْهَا عَامِداً أَوْ سَاهِياً فَاسِقٌ، وَإِنْ كَانَ هَذَا هُوَ التَّأْوِيلُ فَالْآيَةُ عَلَى الْأَكْثَلِ.

قِيلَ: الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَرَأَيْتُمْ لَيْسَ﴾ إِمَارَةٌ إِلَى الذَّبِيحِ الَّذِي تَرَكَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ عَمداً دُونَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ إِمَارَةً إِلَى أَنَّ الْأَكْثَلَ مِنْ تِلْكَ الذَّبِيحَةِ فَسَقَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [الأنعام: ١٤٥] فَكَانَ الْإِهْلَالُ بِالذَّبِيحَةِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَسْقًا لِمَنْ فَعَلَهُ. فَوَاجِبٌ أَنْ يَكُونَ تَرْكُ اسْمِ اللَّهِ عَلَى الذَّبِيحَةِ فَسْقًا وَمَنْ تَعَمَّدَهُ، وَذَلِكَ يُوجِبُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُ اللَّهِ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ خَاصّاً فِي الْمُتَعَمِّدِ لِقَوْلِهِ التَّسْمِيَةَ.

[فَإِنْ قِيلَ^(١)]: كَيْفَ لَمْ يَجْعَلُوا تَارِكَ التَّسْمِيَةِ نَاسِياً كَتَارِكِهَا عَامِداً كَمَا قُلْتُمْ فِي التَّكْبِيرَةِ الْأُولَى فِي الصَّلَاةِ: إِنَّ عَمْدَهُ وَسَهْوَهُ سَوَاءٌ. قِيلَ: مَنْ قَالَ^(٢): إِنَّ الذَّبِيحَةَ إِذَا تَعَمَّدَ صَاحِبُهَا تَرَكَ التَّسْمِيَةَ عَلَيْهَا إِنَّمَا حُرِّمَتْ بِنَصِّ الْقُرْآنِ؛ لِأَنَّهُ فَسَقَ، فَقُلْنَا: مَتَى زَالَ الْفِسْقُ عَنِ الذَّابِحِ زَالَ التَّحْرِيمُ عَنِ الذَّبِيحَةِ؛ لِأَنَّ التَّحْرِيمَ إِذَا وَقَعَ لِغِلَّةٍ، فَزَالَتِ الْغِلَّةُ، زَالَ التَّحْرِيمُ. وَلَمْ نَقُلْ: إِنَّ صَلَاةَ [تَارِكِ التَّكْبِيرَةِ الْأُولَى فَاسِدةً]^(٣)؛ لِأَنَّهُ فَسَقَ بِتَرْكِهِ^(٤) التَّكْبِيرَةَ عَامِداً، فَلِئَلَّا نُنْفِرَ بَيْنَ سَهْوِهَا وَعَمْدِهَا، بَلْ فَسَدَتْ صَلَاتُهُ صَلَّى بِغَيْرِ تَكْبِيرٍ. فَالتَّارِكُ التَّكْبِيرَ عَامِداً أَوْ سَاهِياً تَارِكاً، فَهُمَا سَوَاءٌ.

وَرُوِيَ فِي الْخَبَرِ مَا يُؤَيِّدُ مَا قُلْنَا: رُوِيَ عَنْ رَاشِدِ بْنِ سَعْدٍ [أَنَّهُ]^(٥) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ذَبِيحَةُ الْمُسْلِمِ حَلَالٌ، سَمَى، أَوْ لَمْ يُسَمِّ، مَا لَمْ يَتَعَمَّدْ» [البيهقي في الكبرى ٩/ ٢٤٠] وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ: «فِي رَجُلٍ، ذَبَحَ، وَنَسِيَ أَنْ يَذْكُرَ اسْمَ اللَّهِ [أَنَّهُ]^(٦)»، قَالَ: اسْمُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ، فَلْيَأْكُلْ.

وقوله تعالى: ﴿وَرَأَى الشَّكِيمِينَ يُوحُونَ إِلَهُ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوهُمْ﴾ أَهْلُ التَّأْوِيلِ صَرَفُوا تَأْوِيلَ هَذَا إِلَى أَنَّ زُخْرَفَ الْقَوْلِ الَّذِي يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ فِي الْآيَةِ الْأُولَى هُوَ مُجَادَلَتُهُمْ فِي الذَّبِيحَةِ حِينَ^(٧) قَالُوا: «أَوَدَا يَسْتَأْذِنُ وَكُنَّا تَرَاكِبًا وَعِظْلًا أَوْنَا لَمَبْعُوثُونَ» [المؤمنون/ ٨٢ و...]. فَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ لَوْ أَطَاعُوهُمْ إِنَّهُمْ لَمُشْرِكُونَ؛ أَيِ لَوْ أَطَعْتُمُوهُمْ فِي مَا يُجَادِلُونَكُمْ، وَيُوحُونَ إِلَيْكُمْ^(٨) ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾.

الآية ١٣٢ وقوله تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَخْبَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَتَّبِعُهُ يَوْمَ فِي النَّاسِ كَمَنْ تَمَلَّكَ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ/ ١٦٠ - ب/ بِخَارِيجٍ مِنْهَا﴾ يُشْبِهُ: أَمِنْ^(٩) أَخْرَجَ مِنْ ذَلِكَ، فَأَبْصَرَ، وَسَمِعَ، وَعَقَلَ، كَمَنْ تَرَكَ فِي تِلْكَ الظُّلُمَاتِ، وَلَمْ يُخْرِجْ مِنْهَا؟ يَقُولُ، وَاللَّهُ أَغْلَمُ، لَا يَسْتَوِي مَنْ أَخْرَجَ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبُظْنِ بَعْدَ مَا كَانَ لَا يَبْصُرُ، وَلَا يَسْمَعُ، وَلَا يَعْقِلُ، وَلَا يَفْهَمُ، ثُمَّ أَبْصَرَ، وَسَمِعَ، وَعَقَلَ، وَالَّذِي تَرَكَ فِي تِلْكَ الظُّلُمَاتِ عَلَى الْحَالِ الَّتِي كَانَ [كَمَا]^(١٠) هُوَ لَا يَبْصُرُ، وَلَا يَسْمَعُ، وَلَا يَعْقِلُ.

فَعَلَى ذَلِكَ لَا يَسْتَوِي الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُبْصِرُ الْحَقَّ، وَيَسْمَعُ، وَيَعْقِلُ كُلَّ خَبَرٍ، وَيَعْلَمُهُ ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَتَّبِعُهُ يَوْمَ فِي النَّاسِ﴾ بِنُورِهِ [يَمْشِي]^(١١) أَصْحَابٌ يَدْعُونَ النَّاسَ إِلَى الْهُدَى وَالْخَيْرِ، وَالْكَافِرُ الَّذِي لَا يُبْصِرُ الْحَقَّ^(١٢)، وَلَا يَسْمَعُ، وَلَا يَعْقِلُ، لَيْسَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُوهُ إِلَى الْهُدَى وَالْخَيْرَاتِ: أَيِ لَيْسَ هَذَا كَذَلِكَ الَّذِي يُبْصِرُ، وَيَسْمَعُ، وَيَعْقِلُ، كَالَّذِي لَا يَبْصُرُ، وَلَا يَسْمَعُ، وَلَا يَعْقِلُ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ الْمَثَلُ الَّذِي ضَرَبَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ جَمِيعاً حَيِّينِ فِي الْجَوْهَرِ. لَكِنَّ الْمُؤْمِنَ اكْتَسَبَ مَا بِهِ يَخْيَى أبدأ مِنَ الْعِلْمِ وَالْقُرْآنِ وَالْإِيمَانِ، وَالْكَافِرُ لَمْ يَكْتَسِبْ مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً؛ فَهُوَ كَالْمَيْتِ الَّذِي لَا يَبْصُرُ، وَلَا يَسْمَعُ الْحَقَّ، وَلَا يَعْقِلُ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: قيل. (٣) في الأصل وم: التارك للتكبير الأولى فسوق صلاته. (٤) في الأصل وم: بتركها. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: إليهم. (٩) في الأصل وم: بم. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: الخير.

وَيَحْتَمِلُ هَذَا الْمَثْلُ وَجْهًا آخَرَ، وهو أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَكْتَسِبُ فِي الدُّنْيَا الْخَيْرَاتِ وَالْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ، وَيَكُونُ لَهُ نُورٌ فِي الْآخِرَةِ بِالْأَعْمَالِ الَّتِي اكْتَسَبَ فِي الدُّنْيَا، وَيَعِيشُ بِنُورِ ذَلِكَ فِي مَا بَيْنَ النَّاسِ فِي الْآخِرَةِ. وَأَمَّا الْكَافِرُ فَإِنَّهُ لَمْ يَكْتَسِبْ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا، فَيَبْقَى فِي الظُّلُمَاتِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِرَاقَتَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ [الحديد: ١٣].

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّارِ﴾ والمُعْتَزِلَةُ يَقُولُونَ: هُمْ جَعَلُوا لِنَفْسِهِمْ نُورًا يَمْشُونَ [به] (١) فِي النَّارِ، وَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَجْعَلُ لَهُمْ ذَلِكَ [النور، فذلك] (٢) تَخْرِيفٌ مِنْهُمْ [في] (٣) ظَاهِرِ الْقُرْآنِ.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [هود: ٤] وَهُمْ يَقُولُونَ: هُوَ قَدَّرَ عَلَى بَعْضِ الْأَشْيَاءِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠٢]... وَهُمْ يَقُولُونَ: هُوَ خَالِقُ بَعْضِ الْأَشْيَاءِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١٣٧] وَهُمْ يَقُولُونَ: شَاءَ الْآلَاءِ فَعَلُوا مَا فَعَلُوا، وَلَكِنْ فَعَلُوا غَيْرَ مَا شَاءَ اللَّهُ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢] وَهُمْ يَقُولُونَ: شَاءَ غَيْرِ الَّذِي فَعَلُوا، وَكَذَلِكَ [قوله تعالى] (٤): ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ [الأنعام: ١١٢] وَهُمْ يَقُولُونَ: لَمْ يَجْعَلْ لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا، وَهُمْ جَعَلُوا أَنْفُسَهُمْ لَهُمْ أَعْدَاءَ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ مُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٢٣] وَهُمْ يَقُولُونَ: جَعَلَ الْأَكَابِرَ فِيهَا لثَلَاثًا يَمْكُرُوا فِيهَا.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ زَيْنٌ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَمْلِكُونَ﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: كَمَا زَيْنًا لِلْمُؤْمِنِينَ عِبَادَةَ اللَّهِ كَذَلِكَ زَيْنًا لِلْكَافِرِينَ عِبَادَةَ اللَّهِ، لَكِنَّهُمْ تَعَانَدُوا، وَصَرَفُوا الْعِبَادَةَ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ، وَهُوَ تَأْوِيلُ الْمُعْتَزِلَةِ. وَقَالَ قَائِلُونَ: زَيْنٌ لَهُمْ أَعْمَالُهُمُ الَّتِي يَعْمَلُونَهَا.

ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي الَّذِي زَيْنُهَا؛ قَالَ الْحَسَنُ: زَيْنٌ (٥) الشَّيْطَانُ أَعْمَالُهُمْ، وَقَالَ غَيْرُهُ: زَيْنُهَا الْأَكَابِرُ عَلَى الْأَصَاغِرِ، وَقَالَ قَائِلُونَ: زَيْنُهَا اللَّهُ، وَلَكِنْ مَا أَضِيفَ إِلَى الشَّيْطَانِ مِنَ التَّزْيِينِ وَالْإِضْلَالِ إِنَّمَا يُضَافُ إِلَى مَا يَدْعُوهُمْ، وَيَحْتَنُهُمْ عَلَى ذَلِكَ. وَمَا يُضَافُ إِلَى اللَّهِ مِنَ التَّزْيِينِ وَالْإِضْلَالِ وَالْإِزَاغَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، يُضَافُ لِلْخَلْقِ؛ أَيْ خَلَقَ مِنْهُمْ فَعَلَ الْإِضْلَالَ وَفَعَلَ التَّزْيِينَ وَفَعَلَ الزَّيْنُ؛ يُضَافُ إِلَى اللَّهِ خَلْقًا وَإِلَى الشَّيْطَانِ الْأَكَابِرِ دَعَاءَ وَوَحْيًا وَالْقَاءَ. وَعَلَى (٦) هَذَا تَخْرُجُ جَمِيعُ الْإِضَافَاتِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٢٣ وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِينَ﴾ أَي جَعَلَ فِي كُلِّ قَرْيَةٍ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ أَكْبَرًا مُجْرِمِينَ وَعَظَمَائَهَا كَمَا جَعَلَ فِي قَرْيَتِكَ أَكْبَرًا مُجْرِمِينَ. يُصَبِّرُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنَّهُ لَيْسَ بِمَخْصُوصٍ هُوَ بِهَذَا دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ.

ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِينَ﴾ وَقَدْ ذَكَرْنَا أَقَابِلَهُمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ [الأنعام: ١١٢].

ثُمَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِينَ﴾ قَالَتِ الْمُعْتَزِلَةُ: لَمْ يَجْعَلِ الْأَكَابِرَ فِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا. وَلَكِنْ لَمَّا وَسَّعَ الدُّنْيَا، وَبَسَطَهَا عَلَيْهِمْ مَكُرُوا فِيهَا. وَكَذَلِكَ قَالُوا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩] لَا يَجُوزُ أَنْ يَخْلُقَهُمُ [الْجَهَنَّمَ] (٨)، وَلَكِنْ لَمَّا عَمِلُوا أَعْمَالَ الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ صَارُوا لِجَهَنَّمَ.

وَقَالُوا: هُوَ عَلَى الْإِضْمَارِ كَأَنَّهُ قَالَ: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرًا مُجْرِمِينَ لثَلَاثًا يَمْكُرُوا، لَكِنَّهُمْ مَكُرُوا فِيهَا لِمَا ذَكَرْنَا.

لَكِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِينَ﴾ لِيَكُونَ أَدْعَى وَأَظْهَرَ لِلْحُجَجِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ بَعَثَ الرُّسُلَ أَكَابِرَ لَكَانَ النَّاسُ يَتَّبِعُونَ الْأَكَابِرَ، وَإِنْ لَمْ يَأْتُوا بِالْحُجَجِ، وَغَيْرُهُمْ لَا يَتَّبِعُونَ إِلَّا بِالْحُجَجِ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: زينها.

(٦) الواو ساقطة من الأصل وم. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقْطَعُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿يَتَكَبَّرُوا فِيهَا﴾ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْثَرَ مُجْرِمِينَ﴾؛ يَقُولُ: مَعْنَاهُ ﴿جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْثَرَ مُجْرِمِينَ﴾ أَكَابَرُ ثُمَّ قَالَ: ﴿يَتَكَبَّرُوا فِيهَا﴾ أَيُّ مَا جَعَلَ ذَلِكَ لَهُمْ لِيَتَفَكَّرُوا.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: هُوَ إِخْبَارٌ [عَمَّا] ^(١) إِلَيْهِ صَارَ أَمْرُهُمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاللَّفْطَةُ مَا لَمْ يَرْتَوِ لِيَكُونَ لَهُمْ عَذَابٌ وَحَرْنَا﴾ [القصص: ٨] وَمَنْ لَمْ يَلْتَقِطُوهُ ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَذَابٌ وَحَرْنَا﴾ إِنَّمَا التَّقْطُوعُ لِيَكُونَ لَهُمْ وَلِيَّا، لَكِنَّهُ لِمَا صَارَ فِي الْعَاقِبَةِ عَذَابًا لَهُمْ؛ أَخْبَرَ عَمَّا آتَى إِلَيْهِ أَمْرُهُ. فَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَتَكَبَّرُوا فِيهَا﴾ أَخْبَرَ عَمَّا إِلَيْهِ صَارُوا، مِنْ الْمَكْرِ.

وَعِنْدَنَا لَا يَخْلُو هَذَا. إِنَّمَا أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُ يَخْلُقُهُمْ لِغَيْرِ الْمَكْرِ وَالضَّلَالِ، وَهُوَ يَغْلَمُ أَلَّا يَكُونُوا لِمَا يَخْلُقُهُمْ، فَذَلِكَ لَيْسَ فِعْلٌ حَكِيمٌ أَنْ يَغْلَمَ عَمَلًا يَغْلَمُ أَنَّهُ لَا يَكُونُ؛ نَحْنُ مَنْ يَبْنِي بِنَاءً يَغْلَمُ أَنَّهُ لَا يُسْكَنُ، أَوْ يَقْصِدُ قَصْدَ مَوْضِعٍ يَغْلَمُ أَنَّهُ لَا يَصِلُ إِلَيْهِ؛ فَهُوَ بِالْقَصْدِ عَابِثٌ، لَيْسَ بِحَكِيمٍ. فَعَلَى ذَلِكَ اللَّهُ، سُبْحَانَهُ، لَا يَجُوزُ أَنْ يَخْلُقَهُمْ لِلْهُدَى وَالْعِبَادَةِ لَهُ مَعَ عِلْمِهِ أَنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ لِمَا يَخْلُقُهُمْ، وَإِنَّمَا ^(٢) أَنْ يَخْلُقَهُمْ لِذَلِكَ، وَهُوَ لَا يَغْلَمُ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَذَلِكَ، فَهُوَ جَهْلٌ بِالْعَوَاقِبِ؛ فَاللَّهُ يَتَعَالَى عَنْ ذَلِكَ، فَذَلِكَ أَنَّهُ خَلَقَهُمْ لِيَكُونُوا عَلَى مَا عَلِمَ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ، وَيَخْتَارُونَ ذَلِكَ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَذَابٌ وَحَرْنَا﴾ [القصص: ٨] كَانَ عِنْدَ اللَّهِ أَنَّهُمْ يَلْتَقِطُونَهُ لِيَكُونَ لَهُمْ عَذَابًا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَتَكَبَّرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ أَيُّ مَا يَشْعُرُونَ أَنَّ عَاقِبَةَ مَكْرِهِمْ تَرْجِعُ إِلَيْهِمْ، [وَهُوَ] ^(٣) وَاقِعٌ بِهِمْ. وَاضْلُهُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَهُمْ، وَخَلَقَهُمْ، عَلَى مَا عَلِمَ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ يَخْتَارُونَ، وَيَكُونُ مِنْهُمْ ذَلِكَ.

الآية ١٣٤ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ يُخْبِرُ [عَنْ] ^(٤) غَايَةِ سَفَاهِهِمْ وَتَعَتُّبِهِمْ وَأَنَّهُمْ عَنْ عِلْمٍ يُعَانِدُونَ، وَيَتَكَبَّرُونَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِأَنَّهُمْ عَلِمُوا أَنَّ مَا يُنَزَّلُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ آيَةٌ، وَأَنَّهُ رَسُولٌ حَقٌّ ^(٥) قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ [وَعَلِمُوا أَنَّ الرِّسَالَةَ لَا تُجْعَلُ إِلَّا فِي الْمُعْظَمِ عِنْدَ اللَّهِ وَالْمُفْضِلِ لَدَيْهِ حِينَ] ^(٦) تَمَنَّوْا أَنَّهُمْ لَا يَوْمِنُونَ حَتَّى يُؤْتُوا ^(٧) مِنَ الْآيَاتِ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ^(٨).

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ [ذَلِكَ مَا تَمَنَّوْا] ^(٩) إِيْنَاءً مَا أُوتِيَ ^(١٠) الرُّسُلُ، [وَقَدْ] ^(١١) عَلِمُوا أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ آيَةٌ وَحُجَّةٌ، وَأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ نَزَلَ حِينَ] ^(١٢) قَالُوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] وَعَلِمُوا أَيْضًا أَنَّ الرِّسَالَةَ لَا تُجْعَلُ إِلَّا فِي عُظَمَاءَ مِنَ الْبَشَرِ وَكِبَرَاتِهِمْ حِينَ] ^(١٣) قَالُوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ لِكِنَّهُمْ ظَنُّوا أَنَّهَا إِنَّمَا تُجْعَلُ فِي ^(١٤) الْعُظَمَاءِ الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ الْخَلْقِ عُظَمَاءَ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ فَتَنَاقَضَتْ أَقَاوِيلُهُمْ وَحِجَا جُهِتُهُمْ بِمَا ذَكَرْنَا مِنْ إِقْرَارِهِمْ بِالرُّسُلِ وَالْآيَاتِ وَتَفْضِيلِهِمْ [أَنْفُسَهُمْ] ^(١٥) عَلَى غَيْرِهِمْ مِنَ الْبَشَرِ.

ثُمَّ قَوْلُهُ ^(١٦) تَعَالَى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ جَمْلَةٌ جَوَابٌ مَا قَالُوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى﴾ [الزخرف: ٣١] كَذَا؛ أَنْ يُقَالَ: إِنَّكُمْ عَرَفْتُمْ أَنَّ اللَّهَ عَالِمٌ قَادِرٌ فَهُوَ ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾.

ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: جَعَلَ الرِّسَالَةَ فِي أَوْسَاطِ النَّاسِ أَظْهَرَ لِلْحُجَجِ وَأَبَيَّنَ مِنْ جَعْلِهَا فِي أَكَابِرِ النَّاسِ وَعُظَمَائِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَبَيَّنَّ / ١٦١ - أ / لِأَنَّ النَّاسَ مُجْبُولُونَ عَلَى اتِّبَاعِ الْأَكَابِرِ وَالْأَعَاظِمِ؛ فَلَوْ جُعِلَتِ الرِّسَالَةُ فِيهِمْ لَكَانَتِ الْحُجَجُ لَا تَظْهَرُ لِأَنَّهُمْ جُعِلُوا عَلَى اتِّبَاعِهِمْ. وَأَمَّا أَوْسَاطُ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا وَبَيَّنَّ إِذَا جُعِلَتْ فِيهِمْ الرِّسَالَةُ لَظَهَرَتِ الْحُجَجُ وَالْبَرَاهِينُ لِأَنَّهُمْ لَمْ يُجْبَلُوا عَلَى اتِّبَاعِ الْأَوْسَاطِ مِنَ النَّاسِ، فَكَانَ اتِّبَاعُهُمْ لِلْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ أَيُّ لَا يَجْعَلُ الرِّسَالَةَ فِي مَنْ يُضَيِّعُ، وَلَيْسَ بِأَهْلِ لَهَا وَلَا مَوْضِعِهَا؛ لِأَنَّهُ لَوْ جَعَلَ لَكَانَ فِي ذَلِكَ تَضْيِيعُ الرِّسَالَةِ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم. أو. (٣) في الأصل وم. و. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم. حيث. (٦) في الأصل: حيث. (٧) في الأصل: يوتون. (٨) ساقطة من م. (٩) في الأصل وم. كذلك يتمنون. (١٠) في الأصل وم. أنوا. (١١) في الأصل وم. و. (١٢) في الأصل وم. حيث. (١٣) في الأصل وم. حيث. (١٤) أدرج قبلها في الأصل: إلا. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) في الأصل وم. قال.

وقوله تعالى: ﴿سَيُجِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَسْكُرُونَ﴾ أخبر أن من تكبر على رسول الله، وعانده، يكون له عند الله صغاراً ومذلةً وعذاب شديد يصيبهم الذي صنعوا.

الآية ١٢٥ وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ قيل: سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية، فقال: نورٌ يُقَذَّفُ فيه، فقالوا: وهل لذلك علامة؟ قال: نعم؛ إذا دخل الثور في القلب انشرح، وانفسح، قالوا: يا رسول الله وهل لذلك من علامة يُعرف بها؟ قال: نعم؛ الإنابة إلى دار الخلود والتجاني عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزول الموت [السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٣٥٤].

فلو ثبت هذا عن رسول الله ﷺ كان^(١) انشراح الصدر للإسلام؛ فقليلاً ما يوجد على هذا الوصف إلا أن يريد به الإغتراف والتيقن بما ذكر.

ثم اختلف في تأويل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ قال بعض أهل التأويل: الإرادة صفة كل فاعل يفعل على الاختيار؛ كانه قال: فمن يهدي الله ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [ومن يضلّه ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا﴾]^(٢).

وقال فريق من المعتزلة من نحو جعفر بن حزم والكوفي، وهؤلاء تأويلهم^(٣) ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ﴾ أي من قبل هداية الله في الابتداء شرح الله صدره بعد ذلك بخيرات ثواباً لما قبل من الهداية، ومن ترك قبول هداية الله في الابتداء عاقبه الله بضيق صدره عقوبة له في ترك قبول الهداية، وإلا قد أراد الله أن يهدي الخلق كلهم، وإن يشرح صدورهم^(٤) للإسلام، لكنهم لم يهتدوا. وقال فريق منهم: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ﴾ طريق الجنة في الآخرة جعل صدره في الدنيا ضيقاً حرجاً.

فيقال لهم: كذلك هو كما تقولون^(٥): إنه أراد أن يضلهم، ثم يقال لهم: تقولون: إنه أراد أن يهدي الخلق كلهم، ويشرح صدورهم^(٦) للإسلام، ثم تقولون: إنه [أراد أن يضلهم عن]^(٧) طريق الجنة في الآخرة؛ فهذا على زعمكم جور؛ لأنه أراد في الدنيا أن يهديهم، ويريد في الآخرة^(٨) أيضاً لهم أن يضلهم عن طريق الجنة، لأولئك بعينهم؛ فذا جور على قولكم.

وظاهر الآية يرّد قولهم، وينقض مذهبهم لأنه قال: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ كذا جعلهم على صنفين: صنف^(٩) أراد لهم^(١٠) أن يهديهم، وصنف^(١١) أراد أن يضلهم؛ من علم منه أنه يختار الهدى، ويقبله، أراد أن يهديه، ويشرح ﴿صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ ومن علم منه أنه يختار الضلال أراد أن يضلّه، ويجعل ﴿صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾.

ولا يجوز أن يريد هو ومن يعلم منه أنه يختار الضلال وعداوتة الولاية منه لأن ذلك من الضعف [في]^(١٢) من أراد عداوته، وهو يريد ولايته، أو يريد منه غير الذي علم كونه منه واختياره^(١٣). والمعتزلة يقولون: قد أراد أن يهدي الكل، لكنهم أرادوا ألا يهتدوا، فلم يهتدوا؛ غلبت إرادتهم إرادة الله تعالى، فذلك وخش من القول سنج، فتعود بالله من السرف في القول والزئج عن الحق، ولا قوة إلا بالله.

وقوله تعالى: ﴿ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ قيل: الحرج ضيق الضيق، وهو شدة الضيق؛ وصفت قلب المؤمنين بالسعة والفسح، ووصفت [قلب]^(١٤) الكافر بالضيق والحرج، وليس قلب هذا في رأي العين أوسع من قلب الآخر، لكنه، والله أعلم،

(١) في الأصل وم: وكان هذا. (٢) من م، في الأصل: ضيقاً حرجاً. (٣) في الأصل وم: تأويله. (٤) في الأصل وم: صدرهم. (٥) في الأصل: يقول قد قلت، في م: تقولون قد قلت. (٦) في الأصل وم: صدرهم. (٧) في الأصل وم: أن يضل. (٨) في الأصل وم: الآخر. (٩) في الأصل وم: صنفاً. (١٠) في الأصل وم: منهم. (١١) في الأصل وم: وصنفاً. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: واختاره. (١٤) ساقطة من الأصل وم.

وَصَفَّ قَلْبَ الْمُؤْمِنِ بِالسَّعَةِ لِمَا انْتَفَعَ بِقَلْبِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالْكَافِرُ لَمْ يَنْتَفِعْ بِقَلْبِهِ، فَوَصَفَهُ بِالضِّيقِ وَالْحَرْجِ، وَهُوَ كَمَا وَصَفَ الْكَافِرَ بِالضَّمِّ وَالْبَكَمِ وَالْخَرَسِ لِمَا لَمْ يَنْتَفِعْ بِهِذِهِ الْخَوَاصِّ، وَكَذَلِكَ سَمَّاهُ مَيِّتًا لِمَا لَمْ يَنْتَفِعْ بِحَيَاتِهِ. وَسَمَّى الْمُؤْمِنَ حَيًّا لِمَا انْتَفَعَ بِحَيَاتِهِ. فَعَلَى ذَلِكَ هَذَا؛ وَصَفَ الْكَافِرَ بِضِيقِ الصَّدْرِ لِمَا [لَمْ] يَنْتَفِعْ بِهِ.

وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ قِيلَ: كَالْمُتَكَلِّفِ الصُّعُودَ إِلَى السَّمَاءِ، لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ. وَقِيلَ: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ كَأَنَّمَا يَشُقُّ عَلَيْهِ الصُّعُودُ. وَرُويَ عَنْ عُمَرَ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: مَا [تَصَّعَّدَنِي شَيْءٌ مَا تَصَّعَّدَنِي] ^(١) الْخُطْبَةُ، أَيِ مَا شَقَّ عَلَيَّ شَيْءٌ مَا شَقَّ عَلَيَّ الْخُطْبَةُ.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ اخْتَلَفَ فِي الرِّجْسِ: قِيلَ: الرِّجْسُ الْإِثْمُ أَيِ كَمَا جَعَلَ قُلُوبَهُمْ ضَيِّقَةً خَرِجَةً يَكْفُرُهُمْ كَذَلِكَ يَجْعَلُ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِثْمَ، وَقِيلَ: الرِّجْسُ اللَّعْنُ وَالْعَضْبُ؛ أَيِ جَعَلَ فِي قُلُوبِهِمُ اللَّعْنَ وَالْعَضْبَ. دَلِيلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَصَيْتُمْ﴾ [الأعراف: ٧١].

الآية ١٢٦ وقوله تعالى: ﴿وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ لَمْ يُشْرَ بِهَذَا إِلَى شَيْءٍ. لَكِنْ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ ﴿وَهَذَا﴾ الْإِسْلَامَ الَّذِي سَبَقَ ذِكْرُهُ أَنْ يُشْرَحَ صَدْرَ الْمُؤْمِنِ. وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ الَّذِي يُدْعَى إِلَيْهِ الْخَلْقُ، وَهُوَ التَّوْحِيدُ.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾ أَيِ بَيَّنَّا، وَأَقَمْنَا، دَلَائِلَ التَّوْحِيدِ وَحُجَجَهُ، وَقَدْ ذَكَّرْنَا ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أَيِ لِقَوْمٍ يَتَعَبَّرُونَ بِالْعَوَاضِلِ. وَيَحْتَمِلُ لِقَوْمٍ يَقْبَلُونَ الدَّلَائِلَ وَالْحُجَجَ، وَلَا يُكَابِرُونَ.

الآية ١٢٧ وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّكَنِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يَحْتَمِلُ السَّلَامَ اسْمَ الْجَنَّةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِهِ﴾ [يونس: ٢٥] وَيَحْتَمِلُ السَّلَامَ اسْمَ ^(٢) اللَّهِ؛ أَيِ لَهُمْ دَارُ اللَّهِ، وَهُوَ الْجَنَّةُ.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قِيلَ: وَهُوَ أَوْلَى بِهِمْ أَيِ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ [النساء: ١٣٥] وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ﴾ حَافِظُهُمْ وَنَاصِرُهُمْ. وَقَدْ ذَكَّرْنَا فِي مَا تَقَدَّمَ: ﴿يَصَّعَّدُ﴾ [الآية: ١٢٥] وَيَصَّاعِدُ وَيَصْعَدُ كُلُّهُ لُغَاتٌ ^(٣)، وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ.

وَالضِّيقُ: قَالَ الْكِسَائِيُّ: الضِّيقُ مِنَ الضِّيقِ فِي الْمَعَاشِ؛ فَأَمَّا فِي الْأَمْرِ فَهُوَ الضِّيقُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَأْكُ فِي ضَبِّ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧]. وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿حَرِيًّا﴾ فَبِهِ ^(٤) لُغَتَانِ ^(٥): حَرَجٌ وَحَرَجٌ. قَالَ الْقَتَّابِيُّ: الْحَرَجُ الَّذِي صَاقَ فَلَمْ يَجِدْ [بِهِ] ^(٦) مُنْقَذًا. وَقَالَ أَبُو عَوَسَجَةَ: الْحَرَجُ الضِّيقُ؛ يُقَالُ فِيهِ: حَرَجٌ يَخْرُجُ، فَهُوَ حَرَجٌ.

الآية ١٢٨ وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ يَعْنِي مَنْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، أَوْ يَحْشُرُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿يَنْعَثَرُ آلَيْنَ﴾ هُوَ عَلَى الْإِضْمَارِ كَأَنَّهُ قَالَ: ^(٧) وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَنْعَثَرُ آلَيْنَ وَالْإِنْسِ، ثُمَّ نَقُولُ لِلْجِنِّ: ﴿قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٢٣] [أَيِ تَقُولُونَ] ^(٨): ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾، فَكَذَلِكَ هَذَا هُوَ عَلَى الْإِضْمَارِ.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ وَهُمْ قَدْ اسْتَكْبَرُوا مِنَ الْإِتْبَاعِ مِنَ الْإِنْسِ فِي عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ وَمُخَالَفَةِ أَمْرِ اللَّهِ وَتَوَجُّهِهِ، أَوْ اسْتَكْبَرُوا ^(٩) عِبَادًا مِنَ الْإِنْسِ ﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ:

قَالَ بَعْضُهُمْ: تَعَاوَنَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ وَمُخَالَفَةِ أَمْرِهِ: هَؤُلَاءِ بِالْإِجَابَةِ وَأُولَئِكَ بِالْإِجَابَةِ.

(١) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٢) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: تَصْعَدُ فِي. (٣) أَدْرَجَ قَبْلَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: هُوَ. (٤) انظر حجة القراءات ص (٢٧١) ومعجم القراءات القرآنية (٣١٧/٢ و ٣١٨). (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: فِيهِ. (٦) انظر حجة القراءات ص (٢٧١) ومعجم القراءات (٣١٧/٢). (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) عَلَى قِرَاءَةِ نَافِعٍ وَابْنِ كَثِيرٍ وَأَبِي عَمْرٍو وَابْنِ عَامِرٍ وَحُمَازَةَ وَالْكَسَائِي، انظر معجم القراءات القرآنية (٣١٨/٢). (٩) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: أَنْ تَقُولُوا. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: اسْتَكْبَرْتُمْ.

وَقَالَ قَائِلُونَ: ﴿رَبَّنَا اسْتَمْتَحَ بِعَفْسٍ يَبْعَثُ أَيِ انْتَفَعَ بِعَفْسٍ يَبْعَثُ بِأَنْوَاعِ الْمَنَافِعِ، مَا ذُكِرَ فِي بَعْضِ الْقِصَّةِ أَنَّ الرَّجُلَ مِنَ الْإِنْسِ إِذَا سَافَرَ، فَأَذْرَكَ الْمَسَاءَ بِأَرْضِ الْفَقْرِ، خَافَ، فَيَقُولُ: أَعُوذُ بِسَيِّدِ هَذَا الْوَادِي مِنْ سَهْمَاءِ قَوْمِهِ، فَيَأْتِي فِي ذَلِكَ بِالتَّعَوُّذِ إِلَى سَيِّدِهِمْ. فَذَلِكَ اسْتِمْتَاغُ الْإِنْسِ بِالْجِنِّ. [وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿١﴾ وَأَنْتَ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يُوَدُّونَ رِجَالًا مِنَ الْجِنِّ﴾. الآية [الجن: ٦].

وَأَمَّا اسْتِمْتَاغُ الْجِنِّ بِالْإِنْسِ فَمَا يَزِدَادُ لَهُمُ الذِّكْرُ وَالشَّرَفُ فِي قَوْمِهِمْ؛ يَقُولُونَ: لَقَدْ سَوَّدَتْنَا الْإِنْسُ. وَيَحْتَمِلُ اسْتِمْتَاغُ ١٦١/ - ب/ الْجِنِّ بِالْإِنْسِ^(٢) مَا ذُكِرَ، إِنْ ثَبَتَ، أَنَّهُ جَعَلَ طَعَامَهُمُ الْعِظَامَ الَّتِي يَسْتَعْمِلُهَا الْإِنْسُ، وَيَكُونُ ذَلِكَ غِذَاءَهُمْ، وَعَلَفَ ذَوَابَهُمْ أَزْوَاجَ دَوَابِّ الْإِنْسِ. وَقَالَ الْحَسَنُ: مَا كَانَ اسْتِمْتَاغُ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ إِلَّا أَنَّ الْجِنَّ أَمَرَتِ الْإِنْسَ، فَعَمِلَتْ^(٣)، وَذَكَرَ^(٤) جَوَابَ الْإِنْسِ لَهُمْ، وَلَمْ يَذْكُرْ جَوَابَ الْجِنِّ لَهُمْ.

وقوله تعالى: ﴿وَبَلَّغْنَا آجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا﴾ قِيلَ: الْمَوْتُ، وَقِيلَ: الْبَعْثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يُنْكِرُونَ الْبَعْثَ، فَأَقْرَأُوا عِنْدَ ذَلِكَ بَأَنَّا قَدْ بَلَّغْنَا ﴿أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا﴾ وَكُنَّا كَذِبْنَاهُ. أَقْرَأُوا بِمَا كَانُوا يُنْكِرُونَ. [وقوله تعالى: ﴿٥﴾ قَالَ النَّارُ مَثْوًى لَكُمْ، أَيِ عِقَابِكُمْ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ؛ قَالَ الْحَسَنُ: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ وَقَدْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُخَلِّدَهُمْ فِي النَّارِ.

وقَالَ غَيْرُهُ: الْإِسْتِثْنَاءُ مِنْ وَقْتِ الْبَعْثِ إِلَى وَقْتِ الْخُلُودِ، وَهُوَ وَقْتُ الْحِسَابِ، وَوَقْتُ الْحِسَابِ هُوَ وَقْتُ الثُّنْيَا ﴿خَلِيلِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ مَا دَامُوا فِي الْحِسَابِ. وَقِيلَ: الْإِسْتِثْنَاءُ لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ فِي فِعْلِ الْمَعَاصِي وَالْجُرْمِ، وَلَمْ يَتَّبِعُوهُمْ فِي الْإِغْتِقَادِ. فَفِيهِ دَلِيلُ إِدْخَالِ الْمُؤْمِنِينَ النَّارَ بِالْمَعَاصِي، وَالْعُقُوبَةِ لَهُمْ بِقَدْرِ مَعْصِيَتِهِمْ، وَدَلِيلُ إِخْرَاجِهِمْ، إِنْ ثَبَتَ.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ يَحْتَمِلُ وُجُوهًا ثَلَاثَةً: أَحَدُهَا: أَنَّ خُلُودَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ مِنْ خُلُودِ الدُّنْيَا؛ لِأَنَّ خُلُودَ الدُّنْيَا عَلَى الْإِنْقِضَاءِ، وَخُلُودَ الْآخِرَةِ لَا عَلَى الْإِنْقِضَاءِ. الثَّانِي: وَقَعَ الثُّنْيَا قَبْلَ دُخُولِهِمْ فِي النَّارِ. وَالثَّلَاثُ: لِمَنْ يَتَّبِعُهُمْ فِي الْكُفْرِ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ أَيِ حَكِيمٌ بِمَا حَكَمَ، وَوَضَعَ كُلَّ شَيْءٍ مَوْضِعَهُ ﴿عَلِيمٌ﴾ بِذَلِكَ.

[الآية ١٢٩] وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِعَفْسٍ الظَّالِمِينَ بَعْثًا يَمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ الْآيَةُ تَنْقُضُ عَلَى الْمُعْتَرِزَةِ قَوْلَهُمْ؛ لِأَنَّ الرِّايَةَ مِنْهُمْ، ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ، بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]، وَذَكَرَ أَنَّ الْكَافِرِينَ؛ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: ٥١].

[الآية ١٣٠] وقوله تعالى: ﴿يَمَعَّمَنَّ الْإِنْسَ وَالْإِنْسَ أَلَّا يَأْتِيَكُمْ رَسُولٌ مِنْكُمْ﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: لَمْ يَكُنْ مِنَ الْجِنِّ رُسُلٌ؛ إِنَّمَا كَانَ الرُّسُلُ مِنَ الْإِنْسِ، لَكِنَّهُ أَضَافَ إِلَى الْفَرِيقَيْنِ جَمِيعاً كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهَا الْكُفْرُ وَالزُّنُوحُ﴾ [الرحمن: ٢٢] وَإِنَّمَا يَخْرُجُ مِنْ أَحَدِهِمَا، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: ١٦] وَإِنَّمَا جَعَلَ فِي وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ، وَكَقَوْلِ النَّاسِ: فِي سَبْعِ قِبَاطٍ مَسْجِدٌ وَاحِدٌ، وَإِنَّمَا يَكُونُ فِي وَاحِدٍ مِنْهَا^(٦). وَقَدْ يُضَافُ الشَّيْءُ إِلَى جَمَاعَةٍ، وَالْمُرَادُ وَاحِدٌ. فَعَلَى ذَلِكَ مَا ذَكَرَ مِنْ إِضَافَةِ الرُّسُلِ إِلَى الْإِنْسِ وَالْجِنِّ.

وقَالَ بَعْضُهُمْ: كَانَ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ جَمِيعاً الرُّسُلُ؛ مِنَ الْجِنِّ جَنِّيٌّ، وَمِنَ الْإِنْسِ إِنْسِيٌّ؛ لِأَنَّ الْجِنَّ يَسْتَبِيرُونَ مِنَ الْإِنْسِ، فَإِنَّمَا يُرْسَلُ إِلَى الْإِنْسِ رُسُلًا يَظْهَرُونَ لَهُمْ. فَبَعَثَ إِلَى كُلِّ فَرِيقٍ الرُّسُولَ مِنْ جَوْهَرِهِمْ.

وقَالَ بَعْضُهُمْ: كَانَ الرُّسُلُ مِنَ الْإِنْسِ إِلَى الْفَرِيقَيْنِ جَمِيعاً، وَكَانَ الْجِنُّ نَذِيرًا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَرَفَقَا إِلَيْكَ تَفَرَّقَا مِنْ آلِجِنِّ﴾ [الاحقاف: ٢٩] ذَكَرَ النَّذِيرَ مِنْهُمْ، وَلَمْ يَذْكُرِ الرُّسُلَ، وَمَرْتَبَةُ النَّذِيرِ دُونَ مَرْتَبَةِ الرُّسُلِ كَمَرْتَبَةِ الْأَنْبِيَاءِ مِنَ الرُّسُلِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: فَذَلِكَ. (٢) م، فِي الْأَصْلِ: وَالْإِنْسِ. (٣) فِي م: فَعَمِلَتْ. (٤) الرَّوَّاقُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

(٦) فِي الْأَصْلِ وَم: مِنْهَا.

ولكن يَجُوزُ أَنْ يَقْوَى الرُّسُلُ، وَإِنْ كَانَ مِنَ الْإِنْسِ، عَلَى الْإِظْهَارِ لَهُمْ، وَلَيْسَ فِي مَا لَا يَسْتَبْرُونَ عَنْهُمْ مَنَعُ بَغْيِ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ مِنَ الْإِنْسِ.

وليس لنا إلى مَعْرِفَةِ هَذَا حَاجَةٌ؛ إِنَّمَا ^(١) الْحَاجَةُ إِلَى مَعْرِفَةِ الْآيَاتِ وَالْحُجَجِ الَّتِي تَأْتِي الرُّسُلَ وَعَجَزِ الْخَلَائِقِ جَمِيعاً عَنْ إِتْيَانِ مِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ [الإسراء: ٨٨] فَقَدْ أَعْجَزَ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ عَنْ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ، وَإِنْ كَانَ الْجِنُّ أَقْوَى عَلَى أَشْيَاءَ مِنَ الْإِنْسِ.

فَقَدْ أَتَى، وَدَلَّ عَجَزُ الْجِنِّ عَنْ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانُوا أَقْوَى، عَلَى أَنْ غَيَّرَهُمْ أَعْجَزُ. أَلَا تَرَى أَنَّهُ أَنْزَلَ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى لِسَانِ الْعَرَبِ، ثُمَّ عَجَزُوا هُمْ عَنْ إِتْيَانِ مِثْلِهِ؟ فَدَلَّ عَجَزُهُمْ عَنْ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْعَجَمَ لَهُ أَعْجَزُ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ الرُّسُلُ، وَإِنْ كَانُوا مِنَ الْإِنْسِ، فَإِنَّ الْجِنَّ يَسْتَمِعُونَ مِنَ الرُّسُلِ، فَتَلْزَمُهُمُ الْحُجَّةُ وَالْعَمَلُ بِذَلِكَ وَالتَّبْلِيغُ إِلَى قَوْمِهِمْ ^(٢) مِنْ غَيْرِ أَنْ يَلْعَنَ الرُّسُلُ بِذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تَعَالَى: ﴿يَقْضُونَ عَلَيْكُمْ مَائِنِي﴾ يَحْتَمِلُ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي، وَيَحْتَمِلُ ﴿يَقْضُونَ عَلَيْكُمْ مَائِنِي﴾ يَبَيِّنُونَ لَكُمْ آيَاتِي آيَاتِ وَحْدَانِيَّتِي وَأَلوهِيَّتِي وَآيَاتِ التَّبْعِ الَّتِي يُنْكِرُونَ ﴿وَسَيُذَوِّكُمُ لِقَاءُ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أَيِ لِقَاءِ يَوْمِكُمْ الَّذِي تَلْقَوْنَ.

وَدَلَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَسَيُذَوِّكُمُ لِقَاءُ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يُقَالُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ.

[وقوله تَعَالَى] ^(٣) ﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا﴾ هَذَا مِنْهُمْ إِقْرَارٌ لِمَا كَانَ مِنْهُمْ مِنَ التَّكْذِيبِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٢] أَيِ شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا بِأَنَّا كُنَّا كَذِبْنَا الرُّسُلَ فِي الدُّنْيَا بِمَا قَالُوا، وَأَخْبَرُوا.

وقوله تَعَالَى: ﴿وَعَرَّضْنَاهُمْ لِخَبْرَةِ الْغُنْيَةِ﴾ إِنَّ لِلدُّنْيَا مَعْنَيْنِ [ظاهرًا وباطنًا] ^(٤)؛ فَيَكُونُ الظَّاهِرُ غُرُورَ مَنْ كَانَ نَظَرُهُ ^(٥) إِلَيْهِ يَغْرُهُ، وَلِهَا بَاطِنٌ، وَمَنْ نَظَرَ إِلَى الْبَاطِنِ يَعْطَلُ. أَمَّا ظَاهِرُهَا فِي تَرْبِيئِهَا وَزُخْرُفِهَا فَالْكَافِرُ نَظَرَ إِلَى ظَاهِرِهَا، فَاعْتَرَّ بِهَا. وَأَمَّا بَاطِنُهَا فَهُوَ انْتِقَالُهَا مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ وَزَاوَالُهَا وَقَنَاقُهَا.

فَمَنْ نَظَرَ إِلَى ذَلِكَ الْبَاطِنِ انْتَعَطَ بِهِ، [وَعَلِمَ مَعْنَاهُ، وَعَرَفَ أَنَّهُ] ^(٦) لَمْ يُخْلَقْ لِهَيْبِهِ، وَلَكِنْ لِعَاقِبَتِهِ ^(٧) تَتَأَمَّلُ.

ثُمَّ إِضَافَةُ الْغُرُورِ إِلَيْهَا أَنَّ ^(٨) يَكُونُ مِنْهَا مَا لَوْ كَانَ ذَلِكَ مِنْ [غَيْرِ] ^(٩) ذِي عَقْلٍ وَذَهَبَ كَانَ ذَلِكَ غُرُورًا.

وقوله تَعَالَى: ﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ هَذَا اعْتِرَافٌ بِمَا كَانَ مِنْهُمْ.

الآية ١٣١

وقوله تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْفَرَى بِظُلْمٍ﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ﴾ مَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَمَقُشَرُ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ [الأنعام: ١٢٨] وقوله تَعَالَى: ﴿يَمَقُشَرُ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقْضُونَ عَلَيْكُمْ مَائِنِي وَسَيُذَوِّكُمُ لِقَاءُ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الأنعام: ١٣٠] وَنَحْوَهُمَا ^(١٠) مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي ذَكَرَ فِيهَا الْعِتَابُ.

وَيَحْتَمِلُ ﴿ذَلِكَ﴾ إِشَارَةً إِلَى الْهَلَاكِ الَّذِي كَانَ بِالْأَمَمِ الْخَالِيَةِ أَنْ لَمْ يَكُنْ يُهْلِكُ الْفَرَى بِظُلْمٍ، ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، وَاهْلَاكَ تَغْذِيبٍ وَاسْتِصْصَالٍ إِلَّا بَعْدَ تَقَدُّمِ الزَّعِيدِ لَهُمْ فِي ذَلِكَ وَسُؤَالٍ ^(١١)، كَانَ مِنْهُمْ بِالْعَذَابِ، وَلَا يُهْلِكُ أَيْضًا ﴿وَأَقْلَاهَا غَفُلُونَ﴾ عَنِ الظُّلْمِ وَالْعِصْيَانِ، لَا أَنَّهُ لَا يَسَعُ، وَلَكِنْ سُنَّةٌ فِيهِمْ أَلَّا يُهْلِكَ إِلَّا بَعْدَ تَقَدُّمِ مَا ذَكَرْنَا لِئَلَّا يَحْتَجُّوا ﴿فَقِيلُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ مَائِنِيكَ وَنَكُوتَ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٤٧].

وَأَنَّ لَمْ يَكُنْ لَهُمُ الْإِخْتِجَاجُ بِذَلِكَ، لِمَا مَكَّنَ لَهُمْ، وَرَكَّبَ فِيهِمْ مَا بِهِ يَعْرِفُونَ أَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْهُمْ لِيَتْرَكْهُمْ سُدىً، وَلَكِنْ خَلَقَهُمْ لِعَاقِبَةٍ. لَكِنْ سُنَّتُهُ قَدْ خَلَتْ فِي الْأَمَمِ الْمَاضِيَةِ أَلَّا يُهْلِكَ قَوْمًا إِهْلَاكَ تَغْذِيبٍ وَاسْتِصْصَالٍ إِلَّا بَعْدَ مَا سَبَقَ مِنْهُ وَعِيدٌ وَإِنْدَارٌ وَالْعِلْمُ لَهُمْ بِالظُّلْمِ، وَظُهُورُ الْعِنَادِ مِنْهُمْ وَالْمُكَابَرَةُ وَالسُّؤَالُ بِالْعَذَابِ سُؤَالٌ تَعْتَبُ. وَذَلِكَ مِنْهُ فَضْلٌ وَرَحْمَةٌ لَأَنَّهُ لَا يَسَعُ ذَلِكَ.

(١) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: إِلَى. (٢) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: قَوَاهِم. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: ظَاهِرٌ وَبَاطِنٌ. (٥) فِي م: نَظَرٌ.

(٦) فِي الْأَصْلِ: وَيَعْلَمُ مَعْنَاهُ وَعَرَفَ أَنَّهَا، فِي م: وَيَعْلَمُ مَعْنَاهَا وَيَعْرِفُ أَنَّهَا. (٧) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: الْعَاقِبَةُ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: أَيِ.

(٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: وَنَحْوَهَا. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَسُؤَالُهُمْ.

الآية ١٣٢

وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾ استدلَّ بعض الناس بظاهر هذه الآية أن الجنَّ لهم ثواب بالطاعات وعقاب بالمعاصي؛ لأنه أخبر أن لكلٍ منهم درجاةً مما عملوا، وأن ما تقدّم ذكر الفريقين جميعاً بقوله تعالى: ﴿شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْإِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢] وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُخْشَرُهُمْ جَمِيعًا﴾ [الأنعام: ١٢٨] [وقوله تعالى: (١)]: ﴿يَمْتَسِرَ الْإِنِّ وَالْإِنِّ﴾ [الأنعام: ١٣٠] ذكر ما كان من الفريقين جميعاً من المعاصي والجُرم.

فعلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ﴾ راجع إلى الفريقين جميعاً ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ﴾ إن عملوا خيراً فخير، وإن عملوا شراً فشر. وبه قال أبو يوسف ومحمد، رجمهما الله، واحتجاً (٢) لأبي حنيفة، رجمه الله، أن قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ﴾ إنما ذكر على إثر آيات كان الخطاب بها للكفرة دون المؤمنين. فعلى قوله تعالى ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾ يكون لهم هذا الوعيد خاصة، ويكون قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ﴾ أي درجات ومراتب من العذاب والعقاب بما عملوا من المعاصي والتكذيب للرسل، ولأن الثواب لزومه لزوم فضل ومِنَّة، والعذاب تزجيته الحكمة لأن في الحكمة أن يعاقب من عصاه، وخالف أمره.

وأما الثواب فوجوبه الفضل لأنه كان من الله إلى الخلق من النعم والإحسان ما لو جهدوا كلَّ جهدهم ما قدرُوا / ١٦٢ - / على أن يؤدوا شكر واحد من ذلك، فتكون طاعتهم شكراً لما أنعم عليهم. فإذا كان كذلك لا يكون لأعمالهم ثواب إلا بالبيان من الله كما يقال للملائكة: إن لهم ثواباً.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا يَمْشُونَ﴾ يختل وجهين:

[أحدهما] (٣): ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ﴾ عن أعمالهم التي يعملونها في معصية الله تعالى، ولن يؤخر تغذيتهم رحمة منه، وهو كقوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمُ﴾ الآية [إبراهيم: ٤٢]

والثاني: عن علم أعمالهم وصنيعهم خلقهم لا عن جهل. لكن خلقهم على علم بذلك لما ضرر أعمالهم ومنافعها ترجع إليهم لا إليه.

الآية ١٣٣

وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ هذا يرد على الشنوية مذهبهم لأنهم يقولون: إنه إنما خلق الخلائق لِمَنَافِعِ نَفْسِهِ؛ لأنه ليس بحكيم (٤) من فعل فاعلاً، لا يقصد منفعة نفسه. فأخبر أنه غني بذاته، [وأن من] (٥) يقصد قصد المنفعة بفعله لحاجة، تقع له، [ودفع ضرر] (٦) يصيبه؛ يقصد بالفعل قصد قضاء الحاجة ودفع الضرر (٧) عن نفسه. فاما الله ﷻ فهو (٨) الغني بذاته، [وأما الخلائق فهم الفقراء إليه] (٩) لِمَنَافِعِ أَنْفُسِهِمْ، وهو غني عن خلقه على ما أخبر.

وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ﴾ يختل [هو] (١٠) غني عن تغذيت أولئك الكفرة أي لا لِمَنَافِعِهِ لهُ في تغذيتهم يُعَذِّبُهُمْ أو لحاجة لهُ، ولكن الحكمة توجب ذلك، أو أن يكون صلة قوله تعالى: ﴿يَمْتَسِرَ الْإِنِّ وَالْإِنِّ أَلَّا يَأْتِيَكُمُ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠] يقول: لم يرسل إليكم، ولا امتحنكم بالذي امتحنكم لحاجة نفسه أو لِمَنَافِعِهِ لهُ؛ إذ هو غني بذاته.

وقوله تعالى: ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ يختل [وجوهاً]:

أحدها: (١١) ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ فلا يغفل عنهم بالعقوبة،

والثاني: ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ ما خلق الخلائق، وجعل بعضهم لبعض لِمَنَافِعٍ لِيُغْفِرَ لِمَنَافِعِ بِهِمْ وَالِاسْتِمْنَاعِ، وإنما خلقهم لِمَنَافِعِ أَنْفُسِهِمْ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم. واحتجوا. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل لحكم. (٥) في الأصل وم: وإنما. (٦) في الأصل وم: ضرورة. (٧) في الأصل وم: الضرورة. (٨) في الأصل وم: هو. (٩) في الأصل وم: إنما الخلائق. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: وجهين يحتمل.

والثالث^(١): ﴿ذُو الرِّحْمَةِ﴾ مَنْ قَبِلَ رَحْمَتَهُ، وصَارَ أَهْلًا لَهَا، فَمَا مِنْ لَمْ يَقْبَلْ رَحْمَتَهُ فَإِنَّهُ ذُو انْتِقَامٍ مِنْهُ. وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَدْلِكُمْ مَا يَشَاءُ﴾ لَأَنَّهُ غَنِيٌّ بِذَاتِهِ، لَمْ يَخْلُقْكُمْ لِمَنَافِعِ نَفْسِهِ أَوْ لِحَاجَتِهِ؛ إِنْ شَاءَ أَذْهَبَكُمْ، وَاسْتَخْلَفَ غَيْرَكُمْ. وَلَوْ كَانَ خَلْقُهُ الْخَلْقَ لِمَنَافِعِ نَفْسِهِ لَكَانَ لَا يَذْهَبُ بِهِمْ.

[وقوله تعالى^(٢): ﴿وَسْتَخْلِفْ مِنْ بَدْلِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ يُخْبِرُ عَنْ غِنَا عَنْهُمْ وَعَنْ سُلْطَانِهِ وَقُدْرَتِهِ أَنَّهُ يَقْدِرُ عَلَى إِهْلَاكِكُمْ وَاسْتِخْلَافِكُمْ وَإِنْ شَاءَ قَوْمٍ آخَرِينَ. كَانَ خَلْقُ الْخَلَائِقِ مِنْ جَوَاهِرِ مُخْتَلِفَةٍ، لَا تَوَالِدُ فِيهِمْ، ثُمَّ جَعَلَ فِي الْآخِرِ التَّوَالِدَ وَالتَّنَاسُلَ، وَاسْتِخْلَافَ بَعْضٍ مِنْ بَعْضٍ بِالتَّوَالِدِ وَالتَّنَاسُلِ.

الآية ١٣٤ وقوله تعالى: ﴿إِنْ مَا تُوعِدُونَ آلَاتٍ﴾ مِنَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، أَوْ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ مَا تُوعِدُونَ﴾ مِنَ النَّصْرِ لِرَسُولِهِ وَالْمَعُونَةِ لَهُ ﴿آلَاتٍ﴾ وَكَائِنْ ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ قِيلَ: بِفَائِزِينَ رَبُّكُمْ، وَقِيلَ: وَمَا أَنْتُمْ سَابِقِينَ اللَّهِ بِأَعْمَالِكُمُ الْحَيَّةِ حَتَّى لَا يَنْجِزِيَكُمْ اللَّهُ.

واضِلُهُ ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أَي لَا تُعْجِزُونَ رَبُّكُمْ عَنْ تَعْذِيبِكُمْ وَعُقُوبَتِكُمْ.

الآية ١٣٥ وقوله تعالى: ﴿قَدْ بَقِيَوا أَعْمَلُوا عَلَى مَكَائِكُمْ﴾ قِيلَ: عَلَى جِدِيلَتِكُمْ، وَقِيلَ: عَلَى مَنَازِلِكُمْ وَجَدَّتِكُمْ.

وَلَكِنْ تَأْوِيلُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، ﴿أَعْمَلُوا عَلَى مَكَائِكُمْ﴾ أَي مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ. ثُمَّ يَحْتَمِلُ هَذَا وَجُوهًا: يَحْتَمِلُ ﴿أَعْمَلُوا عَلَى مَكَائِكُمْ﴾ أَي عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونُوا هَمُّوا أَنْ يَمْكُرُوا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَيَقُولَ^(٣): اْمْكُرُوا بِي إِنِّي مَا كُرْتُ بِكُمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُجْرِبُوا وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٠] وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونُوا يَطْلُبُونَ الدَّوَائِرَ وَالْهَلَكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَيَكِيدُونَهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ﴾ [هود: ٥٥] هَذِهِ الْكَلِمَةُ تُسْتَعْمَلُ فِي انْتِهَاءِ الْمَكَايِدِ نَهَايَتِهَا وَوُجُودِ الْمَعَانِدَةِ غَايَتِهَا بَعْدَ الْفَرَاغِ مِنَ الْحُجَجِ وَالْآيَاتِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦].

وقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ مَنْ يَكُونُ لَهُ الْعَاقِبَةُ، وَيَحْتَمِلُ ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ بِالْهَلَكَ مَنْ كَانَ مُحِقًّا^(٤) بِالْوَعْدِ أَوْ ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ مِنَ الْمُحَقِّ مِمَّا أَوْعَدَ، وَخُوفٌ^(٥).

الآية ١٣٦ وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِثْلَ ذَرًّا مِنْ الْحَبْرِ وَالْأَنْكَبِ نَصِيبًا﴾ يُخْبِرُ عَنْ سَفَهِهِمْ مِنْ وَجْهِهِ:

أَخَذُوا: أَنَّهُمْ كَانُوا يَجْعَلُونَ لِلَّهِ نَصِيبًا مِمَّا كَانَ لِلَّهِ فِي الْحَقِيقَةِ، مَعَ عِلْمِهِمْ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَهُمْ تِلْكَ الْأَشْيَاءَ، وَهُوَ ذَرُّهَا، ثُمَّ يَجْعَلُونَ لِلَّهِ فِي ذَلِكَ نَصِيبًا وَلِلْأَصْنَامِ نَصِيبًا سَفَهَهُمْ أَنَّهُمْ إِذَا عَلِمُوا^(٦) أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي ذَرَأَ لَهُمْ تِلْكَ الْأَشْيَاءَ، وَأَنْشَأَهَا^(٧) لَهُمْ، فَإِلَيْهِ الْإِخْتِيَارُ فِي جَعْلِ ذَلِكَ لَا إِلَيْهِمْ، إِذْ عَلِمُوا أَنَّهُمْ إِنَّمَا يَمْلِكُونَ هُمْ [مَا]^(٨) يَجْعَلُ اللَّهُ لَهُمْ، وَهُوَ الْمَالِكُ لَهَا^(٩) حَقِيقَةً.

وَالثَّانِي: مَا يَبِينُ سَفَهَهُمْ أَيْضًا أَنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لِلَّهِ فِي ذَلِكَ نَصِيبًا وَلِلْأَصْنَامِ نَصِيبًا مِنَ الثَّمَرِ وَالْحُرُوثِ وَغَيْرِهَا، ثُمَّ إِذَا رَفَعَ شَيْءٌ^(١٠) مِمَّا جَعَلُوا لِلَّهِ وَخَالَطَ مَا جَعَلُوهُ^(١١) لِشُرَكَائِهِمْ، تَرَكُوهُ، وَإِذَا خَالَطَ شَيْءٌ مِمَّا جَعَلُوا لِشُرَكَائِهِمْ، وَوَقَعَ فِي مَا جَعَلُوهُ لِلَّهِ، أَخَذُوهُ، وَرَدُّوهُ عَلَى شُرَكَائِهِمْ، وَانْتَفَعُوا بِهِ، وَتَرَكُوا الْآخَرَ لِلْأَصْنَامِ إِيثَارًا لِلْأَصْنَامِ عَلَيْهِ وَإِعْظَامًا لَهَا. إِذَا زَكَ نَصِيبُ الْأَصْنَامِ، وَنَمَّا، وَلَمْ يَزَكْ نَصِيبُ اللَّهِ، وَلَمْ يَنْمُ، تَرَكُوا ذَلِكَ لِلْأَصْنَامِ، وَيَقُولُونَ: لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَزَكَّى نَصِيبَهُ. وَإِذَا زَكَ الَّذِي كَانُوا يَجْعَلُونَ لِلَّهِ، [وَلَمْ يَزَكْ]^(١٢) نَصِيبُ الْأَصْنَامِ، أَخَذُوا نَصِيبَ اللَّهِ، فَقَسَمُوهُ بَيْنَ الْمَسَاكِينِ وَبَيْنَ الْأَصْنَامِ نِصْفَيْنِ. يُسَفَّهُهُمْ ﷻ بِصَنِيعِهِمْ الَّذِي يَصْنَعُونَ، وَيَبِينُ جَوَهْرَهُمْ^(١٣) بِإِيثَارِهِمُ الْأَصْنَامَ وَإِعْظَامِهِمْ إِيَّاهَا وَالتَّفْضِيلِ فِي الْقِسْمَةِ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: يُقَالُ. (٤) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: مُحَقَّقًا. (٥) أَدْرَجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ: فِي قَوْمٍ. (٦) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: عَمِلُوا. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: وَأَنْشَأَ. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: عَلَيْهَا. (١٠) أَدْرَجْتُ مَنْصُوبَةً بَعْدَ: اللَّهُ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: مِمَّا جَزَأَ أَوْ جَعَلُوهُ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَلَا يَزَكُو. (١٣) أَدْرَجَ قَبْلَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: عَنْ.

وَالشَّجَرَةَ مَعَ عَلَيْهِمْ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي ذَرَأَ ذَلِكَ، وَأَنْشَأَهُ لَهُمْ، وَأَنَّ الْأَصْنَامَ الَّتِي أَشْرَكُوا فِي أَمْوَالِهِمْ وَعِبَادَتِهِمْ لِلَّهِ لَا تَنْفِكُ^(١) مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً [وَذَلِكَ]^(٢) مِنْهُمْ سَفَهٌ وَجَوْرٌ حِينَ أَشْرَكُوا فِي أَمْوَالِهِمْ وَعِبَادَتِهِمْ مَعَ اللَّهِ أَحْداً، لَا يَسْتَحِقُّ بِذَلِكَ شَيْئاً، وَهُوَ كَمَا جَعَلُوا لِلَّهِ الْبَنَاتِ، وَهُمْ كَانُوا يَأْتِفُونَ عَنِ الْبَنَاتِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ﴾ [النحل: ٥٨] وَكَقَوْلِهِ^(٣) تَعَالَى: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبُتُونُ﴾ [الطور: ٣٩] وَكَقَوْلِهِ^(٤) تَعَالَى: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ [النجم: ٢٢] تَأْتِفُونَ أَنْتُمْ عَنِ الْبَنَاتِ، وَتُضِيفُونَهَا^(٥) إِلَيْهِ، فَهُوَ إِذَنْ جَوْرٌ وَظُلْمٌ. فَعَلَىٰ ذَلِكَ تَفْضِيلُ الْأَصْنَامِ فِي الْقِسْمَةِ وَإِيثَارُهُمْ إِيَّاهَا عَلَى اللَّهِ وَإِشْرَاكُهَا^(٦) مَعَ اللَّهِ مَعَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ كَانَ جَمِيعُ ذَلِكَ [إِشْرَاكاً]^(٧) بِاللَّهِ، وَهُوَ أَنْشَأَهُمْ^(٨)، جَوْرٌ وَسَفَهٌ.

ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أَيِ بَشَرِ الْحُكْمِ حُكْمُهُمْ.

الآية ١٣٧

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَذَرُ الْكَاذِبِينَ﴾ أَيِ كَمَا زَيَّنَ لَهُمْ جَعَلَ النَّصِيبَ لِلْأَصْنَامِ وَالشَّجَرَةَ لَهَا وَصَرَفَ مَا خَلَقَ اللَّهُ لَهُمْ عَنْهُ إِلَى الْأَصْنَامِ، كَذَلِكَ زَيَّنَ لَهُمْ تَحْرِيمَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ السَّائِبَةِ وَالْوَصِيلَةِ وَالْحَامِي، كَذَلِكَ زَيَّنَ لَهُمْ شُرَكَائِهِمْ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ.

وَأَضْلَهُ أَنَّ الشَّفَقَةَ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ فِي الْخَلْقِ لِأَوْلَادِهِمْ وَالرَّحْمَةَ الَّتِي جَبَلَتْ طَبَائِعُهُمْ عَلَيْهَا تَمْنَعُهُمْ عَنْ قَتْلِهِمْ وَخَاصَّةً أَوْلَادَهُمُ الضُّعَفَاءَ وَالصَّغَارَ. وَكَذَلِكَ الشَّهْوَةُ الَّتِي خَلَقَ فِيهِمْ تَمْنَعُهُمْ عَنْ تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَهُمْ. لَكِنَّ ذَلِكَ زَيَّنَ لَهُمْ شُرَكَائِهِمْ، وَحَسَّنُوا عَلَيْهِمْ تَحْرِيمَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَهُمْ وَقَتْلَ أَوْلَادِهِمْ. فَمَا حَسَّنَ عَلَيْهِمُ الشُّرَكَاءُ، وَزَيَّنَ لَهُمْ مِنْ تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَهُمْ وَقَتْلَ أَوْلَادِهِمْ، غَلَبَ عَلَى الشَّفَقَةِ الَّتِي جَبَلَتْ فِيهِمْ وَالشَّهْوَةَ الَّتِي خَلَقَ، وَمَكَّنَ فِيهِمْ.

ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي الشُّرَكَاءِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: شُرَكَائِهِمْ شَيَاطِينُهُمُ الَّتِي تَدْعُوهُمْ^(٩) إِلَىٰ ذَلِكَ، وَقِيلَ: شُرَكَائِهِمْ كِبَرَاؤُهُمْ وَرُؤَسَاؤُهُمُ الَّذِينَ يَسْتَبِغُونَهُمْ.

ثُمَّ يَحْتَمِلُ قَتْلَ الْكِبَرَاءِ أَوْلَادَهُمْ تَكْبَرًا مِنْهُمْ وَتَجَبُّراً لَأَنَّهُمْ كَانُوا يَأْتِفُونَ عَنْ أَوْلَادِهِمُ الْإِنَاتِ، وَقَتْلَ الْإِنْبَاعِ [أَوْلَادَهُمْ]^(١٠) مَخَافَةَ الْعَيْلَةِ وَالْفَقْرِ.

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُوهُمْ﴾ قِيلَ: لِيُهْلِكُوهُمْ. إِنَّهُمْ كَانُوا يَقْصِدُونَ/ ١٦٢ - ب/ فِي التَّخْصِيسِ وَالتَّزْيِينِ إِرَادَةً^(١١) الْإِهْلَاكِ، وَإِنْ كَانُوا يُرِيدُونَهُمْ فِي ذَلِكَ الشَّفَقَةَ. وَكَذَلِكَ كَانُوا يَقْصِدُونَ بِالتَّزْيِينِ تَلْيِيسَ الدِّينِ عَلَيْهِمْ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوا﴾ يَحْتَمِلُ وَجُوهاً: قَالَ بَعْضُهُمْ: لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَاهْلَكَهُمْ، فَلَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ. وَقِيلَ: لِأَعْجَزَهُمْ، وَمَنْعَهُمْ عَنْ ذَلِكَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ﴾ [يس: ٦٦] وَقِيلَ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوا﴾ أَيِ لَأَرَاهُمْ قُبْحَ فِعْلِهِمْ حَتَّىٰ لَمْ يَفْعَلُوا.

وَأَضْلَهُ أَنَّهُ إِذَا عَلِمَ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ يَفْعَلُونَ مَا فَعَلُوا، وَيَخْتَارُونَ مَا اخْتَارُوا مِنَ التَّزْيِينِ وَلَبَسِ الدِّينِ عَلَيْهِمْ، شَاءَ مَا فَعَلُوا، وَاخْتَارُوا، وَقَدْ ذَكَّرْنَا ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ.

وقوله تعالى: ﴿فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْعَلُونَ﴾ أَيِ ذَرَهُمْ، وَلَا تُكَافِئُهُمْ بِإِفْتِرَائِهِمْ عَلَى اللَّهِ. وَيَحْتَمِلُ ﴿فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْعَلُونَ﴾ فَإِنَّ اللَّهَ يُكَافِئُهُمْ، وَلَا يَفُوتُونَ. وَيَحْتَمِلُ ﴿فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْعَلُونَ﴾ فَإِنَّ ضَرَرَ ذَلِكَ الْإِفْتِرَاءِ عَلَيْهِمْ، لَيْسَ عَلَيْنَا، وَلَا عَلَيْكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِذَلِكَ.

الآية ١٣٨

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَمْثَلُ الَّذِي جَعَلَ لَا يَفْلَحُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءَ بِرَحْمَتِهِمْ﴾ هَذِهِ الْآيَةُ صِلَةُ قَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَحْمَتِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦] هَذَا الَّذِي جَعَلُوا لِلشُّرَكَاءِ هُوَ الْحِجْرُ الَّذِي ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ؛ لَأَنَّهُمْ كَانُوا يَنْتَفِعُونَ بِذَلِكَ، وَيُحَرِّمُونَهُ، وَهُوَ حِجْرٌ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: يَمْلِكُونَ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَتُضِيفُونَ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَإِشْرَاكُهُمْ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي م: أَنْشَأَهُمْ. (٩) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: تَدْعُونَ. (١٠) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: الْإِرَادَةُ.

وأصل الجحر المنع. وعن ابن عباس رضي الله عنه [أنه] ^(١) قال: الجحر ما حرّموا [على] ^(٢) أنفسهم من أشياء من الوصيلة والسائبة والحامي، وتحرّمهم ما حرّموا من أشياء؛ كانوا يخلّون أشياء، حرّمها الله، ويحرّمون أشياء أحلّها الله في الجاهليّة بين الحرب والأنعام.

وفي حرف [أبي [بن كعب] ^(٣) وابن عباس رضي الله عنه ^(٤) خرج على تأخير الجيم وتقديم الراء. وعن الحسن جحر يرفع الحاء ^(٥).

وأصل الجحر المنع، ممنوع مخجور؛ يقال: حجرت عليه، أي منعتّه، والجحر أيضاً موضع بمكة، والإختجار الاستئثار، وهو أن يأخذ الشيء، ولا يُعطى منه أحداً شيئاً.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَطْعُمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِرِغِيمٍ﴾ قال بغضهم: قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ نَشَاءُ﴾ يعني ﴿لَا يَطْعُمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ﴾؛ لأنهم كانوا يحرّمون أشياء، ويأتون بفواحش، فيقولون: إن الله أمرهم بذلك كقوله تعالى في الأعراف: ﴿وَلَا تَقْلُوبُوا مِمَّا قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا مِلَّةَ آبَائِنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الآية: ٢٨].

وقال بغضهم: قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِرِغِيمٍ﴾ يعني الذين سئوا لهم، أي ﴿لَا يَطْعُمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ﴾ قد ذكرت لكم: أوّل من بدّل دين إسماعيل، وبخر البحيرة والسائبة أولئك الذين سئوا ذلك، وحرّموا ذلك على نسايتهم على ما روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «إن شئت قد ذكرت لكم أوّل من بدّل دين إسماعيل وبخر البحيرة والسائبة» [بنحوه البخاري ٣٥٢١] فعلى ذلك أضافوا المشيئة إلى أولئك الذين سئوا ذلك، وحرّموا على إنايتهم، وأحلّوا للذكور ^(٦).

وقال بغضهم: قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ نَشَاءُ﴾ هؤلاء الرجال؛ كانت مضافة إلى الرجال دون النساء. وفي ذلك تنفيهاً أحلاميهن؛ لأنهم يذكرون الرسالة لِمَكَانٍ ما يحرّمون من الطيبات، ثم يتفنون الذي حرّم عليهم من الطيبات التي أحلّها الله لهم من البحيرة والسائبة ونحوهما.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ حَرَّمْتُمْ ظُهُورَهُمَا﴾ هو ما ذكر من البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي، وهو الجحر الذي ذكر في هذه الآية: يجعلون تلك الأشياء لشركائهم، لا يتفنون بها.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ قيل فيه بوجوه: قيل: ﴿لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ أي لا يتفنون بها ليغرفوا أنعم الله، ليَشْكُرُوا الله عليها. وقيل: ﴿لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ أي لا يذبحون للأكل، و﴿لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾. ويَحْتَمِلُ ﴿لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ وقت الركوب كما يُذكر اسم الله عليها وقت الركوب، وهو قوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾ [الزخرف: ١٣] لأنهم كانوا لا يركبونها، ولكن يسيبونها. وقيل: لا يحجون عليها. والأوّل كأنه أقرب؛ كانوا لا يتفنون بها ليغرفوا أنعم الله، ويشكروا عليها.

وقوله تعالى: ﴿أَفْتَرَا عَلَى سُبُحِ رَبِّهِمْ بَيِّنَاتٍ كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ بأن الله أمرهم بذلك، وهو حرّم عليهم، وهو أحل؛ فذلك هو الافتراء على الله، أو بما أشركوا شركاءهم في عبادة الله وفي نعمه.

الآية ١٣٩

[وقوله تعالى] ^(٧): ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَفْئِدَةِ غَالِصَةٌ لِّذِكْرِنَا وَنَحْنُ عَلَىٰ أَزْوَاجٍ﴾ قيل: هو صلة قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَفْئِدَةُ حَبْرٍ﴾ [الأنعام: ١٣٨] يحرّمون على النساء، ويحلّون للرجال؛ يعني إذا ولدت ^(٨) أحياء كان يتفنع بذلك رجالهم دون نسايتهم، وإذا ولدت ^(٩) ميتاً اشترك ^(١٠) فيه الإناث والذكور. يذكّر في هذا كلّ سفة أولئك في صنيعهم، ويذكّر في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ﴾ إلى آخره [الأنعام: ١٤١] نعمة ^(١١) التي أنعم عليهم.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل. (٣) في م: ابن عباس رضي الله عنه. (٤) انظر معجم القراءات القرآنية [٣٢٢/٢]. (٥) من م، في الأصل: الذكور لهم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: ولدوا. (٨) في الأصل وم: ولدوا. (٩) في الأصل وم: اشتركوا. (١٠) في الأصل وم: ونعمه.

وقوله تعالى: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ أي افتراءهم على الله وتحريمهم ما أحل الله لهم وتخلييلهم ما حرم عليهم.

الآية ١٤٠ وقوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً﴾ أخبر أنهم خسروا بقتلهم الأولاد وتحريمهم ما أحل الله^(١) لهم، ورزقهم ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ وبالله الهداية والرشاد.

الآية ١٤١ وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ ذَكَرَ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، مُقَابِلَ مَا كَانَ مِنْهُمْ مِنْ تَحْرِيمٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَهُمْ، وَرَزَقَهُمْ مِنَ الْحَرْثِ وَالزَّרْعِ وَالْأَنْعَامِ وَالْإِنْتِفَاعِ بِهَا، فَقَالَ: ﴿أَنشَأَ جَنَّاتٍ﴾ وبساتين؛ مَنْ تَأَمَّلَ فِيهَا، وَتَفَكَّرَ، عَرَفَ أَنَّ مُنْشِئَهَا مَالِكٌ حَكِيمٌ مُدَبِّرٌ؛ لِأَنَّهُ يُنْشِئُهَا. وَيُخْرِجُهَا مِنَ الْأَرْضِ، فِي لَحْظَةٍ مَا لَوْ اجْتَمَعَ الْخَلَائِقُ عَلَى تَقْدِيرِهَا أَنْ كَيْفَ خَرَجَ؟ وَكَمْ خَرَجَ؟ وَآيٌ قَدْرٌ ثَبَتَ؟ مَا قَدَرُوا عَلَى ذَلِكَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَلْبَسْنَا فِيهَا مِن كُلِّ ثَمَرٍ مِّثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [الحجر: ١٩]. وَيُخْرِجُ مِنَ الْوَرْدِ وَالثَّمَارِ عَلَى مِيزَانٍ وَاحِدٍ مَا لَوْ جَهَدُوا كُلَّ الْجَهْدِ أَنْ يَعْرِفُوا الْفَضْلَ وَالْتِفَاوْتَ بَيْنَ الْأَوْراقِ وَالْثَمَارِ مَا قَدَرُوا، وَمَا وَجَدُوا فِيهَا تَفَاوُتًا. وَيُخْرِجُ أَيْضًا كُلَّ عَامٍ مِنَ الثَّمَارِ وَالْأَوْراقِ مَا يُشْبِهُ الْعَامَ الْأَوَّلَ.

فَذَلِكَ ذَلِكَ كُلُّهُ أَنَّ مُنْشِئَهَا وَمُخْرِجَهَا مَالِكٌ حَكِيمٌ؛ وَضَعَ كُلَّ شَيْءٍ مَوْضِعَهُ، وَأَنَّ مَا أَنشَأَ أَنشَأَ لِحِكْمَةٍ وَتَذْيِيرٍ لَمْ يُنْشِئَهَا عَبَثًا؛ فَلَهُ الْحُكْمُ وَالتَّذْيِيرُ فِي الْجَلِّ وَالْحُرْمَةُ وَالْقِسْمَةُ، لَيْسَ لِأَحَدٍ دُونَهُ حُكْمٌ وَلَا تَذْيِيرٌ فِي التَّحْرِيمِ وَالتَّخْلِيلِ؛ هَذَا خَلَالٌ، وَهَذَا حَرَامٌ، وَهَذَا لِهَذَا، [وهذا لهذا]^(٢)؛ إِنَّمَا ذَلِكَ إِلَى مَالِكِهَا فَخَرَجَ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، يُقَابِلُ مَا كَانَ مِنْهُمْ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَتَعْنَدُ وَحَرَّتْ جَبَرٌ﴾ [الأنعام: ١٣٨] [وقوله تعالى]^(٣): ﴿وَهَذَا لَشَرٌّ كَانَتْ﴾ [الأنعام: ١٣٦] وقوله تعالى ﴿وَأَتَعْنَدُ حَرَمْتَ طُهُورَهَا وَأَتَعْنَدُ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٣٨] وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي كَانَتْ فِيهَا ذِكْرُ حُكْمِهِمْ^(٤) عَلَى اللَّهِ وَإِشْرَاكَ أَنْفُسِهِمْ فِي حُكْمِهِ.

ثم اختلف في قوله: ﴿مَعْرُوشَاتٍ﴾ [قيل: ﴿مَعْرُوشَاتٍ﴾]^(٥) مبسوطات؛ مَا تُنْبِتُ مُنْبَسِطًا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ [وَعَبَّرَ مَعْرُوشَاتٍ] مَا يَقُومُ بِسَاقِهِ، لَا يُنْبَسِطُ عَلَى الْأَرْضِ، وَقِيلَ: ﴿مَعْرُوشَاتٍ﴾ مَا يُتَّخَذُ لَهُ الْعَرِيشُ مِنْ نَحْوِ الْعُرْجُونِ وَالْقَرْعِ وَغَيْرِهِ^(٦) [وَعَبَّرَ مَعْرُوشَاتٍ] مَا لَا تَقَعُ الْحَاجَةُ إِلَى الْعَرِيشِ مِنْ نَحْوِ النَّخِيلِ وَالْأَشْجَارِ الْمُثْمِرَةِ، وَهِيَ وَاحِدٌ، وَقِيلَ: عَلَى الْقَلْبِ: ﴿مَعْرُوشَاتٍ﴾ مَا يَقُومُ بِسَاقِهَا [وَعَبَّرَ مَعْرُوشَاتٍ] مَا لَا سَاقَ لَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وتعريضه ما ذكر على إثريه ﴿وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُمُ وَالزُّيُوتَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ مِنْهَا مَا يَكُونُ مُتَشَابِهًا فِي اللَّوْنِ مُخْتَلِفًا فِي الْأَكْلِ وَالطَّعْمِ، وَمِنْهَا مَا يَكُونُ مُخْتَلِفًا فِي اللَّوْنِ وَالْمَنْظَرِ مُتَشَابِهًا فِي الطَّعْمِ وَالْأَكْلِ لِيَتَعَلَّمُوا أَنَّ مُنْشِئَهَا وَاحِدٌ وَأَنَّهُ حَكِيمٌ؛ أَنشَأَهَا عَلَى حِكْمَةٍ، وَأَنَّهُ مُدَبِّرٌ؛ أَنشَأَهَا عَنْ تَذْيِيرٍ؛ لَمْ يُنْشِئَهَا عَبَثًا.

ومن الناس من يقول: إِنَّ^(٧) قوله تعالى ﴿مُتَشَابِهًا﴾ فِي الَّذِي ذَكَرَ، وَهُوَ الرُّمَانُ وَالزُّيُوتُ؛ لِأَنَّ وَرَقَهُمَا مُتَشَابِهٌ، وَالثَّمَرَةُ مُخْتَلِفَةٌ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: [الشَّابِهُ]^(٨) فِيهِمَا وَفِي غَيْرِهِمَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ وَلَا تُحَرِّمُوا؛ خَرَجَ عَلَى مُقَابَلَةٍ مَا كَانَ مِنْهُمْ مِنَ التَّحْرِيمِ؛ أَيِ كُلُوا مِنْهَا، وَلَا تُحَرِّمُوا لِتَصِيحٍ، وَيُقَسَّدُ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنذَرُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ ذَكَرَ الْإِنْتَاءَ مِمَّا يُحْصَدُ / ١٦٣ - / بَعْدَ ذِكْرِ النَّخِيلِ وَالزَّرْعِ وَالزُّيُوتِ وَالرُّمَانَ جَبًّا وَغَيْرَ حَبٍّ، وَمَا يَقَعُ فِي الْكَيْلِ، وَمَا لَا يَقَعُ مُجْمَلًا عَامًّا، وَلَمْ يُفَضَّلْ بَيْنَ قَلِيلِهِ وَكَثِيرِهِ، فَفِيهِ دَلَالَةٌ وَجُوبُ الصَّدَقَةِ وَالْمُشْرِ فِي قَلِيلٍ مَا تُخْرِجُ الْأَرْضُ وَكَثِيرِهِ. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ [الآية: ٢٦٧].

وحديث معاذ [بن جبل]^(٩) عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «فِي كُلِّ مَا أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ الْعُشْرَ أَوْ نِصْفَ الْعُشْرِ» [بنحوه السيوطي فِي الدَّر الْمَشْتُور ٣/ ٣٦٧] وَحَدِيثُ ابْنِ عَمَرَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ [أَنَّهُ]^(١٠) قَالَ: «فِي كُلِّ مَا أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ قَلِيلُهُ

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: تَحْكُمُهُمْ. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) من م، فِي الْأَصْلِ: وَقِيلَ. (٧) من م، فِي الْأَصْلِ: أَنَّهُ. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

وكثيره العُشْرُ [بحقه البخاري ١٤٨٣] وَخَبِرَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ أَنَّهُ^(١) قَالَ: «بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى أَهْلِ الْيَمَنِ، فَأَمَرَنِي أَنْ أَخْذَ مِنْ [كُلِّ]^(٢) حَالِمٍ دِينَارًا أَوْ عِذْلَهُ مَعَاوِرَ، وَأَمَرَنِي أَنْ أَخْذَ مِنْ كُلِّ أَرْبَعِينَ [بَقَرَةً]^(٣) مُسِنَّةً وَمِنْ كُلِّ ثَلَاثِينَ [بَقَرَةً تَبِيْعًا حَوْلِيًّا]^(٤) وَمِنْ كُلِّ مَا سَقَتِ السَّمَاءُ الْعُشْرَ. وَمَا سَقِيَ بِالذَّوَالِي^(٥) يَصِفُ الْعُشْرُ» [أحمد ٥/٢٣٣] إِلَى هَذَا كُلِّهِ يَذْهَبُ أَبُو حَنِيفَةَ، رَحِمَهُ اللَّهُ، وَيُوجِبُ الصَّدَقَةَ فِي قَلِيلٍ الْخَارِجِ مِنَ الْأَرْضِ وَكَثِيرِهِ.

ثُمَّ اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي تَأْوِيلِ الْحَقِّ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ قَالَ قَوْمٌ: هِيَ صَدَقَةُ سَوَى الزَّكَاةِ، وَاحْتَجُّوا بِأَنَّ الْآيَةَ مَكْتَبَةٌ، وَأَنَّ الزَّكَاةَ فُرِضَتْ بِالْمَدِينَةِ، وَهِيَ مَنْسُوخَةٌ بِآيَةِ الزَّكَاةِ. وَقَالَ قَوْمٌ: هِيَ الزَّكَاةُ فَإِنْ نُسِخَ فَإِنَّمَا^(٦) نُسِخَ قَدْرُهَا، لَمْ يَنْسَخِ الْحَقُّ رَأْسًا؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَتَصَدَّقُونَ بِالْأَكْلِ^(٧)، فَمَا نُسِخَ إِنَّمَا نُسِخَ بِآيَةِ الزَّكَاةِ قَدْرُهَا. أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ تَعَالَى فِي آخِرِهِ: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِإِسْمِ اللَّهِ يَحِبُّ الْمُتَشْرِكِينَ﴾؟ وَالْإِسْرَافُ فِي اللَّغَةِ هُوَ الْمُجَاوِزَةُ عَنِ الْحَدِّ الَّذِي حَدَّهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

وَقِيلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا﴾ أَي لَا تَمْنَعُوا الْأَكْلَ^(٨)، وَلَكِنْ كُلُّوا مِنْ بَعْضِهِ، وَأَتُوا حَقَّهُ مِنْ بَعْضِهِ، وَقِيلَ: الْإِسْرَافُ هَهُنَا هُوَ الشَّرْكُ، كَانَهُ [قَالَ]^(٩): لَا تُشْرِكُوا آلِهَتَكُمْ فِي مَا رَزَقَكُمْ اللَّهُ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ، [فَتَحَرَّمُوا، وَلَا تَنْتَفِعُوا]^(١٠) بِهِ.

وَالْإِسْرَافُ هُوَ الَّذِي لَا يَنْتَفِعُ بِهِ أَحَدٌ، وَمَا كَانُوا جَعَلُوا لِشُرَكَائِهِمْ لَا يَنْتَفِعُونَ بِهِ هُمْ، وَلَا انْتَفَعَ بِهِ أَحَدٌ، يَكُونُ مُقَابِلَ^(١١) قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَذِهِ أَمْتُهُمْ وَحَرَّكَتْ جَبْرُ﴾ [الأنعام: ١٣٨].

وَأَمَّا أَبُو يُوسُفَ وَمُحَمَّدٌ، رَحِمَهُمَا اللَّهُ [فإنهما]^(١٢)، يَذْهَبَانِ إِلَى مَا رَوَى عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(١٣) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا صَدَقَةَ فِي الزَّرْعِ وَلَا فِي الْكَرْمِ وَلَا فِي الثَّخْلِ إِلَّا مَا بَلَغَ خُمُسَهُ أَوْسُقٍ، وَذَلِكَ مِثْلُ فَرْقٍ» [البیهقي في الكبرى ٤/١٢٨].

وَعَنْ ابْنِ عُثْمَرَ، وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِثْلُهُ، وَمَا رَوَى مُوسَى بْنُ طَلْحَةَ [عَنْ أَبِيهِ]^(١٤) أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ فِي الْخَضِرَاوَاتِ صَدَقَةٌ» [الطبراني في الأوسط ٥٩١٧] نُوْخَذُ إِلَّا فِي مَا بَلَغَ كَذَا؛ وَمَا^(١٥) عَلَيْهِ فِي نَفْسِهِ صَدَقَةٌ يُؤْذِيهَا هُوَ.

ثُمَّ إِنْ كَانَ ذَلِكَ الْحَقُّ الَّذِي ذَكَرَ فِي الْآيَةِ الزَّكَاةَ فَإِنَّ الْآيَةَ تَدُلُّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، عَلَى أَنَّ زَكَاةَ الْحَبِّ وَالثَّمَارِ إِنَّمَا تَجِبُ فِي مَا [يَبَسَ مِنَ الْجَنَائِثِ]^(١٦) الْمَعْرُوشَاتِ وَغَيْرِ الْمَعْرُوشَاتِ، فَدَخَلَ فِي ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، الْعِنَبُ وَغَيْرُ الْعِنَبِ وَالثَّمَارُ كُلُّهَا [وَمَا]^(١٧) قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالثَّخْلُ وَالزَّرْعُ غُلَّتُهُمْ أَكْلُهُمُ وَالزَّيْتُونَ وَالزُّمُرَاتُ مِثْلُهَا وَغَيْرُ مِثْلِهَا﴾ فَجَمِيعُ مَا تُخْرِجُ الْأَرْضُ مِنْ كُلِّ الْأَصْنَافِ الَّتِي سَبَقَ ذِكْرُهَا.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَمَا أَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ فَجَعَلَ الْحَقَّ الْوَاجِبَ فِيهِ يَوْمَ يُحْصَدُ، فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عَفَا عَمَّا قَبْلَ ذَلِكَ. فَإِنْ كَانَ هَذَا هُوَ التَّأْوِيلُ، فَهُوَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، مَعْنَى مَا رَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ عَفْوًا عَنْ صَدَقَةٍ مَا يُؤْكَلُ مِنْهُ مَا كَانَ فِي ذَلِكَ فَائِدَةٌ؛ لِأَنَّ الثَّمَرَةَ تُؤْكَلُ، وَلَا تَصْلُحُ لِغَيْرِ ذَلِكَ إِلَّا لِلْوَجْهِ الَّذِي ذَكَرْنَا؛ وَهُوَ أَنَّهُمْ كَانُوا يُحَرِّمُونَ، وَلَا يَنْتَفِعُونَ بِهَا، فَقَالَ ﷺ: ﴿كُلُوا﴾ وَانْتَفِعُوا بِهِ، وَلَا تُضَيِّعُوهُ.

وَإِذَا كَانَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾ عَفْوًا عَنْ صَدَقَةٍ مَا يُؤْكَلُ مِنْهُ ظَهَرَتْ فَائِدَةُ الْكَلَامِ، وَهُوَ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، مَا رَوَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا خَرَضْتُمْ فَخُذُوهُ، وَدَعُوا الثَّلْثَ فَالرُّبْعَ» [النسائي ٥/٤٢].

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: تبعا. (٤) في الأصل وم: بالديالي. (٥) في الأصل وم: إنما. (٦) في الأصل وم: بالكل. (٧) في الأصل وم: الكل. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: فتحرمون ولا تنتفعون. (١٠) من م، في الأصل: تقابل. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: وأما. (١٥) في الأصل: يسبق الجنائيات، في م: يسب الجنات. (١٦) في الأصل وم: و.

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ [أنه^(١)] قَالَ: «لَيْسَ فِي الْعَرَايَا صَدَقَةٌ» [البیهقي في الكبرى ١٢٥/٤] وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه أَنَّهُ كَانَ يَبْعَثُ أَبَا خَيْمَةَ خَارِصًا لِلتَّخْلِيلِ، وَيَقُولُ لَهُ: إِذَا وَجَدْتَ أَهْلَ بَيْتٍ فِي حَانِطِهِمْ فَلَا تَخْرُصْ بِقَدْرِ مَا يَأْكُلُونَ. وَعَنْ مَكْحُولٍ [أنه^(٢)] قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «خَفُّوا عَلَى النَّاسِ فِي الْخَرْصِ فَإِنَّ فِي الْمَالِ الْعَرِيَّةَ وَالزَّوْجِيَّةَ» [بنحوه البخاري ٢١٨٨ و ٢١٩٣ و ٢٣٨٠].

فَذَلِكَ هَذِهِ الْأَحَادِيثُ عَلَى أَنَّهُ لَا صَدَقَةٌ فِي مَا يُؤْكَلُ مِنَ الثَّمَرِ رَطْبًا، إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي مَا يَأْكُلُونَ إِسْرَافٌ، وَقَدَّرَ النَّبِيُّ ﷺ لِذَلِكَ الثَّلَاثَ أَوْ الرَّبْعَ. وَذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، يُشَبِّهُ مَا ذَكَرْتُ عَلَيْهِ الْآيَةُ عَلَى تَأْوِيلٍ مَنْ جَعَلَ الْحَقَّ زَكَاةً؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: «وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّكُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ» فَاخْتَمَلَ أَنْ يَكُونَ أَيْضًا مَعْنَى ذَلِكَ وَلَا تُسْرِفُوا فِي الْأَكْلِ، فَيُجْجِفَ ذَلِكَ بِأَهْلِ الصَّدَقَةِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ نَهْيًا عَنِ الْإِسْرَافِ فِي جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ عَلَى مَا ذَكَرْنَا مِنْ قَبْلُ.

وَإِذَا صَحَّ أَنَّ لَا صَدَقَةَ فِي مَا يُؤْكَلُ مِنَ الرُّطْبِ وَالْعِنَبِ وَالثَّمَرِ بِهَذِهِ الْأَخْبَارِ، وَأَنَّ الصَّدَقَةَ إِنَّمَا تَجِبُ فِي مَا يَلْحَقُهُ الْحَصَادُ يَابِسًا، يُمَكِّنُ ادِّخَارَهُ، فَالْوَاجِبُ أَلَّا يَكُونَ فِي شَيْءٍ مِنَ الْخَضِرِ الَّتِي ^(٣) تُؤْكَلُ رَطْبَةً صَدَقَةٌ، وَالْأَمْرُ أَنْ تَكُونَ الصَّدَقَةُ وَاجِبَةً إِلَّا فِي مَا يَبَسَ مِنْهَا، وَيُمْكِنُ أَنْ يُدْخَرَ. فَأَمَّا الْبُقُولُ وَالرُّطَابُ وَالْبَطِيخُ وَالْقِنَاءُ وَالتُّفَّاحُ وَأَشْبَاهُهَا فَلَا صَدَقَةَ فِيهَا. هَذَا كُلُّهُ يَذُلُّ لِأَبِي يُوسُفَ وَمُحَمَّدٍ، رَحِمَهُمَا اللَّهُ، إِلَّا أَنَا لَا نَعْلَمُ مُخَالَفًا فِي أَنَّ مَا يُبَاعُ مِنَ الرُّطْبِ صَدَقَةٌ، وَإِنْ كَانَ يُؤْكَلُ بِهِيْتِهِ ^(٤)، فَهَذَا يُفْسِدُ مَا اخْتَجَجْنَا ^(٥) بِهِ لِأَبِي يُوسُفَ وَمُحَمَّدٍ، رَحِمَهُمَا اللَّهُ، وَمَنْ وَاظَفَهُمَا. وَتَأْوِيلُ مَا رُوِيَ أَنَّ لَا صَدَقَةَ فِي الْخَضِرَاوَاتِ، وَلَيْسَ فِي أَقْلٍ مِنْ خَمْسَةِ أَوْسُقٍ صَدَقَةٌ تُؤْخَذُ، وَمَا ^(٦) عَلَيْهِ فِي نَفْسِهِ يُؤَدِّيهَا ^(٧)، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: «وَمَا تَأْتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ» عَلَى أَوْلَئِكَ خَاصَّةً فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، أَوْ يَقُولُ: «وَمَا تَأْتُوا حَقَّهُ» وَلَا تَضُرُّوا إِلَى الْأَصْنَامِ الَّتِي تَضَرِّفُونَ إِلَيْهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٤٢ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشَاتٌ كُلُّوا مِنَّا رِزْقَكُمْ اللَّهُ» هُوَ صِلَةُ قَوْلِهِ تَعَالَى: «أَنْشَأْ جَنَّتٍ مَعْرُوشَتٍ» إِلَى آخِرِ مَا ذَكَرَ، وَأَنْشَأَ أَيْضًا مِنْ «وَالْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشَاتٌ».

ثُمَّ اخْتَلَفَ فِيهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: الْحَمُولَةُ مَا يُحْمَلُ عَلَيْهَا؛ أَنْشَأَهَا لِلْحَمَلِ، وَالْفَرَشُ الصَّغَارُ مِنْهَا الَّتِي لَا تَحْمِلُ، وَقِيلَ: الْحَمُولَةُ مِنَ نَحْوِ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْبِغَالِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْحَيَوَانِ، وَالْفَرَشُ هُوَ الْعَنَمُ وَالْمَعَزُ الَّتِي تُؤْكَلُ، وَأَنْشَأَهَا لِلْعَنَمِ. وَيَحْتَمِلُ الْفَرَشُ مَا يُؤْخَذُ مِنَ الْأَنْعَامِ، وَيَتَّخَذُ مِنْهُ الْفَرَشُ وَالْبُسْطُ. وَقَالَ الْحَسَنُ: الْحَمُولَةُ مَا يُحْمَلُ عَلَيْهَا، وَهُوَ خَاصٌّ، وَالْفَرَشُ كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَالِ مِنَ الْحَيَوَانِ وَغَيْرِهِ. يُقَالُ: أَفَرَشَهُ اللَّهُ لَهُ؛ أَيِ جَعَلَهُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: الْحَمُولَةُ الْإِبِلُ وَالْحَيْلُ وَالْبِغَالُ وَالْحَمِيرُ وَكُلُّ شَيْءٍ يُحْمَلُ عَلَيْهِ، وَأَمَّا الْفَرَشُ فَالْعَنَمُ. وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه: الْحَمُولَةُ الْإِبِلُ وَالْحَيْلُ وَالْبِغَالُ وَالْحَمِيرُ وَكُلُّ شَيْءٍ يُحْمَلُ عَلَيْهِ، وَأَمَّا الْفَرَشُ فَالْعَنَمُ. وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه [أنه^(٨)] قَالَ: الْحَمُولَةُ الْإِبِلُ، وَالْفَرَشُ الْبَقَرُ وَالْعَنَمُ. قَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ: الْحَمُولَةُ مَرَاكِبُ النِّسَاءِ، وَالْفَرَشُ مَا يَكُونُ لِلنَّجَاجِ. وَقَالَ الْقَتَيْبِيُّ: الْحَمُولَةُ كِبَارُ الْإِبِلِ الَّتِي يُحْمَلُ عَلَيْهَا، وَالْفَرَشُ صِغَارُهَا الَّتِي لَمْ تُذَرِكْ أَنْ يُحْمَلْ عَلَيْهَا، وَهِيَ مَا دُونَ الْحِقَاقِ، وَالْحِقَاقُ هِيَ الَّتِي تَصْلُحُ أَنْ تُرَكَّبَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «كُلُّوا مِنَّا رِزْقَكُمْ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ» قَوْلُهُ تَعَالَى: «كُلُّوا مِنَّا رِزْقَكُمْ اللَّهُ» وَرَجَّهُوا شُكْرَ ذَلِكَ إِلَيْهِ «وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ» فِي تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ، وَجَعَلَ ذَلِكَ لَكُمْ رِزْقًا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَجَعَلُوا لِلَّهِ وَمَا ذَرَأَ مِنَ الْأَحْزَابِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِغْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِهِمْ كَمَا كَانَتْ لِشُرَكَائِهِمْ» [الأنعام: ١٣٦] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «هَذِهِ» ١٦٣ - ب/ أَنْتُمْ وَحَرَّتْ جَنَّتُكُمْ لَا يَطْعُمُهَا إِلَّا مَنْ لَشَاءَ بِرِغْمِهِمْ وَأَنْتُمْ حَرَمْتُمْ ظُهُورَهَا وَأَنْتُمْ لَا يَذْكُرُونَ أَسَدَ اللَّهِ عَلَيْهَا» [الأنعام: ١٣٨] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَمُعْتَصَمٌ عَلَيْكُمْ أَرْوَجَتْكُمْ» [الأنعام: ١٣٩].

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم. الذي. (٤) في الأصل وم. كهيئة. (٥) في الأصل وم. احتجنا. (٦) في الأصل وم. وأما. (٧) أدرج قبلها في الأصل وم. أن. (٨) ساقطة من الأصل وم.

ذلك، ولا [لَهُمْ] ^(١) عِلْمٌ مِنْ جَهَةِ السَّمْعِ وَالْخَبَرِ؛ لَأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ، وَلَا صَدَّقُوا الرُّسُلَ، فَيَقُولُوا: أَخْبَرَنَا الرُّسُلُ بِتَحْرِيمِ ذَلِكَ، أَوْ وَجَدْنَا فِي الْكِتَابِ حُرْمَتَهَا، فَبُهِتُوا فِي ذَلِكَ، وَضَجَرُوا.

وفي الآية دلالة إثبات رسالة محمد ونبوته ﷺ لأنهم كانوا لا يُحَرِّمُونَ هذه الأشياء ظاهراً في ما بينهم، ورسول الله ﷺ نشأ بين أظهرهم منذ أن كان صغيراً إلى كبره، وعرفوا أنه لم يَخْتَلِفْ إلى أحدٍ، عَرَفَ ذَلِكَ، ثُمَّ أَخْبَرَهُ ^(٢) اللهُ مَا حَرَّمُوا فَسَاداً مَا صَنَعُوا لِيَدْلَهُمْ أَنَّهُ إِنَّمَا عَرَفَ ذَلِكَ بِاللَّهِ، وَبِهِ عِلْمٌ جَلٌّ مَا حَرَّمُوا وَحُرْمَةً مَا أَخْلَوْا لَا بِأَحَدٍ مِنَ الْخَلَائِقِ.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي لا أحدٌ ﴿أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ لأنه هو الذي أنشأهم، وأنشأ لهم جميع ما يحتاجون إليه، ويقتضون حوائجهم، وبه كانت ^(٣) جميع نعمهم التي ينتفعون، ويتقلبون فيها؛ فلا أحدٌ ﴿أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فقال: حَرَّمَ كَذَا، ولم يكن حَرِّمًا، أو أَمَرَ بِكَذَا، ولم يكن أَمْرًا. أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾؟ [النساء: ٨٧] [وقال: ^(٤) ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾؟] [النساء: ١٢٢]. فكما لم يكن أحدٌ أَصْدَقَ منه حديثاً، فعلى ذلك لا أحدٌ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بعدَ علمه أنه هو الفاعلُ لذلك كُلِّهِ، وهو المُنشئُ ما ذَكَرَ.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ في الظاهر استيفهاً، ولكن في الحقيقة إيجاب؛ لأنه لا يَحْتَمِلُ الاستيفاء؛ كانه قال: لا أحدٌ أَفْحَشُ ظُلْماً ﴿مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ على الإيجاب.

وقوله تعالى: ﴿لِيُضِلَّ النَّاسَ بِقَرْنٍ عَلَيْهِ﴾ لأنه يُقْصَدُ بالإفراء على الله قَصْدُ إضلالِ الناسِ وإغوائهم.

[وقوله تعالى] ^(٥): ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي لا يَهْدِي وَفَتْ اخْتِيَارِهِمُ الْكُفْرَ وَالظُّلْمَ. وقيل: لا يَهْدِي الْقَوْمَ الَّذِينَ فِي عِلْمِهِ أَنَّهُمْ يَجْتَمِعُونَ بِالْكَفْرِ. وَيَحْتَمِلُ: لا يَهْدِيهِمْ إِذَا كَانُوا هُمْ عِنْدَ اللَّهِ ظُلْمَةً كَفَرَةً، وَإِنْ كَانُوا عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ عُدُولاً عَلَى الْحَقِّ.

الآية ١٤٥ وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا آيِدُ فِي مَا أُوْحِي إِلَيْكَ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا آيِدُ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهين: أحدهما: أي لا أحدٌ مِمَّا تُحَرِّمُونَ أَنْتُمْ فِي مَا أُوْحِي إِلَيَّ، وَأَمَّا مِمَّا لَا تُحَرِّمُونَ [فإني أجِدُ] ^(٦).

والثاني: ﴿قُلْ لَا آيِدُ فِي مَا أُوْحِي إِلَيْكَ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ في وَفْتٍ، ثُمَّ وَجَدَهُ فِي وَفْتٍ آخَرَ. وَأَيُّهُمَا كَانَ فَلَيْسَ فِيهِ دَلِيلٌ جَلٌّ سِوَى مَا ذَكَرَ فِي الْآيَةِ عَلَى مَا يَقُولُهُ بَشَرٌ.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا آيِدُ فِي مَا أُوْحِي إِلَيْكَ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ مثلُ هذا الخطاب لا يكون إلا في مَعْهُودٍ سُؤَالٍ. وَإِلَّا يَمْتَلِ هذا الخطاب لا يَسْتَقِيمُ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ. فَإِنْ كَانَ فِي مَعْهُودٍ فَهُوَ يَخْرُجُ جَوَابَ مَا كَانُوا يُحَرِّمُونَ مِنْ أَشْيَاءٍ مِنَ الْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ، وَمَا ذَكَرَ فِي الْآيَاتِ الَّتِي تَقْدَمُ ذِكْرُهَا، وَمَا كَانُوا يُحَرِّمُونَ مِنَ الْبَحِيرَةِ وَالْوَصِيلَةِ وَالسَّائِبَةِ وَالْحَامِي.

فَقَالَ: ﴿قُلْ لَا آيِدُ فِي مَا أُوْحِي إِلَيْكَ مُحَرَّمًا﴾ مِمَّا تُحَرِّمُونَ أَنْتُمْ ﴿عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَبْنًى أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا. جَوَابُ سُؤَالٍ فِي نَازِلَةٍ، فَقَالَ: ﴿قُلْ لَا آيِدُ فِي مَا أُوْحِي إِلَيْكَ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ فِي مَا ذَكَرَ فِي الْآيَةِ، وَلَمْ يَجِدْهُ مُحَرَّمًا فِي وَفْتٍ إِلَّا مَا ذَكَرَ، ثُمَّ وَجَدَهُ فِي وَفْتٍ آخَرَ. فَفِي أَيُّهُمَا كَانَ لَمْ يَكُنْ لِلْبَشَرِ عَلَيْنَا فِي ذَلِكَ حُجَّةٌ جَيِّنٌ ^(٧) قَالَ: إِنَّ الْأَشْيَاءَ كُلَّهَا مُحَلَّلَةٌ مُطْلَقاً بِهذه الآية: ﴿قُلْ لَا آيِدُ فِي مَا أُوْحِي إِلَيْكَ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ إِلَّا مَا ذَكَرَ مِنَ الْمَيْتَةِ وَالْدَمِ وَلَحْمِ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهْلٌ لِيُغَيِّرَ اللَّهُ بِهِ، فَقَالَ: لَا تُحَرِّمُ مِنَ الْحَيَوَانِ إِلَّا مَا ذَكَرَ.

وَيَقُولُ: إِنَّ النَّهْيَ الَّذِي جَاءَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ هُوَ ^(٨) نَهْيٌ عَنْ كُلِّ ذِي نَابٍ مِنَ السَّبَاعِ وَعَنْ كُلِّ ذِي مَخْلَبٍ مِنَ الطَّيْرِ. إِنَّمَا هُوَ خَبَرٌ خَاصٌّ مِنْ أَخْبَارِ الْأَحَادِ، وَخَبَرُ الْوَاحِدِ لَا يَفْعَلُ فِي تَشْخِيقِ الْكِتَابِ، وَقَدْ قَالَ: ﴿قُلْ لَا آيِدُ فِي مَا أُوْحِي إِلَيْكَ مُحَرَّمًا﴾.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: كان. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.

(٦) في الأصل وم: فإنه يجد. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: أنه.

وَبَعْدُ فَإِنَّ ذَلِكَ الْخَبَرَ مِنَ الْأَخْبَارِ الْمُتَوَاتِرَةِ؛ لَأَنَّهُ عَرَفَهُ الْخَاصُّ وَالْعَامُّ، وَعَمِلُوا بِهِ، وَظَهَرَ الْعَمَلُ بِهِ، حَتَّى لَا يَكَادُ يُوجَدُ ذَلِكَ يُبَاعُ فِي أَسْوَاقِ الْمُسْلِمِينَ. دَلَّ أَنَّهُ مِنَ الْمُتَوَاتِرِ.

قَالَ الشَّيْخُ / ١٦٤ - أ / ﷺ: وَعِنْدَنَا أَنَّ لَفْظَةَ التَّحْرِيمِ فِي الْحَيَوَانِ [لَا تَكُونُ] ^(١) إِلَّا فِي مَا ذَكَرَ فِي الْآيَةِ مِنَ الْمَيْتَةِ وَالْدَّمِ الْمَسْفُوحِ وَالْخَنزِيرِ. وَلَكِنْ يُقَالُ: مَنْهِيٌّ عَنْهُ، مَكْرُوهٌ، وَلَا يُقَالُ: مُحَرَّمٌ مُطْلَقًا، وَلَا يُقَالُ: لَا يُؤْكَلُ، وَلَا يُطْعَمُ.

وَبَعْدُ فَإِنَّ الْآيَةَ لَوْ كَانَتْ فِي غَيْرِ الْوَجْهَيْنِ اللَّذَيْنِ ذَكَرْنَاهُمَا لَمْ يَكُنْ فِيهَا دَلِيلٌ جَلُّ مَا عَدَا الْمَذْكُورَ فِي الْآيَةِ؛ لَأَنَّهُ قَالَ: ﴿لَا أُيَذُّ﴾ وَلَمْ يُوجَدْ فِي وَقْتِهِ. ثُمَّ وَجَدَ فِي وَقْتٍ آخَرَ، هَذَا جَائِزٌ.

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿مُحَرَّمًا عَلَى طَائِعِهِ يَطْعَمُهُ﴾ دَلَالَةٌ أَنَّ الْجِلْدَ يُحَرَّمُ بِحَقِّ اللَّحْمِيَّةِ؛ لَأَنَّهُ أَمَكَّنَ أَنْ يُشْرَى، فَيُؤْكَلَ، فَحُرْمَتُهُ حُرْمَةُ اللَّحْمِ. فَإِذَا دُبِغَ خَرَجَ مِنْ أَنْ يُؤْكَلَ، فَظَهَرَ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عَلَى طَائِعِهِ يَطْعَمُهُ﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مُحَرَّمًا عَلَى طَائِعِهِ يَطْعَمُهُ﴾ الْآيَةُ دَلَالَةٌ أَنَّ الْحُرْمَةَ الَّتِي ذَكَرَ فِي قَوْلِهِ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ﴾ [المائدة: ٣] إِلَى آخِرِ مَا ذَكَرَ حُرْمَةَ الْأَكْلِ وَالشَّوْطِ وَمِنْهَا؛ لَأَنَّهُ لَمْ يُبَيِّنْ فِي تِلْكَ الْآيَةِ مَا الَّذِي حُرِّمَ مِنْهَا سِوَى مَا ذَكَرَ حُرْمَتَهُ [التي] ^(٢) تَفْسَرُهَا هَذِهِ الْآيَةُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مُحَرَّمًا عَلَى طَائِعِهِ يَطْعَمُهُ﴾ الْأَكْلُ ^(٣) دَلَّ هَذَا أَنَّ الْحُرْمَةَ فِي تِلْكَ الْآيَةِ الْأَكْلُ وَالشَّوْطُ مِنْهَا، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيْبُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٥] ذَكَرَ الْجِلْدَ، وَلَمْ يَذْكُرِ الْجِلْدَ لِمَاذَا؟ ثُمَّ جَاءَ التَّفْسِيرُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ لِلْأَكْلِ.

ثُمَّ الْمَيْتَةُ الَّتِي ذَكَرَ أَنَّهَا مُحَرَّمَةٌ لَيْسَتْ هِيَ الَّتِي مَاتَتْ حَتْفَ أَنْفِهَا خَاصَّةً. أَلَا تَرَى أَنَّهُ ذَكَرَ ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالطَّيْبَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾؟ [المائدة: ٣] كُلُّ هَذَا الَّذِي ذَكَرَ لَمْ يَمُتْ حَتْفَ أَنْفِهِ، وَلَكِنْ بِأَسْبَابٍ ^(٤)، لَمْ يُؤْمَرْ بِهَا، فَصَارَتْ مَيْتَةً. فَدَلَّ أَنَّ كُلَّ مَذْبُوحٍ أَوْ مَقْتُولٍ بِسَبَبٍ، لَمْ يُؤْمَرْ بِهِ، هُوَ ^(٥) مَيْتَةٌ، لَا يَحِلُّ الشَّوْطُ مِنْهَا إِلَّا فِي حَالِ الْإِضْطِرَارِ.

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ دَلَالَةٌ أَنَّ الْمُحَرَّمَ مِنَ الدَّمِ هُوَ الْمَسْفُوحُ، وَالدَّمُ الَّذِي يَكُونُ فِي اللَّحْمِ، وَيُخَالِطُ اللَّحْمَ، لَيْسَ بِحَرَامٍ، وَالدَّمُ الْمَسْفُوحُ حَرَامٌ.

قَالَ أَبُو غَوْسَجَةَ: الْمَسْفُوحُ الْمَضْبُوبُ؛ نَقُولُ: سَفَحْتُ صَيْتًا، وَقَالَ الْقُتَيْبِيُّ: ﴿مَسْفُوحًا﴾ أَيُّ سَائِلًا، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﷺ الْمَسْفُوحُ هُوَ الَّذِي يُهْرَاقُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ لَحْمِ خَنزِيرٍ﴾ ذَكَرَ اللَّحْمَ، وَذَكَرَ حُرْمَةَ الْمَيْتَةِ، لِيُعْلَمَ أَنَّ الْخَنزِيرَ بِجَوْهَرِهِ حَرَامٌ، وَالْمَيْتَةُ، حُرْمَتُهَا لَا بِجَوْهَرِهَا، لَكِنْ بِمَا ^(٦) اغْتَرَضَ. لِذَلِكَ قُلْنَا: لَا بَأْسَ بِالْإِنْتِفَاعِ بِصُوفِ الْمَيْتَةِ وَوَبَرِّهَا وَعَظْمِهَا، وَلَا بِجَوْرِ مِنَ الْخَنزِيرِ شَيْءٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَمَنْ أَمْطَرَ غَيْرَ بَلَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ قِيلَ: ﴿غَيْرَ بَلَاغٍ﴾ [غَيْرُ مُسْتَجِلٍّ لَهُ] ^(٧) فِي دِينِهِ ﴿وَلَا عَادٍ﴾ أَيُّ وَلَا مُتَعَدِّيًا ﴿كَمَنْ أَمْطَرَ﴾ إِلَيْهِ، فَأَكَلَهُ. وَقَدْ ذَكَرْنَا أَقَابِيلَهُمُ وَالْإِخْتِلَافَ فِي تَأْوِيلِهِ فِي صَدْرِ الْكِتَابِ ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لِأَكْلِهِ الْحَرَامِ فِي حَالِ الْإِضْطِرَارِ ﴿رَحِيمٌ﴾ جِئَ ^(٨) رَخَّصَ الْحَرَامَ فِي مَوْضِعِ الْإِضْطِرَارِ، وَهَذَا أَيْضًا قَدْ مَضَى ذِكْرُهُ ^(٩).

الآية ١٤٦

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾ قِيلَ: بِمِثْلِ النَّمَامَةِ وَالْبَعِيرِ. وَقِيلَ: ﴿كُلُّ ذِي ظُفْرٍ﴾ بِمِثْلِ الدَّبِيكِ وَالْبَطَّةِ وَالْبَعِيرِ وَكُلُّ مَنْفَرَجِ الْأَصَابِعِ وَالْقَوَائِمِ. وَقِيلَ: حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي حَافِرٍ مِنْ نَحْوِ حِمَارِ الْوَحْشِ وَالْوَرُزِّ وَغَيْرِهِ. وَقِيلَ: ﴿حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾ كُلُّ ذِي مَخْلَبٍ مِنَ الطَّيْرِ وَكُلُّ ذِي نَابٍ مِنَ السَّبَاعِ، وَمِنْ الدَّوَابِّ كُلُّ ذِي ظُفْرِ

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم. (٤) من م، في الأصل: بأسبابها. (٥) في الأصل وم: فهو. (٦) في الأصل وم: لما. (٧) في الأصل وم: يستحله. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) من م، في الأصل: ذكر.

مُنْفَقٍ مِثْلَ الْأَرْزَبِ وَالتَّبَعِيرِ وَاشْبَاهِهِمَا، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه. وَالْأَشْبَهُ أَنْ يَكُونَ مَا ذَكَرَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿يُظْلِمُونَ﴾ [النساء: ١٦٠].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْفَنَرِ حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ شَحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَلَكَ ظُهُورُهُمَا﴾ قِيلَ: شَحُومٌ بُطُونُهُمَا مِنْ^(١) الثَّرُوبِ وَشَحْمِ الْكِلْتَيْنِ ﴿أَوْ الْحَوَايَا﴾ وَهِيَ الْمَبَاعِرُ وَالْمَصَارِينُ أَيِ الشَّحْمِ الَّذِي عَلَيْهَا ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ قِيلَ الْإِلَئَةُ. وَقِيلَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَا حَلَكَ ظُهُورُهُمَا﴾ هُوَ اسْمُ^(٢) اللَّحْمِ، وَقِيلَ^(٣) فِيهِ أَقَاوِيلُ مُخْتَلِفَةٌ فِي هَذَا وَفِي الْأَوَّلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَرَمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾ لَكِنْ لَيْسَ لَنَا إِلَى مَعْرِفَةِ ذَلِكَ حَاجَةٌ؛ لِأَنَّ تِلْكَ شَرِيعَةٌ، قَدْ نُسِخَتْ، وَالْعَمَلُ بِالْمَنْسُوخِ حَرَامٌ. فإِذَا لَمْ يَكُنْ عَلَيْنَا الْعَمَلُ بِذَلِكَ لَيْسَ لَنَا إِلَى مَعْرِفَةِ ذَلِكَ حَاجَةٌ؛ كَأَن ذَا، أَوْ ذَا^(٤)، وَإِنَّمَا عَلَيْنَا أَنْ نَعْرِفَ لِمَ كَانَ ذَلِكَ التَّحْرِيمُ؟ وَمِمَّ كَانَ تَحْرِيمُ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ عَلَيْهِمْ؟

فَهُوَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، مَا ذُكِرَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُظْلِمُونَ﴾ [النساء: ١٦٠].

أَخْبَرَ أَنَّ مَا حَرَّمَ^(٥) عَلَيْهِمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ [يَسْبِيْنِ]:

أَحَدُهُمَا: [٦] يُظْلِمُهُمْ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا؛ وَلِلَّذَلِكَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ بَغْيِهِمْ﴾ [النساء: ١٦٠].

وَالثَّانِي: أَنَّهُمْ كَانُوا يَدْعُونَ، وَيَقُولُونَ: ﴿عَنْ أَبْنَاءِ اللَّهِ وَأَجْنُودِهِ﴾ [المائدة: ١٨]؛ [يَقُولُ]: لَوْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي زَعْمِكُمْ أَنْكُمْ ﴿أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَجْنُودُهُ﴾ [٨] لَكَانَ لَا أَحَدٌ يُعَاقِبُ وَلَدَهُ أَوْ حَبِيبَهُ بِأَذْنَى ظُلْمٍ، وَلَا يُحَرِّمُ عَلَيْهِ الطَّيِّبَاتِ. [فَإِذَا كَانَ اللَّهُ حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الطَّيِّبَاتِ] [٩]، وَجَزَائِكُمْ^(١٠)، بِتَحْرِيمِ أَشْيَاءٍ عُقُوبَةً لَكُمْ يُظْلِمُكُمْ وَبَغْيِكُمْ ظَهَرَ أَنْكُمْ كَذَبْتُمْ فِي دَعَائِكُمْ، وَافْتَرَيْتُمْ بِذَلِكَ عَلَى اللَّهِ.

وفيه دليل إثبات رسالة محمد ﷺ لأنهم كانوا يُحَرِّمُونَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ فِي مَا يَنْتَهُمُ، وَلَا يَقُولُونَ: إِنَّهُمْ ظَلَمُوا، وَإِنْ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ يُظْلِمُ كَانَ مِنْهُمْ وَبَغْيٍ.

ثُمَّ أَخْبَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ إِنَّمَا حَرَّمَ يُظْلِمُهُمْ وَبَغْيِهِمْ دَلَّ أَنَّهُ إِنَّمَا أَخْبَرَ بِذَلِكَ عَنِ اللَّهِ، وَبِهِ عَرَفَ ذَلِكَ، فَذَلِكَ أَنَّهُ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ نُبُوَّتِهِ ﷺ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ بَغْيِهِمْ﴾ أَيِ ذَلِكَ التَّحْرِيمِ عُقُوبَةً لِبَغْيِهِمْ وَظُلْمِهِمْ ﴿وَأَنَّا لَصَادِقُونَ﴾ بِالْإِنْبَاءِ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ بِظُلْمِهِمْ وَبَغْيِهِمْ ﴿وَأَنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فِي كُلِّ مَا أَخْبَرْنَا، وَأَنبَأْنَا.

الآية ١٤٧ وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ قَالَ الْحَسَنُ: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ فِي مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ وَتَأْمُرُهُمْ بِهِ مِنَ التَّضَدِيقِ وَالتَّوْحِيدِ لَهُ وَالتَّوْبِيَةِ ﴿فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ﴾ إِذَا رَجَعْتُمْ عَنِ التَّكْذِيبِ، وَصَدَّقْتُمْ، وَعَرَفْتُمْ أَنَّهُ وَاحِدٌ، لَا شَرِيكَ لَهُ، يَغْفِرُ لَكُمْ مَا كَانَ مِنْكُمْ فِي حَالِ الْكُفْرِ، وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ الَّتِي كَانَتْ.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ كَأَنَّهُ عَلَى التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ؛ يَقُولُ: فَإِنْ كَذَّبُوكَ يَا مُحَمَّدُ فَقُلْ لَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ. ثُمَّ يَقُولُ^(١١): رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ؛ يَسَّعُ فِي رَحْمَتِهِ الْعَفْوَ إِذَا تَبَّيْتُمْ.

وَقَالَ غَيْرُهُ مِنْ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ حِينَ أَنْبَأْتَهُمْ بِمَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ يُظْلِمُهُمْ وَبَغْيِهِمْ ﴿فَقُلْ رَبُّكُمْ

(١) فِي الْأَصْلِ وَمِنْ. وَمِنْ. (٢) فِي م: سَمَن. (٣) الْوَاوُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَمِنْ. (٤) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: أَوْفَا. (٥) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: أَخْبَرَ. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَمِنْ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَمِنْ: الَّذِينَ. (٨) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٩) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَمِنْ: وَجَزَائِهِمْ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَمِنْ: قَالَ.

ذُرِّعَتْ وَرِثَةٌ لَا يُهْلِكُ [أحداً] (١) وَفَتَّ ارْتِكَابِهِ الْمَعْصِيَةَ، وَلَا يُعَذِّبُهُ حَالَةَ ذَلِكَ، لَكِنَّهُ يُؤَخِّرُهُ (٢) «وَلَا يَزِدُّ بِأُسْمِهِ» أَي عَذَابُهُ إِذَا نَزَلَ بِقَوْمٍ مُجْرِمِينَ بِجُرْمِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٤٨ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ» قَبِيلُ: الْآيَةُ فِي مُشْرِكِي الْعَرَبِ؛ قَالُوا ذَلِكَ جِئْنَا لِرِثْمَتِهِمُ الْمُنَاقَضَةَ، وَانْقَطَعَ حِجَابُهُمْ فِي تَحْرِيمِهِمْ مَا حَرَّمُوا مِنَ الْأَشْيَاءِ، وَأَضَافُوا ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ، وَهُوَ صِلَةُ قَوْلِهِ تَعَالَى: «ثُمَّ نَبَيُّنَا آدَمُ مِنْ الصَّالِحِينَ وَنَزَّلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَائِدَةً مِنْ لَدُنَّا وَآدَمُ عَلَّمَهُ كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا الْيَمِينَ أَمَّا اسْتَمَلَّتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأَنْثِيِّينَ إِلَى آخِرِ مَا ذَكَرَ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: «أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْتُكُمْ اللَّهُ بِهَذَا» [الأنعام: ١٤٣ و ١٤٤] فَلَمَّا لَزِمَتْهُمْ الْمُنَاقَضَةُ، وَانْقَطَعَ حِجَابُهُمْ، فَزِعُوا عَنْهُ.

إِلَى هَذَا الْقَوْلِ: «لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ» فَيَقُولُ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ: «كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» مِنَ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ رُسُلَهُمْ كَمَا كَذَّبَكَ هَؤُلَاءِ، وَكَانُوا يَقُولُونَ لِرُسُلِهِمْ مَا قَالَ لَكَ هَؤُلَاءِ «لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا» إِلَى آخِرِ مَا ذَكَرَ. ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ: «لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا» قَالَ الْحَسَنُ وَالْأَصَمُّ: إِنَّ الْمَشِيقَةَ هُنَا الرِّضَا؛ قَالُوا: رَضِيَ اللَّهُ بِفِعْلِنَا/ ١٦٤ - ب/ وَصَيِّعِنَا جِئْنَا (٣) فَعَلَّ آبَاؤُنَا بِمِثْلِ مَا فَعَلْنَا، فَلَمْ يَحُلِ اللَّهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَلَا أَخَذَ عَلَى أَيْدِيهِمْ، وَلَا مَنَعَهُمْ عَنْ ذَلِكَ، فَلَوْ لَمْ يَرْضَ بِذَلِكَ عَنْهُمْ لَكَانَ يَحُولُ ذَلِكَ عَنْهُمْ، وَمَنَعَهُمْ عَنْهُ، وَإِنَّمَا اسْتَدَلُّوا بِالرِّضَا مِنَ اللَّهِ وَالْإِذْنِ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يُخَوِّفُونَ آبَاءَهُمُ الْهَلَكَ وَالْعَذَابَ بِصَيِّعِهِمُ الَّذِي كَانُوا صَنَعُوا، ثُمَّ رَأَوْهُمْ مَاتُوا عَلَى ذَلِكَ، وَلَمْ يَأْتِهِمُ الْعَذَابُ، فَاسْتَدَلُّوا بِتَأَخِيرِ نُزُولِ الْعَذَابِ عَلَيْهِمْ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى رَضِيَ بِذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَيُظَاهِرُ هَذِهِ الْآيَةَ لِلْمُعْتَرِجَةِ أَدْنَى تَعَلُّقٍ؛ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ رَدَّ ذَلِكَ الْقَوْلَ الَّذِي قَالُوا، وَعَاتَبَهُمْ عَلَى ذَلِكَ الْقَوْلِ بِقَوْلِهِ: «كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى دُفِنُوا بِأَسْكَتِهِمْ» وَأَوْعَدَهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَعِيداً شَدِيداً. فَلَوْ كَانَ يَجُوزُ إِضَافَةُ الْمَشِيقَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي ذَلِكَ عَلَى مَا تُضَيِّفُونَ أَنْتُمْ لَمْ يَكُنْ يَزِدُّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، وَلَا عَاتَبَهُمْ عَلَى ذَلِكَ، وَلَا أَوْعَدَهُمْ وَعِيداً فِي ذَلِكَ. دَلَّ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ ذَلِكَ وَلَا إِضَافَةُ الْمَشِيقَةِ إِلَيْهِ فِي ذَلِكَ.

فَنَقُولُ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ: إِنَّ الْمَشِيقَةَ هُنَا تَحْتَمِلُ وَجْهًا:

أَحَدُهَا: مَا قَالَ الْحَسَنُ وَالْأَصَمُّ مِنَ الرِّضَا؛ قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى رَضِيَ بِذَلِكَ.

وَالثَّانِي: الْأَمْرُ وَالِدَعَاءُ إِلَى ذَلِكَ؛ يَقُولُونَ: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَهُمْ بِذَلِكَ، وَدَعَاهُمْ إِلَى ذَلِكَ.

وَالثَّالِثُ: كَانُوا يَقُولُونَ ذَلِكَ عَلَى الْإِسْتِهْزَاءِ وَالسُّخْرِيَةِ لَا عَلَى الْحَقِيقَةِ.

وَهَكَذَا أَمْرُ الْمَجُوسِ أَنَّهُمْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ هَذَا: لِمَ لَا تُؤْمِنُونَ [وَلَا] (٤) تُسَلِّمُونَ؟ يَقُولُونَ مَا قَالَ هَؤُلَاءِ: «لَوْ شَاءَ اللَّهُ» لَأَمَنَّا، وَ«مَا أَشْرَكْنَا». فَهَذَا الْعِتَابُ الَّذِي لِحَقِّقَهُمُ وَالْوَعِيدُ الَّذِي أَوْعَدَهُمْ إِنَّمَا كَانَ لِيَمَّا قَالُوا اسْتِهْزَاءً مِنْهُمْ وَلِيَمَّا ادَّعَوْا مِنَ الْأَمْرِ وَالْإِدْعَاءِ (٥) عَلَى اللَّهِ، وَافْتَرَوْا عَلَيْهِ، وَالرِّضَا أَنَّهُ رَضِيَ بِذَلِكَ.

عَلَى هَذِهِ الْوُجُوهِ الثَّلَاثَةِ تَخْرُجُ الْمَشِيقَةُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، لَا عَلَى مَا قَالَتْهُ الْمُعْتَرِجَةُ، وَهُوَ مَا ذَكَرَ فِي آيَةِ أُخْرَى: «وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرِجُ حَيًّا؟» [مریم: ٦٦] هُوَ كَلِمَةٌ حَقٌّ. لَكِنْ قَالَهَا اسْتِهْزَاءً وَهَزْوَاً، فَلَجِئَهُ الْعِتَابُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا» أَيِ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ بَيَانٍ وَحُجَّةٍ مِنَ اللَّهِ دُونَ أَنْ يُمְهِلَكُمْ (٦) لِيُعَذِّبَكُمْ. أَوَلَيْسَ قَدْ تَرَكَ مَنْ خَالَفَكُمْ فِي ذَلِكَ؟ ثُمَّ لَمْ يَذَلِّ تَرْكُهُ إِيَّاهُمْ عَلَى أَنَّهُ رَضِيَ بِذَلِكَ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: [«إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ» أَيِ مَا تَتَّبِعُونَ فِي ذَلِكَ «إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ»] (٧) أَيِ مَا هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ، وَيَكْذِبُونَ فِي ذَلِكَ؛ لَيْسَتْ لَهُمْ حُجَّةٌ وَلَا بَيَانٌ عَلَى مَا يَدَّعُونَ مِنَ الْأَمْرِ وَالِدَعَاءِ إِلَى ذَلِكَ وَالتَّرْكِ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ عَلَى الرِّضَا بِهِ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: يؤخر. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: والدعاء.

(٦) في الأصل وم: أمهلهم. (٧) في الأصل: «إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ» أَيِ مَا تَتَّبِعُونَ فِي ذَلِكَ «إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ»، فِي م: «إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ» أَيِ مَا تَتَّبِعُونَ فِي ذَلِكَ «إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ»، أَدْرَجَ فِي مَعْجَمِ الْقُرْآنِ: قَرَأَ النَّحْصِي: إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ، وَهِيَ قِرَاءَةٌ شَاذَةٌ، انْظُرِ الْمَعْجَمَ الْمَذْكُورَ [٣٣٢/٢].

الآية ١٤٩

وقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ التي إذا بلغت كلَّ شُبْهةٍ أزالَتْها، وكلَّ غافلٍ نائمٍ نَبَّهَتْهُ، وأيقظَتْهُ. وقيل: الحُجَّةُ البالِغَةُ التامةُ القاهرةُ الظاهرةُ على كلِّ شيءٍ الغالبةُ عليه، لم تَبْلُغْ شيئاً إلا قَهَرَتْهُ، وغَلَبَتْهُ.

وقال الحسن: الحُجَّةُ البالِغَةُ في الآخرة؛ ولا يُعَذَّبُ أحدٌ، ولا يُعاقِبُهُ إِلَّا لِحُجَّةٍ تَلْزِمُ، لا يُعاقِبُ بهوى أو انتقام أو شهوة على ما يُعاقِبُ في الشاهد ولا غيره، ما من أحدٍ من الخلائق إِلَّا والله عليه الحُجَّةُ البالِغَةُ أما الملكُ المُقَرَّبُ فإنَّ الله جَبَلَهُ على الطاعة، فلا يَعْصِيهِ، متاً من الله عليه وطولاً وقُضْلاً، فهو مُقَصَّرٌ عن شكرِ نِعْمَةِ الله عليه. وأما النبيُّ المُرْسَلُ والعبدُ الصالحُ فَلِلَّهِ عليهما السَّيْلُ والحُجَّةُ من غيرِ واحدٍ.

ثم تَحْتَمِلُ الحُجَّةُ البالِغَةُ وجوهاً:

أحدها: هذا القرآن الذي أنزله على رسول الله ﷺ آيةٌ مُعْجِزَةٌ وحُجَّةٌ بالغةٌ عَجَزَ^(١) الخلائق عن إتيان مثله. فدلَّ عَجْزُهُم عن إتيان مثله على أنه آيةٌ من آياتِ الله وحُجَّةٌ من حُجَجِ الله، أرسلها على نبيه ﷺ.

والثاني: أنه جَعَلَ في كُلِّيةِ الخلائق والأشياء ما يَشْهَدُ أَنَّ الخلائق والأشياء كلها لها شهادةُ خلقِهِ، وتدلُّ كُلِّيةُ الأشياءِ على وُحْدَانِيَّتِهِ، فهو حُجَّةٌ بالغةٌ.

والثالث: السُّنَنُ الرُّسُلِ وأنبأؤُهُمْ إذ^(٢) لم يُؤَاخِذُوهُمْ بِكَذِبٍ قَطُّ في ما بَيَّنَّهُمْ، ولا جَرَى على لسانِهِمْ كَذِبٌ قَطُّ، ولا فُحْشٌ. عَصَمَهُم ﷻ عن ذلك، فدلَّ على أنهم إنما خُصُّوا بذلك لِمَا أَنَّ الله جَعَلَهُمْ حُجَجاً وآياتٍ على وجهِ الأرض؛ حُجَّةٌ بالغةٌ، وبالله العِصْمَةُ.

وقال بَعْضُهُمْ ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ في تَحْرِيمِ الأشياءِ وتَحْلِيلِهَا، لَيْسَ لِهؤلاءِ الذين يُحَرِّمُونَ أشياء، لَهُمْ في تَحْرِيمِهِمْ حُجَّةٌ؛ إنما يُحَرِّمُونَ ذلك بهوى أَنفُسِهِمْ.

وقوله تعالى: ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْنَاكُمْ أَجْمِينَ﴾ قال الحسن: المَشِيشَةُ ههنا^(٣) مَشِيشَةُ القُدْرَةِ، وقال: لو شاء قَهَرَهُمْ، وأعْجَزَهُمْ حتى لم يَقْدِرُوا على مَعْصِيَةِ قَطُّ على ما جَعَلَ الملائكةُ؛ جَبَلَهُمْ على الطاعة حتى لا يَقْدِرُوا على مَعْصِيَةٍ.

ثم هو^(٤) يُفَضِّلُ الملائكةَ على الرُّسُلِ والأنبياءِ والبَشَرِ جميعاً، ويقول: هم مُجْبُورُونَ على الطاعة. فذلك تناقُضٌ في القول، لا يجوز. مَنْ كَانَ مُقَهَّوراً مُجْبُوراً على الطاعة يُفَضَّلُ على مَنْ يَفْعَلُ بِالِاخْتِيَارِ مَعَ تَمَكُّنِ الشَّهَوَاتِ فِيهِ والحاجاتِ التي تُغْلِبُ صَاحِبَهَا، وَتَمْنَعُهُ عَنِ الْعَمَلِ بالطاعة، ويقول: فَضَّلَهُمُ بِالْجَوْهَرِ والأضل، فلا يجوزُ أَنْ يَكُونَ لأحدٍ بِالْجَوْهَرِ نَفْسِهِ فَضَّلَ على ذلك الجَوْهَرِ؛ لأنَّ الله تعالى لم يَذْكُرْ فَضْلَ شيءٍ بِالْجَوْهَرِ إِلَّا مَقْرُوناً بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الطَّيِّبَةِ كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤] وقوله^(٥) تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ [الأعراف: ٥٨] وقوله تعالى: ﴿وَالْمَسَلُ الصَّالِحُ بَرَقَهُ﴾ [فاطر: ١٠] ونَحْوُهُ، لم يُفَضَّلْ أحدٌ^(٦) بِالْجَوْهَرِ على أحدٍ، ولكن إنما فَضَّلَهُ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ. لِذَلِكَ قُلْنَا: إِنَّ قَوْلَهُ^(٧) يَخْرُجُ على التَّنَاقُضِ.

وتأويلُ قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْنَاكُمْ أَجْمِينَ﴾ [عندنا ظاهرٌ: لو]^(٨) شاء الله لَهَدَاهُمْ جميعاً، وَوَفَّقَهُمْ لِلطَّاعَةِ، وَارْشَدَهُمْ. لِذَلِكَ هو كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَوْ لَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوقِعَهُمْ سُقُوطًا مِّنْ فَضْلِهِ﴾ الآية [الزخرف: ٣٣]. فإذا كَانَ الْمِيلُ إِلَى الْكُفْرِ لِمَكَانٍ مَا جَعَلَ لَهُمْ مِنَ الْفِضَّةِ وَالزَّيْنَةِ، وإذا كَانَ [ذلك الإيمان]^(٩) لِلْمُؤْمِنِينَ آمَنُوا، ثم لم يَجْعَلْ [لَهُمْ]^(١٠) كذلك، دلَّ على أَنَّ قَوْلَهُمْ ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] هو الأمرُ والرِّضَا، أو ذَكَرُوا على الإِسْتِهْزَاءِ حينَ قال تعالى ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْنَاكُمْ أَجْمِينَ﴾.

وَالْمُغْتَزَلَةُ يَقُولُونَ: المَشِيشَةُ ههنا مَشِيشَةُ قَسْرِ وقَهْرِ، وقد ذَكَرْنَا أَلَّا يَكُونَ في حالِ الْقَهْرِ إيماناً، وإنما يَكُونُ في حالِ

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: ما. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) من م، في الأصل: هنا. (٤) الضمير يعود على الحسن. (٥) أدرج قبلها في الأصل وم: وغيره. (٦) من م، في الأصل: أحد. (٧) الضمير يعود على الحسن أيضاً. (٨) من م، في الأصل: فلو. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

الإختيار، والمشيئة مشيئة الإختيار، ولا تختل مشيئة الخلق؛ لأن كل أحد بشهادة الخلق [يؤمن]^(١). فدل أن التأويل ما ذكرنا.

الآية ١٥٠

وقوله تعالى: ﴿هَلَمْ شَهِدَ كُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾ الذي تحرمون أنتم من الوصيلة والسائبة والحامي، وما حرّموا من الحرب والأنعام ﴿فَإِنْ شَهِدُوا﴾ أن الله حرّمه ﴿فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ﴾. كيف قال: ﴿هَلَمْ شَهِدَ كُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾؟ دعاهم إلى أن يأتوا بالحجة؛ فإذا أقاموها^(٢) لا تشهد معهم.

ولكن هذا، والله أعلم، أنهم يعلمون أن التحريم إلى الله ليس إلى أحد من الخلق ﴿فَإِنْ شَهِدُوا﴾ بأنه حرّم ﴿فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ﴾ فإنهم شهدوا بباطل. ويختل أن يكون أمره أن يسألهم شهداء من أهل الكتاب يشهدون لهم بأن الله حرّم هذا؛ لأن هؤلاء كانوا أهل شرك، وعبداء الأوثان يسألون أهل الكتاب، وأهل الرسل^(٣)، يشهدون لهم بذلك. ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ﴾ أي [فلا يشهدوا]^(٤) لهم بذلك، فلا تشهد أنت أيضاً معهم على الإخبار أنهم لا يشهدون.

وهو كقوله تعالى: ﴿لَنْ أُنْفِذَ لَكُمْ شَيْئًا وَلَا يَخْرُجُ مَعَكُمْ وَلَئِنْ أُنْفِذُوا لَا يُخْرِجُوا مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُتِلُوا لَا يَصْرُوهُمْ﴾ الآية [الحشر: ١٢] أخبر عن المنافقين أنهم قالوا: ﴿لَنْ أُنْفِذَ لَكُمْ شَيْئًا وَلَا يَخْرُجُ مَعَكُمْ وَلَا نَطِيعُ يَكْفُرُ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ لَكُمُوكُمْ﴾ [الحشر: ١١] ثم أخبر عنهم أنهم ﴿لَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُؤْلِكَنَّ أَزْوَاجَهُمْ﴾ الآية [الحشر: ١٢] لكنه أخبر أنهم / ١٦٥ - / لا يقابلون رأساً، وإلا ﴿لَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُؤْلِكَنَّ أَزْوَاجَهُمْ﴾ [الحشر: ١٢] فعلى ذلك قوله تعالى: ﴿هَلَمْ شَهِدَ كُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾ فإن شهدوا فلا تشهد معهم لأنهم لا يشهدون، والله أعلم.

وشبهه أن يسألوا حتى يأتوا بأبائهم حتى يشهدوا؛ لأنهم كانوا يقولون: ﴿وَبَدْنَا عَلَى آبَاءِنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] وإن الله رضي بصنيع آبائنا [حين لم يهلكهم]^(٥)، وتركهم على ذلك، فيسألون أن يأتوا بأولئك حتى يكونوا هم الذين يشهدون على ذلك، فلن يجدوا إلى ذلك سبيلاً أبداً. وهو كقوله تعالى: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣] فلا يجدون [سبيلاً إلى ذلك]^(٦) أبداً.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ دل أنما كانوا يحرمون إنما يحرمون بهواهم لا بحجة وبرهان. ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ يَرِيهَ يَدُلُّونَ﴾ أي يغدلون الأصنام في العبادة والألوهية بربهم.

الآية ١٥١

وقوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ﴾ يقول^(٧) ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ﴾ اقرأ ﴿مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ﴾ وأبين لكم ما حرّم بحجة وبرهان، وأن ما حرّمتم أنتم حرّمتم بهوى أنفسكم، لا حرّمتم بأمر أو حجة وبرهان.

ثم بين الذي حرّم عليهم، فقال: ﴿أَلَا تُشْرِكُونَ﴾ الشرك حرام بالعقل، وتلزم كل عقل التوحيد ومعرفة الرب لما كان منه من تركيب الصور وتقويمها بأحسن صور، يزون، فيعرفون^(٨) أنه لم يصورها أحد سواه، ولا قوامها، ولا يشركه آخر في ذلك، وما كان منه إليكم من أنواع الإحسان والأيادي، فكيف تشركون غيره في ألوهيته وربوبيته؟ فذلك حرام بالعقل والسمع.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَا تُشْرِكُونَ﴾ يخرج على وجهين:

أحدهما: على الوقف والقطع على قوله ﴿رَبِّي عَلَيْكُمْ﴾ والإبتداء من قوله: ﴿أَلَا تُشْرِكُونَ﴾ شأنه كأنه قال ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ﴾ فقالوا: أيش الذي حرّم علينا؟ فقال: ﴿أَلَا تُشْرِكُونَ﴾ شأنه.

والوجه الآخر على الوصل^(٩) بالأول، ولكن على طرح: لا، فيكون كأنه قال: أتل ما حرّم ربكم عليكم أن تشركوا به شيئاً، وحرف لا: قد [يطرح، ويؤاد]^(١٠) في الكلام.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: قاموها. (٣) في الأصل وم: رسل. (٤) في الأصل وم: لا يشهدون. (٥) في الأصل: حيث لم يهلكهم، في م: حيث لم يهلكهم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: يقولون. (٨) الغاء ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: الأصل. (١٠) في الأصل وم: تطرح وتؤاد.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِحْسَنَّا﴾ أي برأ بهما. فإن قيل: قال تعالى: ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ﴾ وهما يأمر بالإحسان إليهما^(١)، [ولم يذكر المحرم، قيل: في الأمر بالإحسان إليهما]^(٢) تخريم ترك الإحسان. فكأنه قال: حرم ترك الإحسان إلى الوالدين، وفرض عليكم برهما والإحسان إليهما.

ثم فيه أنكم تعرفون بالعقل أن الإحسان إلى الوالدين واجب والإساءة إليهما حرام عليكم. ولم يكن منهم إليكم من الإحسان أكثر مما كان من الله إليكم، فكيف تختارون الإساءة إلى الله والإشراك في عبادة غيره، ولا تختارون الإساءة إلى الوالدين، بل تختارون الإحسان إليهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ إنهم كانوا يقتلون أولادهم خشية الفقر والفاقة، فهو مما حرم عليهم. وهذا يدل على أن الحظر في حال لا يوجب الإباحة في حال أخرى؛ لأنه قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ [الإساءة: ٣١] ليس فيه إباحة القتل إذا لم يكن هنالك خشية الإملاق. ولكن ذكر هذا لأنهم إنما كانوا يقتلون في تلك الحال. ففي ذلك خرج النهي.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ نَزَعْتُمْ مِنْهُ أَرْزُقًا﴾ أي على ما نخرج لكم من الرزق والقمار فزادكم من ذلك. فعلى ذلك نرزق أولادكم مما نخرج من الأرض من الرزق والثمار، فلا تقتلوه. فإذا لم تقتلوا أنفسكم خشية الفقر والفاقة كيف تقتلون أولادكم لذلك؟ فالذي يرزقكم هو الذي يرزق أولادكم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ﴾ يختل قول: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا﴾ أي لا تواقعوها. ويختل لا تدنوا منها، ولكن اجعلوا بينكم وبين الفواحش والمحرمات حجاباً من الحلال. وهكذا الحق على المسلم ألا يدنو من الحرام، ويجعل بينه وبين ذلك حجاباً ومبرأ من الحلال.

ثم اختلف في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ﴾ ما ظهر منها وما بطن. قيل: الفواحش الزنى «ما ظهر منها» المخالطة باللسان والمجالسة معهن «وما بطن» فعل الزنى نفسه؛ كانوا يجتمعون، ويجالسونهن، ولكن لا يجامعنهن بين أيدي الناس. ثم إذا خلوا بهن زنوا بهن.

وقيل: كانوا يزنون بالحرائر سراً وبالإماء^(٣) ظاهراً، فحرم ذلك عليهم.

وقيل: «ما ظهر منها» نكاح الأمهات «وما بطن» هو الزنى، وكان نكاح الأمهات، وهو قول ابن عباس وسعيد بن جبيرة^(٤).

وقيل: الفواحش المحرمات جملتها؛ فما ظهر منها في ما بينهم وبين الخلق «وما بطن» في ما بينهم وبين الله تعالى.

وقيل: «ما ظهر منها» ما يكون بالجوارح «وما بطن» ما يكون بالقلب.

وعن مجاهد [أنه]^(٥) قال: «ما ظهر منها» الجمع بين الأخين وتزوج الرجل امرأة أبيه «وما بطن» منها: الزنى وما حرم أيضاً.

ويختل قوله تعالى: «ما ظهر منها» ما يرى غيره، ويصير «وما بطن» ما يكون بالعين والقلب على ما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «العينان تزنيان واليدان تزنيان» «وما بطن» يكون زناء العين والقلب [مسلم ٢١٥٧/٢١]. لأنه لا يعلمه^(٥) غير الناظر، والله أعلم؛ يصير كأنه ذكر التحريم في كل حرف من ذلك؛ أي حرم عليكم [الشركة، وحرم عليكم]^(٦) ترك الإحسان إلى الوالدين، وحرم قتل الأنفس إلا بالحق؛ فيصير كأنه ذكر التحريم في كل من ذلك.

(١) في م: إليهم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) من م، في الأصل: أو بالإماء. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: يعلم. (٦) ساقطة من الأصل.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إذا ارتدَّ يُقتلُ به، وفي القصاص، وفي الزنى إذا كان مُخصناً.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْكُمْ بِهِ﴾ ذلك، يعني المحرمات التي ذكر ﴿وَمَنْكُمْ بِهِ﴾ اختلف فيه؛ قيل: ﴿وَمَنْكُمْ بِهِ﴾ فرض عليكم، وقيل: ﴿وَمَنْكُمْ بِهِ﴾ أمركم به، وقيل: ﴿وَمَنْكُمْ بِهِ﴾ بين لكم المحرم. وكلُّه راجع إلى واحد.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِنَّكُمْ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِنَّكُمْ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَ وَمَنْكُمْ بِهِ﴾ لَمَّا تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا (١) ولم يُحرِّم ما (٢) حرَّمتم أنتم من الأنعام وغيرها. يقول (٣): ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِنَّكُمْ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَ وَمَنْكُمْ بِهِ﴾ لَمَّا تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا (٤) أو يقول: إن ﴿ذَلِكَ وَمَنْكُمْ بِهِ﴾ لتعقلوا؛ لأنَّ حرف: لعلَّ من الله على الوجوب. أو ﴿تَقُولُونَ﴾ عن الله بما خاطبكم به، وأمركم (٥).

الآية ١٥٢

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ قال أبو بكر الكيساني: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ أي لا تأكلوا ﴿مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وقال: ثم اختلف في الوجه الذي يحسن؛ قال بغضهم: هو أن يعمل له، فيأكل من ماله أجراً ليعمله. وقال آخرون: يأكله قرصاً. وذلك مما اختلفوا فيه. وقال غيرهم: هو أن يتفجع بدوابه، ويستخدم جواريه، ونحو ذلك. وقال [غيرهم] (٥): وذلك مما لا يحتمل تأويل الآية.

وعندنا أن الآية بإختمال هذا أولى لما تقع لهم الضرورة في استخدام ممتلكاته وركوب دوابه والإنتفاع بذلك لما تقع لهم المخالطة بأموال اليتامى كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَخَاطَبُوهُمْ فَاخْرُجْهُمْ وَأَلَّهِ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ فإذا كان لهم المخالطة لا يسلمون من (٦) الإنتفاع بما ذكرنا.

وقال الحسن: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي إلا بالوجه الذي جعل له. والوجه الذي جعل له هو أن يكون فقيراً، وهو ممن تُفرض نفقته في ماله، فله أن يقرب ماله. وعندهم أن نفقة المحارم تُفرض [في] (٧) مال اليتيم إذا كانوا فقراء. فبان أن جعل له التأول في ماله، وإن كان لا تُفرض نفقته في ماله.

ثم الآية تحتل وجهين عندنا:

أحدهما: ألا تقربوا مال اليتيم إلا بالحفظ والتعاهد له؛ أمر كافل اليتيم أن يحفظ ماله ويتعهده،

والثاني: [أن] (٨) يقرب ماله بطلب الزيادة له والنماء.

ولذلك قال أبو حنيفة (٩): إنه (٩) يجوز لكافل اليتيم إذا كان وصياً أن يقرب ماله تبعاً إذا كان ذلك خيراً لليتيم، إن وقع له الفضل، وطلب له الزيادة والنماء ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾.

وقال أبو بكر: قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ أي حتى يبلغ الوقت الذي يتولى أموره كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَتَيْتُمْ بِتَرْغُوبَةٍ﴾ الآية [النساء: ٦].

وقال غيره من أهل التأويل: الأشد ثمان عشرة سنة. ويشبه أن يكون الأشد هو/ ١٦٥ - ب/ الإدراك حتى يدرجوا.

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْيَمَانَ﴾ يشبه أن يكون قوله: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْيَمَانَ﴾ في اليتامى أيضاً؛

(١) في الأصل وم: ها. (٢) من م، في الأصل: وما. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: خاطبهم به وأمرهم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: عن. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: بأنه.

أَمَرَ أَنْ يُؤْفُوا^(١) لَهُمُ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ، وَنَهَاَهُمْ أَنْ يُؤْفُوا^(٢) لَهُمْ عَلَى مَا نَهَاَهُمْ عَنْ قُرْبَانِ مَا لِيَهُمْ ﴿إِلَّا بِأَلْفٍ مِنْ أَحْسَنَ﴾ وكذلك قوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ في ذلك القول ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ مِنْكُمْ.

وقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدِ اللَّهَ أَزْوَاجًا﴾ أي يعهد الله الذي عهده إليكم في البتامة أوفوا بقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِأَلْفٍ مِنْ أَحْسَنَ﴾ وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِسْرَافًا وَبِدَارًا﴾ [النساء: ٦] وغير ذلك أوفوا بما عهده إليكم منهم.

ويَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ في البتامة وفي غيرهم، في كل الناس؛ وهو لِيُوجِبَهُنَّ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ فِي تَرْكِ الْإِفَاءِ احْتِسَابُ الضَّرَرِ عَلَى النَّاسِ وَمَنْعُ حُقُوقِهِمْ، فَأَمَرَ بِإِفَاءِ ذَلِكَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا الْكُسَى أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥].

والثاني: لِزُبَا لَأَنَّهُ يُلْزِمُ^(٣) مِثْلَهُ كَيْلًا فِي الدَّمَةِ، فَإِذَا لَمْ يُؤْفَ^(٤) حَقُّهُ، وَأَعْطَاهُ دُونَهُ، صَارَ ذَلِكَ الْفَضْلُ لَهُ رِبَاً.

وقوله تعالى: ﴿لَا تُكَلِّفْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ يَحْتَمِلُ هَذَا وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا^(٥): لَا تُكَلِّفْ أَحَدًا مَا [فِي] تَكْلِيفِنَا إِيَّاهُ تَلَفُهُ [وَأَنْ كَانَ يَجُوزُ لَهُ تَكْلِيفُ مَا فِي التَّكْلِيفِ تَلَفُهُ] كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ الآية [النساء: ٦٦] وعلى ما أَمَرَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِقَتْلِ أَنْفُسِهِمْ.

والثاني: لَا تُكَلِّفْ أَحَدًا مَا [فِي] تَكْلِيفِنَا إِيَّاهُ مَنَعُهُ نَحْوُ مَنْ يُؤْمَرُ بِشَيْءٍ، لَمْ يُجْعَلْ لَهُ الْوَصُولُ إِلَى ذَلِكَ أَبَدًا. وَيَجُوزُ أَنْ يُؤْمَرَ بِأَمْرٍ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ سَبَبُ ذَلِكَ الْأَمْرِ بَعْدَ أَنْ يُجْعَلَ لَهُ^(٦) الْوَصُولُ إِلَى ذَلِكَ السَّبَبِ، نَحْوُ مَنْ يُؤْمَرُ بِالصَّلَاةِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ سَبَبُ ذَلِكَ، وَهُوَ الطَّهَارَةُ، وَنَحْوُ مَنْ يُؤْمَرُ بِالْحَجِّ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ﴾ [آل عمران: ٩٧]. هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَنْ جُعِلَ فِي وَسْعِهِ الْوَصُولُ إِلَى شَيْءٍ يَجُوزُ أَنْ يُكَلِّفَ ذَلِكَ^(٧)، وَيَصِيرُ بِأَشْيَاغِهِ بِغَيْرِهِ مُضْطَبًّا أَمْرَهُ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الثَّأْوِيلِ: هَذَا فِي الشَّهَادَةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّيْنٍ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ الآية [النساء: ١٣٥]. وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ كُلُّ قَوْلٍ. وَالْقَوْلُ أَحَقُّ أَنْ تُحْفَظَ فِيهِ الْعَدَالَةُ مِنَ الْفِعْلِ، لِأَنَّهُ بَهَا^(٨) تَظْهَرُ الْحِكْمَةُ مِنَ الشَّعْرِ وَالْحَقُّ مِنَ الْبَاطِلِ، فَهُوَ أَوْلَى.

وقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدِ اللَّهَ أَزْوَاجًا﴾ أي يعهد الله الذي عهده إليكم في التَّخْلِيلِ والتَّخْرِيمِ والأمر والنهي وغير ذلك. ﴿ذَلِكَكُمْ وَمَنْكُمْ بِهِ﴾ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ذَكَرَ ههنا ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ وفي الآية الأولى ﴿تَقُولُونَ﴾ وفي الآية التالية^(٩) ﴿تَتَّقُونَ﴾ إِذَا عَقَلُوا تَتَّقُوا، وَاتَّقُوا، وَعَرَفُوا مَا يَصْلُحُ، وَمَا لَا يَصْلُحُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ أي تَتَّقُونَ بِمَا وَعَظَكُمْ بِهِ، وَزَجَرَكُمْ عَنْهُ، أَوْ: ﴿تَتَّقُونَ﴾ مَهَالِكَكُمْ، وَتَتَّقُونَ مُحَارِمَكُمْ.

الآية ١٥٣

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهًا: يَحْتَمِلُ: ﴿وَأَنْ هَذَا﴾ الَّذِي ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ مِنْ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَتَحْلِيلِهِ وَتَحْرِيمِهِ ﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ﴾ عَلَى مَا قَالَهُ أَهْلُ الثَّأْوِيلِ: إِنَّهَا آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ لَمْ يَنْسَخْهُنَّ شَيْءٌ فِي جَمِيعِ الْكُتُبِ، وَهُنَّ مُحْكَمَاتٌ^(١٠) عَلَى بَنِي آدَمَ كُلِّهِمْ.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ الَّذِي دَعَا إِلَيْهِ الرُّسُلُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ هُوَ ﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ لِأَنَّ الرُّسُلَ يَدْعُونَ إِلَى مَا يَدْعُونَ بِالْحَقِّجِ وَالْبَرَاهِينِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: يَعْرِفُوا. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: يَعْرِفُوا. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: لَزِمَ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: يَعْرِفُ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: يَحْتَمِلُ. (٦) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٧) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٨) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: لَهْم. (١٠) أَدْرَجَ قَبْلَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: عَلَى. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: بِهِ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: الْآخِرَةُ. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: مُحَرَّمَاتٌ.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أَصْلَ الدِّينِ وَوَحْدَانِيَّةَ اللَّهِ وَإِخْلَاصَ الْأَنْفُسِ لَهُ عَلَى غَيْرِ إِشْرَافٍ فِي عِبَادَتِهِ وَالْوَهَيْتِ، أَوْ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿وَأَنَّ هَذَا﴾ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ هُوَ ^(١) الَّذِي ذُكِرَ فِي الْقُرْآنِ أَوَّلًا ^(٢) ذُكِرَ هَذَا، وَلَمْ يُشِرْ إِلَى شَيْءٍ بَعِيْنِهِ. فَيَحْتَمِلُ مَا ذَكَرْنَا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أَمَرَ ﷺ بِاتِّبَاعِ مَا ذَكَرَ مِنَ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَنَهَى عَنِ اتِّبَاعِ السُّبُلِ؛ لِأَنَّ غَيْرَهُ مِنَ الْأَدْيَانِ الْمُخْتَلِفَةِ وَالْأَهْوَاءِ الْمُتَشَتِّتَةِ لَا حُجَّةَ لَهَا ^(٣)، وَلَا بُرْهَانَ، وَمَا ذَكَرَ مِنَ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ هُوَ دِينٌ بِحُجَّةٍ وَبُرْهَانٍ لَا كَثِيرِهِ ^(٤) مِنَ الْأَدْيَانِ، وَإِنْ كَانَ يَدَّعِي كُلُّ مَنِ [أَصْحَابَ تِلْكَ الْأَدْيَانِ] ^(٥) أَنَّ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ دِينُ اللَّهِ وَسَبِيلُهُ ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ هَادٍ﴾ لَمَّا كُنْتُمْ تَتَّقُونَ الْمُحَرَّمَاتِ وَالْمَنَاهِيَ وَالْمَعَاصِيَ الَّتِي ذَكَرَ فِي هَذِهِ، وَلَمَّا كُنْتُمْ تَتَّقُونَ السُّبُلَ وَالْأَدْيَانِ الْمُخْتَلِفَةَ.

واضله أَنْ السَّبِيلَ الْمُطْلَقَ سَبِيلُ اللَّهِ، وَالدِّينَ الْمُطْلَقَ دِينُ اللَّهِ وَالْكِتَابَ الْمُطْلَقَ كِتَابُ اللَّهِ.

الآية ١٥٤ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ: قَالَ الْحَسَنُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ أَيِ أَحْسَنَ صُحْبَتِهِ، تَمَّتْ نِعْمَةُ اللَّهِ وَكَرَامَتُهُ عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ. وَقِيلَ ^(١): ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ يَعْنِي عَلَى الْمُحْسِنِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ. وَعَلَى [الَّذِي أَحْسَنَ بِمَعْنَى لِلَّذِي] ^(٢) آمَنَ. وَيَجُوزُ عَلَى فِي مَوْضِعِ اللَّامِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا دُيْعَ عَلَى النَّصِيبِ﴾ [المائدة: ٣] أَيِ لِلنَّصِيبِ. وَقَتَادَةُ قَالَ: فَمَنْ أَحْسَنَ فِي مَا آتَاهُ اللَّهُ تَمَّتْ عَلَيْهِ كَرَامَةُ اللَّهِ فِي جَنَّتِهِ وَرِضْوَانِهِ، وَمَنْ لَمْ يُحْسِنْ فِي مَا آتَاهُ اللَّهُ [وَلَا عُذْرَ لَهُ] ^(٣) نَزَعَ اللَّهُ مَا فِي يَدِهِ، ثُمَّ أَهْلَاهُ ^(٤).

وقال أبو بكر الكيساني في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ أَيِ ثُمَّ آتَيْنَاكُمْ مِنَ الْحُجَجِ وَالْبَيَانِ تَمَامًا مِنْ مُوسَى وَكِتَابِهِ؛ أَيِ مُوسَى وَكِتَابُهُ مُصَدِّقٌ وَمُؤَافِقٌ لِمَا أَعْطَاكُمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَتَتَفَعٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كُتِبَ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [الآية: هود: ١٧].

وَيَحْتَمِلُ [﴿تَمَامًا﴾ تَمَامَ مَا ذَكَرْنَا] ^(١) بِالنِّعْمَةِ وَالْكَرَامَةِ، وَيَحْتَمِلُ [﴿تَمَامًا﴾ بِالْحُجَّةِ وَالْبَيَانِ وَ﴿تَمَامًا﴾ بِالْحِكْمَةِ وَالْعِلْمِ.

وقوله تعالى: ﴿عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ أَيِ لِلَّذِي أَحْسَنَ. وَفِي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ [﴿تَمَامًا عَلَى﴾] الَّذِينَ أَحْسَنُوا ﴿وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ أَيِ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴿وَهَدًى﴾ مِنَ الضَّلَالَاتِ وَالشُّبُهَاتِ وَنِعْمَةً وَرَحْمَةً مِنَ الْعَذَابِ وَالْعِقَابِ ﴿لَمَّا بَلَغُوا رِبْعَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ أَيِ وَلْيَكُونُوا ﴿يَلْقَآ رَبَّهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ عَلَى التَّحْقِيقِ.

وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ [أَنَّهُ] ^(١) قَالَ: ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا﴾ يَقُولُ: أَمَّ لَهُ الْكِتَابَ عَلَى أَحْسَنِهِ عَلَى الَّذِي بَلَغَ مِنْ رِسَالَتِهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ [أَيِ] ^(٢) بَيَانِ كُلِّ شَيْءٍ ﴿وَهَدًى﴾ أَيِ تَبْيَانًا مِنَ الضَّلَالَةِ وَرَحْمَةً ﴿لَمَّا بَلَغُوا رِبْعَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ أَيِ بِالْبَتِّ بَعْدَ الْمَوْتِ يُؤْمِنُونَ أَيِ لِيَكُونُوا بِالْبَتِّ [يُؤْمِنُونَ] ^(٣).

ومنه مَنْ يَقُولُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ إِنَّهُ، وَإِنْ أَتَى بِحَرْفِ التَّرْتِيبِ فَإِنَّهُ عَلَى الْإِخْبَارِ، كَأَنَّهُ قَالَ: ثُمَّ قَدْ كُنَّا ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا﴾ مَعْنَاهُ: وَقَدْ آتَيْنَاهُ.

الآية ١٥٥ وقوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ ﴿أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكًا﴾ قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْكَيْسَانِيُّ: الْبَرَكَةُ هِيَ الَّتِي مَنْ تَمَسَّكَ بِهَا أَوْصَلَتْهُ إِلَى كُلِّ خَيْرٍ، وَعَصَمَتْهُ مِنْ كُلِّ شَرٍّ. وَهُوَ الْمُبَارَكُ لِمَنْ أَخَذَهُ، وَاتَّبَعَهُ، وَغَمِلَ بِهِ، فَهُوَ مُبَارَكٌ لَهُ. سُمِّيَ هَذَا الْقُرْآنُ مُبَارَكًا لِمَا يُبَارَكُ فِيهِ لِمَنْ اتَّبَعَهُ؛ هُوَ مُبَارَكٌ لِتَتَّبِعِهِ وَالْعَامِلِ بِهِ، وَمَنْ ^(١) لَمْ يَتَّبِعْهُ فَلَيْسَ هُوَ بِمُبَارَكٍ لَهُ، بَلْ هُوَ عَلَيْهِ

(١) فِي الْأَصْلِ: وَ، فِي م: أَوْ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَلَا. (٣) فِي م: عَلَيْهَا. (٤) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: كَثِيرٍ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: تِلْكَ.

(٦) الْوَاوُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: بِمَعْنَى الَّذِي أَحْسَنَ وَلِلَّذِي. (٨) أَدْرَجْتَ فِي الْأَصْلِ وَم بَعْدَ: أَبْلَى اللَّهُ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: أَبْلَى اللَّهُ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: تَمَامَ مَا ذَكَرْنَا تَمَامًا. (١١) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

(١٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَلَا مِنْ.

شِدَّةً وَرَجَسَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيْنَكُم زَادَتْهُ هَذِهِ آيَاتُ الْكِتَابِ إِنَّمَا أُفٍّ مِّنَّا وَإِنَّمَا الْإِنشَاءُ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُفْسِدُونَ﴾ ﴿وَأَمَّا الْكِتَابُ فَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرْمَرٌ فَرَادَتْهُمُ رَجَسًا إِنْ رَجَسِيهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٤ و ١٢٥] فهو ما ذَكَّرْنَا مُبَارَكُ لِمَنِ اتَّبَعَهُ، وَتَمَسَّكَ بِهِ.

وَسُمِّيَ مُجِيدًا وَكَرِيمًا لِمَنِ اتَّبَعَهُ يَصِيرُ مُجِيدًا كَرِيمًا، وَكَذَلِكَ سُمِّيَ رُوحًا وَحَيَاةً لِمَا يَخْصِي بِهِ مِنَ اتِّبَاعِهِ. وَأَصْلُ الْبَرَكَهَةِ هُوَ أَنْ يُنْتَفَعَ بِشَيْءٍ عَلَى غَيْرِ تَبَعَةٍ، فَهُوَ الْبَرَكَهَةُ. وَعَلَى ذَلِكَ يَخْرُجُ قَوْلُ النَّاسِ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي كَذَا؛ أَيْ جَعَلَ لَكَ فِيهِ مَنَافِعَ، لَا تَبَعَةَ عَلَيْكَ. فَعَلَى هَذَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْقُرْآنُ مُبَارَكًا بِكُسْرِ الرَّاءِ. لَكِنْ قِيلَ: مُبَارَكٌ لِإِنْتِفَاعِ النَّاسِ بِهِ.

وَالْبَرَكَهَةُ تَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: اسْمٌ لِكُلِّ خَيْرٍ يَكُونُ أَبَدًا عَلَى النَّاسِ وَالزِّيَادَةِ.

وَالثَّانِي: اسْمٌ لِكُلِّ مَنَفَعَةٍ لَا تَبَعَةَ عَلَيْهِ، وَلَا مُؤَنَةً، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أَيْ اتَّبِعُوا إِشَارَاتِهِ، وَاتَّقُوا نَوَاهِيَهُ وَمَحَارِمَهُ، تُرْحَمُوا^(١).

الآية ١٥٦ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ / ١٦٦ - / ﴿أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ﴾ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، وَمَتَى أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فَإِنَّمَا^(٢) أُنزِلَ^(٣) عَلَى الْمُسْلِمِينَ. لَكِنَّ الْمَعْنَى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ؛ أَيْ إِنَّمَا ظَهَرَ نَزُولُ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ عِنْدَ الْخَلْقِ بِطَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا، سُمُّوا يَهُودًا وَنَصَارَى، [يَهُودَ التَّوْرَةِ وَنَصَارَى الْإِنْجِيلِ]^(٤)، وَإِلَّا لَمْ يَكُنْ وَقْتُ نَزُولِ التَّوْرَةِ يَهُودَ وَنَزُولِ الْإِنْجِيلِ نَصَارَى. ثُمَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ صِلَةً قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كِتَابٌ أُنزِلْنَاهُ﴾ لِئَلَّا تَقُولُوا: ﴿إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ وَلَمْ يَنْزِلْ عَلَيْنَا.

وَيَجُوزُ أَنْ يَمْنَى لَنْ؛ أَيْ: لَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ [آل عمران: ٧٣] أَيْ لَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَفِيلِينَ﴾ أَيْ قَدْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ. وَيَجِبُ أَنْ نَكُونَ عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لِأَنَّا دِرَاسَةُ الْكِتَابِ. لَكِنْ أَضِيفَ إِلَيْهِمْ أَيْ أَوْلَئِكَ الْقَوْمِ.

الآية ١٥٧ [وَقَوْلُهُ تَعَالَى]^(٥): ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ﴾ هُوَ مَا ذَكَّرْنَا: لِئَلَّا تَقُولُوا ﴿لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أُنزِلَ اللَّهُ ﷻ هَذَا الْقُرْآنَ قَطْعًا لِحِجَااجِهِمْ وَمَنْعًا لِّعُذْرِهِمْ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ الْحِجَااجُ وَالْعُذْرُ. وَعَلَى ذَلِكَ يَخْرُجُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] لَا يَكُونُ لَهُمْ حُجَّةٌ عَلَى اللَّهِ، وَإِنْ لَمْ يَنْزِلِ الرُّسُلُ وَالْكِتَابُ.

ثُمَّ يَحْتَمِلُ عُذْرُ هَؤُلَاءِ [وَاحْتِجَااجُهُمْ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا]^(٦): إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ بِلِسَانِهِمْ، لَمْ يَنْزِلْ بِلِسَانِنَا، وَنَحْنُ لَا نَعْرِفُ لِسَانَهُمْ، وَكُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَفِيلِينَ. وَلَوْ كَانَ لَهُمُ الْعُذْرُ وَالْإِحْتِجَااجُ^(٧) بِهَذَا لَكَانَ لِلْعَجْمِ الْإِحْتِجَااجُ وَالْعُذْرُ فِي تَرْكِ اتِّبَاعِ الْقُرْآنِ لِمَا لَمْ يَنْزِلْ بِلِسَانِ الْعَجْمِ، وَلَمْ يَقْرِئُوا هُمْ بِلِسَانِهِمْ؛ أَعْنِي لِسَانَ الْعَرَبِ. ثُمَّ لَمْ يَكُنْ لِلْعَجْمِ الْإِحْتِجَااجُ بِذَلِكَ لِمَا جَعَلَ لَهُمْ سَبِيلَ الْوُصُولِ إِلَى مَعْرِفَتِهِ. فَعَلَى ذَلِكَ لَا عُذْرَ لِلْعَرَبِ فِي تَرْكِ اتِّبَاعِ مَا فِي الْكِتَابِ الَّتِي أُنزِلَتْ بِغَيْرِ لِسَانِهِمْ لِمَا فِي وَسْعِهِمُ الْوُصُولُ إِلَى مَعْرِفَتِهَا وَالتَّعَلُّمُ مِنْهُمْ وَالْأَخْذُ عَنْهُمْ. وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ يَجُوزَ التَّكْلِيفُ بِأَشْيَاءَ لَيْسَتْ مَعَهُمْ أَسْبَابُهَا بَعْدَ أَنْ جَعَلَ لَهُمْ سَبِيلَ الْوُصُولِ إِلَى تِلْكَ الْأَسْبَابِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: رَحِمَ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: إِنَّمَا. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ. (٤) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٥) وَ (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) الْوَاوُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

والثاني: في احتجاجهم أن يقولوا: إن اليهود والنصارى قد اختلفت، وتفرقت فرقا، لا اجتماع بينها^(١) أبداً. فكيف نتبعهم في ذلك؟ فقال: إن مذاهبهم وكُتُبهم إنما تفرقت بهم ويقولهم: فقد أنزل من الحجج والبيان ما يُعرف ذلك الذي تفرق بهم، فلا حجة لهم في ذلك. وهذا كقولهِ تعالى: ﴿وَأَقْسُوا بِاللَّهِ جَهْدَ آيَتِهِمْ لِنِ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ بِالْأَيْمَانِ﴾ [الأنعام: ١٠٩] وقد جاءتهم آيات، فلم يؤمنوا. فعلى ذلك قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

وفي الآية دلالة على أن المجوس ليسوا من أهل الكتاب لأنهم لو كانوا أهل الكتاب صار أهل الكتاب ثلاث طوائف؛ وقد أخبر أنه ﴿إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ﴾ وذلك مُحَالٌ. فإن قيل: إنما هذا حكاية عن المشركين؛ ومغنا، والله أعلم، إني أنزلت عليكم الكتاب لئلا تقولوا: ﴿إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ فلم تقولوا ذلك. ولكن الله قطع بإنزاله الكتاب حجتهم التي علم أنهم كانوا يختجون بها، لو لم ينزله، وإن لم يكن لهم في ذلك حجة ولا عذر، وهو ما ذكرنا، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ قيل: القرآن، وقيل: محمد ﷺ ﴿وَهْدًى﴾ هدى من الضلالة وكل شبهة ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي ذلك منه رحمة ونعمة ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي لا أحد ﴿أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ قيل: ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ حجج الله، وقيل: دين الله. وقد ذكرناها في غير موضع. وقد ذكرنا أن قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ حرف استفهام في الظاهر، ولكن ذلك من الله على الإيجاب؛ كأنه قال: لا أحد أوحش ظلماً ﴿مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَقَ عَنْهَا﴾.

الآية ١٥٨ وقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا﴾ كذا^(٢) قال أهل التأويل: ما ينظرون، [وحرف هل: هو حرف استفهام وتعجب، لكن أهل التأويل قالوا: ما ينظرون]^(٣) حملوا على الجواب؛ لأنه لم يخرج له جواب. فجوابه ما قالوا: ﴿مَا يَنْظُرُونَ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي لا أحد أظلم ممن كذب، هو جواب؛ لأن جوابه لم يخرج. فجوابه ما قالوا: لا أحد أظلم؛ لأنه سؤال واستفهام، فجوابه ما ذكرنا. فعلى ذلك قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ هو استفهام، ولم يخرج له الجواب، فجوابه: لا ينظرون كقولهِ تعالى: ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ [يس: ٤٩].

ثم قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ هذا، والله أعلم، يشبه أن تكون الآية في المعاندين منهم والمتمردين الذين همتهم العناد والتعنُّت؛ خرج على إياس رسول الله ﷺ خريصاً على إيمانهم مشفقاً على أنفسهم حتى كادت نفسُهُ تذهب حسرات عليهم جزواً على إيمانهم وإشفاقاً على أنفسهم كقولهِ تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ [فاطر: ٨] وكقولهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا كَذَبْتَ نَسُوا نَفْسَهُمُ﴾ الآية [الكهف: ٦، والشعراء: ٢] ونحوهما^(٤).

فأبى الله تعالى من إيمان أولئك الكفرة لئلا يطمع في إيمانهم وإسلامهم بعد ذلك، ولا تذهب نفسُهُ حسرات عليهم، وليتخذهم^(٥) أعداء، ويُبغضهم، ويخرج الشفقة التي في قلبه لهم، وليتأقَّب لعداوتهم، ويتبرأ منهم كما فعل إبراهيم: ﴿فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤] وكما قال لنوح: ﴿أَنْتُمْ لَنْ يُؤْمِنُوا مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَهِسْ يَمَانًا﴾ [هود: ٣٦] أبى الله من إيمان قومه إلا من قد آمن، ونهاه أن يحزن عليهم، وعلى قوت إيمانهم. فعلى ذلك هذا آيس رسول الله ﷺ من إيمانهم، ونهاه أن يحزن عليهم كقولهِ تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ إلا للوقت الذي ذكر أنهم يؤمنون في ذلك الوقت، وهو^(٦) وقت نزول الملائكة وإيمانهم بآياته^(٧)، وهو قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾.

ثم قال بغضهم: ﴿تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ بقبض الأرواح مع اللعن والسخط. فعند ذلك يؤمنون بالله. وقال بغضهم: قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ يوم القيامة، وهو كقولهِ تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٢٢].

(١) في الأصل وم: بينهم. (٢) من م، في الأصل: كذاباً. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: ونحوه. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) أدرج في الأصل قبلها: الذي. (٧) في الأصل وم: بآياتهم.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَنَّكَ﴾ على الأمر؛ كأنه قال: أو يأتي أمر ربك على ما ذكر في سورة النحل: ﴿أَوْ يَأْتِيَنَّكَ رَبُّكَ﴾ [الآية: ٣٣]. ثم الأمر، فيه عذاب الله كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ [هود: ٥٨ و...] يغني عذابنا. فعلى ذلك في هذا أمر الله عذاب الله.

والأصل في ما أضيف إلى الله في موضع الوعيد، لا يراد به الذات، ولكن يراد به نعمته وعذابه وعقوبته كقوله تعالى: ﴿وَيَعِزُّكُمْ اللَّهُ تَعَالَى﴾ [آل عمران: ٢٨ و٣٠]، لا يراد به ذاته^(١)، ولكن يراد بنعمته وعذابه كقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ﴾ [العنكبوت: ٥] لا يراد لقاء ذاته، وكذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ التَّصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨ و...] [وقوله تعالى^(٢)]: ﴿وَاللَّهُ رَجِعُ الْأُمُورِ﴾ [البقرة: ٢١٠ و...] وغيرها من الآيات لا يراد به ذاته، ولكن يراد به عذابه ونعمته. أو نقول: إن كل شيء، يراد به تعظيمه، يضاف إلى الله تعالى، فيراد [بإضافة اليوم إلى الله تعالى]^(٣) تعظيم ذلك اليوم أو تعظيم عذابه ونعمته.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَنَّكَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ تحتل بضع آياته ما قال ﷺ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَاسًا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدَّثُوا﴾ [غافر: ٨٤] وكقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ﴾ الآية [الأحقاف: ٢٤] وكقوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١] ونحوها^(٤) من الآيات؛ يؤمنون عند معاينتهم العذاب، ولا يتفهمون الإيمان.

وتحتل ما قال أهل التأويل: طلوع الشمس من مغربها وخروج الدجال وخروج الدابة. وعلى ذلك روي عن رسول الله ﷺ [أنه^(٥)]: قال: «ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفسا إيمانها لئلا تكون آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا» [مسلم ١٥٨].

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: إن النبي ﷺ قال: «بادروا بالأعمال ستا: طلوع الشمس من مغربها والدجال والدخان ودابة الأرض وخويصة أحدكم وأمر العامة» [مسلم ٢٩٤٧/١٢٩] وخويصة/١٦٦ - ب/ أحدكم: الموت، وأمر العامة: الساعة إذا قامت.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه [أنه^(٦)]: قال: الثوبة مغروضة حتى تطلع الشمس من مغربها. ثم قال: فهما يأت عليكن عام، فالآخر شر. ونحوه من الأخبار. فإن ثبتت فهي المغترضة.

وعن عائشة رضي الله عنها [أنها^(٧)]: قالت: إذا خرج أول الآيات طرحت الأقلام، وحسبت الحفظة^(٨) وشهدت الأجساد على الأعمال.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْتَابًا لَوْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ أخبر أن الإيمان، لا ينفع في ذلك الوقت [لوجوه: أخذها: أنه^(٩)]: ليس بإيمان اختيار في الحقيقة، إنما إيمان دفع العذاب والبأس عن أنفسهم كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَاسًا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدَّثُوا﴾ [غافر: ٨٤] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨] أخبر أنهم لو رُدُّوا إلى الدنيا لعادوا إلى تكذيبهم الرسل وكفرهم بالله. فدل أن إيمانهم في ذلك الوقت إيمان دفع العذاب والبأس وإيمان خوف، وهو كإيمان فرعون حين^(١٠) ﴿أَدْرَكَهُ الْقَرْعُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ. بَنُو إِسْرَءِيلَ وَآلَا مِنْ آلِ الْيَسْرِينَ﴾ [يونس: ٩٠] لم ينفعه إيمانه في ذلك [الوقت]^(١١) لأنه إيمان دفع الهلاك عن نفسه لا إيمان حقيقة بالاختيار.

والثاني: أنه في ذلك الوقت وقت نزول العذاب لا يقدر أن يستدل بالشاهد على الغائب ليكون [قول المرو]^(١٢) قولاً عن معرفة وعلم، وإنما هو قول يقوله بلسانيه لا عن معرفة في قلبه في ذلك الوقت لما ذكرنا، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَقُولُونَ أَلَسَّيْنَا بِحَقٍّ إِذَا فَضَّرَّ أَحَدُهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي بُتْتُ الْقُرْآنَ﴾ [النساء: ١٨] لأنه إيمان دفع البأس والعذاب.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: به. (٤) في الأصل وم: ونحوه. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: الخطبة. (٩) في الأصل وم: لأنه. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: قوله.

[والثالث أنه^(١): يُبَالِغُ بِالْإِجْتِهَادِ حَتَّى يَكُونَ إِيمَانُهُ إِيمَانًا بِإِجْتِهَادٍ؛ لِذَلِكَ كَانَ مَا ذَكَرْنَا.

والرابع^(٢): أَنْ يَكُونَ فِي طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَخُرُوجِ الدَّجَالِ وَدَابَّةِ الْأَرْضِ وَمَا ذُكِرَ مِنَ الْبَلَاءِ وَالشَّدَةِ وَالْعَذَابِ مَا يَضْطَرُّهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ، فَيَكُونُ إِيمَانُهُمْ إِيمَانًا اضْطِرَارًا لَا اخْتِيَارًا.

وَيُسَبِّهُ أَنْ تَكُونَ [الْأَحَادِيثُ]^(٣) الَّتِي رُوِيََتْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ لَا تُقْبَلُ التَّوْبَةُ بَعْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَبَعْدَ خُرُوجِ الدَّجَالِ وَدَابَّةِ الْأَرْضِ؛ أَيْ لَا يُثَابَرُونَ عَلَى طَاعَتِهِمْ، وَإِلَّا فَيَمِنَ الْبَعِيدُ أَنْ يَدْعَوْا إِلَى الْإِيمَانِ وَالطَّاعَاتِ. ثُمَّ إِذَا أَتَوْا بِهَا لَمْ تُقْبَلْ مِنْهُمْ، لَكِنَّهُ يُخْتَمَلُ مَا ذَكَرْنَا أَلَّا يُثَابَرُوا^(٤) عَلَى ذَلِكَ، وَيُعَاقَبُوا^(٥) بِمَا كَانَ مِنْهُمْ مِنَ الْكُفْرِ وَكُفْرَانِ النَّعْمِ؛ لِأَنَّ جِهَةَ الثَّوَابِ إِفْضَالٌ وَإِحْسَانٌ، وَفِي الْحِكْمَةِ شِرْكٌ^(٦) الْإِفْضَالِ بِالثَّوَابِ فِي الطَّاعَاتِ، إِذَا كَانَ مِنَ اللَّهِ ﷻ مِنَ النَّعْمِ مَا يَكُونُ ذَلِكَ شُكْرًا لَهُ، وَالْعِقَابُ عَلَى الْكُفْرِ وَمِمَّا تُوجِبُهُ الْحِكْمَةُ. لِذَلِكَ كَانَ مَا ذَكَرْنَا.

ولهذا يَخْرُجُ قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ ﷺ حِينَ قَالَ: لَا ثَوَابَ لِلْجَنِّ عَلَى طَاعَتِهِمْ لِأَنَّ طَرِيقَ وَجُوبِهِ الْإِفْضَالُ، وَلَمْ يُذَكَّرْ [لَهُمْ]^(٧) ذَلِكَ، وَيُعَاقَبُونَ بِمَا كَانَ مِنْهُمْ مِنَ الْكُفْرَانِ وَالْأَجْرَامِ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْمَعْنَى الَّذِي وَصَفْنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِذَلِكَ.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا﴾ عِنْدَ مُعَايِنَةِ الْعَذَابِ وَالْبَاسِ وَالْآيَاتِ إِذَا ﴿لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ أَيْ لَا يَنْفَعُ ذَا إِلَّا بِذَا؛ إِذَا عَمِلْتَ خَيْرًا، وَلَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ، لَا يَنْفَعُهَا^(٨) ذَلِكَ، [وَلَنْ يَنْفَعَهَا إِيمَانُهَا]^(٩) عِنْدَ مُعَايِنَةِ الْعَذَابِ وَالْآيَاتِ إِذَا لَمْ تَكُنْ كَسَبَتْ قَبْلَ ذَلِكَ خَيْرًا.

وقيل: قوله تعالى: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ أَيْ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا إِذَا لَمْ تَغْرِمْ إِلَّا تَرْتَدَّدَ، وَلَا تَرْجِعْ عَنْهُ أَبَدًا. وقيل: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ أَيْ لَا يَنْفَعُ إِيمَانُهَا ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي﴾ تَصْدِيقِهَا التَّعْظِيمَ لِلَّهِ وَالْإِجْلَالَ. فَعِنْدَ ذَلِكَ يَنْتَفِعُ صَاحِبُهُ، لِأَنَّهُ لَا كُلُّ تَصْدِيقٍ يَكُونُ فِيهِ التَّعْظِيمُ لِلَّهِ وَالْإِجْلَالَ، إِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ التَّعْظِيمُ لَهُ. وقيل: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ أَيْ لَمْ تَكُنْ عَمِلْتَ فِي تَصْدِيقِهَا خَيْرًا قَبْلَ مُعَايِنَةِ الْآيَاتِ.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ هُوَ يَخْرُجُ عَلَى الْوَعِيدِ؛ أَيْ أَنْتَظِرُوا إِحْدَى هَذِهِ الثَّلَاثِ الَّتِي ذَكَرْنَا فَإِنَّا مُنْتَظِرُونَ. وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُرْصِيعِينَ﴾ [الطور: ٣١] أَيْ أَنْتَظِرُوا الْعَذَابَ فَإِنَّا مُنْتَظِرُونَ بِكُمْ ذَلِكَ.

الآية ١٥٩

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَرَأُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا يَشِيعُونَ﴾^(١٠) عَنْ عَائِشَةَ وَأَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ أَحَدُهُمَا: فَيَكُونُ فِي الْكُفْرَةِ، وَقَالَ الْآخَرُ: فِي أَهْلِ الصَّلَاةِ، وَقِيلَ: هُمُ الْحُرُورِيُّ، وَقِيلَ: هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى. وَلَكِنْ لَا نَذْرِي مَنْ هُمْ؟ وَلَيْسَ بِنَا إِلَى مَغْرِقَةٍ مَنْ كَانَ حَاجَةً.

ثُمَّ يَخْتَمَلُ وَجْهًا ثَلَاثَةً: يَخْتَمَلُ ﴿قَرَأُوا دِينَهُمْ﴾ حَقِيقَةً؛ لِأَنَّ [أَصْحَابَ]^(١١) جَمِيعِ الْأَدْيَانِ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ يَدِينُونَ دِينَ اللَّهِ، لَا أَحَدٌ يَقُولُ: إِنَّهُ يَدِينُ بِدِينٍ غَيْرِ [دِينِ]^(١٢) اللَّهِ. أَلَا تَرَى أَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٢٣] وَقَالُوا^(١٣): ﴿هَؤُلَاءِ شَفَعْتُونَا عِنْدَ اللَّهِ؟﴾ [يونس: ١٨] فَهُمْ وَإِنْ كَانُوا عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ يَدِينُونَ دِينَ اللَّهِ فَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ فَارَقُوا دِينَهُمْ وَلَيْسُوا عَلَى دِينِ اللَّهِ. وَيَخْتَمَلُ فَارَقُوا دِينَهُمُ الَّذِي أَمَرُوا بِهِ، وَدَعَا إِلَيْهِ الرُّسُلُ وَالْأَنْبِيَاءُ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، فَارَقُوا ذَلِكَ الدِّينَ. وَيَخْتَمَلُ: فَارَقُوا دِينَهُمُ، الَّذِي دَانُوا بِهِ فِي عَهْدِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ بِدِينِ اللَّهِ، فَفَارَقُوا ذَلِكَ الدِّينَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ بِسَنَنِ عَمَلٍ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِمْ﴾ [البقرة: ٨٩] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ الْآيَةُ [آل عمران: ١٠٦] كَانُوا مُؤْمِنِينَ بِهِ ﴿وَكَانُوا يَشِيعُونَ﴾ أَيْ صَارُوا فِرْقًا وَأَحْزَابًا.

وقوله تعالى: ﴿لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ مِنَ النَّاسِ مَنْ صَرَفَ تَأْوِيلَهُ ﴿لَسْتَ مِنْهُمْ﴾ أَيْ لَسْتَ أَنْتَ فِي قِتَالِهِمْ فِي شَيْءٍ؛ كَأَنَّهُ نَهَاهُ عَنْ قِتَالِهِمْ فِي وَقْتٍ، ثُمَّ أَذِنَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ حِينَ^(١٤) نَسَخَتْ آيَةُ السَّيْفِ، وَهَذَا بَعِيدٌ. وَيَخْتَمَلُ ﴿لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ أَيْ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: يَثَابَرُونَ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيُعَاقَبُونَ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: تَرَكَ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: لَا يَنْفَعُهُ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: لَمْ يَنْفَعْهُ ذَلِكَ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: فَارَقُوا، وَهِيَ قِرَاءَةُ حُمَزَةٍ وَالْكَسَاةِ، انْظُرْ حُجَّةَ الْقِرَاءَاتِ ص (٢٧٨). (١١) وَ (١٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (١٤) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ.

لَسْتُ مِنْ دِينِهِمْ فِي شَيْءٍ؛ لَأَنْ دِينَهُمْ كَانَ تَفْلِيداً لِأَبَائِهِمْ، وَدِينَكَ دِينَ الْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ، فَلَسْتُ مِنْهُمْ أَيٍّ مِنْ دِينِهِمْ فِي شَيْءٍ. وَيَحْتَمِلُ «لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ» أَيَّ لَا تُسْأَلُ أَنْتَ عَنْ دِينِهِمْ، وَلَا تُحَاسَبُ عَلَى ذَلِكَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ» [الأنعام: ٥٢]. أَوْ يُخْرَجُ عَلَى إِيَّاسٍ أُولَئِكَ الْكَفَرَةُ مِنْ عَوْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى دِينِهِمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «الْيَوْمَ يَنْصُرُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ» [المائدة: ٣].

وقوله تعالى: «لَمَّا أَتَاهُمْ إِلَى اللَّهِ» يَحْتَمِلُ الْحُكْمَ^(١) فِيهِمْ إِلَى اللَّهِ، لَيْسَ إِلَيْكَ، هُوَ الَّذِي يَحْكُمُ فِيهِمْ، أَوْ أَنْ يَكُونَ «أَتَاهُمْ إِلَى اللَّهِ» فِي الْقِتَالِ حَتَّى يَأْذَنَ لَكَ بِالْقِتَالِ «ثُمَّ يَنْتَهُمُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» هُوَ وَعِيدٌ.

الآية ١٦٠ وقوله تعالى: «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَثْنَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا» [فيه وجهان]:

أَحَدُهُمَا^(٢): «لَيْسَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا» إيجابُ الجزاءِ فِي السَّيِّئَةِ. وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «فَلَهُ عَشْرُ» إيجابُ الجزاءِ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: فَلَهُ كَذَا، فِيهِ إيجابُ الجزاءِ. [وإنما إيجابُ الجزاءِ]^(٣) فِي السَّيِّئَةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: «مَنْ يَعْمَلْ سُوْءًا يُجْزَ بِهِ» [النساء: ١٢٣] وَغَيْرِهِ مِنَ الْآيَاتِ. وَقَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ إيجابَ الجزاءِ وَالثَّوَابِ فِي الْحَسَنَاتِ وَالْخَيْرَاتِ إِفْضَالٌ وَاحْسَانٌ؛ لِأَنَّهُ قَدْ سَبَقَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى كُلِّ أَحَدٍ مِنَ النَّعَمِ مَا يَكُونُ مِنْهُ تِلْكَ الْخَيْرَاتُ جَزَاءً لِمَا أَنْعَمَ عَلَيْهِ وَشُكْرًا، وَلَا جَزَاءً لِلْجَازِي إِلَّا مِنْ جِهَةِ الْإِفْضَالِ وَالْإِكْرَامِ.

وَأَمَّا جَزَاءُ السَّيِّئَةِ فِيمَا تَوَجَّهَ الْحُكْمُ لِمَا خَرَجَ الْفِعْلُ مِنْهُ مَخْرَجَ الْكُفْرَانِ لِمَا أَنْعَمَ عَلَيْهِ، فَيَسْتَوْجِبُ بِالْكَفْرَانِ الْعُقُوبَةَ وَالْجَزَاءَ عَلَى ذَلِكَ.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ خَرَجَ الْفِعْلُ مِنْهُ فِي الْخَيْرَاتِ وَالْحَسَنَاتِ عَلَى مُوَافَقَةِ خَلْقَتِهِ وَصُورَتِهِ وَتَقْيِيمِهِ^(٤) عَلَى مَا خَلَقَهَا اللَّهُ وَأَنْشَأَهَا، وَبَنَاهَا، فَلَمْ يَخْرُجِ الْفِعْلُ بِهِ عَلَى خِلَافٍ مَا هُوَ بُنِيَ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَسْتَوْجِبْ بِهِ الْجَزَاءَ. وَأَمَّا السَّيِّئَاتُ فَهِيَ إِخْرَاجُهَا عَلَى خِلَافِ خَلْقَتِهَا وَتَقْيِيمِهَا وَصَرَفُهَا إِلَى غَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي كَانَتْ خَلَقَتْهَا وَتَقْيِيمُهَا، فَاسْتَوْجِبَ بِذَلِكَ الْعُقُوبَةَ وَالْجَزَاءَ عَلَيْهَا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي» / ١٦٧ - أ / [الذاريات: ٥٦].

وقوله تعالى: «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَثْنَالِهَا» لَيْسَ عَلَى التَّحْدِيدِ حَتَّى لَا يُزَادَ عَلَيْهِ، وَلَا يُنْقَصَ مِنْهُ، إِنَّمَا خَرَجَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، عَلَى التَّعْظِيمِ لِذَلِكَ وَالْإِجْلَالِ؛ لِأَنَّهُ أَخْبَرَ فِي التَّفَقُّهِ الَّتِي تُنْفَقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَّهَا تَزْدَادُ، وَتَنْمُو، إِلَى سَبْعِ مِثَّةٍ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ لَهُ فِي الْحَسَنَةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا فِي التَّوْحِيدِ تَبْلُغُ إِلَى مَا ذَكَرَ، وَإِذَا جَاءَ بِنَفْسٍ ذَلِكَ [فِي]^(٥) التَّوْحِيدِ لَا تَبْلُغُ ذَلِكَ. أَوْ تَقْصُرُ عَنْ ذَلِكَ. وَلَكِنَّا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، عَلَى التَّعْظِيمِ لَهُ أَوْ عَلَى التَّمْثِيلِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَجَعَلْنَا عَرِشًا لَكُرْسِيِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» [الحديد: ٢١] ذَكَرَ هَذَا لِمَا لَا شَيْءَ عِنْدَ الْخَلْقِ أَوْسَعُ مِنْهُمَا وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: «تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَفْطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشُقُ الْأَرْضُ» [مريم: ٩٠] وَمِثْلُهُ غَيْرُهُ عَلَى التَّمْثِيلِ خَرَجَ لِعَظِيمِ مَا قَالُوا فِي اللَّهِ، لَيْسَ أَنَّهَا تَنْشُقُ، أَوْ تَفْطَرُ. فَعَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلِ أَنَّهُ يَخْرُجُ لِمَا ذَكَرْنَا لَا عَلَى التَّحْدِيدِ لَهُ وَالْوَقْتِ.

ثُمَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَثْنَالِهَا» كَذَا «وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَثْنَالِهَا» كَذَا. ذَكَرَ مَجِيءَ الْحَسَنَةِ وَمَجِيءَ السَّيِّئَةِ، وَلَمْ يَقُلْ: مَنْ عَمِلَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ كَذَا، وَمَنْ عَمِلَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَهُ كَذَا^(٦) لِيُعْلَمَ أَنَّ النَّظَرَ إِلَى مَا خَتَمَ بِهِ، وَقُبِضَ عَلَيْهِ؛ فَكَانَهُ قَالَ: مَنْ خَتَمَ بِالْحَسَنَةِ، وَقُبِضَ عَلَيْهَا، فَلَهُ كَذَا؛ لِأَنَّهُ قَدْ^(٧) يَعْمَلُ الْحَسَنَةَ، ثُمَّ يُفْسِدُهَا، وَيَنْقُضُهَا بِإِزْكَابٍ مَا [يَنْقُضُهَا، وَيُفْسِدُهَا]^(٨) مِنْ الشُّرْكِ وَغَيْرِهِ، وَعَلَى مَا رُوِيَ: «الْأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ» [البخاري ٦٤٩٣ و ٦٦٠٧].

ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَثْنَالِهَا» قَالَ بَعْضُهُمْ: «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَثْنَالِهَا» بَعْدَ التَّوْحِيدِ «وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ» بَعْدَ التَّوْحِيدِ «فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا».

وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ» يَعْنِي بِالتَّوْحِيدِ «فَلَهُ عَشْرُ أَثْنَالِهَا» لَكِنَّهُ لَيْسَ عَلَى التَّحْدِيدِ لِمَا ذَكَرْنَا، وَلَكِنْ عَلَى التَّعْظِيمِ وَالْقَدْرِ عِنْدَ اللَّهِ أَوْ عَلَى التَّمْثِيلِ «وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا».

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: أي. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: وتقديمه. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: فيه. (٨) في الأصل وم: ينفضه ويفسده.

وكذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]. ومن^(١) استوصف صفات الله فعليه أن يصف له ما في سورة الإخلاص. ورسول الله ﷺ وغيره من الخلق سواء في ذلك الخطاب.

ثم في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي مَدْنِي رَبِّ﴾ الآية ذكر منتهى بما هداه والإستبداء إلى شكر ما أنعم عليه. وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ الأمر بإخلاص العبادة لله ﷻ وإسلام النفس له في جميع أحواله: مَحْيَا وَمَمَاتِي.

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغْنَى اللَّهُ عَنِّي رَبِّي﴾ فيه الدعاء إلى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ.

ثم في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي مَدْنِي رَبِّ﴾ دلالة رد قول من يستثنى في إيمانه؛ لأنه أمره أن يقول: ﴿قُلْ إِنِّي مَدْنِي رَبِّ﴾ إِنْ صَرِّفْتُ تَسْتَقِيمَ مِنْ غَيْرِ أَنْ أَمْرُهُ بِالْثَنَاءِ. فَمَنْ اسْتثنى فيه لا يخلو استثنائه من أحد مَعْنِيَيْنِ: إما أن يكون لشك فيه وإما^(٢) ليكتمان ما أنعم عليه. فعلى كل من أنعم الله عليه أن يظهر ذلك، وأن يشكر له^(٣) على ما أمر رسوله ﷺ بذلك.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يخرج على وجهين: أحدهما: يخرج على الأمر بالدعاء لنفسه؛ لأنه قال: ﴿قُلْ﴾ أجعل ﴿صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. والثاني: على المنازعة^(٤) مع أولئك الكفرة والفجرة؛ يقول: أنا أجعل صلاتي وعبادتي ومحياتي ومماتي لله، لا أجعل لغيره شركاً كما جعلتم أنتم شركاء^(٥) في عبادته وصلاته ونسكه، والله أعلم.

ثم اختلف في قوله تعالى: ﴿صَلَاتِي﴾ قال بعضهم: الصلاة: المفروضة، وقال بعضهم: الصلاة: الخضوع والثناء؛ يقول: إن خضوعي وثنائي لله. والصلاة، هي الثناء في اللغة.

وقوله تعالى: ﴿وَنُسُكِي﴾ اختلف فيه: قال الحسن: ﴿وَنُسُكِي﴾ ديني كقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا﴾ [الحج: ٣٤] أي ديناً. وقيل: ﴿وَنُسُكِي﴾ وذبيحتي لله في الحج والعمرة وغيرهما^(٦). وقيل: ﴿وَنُسُكِي﴾ وعبادتي. والنسك اسم كل عبادة. وعلى ذلك يسمى^(٧) كل عابد ناسكاً. / ١٦٧ - ب/

وقوله تعالى: ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي أنا حي وميت لله، لا أشرك أحداً في عبادتي ونسكي. بل كلّي لله، لا شريك له^(٨) في ذلك. ويختل أن يكون هذا على التقديم والتأخير؛ كأنه قال: إني أمرت أن أجعل صلاتي ونسكي لله، أو إني أمرت أن أذعر، وأسأل الله أن يجعل صلاتي ونسكي وعبادتي له، لا أشرك غيره فيه.

الآية ١٦٢ وقوله تعالى: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ يختل قوله تعالى: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي وأنا أول من خضع، واسلم بالذي أمرت: [أمرت]^(٩) أن أبلغ؛ لأنه أمر بتبليغ ما أنزل إليه، فيقول: أنا أول من أسلم بالذي أمرت بالتبليغ.

ويختل أن يكون لا على توقيت الإسلام ولكن على سرعة الإجابة والطاعة له كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَرْهَبُ مِنَّيْ إِلَّا مِن أَكْثَرِ مِنْ أُنْثَى﴾ [الزخرف: ٤٨] هو على الوصف بغاية العظم ليس على أن بعضها^(١٠) أكبر وأعظم، وبعضها أصغر، ولكن كلها أعظم وأكبر.

فعلى ذلك هذا ليس على وقت الإسلام ولكن لسهولة الإجابة والطاعة له، [والإسلام، والله أعلم]^(١١)، هو جعل النفس وكلية الأشياء لله سائمة. أي أنا أول من جعل نفسه لله سائمة.

الآية ١٦٤ وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَغْنَى اللَّهُ عَنِّي رَبِّي كُلِّ شَيْءٍ﴾ يختل هذا وجهين: يختل: ﴿قُلْ أَغْنَى اللَّهُ عَنِّي رَبِّي﴾

(١) الوار ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أر. (٣) من م، في الأصل: لا. (٤) في م: بالبدال المنقوطة. (٥) من م، في الأصل: شركاً. (٦) في الأصل وم: وغيره. (٧) أدرج قبلها في الأصل وم: قوله. (٨) في الأصل وم: ونفسي بل كله لله لا شريك له. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، في الأصل: بعضها. (١١) في الأصل وم: والله أعلم الإسلام.

وَأَنْتُمْ^(١) تَعْلَمُونَ أَنَّ لَا رَبَّ سِوَاهُ، وَيَحْتَمِلُ: ﴿قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَيْتِي رَبًّا﴾ سِوَاهُ، وَفِي كُلِّ أَحَدٍ أَثَرُ رَبُّوَيْتِهِ وَالْوَهْيِيَّةِ قَائِمٌ ظَاهِرٌ، وَفِي مَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ أَحَدُ أَثَارِ الْعُبُودِيَّةِ وَالرُّبُوبِيَّةِ لِلَّهِ فِيهِ. فَكَيْفَ اتَّخَذَ رَبًّا سِوَاهُ؟

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ: يَحْتَمِلُ: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ مِنْ سُوءٍ ﴿إِلَّا عَلَيْهَا﴾ لَا يَحْتَمِلُ ذَلِكَ غَيْرُهُ عَنْهُ فِي الْآخِرَةِ. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَزِدْ زَادَهُ وَتَزِدْ أَهْلَهُ﴾ وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَنَّا عَلَيْهِ مَا جُلَّ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِلَتْهُ﴾ [النور: ٥٤]. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ أَيْ لَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ لَوْ تَرَكْتَ وَمَا تَخْتَارُ إِلَّا عَلَيْهَا. لَكِنَّ اللَّهَ يَفْضِلُهُ يَنْعَمُ [بِفَضْلٍ مَا]^(٢) تَخْتَارُ عَلَى نَفْسِهَا كَقَوْلِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالشَّرِّ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي﴾ [يوسف: ٥٣] أَخْبَرَ أَنَّهَا كَاسِبَةُ الشَّرِّ إِلَّا مَا عَصَمَهَا رَبِّي.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ عَلَى الْإِضْمَارِ؛ كَأَنَّهُ يَقُولُ: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ وَلَهَا. وَمِثْلُهُ جَائِزٌ فِي الْقُرْآنِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَكُونُ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] وَهُوَ نَذِيرٌ لِقَوْمٍ، بَشِيرٌ لِقَوْمٍ آخَرِينَ؛ نَذِيرٌ فِي حَالٍ، وَبَشِيرٌ فِي حَالٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ لِي رَنْجَمٌ فَتَبَيَّنْكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ هُوَ عَلَى الْوَعِيدِ.

وَرُويَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ إِذَا كَبَّرَ لِلصَّلَاةِ اتَّبَعَ التَّكْبِيرَ بِهَذِهِ الْآيَةِ: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ إِلَى آخِرِهِ. وَعَنْ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ [أَنَّهُ]^(٣) قَالَ «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا افْتَتَحَ الصَّلَاةَ كَبَّرَ، ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩] «إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١ و ١٦٢]. [أَبُو دَاوُدَ ٢٧٩٥] وَذَكَرَ أَنَّهُ كَانَ يَدْعُو دُعَاءَ طَوِيلًا.

وَرُويَ عَنْ عَائِشَةَ وَأَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ أَنَّهُمَا قَالَا: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا افْتَتَحَ الصَّلَاةَ رَفَعَ يَدَيْهِ جِذَاءَ مَنْكَبَيْهِ، ثُمَّ يَقُولُ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ، وَبِحَمْدِكَ، وَتَبَارَكَ اسْمُكَ، وَتَعَالَى جَدُّكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ» [أَبُو دَاوُدَ ٧٧٦].

فَكَانَ أَبُو حَنِيفَةَ، رَجَمَهُ اللَّهُ، يَخْتَارُ مِنْ ذَلِكَ هَذَا فِي الْفَرَائِضِ.

وَكَذَا رُويَ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ أَنَّهُ [إِذَا]^(٤) قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ كَبَّرَ^(٥)، ثُمَّ قَالَ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ، وَبِحَمْدِكَ، وَتَبَارَكَ اسْمُكَ، وَتَعَالَى جَدُّكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ.

وَكَانَ أَبُو يُوسُفَ يَسْتَحِبُّ أَنْ يَقُولَ بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ. وَالْكَلِمَاتُ الَّتِي رَوَاهَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ مِنْ غَيْرِ إِيْجَابٍ لِذَلِكَ وَلَا حَظَرٍ لِمَا سِوَاهُ.

وَكَانَ أَبُو حَنِيفَةَ، رَجَمَهُ اللَّهُ، لَا يَسْتَحِبُّ أَنْ يَزِيدَ فِي الْفَرَائِضِ عَلَى مَا رُويَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمَا رَوَتْ عَائِشَةُ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمَا رُويَ عَنْ عُمَرَ وَعَبْدِ اللَّهِ ﷺ. وَأَمَّا فِي التَّوَاتُلِ فَلَهُ أَنْ يَزِيدَ مَا شَاءَ فِيهَا مِنَ الشَّأْنِ وَالِدَّعَوَاتِ، فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَا رَوَاهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ مِنْ فِعْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانَ ذَلِكَ فِي التَّوَاتُلِ.

الآية ١٦٥ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَلَدَى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ يَغْنِي أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِيَحْذَرُوا تَكْذِيبَهُ وَالْخِلَافَ لَهُ، وَيَرْغَبُوا فِي تَصْدِيقِهِ وَالْمُوَافَقَةَ لَهُ وَالطَّاعَةَ لِيَكُونَ لَهُمْ بِمَنْ تَقَدَّمَهُمْ عِبْرَةٌ فِي التَّحْذِيرِ وَالتَّرْغِيبِ، وَيَكُونَ لَهُمْ بِمَنْ تَقَدَّمَهُمْ قُدْوَةٌ وَعِبْرَةٌ لِيَعْرِفُوا صُحْبَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّ كَيْفَ يَجِبُ أَنْ يَضْحَبُوهُ، وَيُعَامِلُوهُ مِنَ الْإِحْسَانِ إِلَيْهِ وَالتَّعْظِيمِ لَهُ وَالتَّصْدِيقِ، وَيَجْتَنِبُوا الْإِسَاءَةَ إِلَيْهِ وَالتَّكْذِيبَ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ يَغْنِي الْبَشَرُ كُلُّهُمْ؛ جَعَلَ بَعْضُهُمْ خَلَائِفَ بَعْضٍ فِي الْوُجُودِ وَفِي الْأَحْوَالِ فِي الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ وَالْغِنَى وَالْفَقْرِ وَالصَّحَّةِ وَالسَّقَمِ وَفِي الْعِزِّ وَالذُّلِّ وَفِي كُلِّ شَيْءٍ وَفِي الصَّغَرِ وَالْكِبَرِ لِيَكُونَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ عِبْرًا وَدَلِيلًا عَلَى مَعْرِفَةِ مَنْشَأِهِمْ وَخَالِقِهِمْ؛ لِأَنَّهُ لَوْ أَنْشَأَهُمْ جَمِيعًا مَعًا لَمْ يَعْرِفُوا أَحْوَالَ أَنْفُسِهِمْ وَتَغْيِيرَهُمْ مِنْ حَالٍ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَدْ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: بَعْضُهَا وَمَا. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: فَكَبَّرَ.

[إلى حال^(١)]. ولكن أنشأهم واحداً بعد واحد وقرناً بعد قرن ليَعْرِفُوا أحوال أنفسهم واثقالهم من حال إلى حال ليَعْرِفُوا أَنَّ مُنْشِئَهُمْ واحدٌ، ولأنهم لو كانوا جميعاً معاً لم يَعْرِفُوا مبادئ أحوالهم من حال تُطْفَأُ ثم من عُلْفَةٍ ثم من مُضَعَةٍ ثم من حال الصَّغَرِ إلى حال الكِبَرِ. وكذلك هذا في جميع الأحوال من الغنى والفقر والصحة والسقم. ولو [كانوا كلهم]^(٢) على حالة واحدة لم يَعْرِفُوا ذلك. لكن جعل بعضهم خلايف بعض ليدلهم على ما ذكرنا.

ويَحْتَمِلُ ما قال ابن عباس رضي الله عنه إنهم صاروا خلقت الجان.

[وبعد^(٣)] فالأول يكون في بيان صُحْبَةِ رسول الله ﷺ، والثاني في بيان وحدانية الرب ﷻ.

وقوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ يَحْتَمِلُ هذا في الأحوال، وَيَحْتَمِلُ في الخَلْقَةِ؛ جَعَلَ لِبَعْضٍ فضائل ودرجات على بعض، وجعل بعضاً فوق بعض بدرجات في الدنيا ليكتسبوا لأنفسهم في الآخرة الدرجات والفضائل على ما رَغِبُوا في الدنيا في فضائل الخَلْقَةِ ودرجات بعض فوق بعض، ونَفَرُوا عَنِ الدُّوْنِ مِنْ ذَلِكَ، لِيُرْغَبَهُمْ ذَلِكَ في اكتساب الدرجات في الآخرة، وَيُنْفَرُهُمْ عَنِ اكْتِسَابِ ما يَنْفَرُونَ عنه في الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿يَسْتَبْلُوكُمْ فِي مَا ءَاتَاكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿يَسْتَبْلُوكُمْ فِي مَا ءَاتَاكُمْ﴾ مِنَ الأحوال الْمُخْتَلِفَةِ مِنَ الْفَقْرِ وَالْغِنَى وَالسَّقَمِ وَالصَّحَةِ وَالصَّغَرِ وَالْكِبَرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الأحوال. وَيَحْتَمِلُ ﴿فِي مَا ءَاتَاكُمْ﴾ مِنَ النِّعَمِ أَي لِيَسْتَبْلُوكُمْ بِالشُّكْرِ عَلَى مَا آتَاكُمْ مِنَ النِّعَمِ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ قال بعضهم: هو إخبار عن سُرْعَةِ إتيان العذاب؛ لَأَنَّ كُلَّ آتٍ قَرِيبٌ، كَأَن قَدْ جَاءَ، وكقولهِ تعالى: ﴿أَنَّى أَمُرُ اللَّهَ﴾ [النحل: ١] [وكقولهِ تعالى]^(٤): ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١] [وكقولهِ تعالى]^(٥): ﴿أَقْرَبَ السَّاعَةِ﴾ [القمر: ١] ونحوه أنه إذا كَانَ آتَى، لا مُحَالَةً، جَعَلَ كَأَن قَدْ جَاءَ.

وقال بعضهم: ذلك إنباء عن شِدَّةِ عذابه لِمَنْ عَصَاهُ.

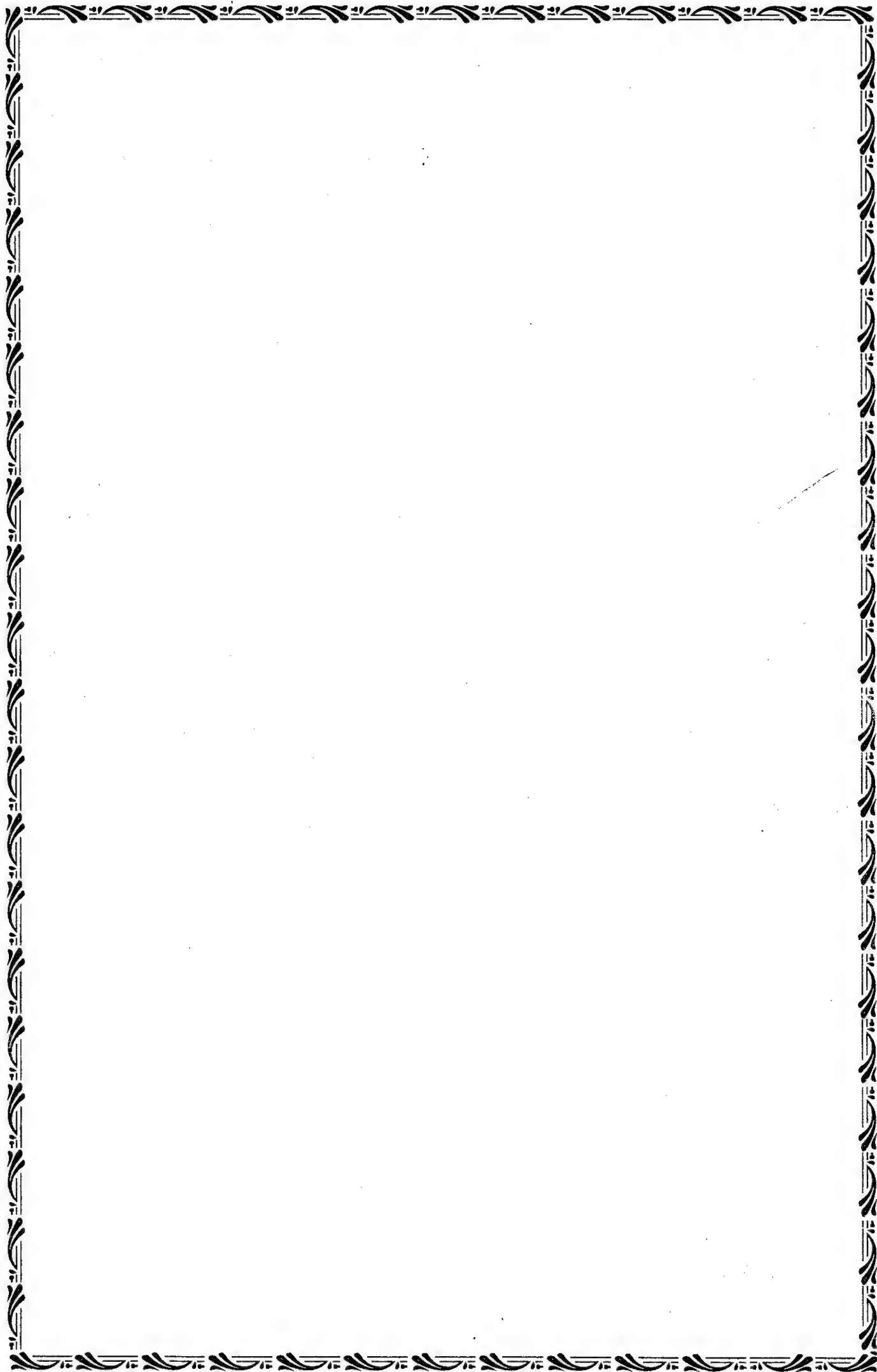
وقوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَسْتَبْلُوكُمْ فِي مَا ءَاتَاكُمْ﴾ قِيلَ: يَتَّبِعِي المُوَسِّرَ فِي حالِ الْغِنَى وَالصَّحِيحِ فِي حالِ صِحَّتِهِ، ١٦٨ - أ / وَيَتَّبِعِي الْفَقِيرَ فِي حالِ فَقْرِهِ وَالْمَرِيضَ فِي حالِ مَرَضِهِ.

وَالْإِبْتِلَاءُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى وَجْهَيْنِ: إِمَّا أَمْرٌ^(٦) بِالشُّكْرِ عَلَى مَا أُنْعِمَ [وَأَمَّا صَبْرٌ]^(٧) عَلَى مَا ابْتَلَاهُ بِالشَّدَائِدِ. وَالْإِبْتِلَاءُ مِنْهُ هُوَ مَا بَيْنَ السَّبِيلَيْنِ جَمِيعاً سَبِيلَ الْحَقِّ وَسَبِيلَ الْبَاطِلِ، وَيَبَيِّنُ أَنَّ كُلَّ سَبِيلٍ إِلَى مَاذَا أَفْضَاهُ لَوْ سَلَكَهُ؛ لَوْ سَلَكَ سَبِيلَ الْحَقِّ أَفْضَاهُ إِلَى النِّعَمِ الْبَاقِيَةِ وَالسُّرُورِ الدَّائِمِ، وَإِنْ سَلَكَ سَبِيلَ الْبَاطِلِ أَفْضَاهُ إِلَى عَذَابٍ شَدِيدٍ وَحُزْنٍ دَائِمٍ. ثُمَّ خَيْرُهُ بَيْنَ هَذَيْنِ. فَهَرِ مَعْنَى الْإِبْتِلَاءِ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَعَقُورٌ رَّجِيمٌ﴾ لِلْمُؤْمِنِينَ. وَقَدْ ذَكَرْنَا. [وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ]^(٨).



(١) من م: ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: كان كله. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: أمراً. (٧) في الأصل وم: أو صبراً. (٨) ساقطة من م.



سورة الأعراف

[مثنان وست آيات : مكية^(١)]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله العليم الخبير اللطيف يرشد عباده، ضرب لهم الآيات والبيانات لينقلهم بحكمته وتذبيره من الجهالة إلى العلم ومن الضلالة إلى الهدى، ووصى به رسوله أن يدعوا عباده إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة، فبعث محمداً^(٢) ﷺ إلى الناس كافة، وأنزل^(٣) إليه الكتاب، تلا فيه ما في الكتب الأولى ليبين لأهل الكتاب والمؤمنين أن النبي الأمي العربي لم يعلم^(٤) [ما] في الكتب الأعجمية إلا من عند الله ليكون ذلك أوضح لهم في الحجة.

وكان رسول الله ﷺ، قبل الرسالة معروفاً عند القرقيين أنه لم يزل كتاباً، ولا خطه يمينه، ولا كان عندهم من شعرائهم ولا من العارفين^(٥) بأنسابهم وعلم أنبيائهم، وذلك أبلغ في البرهان، فأنباء الله^(٦) فيه علم الغيوب وفرض الفرائض، وحكم فيه الأحكام، وأنزل فيه الحجج بتأليف، يعجز^(٧) عنه من دون الله، ليبين لهم أنه من عند الله.

فأنف قومه، وأبوا أن يسمعه، واستكبروا عليه، وقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، و[قالوا]^(٨): ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْقَوَىٰ فِيهِ لَمَلَكٌ تَقْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

فأتاهم العليم الخبير من قبل أنفسهم وكبرهم، فأنزل في الكتاب كلاماً افتتح به السورة، لم يكن من كلام قومه. فلما سمعوا قلوا أنه يديع ابتدع محمداً كابتداعهم البلاغات والأوابد، وايقنوا أن يكون محمداً يقدر من ذلك على ما لا يقدرُونَ، فتدبروا الكتاب ليتعلموا صدوره بما بعده من الكلام، فسمعوا كلاماً مجيداً حكيماً، وبناءً عظيماً وحججاً نيرة ومواعظ شافية، فدخل أكثرهم في الإسلام، وقعد عنه رجلاين: معاند متعمد وجاهل مقلد، لا ينظر.

وفي ما أنزل وما وصف: [قوله]^(٩) ﴿كَتَبْتَنَّهُ﴾ [مريم: ١] وقوله^(١٠): ﴿مَلَكٌ﴾ [الشعراء: ١] وقوله^(١١): ﴿الَّتِي﴾ [الأعراف: ١] وقوله^(١٢): ﴿الَّتِي﴾ [الرعد: ١] وما أشبهها.

الآيتان ٢ و ١ قال^(١٣): ﴿الَّتِي﴾ لتعطف بها على النظر في ما بعدها، ثم ابتدأ، فقال: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ يقول: كتاب من ربك ﴿لِتُنذِرَ بِهِ﴾ عباده ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾ يقول: فلا يضيقت صدرك عن الذي فرض الله عليك فيه من البلاغ إلى قومك وبما فرض عليك من البراءة منهم وبما يعبدون من دون الله.

فكان الرسول ﷺ، يخاف ما خافت الرسل من بين يديه؛ فقال موسى: ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِي﴾ [الشعراء: ١٤] وقد كان يعرف قومه بالتسرع إلى القتل في ما ليس مثل ما يأتيهم به. فأمنه الله منهم بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَتَوَكَّلُ مِنَ النَّاسِ﴾ وقال في آخر هذه السورة: ﴿قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ﴾ [الآية: ١٩٥] يفهمونها عن الله بأنها^(١٤) من أعظم آيات الله لرسوله ﷺ أعلمته أنهم لا يصلون إلى ما يخاف منهم.

وفي الآخر أن الله تعالى لما أرسله إلى قومه قال^(١٥): إني رب إذا شعلوا رأسي يذرونه^(١٦) مثل خبز، فأمنه الله تعالى

(١) في م: قيل: إنها مكية. (٢) من م، في الأصل: رسول. (٣) من م، في الأصل: ولو أنزل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: المعروف. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: يعجزه. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: و. (١١) في الأصل وم: و. (١٢) في الأصل وم: و. (١٣) في الأصل وم: فقال. (١٤) في الأصل وم: فلانها. (١٥) في الأصل وم: فقال. (١٦) في الأصل وم: يذرونه.

من ذلك، فقال: ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ﴾ من البلاغ، ولا يَضِيقُ صَدْرُكَ عَمَّا قَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكَ مِنَ الْعِبَادَةِ وَالْحُكْمِ الَّذِي تُخَالِفُ فِيهِ قَوْمَكَ.

ثم وَصَفَ الْكِتَابَ، فَقَالَ: ﴿وَذَكِّرْ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يقول: يَتَذَكَّرُونَ مَا^(١) فِيهِ، وَيَتَذَكَّرُونَ، فَيَعْلَمُونَ بِهِ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ، وَيَتَذَكَّرُونَ بِهِ مَا قَرَضَ عَلَيْهِمْ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْحُرُوفُ الْمُقَطَّعَةُ خِطَابًا، خَاطَبَ اللَّهُ بِهَا رُسُلَهُ، يَفْهَمُونَهَا، وَلَا يَفْهَمُهَا^(٢) غَيْرُهُمْ عَلَى مَا يَكُونُ لِمُلُوكِ الْأَرْضِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ خَوَاصِهِمْ [إِشَارَاتٌ يَفْهَمُهَا خَوَاصُهُمْ]^(٣) وَلَا يَفْهَمُهَا غَيْرُهُمْ. هَذَا مُتَعَارَفٌ فِي مَا بَيْنَ الْخَلْقِ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ فِي مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ خَوَاصِهِمْ مَا ذَكَّرْنَا. فَعَلَى ذَلِكَ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْحُرُوفُ الْمُقَطَّعَةُ خِطَابَاتٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، خَاطَبَ بِهَا رُسُلَهُ، وَهُمْ خَوَاصُهُ؛ يَفْهَمُونَهَا، وَلَا يَفْهَمُهَا^(٤) غَيْرُهُمْ.

ثُمَّ وَجَّهَ فَهْمَهُمْ لَوَجْهَيْنِ^(٥): يُخْبِرُهُمْ، فيقول: إني^(٦) إِذَا أَنْزَلْتُ إِلَيْكُمْ كَذَا فَمُرَادِي مِنْ ذَلِكَ كَذَا، أَوْ كَانَ الْبَيَانُ وَالْمُرَادُ مِنْهَا مَقْرُونًا بِهَا وَقَدْ أَنْزَلَهَا فَهَمُّوا الْمُرَادَ مِنْهَا بِمَا أَفْهَمَهُ اللَّهُ، وَأَرَاهُمْ مَا لَمْ يَرَ ذَلِكَ غَيْرُهُمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْنَاكَ اللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥] أَرَى رُسُلَهُ شَيْئًا لَمْ يَرِ ذَلِكَ غَيْرُهُمْ وَلَا أَظْلَعَهُمْ عَلَى ذَلِكَ؛ فَهُوَ^(٧) مِنَ الْمُتَشَابِهِ [على غيرهم، وأما على الرُّسُلِ فَلَيْسَ مِنَ الْمُتَشَابِهِ]^(٨).

وَقَالَ الْقَرَاءُ: يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْحُرُوفُ الْمُقَطَّعَةُ الْمُتَفَرِّقَةُ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللَّهُ مِنْ: أ ب ت ث إِلَى آخِرِهَا، كَأَنَّهُ قَالَ: إِنِّي جَمَعْتُ هَذِهِ الْحُرُوفَ الْمُتَفَرِّقَةَ، فَجَعَلْتُهَا كِتَابًا، فَأَنْزَلْتُهَا مِنْ نَحْوِ ﴿التَّوْرَةِ﴾ [الأعراف: ١] و﴿الزَّبُورِ﴾ [الله: ١] آل عمران: ١، ٢] و﴿الزَّبُورِ﴾ [البقرة: ١، ٢] و﴿الزَّبُورِ﴾ [الرعد: ١] وَنَحْوِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا أَرَادَ بِهِ. ذَلِكَ، وَقَدْ ذَكَّرْنَا هَذَا فِي صَدْرِ الْكِتَابِ بِقَدَارِ مَا حَفِظْنَا، وَفِيهِمَا مِنْ أَقْوِيلِ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي ذَلِكَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾ قِيلَ: الْحَرَجُ هُوَ الضِّيقُ فِي الصَّدْرِ. [ثُمَّ يَحْتَمِلُ ضِيقُ الصَّدْرِ وَجْهًا]^(٩): يَحْتَمِلُ ضِيقُ الصَّدْرِ مَا يُحْمَلُ عَلَيْهِ مِنَ الشَّدَائِدِ وَالْخَطَرَاتِ بِتَبْلِيغِهِ إِلَى الْكُفْرَةِ الَّذِينَ نَشَأُوا عَلَى الْكُفْرِ وَالشَّرِّ، وَخَاصَّةً الْفِرَاعِيَّةَ وَالْمُلُوكَ الَّذِينَ هَمَّهُمْ^(١٠) الْقَتْلُ وَالْإِهْلَاكُ لِمَنْ اسْتَقْبَلَهُمْ بِالْخِلَافِ، أَوْ أَنْ يُوسَّوَسَ فِي صُدُورِهِمُ الشَّيْطَانُ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، أَوْ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ^(١١): إِنَّهُ مِنْ أَسَاطِيرِ الْأَوَّلِينَ عَلَى مَا قَالَ أُولَئِكَ الْكُفْرَةُ: ﴿مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأحقاف: ١٧].

ثُمَّ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾ عَلَى النَّهْيِ أَيْ لَا [يَكُنْ فِي صَدْرِكَ]^(١٢) حَرَجٌ؛ أَيْ لَا يَضِيقُ صَدْرُكَ وَمَا حُمِّلَ عَلَيْكَ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾ أَيْ شَكٌّ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ نَزَلَ. وَقَدْ ذَكَّرْنَا أَنَّ الْعِصْمَةَ لَا تَمْنَعُ النَّهْيَ؛ لِأَنَّهُ بِالنَّهْيِ مَا تَكُونُ عِصْمَتُهُ.

وَيَحْتَمِلُ لَيْسَ عَلَى النَّهْيِ، وَلَكِنْ عَلَى الْأَوْحَادِ عَلَى نَفْسِكَ مَا فِيهِ هَلَاكُكَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النمل: ٧٠] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ [فاطر: ٨] لَيْسَ عَلَى النَّهْيِ، وَلَكِنْ عَلَى الْأَوْحَادِ عَلَى نَفْسِكَ مَا فِيهِ هَلَاكُكَ. فَعَلَى ذَلِكَ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ ﷻ: أَمَّنْهُ عَمَّا كَانَ يَخَافُ مِنْ هَوْلِهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَتِمُّكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] وَأَمَّنْهُ مِنْ وَسْوَاسِ الشَّيْطَانِ عَلَى مَا رَوِيَ فِي الْخَبَرِ أَنَّهُ قِيلَ [لَهُ]^(١٣): «أَلَيْكَ شَيْطَانٌ؟» فَقَالَ: كَانَ وَلَكِنْ أَعْنَتْ عَلَيْهِ، فَأَسْلَمَ [بِنَحْوِهِ] مُسْلِمٌ ٢٨١٥ أَمَّنْ رَسُولُهُ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ لِمَا ذَكَّرْنَا.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: بِمَا. (٢) الْوَاوُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٤) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: يَفْهَمُونَ. (٥) أَدْرَجَ قَبْلَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: يَكُونُ. (٦) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: إِلَى. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: فَهْمٌ. (٨) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٩) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: وَجْهًا. (١٠) يَحْتَمِلُ ضِيقُ الصَّدْرِ. (١١) فِي الْأَصْلِ: وَم: هَمَّتْهُمْ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: لَه. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: يَكُونُ فِي دَرْكٍ. (١٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

وقوله تعالى ﴿لِنُنْذِرَ بِهِ﴾ يَحْتَمِلُ أَنَّهُ أَمَرُهُ أَنْ يُنْذِرَ بِهِ الْكُفْرَةَ، وَيُشِيرُ الْمُؤْمِنِينَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِنُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَنُشِرَ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأحقاف: ١٢] فَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِنُنْذِرَ بِهِ﴾ الْكُفْرَةَ ﴿وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيِ بُشْرَى عَلَى مَا ذَكَّرْنَا. وَيَكُونُ فِي الْإِنْذَارِ بُشْرَى؛ لَأَنَّهُ إِذَا أُنْذِرَ، فَقَبِلَ الْإِنْذَارَ، فَهُوَ بُشْرَى.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِنُنْذِرَ بِهِ﴾ الْكُلَّ [الموافق^(١)] وَالْمُخَالَفَ جَمِيعاً كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِلْعَالِيَيْنَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، ﴿وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيِ الَّذِي يَتَّبِعُ بِهِ الْمُؤْمِنُونَ.

الآية ٣

وقوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا﴾ الآية. لَا تَتَّبِعُوا أَوْلِيَاءَ فِي التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ وَفِي الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ؛ لَأَنَّهُ لَيْسَ إِلَى الْخَلْقِ التَّحْلِيلُ وَالتَّحْرِيمُ.

وقوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ عَلَى [ما]^(٢) أَمَرَ رَسُولَهُ أَنْ يَتَّبِعَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٠٦] لِيُفْلَمَ أَنَّ مَا أُنْزِلَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ/ ١٦٨ - ب/ هُوَ مُنْزَلٌ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ.

وقوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فِي مَا ذَكَرَ، وَمَا يَحِلُّ، وَمَا يَحْرُمُ، وَمَا يُؤْمَرُ، [وما]^(٣) يَنْهَى ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ قِيلَ: أَرْبَابًا؛ أَيِ ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ فِي مَا يَحِلُّونَ، وَيَحْرُمُونَ، وَيَأْمُرُونَ، وَيَنْهَوْنَ؛ أَيِ إِنَّمَا عَلَيْهِمْ اتِّبَاعُ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ وَاسْتِخْلَافُ مَا أَحَلَّ لَهُمْ، وَأَمَّا إِشَاءُ التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ فَلَا.

وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ الْأَصْنَافُ وَالْأَوْتَانُ. وَلَكِنْ لَا يُحْتَمَلُ هُنَا. وَلَكِنْ مَا ذَكَّرْنَا أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَّبِعُونَ عِظَمَاءَهُمْ فِي التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اتَّخَذُوا أَجْنَابَهُمْ رُفُصَةً أَزْكَاءَ مِنَ دِينِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] وَكَانُوا لَا يَتَّخِذُونَ أَوْلَئِكَ الْأَحْبَارَ أَرْبَابًا فِي الْحَقِيقَةِ، وَلَكِنْ كَانُوا يَتَّبِعُونَهُمْ فِي مَا يَحِلُّونَ وَيُحْرَمُونَ، وَيُضْذِرُونَ^(٤) آرَاءَهُمْ، فَسَمُوا بِذَلِكَ بِشِدَّةِ اتِّبَاعِهِمْ أَوْلِيَاءَ فِي التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿قِيلَ مَا تَذَكَّرُونَ﴾ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: يَغْنِي بِالْقَلِيلِ الْمُؤْمِنِينَ. وَلَكِنْ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قِيلَ مَا تَذَكَّرُونَ﴾ أَيِ لَا يَتَذَكَّرُونَ رَأْسًا؛ لِأَنَّ الْخِطَابَ جَرَى فِيهِ لِأَوْلَئِكَ الْكُفْرَةَ، وَفِيهِمْ نَزَلَتْ الْآيَةُ.

الآية ٤

وقوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: كَانَ يُخَوِّفُ أَهْلَ مَكَّةَ بِتَكْذِيبِهِمُ الرُّسُولَ بِإِهْلَاكِهِ الْأُمَمَ الْخَالِيَةَ بِتَكْذِيبِهِمُ الرُّسُولَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ بِتَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ. فَانْتَبَهَ يَا أَهْلَ مَكَّةَ تَهْلِكُونَ بِتَكْذِيبِكُمْ^(٥) الرُّسُولَ. وَإِنْ كَانُوا لَا يَعْرِفُونَ هُمْ إِهْلَاكَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ أَنَّهُ إِنَّمَا أَهْلَكُوا بِتَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ غَيْرَ أَنَّهُمْ، وَإِنْ كَانُوا لَا يَعْرِفُونَ هُمْ ذَلِكَ بِأَنْفُسِهِمْ لِمَا لَيْسَ عَنْدهُمْ كِتَابٌ، لَكِنْ يَصِلُونَ إِلَى عِلْمِ ذَلِكَ بِمَنْ عَنْدهُمْ الْكِتَابُ، وَهُمْ [أهل]^(٦) الْكِتَابِ، فَتَلَزَمَهُمُ الْحُجَّةُ كَالْعَجَمِ، وَإِنْ كَانُوا لَا يَعْرِفُونَ الْكِتَابَ الَّذِي أُنْزِلَ بِلِسَانِ الْعَرَبِ فَإِنَّ الْحُجَّةَ تَلَزَمَهُمْ بِذَلِكَ لِمَا كَانَ لَهُمْ سَبِيلُ الْوُصُولِ إِلَى عِلْمِ ذَلِكَ بِالْعَرَبِ. فَعَلَى ذَلِكَ هَؤُلَاءِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَنْدهُمْ عِلْمٌ بِإِهْلَاكِ هَؤُلَاءِ تَلَزَمَهُمْ^(٧) الْحُجَّةُ بِإِعْلَامِ أَهْلِ الْكِتَابِ بِإِيَّاهُمْ.

وَفِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ لِثَبَاتِ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، لَأَنَّهُ أَخْبَرَ عَنْ^(٨) إِهْلَاكِ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ بِتَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ، وَهُوَ لَمْ يَنْظُرْ فِي كُتُبِهِمْ، وَلَا اخْتَلَفَ إِلَيْهِمْ لِيُعْلِمُوهُ عَنْ ذَلِكَ، ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ بِذَلِكَ. فَذَلَّ أَنَّهُ إِنَّمَا عَرَفَ ذَلِكَ بِاللَّهِ ﷻ.

وقوله تعالى: ﴿فَبِمَا بَأْسُنَا بَيَّنَّا﴾ قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْكَيْسَانِيُّ^(٩): الْبَأْسُ هُوَ كُلُّ أَمْرٍ مُّغْضِلٍ شَدِيدٍ مِنَ الْمَرَضِ وَالْحَرَجِ وَغَيْرِهِ، وَيَقُولُ: رُوي [عن]^(١٠) عُمَرَ لَمَّا طُعِنَ قِيلَ لَهُ: لَا بَأْسَ عَلَيْكَ، فَقَالَ: إِنْ كَانَ فِي الْقَتْلِ بَأْسٌ فَفِي^(١١) ذَلِكَ.

وَأَمَّا غَيْرُهُ مِنْ أَهْلِ التَّأْوِيلِ فَقَالُوا: الْبَأْسُ الْعَذَابُ، وَبَأْسُنَا عَذَابُنَا.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: ويعبدون. (٥) في الأصل وم: بتكذيبهم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: فتلزمهم. (٨) في الأصل وم: على. (٩) من م، في الأصل: الكيساني. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: في.

وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْبَيَاتِ بِاللَّيْلِ، وَالْقِيلُولَةِ بِالنَّهَارِ﴾ [عند الظهيرة]^(١)، وهما وقتا الغفلة أو وقتا الأمن. اخبر أنه إنما يأتيهم عذابه في حال الغفلة أو في حال الأمن ليلا يكونوا غافلين عن أمره، ولا يكونوا آمنين عذابه.

الآية ٥

وقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَتُهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْأَلًا﴾ أي ما كان دعوهم قبل نزول العذاب ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ نحن على الحق، وإن غيرهم على الباطل. فإذا جاءهم بأسنا اغترفوا بظلمهم بقولهم^(٢) ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾. وقال بعضهم ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَتُهُمْ﴾ حين نزول العذاب ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

الآية ٦

وقوله تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ يذكر في الآية أنه يسألهم جميعاً: الرسل والمرسل إليهم^(٣). وقال في آية أخرى: ﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] ولكن قوله تعالى: ﴿فَيُؤَيِّدُ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنِشْرَ وَلَا جَنَاحَ﴾ [الرحمن: ٣٩] أي لا يسأل عما فعل وعن نفس ما ارتكب كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُمْ﴾ [غافر: ٨٤]. ما أذنبت؟ وما فعلت؟ ولكن يسأل: لماذا فعلت؟ يسأل عن الحجة: لم أذنبت؟ ولم فعلت؟ أو يسأل في وقت، ولا يسأل في وقت.

وقال بعضهم ﴿لَا يَسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمْ غَيْرُهُ﴾، وإنما يسأل صاحبه وفاعله.

يُخْبِرُ، والله أعلم، أن الآخرة على خلاف أمر الدنيا؛ لأن في الدنيا قد يؤاخذ غير بذنب آخر، وبما، ويسأل إحضار قريبه، وأما في الآخرة فإنه لا يؤاخذ غير بذنب آخر، كذلك كان ما ذكرنا. أو أن يكون قوله تعالى: ﴿لَا يَسْأَلُ﴾ عما أظهر، وأبدي، ولكن يسأل عما أسر، وأخفى؛ لأن الملائكة قد يكتبون ما أبدوه، وأظهروه، كقوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْ رَئِيفٍ عَلِيمٍ﴾ [ق: ١٨] فيقع السؤال عما أسروا على التقرير، ولا يسأل بعد ذلك.

وقوله تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ قال بعض أهل التأويل: يسأل الرسل عن تبليغ الرسالة إلى الأمم، ويسأل قومهم: هل بلغ الرسل إليهم الرسالة؟ ويكون سؤاله^(٤) الرسل سؤال شهادة كقوله تعالى: ﴿لَنَسْأَلُ عَنْ النَّاسِ﴾ الآية [١٤٣] [أنهم قد بلغوا]^(٥) الرسالة.

وقال بعضهم: يسأل الملائكة عن تبليغ الرسالة إلى الأنبياء، ويسأل الأنبياء عن تبليغ الملائكة إليهم. وأمكن أن يكون السؤال^(٦) للرسل عما أجيئوا، وكان سؤال الأمم عما أجابوا الرسل كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْعَلُ اللَّهُ أَرْسُلَ يَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٩] وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمْ يَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥]. أو يكون سؤال القوم سؤال تقرير عندهم وإقرار بما كانوا يتكبرون التبليغ إليهم كقوله تعالى: ﴿رَأَى قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ مَا نَتَّكِلُ لِلنَّاسِ أَجْدُودٍ وَأُنَى لِلنَّاسِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦] هذا السؤال سؤال تقرير وتغيير، لا غير؛ لأنه كان يعلم أنه لم يكن قال لهم ذلك، لكنه يسألهم سؤال تقرير ليقرؤوا بذلك لئلا يقولوا: هو قال لهم ذلك؛ لأنهم قالوا: عيسى هو الذي قال لهم ذلك. فعلى ذلك الأول.

الآية ٧

وقوله تعالى: ﴿فَلَنَقْصُصَ عَلَيْهِمْ بِمَلَأَ كُنَّا غَالِيَةً﴾ عن عملهم وصنيعهم. ولكن يسألون لما ذكرنا، والله أعلم.

يشبه أن يكون ﴿فَلَنَقْصُصَ عَلَيْهِمْ بِمَلَأَ كُنَّا غَالِيَةً﴾ ذكر هذا لما يَحْتَمِلُ أَنْ يُظَنَّ بِهِ الْخَفَاءُ عَلَيْهِ لِمَا ذَكَرَ مِنَ الْمَسْأَلَةِ لَهُمُ وَالسُّؤَالِ، وهو الاستخبار عما يسر، ويضمير، ليظهر ذلك.

هذا هو معنى السؤال في الشاهد والاستخبار. فأخبر^(٧)، بقوله تعالى: ﴿فَلَنَقْصُصَ عَلَيْهِمْ بِمَلَأَ كُنَّا غَالِيَةً﴾ على أن سؤاله ليس بسؤال استخبار واستظهار له، ولكن سؤال توبيخ وتقرير أو سؤال شهادة.

(١) من م، في الأصل: هذا الظهيرة. (٢) في الأصل وم: كقوله. (٣) في الأصل وم: عليهم. (٤) في الأصل وم: سؤالهم. (٥) في الأصل وم: أنه قد بلغ. (٦) ساقطة من م.

وعلى هذا يُخْرِجُ الْإِبْتِلَاءُ مِنْهُ وَالْإِمْتِحَانُ لِتَقْرِيرِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ لَا لِإِظْهَارِ شَيْءٍ خَفِيَ عَلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ فِي الشَّاهِدِ يَكُونُ لَذَلِكَ، أَوْ أَنْ يَصِيرَ مَا قَدْ خَفِيَ عَلَيْهِمْ بَادِيًا ظَاهِرًا عَنْهُمْ، فَسُمِّيَ ذَلِكَ الْأَمْرُ مِنْهُ وَالنَّهْيُ ابْتِلَاءً وَإِمْتِحَانًا لِمَا [هوَ] ^(١) عِنْدَ الْخَلْقِ ابْتِلَاءً وَإِمْتِحَانًا، وَإِنْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ لَا يَخْتَمِلُ ذَلِكَ، فَسُمِّيَ بِالَّذِي فِي مَا بَيْنَهُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآيتان ٨ و ٩

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ^(٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ كِذَا قَالَ الْحَسَنُ: يَكُونُ مِيزَانٌ ^(٣) لَهُ كِفَّتَانِ، يُوزَنُ فِيهِ الْحَسَنَاتُ وَالسَّيِّئَاتُ ^(٤) وَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ دَخَلَ النَّارَ. وَقَالَ غَيْرُهُ مِنْ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: يُرِيدُ بِالْمَوَازِينِ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ نَفْسَهَا؛ فَمَنْ رَجَحَتْ حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ رَجَحَتْ سَيِّئَاتُهُ عَلَى حَسَنَاتِهِ دَخَلَ النَّارَ.

[إِلَى هَذَا] ^(٥) ذَهَبَ أَكْثَرُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ. وَلَا يَخْتَمِلُ مَا قَالُوا. أَمَّا قَوْلُ الْحَسَنِ: مِيزَانٌ لَهُ كِفَّتَانِ يُوزَنُ فِيهِ الْحَسَنَاتُ وَالسَّيِّئَاتُ فَلَا ^(٦) يَخْتَمِلُ، لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ إِذَا ثَقُلَتْ إِحْدَى الْكِفَّتَيْنِ ^(٧) خَفَّتِ الْأُخْرَى، وَإِذَا خَفَّتْ إِحْدَاهُمَا ثَقُلَتِ الْأُخْرَى. فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِيزَانٌ ^(٨) تَقْفُلُ مَوَازِينُهُ، وَتَخِفُ، وَقَدْ أَخْبَرَ فِي الْآيَةِ أَنَّ مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ.

وَلَا يَخْتَمِلُ أَيْضًا مَا قَالَ غَيْرُهُ مِنْ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: إِنَّهُ أَرَادَ بِالْمَوَازِينِ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، لِأَنَّ الْآيَةَ فِي الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ؛ فَلَا سَيْفَةَ تَرْجُحُ فِي الْمُؤْمِنِ مَعَ إِيْمَانِهِ، وَلَا حَسَنَةَ تَرْجُحُ فِي الْكَافِرِ مَعَ شِرْكِهِ إِلَّا أَنْ يُقَالَ: الْمُؤْمِنُ ^(٩) تُوزَنُ حَسَنَاتُهُ، وَتُقَابَلُ بِسَيِّئَاتِهِ دُونَ إِيْمَانِهِ. وَكَذَلِكَ / ١٦٩ - أ / الْكَافِرُ تُقَابَلُ سَيِّئَاتُهُ بِحَسَنَاتِهِ دُونَ الشُّرْكِ؛ [تَذْهَبُ حَسَنَاتُ الْكَافِرِ] ^(١٠) الَّتِي كَانَتْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا بِمَا أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا. وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِ، وَيُقَابَلُ عَنْهُ ^(١١) أَحْسَنُ مَا عَمِلَ لِقَوْلِهِ ^(١٢) تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ تَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنُ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ [الْأَحْقَافُ: ١٦].

وَيَخْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَا ذَكَرَ مِنَ الْمِيزَانِ هُوَ الْكِتَابُ الَّذِي ذُكِرَ فِي [آيَاتٍ أُخَرَ كَقَوْلِهِ] ^(١٣) تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَتْ كَيْتَهُ بِسَيِّئَةٍ﴾ ^(١٤) فَسَوَّفَ بِحَسَبِ حِسَابِ سَيِّئَةٍ. ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَتْ كَيْتَهُ وَرَأَى ظَهْرَهُ﴾ [الْإِنْشِقَاقُ: ٧ و ٨ و ١٠] وَكَمَا ^(١٥) قَالَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَتْ كَيْتَهُ بِسَيِّئَةٍ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَفْرَادُ كَيْتِي﴾ ^(١٦) وَأَمَّا مَنْ أَوْفَتْ كَيْتَهُ بِسَيِّئَةٍ فَيَقُولُ بِسَيِّئَةٍ لِي أَرَأَيْتَ كَيْتِي. [الْحَاقَّةُ: ١٩ و ٢٥].

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْوِزْنُ الْعَدْلُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾ [الْأَنْبِيَاءُ: ٤٧] لَمْ يَقُلْ: وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ بِالْقِسْطِ، وَلَكِنْ قَالَ: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾ وَالْقِسْطُ هُوَ الْعَدْلُ، فَهُوَ إِخْبَارٌ عَنِ الْعَدْلِ أَنَّهُ يَعْدِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ أَيِ الْجَزَاءِ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ؛ يَجْزِي لِلطَّاعَةِ الْحَسَنَةَ وَالشَّوَابَ وَلِلْمُسِيئَةِ [الْعِقَابَ وَالْعَذَابَ] ^(١٧)؛ فَهُوَ حَقٌّ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ أَيِ الطَّاعَةِ، حَقٌّ كُلُّ مُطِيعٍ يَوْمَئِذٍ، فَهُوَ حَقٌّ؛ وَيَخْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْوِزْنُ الْحُدُودَ وَالتَّقْدِيرَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَلْبَسْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ ثَمَرٍ مَوْزُونٍ﴾ [الْحَجَرُ: ١٩] أَيِ مُحَدَّدٍ فَقَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَالْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ أَيِ الْحُدُودِ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ، لَا يُزَادُ عَلَى السَّيِّئَاتِ، وَلَا يُنْقُصُ مِنَ الْحَسَنَاتِ الَّتِي عَمِلُوا فِي الدُّنْيَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا أَرَادَ مِنَ الْوِزْنِ.

ثُمَّ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أَيِ عَبَثُوا؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ مَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ مُؤْمِنٍ وَكَافِرٍ إِلَّا وَلَهُ فِي الْجَنَّةِ وَالنَّارِ مَنْزِلٌ وَأَهْلٌ؛ فَيَرِثُ الْمُؤْمِنُ الْمَنْزِلَ الَّذِي كَانَ لِلْكَافِرِ فِي الْجَنَّةِ، وَيَرِثُ الْكَافِرُ الْمَنْزِلَ الَّذِي لِلْمُؤْمِنِ فِي النَّارِ، فَهَذَا الْخُسْرَانُ الَّذِي خَسِرُوا. لَكِنَّ هَذَا لَا يَخْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ تَعَالَى يَجْعَلُ لِلْكَافِرِ فِي الْجَنَّةِ مَنْزِلًا وَأَهْلًا مَعَ عَلَيْهِ أَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ، وَيُخْتَمُّ عَلَى كُفْرِهِ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: ميزانا. (٣) في الأصل وم: هذا. (٤) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: ثقل إحدى الكفتان. (٦) في الأصل وم: فمن. (٧) في الأصل وم: إن. (٨) في الأصل وم: فذهب حسناتهم. (٩) في الأصل وم: عنهم. (١٠) في الأصل وم: بحوله. (١١) في الأصل وم: آية أخرى لقوله. (١٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: عقاب وعذاب.

وَيَحْتَمِلُ الْخُسْرَانُ الَّذِي ذَكَرَ هُوَ أَنَّهُمْ خَسِرُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لِمَا فَاتَ عَنْهُمْ النَّعْمُ الَّتِي كَانَتْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَلَمْ يَصِلُوا إِلَى نَعِيمِ الْآخِرَةِ، فَذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا يَتَاجَرُونَ﴾ قال الحسن: ﴿يَتَاجَرُونَ﴾ حُجَجَنَا ﴿يُظْلِمُونَ﴾ أَي يَضَعُونَهَا فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا؛ وهو ما ذَكَرَ مِنْ ظُلْمِهِمُ الْآيَاتِ؛ لِأَنَّ الظُّلْمَ وَضَعَ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ.

ثم المسألة فِي مَنْ ارْتَكَبَ كُلَّ ذَنْبٍ وَكَبِيرَةٍ فِي حَالِ كُفْرِهِ مِنَ الْكِبَايِرِ مَغْفُوراً مَغْفُوراً عَنْهُ غَيْرَ مُوَاخِذٍ بِهَا، وَمَنْ ارْتَكَبَ ذَلِكَ فِي حَالِ إِيْمَانِهِ، وَخُتِمَ عَلَى الْإِيْمَانِ، لَمْ تَعْمَلِ الْكِبَايِرُ^(١) فِي تَكْفِيرِهِ، وَكَانَ مُوَاخِذاً بِهَا^(٢)، وَاللَّهُ أَغْلَمُ، لِيُوجِهَيْنِ:

أحدهما: أَنَّ لَيْسَ عَلَى الْكَافِرِ [أَفْعَالُ الطَّاعَاتِ نَفْسُهَا وَعَيْنُهَا]^(٣) إِنَّمَا عَلَيْهِ قَبُولُ تِلْكَ [الطَّاعَاتِ]^(٤)، فَإِذَا اسْلَمَ فَقَدْ قَبِلَهَا، وَلَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ إِلَّا الْقَبُولُ؛ لِذَلِكَ لَمْ يُوَاخِذْ بِمَا كَانَ مِنْهُ مِنَ الْأَفْعَالِ.

وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَعَلَيْهِ [أَفْعَالُ تِلْكَ الطَّاعَاتِ نَفْسُهَا]^(٥) وَتِلْكَ الْأَعْمَالُ، وَقَدْ كَانَ مِنْهُ الْقَبُولُ وَالتَّقْرِيطُ فِي تِلْكَ الْأَعْمَالِ.

والثاني: أَنَّ الْكَافِرَ إِذَا اسْلَمَ بَعْدَ ارْتِكَابِ مِنَ الْكِبَايِرِ لَمْ يُخْرِجْ إِيْمَانُهُ، وَلَا أُدْخِلَ فِيهِ نَقْصاً، فَلَا يُوَاخِذُ بِمَا كَانَ مِنْهُ لَمَّا قَدِمَ عَلَى رَبِّهِ بِإِيْمَانٍ كَامِلٍ.

وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ إِذَا ارْتَكَبَ كِبَايِرَ [فَمَا أَخْرَجَ الْإِيْمَانَ، وَلَكِنْ]^(٦) أُدْخِلَ التَّقْصَانَ بِعَمَلِهِ الَّذِي يُخَالِفُ الْإِيْمَانَ، وَلَا يُوَافِقُهُ لِذَلِكَ اقْتِرَافاً.

وَيُشَبَّهُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ وَ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ عَلَى التَّمْثِيلِ، لَيْسَ عَلَى تَحْقِيقِ الثَّقَلِ^(٧) وَالخِفَةِ، وَلَكِنْ عَلَى الْوَصْفِ بِالْعِظَمِ لِأَعْمَالِ الْمُؤْمِنِينَ وَبِالْخِفَةِ وَالتَّلَاشِي لِأَعْمَالِ الْكَافِرِينَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ ﷻ ضَرَبَ لِأَعْمَالِ الْمُؤْمِنِينَ الْمَثَلَ بِالشَّيْءِ الثَّابِتِ وَالطَّيِّبِ، وَوَصَفَ أَعْمَالَهُمْ بِالثَّبَاتِ وَالْقَرَارِ فِيهِ، وَضَرَبَ لِأَعْمَالِ الْكَافِرِينَ الْمَثَلَ، وَشَبَّهَهَا بِالشَّيْءِ التَّافِهِ، وَوَصَفَهَا بِالْبُطْلَانِ وَالتَّلَاشِي كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إِبْرَاهِيمَ: ٢٤].

وَصَفَ أَعْمَالَهُمْ بِالطَّيِّبِ وَالثَّبَاتِ وَالْقَرَارِ، وَوَصَفَ أَعْمَالِ الْكَافِرِينَ بِالْخُبْثِ وَالتَّلَاشِي وَالبُطْلَانِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ [إِبْرَاهِيمَ: ٢٦] وَكَقَوْلِهِ^(٨) تَعَالَى فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَالَّذِي يَخْرُجُ نَبَاتُهُ يَأْذَنُ رَبُّهُ وَالَّذِي يَخْبُتُ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكَدًا﴾ [الْأَعْرَافُ: ٥٨]. وَكَقَوْلِهِ^(٩) تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ الْكُرْبِيِّ يَفْقَهُوْنَ بِحَسْبِهِ الظُّلُمَاتُ مَاءٌ حَقٌّ إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النُّور: ٣٩] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُحًا وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ يَنْفَعُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧] وَنَحْوَهُ مِنَ الْآيَاتِ وَصَفَ أَعْمَالِ الْمُؤْمِنِينَ بِالثَّبَاتِ وَالْقَرَارِ وَأَعْمَالِ الْكَافِرَةِ بِالْبُطْلَانِ وَالبُطْلَانِ.

فَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ وَصَفَ بِالْعِظَمِ وَالْقَرَارِ وَالثَّبَاتِ وَ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ وَصَفَ بِالْبُطْلَانِ وَالتَّلَاشِي [حَتَّى لَا]^(١٠) يَكُونَ لَهُمْ مِنَ الْخَيْرَاتِ شَيْءٌ يَتَنَفَعُونَ بِهِ^(١١) فِي الْآخِرَةِ، وَاللَّهُ أَغْلَمُ.

الآية ١٠ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ قَالَ أَبُو بَكْرِ الْكَيْسَانِيُّ ﴿مَكَنَّاكُمْ﴾ أَي مَلَكْنَاكُمْ ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً تَتَعَيَّشُونَ بِهَا، يُذَكِّرُهُمْ نِعَمَهُ وَمِنَّةً بِمَا مَلَكَهُمْ فِي الْأَرْضِ، وَجَعَلَ لَهُمْ مَطَامِعَ لِيَشْكُرُوا لَهُ عَلَيْهَا. وَقَالَ الْحَسَنُ: ﴿مَكَنَّاكُمْ﴾ أَي جَعَلْنَاكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ عَنْ تَقَدُّمِكُمْ^(١٢) بِمَكَانِهِمْ؛ يُذَكِّرُهُمْ ﷻ، أَيْضاً نِعَمَهُ عَلَيْهِمْ بِمَا جَعَلَهُمْ خُلَفَاءَ الْأَوَّلِينَ، وَجَعَلَ لَهُمْ مَعِيشَةً، وَيُخَوِّفُهُمْ زَوَالَ ذَلِكَ عَنْهُمْ بِمَا صَارَ ذَلِكَ لَهُمْ بِزَوَالِهَا عَنِ الْأَوَّلِينَ. [وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَكَنَّاكُمْ﴾]^(١٣) يُذَكِّرُهُمْ بِمَا جَعَلَ لَهُمْ مَكَانَ الْقَرَارِ وَمَوْضِعَ الْإِنْتِشَارِ وَالتَّقْلُبِ وَالتَّعَيُّشِ، وَالبَشَرُ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ ذَلِكَ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: الْإِيْمَانُ - (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: بِهِ - (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنْفُسُ أَفْعَالِ الطَّاعَاتِ وَأَعْيُنُهَا. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنْفُسُ أَفْعَالِ تِلْكَ الطَّاعَاتِ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: فَقَدْ خَرَجَ الْإِيْمَانُ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: الْمِيزَانُ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: بِهَا. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: أَلَا. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: تَقَدُّمُهُمْ. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَأَمَكُنْ أَنْ.

وَكُلُّهُ يَرْجِعُ إِلَى وَاحِدٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَّأْمُورًا لَكُمْ بِحَيْثُ تَامُنُونَ فِيهِ، وَتَتَقَلَّبُونَ، وَتَتَعَيَّشُونَ فِيهِ﴾ [العنكبوت: ٦٧] وَيَذْكُرُهُمْ عَظِيمُ نِعَمِهِ وَمِنَّةِ اللَّهِ الَّتِي جَعَلَهَا لَهُمْ. هذا إذا كان الخطابُ بهِ أهل مكة. وإن كان الخطابُ بهِ الناس كافةً يُخْرَجُ^(١) على تذكير النعمِ لهم، حيث جعل الأرضَ لهمِ بحيث يقيمون فيها، ويتقلبون فيها.

وقوله تعالى: ﴿فَلَيْلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ يَحْتَمِلُ وجوهاً، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَلَيْلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [غافر: ٥٨] أحدها: أنهم كانوا يُقِرُّونَ أنه خالقهم كَقَوْلِهِ تَعَالَى^(٢): ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١ و..] كانوا يُقِرُّونَ بِاللَّوْهِيَّةِ، ويضربون العبادَةَ إلى غيره. فلذلك قال: ﴿فَلَيْلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾. والثاني: أي لا تشكروني، ولا تذكروني البتة. ويَحْتَمِلُ ﴿فَلَيْلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ أي [المؤمنون يشكرون، ولا يشكروني] أولئك، والمؤمنون قليل، وهم أكثر.

والثالث^(٣): أي ليس في وسعهم القيامُ بِشُكْرِ الجَمِيعِ، فذلك الشكر قليل.

الآية ١١

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ مَوَزَّنَاكُمْ﴾ [قال الحسن: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ مَوَزَّنَاكُمْ﴾]^(٤) أراد آدم خاصة؛ لأنه قال: ﴿خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ مَوَزَّنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ أخبر أنه أمر^(٥) الملائكة بالسجود لآدم بعد الخلق. ولو كان المراد نحن لكان بعد ﴿خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ مَوَزَّنَاكُمْ﴾ وقد كان السجود قبل ذلك. وقال غيره: المراد^(٦) منه البشر كله؛ لأنه قال: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾ ولو كان المراد لآدم بقوله تعالى: ﴿خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ مَوَزَّنَاكُمْ﴾ خاصة لكان لا يذكر آدم ثانياً. فدل [أنه]^(٨) أراد ذريته.

وقال بعضهم ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾ آدم ﴿ثُمَّ مَوَزَّنَاكُمْ﴾ في أرحامكم. ويَحْتَمِلُ ما قال الحسن. ويَحْتَمِلُ وجهاً آخر؛ وهو أن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾ أي قدزناكم من ذلك الأصل، وهو نفس آدم؛ لأن الخلق هو التقدير كما تقول: أنا خلقتُه؛ أي قدزته. يقول، والله أعلم، ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾ أي قدزناكم جميعاً من ذلك الأصل والكيان. ومنه صَوَزْنَاكُمْ ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾ أي وقد قلنا للملائكة ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ وذلك جائز في اللغة.

وقد يقول بعض أهل الكلام: إن النطفة هي إنسان بقوة، ثم نصير إنساناً بفعل. ويقول بعضهم: هي كيان الإنسان. فجائز أن يكون أضاف إلى ذلك الطين لما هو كيان وأصل لنا.

وقوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ قال الحسن: إبليس لم يكن من الملائكة/ ١٦٩ - ب/ وذلك أن الله ﷻ وصف الملائكة جملة بالطاعة والخضوع بقوله: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهُ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧] وقوله^(٩): ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦] وغيرهما^(١٠) من الآيات، ولم يكن من إبليس إلا كل شر. وقال أيضاً: خلق الملائكة من نور وإبليس من نار، والنار ليست من جوهر النور. دل أنه ليس من الملائكة.

وقال في قوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ مثل هذا يجوز أن يقال: [في]^(١١) هذه الدار أهل البصرة إلا رجلاً^(١٢) من أهل الكوفة. دل الاستثناء: على^(١٣) أن يدخل هنالك أهل الكوفة. فعلى ذلك يدل استثناء إبليس على أن قال: هنالك أمر بالسجود لآدم لغير الملائكة أيضاً. ولكن ليس لنا إلى معرفة ذلك حاجة أنه كان من الملائكة أو من غيره، إنما علينا أن نعرف أنه عدو لنا. وقد ذكرنا هذه في ما تقدم.

الآية ١٢

وقوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْبُدُ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ قيل: قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْبُدُ﴾ أي ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ﴾ [ص: ٧٥] على ما ذكر في آية أخرى، ولا زائدة.

(١) في الأصل وم: فيخرج. (٢) في الأصل وم: بقوله. (٣) في الأصل: المؤمنين يشكرون ولا يشكر، في م: المؤمنين يشكرون ولا يشكروا. (٤) في الأصل وم: والرابع. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: و. (٧) أدرج قبلها في الأصل: و. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل: وم: وقال. (١٠) في الأصل وم: غيره. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: رجل. (١٣) في الأصل وم: إلا.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ بِمَ عَلِمَ عَدُوُّ اللَّهِ أَنَّ الْمَخْلُوقَ مِنَ النَّارِ خَيْرٌ مِنَ الْمَخْلُوقِ مِنَ الطِّينِ؟ إِلَّا أَنْ يُقَالَ بَأَنَّ النَّارَ جُعِلَتْ لِصَالِحِ الْأَعْدِيَةِ. فَمِنْ هُنَا وَقَعَ لَهُ ذَلِكَ أَنَّهَا خَيْرٌ مِنَ الطِّينِ، فَيُقَالُ: إِنَّ النَّارَ، وَإِنْ جُعِلَتْ لِإِصْلَاحِ الْأَعْدِيَةِ فَالطِّينُ جُعِلَ لُجُودِ الْأَعْدِيَةِ. فَالَّذِي جُعِلَ لُجُودِ الشَّيْءِ هُوَ أَفْضَلُ وَأَكْبَرُ مِنَ الَّذِي جُعِلَ لِصَالِحِهِ، وَلَقَدْ الْأَعْدِيَةُ تَصْلُحُ لِلْأَكْلِ بِغَيْرِهَا بِالشَّمْسِ وَغَيْرِهَا. وَبَعْدُ فَإِنَّ الطِّينَ مِمَّا يَقُومُ لِلنَّارِ، وَيُطَبِّقُهَا، وَيَتَلَفُّهَا، وَالنَّارُ لَا تَقُومُ لِلطِّينِ، وَلَا تَتَلَفُّهُ. فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَقَعَ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ أَنَّهَا أَفْضَلُ وَأَخَيْرٌ مِنَ الطِّينِ.

ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي الْجِهَةِ الَّتِي كَفَرَ عَدُوُّ اللَّهِ إِبْلِيسُ؛ قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ إِبْلِيسَ عَدُوُّ اللَّهِ لَمْ يَرِ لِنَفْسِهِ طَاعَةَ بِأَمْرِ السُّجُودِ لِآدَمَ. لِذَلِكَ كَفَرَ. وَقَالَ آخَرُونَ: إِنَّمَا كَفَرَ عَدُوُّ اللَّهِ إِبْلِيسُ لِمَا لَمْ يَرِ الْأَمْرَ بِالْخُضُوعِ وَالطَّاعَةِ مِنْ قَوْفِهِ لِمَنْ هُوَ دُونَهُ جُحْمَةً؛ فَكَفَرَ لِمَا لَمْ يَرِ أَنَّهُ وَضِعَ الْأَمْرُ بِالسُّجُودِ مَوْضِعَهُ؛ رَأَاهُ لَعْنَةُ اللَّهِ، وَاضْعًا أَمْرَهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ. وَقَالَ غَيْرُهُمْ: كَفَرَ عَدُوُّ اللَّهِ بِالْإِسْتِكْبَارِ وَالتَّكْبِيرِ عَلَى آدَمَ لِمَعْنَى آخَرٍ. وَقِيلَ: أَوَّلُ مَنْ أَخْطَأَ فِي الْمِقْيَاسِ، وَزَلَّ فِيهِ إِبْلِيسُ، لَعْنَةُ اللَّهِ.

الآية ١٣

وقوله تعالى: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ يَعْنِي مِنَ السَّمَاءِ؛ لِأَنَّهُ، لَعْنَةُ اللَّهِ، كَانَ فِي السَّمَاءِ، فَأَمَرَ بِالْهَبُوطِ مِنْهَا لِمَا جَعَلَ السَّمَاءَ مَعْدِنًا وَمَكَانًا لِلْخَاضِعِينَ الْمُتَوَاضِعِينَ، فَأَمَرَ بِالْهَبُوطِ مِنْهَا إِلَى مَكَانٍ؛ جُعِلَ ذَلِكَ الْمَكَانُ مَكَانَ الْخَاضِعِينَ وَالتَّكَبِّرِينَ جَمِيعًا، وَهِيَ الْأَرْضُ؛ إِذِ الْأَرْضُ مَعْدِنُ الْفَرِيقَيْنِ جَمِيعًا.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْأَمْرُ بِالْهَبُوطِ مِنْهَا أَمْرٌ بِالْخُرُوجِ مِنَ الْأَرْضِ إِلَى جَزَائِرِ الْبُحُورِ لِأَنَّ الْأَرْضَ هِيَ قَرَارُ أَهْلِهَا، وَجَزَائِرِ الْبُحُورِ لَيْسَتْ مَكَانَ قَرَارٍ لِأَحَدٍ لِيَكُونَ فِيهَا عَلَى الْخَوْفِ أَبَدًا. أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تُبِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١] وَالْبَحَارُ مَتَا لَا تُبِيدُ بِأَهْلِهَا. وَامْتَنَ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ بِالْهَبُوطِ مِنْهَا أَمْرًا بِالْخُرُوجِ مِنَ الصُّورَةِ الَّتِي كَانَ فِيهَا إِلَى صُورَةٍ أُخْرَى لَا تُعْرِفُ أَبَدًا، وَلَا تَرَى، عُقُوبَةً لَهُ لِتَرْكِهِ أَمْرَ اللَّهِ وَارْتِكَابِهِ نَهْيَهُ. ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ فِي تِلْكَ الصُّورَةِ وَفِي تِلْكَ الْأَرْضِ حَتَّى لَا يَقَرَّ أَبَدًا، وَيَكُونَ عَلَى خَوْفٍ أَبَدًا. وَيَحْتَمِلُ فِي السَّمَاءِ لِمَا ذَكَرْنَا.

وقوله تعالى: ﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ وَجْهٌ صَغَارُهُ أَنَّهُ مَا مِنْ أَحَدٍ ذَكَرَهُ إِلَّا وَقَدْ لَعْنَهُ، وَدَعَا عَلَيْهِ بِاللَّعْنِ، فَذَلِكَ صَغَارُهُ. وَامْتَنَ أَنْ يَكُونَ صَغَارُهُ لِمَا صَيَّرَهُ بِحَالٍ يَغِيبُ عَنِ الْأَبْصَارِ، وَلَا يَقَعُ عَلَيْهِ الْبَصَرُ، أَوْ لِمَا طَرَدَهُ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ.

الآية ١٤

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: أَنْظِرْهُ إِلَى التَّنْفِخِ الْأَوَّلِيِّ لِئَلَّا يَذُوقَ [الْمَوْتَ] ^(١)، فَتَتَّصِلَ حَيَاةُ الدُّنْيَا بِحَيَاةِ الْآخِرَةِ، وَهُوَ مَا ذَكَرَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ [إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ] [الحجر: ٣٧ و ٣٨].

الآية ١٥

وقال بَعْضُهُمْ: أَنْظِرْهُ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ خَرَجَ ذَلِكَ جَوَابًا لِسُؤَالِهِ، وَمَا ذَكَرَ مِنَ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ فِي [الآيَةِ الْأُخْرَى] ^(٢) يَجِيءُ أَنْ يَكُونَ هُوَ ذَلِكَ الْيَوْمَ.

وَقَالَ غَيْرُهُمْ ^(٣): أَنْظِرْهُ، وَلَمْ يُبَيِّنْ لَهُ ذَلِكَ الْوَقْتِ الَّذِي أَنْظِرْهُ إِلَى ذَلِكَ الْوَقْتِ، حَتَّى يَكُونَ أَبَدًا عَلَى خَوْفٍ وَوَجَلٍ.

أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفُتَاتِ نَكَمَ عَلَى عَيْبِهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ﴾؟ [الأنفال: ٤٨] لَوْ كَانَ الْوَقْتُ [الَّذِي] ^(٤) أَنْظِرْهُ مَعْلُومًا عَنْهُ لَكَانَ لَا يَخَافُ الْهَلَاكَ بِدُونِ ذَلِكَ الْوَقْتِ. دَلٌّ أَنَّهُ كَانَ غَيْرَ مَعْلُومٍ عَنْهُ.

الآية ١٦

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْدَنَّ لَكَ مِنْكَ الْمُتَّقِينَ﴾ قَالَ الْحَسَنُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ أَيِ بِمَا لَمَسْتَنِي. وَالْإِغْوَاءُ هُوَ اللَّغْنُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْهُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦] أَيِ مِنَ الْمَلْعُونِينَ فَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَغْوَيْتَنِي﴾ أَيِ لَعَنْتَنِي.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: آية أخرى. ولعل المقصود قوله الأنف الذكر [الحجر: ٣٨]. (٣) في الأصل وم: غيره.

(٤) ساقطة من الأصل وم.

وقال أبو بكر الكسائي^(١): أضاف الإغواء إلى نفسه لما كان سبب ذلك منه، وهو الأمر الذي أمره بالسجود لآدم والخضوع له. ويجوز أن يضاف مثل ذلك لما كان منه السبب نحو قوله تعالى: ﴿أَشَدَّنِي وَلَا تَقْتَتِي﴾ [التوبة: ٤٩] سال منه الإذن بالقعود، ولا تكلفني بما لا أقوم، فتقتني بذلك. وقال: إنما أضاف ذلك إليه لما كان منه سبب ذلك الإفتتان. فعلى ذلك هذا.

وقال بغض المعتزلة: هذا قول إبليس: ﴿يَمَّا أَفْوَيْتَنِي﴾ وقد كذب عدو الله، لم يغره الله، فيقال لهم: فإن كان إبليس عدو الله قد كذب في قوله ﴿يَمَّا أَفْوَيْتَنِي﴾ فيقولون بأن نوحاً، صلوات الله عليه، قد كذب حين^(٢) قال: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نَفْسِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَسْخَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤] أضاف الإغواء إليه. دل هذا على أن إبليس لم يَكْذِبْ بإضافة الإغواء إلى الله.

ولكن عندنا أنه أضاف الإغواء إلى نفسه لما خلق فيه فعل الغواية والضلال على ما ذكرنا في غير موضع ليس كما قال هؤلاء: إنه أضيف إليه لِمَكَانٍ ما كان منه سبب ذلك، لأنه لو جاز أن يضاف فعل الإغواء إليه لسبب الإغواء لجاز أن يضاف إلى الرسل والأنبياء؛ لأنه كان منهم الأمر لقومهم والدعاء إلى توحيد الله، ثم كذبوا في ذلك، فكان سبب إغواء أولئك هم الرسل. فذلك بعيد، وكذلك [لو كان]^(٣) الإغواء لكان كل لا عن عليه هو^(٤) مغوية.

وقال بغضهم: ﴿أَفْوَيْتَنِي﴾ أي خذلتني^(٥)، والوجه فيه ما ذكرنا أنه خلق فيه فعل الغواية والضلال، وكذلك من كل كافر: خذله لما علم منه أنه يختار الغواية والضلال.

وقوله تعالى: ﴿لَأَقْذِفَنَّكُمْ﴾ ليس على حقيقة القعود، ولكن على المنع عن السلوك في الطريق، أو على التلبس عليهم الطريق المستقيم والشتر عليهم؛ لأن من قعد في الطريق منع^(٦) الناس عن السلوك فيه.

الآية ١٧

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ الآية. قال الحسن: ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ من قبل الآخرة تكديماً بالتبع والجنة والنار ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ قال: من قبل دنياهم، يُزَيِّنُهَا لَهُمْ، وَيُشْهِيْهَا إِلَيْهِمْ ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ قال: من قبل الحسنات يظهرونها عنها ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ قال: من قبل السيئات؛ يأمرهم بها، ويحثهم عليها، ويزينها في أعينهم.

وعن مجاهد: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ [أنه]^(٧) قال: من حيث ينصرون ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ من حيث لا ينصرون. وقيل: ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ من قبل آخرتهم فلاخيرتهم أنه لا جنة ولا نار ولا بعث على ما ذكر الحسن ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ من قبل دنياهم يأمرهم بجمع الأموال فيها لمن بعدهم من ذراريهم وأخوف عليهم الضيعة، فلا يصلون في أموالهم رجماً، ولا يغطون لها حقاً، ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ من قبل دينهم، فأزين لكل قوم ما كانوا يعبدون؛ فإن كانوا على ضلالة زينتها لهم، وإن كانوا على هدى شبهته عليهم حتى أغرجهم منه ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ من قبل اللذات والشهوات، فأزينها لهم.

هذا الذي ذكر أهل التأويل يَحْتَمِلُ. ثم ذكر الأمام والخلف وعن إيمان وعن شمائل، ولم يذكر ما فوق ولا تحت / ١٧٠ - / فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَدْخُلَ مَا فَوْقَ وَمَا تَحْتَ بِذِكْرِ الْأَمَامِ وَالْيَمِينِ وَالشَّمَالِ وَالْخَلْفِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّكَاةِ وَالْأَرْضِينَ إِنْ نَشَأْ غَشَفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَافًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ [سبا: ٩] دَخَلَ مَا فَوْقَ بِذِكْرِ ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ فَعَلَى ذَلِكَ هَذَا يَدْخُلُ مَا تَحْتَ^(٨) [وما فوق يذكّر ما ذكر، فيصير كأنه قال: ﴿لَآتِيَنَّهُمْ﴾ مِنْ كُلِّ وَجْهِ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْهُ لَمْ يَذْكُرْ هَذَا لِأَنَّهُ لَا سُلْطَانَ لَهُ عَلَى مَنْعِ أَرْزَاقِ^(٩) الْخَلْقِ وَالتَّبَرَكَاتِ لِأَنَّ أَرْزَاقَ الْخَلْقِ وَالتَّبَرَكَاتِ مِمَّا تَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنَ الْمَطَرِ، وَيَخْرُجُ مِنَ الْأَرْضِ النَّبَاتُ، فَلَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى مَنْعِ انْزَالِ الْمَطَرِ وَإِخْرَاجِ النَّبَاتِ مِنْ

(١) في الأصل وم: الكسائي. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: لكان. (٤) في الأصل وم: فهو. (٥) من م، في الأصل: أخذتني. (٦) من م، في الأصل: مع. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في م: دخل تحت. وقد سقط الكلام بعد كلمة تحت من م: في الورقة التي لم تصور والتي فيها ثمة تفسير هذه الآية وتفسير الآيات التي تليها إلى الآية (٢٣) ﴿فَالَا رَبَّنَا عَلَّمْنَاكَ مَا لَا تَغْفِرُ لَكَ وَتَرْحَمُنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ والتي أولها: وما فوق، وآخرها وقال بعض أهل العلم: إن. انظر الحاشية (٤) ص (٢١٨). (٩) في الأصل: الأرزاق.

الأرض، وله سلطان على غير ذلك، أو لما يشغلهم، وشبههم ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبَيْنَ خَلْفِهِمْ﴾ وَعَنَ آيَاتِهِمْ وَعَنَ شَمَائِلِهِمْ ﴿مِنَ اللَّذَاتِ وَالشَّهَوَاتِ﴾ لما إذا رأى شيئاً، أعجبته، أتبع النظر إليه، واحداً بعد واحد من أمام ووراء ويمين وشمال، ولا كذلك من تحت ولا من فوق.

أو أن يكون لما روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه إذا تلا هذه الآية قال: الله منعه من أن يأتيهم من فوقهم. ولو كان ذلك لما نجا أحد؛ فاعمالهم تضعد إلى الله، ورحمته تنزل عليهم.

وقال قتادة: اتاك اللعين من كل نحو يا ابن آدم غير أنه لا يستطيع أن يحول بينك وبين رحمة ربك، إنما تأتيك الرحمة من فوقك. والذي ذكرنا أنه على التمثيل أنه يأتيه من كل جانب أشبه.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبَيْنَ خَلْفِهِمْ﴾ وَعَنَ آيَاتِهِمْ وَعَنَ شَمَائِلِهِمْ يُخْرِجُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أحدهما: ليس على إرادة بين [أيد] ^(١) وخلف وإيمان وشمال، ولكن على إرادة الجهات كلها. كأنه يقول: لآتيَنَّهُمْ من كل جهة.

والثاني: ما ذكر الحسن وأهل التأويل: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ الآخرة ^(٢) تكذيباً بها ﴿وَبَيْنَ خَلْفِهِمْ﴾ الدنيا تزييناً بها عليهم ﴿وَعَنَ آيَاتِهِمْ﴾ الحساب ﴿وَعَنَ شَمَائِلِهِمْ﴾ السيئات.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْذَرُ أَكْثَرَهُمْ شُرَكَاءَ﴾ هذا من عدو الله ظن ظنه لا قاله حقيقة. لكن الله سبحانه، [قال] ^(٣) إنه أخبر أنه صدق ظنه بقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِلَهُكَ﴾ [سبا: ٢٠].

الآية ١٨

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَخْرِجْنِي وَمِنَا﴾ يَحْتَمِلُ ﴿مِنَا﴾ مِنَ السَّمَاءِ، وَيَحْتَمِلُ مِنَ الصُّورَةِ الَّتِي كَانَ فِيهَا مَا قُلْنَا فِي قَوْلِهِ: ﴿فَأَقِمْ وَتَنَافَعُوا﴾ أَنَّ تَنَكَّرَ فِيهَا [الأعراف: ١٣] وقيل: الجنة.

وقوله تعالى: ﴿مَذْهُومًا مَّذْهُورًا﴾ قِيلَ: ﴿مَذْهُومًا﴾ مَلُومًا أَيْ [مَذْمُومًا مَلُومًا] ^(٤) عِنْدَ الْخَلْقِ جَمِيعًا ﴿مَذْهُورًا﴾ قِيلَ: مَقْصِيًا مُبْعَدًا مِنْ كُلِّ خَيْرٍ. قَالَ أَبُو عَوَسَجَةَ: [مَذْهُومًا وَاحِدًا] ^(٥) وَمَذْهُورًا مُبَاعَدًا مَظْرُودًا.

وقوله تعالى: ﴿أَخْرِجْنِي وَمِنَا مَذْهُورًا لَّنْ يَمَكَّ مِنْهُمْ لَأَتَلَّانَ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمِينَ﴾ أَخْبَرَ اللَّهُ سبحانه، أَنَّهُ يَمْلَأُ جَهَنَّمَ مِنْ إِبْلِيسَ وَمِمَّنْ تَبِعَهُ، وَأَطَاعَهُ؛ لِأَنَّهُمْ يَتَّبِعُونَهُ فِي الْكُفْرِ وَالشُّرْكِ بِاللَّهِ.

تَعَلَّقَ الْخَوَارِجُ بِظَاهِرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّنْ يَمَكَّ مِنْهُمْ﴾ [فَقَالُوا: كُلُّ] ^(٦) مُرْتَكِبٍ مَعْصِيَةٍ تَابِعَ لَهُ، لِذَلِكَ اسْتَوْجَبَ الْخُلُودَ. وَقَالَتِ الْمُعْتَرِلَةُ: كُلُّ مُرْتَكِبٍ كَبِيرَةٍ بَوَعِيدِ هَذِهِ الْآيَةِ؛ لِأَنَّهُ تَابِعَ لَهُ.

وعندنا: ليس لهم في الآية حجة في تخليد من ذكروا في النار؛ لأنه إنما ذُكِرَتْ عَلَى إِثْرِ نَقْضِ الدِّينِ وَرَدِّ التَّوْحِيدِ. فَكَانَهُ قَالَ: ﴿لَّنْ يَمَكَّ﴾ فِي نَقْضِ الدِّينِ وَرَدِّ التَّوْحِيدِ ﴿لَأَتَلَّانَ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمِينَ﴾.

الآية ١٩

وقوله تعالى: ﴿وَبَقَادُمْ أَشْكُنَ أَنْتَ وَرَوْحُكَ الْجَنَّةَ فَكَلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ كَانَ الشُّكُونُ فِي مَوْضِعٍ مِنَ الْقَرَارِ فِيهِ وَالْأَمْنِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿جَمَلٌ لَّكَ الْإِلَ وَالنَّهَارَ لِيَتَكُونَا﴾ [القصص: ٧٣] لِيَقْرُوا فِيهِ، وَتَأْمَنُوا. فَقَوْلُهُ تَعَالَى لِأَدَمَ: ﴿أَسْكُنْ أَنْتَ وَرَوْحُكَ الْجَنَّةَ﴾ أَسْكَنْهُمَا سبحانه لِيَقْرَا ^(٧) فِيهَا، وَيَأْمَنَا ^(٨) مِنْ كُلِّ [مَا يُنْغَصُ عَلَيْهِمَا] ^(٩) تِلْكَ النِّعَمُ الَّتِي أَنْعَمَ عَلَيْهِمَا ^(١٠) لِأَنَّ الْخَوْفَ مِمَّا يُنْغَصُ ^(١١) النِّعَمَ، وَيَذْهَبُ بِلَذَّتِهَا.

فَلَمَّا أَسْكَنْهُمَا سبحانه الْجَنَّةَ أَمَّنَهُمَا عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ.

ثم فيه أن أول الجنة والإبتلاء من الله تعالى لعباده إنما يكون بالإنعام والإفضال عليهم ثم الجزاء والعذل لسوء ما

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل: الآخر. (٣) ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: مذموم ملوم. (٥) في الأصل: مذموم واحد. (٦) من م، في الأصل: وكل من. (٧) في الأصل وم: ليقروا. (٨) في الأصل وم: ويأمنوا. (٩) في الأصل: ينقصهما. (١٠) في الأصل: عليهما. (١١) في الأصل: ينقص.

ارْتَكَبُوا؛ لَأَنَّهُ هُوَ أَمْتَحَنَ آدَمَ أَوَّلًا بِالْإِفْضَالِ وَالْإِنْعَامِ عَلَيْهِ حِينَ^(١) اسْتَجَدَّ مَلَائِكَتُهُ لَهُ، وَاسْكَنَهُ جَنَّتَهُ، وَوَسَّعَ^(٢) عَلَيْهِ نِعَمَهُ، ثُمَّ أَمْتَحَنَهُ بِالشَّدَائِدِ وَأَنْوَاعِ الْمَشَقَّةِ وَجَزَاءِ مَا ارْتَكَبَا^(٣) مِنَ التَّأْوِيلِ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي نَهَاهُمَا^(٤) عَنْ قُرْبِهَا. فَهُوَ مَا ذَكَّرْنَا أَنَّ شَرْطَ امْتِحَانِهِ عِبَادَتُهُ فِي الْإِبْتِدَاءِ يَكُونُ بِالْإِفْضَالِ وَالْإِنْعَامِ ثُمَّ بِالْعَذْلِ وَالْجَزَاءِ لِسُوءِ صَنِيعِهِمْ.

أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿وَمَا أَمْنَبَكُمْ يَنْ مُصِيبِكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ آيْدِيكُمْ؟﴾ [الشورى: ٣٠] أَخْبَرَ أَنَّ مَا يُصِيبُنَا هُوَ مِنْ كَسْبِ آيَدِينَا، وَهُوَ جَزَاءُ مَا كَسَبْنَا. وَفِيهِ وَفِي غَيْرِهَا مِنَ الْقَصَصِ [الَّذِي ذَكَرْنَا]^(٥) دَلِيلُ إِثْبَاتِ رَسُولَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَتُبُوتِهِ؛ لَأَنَّهُ أَخْبَرَ عَمَّا كَانَ مِنْ غَيْرِ أَنْ اخْتَلَفَ إِلَى أَحَدٍ مِنْ^(٦) يَغْرِثُ ذَلِكَ، وَلَا نَقُظَرُ فِي الْكُتُبِ الَّتِي فِيهَا دَلٌّ أَنَّهُ عَرَفَ ذَلِكَ بِاللَّهِ تَعَالَى.

ثُمَّ اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي الْجَنَّةِ الَّتِي أَسْكَنَ ﷻ آدَمَ فِيهَا وَزَوْجَتَهُ؛ قَالَ بَعْضُهُمْ: هِيَ الْجَنَّةُ الَّتِي يَكُونُ عَوْدُ أَهْلِ الْإِسْلَامِ إِلَيْهَا فِي الْآخِرَةِ، وَلَهُمْ وَعَدَ ﷻ تِلْكَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هِيَ جَنَّةُ أَنْشَأَهَا لِآدَمَ لِيَسْكُنَ فِيهَا فِي السَّمَاءِ، وَلَكِنْ لَا تَذَرِي مَا تِلْكَ الْجَنَّةُ؟ وَلَيْسَ لَنَا إِلَى مَعْرِفَةِ تِلْكَ الْجَنَّةِ حَاجَةٌ، إِنَّمَا الْحَاجَةُ إِلَى مَا ذَكَرَ مِنَ الْمَحَنِ.

اخْتَلَفُوا أَيْضًا فِي الشَّجَرَةِ الَّتِي نَهَى آدَمَ عَنْ قُرْبِهَا: قَالَ بَعْضُهُمْ: هِيَ شَجَرَةُ الْجَنَّةِ، وَقَدْ ذَكَّرْنَا أَقَاوِيلَ أَهْلِ التَّأْوِيلِ وَاخْتِلَافَهُمْ فِي صَدْرِ الْكِتَابِ^(٧) قَدَّرَ مَا حَفِظْنَاهُ.

وكَذَلِكَ اخْتَلَفُوا فِي وَسْوَةِ الشَّيْطَانِ لِآدَمَ وَخَوَاءَ: أَنَّهُ كَيْفَ وَسَّوَسَ إِلَيْهِمَا^(٨)؟ وَمِنْ أَيْنَ كَانَ؟ وَهَذَا أَيْضًا قَدْ ذَكَّرْنَاهُ فِي تِلْكَ الْقِصَّةِ. وَالْحَسَنُ يَقُولُ: إِنَّمَا وَسَّوَسَ إِلَيْهِمَا مِنَ الدُّنْيَا لَا [حِينَ كَانَ فِي] الْجَنَّةِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: وَسَّوَسَ إِلَيْهِمَا: مِنْ رَأْسِ الْحَيَّةِ وَمِنْ فِيهَا يُكَلِّمُهُمَا^(٩).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ لَمْ يَرُدَّ بِهِ الدُّنْيُ مِنْهَا، وَلَكِنْ أَرَادَ الدُّوْقَ وَالْأَكْلَ مِنْهَا. أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ﴾؟ [الأعراف: ٢٢] ذَلَّ أَنَّ النَّهْيَ لَمْ يَكُنْ لِلدُّنْيُ مِنْهَا، وَلَكِنْ لِلدُّوْقِ وَالْأَكْلِ مِنْهَا. وَفِيهِ أَنَّ الْإِمْتِحَانَ مِنَ اللَّهِ مَرَّةً يَكُونُ بِالْجَلِّ وَمَرَّةً بِالْحُرْمَةِ لِأَنَّهُ إِذِنْ لَهُ التَّأْوِيلُ مِمَّا فِيهَا مِنْ أَنْوَاعِ النَّعَمِ وَحَرَّمَ عَلَيْهِ التَّأْوِيلَ مِنْ وَاحِدَةٍ مِنْهَا^(١٠)، فَذَلِكَ مِخْنَةٌ مِنْهُ.

ثُمَّ النَّهْيُ عَنِ التَّأْوِيلِ مِنَ الشَّيْءِ يُخْرِجُ عَلَى وَجْهِ: أَحَدُهَا: نَهْيٌ بِحَقِّ الْحُرْمَةِ لِنَفْسِهِ، وَنَهْيٌ بِحَقِّ إِشَارِ الْغَيْرِ عَلَيْهِ، وَنَهْيٌ عَنِ التَّأْوِيلِ مِنْهُ لِدَاءِ فِيهِ وَآفَةٍ، وَنَهْيٌ لِمَا يَخْرُجُ التَّأْوِيلُ مِنْهُ^(١١) بِحَقِّ الْجَزَاءِ، فَلَمْ يَكُنْ بَعْدَ وَقْتِ الْجَزَاءِ لَهُ.

الآية ٢٠ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا وَدَّيْ عَنْهُمَا مِنْ سَوءَ بَيْتَاهَا﴾ قَوْلُهُ: ﴿مَا وَدَّيْ﴾ أَيُّ سُبْرَةٍ، وَغُطِّي، وَقَوْلُهُ^(١٢): ﴿سَوءَ بَيْتَاهَا﴾ عَوْرَاتِهِمَا^(١٣)، وَالسَّوَاءُ الْعَوْرَةُ فِي اللَّفْظِ.

وَفِيهِ أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ نَكُونَ عَلَى حَذَرٍ مِنْ شَرِّ إِبْلِيسَ اللَّعِينِ لثَلَاثِ فُرْصَةٍ عَلَيْنَا، فَإِنَّهُ أَبَدَى عَلَى سَلْبِ نِعْمَةٍ أَنْعَمَهَا اللَّهُ عَلَى عِبَادِهِ حِينَ^(١٤) اخْتَالَ كُلُّ حِيلَةٍ حَتَّى أَبَدَى لَهُمَا مَا وَوَدَّيْ، وَسُبْرَتَهُمَا، مِنَ الْعَوْرَةِ، وَعَمِلَ فِي إِخْرَاجِهِمَا مِنَ النَّعَمِ وَاللَّذَاتِ، وَأَوْقَعَهُمَا فِي الشَّدَائِدِ وَالْمَشَقَّةِ، وَفِيهِ أَنَّهُ لَيْسَ حَالٌ عَلَيْهِ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَرَى^(١٥) أَحَدًا فِي النَّعَمِ وَالسَّعَةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا تَهَنَّكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَائِكَةً أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ قَدْ ذَكَّرْنَا مَعْنَى هَذَا أَيْضًا فِي صَدْرِ الْكِتَابِ^(١٦).

الآية ٢١ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَئِنِ التَّصَيَّرْتُمَا﴾ قَالَ الْحَسَنُ: ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ فِي وَسْوَةِ إِيَّاهُمَا ﴿إِنِّي لَكُمَا لَئِنِ التَّصَيَّرْتُمَا﴾ وَهَذَا الَّذِي يَقُولُ الْحَسَنُ: يُؤْمَرُ إِلَى [أَنَّ]^(١٧) آدَمَ قَدْ عَلِمَ أَنَّهُ الشَّيْطَانُ.

(١) فِي الْأَصْلِ: حَيْثُ. (٢) الْوَادِ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٣) فِي الْأَصْلِ: ارْتَكَبُوا. (٤) فِي الْأَصْلِ: نَهَا. (٥) فِي الْأَصْلِ: الذِّكْرُ. (٦) فِي الْأَصْلِ: مِنْ. (٧) فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ (٣٥) مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ. (٨) فِي الْأَصْلِ: إِلَيْهِ. (٩) فِي الْأَصْلِ: أَنْ كَانَ دَخَلَ. (١٠) فِي الْأَصْلِ: بِكُلِّهِمَا. (١١) فِي الْأَصْلِ: مِنْهُمَا. (١٢) فِي الْأَصْلِ: مِنْهُمَا. (١٣) فِي الْأَصْلِ: وَ. (١٤) فِي الْأَصْلِ: عَوْرَتَهُمَا. (١٥) فِي الْأَصْلِ: حَيْثُ. (١٦) فِي الْأَصْلِ: رَأَى. (١٧) فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ (٣٥) مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ. (١٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ.

وقال أبو بكر الكيساني: إنه قد وقع عند آدم أن الشجرة التي نهاه ربُّه أن يتناول منها هي المفضلة على جميع الشجر، فلما وسوس إليه الشيطان، وقال له ما ﴿قَالَ يَتَدَامُ هَلْ أَذْلَكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾؟ [طه: ١٢٠] فوافق ظنُّه قول اللعين وما دَعَاهُما إليه، ثم اشتغل، فَنَسِيَ ذلك، فتناول على النسيان على وجهين: نسيان التَّرك على العَمْد / ١٧٠ - ب/ ونسيان السُّهُو، ولا يَحْتَمِلُ أن يكون آدم تركَ عَمداً، فهو على نسيان السُّهُو.

إلى هذا يذهب أبو بكر الأصمُّ أو كلام نحوه. وقرأ بعضهم قوله: ﴿إِلَّا أَن تَكُونَا﴾ مَلَكَيْنِ بِكَسْرِ اللام مِنَ الْمُلْكِ^(١)، ذهب في ذلك إلى ما قال: ﴿هَلْ أَذْلَكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ [طه: ١٢٠] وقراءة العامة الظاهرة ﴿إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ بِنَضْبِ اللام مِنَ الْمَلَائِكَةِ. وقد ذكرنا جهة رغبة آدم في أن يصير ملكاً حين^(٢) تناول منها في صدر الكتاب على قدر ما حفظنا.

الآية ٢٢

وقوله تعالى: ﴿فَدَلَّهَا بِرُؤُوسِهِمَا﴾ قال أبو عوسجة: ﴿فَدَلَّهَا بِرُؤُوسِهِمَا﴾ أي أوردهما؛ يقال: دلاني فلان بحبل غرور؛ أي إنه زين الشُّصَح^(٣) حتى يركبهُ. وأصل التَّذليلِ مِنَ الدَّلْو، وهو من الدعاء؛ أي دَعَاهُما بِغُرُورٍ، [أي دعا]^(٤) إياهما بِغُرُورٍ؛ وهو قوله تعالى: ﴿هَلْ أَذْلَكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ [طه: ١٢٠] وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠].

وقوله تعالى: ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ [وفيه وجهان]:

أحدهما: إن^(٥) قيل: كيف خُصَّ السَّوأة بالذَّكر، ومِنَّته في كُلِّ الْبَدَنِ لا في السَّوأة خاصَّة؟ وكذلك قوله تعالى: ﴿يَبْدِي مَادَمَ قَدْ أَزَلْنَا عَنْكَ لِباسَ يَوْمِ سَوَاتِكُم﴾ [الأعراف: ٢٦] ذَكَرَ مِنَّته في ما أُنْعِمَ علينا مِنْ سِتْرِ الْعَوْرَةِ وفي غَيْرِهِ مِنَ الْبَدَنِ مِنْ دَفْعِ الْبَرْدِ وَالْحَرِّ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

قيل: لَأَن كُشِفَ الْعَوْرَةُ مُسْتَفْهِجٌ فِي الطَّنِيعِ وَالْعَقْلِ جَمِيعاً. وأما كُشِفَ غَيْرِهَا^(٦) مِنَ الْبَدَنِ فَلَيْسَ هُوَ مُسْتَفْهِجٌ فِي الطَّنِيعِ وَلَا فِي الْعَقْلِ، وربما يَبْدِي الْمَرْءُ غَيْرَهَا^(٧) مِنَ الْبَدَنِ سِوَى الْعَوْرَةِ عِنْدَ الْحَاجَةِ، وَيَسْتُرُ عِنْدَ غَيْرِ الْحَاجَةِ. وأما الْعَوْرَةُ فَإِنَّهُ لَا يَبْدِيهَا^(٨) إِلَّا فِي حَالِ الضَّرُورَةِ؛ لِذَلِكَ كَانَ مَا ذَكَرُوا: أَن يُقَالَ: إِنَّ الْمَفْرُوضَ^(٩) مِنَ السُّتْرِ هُوَ قُدْرُ الضَّرُورَةِ، وَالْآخِرُ يَلِيهِ إِمَّا بِحَقِّ التَّحْمُلِ وَإِمَّا بِحَقِّ دَفْعِ الْبَرْدِ وَالْحَرِّ وَالْأَذَى؛ لِذَلِكَ تَخْصِيصُهَا^(١٠) بِالذَّكَرِ، وَالْمِئَةُ^(١١) وَالنَّعْمَةُ عَظِيمَةٌ فِي لِبَاسِ غَيْرِهَا^(١٢) مِنَ الْبَدَنِ.

فإن قيل: إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَنِ الْجَمَاعِ مَرَّةً بِالْمَنْسِ وَمَرَّةً بِالْعُسَيَانِ، وَعَنِ الْخَلَاءِ بِالْغَائِطِ، وَهُوَ الْمَكَانُ الَّذِي تُقْضَى فِيهِ الْخَوَائِجُ، وَكَذَلِكَ جَمِيعُ مَا لَا يُسْتَحْسَنُ ذِكْرُهُ مُصْرَحاً فَإِنَّمَا ذَكَرَهُ بِالْكِنَايَةِ، وَههنا ذَكَرَ السَّوأةَ فِي الْعَوْرَةِ، قيل: السَّوأةُ وَالْعَوْرَةُ هُمَا كِنَايَةٌ [عَنِ الدُّبُرِ، لَمْ يَذْكُرْهُ مُصْرَحاً، فَهُمَا]^(١٣) كِنَايَةٌ.

والثاني: في ذِكْرِ تَخْصِيصِ السَّوأة؛ وَذَلِكَ أَن قَضَى الشَّيْطَانُ إِنَّمَا كَانَ إِلَى إِبْدَاءِ عَوْرَتَيْهِمَا^(١٤) لَا غَيْرُ. أَلَا تَرَى أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يُجْعَلْ لِغَيْرِ الْبَشَرِ عَوْرَةً تُسْتَرُّ؟ وَلِذَلِكَ خُصَّ السُّتْرُ بِالْقَبْرِ، إِذَا مَاتَ يُقْبَرُ لِأَجْلِ عَوْرَتِهِ، وَلَا يُقْبَرُ غَيْرُهُ مِنَ الدَّوَابِّ إِذَا مَلَكَ، وَلَا يُسْتَرُّ فِي حَالِ حَيَاتِهِ، كَانَ قَضَاهُ إِلَى ذَلِكَ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْفَا بِتَخَصُّصَانِ﴾ قال أبو عوسجة: ﴿وَلَوْفَا﴾ أي أَخْذا؛ تقول: طَفِيفْتُ أَفْعَلُ كَذَلِكَ، أي أَخَذْتُ وَالْخُصْفُ الْخِيَاطَةُ فِي التَّغْلِ وَالْخُفِّ، وَهُوَ مُسْتَعَارٌ ههنا. وقال مُجَاهِدٌ: ﴿بِتَخَصُّصَانِ﴾ أي يَرْفَعَانِ كَهَيْئَةِ الثَّوبِ، وَقِيلَ: ﴿بِتَخَصُّصَانِ﴾ يُعْطَيَانِ.

ثم قوله تعالى: ﴿وَلَوْفَا بِتَخَصُّصَانِ عَلَيْنَا مِنْ دَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ إِمَّا حَيَاءً أَحَدِهِمَا مِنَ الْآخَرِ وَإِمَّا^(١٥) حَيَاءً مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَلِهَذَا

(١) انظر معجم القراءات القرآنية [٣٤٨/٢]. (٢) في الأصل: حيث. (٣) في الأصل: الصبح. (٤) في الأصل: ودعاء. (٥) في الأصل: فإن. (٦) في الأصل: غيره. (٧) في الأصل: غيره. (٨) في الأصل: يبدى. (٩) في الأصل: الفروض. (١٠) في الأصل: تخصيصه. (١١) في الأصل: وم. (١٢) في الأصل: غيره. (١٣) في الأصل: لم يذكروا الدبر فهو. (١٤) في الأصل: عورتها. (١٥) في الأصل: وم. أو.

نقول: إنه يُكره للرجل في الخلوة أن يكشف عورته، ويُبديها. وعلى ذلك روي في الخبر أنه قال: «فإنه أحق أن يُستخى منه» [ينحore البخاري: ٢٧٨] وأما حياء أحدهما من الآخر فلما^(١) بدت لكل واحد منهما عورة صاحبه. ولهذا كره أبو خيفة^(٢) أن ينظر الرجل إلى فرج زوجته والمرأة إلى فرج زوجها، أو لهما وقع بصر كل واحد منهما على فرجه^(٣)، فذلك يُكره أيضاً أن ينظر المرء إلى فرجه.

ألا ترى أنه قال: ﴿يُبْدِي لَهَا﴾ [الأعراف: ٢٠] ولم يقل: لِيُبْدِيَهَا؟ فهذا يدل على أنه لا ينبغي أن ينظر إلى فرج زوجته ولا الزوجة إلى فرجه.

وقوله تعالى: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ يَنْهَ عَنْهُمَا الشَّجَرَةَ﴾ الآية. يختصم قوله تعالى: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾ وخياً أوحى إليهما على يدي ملك كقوله تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ [التحریم: ١٢] أضاف إلى نفسه لما يتفخ فيه بأمره. فعلى ذلك هذا، وإلهاماً ألهمهما كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَرْسِينَ﴾ [القصص: ٧] وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ ابْنِ صُلَيْمَ﴾ [طه: ٣٨ و ٣٩]. [وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْقَلَمِ﴾ [النحل: ٦٨] ونحوه، وإنما هو إلهام.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ حين^(٤) أوقفناها في الشدايد وكذا العيش. والظلم هو وضع الشيء في غير موضعه.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ قال الحسن: هن الكلمات^(٥) التي تلقاها آدم من ربه كقوله تعالى: ﴿قُلْنَا مَا مِنْ رَبِّهِمْ كَلِمَةٌ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧]؛ قال آدم ما ذكر في الآية، وكذلك قال نوح: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَتَلَكَ مَا لَبَسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧]. وقال إبراهيم: ﴿رَبِّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [إبراهيم: ٤١] وقال نوح: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [نوح: ٢٨] بغضه خرج على الأمر، وبغضه على السؤال، وكلمه على الدعاء.

والسؤال ليس على الأمر، وإن خرج ظاهره مخرج الأمر؛ لأن الأمر بمن هو دونه لمن قوته أمر؛ لو أن ملكاً من الملوك إذا أمره بغض خديه أو رعيته شيئاً^(٦)، فهو ليس بأمر، لكنه سؤال ودعاء. فعلى ذلك دعاء الأنبياء^(٧) ربهم.

فإن قيل: إن الرسل سألوا ربهم المغفرة ليرزأهم في الملا فلا يخلو: إما أن يجابوا^(٨) في ذلك، وإما ألا^(٩) يجابوا؛ فإن لم يجابوا في ما سألوا فهو عظيم، وإن^(١٠) أجيبوا في ذلك [غفر لهم]^(١١)، والمغفرة في اللغة الستر. كيف ذكرت رزأهم في الملا إلى يوم القيامة؟

قيل: لوجوه: أحدها: لما ارتكبوا تلك الرذائل عظم [الأمر عليهم]^(١٢) واشتعلت قلوبهم بذلك لعظم ما ارتكبوا عندهم، لم يخطر ببالهم عند سؤالهم المغفرة ستر ذلك على الناس ويتمانها عنهم بعد أن أجاب الله بالتجاوز عنهم في ذلك.

أو أن يقال: أراد بإفشاء ذلك وإظهاره إيقاظ غيرهم وتنبيهاً في ذلك ليغلموا أن الرسل مع جليل قدرهم^(١٣) وعظيم منزلتهم عند الله لم يحاسبهم في العتاب والتوبيخ بما ارتكبوا، فمن دونهم أحق [بذلك، أو أنه]^(١٤) ذكر ذلك ليغلموا أنه ليس بغافل عن ذلك، ولا يخفى عليه شيء، والله أعلم بذلك.

وقال^(١٥) تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ وقال: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١] وقال: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزَماً﴾ [طه: ١١٥] فأغلمنا الله^(١٦) أن آدم نسي أمر ربه. فقال قوم من أهل العلم [لو]^(١٧) أكل آدم من الشجرة، وهو ناسي لنهى الله

(١) الغاء ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل: بصره. (٣) ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل: حيث. (٥) في الأصل: كلمات. (٦) أدرج قبلها في الأصل: الأمير. (٧) في الأصل: أجيبوا. (٨) في الأصل: أو أن لم. (٩) في الأصل: فإن. (١٠) ساقطة من الأصل. (١١) ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل: قدر. (١٣) في الأصل: ذلك أو أن. (١٤) في الأصل: وقوله. (١٥) ساقطة من الأصل.

إِيَّاهُ عَنْ أَكْثَلِهَا، وَكَانَ أَكْثَلُهَا مِنْهَا ظُلْمًا مِنْهُ لِنَفْسِهِ وَعِضْبَانًا لِرَبِّهِ، وَإِنْ فَعَلَ^(١) ذَلِكَ نَاسِيًا، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَفَضَّلَ عَلَى أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ، فَرَفَعَ عَنْهُمْ [الْخَطَأَ وَالنَّسْيَانَ]^(٢) وَمَا اسْتَكْبَرُوا عَلَيْهِ^(٣).

وَقَالَ قَوْمٌ: مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَنَسِيتُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] وَلَا تَذِيرِي كَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: إِنَّ^(٤) الْخَطَأَ وَالنَّسْيَانَ فِي الْأَحْكَامِ مَوْضُوعٌ بِهَذَا الْحَدِيثِ؛ فَيُقَالُ: قَمَا تَقُولُونَ فِي قَتْلِ الْخَطَلِ؟ هَلْ فِيهِ الدِّيَّةُ وَالْكَفَّارَةُ؟ وَمَا تَقُولُونَ فِي رَجُلٍ أَفْسَدَ مَتَاعَ رَجُلٍ، وَآخَرَةً، نَاسِيًا أَوْ مُخْطِئًا؟ فَإِنْ قَالُوا: ذَلِكَ لَا زِمَ عَلَيْهِ فَكَيْفَ قُلْتُمْ: إِنَّ الْحَدِيثَ الَّذِي جَاءَ فِي [وَضْعِ]^(٥) الْأَحْكَامِ، وَأَنْتُمْ تَوْجِبُونَ الضَّمَانَ؟ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: وَجْهَ الْحَدِيثِ عِنْدَنَا أَنَّ الْأُمَّةَ قَلِيلٌ أَمْتِنَا كَانَتْ مَأْخُودَةً بِالْخَطَلِ وَالنَّسْيَانِ فِي مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ رَبِّهَا، فَرَفَعَ اللَّهُ تَعَالَى الْحَرَجَ عَنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ فِي ذَلِكَ تَفْضِيلًا مِنْهُ عَلَيْنَا مِنْ بَيْنِ الْأُمَمِ.

وَأَمَّا الْغَرَامَاتُ وَالضَّمَانَاتُ فِي الْأَحْكَامِ الَّتِي بَيَّنَّ النَّاسِ فِيهِ لَازِمَةً عَلَيْهِمْ^(٦)؛ خَطَأً فَعَلُوا أَوْ عَمْدًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿فَلَا رَيْبَ لَنَا بِمَنَّا أَفْسَدْنَا﴾ دَلَالَةٌ النَّقْصِ عَلَى الْمُعْتَرِلَةِ: إِنَّهُمْ يَقُولُونَ: الصَّغَائِرُ مَغْفُورَةٌ بِاجْتِنَابِ الْكِبَارِ، ثُمَّ مِنْ قَوْلِهِ: إِنَّ الرُّسُلَ وَالْأَنْبِيَاءَ مَعْصُومُونَ عَنِ الْكِبَارِ، قَوْلُهُ آدَمَ، لِأَنَّكَ أَنْهَا صَغِيرَةٌ لِمَا ذَكَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَأَزَلُّوا يَوْمَئِذٍ الْبَصِيرَةَ﴾ فَإِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ إِلَّا أَنْ يُعَذَّبَ، يَصِيرُ كَأَنَّهُ قَالَ: إِنَّ جُرْتَ، وَظَلَمْتَ، عَلَيْنَا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

وَفَائِدَةُ تَغْزِيرِ آدَمَ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ؛ لِأَنَّ الْمَلَكَ [عَلَى]^(٧) مَا ذَكَرَ لَا يَقْتَرِفُ عَنِ الْعِبَادَةِ^(٨)، وَلَا يَغْصِي^(٩) رَبَّهُ، وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى شَيْءٍ مِنَ الْمُؤَنَةِ / ١٧١ - أ / وَمَنْ قَرَأَ مَلِكِينَ^(١٠) لِأَنَّ الْمَلِكَ يَكُونُ نَافِذَ الْأَمْرِ وَالْقَوْلِ فِي مَمْلَكَتِهِ وَذَلِكَ مِمَّا يَرْغَبُ فِيهِ، أَوْ أَنْ يَكُونَ بِذَلِكَ لِيَشْفَعَلَهُمَا عَنْ نَهْيِ رَبِّهِمَا حَتَّى يَنْسِيَ ذَلِكَ، فَيَتَنَوَّلَا مِنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ عَلَى مَا فَعَلَا، وَفِي مَا ذَكَرَ الْخَلْقَ، وَلِأَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ^(١١) أَلَذَّ وَلَا أَشْهَى مِنَ الْحَيَاةِ.

وَالْأَشْبَهُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُمَا^(١٢) لَمْ يَنْسِيََا نَهْيَ اللَّهِ إِيَّاهُمَا عَنِ التَّأَوُّلِ مِنْهَا، وَلَكِنْ نَسِيََا^(١٣) قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿تَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٩] لِذَلِكَ تَنَوَّلَا. وَلَوْ ذَكَرَا قَوْلَهُ تَعَالَى ﴿تَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ مَا تَنَوَّلَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٢٤

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ أَقِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوًّا﴾ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ [أَنَّهُ]^(١٤) قَالَ: آدَمَ وَحَوَّاءَ وَابِلَيْسَ وَالْحَبَّةَ، وَقَالَ الْحَسَنُ: آدَمَ وَوَسْوَسةَ الشَّيْطَانِ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى [ذَلَّ عَلَى]^(١٥) أَنَّ الشَّيْطَانَ لَمْ يَكُنْ فِي السَّمَاءِ، إِنَّمَا وَسْوَسةَ لآدَمَ^(١٦) وَحَوَّاءَ مِنْ بَعْدِ. فَالْأَمْرُ بِالْهُبُوطِ لِيَوْسُوسَتِهِ، وَلِذَلِكَ بَقِيََتْ فِي أَوْلَادِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: دَلَّ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مَسَرَّتٌ وَمَنْعٌ إِلَى حِينٍ﴾ عَلَى أَنَّ الْهُبُوطَ إِنَّمَا كَانَ مِنَ السَّمَاءِ، وَكَانُوا فِي السَّمَاءِ. ثُمَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ أَقِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوًّا﴾ كَانَ الْأَمْرُ بِالْهُبُوطِ لَمْ يَكُنْ [لَهُمْ] مَعَا^(١٧)؛ لِأَنَّ إِبِلَيْسَ أَمَرَ بِالْهُبُوطِ حِينَ أَبَى السُّجُودَ، وَآدَمَ وَحَوَّاءَ [أَمْرًا]^(١٨) حِينَ تَنَوَّلَا مِنَ الشَّجَرَةِ. ثُمَّ جَمَعَهُمْ فِي الْأَمْرِ بِالْهُبُوطِ لِغَلَمِ أَنْ لَيْسَ فِي الْجَمْعِ بِالذِّكْرِ دَلَالَةٌ وَجُوبُ الْحُكْمِ وَالْأَمْرِ مَجْمُوعًا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿أَقِطُوا﴾ لَا يُفْهَمُ مِنْهُ الْهُبُوطُ مِنَ الْأَعْلَى. أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى ﴿أَقِطُوا مِصْرًا﴾ [البقرة: ٦١]

(١) فِي الْأَصْلِ: فَعَلَى (٢) فِي الْأَصْلِ: فِي الْخَطَلِ وَالْعِصْيَانِ. (٣) إِشَارَةٌ إِلَى قَوْلِهِ ﷺ رَفَعَ عَنْ أَمْتِي الْخَطَأَ وَالنَّسْيَانَ وَمَا اسْتَكْبَرُوا عَلَيْهِ انظر سنن البيهقي في الكبرى [٣٥٧/٧]. (٤) عِنْدَ هَذِهِ الْكَلِمَةِ نَهَايَةُ الْوَرَقَةِ السَّاقِطَةُ الَّتِي لَمْ تَصُورْ مِنْ م وَالَّتِي كَانَ أَوَّلُهَا تَمَتُّة تَفْسِيرُ الْآيَةِ / ١٧ / ثُمَّ لَا يَنْتَهِي بَيْنَ يَدَيْهِمْ وَالَّتِي أَوَّلُهَا: وَمَا فَوْقَ، وَآخَرُهَا: وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: إِنَّ [انظر الحاشية (٨) ص (٢١٣)]. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: لَهُمْ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) إِشَارَةٌ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَسْبَحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْترُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]. (٩) إِشَارَةٌ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَصُورُونَ اللَّهَ مَا أَرْتَهُمْ وَيَقُولُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦]. (١٠) انظر معجم القراءات القرآنية [٣٤٨/٢]. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: بِشَيْءٍ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنَّهُ. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: نَسِيَ (١٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٦) فِي الْأَصْلِ وَم: آدَمَ. (١٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

أي أنزلوا فيه؟ وقوله تعالى: ﴿عَذُوبٌ﴾ إما بالكفر وإما بما يستعنى في هلاكنا. وكل من يستعنى في هلاكنا فهو عذو لنا، ونحن أعداء له.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ قيل: إلى منتهى آجالكم، وإبليس إلى النفخة الأولى. ويشبه أن يكون هذا ليس على التوقيت، ولكن على الدوام والقرار فيها.

الآية ٢٥ وقوله تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ قيل: في الأرض تعيشون ﴿وَفِيهَا تَمُوتُونَ﴾ عند انقضاء آجالكم ﴿وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ في القيامة.

الآية ٢٦ وقوله تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ مَاءٌ دَمَاقٌ أَرْزَقْنَا عَلَيْكَ لَبَاسًا يُؤَرِّى سَوَآتِكَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه والحسن: أنزلنا ماء القراح من السماء ليأخذ منه اللباس ما يوارى عورتهم، ويتخذ منه الطعام والأشياء التي بها قوام أنفسهم.

ويختلج قوله تعالى: ﴿قَدْ أَرْزَقْنَا عَلَيْكَ لَبَاسًا﴾ أنزل الماء والأسباب التي بها يتخذ اللباس والأطعمة والأشربة، والعلم في ذلك الماء [أسباب العلم] ^(١) بذلك. وأما ما عرفت الخلق أن كيف يتخذ ذلك لباساً والأطعمة والأشربة؟

وفيه دليل إثبات الرسالة لأنهم لم يعرفوا ذلك إلا بوحي من السماء. أو أن يكون قوله تعالى: ﴿أَرْزَقْنَا عَلَيْكَ لَبَاسًا يُؤَرِّى سَوَآتِكَ وَرِيشًا﴾ أي جعل لكم، وأنشأ لكم ما تتخذون منه اللباس والطعام والشراب، ليس على الإنزال، ولكن على أن جعل لكم ذلك كقوله تعالى: ﴿جَعَلْ لَكُمْ الْأَنْهَمَ لِرَكْبَتَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [غافر: ٧٩]. وقوله تعالى: ﴿جَعَلْ لَكُمْ﴾ أي أنشأ لكم ﴿سَرِيلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ وَسَرِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ﴾ [النحل: ٨١] وهو أن خلق لنا ذلك.

وفيه دليل خلق أفعال الخلق فيه؛ لأنه إنما صار لباساً وطعاماً؛ وما لا يفعل من العباد أنه أنزل من السماء هكذا. ثم أخبر أنه جعل لنا ذلك. دل أنه خلق فعل الخلق فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَرِيشًا﴾ قال بغضهم: مالا، وقال بغضهم معاشاً، وقال القتيبي: الريش ما ظهر من اللباس، وريش الطائر وما ستر به.

وقوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾ في حريف ابن مسعود رضي الله عنه ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾ بالرفع على الابتداء، أي لباس التقوى خير، ومن نصبة أيضاً [فإنما] ^(٢) ينصبه على الجواب لما تقدم، وإلا الحق فيه الرفع.

ثم اختلف فيه أهل التأويل: قال الحسن: لباس التقوى الدين، وقال أبو بكر الأصم: القرآن، وقيل: العفاف، وقيل: الحياء، وقيل: الإيمان، فكله واحد؛ أي كل ما ذكر من لباس التقوى خير من اللباس الذي يؤتد ^(٣)؛ لأن الدين والإيمان والقرآن والحياء يزجره، ويمنعه عن المعاصي، فهو خير، لأنه لباس في الدنيا والآخرة؛ لأن المؤمن التقي العفيف الحيي لا تبذو [منه] ^(٤) عورة، وإن كان عارياً من الثياب، وإن الفاجر لا يزال تبذو منه عورته، وإن كان كاسياً من الثياب، ولا يتحفظ في لباسه. فالتقوى خير، وهو كقوله تعالى: ﴿فَلَبَّكَ حَيَّرَ الرَّادُّ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ٩٧] هذا التأويل للقراءة التي تقرأ بالرفع ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾ على الابتداء، وأما من قرأ بالنصب فهو ردة إلى قوله تعالى: ﴿قَدْ أَرْزَقْنَا عَلَيْكَ لَبَاسًا يُؤَرِّى سَوَآتِكَ وَرِيشًا﴾ ثم أنزلنا عليكم أيضاً ريشاً تتقون به الحر والبرد والأذى، فيكون فيه ذكر لباس لسائر البدن، وفي الأول ذكر لباس العورة.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ مَّآيَتِ اللَّهِ﴾ يختلج قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ الذي أخذ منه اللباس والأطعمة والأشربة من آيات الرسالة؛ لأن كل ذلك إنما عرفت بالرسل بوحي؛ وهو ما ذكرنا أن فيه دليل إثبات الرسالة.

ويختلج ﴿ذَلِكَ مِنْ مَّآيَتِ اللَّهِ﴾ من آيات وحيات الله وروبيته لما جعل منافع السماء متصلة بمنافع الأرض مع ما بعد ما بينهما. دل ذلك أن منشئهما ومدبرهما واحد؛ لأنه لو كان تدبير اثنين ما اتسق تدبيرهما لاتصال منافع أحدهما بالآخر.

(١) في الأصل وم: والأسباب والعلم. (٢) من م، ساقطة من الأصل، أنظر معجم القراءات القرآنية [٣٥١/٢]. (٣) في الأصل وم: ذكر. (٤) ساقطة من الأصل وم.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ أي لَعَلَّهُمْ يُؤَفَّقُونَ لِلتَّذَكُّرِ، وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٧]... أي لَعَلَّهُمْ يُؤَفَّقُونَ لِلتَّقْوَى، وَلَعَلَّهُمْ يُؤَفَّقُونَ لِلشُّكْرِ؛ لَأَنَّهُ حَرْفُ شَكٍّ. هذا يَحْسُنُ أَنْ يُقَالَ، وَاللَّهُ أَغْلَمُ. أو نقول: لكي يُلْزِمَهُمُ التَّذَكُّرُ وَالتَّشْكُرُ.

الآية ٢٧

وقوله تعالى: ﴿يَنْبَغِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: خَاطَبَ بِهِ أَهْلَ مَكَّةَ فِي تَكْذِيبِهِمْ رَسُولَ اللَّهِ وَمُخَالَفَتِهِمْ أَمْرَهُ فِي الْإِخْرَاجِكُمْ مِنَ الْأَمْنِ وَالسَّعَةِ ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ﴾ دَارِ الْأَمْنِ وَالسَّعَةِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ أَي اخْذَرُوا دَعَاءَهُ إِلَى مَا يَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ فَإِنَّهُ يَمْنَعُ عَنْكُمْ فِي الْآخِرَةِ الْكَرَامَةَ وَالثَّوَابَ ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ﴾ دَارِ الْكَرَامَةِ وَالْمَنْزِلَةِ.

وقال أهل التأويل: ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ أَي لَا يُضِلُّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ [ولا] ^(١) يَفْتِنَنَّكُمُ كَمَا فَعَلَ بِأَبَوَيْكُم ^(٢): أَخْرَجَهُمَا مِنَ الْجَنَّةِ، وَقَالَ آخَرُونَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ بِمَا تَهْوَى بِهِ أَنْفُسُكُمْ، وَتَمِيلُ ^(٣) إِلَى شَهَوَاتِهَا وَأَمَانِيهَا ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ بِمَا هَوَتْهُ [نَفْسَاهُمَا وَشَهَوَاتُهُمَا؛ يُحَذِّرُهُمَا] ^(٤) اتِّبَاعَ هَوَى النَّفْسِ وَشَهَوَاتِهَا وَأَمَانِيهَا؛ فَإِنَّ السَّبَبَ الَّذِي بِهِ كَانَ إِخْرَاجُهُمَا هُوَ هَوَى النَّفْسِ وَأَمَانِيهَا.

وقوله تعالى: ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ يَخْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ وَهَذَا فِي الْقُرْآنِ كَثِيرٌ: يَفْعَلُ بِمَعْنَى فَعَلَ، وَيَخْتَمِلُ عَلَى الْإِضْمَارِ؛ كَأَنَّهُ قَالَ: أَرَادَ أَنْ يَنْزِعَ ﴿عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِزِيَّتِهِمَا سَوَاءَهُمَا﴾ وَقَدْ ذَكَرَ أَنَّ الْمَفْرُوضَ مِنَ الشَّرِّ هُوَ سِتْرُ الْعَوْرَةِ، اخْتِجَ إِلَيْهِ، أَوْ لَمْ يُخْتِجْ. وَأَمَّا غَيْرُهُ مِنَ الشَّرِّ فَإِنَّمَا هُوَ لِدَفْعِ الْأَذَى مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ. وَالْمَفْتُونَ بِالشَّيْءِ هُوَ الْمَشْغُوفُ بِهِ وَالْمَوْلَعُ بِهِ؛ يَقُولُ: لَا يَمْتَنِعُكُمْ عَنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ هُوَ كَانَ قَصْدُهُ مَا ذَكَرَ مِنْ نَزْعِ اللَّبَاسِ وَإِبْدَاءِ الْعَوْرَةِ، وَهُوَ مَا ذَكَرَ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرْتَبِكُمْ أَوْ يَقِيلُ مِنْ جَيْثٍ لَا تُؤْتَمَّنُّ﴾ قِيلَ: قَبِيلُهُ: جُنُودُهُ وَأَعْوَانُهُ. حَدَّثَنَا [مِنْ] ^(٥) إِبْلِيسَ وَأَعْوَانِهِ بِمَا يَرَوْنَاهُ، وَلَا نَرَاهُمْ. فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ كَلَّفْنَا مُحَارَبَتَهُ، وَهُوَ بِجَيْثٍ لَا نَرَاهُ، وَهُوَ يَرَانَا، وَمِثْلُهُ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْأَعْدَاءِ لَا يُكَلِّفُنَا مُحَارَبَةَ مَنْ لَا نَرَاهُ، وَلَا نَقْدِرُ [عَلَى] ^(٦) الْقِيَامِ بِمُحَارَبَتِهِ، وَلَيْسَ فِي وَسْعِنَا الْقِيَامُ بِمُحَارَبَتِهِ مَنْ لَا نَرَاهُ؟

قِيلَ: إِنَّهُ لَمْ يُكَلِّفْنَا مُحَارَبَتَهُ إِذْ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ السُّلْطَانَ / ١٧١ - ب/ عَلَى أَنْفُسِنَا وَإِفْسَادِ مَطَاعِينَا وَمَشَارِينَا وَمَلَابِسِنَا. وَلَوْ جَعَلَ لَهُمْ لَأَهْلَكُوا أَنْفُسَنَا، وَأَفْسَدُوا غَدَائَنَا. إِنَّمَا جَعَلَ لَهُ السُّلْطَانَ فِي الرِّسَالَةِ فِي مَا يُؤَسِّسُ فِي صُدُورِنَا، وَقَدْ جَعَلَ لَنَا السَّبِيلَ إِلَى مَعْرِفَةِ ^(٧) وَسَاوِيهِ بِالنَّظَرِ وَالتَّفَكُّرِ نَحْوَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَوِذْ بِاللَّهِ﴾ الْآيَةُ [الأعراف: ٢٠٠] وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [المؤمنون: ٩٧] وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ الْذِيكَ اتَّقُوا إِذَا سَأَلْتُمْ طَائِفَتًا مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾ [الأعراف: ٢٠١] عَلَيْنَا مَا بِهِ نَدْفَعُ وَسَاوِيَهُ وَهَمَزَاتِهِ، وَجَعَلَ لَنَا الْوُصُولَ إِلَى دَفْعِ وَسَاوِيِهِ بِحُجَجٍ وَأَسْبَابٍ جَعَلَهَا ^(٨) لَنَا.

فهذا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ يُجَوِّزُ أَنْ يُكَلِّفَنَا بِأَشْيَاءَ، لَمْ يُعْطِنَا أَسْبَابَ تِلْكَ الْأَشْيَاءِ بَعْدَ أَنْ جَعَلَ فِي وَسْعِنَا الْوُصُولَ إِلَى تِلْكَ الْأَسْبَابِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ وَفَتْ التَّكْلِيفُ بِتِلْكَ الْأَسْبَابِ مِنْ نَحْوِ الْأَمْرِ بِالصَّلَاةِ، وَإِنْ لَمْ نَكُنْ عَلَى الطَّهَارَةِ؛ إِذْ جَعَلَ فِي وَسْعِنَا ^(٩) الْوُصُولَ إِلَى الطَّهَارَةِ، وَنَحْوِ الْأَمْرِ بِإِدَاءِ الزَّكَاةِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ وَفَتْ الْأَمْرِ مَنْ تُؤَدِّي إِلَيْهِ حَاضِرًا، وَنَحْوِ الْأَمْرِ بِالْحَجِّ وَغَيْرِهِ مِنَ الْعِبَادَاتِ، وَإِنْ كَانَ لَا يَصِلُ إِلَى آدَاءِ مَا [فَرَضَ اللَّهُ] ^(١٠) عَلَيْهِ إِلَّا بَعْدَ أَوْقَاتٍ مَعَ اخْتِمَالِ الشَّدَائِدِ.

وهذا يَرُدُّ أَيْضًا عَلَى قَوْلٍ مَنْ يَقُولُ ^(١١): لَا تَلْزَمُ الْأَوَامِرُ وَالْمَنَْاهِي مَنْ جَهَلَهَا، وَلَا يُكَلِّفُ إِلَّا بَعْدَ الْعِلْمِ بِهَا، لِأَنَّهُ لَا يَتَكَلَّفُ مَنْ لَا يَلْزَمُهُ فَرَضٌ مِنْ فَرَائِضِ [اللَّهِ] ^(١٢) وَعِبَادَةٌ مِنْ عِبَادَاتِهِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَكْسِبُ أَسْبَابَ الْعِلْمِ لِقَلَا يَلْزَمُهُ ^(١٣) ذَلِكَ. فَهَذَا بَعِيدٌ مُحَالٌ، وَالْوَجْهُ فِيهِ مَا ذَكَرْنَا.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: لِلتَّذَكُّرِ وَ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: أَبَوَيْكُمْ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَأَمَالَت. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنْفُسَهُمَا وَاسْتَهَانَهَا يَحْذَرُهُمْ. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ: مَعْرِفَتُهُ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: جَعَلَ. (١٠) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: وَسَمِعَهَا. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: افْتَرَضَ. (١٢) أُدْرِجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: أَنْ. (١٣) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١٤) فِي الْأَصْلِ وَم: يَلْزَمُ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ اختلف أهل الإغترال فيه؛ قال أبو بكر الأصم: الجعل من الله على وجوه:

أحدها: السبب الذي أغطينا لهم [هو] ^(١) السبب الذي به صاروا أولياء لهم كما يقول الرجل لآخر: جعلت لك الدار والعبء والمال، ولم يجعل له ذلك، ولكن أعطاه ما به صار ذلك [له] ^(٢)، وهو إنما أعطاه سبب ذلك، فأضاف ^(٣) الجعل إليه. فعلى ذلك ما أضاف الجعل إليه لما أعطاه السبب.

وقال جعفر بن حرب: الجعل هو التخليئة، خلى بينهم وبين ذلك، فأضاف ذلك إليه بالجعل كما يقال للرجل: جعلت عبدك قتلاً ضراباً إذا خلى بينه وبين ما يفعل، وهو قادر على منعه ^(٤). فعلى ذلك في ما أضاف الجعل إلى نفسه، هو أن خلى بينهم وبين أولئك يفعلون ما شاؤوا.

وقال الحسن: من حكم الله أن من عصى يكون عدواً له، ومن أطاع يكون ولياً له، ومن أطاع الشيطان فهو وليه، ومن عصاه يكون عدواً له. فكذا حكم الله تعالى في كل من أطاعه، يكون ولياً له، ومن عصاه يكون عدواً له.

وقال غيرهم من المعتزلة: قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي [أوجدناهم لذلك] ^(٥) أولياءهم. ولكن لو جاز إضافة ذلك إلى الله تعالى [لما] ^(٦) ذكر هؤلاء لجاز إضافة ذلك إلى الأنبياء، لأنه قد كان منهم التخليئة في ذلك والتشبيه لهم بذلك والحكم على ما قال الحسن والوجود. فإن لم يجز إضافة ذلك إليهم دل أنه قد كان من الله في ذلك صنع، لم يكن من الأنبياء، وهو أن خلق منهم فعل الولاية لهم لما علم منهم أنهم يختارون ولايتهم، ويتولونهم كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلِّطْنَاهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ﴾ [النحل: ١٠٠] وبالله العظمة والشجاعة.

الآية ٢٨ وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلُّوا فَاجْشَعُوا﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه كل مغصبة فاجشة، والفاجشة كل ما عظم فيه النهي، فإذا ارتكبوا ذلك فهو فاجشة.

وقال مجاهد: فاجشتهم أنهم كانوا يطوفون بالبيت غداة. وقال غيره من أهل التأويل: هو ما حرّموا من الحرب والأنعام والنبات وغيره من نحو السائبة والحامي وغيرهما ^(٧).

لكن الفاجشة ما ذكرنا أن كل ما عظم النهي فيه والرجز فهو فاجشة، والفاجشة هو ما عظم فيه الأمر. ويعرف ذلك بوجهين:

أحدهما: يعظم ذلك في العقل.

والثاني: بالسمع يزيد ^(٨) فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [فيه وجهان:

أحدهما] ^(٩) ادعوا في ذلك أمر الله ورضاه فيه، ويقولون: لو لم يرخص بذلك، [ولو لم يأمرهم] ^(١٠) لكان ينكّلهم، ويتنقّم منهم؛ يغنون آباءهم، فاستدلوا بتركهم وما فعلوا أن الله قد كان رضي بذلك، وأمرهم [أن يفعلوا] ^(١١) ذلك. فدل تركه إياهم على ذلك على أنه قد أمرهم بذلك، ورضي عنهم كمن يخالف في الشاهد ملكاً من الملوك في أمره ونهيه، فإنه ينكّله على ذلك، ويتنقّم منه، إذا كان قادراً على ذلك. فإذا لم يفعل ذلك به دل ذلك منه على الرضا به. فعلى ذلك الله لما لم يتنقّم منهم، ولم ينكّلهم، دل ذلك على الرضا والأمر به.

والثاني: كأنهم أخذوا ذلك من المسلمين لما سمعوا من المسلمين [ما] ^(١٢) قالوا: ما شاء الله كان. ظنوا أن ما كان

(١) و(٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: فيضاف. (٤) من م، في الأصل: منه. (٥) في الأصل وم: وجدناهم كذلك. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: غيره. (٨) في الأصل وم: يرد. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: لم بأمر. (١١) في الأصل وم: إذا فعلوا. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

مِنْ آبَائِهِمْ كَانَ بِأَمْرِ مِنَ اللَّهِ وَرِضَاهُ؛ لَمْ يَفْصِلُوا بَيْنَ الْمَشِيئَةِ وَالْإِرَادَةِ هِيَ صِفَةُ فِعْلٍ كُلِّ فَاعِلٍ يَفْعَلُهُ عَلَى الْإِخْتِيَارِ نَحْوُ أَنْ يُقَالَ: شَاءَ فَعَلَ كَذَا، أَوْ أَرَادَ أَمَرَ كَذَا، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: أَمَرَ نَفْسَهُ بِكَذَا، أَوْ نَهَى نَفْسَهُ عَنْ كَذَا.

وَأَمَّا قَوْلُهُمْ: [لم] ^(١) يُنْكَلُ آبَاءَهُمْ، وَلَمْ يَنْتَقِمِ مِنْهُمْ بِمَا فَعَلُوا، ذَلِكَ أَنَّهُ رَضِيَ بِذَلِكَ، فَيُقَالُ: إِنَّ فِيهِمْ مَنْ فَعَلَ عَلَى خِلَافِ فِعْلِهِمْ وَغَيْرِ صَنِيعِهِمْ ضِدًّا مَا فَعَلَ أُولَئِكَ، ثُمَّ لَمْ يَفْعَلْ بِهِمْ ذَلِكَ، فَهَلْ ذَلِكَ عَلَى الرِّضَا مِنْهُ بِذَلِكَ؟

فَإِنْ قُلْتُمْ: بَلَى فَإِذَا؟ ^(٢) رَضِيَ بِفَعْلَيْنِ مُتَضَادَّيْنِ. وَإِنْ قُلْتُمْ: لَا، كَيْفَ ذَلِكَ فِي أُولَئِكَ عَلَى الرِّضَا وَالْأَمْرِ؟ وَلَمْ يَذَلِّ فِي مَنْ فَعَلُوا بِخِلَافِ فِعْلِهِمْ؟ فَمَا تَنَاقَضَ. وَقَدْ ذَكَّرْنَا فِي مَا تَقَدَّمَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ [قَوْلُهُ تَعَالَى] ^(٣) **﴿قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَقْلَمُونَ﴾** أَنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِهَذَا، وَحَرَّمَ هَذَا.

وقوله تعالى: **﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾** هو ما ذَكَّرْنَا: مَا عَظَّمَ النَّهْيُ فِيهِ، أَوْ كُلُّ مَا يَشْتَدُّ فِيهِ النَّهْيُ، أَوْ يَغْلُظُ، أَوْ يَكْثُرُ، هُوَ الْفَحْشَاءُ. أَلَا تَرَى أَنَّهُ يُقَالُ لِكُلِّ شَيْءٍ يَكْثُرُ فُحْشُهُ مِنْ نَحْوِ الْكَلَامِ وَغَيْرِهِ: إِنَّهُ إِذَا خَرَجَ عَنْ حَدِّهِ، وَجَاوَزَ حَدَّهُ فِي الْقَبِيحِ، أَوْ جَاوَزَ الْحَدَّ مِنَ الْكَثْرَةِ؟ وَهُمْ أَكْثَرُوا الْإِفْرَاءَ عَلَى اللَّهِ.

وقوله تعالى: **﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَقْلَمُونَ﴾** قَالَ بَعْضُهُمْ: بَل **﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَقْلَمُونَ﴾**: أَنَّهُ أَمَرَ بِذَلِكَ.

وَقِيلَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: **﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَقْلَمُونَ﴾** أَيِ اتَّعَلَّمُونَ أَنْكُمْ **﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَقْلَمُونَ﴾** لَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يُؤْمِنُونَ بِالرُّسُلِ، وَلَا كَانَ لَهُمْ كِتَابٌ، فَكَيْفَ تَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: **﴿قُلْ أَتَنْتَهُونَ اللَّهَ يَمَّا لَا يَتْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾** [يونس: ١٨] لَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: ^(٤) لَا يَعْلَمُ اللَّهُ، وَلَكِنْ عَلَى النَّفْيِ لِذَلِكَ لَيْسَ كَمَا تَقُولُونَ، وَتُتَبَوَّنَ. وَلَكِنْ يَعْلَمُ خِلَافَ ذَلِكَ وَضِدَّهُ، وَيَكُونُ فِي نَفْيِ ذَلِكَ إِبْثَاتٌ غَيْرُهُ. فَعَلَى ذَلِكَ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا يَعْلَمُونَ.

وَأَسْبَابُ الْعِلْمِ هَذَا: إِمَّا الرُّسُلُ يُخْبِرُونَ عَنِ اللَّهِ ذَلِكَ، وَإِمَّا ^(٥) الْكِتَابُ يَجِدُونَ فِيهِ مَكْتُوبًا، فَيَعْلَمُونَ، فَتَسَعُّ الشَّهَادَةُ بِذَلِكَ، وَهُمْ قَوْمٌ لَا يُصَدِّقُونَ الرُّسُلَ، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِخَبَرِهِمْ، وَلَيْسَ [لَهُمْ] ^(٦) كِتَابٌ أَيْضًا يَقْرَؤُونَهُ. فَمَا بَقِيَ إِلَّا وَخِي الشَّيْطَانِ إِلَيْهِمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: **﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَيُؤْمِنُ إِلَٰهَ آلِيَائِهِمْ﴾** [الأنعام: ١٢١].

الآية ٢٩

وقوله تعالى: **﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾** وَالْقِسْطُ هُوَ الْعَدْلُ فِي كُلِّ شَيْءٍ فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ وَغَيْرِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: **﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾** [الأنعام: ١٥٢] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: **﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾** [النساء: ١٣٥] وَأَصْلُ الْعَدْلِ هُوَ مُحَافَظَةُ الشَّيْءِ عَلَى ^(٧) الْحَدِّ الَّذِي جُعِلَ لَهُ، وَوُضِعَ مَوْضِعُهُ.

وقوله تعالى: **﴿وَأَقِيمُوا وَجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾** اخْتَلَفَ فِيهِ: قِيلَ **﴿وَأَقِيمُوا﴾** أَيِ وَسَّوُوا وَجُوهَكُمْ نَحْوَ الْكَعْبَةِ **﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾** أَيِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ تَكُونُونَ فِيهِ. وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: **﴿وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾** [يونس: ٨٧] أَيِ اجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ نَحْوَ الْكَعْبَةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: **﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾** [البقرة: ١٤٤ و ١٥٠] وَقِيلَ: **﴿وَأَقِيمُوا وَجُوهَكُمْ﴾** أَيِ اجْعَلُوا عِبَادَتَكُمْ لِلَّهِ وَلَا تُشْرِكُوا فِيهَا غَيْرَهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: **﴿وَأَدْعُوهُ تَخْلِصِيكَ لَهُ الَّذِينَ﴾** [الأعراف: ٢٩ و غافر: ٦٥]. وَنُشِبَ أَنْ يَكُونَ الْوَجْهُ / ١٧٢ - أ/ كِنَايَةً وَعِبَارَةً عَنِ الْإِنْفُسِ ^(٨)، كَأَنَّهُ قَالَ: أَقِيمُوا أَنْفُسَكُمْ لِلَّهِ، لَا تُشْرِكُوا فِيهَا، [وَلَا تَجْعَلُوا] ^(٩) لَأَحَدٍ فِيهَا] ^(١٠) شِرْكَاءَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: **﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ﴾** [القمان: ٢٢] أَيِ يَجْعَلْ نَفْسَهُ لِلَّهِ سَالِمًا.

وقوله تعالى: **﴿وَأَدْعُوهُ تَخْلِصِيكَ لَهُ الَّذِينَ﴾** يَخْتَصِلُ الدَّعَاءُ نَفْسُهُ؛ أَيِ ادْعُوهُ رَبًّا خَالِقًا وَرَحْمَانًا **﴿تَخْلِصِيكَ لَهُ الَّذِينَ﴾** بِالْوَحْدَانِيَّةِ وَالْأَلُوْهِيَّةِ وَالرُّبُوبِيَّةِ. وَيَخْتَصِلُ قَوْلُهُ: **﴿وَأَدْعُوهُ﴾** أَيِ اعْبُدُوهُ **﴿تَخْلِصِيكَ لَهُ الَّذِينَ﴾** الْعِبَادَةُ [الْمُخْلِصَةُ] ^(١١) وَلَا تُشْرِكُوا غَيْرَهُ فِيهَا. وَيَخْتَصِلُ أَيِ دِينُوا بِدِينِهِ الَّذِي دَعَاكُمْ إِلَى ذَلِكَ، وَأَمَرَكُمْ بِهِ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل فإذا، في م: قادرا. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: و. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: عن. (٨) من م، في الأصل: الانس. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم.

وقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ قَالَ قَائِلُونَ: هُوَ ^(١) صِلَةُ قَوْلِهِ ﴿فِيهَا نَحْيُونَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَنَحْنُ نُخْرِجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥] كَانَهُمْ سَأَلُوا: كَيْفَ ^(٢) يَعُودُونَ إِذَا بَعِثُوا؟ فَقَالَ: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ﴾ [كما] ^(٣) خَلَقَكُمْ ﴿تَعُودُونَ﴾ مِثْلَهُ. وَنَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هُوَ صِلَةُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَنُكْرُ كَافِرٌ وَنُكْرُ مُؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢٧] تَعُودُونَ كَمَا كُنْتُمْ ^(٤) فِي الْبَدَاءَةِ؛ الْكَافِرُ كَافِرًا، وَالْمُؤْمِنُ مُؤْمِنًا.

وقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ هُوَ مِنَ الدَّوَامِ ^(٥) لَيْسَ مِنَ الْإِبْتِدَاءِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: الضَّبِّيُّ ^(٦) كَافِرٌ أَوْ مُؤْمِنٌ، وَهُوَ الدَّوَامُ وَالْمُقَامُ فِيهِ إِلَى وَقْتِ الْمَوْتِ، وَهُوَ فِي الْبَدَاءَةِ. وَفِي الْآخِرَةِ الْإِعَادَةُ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [الروم: ٢٧] وقوله تعالى: ﴿يَبْدَأُ﴾ لَيْسَ يُرِيدُ إِبْدَاءَ نُشُوءِهِ وَلَكِنْ كَوْنَهُ فِي الدُّنْيَا. فَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ الْآيَةُ: يُخْرِجُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَيِ كَمَا كُنْتُمْ فِي الدُّنْيَا تَعُودُونَ فِي الْآخِرَةِ. كَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ مُؤْمِنٌ وَالْكَافِرُ عَلَى كُفْرِهِ.

وَالثَّانِي: كَمَا أَنْشَأَكُمْ فِي الدُّنْيَا لَا مِنْ شَيْءٍ. فَعَلَى ذَلِكَ يَبْعَثُكُمْ. لِذَلِكَ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ.

الآية ٣٠

وقوله تعالى: ﴿رَبِّقًا هَذَيْنِ﴾ بِمَا هَدَاهُمُ اللَّهُ بِفَضْلِهِ ﴿وَرَبِّقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الْعَقَابَةُ﴾ بِمَا اخْتَارُوا مِنْ فِعْلِ الضَّلَالِ، فَاصْلَحَهُمُ اللَّهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُعْذِلُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [الرعد: ٢٧] وقوله تعالى: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَيُّ هَادٍ لَمْ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

وقوله تعالى: ﴿وَنَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ مُتَعَدُّونَ﴾ فِيهِ لُزُومُ الْحُجَّةِ وَالِدَلِيلِ فِي حَالِ الْحِسَابِ وَالظَّنِّ إِذَا كَانَ بِحَسَبِ الْإِدْرَاكِ وَالْوُصُولِ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ قَالَ ﴿وَنَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ مُتَعَدُّونَ﴾ وَفِيهِ ^(٧) أَنَّهُمْ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ مُتَعَدُّونَ، وَلَمْ يَكُونُوا، ثُمَّ عُوْقِبُوا عَلَى ذَلِكَ. دَلَّ أَنَّ الدَّلِيلَ وَالْحُجَّةَ قَدْ تَلَزَمَا ^(٨)، وَإِنْ لَمْ يُعْرَفْ بَعْدُ أَنْ يَكُونَ سَبِيلُ الْوُصُولِ إِلَى ذَلِكَ، وَهَذَا يَرُدُّ قَوْلَ مَنْ يَقُولُ بَانَ فَرَائِضُ ^(٩) اللَّهُ لَا تَلَزَمُ إِلَّا بَعْدَ الْعِلْمِ بِهَا وَالْمَعْرِفَةِ.

الآية ٣١

وقوله تعالى: ﴿يَبْقَى تَادَمَ حُدُودًا زَيْنَتَكَ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْخِطَابُ، وَإِنْ خُرِجَ مُخْرَجَ الْأَمْرِ بِأَخِذِ الزَّيْنَةِ وَاللِّبَاسِ فَهُوَ عَلَى النَّهْيِ عَنْ نَزْعِهَا لِأَنَّ النَّاسَ ^(١٠) يَكُونُونَ آخِذِينَ الزَّيْنَةِ وَسَاتِرِينَ عَوْرَاتِهِمْ غَيْرَ بَادِينَ بِهَا. فَإِنْ كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ عَلَى النَّهْيِ عَنْ نَزْعِ لِبَاسِهِمْ وَإِبْدَاءِ عَوْرَاتِهِمْ، وَهُوَ مَا ذَكَرَ فِي بَعْضِ الْقِصَصِ: أَنَّ أَهْلَ الشَّرْكِ كَانُوا إِذَا طَافُوا بِالْبَيْتِ نَزَعُوا ثِيَابَهُمْ، وَيَقُولُونَ: لَا نَطُوفُ فِي ثِيَابِنَا الَّتِي أَذُنُنَا فِيهَا.

فَإِنْ كَانَ التَّأْوِيلُ [مَا] ^(١١) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَهَوَلاءِ [فَفِيهِ إِضْمَارٌ] ^(١٢)، كَأَنَّهُ قَالَ: خُذُوا زَيْنَتَكُمْ عِنْدَ هَذَا الْمَسْجِدِ كَمَا تَأْخُذُونَ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ سِوَاهُ. وَإِلَّا خُرِجَ تَأْوِيلُ الْآيَةِ عَلَى وَجْهِ:

أَحَدُهَا: يَقُولُ: صَلُّوا فِي كُلِّ مَسْجِدٍ، ذَكَرَ هَذَا لِمَنْ لَا يَرَى الصَّلَاةَ إِلَّا فِي مَسْجِدِهِ عَلَى مَا رَوَى أَنْ لَا صَلَاةَ لِجَارِ الْمَسْجِدِ إِلَّا فِي الْمَسْجِدِ.

وَالثَّانِي: صَلُّوا بِكُلِّ مَسْجِدٍ وَبِكُلِّ مَكَانٍ كَقَوْلِهِ ﷺ «جُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا» [البخاري ٣٣٥].

وَالثَّالِثُ: يَجْعَلُ الزَّيْنَةَ الْعِبَادَةَ نَفْسَهَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خُذُوا زَيْنَتَكُمْ﴾.

وَيَحْتَمِلُ مَا ذَكَرَهُ أَهْلُ التَّأْوِيلِ [كَأَنَّ أَهْلَ الْيَمَنِ] ^(١٣) يَسْتَعِيرُونَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ ثِيَابًا، يَطُوفُونَ فِيهَا، وَإِنْ لَمْ يَجِدُوا طَافُوا ^(١٤) عُرَاةً مُبْدِينَ عَوْرَاتِهِمْ، فَتَنَاهَاَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ، وَقَالَ: ﴿خُذُوا زَيْنَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أَيِ [لَا] ^(١٥) تَنْزِعُوا ثِيَابَكُمْ عَنْ عَوْرَاتِكُمْ. فَهُوَ عَلَى النَّهْيِ عَنْ نَزْعِ الثِّيَابِ وَإِبْدَاءِ الْعَوْرَةِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: هَم. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: مَم. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: كَانُوا. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: الدَّائِمَةُ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: لَصْبِي. (٧) الْوَاقِعَةُ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: يَلْزَمُ. (٩) مَن م، فِي الْأَصْلِ: يَقُولُ. (١٠) مَن م، فِي الْأَصْلِ: الْإِنْسَانُ. (١١) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: فَيَكُونُ فِيهِ. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: كَانُوا. (١٤) فِي م: بِهَا طَافُوا فِيهَا. (١٥) مَن م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ يُخْرِجُ عَلَى النَّهْيِ عَمَّا حُرِّمُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَنَافِعِ وَالنِّعَمِ الَّتِي أَحَلَّ اللَّهُ لَهُمْ مِنْ تَحْرِيمِ الْبَحِيرَةِ وَالسَّائِبَةِ وَالْوَصِيلَةِ وَالْحَامِي وَمِنْ نَحْوِ مَا حُرِّمُوا مِنَ الزَّرْعِ وَالطَّعَامِ وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَحَرَّتْ حَبْرٌ لَا يَطْعُمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِرِضَائِهِمْ وَأَنْفُسُهُمْ ظُهُورُهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٨].

خُرِجَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ عَلَى النَّهْيِ عَمَّا حُرِّمُوا مِمَّا أَحَلَّ لَهُمْ لَا عَلَى الْأَمْرِ بِالْأَكْلِ وَالشُّرْبِ؛ لِأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَأْكُلُ، وَيَشْرَبُ، وَلَا يَدْعُ ذَلِكَ. فَذَلِكَ أَنَّهُ خُرِجَ عَلَى النَّهْيِ لِمَا حُرِّمُوا. كَأَنَّهُ قَالَ: لَا تُحَرِّمُوا، وَلَكِنْ كُلُوا، وَاشْرَبُوا، وَانْتَفِعُوا بِهَا.

فَإِنْ كَانَ عَلَى ابْتِدَاءِ الْأَمْرِ بِأَخِذِ الزَّيْنَةِ وَالتَّجَمُّلِ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ، وَالْمَسْجِدُ هُوَ مَكَانُ كُلِّ عِبَادَةٍ وَنُسُكٍ عَلَى مَا يَكُونُ فِي غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَوَاقِيتِ يَتَزَيَّنُونَ، وَيَتَجَمَّلُونَ عِنْدَ اجْتِمَاعِ النَّاسِ. فَقَالَى ذَلِكَ يَكُونُونَ فِي مَكَانِ الْعِبَادَةِ وَالنُّسُكِ، أَوْ أَنْ يَكُونُوا كَمَا فِي الْمَسْجِدِ اجْتِمَاعُ النَّاسِ لِلْعِبَادَةِ^(١)، فَأَمَرُوا بِشَرِّ عَوْرَاتِهِمْ فِي ذَلِكَ. وَيَكُونُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاشْرَبُوا وَلَا تَشْرَبُوا﴾ أَيْ كُلُّوا، وَاشْرَبُوا، وَاحْفَظُوا الْحَدَّ فِي ذَلِكَ، وَلَا تَجَاوَزُوا. وَهُوَ النَّهْيُ عَنِ الْكُثْرَةِ. وَمَا ذَكَرْنَا أَنَّهُ نَهَاهُمْ عَنِ التَّحْرِيمِ^(٢) وَتَرْكِ الْإِنْتِفَاعِ بِهَا. وَفِي تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ وَتَرْكِ الْإِنْتِفَاعِ بِهَا إِسْرَافٌ ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ لِأَنَّهُ لَا يُحِبُّ الْإِسْرَافَ. وَقَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ الْمَفْرُوضَ مِنَ الشَّرِّ هُوَ مَا يُشْتَرُ بِهِ الْعَوْرَةُ. وَأَمَّا غَيْرُهُ فَإِنَّمَا هُوَ عَلَى دَفْعِ الْأَذَى وَالتَّجَمُّلِ.

أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿يَبِيعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ بَيْعِهِمَا﴾ [الأعراف: ٢٧] وَقَالَ: ﴿يَبِيعُ مَا ذَمَّ قَدْ أَرْزَلَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُؤَرِّى سَوْءَ بَيْعِكُمْ؟﴾ [الأعراف: ٢٦] مَنْ عَلَيْنَا بِمَا أُنْزِلَ مِمَّا نُسْتَرُّ بِهِ عَوْرَاتِنَا، وَإِنْ كَانَتْ لَهُ الْعِنَةُ فِي الْكُلِّ. وَذَلِكَ قَبِيحٌ فِي الطَّبْعِ أَنْ يَنْظُرَ أَحَدٌ إِلَى عَوْرَةِ آخَرَ. وَعَلَى ذَلِكَ جَاءَتْ الْأَنْثَاءُ فِي الْأَمْرِ بِشَرِّ الْعَوْرَةِ: رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «اخْفِظْ عَوْرَتَكَ إِلَّا مِنْ زَوْجَتِكَ أَوْ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَإِنْ كَانَ بَعْضُنَا مِنْ بَعْضٍ؟ فَقَالَ: إِنْ اسْتَظَلَّتْ أَنْ لَا تَظْهَرَ عَوْرَتُكَ فَافْعَلْ، فَقِيلَ: فَإِذَا كَانَ أَحَدُنَا خَالِيًا؟ فَقَالَ: فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ يُسْتَخْفَى مِنْهُ» [بنحوه البخاري: ٢٧٨] وَعَنْهُ ﷺ [أَنَّهُ]^(٣) قَالَ: «لَا يَنْظُرُ الرَّجُلُ إِلَى عَوْرَةِ الرَّجُلِ وَلَا الْمَرْأَةُ إِلَى عَوْرَةِ الْمَرْأَةِ» [ابن ماجه ٦٦١] وَمِثْلُهُ كَثِيرٌ، وَفِي مَا ذَكَرْنَا كَفَايَةً.

وَعَلَى ذَلِكَ يُخْرِجُ الْأَمْرُ بِالْإِقْبَارِ لِشَرِّ الْعَوْرَةِ. أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ تَعَالَى: ﴿قَبَعَتِ اللَّهُ غُرَابًا يَبْعَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُزَيِّنَ﴾ [المائدة: ٣١] لِيَلَا يَرَى عَوْرَتَهُ؟ لِأَنَّهُ يَكُونُ جَفَاءً.

الآية ٣٢

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ قَالَ أَبُو بَكْرِ الْأَصَمُّ: الزَّيْنَةُ هِيَ هِيَ الْبِلَاسُ؛ لِأَنَّهُ ذَكَرَ عَلَى إِثْرِ ذَلِكَ الْبِلَاسِ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ مَا حُرِّمُوا، وَأَحَلَّ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْبَحِيرَةِ وَالسَّائِبَةِ وَالْوَصِيلَةِ وَالْحَامِي وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا كَانُوا يُحَرِّمُونَ الْإِنْتِفَاعَ بِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَحَرَّتْ حَبْرٌ لَا يَطْعُمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِرِضَائِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٣٨].

وَقَالَ الْحَسَنُ: زِينَةُ اللَّهِ هِيَ الْمَرْكَبُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالْحَبَلُ وَالْعَالُ وَالْحَمِيرَ لِيَرْكَبُوا زِينَةً﴾ [النحل: ٨] جَعَلَ اللَّهُ مَا يُرَكَّبُ زِينَةً لِلْخَلْقِ، وَهُمْ كَانُوا يُحَرِّمُونَ الرُّكُوبَ وَالْإِنْتِفَاعَ بِهَا، فَقَالَ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ وَقَالَ: ﴿وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ أَلْبَانُهَا وَلُحُومُهَا.

وَقَالَ غَيْرُهُ مِنْ أَهْلِ الثَّوَابِلِ ﴿زِينَةُ﴾ هِيَ الثَّابِتُ وَمَا يُخْرِجُ مِنَ الْأَرْضِ مِمَّا هُوَ رِزْقٌ لِلْبَشَرِ وَالْذُّوَابِ جَمِيعاً كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِمَنْ يَسْبُلُوهَا﴾ [الكهف: ٧] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا﴾ [يونس: ٢٤] أَخْرَجَ مِنَ الْأَرْضِ زِينَةً.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ: قَالَ الْحَسَنُ: ﴿يَوْمَ﴾ يَعْنِي الطَّيِّبَاتِ ﴿خَالِصَةً﴾ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الْآخِرَةِ لَا يُشَارِكُهُمُ الْكَافِرَةُ فِيهَا. فَأَمَّا فِي الدُّنْيَا فَقَدْ شَارَكُوهُمْ. فَالثَّوَابِلُ الْأَوَّلُ يُخْرِجُ عَلَى التَّقْدِيمِ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: الْعِبَادَةُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: التَّحْرِيكُ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

والتأخير كأنه قال: قل هي للذين آمنوا خالصة يوم القيامة وفي الحياة الدنيا لهم جميعاً بقوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٢٦].

ويحتمل قوله تعالى: ﴿قُلْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ لأنهم لم يحرموا الطيبات التي أحل الله لهم، بل انتفعوا بها، وحرم أولئك، ولم ينتفعوا بها، فكانت ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ لما انتفعوا في الدنيا، وتزودوا بها للأخرة، وكانت ﴿خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ١٧٢ - ب/ وإنما كانت ^(١) خالصة لهم يوم القيامة لما لا يكون لأهل الشرك ذلك لما لم يتزودوا للمعاد؛ قد كانت لهم في الدنيا لو لم يحرموها، وانتفعوا بها.

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ دليل إباحة الزينة والتناول من الطيبات. وقد يحتمل أن يكون خرج على النهي والإنكار على ما كان يفعل أهل الشرك من نحو تحريم البحيرة والسائبة والوصيلة، فقال: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ﴾ ما حرمتم إذا لم يحرمه الله؟ ألا ترى أنه قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣] يقول، والله أعلم، لم يحرم ما حرمتموه من هذه الأشياء، ولكن حرم الفواحش وما ذكر.

[وأمّا] ^(٢) جوابهم أنهم ماذا يقولون؟ فهو يخرج على وجهين:

إن قالوا: حرم الله: قيل لهم: متى ^(٣) حرم، وأنتم قوم لا تؤمنون بالرسول والكتب؟ وإن ^(٤) قالوا: حرم فلان قيل ^(٥): كيف صدقتم فلاناً في تحريم ذلك، ولا تصدقون الرسول في ما يخبرون عن الله تعالى مع ظهور صدقهم؟ يذكر سقاهم في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾ كأنه يقول: ليس لأحد تحريم ما ذكرنا إنما التحريم إلى الله، وإنما حرم ما ذكر. وقد يحتمل ما ذكرنا من تزعيم الثياب عند الطواف وطوافهم ^(٦) غراءة على ما ذكر في القصة. وإلى هذا يذهب ابن عباس والحسن وقتادة وعامة أهل التأويل. وعلى ذلك يخرج ما روي عن رسول الله ﷺ: «ألا لا يطوفن بهذا البيت عريان ولا محدث» [البخاري: ٣٦٩].

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْآيَاتِ﴾ أي نبين الآيات ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي لقوم ينتفعون بعلمهم. أو نقول: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْآيَاتِ﴾ أي كذلك نقص حكيم آية من حكم آية أخرى؛ نقص هذا من هذا وهذا من هذا. وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾ إنه إذا لم يفهم من زينة الله ما يفهم من زينة الخلق ما يتزينون به، ويتجملون ^(٧)، لا يجب أن يفهم من استوائه استواء الخلق ولا من مجيئه مجيء الخلق لأن استواء الخلق هو اتِّقَالَ من [حال إلى حال] ^(٨)، ولا يجوز أن يفهم منه ذلك على ما لم يفهم من زينة الله.

الآية ٣٣

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ يفهم أن تكون هذه الآية مقابل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠] كما خرج آخر الآية، وهو قوله تعالى: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل: ٩٠] مقابل الأول، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ والنهي هناك نهى تحريم كالتنصيص على التحريم، وتكون الفحشاء التي ^(٩) ذكر في هذه الآية الفواحش التي ذكر في تلك ^(١٠)، والمنكر الذي ذكر هنا هو الإثم الذي ذكر في ذلك، وذكر البغي هنا وهناك البغي.

ثم الفحشاء هو الذي ظهر قبضه في العقل والسمع، والمنكر هو الذي ظهر الإنكار فيه على مرتكبه، والإثم هو الذي يأثم المرء فيه، والبغي هو من مظالم الناس؛ يظلم بعضهم على بعض.

وقال بعضهم: الفواحش الكبائر، والإثم هو الصغائر، والبغي هو ما أخذ ما عَصِمَ من مال أو نفس بتعدي الإسلام

(١) في الأصل وم: كان (٢) في الأصل وم: ولم يذكر. (٣) في الأصل وم: من. (٤) في الأصل وم: فإن. (٥) في الأصل وم: فقيل. (٦) في الأصل وم: يطوف. (٧) في الأصل وم: ويتجملوا. (٨) من م، في الأصل: حلال إلى حلال. (٩) في الأصل وم: الذي. (١٠) في الأصل وم: ذاك.

على ما روي عن نبي الله ﷺ، أنه قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله. فإذا قالوها عصموا مني أنفسهم وأموالهم إلا بحقها» [البخاري ٢٥] فكل ما صار مغصوماً بالإسلام من مال أو نفس، فأخذ فذلك^(١) بنفي وظلم إلا ما ذكر بحقها.

واصل البغي هو المجاوزة عن الحد الذي جعل له. وقال أهل التأويل «الفواحش» هو الزنى «ما ظهر منها» علانية «وما يكن» منها سراً. لكن الفواحش ما ذكرنا أن ما قبح في العقل والسمع، وقبح فيهما، فهي الفاحشة. واصل المنكر كل ما [لا]^(٢) يعرف كقول إبراهيم: «إنكم قوم شكرون» [الحجر: ٦٢] والمنكر ما أنكره العقل والسمع أيضاً.

وقوله تعالى: «وأن تشركوا بالله ما لا ينزل به سلطاناً» أي وحرم أيضاً أن تشركوا بالله. وقوله تعالى: «ما لا ينزل به سلطاناً» ليس على أنه ينزل [به]^(٣) سلطاناً على الإشراف بحال، ولكن على أنهم يشركون بالله من غير حجج وسلطان؛ لأن أهل الإسلام هم الذين يدينون بدين ظهر بالحجج والآيات، وهم يدينون بدين، لا يظهر بالحجج والآيات ولكن بما هو من أنفسهم، واشتبهت.

ويحتمل قوله تعالى: «ما لا ينزل به سلطاناً» [وجهين]:

أحدهما^(٤) أي عذراً، لأنه يجوز أن يُعذر المرء بحال في إجراء كلمة الكفر على لسانه عند الإكراه، ولا يصير به كافراً، إذا كان قلبه مطمئناً بالإسلام ومُنشِراً كقوله تعالى: «إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان» [النحل: ١٠٦]؛ [أي، يشركون]^(٥) بالله من غير أن ينزل بهم حال عذر، وقوله تعالى: «وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون».

والثاني: أي تعلمون أنهم يقولون على الله ما لا تعلمون أنه حرم كذا، وأمر بكذا.

وقوله تعالى: «وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون» هذا على الجهل والأول على العلم كقوله تعالى: «قل أئنئيت الله بما لا يعلم» [يونس: ١٨] أي أئنئتون^(٦) الله [بما لا يعلم؛ أي أئنئتون^(٧) الله]^(٨) بما يعلم أنه ليس ما تقولون.

الآية ٢٤ وقوله تعالى: «ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون» اخْتُلِفَ فيه: قال بغضهم: «ولكل أمة أجل» هو بعث الرسل إليهم، فإذا أتاهم الرسول [كذبوه، وعاندوه]^(٩) فعند ذلك يهلكون، وهو كقوله تعالى: «وما كنا مُؤذنين حتى يبعث رسولا» [الإسراء: ١٥] وقوله تعالى: «وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا» [القصص: ٥٩].

ويحتمل أن لكل أمة أجلاً، لا تهلك قبل بلوغ أجلها؛ لا تستأخر، ولا تستقدم. فهذا يراد على المعتزلة؛ لأنهم يقولون: إن من قتل إنما هلك قبل بلوغ أجله، ويجعلون القاتل منه مستقديماً لإجل ذلك المقتول، والله تعالى يقول: «ولا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون».

الآية ٢٥ وقوله تعالى: «يحيى آدم إنا يأتينكم رسلنا» قال أهل التأويل: «إنا يأتينكم رسلنا» [سيأتينكم^(١٠) رسلنا منكم، أو سوف يأتينكم^(١١)] «يَقُصُّونَ عَلَيْكَ نَبَأَهُ» أي هُداي كقوله تعالى: «فإنا يأتينكم مني هُداي فمن أتبع هُداي فلا يضل ولا يشقى» [طه: ١٢٣] وقوله تعالى: «فإنا يأتينكم مني هُداي فمن تبع هُداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون» [البقرة: ٣٨].

فعلى ذلك «يَقُصُّونَ عَلَيْكَ نَبَأَهُ» أي هُداي «فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون».

وتحتمل الآيات الحجج والبراهين التي يضطر أهلها إلى قبولها إلا من عاند، وكابر «فمن اتقى وأصلح» وآمن بالله، وعمل صالحاً «فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون».

(١) في الأصل وم: ذلك. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل: أن تشركوا. (٥) الهمزة ساقطة من الأصل. (٦) الهمزة ساقطة من م. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: فكذبوه وعاندوا. (٩) في الأصل وم: سيأتينكم. (١٠) في الأصل وم: يأتينكم.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَتَقَىٰ﴾ يَحْتَمِلُ اتَّقَى مَا نَهَى الرُّسُلُ، أَوْ اتَّقَى الْمَهَالِكِ ﴿وَأَصْلَحَ﴾ فِي مَا أَمَرَ بِهِ الرُّسُلُ، أَوْ أَصْلَحَ أَمْرَهُ وَعَمَلَهُ ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ﴾ فِي ذَهَابِ مَا أَكْرَمَهُمْ بِهِ مَوْلَاهُمْ وَلَا قُوَّةَ؛ لِأَنَّ خَوْفَ الْقَوْتِ مِمَّا يُنْقَضُ النِّعَمُ ﴿وَلَا هُمْ يَمْرُؤُونَ﴾ [مِنْ] ^(١) تَبَاعِيهِ وَأَفَاتِهِ، يُخَيَّرُ أَنْ نَعِمَ الْآخِرَةَ عَلَىٰ خِلَافِ نَعِيمِ الدُّنْيَا.

الآية ٣٦ وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ظَاهِرُ تَأْوِيلِهَا قَدْ ذَكَرْنَاهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ حِينَ ^(٢) لَمْ يَأْخُذُوا عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ [الصَّدَق] ^(٣).

وقوله ^(٤) تعالى: ﴿بَقِيَءٌ أَدَمَ إِمَّا يَلِيَنَّكُمْ رُسُلٌ﴾ بِهِ عَلَى خَلْقِهِ مَثَلٌ كَثِيرَةٌ، وَنِعْمُهُ عَظِيمَةٌ حِينَ ^(٥) بَعَثَ الرُّسُلَ مِنْ جَنْسِ الْمُرْسَلِ إِلَيْهِمْ:

أَحَدُهَا: أَنَّ كُلَّ ذِي جَنْسٍ وَجَوْهَرٍ مُسْتَأْنَسٍ بِجَنْسِهِ وَجَوْهَرِهِ، وَتَسْتَوْجِبُ بَغْيَهُ، فَمَنْ عَلَيْهِمْ حِينَ ^(٦) بَعَثَ الرُّسُلَ مِنْ جَنْسِهِمْ وَجَوْهَرِهِمْ؛ يَسْتَأْنَسُ بِغَضُّهُمْ بِغَضِّهِ، وَيَأْتِي ^(٧) بَغْضُهُمْ بَغْضًا، فَذَلِكَ أَخَذَ لِلْقُلُوبِ وَأَدْعَى إِلَى الْإِتْبَاعِ وَالِإِجَابَةِ.

والثَّانِيَةُ ^(٨): بَعَثَ الرُّسُلَ مِنْ قَوْمِهِمُ الَّذِينَ نَشُّوْا بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ، وَعَرَفُوا صِدْقَهُمْ وَأَمَانَتَهُمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُمْ صَادِقُونَ ^(٩) فِي مَا يَدْعُونَ مِنَ الرِّسَالَةِ حِينَ ^(١٠) لَمْ يَظْهَرْ مِنْهُمْ الْكَذِبُ وَالْخِيَانَةُ قَطُّ حَتَّى لَمْ يَأْخُذُوا عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ الْكَذِبَ.

والثَّالِثَةُ ^(١١): أَنَّ الرُّسُلَ لَوْ كَانُوا مِنْ غَيْرِ جَنْسِهِمْ وَغَيْرِ جَوْهَرِهِمْ لَمْ يَعْرِفُوا مَا أُوتُوا مِنَ الْآيَاتِ وَالْبَرَاهِينِ / ١٧٣ - /
أَنَّهَا آيَاتٌ وَحُجَجٌ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ وَسُعْمَهُمْ لَا يَبْلُغُ هَذَا، وَظَوْفُهُمْ لَا يَصِلُ إِلَى ذَلِكَ. وَإِذَا كَانُوا مِنْهُمْ يَعْرِفُونَ ذَلِكَ، إِذَا أُوتُوا بِشَيْءٍ خَرَجَ عَنْ وَسْعِهِمْ، أَنَّهَا آيَاتٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ قَالَ الْحَسَنُ: بِدِينِنَا ^(١٢) ﴿وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ وَتَحْتَمِلُ: آيَاتُنَا حُجَجُنَا؛ أَيِ كَذَّبُوا بِحُجَجِنَا إِذَا كَذَّبُوا بِحُجَجِهِ كَفَرُوا بِهِ؛ لِأَنَّهُ لَا يُعْرِفُ مِنْ طَرِيقِ الْحِسِّ وَالْعِيَانِ، وَلَكِنْ إِنَّمَا يُعْرِفُ مِنْ طَرِيقِ الْحُجَجِ وَالْآيَاتِ وَالذَّلَالِ، فَيَكُونُ الْكُفْرُ بِآيَاتِهِ وَحُجَجِهِ كُفْرًا بِهِ. وَيُشَبِّهُ أَنْ تَكُونَ آيَاتُهُ آيَاتِ الرِّسَالَةِ وَحُجَجِهَا.

وَتَحْتَمِلُ آيَاتُهُ هُنَا رُسُلُهُ أَيِ كَذَّبُوا بِرُسُلِنَا؛ سَمَى رُسُلَهُ آيَاتِهِ؛ لِأَنَّ [الرُّسُلَ] أَنْفُسَهُمْ كَانُوا آيَاتٍ ^(١٣) لِلْخَلْقِ تَذَلُّهُمْ عَلَى وَحْدَانِيَةِ اللَّهِ، وَرِسَالَتُهُمْ مِنْ أَعْلَامٍ جُعِلَتْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ مِنْ صِدْقِهِمْ وَأَمَانَتِهِمْ ﴿وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ أَيِ اسْتَكْبَرُوا ^(١٤) التَّذَبُّرَ فِيهَا وَالنَّظَرَ ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ لِأَنَّهُمْ يَصْحَبُونَ النَّارَ وَالسَّبَبَ الَّذِي يُوجِبُ لَهُمُ النَّارَ أَبَدًا، فَسُمُّوا أَصْحَابَ النَّارِ بِذَلِكَ كَمَا يُقَالُ: صَاحِبُ الدَّارِ وَصَاحِبُ الدَّابَّةِ، لِأَنَّهُ يَصْحَبُهَا دَائِمًا. فَعَلَى ذَلِكَ هَؤُلَاءِ سُمُّوا أَصْحَابَ النَّارِ لِمَا هُمْ يَصْحَبُونَهَا دَائِمًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٣٧ وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ قَدْ ذَكَرْنَا فِي مَا تَقَدَّمَ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ إِنَّمَا هُوَ حَرْفُ اسْتِفْهَامٍ وَسُؤَالٍ، لَمْ يَخْرُجْ لَهُ جَوَابٌ. لَكِنَّ أَهْلَ التَّأْوِيلِ عَرَفُوا ذَلِكَ، فَقَالُوا: لَا أَحَدٌ ﴿أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ مَعَ عَلَيْهِ أَنَّهُ خَالِقُهُ، وَأَنَّهُ مُتَقَلَّبٌ فِي نَعِيمِهِ، وَاحَاطَتْ بِهِ أَيَادِيهِ وَاحْسَانُهُ.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أَيِ لَا أَفْحَشَ ظُلْمًا، وَلَا أَقْبَحَ ظُلْمًا ﴿مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ قِيلَ: الْإِفْتِرَاءُ هُوَ اخْتِرَاعُ الْكَذِبِ مِنْ نَفْسِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ سَبَقَ لَهُ أَحَدٌ فِي ذَلِكَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَقَرَتَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ﴾ [الْمُتَحَنَّة: ١٢] وَإِمَّا قَدْ يَكُونُ مِمَّا أَنْشَأَ هُوَ، وَمَا سَبَقَ لَهُ أَحَدٌ، فَسَمِعَ عَنْهُ.

ثُمَّ افْتَرَاؤُهُمْ عَلَى اللَّهِ أَنْوَاعٌ، يَكُونُ بِمَا قَالُوا: إِنَّ لَهُ وَلَدًا، وَبِمَا قَالُوا بَأَنَّ لَهُ شَرِيكًا وَصَاحِبَةً، وَبِمَا عَبَدُوا غَيْرَ اللَّهِ، وَقَالُوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣] وَقَالُوا ^(١٥): ﴿هَؤُلَاءِ شَفَعَتُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، وَيَكُونُ بِمَا

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم. حتى. (٣) ساقطة في الأصل وم. (٤) في الأصل وم. وفي قوله. (٥) في الأصل وم. حيث. (٦) في الأصل وم. حيث. (٧) في الأصل وم. وتأليف. (٨) في الأصل وم. والثاني. (٩) في الأصل وم. صادقين. (١٠) في الأصل وم. حيث. (١١) في الأصل وم. والثالث. (١٢) في الأصل وم. ديننا. (١٣) في الأصل: أنفس الرسل كانت، في م: أنفس الرسل كانت آيات. (١٤) في الأصل: استكبرت، في م: استكبر. (١٥) في الأصل وم. و.

﴿قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْنَا آيَاتَكَ وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] ويكون بما حَرَّمُوا مِنْ أَشْيَاءَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، فاضأفوا ذلك إلى الله ونَحَوَ ذلك مِنَ الْإِفْرَاءِ.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَتْلُمُ نَصِيْبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ اختلف فيه: قَالَ الْحَسَنُ: مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَأَطَاعَ رُسُلَهُ، فَقَدْ كُتِبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا؛ فَذَلِكَ نَصِيْبُهُ وَحُطُّهُ مِنَ الْكِتَابِ الَّذِي كُتِبَ^(١) لَهُ، وَمَنْ عَصَى اللَّهَ، وَخَالَفَ رُسُلَهُ كُتِبَ^(٢) لَهُ النَّارُ، فَهِيَ^(٣) نَصِيْبُهُ مِنَ الْكِتَابِ.

وقال أبو بكر الكيساني: قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَتْلُمُ نَصِيْبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أَي حُطُّهُمْ مِنَ الْجَزَاءِ^(٤) وَالْعِقَابِ فِي الْآخِرَةِ، وَهُوَ قَوْلُ الْقَتَّيْبِ.

وَيُخْتَمِلُ وَجْهَيْنِ آخَرَيْنِ غَيْرَ هَذَيْنِ:

أحدهما: مَا حَرَّمُوا مِنَ الْكُتُبِ، وَغَيْرِهِ، ثُمَّ أَضَافُوا ذَلِكَ، وَنَسَبُوهُ إِلَى اللَّهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُرْآنٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٩] وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَهُمْ لَفِيفَتُهُمْ أَلْسِنَتُهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٨] فَصَارَ مَا حَرَّمُوهُ^(٥)، وَغَيْرُهُ سُنَّةً مِنْهُمْ، يَفْعَلُونَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَيُنَالُونَ مِنْ جَزَاءِ ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

والثاني: قوله تعالى: ﴿يَتْلُمُ نَصِيْبُهُمْ﴾ يَمَّا كَتَبَ لَهُمْ مِنَ الرُّزْقِ وَالنُّعْمَةِ؛ يَسْتَوْفُونَ ذَلِكَ الْمَكْتُوبَ لَهُمْ، ثُمَّ يَمُوتُونَ.

ثم قوله تعالى: ﴿حَقٌّ إِنَّا جَاءَنَّهُمْ رَسُولُنَا يُتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ، تَقْبِضُ أَرْوَاحَهُمْ، وَهُوَ ظَاهِرٌ.

وعلى تَأْوِيلٍ مِنْ حَمَلٍ ذَلِكَ عَلَى الْجَزَاءِ فِي الْآخِرَةِ فَهُوَ يَجْعَلُ الْمُتَوَفَّى فِي النَّارِ لِيَشُدَّ الْعَذَابَ، وَإِنْ كَانُوا لَا يَمُوتُونَ. وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِسَيِّئٍ﴾ [إبراهيم: ١٧] أَي تَأْتِيهِ أَسْبَابُ الْمَوْتِ.

وعلى تَأْوِيلٍ مِنْ يَجْعَلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ يَتْلُمُ نَصِيْبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ فِي الدُّنْيَا فِي اسْتِيفَاءِ الرُّزْقِ وَمَا كَتَبَ لَهُمْ، يَكُونُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿حَقٌّ﴾ عَلَى الْإِثْبَاتِ. وَعَلَى تَأْوِيلٍ مَنْ يَقُولُ بَأَنَّ ذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ يَجِيءُ^(٦) أَنْ يَكُونَ عَلَى الصَّلَاةِ وَالْإِسْقَاطِ.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يَقُولُ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ فِي النَّارِ عَلَى تَأْوِيلٍ هَؤُلَاءِ وَعَلَى تَأْوِيلٍ أَوْلَنِكَ عِنْدَ قَبْضِ أَرْوَاحِهِمْ أَوْ بَعْدَ قَبْضِ أَرْوَاحِهِمْ.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [إِنْ مَا]^(٧) تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَتَقُولُونَ ﴿هَؤُلَاءِ شَفَعَتُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وَتَقُولُونَ^(٨): ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٢٣] وَالْأَكَابِرُ الَّتِي ذَكَرَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْثَرَ مُجْرِمِينَ لِيَتَكَبَّرُوا فِيهَا﴾؟ [الأنعام: ١٢٣] ﴿إِنْ﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا سَلُوا عَنَّْا﴾ وَمَلَكُوا؟ أَي بَطَلَتْ^(٩) عِبَادَتُنَا الَّتِي عَبَدْنَاكُمْ. أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى ﴿أَوَدَّا صَلَّلْنَا فِي الْآرِضِ﴾؟ [السجدة: ١٠] أَي مَلَكْنَا، وَبَطَلْنَا ﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾.

فَإِنْ كَانَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الْكُتُبَاءَ مِنْكُمْ وَالرُّؤُسَاءَ [يَكُنْ قَوْلُهُمْ]^(١٠) ﴿سَلُوا عَنَّْا﴾ وَإِنْ كَانَتْ^(١١) الْأَصْنَامُ [يَكُنْ قَوْلُهُمْ]^(١٢): ﴿سَلُوا عَنَّْا﴾ أَي بَطَلْ مَا كُنَّا نَطْمَعُ مِنْ عِبَادَتِنَا إِيَّاهُمْ، وَهُوَ قَوْلُهُمْ^(١٣) ﴿هَؤُلَاءِ شَفَعَتُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

الآية ٢٨

وقوله تعالى: ﴿قَالَ ادْعُوا فِي أَسْمَاءِ﴾ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فِي أَسْمَاءِ﴾ يَخْتَمِلُ مَعَ أَسْمَ، وَذَلِكَ جَائِزٌ فِي اللُّغَةِ، يُقَالُ:

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: كَتَبْتُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: كَتَبْتُ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: فَهُوَ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: الْخَيْرِ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: حُرُوفَاهُمْ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: فَيَجِيءُ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: أَي. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُمْ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: بَطَل. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: يَكُونُ قَوْلُهُ تَعَالَى. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: كَانَ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: يَكُونُ قَوْلُهُ تَعَالَى. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: قَوْلُهُ.

جاء فلان في جنوده ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ المتبوعين والأتباع جميعاً معاً. والعرب تضع حروف الخفض بعضها في موضع بغض كقوله تعالى: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٩ و ٣٠] قيل: مع عبادي.

ويَحْتَمِلُ ﴿فِي﴾ في موضعه؛ كأن المتبوعين يَدْخُلُونَ^(١) النار قبل الأتباع بهؤلاء ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أَسْرَفِ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ﴾ وفيه دليل أن الكفار من الجن يُعَذَّبُونَ كما يُعَذَّبُ الكفار من الإنس.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّمَا دَخَلْتَ أُمَّةً لَمَنْتَ أَخْبَهَا﴾ لعن الأتباع المتبوعين لما هم دَعَوْهُمْ إلى ذلك، وهم صَرَفُوهُمْ^(٢) عن دين الله كقولهم: ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً﴾ [سبأ: ٢٣] وكقوله ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضِيقُوا﴾ [سبأ: ٣٣] وغير ذلك من الآيات. ولعن [المتبوعون الأتباع]^(٣) لما يَزْدَادُ لَهُمُ العذاب بِكَثْرَةِ الأتباع وَيَقْدِرُهُمْ؛ فَيَلْعَنُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً.

وفيه دلالة أن أهل الكفر، وإن اختلفوا في مذاهبهم فهم إخوة وأخوات، بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ كَالْمُؤْمِنِينَ، بَعْضُهُمْ إِخْوَةُ وَأَخَوَاتُ لِبَعْضٍ.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَذَارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً﴾ قال بَعْضُهُمْ: هو مِنَ الثَّدَارِكِ؛ أي حتى إذا تَدَارَكُوا، وتابَعُوا فيها. وقيل: هو مِنَ الدَّرَكِ؛ لأنَّ للنار^(٤) دَرَكَاتٍ، لا يَزَالُ أَهْلُ النَّارِ يَهْوُونَ فيها، لا قَرَارَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ؛ إِذْ فِي الْقَرَارِ بَعْضُ التَّسْلِي والراحَةِ، فلا يَزَالُونَ يَهْوُونَ فيها دَرَكَاً قَدَرَكاً. وقيل: ولذلك سُمِّيَتْ^(٥) هاوية.

وقيل: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَذَارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً﴾ أي اجْتَمَعُوا فيها؛ فَعِنْدَ ذَلِكَ يَلُومُ^(٦) بَعْضُهُمْ بَعْضاً.

فإن كَانَ عَلَى الثَّدَارِكِ فهو كقوله تعالى: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ أَهْلَكَ وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢] وإن كَانَ عَلَى الإِجْتِمَاعِ فهو لِلتَّضْيِيقِ كقوله تعالى: ﴿وَلَا أَفْهَمُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيْقاً مُقَرَّبِينَ﴾ الآية: [الفرقان: ١٣] وَيَجْتَمِعُونَ يَلْعَنُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً.

وقوله تعالى: ﴿قَالَتْ أَخْرِجْنَهُمْ لِأُولِنَهُمْ﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تعالى: ﴿أَخْرِجْنَهُمُ﴾ الذين في آخِرِ الزَّمانِ، وأولاهم الذين شَرَعُوا لَهُمْ ذَلِكَ الذين ﴿رَبَّنَا مَتَّوَلَاءَ أَصَلُّوا فَنَاتَمَّ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ﴾.

ويَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تعالى: ﴿أَخْرِجْنَهُمُ﴾ الذين دَخَلُوا النارَ أخيراً، ومُهم الأتباع ﴿لأُولِنَهُمُ﴾ الذين دَخَلُوا النارَ أولاً، ومُهم القادة والمتبوعون ﴿رَبَّنَا مَتَّوَلَاءَ﴾ يَغْنِي القادة والسادة ﴿أَصَلُّوا فَنَاتَمَّ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ﴾ كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ ثَلُثَ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْقَ بِالْعَصَا أَلْعَنَ اللَّهُ وَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ [الأحزاب: ٦٦].

ويُشَبِّهُ أن يكونَ قَوْلُهُ تعالى: ﴿قَالَتْ أَخْرِجْنَهُمْ لِأُولِنَهُمْ﴾ / ١٧٣ - ب/ لَيْسَ عَلَى القولِ: بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، ولكن على الدعاءِ عَلَيْهِم واللَّعْنِ كقوله تعالى: ﴿وَاللَّعْنَةُ لَنَا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٨].

وقوله تعالى: ﴿فَنَاتَمَّ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ﴾ قال بَعْضُهُمْ: لِكُلِّ ضِعْفٍ مِنَ النَّارِ، [لا]^(٧) تَزَالُ تَزْدَادُ، وَتُعْظَمُ، وَتَكْبُرُ، فَذَلِكَ الضَّعْفُ، وَذَلِكَ لِلْأَتْبَاعِ وَالْمَتَّبِعِينَ^(٨) جميعاً. وقال بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ تعالى: ﴿لِكُلِّ ضِعْفٍ﴾ أي لِلْمَتَّبِعِينَ والقادة ضِعْفٌ. وقال لَهُمْ مَلَكٌ أَوْ خَزَنَةٌ [جَهَنَّمَ]^(٩) أَوْ مَنْ كَانَ، وَلَيْسَ^(١٠) لَنَا إِلَى مَعْرِفَةِ ذَلِكَ حَاجَةٌ بَعْدَ أَنْ يُقَالَ لَهُمْ: ذَلِكَ قَوْلُهُ^(١١) تعالى: ﴿وَلَكِنْ لَا تَقْلُوبُونَ﴾ في الدنيا أنْ لَكُمْ ضِعْفاً منها. وقيل: ﴿لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَقْلُوبُونَ﴾ لِلْحَالِ بَانَ لِكُلِّ ضِعْفٍ مِنَ النَّارِ.

الآية ٢٩ وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ أُولِنَهُمْ لِأَخْرِجْنَهُمْ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿أُولِنَهُمْ﴾ ما ذَكَرْنَا: الذين شَرَعُوا لَهُمْ ذَلِكَ الذين، وَسُئِلُوا لَهُمْ ﴿لأَخْرِجْنَهُمُ﴾ الذين كانوا في آخِرِ الزَّمانِ. وَيَحْتَمِلُ ﴿أُولِنَهُمُ﴾ الذين دَخَلُوا أولاً ﴿لأَخْرِجْنَهُمُ﴾ للذين دَخَلُوا النارَ أخيراً، ومُهم الأتباع: ﴿فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ قيل فيه بوجهين: يَحْتَمِلُ ﴿فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ في شيء؛ فقد

(١) من م، في الأصل: يدخل. (٢) في الأصل وم: صرفوا. (٣) من م، في الأصل: المتبوع. (٤) في الأصل وم: النار. (٥) في الأصل وم: سمى. (٦) في الأصل وم: يتلاوم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: والمتبوع. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) الوار ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: وقوله.

صَلَلْتُمْ كَمَا صَلَّلْنَا، أَي لَمْ يَكُنْ لَنَا عَلَيْكُمْ فَضْلُ سُلْطَانٍ، وَلَا كَانَ مَعَنَا حُجَجٌ وَأَيَّاتٌ، فَهَرْنَاكُمْ عَلَيْهِ، إِنَّمَا دَعَوْنَاكُمْ إِلَى ذَلِكَ، فَاسْتَجَبْتُمْ لَنَا، وَقَدْ كَانَ بُعِثَ إِلَيْكُمْ الرُّسُلُ مَعَ حُجَجٍ وَأَيَّاتٍ، فَلَمْ تُجِيبُوهُمْ.

وهو كخطبة إبليس حين^(١) قَالَ: ﴿لَمَّا فُتِحَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ﴾ الآية [إبراهيم: ٢٢] فيقول هؤلاء القادة للاتباع مثل قول الشيطان ليجملتهم.

وقيل: قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ يعني تخفيف العذاب، أَي نحن وأنتم في العذاب سواء؛ لا فضل لكم علينا من تخفيف العذاب في شيء.

أحد التأويلين في قوله كَانَ ﴿فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ يرجع إلى الآخرة، والآخر إلى الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ من الشريك والتكذيب لآيات الله، وكذلك ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: ٨٢ و ٩٥] وكذلك^(٢): ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٤٧ و...].

الآية ٤٠ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ هذا قد ذكرنا في ما تقدم^(٣).

وقوله تعالى: ﴿لَا تَفْتَحْ لَهُمُ أَبْوَابَ السَّمَاءِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: يغني بأبواب السماء أبواب الجنان، لأن الجنان تكون في السماء، فسمي أبواب السماء لِمَا الجنان فيها. أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿وَرَبِّ السَّمَاءِ يَرْفَعُهَا وَمَا تُوعَدُونَ﴾؟ [الذاريات: ٢٢] وما يُوعَد لنا هو الجنة.

ثم أخبر أنها في السماء؛ أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ أيضاً؟

وقال آخرون: ﴿أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ هي^(٤) أبواب السماء؛ وذلك أَنَّ أَعْمَالَ الْمُؤْمِنِينَ تُرْفَعُ إِلَى السَّمَاءِ، وَتَضَعُ^(٥) إِلَيْهَا أَرْوَاحُهُمْ؛ وَأَعْمَالَ الْكَافِرِ وَأَرْوَاحُهُمْ تُرَدُّ إِلَى أَشْفَلِ السَّافِلِينَ كقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكُلُّ الطَّيِّبُ وَاللَّمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠] وَقَالَ فِي الْكَافِرِ: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [التين: ٥ و ٦] فإذا كانت أَعْمَالَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَرْوَاحُهُمْ تُرْفَعُ إِلَى السَّمَاءِ، وَتَضَعُ إِلَيْهَا أَخْبَرَ أَنَّهُ لَا تَفْتَحُ لِلْكَافِرِينَ^(٦) أَبْوَابَ السَّمَاءِ وَلَا لِأَعْمَالِهِمْ، وَلَكِنْ تُرَدُّ إِلَى السَّافِلِينَ.

وَأَمَّا أَنْ يَكُونَ عَلَى التَّمْثِيلِ، لَيْسَ عَلَى تَحْقِيقِ السَّمَاءِ، وَلَكِنْ ذَكَرَ السَّمَاءَ لِمَا أَنَّ السَّمَاءَ هِيَ مَكَانُ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الْأَشْيَاءِ وَقَرَارُهَا، لَا مَكَانَ الْحَبَائِثِ وَالْأَفْذَارِ، وَالْأَرْضُ هِيَ مَكَانُ ذَلِكَ، وَأَعْمَالُ الْكَافِرِ خَبِيثَةٌ، فَكُنِيَ عَنْ أَعْمَالِهِمُ الْخَبِيثَةِ بِالْأَرْضِ [التي]^(٧) هِيَ مَعْدِنُ الْحَبَائِثِ وَالْأَنْجَاسِ، وَكُنِيَ عَنْ أَعْمَالِ الْمُؤْمِنِينَ الطَّيِّبَةِ بِالسَّمَاءِ، وَهُوَ كَمَا ضَرَبَ مَثَلُ الْإِيمَانِ بِالشَّجَرَةِ^(٨) الطَّيِّبَةِ الثَّابِتَةِ ﴿وَرَفَعَهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤] وَضَرَبَ مَثَلُ الْكُفْرِ^(٩) بِالشَّجَرَةِ الْخَبِيثَةِ الْمُجْتَنَّتَةِ ﴿وَمِنْ تَوَقُّيَ الْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ٢٦] لَيْسَ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرَفَعَهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤] عَلَى تَحْقِيقِ السَّمَاءِ، وَلَكِنْ عَلَى الْوَصْفِ بِالطَّيِّبِ وَالْقَبُولِ، فَعَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلِ.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَفْتَحْ لَهُمُ أَبْوَابَ السَّمَاءِ﴾ لَا يَسْتَقِيمُ مِثْلُهُ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ إِلَّا عَلَى نَوَازِلٍ تَسْبِقُ. خَرَجَ ذَلِكَ جَوَاباً لَهَا نَحْوُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرًا﴾ الآية [البقرة: ١١١] أَوْ أَنْ ذَكَرُوا أَعْمَالَ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ يَعْمَلُونَ كَذَا، فَقَالَ: ﴿لَا تَفْتَحْ لَهُمُ أَبْوَابَ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾.

فَأَنْ قِيلَ: كَيْفَ خَوْفُهُمْ بِمَا ذَكَرَ مِنْ سَدِّ الْأَبْوَابِ عَلَيْهِمْ؟ وَجَعَلَ لَهُمْ مِهَاداً وَعَوَاشِي، وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ كُلُّو، كَيْفَ خَوْفُوا بِهِ؟ قِيلَ: الْمَرْءُ إِذَا خُوفَ بِشَيْءٍ، فَإِنَّهُ يَخَافُ، وَيَهَابُ^(١٠) ذَلِكَ، وَإِنْ لَمْ يَتَيَقَّنْ بِذَلِكَ، وَلَا تَحَقَّقَ عِنْدَهُ مَا خُوفَ بِهِ حَتَّى يَسْتَعِدَّ لِدَلِّكَ، وَيَتَّهِي، وَإِنْ كَانَ عَلَى شَكٍّ مِنْ ذَلِكَ وَظَنَّ.

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في تفسير الآية (٣٦) من السورة. (٤) في الأصل وم: هو. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم: (٦) في الأصل وم: لهم. (٧) ساقطة من الأصل وم: (٨) في الأصل وم: الشجرة. (٩) في الأصل وم: الكفرة. (١٠) أدرج بعدها في الأصل وم: له.

فَعَلَىٰ ذَلِكَ هُزِلُوا خُوفُوا بِالنَّارِ وَأَنْوَاعِ الْعَذَابِ، وَإِنْ كَانُوا شَاكِكِينَ فِي ذَلِكَ غَيْرَ مُصَدِّقِينَ لِمَا يَجُوزُ أَنْ يَهَابَهُمْ ذَلِكَ، أَوْ أَنْ يُخَوِّفَهُمْ بِذَلِكَ الْمُؤْمِنُونَ^(١) كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنْقَرُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١] وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥] أَوْ أَنْ يَكُونَ التَّخْوِيفُ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِالْبَغْثِ لِأَنَّ مِنْهُمْ مَنْ قَدْ آمَنَ بِالْبَغْثِ وَالْجَزَاءِ وَالتَّوَابِ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سِتْرِ الْخِيَابِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: حَتَّى تَلِجَ الْبَعِيرَةُ فِي خَرْقِ الْإِبْرَةِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه حَتَّى يَدْخُلَ الْجَمَلُ الَّذِي تُشَدُّ بِهِ السَّفِينَةُ فِي خَرْقِ الْإِبْرَةِ، وَقَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ: يَغْنِي خَرْقُ الْإِبْرَةِ أَوْ الْمَسْلَةُ، وَالْجَمَلُ الْجَبَلُ، وَالْخِيَابُ الْإِبْرَةُ أَوْ الْمَسْلَةُ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: لَيْسَ بِالْجَمَلِ ذِي^(٢) الْقَوَائِمِ يَغْنِي الْقُلُسَ، وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ، هُوَ الْجَمَلُ ذُو الْقَوَائِمِ الْأَرْبَعِ، وَاللَّهُ أَغْلَمُ بِمَا أَرَادَ.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ أَي كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ مُجْرِمٍ.

الآية ٤١

وقوله تعالى: ﴿لَمَنْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ قِيلَ: الْفُرْشُ ﴿وَمِنْ تَوَفَيْهِمْ غَوَاشٍ﴾ هِيَ اللَّحْفُ أَوْ الْحَوَاشِي مَا يَتَغَشَّاهُمْ فِيهَا^(٣)؛ النَّارُ تُحِيطُ بِهِمْ مِنْ تَحْتٍ وَمِنْ فَوْقٍ وَأَمَامَ وَخَلْفَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ يَتَّبِعِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [الزمر: ٢٤] أَيْ لَا يَتَّبِعِي لِمَا يَتَّبِعِي بِهِمُ الْعَذَابُ، وَهُوَ^(٤) كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَمَنْ مِنْ تَوَفَيْهِمْ ظُلُلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ غَنِيهِمْ ظُلُلٌ﴾ [الزمر: ١٦] أَخْبَرَ أَنَّ النَّارَ تُحِيطُ بِهِمْ. فَعَلَىٰ ذَلِكَ الْأَوَّلُ، وَاللَّهُ أَغْلَمُ.

الآية ٤٢

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ قَالَ أَبُو بَكْرِ الْكِنَاسَانِيُّ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ لَيْسَ مِنْ جَنْسٍ مَا ذَكَرَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ لَكِنَّهُ صِلَةٌ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَبْقَىٰ مَادَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ رَسُولٌ يَنْقُلُ عَنْكُمْ بِمُؤْمِنٍ عَلَيْكُمْ إِلَيْنَا فَمَنْ أَتَىٰ وَأَمْلَحَ﴾ [الأعراف: ٣٥] [كَانَهُ]^(٥) يَقُولُ فِي مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

وَأَمَّا عِنْدَنَا فَإِنَّهُ يَسْتَقِيمُ أَنْ يُجْعَلَ صِلَةً مَا تَقَدَّمَ؛ أَيْ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ إِلَّا وُسْعَهَا وَدُونَ طَائِفَتِهَا ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

وقَالَ الْحَسَنُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا مَا تَسْعُ، وَيُخْتَمِلُ [أَنْ يَكُونَ]^(٦) صِلَةً قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَجَسَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا مَبَاءَةً نَا﴾ [الأعراف: ٢٨] [كَانَهُ]^(٧) يَقُولُ: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا مَا تَسْعُ، وَيَجِلُّ، لَا مَا تَسْعُ، وَلَا يَجِلُّ﴾.

الآية ٤٣

وقوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾ قَالَ الْقُتَيْبِيُّ: الْغِلُّ الْحَسَدُ وَالْعَدَاوَةُ، وَقِيلَ: الْغِلُّ وَالْغِشُّ وَاحِدٌ؛ وَهُوَ مَا يُضْمِرُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ مِنَ الْعَدَاوَةِ وَالْحَقْدِ، وَقِيلَ: الْغِلُّ الْحَقْدُ.

ثُمَّ اخْتَلِفَ فِيهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾ فِي الدُّنْيَا يَنْزِعُ اللَّهُ ﷻ مِنْ قُلُوبِهِمُ الْغِلَّ؛ يَغْنِي قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَجْعَلُهُمْ إِخْوَانًا بِالْإِيمَانِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]؛ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ كَانُوا أَعْدَاءً، فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمُ بِالْإِيمَانِ الَّذِي أَكْرَمَهُمْ بِهِ حَتَّى صَارُوا إِخْوَانًا بَعْدَ مَا كَانُوا أَعْدَاءً.

قَالَ الْحَسَنُ: لَيْسَ فِي قُلُوبِ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْغِلُّ وَالْحَسَدُ، إِذْ هُمَا يُهْتَمَانِ، وَيُخْزَنَانِ، إِنَّمَا فِيهَا الْحُبُّ.

قَالَ بَعْضُهُمْ: هَذَا فِي الْآخِرَةِ؛ يَنْزِعُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ قُلُوبِهِمُ الْغِلَّ الَّذِي كَانَ فِي مَا بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَيَصِيرُونَ جَمِيعًا إِخْوَانًا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

وَرُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه [أَنَّهُ]^(٨) قَالَ: لَا زُجُورَ أَنْ أَكُونَ أَنَا وَعُثْمَانُ وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ مِنَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: الْمُؤْمِنِينَ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: ذُو. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: فِيهِ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَهِيَ. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَهُوَ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

سُدُّوهُمْ مِنْ عِلِّيٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ [الحجر: ٤٧]. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ / ١٧٤ - / ﴿٤٧﴾ [أنه] ^(١) قَالَ: نَزَلَتْ فِي عَلِيٍّ ^(٢) وَأَبِي بَكْرٍ وَعُثْمَانَ وَطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ وَابْنَ مَسْعُودٍ وَعَمَّارَ وَسَلْمَانَ وَأَبِي ذَرٍّ، رِضْوَانُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، سَيَنْزَعُ ^(٣) فِي الْآخِرَةِ مَا كَانَ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ غِشٍّ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْعَدَاوَةِ وَالْقَتْلِ الَّذِي كَانَ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَالْأَمْرِ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ، فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ.

هذا، والله [أَعْلَمُ] ^(٤)؛ لَأَنَّ الَّذِي كَانَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْإِخْتِلَافِ وَالْقِتَالِ كَانَ دُنْيَوِيًّا ^(٥) لَمْ يَكُنْ بِحَقِّ ^(٦) الدِّينِ؛ فَذَلِكَ يَرْتَفِعُ فِي الْآخِرَةِ، وَيَزُولُ. وَأَمَّا الْعَدَاوَةُ الَّتِي هِيَ بَيْنُنَا وَبَيْنَ الْكُفَرَةِ فَهِيَ لَا تَزُولُ أَبَدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، لِأَنَّهَا عَدَاوَةُ الدِّينِ وَالْمَذْهَبِ، ذَلِكَ لَا يَرْتَفِعُ أَبَدًا.

وُضِعَ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَنَزَعْنَا﴾ عَلَى ابْتِدَاءِ النَّزْعِ لَا عَلَى أَنْ كَانُوا فِيهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى] ^(٧) ﴿مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ عَلَى ابْتِدَاءِ ^(٨) الْمَنْعِ؛ أَيْ لَوْلَا إِخْرَاجُهُ إِيَّاهُمْ مِنْ ذَلِكَ لَكَانُوا ^(٩) فِيهِ. فَقَالَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَنَزَعْنَا﴾ أَيْ لَمْ نَجْعَلْ فِي قُلُوبِهِمْ الْغِلَّ رَأْسًا، وَلَوْ تَرَكَهُمْ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ لَكَانَ فِيهِمْ ذَلِكَ. وَفِيهِ دَلَالَةٌ أَنَّ اللَّهَ فِي فِعْلِ الْعِبَادِ صُنْعًا؛ لِأَنَّ الْغِشَّ مِنْ فِعْلِ الْعِبَادِ، يُدْمِنُونَ عَلَى ذَلِكَ. ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ نَزَعَ ذَلِكَ مِنْ قُلُوبِهِمْ، وَاسْتَأْدَى مِنْهُمْ الشُّكْرَ بِذَلِكَ يَقُولُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ الْآيَةُ. وَقَدْ دُمَّ مِنْ طَلَبِ الْحَمْدِ عَلَى مَا يَفْعَلُ، فَدَلَّ طَلَبُ الْحَمْدِ مِنْهُمْ عَلَى أَنَّ لَهُ فِيهِ صُنْعًا، بِذَلِكَ طَلَبَ مِنْهُمْ الْحَمْدَ، وَاللَّهُ الْمُؤَقِّقُ.

وقوله تعالى: ﴿فَجَرَى مِنْ تَحْتِهِمُ أَنْهَارٌ﴾ ذَكَرَ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، لِمَا عَلِمَ ﷺ مِنْ طِبَاعِ الْخَلْقِ الرِّغْبَةَ فِي هَذِهِ الْأَنْهَارِ الْجَارِيَةِ فِي الدُّنْيَا فِي مَا يَقَعُ عَلَيْهَا الْأَبْصَارُ، فَرَعَّبَهُمْ فِي الْآخِرَةِ بِمَا كَانَتْ طِبَاعُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ تَمِيلُ إِلَى ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا لِيَرْغَبُوا فِي مَا أَمَرَ، وَيَنْتَهُوا عَمَّا نَهَى. وَكَذَلِكَ جَمِيعُ مَا ذَكَرَ فِي الْقُرْآنِ مِنَ الْقُصُورِ وَالْخِيَامِ وَالْجَوَارِي وَالْغُلَمَانِ وَالْأَكْوَابِ وَالْأَبَارِقِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا تَرَعَّبُ طِبَاعُ الْخَلْقِ فِي ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا، وَتَمِيلُ أَنْفُسُهُمْ إِلَى ذَلِكَ. وَعَدَّ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ تَرْغِيبًا مِنْهُ لَهُمْ فِي ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ قَالَ الْحَسَنُ وَغَيْرُهُ: هَدَانَا ذَلِكَ ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾.

وَأَمَّا ^(١٠) عَدْنَا [فَهُوَ لَيْسَ] ^(١١) هِدَايَةَ الدَّلَالَةِ وَالْبَيَانِ [لِوَجُوهٍ]:

أَحَدُهَا: أَنَّ ^(١٢) الْهِدَايَةَ الَّتِي أَكْرَمَهُمُ اللَّهُ بِهَا بِفَضْلِهِ وَلُطْفِهِ، هِيَ ^(١٣) تَوْفِيقُهُ إِيَّاهُمْ عَلَى الْهُدَى، إِنَّهُ خَرَجَ مَخْرَجَ الْإِغْتِنَاءِ وَالْفَضْلِ. وَلَوْ كَانَ دَلَالَةً وَبَيَانًا لَكَانَ لَا مَعْنَى لِيْلِكَ ^(١٤) الْمِنَّةُ وَالْفَضْلُ؛ لِأَنَّ عَلَيْهِ الدَّلَالَةَ وَالْبَيَانَ.

وَالثَّانِي: لَوْ كَانَ عَلَى الدَّلَالَةِ وَالْبَيَانِ لَكَانَ ذَلِكَ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ عَلَى الرُّسُلِ وَغَيْرِهِمْ؛ لِأَنَّ عَلَيْهِمُ الْبَيَانَ وَالدَّلَالَةَ، فَدَلَّ أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى الدَّلَالَةِ وَالْبَيَانِ وَلَكِنْ [عَلَى] ^(١٥) غَيْرِهِ.

وَالثَّالِثُ: أَنَّهُ لَا أَحَدَ عِنْدَ تَفْسِيرِهِ أَنَّهُ يَزِيغُ، وَيَضِلُّ، وَقَدْ هَدَاهُ اللَّهُ، وَوَقَّعَهُ. وَقَدْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِي الدَّلَالَةِ وَالْبَيَانِ. دَلَّ أَنَّهُ لَمْ يَحْتَمِلْ مَا قَالَ أُولَئِكَ مِنَ الدَّلَالَةِ وَالْبَيَانِ، وَاللَّهُ الْمُؤَقِّقُ.

وَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ: إِنَّ الْمُعْتَزِلَةَ خَالَفُوا اللَّهَ مِمَّا أَخْبَرُوا، وَخَالَفُوا الرُّسُلَ، عَمَّا أَخْبَرُوا عَنِ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَالَفُوا أَهْلَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَخَالَفُوا إِبْلِيسَ.

أَمَّا مُخَالَفَتُهُمُ اللَّهَ [فَهِيَ] ^(١٦) قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ وَنَحْوُهُ، وَمُخَالَفَتُهُمُ الرُّسُلَ [هِيَ] ^(١٧) قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ شَيْءٌ إِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ أَصْحَاحَ لَكُمْ﴾ الْآيَةُ [هُود: ٣٤]، [وَمُخَالَفَتُهُمُ أَهْلَ النَّارِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى] ^(١٨): ﴿قَالُوا لَوْ

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) أورد بعدها في الأصل: رضي الله تعالى عنه. (٣) في الأصل وم: فينزع. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: دنيوية. (٦) في الأصل وم: بحيث. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: الابتداء. (٩) في الأصل وم: ولا كانوا. (١٠) من م، في الأصل: وما. (١١) في الأصل وم: ليس هو. (١٢) في الأصل وم: ولكن (١٣) في الأصل وم: وهو. (١٤) في الأصل وم: لذلك. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) ساقطة من الأصل وم. (١٧) في الأصل وم: وقول أهل النار.

هَدَيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَكُمُ ﴿٢١﴾ [إبراهيم: ٢١] وَمُخَالَفَتُهُمْ إِبْلِيسَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿١﴾: ﴿رَبِّ إِنِّي أَخَافُكَ﴾ [الحجر: ٣٩] هُوَ أَعْلَمُ بِاللَّهِ مِنَ الْمُتَعَتِّلَةِ.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلًا بِآلِقَةٍ﴾ أي بالدين الذي هو حق، أو جاؤوا بالأعمال التي من عمل بها كان صواباً ورشداً. وكلُّ حق هو صواب ورشد. ويَحْتَمِلُ: ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلًا بِآلِقَةٍ﴾ أي بالصدق ونحوه.

[وقوله تعالى] ﴿٢﴾: ﴿بِآلِقَةٍ﴾ لَهُ وَجْهَانِ:

أَخَذَهُمَا: بِالْحَقِّ الَّذِي اسْتَحَقَّهُ عَلَى عِبَادِهِ،

وَالثَّانِي: أَنَّهُمْ جَاؤُوا بِالَّذِي هُوَ حَقٌّ فِي الْعُقُولِ وَصَوَابٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَوَدُّوا أَنْ يَلَكُمُ الْجَنَّةُ﴾ وقوله: ﴿يَلَكُمُ﴾ إنما يَتَكَلَّمُ عَنْ غَائِبٍ، وَهُمْ فِيهَا. لَكِنْ تَأْوِيلُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَنَّ يَلَكُمُ الْجَنَّةَ الَّتِي كُنْتُمْ وَعِدْتُمْ فِي الدُّنْيَا، وَأَخْبِرْتُمْ عَنْهَا، هَذِهِ ﴿أُورِثُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وَإِنَّمَا يُورِثُ ذَلِكَ بِالْإِيمَانِ. وَسَائِرُ الْأَعْمَالِ إِنَّمَا تَصِيحُ بِالْإِيمَانِ؛ ذَكَرَ أَنَّهُمْ أُورِثُوا الْجَنَّةَ بِمَا عَمِلُوا، وَإِنْ كَانُوا يَنَالُونَهَا بِفَضْلِ اللَّهِ جَزَاءً وَشُكْرًا بِقَوْلِهِمُ الَّذِي قَالُوا ﴿وَمَا كُنَّا لِنَنْتَوِي لَوْلَا أَنْ هَدَيْنَا اللَّهُ﴾.

الآية ٤٤

وقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَدَّعْنَا مَا وَعَدْنَاهُمْ حَقًّا فَهَلْ وَدَّعْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾ وما وَعَدَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ مَا ﴿٣﴾ فِيهَا مِنَ النَّعِيمِ وَاللَّذَاتِ وَالشَّهَوَاتِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهُوهُ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١] وقوله تعالى ﴿لَذَرُوكُمُ لِلشَّيْطَانِ﴾ [الصافات: ٤٦] ومحمد: ١٥.

هذا الَّذِي وَعَدَ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَوَعَدَ لِلْكَافِرِينَ النَّارَ وَمَا ﴿٤﴾ فِيهَا مِنَ الشَّدَائِدِ وَأَنْوَاعِ الْعَذَابِ، فَأَقْرَبُوا أَنَّهُمْ قَدْ وَدَّعُوا مَا وَعَدَ لَهُمْ رَبُّهُمْ.

وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ وَدَّعْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ إِنَّ الْمُرَادَ بِالْحَقِّ الَّذِي ذَكَرَ الْوَعْدَ الَّذِي وَعَدَهُمْ، وَتَفْسِيرُ الْحَقِّ الصِّدْقُ، وَإِنْ كَانَ الْمَوْعُودُ قَتَاوِيلُهُ: وَجَدَّوهُ كَانُوا حَاضِرًا، وَهُوَ مَا ذَكَرْنَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ كَذَا.

[وقوله تعالى] ﴿٥﴾: ﴿فَأَذَنُ مَوْزُونٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ أَي وَجَبَتْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ وَعَدُوا فِي الدُّنْيَا. وقوله تعالى: ﴿فَأَذَنُ مَوْزُونٌ بَيْنَهُمْ﴾ يَحْتَمِلُ الْمَلَكُ. وَيَحْتَمِلُ غَيْرُهُ. وَلَيْسَ يُعْرَفُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْخَبَرِ. وَلَيْسَ لَنَا إِلَى مَعْرِفَةِ ذَلِكَ حَاجَةٌ.

فَإِنْ قِيلَ: يَذْكُرُ فِي الْآيَةِ نِدَاءَ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَهْلَ النَّارِ وَنِدَاءَ أَهْلِ النَّارِ أَهْلَ الْجَنَّةِ، وَنِدَاءَ بَعْضِهِمْ لَا يَكُونُ إِلَّا بِحَيْثُ يَكُونُ بَعْضُهُمْ قَرِيبًا مِنْ بَعْضٍ.

وَقَدْ جَاءَ فِي الْأَخْبَارِ مِنْ وَصْفِ الْجَنَّةِ وَسَعَتِهَا مَا رَوِي أَنَّ أَقَلَّ مَا يَكُونُ لِوَاحِدٍ مِنَ الْجَنَّةِ مِثْلُ عَرْضِ الدُّنْيَا، وَمَا ذَكَرَ أَنَّ الْحُورَ الْعِينِ لَوْ نَظَرَتْ نَظْرَةً إِلَى الدُّنْيَا لَأَمْتَلَاتِ الدُّنْيَا مِنْ ضَوْئِهَا وَنُورِهَا وَكَذَلِكَ مِنْ رِيحِهَا وَعِطْرِهَا.

وَقَدْ جَاءَ فِي وَصْفِ النَّارِ أَنَّ شَرَارَةَ مِنْهَا [لَوْ] ﴿٦﴾ وَقَعَتْ فِي الدُّنْيَا لَأَحْرَقَتْهَا ﴿٧﴾، أَوْ كَلَامٌ نَحْوُ هَذَا.

فَإِذَا كَانَ بَعْضُهُمْ [قَرِيبًا] ﴿٨﴾ مِنْ بَعْضٍ بِحَيْثُ يَسْمَعُ ﴿٩﴾ بَعْضُهُمْ نِدَاءَ بَعْضٍ لَا يَتَأَذَى أَهْلُ الْجَنَّةِ بِالنَّارِ؟ [وَلَا يَنْتَفِعُ أَهْلُ النَّارِ] ﴿١٠﴾ بِنَعِيمِ الْجَنَّةِ؟ وَكَيْفَ يُعْرَفُ ذَلِكَ؟ قِيلَ: وَاللَّهُ أَعْلَمُ، [إِنَّهُ لَقَادِرٌ] ﴿١١﴾ أَنْ يَضَعَ ﴿١٢﴾ نِدَاءَ هَؤُلَاءِ بِمَسَامِعِ أُولَئِكَ، وَنِدَاءَ أُولَئِكَ بِمَسَامِعِ هَؤُلَاءِ مَعَ بَعْدِ مَا بَيْنَهُمَا، فَيَسْمَعُ كُلُّ قَرِيبٍ نِدَاءَ الْقَرِيبِ الْآخَرِ عَلَى غَيْرِ هَذِهِ الْبَيِّنَةِ مَعَ ارْتِفَاعِ الْأَنَابِ وَالْحُجُبِ الَّتِي تَمْنَعُ ذَلِكَ. فَإِذَا ارْتَفَعَ ذَلِكَ كَانَ مَا ذَكَرَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَوْ يُقَرَّبُ الْجَنَّةُ مِنَ النَّارِ وَالنَّارُ مِنَ الْجَنَّةِ بِحَيْثُ يَسْمَعُ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُ إِبْلِيسَ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: وَمَا. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

(٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: لِأَحْرَقَتْهَا. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: يَسْمَعُونَ. (١٠) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ

الْأَصْلِ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَادِرٌ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: يَوْضَعُ.

بَغْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ مَا ذَكَرَ مِنَ السَّمَاءِ، أَوْ يَجْعَلَ ذَلِكَ فِي مَسَامِعِهِمْ بِمَا شَاءَ وَكَيْفَ شَاءَ؟ كَتَسْبِيحِ الْجِبَالِ وَخِطَابِ الثُّنَلِ وَجَوَابِهِ.

الآية ٤٥

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الصَّدُّ يَكُونُ مَنَعٌ غَيْرُهُ^(١)، وَيَكُونُ مَنَعٌ نَفْسِهِ.

وقوله تعالى: ﴿سَبِيلَ اللَّهِ﴾ قِيلَ: دِينُ اللَّهِ. قَالَ الْحَسَنُ: سَبِيلُ اللَّهِ دِينُ اللَّهِ الَّذِي ارْتَضَى لِعِبَادِهِ، وَأَمَرَهُمْ بِذَلِكَ، وَإِلَى ذَلِكَ دَعَا^(٢) رُسُلَهُ.

وقوله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعُوا عِوَجًا﴾ أَيِ يَتَّبِعُونَ الدِّينَ الَّذِي فِيهِ عِوَجٌ، وَهُوَ دِينُ الشَّيْطَانِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣] فَالْعِوَجُ هُوَ التَّفَرُّقُ الَّذِي ذَكَرَ فِي تِلْكَ الْآيَةِ. وَأَمَكَّنَ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ ﴿وَيَتَّبِعُوا عِوَجًا﴾ أَيِ طَفَعْنَا فِي دِينِ اللَّهِ. وَقَدْ كَانُوا يَتَّبِعُونَ طَفَعًا فِي دِينِ اللَّهِ.

الآية ٤٦

وقوله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعُوا حِجَابًا﴾ يُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ مَا ذَكَرَ مِنَ الْحِجَابِ مَا ذَكَرَ فِي آيَةٍ أُخْرَى، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَتَشْرِبُ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَمْ يَأْتِ بِالْحَقِّ فِيهِ الرِّحْمَةُ وَظَلَهُ مِنْ فِيكِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣] فَامَكَّنَ أَنْ يَكُونَ الْحِجَابُ الْمَذْكُورُ بَيْنَهُمَا هُوَ السُّورَ الَّذِي/ ١٧٤ - ب/ ذَكَرَ^(٣)، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسَمْعِهِمْ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: هُمْ^(٤) قَوْمٌ اسْتَوَتْ حَسَنَاتُهُمْ بِسَيِّئَاتِهِمْ، لَمْ يَشْرَوْا بِالْجَنَّةِ حَتَّى [إِنَّهُمْ]^(٥) لَا يَخَافُونَ عِقَابَهُ، وَلَا أَيْسَرُوا حَتَّى [إِنَّهُمْ]^(٦) لَا يَظْمَعُونَ وَلَا يَرْجُونَ دُخُولَهُمْ فِيهَا. وَقَالَ آخَرُونَ: هُمْ أَهْلُ كَرَامَةِ اللَّهِ، أَكْرَمَهُمُ اللَّهُ بِذَلِكَ، يَرْفَعُهُمُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ السُّورِ لِيَنْظُرُوا إِلَى حُكْمِ [اللَّهُ]^(٧) فِي الْخَلْقِ وَعَذْلِهِ فِيهِمْ، وَيَنْظُرُونَ إِلَى إِحْسَانِ اللَّهِ فِي مَنْ يُحْسِنُ إِلَيْهِ وَعَذْلِهِ فِي مَنْ يُعَاقِبُهُمْ. وَقِيلَ: هُمْ الْأَنْبِيَاءُ

وَالْأَنْبِيَاءُ أَنْ يَكُونُوا الْأَنْبِيَاءُ؛ يَكُونُونَ عَلَى الْأَعْرَافِ، يَشْهَدُونَ عَلَى الْأُمَمِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَكَيفَ إِذَا يَخْتَفَى مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدٌ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] وَقَالَ قَائِلُونَ: هُمْ الْمَلَائِكَةُ لَكِنَّ مَلَائِكَةَ اللَّهِ مَا يُسَمُّونَ رِجَالًا^(٨)، وَلَمْ نَسْمَعْ بِذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِذَلِكَ.

ثُمَّ اخْتَلَفَ فِيهِ: قِيلَ: سُمُّوا أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ، وَهُوَ سُورٌ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ؛ سُمِّيَ بِذَلِكَ لِإِرْتِفَاعِهِ، وَكُلُّ مُرْتَفِعٍ عِنْدَ الْعَرَبِ عُرْفٌ^(٩)، وَهُوَ قَوْلُ الْقَتَّيْبِيِّ. وَقَالَ غَيْرُهُ: الْأَعْرَافُ هُوَ عُرْفٌ كَعُرْفِ الدَّبَكِ وَالْفَرَسِ، وَهُوَ أَيْضًا مِنَ الْإِرْتِفَاعِ.

وَقَالَ الْحَسَنُ: هُمْ أَصْحَابُ التَّعْرِيفِ؛ يَعْرِفُونَ أَهْلَ النَّارِ وَعَذَابَ اللَّهِ فِيهِمْ وَحُكْمَهُ، وَأَنْ مَا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الشَّدَائِدِ وَالْعَذَابِ إِنَّمَا حَلَّ بِهِمْ بِمَا كَانَتْ مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا مِنْ صَدُومِ النَّاسِ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاسْتِكْبَارِهِمْ عَلَى الرُّسُلِ؛ يَعْرِفُونَهُمْ أَنْ مَا نَزَلَ بِهِمْ إِنَّمَا نَزَلَ بِعَذْلِ مِنْهُ، وَيَعْرِفُونَ أَهْلَ الْجَنَّةِ فَضْلَ اللَّهِ وَإِحْسَانَهُ إِلَيْهِمْ أَنْ مَا نَالُواهُمْ إِنَّمَا نَالُوا بِفَضْلِ وَإِحْسَانِ، أَوْ قَوْمٌ نَصَبَهُمُ اللَّهُ لِمُحَاجَّةِ أَهْلِ [النَّارِ]^(١٠) كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَغْنَى عَنْكُمْ جَهَنَّمَ وَمَا كُنْتُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٨] فَهَذِهِ الْمُحَاجَّةُ الَّتِي يُحَاجُّونَ بِهَا أَهْلَ النَّارِ.

وقيل^(١١): هُمْ قَوْمٌ نُصِبُوا لِتَرْجُمُونَ بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ، يُؤَدُّونَ كَلَامَ بَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ، وَيُنْهَوْنَ مُخَاطَبَاتِ بَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ. مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَادَعَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَقْبِئُوا عَلَيْنَا مِنَ النَّارِ﴾ [الأعراف: ٥٠] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَادَعَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعْدَمُ﴾ [الأعراف: ٤٤] وَنَحْوَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ مِنْ هُمْ.

وقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسَمْعِهِمْ﴾ قِيلَ: الْمُؤْمِنُونَ يَعْرِفُونَ بَيَاضَ وَجْهِهِ، وَالْكَافِرُونَ بِسَوَادِ وَجْهِهِ. وَيَخْتَلِفُ مَا قَالَ الْحَسَنُ: هُوَ أَنْ يَعْرِفُوا بِالْمَنَازِلِ وَالْأَمَاكِينِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: غَيْر. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: دَعَاهُمْ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: ذَكَرُوا. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: هُوَ. (٥) وَ(٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: رِجَالًا. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: أَعْرَاف. (١٠) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ أَنْ يُقَالُ.

وقوله تعالى: ﴿وَرَادَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ يعني نادى أصحاب الأعراف ﴿أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَلَمْ نَسَلِّمْ عَلَيْكُمْ﴾ ليس أن يقولوا: سلام عليكم باللسان خاصة، ولكن في كل كلام سديد وقول حسن وصواب كقوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا﴾ [مریم: ٦٢] أي سديداً صواباً، وكذلك: ﴿وَرَادَا حَاطَبُهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣] ليس على أن يقولوا سلام عليكم، ولكن يقولون لهم قولاً صواباً مُحْكَمًا. فعلى ذلك الأول.

وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَدْخُلُوا وَمَنْ يَطْمَعُونَ﴾ اختلِف فيه: قال عامة أهل التأويل: هم أصحاب الأعراف، لم يَدْخُلُوا، لم يَدْخُلُوا دُخُولَهَا. وقيل: هم كفار أهل النار يطمعون أن ينالوا منها كقوله تعالى: ﴿أَتَيْتُهَا عَلَىٰ مَاءٍ يَنْسَخُ مِنْهَا رِزْقَكُمْ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠] إلى هذا الوقت يطمعون دُخُولَهَا والتَّيْلُ منها. ثم أيسوا بهذا. وقال بعضهم: هم أهل الجنة يطمعون دُخُولَهَا قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ [الجنة] (١) وقبل أن يَدْخُلَ أَهْلُ النَّارِ النَّارَ.

الآية ٤٧ وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ﴾ قلنا [أبصار] (٢) أصحاب النار. قيل: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ﴾ أبصار الأعراف إلى أهل النار ﴿قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ من شدة ما يرون من العذاب وما نزل بهم. وقيل: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ﴾ أبصار أهل الجنة [لأنهم] أصحب النار قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وفي حرف أبي [بن كعب] (٣): وإذا قُلبت أبصارهم نحو ﴿أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا﴾ [إنا] (٤) عايدون بك أن نجعلنا ربنا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ إن كان ذلك الدعاء من الأنبياء أو من أهل كرامة الله الذين كانوا على الأعراف فذلك منهم شهادة أنهم ظلمة وكفرة، ومعنى التَّعَوُّذِ منهم النار لأنهم لم يَدْخُلُوا الجنة بعد، فيخافون لقصور كان منهم في شكر المنعم، أو بالطَّبع يتعوذون كما (٥) يتعوذ كل أحد إذا رأى أحداً في البلاء، والله أعلم.

الآية ٤٨ وقوله تعالى: ﴿وَرَادَا أَصْحَابَ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ قال عامة أهل التأويل: يُعرفون بسواد الوجوه ورُقَّة العيون، ولكن أمكن أن يُعرفوا بالاعلام التي كانت لهم في الدنيا سوى سواد الوجوه؛ لأنهم يخاطبونهم بقوله: ﴿قَالُوا مَا أَفْقَىٰ عَنْكُمْ جَهَنَّمَ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ فلو لم يعرفوهم (٦) بآثار كانت لهم في الدنيا لم يكونوا يُعَايِنُونَهُمْ بِجَمْعِ الأموال والاستكبار في الدنيا، ولا يُقال لِلْفُقَرَاءِ ذلك، إنما يُقال لِلْأَغْنِيَاءِ لأنهم هم الذين يَجْمَعُونَ الأموال، وهم المُسْتَكْبِرُونَ على الخلق كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [سبا: ٣٥]. ويشبه أن يخاطب الكل فيهم من قد جمع، واستكبر، وذلك جائز. هذا على تأويل من يجعل أصحاب الأعراف الذين استوت حسنتهم بسيماتهم.

الآية ٤٩ وقوله تعالى: ﴿أَمْثَلُوا الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ قال عامة أهل التأويل: ﴿أَقْسَمْتُمْ﴾ [يا] (٧) أهل النار أن أصحاب الأعراف لا يَدْخُلُونَ الجنة، ولكن يَدْخُلُونَ النار معكم (٨).

فيقول الملائكة لأهل النار ﴿أَمْثَلُوا الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾. ويَحْتَمِلُ أن يكون القسم الذي ذكر في الآية كان منهم في الدنيا؛ كانوا (٩) يُقْسِمُونَ [ألا يَدْخُلُ] (١٠) هؤلاء الجنة؛ يَغْنُون أصحاب رسول الله ﷺ، كقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْكَ﴾ [الأحقاف: ١١] كانوا [يقولون:] (١١) إن الذي هم عليه لو كان خيراً لنالوا هم ذلك إذ نالوا هم كل خير في الدنيا، يَغْنُون أنفسهم. فعلى ذلك ينالون في الآخرة مثله، ونحو ذلك من الكلام الذي يقولون في الدنيا: يقولون (١٢) لهم في الآخرة: ﴿أَمْثَلُوا الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ وأمكن أن يكون قوله تعالى: ﴿أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ﴾ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلُوا.

وقوله تعالى: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ قال الأصم: يكون الحزن في قوت كل مخبٍ، والخوف في نيل

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: لما. (٦) في الأصل وم: يعرفهم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: معهم. (٩) في الأصل وم: قالوا. (١٠) في الأصل وم: أن يَدْخُلُوا. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: فيقولون.

كُلِّ مَكْرُوهٍ كَقَوْلِ يَعْقُوبَ ﴿قَالَ إِنِّي لَبِئْسَ نَجِسٌ أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ. وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٣] ذَكَرَ الْحُزْنَ عِنْدَ قَوْبِ مَحْبُوبِهِ وَالْخَوْفَ عِنْدَ نَيْلِ الْمَكْرُوهِ.

ولكن عندنا الحُزْنَ إنما يكون بِقَوْبِ الْمَوْجُودِ مِنَ الْمَحْبُوبِ، وَالْخَوْفُ بِمَا سَيُصِيبُهُ مِنَ الْمَكْرُوهِ.

الآية ٥٠

وقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابَ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَقِيمُوا عَلَيَّكَ مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ قَالَ الْحَسَنُ: الْمَاءُ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ، وَلَكِنْ مُكْرَّرٌ مُتْنِي، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: طَلَبُوا الْمَاءَ لِيَذُقُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ مَا اشْتَدَّ بِهِمْ مِنَ الظَّمِّ وَالْعَطَشِ. ثُمَّ نَفَعَ لَهُمُ الْحَاجَةَ إِلَى الطَّاعَةِ، لِأَنَّ الرَّجُلَ إِذَا اشْتَدَّ بِهِ الْعَطَشُ وَالظَّمُّ لَا يَنْتَهِي لَهُ الْأَكْلُ، وَلَكِنْ يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ طَلَبُ بَعْضِهِمُ الْمَاءَ وَبَعْضِهِمُ الطَّعَامَ الَّذِي رَزَقَهُمُ اللَّهُ. وَهَذَا جَائِزٌ، وَإِنْ لَمْ يَذْكُرْ كَقَوْلِهِ: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَانًا﴾ [البقرة: ١١١] لَمْ يَكُنْ هَذَا الْقَوْلُ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ، وَلَكِنْ كَانَ مِنَ الْيَهُودِ ﴿إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا﴾ [وَمِنْ النَّصَارَى] ^(١) أَوْ نَصْرَانًا. فَعَلَى ذَلِكَ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَ الْكَافِرِينَ﴾ قِيلَ: هَذَا مُقَابِلُ قَوْلِهِمْ فِي الدُّنْيَا لِلْمُؤْمِنِينَ: ﴿أَنْتُمْ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطَعْتُمْ﴾ [يس: ٤٧] قَالَ لَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ فِي الْآخِرَةِ مُقَابِلُ ^(٢) مَا قَالُوا لَهُمْ فِي الدُّنْيَا: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَ الْكَافِرِينَ﴾. وَهَذَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ، لَيْسَ عَلَى التَّخْرِيمِ، وَلَكِنْ عَلَى الْمَنْعِ؛ لِأَنَّ الْكَفْرَةَ لَا يَنَالُونَ بَعْدَ أَنْ نَالُوا ^(٣) ذَلِكَ حَرَامًا كَانَ أَوْ حَلَالًا، وَلَكِنْ عَلَى الْمَنْعِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾ [القصص: ١٢] لَيْسَ هُوَ تَحْرِيمُ حُرْمَةِ أَكْلٍ، وَلَكِنْ مَنَعٌ. وَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مُحَرَّمًا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ: إِطْعَامُ الْكَافِرِينَ مِنْ ذَلِكَ.

الآية ٥١

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَيْعًا﴾ قَالَ الْحَسَنُ: اتَّخَذُوا دِينَهُمُ الَّذِي ^(٤) كُتِفُوا/ ١٧٥ - ١/ بِهِ، وَأَمَرُوا أَنْ يَأْتُوا بِهِ، لَهْوًا وَلَيْعًا.

وجائز أن يكون قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَيْعًا﴾ اتَّخَذُوا دِينَهُمُ الْمَلَاهِي التي كانوا يلتهون، وَيَلْعَبُونَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْآيَةِ إِلَّا مَسْكَةً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥] أَيِ اتَّخَذُوا دِينَهُمُ الَّذِي أَتُوا بِهِ لَهْوًا وَلَيْعًا؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يُتَكَبَّرُونَ الْبَغْثَ، وَفِي إِنْكَارِهِمُ الْبَغْثَ إِنْكَارُ الْجَزَاءِ لِلْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، وَفِي الْحِكْمَةِ إِيْجَابُ ذَلِكَ. فَفُرِغَ لَمْ يَزِدْ ذَلِكَ فَهُوَ لَاوٍ لَاعِبٌ، وَاللَّهْوُ وَاللَّيْعُ هُوَ الَّذِي لَا عَاقِبَةَ لَهُ. وَكُلُّ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا، لَا عَاقِبَةَ لَهُ، فَهُوَ [لَاعِبٌ وَلَاوٍ] ^(٥). وَكُلُّ مَنْ يَفْعَلُ [عَمَلًا] ^(٦) لِعَاقِبَةٍ فَهُوَ لَيْسَ [بِلَاعِبٍ وَلَاوٍ] ^(٧). وَهُمْ كَانُوا يَعْمَلُونَ لَا لِعَاقِبَةٍ، لِذَلِكَ كَانَ عَمَلُهُمْ لَهْوًا وَلَيْعًا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَرَّفَهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا لَا تَعْرِفُ أَحَدًا، وَلَكِنْ أَضِيْفَ إِلَيْهَا ^(٨) التَّخْرِيرُ لِمَا كَانَ سَبَبًا مِنْ أَسْبَابِ الْإِغْتِرَارِ بِهَا، فَأَضِيْفَ إِلَيْهَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءً إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح: ٦] أَضَافَ الْفِرَارَ إِلَى الدُّعَاءِ، وَقَدْ يُضَافُ الشَّيْءُ إِلَى سَبَبِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُكَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧] أَيِ يُبْصِرُ بِهِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَضِيْفَ ذَلِكَ إِلَيْهَا لِمَا كَانَ مِنْهَا مِنَ السَّبَبِ مِنَ الْهَيْئَةِ مَا لَوْ كَانَ ذَلِكَ مِنْ ذِي الْعَقْلِ وَالتَّمْيِيزِ كَانَ ذَلِكَ غُرُورًا مِنْ نَحْوِ التَّزْيِينِ وَغَيْرِهِ.

وجائز إضافة التَّخْرِيرِ إِلَيْهَا عَلَى إِرَادَةِ أَهْلِهَا؛ أَيِ غَرَّهُمْ أَهْلُهَا، وَهُمْ الْقَادَةُ وَالرُّؤَسَاءُ.

وقوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسِفُهُمْ كَمَا نَسَفْنَا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ لَا يَجُوزُ أَنْ يُضَافَ النَّسْيَانُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِحَالٍ. وَلَكِنْ يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: نَجْزِيهِمْ جَزَاءَ نَسْيَانِهِمْ، فَسَمِيَ الثَّانِي بِاسْمِ الْأَوَّلِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الثَّانِي نِسْيَانًا نَحْوَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَحَرَّوْا سِنِينَ سِنَيْنًا﴾ [الشورى: ٤٠] وَالثَّانِي لَيْسَتْ بِسَبَبَةٍ، وَلَكِنْ جَزَاءُ السَّبَبَةِ لَكِنَّهُ سَمَّاها بِاسْمِ السَّبَبَةِ لِمَا هِيَ جَزَاءُ لَهَا. فَعَلَى ذَلِكَ هَذَا، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ أَغْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاقْتَدُوا عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٩٤] وَالثَّانِي لَيْسَ بِإِغْتِدَاءٍ، وَلَكِنَّهُ جَزَاءُ الْإِغْتِدَاءِ، فَسَمَّاها بِاسْمِ الْإِغْتِدَاءِ لِمَا هُوَ جَزَاءُ. وَعَلَى ^(٩) ذَلِكَ سَمِيَ الثَّانِي نِسْيَانًا، لِأَنَّهُ جَزَاءُ النَّسْيَانِ، وَإِنْ كَانَ اللَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَنْسَى، أَوْ

(١) فِي الْأَصْلِ رَمَ: أَوْ نَصَارَى. (٢) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: مُقَابِل. (٣) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: نَالُوا (٤) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: الَّذِينَ. (٥) فِي الْأَصْلِ رَمَ: لَعِبَ وَلَهْو. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ رَمَ. (٧) فِي الْأَصْلِ رَمَ: بَلَعَبَ وَلَا لَهْو. (٨) فِي الْأَصْلِ رَمَ: إِلَيْهِ. (٩) فِي الْأَصْلِ رَمَ: فَعَلَى.

يَسْهُو عَنْ شَيْءٍ، أَوْ يَغْفَلَ، وَلَأنَّ فِي النِّسيَانِ تَرْكَاً، وَكُلُّ مَنْسِيٍّ مَتْرُوكٌ، فَيَتْرَكُهُمْ فِي الْعَذَابِ وَالْهَوَانِ كَمَا تَرَكُوا هُمْ أَمْرَ اللَّهِ وَنَهْيَهُ فِي الدُّنْيَا.

وَقَالَ الْحَسَنُ: إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْسَى شَيْئاً، وَلَا يَسْهُوهُ، وَلَكِنَّ الْكُفْرَةَ يَكُونُونَ عَلَى الْكَرَامَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالْمَنْزِلَةِ كَالشَّيْءِ الْمَنْسِيِّ، وَعَنِ الْعَذَابِ وَالْهَوَانِ لَا، أَوْ كَلَاماً^(١) نَحْوُ هَذَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: مَا هُنَا صِلَةٌ، كَأَنَّهُ قَالَ: وَكَانُوا بِآيَاتِنَا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ عَلَى مَا ذَكَرَ، أَيْ ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ كَمَا ﴿كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

الآية ٥٢

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَفَصَّلْنَاهُ﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَفَصَّلْنَاهُ﴾ بَيِّنَاتُهُ، وَالتَّفْصِيلُ لِلتَّبَيِّنِ. وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَفَصَّلْنَاهُ﴾ أَيْ فَرَّقْنَاهُ فِي إِنْزَالِهِ؛ لَمْ نُنْزِلْهُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَفَرَّقْنَا فَرَقَتَهُ لِنَقْرَأَ عَلَى الْقَائِلِينَ﴾ [الإسراء: ١٠٦] أَيْ فَرَّقْنَاهُ فِي الْإِنْزَالِ عَلَى قَدْرِ النَّوَازِلِ بِهِمْ لِيَعْلَمُوا حُكْمَ كُلِّ آيَةٍ نَزَلَتْ بِالنَّوَازِلِ الَّتِي وَقَعَتْ بِهِمْ، لَا تَقَعُ لَهُمْ الْحَاجَةُ إِلَى مَعْرِفَةٍ مَا فِي كُلِّ آيَةٍ نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ عَلَى جِدَةٍ، بَلْ يَغْرِفُونَ ذَلِكَ فِي النَّوَازِلِ، أَوْ أَنْزَلَهُ مُفْرَقاً، أَوْ أَنْ تَكُونَ مَعْرِفَةٌ مَا فِيهِ مِنَ الْأَحْكَامِ، إِذَا كَانَ مُتَزَلاً بِالتَّفَارِقِ، أَمْوَنَ وَأَيْسَرَ عَلَى الطَّبَاعِ مِنْ مَعْرِفَةٍ مَا فِيهِ إِذَا نَزَلَ جُمْلَةً.

ثُمَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَفَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلَّةٍ﴾ يَحْتَمِلُ وَجوهاً: يَحْتَمِلُ ﴿فَفَصَّلْنَاهُ﴾ أَيْ بَيَّنَّاهُ بِالْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ ﴿عَلَىٰ عِلَّةٍ﴾ أَنَّ الْخَلَائِقَ لَا تَقُومُ بِإِتْيَانِ مِثْلِهِ لِيَعْلَمَ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِهِ نَزَلَ، أَوْ أَنْزَلَهُ مُفَضَّلاً ﴿عَلَىٰ عِلَّةٍ﴾ مِنْهُ يَمُنُّ بِصِدْقِهِ وَيَتَّبِعُهُ، وَيَمُنُّ بِكُذْبِهِ، وَلَا يَتَّبِعُهُ، أَوْ ﴿عَلَىٰ عِلَّةٍ﴾ مِنْهُ بِمَصَالِحِ الْخَلْقِ؛ إِنَّ أَنْزَلَهُ صَلَاحٌ لِلْخَلْقِ: أَيْ ﴿عَلَىٰ عِلَّةٍ﴾ مِنْهُ بِمَعَامَلَةِ الْقَوْمِ إِيَّاهُ؛ أَنْزَلَهُ لِأَنَّ الْمَنْفَعَةَ فِي إِنْزَالِهِ لِلْمُنْزَلِ عَلَيْهِمْ لَا لِلْمُرْسَلِ، فَقَرَّرَ الرُّدَّ وَالْمَنْفَعَةَ لَهُمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: هُوَ هُدًى لِلْكَلِّ لِلْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ جَمِيعاً، وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ خَاصَّةً.

وَأَمَّا عِنْدَنَا فَهُوَ هُدًى لِلْمُؤْمِنِينَ وَعَمَىٰ لِلْكَافِرِينَ عَلَى مَا ذَكَرَ أَنَّهُ^(٢) عَلَيْهِمْ عَمَى: خَصَّ الْمُؤْمِنِينَ بِالْهُدَى لَهُمْ لِأَنَّهُمْ هُمُ الْمَخْصُوصُونَ بِالْإِنْفِاعِ بِهِ دُونَ أَوْلَئِكَ، وَعَلَى أَوْلَئِكَ عَمَى وَرَجَسَ عَلَى مَا ذَكَرَ، وَصَارَ لِلْمُؤْمِنِينَ حُجَّةٌ عَلَى أَوْلَئِكَ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَرَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥] هَذَا لِلْكَافِرِينَ، وَقَوْلُهُ^(٣) تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ: ﴿فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [التوبة: ١٢٤].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ أَيْ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا وَقُوعَ مَا وَعَدَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ نَزُولِ بَاسٍ بِأَسْرِ اللَّهِ بِهِمْ، أَيْ لَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا بَعْدَ وَقُوعِ الْبَاسِ بِهِمْ. لَكِنْ لَا يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوا مِنْ قَبْلُ﴾. وَالتَّأْوِيلُ هُوَ مَا يَنْتَهِي إِلَيْهِ الْأَمْرُ، وَيُؤَوَّلُ، وَمَا يَقَعُ بِهِمْ مِنَ الْبَاسِ الْمَوْعُودِ لَهُمْ، وَإِيْمَانُهُمْ بِمَا ذَكَرَ مِنْ قَوْلِهِمْ: ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ مِنَّا بِالْحَقِّ﴾ يَغْنِي بِالْحَقِّ الْوَاقِعِ بِهِمْ مِنْ بَاسِ اللَّهِ الَّذِي كَانَتْ الرُّسُلُ تَعِدُّ لَهُمْ؛ أَيْ مَا^(٤) وَعَدُوا مِنْ وَقُوعِ الْبَاسِ بِهِمْ^(٥) كَانَ حَقًّا.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ مِنَّا بِالْحَقِّ﴾ أَيْ بِالْتَّوْجِيدِ أَيْ إِنَّ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ مِنَ التَّوْجِيدِ كَانَ حَقًّا، أَوْ إِنَّ الَّذِي أَخْبَرَ الرُّسُلُ مِنْ هَذَا الْيَوْمِ كَانَ حَقًّا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَهَلْ نَسَا مِنْ شِغْفَاءٍ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ كَانَهُمْ إِذَا حَلَّ بِهِمْ، وَوَقَعَ مَا أَوْعَدَ لَهُمُ الرَّسُولُ مِنَ الْبَاسِ تَمَتُّوا عِنْدَ ذَلِكَ الشِّغْفَاءِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ فِي الدُّنْيَا كَقَوْلِهِمْ: ﴿هَؤُلَاءِ شِغْفُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] أَوْ طَلَبُوا الشِّغْفَاءَ كَمَا كَانُوا يَطْلُبُونَ فِي الدُّنْيَا شِغْفَاءَ إِذَا بَدَأَ لَهُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ، فَيَشْفَعُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ^(٦) فِي هَذِهِ الدُّنْيَا. فَعَلَى مَا كَانَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا تَمَتُّوا فِي

(١) فِي الْأَصْلِ رَم: كَلَام. (٢) فِي الْأَصْلِ رَم: وَهُوَ. (٣) فِي الْأَصْلِ رَم: وَقَالَ. (٤) أُدْرِجَ قَبْلَهَا فِي الْأَصْلِ رَم: أَنْ. (٥) فِي الْأَصْلِ رَم: بَنَى.

(٦) فِي الْأَصْلِ رَم: بَعْضًا.

الْآخِرَةَ ذَلِكَ. فإِذَا أيسُوا مِنْ ذَلِكَ، وَايقنُوا أَن لَا شَفِيعَ يَشْفَعُ لَهُمْ فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالُوا: ﴿أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ لَا أَنَّهُمْ قَالُوا مَجْمُوعاً كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَكَلِّمُنَا رُدُّهُ وَلَا نَكَلِّمُهُ رَدًّا﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿لَعَادُوا لَنَا تِهَوًّا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٧ و ٢٨]. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَوْ رُدُّوا إِلَى الدُّنْيَا: ﴿لَعَادُوا لَنَا تِهَوًّا عَنْهُ﴾ وَقَالَ آخَرُونَ: لَوْ رُدُّوا إِلَى الْمَحْنَةِ إِلَى الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ لَعَادُوا^(١) إِلَى الْعَمَلِ الَّذِي كَانُوا يَفْعَلُونَ.

ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بِعَمَلِهِمْ الَّذِي عَمِلُوا وَبِعِبَادَاتِهِمْ غَيْرَ اللَّهِ ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أَي بَطَلَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿أَنْ هَؤُلَاءِ شُفَعَتُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وَيَقُولُونَ^(٢): ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣] وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْإِفْرَاءِ. ذَلِكَ كُلُّهُ قَدْ بَطَلَ عَنْهُمْ، فَبَقُوا حَيَارَى، وَانْقَطَعَ رَجَاؤُهُمْ وَأَمَلُهُمْ الَّذِي طَمِعُوا. وَقِيلَ: ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَقِيلَ: مِمَّا وَعَدُوا، وَأَطَاعُوا، وَقِيلَ: أَهْلِكُوا.

الآية ٥٤

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ وَذَكَرَ مَا بَيْنَهُمَا فِي مَوَاضِعَ، وَلَمْ يَذْكُرْ فِي مَوَاضِعَ؛ وَذَلِكَ دَاخِلٌ بِذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَبِئْتَكُمْ تَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَحْمِلُونَ لَهُ أَثْقَالًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [فصلت: ٩] الَّذِي صَنَعَ ذَلِكَ ﴿وَيَعْمَلُ فِيهَا رُؤُوسَ مِنْ قَوْفٍ وَتَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾.

ثُمَّ جَمَعَ^(٣) الْيَوْمَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ مَعَ هَذَا الَّذِي ذَكَرَ فِيهِ، وَقَالَ: ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلْعَالَمِينَ﴾ [فصلت: ١٠] لِيُعْلِمَ أَنَّ ذَا خَلَقَ فِي يَوْمَيْنِ. ثُمَّ قَالَ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَقَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَعَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١١ و ١٢] فَتَقْصِيرُ سِتَّةِ الْأَيَّامِ الَّتِي أَبْهَمَهَا فِي غَيْرِ ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ قَدْ بَيَّنَّ ۖ فَسَادَ قَوْلُ كُلِّ مَنْ عَبَدَ غَيْرَهُ، وَعَجَزَ كُلُّ ذَلِكَ عَمَّا لَهُ يُعْبَدُ، وَجَهْلُهُ بِمَعْنَى الْعِبَادَةِ، وَخُرُوجُهُ عَنِ الْإِسْتِحْقَاقِ بِمَا فِيهِ مِنْ آثَارِ التَّدْبِيرِ وَعَلَيْهِ مِنْ دَلَالَةِ التَّقْدِيرِ، وَاسْتِحْقَاقِ جَمِيعِ مَعَانِي الْخَلْقَةِ، وَدُخُولُهُ تَحْتَ الصَّنْعَةِ، وَحَاجَتُهُ إِلَى مَنْ أَحْتَاجَ إِلَيْهِ كُلُّ مِمَّا هِيَ الَّتِي تَبَعَتْ عَلَى الْعِبَادَةِ، وَتُوجِبُ إِظْهَارَ الذَّلَّةِ وَالْخُضُوعِ لِمَنْ هُوَ كَذَلِكَ فِي الْخَلْقَةِ وَالْجَوْهَرِ، فَالزَّمَهُمُ الْفَرْعَ إِلَى مَنْ يَذْلُهُمْ إِلَى الرَّبِّ الْحَقِّ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَى الْمَعْبُودِ / ١٧٥ - ب/ الْمُتَعَالِي عَنِ الْأَشْيَاءِ وَالْأَضْدَادِ بِمَا يُوجِبُ الشُّبُهَةَ وَالْمُشَاكَلَةَ.

وَفِي وَجُوبِ ذَلِكَ دَلِيلٌ جَاعِلٌ آخِذٌ لَهُ شُكْلًا. وَذَلِكَ آيَةُ الصَّنْعَةِ وَدَلَالَةُ الْحَدِيثِ. وَفِي تَحْقِيقِ الصُّدُوحِ ذَهَابٌ وَفَسَادٌ، فَتَقْتَضِيهِمُ الْأُلُوهِيَّةُ، وَيَسْتَوْجِبُ حَقَّ الدُّخُولِ تَحْتَ التَّقْدِيرِ وَالْقِيَامِ عَلَى مَا شَاءَ مَنْ لَهُ التَّدْبِيرُ، جَلَّ اللَّهُ، سُبْحَانَهُ، عَنْ تَوْهَمِ ذَلِكَ، فَاتَّكَمَ مَنْ بَعَثَهُ الْحَاجَةُ إِلَى مَعْرِفَتِهِ، وَدَقَّقَتْهُ الْخَلْقَةُ إِلَى الْعِلْمِ بِمَنْ أَنْعَمَ عَلَيْهِ، وَاخْتَصَّصَهُ مِنْ بَيْنِ كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِهِ بِمَا رَكَّبَ فِيهِ مَا بِهِ يَذْبُرُ أَمْرَ غَيْرِهِ، وَبِهِ يَعْرِفُ قَدْرَ النِّعَمِ عَلَيْهِ لِمَنْ أَكْرَمَهُ بِهِ لِيُشْكِرَ^(٤) لَهُ فِي مَا أَوْلَاهُ، وَيَخْدُمَهُ عَلَى [مَا]^(٥) أَعْطَاهُ، فَمَنْ بِإِظْهَارِ ذَلِكَ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ الَّذِي عَرَفَ خَلْقَهُ بِمَا نَصَّبَ مِنْ أَدَلَّةٍ صِدْقِهِ، وَأَنَارَ مِنْ حُجَجٍ عِظَمِهِ عَنِ الْكِبْذِ فِي مَا يُنْبِئُ وَإِصَابَتِهِ فِي مَا يُخْبِرُ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي﴾ لَا رَبَّ لَكُمْ^(٦) سِوَاهُ وَلَا لِأَحَدٍ مِنَ الْخَلَائِقِ.

هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ لِيُوجِّهُوا إِلَيْهِ الْعِبَادَةَ فِي الْحَقِيقَةِ، وَلِيُؤَدُّوا إِلَيْهِ شُكْرَ مَا أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ، وَإِنْ كَانَتْ نِعْمُهُ أَعْظَمَ مِنْ أَنْ يَجْزِيَهَا الْعِبَادُ، وَحَقُّهُ أَجَلٌ مِنْ أَنْ يَقُومَ بِهِ الْعِبَادُ، لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ، سُبْحَانَهُ، لَمْ يَرُدِّ مِنَ الْبَيَانِ عَلَى رُبُوبِيَّتِهِ وَالِدَلِيلِ عَلَى أُلُوهِيَّتِهِ سِوَى مَا أُنْطِقَ بِهِ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ [إِلَيْهِ]^(٨) الْإِيضَاحُ أَنَّهُ لَا يَنْطِقُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَا يَقُولُ إِلَّا الصُّدُقَ لَكَانَ ذَلِكَ بَيَانًا شَافِيًا.

لَكِنَّهُ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ بَيَّنَّ الْأَدَلَّةَ الَّتِي تُحَقِّقُ ذَلِكَ، وَتُعْلِمُ أَنَّهُ كَمَا أَجَابَهُ رَسُولُهُ إِلَّا أَنْ يُعَايِدَ الْحَقُّ، وَيُكَابِرَ الْعَقْلُ فَقَالَ ۖ ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ إِلَى آخِرِ [مَا ذَكَرَ]^(٩) دَلَالَةَ خَلْقِ مَا ذَكَرَ مِنْ آثَارِ التَّدْبِيرِ وَعَجِيبِ التَّقْدِيرِ الَّذِي بِهِ قِيَامُ كُلِّ مِمَّنْ يَحْتَمِلُ الْمَنَافِعَ وَالْمَضَارَّ وَاتِّصَالَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ عَلَى تَبَاعُدِ بَعْضٍ مِنْ بَعْضٍ فِي الْمَنَافِعِ مَعَ جَمْعِ الْأَضْدَادِ الَّتِي مِنْ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: لَصَارُوا. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (١٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (١٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (١٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (١٧) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (١٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (١٩) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٢٠) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٢١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٢٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٢٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٢٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٢٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٢٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٢٧) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٢٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٢٩) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٣٠) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٣١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٣٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٣٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٣٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٣٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٣٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٣٧) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٣٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٣٩) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٤٠) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٤١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٤٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٤٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٤٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٤٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٤٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٤٧) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٤٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٤٩) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٥٠) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٥١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٥٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٥٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٥٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٥٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٥٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٥٧) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٥٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٥٩) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٦٠) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٦١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٦٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٦٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٦٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٦٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٦٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٦٧) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٦٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٦٩) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٧٠) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٧١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٧٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٧٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٧٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٧٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٧٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٧٧) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٧٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٧٩) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٨٠) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٨١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٨٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٨٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٨٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٨٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٨٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٨٧) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٨٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٨٩) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٩٠) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٩١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٩٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٩٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٩٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٩٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٩٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٩٧) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٩٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٩٩) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (١٠٠) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ.

طَبْعُهَا التَّنَافُرُ فِي أَضْلٍ مَا ذَكَرَ حَتَّى صَارَتْ كَالْأَشْكَالِ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ مُشْتَبِهَةً^(١) لَا تُشْعِرُ بِمَا فِيهَا مِنْ الْحِكْمَةِ وَلَا بِالَّذِي فِيهِ مِنْ أَيْ وَجْهِ تَقْضَى الْحَاجَةُ لِيَدُلَّ أَنْ مُدَبِّرَ الْكُلِّ وَاحِدٌ؟ وَانْهَ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ، وَضَعَ كُلَّ شَيْءٍ مَوْضِعَهُ، وَذَلَّ كُلُّ ذِي عَقْلٍ عَلَى الْوَجْهِ [الَّذِي]^(٢) يَظْفَرُ بِحَاجَتِهِ، وَيُقِيمُ بِهِ أَوْدَهُ، وَيَصِلُ إِلَى بُغْيَتِهِ، وَسَخَّرَ الَّذِي ذَكَرَ، فَصَيَّرَ كُلًّا مِنْ ذَلِكَ جَارِيًّا ذَاتِيًّا بِمَا لَا يَنْتَفِعُ هُوَ بِهِ، وَلَا مَضَرَّةٌ عَلَيْهِ فِيهِ، لِيَعْلَمَ أَنَّهُ لِيُغَيِّرَهُ قُدْرَ، وَلِحَاجَةٍ غَيْرِهِ سَيَّرَ، وَكَذَلِكَ الَّذِي جَبَلَ عَلَى الْقَرَارِ، وَأَمْسَكَ عَنِ الزَّوَالِ مِنْ غَيْرِ أَنْ كَانَ لَهُ فِي حَقِيقَةِ أَحَدِ الْوَجْهَيْنِ نَفْعٌ أَوْ ضَرَرٌ لِيَعْلَمَ أَنَّ تَدْبِيرَ ذَلِكَ جَرَى لَا لَهُ، وَلَكِنْ لِأَهْلِ الْمُتَمَتِّحِينَ الَّذِينَ بِهِمْ يَظْهَرُ الْعِزُّ وَالشَّرَفُ، وَيَنْبُلُ الْجُودُ وَالْكَرَمُ، وَيَغْظُمُ الْمُلْكُ وَالسُّلْطَانُ؛ إِذْ عِنْدَهُمْ تَمْيِيزُ الْأَحْوَالِ وَتَفْرِيقُ الْأُمُورِ وَتَوْجِيهِ كُلِّ إِلَى حَقِّهِ وَإِعْطَاءُ كُلِّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ، فَيَعْلَمُ مَنْ هَذَا وَضَعَهُ أَنَّهُ لَمْ يَنْشِئْ عَيْنًا، وَلَا خَلَقَ بَاطِلًا؛ إِذْ بِهِ يَغْظُمُ قُدْرُ كُلِّ خَلْقٍ، وَيُسْرَفُ جَلَالُهُ كُلِّ جَلِيلٍ. لَمْ يَجْزِ إِهْمَالُ^(٣) مِثْلِهِ، فَيَكُونُ خَلْقُ الْجَمِيعِ لِغَيْرِ شَيْءٍ مَعَ مَا فِي ذَلِكَ مِنْ نِيَّائِهِ وَتَبَدُّدِهِ الَّذِي فِي الْحِكْمَةِ قَضُدٌ مِثْلِهِ فِي الْعَقْلِ يُوجِبُ الْعَبَثَ.

ثَبَّتَ أَنَّهُ خَلَقَ لِلْمِخْنَةِ وَلِدَارِ الْبَقَاءِ. لَكِنْ جَعَلَ الْبَقَاءَ جَزَاءً وَالْفَنَاءَ مِخْنَةً لِيَكُونَ الْبَقَاءُ هُوَ الْمُنتَهَى، فَيَغْظُمُ الْقَضُدُ فِي الْإِبْتِدَاءِ؛ إِذْ فَايَسَدَ أَنْ يَجْعَلَ الْمِخْنَةَ لِلْبَقَاءِ، فَيَدُلَّ عَلَى حَاجَةِ الْمُتَمَتِّحِينَ مَعَ مَا فِي ذَلِكَ زَوَالِ الْجَزَاءِ؛ إِذْ مُحَالٌ تَقْدِيمُهُ عَلَى مَالِهِ الْجَزَاءِ، وَاللَّهُ الْمُؤَفَّقُ.

ثُمَّ الْأَضْلُ أَنَّ اللَّهَ، سُبْحَانَهُ، جَعَلَ الْعَقْلَ جُزْءًا مِنْ عَالَمِهِ، وَجَعَلَهُ دَلِيلًا لِأَهْلِهِ فِي مَعْرِفَةِ الْمَسَاوِيِّ وَالْمَحَاسِنِ وَعَلَّمَ لِلتَّمْيِيزِ بَيْنَ الْحِكْمَةِ وَالسَّفْوَةِ وَبَيْنَ الْإِتْقَانِ وَالْعَبَثِ، وَجَعَلَهُ بِالَّذِي يَعْرِفُ الْمَحْمُودَ مِنَ الْمَذْمُومِ وَالْمَرْغُوبَ فِيهِ مِنَ الْمَرْجُورِ عَنْهُ، فَلَمْ يَجْزِ أَنْ يَكُونَ إِنْشَاءُ كُلِّ الْعَالَمِ عَلَى غَيْرِ الْحِكْمَةِ، لِأَنَّهُ سَفْوَةٌ. وَهُوَ بِالَّذِي هُوَ جُزْءٌ مِنَ الْعَالَمِ يَعْلَمُ بِهِ الدِّمِمْ مِنَ الْحَمِيدِ. ثَبَّتَ أَنَّهُ أَنْشَأَ لِلْحِكْمَةِ.

وَعَلَى ذَلِكَ تَقْدِيرُ كُلِّ عَاقِلٍ عَلَى اخْتِمَالٍ مَا يَضُرُّهُ، وَيَنْتَفِعُهُ، بِحَقِّ الْجَزَاءِ وَالْمِخْنَةِ. ثَبَّتَ أَنَّ ذَلِكَ لِلْمِخْنَةِ، وَأَنَّ الْمِخْنَةَ ثُمَّ الْهَلَاكُ بِلَا جَزَاءٍ وَلَا نَفْعٍ لِلْمُتَمَتِّحِينَ عَبَثٌ أَيْضًا وَسَفْوَةٌ، فَلَزِمَ بِهِ الْقَوْلُ بِالْبَغْثِ وَإِثْبَاتِ دَارَيْنِ مَعَ مَا كَانَ لِكُلِّ شَاهِدٍ دَلِيلٌ غَائِبٌ، يُحَمَدُ عَلَيْهِ، أَوْ يُدَمُّ، وَكَذَا فَعَلَ كُلُّ ذِي عَقْلٍ إِنَّمَا هُوَ لِعَاقِبَةٍ يُحَمَدُ عَلَيْهِ، أَوْ [يَغْفُلُ عَنْهُ، قِيلَامٌ]^(٤) عَلَيْهِ.

فَعَلَى ذَلِكَ أَمْرٌ تَدْبِيرُ هَذِهِ الدَّارِ مِنْ أُخْرَى، فَلَا يَجُوزُ أَنْ تُخْلَى الْجُمْلَةُ مِنَ الدَّلَالَةِ، وَلَا يَخْلُو كُلُّ جُزْءٍ مِنْهَا أَوْ جُمْلَةُ الْأَفْعَالِ مِنَ^(٥) الْعَوَاقِبِ. وَالْوَاحِدُ مِنْهَا إِذَا خَرَجَ يَصِيرُ عَيْنًا وَسَفْهًا، فَثَبَّتَ بِالَّذِي ذَكَرْتُ الْقَوْلَ بِالتَّوْحِيدِ وَبِالدَّارَيْنِ وَبِالرِّسَالَةِ؛ إِذْ بِهَا تُعْرَفُ الْعَوَاقِبُ بِمَا هِيَ غَائِبَةٌ، وَحَقَائِقُ كُلِّ غَائِبٍ تُعْرَفُ بِالْإِخْبَارِ عَنْهَا وَالدَّلَالَةِ عَلَيْهَا.

ثُمَّ لَا دَلَالَةَ عَلَى مَا هِيَ الْجَزَاءُ وَلَا الشُّكْرُ وَالْعِبَادَةُ، إِنَّمَا الدَّلَالَةُ مِنْ حَيْثُ التَّذْيِيرُ عَلَى الْعِلْمِ بِهَا جُمْلَةً لَزُومِ الْقَوْلِ بِالرُّسُلِ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

ثُمَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فِي سِتَّةِ آيَاتٍ﴾ يَخْتَوِلُ وَجْهَيْنِ:

أَخَذَهُمَا: خَلَقَ أَصُولِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يَكُونُ غَيْرُهَا بِحَقِّ التَّوَلَّدِ عَنْ ذَلِكَ وَالْإِنْقِلَابِ.

وَالثَّانِي: ^(٦) يَخْتَوِلُ أَنْ يَكُونَ عَلَى خَلْقٍ كُلِّيَّةٍ كُلِّ شَيْءٍ مِمَّا عَلَيْهِ تَرْكِيبُ هَذَا الْعَالَمِ إِلَى أَنْ يُدَّالَ بِعَالَمٍ آخَرَ، لَا يَبِيدُ، وَلَا يَفْنَى. فَإِنْ كَانَ عَلَى الْأَوَّلِ فَهُوَ سِتَّةٌ مِنَ السَّبْعَةِ الَّتِي عَلَيْهَا^(٧) مَدَارُ الْمُدَدِ وَالْأَزْمِنَةِ؛ إِذْ جَعَلَ، جَلَّ ثَنَاؤُهُ، جَمِيعَ مَا ذَكَرَ مِنَ الْخَلَائِقِ تَحْتَ الْأَزْمِنَةِ وَالْأَوْقَاتِ، وَيَزُولُ بِزَوَالِ مَدَارِهَا.

وَكَذَلِكَ عِنْدَنَا كُلُّ الْحَوَادِثِ؛ إِذْ^(٨) كُلُّ مِنْهَا بَدَأَ بِصَيْرُ ذَلِكَ وَقْتُ الْإِبْتِدَائِ، وَذَلِكَ يَنْقُضُ عَلَى الْبَاطِنِيَّةِ قَوْلَهُمْ: [إِنَّ]^(٩) الْمُبْدَعُ الْأَوَّلَ لَا يَقَعُ عَنِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ، وَإِنَّهُ لَا يَبِيدُ، وَلَا يَفْنَى. وَلَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ مُبْدَعًا، وَلَكَانَ^(١٠) قَدِيمًا لَا يَقَعُ

(١) فِي الْأَصْلِ: مُشْتَبِهَةٌ، فِي م: مُشَبَّهَةٌ (٢) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: إِهْمَالٌ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: يَفْعَلُ عَنْهُ فَيَلْزَمُ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: عَنْ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: عَلَيْهِمَا. (٨) فِي م: إِذَا. (٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: وَلَكِنْ كَانَ.

عليه الإبداع، فلما وَقَعَتْ ثَبَتَ لَهُ الْبَدْءُ، فِجِبُ وَصَفُهُ بِالْوَقْتِ مِنْ حَيْثُ الْإِبْتِدَاءُ، وَهُوَ أَيْضاً مَغْلُوبٌ^(١) عِنْدَهُ، وَعِلَّتُهُ فِيهِ، وَهُوَ الْإِبْدَاعُ، وَمَا لَوْ زَالَتْ عِلَّتُهُ لِبَادٍ. وَإِذَا ثَبَتَ أَنَّهُ مَغْلُوبٌ ثَبَتَ أَنَّ عِلَّتَهُ أَوْجَبَتْهُ، وَاحْدَتْهُ، بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، فَوَجِبَ لَهُ وَقْتُ، بِهِ كَانَ، أَوْ كَانَ فِيهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثم على هذا كَانَ إِنْشَاءً مَنْ ذَكَرَ فِي الْأَيَّامِ السَّتَّةِ، وَلَمْ يَذْكُرْ فِيهِ مُنْتَحَنًا، فَيُشَبَّهُ أَنْ يَكُونَ وَقْتُ كَوْنِ الْمُتَنَحِّينَ الْيَوْمَ^(٢) السَّابِعِ، وَبِهِمْ تَمَّ ظُهُورُ الْمُلْكِ [بِقَوْلِهِ تَعَالَى]^(٣): ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْوَرْدِ﴾ وَهُوَ الْمُلْكُ؛ إِذْ^(٤) لَمْ يَكُنْ قَبْلَ ذَلِكَ مَنْ لَهُ التَّمْيِيزُ. وَمَعْرِفَةُ الْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ وَقَدَرِ الْعِلْمِ بِالْمَحَامِدِ وَالْمَعَالِي وَأَصْدَادِ ذَلِكَ إِنَّمَا يَكُونُ بِأُولَئِكَ الَّذِينَ رُكِبَتْ فِيهِمُ الْعُقُولُ، وَأُخْرِجُوا بِالتَّمْيِيزِ [وَبِمَا لَهُمْ جَعَلَ]^(٥) الْعَالَمِ، وَهُمْ الْمَقْصُودُونَ مِنَ الْإِنْشَاءِ. لِذَلِكَ جَعَلَ كُلَّ مَنْ سِوَاهُمْ مُسَخَّرًا لِمَنَافِعِهِمْ دَاخِلَةً تَحْتَ أَهْلِيهِمْ وَمَا تَحْتَمِلُ أَكْثَرُ. ذَلِكَ تَدْبِيرٌ لِيَعْلَمَ أَنَّهُمْ قَصِدُوا لِنَفْسِهِمْ أَوْ لِمَعْرِفَةٍ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ شُكْرِ النِّعَمِ وَالْعِبَادَةِ. فَكَانَ بِهِمْ تَمَامُ ظُهُورِ الْمُلْكِ وَيُلَوِّغُهُ النِّهَايَةَ، فَأَخْبَرَ بِالِاسْتِوَاءِ؛ إِذْ هُوَ وَصَفُ الْعُلُوِّ وَالرُّفْعَةِ وَوَصَفُ التَّمَامِ فِي الرُّتْبَةِ وَالْقَدْرِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آيَاتُهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [القصص: ١٤] وَذَلِكَ فِي مَعْنَى الْإِسْتِوَاءِ عَلَى الْعَرْشِ مِنْ حَيْثُ ظُهُورُ الْمُلْكِ وَبَيَانُ الْحُجَّةِ وَالرُّبُوبِيَّةِ لِلْمُسْتَدْلِينَ وَالْمُعْتَبَرِينَ.

وَأَنَّ كَانَ التَّأْوِيلُ هُوَ الثَّانِي [فَإِنَّهُ]^(٦) يُخْرِجُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: [مَا]^(٧) قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّفْسِيرِ: إِنَّ كُلَّ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الْآخِرَةِ، وَذَلِكَ أَلْفَ سَنَةٍ، لَمْ يُبَيَّنْ لَنَا وَقْدَارَ ذَلِكَ. فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ مُتَنَهًى تَدْبِيرِ هَذَا الْعَالَمِ إِلَى ذَلِكَ سِتَّةَ أَيَّامٍ: بِمَعْنَى سِتَّةِ آلَافِ سَنَةٍ عَلَى الْقَدْرِ الَّذِي قَدَرَهُ اللَّهُ.

ثُمَّ يَكُونُ الْيَوْمُ السَّابِعُ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، لَا يَبِيدُ^(٨) أَبَدًا، وَلَا يَنْقُضِي. فِيهِ يَتَبَدَّلُ^(٩) الْعَالَمُ، وَيُقَرَّرُ كُلُّ مُنْتَحِنٍ لَهُ بِالْمُلْكِ وَالْجَلَالِ، وَإِنْ كَانَ كَذَلِكَ فِي الْأَوَّلِ، فَفِي ذَلِكَ اتِّفَاقُ الْقَوْلِ مِنْ طَرِيقِ الْإِخْتِيَارِ وَالْعِلْمِ بِذَلِكَ مِنْ كُلِّ جَبَّارٍ وَغَيْرِهِ. وَعَلَى نَحْوِهِ^(١٠) مَا قِيلَ: ﴿لَمَّا أَلْمَلَكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦] وَقِيلَ: /١٧٦- / ﴿وَيَسْزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [إبراهيم: ٢١] وَقِيلَ: ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الإنفطار: ١٩] وَنَحْوُ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ لَهُ الْمُلْكَ أَبَدًا.

وَكَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ؛ لَكِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يَعْلَمُ كُلُّ أَنْهُ كَذَلِكَ. فَبِذَلِكَ تَمَّ ظُهُورُ كُلِّ مَعْنَى مِنْ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَتْ حَقِيقَتُهُ^(١١) مَوْجُودَةً قَبْلَ ذَلِكَ. وَعَلَى ذَلِكَ الْقَوْلُ: ﴿حَقٌّ نَعْلَمُ الْمُجْتَهِدِينَ يَنْكُرُ وَالصَّادِقِينَ﴾ [محمد: ٣١] وَنَحْوُ ذَلِكَ أَنَّهُ إِذْ ذَلِكَ يَظْهَرُ لِكُلِّ مَغْلُومَةٍ، فَأُضِيفَ إِلَيْهِ بِحَرْفِ الْإِبْتِدَاءِ، وَهُوَ عَنْ ذَلِكَ مُتَعَالٍ. فَعَلَى ذَلِكَ مَا بَيَّنَّا، وَبِذَلِكَ ظُهُورُ تَمَامِ شَرَائِطِ الْمُلْكِ وَالْإِغْتِرَافِ مِنَ الْكُلِّ بِذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَالثَّانِي: أَنَّ تَكُونَ تِلْكَ الْأَيَّامُ السَّتَّةَ عَلَى مَا فِي عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى، تَقْدِيرُهَا لَا يَعْلَمُ سِوَاهُ إِلَّا مِنْ طَرِيقِ الْجُمْلَةِ الَّتِي آدَى؛ وَقَدْ بَيَّنَّ يَوْمًا ﴿كَانَ مَقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] وَيَوْمًا ﴿عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ﴾ [الحج: ٤٧] حَدًّا، لَا يَعْلَمُ غَيْرُهُ.

ثُمَّ كَانَ الْيَوْمُ السَّابِعُ: ﴿يَوْمَ تَبْلُ الْوَرْدِ﴾ [الطارق: ٩] وَتَقَعُ الْعُقُوبَةُ، وَالْمَثُوبَةُ، وَهُوَ الْمَقْصُودُ مِنْ خَلْقِ الْعَالَمِ الْأَوَّلِ، فَيَكُونُ مَا ذَكَرْتُ مِنْ إِتِمَامِ الظُّهُورِ، وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ.

وَعَلَى هَذَا لَوْ قِيلَ: ﴿يَجْلُونَ الْوَرْدَ﴾ [غافر: ٧] [وَقِيلَ:]^(١٢) ﴿وَيَجْلُ عَرْشُ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ نَبِيَّةٌ﴾ [الحاقة: ١٧] قِيلَ: لَيْسَ أَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْعَرْشِ الْأَوَّلِ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ هَذَا هُوَ السَّرِيرَ الْمَعْرُوفَ مُنْشَأً مِنَ النُّورِ وَمِمَّا شَاءَ لِيُكْرِمَ بِهِ أَوْلِيَائَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَالأَوَّلُ هُوَ الْمُلْكُ الَّذِي ظَهَرَ تَمَامُهُ وَعُلُوُّهُ عَلَى مَا بَيَّنَّا.

(١) مَنْ م، فِي الْأَصْلِ: مَعْلُوم. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: يَوْم. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: إِذَا. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَمِمَّا لَهُمْ يَجْعَلُ. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) مَنْ م، فِي الْأَصْلِ يَبِيدُ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: تَبَدَّل. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: نَحْو. (١١) مَنْ م، فِي الْأَصْلِ: حَقِيقَةٌ. (١٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

ثم لو كان العرش الذي قال ﷻ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] هو ما فهمه أهل التشبيه من مكان، لم يكن، لوجب^(١) أن يفهم من الاستواء عليه الاستقرار وأن يكون الله مكاناً يوصف بالكون فيه، وعليه، لأنه ليس من كون أحد في مكان، وإن جل قدره، وعظم خطره، رفعة ولا نباهة في ما يتعارف من أمر الملوك والأجلّة، بل كل منسوب إلى مكان من جهة التمكن فيه، والقرار منسوب إلى استعانة وحاجة منه إليه جلّ عن ذلك.

وعلى أنه إما يكون مثله أو أعظم منه؛ [فلو كان كذلك]^(٢) لكان له عديلاً بالعظمة أو دونه. ومن السخف الجلوس على مكان، لا يطمئن به، أو يقصر عنه؛ إذ قد يجوز أن يزداد فيه، فيكون أعظم منه، جلّ الله عن هذا الوصف، وتعالى. بل كان، ولا مكان؛ فهو على ما كان يتعالى عن الاستحالة والتغير؛ إذ هو أثر الحديث وأمازة الكون بقدر أن لم يكن، ولا قوة إلا بالله.

ثم الأصل أنه لو كان فهو بإضافة الله إلى العلو عليه تعظيم له. وعلى ذلك في كل [ما]^(٣) يضاف إلى الله أو [يضاف]^(٤) الله إليه من جهة الخصوص، فهو على تعظيم ذلك، لا على أن يفهم منه ما يفهم مثله من الخلقة نحو القول: ﴿وَأَنَّ السَّجْدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨] والقول^(٥): ﴿هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٣] والقول^(٦): ﴿رَبِّسَ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٣٢] والقول^(٧): ﴿تِلْكَ حُذُودُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٨٧] ونحو ذلك.

فما بال المشبهة فهمت من إضافة الاستواء على العرش المعنى المكروه على احتمال الاستواء معاني سوى الذي ذكروا؟ إذ يقال: استوى ثم، واستوى على، واستوى استقر، واستوى استولى.

فإذا كان معناه يتوجه إلى هذه الوجوه لم يحتج أن يكون أحد بقدره^(٨) من ذلك آدم ما يتوجه إليه، ويتعمد عليه، لو لا الجهل به.

ثم الأصل أن الإضافات إلى الأشياء يفرق المقصود بها، وإن كان في ظاهر المخرج واحداً باختلاف من إليه القصد بالإضافة والإضافة جميعاً، يقال: جاء الحق، وجاء فلان، وبيت فلان، وبيت الله، وقال^(٩) في الملائكة: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ [المدثر: ٣١] وقال في الفسقة: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [البقرة: ٣٩] ونحو ذلك لا على الجمع في المعنى، فالاستواء الذي يتوجه إلى وجوه أحق بذلك، والله الموفق.

ثم قيل في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ بوجوه:

أحدها^(١٠): ما قال أبو بكر الأصم [على]^(١١) التقديم والتأخير؛ كأنه قال: إن ربكم الله الذي استوى على العرش، ثم خلق ما ذكر، فيكون معناه خلق كذا، وقد استوى على العرش كقوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَفَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١].

وعلى هذا ليس في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ الشبهة التي في الأول كما لم تكن في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ نُفِثُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٣٠] إذا صرف ﴿عَلَىٰ﴾ إلى عند، شبهة. فيكون ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ﴾ خلق العرش كقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ٢٩] بمعنى ثم خلق السماء، أو قصد خلقه، ونحو ذلك.

وقال الحسن: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي استوى عليه أمره وصنعه، أي لم يختلف عليه صنع العرش وأمره، وإن جل أمر غيره وصنعه كقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بِعَنَّاكُمْ إِلَّا كَفَافٍ وَحِيدٍ﴾ [لقمان: ٢٨] على استواء الأمر في التدبير والصنع.

(١) في الأصل وم: ليجب. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل: و. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: و. (٨) في الأصل وم: بقدر. (٩) في الأصل وم: وقيل. (١٠) من م، في الأصل: أحدهما. (١١) ساقطة من الأصل وم.

وَقَالَ الْحُسَيْنُ: معناه اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ كما يقال: اسْتَوَى فلانٌ عَلَى بغدادَ بِمَعْنَى اسْتَوَى. وَقَالَ قَوْمٌ: معناه: اسْتَوَى عَلَيْهِ، وهو فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ فِي الْقُدْرَةِ وَالْعِظَمَةِ تَعْظِيمًا لَهُ عَلَى غَيْرِ اخْتِلَافٍ عَلَيْهِ فِي التَّحْقِيقِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ كَالَّذِي ذَكَرَ أَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَهُ، وَالْمَسَاجِدَ لَهُ عَلَى التَّفْصِيلِ دُونَ تَخْصِيصٍ لَهُ فِي ذَاتِهِ مِنْ حَيْثُ ذَلِكَ. وَقَالَ قَوْمٌ: إِذَا كَانَ الْعَرْشُ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ فِي تَقْدِيرِ الْعَارِفِ، فَقَالَ: هو غَلَا بِمَعْنَى لَا يُوصَفُ فِي الْخَلْقِ، وَلَكِنْ [عَلَا مَا كَانَ] ^(١) وَلَا خَلَقَ.

وَنَحْنُ نَقُولُ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ، قَدْ ثَبَتَ مِنْ طَرِيقِ التَّنْزِيلِ أَنَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ، وَقَدْ لَزِمَ الْقَوْلُ بِأَنَّهُ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] فِي الْأَرْضِ. وَعَلَى ذَلِكَ اتِّفَاقُ الْقَوْلِ: أَلَا يَقْدَرُ كَلَامُهُ بِمَا عُرِفَ مِنْ كَلَامِ الْخَلْقِ وَلَا فِعْلُهُ بِهِ، وَمَا يُوجِبُهُ، وَلَا عِلْمُهُ وَلَا مَا قِيلَ: هو رَبُّ كَذَا أَوْ مَالِكُ كَذَا، لَا يُرَادُ بِهِ الْمَفْهُومُ مِنَ الْخَلْقِ. لَكِنَّ الْوَجْهَ الَّذِي يَلِيقُ بِهِ وَمَا يُوجِبُهُ حَقُّ الرُّبُوبِيَّةِ. فَمِثْلُهُ فِي الْأَوَّلِ، ثُمَّ يَلْزَمُ تَسْلِيمُ الْمُرَادِ لِمَا عِنْدَهُ؛ إِذْ لَمْ يُبَيِّنْهُ لَنَا، وَقَدْ ثَبَتَ مَا يُفْهَمُ مِنْ غَيْرِهِ.

وَيَعْدُ فَإِنَّ الْقَوْلَ فِيهِ بِالْمَكَانِ يَفْسُدُ بِالَّذِي بِهِ يُخْتَجُّ بِوُجُوهٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّ قَوْلَهُ ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ إخبارٌ عَنْ فِعْلِهِ الَّذِي فِي التَّحْقِيقِ يُضَافُ إِلَيْهِ فِي خَلْقِ الْخَلْقِ عَلَى اخْتِلَافِ الْمَخْرَجِ فِي الْقَوْلِ نَحْوُ ذِكْرِ مَرَّةً: أَبَدًا، وَمَرَّةً قَطْرًا، وَجَعَلَ، وَأَنْزَلَ، وَثَبَتَ، وَكَتَبَ، وَأَعْطَى، وَأَنْشَأَ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْأَلْفَاظِ؛ حَقِيقَةُ ذَلِكَ أَنَّهُ خَلَقَ إِذْ ذَلِكَ مَعْنَى فِعْلِهِ فِي الْحَقِيقَةِ. وَعَلَى ذَلِكَ كَوْنُ وَقَوْلُ وَأَمْرٌ فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ.

ثُمَّ يَجِبُ تَوْجِيهِ كُلِّ مِنْ ذَلِكَ إِلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَلِيقُ فِيهِ الْقَوْلُ بِ: خَلَقَ، وَكَذَا فِي: هَدَى، وَأَصْلَ، وَزَيَّنَ، وَاقْتَرَنَ، وَاحْكَمَ، وَنَحْوِ ذَلِكَ. فَكَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ يَجِبُ أَنْ يُقَابَلَ بِذَلِكَ ب: خَلَقَ؛ إِذْ هُوَ إِضَافَتُهُ إِلَى فِعْلِهِ. ثُمَّ يُخْرَجُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: ثُمَّ خَلَقَ الْعَرْشَ، وَرَفَعَهُ، وَأَعْلَاهُ، بَعْدَ أَنْ كَانَ الْعَرْشُ عَلَى الْمَاءِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١] وَلَيْسَ ﴿ثُمَّ﴾ يَنْتَقِلُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ؛ إِذْ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَكَانَ يَصِيرُ حَيْثُ، ثُمَّ يَنْتَقِلُ مِنْ خَلْقٍ إِلَى خَلْقٍ فِي مَا يَخْلُقُ، فَيَكُونُ فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَصِيرُ إِلَى الْعَرْشِ صَائِرًا إِلَى الثَّرَى، وَفِي الْوَقْتِ الَّذِي يَخْدُثُ خَلْقُ مَا فِي الْأَرْضِ وَمَا فِي السَّمَوَاتِ مُتَّعِلًا مِنْ ذَا إِلَى [ذَا] ^(٢). وَذَلِكَ تَنَاقُضٌ فَاسِدٌ، وَفِي ذَلِكَ بُطْلَانُ مَعْنَى الْقَوْلِ بِالِاسْتِواءِ عَلَى الْعَرْشِ، بَلْ يَكُونُ أَوَّلًا غَيْرَ مُسْتَوٍ عَلَيْهِ حَتَّى يَفْرَغَ مِنْ خَلْقِ جَمِيعِ مَا يَكُونُ أَوَّلًا، وَذَلِكَ مُتَنَاقِضٌ فَاسِدٌ. جَلَّ اللَّهُ عَنْ هَذَا التَّوَهُّمِ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

وَالثَّانِي: أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ أَيَّ إِلَى الْعَرْشِ فِي خَلْقِهِ وَرَفْعِهِ وَإِتْمَامِهِ دَلِيلَ اخْتِمَالِ ﴿عَلَى﴾ [إِلَى] ^(٣). ذَلِكَ لِأَنَّهُ ^(٤) مِنْ حُرُوفِ الْخَفْضِ، وَقَدْ يُوضَعُ مَوْضِعَ بَعْضِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ [المطففين: ٢] بِمَعْنَى عَنِ النَّاسِ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَرَى إِذْ يُوقَفُ عَلَى رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٣٠] بِمَعْنَى عِنْدَ رَبِّهِمْ مَعَ مَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيِّنَاتٍ﴾ [القيامة: ١٩] [وَقَالَ] ^(٥): ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩] بِمَعْنَى إِلَيْهِ. وَعَلَى ذَلِكَ ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ إِلَى الْعَرْشِ، وَهُوَ عَلَى الْمَاءِ كَمَا ذَكَرَ، فَرَفَعَهُ، وَأَتَمَّهُ، كَمَا قَالَ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١] فَخَلَقَ مَا ذَكَرَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَالْوَجْهَ الثَّانِي: الْمَذْكُورُ فِي الْآيَةِ مِنْ اسْمِ الرَّبِّ وَخَلَقَ/ ١٧٦ - ب/ وَتَسْخِيرِ الَّذِي وَصَفَ. ثُمَّ لَمْ يَتَوَهَّمْ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ الْمَعْنَى الَّذِي يُضَافُ إِلَى الْخَلْقِ أَنَّهُ رَبُّ كَذَا، وَسَخَّرَ كَذَا، أَوْ صَنَعَ كَذَا، مُلْجِدًا أَوْ مُوَحِّدًا. فَكَيْفَ اخْتَمَلَ قَلْبُ الْمُسَبِّحِينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] فِي جَهْلِهِ بِهِ وَتَقْدِيرِهِ بِالَّذِي عَلَيْهِ أَوْ نَفْسِهِ؟ وَاللَّهُ الْمَوْفَّقُ.

وَالثَّلَاثُ: إِنَّ النَّاسَ فِي خَلْقِ اللَّهِ مُخْتَلِفُونَ ^(٦):

فَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَهُ الْخَلْقَ نَفْسَهُ دُونَ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ بِذَاتِهِ يَلْحَقُهُ وَصِفَتْ سِوَى إِضَافَةِ الْخَلْقِ إِلَيْهِ فِي أَنْ كَانَ بِهِ. فَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ إِنَّمَا هُوَ مَا ذَكَرَ مِنْ غَيْرِ أَنْ كَانَ، سُبْحَانَهُ، يَلْحَقُهُ وَصِفَتْ لَمْ يَكُنْ لَهُ.

(١) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٢) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنْ. (٥) ساقطة من الأصل وم.

(٦) فِي الْأَصْلِ وَم: لَوْ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: مُخْتَلِفِينَ.

ومنهم من يراه خالقاً بذاته ليكون جميع الخلائق إلى الأبد بتكوينه الذي يُعبّر عنه بقوله: ﴿كُنْ﴾ من غير أن كان. ثم كاف ونون^(١) على كَوْن كُلِّ شَيْءٍ عَلَيْهِ بِهِ مِنْ غَيْرِ تَغْيِيرٍ عَلَيْهِ وَلَا زَوَالٍ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ؛ إِذْ لَا شَيْءَ غَيْرُهُ. فَكُلُّ مَعْنَى لَوْ حَقَّقَ أَوْجَبَ تَغْيِيراً أَوْ زَوَالاً أَوْ قَرَاراً أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ، فَاللَّهُ يَجْعَلُ عَنْهُ، وَيَتَعَالَى إِذْ ذَلِكَ عِلْمُ الْحَدِيثِ وَأَمَارَةُ الْغَيْبِيَّةِ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ. والرابع: هو الذي يُرى فِعْلُهُ عَلَى مَا عَلَيْهِ فِعْلُ الْخَلْقِ مِنَ التَّحَرُّكِ وَالزَّوَالِ وَالسُّكُونِ وَالْقَرَارِ إِضَافَتُهُ. مِنْ ذَلِكَ وَضَفُّهُ [بِالتَّحَرُّكِ مِنْ مَكَانٍ]^(٢) إِلَى مَكَانٍ وَحَالٍ دُونَ حَالٍ مُحَالٍ فَاسِدٌ. لِذَلِكَ بَطَلَ الْقَوْلُ بِالْمَكَانِ فِي جَمِيعِ الْأَقَاوِيلِ.

وَأَيْدِ الَّذِي ذَكَرْتُ مَا خَتَمَ بِهِ الْآيَةَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ وَصَفَتْ ذَاتَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ بِالتَّعَالِي عَلَى^(٣) جَمِيعِ مَعَانِي الْمَرْبُوبِينَ؛ إِذْ مِنْ حَيْثُ التَّشَاكُلُ يُوجِبُ خُرُوجَهُ مِنْ أَنْ يَكُونَ رَبّاً وَالْآخَرُ مَرْبُوباً. فَإِذَا ثَبَتَ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ مَرْبُوبٌ ثَبَتَتْ سُبْحَانِيَّتُهُ مِنْ ذَلِكَ الْوَجْهِ، وَاللَّهُ الْمَوْفَّقُ.

ثُمَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ هُوَ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: إِظْهَارُ مَا يَتَّبِعُهُمَا عَلَى مَا جَرَى الذِّكْرُ بِهِ فِي غَيْرِهِ.

وَالثَّانِي: أَنَّ ذَكَرَ مِنْ وَقْتِ ابْتِدَاءِ الْكَوْنِ إِلَى الْإِنْتِهَاءِ لَا عَلَى تَحْقِيقِ ذَلِكَ فِي كُلِّ وَقْتٍ كَمَا يُقَالُ: كَانَ كَذَا (فِي شَهْرِ كَذَا)^(٤) لَا عَلَى إِحَاطَةِ كُلِّيَّةِ أَجْزَاءِ الشَّهْرِ بِهِ.

فَمِثْلُهُ مَعْنَى سِتَّةِ أَيَّامٍ، وَمَعْنَى التَّوْقِيتِ لَيْسَ إِلَى حَاجَةٍ إِلَى ذَلِكَ، إِذِ الْوَقْتُ دَاخِلٌ فِي مَا خَلَقَ. لَكِنْ عَلَى وَجْهِهِ، وَإِنْ كَانَ اللَّهُ، سُبْحَانَهُ، قَادِراً عَلَى إِنْشَاءِ مَا ذَكَرَ بِدَفْعَةٍ:

أَحَدُهَا^(٥): مَا ذَكَرْتُ مِنْ مَعْنَى الْأَيَّامِ لِمَدَارِ مُدَدِ الْخَلْقِ، وَأَطْوَلَ مَا عَلَيْهِ يُغْنِي الْأَعْمَالُ.

وَالثَّانِي: عَلَى بَيَانِ مُتَنَهَى الْعَالَمِ.

وَالثَّالِثُ: عَلَى إِدْخَالِ كُلِّ ذَلِكَ مَعَ عُلُوِّ دَرَجَاتٍ كَثِيرٍ مِنْهَا وَجَلَالَةِ أَقْدَارِهَا فِي الْأَغْيُنِ حَتَّى لَا أَحَدٌ يَنْظُرُ إِلَيْهَا إِلَّا بِالتَّعْظِيمِ، وَحَتَّى بِكَثِيرٍ مِنْهَا قَامَ تَدْبِيرُ الْعَالَمِ، وَحَتَّى عُيِدَ دُونَ اللَّهِ تَعْظِيماً، وَإِنْ كَانَ فِي ذَلِكَ دَلَالَةٌ خُرُوجِهِ عَنِ الْإِسْتِحْقَاقِ، فَصَبْرُهَا اللَّهُ دَاخِلَةٌ تَحْتَ الْأَزِمَةِ وَالْمُدَدِ مَقْهُورَةٌ بِهَا حَتَّى لَوْ أُرِيدَ بِكُلِّ جَهْدٍ وَحِيلٍ إِخْرَاجُ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ أَوْ تَخْلِيصُ الْجَبَابِرَةِ مِنْ ذَلِكَ لَمَا تَهَيَّأَ لَهُمْ لِتَعْلَمَ ذِلَّةُ الْخَلْقَةِ وَأَمَارَاتُ الْحَدِيثِ وَعِلَامَةُ الْحَاجَةِ.

ثُمَّ كَانَتْ الْأَوْقَاتُ مُتَرَادِفَةً^(٦) مُتَتَابِعَةً؛ لَوْ أُسْقِطَتْ عَنْهَا الْأَوَّلِيَّةُ لَبَطَلَ الْكُلُّ، وَلَمَّا جَاوَزَ الْحِسَابُ بِالْوَاحِدِ وَلَمَّا انْتَهَى إِلَى مَا هُوَ أَبْعَدُ لِمَا مَضَى لِتَعْلَمَ بِهِ أَوَّلِيَّةُ كُلِّ شَيْءٍ مِنَ الْعَالَمِ وَحَدُّهُ مَعَ مَا جُعِلَتْ الْأَيَّامُ تَدَوَّرَ عَلَى أَمْرٍ وَاحِدٍ بِهَا بِجَمِيعِ الْمُتَحَاجِّينَ مِنْ ذَكَرْتُ، فَثَبَتَ لِذَلِكَ بِأَسْمَاءٍ مَعْرُوفَةٍ، أَمَكَنَّ قَصْدُ كُلِّ مِنْهَا عَلَى الْإِشَارَةِ إِلَيْهِ بِاسْمِهِ الْمَعْرُوفِ لِتُحْفَظَ فِيهِ الْمَوَاعِيدُ، وَيُعْلَمَ بِهِ مَا يَجِبُ مِنَ الْحَقُوقِ، وَيَبْطُلَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ الْأَصْلُ إِذْ جُعِلَتْ هَذِهِ الدَّارُ دَارَ الْمِخْنَةِ. وَالْمِخْنَةُ إِنَّمَا تَكُونُ بِمُخْتَلَفِ الْأَحْوَالِ جُعِلَتْ لِأَحْوَالِ^(٧) مُخْتَلِفَةٍ نَحْوِ مَوْتٍ وَحَيَاةٍ وَصِحَّةٍ وَسُقْمٍ وَغِنًى وَفَقْرٍ، وَفِي جَمِيعِ الْخَلْقِ عَلَى حَالِهِ مِنْهَا الْجَهْلُ بِأَصْدَادِهَا. وَفِي ذَلِكَ الْجَهْلُ بِاللَّذَاتِ وَالْآلَامِ، فَيَجِبُ بِذَلِكَ اخْتِلَافُ الْأَحْوَالِ، وَعَلَى ذَلِكَ جَرَى أَمْرُ خَلْقِ الْخَلَائِقِ، [وَعَلَى ذَلِكَ]^(٨) أَمْرُ الْأَرْزَاقِ وَغَيْرُ ذَلِكَ.

فَعَلَى ذَلِكَ أَمْرُ خَلْقِ مَا ذَكَرَ فِي أَيَّامٍ مُخْتَلِفَةٍ، ثُمَّ يَجْمَعُ فِي الْبَعْثِ بِمَرَّةٍ وَفِي حَالٍ مِنْ حَالِ اللَّذَاتِ وَالتَّعَبِ بِمَرَّةٍ مَعَ مَا كَانَ اخْتِلَافُ الْأَحْوَالِ أَقْرَبَ إِلَى الدَّلَالَةِ وَأَوْضَحَ لِلْحُجَّةِ. فَلِذَلِكَ جَعَلَ فِي هَذِهِ الدَّارِ الزَّامَ الْحُجَّةَ وَإِظْهَارَ الْمِخْنَةِ وَالْكُلْفَةِ، وَاللَّهُ الْمَوْفَّقُ.

وَالْأَصْلُ أَنَّ الْعُقُولَ أَنْشِئَتْ مُتَنَاهِيَةً نَقِصَ عَنِ الْإِحَاطَةِ بِكُلِّيَّةِ الْأَشْيَاءِ، وَالْأَفْهَامَ مُتَنَاقِصَةً عَنْ بُلُوغِ غَايَةِ الْأُمُورِ، إِذْ هُنَّ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ نُون. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: مِنْ. (٤) سَاقِطَةٌ مِنْ م. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَجْهَان. (٦) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: مُرَادِفَةٌ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: الْأَحْوَال. (٨) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ.

مِنْ أَجْزَاءِ الْعَالَمِ الَّذِي هُوَ بِكُلِّيَّتِهِ مُتَنَاوٍ، وَأَسْبَابَ الْإِدْرَاكِ الَّتِي يُدْرِكُ بِهَا بِأَدَاءِ الْمَشَاعِيرِ الَّتِي تَعَجُّزٌ عَنْ كُنْهِ لِمَا يَقَعُ عَلَيْهَا مِنْ الظُّوَاهِرِ فَضْلاً عَمَّا اسْتَتَرَ مِنْهَا. وَإِذَا كَانَ وَصَفُ مَا يُدْرِكُ بِهِ مَبْلَغُ الْحِكْمَةِ، فَهِيَ قَاصِرَةٌ عَنِ الْإِحَاطَةِ بِالْحِكْمَةِ الْمَوْضُوعَةِ مِنَ الْبَشَرِ. فَمَنْ رَامَ الْإِحَاطَةَ بِهَا أَوْ بُلُوغَ حِكْمَةِ الرَّبُوبِيَّةِ مِنْ غَيْرِ إِشَارَةٍ مِنْهُ، فَهُوَ يَظْلُمُ الْعَقْلَ، يَحْمِلُ عَلَيْهِ مَا يَغْلُمُ عَجْزُهُ عَنْهُ.

ومعلوم أن المذكور من الأيام في خلق ما ذكر حِكْمَةً بِالْعَقَّةِ، وَإِنْ قَصُرَتِ الْعُقُولُ عَنِ الْإِحَاطَةِ، إِذِ الَّذِي قَدَّرَهَا، هُوَ الَّذِي حَمَدَ الْحِكْمَةَ، وَأَوْجَبَ لِأَهْلِ الْعَقْلِ ذَمَّ السَّفْوَةِ وَأَهْلَهُ، فَأَوْجَبَ ذَلِكَ تَحْقِيقَ الْحِكْمَةِ لَذَلِكَ، وَإِنْ لَمْ يَتْلُغْهَا إِلَّا بِمِقْدَارِ مَا يُكْرَمُ بِهِ، وَاللَّهُ الْمُؤَقِّفُ.

وقوله تعالى: ﴿وَالنَّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾^(١) وَسَحَّرَ مَا ذَكَرَ، فَكَذَلِكَ سَحَّرَهُنَّ بِالسَّيْرِ فِي مَا يَرْجِعُ إِلَى مَنَافِعِ الْخَلْقِ، وَجَعَلَ فِيهِمْ آيَةً لَوْلَا الْعِيَانُ لَمْ يَكُنْ يُصَدَّقُ بِهِ أَحَدٌ يَمُنُّ بِخُجُودِ الْبَنَاتِ وَالرُّسُلِ وَنَحْوَهُمْ؛ إِذِ الْخَبَرُ عَنْ سَيْرِ جَوْهَرٍ وَاحِدٍ فِي الْيَوْمِ الْوَاحِدِ مَسِيرَةٌ أَكْثَرُ مِنَ أَلْفِ سَنَةٍ، وَتَوَلَّدَ جَوَاهِرٌ بِمَعُونَةٍ مَنْ يَبْعُدُ عَنْهُ بِمِقْدَارِ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَصِحَّةُ^(٢) كُلِّ شَيْءٍ؛ وَصَلَاحُهُ^(٣) بِهِ أُنْبَعْدَ عَنِ اخْتِمَالِ الْقَبُولِ عَنْ إِعَادَةِ عِنْدَ الْفَنَاءِ، أَوْ إِسْرَافِ الرُّسُلِ بِإِعْلَامِ مَا خَفِيَ مِنَ الْمَصَالِحِ وَالْأُمُورِ إِذْ ذَلِكَ أَمْرٌ مُتَعَالِمٌ فِي صُنْعِ الْخَلْقِ مَعَ مَا فِي ذَلِكَ فِي مَا بِهِ تَقَلَّبُ الرُّمَانُ مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ.

ولكن الله، سبحانه، أظهر لهم من قُدْرَتِهِ وَعَظِيمِ حِكْمَتِهِ بِمَا بَسَطَ لَهُمْ [الْأَرْضَ]^(٤) بِغِلْظِهَا وَسَعَتِهَا، وَرَفَعَ عَلَيْهَا السَّمَاءَ بِغَيْرِ عَمَدٍ تُرَى، فَأَقَرَّ كُلًّا مِنْ ذَلِكَ لِحَاجَةِ أَهْلِهَا إِلَى قَرَارِهَا، وَسَيَّرَ فِيهَا بِالتَّخْصِيرِ مَا ذَكَرَ لِحَاجَةِ الْأَهْلِ فِي تَيْسِيرِ ذَلِكَ لِيُعْلَمَ [أَنَّهُ لَا يُعْجِزُهُ]^(٥) شَيْءٌ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ أَمْرٌ، وَلَا يَدْخُلُ فِي تَدْبِيرِهِ عَوَجٌ وَلَا فِي خَلْقِهِ تَفَاوُتٌ، وَأَنَّ الَّذِي أَظْهَرَ إِذَا قُوبِلَ بِالَّذِي وَعَدَ يُضَاعِفُ عَلَيْهِ بِوُجُودِهِ لَهُ مَعَ مَا كَانَ الَّذِي أَظْهَرَ، هُوَ إِبْدَاعٌ عَلَى غَيْرِ اخْتِدَاءٍ، وَإِنْشَاءٌ لِلْإِعَادَةِ لَا، وَاللَّهُ الْمُؤَقِّفُ.

ثم من عجيب قُدْرَتِهِ، سبحانه، في قوله تعالى: ﴿يَتَنَبَّأُ أَتَيْدَ النَّهَارِ يَظَلِمُهُ حَبِيبَاتُهُ﴾ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُظْهِرُ النُّورَ فِي ابْتِدَاءِ النَّهَارِ مِنْ طَرَفِ السَّمَاءِ وَالظُّلُمَةَ فِي أَوَّلِ اللَّيْلِ، ثُمَّ يَنْشُرُ ذَلِكَ، وَيَبْسُطُهُ فِي جَمِيعِ أَطْرَافِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ جَمِيعِ الْأَقْطَارِ وَالْجَوَانِبِ فِي قَدَرٍ لِحِطَّةٍ بَصَرٍ وَطَرَفَةٍ الْعَيْنِ مِمَّا لَوْ أُرِيدَ تَقْدِيرُ ذَلِكَ بِالْهِنْدَسَةِ وَبِجَمِيعِ مَا فِي الْخَلْقِ مِنَ الْمَقَادِيرِ لَمَّا أُحِيطَ بِالَّذِي انْتَبَسَطَ [مِنْ]^(٦) ذَلِكَ النُّورِ وَالظُّلَامِ لِيُعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَلَى مَا يَشَاءُ قَدِيرٌ، وَأَنَّهُ لَوْ أَرَادَ لَخَلَقَ جَمِيعَ مَا ذَكَرَ فِي أَدَقِّ مَدَّةٍ وَالطَّفِ وَقَفٍ، وَأَنَّهُ الْقَادِرُ عَلَى الْبَنَاتِ وَجَمِيعِ مَا جَاءَتْ بِالْخَبَرِ عَنْهُ الرُّسُلُ.

على أنه بالذي ذَكَرْتُ يُلَبِّسُ وَجْهَهُ كُلِّيَّةَ الْأَشْيَاءِ السُّتْرِ، وَيُجَلِّيها بِطَرَفِ عَيْنٍ بِالتَّذْيِيرِ وَالْعِلْمِ الَّذِي بِمَا يُوجِبُ ذَلِكَ وَمِمَّا يَعْجُزُ عَنْ تَوْهَمِ مِثْلِهِ جَمِيعُ الْحُكَمَاءِ فَضَّلَ عَنْ إِدْرَاكِهِ لِيُعْلَمَ أَنَّهُ عَلِيمٌ، لَا يَجْهَلُ، عَزِيزٌ، لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، حَكِيمٌ، لَا يَتَفَاوُتُ صُنْعُهُ، وَلَا يَتَنَاقَضُ تَدْبِيرُهُ، وَلَا قُوَّةٌ إِلَّا بِاللَّهِ.

وقريباً من ذلك ما جَعَلَ فِي جَوْهَرِ الْإِنْسَانِ مِنَ الْبَصَرِ الَّذِي يُبْصِرُ بِأَوَّلِ أَحْوَالِ الْفَتْحِ قَدَرٌ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَالْفِكْرُ^(٧) الَّذِي يَتَلَبَّعُ بِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَزُولَ عَنْ مَكَانِهِ مُنْتَهَى مَرَجِعِ الْخَلْقِ مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ^(٨)، وَيُبْصِرُ بِهِ الْمَعَادَ وَالْمَعَاشَ، وَالْعَقْلُ الَّذِي يَغْرِثُ حَقَائِقَ مَنْ غَابَ عَنْهُ، وَحَضَرَ، مِمَّا لَهُ صُورَةٌ وَطِينَةٌ أَوْ أَحَدُهُمَا، وَمَا لَيْسَ لَهُ وَاحِدٌ مِنَ الْأَمْرَيْنِ عَلَى قُصُورِ الْحَوَاسِّ عَنْ إِدْرَاكِهِ صُورَةَ شَيْءٍ، لَا وَطِينَةَ لَهُ لِيُعْلَمَ أَنَّ الَّذِي قَدَّرَ عَلَى تَقْدِيرِ مِثْلِهِ فِي جَوْهَرٍ وَاحِدٍ، وَعَلِمَ كَيْفَ يَصْنَعُ؟ لِيُعْلَمَ ذَلِكَ الْعِلْمُ، قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَكِيمٌ عَلِيمٌ / ١٧٧ - أ. وهذا معنى ما قيل: إِنَّ الْإِنْسَانَ هُوَ الْعَالَمُ الصَّغِيرُ؛ بِمَعْنَى أَنَّهُ يُوجَدُ فِيهِ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ الْعَالَمِ الْكَبِيرِ فِيهِ مِثَالاً وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

وقوله تعالى: ﴿بِأَمْرِهِ﴾ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ أَمْرُهُ كَمَا يَقَالُ: أَتَاهُ أَمْرُ اللَّهِ؛ أَيِ الْمَوْتِ وَالْعَذَابِ وَنَحْوِ ذَلِكَ عَلَى إِرَادَةِ ذَلِكَ نَزَلَ^(٩) بِهِ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وتصح. (٣) من م، في الأصل: وتصلحه. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل: أن لا يعجز، في م: أن لا يعجزه. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، في الأصل: الكفر. (٨) في الأصل: والنهار. (٩) في الأصل وم: ترك.

والثاني: أَنْ يَظْلَعْنَ، وَيَعْرَبْنَ بِأَمْرِ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ وَالْإِيمَانِ فِيهِ بِمَا فِيهِمْ مِنْ عَجِيبِ الْحِكْمَةِ وَرَفِيعِ التَّقْدِيرِ.
وَقَالَ الْحَسَنُ: ﴿يَأْتِيهِ﴾ الذي بِهِ كَوْنُ الْأَشْيَاءِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿كُنْ﴾ فالقول الأول هو قول مَنْ لَا يَرَى خَلْقَ الْخَالِقِ^(١) غَيْرَ الْخَلْقِ. والثاني قول مَنْ يَرَى ﴿كُنْ﴾ عبارةً عَنِ التَّكْوِينِ الذي بِهِ الْخَلْقُ أَبَدَ الْأَبَدِينَ مِنْ غَيْرِ أَنْ كَانَ ثُمَّ فِي الْحَقِيقَةِ كَافٌ وَنُونٌ، لَكِنَّهُ جَاءَ مَا يُفْهَمُ بِهِ الْمُرَادُ مِنَ الْكَلَامِ، يُرَادُ فِي ذَلِكَ نَفْيُ الصُّعُوبَةِ عَنْهُ وَتَيْسِيرُ الْأَمْرِ عَلَيْهِ، وَيَكُونُ فِي الْحَقِيقَةِ غَيْرَ الْخَلْقِ؛ إِذْ أَخْبَرَ فِي الْخَلْقِ أَنَّهُ كَانَ بِهِ، وَكُلُّ شَيْءٍ يَكُونُ بِشَيْءٍ فِي الْمُتَعَارَفِ مِنَ الْقَوْلِ يَكُونُ غَيْرُهُ، وَكَذَلِكَ غَيْرُهُ.
وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ فِيهِ وَجْهَانِ:

أحدهما: الإخبارُ عَنِ تَكْوِينِ الْخَلْقِ الذي هُوَ لَهُ.

والثاني: [الإخبارُ]^(٢) عَنِ الْأَمْرِ فِي خَلْقِهِ بِمِ شَاءَ؟ وَلَا يُرَدُّ شَيْءٌ مِنَ الرُّجُوعِ الذي أَمَرَ، وَاللَّهُ أَغْلَمُ.

وقوله تَعَالَى: ﴿يَتَّبِعُ اللَّيْلُ النَّهَارَ﴾ يَذْهَبُ بِضَوْءِ النَّهَارِ ظُلْمَةُ اللَّيْلِ، وَضَوْءُ النَّهَارِ يَظْلِمَةُ اللَّيْلِ، إِذَا جَاءَ هَذَا ذَهَبَ سُلْطَانُ الْآخَرِ ﴿يَطْلُبُهُ حَيْثُكَ﴾ وَقِيلَ: سَرِيعاً، وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ ﷻ يُظْهِرُ النُّورَ فِي ابْتِدَاءِ النَّهَارِ فِي طَرَفٍ مِنْ أَطْرَافِ السَّمَاءِ وَالظُّلْمَةَ فِي أَوَّلِ اللَّيْلِ، ثُمَّ يَنْشُرُ ذَلِكَ فِي جَمِيعِ أَطْرَافِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ وَالْجَوَانِبِ فِي قَدْرِ لِحْظَةٍ بَصَرٍ وَطَرَفَةٍ عَيْنٍ مِمَّا لَوْ أُرِيدَ تَقْدِيرُ ذَلِكَ بِجَمِيعِ مَا فِي الْخَلْقِ مِنَ الْمَقَادِيرِ مَا^(٣) قَدَرُوا عَلَيْهِ لِيُعْلِمَ أَنَّ اللَّهَ عَلَى مَا يَشَاءُ قَدِيرٌ، وَأَنَّهُ لَوْ أَرَادَ أَنْ يَخْلُقَ جَمِيعَ مَا ذَكَرَ أَنَّهُ خَلَقَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ لَقَدَرَ^(٤) أَنْ يَخْلُقَ فِي طَرَفَةٍ عَيْنٍ، لَكِنَّهُ خَلَقَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ لِحِكْمَةٍ^(٥) فِي ذَلِكَ.

وقوله تَعَالَى: ﴿يَطْلُبُهُ حَيْثُكَ﴾ لَا يَكُونُ مِمَّا ذَكَرَ طَلَبَ حَقِيقَةٍ، لَكِنْ ذَكَرَ الطَّلَبَ لِأَنَّ مَا كَانَ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لِلْآخَرِ لَوْ كَانَ مِمَّنْ يَكُونُ لَهُ الطَّلَبُ كَانَ طَلَباً وَهَرَباً مِنْ غَلَبَةِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبِهِ؛ وَهُوَ مَا ذَكَرْنَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَرَّفْتَهُمُ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٧٠] أَنَّهُا أُنْشِئَتْ عَلَى هَيْئَةٍ وَجْهَةٍ، لَوْ كَانَ ذَلِكَ مِمَّنْ يَكُونُ مِنْهُ التَّغْرِيبُ كَانَ غُرُوراً.

وقوله تَعَالَى: ﴿مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿يَأْتِيهِ﴾ أَيِ بِتَكْوِينِهِ أَيْ أَنْشَأَهَا، وَكَوْنُهَا مُسَخَّرَاتٍ لَهُمْ. وَقَالَ^(٦) بَعْضُهُمْ: ﴿يَأْتِيهِ﴾ يَنْفَعُنَ الْبَشَرَ.

وقوله تَعَالَى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: الْأَمْرُ هَهُنَا هُوَ التَّكْوِينُ، وَقِيلَ: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ﴾ وَالتَّدْبِيرُ فِي الْخَلْقِ، وَقِيلَ: لَهُ الْأَمْرُ فِي الْخَلْقِ.

وقوله تَعَالَى: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا فَهَمَّتِ الْمُشَبَّهَةُ مِنْ^(٧) قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْكَرْسِيِّ﴾.

الآية ٥٥ وقوله تَعَالَى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿ادْعُوا﴾ أَيِ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي [غافر: ٦٠] ذَكَرَ فِي الْإِبْدَاءِ الدُّعَاءَ، وَفِي آخِرِهِ الْعِبَادَةَ، فَكَانَ الْأَمْرُ بِالْإِبْدَاءِ أَمراً بِالْعِبَادَةِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الدُّعَاءُ هَهُنَا هُوَ الدُّعَاءُ، وَقَدْ جَاءَ أَنَّ الدُّعَاءَ مَعَ الْعِبَادَةِ [الترمذي: ٣٣٧١] [لَا الْعِبَادَةَ]^(٨) قَدْ تَكُونُ بِالتَّقْلِيدِ، وَالدُّعَاءُ لَا يَحْتَمِلُ التَّقْلِيدَ، وَلَكِنْ إِنَّمَا يَكُونُ عِنْدَ الْحَاجَةِ لَمَّا [يَرَى الْمَرْءُ]^(٩) فِي نَفْسِهِ مِنَ الْحَاجَةِ وَالْعَجْزِ عَنِ الْقِيَامِ بِذَلِكَ؛ فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقْرَعُ إِلَى رَبِّهِ، فَهُوَ مَعَ الْعِبَادَةِ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

وقَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ﴾ أَيِ وَخَدُّوا رَبَّكُمْ ﴿تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً﴾ إِخْلَاصاً، وَقِيلَ: ﴿تَضَرُّعاً﴾ ظَاهِراً ﴿وَخُفْيَةً﴾ سِرّاً. وَأَضْلَهُ أَنْ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ فِي كُلِّ وَتٍ وَكُلِّ سَاعَةٍ، أَوْ ادْعُوا خَاضِعِينَ مُخْلِصِينَ.

وقوله تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُنْتَدِبِينَ﴾ قِيلَ: الْمَجَاوِزِينَ الْحَدَّ بِالإِشْرَافِ بِاللَّهِ، وَقِيلَ: لَا يُحِبُّ الْإِغْتِدَاءَ فِي الدُّعَاءِ نَحْوُ أَنْ يَقُولَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي نَبِيّاً أَوْ مَلِكاً أَوْ أَنْزِلْنِي فِي الْجَنَّةِ مُنْزَلَكِذَا وَمَوْضِعَكِذَا. وَرُويَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُغْفَلٍ [أَنَّهُ]^(١٠)

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: الْخَلْقُ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: وَمَا. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: قَادِر. (٥) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: بِحِكْمَةٍ. (٦) الْوَائِ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: نَم. (٨) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: رَأَى. (١٠) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

سَمِعَ ابْنُهُ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْفِرْدَوْسَ، وَأَسْأَلُكَ كَذَا، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ: سَلِ اللَّهَ الْجَنَّةَ، وَتَعَوَّذْ بِهِ مِنَ النَّارِ فَإِنِّي سَنَعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «سَيَكُونُ قَوْمٌ يَتَعَدُّونَ فِي الدُّعَاءِ»^(١) [أبو داود ١٤٨٠].

وَيَحْتَمِلُ الْإِغْتِدَاءُ فِي الدُّعَاءِ أَنْ^(٢) يَسْأَلَ رَبَّهُ مَا لَيْسَ هُوَ بِأَهْلٍ لَهُ نَحْوُ أَنْ يَسْأَلَ كَرَامَةَ الْأَخْيَارِ وَالرُّسُلِ. وَأَصْلُ الْإِغْتِدَاءِ هُوَ الْمَجَاوِزَةُ عَنِ الْحَدِّ. وَعَنِ الْحَسَنِ [أَنَّهُ]^(٣) قَالَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً» عَلَّمَكُمْ كَيْفَ تَدْعُونَ رَبَّكُمْ؟ وَقَالَ لِلْعَبْدِ الصَّالِحِ حِينَ^(٤) رَضِيَ دُعَاؤُهُ «إِذَا نَادَى رَبَّهُ يَدَاءَةً خَفِيًّا» [مريم: ٣] وَقَالَ أَنَسٌ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَمَلُ الْبِرِّ كُلُّهُ نِصْفُ الْعِبَادَةِ وَالدُّعَاءُ نِصْفُ الْعِبَادَةِ» [المطالب العلية ٣٣٢٩].

وَمِنْهُمْ مَنْ صَرَفَ قَوْلُهُ تَعَالَى: «ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً» إِلَى الدُّعَاءِ، وَقَالَ يُكْرَهُ لِلرَّجُلِ أَنْ يَرْفَعَ صَوْتَهُ فِي الدُّعَاءِ. وَيَزُودُونَ عَلَى ذَلِكَ حَدِيثًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ سَمِعَ قَوْمًا يَرْفَعُونَ أَصْوَاتَهُمْ فِي الدُّعَاءِ، فَقَالَ: «إِيهَا النَّاسُ لَا تَدْعُونَ أَصَمًّا وَلَا غَائِبًا، وَلَكِنْ كَذَا» [مسلم ٢٧٠٤/٤٤].

الآية ٥٦

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَلَا تُسَيِّدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا» قَالَ بَعْضُهُمْ: «وَلَا تُسَيِّدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا» بَعْدَ مَا بَعَثَ الرَّسُلَ بِإِصْلَاحِهَا مِنَ الدُّعَاءِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَالطَّاعَةِ، وَيَأْمُرُونَ بِالْحَلَالِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْحَرَامِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: «وَلَا تُسَيِّدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا» بَعْدَ مَا خَلَقَهَا طَاهِرَةً عَنْ جَمِيعِ أَنْوَاعِ الْمَعَاصِي وَالْفَوَاحِشِ وَسُفْلِ الدَّمَاءِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَيُقَالُ: «بَعْدَ إِصْلَاحِهَا» بَعْدَ مَا أَعْطَاكُمْ أَسْبَابًا تَقْدِرُونَ عَلَى الْإِصْلَاحِ.

رَجَائِزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِإِصْلَاحِ الْأَرْضِ أَهْلِهَا، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَكَايْنِ مِنْ قَرَبَةٍ عَنَّتْ عَنْ أُمِّ رَيْثَا» [الطلاق: ٨] وَالْقَرِيَّةُ لَا تُوصَفُ بِالْعُتُوِّ، وَلَكِنْ أَهْلِهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا» قَالَ بَعْضُهُمْ: «خَوْفًا» لِمَا كَانَ فِي الْعِبَادَةِ مِنَ التَّقْصِيرِ «وَطَمَعًا» فِي التَّجَاوُزِ وَالْقَبُولِ؛ لِأَنَّهُ لَا أَحَدٌ يَقْدِرُ أَنْ يَغْبِرَ رَبَّهُ حَقَّ عِبَادَةٍ، لَا تَقْصِيرَ فِي ذَلِكَ.

وَعَلَى ذَلِكَ مَا رَوَى عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَحَدٌ إِلَّا بِرَحْمَتِي، قِيلَ: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ» [مسلم ٢٨١١/٧١ و ٢٨١٨/٧٨] وَعَلَى ذَلِكَ مَا رَوَى أَنَّ الْمَلَائِكَةَ يَقُولُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: مَا عَبْدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ وَيَجِبُ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ أَنْ يَكُونَ فِي كُلِّ فِعْلٍ الْخَيْرِ خَائِفًا رَاجِيًا الْخَوْفَ لِلتَّقْصِيرِ وَالرَّجَاءَ لِلْقَبُولِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: خَوْفًا مِنْ عَذَابِهِ وَتَقَمُّعِهِ وَطَمَعًا فِي جَنَّتِهِ.

[وَقَوْلُهُ تَعَالَى]^(٥) «إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ» قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: إِنَّ الْجَنَّةَ «قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ» وَيَقُولُونَ: أَرَادَ بِالْقَرِيبِ الْوُقُوعَ فِيهَا وَالتَّزَوُّلَ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالرَّحْمَةِ صِفَتُهُ فَيَكُونُ تَأْوِيلُهُ: إِنَّ مَنَفْعَةَ رَحْمَةِ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ. وَقَالَ الْحَسَنُ: إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ، وَهِيَ الْجَنَّةُ قَرِيبٌ مِنَ الْخَائِفِينَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ» أَيِ [إِجَابَةِ اللَّهِ قَرِيبٌ وَمِنْ]^(٦) اسْتِجَابَ دُعَاؤُهُ.

وَيَحْتَمِلُ مَا ذَكَرْنَا مِنْ مَنَفْعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ «قَرِيبٌ» مِنْ^(٧) ذَكَرَ. ثُمَّ «الْمُحْسِنِينَ» يَحْتَمِلُ «الْمُحْسِنِينَ» إِلَى أَنْفُسِهِمْ أَيْ «الْمُحْسِنِينَ» إِلَى خَلْقِهِ، أَيْ «الْمُحْسِنِينَ» إِلَى نِعَمِ اللَّهِ، أَيْ أَحْسَنُوا صُحْبَةَ نِعَمِهِ بِالْقِيَامِ^(٨) لِيُكْرِهَاجِ اجْتِنَابِ الْكُفْرَانِ بِهَا، أَوْ يُرِيدَ الْمُؤَحِّدِينَ.

الآية ٥٧

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ» يُذَكِّرُهُمْ ﷻ فِي هَذَا حِكْمَتَهُ وَقُدْرَتَهُ وَنِعَمَهُ لِيَسْتَحْتَجَّ بِهَا عَلَيْهِمُ بِالْبُغْثِ. أَمَّا حِكْمَتُهُ [فَنِي مَا]^(٩) يُرْسِلُ الرِّيحَ وَالْأَمْطَارَ، وَيَسُقُّهَا إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يُمِطَّرَ فِيهِ مَا لَمْ يَعْلَمُوا ذَلِكَ، [وَلَا شَاهِدُوهُ، وَمَا]^(١٠) عَرَفُوا أَنْ كَيْفَ يُرْسِلُ الْمَطَرُ مِنَ السَّمَاءِ؟ وَكَيْفَ يُرْسِلُ الرِّيحَ، وَيَسُقِي السَّحَابَ؟ فِي ذَلِكَ تَذَكُّيرُ حِكْمَتِهِ بِإِتَائِهِمْ.

(١) أدرج بعدها في الأصل وم: والطهور. (٢) أدرج قبلها في الأصل وم: هو. (٣) ساقطة من الأصل وم: (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) ساقطة من الأصل وم: (٦) في الأصل: إجابة قريب إلى من، في م: إجابة الله قريب إلى من. (٧) في الأصل وم: إلى من. (٨) في الأصل وم: القيام. (٩) في الأصل وم: فيما. (١٠) في الأصل وم: وشاهدوه ما.

وَأَمَّا نِعْمَةُ [فهي ما يسوق من^(١)] السَّحَابِ بِالرِّيحِ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي فِيهِ حَاجَةٌ إِلَى الْمَطَرِ؛ وَذَلِكَ مِنْ عَظِيمِ نِعَمِهِ لِيُعْلِمَ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ بِرَحْمَتِهِ، لَا أَنَّهُمْ كَانُوا مُسْتَوْجِبِينَ لَذَلِكَ.

وَأَمَّا مَا ذَكَرَهُمْ مِنْ قُدْرَتِهِ فَهُوَ^(٢) مَا ذَكَرَ مِنْ إحياء الأرض بعد ما كانت مَبْتَةً لِيُعْلِمَ أَنَّ الَّذِي قَدَّرَ عَلَى إحياء الأرض وإخراج النبات والشمَرِ بعد ما كان مَيِّتًا قَادِرٌ^(٣) عَلَى ١٧٧ - ب/ إحياء الموتى وَبَعْثِهِمْ بعد موتِهِمْ عَلَى مَا قَدَّرَ عَلَى إحياء الأرض بالنبات وإحياء النَّخْلِ بِالشَّمَارِ بعد ما كَانَ عِلْمٌ كُلُّ أَنْ لَا نَبَاتَ فِيهَا، وَلَا يُعَارِ فِيهِ، فَإِذَا خَرَجَ النَّبَاتُ مِنْهَا وَالشَّمَارُ مِنَ النَّخِيلِ عَلَى مَا خَرَجَ فِي الْعَامِ الْأَوَّلِ ذَلِكَ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَقُدْرَتِهِ عَلَى إحياء الموتى وَبَعْثِهِمْ بعد ما مَاتُوا، وَصَارُوا تُرَابًا عَلَى قَدْرِ مَا ذَكَرْنَا، وَاللَّهُ [أَعْلَمُ]^(٤)

وفي قوله تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ دلالةٌ لَا يُفْهَمُ مِنَ الْيَدَيْنِ الْجَارِحَتَيْنِ [مَا]^(٥) يُفْهَمُ مِنَ الْخَلْقِ كَمَا لَمْ يُفْهَمَ أَحَدٌ [مِنْ ذِكْرٍ]^(٦) الْيَدِ فِي الْمَطَرِ الْجَارِحَةِ؛ لِأَنَّهُ لَا جَارِحَةَ لَهُ. فَعَلَى ذَلِكَ لَا يُفْهَمُ مِنْ ذِكْرِ الْيَدِ لَهُ الْجَارِحَةُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَأْنِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: ٤٢]؛ لَمْ يُفْهَمُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَأْنِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ الْجَارِحَتَيْنِ^(٧) لِلْقَرَأَنِ. فَعَلَى ذَلِكَ لَا يُفْهَمُ مِمَّا ذَكَرَ مِنْ يَدَيِ الْجَارِحَتَيْنِ^(٨). وَمَنْ فِيهِمْ ذَلِكَ إِنَّمَا يُفْهَمُ لِفَسَادِ اعْتِقَادِهِ. وَكَذَلِكَ مَا ذَكَرَ مِنَ الْإِسْتِوَاءِ عَلَى الْعَرْشِ وَالْإِسْتِوَاءِ إِلَى السَّمَاءِ لَا يُفْهَمُ مِنْ اسْتِوَاءِ الْخَلْقِ؛ لِأَنَّهُ بَرِيءٌ عَنْ جَمِيعِ مِثَالِهِ الْخَلْقِ وَمَعَانِيهِمْ، وَهُوَ مَا وَصَفَ جِبْنَ^(٩) قَالَ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُرْسِلُ الرِّيحَ بَقَرًا يَنْفِثُ بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ وَنُشْرًا [ونُشْرًا]^(١٠) وَبُشْرَى؛ وَالنُّشْرُ هُوَ مِنْ جَنْعِ نُشُورٍ [وَالنُّشْرُ هُوَ]^(١١) مِنَ الْإِحْيَاءِ، وَمِنْ^(١٢) التَّقْرِيقِ، وَبُشْرَى بِالْبَاءِ مِنَ الْبِشَارَةِ.

ثُمَّ قِيلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نُشْرًا﴾ اللَّهُ هُوَ الَّذِي يُفَرِّقُ، وَيَسُوقُ ذَلِكَ السَّحَابَ، وَقِيلَ: الرِّيحُ هُوَ الَّذِي يُزِيلُ، وَيَسُوقُ ذَلِكَ السَّحَابَ.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثَلَّتْ سَحَابًا نَقَالًا﴾ قِيلَ: ﴿أَثَلَّتْ﴾ حَمَلَتْ، وَقِيلَ: وَفَتَحَتِ الْمَاءَ، وَهُوَ وَاحِدٌ ﴿نَقَالًا﴾ مِمَّا فِيهِ مِنَ الْمَاءِ ﴿سُقْنَتُهُ لِكُلِّ مَيِّتٍ﴾ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ﴾ أَيِ الْبَلَدِ ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّغَرِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿مِنْ كُلِّ الثَّغَرِ﴾ مَا يُشَاهِدُونَ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴿فَخَرَجَ الْمَوْتُ﴾ بَعْدَ مَا مَاتُوا، وَذَهَبَ أَثَرُهُمْ كَمَا أَخْرَجَ النَّبَاتُ وَالشَّمَارُ مِنَ الْأَرْضِ وَالنَّخْلُ مِنْ بَعْدِ مَا مَاتَ، وَذَهَبَ أَثَرُ ذَلِكَ النَّبَاتِ وَتِلْكَ الثَّمَارِ. فَعَلَى ذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَ بَعْدَ مَا ذَهَبَ أَثَرُهُمْ حَتَّى لَمْ يَبْقَ شَيْءٌ ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ وَتَتَفَكَّرُونَ، وَتَعْرِفُونَ قُدْرَتَهُ وَسُلْطَانَهُ عَلَى الْإِحْيَاءِ بَعْدَ الْمَوْتِ، أَوْ تَذَكَّرُونَ، وَتَتَعَبَّطُونَ.

وبعد فإن إعادة الشيء في عقول الخلق أهون وأيسر من ابتداء الإنشاء. ألا ترى أن الدهرية والثورية وهؤلاء قد أنكروا الإنشاء من لا شيء، ورأوا وجود الأشياء مطروحة وإعادتها عن أصل وكيان؟ وهو ما ذكر، وهو أهون عليه أي في عقولكم.

الآية ٥٨

وقوله تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَجَسًا﴾ ذَكَرَ الْمَثَلَ، وَلَمْ يَذْكُرِ

المضروب.

وأهل التأويل قالوا: ضَرَبَ الْمَثَلَ لِلْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ. ثُمَّ يَحْتَمِلُ ضَرْبُ الْمَثَلِ وَجُوهًا:

أحدها: أَنَّهُ وَصَفَ الْأَرْضَ الَّتِي يَخْرِجُ مِنْهَا النَّبَاتُ بِالطَّيِّبِ، وَوَصَفَ الْأَرْضَ الَّتِي لَا يَخْرِجُ مِنْهَا النَّبَاتُ بِالْخُبْثِ.

فَعَلَى ذَلِكَ الْمُؤْمِنُ لِمَا كَانَ مِنْهُ مِنَ الْأَعْمَالِ الطَّاعَةِ^(١٣) لِرَبِّهِ وَالْإِيمَارُ لِأَمْرِهِ، مَوْصُوفٌ هُوَ بِالطَّيِّبِ، وَجَعَلَهُ مِنْ جَوْهَرِ

(١) فِي الْأَصْلِ رَمَ: فَهُوَ مَا يَسُوقُ. (٢) الْفَاءُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ رَمَ. (٣) فِي الْأَصْلِ رَمَ: لِقَادَرِ. (٤) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٥) مِنْ م،

سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٦) فِي الْأَصْلِ رَمَ: بِذَكَرِ. (٧) فِي الْأَصْلِ رَمَ: الْجَارِحَةُ. (٨) فِي الْأَصْلِ رَمَ: الْجَارِحَةُ. (٩) فِي الْأَصْلِ رَمَ: حَيْثُ.

(١٠) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ رَمَ، انْظُرْ مَعْجَمَ الْقُرْآنِ [٢/ ٣٧١]. (١١) فِي الْأَصْلِ رَمَ: وَهُوَ. (١٢) فِي الْأَصْلِ رَمَ: وَنُشْرًا مِنْ. (١٣) فِي

الْأَصْلِ رَمَ: مِنَ الطَّاعَةِ.

الطَّيِّبِ، والكافر لما يكون منه الأعمال الخبيثة، ولا يكون [له] ^(١) من الأعمال الصالحة الطاعة ^(٢) لربه خبيث، كما أن الأرض التي يخرج منها النبات الذي ينتفع به موصوفة بطيب الأصل والجوهر، والتي لا يخرج منها النبات، ولا ينتفع به، موصوفة بخبيث الأصل.

وأمكن من وجه آخر؛ وهو أن الله ﷻ جعل هذا القرآن مباركاً شفاءً للخلق على ما وصفه الله تعالى في غير موضع من الكتاب، ووصف الماء الذي ينزل من السماء بالبركة والرحمة. فإذا أنزل ذلك الماء المبارك في الأرض الطيبة الجوهر يخرج منها النبات والأنزال ينتفع بها. وإذا نزل في الأرض السبخة الخبيثة لم يخرج [النبات] ^(٣) ليخبيث أصلها.

فعلَى ذلك هذا القرآن هو مبارك شفاءً؛ يسمعه ^(٤) المؤمن، فيشفيه به، ويعمل به، والكافر يسمعه، ولا يشفيه، ولا يعمل به. فصار مثل المؤمن الذي يسمع هذا القرآن، ويعمل بما فيه كمثل الماء الذي يدخل في الأرض، فيخرج منه النبات لطيب جوهرها وأصلها. والكافر مثل الأرض التي لا يخرج منها النبات ليخبيث أصلها وجوهرها.

وأصله أنه ضرب مثل الذي هو مستحسن بالعقل بالذي هو مستحسن بالطبع؛ لأن ما حسن في الطبع فإنما معرفته حسنى، وما حسن في العقل فإنما يعرف حسنه بالدلائل، وهو غائب. فضرب مثل معرفة حسنه بالعقل بالحسن والمشاهدة، وهو ما ذكر من النبات الذي يخرج من الأرض، وذلك يدل على طيب أصلها وجوهرها. [والذي لا يخرج] ^(٥) ليخبيث جوهرها وأصلها. فعلى ذلك المؤمن والكافر.

ثم حسن عمل هذا وطيبه وقبح عمل الآخر وخبيثه إنما يظهر في الآخرة؛ وذلك يوجب البغض أنهما استويا في هذه الدنيا، فدل أن هناك داراً أخرى فيها يظهر الطيب من الخبيث؛ طاب عمل المؤمن وجميع ما يكون منه حسناً لطيب أصله، وخبيث عمل الكافر، وقبح ما يكون منه ليخبيث أصله؛ كالأرض التي ذكر.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾ يختم بغيره وتكوينه.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا نَكَدًا﴾ قال الحسن: خبيثاً؛ أي لا يخرج إلا خبيثاً، وقال أبو بكر: ﴿نَكَدًا﴾ أي لا منفعة فيه، وقيل: إلا عيباً، وقيل: إلا قليلاً، وهو واحد.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي لقوم يتفهمون بالآيات.

الآية ٥٩ وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ كما أرسلناك إلى قومك، ولست أنت بأول رسول كقوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَتْ بِدَعَايَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]

وفيه دلالة أن الإيمان يصح بالأنبياء والرسل [وإن لم تعرف أنسابهم؛ لأن الله ﷻ ذكر الأنبياء والرسل] ^(٦) باسميهم، ولم يذكر أنسابهم. دل ذلك أن الإيمان يكون بهم، وإن لم تعرف أنسابهم، وكذلك يصح الإيمان وإن لم تعرف أسماؤهم؛ لأن ^(٧) [من الأنبياء من لا يعرف اسمه، فيصح الإيمان بجملة] ^(٨) الأنبياء، وإن لم تعرف أسماؤهم.

وفي ذلك دلالة رسالة محمد ﷺ لأنه أخبر عن رسالة نوح، فدل أنه بالله عرف ذلك.

وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ يَتَوَلَّىٰ الْغَيْبُ أَتَدْعُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ﴾ قيل: قوله تعالى: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي وحدوا الله، سمو التوحيد عبادة، لأن العبادة لا تكون، ولا تصح إلا بالتوحيد فيها لله خالصاً، سمي بذلك مجازاً أن يكون عبادة.

وقوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ﴾ أي ما لكم من الإله الحق الذي تثبت ألوهيته وربوبيته بالدلائل من إله غيره.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ﴾ قال بعضهم: ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾ إني أعلم أنه ينزل عليكم عذاب يوم عظيم إن كنتم على هذا. وقال بعضهم: الخوف هو ^(٩) خوف إشفاق، وذلك يختم أن يكون في الوقت الذي كان يطمع إيمان قومه، ثم آيسه الله عن إيمان قومه بقوله تعالى: ﴿أَن يَأْمَنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ [هود: ٣٦].

(١) من م، ساقطة من الأصل (٢) في الأصل وم: ومن الطاعة. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: فيسمع. (٥) في الأصل وم: والتي لا تخرج شيئاً. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من م. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: وهو.

وقوله تعالى: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ لِلْخَلْقِ كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّهِمْ﴾ [المطففين: ٥ و٦] وهو عظيم للخلق على ما وصف.

الآية ٦٠ وقوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ﴾ هم أشراف قومه وسادتهم كقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا﴾ الآية [الأحزاب: ٦٧] وكانوا هم أضداد الأنبياء والرسل لأنهم كانوا يدعون الناس إلى ما يوحى إليهم الشياطين، والرسل كانوا يدعون إلى ما يوحى إليهم الله، وينزل عليهم. لذلك قالوا: ﴿إِنَّا لَنَرُّكَ فِي صَلِّ ثُبِينَ﴾ لأنهم ظنوا أن ما أوحى إليهم الشيطان هو الحق، وأن ما يدعو^(١) إليه الرسل هو ضلال وباطل.

الآية ٦١ وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَقْوَرُ لَيْسَ بِ صَلَّةٍ﴾ أي لست أنا بضال؛ لأنه إذا نفى الضلال عنه نفى أن يكون ضالاً، وهو حرف رفيع ولين. وعلى ذلك أمر الأنبياء والرسل أن يعاملوا قومهم؛ لأن ذلك أنجع في القلوب، وإلى القبول أقرب.

﴿وَلَنَكْفِي رَسُولَ رَبِّ آلَمِينَ﴾ والعالم هو جوهر الكل.
ويحتمل قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَرُّكَ / ١٧٨ - ١﴾ في صلل ثبين. أي في خطا ميين. ثم يخرج على وجهين:
أحدهما: نسبوه إلى الخطأ لما رأوه خالف الفرائضة والجبايرة الذين همهم القتل لمن خالفهم.
الثاني: نسبوه إلى الخطأ لأنه دين آباءه وأجداده، والله أعلم.

الآية ٦٢ وقوله تعالى: ﴿أَبْلَغَكُمْ رَسَلَتِ رَبِّي﴾ التي أمرني بتبليغها إليكم؛ قيلتم، أو ردذتم. ثم لاني أبلغها على أي حال استقبلتموني، أو يقول: ﴿أَبْلَغَكُمْ رَسَلَتِ رَبِّي﴾ رسالة ربي التي أرسلها إلي.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْصَحْ لَكُمْ﴾ [يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿وَأَنْصَحْ لَكُمْ﴾] (٢) أي ادعوكم، وأمركم إلى ما فيه صلاحكم، وإنهاكم عما فيه فسادكم. والنصيحة هي الدعاء إلى ما فيه [الصلاح والنهي عما فيه] (٣) الفساد. وتكون النصيحة لهم ولجميع المؤمنين. روي عن رسول الله ﷺ [أنه] (٤) قال: «أَلَا إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ، قِيلَ: لِمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ» [البخاري: ٥٧] قال أبو القاسم الحكيم، رحمة الله عليه: النصيحة هي النهاية من صدي العناية.

ثم أخبر أنه يبلغهم ﴿رَسَلَتِ رَبِّي﴾ ولم يبين في ماذا؟ في كتاب أنزله عليه، أو يوحى [إليه في غير كتاب] (٥)، وليس لنا إلى معرفة ذلك حاجة سوى التصديق له في ما يبلغ إليهم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قد أتاه من الله العلم بأشياء ما لم يأت أولئك بمثله، وهو كقول إبراهيم، صلوات الله عليه، لأبيه ﴿يَا أَبَتِ إِنَّي قَدْ جِئْتُكَ بِبَشَرٍ مِثْلِهِ﴾ [مريم: ٤٣] ويحتمل قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من العذاب أن ينزل بكم ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنتم إذا دُمت على ما أنتم عليه.

الآية ٦٣ وقوله تعالى: ﴿أَوْ عَجِزْتُ أَنْ جَاءَكَ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي اتعجبون (٦) بما جاءكم ذكر من الله على يدي ﴿نَسْكَ﴾ ما لا أقدر أنا، ولا تقديرون أنتم على مثله؟ كانوا يعجبون، ويكرهون أن يكون رسل الله من البشر بقولهم: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً﴾ [المؤمنون: ٢٤] ونحو ذلك.

هكذا (٧) كانوا ينكرون رسالة البشر، وما ينبغي لهم أن ينكروا ذلك لأنهم قد كانوا رأوا تفضيل بعض البشر على بعض [وتفضيلهم في] (٨) وضع الرسالة فيهم؛ أعني [تفضيلهم في الرسالة] (٩)؛ وذلك قد رأوا في ما بينهم. ولله تفضيل بعضهم على بعض؛ إذ له الخلق، ولكل ذي ملك وسلطان أن يصنع في ملكه ما شاء من تفضيل بعض على بعض وغيره.

(١) في الأصل وم: يدعون. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: في غير كتاب يوحى إليه. (٦) في الأصل وم: تعجبون. (٧) في الأصل وم: هذا. (٨) في الأصل وم: وفي. (٩) في الأصل وم: في المرسل تفضيلهم.

أو يقول: **«أَنْ جَاءَكَ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكَ عَلَيَّ يَدِي «يُجَلِّ نَسَكَ»** ولو كَانَ جَاءَ الذِّكْرُ عَلَى مَنْ هُوَ مِنْ غَيْرِ جَوْهَرِكُمْ كَانَ فِي ذَلِكَ لَبْسٌ وَاشْتِبَاهٌ عَلَيْكُمْ.

وقوله تعالى: **«لِيُنذِرَكُمْ»** عَذَابُ اللَّهِ **«وَلِتَقْوَا»** مَعَاصِيَهُ **«وَلِتُحْسِنُوا»** زُكُوتَكُمْ **«إِنْ أَتَقْنْتُمْ مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ، أَوْ كَانَ فِي قَوْمِهِ مَنْ يَجُوزُ أَنْ يُرْحَمَ»**.

الآية ٦٤ وقوله تعالى: **«فَكَذَّبُوهُ»** يَغْنِي نَوْحاً **«كَذَّبُوهُ حِينَ»** ^(١) دَعَاهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَوَخْدَانِيَّتِهِ، وَنَهَايَهُمْ عَنْ عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ، أَوْ كَذَّبُوهُ فِي مَا آتَاهُمْ مِنْ آيَاتِ نُبُوَّتِهِ وَرِسَالَتِهِ.

وقوله تعالى: **«فَأُجِبْتُمْ»** يَغْنِي نَوْحاً **«وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفَلَكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا»**.
إِذَا كَانَ إِهْلَاكُ الْقَوْمِ إِهْلَاكٌ تَغْذِيبٌ وَعُقُوبَةٌ يَنْجِي أَوْلِيَاءَهُ، وَيُثَبِّتُهُمْ إِلَى الْأَجَالِ الَّتِي هِيَ ^(٢) قَدَرٌ لَهُمْ. وَيَكُونُ ذَلِكَ نَجَاةً لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ الْعَذَابِ الَّذِي حَلَّ بِالْأَعْدَاءِ.

وقوله تعالى: **«كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا»** الَّتِي جَعَلْنَاهَا ^(٣) لِإِبْتِهَاتِ رِسَالَتِهِ وَنُبُوَّتِهِ. وَتَحْتَمِلُ **«كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا»** الَّتِي أَغْطَيْنَا [لِلْإِبْتِهَاتِ وَخُدَائِيَّةِ] ^(٤) اللَّهُ وَأَوَّلُوهُيَّتِهِ **«إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا غَيْرَ»** عَمُوا عَنِ الْحَقِّ.

الآية ٦٥ وقوله تعالى: **«وَالَّذِي عَادُوا لَنَاهُمْ هُودًا»** أَي إِلَى عَادٍ أَرْسَلْنَا هُودًا. ثُمَّ تَحْتَمِلُ الْأُخُوَّةُ وَجُوهًا أَرْبَعَةً: أُخُوَّةُ الْجَوْهَرِ، وَهُوَ [أَنْ يُقَالَ: هَذَا أُخُوَّةُ] ^(٥) إِذَا كَانَ مِنْ جَوْهَرِهِ، وَلَا يُقَالُ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ جَوْهَرِهِ، وَأُخُوَّةُ الْمَوَدَّةِ وَالْمَحَبَّةِ، وَأُخُوَّةُ الدِّينِ [وَأُخُوَّةُ النَّسَبِ] ^(٦).

ثُمَّ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ هُودٍ وَقَوْمِهِ أُخُوَّةُ [الدِّينِ وَلَا أُخُوَّةُ الْمَوَدَّةِ، لَكِنْ تَحْتَمِلُ الْأُخُوَّةُ أُخُوَّةُ] ^(٧) النَّسَبِ؛ لِأَنَّ الْبَشَرَ عَلَى بُعْدٍ مِنْ آدَمَ، كُلُّهُمْ أَوْلَادُهُ. فَلِذَا كَانُوا كَذَلِكَ فَهُمْ فِي مَا بَيْنَهُمْ، بَعْضُهُمْ إِخُوَّةُ بَعْضٍ، وَأُخُوَّةُ الْجَوْهَرِ عَلَى مَا ذَكَّرْنَا؛ يُقَالُ: هَذَا أَخُو هَذَا إِذَا كَانَ مِنْ جَنْبِهِ وَجَوْهَرِهِ، [فَهَذَا الْوَجْهَانِ يُحْتَمَلَانِ] ^(٨) وَالْآخِرَانِ لَا.

وقوله تعالى: **«قَالَ يَتَقَوِّرَ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ»** أَي اغْبُدُوا اللَّهَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ **«مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ»** أَي لَيْسَ لَكُمْ مِنْ مَعْبُودٍ سِوَاهُ، وَهُوَ الْمَعْبُودُ فِي الْحَقِيقَةِ.

وقوله تعالى: **«أَفَلَا تَتَّقُونَ»** عِبَادَةَ غَيْرِ اللَّهِ، أَوْ **«أَفَلَا تَتَّقُونَ»** اللَّهَ فِي عِبَادَتِكُمْ غَيْرَهُ وَفِي تَكْذِيبِكُمْ هُودًا. أَوْ يَقُولُ: **«أَفَلَا تَتَّقُونَ»** عَذَابَهُ وَتَقَمَّتْ عَلَيْكُمْ بِمُخَالَفَتِكُمْ إِيَّاهُ.

الآية ٦٦ وقوله تعالى: **«قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ»** قَدْ ذَكَّرْنَا قَوْلَ الْمَلَأِ مِنْ قَوْمِهِ، أَي أَشْرَافِ قَوْمِهِ وَسَادَتِهِ **«إِنَّا لَنَرَنَّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَذَّابِينَ»** ذَكَرَ هُنَا ظَنَّهُمْ فِي تَكْذِيبِهِمُ الرُّسُولَ، وَفِي ^(٩) مَوْضِعٍ آخَرَ قَطْعَهُمْ فِي التَّكْذِيبِ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: **«إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ»** [المؤمنون: ٣٨].

فَكَانَ قَوْلُهُ تَعَالَى: **«وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَذَّابِينَ»** فِي ابْتِدَاءِ مَا دَعَاهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَوَخْدَانِيَّتِهِ؛ كَانُوا عَلَى ظَنٍّ فِيهِ لِمَا كَانَ عَنْدهُمْ صَدُوقًا أَمِينًا قَبْلَ دُعَائِهِمْ إِلَى مَا دَعَاهُمْ. فَلَمَّا أَنْ أَقَامَ عَلَيْهِمُ آيَاتِ الرِّسَالَةِ وَالنُّبُوَّةِ، وَأَظْهَرَ عَنْدهُمْ عَيْبَ مَا عَبَدُوا غَيْرَ اللَّهِ، وَأَبْطَلَهُ، وَتَحَقَّقَ [ذَلِكَ عَنْدهُمْ، عِنْدَ] ^(١٠) ذَلِكَ قَالُوا **«إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ»** [المؤمنون: ٣٨] لِيُعْلِمَ أَنَّهُمْ عَنْ عِنَادٍ كَذَّبُوا ^(١١) الرُّسُلَ.

الآية ٦٧ وقوله ^(١٢) تَعَالَى: **«قَالَ يَتَقَوِّرَ لَيْسَ فِي سَفَاهَةٍ»** إِنَّ الرُّسُلَ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، كَانُوا أُمُرًا أَنْ يُعَامِلُوا الْخَلْقَ بِأَحْسَنِ مُعَامَلَةٍ، وَهُوَ مَا أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، حِينَ ^(١٣) قَالَ تَعَالَى لَهُ: **«خُذِ الْقَوَارِئِرَ بِالْعَرَبِ»** [الأعراف: ١٩٩]

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل: هو، ساقطة من م. (٣) في الأصل وم: جعلناه. (٤) في الأصل وم: لوحداية. (٥) في الأصل وم: يقال هذا. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: فهذين الوجهين. (٩) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في م: وكذبوا. (١٢) في الأصل وم: فقال. (١٣) في الأصل وم: حيث.

وقال^(١) تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّذِي فِي أَيْمَنِكَ الْيَمِينَةَ﴾ [المؤمنون: ٩٦] ونحوه. فعلى ذلك الرُّسُلُ الذين كانوا مِنْ قَبْلُ؛ كانوا مأمورين بذلك. لذلك قال لهم هو، ولما بلغوه بالكذب والتَّسْفِيهِ، قال: لَيْسَ بِي مَا تَقُولُونَ، وَتَنْسُبُونَنِي ﴿وَلَكِنَّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْمَلَكِينَ﴾.

الآية ٦٨ وقوله تعالى: ﴿أَتْلِفْكُمْ يَرْسَلْتُ رَبِّي وَأَنَا لَكَ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ أي أَدْعُوكُمْ إِلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ وَالتَّمَسُّكِ بِالَّذِينَ الَّذِينَ بِهِ نَجَاتُكُمْ. وَكُلُّ مَنْ دَعَا آخَرَ إِلَى مَا بِهِ نَجَاتُهُ فَهُوَ نَاصِحٌ لَهُ.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَا لَكَ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ أَي كُنْتُ نَاصِحاً لَكُمْ قَبْلَ هَذَا أَمِيناً^(٢) فَيَكُنْ. فَكَيْفَ تَكْذِبُونَنِي، وَتَنْسُبُونَنِي إِلَى السُّفْهِ؟ وَأَنَا أَمِينٌ عَلَى الرِّسَالَةِ وَالْوَحْيِ الَّذِي وَضَعَ اللَّهُ عِنْدِي.

وقوله تعالى: ﴿أَتْلِفْكُمْ يَرْسَلْتُ رَبِّي﴾ خَوَّفْتُمُونِي، أَوَلَمْ تَخَوْفُونِي، قَبِلْتُمْ عَنِّي، أَوَلَمْ تَقْبَلُوا، أَوْ يَقُولُ: ﴿أَتْلِفْكُمْ يَرْسَلْتُ رَبِّي﴾ فَكَيْفَ تَنْسُبُونَنِي إِلَى السُّفْهِ وَالِافْتِرَاءِ عَلَى اللَّهِ؟

الآية ٦٩ وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خُلَفَاءَ﴾ [وجوهاً]:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ^(٣) قَوْمِ أَهْلَكْتُمْ بِتَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ، وَلَمْ يُهْلِكْكُمْ، فَاحْذَرُوا أَنْتُمْ هَلَاكَكُمْ بِتَكْذِيبِكُمْ الرُّسُلَ كَمَا أَهْلَكَ أَوْلَئِكَ بِتَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ. أَوْ أَنْ يُقَالَ: ﴿جَعَلْنَا خُلَفَاءَ﴾ قَوْمٌ صَدَّقُوا رَسُولاً مِنَ الشَّرِّ، وَهُوَ نُوحٌ، فَكَيْفَ كَذَبْتُمُونِي فِي دَعْوَى الرِّسَالَةِ لِأَنِّي بَشَرٌ، وَدُعَائِي إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ؟ هَذَا تَنَاقُضٌ.

وَالثَّانِي: أَنْ أَذْكُرُوا نُوحاً، وَهُوَ كَانَ رَسُولاً مِنَ الْبَشَرِ، فَكَيْفَ تُنْكِرُونَ أَنْ يَكُونَ الرُّسُولُ مِنَ الْبَشَرِ، وَكَانَ الرُّسُلُ جَمِيعاً مِنَ الْبَشَرِ.

وَالثَّالِثُ: أَنْ أَذْكُرُوا نِعْمَتَهُ الَّتِي أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّعَةِ فِي الْمَالِ وَالْقُوَّةِ فِي الْأَنْفُسِ وَحُسْنِ الْخَلْقَةِ وَالْقَامَةِ، وَكَانَ لِعَادِ ذَلِكَ كُلُّهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِإِسْرَءِيلَ﴾ [إِذْ نَادَى الْوَحَّاءَ] ﴿أَلَمْ يَكُنْ﴾ [الْفَجْر: ٦ و ٧ و ٨] هَذَا فِي السَّعَةِ فِي الْمَالِ. وَأَمَّا الْقُوَّةُ فِي الْأَنْفُسِ وَالْقَامَةِ [فَهِ] ^(٤) مَا ذَكَرَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْبَارُ نَحْلِ خَافِيَةٍ﴾ [الْحَاقَّة: ٧] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْبَارُ نَحْلِ شَقِيرٍ﴾ [القمر: ٢٠] وَصَفَ لَهُمْ بِالْقُوَّةِ وَطُولِ الْقَامَةِ. وَعَلَى ذَلِكَ قَسَرَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ.

وقوله تعالى: ﴿وَرَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَشَاطَةً﴾ بِغَنِي قُوَّةٍ/ ١٧٨ - ب/ وَقُدْرَةٍ. وَقِيلَ^(٥): هُوَ الطُّولُ وَالْعِظَمُ فِي الْجِسْمِ. ذَكَرَ اللَّهُ فِي عَادٍ^(٦) أَشْيَاءَ ثَلَاثَةً خَصَّهُمْ بِهَا مِنْ غَيْرِهِمْ: أَحَدُهَا: الْعِظَمُ فِي النَّفْسِ بِقَوْلِهِ^(٧) تَعَالَى: ﴿وَرَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَشَاطَةً﴾ وَفِي الْقُوَّةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ أَشَدُّ رِيًّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥] [وَالثَّانِيَّةُ]^(٨): السَّعَةُ فِي الْأَمْوَالِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَسَادُ﴾ [إِذْ نَادَى الْوَحَّاءَ] [الْفَجْر: ٦ و ٧] وَ[الثَّالِثَةُ]^(٩) فَضْلُ الْعِلْمِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكُنَّا مُتَّبِعِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨].

وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: الْآيَةُ هِيَ فِي دَفْعِ الْبَلَايَا، وَالتَّغْمَاءُ هِيَ فِي سَوِي النَّعْمَاءِ إِلَيْهِ. وَلَكِنَّمَا وَاحِدٌ؛ لِأَنَّهُ مَا مِنْ بَلَاءٍ يَذْفَعُ عَنْهُ إِلَّا وَفِي ذَلِكَ سَوِي نِعْمَةٍ أُخْرَى إِلَيْهِ، وَلَئِنْ اللَّهُ تَعَالَى ذَكَرَ فِي سُورَةِ الرَّحْمَنِ الْآيَةَ بِجَمِيعِ مَا ذَكَرَ إِنَّمَا ذَكَرَ عَلَى سَوِي النَّعْمِ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ^(١٠) تَعَالَى: ﴿يَأْتِي آيَةَ رَبِّكُمَا تَكْذِبَانِ﴾ حِينَ^(١١) قَالَ تَعَالَى: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الآيات: ١ و ٢ و ٣ و ٤] إِلَى [آخِرِ]^(١٢) مَا ذَكَرَ فِي السُّورَةِ، وَهُوَ ذَكَرَ فِي سَوِي النَّعْمِ لَا فِي دَفْعِ الْبَلَايَا.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَرَّمْنَاكُمْ نِعْمَةً﴾ وَشَكَرْتُمْ لَهُ عَلَيْهَا، وَلَمْ تَضَرْفُوا عِبَادَتَكُمْ وَشُكْرَكُمْ إِلَى غَيْرِهِ، أَوْ يَقُولُ: لَكِنِّي يَلْزَمُكُمْ الْفَلَاحُ، أَوْ حَتَّى تَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الْفَلَاحِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: قَوْلُهُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: أَمِين. (٣) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ غَيْرُهُ. (٦) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: عَادَةٌ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: كَقَوْلِهِ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: قَوْلُهُ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (١٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

الآية ٧٠

وقوله تعالى: ﴿أَجْتَنَّا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَنَدَّرَ مَا كَانَ يَتَّبِعُ آبَاؤَنَا﴾ هذا يدل على أن رسالته التي يُبَلِّغها إليهم في دعائه إياهم إلى عبادة الله وخدمته وتركهم عبادة من دونه حين^(١) قالوا: ﴿أَجْتَنَّا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَنَدَّرَ مَا كَانَ يَتَّبِعُ آبَاؤَنَا﴾ ولا شك أنه إنما جاءهم ليعبدوا الله وخدمته، وجاءهم ليدروا ما كان يعبد آبائهم.

ثم في فعلهم تناقض؛ لأنهم كانوا ينكرون أن يكون من البشر [ياكل مما يأكلون، ويشرب مما يشربون؛ لم يرضوا برسالة البشر، ورضوا بالهيئة الأحجار والخشب، ثم يقلدون آبائهم في عبادتهم غير الله، وفي آباؤهم من يعبد الله، لا يعبد غيره؛ وهم الذين مع نوح. فكيف لم يقلدوا من نجا منهم، ولم يعبدوا غير الله دون أن يقلدوا^(٢) الذين عبدوا غير الله؟ فذلك تناقض حين^(٣) اتبعوا^(٤) من^(٥) ملك منهم بتكذيبهم الرسل وعبادتهم غير الله، ولم يتبعوا من نجا منهم.

يذكرهم سقاهم وتناقضهم في القول في إنكارهم الرسول من البشر. ولكن ذكر سقاهم وتناقضهم بالتعريض لا بالتصريح. وكذلك عامة ما ذكر في كتابه من سقاهم إنما ذكره^(٦) بالتعريض.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنَّا يَمُنُّونَ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ إنه كان يعد العذاب إن لم يصدقوه في ما يدعوههم إليه وترك تقليد آبائهم في عبادتهم غير الله.

الآية ٧١

وقوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَصَيْتُمْ﴾ قال بغضهم: الرِّجْسُ العذاب؛ أي وجب عليكم العذاب بتكذيبكم^(٧) هوداً أو تقليدكم آبائكم في عبادتكم غير الله ﴿وَعَصَيْتُمْ﴾ وهو العذاب أيضاً.

وجائز أن يكون الرِّجْسُ هنا الخذلان وجرمان التوفيق والمعونة؛ أي وقع عليكم، ووجب، الخذلان وجرمان التوفيق باختياركم ما اخترتم.

وقال بغضهم: الرِّجْسُ هو الإثم والخُبث كقوله تعالى: ﴿فَأَجْحِكُوا إِلَيْهِ مِنَ الْوَيْلِ وَالْأُزْلِ﴾ [الحج: ٣٠] وقوله تعالى: ﴿وَيَمْشِي عَلَى السُّطُرِ﴾ [المائدة: ٩٠] وقوله [سورة] [٨]: ﴿اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الرِّجْسِ النَّجِسِ الْخَبِيثِ الْمُخَنَّثِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [ابن ماجة ٢٩٩]

وقوله تعالى: ﴿أَتَجِدَلُونِي فَتَاسَمَوْا سَبِيحُوا﴾ ومجادلتهم ما قالوا ﴿أَجْتَنَّا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَنَدَّرَ مَا كَانَ يَتَّبِعُ آبَاؤَنَا﴾ أي باسماء ﴿سَبِيحُوا﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ قيل: من حجة، أي لم ينزل لهم حجة في عبادتهم غير الله، وقيل: السلطان هنا عذر؛ أي لم ينزل لهم عذراً في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿فَانظُرُوا﴾ أي انتظروا أنتم وغد الشيطان ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظِرِينَ﴾ وغد الرحمن.

وقوله تعالى: ﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي من حجة في تسميتهم الأصنام التي عبدوها دون الله لما سموا آلهة وشفعاء ونحوه؛ كأنهم إنما جادلوه في تسميتهم آلهة وشفعاء وأن ليس لهم حجة ولا عذر في عبادتهم غير الله ولا في إشراكهم غيره في العبادة والالوهية ﴿فَانظُرُوا﴾. وقال الحسن: انتظروا أنتم مواعيد الشيطان ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظِرِينَ﴾ لمواعيد الله.

الآية ٧٢

وقوله تعالى: ﴿فَأَجَبْتَهُ﴾ يعني هوداً ﴿وَالَّذِي مَعَهُ رِجْعُهُنَّ﴾ إن حكم الله أنه إذا أهلك قوماً إهلاك تغذيب استأصلهم، وأنجى أوليائه، ونصرهم.

وقوله تعالى: ﴿يَرْجِعُهُنَّ﴾ يعني قول الله تعالى يرجعهم التي هداهم ولولا رحمته ما اهتدوا، لكنه أنجاهم برحمته وفضله، والله أعلم.

(١) في الأصل وم: حيث (٢) ساقطة من الأصل وم: (٣) في الأصل وم: قلدوا. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: ذكر. (٧) من م، في الأصل: بتكذيبهم. (٨) ساقطة من الأصل وم.

وفيه أن من نجا برحمته وفضله، وإن كان رسولا، لا باستيجاب منه النجاة، وهو ما روي [بخلافه] (١) قال: «لا يدخل الجنة أحد إلا برحمة الله، قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته» [مسلم ٢٨١٦/١٧] . . . و [٧٨/٢٨١٨].

وقوله تعالى: ﴿وَقَطَعْنَا دَائِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ كَذَبُوا يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ كَذَبُوا يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ كَذَبُوا﴾ ولم يبين لنا آياتي التي أعطى هودا. وليس لنا إلى معرفة ذلك حاجة سوى ما أخبر ما حل بتكذيبهم الرسول؛ وذلك كان سنة وحكمة في الأمم السالفة.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ الْخُوفِ﴾ قد ذكرنا أنه تختل الأخوة وجوها أربعة: أخوة النسب وأخوة الجوهر والشكل على ما يقال: هذا أخو هذا، إذا كان من جوهرو (٢) وشكله، وأخوة المودة والخلق، وأخوة الدين.

ثم يختل أن يكون (٣) ذكر من أخوة صالح [أنه] (٤) كان أخاهم (٥) في النسب أو في الجوهر على ما ذكر في هود، ولا يختل أن يكون في المودة والدين. وأما أخوة النسب فإنها (٦) تختل لما ذكرنا أن بني آدم كلهم إخوة، وإن [لم] (٧) يعدوا؛ [هم من أولاد] (٨).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَتَقَوُّوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ قد ذكرنا أن الرسل بأجمعهم، صلوات الله عليهم، إنما بعثوا ليدعوا الخلق إلى وحدانية الله والعبادة له؛ إذ لا معبود سواه، يستحق العبادة من الخلق.

وقوله تعالى: ﴿فَدَجَّكُمْ بِسَنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ قيل فيه بوجهين: قيل: «بِسَنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ» ما ذكر من الناقة التي جعلها الله تعالى آية لرسالة صالح، وهو [قوله تعالى] (٩): «هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ» وقيل: «بِسَنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ» آيات ظهرت لهم على لسان صالح، وجرت على يديه، تدل (١٠) على رسالة (١١) صالح ونبؤيته. لكنهم كذبوا تلك الآيات في التكذيب، وعاندوا.

وقوله تعالى: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ وجه تخصيص إضافة تلك الناقة إلى الله يختل وجوها، وإن كانت الثوق كلها لله في الحقيقة:

أحدها: لما خصت تلك بتذكير عبادته تعالى إياهم ووحدانيته تعظيما لها على ما خصت المساجد بالإضافة إليه بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ السَّجْدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨] لما جعلت تلك البقاع لإقامة عبادة الله، خصت بالإضافة إليه لما جعلها الله آية من آياته خارجة عن غيرها من الثوق، مخالفة بنتيتها بغيرها: إما [في] (١٢) خلقه، وإما في ابتداء إحدائها وإنشائها، أو في أي شيء كان، فإضافتها إليه لذلك، والله أعلم.

ثم لا يجب أن يتكلف المعنى الذي له جعل الناقة آية؛ لأنه، جل، وعلا، لم يبين لنا ذلك المعنى، فلو تكلف ذكر ذلك فليعلم يخرج على خلاف ما كان في الكتب الماضية؛ فهذه القصص وأخبار الأمم الماضية إنما ذكرت في القرآن لتكون آية لرسالة محمد ﷺ فلو ذكرت على خلاف ما كان لهم في ذلك مقال.

ويختل معنى الإضافة إليه وجه آخر؛ وهو أنه لم يجعل منافع هذه الناقة لهم، ولا جعل عليهم مؤنتها، بل أخبر أن ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ﴾ جعل مؤنتها في ما يخرج من الأرض، وليست كسائر الثوق التي جعل مؤنتها عليهم ومنافعها لهم بإزاء ما جعل / ١٧٩ - / عليهم من المؤمن. فمعنى التخصيص بالإضافة إليه إما لم يشرك [في مؤنتها] (١٣) أحدا ولا في منافعها، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ﴾ دلالة أن تلك الناقة كان غذاؤها مثل غذاء سائر الثوق، وإن كانت خارجة عن طباع سائر الثوق من جهة الآية ليُعلم أنها، وإن كانت آية لرسالته ودلالة للتبوة فتشابهها لسائر الثوق في هذه

(١) في الأصل وم: حيث، (٢) من م، في الأصل: جوهر. (٣) في م: يكونها. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أخوهم. (٦) في الأصل وم: فإنه. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: لأنهم من أولادهم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) أدرج قبلها في الأصل وم: ما. (١١) من م، في الأصل: رسالته. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: فيها.

الجهة، لا يُخْرِجُهَا عَنْ حُكْمِ الْآيَةِ. فَعَلَى ذَلِكَ الرَّسُلُ، وَإِنْ كَانُوا سَاوُوا غَيْرَهُمْ مِنَ النَّاسِ فِي الْمَطْعَمِ وَالْغِذَاءِ، لَا يَنْفَعُ ذَلِكَ مِنْ أَنْ يَكُونُوا رُسُلًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِذَلِكَ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْسُوهُمَا بِسُوءٍ يَحْتَمِلُ: لَا تَتَعَرَّضُوا لَهَا قِتْلًا وَلَا قُطْعًا وَلَا عَقْرًا لِمَا لَيْسَتْ هِيَ لَكُمْ^(١)﴾ ﴿يَأْخُذُكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وفي مواضع أخرى [كقوله تعالى^(٢)]: ﴿يَأْخُذُكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود: ٦٤] فهذا يدل على أنه إنما أراد بالعذاب الأليم عذاب الدنيا لا عذاب الآخرة؛ لأنه قد يأخذهم عذاب الآخرة يكفرهم؛ فالوعيد بأخذ العذاب لهم في الدنيا، والله أعلم.

الآية ٧٤

وقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ قد ذكرنا تأويله في قصة هود ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ قيل: أنزلكم فيها ﴿تَنْحَدِرْتُمْ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْجَلُونَ الْجِبَالَ يُبُوتًا﴾ يذكركم الله ما أنعم عليهم من سعة المال ويسط الرزق لهم وما خصهم من اتخاذ البيوت من الجبال دون غيرهم من الناس.

خص هؤلاء بسعة الرزق ويسط الأموال، وقوم هود بالقوة والبطش بقوله تعالى: ﴿وَرَادَّكُمْ فِي الْخَلْقِ بِعَظَمَةٍ﴾ [الأعراف: ٦٩] وقوله^(٣) تعالى في آية أخرى ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥] وقوله^(٤) تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٠]

كان خصهم بفضل القوة والبطش والظول من بين غيرهم، وهؤلاء بسعة الأرزاق لهم ويسط الأموال ﴿وَأَذْكُرُوا مَا آتَاكُمْ اللَّهُ مِنَ السَّعَةِ فِي الْأَمْوَالِ وَالْبَسِطِ﴾ وبما ﴿جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ وبما أفدركم من اتخاذ البيوت من الجبال، لم يقدر على مثله أحد؛ لأن غيرهم من الخلق إنما ينتفعون بالجبال على ما هي عليها، وأما هم فقد مكن لهم على نحتها واتخاذها بيوتًا ﴿وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي اذكروا نعمته، ولا تشركوا في عبادتكم غيره.

الآية ٧٥

وقوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ قد ذكرنا أن الملاء من قومه هم كبارهم وساداتهم استكبروا عليه لما رأوه دون أنفسهم في أمر الدنيا، فلم يتبعوه.

وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾ فيه دلالة أن من المستضعفين من قومه من لم يكن آمن [في حين^(٥)] خص لمن آمن منهم. وفيه أن أول من اتبع الرسول هم الضعفاء [كذلك كان التابع للرسول جميعاً الضعفاء^(٦)].

وقوله^(٧) تعالى: ﴿أَتَمَلَّكُوكَ أَنْ مَلِكًا مُرْسَلًا مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ قول هؤلاء الذين آمنوا بصالح^(٨) وصدقوه برساليته [وهو يحتمل وجهين:

أحدهما^(٩)]: لَمْ يَخْرُجْ فِي الظَّاهِرِ جَوَابَ مَا سَأَلُوا لَأَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿أَتَمَلَّكُوكَ أَنْ مَلِكًا مُرْسَلًا مِنْ رَبِّهِ؟﴾ إنما سألوه عن علمهم برساليته، لم يسألوه عن إيمانهم. فهم إنما أجابوا عن غير ما سألوا في الظاهر.

لكن يجوز أن يكتفى بالعلم [عن^(١٠)] الإيمان، فكانهم^(١١) قالوا لهم: تؤمنون بصالح، وتصدقونه؛ لأن العلم بالشيء، فيه يقع بلا ضنع، والإيمان لا يكون بضنع منهم، فكانهم إنما سألوه عن الإيمان به، لذلك قالوا: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾.

والثاني: كأنهم قالوا: بل علمنا أنه مرسل من رب، وإنا ﴿بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾.

وفيه دلالة أن من مكن له من العلم بأسباب، جعلت له، يصل بها إلى العلم به، لم يُعَذَر^(١٢) بجهله في ذلك بعد ما أُعْطِيَ أسباب العلم حين^(١٣) قالوا: ﴿أَتَمَلَّكُوكَ أَنْ مَلِكًا مُرْسَلًا مِنْ رَبِّهِ؟﴾ أي لا تعلمون.

(١) في الأصل وم: لهم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وقال. (٤) في الأصل وم: وقال. (٥) في الأصل: من حيث. (٦) من م: ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: وقولهم. (٨) ساقطة من الأصل وم (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: فكانهم. (١١) في الأصل وم: يقدر. (١٢) في الأصل وم: حيث.

الآية ٧٦

وقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ فيه دلالة [أن] ^(١) الإيمان هو التصديق في اللغة.

والتكذيب هو ضد ما يكون به التصديق حين ^(٢) أجابوا بالتكذيب لإيمانهم به لقولهم ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥] فهؤلاء لم يعرفوا جميع الطاعات إيماناً، على ما عرفت ^(٣) بغض الناس، إنما عرفوه تصديقاً.

الآية ٧٧

وقوله تعالى: ﴿فَتَقَرَّرُوا الطَّائِفَةَ﴾ أضاف ههنا العقر إليهم جميعاً. وفي مواضع ^(٤) أخر أضاف إلى الواحد بقوله تعالى ﴿فَتَادُوا صَاحِبَكُمْ فَتَعَلَّقَ فَعَقَرَهُ﴾ [القمر: ٢٩] وفي سورة ﴿وَالشَّيْثُ وَهْمَهَا﴾ كذلك أضاف إلى الواحد [بقوله تعالى] ^(٥) ﴿إِذْ أَتَيْتَ أَشْقَهَا﴾ [الآية: ١٢]

لكن في ما كان مضافاً إليهم جميعاً يحتمل أن يتوَلَّى واحد منهم عقرها بمشورتهم جميعاً ومعاونتهم وتذبيرهم وتراضيتهم على ذلك، فأضيف على ذلك إليهم لذلك لاجتماعهم على ذلك، وإلى الواحد في ما تَوَلَّى جزأها ومنعها عن السَّيْرِ.

ففيه دلالة لمذهب أصحابنا: أن قُطَاعَ ^(٦) الطريق، إذا تَوَلَّى بعضهم القتل وأخذ الأموال، ولم يتَوَلَّ بعضهم، يُشاركون جميعاً: مَنْ تَوَلَّى منهم وَمَنْ لم يتَوَلَّ في حكم قُطَاع الطريق بعد أن يكون بعضهم عوناً لبعض. وكذلك إذا اجتمع قوم على قتل واحد، فتَوَلَّى بعضهم القتل، ولم يتَوَلَّ بعض، بعد أن كانوا في عون أولئك، فإنهم يقتلون جميعاً.

وعلى ذلك يُخرج قول عَمَرَ ^(٧) حين ^(٨) قال: لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلهم. وأهل صنعاء ^(٩) إذا اجتمعوا لا سبيل للكل أن يتوَلَّوا قتله. فدل أنه على العون والنصر لبعضهم بعضاً، فيشاركون جميعاً في القصاص على ما شارك أولئك جميعاً في العذاب: مَنْ تَوَلَّى عقرها وَمَنْ لم يتَوَلَّ بعد أن كان ذلك العقر بمعاونتهم وتراضيتهم على ذلك، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَصْطَلِحُ أَثْنَانَا بِمَا قَدَدْنَا إِنْ كُنَّا مِنَ الرَّاكِبِينَ﴾ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ إنما أخذهم العذاب لما استعجلوا منه العذاب، وكذبوه في ما يوعدهم العذاب، ويعدونهم.

وقوله تعالى: ﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ العتو هو النهاية في التمرد والخلاف لأمر على العلم منهم بالخلاف لا على القلة والجهل.

الآية ٧٨

وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ قيل: الرزلة، وقيل: الصيحة. وقال في آية أخرى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ [الذاريات: ٤٤] والقصة في ذلك كله واحدة ^(١٠). فجائز أن يكون ذلك [واحد، وإن اختلفت اللفاظ] ^(١١)، وهو عبارة عن العذاب، وجائز أن تكون الصيحة: لما صيح بهم صيغوا جميعاً، فماتوا، وهو واحد.

وقوله تعالى: ﴿فَأَمْسَبُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ﴾ قيل: ميتين ولازقين بالأرض؛ قد ماتوا، وذهبوا. ويقال: جثم الطائر إذا لَزِقَ في الأرض؛ يقال: اجثمت أي ألزقته بالأرض، والمجثمة: يقال: طائر يشد جناحه ويرجلاه، ثم يوضع بالأرض، ثم يرمى بالتبل حتى يموت، يقال: جثمت الطائر أي شدت رجليه وجناحيه، ويقال: جثم يجثم [جثوماً] ^(١٢) وجثماً إذا فعل ما ذكرنا.

الآية ٧٩

وقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُمْ﴾ أي أغرض عنهم، وخرج من بينهم حين علم أن العذاب سينزل ^(١٣) بهم ﴿وَقَالَ يَتَوَلَّوْا لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ والنصيحة ما ذكرنا أن كل من دل آخر على ما به نجاته، وسعى على دفع البلاء والهلاك عنه. فهو ناصح له. فعلى ذلك صالح وغيره من الرسل، قد دلوا قومهم على ما به نجاتهم، وسعوا على دفع الهلاك عنهم. لكنهم لم يقبلوا النصيحة منهم.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: عرفوا. (٤) في الأصل وم: موضع. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، في الأصل: قاطع. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: واحد. (١٠) في الأصل وم: واحد وإن اختلف اللفاظ. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: يتزل.

الآية ٨٠

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ لَا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ أَتَذْكُرُونَ﴾ ذكر في غيره من الأنبياء دعاءهم قومهم إلى عبادة الله ووَخْدَائِيَّتِهِ على ما قال نوح: ﴿يَقُولُوا عَبْدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩ و..] وكذلك قال هود وصالح وشعيب وغيرهم من الأنبياء، ولم يذكر في لوط ذلك إلا ههنا، ولا يُحتمل أن لم يكن منه الدعاء إلى ما كان من غيره من الأنبياء إلى توحيد الله وعبادته قبل النهي عن الفواحش والتعيير عليها، وهو ما ذكر في سورة (١) أخرى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطِ النَّبِيِّينَ﴾ [إذ قال لهم لوط لئن لم تأتوا لوط لئن لم تأتوا لئن لم تأتوا] [إلى لکم رسول أمين] ﴿فَالْقَوْمُ لِلَّهِ وَالْطَّيِّمُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٠ و ١٦١ و ١٦٢ و ١٦٣] كان من الأنبياء، صلوات الله عليهم، دعاء قومهم إلى عبادة الله ووَخْدَائِيَّتِهِ أولاً، ثم النهي عما ارتكبوا من الفواحش/ ١٧٩ - ب/ والمعاصي والتعيير عليها.

وقوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ وقوله تعالى ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ مَا كَانَ مِنْ سَائِرِ الْأَقْوَامِ تَقْلِيدُ الْآبَاءِ فِي الْعِبَادَةِ لِغَيْرِ اللَّهِ كَقَوْلِهِمْ: ﴿أَحَقُّنَا لِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحَدُّهُ وَتَذَرُّ مَا كَانَ يَتَّبِدُ آبَاؤُنَا﴾ [الأعراف: ٧٠] وقولهم: ﴿وَلَا نَأْتِي عَلَى مَا تَرَاهُمْ مُتَّبِدِينَ﴾ [الزخرف: ٢٢] وقولهم: ﴿وَلَا نَأْتِي عَلَى مَا تَرَاهُمْ مُتَّبِدِينَ﴾ [الزخرف: ٢٣] وقولهم: ﴿بَلْ وَبَدَأَ آبَاؤُنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٧٤] ونحو ما قالوا.

فَعَلَى ذَلِكَ مِنْ قَوْمِ لُوطٍ لُوطٌ لَمَّا دُعَاهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَوَخْدَائِيَّتِهِ، فَاجَابَهُمْ بِمَا أَجَابَ الْأَقْوَامُ لِأَنْبِيَائِهِمْ مِنَ التَّغْلِيدِ لِآبَائِهِمْ، فَقَالَ: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ أَي تَعْمَلُونَ أَنْتُمْ أَعْمَالاً لَا يَعْمَلُهَا آبَاؤُكُمْ، وَلَا تُقَلِّدُونَ آبَاءَكُمْ فِي تَرْكِهَا مِنْ نَحْوِ مَا ذَكَرَ مِنْ إِيَّانِ الْفَاحِشَةِ فَقَالَ: ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ يُعَيِّرُهُمْ، وَيُسَفِّهُ أَعْلَامَهُمْ فِي إِيَّانِ مَا يَأْتُونَ مِنَ الْفَاحِشَةِ الَّتِي لَمْ يَسْفِهُهُمْ أَحَدٌ (٢) بِهَا مِنَ الْعَالَمِينَ عَلَى عِلْمِ مَنْهُمْ أَنَّ ذَلِكَ فَاحِشَةٌ.

أَلَا تَرَى [أَنَّهُمْ] (٣) قَالُوا: ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْظُرُونَ﴾؟ [الأعراف: ٨٢] ذَكَرَ هَذَا الْقَوْلَ عَلَى مَا يَأْتُونَ مِنَ الْفَوَاحِشِ؛ يَأْتُونَ عَلَى عِلْمِ مَنْهُمْ أَنَّهَا فَوَاحِشٌ حِينَ (٤) قَالُوا: ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢].

ثم قوله تعالى: ﴿الْفَاحِشَةَ﴾ [لِما [هو] (٥) فِي الْعَقْلِ وَالشَّرْعِ [فَاحِشٌ] (٦)؛ لِأَنَّ مَا حَرَّمَ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ عَلَى الْخَلْقِ [وَأَهْلَ الْمُحَلَّلَاتِ نِعْمَةً وَفَضْلًا] (٧) مِنْهُ لَهُمْ عَلَى ذَلِكَ. ثُمَّ جَعَلَ فِي مَا أَحَلَّ لَهُمْ مِنَ الْأَطْعِمَةِ وَالْأَشْرَبَةِ وَالِاسْتِمْتَاعِ بِالنِّسَاءِ وَالْجَوَارِي دَوَامًا (٨) لِهَذَا الْعَالَمِ؛ لِأَنَّهُمْ لَوْ تَرَكُوا التَّشَاوُلَ مِنْ ذَلِكَ لَهَلَكُوا، وَانْقَطَعَ هَذَا الْعَالَمُ لِمَا يَنْقُطِعُ نَسْلُهُمْ. ثُمَّ رَغَّبَ فِيهِمُ الشَّهَوَاتِ وَالْحَاجَاتِ الَّتِي تَبْعُثُهُمْ عَلَى التَّشَاوُلِ مِمَّا أَحَلَّ لَهُمْ لِيَدُومَ هَذَا الْعَالَمُ؛ لِأَنَّهُ أَحَلَّ لَهُمُ الشَّهْوَةَ (٩) خَاصَّةً، وَلَكِنْ لِمَا ذَكَرْنَا. فَاجْتَبَى أَنْ مَا يَأْتُونَ هُمْ فَاحِشَةٌ لِمَا لَيْسَ إِيَّانَهُمْ إِيَّاهَا (١٠)؟ إِلَّا لِنَفْسٍ قَضَاءِ الشَّهْوَةِ؛ إِذْ لَيْسَ فِي ذَلِكَ دَوَامُ الْعَالَمِ وَبَقَاؤُهُ. فَهُوَ فِي الْعَقْلِ فَاحِشٌ مُحَرَّمٌ، وَإِنْ لَمْ يَرِدْ فِيهِ النَّهْيُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٨١

وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ الإسراف هو الإكثار من الشيء والمجاوزة عن الحد كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧] القتر هو التضييق، والإسراف هو الإكثار جين (١١) قَالَ: ﴿وَكَاذِبٌ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ فَإِذَا كَانَ الْإِسْرَافُ الْإِكْثَارَ مِنَ الشَّيْءِ، فَكَانَ لُوطٌ سَمَاهُمْ مُسْرِفِينَ لِمَا أَكْثَرُوا مِنْ ذَلِكَ النَّوَحِ مِنَ الْفَوَاحِشِ، وَجَاوَزُوا الْحَدَّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ وَجُوهًا ثَلَاثَةً:

أَحَدُهَا: مَا ذَكَرْنَا مِنْ إِكْثَارِ الْفِعْلِ.

وَالثَّانِي: ﴿مُسْرِفُونَ﴾ لِمَا ضَيَّعُوا مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ جين (١٢) أَغْطَى لَهُمُ الْأَزْوَاجَ فَضْلًا مِنْهُ وَنِعْمَةً جين (١٣) أَخْبَرَ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: آيَة. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: هَمْ. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم: (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم: (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَأَهْلُ الْمَحَلَّاتِ، فِي م: وَأَهْلُ الْمَحَلَّلَاتِ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: دَوَام. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: لِلشَّهْوَةِ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: أَبَاهُمْ. (١٢) (١٣) (١٤) (١٥) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث.

[بِقَوْلِهِ] ^(١) «وَمَنْ يَأْتِيهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا» [الروم: ٢١] وبقوله ^(٢) «وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا» [النحل: ٧٤] ونحوه ما جعل لهم من الأزواج، ثم هم لم يشكروه على ما أنعم عليهم، بل ضيعوها، وجعلوها في غير ما جعل هو لهم. فذلك إسراف منهم.

والثالث: الإسراف هو المجاوزة عن الحد الذي جعل لهم، فهم قد جاوزوه.

الآية ٨٢

وقوله تعالى: «وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْطَلُون» قوله «وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا» [يختلج وجوهاً:

أخذها] ^(٣): كذا كان من قومه أجوبة، ليس على أنه لم يكن منهم من أول الأمر إلى آخره هذا، ولكن لم يكن من جواب قومه وقت ما نهاهم عما ارتكبوا من الفواحش، وغيرهم عليها إلا ما ذكر «أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْطَلُون» لما ينهائم، ويغيرهم على ذلك.

والثاني: ^(٤) ما قال أهل التأويل: «يَبْطَلُون» من أديار الرجال، وقيل: يَتَحَرَّجُونَ عن ذلك، ويعيئون عليهم في ذلك. والثالث: «وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ» [إما] ^(٥) لِيَغْضِبَهُمْ «إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ» وإما لَلُوط كَانَ مِنْهُمْ الأجوبة كقوله تعالى: «وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا» كذا وقوله ^(٦) تعالى في آية أخرى «وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ» [العنكبوت: ٢٩] هذا في ما بينهم وبين لوط، والأول ^(٧) في ما بينهم: قال بغضهم ليغض أخرجوهم، وذلك ^(٨) لاختلاف المشاهد والمجالس.

الآية ٨٣

وقوله تعالى: «فَأَعْيَيْنَ لَهُمْ فِي السَّاعَةِ الْأَنْبِيَاءَ» [الأنبياء: ٢٤] وقيل: «فَأَعْيَيْنَ لَهُمْ فِي السَّاعَةِ الْأَنْبِيَاءَ» أي من الباقيين في العذاب.

الآية ٨٤

وقوله تعالى: «وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا» [الحجر: ٨٢] ثم أمطر على من غاب منهم الحجارة، وقال بغضهم: قُلَيْتَ القرياث، فأمطر على أهلها كالمطر، وقال آخرون: قُلَيْتَ الأرض، وأمطر «عَلَيْهَا حِجَارَةً يَنْ فِيضُ» [الحجر: ٨٢] لِيُسَوَّى ^(٩) الأرض، أو كلاماً ^(١٠) نحو هذا.

ثم العذاب في الأمم لم يأتهم في الدنيا بنفس الكفر، ولكن لما كان منهم من استحلل أشياء «حُرِّمَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ» ^(١١) قتل الأنبياء وأذاهم والمكابرات التي كانت ^(١٢) منهم بعد علمهم أنهم على باطل وعناد.

وقوله تعالى: «فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَتْ عَقِيبَةُ الْمُجْرِمِينَ» هذا الخطاب جائز أنه ليس لرسول الله خاصة، ولكن لكل أحد أمر بالنظر في ما حل بالأمم السالفة بتكذيبهم الرسل وعنادهم ليكونوا على حذر من ^(١٣) ضيعهم لئلا يحل بهم ما حل بأولئك، وجائز أن يكون الخطاب لرسوله خاصة. فإن كان له كان ^(١٤) أمره أن ينظر في عاقبة المجرمين [لئلا يرحمهم] ^(١٥) ولا يدعوا عليهم بالهلاك والعذاب.

الآية ٨٥

وقوله تعالى: «وَلَا تَذَكَّرْ أَهْـتَمَّ شَيْئًا» هو ما ذكرنا في ما تقدم؛ أي أرسلنا شعبياً إلى مدين رسولاً. وقوله تعالى: «أَهْـتَمَّ» قد ذكرنا في ما تقدم الأخوة أنها تكون لوجوه: أخوة النسب وأخوة الجوهر وأخوة المودة والخلة وأخوة الدين. فلا تختل أخوة الأنبياء أولئك أخوة الدين والمودة، لكن تختل أخوة الجوهر والنسب.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم. وكقوله. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم. ويحتمل. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم. وقال. (٧) الروا ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم. أو. (٩) من م، في الأصل: سوى. (١٠) في الأصل وم. كلام. (١١) في الأصل وم. حرم عليهم ومن. (١٢) في الأصل وم. كان. (١٣) في الأصل وم. عن. (١٤) في الأصل وم. فكان. (١٥) في الأصل وم. ليرحمهم.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَتَغَوِّرَ أَقْبِدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ قد ذكرنا أيضاً أن الرسل، إنما جاؤوا، وبُعثوا بالدعاء إلى توحيد الله والعبادة له، وأن لا مغفود يستحق العبادة سواه.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ قال بغضهم: كانت نفس شعيب بينة وحجة لقومه، لكننا لا نعلم ذلك، غير أنا نعلم أنه كانت معه آيات وبراهين، لكن الله تعالى لم يبين لنا ذلك.

ونفس محمد، عليه أفضل الصلوات وأتمل التحيات، كانت حجة وبينة بالأعلام^(١) التي جعل له في نفسه: من ذلك الختم الذي كان بين كتفيه، والنور الذي كان في وجوه من كان في صلبه وقت كونه فيه، والضوء الذي رُئي أنه كان وقت ولادته، والعمام الذي أظله وقت غيبته عن أهله، وحفظه نفسه عن جميع ما كان يتعاطاه قومه من عبادتهم الأصنام وتعاطيهم الفواحش؛ فهو ﷺ كان بريئاً من ذلك كله، وما لم يؤخذ عليه كذب قط، وقد كان نشأ بين أظهرهم، وغير ذلك من الأعلام التي كانت في نفسه ظاهرة لقومه. فلو لم يكن له آيات غيرها لكانت واحدة منها كافية لمن لم يكابر، فكيف وقد كانت له آيات حسية وعقلية سوى ما ذكرنا، تفهر [غيراً]^(٢) المنصفين على قبولها؟

ويختمل قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي حجة في أنه رسول أو على توحيد الله.

وقوله تعالى: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ وذكر في هود في قصته ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ [الآية: ٨٥] وليس في قوله ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ أنهم كانوا لا يؤفون في سورة هود ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الآية: ٨٥] ودل قوله: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥] أن الأشياء ملك لهم، وإن كانت^(٣) في قبض أولئك وفي أيديهم.

ثم يَحْتَمِلُ الأمرُ بإيفاء الكيل^(٤) والميزان وجوهاً^(٥):

أحدها: لما كانوا أمانة لئلا تذهب عنهم تلك الأمانة التي كانت لهم في قومه.

والثاني: لئلا يظلموا الناس في منع حقوقهم وأموالهم.

والثالث: للربا؛ كان ما متعوا منهم من [الكيل والوزن]^(٦) رباً لهم.

يدل [على]^(٧) ذلك قوله: ﴿بِالْقِسْطِ﴾ ذكر العدل. فلو كانت^(٨) تجوز / ١٨٠ - / تلك الزيادة والنقصان، إذا طابت أنفسهم بالزيادة والنقصان لكان لا معنى لذكر القسط فيه؛ لأن من زاد آخر على حق لم يمنع عن ذلك، ولم يذم. دل النهي عن ذلك على أنه للربا ما متعوا، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ أي بعد أن جعلها لكم صالحة لمعاشكم ومقاكم فيها، وبعد ما أمر، وبين لكم ما به صلاحكم وصلاح دينكم، أو بعد ما أرسل من الرسل ما بهم صلاح الأرض وأهلها ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أي وفاء الكيل والميزان خير لكم من النقصان لما ينمو ذلك الباقي، ويزداد. فذلك خير لكم من النقصان الذي تمنعون، فلا ينمو شيء^(٩). وهو كقوله تعالى: ﴿يَقِئْتَ اللَّهُ خَيْرَ لَكُمْ﴾ [هود: ٨٦].

ويختمل: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ إن كنتم مؤمنين. أي امنكم في الآخرة خير لكم من نقصان الكيل والميزان في الدنيا، والله أعلم.

الآية ٨٦

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ يَحْتَمِلُ ما قاله أهل التأويل: إن كُبراء أهل الشرك ورؤساءهم كانوا يُفْعِدُونَ في الطرق أناساً يصدون الذين يأتون شعبياً للإيمان [وَيَمْنَعُونَهُمْ]^(١٠) من الإيمان من الآفان والنواحي. ويكون معنى ﴿مَنْ آمَرَ بِهِ﴾ على هذا التأويل: أي من أراد أن يؤمن.

(١) في الأصل وم: بأعلام. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: كان. (٤) من م، في الأصل: الأمر. (٥) في الأصل وم: وجوه. (٦) في الأصل وم: الكيل والوزن. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: كان. (٩) في الأصل وم: شيئاً. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

وَيَخْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا﴾ لَيْسَ عَلَى الْقَعُودِ نَفْسِهِ، وَلَكِنْ عَلَى الْمَنْعِ مِنْ إِقَامَةِ الشَّرَائِعِ الَّتِي شَرَعَ اللَّهُ لِشُعَيْبٍ كَقَوْلِ إِبْلِيسَ ﴿لَأَقْعُدَنَّ عَنْكَ سِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦] لَيْسَ هُوَ عَلَى الْقَعُودِ نَفْسِهِ وَلَكِنْ عَلَى الْمَنْعِ؛ يَمْنَعُهُمْ عَنْ صِرَاطِهِ^(١) الْمُسْتَقِيمِ. فَعَلَى قَوْلِهِ ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ كَانُوا يَمْنَعُونَ ﴿مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ عَنْ إِقَامَةِ الشَّرَائِعِ وَالْعِبَادَاتِ الَّتِي دُعُوا إِلَى إِقَامَتِهَا، وَيُوعِدُونَ عَلَى ذَلِكَ، وَيُخَوِّفُونَهُمْ. فَعَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ يَكُونُ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ عَلَى وجود الإيمان. وَعَلَى التَّأْوِيلِ الْأَوَّلِ يَكُونُ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُؤْمِنَ بِهِ، وَاللَّهُ أَغْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَتَبْتَغُونَهَا عِوَجًا﴾ قِيلَ: تَلْتَمِسُونَ لَهَا أَهْلَ الرِّبْعِ، وَقِيلَ: تَبْتَغُونَ هَلَاكًا لِلْإِسْلَامِ وَإِبْطَالًا، وَقِيلَ: تَبْتَغُونَ السَّبِيلَ عِوَجًا عَنِ الْحَقِّ، وَكُلُّهُ وَاحِدٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا نَذَرَكُمُ﴾ أَي كَثُرَ لَكُمْ الْأُمُورُ، وَوَسَّعَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا.

وقوله تعالى: ﴿وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عِقَبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أَمَرَ بِالنَّظَرِ فِي مَا حَلَّ بِالْأُمَّمِ الْخَالِيَةِ بِإِفْسَادِهِمْ فِي الْأَرْضِ وَتَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ؛ لِأَنَّ مَنْ نَظَرَ فِي ذَلِكَ، وَتَفَكَّرَ مَا حَلَّ بِهِمْ، مَنَعَهُ ذَلِكَ عَنِ الْفُسَادِ فِي الْأَرْضِ وَالتَّكْذِيبِ لِلرُّسُلِ؛ إِنَّ عَلِمَ أَنَّ مَا حَلَّ بِهِمْ [إِنَّمَا حَلَّ لِمَا ذَكَرَ، وَاللَّهُ^(٢) أَغْلَمُ. كَانَهُ أَمَرَ بِالنَّظَرِ فِي الْأَسْبَابِ الَّتِي [بِهَا]^(٣) صَارَ مَنْ تَقَدَّمَ لَهُمْ أَهْلُ فُسَادٍ، وَنَزَلَ بِهِمُ الْهَلَاكُ، لِيُنْزَجِرُوا عَنْ مِثْلِ صَنِيعِهِمْ، وَإِلَّا كَانُوا عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ أَهْلَ صِلَاحٍ لَا أَهْلَ فُسَادٍ.

الآية ٨٧

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ قَوْمٌ شُعَيْبٌ قَلِيلًا حِينَ أَدْرَكَ ذَلِكَ، وَقَوْمٌ آخَرُونَ مَعَهُ؛ يَقُولُ لَهُمْ ذَلِكَ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا﴾ يَا مَعْشَرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿حَتَّى يَخُصَّكُمْ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾ بِفَضْلِهِ عَلَيْهِمُ الْهَلَاكِ، وَلَمْ يَكُنْ شُعَيْبٌ أَمِيرًا بِالْقِتَالِ.

وقال بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ﴾ يَغْنِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ مِنَ الْعَذَابِ ﴿وَطَائِفَةٌ﴾ يَغْنِي الْكَافِرَ ﴿لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ بِالْعَذَابِ ﴿فَاصْبِرُوا﴾ يَا مَعْشَرَ الْكَافِرِ ﴿حَتَّى يَخُصَّكُمْ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾ فِي أَمْرِ الْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْخُرُوجِ﴾.

وَيَخْتَمِلُ غَيْرُ هَذَا؛ ذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَغْبُدُونَ الْأَصْنَامَ، وَيَقُولُونَ^(٤) ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٢٣] وَيَقُولُونَ: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] اللَّهُ أَمَرَهُمْ بِذَلِكَ فِي أَشْيَاءَ يَفْعَلُونَ، وَيَقُولُ هَؤُلَاءِ: إِنَّ الَّذِي نَحْنُ عَلَيْهِ هُوَ الَّذِي أَمَرَنَا اللَّهُ بِذَلِكَ. فَيَقُولُ لَهُمْ: ﴿فَاصْبِرُوا حَتَّى يَخُصَّكُمْ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾ بَأَنَّهُ بِمَاذَا أَمَرَ: بِالَّذِي عَلَيْهِ الْكَفَارُ أَمْ^(٥) الَّذِي نَحْنُ عَلَيْهِ؟

الآية ٨٨

وقوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ قَدْ ذَكَرْنَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ أَنَّ الْمَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ: هُمُ الْكِبَرَاءُ هُمْ رُؤَسَاؤُهُمْ. وَقَوْلُهُ ﴿اسْتَكْبَرُوا﴾ أَي اسْتَكْبَرُوا عَنِ الْخُضُوعِ وَالطَّاعَةِ لِمَنْ هُوَ دُونُهُمْ عِنْدَهُمْ^(٦) لِأَنَّهُمْ كَانُوا يُصْعَقُونَ شُعَيْبًا فِي مَا يَنْتَهُمُ، وَيَزِدُّوهُ، يَقُولُهُمْ^(٧): ﴿وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِيْنَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَحِمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١].

ثُمَّ لَمْ يَزُوا الْأَمْرَ بِالْخُضُوعِ لِمَنْ هُوَ دُونُهُمْ فِي أَمْرِ الدُّنْيَا عَذْلًا، وَهُمْ إِنَّمَا أَخَذُوا مِنْ إِبْلِيسَ اللَّعِينِ [رَأْيَهُ، وَقَلَدُوهُ حِينَ^(٨) قَالَ: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾] [الأعراف: ١٢، وص: ٧٦] [جِبْنٌ أَمِيرٌ]^(٩) بِالسُّجُودِ لِأَدَمَ، وَلَمْ يَزِ اللَّعِينُ الْأَمْرَ بِالْخُضُوعِ لِأَدَمَ مِنَ اللَّهِ عَذْلًا. فَعَلَى ذَلِكَ هَؤُلَاءِ لَمْ يَزُوا الْخُضُوعَ لِمَنْ دُونُهُمْ عِنْدَهُمْ عَذْلًا، فَاسْتَكْبَرُوا عَلَيْهِ، فَكَفَرُوا لِذَلِكَ.

وقوله تعالى: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ بِشُعَيْبٍ﴾ قَالَ الْحَسَنُ: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ﴾ أَي لَنَقُضَنَّكَ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قُرَيْشًا﴾ وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ﴾ الْإِخْرَاجُ نَفْسُهُ؛ أَي لَنُخْرِجَنَّكَ وَمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ قُرَيْشًا إِنْ لَمْ تَتَّبِعْ دِينَنَا.

(١) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: صِرَاطٌ. (٢) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: لِمَا ذَكَرُوا اللَّهَ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: وَيَفْعَلُونَ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٦) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: عِنْدَ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: كَقَوْلِهِمْ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: رَأْيَاهُ قَلَدُوا حَيْثُ. (٩) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ.

وقد كان منهم للأنبياء المعنّيان^(١) جميعاً: التَّوَعُّدُ بِالْقَتْلِ والإِخْرَاجُ جميعاً كما قالوا: ﴿رَبُّنَا لَا رَهْطَكَ لِرَبِّكَ﴾ [هود: ٩١] وكقول قوم لُوطٍ لِلُوطِ: ﴿لَيْنَ لَرَّ نَتْنَهْ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٧] وكقول قوم نوح: ﴿لَيْنَ لَرَّ نَتْنَهْ يَشُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ التَّارِكِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦] وما أَخْبَرَ عَنْ قَوْلِ هَؤُلَاءِ لِرَسُولِنَا حِينَ^(٢) قَالَ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنفال: ٣٠] قد كان مِنَ الْقَوْمِ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ الْمَعْنِيَانِ^(٣) جميعاً: التَّوَعُّدُ بِالْقَتْلِ والإِخْرَاجُ جميعاً.

فَعَلَى ذَلِكَ يَحْتَمِلُ ذَلِكَ مِنْ قَوْمِ شُعَيْبٍ مَا ذَكَّرْنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.
وكذلك كانوا يقولون لِلرُّسُلِ جميعاً حِينَ^(٤) قالوا: ﴿لَتُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ الآية [إبراهيم: ١٣] هذه^(٥) كانت عادة جميع الْكَفَرَةِ يُخَوِّفُونَ الرُّسُلَ بالإِخْرَاجِ مَرَّةً وبِالْقَتْلِ ثَانِيًا.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ لَتَعُودَنَّ فِيْ يَلِيْنًا﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ لَتَعُودَنَّ فِيْ يَلِيْنًا﴾ لِمَا عِنْدَهُمْ أَنَّهُ كَانَ عَلَى دِينِهِمُ الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ لِمَا يَرَوْنَ مِنْهُ عِبَادَتُهُ لِلَّهِ فِي مَا يَعْبُدُهُ^(٦) سِرًّا، فقالوا: ﴿أَوْ لَتَعُودَنَّ فِيْ يَلِيْنًا﴾ على ما كَانَ عِنْدَهُمْ أَنَّهُ عَلَى ذَلِكَ.

وهو كما قالوا لِصَالِحٍ: ﴿مَدَّ كُنْتَ فِيْنَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ [هود: ٦٢] كَانَ عِنْدَهُمْ أَنَّهُ عَلَى دِينِهِمْ قَبْلَ ذَلِكَ. فَعَلَى ذَلِكَ يَحْتَمِلُ قَوْلُ^(٧) هَؤُلَاءِ ﴿أَوْ لَتَعُودَنَّ﴾ مِنَ الْعَوْدِ إِلَى مَا كَانَ عِنْدَهُمْ أَنَّهُ عَلَى ذَلِكَ.

وَيَحْتَمِلُ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ [إِبْتِدَاءِ]^(٨) الدُّخُولِ فِيهَا وَالِاخْتِيَارِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] عَلَى مَنَعِ الدُّخُولِ فِيهَا لَا أَنَّهُمْ كَانُوا فِيهَا، ثُمَّ أَخْرَجَهُمْ، فَعَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلُ.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ يَقُولُ: أَوْ لَتَعُودَنَّ فِيْ يَلِيْنًا، وَإِنْ كُنَّا كَارِهِينَ: أَي تَأْتِيْ عُقُولُنَا، وَتُكْرَهُ طِبَاعُنَا الدُّخُولُ^(٩) فِيْ يَلِيْنًا، فَكَيْفَ نَعُودُ فِيهَا؟

الآية ٨٩ [وقوله تعالى]^(١٠): ﴿قَدْ أَفْتَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِيْ مِلَّتِكُمْ﴾ [يَحْتَمِلُ]^(١١) وجوهاً ثلاثة:

أَحَدُهَا: أَنَّ ذَلِكَ مِنْهُ إِخْبَارٌ عَنْ قَوْمِهِ لَا عَنْ نَفْسِهِ؛ أَيِ افْتَرَوْا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عَادُوا فِيْ مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ أَنْجَاهُمْ اللَّهُ مِنْهَا، وَمَا يَجُوزُ أَنْ يَعُودُوا فِيهَا. وَأَمَّا هُوَ فَإِنَّمَا أَجَابَهُمْ عَنْ نَفْسِهِ مَا ذَكَرَ فِي سُوْرَةِ هُودٍ: ﴿وَيَقُوْرُ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَائِكُمْ إِلَىٰ عَمَلٍ﴾ [الآية: ٩٣] أَجَابَ هُوَ قَوْمَهُ كَمَا أَجَابَ غَيْرُهُ مِنَ الرُّسُلِ قَوْمَهُمْ حِينَ أَوْعَدُوهُمْ^(١٢) بِالْقَتْلِ وَالْعُقُوْبَةِ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿تُمْ يَكْدُوْنَ فَلَا تُظَرُوْنَ﴾ [الأعراف: ١٩٥] وَكَمَا قَالَ هُودٌ: ﴿وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَشْكُرُوْنَ﴾ [مِن دُونِهِ، وَيَكْدُوْنَ جَمِيْعًا ثُمَّ لَا تُظَرُوْنَ] [هود: ٥٤ و ٥٥] وَتَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْجَوَابَاتِ الَّتِي كَانَتْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، لَا قَوَامِهِمْ.

وَالثَّانِي^(١٣): يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ مِنْ غَيْرِ أَنْ كَانَ فِيهَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَفَعَ السَّمَوَاتِ﴾ [الرعد: ٢] رَفَعَهَا إِبْتِدَاءً مِنْ غَيْرِ أَنْ كَانَتْ مَوْضُوعَةً وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] إِخْرَاجَ إِبْتِدَاءٍ، لَا أَنْ كَانُوا فِيهَا، ثُمَّ أَخْرَجَهُمْ.

وَالثَّالِثُ^(١٤): يَحْتَمِلُ مَا ذَكَّرْنَا أَنَّهُ أَجَابَهُمْ عَلَى مَا عِنْدَهُمْ أَنَّهُ كَانَ عَلَى دِينِهِمْ، فَأَجَابَ لَهُمْ عَلَى مَا عِنْدَهُ^(١٥) أَنَّهُ عَلَى ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَكُوْنُ لَنَا أَنْ نَعُوْدَ فِيْهَا﴾ أَيِ مَا يَجُوزُ لَنَا أَنْ نَعُوْدَ فِيهَا.

وقول شعيب: ﴿قَدْ أَفْتَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ / ١٨٠ - ب/ [تَغْرِیْضٌ بِتَسْفِيْهِ مِنْهُ إِيَّاهُمْ أَنْكُمُ^(١٦) قَدْ أَفْتَرَيْتُمْ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا]^(١٧)

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: الْمَعْنِيَيْنِ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: هَذَا. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: بَعْدَهُ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: قَوْلُهُ. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) اُدْرَجَ قَبْلُهَا فِي الْأَصْلِ وَم: عَنْ. (١٠) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١١) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْعَدَهُمْ. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (١٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (١٥) فِي الْأَصْلِ وَم: عِنْدَهُمْ. (١٦) فِي م: أَنَّهُمْ. (١٧) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ.

لا تصریح حين^(١) لم یقل: قد افترینم انتم على الله كذباً. ولكن^(٢) قال: ﴿قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا اِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ﴾ وذلك منه تَلَطَّفَ بهم وترَفَّقَ.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ اُخْتُلِفَ في تأويله: قال الحسن: من جِئكم الله ﷻ أن من قَبْلَ دينه، وأطاع رسوله كان^(٣) ولياً له، وسماء^(٤) مؤمناً، ومن ردَّ دينه، وعصى رسوله، يَتَّخِذْهُ عَدُوًّا لَهُ، ويَكُنْ كافراً. وقال أبو بكر الكيساني: قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أن يَتَّبِعِدُنَا، وَيَمْتَحِنَنَا بِبَعْضِ مَا كَانُوا يَتَّقَرُّونَ بِهِ، وَيُشْرَعُ لَهُمْ مِمَّا يَجِلُّ، وَسِعَ، لم يردَّ به الدين الذي هُم عليه. لكن هذا لا يَحْتَمِلُ لَأَن سَأَلَهُمْ كَانِ الْعَوْدَ إِلَى مِلَّتِهِمْ، فَعَلَى ذَلِكَ خَرَجَ الثَّانِي. وقال جعفر^(٥) بن حرب: قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ إلا أن يأمرنا الله بما يؤيسهم على ذلك على الإياس وقطع الرجاء، أي لا يشاء الله البتة ذلك كما يقال: كَانَ كَذَا أَنْ صَعِدْتُ السَّمَاءَ وكقولهِ تعالى: ﴿حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠] وَقَعَلْتُ كَذَا مِمَّا يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَكُونُ. فَعَلَى ذَلِكَ هَذَا. لكن هذا كُلُّهُ بَعِيدٌ مُحَالٌ.

أما قول الحسن: إن من جِئكم الله أنه من ردَّ دينه، وعصى رسوله، فإنه^(٦) يكون من الكافرين، ومن قَبْلَ دينه، وأطاع رسوله، فيكون^(٧) من المؤمنين، فليس فيه سوى أنه يقول: إنه يَعْلَمُ مَنْ كَفَرَ بِهِ، فلا معنى للاشْتِئَاءَ لو كَانَ التَّأْوِيلُ مَا ذَكَرَ. وأما قول أبي بكر: إنه يَتَّبِعِدُهُمْ، وَيَمْتَحِنُهُمْ بِمَا يَتَّقَرُّونَ بِهِ فِي دِينِهِمْ وَمِلَّتِهِمْ [مِمَّا]^(٨) يجوز أن يَأْذَنَ فِي ذَلِكَ، فَذَلِكَ لَا يُحْتَمَلُ لِأَنَّهُ ذَكَرَ الْجِلَّةَ الَّتِي كَانُوا هُمْ عَلَيْهَا، فَالْيَاقِيزُ تَرْجِعُ الثَّانِي، لَا تَجُوزُ إِلَى غَيْرِهِ. وأما قول من يقول بالإياس^(٩) وقطع الطمع عن ذلك، فَذَلِكَ أَيْضاً بَعِيدٌ؛ لِأَنَّ الْإِيَّاسَ إِنَّمَا يَكُونُ الْبَتَّةَ مِنْ نَحْوِ مَا ذَكَرَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠] وَنَحْوِهِ.

وأما مثل هذا فإنهم لا يَقْهَمُونَ مِنْهُ الْإِيَّاسَ وَقَطْعَ الرَّجَاءِ، بَلْ كَانُوا يَأْتُونَ بِالْفَوَاحِشِ، وَيَقُولُونَ: اللَّهُ أَمَرَهُمْ بِذَلِكَ. وأما عُنْدَنَا عَلَى حَقِيقَةِ الْمَشِيقَةِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ مَنْ عَلِمَ مِنْهُ أَنَّهُ يَكْفُرُ^(١٠)، وَيُؤَيِّرُ ذَلِكَ عَلَى فِعْلِ الْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ بِشَاءَ ذَلِكَ لَهُ عَلَى مَا عَلِمَ أَنَّهُ يَخْتَارُ، وَمَنْ عَلِمَ مِنْهُ أَنَّهُ لَا يَخْتَارُ ذَلِكَ لَا بِشَاءٍ؛ إِذْ لَا يَجُوزُ أَنْ يَعْلَمَ مِنْهُ غَيْرَ الَّذِي يَكُونُ، أَوْ أَنْ يَشَاءَ غَيْرَ الَّذِي يَكُونُ، أَوْ أَنْ يَشَاءَ غَيْرَ الَّذِي عَلِمَ أَنَّهُ مِنْهُ لِأَنَّهُ جَهْلٌ، وَعَجْزٌ.

وأصله أن شعيباً خاف، إن سَبَقَ مِنْهُ زَلَّةٌ أَوْ تَقْصِيرٌ مِنْهُ، الْإِخْتِيَارَ لِذَلِكَ، فِإِشَاءَةِ اللَّهِ بِذَلِكَ الرَّيْبُ وَالضَّلَالُ. وَكَذَلِكَ جَمِيعُ الْأَنْبِيَاءِ خَافُوا ذَلِكَ كَقَوْلِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ^(١١) قَالَ: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ [الأنعام: ٨٠] وَقَوْلِ يُوسُفَ حِينَ^(١٢) قَالَ: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ تَرْفَعُ دَرَجَتِي مِّنْ شَأْنٍ﴾ [يوسف: ٧٦] كَانَ خَوْفُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَكْثَرَ^(١٣) مِنْ خَوْفِ غَيْرِهِمْ.

وقوله تعالى: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ مَغْنَاهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: أَنَّهُ لَا نَعْلَمُ إِلَى مَاذَا تَصِيرُ عَاقِبَةُ أَمْرِنَا؟ عَلِمَ اللَّهُ. وقوله تعالى: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ قِيلَ ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ اعْتَمَدْنَا فِي مَا يُخَوِّفُونَنَا مِنَ الْإِخْرَاجِ، وَإِلَيْهِ نَلْجَأُ فِي سُلْطَانِهِ وَمُلْكِهِ، وَبِهِ نَتَّقِي فِي وَعْدِهِ بِمَا يَعِدُنَا مِنَ النَّصْرِ وَالظَّفَرِ عَلَى الْأَعْدَاءِ.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ قِيلَ: قَوْلُهُ: ﴿أَفْتَحْ﴾ أَيِ احْكُمْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ. رَوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ [أَنَّهُ]^(١٤) قَالَ: مَا كُنْتُ أَعْلَمُ مَا مَعْنَى الْفَتْحِ فِي الْآيَةِ حَتَّى تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً مِنْ بَنِي كَذَا، فَوَفَّقْتُ بَيْنَنَا وَمُخَاصَمَةً، فَقَالَتْ لِي: تَعَالَ حَتَّى أَفَاتِحَكَ إِلَى فَلَانٍ؟ فَعِنْدَ ذَلِكَ عَرَفْتُ أَنَّ الْمَفَاتِحَةَ هِيَ الْمُحَاكَمَةُ.

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) ساقطة من م. (٣) في الأصل وم: أن يكون. (٤) في الأصل وم: وسمى. (٥) في الأصل وم: أبو جعفر. (٦) (٧) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) من م، في الأصل: لا يأس. (١٠) في الأصل وم: الكفر. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) في الأصل وم: حيث. (١٣) أدرج فيها في الأصل وم: كان. (١٤) ساقطة من الأصل وم.

وقوله تعالى: ﴿بِالْحَقِّ﴾ قيل: هو العذاب الذي كَانَ وَعَدَ لَهُمْ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْهِمْ بتكذيبهم شُعْبًا وبأذاهم إِيَّاهُ. ثم لِلْمُعْتَرِلَةِ أَذْنَى تَعْلَقُ [بقوله تعالى] (١): ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ يقولون: هو الدعاء والسؤال، وإن كَانَ لَا يَحْكُمُ إِلَّا بِالْحَقِّ. فَعَلَى ذَلِكَ يَقُولُونَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَبِّ أَنْكُرْ بِالْحَقِّ﴾ [الأنبياء: ١١٢] نَحْوَهُ (٢). فكَذَلِكَ يَقُولُونَ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾. لَكِنْ عِنْدَنَا يُخْرِجُ قَوْلُهُ: ﴿رَبِّ أَنْكُرْ بِالْحَقِّ﴾ [الأنبياء: ١١٢] [وقوله تعالى] (٣): ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ عَلَى وَجْهِ:

أَحَدُهَا: يَقُولُ: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا﴾ بِحُكْمِكَ، وَهُوَ الْحَقُّ. والثاني: يَقُولُ: ﴿رَبِّ أَنْكُرْ بِالْحَقِّ﴾ [الأنبياء: ١١٢] فِي حَادِثِ الْوَقْتِ كَمَا حَكَمْتَ فِي الْوَقْتِ الْمَاضِي، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] وَهُوَ التَّوْبَةُ وَالْهِدَايَةُ. والثالث: عَلَى اسْتِعْمَالِ الْعَذَابِ.

الآية ٩٠ وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ قَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ كُفَرُواهُمْ (٤) وَسَادَتْهُمْ؛ يَقُولُونَ لِلْأَتْبَاعِ وَالسَّفَلَةِ ﴿لَيْنِ أَتَّبَعْتُمْ شُعْبًا إِذْكَ إِذَا لَخِيرُونَ﴾ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: الْجَاهِلُونَ. ثُمَّ يَخْتَلِفُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْكَ إِذَا لَخِيرُونَ﴾ وَجْهًا:

أَحَدُهَا: أَنَّ شُعْبًا كَانَ يُحَذِّرُ قَوْمَهُ بِالْطُفَيفِ فِي الْكَيْلِ وَالْوَزْنِ، وَيَأْمُرُهُمْ بِوَفَاءِ حُقُوقِ النَّاسِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْوِزْنَ﴾ [الأعراف: ٨٥] وَلَا تَكُونُوا كَذَا وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَقِيمُوا أَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْوِزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَنْشَاءَهُمْ﴾ [هود: ٨٥] فَيَقُولُ الْكِبَرَاءُ وَالرُّؤَسَاءُ لِلسَّفَلَةِ ﴿لَيْنِ أَتَّبَعْتُمْ شُعْبًا﴾ فِي دِينِهِ وَمَا يَأْمُرُهُمْ بِهِ مِنْ وَفَاءِ الْحَقِّ لِلنَّاسِ فَإِنَّكُمْ ﴿إِذَا لَخِيرُونَ﴾ لِلْأَرْبَاحِ.

والثاني: أَنَّهُ كَانَ يُحَذِّرُهُمْ، وَيَمْنَعُهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ، وَيَرْغِبُهُمْ فِي ذَلِكَ، وَهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ تِلْكَ الْأَصْنَامَ لِتَقَرَّبِ عِبَادَتُهُمْ إِيَّاهَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى، وَتَكُونُ لَهُمْ شَفَعَاءَ فِي الْآخِرَةِ (٥) فَقَالُوا: ﴿لَيْنِ أَتَّبَعْتُمْ شُعْبًا﴾ فِي مَا يَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ، وَيَنْهَاكُمْ عَنْهُ لَكُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ؛ لَا شَفَعَاءَ لَكُمْ فِي الْآخِرَةِ.

والثالث: أَنَّهُمْ كَانُوا يُوعِدُونَ شُعْبًا بِالْإِخْرَاجِ بِقَوْلِهِمْ: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ بِشُعْبٍ﴾ [الأعراف: ٨٨] فَقَالُوا: ﴿لَيْنِ أَتَّبَعْتُمْ شُعْبًا﴾ وَهُوَ (٦) يُخْرِجُ، لَا مُحَالَةً، فَتُخْرِجُونَ أَنْتُمْ، فَتَصِيرُونَ (٧) مِنَ الْخَاسِرِينَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٩١ وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذْتُمُ الرِّجْفَ﴾ قِيلَ: الصَّيْحَةُ، وَقِيلَ: الزَّلْزَلَةُ. قِيلَ: أَصَابَهُمْ حَرٌّ شَدِيدٌ، فَرَفَعَتْ لَهُمْ سَحَابَةٌ، فَخَرَجُوا إِلَيْهَا، يَظْلُمُونَ الرُّوحَ تَحْتَهَا، فَسَالَ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ، وَرَجَفَتْ بِهِمُ الْأَرْضُ، فَهَلَكُوا، وَهُوَ مَا ذَكَرَ فِي آيَةِ أُخْرَى: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلُمِ﴾ [الشعراء: ١٨٩] وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جثث﴾ قَدْ ذَكَرْنَا قَوْلَهُ ﴿جثث﴾ فِي مَا تَقَدَّمَ (٨).

الآية ٩٢ وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعْبًا كَانُوا لَمْ يَتَّقُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ هُوَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. مُقَابِلُ قَوْلِهِمْ ﴿لَيْنِ أَتَّبَعْتُمْ شُعْبًا إِذْكَ إِذَا لَخِيرُونَ﴾ وَجَوَابُ لَهُمْ: يَقُولُ: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ لَا الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ (٩).

وقوله تعالى: ﴿كَانَ لَمْ يَتَّقُوا فِيهَا﴾ قِيلَ: كَانَ لَمْ يَعِيشُوا فِيهَا، وَلَمْ يَنْتَعِمُوا قَطُّ، وَقِيلَ: كَانَ لَمْ يَقِيمُوا فِيهَا.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم. ونحوه. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: كبراء. (٥) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُوا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٢٣] وقوله تعالى: ﴿هَؤُلَاءِ شَفَعُونَكَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]. (٦) في الأصل وم: وهي. (٧) في الأصل وم: فصرتم. (٨) كان ذلك في تفسير الآية [٧٨]. (٩) في الأصل وم: اتبعوا.

قَالَ النَّبِيُّ: يُقَالُ: غَيَّبْنَا بِمَكَانٍ كَذَا وَكَذَا، أَيْ أَقْنَمْنَا، وَيُقَالُ لِلْمَنَازِلِ مَغَانٍ؛ وَاحِدُهَا: مَغْنًى، وَيُقَالُ: ﴿كَانَ لَمْ يَنْتَوَا فِيهَا﴾ أَيْ كَانُوا لَمْ يَكُونُوا فِيهَا قَطُّ.

وهو، والله أعلم، لما كانوا يَسْتَقِيلُونَ نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، وَيَسْتَخْفِرُونَهَا، حَتَّى ﴿قَالُوا لَيْسَ يَوْمًا أَوْ بَعْضُ﴾ [الكهف: ١٩] وَالْمُؤْمِنُونَ: ١١٣] وَقَالَ^(١) تَعَالَى: ﴿كَانَ لَوْ يَبْتَغُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ﴾ [يونس: ٤٥] وَنَحْوَهُ. وَكُلُّهُ إِخْبَارٌ عَنْ قَطْعِ آثَارِهِمْ أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ، يَخْزَنُ عَلَيْهِمْ، أَوْ يَبْكِي عَلَيْهِمْ، حَتَّى قَالَ شُعَيْبٌ ﴿فَكَيْفَ ءَأْتَوْا عَلَى قَوْمٍ كَفَرُوا﴾ [الأعراف: ٩٣]. وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُ شُعَيْبٍ حِينَ^(٢) قَالَ: ﴿فَكَيْفَ ءَأْتَوْا عَلَى قَوْمٍ كَفَرُوا﴾ حِينَ عَلِمَ أَنَّهُمْ يَهْلِكُونَ، وَيُنْزَلُ بِهِمُ الْعَذَابُ أَيْ لَا أَحْزَنُ عَلَيْهِمْ لِمَا^(٣) ذَكَرَ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ عَلَى التَّقْذِيمِ وَالشَّاحِيرِ؛ قَالَ ذَلِكَ فِي الْوَقْتِ الَّذِي قَالَ: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ [الأعراف: ٨٦] يَقُولُ: كَيْفَ أَحْزَنُ عَلَى قَوْمٍ، وَعَمَلُهُمْ مَا ذَكَرَ؟

الآية ٩٣

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَنُتِلَّى عَنْهُمْ﴾ حِينَ رَأَوْهُمْ مَلَائِكِي، فَقَالَ: ﴿فَكَيْفَ ءَأْتَوْا عَلَى قَوْمٍ﴾ أَيْ كَيْفَ أَحْزَنُ عَلَى قَوْمٍ، قَدْ كَذَّبُونِي، وَاخْتَارُوا عِدَاؤِي، وَصَارُوا عَلَيَّ أَعْدَاءً؟ فَكَيْفَ أَحْزَنُ عَلَيْهِمْ بِالْهَلَاكِ، وَهُمْ أَعْدَائِي. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ يَقْوَمُ لَقَدْ أَهْلَكْتُكُمْ بِسُلْطَانٍ رَبِّي وَنَسَحْتُ لَكُمْ﴾ قَدْ ذَكَرْنَا^(٤).

الآية ٩٤

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْأَسَا وَالصَّرَا﴾ فِي الْآيَةِ إِضْمَارٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، مِنْ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ﴾ فَكَذَّبُوهُ.

[وَالثَّانِي: قَوْلُهُ تَعَالَى]^(٥) ﴿إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا﴾ قَبْلَ الْهَلَاكِ ﴿بِالْأَسَا وَالصَّرَا﴾ لِقَوْلِهِمْ يَتَرَعَّوْنَ.

ثُمَّ لَمْ يَأْخُذِ اللَّهُ قَوْمًا بِالْهَلَاكِ قَبْلَ أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْهِمُ الرُّسُولَ، وَقِيلَ أَنْ يُغَيَّرُوا^(٦) بِمَا أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ [مَا]^(٧) بِأَنْفُسِهِمْ/ ١٨١-١/ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُنْثَاهَا رُسُلًا﴾ [القصص: ٥٩] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنَّا مُنْذِرِينَ حَتَّى يَبْعَثَ رُسُلًا﴾ [الإسراء: ١٥] وَقَوْلُهُ^(٨) تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ لَا يَغَيِّرُ مَا يُقْوِمُ حَتَّى يَغَيِّرَ مَا يُنْفِيسُ﴾ [الرعد: ١١] وَقَوْلُهُ^(٩) تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩] وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

أَخْبَرَ أَنَّهُ لَا يَأْخُذُهُمُ بِالْعَذَابِ وَالْهَلَاكِ إِلَّا بَعْدَ قَطْعِ الْعُذْرِ لَهُمْ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ، وَإِنْ كَانَ لَهُ الْإِهْلَاكِ قَبْلَ أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْهِمُ الرُّسُولَ، لِمَا رَكَّبَ فِيهِمْ مِنَ الْعُقُولِ السَّالِمَةِ مَا^(١٠) بِهَا يُرْصَلُ إِلَى قَهْمٍ كُلِّ مَا جَعَلَ فِيهِمْ مِنْ آثَارٍ [وَأَيَّاتٍ وَخُدَائِيَّةٍ]^(١١) وَمَا جَعَلَ لَهُمْ مِنَ السَّمْعِ مَا بِهِ يُرْصَلُ إِلَى سَمْعٍ كُلِّ مَا غَابَ وَالتُّظَنُّ بِكُلِّ مَا يُرِيدُونَ مَا لَمْ يَجْعَلْ ذَلِكَ بِغَيْرِهِمْ مِنَ الْبَهَائِمِ، وَمَا أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ مِنْ تَصْوِيرِ الصُّورِ مَا لَمْ يَتَمَنَّ أَحَدٌ تَأْوِيلَهُ مِنْهَا إِلَى غَيْرِهَا مِنَ الصُّورِ.

لَكِنَّهُ لَا يَهْلِكُهُمْ إِلَّا بَعْدَ بَعْثِ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ لِمَا أَنَّ الْخَلْقَ عَلَى مَرَاتِبٍ: مِنْهُمْ مَنْ يَفْهَمُ بِالْعَقْلِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى مَعُونَةٍ^(١٢) السَّمْعِ، وَهُمْ الْحُكَمَاءُ وَالْعُلَمَاءُ الَّذِينَ يُذَكِّرُونَ الْأَشْيَاءَ بِالْبَيِّنَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُذَكِّرُ إِلَّا بِمَعُونَةِ السَّمْعِ وَهُمْ كَالصُّبْيَانِ: إِنَّهُمْ لَا يُذَكِّرُونَ إِلَّا بِالسَّمْعِ وَقَضَى النَّبِيُّ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُذَكِّرُ بِالْعَقْلِ ذَلِكَ وَلَا بِالسَّمْعِ حَتَّى تُصَيِّبَهُمُ الشَّدَائِدُ وَالْبَلَاءُ فِي أَنْفُسِهِمْ وَفِي مَا أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ، وَهُمْ كَالْبَهَائِمِ الَّذِينَ لَا عَقْلَ لَهُمْ، وَلَا سَمْعَ، وَلَكِنْ يَغْرِفُونَ الشَّدَائِدَ وَمَا يُصَيِّبُهُمْ مِنَ الْبَلَايَا.

فَعَلَى ذَلِكَ يَمْتَحِنُهُمْ وَيَبْتَلِيهِمْ بِالشَّدَائِدِ وَالْبَلَايَا أَوْ لَا. فَإِنْ رَجَعُوا عَنْ ذَلِكَ، وَعَرَفُوا نِعْمَهُ، وَإِلَّا أَهْلَكَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: مَا. (٤) كَانَ ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَتَيْنِ ٧٨ وَ ٧٩. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: مَا. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: مَا. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَخُدَائِيَّةٍ وَأَيَّاتٍ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: مَوْنَةٌ.

فَعِنْدَ ذَلِكَ يَنْتَهُونَ، وَيَتَذَكَّرُونَ. وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا ذُكِّرُوا بِالْأَسَاءِ وَالْغَيْرِ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [الأنعام: ٤١] وقوله تعالى: ﴿فِي

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَزَكَّوْنَ﴾ أي لكي يكون عليهم التَّزَكُّعُ، أو لكي يُلْزِمَهُمُ التَّضَرُّعُ والتَّذَكُّرُ.

الآية ٩٥ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيْنَةِ الْحَسَنَةَ﴾ وهو ما ذَكَرَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: السَّعَةُ وَالرَّخَاءُ بَعْدَ الشَّدَّةِ وَالْفَخْرِطِ وَمَا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْبَلَايَا ﴿حَتَّىٰ عَفَّوْا﴾ قِيلَ: جَمَعُوا، وَكثُرُوا، أَيْ كَشَفَ عَنْهُمْ ذَلِكَ حَتَّى كَثُرُوا. فَعِنْدَ ذَلِكَ أَهْلَكَهُمْ بَغْتَةً؛ لِأَنَّ الْهَلَكَ فِي حَالِ الشَّدَّةِ وَالْبَلَاءِ لَا يَكُونُ اخْتِذَ بَغْتَةً؛ لِأَنَّ كُلَّ مَنْ حَلَّ بِهِ بَلَاءٌ وَشِدَّةٌ يَخَافُ فِيهِ الْهَلَكَ، فَإِذَا أَهْلِكَ فِي تِلْكَ الْحَالِ لَمْ يَكُنْ أَخْذُهُ بِالْهَلَكَ بَغْتَةً.

أَلَا تَرَى أَنَّهُ سَمِيَ الْمَوْتُ الَّذِي يَمُوتُ الْمَرْءُ مِنْ غَيْرِ مَرَضٍ حَلًّا بِهِ، مَوْتُ فُجَاءَةٍ؟ وَالَّذِي يَمْرُضُ يَتَقَدَّمُ الْمَوْتُ لِأَذَانِ الْمَوْتِ فِي الْوُجْهِينِ جَمِيعًا، لَا يَعْلَمُ بِحُلُولِهِ. لَكِنَّهُ إِذَا لَمْ يَتَقَدَّمْ مَرَضٌ فَهُوَ لَا يُخَافُ مِنْهُ. فَإِذَا كَانَ بِهِ مَرَضٌ خَافَ بِهِ، فَلَمْ يَكُنْ فُجَاءَةً. فَعَلَى ذَلِكَ إِذَا أُخِذُوا فِي حَالِ الشَّدَّةِ لَمْ يَكُنْ أَخْذًا بِالْبَغْتَةِ لِمَا يَخَافُونَ فِيهِ الْهَلَاكَ. وَإِذَا كَانُوا فِي سَعَةِ وَرَخَاءٍ لَا يَخَافُونَ، فَيُخْذُونَ فِي تِلْكَ الْحَالِ، فَذَلِكَ أَخْذٌ بِبَغْتَةٍ.

وقوله^(١) تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَفَوا﴾ قيل: كَانَ أَهْلَكَ بَعْضَهُمْ، وَتَرَكَ بَعْضًا ﴿حَتَّىٰ عَفَوا﴾ أَي كَثُرُوا مِنْ ذَلِكَ الْبَعْضِ. وَلَكِنَّ
الْوَجْهَ فِيهِ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْبَاسِ وَالضَّرَاءِ وَالشَّدَائِدِ وَالْفَقْطِ. ثُمَّ كَشَفَ ذَلِكَ عَنْهُمْ، فَكَثُرُوا، ثُمَّ أَهْلَكَهُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آلَاءُنا الْفِرَّةَ وَالْزَّلَّةَ﴾ قالوا: إن آباءنا قد كان ينزل ذلك بهم، ويصيبهم مرة شدة ومرة نعمة، فلم يكن ذلك بعقوبة لهم. فعلى ذلك ما يصبينا من الشدايد والبلايا، ليس ذلك بعقوبة لنا، ولكن دوران الدهر وتصرفه على الشدة والبلاء مرة ومرة على الخصب والسعة. ثم أخبر أنه أخذهم بغتة بغد قولهم: ﴿قَدْ مَسَّ آلَاءُنا الْفِرَّةَ وَالْزَّلَّةَ﴾.

﴿الآية ٩٦﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْفُرْقَةِ اسْتَأْذَنُوا وَاسْتَفْتَوْا قِيلَ: «اسْتَأْذِنُوا وَاسْتَفْتَوْا» قَبْلَ أَنْ يَهْلِكُوا بَعْدَ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الشَّدَائِدِ وَالْبَلَايَا﴾ ﴿فَنَفَعْنَا عَلَيْهِمْ بِرُكْنٍ﴾ الآية؛ أي لأعطوا كل خير، يُنال من السماء والأرض. البركة لكل ما يُنال من خيراً^(٢) على غير مؤنة، والبركة^(٣) كل شيء يُنال بلا تبعه عليه ولا شدة. ذكر ههنا أنه يفتح عليهم بركات من السماء والأرض، لو آمنوا، ونسوا ما ذكروا به، أنه يفتح عليهم أبواب كل شيء، ولم يذكر البركة. ففي ما لم يذكر البركة يَنْصُصُهُمْ ما فتح عليهم من كل شيء، ويسوؤُهُمْ. وفي ما ذكر فيه البركة بعد الإيمان لا يَلْحَقُهُمْ من ذلك تبعه، ولا عزم، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كَذَّبُوا﴾ الرُّسُلَ ﴿فَأَخَذْتَهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ كَذَّبُوا﴾ التَّعَمُّ
الَّتِي أَنْعَمَ عَلَيْهَا أَيْ الرُّسُلَ ﴿فَأَخَذْتَهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ مِنَ التَّكْذِيبِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٩٧ وقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ يَقَابِلُونَ﴾ خَرَجَ هذا في الظاهر مَخْرَجَ الاستِفهام، ولكن في الحقيقة على الإيجاب كقوله تعالى: ﴿إِنِّي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَلِ أَرْبَابًا أَمْ يَحَاوِلُونَ﴾ الآية [النور: ٥٠] هذا في الظاهر وإن خَرَجَ مَخْرَجَ الشَّكِّ^(٤)، والإزتياب، فهو في الحقيقة على الإيجاب. كأنه قال: في قلوبهم مَرَضٌ، وأزتابوا، وخافوا ﴿أَنْ يَخِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [النور: ٥٠] فعلى ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾ على الإيجاب كأنه قال: قد أَمِنَ ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ يَقَابِلُونَ﴾ [الأعراف: ٩٨].

ثم اختلف في قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾ [وقوله تعالى] ^(٥) ﴿أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾ [الأعراف: ٩٨] إلى آخر ما ذكر: قال الحسن: هذه الآيات في الأمم السالفة؛ أخبر عن أممهم ^(٦) ينزل بأس الله وعذابه بهم لكن ذكر في هذه الأمة ليكونوا على حذر من مثل صنيعهم.

(١) في الأصل وم: وقال. (٢) في الأصل: كل ينال من كل خير، في م: ما ينال من كل خير. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل: الثلث. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: أمتهم.

وقال الآخرون: هذه الآيات في قرى هذه الأمة^(١) لا في الأمم السالفة؛ يقول: آمين هؤلاء بأسنا كما آمين أولئك عنه، فإنهم إذا صنعوا مثل صنيعهم ينزل بهم^(٢) في الآخرة من العذاب مثل ما أنزل بأولئك في الدنيا من العذاب.

الآية ٩٨ وقوله تعالى: ﴿بِأَسْنَا بَيْنَا وَهُمْ يَأْمِنُونَ﴾ [وقوله تعالى] ﴿شُعَىٰ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ أخبر أن العذاب إنما نزل بهم في حال الأمن، وهو وقت النوم واللعب؛ لأنه هو وقت الغفلة والسهر، وآمن ما يكون الإنسان إنما يكون في حال النوم. وإنما نزل بهم في وقت الغفلة والسهر؛ يذكّر بهذا، والله أعلم، أهل مكة وغيرهم من الكفرة بتكذيبهم رسول الله لئلا يكونوا آمينين عن بأس أبداء في وقت من الأوقات، والله أعلم.

الآية ٩٩ وقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ المكر في الشاهد هو أن يراقب من عدوه حال غفلة لينتقم منه، ويتنصر^(٤). فإذا كان ما ذكرنا، سمى ما ينزل بهم من العذاب في حال الغفلة مكرًا^(٥)، وعلى ذلك الإمتحان في ما بين الخلق هو استظهار ما خفي على بعضهم من بغض، فيأثرون بذلك، وينهون، فسمى الله تعالى ذلك امتحانًا لمعنى الأمر والنهي، وإن كانت الحقيقتان عن الخلق ظاهرة بادية عنده.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الآية على المعتزلة لأنهم يأمنون^(٦) مكر الله في الصغائر، ويقولون: الصغائر^(٧) مغفورة، ليس له أن يعذبهم عليها؛ [فهم يأمنون] عن مكروه، ويأسون من رحمته. ليقولهم في الكبار ليس له أن يغفر عنهم. وقد أخبر ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] وهم قد أسوا من رحمة الله في الكبار، وأثروا مكره في الصغائر. فهاتان الآيتان على المعتزلة.

وقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ هو^(١٠) جزاء مكروهم؛ سمى جزاء المكر مكرًا [كما] ^(١١) سمى جزاء السيئة سيئة وجزاء الإغتياء اغتياء، وإن لم يكن الثاني اغتياء ولا سيئة، فعلى ذلك تسمية جزاء المكر مكرًا، وإن لم يكن الثاني مكرًا، والله أعلم.

الآ ترى أنه لم يجز أن يسمى مكرًا، ولو كان على حقيقة المكر يسمى بذلك؟ دل أنه جزاء. وجائز أن يكون المراد من مكروه جزاء مكروهم، [ولذلك] ^(١٢) سمى الجزاء باسم المكر لأنه جزاؤه كقول الله تعالى: ﴿وَمَكْرُؤًا سَيِّئًا سَيِّئًا﴾ [الشورى: ٤٠] والثانية ليست بسيئة.

الآية ١٠٠ وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا﴾ على تأويل من يجعل الآية في الأمم السالفة؛ يقول: أو لم يوفقوا، ولم يهدوا للصواب بهلاك أمة بعد أمة وقوم بعد قوم؟

وعلى تأويل من يجعل الآية^(١٣) في هذه الأمة، يقول: أو لم يبين لهؤلاء / ١٨١ - ب/ الذين ورثوا الأرض من بعد هلاك أهلها ﴿أَن لَّوْ شَاءَ أَصْبَحْنَاهُمْ﴾ بعذاب ﴿يَذُوبُهُمْ﴾ كما أصاب أولئك العذاب بذنوبهم؟

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا﴾ [يختل وجوهاً]:

أخذها^(١٤): قوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾ على إسقاط الواو والالف؛ أي لم يهد للذين يروثون الأرض^(١٥) ثم يختل قوله: لم يهد لهم، أي^(١٦) لم يتفكروا بما أهلك الأولين وما حل بهم بتكذيبهم الرسل أنهم إذا تركوا التفكر والنظر فيهم وما نزل بهم لم يهد لهم.

والثاني: قد هداهم لكن نفى ذلك عنهم لما لم ينتفعوا به، وهو ما نفى عنهم من السمع والبصر والعقل لما لم ينتفعوا

بـ.

(١) في الأصل وم: الآية. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: و. (٤) من م، في الأصل: وينتظر. (٥) في الأصل وم: مكروا. (٦) في الأصل وم: يأمنون. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: فهو آمن. (٩) أدرج قبلها في الأصل وم: أن. (١٠) في الأصل: و، في م: أو. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل: ويقولون بالآية، في م: من يقول بأن الآية. (١٤) في الأصل وم: و. (١٥) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٢/ ٣٨٤. (١٦) في الأصل وم: أو.

وَيَحْتَمِلُ عَلَى غَيْرِ إِسْقَاطِ أَي^(١) كَأَنَّهُ قَالَ: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ﴾ أَوْ لَمْ يَهْدِهِمُ الرَّسُولُ قُدْرَةَ اللَّهِ فِي هَلَاكِ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ. فَعَلَى ذَلِكَ هُوَ قَادِرٌ عَلَى إِهْلَاكِ الَّذِينَ ﴿يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا﴾ يَحْتَمِلُ هَذِهِ الرُّجُوعَ الَّتِي ذَكَرْنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

أَوْ يَقُولُ: أَوْ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ وَرَاثَةَ الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِ هَلَاكِ أَهْلِهَا أَنَهُمْ يَمُوتُ أَهْلُكُوا؟ حَتَّى يَرْتَدُّعُوا، وَيَمْتَنِعُوا عَنْ مِثْلِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ﴾ يُخْرِجُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: قَدْ هَدَاهُمْ، وَيَبَيِّنُ لَهُمْ أَنَّ مَنْ تَقَدَّمَهُمْ إِنَّمَا هَلَكَوْا بِمَا أَصَابُوا مِنْ ذُنُوبِهِمْ مِنَ التَّكْذِيبِ وَالْعِنَادِ، لَكِنْ لَمْ يَهْتَدُوا لِعِنَادِهِمْ.

وَالثَّانِي: لَمْ يَهْدِهِمْ لِمَا لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِيهَا، وَلَمْ يَنْظُرُوا، عَلَى التَّلَاوَةِ [الَّتِي قُرِئَتْ بِإِسْقَاطٍ أَوْ^(٢)].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْتُهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ فَإِنْ كَانَتْ فِي الْأُمَمِ السَّالِفَةِ فَقَوْلُهُ ﴿أَنْ لَوْ نَشَاءُ﴾ أَصَبْنَا قَوْمًا بَعْدَ قَوْمٍ بِذُنُوبِهِمْ، وَإِنْ كَانَتْ فِي الْمُتَأَخِّرِينَ فَقَوْلُهُ: ﴿أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْتُهُمْ﴾ لَا يَذُنُوبُهُمْ عَلَى مَا أَصَابَ أَوْلَئِكَ ﴿بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

وَالطَّبْعُ يَحْتَمِلُ الْحَتْمَ، أَيْ خَتَمَ عَلَى قُلُوبِهِمْ، وَيَحْتَمِلُ الطَّبْعُ ظُلْمَةَ الْكُفْرِ؛ أَيْ سَتَرَ قُلُوبَهُمْ بِظُلْمَةِ الْكُفْرِ، فَيَكُونُ قَوْلُهُ: كُلُّ شَيْءٍ سَتَرَ شَيْئًا، وَتَغَشَاهُ، فَهُوَ طَبْعٌ.

[وَقَوْلُهُ تَعَالَى^(٣)]: ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ: يَحْتَمِلُ: لَا يَسْمَعُونَ لِمَا يَنْتَفِعُونَ بِهِ. وَيَحْتَمِلُ: لَا يَسْمَعُونَ أَيْ لَا يَجِيبُونَ كَقَوْلِهِ ﷺ: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ» [البخاري: ٦٩٠] قِيلَ: أَجَابَ لِمَنْ حَمِدَهُ؛ أَيْ دَعَاءُهُ.

الآية ١٠١ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ الْأَفْئِدَةُ تَقْعُ عَلَيْكَ مِنْ أُنْبِيَائِكَ﴾ قَوْلُهُ: ﴿تَقْعُ عَلَيْكَ﴾ أَيْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ، مِمَّا قَصَّ عَلَيْهِ مِنَ الْأَنْبَاءِ [يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ]:

أَحَدُهُمَا^(٤): يُخْبِرُ رَسُولَهُ أَنَّ الْقُرَى الَّتِي كَانَتْ مِنْ قَبْلُ قَدْ سَأَلُوا رُسُلَهُمُ الْآيَاتِ، فَجَاؤُوا بِهَا، وَلَمْ يُصَدِّقُوا. فَعَلَى ذَلِكَ هَؤُلَاءِ: أَنْكَ لَوْ أَتَيْتَ مَا سَأَلُوكَ مِنَ الْآيَاتِ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَا، وَلَمْ يُصَدِّقُوا؛ يُخْبِرُهُ عَنْ تَعَتُّبِهِمْ وَمُكَابَرَتِهِمْ وَعِنَادِهِمْ.

وَالثَّانِي: يَذْكُرُ أَنَّ الْآيَاتِ لَيْسَ يَجِبُ أَنْ يَأْتُوا بِهَا مِنَ الْجِهَةِ الَّتِي يُرِيدُونَ، إِنَّمَا يَجِبُ أَنْ يَأْتُوا بِهَا، وَهِيَ^(٥) حُجَّةٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يَحْتَمِلُ الْأَنْبَاءَ الَّتِي أَنْبَأَتْ الرُّسُلُ أَقْوَامَهُمْ مِنْ نَزْوِلِ الْعَذَابِ بِهِمْ بِالتَّكْذِيبِ وَالْكُفْرِ بِهَا، وَيَحْتَمِلُ الْبَيِّنَاتِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى صِدْقِ الرُّسُلِ بِمَا يَقُولُونَ، وَيُخْبِرُونَ بَعْدَ مَا سَأَلُوهُمْ الْآيَاتِ، لَكِنْ رَدُّوْهَا رَدًّا عِنَادٍ وَمُكَابَرَةً بَعْدَ مَا عَرَفُوا أَنَّهُ حَقٌّ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ [يَحْتَمِلُ وَجْهًا ثَلَاثَةً]:

أَحَدُهَا: أَيْ مَا^(٦) كَانُوا لِيُؤْمِنُوا لَمَّا رَأَوْا بَاسَنَا ﴿بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أَيْ لَا يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ عِنْدَ رُؤْيِيهِمْ بَاسَ اللَّهِ كَقَوْلِهِ^(٧) تَعَالَى: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَئِنْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

وَالثَّانِي^(٨): يَحْتَمِلُ: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ بِسُؤَالِهِمُ الْآيَاتِ إِذَا آتَاهُمُ الْآيَاتِ بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ، لِأَنَّ تَرْكُهُمُ الْإِيْمَانَ وَتَكْذِيبَهُمُ الرُّسُلَ لَيْسَ لِمَا لَمْ تَكُنْ لَهُمُ الْآيَاتِ، وَلَكِنْ لِلْعَنَتِ. فَخَبِرَ أَنَّهُمْ، وَإِنْ سَأَلُوا الْآيَاتِ، فَإِنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ.

وَالثَّالِثُ: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ بِمَا يُخْبِرُهُمُ الرَّسُولُ مِنْ إِتْيَانِ الْعَذَابِ بِهِمْ بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ الْأَنْبِيَاءِ ﷺ.

الآية ١٠٢ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ﴾ يَحْتَمِلُ الْعَهْدَ الْمَذْكُورَ وَجْهًا ثَلَاثَةً:

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ، وَهُوَ الْوَجْهَ الثَّلَاثُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: قُرِئَتْ بِإِسْقَاطٍ، انْظُرِ الْحَاشِيَةَ إِلَى (١٥) فِي الصَّفْحَةِ السَّابِقَةِ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) الْوَائِ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) فِي الْأَصْلِ: أَيْ، فِي م: أَيْ مَا. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: كَقَوْلِهِمْ. (٨) الْأَصْلُ وَم: وَ.

والتَّزَكُّيَّةُ وَالْإِمْتِدَاحُ إِنَّمَا يَقَعُ فِي مَا هُوَ فِعْلُهُ حَقِيقَةً لَا فِعْلُ اللَّهِ، أَوْ إِنْ كَانَ تَزَكُّيَّةً وَإِمْتِدَاحاً فَهُوَ قَدْ أَمَرَ بِذَلِكَ، فَجَازَ بِالْأَمْرِ، أَوْ أَرَادَ بِذَلِكَ تَعْرِيفَهُ لِمَا كَانَ مِنْ عَادَةِ الْمُلُوكِ أَنَّهُمْ إِذَا بَعَثَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ رَسُولاً فَإِنَّهُمْ لَا يَسْتَقْبِلُونَ الرَّسُولَ بِالْمَكْرُوهِ وَالشَّرِّ، بَلْ يُعَظِّمُونَ الرَّسُولَ، وَيُكْرِمُونَهُمْ، وَإِنْ كَانَ يَتَنَبَّهُونَ مُعَادَاةً. فَذَكَرَ أَنَّهُ «رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ» لِئَلَّا يُسْتَقْبَلَ بِالْمَكْرُوهِ.

وقوله تعالى: «وَمِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ» قيل: العالم هو جوهر الكل، وهو قول الفلاسفة. وقال أبو بكر الأصم: «رَبِّ الْعَالَمِينَ» أي ملك العالمين.

الآية ١٠٥ وقوله تعالى: «حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ» قال أهل التأويل: إن موسى لما قال لفرعون: «إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ» فقال له: كَذَبْتَ، فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ لَهُ مُوسَى: /١٨٢- / «حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ» وَامْتَكَنَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مِنْهُ عَلَى غَيْرِ تَكْذِيبِ الْقَوْلِ مِنْ فِرْعَوْنَ، وَلَكِنَّهُ قَالَ ذَلِكَ لِمَا أَنَّهُ حَقِيقٌ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ أَكْرَمَهُ اللَّهُ بِالرَّسَالَةِ، وَاخْتَارَهُ لَهَا، أَلَا يَقُولُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ، أَوْ أَنْ يَقُولَ: «إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ» «حَقِيقٌ عَلَى أَنْ» [ما] ^(١) أَكْرَمَنِي بِالرَّسَالَةِ «لَا أَقُولُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ».

وقوله تعالى: «حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ» قَدْ ذَكَرْنَا أَنَّهُ لَا يَصِحُّ الْإِنْتِدَاءُ بِهَذَا إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَسْبِقَ مِنْ فِرْعَوْنَ كَلَامٌ، خَرَجَ هَذَا الْكَلَامُ مِنْ مُوسَى جَوَاباً لِمَا كَانَ مِنْهُ؛ وَهُوَ مَا قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: إِنَّهُ ^(٢) قَالَ لَهُ «لَمَّا قَالَ: «إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ» إِلَيْكَ: كَذَبْتَ، لَمْ يُرْسِلْكَ إِلَيْنَا، أَوْ كَلَامٌ نَحْنُ هَذَا.

فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ: «حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ» وَهُوَ ^(٣) كَمَا قَالَ عِيسَى: «سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ» لَمَّا قَالَ لَهُ: «أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُوا مِنِّي وَلِهَاجِرٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ» [المائدة: ١١٦] كَانَ ذَلِكَ الْقَوْلُ مِنْ عِيسَى لَمَّا ادَّعَى قَوْمُهُ عَلَى عِيسَى أَنَّهُ قَالَ لَهُمْ ذَلِكَ.

وكذلك قول الملائكة «سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلِسَانُ مِنْ دُونِهِمْ» [سبأ: ٤١] بَعْدَ مَا قَالَ لَهُمْ: «أَمْثَلُكُمْ إِنَّا كَرِهْنَا أَنْ يَكُونُوا يَتَّبِعُونَ» [سبأ: ٤٠] فَعِنْدَ ذَلِكَ «قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلِسَانُ مِنْ دُونِهِمْ» خَرَجَ ذَلِكَ الْقَوْلُ مِنْهُمْ جَوَابَ مَا تَقَدَّمَ.

فَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُ مُوسَى: «حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ» عَلَى تَقَدُّمِ قَوْلِ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَمَنْ قَرَأَ: «حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ» فَتَأْوِيلُهُ: [أَنَا حَقِيقٌ بِالْأَلَا] ^(٤) أَقُولُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ.

وَمَنْ قَرَأَ بِتَشْدِيدِ عَلِيٍّ ^(٥) فَتَأْوِيلُهُ: حَقٌّ عَلَيَّ بِالْأَلَا أَقُولُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ.

وقوله تعالى: «فَدَخَلْنَاهُمْ دِينَهُمْ مِنْ رَبِّكُم» بِخَتْمِ «بَيْنَهُمْ مِنْ رَبِّكُم» مَا يُبَيِّنُ وَخَدَائِعَةَ اللَّهِ وَالْوَهْمَةَ، وَنَحْتَمِلُ بَيْنَهُ الرُّسُلَ لَهُ مَا يُبَيِّنُ أَنِّي «رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ» [الأعراف: ١٠٤] غَيْرَ كَاذِبٍ عَلَيْهِ، وَلَا مُفْتَرٍ.

وقوله تعالى: «تَأْسِيلَ مَعِيَ بَيْتَ إِسْرَءِيلَ» أَي لَا تَسْتَعِيدُهُمْ فَإِنَّهُمْ لَيْسُوا بِعَبِيدٍ. لَمْ يُرْذِ إِسْرَءِيلُ مَعَهُ، وَلَكِنْ طَلَبَ اسْتِغْنَاءَهُمْ مِنَ الْعُبُودَةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «عَبَدْتُ بَيْتَ إِسْرَءِيلَ» [الشعراء: ٢٢].

الآية ١٠٦ وقوله تعالى: «قَالَ إِنْ كُنْتَ حِثَّ بِتَابِعٍ فَأَيَّهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمَدِينَةِ» دَلَّ قَوْلُ فِرْعَوْنَ «إِنْ كُنْتَ حِثَّ بِتَابِعٍ» أَنَّ مُوسَى أَرَادَ بِقَوْلِهِ «فَدَخَلْنَاهُمْ دِينَهُمْ مِنْ رَبِّكُم» الْآيَةَ، وَدَلَّ قَوْلُهُ «إِنْ كُنْتَ حِثَّ بِتَابِعٍ فَأَيَّهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمَدِينَةِ» أَنَّهُ كَانَ عَرَفَ أَنَّهُ لَيْسَ بِإِلَهِ، وَعَرَفَ عُبُودَةَ نَفْسِهِ جِئْنَ ^(٦) طَلَبَ مِنْهُ الْآيَةَ عَلَى صِدْقِ مَا ادَّعَى مِنَ الرِّسَالَةِ. وَلَوْ كَانَ عِنْدَهُ أَنَّهُ إِلَهٌ لَكَانَ قَالَ لِمُوسَى: أَنَا إِلَهُ، فَمَتَى أَرْسَلْتُكَ؟ وَلَمْ يَطْلُبْ مِنْهُ الْآيَةَ.

الآية ١٠٧ وقوله تعالى: «فَأَلْفَنِي عَصَاءَ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ» قَالَ أَبُو عَوَسَجَةَ: الثُّعْبَانُ الْحَيَّةُ، قَالَ: كُلُّ حَيَّةٍ تُسَمَّى ثُعْبَاناً، أَوْ الثُّعَابِينَ جَمَاعَةً. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ^(٧)، [أَنَّهُ] قَالَ: الثُّعْبَانُ هِيَ الْحَيَّةُ الذَّكْرُ.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: إن. (٣) ساقطة من م. (٤) في الأصل: للحق على، في م: لمحقوق على. (٥) انظر معجم القراءات القرآنية [٣٨٥/٢]. (٦) في الأصل وم: حين. (٧) ساقطة من الأصل وم.

وقوله تعالى: ﴿مُتَيْنٌ﴾ أي مُبَيَّنٌ أنها حيَّةٌ، وهو كما ذكرنا ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ [طه: ٢٠] لا يَشْكُ أَحَدٌ أنها لَيْسَتْ بِحَيَّةٍ. وَيَحْتَمِلُ ﴿مُتَيْنٌ﴾ أي مُبَيَّنٌ أَنَّ ذَلِكَ التَّغْيِيرَ وَالتَّحْوِيلَ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنَ اللَّهِ.

الآلة ١٠٨

وقوله تعالى: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ﴾ ذَكَرَ: نَزَعَ يَدَهُ، ولم يذكر مِمَّاذَا؟ فهو ما ذَكَرَ فِي آيَةِ أُخْرَى ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ [النمل: ١٢] أَي مِنْ غَيْرِ أَدَى وَلَا آفَةٍ. وَقَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: مِنْ غَيْرِ بَرَصٍ. وَلَكِنْ عِنْدَنَا ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُسْتَفْجَحَ، أَوْ تُسْتَفْذَرَ؛ لِأَنَّ خُرُوجَ الشَّيْءِ عَنْ خِلْقَتِهِ وَجَوْهَرِهِ مِمَّا يُسْتَفْذَرُ. فَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَمْ تَكُنْ كَذَلِكَ.

فَإِنْ قِيلَ لَنَا: مَا الْحِكْمَةُ فِي إِدْخَالِ يَدِهِ جَبِيئَةً عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهَا وَإِخْرَاجِهِ إِيَّاهَا بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ أَنْ كَانَتْ كَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُدْخِلَهَا؟ وَكَذَلِكَ [مَا الْحِكْمَةُ فِي] ^(١) صِرُورَةِ الْعَصَا حَيَّةً بَعْدَ مَا طَرَحَهَا عَلَى الْأَرْضِ دُونَ أَنْ تُصَيَّرَ حَيَّةً، وَهِيَ فِي يَدِهِ؟

قِيلَ: ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَنَّهُ إِنَّمَا أَرَاهُمْ آيَةً بَعْدَ مَا أَخْرَجَ الْعَصَا عَنْ سُلْطَانِهِ وَتَذْيِيرَهُ لِيُعْلِمَ أَنَّهَا صَارَتْ لَا بِتَذْيِيرِهِ وَتَغْيِيرِهِ، وَلَكِنْ بِاللَّهِ ﷻ، وَكَذَلِكَ الْيَدُ صَيَّرَهَا آيَةً بَعْدَ مَا غَيَّبَهَا عَنْ بَصَرِهِ، وَتَذْيِيرَهُ ^(٢) لِيُعْلِمَ أَنَّهَا صَارَتْ كَذَلِكَ لَا بِوَيْهِ، وَلَكِنْ بِاللَّهِ ﷻ الْآيَةُ هِيَ الَّتِي تَخْرُجُ عَنْ وَسْعِ الْخَلْقِ وَتَذْيِيرِهِمْ.

الآية ١٠٩

الآية ١٠٩ وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَمْلَأْ مِنْ قُوْرِ فِرْعَوْنَ إِنَّكَ هَذَا السَّحِرُ عَلِيمٌ﴾ وقال في آية أخرى: ﴿قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء: ٣٤] يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَالَ لِلْمَلَأِ: إِنَّ هَذَا كَذَا، ثُمَّ قَالَ الْمَلَأُ لِقَوْمِهِ: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ أَرَادَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، تَلَيَّسَ مَا أَتَى بِهِ مُوسَى مِنَ الْآيَةِ عَلَى قَوْمِهِ، وَأَرَادَ بِقَوْلِهِ ﴿يُرِيدُ أَنْ يُنْجِيَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ﴾ [الشعراء: ٣٥] إِغْرَاءَ قَوْمِهِ عَلَيْهِ.

وَالسَّحَرُ عِنْدَنَا هُوَ مِنْ آيَاتِ الرِّسَالَةِ. وَلَوْ كَانَ مَا أَتَى مُوسَى كَانَ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ رِسَالَتِهِ وَبُيُوتِهِ لِأَنَّهُ لَا يُسْتَفَادُ إِلَّا بِعِلْمٍ مِنَ السَّمَاءِ وَخَبَرٍ مِنْهَا، وَكَذَلِكَ هَذِهِ الْجَرَفُ وَالْمَكَاسِبُ الَّتِي تُكْتَسَبُ فِي الْخَلْقِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ إِلَّا بِالْوَحْيِ مِنَ السَّمَاءِ، لَكِنَّهُ لَيْسَ بِآيَةٍ عَلَى الْإِشَارَةِ. وَلَوْ كَانَ مَا أَتَى بِهِ سِحْرًا لَكَانَ لَهُ آيَةٌ؛ لِأَنَّهُ نَشَأَ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ؛ لَمْ يَرَوْهُ اخْتَلَفَ إِلَى سَاحِرٍ قَطُّ، وَلَا^(٣) عَرِفَ أَنَّهُ تَعَلَّمَ ذَلِكَ مِنْ أَحَدٍ. فَذَلِكَ أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ^(٤)، لَكِنَّهُ أَخْرَجَ ذَلِكَ عَمَّا عَرَفُوا مِنَ السَّحَرِ لِمَا لَا كُلُّ أَحَدٍ يَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَخْتَلَفَ فِي ذَلِكَ [إِلَى أَحَدٍ]^(٥)، وَلَا تَعَلَّمَ مِنْ أَحَدٍ، فَأَخْرَجَهُ عَنْ وَسْعِ السَّحَرَةِ وَتَدْبِيرِهِمْ لِيَعْرِفَ كُلُّ أَحَدٍ أَنَّهُ [آيَةٌ مِنْ]^(٦) آيَاتِ رِسَالَتِهِ وَبُيُوتِهِ، لَا السَّحَرُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١١-

الآية ١١٠ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَمُزِّجَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ كَانَ مُوسَى لَا يُرِيدُ أَنْ يَخْرِجَهُمْ مِنْ أَرْضِهِمْ، وَلَكِنْ، وَاللَّهُ (٧) أَعْلَمُ، كَأَنَّهُ قَالَ فِرْعَوْنُ لِقَوْمِهِ: لَوْ أَتَبَعْتُمْ مُوسَى، وَاجْتَبَيْتُمُوهُ إِلَى مَا يَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ لَأَخْرَجْتُكُمْ، لَكِنْ أَضَافَ ذَلِكَ إِلَى مُوسَى لِمَا كَانَ هُوَ سَبَبَ إِخْرَاجِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

أَوْ يَقُولُ: يُرِيدُ أَنْ يَذْهَبَ بِعَيْشِكُمُ الطَّيِّبِ وَرَاحَتِكُمْ وَتَلَذُّذِكُمْ بِأَنْوَاعِ التَّلَذُّذِ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَسْتَغْبِذُونَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَيَسْتَخْدِمُونَهُمْ، وَيَسْتَرْيَحُونَ بِهِمْ، وَيَتَنَعَّمُونَ. فَيَقُولُ لِلْفَيْضِ: يُرِيدُ أَنْ يَذْهَبَ بِذَلِكَ كُلِّهِ عَنْكُمُ.

وَجَائِزٌ إِنْ يَكُونُ مُوسَى لَمْ يَكُنْ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَهُمْ ^(٨) مِنْ أَرْضِهِمْ، وَلَكِنْ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَهُمْ ^(٩) مِنْ دِينِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يُعْرِى قَوْمَهُ عَلَيْهِ.

وقوله تعالى: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ دل هذا القول من فزعون أنه كان يعرف أنه ليس بالو ولا رب، لأنه لو كان ما يقول ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] لكان لا يطلب من قومه الأمر والإشارة في ذلك. دل ذلك أنه كان يعرف عجزه وضعفه، لكنه يكابر، ويلبس على قومه، ويؤمنه بقوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَسِتْرٌ عَلَيَّ﴾ [الأعراف: ١٠٩].

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: وتديير. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: الآية. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) و (٩) من م، في الأصل: يخرجوا.

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُنَزِّلَكَ مِنْ أَنْفِكَ﴾ هذا الحَرْفُ حَرْفُ إِغْرَاءٍ وَتَحْرِيشٍ عَلَيْهِ.

وقوله تعالى: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ هو حَرْفُ تَقْرِيبٍ حِينَ^(١) جَعَلَ إِلَيْهِمُ الْأَمْرَ وَالْإِشَارَةَ، وَجَعَلَهُمْ مِنْ أَهْلِ مَشُورَتِهِ.

الآية ١١١

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا آتِنَا آيَةً وَأَخَاهُ﴾ هذا الحَرْفُ لَا يُقَالُ ابْتِدَاءً إِلَّا أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ تَقَدُّمُ شَيْءٍ؛ فَكَأَنَّهُ هُمْ يَقْتُلُهُ كَقَوْلِهِ ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبِّي﴾ [غافر: ٢٦] فَقَالُوا لَهُ: ﴿آتِنَا آيَةً﴾ أَيِ^(٢) أُخْرَاهُ، وَاحْيَسُهُ، وَلَا تَقْتُلْهُ، لِيَتَّبِعَنَّ سِخْرَهُ عِنْدَ الْخَلْقِ جَمِيعاً. كَانُوا يَمْنَعُونَ فِرْعَوْنَ عَنْ قَتْلِهِ. أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾ [غافر: ٢٦] لَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ مَنَعٌ عَنْ قَتْلِهِ لَمْ يَكُنْ لِيَقُولَ لَهُمْ ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾؟

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا آتِنَا آيَةً وَأَخَاهُ﴾ قَالَ الْقَسْبِيُّ: ﴿آتِنَا وَأَخَاهُ﴾ هَارُونَ. يَقُولُ: احْيَسُهُ، أَيِ أُخْرَاهُ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَرَى مِنْ نَشَأَةٍ﴾ [الأحزاب: ٥١] وَمِنْهُ سُمِّيَتْ الْمَرْجُتَةُ.

وقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه ﴿آتِنَا وَأَخَاهُ﴾ وَلَا تَقْتُلُهُمَا ﴿وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ خَبِيرِينَ﴾ أَيِ أَرْسِلْ إِلَى الْمَدَائِنِ الشَّرْطَ، فَاتَوْهُ مِنَ الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ؛ أَيِ يَحْشُرُونَ عَلَيْهِ^(٣) السَّحَرَةَ وَالنَّاسَ. إِلَى هَذَا يَذْهَبُ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه.

الآية ١١٢

وقوله تعالى: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ﴾ أَيِ [لَا تَقْتُلْهُ]^(٤) حَتَّى ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ﴾ أَيِ لِيَجْتَمِعَ كُلُّ أَنْوَاعِ السَّحْرِ لِتَبَيَّنَ سِخْرُهُ، وَإِلَّا كَانَ سَاحِرٌ وَاحِدٌ كَافِياً^(٥)، وَلَكِنْ أَرَادُوا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، بِقَوْلِهِمْ^(٦) ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ﴾ لِيَجْتَمِعَ جَمِيعُ أَنْوَاعِ السَّحْرِ عِنْدَهُ، لِيَتَّبِعَنَّ سِخْرَهُ.

الآيتان ١١٣ و ١١٤

وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ وَرَعَوْتَ قُلُوبُكَ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ فِي الْمُنْزِلَةِ وَالْقُدْرَةِ عِنْدِي.

هَذَا يَدُلُّ أَنَّ هِمَّةَ السَّاحِرِ لَيْسَتْ^(٧) إِلَّا الدُّنْيَا، لِأَنَّهُمْ طَلَبُوا مِنْ فِرْعَوْنَ الْأَجْرَ وَالْقُدْرَ وَالْمُنْزِلَةَ عِنْدَهُ، إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ. وَلَا يَجُوزُ مَنْ هِمَّتُهُ الدُّنْيَا، وَمَا ذَكَرَ، أَنْ تَكُونَ لَهُ الرِّسَالَةُ بِحَالٍ. / ١٨٢ - ب / وَهِمَّةُ الْأَنْبِيَاءِ كَانَتْ الدِّينَ وَطَلَبَ الْآخِرَةَ.

الآية ١١٥

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَمْشِي يَمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِنَّمَا أَنْ تَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ هَذَا لَيْسَ عَلَى الْإِقَاءِ هَذَا وَتَرَكْ أُولَئِكَ الْإِقَاءَ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ عَلَى الْإِقَاءِ أَحَدُهُمَا لَكَانَ لَا يُتَّبَعُ السَّحَرُ مِنَ الْآيَةِ. لَكِنْ الْإِقَاءُ الْأَوَّلُ؛ كَانَهُمْ ﴿قَالُوا يَمْشِي يَمَّا أَنْ تُلْقَىٰ﴾ وَأَمَّا^(٨) نَحْنُ الْمُلْقُونَ أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَهُوَ مَا ذَكَرَ فِي آيَةٍ أُخْرَى. ﴿قَالُوا يَمْشِي يَمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِنَّمَا أَنْ تَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أُلْقِيَ﴾ [طه: ٦٥].

الآية ١١٦

[وقوله تعالى]^(٩): ﴿قَالَ أَلْقُوا﴾ كَأَنَّهُ أَمَرَهُ رَبُّهُ أَنْ يَأْمُرَ بِذَلِكَ، فَقَالَ^(١٠) مُوسَى ﴿أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَعْجَبُوهُمْ﴾ هَذَا يَدُلُّ أَنَّ السَّحَرَ إِنَّمَا يَأْخُذُ الْأَبْصَارَ عَلَى غَيْرِ حَقِيقَةٍ كَانَتْ لَهُ؛ وَهُوَ كَالسَّرَابِ الَّذِي يُرَى مِنْ بَعِيدٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَحْسَبُهُ الظَّلَمَاتُ مَاءً﴾ [النور: ٣٩] فَقَلَى ذَلِكَ السَّحَرَ يَأْخُذُ الْأَبْصَارَ ظَاهِراً، فَإِذَا هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ بَاطِلٌ، لَا شَيْءَ، وَكَالْخَيَالِ^(١١) فِي الْقُلُوبِ لَا حَقِيقَةَ لَهُ. وَكَانَ قَصْدُهُمْ بِالسَّحْرِ اسْتِزْهَابِ النَّاسِ وَتَحْوِيلَتِهِمْ بِهِ.

أَلَا تَرَى [أَنَّهُ]^(١٢) ذَكَرَ فِي آيَةٍ أُخْرَى ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾؟ [طه: ٦٧] وَقَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ الرُّسُلُ لَوْ كَانَ سِخْرًا فِي الْحَقِيقَةِ لَكَانَ ذَلِكَ حُجَّةً لَهُمْ فِي إِبْطَالِ الرِّسَالَةِ؛ لِأَنَّ قَوْمَهُمْ لَمْ يَرَوْهُمْ اخْتَلَفُوا إِلَى سَاحِرٍ؛ فَيَدُلُّ ذَلِكَ [أَنَّهُمْ إِنَّمَا عَرَفُوا ذَلِكَ]^(١٣) بِاللَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ كَالْأَنْبَاءِ^(١٤) الَّتِي أَتَى بِهَا رَسُولُ اللَّهِ صلی الله علیه وسلم.

وقوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ يُخْرِجُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٢) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: إِلَى. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: عَلَيْكَ. (٤) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: لِيَجْتَمِعَ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: كَاف. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: بِقَوْلِهِ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: لَيْسَ. (٨) فِي الْأَصْلِ: وَ، فِي م: أَوْ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُ مُوسَى. (١٠) الْإِقَاءُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَكَالْجِبَالِ. (١٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٣) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١٤) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: كَالْأَنْبَاءِ.

أخذهما: أخذ سحرهم بصره كما أخذ أعين الناس.

والثاني: خاف أن سحرهم يمنع أولئك عن رؤية حقيقة ما جاء به.

وقوله تعالى: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ أي أخذوا^(١) كقولہ تعالى: ﴿مَنْ قَوْمٌ مَشْجُورُونَ﴾ [الحجر: ١٥] أي [ماخوذة أغشينا]^(٢).

الآية ١١٧ وقوله تعالى: ﴿وَأَرْجَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقَىٰ عَصَاكَ﴾ فيه أن موسى كان لا^(٣) يلقي عصاه إلا بعد الأمر بالإلقاء، وكذلك قوله تعالى: ﴿أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ [البقرة: ٦٠] وقوله تعالى^(٤): ﴿أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَتَنفَلِقَ﴾ [الشعراء: ٦٣] ونحوه. كان لا يضرب العصا، ولا يلقي، إلا بعد الأمر بالإلقاء والضرب ليُعلم أن في ذلك امتحاناً لموسى في ما يأمره^(٥) بالإلقاء على الأرض، لتصير حية، وفي ما يأمره بالضرب بها الحجر والبحر.

والله أن يمتحن عبده بما شاء من أنواع المحن، وإلا [ما]^(٦) كان قادراً أن يقلق البحر على غير الأمر بالضرب بالعصا، وكذلك [أن] يفجر الماء، ويشق البحر^(٧) على غير ضرب بالعصا، وكذلك [أن]^(٨) تصير تلك العصا حية، وهي في يده. ولكن أمره بذلك كله، والله أعلم، امتحاناً منه ليأبى وإبتيلاء، وهي دار ميخنة وإبتيلاء؛ إذ في زمن موسى كان السحر هو الظاهر، وكان الناس وقتئذ يعملون بالسحر، فجاء موسى من الآيات على رسالته بنوع ما كانوا يعملون به ومن جنس ذلك ليتعرفوا خروجه عن وسعهم وأن ذلك ليس كمسحهم^(٩)، ولكن آية سماوية.

وكذلك ما جاء عيسى من الآيات جاء بنوع ما كان يعمل قومه، وهو الطّب، فجاء بنوع الطّب ليتعلموا^(١٠) أنه بالله عرفت ذلك. وقوله تعالى: ﴿إِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ قال القتيبي: تَلْقَفُ تَلْتَقِمُ، وتَلْتَقِمُ اشتقاقه من اللَّقْمِ والإبتلاع. وقوله تعالى: ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ قيل: ما يكذبون. قال الحسن: ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ جبالهم وعصيتهم. وقيل: ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ ما جاؤوا به من الكذب.

الآية ١١٨ وقوله تعالى: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ﴾ قيل: أي ظهر الحق ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهين:

أخذهما: ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي بطل ما عملوا من السحر.

والثاني: ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي [ابطل أولئك]^(١١) السحرة العمل بالسحر؛ إذ^(١٢) ظهر الحق لهم، والله أعلم.

الآية ١١٩ وقوله تعالى: ﴿فَقِيلُوا هَٰذَاكَ﴾ أي عند ذلك غلب السحرة لأنهم قالوا لفرعون في الابتداء ﴿هَٰذَاكَ لَنَا لِأَجْرٍ﴾ إن كنا نحن آلئيلين ﴿فَذَكَرْ ههنا أنهم غلبوا عند ظهور الحق، لا أنهم صاروا غالبيين. وقوله تعالى: ﴿فَقِيلُوا هَٰذَاكَ﴾^(١٣) ليس غلبة القهر والقسر، ولكن غلبة بالحجج والبراهين؛ أي غلبوا بالآيات والحجج.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْقَلَبُوا صَافِينَ﴾ قال بعض أهل التأويل: رجع السحرة لما غلبوا صاغرين مدللين. لكن نقول: رجع فرعون وقومه إلى منازلهم مدللين، لا السحرة، لأن السحرة قد آمنوا، فلا يَحْتَمِلُ أن يوصفوا بالرجوع صاغرين مدللين، وقد رجعوا مع الإيمان.

الآية ١٢٠ وقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ﴾ اختلف فيه: قال بعضهم: قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى﴾ أي أمروا بالسجود فسجدوا. وقال آخرون: قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى﴾ أي لسرعة ما سجدوا كأنهم ألقوا.

والآية ترد على المعتزلة لأنهم ينكرون أن^(١٤) يكون لله تعالى في فعل العباد صنع، وههنا قد أضيف الفعل إلى غيرهم بقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ﴾ دل أن الله^(١٥) في فعل العباد صنعا^(١٦) وهو أن خلق فعل السجود منهم.

(١) في الأصل وم: حيروا. (٢) في الأصل وم: مأخوذ أعينكم. (٣) في الأصل وم: لما. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: يأمر. (٦) ساقطة من الأصل وم: (٧) في الأصل وم: يفجر الحجر ويشق. (٨) ساقطة من الأصل وم: (٩) في الأصل: بسحرهم، في م: لسحرهم. (١٠) من م، في الأصل: ليعملوا. (١١) في الأصل وم: تلك. (١٢) في الأصل وم: إذا. (١٣) من م. (١٤) من م، في الأصل: أي. (١٥) من م، في الأصل: الله. (١٦) في الأصل وم: صنع.

وقال جَعْفَرُ بْنُ حَزْبٍ، يجوزُ أَنْ يُضَافَ الْفِعْلُ إِلَى غَيْرِهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَذَلِكَ الْغَيْرُ فِي ذَلِكَ الْفِعْلِ صُنْعٌ، نَحْوُ مَا يُقَالُ فِي السَّفَرِ: إِنَّ هَؤُلَاءِ خَلَقُوا أَوْلَئِكَ، [وَهُمْ لَمْ يَخْلُقُوا أَوْلَئِكَ^(١)] فِي الْحَقِيقَةِ، وَلَا صُنْعٌ لَهُمْ فِي التَّخْلُيفِ، ثُمَّ أُضِيفَ إِلَيْهِمْ فِعْلُ التَّخْلِيفِ. فَعَلَى ذَلِكَ هَذَا يُقَالُ: إِنَّ لَهُمْ فِي ذَلِكَ تَخْلِيفًا^(٢)؛ وَهُمْ إِنَّهُمْ إِذَا لَمْ يَنْتَظِرُوهُمْ خَلَقُوهُمْ، وَلَهُمْ فِي ذَلِكَ صُنْعٌ، فَأُضِيفَ الْفِعْلُ إِلَيْهِمْ، أَوْ أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ إِقَاءَ هَؤُلَاءِ، فَأَمَّا اللَّهُ ﷻ [فَهُوَ^(٣)] قَادِرٌ أَنْ يُلْقِيَهُمْ؛ أَيْ بِمَا يَخْلُقُ مِنْهُمْ فِعْلَ السُّجُودِ، فَأُضِيفَ الْفِعْلُ إِلَيْهِ.

الآية ١٢١ و ١٢٢ وقوله تعالى: ﴿قَالُوا مَا نَا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: إِنَّهُمْ لَمَّا ﴿قَالُوا مَا نَا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ قَالَ لَهُمْ فِرْعَوْنُ: إِنِّي تَعْنُونَ؟ يُغَيِّدُ ذَلِكَ قَالُوا: لَا، وَلَكِنْ ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ وَلَكِنْ لَا نَذْرِي هَذَا، وَمُوسَى أَوَّلَ مَا جَاءَ فِرْعَوْنَ، ودعاهُ إِلَى دِينِهِ، قَالَ لَهُ: ﴿يَفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٤] فَلَا يُخْتَمَلُ أَنْ يُشْكِلَ عَلَيْهِ قَوْلُهُمْ: ﴿مَا نَا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [فَيُظَلِّ^(٤)] أَنَّهُمْ إِيَّاهُ عَتَوْا بِذَلِكَ. وجائزٌ أَنْ يَكُونَ ﴿مَا نَا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ الَّذِي أَرْسَلَ مُوسَى وَهَارُونَ رَسُولَيْنِ^(٥).

الآية ١٢٣ وقوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ مَآذَنَ لَكُمْ﴾ هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ هُوَ التَّصَدِيقُ، لَا غَيْرَ؛ لِأَنَّ السَّحْرَةَ لَمَّا^(٦) ﴿قَالُوا مَا نَا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ قَالَ لَهُمْ: ﴿فِرْعَوْنُ مَا أَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ مَآذَنَ لَكُمْ﴾ وَهُمْ لَمْ يَأْتُوا بِسُورَى التَّصَدِيقِ الْفَرْدِ، لَا غَيْرَ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَكَزَكْرٌ مَكْرُومٌ﴾ أَيْ شَيْءٌ صَنَعْتُمُوهُ فِي مَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ مُوسَى؟ وَهُوَ كَمَا قَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿إِنَّهُ لَكَيْدٌ كُذِّبَ عَنْكُمْ عَلَى السَّحْرِ﴾ [طه: ٧١].

الآية ١٢٤ وقوله تعالى: ﴿لَا تَقْطَعْنَ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافِ﴾ هَذَا لِحَبْلِهِ بِأَشَدِّ الْعُقُوبَةِ وَالتَّكَالِ، وَإِلَّا لَمْ يُوعِظْهُمْ بِقَطْعِ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلِ مِنْ خِلَافِ، إِذْ ذَلِكَ أَيْسَرُ، وَأَقْلُ فِي الْعُقُوبَةِ مِنَ الْقَطْعِ مِنْ جَانِبِ. وَالْقَطْعُ مِنْ جَانِبِ أَشَدُّ وَأَنْكَلُ مِنَ الْقَطْعِ مِنْ خِلَافِ، إِذْ الْقَطْعُ مِنْ خِلَافِ لَا يَمْنَعُ الْقِيَامَ بِبَعْضِ الْمَنَافِعِ، وَلَا يَعْمَلُ فِي إِتْلَافِ النَّفْسِ؛ إِذْ جَعَلَ ذَلِكَ حَدًّا فِي بَعْضِ الْعُقُوبَاتِ، وَلَمْ يَجْعَلِ الْقَطْعَ مِنْ جَانِبِ عُقُوبَةً بِحَالٍ دَلَّ أَنَّهُ أَشَدُّ وَأَنْكَلُ، وَيَعْمَلُ فِي إِهْلَاكِ النَّفْسِ، وَالْقَطْعُ مِنْ خِلَافِ لَا يَعْمَلُ.

دَلَّ أَنَّهُ لِحَبْلِهِ مَا قَالَ، أَوْ أَنَّهُ^(٧) اخْتَارَ الْقَطْعَ مِنْ خِلَافٍ لِتَكُونَ مُؤَنَّةُ الطَّلَبِ عَلَيْهِمْ لَا عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ الْمَقْطُوعَ مِنْ خِلَافٍ قَدْ يُمَكِّنُ لَهُ الصُّعُودَ عَلَى الْحَشِيَّةِ، وَالثَّانِي لَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٢٥ وقوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا إِنْ رَبَّنَا مُتَقَلِّبُونَ﴾ وقوله^(٨) فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿قَالُوا لَا صَبْرَ لَنَا إِنْ رَبَّنَا مُتَقَلِّبُونَ﴾ [الشعراء: ٥٠] هَذَا^(٩)، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، يُخَرِّجَانِ^(١٠) عَلَى وَجْهَيْنِ: [أَحَدُهُمَا: ^(١١)] عَلَى الْإِقْرَارِ مِنْهُمْ بِالْبَعْثِ وَالْإِيمَانِ بِهِ.

وَالثَّانِي: وَعِيدٌ مِنْهُمْ لِفِرْعَوْنَ حِينَ^(١٢) أَوْعَدَهُمْ بِقَطْعِ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلِ وَالصَّلْبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْعُقُوبَاتِ، فَقَالُوا: ﴿إِنَّا﴾ وَأَنْتَ ﴿إِنْ رَبَّنَا مُتَقَلِّبُونَ﴾ فَيُخْرِجِي، وَيُعَاقِبُ جَزَاءَ ضَيِّعِكَ رَبَّنَا.

الآية ١٢٦ وقوله تعالى: ﴿وَمَا نُنْقِمْ يَتًّا إِلَّا أَنْتَ مَا نَا رَبَّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا﴾ قِيلَ: لِوَجْهَيْنِ: قِيلَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا نُنْقِمْ يَتًّا﴾ أَيْ وَمَا تَعَبُّبُ عَلَيْنَا، وَتَطْعَنُ الْإِيمَانَ بِمَا كَانَ مَتْنًا مِنَ الْإِيمَانِ ﴿يَتَّا رَبَّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا﴾ وَهُوَ مَا جَاءَهُمْ مِنَ الْآيَاتِ. وَقِيلَ: وَمَا تَعَاقَبْنَا، وَمَا تَتَّقِمُ ﴿يَتًّا إِلَّا أَنْتَ مَا نَا رَبَّنَا﴾ وَكَانَ الْحَقُّ عَلَيْنَا، وَعَلَيْكَ أَنْ تُؤْمِنَ بِهَا كَمَا آمَنَّا نَحْنُ.

(١) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: تَخْلِيف. (٣) ساقطة من الأصل وَم. (٤) ساقطة من الأصل وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: رَسُولًا. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: لِأَنَّهُمْ قَالُوا السَّحْرَةَ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنْ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: هَذَا. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: يَخْرُج. (١١) ساقطة من الأصل وَم. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ قوله تعالى: ﴿أَفْرِغْ﴾ قيل: انزل ﴿عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ وقيل: أنعم لنا صبراً. وقيل: اضرب ﴿عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ وهو كله واحد.

ثم يَحْتَمِلُ سؤَالُهُمُ الصَّبْرَ لِمَا لَعَلَّهُ إِذَا فَعَلَ بِهِمْ بِمَا أَوْعَدَ مِنَ الْعُقُوبَاتِ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى التَّصَبُّرِ، فَيَتَرَكُوا^(١) الإِيمَانَ. لِذَلِكَ سَأَلُوا رَبَّهُمُ الصَّبْرَ عَلَى ذَلِكَ لِيُثْبِتُوا عَلَى الإِيمَانِ بِهِ.

[وقوله تعالى] (٢): ﴿وَتَوَقَّأْ مُسْلِمِينَ﴾ سَأَلُوا رَبَّهُمْ أَيْضاً التَّوَقُّفَ عَلَى الإِسْلَامِ. وَهَكَذَا كَانَ دُعَاءُ الْأَنْبِيَاءِ كَمَا قَالَ يُوسُفُ: ﴿تَوَقَّأْ مُسْلِمًا﴾ الآية: [يوسف: ١٠١] وكذلك كَانَ أَوْسَى / ١٨٣ - إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ جِبْنَ^(٣) قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَصْلَقُ لَكُمْ الْبَرِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢] وَهَكَذَا الْوَاجِبُ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُسْلِمٍ أَنْ يَتَضَرَّعَ إِلَى اللَّهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ، وَيَتَهَيَّلَ إِلَيْهِ فِي كُلِّ سَاعَةٍ لِئَلَّا يُسَلِّبَ الْإِيمَانَ لِكُنْهِبِ يَكْتَسِبُهُ؛ إِذِ الْأَنْبِيَاءُ وَالرُّسُلُ، صَلَّوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، مَعَ عِصْمَتِهِمْ كَانُوا يَخَافُونَ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنَّ الْعِصْمَةَ لَا تُسْقِطُ الْخَوْفُ، وَلَا تُؤْمِنُ مِنَ الزَّلَّاتِ.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ دلالة على أنهم علموا أنهم إذا أفرغ عليهم الصبر صبروا؛ إذ لو لم يعلموا ذلك لم يكن لسؤالهم الصبر معنى.

فهذا على الْمُعْتَزِلَةِ في قولهم: إنه [لا] يُفْرِغُ، وَلَا يُصَبِّرُ، وإنه قد أعطاهم غاية ما يصلح في الدين، فدلَّ سؤالهم ذلك على أنه لم يُعْطِهِمْ، وَأَنَّ عِنْدَهُ مَزِيداً^(٥) لو أُعْطِيَ لَهُمْ ذَلِكَ كَانَ.

[وقوله تعالى] (٦): ﴿وَقَالَ الْكَلْبُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَنْذَرْتُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُقِيدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ قَالَ بَغْضُهُمْ: فِي إِخْرَاجِكُمْ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ وَإِفْسَادِهِمْ^(٧) الْعَيْشَ عَلَيْكُمْ، أَوْ مَا ذَكَرَ مِنْ تَرْكِ عِبَادَةِ فِرْعَوْنَ وَخِدْمَتِهِ [بقولهم] (٨): ﴿وَيَذَرُكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ وَقَدْ قُرِئَ بِأَلِهَتِكَ فَمَنْ قَرَأَ ﴿وَأَلِهَتَكَ﴾ حَمَلَهُ عَلَى الْعِبَادَةِ: أَيِ ﴿وَيَذَرُكَ﴾ وَعِبَادَتِكَ. وَمَنْ قَرَأَ بِأَلِهَتِكَ^(٩) وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ، وَقَالُوا: إِنَّ فِرْعَوْنَ قَدْ كَانَ جَعَلَ لِقَوْمِهِ آلِهَةً يَعْبُدُونَهَا لِيَتَقَرَّبُوا بِعِبَادَتِهِمْ تِلْكَ الْأَصْنَامَ إِلَى فِرْعَوْنَ عَلَى مَا كَانَ يَعْبُدُ أَهْلُ الشَّرِّكَ الْأَصْنَامَ دُونَ اللَّهِ، وَيَقُولُونَ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُعَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ وَذُقْ﴾ [الزمر: ٣] ﴿وَيَذَرُكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ الَّتِي جَعَلْتَ لَهُمْ.

وقال آخَرُونَ: إِنَّ فِرْعَوْنَ كَانَ يَعْبُدُ الْأَصْنَامَ وَالْأوثَانَ عَلَى مَا عَبَدَ غَيْرُهُ. وَقَالَ غَيْرُهُمْ: لَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هُوَ [يَعْبُدُ]^(١٠) الْأَصْنَامَ عَلَى مَا ذَكَرْنَا. أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾؟ [النازعات: ٢٤] ثُمَّ ﴿قَالَ سَتَقِفِلُ آبَاءَهُمْ وَنَسَبَهُمْ﴾؟

وقال^(١١) بَغْضُهُمْ: قوله تعالى: ﴿سَتَقِفِلُ آبَاءَهُمْ﴾ يعني رجالهم ﴿وَنَسَبَهُمْ﴾ نِسَاءَهُمْ. لِأَنَّهُ لَا يَحْتَمِلُ قَتْلَ الْأَبْنَاءِ وَلَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ إِلَيْهِ صُنْعٌ؛ إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ مِنَ الرِّجَالِ.

وقال بَغْضُهُمْ: قَدْ كَانَ فِرْعَوْنُ يَقْتُلُ أَبْنَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْعَامِ الَّذِي قِيلَ لَهُ: إِنَّهُ يُؤَلَّدُ مَوْلُودٌ، يَذْعَبُ بِمُلْكِكَ، وَيُغَيِّرُ دِينَ الْأَرْضِ، فَلَمْ يَزَلْ يَقْتُلُ^(١٢) فِي ذَلِكَ الْعَامِ الْأَبْنَاءَ، وَيَتْرَكُ الْبَنَاتِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿سَتَقِفِلُ آبَاءَهُمْ وَنَسَبَهُمْ﴾ نِسَاءَهُمْ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا قَوْقُهُمْ فَلْيَهْرُوثِ﴾ قيل: مُسَلِّطُونَ عَلَيْهِمْ. فَإِنْ قِيلَ لَنَا: مَا الْحِكْمَةُ فِي ذِكْرِ هَذِهِ الْقِصَصِ وَالْأَنْبَاءِ السَّالِفَةِ فِي الْقُرْآنِ؟ قِيلَ: لِيُوجِوهَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[أخذها] (١٣): أَنَّ فِيهَا دَلِيلَ إِبْثَابِ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَنُبُوءِهِ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْقِصَصَ وَالْأَنْبَاءَ كَانَتْ فِي كُتُبِهِمْ مُبَيَّنَةً، وَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ لِسَانَهُ كَانَ عَلَى غَيْرِ مَا كَانَتْ كُتُبُهُمْ، وَعَرَفُوا أَنَّهُ لَمْ يَخْتَلِفْ إِلَى أَحَدٍ مِمَّنْ يَعْرِفُ ذَلِكَ لِيَتَعْلَمَ مِنْهُ، وَلَا سَمِعَ عَنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ، ثُمَّ أَنْبَاهُمْ عَلَى مَا كَانَتْ. دَلَّ أَنَّهُ إِنَّمَا عَرَفَ ذَلِكَ بِمَنْ يَعْلَمُ عِلْمَ الْغَيْبِ.

(١) في الأصل وم: فيتركون. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: مزيد. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: وإفسادكم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) انظر معجم القراءات القرآنية [٣٩٣/٢]. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: يقتلهم. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

والثاني: أَنَّ الْبَشَرَ جُبِلُوا عَلَى حُبِّ السَّمْعِ إِلَى الْأَخْبَارِ وَالْأَحَادِيثِ، وَحُبِّ ذَلِكَ [إِلَى] ^(١) قُلُوبِهِمْ حَتَّى إِنْ وَاحِدًا مِنْهُمْ يُؤَلِّدُ أَحَادِيثَ، وَيُنْشِئُهَا مِنْ ذَاتِ نَفْسِهِ لِأَن يَسْتَمِعُوا فِي ذَلِكَ إِلَيْهِ، وَيَسْمَعُوا مِنْهُ فَذَكَرَ لَهُمْ هَذِهِ الْأَنْبَاءَ وَالْقِصَصَ لِيَكُونَ اسْتِمَاعُهُمْ إِلَيْهَا وَسَمَاعُهُمْ لَهَا. وَذَلِكَ أَحْسَنُ وَأَوْفَقُ؛ إِذْ أَخْبَرَ أَنَّ ذَلِكَ أَحْسَنُ الْقِصَصِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقِصَصِ﴾ [يوسف: ٣].

والثالث: ذَكَرَ لَهُمْ هَذَا لِيَعْلَمُوا مَا حَلَّ بِهِمْ فِي الْعَاقِبَةِ مِنَ الْهَلَاكِ وَالْإِسْتِصَالِ وَأَنْوَاعِ الْعَذَابِ بِفَسَادِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ الرُّسُلَ، وَمَا عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِ مِنْهُمْ وَالْمُضْلِحِ لِيَكُونَ ذَلِكَ زَجْرًا لَهُمْ عَنْ صَنِيعِ مِثْلِهِمْ.

والرابع: ذَكَرَ لِيَعْرِفُوا كَيْفَ كَانَتْ مُعَامَلَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ أَعْدَاءَهُمْ وَمُعَامَلَةُ الْأَعْدَاءِ الرُّسُلَ لِيَعَامِلُوا أَعْدَاءَهُمْ مِثْلَ مُعَامَلَتِهِمْ.

والخامس: أَنَّهُمْ كَانُوا يُنْكِرُونَ أَنَّ يَكُونَ مِنَ الْبَشَرِ رَسُولٌ ^(٢)، فَأَخْبَرَ أَنَّ الرُّسُلَ الَّذِينَ ^(٣) كَانُوا مِنْ قَبْلُ كَانُوا كُلُّهُمْ مِنَ الْبَشَرِ. والسادس: أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ هَذِهِ الْأَصْنَامَ وَالْأَوْثَانَ، وَيَقُولُونَ: ﴿بَلْ وَصَدَّكَ أَيُّهَا كَذَلِكَ يَقُولُونَ﴾ [الشعراء: ٧٤] [وَيَقُولُونَ] ^(٤): ﴿وَلَا عَلَى آثَرِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] فَأَخْبَرَ أَنَّ فِي آيَاتِهِمُ السَّعْدَاءِ، وَهُمْ الْأَنْبِيَاءُ، وَالْأَشْقِيَاءَ، فَكَيْفَ أَتَدْرِيْتُمْ أَنْتُمْ بِالْأَشْقِيَاءِ مِنْهُمْ؟ وَهَلَّا اتَّبَعْتُمُ السَّعْدَاءَ ^(٥) دُونَ الْأَشْقِيَاءِ.

والسابع: فِيهَا أَنَّ كَيْفَ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ؟ عَرَّفْنَا الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَمَنْ يَأْمُرُ بِهِ، وَمَنْ يَنْهَى عَنْهُ، أَيْضًا أَنَّ فِيهِ ذَكَرَ الصَّالِحِينَ مِنْهُمْ، بَعْدَ مَا نَوَّاهُ، وَأَنْقَرَضُوا كَانُوا ^(٦) بِالذِّكْرِ كَالْأَحْيَاءِ.

الآية ١٢٨ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَسْتَعِينُوا﴾ عَلَى آدَاءِ طَاعَتِهِ ﴿وَاصْبِرُوا﴾ رُبَّمَا تَتَقَرَّبُونَ بِهِ إِلَى اللهِ وَيَكُونُ لَكُمْ ^(٧) زُلْفَى لَدِيهِ. أَوْ أَنَّ يَقُولُ ^(٨) لَهُمْ: ﴿أَسْتَعِينُوا بِاللهِ﴾ لِلنَّصْرِ ^(٩) لَكُمْ وَالظَّفَرِ ﴿وَاصْبِرُوا﴾ عَلَى آذَانِهِمُ وَالْبَلَاءِ.

[وَقَوْلُهُ تَعَالَى] ^(١٠): ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ يَحْتَمِلُ هَذَا وَجْهَيْنِ: يَحْتَمِلُ أَنْ يُخْرِجَ ذَلِكَ مِنْ مُوسَى مَخْرَجَ الْوَعْدِ لَهُمْ بِالنَّصْرِ وَالظَّفَرِ عَلَى الْأَعْدَاءِ وَجَعَلَ الْأَرْضَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ إِهْلَاكِ الْعَدُوِّ. وَهُوَ كَمَا ذَكَرْنَا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿وَيُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَفْضَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥].

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُخْرِجَ ذَلِكَ مِنْهُ مَخْرَجَ التَّضْيِيرِ عَلَى الرِّضَا بِقَضَاءِ اللهِ تَعَالَى أَنَّ الْأَرْضَ لَهُ، يُصَيِّرُهَا لِمَنْ يَشَاءُ، فَاصْبِرُوا أَنْتُمْ عَلَى الْبَلَايَا، وَارْضُوا بِقَضَائِهِ.

[وَقَوْلُهُ تَعَالَى] ^(١١): ﴿وَالْمُتَّقِينَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [قَالَ الْحَسَنُ] ^(١٢) أَيِ الْآخِرَةِ لِلْمُتَّقِينَ خَاصَّةً، وَأَمَّا الدُّنْيَا فَإِنَّهَا بِالشَّرَكَةِ بَيْنَ أَهْلِ الْكُفْرِ وَأَهْلِ الْإِسْلَامِ؛ يَكُونُ لِهَؤُلَاءِ مَا لِأُولَئِكَ. وَأَمَّا الْآخِرَةُ فَلَيْسَتْ لِلْكَافِرِ، إِنَّمَا هِيَ لِلْمُؤْمِنِينَ خَاصَّةً. وَهُوَ مَا ذَكَرَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ﴾ [الزخرف: ٣٣] فَعَلَى ذَلِكَ هَذَا، وَاللهُ أَعْلَمُ. وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿وَالْمُتَّقِينَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أَيِ عَاقِبَةُ الْأَمْرِ بِالنَّصْرِ وَالظَّفَرِ لِلْمُتَّقِينَ عَلَى أَعْدَائِهِمْ، وَإِنْ كَانَ فِي الْوَعْدَةِ ^(١٣) الْأَوَّلَى عَلَيْهِمْ.

الآية ١٢٩ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالُوا أَوْزَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِيَنَا مِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ يُخْرِجُ هَذَا عَلَى وَجْهَيْنِ.

أَحَدُهُمَا: أَنَّ يُخْرِجَ مَخْرَجَ اسْتِظْهَارِ النَّصْرِ وَالظَّفَرِ لَهُمْ؛ كَأَنَّهُمْ اسْتَبْطَؤُوا النَّصْرَ وَإِهْلَاكَ الْعَدُوِّ وَالظَّفَرَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ لَهُمْ مُوسَى: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عَدُوُّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾.

(١) ساقطة من الأصل، في م: في. (٢) في الأصل وم: رسولاً. (٣) في الأصل وم: الذي. (٤) ساقطة من الأصل وم: (٥) في الأصل وم: بالسعداء. (٦) في الأصل وم: فكانوا. (٧) في الأصل وم: لهم. (٨) في الأصل وم: يقولوا. (٩) في الأصل وم: بالنصر. (١٠) ساقطة من الأصل وم: (١١) ساقطة من الأصل وم: (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) من م، في الأصل: الدفعة.

والثاني: أَنْ يُخْرِجَ مُخْرِجَ الْإِغْتِدَارِ لِمُوسَى لَمَّا خَظَرَ بِبَالٍ مُوسَى أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْبَلَايَا وَالشَّدَائِدِ إِنَّمَا كَانَ لِسَبَبِهِ وَلِمَكَانِهِ، فَقَالُوا ذَلِكَ لَهُ اغْتِدَاراً مِنْهُمْ لَهُ: أَنْ قَدْ أَصَابَنَا ذَلِكَ نَحْنُ ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَرَبِّ مَا جِئْتَنَا﴾ لِثَلَا يَوْمَهُمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ ذَلِكَ، أَوْ يَخْطَرُ بِبَالِهِمْ ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وجائزُ أَنْ يَكُونُوا قَالُوا ذَلِكَ عَلَى التَّغْيِيرِ لَهُ وَالتَّوْبِخِ؛ يَقُولُونَ: لَمْ يَزَلْ^(١) يُصِيبُنَا مِنَ الْأَذَى لِسَبَبِكَ وَلَا جِلِكَ ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا﴾ مِنَ الْإِسْتِخْدَامِ ﴿وَرَبِّ مَا جِئْتَنَا﴾ مِنْ أَنْوَاعِ الضَّرَرِ.

وقوله تعالى: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ وَالـ ﴿عَسَى﴾ مِنَ اللَّهِ وَاجِبٌ، فَوَعْدَ لَهُمْ إِهْلَاكَ الْعَدُوِّ وَاسْتِخْلَافَهُمْ فِي الْأَرْضِ.

وقَالَ بَغُضِّ أَهْلِ الثَّأْوِيلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْدَيْنَا﴾ فِي سَبِيلِكَ ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا﴾ بِالرَّسَالَةِ، وَيَعْنُونَ بِالْأَذَى قَتْلَ الْأَبْنَاءِ وَاسْتِخْدَامَ النِّسَاءِ ﴿وَرَبِّ مَا جِئْتَنَا﴾ بِالرَّسَالَةِ مِنَ الشَّدَائِدِ الَّتِي أَصَابَتْهُمْ مِنْ بَعْدِ؛ لَكِنَّ الْأَوَّلَ أَقْرَبُ وَأَشْبَهُ.

وقوله تعالى: ﴿فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ يَحْتَمِلُ هَذَا أَيْضاً وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنْ يَجْعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ، وَيُوسِّعَ عَلَيْكُمْ الرِّزْقَ؛ يَمْتَحِنُكُمْ فِي ذَلِكَ، وَيَبْتَلِيكُمْ، لَا أَنَّهُ يَجْعَلُ لَكُمْ ذَلِكَ عَلَى غَيْرِ امْتِحَانٍ؛ تَعْمَلُونَ مَا شِئْتُمْ فِي ذَلِكَ.

والثاني: يَمْتَحِنُكُمْ بِالشَّدَائِدِ وَالْبَلَايَا لِيَنْظُرَ كَيْفَ تَصْبِرُونَ عَلَى ذَلِكَ. وَيَحْتَمِلُ وَجْهاً آخَرَ؛ وَهُوَ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ﴾ كَيْفَ تَشْكُرُونَ رَبُّكُمْ فِي مَا أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ؟ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَيَنْظُرَ كَيْفَ﴾ الْوَاقِعَ لَكُمْ مِنَ الْجَزَاءِ وَالثَّوَابِ.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾ أَمَرَهُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. يَطْلُبُ الْمَعُونَةَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى قَضَاءِ جَمِيعِ حَوَائِجِهِمْ دِيناً وَدُنْيَا. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عَلَى طَلَبِ التَّوْفِيقِ لِمَا أَمَرَ بِهِ وَالْعِصْمَةَ عَمَّا حَذَرَهُمْ عَنْهُ. وَكَذَلِكَ الْأَمْرُ الْبَيِّنُ فِي الْخَلْقِ مِنْ طَلَبِ التَّوْفِيقِ وَالْمَعُونَةِ مِنَ اللَّهِ وَالْعِصْمَةِ / ١٨٣ - ب/ عَنِ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ جَرَتْ بِهِ سُنَّةُ الْأَخْيَارِ، وَبِاللَّهِ الْمَعُونَةُ.

ثُمَّ لَا يَصِحُّ ذَلِكَ عَلَى قَوْلِ الْمُعْتَرِزَةِ لِأَنَّ الدُّعَاءَ بِالْمَعُونَةِ عَلَى آدَاءِ مَا كُتِفَ، وَقَدْ أُعْطِيَ؛ إِذْ عَلَى قَوْلِهِمْ: لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَرْءُ مُكَلِّفاً، قَدْ بَقِيَ شَيْءٌ مِمَّا بِهِ آدَاءُ مَا كُتِفَ عِنْدَ اللَّهِ، وَطَلَبُ مَا أُعْطِيَ كِثْمَانٌ لِلْعِطِيَّةِ، وَكِثْمَانٌ الْعِطِيَّةِ كُفْرَانٌ، فَيَصِيرُ كَأَنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِكُفْرَانِ نِعَمِهِ وَكِثْمَانِهَا وَطَلَبِهَا مِنْهُ تَعْتَباً، وَظُلٌّ مِثْلُهُ بِاللَّهِ كُفْرٌ. ثُمَّ لَا يَخْلُو مِنْ أَنْ يَكُونَ عِنْدَ اللَّهِ مَا يَطْلُبُ، فَلَمْ يُعْطِ التَّمَامَ إِذْنًا، أَوْ لَيْسَ عَنْدهُ، فَيَكُونُ طَلَبُهُ مِنْهُ اسْتِهْزَاءً بِهِ، إِذْ مَنْ طَلَبَ إِلَى آخَرٍ مَا يَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ عَنْدهُ فَهُوَ هَازِئٌ بِهِ فِي الْعُزْفِ مَعَ مَا كَانَ الَّذِي يَطْلُبُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ الْآلَا يُعْطِيهِ مَعَ التَّكْلِيفِ، فَيَبْطُلُ قَوْلُهُمْ: لَا يَجُوزُ أَنْ يُكَلَّفَ، وَعَنْدهُ مَا بِهِ الصَّلَاحُ فِي الدِّينِ، فَلَا يُعْطِي، وَإِنَّمَا^(٢) لَيْسَ لَهُ الْآلَا يُعْطِي، فَكَانَهُ قَالَ: اللَّهُ لَا تَجْرُ، وَلَا تَظْلِمَ. وَمِنْ هَذَا عِلْمُهُ بِرَبِّهِ فَالْإِسْلَامُ أَوَّلَى بِهِ، فَهَذَا مَعَ مَا يَدْعُو اللَّهَ أَحَدٌ بِالْمَعُونَةِ الْآ^(٣) يَطْمَئِنُّ قَلْبُهُ أَنَّهُ لَا يَزُلُ عِنْدَ الْمَعُونَةِ، وَلَا يَزِيغُ عِنْدَ الْعِصْمَةِ، وَلَيْسَ مِثْلُهُ يَمْلِكُ اللَّهُ عِنْدَ الْمُعْتَرِزَةِ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

الآية ١٣٠ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّيْنِ وَنَقَّصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه [أَنَّهُ قَالَ: ﴿بِالسِّيْنِ﴾^(٤) بِالْجُوعِ، وَقِيلَ: بِالْقَحْطِ، [وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿بِالسِّيْنِ﴾^(٥) بِالْحَوَائِجِ وَنَقَّصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ] دُونَ ذَلِكَ. وَقَالَ الْقُتَيْبِيُّ: ﴿بِالسِّيْنِ﴾ بِالْجَذْبِ؛ يُقَالُ: أَصَابَ النَّاسَ سَنَةٌ أَيْ جَذَبَتْ.

فَإِنْ قِيلَ: ذَكَرَ أَنَّهُ أَخَذَ آلَ فِرْعَوْنَ، وَكَانَ فِيهِمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ، فَمَا مَعْنَى التَّخْصِيسِ؟ قِيلَ: يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ لَهُمْ خَاصَّةً

(١) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: يَنْزِلُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَلَا. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: ﴿بِالسِّيْنِ﴾ قَالَ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَمُجَاهِدٌ ﴿بِالسِّيْنِ﴾ قَالَ.

دون بني إسرائيل، وإن كان فيهم، على ما ذكر في بغض القصة أن القبط كانوا يشرّبون الدّم، وبنو إسرائيل الماء، أو كان الجذب والتقص من الثمرات يضر آل فرعون، ولا يضر بني إسرائيل، لما أنهم كانوا يأكلون للشهوة، وبنو إسرائيل للحاجة. فمن يأكل للحاجة كان أقل حاجة إلى الطعام ممن^(١) يأكل للشهوة. فإذا لم يجدوا ما يأكلون للشهوة كان لهم ما أضر بهم. ألا ترى أنه قيل: يأكل المؤمن في معنى واحد، والكافر بسبعة أعماء؟

أو خرج تخصيص ذلك لهم لما أن في عقد بني إسرائيل أن الله^(٢) أن يمتحنهم بجميع أنواع المحن مرة بالشدّة ومرة بالسعة، وفي^(٣) عقد القبط لا، فأضيف إليهم ذلك لما لم يكن في عقدهم ذلك، وإن كانوا جميعاً في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ أي يتعظون و: لعل من الله واجب [أن يتعظوا]^(٤) لكنهم عاندوا، وكابروا، وألا قد لزمهم الاتعاض.

الآية ١٣١

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ أي الخصب والسعة [وقوله تعالى]^(٥): ﴿لَنَا هَذِهِ﴾ أي هذا ما كنا نعرفه أبداً، وما جربنا على اغتياده. أو أن يقولوا: ﴿لَنَا هَذِهِ﴾ بفرعون وعبادتنا له.

[وقوله تعالى]^(٦): ﴿وَأَن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ قيل: الضيق والفقير ﴿يَقُولُوا يُمُوسَى﴾ ويقولوا^(٧): بشؤمي. وهذا كما قال العرب لمحمد ﴿وَأَن تُصِيبَهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذَا مِن عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذَا مِن عِندِكَ﴾ [النساء: ٧٨] كانوا يضيفون ما يصيبهم من الحسنة إلى الله؛ لأنهم كانوا يقولون بالله، والقبط لا يقولون ذلك، بل يقولون للناس من فرعون، أو على الإغتياد، فقال ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨].

فعلى ذلك قال ههنا ﴿آلَا إِنَّمَا ظَلَمْتُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ ثم يَحْتَمِلُ هذا وجوهاً: قيل: جزاء تطيرهم عند الله في الآخرة؛ وقيل: طائرهم وشؤمهم الذي كانوا تطيروا بموسى كان يتكذّبهم موسى، أضاف ذلك إلى ما عنده من الآيات؛ لأنهم ينزول تلك الآيات تجدد تطيرهم وتشاؤمهم.

وقال بغضهم: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ظَلَمْتُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ فكذلك قال في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَتَّخِذُوا مِصْرَ﴾ [الإسراء: ١٣] وهو كما ذكرنا: ﴿فَرَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥] لما كذبوا تلك الآيات زاد ما نزل من الآيات من بعد رجساً إلى رجسهم. فعلى ذلك شؤمهم وطائرهم الذي كان^(٨) يتكذّبهم موسى.

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُوا مِّنَ الطَّيْرِ﴾ وهو من الشاؤم، تشاءمُ بفلان؛ أي قلت: هو غير مبارك^(٩) وتطيرت بفلان أيضاً. مثله يقال^(١٠): تبركت به إذا قلت: هو مبارك. ويقال: تطيرت، واطيرت منه وبه.

[وقوله تعالى]^(١١): ﴿آلَا إِنَّمَا ظَلَمْتُمْ﴾ أي شؤمهم ذاك الذي يخافون منه؛ هو من عند الله ولكن أكفرهم لا يملكون بأنه من عند الله، كان يتكذّبهم موسى.

الآية ١٣٢

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ قال أبو بكر الكيساني: تأويله: كلما تأتينا آية تريد أن تسحرنا ﴿بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ وقال ابن عباس والحسن وهؤلاء: أي ما ﴿تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا﴾ الآية، وقوله: مَهْ زيادة، وهو قول القشيري. ومعناه: أي ما تأتينا من آية.

وقال الخليل: هو في الأصل: ما ما إحداهما زيادة، فطرح الألف، وأبدلت مكانها هاء طلباً للتخفيف. وقال سيبويه التحوي: قوله تعالى: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ﴾ أي مَهْ، كأنهم قالوا له: مَهْ؛ أي اسكت كما يقول الرجل لآخر: مَهْ؛ أي اسكت، ما ﴿تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

(١) في الأصل وم: فمن. (٢) في الأصل وم: الله. (٣) في الأصل وم: ومن. (٤) في الأصل وم: قد اتعظوا. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: وقالوا. (٧) في الأصل وم: وقالوا. (٨) في الأصل وم: كانوا. (٩) من م، في الأصل: عبادك. (١٠) في الأصل وم: ويقال. (١١) ساقطة من الأصل وم.

والسَّحَرُ هو التَّخْيِيرُ وأخذ الأنصار، ولا حَقِيقَةً [١] ﴿لَهُ﴾ كقولهِ تعالى: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١] أي مُتَحَيَّرًا، وقوله تعالى: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ [الأعراف: ١١٦].

ثم دَلَّ قولُهُمْ: ﴿مَهْمَا تَأْتِيَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أَنَّ مَا قَالُوا: إِنَّ هَذَا سَاحِرٌ، وإنَّهُ سَحَرَ عَنْ عِلْمِ بِالْآيَةِ وَالتَّبَوُّةِ لَهُ، قَالُوا ذَلِكَ لَا عَنْ جَهْلٍ وَغَفْلَةٍ جَبِينٍ ^(٢) قَالُوا: ﴿مَهْمَا تَأْتِيَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ذَلِكَ مِنْهُمْ إِيَّاسٌ عَنِ الْإِيمَانِ بِهِ وَقَبُولِ الْآيَاتِ، لِأَنَّهُمْ أَخْبَرُوا أَنَّهُمْ لَا يَقْبَلُونَ الْآيَاتِ، وَلَا يُصَدِّقُونَهُ فِي ذَلِكَ.

الآية ١٣٣ وقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ﴾ إلى آخِرِ مَا ذَكَرَ. قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: قَالُوا: ذَلِكَ أَرْسَلَ اللَّهُ بَعْدَ السَّنِينَ وَنَقِصِ الثَّمَرَاتِ الطُّوفَانَ وَالْآيَاتِ الَّتِي ذَكَرَ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا، وَإِنْ كَانَ مُؤَخَّرًا فِي الذِّكْرِ، فَهُوَ مُقَدَّمٌ لِمَا قَالَ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقِصِ الثَّمَرَاتِ﴾ ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ﴾ إِلَى آخِرِهِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أَيِ يَتَعَفَّوْنَ.

ثُمَّ اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي الطُّوفَانِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: الطُّوفَانُ الْمَاءُ وَالْمَطَرُ حَتَّى خَافُوا الْهَلَاكَ، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَعَنْ عَائِشَةَ [أَنِهَا] ^(٣) قَالَتْ: «سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الطُّوفَانِ، فَقَالَ: الْمَوْتُ» [أَبُو دَاوُدَ: ٣٨١٣]. فَإِنْ ثَبَتَ فَهُوَ هُوَ. وَقِيلَ: الطُّوفَانُ هُوَ أَنْوَاعُ الْعَذَابِ.

وَالْجَرَادُ هُوَ الْمَعْرُوفُ، وَالْقُمَّلُ هُوَ بَنَاتُ الْجَرَادِ؛ يُقَالُ: الدَّيْبَى، وَقِيلَ: هُوَ الْجَرَادُ الصَّغِيرُ الَّتِي لَا أُجْنِحَةُ لَهَا ﴿وَالصَّفَايَ وَالَّذِمَّ أَلَيْنِي مُفَصَّلَتِي﴾ أَيِ مُفَرَّقَاتٍ [وَاحِدَةٌ بَعْدَ وَاحِدَةٍ] ^(٤) لَمْ يُرْسَلِ آيَةٌ إِلَّا بَعْدَ ذَهَابِ أُخْرَى [بَلْ أَرْسَلْ] ^(٥) بَعْضُهَا عَلَى آثَرِ بَعْضٍ.

وَقِيلَ: ﴿مُفَصَّلَتِي﴾ أَيِ بَيِّنَاتٍ وَاضِحَاتٍ مَا عَلِمَ كُلُّ أَحَدٍ [أَنَّهُ لَا يَسْتُ مِنْ أَحَدٍ، وَلَيْسَتْ] ^(٦) مِنْ عَمَلِ السَّحَرِ، وَلَكِنْ آيَاتٌ سَمَاوِيَّةٌ؛ [فَلَوْ كَانَتْ] ^(٧) سِحْرًا لَتَكَلَّفُوا فِي دَفْعِهِ ^(٨)، وَاشْتَغَلُوا بِالسَّحَرِ عَلَى مَا اشْتَغَلُوا بِسِحْرِ الْعَصَا وَالْجِبَالِ. فَإِذَا لَمْ يَتَكَلَّفُوا فِي ذَلِكَ لَمْ يَشْتَغِلُوا بِدَفْعِ ذَلِكَ، بَلْ فَرَعُوا إِلَى مُوسَى لِيُكَشِفَ ذَلِكَ عَنْهُمْ، وَوَعَدُوا لَهُ الْإِيمَانَ بِهِ وَإِرْسَالَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَعَهُ.

دَلَّ فَرَعُهُمْ إِلَيْهِ فِي كُشْفِ ذَلِكَ عَنْهُمْ عَلَى أَنَّهُمْ قَدْ عَرَفُوا [أَنَّهُ لَا يَسْتُ بِسِحْرِ، وَلَكِنَّهَا آيَاتٌ] ^(٩) أَقْرَبُوا بِهَا أَنَّهُ لَا يَسْتُ بِسِحْرِ، وَأَنَّهَا آيَاتٌ. إِلَّا أَنَّهُمْ فَرَعُوا عِنْدَ ذَلِكَ إِلَى مُوسَى.

الآية ١٣٤ فَقَالُوا ^(١٠): ﴿يَمُوسَىٰ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَلَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ وَوَعَدُوا لَهُ الْإِيمَانَ بِهِ وَبَعَثَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَعَهُ إِنْ كَشَفَ عَنْهُمْ الرِّجْزَ.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ مَا عَهِدَ لَكَ أَنْتَ مِنْ دَعْوَتِهِ أَجَابَكَ، وَقِيلَ: ﴿بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ أَنَا مِنْ أَمَتِكَ بِكَ، وَصَدَّقْنَاكَ، كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ، فَقَالُوا: ﴿لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَلَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَفَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزَ﴾ قِيلَ: الرِّجْزُ الْوَأْنُ الْعَذَابُ الَّذِي كَانَ نَزَلَ بِهِمْ مِنَ الطُّوفَانِ وَالْجَرَادِ وَالْقُمَّلِ وَالَّذِمِّ وَمَا ذَكَرَ. [لَئِنْ / ١٨٤ -] كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ كَلِمًا حَلَّ بِهِمْ نَوْعٌ مِنَ الْعَذَابِ، فَسَالُوا أَنْ يُكَشِفَ عَنْهُمْ، فَقَالُوا: ﴿لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَلَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ﴾ [الأعراف: ١٣٥] نَكُتُوا ذَلِكَ، وَعَادُوا إِلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ قَبْلُ.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) ساقطة من الأصل وم: (٤) في الأصل وم: واحد بعد واحد. (٥) ساقطة من الأصل وم: (٦) في الأصل وم: أنه ليس من أحد وليس. (٧) في الأصل وم: أن لو. (٨) في الأصل وم: وقعه. (٩) في الأصل وم: أنه ليس بسحر ولكنه آية. (١٠) في الأصل وم: فقال.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُمْ لِمُوسَى: ﴿أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لِيَن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَ لَكَ﴾ بَعْدَ مَا حَلَّ بِهِمْ أَنْوَاعُ الْعَذَابِ. عِنْدَ ذَلِكَ قَالُوا: ﴿لِيَن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَ لَكَ﴾ فَلَمَّا كَشَفَ عَنْهُمْ الرِّجْزَ نَكثُوا عَهْدَهُمْ، وَهُوَ قَوْلُهُمْ: ﴿لِيَن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَ لَكَ﴾ وَعَادُوا إِلَى مَا كَانُوا. فَعِنْدَ ذَلِكَ كَانَ مَا ذَكَرَ: ﴿فَلَنَقْصَا مِنْهُمْ﴾ [الأعراف: ١٣٦] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَنُؤْمِنَ لَكَ﴾ بِمَا تَدَّعِي بِأَنَّكَ رَسُولٌ ﴿وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أَمْكَنَ أَنْ يَكُونَ لَيْسَ عَلَى نَفْسِ الْإِسْرَءِيلِ وَلَكِنْ عَلَى تَرْكِ الْإِسْتِعْبَادِ؛ أَيْ لَا نَسْتَعِيدُهُمْ بَعْدَ هَذَا؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَسْتَعِيدُونَ بَنِي إِسْرَءِيلَ.

الآية ١٣٥ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ الْآخِلَ أَجَلُ هُمْ بَلِغُوا إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ قَالَ الْحَسَنُ: قَوْلُهُ ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ الْآخِلَ أَجَلُ هُمْ بَلِغُوا﴾ وَلَوْ أَطَاعُوا، وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ الَّذِي عَاهَدُوا، وَلَكِنَّهُمْ لَمَّا نَكثُوا ذَلِكَ أَنْتَقَمَ مِنْهُمْ. وَهَذَا الْحَرْفُ يُؤَدِّي إِلَى مَذْهَبِ الْإِعْتِزَالِ؛ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ مَنْ قِيلَ، أَوْ عُدِّبَ تَغْذِيبَ إِهْلَاكِ، إِنَّمَا هَلَاكَ قَبْلَ أَجَلِهِ، وَأَجَلُهُ الْمَوْتُ. لَكِنْ هَذَا يَضْلُحُ بِمَنْ يَجْهَلُ الْعَوَاقِبَ.

وَأَمَّا اللَّهُ سُبْحَانَهُ يَتَعَالَى عَنْ ذَلِكَ أَنْ يَجْعَلَ لَهُ أَجَلَيْنِ: أَحَدُهُمَا: الْمَوْتُ، وَالْآخَرُ الْقَتْلُ. وَلَكِنْ جَعَلَ مَنْ فِي عِلْمِهِ أَنَّهُ يُقْتَلُ الْقَتْلَ، وَمَنْ يَمُوتُ حَتَفَ أَتْفِهُ الْمَوْتُ. وَكَذَلِكَ مَا رَوِيَ فِي الْخَبَرِ: «إِنَّ صَلَةَ الرَّجِيمِ تَزِيدُ فِي الْعُمْرِ» [ابن عساکر: ٥/ ٢١٠] أَيْ مَنْ عِلِمَ مِنْهُ أَنَّهُ يَصِلُ رَجْمُهُ جَعَلَ عُمُرُهُ أَزِيدَ وَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَصِلُ رَجْمُهُ، لَا إِنَّهُ يَجْعَلُ عُمُرُهُ إِلَى وَفَاتِهِ، ثُمَّ إِذَا وَصَلَ رَجْمُهُ زَادَ لِمَا ذَكَرْنَا أَنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ مَنْ يَجْهَلُ الْعَوَاقِبَ. وَأَمَّا مَنْ يَعْلَمُ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ أَنَّهُ لَوْ كَانَ كَيْفَ يَكُونُ؟ فَلَا.

الآية ١٣٦ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَنَقْصَا مِنْهُمْ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿فَلَنَقْصَا مِنْهُمْ﴾ مَا ذَكَرَ عَلَى إِثْرِهِ مِنَ الْفَرْقِ ﴿فَأَعْرِضْهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿فَلَنَقْصَا مِنْهُمْ﴾ مِنَ الطُّوفَانِ وَأَنْوَاعِ الْعَذَابِ الَّذِي كَانَ حَلَّ بِهِمْ، ثُمَّ كَانَ الْإِغْرَاقُ مِنْ بَعْدِهِ.

وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيَهُمْ كَذِبًا يَتَّبِعُونَ﴾ يَحْتَمِلُ الْآيَاتِ الَّتِي جَاءَ بِهَا مُوسَى عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى وَرُبُوبِيَّتِهِ، وَهِيَ الْحُجُجُ وَالْآيَاتُ الَّتِي تَقْدُمُ ذِكْرَهَا مِنَ الطُّوفَانِ وَالْجَرَادِ وَالْقُمَّلِ وَمَا ذَكَرَ. وَقَالَ الْحَسَنُ: ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ يَتَّبِعُونَ.

وقوله تعالى: ﴿وَكَاثُوا عَنَّا غَفِيلًا﴾ قِيلَ: مَغْرَضِينَ مُكَذِّبِينَ بِهَا، لَا أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى غَفْلَةٍ وَسَهْوٍ عَنْهَا، لَكِنَّهُمْ أَغْرَضُوا عَنْهَا مُكَابِرِينَ مُعَانِدِينَ كَانَهُمْ غَافِلُونَ^(١) عَنْهَا. وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونُوا^(٢) غَافِلِينَ عَمَّا يَحِلُّ بِهِمْ بِتَكْذِيبِهِمْ.

الآية ١٣٧ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَكْرِبَهَا﴾ هُوَ مَا سَبَقَ مِنَ الْوَعْدِ بِوَرَاثَةِ الْأَرْضِ فِيهَا وَإِنزَالِهِمْ فِيهَا، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَنِّي رَجُوكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَذْرَاكُمْ وَتَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٢٩] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَزِيدُ أَنْ تَكُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَجَمَعَهُمْ أَيْمَةً وَجَمَعَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥]. كَانَ وَعْدَهُمُ الْإِسْتِخْلَافَ وَالْإِنزَالَ فِي أَرْضِ^(٣) عَدُوِّهِمْ. ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ أَنْزَلَهُمْ، وَأَوْرَثَهُمْ عَلَى مَا وَعَدَ لَهُمْ يَقُولِي: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ﴾ بِاسْتِعْبَادِهِمْ ﴿مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَكْرِبَهَا﴾ قِيلَ فِيهِ بوجوه.

قِيلَ: ﴿مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَكْرِبَهَا﴾ مَمْلُكَةُ فِرْعَوْنَ مِصْرُ وَنَوَاحِيهَا مَا يَلِي نَاحِيَةَ الشَّرْقِ وَنَاحِيَةَ الْغَرْبِ.

وَقِيلَ: ﴿مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَكْرِبَهَا﴾ كَانَ فِي بَنِي إِسْرَءِيلَ مَنْ بَلَغَ مُلْكُهُ ﴿مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَكْرِبَهَا﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الجاثية: ١٦] قِيلَ: عَالَمِي زَمَانِهِمْ مِنْ نَحْوِ ذِي الْقَرْنَيْنِ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ.

وَقِيلَ: ﴿مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَكْرِبَهَا﴾ أَنْ تُضَلُّوا عَلَى أَهْلِ مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الجاثية: ١٦] قِيلَ: عَالَمِي زَمَانِهِمْ. ثُمَّ تَفْضِيلُهُ لِإِيَّاهُمْ عَلَى الْبَهَائِمِ بِالْجَوْهَرِ وَالْخَلْقَةِ، وَعَلَى الْجِنِّ بِالرَّسَالَةِ وَالنَّبُوَّةِ وَالْمَنَافِعِ، وَعَلَى جَوْهَرِهِمْ مِنْ بَنِي آدَمَ بِالرَّسَالَةِ وَالْحِكْمَةِ وَالْمُلْكِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَهَاتَيْنَا مَا لَمْ يَبُوءَ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠].

(١) فِي الْأَصْلِ رَمَ: غَافِلِينَ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَمَ: يَكُونُ. (٣) مِنْ مَ، فِي الْأَصْلِ: الْأَرْضِ.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَبْرُكْنَا فِيهَا﴾ قيل: أرض الشام، وقيل: أرض مصر ونواحيها، وقيل: اسمها مباركة^(١) لأنها مكان الأنبياء عليهم السلام وقيل: مباركة لكثرة أنزالها وسعتها.

وقوله تعالى: ﴿وَوَكَّمْتُ كَلِمَتَ رَبِّكَ الْحَقِّقَ﴾ قيل: هي الجنة، أي تمت لهم الجنة ﴿يَمَّا صَبَرُوا﴾ وقيل: ﴿وَوَكَّمْتُ كَلِمَتَ رَبِّكَ الْحَقِّقَ﴾ بما كان وعد لهم أن ينزلهم فيها، ويستخلفهم، ثم ذلك الوعد؛ وهو ما قال: ﴿وَرِيدُ أَنْ تَمَنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَغْفِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٥] ثم ما وعد لهم أن يمتن عليهم.

وقوله تعالى: ﴿يَمَّا صَبَرُوا﴾ يَحْتَمِلُ ﴿يَمَّا صَبَرُوا﴾ على أدنى فرعون. وَيَحْتَمِلُ ﴿يَمَّا صَبَرُوا﴾ على^(٢) أداء ما أوجب عليهم، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا بَعْرِشُونَ﴾ قال بغضهم: قوله تعالى: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾ على الوقف على ﴿وَقَوْمُهُ﴾ [فيكون قوله تعالى^(٣)] ﴿وَمَا كَانُوا بَعْرِشُونَ﴾ منطوقاً على قوله تعالى: ﴿وَأَزَدْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَفْسَدُونَ مَسَكِدَ الْأَرْضِ وَمَكَرِبَهَا﴾ ﴿وَمَا كَانُوا بَعْرِشُونَ﴾ وهو من العرش الذي يتخذهُ الملوك.

وقيل: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا بَعْرِشُونَ﴾ أيضاً أي أهلكنا ما كانوا يعرشون.

قال القتيبي: يعرشون أي يبنون، والعرش البيوت^(٤)، والعرش السقوف^(٥). وقال أبو عريشة: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾ أي أهلكنا، وأفسدنا ﴿وَمَا كَانُوا بَعْرِشُونَ﴾ [يعرشون، ويعرشون^(٦)]؛ يعني يبنون من البيوت والكروم والأشجار.

وقيل: في قوله تعالى: ﴿كَانُوا يُسْتَفْسَدُونَ﴾ يعني بالاستضعاف قتل الأبناء واستحياء النساء بأرض مصر. ورثهم الله ذلك. وقيل: في قوله تعالى: ﴿وَوَكَّمْتُ كَلِمَتَ رَبِّكَ الْحَقِّقَ﴾ وهي^(٧) النعمة التي أنعم على بني إسرائيل ﴿يَمَّا صَبَرُوا﴾ على البلاء حين كلّفوا ما لا يطيقون من استعباد فرعون إياهم. والكلمة التي ذكر ما ذكر في [سورة^(٨)] القصص ﴿وَرِيدُ أَنْ تَمَنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَغْفِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الآية: ٥].

الآية ١٣٨

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَ سَمَرٍ بِلَ الْبَحْرِ﴾ دل هذا على أن الله في فعل العباد [صنعاً وفعلًا حين^(٩)] أضاف، ونسب المجاوزة إلى نفسه، وهم الذين جاوزوا البحر. دل [أن له^(١٠)] في فعلهم صنعاً^(١١). وهذا ينقض على المعتزلة [قولهم حين^(١٢)] أنكرُوا خَلْقَ أفعال العباد، وبالله المعونة والعصمة.

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّوَا عَلَى قَوَرٍ يَعْكُونَ عَلَى أَصْنَامِهِمْ﴾ العكوف هو المقام والدوام. وقوله تعالى: ﴿يَعْكُونَ عَلَى أَصْنَامِهِمْ﴾ أي وجدوهم^(١٣) عكوفاً على عبادة الأصنام مقيمين على ذلك.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا كَانَ آلِهَتُهُ﴾ يُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ سُؤْلُهُمْ إِلَهاً يعبُدونه لا على الكفر برّبهم والتكذيب لرسوله، ولكن لما لم يروا أنفسهم أهلاً لعبادة الله والخدمة له لما رأوا في الشاهد أنه لا يخدم الملوك إلا الخواص لهم والمقرّبون إليهم، ومن بعد منهم يخدم خواصهم.

فعلى ذلك هؤلاء سألوا موسى إلهاً يعبُدونه لما لم يروا أنفسهم أهلاً لعبادة الله والخدمة له ليقربهم عبادة تلك الأصنام إلى الله. ويخرج ذلك مخرج التعظيم لله والتبجيل لا على الكفر وصرّف العبادة عنه إلى غيره. وكذلك كان عادة العرب أنهم يعبدون الأصنام ليقربهم عبادتها إلى الله رُفَى.

(١) في الأصل رم: سماء مباركة. (٢) في الأصل رم: من. (٣) ساقطة من الأصل رم. (٤) في الأصل رم: بيوت. (٥) في الأصل رم: سقوف. (٦) في الأصل رم: يعرش ويعرش. (٧) من م، في الأصل: وهو. (٨) ساقطة من الأصل رم. (٩) في الأصل رم: صنع وفعل حيث. (١٠) من م، في الأصل: انه. (١١) في الأصل رم: صنع. (١٢) في الأصل رم: حيث. (١٣) في الأصل رم: وجدهم.

وكذلك ما ذُكر في بغيض القصّة أن فرعونَ كان يتَّخِذُ لقومه أصناماً يَعْبُدُونَهَا لِتُفَرِّقَهُمْ عِبَادَةُ تِلْكَ الْأَصْنَامِ إِلَيْهِ زُلْفَى.
فَعَلَى ذَلِكَ سُؤَالٌ هَوَاءٌ لِمُوسَى: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا﴾ والله أعلم. أو كان سؤَالُهُمْ ذَلِكَ لِمَا لَمْ يَرَوْا فِي الشَّاهِدِ أَحَدًا
يَخْدُمُ إِلَّا لِحَاجَةٍ تَقَعُ لَهُ إِلَى ذَلِكَ، فَرَأَوْا أَنَّ اللَّهَ يَتَعَالَى أَنْ يُعْبَدَ، وَيَخْدَمُ لِلْحَاجَةِ؟ وَيَخْدُمُونَ الْقَادَةَ وَالرُّسُلَ، وَيَعْبُدُونَهُمْ لِمَا
رَأَوْا [أَنَّهُمْ] ^(١) يَتَأَلَوْنَ مِنَ النِّعَمِ وَأَنْوَاعِ الْمَنَافِعِ مِنَ الرُّؤَسَاءِ وَالْكَبَرَاءِ. لِذَلِكَ كَانُوا يَخْدُمُونَهُمْ.

وأما أهلُ التَّوْحِيدِ فَإِنَّهُمْ لَا يَرَوْنَ الْعِبَادَةَ لِغَيْرِ اللَّهِ لِأَنَّهُ مَا مِنْ أَحَدٍ، وَإِنْ بَعْدَتْ ^(٢) مَنْزِلَتُهُ وَمَحَلَّتُهُ، إِلَّا وَأَنَارَ نِعَمُ اللَّهِ عَلَيْهِ
ظَاهِرَةً، حَتَّى عَرَفَتْ كُلُّ أَحَدٍ/ ١٨٤ - ب/ حَتَّى لَوْ بَدَّلَ لَهُ جَمِيعُ حُطَامِ الدُّنْيَا، أَوْ أُوعِدَ بِكُلِّ أَنْوَاعِ الْوَعِيدِ لِئَتَرَكَ الدِّينَ الَّذِي
هُوَ عَلَيْهِ مَا تَرَكَ الْبَيْتَةَ.

وفي أمرِ مُوسَى، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، خُصَلَتَانِ:

إِحْدَاهُمَا: أَنْ يُعْلِمَ أَنْ كَيْفَ يُؤْمَرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيُنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ؟ وَكَيْفَ يُعَامَلُ مُرْتَكِبُ الْفُسْقِ وَالْمُنْكَرِ ^(٣) عَلَى مَا عَامَلَ
مُوسَى قَوْمَهُ بِاللَّيْنِ وَالشَّفَقَةِ، وَإِنْ [كَانُوا يَسْتَقْبِلُونَهُ] ^(٤) بِالْعَظِيمِ مِنَ الْأَمْرِ وَالْمَنَاقِبِ.
وَالثَّانِيَةُ ^(٥).

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ سُؤَالُهُمْ إِلَهًا يَعْبُدُونَهُ لِمَا أَهْلُ الْكُفْرِ قَالُوا لَهُمْ: إِنَّ الرُّسُلَ هُمُ الَّذِينَ أَمَرُوهُمْ بِعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ كَقَوْلِهِ
تَعَالَى ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] فَعَلَى مَا قَالُوا: إِنَّ الرُّسُلَ هُمُ الَّذِينَ أَمَرُوهُمْ بِذَلِكَ سَأَلُوا مُوسَى أَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ إِلَهًا
كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ.

الآية ١٣٩ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُمْ فِيهِ﴾ أَيِ إِنْ عِبَادَتَهُمْ لِهَؤُلَاءِ ﴿مُتَّبِعُونَ﴾ أَيِ مُهْلِكُهُمْ وَمُفْسِدُهُمْ ﴿وَيَبْطِلُونَ﴾
كَانُوا يَتَمَلَّكُونَ أَيِ بَاطِلٌ مَا يَأْمَلُونَ بِعِبَادَتِهِمْ هَؤُلَاءِ.

وقال القُتَيْبِيُّ: التَّبَارُ الْهَلَاكُ. وقال أبو عوسجة: الْمُتَّبِعُ الْمُفْسِدُ؛ يُقَالُ: تَبَّرْتُ الشَّيْءَ أَيِ أَفْسَدْتُهُ، وَيُقَالُ: رَجُلٌ مُتَّبِعٌ أَيِ
مُفْسِدٌ.

الآية ١٤٠ وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَغْيَرَ اللَّهُ آبِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ
فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ بِمَا هَدَاكُمْ، وَوَفَّقَكُمْ لِلْهُدَايَةِ بِمَا لَمْ يُوَفَّقُوا، وَلَمْ يَهْدِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ مِنْ عَالَمِي زَمَانِكُمْ.

الآية ١٤١ وقوله تعالى: ﴿أَبْيَضَكُمْ إِلَهًا﴾ دُونَهُ وَقَدْ فَضَّلَكُمْ بِمَا اسْتَنْقَذَكُمْ مِنْ اسْتِخْدَامِ فِرْعَوْنَ وَقَهْرِهِ إِيَّاكُمْ
وَأَخْرَاجِكُمْ مِنْ يَدِهِ، وَأَعْطَاكُمْ رَسُولًا يَبَيِّنُ لَكُمْ عِبَادَةَ إِلَٰهِكُمُ الْحَقِّ.

وقوله تعالى: ﴿أَغْيَرَ اللَّهُ آبِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ﴾ يَقُولُ: أَمَا تَسْتَحْيُونَ رَبَّكُمْ أَنْ تَسْأَلُوا إِلَهًا تَعْبُدُونَهُ دُونَهُ، وَقَدْ
فَضَّلَكُمْ بِمَا ذَكَرَ مِنْ أَنْوَاعِ النِّعَمِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَهُوَ مَا ذَكَرَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَبْيَضَكُمْ مِنَ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ الْآيَةُ: يُذَكِّرُهُمْ
نِعْمَةً عَلَيْهِمْ بِمَا اسْتَنْقَذَهُمْ مِنْ فِرْعَوْنَ وَآلِهِ وَاهْلَاكِهِمْ ^(٦).

وقوله تعالى: ﴿يُسْؤُونَكُمْ﴾ قِيلَ: يُعَذِّبُونَكُمْ ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ قَتْلَ الْأَبْنَاءِ وَاسْتِخْيَاءَ النِّسَاءِ. فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَقْتُلُونَ
أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ قِيلَ فِي ذَلِكَ: يَغْنِي فِي مَا ﴿أَبْجَنَكُمْ مِنَ آلِ فِرْعَوْنَ يُسْؤُونَكُمْ
سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدْعَوْنَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾. وَيُقَالُ: الْبَلَاءُ بِالْمَدِّ هُوَ النِّعْمَةُ،
وَبِغَيْرِ الْمَدِّ مَقْصُورًا الشَّدَّةُ.

الآية ١٤٢ وقوله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِمِثْرِ﴾ ذَكَرَ ههنا ﴿ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ ثُمَّ ذَكَرَ الثَّمَامَ بِالْعَشْرِ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: بعد. (٣) أدرج بعدها في الأصل وم: يعامل. (٤) في الأصل وم: استقبلوه. (٥) ترك الناسخان
في الأصل وم فراغا بعد هذه الكلمة، وأثبتا العبارة التالية: يبايض في الأصل. (٦) في الأصل: وإلهكم، في م: وأهلكم.

وَذَكَرَ فِي السُّورَةِ الَّتِي [فِيهَا] ^(١) ذُكِرَ الْبَقَرَةُ ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الآية: ٥١]. وَهُوَ وَاحِدٌ. [فَالْمِيعَادُ لَهُ أَرْبَعُونَ] ^(٢) لَيْلَةً، لَكِنَّهُ يَخْتَمِلُ ذِكْرُ ﴿ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ وَعَشْرًا وَجِهَيْنِ:

أَخَذَهُمَا: أَنَّ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً كَانَ لِأَمْرِ وَعَشْرًا كَانَ لِأَمْرِ آخَرَ، فَذَكَرَهَا ^(٣) مُتَّفَقَةً لِّمَا كَانَ لِأَمْرَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ كَانَ فِي وَقْتَيْنِ؛ كَانَ هَذَا فِي وَقْتٍ، وَالْآخَرُ فِي وَقْتٍ، وَالْقِصَّةُ وَاحِدَةٌ، وَالْمِيعَادُ وَاحِدٌ.

فَذَكَرُ السَّامِ ﴿يَمْسُرُ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَيَسْأَلْهُ لَنُفُوٍّ آيَةً فِي النَّجِّ وَسَبَّحُوا إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْكَ عَشْرَةَ كَائِمَةً﴾ [البقرة: ١٩٦] أَيْ ثَلَاثَةً ﴿آيَةً فِي النَّجِّ﴾ وَسَبْعَةً ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْكَ عَشْرَةَ كَائِمَةً﴾ وَإِنْ كَانَ فِي وَقْتَيْنِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي﴾ فَإِنْ قِيلَ: مَا مَعْنَى قَوْلِ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ ﴿أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي﴾ وَهُوَ كَانَ مَبْعُوثًا [رَسُولًا مَعَهُ] ^(٤) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ مُشْتَرِكًا فِي تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِ﴾ [طه: ٣٢]

وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْأَلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦] وَقَوْلِهِ: ﴿فَأَيُّهَا فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧] وَقَوْلِهِ: ﴿وَأَخِي هَارُونَ﴾ وَهُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلَهُ مِنِّي رِذَاءً [القصص: ٣٤]. فَإِذَا كَانَ هُوَ رَسُولًا كَمُوسَىٰ فِي تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ كَيْفَ اخْتِجَ إِلَىٰ أَنْ يَقُولَ مُوسَىٰ ﴿أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي﴾ وَهُمَا شَرْعًا سَوَاءٌ فِي الرِّسَالَةِ؟ قِيلَ: يَخْتَمِلُ هَذَا وَجِهَيْنِ.

يَخْتَمِلُ أَنْ يَكُونَا كَمَا ذَكَرَ رَسُولَيْنِ. لَكِنْ مَنْ وَلَّى اثْنَيْنِ أَمْرًا لَمْ يَكُنْ لَوَاحِدٍ مِنْهُمَا أَنْ يَتَّفَقَ بِهِ إِلَّا بِأَمْرِ الْآخَرِ. فَعَلَىٰ ذَلِكَ هَذَا. كَأَنَّهُ قَالَ: أَخْلِفْنِي فِي الْحُكْمِ بَيْنَهُمْ، وَأَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِهِمْ، وَلَا تَتَّبِعْ مَنْ دَعَاكَ إِلَىٰ سَبِيلِ الْمُفْسِدِينَ. أَوْ يَخْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مُوسَىٰ كَانَ هُوَ الرِّسُولُ، إِذَنْ، وَكَانَ إِلَيْهِ الْحُكْمُ، وَهَارُونَ كَانَ دَخِيلًا فِي أَمْرِهِ رِذَاءً عَلَىٰ مَا قَالَ: ﴿فَأَرْسِلَهُ مِنِّي رِذَاءً يَصْدُقُ﴾ [القصص: ٣٤] [كَانَ مُوسَىٰ] ^(٥) هُوَ الْمَأْمُورُ بِهَا أَوَّلًا وَالْمَبْعُوثُ إِلَيْهِمْ دُونَهُ.

أَلَا تَرَىٰ أَنَّهُ هُوَ الْمُنَاجِي رَبَّهُ دُونَ هَارُونَ [وَكَانَ هُوَ الْمُعْطَى الْأَلْوَاخَ دُونَ هَارُونَ] ^(٦) كَقَوْلِهِ: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاخِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥] وَهُوَ الَّذِي قَالَ: ﴿إِنِّي مَأْسُوكٌ تَارِكٌ﴾ [طه: ١٠] وَهُوَ الَّذِي نُودِيَ بِالْبَرَكَةِ دُونَ هَارُونَ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ. فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ اسْتَخْلَفَهُ مُوسَىٰ فِي قَوْمِهِ.

الآية ١٤٣

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيعَاتِنَا﴾ أَيْ لِمِيعَاتِنَا الَّذِي وَعَدْنَاهُ ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ لَا يَجُوزُ لَنَا أَنْ نَصِفَ كَيْفِيَّةَ الْكَلَامِ وَمَاهِيَّةَ شَيْءٍ أَنَّهُ أَنْشَأَ كَلَامًا وَصَوْتًا أَسْمَعَهُ مُوسَىٰ كَيْفَ شَاءَ بِمَا شَاءَ بِكَلَامٍ مَخْلُوقٍ [وَصَوْتٍ مَخْلُوقٍ] ^(٧) قَالَ رَبُّ أَيْفَ أَنْظَرُ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرِنِي﴾ الْآيَةُ. قَالَ قَائِلُونَ: إِنَّ مُوسَىٰ لَمْ يَسْأَلْ رَبَّهُ الرَّؤْيَةَ لِنَفْسِهِ، وَلَكِنْ سَأَلَ لِقَوْمِهِ لِسُؤَالِ الْقَوْمِ لَهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَرَىٰ اللَّهَ جَهَنَّمَ﴾ [البقرة: ٥٥] لَكِنْ هَذَا بَعِيدٌ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ سُؤَالُهُ إِيَّاهُ لِسُؤَالِ قَوْمِهِ لَكَانَ لَا يَقُولُ: ﴿رَبِّ أَيْفَ أَنْظَرُ إِلَيْكَ﴾ وَلَكِنْ يَقُولُ أَرَاهُمْ يَنْظُرُوا ^(٨) إِلَيْكَ. فَذَلَّ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِذَلِكَ.

وَقَالَ قَائِلُونَ: لَمْ يَكُنْ سُؤَالُ رَبِّهِ رُؤْيَةَ الرَّبِّ، وَلَكِنْ سَأَلَ رَبَّهُ رُؤْيَةَ الْآيَاتِ وَالْأَعْلَامِ وَالْأَدِلَّةِ الَّتِي بِهَا يُرَىٰ. وَذَلِكَ جَائِزٌ سُؤَالُ الرُّؤْيَةِ سُؤَالُ رُؤْيَةِ الْآيَاتِ وَالْأَعْلَامِ. وَذَلِكَ بَعِيدٌ، لِأَنَّهُ قَدْ أَعْطَاهُ مِنَ الْآيَاتِ مِنْ نَحْوِ الْعَصَا الَّتِي كَانَ ضَرَبَ ^(٩) بِهَا الْحَجَرَ ﴿فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ نَجْمًا﴾ [البقرة: ٦٠] وَمَا كَانَ مِنْ قَرْقِ الْبَحْرِ وَإِهْلَاكِ الْعَدُوِّ وَالْبَيْدِ الْبَيْضَاءِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ. فَإِذَا بَطَلَ ذَلِكَ دَلَّ أَنَّهُ سَأَلَ حَقِيقَةَ الرُّؤْيَةِ.

وَالْقَوْلُ بِهَا لَا زَمَ عِنْدَنَا فِي الْآخِرَةِ، وَحَقٌّ مِنْ غَيْرِ إِدْرَاكِ وَلَا تَفْسِيرٍ. وَالِدَّلِيلُ عَلَىٰ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا تُذَكِّرُكُمُ الْأَنْبَسَرُ وَهُوَ يَذَرُكُمُ الْأَبْصَرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] وَلَوْ كَانَ لَا يُرَىٰ لَمْ يَكُنْ لِنَفْيِ الْإِدْرَاكِ حِكْمَةٌ؛ إِذَا لَا يُذَكِّرُكَ غَيْرُهُ بِغَيْرِ الرُّؤْيَةِ، فَوَضَعَ نَفْيَ الْإِدْرَاكِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْخَلْقِ، لَا يُذَكِّرُكَ إِلَّا بِالرُّؤْيَةِ، لَا مَعْنَىٰ لَهُ، وَاللَّهُ الْمُؤَفَّقُ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: كالْمِيعَادُ لَهُ أَرْبَعِينَ. (٣) في الأصل وم: فذكر. (٤) في الأصل وم: رسولان. (٥) في الأصل وم: ولا موسى. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: ينظرون. (٩) في الأصل وم: يضرب.

وأيضاً قول موسى: ﴿رَبِّ أُنْظِرْ لِيْلِكَ﴾ الآية: ولو [كانت لا تجوز] ^(١) الرؤية لكان منه جهل برؤيه، ومن يجهله لا يختل أن يكون موضعاً لرسالته أميناً على وحيه.

وبعد فإنه لم ينته، ولا آتس، وبدون ذلك قد نهى نوحاً، وعاتب آدم وغيره من الرسل. وذلك لو كان لا يجوز لبلاغ الكفر. ثم قال: ﴿لَكِنِّي أَنْظِرُ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَوْنِي﴾ فإن قيل: لعلة سال آية ليعلم ^(٢) بها. قيل لا يختل ذا لوجوه:

أخذها: أنه قال: ﴿لَن تَرَوْنِي﴾ وقد أراه الآية.

والثاني ^(٣): أن طلب الآيات ^(٤) يخرج [مخرج] ^(٥) الثعنت، إذ قد أراه الآيات على ما ذكرنا؛ وذلك صنع الكفرة أنهم لا يزالون يطلبون الآيات، وإن كانت الكفاية قد ثبتت لهم، فمثله ذلك أيضاً.

والثالث ^(٦): أنه قال: ﴿إِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَوْنِي﴾ [والآية التي يستقر] معها الجبل هي دون التي لا يستقر معها. ثبت أنه لم يرد بذلك الآية.

والرابع ^(٨): محاكاة إبراهيم عليه السلام قومه في النجوم، وما ذكر بالأقول والغيبة، ولم يحاجهم بالآية يجب رباً، يرى، ولكن حاجهم بالآية يجب رباً، يأفل؛ إذ هو دليل عدم الدوام، ولا قوة إلا بالله.

والخامس ^(٩): قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ النَّاصِرَةُ﴾ [إِنَّ رَبَّهَا نَاطِرَةٌ] [القيامة: ٢٢ و ٢٣] ثم لا يختل ذلك الانتظار لوجوه: أخذها: أن الآخرة ^(١٠) ليست بوقت الانتظار، وإنما هي الدنيا، وهي دار الوقوع [والوجود إلى] ^(١١) وقت الفزع وقبل أن يعاينوا في أنفسهم ماله حق الوقوع.

والثاني: قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ النَّاصِرَةُ﴾ [القيامة: ٢٢] وذلك وقوع الثواب.

والثالث: قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهَا نَاطِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٣] و﴿إِنَّ﴾ حُرِفَ يُسْتَعْمَلُ فِي النَّظَرِ إِلَى الشَّيْءِ لَا فِي الْإِنْتِظَارِ.

والرابع: أن القول به يخرج مخرج البشارة لعظيم ما نالوه من النعم. / ١٨٥ - / / والانتظار ليس منه مع ما كان الصرّف عن حقيقة المفهوم قضاء على الله. فليزَم القول بالنظر إلى الله كما قال على نفى جميع معاني ^(١٢) الشبهة عن الله سبحانه على ما أضيف إليه من الكلام والفعل والقدر والإرادة: إنه يجب الوصف به على نفى جميع معاني الشبهة.

وكذلك القول بالشبهة. فمن زعم أن الله لا يقدر أن يكرم أحداً بالرؤية فهو يقدر في الرؤية التي فهمها من الخلق.

وإذا كان القول بالرّحمين ﴿عَلَّ الْمَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] وغير ذلك من الآيات، لا يجوز دفعها بالعرض على المفهوم من الخلق، بل يحقق ذلك على نفى الشبهة فمثله خبر الرؤية.

وأيضاً قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمَتَى ذُنُوبُهُمْ﴾ [يونس: ٢٦] وجاء في غير خبر: النظر إلى الله. وقد يختل غير ذلك مما جاء فيه التفسير. لكنه لولا أن القول بالرؤية، كان أمراً ظاهراً لم يختل صرّف ظاهر، لم يجر فيها [إليها] ^(١٣) ويدفع به الخبر، والله أعلم.

وأيضاً ^(١٤) ما جاء عن رسول الله ﷺ، في غير خبر أنه قال: «سَتَرُونَ رَبَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ [كما تَرَوْنَ الْقَمَرَ]» ^(١٥) ليلة البدر لا تضامون [البخاري: ٦٥٧٣] وسئل: «هل رأيت ربك؟ فقال: بقلبي قلبي» [مشكاة المصابيح ٥٧٢٩] فلم يتركز على السائل السؤال، وقد علم السائل رؤية القلب، إذ هي علم قد علمه، وإنه لم يسأل عن ذلك.

(١) في الأصل وم: كان لا يجوز. (٢) من م، في الأصل: يعلم. (٣) في الأصل وم: أيضاً. (٤) من م، في الأصل: الابان. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: أيضاً. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل م، أيضاً. (٩) في الأصل وم: أيضاً. (١٠) في الأصل وم: الآخر. (١١) في الأصل: والوجود إلا، في م: والوجود إلا. (١٢) من م، في الأصل: المعاني. (١٣) من م، ساقطة من الأصل. (١٤) من م، في الأصل: أيضاً. (١٥) من م، ساقطة من الأصل.

وقد حذر الله المؤمنين [السؤال] ^(١) عن الأشياء التي ^(٢) كفوا عنها بقوله: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ﴾ [المائدة: ١٠١] فكيف يَحْتَمِلُ أن يكون السؤال عن مثله يَجِيء؟ وذلك كُفْرٌ في الحقيقة عند قوم، ثم ينهاهم عن ذلك، ولا يُؤْبَحُهُمْ في ذلك، بل يُلَيِّقُ القول في ذلك، ويُرَوِّى أن ذلك ليس يَدْبِعُ، والله الموفق.

وأيضاً إن الله وعد أن يجزي أحسن ما ^(٣) عملوا به في الدنيا، ولا شيء أحسن من التوحيد، وأزفع قذراً من الإيمان به؛ إذ هو المستحسن ^(٤) بالعقول، والثواب الموعود من جوهري ^(٥) الجنة، حسنة حسن الطبع؛ وذلك دون حسن العقل؛ إذ لا يجوز أن يكون شيء حسن في العقول، لا يستحسنة ذو عقل.

وجائز ما استحسنه الطبع طبعاً لا يتلذذ به كطبع الملائكة، ومثله في العقوبة. لذلك لزم القول بالرؤية لتكون كرامة تبليغ في الجلالة ما أكرموا به، وهو أن يصير لهم المعبود بالغيب شهوداً كما صار المطلوب من الثواب حضوراً. ولا قوة إلا بالله.

ولا يَحْتَمِلُ العلم، لأن كلاً يجمع على العلم بالله في الآخرة، العلم الذي لا يغتريه الوسواس. وذلك علم العيان لا علم الاستدلال. وكثرة الآيات لا تحقق علم الحق الذي لا يغتري ذلك. دليله قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا رَأَيْنَاهُمْ أَكْثَرُ﴾ الآية [الأنعام: ١١١] وما ذكر من استعانة الكفرة بالكذب في الآخرة وإنكار الرسل وقولهم: ﴿لَا يَلْتَمِزُ إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ﴾ [الأحقاف: ٣٥] وغير ذلك.

وبعد فإنه إذ لا يجوز أن يصير علم العيان نحو علم الاستدلال لم يَجُزْ أن يصير علم الاستدلال نحو علم العيان، فثبت أن الرؤية تُوجِبُ ذلك. وبعد فإنه ^(٦) في ذلك العلم يستوي المؤمن والكافر. والبشارة بالرؤية خص بها المؤمن ولا قوة إلا بالله.

ولا نقول بالإدراك بقوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] فقد امتدح بنفي الإدراك لا بنفي الرؤية، وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ﴾ [طه: ١١٠] كان في ذلك إيجاب العلم ونفي الإحاطة. فمثله في الحق الإدراك، وبالله التوفيق.

وأيضاً إن الإدراك إنما هو الإحاطة بالمحدود، والله يتعالى عن وصف الحد؛ إذ هو نهاية وتقصير عما هو أعلى منه، على أنه واجدي الذات. والحد وصف المتصل الأجزاء حتى يتفصي مع إحالة القول بالحد؛ إذا كان، ولا ما يحد، أو به يحد، فهو على ذلك لا يتغير. على أن لكل شيء حداً ^(٧)، يُدْرِكُ سبيله، نحو الطعام واللون والذوق، والحد وغير ذلك من حدود خاصية الأشياء جعل الله لكل شيء من ذلك وجهاً يُدْرِكُ، ويحاط به حتى العقول والأعراض.

فأخبر الله تعالى أنه ليس بذي حدود وجهات؛ هي طرق إدراكه بالأسباب ^(٨) الموضوعات لتلك الجهات. وعلى ذلك القول بالرؤية والعلم جميعاً، ولا قوة إلا بالله.

وبعد فإن القول بالرؤية يقع على وجوه لا تعلم حقيقة كل وجه من ذلك إلا بالعلم بذلك الوجه حتى إذا عبر عنه بالرؤية صُرف إلى ذلك، وما لا يعرف له الوجه بدون ذكر الرؤية لزم الوقف في ماهيتها على تحقيقها.

[أخذها: الإدراك] ^(٩): هو معنى الوقوف على حدود الشيء. ألا ترى أن الظل في التحقيق يرى؟ لكنه لا يُدْرِكُ إلا بالشمس، وإلا كان مُرْتَبِئاً على ما يرى لوقت نسخ الشمس، ولكن لا يُدْرِكُ إلا بما يتبين له الحد.

وكذلك ضوء النهار يرى؛ لكن حده لا يعرف بذاته، وكذلك الظلمة؛ لأن طرفها، لا يرى، فيُدْرِكُ، ويحاط به، وبالحدود يُدْرِكُ الشيء، وإن كان يرى لا بها. ولذلك ضرب المثل بالقمر؛ لأنه لا يعرف حده ولا سعة يُعرف، ويحاط به، ويرى بيقين، ولا قوة إلا بالله.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: قد. (٣) في الأصل وم: ما. (٤) من م، في الأصل: المحسن. (٥) من م، في الأصل: جوهري. (٦) من م، في الأصل: فإن. (٧) في الأصل وم: حد. (٨) في الأصل وم: بالأسنان. (٩) في الأصل وم: وأما الإدراك إنما.

والأصل فيه القول بذلك على قدر ما جاء به، ونفى كل معنى من معاني الخلق، ولا يُفسر لما لم يَجِبْ، والله الموفق.
ثم زعم الكعبي أن الغائب، إن لم يخرج عن الوجوه التي بها يُعلم، فكذلك لا يرى إلا بالوجوه التي بها يرى من
المباينة للمرئي ولما حل في المرئي بالمسافة والمقابلة واتصال الهواء والصغر [وعدم الصغر]^(١) والبعد. ولو جازت الرؤية
بخلاف هذه لجاز العلم به.

قال الشيخ [رحمة الله عليه]^(٢): وهذا خطأ، لأنه قدر رؤية جوهريه، [وقد علم أن غير جوهريه]^(٣) جوهري يرى^(٤) من
الوجه الذي لا يُقدر على الإحاطة بجوهريه فضلاً عن إدراك بصره، نحو الملائكة والجن وغيرهم مما يروننا من حيث لا
نراهم، والجنة الصغيرة نحو البق ونحو ذلك مما يرى لما لو توهم مثل ذلك البصر لما احتمل الإدراك.

ويرى الملك الذي يكتب جميع أفعالنا، ويسمع جميع أقوالنا على ما لو أردنا تقدير ذلك بما عليه جُبلنا للزم إنكار
ذلك كله، وذلك عظيم، وكذلك ما ذكر من نظري الجلود وغيرها مما لو امتحن بمثلها أمر الشاهد لوجد عظيمًا.

وبعد فإنه في الشاهد يفصل بين البصرين في الرؤية والتمييز على قدر تفاوتهما بما اغترها في الحجب مما لو قابل
أحدهما حال الآخر على حاله وجدته مستكراً. وإذا كان كذلك بطل التقدير بالذي ذكر، والله الموفق.

والثاني^(٥): أنه في الشاهد بكل أسباب العلم لا يعلم غير العضو والجسم. ثم جائز العلم بالغائب خارجاً عنه، فمثله
الرؤية.

والثالث: ما ذكرنا من رؤية الظل والظلمة والنور من غير شيء من تلك الوجوه.

والرابع: أنه قد يجوز وجود تلك المعاني كلها مع عدم الرؤية إما [بالحجب وإما]^(٦) بالجوهري، فجاز تحقيق الرؤية
على نفي تلك المعاني نحو ما أجيب القائل بالجسم عند معارضته بالفاعل.

والعالم، إذ وجد، جسم لا كذلك، فيجوز وجود ذلك، ولا جسم؛ فمثله في الرؤية. على أن البعد الذي يحجبنا
عن^(٧) الرؤية يجوز أن يتلغ بصراً غيرنا، فصارت ارتفاع الرؤية بالحجاب، فإذا ارتفع جاز، ولا قوة إلا بالله.

وبعد فإن الذي يقوله تقدير برؤية الأجسام، ولم يمتحن بصره بغير الأجسام والأغراض أن كيف سبيل الرؤية له؟

وبعد فإن كل جسم يرى، وإن كانت الدقة والبعد يحجبان، فيجوز ارتفاعهما عن بصر غير، فيرى ملك الموت من
بأطراف الأرض ووسطها لو اغتبر ذلك ببصر البشر لما احتمل الإدراك. فثبت أن الذي قدر به ليس هو سبب تعريف ما
يُبصره، ولكن سبب تعريف ما يحجب به البصر. فإذا ارتفع رأى مع ما كان المنفي رؤيته لذاته عرض.

فإن لزم إنكار الرؤية لما ليس بجسم أو لما لا يرى إلا بما ذكر لزم الإقرار به؛ لأن الذي لا يرى لذاته، هو العرض،
والا فكل غير يرى، ولا قوة إلا بالله.

وإن^(٨) عورض بأمر الدنيا، وبحال العرض بذلك فلا^(٩) يسقط الميخنة، ويرفع الكلفة. والدنيا هي لهما. ثم ذكر في
أمر موسى أن ذلك على علم الإحاطة بالآيات، وقد بينا فساد ذلك، وما ذلك بالذي يُسأل، وهو رسول، بُعث إلى ما به
نجاه الخلق، وذلك لا يكون بغير ١٨٥ - ب/ الممتحن؛ إذ هو تبليغ الرسالة والدعاء إلى العباد، وهي ميخنة.

بل سأل الرؤية ليحل قدره، ويعرف^(١٠) عظيم محله عند الله، أو أن يكون الله أمره به ليعلم الخلق جواز ذلك، وبالله
التوفيق.

ثم استدلل بأنه لم ير من يعقل، إنما أرى الجبل، والجبل لا يعقل ليغلمه، وليراه، فيقال له: ولو كانت الآية

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في م: رحمة الله. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل: يرون. (٥) في الأصل وم: وأيضاً.
(٦) في الأصل: يحجب أو، في م: بالحجب أو. (٧) في الأصل وم: و. (٨) في الأصل وم: و. (٩) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١٠) في
الأصل وم: يعرف.

[الْجَبَلِ] ^(١) فَالْجَبَلُ لَا يَرَاهَا، وَلَا يَفْعُلُ. فإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَلَا آيَةَ إِذَنْ صَارَتْ ^(٢) أَنْدِكَاكَ الْجَبَلِ، لَا أَنْ أَرَاهُ الْآيَةَ يَسْتَدِلُّ بِهَا. وَفِي هَذَا آيَةٌ؛ قَدْ رَأَى مُوسَى الْآيَةَ، وَهِيَ أَنْدِكَاكَ الْجَبَلِ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿لَنْ تَرَيْنِي﴾ وَجُمْلَتُهُ عَلَى الْآيَةِ، وَقَدْ رَاهَا، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

فَإِنْ قِيلَ: مَا مَعْنَى تَوْبَتِهِ، لَوْ كَانَ سُؤَالُهُ عَلَى الْأَمْرِ؟ قِيلَ: عَلَى الْعَادَةِ فِي الْخَلْقِ لِمَا ^(٣) يُخْبِتُهُ عِنْدَ الْأَهْوَالِ بِلَا حُدُوثِ ذَنْبٍ، أَوْ لِمَا رَأَى مِنْ جَلَالِ اللَّهِ وَعَظَمَتِهِ، فَنَزَعَ إِلَى التَّوْبَةِ وَإِحْدَاثِ الْإِيمَانِ بِهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ يَوْجِبُ ذَلِكَ، وَذَلِكَ مُتَعَارَفٌ فِي الْخَلْقِ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَنْ تَرَيْنِي﴾ وَكَانَ عِنْدَهُ جَوَازُ الرُّؤْيَةِ فِي الشَّاهِدِ وَاحْتِمَالٌ وَسُيُوعٌ ذَلِكَ بِمَا وَعَدَ اللَّهُ فِي الْآخِرَةِ، رَجَعَ عَمَّا كَانَ عِنْدَهُ، وَأَمَّنَ بِالَّذِي قَالَ: ﴿لَنْ تَرَيْنِي﴾ وَإِنْ كَانَ فِي أَصْلِ إِيْمَانِهِ دَاخِلًا عَلَى نَحْوِ إِحْدَاثِ الْمُؤْمِنِينَ الْإِيمَانَ بِكُلِّ آيَةٍ تَنْزِيلٍ وَبِكُلِّ قَرِيبَةٍ تَتَجَدَّدُ، وَإِنْ كَانُوا فِي الْجُمْلَةِ مُؤْمِنِينَ بِالْكُلِّ، وَاللَّهُ الْمَوْفِيُّ.

وَقَدْ بَيَّنَّا مَا قَالُوا فِي قَوْلِهِ: ﴿رُبُّهُ يُؤَمِّرُ نَايِرَةً﴾ ﴿إِنْ رَيْتَ ظَاهِرَةً﴾، [القيامة: ٢٢ و ٢٣].

وَالْأَصْلُ فِي الْكَلَامِ أَنَّهُ إِذَا كَانَ عَلَى أَمْرٍ مَعْهُدٍ، أَوْ يُقَرَّنُ بِهِ الْمَقْصُودُ إِلَيْهِ، صُرِفَ عَنْ حَقِيقَتِهِ، وَالْأَمْرُ لَا؛ وَذَلِكَ نَحْوُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِنْ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ [الفرقان: ٤٥] وَقَوْلِهِ ^(٤): ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِمَادٍ﴾ [الفجر: ٦].

وَأَصْلُهُ أَنْ مَنْ قَالَ: رَأَيْتُ فُلَانًا، أَوْ نَظَرْتُ إِلَى فُلَانٍ لَمْ يَحْتَمِلْ غَيْرَ ذَاتِهِ، وَإِذَا قَالَ: رَأَيْتُهُ يَقُولُ: كَذَا، وَيَفْعُلُ كَذَا، إِنَّهُ لَا يَرِيدُ بِهِ رُؤْيَا ذَاتِهِ فَمِثْلُهُ أَمْرٌ قَصَصَ مُوسَى وَهَذِهِ الْآيَةُ.

وَرُويَ عَنْ ضِرَارِ بْنِ عَمْرِو أَنَّهُ أَتَى الْبَصْرَةَ، فَقَالَ: يَا أَهْلَ الْبَصْرَةِ إِنَّمَا أَنْ كَانَ مُوسَى مُشَبَّهًا وَإِنَّمَا أَنْ كَانَ اللَّهُ يُرَى؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ الَّذِي لَا يُرَى، فَسَأَلَ رَبَّهُ رُؤْيَاهُ كَانَ جَاهِلًا بِهِ مُشَبَّهًا خَلَقَهُ بِهِ، فَذَلَّ أَنَّهُ يُرَى.

ثُمَّ الْأَصْلُ أَنَّ مَنْ تَأَمَّلَ الَّذِي ذَكَرَهُ الْكَثِيبِيُّ عَرَفَ أَنَّهُ مُشَبَّهٌ الْمَذْهَبُ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَذْكُرِ الْمَعْنَى الَّتِي لَهُ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ الرُّؤْيَةُ بِتِلْكَ الشَّرَاطِئِ، إِنَّمَا أَخْبَرَ أَنَّهُ كَذَلِكَ وَجَدَ، وَهُوَ قَوْلُ الْمُشَبَّهَةِ: إِنَّهُ وَجَدَ كُلَّ فَاعِلٍ فِي الشَّاهِدِ جَسَمًا، وَكَذَا كُلُّ عَالِمٍ، فَيَجِبُ مِثْلُهُ فِي الْغَائِبِ.

ثُمَّ ذَكَرَ مَعْنَى رُؤْيَا الْجِسْمِ، وَلَمْ يَذْكُرْ مَعْنَى رُؤْيَا غَيْرِ الْجِسْمِ، حَتَّى يَكُونَ لَهُ دَلِيلًا. وَيَعْدُ فَإِنَّهُ نَفَى بِالذِّقَّةِ وَالْبُعْدِ وَهَمَا زَائِلَانِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى. ثُمَّ اخْتَجَّ بِإِمْتِدَاحِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لَا تُذَكِّرُكَ الْأَنْصُرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]. وَقَدْ قَالَ: لَا يَجُوزُ أَنْ يَزُولَ. فَمِثْلُهُ عَلَيْهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠ و...]. فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَزُولَ.

ثُمَّ قَدْ وَصَفَ اللَّهُ بِالرُّؤْيَةِ عَلَى إِسْقَاطِ مَا ذَكَرَ، فَثَبَّتَ أَنَّ ذَلِكَ طَرِيقٌ، لَا يُؤَدِّي عَنْ كُنْهِ مَا بِهِ الرُّؤْيَةُ.

فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ يُرَى؟ قِيلَ: بِمَا كَيْفٍ؛ إِذِ الْكَيْفِيَّةُ تَكُونُ بِالَّذِي ^(٥) صَوَّرَهُ، بَلْ يُرَى بِمَا وَصَفَ قِيَامَ وَقُعُودَ وَاتِّكَاءَ وَتَعَلُّقَ وَاتِّصَالَ وَانْفِصَالَ وَمُقَابَلَةَ وَمُدَابَرَةَ وَقَصِيرَ وَطَوِيلَ وَنُورَ وَظُلْمَةَ وَسَاكِنَ وَمُتَحَرِّكَ وَمُمَاسَّ وَمُبَايِنَ وَخَارِجَ وَدَاخِلَ، وَلَا مَعْنَى يَأْخُذُهُ الْوَهْمُ، أَوْ يَقْدَرُهُ الْعَقْلُ، لِتَعَالِيهِ عَنْ ذَلِكَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا تَخَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَمْعُهُ دَكًّا﴾ الْآيَةُ. قَالَ أَبُو بَكْرِ الْأَصَمُّ: تَجَلَّى بِالْآيَاتِ وَالْأَعْلَامِ الَّتِي بِهَا يُرَى، وَكَذَلِكَ قَالَ فِي قَوْلِهِ: ﴿رَبِّ آيَةٍ أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ إِنَّهُ إِنَّمَا سَأَلَ رَبَّهُ الْآيَاتِ وَالْأَعْلَامَ الَّتِي تُرَى لَا رُؤْيَا الذَّاتِ. وَقَدْ بَيَّنَّا بَعْدَهُ وَإِحَالَتَهُ لِمَا قَدْ أَعْطَاهُ مِنَ الْآيَاتِ وَالْأَعْلَامِ [مَا] ^(٦) لَهُ غُنْيَةٌ عَنْ غَيْرِهَا، فَلَا ^(٧) يَحْتَاجُ إِلَى غَيْرِهَا.

وَقَالَ الْحَسَنُ: إِنَّ مُوسَى سَأَلَ رَبَّهُ الرُّؤْيَةَ فِي غَيْرِ وَقْتِ الرُّؤْيَةِ، وَهُوَ يَقْرَأُ بِالرُّؤْيَةِ، لَكِنُّهُ يَقُولُ: سَأَلَهَا فِي الدُّنْيَا، وَبَيَّنَّتْ هَذَا الْعَالَمَ، لَا تَحْتَمِلُ ذَلِكَ. أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿فَإِنْ أَسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِي﴾ أَخْبَرَ أَنَّ الْجَبَلِ لَا يَسْتَقِرُّ لَهُ فَكَيْفَ تَسْتَقِرُّ

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: صار. (٣) في الأصل وم: من. (٤) في الأصل وم: و. (٥) بالأصل وم: الذي. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) الفاء ساقطة من الأصل وم.

أَنْتَ؟ لَكِنَّهُ يُنْشِئُ بَيِّنَةً تَحْتَمِلُ ذَلِكَ. وَقَالَ الْحَسَنُ: لِذَلِكَ قَالَ مُوسَى: ﴿تَبَّتْ إِلَيْكَ وَاتْنَا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَنْ لَيْسَ فِي الدُّنْيَا الرُّؤْيَا. إِلَى نَحْوِ هَذَا يَذْهَبُ الْحَسَنُ. وَقَدْ ذَكَرْنَا نَحْنُ الْوَجْهَ عَلَى قَدْرِ مَا حَضَرَ لَنَا.

وقال أهل التأويل: قوله تعالى: ﴿يَخْلَقُ رَبُّهُ أَيُّ ظَهَرَ﴾ لكن لا يُفهم من ظهوره ما يُفهم من ظهور الخلق على ما ذكرنا في قوله تعالى: ﴿أَسْتَوَى عَلَى السَّمَوَاتِ﴾ [الأعراف: ٥٤] وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢] وغيرهما^(١) من الآيات؛ [لأنه]^(٢) لا يُقدَّر استواءه باستواء الخلق، وكذلك مجيئه. فعلى ذلك ظهوره، وبالله العظمة.

وَرُويَ أَنَّ فِي الثَّوْرَةِ أَنَّهُ جَاءَ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ، وَظَهَرَ مِنْ جَبَلِ سَاعُورَا، وَأُطْلِعَ مِنْ جَبَلِ فَارَانَ وَتَأْوِيلُهُ: جَاءَ وَخِيَهُ عَلَى مُوسَى فِي طُورِ سَيْنَاءَ، وَظَهَرَ عَلَى عِيسَى فِي جَبَلِ سَاعُورَا، وَأُطْلِعَ عَلَى مُحَمَّدٍ فِي جَبَلِ فَارَانَ.

ثم العجب أن كيف اجترأ موسى بالسؤال بسؤالٍ مثله ﴿أَوَيْتُ أَنْظُرَ إِلَيْكَ؟﴾ لكنه يحتمل وجوهاً:

أَحَدُهَا: عَلَى الْأَمْرِ بِالسُّؤَالِ عَنْ^(٣) ذَلِكَ لِيُعْلِمَ أَنَّهُ يَرَى، وَيَتَعَقَّدُوا ذَلِكَ، أَوْ عَلَى الظَّنِّ مِنْهُ لَمَّا رَأَى أَنَّهُ أَعْطَاهُ أَشْيَاءَ، لَا يَكُونُ مِثْلُهَا فِي الدُّنْيَا، إِنَّمَا يَكُونُ فِي الْآخِرَةِ، حُصَّ بِهَا، مِنْ نَحْوِ انْفِجَارِ الْعُيُونِ مِنَ الْحَجَرِ مِنْ غَيْرِ مُؤَنَّةٍ تَكُونُ لَهُمْ فِي ذَلِكَ فِي^(٤) حَفْرِ الْأَنْهَارِ وَإِصْلَاحِهَا وَأَنْوَاعِ الْمُؤْنِ، وَنَحْوِ مَا أَعْطَاهُمْ مِنَ اللَّبَاسِ الَّذِي يَنْمُو، وَيَزْدَادُ عَلَى قَدْرِ قَامَتِهِمْ وَطُولِهِمْ، وَمِنْ نَحْوِ مَا أَعْطَاهُمْ مِنَ الْمَنِّ وَالسَّلَوى عَلَى غَيْرِ مُؤَنَّةٍ وَلَا جَهْدٍ. وَذَلِكَ كُلُّهُ وَصْفُ الْجَنَّةِ.

فلما رأى ذلك ظَنَّ أَنَّ الرُّؤْيَا أَيْضاً، تَكُونُ فِي الدُّنْيَا عَلَى مَا كَانَتْ لَهُ مِنْ أَشْيَاءَ، لَمْ يَكُنْ مِثْلَهَا لِأَحَدٍ فِي الدُّنْيَا. أَوَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ سَمِعَ كَلَامَ رَبِّهِ، وَأَلْقَى [عَلَى] ^(٥) مَسَامِيْعِهِ كَلَامَهُ؛ لَا مِنْ مَكَانٍ وَلَا مِنْ قَرِيبٍ وَلَا بَعِيدٍ وَلَا مِنْ أَسْفَلٍ وَلَا مِنْ أَعْلَى وَلَا مِنْ فَوْقٍ وَلَا مِنْ تَحْتٍ. لَكِنَّهُ سَمِعَ بِمَا شَاءَ، وَكَيْفَ شَاءَ؟ بِلُطْفِهِ، فَعَلَى ظَنِّ أَنَّهُ يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَسْأَلَ رَبَّهُ الرُّؤْيَا، فَيُرِيَهُ بِمَا شَاءَ، وَكَيْفَ شَاءَ؟ بِلُطْفِهِ كَمَا ذَكَرْنَا.

الآية ١٤٤

﴿الآية ١٤٤﴾ وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَمْؤُتُ إِلَىٰ أَمْطَفَيْكَ عَلَىٰ الْآثَارِ بِرِسْلَتِي وَيَكَلِّمُ﴾ سَمَّى اللَّهَ ﷻ، مُوسَى وَسَائِرَ الْأَنْبِيَاءِ، صَلَّوْا اللَّهَ عَلَيْهِمْ وَسَلَامُهُ، بِأَسْمَاءِ الْجَوْهَرِ مُوسَى وَعِيسَى وَنُوحٌ وَإِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ، وَسَمَّى نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا ﷺ، نَبِيًّا رَسُولًا وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى تَفْضِيلِهِ، وَكَذَلِكَ سَمَّى سَائِرَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ.

عَلَى غَيْرِهَا مِنَ الْأُمَمِ. **قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ أَمْلَيْتَكَ عَلَى النَّاسِ يَرْسَلْنِي فِيكُمْ﴾** كَانَ مِنْهُ مَنْ

وهذا يَنْقُضُ عَلَى الْمُعْتَزَلَةِ قَوْلَهُمْ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُرْسِلُ رَسُولًا، وَهُوَ يَسْتَحِقُّ الرِّسَالَةَ، وَلَوْ كَانَ طَرِيقُهُ الْإِسْتِحْقَاقَ لَا

وَأَمَّا الْفُلُ فَأُرْسِلَتْ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ إِنَّكَ بِنَظَرِهِمْ نَاظِرٌ

مرکز تعلیمی، علم نگر، نیشنل انسٹیٹیوٹ، یونیورسٹی ملی کالج،

أَحَدُهُمَا: الْقَبُولُ؛ أَيِ اقْبَلْ مَا أَعْطَيْتَكَ كَقَوْلِهِ ^(١) تَعَالَى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ [التوبة: ١٠٣].

والثاني^(٧): يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَتَحْذَرُوا آتِيتَكُمْ﴾ أَيِ اعْمَلُوا بِأَحْسَنِ الْعَمَلِ ﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [لِنِعْمِهِ الَّتِي]^(٨) أُنْعَمَ عَلَيْكَ مِنَ التَّكْلِيمِ وَالرَّسَالَةِ [وغيرهما مِنَ النِّعَمِ]^(٩) وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ.

(١) في الأصل وم: وغيره. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: على. (٤) في الأصل وم: من. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: كقولهم. (٧) في الأصل وم: و. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: وغيرها من النعيم.

الآية ١٤٥

وقوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ﴾

وَجِهَيْنِ:

أحدهما: أنه إنما أضاف ذلك إلى نفسه كما تولى كتابتها الملائكة البررة الكرام؛ أضاف إلى نفسه تفضيلاً لهم وتعظيماً على ما ذكر في الكتاب في غير موضع من نحو [قوله تعالى] ^(١): ﴿فَتَفَخَّنَا بِهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ [التحریم: ١٢] وقوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] أَخْبَرَ أَنَّ طَاعَةَ الرَّسُولِ لَهُ طَاعَةٌ، وَغَيْرَ ذَلِكَ، فَكَذَلِكَ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[والثاني أنه] ^(٢): أضاف / ١٨٦ - / ذلك إلى نفسه لما كان، ويكون إلى يوم القيامة إنما يكون به: ﴿كُنْ﴾ الذي كان منه في الأوقات التي أراد أن يكون. فَعَلَى ذَلِكَ [كتابته ذلك في] ^(٣) الألواح كانت ^(٤) تَحْتَ ذَلِكَ الـ ﴿كُنْ﴾.

وإن كان أضاف بعض تلك الأشياء إلى نفسه كقوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [القصص: ٧٣]، وقوله ^(٥) تعالى: ﴿جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرُ نُورًا﴾ [يونس: ٥]، [وقوله تعالى] ^(٦): ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [النمل: ٦٠] [وقوله تعالى] ^(٧): ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، [وقوله تعالى] ^(٨): ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ [النحل: ٨٧ و...] وَنَحْوَ ذَلِكَ. فَذَلِكَ كُلُّهُ كَانَ ^(٩) تَحْتَ قَوْلِهِ ﴿كُنْ﴾ فكان ^(١٠) على ما أراد أن يكون ^(١١) في الأوقات، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مِنْ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَحِلْوِهِ وَخَرَابِهِ.

وقوله تعالى: ﴿مَوْعِظَةً﴾ قَالَ الْمَوْعِظَةُ هِيَ الَّتِي تَحْمِلُ الْقُلُوبَ عَلَى الْقَبُولِ وَالْجَوَارِحَ عَلَى الْعَمَلِ. قَالَ بَعْضُهُمْ: الْمَوْعِظَةُ هِيَ الَّتِي تَنْهَى عَمَّا لَا يَجِلُّ. قَالَ أَبُو بَكْرٍ: الْمَوْعِظَةُ هِيَ الَّتِي تُلِينُ الْقُلُوبَ الْقَاسِيَةَ، وَتُدْمِغُ الْعُيُونَ الْجَامِدَةَ، وَتُضْلِحُ الْأَعْمَالُ الْقَاسِيَةَ.

قَالَ الشَّيْخُ، رَحِمَهُ اللَّهُ: وَعِنْدَنَا الْمَوْعِظَةُ: هِيَ [التي] ^(١٢) تُذَكِّرُ الْعَوَاقِبَ، وَتَحْمِلُ ^(١٣) عَلَى الْعَمَلِ بِهَا.

وقوله تعالى: ﴿وَنَقْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ قِيلَ: تَفْصِيلاً لِّمَا أُمِرُوا بِهِ، وَنَهُوا عَنْهُ. وَقِيلَ: بَيَاناً لِّكُلِّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ.

وقوله تعالى: ﴿فَنَحْنُهَا بِقُوَّةٍ﴾ [يَحْتَمِلُ] ^(١٤) أَيْضاً وَجِهَيْنِ: يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَنَحْنُهَا﴾ أَيْ أَقْبَلَهَا ^(١٥) عَلَى مَا ذَكَرْنَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَنَحْنُ مَا آتَيْنَاكَ﴾ [الأعراف: ١٤٤]. وَيَحْتَمِلُ: أَعْمَلُ بِمَا فِيهَا.

وقوله تعالى: ﴿بِقُوَّةٍ﴾ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: بِجِدِّ وَمُواظَبَةٍ. وَلَكِنْ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَنَحْنُهَا بِقُوَّةٍ﴾ الْقُوَّةُ الْمَعْرُوفَةُ. وَعَلَى قَوْلِ الْمُعْتَزِلَةِ: لَا يَكُونُ أَخْذُ قُوَّةٍ، وَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّ أَخْذَهَا بِقُوَّةٍ؛ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ الْقُوَّةَ تَكُونُ قَبْلَ الْفِعْلِ، ثُمَّ يَقُولُونَ: إِنَّهَا لَا تَبْقَى وَقَتَيْنِ. فَيَكُونُ فِي الْحَاصِلِ: لَوْ كَانَتْ قَبْلَ الْفِعْلِ أَخْذاً بِغَيْرِ قُوَّةٍ. دَلَّ أَنَّهَا مَعَ الْفِعْلِ.

وَتَقُولُ الْمُعْتَزِلَةُ: دَلَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَنَحْنُهَا بِقُوَّةٍ﴾ عَلَى أَنَّ الْقُوَّةَ قَدْ تَقَدَّمَتِ الْأَمْرَ بِالْأَخْذِ. لَكِنْ لَا يَكُونُ مَا ذَكَرُوا لِأَنَّهُ أَمْرٌ بِأَخْذٍ بِقُوَّةٍ، دَلَّ أَنَّهَا تَقَارِنُ الْفِعْلَ لَا تَقْدَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمْرٌ قَوْمَكَ بِأَخْذِهِمْ بِإِحْسَانٍ﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بِأَخْذِهِمْ﴾ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْوَجْهَيْنِ الْقَبُولِ أَوِ الْعَمَلِ؛ أَيْ مَرْهُمُ يَقْبَلُوا بِإِحْسَانِ الْقَبُولِ. وَيَحْتَمِلُ مَرْهُمُ يَعْمَلُوا بِإِحْسَانٍ مَا فِيهَا مِنَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ. وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بِإِحْسَانٍ﴾ أَيْ بِمَا هُوَ أَحْكَمُ وَأَثْقَنُ أَوْ بِأَحْسَنِ مِمَّا عَمِلَ بِهِ الْأَوَّلُونَ؛ إِذْ فِيهِ أَخْبَارُ الْأَوَّلِينَ.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل رم: أو. (٣) في الأصل رم: كتبه ذلك. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل رم: و.

(٦) ساقطة من الأصل رم. (٧) في الأصل رم: كذا. و. (٨) في الأصل رم: كذا. (٩) في الأصل رم: كانت. (١٠) في الأصل رم: فكانت.

(١١) في الأصل رم: تكون. (١٢) ساقطة من الأصل رم. (١٣) في الأصل رم: وتحمله. (١٤) من م، ساقطة من الأصل. (١٥) في الأصل رم: أقبل.

وقوله تعالى: ﴿سَأُورِيكَ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: قَالَ ذَلِكَ لِنَبِيِّ إِسْرَائِيلَ: ﴿سَأُورِيكَ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ يَنْبَغِي سُنَّةَ الْفَاسِقِينَ، وَهُوَ الْهَلَاكُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣٨] وَسُنَّتُهُ فِي أَهْلِ الْفِسْقِ وَالْكَفْرِ الْهَلَاكُ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: ﴿سَأُورِيكَ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ جَهَنَّمَ. وَأَمَّا أَنْ يَكُونَ الْخِطَابُ لِلْفَسَقَةِ: ﴿سَأُورِيكَ﴾ يَا أَهْلَ الْفِسْقِ ﴿دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾.

الآية ١٤٦ وقوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ﴾ الْآيَةُ يُخْرِجُ هَذَا وَجْهَيْنِ:

أَخَذَهُمَا: سَأَصْرِفُهُمْ عَنْ قَبُولِهَا وَتَضَدِيقِهَا إِذَا ^(١) لَمْ يَسْتَقْبِلُوهَا بِالْعَظِيمِ لَهَا. بَلِ اسْتَهْزَؤُوا بِهَا، وَاسْتَحَقُّوا بِهَا عَلَى عِلْمٍ مِنْهُمْ أَنَّهَا آيَاتٌ مِنَ اللَّهِ وَحُجَّةٌ.

وَالثَّانِي: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ﴾ وَجُودِ الطَّنِينِ وَالْقَذْحِ فِيهَا وَالْكِيدِ لَهَا.

ثُمَّ إِنَّ كُلَّ ^(٢) وَاحِدٍ مِنْ هَذَيْنِ الرَّجْهَيْنِ يَتَوَجَّهُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

[أَخَذَهُمَا: مَا] ^(٣) قَالَ الْحَسَنُ: إِنَّ لِلْكَافِرِ حَدًّا ^(٤) إِذَا بَلَغَ الْكَافِرُ ذَلِكَ الْحَدَّ يُطْعَمُ عَلَيْهِ، فَلَا يَقْبَلُ، وَلَا يُصَدِّقُ آيَاتِهِ بَعْدَ ذَلِكَ.

وَالثَّانِي: أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَمَتَّتُونَ فِي آيَاتِهِ، وَيُكَابِرُونَ فِي رَدِّهَا مَعَ عِلْمِهِمْ أَنَّهَا آيَاتٌ وَحُجَجٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى. فَإِذَا تَعَانَتْ صَرَفَهُمْ عَنْ قَبُولِهَا وَتَضَدِيقِهَا، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَنْصَرَفُوا مَرْكَأً اللَّهُ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة: ١٢٧] أَيْ خَلَقَ مِنْهُمْ فِعْلَ الزَّيْغِ وَفِعْلَ الْإِنْصِرَافِ. وَهَكَذَا كُلُّ مَنْ يَخْتَارُ عِدَاوَةَ اللَّهِ، فَاللَّهُ لَا يَخْتَارُ لَهُ وَلَا يَتَّهِ، وَلَكِنْ يَخْتَارُ لَهُ مَا اخْتَارَ هُوَ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ ^(٥): ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ﴾ وَجُودِ الطَّنِينِ فِيهَا وَالْقَذْحِ؛ [يَخْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَخَذَهُمَا] ^(٦): أَنَّ اللَّهَ ﷻ جَعَلَ لِلرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ أَضْدَادًا مِنْ كُفْرَاءِ الْكُفْرَةِ وَعُظْمَائِهِمْ، وَكَانُوا يَطْعَمُونَ فِي الْآيَاتِ، وَيَقْدَحُونَ فِيهَا. فَاخْبِرْ أَنَّهُ يَصْرِفُهُمْ عَنْ وَجُودِ الطَّنِينِ فِيهَا وَالْقَذْحِ وَالْكِيدِ لَهَا، أَيْ لَا يَجِدُونَ فِيهَا مَطْعَنًا وَلَا قَذْحًا.

وَالثَّانِي: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ﴾ الْهَلَاكُ وَالْإِبْطَالُ بِلِ الْمُهْلِكِينَ ^(٧)، وَالْآيَاتُ هِيَ الْبَاقِيَةُ.

ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي الْآيَاتِ: قَالَ الْحَسَنُ: ﴿آيَاتِي﴾ دِينِي؛ وَتَأْوِيلُهُ مَا ذَكَرْنَا أَنَّهُمْ إِذَا بَلَغُوا ذَلِكَ الْحَدَّ صَرَفَهُمْ عَنْهَا. وَقَالَ غَيْرُهُ: آيَاتُهُ حُجَجُهُ وَبَرَاهِينُهُ.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ كَانُوا يَتَكَبَّرُونَ عَلَى ^(٨) الرُّسُلِ لِمَا لَمْ يَرَوْهُمْ أَمْثَالَ أَنْفُسِهِمْ وَأَشْكَالًا. وَهَكَذَا كُلُّ مَنْ يَتَكَبَّرُ عَلَى آخَرٍ يَتَكَبَّرُ لِمَا [لَمْ] ^(٩) يَرَهُ مَثَلًا لِنَفْسِهِ وَلَا شَكْلًا، أَوْ يَتَكَبَّرُ لِمَا يَرَى نَفْسَهُ سَلِيمَةً مِنْ ^(١٠) الْعُيُوبِ، وَيَرَى فِي ^(١١) غَيْرِهِ عُيُوبًا، أَوْ يَرَى لِنَفْسِهِ حَقُوقًا عَلَيْهِ، فَيَتَكَبَّرُ.

لهَذَا فَالْخَلْقُ كُلُّهُمْ أَكْفَاءُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ؛ لَأَنَّهُمْ أَمْثَالٌ وَأَشْكَالٌ، وَفِيهِمُ الْعُيُوبُ وَالْحَاجَاتُ، فَلَا يَسَعُ لِأَحَدٍ الْكِبَرُ عَلَى أَحَدٍ، وَإِنَّمَا التَّكَبُّرُ لِلَّهِ تَعَالَى، فَلَهُ يَلِيقُ لِمَا لَا يَمِثُلُ لَهُ، وَلَا شَكْلٌ، مُنْزَعٌ عَنِ الْعُيُوبِ كُلِّهَا وَالْحَاجَاتِ. لِذَلِكَ كَانَ هُوَ الْمَوْصُوفُ بِالْكَبَرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ.

وقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أَيْ لَيْسُوا هُمْ بِأَهْلِ الْكِبَرِ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كَلًّا آيَةً لَا يَقُولُوهَا﴾ أَمَّا أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿يَرَوْا﴾ أَيْ وَإِنْ عَلِمُوا أَنَّهُ آيَةٌ فَلَا ^(١٢) يُؤْمِنُونَ بِهِ أَبَدًا. هَذَا فِي قَوْمٍ، عَلِمَ اللَّهُ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ أَبَدًا، ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَيِّئًا لَقَدْ يَنْخَدِعُوا سَبِيلًا﴾ أَيْ وَإِنْ عَلِمُوا أَنَّ ذَلِكَ هُوَ سَبِيلُ الْقِيِّ وَالْبَاطِلِ ﴿يَنْخَدِعُوا سَبِيلًا﴾.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: إِذ. (٢) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: لِكُلِّ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: حَد. (٥) الْقَصِيرُ يَعُودُ إِلَى الْحَسَنِ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَذَلِكَ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: الْمَهْلِكُونَ. (٨) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: هَم. (٩) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: عَنْ. (١١) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: عَنْ. (١٢) الْقَاءُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الصَّرْفُ الَّذِي ذَكَرَ عَنْ آيَاتِهِ لَمَّا كَذَّبُوا الْآيَاتِ بَعْدَ عَلِيمِهِمْ أَنَهَا آيَاتٌ مِنَ اللَّهِ ﴿وَكَاثَرُوا عَنَّا عَذَابِ اللَّهِ﴾ غَفَلَةُ الإِعْرَاضِ وَالْعِنَادِ لَا غَفَلَةُ الْجَهْلِ وَالسُّوءِ.

الآية ١٤٧ وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءَ الْآخِرَةِ﴾ أَيِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْآيَاتِ وَالْبَنَى بَعْدَ الْمَوْتِ.

وقوله تعالى: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ يَحْتَمِلُ هَذَا وَجْهَيْنِ: يَحْتَمِلُ أَنَّهُمْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ مِنْ قَبْلُ، فَكَذَّبُوا الْآيَاتِ، فَكَفَرُوا بِهَا فَحَبِطَتِ الْأَعْمَالُ الَّتِي كَانَتْ لَهُمْ فِي حَالِ الْإِيمَانِ، وَبَطَلَتْ، وَنَحْتَمِلُ: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ الْمَعْرُوفُ الَّذِي كَانُوا يَفْعَلُونَ فِي حَالِ الْكُفْرِ مِنْ نَحْوِ صَلَاةِ الرَّجْمِ وَالصَّدَقَاتِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْمَعْرُوفِ، وَالْخَيْرَاتِ الَّتِي عَمِلُوا بِهَا، حَبِطَتْ [أَيِ حَبِطَ] ^(١) ثَوَابُ ذَلِكَ كُلُّهُ إِذَا لَمْ يَأْتُوا بِالْإِيمَانِ.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أَيِ مَا ﴿يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ مِنَ الْإِسْتِهْزَاءِ بِالْآيَاتِ وَالْإِسْتِخْفَافِ.

الآية ١٤٨ وقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ عُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا﴾ وقوله: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى كَيْفِيَّةً وَصِفَ اتِّخَاذُ الْعِجْلِ مَا ذَكَرَ فِي سُورَةِ طه بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَهُكُمْ وَإِنَّهٗ مُوسَىٰ فَقِيلَ﴾ [الآية: ٨٨] الْآيَةُ وَصَفَ اللَّهُ ﷻ، قَوْمَ مُوسَى بَعْضُهُمْ بِالْهِدَايَةِ وَالْعَدَالَةِ وَاتِّبَاعِ الْحَقِّ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَبْدُونَ﴾ [الاعراف: ١٥٩]، وَبَعْضُهُمْ وَصَفَهُمْ بِالسَّفَاةِ وَقِلَّةِ الْفَهْمِ وَالضَّغْفِ فِي الدِّينِ بِقَوْلِهِمْ: ﴿أَجْعَلِ لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الاعراف: ١٣٨].

[وقوله تعالى] ^(٢) ههنا ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ عُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا﴾ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ إِلَهًا عَبْدُوهُ؛ يَذْكُرُ هَذَا، وَاللَّهُ أَغْلَمُ، لِمَا لَمْ يَعْرِفُوا نِعَمَ اللَّهِ، وَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي آيَاتِهِ وَحُجَجِهِ، يَذْكُرُ هَذَا لَنَا لِنَنْظُرَ فِي آيَاتِهِ وَحُجَجِهِ وَلِنَتَفَكَّرَ فِي نِعَمِهِ، فَتُذَكِّرُنَا شُكْرَهَا، وَتَذَكِّرُنَا فِي آيَاتِهِ وَحُجَجِهِ لِنَتَّبِعَهَا، وَلَا نُضَيِّعَهَا عَلَى مَا ضَيَّعَ قَوْمُ مُوسَى.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ عُلِيِّهِمْ﴾ أَيِ مِنْ بَعْدِ مُفَارَقَةِ مُوسَى قَوْمَهُ.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ عُلِيِّهِمْ﴾ وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿أَوَّلًا مِنْ رِبِّهِ الْقَوْمِ﴾ [طه: ٨٧] وَكَانَتْ تِلْكَ الْحَلِيقَةُ عَارِيَةً عِنْدَهُمْ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ. بِقَوْلِهِ: ﴿أَوَّلًا مِنْ رِبِّهِ الْقَوْمِ﴾ أَضَافَ إِلَى فِرْعَوْنَ، وَأَضَافَ ههنا إِلَى قَوْمِ مُوسَى بِقَوْلِهِ: ﴿مِنْ عُلِيِّهِمْ﴾ دَلٌّ أَنَّ الْعَارِيَةَ يَجُوزُ أَنْ تُنْسَبَ إِلَى الْمُسْتَعِيرِ.

وفيه ^(٣) دَلَالَةٌ أَنَّ مَنْ حَلَفَ إِلَّا يَدْخُلُ دَارَ فُلَانٍ، فَدَخَلَ دَارًا، لَهُ عَارِيَةٌ عِنْدَهُ، يَخْتَفِ.

وقوله تعالى: ﴿عِجْلًا جَسَدًا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: صُورَتُهُ كَانَتْ صُورَةَ عِجْلٍ، وَلَمْ يَكُنْ عِجْلًا فِي خَوَارِهِ، وَقِيلَ: الْجَسَدُ، هُوَ الَّذِي لَا تَدْبِيرَ لَهُ، وَلَا تَمْيِيزَ، وَلَا بَيَانَ، لَكِنَّهُ ذَكَرَ فِيهِ هَذَا لِمَا ^(٤) يَخْتِاجُ إِلَى هَذَا، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلَهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ وَلَكِنَّهُ كَانَ هُوَ قَالَ ﴿عِجْلًا جَسَدًا﴾ يَذْكُرُ سَفَاهَتَهُمْ أَنَّهُمْ عَبَدُوا مَنْ لَا تَدْبِيرَ لَهُ، وَلَا كَلَامَ، وَلَا سَبَبَ ^(٥) يُعْبَرُ بِهِ، أَوْ دُعَاءَ، وَاخْتَارُوا إِلَهِيَّةً مِنْ وَصْفِهِ مَا ذَكَرَ.

وقوله تعالى: ﴿لَهُ خُورٌ﴾ قِيلَ: إِنَّ السَّامِرِيَّ قَدْ أَخَذَ ﴿قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ [طه: ٩٦]، فَأَلْقَى تِلْكَ الْقَبْضَةَ فِي الْحَلِيقِ [الَّتِي الْقَوْمُ] ^(٦) فِي النَّارِ، فَصَارَ ١٨٦ - ب/ شِبْهَ عِجْلٍ لَهُ خُورٌ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: صَاعٌ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا، فَتَفَحَّ فِيهِ مِنْ تِلْكَ الْقَبْضَةِ، فَخَارَ خُورًا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ السَّامِرِيَّ كَانَ هَيَأُ ذَلِكَ الْعِجْلَ الَّذِي اتَّخَذَهُ بِحَالٍ حَتَّى إِذَا مَسَّهُ خَارٌ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: كَانَ وَضْعُهُ ^(٧) فِي مَهَبِّ الرِّيحِ، فَيَدْخُلُ الرِّيحُ فِي دُبُرِهِ، وَيَخْرُجُ مِنْ فِيهِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَخُورُ، وَاللَّهُ أَغْلَمُ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وقالوا. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: ما لا. (٥) أدرج بعدما في الأصل وم: الذي. (٦) في الأصل وم: الذي القوم. (٧) في الأصل وم: وضع.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْفُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ ذكر ﴿أَنَّهُ لَا يَكْفُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ وفي سورة طه ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَكُمْ مَرًّا وَلَا تَفْعًا﴾ [الآية: ٨٩] ليس فيه أنه إن كان ﴿لَا يَكْفُهُمْ﴾ أو ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَكُمْ مَرًّا وَلَا تَفْعًا﴾ يجزئ^(١) أن يُعْبَدَ لِيُعْلِمَ أن ذكر حَظَرِ الْحُكْمِ في حال لا يُوجِبُ إباحة ذلك في حال أخرى.

وفيه أن امتناع العلة عن اطرادها يُوجِبُ نَقْضَها، وإن كان اطرادها في الابتداء في مغلولايتها لم يدل على صحتها. وفي قوله تعالى: ﴿لَا يَكْفُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ [وقوله تعالى^(٢)]: ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَكُمْ مَرًّا وَلَا تَفْعًا﴾ ذكر سَفَهِيهِمْ لِعِبَادَتِهِمْ شيئا لا يَمْلِكُ ﴿لَكُمْ مَرًّا وَلَا تَفْعًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوهُ﴾ إلها عِبَادُوهُ ﴿وَكَانُوا عَلَيْهِمْ﴾ في عِبَادَتِهِمْ العِجَل؛ لأنهم وَضَعُوا العِبَادَةَ في غير موضعها.

الآية ١٤٩

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ هذا حرف تَسْتَعْمِلُهُ الْعَرَبُ عند وقوع النَّدَامَةِ وحُلُولِهَا. وتأويله: لما رَأَوْا أَنَّهُمْ قد ضَلُّوا ﴿سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ أي نَدِمُوا على ما كان منهم.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا لَيْن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ أي ﴿لَيْن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ ويُوَفِّقْنَا الْهِدَايَةَ وَالْعِبَادَةَ لَهُ^(٣) ﴿وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ لما كان مِنَّا مِنَ الْعِبَادَةِ لِلْعِجَلِ وَالتَّغْرِيبِ فِي الْعِضْيَانِ ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

ويَحْتَمِلُ قوله تعالى: ﴿لَيْن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ ابتداء سَبَبِ الرَّحْمَةِ وَالْمَغْفِرَةِ كقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ الآية [هود: ٩٠] وَيَحْتَمِلُ التَّجَاوُزَ لما كان مِنْهُمْ وَالْعَفْوُ.

وفي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْفُهُمْ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿لَمْ خَوَّارٌ﴾ دلالة أن الكلام هو ما يُفْهَمُ به المراد، ليسب الحروف نَفْسُهَا؛ لأنه اخْبِرَ أن له خَوَّاراً^(٤). ثم اخْبِرَ ﴿أَنَّهُ لَا يَكْفُهُمْ﴾ دل أن الصوت، وإن كان ذا هجاء وحروف ليس بكلام، وذلك يدل لأصحابنا في مسألة من^(٥) خَلَفَ آلا يَكْلَمُ فُلَانًا، ثم خَاطَبَهُ بِشَيْءٍ لا يُفْهَمُ مُرَادُهُ فَإِنَّ^(٦) ذلك ليس بكلام، ولا يَحْتَسِبُ.

الآية ١٥٠

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَيْقًا﴾ الْأَسَفُ هو النَّهَايَةُ فِي الْحُزْنِ وَالْغَضَبُ كقوله تعالى: ﴿يَتَأَسَّفُونَ عَلَىٰ بُيُوتِهِمْ﴾ [يوسف: ٨٤] هو النَّهَايَةُ فِي الْحُزْنِ. وَالْأَسَفُ فِي مَوْضِعِ الْغَضَبِ قوله تعالى: ﴿قَلَمَّا أَسْأَفُونَا أَتَقَنَّمَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥] أي أَغْضَبُونَا. لَكِنَّ الْغَضَبَ يَكُونُ عَلَىٰ مَنْ دُونَهُ، وَالْأَسَفُ وَالْحُزْنَ عَلَىٰ مَنْ قُوَّةُ.

وقوله تعالى: ﴿غَضْبَنَ﴾ أي لله على قومه لِعِبَادَتِهِمْ الْعِجَلِ وَتَرْكِهِمْ عِبَادَةَ اللَّهِ حُزْنًا عَلَىٰ قَوْمِهِ لِمَا يَلْحَقُهُمْ بِعِبَادَتِهِمْ الْعِجَلِ مِنَ الْعُقُوبَةِ. وهكذا الواجب على من رأى الْمُتَكَبِّرَ أَنَّهُ يَغْضَبُ لِلَّهِ عَلَىٰ مُرْتَكِبِ ذَلِكَ الْمُتَكَبِّرِ لِمُعَايَنَةِ الْمُتَكَبِّرِ، وَيَأْسَفُ عَلَيْهِ لِمَا يَلْحَقُهُ مِنَ الْعُقُوبَةِ وَالْهَلَاكِ رَحْمَةً مِنْهُ لَهُ وَرَأْفَةً، وَلِزَمَ الشُّكْرَ لِزَيْدٍ لِمَا عَصَمَهُ عَنْ مِثْلِهِ.

وكذلك وَصَفَ رَسُولُهُ ﷺ^(٧) بِالْأَسَفِ وَالْحُزْنِ لِيَكْذِيبَهُمْ إِيَّاهُ حَتَّىٰ كَادَتْ نَفْسُهُ تَهْلِكُ حُزْنًا عَلَيْهِمْ حِينَ قَالَ: ﴿لَقَدْ بَنَيْتُ مَسْجِدَ آلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] وَقَالَ^(٨): ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ [فاطر: ٨].

ذَكَرَ هَذِهِ الْقِصَّةَ لَنَا لِتَعْرِفَ أَنَّ كَيْفَ نَعَامِلُ أَهْلَ الْمَنَائِكِرِ وَقَدْ ارْتَكَبَهُمُ الْمُتَكَبِّرُ.

وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُ خَلْقَتُونِي مِنْ بَعْدِي﴾ يُخْرِجُ عَلَىٰ وَجْهَيْنِ:

أحدهما: ﴿يَسْأَلُ خَلْقَتُونِي﴾ بِسْمَا اخْتَرْتُمْ مِنْ عِبَادَتِكُمُ الْعِجَلِ عَلَىٰ عِبَادَةِ اللَّهِ.

والثاني: ﴿يَسْأَلُ خَلْقَتُونِي﴾ بِاتِّبَاعِكُمُ السَّامِرِيِّ إِلَىٰ مَا دَعَاكُمْ إِلَيْهِ بَعْدَ اتِّبَاعِكُمْ إِيَّايَ وَأَخِي رَسُولَ اللَّهِ وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ، وَدَعَاكُمْ إِلَىٰ عِبَادَةِ اللَّهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) في الأصل وم: يجوز. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: لك. (٤) في الأصل وم: خوار. (٥) في الأصل وم: إذا. (٦) في الأصل وم: إن. (٧) في م، ﷺ. (٨) في الأصل وم: وقوله.

وقوله تعالى: ﴿أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: أَعَجَلْتُمْ مِيعَادَ رَبِّكُمْ؟ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَمْدِكُمْ رَبُّكُمْ وَقَدْ آتَاكُمْ حَسَنًا﴾ [طه: ٨٦] أَي أَعَجَلْتُمْ الْوَعْدَ الْحَسَنَ الَّذِي وَعَدَ لَكُمْ رَبُّكُمْ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢]. وَقَالَ آخَرُونَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ عَذَابَ رَبِّكُمْ وَغَضَبُهُ بِعِبَادَتِكُمُ الْعِجْلَ وَاتِّخَاذَكُمْ إِلَهًا. وَقَدْ سَمَّى اللَّهُ تَعَالَى الْأَمْرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنَ الْقُرْآنِ عَذَابًا كَقَوْلِهِ: ﴿أَلَمْ أَمُرْ اللَّهَ﴾ [النحل: ١] وَنَحْوِهِ: ﴿جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ [الحديد: ١٤].

وقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاخَ﴾ قَالَ أَكْثَرُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاخَ﴾ أَي طَرَحَهَا عَلَى الْأَرْضِ غَضَبًا مِنْهُ، فَرَفَعَ مِنْهَا كَذَا وَكَذَا، وَبَقِيَ كَذَا. لَكِنْ لَا يَجُوزُ أَنْ يُفْهَمَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاخَ﴾ طَرَحَهَا، لَا غَيْرُ. أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوًى﴾؟ [النحل: ١٥] لَيْسَ يُفْهَمُ مِنْهُ الطَّرْحُ وَالْإِلْقَاءُ، لَكِنْ إِنَّمَا فُهِمَ مِنْهُ الْوَضْعُ.

فَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاخَ﴾ أَي وَضَعَهَا^(١) لَأَنَّهُ أَخَذَ رَأْسَهُ وَلِخَيْتَهُ؛ أَعْنِي رَأْسَ أَخِيهِ هَارُونَ، وَلَا سَبِيلَ لَهُ إِلَى أَنْ يَأْخُذَ رَأْسَهُ وَلِخَيْتَهُ، وَالْأَلْوَاخَ فِي يَدَيْهِ، فَوَضَعَهَا عَلَى الْأَرْضِ، ثُمَّ أَخَذَ رَأْسَهُ وَلِخَيْتَهُ، وَجَرَّهُ إِلَيْهِ.

وَعَلَى مَا ذَكَرَ فِي سُورَةِ طه جِئَ^(٢): ﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِخْتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ [الآية: ٩٤] ذَلِكَ هَذَا أَنْ كَانَ أَخَذَ رَأْسَهُ وَلِخَيْتَهُ جَمِيعًا لِيَشْدَهُ غَضَبُهُ لِلَّهِ عَلَى صَنِيعِ قَوْمِهِ.

وَفِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ الْعَمَلِ بِالْإِجْتِهَادِ؛ لَأَنَّهُ قَالَ: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِخْتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾، وَلَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مُوسَى يَأْخُذُ رَأْسَهُ بِالْوَحْيِ وَالْأَمْرِ مِنَ اللَّهِ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ هَارُونَ: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِخْتِي﴾ وَلَا بِكَذَا، وَلَا تَفْعَلْ كَذَا.

وَفِيهِ أَيْضًا أَنَّ هَارُونَ لَمَّا قَالَ لَهُ: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِخْتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ إِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ بِالْإِجْتِهَادِ جِئَ^(٣) قَالَ: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [طه: ٩٤] لَأَنَّهُ لَوْ كَانَ يَقُولُ لَهُ بِالْوَحْيِ أَوْ بِالْأَمْرِ لَمْ يَكُنْ لِيُغْتَذَرَ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ﴾ فِيهِ دَلَالَةٌ أَنَّهُ إِنَّمَا أَخَذَ شَعْرَ رَأْسِهِ؛ لَأَنَّهُ لَوْ كَانَ أَخَذَ رَأْسَهُ لَكَانَ لَا يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يَجُرَّهُ إِلَيْهِ. ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ أَخَذَ بِشَعْرِ رَأْسِهِ. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِخْتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ [طه: ٩٤]

وَفِيهِ دَلَالَةٌ لِأَصْحَابِنَا أَنَّ مَنْ مَسَحَ رَأْسَهُ، ثُمَّ أزالَ شَعْرَهُ، لَمْ يَسْقُطْ عَنْهُ حُكْمُ الْمَسْحِ، وَإِذَا مَسَحَ عَلَى لِحْيَتِهِ، ثُمَّ سَقَطَتْ^(٤)، زَالَ عَنْهُ حُكْمُهُ، وَلَزِمَ غَسْلُ دَفْنِهِ، لِمَا سَمَى الشَّعْرَ رَأْسًا، وَسَمَى اللَّحْيَةَ لِحْيَةً؛ وَسُقُوطُهَا يُسْقِطُ حُكْمَ الْمَسْحِ، وَسُقُوطُ شَعْرِ الرَّاسِ لَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَمُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي﴾ خَرَجَ هَذَا صِلَةً قَوْلِ مُوسَى لِهَارُونَ لَمَّا [قَالَ لَهُ^(٥)]: ﴿قَالَ يَهْرُونَا مَا مَنَّكَ إِذْ رَأَيْنَاهُمْ كُفَرًا﴾ ﴿أَلَا تَتَّبِعُنِي أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ [طه: ٩٢ و ٩٣] فَقَالَ عِنْدَ ذَلِكَ ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَمُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي﴾ فَلَا تُشْمِتُ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلَنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ.

الآية ١٥١

وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّمَا خَصَّ أَخَاهُ بِسُؤَالِ الْمَغْفِرَةِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ جَوَابًا لَمَّا^(٦) قَالَ هَارُونَ: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ﴾ الْآيَةَ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ تَخْصِصُ السُّؤَالِ لَهُ بِالْمَغْفِرَةِ لَمَّا سَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يَجْعَلَ هَارُونَ لَهُ وَزِيرًا يَقُولِي: ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي﴾ ﴿هَؤُلَاءِ أَخِي﴾ ﴿أَشَدُّ بِهِ أَرَبِي﴾ ﴿وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي﴾ [طه: ٢٩ - ٣٢] لَمَّا سَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يُشْرِكُهُ فِي أَمْرِهِ، وَيَشْدُ بِهِ أَرْزَهُ. فَعَلَى ذَلِكَ خَصَّهُ بِسُؤَالِ الْمَغْفِرَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ لِأَنَّ كُلَّ مَنْ يَرْحَمُ [مَنْ دُونَهُ فَإِنَّمَا]^(٧) يَرْحَمُ بِرَحْمَتِهِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَضَعَ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: سَقَطَ. (٥) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: قَالَ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: مِمَّا. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: دُونَهُ.

الآية ١٥٢

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾ أي عبدوا العجل ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ القتل والهلاك في الدنيا. وقال بغضهم: قوله ﴿غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ القتل والهلاك ﴿وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الجزية والسبي والقهر.

ويَحْتَمِلُ قوله تعالى: ﴿وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ذِكْرَ الذَّمِّ بِصَنِيعِهِمْ وثناء الخير على ما كَانَ بِصَنِيعِ الْخَيْرِ والمَحْمَدَةِ في الدنيا وثناء الخير.

وقوله تعالى: ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهين:

أحدهما: أي قد نَالَهُمْ ﴿غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ وما ذَكَرَ.

والثاني: أن يكونَ هذا مذكوراً في كُتُبِهِمْ: أنْ مَنِ اتَّخَذَ الْعِجْلَ مَعْبُوداً ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ فَإِنْ كَانَ هَذَا خَبِراً عَمَّا فِي كُتُبِهِمْ فَيَسِينَالُهُمْ عَلَى الْوَعْدِ صَحِيحٌ، وَإِلَّا عَلَى الْخَبَرِ أَيْ قَدْ نَالَهُمْ.

[وقوله تعالى:]^(١): ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ أي كذلك نَجْزِي كُلَّ مُفْتَرٍ عَلَى اللَّهِ تعالى.

الآية ١٥٣

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا﴾ قال أهل التَّأْوِيلِ: قوله: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾ يَغْنِي الَّذِينَ عَبَدُوا الْعِجْلَ ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا﴾ إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ وهو في كُلِّ مَنْ عَمِلَ السَّيِّئَاتِ ١٨٧ - ١ / أَيْ سَيِّئَةٍ كَانَتْ: إِذَا تَابَ عَنْهَا، وَتَدَبَّرَ عَلَيْهَا، وَطَلَبَ مِنَ اللَّهِ الْمَغْفِرَةَ، غَفَّرَ لَهُ.

الآية ١٥٤

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾ الذي غَضِبَ اللَّهُ عَلَى قَوْمِهِ بِعِبَادَتِهِمُ الْعِجْلَ. وَلَا يَحْتَمِلُ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْأَصْمُ: إِنَّ الْغَضَبَ عُقُوبَةٌ وَشْتَمٌ؛ لِأَنَّ الْغَضَبَ مَعْرُوفٌ، لَا يَجُوزُ أَنْ يُتَأَوَّلَ مَا قَالَ هُوَ.

وقوله تعالى: ﴿أَخَذَ الْأَلْوَاحَ﴾ يَغْنِي الْأَلْوَاحَ الَّتِي وَضَعَهَا عَلَى الْأَرْضِ.

وقوله تعالى: ﴿وَفِي نُحُوتَيْهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: يَغْنِي فِي نُسخَةِ الْأَلْوَحِ لَمَّا كَانَتْ قَدْ نُسخَتْ مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَفِي نُحُوتَيْهَا﴾ أَيْ الْكُتُبُ الَّتِي انْتَسَخَهَا بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ تِلْكَ الْأَلْوَحِ.

وقوله تعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ أَيْ هُدًى مِنْ كُلِّ ضَلَالَةٍ وَبَيَانٌ مِنْ كُلِّ غَمٍّ وَشُبُهَةٍ ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ مِنْ كُلِّ سَخَطَةٍ وَغَضَبٍ ﴿لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ أَيْ لِلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ، فَيَعْمَلُونَ.

الآية ١٥٥

وقوله تعالى: ﴿وَأَخَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا رِيقًا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: قوله تعالى: ﴿لِيَقْنِئَتْ﴾ أَيْ لِتَمَامِ الْمَوْعِدَةِ الَّتِي وَعَدَ، وَهُوَ الْأَرْبَعُونَ الَّتِي وَعَدَ. وَلَكِنْ لَا نَذْرِي مَا ذَلِكَ الْمِيقَاتُ الَّذِي ذَكَرَ؟

وقوله تعالى: ﴿وَأَخَارَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: السَّبْعِينَ الَّذِينَ اخْتَارَهُمْ مُوسَى لِيَكُونُوا مَعَ هَارُونَ، فَعَبَدُوا الْعِجْلَ فِي أَفْنِيَّتِهِمْ، فَلَمْ يُنْكِرُوا، وَلَمْ يَغْيِرُوا عَلَيْهِمَا^(٢)، ﴿فَلَمَّا أَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةَ﴾ وَقَالَ الْحَسَنُ: إِنَّهُمْ^(٣) جَمِيعاً قَدْ عَبَدُوا الْعِجْلَ إِلَّا هَارُونَ، فَالرِّجْفَةُ الَّتِي أَخَذَتْهُمْ إِنَّمَا أَخَذَتْهُمْ عُقُوبَةٌ لِمَا عَبَدُوا الْعِجْلَ. وَلَسْنَا نَذْرِي مَنْ أُولَئِكَ السَّبْعُونَ^(٤) الَّذِينَ اخْتَارَهُمْ مُوسَى؟

وَأَمَّا أَنْ يَكُونَ مُوسَى اخْتَارَ السَّبْعِينَ لِيَخْرُجُوا مَعَهُ، فَيَكُونُوا شُهَدَاءَ لَهُ عَلَى إِنْزَالِ التَّوْرَةِ عَلَيْهِ كَلَامَ رَبِّهِ.

وقيل: هُمُ الَّذِينَ تَرَكْتَهُمْ فِي أَضْلِ الْجَبَلِ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِالتَّوْرَةِ قَالُوا ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَقَّ رَأَى اللَّهِ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] فَأَخَذَتْهُمْ الصَّاعِقَةُ، وَهَلَكُوا، لِقَوْلِهِمْ ذَلِكَ. وَقَدْ ذَكَرْنَا أَنَا لَا نَذْرِي مَنْ كَانُوا؟

وقيل: اخْتَارَهُمْ مُوسَى لِيَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ وَمَا عَمِلَ قَوْمُهُمْ.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمُ﴾ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ وَإِلَّا يَبْقَى بِقَتْلِ

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: عليهم. (٣) في الأصل وم: إنه. (٤) في الأصل وم: السبعين.

الْقَبِيْطِي. وَقَالَ آخَرُونَ ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ﴾ عَلَى نَفْسِ الْإِهْلَاكِ ﴿وَلَئِيْٓنِ﴾ عَلَى الْقُدْرَةِ؛ أَيِ تَقْدِيرِ عَلَى إِهْلَاكِ، وَلَكِنْ لَا تُهْلِكُنَا إِمَّا لَمْ يَكُنْ مَا نَسْتَحِقُّه^(١) ذَلِكَ. وَشِبْهُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ﴾ إِهْلَاكٌ فَتَنَةً وَلِأَيِّ.

وقوله تعالى: ﴿أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السَّفَهَاءُ مِنَّا﴾ هَذَا يُخْرِجُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أحدهما: يَقُولُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، لَكَ أَنْ تُهْلِكُنَا ابْتِدَاءً إِهْلَاكٍ [وَتُهْلِكَ السَّفَهَاءُ]^(٢) بِمَا فَعَلُوا.

والثاني: يَقُولُ: ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَلَئِيْٓنِ﴾ وَمَا تُهْلِكُنَا بِقَوْمِنَا^(٣) لِأَنَّ مُوسَى أَتَى قَوْمَهُ وَاخْبَرَهُمْ أَنَّهُمْ أَهْلِكُوا بِسَبَبِ كَذَا، لَمْ يُصَدِّقْهُ^(٤) قَوْمُهُ بِذَلِكَ، وَلَكِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَهُ، وَيَقُولُونَ: أَنْتَ قَتَلْتَهُمْ^(٥) عَلَى مَا ذَكَرَ فِي بَعْضِ الْقِصَةِ أَنَّهُ خَرَجَ بِهَارُونَ إِلَى بَعْضِ الْجِبَالِ، فَمَاتَ هَارُونَ هُنَاكَ، فَأَخْبَرَ قَوْمَهُ بِذَلِكَ، فَكَذَّبُوهُ، وَقَالُوا: أَنْتَ قَتَلْتَهُ.

فَعَلَى ذَلِكَ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ هَهُنَا خَافَ أَنْ يَتَّهَمَهُ قَوْمُهُ فِي أَوَّلِكَ، وَلَا يُصَدِّقُوهُ فِي مَا خَلَّ بِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السَّفَهَاءُ﴾ يَحْتَمِلُ هَذَا وَجْهًا: يَحْتَمِلُ مَا يُرَادُ بِهِ التَّفْرِيرُ، وَيَحْتَمِلُ الْإِنْكَارَ وَالرَّدَّ، وَيَحْتَمِلُ الْإِيجَابَ.

أَمَّا الْإِنْكَارُ فَيَكُونُ مَعْنَاهُ ﴿أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السَّفَهَاءُ﴾ أَيِ لَا تَفْعَلْ، وَلَا تُهْلِكُنَا ﴿بِمَا فَعَلَ السَّفَهَاءُ مِنَّا﴾ وَمِثْلُ هَذَا قَدْ يُقَالُ: يَقُولُ رَجُلٌ لِآخَرَ: أَتَفْعَلُ أَنْتَ كَذَا عَلَى الْإِنْكَارِ؟ أَيِ لَا تَفْعَلْ، فَعَلَى ذَلِكَ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَيُرَادُ بِهِ الْإِيجَابُ، كَأَنَّهُ قَالَ: لَكَ ﴿أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السَّفَهَاءُ مِنَّا﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ^(٦) أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ امْتِحَانًا وَابْتِلَاءً ابْتِدَاءً؛ أَيِ تَفْعَلُهُ امْتِحَانًا وَابْتِلَاءً لَا تَغْذِيًا.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عَلَى الْإِسْتِفْهَامِ، لَكِنْ لَمْ يُخْرِجْ لَهُ الْجَوَابَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَابِئُ عَيْنٍ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣] وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ اتَّخَذَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: ٢١] وَنَحْوَهُ مِمَّا لَمْ يُخْرِجْ لَهُ جَوَابًا. فَعَلَى ذَلِكَ هَذَا.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ إِهْلَاكُهُ إِيَّاهُمْ مِخْنَةً بِتَفْرِيطِ كَانَ مِنْ بَعْضِهِمْ يَرَاهُ مِنْ ذَلِكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ أَهْلِ الْمَرْكَزِ مِنَ الْعِصْيَانِ، وَكَانَ الْقَتْلُ وَالْهَزِيمَةُ عَلَيْهِمْ مِخْنَةً مِنْهُ إِيَّاهُمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَحْسَبُوتُهُمْ بِأَذْيِهِ﴾ [آل عمران: ١٥٢]. فَعَلَى ذَلِكَ هَذَا.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تُشَاءُ﴾ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: ﴿تُضِلُّ بِهَا﴾ أَيِ تُنْهِي مَنْ فَعَلَ الْإِهْتِدَاءَ، لَكِنْ حَرَفَ مَنْ إِنَّمَا يُعْبَرُ بِهِ [عَنِ]^(٧) الْأَشْخَاصِ دُونَ الْأَفْعَالِ. فَلَوْ كَانَ عَلَى مَا ذَكَرَ هُوَ لَقَالَ: تُضِلُّ بِهِ مَا^(٨) تُشَاءُ. فَإِنْ لَمْ يَقُلْ ذَا ثَبِتَ أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى مَا ذَكَرَ.

وَتَأْوِيلُهُ عِنْدَنَا أَنَّهُ يَخْلُقُ فِعْلَ الضَّلَالِ مِنْ بَعْلَمٍ أَنَّهُ يَخْتَارُ ذَلِكَ، وَيَخْلُقُ فِعْلَ الْهُدَى مِنْ بَعْلَمٍ أَنَّهُ يَخْتَارُ ذَلِكَ [لِقَوْلِهِ تَعَالَى]^(٩): ﴿هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

وَأَضْلُ ذَلِكَ أَنَّ جَمِيعَ مَا يُضَافُ إِلَى اللَّهِ مِنْ طَرِيقِ الْأَفْعَالِ عَلَى اخْتِلَافِ الْإِضَافَةِ بِاخْتِلَافِ^(١٠) وَجْهِهَا، حَقِيقَةُ ذَلِكَ مِنَ اللَّهِ؛ خَلَقَ مَا أَضِيفَ إِلَيْهِ مِنَ الْوَجْهِ الَّذِي يَحِقُّ وَضْعُهُ بِأَنَّهُ خَالِقُهُ. فَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَقْوَى﴾ و﴿تُضِلُّ﴾. وَيَحْتَمِلُ: تُؤَفِّقُ، وَتُخْذَلُ.

وقوله تعالى: ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا﴾ أَيِ أَنْتَ وَلِيُّ بَنِي إِسْرَءِيلَ، وَيَحْتَمِلُ: أَنْتَ وَلِيُّ هِدَايَتِنَا أَوْ أَنْتَ وَلِيُّ نِعْمَتِنَا؛ ﴿فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ [كَقَوْلِهِ تَعَالَى]^(١١) ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٩ و ١١٨] لِأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ دُونَهُ إِنَّمَا يَرْحُمُهُ^(١٢) وَيَغْفِرُ لَهُ^(١٣) بِرَحْمَتِهِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: يَسْتَحِقُّهُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَالسَّفَهَاءُ. (٣) الْبَاءُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: يَصْدُقُوا. (٥) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: قَتَلَهُمْ. (٦) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٧) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: مَنْ. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: بِالْإِخْتِلَافِ. (١٠) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: يَرْحَمُ. (١٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

الآية ١٥٦

وقوله تعالى: ﴿رَأَيْتُمْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾ يَحْتَمِلُ الإِيجابَ: أي أَوْجِبَ ﴿لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ وقال بَعْضُهُمْ: قوله تعالى: ﴿رَأَيْتُمْ لَنَا﴾ أي وَفَّقَ لَنَا الْعَمَلَ الَّذِي نَسْتَوْجِبُ بِهِ الْحَسَنَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَيَحْتَمِلُ ﴿رَأَيْتُمْ لَنَا﴾ فِي الدُّنْيَا الْحَسَنَاتِ، وَلَا تَكْتُبُ عَلَيْنَا السَّيِّئَاتِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾ تُخْتَمُ بِهَا الدُّنْيَا، وَتُنْقَضِي بِهَا. وَإِلَّا مَا مِنْ مُسْلِمٍ إِلَّا وَلَهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ أَنَا هَاهُ. وَعَلَى ذَلِكَ يُخْرِجُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١] أَنَّهُمْ إِنَّمَا سَأَلُوا حَسَنَةً أَنْ يُخْتَمُوا^(١) عَلَيْهَا، وَيَكُونُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ﴾ [الأنعام: ١٦٠] كَذَا. وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِذَلِكَ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَذَاكَ إِلَيْكَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ: ﴿هَذَاكَ إِلَيْكَ﴾ أَيِ مِلْنَا إِلَيْكَ، وَقَالَ غَيْرُهُمْ: ﴿إِنَّا هَذَاكَ إِلَيْكَ﴾ أَيِ ثَبْنَا إِلَيْكَ. وَقِيلَ: وَلِذَلِكَ سَمِيَ^(٢) الْيَهُودُ أَنْفُسَهُمْ يَهُودًا؛ أَيِ تَائِبِينَ إِلَى اللَّهِ. لَكِنْ لَوْ كَانَ كَمَا ذُكِرَ كَانَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا﴾ [آل عمران: ٦٧] أَيِ تَائِبًا، وَذَلِكَ بَعِيدٌ، وَلَكِنْ، إِنْ كَانُوا سُمُّوا، فَهُوَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا﴾ أَيِ لَمْ يَكُنْ عَلَى الْمَذْهَبِ الَّذِي عَلَيْهِ الْيَهُودُ ﴿وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ وَكَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ عَلَى الْمَذْهَبِ الَّذِي ادَّعَتْ النَّصَارَى أَنَّهُ كَانَ عَلَيْهِ ﴿وَلَكِنْ كَانَ حَبِيبًا مُسْلِمًا﴾ [آل عمران: ٦٧].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ قَالَ الْحَسَنُ: يَشَاءُ أَنْ يُصِيبَ عَذَابُهُ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، وَكَذَّبَ رَسُولَهُ، وَشَاءَ مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَصَدَّقَ رَسُولَهُ، أَنْ يُصِيبَ رَحْمَتَهُ.

وَدَلَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ أَنَّهُ لَمَّا شَاءَ الْعَمَلُ وَالْفِعْلُ الَّذِي كَانَ بِهِ يُصِيبُهُمْ؛ لِأَنَّهُ حَرَفَ مَنْ إِنَّمَا يُعْبَرُ بِهِ عَنْ بَنِي آدَمَ، وَلَا جَائِزُ أَنْ يَشَاءَ لَهُمُ الْإِيمَانُ، ثُمَّ يَشَاءَ لَهُمْ أَنْ يُصِيبَهُمْ عَذَابُهُ. وَلَكِنْ إِنْ عَلِمَ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، وَيَخْتَارُونَ فِعْلَ الضَّلَالِ عَلَى فِعْلِ الْهُدَى، شَاءَ لَهُمْ مَا اخْتَارُوا.

وقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ مَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ مُسْلِمٍ وَكَافِرٍ إِلَّا وَعَلَيْهِ مِنْ آثَارِ رَحْمَتِهِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا؛ بِهَا يَتَغَيَّبُونَ، وَيُؤَاخِوْنَ، وَيُؤَادُّوْنَ، وَفِيهَا يَتَغَلَّبُونَ. لَكِنَّمَا^(٣) لِلْمُؤْمِنِينَ خَاصَّةٌ فِي الْآخِرَةِ، لَا حَظٌّ لِلْكَافِرِ فِيهَا. وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَسَأَكْنِتُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ مَغْصِيَةً اللَّهِ ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

جَعَلَ طَيِّبَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا^(٤) مُشْتَرَكَةً بَيْنَ الْمُسْلِمِ وَالْكَافِرِ خَالِصَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا حَظٌّ لِلْكَافِرِ فِيهَا. فَعَلَى ذَلِكَ رَحْمَتُهُ نَالَتْ كُلَّ أَحَدٍ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، لَكِنَّمَا لِلَّذِينَ آمَنُوا، وَاتَّقُوا الشُّرْكَ، خَاصَّةٌ فِي الْآخِرَةِ.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، ﴿رَأَيْتُمْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أَنَّهُمْ إِنَّمَا سَأَلُوا الرَّحْمَةَ، فَقَالَ: ﴿فَسَأَكْنِتُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ مَعَاصِي اللَّهِ/ ١٨٧ - ب/ وَمُخَالَفَتُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ الْمَعْرُوفَةَ، وَيَحْتَمِلُ تَرْكِيبَةَ النَّفْسِ كَقَوْلِهِ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقْنَاهَا﴾ ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩ و ١٠] وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَمْ يَرُدُّ بِهِ زَكَاةَ الْمَالِ، وَلَكِنْ زَكَاةَ النَّفْسِ بِالتَّوَجُّدِ وَالتَّقْوَى، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١]، هُوَ تِلْكَ الزَّكَاةُ، لَا الزَّكَاةُ الْمَعْرُوفَةُ زَكَاةَ الْمَالِ. فَعَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَأَنَّ كَانَ عَلَى الزَّكَاةِ الْمَعْرُوفَةِ فَذَلِكَ فِي قَوْمٍ، ثَقُلَ عَلَيْهِمْ، وَاشْتَدَّ إِخْرَاجُ الزَّكَاةِ مِنْ أَمْوَالِهِمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾^(٥) [فصلت: ٧].

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: يَخْتَمُونَ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: سَمِيَ. (٣) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: لَكِنَّمَا. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَنَعِيمَهَا. (٥) أَدْرَجَ بَدَلَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: كَذَا.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يَجِئُونَآ يُؤْمِنُونَ﴾ قد ذكرنا في غير موضع أن من آمن بآيات الله، وصدقها، فقد آمن بالله وبرسوله، ومن كذب [بآياته كذب] ^(١) بالله، وخالف رسله؛ لأن طريق معرفة الله ورسله إنما هو من طريق الآيات والحجج، ليس من طريق المشاهدات والمخسوسات. لذلك كان الإيمان بالآيات إيماناً بالله وبرسوله، وبالتكذيب بها كفرٌ بالله ورسله.

الآية ١٥٧ وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ أي يقتفون ^(٢) أثر الرسول في كل سيرته، وفي كل أمره ونهيه، ويطيعونه.

سماء رسولاً ونبيّاً بقوله تعالى: ﴿الرَّسُولَ النَّبِيَّ﴾. والرسول المبعوث على تبليغ الرسالة، والمأمور بها على كل حال. والنبي كالمسئول لهم أشياء عند السؤال والاستخبار. والرسول هو المأمور بالتبليغ سألوه، أو لم يسألوا، شأوا، أو أبوا، وكان لمحمد ﷺ، كلاهما: الإنباء والتبليغ كقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْقُرْآنَ﴾ [الرعد: ١٩] وقوله تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَّغُ﴾ [الشورى: ٤٨].

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ﴾ ^(٣) **﴿الْأُمِّيَّ﴾** ما ذكر في آية أخرى، وهو قوله **﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُمْ بِيَمِينِكَ﴾** الآية [العنكبوت: ٤٨].

[وقوله تعالى] ^(٤): ﴿الَّذِينَ يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾ أي يجدونه مكتوباً في التوراة أنه رسول نبي، وأنه أمي. [وقوله] ^(٥) تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ﴾ لئلا يقولوا إنك أخذت هذا من الكتب المتقدمة ومن علومها وحكمتها **﴿وَلَا تَخُطُّهُمْ بِيَمِينِكَ﴾** لئلا يقولوا: إنه من تاليفك، وتعلموا أنه من عند الله جاء به لا من ذات نفسه.

وفي قوله تعالى: ﴿يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ إلى آخر ما ذكر دلالة إنبات رسالة محمد ﷺ، لأن أولئك لم يأتوا بالتوراة والإنجيل، فيقولوا ^(٦): لا نجد ما تذكر في التوراة والإنجيل. دل ذلك منهم على أنهم وجدوه كذلك، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ أي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة أنه يأمر بما أمر الله به، وينهى عما نهى الله عنه **﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾** ما أحل الله لهم **﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾** ما حرم الله عليهم يجدونه في التوراة أنه لا يأمر بشيء، ولا ينهى عن شيء، ولا يحل شيئاً، ولا يحرم إلا بأمر من الله له. لكنهم ينكروا إنكار عناد ومكابرة كقوله تعالى: ﴿يَقْرَأُونَ كَمَا يَقْرَأُونَ آثَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦] وغيره.

ويحتمل قوله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ الآية أي يأمر بما هو معروف في العقل وشهادة الخلقة [وهو التوحيد، وكذلك ينهاهم عما هو في العقل وشهادة الخلقة] ^(٧) منكر، وهو الكفر وجميع المعاصي **﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾** أي يحل ما هو طيب في العقل والطبع، ويحرم ما هو خبيث في العقل والطبع جميعاً؛ لأن من الأشياء ما هو مستحب في الطبع. لم يجعل غذاء البشر فيه وإنما جعل غذاءهم في ما هو مستطاب في الطبع، بلغ غايته في الطيب. ولا كذلك جعل غذاء البهائم والأنعام. هذا يحتمل، والله أعلم.

ثم المعروف والطيبات لو تركت العقول والطباع على ما هي عليه لكانت لا حاجة تقع إلى رسول يُخبر أن [هذا معروف وأن] ^(٨) هذا طيب أو خبيث أو منكّر. ولكن تُعرف العقول والطباع ذلك كله. لكن تُعرض العقول عن الشئ، فتمنعها عن معرفة ذلك، فاحتاجت إلى رسول الله يُخبر عن ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَوَصَّ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ قيل: ما غلظوا على أنفسهم من الشدائد، وقيل **﴿إِصْرَهُمْ﴾** شدة من العبادة والعمل، وقيل: **﴿إِصْرَهُمْ﴾** عهدهم، وقيل: **﴿إِصْرَهُمْ﴾** الثقل الذي كان بنو إسرائيل ألزموه.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: يقتفون. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) الواو ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: فيقولون. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، ساقطة من الأصل.

وقال الفتى: ﴿وَيَصْنَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ أي ذنبهم الذي كانوا يذنبون، أي عقوبة الذنب الذي أذنبوا في الدنيا. وقوله تعالى: ﴿وَالْأَعْلَلُ أَلْقَى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ قال الحسن: إن اليهود قالوا ﴿يَدُ اللَّهِ مَقْلُودَةٌ﴾ أي مخبوسة^(١) عن عقوبتنا، فقال ﷺ: ﴿عَلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَيُوا بِمَا قَالُوا﴾ [المائدة: ٦٤] أي غلَّتْ أيديهم إلى أعناقهم في النار. فأخبر أن أمة محمد ﷺ لما آمنوا به، وصدقوه، رفع تلك الأغلال التي كانت عليهم عن هذه الأمة بطاعتهم رسول الله ﷺ.

وقيل: الأغلال الشدائد التي كانت عليهم من نحو ما لا يجوز لهم: العقو^(٢) عن الدم العمد وأخذ^(٣) الدية وغسل^(٤) النجاسات إلا القلع وغير ذلك من الأشياء التي لم تجل لهم، فأجلت لهذه الأمة. ويحتمل أن يكون الإضر والأغلال التي كانت عليهم من نحو ما حرمت من أشياء يظلم كان منهم وتحریم نحو قوله تعالى: ﴿يُظَاهِرُ مِنَّ الذَّيْنِ مَا دُورًا حَرَمًا عَلَيْهِمْ مَلَيْكَتُ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ﴾ [النساء: ١٦٠] وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّ الذَّيْنِ مَا دُورًا حَرَمًا كَلَّ ذِي ظُلْفَرٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الَّذِينَ يَنفِيهِمْ﴾ [الأنعام: ١٤٦] حرمت تلك الأشياء عليهم عقوبة لينفيهم وظلمهم الذي كان منهم.

أخبر أنه وضع عن هؤلاء ذلك، لم يحرم ذلك عليهم. وفي الآية دلالة إثبات رسالة محمد ﷺ لأنه أخبر أنه أمي، والأمي ما ذكر في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ. مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَقُطْعُ يَمِينُكَ﴾ [المنكوت: ٤٨]، ثم أخبر على ما كان في كُتُبِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ عَرَفَ مَا فِي كُتُبِهِمْ، أو نظره فيها، وعرف لسانهم. دل أنه إنما عرف ذلك بالله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهَوْنَ﴾ أي صدقوا بمحمد ﷺ، ﴿وَعَزَّوْهُ﴾ قيل: أعانوه بأموالهم، ونصروه بأيديهم بالسيف.

وقال الحسن: قوله تعالى: ﴿وَعَزَّوْهُ وَنَصَرُوهُ﴾ إنما هو كلام متشعب، وهو إعانة، وقيل: ﴿وَعَزَّوْهُ﴾ أي عظموه. وقوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا النَّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾ يعني القرآن؛ سماء نوراً لما يُنيرُ الأشياء عن حقائقها بالعقول؛ لأن النور في الشاهد هو الذي يكشف عن الأشياء سواترها. فعلى ذلك القرآن، وهو نور لما يرفع الشبهة عن القلوب، ويكشف عن سواترها.

وقال بعضهم: سمي نوراً لما يُنيرُ الأشياء، ويُعرف به ما غاب، وما شهد، فيصير الغائب به له كالشاهد.

الآية ١٥٨ وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ فيه دلالة أن رسول الله ﷺ، كان مبعوثاً إلى الناس كافة، وكذلك روي أنه ﷺ، قال: «بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ وَسَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ بُعِثُوا إِلَى أَقْوَامٍ خَاصَّةٍ وَإِلَى الْبُلْدَانِ وَالْقُرَى الْمَعْرُوفَةِ الْمَحْدُودَةِ» [أحمد ٢٥٠/١].

وفيه أنه لما خاطبه [أمره]^(٥) أن يقول للناس، ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ أنه لا سبيل له إلا^(٦) أن يخاطب الناس والخلق جميعاً، فيقول: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ ولكن إنما يكون ببعث الرسل إليهم، فينزل قول الرسول: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ منزلة قوله^(٧) نفسه: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ فانتشر^(٨) ذكره بتبليغ الرسل إليهم؛ كأنه هو بلغ ذلك، وقال لهم: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ أو أن الله ﷻ، سخر الخلق حتى بلغ بعضهم بعضاً رسالته، وحتى فشا خبره، وانتشر ذكره في جميع آفاق الأرض شرقاً وغرباً. وذلك من عظيم آيات نبوته ورسالته.

ثم بين أنه رسول من الله، فقال: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾.

(١) من م، في الأصل محسوسة. (٢) من م، في الأصل: العقول. (٣) في الأصل: ولا أخذ. (٤) في الأصل وم: وما لا يجوز غسل. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: إلى. (٧) في الأصل وم: قول. (٨) من م، في الأصل: فانتشروا.

وَذَكَرَ تَخْصِيصَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَإِنْ كَانَ لَهُ مُلْكُ الْكُلِّ، لِمَا هُمَا النّهَايَةُ فِي مُلْكِ الْبَشَرِ، أَوْ ذَكَرَ هَذَا لِيَعْلَمُوا أَنَّ [مَنْ] ^(١) فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَهُ عَيْدُهُ وَإِمَاؤُهُ، أَوْ ذَكَرَ هَذَا لِيَعْلَمُوا / ١٨٨ - ١ / أَنَّ التَّذْيِيرَ فِيهِمَا جَمِيعاً لَوَاحِدٍ حَيْثُ اتَّصَلَ مَنَافِعُ السَّمَاءِ بِمَنَافِعِ الْأَرْضِ عَلَى بُعْدِ مَا بَيْنَهُمَا.

وقوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ ذَكَرَ هَذَا لِأَنَّ الْعَرَبَ سَمَتْ كُلَّ مَعْبُودٍ إِلَهًا، وَهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ وَيُسَمُّونَهَا آلِهَةً، فَتَقَى الْأُلُوهِيَّةَ عَمَّنْ يَعْبُدُونَهُمْ دُونَهُ، وَأَثْبَتَهَا لَهُ.

وَأَخْبَرَ أَنَّهُ هُوَ الْمُسْتَحَقُّ لِاسْمِ الْأُلُوهِيَّةِ وَالْعِبَادَةِ، لَا غَيْرَ؛ لِأَنَّهُ يُحْيِي، وَيُمِيتُ، وَمَنْ يَعْبُدُونُ دُونَهُ لَا يَمْلِكُ الْإِحْيَاءَ وَلَا الْإِمَاتَةَ. وَذَكَرَ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، الْحَيَاةَ وَالْمَوْتَ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَلَدُّ وَأَشْهَى فِي الشَّاهِدِ مِنَ الْحَيَاةِ، وَلَا أَمَرٌ وَلَا أَشَدُّ مِنَ الْمَوْتِ، لِيَزْعُمُوا فِي أَلَدِّ مَا غَابَ عَنْهُمْ، وَيَنْفِرُوا عَنِ الْأَمْرِ وَالْأَكْرَهِ مِمَّا غَابَ عَنْهُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَوْ ذَكَرَ أَنَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ لِيَدُلَّ أَنَّهُ فَعَلُ وَاحِدٍ لَا عَدَدٍ.

وقوله تعالى: ﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيُّ الَّذِي يَأْتِيكُم بِاللَّهِ﴾ كَانَ ﷺ، هُوَ السَّابِقُ إِلَى كُلِّ خَيْرٍ. فَعَلَى ذَلِكَ دَعَا الْخَلْقَ كَقَوْلِهِ ﴿وَإِنَّا أَوَّلُ الْغُزِيِّينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] [وقوله] ^(٢): ﴿وَإِنَّا أَوَّلُ الْغُزِيِّينَ﴾ [الأنعام: ١٦٣] فَعَلَى ذَلِكَ إِنَّمَا أَمَرَ بِالْإِيمَانِ بَعْدَ مَا آمَنَ هُوَ.

وجائزُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ أَيَّ آمَنَ رَسُولُ اللَّهِ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ الَّتِي كَانَتْ فِي الْكُتُبِ الْمَاضِيَةِ فَأَخْبَرَ بِهَا فِي مَا كُتِبَ لِيَعْرِفُوا أَنَّهُ إِنَّمَا عَرَفَهَا بِاللَّهِ تَعَالَى.

وقوله تعالى: ﴿وَكَلِمَاتِهِ﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ: قَالَ عَائِمَةُ أَهْلُ التَّأْوِيلِ ﴿وَكَلِمَاتِهِ﴾ الْقُرْآنُ، وَذَكَرَ فِي بَعْضِ الْقِرَاءَاتِ وَكَلِمَاتِهِ بِلَا الْفِ (٣)، فَصُرِفَ التَّأْوِيلُ إِلَى عِيسَى؛ كَأَنَّهُ قَالَ: آمَنُوا بِاللَّهِ وَبِمُحَمَّدٍ وَبِوَعْدِهِ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَلِمَاتِهِ﴾ مَا أَعْطَاهُ مِنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ وَالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْحِكْمَةِ وَالْأَحْكَامِ الَّتِي أَمَرَ بِهَا، وَشَرَعَهَا لَنَا، عَلَى مَا ذَكَرَ فِي إِبْرَاهِيمَ أَنَّهُ ابْتِلَاءٌ ﴿يَكَلِّمُنَا فَنُحَدِّثُ﴾ [البقرة: ١٢٤] وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ قَدْ ذَكَرْنَا الْإِتْبَاعَ، فَإِذَا اتَّبَعُوهُ اهْتَدَوْا.

الآية ١٥٩ وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمٍ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ قِيلَ: أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى سَبِيلِ اللَّهِ ﴿وَبِهِ يَتَّبِعُونَ﴾ فِي مَا بَيْنَهُمْ، وَلَكِنَّ الْأَوَّلَ أَقْرَبُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثم قوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمٍ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ جَائِزٌ أَنْ تَكُونَ الْأُمَّةُ الَّتِي أَكْرَمَ [مِنْ قَوْمٍ] ^(٤) مُوسَى؛ كَانُوا ^(٥) فِي زَمَانِهِمْ يَدْعُونَ النَّاسَ إِلَى الْإِيمَانِ بِرَسُولِ اللَّهِ، أَوْ أَنْ تَكُونَ الْأُمَّةُ مِنْ قَوْمِهِ فِي زَمَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، بَقِيَّةٌ مِنْ مُوسَى مُؤْمِنِينَ بِهِ يَدْعُونَ النَّاسَ إِلَيْهِ ﴿وَبِهِ يَتَّبِعُونَ﴾.

الآية ١٦٠ وقوله تعالى: ﴿وَقَطَعْنَهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أَسْمَاءُ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﷺ، هُوَ مَا ذَكَرَهُ ﴿وَقَطَعْنَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَسْمَاءُ﴾ [الأعراف: ١٦٨] أَيَّ جَمَاعَةٍ، وَقِيلَ: ﴿وَقَطَعْنَهُمْ﴾ أَيَّ جَعَلْنَاهُمْ ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا﴾ فِرْقًا، وَقَالَ غَيْرُهُمْ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَطَعْنَهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أَسْمَاءُ﴾ أَيَّ جَاوَزْنَا بِهِمُ الْبَحْرَ، وَجَعَلْنَاهُمْ ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا﴾.

قَالَ أَبُو عَوَسَجَةَ: الْأَسْبَاطُ الْأَفْخَادُ، وَالسَّبْطُ وَاحِدٌ، وَقَالَ الْفَتَّي: الْأَسْبَاطُ الْقَبَائِلُ، وَاجِدُهَا سَبْطٌ.

وقيل: الْفَخْذُ دُونَ الْقَبِيلَةِ، وَقِيلَ: إِنَّ أَوْلَادَ إِسْحَاقَ تُسَمَّى أَسْبَاطًا، وَأَوْلَادَ إِسْمَاعِيلَ قَبَائِلُ وَأَفْخَادُ، وَلِذَلِكَ يُقَالُ لِلْعَرَبِ: قَبِيلَةُ كَذَا [وَفَخْذُ كَذَا] ^(٦). وَلَسْنَا نَذَرِي كَيْفَ هُوَ ^(٧)؟ وَقِيلَ: سَبْطُ الرَّجُلِ وَلَدٌ وَلَدُهُ عَلَى مَا رُوِيَ أَنَّ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ سَبْطَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

(١) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) انظر معجم القراءات القرآنية (٢/ ٤١١). (٤) مِنْ م ساقطة من الأصل. (٥) فِي الأصل وم. كان. (٦) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٧) مِنْ م، فِي الأصل: وهو.

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَنَهُ قَوْمُهُ﴾ قِيلَ: ﴿إِذِ اسْتَسْقَنَهُ قَوْمُهُ﴾ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي الْمَفَازَةِ لَا فِي الْبُلْدَانِ وَالْقُرَى؛ لِأَنَّهُمْ لَوْ كَانُوا فِي الْقُرَى، وَالْقُرَى لَا تَخْلُو مِنْ أَنْهَارٍ، تَجْرِي فِيهَا، أَوْ عُيُونٍ الْأَرْضِ.

أَلَا تَرَىٰ أَنَّهُ قَالَ: ﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ﴾ دَلَّ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي الْمَفَازَةِ؟ لِأَنَّهُ هُنَاكَ تَقَعُ الْحَاجَةُ إِلَى الْغَمَامِ، وَأَمَّا فِي الْقُرَى فَلَا.

وقوله تعالى: ﴿فَأَلْبَسْتُمْهُ أَغْلَقًا عَنَّا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: انْفَجَرَتْ عَلَى مَا ذَكَرَ فِي سُورَةِ أُخْرَى^(١). وَقِيلَ: إِنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ بِلِسَانِهِمْ لَا بِلِسَانِ الْعَرَبِ.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: تَعَبُّدُهُمْ بِمَعْرِفَةِ كُلِّ مَنْهُمْ مَشْرَبَهُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا، وَلَكِنْ لِتَلَّا يَزْدَجُمُوا فِي ذَلِكَ، فَيَقَعَ^(٢) فِي أَوْلَادِهِمُ الثَّقَاتِلُ^(٣) وَالْإِسَادُ وَالتَّنَازُعُ وَالْإِخْتِلَافُ.

وقوله تعالى: ﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَزَلَّنا عَلَيْهِمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ فِيهِ أَنَّ جَمِيعَ مُؤْنِهِمْ كَانَتْ مِنَ السَّمَاءِ بِلَا مُؤْنَةٍ وَلَا تَعَبٍ عَلَى أَنْفُسِهِمْ.

وقوله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ طَلْحَتٍ مَا رَزَقْنَاهُمْ﴾ مَا ذَكَرَ مِنَ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى^(٤) وَغَيْرِهِ ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ أَي لَا أَحَدٌ يَقْصِدُ قَضْدَ ظَلَمِ اللَّهِ، وَلَكِنْ إِذَا تَعَدَّوا حُدُودَ اللَّهِ الَّتِي جَعَلَ لَهُمْ، وَجَاوَزُوهَا، فَقَدْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، لِمَا رَجَعَ ضَرَرُ ذَلِكَ التَّعَدِّي إِلَيْهِمْ. وَهَذِهِ النِّعَمُ الَّتِي ذَكَرَ لَهُمْ: جَلٌّ، وَعَلَا، إِنَّمَا جَعَلَهَا لَهُمْ فِي حَالِ الْعُقُوبَةِ وَالْإِبْتِلَاءِ مِنَ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى وَالْعِيُونِ وَالْغَمَامِ.

وَيَذُلُّ هَذَا عَلَى أَنَّ عُقُوبَاتِ الدُّنْيَا، قَدْ يَشُوْبُهَا لَذَّةٌ وَنِعْمَةٌ، وَكَذَلِكَ لَذَاتُ الدُّنْيَا قَدْ يُمَارِجُهَا شِدَائِدُ وَهْمُومٍ؛ فَإِنَّمَا تَخْلُصُ، وَتَضْفَرُ هَذِهِ النِّعَمُ فِي الْآخِرَةِ، وَكَذَلِكَ الْعُقُوبَةُ هُنَاكَ تَخْلُصُ، وَتَفَارِقُ اللَّذَاتِ.

الآية ١٦١ وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَذْكُرُ لَهُمْ أَسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ قَالَ عَامَّةُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ يَبَيِّنُ الْمُقَدَّسِ، وَأَمَّا أَنْ تَكُونَ الْقَرْيَةُ الَّتِي ذَكَرَ هُنَا، هِيَ^(٥) الْأَرْضُ الَّتِي ذَكَرَ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ، وَهِيَ^(٦) قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ﴾ [الآية: ٢١] أَمَرَهُمْ بِالْإِدْخَالِ فِيهَا، وَنَهَاَهُمْ عَنِ الْإِزْدَادِ عَلَى^(٧) أَدْبَارِهِمْ. فَأَمَرَهُمْ هُنَا بِالسُّكُونِ فِيهَا، وَأَبَاحَ لَهُمْ التَّشَاوُلَ مِنْهَا مِمَّا شَاؤُوا.

وقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ أَيِ ارْجِعُوا إِلَى السَّبَبِ الَّذِي يُحِطُّ الْأَوْزَارَ، لَا [قُولِكُمْ: حُطَّ عَنَّا]^(٨) كَذَا؛ وَهُوَ مَا قَالَ هُودٌ ﷺ ﴿أَسْتَغْفِرُكُمْ رَبِّكُمْ﴾ [هود: ٥٢] أَيِ إِثْمًا بِالسَّبَبِ الَّذِي بِهِ يُغْفَرُ، وَهُوَ التَّوْحِيدُ ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ الْآيَةُ: قَدْ مَضَى ذِكْرُ هَذَا فِي السُّورَةِ الَّتِي فِيهَا ذِكْرُ الْبَقَرَةِ^(٩).

الآية ١٦٢ وقوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ هَذَا أَيْضاً ذَكَرْنَا فِيهَا^(١٠) سِوَى أَنَّهُ ذَكَرَ هُنَا: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ وَذَكَرَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾ وَالْقِصَّةُ وَاحِدَةٌ لِيُعْلِمَ أَنَّ اخْتِلَافَ الْأَلْفَاظِ لَا يُوجِبُ اخْتِلَافَ الْمَعَانِي وَالْأَحْكَامِ وَلَا تَغْيِيرَهَا.

وَذَكَرَ هُنَا ﴿بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ وَهُنَاكَ ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ وَالْفِسْقُ هُوَ الْخُرُوجُ عَنِ الْأَمْرِ، وَالظُّلْمُ هُوَ وَضْعُ الشَّيْءِ [فِي]^(١١) غَيْرِ مَوْضِعِهِ. وَقَدْ كَانَ مِنْهُمْ الْأَمْرَانِ جَمِيعاً: الْخُرُوجُ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ، وَوَضْعُ الشَّيْءِ أَيْضاً فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ.

أَكْرَمَ اللَّهُ ﷻ هَذِهِ الْأُمَّةَ كَرَامَاتٍ مِنَ الطَّاعَةِ لِرَسُولِهَا وَالْخُضُوعِ لَهُ وَالتَّعْظِيمِ لَهُ حَتَّى لَمْ يَخْطُرْ بِأَحَدٍ الْخِلَافَ لَهُ بَعْدَ مَا اتَّبَعَهُ، وَأَمَّنْ بِهِ، وَأَكْرَمَهُمْ أَيْضاً مِنَ الْفَهْمِ وَالْحِكْمَةِ وَالْفِقْهِ حَتَّى ذَكَرَ كَانَهُمْ مِنَ الْفُقَهَاءِ أَنْبِيَاءَ، وَقَوْمَ مُوسَى ﷺ وَغَيْرِهِ مِنَ الْأُمَمِ لَمْ يَكُونُوا مِثْلَ ذَلِكَ. أَلَا تَرَىٰ أَنَّ قَوْمَ مُوسَى قَدْ خَالَفُوهُ فِي أَشْيَاءَ أَمَرَهُمْ مُوسَى بِهَا؟

(١) وهو قوله تعالى: ﴿فَأَنْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: ٦٠] (٢) في الأصل: ليقع. (٣) من م، في الأصل: التقابل. (٤) وذلك في سورة البقرة الآية (٥٧) وسورة طه الآية (٨٠). (٥) في الأصل: وهي. (٦) في الأصل: وهو. (٧) في الأصل: وهو. (٨) في الأصل: عن. (٩) في الأصل: قولهم حط علينا، في م: قولهم حط عنا. (١٠) كان ذلك في الآية (٥٨). (١١) كان ذلك في الآية (٥٩). (١٢) ساقطة من الأصل وم.

الآية ١٦٣

وقوله تعالى: ﴿وَسَلَّطْنَاهُمْ عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: الْقَرْيَةُ ﴿الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ هِيَ ابْنَةُ، وَقَالَ آخَرُونَ: أَرِيحَا. وَلَسْنَا نَذْهَبُ مَا تِلْكَ الْقَرْيَةُ؟ وَلَيْسَ لَنَا إِلَى مَعْرِفَةِ تِلْكَ الْقَرْيَةِ حَاجَةٌ؛ إِذْ لَا مَنَفْعَةَ لَنَا فِي مَعْرِفَتِهَا، وَلَوْ كَانَتْ لَنَا حَاجَةٌ إِلَيْهَا لَيُنَّ لَنَا ۖ

وقوله تعالى: ﴿وَسَلَّطْنَاهُمْ عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ﴾ كَذَا أَمَرُهُ بِالسُّؤَالِ عَنْهَا. ثُمَّ كَانَ هُوَ الْمُبَيِّنُ لَهُمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ بَدَّوْكَ فِي السَّبْتِ﴾ وَالسُّؤَالُ هُوَ الْإِسْتِخْبَارُ، وَالْإِجَابُ إِنَّمَا يُلْزَمُ الْمَسْئُولُ دُونَ الْمُسْتَخْبِرِ. لَكِنَّ الْإِسْتِخْبَارَ يَكُونُ مِنْ وَجْهَيْنِ: أَخِذْهُمَا: ابْتِدَاءُ إِجَابَةٍ.

وَالثَّانِي: طَلَبُ التَّصْدِيقِ.

فَهَذَا لَمْ يَحْتَمِلْ ابْتِدَاءَ الْخَبَرِ، وَهُوَ عَلَى طَلَبِ التَّصْدِيقِ، كَأَنَّهُ قَالَ: أَلَمْ يَكُنْ كَذَا؟ فَيَقُولُونَ: بَلَى^(١)؛ يُصَدِّقُونَهُ بِمَا يَقُولُ لَهُمْ.

وَقَالَ قَائِلُونَ: لَمْ يَأْمُرْهُ بِالسُّؤَالِ حَقِيقَةً، وَلَكِنَّهُ عَلَى التَّمَثِيلِ؛ كَأَنَّهُ قَالَ: لَوْ سَأَلْتُهُمْ يَقُولُونَ لَكَ كَذَا، كَقَوْلِهِ: ﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَاتِنَا يَنْتَوُ﴾ [البقرة: ٢١١] لَيْسَ عَلَى الْأَمْرِ أَنْ أَسْأَلَهُمْ، وَلَكِنْ لَوْ سَأَلْتُهُمْ [عَنْ كَيْفَ]^(٢) كَانَ كَذَا لِأَجَابُوكَ^(٣) بِكَذَا. فَعَلَى ذَلِكَ هَذَا.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ بَدَّوْكَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ ١٨٨ - ب/ حِينَئِذِهِمْ﴾ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ [أَنَّهُ]^(٤) قَالَ: ابْتَدَعُوا السَّبْتَ، فَعَظَّمُوهُ، فَابْتُلُوا فِيهِ، فَحُرِّمَتْ عَلَيْهِمْ فِيهِ الْحَيَاتَانِ يَوْمَ السَّبْتِ، فَكَانَتْ تَأْتِيهِمْ يَوْمَ السَّبْتِ ﴿شُرْعًا﴾ بِلا مُؤَنَّةٍ وَتَكْلُفٍ. ابْتُلُوا بِهِ، وَلَا تَأْتِيهِمْ فِي غَيْرِهِ مِثْلَهُ.

وَقَالَ أَبُو عَوَسَجَةَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿شُرْعًا﴾ الَّتِي قَدْ دَنَتْ مِنَ الشُّطِّ، وَالوَاحِدُ شَارِعٌ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْبُتُونَ﴾ أَي لَا يَدْخُلُونَ فِي السَّبْتِ كَمَا يُقَالُ: لَا يَزْبَعُونَ، وَلَا يَخْمِسُونَ؛ أَي لَا يَدْخُلُونَ فِيهِ. وَيَسْبُتُونَ أَي يَدْخُلُونَ فِيهِ، وَكَذَلِكَ يَزْبَعُونَ، وَيَخْمِسُونَ.

وَقَالَ الْقُتَيْبِيُّ: ﴿شُرْعًا﴾ أَي شَوَارِعَ ﴿إِذْ بَدَّوْكَ﴾ أَي يَتَعَدَّوْنَ الْحَقَّ. وَيُقَالُ: عَدَوْتُ عَلَى فُلَانٍ إِذَا ظَلَمْتَهُ. وَقَالَ الْكِسَائِيُّ: يُقْرَأُ يُسَبِّتُونَ بِالرَّفْعِ، وَيُقْرَأُ بِالْفَتْحِ. فَمَنْ قَرَأَهَا يُسَبِّتُونَ مِنْ أَصَبَتِ الْقَوْمُ يُسَبِّتُونَ^(٥) دَخَلُوا فِي السَّبْتِ. وَقَالَ قَائِلُونَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿شُرْعًا﴾ أَي كَثِيرَةٌ أَوْ تَكْثُرُ لَهُمُ الْحَيَاتَانِ، وَقِيلَ فِي غَيْرِ ذَلِكَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ابْتَلَاهُمُ اللَّهُ بِتَحْرِيمِ السَّمَكِ فِي السَّبْتِ لِيَرَى الْخَلْقَ الْمُطِيعَ مِنْهُمْ مِنَ الْعَاصِي. وَقَالَ قَائِلُونَ: ابْتَلَاهُمْ بِذَلِكَ لِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ فِي السَّرِّ لِيَكُونَ فِسْقُهُمْ وَتَعَذِّبُهُمْ ظَاهِرًا عِنْدَ الْخَلْقِ كَمَا كَانَ عِنْدَ اللَّهِ لئَلَّا يَقُولُوا عِنْدَ التَّعْذِيبِ: إِنَّهُمْ عَذَّبُوا بِلا ظُلْمٍ وَتَعَدُّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

وَقَالَ قَائِلُونَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسَلَّطْنَاهُمْ عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ إِنَّمَا أَمَرَهُ أَنْ يَسْأَلَهُمْ: أَمَّا عَذَابُهُمْ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ؟ ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ ذُنُوبِهِمْ، فَقَالَ: ﴿إِذْ بَدَّوْكَ فِي السَّبْتِ﴾ يَتَعَدَّوْنَ فِي السَّبْتِ، وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿شُرْعًا﴾ أَي مُشَارَعَاتٍ مِنْ عَمَرَةِ الْمَاءِ أَوْ خَارِجَاتٍ.

الآية ١٦٤

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ يَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ ذَكَرَ فِي الْأَوَّلِ أَنَّهُمْ كَانُوا [ثَلَاثَةَ فُرُقٍ: قَرِيقًا]^(٦) عَدَا، وَتَرَكَوْا أَمْرَ اللَّهِ، وَتَرَكَوْا مَا نَهَوْا عَنْهُ، وَقَرِيقًا^(٧): نَهَوْا أَوْلَئِكَ الَّذِينَ اغْتَدَّوْا، وَانْتَهَكُوا حَرَمَ اللَّهِ، وَقَرِيقًا^(٨): قِيلَ: لَمْ يَعْتَدُوا، وَلَمْ يَزْتَكِبُوا نَهْيَهُ، وَلَا نَهَوْا أَوْلَئِكَ الَّذِينَ اغْتَدَّوْا، وَهُمْ الَّذِينَ قَالُوا: ﴿لِمَ يَعْطُونَ قَوْمًا﴾ الْآيَةَ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: نَعَمْ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَأَجَابُوكَ. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) فِي الْأَصْلِ: ثَلَاثَ فُرُقٍ، فِي م: ثَلَاثَ فُرُقٍ فَرِيقٍ. (٧) وَ(٨) فِي الْأَصْلِ وَم: فَرِيقٍ. انظر معجم القراءات القرآنية (ج ٢/ ٤١٤).

وكذلك روي عن ابن عباس رضي الله عنه: [أنه^(١)] قال: هم كانوا ثلاث فِرَقٍ: فِرْقَةٌ، وَعَظَتْ، وفِرْقَةٌ مَوْعُظَةٌ، وفِرْقَةٌ ثَالِثَةٌ، وَهُمْ الَّذِينَ قَالُوا: ﴿لِمَ يَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ وهو ما ذَكَّرْنَا أَنَّهُمْ ذَكَرْنَاهُمْ فِي الْإِنْبَاءِ: ثَلَاثُ فِرَقٍ. وَذَكَرَ فِي آخِرِ ^(٢) الْحَالِ فِرْقَتَيْنِ: فِرْقَةٌ هِيَ الَّتِي مَلَكَتْ بِالْإِغْتِدَاءِ: وفِرْقَةٌ هِيَ الَّتِي نَهَتْ، وَنَجَتْ.

ثم اختلف أهل التأويل في الفِرْقَةِ الثَّالِثَةِ؛ قَالَ بَعْضُهُمْ: كَانُوا فِي الْفِرْقَةِ الَّتِي مَلَكَتْ لِيُوجِهَيْنِ.

أَخَذَهُمَا: لَمَّا لَمْ يَنْهَوْا أَوْلَئِكَ الَّذِينَ اغْتَدَوْا، وَكَانَ فُرْصَ عَلَيْهِمُ النَّهْيُ عَنِ الْمُتَكَبَّرِ وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ. فَإِذَا لَمْ يَنْهَوْا أَوْلَئِكَ هَلَكُوا، وَأُشْرِكُوا فِي الْعَذَابِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّيُّونَ وَالْأَنْبِيَاءُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِنْفَ وَأَكْبَهُمُ الشُّحَّ﴾ ^(٣) الْآيَةُ: [المائدة: ٦٣].

وَالثَّانِي: كَانُوا مَعَهُمْ لَمَّا نُهُوا [مِنْ] ^(٤) النَّاهِيْنَ، وَقَالُوا ^(٥): ﴿وَإِذْ قَالَتْ أَتَدْعُ النَّاسَ لِمَ يَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ؟

وَقَالَ قَائِلُونَ: كَانُوا مِنَ النَّاجِيْنَ. قَالَ الْحَسَنُ: لِأَنَّهُمْ كَانُوا نَهَوْا أَوْلَئِكَ عَنِ الْإِغْتِدَاءِ وَالظُّلْمِ الَّذِي كَانَ ^(٦) مِنْهُمْ، وَكَانَ قَوْلُهُمْ: ﴿لِمَ يَعْطُونَ قَوْمًا﴾ بَعْدَ مَا نَهَوْهُمْ، وَوَعَّظُوهُمْ ^(٧)، فَلَمْ يَتَّعِظُوا، فَإِنَّمَا قَالُوا لِأَوْلَئِكَ: ﴿لِمَ يَعْطُونَ قَوْمًا﴾ بَعْدَ مَا نُهُوا، وَوَعَّظُوا؟ فَقَالُوا: كَيْفَ يَعْطُونَ قَوْمًا لَا يَتَّعِظُونَ، وَلَا يَنْتَهُونَ؟ فَإِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ بَعْدَ مَا نُهُوا.

وَقَالَ قَائِلُونَ: هَذَا الْقَوْلُ مِنْهُمْ نَهْيٌ لِأَنَّهُمْ أَتَوْا بِوَعِيدٍ شَدِيدٍ بِقَوْلِهِمْ: ﴿لِمَ يَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ فَتَفَسَّرَ هَذَا الْقَوْلُ مِنْهُمْ نَهْيٌ وَزَجَرَ عَمَّا ارْتَكَبُوا جِئ ^(٨) أَتَوْا بِالنَّهْيِ مِنَ الْوَعِيدِ، وَهُوَ الْهَلَاكُ وَالْعَذَابُ الشَّدِيدُ.

وَلَكِنْ لَسْنَا نَعْلَمُ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي الْهَلَكَةِ أَوْ فِي النَّاجِيْنَ، وَلَيْسَ لَنَا إِلَى مَعْرِفَةِ ذَلِكَ حَاجَةٌ. وَلَوْ كَانَ لَنَا حَاجَةٌ إِلَى ذَلِكَ لَبَيَّنَّا لَنَا ﷺ، وَلَمْ يَتَرَكْ ^(٩) ذَلِكَ، لَا رَأْيَا سِوَى أَنَّهُ بَيَّنَّ مَنْ يُنَجِّي مِنْهُمْ بِالْإِنْتِهَاءِ ^(١٠) عَنِ الظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ، وَبَيَّنَّ مَنْ أَهْلَكَ، وَعَذَّبَ بِالظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَبِمَا أَلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ الشُّوِّ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَیِّنٍ يَمَّا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الإعراف: ١٦٥].

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا مَعَذَرَةٌ إِنْ رَكِبُوا﴾ فُرِيَ بِالرَّفْعِ وَالنَّصْبِ ^(١١) أَيْضًا مَعَذَرَةٌ. فَمَنْ قَرَأَ بِالرَّفْعِ اضْمَرَّ فِيهِ: هَذِهِ؛ كَانَهُمْ قَالُوا: هَذِهِ مَعَذَرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿شَرُّهُ أَرْبَعَةٌ﴾ [النور: ١] قِيلَ: هَذِهِ سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا. وَمَنْ قَرَأَ بِالنَّصْبِ قَالَ: مَعَذَرَةٌ أَيْ اغْتِدَارًا مِنْهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَرُونَ﴾ عَمَّا نُهُوا.

الآية ١٦٥

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا شَاؤُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ﴾ أَي تَرَكُوا، وَأَعْرَضُوا عَمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴿أَفَبِمَا أَلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ الشُّوِّ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَیِّنٍ﴾.

قَالَ الْقُتَيْبِيُّ: شَدِيدٌ، وَكَذَلِكَ قَالَ أَبُو عَوَسَجَةَ، وَقَالَ غَيْرُهُ: أَي مُوجِعٌ، وَهُوَ وَاحِدٌ. وَقَالَ الْحَسَنُ: ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ﴾ عَلَى الْوَقْفِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿بَیِّنٍ يَمَّا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

الآية ١٦٦

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا عَزَا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ﴾ قَالَ أَبُو عَوَسَجَةَ: ﴿عَزَا﴾ اسْتَغْبَرُوا؛ يُقَالُ: عَزَا يَغْتَرُ عُتْوًا، وَكَانَ الْعُتْوُ هُوَ النَّهْيُ فِي الْبَاسِ، فَلِلَّذَلِكَ قِيلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عَيْنًا﴾ [مريم: ٨ و ٦٩] بَاسًا. لَكِنْ سُمِّيَ مَرَّةً قَسَاوَةً وَمَرَّةً اسْتِجْبَارًا.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كُنُوا فِرْدَةً خَنِيصِينَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: حُوِّلَتْ صُورَتُهُمْ وَجَسَدُهُمْ [إِلَى] ^(١٢) صُورَةِ الْفِرْدَةِ، وَكَانَتْ عُقُولُهُمْ عَلَى حَالِهَا عُقُولَ الْبَشَرِ، لَمْ تُحَوَّلْ، لِيَعْلَمُوا تَعَذِيبَ اللَّهِ لِيَاَهُمْ وَمَا أَصَابَهُمْ بِهَيْئَتِهِمْ حَرَّمَ اللَّهُ

[وَقَالَ] ^(١٣) قَائِلُونَ: حَوَّلَ طَبَاعَهُمْ [إِلَى] ^(١٤) طَبَاعِ الْفِرْدَةِ، وَأَمَّا الصُّورَةُ وَالْجَسَدُ [فَبَقِيَ عَلَى حَالِهِمَا] ^(١٥)، وَلَيْسَ لَنَا إِلَى مَعْرِفَةِ ذَلِكَ حَاجَةٌ

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: الآخر. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: بقوله. (٥) في الأصل وم: كانوا. (٦) الوار ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: ينزل. (٩) في الأصل وم: بالنهي. (١٠) انظر معجم القراءات القرآنية (ج ٢/ ٤١٥). (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: على حاله.

وقوله تعالى: ﴿خَسِيبٌ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ مِنْ خَسَا الْكَلْبِ، صَارَ قَاصِياً مُبْعِداً، يُقَالُ: خَسَأْتُهُ. وَقَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ: ﴿خَسِيبٌ﴾ مُبْعِدِينَ، وَكَذَلِكَ قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَخْشَرُوا فِيهَا﴾ [المؤمنون: ١٠٨] أَيْ ابْغَدُوا فِيهَا، وَارْجِعُوا فِيهَا؛ يُقَالُ: خَسَأْتُ فُلَاناً، وَاخْسَأْتُهُ، أَيْ بَاعَدْتُهُ، فَخَسَأَ، أَيْ تَبَاعَدَ. وَقِيلَ: الْخَاسِئُ الدَّلِيلُ.

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا قَالَتْ إِنَّهُ يَنْهَيْهِمْ﴾ إِلَى آخِرِ مَا ذَكَرَ مِنَ الْقِصَّةِ وَجِهَانِ. أَخَذَهُمَا: دَلِيلُ إِبْنَاتِ الرِّسَالَةِ وَالنَّبُوَّةِ لَهُ حِينَ^(١) أَخْبَرَ مَا كَانَ مِنْ غَيْرِ نَظَرِهِ فِي كُتُبِهِمْ وَلَا اخْتِلَافٍ إِلَى أَحَدٍ مِمَّنْ لَهُ عِلْمٌ فِي ذَلِكَ. دَلَّ أَنَّهُ إِنَّمَا عَرَفَ بِاللَّهِ تَعَالَى.

وَالثَّانِي: إِبْنَاءُ عَنْ عَوَاقِبِ الظُّلْمَةِ وَالْفَسَقَةِ وَمَا حَلَّ بِهِمْ يَظْلُمُهُمْ وَإِنْتِهَايَهُمْ حُرْمَ اللَّهِ لِيَكُونَ ذَلِكَ بِهِ زَجَرًا لَنَا عَنْ ارْتِكَابِ بَيْتِهِ.

الآية ١٦٧ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَأْذَنَ رَبُّكَ﴾ تَأْذَنَ أَيْ قَالَ رَبُّكَ. وَقَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ: ﴿وَلَا تَأْذَنَ﴾ هُوَ مِنَ الْأَذَانِ؛ أَيْ أَغْلَمَ رَبُّكَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَأْذَنَ رَبُّكَ﴾ الْآيَةُ قَالَ^(٢) نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ بِمَكَّةَ فِي شَأْنِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، لِأَنَّ الْكُفَّارَ كَانُوا يَمْنَعُونَ مَنْ أَرَادَ الْإِسْلَامَ اتِّبَاعَ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَوَعَدَهُمُ اللَّهُ ﴿لَيَمْنَعَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ مَنْ يَفَاتِلُهُمْ، وَيَأْخُذُ مِنْهُمْ الْجِزْيَةَ ﴿إِنْ يَوْرَ أَلْقَيْسَمَةَ﴾ جِزَاءَ مَا كَانُوا يَمْنَعُونَ النَّاسَ عَنْ اتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَالْإِجَابَةُ لَهُ فِي مَا يَدْعُو إِلَيْهِ.

وَقَالَ قَاتِلُونَ: هُوَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَهُوَ مَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكُتُبِ لَنُفِيدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْجِعَكُمْ وَإِنْ عُذْتُمْ عُنَانًا﴾ [الإسراء: ٤-٨] أَخْبَرَ إِنْ عَادُوا عُذْنَا. وَلَمْ يُبَيِّنْ إِنْ عَادُوا عُذْنَا بِمَاذَا؟ ثُمَّ بَيَّنَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿لَيَمْنَعَنَّ عَلَيْهِمْ إِنْ يَوْرَ أَلْقَيْسَمَةَ مَنْ يَسُوءُهُمْ سُوَّةَ الْمَذَابِ﴾.

وَقَالَ قَاتِلُونَ: هَذَا إِنَّمَا كَانَ فِي هَؤُلَاءِ الَّذِينَ سَبَقَ ذِكْرُهُمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَفْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ الشُّرِّ وَأَخَذْنَا الْإِثْمَ ظُلْمًا بِمَذَابِ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الأعراف: ١٦٥].

قَالَ أَبُو بَكْرِ الْأَصْمُ: الْآيَةُ لَا تُحْتَمَلُ فِي هَؤُلَاءِ؛ لِأَنَّ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ لَمْ يَحْتَمِلْ ذَلِكَ، وَمَنْ صَارَ مِنْهُمْ قُروداً لَمْ يُحْتَمِلْ أَيْضاً بَعْدَ مَا صَارُوا قُروداً.

فَهِيَ^(٣) وَاللَّهُ أَغْلَمُ عَلَى الْوَجْهَيْنِ اللَّذَيْنِ ذَكَرْنَاهُمَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ يَأْخُذُهُمْ فِي حَالِ أَمْنِهِمْ، لَيْسَ كَمَا يَأْخُذُ مُلُوكُ الْأَرْضِ قَوْمَهُمْ بَعْدَ مَا يَتَقَدَّمُ مِنْهُمْ إِلَيْهِمْ تَخْوِيفٌ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَأْخُذُهُمُ بِالْعَذَابِ. أَوْ يُقَالُ ﴿لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ أَيْ عَنْ سَرِيعٍ يَأْخُذُ عِقَابَهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ لِمَنْ كَفَرَ، وَكَذَّبَ ﴿وَلَا تَنْفَرُوا رَجِئاً﴾ لِمَنْ آمَنَ، وَصَدَّقَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ/ ١٨٩ - ١.

الآية ١٦٨ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَطَّنْهُمْ فِي الْأَرْضِ أَسْمًا﴾ يَحْتَمِلُ فَرَقْنَاهُمْ فِي وَقْتٍ بَعْدَ مَا كَانُوا مَجْمُوعِينَ. ثُمَّ يَحْتَمِلُ الْجَمْعُ وَجْهَيْنِ: كَانُوا مَجْمُوعِينَ ثُمَّ تَفَرَّقُوا، فَصَارَ بَعْضُهُمْ كُفَّاراً، وَبَعْضُهُمْ مُؤْمِنِينَ. أَوْ كَانُوا مَجْمُوعِينَ فِي الْمَكَانِ وَالْمَعَاشِ وَالْمَاءِ وَالْكَلَالِ، ثُمَّ تَفَرَّقُوا، فَصَارُوا مُتَفَرِّقِينَ فِي الْمَكَانِ وَالْمَعَاشِ وَغَيْرِهِ، أَوْ كَانُوا فِي الدِّينِ وَاحِداً، فَصَارُوا^(٤) أَصْحَابَ أَهْوَاءٍ. وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَطَّنْهُمْ فِي الْأَرْضِ أَسْمًا﴾ أَيْ أُمَّةً بَعْدَ أُمَّةٍ وَجَمَاعَةً بَعْدَ جَمَاعَةٍ: بَعْضُهُمْ خَلَفَ^(٥) لِبَعْضٍ عَلَى مَا ذَكَرَ ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَنِيهِمْ خَلْفٌ﴾ [الأنعام: ١٦٩].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَمْنَعُهُمُ الْعَنَّاوُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ فَإِنْ كَانَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَطَّنْهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ فِي الدِّينِ وَالْمَذَهِبِ، فَيَكُونُ تَأْوِيلُهُ ﴿يَمْنَعُهُمُ الْعَنَّاوُونَ﴾ الْمُؤْمِنُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ الْكُفَّارُ، وَيَكُونُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿دُونَ ذَلِكَ﴾ أَيْ غَيْرَ ذَلِكَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَتَشْكُرُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٧٦] أَيْ غَيْرِ اللَّهِ.

وَإِنْ كَانَ فِي الْمَعَاشِ فَيَبْغِضُهُمْ دُونَ بَعْضٍ فِي الْمَعَاشِ؛ وَسَعَى عَلَى بَعْضِ الْمَعَاشِ، وَشَدَّدَ عَلَى بَعْضٍ، وَصَبَّقَ؛ فَيَكُونُ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: قَالَتْ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: فَهُوَ. (٤) الْفَاءُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: خَلْفًا.

بَعْضُهُمْ دُونَ بَعْضٍ فِي الْمَعَاشِ وَالرِّزْقِ، أَوْ بَعْضُهُمْ دُونَ بَعْضٍ فِي الدِّينِ؛ بَعْضُهُمْ عَلَى الصَّلَاحِ، وَبَعْضُهُمْ أَصْحَابُ أَمْوَاءٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَيَبْلُغُهُمْ بِالْمُسْتَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ ابْتَلَى بَعْضُهُمْ فِي الْخُصْبِ وَالسَّعَةِ، وَبَعْضُهُمْ بِالشَّدَةِ وَالضِّيقِ لِيُذَكِّرَهُمُ الْمَوْعِدَ مِنَ الثَّوَابِ فِي الْحَسَنَاتِ، وَيُزَجِّرَهُمْ [عَنِ] ^(١) الْمَوْعِدِ مِنَ الْعِقَابِ عَنِ السَّيِّئَاتِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يَتَوَبُّونَ، وَيَرْجِعُونَ عَنْ ذَلِكَ.

وقوله تعالى: ﴿وَيَبْلُغُهُمْ بِالْمُسْتَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ فَهُوَ يُخْرِجُ عَلَى وَجْهِ:

أَحَدُهَا: بَلَّغْنَاهُمْ بِالنَّعِيمِ وَالْخُصْبِ وَالسَّعَةِ لِيَعْرِفُوا فَضْلَ اللَّهِ وَإِحْسَانَهُ، فَيَرْجِعُوا إِلَيْهِ بِالشُّكْرِ وَالشَّاءِ. [وَبَلَّغْنَاهُمْ بِالسَّيِّئَاتِ] ^(٢) أَيِ الْبَلَايَا فِي أَنْفُسِهِمْ وَالْمَصَائِبِ وَالضِّيقِ لِيَعْرِفُوا قُدْرَةَ اللَّهِ وَسُلْطَانَهُ، فَيَرْجِعُوا ^(٣) إِلَيْهِ بِالتَّضَرُّعِ وَالْفَرَجِ وَالِدَعَاءِ وَالتَّوْبَةِ.

والثاني: مَعْنَاهُ أَيِ بَلَّغْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لِيَتَقَرَّرَ عِنْدَهُمْ أَنَّ غَيْرَهُمْ أَمْلَكَ بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، فَيَرْجِعُوا إِلَيْهِ النَّفْسَ لِأَمْرِ وَحُكْمِهِ.

والثالث: ﴿وَيَبْلُغُهُمْ بِالْمُسْتَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ الْمُؤْمِنُ مِنْهُمْ وَالْكَافِرُ حَتَّى إِذَا رَأَوْا الْإِسْتِوَاءَ فِي الدُّنْيَا، وَفِي الْحِكْمَةِ التَّفْرِيقَ بَيْنَهُمْ، فَيُضْطَرُّ الْجَمِيعُ إِلَى الْإِيمَانِ بِالْبَعْثِ، إِذْ خَرُوجُهُمْ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى سَوَاءٍ.

والرابع: أَنَّهُ إِنَّمَا جَعَلَ النَّعِيمَ فِي الدُّنْيَا لِيَعْرِفُوا لَذَّةَ الْمَوْعِدِ فِي الْآخِرَةِ، وَكَذَلِكَ الشَّدَّةَ، فَابْتِلَاهُمْ بِالْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا لِيَسْتَعِيدُوا لِلرَّجُوعِ إِلَى الْمَوْعِدِ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٦٩

وقوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ﴾ قَالَ قَائِلُونَ: هُوَ صِلَةُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهُمْ أَلَسَّاءُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ وَالصَّالِحُونَ هُمُ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ، وَحَفِظُوا حُدُودَهُ وَحَلَالَهُ وَحَرَامَهُ ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ﴾ يَعْنِي الصَّالِحِينَ ﴿خَلْفٌ﴾ مَنْ لَمْ يَحْفَظُوا حُدُودَهُ وَمَحَارِمَهُ.

وقَالَ قَائِلُونَ: هُوَ صِلَةُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذِكْرِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ؛ كَأَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ خَلَفَ ﴿مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ﴾ يَنْبَغِي خَلْفَ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ، وَرَثُوا الْكِتَابَ، وَهُوَ كَمَا ذَكَرَ فِي سُورَةِ مَرْيَمَ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَصَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشُّبُهَاتِ﴾ [الْآيَةُ: ٥٩] وَإِنَّمَا ذَكَرَ الْأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ وَعَلِمُوا مَا فِيهِ ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ كَانُوا يَأْخُذُونَ الدُّنْيَا عَلَى أَحَدٍ وَجْهِ ثَلَاثَةٍ: مِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَأْخُذُهَا مُسْتَجِلًّا لَهَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَصَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشُّبُهَاتِ﴾ [مَرْيَمَ: ٥٩] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَسْعُدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التَّوْبَةِ: ٣٤] وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَأْخُذُهَا بِالتَّبَدِيلِ؛ أَعْنِي تَبْدِيلَ الْكِتَابِ [كَقَوْلِهِ تَعَالَى] ^(١) ﴿لِيَحْكُمُوا مِنْكَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الْأَنْعَامُ: ١١٣] وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَأْخُذُهَا تَعَالَى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ نَسَاءً﴾ [البَقَرَةِ: ٧٩] وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ [تَنَاوَلَ] عَلَى مَا ^(٢) تَنَاوَلَ أَهْلُ الْإِسْلَامِ عَلَى قَدَرِ ^(٣) الْحَاجَةِ. وَهَذَا لَا يَحْتَمِلُ الْأَخْذَ إِلَّا أَخْذَ الْإِسْتِجْلَالِ أَوِ التَّبَدِيلِ.

وَالْأَخْذُ بِالْإِسْتِجْلَالِ هَهُنَا أَقْرَبُ؛ كَانُوا يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى مُسْتَجِلِّينَ لَهُ ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ وَيَحْتَمِلُ ^(٤) هَذَا [وَجْهَيْنَ]:

أَحَدُهُمَا ^(٥): يَحْتَمِلُ مَا قَالُوا: ﴿وَمَنْ أَتَى اللَّهَ بِحَبْنٍ﴾ [الْمَائِدَةِ: ١٨] فَيَغْفِرُ لَنَا؛ كَانُوا يَسْتَجِلُّونَ أَمْوَالَ النَّاسِ، وَيَأْخُذُونَهَا، ثُمَّ يَقُولُونَ ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ لَأَنَّا أَبَاءُ اللَّهِ وَأَجْبَاؤُهُ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم. وبالسينات. (٣) في الأصل وم. فيرجعون. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من م. ساقطة من الأصل. (٦) من م. في الأصل: قدره. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم. وجوهاً.

والثاني: يَحْتَمِلُ أَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿سَيَقَرُّ لَنَا﴾ مَعَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ لَا يُغْفَرُ لَهُمْ لِمَا فِي كِتَابِهِمْ إِلَّا يُغْفَرُ لَهُمْ إِذَا تَنَاولُوا مُسْتَحْلِينَ، أَوْ أَنَّهُمْ إِذَا غُوثُوا عَلَى مَا فَعَلُوا قَالُوا ﴿سَيَقَرُّ لَنَا﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ يَمِينٌ لَّيْسَ بِالْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ يَمِينٌ لَّيْسَ بِالْكِتَابِ﴾ أَنَّهُمْ إِذَا اسْتَحْلَوْا ذَلِكَ أَضَافُوا ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ [بِقَوْلِهِمْ]: ﴿وَاللَّهُ أَشَرُّنَا يَبَّأُ﴾ [الأعراف: ٢٨] فَقَالَ: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ يَمِينٌ لَّيْسَ بِالْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ أَي لَا يُضَيِّفُونَ إِلَى اللَّهِ مَا اسْتَحْلَوْا، أَوْ أَنْ يُقَالَ: أَخَذَ بَعْضُهُمْ الْآخَرِينَ قَالُوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاؤُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ﴾ [المائدة: ١٨].

وقال بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ يَمِينٌ لَّيْسَ بِالْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ فِي مَا يُوجِبُونَ عَلَى اللَّهِ مِنْ مَغْفِرَةِ ذُنُوبِهِمْ الَّتِي لَا يَزَالُونَ يَعُودُونَ لَهَا، وَلَا يَتُوبُونَ عَنْهَا.

وقال^(١) بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ قَالَ: يَأْخُذُونَهُ إِنْ كَانَ حَلَالًا أَوْ حَرَامًا ﴿وَلِنْ يَأْتِيهِمْ عَرَضٌ يَخْتَلُّهُ يَأْخُذُوهُ﴾ وقال: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَدْوِهِمْ خَلْفٌ﴾ سُوءٌ ﴿وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ بَعْدَ أَنْبِيَائِهِمْ، وَرَثَهُمُ اللَّهُ الْكِتَابَ، وَعَهْدَ إِلَيْهِمْ فِي سُورَةِ مَرِيَمَ: ﴿خَلَفَ مِنْ بَدْوِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ﴾ [الآية: ٥٩] ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ وَهُوَ مَا ذَكَرْنَا.

وقال الْفَتَّيُّ: الْخَلْفُ الرَّدِيءُ مِنَ النَّاسِ وَمِنْ الْكَلَامِ؛ يُقَالُ: هَذَا خَلَفٌ مِنَ الْقَوْلِ.

وقوله تعالى: ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ أَي قَرَأُوا مَا فِيهِ، وَعَلِمُوهُ ﴿وَالَّذِينَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَتِهِمْ أَنَّهَا تَقِيلُونَ﴾ أَي يَتَّقُونَ الشَّرَّ، أَوْ يَتَّقُونَ مُخَالَفَةَ اللَّهِ وَمَعَاصِيَهُ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ مَا فِي كِتَابِهِمْ أَنْ تَرْكَ مُخَالَفَةَ اللَّهِ خَيْرٌ فِي الْآخِرَةِ.

الآية ١٧٠ ثم أَخْبَرَ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ مَا فِيهِ مِنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُسِيغُ أَجْرَ الْمُفْلِحِينَ﴾.

الآية ١٧١ وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَقَعْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ قِيلَ: دَفَعْنَا الْجَبَلَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ﴾ [النساء: ١٥٤]. وَقِيلَ: نَقَعَ: قَطَعَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: حَرَفَ أَخَذَ مِنْ كُتُبِهِمْ، فَلَا تَذَرِي كَيْفَ كَانَ؟ وَقِيلَ: حَرَكْنَا، وَهُوَ قَوْلُ الْفَتَّيِّ.

وقال أَبُو عُبَيْدَةَ^(٢): كُلُّ شَيْءٍ قَلَعْتُهُ^(٣) مِنْ مَوْضِعِهِ، فَرَمَيْتُ بِهِ. ذَكَرَ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، لِيُبَيِّنَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، عَلَى سَفَرِهِ قَوْمَهُ؛ لِأَنَّ قَوْمَ مُوسَى مَعَ كَثْرَةِ مَا عَايَنُوا مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي جَرَتْ عَلَى يَدَيِ مُوسَى، وَعَظِيمِ مَا كَانَ لَهُمْ مِنْ مُوسَى مِنَ النِّعَمِ، مِنْ اسْتِنْقَادِهِ إِيَّاهُمْ مِنْ اسْتِزْقَاقِ فِرْعَوْنَ وَإِخْرَاجِهِمْ^(٤)، وَفَرَقِ الْبَحْرِ لَهُمْ، وَمُجَاوِزَتِهِ بِهِمْ، وَتَنْجِيهِ الْأَنْهَارِ مِنَ الْحَجَرِ، وَانْزَالِ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى.

فَجَمِيعُ مَا كَانَ لَهُمْ مِنْ مُوسَى مَا ذَكَرْنَا، لَمْ يَقْبَلُوا الثَّوْرَةَ، وَلَمْ يَقْرَأُوا بِهِ إِلَّا بَعْدَ رَفْعِ الْجَبَلِ وَالْإِرْسَالِ. فَبَعْدَ ذَلِكَ قَبِلُوا. يَصْبُرُ رَسُولُنَا لِمَا لَا يَضْجَرُ عَلَى مُخَالَفَةِ قَوْمِهِ إِيَّاهُ وَكَثْرَةِ سَفْهَتِهِمْ.

ثم يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَا ذَكَرَ مِنْ رَفْعِ الْجَبَلِ فَوْقَهُمْ وَجِهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: لَمَّا عَايَنُوا ذَلِكَ آمَنُوا، وَقَبِلُوا الْكِتَابَ. لَكِنَّ ذَلِكَ إِيْمَانٌ دَفْعٌ؛ إِذْ ذَلِكَ قَهْرٌ، وَلَا يَكُونُ فِي حَالِ الْقَهْرِ إِيْمَانٌ.

والثاني: صَبَّرَ ذَلِكَ آيَةً عَظِيمَةً وَحُجَّةً وَاضِحَةً مُعْجِزَةً، فَقَبِلُوهَا، وَحَقَّقُوا الْإِيْمَانَ، ثُمَّ تَرَكُوا ذَلِكَ. يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ مَا ذَكَرَ فِي [السُّورَةِ الثَّانِيَةِ حِينَ]^(٥) قَالَ: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ [البقرة: ٦٤].

وقيل: ﴿نَخَلَفَ مِنْ﴾ بَعْدَ بَنِي إِسْرَائِيلَ خَلَفَ السُّوءَ، وَهُمْ الْيَهُودُ، ﴿وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ قِيلَ: الثَّوْرَةَ عَنْ آبَائِهِمْ وَأَوَائِلِهِمْ

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) في م: عبيد. (٣) من م في الأصل: فعلته. (٤) في الأصل وم: وإخراجه. (٥) في الأصل وم: سورة الأولى حيث.

﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ قال: رِشْوَةٌ ﴿وَيَقُولُونَ سَبَقَ لَنَا﴾ وكانوا يَرْتَشُونَ، ويقولون: يُغْفَرُ لَنَا؛ لأنهم زعموا أنهم ﴿عَنَّا ابْتَكُوا اللَّهَ وَاجْتَبَوْهُ﴾ [المائدة: ١٨] ﴿وَلَا يَأْتِيهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ﴾ قيل: رِشْوَةٌ مِثْلُهُ أَخَذُوهَا.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يُوَخِّذْ عَلَيْهِمُ الْكِتَابَ﴾ قالوا: لقد أخذَ عليهم في التوراة ألا يَسْتَحِلُّوا مُحَرَّمًا/ ١٨٩ - ب/ ﴿وَأَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ في التوراة ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آخَرُهُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَلْقَوْنَ﴾ استِخْلَالُ الْمُحَارِمِ وَاكْتْلَاهُمُ الْحَرَامِ.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَسْتَكُونُ بِالْكِتَابِ﴾ قيل: بالتوراة، ولا يُحَرِّفُونَهُ عَنْ مَوَاضِعِهِ، ولا يَسْتَحِلُّونَ مُحَرَّمًا^(١) ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُضِلِّينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمُوا أَنَّهُمُ رَاقِعٌ بِهِمْ﴾: أي ايقنوا أنه، إن لم يقبلوا، واقع بهم.

وقوله تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ قد ذَكَرَ هَذَا فِي مَا تَقَدَّمَ. قوله تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ: اخذهما: خُذُوا؛ أي اقبلوا ما فيه.

والثاني: اعملوا بما فيه. وفيه دلالة كون [استِطَاعَةِ الْفِعْلِ مَعَ الْفِعْلِ]^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ قيل: اعملوا بما فيه مِنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الْعُقُوبَةُ وَالْمُعْصِيَةُ.

الآية ١٧٢ تَكَلَّمَ النَّاسُ فِي تَاوِيلِ^(٣) قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمُ﴾ الْآيَةُ:

فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: ذَلِكَ عِنْدَمَا خَلَقَ آدَمَ أَخْرَجَ مَنْ يَكُونُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ مِثْلَ الذَّرِّ، فَعَرَضَ عَلَيْهِمْ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمُ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَنفُسَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ لَكِنْ اخْتَلَفُوا:

فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: جَعَلَ بِالْمَبْلَغِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى مِثْلِهِ الْقَلَمُ، وَهُوَ قَوْلُ الْحَسَنِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: عَرَضَ ذَلِكَ عَلَى الْأَرْوَاحِ دُونَ الْأَجْسَادِ وَدُونَ^(٤) ذَلِكَ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ بِلا عَرَضٍ: إِنَّهُ خَلَقَ صِنْفَيْنِ، فَقَالَ: «هَؤُلَاءِ فِي الْجَنَّةِ، وَهَؤُلَاءِ لِلنَّارِ، وَلَا أَبَالِي» [الحاكم في المستدرک ١/ ٣١].

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: عَرَضَ الْكُلُّ عَلَى مَا عَلَيْهِ أَحْوَالُهُمْ وَأَجَائِلُهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ كَيْفَ كَانَتْ الْقِصَّةُ؟ أَوْ كَيْفَ يَرَى أَحْوَالَ الْفَقْرِ وَالْغِنَى فِي الذَّرِّ؟ أَوْ كَيْفَ [قَالَ]^(٥): هَؤُلَاءِ فِي كَذَا وَلَا أَبَالِي مَعَ إِجْمَاعِهِمْ عَلَى الْقَوْلِ: بَلَى^(٦) لَمَّا عَرَضَ عَلَيْهِمْ قَوْلُهُ^(٧): ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟﴾ وَقَدْ رَأَيْنَا فِي تِلْكَ الْأَخْبَارِ مَا كَانَ الْكَفَّ عَمَّا لَهُ الْمُرَادُ وَبِخَاصَّةِ حِفْظِ الْعَوَامِ وَأَهْلِ الضَّعْفِ عَنْ تَبْلِيغِهَا الزَّمَّ وَأَعْظَمَ فِي النَّفْعِ وَابْتَعَدَ عَنِ الشُّبُهَةِ مِنْ رِوَايَتِهَا وَتَكَلَّفَ الْكُشْفَ عَنْهَا. فَتَسْأَلُ اللَّهُ الْعِصْمَةَ عَمَّا بِهِ الْهَلَاكُ وَالتَّوْفِيقَ لِلنُّضْحِ بِمَا بِهِ نَجَاةٌ كُلُّ سَامِعٍ وَدَفَعَ كُلَّ شُبُهَةٍ وَخَبَرَةٍ، فَإِنَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ ذَهَبَ فِي تَاوِيلِ الْآيَةِ إِلَى الْمَعْرُوفِ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَالْأَخْذِ مِنَ الْأَصْلَابِ وَالْإِنْشَاءِ فِي الْأَرْحَامِ عَلَى مَا كَانَ، وَيَكُونُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ عَلَى مَا قَالَ اللَّهُ ﷻ ﴿فَنُفِثَ الْإِنْسَانُ رِمَ لِقَى﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الشُّجْرِ وَالْأَرْبَابِ﴾ [الطارق: ٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَيْتِ﴾ الْآيَةُ: [الحج: ٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَّا لَكُمُ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣] وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا اخْتَجَّ مِنْ أَوَّلِ مَا جَرَى بِهِ تَدْبِيرُ الْبَشَرِ إِلَى آخِرِ مَا يَنْتَهِي بِهِ أَمْرُهُ مِمَّا يَعْجَزُ عَنْ تَقْدِيرِهِ وَنُسُخِ الْخَلْقِ، وَيَسْتَرُ عَنْ عَقُولِهِمْ كَيْفِيَّةُ بَدْءِ ذَلِكَ، وَمَا عَلَيْهِ تَنَقُّلُهُ مِنْ حَالٍ إِلَى [حَالٍ]^(٨) مِنْ كُلِّ طَرَفٍ عَيْنٍ وَلَحْظٍ بَصَرٍ مَعَ مَا فِيهِ مِنْ عَجِيبِ التَّدْبِيرِ وَحُسْنِ التَّقْوِيمِ الَّذِي لَوْ تَكَلَّفَ الْخَلْقُ تَصْوِيرَ مِثْلِهِ بِكُلِّ أَنْوَاعِ الْحِيلِ مِنَ الْأَصُولِ الظَّاهِرَةِ بِحَيْثُ يُبَصِّرُهُ كُلُّ بَصَرٍ لَكَانَ يَعْجَزُ عَنْهُ. فَكَيْفَ فِي الظُّلُمَاتِ الثَّلَاثِ مَعَ مَا رَكَّبَ فِيهِ مِنْ

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل: الفعل، في م: الفعل مع الفعل. (٣) في الأصل: م: تاويله. (٤) الواو ساقطة من الأصل وم.

(٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل: م: بلى. (٧) في الأصل: م: في قوله. (٨) من م، ساقطة من الأصل.

العقل والسمع والبصر وما جعل في كل ما أنشأ فيه ومنه مما تبلغ الأوهام فضلاً من الإحاطة في ذلك من الحكمة؟ ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَقَدْ أَنْشَأُوا فَلَاحًا تَصِيرِينَ﴾ [الذاريات: ٢١] وكان ذلك هو العهد إلى جميع الذرية وإشهاد أنفسهم عليهم، يتعالى من دبرهم على ذلك، وأنشأهم على ما فيهم، عن أن يكون له كذا، أو يقدر أحد قدره.

فهذا هو معنى إشهادهم على أنفسهم؛ أي جعلهم على أنفسهم شهوداً أن يعلموا أن مدبرهم ربهم، لا رب لهم غيره، وأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] مع ما في جعل ذلك ذرية؛ يعرف كل بما يرى من عجز تدبير ولديه وجهله بأحواله في حال كونه في رجم أبويه بيان على أنه لا كان بابائيه وأمهاتيه علم. ولكن رب العالمين. وذلك هو الذي يمنعه من القول بالفضيلة عن ذلك؛ إذ قد علمه كل منهم، لا حال كونهم في الوقت الذي لا يذكره أحد.

والذي يبين أن هذا التأويل أحق من الأول ما دل عليه سياق الآية من ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ﴾ [فيه أقاويل:

أخذها] ^(١): من ذكرت على الأخذ [من ظهر] ^(٢) آدم.

والثاني: قوله تعالى: ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾ [وقوله تعالى: ﴿مِنْ بَنِي آدَمَ﴾] ^(٣).

والثالث: قوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ وفي التأويل الآ تقولوا. فكيف يحذر عن القول بذلك؟ وقد علم أنهم كذلك ليس أحد منهم يذكر ذلك، ولا يتقرر ^(٤) عنده ذلك لو نبه بكل أنواع التنبيه.

والرابع: قوله تعالى ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ ما في ذلك العرض مما يمنع عن هذا القول، وأيضاً: إنه ذكر في بضع هذا القول أن ^(٥) «وهؤلاء في النار ولا أبالي» [الحاكم في المستدرک ١/ ٣١].

وفي القرآن الجمع بينهم في القول ^(٦): ﴿بَلَىٰ﴾. وذلك عذ توحيداً منهم، مع ما في القرآن [قوله تعالى] ^(٧): ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾ [البقرة: ٢٨] [وقوله تعالى] ^(٨): ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَتُنَزِّلُ الْغُلَامَ فِي الْبَيْتِ مِثْلَ الْقَوْمِ الْأَوَّلِينَ﴾ الآية [غافر: ١١]. وفي بيان ذلك إثبات الموت والحياة أكثر من العدد الذي جاء القرآن في الكل، ولا قوة إلا بالله.

ثم قد يتوجه التأويل الثاني ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ إلى أوجوه.

فأما ابتداء ^(٩) الآية فهو ذلك عند التحقيق لأنه ذكر الأخذ من بني آدم ثم من ظهورهم. والأخذ من بني آدم ثم من ظهورهم هو التطف، وهو الماء الدافق ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [الطارق: ٧] وأشهدهم على أنفسهم، أعلمهم ما فيه إنشأهم وقلوبهم من حال إلى [حال إلى] ^(١٠) أن تمت النعمة، وظهرت البشرية، على ما أعلم، كل في ذريته: خروج بدو من تدبير والديه وقيامه على ما عليه مداره وقراره وتدبير من لا يعجزه شيء، ولا يخفى عليه أمر، ليقولوا: إن الذي ذكر هذا هو ربهم الذي رباهم على ذلك ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

فكان ذلك إعلماً من الله إياهم على أنفسهم وشهادة منها بالخلق أنه ربهم؛ رباهم، وملكتهم على ما جرى فيهم من تدبير الله، جل ثناؤه، ولتلا يقولوا ^(١١) غداً إنهم كانوا ^(١٢): ﴿عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ إذ عرفت ذا كل ذي عقل، وعرفت أنه كان بالله لا بوالديه، ليجمعوا شرك الآباء والأمهات لأنفسهم حجة من حيث كانوا منهم، والله أعلم.

والثاني: أن يكون الله أشهدهم على أنفسهم بما أراهم من أحوال ذريتهم في الانتقال على أحوال على [أن] ^(١٣) أنفسهم كذلك، دخل كل من بجوهرهم ^(١٤) في ذلك التدبير ليعلموا أن الذي ذكرهم على ذلك دبر الكل، فيزول عنهم شبهة

(١) في الأصل وم: وأقاول. (٢) من م، في الأصل: انطوى. (٣) في الأصل وم: وفي قولهم: من ظهر آدم. (٤) من م، في الأصل: يتفرد. (٥) في الأصل وم: بان. (٦) في الأصل وم: القول به. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: و. (٩) هذا هو الوجه الأول. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) من م، في الأصل: يقول. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) من م، ساقطة من الأصل. (١٤) من م، في الأصل: جوهرهم.

الكون بِغَيْرِ الرَّبِّ الَّذِي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] فَيَزُولُ عَنْهُمْ بِهِ عَذْرُ الْعَفْلَةِ وَعِلَاقَةُ الشُّبْهَةِ بِكُفْرِ الْوَالِدَيْنِ مِنْ حَيْثُ حَقَّ التَّبَعِيَّةُ، أَوْ سَقَطَ التَّقْلِيدُ بِمَا يُعْلَمُ خُرُوجُ^(١) الْجَمِيعِ مِنَ التَّدْبِيرِ وَرُجُوعُ التَّدْبِيرِ إِلَى غَيْرِ لِيَكُونَ مَوْضِعَ الْإِسْتِذْلَالِ بِمَا أَرَاهُمْ هُوَ، وَدَعَاهُمْ إِلَيْهِ، لَا بِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ الْآبَاءُ وَالْأُمَّهَاتُ.

ثُمَّ الْقَوْلُ بِـ ﴿يَلَيْسَ﴾ بِكَوْنٍ نَظْقًا، وَكَوْنٍ خِلْفَةً، وَكَوْنٍ جَوَابِ الْفِطْرَةِ بِحَقِّ التَّأَمُّلِ. فَالْتَّفَاتُ أَنَّهُ لَا يُسْأَلُ أَحَدٌ قَبْلَ التَّلْفِينِ إِلَّا وَهُوَ يَقُولُ بِالرَّبِّ وَالْخَالِقِ. وَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [القمان: ٢٥] وَالْخِلْفَةُ بِمَا كَانَ مِنْ حَاجَتِهِ إِلَى مُقَيِّمٍ وَإِلَى مُدَبِّرٍ عَلَى شِرْكَةٍ كُلِّ فِي ذَلِكَ إِقْرَارُ لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَذَلِكَ مَعْنَى نَفْيِ التَّفَاوُتِ عَنْ خَلْقِهِ وَفِطْرَتِهِ بِمَا يُقَالُ عَنْ أَحْوَالِهِ؛ لَوْ تَأَمَّلَ الْخَلَائِقُ إِدْرَاكَ كُلِّ حَالٍ مِنْهَا وَوَجْهَ التَّنْقِيلِ وَقَدَّرَ التَّغْيِيرَ فِي كُلِّ حَالٍ لَمَا تَبَيَّنَ لَهُمْ لَيْسَ أَنْ فِي الْفِطْرَةِ شَهَادَةٌ بِالتَّوْحِيدِ. وَهَذَا مَعْنَى مَا رَوَى عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ» [البخاري ١٣٨٥] أَي عَلَى حَالٍ لَوْ تَرَكْتَ الْعُقُولَ وَالْفِكَرَ فِيهَا لَشَهِدَتْ بِالتَّوْحِيدِ.

وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يَلَيْسَ﴾ لَا أَنْ تَمَّ قَوْلُ لِسَانٍ بَلْ نَظَقَ حَالٍ كَمَا قَالَ الْحَكِيمُ: كُلُّ صَامِتٍ نَاطِقٌ، لِأَنَّ صَمْتَهُ دَلِيلُ تَدْبِيرٍ آخَرَ، فَهُوَ نَاطِقٌ بِالْبَيَانِ عَنِ الْوَاحِدِ الْعَزِيزِ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

وَقَدْ يَخْتَصِمُ الْإِشْهَادُ أَنْ جَعَلَهُمْ^(٢) شُهَدَاءَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْعِبَادَةِ لِلَّهِ، وَأَنَّهُ رَبُّهُمْ وَالْمَالِكُ عَلَيْهِمْ، وَالْقَوْلُ بِـ ﴿يَلَيْسَ﴾ بِمَا يَلْزَمُ بِالتَّأَمُّلِ. فَكَانَهُ قَالَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: وَفِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ لِإِبْطَالِ خَلْقِ اللَّهِ فِعْلَ الْخَلْقِ، وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ أَنَّهُ أَخَذَ ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. فَإِنْ قِيلَ: عَلَى مَاذَا يُخْرِجُ تَأْوِيلُ السَّلَفِ؟ قِيلَ: لَعَلَّهُمْ وَجَدُوا فِيهِ خَبْرًا ظَنُّوا أَنَّ الْآيَةَ تُخْرِجُ عَلَيْهِ، فَأَوَّلُوهَا عَلَى ذَلِكَ. فَإِذَا أُرِيدَ تَسْوِيَةُ ذَلِكَ بِالْآيَةِ لَا بُدَّ مِنْ زِيَادَاتٍ تُلْحَقُ بِهَا، وَلَا^(٣) تُخْرِجُ عَنْهَا^(٤) / ١٩٠ - / ١.

مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَقُولَ: ﴿وَإِذَا أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ﴾ أَنْ تُجْعَلَ^(٥) مِنْ صِلَةٍ؛ كَانَهُ قَالَ: وَإِذَا أَخَذَ رَبُّكَ بَنِي آدَمَ. وَقَدْ تَكُونُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَكْفُرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١] وَبَنُو آدَمَ يُؤْخَذُونَ^(٦) مِنْ ظَهْرِ آدَمَ كَمَا يُؤْخَذُ ابْنُ كُلِّ مِنْ ظُهُورِهِمْ؛ أَي أَضْلُ ابْنِ كُلِّ مِنْ ظُهُورِهِ. وَذَكَرَ ظُهُورَهُمْ لِمَا كَانَ مَنْسُوبًا إِلَيْهِمْ، وَإِنْ كَانَ، لَوْ طَرِحَ حَرْفُ الصَّلَةِ، تَزُولُ الشُّبْهَةُ، فَحُفِظَ فِي ذِكْرِ حَقِّ الرُّسُلِ، وَإِنْ كَانَ حَقُّهُ الْإِسْقَاطُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَايْنِ بْنِ قَرْنَةَ عَنَّتْ﴾ [الطلاق: ٨] وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا كَتَبَ عَنْ أَهْلِ الْقَرْيَةِ بِاسْمِهَا.

وَعَلَى ذَلِكَ أَجْرِي ذِكْرُ الْفِعْلِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا فِي الْحَقِيقَةِ فِعْلٌ. فَعَلَى ذَلِكَ هَذَا، فَيَصِيرُ فِي التَّخَصُّيلِ كَانَهُ قَالَ: وَإِذَا أَخَذَ رَبُّكَ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِ، ثُمَّ يَكُونُ الْمَاخُودُ الَّذِي عُرِضَ عَلَيْهِ مَجْعُولًا عَلَى حَدِّ، يَغْفِلُ الْخِطَابَ وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ فَأَجَابَ بِالَّذِي ذَكَرَ.

وَالْخَبَرُ الَّذِي فِيهِ الْقِسْمَةُ إِمَّا أَنْ كَانَ لَا فِي هَذَا، فَوَصَلَ بِهِ، [وَأَمَّا أَنْ]^(٧) كَانَ فِي الْآيَةِ ذِكْرُ إِجَابَةِ أَحَدِ الْفَرِيقَيْنِ، [وَأَمَّا أَنْ]^(٨) كَانَ بَيْنَ الْجَمْعِ اتِّفَاقٌ فِي هَذَا الْحَرْفِ وَاخْتِلَافٌ فِي مَا جَاوَزَ هَذَا، فَالْقِسْمَةُ لِمَا عَدَا. وَقَدْ يَوْجَدُ فِي هَذَا الْقَدْرِ أَيْضًا اتِّفَاقٌ.

ثُمَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هَاتِ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾. عَلَى إِضْمَارِ بَعْثِ الرُّسُلِ وَإِنْزَالِ الْكِتَابِ بِالْإِخْبَارِ عَنْ ذَلِكَ لَيْلًا يَدْعُوا الْعَفْلَةَ بِمَا كَانَتْ مِنْهُمْ. ذَلِكَ بِمَا أَوْقَطُوا، أَوْ نُهَوْا، أَوْ بِمَا لَا يَخْتَجُّونَ بِمَا اغْتَرَضَهُمْ مِنَ الْعَفْلَةِ؛ إِذْ قَطَعَ عَذْرَهُمْ بِغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَدِلَّةِ وَالرُّسُلِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَوْ لَا يَقُولُونَ.

الآية ١٧٣

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَفَرَكَ أَبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أَي [قَبْلُ]^(٩) بَعْثِ الرُّسُلِ وَإِنْزَالِ الْكِتَابِ لِقَطْعِ هَذَا النَّوعِ مِنَ الشُّبْهِ عَلَى الْوَجْهَيْنِ اللَّذَيْنِ ذَكَرْتُ [كَقَوْلِهِ تَعَالَى]^(١٠): ﴿وَلَوْ أَنَّا أَفْلَكُنْهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ﴾ [طه: ١٣٤] وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ لَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ﴾ [القصص: ٤٧] وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

(١) من م، في الأصل: خرج. (٢) من م، في الأصل: جعلتم. (٣) في الأصل: وم. أو. (٤) أدرج بعدها في الأصل: وم. وألا تخرج: (٥) أدرج قبلها في الأصل: وم. من. (٦) في الأصل: وم: يؤخذ. (٧) و(٨) في الأصل: وم: أو. (٩) ساقطة من الأصل: وم. (١٠) ساقطة من الأصل: وم.

ويكون في التأويل الأول ظهور أمر الذرية للأولاد في الخروج عن تدبير الآباء والأمهات بقطع الحجاب بهذين الحرفين.

وفي الثاني نزول الكتب وإرسال الرسل مع ما أمكن جعل هذا في التأويلين^(١) جميعاً، والله أعلم.

الآية ١٧٤ وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْأَنْبِيَاءَ﴾ على وجهين:

أحدهما: على البيان أي نبين ما يكشف النعمة^(٢) ويزيل الشبهة.

والثاني: أن تفرق، ونقص كل واحدة منها في أحق مواضعها^(٣) وأولى. ذلك لقطع العذر ودفع العلل.

وقوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي تأملوا عما هم عليه من الباطل، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿أَنْتَ لَكُنَّا بِمَا فَعَلَ الْمُظْلِمُونَ﴾ يخرج على وجوه.

أحدها: أن يكون ذلك الإهلاك، ليس هو التغذيب، لكنه الإماتة، كقوله تعالى: ﴿إِنْ أَمَرْتُ هَٰذَا﴾ [النساء: ١٧٦] أي

نميتنا إذا فعل السفهاء ما [فعلوا، ولا]^(٤) تبيهم لما يرجى من التوبة، أو تحدث منهم من لم ينفذ.

والإضافة^(٥) إلى الجملة بوجهين:

[أحدهما]^(٦): على إرادة من سفيهم منهم.

والثاني: على الكل؛ إذ الموت حق مكتوب على جميع البشر إلا على التغذيب على معنى لا تفعل أنت كذلك كما

يقول الرجل: أنا أفعل هذا؟ أو أنت تفعل هذا على التبري والتبرية كقوله^(٧) تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥] أي تفعلها^(٨) ابتلاء لا تغدياً.

والثالث: أن يكون على الإيجاب بجمعهم في ذلك، وإن كان الذي استحق بغضهم في حق الميخنة؛ إذ له ذلك ابتداءً، وذلك نحو أمر أحد بما ابتلاههم، وإن لم يكن منهم جميعاً المعصية. وعلى ذلك أمر جميع أنواع المصائب، يجمع فيها بين أهل الخير والشر بحق الميخنة لا العقوبة، وإن كان في بغضهم عقوبة، والله أعلم.

الآية ١٧٥ وقوله تعالى: ﴿وَأَتْلَوْا عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ اختلف أهل التأويل في هذا:

قال بعضهم: كان هذا نبياً ﴿فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ يعني من النبوة، وكفر بها. لكن هذا بعيد، محال أن يجعل الله الرسالة في من يعلم أنه يكفر به، أو يختاره لؤخيه، وهو يعلم أنه ليس بأهل لها، لقوله^(٩) تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]

وقال بعضهم: كان بلعم بن باعورا أعطاه الله تعالى آيات، فكفر بها، وانسلخ منها. وقيل: غصى الاسم المخزون، كان يستجاب له به جميع ما يسأل ربه.

وقال بعضهم: كان أمة بن أبي الصلت على ما قال^(١٠) عنه عليه السلام: إنه آمن بشعره، وكفر بقلبه [كشف الخفاء للمجلوني ١٩].

وقال بعضهم: نزلت الآية في منافقي أهل الكتاب؛ قد كان أعطاهم الله الآيات، فكفروا بها، وكذبوها. ولكن لا نذري في من نزلت؟ وهو في جميع مكذبي الآيات، وليس يجب أن نخص^(١١) واحداً، أو يشار إلى أحد نزل فيه.

ولكن نقول: إنها نزلت في جميع مكذبي الآيات.

(١) في الأصل وم: التأويل. (٢) في الأصل وم: النعمة. (٣) في الأصل وم: مواضعه. (٤) في الأصل وم: فعل وإلا. (٥) هذا هو الوجه الثاني. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: وقوله. (٨) في الأصل وم: تفعله. (٩) في الأصل وم: يقول. (١٠) في الأصل وم: قيل. (١١) في الأصل وم: تنص.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنسَلَخْنَا مِنْهَا﴾ خَرَجَ مِنْهَا، وَنَزَعَ مِنْهَا، وَقِيلَ: تَرَكْنَاهَا، وَكُلُّهُ وَاحِدٌ. ثُمَّ يَخْتَمِلُ ﴿فَأَنسَلَخْنَا مِنْهَا﴾ أَيِ كَانُوا قَبْلُوهَا مَرَّةً، ثُمَّ رَدُّوْهَا مِنْ بَعْدِ الْقَبُولِ. وَيَخْتَمِلُ أَنْ يَقْبَلُوهَا ابْتِدَاءً، فَخَرَجُوا مِنْهَا، وَكَذَّبُوهَا.

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ فِيهِ دَلَالَةٌ أَنَّ اللَّهَ لَا يَتَّبِعُ الشَّيْطَانُ أَحَدًا^(١) وَلَا يُزِيغُهُ إِلَّا بَعْدَ مَا كَانَ مِنْهُ الْإِخْتِيَارُ لِلضَّلَالِ وَالْمِيلِ إِلَيْهِ [حِينَ قَالَ^(٢)]: ﴿فَأَنسَلَخْنَا مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ إِنَّمَا اتَّبَعَ الشَّيْطَانُ بَعْدَ مَا كَانَ مِنْهُ الْإِنْسِلَاحُ وَالتَّرُغُّ.

وقوله تعالى: ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ قِيلَ: كَانَ فِي عِلْمِ اللَّهِ أَنْ يَكُونَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مِنَ الْغَاوِينَ، وَقِيلَ: كَانَ مِنَ الْغَاوِينَ؛ أَيِ صَارَ مِنَ الْغَاوِينَ، إِذْ^(٣) أُنْسَلَخَ مِنْهَا، وَخَرَجَ. وَالْغَاوِي: الضَّالُّ.

الآية ١٧٦ وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ يَخْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ عَصَمْنَاهُ حَتَّى لَا يَنْسَلِخَ مِنْهَا، وَلَا يُكَذَّبَ بِهَا؛ أَيِ لَوْ شِئْنَا لَوَقَفْنَاهُ بِهَا حَتَّى يَعْمَلَ بِهَا. أَوْ أَنْ يُقَالَ: لَوْ شِئْنَا لَعَصَمْنَاهُ حَتَّى لَا يَخْتَارَ مَا اخْتَارَ، لَكِنَّهُ إِذْ عَلِمَ مِنْهُ أَنَّهُ يَخْتَارُ ذَلِكَ، وَيَمِيلُ إِلَيْهِ شَاءَ أَلَّا يَعْصِمَهُ، وَلَا يُوقِفَهُ.

فَكَيْفَ مَا كَانَ فَهُوَ عَلَى الْمُعْتَرِلَةِ؛ لِأَنَّهُ أَخْبَرَ لَوْ شَاءَ لَرَفَعَهُ بِهَا، وَكَانَ لَهُ مَشِيئَةُ الرَّفْعِ. ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ لَمْ يَرْفَعْهُ^(٤)، وَلَوْ رَفَعَهُ بِهَا كَانَ أَضْلَحَ لَهُ فِي الدِّينِ. دَلَّ أَنَّهُ قَدْ يَفْعَلُ بِهِ مَا لَيْسَ هُوَ بِأَصْلَحَ فِي الدِّينِ. وَهُمْ يَقُولُونَ: الْمَشِيئَةُ ههنا مَشِيئَةُ الْقَهْرِ وَالْقَسْرِ لَا مَشِيئَةَ الْإِخْتِيَارِ. لَكِنْ مَا ذَكَّرْنَا أَنَّ الْإِيمَانَ فِي حَالِ الْإِضْطِرَارِ وَالْقَهْرِ لَا يَكُونُ إِيمَانًا. فَلَا مَعْنَى لَذَلِكَ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ رَفْعًا، فَيَبْطُلُ قَوْلُهُمْ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ وَهُوَ مَا ذَكَّرْنَا: لَمَّا عَلِمَ مِنْهُ أَنَّهُ يَخْلُدُ إِلَى الْأَرْضِ، وَيَمِيلُ إِلَيْهَا لَمْ يَعْصِمَهُ^(٥)، وَلَمْ يَرْفَعَهُ. وَالْإِخْلَادُ إِلَى^(٦) الْأَرْضِ: قَالَ الْحَسَنُ: سَكَنَ إِلَى الْأَرْضِ. وَكَذَلِكَ قَالَ الْكِسَائِيُّ: الْإِخْلَادُ فِي كَلَامِهِمُ السُّكُونُ إِلَى الشَّيْءِ وَالرُّكُونُ إِلَيْهِ. وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: هُوَ اللَّزُومُ لِلشَّيْءِ.

وفي^(٧) قوله: ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ دَلَالَةٌ أَنَّ الْإِزَاغَةَ مِنَ اللَّهِ وَتَرْكَ الْعِصْمَةِ كَمَا يَكُونُ مِنَ الْعَبْدِ الْمَمْلُوكِ وَالرُّكُونُ^(٨) إِلَى مُخَالَفَتِهِ وَتَرْكَ الْإِيمَانِ لَهُ وَاتِّبَاعُ الْهَوَى.

قَالَ قَتَادَةُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ يَقُولُ: لَوْ شِئْنَا مِنْ إِيَابِهِ الْهُدَى فَلَمْ [يَكُنْ]^(٩) لِلشَّيْطَانِ عَلَيْهِ سَبِيلٌ، وَلَكِنْ يَبْتَلِي مِنْ عِبَادِهِ مَنْ يَشَاءُ.

وقوله تعالى: ﴿أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ ذِكْرُ الْأَرْضِ يَخْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ كِنَايَةً عَنِ الدُّنْيَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَرَّجْنَاهُمْ إِلَى الدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٧٠]. وَيَخْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ كِنَايَةً عَنِ الذُّلِّ وَالْهَوَانِ؛ لِأَنَّ كُلَّ خَيْرٍ وَبَرَكَاتٍ إِنَّمَا يُظَلِّبُ مِنَ السَّمَاءِ، وَهُمْ إِذَا اخْتَارُوا ذَلِكَ اخْتَارُوا الذُّلَّ وَالْهَوَانَ.

وَقَالَ الْحَسَنُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ الْآيَةُ: قَالَ: حَالُ الشَّيْطَانِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَنْ يَضْحَبَ الْهُدَى بِمَا مَتَّاهُ، وَزَيَّنَ لَهُ ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَلَبَّسَ كَتَلٍ الْكَلْبِ﴾ قَالَ: هَذَا مِثْلُ الْكَافِرِ، أَمِيتَ فَوَادُهُ كَمَا أَمِيتَ فَوَادُ الْكَلْبِ [كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَلَّ سَلَا الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [الآية: ١٧٧] أَيِ سَاءَ مِثْلُ الْأَعْمَالِ الَّتِي ضَرَبَ اللَّهُ مِثْلَهَا بِالَّذِي ذَكَرَ فِي الْقُرْآنِ]^(١٠) قَالَ: ﴿سَلَّ سَلَا﴾ صَدَقَ اللَّهُ، وَبَنَسَ الْمَثَلُ ﴿فَأَقْصَى الْقَصَصِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فَتَذَكَّرُوا، فَتَفَكَّرُوا فِي أَمْثَالِ اللَّهِ الَّتِي ضَرَبَ، وَاعْقَلُوا. إِلَى هَذَا ذَهَبَ الْحَسَنُ.

وَقَالَ غَيْرُهُ: وَجْهٌ ضَرَبَ مِثْلَ الَّذِي تَكْذَّبَ بِالْآيَاتِ بِالْكَلْبِ، مِنْ عَادَتِهِ أَنْ يَذَلَّ، وَيَخْضَعُ لِكُلِّ أَحَدٍ لِمَا يَطْمَعُ أَنْ يَنَالَ مِنْهُ أَذْنَى شَيْءٍ، وَلَا يُبَالِي مَا يُصِيبُهُ مِنَ الذُّلِّ وَالْهَوَانِ فِي ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ يَنَالَ مِنْهُ شَيْئًا^(١١). فَعَلَى ذَلِكَ الْكَافِرُ وَالْمُكَذِّبُ بِالْآيَاتِ لَا يُبَالِي مَا يَلْحَقُهُ مِنَ الذُّلِّ / ١٩٠ - ب/ وَالْهَوَانِ بَعْدَ أَنْ يُصِيبَ مِنَ الدُّنْيَا شَيْئًا.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: يَتَّبِعُهُ الشَّيْطَانُ أَحَدًا. (٢) فِي الْأَصْلِ: حَيْثُ، فِي م: حَيْثُ قَالَ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: إِذَا. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: يَرْفَعُ. (٥) م: فِي الْأَصْلِ: يَعْصِمُهُ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: فِي. (٧) الْوَائِ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) الْوَائِ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) م: سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١٠) م: سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: بِشَيْءٍ.

وَيُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ وَجْهُ ضَرْبِ الْمَثَلِ بِالْكَلْبِ لِمَا أَنَّ مِنْ عَادَةِ الْكِلَابِ إِذَا ظَفِرَتْ بِالْجَيْفِ تَنْكَبُ عَلَيْهَا^(١)، حتى إذا تَنَادَى^(٢) وَتَدَعَى، لَا تَنْكَرُثُ إِلَيْهِ، وَلَا تَلْتَقِثُ. فَعَلَى ذَلِكَ هَذَا الْكَافِرُ يَنْكَبُ [عَلَى كُلِّ]^(٣) جَيْفَةٍ، وَيَخْضَعُ، وَلَا يَلْتَقِثُ إِلَى مَا تُودِي، وَدُعِي إِلَيْهِ.

وقوله تعالى ﴿إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ﴾ أي يُخْرِجُ لِسَانَهُ، وَيَتَنَفَّسُ تَنَفُّسًا ﴿أَوْ تَرَكَهُ يَلْهَثْ﴾ وَمَعْنَاهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، إِذَا أَصَابَهُ الْعَطَشُ وَالْجُوعُ لَهَثَ، وَإِذَا لَمْ يُصِبْهُ لَهَثَ أَيْضًا. فَعَلَى ذَلِكَ الْكَافِرُ يَمِيلُ إِلَى ذَلِكَ، وَيَخْتَارُ، أَصَابَهُ شِدَّةٌ، أَوْ لَمْ تُصِبْهُ، أَوْ كَلَامٌ نَحْوُ هَذَا.

وقال قتادة: هَذَا مَثَلُ الْكَافِرِ؟ مِثْلُ الْفُؤَادِ كَمَا أَمِيتَ فُؤَادَ الْكَلْبِ ﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ ضَرَبَ اللَّهُ ﷻ، مَثَلُ الْكَافِرِ مَرَّةً بِالْكَلْبِ وَمَرَّةً بِالْمَيْتِ وَمَرَّةً بِالْأَعْمَى وَمَرَّةً بِالْثَرَابِ وَمَرَّةً بِالْأَنْعَامِ وَنَحْوُ هَذَا، وَذَلِكَ لِمَا فِيهِ مِنْ مَعَانِي مَا ذَكَرَ. وقوله تعالى: ﴿فَأَقْصِبْ قَلْبُكَ لِالْعَصَى﴾ كَذَا؛ وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَقْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا﴾ [الأعراف: ١٧٥]. أَمَرَ رَسُولَهُ لِيَقْصُ أَنْبَاءَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ عَلَى هَؤُلَاءِ لِيَكُونَ زَجْرًا وَتَحْذِيرًا لِلْكَافِرِ لِيَعْلَمُوا مَا حَصَلَ بِأُولَئِكَ بِصَنِيعِهِمْ لِيَحْذَرُوا مِنْ صَنِيعِهِمْ، وَيَكُونَ عِظَةً وَتَذَكِيرًا لِلْمُؤْمِنِينَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

الآية ١٧٧ وقوله تعالى: ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الآية قد^(٤) ذَكَرْنَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ أَنَّ آيَاتِهِ، قِيلَ: دِينُهُ، وَقِيلَ: حُجَّتُهُ وَبَرَاهِينُهُ.

وقوله تعالى: ﴿سَاءَ مَثَلًا﴾ الْأَفْعَالُ الَّتِي ضَرَبَ اللَّهُ تَعَالَى مَثَلَهَا بِالَّذِي فِي الْقُرْآنِ.

الآية ١٧٨ وقوله تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ شَهِدَ اللَّهُ تَعَالَى مَنْ هَدَاهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي؛ أَي مَنْ هَدَاهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ الْمُهْتَدِي فِي الْآخِرَةِ ﴿وَمَنْ يُضِلِلْ﴾ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ الْخَاسِرُ فِي الْآخِرَةِ. فَلَوْ كَانَتْ^(٥) الْهَدَايَةُ الْبَيَانُ وَالْأَمْرُ وَالنَّهْيُ عَلَى مَا ذَكَرَهُ قَوْمٌ لَكَانَ الْكَافِرُ وَالْمُؤْمِنُ فِي ذَلِكَ سَوَاءً؛ إِذْ كَانَ الْبَيَانُ وَالْأَمْرُ وَالنَّهْيُ لِلْكَافِرِ عَلَى مَا كَانَ لِلْمُؤْمِنِ، فَلَمْ يَهْتَدِ. فَذَلِكَ أَنَّ فِي ذَلِكَ مِنَ اللَّهِ زِيَادَةً مَعْنَى لِلْمُؤْمِنِ، لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِنْهُ إِلَى الْكَافِرِ، وَهُوَ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ وَالْمَعُونَةُ. وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ لِلْكَافِرِ لَأَهْتَدَى [كَمَا اهْتَدَى^(٦)] الْمُؤْمِنُ. وَلَوْ كَانَتْ^(٧) بَيَانًا لَكَانَ ذَلِكَ الْبَيَانُ مِنَ الرُّسُلِ وَغَيْرِهِمْ^(٨) عَلَى قَوْلِهِمْ. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُضِلِلْ﴾ اللَّهُ ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أَخْبَرَ أَنَّ مَنْ أَضَلَّهُ فَقَدْ خَسِرَ. دَلَّ أَنَّهُ كَانَ مِنْهُ زِيَادَةٌ مَعْنَى، وَهُوَ الْخِذْلَانُ وَالتَّرُكُ، أَوْ خَلْقٌ يَفْعَلُ الضَّلَالِ.

وَلَيْسَ عَلَى مَا يَقُولُهُ الْمُعْتَزَلَةُ: إِنَّهُ قَدْ هَدَاهُمْ جَمِيعًا، لَكِنْ لَمْ يَهْتَدُوا، فَيُقَالُ لَهُمْ: أَنْتُمْ أَغْلَمَ أَمِ اللَّهُ تَعَالَى كَمَا قَالَ تَعَالَى لِلْيَهُودِ: ﴿قُلْ أَأَنْتُمْ أَغْلَمُ أَرَأَيْتُمْ؟﴾ [البقرة: ١٤٠] فَظَاهِرُ الْآيَةِ عَلَى خِلَافِ مَا يَقُولُونَ، وَيَذْهَبُونَ.

الآية ١٧٩ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْإِنْسِ وَالْإِنْسِ﴾ قَالَتِ الْمُعْتَزَلَةُ: لَمْ يَخْلُقْهُمُ اللَّهُ تَعَالَى لِجَهَنَّمَ، وَلَكِنْ خَلَقَهُمْ، وَذَرَأَهُمْ، وَأَعْطَاهُمْ مِنَ الْقُوَّةِ مَا يَكْسِبُونَ الْجَنَّةَ، غَيْرَ أَنَّهُمْ عَمِلُوا أَعْمَالًا اسْتَوْجَبُوا بِهَا النَّارَ، فَصَارُوا لِلنَّارِ بِمَا عَمِلُوا مِنَ الْأَعْمَالِ، لَا أَنَّ خَلَقَهُمْ لِجَهَنَّمَ.

ثُمَّ اخْتَلَفُوا هُمْ فِي تَأْوِيلِ^(٩) قَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْإِنْسِ وَالْإِنْسِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ذَكَرَ بِمَا إِلَيْهِ آلَتْ عَاقِبَةُ أَمْرِهِمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاللَّفْقَةُ ءَالٌ فَرَعَوْتَ لِكُلِّ شَيْءٍ عَدُوًّا وَحَرًّا﴾ [القصص: ٨] لَمْ يُلْقِطُوهُ لِيَكُونَ لَهُمْ مَا ذَكَرَ، وَلَكِنْ إِنَّمَا التَّقْطُوعُ لِيَكُونَ لَهُمْ مَا ذَكَرَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَشْجِذَهُ وَذَلِكَ﴾ [القصص: ٩] لِهَذَا التَّقْطُوعُ، لَكِنَّهُ صَارَ لَهُمْ مَا ذَكَرَ. أَخْبَرَ عَمَّا إِلَيْهِ آلَ أَمْرِهِ. فَعَلَى ذَلِكَ هَذَا، وَكَمَا يُقَالُ: لِدُوا لِلْمَوْتِ، وَابْتُوا لِلْخَرَابِ، وَلَا أَخَذَ يِلْدُ لِلْمَوْتِ، وَلَا يَبْنِي لِلْخَرَابِ، وَلَكِنَّهُ إِنْبَاءٌ عَمَّا^(١٠) تَقُولُ إِلَيْهِ عَاقِبَةُ أَمْرِهِ مِنَ الْمَوْتِ وَالْخَرَابِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: لَهَا. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: يَنَادَى لَهَا. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: لِكُلِّ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَدْ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: كَانَ. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: كَانَ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَغَيْرِهِ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: تَأْوِيلُهُ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: مَا.

إلى هذا يذهب عامة المعتزلة. وقال أبو بكر الأصم: الآية على التثنية والتأخير؛ كأنه قال: ولقد ذرأنا كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون، ولهم أعين لا يبصرون، ولهم أذان لا يسمعون بها: أولئك لجهنم وأولئك كالأنعام. لكن هذا بعيد لأنه لو جاز هذا في هذا لجاز مثله في جميع القرآن أن يجعل أول الآية في آخرها وأخبرها في أولها، فهذا محال

وأما قولهم: أنه إخبار عما إليه آلت عاقبة أمرهم، واستشهداهم بقوله تعالى: ﴿فَالْقَلْعَةُ أَلْ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ﴾ [القصص: ٨] كذا فهو يضلح لمن^(١) يجهل عواقب الأمور، يخرج ذلك منه على التثنية والإيقاظ لما لم يعرفوا عاقبة ما صار إليه الأمر.

فأما الله، سبحانه، عالم السر والعلانية وما كان، ويكون في الأوقات التي يكون، فلا^(٢) يحتمل ذلك؛ وقول الناس: لدوا للموت، وابتوا للخراب فهو إنما يذكرون هذا عند التثنية والإيقاظ لجهلهم بعواقب الأمور، وإن كانوا لا يبتون ولا يلدون للموت والخراب، وما قصدوا له.

وأما التأويل عندنا على ما ذكر في ظاهر الآية أنه خلق لجهنم كثيراً من الجن والإنس [لأنه]^(٣) أعلم في الأزلي أنهم يختارون فعل الكفر والأعمال الخبيثة التي يستوجبون بها النار؛ خلقهم لجهنم لما علم منهم ذلك في الأزلي أنهم يختارون الأعمال الخبيثة، فذرأهم على ما علم^(٤)، منهم ما^(٥) يختارون، ويكون منهم.

وكذلك خلق المؤمنين للجنة لما علم في الأزلي أنهم يختارون فعل الهدى، ويعملون أعمالاً طيبة يستوجبون بها الجنة. خلقهم للجنة لا أن خلقهم للجنة مرسلاً، أو خلقهم لجهنم مرسلاً، ولكن لما ذكرنا، والله أعلم.

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذريات: ٥٦] إنما خلق منهم للعبادة من علم أنه يعبد، ويطيعه، وأما من علم منه أنه يكفر به، ويعصيه فهو إنما خلقه لما علم [أن كفره]^(٦) يكون منه. فمن كان علم منه في الأزلي أنه يكون منه العبادة لخلق للعبادة، ومن كان علم منه أنه يكون منه الكفر خلقه لذلك؛ لأنه لا يجوز أن يعلم منه المعصية وفعل الكفر، فيخلق على خلاف ذلك. دل أنه ما ذكرنا، والله أعلم.

ويحتمل^(٧) أن يقال: قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذريات: ٥٦] الفريق الذي علم منه العبادة لا الكل. دليله قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ﴾ ولم يقل: ذرأنا الكل. فهذه في فريق، وهذه في فريق آخر. وهذا التأويل يرجع إلى الخصوص. ألا ترى أن الصبيان والمجانين لم يذخلوا فيه؟ أو أن يكون قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذريات: ٥٦] أي إلا لأكلفهم العبادة، وأمرهم بها. فإن كان هذا فهي على الكل على الكافر والمؤمن جميعاً، والله أعلم.

ويحتمل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي ما خلقت الجن والإنس إلا لتشهد خلقهم على وحدانية الله وصرف العبادة إليه. وقد شهدت خلقه كل كافر ومؤمن على وحدانيته وألوهيته.

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [يها] الفقه هو معرفة الشيء بمعناه الدال على نظيره، أو معرفة الشيء بمعناه الدال على مدبره. فهؤلاء الكفرة لم يفقهوا لما لم ينظروا إلى الأشياء لمعناها وحقايقها، إنما نظروا إلى الأشياء لظواهرها. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يها] لما نظروا إلى ظواهرها لم ينظروا إلى معانيها وحقايقها ليدلهم على تدبير منيها وحكمته. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [يها] كما كانت للأنعام قلوب وأعين وآذان، لكن لا يفقهون معانها وحقايقها، وإن كانوا يسمعون النداء، وينظرون إلى ظواهر الأشياء. فعلى ذلك الكفار، وإن كانوا يسمعون، وينظرون ما ذكرنا بعد أن لم يفقهوا معانيها وتدبير مدبرها. فهم كالأنعام.

(١) أدرج في الأصل قبلها: هذا. (٢) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل: عمل. (٥) في الأصل وم: أنهم. (٦) في الأصل وم: أنه خلقه. (٧) في الأصل وم: أو.

وَأَصْلُهُ: أَنَّهُمْ لَمْ يَسْتَعْمِلُوا تِلْكَ الْحَوَاسَّ فِي مَا جُعِلَتْ لَهُمْ لِمَعْرِفَةِ حَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ وَمَا أُدْرَجَ فِيهَا مِنَ الْمَعَانِي وَالْحِكْمَةِ، فَصَارُوا فِي الْحَقِيقَةِ كَمَنْ لَا حَوَاسَّ لَهُ، أَوْ لَمْ يَنْتَفِعُوا بِهَا انْتِفَاعَ مَنْ لَهُمْ تِلْكَ، بَلْ كَانُوا كَمَنْ لَيْسَ لَهُمْ تِلْكَ. لِذَلِكَ نَقَى عَنْهُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَالَ/ ١٩١- أ/ قَائِلُونَ: نَقَى عَنْهُمْ هَذِهِ الْحَوَاسَّ لِمَا لَمْ يَنْتَفِعُوا بِهَا انْتِفَاعَ مَنْ لَهُمْ تِلْكَ، بَلْ كَانُوا كَمَنْ لَيْسَ لَهُمْ تِلْكَ الْحَوَاسَّ لِلْمَعْنَى الَّذِي جُعِلَتْ تِلْكَ الْحَوَاسَّ لَهُمْ ﴿كَأَلَّا تَنْتِفِعُوا بِهَا﴾ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ إِذَا ضَلُّوا الطَّرِيقَ، فَهَدُوا، وَأُزِيدُوا، لَا يَهْتَدُونَ، وَلَا يَرْجِعُونَ عَنْ ذَلِكَ، وَالذُّوَابُ إِذَا ضَلُّوا الطَّرِيقَ، فَهَدُوا [اهْتَدَوْا، وَوَعُوا]^(١)، وَمَالُوا إِلَيْهِ: فَهُمْ أَضَلُّ مِنَ الْأَنْعَامِ لِمَا ذَكَرَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ لِأَنَّ بُنْيَةَ الْأَنْعَامِ لَا تَحْتَمِلُ فَهَمَ ذَلِكَ، وَبُنْيَةُ هَؤُلَاءِ تَحْتَمِلُ، إِذْ جَعَلَ لَهُمْ عُقُولًا تُمَيِّزُ، وَتَعْرِفُ حِكْمَةَ مُدْبِرِهَا وَمُنْشِئِهَا، لَكِنَّهُمْ ضَيَّعُوهَا، وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْأَنْعَامِ تَضْيِيعُ، لِذَلِكَ كَانَ أَوْلَئِكَ أَضَلُّ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْإِنْسِ وَالْإِنْسِ لَمْ يَكُونُوا لَمْ يَفْقَهُوْا بِهَا وَلَمْ يَعْنُوا لَمْ يَصْبِرُوا بِهَا وَلَمْ يَأْكُلُوا لَمْ يَسْمَعُوا بِهَا﴾ لِمَا خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشًوَةٌ﴾ [البقرة: ٧] فَمِنْ ثَمَّةٍ لَمْ تَفْقَهُ قُلُوبُهُمْ، وَلَمْ تُبْصِرْ أَعْيُنُهُمْ، وَلَمْ تَسْمَعْ آذَانُهُمْ. وَقَالَ: ثُمَّ ضَرَبَ لَهُمْ مَثَلًا فَقَالَ: ﴿أَوَلَيْكَ كَالَّذِينَ﴾ فِي الْأَكْلِ، لِأَنَّ هَمَّهُمْ^(٢) لَيْسَ إِلَّا الْأَكْلُ وَالشَّرْبُ كَهَمَّ^(٣) الْأَنْعَامِ وَالْبَهَائِمِ لَيْسَ هَمُّهُمْ^(٤) إِلَّا الْأَكْلُ وَالشَّرْبُ وَقَضَاءُ الشَّهْوَةِ؛ فَهِيَ تَسْمَعُ النَّدَاءَ، وَلَا تَفْقِلُ. فَعَلَى ذَلِكَ الْكَافِرُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَيْكَ كَالَّذِينَ﴾ فِي فَهَمٍ مَا أَلْقَى إِلَيْهِمْ ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ لِأَنَّهُمْ أَغْلَمُوا سَبَبَ فَهَمٍ ذَلِكَ، وَالْأَنْعَامُ لَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ لِأَنَّ الْأَنْعَامَ تَعْرِفُ رَبَّهَا، وَتُوحِّدُهُ، وَتَذْكُرُهُ كَقَوْلِ^(٥) اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْمَعُ بَيِّنَاتٍ﴾ [الأنعام: ١٠٢] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور: ٤١] وَهَؤُلَاءِ لَا يَعْرِفُونَهُ، وَلَا يُوحِّدُونَهُ، فَهُمْ أَضَلُّ. وَيَحْتَمِلُ^(٦) أَنْ يُقَالَ: هُمْ أَضَلُّ، وَلَا يَهْتَدُونَ، وَإِنْ هَدُوا، وَدُعُوا، وَالْأَنْعَامُ تَهْتَدِي. وَهُمْ أَضَلُّ لِأَنَّهُمْ يَضِلُّونَ، وَيُضِلُّونَ غَيْرَهُمْ، وَالْأَنْعَامُ لَا. أَوْ هُمْ أَضَلُّ لِأَنَّهُمْ لَا يَنْتَفِعُ بِهِمْ، وَالْأَنْعَامُ يَنْتَفِعُ بِهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَيْكَ هُمُ اللَّاعِلُونَ﴾ عَنْ فَهَمٍ مَا أَلْقَى إِلَيْهِمْ، وَأَمَرُوا بِهِ، وَغَافِلُونَ عَمَّا أَوْعَدُوا.

الآية ١٨٠

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَبِّهِ الْأَسْمَاءُ الْمُسَمَّيَاتِ فَادْعُوهُ﴾ يَحْتَمِلُ هَذَا وَجْهَيْنِ: يَحْتَمِلُ أَنَّهُمْ قَدْ ظَنُّوا أَنَّ فِي إثْبَاتِ عَدَدِ الْأَسْمَاءِ إِيْجَابَ إثْبَاتِ عَدَدِ مِنَ الذُّوَابِ^(٧)، فَاخْتَبَرُوا أَنَّ لَيْسَ فِي إثْبَاتِ عَدَدِ الْأَسْمَاءِ إثْبَاتُ أَعْدَادِ مِنَ الذُّوَابِ^(٨)؛ إِذْ قَدْ يُسَمَّى الشَّيْءُ الْوَاحِدُ بِأَسْمَاءٍ مُخْتَلِفَةٍ. ثُمَّ لَا يُوجِبُ ذَلِكَ إثْبَاتَ عَدَدِ ذَلِكَ وَلَا تَجْزِئَتَهُ مِنْ نَحْوِ مَا تُسَمَّى الْحَرَكَةُ حَرَكَةً عَرَضًا شَيْئًا خَلْقًا مِنْ غَيْرِ أَنْ أَوْجِبَ ذَلِكَ إثْبَاتَ عَدَدِ الْحَرَكَةِ أَوْ تَجْزِئَتَهُ، وَكَذَلِكَ فِي جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ. فَعَلَى ذَلِكَ يُخْبِرُ أَنَّهُ لَيْسَ فِي إثْبَاتِ عَدَدِ الْأَسْمَاءِ إثْبَاتُ عَدَدِ مِنَ الذُّوَابِ عَلَى مَا ذَكَرْنَا.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ خَرَجَ هَذَا مُقَابِلَ قَوْلِ كَانَتْ مِنْهُمْ، وَهُوَ أَنْ وَصَفُوا اللَّهَ بِشَيْءٍ، لَا يَحْسُنُ أَنْ يُوصَفَ بِهِ، وَأَضَافُوا إِلَيْهِ أَشْيَاءَ لَا تَصِحُّ أَنْ تُضَافَ مِنْ قَوْلِهِمْ: يَا خَالِقَ الْخَنَازِيرِ وَيَا خَالِقَ الْخَبَائِثِ وَيَا إِلَهَ الْقِرَدَةِ وَنَحْوِهِ. فَاخْتَبَرُوا أَنْ أَدْعُوهُ بِالْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى مِمَّا ثَبَتَ عِنْدَ^(٩) الْخَلْقِ أَنَّهُ مُسَمَّى [بِهَا بِمَا هَدَاهُمْ]^(١٠)؛ يُقَالُ: يَا هَادِيَا مُرْشِدًا وَنَحْوَهُ، وَيُقَالُ: بِمَا^(١١) أَعْطَاهُمْ مِنَ النِّعَمِ: يَا كَرِيمُ يَا جَوَادُ بِالطِّيفِ وَنَحْوَهُ، وَيُقَالُ: يَا خَالِقُ يَا رَزَاقُ يَا اللَّهُ يَا رَحْمَنُ يَا رَحِيمُ لِمَا ظَهَرَ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْوُجُوبِ وَرُبُوبِيَّتِهِ، فَقَالَ: لَا تَدْعُوا بِكَذَا، وَلَكِنْ ادْعُوا بِالْأَسْمَاءِ الَّتِي ثَبَتَ عِنْدَ الْخَلْقِ تَحْقِيقًا [أَنَّهُ يُسَمَّى بِهَا]^(١٢)، وَهُوَ مَا ذَكَرْنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) مَنْ فِي الْأَصْلِ: وَعَرَفُوا. (٢) فِي الْأَصْلِ: وَمِنْهُمْ. (٣) فِي الْأَصْلِ: وَمِنْهُمْ. (٤) فِي الْأَصْلِ: وَمِنْهُمْ. (٥) فِي الْأَصْلِ: وَمِنْهُمْ. (٦) فِي الْأَصْلِ: وَمِنْهُمْ. (٧) فِي الْأَصْلِ: وَمِنْهُمْ. (٨) فِي الْأَصْلِ: وَمِنْهُمْ. (٩) فِي الْأَصْلِ: وَمِنْهُمْ. (١٠) فِي الْأَصْلِ: وَمِنْهُمْ. (١١) فِي الْأَصْلِ: وَمِنْهُمْ. (١٢) فِي الْأَصْلِ: وَمِنْهُمْ.

وقد رُوي على هذا المعنى أن رجلاً دعا في صلاته فقال: يا الله ويا رحمك ويا رحيم، فقال رجل من المشركين: ليس بزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون إلهاً واحداً؟ فما بال هذا يدعو ربين نحو ما سموها آلهة وأرباباً؟ فقال: هذه الأسماء التي تدعون بها الأصنام لله، فادعوه بها، ولا تدعوا الأصنام.

وقوله تعالى: ﴿وَدُّوا الَّذِينَ يُبَدِّلُونَ فِي أَسْمَائِهِمْ﴾ يختل أي لا تكافئهم بصنيعهم، ولا تجازيهم بأذاثم إياك، فإن الله هو المكافئ لهم والمجازي بصنيعهم. ألا ترى أنه قال في آخروه: ﴿سَيَجْزِيَنَّهُمْ مَا كَانُوا يَمْكُونُ﴾؟

وقوله تعالى: ﴿يُبَدِّلُونَ فِي أَسْمَائِهِمْ﴾ قيل: الإلحاد هو الجور، والميل عن الحق والوضع في غير موضعه. ومم سُموا ملجدين لما سموا غيره بأسمائه أو لإشراك غيره في أسمائه، أو سُموا بذلك لما صرفوا شكر نعمه إلى غيره^(١)، وعبدوا دونه مع علمهم أنه لم يكن منهم إليهم شيء من ذلك. إنما كان ذلك لهم من الله.

قال ابن عباس: الإلحاد الميل في جميع القرآن، وقيل: الإلحاد: التكذيب. قال القتيبي: يُلْحِدُونَ يَجُورُونَ، [وعن الحق يبدلون]^(٢) وأصله: الجور والميل.

وقوله تعالى: ﴿سَيَجْزِيَنَّهُمْ مَا كَانُوا يَمْكُونُ﴾ قال: هذه بشارة لرسول الله ﷺ، بالنصر له والظفر على أعدائه في الدنيا. وقال قائلون: هو حَرْفٌ وعيد أو عدهم ﷺ بأذاثم رسول الله ﷺ.

الآية ٨١ وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ أي يهدون الخلق بالحق الذي عندهم، وهو القرآن والكُتُب التي عندهم، وأمكن أن يكون الحق هو رسول الله ﷺ، [به]^(٣) يهدون الناس، وبه يعملون.

وجائز أن يكون قوله تعالى: ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ أي يهدون الخلق إلى سبيل الله على ما ذكر في آية أخرى حيث قال: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالنَّعْظِ الْمُنَسَّاتِ﴾ [النحل: ١٢٥]. ويختل [بالحق] ههنا [أن يكون]^(٤) هو الله كقوله تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْقَائِمُ﴾ [النور: ٢٥].

وقوله تعالى: ﴿وَبِهِ يَبْدُلُونَ﴾ أي الحق الذي يهدون، ويعملون [به]^(٥) كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِذْ مَا أَنهَضَكُمْ عَنْهُ﴾ الآية [هود: ٨٨].

الآية ٨٢ وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ قد ذكرنا هذا في غير موضع. وقوله تعالى: ﴿سَنَنْدِيهِمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَمْلِكُونَ﴾ قال قائلون: هذا صلة قوله تعالى: ﴿سَلَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [الأعراف: ١٧٧] الآية. وقال بعضهم: فيه الوعد لرسول الله ﷺ بالنصر والظفر على أعدائه. والإستدراج هو الأخذ في حال الغفلة^(٦) من حيث أُمِنَ بغته كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأعراف: ٩٥].

وقال قائلون: الإستدراج المكر، لكن معنى ما يُضاف الإستدراج والمكر إلى الخلق غير المعنى الذي يُضاف إلى الله، والجهة التي تُضاف إلى الله غير الجهة التي تُضاف إلى الخلق^(٧)، والكيد^(٨) الذي يُضاف إلى الخلق مذموم، والكيد^(٩) الذي يُضاف إلى الله محمود، وكذلك ما أُضيف إلى الله من المكر والخداع والإستهزاء ونحوه، وهو ما ذكرنا على اختلاف الجهات.

والمعنى في الجهة التي تُضاف إلى الله غير الجهة التي تُضاف إلى الخلق؛ لأن الله تعالى يأخذهم بما يستوجبون، ويستحقون بحق الجزاء والمكافآت، فلا يلحقه في ذلك ذم. وأما الخلق في ما بينهم يَمْكُرُونَ، ويَكِيدُونَ لا على الاستحقاق والجزاء.

وعن الحسن في قوله تعالى: ﴿سَنَنْدِيهِمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَمْلِكُونَ﴾ [أنه]^(١٠) قال: كلما جددوا المعصية جدد الله لهم نعمة

(١) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: عن الحق ويعدلون. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، في الأصل: الفضلة. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: والجهة. (٩) في الأصل وم: والجهة. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

لِيَسْتَهْزِئُوا، وَيَأْشُرُوا، وَيَنْظُرُوا، ثُمَّ يُهْلِكُهُمْ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: يُظْهَرُ لَهُمُ النَّعَمُ، وَيُنْسِيهِمُ الشُّكْرَ. وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ مِمَّا ذَكَرَ مِنَ الْإِسْتِزْجَارِ وَالْمَكْرِ وَالْكَيْدِ عِبَارَةٌ عَنِ الْعَذَابِ، أَيْ إِنَّ أَخْذِي لِيَاَهُمْ وَعَذَابِي شَدِيدٌ حِينَ^(١) قَالَ: ﴿إِنَّ كَيْدِي مَبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٣] أَيْ عُقُوبَتِي شَدِيدَةٌ.

الآية ١٨٣ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَبِينٌ﴾ أَيْ كَيْدُهُ أَنْتُمْ، وَأَمْهَلُهُمْ، وَآكَيْدُ لَهُمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥، ١٦]. فَيُخْرِجُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٦] مُخْرِجَ جَزَاءِ كَيْدِهِمْ. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَكْرُكُمْ مَكْرًا وَمَكْرَتَنَا مَكْرًا﴾ [النمل: ٥٠] أَيْ جَزَيْنَاهُمْ جَزَاءَ مَكْرِهِمْ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَتَجِدُنَهُمْ﴾ أَيْ نَجْزِيهِمْ جَزَاءَ اسْتِزْجَارٍ، وَمَا [هُوَ عِنْدَهُمْ كَيْدٌ، كَذَلِكَ تَفْعَلُ بِهِمْ مَا]^(٢) هُوَ عِنْدَهُمْ مَكْرٌ وَخِدَاعٌ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنَ اللَّهِ [مَكْرٌ وَخِدَاعٌ]^(٣) كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] أَيْ إِعَادَةُ الشَّيْءِ عِنْدَكُمْ أَهْوَتْ مِنَ الْإِبْتِدَاءِ، وَإِنْ كَانَتْ الْإِعَادَةُ وَالْإِبْتِدَاءُ سَوَاءً عَلَى اللَّهِ.

فَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَتَجِدُنَهُمْ﴾ وَقَوْلُهُ^(٤) ﴿إِنَّ كَيْدِي مَبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٢ و ١٨٣] وَنَحْوُهُمَا^(٥) أَيْ تَفْعَلُ بِكُمْ مَا هُوَ اسْتِزْجَارٌ وَكَيْدٌ عِنْدَكُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا لَهُمْ﴾ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يُنْشِئْهُمْ، لِحَاجَةٍ لَهُ إِلَيْهِمْ أَوْ لِمَنْفَعَةٍ لَهُ فِيهِمْ، وَلَكِنْ أَنْشَأَهُمْ لِيُخَوِّجَ أَنْفُسَهُمْ وَلِمَنَافِعَ تَرْجِعُ إِلَيْهِمْ حَتَّى إِنْ عَمِلُوا نَفَعُوا أَنْفُسَهُمْ، وَإِنْ تَرَكُوا ضَرَرُوا أَنْفُسَهُمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَبِينٌ﴾ قِيلَ: شَدِيدٌ أَيْ عُقُوبَتِي شَدِيدَةٌ، وَالْمَبِينُ الْمُحْكَمُ الْقَوِيُّ/ ١٩١ - ب/.

الآية ١٨٤ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا يَصَاحِبُهُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ إِنَّ الْكُفْرَةَ كَانُوا يَنْسُبُونَ رَسُولَ اللَّهِ إِلَى الْجُنُونِ أَحْيَانًا. وَالَّذِي حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَنَّهُمْ كَانُوا^(٦) أَهْلَ الْعِزِّ وَالشَّرَفِ فِي الدُّنْيَاوِيَّةِ، وَكَانَ لَا يُخَالِفُهُمْ أَحَدٌ، وَلَا يَسْتَقْبِلُهُمْ بِالْمَكْرُوهِ إِلَّا أَحَدُ رَجُلَيْنِ: ذُو هَيْبَةٍ وَقُوَّةٍ، وَلَهُ أَعْوَانٌ وَأَنْصَارٌ، أَوْ رَجُلٌ يَوْ جُنُونٌ لَأَنَّهُمْ كَانُوا يَقْتُلُونَ مَنْ يُخَالِفُهُمْ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَمْرِ. فَلَمَّا رَأَوْا رَسُولَ اللَّهِ خَالَفَهُمْ، وَاسْتَقْبَلَهُمْ بِمَا يَكْرَهُونَ، وَلَمْ يَزُوا مَعَهُ أَنْصَارًا وَلَا أَعْوَانًا، [إِنَّهُ لَا يُخَالِفُهُمْ]^(٧) إِلَّا بِجُنُونٍ فِيهِ، فَتَسَبَّوْهُ إِلَى الْجُنُونِ لِذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ نِسْبَتُهُمْ إِيَّاهُ إِلَى الْجُنُونِ لِمَا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا، وَهُمْ قَدْ رَأَوْا الْعُقَلَاءَ مِنْهُمْ قَدْ عَبَدُوا الْأَصْنَامَ، وَلَمْ يُحَرِّمُوا ذَلِكَ. فَلَمَّا حَرَّمَ ذَلِكَ [عَلَيْهِمْ ظَنُّوا أَنَّهُ إِنَّمَا حَرَّمَ ذَلِكَ]^(٨) لِأَقْوَةٍ. لِذَلِكَ حَمَلَهُمْ نِسْبَتَهُ إِلَى الْجُنُونِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ عَابَهُمْ بِتَرْكِهِمُ التَّفَكُّرَ فِيهِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا يَصَاحِبُهُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ لِيَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ لَيْسَ بِوَجْهٍ. وَذَلِكَ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ: [أَحَدُهُمَا]^(٩): أَنَّهُمْ لَوْ تَفَكَّرُوا فِي رَسُولِ اللَّهِ بِمَا أَخْبَرَهُمْ مِنَ الْمَرْغُوبِ وَالْمَرْهُوبِ وَالْمَحْذُورِ فِي كِتَابِهِمْ عَلَى غَيْرِ لِسَانِهِمْ وَاخْتِلَافٍ مِنْهُ إِلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ وَلَا تَعَلَّمَ لَعَلِمُوا^(١٠) أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ [وَأَنْ مَا]^(١١) أَخْبَرِ إِنَّمَا أَخْبَرَ بِاللَّهِ.

وَالثَّانِي^(١٢): أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا يَصَاحِبُهُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ أَيْ قَدْ تَفَكَّرُوا، وَعَرَفُوا أَنَّ لَيْسَ بِوَجْهٍ، وَكَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الْآيَةِ: [الأعراف: ١٨٥] أَيْ قَدْ تَفَكَّرُوا فِي ذَلِكَ، وَعَرَفُوا أَنَّ مِثْلَ هَذَا لَمْ يُخْلَقْ عَبَثًا بَاطِلًا كَمَا يَقَالُ: أَلَمْ تَفْعَلْ كَذَا؟ أَيْ قَدْ فَعَلْتَ. لَكِنَّهُمْ عَانَدُوا، وَكَابَرُوا آيَاتِي وَحُجَجِي.

وَأَمَّا أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ أَيْ فِي أَنْفُسِهِمْ وَفِي أَوْلَئِكَ الَّذِينَ عَبَدُوا [كَثِيرًا]^(١٣) مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ^(١٤) لِيُظْهَرَ لَهُمْ أَنَّهُمْ عَلَى بَاطِلٍ وَسَفْوَةٍ، وَلِيَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّ الْحَقَّ هُوَ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ ﷺ لَا مَا كَانُوا هُمْ عَلَيْهِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٢) مِنْ م، سَاقِطَةٌ فِي الْأَصْلِ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: مَكْرًا وَخِدَاعًا. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَنَحْوَهُ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: لِأَنَّهُمْ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنَّهُمْ لَا يُخَالِفُهُمْ. (٨) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: بِالنِّسْبَةِ. (١٠) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم: لِيَعْلَمُوا. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ (١٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم: (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ الْأَوْثَانِ.

وفيه دلالة أن الحق يلزم، وإن كان لا يعلم ذلك إلا بالتفكير والتدبر، ما لحق هؤلاء من الوعيد الشديد والعقاب العظيم لما تركوا هم التفكير، وكان لهم سبيل الوصول إلى معرفة ذلك. وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ إنه ليس به جنّة، هو (١) جواب من الله. ويحتمل: لو تفكروا في صاحبهم أنه ليس به جنّة.

ثم أخبر أنه ﴿يَذِيرُ ثُيُنٌ﴾ ليس كما يقولون: إنه مجنون؛ إذ معه آيات وبراهين، فهو ﴿يَذِيرُ ثُيُنٌ﴾.

الآية ٨٥

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية: يحتمل هذا على الابتداء، ويحتمل على الصلة بالأول، وهو أنهم إذا تفكروا في ملكوت السموات والأرض عرفوا ألوهية الله وربوبيته لما يرون من اتصال منافع بغض يتغص على بُعد ما بينهما واتساق التدبير في ذلك، فعرفوا أن ذلك كله (٢) مستحضر لمن له التمييز، وأن المقصود في خلقه أهل التمييز.

فإذا عرفوا ذلك عرفوا أنهم يحتاجون إلى من يعرفهم (٣) ذلك، ويعلمهم ما يحتاجون في ذلك.

ويحتمل على ابتداء الأمر بالتفكير ﴿فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ ليدلهم على وحدانيته وربوبيته.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ إِلَهُهُمْ﴾ كان هذا نزل (٤) في من عرف صدقه لكنه عاند في تكذيبه، فقال: ﴿وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ إِلَهُهُمْ﴾ يحذروهم ليرجعوا إلى تصديقهم مخافة الخروج من الدنيا على ما هم عليه.

وقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَدَأُوا يُؤْمِنُونَ﴾ هذا يتوجه وجهين:

أحدهما: أنكم ممن تقبلون الأخبار والحديث.

فإذا لم تقبلوا حديث رسول الله ﷺ وخبره، ولم تصدقوه، فبأي حديث بعده تقبلون؟ وتصدقون؟ ومعه حجاج وبراهين، والله أعلم.

والثاني: أن يكون قوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَدَأُوا يُؤْمِنُونَ﴾ بعد القرآن، وهو كما وصفه: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُتْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ الآية: [فصلت: ٤٢] وقال ﴿لَيْنَ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِبَيِّنٍ هَذَا الْقُرْآنَ لَا يَأْتُونَ بِبَيِّنَةٍ﴾ [الإسراء: ٨٨] فإذا لم تقبلوا هذا، ولم تصدقوه وهو بالوصف الذي ذكر، وأنتم ممن تقبلون الحديث ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَدَأُوا يُؤْمِنُونَ﴾ تقبلون؟

وجائز أن يكون قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَدَأُوا يُؤْمِنُونَ﴾ يريد به الآخرة؛ يقول: إذا اقترب أجلهم ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَدَأُوا يُؤْمِنُونَ﴾ أي لا حديث بعده يؤمنون. والتأويل الآخر في الدنيا.

الآية ٨٦

وقوله تعالى: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَيِّ هَادٍ لَمْ يَكُنْ﴾ وفي موضع آخر ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾ [الزمر: ٣٧] ولو كانت الهداية الأمر والبيان على ما قاله قوم لكان ذلك من غيره (٥) وكذلك لو كان الإضلال والإزاعة والتهوي هو التخليئة لكان ذلك يكون من غيره، وكل من أراد الله أن يهديه أضله غيره، وكل من أضله الله هداه غيره. فذلك محال مع ما في كل ما أضاف الله الإضلال إلى الخلق دمه، وفي ما أضاف الهداية إليه مدحه. ثم أضافهما جميعاً إلى نفسه.

دل أن هنالك زيادة معنى ليس ذلك في الإضافة إلى (٦) الخلق، وهو ما ذكر في غير موضع: إما خلق فعل الضلال من الكافر وإما (٧) خلق فعل الإهتداء والإيمان من المؤمنين، وكان منه التوفيق والمعونة في الهدى والخذلان في الكفر.

وهذان الوجهان اللذان ذكرناهما لا يكونان من الخلق، إنما يكونان من الله. لذلك كان معنى الإضافة إليه.

وإنما يكونان من الخلق الدعاء وغيره، لا ما قالته المعتزلة من البيان والأمر والتهوي والتخليئة، إذ يكون ذلك من الخلق. وبالله العصمة.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَيِّ هَادٍ لَمْ يَكُنْ﴾ أي من أهانه الله بالضلالة فلا أحد يملك إكرامه بالهدى.

(١) في الأصل وم: وهذا. (٢) من م، في الأصل: كل. (٣) من م، في الأصل: يعرفونهم. (٤) في الأصل: وم: ترك. (٥) في الأصل وم: غير. (٦) من م، في الأصل: التي. (٧) في الأصل وم: و.

وقوله تعالى: ﴿وَيَذُرُهُمْ فِي طَافِيَتِهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾ ولا ضَرَرَ يَلْحَقُهُ فِي طَافِيَتِهِمْ. لِذَلِكَ تَرَكْتُهُمْ فِيهِ. وَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يُنْشِئْهُمْ لِحَاجَةٍ نَفْسِهِ وَلَا لِيُدْفَعَ ضَرَرُ نَفْسِهِ، وَلَكِنْ لِحَاجَةِ أَنْفُسِهِمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَمْلِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢] وكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ كَيْدِي مَبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٣] وَهُوَ حَرْفُ الْوَعِيدِ.

الآية ١٨٧ وقوله تعالى: ﴿يَسْتَلْزِمُونَكَ مِنَ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ قِيلَ: ﴿أَيَّانَ﴾ مَتَى قِيَامُهَا؟ قَالَ الْقُتَيْبِيُّ: ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ أَيِ مَتَى نُبُوَّتُهَا؟ يُقَالُ: رَسَا فِي الْأَرْضِ إِذَا ثَبَتَ، وَرَسَا فِي الْمَاءِ، وَيُقَالُ لِلْجِبَالِ: رَوَاسِي لِثُبُوتِهَا.

ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي السُّؤَالِ عَمَّ كَانَ؟ قَالَ بَعْضُهُمْ: كَانَ السُّؤَالُ عَنِ الْفَنَاءِ فَنَاءِ الْخَلْقِ وَهَلَاكِهِمْ، لِأَنَّهُ قَالَ فِي آخِرِهِ: ﴿وَمَا يَذُرُكَ تَأْيِيكُ إِلَّا بَقْنَةٌ﴾ وَنَحْوَهُ كَقَوْلِهِ ^(١) ﴿وَمَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ الْآيَةُ: [يس: ٤٩] وَذَلِكَ يَكُونُ فِي الدُّنْيَا.

وَقَالَ قَائِلُونَ: كَانَ السُّؤَالُ عَنِ الْبَعْثِ وَقِيَامِ السَّاعَةِ إِنْكَاراً مِنْهُمْ بِهَا وَاسْتِعْجَالاً لِلْعَذَابِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَذُرُكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧] يَسْتَعْجِلُ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِهَا، وَقَوْلُهُمْ: ﴿أَوَدَا يَسْتَا وَكُنَّا﴾ الْآيَةُ: [المؤمنون: ٨٢] وَغَيْرُ تِلْكَ الْآيَاتِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ السُّؤَالَ كَانَ عَنِ السَّاعَةِ.

وَلَيْسَ قَوْلُهُ: ﴿وَمَا يَذُرُكَ إِلَّا بَقْنَةٌ﴾ أَنَّهُ كَانَ عَنِ الْفَنَاءِ، إِذَا ^(٢) كَانُوا يَغْنَوْنَ الْفَنَاءَ. وَلَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ السُّؤَالُ عَنْ ذَلِكَ. ثُمَّ يَحْتَمِلُ بَعْدَ هَذَا وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: إِنْ كَانَ السُّؤَالُ عَنِ الْكَذِبِ لَهَا فَهُوَ سُؤَالُ اسْتِهْزَاءٍ وَاسْتِعْجَالٍ لِمَا ذَكَرْنَا.

وَالثَّانِي ^(٣): إِنْ كَانَ عَنِ الصَّدَقِ فَهُوَ سُؤَالُ اسْتِعْلَامٍ وَإِشْفَاقٍ لِيَتَأَهَّبُوا لَهَا، وَيَسْتَعِدُّوا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُتَنَبِّهُونَ﴾ [الشورى: ١٨] لِمَا سَمِعُوا مِنَ الْآيَاتِ مَا يُقَرِّبُ وَقُوعَهَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ [القمر: ١] وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١] وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَنَّ أَمْرَ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١] وَنَحْوَهُ مِنَ الْآيَاتِ وَمَا سَمِعُوا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ» [البخاري: ٦٥٠٤] وَفِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ [أَنَّهُ] ^(٤) قَالَ: «كَادَتْ السَّاعَةُ أَنْ تَسْبِقَنِي» [الترمذي: ٢٢١٣] وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْأَخْبَارِ. حَمَلَهُمْ ذَلِكَ عَلَى السُّؤَالِ عَنْهَا لِيَتَأَهَّبُوا لَهَا، وَيَسْتَعِدُّوا.

ثُمَّ أَمَرَهُ أَنْ يَقُولَ: ﴿إِنَّمَا عَلِمْتُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُنِي لَوْ قَبِلَ إِلَّا هُوَ﴾ أَيِ لَا يَكْشِفُهَا، وَلَا يُظْهِرُ وَقْتُهَا / ١٩٢ - / إِلَّا هُوَ لَيْسَ هُوَ كَالْأُمُورِ الَّتِي تَجْرِي عَلَى أَيْدِي الْخَلْقِ، وَيَكُونُ لَهُمْ فِيهَا تَدْبِيرٌ؛ أَعْنِي الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ سُلِّطُوا عَلَى حِفْظِ الْمَطَرِ وَالنَّبَاتِ. وَأَمَّا السَّاعَةُ فَإِنَّهَا تَقُومُ مِنْ غَيْرِ أَنْ كَانَ لِأَحَدٍ مِنَ الْخَلَائِقِ تَدْبِيرٌ فِيهَا أَوْ عِلْمٌ، وَهُوَ مَا وَصَفَهَا اللَّهُ ﷻ، ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَنَفْثِ النَّفَسِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧] أَخْبَرَ أَنَّ أَمْرَ السَّاعَةِ خَارِجٌ عَنْ تَدْبِيرِ الْخَلْقِ. بَلْ تَقُومُ بِتَدْبِيرِ اللَّهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُجْرِيَهَا أَحَدٌ ^(٥)، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قِيلَ: ثَقُلَتْ عَلَى أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، ثُمَّ اخْتَلَفَ فِيهِ: قَالَ قَائِلُونَ: قَوْلُهُ: ﴿ثَقُلَتْ﴾ أَيِ خَفِيتْ عَلَى أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَذَكَرَ الثَّقُلَ لِأَنَّ كُلَّ مَنْ خَفِيَ عَلَيْهِ شَيْءٌ ثَقُلَ عَلَيْهِ، فَذَكَرَ أَنَّهَا ثَقِيلَةٌ عَلَيْهِمْ لِحَفَافَتِهَا عَلَيْهِمْ. وَقَالَ قَائِلُونَ: ثَقُلَ وَقُوعُهَا عَلَى أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لِكثْرَةِ أَهْوَالِهَا وَشِدَّةِ وَقُوعِهَا.

وَأَمَّا أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ عَلَى نَفْسِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلَى مَا ذَكَرَ فِي قَوْلِهِ ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ﴾ [مريم: ٩٠] أَيِ لَوْ كَانَتْ هِيَ حَيْثُ تَعْرِفُ، وَتُمَيِّزُ، وَبُنْيَتُهَا بُنْيَةٌ مَنْ يَعْرِفُ ثَقُلَ شَيْءٌ لَثَقُلَتْ، وَهُوَ مَا قُلْنَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَعَرَّفْتَهُمُ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٧٠] وَالدُّنْيَا لَا تَعْرِفُ أَحَدًا، أَيِ مَا كَانَ مِنْهَا، لَوْ كَانَتْ مِمَّنْ يَكُونُ مِنْهُ التَّغْرِيرُ لَكَانَ تَغْرِيرًا. فَفَعَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلِ.

وقوله تعالى: ﴿يَسْتَلْزِمُونَكَ كَأَنَّكَ خَائِضٌ عَنَّا﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ: قَالَ قَائِلُونَ: ﴿كَأَنَّكَ خَائِضٌ عَنَّا﴾ أَيِ مُكْرَمٌ مُشْرِفٌ عِنْدَهُ ذُو مَثَرَةٍ، فَيَعْلَمُكَ عَنْهَا، وَكَذَلِكَ قِيلَ [فِي قَوْلِهِ] ^(٦): ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي حَقِيْقَةٍ﴾ [مريم: ٤٧] قِيلَ: بَارَأَ رَحِيمًا.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَكَقَوْلِهِ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: إِذ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) أَدْرَجَ قَبْلَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: عَلَى.

(٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

وقال قائلون: ﴿كَأَنَّكَ حَيٌّ عِنَّا﴾ أي عالم بها. وقال قتادة: ﴿كَأَنَّكَ حَيٌّ عِنَّا﴾ بهم كأنك يجب أن يسألك عنها، وقال غيره: هو على التقديم والتأخير: يسألونك عنها كأنك استخفيت السؤال عنها حتى علمتها، ثم قال: ﴿قُلْ﴾ مالي بها من علم ﴿إِنَّمَا عَلِمْتُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنها كائنة^(١).

ويخيل: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنك لا تعلم أنها متى تكون؟ أو لا يعلمون ما عليهم وما لهم.

وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إذا جاءت ثقلت على أهل السموات والأرض، وكبرت عليهم.

وقال بعضهم: ثقل ذكرها على أهل السموات والأرض، وقال قتادة: ثقل علمها على أهل السموات والأرض.

وأصله ما ذكرنا؛ أي خفي علمها على أهل السموات والأرض، وإذا خفي الشيء ثقل.

وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّكَ حَيٌّ عِنَّا﴾ ما ذكرنا من التأويل، والله أعلم. وعلى قول بعضهم: الخفي الخبير العالم.

وقالوا: هو المشرف المكرم البار الذي لا يستخفى عنه شيء، ولا يلبس عليه.

الآية ٨٨ وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ قال بعض أهل التأويل: قوله: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ الهدى والضلالة.

وقال قائلون من أهل التأويل: ﴿لَا أَمْلِكُ﴾ جر النفع [إلى نفسي]^(٢) ولا دفع الضر عنها ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ إلا أن أقدرني الله على ذلك، فأملك ذلك.

ويشبه أن يكون قوله: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ قال^(٣) ذلك لئلا يتخذوه معبوداً، ولا ينسبوه إلى الله بالذي لا يليق النسبة به ما قالت التصاري: المسيح ابن الله، وقالت اليهود: عزيز ابن الله،^(٤) وقال مشركو العرب: الملائكة بنات الله لعظيم ما وقع عندهم عنهم من محل هؤلاء وقدرهم، فقال ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ لئلا ينسبوه إلى الله من الوجه الذي نسب أولئك، أظهر من نفسه العجز والعبادة، وهو ما قال عيسى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾ الآية: [مريم: ٣٠]

وقال ابن عباس في قوله: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ وذلك أن أهل مكة قالوا: ألا يخبرك ربك يا محمد بالتجارة المربحة؟ فتتجر فيها، فتربح، أو لا يخبرك بسنة القحط والجذوبة؟ أو يخبرك بوقت السعة والخصب؟ فقال عند ذلك: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ﴾ من جذوبة الأرض والقحط ﴿لَسْتَكَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ يقول: لتهيات لذلك ﴿وَمَا مَسَّنِيَ التَّوْبَةُ﴾ من الضر والشدة. إلى هذا ذهب عامة أهل التأويل.

وقالوا في قوله: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَسْتَكَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ لو^(٥) كنت أعلم الغيب متى أموت؟ لاستكثر من الخير^(٦) ومن العمل الصالح.

ولكن الوجه فيه غير ما ذهبوا إليه، لأنه إن كان لا يعلم متى يموت؟ لا يستكثر من الخير ومن العمل الصالح. أو لو كان يعلم الغيب لاستكثر المال على ما قال بعضهم. وهذا بعيد.

ولكن التأويل، والله أعلم، أن يجعل قوله: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ أي لا أعلم لكم نفعاً ولا ضرراً ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَسْتَكَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ عند الله؛ أي لو كنت أعلم كل ذلك لصدقتهموني، وأمنتهم بي ﴿لَسْتَكَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ عند الله بإيمانكم بالله وتضديقكم إياي، أو أن يقول^(٧) ﴿لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ ولو كنت أملك لكم ذلك ﴿لَسْتَكَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ لأنكم إذا رايتهموني أملك لكم دفع ما غاب عنكم ودفع ضر ما غاب لآمنتهم بي، وصدقتهموني، فانا بذلك استوجبنا عند الله خيراً كثيراً؛ يجعل قوله: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ﴾ جواب ما تقدم من الكلام، والله أعلم.

(١) في الأصل وم: كائن. (٢) من م، في الأصل: والنفس. (٣) من م، في الأصل: وقال. (٤) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنِ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]. (٥) أدرج قبلها في م: وقال بعضهم. (٦) ساقطة من م. (٧) في الأصل وم: يقال.

وقال بغضهم: قوله ﴿قُلْ لَا أَنَا إِلَهٌ لَّيْسَ لِي نَفْسٌ مِّمَّا وَلَا مَرَا﴾ أي (١) لا أعلم الغيب إلا قدر ما أوحى إلي ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَكُنْتُكَرْتُ مِنَ الْغَيْبِ﴾. وقال بغضهم: لا أعلم الغيب قبل أن يوحى إلي، ولو كنت أعلم ذلك ﴿لَكُنْتُكَرْتُ مِنَ الْغَيْبِ﴾. بذلك.

وحاصل التأويل في قوله: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَكُنْتُكَرْتُ مِنَ الْغَيْبِ﴾ ما ذكرنا بتصديقكم إياي وإيمانكم بي، أو ما ذكرنا من السعة والخضب في الدنيا لأهلها ولأصحابه، أو ما ذكرنا أي لو كنت أملك لكم نفع ما غاب عنكم ودفع ضرر ما غاب أيضاً لآمتنم بي، وصدقتموني، فانا بذلك استخرجت عند الله خيراً كثيراً.

وجائز أن يكون قوله: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَكُنْتُكَرْتُ مِنَ الْغَيْبِ﴾ أي لو كنت أعلم من المصدق ومن المكذب؟ ﴿لَكُنْتُكَرْتُ مِنَ الْغَيْبِ﴾ لأنه لا يشتغل بمن يعلم أنه يرُدُّ، ولا يجيب، وإنما يشتغل بمن يعلم أنه يجيب، ولا يكذب، فيستكثر أتباعه والمطيعين لله.

[وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَسَّيَ الشَّوْءُ﴾] (٢) قال بغضهم: هو صلة قوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا يَصَاحِبُهُمْ مِنْ جِنٍّ﴾ [الأعراف: ١٨٤] كانوا يقولون: إن به جنونا (٣)، فقال: ﴿وَمَا مَسَّيَ الشَّوْءُ﴾ من الشبهة إلى الجنون [وقال بغضهم] (٤): ﴿وَمَا مَسَّيَ الشَّوْءُ﴾ منكم سوء رد وتكذيب؛ لأنه لو علم عليه الذي يجيبه، ويصدق، والذي لا يجيبه، ولا يصدق، لم يمس سوء منه: [سوء] (٥) الرد والأذى لأنه لا يشتغل به بعد ما أقام عليه الحجة من المجيب [منهم ومن الرد بقوله] (٦) تعالى: ﴿إِنَّا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

الآية ١٨٩

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلًا خَفِيًّا﴾ الآية. قال عامة أهل التأويل: إن آدم وحواء لما هبطا تكشاهما آدم، فحملت، فأتاها إبليس، فقال: يا حواء: ما هذا الذي في بطنك؟ قالت: لا أدري، قال: لعلة بهيمة من هذه البهائم ناقة أو شاة أو بقرة، قالت: لا أدري، فأعرض عنها ﴿فَلَمَّا أَتَتْكَ﴾ أتاها فقال: كيف تجدنيك؟ قالت: إني لأخاف (٧) أن يكون الذي ذكرت؛ ما استطع القيام إذا قعدت إلا بهجد، قال: أفرأيت إن دعوت الله [أن] (٨) يجعله إنساناً مثلك ومثل آدم أئسنيته (٩) بي؟ قالت نعم. فانصرفت، وقالت: لآدم: لقد أتاني آت، فحوطني بكذا، وإني لأخاف (١٠) مما ذكرت، فدعوا الله في ذلك.

فذلك قوله تعالى: ﴿دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَاحِبًا﴾ يقول: جعلته إنساناً ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ فكان هذا دعاءهما قبل أن تلد. فلما ولدت أتاها إبليس، وقال: ألا أئسنيته بي كما وعدتني؟ قالت: نعم، ما اسمك؟ قال: اسمي الحارث. فذلك قوله: ﴿فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا صَاحِبًا جَمَلًا لَهُ شُرَكَاءُ فِيمَا ءَاتَاهُمَا﴾ [الأعراف: ١٩٠].

على هذا حمل أهل التأويل الآية، ١٩٢ - ب/ إلى آدم وحواء صرّوها، وذلك وخش من القول قبيح في آدم وحواء. ذلك، ولو ثبت ما قالوا: إنهما سميا ولدهما باسميه، ونسبته (١١) إليه، لم يكن في ذلك إشراك، إذ لو كان في مثله إشراك لكان في ما أضاف العبيد والمماليك إلى الخالق (١٢) إشراك في ألوهيته.

ثم التأويل عندنا على غير ما ذهبوا إليه، والله أعلم، وهو أن قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ يعني من آدم ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ حواء أن خلق الذكور كلهم من آدم وخلق الإناث كلهم من حواء كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَآيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [الروم: ٢١]؛ أخبر أن الأزواج خلقهن من نفس الأزواج، فلما أضاف الزوجات إلى نفس الزوج، وأنهن من أنفسهن خلقهن؛ كان قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ كل زوجة وزوج، إذا تغشاهما، وحملت. دعا آدم وحواء: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَاحِبًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ إذ جميع الأولاد وأولادهم (١٣) يذعنون الله في ذلك ليكون صالحاً، فمن كان مسلماً منهما كان بدعائيهما.

(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: جنون. (٤) في الأصل وم: ويقول. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: منكم ومن الرد وقوله. (٧) في الأصل وم: لا أخاف. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، في الأصل: أئسنيته. (١٠) في الأصل وم: لا أخاف. (١١) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: الخلق. (١٣) في الأصل وم: أولادهم.

فَعَلَىٰ هَذَا التَّوِيلِ يَحْصُلُ دَعَاؤُهُمَا لِأَوْلَادِهِمَا الَّذِينَ يُوَلَّدُونَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؛ لِأَنَّهُمَا أَبٌ وَأُمٌّ، وَقَدْ يَدْعُو الْوَالِدِينَ لِأَوْلَادِهِمَا بِالصَّلَاحِ وَالْخَيْرِ. عَلَى هَذَا يَجُوزُ أَنْ يُخْرَجَ تَأْوِيلُ الْآيَةِ.

وَأَمَّا مَا قَالَهُ أَوْلَئِكَ فَهُوَ بَعِيدٌ مُحَالٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الْعَرَبَ كَانُوا^(١) إِذَا وَلِدَ لَهُمْ ذَكَورٌ يَنْسِبُونَهُمْ^(٢) إِلَى الْأَصْنَامِ الَّتِي يَعْبُدُونَهَا، وَيُضَيِّفُونَهُمْ^(٣) إِلَيْهَا تَعْظِيمًا لَهَا، يَقُولُونَ: ابْنُ اللَّاتِ، وَابْنُ الْعُزَّى، وَابْنُ الْعَمَةِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ. وَكَانُوا يَفْتُلُونَ الْبَنَاتِ، وَكَانُوا^(٤) إِذَا أَصَابَتْهُمْ الشَّدَّةُ يَفْرَعُونَ إِلَى اللَّهِ، وَيَتَضَرَّعُونَ إِلَيْهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِ دَعَا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الْوَلَدَيْنِ﴾ [العنكبوت: ٦٥] وَقَوْلِهِ تَعَالَى^(٥): ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضَرٌّ دَعَا رَبَّهُ﴾ [الزمر: ٨] وَقَوْلِهِ تَعَالَى^(٦): ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَاجٌ﴾ [الأنعام: ٣٢] فَلَمَّا دَهَبَ عَنْهُمْ ذَلِكَ، وَانْجَلَى عَادُوا إِلَى مَا كَانُوا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا بَلَغْتُمْ أَجَلَ أَلْفِ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُمْ نِعْمَةً مِنْهُ﴾ [الزمر: ٨].

فَإِذَا كَانَ مِنْ عَادَةِ الْعَرَبِ مَا ذَكَرْنَا كَانَ إِذَا حَمَلَتْ زَوْجَةً مِنْهُمْ، وَقُلَّ مَا فِي بَطْنِهَا، جَعَلَا يَدْعُوَانِ اللَّهَ رَبَّهُمَا ﴿لَئِنْ مَاتَتَا سَلِيمًا﴾ ذَكَرًا، وَسَلِمَتْ مِنَ الْوِلَادَةِ ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٨٩].

الآية ١٩٠

[وَقَوْلُهُ تَعَالَى^(٧) ﴿فَلَمَّا أَتَتْهُمَا سَلِيمًا﴾ يَعْنِي ذَكَرًا ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِذَلِكَ.

وَقَالَ الْحَسَنُ: الْآيَةُ فِي مُشْرِكِي الْعَرَبِ إِلَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ فَإِنَّ ذَلِكَ فِي آدَمَ وَحَوَاءَ. أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخَفُّونَ﴾؟ [الأعراف: ١٩١] دَلَّ مَا ذَكَرْنَا.

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الْأَصَمُّ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أَيِ خَلَقَ كُلَّ نَفْسٍ مِنْكُمْ مِنْ تِلْكَ النَّفْسِ، وَجَعَلَ لِكُلِّ نَفْسٍ مِنْكُمْ زَوْجَةً مِنْ تِلْكَ النَّفْسِ ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ فَعَلَى هَذَا التَّوِيلِ يَضْرِفُ آخِرَ الْآيَةِ إِلَى غَيْرِ آدَمَ وَحَوَاءَ.

وَقَالَ الْقُشَيْرِيُّ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَرَّتْ بِآدَمَ﴾ اسْتَمَرَّتْ بِالْحَمْلِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ إِنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ تَعْبُدُ الْأَصْنَامَ تَقْلِيدًا لِآبَائِهِمْ وَسَلَفِهِمْ، فَيَذْكُرُ سَفَهُهُمْ أَنَّ النَّفْسَ الَّتِي مِنْهَا لَمْ تَقْلُدْ أَحَدًا، وَلَمْ تُشْرِكْ أَحَدًا. إِنَّمَا اتَّبَعْتَ مَا فِي الْعَقْلِ حُسْنُهُ أَوْ مَا فِي السَّمْعِ مِنَ الْأَمْرِ. فَكَيْفَ اتَّبَعْتُمْ أَنْتُمْ النَّفْسَ الَّتِي خُلِقْتُمْ مِنْهَا؟ وَمِمَّا لَمْ تَتَّبِعْ إِلَّا مَا ذَكَرْنَا دُونَ مَا اتَّبَعْتُمْ فِي الْإِسْرَافِ لَهُ آبَاءُكُمْ.

وَلَوْ كَانَتْ الْقِصَّةُ فِي آدَمَ عَلَى مَا يَقُولُ أَهْلُ التَّوِيلِ [لَكَانَ]^(٨) لِلْعَرَبِ تَعَلُّقٌ وَاقْتِدَاءٌ، فَيَقُولُونَ: إِنَّهُ إِشْرَافٌ، وَنَحْنُ نُشْرِكُ. فَدَلَّ أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى مَا قَالُوا، وَلَكِنْ عَلَى الْوَجْهِ الَّتِي ذَكَرْنَا.

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ دَلَالَةٌ أَنَّ لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنَ الْبَشَرِ عَلَى آخَرٍ [فَضْلٌ]^(٩) مِنْ جِهَةِ الْخَلْقَةِ وَالنَّسَبِ؛ إِذْ كُلُّهُمْ إِنَّمَا خُلِقُوا مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، وَهُمْ إِخْوَةٌ وَأَخَوَاتٌ. وَإِنْ كَانَ لِأَحَدٍ فَضْلٌ عَلَى آخَرٍ فَإِنَّمَا يَكُونُ لِأَعْمَالٍ يَكْتَسِبُهَا وَأَخْلَاقٍ مَحْمُودَةٍ وَمَحَاسِنٍ يَخْتَارُهَا. وَأَمَّا مِنْ جِهَةِ الْخَلْقَةِ فَلَا فَضْلَ لِبَعْضٍ عَلَى بَعْضٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمُ عِنْدَ اللَّهِ أَفْزَنُكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

الآية ١٩١

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخَفُّونَ﴾ يَذْكُرُ سَفَهُهُمْ أَنَّهُمْ يُشْرِكُونَ فِي عِبَادَتِهِ وَالْوَهْيِ مَنْ يَغْلُمُونَ أَنَّهُ يَخْلُقُهُمْ، وَإِنَّمَا خَلَقَهُمُ اللَّهُ، سُبْحَانَهُ، وَهُمْ مَخْلُوقُونَ. فَضَرَفَ الْعِبَادَةَ إِلَى غَيْرِ الَّذِي خَلَقَهُمْ سَفَهٌ وَجَوْرٌ.

الآية ١٩٢

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرٌ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ يُسَفِّهُهُمْ أَيْضًا، إِنَّ فِي الشَّاهِدِ لَا يَخْضَعُ أَحَدٌ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: كَانَ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: يَنْسِبُونَ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيُضَيِّفُونَ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَكَانُوا. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَهُوَ. (٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٠) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

لأحيد، ولا يَشْكُرُ لَهُ إِلَّا مُجَازَاةٌ لِمَا سَبَقَ مِنْهُ إِلَيْهِ مِنَ النِّعَمَةِ أَوْ لِمَا يَأْمُلُ فِي الْعَاقِبَةِ مِنَ الْمُنْفَعَةِ، وَأَنْتُمْ تَعْبُدُونَ هَذِهِ الْأَصْنَامَ، وَلَمْ يَسْبِقْ مِنْهَا إِلَيْكُمْ شَيْءٌ، وَلَا لَكُمْ رَجَاءٌ يَنْقَعُ فِي الْعَاقِبَةِ، فَكَيْفَ تَعْبُدُونَ مِنْ^(١) لَا يَسْتَطِيعُونَ لَكُمْ نَصْرًا؟ [ولا]^(٢) يَذْفَعُونَ عَنْكُمْ الضَّرَّ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَصْرِفُونَ أَي لَا مَنْ قَصَدَ قَصْدَهُمْ بِالْكَسْرِ وَالْإِتْلَافِ يَمْلِكُونَ دَفْعَهُ عَنْ أَنْفُسِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٩٢ وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ هَذَا وَجْهَيْنِ:

[أَحَدُهُمَا]^(٣): يَحْتَمِلُ ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ﴾ عَنِ الْأَصْنَامِ ﴿إِلَى الْهُدَى﴾ لِيَهْتَدُوا ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ أَي لَا يُجِيبُوكُمْ، وَلَا يَهْتَدُوا^(٤).

وَالثَّانِي: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ﴾ إِلَى مَا لَكُمْ إِلَيْهِ مِنْ حَاجَةٍ ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ لَا يَقْضُوا^(٥)، وَلَا يَمْلِكُوا^(٦) ذَلِكَ.

وَيَحْتَمِلُ^(٧) أَنْ يَكُونَ الْخُطَابُ لِلْمُسْلِمِينَ؛ يَقُولُ: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ﴾ أَي أَهْلَ مَكَّةَ ﴿إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ أَي لَا يُجِيبُوكُمْ. وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ يُخَاطَبُ بِهِ، أَهْلَ مَكَّةَ، يَقُولُ: وَإِنْ تَدْعُوا الْأَصْنَامَ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا إِلَى الْهُدَى لَا يَمْلِكُوا^(٨) إِيَابَتَكُمْ؛ يُسَفِّهُهُمْ فِي عِبَادَتِهِمْ مِنْ حَالِهِ مَا وَصَفَ.

وقوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكَ أَدْعَوْتُهُمْ أَمْ أَنْتَ صَمِيمٌ﴾ أَمْ أَنْ تَكُونَ الْآيَةُ فِي قَوْمٍ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ أَبَدًا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦ ويس: ١٠] وَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ﴾ يَغْنِي الْمُسْرِكِينَ ﴿إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾. فَعَلَى ذَلِكَ يُخَرِّجُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكَ أَدْعَوْتُهُمْ﴾. وَامْكُنْ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكَ أَدْعَوْتُهُمْ﴾ فِي الْأَصْنَامِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٩٤ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَتَيْنَاهُمْ﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿تَدْعُونَ﴾ أَي تَعْبُدُونَ ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وَقَدْ كَانُوا يَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَصْنَامًا وَأَوثَانًا، وَيَحْتَمِلُ ﴿تَدْعُونَ﴾ أَي تُسَمِّنُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً.

وقوله تعالى: ﴿عِبَادٌ أَتَيْنَاهُمْ﴾ فِي الْخَلْقَةِ، وَالِدَلَالَةِ عَلَى وَحْدَانِيَةِ اللَّهِ فِي التَّنْذِيرِ دُونَهُمْ لِمَا قَالَ: ﴿أَلَمْ أَنْزِلْ يَمْشُونَ﴾ يَهَّأَ أَمْ لَمْ أَنْزِلْ يَمْشُونَ يَهَّأَ [الإعراف: ١٩٥] إِلَى آخِرِ مَا ذَكَرَ أَي لَيْسَ لَهُمْ مَا ذَكَرْتُمْ فِي التَّنْذِيرِ وَالْمَعُونَةِ.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَتَيْنَاهُمْ﴾ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ عَبَدُوهُمْ ﴿عِبَادٌ أَتَيْنَاهُمْ﴾ فَلَا تُسَمِّنُونَهُمْ إِلَهَةً، أَي لَا تَعْبُدُوا عِبَادًا أَمْثَالَكُمْ، وَلَكِنْ اعْبُدُوا مَنْ لَا مِثْلَ لَهُ، وَلَا نَظِيرَ لَهُ، أَوْ إِنْ كَانَ قَوْلُهُ ﴿عِبَادٌ أَتَيْنَاهُمْ﴾ الْمَلَائِكَةَ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ أَنْزِلْ يَمْشُونَ يَهَّأَ﴾ الْآيَةُ هُوَ مِنْهُ مَقْطُوعٌ مُنْصَرِفٌ إِلَى الْأَصْنَامِ.

وقوله تعالى: ﴿فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ذَكَرَ الدُّعَاءَ وَالِاسْتِجَابَةَ، وَلَمْ يَبَيِّنْ فِي مَاذَا [يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ؟ وَلَا يَجِبُ]^(٩) أَنْ تُقَسَّرَ الْإِسْتِجَابَةُ فِي الشَّفَاعَةِ أَوْ فِي التَّقَرُّبِ^(١٠) إِلَى اللَّهِ أَوْ فِي غَيْرِهِ إِلَّا أَنْ يُعْلَمَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَدْعُونَ بِكَذِبٍ، وَيَطْلُبُونَ مِنْهُمْ كَذَا.

الآية ١٩٥ وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَنْزِلْ يَمْشُونَ يَهَّأَ أَمْ لَمْ أَنْزِلْ يَمْشُونَ يَهَّأَ أَمْ لَمْ أَنْزِلْ يَمْشُونَ يَهَّأَ أَمْ لَمْ أَنْزِلْ يَمْشُونَ يَهَّأَ﴾ يَسْمَعُونَ يَهَّأَ يُسَفِّهُ عَقْلَهُمْ بِعِبَادَتِهِمْ الْأَصْنَامَ الَّتِي لَا أَرْجَلَ لَهُمْ يَمْشُونَ بِهَا، يَهْرَبُونَ مِنْ يَقْصِدُهُمْ بِالسُّوءِ، أَوْ يَقْصِدُونَ بِهِمْ قَصْدَ مَنْ أَرَادَ الضَّرَّ بِهِمْ وَالسُّوءَ، وَكَذَلِكَ يَتَعْبُدُونَ مَا لَا أَيْدِيَّ لَهُمْ يَمْشُونَ [بِهَا]^(١١) يَذْفَعُونَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ مَنْ أَرَادَ [بِهِمْ]^(١٢) السُّوءَ، أَوْ يَأْخُذُونَ مَنْ يَقْصِدُهُمْ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَمْ أَنْزِلْ يَمْشُونَ يَهَّأَ أَمْ لَمْ أَنْزِلْ يَمْشُونَ يَهَّأَ﴾ يُبْصِرُونَ مَنْ يَقْصِدُهُمْ بِالسُّوءِ ﴿أَمْ لَمْ أَنْزِلْ يَمْشُونَ يَهَّأَ﴾ مَنْ يَسْتَفْهِمُهُمْ، وَيَذْكُرُهُمْ بِالسُّوءِ؟ يُسَفِّهُهُمْ فِي عِبَادَتِهِمْ مَنْ لَا يَمْلِكُ دَفْعَ مَنْ يَقْصِدُهُ بِالسُّوءِ إِمَّا هَرَبًا مِنْهُ وَإِمَّا قَصْدًا مِنْهُ إِلَيْهِ بِالسُّوءِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: يَهْتَدُونَ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: يَقْضُونَ.

(٦) فِي الْأَصْلِ وَم: يَمْلِكُونَ. (٧) الْوَاوُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: يَمْلِكُونَ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: يَسْتَجِيبُونَهُمْ وَلَا يَجِبُ.

(١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: التَّقَرُّبُ. (١١) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

فإذا كانوا لا يملكون ذلك كيف تعبّدون؟ وهو كقول إبراهيم عليه السلام ﴿يَتَأْتِي لِمَ تَعْبُدُونَ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢] فإذا كانوا لا يملكون دفع ما يحلّ بهم كيف يملكون جرّ النفع إليكم أو دفع الضرّ عنكم؟

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ قال بغض أهل التّأويل: خاطب كفّار مكة بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ الذين تزعمون أنّهم آلهة دون الله. ويَحْتَمِلُ قوله تعالى ﴿شُرَكَاءَكُمْ﴾ أي ادعوا من شاركوكم في عبادة من دونه ﴿ثُمَّ كِيدُون﴾ ويَحْتَمِلُ أن يكون الخطاب لجميع الكفار الذين يعبّدون الأصنام والأوثان من دون الله.

قال ذلك لهم رسول الله بين ظهرائهم ﴿ثُمَّ كِيدُون فَلَا تُنْظِرُون﴾ ثم لم يقدر أحد الكيد به والضرر مع قوتهم وعدّتهم بالكثرة والأعوان وضعف رسوله وقلة أعوانه.

دلّ عجزهم عن ذلك أنه كان آية في نفسه، وأنه بالله تعالى يتنصر، وبه قوّة على أعدائه. وذلك من عظيم آياته لأنه قال ذلك لمن همهم القتل والإهلاك لمن خالفهم في ما فيهم فيه.

ثم لم يقدر أحد منهم الضرّ به. دلّ أنه بالله حفظه. وكذلك سائر الأنبياء، صلوات الله عليهم، حين^(١) كانوا بين ظهرائهم قومهم من نحو هود ونوح وهؤلاء ﴿كِيدُون جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُون﴾ [هود: ٥٥] وقال نوح: ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ الآية [هود: ٢٨]

الآية ١٩٦ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾ الآية ذكر هذا على إثر قوله ﴿ثُمَّ كِيدُون فَلَا تُنْظِرُون﴾ كما ذكر هود ﴿إِنِّي أَنذِرُكُمْ وَأَنذَرْتُ آبَاءَ بَنِيَّ إِنَّمَا تَشْكُرُونَ﴾ من دونه. كِيدُون جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُون ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ [هود: ٥٤-٥٦] وكما قال نوح ﴿إِنْ كَانَ كِبَارُكُمْ عَلَيَّكَ مَقَامِي وَتَكِيدُونِي بِمَا يَدِينُ اللَّهُ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُون﴾ [يونس: ٧١] فزعموا إلى الله عند وعيد قومهم بالإهلاك، وعليه اعتمدوا، وبه وثقوا.

فعلى ذلك رسول الله [حين^(٢)] قال: ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ أي [هو]^(٣) وليّ يحفظني، وهو يتولّى حفظ الصالحين، أي يتولّى صلحوا، أو يتولّى، ويحفظ الصالحين [معاً]. بل هو وليّ^(٤) من ذكرنا من الرسل وقومهم^(٥).

ثم قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ حافظي وناصري، أو وليّ تذييري ﴿اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾ [أولّي أمري]^(٦) أو أولى بي ﴿اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾ الذي عجزت الخلائق عن إثبات مثله ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾.

الآية ١٩٧ وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْمَعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ يَذْكُرُ سَفَهُهُمْ بعبادتهم من عجز عن دفع الضرّ عن نفسه فضلاً أن يدفع ذلك منهم، أو يجرّوا إلى أنفسهم منفعة.

الآية ١٩٨ وأخبر عن جهلهم لأنهم تعبّدون من لا يملك دفع ضرّ ولا جرّ نفع بقوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الآية: ١٩٨] الهدى. هذا يُخْرِجُ على وجهين:

أحدهما: يُخاطب به المؤمنين بقوله^(٧) تعالى: ﴿وَلَنْ تَدْعُوهُمْ﴾ [يعني]^(٨) أهل مكة ﴿إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا﴾ أي لا يُجيبوا ﴿وَتَرَاهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ أي لا يتتبعون به، أو لشدّة تعصّبهم لا يبصرون.

[والثاني: يُخاطب به الكافرين]^(٩) وإن تدعوا الأصنام التي تعبّدون ﴿إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا﴾ أي لا يُجيبوا، ولا يملكون^(١٠) الإجابة.

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: مقابل قوله. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: وقوله. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: وجاز أن يكون يقول. (١١) في الأصل وم: يملكون.

وَيَحْتَمِلُ ﴿لَا يَسْمَعُوا﴾ حَقِيقَةُ السَّمْعِ ﴿وَتَرَبَّهَتْهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ عَلَى التَّمَثِيلِ؛ كَانَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ، وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ حَقِيقَةَ.
الآية ١٩٩ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ يَتَوَجَّهْ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: عَلَى حَقِيقَةِ الْأَخْذِ.

وَالثَّانِي: عَلَى الْعَمَلِ بِالْعَفْوِ.

فَإِنْ كَانَ عَلَى الْأَخْذِ فَهُوَ عَلَى وَجْهَيْنِ:

[أَحَدُهُمَا]^(١): يَحْتَمِلُ أَنْ خُذَ الْفَضْلَ الَّذِي لَاحِقٌ فِيهِ، وَهُوَ الْقَلِيلُ مِنْ ذَلِكَ وَالْيَسِيرُ.

وَالثَّانِي: أَنْ خُذَ مَا يُفْضَلُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَحَوَائِجِهِمْ مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ؛ أَيْ أَقْبَلَ مِنْهُمْ مَا أَعْطَوْكَ، وَلَا تُلِجْ فِي الْمَسْأَلَةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ ﴿إِنْ يَسْأَلُكُمْ فَيَخِينَكُمْ يَبْغُوا﴾ الْآيَةُ [محمد: ٣٦ و ٣٧] أَخْبَرَ أَنَّهُ إِنْ يَسْأَلُهُمْ أَمْوَالَهُمْ حَمَلَهُمْ ذَلِكَ عَلَى الْبُخْلِ.

وَإِنْ كَانَ عَلَى الْعَمَلِ فَهُوَ عَلَى وَجْهَيْنِ: أَيْ اغْفُ عَنِ الظُّلْمَةِ عَنْ ظُلْمِهِمْ، أَعْرِضْ عَنِ السُّفْهَاءِ، وَاحْلَمْ مَعَهُمْ.

أَمَرَ رَسُولَ اللَّهِ أَنْ يُعَامِلَ الْخَلْقَ بِأَشْيَاءَ ثَلَاثَةٍ: أَنْ يَعْفُوَ عَنِ الظُّلْمَةِ عَنْ ظُلْمِهِمْ: لَا تُكَافِئُهُمْ بِظُلْمِهِمْ، وَأَمَرَ أَنْ يُعْرِضَ عَنِ السُّفْهَاءِ وَالْجَهَالِ، وَيَحْلَمْ مَعَهُمْ، وَأَمَرَ أَنْ يُعَامِلَ الْمُؤْمِنِينَ^(٢) بِاللِّينِ وَالرِّفْقِ، وَلِذَلِكَ^(٣) وَصَفَهُ بِالرَّحْمَةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وَرُويَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ [أَنَّهُ]^(٤) قَالَ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ خُلِقَ^(٥) حَسَنٌ؛ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ إِلَّا فِي أَخْلَاقِ النَّاسِ [وَعَنْ قَتَادَةَ: [أَنَّهُ قَالَ]^(٦) ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾]^(٧) خُلِقَ^(٨) حَسَنٌ، أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ، وَدَعَاهُ إِلَيْهِ. إِلَى هَذَا ذَهَبَ بَغْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ، وَإِلَى ذَلِكَ صَرَفَ تَأْوِيلُ الْآيَةِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ أَخْذُ الْفَضْلِ مِنَ الْمَالِ عَلَى مَا ذَكَرْنَا، فَهُوَ مَسْوُوحٌ بِآيَةِ الزَّكَاةِ.

وَرُويَ فِي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي [بْنِ كَعْبٍ]^(٩): ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ وَفِيهِ دَلَالَةٌ أَنَّهُ أَمَرَ بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَالْمَعْرُوفُ هُوَ اسْمُ كُلِّ خَيْرٍ، وَأَمْرُهُ بِأَنْ يَأْخُذَ بِالْعَفْوِ عَنِ الظُّلْمَةِ عَلَى مَا ذَكَرْنَا. وَكَذَلِكَ رُويَ عَنْ عَائِشَةَ [أَنَّهَا]^(١٠) قَالَتْ: «كَانَ رَجُلٌ يَشْتُمُ رَسُولَ اللَّهِ، وَيُؤْذِيهِ، فَدَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، فَأَوْسَعَ لَهُ، وَأَدْنَاهُ، وَرَحَّبَ بِهِ. قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَيْسَ هَذَا كَانَ يَشْتُمُكَ؟ قَالَ: بَلَى يَا عَائِشَةُ إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ الَّذِينَ يُكْرِمُونَ أَتْقَاءَ شَرِّهِمْ وَالْيَسْتِهْمِ» [البخاري: ٦٠٣٢] إِلَى مِثْلِ هَذَا دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْعَفْوَ^(١١) وَالصَّفْحَ عَنِ الظُّلْمَةِ وَتَرَكَ الْمُكَافَاتِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ أَيْ أَمُرِ النَّاسَ بِالْعُرْفِ، وَهُوَ مَا تَشْهَدُ خَلْقُكَ، وَتَأْمُرُكَ بِهِ أَشْيَاءُ ثَلَاثَةٌ: اِثْنَانِ فِي مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ، وَالوَاحِدُ فِي مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ.

أَمَّا الْإِثْنَانِ اللَّذَانِ فِي مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ:

فَأَحَدُهُمَا^(١٢): يَا مُرُّ خَلْقَتَهُ، وَتَشْهَدُ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ، وَتَذُلُّ^(١٣) عَلَى أُلُوْهِيَّتِهِ.

وَالثَّانِي: يَشْهَدُ عَلَى نِعَمِ اللَّهِ إِلَيْهِ، فَيَدْعُوهُ إِلَى الشُّكْرِ لَهُ فِي مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ.

وَأَمَّا الْوَجْهَ الَّذِي يَدْعُو خَلْقَتَهُ فِي مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ فَهُوَ^(١٤) مَا يَرْعُبُ نَفْسَهُ فِي كُلِّ [مَا هُوَ حَسَنٌ]^(١٥) وَمَرْغُوبٌ فِيهِ، وَيُنْفَرُ نَفْسَهُ عَنْ كُلِّ أَذَى وَسُوءٍ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: المؤمنون. (٣) في الأصل وم: وكذلك. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) أدرج قبلها في الأصل وم: قال. (٦) ساقطة من م. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) أدرج قبلها في الأصل وم: قال. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: بالعفو. (١٢) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: والدلالة. (١٤) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: محاسن.

فَأَمَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُعَامِلَ الْخَلْقَ بِمَا تَرَعَبُ نَفْسُهُ، وَتَطْمَعُ^(١) فِي [مَا هُوَ حَسَنٌ]^(٢)، وَتَنْفَرُ عَنْهُ، وَتَكْرَهُهُ^(٣)، يَفْعَلُ إِلَيْهِمْ كُلُّ مَا تَرَعَبُ نَفْسُهُ فِيهِ، وَتَطْمَعُ، وَيَنْتَنِعُ عَنْ كُلِّ أَدَى وَسْوَسٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٢٠٠ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا يَزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: النَّزْعَةُ هِيَ أَدْنَى أَعْمَالِ الْمَغْصِيَةِ، وَكَذَلِكَ فَسَّرَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ إِذَا أَذْنَبْتُ ذَنْبًا ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾.

وَقَالَ الْقُتَيْبِيُّ ﴿وَلَمَّا يَزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ﴾ أَيِ يَسْتَحِفُّكَ. وَيُقَالُ: نَزَعُ شَيْئًا إِذَا أَفْسَدَ. وَقَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ: النَّزْعُ التَّخْرِيكُ لِلْفَسَادِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَلَمَّا يَزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ﴾ أَيِ يُوسُوسُكَ الشَّيْطَانُ وَنُوسَةً ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ ثُمَّ فِي الْإِسْتِعَاذَةِ وَجِهَانِ.

أَخَذَهُمَا: أَمَرُهُ بِالْفَرَجِ إِلَى اللَّهِ عِنْدَمَا يُوسُوسُهُ الشَّيْطَانُ.

[وَالثَّانِي: التَّجَاوُؤُ] ^(٤) إِلَيْهِ لِمَا يَرَى ^(٥) نَفْسَهُ عَاجِزَةً عَنْ دَفْعِ مَا يُوسُوسُ إِلَيْهِ وَرَدِّ مَا يَكُونُ هُوَ الدَّافِعُ عَنْ ذَلِكَ، وَهُوَ الرَّادُّ. وَقَالَ الْخَلِيلُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ أَيِ الْجَأُ إِلَى اللَّهِ. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ [وَقَوْلُهُ تَعَالَى] ^(٦): ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ [يُوسُوسُ: ٢٣ وَ ٧٩] مَعْنَاهُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ. وَمِنَ الْإِعَاذَةِ وَالتَّعَوُّذِ وَالتَّغْوِيذِ ١٩٣ - ب/ وَقَالَ غَيْرُهُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ، أَيِ أَمْتَنِعُ بِاللَّهِ، أَيِ اتَّحَصَّنُ بِاللَّهِ. وَقِيلَ: الْإِسْتِعَاذَةُ هِيَ ^(٧) الْإِسْتِغَاثَةُ بِاللَّهِ تَعَالَى لِدَفْعِ مَا اغْتَرَضَ لَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ. وَكُلُّهُ قَرِيبٌ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ.

ثُمَّ الْحِكْمَةُ فِي مَا جَعَلَ عَذَابَهُمْ مِنْ غَيْرِ جَنْسِهِمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَرَوْنَهُ، وَيَرَاهُمْ، وَجِهَانِ:

أَخَذَهُمَا: لِيَكُونُوا أَبَدًا عَلَى التَّيَقُّظِ وَالْإِنْتِبَاهِ غَيْرَ غَافِلِينَ عَنْهُ.

وَالثَّانِي: لِيَكُونُوا أَبَدًا قَرِيبِينَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مُتَضَرِّعِينَ إِلَيْهِ مُتَبَتِّلِينَ لِيَكُونَ هُوَ الْحَافِظُ لَهُمْ وَالدَّافِعُ عَنْهُمْ شَرَّهُ وَنُوسَاتِهِ.

وَفِي مَا أَمَرَ بِالْفَرَجِ إِلَى اللَّهِ وَالْإِسْتِعَاذَةِ بِهِ عِنْدَ نَزْعِ الشَّيْطَانِ تَقْضُصُ عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ؛ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: قَدْ أَعْطَاهُمْ جَمِيعَ مَا يَدْفَعُونَ بِهِ وَسَاوِسَهُ وَنَزَعَاتِهِ حَتَّى لَمْ يَبْقَ عِنْدَهُ شَيْءٌ [يُعَذِّبُهُمْ بِهِ] ^(٨) فَعَلَى قَوْلِهِمْ يُخْرِجُ طَلَبُ الْإِعَاذَةِ مُخْرَجَ كَيْفَانِ النُّعْمَةِ أَوْ مُخْرَجَ الْهَزْءِ بِهِ لِأَنَّهُ يَسْأَلُهُ مَا يَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ ذَلِكَ عِنْدَهُ.

الآية ٢٠١ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ الْأَلِيمُ الْأَعْلَمُ إِذَا سَأَلْتَهُمْ طَلِيفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ وَقِيلَ طَلِيفٌ ﴿مِنْ الشَّيْطَانِ﴾ فَمَنْ قَرَأَ ^(٩) طَلِيفٌ قَالَ: اللَّئِمَةُ الْخَطَرَةُ: الشَّيْءُ يَغْشَاكَ [وَمَنْ قَرَأَ ﴿طَلِيفٌ﴾ قَالَ هُوَ] ^(١٠) مِنَ الطَّوَائِفِ. وَقِيلَ الطَّلِيفُ مَا يَأْتِيكَ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَقِيلَ: الطَّائِفُ وَالطَّلِيفُ سَوَاءٌ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: [أَنَّهُ قَالَ: ^(١١) ﴿إِذَا سَأَلْتَهُمْ طَلِيفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ إِذَا أَذْنَبُوا ذَنْبًا ﴿تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْتَلَوْنَ﴾ يَقُولُ: تَذَكَّرُوا ذُنُوبَهُمْ، فَنَابُوا مِنْهَا. وَكَذَلِكَ قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا يَزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ﴾ هُوَ أَدْنَى ذَنْبٍ يَزْتَكِبُهُ. وَإِنْ كَانَ عَلَى هَذَا فَهُوَ يُخْرِجُ عَلَى النُّهْيِ عَنْ ذَلِكَ، وَهُوَ كَالْخُطَابَاتِ ^(١٢) الَّتِي خَاطَبَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الْأَنْعَامُ: ١٤] [وَقَوْلِهِ تَعَالَى] ^(١٣): ﴿فَلَا تَكُونُوا مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الْأَنْعَامُ: ٣٥] [وَقَوْلِهِ تَعَالَى] ^(١٤): ﴿فَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُتَكِبِينَ﴾ [البقرة: ١٤٧] وَإِنْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَشْكُ، وَلَا يَجْهَلُ، وَلَا يُشْرِكُ غَيْرَهُ فِي أَمْرِهِ.

فَعَلَى ذَلِكَ هَذَا الْخُطَابُ الَّذِي خَاطَبَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَمَّا يَزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ﴾ وَإِنْ كَانَ مَا ذَكَرَ هُوَ مِنْ أَدْنَى ذَنْبٍ يَزْتَكِبُهُ فَهُوَ يُخْرِجُ ذَلِكَ عَلَى تَعْلِيمِهِ أَمَّا أَنْ كَيْفَ يَقُولُونَ إِذَا اغْتَرَضَ لَهُمْ ذَلِكَ؟ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَطْمَعُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: الْمَحَاسِنُ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَنَكَرَهُ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَالتَّجَاوُؤُ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: رَأَى. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: وَهُوَ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: يَعِذُّهُ. (٩) أَنْظَرَ مَعْجَمَ الْقُرْآنِ ح ٤٣٢/٢. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ: وَأَمَّا الطَّائِفُ فَهُوَ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: قَالَ: مَدْرَجَةٌ قَبْلَ إِذَا أَذْنَبُوا. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: كَالْمَخَاطَبَاتِ. (١٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ كَذَا يَخْتَمِلُونَ أَن يَكُونَ قَوْلُهُ «اتَّقُوا» مَكَايِدَ الشَّيْطَانِ إِذَا أَصَابَهُمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ تَذَكَّرُوا ذَلِكَ، فَعَرَفُوا أَنَّهُ مِنَ الشَّيْطَانِ «فَإِذَا هُمْ يُبْصِرُونَ» أَيِ ابْصَرُوا أَنَّهُ مِنَ الشَّيْطَانِ، أَوْ أَن يُقَالَ: أَيِ هُمْ مِنْ أَهْلِ الْبَصَرِ، يُبْصِرُونَ [مَا اتَّقَوْهُ] ^(١) أَنَّهُ مِنَ الشَّيْطَانِ.

وَيَخْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا» الْمَعَاصِي إِذَا أَصَابَهُمْ وَسْوَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا ذَلِكَ.

وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا» أَيِ اتَّقُوا الشَّرَّ. لَكِنْ لَا كُلُّ مَنْ اتَّقَى الشَّرَّ يَكُونُ كَمَا ذَكَرَ.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَلَيْفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا» الْآيَةُ يَخْتَمِلُ وَجْهًا:

أَحَدُهَا: إِذَا مَسَّهُمْ بِذَلِكَ تَابُوا عَمَّا كَانَ مِنْهُمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً﴾ الْآيَةُ [آل عمران: ١٣٥] والثاني: تَذَكَّرُوا وَجْهَ حِيلٍ دَفَعَ وَسْوَئِهِ.

والثالث: تَذَكَّرُوا: اسْتَعَاذُوا بِهِ حِينَ أَمَرَهُمْ بِالْإِسْتِعَاذَةِ بِهِ عِنْدَ التَّرْغَةِ.

الآية ٢٠٢ وقوله تعالى: ﴿وَلِيُخَوِّنَهُمْ يُمْدُوتُهُمْ فِي الْفِتَنِ ثُمَّ لَا يُفْصِرُونَ﴾ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِيُخَوِّنَهُمْ﴾ يَغْنِي إِخْوَانُ الْكُفَّارِ وَالشَّيَاطِينِ «يُمْدُوتُهُمْ فِي الْفِتَنِ» قَالُوا: فِي الشَّرِّ وَالْمَعْصِيَةِ «ثُمَّ لَا يُفْصِرُونَ» أَيِ لَا يَنْتَهُونَ عَنْهَا، وَلَا «يُفْصِرُونَهَا كَمَا أَفْصَرَ» ^(٢) الَّذِينَ اتَّقَوْا عَنْهَا حِينَ ابْصَرُوا.

وَيَخْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِيُخَوِّنَهُمْ﴾ يَغْنِي أَصْحَابَ الَّذِينَ اتَّقَوْا، وَهُمْ شَيَاطِينُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ، يَدْعُونَهُمْ إِلَى دِينِهِمْ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يُجِيبُونَهُمْ، وَلَا يُطِيعُونَهُمْ، فِي مَا يَدْعُونَ إِلَيْهِ، إِذْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ شَيْطَانٌ مِنَ الْإِنْسِ وَشَيْطَانٌ مِنَ الْجِنِّ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢] فَقَدْ دَعَا أَوْلَئِكَ شَيَاطِينُ الْجِنِّ، فَتَذَكَّرُوا، فَلَمْ يُجِيبُوهُمْ. ثُمَّ دَعَاهُمْ شَيَاطِينُ الْإِنْسِ أَيْضًا، [فَلَمْ يُجِيبُوهُمْ] ^(٣) وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٢٠٣ وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ ظَاهِرُ الْآيَةِ فِي سُؤَالِ أَهْلِ الْكُفْرِ رَسُولَ اللَّهِ الْآيَةَ؛ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا [أَتَاهُمْ بِآيَةٍ] ^(٤) اسْتَهْزَؤُوا بِهَا، وَتَعَتَّوْا. وَإِذَا لَمْ يَأْتِهِمْ بِهَا سَأَلُوهُ الْآيَةَ سُؤَالِ الْمُسْتَهْزِئِينَ الْمُتَعَتِّتِينَ ^(٥)، وَإِذَا لَمْ يَأْتِهِمْ بِهَا «قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا» لَوْلَا ابْتَدَعْتَهَا، وَأَخَذْتَهَا، وَأَنْشَأْتَهَا، وَهَلَّا أَنْبَأْتَهَا مِنْ قَبْلِ نَفْسِكَ؟

فَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ» أَيِ لَا أَفْتَعِلُهَا، وَلَا أَتَشْتَبِهَا مِنْ نَفْسِي «إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ».

وَأَمَّا أَنْ يَكُونَ سُؤَالُ الْآيَةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. فَإِنْ كَانَ مِنْهُمْ فَهُوَ سُؤَالُ الْإِسْتِزْشَادِ لِمَا يَزِيدُهُمْ بِكُلِّ آيَةٍ تَنْزِيلٍ عَلَيْهِمْ يَقِينٌ ^(٦) وَقُوَّةٌ فِي دِينِهِمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا﴾ الْآيَةُ [التوبة: ١٢٤] «وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَمَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا» الْآيَةُ [التوبة: ١٢٥] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ تُحْكَمُ فِيهَا﴾ الْآيَةُ [محمد: ٢٠]. فَإِذَا كَانَ السُّؤَالُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَهُوَ سُؤَالُ الْإِسْتِزْشَادِ ^(٧) وَطَلَبُ زِيَادَةِ الْهُدَى. وَإِنْ كَانَ مِنَ الْكُفَّارِ فَهُوَ سُؤَالُ الْإِسْتِهْزَاءِ وَالتَّعَتُّتِ.

ثُمَّ اخْبَرَ أَنَّهُ لَا يَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيْهِ. ثُمَّ اخْبَرَ أَنَّهُ «بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ» قِيلَ: بَيَانُ أَيِ هَذَا الْقُرْآنِ بَيَانُ مِنْ رَبِّكُمْ يُبَصِّرُ بِهِ مَنْ لَمْ يُعَانِدْ، وَلَمْ يَكَابِرْ عَقْلَهُ كُلَّ مَالِهِ وَمَا عَلَيْهِ. وَإِنَّ بَيَانُ ^(٨) الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، «وَهُدًى» مِنَ الضَّلَالَةِ «وَرَحْمَةٌ» لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ أَيِ وَرَحْمَةٌ مِنَ الْعَذَابِ.

الآية ٢٠٤ وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ الْآيَةُ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالِاسْتِمَاعِ إِلَى هَذَا الْقُرْآنِ وَالْإِنْصَاتِ لَهُ إِذَا قُرِئَ. وَإِنْ كَانَ فِي الْعَقْلِ أَنْ مَنْ خَاطَبَ آخَرَ بِمُخَاطَبَاتٍ يُلْزِمُهُ الْإِسْتِمَاعُ إِلَى مَنْ يُخَاطَبُهُ، وَشَافَهُ. فَاللَّهُ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: عَمَّا اتَّقَوْا بِهِ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: يَبْصُرُونَهَا كَمَا ابْصَرَ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: فَلَا يُجِيبُونَهُمْ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنَّى بِهِمْ آيَةٌ. (٥) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: مَعْتَنِينَ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: يَقِينًا. (٧) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: الْإِسْتِزْشَاك. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: الْبَيَانُ مِنْ.

سُبْحَانَهُ إِذَا خَاطَبَ بِخُطَابٍ^(١) أَوَّلَى أَنْ يُسْتَمَعَ لَهُ مَعَ مَا ذَكَرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنَ الْقُرْآنِ آيَاتٍ مَا يُوجِبُ فِي الْعَقْلِ الْإِسْتِمَاعَ إِلَيْهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٣] وكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٣] وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ، وَلَا سَبِيلَ أَنْ يُعْرِفَ أَنَّهُ بَصَائِرُ وَأَنَّهُ هُدًى وَمَا ذَكَرَ [إلا^(٢)] بِالْإِسْتِمَاعِ إِلَيْهِ. وَالثَّقُفُ فِيهِ.

فَدَلَّ أَنَّ الْإِسْتِمَاعَ لَازِمٌ فِي الْعَقْلِ لِمَنْ^(٣) لَهُ أَذْنَى عَقْلٍ عَلَى مَا ذَكَرَ مِنَ الْآيَاتِ. وَلَكِنَّهُ [ذَكَرَ ههنا الْإِسْتِمَاعَ إِلَيْهِ]^(٤) وَاللَّهُ أَعْلَمُ لَوَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: مُقَابِلَ مَا كَانُوا يَقُولُونَ: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْقُرْآنُ فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦] أَمَرَ ﷺ الْمُؤْمِنِينَ بِالْإِسْتِمَاعِ إِلَيْهِ مَكَانَ قَوْلِهِمْ: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾ وَأَمَرَ بِالْإِنْصَاتِ إِلَى^(٥) مَا يَقُولُونَ ﴿وَالْقُرْآنُ فِيهِ﴾.

وَالثَّانِي: يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ أَمْرٌ بِالْإِسْتِمَاعِ إِلَيْهِ فِي الصَّلَاةِ عَلَى مَا قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: إِنَّهُ فِي الصَّلَاةِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فِي حَالِ الْحُطْبَةِ لِمَا يَسْبِقُ إِلَى أَوْهَامِهِمْ أَنَّهُ لَمَّا اشْتَغَلُوا بِغَيْرِهَا مِنَ الْعِبَادَاتِ، وَلَزِمَهُمْ أَنْوَاعُ الْقُرْبِ أَنْ يُسْقِطَ عَنْهُمْ حَقُّ الْإِسْتِمَاعِ، أَمْرٌ بِالْإِسْتِمَاعِ إِلَيْهِ وَالْإِنْصَاتِ لَهُ لِيَعْلَمُوا أَنَّ حَقَّ الْإِسْتِمَاعِ لَازِمٌ فِي كُلِّ حَالٍ.

ثُمَّ الْإِسْتِمَاعُ إِلَيْهِ يَكُونُ لِقَفْهِمْ مَا أَوْدَعَ فِيهِ مِنَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ وَغَيْرِهِ، وَالْإِنْصَاتُ لِلتَّعْظِيمِ لَهُ وَالتَّجْبِيلِ. ثُمَّ الْإِسْتِمَاعُ لَهُ [لَمْ]^(٦) يَلْزَمُ لِنَفْسِ الثَّلَاوَةِ، وَلَكِنْ إِنَّمَا يَلْزَمُ لِمَا أَوْدَعَ فِيهِ مِنَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ وَغَيْرِهِ لِقَفْهِمْ مَا فِيهِ، وَيَقْبَلُوا، وَيَقُومُوا بِوَفَاءِ ذَلِكَ.

وَأَمَّا سَائِرُ الْأَذْكَارِ فَلِأَنَّمَا صَارَتْ عِبَادَةٌ لِنَفْسِهَا. لِذَلِكَ لَمْ يَلْزَمِ الْإِسْتِمَاعُ إِلَى سَائِرِ الْأَذْكَارِ، وَلَزِمَ لِبِلَاوَةِ الْقُرْآنِ كَلَامُ اللَّهِ وَكِتَابِهِ. وَمِنْ الْجَفَاءِ وَالِاسْتِخْفَافِ أَنْ يَكْتُبَ إِنْسَانٌ إِلَى أَخِيهِ كِتَابًا، لَا يَنْظُرُ فِيهِ، وَلَا يَسْتَمِعُ لَهُ.

فَتَرَكُ الْإِسْتِمَاعَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ أَغْطَمَ فِي الْجَفَاءِ وَالِاسْتِخْفَافِ وَلِأَنَّ الْقُرْآنَ يُجَهَرُ، وَسَائِرُ الْأَذْكَارِ لَا تُجَهَرُ. فَإِنْ كَانَتْ تُجَهَرُ، يُسْتَمَعُ^(٧) إِلَيْهَا كَمَا يُسْتَمَعُ إِلَى الْقُرْآنِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَذَكَرَ فِي بَعْضِ الْقِصَصِ أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الصَّلَاةِ لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ إِذَا قَرَأَ فِي صَلَاتِهِ كَانُوا يَقُولُونَ مِثْلَ ذَلِكَ، فَتَزَلَّتِ الْآيَةُ بِالنَّهْيِ عَنْ ذَلِكَ وَالْأَمْرَ بِالْإِسْتِمَاعِ إِلَيْهِ كَمَا يُسْتَمَعُ إِلَى الْقُرْآنِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. / ١٩٤ - / وَذَكَرَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَرْفَعُونَ أَصْوَاتَهُمْ فِي الصَّلَاةِ حِينَ يَسْمَعُونَ ذِكْرَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ. فَتَزَلَّتِ الْآيَةُ. لِذَلِكَ لَا نَدْرِي كَيْفَ كَانَتْ الْقِصَّةُ؟ وَفِيمَ كَانَتْ؟ وَقَدْ يَحْتَمِلُ مَا ذَكَرْنَا أَنْفَاءً.

ثُمَّ إِنْ كَانَتْ الْآيَةُ فِي الصَّلَاةِ فَفِيهِ دَلَالَةٌ النَّهْيِ عَنِ الْقِرَاءَةِ خَلْفَ الْإِمَامِ لِأَنَّهُ أَمَرَ بِالْإِسْتِمَاعِ إِلَيْهِ وَالْإِنْصَاتِ لَهُ. وَعَلَى ذَلِكَ جَاءَتِ الْأَخْبَارُ. رَوَى عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ [أَنَّهُ]^(٨) قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا صَلَّى قَرَأَ أَصْحَابُهُ أَجْمَعُونَ خَلْفَهُ. حَتَّى [نَزَلَتْ الْآيَةُ]^(٩) «وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا» فَسَكَتُوا» [السيوطي في الدر المنثور: ٣/ ٦٣٥].

وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَحْمَرَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَرَأَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ الْوَاقِعَةَ، وَقَرَأَهَا رَجُلٌ خَلْفَهُ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنَ الصَّلَاةِ قَالَ: مَنْ الَّذِي يُنَازِعُنِي فِي هَذِهِ السُّورَةِ؟ فَقَالَ رَجُلٌ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَانْزَلَ اللَّهُ «وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا» [بمعناه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: ابْنِ مَاجَه: ٨٤٨]. وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْأَخْبَارِ.

وَقَالَ^(١٠) قَوْمٌ: إِنَّ الْإِنْصَاتَ الَّذِي أَمَرَ بِهِ الْمُؤْتَمُّ مَعْنَاهُ: أَلَّا يَجَهَرَ بِقِرَاءَتِهِ، وَلَيْسَ فِيهِ نَهْيٌ أَنْ يَقْرَأَ فِي نَفْسِهِ.

وَزَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّ الْقَارِئَ مُخْفِيًا يُسَمَّى نَاصِتًا مُنْصِتًا. وَاسْتَدَلَّ بِمَا رَوَى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ [أَنَّهُ]^(١١) قَالَ: «كَانَ»^(١٢)

(١) من م، في الأصل: يخاطب. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: من. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: فامر. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: فيسمع. (٨) (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: فقال. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) من م، ساقطة من الأصل.

رسول الله ﷺ، إذا كَبُرَ سَكَتَ بَيْنَ التَّكْبِيرِ والقراءة. قلتُ: [بابي أنت وأمي [أَرَأَيْتَ] ^(١) سَكَاتَكَ بَيْنَ التَّكْبِيرِ والقراءة. أَخْبِرْنِي مَا تَقُولُ: قَالَ: أَقُولُ: اللَّهُمَّ بَاعِذْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْمَشْرِقِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الدَّعَوَاتِ [البخاري: ١٧٤٤]. فَقَالَ هَذَا الْقَائِلُ: قَدْ سَمَى النَّبِيُّ ﷺ الْقَارِئَ مُخْفِياً سَاكِئاً. الصَّامِتُ مِثْلُ السَّاكِئِ. فَيَجُوزُ أَنْ يُسَمَّى صَامِئاً، وَهُوَ أَنْ يَقْرَأَ مُخْفِياً كَمَا يُسَمَّى سَاكِئاً.

قَالَ الْعَمِّيُّ. غَلِطَ هَذَا الْقَائِلُ فِي تَشْبِيهِ الصَّامِتِ بِالسَّاكِئِ لِأَنَّ الْأَسْمَاءَ لَا تُقَاسُ، وَإِنَّمَا يُطْلَقُ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا مَا أَطْلَقَتْهُ اللَّغَةُ فِيهِ.

وَمِمَّا يُبَيِّنُ غَلَطَهُ أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ فَلَوْ كَانَ الْقَارِئُ مُخْفِياً يُسَمَّى صَامِئاً نَاصِئاً مُسْتَمِعِياً. وَإِنَّمَا يَكُونُ مُسْتَمِعِياً صَامِئاً إِذَا صَمَتَ فَلَمْ يَقْرَأَ. فَمَنْ أَطْلَقَ لَهُ أَنْ يَقْرَأَ، وَالْإِمَامُ يَقْرَأُ، فَلَمْ يَسْتَمِعْ، وَلَا أَنْصَتَ.

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى غَلَطِهِ أَيْضاً أَنَّ الْعُلَمَاءَ جَمِيعاً يَنْهَوْنَ الْمُؤْتَمَّ عَنِ الْقِرَاءَةِ. وَإِنَّمَا يَأْمُرُ بِالْقِرَاءَةِ خَلْفَ الْإِمَامِ أَنْ يَقْرَأَ إِذَا سَكَتَ إِمَامُهُ، وَيَأْمُرُ هَؤُلَاءِ الْإِمَامَ أَنْ يَقِفَ سَاعَةً إِذَا فَرَغَ مِنْ قِرَائَتِهِ حَتَّى يَقْرَأَ الْمُؤْتَمُونَ. فَلَوْ كَانُوا يَجْعَلُونَ الْقَارِئَ فِي نَفْسِهِ، وَالْإِمَامُ يَقْرَأُ جَهْراً، صَامِئاً مَا أَمَرَهُ بِتَأْخِيرِ الْقِرَاءَةِ حَتَّى يَقْرَعَ إِمَامُهُ مِنَ الْقِرَاءَةِ. فَهَذَا يُبَيِّنُ غَلَطَ الْمُسْتَدِلِّ بِحَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي اسْتِدْلَالِهِ.

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُؤْتَمَّ مِنْهِيَ عَنْ أَنْ يَقْرَأَ، وَالْإِمَامُ يَجْهَرُ، مَا رُوِيَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى بِهِمْ صَلَاةً، فَظَنَّ أَنَّهَا الصُّبْحُ، فَلَمَّا سَلَّمَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، قَالَ: هَلْ يَقْرَأُ أَحَدٌ مِنْكُمْ؟ فَقَالَ رَجُلٌ: أَنَا، فَقَالَ النَّبِيُّ: إِنِّي أَقُولُ: مَالِي أَنْ أَرْزُقَ الْقُرْآنَ؟» [الترمذي ٣١٢] قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَانْتَهَى النَّاسُ عَنِ الْقِرَاءَةِ فِي مَا يَجْهَرُ فِيهِ النَّبِيُّ، فَقَالَ قَوْمٌ: إِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَدْ نَهَى ^(٢) النَّاسَ عَنِ الْقِرَاءَةِ خَلْفَ النَّبِيِّ فِي مَا جَهَرَ فِيهِ. فَيَقَالُ: إِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ لَمْ يَرْوِ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.

ثُمَّ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُؤْتَمَّ لَا يَقْرَأَ، جَهَرَ الْإِمَامُ، أَوْ خَافَتْ، قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ «مَالِي أَنْ أَرْزُقَ الْقُرْآنَ» وَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ الْمُؤْتَمَّ لَمْ يَجْهَرَ بِقِرَائَتِهِ، فَيَتَأَوَّلُ مَتَأَوَّلٌ مُنَازَعَتُهُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى أَنَّهُ شُغِلَ، فَلَا وَجْهَ لِقَوْلِهِ «مَالِي أَنْ أَرْزُقَ الْقُرْآنَ؟» إِلَّا بِنَهْيِهِ الْمُؤْتَمَّ عَنْ أَنْ يَقْرَأَ، جَهَرَ إِمَامُهُ، أَوْ خَافَتْ.

وَقَدْ رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، مَا يُبَيِّنُ النَّهْيَ عَنِ الْقِرَاءَةِ خَلْفَ الْإِمَامِ فِي مَا يَجْهَرُ فِيهِ، أَوْ يُخَافَتْ، مَا رُوِيَ عَنْ عِمْرَانَ [بْنِ حُصَيْنٍ] ^(٣) أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى بِأَصْحَابِهِ الظُّهْرَ، فَلَمَّا قَضَى صَلَاتَهُ قَالَ: أَيُّكُمْ قَرَأَ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]؟ فَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: قَدْ عَرَفْتُ أَنَّ بَعْضَكُمْ خَالَجَتْهَا [الطبراني في الكبير ٢١١/١٨ ورقمه ٥٢٢] فَبَيَّنَ عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ أَنَّ الرَّجُلَ خَافَتْ بِقِرَائَتِهِ، وَدَلَّ أَنَّ النَّهْيَ الَّذِي رَوَاهُ أَبُو هُرَيْرَةَ لَمْ يَكُنْ فِي حَالِ جَهْرِ الْإِمَامِ دُونَ مُخَافَتِهِ، وَأَنَّ الْمُؤْتَمَّ مِنْهِيَ عَنِ الْقِرَاءَةِ خَلْفَ الْإِمَامِ فِي كُلِّ الصُّلُوحَاتِ.

وَقَدْ رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بِالنَّهْيِ عَنِ الْقِرَاءَةِ خَلْفَ الْإِمَامِ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ: مَا رُوِيَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَعِمْرَانَ [بْنِ] ^(٤) حُصَيْنٍ عَنْهُ، وَمَا رُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ [بْنِ مَسْعُودٍ] ^(٥): «كُنَّا نَقْرَأُ خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، خَلَطْتُمْ عَلَيَّ الْقُرْآنَ» [ابن أبي شيبه ٣٧٦/١].

فَإِنْ قِيلَ: لَعَلَّهُمْ كَانُوا يَجْهَرُونَ بِالْقُرْآنِ، فَتَنَى عَنِ الْجَهْرِ. قِيلَ لَهُ: لَمْ يَنْقُلْ لَنَا فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَخْبَارِ أَنَّ الْمُؤْتَمِّينَ كَانُوا يَقْرَءُونَ جَهْراً. وَلَوْ كَانُوا يَقْرَءُونَ جَاهِرِينَ لَأَدَّى ذَلِكَ إِلَيْنَا كَمَا أَدَّى أَنَّهُمْ كَانُوا يَقْرَءُونَ.

وَفِي ذَلِكَ وَجْهٌ آخَرُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنِ النَّهْيُ عَنِ الْجَهْرِ خَاصَّةً، وَلَكِنْ لِلْقِرَاءَةِ نَفْسِهَا ^(٦)، مَا رُوِيَ عَنْ أَبِي وَائِلٍ [أَنَّهُ] ^(٧) قَالَ: سَأَلْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ عَنِ الْقِرَاءَةِ خَلْفَ الْإِمَامِ، فَقَالَ: أَنْصَتُ فَإِنَّ فِي الصَّلَاةِ شُغْلاً، وَسَيَكْفِيكَ ذَلِكَ الْإِمَامُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: انْتَهَى. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: انْتَهَى. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

(٦) فِي الْأَصْلِ وَم: نَفْسِهِ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

وعن عبد الله بن شداد أن النبي ﷺ قال: «مَنْ كَانَ لَهُ إِمَامٌ فَقَرَأَهُ الْإِمَامُ لَهُ قِرَاءَةً» [البيهقي في الكبرى ١٦١/٢] وعن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ، [كَانَ يُصَلِّي] ^(١) وَرَجُلٌ خَلْفَهُ [يَقْرَأُ] ^(٢) فَتَهَاهُ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ عَنْ الْقِرَاءَةِ فِي الصَّلَاةِ فَتَنَازَعَا فِيهِ، حَتَّى ذُكِرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «مَنْ صَلَّى خَلْفَ إِمَامٍ فَقَرَأَهُ الْإِمَامُ لَهُ قِرَاءَةً» [الدارقطني ١٢٢١] وعن أبي موسى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «وَإِذَا قَرَأَ الْإِمَامُ فَأَنْصِتُوا» [مسلم ٦٣/٤٠٤]

وروي عن أبي هريرة [أنه] ^(٣) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «إِنَّمَا جُعِلَ الْإِمَامُ لِيُؤْتَمَّ بِهِ، فَإِذَا كَبَّرَ فَكَبِّرُوا، وَإِذَا قَرَأَ فَأَنْصِتُوا» [النسائي ١٤١/٢] وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْأَحَادِيثِ.

وَأَكْثَرُ مَا يَحْتَجُّ بِهِ الْمُخَافَةُ لِعُلَمَائِنَا، رَجَمَهُمُ اللَّهُ، أَنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «لَا صَلَاةَ لِمَنْ يَقْرَأُ بِإِمَامٍ الْقُرْآنَ» [مسلم ٢٦/٣٩٤] يرويه عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ.

قَالَ سَفِيَانُ: هَذَا عِنْدَنَا فِي مَنْ يُصَلِّي وَخِذَهُ. فَذَلِكَ مُحْتَمَلٌ، وَالْأَحَادِيثُ الَّتِي جَاءَتْ مُفَسَّرَةً فِي النَّهْيِ عَنِ الْقِرَاءَةِ خَلْفَ الْإِمَامِ. فَإِنْ قَالَ: [قَائِلٌ] ^(٤): يَتْرُكُ الْمُؤْتَمُّ الْقِرَاءَةَ فِي مَا يَجْهَرُ فِيهِ إِمَامُهُ بِحَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَيَقْرَأُ فِي مَا يُخَافُ بِحَدِيثِ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ لِيَصِحَّ ^(٥) حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ وَحَدِيثُ عُبَادَةَ [بِإِنِّ الصَّامِتِ] ^(٦) جَمِيعاً، قِيلَ لَهُ: فَهَلَا جَعَلْتَهُ فِي الْمُصَلِّي وَخِذَهُ لِيَصِحَّ حَدِيثُ عُبَادَةَ [بِإِنِّ الصَّامِتِ] ^(٧) وَحَدِيثُ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ لِأَنَّ حَدِيثَ عِمْرَانَ يَنْهَى عَنِ الْقُرْآنِ فِي مَا خَافَتْ [الْإِمَامُ] ^(٨)، وَحَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي مَا يَجْهَرُ فِيهِ. فَإِنْ جَعَلْتَ حَدِيثَ أَبِي هُرَيْرَةَ خَارِجاً عَنْ عَمُومِ حَدِيثِ عُبَادَةَ فَذَلِكَ يُوجِبُ أَلَّا يَقْرَأَ الْمُؤْتَمُّ فِي مَا يَجْهَرُ فِيهِ إِمَامُهُ [أَوْ يُخَافُ] ^(٩). وَيُقَالُ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَ فَرَضاً مِنْ فَرَائِضِ الصَّلَاةِ سَاقِطاً ^(١٠) عَنِ الْمُؤْتَمِّ فِي حَالٍ، وَوَاجِباً ^(١١) عَلَيْهِ فِي حَالٍ؟ فَإِنْ قَالَ: لَا قِيلَ: فِي إِسْقَاطِكَ تِلْكَ الْقِرَاءَةَ عَنْهُ فِي حَالِ الْجَهْرِ مَا أَوْجَبَ عَلَيْكَ أَنْ تُسْقِطَهَا عَنْهُ فِي حَالِ الْمُخَافَةِ. وَقَدْ اخْتَجَّ بَعْضُ أَصْحَابِنَا فِي ذَلِكَ بِأَنَّ قَالُوا: وَجَدْنَا الرَّجُلَ إِذَا جَاءَ إِلَى الْإِمَامِ، وَهُوَ رَاكِعٌ، فَكَبَّرَ، وَدَخَلَ فِي صَلَاتِهِ، وَلَمْ يَقْرَأْ، فَكُلُّ يَجْمَعُ أَنَّ صَلَاتَهُ تُجْزِيهِ. فَذَلِكَ أَنَّ الْقِرَاءَةَ غَيْرُ قَرَضٍ عَلَيْهِ.

فَإِنْ قَالَ [قَائِلٌ] ^(١٢): إِنَّمَا أُطْلِقَ لَهُ ذَلِكَ لِلضَّرُورَةِ، قِيلَ: لَوْ جَاءَ إِلَى الْإِمَامِ، وَهُوَ سَاجِدٌ، لَمْ يُغْتَدَّ بِتِلْكَ الرُّكْعَةِ وَالضَّرُورَةُ قَائِمَةٌ. فَلَوْ كَانَتْ الضَّرُورَةُ تُزِيلُ قَرَضاً لِأَزَالَتْ ^(١٣) الرُّكُوعَ عَمَّنْ لَحِقَ إِمَامُهُ، وَهُوَ / ١٩٤ - ب / سَاجِدٌ، فَهِيَ لَا تُزِيلُ قَرَضَ الْقِرَاءَةِ عَمَّنْ لَحِقَ إِمَامُهُ. وَلَكِنْ لَا تُلْزِمُهُ الْقِرَاءَةُ خَلْفَ الْإِمَامِ. فَلِذَلِكَ أَجَزْتُهُ ^(١٤) صَلَاتُهُ لَا لِلضَّرُورَةِ الَّتِي ذَكَرْتُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ [رِضْوَانُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ] ^(١٥) أَنَّهُمْ قَالُوا: لَا قِرَاءَةَ عَلَى مَنْ خَلْفَ الْإِمَامِ: مِنْهُمْ عَلِيُّ وَابْنُ مَسْعُودٍ وَجَابِرٌ وَأَبُو سَعِيدٍ وَابْنُ عُمَرَ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ ^(١٦).

أَمَّا عَنْ عَلِيٍّ ^(١٧) [فَقَدْ] ^(١٨) قَالَ: مَنْ قَرَأَ خَلْفَ الْإِمَامِ فَقَدْ أَخْطَأَ الْفِطْرَةَ وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ [بِإِنِّ مَسْعُودٍ أَنَّهُ] ^(١٩) قَالَ: مَنْ قَرَأَ خَلْفَ الْإِمَامِ مُلِئَ قُورُؤُهُ تُرَاباً. وَعَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ [أَنَّهُ] ^(٢٠) قَالَ: مَنْ قَرَأَ خَلْفَ الْإِمَامِ فَلَا صَلَاةَ لَهُ. وَعَنْ [أَبِي سَعِيدٍ أَنَّهُ] ^(٢١) قَالَ: وَدِدْتُ أَنْ الَّذِي يَقْرَأُ خَلْفَ الْإِمَامِ فِي قِمَهِ جَمْرَةً. [وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ] ^(٢٢) إِذَا سُئِلَ: هَلْ يَقْرَأُ أَحَدٌ خَلْفَ الْإِمَامِ؟ قَالَ: لَا. فَإِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ وَخِذَهُ فَلْيَقْرَأْ. وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ لَا يَقْرَأُ خَلْفَ الْإِمَامِ. وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الْقِرَاءَةِ خَلْفَ الْإِمَامِ. فَقَالَ ^(٢٣): يَكْفِيكَ ذَلِكَ الْإِمَامُ. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَهُ: أَقْرَأَ خَلْفَ الْإِمَامِ؟ قَالَ: لَا. إِلَى مِثْلِ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ ذَهَبَ أَصْحَابُنَا. وَعَلَى ذَلِكَ دَلُّ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: ليصلح. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: وخافت. (١٠) في الأصل وم: بمسقط. (١١) في الأصل وم: ويجب. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) من م، في الأصل: وزالة. (١٤) في الأصل وم: آخرته. (١٥) ساقطة من م. (١٦) ساقطة من الأصل وم. (١٧) ساقطة من الأصل وم. (١٨) ساقطة من الأصل وم. (١٩) في الأصل وم: سعد. (٢٠) في الأصل وم: وعن ابن عمر كان. (٢١) في الأصل وم: قال.

الآية ٢٠٥

وقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ اختلَفَ أهل التأويل في الذكر الذي ذُكِرَ في الآية. منهم من صَرَفَ التأويل إلى كُلِّ ذِكْرٍ، ومنهم من صَرَفَ إلى التلاوة. فإن كَانَ ذِكْرُ الغُدُوِّ والآصالِ كنايةً عن الليل والنهار فهو ذِكْرُ أحواله؟ يَذْكُرُ الله ﷻ، بِنِعَمِهِ وإِحْسَانِهِ، وَيَذْكُرُهُ^(١) بِنِعَمِهِ وَشُكْرِهِ، أو يَذْكُرُهُ^(٢) بِقُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَذَلِكَ يَحْمِلُهُ^(٣) على الخُضُوعِ لَهُ والتواضِعِ، أو يَذْكُرُ أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ وَوَعْدَهُ وَوَعِيدَهُ.

وذلك يُوجِبُ الإقرارَ بالتقصيرِ والخوفَ لِعُقُوبَتِهِ والرغبة في وعده. كأنه قال: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي﴾ كُلِّ حَالٍ مِنَ الليل والنهارِ إمَّا لِنِعَمِهِ وإِحْسَانِهِ وإمَّا لإقرارِ بالتقصيرِ في أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وإمَّا لَخَوْفِ وَعِيدِهِ وإمَّا لِرَغْبَةِ وَعْدِهِ. فكانه قال: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ﴾ تَضَرُّعًا وتواضَعًا وَخُفْيَةً مَعَ الخوفِ.

وإن كَانَ تأويلُ الغُدُوِّ والآصالِ كنايةً عن الغداة والعشي فهو كنايةً عن التلاوة، وهو ما سَبَقَ مِنْ ذِكْرِ التلاوة مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ [الأعراف: ٢٠٤] وقوله تعالى: ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٢٠٣] وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ [الإسراء: ١١٠]. وتأويلُهُ، والله أعلم: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾، في بَعْضِ صَلَاتِكَ ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ في بَعْضِهَا، أو أَن يُقال: لا تَجْهَرْ جَهْرَ العَالِي، ولا تُخَافِتْ غَايَةَ الْمُخَافَةِ، ولكن بَيْنَ ذَلِكَ، أو أَن يَقول: لا تُشْتَغِلْ بِالْجَهْرِ ولا بِالْمُخَافَةِ، ولكن اقْرَأْ لِمَا فِيهِ.

فَعَلَى ذَلِكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ وقرأ بَعْضُهُمْ وَخُفْيَةً^(٤) وهو مِنَ الإخفاءِ حَيْثُ قال: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ وأما ظاهِرُ القراءة فهو ﴿وَخِيفَةً﴾ وهو مِنَ الخوفِ.

وقال مُجاهد^(٥): رَخَّصَ اللهُ أَنْ تَذْكُرَهُ: ﴿فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ وأبَتْ خَلْفَ الإمامِ تَسْمَعُ قراءَةً.

[وقوله تعالى]^(٦): ﴿وَالْآصَالِ﴾ قال أبو غوسجة: العِشْيَاءُ، الواحدُ: أَصْلٌ وأَصِيلٌ.

[وقوله تعالى]^(٧): ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ معلومٌ أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ، لم يَكُنْ مِنَ الغَافِلِينَ في حالٍ، ولكن [قال ذلك]^(٨) على النَّهْيِ لِأَمْتِهِ كقولِهِ تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ١٤٧] [وقوله تعالى]^(٩): ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤] وَنَحْوُهُ نَهَاهُ أَنْ يَكُونَ ما ذَكَرَ لِمَا ذَكَرْنَا نَهْيًا لغيرِهِ، والله أعلم.

الآية ٢٠٦

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ قَالَتِ الْمُشَبِّهَةُ: لو لم يَكُنْ بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ الملائكةِ قُرْبُ الذَاتِ لَكَانُوا هُمْ وَالْبَشَرُ بقوله تعالى: ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ سواء، وَلَكَانَ لا مَعْنَى لِتَخْصِيسِ الملائكةِ بذلك.

ولكن التأويلَ عندنا في قولِهِ تعالى: ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ في الطاعةِ والخُضُوعِ أو في الكرامةِ والمنزلةِ لَيْسَ على قُرْبِ الذَاتِ، ولكن على ما وَصَفَ ﷻ، [بقوله]^(١٠): ﴿لَا يَعْصُونَ اللهُ مَا أَمَرَهُمْ وَيَتَّقُونَ﴾ [التحریم: ٦] وقوله: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحِيرُونَ﴾ ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْترُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩ و ٢٠] وَصَفَهُم بالطاعةِ لَهُ والخُضُوعِ.

فَعَلَى ذَلِكَ الأوَّلُ لَيْسَ على قُرْبِ الذَاتِ، ولكن على ما ذَكَرَ مِنَ الطاعةِ والخُضُوعِ. ألا تَرَى أَنَّهُ قال: ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾؟ [العلق: ١٩] لَيْسَ على أَنَّهُ في الأرضِ يَقْتَرِبُ مِنْهُ إِذَا سَجَدَ.

وأصلُ ما يُضَافُ إلى اللهِ مِنْ جُزْئِيَّةِ الأشياءِ يُخْرِجُ مُخْرَجَ تَعْظِيمٍ تلكَ الْجُزْئِيَّاتِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَأَنَّ السَّجْدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨] خَصَّ السَّاجِدَ بِالإضافةِ إليهِ، وإنْ كَانَتْ الإِيقَاعُ كُلُّهَا لَهُ تَعْظِيمًا لَهَا. وكذلك قولُهُ تعالى: ﴿الْكَتَبَةَ أَلْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٩٧]. بَيْتُ اللهِ، وإنْ كَانَتْ البيوتُ كُلُّهَا لَهُ، وَنَحْوُ ذَلِكَ ممَّا أَضَافَ ذَلِكَ إلى نَفْسِهِ مِنْ جُزْئِيَّاتِ الأشياءِ تَعْظِيمًا لِذَلِكَ وإِجلالًا.

(١) في الأصل وم: وذكره. (٢) في الأصل وم: يذكر. (٣) في الأصل وم: يحتمله. (٤) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٢/ ٤٣٤. (٥) في الأصل وم: المنجهد. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

فَعَلَىٰ ذَٰلِكَ الْأَوَّلُ أُضَافَتْهُمْ إِلَىٰ نَفْسِهِ إِمَّا لِمَطَاعَةِ لَهُمْ إِيَّاهُ وَالْخُضُوعِ وَإِمَّا لِكِرَامَةِ لَهُمْ وَالْمَنْزِلَةِ.

وإضافة كُلِّية الأشياء إلى الله تُخْرِجُ مُخْرَجَ تَعْظِيمِ الرَّبِّ: مِنْ ذَٰلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَنزَامُ﴾ [الأعراف: ٥٤] وقوله تَعَالَى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١] وقوله تَعَالَى: ﴿خَلَقْتُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

وَمِنْ النَّاسِ مَنْ اسْتَدَلَّ بِتَفْضِيلِ الْمَلَائِكَةِ عَلَى الْبَشَرِ بِهَذِهِ الْآيَةِ. لَكِنْ نَقُولُ: إِنَّ الْأَفْضَلَ عِنْدَ اللَّهِ الْأَطْوَعُ لَهُ وَالْأَخْضَعُ وَالْأَتَقَى وَالْأَقْوَمُ لِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ عَلَى مَا ذَكَرَ^(١): ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاهُ﴾ [الحجرات: ١٣] لَا تُشِيرُ إِلَى أَنَّ هَؤُلَاءِ أَفْضَلُ مِنْ هَؤُلَاءِ، وَقَدْ ذَكَرْنَا الْوَجْهَ فِي مَا ذَكَرْنَا فِي مَا تَقَدَّمَ.

وَتَأْوِيلُ الْآيَةِ، وَاللهُ أَعْلَمُ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ الْآيَةِ أَيِ انْهَمُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ حَاجَةٌ إِلَى الْمَأْكَلِ وَالْمَشْرَبِ وَأَنْوَاعِ الْحَاجَاتِ ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ وَأَنْتُمْ مَعَ حَاجَتِكُمْ إِلَى الْأَكْلِ وَالشَّرْبِ وَأَنْوَاعِ الْحَوَائِجِ أُخْرَى وَأَوْلَى الْأَلَا تَسْتَكْبِرُوا عَنْ عِبَادَتِهِ؛ لِأَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَغْبُدُ الْمَلَائِكَةَ، فَخُرَجَ هَذَا جَوَابَ ذَٰلِكَ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وقوله تَعَالَى: ﴿وَيُسَبِّحُونَكَ﴾ التَّسْبِيحُ هُوَ وَضْفُ الرَّبِّ ﷻ، بِالرَّفْعَةِ وَالْعَظَمَةِ وَالْجَلَالِ وَالتَّعَالِي عَنِ الْأَشْيَاءِ^(٢) وَالْأَمْثَالِ وَعَمَّا وَصَفَهُ الْمُلْحِدُونَ. وَالتَّسْبِيحُ هُوَ تَنْزِيهِ الرَّبِّ وَتَبَرُّكُهُ مِنْ جَمِيعِ مَعَانِي الْخَلْقِ.

وقوله تَعَالَى: ﴿وَلَمْ يَسْجُدُوا﴾ وَهُوَ الْخُضُوعُ فِي الْغَايَةِ. وَلَيْسَ فِي الْآيَةِ وَجُوبُ السُّجْدَةِ لِمَنْ^(٣) تَلَاهَا، أَوْ سَمِعَهَا إِنَّمَا فِيهَا الْإِخْبَارُ عَنِ السَّاجِدِينَ أَنَّهُمْ يَسْجُدُونَ^(٤) غَيْرَ مُسْتَكْبِرِينَ. وَفِي ذَٰلِكَ تَرْغِيبٌ فِي السُّجُودِ. إِلَّا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، رُويَ أَنَّهُ سَجَدَ، وَسَجَدَ مَنْ مَعَهُ.

وعن ابن عباسٍ ﷺ [أنه]^(٥) سَجَدَ فِي ص. وَفِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ [أنه]^(٦) قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ فِي غَيْرِ صَلَاةٍ، فَيَسْجُدُ، وَنَسْجُدُ مَعَهُ.

وعن ابن مسعودٍ ﷺ، [أنه قَالَ]^(٧). كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَرَأَ سُورَةَ النَّجْمِ، فَسَجَدَ فِيهَا، وَلَمْ يَبْقَ مَعَهُ أَحَدٌ إِلَّا سَجَدَ إِلَّا شَيْخٌ كَبِيرٌ مِنْ قُرَيْشٍ، أَخَذَ كَفًّا مِنْ جِصٍّ، فَرَفَعَ إِلَى جَنْبَيْهِ. فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ قِيلَ كَافِرًا.

وعن ابن عباسٍ ﷺ، أَنَّهُ ذَكَرَ سَجُودَ الْقُرْآنِ، وَعَدَّ، فَقَالَ: الْأَعْرَافُ وَالرَّعْدُ وَالنَّحْلُ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ وَمَرْيَمُ وَالْحُجَّ: سَجْدَةٌ وَاحِدَةٌ. وَالْفُرْقَانُ وَطَسٌ وَالْمُتَزِيلُ وَصٌ وَحَمٌ، وَقَالَ: وَلَيْسَ فِي الْمَفْصُلِ سُجُودٌ.

وعن ابن مسعودٍ [أنه]^(٨) قَالَ: فِي السُّورَةِ يَكُونُ فِي آخِرِهَا السَّجْدَةُ تَخُو الْأَعْرَافَ وَالنَّجْمَ إِنْ شِئْتُ فَاسْجُدْ، ثُمَّ قُمْ، فَاقْرَأْ، وَإِنْ شِئْتُ فَارْكَعْ.

وعن ابن مسعودٍ [أنه]^(٩) كَانَ يَسْجُدُ فِي الْأَعْرَافِ وَفِي بَنِي إِسْرَائِيلَ وَالنَّجْمِ وَ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ وَ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾.

وَاخْتِجَّ / ١٩٥ - أ/ بَعْضُ مُشَايخِنَا أَنَّ السُّجُودَ عَلَى مَنْ تَلَا آيَةَ السَّجْدَةِ وَاجِبٌ مَا أَجْمَعَ أَهْلُ الْعِلْمِ أَنَّ عَلَى الْمُصَلِّي إِذَا تَلَا الْآيَةَ، فِيهَا السَّجْدَةُ، أَنْ يَسْجُدَ فِي صَلَاتِهِ. فَلَوْ كَانَ السُّجُودُ تَطَوُّعًا مَا كَانَ لِأَحَدٍ أَنْ يَزِيدَ فِي صَلَاتِهِ مَا لَيْسَ مِنْهَا.

فَدَلُّ ذَٰلِكَ عَلَى أَنَّ السُّجُودَ وَاجِبٌ فِي الصَّلَاةِ، وَإِذَا كَانَ فِي الصَّلَاةِ وَاجِبًا فَهُوَ عَلَى كُلِّ حَالٍ وَاجِبٌ.

وَمِنْ الْحُجَّةِ لَنَا أَيْضًا مَا رُويَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَرَأَ آيَاتٍ، فَسَجَدَ فِيهَا، فَكَانَ السُّجُودُ بِهَا وَاجِبًا كَمَا أَنَّهُ لَمَّا صَلَّى صَلَاةَ الْعِيدِ كَانَتْ وَاجِبَةً.



(١) فِي الْأَصْلِ وَم: ذَكَرْنَا. (٢) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: الْأَشْيَاء. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: مَنْ. (٤) فِي الْأَصْلِ: وَم: سَجَدُوا. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

سورة الأنفال

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الآية ١

قوله تعالى: ﴿يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ اختُلِفَ فيه؛ قال بعضهم: الأنفال: هي المغنيمُ التي يَغْنَمُهَا الْمُسْلِمُونَ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ، وقال بعضهم: الأنفال هي الفُضُولُ عَنْ حُقُوقِ أَصْحَابِ الْغَنَائِمِ.

فالسؤال يَحْتَمِلُ وجهين:

يَحْتَمِلُ أَنَّهُمْ سَأَلُوا عَنْ جِلِّهَا وَحُرْمَتِهَا؛ لِأَنَّ الْغَنَائِمَ كَانَتْ لَا تَحِلُّ فِي الْإِبْتِدَاءِ. قِيلَ: إِنَّهُمْ كَانُوا يَغْنَمُونَهَا، وَيَجْمَعُونَهَا^(١) فِي مَوْضِعٍ، فَتَجِيءُ^(٢) نَارٌ، فَتَحْرِقُهَا. سَأَلُوا عَنْ جِلِّهَا وَحُرْمَتِهَا، فَقَالَ: ﴿الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ أَيِ الْحُكْمِ فِيهَا اللَّهُ يَجْعَلُهَا لِمَنْ يَشَاءُ.

وَيَحْتَمِلُ السُّؤَالُ عَنْهَا مِنْ قِسْمَتِهَا؛ وَهُوَ مَا رُوِيَ فِي بَعْضِ الْقِصَصِ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا يَوْمَ بَذَرِ ثَلَاثَةِ أَثْلَاثٍ: ثُلُثًا^(٣) فِي نَخْرِ الْعَدُوِّ وَثُلُثًا^(٤) خَلَفَهُمْ رِذَاءَ لَهُمْ وَثُلُثًا^(٥) مَعَ رَسُولِ اللَّهِ يَحْرُسُونَهُ. فَلَمَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ اخْتَلَفُوا فِي الْغَنَائِمِ، فَقَالَ الَّذِينَ كَانُوا فِي نَخْرِ الْعَدُوِّ: نَحْنُ أَحَقُّ بِالْغَنَائِمِ، نَحْنُ وَلِينَا الْقِتَالُ. وَقَالَ الَّذِينَ كَانُوا رِذَاءَ لَهُمْ: لَسْتُمْ بِأَوْلَى مِنَّا، وَكُنَّا لَكُمْ رِذَاءً. وَقَالَ الَّذِينَ أَقَامُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ: لَسْتُمْ بِأَحَقَّ بِهَا مِنَّا؛ كُنَّا نَحْنُ حَرَسًا لِرَسُولِ اللَّهِ. فَتَنَازَعُوا فِيهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ.

وَنَزَلَ [قوله تعالى]^(٦) ﴿يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ وقال أبو أمامة الباهلي: سألتُ عبادة بنَ الصامتِ عَنِ الْأَنْفَالِ، قَالَ: فِينَا نَزَلَتْ مَعَشَرَ أَصْحَابِ بَذَرٍ حِينَ اخْتَلَفْنَا [فِي الثَّقَلِ]^(٧) وَسَاءَتْ فِيهِ أَخْلَاقُنَا، فَانْتَزَعَهُ اللَّهُ مِنْ أَيْدِينَا، فَجَعَلَهُ إِلَى رَسُولِهِ، فَقَسَمَهُ عَلَى السَّوَاءِ^(٨). وَمَجَاهَدٌ وَعِكْرِمَةُ قَالَا: كَانَتِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ، فَتَسَخَّرَهَا [قوله تعالى]^(٩): ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُمُ وَالرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ٤١].

وكذلك رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه [أنه]^(١٠) قَالَ: الْأَنْفَالُ الْمَغَنِيمُ؛ كَانَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ خَالِصَةً لَيْسَ لِأَحَدٍ فِيهَا شَيْءٌ؛ مَا أَصَابَ سَرَايَا الْمُسْلِمِينَ مِنْ شَيْءٍ أَتَوْهُ بِهِ، فَمَنْ حَبَسَ مِنْهُ إِبْرَةً أَوْ سِلْكَاً فَهُوَ غُلُولٌ، فَسَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ يُعْطِيَهُمْ مِنْهَا، فَقَالَ: ﴿قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ لَيْسَ لَكُمْ فِيهَا شَيْءٌ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ الْأَنْفَالُ هِيَ فَضُولُ الْمَغَنِيمِ عَلَى [مَا]^(١١) قَالَ بَعْضُهُمْ نَحْوَ مَا رُوِيَ فِي الْأَخْبَارِ أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ أَخَذَ كُبَّةً، فَقَالَ: اجْعَلْهَا لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَأَخَذَ الْآخَرُ سَيْفًا، وَقَالَ: اجْعَلْهَا لِي، وَنَحْوُ ذَلِكَ فَكَانُوا يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ سَوَالُهُمْ عَنِ التَّنْفِيلِ أَنْ يُتَقَلَّهَ الرِّسُولُ بَعْدَ مَا وَقَعَ فِي أَيْدِيهِمْ، أَوْ بَعْدَ مَا انْتَهَزَمَ الْكُفَّارُ، وَأَذْبَرَ الْعَدُوَّ. وَإِنَّمَا يَجُوزُ لِلْإِمَامِ التَّنْفِيلُ فِي حَالِ إِقْبَالِ الْحَرْبِ؛ وَكَذَلِكَ رُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: الثَّقَلُ مَا لَمْ يَلْتَقِ الرَّخْفَانِ أَوْ الصَّفَانِ، فَإِذَا التَّقَيَا فَهُوَ مَغْنَمٌ.

رُوِيَ عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وقاصٍ أَنَّهُ قَالَ: نَزَلَتْ فِي أَرْبَعِ آيَاتٍ... والثانية: أَنِي كُنْتُ أَخَذْتُ سَيْفًا أَعْجَبَنِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَبْ لِي هَذَا، فَتَزَلْتُ: ﴿يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾...^(١٢) [الدر المثور ج ٤/٤].

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيَجْمَعُونَ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: فَجَاءَتْ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: ثَلَاثٌ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: ثَلَاثٌ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: ثَلَاثٌ. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: السُّوَالِ. (٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٠) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١١) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَرُوِيَ عَنْ مِصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: نَزَلَتْ فِي أَرْبَعِ آيَاتٍ.

وروي عن مُضْعَبِ بْنِ سَعْدٍ [عن أبيه سَعْدِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ قَالَ: «أَصَبْتُ يَوْمَ بَدْرٍ»^(١) سَيْفًا، فَاتَيْتُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ، فَقُلْتُ: تَقْلِيهِ، فَقَالَ: ضَعُهُ مِنْ حَيْثُ أَخَذْتَهُ، فَتَرَلْتُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾. ثُمَّ قَالَ سَعْدٌ: دَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: أَذْهَبَ، فَخُذْ سَيْفَكَ [الدر المنثور ج ٤/٤].

فَذَلَّ حَدِيثُ سَعْدٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَنْقُلْ قَبْلَ الْحَرْبِ أَحَدًا شَيْئًا مِنْهُ مِمَّا لَا يَأْخُذُهُ [في الحرب]^(٢) لَأنَّهُ لَوْ كَانَ نَقَلَهُمْ لَمْ يَنْتَعِ سَعْدًا ﷺ السَّيْفَ الَّذِي جَاءَ بِهِ.

وَيَذُلُّ عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَأْمُرْ فِي الْغَنِيمَةِ بِشَيْءٍ حَتَّى نَزَلَتْ آيَةُ النَّقْلِ، فَرَدَّ اللَّهُ الْأَمْرَ فِي الْغَنِيمَةِ إِلَى رَسُولِهِ، فَاطْلَقَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَمَّا رُدُّ [إِلَيْهِ]^(٣) الْأَمْرَ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ النَّبِيُّ ﷺ^(٤) لَمْ يَنْقُلْ أَحَدًا قَبْلَ الْحَرْبِ شَيْئًا، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَنْقُلُ مِمَّا يُؤْتَى بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ قَتْلِ بَغِيرِ إِبْجَابٍ مُتَقَدِّمٍ. يُبَيِّنُ ذَلِكَ قَوْلُ سَعْدٍ: أَجْعِلْ كَمَنْ لَا عَمَلَ لَهُ؟ وَحَدِيثُ عِبَادَةَ؛ يُخْبِرُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَقَلَ مَا يَأْخُذُونَ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ قَبْلَ أَنْ يَأْخُذُوهُ. وَهَذَا مَوْضِعُ الْإِخْتِلَافِ بَيْنَ الْحَدِيثَيْنِ.

وَالظَّاهِرُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْفِعْلَ قَدْ كَانَ وَقَعَ فِي الْغَنَائِمِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ قَدْ سَمَّاها أَنْفَالًا قَبْلَ أَنْ يُحِلَّهَا. فَلَوْلَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ نَقَلَهُمْ إِيَّاهَا قَبْلَ الْحَرْبِ أَوْ بَعْدَهَا لَمْ يُسَمَّ اللَّهُ أَنْفَالًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَفِي حَدِيثِ عِبَادَةَ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ [الأنفال: ٤١] ذَكَرَهُ بَعْدَ ذِكْرِ النَّقْلِ، وَأَنَّهُ حُكْمُ النَّاسِخِ الثَّابِتِ. وَكَذَلِكَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ يَذُلُّ عَلَى ذَلِكَ، وَقَدْ أَجْمَعَ أَهْلُ الْعِلْمِ عَلَى مَا ذَكَرَهُ عِبَادَةُ فِي آخِرِ حَدِيثِهِ، فَقَالُوا جَمِيعًا: إِنَّ الْغَنِيمَةَ يُخْرِجُ خُمُسُهَا لِلْأَصْنَافِ الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ اللَّهُ إِلَّا مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ سَهْمِ ذِي الْقُرْبَى، ثُمَّ تَقَسَّمُ أَرْبَعَةُ^(٥) الْأَخْمَاسِ بَيْنَ أَهْلِ الْقِسْمَةِ. وَجَعَلُوا لِلْإِمَامِ أَنْ يَنْقُلَ السَّلْبَ وَغَيْرَهُ، فَيَقُولُ: مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ سَلْبُهُ؛ يُحْرَضُ بِذَلِكَ [على]^(٦) الْمُقَاتِلَةِ، وَيَنْقُلُ السَّرِيَّةَ، يُخْرِجُ مِنَ الْعَسْكَرِ شَيْئًا بَعْدَ الْخُمْسِ.

وَمِمَّا أَجْمَعُوا عَلَيْهِ مِنْ قِسْمَةِ الْغَنِيمَةِ أَخْمَاسًا نَزَلُ الْقُرْآنَ؛ وَقَدْ رَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ [أَنَّهُ]^(٧) قَالَ: «إِنَّ الْغَنِيمَةَ لَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلُنَا، وَقَدْ أَجَلَّتْ لَنَا» [مسلم ١٧٤٧].

وَرَوَى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ [أَنَّهُ]^(٨) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «لَمْ تَحِلَّ الْغَنَائِمُ لِقَوْمِ سُودِ الرُّؤُوسِ قَبْلَكُمْ، كَانَتْ نَارٌ تَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ فَتَأْكُلُهَا» [الترمذي ٣٠٨٥]. فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ أَسْرَعَ النَّاسُ فِي الْغَنَائِمِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنْ اللَّهِ سَبَقَ لَنَسَكْتُمْ فِيهَا أَهْلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. ﴿فَكُلُوا مِنْهَا غَنِمَتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٨ و ٦٩] وَنَحْوَ ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهًا.

أَحَدُهَا: ﴿يَسْتَلُونَكَ﴾ عَمَّنْ لَهُ الْأَنْفَالُ، فَقَالَ: ﴿قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ﴾

وَالثَّانِي: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ عَلَى إِسْقَاطِ «عَنْ» وَقَدْ كَانُوا يَسْأَلُونَكَ الْأَنْفَالَ وَالْمَغَانِمَ.

وَالثَّلَاثُ: يَسْأَلُ كُلٌّ عَنِ النَّقْلِ^(٩) الَّذِي جُعِلَ لَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا﴾ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فِي اخْتِذِ الْأَمْوَالِ، وَلَكِنْ فِي الْأَنْفَالِ وَفِي غَيْرِهَا ﴿فَاتَّقُوا﴾ مَغْصِيَةَ اللَّهِ وَمُخَالَفَتَهُ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أَمَرَ بِإِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ لِمَا ذُكِرَ مِنْ عَظِيمِ مَيْتِهِ وَنَعِيمِهِ الَّتِي أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَعْتَمِسُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣] أَخْبَرَ أَنَّهُمْ كَانُوا أَعْدَاءً، فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ^(١٠). وَذَلِكَ مِنْ عَظِيمِ نِعَمِهِ عَلَيْهِمْ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: يَرَى أَنَّهُ يَوْمَ بَدْرٍ أَصَبْتُ. (٢) سَاقِطَةٌ فِي الْأَصْلِ وَم. (٣) فِي الْأَصْلِ: صَلَّى، سَاقِطَةٌ مِنْ م. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: الْأَرْبَعِ. (٥) سَاقِطَةٌ مِنْ الْأَصْلِ وَم. (٦) سَاقِطَةٌ مِنْ الْأَصْلِ وَم. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: نَقَلَ لَهُ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: قُلُوبِكُمْ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: قُلُوبِكُمْ.

فَأَمَرَ ههنا بإصلاح ذاتِ التَّيْنِ ليكونوا على النِّعْمَةِ التي أَنْعَمَها عَلَيْهِمْ مُجْتَمِعِينَ غَيْرَ مُتَفَرِّقِينَ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي أطِيعُوا اللَّهَ في أمرِهِ وَنَهْيِهِ، وَرَسُولَهُ في آدَابِهِ وَسُنَّتِهِ ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أو أَطِيعُوا اللَّهَ في مَا دَعَاكُمْ إِلَيْهِ، وَرَعَبَكُمْ فِيهِ، وَرَسُولَهُ في مَا بَيَّنَّ لَكُمْ ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يعني مُصَدِّقِينَ.

الآية ٢

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ إلى آخر ما ذَكَرَ يَحْتَمِلُ وجوهاً.

[أحدها]^(١): يَحْتَمِلُ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ﴾ ظَهَرَ صِدْقُهُمْ عِنْدَكُمْ بِمَا ذَكَرَ مِنَ الْأَفْعَالِ مِنْ وَجَلِ الْقَلْبِ وَالْخَشْيَةِ وَالثَبَاتِ وَالْيَقِينِ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ، لَيْسَ كَالْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ كَانُوا مُرْتَابِينَ فِي إِيْمَانِهِمْ كَمَا وَصَفَهُمْ فِي آيَةٍ أُخْرَى [في قوله]^(٢): ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى﴾ [النساء: ١٤٢] وَكَانُوا إِذَا انْفَقُوا انْفَقُوا كَارِهِينَ، وَكَانُوا لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً مُرَاءَةً لِلنَّاسِ.

وَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَهُمْ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ بِوَفَاءِ ذَلِكَ كُلِّهِ حَقِيقَةً، فَيُظْهِرُ صِدْقَهُمْ بِذَلِكَ، وَهُوَ مَا وَصَفَهُمْ فِي آيَةٍ أُخْرَى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

والثاني^(٣): يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عَلَى الْإِغْتِقَادِ خَاصَّةً، لَيْسَ عَلَى نَفْسِ الْعَمَلِ؛ كَأَنَّهُ قَالَ: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ اغْتَقَدُوا فِي إِيْمَانِهِمْ مَا ذَكَرَ مِنْ وَجَلِ الْقُلُوبِ وَالْخَشْيَةِ عِنْدَ ارْتِكَابِ الْمَعْصِيَةِ وَالتَّقْصِيرِ عَلَى الْقِيَامِ بِمَا عَلَيْهِ. وَمَا يَرْتَكِبُ الْمُؤْمِنُ مِنَ الْمَعَاصِي إِنَّمَا يَرْتَكِبُ عَنْ جَهَالَةٍ، ثُمَّ يَتُوبُ عَنْ قَرِيبٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يُتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧] يَرْتَكِبُ ذَلِكَ إِمَّا لِغَلَبَةِ شَهْوَةٍ، وَإِمَّا يَغْتَقِدُ التَّوْبَةَ مِنْ بَعْدِهِ، وَإِمَّا يَرْجُو رَحْمَةَ اللَّهِ مِنْ فَضْلِهِ فِي الْعَفْوِ عَنْ ذَلِكَ.

فَيَكُونُ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ﴾ اغْتَقَدُوا إِيْمَانَهُمْ مَا ذَكَرَ مِنَ الْأَفْعَالِ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥] هُوَ الْإِغْتِقَادُ وَالْقَبُولُ لَهُ أَنَّهُمْ إِذَا اغْتَقَدُوا ذَلِكَ، وَقَبِلُوا يَحْلَى سَبِيلَهُمْ. وَإِنْ لَمْ يَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَمَا ذَكَرَ فَعَلَى ذَلِكَ الْأَفْعَالِ [وهو كَقَوْلِهِ تَعَالَى]^(٤): ﴿إِنْ تَابُوا﴾ [التوبة: ٥] يَحْتَمِلُ ذَلِكَ.

والثالث^(٥): يَحْتَمِلُ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ﴾ فَعَلُوا هَذَا، وَأَتَوْا بِذَلِكَ كُلَّهُ. لَكِنْهُمْ أَجْمَعُوا أَنْ مَنْ آمَنَ بِقَلْبِهِ، وَصَدَّقَ كَانَ مُؤْمِنًا، وَإِنْ لَمْ يَأْتِ بِغَيْرِهِ مِنَ الْأَفْعَالِ [مِثْلُ مَنْ]^(٦) يَوْمُنَ، ثُمَّ يُخْتَرَمُ، وَيَمُوتُ مِنْ سَاعَتِهِ، مَاتَ مُؤْمِنًا. فَذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يُخْرِجْ ذَلِكَ عَلَى الشَّرْطِ لَمَّا ذَكَرْنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ يُخْرِجُ عَلَى وَجْهِهِ.

أحدها: يُخْبِرُ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ هُمْ^(٧) عَلَى وَصْفٍ مَا ذَكَرَ.

والثاني^(٨) يقول: إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونُوا مَا ذَكَرَ.

والثالث^(٩) يقول: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الْمُخْتَارُونَ مَا ذَكَرَ جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى مَا ذَكَرَ [مِنْ]^(١٠) وَجَلِ الْقَلْبِ وَغَيْرِهِ عِلْمًا بَيْنَ الَّذِينَ حَقَّقُوا الْإِيْمَانَ فِي الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ وَبَيْنَ الَّذِينَ أَظْهَرُوا الْإِيْمَانَ، وَأَضْمَرُوا الْكُفْرَ وَالْخِلَافَ. وَكَذَلِكَ مَا ذَكَرَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا﴾ [النور: ٦٢].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا نُلِيتَ عَلَيْهِمْ سَائِئُهُمْ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ يَحْتَمِلُ قوله تعالى: ﴿سَائِئُهُمْ حُجْبَةُ وَبَرَاهِينُهُ﴾ ﴿وَإِذَا نُلِيتَ عَلَيْهِمْ﴾ ذَلِكَ زَادَهُمْ^(١١) ثَبَاتًا وَقُوَّةً عَلَى مَا كَانُوا.

وَأَمَّا الْمُنَافِقُونَ فَإِنَّ الْآيَاتِ الَّتِي نَزَلَتْ كَانَتْ [تَزِيدُهُمْ]^(١٢) رِجْسًا وَيُعْدَاءً.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث قال. (٣) في الأصل وم: و. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: والرابع. (٦) في الأصل وم: نحوان. (٧) في الأصل وم: هو. (٨) في الأصل وم: أو. (٩) في الأصل وم: أو. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل وم: يزداد لهم. (١٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِنَّ رِجْسَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢٥]، في الأصل وم: تزداد لهم بها.

فَإِنَّ [الْمُؤْمِنِينَ يَزِيدُهُمْ^(١)] ذَلِكَ ثَبَاتًا وَقُوَّةً. أَوْ ذَكَرَ الزَّيَادَةَ لِأَنَّ^(٢) لِلْإِيمَانِ حُكْمَ التَّجَدُّدِ وَالْحُدُوثِ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَسَاعَةٍ. فَإِذَا كَانَ لَهُ حُكْمُ الْحُدُوثِ وَالتَّجَدُّدِ فَهُوَ زِيَادَةٌ عَلَى مَا كَانَ. فَإِنْ شِئْتَ سَمَّيْتُهَا ثَبَاتًا.

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ، رَحِمَهُ اللَّهُ: يَزِيدُ الْإِيمَانَ بِالتَّفْسِيرِ عَلَى الْإِيمَانِ بِالْجُمْلَةِ. فَإِذَا فَسَّرُوا لَهُ^(٣)، وَقَالُوا: فَلَنْ رَسُولُ نَبِيِّ أَزْدَادَ بِذَلِكَ لَهُ إِيْمَانًا، وَإِنْ كَانَ قَدْ آمَنَ بِهِ بِالْجُمْلَةِ. وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ بِجَمِيعِ الْكُتُبِ وَالْأَمْرِ، وَإِنْ كُنَّا نُؤْمِنُ بِالْجُمْلَةِ أَنَّ^(٤) لَهُ الْخَلْقَ وَالْأَمْرَ^(٥) [الاعراف: ٥٤] فَإِذَا عَرَفْتَ ذَلِكَ الْأَمْرَ زَادَ^(٦) لَهُ إِيْمَانًا فِي ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، لِأَنَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَأَنَّ^(٧) لَهُ الْخَلْقَ وَالْأَمْرَ^(٨) فَقَدْ آتَى بِعُقْدَةِ الْإِيمَانِ. فَإِذَا جَاءَ بِالتَّفْسِيرِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ أَزْدَادَ لَهُ إِيْمَانُهُ بِالتَّفْسِيرِ عَلَى إِيْمَانِهِ بِالْجُمْلَةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ^(٩)﴾ أَيِ عَلَى رَبِّهِمْ يَتَكَلَّمُونَ^(١٠)، وَيَعْتَقِدُونَ فِي كُلِّ أُمُورِهِمْ؛ لَا يَتَكَلَّمُونَ^(١١) عَلَى غَيْرِهِ. إِنَّمَا يَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ. وَلَيْسُوا^(١٢) كَالْمُنَافِقِينَ هُمْ إِنَّمَا يَتَوَكَّلُونَ عَلَى النِّعَمِ الَّتِي أُعْطُوا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَبْغِي اللَّهُ عَنْ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَلِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ [الحج: ١١] وَنَحْوُ ذَلِكَ.

وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَإِنَّهُ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ يَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ، وَمِنْهُ يَخَافُ، وَإِنْ كَانَ يَصِلُ ذَلِكَ إِلَيْهِ، وَيَجْرِي عَلَى يَدَيْ غَيْرِهِ. فَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ مِنَ اللَّهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَرَمَّا زَكَّيْتَهُمْ يَنْفِقُونَ﴾ بِحَقِّ اللَّهِ الَّذِي عَلَيْهِمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

[أَحَدُهُمَا]^(١٣): يَحْتَمِلُ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّقُوا إِيْمَانَهُمْ.

وَالثَّانِي: [يَحْتَمِلُ]^(١٤) أُولَئِكَ الْمُؤْمِنِينَ^(١٥) الَّذِينَ وَعَدَ لَهُمْ وَغَدَا حَقًّا؛ وَهُوَ مَا وَعَدَ لَهُمْ مِنَ الدَّرَجَاتِ وَالْمَغْفِرَةِ. حَقٌّ لَهُمْ ذَلِكَ الْوَعْدُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[وَقَوْلُهُ تَعَالَى]^(١٦): ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ﴾ قِيلَ: فَضَائِلُ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ أَيِ يَسْتُرُ عَلَيْهِمْ ذُنُوبَهُمْ الَّتِي كَانَتْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا [وَيُنْسِيهِمْ إِيَّاهَا]^(١٧)؛ لِأَنَّ ذِكْرَ ذَلِكَ يُنْقِصُ عَلَيْهِمْ نِعَمَهُمُ الَّتِي أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ قَالَ^(١٨) الْحَسَنُ: وَرِزْقٌ يُكْرَمُ بِهِ أَهْلُهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ لَمْ يَخْرُجْ لِهَذَا الْحَرْفِ جَوَابٌ فِي الظَّاهِرِ، لِأَنَّ جَوَابَهُ أَنْ يَقُولَ ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ بِفَعْلٍ بِكَ كَذَا.

ثُمَّ أَهْلُ التَّوَابِلِ اخْتَلَفُوا فِي جَوَابِهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ صِلَةُ قَوْلِهِ ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ ﴿يَجْنِدُونَكَ﴾ كَمَا كَرِهُوا الْخُرُوجَ، وَجَادَلُوكَ فِي قِسْمَةِ الْأَنْفَالِ جَادَلُوكَ فِي أَمْرِ الْغَيْبِ^(١٩).

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: جَوَابُهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ يُغِيثُكُمُ النَّعَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١] يَقُولُ: كَمَا أَجَبْتُمُ اللَّهَ فِي الْخُرُوجِ لِلْقِتَالِ عَلَى غَيْرِ تَدْبِيرٍ مِنْكُمْ فِي ذَلِكَ وَلَا نَظَرٍ. فَعَلَى ذَلِكَ يُجِيبُكُمْ فِي النَّعَاسِ ﴿أَمَنَةً مِنْهُ﴾ وَإِنْزَالِ الْمَاءِ مِنَ السَّمَاءِ وَالتَّطْهِيرِ بِهِ وَتَثْبِيتِ الْأَقْدَامِ عَلَى غَيْرِ عِلْمٍ مِنْكُمْ وَلَا تَدْبِيرٍ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: [جَوَابُهُ فِي]^(٢٠) قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ غَيْرُ مُتَاهِبِينَ لِلْقِتَالِ وَلَا مُسْتَعِدِّينَ لَهُ كَذَلِكَ يَعِدُكُمْ النُّصْرَ وَالظَّفَرَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: الْمُؤْمِنُونَ يَزِيدُ لَهُمْ. (٢) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: لَا. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: لَهُمْ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: أَزْدَاد. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: يَتَقَوَّنَ.

(٦) فِي الْأَصْلِ وَم: يَكَلُونَ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: وَلَيْسَ. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: الْمُؤْمِنُونَ.

(١١) سَاقِطَةٌ فِي الْأَصْلِ وَم. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: يَنْسِيهِنَّهَا. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: قِيلَ. (١٤) فِي الْأَصْلِ وَم: الْغَيْرِ. (١٥) سَاقِطَةٌ فِي الْأَصْلِ وَم.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا زِينَتَكُمْ لِكُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلِّ مَأْكَلٍ وَكُلِّ مَقَامٍ﴾ الذي لِّلَّهِ عَلَيْهِمْ مِنَ الْأَمْرِ بِالْخُرُوجِ وَالْقِتَالِ، وَيَخْتَمِلُ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا زِينَتَكُمْ لِكُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلِّ مَأْكَلٍ وَكُلِّ مَقَامٍ﴾ بِالْوَعْدِ الَّذِي وَعَدَ لَهُمُ النَّصْرَ وَالظَّفَرَ، وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا زِينَتَكُمْ لِكُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلِّ مَأْكَلٍ وَكُلِّ مَقَامٍ﴾ لَيْسَ فِيهِ مَا ذَكَرْنَا بِالْأَمْرِ الَّذِي يَأْمُرُ الْقُرْآنُ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ قُرَيْبًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكُذِبُونَ﴾ يَخْتَمِلُ وَجْهَيْنِ: يَخْتَمِلُ ﴿قُرَيْبًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فِي الظَّاهِرِ، وَمُهمُ الْمُنَافِقُونَ كَرِهُوا الْخُرُوجَ لِلْقِتَالِ، وَيَخْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُؤْمِنُونَ فِي الْحَقِيقَةِ كَرِهُوا الْخُرُوجَ لِلْقِتَالِ كَرَاهَةً الطَّبْعِ لَا كَرَاهَةً الْإِخْتِيَارِ لَمَّا أُمِرُوا بِالْقِتَالِ [غَيْرُ مُتَأَمِّينَ لِلْقِتَالِ] (٢) وَلَا مُسْتَعِدِّينَ، فَكَرِهَتْ أَنْفُسُهُمْ ذَلِكَ كَرَاهَةً الطَّبْعِ لِمَا لَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ أَسْبَابُ الْقِتَالِ لَا لِأَنَّهُمْ (٣) كَرِهُوا أَمْرَ اللَّهِ كَرَاهَةً الْإِخْتِيَارِ.

وفي هذه الآية دلالة أَنَّ الْأَمْرَ قَدْ يَكُونُ فِي الشَّيْءِ، وَإِنْ لَمْ يُعْلَمْ وَقْتُ الْأَمْرِ فِي مَا يُؤْمَرُ. وَفِيهِ دَلِيلٌ جَوَازٌ تَأْخِيرَ الْبَيَانِ لِأَنَّهُمْ أُمِرُوا بِالْخُرُوجِ لِلْقِتَالِ، وَلَمْ يُعْلَمْ وَقْتُ الْخُرُوجِ عَلَى مَاذَا يُؤْمَرُونَ؟

الآية ٦

وقوله تعالى: ﴿يُحَدِّثُكَ فِي الْحَقِّ﴾ قِيلَ: فِي الْقِتَالِ. وَقِيلَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فِي الْحَقِّ﴾ الَّذِي أَمَرْتُ بِهِ أَنْ تَسِيرَ إِلَى الْقِتَالِ. وَيَخْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فِي الْحَقِّ﴾ الْوَعْدَ الَّذِي وَعَدَ لَهُمُ النَّصْرَ وَالظَّفَرَ ﴿بِمَدَامَيْنِ﴾ لَهُمُ الْوَعْدُ الَّذِي وَعَدَ لَهُمُ اللَّهُ ﷻ بِالنَّصْرِ.

وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّ اللَّهَ مُعْذِرٌ لَهُمْ﴾ فَإِنْ كَانَتْ ١٩٦ - أ / الآية فِي الْمُنَافِقِينَ فَهِيَ ظَاهِرَةٌ، وَمُهمُ كَذَلِكَ وَصَفُوا بِالْكَسَلِ فِي جَمِيعِ الْخَيْرَاتِ وَالطَّاعَاتِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالًا يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وَأَنَّ كَانَتْ (٤) فِي الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ حَقَّقُوا الْإِيمَانَ فَهِيَ لِمَا كَانُوا غَيْرَ مُسْتَعِدِّينَ لِلْقِتَالِ وَلَا مُتَأَمِّينَ لَهُ كَانُوا كَارِهِينَ لِذَلِكَ (٥) كَرَاهَةً الطَّبْعِ لَا كَرَاهَةً الْإِخْتِيَارِ.

وقَالَ قَائِلُونَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّ اللَّهَ مُعْذِرٌ لَهُمْ﴾ أَيِ ﴿وَإِنَّ قُرَيْبًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَجَابُوا رُبُّهُمْ، وَإِنْ كَانُوا كَارِهِينَ لِلْخُرُوجِ مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ، وَإِنْ كَانُوا مِنَ الْخَوْفِ ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ﴾ [الأنفال: ٦] فَأَجَابَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمُ بِالنَّصْرِ وَالظَّفَرِ، وَأَمَّنَّهُمْ مِنْ ذَلِكَ الْخَوْفِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٧

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ ذَكَرَ فِي بَعْضِ الْقِصَصِ أَنَّ عِيرَ قُرَيْشٍ حِينَ أَقْبَلَتْ مِنَ الشَّامِ خَرَجَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَحْوَهُمْ عَلَى مَا يُخْرِجُ إِلَى الْعِيرِ غَيْرُ مُتَأَمِّينَ لِلْحَرْبِ ﴿أَنَّهَا لَكُمْ﴾ (٦) وَخَرَجَتْ قُرَيْشٌ مِنْ مَكَّةَ تُبَغِّثُ عِيرَهَا، فَهِيَ الطَّائِفَةُ الْأُخْرَى. وَعَدَ لَهُمْ أَنْ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ لَهُمْ إِمَّا الْعِيرُ وَإِمَّا الْعَسْكَرُ أَنَّهُمْ يُنْصَرُونَ عَلَيْهِمْ ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ﴾ أَيِ لَيْسَ فِيهَا حَرْبٌ، ثُمَّ ﴿تَكُونُ لَكُمْ﴾ الْعِيرُ، وَهِيَ أَهْوَنُ شَوْكَةٍ وَأَعْظَمُ غَنِيمَةٍ كَانُوا يَوَدُّونَ ذَلِكَ.

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ لِمَا لَمْ تَكُونُوا مُعِدِّينَ لِلْقِتَالِ وَالْحَرْبِ. وَكَانَ بِهِمْ ضَعْفٌ، وَفِي أَوَّلِكَ قُوَّةٌ وَعِدَّةٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله (٧) تَعَالَى: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَيِّطَ الْحَقَّ بِكُلِّ مِثْلٍ﴾ يَخْتَمِلُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، يُرِيدُ أَنْ يُظْهِرَ الْحَقَّ بِأَيَّةٍ مِنْهُ مِنْ غَيْرِ وَجُودِ الْأَسْبَابِ مِنْهُمْ، وَهُوَ كَمَا ذَكَرَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يُوَدِّعُهُمْ نَقَلُهُمْ رَأَى الْقَتْلَ﴾ [آل عمران: ١٣] أَخْبَرَ أَنَّ فِي غَلْبَةِ أَوَّلِكَ مَعَ ضَعْفِ أَيْدِيهِمْ وَقِلَّةِ عَدَدِهِمْ وَقُصُورِ أَسْبَابِ الْحَرْبِ مِنَ السَّلَاحِ وَالْعُدَّةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَقُوَّةَ أَيْدِيهِمْ وَكَثْرَةَ عَدَدِهِمْ وَغَلْبَتَهُمْ وَتَأَمُّنَهُمْ وَاسْتِغْنَادَهُمْ لِذَلِكَ آيَةً عَظِيمَةً.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَلَكِنْ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنَّهُمْ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: كَانَ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: كَذَلِكَ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: ﴿أَنَّهَا لَكُمْ﴾ ذَكَرَ فِي بَعْضِ قِصَصِ الْحَرْبِ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ.

فأراد أن يُظهر الحق بالآية ليَعْلَمَ كُلُّ مَنْهُمْ أنه إنما كان ذلك بالله لا بهم. وهو ما قال: ﴿لَقَدْ تَقَاتُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَلِيلٌ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧] أَخْبَرَهُ أَنَّهُ كَانَ بِاللَّهِ ذَلِكَ لَا بِهِمْ.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿يَكْفُرْتُمُوهُ﴾ بِعِلْمِهِ وَأَمْرِهِ. وَيَحْتَمِلُ ﴿يَكْفُرْتُمُوهُ﴾ بِحُجَجِهِ أَيْ يُوجِبُ، وَيُظْهِرُ بِحُجَجِهِ وَبِرَاهِينِهِ. وَيَحْتَمِلُ ﴿يَكْفُرْتُمُوهُ﴾ الْإِشَارَاتِ الَّتِي بَشَّرَ بِهَا الْمُؤْمِنِينَ بِالنَّصْرِ وَالظَّفَرِ وَالْعَادَاةِ الَّتِي كَانَتْ^(١) مِنْهُمْ. وَيَحْتَمِلُ ﴿يَكْفُرْتُمُوهُ﴾ مَلَانِكَتَهُ الَّذِينَ بَعَثَهُمْ مَدَدًا لَهُمْ يَوْمَ بَذَرَ عَلَى مَا ذَكَرَ، فَاضَافَهُمْ إِلَيْهِ تَعْظِيمًا لَهُمْ وَاجْتِلَالًا عَلَى مَا سَمَّى عَيْسَى رُوحَ اللَّهِ وَكَلِمَتَهُ^(٢) وَمُوسَى كَلِمَةَ اللَّهِ^(٣) تَعْظِيمًا لَهُمْ وَاجْتِلَالًا. فَعَلَى ذَلِكَ [هَذَا]^(٤). وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[وقوله تعالى]^(٥): ﴿وَيَقَطُّ دَائِرَ الْكَافِرِينَ﴾ يَحْتَمِلُ آثَارَ الْكَافِرِينَ؛ يُقْتَلُونَ جَمِيعًا، وَيُسْتَأْصَلُونَ حَتَّى لَا يَبْقَى لَهُمْ أَثَرٌ. وَيَحْتَمِلُ يَقَطُّ مَا أَذْبَرَهُمْ حَتَّى لَا يَأْتِيَهُمْ مَدَدٌ.

الآية ٨

وقوله تعالى: ﴿لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيَبْطِلَ الْبَاطِلُ﴾ أَيْ لِيُظْهِرَ الْحَقَّ وَيُوجِبَ. يُقَالُ: حَقَّ كَذَا أَيْ وَجَبَ. وَيَحْتَمِلُ لِيُظْهِرَ حَقَّ الْحَقِّ، وَيُظْهِرُ بَطْلَانَ الْبَاطِلِ، أَوْ أَنْ يُقَالَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيَبْطِلَ الْبَاطِلُ﴾ مَا ذَكَرْنَا: لِيُوجِبَ^(٦) الْحَقَّ، وَيُذْهِبَ الْبَاطِلَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ [الأنفال: ٨١] أَيْ ذَهَبَ. فَعَلَى ذَلِكَ هَذَا؛ يَجِيءُ الْحَقُّ، وَيَذْهَبُ الْبَاطِلُ ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾.

فَإِنْ قِيلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ﴾ [الأنفال: ٦] وقوله تعالى: ﴿إِذَا تَسْتَفِيسُونَ رَبِّكُمْ فَاسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩] كَيْفَ خَافُوا كُلَّ هَذَا الْخَوْفِ حَتَّى وَصَفَهُمْ بِشِدَّةِ الْخَوْفِ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى [الْمَوْتِ]^(٧)، وَقَدْ وَعَدَ لَهُمُ النَّصْرَ وَالظَّفَرَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّا يُبَدِّلُكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهُمَا لَكُمْ﴾؟ [الأنفال: ٧] كَيْفَ اسْتَعَاثُوا رَبَّهُمْ فِي ذَلِكَ، وَقَدْ سَبَقَ مِنْهُ لَهُمُ الْوَعْدُ بِالظَّفَرِ وَالنَّصْرِ؟ [قِيلَ: يُمَكِّنُ أَنْ]^(٨) نُصِرَتْ الْآيَةُ إِلَى الْمُنَافِقِينَ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾.

غَيْرَ أَنَّهُ ذَكَرَ فِي بَعْضِ الْقِصَصِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَبْذُرُ مُنَافِقًا، بَلْ كَانُوا كُلُّهُمْ مُؤْمِنِينَ حَتَّى افْتَخَرَ بِذَلِكَ مَنْ شَهِدَ بَذْرًا، وَإِنْ كَانَ فِي الْمُؤْمِنِينَ فَهوَ مَا ذَكَرْنَا لِقَلَّةِ عَدِيدِهِمْ وَضَعْفِهِمْ وَكَثْرَةِ أَوْلِيائِهِمْ وَعُدَّتِهِمْ؛ كَانُوا كَمَا وَصَفَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

لَكِنَّ الْآيَةَ تَحْتَمِلُ وَجُوهًا.

أَحَدُهَا: أَمْكَنَ أَنْ يَكُونَ الْوَعْدُ لَهُمْ بِالنَّصْرِ بَيِّنَ لِرَسُولِهِ، وَلَمْ يَبَيِّنْ لَهُمْ.

[والثاني]^(٩): فَالْقَى فِي قُلُوبِهِمُ الرُّغْبَ وَالْخَوْفَ لِمَا لَمْ يُبَيِّنْ لَهُمُ الْوَقْتَ مَتَى يَكُونُ ذَلِكَ؟ أَلَا تَرَى أَنَّهُمْ أَمَرُوا بِالْخُرُوجِ، وَلَا يَذْرُونَ إِلَى مَاذَا يُؤْمَرُونَ؟

وَالثَّالِثُ: يَجُوزُ أَيْضًا أَنْ يَبَيِّنَ لَهُمُ الْوَعْدَ بِالنَّصْرِ، وَيَلْتَفِتُ ذَلِكَ غَيْرَ أَنَّهُمْ خَافُوا ذَلِكَ، وَكَرِهُوا خَوْفَ طَبْعٍ وَكَرَاهَةَ النَّفْسِ لَا كَرَاهَةَ الْإِخْتِيَارِ. وَجَائِزُ الْخَوْفِ فِي مِثْلِ هَذَا وَكَرَاهَةُ الطَّبْعِ، وَإِنْ كَانُوا عَلَى يَقِينٍ بِالنَّصْرِ وَالظَّفَرِ وَتَحْقِيقِ ذَلِكَ لَهُمْ.

وَالرَّابِعُ: يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْوَعْدُ لَهُمُ بِالنَّصْرِ وَالظَّفَرِ بِالنَّصْرِ إِلَيْهِ وَالِاسْتِعَاثَةِ بِهِ عَلَى مَا يَكُونُ فِي الدَّعَوَاتِ يَكُونُ شَقَاوَةً بَعْضُ دُخُولِهِ النَّارَ بِمَعَاصِي يَرْكَبُهَا، وَسَعَادَةً آخَرَ وَدُخُولَهُ الْجَنَّةَ بِخَيْرَاتٍ يَأْتِي بِهَا، فَيَصِيرُ مِنْ أَهْلِهَا.

وَالْخَامِسُ: جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لَهُمْ مِخْنَةٌ، يَمْتَحِنُهُمْ بِهَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾ [البقرة: ١٥٥] يَحْتَمِلُ مَعْنَى الْآيَةِ الْوَجُوهَ الَّتِي ذَكَرْنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٩

ثم اخْتَلِفَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا تَسْتَفِيسُونَ رَبِّكُمْ فَاسْتَجِبْ لَكُمْ أَوْ مِثْلُكُمْ﴾ [الأنفال: ٦] وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ صِلَةٌ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَذْرِ وَأَنْتُمْ أُولَاءُ﴾ [آل عمران: ١٢٤] قَالُوا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيَنَّ مِنْ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: كَانَ (٢) إِشَارَةٌ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عَيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَذَّبْتُهُ فَأَنفَعْنَا لِمَنْ مَرَّيَمَ وَدُوحَ شَجَرَةٍ﴾ [النساء: ١٧١]. (٣) إِشَارَةٌ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: يَجِبُ. (٧) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٨) فِي الْأَصْلِ: وَقَدْ يُمْكِنُ، فِي م: وَقَدْ يُمْكِنُ أَنْ. (٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

الْمَلَكَةِ مَرْوِفَةٍ ﴿١﴾ الْفَانِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿يَلْبَسُهُ الْغَيِّ مِنَ الْمَلَكَةِ مُزَلِّينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤] فَيَكُونُ ﴿يَحْسَبُهُ الْغَيِّ مِنَ الْمَلَكَةِ مُزَلِّينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: ﴿يَلْبَسُهُ الْغَيِّ﴾ كَانَ فِي أَحَدٍ؛ إِذْ ذَكَرَ عَلَى إِثْرِ قِصَّةِ أَحَدٍ. فَإِنْ كَانَ مَا ذَكَرُوا، فَكَانَ قَوْلُهُ: ﴿يَنْ الْمَلَكَةِ مَرْوِفَةٍ﴾ إِذَا فِي إِرْدَافِ الْكُفْرَةِ، وَهُوَ الْمُتَابِعُ تَابَعَ أَهْلَ بَذْرِ الْمُشْرِكِينَ، وَهُمْ مُنْهَزِمُونَ، أَوْ أَنْ يَكُونَ الْإِرْدَافُ الْإِمْدَادُ، فَيَكُونُ الْفَيْنِ^(١).

وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: إِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا تَسَيَّسْتُمْ رَبِّكُمْ فَاستَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٦] هُوَ رَسُولُ اللَّهِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ [لَمَّا]^(٢) رَأَى كَثْرَةَ الْمُشْرِكِينَ يَبْذِرُ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ لَا قُوَّةَ لَهُمْ إِلَّا بِاللَّهِ، فَدَعَا رَبَّهُ، وَتَضَرَّعَ [وَلَكِنْ قَوْلُهُمْ]^(٣) عِنْدَنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، قَوْلُ^(٤) الْمُؤْمِنِينَ. أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿إِذَا تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّدَكُمْ رَبُّكُمْ؟﴾ [آل عمران: ١٢٤] بِكَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِذَلِكَ. وَلَيْسَ إِلَى مَعْرِفَةِ ذَلِكَ حَاجَةٌ سِوَى أَنْ فِيهِ الْبِشَارَةُ لَهُمْ بِالنَّصْرِ وَالْطَّمَانِينَةِ لِقُلُوبِهِمْ وَإِنْبَاءُ أَنْ حَقِيقَةُ النَّصْرِ إِنَّمَا تَكُونُ بِاللَّهِ لَا بِأَحَدٍ سِوَاهُ.

الآية ١٠ وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ لَا يُدْخِلُهُ شَيْءٌ، وَلَا يُعْجِزُهُ ﴿حَكِيمٌ﴾ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ؛ لَا يَأْمُرُ بِشَيْءٍ، وَلَا يَنْهَى عَنْ شَيْءٍ إِلَّا وَفِيهِ حِكْمَةٌ. وَفَائِدَةُ مَا ذَكَرَ مِنْ بَعَثِ مَدَدِ الْفِ وَثَلَاثَةِ آلَافٍ وَمَا ذَكَرَ لَطْمَانِينَ قُلُوبِ أُولَئِكَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِلَّا فَمَلَكٌ^(٥) وَاحِدٌ كَافٍ لَهُمْ، وَإِنْ كَثُرُوا لِأَنَّهُ يَرَاهُمْ، وَلَا يَزُونَهُ. وَاهْلَاكَ مِنْهُ سَهْلٌ.

الآية ١١ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا يُغَشِّيكُمُ الْغَاسَ أَمْنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾ ذَكَرَ الْغَاسَ بَعْدَ شِدَّةِ خَوْفِهِمْ، وَالْغَاسُ لَا يَكُونُ مِمَّنْ اشْتَدَّ بِهِ الْخَوْفُ، وَلَا يَغْشَاهُ إِلَّا بَعْدَ الْأَمْنِ. فَذَكَرَ لُطْفَهُ وَمَنْتِيهِ الْأَمْنَ بَعْدَ شِدَّةِ الْخَوْفِ ذِكْرٌ عَظِيمٌ مَا مَنَّ عَلَيْهِمْ مِنَ الْأَمْنِ لَمَّا ذَكَرَ مِنْ إِلْقَاءِ الْغَاسِ عَلَيْهِمْ. وَالْغَاسُ إِنَّمَا يَكُونُ بَعْدَ الْأَمْنِ بَعْدَ مَا كَانَ مِنْ حَالِهِمْ مَا ذَكَرَ حِينَ^(٦) قَالَ: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ [الأنفال: ٦].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾ ذَكَرَ فِي بَعْضِ الْقِصَصِ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ سَبَقُوا، فَأَخَذُوا الْمَاءَ، فَبَقِيَ الْمُسْلِمُونَ فِي زَمَلٍ، لَا تَثْبُتُ أَقْدَامُهُمْ، عَطَشًا^(٧)، فَوَسَّسَ إِلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ أَنَّهُمْ لَوْ كَانُوا عَلَى حَقٍّ مَا بُلُوا بِمِثْلِ ذَلِكَ فِي زَمَلٍ، لَا تَثْبُتُ أَقْدَامُهُمْ، وَعَطَشًا^(٨). فَأَبْدَلَ اللَّهُ تَعَالَى مَكَانَ الْخَوْفِ أَمْنًا يَأْمَنُونَ بِهِ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ ﴿مِنْ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾ وَشَرَّبُوا^(٩) ١٩٦ - ب/ وَشَدَّ بِهِ الرَّمْلَ، فَتَثْبُتُ أَقْدَامُهُمْ.

فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا يُغَشِّيكُمُ الْغَاسَ أَمْنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ. وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾. قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: وَسَّسَهُ الشَّيْطَانُ الَّتِي وَسَّسَ إِلَيْهِمْ. وَقِيلَ: الرَّجْزُ الْإِثْمُ، ثُمَّ أَذْهَبَ^(١٠) ذَلِكَ عَنْهُمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَجَسًا﴾ [التوبة: ١٢٥] أَيْ^(١١) فَنَسَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾ ذَكَرَ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، عَلَى الْمُبَالَغَةِ؛ أَخْبَرَ أَنَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَا فَضَّلَ عَنْ حَوَاجَتِهِمْ حَتَّى وَجَدُوا مَا يُطَهِّرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَبْدَانَهُمْ، وَأَذْهَبَ^(١٢) عَنْهُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ. ذَكَرَ السَّبَبَ الَّذِي بِهِ يَذْهَبُ الرَّجْزُ؛ لِأَنَّ الرَّجْزَ هُوَ الْعَذَابُ. فَذَكَرَ الرَّجْزَ، وَالْمُرَادُ مِنْهُ سَبَبُ الرَّجْزِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ أَيْ يَشُدُّهَا ﴿وَرُبِّيتَ بِهِ الْأَقْدَامُ﴾ يَحْتَمِلُ حَقِيقَةَ تَثْبِيتِ الْأَقْدَامِ، وَيَحْتَمِلُ الثَّبَاتَ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ. وَالرَّبْطُ هُوَ الشَّدُّ لِشَيْءٍ. فَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ أَيْ يَشُدُّهَا حَتَّى لَا يُزَالَ أَحَدٌ عَمَّا هُوَ فِيهِ، وَلَا يَزِيغُ عَنْ ذَلِكَ. وَإِنْ ابْتَلَاهُ اللَّهُ تَعَالَى بِأَنْوَاعِ الشَّدَائِدِ وَالْبَلَايَا.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: الْفَانِ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) فِي الْأَصْلِ: ذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَوْلُهُمْ، فِي م: ذَلِكَ قَوْلُهُمْ. (٤) أَدْرَجَ قِبَلِهَا فِي الْأَصْلِ وَم: أَعْنِي. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: مَلَكٌ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: عَطَشًا. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: عَطَشَى. (٩) فِي الْأَصْلِ: وَيَشْرَبُونَ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: ذَهَبَ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَذَهَبَ.

ذَكَرَ فِي التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ الرَّبُّطَ وَالتَّثْبِيتَ بِقَوْلِهِ: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢] وقوله: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ [الأنفال: ١١] وقوله: ﴿وَرَبِّطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [الكهف: ١٨]. وَذَكَرَ فِي الشَّرِكِ وَالْكَفْرِ الطَّنْبِ وَالْحَنَمِ وَالْقُفْلَ وَنَحْوَهُ. فَهُوَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، غُفُوبَةٌ لَهُمْ لِمَا اخْتَارُوا ذَلِكَ.

وقوله تعالى: ﴿وَيَذْهَبَ عَنْكُمُ رِجْزُ الشَّيْطَانِ﴾ قِيلَ: وَسَوْسَةُ الشَّيْطَانِ، وَهُوَ مَا ذُكِرَ فِي بَعْضِ الْقِصَةِ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ أَصَابَهُمْ ضَعْفٌ شَدِيدٌ، وَأَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي قُلُوبِهِمُ الْقُنُوطَ، [يُوسُوسُ لَهُمْ] ^(١)، وَيَقُولُ لَهُمْ: تَزْعُمُونَ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ، وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَقَدْ غَلَبَكُمْ الْمُشْرِكُونَ عَلَى الْمَاءِ، وَأَنْتُمْ تَصَلُّونَ مُجْنِبِينَ، فَاظْطَرَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَطَرًا شَدِيدًا، فَشَرِبَ الْمُسْلِمُونَ، وَتَطَهَّرُوا، وَأَذْعَبَ عَنْهُمْ رِجْزُ الشَّيْطَانِ، وَنَشَفَ الرَّمْلُ؛ حِينَ أَصَابَهُ الْمَطَرُ مَشَى النَّاسُ عَلَيْهِ وَالدَّوَابُّ، فَسَارُوا إِلَى الْقَوْمِ، وَأَمَدَّ اللَّهُ نَبِيَّهُ بِالْفَيْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿يَأْتِيَنَّ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُوقِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩].

الآية ١٢

ثُمَّ قَالَ: ﴿إِذَا يُجِى رَيْكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ إِلَى مَعَكُمْ فَتَنِيُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الْوَحْيُ كَانَ يُسَمَّى وَحْيًا لِسُرْعَةِ قَذْفِهِ فِي الْقُلُوبِ وَوُقُوعِهِ فِيهَا. وَلِذَلِكَ سَمِيَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَسَاوِسَ الشَّيْطَانِ وَحْيًا بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِرَبِّهِمْ إِيذًا﴾ [الأنعام: ١٢١] أَيْ يَقْذِفُونَ فِي قُلُوبِهِمْ، وَيَذْعُونَ إِلَى أَشْيَاءٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ عَلِمُوا بِذَلِكَ أَنَّهُ يَمُنُّ جَاءَ ذَلِكَ؟ وَمَا سَبَبُ ذَلِكَ؟ لِسُرْعَةِ قَذْفِهِ وَوُقُوعِهِ فِي الْقُلُوبِ. وَكَذَلِكَ سَمِيَ الْإِلْهَامُ وَحْيًا لِسُرْعَةِ وَقُوعِهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَوْحَى رَيْكَ إِلَى الْقَلْبِ﴾ [النحل: ٦٨] وَقِيلَ: هُوَ الْإِلْهَامُ؛ أَيْ أَلْهَمَ النَّحْلَ ﴿أَنْ أَتِيَنِي مِنْ لِبَالِ يَوْمَا﴾ [النحل: ٦٨] وَقَالَ ﷺ: ﴿وَمَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ بِرَسُولٍ رَسُولًا فَيُوحِي بِأَذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٥١] أَخْبَرَ [أَنْ لَيْسَ] ^(٢) لَهُ ﴿أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ وَهُوَ مَا أَلْهَمَهُ سَمِيَ وَحْيًا لِسُرْعَةِ وَقُوعِهِ فِي الْقَلْبِ وَقَذْفِهِ عَلَى غَيْرِ عِلْمٍ مِنْهُمْ أَنَّهُ مِنْ أَيْنَ كَانَ؟ وَمِمَّ كَانَ؟

وفيه دلالة أَنَّ غَيْرَهُ هُوَ الَّذِي أَخْطَرَ ذَلِكَ فِي الْقُلُوبِ، وَقَذَفَ فِيهَا، لَا أَنَّهُ يُحَدِّثُ بِتَقْيِيهِ عَلَى غَيْرِ إِخْطَارٍ أَحَدٍ وَلَا قَذْفِهِ. فَإِنْ كَانَ مَا قَذَفَ فِيهِ خَيْرًا فَهُوَ مِنَ الْمَلَكِ، وَإِنْ كَانَ شَرًّا فَهُوَ مِنْ قَذْفِ الشَّيْطَانِ وَسَوْسَتِهِ، فَفِيهِ دَلِيلُ الْمَلَكِ وَالشَّيْطَانِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ قِيلَ: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ فِي النَّصْرِ وَالْمَعُونَةِ وَدَفْعِ الْعَدُوِّ عَنْكُمْ. أَوْ يَقُولُ: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ فِي التَّوْفِيقِ. وَتَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿إِذَا يُجِى رَيْكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ أَيْ أَخْبَرُوا ^(٣) الْمُؤْمِنِينَ ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ لِمَا ذَكَرْنَا مِنَ النَّصْرِ وَالْمَعُونَةِ وَالدَّفْعِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَتَنِيُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أَمَرَ مَلَائِكَتَهُ أَنْ يَتَّبِعُوا الَّذِينَ آمَنُوا بِالنَّصْرِ وَالْأَمْنِ بَعْدَ مَا كَانُوا خَائِفِينَ [فَشَلًّا جُبْنًا] ^(٤)؛ لَمَّا أَجَابُوا رَبَّهُمْ مَعَ ضَعْفِ أَيْدِيهِمْ وَقِلَّةِ عَدَدِهِمْ أَبْدَلَهُمْ ^(٥) اللَّهُ مَكَانَ الْخَوْفِ لَهُمْ أَمْنًا وَمَكَانَ الضَّعْفِ الْقُوَّةَ وَالنَّصَرَ وَمَكَانَ الذَّلَّ الْعِزَّ، وَأَبْدَلَ الْمُشْرِكِينَ مَكَانَ الْأَمْنِ لَهُمْ خَوْفًا وَمَكَانَ الْعِزِّ الذَّلَّ وَمَكَانَ الْكَثْرَةِ الضَّعْفَ وَالْفَقْلَ. فَذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، [مَعْنَى قَوْلِهِ] ^(٦): ﴿سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ﴾ وَقَوْلِهِ ﴿فَتَنِيُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾. وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ نَفْسُ نُزُولِ الْمَلَائِكَةِ تَثْبِيتُهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ سَبَبُ تَثْبِيتِهِمْ، أَوْ يَتَّبِعُهُمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ عَلِمَ الْمُؤْمِنُونَ بِهِمْ.

وقوله تعالى: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ قَالَ قَاتِلُونَ: قَوْلُهُ: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ إِذَا ظَفَرُوا بِهِمْ، وَوَقَعُوا فِي أَيْدِيهِمْ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يُضْرَبُ فَوْقَ الْأَعْنَاقِ، وَهُوَ الْفَضْلُ الَّذِي يُبَيِّنُ الرَّأْسَ بِالضَّرْبِ لِمَا نَهَى عَنِ الْمَثَلَةِ. وَفِي الضَّرْبِ فِي غَيْرِ ذَلِكَ مَثَلَةٌ.

وَتَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ أَيْ اضْرِبُوا الْأَعْنَاقَ وَمَا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [مَعْنَاهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَيْ اضْرِبُوا عَلَى مَا نَهَيْتُمْ لَكُمْ مِنَ الْأَطْرَافِ وَغَيْرِهَا. وَأَمَّا قَوْلُهُ ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾] ^(٧) فِي الْحَرْبِ لِأَنَّهُ لَا سَبِيلَ فِي الْحَرْبِ إِلَّا ^(٨) أَنْ يُضْرَبَ ضَرْبٌ ^(٩) لَا يَكُونُ مَثَلَةً. فَكَأَنَّهُ قَالَ: فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ، إِذَا قَدَرْتُمْ عَلَيْهِمْ، وَوَقَعُوا فِي أَيْدِيكُمْ ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ كَيْفَ مَا تَقْدِرُونَ وَحَيْثُ مَا تَقْدِرُونَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: يُوَسُّوهُمْ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: النَّاسُ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: أَخْبَرُوا. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: فَشَلِينَ جَبِينًا. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: فَايْدِلَهُمْ. (٦) فِي الْأَصْلِ: قَوْلُهُ، سَاقِطَةٌ مِنْ م. (٧) مِنْ م، سَاقِطَةٌ فِي الْأَصْلِ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: إِلَى. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: ضَرْبًا.

الآية ١٣ وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ يعني، والله أعلم، ذلك الضرب والقتل ﴿يَأْتُهُمْ مَتَاقًا﴾ أي حاربوا الله ورسوله ﴿وَالْمُشَاقَّةُ﴾ الخلاف؛ خالفوا الله ورسوله ﴿وَمَنْ يُقَافِئْ﴾ الله ورسوله فكأن الله شديد العقاب ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾.

الآية ١٤ وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ أي ذلكم العقاب والعذاب ﴿فَدَرَوْهُ﴾ وأنت للكافرين عذاب النار ﴿بِالْخِلَافِ﴾ لله ورسوله والمُحَارَبَةِ معهم.

الآية ١٥ وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَيْسَتْ الَّذِينَ كَفَرُوا رَحَقًا﴾ فلا تولوهم الأدبار ﴿كَانَ أَوَّلَ الْأَمْرِ بِالْقِتَالِ﴾ وفرضه كان بذل النفس للهلاك؛ لأنه ذكر الرُحْف، والرُحْف هو الجماعة [يزحفون إلى] (١) العدو الذي لا يجد. وليس للواحد القيام للجماعة، فكان فرض القتال بذل (٢) النفس للقتل.

وعلى ذلك يخرج قوله: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَبِيرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ﴾ [الأنفال: ٦٥] وليس في وسع الواحد القيام لعشرة، إذا أحيط به.

ويجوز أن يفرض بذل النفس للقتال كقوله ﴿وَلَوْ أَنَّا كُنْتُمْ عَلَيْهِمْ أَنْتَلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا قَلَّوْهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٦٦] أخبر أنه لو أمر بذلك امتحاناً منه لهم، فإن احتمل ما ذكرنا، كان قوله ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ﴾ [الأنفال: ٦٦] هو على التحقيق إذ إلى ذلك يساقون.

ويحتمل وجهاً آخر، وهو أن الله أمر بذلك ليكون آية، ويعرف كل أحد أنه قام بالله لا بقوة نفسه؛ إذ ليس في وسع أحد القيام لعشرة أو لجماعة بقوة إذا أحيط به، فهو على الآية، إن كان فيه ما ذكرنا، والله أعلم.

الآية ١٦ وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُولُوهُمْ الْاَدْبَارَ﴾ ﴿وَمَنْ يُولِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ﴾ والمتحرف للقِتَال هو المنتقل من مكان إلى مكان للحرب، والمتحيز إلى فِتْنَةٍ هو الملتجئ إلى فِتْنَةٍ على جهة العود إليهم والحرب؛ يقال: تحوزت بالواو والياء جميعاً، وهو نحو الحرب. وفيه النهي عن الانهزام والتولي عن العدو إلا ما ذكر من التحرف للقتال، والتحيز إلى الفِتْنَةِ، على جهة العود إليهم.

ثم أخبر أن من ولي دُبُرَهُ يسوى ما ذكر ﴿فَقَدْ بَكَءَ بِعَصَى مِنْ آلِهِ وَمَأْوَهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْغَيْبُ﴾ قالت المعتزلة: دل ما أوعد المتحرف بغير قتال والمتحيز إلى غير الفِتْنَةِ بقوله: ﴿فَقَدْ بَكَءَ بِعَصَى مِنْ آلِهِ﴾ أن من ارتكب الكبيرة يخلد في النار لأنه ذكر في أول الآية المؤمنين، ١٩٧ - ١/ ولهم خرج الخطاب بقوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَيْسَتْ الَّذِينَ كَفَرُوا رَحَقًا﴾ ثم أوعدهم الوعيد الشديد ما يؤعد أهل النار غير أهل الإيمان. دل أنه يخرج عن الإيمان بازتكاب الكبيرة، ويخلد في النار. وقالوا: لا يجوز صرف الآية إلى أهل التفاق لما ذكر في القصة أنه لم يكن يوم بدر منافق.

لكن هذا غلط. قال الله تعالى: ﴿إِذْ يَسْأَلُ الْغَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ [الأنفال: ٤٩] وإنما قالوا ذلك يوم بدر كذلك ذكر، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ﴾ فإن كان المشتكى من قوله ﴿فَقَدْ بَكَءَ بِعَصَى مِنْ آلِهِ﴾ لم يكن فيه رخصة التولي، ولكن فيه دفع الوعيد الذي ذكر. وإن كان المشتكى من قوله ﴿وَمَنْ يُولِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُ﴾ ففيه رخصة التولي إلى ما ذكر.

ثم الدلالة على أنه مشتكى من هذا دون الأول ما جاء من غير واحد من الصحابة تولية الدُبُر إلى ما ذكر. وكذلك روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أنا فتنة لكل مسلم». [أحمد ٢: ٩٩].

وبعد فإنه لم يكن لأهل الإسلام فتنة يوم بدر، يتحيزون إليها، فدل أنها في المنافقين وأهل الكفر، والله أعلم. ثم يقال: يجوز أن يكون ما ذكر من الوعيد لمعنى في التولية عن الدين والإعراض لا لنفس التولية عن الدين؛ إذ قد

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: البذل.

ذَكَرَ التَّوْلِيَةَ عَنِ الدِّينِ فِي آيَةٍ أُخْرَى وَالْعَفْوُ عَنْ ذَلِكَ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا مِنكُم يَوْمَ التَّلَاقِ الْيَوْمَ اتَّخَذْتُمُ

الَّذِينَ يَبْتَغُونَ مَعَ كَسْبًا﴾ [آل عمران: ١٥٥].

فَإِنْ قِيلَ: لَعَلَّ التَّوْلِيَةَ مُضْمَرَةٌ فِيهِ؛ تَابُوا، فَعَفَا عَنْهُمْ، قِيلَ: إِنْ جَازَ أَنْ يَجْعَلَ التَّوْلِيَةَ مُضْمَرَةً فِيهَا جَازَ أَنْ يُضْمَرَ فِي التَّوْلِيَةِ عَنِ الدِّينِ الرَّدَّةُ. فَلَيْسَتْ تِلْكَ أَوَّلَى بِإِضْمَارِ التَّوْلِيَةِ مِنْ هَذِهِ بِإِضْمَارِ الرَّدَّةِ.

وَفِي الْآيَةِ مَعَانٍ، تَدُلُّ عَلَى الْإِضْمَارِ إِضْمَارٍ مَا يُوجِبُ الرُّعْبَ الَّذِي ذَكَرَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: أَخَذَهَا: ذَكَرَ التَّحْيِيزَ إِلَى الْفِتْنَةِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِلْمُسْلِمِ فِتْنَةٌ يَتَحَيَّزُ إِلَيْهَا. فَإِذَا تَحَيَّزَ إِنَّمَا يَتَحَيَّزُ لِيَصِيرَ إِلَى الْعَدُوِّ، فَهُوَ الرَّدَّةُ الَّتِي ذَكَرْنَا.

وَالثَّانِي: مَا ذُكِرَ فِي بَعْضِ الْقِصَةِ أَنَّهُ لَمَّا اضْطَلَفَ الْقَوْمُ رَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَبِّ إِنْ تُهْلِكَ هَذِهِ الْعِصَابَةُ

فَلَنْ تُعْبَدَ فِي الْأَرْضِ أَبَدًا [مسلم ١٧٦٣] وَمَنْ هَرَبَ أَوْ وَلَّى الدُّبُرَ عَنْ مِثْلِ تِلْكَ الْحَالِ لَمْ يُولِّ إِلَّا لِقَصْدٍ لَا يُغْبِ اللَّهُ فَقَدْ كَفَرَ.

وَالثَّالِثُ: قَدْ وَعَدَ لَهُمُ النَّصْرَ وَالظَّفَرَ عَلَى الْعَدُوِّ، فَمَنْ وَلَّى الدُّبُرَ^(١) لَمْ يُولِّ إِلَّا لِيُكْذِبَ بِالْوَعْدِ الَّذِي وَعَدَ لَهُمْ.

الآية ١٧

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ قِيلَ فِيهِ بوجوه: يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ أَي لَمْ تَكُنْ جِرَاحَاتِكُمْ الَّتِي أَصَابَتْهُمْ بِمُصِيبَةِ الْمَقْتُلِ، وَلَا عَامِلَةً فِي اسْتِخْرَاجِ الرُّوحِ، وَلَا كَانَتْ قَاتِلَةً، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى صَيَّرَهَا قَاتِلَةً مُصِيبَةً الْمَقْتُلَ عَامِلَةً فِي اسْتِخْرَاجِ الرُّوحِ؛ لِأَنَّ مِنَ الْجِرَاحَاتِ مَا إِذَا أَصَابَتْ لَمْ تُصِبِ الْمَقْتُلَ وَلَا تَعْمَلُ فِي اسْتِخْرَاجِ الرُّوحِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ الْآيَةُ يُخْرِجُ عَلَى وَجوه:

أَخَذَهَا: أَنَّ الْعَبْدَ لَا صُنْعَ لَهُ فِي الْقَتْلِ وَاسْتِخْرَاجِ الرُّوحِ مِنْهُ، إِنَّمَا ذَلِكَ فِعْلُ اللَّهِ، وَإِلَيْهِ ذَلِكَ، وَهُوَ الْمَالِكُ لِذَلِكَ؛ لِأَنَّ الضَّرْبَةَ وَالْجَرْحَ قَدْ يَكُونُ، وَلَا مَوْتَ هُنَاكَ. وَكَذَلِكَ الرُّمْيُ؛ لَيْسَ كُلُّ مَنْ أَرْسَلَ شَيْئًا مِنْ يَدِهِ، وَقَدْ^(٢) رَمَى، إِنَّمَا يَصِيرُ رُمِيًّا بِاللَّهِ، إِنْ شَاءَ، السَّهْمُ حَتَّى يَصِلَ بِطَلْبِعِهِ الْمَبْلُغَ الَّذِي يَبْلُغُ. فَكَانَهُ لَا صُنْعَ لَهُ فِي الرُّمْيِ. أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَا يَمْلِكُ رَدَّ السَّهْمِ إِذَا أَرْسَلَهُ، وَلَوْ كَانَ فَعَلَهُ مَلَكٌ رَدَّهُ؟ وَلِهَذَا قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ، رَحِمَهُ اللَّهُ، إِنَّ الْإِسْتِجَارَ عَلَى الْقَتْلِ بَاطِلٌ.

وَالثَّانِي: قَتَلُوا بِمَعُونَةِ اللَّهِ وَنَصْرِهِ كَمَا يَقُولُ الرَّجُلُ لِأَخَرٍ: إِنَّكَ لَمْ تَقْتُلْهُ، وَإِنَّمَا قَتَلَهُ فُلَانٌ؛ أَي بِمَعُونَةِ فُلَانٍ قَتَلْتَهُ. فَعَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ أَي أَصَابَ رَمِيَّتُكَ الْمَقْصَدَ الَّذِي قَصَدْتَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ بِالْغِ ذَلِكَ الْمَقْصَدَ الَّذِي قَصَدْتَ.

وَالثَّالِثُ^(٣): ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ أَي لَمْ تَنْظَمُوا بِخُرُوجِكُمْ إِلَيْهِمْ قَتْلَهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا بِالْمَحَلِّ الَّذِي وَصَفَهُمْ مِنَ الضَّعْفِ وَشِدَّةِ الْخَوْفِ وَالذُّلَّةِ ﴿كَأَنَّمَا يَسْأَلُونَ إِلَى الْمَوْتِ﴾ [الأنفال: ٦]. فَإِذَا كَانُوا بِالْمَحَلِّ الَّذِي ذَكَرَ، فَيَقُولُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: لَمْ تَنْظَمُوا بِخُرُوجِكُمْ إِلَيْهِمْ وَقَصْدِكُمْ إِيَّاهُمْ قَتْلَهُمْ لِمَا كَانَ فِيكُمْ مِنَ الضَّعْفِ وَقُوَّةِ أَوْلَئِكَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ أَذَلَّهُمْ، وَالْقَى فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ وَالْخَوْفَ حَتَّى قَتَلُوهُمْ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ لَا يَنْظِمُ الْإِنْسَانُ بِرُمْيِ كَفِّ مِنْ تَرَابِ الشُّكْبَةِ بِأَعْدَائِهِ ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ حَيْثُ بَلَغَ ذَلِكَ، وَغَطَّى أَبْصَارَهُمْ وَأَعْيَنَهُمْ بِذَلِكَ الْكَفِّ مِنَ التَّرَابِ عَلَى مَا ذُكِرَ فِي الْقِصَّةِ أَنَّهُ رَمَى كَفًّا مِنْ تَرَابٍ، فَغَشَّى أَبْصَارَ الْمُشْرِكِينَ، فَانْهَزُوا لِذَلِكَ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ نِسْبَةُ هَذِهِ الْأَفْعَالِ إِلَى نَفْسِهِ وَإِضَافَتُهَا إِلَيْهِ كَمَا نَسَبَ، وَأَضَافَ كُلَّ خَيْرٍ وَمَعْرُوفٍ إِلَى نَفْسِهِ. مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ الْآيَةُ [الحجرات: ١٧] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: عَنِ الدُّبُرِ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَهُوَ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَالثَّانِي.

[البقرة: ٢٧٢] وقوله^(١) تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي فِيهَا إِضَافَةُ الْأَفْعَالِ الَّتِي خَلَصَتْ إِلَى اللَّهِ، وَصَفَتْ. فَعَلَى ذَلِكَ نَسَبُ فِعْلِهِمْ إِلَى نَفْسِهِ لِخُلُوصِهِ وَصَفَائِهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ بَلَاءٍ حَسَنٌ﴾ أَي نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ حِينَ^(٢) نَصَرَهُمْ عَلَى عَدُوِّهِمْ مَعَ ضَعْفِ أَسْلِحَتِهِمْ وَعُدَّتِهِمْ، وَهُوَ مَا ذَكَرَ فِي هَلَاكِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ أَنَّهُ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ لِمَنْ رَزَقْنَاهُ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩] فَعَلَى ذَلِكَ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لِدُعَائِكُمُ الَّذِي دَعَوْتُمْ وَنَصَرْتُمْكَمُ الَّذِي نَصَرْتُمُ إِلَيْهِ، أَوْ أَنْ يَقُولَ: ﴿سَمِيعٌ﴾، أَي مُجِيبٌ لِدُعَائِكُمْ ﴿عَلَيْتُ﴾ بِأَقْوَالِكُمْ وَأَفْعَالِكُمْ ﴿مَا تَشْرُوتُ وَمَا تَلْتُمُونَ﴾ [النحل: ١٩ والتغابن: ٤] وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٨

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ قَوْلُهُ: ﴿ذَلِكُمْ﴾ أَي ذَلِكَ كَانَ بِهِمْ مِنَ الْقَتْلِ وَالْأَسْرِ وَالْهَزِيمَةِ لَمَّا أَوْهَنَ، وَاضْعَفَ كَيْدَهُمْ، اللَّهُ تَعَالَى.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ صِلَةُ قَوْلِهِ: ﴿وَلَيْسَ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ بَلَاءٍ حَسَنٌ﴾ أَي ذَلِكَ الْإِنْعَامُ وَالْإِبْلَاءُ الَّذِي^(٣) مِنَ اللَّهِ إِلَيْكُمْ لَمَّا أَوْهَنَ كَيْدَهُمْ. وَذَلِكَ يَكُونُ فِي جَمَلَةِ الْمُؤْمِنِينَ؛ مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَهُ مِنَ اللَّهِ إِلَهٌ إِبْلَاءٌ وَإِنْعَامٌ فِي كُلِّ حَالٍ، لَا يُوْهِنُهُ^(٤) كَيْدُ الْكَافِرِينَ.

الآية ١٩

وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ الْإِسْتِفْتَاخُ يَحْتَمِلُ وَجْهًا ثَلَاثَةً: يَحْتَمِلُ الْإِسْتِشْكَافَ وَطَلَبَ الْبَيَانِ، وَيَكُونُ طَلَبُ الْحُكْمِ وَالْقَضَاءِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ؛ يُقَالُ: فَتَحَ بِكَذَا أَيْ حَكَمَ بِهِ، وَقَضَى. فَهُوَ يُخْرِجُ عَلَى وَجْهَيْنِ: عَلَى طَلَبِ بَيَانِ الْمُحِقِّ مِنَ الْمُبْطِلِ وَطَلَبِ بَيَانِ أَحَقِّ الدِّينَيْنِ بِالنَّصْرِ وَالْحُكْمِ. فَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ لَهُمُ أَحَقَّ الدِّينَيْنِ مَا ذُكِرَ فِي الْقِصَّةِ أَنَّ أَبَا جَهْلٍ قَالَ: اللَّهُمَّ أَقْضِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّا كَانُوا أَوْصَلَ لِلرَّجِمِ وَأَرْضَى عَنْكَ فَانْصُرُهُ. فَفَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ، وَنَصَرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَهَزَمَ الْمُشْرِكِينَ، فَتَرَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ.

وقيل: إِنَّهُ دَعَا: اللَّهُمَّ انْصُرْ أَعَزَّ الْجُنْدَيْنِ وَأَكْرَمَ الْقَتْلَيْنِ وَخَيْرَ الْقَبِيلَتَيْنِ فَكَانَ مَا ذَكَرْنَا. فَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ لَهُمُ أَحَقَّ الدِّينَيْنِ وَأَعَزَّ الْجُنْدَيْنِ لَمَّا هَزَمَ الْمُشْرِكِينَ مَعَ قُوَّتِهِمْ وَعُدَّتِهِمْ وَكَثْرَةِ عَدُوِّهِمْ بِفَتْحٍ ضَعِيفَةٍ ذَلِيلَةٍ قَلِيلَةٍ الْعَدُوِّ وَضَعِيفَةِ الْأَبْدَانِ وَالْأَسْبَابِ. دَلٌّ أَنَّهُ قَدْ بَيَّنَّ لَهُمُ الْأَحَقَّ مِنْ غَيْرِهِ.

وقيل: إِنَّهُمْ اسْتَفْتَحُوا بِالْعَذَابِ، وَكَانَ اسْتِفْتَاخُهُمْ مَا ﴿قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ أَلْحَقٌ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْلِمْزْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنْ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] فَنَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْبَدْرِ، وَآخِرُهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ ﴿وَإِنْ تَوَدُّوا نَعْدَ رَأْسِ عُقْبَى كَعْبٍ فَتَنُكُمُ شَيْئًا﴾ الْآيَةُ. وَالْإِسْتِفْتَاخُ هُوَ مَا ذَكَرْنَا.

قَالَ الْحَسَنُ: الْفَتْحُ الْقَضَاءُ. وَكَذَلِكَ قَالَ قَتَادَةُ؛ قَالَ^(٥): ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ الْقَضَاءُ فِي يَوْمِ بَدْرِ كَقَوْلِهِ: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ الْآيَةُ [الأعراف: ٨٩] وَقَالَ/ ١٩٧ - ب/ الْقَتَّابِيُّ: قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا﴾ فَاسْأَلُوا الْفَتْحَ، وَهُوَ النَّصْرُ ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ وَهُوَ مَا ذَكَرْنَا.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَنْتَهُوا فَوَهِىَ لَكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ تَنْتَهُوا﴾ عَمَّا كُنْتُمْ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ يُغْفَرُ لَكُمْ كَقَوْلِهِ ﴿إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] وَقِيلَ: ﴿وَإِنْ تَنْتَهُوا﴾ عَنْ قِتَالِ مُحَمَّدٍ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ مِنْ أَنْ يَنْتَهِيَ مُحَمَّدٌ عَنْ قِتَالِكُمْ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَدُّوا نَعْدَ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿وَإِنْ تَوَدُّوا﴾ إِلَى قِتَالِ مُحَمَّدٍ نَعْدَ إِلَيْكُمْ مِنَ الْقَتْلِ وَالْقِتَالِ وَالْأَسْرِ وَالْقَهْرِ. وَيَحْتَمِلُ ﴿وَإِنْ تَوَدُّوا نَعْدَ﴾ إِلَى الْبَيَانِ وَالْكَشْفِ إِلَى مَا كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِ الْبَيَانِ مِنَ التَّكْذِيبِ وَالْكَفْرِ لِمُحَمَّدٍ، نَعْدَ إِلَى الْإِنْتِقَامِ وَالتَّعْذِيبِ كَقَوْلِهِ ﴿وَإِنْ يَوَدُّوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

(١) فِي الْأَصْلِ وَم، وَهُوَ قَوْلُهُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٣) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: الَّذِينَ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: بِيَاهِهِ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: قَالُوا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ تُقْنِي عَنْكَ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالنضر والمعونة. فإن قيل: ذكر أنه لن تغني عنكم فيقتلهم ويقتلهم، وقد اغناهم كثرتهم وفئتهم يوم أحد حين^(١) ذكر أن الهزيمة كانت على المؤمنين، قيل: هذا لوجهين.

أحدهما: أن عاقبة الأمر كانت للمؤمنين، وإن كانت^(٢) في الابتداء عليهم فلن يغني عنهم ذلك على ما ذكر، لأنه لو اغناهم ذلك لكان لهم الابتداء والعاقبة.

والثاني: أنه لم تكن النكبة والهزيمة على المؤمنين إلا لبعضيان منهم كقوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ آلَ الْيَمَنِ﴾ الآية [آل عمران: ١٥٢] فما أصاب المؤمنين من الثكبات إنما كان بسبب كان منهم لا بالعدو. لذلك كان الجواب ما ذكر^(٣)، والله أعلم.

الآية ٢٠ وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي ﴿أطيعوا الله﴾ في أمره ونهيه ﴿وَرَسُولَهُ﴾ في بيانه وفي ما دعا إليه. وقيل: ﴿أطيعوا الله﴾ في فرائضه ﴿وَرَسُولَهُ﴾ في سنته وآدابه ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ آياته وحججه.

الآية ٢١ [وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾]^(٤) أي لا تكونوا في الإيمان والتوحيد والآيات ﴿كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا﴾ بذلك ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي لا يجيبون، ولا يسمعون، ولا يؤمنون.

ويحتمل أن يكون ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا﴾ الآيات والحجج ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي لا ينتفعون بسماعهم، أو لا يفعلون كالذواب وغيرها.

وقال أبو بكر الأصم: قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ استثقالاً وبغضاً أي لا يسمعون إليه، لأن من استثقل شيئاً، وانغصص لم يستمع إليه كقوله: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْقَوَىٰ فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦].

الآية ٢٢ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمْءُ الَّذِي لَا يَعْقِلُ﴾ تأويله، والله أعلم، إن الذي هو من شر الدواب عند الله هو [الأصم البكم]^(٥) لا ينتفع بسمعه ولسانه^(٦) ونطقه، وهم^(٧) لم ينتفعوا بسمعهم لما جعل له السمع ولم ينتفعوا بنطقهم لما جعل له النطق، ولم ينتفعوا بعقلهم لما جعل له العقل؛ فهم شر الدواب كقوله: ﴿أُولَٰئِكَ كَانُوا فِي اللَّهِ أَسْهَلُ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وأشر، لأن الدواب والأنعام انتفعت بهذه الحواس لما جعلت لها هذه الحواس عرفت بهذه الحواس المهالك والمضار، فتوقفت^(٨)، وعرفت اللأذ والنافع بها، فرغبت^(٩) فيها، فانتفعت^(١٠) الدواب بالحواس التي جعلت^(١١) لها لما جعلت، ولم تجعل لها هذه الحواس إلا لليقدار الذي عرفت، وفهمت، وانتفعت.

وهؤلاء الكفرة لم ينتفعوا بالحواس التي جعلت لهم لما جعلت [وإنما جعلت لهم]^(١٢) ليغرفوا النافع لهم اللأذ في العاقبة، فيعملوا لذلك، ويعرفوا الضار لهم في العاقبة والمهلك، فيتوقوه، فلم ينتفعوا بحواسهم لما جعلت الحواس، والدواب انتفعت بها. لذلك كانوا أسهل وأشر.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ﴾ الذين اكتسبوا الصمم الدائم والعمى الدائم، وذلك في الآخرة كقوله: ﴿وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [الإسراء: ٩٧] وقوله: ﴿أَخْشَرُوا فِيهَا وَلَا يَكْفُرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] أي تركوا اكتساب البصر الدائم والسمع الدائم والحياة الدائمة.

والباقي سمأهم صماً وبكماً وعمياً لم يكتسبوا بصراً القلب ونطق القلب [وسمع القلب]^(١٣) فهذه هي الحواس التي تكون في الاكتساب، ولم يكتسبوها، إنما لهم الحواس الظاهرة، أو يقول: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ﴾ التي لم تنتفع^(١٤) بالذي ذكر من الحواس، وترك^(١٥) استعمالها، والله أعلم.

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: كان. (٣) في الأصل وم: ذكروا. (٤) ساقطة من م. (٥) في الأصل وم: الصم البكم. (٦) في الأصل: بلسانه، في م: والبكم الذي لا ينتفع بلسانه. (٧) في الأصل وم: لأنهم. (٨) في الأصل وم: فتوقفت عنها. (٩) في الأصل وم: فترغب. (١٠) أدرج قبلها في الأصل وم: ونفع. (١١) في الأصل وم: جعل. (١٢) في الأصل: وإنما جعلت لهم ذلك، في م: لهم ذلك. (١٣) من م، ساقطة من الأصل. (١٤) في الأصل وم: ينتفعوا. (١٥) في الأصل وم: وتركوا.

الآية ٢٣

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ قِيلَ: نَزَلَتْ الْآيَةُ فِي الْمَرَدَّةِ مِنَ الْكُفْرِ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُمْ نَفَرٌ مِنْ بَنِي [عَبِيد] ^(١) الدَّارِ، كَانُوا يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ آيَةَ بَعْدَ آيَةٍ، وَقَدْ أَعْطَاهُمْ [اللَّهُ] ^(٢) آيَةَ بَعْدَ آيَةٍ قَبْلَ ذَلِكَ، فَلَمْ ^(٣) يَقْبَلُوهَا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ أَنَّهُمْ يَقْبَلُونَ جَوَابَ الْمَسَائِلِ الَّتِي سَأَلُوا لِأَوْحَى إِلَيْهِمْ وَلَأَسْمَعَهُمْ، وَلَكِنْ عَلِمَ أَنَّهُ وَإِنْ أَسْمَعَهُمْ جَوَابَ مَسَائِلِهِمْ لَا يَقْبَلُونَ.

وَقَالَتِ الْمُعْتَزَلَةُ: ذَلَّتِ الْآيَةُ أَنَّهُ قَدْ كَانَ أَعْطَاهُمْ جَمِيعَ مَا كَانَ عِنْدَهُ، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَقْبَلُوا لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ قَدْ عَلِمَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مَا يُعْطِي، وَإِلَّا لَوْ كَانَ ذَلِكَ عِنْدَهُ مَا يَقْبَلُونَ لِأَسْمَعَهُمْ.

لَكِنْ هَذَا بَعِيدٌ لِأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ: لَوْ عَلِمَ اللَّهُ خَيْرًا لِأَسْمَعَهُمْ، وَلَكِنْ قَالَ: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ فَإِنَّمَا نَقَى أَنَّهُ ^(٤) لَيْسَ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ. وَالْوَجْهُ فِيهِ مَا ذَكَرْنَا أَنَّهُ لَوْ عَلِمَ فِيهِمْ خَيْرًا يَعْلَمُونَ بِهِ لِأَوْحَى إِلَيْهِمْ، وَأَسْمَعَهُمْ، لَكِنَّهُ عَلِمَ أَنَّهُمْ لَا يَقْبَلُونَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ أَيِ مُكَذِّبُونَ جَوَابَ مَا سَأَلُوا تَعْتَبًا وَتَمَرُدًا مِنْهُمْ، وَخَبَرَ أَنَّهُمْ يَسْأَلُونَ سُؤَالَ تَعْتَبٍ وَتَمَرُدٍ لَا سُؤَالَ اسْتِزْشَادٍ.

الآية ٢٤

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: هَذِهِ الْآيَةُ صَلَوةٌ قَوْلِيهِ: ﴿كَأَنَّا أَخْرَجْنَا رُكُوكَ مِنْ بَيْنِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ﴾ [الأنفال: ٥] يَقُولُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ إِلَى مَا يَدْعُوكُمْ، وَإِنْ كَانَتْ أَنْفُسُكُمْ تَكْرَهُ الْخُرُوجَ لِذَلِكَ لِقَلَّةِ عَدَدِكُمْ وَضَعْفِ أَعْيَانِكُمْ وَكَثْرَةِ عَدَدِ الْعَدُوِّ وَقُوَّتِهِمْ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ بِالذِّكْرِ وَالشَّرَفِ وَالنَّشَاءِ الْحَسَنِ فِي الدُّنْيَا وَالْحَيَاةِ فِي الْآخِرَةِ اللَّذِيذَةِ الدَّائِمَةِ؛ أَيِ ^(٥) إِنْ مِتُّمْ، وَهَلَكْتُمْ فِي مَا يَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ، يَكُنْ ^(٦) لَكُمْ فِي الْآخِرَةِ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ الْآيَةُ فِي جُمْلَةِ الْمُؤْمِنِينَ؛ أَيِ ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ﴾ فِي أُمُورِهِ وَنَوَاهِيهِ ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾ فِي مَا يَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ؛ وَإِنَّمَا كَانَ يَدْعُو إِلَى دَارِ الْآخِرَةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس: ٢٥] وَدَارِ الْآخِرَةِ هِيَ دَارُ الْحَيَاةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤] كَأَنَّهُ قَالَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ فَإِنَّهُ إِنَّمَا دَعَاكُمْ إِلَى مَا تَحْيَوْنَ فِيهَا لَيْسَ كَالْكَافِرِ الَّذِي ﴿لَا يَتُوبُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ [طه: ٧٤ وَالْأَعْلَى: ١٣] بِتَرْكِهِ الْإِجَابَةَ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ أَمْكَنَ أَنْ يُخْرِجَ هَذَا عَلَى الْأَوَّلِ؛ أَيِ اعْلَمُوا ﴿أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ يَجْعَلُ الْقَوِيَّ ضَعِيفًا وَالْعَزِيزَ ذَلِيلًا وَالضَّعِيفَ قَوِيًّا وَالذَّلِيلَ عَزِيزًا وَالشُّجَاعَ جَبَانًا وَالْخَائِفَ أَمِينًا وَالْأَمِينَ خَائِفًا. فَاجِيبُوا الرُّسُولَ بِالْخُرُوجِ لِلْجِهَادِ. وَإِنْ كُنْتُمْ تَخَافُونَ لِضَعْفِكُمْ وَقُوَّتِهِمْ.

وَيَحْتَمِلُ فِي جُمْلَةِ الْمُؤْمِنِينَ: أَنَّ مَنْ اسْتَجَابَ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاهُ يَجْعَلُ قَلْبَهُ هُوَ الْغَالِبُ عَلَى نَفْسِهِ وَالْحَائِلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا تَدْعُو إِلَيْهِ [النَّفْسُ]، وَإِذَا تَرَكَ الْإِجَابَةَ يَجْعَلُ نَفْسَهُ هِيَ الْحَائِلَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ ^(٧)، وَالِدَاعِيَةُ إِلَى ذَلِكَ ﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُعْشَرُونَ﴾. وَقِيلَ: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ بِالطَّاعَةِ فِي أَمْرِ الْقِتَالِ ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ إِلَى الْحَرْبِ ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ يَعْنِي بِالْحَرْبِ الَّتِي أَعَزَّكُمْ اللَّهُ. يَقُولُ: أَحْيَاكُمْ اللَّهُ بَعْدَ الذَّلِّ، وَقَوَّاهُمْ بَعْدَ الضَّعْفِ. وَكَانَ ذَلِكَ حَيَاةً.

[وقوله تعالى] ^(٨): ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ يُخْرِجُ عَلَى وَجْهَيْنِ: يَحُولُ بَيْنَ قَلْبِ الْمُؤْمِنِ [وَبَيْنَ الْكُفْرِ] ^(٩) وَيَحُولُ بَيْنَ الْكَافِرِ وَبَيْنَ الْإِيمَانِ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ يُخْرِجُ عَلَى وَجْهَيْنِ.

أَحَدُهُمَا: يَسْتَنْجِلُ التَّوْبَةَ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ بِهِ الْمَوْتُ، [كَأَنَّهُ] ^(١٠) يَقُولُ: أَجِيبُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ قَبْلَ أَنْ يُحَالَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ بِالْمَوْتِ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل: لهم. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: يكون. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

والثاني: ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ بالأعمال التي يكتسبها، يُشْيئُ بالفعل^(١) الذي يفعله طبع قلبه وخشمته، ونشئهُ ظُلْمَةٌ تحُولُ بَيْنَهُ وبين ما يقصده، ويدعى إليه، والله أعلم.

الآية ٢٥

وقوله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ قال بعضهم: ﴿لَا﴾ ههنا صلة زائدة؛ كأنه قال: / ١٩٨ - ١ / ﴿وَأَتَقُوا فِتْنَةً﴾ تُصِيبُ^(٢) ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ أي اتقوا فِتْنَةً الذين تُصِيبُ الظُّلْمَةَ مِنْكُمْ بِظُلْمِهِمْ، وهو العذاب كقوله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١] فعلى ذلك قوله ﴿وَأَتَقُوا فِتْنَةً﴾ تُصِيبُ^(٣) ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ في الآخرة، وهو العذاب. وذلك جائز في الكلام، نحو ما قرأ بعضهم قوله ﴿وَمَا يَشْعُرْكُمْ أَنَّهُ إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩] بكسر الالف وطرح ﴿لَا﴾ [إنها إذا جاءت يؤمنون]^(٤) أي إنها وإن جاءت لا يؤمنون. وأما على إثبات ﴿لَا﴾ فإنه يَحْتَمِلُ وجوهاً.

قيل: ﴿وَأَتَقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي اتقوا أن تكونوا فِتْنَةً للذين ظلموا كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [المتنحة: ٥] [وقوله تعالى]^(٥). ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْرِ أَعْلَلِيَّينَ﴾ [يونس: ٨٥]. وَجْهٌ جَعَلَهُ إِيَّاهُمْ فِتْنَةً للذين كفروا هو أن يجعل العدو غالباً عليهم ناصرين، وهُمُ الْمَغْلُوبُونَ، فَيُظْهِرُونَ أَنَّهُمْ عَلَى حَقٍّ، والمؤمنون على باطل، فذلك معنى دعائهم: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْرِ أَعْلَلِيَّينَ﴾ لئلا يقولوا: لو كانوا على حق ما غلبوا، ولا قهروا، ولا انتصروا منهم.

وقيل: قوله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ﴾ نهى الاتباع منهم ألا يسعوا^(٦) في ما بين الظلمة والفساد، ولا يغري بعضهم على بعض، فيقع في ما بينهم الفساد، فيكون هؤلاء الاتباع فِتْنَةً للذين ظلموا بإغراء بعضهم على بعض. وذلك معروف في ما بين الخلق في الظلمة، يغري الاتباع بعضهم على بعض، فذلك فِتْنَةٌ ويَحْتَمِلُ وجهاً آخر؛ هو أن الله تعالى يُغَيِّرُ الأحوال في الخلق مَرَّةً سَعَةً وخسباً ومَرَّةً قُحْطاً وضيقاً ومَرَّةً غَلَبَةً للعدو^(٧) على الأولياء، ونحوه.

ويَدْفَعُ العذاب عن الظلمة بمن لم يظلم ما لم يشاركوا الظلمة. فإذا شاركوا أولئك يحلُّ بأولئك [العذاب]^(٨) بِظُلْمِهِمْ وأهل الصلاح والعدل يتركهم الظلمة وأهل الفساد^(٩)، ولهم قُوَّةُ الْمَنعِ لَهُمْ عن ذلك. فيقول: ﴿لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ ولكن تُصِيبُهُمْ، وتُصِيبُكُمْ، فقال: ﴿وَأَتَقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ﴾ أخذ الظلمة بالعذاب لمشاركة أهل العدل أولئك، فيكونون فِتْنَةً لَهُمْ كقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، أي^(١٠) يَدْفَعُ عن الظلمة البلاء والعذاب ما دام أهل العدل يأمرؤونهم بالمعروف ويُعَيِّرُونَهُمْ^(١١) الْمُتَكَبِّرَ، فإذا تَرَكُوهُمْ، وهُمُ لَا يُعَيِّرُونَهُمْ^(١٢) الْمُتَكَبِّرَ، تَرَكَ بِهِمُ الْبَلَاءَ [فَيُعْطُهُمُ الْبَلَاءَ]^(١٣) الظالم وغيره.

والفِتْنَةُ على وجهين؛ فِتْنَةُ الْجَزَاءِ جَزَاءِ أَعْمَالِهِمْ، وذلك يأخذ أهلَهُ خَاصَّةً، وفِتْنَةُ الْمِحْنَةِ وذلك يعمُ الخلق، والله أعلم.

الآية ٢٦

وقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخطفَكُمُ النَّاسُ﴾ الآية، إن أهل الإسلام في ابتداء الأمر كانوا قَلِيلًا الْعَدَدِ مُسْتَضْعَفِينَ عِنْدَ الْكَفَرَةِ حتى كانوا يخافون أن يسلب الكفرة أزواجهم، وكانوا لا يأتون على أنفسهم بالمقام في البلدان لِقَلَّةِ عَدَدِهِمْ وَضَعْفِهِمْ خَوْفاً على أنفسهم وإشفاقاً، فتركوا المقام بالبلدان، وخرجوا إلى الجبال والغيان، فأقاموا فيها، وأكلوا الحشيش والكَلأَ طعاماً الأنعام خَوْفاً على أبدانهم وإشفاقاً على دينهم.

(١) في الأصل وم: الفعل. (٢) و (٣) في الأصل وم: نصيبين. (٤) من م، ساقطة من الأصل، انظر معجم القراءات القرآنية ج ٢/ ٣٠٨ وحجة القراءات ص ٢٦٥. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: يسمعون. (٧) في الأصل وم: العدو. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) أدرج بعدها في الأصل: عن الظلم والفساد. (١٠) في الأصل وم: أو أن. (١١) في الأصل وم: ويغيرون عليهم. (١٢) في الأصل وم: تركوا ولا يغيرون عليهم. (١٣) من م، ساقطة من الأصل.

ثم إِنَّ اللَّهَ ۖ، آوَاهُمْ، وَانزَلَهُمْ فِي الْبُلْدَانِ وَالْأَمْصَارِ، وَأَيَّدَهُمْ، وَنَصَرَهُمْ عَلَى عَدُوِّهِمْ، وَرَزَقَهُمُ الطَّيِّبَاتِ طَعَامَ الْبَشَرِ بَعْدَ مَا أَكَلُوا الْحَشِيشَ طَعَامَ الْبَهَائِمِ^(١) ﴿لَمَّا كُنْتُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لِيَلْزِمَهُمُ الشُّكْرُ عَلَى ذَلِكَ. وَلَا يَجُوزُ لَهُمْ إِلَّا يَشْكُرُوا بَعْدَ مَا أَصَابُوا. ذَكَرَ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِنَا، لِنَكُونَ نَحْنُ مِنَ الْإِشْفَاقِ فِي الدِّينِ مِثْلَ أَوْلَئِكَ حِينَ هَرَبُوا مِنْهُمْ، وَاتَّخَذُوا الْجِبَالَ وَالْغَيْرَانَ يُبَوِّتًا وَالْحَشِيشَ طَعَامًا، وَتَرَكُوا أَمْوَالَهُمْ وَنِعْمَتَهُمْ، وَرَضُوا بِذَلِكَ إِشْفَاقًا عَلَى دِينِهِمْ.

وَقَالَ عَامَّةُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: نَزَلَتِ الْآيَةُ فِي أَهْلِ بَذْرِ، وَكَانُوا قَلِيلًا^(٢) الْعَدُوَّ وَالْعَدُوَّ ضَعِيفًا^(٣) الْأَبْدَانِ، وَالْعَدُوَّ كَثِيرَ الْعَدُوِّ وَقَوِيَّ الْأَبْدَانِ، فَاسْتَدَّ عَلَيْهِمُ الْخُرُوجُ لِذَلِكَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ﴾ الْآيَةُ [الأنفال: ٥] فَكَيْفَ مَا كَانَ فَبِهِمَا مَا ذَكَرْنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ﴾ أَيِ إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا. وَفِيهِ دَلَالَةٌ لِقَوْلِ أَبِي حَنِيفَةَ، رَجَمَهُ اللَّهُ، فِي مَنْ قَالَ: هَذَا الشَّيْءُ لِفُلَانٍ، اشْتَرَيْتُهُ مِنْهُ، صَدَقَ، وَبَصِيرُ كَأَنَّهُ قَالَ: هَذَا الشَّيْءُ كَانَ لِفُلَانٍ [اشْتَرَيْتُهُ]^(٤) مِنْهُ؛ دَلِيلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ﴾ أَيِ إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ﴾ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ بِالْمَلَانِكَةِ ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ الْمَغَانِمِ الَّتِي رَزَقَهُمْ، وَأَحْلَلْ لَهُمْ.

الآية ٢٧

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَخَوَّعُوا أَمْنَكُمْ﴾ جَعَلَ اللَّهُ ۖ، هَذِهِ الْأُمَّةَ وَسَطًا عَدْلًا بِقَوْلِهِ: ﴿جَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] فَكَانَهُ قَالَ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ جَعَلَكُمُ اللَّهُ أُمَّةً عَدْلًا وَسَطًا، فَلَا تَخُونُوا اللَّهَ فِيهِ كَقَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ الْآيَةُ [النساء: ١٣٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨] وَقَالَ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأحزاب: ٧٢] أَخْبَرَ أَنَّهُ الرَّمَهُمُ الْأَمَانَةَ؛ أَعْنَى الْبَشَرِ دُونَ مَا ذَكَرَ مِنَ الْخَلَائِقِ.

ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ ضَيَّعَ تِلْكَ الْأَمَانَةَ مِنْ نَحْوِ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُشْرِكِينَ، وَخَانُوا فِيهَا، فَلَجَحَقَهُمُ الْوَعْدُ بِالتَّضْيِيعِ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ﴾ الْآيَةُ [الأحزاب: ٧٣] فَكَانَهُ قَالَ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ قَبِلْتُمُ أَمَانَةَ اللَّهِ فَلَا تُضَيِّعُوهَا، وَلَا تَخُونُوا فِيهَا كَمَا قَالَ: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ [النحل: ٩١] [وَقَالَ:]^(٥) ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] وَغَيْرَهَا مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي فِيهَا ذِكْرُ الْأَمَانَةِ. نَهَاهُمْ أَنْ يَخُونُوا فِيهَا، فَيَكُونُوا^(٦) كَانَهُمْ خَانُوا أَمَانَتَهُمْ.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَخَوَّعُوا أَمْنَكُمْ﴾ أَنَّ أَنْفُسَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ لِلَّهِ، وَهِيَ عِنْدَكُمْ أَمَانَةٌ، اسْتَحْفَظَكُمْ فِيهَا، فَلَا تَسْتَعْمِلُوهَا فِي غَيْرِ مَا أُذِنَ لَكُمْ؛ لِأَنَّ مَنْ اسْتَحْفَظَ أَحَدًا فِي شَيْءٍ، وَوَضَعَ عِنْدَهُ أَمَانَةً، فَاسْتَعْمَلَهَا فِي غَيْرِ مَا أُذِنَ لَهُ، صَارَ خَائِنًا فِيهَا مُضَيِّعًا^(٧) فَعَلَى ذَلِكَ أَنْفُسَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ لِلَّهِ عِنْدَكُمْ أَمَانَةٌ، اسْتَحْفَظَكُمْ فِيهَا، فَإِذَا اسْتَعْمَلْتُمُوهَا^(٨) فِي غَيْرِ مَا أُذِنَ لَكُمْ فِيهَا خُتِنْتُمْ لِلَّهِ وَالرَّسُولَ فِيهَا، فَتَخُونُونَ^(٩) أَمَانَاتِكُمْ الَّتِي لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ إِذَا ضَيَّعْتُمُ الْأَمَانَةَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠].

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ: ﴿وَخَوَّعُوا أَمْنَكُمْ﴾ الَّتِي فِيهَا مَا يَنْتَكُمُ.

وَاضْلُهُ أَنَّ اللَّهَ ۖ امْتَحَنَهُمْ فِي مَا امْتَحَنَهُمْ لِمَنَافِعِ أَنْفُسِهِمْ وَلِحَاجَتِهِمْ، فَيَصِيرُونَ فِي مَا خَانُوا فِي مَا امْتَحَنَهُمْ كَانَهُمْ^(١٠) خَانُوا أَنْفُسَهُمْ، وَخَانُوا أَمَانَاتِهِمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ الْآيَةُ [فصلت: ٤٦].

ثُمَّ خِيَانَةُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُشْرِكِينَ فِي الدِّينِ، وَخِيَانَةُ الْمُؤْمِنِينَ فِي أَعْمَالِهِمْ، وَعَدَّ لَهُمُ التَّوْبَةَ عَنْ خِيَانَتِهِمْ، وَوَعَدَ أَوْلَئِكَ عَلَى مَا خَانُوا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [الأحزاب: ٧٣].

(١) من م، في الأصل: البشر. (٢) في الأصل: م. قليل. (٣) في الأصل: م. ضعيف. (٤) من م، ساقطة في الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل: م. فيكونون. (٧) في الأصل: م. صامتًا. (٨) في الأصل: م. استعملتم. (٩) في الأصل: م. فتخونوا. (١٠) في الأصل: م. كانوا.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَقُولُونَ﴾ أَنْ أَنْفُسَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ لَيْسَتْ لَكُمْ، إنما هي لله عندكم أمانة، فلا تَحُونُوا فيها. وعن ابن عباس: [أنه]^(١) قال: الأمانة الأعمال التي ائتمن الله عليها العباد؛ يغني الفريضة. يقول: لا تَحُونُوا الله، أي لا تَنَقُضُوا.

ثم اختلف أهل التأويل في نزول الآية: قال بعضهم: نزلت في أبي لبابة [ابن عبد المُنْذِر]^(٢)؛ وذلك ما قيل في بغض القصة: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ حَاصِرَ يَهُودَ قَرْيَةَ، فَسَأَلُوا الصُّلْحَ عَلَى أَنْ يَبِيرُوا إِلَى إِخْوَانِهِمْ إِلَى أَذْرُعَاتٍ، فَأَبَى النَّبِيُّ إِلَّا أَنْ يَنْزِلُوا عَلَى الْحُكْمِ، فَأَبَوْا، وَقَالُوا^(٣): فَأَرْسِلْ إِلَيْنَا أَبَا لُبَابَةَ، وَكَانَ مُنَاصِحَهُمْ، فَبَعَثَهُ النَّبِيُّ إِلَيْهِمْ. فَلَمَّا آتَاهُمْ قَالُوا: يَا أَبَا لُبَابَةَ أُنْزِلْ عَلَى حُكْمِ مُحَمَّدٍ، فَأَشَارَ أَبُو لُبَابَةَ بِيَدِهِ؛ أَي لَا تَنْزِلُوا عَلَى الْحُكْمِ، فَطَاعُوهُ. وَكَانَ أَبُو لُبَابَةَ، مَالَهُ وَوَلَدُهُ مَعَهُمْ/ ١٩٨ - ب/، فَخَانَ الْمُسْلِمِينَ.

[وقيل: نزلت]^(٤) الآية في شأنِ حاطبِ بْنِ [أبي]^(٥) بَلْتَعَةَ، فَعَلَّ مَا فَعَلَ أَبُو لُبَابَةَ. وقيل: نزلت في شأنِ قوم، بينهم وبين رسول الله عهد الذين كانوا يعبدون الأصنام. لكننا لا ندري في شأنِ مَنْ نزلت؟ وليس لنا إلى معرفة ذلك حاجة سوى أَنَّ فِيهِ مَا ذَكَّرْنَا مِنَ النَّهْيِ فِي الْخِيَانَةِ فِي أَمَانَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَالْأَمْرِ بِحِفْظِهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٢٨

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا آمَنَوكُمُ وَأَوْلَدَكُمُ فَتَنَنَّكُمْ﴾ أي لم يعطهم الأولاد والأموال لعباً وباطلاً، أي ليكون^(٦) لَهُمُ الْأَمْوَالُ وَالْأَوْلَادُ، وَلَكِنْ أَعْطَاهُمْ مِخْنَةً وَابْتِلَاءً. وكذلك جميع [ما]^(٧) أنشأ في الدنيا من الأشياء إنما أنشأ^(٨) لَنَا فِتْنَةً وَمِخْنَةً كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَتَبْلُوكُمْ بِغِيٍّ مِنَ الْغُيُوبِ وَالْجُوعِ﴾ الآية [البقرة: ١٥٥] وقوله تعالى: ﴿وَيَبْلُوكُمْ بِالنَّارِ وَالْخَيْرِ فَتَنَةً وَاللَّيْنِ تَرْحُمُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥] وقوله^(٩) تَعَالَى: ﴿وَيَبْلُوكُمْ بِالسَّيِّئَاتِ﴾ الآية [الأعراف: ١٦٨] وَغَيْرِهَا^(١٠) مِنَ الْآيَاتِ يُدَلُّ أَنَّ جَمِيعَ مَا أَنْشَأَ فِتْنَةً وَمِخْنَةً، يَمْتَحِنُ بِهِ الْبَشَرَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَنَّمَا آمَنَوكُمُ وَأَوْلَدَكُمُ فَتَنَنَّكُمْ﴾ أي مِخْنَةً وَابْتِلَاءً امْتَحَنًا بِهِ فِي أَنْوَاعِ التَّادِيبِ وَالتَّعْلِيمِ وَالحِفْظِ وَالحَقِّقِ الَّتِي جَعَلَهَا عَلَيْهِمْ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ الآية [التحریم: ٦]. وَأَوْجَبَ فِي الْأَمْوَالِ حُقُوقًا، امْتَحَنًا بِأَدَاءِ تِلْكَ الْحُقُوقِ الَّتِي فِيهَا. وَكَذَلِكَ فِي جَمِيعِ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ الْخَلَائِقَ بِأُمُورٍ، وَنَهَاهُمْ. إِنَّمَا أَمَرَ وَنَهَى لِمَنْفَعَةِ الْخَلَائِقِ وَدَفْعِ الضَّرَرِ عَنْهُمْ لَا لِمَنْفَعَةِ نَفْسِهِ^(١١)؛ إِذْ لَهُ مُلْكُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَهُوَ الْعَزِيزُ بِذَلِكَ بِذَاتِهِ، لَا تَمَسُّهُ حَاجَةٌ، يَتَعَالَى عَنْ ذَلِكَ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لِمَنْ [لم]^(١٢) يَخُنِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَعَدَ لَهُمُ الْأَجْرَ الْعَظِيمَ إِذَا قَامُوا بِوَفَاءِ مَا امْتَحَنَهُمُ اللَّهُ، وَابْتَلَاهُمْ بِهِ مِنَ الْأَوْلَادِ حِينَ^(١٣) قَالَ: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

الآية ٢٩

وقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنَفَّوْا أَنْ تَحْمِلَ لَكُمْ رُفْقَانَا﴾ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ صِلَةٌ مَا سَبَقَ مِنَ الْأَمْرِ بِالْجِهَادِ بِبَذْرِ وَالْخُرُوجِ إِلَيْهِ؛ كَأَنَّهُ قَالَ: ﴿إِنْ تَنَفَّوْا اللَّهَ﴾ وَأَعْطَيْتُمْ اللَّهَ، وَاجْتَنَبْتُمْ لَهُ فِي مَا دَعَاكُمْ إِلَيْهِ، ﴿يَحْمِلَ لَكُمْ رُفْقَانَا﴾ أَي يَجْعَلْ خُرُوجَكُمْ إِلَيْهِ وَجِهَادَكُمْ آيَةً عَظِيمَةً، يُظْهِرُ بِهِ الْمُجِئُ مِنَ الْمُبْطِلِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَيِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَتِهِ﴾ [الأنفال: ٧] وَقَوْلِهِ^(١٤) تَعَالَى: ﴿لِيُخَيِّقَ الْحَقَّ وَيَبْطِلَ الْبَاطِلُ﴾ [الأنفال: ٨] أَي يُظْهِرَ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ.

وَقَدْ كَانَ بِحَمْدِ اللَّهِ ذَلِكَ، وَبَانَ الْحَقُّ مِنَ الْبَاطِلِ، وَالْمُجِئُ مِنَ الْمُبْطِلِ. وَقِيلَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رُفْقَانَا﴾ أَي مَخْرَجًا فِي الدِّينِ مِنَ الشُّبُهَاتِ. وَقِيلَ: مَخْرَجًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَيَحْتَمِلُ ﴿رُفْقَانَا﴾ أَي بَيَانًا لِمَا ذَكَّرْنَا: جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى التَّقْوَى مُشْتَمِلًا عَلَى كُلِّ خَيْرٍ وَاضِلًا لِكُلِّ بُرٍّ، وَصَيَّرَهُ مَخْرَجًا مِنْ^(١٥) كُلِّ ضَيِّقٍ وَشِدَّةٍ، وَجَعَلَهُ سَبِيلًا، ثُمَّ يُوصِلُ بِهِ إِلَى كُلِّ لَذَّةٍ وَسُرُورٍ، وَيُنَالُ بِهِ كُلَّ خَيْرٍ وَبَرَكَةٍ عَلَى مَا ذَكَرَ فِي غَيْرِ آيَةٍ^(١٦) مِنَ الْقُرْآنِ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: فنزلت. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، في الأصل ليكونوا. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: وقال. (١٠) في الأصل وم: أو غيره. (١١) في الأصل وم: أو ضررا أو حاجة يدفع به عن نفسه. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) في الأصل وم: حيث. (١٤) في الأصل وم: وقال. (١٥) في الأصل وم: لمن. (١٦) في الأصل وم: أي.

وقوله تعالى: ﴿وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ سِيئَاتِكُمْ﴾ التي سبقت ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أي يستر عليكم ذنوبكم، لا يطلع أحدا عليها، وذلك من أعظم النعم. وأصل المغفرة الستر. وقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ أي عند الله فضل؛ يعطيكم خيرا مما تطمعون.

الآية ٣٠

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ من الناس من يقول بأن هذه الآية صلة قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنْتَ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ الْإِنْسَاءُ﴾ [الأنفال: ٢٦] كانوا ضعفاء أذلاء، في ما بين الكفرة خائفين في ما بينهم، فهموا أن يَمْكُرُوا برسول الله. والمكر به ما ذكر من القتل والإثبات، وهو الحبس أو الإخراج. كأنهم تشاوروا في ما بينهم، واستأمرُوا ما يفعلون به^(١).

فذكر في القصة أن بعضهم أشاروا إلى القتل، وبعضهم إلى الحبس، وبعضهم بالإخراج، فكانت مشاورتهم وأمرهم رجعت إلى أحد هذه الوجوه؛ إما القتل وإما الحبس [وإما الإخراج]^(٢).

ثم أخرج الله رسوله من بين أظهرهم على الوجه الذي يكون مطيعاً لله متعبداً له في ما كان خروجه بأمره، فيكون خروجه على غير الجهة التي أرادوا هم به. وسعى خروجه هجرة، ليَعْلَمُوا أنه إنما [علم]^(٣) بكيدهم ومكرهم به بالله ليكون آية من آيات نبوته ورسالته خروجه^(٤) من بين أظهرهم ومفارقة إياهم كما كان له من الآيات وقت مقامه بين أظهرهم.

وهو كما كان ليعسى آيات وقت مقامه بين أظهرهم، وآية كانت له بالرفع بعد مفارقتهم قومه. فعلى ذلك الأول، ولو كانوا يتوافقون^(٥) بما ذكرنا من القتل أو الحبس دون الإخراج لم يكن ليُخرج رسوله من بين أظهرهم، وهم قد هموا بإخراجه، والله أعلم.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ﴾ إلى آخر ما ذكر تذكير ما أنعم على رسوله وأصحابه لأنه آواهم إلى الأمن بعد ما كانوا خائفين فيهم، وأنزلهم المدينة بعد ما كانوا في الغيران في الجبال هاربين منهم، ورزقهم من الطيبات طعام البشر بعدما كانوا يتناولون من طعام البهائم والسباع، يذكر نعمة عليهم باستنقاذهم إياهم من بين ظهرانيهم والحيولة بينه وبين ما قصدوا، وهموا بالمكر به والهلاك.

[وفي قوله تعالى]^(٦): ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [وجوه في الاختجاج]^(٧) عليهم.

أخذها: ما ذكرنا أنهم تشاوروا في ما بينهم بالمكر له، ولم^(٨) يطلعوا أحداً، ثم علم ذلك، فخرج^(٩)، ليَعْلَمُوا أن الله هو الذي أطلعهم على ذلك.

والثاني: [كانوا يخوفون]^(١٠) الهلاك بمكرهم برسوله، فخرج من بينهم من غير أن أصابه ما هموا به.

والثالث^(١١): قد أصابهم من الهلاك الذي [كانوا يخوفون به]^(١٢)، وحل بهم ما كانوا قصدوا^(١٣). وذلك ما ذكر من مكر الله بهم.

وقوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ قال بعضهم: أرادوا بمكرهم شراً، وهو أن يطفئوا هذا النور ليندب هذا الدين، وتدرس آثاره. وأراد الله أن يسلم منهم نقر ليكونوا أعواناً ونصراً له ليأخذوا حظهم بذلك، فهو خير الماكرين.

وقيل: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ أي أرادوا قتله ﴿وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ أراد قتلهم، فقتلهم بيدر ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ أي أفضل مكرهم منهم؛ غلب مكره مكرهم. وقال بعضهم: قوله ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ أي يخرجه من مكرهم.

الآية ٣١

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ثَلَاثُ عَشْرَةَ أَيَّامًا﴾ يختم قوله ﴿ءَايَاتُ الْقُرْآنِ﴾ التي كان يثلو رسول الله. وتحتل ﴿ءَايَاتُ﴾ حجة إبراهيم التي توجب التوحيد وتصدق الرسل.

(١) في الأصل وم: يفعل بهم. (٢) ساقطة من الأصل وم: (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: بعد خروجه. (٥) في الأصل وم: يتوافقوا. (٦) في الأصل وم: بقوله. (٧) في الأصل وم: فيه من الوجوه احتجاجاً. (٨) الواو ساقطة من الأصل وم: (٩) أدرج قبلها في الأصل وم: هو. (١٠) في الأصل وم: كان يخوفهم. (١١) في الأصل وم: و. (١٢) في الأصل وم: كان يخوفهم. (١٣) في الأصل وم: به وقصدوه.

وقوله تعالى: ﴿فَدَسَمْنَا لَوْ تَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ قالوا ذلك مُتَعَتِّينَ؛ إذ^(١) كَانَ يَفْرَعُ أَسْمَاعُهُمْ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَئِنْ أَجْمَعَتِ الْإِثْمُ وَالْجُنُودُ أَنْ يُلْقُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يُلْقُوا بِهِ مِثْلَهُ﴾ [الإسراء: ٨٨] وقوله تعالى ﴿فَأَنزَلْنَا سُورَةَ الْقُرْآنِ﴾ الآية [البقرة: ٢٣] ثم لم يَكُنْ يَظْمَعُ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَنْ يَأْتِيَ بِمِثْلِهِ لَوْ تَكَلَّفُوا ذَلِكَ. دَلَّ أَنَّ قَوْلَهُمْ ﴿لَوْ تَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ تَعَتُّ وَعِنَادٌ ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ كذلك كَانَ يَقُولُ الْعَرَبُ: إِنَّهُ أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ.

الآية ٣٢

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِمَّا وَعَدَنَّا فَاتُخِذْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ الآية؛ يَذْكُرُ نِهَآيَةَ سَفَهِهِمْ وَغَايَةَ جُرَآئِهِمْ عَلَى اللَّهِ وَبُغْضَهُمُ الْحَقَّ مَعَ عِلْمِهِمْ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْإِلَهُ، وَأنَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْزَالِ الْعَذَابِ، وَلَهُ السُّلْطَانُ عَلَى إِمطَارِ الْحِجَابِ بِقَوْلِهِمْ ﴿فَاتُخِذْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ أَتَيْنَا بِعَذَابٍ آَلِيمٍ﴾ فلم يَنَالُوا هَلَاكَ أَنْفُسِهِمْ لِشِدَّةِ سَفَهِهِمْ وَجُرَآئِهِمْ عَلَى اللَّهِ وَبُغْضِهِمُ الْحَقَّ.

[وَذَكَرَ هَذَا]^(٢) وَاللَّهُ أَعْلَمُ، لِيَعْلَمَ النَّاسُ مَا لَحِقَ رَسُولَ اللَّهِ بِدَعَائِهِ هَؤُلَاءِ السَّفَهَاءِ إِلَى دِينِ اللَّهِ الَّذِينَ لَمْ يَنَالُوا هَلَاكَ أَنْفُسِهِمْ لِشِدَّةِ بُغْضِهِمُ الْحَقَّ وَجُرَآئِهِمْ عَلَى اللَّهِ/١٩٩ - أ/، وَتَحَمَّلَ^(٣) مِنْهُمْ مِنَ الْعَظِيمِ.

الآية ٣٣

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ لَّهُمْ يَوْمَئِذٍ مِّنْ يَوْمٍ﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ أَيِ فِي جَمَلَةِ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُ لَا يُعَذَّبُ أَحَدٌ فِي الدُّنْيَا مَا دَامَ هُوَ فِيهِمْ، وَمَادَامَ [فِيهِمْ مُؤْمِنٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى]^(٤): ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ لَّهُمْ يَوْمَئِذٍ مِّنْ يَوْمٍ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أَيِ يُؤْمِنُونَ، وَهُوَ^(٥) كَمَا ذَكَرَ أَنَّهُ أَرْسَلَهُ رَحْمَةً بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وَمِنْ رَحْمَتِهِ أَلَّا يُعَذَّبَ أَحَدًا مِّنْ أُمَّتِهِ فِي الدُّنْيَا، إِنَّمَا يُؤَخَّرُ ذَلِكَ إِلَى يَوْمِ الثَّنَادِي بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا يُؤَخَّرُهُمْ لِيَوْمٍ﴾ [إبراهيم: ٤٢] كَذَا وَقَوْلِهِ: ﴿وَالسَّاعَةُ أَقْبَرُ وَأَمَرٌ﴾ [القمر: ٤٦].

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ فِي أَهْلِ مَكَّةَ خَاصَّةً؛ إِنَّهُ لَا يُعَذَّبُهُمْ مَا دَامَ فِيهِمْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ نَحْوِ النِّسَاءِ وَالذَّرَارِيِّ كَقَوْلِهِ ﴿وَلَوْلَا رِجَالُ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُّؤْمِنَاتٌ لَّزَّ نَفَكُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فَنُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَزَّةٌ بَعِيرٌ﴾ الآية [الفتح: ٢٥] أَيِ لَا نَعَذِّبُهُمْ وَأَنْتَ يَا مُحَمَّدُ فِيهِمْ؛ أَيِ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ حَتَّى تُخْرِجَكَ مِنْ بَيْنِهِمْ.

[وَقِيلَ]^(٦) ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ لَّهُمْ يَوْمَئِذٍ مِّنْ يَوْمٍ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أَيِ يُصَلُّونَ، وَقِيلَ: يُؤْمِنُونَ.

وَكَذَلِكَ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه وَلَكِنْ يُعَذِّبُهُمْ تَعَذِّبُ الْقِتَالِ وَالْجِهَادِ، وَلَا يُعَذِّبُهُمْ تَعَذِّبُ اسْتِثْصَالٍ عَلَى مَا أَهْلَكَ^(٧) سَائِرَ الْأُمَمِ.

ثُمَّ إِنَّ الْمُتَعَزِّزَةَ تَعَلَّقَتْ بِظَاهِرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ لَّهُمْ يَوْمَئِذٍ مِّنْ يَوْمٍ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أَيِ سَيُؤْمِنُونَ، أَيِ لَا يُعَذَّبُهُمْ مَا دَامَ يَنْفَعُهُمْ أَنْ فِيهِمْ أَحَدٌ يُؤْمِنُ فِي آخِرِ عُمُرِهِ، أَوْ مِنْ قَوْلِهِمْ: أَلَّا يَجُوزُ لِلَّهِ أَنْ يُهْلِكَ أَحَدًا إِذَا كَانَ فِي عِلْمِهِ أَنَّهُ سَيُؤْمِنُ فِي آخِرِ عُمُرِهِ لِقَوْلِهِمْ فِي الْأَصْلَحِ: إِنَّ اللَّهَ لَا يَفْعَلُ بِخَلْقِهِ إِلَّا مَا هُوَ أَصْلَحُ لَهُمْ فِي الدِّينِ. فَعَلَى ذَلِكَ تَأَوَّلُوا ظَاهِرَ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ لَا يُعَذَّبُهُمْ، وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ؛ أَيِ سَيُؤْمِنُونَ.

لَكِنْ لَوْ كَانَ كَمَا قَالُوا لَكَانَ لَا يَجُوزُ الْجِهَادُ مَعَهُمْ أَبَدًا، وَيَسْقُطُ الْأَمْرُ بِالْقِتَالِ؛ إِذْ لَعَلَّ فِيهِمْ مَنْ يُسْلِمُ، فَإِذَا نَ أَمْرُهُ بِالْجِهَادِ وَالْقِتَالِ مَعَهُمْ دَلَّ أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ مَا تَوَهَّمُوا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَالَ بَغُضُّهُمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ لَّهُمْ يَوْمَئِذٍ مِّنْ يَوْمٍ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أَيِ وَهُمْ يَدْخُلُونَ فِي الْإِسْلَامِ. وَقِيلَ: يُسْلِمُونَ.

وَقَالَ بَغُضُّهُمْ: ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ بَقِيَّةُ مَنْ بَقِيَ فِي مَكَّةَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَلَمَّا خَرَجُوا مِنْهَا قَالَ: ﴿وَمَا لَهُمْ إِلَّا بِعَذَابِهِمْ﴾ الآية [الأنفال: ٣٤].

وَرُوِيَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه [أَنَّهُ]^(٨) قَالَ: فِيكُمْ أَمَانَانِ، أَحَدُهُمَا: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِقَوْلِ اللَّهِ: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ لَّهُمْ يَوْمَئِذٍ مِّنْ يَوْمٍ يَسْتَغْفِرُونَ﴾

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: إِذَا. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَهَذَا ذَكَرَ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيَحْتَمِلُ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: مُؤْمِنٌ فِيهِمْ بِقَوْلِهِ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَهُمْ. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: هَلَكَ. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴿ وَالْآخِرُ: الْإِسْتِغْفَارُ لِقَوْلِ اللَّهِ: ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ قَالَ: فَذَهَبَ أَمَانٌ، وَهُوَ رَسُولُ اللَّهِ، وَبَقِيَ أَمَانٌ، وَهُوَ الْإِسْتِغْفَارُ.

وعن ابن عباس رضي الله عنه [أنه^(١)] قَالَ: إِنَّ اللَّهَ جَعَلَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ أَمَانَيْنِ، لَا يَزَالُونَ مَعْصُومِينَ^(٢) مِنْ قَوَارِعِ الْعَذَابِ مَا دَامَ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ؛ فَأَمَانٌ قَبَضَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ، وَأَمَانٌ بَقِيَ فِيهِمْ^(٣)، وَهُوَ الْإِسْتِغْفَارُ الَّذِي ذَكَرَ.

وَرَوَى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: «كَانَ سَاجِدًا فِي آخِرِ سُجُودِهِ فِي صَلَاةِ [آيَةِ الْكُسُوفِ]^(٤)، فَقَالَ: أَفْ أَفْ، فَقَالَ: رَبِّ أَلَمْ تَعِزَّنِي إِلَّا تَعَذِّبُهُمْ، وَأَنَا فِيهِمْ؟ رَبِّ أَلَمْ تَعِزَّنِي إِلَّا تَعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ؟» [بنحوه أبو داود ١١٩٤].

وعن بغضهم: أَمَانَانِ أَنْزَلَهُمَا اللَّهُ؛ أَمَّا أَحَدُهُمَا فَمَضَى، وَهُوَ نَبِيُّ اللَّهِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَأَبْقَاهُ اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ، وَهُوَ الْإِسْتِغْفَارُ وَالتَّوْبَةُ.

وفي إثبات قول السفهاء ودُعائِهِمْ بِامْطَارِ الْحَجَارَةِ عَلَيْهِمْ وَجَعَلَ ذَلِكَ [الْإِسْتِغْفَارَ]^(٥) كِتَابًا يَتْلَى فِي الصَّلَوَاتِ أَوْجَةً ثَلَاثَةً مِنَ الْحِكْمَةِ:

أَحَدُهَا: تَعْرِيفُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ الْمُعَامَلَةَ مَعَ السُّفَهَاءِ عِنْدَ ارْتِكَابِ الْمَنَاقِبِ مِنَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالتَّنْهِي عَنِ الْمُنْكَرِ إِذَا^(٦) تَمَادَوْا فِي غَيْبِهِمْ، وَاسْتَقْبَلُوا بِالْمَكْرُوهِ وَالْأَذَى، أَلَا يُتْرَكُ الْأَمْرُ لَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَا يُنَاسَ مِنْ خَيْرِهِمْ أَقْدَاءُ النَّبِيِّ أَنَّهُ لَمْ يَتْرَكْ دُعَاءَهُمْ وَأَمْرَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ مَعَ شِدَّةِ سَفَهِهِمْ وَتَمَرُّدِهِمْ.

وَالثَّانِي: لِيَعْلَمَ الْخَلْقُ أَنَّ حُجَّةَ اللَّهِ تُلْزِمُ الْعِبَادَ، وَإِنْ كَانُوا قَدْ جَهَلُوهُ إِذَا كَانَ لَتَضْيِيعِ جَاءَ مِنْ قِبَلِهِمْ فِي تَرْكِ النَّظَرِ وَالتَّفَكُّرِ؛ إِذْ لَوْ عَلِمُوا حَقِيقَةَ الْعِلْمِ أَنَّهُ الْحَقُّ لَمْ يَكُونُوا لِيَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْهَلَاكِ.

وَالثَّلَاثُ: يَكُونُ فِيهِ بَيَانٌ.

الآية ٣٤

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أَي مَا لَهُمْ مِنْ عُذْرٍ فِي صَرْفِ الْعَذَابِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ؛ إِذْ قَدْ كَانَ مِنْهُمْ مِنْ أَنْوَاعٍ مَا كَانَ، لَوْ كَانَ وَاحِدٌ مِنْ ذَلِكَ لَكَانُوا يَسْتَوْجِبُونَ الْعَذَابَ، مِنْ تَكْذِيبِهِمُ الرِّسُولَ وَالْآيَاتِ الَّتِي أَرْسَلَهَا إِلَيْهِمْ وَصَدُّهُمْ النَّاسَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَهُوَ مَكَانُ الْعِبَادَةِ، وَسُؤَالِهِمْ بِقَوْلِهِمْ: ﴿فَأَنْظِرْ عَلَيْنَا جِسَارَةً مِنْ السَّمَاءِ أَوْ أَتَيْنَا بِعَذَابٍ آسِرٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] أَي لَيْسَ لَهُمْ عُذْرٌ فِي صَرْفِ الْعَذَابِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ، وَالْاِخْتِجَاجُ عَلَى اللَّهِ أَنَّهُ لَمْ يُرْسِلْ رَسُولًا بِقَوْلِهِمْ: ﴿لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ الْآيَةُ [طه: ١٣٤] بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْهِمُ الرِّسُولَ فَكَذَّبُوهُ، وَبَعَثَ إِلَيْهِمُ الْآيَاتِ فَكَذَّبُوهَا، وَصَدُّوا النَّاسَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ.

فَلَا عُذْرَ لَهُمْ فِي وَجْهِ مِنَ الْوَجْهِ أَنْ يَصْرِفَ الْعَذَابَ. إِلَّا أَنَّ اللَّهَ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ يَصْرِفُ الْعَذَابَ عَنْهُمْ بِرِكَاتِ النَّبِيِّ ﷺ وَاسْتِغْفَارِ الْمُؤْمِنِينَ. وَإِلَّا قَدْ كَانَ مِنْهُمْ جَمِيعُ سَبَابِ الْعَذَابِ الَّتِي يَسْتَوْجِبُونَ بِهَا.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أَي عَنِ الصَّلَاةِ فِيهِ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ صَدُّهُمْ^(٧) النَّاسَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ، لَكِنَّهُ ذَكَرَ الْمَسْجِدَ لِمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ فِيهِ لثَلَا يَرَوُا رَسُولَ اللَّهِ، فَيَسْتَعْمِلُوا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ أَي لَمْ يَكُونُوا لِيَصْرِفُوا الْعَذَابَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ بِالْوِلَايَةِ، وَهُوَ صِلَةُ قَوْلِهِ: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ لَيْسُوا بِأَوْلِيَاءِهِ﴾.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ أَنَّهُمْ كَانُوا يَصُدُّونَ النَّاسَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ لِمَا ادَّعَوْا أَنَّهُمْ أَوْلِيَاؤُهُ، وَأَنَّهُمْ أَوْلَى بِالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ. ثُمَّ اخْتَارَ أَنَّهُمْ لَيْسُوا أَوْلِيَاءَهُ، إِنَّمَا أَوْلِيَاؤُهُ الْمُتَّقُونَ الَّذِينَ اتَّقَوْا لِمَا أَنَاهُمْ، وَأَوْلِيَاؤُهُ الْمُؤَحِّدُونَ لَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا غَيْرَهُ فِي عِبَادَتِهِ وَأُلُوهِيَّتِهِ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: معصومون. (٣) في الأصل وم: فيكم. (٤) في الأصل وم: الآيات. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: أنهم إنما. (٧) في الأصل وم: صدوا.

الآية ٣٥

وقوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ قال بعضهم: كان أحسن حالهم التي هم عليها هي حال الصلاة. فإذا كانت^(١) صلاتهم مكاء وتصدية فكيف حالهم في غير الصلاة؟ وقال بعضهم: قوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ وذلك أن النبي ﷺ وأصحابه إذا صلوا في المسجد الحرام قامت طائفة من المشركين عن يمين النبي وأصحابه، فيضفرون كما يضيف المكاء، وطائفة تقوم عن يساره، فيصفقون بأيديهم ليخلطوا على النبي وأصحابه صلاتهم. فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾.

ثم اختلف في المكاء والتصدية. قال بعضهم: المكاء هو مثل نفخ البوق، والتصدية هو طوافهم على الشمال. وقال القتيبي: المكاء الصغير؛ يقال: مكأ يَمْكُو، وهو مثل ما قيل للطائر: مكأ؛ لأنه يَمْكُو أي يضيف؛ يغني يصوت. والتصدية هي^(٢) التصفيق؛ يقال: صدى إذا صفق يَدَيْهِ.

وقال أبو عوسجة: المكاء شبه الصغير، والتصدية ضرب باليدين، وهو من الصدى من الصوت. وقيل: المكاء صغير كان أهل الجاهلية يلعبون به، والتصدية الصّد عن سبيل الله ودينه.

وقوله تعالى: ﴿فَذَوْقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ قال بعض أهل التأويل ﴿فَذَوْقُوا الْعَذَابَ﴾ يوم بدر، وهو الهزيمة والقتل الذي كان عليهم يوم بدر. ويحتمل قوله: ﴿فَذَوْقُوا الْعَذَابَ﴾ في الآخرة بكفرهم^(٣) في الدنيا.

الآية ٣٦

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية؛ يذكّركم، والله أعلم، النعم التي أنعمها عليهم:

أحدها^(٤): ما أنزلهم في بقعة؛ خصت تلك البقعة، وفضلت على غيرها من البقاع، وهي^(٥) مكان العبادة.

[والثانية: ما أعطاهم من الأموال، فأنفقوها في الصد صد الإنسان عن مكان العبادة وإقامة العبادة فيه.

والثالثة: بعث الرسول منهم فيهم، فكذبوه]^(٦).

ثم اختلف في معنى ١٩٩ - ب/ الصد؛ قال بعضهم: إن كفار قريش استأجروا لقتال بدر رجالاً من قبائل العرب عوناً لهم على قتل النبي ﷺ وأصحابه. فتلك نفقتهم التي أنفقوا، فصار ذلك حسرة عليهم لما كانت الهزيمة عليهم.

روى ابن عباس رضي الله عنهما، أنه سئل عن هذه الآية، فقال: تلك قد خلت؛ إن أناساً في الجاهلية كانوا يغطون نساء أموالهم، فيقاتلون نبي الله [فما سلّموا]^(٧) عليها، فقلّبوا^(٨)، فكانت عليهم [حسرة]^(٩).

وعن سعيد بن جبيرة [أنه]^(١٠) قال: نزلت في أبي سفيان بن حرب استأجر يوم أحد من الأحابيش من كنانة، فقاتلهم النبي. ويحتمل أن يكون [قوله تعالى]^(١١): ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةٌ﴾ يوم القيامة؛ أي النفقة التي أنفقوها عليهم حسرة في الآخرة لما أنفقوها لصد الناس عن سبيل الله.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ مُخْرَجُونَ﴾ أي يجمعون إلى جهنم بكفرهم بالله.

الآية ٣٧

وقوله تعالى: ﴿يَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ جعل الله تعالى الخبيث مختلطاً بالطيب في الدنيا في سقمهم وبصرهم ونطقهم وجميع جوارحهم ولباسهم وطعامهم وشرابهم وجميع منافعهم من الغنى والفقر وأنواع المنافع. جعل بعضهم ينعش مختلطين^(١٢) في الدنيا على ما ذكرنا.

(١) في الأصل وم: كان. (٢) في الأصل وم: هو. (٣) في الأصل وم: بكفرهم. (٤) في الأصل وم: أحد. (٥) في الأصل وم: وهو. (٦) في الأصل وم: ثم صدوا الناس عن الدخول فيها والعبادة ومن ذلك بعث الرسول منهم فيهم فكذبوه وما أعطاهم من الأموال فأنفقوها في الصد صد الإنسان عن مكان العبادة وإقامة العبادة فيه. (٧) في الأصل وم: فاسلموا. (٨) في الأصل وم: فقلّبوا. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) من م، في الأصل: مختلطين.

لكنه مَيَّزَ بَيْنَ الطَّيِّبِ وَالْخَبِيثِ فِي الْآخِرَةِ بِأَعْلَامٍ؛ يُعْرِفُ بِتِلْكَ الْأَعْلَامِ الْخَبِيثُ مِنَ الطَّيِّبِ مِنْ نَحْوِ مَا ذَكَرَ فِي الطَّيِّبِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجُودٌ يُؤْمِرُ بِأَمْرِ رَبِّهِ فَإِنَّهَا نَافِلَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ و ٢٣] وَقَوْلُهُ ^(١) تَعَالَى: ﴿وَجُودٌ يُؤْمِرُ بِأَمْرِ رَبِّهِ فَإِنَّهَا نَافِلَةٌ﴾ [سَبْحَةُ شَتِيرَةٍ] [عبس: ٣٨ و ٣٩]. وَقَالَ تَعَالَى فِي الْكَفَرَةِ ^(٢): ﴿وَجُودٌ يُؤْمِرُ بِأَمْرِ رَبِّهِ فَإِنَّهَا نَافِلَةٌ﴾ [عبس: ٤٠ و ٤١] وَقَالَ: ﴿وَجُودٌ يُؤْمِرُ بِأَمْرِ رَبِّهِ فَإِنَّهَا نَافِلَةٌ﴾ [طه: ١٠٢] وَقَالَ ^(٣): ﴿وَجُودٌ يُؤْمِرُ بِأَمْرِ رَبِّهِ فَإِنَّهَا نَافِلَةٌ﴾ [الأنفال: ٩٧] وَقَالَ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ [طه: ١٢٤] وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

مَيَّزَ اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَ الْخَبِيثِ وَالطَّيِّبِ بِالْأَعْلَامِ ^(٤) الَّتِي ذَكَرْنَا فِي سَمْعِهِمْ وَبَصَرِهِمْ وَوُجُوهِهِمْ وَلِبَاسِهِمْ وَمَا كَلِمَتِهِمْ وَمَشْرِبِهِمْ حَتَّى يُعْرِفُوا جَمِيعًا بِالْأَعْلَامِ.

وَيَحْتَمِلُ مَا ذَكَرَ مِنَ التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْخَبِيثِ وَالطَّيِّبِ بِالْمُبَاهَلَةِ الَّتِي جَرَتْ بَيْنَ أَبِي جَهْلٍ وَبَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ ^(٥) قَالَ أَبُو جَهْلٍ: انْصُرْ أَهْدَانَا سَبِيلًا وَأَبْرَأْنَا قَسَمًا وَأَوْصَلْ رَجَمًا. فَأَجِيبْ، فَتَضَرَّ رَسُولُهُ وَأَصْحَابُهُ، فَمَيَّزَ. وَيَحْتَمِلُ مَا ذَكَرَ مِنَ التَّمْيِيزِ فِي الْآخِرَةِ قَوْلُهُ ^(٦) تَعَالَى: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

وقوله تعالى: ﴿يَجْعَلُ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكَبُ جَمِيعًا﴾ هَذَا يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنْ يَجْعَلَهُمْ دَرَكَاتٍ بَعْضُهَا أَسْفَلَ مِنْ بَعْضٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

وَالثَّانِي ^(٧): يَحْتَمِلُ أَنْ يَجْعَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكَبُ جَمِيعًا. قِيلَ: يَجْمَعُهُ جَمِيعًا، بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ. وَيَحْتَمِلُ ﴿فَيَرْكَبُ جَمِيعًا﴾ إِبْخَارًا عَنِ الضَّبِّيِّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّبِينَ﴾ [الفرقان: ١٣].

وقال الْقُتَيْبِيُّ: ﴿فَيَرْكَبُ جَمِيعًا﴾ أَي يَجْعَلُهُ رُكَامًا، بَعْضُهُ ^(٨) فَوْقَ بَعْضٍ، وَكَذَلِكَ قَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ؛ يُقَالُ: رَكَمْتُ الْمَتَاعَ إِذَا جَعَلْتُ بَعْضَهُ فَوْقَ بَعْضٍ.

وقوله تعالى: ﴿يَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ الْجَهَنَّمُ هُوَ الْمَكَانُ الَّذِي يَجْمَعُ أَهْلَ النَّارِ لِلتَّعْذِيبِ.

الآية ٣٨

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ ذَكَرَ ﷺ غَايَةَ كَرَمِهِ وَجُودِهِ بِمَا وَعَدَ لَهُمْ مِنَ الْمَغْفِرَةِ وَالتَّجَاوُزِ عَمَّا كَانَ مِنْهُمْ مِنَ الْإِسْرَافِ فِي الْوَهْيِ وَضَرْفِ الْعِبَادَةِ إِلَى غَيْرِهِ وَصَدِّ النَّاسِ عَنْ عِبَادَتِهِ وَطَاعَتِهِ وَنُضْبِ الْحُرُوبِ الَّتِي نَصَبُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْهَلَاكِ.

فَمَعَ مَا كَانَ مِنْهُمْ وَعَدَ لَهُمْ الْمَغْفِرَةَ بِالْإِنْتِهَاءِ مِنْ ذَلِكَ لِثَغْلَمَ غَايَةَ كَرَمِهِ وَجُودِهِ. وَالْمَغْفِرَةُ تَحْتَمِلُ التَّجَاوُزَ عَنْهُمْ مَا كَانَ مِنْهُمْ؛ لَا يُؤَاخِذُهُمْ ^(٩) بِذَلِكَ، وَيَحْتَمِلُ [أَنْ يَسْرَ] ^(١٠) عَلَيْهِمْ مَعَاصِيَهُمُ الَّتِي كَانَتْ ^(١١) مِنْهُمْ، فَلَا يَذْكُرُونَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُمْ لَوْ ذَكَرُوا ذَلِكَ نَقَصَ ^(١٢) عَلَيْهِمُ النَّعَمَ.

وفيه دلالة نَقْصِ قَوْلِ الْمُعْتَزِلَةِ لِأَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ إِنْ انْتَهَوْا، وَتَابُوا، غَفَرَ لَهُمْ مَا قَدْ كَانَ مِنْهُمْ، وَإِنَّمَا كَانُوا مُتَّهِينَ بِالْإِيمَانِ لَوْلَمْ يَجْعَلْ بَيْنَ الْإِيمَانِ ^(١٣) وَالْكَفْرِ مَنْرَةً ثَالِثَةً، وَهُمْ يَجْعَلُونَ بَيْنَهُمَا مَنْرَةً ثَالِثَةً، وَيَقُولُونَ: إِذَا ارْتَكَبَ [المرء] ^(١٤) كَبِيرَةً خَرَجَ مِنَ الْإِيمَانِ، وَيُحْلَلُ فِي النَّارِ أَبَدًا، وَإِنْ ^(١٥) لَمْ يَكُنْ دَاخِلًا فِي الْكَفْرِ.

وفيه دليل نَقْصِ قَوْلِهِ مَنْ يَقُولُ بَأَنَّ عَلَى الْكَافِرِ فِعْلَ الْعِبَادَاتِ مِنْ نَحْوِ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ، لِأَنَّهُ ذَكَرَ الْإِنْتِهَاءَ، وَالْإِنْتِهَاءُ عَمَّا كَانَ مِنْ تَرْكِ الْعِبَادَاتِ الْقِيَامِ بِقَضَائِهَا، وَإِذَا مَا تَرَكُوا فَلَمَّا لَمْ يَجِبْ عَلَيْهِمْ أَدَاءُ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ. دَلٌّ أَنْ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِمْ فِي حَالِ كُفْرِهِمْ فِعْلُ تِلْكَ الْعِبَادَاتِ، إِنَّمَا عَلَيْهِمْ اِغْتِقَادُ تِلْكَ الْعِبَادَاتِ؛ إِذْ لَوْ كَانَتْ عَلَيْهِمْ لَكَانَ الْإِنْتِهَاءُ عَنْهَا بِقَضَاءِ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: الْكَافِرُ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: بِأَعْلَامٍ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٦) فِي الْأَصْلِ: كَقَوْلِهِ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: بَعْضُهَا. (١٠) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ بِأَخْذِهِمْ. (١١) فِي الْأَصْلِ: يَسْرُ، فِي م: يَسْتَرُ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: كَانَ. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: يَنْقُصُ. (١٤) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ.

ذَلِكَ كَقَوْلِهِ ﷻ «مَنْ نَامَ عَنْ صَلَاةٍ، أَوْ نَسِيَهَا، فَعَلَيْهِ أَنْ يُصَلِّيَهَا إِذَا اسْتَيْقَظَ، وَذَلِكَ كَفَارَتُهُ» [التمهيد ٣ / ٢٨٩] وكذلك قوله تعالى: «فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ» [التوبة: ٥] لَيْسَ عَلَى الْفِعْلِ، وَلَكِنْ فِي حَقِّ الْإِغْتِقَادِ أَنَّهُ لَا سَبِيلَ إِلَى الْقِيَامِ بِفِعْلِ مَا ذَكَرَ إِلَّا بَعْدَ حَوْلٍ وَوَقْتٍ طَوِيلٍ.

وفي هذه الآية دلالة على أَنَّ لَيْسَ بَيْنَ الشُّرْكِ وَالْإِيمَانِ مَنَزَلَةٌ ثَالِثَةٌ عَلَى [مَا^(١)] يَقُولُهُ الْمُعْتَزِلَةُ فِي صَاحِبِ الْكَبِيرَةِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ مَنَزَلَةٌ لَكَانُوا دَخَلُوا فِي الْإِيمَانِ.

وقوله تعالى: «وَإِنْ يَوَدُّوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ» قَالَ بَعْضُهُمْ: وَإِنْ يَعُودُوا إِلَى الْكُفْرِ وَقَتَالَ مُحَمَّدٌ بَعْدَ أَنْ انْتَهَوْا عَنْهُ فَقَدْ مَضَى كَذَا؛ يَغْنِي الْقِتَالَ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: «يَعُودُوا» أَي دَامُوا فِيهِ، لَا أَنْ كَانُوا خَرَجُوا مِنْهُ نَحْوَ قَوْلِهِ «يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ» [البقرة: ٢٥٧] كَانُوا فِيهِ لَا أَنْ كَانُوا خَرَجُوا مِنْهُ، ثُمَّ دَخَلُوا فِي غَيْرِهِ. ثُمَّ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ بَعْدَ هَذَا:

أَحَدُهُمَا: أَنْ لِلْكَفْرِ حُكْمَ التَّجَدُّدِ فِي كُلِّ وَقْتٍ.

وَالثَّانِي: مَا ذَكَرْنَا أَنْ ذَكَرَ الْعَوْدَ فِيهِ لِدَوَائِبِهِمْ فِيهِ، وَإِنْ لَمْ يَخْرُجُوا مِنْهُ. وَذَلِكَ جَائِزٌ فِي اللِّسَانِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ» [البقرة: ٢٥٧] ابْتِدَاءً إِخْرَاجٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ كَانُوا فِيهِ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: «رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ» [الرعد: ٢] ابْتِدَاءً رَفَعَ لَا أَنْ كَانَتْ مَوْضُوعَةً، فَرَفَعَهَا مِنْ بَعْدُ. فَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَإِنْ يَوَدُّوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ» يَحْتَمِلُ: أَي دَامُوا فِيهِ.

وقوله تعالى: «فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ» يَحْتَمِلُ [وَجْهَيْنِ]:

أَحَدُهُمَا: [٢^(٢)] مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْقِتَالِ.

وَالثَّانِي: «سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ» الْهَلَاكُ الَّذِي كَانَ.

الآية ٣٩

وقوله تعالى: «وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا كَلَّةً يَوْمَهُ» [قِيلَ: الْفِتْنَةُ: الشُّرْكَ؛ أَي قَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا يَكُونَ الشُّرْكَ «وَيَكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا كَلَّةً يَوْمَهُ»^(٣)] وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ «حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ» أَي مِخْنَةُ الْقِتَالِ كَأَنَّهُ قَالَ: قَاتِلُوهُمْ إِلَى الْوَقْتِ الَّذِي تَرْتَفِعُ [فِيهِ]^(٤) الْمِخْنَةُ، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ.

وفيه دلالة لَزُومِ الْجِهَادِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَالْفِتْنَةُ هِيَ الْمِخْنَةُ الَّتِي فِيهَا الشَّدَّةُ «وَيَكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا كَلَّةً يَوْمَهُ». وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَيَكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا كَلَّةً يَوْمَهُ» هُوَ يُخْرِجُ عَلَى وَجْهَيْنِ.

أَحَدُهُمَا: «وَيَكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا كَلَّةً يَوْمَهُ» هُوَ الدِّينُ «كَلَّةً يَوْمَهُ» لَا نَصِيبَ لِأَحَدٍ فِيهِ؛ وَهُوَ السَّبِيلُ الَّتِي كَانَتْ لِلشَّيْطَانِ؛ كَأَنَّهُ قَالَ: وَتَكُونُ الْأَدْيَانُ الَّتِي يُدَانُ بِهَا دِينُنَا وَاحِدًا، وَهُوَ دِينُ اللَّهِ الَّذِي يُدْعَى الْخَلْقُ إِلَيْهِ، وَبِذَلِكَ بَغْتُ الرُّسُلِ وَالْكِتَابِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَالثَّانِي^(٥): يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْحُكْمُ كُلُّهُ لِلَّهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «مَا كَانَ لِأَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ» [يوسف: ٧٦] أَي فِي حُكْمِ الْمَلِكِ.

وقوله تعالى: «فَإِذَا انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ».

الآية ٤٠

وقوله تعالى: «وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ» قِيلَ: نَاصِرُكُمْ، وَقِيلَ: الْمَوْلَى الْمَلِكُ «يَنْصَحُ الْمَوْلَى وَيَنْصَحُ الْمَوْلَى» أَي يَنْصَحُ النَّاصِرُ وَالْمُعِينُ «وَيَنْصَحُ النَّاصِرُ» لِأَنَّهُ لَا يَنْجِزُهُ شَيْءٌ، وَقِيلَ «مَوْلَاكُمْ» أَي أَوْلَى بِكُمْ.

الآية ٤١

وقوله تعالى: «وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْلَمُ» [يوسف: ٢٠٠] / ١ / خُتِمَ بِالرُّسُولِ وَلِلَّهِ الشُّرْكَ قَالَ عَامَّةُ أَهْلِ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٢) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٣) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٤) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ.

التأويل: إِنَّ الْغَنِيمَةَ هِيَ الَّتِي أَصَابَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ أَمْوَالِ الْمُشْرِكِينَ بِالْقِتَالِ غَنُوةً، وَالْفَيْءُ مَا يُغْطُونَ بِأَيْدِيهِمْ صَلْحًا. وَالْغَنِيمَةُ: يَأْخُذُ الْإِمَامُ الْخُمْسَ مِنْهَا، وَالْبَاقِي يُقَسِّمُ بَيْنَهُمْ، وَالْفَيْءُ يَأْخُذُهُ الْإِمَامُ، فَيَضَعُهُ فِي مَضْلَعَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَيْسَ فِيهِ الْخُمْسُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْغَنِيمَةُ وَالْفَيْءُ وَاحِدٌ.

ثم قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ إلى آخر ما ذَكَرَ؛ ذَكَرَ الْخُمْسَ، وَلَمْ يَذْكُرْ أَرْبَعَةً^(١) الْاِخْمَاسَ أَنهَا لِمَنْ؟ لَكُنْهَا لِلْمُقَاتِلَةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا غَنِمَتُمْ حَلْكَاً طَيِّباً﴾ [الأنفال: ٦٩] فَكَانَتْ الْغَنِيمَةُ كُلُّهَا لِمَنْ غَنِمَهَا بِظَاهِرِ هَذِهِ الْآيَةِ إِلَّا مَا اسْتَشْنَى اللَّهُ مِنْهَا بِالْآيَةِ الْأُولَى، وَهُوَ الْخُمْسُ. وَهَذَا مِمَّا أَجْمَعَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْعِلْمِ. وَعَلَى ذَلِكَ تَوَاتَرَتِ الْأَخْبَارُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَنْ صَحَابَتِهِ مَوْقُوفَةً مِنْ بَعْدِهِ.

رُويَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُئِلَ عَنِ الْمَالِ؛ يَغْنِي الْغَنِيمَةَ، فَقَالَ^(٢): لِي خُمُسُهُ، وَأَرْبَعَةُ اِخْمَاسِهِ لِهَؤُلَاءِ [البيهقي في شعب الإيمان ٤٣٢٩] يَغْنِي الْمُسْلِمِينَ. وَرُويَ أَنَّهُ قَسَمَهَا بَيْنَ الْمُقَاتِلَةِ؛ يَغْنِي أَرْبَعَةً^(٣) الْاِخْمَاسَ.

وَفِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ أَنَّ أَبَا الدَّرْدَاءِ وَعُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ وَالْحَارِثَ بْنَ مُعَاوِيَةَ كَانُوا جُلُوساً، فَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: «أَيُّكُمْ يَذْكُرُ حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَيْثُ صَلَّى إِلَى بَعِيرٍ مِنَ الْمَغَنَمِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ، فَتَنَاولَ مِنْ وَبَرِ الْبَعِيرِ، فَقَالَ: مَا يَحِلُّ لِي مِنْ غَنَائِمِكُمْ مَا يَزُنُ هَذِهِ إِلَّا الْخُمْسُ، ثُمَّ هُوَ مُردودٌ فِيكُمْ؟» [النسائي ١٣١ / ٧].

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، [أَنَّهُ]^(٤) قَالَ: كَانَتْ الْغَنَائِمُ تُجْزَأُ خَمْسَةً أَجْزَاءً، ثُمَّ يُنْهَمُ عَلَيْهَا، فَلَمَّا صَارَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَهُوَ لَهُ. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا [أَنَّهُ]^(٥) قَالَ: كَانَتْ الْغَنِيمَةُ تُقَسَّمُ عَلَى خَمْسَةِ اِخْمَاسٍ؛ أَرْبَعَةٌ مِنْهَا لِمَنْ قَاتَلَ عَلَيْهَا، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْأَخْبَارِ، وَعَلَى ذَلِكَ اتَّفَقَ الْأُمَّةُ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: تُقَسَّمُ عَلَى سِتَّةٍ: سَهْمٌ لِلَّهِ يُجْعَلُ فِي سِتْرِ الْكَعْبَةِ، وَسَهْمٌ لِرَسُولِهِ ﷺ يُتَّقِيعُ بِهِ. وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: يُقَسَّمُ عَلَى خَمْسَةٍ: سَهْمٌ لِرَسُولِهِ وَأَرْبَعَةٌ اِخْمَاسٍ لِمَنْ غَنِمَ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: تُقَسَّمُ عَلَى أَرْبَعَةٍ: سَهْمٌ لِرَسُولِهِ وَثَلَاثَةٌ أَرْبَاعٍ^(٦) لِمَنْ غَنِمَ. ثُمَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ تَحْتَمِلُ إِضَافَةَ ذَلِكَ إِلَى نَفْسِهِ وَجَهَيْنِ.

أَحَدُهُمَا: لِمَا جَعَلَ ذَلِكَ لِإِقَامَةِ الْعِبَادَاتِ وَأَنْوَاعِ الْبِرِّ وَالْخَيْرِ الْقَرَبِ الَّتِي هِيَ لِلَّهِ، فَأُضِيفَتْ^(٧) إِلَيْهِ عَلَى مَا أُضِيفَتْ الْمَسَاجِدُ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ أَلْسِنَةً لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨] وَإِنْ كَانَتْ الْبِقَاعُ كُلُّهَا لِلَّهِ. وَكَذَلِكَ مَا سَمِيَ الْكَعْبَةُ بَيْتَ اللَّهِ وَإِنْ كَانَتْ الْبُيُوتُ كُلُّهَا لِلَّهِ لِمَا جَعَلَهَا لِإِقَامَةِ الْعِبَادَاتِ وَأَنْوَاعِ الْقَرَبِ. فَأُضِيفَتْ إِلَى اللَّهِ ذَلِكَ. فَعَلَى ذَلِكَ تَحْتَمِلُ إِضَافَةُ ذَلِكَ إِلَيْهِ لِمَا جَعَلَهُ لِإِقَامَةِ الْعِبَادَاتِ وَالْقَرَبِ وَأَنْوَاعِ الْبِرِّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَالثَّانِي: أَضَافَ ذَلِكَ إِلَى نَفْسِهِ خُصُوصِيَّةً، وَلِرَسُولِهِ^(٨) اللَّهُ إِذَا كَانَ ذَلِكَ لِرَسُولِهِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ وَأُمُورِهِ لِلَّهِ خَالِصاً، لَمْ يَكُنْ لِنَفْسِهِ وَلَا لِأَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ. فَعَلَى ذَلِكَ جَمِيعُ مَالِهِ وَمَا تَخَوَّرَ يَدَهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ، إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ لِلَّهِ خَالِصاً، يَضْرِفُ ذَلِكَ فِي أَنْوَاعِ الْقَرَبِ وَالْبِرِّ فِي الْقَرَابَةِ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ الْأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالْأَمْوَاتِ جَمِيعاً، وَالْقَرَبِ مِنْهُمْ وَالْبَعِيدِ جَمِيعاً.

أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّا مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورَثُ. مَا تَرَكْنَا صَدَقَةً؟» [التهميد ٧ / ١٧٥] هَذَا يَدُلُّ أَنَّ مَا يَتْرُكُ صَدَقَةً، لَا يُورَثُ مِنْهُ، وَلَوْ كَانَ لَهُ لَتَوَارَثَ وَرَثَتُهُ مَا يُورَثُ مِنْ غَيْرِهِ. دَلٌّ أَنَّ نَفْسَهُ وَمَالَهُ كَانَ لِلَّهِ خَالِصاً، وَكَذَلِكَ جَمِيعُ أُمُورِهِ لِلَّهِ.

أَلَا تَرَى أَنَّهُ رُويَ فِي الْخَبَرِ أَنَّهُ كَانَ يَجُوعُ يَوْماً، وَيَشْبَعُ يَوْماً، وَيَجُوعُ ثَلَاثاً، وَكَانَ يَرْبِطُ الْحَجَرَ عَلَى بَطْنِهِ لِلْجُوعِ؟ فَإِذَا كَانَتْ إِضَافَةُ ذَلِكَ الْخُمْسِ إِلَى اللَّهِ لِخُصُوصِيَّةٍ لَهُ وَخُلُوصِ نَفْسِهِ وَمَالِهِ لَهُ، وَإِنْ كَانَتْ جَمِيعُ الْخَلَائِقِ وَمَا تَخَوَّرَ أَيْدِيهِمْ لِلَّهِ حَقِيقَةً، لَكِنَّ لَهُمْ فِيهَا الْإِنْتِفَاعَ وَقِضَاءَ الْحَوَائِجِ وَالتَّذْيِيرَ لِأَنْوَاعِ التَّصَرُّفِ فِي ذَلِكَ [وَمُشَارَكَتَهُ فِي غَيْرِ]^(٩) ذَلِكَ، لَمْ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: الْأَرْبَعَةُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: قَالَ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: الْأَرْبَعَةُ. (٤) سَاقِطَةٌ فِي الْأَصْلِ وَم. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: أَرْبَاعُهُ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: فَاضِيفَ. (٨) الْوَاوُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: وَمُشَارَكَةٌ غَيْرَ.

يَخْصُصُ^(١) بِالْإِضَافَةِ إِلَيْهِ، [وَأِنْ كَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ لِلَّهِ حَقِيقَةً، وَلِمَا^(٢) كَانَتْ نَفْسُ رَسُولِ اللَّهِ وَمَا تَحْوِيهِ يَدُهُ^(٣) لَا تَدْبِيرُ لَهُ فِي ذَلِكَ، وَلَا شِرْكٌ لِأَحَدٍ فِيهِ، خُصَّ بِإِضَافَةٍ^(٤) ذَلِكَ^(٥) إِلَيْهِ [لَأَنَّ ذَلِكَ^(٦) كُلُّهُ لِلَّهِ حَقِيقَةً.

وهذا كما قال تعالى: وَاللَّهُ أَعْلَمُ: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الحج: ٥٦] وَقَالَ: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ﴾ [غافر: ١٦] وَقَالَ: ﴿وَيَرْزُقُوا اللَّهَ جَمِيعًا﴾ [إبراهيم: ٢١] خَصَّ بِالذِّكْرِ مُلْكَ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَالْبُرُوزَ لَهُ لِمَا يَنْقَطِعُ يَوْمَئِذٍ تَدْبِيرُ جَمِيعِ مَلُوكِ الْأَرْضِ، وَيَذْعَبُ سُلْطَانُهُمْ عَنْهُمْ، وَيَضْفُو الْبُرُوزَ لَهُ، وَإِنْ كَانَ الْمُلْكُ فِي الْأَحْوَالِ كُلِّهَا وَالْأَوَاقِيتِ جَمِيعًا وَكَذَلِكَ الْبُرُوزَ لَهُ، وَالْمَصِيرُ إِلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ رَاجِعًا إِلَيْهِ فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ. فَعَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثم ليس في ظاهر الآية دليل أن المراد بقوله تعالى: ﴿وَلِذِي الْقُرْبَى﴾ قرابة رسول الله ﷺ بل في ظاهره دلالة أنه أراد به قرابة أهل السهام في ذلك لأنه خاطب به الكل بقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى﴾ وظاهره أنه أراد به قُرْبَى مَنْ خَاطَبَ، وَكَانَ الْخِطَابُ لَهُمْ جَمِيعًا.

أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَمْ يُفْهِمْ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِلرِّجَالِ نِصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء: ٧] قَرَابَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَكِنْ قَرَابَةُ الْمُخَاطَبِينَ؟ وَكَذَلِكَ لَمْ يُرْجَعْ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠] إِلَى قَرَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَلْ إِلَى قَرَابَةِ الْمُخَاطَبِينَ بِهِ؟

فَعَلَى ذَلِكَ الظَّاهِرُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِذِي الْقُرْبَى﴾ إِلَّا أَنْ يُقَالَ: أَرَادَ قَرَابَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِدَلَالَةِ أُخْرَى سِوَى ظَاهِرِ الْآيَةِ. وَهُوَ مَا رُوِيَ [أَنَّهُ^(٧) قَسَمَ الْخُمُسَ بَيْنَ بَنِي هَاشِمٍ، وَمَا رُوِيَ أَنَّهُ قَالَ: «مَالِي مِنْ هَذَا الْمَالِ إِلَّا الْخُمُسُ، وَالْخُمُسُ مَزْدُودٌ فِيكُمْ» [النسائي ١٣٢/٧] وَمَا رُوِيَ أَنَّ نَجْدَةَ [بِنْتُ عُويْمِرِ الْحُرَوْرِيَّ]^(٨) كَتَبَتْ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ يَسْأَلُهُ عَنْ سَهْمِ ذِي الْقُرْبَى لِمَنْ هُوَ؟ [فَكَتَبَتْ إِلَيْهِ ابْنُ عَبَّاسٍ]^(٩): هُوَ لَنَا أَهْلُ الْبَيْتِ.

وَقَدْ كَانَ عَمْرٌ دَعَانَا إِلَى أَنْ تَنْكَحَ مِنْهُ أَبَا مَيْمَنًا، وَتَقْضِيَ مِنْهُ مُغْرَمَنَا، فَأَبَيْنَا إِلَّا أَنْ يُسَلِّمَهُ إِلَيْنَا، فَأَبَى ذَلِكَ عَلَيْنَا. فَذَلَّ فَعَلُ عَمْرٍ هَذَا عَلَى أَنَّ التَّوِيلَ فِي الْخُمُسِ كَانَ عِنْدَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَصِلُ بِهِ قَرَابَتَهُ، وَيَسُدُّ بِالْخُمُسِ حَاجَتَهُمْ؛ إِذْ كَانَ جَعَلَ سُبُلَ الْخُمُسِ مَا ذَكَرْنَا أَنَّهُ لِلَّهِ بِمَعْنَى أَنَّهُ يُصْرَفُ فِي وُجُوهِ الْقُرْبَى إِلَيْهِ.

فَلَوْ كَانَ الْخُمُسُ حَقًّا بِجَمِيعِ الْقَرَابَةِ أَعْطَى مِنْ ذَلِكَ غَنِيَّتَهُمْ وَفَقِيرَتَهُمْ، وَمَا يَأْخُذُهُ الْأَغْنِيَاءُ مِنَ الْخُمُسِ فَإِنَّهُ لَا يَجْرِي مَنَجَرَى الصَّدَقَةِ، وَلَا يَجْرِي [مَنَجَرَى^(١٠) الْقُرْبَى، فَبَانَ بِذَلِكَ أَنَّهُ لَا يُعْطَى مِنْهُ أَغْنِيَاءُهُمْ، بَلْ يُصْرَفُ^(١١) إِلَى فَقَرَائِهِمْ عَلَى قَدْرِ حَاجَتِهِمْ؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ لِفَقِيرِهِمْ^(١٢) مَكَاسِبٌ سِوَاهُ يُوَصَّلُ^(١٣) بِهَا كَمَا يَكُونُ لِغَيْرِهِ مِنَ النَّاسِ مِنَ الْمَكَاسِبِ وَأَنْوَاعِ الْجَرْفِ.

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَعْطَى بَعْضَ الْقَرَابَةِ دُونَ بَعْضٍ مَا رُوِيَ عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ [أَنَّهُ^(١٤) قَالَ: لَمَّا قَسَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَهْمَ ذِي الْقُرْبَى بَيْنَ بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَتَيْتُ أَنَا وَعُثْمَانُ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَؤُلَاءِ بَنُو هَاشِمٍ، لَا تَنْكُرُ فَضْلَهُمْ لِمَكَانِكَ الَّذِي وَضَعَكَ اللَّهُ فِيهِمْ. أَرَأَيْتَ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، أَعْطَيْتَهُمْ، وَمَنْعْتَنَا، وَإِنَّمَا نَحْنُ وَهُمْ مِنْكَ بِمَنْزِلَةٍ وَاحِدَةٍ؟ فَقَالَ: «إِنَّهُمْ لَمْ^(١٥) يُفَارِقُونِي فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ؛ بَنُو هَاشِمٍ وَبَنُو عَبْدِ الْمُطَّلِبِ شَيْءٌ وَاحِدٌ، وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ» [أحمد ٨١/٤].

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ إِلَى آخِرِ مَا ذَكَرَ، بَيَّنَّ أَنَّ خُمُسَ الْغَنِيمَةِ يُصْرَفُ فِي وُجُوهِ الْبَرِّ وَالْقُرْبَى إِلَى اللَّهِ. ثُمَّ قَسَرَ تِلْكَ الْوَجُوهَ، فَقَالَ: ﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالسَّكِينِ وَآبِئِ السَّبِيلِ﴾ فَكَانَتْ تَسْمِيَةُ هَذِهِ الْأَصْنَافِ،

(١) من م، في الأصل: يخص. (٢) من م، في الأصل: وإن. (٣) من م، في الأصل: الله. (٤) في م: بالإضافة. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم، انظر تفسير الطبري ج ١٣/٥٥٥. (٩) في الأصل وم: و. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من م. (١٢) في الأصل وم: له. (١٣) في الأصل وم: يصل. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) ساقطة من الأصل وم. (١٧) في الأصل وم: لا.

والله أعلم، تغليماً لنا أن الخمس يُصرف في مَنْ ذَكَرَ مِنْ أَهْلِهَا/ ٢٠٠ - ب/ دون غيرهم. وليس إيجاباً منه لكل صنف منها شيئاً معلوماً، ولكن بيان الأهل والموضع، وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ الآية [التوبة: ٦٠].

حَمَلَ أَصْحَابُنَا ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَجُوزُ إِلَّا لِمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْأَصْنَافِ دُونَ غَيْرِهِمْ، وَلَمْ يَحْمِلُوا الْأَمْرَ عَلَى أَنَّ لِكُلِّ صِنْفٍ مِنْهُمْ شَيْئاً مَعْلوماً مَحْدوداً، وَلَكِنْ عَلَى بَيَانِ أَهْلِهَا.

وعلى ذلك [ما] ^(١) رُوِيَ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم، مِنْهُمْ عُمَرُ وَعَلِيٌّ وَحُذَيْفَةُ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَجَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ مَا يَكْثُرُ عَدَدُهُمْ [أنهم] ^(٢) قالوا: إِذَا وَضَعْتَ الصَّدَقَةَ فِي صِنْفٍ وَاحِدٍ أَجْزَأَكَ. فَلَوْ كَانَ لِأَهْلِ كُلِّ صِنْفٍ الثُّمْنُ مِنْهَا كَانَ الْمُعْطَى بِهَا صِنْفًا وَاحِدًا مُخَالَفًا لِمَا أَمَرَ بِهِ.

فَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّتِي آمَنَتْ﴾ الآية مَعْنَاهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: أَنَّ الْخُمُسَ الَّذِي يُقَرَّبُ بِهِ مِنَ الْغَنِيمَةِ إِلَى اللَّهِ لَا يَسْتَحِقُّهُ إِلَّا الرَّسُولُ وَمَنْ كَانَ مِنَ الْأَصْنَافِ الَّتِي ذَكَرَهُ. فَلِأَيِّهِمْ دَفَعَ ذَلِكَ الْخُمُسَ أَجْزَأَهُ. وَإِذَا كَانَ التَّوَالُيُ مَا وَصَفْنَا لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَصْنَافِ أَنْ يَدَّعِيَ مِنْهُ خُمُسًا أَوْ رُبْعًا، وَلَكِنْ يُعْطَى كُلُّ مَنْ حَضَرَ مِنْهُمْ بِقَدْرِ فَائِدَتِهِ وَحَاجَتِهِ وَعَلَى قَدْرِ بَرَاهِ الْإِمَامِ.

فَإِذَا جَاءَ فَرِيقٌ آخَرُونَ أَغْطَوْا مِمَّا يَدْفَعُ إِلَى الْإِمَامِ مِنْ ذَلِكَ الْخُمُسِ مِنَ الْمَالِ كِفَايَتَهُمْ. وَكَذَلِكَ رُوِيَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ عُمَرُ يُعْطِينَا مِنَ الْخُمُسِ نَحْوًا مِمَّا كَانَ يَرَى أَنَّهُ لَنَا، فَرَغِبْنَا عَنْ ذَلِكَ، وَقُلْنَا: حَقُّ ذِي الْقُرْبَى خُمُسُ الْخُمُسِ، فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّمَا جَعَلَ اللَّهُ الْخُمُسَ لِأَصْنَافٍ سَمَاهَا. [فَاسْعَدَ بِهِ] ^(٣) أَكْثَرَهُمْ عَدَدًا وَأَشَدَّهُمْ فَاقَةً، فَاخْذَ ذَلِكَ نَاسٌ، وَتَرَكَهُ نَاسٌ.

وَكَذَلِكَ. فَعَلَ عُمَرُ لِمَا وَلَّى الْأَمْرَ، [وَهُوَ] ^(٤) مَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ قَالَ: عَرَضَ عَلَيْنَا عُمَرُ أَنْ يُزَوِّجَ مِنَ الْخُمُسِ إِنَّا مِثًا، وَنَقْضِي مِنْهُ مَغْرَمَنَا، فَأَبَيْنَا عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ يُسَلِّمَهُ إِلَيْنَا، فَأَبَى ذَلِكَ عَلَيْنَا. فَذَلَّ فَعَلَ عُمَرُ عَلَى أَنَّ الْقَرَابَةَ يُغْطُونَ مِنَ الْخُمُسِ قَدْرَ حَاجَتِهِمْ وَمَا يَسُدُّ بِهِ فَاقَتَهُمْ؛ إِذْ لَوْ كَانَ الْخُمُسُ حَقًّا بِجَمِيعِ الْقَرَابَةِ أُعْطِيَ مِنْ ذَلِكَ غَنِيَّتُهُمْ وَفَقِيرُهُمْ لِقِسْمَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيهِمْ كَمَا قَسَمَ أَرْبَعَةَ الْأَخْمَاسِ بَيْنَ الْمُقَاتِلَةِ، بَلْ أُعْطِيَ مِنْهُ بَقِصُ الْقَرَابَةِ، وَحَرَّمَ بَقِصًا لِمَا ذَكَرْنَا فِي جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ.

وَمِمَّا يَدُلُّ أَيْضًا عَلَى أَنَّ ذَلِكَ لِأَهْلِ الْحَاجَةِ مِنْهُمْ دُونَ الْكُلِّ مَا رُوِيَ أَنَّ الْفَضْلَ ابْنَ عَبَّاسٍ [وربيعة بن عبد المطلب] ^(٥) دَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَوْمُنَا عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ، فَقَالَ [أَحَدُهُمَا] ^(٦): يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْتَ أَهْرُ النَّاسِ وَأَوْصَلُ النَّاسِ، وَقَدْ ^(٧) بَلَّغْنَا النِّكَاحَ، فَجِئْنَاكَ لِنُؤْمَرَنَا عَلَى هَذِهِ الصَّدَقَاتِ، فَتُؤَدِّي إِلَيْكَ مَا يُؤَدِّي الْعَمَّالُ، وَنُصِيبُ مِنْهَا مَا يُصِيبُونَ، فَسَكَّتَ طَوِيلًا حَتَّى أَرَدْنَا [أَنْ نَعْلِمَهُ ثَانِيًا، قَالَ: وَجَعَلْتُ] ^(٨) زَيْنَبُ تُلْمِحُ إِلَيْنَا مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ إِلَّا ^(٩) تُكَلِّمَاهُ، ثُمَّ قَالَ «إِلَّا إِنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَنْبَغِي لِأَلِ مُحَمَّدٍ؛ إِنَّمَا هِيَ أَوْسَاخُ النَّاسِ، اذْغُولِي مَخْمِيَّةً، وَكَانَ عَلَى الْخُمُسِ، وَتَوَقَّلْ بَنُ الْحَارِثِ بَنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَجَاءَهُ، فَقَالَ لِمَخْمِيَّةً: أَنْكِحْ هَذَا الْغُلَامَ [الْفَضْلَ ابْنَكَ] ^(١٠) فَانْكَحْهُ، وَقَالَ لَتَوَقَّلْ: أَنْكِحْ هَذَا الْغُلَامَ [يعني ربيعة بن عبد المطلب] ^(١١) ابْنَتَكَ، فَانْكَحْهُ، ثُمَّ قَالَ لِمَخْمِيَّةً: [أَصْدِيقُ عَنْهُمَا] ^(١٢) مِنَ الْخُمُسِ كَذَا وَكَذَا» [مسلم ١٢، الزكاة ٥١ رقمه ١٠٧٢] وَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ الْحَقَّ لَهُمْ فِيهِ لِأَهْلِ الْحَاجَةِ مِنْهُمْ.

وَمِمَّا يَدُلُّ أَيْضًا عَلَى ذَلِكَ مَا رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَا لِي مِنْ هَذَا الْمَالِ إِلَّا الْخُمُسُ، وَهُوَ مُرَدودٌ فِيكُمْ» [النسائي ٧/ ١٣٢] لَمْ يَخْصُ الْقَرَابَةَ بِشَيْءٍ مِنْهُ؛ كَانَ سَبِيلُهُمْ سَبِيلَ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ، يُعْطَى مَنْ يَحْتَاجُ مِنْهُمْ كِفَايَتَهُ. وَعَلَى هَذَا مَا ^(١٣) أَمَرَ بِهِ الْأئِمَّةُ الرَّاشِدُونَ ^(١٤)، وَلَمْ يُغَيِّرْهُ عَلِيٌّ رضي الله عنه لِمَا وَلَّى الْأَمْرَ. وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَنَا مِمَّا لَا يَجُوزُ مُخَالَفَتُهُمْ عَلَيْهِ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم. أسعدهم بها. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم. وفلان. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، في الأصل: ولو. (٨) في الأصل وم: ثانياً وم: ثانياً حتى. (٩) في الأصل وم: أنه. (١٠) في الأصل وم: ابتك المفضل. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: أصدقهما. (١٣) في الأصل وم: مما. (١٤) في الأصل وم: الراشدين.

فإن قيل: لو كانت قرابة النبي ﷺ إنما يُعطون من الخمس على سبيل الفقر والحاجة فهم على هذا يدخلون في عموم المساكين في ما وَجَّهَ ذِكْرُهُ إِيَّاهُمْ إذا قيل: إن الله، تبارك، وتعالى، قال في الصدقات: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠] ثم رُوِيَ عن النبي ﷺ [أنه] ^(١) قال: «لا تَجْلُ الصَّدَقَةُ لِمَحْمِدٍ وَلَا لِأَلِ مُحَمَّدٍ» [مسلم: ١٠٦٩] فلو لم يُسَمِّهِمُ ^(٢) الله في الخمس جازاً أن يقول قائل: لا يُعطون من الخمس، وإن يكونوا فقراء، كما لا يجوز أن يُعطوا من الصدقة، ولو كانوا فقراء، فكانوا سَبَبَ ذِكْرِ الله إِيَّاهُمْ في الخمس لذلك، والله أعلم.

ثم اختلف أهل العلم بعد وفاة رسول الله ﷺ، في سهم الرسول وسهم ذي القربى، فقالت طائفة: سهم الرسول للخليفة من بعده، وسهم ﴿وَلِذِي الْقُرْبَى﴾ لقرابة الخليفة. وقالت طائفة: سهم القربى لقرابة الرسول، وقال الحسن: سهم القرابة لقرابة الخلفاء. وقال غيره ^(٣): القرابة قرابة رسول الله.

وقد ذكرنا أنه يَحْتَمِلُ أنه كان له [أن] ^(٤) يصل به قرابته بحق الصلة، أو يُعطيههم بحق القرابة مادام حياً. ثم ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تُورَثُ، وما تركنا صدقة» [التمهيد ١٧٥/٧] فإذا لم يُورَثْ عنه ما قد حازَهُ مِنْ سِهَامِهِ فكيف يُورَثْ عنه ما عَنِمْ بَعْدَ وفاته؟

ولو كان سهمه الذي لم يَلْحَقْهُ مَرُوثاً عنه كان سهمه الذي حازَهُ أَحَرَى ألا يُورَثَ عنه. فإذا لم يُورَثْ الذي قد حازَهُ، مَلَكَهُ عنه الآخر، والله أعلم.

وعن عائشة أن فاطمة والعباس أتيا أبا بكر يَلْتَمِسَانِ ميراثهما من رسول الله، وهما حينئذ يَظْلِمَانِ أرضه من فذلك وسهمه من خيبر، فقال لهم أبو بكر: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول: «لا تُورَثُ، ما تركنا صدقة» إنما يأكل آل محمد في هذا المال أي حق الغنائم. والله لا أَدْعُ أمراً رأيت رسول الله ﷺ يَصْنَعُهُ إِلَّا أَصْنَعُهُ. وفي بعض الأخبار قال: «لا يُقْتَسِمُ وَرَثَتِي دِينَاراً وَلَا درهماً، ما تركتُ بَعْدَ نَفَقَةِ عاملي ومؤنة نسائي فهو صدقة» [مسلم ١٧٦٠].

وعن عمر [أنه] ^(٥) قال: كان رسول الله ﷺ يُنْفِقُ مِمَّا آفَاءَ الله عليه سنةً، وَيَجْعَلُ ما بَقِيَ مال الله. وروى أيضاً عنه [أنه] ^(٦) قال: كانت أموال بني النضير مِمَّا آفَاءَ الله على رسولي، وكانت له خالصة ^(٧). وكان يُنْفِقُ منها على أهله نفقة سنةً، وما بقي جَعَلَهُ في الكراع والسلاح.

فهذه الأخبار تُبَيِّنُ أنه لم يُورَثْ سهم النبي بَعْدَ وفاته؛ فهي تدل على أن لا نَقْدَ بَعْدَ مَوْتِ النبي من خمس الغنائم للخليفة شيء ^(٨)، وأن ذلك كان خصوصاً لرسول الله ﷺ كالصفي الذي كان له خاصة دون غيره.

وكما لم يُوجِفْ عليه المسلمون بحبل ولا ركاب، فكان له خاصة، فليس لأحدٍ لغير النبي ﷺ خصوص من الخمس كما ليس له خصوص من الصفي وغيره.

وإذا كان الأمر في سهم الرسول كما وصفنا، ولم يُنْقَضْ من الخمس هو الله بَعْدَ مَوْتِ النبي، ويُخْرَجَ ذلك الخمس كله من الغنيمة، فذلك يدل على أن الخمس ليس لأهل هذه السهام حقاً مقسوماً، ولكن يُعطون منه بِقَدْرِ فاقتهِم. ويدل ذلك أيضاً على أنه لا يَجِبُ لكل صنف من هذه الأصناف سهم معلوم؛ لانا قد رَدَدْنَا سهم النبي من الخمس على سائر السهام.

فكما جاز أن يُرَدَّ عليهم سهم النبي، فكذلك يجوز أن يُجْعَلَ سهم اليتامى أو بغضه للمساكين إذا حضرُوا، وطلبُوا، ولم يَحْضَرْ اليتامى؛ لأنَّ المَعْنَى في الآية، والله أعلم، ألا يُعْطَى إِلَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْأَصْنَافِ. فقد وُضِعَ الْحَقُّ في موضِعِهِ، ولم يَتَعَدَّ بِهِ إِلَى غيرِهِ.

ثم الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ لا يَحْتَمِلُ كُلاً في نفسه كالخطاب باداء الزكاة

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: يسهم. (٣) من م، في الأصل: غير. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة في الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: خالصة. (٨) في الأصل وم: شيئاً.

وغيرها، بل الخطاب راجع إلى الجماعة الذين غنموا. ألا ترى أن العسكر والسرايا إذا دخلوا/ ٢٠١ - أ/ دار الحرب، فتفرقوا فيها، فغنم واحد منهم، يجب ضم ذلك إلى جميع العسكر والسرايا، فعند ذلك يخرج الخمس منه؟ دل أن الخطاب بذلك راجع إلى جماعة، وهي الجماعة التي لهم منعة، يقومون للعدو، لا أنه خاطب كل أحد في نفسه، فهذا يدل على أن الواحد أو الاثنين إذا دخل^(١) دار الحرب بغير إذن الإمام، فغنم غنائم، لا يحمس ولكن يسلم الكل..

وأما الغنمة نفسها لا يَحْتَمِلُ أن تُرجع إلى أحد معلوم أو مقدار محدود كالزكاة وسائر الحقوق؛ لأن الغنمة شيء يُؤخذ من الكفرة، وإنما يؤخذ قدر ما يظفر به، ويوجد، فلا يَحْتَمِلُ أن يرجع الخطاب به إلى قدر دون قدر، بل القليل من ذلك والكثير سواء، لا حد في ذلك، ولا مقدار، وليس كالزكاة وغيرها من الحقوق التي جعل فيها حداً ومقداراً للوجوب الذي ذكرنا. وأما المصيبون لها والآخذون فلهم في ذلك مقدار، وهم الذين لهم منعة.

ثم تذكر مسألة في قيمة السهام بين الرجال والفرسان، وإن لم يكن في الآية ذكر ذلك. روي عن ابن عمر. [أنه]^(٢) قال: أعطى رسول الله ﷺ يوم خيبر الراجل سهماً والفرس ثلاثة أسهم: سهماً له ولفرسه سهمين. وعن ابن عباس رضي الله عنهما، [أنه]^(٣) قال: أسهم رسول الله ﷺ يوم خيبر للرجل سهماً، وللفرس ثلاثة أسهم: سهماً له وسهمين للفرس. ثم روي أيضاً عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ كان يقسم للفرس سهمين وللرجل سهماً^(٤) وعن المقداد أن رسول الله ﷺ أسهم له يوم بدر سهماً ولفرسه سهماً. وعن علي [أنه]^(٥) قال: للفرس سهمان. وعن المنذر [أنه]^(٦) قال: بعثه عمر في جيش إلى مصر، فاصاب^(٧) غنائم، فقسم للفرس سهمين^(٨).

وفي قول بعضهم: أسهم للفرس سهمان^(٩) اختلاف وتضاد، فحملوا على التناسخ. وقد يجوز ألا يكون ذلك، وقد تكون زيادته التي زادها^(١٠) للفرس على سهم، إن كان محفوظاً ثابتاً لنقل نقله للأفراس حينئذ ترجيحاً منه للمقاتلة في اتخاذها وتحريضاً كما يجوز أن يقول الإمام: من قتل قتيلاً فله سلبه، ومن جاء براس كذا فله كذا؛ يخرص بذلك المقاتلة على القتال. فعلى ذلك زيادة سهم لماكن الأفراس ترجيحاً منه وتحريضاً على اتخاذها. فأما إن كثرت الأفراس فإن سهمانها لا تكون أكثر من سهمان أصحابها؛ لأن الفارس أكثر غنى من فرسه، فإن لم يزد عليه لم ينقص عما يسهم.

وكان أبو حنيفة، رحمه الله، يسهم للفرس سهمين، وأبو يوسف يرى أن يسهم للفرس سهمين ولصاحبه سهماً^(١١). والحجة في ذلك بقوله: قال الله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْفَفْتُهُ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ [الحشر: ٦] فكانت [تخل بني]^(١٢) التفسير خالصة لرسول الله، ولم يكن لمن حضرها من المسلمين شيء، إذ لم يوجفوا عليها بخيل ولا رِكَاب، وقد أتوها مشاة. فلما منع الرجال من السهمان لاستغنائهم في غنمها^(١٣) عن الخيل جاز أن تزد الخيل في السهمان على سهمان الرجال إذا كان الرجال^(١٤) يمتنعون السهام، وإن حضروا، إذا لم يلجؤوا إلى ركوب الخيل.

لكن الحجة على هذا ما ذكرنا أن أصحاب رسول الله ﷺ لم يحاربوا بني^(١٥) التفسير فرساناً ولا رجالة، ولو احتاجوا إلى الحرب لا احتاجوا إلى الخيل. فمن حيث [لم]^(١٦) يحاربوا عليها لم يستجفوا منها شيئاً. وإنما [ذكر لنا]^(١٧) الله تعالى سهولة^(١٨) أمرها، وأنهم لم يحاربوا عليها خيلاً ولا ركاباً. وإذا لم يحارب على مدينة، فغنموا مالا^(١٩)، فهو مصروف في مصالح المسلمين، لا تجزى فيه السهام. فكانت [تخل بني]^(٢٠) التفسير على ما ذكر خالصة للنبي يأخذ منها نفقة نسائه، ويصرف سائرهما إلى مصالح المسلمين.

ومن الدليل على أن [بني]^(٢١) التفسير لو احتجج فيها إلى حرب حاربهم النبي وأصحابه رجالة جرث في غنائمهم

(١) في الأصل وم: دخلوا. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: سهم. (٤) ساقطة في الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: فاصابه. (٧) في الأصل وم: سهمان. (٨) في الأصل وم: سهمين. (٩) في الأصل وم: زادته. (١٠) في الأصل وم: في. (١١) في الأصل وم: بسهم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: فتحها. (١٤) في الأصل وم: الرجال. (١٥) في الأصل وم: على. (١٦) ساقطة في الأصل وم. (١٧) في الأصل وم: ذكرنا. (١٨) في الأصل وم: على سهولة. (١٩) في الأصل وم: بمال. (٢٠) ساقطة من الأصل وم. (٢١) ساقطة من الأصل وم.

الْقِسْمَةَ؛ إِنْ قَوْمًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَوْ حَارَبُوا الْيَوْمَ عَلَى مَدِينَةٍ مِنْ مَدَائِنِ الشَّرِكِ رَجَالَةً قُسِمَ مَا يُغْنِمُ مِنْهَا كَمَا يُقَسَّمُ لَوْ كَانَ مَعَهُمْ فِرْسَانٌ.

وَمِنْ الدَّلِيلِ عَلَى ذَلِكَ أَيْضًا أَنَّ الرِّجَالَ إِذَا كَانُوا مَعَ الْفِرْسَانِ فِي الْحَرْبِ قُسِمَ كَمَا يُقَسَّمُ لِلْفَارِسِ خَاصَّةً. فَلَوْ كَانَتْ الْغَنِيمَةُ إِنَّمَا تُقَسَّمُ لِسَبَبِ الْخَيْلِ عَلَى مَا أُعْطِيَ الرِّجَالُ مِنْهَا شَيْئًا؛ إِذْ لَا أَفْرَاسَ لَهُمْ. وَذَلِكَ يُفْسِدُ مَا ذَكَّرْنَا لِأَبِي يُوسُفَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ صَلَوةٌ قَوْلُهُ ﴿وَيَقُولُ لَهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الَّذِينَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣ وَالْأَنْفَال: ٣٩] ثُمَّ قَالَ: ﴿وَأَنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٠] أَيْ وَإِنْ تَوَلَّوْهُمْ، وَقَدْ آمَنْتُمْ أَنْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ، لَيْسَ بِمَوْلَى لَهُمْ.

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ﴾ لَيْسَ عَلَى الشَّرْطِ عَلَى الْآ لَا تَكُونَ غَنِيمَةً إِذَا لَمْ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ، وَلَا يَجِبُ فِي الْعَدْلِ فِي الْقِسْمَةِ إِذَا كَانُوا غَيْرَ مُؤْمِنِينَ، وَلَكِنْ عَلَى التَّثْبِيهِ وَالْإِيقَاطِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَذَرُّوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُقِيمِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨] لَيْسَ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجِبُ أَنْ يَذَرُّوا إِذَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ، وَلَا يَجِبُ أَنْ يُطِيعُوا إِذَا لَمْ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ، وَلَكِنْ عَلَى مَا ذَكَّرْنَا، فَعَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَاقِ الْجَمْعَانِ﴾ قِيلَ: قَوْلُهُ: ﴿وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ أَرْسَلْنَاهُمْ يَوْمَ بَذْرِ لِنُضْرَةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْمَطَرَ حَتَّى شَدَّ الْأَرْضُ بِذَلِكَ، فَاسْتَقَرَّتْ أَقْدَامُهُمْ، وَتَثَبَّتْ بَعْدَ مَا [٧٤] تَقَرَّرَ الْأَقْدَامُ فِيهَا، وَلَا تَثَبَّتْ، وَشَرِبُوا مِنْهُ، وَرَوُّوا، بَعْدَ مَا أَصَابَهُمُ الْعَطَشُ؛ إِذْ كَانَ الْمُشْرِكُونَ أَخَذُوا الْمَاءَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ يَوْمَ بَذْرِ. وَقَوْلُهُ ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ يَوْمَ فَرَّقَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ؛ لِأَنَّهُ جَعَلَ يَوْمَ بَذْرِ آيَةً حِينَ غَلَبَ الْمُؤْمِنُونَ الْمُشْرِكِينَ مَعَ قَلَّةِ عَدَدِهِمْ وَضَعْفِ أَيْدَانِهِمْ وَفَقْدِ الْأَسْبَابِ الَّتِي بِهَا يُحَارَبُ، وَيُقَاتَلُ، وَكَثْرَةِ الْعَدُوِّ وَقُوَّتِهِمْ وَوُجُودِ أَسْبَابِ الْحَرْبِ وَالْقِتَالِ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُمْ غَلَبُوا أَوْلِيَاءَهُمْ، وَهَزَمُوهُمْ، بِنَصْرِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ. فَكَانَ آيَةً فَرَّقَ الْمُحَقِّقَ مِنْهُمْ وَالْمُبْطِلَ.

وَقِيلَ: هُوَ يَوْمُ الْفُرْقَانِ وَيَوْمُ الْجَمْعِ، جَمْعُ النَّبِيِّ وَالْمُؤْمِنِينَ وَجَمْعُ الْمُشْرِكِينَ، وَيَوْمُ الْإِفْتِرَاقِ الْإِفْتِرَاقِ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ انْهَزَامُهُمْ. وَهُوَ كَمَا سَمِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَوْمَ الْجَمْعِ فِي حَالٍ وَيَوْمُ الْإِفْتِرَاقِ فِي حَالٍ أُخْرَى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٤٢

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدِّينِيَّةِ وَهُمْ بِالْعُدُوِّ الْقُسُوفِيِّ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: الْعُدُوُّ الْقُسُوفِيُّ: شَفِيرُ الْوَادِي الْأَفْصَى وَالْعُدُوُّ الدِّينِيَّةُ شَفِيرُ الْوَادِي الْأَدْنَى. وَكَذَلِكَ قَالَ الْقَتَّيْبِيُّ: الْعُدُوُّ الشَّفِيرُ شَفِيرُ الْوَادِي.

وَقَالَ أَبُو عَرَسَةَ الْعُدُوُّ نَاجِيَةُ الْوَادِي الَّتِي تَلِيهِمْ، وَقَالَ: إِنَّمَا سُمِّيَتْ الدِّينِيَّةُ، لِأَنَّهَا دَنَتْ مِنْهَا، وَالْآخِرَةُ لِأَنَّهَا اسْتَأَخَرَتْ. وَقِيلَ فِي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ: إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الْعَلِيَا، وَهُمْ بِالْعُدُوِّ السُّفْلَى. وَقَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ: الْعُدُوُّ وَالْعُدُوُّ لُغَتَانِ، وَالرُّكْبُ وَالرُّكْبَانُ وَالرُّكَّابُ وَالرَّاكِبُونَ لُغَةٌ. وَقَالَ: فِي حَرْفِ حَفْصَةَ: إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الْقُسُوفِيِّ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِذْ أَنْتُمْ مَغْشَرُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْعُدُوِّ الدِّينِيَّةِ مِنْ دُونِ الْوَادِي عَلَى الشُّطِّ مِمَّا يَلِي الْمَدِينَةَ ﴿وَهُمْ بِالْعُدُوِّ الْقُسُوفِيِّ﴾ مِنَ الْجَانِبِ الْآخَرِ مِمَّا يَلِي مَكَّةَ؛ يَعْنِي مُشْرِكِي مَكَّةَ.

[وَقَوْلُهُ تَعَالَى] (٣): ﴿وَالرُّكْبُ اسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ يَعْنِي أَصْحَابَ الْغَيْرِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ أَوْ عَلَى الْمَاءِ. وَقَالَ قَتَادَةُ: جَمَعَ اللَّهُ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُسْلِمِينَ يَبْذُرُ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ عِنْدَ (٤) شَفِيرِ الْوَادِي. كَانَ الْمُسْلِمُونَ ٢٠١ - ب/ بِأَعْلَاهُ، وَالْمُشْرِكُونَ بِأَسْفَلِهِ: ﴿وَالرُّكْبُ اسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ أَبُو سَفْيَانَ انْطَلَقَ بِالْغَيْرِ فِي رَكْبٍ نَحْوَ الْبَحْرِ (٥). وَقِيلَ: إِذْ أَنْتُمْ [بِأَدْنَى مِنَ] (٦) الْمَدِينَةِ، وَهُمْ بِأَفْصَى مِمَّا يَلِي مَكَّةَ عَلَى مَا ذَكَّرْنَا.

(١) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٣) فِي الْأَصْلِ: عَزَّ وَجَلَّ، فِي م، وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: هَمَّا. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: الْحَرْب. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: بَادِي.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَأَخْتَلَفْتُمْ فِي آلِيبَعْدٍ﴾ إمّا للخروج نفسيه وإمّا للميعاد نفسيه؛ أتخرجون، أو لا تخرجون؟ أو منكم من يؤخر الخروج عن وقت الميعاد، ومنكم من لا يخرج رأساً لينقضي ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْكِن لِّقَضَى اللَّهِ أَمْرًا كَانَتْ مَفْعُولًا﴾ يَحْتَمِلُ^(١) لِيُنْجِزَ الله ما كان وَعْدَ مِنَ الظُّفْرِ وَالنَّصْرِ، أو لِيَقْضِيَ الله أَمْرًا كَانَ فِي عَلَيْهِ مَفْعُولًا، لا أَنْ ﴿إِنْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهُمَا لَكُمْ﴾ كَانَهُ قَالَ: وَعَدَ الله [أمرًا، كان] مفعولاً أي مُنْجِزاً.

ولا^(٢) يَحْتَمِلُ القضاء ابتداء إنشاء وخلق، ولكن لِيُنْشِئَ الله ما قد عَلِمَ أَنَّهُ يَكُونُ كائنًا، أو لِيَحْكُمَ ما قد عَلِمَ أَنَّهُ يَكُونُ كائنًا والله أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: لِيَكْفُرَ مَنْ كَفَرَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَحُجَّةٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ عَلَى الْحَقِّ، وَكَانَ صَادِقًا، وَيُؤْمِنُ مَنْ آمَنَ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ.

وعن ابن عباس رضي الله عنه، [أنه]^(٣) قَالَ: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ قَالَ: لِيَمُوتَ مَنْ مَاتَ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ يَقُولُ: عَنْ بَيَانٍ وَحُجَّةٍ. وَهُوَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ كَانَ أَنَاهُمْ بِآيَاتِ حِسِّيَّةٍ، فَسَمَوْهُ سَاحِرًا، وَأَخْبَرَهُمْ بِأَنْبَاءٍ مَاضِيَةٍ، كَانَتْ^(٤) فِي كُتُبِهِمْ، فَقَالُوا: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥ و...] وَقَالُوا: إِنَّهُ مُعَلَّمٌ ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

وقد كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُخَالِفُهُمْ فِي جَمِيعِ صَنِيعِهِمْ: مِنْ عِبَادَتِهِمُ الْأَصْنَامَ وَالْأَوْثَانَ دُونَ اللَّهِ، وَكَانَ يُخَوِّفُهُمْ، وَيُوعِدُهُمْ بِأَشْيَاءَ، وَكَانَ لَا يَخَافُهُمْ، وَهُمْ كَانُوا رُؤَسَاءَ كِبَرَاءَ، لَا يُخَالِفُهُمْ أَحَدٌ فِي أَمْرِهِمْ وَنَهْيِهِمْ إِلَّا مَنْ كَانَ يُوْجِنُونَ.

فَلَمَّا رَأَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَالَفَهُمْ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ نَسَبُوهُ إِلَى الْجُنُونِ، وَقَالُوا: ﴿سِحْرٌ أَوْ جُنُونٌ﴾ [الذاريات ٣٩ و ٥٢] ﴿وَقَالُوا مَلَكٌ مَجْنُونٌ﴾ [الدخان: ١٤] فَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ لَهُ آيَةً عَظِيمَةً حَتَّى لَا يَقْدِرُوا [على نَسْبِهِ]^(٥) إِلَى شَيْءٍ مِمَّا كَانُوا يَنْسِبُونَهُ مِنْ قَبْلُ، فَوَعَدَ لَهُمُ النَّصْرَ وَالْفَتْحَ يَوْمَ بَدْرٍ بَعْدَ مَا عَلِمَ أُولَئِكَ ضَعْفَ الْمُؤْمِنِينَ وَقِلَّةَ عَدُوِّهِمْ لِيَكُونَ حَيَاةً مَنْ حَيَّ بَعْدَ ذَلِكَ عَنْ بَيِّنَةٍ، وَمَوْتُ مَنْ مَاتَ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ لَهُ مِنْ آيَاتٍ مَا لَوْلَمْ يُعَايِنُوا، وَلَا كَابَرُوا عَقْلَهُمْ لَكَانَتْ وَاحِدَةً مِنْهَا كَافِيَةً.

فَإِنْ قِيلَ: مَا الْحِكْمَةُ فِي ذِكْرِ الْقِصَّةِ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا، وَهُمْ قَدْ عَلِمُوا ذَلِكَ كُلَّهُ، وَشَاهَدُوا؟ قِيلَ: يُذَكِّرُهُمُ اللَّهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، بِالْحَالِ الَّتِي كَانُوا هُمْ عَلَيْهَا وَالْقُوَّةَ وَالْأَسْبَابَ، لِئَلَّا^(٦) يَكْلُوا إِلَى الْكُفْرَةِ، وَلَا يَغْتَمِدُوا عَلَى الْقُوَّةِ، وَلَا يَضَعُفُوا، وَلَا يَجْبُنُوا، وَلَا يَخَافُوا غَيْرَهُ، لِيَعْرِفُوا أَنَّ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْهَزِيمَةِ وَالْعَلَبَةِ أَصَابَهُمْ لِمَغْصِيَةٍ كَانَتْ مِنْهُمْ أَوْ إِعْجَابًا بِالْكَفْرِ وَاعْتِقَادًا بِالْقُوَّةِ وَالْأَسْبَابِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٤٣

وقوله تعالى: ﴿إِذَا يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ؛ قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ الْمَنَامُ نَفْسُهُ؛ كَانَ اللَّهُ يُرِي رَسُولَهُ الْمُشْرِكِينَ فِي مَنَامِهِ قَلِيلًا، فَأَخْبَرَ [رسولاً]^(٧) اللَّهُ بِذَلِكَ أَصْحَابَهُ بِمَا رَأَى، فَقَالُوا: رُؤْيَا النَّبِيِّ حَقٌّ [وَالْقَوْمُ قَلِيلٌ]^(٨) لَيْسَ كَمَا بَلَّغْنَا أَنَّهُمْ كَثِيرٌ. فَلَمَّا اتَّقَوْا بِبَدْرِ قَلَّلَ اللَّهُ الْمُشْرِكِينَ فِي أَعْيُنِ الْمُؤْمِنِينَ تَصَدِيقًا لِرُؤْيَا رَسُولِ اللَّهِ.

وقال الحسن: ﴿إِذَا يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ أَي فِي عَيْنِكَ الَّتِي تَنَامُ بِهِنَّ، وَهُوَ فِي الْيَقَظَةِ؛ لِأَنَّهُ ذَكَرَ أَنَّهُ قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَنَامُ عَيْنِي، وَلَا يَنَامُ قَلْبِي» [البخاري ٣٥٦٩] وَإِنَّمَا أَرَاهُ إِثَامَهُ قَلِيلًا فِي الْعَيْنِ [الَّتِي بِهَا يَنَامُ، وَهِيَ]^(٩) عَيْنَا الْوَجْهِ.

(١) أدرج قبلها في م: لا. (٢) ساقطة من الأصل وم: (٢) في الأصل وم: و. (٣) ساقطة من الأصل وم: (٥) أدرج قبلها في الأصل وم: التي. (٦) في الأصل وم: بالنسبة. (٧) في الأصل وم: لكن بالله. (٨) ساقطة من الأصل وم: (٩) في الأصل: القوم قليل، في م: القوم قليلًا. (١٠) في الأصل وم: الذي به ينام وهو.

وَيَذُلُّ عَلَى ذَلِكَ مَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ^(١) ، [أَنَّهُ] ^(٢) قَالَ : لَقَدْ قُلُّوا فِي أَعْيُنِنَا يَوْمَ بَذَرٍ حَتَّى قُلْتُ لِصَاحِبِ لِي : تَرَاهُمْ سَبْعِينَ؟ فَقَالَ : أَرَاهُمْ مِثَّةً حَتَّى أَخَذْنَا رَجُلًا مِنْهُمْ ، فَسَأَلْنَاهُ ، فَقَالَ : كُنَّا أَلْفًا .

فَإِنْ كَانَ التَّأْوِيلُ هَذَا الثَّانِي أَنَّهُ أَرَاهُمْ وَرَسُولُهُ ^(٣) قَلِيلًا فِي الْيَقَظَةِ بِالَّذِي [يَرَاهُ النَّاسُ] ^(٤) فَهُوَ ظَلَمٌ ، فَإِنْ أَرَاهُ إِيَّاهُمْ فِي الْمَنَامِ حَقِيقَةً فَلِقَائِلٍ أَنْ يَقُولَ : إِنْ رَوَّيَا الرِّسُولَ وَخَيٍّ ، فَكَيْفَ أَرَاهُ إِيَّاهُمْ قَلِيلًا ، وَهُمُ كَثِيرٌ ، خِلَافَ مَا هُمْ فِي الْحَقِيقَةِ؟ قِيلَ : يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ أَرَاهُ بَعْضَهُمْ لَا الْكُلَّ ، فَهُوَ حَقِيقَةٌ مَا أَرَاهُ إِيَّاهُمْ . فَلِذَلِكَ قِيلَ : وَاللَّهِ أَعْلَمُ ، جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ أَرَى أَصْحَابَهُ إِيَّاهُمْ قَلِيلًا ، وَإِنْ أَضَافَ ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ .

دَلِيلُهُ مَا ذَكَرَ فِي آخِرِهِ حَيْثُ قَالَ : ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ﴾ [الأنفال : ٤٤] وَذَلِكَ كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ أَنْ يُخَاطَبَ بِوَيْسَلِهِ ، وَالْمَرَادُ غَيْرُهُ . أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ : ﴿إِنَّمَا يَلْفَنَ عِنْدَكَ الْكَبَرُ أَمْدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَمَّا أَتَى﴾ [الإسراء : ٢٣] وَمَعْلُومٌ أَنَّ نَزُولَ هَذِهِ الْآيَةِ بَعْدَ وَفَاةٍ وَالدِّيَةِ؟

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَلَوْ أَرْنَكُمُ كَثِيرًا لَفُتِنْتُمْ﴾ أَي لَجَبْتُمْ ، وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ ، أَي [اِخْتَلَفْتُمْ فِي أَمْرِ] ^(٥) الْقِتَالِ وَالْحَرْبِ ، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ قِيلَ : ﴿سَلَّمَ﴾ أَيْ أَمَّ ^(٦) لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرُهُمْ عَلَى عَدُوِّهِمْ ، فَهَزَمَهُمْ ، وَنَصَرَهُمْ عَلَيْهِمْ . وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿سَلَّمَ﴾ أَي أَجَابَ لِلْمُسْلِمِينَ لَمَّا اسْتَغَاثُوا ، وَاسْتَنْصَرُوهُ ، بِالنَّصْرِ وَالظَّفَرِ لَهُمْ .

[وَقَوْلُهُ تَعَالَى] ^(٧) : ﴿إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَدَاتُ الشُّدُورِ﴾ أَي عَلِيمٌ بِمَا فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْجُبْنِ وَالْفَشْلِ وَأَمْرٍ عَدُوِّهِمْ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

الآية ٤٤ وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَقَلِيلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ﴾ الْآيَةَ لَمَّا رَأَوْا الْمَلَائِكَةَ لِأَنفُسِهِمْ أَنْصَارًا وَأَعْوَانًا ؛ إِذْ كَانَ قَدْ وَعَدَ لَهُمُ النَّصْرَ وَالْإِعَانَةَ بِالْمَلَائِكَةِ وَكَانَ الْعَدُوُّ مَعَ الْمَلَائِكَةِ ، فَاسْتَقْبَلُوا [الْعَدُوَّ] ^(٨) لِأَنَّ الْعَدُوَّ ، وَإِنْ كَانُوا كَثِيرًا ، فَهُمْ قَلِيلٌ مَعَ الْمَلَائِكَةِ ، فَرَأَوْهُمْ قَلِيلًا عَلَى مَا كَانُوا . وَقَلَّلَ هَوْلًا فِي أَعْيُنِ أُولَئِكَ ؛ لِأَنَّهُمْ كَذَلِكَ ^(٩) كَانُوا قَلِيلًا ، فَرَأَوْهُمْ ^(١٠) عَلَى مَا كَانُوا ، وَلَمْ يَرَوْا الْمَلَائِكَةَ . وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ : قَلَّلَ هَوْلًا فِي أَعْيُنِ هَوْلًا ، وَهَوْلًا فِي أَعْيُنِ هَوْلًا إِذِ اتَّقَوْا لِيُغْرِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَلِيُجَرِّئَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ عَلَى الْقِتَالِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿يَقْنِىَ اللَّهُ أَمْرًا كَأَنَّ﴾ هُوَ مَا ذَكَرْنَا أَنَّهُ يُنْجِزُ مَا كَانَ لَهُمْ مِنَ النَّصْرِ وَالظَّفَرِ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْعَلَبَةِ وَالْهَزِيمَةِ عَلَى أُولَئِكَ . وَكَذَلِكَ ذَكَرَ فِي الْقِصَّةِ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿سَيَرَمُ الرِّجْلُ وَيُولَوْنَ الذُّبُرُ﴾ [القمر : ٤٥] فِي بَذَرٍ فِيهِ وَعَدُ ذَلِكَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿وَكَاكَ وَعَدًا مَفْعُولًا﴾ [الإسراء : ٥] .

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿يَقْنِىَ اللَّهُ﴾ أَي لِيَخْلُقَ اللَّهُ ، وَيُنْشِئَ مَا قَدْ عَلِمَ أَنَّهُ يَكُونُ كَانًا ، أَوْ لِيَقْصِلَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ مِمَّا قَدْ عَلِمَ أَنَّهُ يَكُونُ كَانًا .

وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ : ﴿يَقْنِىَ اللَّهُ أَمْرًا كَأَنَّ﴾ فِي عِلْمِهِ ﴿مَفْعُولًا﴾ كَانًا ؛ يَقُولُ ، فَيُوجِبُ أَمْرًا ، لَا بُدَّ [أَنَّهُ] ^(١١) كَانَتْ لِيُجِزَّ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ بِالنَّصْرِ ، وَيُذِلَّ الشُّرْكَ وَأَهْلَهُ بِالْقَتْلِ ^(١٢) وَالْهَزِيمَةِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَهُوَ قَرِيبٌ مِمَّا ذَكَرْنَا . [وَقَوْلُهُ تَعَالَى] ^(١٣) : ﴿وَاللَّهُ تَرْجِعُ الْأُمُورَ﴾ أَي إِلَى اللَّهِ يَرْجِعُ تَدْبِيرُ الْأُمُورِ وَتَقْدِيرُهَا ^(١٤) ؛ إِذْ لَهُ التَّدْبِيرُ فِي ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وَذَكَرَ [فِي] ^(١٥) بَعْضُ الْقِصَّةِ أَنَّ أَبَا جَهْلٍ لَمَّا رَأَى قِلَّةَ الْمُؤْمِنِينَ بِبَذَرٍ قَالَ : وَاللَّهِ لَا يُعْبِدُ اللَّهَ بَعْدَ الْيَوْمِ ، فَأَكْذَبَهُ اللَّهُ ، وَقَتَّلَهُ ، فَقَالَ ﴿وَاللَّهُ تَرْجِعُ الْأُمُورَ﴾ لَا إِلَى الْخَلْقِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

(١) من م ، في الأصل : عباس . (٢) ساقطة من الأصل وم . (٣) الواو ساقطة من الأصل وم . (٤) ساقطة من الأصل وم . (٥) من م ، في الأصل : أخلفتم . (٦) في الأصل وم : وأنتم . (٧) ساقطة من الأصل وم . (٨) ساقطة من الأصل وم . (٩) في الأصل وم : لذلك . (١٠) في الأصل وم : قرأوا . (١١) ساقطة من الأصل وم . (١٢) من م ، في الأصل ، بالنصر . (١٣) ساقطة من الأصل وم . (١٤) في الأصل وم : وتقديره . (١٥) في الأصل وم : أمر .

وامرُ بدرٍ من أوليه إلى آخيره كان آية حتى عرفت كل أحد ذلك إلا من عاند، وكابر عقله.

الآية ٤٥

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاغْلُظْ﴾ قيل: الفِئَةُ اسمُ جماعةٍ يُنحازُ إليها، وهو من الفَيءِ والرجوع، يَفِيثُونَ إليها، وَيَرْجِعُونَ. ذَكَرَ ههنا الفِئَةَ، وَذَكَرَ فِي الْآيَةِ الَّتِي تَقَدَّمَتْ: ﴿إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفُوا﴾ مكانَ الفِئَةِ، وَنَهَى أُولَئِكَ عَنْ تَوَلِّيَةِ الْأَدْبَارِ بِقَوْلِهِ ﴿فَلَا تَوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾ [الأنفال: ١٥] وقال ههنا: ﴿فَاغْلُظْ﴾ لِيُعْلَمَ أَنَّ فِي النَّهْيِ عَنْ تَوَلِّيَةِ الْأَدْبَارِ أَمْرًا^(١) بِالشَّبَابِ/ ٢٠٢ - أ/ وفي^(٢) الْأَمْرِ بِالشَّبَابِ نَهْيًا^(٣) عَنْ تَوَلِّيَةِ الْأَدْبَارِ [بِقَوْلِهِ ﴿فَلَا تَوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾ [الأنفال: ١٥] وقال ههنا: ﴿فَاغْلُظْ﴾^(٤) فَيَكُونُ فِي النَّهْيِ عَنِ الشَّيْءِ أَمْرٌ بِضِدِّهِ، وَالْأَمْرُ بِالشَّيْءِ نَهْيٌ عَنْ ضِدِّهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْكِسَانِيُّ: قَوْلُهُ ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ أَيِ اذْكُرُوا اللَّهَ فِي مَا تَعْبُدُونَهُ مِنْ طَاعَتِهِ، وَوَعْدَكُمْ مِنْ نَصْرِهِ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى الْكَثَرَةِ فَتَظْفَرُوا.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ فِي مَا لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ لَهُ، إِنْ شَاءَ أَخَذَهَا مِنْكُمْ بوجوهٍ تَقَرَّبُونَ بِهِ إِلَى اللَّهِ، فَادْكُرُوا اللَّهَ عَلَى ذَلِكَ، وَهُوَ مَا ذَكَرَ [فِي]^(٥) قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ [التوبة: ١١١].

وَيَحْتَمِلُ: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ فِي النِّعَمِ الَّتِي أَنْعَمَهَا عَلَيْكُمْ. أَوْ يَقُولُ: اذْكُرُوا الْمَقَامَ بَيْنَ يَدَيِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَذَلِكَ بِمَنْعِكُمْ^(٦) مِنَ الْمَعَاصِي وَالْخِلَافِ لِأَمْرِهِ وَبُغْضِ مَا يُرَغِّبُكُمْ عَنْ طَاعَتِهِ، فَيَكُونُ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ الْأَمْرُ بِذِكْرِ الْأَحْوَالِ.

وَيَحْتَمِلُ الْأَمْرُ بِذِكْرِ اللَّهِ بِاللِّسَانِ، وَذَلِكَ بَغْضُ مَا يُسْتَعَانُ بِهِ فِي أَمْرِ الْحَرْبِ ﴿أَلَمَلَكُمْ لِقَا الْوَعْدِ﴾ لَكُمِ تَفْلَحُوا بِالنَّصْرِ وَالظَّفَرِ، ﴿لِقَا الْوَعْدِ﴾ أَيِ تَظْفَرُونَ.

الآية ٤٦

وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أَطِيعُوا اللَّهَ فِي مَا يَأْمُرُكُمْ بِالْجِهَادِ وَالشَّبَابِ مَعَ الْعَدُوِّ ﴿وَرَسُولَهُ﴾ فِي مَا يَأْمُرُكُمْ بِالْمَقَامِ فِي الْمَكَانِ وَالشَّبَابِ وَتَرْكِ الْاِخْتِلَافِ وَالتَّنَازُعِ فِي الْحَرْبِ، وَذَلِكَ بَغْضُ مَا يُسْتَعَانُ بِهِ فِي أَمْرِ الْحَرْبِ ﴿وَلَا تَنَزَعُوا فَنَفْسُوكُمْ﴾ أَيِ لَا تَنَازَعُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي مَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ، وَعَمَّا يَنْهَاكُمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَجِدِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ﴾ [الأنفال: ٦] لَأَنْكُمْ إِذَا تَنَازَعْتُمْ اخْتَلَفْتُمْ، فَإِذَا اخْتَلَفْتُمْ تَفَرَّقْتُمْ، فَإِذَا تَفَرَّقْتُمْ فَنَفْسُوكُمْ، وَجَبْتُمْ، فَلَا تُنْصَرُونَ، وَلَا تَظْفَرُونَ عَلَى عَدُوِّكُمْ [بَلْ يَظْفَرُ بِكُمْ عَدُوُّكُمْ]^(٧).

أَوْ يُقَالُ: ﴿وَلَا تَنَزَعُوا﴾ لَأَنْكُمْ إِذَا تَنَازَعْتُمْ تَبَاغَضْتُمْ، فَيَسْغَلُكُمُ الْبَاغِضُ بِأَنْفُسِكُمْ، فَيَبْقَى الْجِهَادُ مَعَ الْعَدُوِّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَيَذْهَبْ رِيحُكُمْ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: نَصْرُكُمْ وَظَفَرُكُمْ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: يَذْهَبُ رِيحُ دَوْلَتِكُمْ، وَيَحْتَمِلُ الرِّيحُ الَّتِي بِهَا تُنْصَرُونَ.

وعلى مَا رَوَى عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ [أَنَّهُ]^(٨) قَالَ: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا وَأَهْلَكَ عَادًا بِالذُّبُورِ» [البخاري ١٠٣٥] وَهُوَ مَا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى^(٩) ﴿فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَخُنُودًا لَمْ يَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩].

وقوله تعالى: ﴿وَأَسْبِرُوا﴾ أَيِ اسْبِرُوا لِلْجِهَادِ لِقَتَالِ عَدُوِّكُمْ ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بِالنَّصْرِ لَهُمُ وَالظَّفَرِ.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ تَأْدِيبٌ مِنَ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَتَعْلِيمٌ مِنْهُ فِي مَا ذَكَرْنَا؛ أَيِ فِي أَمْرِ الْحَرْبِ وَأَسْبَابِ الْقِتَالِ وَالْمُجَاهَدَةِ مَعَ الْعَدُوِّ؛ لِأَنَّهُ أَمَرَهُمْ بِالشَّبَابِ، وَأَمَرَهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ، وَنَهَاَهُمْ عَنِ التَّنَازُعِ وَالْاِخْتِلَافِ، وَذَلِكَ بَغْضُ مَا يُسْتَعَانُ بِهِ فِي الْإِنْتِصَارِ عَلَى عَدُوِّهِمْ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: أَمْر. (٢) الْوَارِ سَاقِطَةٌ مِنْ م. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: نَهْي. (٤) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) أَدْرَجَ قَبْلَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: بِالذِّي. (٧) فِي الْأَصْلِ: ظَفَرُكُمْ بِكُمْ، فِي م: بَلْ ظَفَرُكُمْ. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) فِي الْأَصْلِ: وَم: ذَكَرْنَا.

الآية ٤٧

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِيقَةً النَّاسِ﴾ قوله ﴿بَطَرًا﴾ أي كُفْرًا يَنْتَعِمُ اللَّهُ كقولهِ تعالى: ﴿وَمَنْ رَبُّ اللَّهِ مَثَلًا قَرِيبَةً كَانَتْ مَآئِمَةً مُطْمَئِنَّةً﴾ الآية [النحل: ١١٢] فعلى ذلك خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ كُفْرًا بِأَنْتَعِمَ اللَّهُ، لَأَنْهُمْ خَرَجُوا إِلَى قِتَالِ مُحَمَّدٍ، وَهُوَ مَنْ أَغْظَمَ نَعَمَ [الله] (١)، كُفْرَانًا وَتَكْبِيرًا؛ أَي خَرَجُوا مُتَكَبِّرِينَ كَافِرِينَ. و[قوله تعالى] (٢): ﴿وَرِيقَةً النَّاسِ﴾ تَحْتَمِلُ مُرَاتَّتَهُمْ وَجَهَنَ.

أَحَدُهُمَا: مُرَاتَّتُهُمْ فِي الدِّينِ لِأَنَّهُمْ قَالُوا: اللَّهُمَّ انْصُرْ أَهْدَانَا سَبِيلًا وَأَوْصِلْنَا رَجَمًا وَأَقْرَانَا ضَيْفًا، وَعِنْدَهُمْ (٣) أَنَّهُمْ عَلَى حَقٍّ، وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى بَاطِلٍ.

وَالثَّانِي (٤): مُرَاتَّتُهُمْ فِي أَمْرِ الدُّنْيَا لِأَنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ ثَرَوَةٍ وَمَالٍ وَأَهْلَ عُدَّةٍ وَقُوَّةٍ؛ خَرَجُوا مُرَاتِّينَ النَّاسَ؛ لِأَنَّهُمْ (٥) كَانُوا أَهْلَ الشَّرَفِ عِنْدَهُمْ، فَخَرَجُوا لِمُرَاةِ النَّاسِ.

[وقوله تعالى] (٦): ﴿وَيُضْذَرُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أَي يُضْذَوْنَ النَّاسَ عَنْ دِينِ اللَّهِ. أَخْبَرَ ﷺ، عَنْ خُرُوجِ أُولَئِكَ الْكُفْرَةِ أَنَّهُمْ خَرَجُوا لِمَا ذَكَرَ، فَكَانَ فِيهِ أَمْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ بِالْخُرُوجِ عَلَى ضِدِّ ذَلِكَ، كَانَهُ قَالَ: اخْرُجُوا عَلَى ضِدِّ مَا خَرَجُوا هُمْ. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا يَفْعَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [فيه وجهان]:

أَحَدُهُمَا (٧): عِلْمُهُ مُحِيطٌ بِهِمْ، لَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ مِنْ مَكَائِدِهِمْ وَجَلِيلِهِمْ وَالْمَكْرِ بِرَسُولِ اللَّهِ لِلدَّفْعِ (٨) عَنْهُ وَالنَّصْرِ لَهُ. وَالثَّانِي: مُحِيطٌ بِمَا يَفْعَلُونَ، يَنْجِزُهُمْ، وَيُكَافِئُهُمْ، وَلَا يَقُوتُ عَنْهُ شَيْءٌ عَلَى الْوَعِيدِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٤٨

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ﴾ بِالْوَسَاوِسِ، وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ أَلَيْمٌ مِنَ النَّاسِ. وَإِنَّمَا قَالَ لَهُمْ هَذَا، وَوَسَّوَسَ لَهُمْ لَمَّا أَلْقَى إِلَيْهِمْ أَنْكُمْ حَرَمَ اللَّهُ وَسُكَّانَ بَيْتِهِ وَحُقَافَةً. فيقول: يدفع عنكم نكبة هؤلاء؛ يعني أصحاب محمد، كما دفع عنكم في ما كان من قَبْلُ. وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَارَ لَكُمْ﴾ قِيلَ: مُجِيرٌ لَكُمْ مُغِيثٌ. فعلى هذا التَّأْوِيلِ كَانَ قَوْلُهُ ﴿وَإِذْ جَارَ لَكُمْ﴾ كَأَنَّهُ يُخَيِّرُ عَنِ اللَّهِ أَنَّهُ يُغِيثُهُمْ كَمَا أَغَاثَهُمْ مِنْ قَبْلُ فِي غَيْرِ مَرَّةٍ.

وقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الشَّيْطَانَ تَمَثَّلَ فِي صُورَةِ رَجُلٍ، يُقَالُ لَهُ سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكِ بْنِ جَعْفَرٍ، فَاتَاهُمْ، فَقَالَ: لَا تَرْجِعُوا حَتَّى تَسْتَأْصِلُوهُمْ، فَإِنَّكُمْ كَثِيرٌ، وَعَدُوَّكُمْ قَلِيلٌ، فَيَأْمَنُ غَيْرَكُمْ، وَتَخَوَّ هَذَا مِنَ الْكَلَامِ.

وقَالَ صَاحِبُ التَّأْوِيلِ الْأَوَّلِ: لَا يَحْتَمِلُ هَذَا لِأَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ كَانُوا جَبَابِرَةً، وَأَهْلَ قُوَّةٍ وَيَطْلُسُ وَبَاسٍ، فَلَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَضْذَرُوا لِأَرَاءِ رَجُلٍ، هُوَ دُونُهُمْ، وَهُمْ بِالْوَصْفِ الَّذِي ذَكَرْنَا. وَعَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ أَنَّهُ تَمَثَّلَ بِوَفْلَانٍ يَكُونُ قَوْلُهُ ﴿وَإِذْ جَارَ لَكُمْ﴾ مَا ذُكِرَ فِي بَعْضِ الْقِصَصِ أَنَّ أَبَا جَهْلٍ وَأَصْحَابَهُ اغْتَرَّزُوا، وَاسْتَشَارُوا فِي مَا بَيْنَهُمْ، فَاتَاهُمْ إِبْلِيسُ مُتَمَثِّلًا بِسُرَاقَةَ، فَامْتَنَعُوا عَنْهُ، وَاسْتَأْخَرُوا. فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ مِنْهُمْ، فَقَالَ: ﴿وَإِذْ جَارَ لَكُمْ﴾ وَكَانَ جَارًا لَهُمْ. فَتَأْوِيلُ هَؤُلَاءِ أَشْبَهَ بِمَا ذَكَرَ فِي آخِرِ الْآيَةِ.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفُتَاتِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ﴾ أَي رَجَعَ مُسْتَخِرًا مُقْبِلًا بِوَجْهِهِ (٩) إِلَيْهِمْ ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ إِذَا عَاقَبَ. قِيلَ: رَأَى جِبْرِيلَ مَعَ الْمَلَائِكَةِ يَنْزِلُونَ، فَخَافَ مِنْهُمْ. فِيهِ دَلَالَةٌ أَنَّهُ كَانَ يَخَافُ الْهَلَاكَ قَبْلَ الْيَوْمِ (١٠) الْمَعْلُومِ.

الآية ٤٩

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَكْفُلُ الَّتَائِفُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ الْمَشْرُكُونَ ﴿عَرَّ هَؤُلَاءِ دِينَهُمْ﴾. وَعَنِ الْحَسَنِ ﴿إِذْ يَكْفُلُ الَّتَائِفُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [أَنَّهُ] (١١) قَالَ: هُمْ قَوْمٌ لَمْ يَشْهَدُوا الْقِتَالَ يَوْمَ بَدْرٍ، فَسَمُوا مُنَافِقِينَ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) الراي ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وتحتل. (٥) أدرج قبلها في الأصل وم: وقوله: ﴿وَرِيقَةً النَّاسِ﴾. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: أي. (٨) في الأصل وم: في الدفع. (٩) الباء ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: يوم. (١١) ساقطة من الأصل وم.

وقال بعض أهل التأويل: إن قوماً كانوا أسلموا بمكة، فأقاموا بها مع المشركين، ولم يهاجروا إلى المدينة، فلما خرج كفار مكة إلى بدر خرج هؤلاء معهم. فلما عاينوا قلة المؤمنين وضعفهم شكوا في دينهم، وارتابوا، فقالوا^(١): ﴿عَرَّ هَؤُلَاءِ دِينَهُمْ﴾. يفتنون أصحاب محمد.

يقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾. فيثبت بوعده في النصر بدر [رغم قولهم]^(٢) ﴿عَرَّ هَؤُلَاءِ دِينَهُمْ﴾. ﴿قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ﴾ لا يغيره شيء.

قالوا^(٣): ﴿عَرَّ هَؤُلَاءِ دِينَهُمْ﴾ لأنه لم يكن معهم عدة ولا أسباب الحرب من السلاح وغيره، فلم يكونوا يقاتلون إلا لقوة دينهم.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَسْقُوقُ الْمُتَنَفِّقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ عَرَّ هَؤُلَاءِ دِينَهُمْ﴾. إن^(٤) قيل لنا: ما الحكمة في ذكر قول المنافقين في القرآن حتى نثبته في الصلاة؟ قيل: ذكره^(٥) والله أعلم، لتعرف عظيم منزلة الدين وخطير قدره في قلوبهم؛ أعني قلوب المؤمنين، وذلك أنهم بذلوا أنفسهم للهلاك لخرجهم لقتال عدوهم مع ضعفهم وكثرة أعدائهم وقوتهم رجاء أن يسلم لهم دينهم. يذكرونا لتعرف عظيم محل الدين في قلوبهم ليكون محل الدين في قلوبنا على مثل قدره.

وفي قوله تعالى: ﴿إِذْ يَسْقُوقُ الْمُتَنَفِّقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ عَرَّ هَؤُلَاءِ دِينَهُمْ﴾ دلالة إثبات رسالة محمد لأنهم إنما قالوا ذلك سراً في ما بينهم، فأطلع الله رسوله على ذلك، ليعلم أنه عرف بالله.

ثم اختلف في قوله ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ قال بغضهم: هم/ ٢٠٢ - ب/ المشركون. قال المنافقون والمشركون [عن المؤمنين]^(٦) ﴿عَرَّ هَؤُلَاءِ دِينَهُمْ﴾ وقال بغضهم: هم قوم أسلموا، وقد كانوا ضعفاء في الإسلام والدين، فلما خرجوا إلى بدر قرأوا ضعف أصحاب رسول الله ﷺ وقوة أولئك القوم قالوا عند ذلك: ﴿عَرَّ هَؤُلَاءِ دِينَهُمْ﴾. وقد ذكر في بغض القصة أن قوماً كانوا أسلموا بمكة، ثم أقاموا مع المشركين، ولم يهاجروا إلى المدينة، فلما خرج كفار مكة إلى قتال بدر خرج هؤلاء معهم. فلما عاينوا قلة المسلمين شكوا في دينهم، وارتابوا، فقالوا مع المنافقين: ﴿عَرَّ هَؤُلَاءِ دِينَهُمْ﴾. يفتنون أصحاب رسول الله ﷺ فقال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾. من المؤمنين، فيثبت به في النصر [رغم قولهم]^(٧) ﴿عَرَّ هَؤُلَاءِ دِينَهُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَسْقُوقُ الْمُتَنَفِّقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾. يجيء أن يكونوا^(٨) هم المنافقين^(٩) على ما فسره في آية أخرى. فإن كان على ذلك فيكون على إسقاط الواو؛ وكأنه يقال: يقول المنافقون الذين في قلوبهم مرض إلا أن يقال: إن المنافقين هم الذين أضمرُوا الكفر حقيقة والذين لم يضمروا الكفر، لكنهم ارتابوا، وشكوا، واعترضهم^(١٠) شك وارتياب من بعد أن^(١١) رأوا تأخر الموعد.

وقوله تعالى: ﴿عَرَّ هَؤُلَاءِ دِينَهُمْ﴾. يخرج على وجهين.

أحدهما: قالوا: عرَّ الموعد الذي وعدهم رسول الله ﷺ من الفتح لهم والنصر في الدنيا. يقولون: عرَّ ذلك الموعد الذي كانوا به من الفتح والنصر الذي وعد لهم.

والثاني: يقولون: عرَّ هؤلاء الموعد الذي وعدوا في الآخرة من النعيم الدائم والحياة الدائمة.

فيكون أحد التأويلين بالموعد في الآخرة، وهو بالإسلام يكون، والثاني بالموعد في الدنيا، وهو الفتح والنصر الذي ذكرناه.

(١) في الأصل وم: قال. (٢) في الأصل وم: لقولهم. (٣) في الأصل وم: وقوله. (٤) في الأصل وم: فإن. (٥) الهاء ساقطة من الأصل وم: (٦) في الأصل وم: للمؤمنين. (٧) في الأصل وم: لقولهم. (٨) في الأصل وم: يكون. (٩) في الأصل وم: المنافقون. (١٠) في الأصل وم: واعترض. (١١) في الأصل وم: إذا.

وقوله تعالى: ﴿عَرَّ هَؤُلَاءِ دِينَهُمْ﴾ لَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ تَرَكُوا آبَاءَهُمْ وَجَمِيعَ شَهَوَاتِهِمْ، وَبَذَلُوا أَنْفُسَهُمْ لِلْقِتَالِ لِيَسْلَمَ لَهُمْ دِينُهُمْ، لِذَلِكَ قَالُوا: ﴿عَرَّ هَؤُلَاءِ دِينَهُمْ﴾ لِمَا لَمْ يَكُنْ خُرُوجُهُمْ وَبَذْلُهُمْ أَنْفُسَهُمْ لِذَلِكَ إِلَّا إِشْفَاقًا وَخَوْفًا عَلَى دِينِهِمْ؛ وَطَلَبُوا لَمَّا بَذَلُوا أَنْفُسَهُمْ حَيَاةَ الْآبِدِ فِي الْآخِرَةِ، فَقَالُوا ﴿عَرَّ هَؤُلَاءِ دِينَهُمْ﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أَيِ اعْتَمَدَ عَلَى اللَّهِ فِي حَرْبٍ بَدَرَ عَلَى مَا ذَكَرَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ وَالنَّصْرِ فِيهِ.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ الْعَزِيزُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ هُوَ الْغَالِبُ ﴿حَكِيمٌ﴾ مِمَّا أَمَرَ بِالْقَتْلِ.

الآية ٥٠

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبُرَهُمْ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: الْآيَةُ مُقَابِلَةٌ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِثَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنفال: ٤٧] يَقُولُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَيِ يَقْبُضُ أَرْوَاحَ الَّذِينَ كَفَرُوا؛ كَيْفَ يَقْبُضُونَ أَرْوَاحَهُمْ؟ وَكَيْفَ ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبُرَهُمْ﴾؟ كَانَهُ قَالَ: وَاللَّهُ أَعْلَمُ، لَوْ رَأَيْتَ الْحَالِ الَّتِي يَقْبُضُ فِيهَا [الملائكة] ^(١) أَرْوَاحَهُمْ وَمَا يَنْزِلُ [بِهِمْ] ^(٢) لَرَأَيْتَ أَنَّ مَا عَمِلُوا مِنْ صَدِّ النَّاسِ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاسْتِكْبَارِهِمْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَخُرُوجِهِمْ لِقِتَالِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ أَنَّ مَا عَمِلُوا بِأَنْفُسِهِمْ لَا بِالْمُؤْمِنِينَ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبُرَهُمْ﴾ يَحْتَمِلُ مَا ذَكَرَ مِنْ فِعْلِ الْمَلَائِكَةِ يَوْمَ بَدْرٍ؛ لِأَنَّ الْآيَةَ ذُكِرَتْ فِي قِصَّةِ بَدْرٍ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِي كُلِّ كَافِرٍ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ يَقْعُلُونَ بِهِ مَا ذَكَرَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ الْقُلُوبُ لَلَّغَتْ فِي غَرْبِ النَّفْسِ وَالْمَلَائِكَةُ بِأَيْمُونَةٍ بَارِعَةٍ﴾ [الأنعام: ٩٣] هَذَا فِي كُلِّ كَافِرٍ.

وقوله تعالى: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبُرَهُمْ﴾ لَيْسَ عَلَى إِرَادَةِ حَقِيقَةِ الرُّجُوِّ وَالذُّبْرِ، وَلَكِنْ عَلَى إِرَادَةِ إِيصَالِ الْأَلَمِ إِلَيْهِمْ بِكُلِّ ضَرْبٍ وَكُلِّ جِهَةٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَمْ يَنْ تَوْفِيهِمْ ظُلْمٌ مِنْ الْأَنَارِ وَفِيهِمْ ظُلْمٌ﴾ [الزمر: ١٦] لَيْسَ عَلَى إِرَادَةِ التَّخْتِ وَالْفَوْقِ وَلَكِنْ عَلَى إِرَادَةِ إِحَاطَةِ الْعَذَابِ بِهِمْ. فَعَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ﴾ فِي إِقْبَالِهِمْ [عَلَى] ^(٣) الْمُؤْمِنِينَ ﴿وَأَدْبُرَهُمْ﴾ فِي حَالِ إِدْبَارِهِمْ وَانْهِزَامِهِمْ.

الآية ٥١

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ﴾ ذَكَرَ تَقْدِيمَ الْيَدِ، وَإِنْ كَانَ الْكُفْرُ مِنْ عَمَلِ الْقَلْبِ، لِمَا بِالْيَدِ يَقْدَمُ فِي الْعَرَبِ.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلْمٍ لِلْقَبِيلِ﴾ فِي ^(٤) الْآيَةِ دَلَالَةٌ الرَّدِّ عَلَى الْمُجْبَرَةِ لِأَنَّهُمْ لَا يَجْعَلُونَ لِلْعَبِيدِ فِي أَعْمَالِهِمْ صُنْعًا، يَجْعَلُونَ حَقِيقَةَ الْأَفْعَالِ لِلَّهِ.

وَذَكَرَ ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ﴾ فَلَوْ لَمْ لَهُمْ صُنْعٌ لَمْ يَكُنْ لِقَوْلِهِ ﴿بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ﴾ مَعْنَى، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلْمٍ لِلْقَبِيلِ﴾ فَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ لَكَانَ التَّعْذِيبُ ظُلْمًا. ذَلَّ أَنْ لَهُمْ فِعْلًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلْمٍ لِلْقَبِيلِ﴾ فِي مَا شَرَعَ مِنَ الْقِتَالِ وَالْإِهْلَاكِ وَالتَّعْذِيبِ فِي الْآخِرَةِ؛ لِأَنَّهُ مَكَّنَ لَهُمْ مَا يَكْسِبُونَ بِهِ مِنَ النِّجَاةِ وَالْحَيَاةِ الدَّائِمَةِ، فَمَا لِحَقِّهِمْ مِمَّا ذَكَرَ إِنَّمَا كَانَ بِاِكْتِسَابِهِمْ وَاخْتِيَارِهِمْ.

الآية ٥٢

وقوله تعالى: ﴿كَذَّابٌ مَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: صَنِيعُ هَؤُلَاءِ أَيِ صَنِيعِ أَهْلِ مَكَّةَ بِمُحَمَّدٍ كَصَنِيعِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ بِمُوسَى فِي التَّكْذِيبِ وَالْكَفْرِ بِآيَاتِهِ. وَقَالَ قَائِلُونَ: صُنْعُ اللَّهِ بِأَهْلِ مَكَّةَ بِالْعُقُوبَةِ كَصَنِيعِهِ بِفِرْعَوْنَ وَآلِهِ وَمَنْ سَبَقَ مِنَ الْأُمَمِ مِنَ الْإِهْلَاكِ وَالتَّعْذِيبِ. وَقَدْ فَعَلَ بِأَهْلِ مَكَّةَ يَوْمَ بَدْرٍ بِسُوءِ مَعَامَلَتِهِمْ مُحَمَّدًا ^(٥) [وقوله تعالى] ^(٦): ﴿كَذَّابٌ﴾ قِيلَ: كَصَنِيعِ، وَقِيلَ: كَفِعْلِ، وَقِيلَ: كَأَشْبَاهِ، وَقِيلَ: كَعَمَلِ، وَهُوَ وَاحِدٌ.

وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أَيِ لَا يُضْعِفُهُ شَيْءٌ، يَمْنَعُهُ عَمَّا يُرِيدُ.

(١) (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم. وفي (٤) في الأصل وم. (٥) في الأصل وم. موسى. (٦) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٥٣

وقوله تعالى ﴿ذَلِكَ﴾ أي ذلك العذاب والعقاب الذي ذكره ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا مَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ﴾. ﴿ذَلِكَ﴾ أي ذلك العذاب والعقاب الذي ذكره ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا مَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ﴾.

قال قائلون: النعمة التي أنعمها عليهم هم الرسل الذين^(١) بعثهم إليهم والكتب التي أنزلها عليهم ﴿لَمْ يَكُ مَعَكُمْ نِعْمَةٌ﴾ لذلك النعم ﴿حَتَّى يُبَيِّنَ مَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ﴾ [من التكذيب]^(٢) والرد وترك القبول، وهو كقولهم تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى يَبَيِّنَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبَيِّنَ فِيْهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ مَا يَنْتَهِى﴾ الآية [الفصص: ٥٩].

وقال قائلون: قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُ مَعَكُمْ نِعْمَةٌ أَنْ تَبَيِّنَ مَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ﴾ أي حتى يضربوا شكر نعمة إلى غير الله، ويعبدوا^(٣) دونه؛ أي يغيروا^(٤) ما بأنفسهم؛ يعبدون غير الله، ويشكرون غير الذي أنعم عليهم. فعند ذلك يغير^(٥) الله ما بهم من النعمة. وكذلك قال ابن عباس: [تغيير]^(٦) نعمة من النعم أن يتولوا^(٧) عن شكرها يغيروا الله عليهم، ويأخذوها منهم.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَمْ يَكُ مَعَكُمْ نِعْمَةٌ أَنْ تَبَيِّنَ مَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ يُخْرِجُ عَلَى وَجْهَيْنِ: أحدهما: النعمة الدنياوية: لا تتغير تلك عليهم إلا بتغيير من قبلهم: إمَّا بترك الشكر^(٨) وإمَّا بصرفه إلى غير الذي أنعمها عليهم، ولو غيرت عليهم يبدل فليس ذلك في الحقيقة تغييراً^(٩).

[والثاني: تختل النعمة [النعمة]^(١٠) الدينية؛ وهي^(١١) تكذيبهم الرسل وردهم الكتب بعدما أفسموا أنهم يكونون ﴿أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأَنسَامِ﴾ [فاطر: ٤٢] واختيارهم الشرك والكفر على الإسلام والتوحيد. فإذا اختاروا تغيير^(١٢) ذلك غير عليهم]^(١٣).

[وقوله تعالى]^(١٤): ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ قيل: أي ﴿سَمِيعٌ﴾ لشكر من يشكره، ويحمده ﴿عَلِيمٌ﴾ لزيادة النعمة إذا شكر.

ويختل: ﴿سَمِيعٌ﴾ أي مجيب عليهم بمصالحهم. ٢٠٣ - / ويختل أنه ﴿سَمِيعٌ﴾ لما أسروا من القول، وجهرُوا به ﴿عَلِيمٌ﴾ بما أضمرُوا من العمل والشروع.

الآية ٥٤

وقوله تعالى: ﴿كَذَّابٌ مِّمَّنْ لَكُمْ فِي الْأَنْفَالِ﴾ والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم ﴿فَإِنْ قِيلَ: مَا فَائِدَةُ تَخْصِصِ ذِكْرِ آلِ فِرْعَوْنَ مِنْ بَيْنِهِمْ؟ وما الحكمة في تكرار قوله ﴿كَذَّابٌ مِّمَّنْ لَكُمْ فِي الْأَنْفَالِ﴾؟ قيل: يختل ذكر آل فرعون لما كانوا أقرب إلى هؤلاء من غيرهم ممن كان قبلهم.

الآ ترى أنه قال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَهِيدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِيَّاكُمْ رَسُولًا﴾ [المزمل: ١٥] وأنه^(١٥) يذكر أهل الكتاب منهم لما كانوا يتكبرون بعت الرسل من غيرهم، ويقولون: إن محمداً أمي يبعث إلى الأميين مثله؟ فقال: إن موسى لم يكن من القبط، فبعث رسولاً إليهم. فعلى ذلك محمداً كان أمياً، فبعث إلى الأميين وغيرهم، والله أعلم بذلك.

وأما فائدة التكرار، والله أعلم، فهو^(١٦) أنه ذكر في الآية الأولى الأخذ بالذنوب والتعذيب، ولم يبين ما كان ذلك العذاب، فبين في الآية الأخرى أن ذلك العذاب هو الإهلاك والإستئصال حين^(١٧) قال: ﴿فَأَغْلَقْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَعْرَفْنَاهُ مَالِ فِرْعَوْنَ﴾.

ويختل قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٢] في الآخرة يكفرهم بآيات الله في الدنيا، وذكر في إحدى^(١٨) الآيتين العذاب في الآخرة، وفي الآية الأخرى الإهلاك في الدنيا.

(١) في الأصل: التي. (٢) في الأصل وم: بالتكذيب. (٣) في الأصل وم: ويعبدون. (٤) أدرج قبلها في الأصل وم: لا. (٥) في الأصل وم: غير. (٦) ساقطة من الأصل وم: (٧) في الأصل وم: تولوا. (٨) في الأصل وم: الشرك. (٩) في الأصل وم: تغيير. (١٠) ساقطة من الأصل وم: (١١) في الأصل وم: وهو. (١٢) في الأصل وم: التغيير. (١٣) أدرج هذا الوجه في الأصل وم: بعد العبارة: وأخذها منهم. (١٤) ساقطة من الأصل وم: (١٥) في الأصل وم: وأن. (١٦) في الأصل وم: وهو. (١٧) في الأصل وم: حيث. (١٨) من م، في الأصل: أحد.

ولأنه ذَكَرَ في الآية الأولى الكُفْرَ بآياتِ الله، ولم يُبيِّن ذلك [وذكر^(١)] في الآية الأخرى التكذيبَ بآياته. فبيَّن أن^(٢) الكُفْرَ بآياته هو تكذيبها.

ثم التكذيب إنما يكون في الأخبار، وكذلك التصديق. وفيه دلالة أن الإيمان هو التصديق لأنه جعلَ مقابلةً وضدَّه التكذيب. وفيه دلالة أن الإيمان ليس هو المعرفة لأن مقابلة الجهل بالله، ليس هو التكذيب، لكن بالمعرفة يكون التصديق، وبالجهل يكون التكذيب.

الآية ٥٥ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ذَكَرَ ههنا أن ﴿شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وقال في آية أخرى ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢] هُم شَرُّ الدَّوَابِّ حين^(٣) سَمِعُوا الآياتِ والحقَّ، وعَقَلُواها، فلم يُؤْمِنُوا بها؛ أي لم يَتَّبِعُوا بما عَقَلُوا مِمَّا وَقَعَ في مَسَامِعِهِمْ وَمِمَّا دَرَسُوا كَمْ لَا سَمْعَ لَهُ، وَلَا لِسَانَ. نَقَى عَنْهُمْ ذَلِكَ لِمَا لَمْ يَتَّبِعُوا بِمَا عَقَلُوا.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ في الآخرة؛ أي^(٤) يُبْعَثُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اللَّهِ صُغًا بُكْمًا لِمَا لَمْ يَتَّبِعُوا في الدنيا بهيْذِ كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عَيْنًا وَبُحْكَامًا وَسُوءًا﴾ الآية [الإسراء: ٩٧].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي شَرٌّ مِنْ ﴿الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وهو كما ذَكَرَ في آيةٍ أُخْرَى: ﴿الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩] أَخْبَرَ أَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ، وَكَذَّبُوا بِآيَاتِهِ أَصْلُ مِنْ الْأَنْعَامِ. وَقَدْ ذَكَرْنَا فَائِدَةَ قَوْلِهِ: ﴿بَلْ هُمْ أَصْلٌ﴾ في موضعيه.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿شَرَّ الدَّوَابِّ﴾ أي شَرٌّ مِنْ يَدْبُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مِنَ الْمُشْتَحِينَ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. ثُمَّ يَكُونُونَ^(٥) بهذا الوَصْفِ إِذَا خَيَّمُوا بِالْكَفْرِ وَتَرَكَ الْإِيمَانَ.

ثُمَّ اخْتَلَفَ فِيهِ؛ قَالَ بَعْضُهُمْ: نَزَلَ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ؛ عَاهَدُوا رَسُولَ اللَّهِ، ثُمَّ أَعَانُوا مُشْرِكِي مَكَّةَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ بِالسَّلاحِ وَغَيْرِهِمْ، فَأَقَالَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ، وَكَانُوا يَقُولُونَ: نَبِينَا، وَآخِطَانَا، ثُمَّ عَاهَدَهُمْ ثَانِيَةً، فَتَفَضُّوا الْعَهْدَ.

الآية ٥٦ فذلك قوله: ﴿ثُمَّ يَفْضُلُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ نَقَضَ الْعَهْدَ، أَوْ ﴿لَا يَتَّقُونَ﴾ الشُّرْكَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: نَزَلَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ فِي الْمَرَدَّةِ وَالْفِرَاعَةِ مِنَ الْكُفْرِ؛ كَانُوا عَقَلُوا مَا سَمِعُوا، وَدَرَسُوا، وَلَكِنْ غَيَّرُواها، فَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ.

عَلَى هَذَا حَمَلَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ تَأْوِيلَ الْآيَةِ، وَإِلَى مَا ذَكَرْنَا صَرَّفُوا^(٦). وَالْأَصْرَفُ الْآيَةُ إِلَى أَهْلِ التَّفَاقِ أَوَّلَى؛ لِأَنَّهُمْ هُمُ الْمَعْرُوفُونَ بِنَقْضِ الْعَهْدِ مَرَّةً^(٧) بَعْدَ مَرَّةٍ.

الآية ٥٧ وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَفَقَّهْتُمْ فِي الْحَرْبِ﴾ قِيلَ: تَأَسَّرْتُمْ فِي الْحَرْبِ، وَقِيلَ: تَلَقَّيْتُمْ فِي الْحَرْبِ، وَقِيلَ: تَجَدَّيْتُمْ فِي الْحَرْبِ. ﴿فَنَشَرُوا مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ قِيلَ: نَكَلَ بِهِمْ مِنْ بَعْدِهِمْ؛ أَيْ اصْطَنَعَ بِهِمْ مَا يُنْكَلُونَ مِنْ خَلْفِهِمْ، أَيْ يَمْنَعُونَ، وَقِيلَ: قَبِضَ بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَيْ مِنْ سِوَاهُمْ.

الآية نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ؛ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، وَكَانَ مِنْ عَادَتِهِمْ نَقْضُ الْعَهْدِ، فَأَمَرَ^(٨) رَسُولَهُ أَنْ يُنْكَلَ بِهِؤْلَاءِ^(٩) لِيَكُونَ ذَلِكَ عِزَّةً وَزَجْرًا لِمَنْ بَعْدَهُمْ، إِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ لَهُمْ زَجْرًا، فَيَكُونُ فِي تَنْكِيلِ هَؤُلَاءِ مَنَفَعَةً لِبَعْدِهِمْ إِذَا رَأَى غَيْرُهُمْ أَنَّهُ فَعَلَ بِهِؤْلَاءِ مَا ذَكَرَ. يَكُونُ ذَلِكَ زَجْرًا لَهُمْ عَنْ مِثْلِ صِيغِهِمْ.

ولهذا مَا قَالَ: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩] مَنْ رَأَى أَنَّهُ بِه امتَنَعَ عَنْ قَتْلِ آخَرٍ، فَيَكُونُ فِي ذَلِكَ حَيَاةُ الْخَلْقِ، وَكَذَلِكَ مَا جَعَلَ مِنَ الْقِتَالِ وَنَضْبِ الْحَرْبِ فِي مَا بَيْنَهُمْ رَحْمَةً؛ لِأَنَّ فِي الطَّبَاعِ التَّفَارِغِ الْقَتْلَ. فَإِذَا رَأَى أَنَّهُ يُقْتَلُ

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) أدرج في الأصل قبلها: هم. (٥) من م، في الأصل: يكون. (٦) ساقطة من م. (٧) في الأصل وم: ومرة. (٨) في الأصل وم: فأمرهم. (٩) في الأصل وم: هؤلاء.

يَتَزَكَّى الْإِسْلَامَ أَجَابَ إِلَى اللَّهِ إِشْفَاقًا عَلَى نَفْسِهِ وَخَوْفًا عَلَى تَلَفِ مُهَجَّتِهِ، فَيَكُونُ فِي الْقِتَالِ رَحْمَةً. وَكَذَلِكَ جَمِيعُ مَا جَعَلَ اللَّهُ فِي مَا بَيْنَ الْخَلْقِ مِنَ الْعُقُوبَاتِ فِي النَّقْصِ. وَمَا دُونَ النَّفْسِ جَعَلَ زَوَاجِرَ وَمَوَانِعَ عَنِ الْمُعَاوَذَةِ إِلَى مَثَلِهِ.

فَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿فَنَشَرَهُ بِهَمِّ مَنْ خَلَقَهُمْ﴾ عِظَةٌ وَزَجْرًا لِمَنْ بَعْدَهُمْ ﴿لَتَلَهُمْ يَذَكَّرُونَ﴾ لِكَيْ يَذَكَّرُوا^(١) النَّكَالَ فَلَا يَنْقُضُوا الْعَهْدَ. وَكَذَلِكَ كُلُّ مَرْغُوبٍ فِي الدُّنْيَا وَمَرْهُوبٍ جَعَلَ دَوَاعِيَ وَزَوَاجِرَ لِمَوْعِدٍ فِي النَّارِ، وَجَعَلَ كُلَّ لَذِيذٍ وَشَهْوَى فِي الدُّنْيَا دَاعِيًا لِمَا وَعَدَ فِي الْآخِرَةِ، وَكُلُّ كَرِيهٍ وَقَبِيحٍ زَاجِرٌ لَهُ عَنِ الْمَوْعِدِ فِي الْآخِرَةِ فِي النَّارِ. عَلَى هَذَا بِنَاءُ أَمْرِ الدُّنْيَا. وَالتَّشْرِيدُ قَالَ أَبُو عُيَيْدَةَ: مَعْنَاهُ مِنَ التَّفْرِيقِ؛ أَيِ قُرْقٍ بِهِمْ.

وَقَالَ الْقَتَيْبِيُّ: قَوْلُهُ: ﴿فَنَشَرَهُ بِهَمِّ مَنْ خَلَقَهُمْ﴾ أَيِ أَفْعَلَ بِهِمْ فِعْلًا مِنَ الْعُقُوبَةِ وَالتَّشْكِيلِ، يَتَفَرَّقُ بِهِ مَنْ وَرَاءَهُمْ مِنَ الْأَعْدَاءِ. وَقَالَ^(٢): وَيُقَالُ: ﴿فَنَشَرَهُ بِهَمِّ﴾ سَمِعَ بِهِمْ بِلُغَةِ قُرَيْشٍ، وَقِيلَ: [نَكَلَ بِهِمْ أَيْ أَجْعَلَهُمْ]^(٣) عِظَةٌ لِمَنْ وَرَاءَهُمْ وَهُوَ مَا ذَكَرْنَا.

وَقَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ: التَّشْكِيلُ: التَّخْوِيفُ وَالرُّدُّ عَمَّا يُكْرَهُ، وَالتَّكَالُ الْعَذَابُ. وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿فَنَشَرَهُ بِهَمِّ مَنْ خَلَقَهُمْ﴾ أَيِ اخْلُقَهُمْ بِهِمْ بِمَا صَنَعَ هَؤُلَاءِ.

وَقَالَ أَبُو عُيَيْدَةَ: التَّشْرِيدُ فِي كَلَامِهِمُ التَّبِيدُ وَالتَّفْرِيقُ، وَبَعْضُهُ قَرِيبٌ مِنْ بَعْضٍ.

قَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ: قَوْلُهُ: ﴿فَنَشَرَهُ بِهَمِّ مَنْ خَلَقَهُمْ﴾ أَيِ نَكَلَ بِهِمْ حَتَّى يَخَافَكَ مَنْ خَلَقَهُمْ، وَالتَّشْرِيدُ الطَّرِيدُ، وَالتَّشْرِيدُ أَيْضًا الْقَلِيلُ.

الآية ٥٨ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا فِي مَالِكُمْ مَوَدَّةَ الَّذِينَ بَدَلُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا سَوَاءً ۚ لَا يَدْرِي أَلِإِلَهِكُمْ إِلَٰهٌ إِلَّا إِلَٰهُنَا ۚ فَكَفَىٰ لَكُمْ أَعْيُنًا وَمَنْ عِنْدَ اللَّهِ وَكَفَىٰ اللَّهُ عَذَابًا لِلْعَافِينَ﴾^(٤) سَوَاءً؛ لِأَنَّ عِنْدَكُمْ أَنْكُمْ مُعَاهِدُونَ عَلَىٰ عَهْدٍ بَعْدَ عَهْدٍ. وَلَكِنْ أُنِذِرْ إِلَيْهِمْ، ثُمَّ نَاصِبٌ فِي مَا بَيْنَهُمُ الْحَرْبُ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ عَلَى حَقِيقَةِ الْخَوْفِ، يَقُولُ: إِذَا خِفْتَ مِنْهُمْ النَّقْصَ أَوْ الْخِيَانَةَ ﴿فَأُنِذِرْ إِلَيْهِمْ﴾ أَيِ أَلْقِ إِلَيْهِمْ نَقْصَكَ لِتَكُونَ أَنْتَ وَهُمْ فِي الْعِلْمِ بِالنَّقْصِ سَوَاءً.

وَقَالَ أَبُو عُيَيْدَةَ: قَوْلُهُ: ﴿فَأُنِذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أَيِ أَظْهَرْ لَهُمْ أَنَّكَ عَدُوٌّ وَأَنَّكَ مُنَاصِبٌ حَتَّى يَعْلَمُوا ذَلِكَ، فَتَصِيرُوا عَلَى ذَلِكَ سَوَاءً. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أَيِ عَلَى أَمْرِ بَيْنٍ.

قَالَ أَبُو عُيَيْدَةَ: قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ ﴿فَأُنِذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أَغْلِبَهُمْ أَنَّكَ تَرِيدُ أَنْ تُحَارِبَهُمْ حَتَّى يَصِيرُوا مِثْلَكَ فِي الْعِلْمِ، فَذَلِكَ السَّوَاءُ.

قَالَ الْكِسَائِيُّ: السَّوَاءُ الْعَدْلُ، وَقَالَ: ﴿فَأُنِذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أَيِ سِزَ إِلَيْهِمْ، وَقَدْ عَلِمُوا بِكَ، وَعَلِمْتَ بِهِمْ، وَبَعْضُهَا^(٥) قَرِيبٌ مِنْ بَعْضٍ.

وَحَاصِلُ التَّأْوِيلِ/٢٠٣- ب/ هُوَ [التَّأْوِيلَانِ اللَّذَانِ]^(٦) ذَكَرْتُهُمَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَأَضَلُّ الْعَهْدِ مَا ذَكَرَ فِي آيَةِ أُخْرَى، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتُوا إِلَيْهِمْ عَهْدٌ إِلَّا مَدَّتِهِمْ﴾ [التوبة: ٤] أَمَرَ بِاتِّمَامِ الْعَهْدِ إِلَى الْمُدَّةِ إِذَا لَمْ يَنْقُضُوا شَيْئًا، وَلَمْ يَخُونُوا، وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْنَا أَحَدًا مِنْهُمْ. فَإِذَا فَعَلُوا شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَلَنَا أَنْ نَنْقُضَ الْعَهْدَ الَّذِي كَانَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، إِذَا سَأَلُونَا؛ لَيْسَ لِلْإِمَامِ أَنْ يُعْطِيَ لَهُمُ الْعَهْدَ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الْعَهْدِ مَنْفَعَةٌ لِلْمُسْلِمِينَ مَنْفَعَةٌ ظَاهِرَةٌ، وَخَيْرٌ^(٧) لَهُمْ مِرَاعَاةُ ذَلِكَ الْعَهْدِ وَحِفْظُهُ. فَإِذَا خَافَ مِنْهُمْ فَلَهُ نَقْضُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: يَذَكَّرُونَ. (٢) الْوَاوُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: نَكَلَهُمْ أَيْ جَعَلَهُمْ. (٤) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَبَعْضُهُمْ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: التَّأْوِيلَانِ اللَّذَيْنِ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: وَخَيْرًا.

ثم إذا كانت^(١) تلك الخيانة من جُمْلَتِهِمْ أو يَمُنُّ لَهُ مَنَفَعَةٌ فَلَهُ أَنْ يُنَاصِبَ مَعَهُمُ الْحَرْبَ، وإن لم يَنْبِذُوا إِلَيْهِمْ. وإذا كان ذلك من بَغْضٍ على سَبِيلِ التَّلَصُّصِ والسَّرِقَةِ فَلَيْسَ لَهُ أَنْ يُحَارِبَهُمْ إِلَّا بَعْدَ التَّبَذِّ إِلَيْهِمْ.

الآية ٥٩

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ قال بَعْضُهُمْ: لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ نَجَّوْا قَد^(٢) تَخَلَّصُوا مِنْكَ يَا مُحَمَّدُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنِّي لَأُظْفِرُكَ بِهِمْ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْحُرُوبِ وَالْمَغَازِي، وإنهم يقولون، ويُعْجِزُونَ الله عن ذلك.

وقال بعضهم ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ وَيَقُوتُونَ عَنْ نَقْمَةِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ.

وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ: بِنَضْبِ^(٣) الْأَلِفِ: أَنَّهُمْ يُعْجِزُونَ فَمَنْ قَرَأَ بِالنَّضْبِ طَرَحَ لَا، وَجَعَلَهَا صِلَةً، وَقَالَ: لَا تَحْسَبَنَّ أَنَّهُمْ يُعْجِزُونَ وَأَمَّا قِرَاءَةُ الْعَائِثَةِ فَهِيَ بِالْحَفْضِ ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ وَقِيلَ: الْمُعْجِزُ السَّابِقُ.

الآية ٦٠

وقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ قال بَعْضُهُمْ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ وَلَا تَخْرُجُوا إِلَى الْحُرُوبِ وَالْمَغَازِي^(٤) كَمَا خَرَجْتُمْ إِلَى بَذْرِ بِلَا سِلَاحٍ وَلَا قُوَّةٍ لِأَنَّهُ ارَادَ أَنْ يَجْعَلَ حَرْبَ بَذْرِ آيَةٍ لِيُمَيِّزَ بَيْنَ الْمُحَقِّقِ وَالْمُبْطِلِ وَيَبَيِّنَ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ. لِذَلِكَ أَمَرَكُمْ بِالْخُرُوجِ إِلَيْهِ بِلَا سِلَاحٍ وَلَا عُدَّةٍ. وَأَمَّا غَيْرُهَا مِنَ الْحُرُوبِ وَالْمَغَازِي فَلَا تَخْرُجُوا إِلَيْهَا إِلَّا مُسْتَعِدِّينَ لَهَا.

وَبَعْدَ فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا تَرَكُوا الْإِسْتِعْدَادَ طَاعَةً لِرَبِّهِمْ، وَفِي الْإِسْتِغْثَالِ بِالْإِسْتِعْدَادِ تَرْكٌ لِلطَّاعَةِ لَهُ. وَأَمَرَ^(٥) بِالْإِعْدَادِ لَهُمْ مَا اسْتَطَاعُوا مِنْ الْأَسْبَابِ لِمَا أَنَّ ذَلِكَ أَرْهَبُ لِلْعَدُوِّ مِنْ تَرْكِ الْإِسْتِعْدَادِ، وَإِنْ كَانَ^(٦) قَادِرًا أَنْ يَنْصُرَهُمْ عَلَى عَدُوِّهِمْ بِلَا أَسْبَابٍ^(٧) يَجْعَلُهَا لِنَفْسِهِمْ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ﴾ [الحشر: ١٣] فَأَمَرَ اللَّهُ بِالْأَسْبَابِ فِي الْحُرُوبِ، وَإِنْ كَانَ قَادِرًا عَلَى نَصْرِ أَوْلِيَائِهِ عَلَى عَدُوِّهِ بِلَا سَبَبٍ.

لَكِنَّهُ أَمَرَ بِالْأَسْبَابِ لِمَا أَنَّ جَمِيعَ أُمُورِ الدُّنْيَا جَعَلَهَا بِالْأَسْبَابِ مِنْ نَحْوِ الْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ وَجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ، وَإِنْ كَانَ يَقْدِرُ عَلَى إِبْقَاءِ الْإِنْسَانِ وَالْخَلَائِقِ جَمِيعًا بِلَا غِذَاءٍ؛ يَجْعَلُ لَهُمْ [الحياة]^(٨) وَالْمَوْتَ بِلَا مَرَضٍ وَلَا سَبَبٍ، وَلَكِنْ فَضَّلَ بِمَا ذَكَرْنَا. ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي قَوْلِهِ: ﴿مِنْ قُوَّةٍ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: الْقُوَّةُ: الرَّمْيُ. وَعَلَى ذَلِكَ رَوَوْا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ [أَنَّهُ]^(٩) قَالَ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ فَقَالَ: أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثًا [مسلم ١٩١٧].

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ مَا تَقْوُونَ بِهِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْقُوَّةُ السِّلَاحُ، وَقَالَ غَيْرُهُمْ^(١٠): الْخَيْلُ. وَأَمَّا أَنْ تَكُونَ جَمِيعَ الْأَسْبَابِ لِلْحَرْبِ^(١١).

وفيه دلالة أَنَّ الْقُوَّةَ الَّتِي هِيَ أَسْبَابُ الْفِعْلِ يَجُوزُ أَنْ تَتَقَدَّمَ، وَيَكُونُ قَوْلُهُ ﴿لَوْ اسْتَطَعْنَا لَحَرَبْنَا مَعَكُمْ﴾ [التوبة: ٤٢] ارَادَ اسْتَطَاعَةَ الْفِعْلِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ أَمَرَ بِرِبَاطِ الْخَيْلِ وَالْإِعْدَادِ لِلْحَرْبِ رَهْبَةً لِلْعَدُوِّ ﴿وَالْآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا يَعْلَمُونَهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِيهِ:

قَالَ بَعْضُهُمْ: تُرْهِبُونَ بِرِبَاطِ الْخَيْلِ الْمُشْرِكِينَ. وَقَالُوا^(١٢) ﴿وَالْآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَانُوا فِي مَا بَيْنَهُمْ، يُرْهِبُونَ^(١٣) هَؤُلَاءِ أَيْضًا.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَالْآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ الَّذِينَ كَانُوا بَيْنَهُمْ لَا يَعْرِفُونَهُمْ كَانُوا طَلَانِعَ^(١٤) لِلْمُشْرِكِينَ وَغِيُونًا لَهُمْ، يُخْبِرُونَهُمْ عَنْ حَالِ الْمُؤْمِنِينَ، يُرْهِبُونَ^(١٥) هَؤُلَاءِ أَيْضًا.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: كَانَ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٣) انظر معجم القراءات القرآنية ٤٥٨/٢ وحجة القراءات ص ٣١٢. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: مِنَ الْمَغَازِي. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: بِالْإِعْتِدَادِ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: سَبَب. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: غَيْرِهِ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: الْحَرْب. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: يَرْهَب. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: طَلَانِعًا. (١٤) فِي الْأَصْلِ وَم: يَرْهَب.

وَقَالَ آخَرُونَ: قَوْلُهُ: ﴿وَالْآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ هُمُ الشَّيَاطِينُ، وَرَوَوْا عَلَى ذَلِكَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «هُمُ الشَّيَاطِينُ» وَقَالَ: «لَنْ يُخْبِلَ الشَّيَاطِينُ إِنْسَانًا فِي دَارِهِ قَرَسَ عَتِيقٌ» [ابن حجر في المطالب العالية ٣٦٣٠].

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿وَالْآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ هُمُ الْأَعْدَاءُ الَّذِينَ يَكُونُونَ مِنْ بَعْدِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿لَا تَقْلُبُوهُمْ اللَّهُ يَتْلَبُهُمْ﴾ فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ فَفِيهِ دَلَالَةٌ بِقَاءِ الْجِهَادِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَالْآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ هُمُ الشَّيَاطِينُ ﴿لَا تَقْلُبُوهُمْ اللَّهُ يَتْلَبُهُمْ﴾ وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا يَرْسَلُكُمْ هُوَ وَيَقِيلُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرْوَاهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧].

فَإِنْ قِيلَ: أَيُّ رَهْبَةٍ تَقَعُ لِلشَّيَاطِينِ فِي مَا ذَكَرَ مِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ وَالسَّلَاحِ الَّذِي ذَكَرَ؟ قِيلَ: أَلَا يَكُونُ لِأَوْلِيَائِهِمْ رَهْبَةٌ فِي قَنَعِ أَوْلِيَائِهِمْ، أَوْ يَكُونُ لِأَوْلِيَائِهِمْ رَهْبَةٌ نَسَبِ ذَلِكَ إِلَيْهِمْ. وَذَلِكَ كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ سَمِيَ عَدُوَّ اللَّهِ [وَعَدُوَّكُمْ عَدُوًّا] ^(١) لِلْمُؤْمِنِينَ لِيَعْلَمَ مَنْ اغْتَفَدَ عَدَاوَةَ اللَّهِ صَارَ عَدُوًّا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَمَنْ اغْتَفَدَ وَلَايَةَ اللَّهِ صَارَ وَلِيًّا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَمَنْ كَانَ وَلِيًّا لِلْمُؤْمِنِينَ كَانَ ^(٢) وَلِيًّا لِلَّهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أَخْبَرَ أَنْ مَا أَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّى إِلَيْهِمْ ^(٣) ذَلِكَ. أَمَّا الْخُلْفُ فِي الدُّنْيَا [فَهُوَ] ^(٤) لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سبأ: ٣٩] وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ [فَهُوَ] ^(٥) الثَّوَابُ.

[وَقَوْلُهُ تَعَالَى] ^(٦): ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَقْلُبُونَهُ﴾ [فِيهِ وَجْهَانِ:]

أَحَدُهُمَا ^(٧): فِي مَا يَأْمُرُكُمْ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاتِّخَاذِ الْعُدَّةِ وَالْإِنْفَاقِ فِيهَا؛ إِذْ أَنْفُسُكُمْ وَأَمْوَالُكُمْ لِلَّهِ؛ لَهُ أَنْ يَأْخُذَهَا مِنْكُمْ.

وَالثَّانِي: ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَقْلُبُونَهُ﴾ فِي الثَّوَابِ فِي الْآخِرَةِ؛ أَيِ يُعْطِيكُمْ الثَّوَابَ، أَوْ الْخُلْفُ فِي الدُّنْيَا، وَاللَّهُ أَغْلَمُ.

الآية ٦١

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ قُرِئَ بِالنَّضْبِ ﴿لِلسَّلَامِ﴾ وَقُرِئَ بِالْحَفْضِ لِلْسَّلَامِ وَقَالَ ^(٨) أَهْلُ اللُّغَةِ: مَنْ قَرَأَ بِالنَّضْبِ ﴿لِلسَّلَامِ﴾ حَمَلَ عَلَى الْمُصَالَحَةِ وَالْمُوَادَعَةِ، وَمَنْ قَرَأَ بِالْحَفْضِ لِلْسَّلَامِ جَعَلَ ذَلِكَ فِي الْإِسْلَامِ الْعَهْدَ عَلَى مَا ذَكَرْنَا فِي قَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ [الأنفال: ٥٦].

يَقُولُ: لَا يَمْنَعُكَ عَنِ الصُّلْحِ مَعَهُمْ مَا كَانَ مِنْهُمْ مِنَ النُّقْضِ وَنُكْثِ الْعُهُودِ ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ وَلَا تَخَفْ خِيَانَتَهُمْ وَنَقْضَهُمْ الْعَهْدَ فَإِنَّ اللَّهَ يُطْلِعُكَ، وَيَكْفِيكَ عَلَى ذَلِكَ.

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: قَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ﴾ أَيِ إِذَا خَضَعُوا، وَتَوَاضَعُوا، لِلْإِسْلَامِ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَاخْضَعْ لَهُمْ. كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَخِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨] أَمْرُهُ بِخَفْضِ الْجَنَاحِ لَهُمْ، وَكَقَوْلِ أَبِي بَكْرٍ: ذَكَرَ ههنا أَنَّهُمْ إِذَا طَلَبُوا الصُّلْحَ مِنَّا يَلْزَمُنَا أَنْ [تَقْبَلَ ذَلِكَ مِنْهُمْ] ^(٩) وَإِذَا لَمْ يَطْلُبُوا مِنَّا ذَلِكَ لَا يَجِلُّ لَنَا أَنْ نَطْلُبَ مِنْهُمْ الصُّلْحَ إِلَّا أَنْ نَضْطَرَّ إِلَى ذَلِكَ. وَهُوَ مَا ذَكَرَ فِي آيَةِ أُخْرَى [حِينَ قَالَ] ^(١٠): ﴿فَلَا تَهَيَّأُوا لِلْحَرْبِ وَتَدْعُوا إِلَى الْكُفْرِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ [محمد: ٣٥] نَهَانَا أَنْ نَدْعُوهُمْ إِلَى الصُّلْحِ، وَلَنَا قُوَّةٌ وَعُدَّةٌ لِلْقِتَالِ مَعَهُمْ. وَأَمَّا إِذَا كَانُوا طَلَبُوا مِنَّا ذَلِكَ أَوْ لَا فَيُجَابُونَ إِلَى ذَلِكَ. وَيَحْتَمِلُ مَا ذَكَرْنَا أَيِ لَا يَمْنَعُكَ مَا ^(١١) كَانَ مِنْهُمْ مِنْ نَقْضِ الْعَهْدِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَاجْنَحْ لَهَا﴾ يَحْتَمِلُ ذِكْرُهُ بِالتَّائِيثِ؛ أَيِ لِلْمُسَالَمَةِ وَالْمُصَالَحَةِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ:

السَّلَامُ يَأْخُذُ مِنَّا مَا رَضِيتَ بِهِ وَالْحَرْبُ تُكْفِيكَ مِنْ أَنْفَاسِهَا جِرْعُ

فَإِنْ قِيلَ: مَا الْمَعْنَى فِي قَوْلِ مَنْ قَالَ بِالْإِسْلَامِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَاجْنَحْ لَهَا﴾ وَهُوَ كَانَ يَدْعُو إِلَى الْإِسْلَامِ، وَهُوَ/ ٢٠٤ - / لا

(١) فِي الْأَصْلِ: وَعَدُوكُمْ سَمِيَ عَدُوَّ اللَّهِ، فِي م: وَعَدُوا. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: عَلَيْهِمْ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) انْظُرْ مَعْجَمَ الْقُرْآنِ ج ٢/ ٤٦٠ وَحُجَّةَ الْقُرْآنِ ص ٣١٢. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: نَعْطِيهِمْ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: لَهَا.

شك أنه كان يقبل منهم الإسلام؟ قيل: يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ بِالْقَبُولِ أَمْرًا بِتَرْكِ الْمُوَاحِدَةِ لِمَا^(١) كَانَ مِنْهُمْ فِي حَالِ نَقْضِ الْعَهْدِ لِأَنَّ مِنْ قَوْلِنَا: إِنْ مَا أَصَابُوا فِي حَالِ الْعَهْدِ مِنَ الْجَرَاحَاتِ وَالْأَخِذِ يَتَّبِعُونَ بِهَا، وَيُؤَاخِذُونَ، إِذَا أَسْلَمُوا. وَإِذَا نَقَضُوا الْعَهْدَ، ثُمَّ أَصَابُوا شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، ثُمَّ أَسْلَمُوا، لَمْ يُؤَاخِذُوا بِذَلِكَ، فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ: ﴿فَاتَّجَعَ لَكُمْ﴾ وَلَا تَوَاجِذُهُمْ بِمَا كَانَ مِنْهُمْ فِي حَالِ نَقْضِ الْعَهْدِ.

وَقَالَ الْحَسَنُ: هَذَا مَنْسُوخٌ؛ نَسَخَهَا قَوْلُهُ: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [الآية: التوبة: ٢٩] وَقَالَ بَعْضُهُمْ: نَسَخَهَا قَوْلُهُ: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [الآية: التوبة: ٣٦] وَقَالَ بَعْضُهُمْ: [نَسَخَهَا]^(٢) قَوْلُهُ: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى الْوَيْلِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾. [محمد: ٣٥].

وَالْوَجْهُ فِيهِ مَا ذَكَرْنَا أَنَّ الْإِمَامَ إِذَا رَأَى الصُّلْحَ وَالْمُوَاحِدَةَ نَصْرًا لِلْمُسْلِمِينَ أَجَابَهُمْ إِلَى ذَلِكَ، وَصَالَحَهُمْ. وَإِذَا طَلَبُوا مِنْهُ الصُّلْحَ، وَبِالْمُسْلِمِينَ قُوَّةَ الْقِتَالِ وَالْحَرْبِ مَعَهُمْ، لَمْ يُجِبْهُمْ إِلَى ذَلِكَ. وَمَا ذَكَرَ هَؤُلَاءِ مِنْ نَسْخِهِ فَذَلِكَ لَا نَعْرِفُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٦٢ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فِي الصُّلْحِ﴾ [فَاتَّجَعَ لَكُمْ] أَيِ امْتَنَّكَ اللَّهُ مِنْهُمْ كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الأنفال: ٧١].

وَأَنَّ كَانَ قَوْلُهُ ﴿فَاتَّجَعَ لَكُمْ﴾ فِي الْإِسْلَامِ فَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿فَاتَّجَعَ لَكُمْ﴾ أَيِ يُطْلِعُكَ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ النِّفَاقِ؛ أَيِ وَإِنْ خِفْتَ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ يُظْهِرُونَ لَكَ الْإِسْلَامَ فِي الظَّاهِرِ، وَيَكُونُونَ فِي السِّرِّ عَلَى مَا كَانُوا مِنْ قَبْلُ فَلَا يَمْنَعُكَ ذَلِكَ عَنْ قَبُولِ الْإِسْلَامِ مِنْهُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ يُطْلِعُكَ [عَلَى]^(٣) ذَلِكَ، وَيَكْفِيكَ ذَلِكَ^(٤)، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي آتَاكَ نَصْرَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ بِالْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ أُنْزِلَتْ لَهُمْ مَعُونَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ بَدْرٍ. وَيَحْتَمِلُ ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ الْمُؤْمِنِينَ [الَّذِينَ]^(٥) كَانُوا مَعَهُ. فَأَخْبَرَ أَنَّهُ يُؤَيِّدُهُ بِنَصْرِهِ وَبِنَصْرِ الْمُؤْمِنِينَ. وَكَانَ النَّصْرُ لَهُ بِاللَّهِ فِي الْحَقِيقَةِ.

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦] النَّصْرُ مِنَ اللَّهِ يَكُونُ مَرَّةً فِي الْأَسْبَابِ: بِالْمُؤْمِنِينَ وَبِغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْبَابِ، وَمَرَّةً بِاللُّطْفِ مِنْهُ بِلَا سَبَبٍ.

الآية ٦٣ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَلْفَ بَيْنٍ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ بِالَّذِينَ الَّذِي اجْتَمَعُوا عَلَيْهِ كَقَوْلِهِ: ﴿إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءُ﴾ أَلَفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى سَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٠٣] أَخْبَرَ أَنَّهُمْ كَانُوا أَعْدَاءً مَا دَامُوا فِي الْكُفْرِ، فَلَمَّا أَسْلَمُوا صَارُوا إِخْوَانًا.

وَلَكِنْ عِنْدَنَا الْإِسْلَامُ يُوجِبُ التَّالِيفَ وَالْاجْتِمَاعَ بَيْنَهُمْ^(٦)، وَلَكِنْ يَجُوزُ أَلَّا يُوجِدَ التَّالِيفَ، وَإِنْ أُوْجِدَ^(٧)، لِيَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يُولِّفُ بَيْنَهُمْ بِاللُّطْفِ وَقَضِيهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَفَ بَيْنَهُمْ﴾ وَقَدْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَا ذَكَرَ مِنْ تَالِيفِ الْقُلُوبِ، يَكُونُ مَرَّةً بِالَّذِينَ وَمَرَّةً بِاللُّطْفِ مِنَ اللَّهِ. فَلِذَا كَانَ الْخِلَافُ وَالْعِدَاوَةُ بَيْنَهُمْ بِسَبَبِ الدِّينِ فَإِنَّهُ إِذَا وَجِدَ الْوِفَاقَ ارْتَفَعَ الْخِلَافُ وَالْعِدَاوَةُ، وَإِذَا كَانَ لِلْإِظْمَاعِ فَهُوَ يَرْتَفِعُ بِاللُّطْفِ مِنَ اللَّهِ ﴿إِنَّهُمْ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿عَزِيزٌ﴾ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ ﴿حَكِيمٌ﴾ فِي أَمْرِهِ وَحُكْمِهِ.

الآية ٦٤ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ وَحَسْبُكَ مِنَ ﴿اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيِ كَفَاكَ اللَّهُ فِي الْعَوْنِ وَالنَّصْرِ لَكَ، وَكَفَاكَ لِلْمُؤْمِنِينَ أَيْضًا فِي مَا ذَكَرْنَا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ نَصْرُهُ مِنَ اللَّهِ، وَحَسْبُكَ نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ؛ وَهُوَ عَلَى مَا ذَكَرَ ﴿هُوَ الَّذِي آتَاكَ نَصْرَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢] وَالْأَوَّلُ أَشْبَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: مَا. (٢) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: عَلَى ذَلِكَ. (٥) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: بَيْنَهُمَا. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: وَجِدَ.

الآية ٦٥ وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَٰؤُلَاءِ حَرِّصْ أَلْفُومِيَّتَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ التَّحْرِيصُ عَلَى الْقِتَالِ يَكُونُ بِوَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ يُعِدَّ لَهُمْ مِنَ الْمَنَافِعِ فِي الدُّنْيَا، وَيُظَمِّعَ لَهُمْ ذَلِكَ مِنْ نَحْوِ مَا جَاءَ مِنَ التَّنْظِيلِ أَنَّ مَنْ فَعَلَ كَذَا فَلَهُ كَذَا، أَوْ يُعِدَّ لَهُمُ الْمَنَافِعَ فِي الْآخِرَةِ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ١١١] وَمَا ذَكَرَ مِنَ الثَّوَابِ فِي الْآخِرَةِ بِالثَّقَةِ الَّتِي يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَوْلُهُ: ﴿هَلْ أَذْكَرُ عَلَى عِزَّةٍ تُجِيزُ عَذَابَ إِلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠] فِي مَا ذَكَرْنَا فِيهِ وَعَدُ الْمَنَافِعِ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَوَعْدُ النَّصْرِ لَهُمْ.

والثاني: يكون التَّخْرِيسُ بِضَرِّ يَلْحَقُ أَوْلَكَ وَنَجَبٌ تَصِلُ إِلَيْهِمْ كَقَوْلِهِ: ﴿أَلَا تَقِيلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿تَقِيلُوهُمْ يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيَضْرِبُهُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ شُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ وَيُذْهِبُ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ [التوبة: ١٣ و ١٤ و ١٥].

جَمَعَ اللَّهُ ﷻ فِي هَذِهِ الْآيَةِ جَمِيعَ أَنْوَاعِ الْخَيْرِ الَّذِي يَكُونُ فِي الْقِتَالِ مَعَ الْعَدُوِّ وَمِنْ وَغْدِ النَّصْرِ لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِمْ وَإِدْخَالِ السُّرُورِ فِي صُدُورِهِمْ وَنَفْيِ الْخَوْفِ عَنْهُمْ وَتَعْذِيبِ أُولَئِكَ بِأَيْدِيهِمْ. وَفِيهِ إِغْرَاءٌ عَلَى الْعَدُوِّ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَبِيرًا يَلْبِثُوا يَانَّتِي وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ نَافَةٌ يَلْبِثُوا أَلْفًا مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فذلِكَ كُلُّهُ يُحَرِّضُ عَلَى الْقِتَالِ، وَيُرْغِبُهُمْ فِي الْحَرْبِ مَعَ الْعَدُوِّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا يَأْتِيَنَّ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ نَائَةٌ يَقْبَلُوا أَلَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ كَافِرُونَ﴾ الآية اختلف في معنى هذا. قال بعضهم: قوله: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا﴾ كذا على الأمر؛ كأنه قال: ليكن منكم عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا كذا؛ أمر العشرة القيام ليعتد، وقال: دليله أنه على الأمر قوله: ﴿أَلَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ كَافِرُونَ﴾ [الأنفال: ٦٦] ولو لم يكن على الأمر والعزيمة لم يكن لذكر التخفيف معنى.

وقَالَ آخَرُونَ: هُوَ عَلَى الْوَعْدِ^(١) أَنَّهُمْ إِذَا صَبَرُوا، وَتَبَتُوا لِعَدْوِهِمْ، غَلَبُوا عَدُوَّهُمْ عَلَى مَا أَخْبَرَ ﴿كَمْ مِنْ فَتْنَةٍ فُلْسَفَةٍ غَلَبَتْ فَتَنَ كَثِيرَةً يَأْذِنُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٤٩] لَيْسَ عَلَى الْأَمْرِ لِأَنَّهُ قَالَ ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا يَأْتِيَنَّ﴾ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ إِذَا صَبَرُوا غَلَبُوهُمْ، وَهُوَ كَذَلِكَ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ، إِذْ ظَاهِرُهُ وَغَدٌ وَخَيْرٌ. وَالْأَشْبَهُ أَنْ يَكُونَ عَلَى الْأَمْرِ، لَيْسَ عَلَى الْخَيْرِ عَلَى مَا ذَكَرْنَا مِنْ قَوْلِهِ: ﴿أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٦].

وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهِمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ما لهم، وما عليهم.

الآية ٦٦ وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ خَفَفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ سَمْعًا﴾ [فيه وجهان:

أَخَذَهُمَا: [إِنْ] ^(٢٧) قِيلَ: مَا مَعْنَى قَوْلِهِ ﴿وَعَلِمَ أَنْ يَكُنْ ضَعْفًا﴾ وَقَدْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ فِيهِمْ ضَعْفًا ^(٢٨) وَقَدْ مَا أَمَرَ الْعَشْرَةَ الْقِيَامَ لِمِئَةِ وَالْعَشْرِينَ لِمِئَتَيْنِ؟ قِيلَ: أَمَرَ بِذَلِكَ مَعَ عِلْمِهِ أَنَّ فِيهِمْ ضَعْفًا، وَإِنْ كَانَ فِي ذَلِكَ إِهْلَاكٌ لِنَفْسِهِمْ، وَذَلِكَ مِنْهُ عَذْلٌ، إِذْ لَهُ الْإِنْفُسُ، إِنْ شَاءَ أَتْلَفَهَا بِالْمَوْتِ، وَإِنْ شَاءَ بِالْقَتْلِ بِقَتْلِ الْعَدُوِّ.

والتَّخْفِيفُ مِنْهُ رَحْمَةٌ وَفَضْلٌ؛ أَمَرَ الْوَاحِدَ الْقِيَامَ لِمَعْرُوفَةٍ عَلَى عِلْمٍ مِنْهُ بِالضَّعْفِ ابْتِدَاءً امْتِحَانٍ مِنْهُ، وَلَهُ أَنْ يَمْتَحِنَ عِبَادَهُ بِمَا فِيهِ وَسُعْهُمُ وَبِمَا لَا وَسُعَ لَهُمْ فِيهِ. وَفِي الْحِكْمَةِ ذَلِكَ، إِذْ لَهُ الْإِنْفُسُ، لَهُ أَنْ يُتْلَقَ بِهَا كَيْفَ شَاءَ بِمَا شَاءَ؛ وَهُوَ مَا ذَكَرَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ أَنَّا كُنَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: ٦٦] وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الْحِكْمَةِ ذَلِكَ لَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكْتَسِبَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ.

والثاني: يَعْلَمُ فِيهِمُ الضَّعْفَ، كائناً شأيداً كما عَليمُ أَنهُ يَكُونُ؛ وهو ما ذَكَرْنَا فِي قَوْلِهِ ﴿حَتَّى تَقَرَّ الْمَجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالْمَنَينِ﴾ [محمد: ٣١] أَي يَعْلَمُ الْمُجَاهِدُ كَمَا عَليمُ أَنهُ يَجَاهِدُ. فَعَلَى ذَلِكَ هَذَا.

ثم ذَكَرُ العَشْرَةَ والعشرين يَحْتَمِلُ على التحديد، وَيَحْتَمِلُ لا على التحديد. أَلَا تَرَى أَنَّهُ ذَكَرَ فِي النَّاسِخِ عَدَدًا غَيْرَ الْعَدَدِ
الَّذِي فِي الْمَنْسُوخِ؟ لَأَنَّ فِي الْمَنْسُوخِ ذَكَرَ الْعِشْرِينَ لِمَتْنَيْنِ، وَفِي النَّاسِخِ ذَكَرَ الْأَلْفَ لَا لِغَيْرِ بَقُولِهِ: ﴿وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ
قَاتِلُونَ أَفَلَا تَفْقَهُوا﴾

(١) في الأصل وم: الوعيد. (٢) في الأصل: فان. (٣) في الأصل وم: ضعف.

فَإِنْ كَانَ لَا عَلَى التَّحْدِيدِ فَيَلْزَمُ لِوَاحِدِ الْقِيَامِ لِأَثْنَيْنِ، وَفِي الْأَوَّلِ الْوَاحِدُ لِعُسْرَةِ.
وعلى ذلك رُوِيَ عَنْ عُمَرَ رضي الله عنه، [أنه]^(١) قَالَ: إِذَا لَقِيَ الرَّجُلُ رَجُلَيْنِ مِنَ الْكُفَّارِ، فَاسْتَأْذَنَ، فَلَا فِدَاءَ لَهُ عَلَيْنَا، فَإِذَا لَقِيَ ثَلَاثَةً فَأَخَّرَ فَعَلَيْنَا فِدَاؤَهُ، وَلَمْ يَجْعَلْ لِلوَاحِدِ الْفِرَارَ مِنْ اثْنَيْنِ حِينَ^(٢) جَعَلَ عَلَيْهِ الْفِدَاءَ.
وكذلك رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه، أَنَّهُ قَالَ ذَلِكَ.
وَيَحْتَمِلُ/ ٢٠٤ - ب/ عَلَى التَّحْدِيدِ، إِذَا كَمُلَ الْعَدُوُّ لَمْ يَسْمَحْ بِالْفِرَارِ، وَيَلْزَمُهُمُ الْقِيَامُ لَهُمْ. وَإِذَا كَانُوا دُونَ ذَلِكَ لَمْ يَلْزَمُوا.

وكذلك قَالَ الْحَسَنُ: أَمَرَ أَنْ يَصْبِرَ عَشْرُونَ لِمِثْلَيْنِ، إِنْ قَرُّوا مِنْهُمْ لَمْ يُعْذَرُوا، وَأَنْ يَصْبِرَ الْأَلْفُ لِأَلْفَيْنِ، إِنْ قَرُّوا مِنْهُمْ لَمْ يُعْذَرُوا. قَالَ: ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ ﴿أَلَنْ خَلَفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ سَعَةً﴾ فَأَمَرَ أَنْ يَصْبِرَ مِثْلَ لِمِثْلَيْنِ، وَإِنْ قَرُّوا مِنْهُمْ لَمْ يُعْذَرُوا، وَأَنْ يَصْبِرَ الْأَلْفُ لِأَلْفَيْنِ؛ إِنْ قَرُّوا مِنْهُمْ لَمْ يُعْذَرُوا. فَإِنْ كَانَ عَلَى التَّحْدِيدِ فَهُوَ مَا يَقُولُونَ: إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا مَنَعَةً، فَإِنَّهُ يَسْتَعْنَهُمْ إِلَّا يَفَاتِلُوا.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ نَائَةٌ صَارَةً﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: الصَّبْرُ هُوَ حَبْسُ النَّفْسِ عَلَى مَا أَمَرَ اللَّهُ، وَكُفُّهَا عَنْ جَمِيعِ شَهَوَاتِهَا وَلَذَاتِهَا. فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ غَلَبَ عَلَى الْعَدُوِّ، وَقَهَرَهُ.

وقَالَ بَعْضُهُمْ: الصَّبْرُ هُوَ أَنْ يُؤْطَنَ نَفْسُهُ فِي الْقِتَالِ مَعَ الْعَدُوِّ، وَيَحْبِسُهَا فِي ذَلِكَ. وَالشُّكْرُ قِيلَ: هُوَ أَنْ يَبْذُلَ نَفْسَهُ وَمَا يَخْرِبُهُ اللَّهُ، لَا يَجْعَلُ لغيرِهِ، فَيَكُونُ الشُّكْرُ وَالصَّبْرُ فِي الْحَاصِلِ سَوَاءً، وَإِنْ كَانَ فِي الْعِبَارَةِ مُخْتَلِفَيْنِ لِأَنَّ الشُّكْرَ هُوَ بَذْلُ النَّفْسِ وَمَا حَوْتُهُ يَدُهُ اللَّهُ، وَالصَّبْرُ هُوَ الْكَفُّ وَالِاخْتِيَاْسُ عَلَى جَمِيعِ مَا أَمَرَ اللَّهُ وَأَدَاءَ مَا قَرَضَ عَلَيْهِ فَإِذَا حَبَسَهَا عَنْ غَيْرِهِ يَكُونُ بَازِلًا، وَلِهَذَا سَمِيَ الصَّبْرُ إِيْمَانًا بِقَوْلِهِ ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [هود: ١١] ذَكَرَ الصَّبْرَ ههنا مَكَانَ مَا ذَكَرَ فِي غَيْرِهِ الْإِيْمَانَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الانشقاق: ٢٥ و...].

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ فِي النَّصْرِ لَهُمْ عَلَى عَدُوِّهِمْ وَالْغَلْبَةِ عَلَيْهِمْ.

الآية ٦٧

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَتْ لِيَنِّي أَنْ يَكُونَ لَهُ أَشْرَى حَتَّى يُنْفِخَ فِي الْأَرْضِ﴾ قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْكَيْسَانِيُّ^(٣): عَاتَبَ اللَّهُ رَسُولَهُ وَأَصْحَابَهُ فِي اخْتِذِ الْأَسَارَى بِقَوْلِهِ: ﴿مَا كَانَتْ لِيَنِّي أَنْ يَكُونَ لَهُ أَشْرَى حَتَّى يُنْفِخَ فِي الْأَرْضِ﴾ وَبَالَغَ فِي الْعِتَابِ فِي اخْتِذِ الْفِدَاءِ مِنَ الْأَسَارَى بِقَوْلِهِ: ﴿فَرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾.

وكذلك رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ لَمَّا اسْتَشَارَ أَصْحَابَهُ فِي الْأَسَارَى أَشَارَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى اخْتِذِ الْفِدَاءِ، وَعُمَرَ إِلَى الْقَتْلِ، فَقَالَ: لَوْ نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ عَذَابٌ مَا نَجَا إِلَّا عُمَرُ [السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٠٨]. عَاتَبَهُمُ بِالْأَخِذِ اخْتِذِ الْأَسَارَى وَأَشَدَّ الْعِتَابِ فِي اخْتِذِ الْفِدَاءِ، وَأَمَرَ بِالْقَتْلِ وَضَرْبِ الرِّقَابِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢] إِنَّمَا أَمَرَ بِضَرْبِ الرِّقَابِ وَضَرْبِ الْبَنَانِ.

وكذلك يُخْرِجُ قَوْلُهُ ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنْ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ عَلَى الْعِتَابِ. إِلَى هَذَا يَذْهَبُ أَبُو بَكْرٍ الْأَصْمُ.

وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ [أنه]^(٤) قَالَ: لَمْ يَكُنِ الْأَنْبِيَاءُ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، فِي مَا مَضَى يَكُونُ لَهُمْ أَسَارَى حَتَّى يُنْفِخُوا فِي الْأَرْضِ.

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ [أنه]^(٥) قَالَ: لَا يُقَادَى أَسَارَى الْمُشْرِكِينَ، وَلَا يُمْنُ عَلَيْهِمْ حَتَّى يُنْفِخُوا بِالْقَتْلِ، ثُمَّ تَلَا: ﴿حَتَّى إِذَا أَفْتَضَمُوا فَنَشَدُوا الْوَكَاةَ﴾ [محمد: ٤] إِلَى هَذَا ذَهَبَ هُؤُلَاءِ.

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَتْ لِيَنِّي أَنْ يَكُونَ لَهُ أَشْرَى﴾ يُخْرِجُ تَأْوِيلُ الْآيَةِ عَلَى وَجْهَيْنِ:

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: الكيساني. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.

أخذهما: يقول: ما كان ينبغي أن يأخذ من الأسرى الفداء ﴿حَتَّى يُفْخِرَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي يغلب؛ حتى إذا أخذ الفداء، وسرّحهم بعد ما غلب في الأرض، يكون رجوعهم إلى غير منعة وشركة.

والثاني^(١): إذا لم يغلب في الأرض؛ أي حتى يصير الدين كله لله كقوله: ﴿وَقَتْلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ اللَّهُ﴾ الآية [البقرة: ١٩٣ والأنفال: ٣٩] هذا لئلا كان قبله، فرخص لرسوله.

الآية ٦٨

وقيل: في قوله: ﴿لَوْلَا كُنتَ مِنْ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وجوه:

أخذها: ما قال أبو بكر الأصم: تأويله: ﴿لَوْلَا كُنتَ مِنْ اللَّهِ سَبَقَ﴾ ألا يعذب المخطئين في عملهم على خلاف أمره، وألا ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ العذاب ﴿فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ [من الأسارى والفداء منهم]^(٢) ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

والثاني^(٣): قال بغضهم: ﴿لَوْلَا كُنتَ مِنْ اللَّهِ سَبَقَ﴾ أنهم يتوبون عما عملوا من الأخذ وغيره، وأنه يتوب عليهم، وألا ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ العذاب.

[والثالث]^(٤): التأويل في هذا غير هذا: كان في قوله: ﴿فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ دلالة بإباحة الأمر ورخصته؛ لأنه قال: ﴿فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ وهو^(٥) الإبانة من المفصل الذي [به إبانة]^(٦) الروس؛ وذلك قل ما يمكن في القتال، ولا يقدر [على]^(٧) إبانة الروس في الحرب. إنما يمكن ذلك بعد ما أخذوا، ودفعوا في أيديهم.

وأما ما ذكر من ضرب البنان فهو في الحرب؛ لأنه في الحرب إنما يضرب في ما ظفر، ووجد السبيل إلى ذلك، ففيه دلالة وتأويل قوله: ﴿لَوْلَا كُنتَ مِنْ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ﴾ الآية يحتفل أن يكون ملحقاً على ما سبق من قوله: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَايِلُونَ﴾ ﴿يَجْعَلُونَكَ فِي الْحَقِّ﴾ الآية [الأنفال: ٥ و ٦] أي ﴿لَوْلَا كُنتَ مِنْ اللَّهِ سَبَقَ﴾ أي لولا [ما سبق]^(٨) من حكم الله أن يجعل لكم الظفر على إحدى الطائفتين، وألا لمسكم العذاب بمجادلتكم رسول الله ومخالفتكم إياه في الخروج وإرادتكم العير، أو أن يقال: لولا [ما سبق]^(٩) من حكم الله ألا يعذب أحداً، ولا يؤاخذ له في الخطأ في العمل بالإجتهاد، وألا لمسكم كذا. أو أن يكون قوله: ﴿أَخَذْتُمْ﴾ أي علمتم.

ثم قالت المعتزلة في قوله: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ دلالة على أن الله لا يريد ما أراد العباد إذا أرادوا المعاصي لأنه أخبر أنهم أرادوا عرض الدنيا، وهو يريد الآخرة. فهم أرادوا المعصية، وهو يريد حياة الآخرة وعرضها. وبعد فإنه قد أراد لهم الآخرة وحياتها، وهم أرادوا العير وعرض الدنيا. وقد كان ما أراد الله لهم لا ما أرادوا هم؛ أي اختار لهم غير ما اختاروا هم.

وأصله أن الله هو أراد الآخرة لأهل البدر، فكان ما أراد، وأراد لأولئك الكفرة النار، فكان ما أراد كقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَقًّا فِي الْآخِرَةِ﴾ [آل عمران: ١٧٦] والأشبه أن تكون الإرادة منها المودة والمحبة؛ أي تؤدون، وتجبون عرض الدنيا، والله يريد الآخرة، وهو ما ذكر في آية أخرى حيث قال: ﴿وَإِذْ يَبْعَثُكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهُمَا لَكُمْ وَتُؤَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّرَكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧] كانوا يؤدون أن القتال مع غير ذات الشوكة حتى تكون لهم العتائم.

والإرادة التي تضاف إلى الله تخرج على وجوه ثلاثة:

أخذها: الرضا كقوله: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] كانوا يستدلون بتزكية إياهم، وهم على [ظن]^(١٠) أن الله قد رضي بضيئهم.

والثاني: الإرادة الأمر كقوله: ﴿وَإِذَا فَسَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا مَاءً طَهُارًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا﴾ [الأعراف: ٢٨].

والثالث: الإرادة هي صفة فعل كل قائل يخرج فعله على غير سهو وغفلة ولا طبع بل يخرج على الاختيار.

(١) في الأصل وم: و. (٢) من م: في الأصل: وأسلحتهم. (٣) في الأصل وم: و. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: بيان به. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

وقال بعض أهل التأويل: «إن رسول الله ﷺ استشار في الأسارى يوم بدر أصحابه. فقال لأبي بكر: «ما تقولون فيه، فقال: يا رسول الله قومك وأهلك، فاستبقهم. واستبقاؤهم لعل الله يتوب عليهم. وقال عمر: يا رسول الله كذبوك، واخرجوك. فذمهم فاضرب أعناقهم، وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله: انظر وادياً كثيراً الحطب، فادخلهم فيه، وأضرمه عليهم ناراً. فقال له العباس: قطعت رحمتك، فسكت رسول الله ﷺ فلم يجبه شيئاً، ثم قام، فدخل، فقال ناس: يقول بقول أبي بكر، وقال ناس: يقول بقول عمر، وقال [ناس^(١)]: يقول بقول عبد الله. ثم خرج عليهم رسول الله فقال: إن الله ليولين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد^(٢) ٢٠٥ - ١ من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى حين^(٣) قال: ﴿إِن مَّعَنِيهِمْ فَإِنَّهُمْ بِيَاسَةٍ﴾ [المائدة: ١١٨] وإن مثلك يا عمر كمثل موسى حين^(٤) قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذِيَارًا﴾ [نوح: ٢٦] ولا [ينفك عن أحد منهم]^(٥) إلا بفداء أو ضربة عنقي. قال عبد الله: إلا سهيل بن بيضاء فإني سمعته يذكر الإسلام. فسكت رسول الله، فما رأيته في يوم أخوف مني أن تقع عليّ ججارة في ذلك اليوم حتى قال رسول الله: إلا سهيل بن بيضاء، فأنزل الله ﴿مَا كَانَتْ لِيَنَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُتْرَى حَتَّى يَبْغِي فِي الْأَرْضِينَ﴾ قَبْلَكُمْ، وَأَمَّا أَنْتُمْ فَقَدْ أَجَلْتُ لَكُمْ الْأَسَارَى وَالْغَنِيمَةَ. [أحمد ١ / ٣٨٣ و ٣٨٤].

ويدل أيضاً ما روي من الأخبار والآيات على أنه إذا اتخن في الأرض جاز له الأسر لأنه لو لم يجز له ذلك كما يجوز قبل الإتيان في الأرض لزال^(٦) فائدة الخصوص، وقد بين الله ذلك بقوله: ﴿عَمَّ إِذَا فَتَنُوهُمْ فَتَدَا﴾ [محمد: ٤]. ثم اختلف أهل العلم في فداء الأسارى بالمال. قال ابن عباس رضي الله عنهما، قال: ذلك يوم بدر، والمسلمون قليل، فلما كثروا، واشتد سلطانهم، أنزل الله تعالى: في الأسارى: ﴿فِيمَا مَنَّا بَدَاً وَمَا فِدَاً﴾ [محمد: ٤] فجعل النبي والمؤمنين بالخيار؛ إن شاؤوا قذوهم.

وعن الحسن [أنه]^(٧) قال: يصنع به ما صنع رسول الله بأسارى [بدر]^(٨): يمتن عليه أو يفادي. وقال غيرهما بخلاف ذلك. وقال أصحابنا: إن احتاج الإمام إلى مال فاداهم. وقد دل ما ذكرنا من الآيات والأخبار على جواز الفداء بعد الإتيان فيهم. فإن لم يكن إلى المال محتاجاً قلّه قتلهم؛ لأن ذلك الكافي العدو، وأشد^(٩) رغبة لهم^(١٠) من المؤمنين. وقال^(١١): قلّه أن يسترقهم، فهو كما قالوا: إذا كان الأسير من أهل الكتاب أو من العجم. فأمّا عرب عبدة الأوثان فلا يسترقون لأننا لا نعلم أحداً منهم استرقه النبي لما أسره، ولم يبلغنا أن أبا بكر استرق واحداً من أهل الردة، وكيف يجوز استرقاقهم، وقد قال الله تعالى: ﴿نَقِيلُوهُمْ أَوْ بُيْعُوهُمْ أَوْ تُقَاتِلُوهُمْ﴾ [الفتح: ١٦].

وأما الفداء والقتل فقد ظهر من فعل رسول الله في أسارى بدر؛ وفي ما روي من الاستشارة استشارة النبي أصحابه في الأسارى دلالة العمل بالاجتهاد، وما روي في الخبر عن نبي الله ﷺ [أنه]^(١٢) قال لأبي بكر وعمر: «يا أبا بكر ويا عمر إن ربي يوحى إلي^(١٣) أن أساوركما، ولولا أنكما تختلفان ما عصيتكما، أو عملت بخلاف رأيكما».

فيه أنه لا يجوز لأحد أن يخالفهما، ورسول الله يقول: «لولا أنكما تختلفان ما عصيتكما أو ما عملت بخلاف رأيكما» ثم ما أخذ من الأسارى من الفداء لا يذرى على أي وجه أخذ؛ على الترك والرد إلى أوطانهم من غير أن تركهم بالجزية؛ إذ من قولهم: ألا يجوز أخذ الجزية منهم والترك على ذلك، وفي الآية دلالة ذلك، وهو قوله: ﴿نَقِيلُوهُمْ أَوْ بُيْعُوهُمْ﴾ وفي الخبر: لا يجتمع دينان في جزيرة العرب إلا أن يقال: إن المفاد إلا الذي^(١٤) ذكر. كان هذا، وهذا كان يعمل، والله أعلم.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: يستلن أحد منهم. (٦) في الأصل وم: زالت. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: رغبته. (١٠) الضمير يعود على الحسن. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) في الأصل وم: التي.

الآية ٦٩

وقوله تعالى: ﴿تَكُونُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ قال بفضههم: ﴿حَلَالًا طَيِّبًا﴾ واحد؛ كل حلال طيب، وكل حرام خبيث. وإنما يطيب إذا حل، ويخبث إذا حرم. ولكن يَحْتَمِلُ قوله ﴿حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [حلالاً^(١)] بالشرع طيباً في الطبع، وكذلك الحرام هو حرام بالشرع، وخبيث بالطبع. إنما يُتَكَلَّمُ بالحل والحُرْمَةِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْعِ والطَّيِّبِ والخَبِيثِ بالطَّيِّبِ. والطَّيِّبُ هو الذي يُتَلَذَّذُ بِهِ، ولا تَبَعَةٌ فِيهِ؛ لَأَنَّ خَوْفَ التَّبَعَةِ يَنْغُصُ عَلَيْهِ، وَيَذْهَبُ بِطَبِيبِهِ وَلَذَّتِهِ.

وجائز ما ذَكَرَ مِنَ الطَّيِّبِ ههنا لِمَا أَنَّ أَهْلَ الشَّرْكِ كَانُوا يَأْخُذُونَ الْأُمُولَ، وَيَجْمَعُونَهَا مِنْ وَجْهِ لَا يَحِلُّ وبأسباب فاسدة، فَيَكْرَهُونَ التَّائُلُ مِنْهَا إِذَا غَنِمُوا لِئَلَّا يَلِيقَ الْأَسْبَابُ الْفَاسِدَةُ، فَطَيَّبَ قُلُوبَهُمْ بِقَوْلِهِ ﴿طَيِّبًا﴾.

وفيه دليل جواز التَّقْلِيلِ^(٢) فِي التَّبِيعِ الْفَاسِدِ وَطَيِّبِ التَّائُلِ مِنْهُ، وَإِنْ كَانَ مُكْتَسَبًا بِأَسْبَابٍ فَاسِدَةٍ بَعْدَ أَنْ يَكُونَ بِإِذْنِ فَعَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلُ يَحْتَمِلُ مَا ذَكَرْنَا.

وفيه دلالة أَنَّ أَهْلَ الْكُفْرِ لَا يُؤَاخِذُونَ بِالْأَفْعَالِ الَّتِي كَانَتْ فِي الْكُفْرِ وَلَا بِمَا تَرَكُوا مِنَ الْعِبَادَاتِ لِمَا لَيْسَتْ عَلَيْهِمْ، إِنَّمَا يُؤَاخِذُونَ بِالْإِغْتِقَادِ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ﴾ فِي مَا أَمَرَكُمْ بِهِ، وَنَهَاكُمْ عَنْهُ، فَلَا تَعْصُوهُ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لِمَنْ تَابَ، وَرَجَعَ عَمَّا فَعَلَ.

الآية ٧٠

وقوله تعالى: ﴿يَتْلُوهَا إِلَهِكُمْ قُلْ لَنْ يَكُنَّ إِلَهِكُمْ إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ قُلُوبَكُمْ خَيْرًا يُوَفِّقُكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ﴾.

قال عامة أهل التأويل: إِنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَأَصْحَابِهِ، وَكَذَلِكَ يَقُولُ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالُوا لِلنَّبِيِّ: آتِنَا بِمَا جِئْتَ بِهِ، وَنَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، فَتَزَلَّ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ قُلُوبَكُمْ خَيْرًا﴾ اغْتِقَادَ الْإِيمَانِ وَالتَّضَدِيقَ لَهُ ﴿وَقُلُوبَكُمْ خَيْرًا يُوَفِّقُكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ﴾ أَيَّ إِيمَانًا وَتَصَدِيقًا، فَيُخَلِّفُ عَلَيْكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُصِيبَ مِنْكُمْ.

لَكُنْهَا فِيهِ وَفِي غَيْرِهِ: مَنْ فَعَلَ مِثْلَ فِعْلِهِ فَهُوَ فِي ذَلِكَ سَوَاءٌ؛ يَكُونُ مِنَ الْمَوْعُودِ الَّذِي ذَكَرَ مَا يَكُونُ لَهُ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ قُلُوبَكُمْ خَيْرًا﴾ وَهُوَ الْإِيمَانُ الَّذِي عَلِمَ أَنَّهُمْ اغْتَقَدُوا فِي قُلُوبِهِمْ.

وقوله تعالى: ﴿يُوَفِّقُكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ﴾ أَيَّ مَا آتَاكُمْ خَيْرٌ، وَهُوَ الْإِيمَانُ مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ مِنَ الْمَالِ الَّذِي ذَكَرَ فِي الْقِصَّةِ.

ويجوز: يَفْعَلُ مَكَانَ فَعَلَ كَقَوْلِهِ: ﴿إِذْ يَكْفُلُ الْمَنَافِقُونَ﴾ [الأنفال: ٤٩ والأحزاب: ١٢] أَيَّ قَالِ الْمُنَافِقُونَ، وَذَلِكَ كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ. فَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يُوَفِّقُكُمْ خَيْرًا﴾ أَيَّ آتَاكُمْ خَيْرًا.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿يُوَفِّقُكُمْ﴾ أَيْضًا أَيَّ يُبَيِّنُكُمْ، وَيُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ فِي الْآخِرَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَنَقِمَ لَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لِمَا كَانَ فِي الشَّرْكِ كَقَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٢] لِلذُّنُوبِ، ذُو تَجَاوُزٍ ﴿رَحِيمٌ﴾ يَرْحَمُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿يُوَفِّقُكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ﴾ مِنَ الْفِدَاءِ أَوْ مِمَّا^(٣) أَخَذَ مِنْكُمْ^(٤) بِمَكَّةَ. أَخْبَرَ أَنَّهُ يُؤْتِيهِمْ^(٥) خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْأَمْوَالِ وَغَيْرِهَا.

وَالْإِثْنَانُ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْقَتْلُ. قَالَ أَبُو مُعَاذٍ: يُشْخِنُونَ أَيَّ يُذَلِّلُونَ^(٦)، الْمُشْخِنُ الذَّلِيلُ. قَالَ أَبُو عَرَسَجَةَ: ﴿حَقٌّ يُشْخِنُ فِي الْأَرْضِ﴾ أَيَّ يُشْخِنُ فِي أَهْلِ [الارض]^(٧)؛ يَكْثُرُ الْقَتْلُ وَالْجِرَاحَاتُ. يُقَالُ: أَثْخَنْتُ فِي الْقَوْمِ إِذَا كَثُرَتْ فِيهِمُ الْقَتْلُ وَالْجِرَاحَاتُ. وَيُقَالُ: ضَرَبَهُ حَتَّى أَثْخَنَهُ أَيَّ ضَرَبَهُ حَتَّى لَا يَقْدِرَ عَلَى الْقِيَامِ، وَهُوَ مَا ذَكَرَ مُحَمَّدٌ فِي بَعْضِ مَسَائِلِهِ: أَنَّهُ إِذَا

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في م: التغلب. (٣) في الأصل: لما، في م: ما. (٤) في الأصل وم: منهم. (٥) في الأصل وم: يؤتهم. (٦) في الأصل وم: يذلّلوا. (٧) من م، ساقطة من الأصل.

رَمَى صَيْدًا بِسَهْمٍ، فَأَصَابَهُ، حَتَّى أَثَخَتْهُ، ثُمَّ رَمَى آخَرَ بِسَهْمٍ فَأَصَابَهُ، فَإِنَّهُ لِلأَوَّلِ لِمَا أَنَّهُ صَيَّرَهُ بِالْإِثْنَانِ خَارِجًا مِنْ أَنْ يَكُونَ صَيْدًا، وَهُوَ الضَّرْبُ الَّذِي وَصَفْنَاهُ. وَتَخُنْ يَتَخُنُ تَخَانَةً، فَهُوَ تَخِيْنٌ، وَتَخُنْ يَتَخُنُ تَخُونَةً وَاحِدًا أَيْ غَلْظًا.

الآية ٧١

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ الْآيَةُ حِلَّةً مَا سَبَقَ مِنَ الْآيَاتِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرْزَءٍ﴾ الْآيَةُ [الأنفال: ٥٦] وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ الْآيَةُ [الأنفال: ٦٢] وَغَيْرُ ذَلِكَ ﴿وَإِنَّمَا تَخَافُكَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ﴾ [الأنفال: ٥٨] وَنَحْوُهُ. فَقَالَ: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ﴾ فِي نَقْضِ الْعَهْدِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَمَانَاتِ ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ فِي مَا عَاهَدُوا^(١) أَنْ يُوفُوا ذَلِكَ بِقَوْلِهِمْ^(٢): ﴿لَئِنْ أَمْنَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢] كَقَوْلِهِ: ﴿وَمِنْهُمْ مَن عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَيْنَاهُ مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [التوبة: ٧٥] فَقَدْ آتَاهُمُ اللَّهُ ذَلِكَ، فَلَمْ يَقُوا مَا عَاهَدُوا وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْعَهْدِ الَّتِي عَاهَدُوا^(٣) وَالْأَمَانَاتِ الَّتِي التَّيَمَّنُوا فِيهَا، فَخَانُوا اللَّهَ فِي ذَلِكَ، أَوْ مَا عَاهَدُوا^(٤) ٢٠٥ - ب/ فِيهِمْ فِي أَمْرِ مُحَمَّدٍ وَإِظْهَارِ بَغْيِهِ^(٥) وَصِفَتِهِ فِي كِتَابِهِمْ فَكُتِبُوا ذَلِكَ، وَخَرَفُوهُ، وَأَظْهَرُوا خِلَافَ بَغْيِهِ^(٥) وَصِفَتِهِ فَذَلِكَ مِنْهُمْ خِيَانَةٌ فَيَقُولُ: إِنَّهُمْ قَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ فَإِذَا خَانُواكَ يُمْكِنُكَ مِنْهُمْ أَيْضًا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ أَيْ انْتَقَمَ مِنْهُمْ جَزَاءَ خِيَانَتِهِمْ. وَقَالَ: أَمْكَنَكَ حَتَّى انْتَقَمْتَ مِنْهُمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ﴾ لَيْسَ عَلَى الْإِرَادَةِ، وَلَكِنْ عَلَى وَقُوعِ فِعْلِ الْخِيَانَةِ؛ كَأَنَّهُ قَالَ: وَإِنْ خَانُوكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَكِنَّهُ ذَكَرَ الْإِرَادَةَ لِمَا هِيَ صِفَةٌ كُلِّ فَاعِلٍ مُخْتَارٍ لِمَا لَا تَكُونُ الْأَفْعَالُ إِلَّا بِإِرَادَةٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بِمَا يُسِرُّونَ، وَيُضْمِرُونَ مِنَ الْخِيَانَةِ وَنَقْضِ الْعَهْدِ ﴿حَكِيمٌ﴾ فِي أَمْرِهِ وَحُكْمِهِ حِينَ^(٦) أَمْكَنَكَ مِنْهُمْ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ أَيْ خَانُوكَ بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ بِالْكَفْرِ ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ فَقَدْ كَفَرُوا بِاللَّهِ قَبْلَ هَٰذَا؛ يَقُولُ: إِنْ خَانُوكَ أَمْكَنَكَ مِنْهُمْ، فَقَتَلْتَهُمْ، وَأَسْرَتَهُمْ، كَمَا فَعَلْتَ بِهِمْ يَبْدُرُ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بِخَلْقِهِ ﴿حَكِيمٌ﴾ فِي أَمْرِهِ.

الآية ٧٢

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قَوْلُهُ: ﴿آمَنُوا﴾ أَيْ صَدَّقُوا آيَاتِ اللَّهِ وَحُجَجِهِ، أَوْ صَدَّقُوا رَسُولَهُ فِي جَمِيعِ مَا جَاءَ بِهِ. كَأَنَّهُ مُقَابِلُ قَوْلِهِ ﴿كَذَّابٌ مَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٥٤] وَقَوْلِهِ^(٧) ذَكَرَ هُنَا التَّصْدِيقَ مَكَانَ التَّكْذِيبِ فِي ذَلِكَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿وَهَاجَرُوا﴾ فِي إِظْهَارِ دِينِ اللَّهِ وَنُصْرِهِ ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ أَيْ بَذَلُوا ذَلِكَ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أَيْ ضَمُّوا النَّبِيَّ وَنَصَرُوهُ أَوَّلِيَّاهُ بَعْضُهُمْ أَوَّلِيَّاهُ بَعْضُهُمْ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعَامَّةُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: الْوِلَايَةُ الَّتِي ذُكِرَتْ فِي الْآيَةِ فِي الثَّوَارِثِ؛ جَعَلَ الْمِيرَاثَ لِلْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ دُونَ ذَوِي الْأَرْحَامِ الَّذِينَ آمَنُوا، وَلَمْ يَهَاجِرُوا إِلَى الْمَدِينَةِ. وَكَذَلِكَ قَالُوا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّنْ وَلِيَّتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾. وَرَوَى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ [أَنَّهُ]^(٨) قَالَ: قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالطُّلُقَاءُ مِنَ قُرَيْشٍ وَالْعُقَبَاءُ مِنَ ثَقِيفٍ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَعَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ [أَنَّهُ]^(٩) قَالَ كَذَلِكَ. وَعَنِ الْمَسْعُودِيِّ عَنِ الْقَاسِمِ [أَنَّهُ]^(١٠) قَالَ: أَخَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَصْحَابِهِ، فَأَخَى بَيْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ وَالزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ، [فَجَعَلَهُمْ]^(١١) إِخْوَةً، يَتَوَارَثُونَ بِهَا؛ لِأَنَّهُمْ هَاجَرُوا، وَتَرَكَوا قَرَابَاتِهِمْ حَتَّى أُنْزِلَ اللَّهُ آيَةَ الْمَوَارِيثِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: عَاهَدُوا. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: قَوْلِهِمْ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: عَاهَدُوا. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: نَعْتَهُ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: نَعْتَهُ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٠) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١١) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَاتَّوَفَتْهُمُ نَجِيَّتُهُمْ﴾ [النساء: ٣٣] [أنه^(١)] قَالَ: كَانَ الْمُهَاجِرُونَ حِينَ قَدِمُوا الْمَدِينَةَ يَرِثُونَ^(٢) الْأَنْصَارَ دُونَ أَرْحَامِهِمْ^(٣) بِالْأُخْرَى الَّتِي آخَى النَّبِيُّ بَيْنَهُمْ. فَلَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ: ﴿وَلِكُلِّ جَمَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ نَسَخَهُ ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَاتَّوَفَتْهُمُ نَجِيَّتُهُمْ﴾ [النساء: ٣٣] مِنَ النَّصْرِ وَالنَّصِيحَةِ وَالرَّفَادَةِ، وَيُوصِي لَهُ، وَلَا مِيرَاثَ.

وعَنِ الْحَسَنِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْكَارِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥] وَالْأَحْزَابِ: [٦] فَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يَتَوَارَثُونَ بِالْهَجْرَةِ؛ فَكَانَ الْأَعْرَابِيُّ لَا يَرِثُهُ الْمُهَاجِرُ، وَلَا يَرِثُهُ الْأَعْرَابِيُّ، فَخَرَضَهُمْ بِذَلِكَ عَلَى الْهَجْرَةِ حَتَّى كَثُرَ الْمُسْلِمُونَ، فَانْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْكَارِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ الْآيَةَ، فَوَرِثَ الْأَعْرَابِيُّ الْمُهَاجِرَ، وَتَوَارَثُوا بِالْأَرْحَامِ. إِلَى هَذَا يَذْهَبُ عَامَّةُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ.

وَكُنَّا يَرَوْنَ أَنَّ الْهَجْرَةَ كَانَتْ مُفْتَرَضَةً، فَزَالَ فَرَضُهَا بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ وَلَكِنَّ جِهَادَ وَبَيْتَهُ [البخاري ٢٧٨٣] وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، [أَنَّهُمَا]^(٤) قَالَتْ: انْقَطَعَتِ الْهَجْرَةُ بَعْدَ الْفَتْحِ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَبَيْتٌ؛ فَإِنَّمَا كَانَتْ الْهَجْرَةُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَالْمُؤْمِنُونَ يَقْرَءُونَ بِدِينِهِمْ مِنْ أَنْ يَقِيمُوا عَنْهُ. وَقَدْ أَفْسَى اللَّهُ الْإِسْلَامَ.

هَذَا الَّذِي ذَهَبَ [إِلَيْهِ]^(٥) هُؤَلَاءُ فِي قَوْلِهِ^(٦): ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ فِي التَّوَارِثِ مُخْتَمَلٌ.

وَيَحْتَمِلُ غَيْرَ هَذَا؛ وَهُوَ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَتَصَرَّوْا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ أَيِ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ فِي تَمَامِ الْوَلَايَةِ فِي التَّنَاصُرِ وَالتَّعَاوُنِ وَالْحَقُوقِ وَالدِّيَانَةِ، فَهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا، وَلَمْ يَهَاجِرُوا؛ لِأَنَّهُمْ آمَنُوا، وَهَاجَرُوا، أَيِ تَرَكَوا مَنَازِلَهُمْ وَأَهْلَهُمْ وَقُرَابَاتِهِمْ وَبِلَدَهُمْ الَّذِي كَانُوا فِيهِ مُقِيمِينَ إِشْفَاقًا عَلَى دِينِهِمْ وَاسْتِسْلَامًا لَهُمْ وَلَا نَفْسِهِمْ، وَالْأَنْصَارُ آوَوْهُمْ، وَأَنْزَلُوهُمْ فِي مَنَازِلِهِمْ، وَبَذَلُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، وَتَحَمَّلُوا جَمِيعَ مُؤَنِيهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ كَانَ سَبَقَ مِنْهُمْ إِلَيْهِمْ شَيْءٌ، فَصَارُوا لَهُمْ أَعْوَانًا وَأَنْصَارًا، فَصَارَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ فِي تَمَامٍ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْوَلَايَةِ. [وَقَوْلُهُ تَعَالَى]^(٧): ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَبَالٍ لَبِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾ أَيِ مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ أَيِ مِنْ تَمَامٍ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْوَلَايَةِ لَهُمْ: وَلَايَةِ الَّذِينَ [هَاجَرُوا، أَيِ]^(٨) لَيْسَ لَهُمْ وَلَايَةُ التَّنَاصُرِ وَالتَّعَاوُنِ وَالْحَقُوقِ وَالْمَنَافِعِ الَّتِي تُكْتَسَبُ بِالدِّينِ.

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَبَالٍ لَبِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ دَلَالَةٌ نَقْضِ قَوْلِ الْمُعْتَرِزَةِ؛ لِأَنَّهُ ﷺ أَبْقَى لِلَّذِينَ لَمْ يَهَاجِرُوا اسْمَ الْإِيمَانِ، وَكَانَتْ الْهَجْرَةُ عَلَيْهِمْ مُفْتَرَضَةً، وَفِي تَرْكِهِمُ الْهَجْرَةَ مُرْتَكِبُونَ^(٩) كَبِيرَةً، لَا يَزُولُ عَنْهُمْ^(١٠) اسْمُ الْإِيمَانِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْكَارِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٥] مِنْ غَيْرِهِمْ لِأَنَّهُمْ آمَنُوا، وَهَاجَرُوا، وَلَهُمْ قَرَابَةٌ سَابِقَةٌ وَرَجْمٌ مُتَقَدِّمٌ؛ كَانُوا هُمْ أَوْلَىٰ مِنْ غَيْرِهِمُ الَّذِينَ^(١١) لَا قَرَابَةَ بَيْنَهُمْ، وَلَا رَجْمَ؛ إِذَا اجْتَمَعَ فِيهِمُ الرَّجْمُ وَالْمَعُونَةُ وَالدِّيَانَةُ وَالْحَقُوقُ اجْتَمَعَ فِيهِمْ^(١٢) أَشْيَاءُ أَرْبَعَةٌ، وَفِي أُولَئِكَ ثَلَاثَةٌ، فَهُمْ أَوْلَىٰ بِهِمْ مِنْ غَيْرِهِمْ. هَذَا عَلَى التَّأْوِيلِ الَّذِي ذَكَرْنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ أَسْتَصْرَكُمْ فِي الَّذِينَ﴾ يَعْنِي الَّذِينَ لَمْ يَهَاجِرُوا، وَيَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا^(١٣): إِذَا طَلَبُوا مِنْكُمْ الْمَعُونَةَ وَالتُّصْرَةَ عَلَى عَدُوِّهِمْ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ وَالْمَعُونَةُ لَهُمْ، إِذَا لَمْ يَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أُولَئِكَ مِثَاقٌ.

وَالثَّانِي: إِذَا عَلِمْتُمْ أَنَّهُمْ يَخْشَوْنَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْ عَدُوِّهِمْ، وَيَخَافُونَ، فَانْصُرُوهُمْ ﴿إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رِسَالَةٌ﴾ فَلَا تَنْصُرُوهُمْ؛ تَأْوِيلُهُ حَتَّى تَبْدُوا إِلَيْهِمُ الْعَهْدَ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: يرث. (٣) في الأصل وم: رحمه. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: قول. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: و. (٩) في الأصل وم: مرتكبين. (١٠) في الأصل وم: عنه. (١١) من م، في الأصل: الذي. (١٢) في الأصل وم: فيه. (١٣) في الأصل وم: يحتمل.

يقول: **إِنْ اسْتَنْصَرْتُمْ^(١)** يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ إِخْوَانُكُمْ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ لَمْ يُهَاجِرُوا إِلَيْكُمْ، فَاتَانَهُمْ عَدُوُّهُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَقَاتَلُوهُمْ لِيَرُدُّوهُمْ عَنِ الْإِسْلَامِ فَانْصَرُّوهُمْ. ثُمَّ اسْتَشْنَى فَقَالَ: **﴿إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾** يقول: **إِنْ اسْتَنْصَرْتُمْ** الَّذِينَ لَمْ يُهَاجِرُوا إِلَى الْمَدِينَةِ عَلَى أَهْلِ عَهْدِكُمْ فَلَا تَنْصَرُّوهُمْ **﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾** فِي الْمُعْتُونَةِ وَالنُّصْرَةِ وَنَحْوِهِمَا^(٢).

وقوله تعالى: **﴿مَا لَكُمْ يَنْ وَلِيْتُمْ بَيْنَ قَوْمٍ﴾** قُرئ^(٣) بِالْخَفْضِ: وَلَا يَتِيهِمْ، وَبِالنَّصْبِ جَمِيعاً وَلَا يَتِيهِمْ أَي بِنَصْبِ الْوَاوِ وَخَفْضِهَا. وَكَذَلِكَ الَّتِي فِي الْكَهْفِ: **﴿هَٰذَاكَ الْوَلِيَّةَ لِلَّهِ﴾** [الآية ٤٤] بِالْخَفْضِ وَالنَّصْبِ جَمِيعاً^(٤).

قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْأَدَبِ: الْوَلَايَةُ يَفْتَحُ الْوَاوِ النُّصْرَةُ وَالْمُعْتُونَةُ، وَالْوَلَايَةُ بِخَفْضِ الْوَاوِ السُّلْطَانُ؛ أَي السُّلْطَانُ لِلَّهِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْوَلَايَةُ بِالْخَفْضِ الْمَعُونَةُ وَالنُّصْرَةُ؛ وَالْوَلَايَةُ السُّلْطَانُ. وَقَالَ آخَرُونَ: هُمَا سَوَاءٌ وَهِيَ^(٥) النُّصْرَةُ وَالْمُعْتُونَةُ: الْوَلَايَةُ فِي الْإِمَارَةِ وَالسُّلْطَانِ، وَالْوَلَايَةُ فِي الدِّينِ.

الآية ٧٣

وقوله تعالى: **﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَهْدِهِمْ أُولَٰئِكَ ٢٠٦ - أ/بَعْضُ﴾** عَلَى قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعَامَّةِ أَهْلِ التَّأْوِيلِ **﴿بِعَهْدِهِمْ أُولَٰئِكَ بَعْضُ﴾** فِي التَّرَاوَةِ عَلَى مَا قَالُوا فِي الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ **﴿بِعَهْدِهِمْ أُولَٰئِكَ بَعْضُ﴾** فِي التَّنَاصُرِ وَالتَّعَاوُنِ وَالدِّينِ وَالْحَقُّوْقِ جَمِيعاً عَلَى مَا ذَكَرْنَا فِي الْمُؤْمِنِينَ.

وقوله تعالى: **﴿إِلَّا تَتَّقُلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾** قِيلَ فِيهِ يَوْجُوهُ:

أَحَدُهَا: إِنْ إِخْوَانُكُمْ الَّذِينَ لَمْ يُهَاجِرُوا إِذَا اسْتَنْصَرْتُمْ عَلَى عَدُوِّهِمْ، فَلَمْ تَنْصَرُّوهُمْ، تَكُونُ **﴿فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾** أَي إِنْ لَمْ تَكُونُوا بَعْضُكُمْ أَعْوَاناً وَأَنْصَاراً لِبَعْضٍ عَلَى مَا كَانَ أَهْلُ الْكُفْرِ يَغْضُبُهُمْ أَنْصَاراً لِبَعْضٍ، غَلَبَكُمْ الْعَدُوُّ، وَفَهَرَكُمُ، فَيَكُونُ فِي ذَلِكَ فِتْنَةٌ وَفَسَادٌ، وَيَكُونُ كَأَنَّهُ قَالَ: **﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾** [الأنفال: ٣٩].

والثَّانِي^(٦): قَوْلُهُ **﴿إِلَّا تَتَّقُلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةً﴾** مُلْحَقٌ^(٧) بِقَوْلِهِ **﴿إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾** [الأنفال: ٧٢] أَي إِنْ اسْتَنْصَرْتُمْ إِخْوَانَكُمْ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ، فَتَنْصَرُّوهُمْ تَكُنْ فِتْنَةً وَفَسَادٌ كَبِيرٌ.

وَالثَّالِثُ^(٨): قَوْلُهُ **﴿إِلَّا تَتَّقُلُوهُ﴾** فِي مَا أَمَرَكُمْ بِهِ مِنْ جَعْلِ التَّوَارِثِ فِي مَا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَجَعْلَتُمُ الْمِيرَاثَ وَالتَّوَارِثَ فِي مَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْكُفَرِ **﴿تَكُنْ فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾** لِأَنَّ اللَّهَ ﷻ ذَكَرَ الْمَوَارِثَ، ثُمَّ ذَكَرَ فِي آخِرِ الْآيَةِ: **﴿يَتْلِكَ حُدُودَ اللَّهِ وَمَنْ يُطِغِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾** [النساء: ١٣] وَمَا ذَكَرَ مِنْ تَرْكِ حُدُودِ اللَّهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ وَجَعْلِ الْمِيرَاثِ وَغَيْرِ مَا أَمَرَ ﷻ **﴿تَكُنْ فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾**.

الآية ٧٤

وقوله تعالى: **﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَّهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَنَصَرُوا﴾** أَي ضَمُّوا رَسُولَ اللَّهِ وَالْمُهَاجِرِينَ، وَنَصَرُوهُمْ **﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾** أَي الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ؛ الَّذِينَ ضَمُّوا **﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾** لِمَا حَقَّقُوا إِيْمَانَهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ لِأَنَّهُمْ هَاجَرُوا، [وَتَرَكُوا]^(٩) بِلَادَهُمْ وَأَهْلَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِشْفَاقاً عَلَى دِينِهِمْ وَاسْتِيسْلَاماً لَهُ، وَأَجَابُوا رَسُولَ اللَّهِ، وَأَطَاعُوهُ فِي ذَلِكَ.

وَأُولَٰئِكَ الْأَنْصَارُ ضَمُّوهُمْ^(١٠) إِلَى أَنْفُسِهِمْ، وَأَنْزَلُوهُمْ فِي مَنْزِلِهِمْ، وَبَذَلُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، وَنَصَرُوهُمْ عَلَى عَدُوِّهِمْ، فَقَدْ حَقَّقُوا جَمِيعاً إِيْمَانَهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ الَّتِي عَمِلُوا.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: **﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾** أَي صَدَقَ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ، لَيْسَ كَلِيمَانِ الْمُتَافِقِينَ يَكُونُ فِي الْعَلَانِيَةِ، وَلَا

(١) فِي الْأَصْلِ: وَم: اسْتَنْصَرُوا. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَنَحْوَهُ. (٣) انْظُرْ مَعْجَمَ الْقُرْآنِ ج ٢/٤٦٥ وَحِجَّةَ الْقُرْآنِ ج ٣/٣١٤. (٤) انْظُرْ مَعْجَمَ الْقُرْآنِ ج ٣/٣٦٩. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَهُوَ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ بَعْضُهُمْ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: مُلْحَقاً. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ بَعْضُهُمْ. (٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم: (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: ضَمُّوا.

يَكُونُ فِي السَّرِّ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ قَتَلْنَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣] وقوله ﴿وَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت: ١١].

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أَي وَعَدَ لَهُمْ وَغَدَا حَقًّا، وهو ما ذَكَرَ فِي آيَةٍ أُخْرَى ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾. وَيَحْتَمِلُ ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أَي أُولَئِكَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ حَقَّقُوا الْإِيمَانَ بِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أَي حَسَنُ يُكْرِمُ أَهْلَهُ بِهِ.

الآية ٧٥

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَابِجُوا وَجَاهِدُوا مَعَكُمْ﴾ أَي مَنْ آمَنَ بَعْدَ هَؤُلَاءِ، وَهَاجَرُوا بَعْدَ مُهَاجَرَةِ أُولَئِكَ، فَإِنَّهُمْ يَلْحَقُونَ أَوَائِلَهُمْ فِي جَمِيعِ مَا ذَكَرَ فِي قَوْلِهِ^(١): ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا﴾ [الأنفال: ٧٢ و ٧٤ و ٧٥]. مِنْ قَبْلِ. يَذْكُرُ هَذَا، وَاللَّهُ أَغْلَمُ، لِنَعْمَلْ نَحْنُ عَلَى مَا عَمِلَ أُولَئِكَ مِنَ الْهَجْرَةِ وَالنُّصْرَةِ وَبَذْلِ الْأَنْفُسِ وَالْأَمْوَالِ وَغَيْرِ ذَلِكَ لِلَّذِينَ عَلَى مَا بَذَلَ أُولَئِكَ، وَاشْفَقُوا عَلَى دِينِهِمْ.

وقوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ مَنَكُ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ هو ما ذَكَرْنَا أَنَّ أُولَى الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ بِالرَّحْمَةِ وَالتَّوَارِثِ مِنْ جُمْلَةِ الْمُؤْمِنِينَ. فَإِذَا لَمْ يَكُنْ أُولُو الْأَرْحَامِ فَجُمْلَةُ الْمُؤْمِنِينَ أُولَى.

وعلى ذَلِكَ يُخْرِجُ قَوْلُ أَصْحَابِنَا: إِنَّ أُولَى الْأَرْحَامِ بِالْمِيرَاثِ أُولَى مِنْ جُمْلَةِ الْمُؤْمِنِينَ، مِنْ^(٢) بَيْتِ الْمَالِ. فَمَادَامَ وَاحِدٌ مِنْ هَؤُلَاءِ فَهُوَ أَوْلَى بِالْمِيرَاثِ. وَعَلَى ذَلِكَ يُخْرِجُ قَوْلُهُمْ فِي الْعَقْلِ أَنَّهُ عَلَى ذَوِي الْأَرْحَامِ مَا دَامُوا هُمْ. فَإِذَا لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْهُمْ فَهُوَ عَلَى جُمْلَةِ الْمُؤْمِنِينَ فِي بَيْتِ الْمَالِ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ بِالْعِبَادِ، وَمَا يَكُونُ مِنْهُمْ وَ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ بِمَا يَحْتَاجُونَ، وَمَا لَا يَحْتَاجُونَ؛ وَهُوَ حَرْفٌ وَعِيدٌ، وَاللَّهُ أَغْلَمُ.

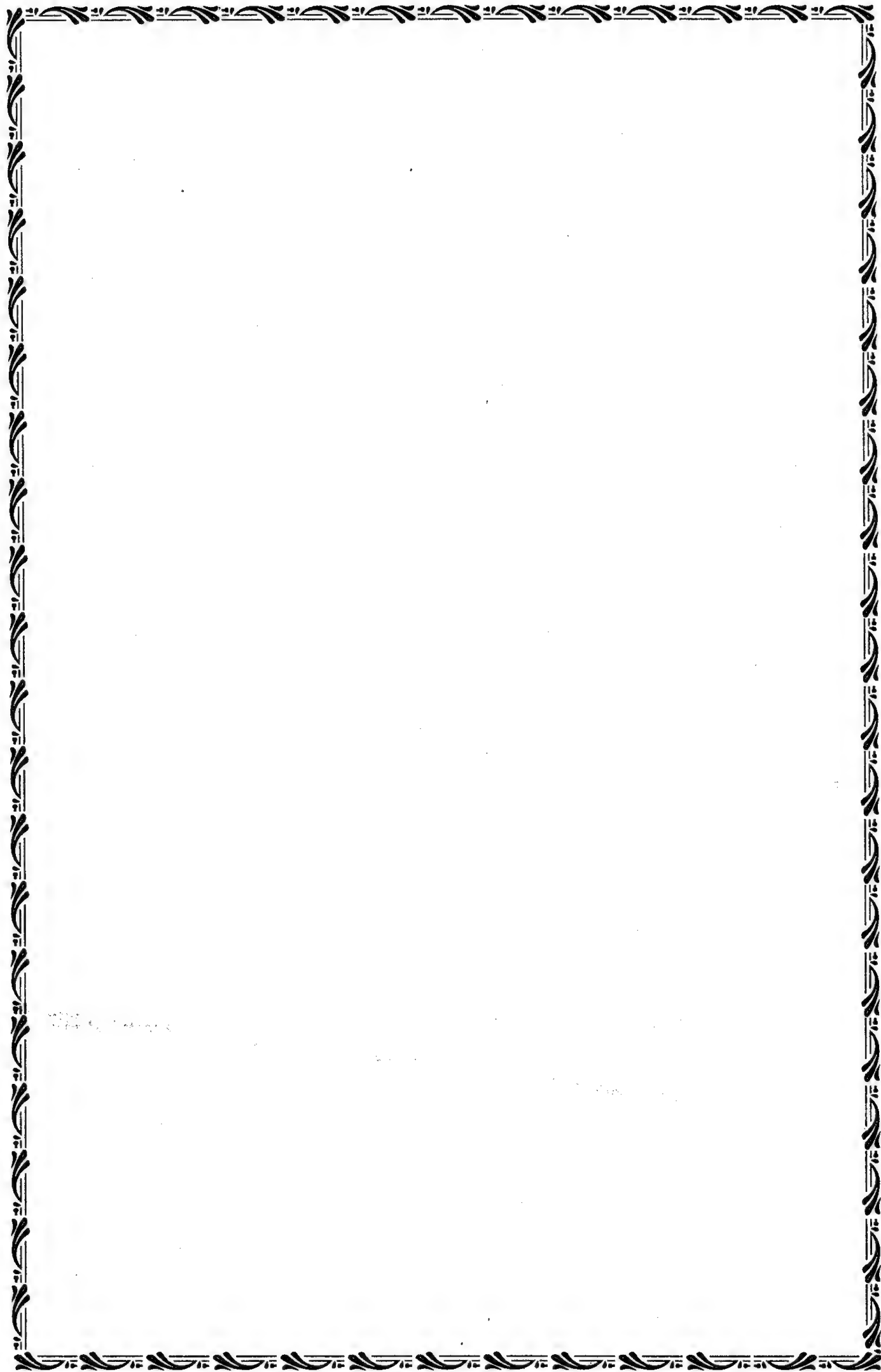
وقوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ أَي بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي حَقِّ التَّوَارِثِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ هَاجَرُوا، فَتَسَخَّتِ^(٣) هَذِهِ الْآيَةُ حُكْمَ الْمِيرَاثِ الَّذِي ذَكَرَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَكِيلٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ لَأَنَّهُ كَانَ جَعَلَ التَّوَارِثَ بَيْنَهُمْ بِحَقِّ الْإِيمَانِ وَالْهَجْرَةِ. ثُمَّ تَسَخَّ ذَلِكَ، وَجَعَلَ الْمِيرَاثَ بِالرَّحِمِ حِينَ^(٤) قَالَ: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ وَكَذَلِكَ مَا ذَكَرَ فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ حِينَ^(٥) قَالَ: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ [الآية: ٦] فَإِذَا لَمْ يَتَّقِ مِنَ الرَّحِمِ أَحَدٌ قَبْلَ ذَلِكَ يَكُونُ جُمْلَةُ الْمُؤْمِنِينَ.

وقوله تعالى: ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ فِي حُكْمِ اللَّهِ، أَوْ ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ لَأَنَّهُ ذُكِرَ فِي كِتَابِ اللَّهِ.

ثُمَّ لَزِمُوا الْهَجْرَةَ عَلَى الَّذِينَ هَاجَرُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ وَعَلَى الَّذِينَ تَأَخَّرَتْ هِجْرَتُهُمْ سَوَاءً؛ قَدْ سَوَّى بَيْنَهُمْ فِي اللَّزُومِ، وَجَمَعَ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ فِي حَقِّ الشَّهَادَةِ لَهُمْ بِالتَّصْدِيقِ وَالْإِيمَانِ حِينَ^(٦) قَالَ: ﴿هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٧٤] وَجَمَعَ بَيْنَهُمْ فِي حَقِّ الْوَلَايَةِ وَمَا يُكْتَسَبُ بِهَا مِنَ الْمَنَافِعِ حِينَ^(٧) قَالَ: ﴿أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٢] وَجَمَعَ بَيْنَهُمْ فِي الثَّوَابِ وَالدرَجَةِ حِينَ^(٨) قَالَ: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٤] وَجَمَعَ بَيْنَهُمْ فِي هَذِهِ الْخِصَالِ، وَإِنْ قَدَّمَ ذَكَرَ الْمُهَاجِرِينَ فِي غَيْرِ وَاحِدَةٍ^(٩) مِنَ الْآيَاتِ لِمَا كَانُوا مُسْتَوِينَ فِي الْأَسْبَابِ الَّتِي اسْتَوْجَبَتْ^(١٠) ذَلِكَ؛ لِأَنَّ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ تَرَكَ الْأَوْطَانَ وَالْمَنَازِلَ وَالْخُرُوجَ مِنْهَا وَالْمُفَارَقَةَ عَنْ أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَكَانَ مِنَ الْأَنْصَارِ مُقَابِلَ ذَلِكَ إِنْزَالُهُمْ فِي مَنَازِلِهِمْ وَأَوْطَانِهِمْ وَبَذْلُ أَمْوَالِهِمْ وَقِيَامُ أَهْلِيهِمْ فِي خِدْمَتِهِمْ، لِذَلِكَ كَانَ مَا ذَكَرَ وَاللَّهُ أَغْلَمُ.



(١) فِي الْأَصْلِ وَم: أُولَئِكَ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: هُوَ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: فَتَسَخَّ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: وَاحِدٌ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: اسْتَوْجَبُوا.



سورة التوبة^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١

وقوله تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ قال بعضهم من أهل التأويل: ذلك في قوم كان بينهم وبين رسول الله عهد على غير مدة مبيتة، فأمر بتفويض العهد المرسل، وجعله في أربعة^(٢) الأشهر التي ذكر في قوله: ﴿فَيَسْجُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾.

وقال بعضهم: هو^(٣) في قوم كان لهم عهد دون أربعة أشهر، فأمر بإتمام أربعة أشهر. دليله قوله: ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَكُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ﴾ [براءة: ٤].

وقال أبو بكر الكيساني: الآية في قوم كانت عادتهم نقض [العهد]^(٤) ونكثه كفوله: ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ [الأنفال: ٥٦] فأمر أن يعطى العهد أربعة الأشهر^(٥) التي ذكر في الآية، ثم الحرب بعد ذلك.

وقال بعضهم: لما نزل قوله: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ بعث رسول الله علياً إلى الموسم ليقرأه على الناس، فقرأ عليهم ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ من العهد غير أربعة أشهر ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ على ما ذكرنا. حمل هؤلاء كلهم قوله ﴿بَرَاءَةٌ﴾ على النقص.

وعندنا يَحْتَمِلُ غير هذا؛ وهو أن قوله ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ في إمضاء العهد ووفائه. والبراءة هي الوفاء وإتمامه، ليس على النقص لأنه قال: ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ والبراءة إليهم هو الأمان والعهد إليهم. ولو كان على النقص لقال: من الذين عاهدتم من المشركين، فدل أنه هو إتمام إعطاء العهد لهم وإمضاؤه إليهم.

ويؤيده ما قال بعض أهل الأدب: إن البراءة هي الأمان؛ يقال: كتبت له براءة أي أماناً. هذا الذي ذكرنا أشبه / ٢٠٦ - ب /

بما قالوا؛ أعني أهل التأويل.

الآية ٢

وقوله تعالى: ﴿فَيَسْجُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ أي سيروا، واذمبوا في الأرض أربعة أشهر أي مدة العهد. وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّهُمْ غَيْرُ مَعْجَرٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أي أعلموا [أيها المشركون]^(٦)، وإن أعطي لكم العهد في وقت فإنكم ﴿غَيْرُ مَعْجَرٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أوليائه^(٧)، ولا فائتين عنه في تلك المدة.

[وقوله تعالى^(٨): ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يُخَذِّبُ الْكَافِرِينَ﴾ الخزي هو العذاب الفاضح الذي يفضحهم، ويظهر عليهم. ويحتمل أن يكون ذلك العذاب والإخزاء الذي ذكره في الآخرة.

الآية ٣

وقوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ لِلنَّاسِ أَنَّ اللَّهَ وَرَسُولُهُ﴾ قال القشيري: ﴿وَأَذِّنْ لِلنَّاسِ﴾ أي إعلام، ومنه أذان الصلاة، والإعلام^(٩)؛ يقال: أذنتهم إيداناً، وكذلك قال أبو عوسجة.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ يكون في قوله: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ دلالة ما قال أهل التأويل من النقص؛ لأن قوله: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ يكون فيه إمضاء العهد وإتمامه إلى المدة التي ذكر، ويكون ما روي من الخبر في القصة أن نبي الله ﷺ لما نزلت ﴿بَرَاءَةٌ﴾ بعث أبا بكر على حج الناس، يقيم للمؤمنين حجهم، وبعث

(١) من م، في الأصل: براءة. (٢) في الأصل وم: الأربعة. (٣) في الأصل وم: هم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: أشهر. (٦) في الأصل وم: إن المؤمنين. (٧) من م، في الأصل: أولياء. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) الواو ساقطة من الأصل.

معهُ ﴿بَرَاءَةٌ﴾ السورة، ثم أَتَبَعَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، فَأَذَرَكُهُ، فَأَخَذَهَا مِنْهُ، وَرَجَعَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى النَّبِيِّ، فَقَالَ لِلنَّبِيِّ: يَا أَبَايَ أَنْتَ وَأُمِّي: نَزَلَ فِي شَيْءٍ؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنْ لَا يُبَلِّغُ غَيْرِي أَوْ رَجُلٌ مِنْي، أَمَا تَرْضَى يَا أَبَا بَكْرٍ أَنْتَ صَاحِبِي فِي الْغَارِ، وَأَنْتَ أَخِي فِي الْإِسْلَامِ، وَأَنْتَ تَرُدُّ عَنِ الْخَوْضِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ [الترمذي: ٣٦٧٠]. فَمَضَى أَبُو بَكْرٍ عَلَى [حج^(١)] النَّاسِ، وَمَضَى عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ بِالْبَرَاءَةِ، فَقَامَ عَلِيُّ بِالْمَوْسِمِ، فَقَرَأَ عَلَى النَّاسِ ﴿بَرَاءَةً مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ مِنَ الْعَهْدِ غَيْرِ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ، فَإِنَّهُمْ يَسْجُدُونَ فِيهَا.

ثم قوله: ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ قَالَ عَامَّةُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: هُوَ يَوْمُ النَّحْرِ لِأَنَّهُ فِيهِ ذُكِرَ طَوَافُ الْبَيْتِ وَحُجُّ الْبَيْتِ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ يَوْمُ عَرَفَةَ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَوْفَقُ [فِيهِ]^(٢) بِعَرَفَةَ، وَيَوْمَ يَتِمُّ الْحَجُّ عَلَى مَا رُوِيَ فِي الْخَبَرِ: «الْحَجُّ عَرَفَةُ وَمَنْ أَدْرَكَ عَرَفَةَ بَلِيلٍ، وَصَلَّى مَعَنَا بِجُمُعٍ فَقَدْ تَمَّ حَجُّهُ، وَقَضَى تَقَاتُّهُ، بِإِدْرَاكِهِ يَتِمُّ الْحَجُّ، وَبِقَوْتِهِ يَفُوتُ» [النسائي ٢٥٦/٥] وَعَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ سُئِلَ، فَقِيلَ لَهُ: مَا الْحَجُّ الْأَكْبَرُ؟ فَقَالَ: سَنَةُ حَجِّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُشْرِكِينَ جَمِيعًا، اجْتَمَعُوا بِمَكَّةَ، وَكَانَ فِي [ذَلِكَ]^(٣) الْيَوْمِ لِلْيَهُودِ عِيدٌ وَلِلنَّصَارَى عِيدٌ، لَمْ يَكُنْ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ، فَسَمَّاهُ اللَّهُ الْحَجَّ الْأَكْبَرَ.

وقال أبو بكرٍ الأصمُّ: لَا يَحْتَمِلُ أَنْ يُسَمَّى اللَّهُ لِعِيدِ النَّصَارَى وَالْيَهُودِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ، وَهُوَ يَوْمُ نُزُولِ السَّنْخَطَةِ^(٤) عَلَيْهِمُ وَاللُّغْنَةِ. وَلَكِنْ جَائِزٌ أَنْ يُسَمَّى بِذَلِكَ لِاجْتِمَاعِ^(٥) الْخَلَائِقِ فِيهِ مِنْ كُلِّ نَوْعٍ عَلَى مَا سَمِيَ يَوْمَ الْحَشْرِ يَوْمًا كَقَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ عَظِيمٍ﴾ ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْآَلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦٥].

وقوله تعالى: ﴿إِن تَبُشُّمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أَي تَبُشُّمْ عَمَّا كُنْتُمْ عَلَيْهِ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لِأَنَّهُمْ يَأْمَنُونَ مِنَ الرُّغْبِ الَّذِي كَانَ فِي قُلُوبِهِمْ. وَيَكُونُ ذَلِكَ الْخَوْفُ وَالرُّغْبُ فِي قُلُوبِ الْمُشْرِكِينَ عَلَى مَا رُوِيَ فِي الْخَبَرِ أَنَّهُ قَالَ: «فُصِّرَتْ بِالرُّغْبِ مَسِيرَةُ شَهْرَيْنِ» [الطبراني في الكبير ١١٠٥٦].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَوَلَّيْتُمْ﴾ عَمَّا ذَكَرْنَا ﴿فَاعْلَمُوا أَنكُمُ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ أَي غَيْرُ فَائِزِينَ عَنْ نَقْمَةِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ. وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿إِن تَبُشُّمْ﴾ عَنْ نَقْضِ الْعَهْدِ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وَالْأَوَّلُ ﴿إِن تَبُشُّمْ﴾ وَأَسْلَمْتُمْ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ [أَقْرَبُ]^(٦) ثُمَّ رُوِيَ فِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ عَنْ عَلِيٍّ ﷺ أَنَّهُ سُئِلَ: بَأَيِّ شَيْءٍ بُعِثَ؟ قَالَ: بَارِعٌ: لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُؤْمِنَةٌ، وَمَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ عَهْدٌ، فَعَهْدُهُ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ، وَلَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ غُرْبَانًا، وَلَا يَدْخُلُ الْحَرَمَ مُشْرِكًا، بَعْدَ هَذَا^(٧). وَفِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ: وَلَا يَحُجُّ الْمُشْرِكُ بَعْدَ عَامِهِ هَذَا وَكَذَلِكَ قَالَ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى: ﴿فَلَا يَكْفُرُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة: ٢٨].

ففيه دلالة إثبات رسالة محمدٍ ﷺ لِأَنَّهُ قَالَ فِي مَلَأٍ مِنَ النَّاسِ بِالْمَوْسِمِ: لَا يَحُجُّ مُشْرِكٌ بَعْدَ هَذَا مَعَ كَثْرَةِ أَوْلَئِكَ وَقُوَّتِهِمْ وَقِلَّةِ الْمُؤْمِنِينَ وَضَعْفِهِمْ. ثُمَّ لَمْ يَتَجَاسَرَ بَعْدَ ذَلِكَ النَّدَاءِ أَحَدٌ أَنْ يَقُولَ: مَكَّةَ لِلْحَجِّ وَغَيْرِهِ. دَلٌّ أَنَّ ذَلِكَ كُلُّهُ كَانَ بِاللَّهِ تَعَالَى لَا بِهِمْ.

ثم من الناس من استدلَّ بِالْخَبَرِ الَّذِي رُوِيَ أَنَّهُ بَعَثَ أَبَا بَكْرٍ الصَّدِيقَ عَلَى الْحَجِّ، وَبَعَثَ مَعَهُ بَرَاءَةً^(٨) ثُمَّ أَتَبَعَهُ عَلِيًّا، فَأَذَرَكَهَا، فَأَخَذَهَا مِنْهُ، وَرَجَعَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى النَّبِيِّ، فَقَالَ: هَلْ نَزَلَ فِي شَيْءٍ؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنْ لَا يُبَلِّغُ عَنِّي غَيْرِي أَوْ رَجُلٌ مِنْي [بنحوه الترمذي ٣٦٧٠] عَلَى أَنَّ عَلِيًّا هُوَ الْمُسْتَحَقُّ لِلْخَلِيفَةِ، وَهُوَ الْأَحَقُّ بِهَا دُونَ أَبِي بَكْرٍ حِينَ^(٩) قَالَ: «لَا يُبَلِّغُ عَنِّي إِلَّا رَجُلٌ مِنْي» لَكِنْ يَحْتَمِلُ أَنَّهُ وَلَّى ذَلِكَ عَلِيًّا لِأَنَّهُ كَانَ مِنْ عَادَةِ الْعَرَبِ أَنَّهُمْ إِذَا عَاهَدُوا عَهْدًا أَنَّهُ لَا يَنْقُضُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ إِلَّا مَنْ هُوَ مِنْ قَوْمِهِمْ، فَوَلَّى ذَلِكَ عَلِيًّا لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ يَكُونُ لَهُمُ الْاِخْتِجَاعُ عَلَيْهِ، فَيَقُولُونَ: لِمَ يَنْقُضُ عَلَيْنَا الْعَهْدَ؟ أَوْ أَنَّ يُقَالَ: عَلِيًّا وَلَّى عَلَيْنَا أَمْرَ الْحَرْبِ، وَهُوَ كَانَ أَبْصَرَ وَأَقْوَى بِأَمْرِ الْحَرْبِ مِنْ أَبِي بَكْرٍ؛ وَلَّى أَبَا بَكْرٍ أَمْرَ إِقَامَةِ الْحَجِّ وَالْمَنَاسِكِ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ هُوَ الْمُؤَلَّى أَمْرَ الْعِبَادَاتِ، وَعَلِيٌّ [هُوَ الْمُؤَلَّى]^(١٠) أَمْرَ الْحُرُوبِ. فَالْحَاجَةُ إِلَى الْخَلِيفَةِ لِإِقَامَةِ الْعِبَادَاتِ، أَوْ أَنَّ يُقَالَ:

(١) ساقطة من الأصل و م. (٢) ساقطة من الأصل و م. (٣) من م، في الأصل: السبيحة. (٤) في الأصل و م: الاجتماع. (٥) ساقطة من الأصل و م. (٦) إشارة إلى قوله ﷺ: «ألا لا يحج من بعد العام مشرك» [البخاري: ٣٦٩]. (٧) في الأصل و م: حيث. (٨) ساقطة من الأصل و م.

[إِنْ] ^(١) أبا بكرٍ كَانَ أَمِيرَ الْمَوْسِمِ، وَعَلِيًّا كَانَ مُنَادِيَهُ؛ فَالْأَمِيرُ فِي شَاهِدِنَا أَجْلٌ قَدْرًا وَأَعْظَمُ مَنْزِلَةً مِنَ الْمُنَادِي، وَأَمَرَ عَلِيًّا ذَلِكَ لِمَا أَنَّ ذَلِكَ أَنْ كَانَ أَقْبَلَ وَأَسْمَعَ مِنْ غَيْرِهِ مِنَ الْأَمِيرِ نَفْسِهِ، وَاللَّهُ أَغْلَمُ.

الآية ٤

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتَيْنُوا الْإِيْهَ عَهْدُهُمْ إِنَّهُمْ مُّذْنِبُونَ﴾ أَمَرَ بِإِتْمَامِ الْعَهْدِ لِلَّذِينَ لَمْ يَنْقُصُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلَا ظَاهَرُوا عَلَيْهِمْ أَحَدًا. وَأَمَّا الَّذِينَ كَانَتْ عَادَتُهُمْ نَقْضُ الْعَهْدِ وَنُكْثُهُ فَإِنَّهُ لَا يَتَمُّ لَهُمْ، وَلَكِنْ يَنْقُضُ. وَكَذَلِكَ تَأْوَلُّوا قَوْلَهُ: ﴿بِرَأْيِهِ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ النَقْضُ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ صَلَوةً قَوْلُهُ: ﴿وَيَنْشِرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَذَآبِ الْيَمِينِ﴾ [التوبة: ٣] وَيَكُونُ الْعَذَابُ الْإِلِيمُ، هُوَ الْقَتْلُ وَالْأَسْرُ؛ كَمَا يَقُولُ ﴿وَيَنْشِرِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بِالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾.

ثُمَّ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا﴾ أَي لَمْ يَخُونُوكُمْ شَيْئًا مَا دَامُوا فِي الْعَهْدِ ﴿وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ أَي لَمْ يُعَاوَنُوا، وَلَا أَظْلَمُوا أَحَدًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ عَلَيْكُمْ ﴿فَأَتَيْنُوا الْإِيْهَ عَهْدُهُمْ إِنَّهُمْ مُّذْنِبُونَ﴾ كَقَوْلِهِ ﴿وَأَمَّا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٍ فَانْذِرْهُمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨] أَمَرَ بِالنَّبَذِ إِلَيْهِمْ عِنْدَ خَوْفِ الْخِيَانَةِ، وَأَمَرَ بِالإِتْمَامِ إِذَا لَمْ يَخُونُوا، وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْهِمْ أَحَدًا.

وَدَلَّ قَوْلُهُ: ﴿وَيَنْشِرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَذَآبِ الْيَمِينِ﴾ ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ عَلَى أَنَّ قَوْلَهُ ﴿فَأَقِمْ وَتَمُوتُوا أَكْمَرُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٍ﴾ أَي غَيْرُ مُعْجِزِي أَوْلِيَاءِ اللَّهِ فِي عَذَابِ الدُّنْيَا لِأَنَّهُمْ جَمِيعًا سَوَاءٌ فِي عَذَابِ الْآخِرَةِ مُشْرِكِينَ فِيهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ مُّذْنِبُونَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: مُدَّةُ الْقَوْمِ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ بَعْدَ يَوْمِ النَّحْرِ لِعَشْرِ مَضِيِّ مِنْ رِبْعِ الْآخِرِ لِمَنْ كَانَ لَهُ عَهْدٌ، وَمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ إِلَى انْسِلَاحِ الْمُحَرَّمِ خَمْسُونَ لَيْلَةً.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ بِالْحُدُودِ فَلَمْ يَبْرَأِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ عَهْدِهِمْ فِي الْأَشْهُرِ الْأَرْبَعِ ﴿وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ أَي لَمْ يُعِينُوا عَلَى قِتَالِكُمْ أَحَدًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، أَي لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ ﴿فَأَتَيْنُوا الْإِيْهَ عَهْدُهُمْ إِنَّهُمْ مُّذْنِبُونَ﴾ وَهُوَ أَرْبَعَةُ الْأَشْهُرِ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ الَّذِينَ اتَّقَوْا التَّعَاصِيَّ وَالشُّرْكَ.

الآية ٥

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ هِيَ أَشْهُرُ الْعَهْدِ وَالْأَمَانِ. فَإِذَا انْسَلَخَتْ تِلْكَ الْأَشْهُرُ، وَمَضَتْ ﴿فَأَقِمْ وَتَمُوتُوا﴾ وَجَدْتُمُوهُمْ. ﴿حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ هِيَ الْأَشْهُرُ الَّتِي خَلَقَهَا اللَّهُ، وَجَعَلَهَا حَرَامًا، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ ٢٠٧ - ١ / خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِيهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة: ٣٦].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَقِمْ وَتَمُوتُوا﴾ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخَدُّوهُمْ قَالَ بَعْضُهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ فِي الْأَمَاكِينِ كُلِّهَا؛ لِأَنَّ حَيْثُ إِنَّمَا يُتَرَجَّمُ عَنْ مَكَانٍ؛ أَمَرَ بِقِتَالِهِمْ فِي الْأَمَاكِينِ كُلِّهَا لِأَنَّهُ لَمْ يَخُصَّ مَكَانًا دُونَ مَكَانٍ. وَقَالَ آخَرُونَ: هُوَ فِي الْأَمَاكِينِ كُلِّهَا إِلَّا مَكَانَ الْحَرَمِ. دَلِيلُهُ مَا ذَكَرَ فِي السُّورَةِ الَّتِي فِيهَا ذَكَرَ الْبَقْرَةَ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَأَقِمْ وَتَمُوتُوا﴾ وَجَدْتُمُوهُمْ. وَقَوْلُهُ ^(٢): ﴿وَلَا تَقْتُلُوا عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْمُحَرَّمِ﴾ [البقرة: ١٩١] أَمَرَهُمْ بِقِتَالِهِمْ فِي الْأَمَاكِينِ كُلِّهَا إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ. وَأَمَّا أَنْ يَكُونَ أَنَّهُمْ يَقْتُلُونَ [عَدُوَّهُمْ] ^(٣) إِلَّا أَنْ يَدْخُلُوا [الْمَسْجِدَ] ^(٤) الْحَرَامَ، وَقَدْ نَهَوْا عَنِ الدَّخُولِ فِيهِ ^(٥) وَالْحَجَّ هُنَاكَ عَلَى مَا رُوِيَ أَنَّ عَلِيًّا نَادَى بِالْمَوْسِمِ: «أَلَا لَا يَحُجُّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ» [البخاري ٣٦٩]. فَإِذَا دَخَلُوا يَقْتُلُونَ، وَيَكُونُ دَخُولُهُمْ فِيهِ بَعْدَ النَّهْيِ كَاتِبَةً مُقَاتَلَتِهِمْ إِيَّانَا. فَإِذَا قَاتَلُونَا عِنْدَ [الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ قَاتَلْنَا هُمْ] كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقْتُلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلْتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوا عِنْدَ [البقرة: ١٩١] وَاللَّهُ أَغْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَخَدُّوهُمْ﴾ قِيلَ: سُرُّوهُمْ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَحْبِسُوهُمْ﴾ قِيلَ: وَاحْبِسُوهُمْ ﴿وَأَقِمْ وَتَمُوتُوا﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَقِمْ وَتَمُوتُوا﴾.

(١) ساقطة من الأصل و م. (٢) في الأصل و م: وقال. (٣) ساقطة من الأصل و م. (٤) ساقطة من الأصل و م. (٥) في الأصل و م: فيها.

والمَرَصِدُ الطريق؛ كأنه أمر بقوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ بِقَتْلِهِمْ إِذَا قَدَرُوا عَلَيْهِمْ، وَأَمَكَّنَ لَهُمْ ذَلِكَ، وَالْأَمْرُ [عِنْدَ] الْإِمْكَانِ، وَالْحَبْسُ إِذَا دَخَلُوا الْحَضْرَ، وَحَفِظَ الْمَرَاصِدَ عِنْدَ غَيْرِ الْإِمْكَانِ لئَلَّا يَفِرُّوا. وَيُقَالُ: أَرَصَدْتُ لَهُ أَيْ انْتَقَرْتُ حَتَّى (٢) أَجِدَ فُرْصَتِي. وَيُقَالُ: تَرَصَّدْتُهُ أَيْ انْتَقَرْتُهُ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿كَلَّ مَرَصِدٍ﴾ أَيْ كُلَّ طَرِيقٍ يَرْصُدُونَكُمْ. كَأَنَّهُ أَمَرَ بِذَلِكَ لِيَضِيقَ عَلَيْهِمُ الْأَمْرُ، لِيَضْجَرُوا، وَيَتَقَادَرُوا. وَفِيهِ دَلِيلُ النَّهْيِ عَمَّا يُحْمَلُ إِلَى دَارِ الْحَرْبِ مِنْ أَنْوَاعِ الثِّيَابِ وَالْأَمْتَةِ وَمَا يَنْتَفِعُونَ بِهِ؛ لِأَنَّهُ أَمَرَ بِالْحَضَرِ وَحَفِظَ الطَّرِيقَ وَالْمَرَاصِدَ لِيَضِيقَ عَلَيْهِمُ الْأَمْرُ، فَيَسْتَدَّ، فَيَتَقَادَرُوا، وَفِي مَا يَحْمِلُونَ تَوْسِيعَ عَلَيْهِمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعُدُّوهُمْ وَأَقْبِرُوا لَهُمْ كُلَّ مَرَصِدٍ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿وَعُدُّوهُمْ وَأَقْبِرُوا لَهُمْ﴾ أَيْ أَقْبِرُوا عَلَيْهِمُ الْحُجَجَ وَالْبَرَاهِينَ لِيَضْطَرُّوا إِلَى قَبُولِ ذَلِكَ. فَإِذَا انْقَدُوا لَكُمْ، وَإِلَّا فَاقْتُلُوهُمْ ﴿حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ فَوَجِبَ بظَاهِرِ الْآيَةِ أَنْ تُقَاتَلَ مَنْ آمَنَ، وَلَمْ يُقِمِ الصَّلَاةَ، وَلَمْ يُؤْتِ الزَّكَاةَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِنَّمَا رَفَعَ الْقَتْلَ عَنْهُمْ بِالْإِيمَانِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ. فَإِذَا لَمْ يَأْتُوا بِذَلِكَ فَالْقَتْلُ وَاجِبٌ عَلَيْهِمْ.

وَكَذَلِكَ [فَعَلَ] أَبُو (٣) بَكْرٍ الصَّدِيقُ لَمَّا ارْتَدَّتِ الْعَرَبُ، وَمَنَعَتْهُمْ الزَّكَاةَ؛ حَارَبَهُمْ حَتَّى أَذَعَتْهُمَا بِأَدَائِهَا إِلَيْهِ. رُوِيَ عَنْ أَنَسٍ [أَنَّهُ] (٤) قَالَ: لَمَّا تَوَفَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ارْتَدَّتِ الْعَرَبُ كَافَّةً، فَقَالَ عُمَرُ: يَا أَبَا بَكْرٍ تُرِيدُ أَنْ تُقَاتِلَ الْعَرَبَ كَافَّةً، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا شَهِدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ، وَآتَوُا الزَّكَاةَ مُنِعُوا مِنْ دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ. وَاللَّهُ لَوْ مَنَعَنِي عَقَالًا مِمَّا كَانُوا يَعْطُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَاتَلْتُهُمْ عَلَيْهِ. قَالَ عُمَرُ: فَلَمَّا رَأَيْتُ أَبَا بَكْرٍ قَدْ شَرَحَ عَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ.

وَفِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ [أَنَّهُمْ] (٥) قَالُوا: نَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَنُصَلِّي، وَلَكِنْ لَا نُزَكِّي، فَمَسَى عُمَرُ وَالْبَذَرِيُّونَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ، فَقَالُوا: دَعَهُمْ فَإِنَّهُمْ إِذَا اسْتَقَرَّ الْإِسْلَامُ فِي قُلُوبِهِمْ، وَثَبَتَ، أَذُوا. فَقَالَ: وَاللَّهُ لَوْ مَنَعَنِي عَقَالًا مِمَّا أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَاتَلْتُهُمْ عَلَيْهِ. [وَقَالُوا: قَاتِلْ] (٦) رَسُولُ اللَّهِ عَلَى ثَلَاثٍ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَإِقَامُ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَقَالَ اللَّهُ: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ وَاللَّهُ [لَا] (٧) أَسْأَلُ فَوْقَهُنَّ، وَلَا أَقْصِرُ دُونَهُنَّ، فَقَالُوا: إِنَّا نُزَكِّي وَلَكِنْ لَا نَرْفَعُهَا، فَقَالَ: وَاللَّهُ حَتَّى أَخَذَهَا كَمَا أَخَذَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَضَعَهَا مَوَاضِعَهَا.

وَقَالَ آخَرُونَ: قَوْلُهُ: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ فِي قَبُولِهَا (٨) وَالْإِغْتِقَادَ بِهِمَا دُونَ فِعْلِهِمَا لِمَا لَا يَحْتَمِلُ حَبْسُهُمْ وَمَنَعُهُمْ إِلَى أَنْ يَحُولَ الْحَوْلُ، فَيَأْخُذُوا بِأَدَاءِ الزَّكَاةِ. ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ الْقَبُولُ وَالْإِقْرَارُ بِذَلِكَ، وَاسْتَدْلُوا بِمَا رُوِيَ فِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ [أَنَّهُ] (٩) قَالَ: «أَمِزْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، فَإِذَا قَالُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي كَذَا». وَفِي بَعْضِهَا: «حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ، وَآتَوُا الزَّكَاةَ، وَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ مَنَعُوا كَذَا» [مُسْلِمٌ ٢١].

دَلَّ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الزِّيَادَاتِ وَالتَّقْصِصِ أَنَّ ذَلِكَ فِي قَوْمٍ مُخْتَلِفِينَ وَأَنَّهُ عَلَى الْقَبُولِ لِذَلِكَ وَالْإِغْتِقَادِ، لَا عَلَى الْفِعْلِ بِنَفْسِهِ. فَمَنْ كَانَ لَا يَقْرَأُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، فَإِذَا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَانَ ذَلِكَ مِنْهُ إِيْمَانًا فِي الظَّاهِرِ. وَمَنْ كَانَ يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا يَقُولُ: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ؛ فَإِذَا قَالَ ذَلِكَ [كَانَ ذَلِكَ] (١٠) مِنْهُ إِيْمَانًا. وَمَنْ كَانَ يَقْرَأُ بِهِذَيْنِ، وَلَا يَقْرَأُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، فَإِذَا أَقَرَّ بِذَلِكَ كَانَ ذَلِكَ مِنْهُ إِيْمَانًا، فَهُوَ عَلَى الْإِقْرَارِ بِهِ وَالْإِغْتِقَادِ لَا عَلَى الْفِعْلِ.

أَلَا تَرَى أَنَّ لِلْأَمْتَةِ أَنْ يَأْخُذُوا مِنْهُمْ الزَّكَاةَ؛ شَأْوًا، أَوْ أَبْرَأ؟ فَلَوْ كَانَ الْأَدَاءُ مِنْ شَرْطِ الْإِيْمَانِ لَكَانُوا غَيْرَ مُؤْمِنِينَ بِأَخْذِهِ هَؤُلَاءِ.

(١) مِنْ م، ساقطة من الأصل، (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: يَحُلْ. (٣) فِي الْأَصْلِ: فَعَلَى أَبِي. (٤) ساقطة من الأصل وَم. (٥) ساقطة من الأصل وَم. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: قِيلَ أَوْ قَاتِل. (٧) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٨) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: قَبُولُهَا. (٩) ساقطة من الأصل وَم. (١٠) مِنْ م، ساقطة من الأصل.

واختلفت الصحابة والروايات في الحج الأكبر؛ روي عن عبد الله بن الزبير [أنه قال:] ^(١) قال: النبي ﷺ يوم عرفة: «هل تذكرون أي يوم هذا؟ قالوا نعم، اليوم الحرام، يوم الحج الأكبر، قال: فإن الله قد حرم دماءكم وأموالكم عليكم إلى يوم القيامة كحرمته يومكم هذا» [ابن ماجه ٣٠٥٧].

وعن عمر رضي الله عنه أنه سئل عن الحج الأكبر، فقال: يوم عرفة. وعنه أنه وقف عليهم يوم عرفة فقال: إن هذا يوم الحج الأكبر، فلا يصومته أحد. وعن ابن الزبير [أنه كان] ^(٢) يقول: يوم عرفة هذا يوم الحج الأكبر. وفي بعض الأخبار عنه ﷺ أنه خطب على ناقه حمراء يوم النحر، فقال رسول الله ﷺ «أتذكرون أي يوم هذا؟ هذا يوم النحر، وهذا يوم الحج الأكبر».

وفي بعض الأخبار عن ابن عمر رضي الله عنهما [أنه] ^(٣) قال: رأيت، أو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول يوم النحر عند المحراب في حجة الوداع: «أي يوم هذا؟ قالوا: هذا يوم النحر.» قال ^(٤) فأي بلد هذا؟ قالوا: هذا بلد حرام، قال: فأي شهر هذا؟ قالوا: هذا شهر حرام. قال: هذا يوم الحج الأكبر؛ فدمائكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمته هذا البلد في هذا اليوم، ثم قال: هل بلغت؟ [مسلم ١٦٧٩/٣٠].

وعن الحارث [أنه] ^(٥) قال: سألت علياً عن الحج الأكبر، فقال: يوم النحر، وعن المغيرة بن شعبه أنه خطب يوم العيد، فقال: هذا يوم النحر، ويوم الأضحى، ويوم الحج الأكبر، وعن ابن عباس رضي الله عنهما [أنه] ^(٦) قال: الحج الأكبر يوم النحر. وفيه قول ثالث: ما روي أنه كان في كتاب رسول الله ﷺ الذي كتبه ليعمر بن حزم: والحج الأصغر العُمرة. وعن ابن عباس رضي الله عنهما [أنه] ^(٧) قال: العُمرة الحجة الصغرى، وسئل عبد الله بن شداد عن الحج الأكبر، فقال: الحج الأكبر يوم النحر، والأصغر العُمرة.

فأما حديث عمرو بن حزم فهو حكاية عن كتاب، وليس فيه بيان عن يوم الحج الأكبر إنما يذكر فيه الحج الأصغر. ولولا خبر علي وابن عمر لجاز أن يقال: يوم عرفة هو يوم الحج الأكبر؛ لأنه يقتضى فيه فرض الحج؛ وهو الوقوف. ومن فاته ذلك فقد فاته الحج، وجاز أن يقال: هو يوم النحر؛ لأن فيه يقتضى طواف الزيارة؛ وهو فرض يقتضى فيه أكبر مناسك الحج، بل هو يوم النحر أولى أن يكون يوم الحج الأكبر؛ لأن الحاج يفعل في يوم عرفة قرصاً من فرائض الحج، وهو الوقوف، ويقتضى في يوم النحر قرصاً ^(٨) آخر من فرائضه، وهو طواف الزيارة، ويقتضى مع ذلك أكبر مناسك الحج. فقد استوى هذان اليومان في أنه يقتضى في كل/ ٢٠٧ - ب/ واحد منهما فرض من فرائض الحج، وزاد يوم النحر على يوم عرفة بما يفعل في يوم النحر من مناسك الحج، ولا يفعل في يوم عرفة شيء ^(٩) من النسك إلا الوقوف بعرفة.

واحتج بعض الناس بفريضة العُمرة بما راوه عمرو بن حزم أن الحج الأصغر هو العُمرة، والحج الأكبر هو الحج لما ^(١٠) سميت العُمرة حجاً، وقد ذكرنا الوجه في ذلك في ما تقدم.

وعن علي وأبي هريرة وابن أبي أوفى رضي الله عنهم أنهم قالوا: الحجة الكبرى يوم النحر، وعن عمر وابن عباس أنهما قالوا: يوم عرفة.

الآية ٦

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ وقد قال: ﴿وَإِذَا نَسَخَ الْأَشْهُارَ الْحُرُمَ قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَعِزِّدُوهُمْ وَأَحْضِرُوهُمْ وَأَقْعِدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾ الآية [التوبة: ٥] فامر بالآية الأولى عند الوجود، وفي هذه بالقتل والأسر، وأمر في الأولى بتبليغه مأمته، وفي ^(١١) هذه بأن يقعد له في كل مرصد. وحال هذه في حال الأولى في رأي العين، وينتهي له في كل وقت، يظفر به، أن يستجير لما ذكر. وفي كل حال، يرصد له أن يختال ليرد

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، في الأصل: قالوا. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: فرضاً. (٩) في الأصل وم: شيئاً. (١٠) في الأصل: بما، في م: إنما. (١١) الواو ساقطة من الأصل وم.

إلى مَأْتِيهِ. وفي ذلك زوالُ القيام بما في إحدى الآيتين في الظاهر، فالزَمَ ذلك طَلَبُ الْمَعْنَى الْمُؤَفَّقِ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ مِنْ طَرِيقِ التَّأَمُّلِ بِالْأَسْبَابِ الَّتِي هِيَ تَدُلُّ عَلَى حَقِّ الْمُعَامَلَةِ بِالْآيَتَيْنِ جَمِيعاً.

فَقَالَ أَصْحَابُنَا: إِنَّهُ إِذَا قَصَدَ نَحْوَ مَأْمَنِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ غَيْرَ مُظْهِرٍ إِعْلَامَ الْحَرْبِ، وَلَا بِمَا يَدُلُّ أَنَّهُ عَلَى ذَلِكَ مَجِيئُهُ، بَلْ يَمْشِي مَشْيَ مَنْ يَنْقَلِبُ لِحَاجَةٍ، وَمَنْ يَتَعَاهَدُ مَنْ يُنَادِي إِلَيْهِ بِالِاسْتِجَارَةِ، فَيُجَارُ، وَلَوْ كَانَ مُقْبِلاً نَحْوَ مَأْمِنِنَا كَالطَّالِبِ لِأَحَدٍ، عَلَيْهِ إِعْلَامُ الْحَرْبِ، لَكُنْهُ كَالْغَافِلِ عَنِ الَّذِينَ يَرْضُدُونَ لَهُ وَالَّذِينَ لَهُمْ مَنَعَةٌ، وَلَا قُوَّةَ بِهِ، فَلَا يَقْبَلُ قَوْلَهُ. وَذَلِكَ^(١) عَلَى تَنْسِيلِ الْأَمْرِ الْغَالِبِ مِنَ الْأَحْوَالِ؛ إِذْ لَا وَجْهَ لِعِلْمِ الْحَقِيقَةِ فِي ذَلِكَ.

وَعَلَى ذَلِكَ عَامَّةُ الْأُمُورِ بَيْنَ أَهْلِ الدَّارَيْنِ، وَمَا ذَكَرْتُ مِنَ الْآيَةِ فِي لُزُومِ ذَلِكَ الْإِغْتِيَارِ؛ إِذْ لَا وَجْهَ لَهُ؛ غَيْرُهُ هُوَ دَلِيلُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ دَلَّ قَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾ بِعَدِّ الْعِلْمِ بِأَنَّهُ مِنْ مَأْمِنِهِ آمِنَ الْآخَرِ؛ إِذْ بِهِ خَوْفُهُ، فَتَبَيَّنَ أَنَّهُ قَدْ يُؤَدَّنُ لَهُ الْخُرُوجُ لِلِاسْتِجَارَةِ مِنْ مَأْمِنِهِ وَالِدُخُولِ فِي مَأْمَنِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى أَنْ يَبْلُغُوا مَسَاحِيحَهُمْ، فَيَسْتَجِيرُوا. فَلِذَلِكَ لَا يُوجِبُ ذَلِكَ الْوُجُودَ حَقِّ الْأَسْرِ وَلَا الْقَتْلِ، وَيَجِبُ رَدُّهُ لَوْ لَمْ يُجَزَّ، وَلَا يَسَعُ تَعَرُّضُهُ لشيءٍ مِنْ ذَلِكَ ثُمَّ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجْرُ﴾ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُبَيِّنَ اسْتِجَارَتَهُ لِمَاذَا؟ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ تَرْكُ بَيَانِهِ لِمَا فِي الْجَوَابِ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿حَتَّى يَسَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ وَذَلِكَ كَقَوْلِهِ: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلِمَةِ﴾ [النساء: ١٧٦] إِنَّ^(٢) فِي الْجَوَابِ بَيَانَ مَا اسْتَفْتَوْا.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ لَازِماً أَنْ ﴿يَسَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ بِمَعْنَى حُجَّتِهِ لَا يَ وَجْهِ دَخَلَ بِأَمَانٍ. وَذَلِكَ قَرِيبٌ؛ لِأَنَّا أَمَرْنَا بِالتَّضْيِيقِ عَلَيْهِمْ لِيُسْلِمُوا. فَإِذَا أَبْخَا لَهُمُ الدُّخُولُ لِلْحَاجَاتِ بِلا عَرَضٍ، يَذْهَبُ مَنَفَعَةُ التَّضْيِيقِ فَيَكُونُ الْمَقْصُودُ بِالْعَهْدِ لِمَا يَرَوْنَ مِنْ أَثَارِ الْإِسْلَامِ وَحَسَنِ رِعَايَةِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ، وَتَسْمَعُونَ حُجَّتَهُ وَمَا بِهِ ظُهُورُ الْحَقِّ فِيهِ رِجَاءً أَنْ يُجِيرُوا. فَلِذَلِكَ يُؤَدَّنُونَ، وَإِنْ كَانَ فِي ذَلِكَ قَضَاءُ حَاجَاتِهِمْ.

وقد رُوِيَ عَنْ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُقَاتِلُ حَتَّى يَدْعُوَ إِلَى الْإِسْلَامِ. فَمَا قَدْ كَانَ دَعَاهُمْ غَيْرَ مَرَّةٍ، فَذَلِكَ الْمَعْنَى عِنْدَ الْأَمَانِ أَوَّلَى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّى يَسَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ فَالْأَصْلُ أَنَّ حَقِيقَةَ الْكَلَامِ لَا تُسْمَعُ بِالْكَلامِ؛ إِذْ الَّذِي بِهِ يُؤَدِّي حُرُوفُ الْكَلَامِ بِمَا يُقْلَبُ الْحُرُوفُ، وَيُؤَلَّفُهُ، وَلَا صَوْتٌ لَهُ، يُسْمَعُ نَحْوُ اللَّسَانِ وَالشَّفَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَإِنَّمَا يُسْمَعُ بِصَوْتِ يَهِيحُ مِنْ حَيْثُ [الْحُرُوفُ]^(٣) الْخَارِجَةُ الَّتِي تَتَكَلَّمُ وَقَوْلُهُ، فَتَبْلُغُ، أَوْ حُرُوفُ كَلَامِهِ لِلْمَسَامِعِ. فَالْسَّمْعُ يَقَعُ عَلَى الصَّوْتِ الَّذِي بِهِ يُدْرِكُ الْكَلَامُ، وَيَقَعُهُمْ، فَصَارَ سَمْعُ الْكَلَامِ فِي الْأَصْلِ مَجَازاً لَا حَقِيقَةً. فَعَلَى ذَلِكَ مَا قِيلَ مِنْ سَمَاعِ كَلَامِ اللَّهِ. ثُمَّ هُوَ يُخَرِّجُ عَلَى وَجْهِهِ:

أَحَدُهَا: أَنْ يُسْمَعَ الْمَعْنَى الَّذِي جُعِلَ لَهُ الْكَلَامُ، وَهُوَ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ وَالتَّحْرِيمُ وَالتَّحْلِيلُ وَغَيْرُ ذَلِكَ. وَذَلِكَ مِمَّا يُنْسَبُ إِلَى اللَّهِ. فَقِيلَ بِذَلِكَ: كَلَامُ اللَّهِ لِمَا إِلَيْهِ يُنْسَبُ الْكَلَامُ بِهِ وَالنَّهْيُ وَنَحْوُ ذَلِكَ.

وَالْوَجْهُ الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ الْقَوْلُ، وَنَظْمُهُ، عَلَى مَا أَغْجَرَ خَلْقَهُ عَنْ مِثْلِهِ، فَيُنْسَبُ إِلَيْهِ بِمَا مِنْهُ تَأْلِيفُهُ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ مَسْمُوعاً مِنْ غَيْرِهِ عَلَى مَا نُسِبَتِ الْقَصَائِدُ إِلَى مُبْدِيهَا وَالْكُتُبُ إِلَى مُؤَلِّفِهَا وَالْأَقَاوِيلُ إِلَى الْأَوَائِلِ الَّتِي مِنْهُمْ ظَهَرَتْ، وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الَّذِي يَقُولُهُ فِي الْحَقِيقَةِ قَوْلُهُ أَوْ كَلَامُهُ بِمَا كَانَ مِنْهُ الْمَبْدَأُ الَّذِي عَلَيْهِ يَتَكَلَّمُ. فَمِثْلُهُ مَعْنَى قَوْلِهِ ﴿حَتَّى يَسَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾.

وَالثَّالِثُ: أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ لِمَا لِكَلَامِهِ [يُعْبَرُ، وَبِهِ]^(٤) يُوصَفُ أَنْ لَهُ كَلَاماً^(٥)، وَبِهِ يُرْجَعُ إِلَى ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ اللَّهُ تَعَالَى يَجْعَلُ عَنِ الْوَصْفِ لِكَلَامِهِ بِالْحُرُوفِ وَالْهَجَاءِ وَالْإِيمَاضِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

(١) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: وَ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنَّهُ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: يَعْبرُونَ بِهِ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: كَلَام.

فلَمَّا كَانَ إِلَى الْمَرَجِّ، وَإِنْ كَانَ حَدُّ ذَلِكَ غَيْرَ مُتَوَّهٍ هُنَاكَ وَلَا مُتَصَوِّرٍ، فَتُسَبِّحُ إِلَيْهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [النساء: ١] وَقَالَ: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ [الروم: ٢٠] مِنْ غَيْرِ تَوْهَمٍ كُلِّيَّةٍ الْعَالَمِ^(١) فِي ذَلِكَ التُّرَابِ أَوْ النَّفْسِ الْوَاحِدَةِ لِمَا إِلَيْهِ مَرْجِعُ الْكُلِّ، نُسِبَ إِلَيْهِ.

وَعَلَى ذَلِكَ أَمْرُ الْكَلَامِ، وَذَلِكَ عَلَى مَا قِيلَ مِنْ لِقَاءِ اللَّهِ وَالْمَرْجِعِ إِلَى اللَّهِ وَالْمَصِيرِ بِمَا لَا تَذْيِيرَ لِأَحَدٍ هُنَاكَ؛ ذَكَرَ الْمَصِيرَ إِلَيْهِ، [لأنه لا بُدَّ]^(٢) لذلِكَ مِنْ صَيُورَةٍ إِلَيْهِ فِي الْحَقِيقَةِ وَرُجُوعٍ لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلُ. فَمِثْلُهُ، لِمَا قِيلَ، كَلَامُ اللَّهِ.

ثُمَّ اللَّهُ تَعَالَى يُجِيلُ عَنِ التَّصَوُّيرِ فِي الْأَوْهَامِ أَوْ التَّقْدِيرِ فِي الْعُقُولِ. فَعَلَى ذَلِكَ صِفَتُهُ. بَلْ ذَلِكَ أَحَقُّ وَأَوْلَى؛ إِذْ نَجِدُ صِفَاتِ الْخَلْقِ لَا تُحَدُّ، وَلَا تُتَصَوَّرُ فِي الْأَوْهَامِ، وَلَا تُقَدَّرُهَا الْعُقُولُ إِلَّا مِنْ طَرِيقِ الْقَوْلِ بِالْحَقِيقَةِ عَلَى [مَا هِيَ إِخْبَارٌ]^(٣) لَهُمْ. وَاللَّهُ تَعَالَى الْمُتَعَالَى عَنِ التَّصَوُّرِ فِي الْأَذْهَانِ، وَوَضَعَهُ بِالْعِلْمِ وَالْكَلَامِ وَنَحْوِ ذَلِكَ أَحَقُّ فِي إِيصَالِ ذَلِكَ، فَتَذَبَّرْ فِيهِ.

وَقَالَ الثَّلَجِيُّ: يُقَالُ: كَلَامُ اللَّهِ عَلَى الْمُوَافَقَةِ لَا عَلَى الْحَقِيقَةِ كَمَا يُقَالُ: ذَا قَوْلٍ فَلَانٍ وَكَلَامُ فَلَانٍ، وَلَيْسَ غَيْرُهُ كَلَامُ الْمُتَكَلِّمِ بِهِ. فَالْقَائِلُ الشَّاهِدُ.

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ كَلَامَ اللَّهِ يُسْمَعُ مِنْ وَجْهِهِ؛ فَكَأَنَّهُ يَذْعَبُ إِلَى مِثْلِ مَا يُقَالُ: يُعْرِفُ اللَّهُ مِنْ وَجْهِهِ عَلَى تَحْقِيقِ الْوُجُوهِ، فَمِثْلُهُ كَلَامُهُ، وَاللَّهُ [أَعْلَمُ، مِنْ غَيْرِ تَوْهَمٍ الْمَعْنَى الثَّانِي يَتَرَفَّقُ بِهِ]^(٤) عَنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، كَذَلِكَ سَمَاعُ كَلَامِهِ.

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ أَلْفَعَهُ مَائِمَةً﴾ دَلَالَةٌ أَنَّهُ لَمْ يَقْبَلْ مَا أَسْمِعَ، وَعَرِضَ عَلَيْهِ؛ إِذْ لَوْ قَبِلَ لَكَانَ يَكُونُ مَائِمَةً هَذِهِ الدَّارَ، لَا تِلْكَ وَلَكَانَ يَحِقُّ عَلَيْهِ الْخُرُوجُ مِنْهَا، لَا الْعَوْدُ إِلَيْهَا.

ثُمَّ مَعْلُومٌ أَنَّ كَلَامَ اللَّهِ، هُوَ حُجَّتُهُ، وَأَنَّ الْحُجَّةَ قَدْ لَزِمَتْهُ لَوَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: مَا ظَهَرَ عَجْزُ الْخَلْقِ عَنْ مِثْلِهِ، وَانْتَشَرَ الْخَبَرُ فِي الْآفَاقِ^(٥) عَلَى قَطْعِ ظَمْعِ الْمُقَابِلِينَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالرَّدِّ الْبَازِلِينَ مُهْجَهُمْ وَمَا حَوَتْهُ أَيْدِيهِمْ فِي إِطْفَاءِ نَوْرِهِ، فَكَانَ ذَلِكَ حُجَّةً بَيِّنَةً لَزِمَتْهُمْ.

وَالثَّانِي: أَنَّ جَمِيعَ مَا يَتَلَى مِنْهُ لَا يُؤْتَى عَنْ آيَاتٍ إِلَّا وَفِيهَا مَا يَشْهَدُ بِالْعُقُولِ عَلَى قُصُورِ أَفْهَامِ الْخَلْقِ عَنْ بُلُوغِ مِثْلِهِ مِنْ الْحِكْمَةِ وَعَجِيبِ مَا فِيهِ مِنَ الْحُجَّةِ مِمَّا لَوْ قُوبِلَ بِمَا فِيهِ مِنَ الْمَعْنَى، وَمَا يَخْدُثُ بِهِ مِنَ الْفَائِدَةِ لِيُعْلَمَ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ كَلَامِ مَنْ يَعْلَمُ الْغَيْبَ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ. وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ، صَارَ هُوَ بِالرَّدِّ مُكَابِرًا، وَحَقٌّ مِثْلُهُ الرَّجْرُ وَالنَّادِبُ أَنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ [مَا]^(٦) يَضْمَنُ أَمَانَةَ الْقَبُولِ، وَلَا الْآ^(٧) يَعَارِضُهُ بِالرَّدِّ وَذَلِكَ أَعْظَمُ مِمَّا فِيهِ الْحُدُودُ. فَالْحَدُّ أَحَقُّ الْآ^(٨) يُقَامُ عَلَيْهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ قَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ أَلْفَعَهُ مَائِمَةً﴾ يَخْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ يَذْعَهُ، وَلَا يَمْتَنِعَهُ عَنِ الْعَوْدِ إِلَى مَائِمَةٍ لِيُعْلَمَ أَنَّ حُكْمَ تِلْكَ الدَّارِ لَمْ يَزَلْ عَنْهُ، وَأَنَّهُ لَا يُلْزَمُ الْجَزِيَّةَ / ٢٠٨ - أ / إِلَّا عَنْ طَوْعٍ أَوْ دَلَالَةٍ عَلَيْهِ.

وَالثَّانِي: أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ حِفْظُهُ إِلَى أَنْ يَبْلُغَهُ مَائِمَةً بِدْفَعِ الْمُسْلِمِينَ مِنْهُ. وَفِي ذَلِكَ لَزُومٌ حَقُّ الْأَمَانِ الْجَمِيعِ بِإِحَازَةٍ، وَعَلَى ذَلِكَ كُلُّ مُسْلِمٍ.

ثُمَّ سَمَاعُ كَلَامِ اللَّهِ يُخْرِجُ مِنَ الْقُرْآنِ، وَفِيهِ مَا ذَكَرْتُ مِنَ الدَّلَالَةِ، وَعَلَى سَمَاعِ أَوَامِرِ اللَّهِ وَنَوَاهِيهِ فِي حَقِّ الْعَرَضِ عَلَيْهِ، وَعَلَى سَمَاعِ حُجَجِ الثَّبُوتِ وَآيَاتِ الرِّسَالَةِ أَوْ التَّوْحِيدِ مِنَ الْقُرْآنِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَيَّ مَا لَهُمْ، وَمَا^(٩) عَلَيْهِمْ. وَيَخْتَمِلُ نَفْيُ الْعِلْمِ بِمَا لَمْ يَتَنَبَّهُوا بِمَا أُعْلِمُوا. وَيَخْتَمِلُ ذَلِكَ [تَعْلِيمًا]^(١٠) مَعَ رَسُولِ اللَّهِ مِنْ كَيْفِيَّةٍ مُعَامَلَةِ الْكَفَرَةِ؛ إِذْ هُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ مِنْ قَبْلُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: الْعَام. (٢) فِي الْأَصْلِ: لَا أَنْ، فِي م: لِأَنَّ ذَلِكَ. (٣) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: مِنْ أَعْيَار. (٤) فِي الْأَصْلِ: أَعْلَمُ، فِي م: مِنْ غَيْرِ تَوْهَمٍ الْمَعْنَى الثَّانِي يَتَرَفَّقُ بِهِ. (٥) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: الْأَوَاقَات. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَ م. (٧) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: أَنْ. (٨) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: أَنْ. (٩) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: وَ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَ م: تَعْلِيم.

الآية ٧

ثم قوله ﷻ: ﴿كَيفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ﴾ هو، والله أعلم، أن كيف يستحِقُّونَ العهدَ؟ وكيف يُعْطَى لَهُمُ الْعَهْدُ، وقد نَقَضُوا الْعُهُودَ الَّتِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَبِّهِمْ وَالْعُهُودَ الَّتِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ. فَمَا الْعُهُودُ الَّتِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَبِّهِمْ فِيهِ ^(١) عَهْدُ الْخَلْقَةِ؛ إِذْ فِي خَلْقَةِ كُلِّ أَحَدٍ الشَّهَادَةُ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ وَالرُّهْبَانِيَّةِ، وَالشَّهَادَةُ عَلَى الرِّسَالَةِ، وَمَا عَهْدُ إِلَيْهِمْ فِي كِتَابِهِمْ مِنْ إِظْهَارِ صِفَةِ مُحَمَّدٍ وَبَعْدِهِ ^(٢) لِلْخَلْقِ، فَتَقَضُّوا ذَلِكَ كُلَّهُ، وَنَقَضُوا الْعُهُودَ الَّتِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ، وَلَمْ يَحْفَظُوهَا.

يقول، والله أعلم، كيف يستحِقُّونَ أَنْ يُعْطَى الْعَهْدُ لَهُمْ، وقد نَقَضُوا الْعَهْدَ الَّذِي عَاهَدَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ وَالْعُهُودَ الَّتِي أَعْطَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ، لَا يَسْتَحِقُّونَ ذَلِكَ. إِلَّا أَنْ اللَّهُ ﷻ بِفَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ أَوْزَنَ أَنْ تُعْطَى لَهُمُ الْعُهُودُ، ﴿فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَيْسُوا لَهُمْ﴾ أَيِ أَوْفُوا لَهُمُ الْعَهْدَ إِذَا وَقَّوْا لَكُمْ، وَإِنْ انْقَضَتِ الْمُدَّةُ. يقول، والله أعلم، إذا استقاموا لَكُمْ فِي وِفَاءِ الْعَهْدِ ﴿فَاسْتَيْسُوا لَهُمْ﴾ فِي وِفَايَةِ الْعَهْدِ.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ اسْتَشْنَى الَّذِينَ عَاهَدُوا عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ. يَحْتَمِلُ أَلَّا يُعْطَى الْعَهْدُ ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾ كَذَا فَإِنَّهُمْ إِنْ أَوْفُوا لَكُمْ لَفَاوُوا لَهُمْ ^(٣) ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ مَنْ اتَّقَى الشُّرْكَ، وَاتَّقَى مِنْ جَوْرِ وَظُلْمٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٨

وقوله تعالى: ﴿كَيفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا ذِمَّتَهُ﴾ يقول: كيف تُعْطُونَ لَهُمُ الْعَهْدَ؟ وكيف يستحِقُّونَ الْعَهْدَ؟ ﴿كَيفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا ذِمَّتَهُ﴾

وقال بعضهم: كيف لا تُقَاتِلُونَهُمْ؟ ﴿وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا ذِمَّتَهُ﴾؟ قَالَ: الْإِلَّ اللَّهُ، وَالذِّمَّةُ الْعَهْدُ. وَقِيلَ: الْإِلَّ الْقَرَابَةُ، وَقِيلَ: الْإِلَّ الْعَهْدُ وَالذِّمَّةُ. وَكَذَلِكَ ذُكِرَ فِي حَرْفِ حَفْصَةَ ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ﴾ عَهْدًا ﴿وَلَا ذِمَّةً﴾.

وقال الفُتَيْبِيُّ: الْإِلَّ الْعَهْدُ؛ قَالَ: وَيُقَالُ: الْقَرَابَةُ، وَقَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ: الْإِلَّ الْقَرَابَةُ. وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: الْإِلَّ الْعَهْدُ، وَالذِّمَّةُ التَّدْمُّمُ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْإِلَّ عِنْدَ اللَّهِ بِمَنْزِلَةِ جَبْرِيلَ؛ يُقَسِّرُهُ عَبْدُ اللَّهِ لِمَا قِيلَ: جَبْرِيلُ هُوَ عَبْدُ اللَّهِ.

وقيل: الْإِلَّ الْحُرْمُ؛ يَقُولُ: كَيْفَ يَعْطُونَ لَهُمُ الْعَهْدَ، وَهُمْ ﴿وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ﴾ الْقَرَابَةُ وَلَا الْعَهْدَ، وَلَا يَرْقُبُوا ^(٤) الْحُرْمَ فِيكُمْ؟ وَقَدْ كَانُوا يَحْفَظُونَ فِي مَا بَيْنَهُمُ الْقَرَابَةَ وَالرَّحِمَ حَتَّى يُعَاوَنَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَيُنَاصِرَ، إِذَا وَقَعَ بَيْنَ قَرَابَتِهِمْ وَرَحِمِهِمْ وَبَيْنَ قَوْمٍ آخَرِينَ مُبَاغِضَةً وَعَدَاوَةً، وَكَانُوا يَرْقُبُونَ حُرْمَ اللَّهِ حَتَّى لَا يَقَاتِلُوا ^(٥) فِي الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ وَعِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَكَانُوا يَحْفَظُونَ الْعُهُودَ فِي مَا بَيْنَهُمْ مِنْ قَبْلِ، وَلَا يَرْقُبُونَ فِيكُمْ، وَلَا يَحْفَظُونَهَا. هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ تَأْوِيلُ قَوْلِهِ: ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا ذِمَّتَهُ﴾ وَقَدْ كَانُوا يَرْقُبُونَهُ مِنْ قَبْلِ.

وقوله تعالى: ﴿يُرْمَوْنَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ بِأَنَّهُمْ يُؤْفُونَ الْعَهْدَ، وَيَحْفَظُونَهُ ﴿وَتَأْتَى قُلُوبُهُمْ﴾ إِلَّا النُّفُصَ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ فِي نَقْضِ الْعَهْدِ. وَالْفِسْقُ هُوَ الْخُرُوجُ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ كَقَوْلِهِ ﴿فَنَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الكهف: ٥٠].

الآية ٩

وقوله تعالى: ﴿أَشْرَوْا بِعَاثِتِ اللَّهِ﴾ تَحْتَمِلُ آيَاتُ اللَّهِ الْقُرْآنَ وَمُحَمَّدًا، وَتَحْتَمِلُ آيَاتُهُ دِينَهُ.

وقوله تعالى: ﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أَيِ صَدُّوا النَّاسَ عَنْ مَتَابَعَةِ النَّبِيِّ، وَقِيلَ: صَدُّوا النَّاسَ عَنْ دِينِ اللَّهِ الْإِسْلَامِ ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أَيِ يَسْأَ مَا عَمِلُوا بِصَدِّهِمُ النَّاسَ عَنْ دِينِ الْإِسْلَامِ وَمُتَابَعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٠

وقوله تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا ذِمَّتَهُ﴾ هَذَا قَدْ ذَكَرْنَا ﴿وَأَوَّلَيْكَ هُمُ الْمُتَعَدُّونَ﴾ فِي نَقْضِ الْعَهْدِ. وَالْإِعْثَاءُ هُوَ الْمُجَاوِزَةُ عَنِ الْحَدِّ الَّذِي جُعِلَ لَهُمْ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَ: هُوَ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَ: م: وَنَعْتَهُ. (٣) فِي الْأَصْلِ: فَأَوْفُوا، سَاقِطَةٌ مِنْ م. (٤) فِي الْأَصْلِ وَ: م: يَرْقُبُونَ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَ: م: يَقَاتِلُونَ.

الآية ١١

وقوله تعالى: ﴿إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا فِي الَّذِينَ﴾ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: أَنْظَرُوا إِلَى كَرَمِ رَبِّكُمْ وَجُودِهِ: قَوْمٌ قَدْ افْتَرَوْا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا، وَكَذَّبُوا رَسُولَ اللَّهِ، وَهَمُّوا بِقَتْلِهِ وَإِخْرَاجِهِ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ، وَطَعَنُوا فِي دِينِهِمْ، وَعَمِلُوا كُلَّ بَلِيَّةٍ مِنْ نَصَبِ الْحُرُوبِ وَالْقِتَالِ فِي مَا بَيْنَهُمْ، ثُمَّ إِنَّهُ وَعَدَ لَهُمْ بِالتَّوْبَةِ الْمَغْفِرَةِ وَالتَّجَاوُزِ عَمَّا كَانَ مِنْهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿إِن يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] وَجَعَلَ فِي مَا بَيْنَهُمْ الْأُخُوَّةَ وَالْمَوَدَّةَ بِقَوْلِهِ: ﴿فَخَلُّوا فِي الَّذِينَ﴾ وَقَوْلِهِ^(١): ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١] وَقَوْلِهِ: ﴿إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بَيْنَهُمْ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣] وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

وفيه: إِنْ كَانَ لَهُ بِمَكَانٍ آخَرَ ذَنْبٌ أَوْ جَفَاءٌ، فَإِذَا رَجَعَ عَنْ ذَلِكَ، وَتَابَ، لَزِمَهُ أَنْ يُتَجَاوَزَ عَنْهُ، وَالْأَيُّ ذَكَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مَا كَانَ مِنْهُ [مَنْ]^(٢) الذَّنْبِ عَلَى مَا جَعَلَ اللَّهُ فِي مَا بَيْنَ هَؤُلَاءِ الْأُخُوَّةَ وَالْمَوَدَّةَ إِذَا تَابُوا، وَقَالَ: ﴿فَخَلُّوا فِي الَّذِينَ﴾ وَقَدْ كَانَ مِنْهُمْ مَا كَانَ، وَمِنْ حَقِّ الْأُخُوَّةِ أَلَّا يُذَكَّرَ مَا كَانَ مِنْهُمْ مِنَ الْمَسَاوِي.

ثُمَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِن تَابُوا﴾ مِنَ الشُّرْكِ وَمَا كَانَ مِنْهُمْ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ﴾ وَجِهَيْنِ:

تَحْتَمِلُ الصَّلَاةُ: الْمَعْرُوفَةُ، وَالزَّكَاةُ: الْمَعْرُوفَةُ زَكَاةَ الْمَالِ، وَهُوَ مَا ذَكَرْنَا فِي مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْإِقْرَارِ لِهَمَا وَالْإِغْتِقَادِ وَالْقَبُولِ لِدَلَالَةِ دُونَ فِعْلِهِمَا، وَهُوَ فِي الْكُتُبِ وَالْقَادَةِ الَّذِينَ كَانُوا يَأْتِفُونَ عَنِ الْخُضُوعِ لِأَحَدٍ، وَلَا يُؤَدُّونَ الزَّكَاةَ، وَلَا يَتَصَدَّقُونَ لِمَا ظَنُّوا أَنَّهُمْ يُخْلَدُونَ فِي الدُّنْيَا إِشْفَاقًا عَلَى أَنْفُسِهِمْ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ الْخُضُوعُ وَالْخُشُوعُ لَا الصَّلَاةَ الْمَعْرُوفَةَ، وَالْمُرَادُ مِنَ الزَّكَاةِ زَكَاةَ النَّفْسِ وَإِصْلَاحِهَا. فَإِنْ كَانَ هَذَا فَهُوَ لَا زَمَ فِي الْأَوَاقِ كُلِّهَا؛ مَا مِنْ وَفِي إِلَّا وَلَهُ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ الْخُضُوعُ وَالْخُشُوعُ لَهُ، [وَأَنْ]^(٣) يُزَكِّي نَفْسَهُ، وَيُصْلِحَهَا، وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقْنَاهَا﴾ [الشمس: ٩].

وقوله تعالى: ﴿وَنَقُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أَيِ نُبَيِّنُ الْآيَاتِ ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يَنْتَفِعُونَ بِعِلْمِهِمْ. وَيَحْتَمِلُ ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أَيِ لِقَوْمٍ إِذَا نَظَرُوا فِيهَا، وَتَدَبَّرُوا ﴿يَعْلَمُونَ﴾ لَا لِقَوْمٍ لَا يَعْلَمُونَ.

الآية ١٢

وقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّكُنَّ أَتَمَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ ﴿أَتَمَنَّهُمْ﴾ الْعَهْدُ نَفْسَهَا كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ ثُمَّ ذَكَرَ الْعَهْدَ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١]. وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿وَأَن لَّكُنَّ أَتَمَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ أَيْمَانًا يَخْلِفُونَ [بِهَا]^(٤) بَعْدَ إِعْطَاءِ الْعَهْدِ تَوْكِيدًا بِالْأَلَا^(٥) يَنْقُضُوا الْعَهْدَ، إِذَا عَاهَدْتُمْكُمْ، وَنَقَضَ الْعَهْدَ نَكْثُهُ^(٦).

وقوله تعالى: ﴿وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾ فِي الدِّينِ ظَاهِرٌ.

وقوله تعالى: ﴿فَقَتَّلُوا أَيْمَةً الْكُفْرِ﴾ وَتَخْصِيصُ الْأَمْرِ بِمُقَاتَلَةِ الْأَيْمَةِ [بِوَجْهِهِ]:

أَحَدُهَا^(٧): [لَمَّا أَنَّ الْأَتْبَاعَ أَبَدًا يُقْلِدُونَ الْأَيْمَةَ وَيَصْدُرُونَ عَنْ آرَائِهِمْ وَتَدْبِيرِهِمْ. فَإِذَا قَاتَلُوهُمْ اتَّبَعَ الْأَتْبَاعُ فَلَهُمْ.

وَالثَّانِي: لِنَفْيِ الشُّبْهِ أَنَّ لَيْسَ الْأَيْمَةُ / ٢٠٨ - ب / مِنْهُمْ كَأَصْحَابِ الصَّوَامِعِ، وَإِنْ كَانُوا هُمْ أَيْمَةً فِي الْعِبَادَةِ، فَلَا يَتْرُكُ مُقَاتَلَتَهُمْ كَمَا يَتْرُكُ مُقَاتَلَةَ أَصْحَابِ الصَّوَامِعِ قَدْ عَزَلُوا^(٨) أَنْفُسَهُمْ عَنِ النَّاسِ عَنْ جَمِيعِ الْمَنَافِعِ، وَحَبَسُوهَا لِلْعِبَادَةِ، وَالْأَيْمَةُ لَيْسُوا كَذَلِكَ.

وَالثَّلَاثُ: خَصَّ الْأَيْمَةَ بِالْقِتَالِ لِأَنَّهُمْ إِذَا قَتَلُوهُمْ لَمْ يَبْقَ لَهُمْ إِمَامٌ فِي الْكُفْرِ، فَيَذْهَبُ الْكُفْرُ رَاسًا، وَهُوَ كَقَوْلِهِ ﴿وَقَتَّلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِئَةً﴾ الْآيَةُ [البقرة: ١٩٣].

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: لِلَا. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: عَاهَدْتُمْ نَقَضَ الْعَهْدَ وَنَكْثَهُ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٨) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: عَزَلُوا.

[وقوله تعالى^(١)]: ﴿إِنَّهُمْ لَا آيَتَنَ لَهُمْ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿لَا آيَتَنَ لَهُمْ﴾ لَا عَهْدَ لَهُمْ بَعْدَ نَقْضِهِمُ الْعَهْدَ؛ أَي لَا تُرْفُوا لَهُمُ الْعَهْدَ الَّذِي كَانَ لَهُمْ إِذَا نَقَضُوا. وَيَحْتَمِلُ ﴿لَا آيَتَنَ لَهُمْ﴾ أَي لَا يُغْفَى لَهُمُ الْعَهْدُ أَبَدًا.

وفيه لُغَةٌ أُخْرَى لَا إِيمَانَ لَهُمْ بِكُسْرِ^(٢) الألف؛ أَي لَا يُؤْمِنُونَ، أَي لَا يُؤْمِنُونَ أَبَدًا. فَإِنْ كَانَ كَذَلِكَ [فذلك في قوم، عَلِمَ اللهُ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ أَبَدًا^(٣)].

وفائدة قوله^(٤) ﴿إِنَّهُمْ لَا آيَتَنَ لَهُمْ﴾ تُخْرَجُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أحدهما: أَنَّ أَهْلَ الْعَهْدِ إِذَا نَقَضُوا الْعَهْدَ يُنْقَضُ ذَلِكَ، وَيَتْرَكُونَ عَلَى النِّقْضِ، وَيَقَاتِلُونَ بَعْدَ النِّقْضِ.

[والثاني: لَيْسُوا^(٥)] كَامِلِ الدِّمَةِ إِذَا نَقَضُوا الدِّمَةَ لَا يَتْرَكُونَ ذَلِكَ، وَلَكِنْ يَزِيدُونَ^(٦) إِلَى الدِّمَةِ، وَلَا تُنْقَضُ الدِّمَةُ بَيْنَهُمْ.

وقال الحسن: قوله: ﴿لَا آيَتَنَ لَهُمْ﴾ يقول: لَا تَصْدِيقَ لَهُمْ.

وقوله تعالى: ﴿لَمَّا لَهُمْ بِتَهْوَت﴾ عَنْ نَقْضِ الْعَهْدِ.

الآية ١٣

وقوله تعالى: ﴿أَلَا تَتَذَكَّرُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ أَي كَيْفَ ﴿أَلَا تَتَذَكَّرُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ وَإِيمَانُهُمْ: مَا ذَكَّرْنَا، وَهُوَ حَرْفُ الْإِعْرَاءِ عَلَى مُقَاتَلَةٍ مِنْ اعْتَادَ^(٧) نَقْضَ الْعُهُودِ وَالْتِحَارِيشَ عَلَيْهِمْ ﴿وَكُفُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿وَكُفُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ الْقَتْلَ أَيْ هُمُوا بِقَتْلِهِ. وَفِي الْقَتْلِ إِخْرَاجُهُ، وَهُمُوا بِإِخْرَاجِهِ مِنَ الْمَدِينَةِ [مَا]^(٨) ذَكَرَ فِي بَعْضِ الْقِصَصِ أَنَّ الْيَهُودَ قَالُوا لِلرَّسُولِ اللهُ: إِنْ كَانَ لِلْأَنْبِيَاءِ^(٩) وَالرَّسُلِ بَيْتُ الْمَقْدِسِ لَا الْمَدِينَةَ فَانْقِلْ إِلَيْهِ.

وفِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ لِثَبَاتِ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ لِأَنَّهُ مَعْلُومٌ أَنَّهُمْ أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ وَفِي مَا بَيْنَهُمْ إِخْرَاجَهُ وَقَتْلَهُ، لَا أَنَّهُمْ أَظْهَرُوا ذَلِكَ، ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ بِذَلِكَ، دَلَّ أَنَّهُمْ إِنَّمَا عَلِمُوا أَنَّهُ عَرَفَ ذَلِكَ بِاللَّهِ تَعَالَى.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ بَدَّوْكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ ﴿وَهُمْ بَدَّوْكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فِي نَقْضِ الْعَهْدِ، أَي هُمْ بَدَّوْكُمْ بِنَقْضِ الْعَهْدِ. وَيَحْتَمِلُ: هُمْ بَدَّوْكُمْ بِالْقِتَالِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَالْإِخْرَاجِ.

وقوله تعالى: ﴿أَتَخْشَوْنَهُ فَأَلْفَهِمْ أَن تَخْشَوْهُ﴾ أَي لَا تَخْشَوْهُمْ، وَاحْشَوْا اللَّهَ، فَإِنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يَصِلُوا إِلَيْكُمْ بِتَكْبَرِهِ^(١٠) إِلَّا بِإِقْدَارِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ. فَلَا تَخْشَوْهُمْ، وَاحْشَوْا اللَّهَ. وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ ﴿أَتَخْشَوْنَهُ فَأَلْفَهِمْ﴾ قَادِرٌ؛ يَنْصُرُكُمْ، وَيَقْهَرُ عَدُوَّكُمْ ﴿فَأَلْفَهِمْ أَن تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ إِذْ هُوَ قَادِرٌ عَلَى مَنْعِهِمْ عَنْكُمْ، وَنَصْرِكُمْ عَلَيْهِمْ^(١١).

الآية ١٤

وقوله تعالى: ﴿قَتَلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ﴾ الْآيَةُ؛ عَلِمَ اللهُ ﷻ كِرَامَةَ^(١٢) الْقَتْلِ وَثِقَلَهُ عَلَى الْخَلْقِ، فَأَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمُقَاتَلَةِ الْكُفَرَةِ، وَعَدَّ لَهُمُ النَّصْرَ وَالتَّعْذِيبَ. وَالتَّعْذِيبُ بِأَيْدِيهِمْ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ: الْقَتْلَ وَالْإِهْلَاكَ، وَيَحْتَمِلُ الْأَسْرَ وَالسَّبْيَ. وَيَحْتَمِلُ أَيْضًا وَجْهَيْنِ: يَحْتَمِلُ الْهَزِيمَةَ وَالْإِذْلَالَ [فِي الدُّنْيَا]^(١٣) وَيَحْتَمِلُ ﴿وَيُخْزِيهِمْ﴾ فِي الْآخِرَةِ كَقَوْلِهِ: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ﴾ [آل عمران: ١٩٢] الْخِزْيُ هُوَ الْعَذَابُ الَّذِي فِيهِ الْفُضِيحَةُ وَالذُّلَّةُ.

وفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَتَلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ دَلَالَةٌ نَقْضِ قَوْلِ الْمُعْتَزِلَةِ لِقَوْلِهِمْ: لَا^(١٤) قُدْرَةَ لِلَّهِ عَلَى أَعْمَالِ الْخَلْقِ؛ وَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ يُعَذِّبُهُمْ بِأَيْدِيهِمْ، وَلَوْ كَانَ غَيْرَ قَادِرٍ عَلَى أَعْمَالِهِمْ كَانَ يُعَذِّبُهُمْ بِيَدِهِ لَا بِأَيْدِيهِمْ، وَيَنْصُرُكُمْ عَلَيْهِمْ.

وَعَدَّ لَهُمُ النَّصْرَ عَلَيْهِمْ وَالظَّفَرَ وَخِزْيَ الْكُفَرَةِ، وَهُوَ مَا ذَكَرَ ﴿قُلْ هَلْ تَرْتَوُونَ بَنَى إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنِيَّ وَنَحْنُ نَرْتَبِصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ٥٢] دَلَالَةٌ نَقْضِ قَوْلِهِمْ لِأَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ يُصِيبُهُمُ الْعَذَابُ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ لِمَا ذَكَّرْنَا.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ١٠/٣ (٣) ساقطة من م. (٤) في الأصل وم: قولهم. (٥) في الأصل وم: يصل إليكم نكبة. (٦) في الأصل وم: يريدون. (٧) في الأصل وم: اعتقاد. (٨) ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: الأنبياء. (١٠) في الأصل وم: يصل إليكم نكبة. (١١) في الأصل وم: عليه. (١٢) من وم، في الأصل: كرامة. (١٣) من م، ساقطة من الأصل. (١٤) أدرج قبلها في الأصل وم: أن.

وقوله تعالى: ﴿وَيَنفُثُ سُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ قُلُوبُهُمْ تَوَجَّعَتْ، وَتَأَلَّمَتْ بِكُفْرِهِمْ بِاللَّهِ وَتَكْذِيبِهِمُ الرِّسَالَ، فَوَعَدَ لَهُمْ شِفَاءَ صُدُورِهِمْ. وَذَلِكَ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أحدهما: أَنَّهُمْ يُسَلِّمُونَ، فَيَصِيرُونَ إِخْوَانًا، فَيَدْخُلُ فِيهِمُ السُّرُورُ وَالْفَرَحُ بِإِزَاءِ مَا حَزَنُوا وَتَأَلَّمُوا، وَذَلِكَ شِفَاءُ صُدُورِهِمْ.

والثاني: ﴿وَيَنفُثُ سُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ بِالْقَتْلِ وَالْهَزِيمَةِ؛ يَقْتُلُونَ، وَيَهْزِمُونَ؛ فَبِذَلِكَ شِفَاءُ صُدُورِهِمْ لِمَا تَأَلَّمَتْ، وَتَوَجَّعَتْ، بِالتَّكْذِيبِ وَالْكُفْرِ بِاللَّهِ وَآيَاتِهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَيُذْهِبُ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ هَذَا يَحْتَمِلُ أَيْضًا وَجْهَيْنِ: يُذْهِبُ الْغَيْظَ الَّذِي كَانَ^(١) فِي قُلُوبِهِمْ [وَيُذْهِبُ الْغَضَبَ]^(٢) عَلَيْهِم بِالَّذِي ذَكَّرْنَا.

وقوله تعالى: ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ أَي مَنْ شَاءَ عَذَّبَ، وَمَنْ شَاءَ تَابَ عَلَيْهِ.

وَفِي الْآيَةِ دَلَالَةُ الرَّدِّ عَلَى الْمُعْتَرِلَةِ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَى جَمِيعِ الْكُفْرَةِ، لَكِنَّهُمْ لَا يَتُوبُونَ، فَخَبِرَ أَنَّهُ يُعَذِّبُ، وَيَتُوبُ عَلَى بَعْضٍ؛ فَإِنَّمَا شَاءَ أَنْ يُعَذِّبَ غَيْرَ الَّذِي شَاءَ أَنْ يَتُوبَ [وَشَاءَ أَنْ يَتُوبَ عَلَى]^(٣) غَيْرِ الَّذِي شَاءَ أَنْ يُعَذِّبَ.

[وقوله تعالى]^(٤) ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بِمَا كَانَ، وَيَكُونُ، أَي عَلَى^(٥) عِلْمٍ بِمَا كَانَ مِنْهُمْ، خَلَقَهُمْ لَا عَنْ جَهْلِ؛ إِذْ خَلَقَهُ إِيَّاهُمْ لَيْسَ لِمَنَافِعِ نَفْسِهِ وَحَاجَتِهِ، إِنَّمَا خَلَقَهُمْ لِحَاجَتِهِمْ وَمَنْفَعَتِهِمْ ﴿حَكِيمٌ﴾ بِوَضْعِ كُلِّ شَيْءٍ مَوْضِعَهُ. وَيَحْتَمِلُ ﴿عَلِيمٌ﴾ بِمَا كَانَ مِنْ هَؤُلَاءِ مِنَ التَّكْذِيبِ لِرَسُولِ اللَّهِ وَالْكُفْرِ بِآيَاتِهِ ﴿حَكِيمٌ﴾ أَي بِمَا^(٦) جَعَلَ عَلَيْهِمُ مِنَ الْقَتْلِ وَالتَّعْذِيبِ وَالْخِزْيِ، كَأَنَّهُ وَضَعَ الشَّيْءَ مَوْضِعَهُ.

الآية ١٦: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ [وقوله تعالى]^(٧): ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الْقَادِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢] [وقوله أيضاً]^(٨): ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ الآية [البقرة: ٢١٤] وقوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِ الْإِنْسَانَ أَنْ يُتْرَكَ﴾ الآية [العنكبوت: ٢١] هذه الآيات كلها في المنافقين الذين أظهروا الإيمان باللسان، وراؤوا المؤمنين الذين حققوا الإيمان، وأخلصوا الإيمان والموافقة له، فقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا﴾ على ما أظهركم من الإيمان باللسان فلا تُبْتَلُوا^(٩) بالقتال مع الكفرة؟ والله أعلم.

أمر به^(١٠) لِمَعْنَيْنِ:

أحدهما: تَظْهِيراً لِلْأَرْضِ مِنَ الْكُفْرِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنَبِّئُهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونُوا لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنفال: ٣٩].

والثاني: امْتِحَانًا لِلْمُنافِقِينَ لِيَتَبَيَّنَ نِفَاقُ مَنْ أَظْهَرَ الْإِيمَانَ بِاللِّسَانِ مُرَاقَةً، وَصِدْقُ مَنْ أَظْهَرَ حَقِيقَةَ، لِيُعْرِفَ الْمُحِقُّ الْمُخْلِصُ مِنَ الْمُنَافِقِ الْمُرَائِي؛ لِأَنَّ الْقِتَالَ هُوَ^(١١) أَرْفَعُ أَعْلَامٍ يَظْهَرُ بِهَا نِفَاقُ الْمُنَافِقِ لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا كَانُوا يُظْهِرُونَ الْمَوَافَقَةَ طَمَعًا لَهُمْ بِالْدُنْيَا لِقَسَلَمَ لَهُمُ الْمَنَافِعَ الَّتِي كَانُوا يَتَنَفَّعُونَ بِهَا.

فَبِالْأَمْرِ بِالْقِتَالِ خَوْفُ الْهَلَاكِ فَإِذَا خَافُوا الْهَلَاكَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ امْتَنَعُوا عَنْهُ كَقَوْلِهِ: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْرَجِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ الآية [الأحزاب: ١٨] خوفاً وإشفاقاً على أَنْفُسِهِمْ لِمَا ذَكَّرْنَا أَنَّهُمْ إِنَّمَا كَانُوا يُظْهِرُونَ الْإِيمَانَ بِاللِّسَانِ لِقَسَلَمَ لَهُمْ مَا طَمَعُوا^(١٢) مِنَ الْمَنَافِعِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْقٍ﴾ الآية [الحج: ١١].

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: كَانُوا. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: غَضَبُوا. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ: عَنْ، فِي م: مِنْ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: مَا. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَأَيْضاً قَوْلُهُ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: يَتَبَلَّغُونَ. (١٠) الضَّمِيرُ يَعُودُ عَلَى الْقِتَالِ. (١١) أُدْرِجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ: مِنْ. (١٢) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: طَمَعُوا.

هذا وصف المنافق. وأما المؤمن المحقق للإيمان المخلص للإسلام فإنه يسلم نفسه لله في جميع أحواله، وإن كان فيه تَلَفٌ نفسي، لما لم تكن عبادته الله على حَرْفٍ وَوَجْهِ كالمنافي، ولكن على الوجوه كلها والأحوال جميعاً. عبادته تكون لله، لا يَمُنُّهُ خَوْفُ الهلاكِ عَنِ القتال، بل نفسه تَسْخَرُ لذلك، وترضى، ولا كذلك المنافق؛ وقد ذَكَّرْنَا أَنَّ حَرْفَ الاستفهام من الله يكون على الإيجاب والإلزام.

ثم قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ يَحْتَمِلُ وجهين:

أحدهما: أي قد حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا على ما أَظْهَرْتُمْ مِنَ المُوَافَقَةِ/٢٠٩- أ/ والخلاف في السر، ولا تُتَبَلَّوْا، ولا تُنْتَحَنُوا بما^(١) يَظْهَرُ عَنْكُمْ مِمَّا أَضْمَرْتُمْ، فلا تَحْسَبُوا ذلك.

والثاني: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ أي لا تَحْسَبُوا أَنْ تُتْرَكُوا على ذلك، ولا تُنْتَحَنُوا بِالْجِهَادِ والقتال.

أخذ التأويلين يُخْرِجُ على التَّهْيِ، والثاني على الإخبار عما حَسِبُوا وعما عندهم.

ثم قوله: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ أي لَيَعْلَمَنَّ مَنْ قد عَلِمَ أَنَّهُ يَجَاهِدُ مجاهداً، وَيَعْلَمُ ما قد عَلِمَ أَنَّهُ يَكُونُ كائناً لا على حدوثِ علمِهِ بِذلك؛ إذ هو موصوفٌ بالعلم بكل ما يكون على ما يكون، فيكون قوله: ﴿حَتَّى تَلَاَ الْمُجَاهِدِينَ﴾ [محمد: ٣١] مِنْ كَذَا [وقوله^(٢)]: ﴿وَيَعْلَمُ الْقَائِدِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢] مِنْ كَذَا: أي لَيَعْلَمَنَّ مَنْ قد عَلِمَ أَنَّهُ يَجَاهِدُ مجاهداً، وَلَيَعْلَمَنَّ ما قد عَلِمَ أَنَّهُ يَكُونُ كائناً لَأَنَّهُ لا يَجُوزُ أَنْ يُوصَفَ اللَّهُ بِالْعِلْمِ بما ليس يَكُونُ أَنَّهُ يَعْلَمُهُ كائناً كما لا يَجُوزُ أَنْ يُوصَفَ أَنَّهُ يَعْلَمُ مِنَ الجالِسِ القيامَ في حالِ جلوسِهِ، وَمِنَ الْمُتَحَرِّكِ السكونَ في حالِ حركتِهِ، وَمِنَ الْمُتَكَلِّمِ السكونَ في حالِ كلامِهِ، إِنَّمَا يُوصَفُ بِالْعِلْمِ على الحال التي الخلقُ عَلَيْهِ، لا يُوصَفُ بِالْعِلْمِ في حالٍ غَيْرِ الحال التي هو عَلَيْهِ، والله الموفق.

وَيَحْتَمِلُ هذا وجهاً آخر: أَنَّ في ما أَضَافَ الْعِلْمَ إِلَى نَفْسِهِ كَانَ الْمُرَادُ مِنْهُ أَوْلِيَاءَهُ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنْ تَضَرَّعُوا إِلَى اللَّهِ يَضَرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] أي إِنْ تَضَرَّعُوا أَوْلِيَاءَهُ^(٣) يَضَرْكُمْ، أو إِنْ تَضَرَّعُوا دِينَهُ يَضَرْكُمْ، أو إِنْ تَضَرَّعُوا رَسُولَهُ يَضَرْكُمْ. فَعَلَى ذلك قوله: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ أي لَيَعْلَمَنَّ أَوْلِيَاءَهُ^(٤) الْمُنَافِقِ الْمُرَائِي وَالْمُؤْمِنِ الْمُحَقِّقِ [الإيمان]^(٥) الْمُخْلِصِ، وَلَيَسِنَّ لَهُمْ، وقوله^(٦): ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ [البقرة: ٩] أي يُخَادِعُونَ أَوْلِيَاءَهُ؛ إِذَ اللَّهِ لا يُخَادِعُ، ولا يُنْصَرُ؛ إِذْ هُوَ نَاصِرُ كُلِّ أَحَدٍ، ولا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ، عَالِمٌ بما يَكُونُ، أو أَنَّ يَكُونُ الْمُرَادُ مِنَ الْعِلْمِ الَّذِي ذَكَرَ الْمَعْلُومَ. وذلك جائز في اللغة جارٍ، وفي القرآن كثير.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَتَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ﴾ أي لم يَجِدُوا مَلْجَأً يَلْجَأُونَ إِلَيْهِ مِنْ دُونِ ما ذَكَرَ. ولو وَجَدُوا ذلك لَاتَّخَذُوا ذلك، ولكن لما لم يَجِدُوا لم يَتَّخِذُوا كَقَوْلِهِ: ﴿وَيَحْمِلُونَ بِاللَّهِ إِثْمَ لَيْسَ لَكُمْ وَمَا هُمْ بِكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾ ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً﴾ الآية [التوبة: ٥٦ و٥٧] أَخْبَرَ أَنَّهُمْ لو وَجَدُوا مَلْجَأً يَلْجَأُونَ إِلَيْهِ ﴿لَوْلَوْ إِلَيْهِ﴾ [التوبة: ٥٧] ولا يُظْهِرُونَ ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَلِجَنَّةٍ﴾ قَالَ بعض أهل الأدب: الْوَلِيجَةُ الْبَطَانَةُ مِنَ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ. وأصلها مِنَ الْوُلُوجِ، وهو أَنْ يَتَّخِذَ الرَّجُلُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ دَخِيلاً مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَخَلِيطاً وَوِدّاً، وَجَمْعُهُ الْوَلَائِجُ.

وقال الْبَيْهَقِيُّ: الْوَلِيجَةُ: أَصْلُهَا مِنَ الدَّخُولِ كَقَوْلِهِ: ﴿حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْفِيلِ﴾ [الأعراف: ٤٠] يُقَالُ أَيْضاً: فَلَانُ [وَلِيجَةُ فَلَان]^(٧): أي خَاصَّتُهُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْوَلِيجَةُ الْخِيَانَةُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْوَلِيجَةُ ما يُلْجَأُ [إِلَيْهِ]^(٨). وَقَالَ بَعْضُهُمْ: كُلُّ شَيْءٍ أَدْخَلْتُهُ فِي شَيْءٍ، لَيْسَ مِنْهُ، فَهُوَ وَلِيجَةٌ. وَبَعْضُهُ قَرِيبٌ مِنْ بَعْضٍ.

(١) في الأصل و م: تبتلون وتمتحنون ما. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، في الأصل: أولياء. (٤) من م، في الأصل: أولياء. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: وكقوله. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل وم.

[وقوله تعالى^(١): ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ يَمَا تَعْمَلُونَ﴾ هو [على^(٢)] الوعيد خَرَجَ.

الآية ١٧

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: نَزَلَتْ الْآيَةُ فِي الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؛ حِينَ^(٣) أَسْرَ يَوْمَ بَدْرٍ، فَأَقْبَلَ نَاسٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، مِنْهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَغَيْرُهُ، فَعَيَّرُوهُ بِالْكُفْرِ بِاللَّهِ وَالْقِتَالِ مَعَ النَّبِيِّ وَقَطِيعَةِ الرَّجَمِ، فَقَالَ: مَا لَكُمْ تَذْكُرُونَ مَسَائِلَنَا، وَتَنْذَرُونَ مَحَاسِنَنَا؟ فَقَالُوا: أَوْلَكُمْ مَحَاسِنٌ؟ قَالَ: إِي وَاللَّهِ: إِنَّا لَنَعْمُرُ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، وَنَحْجُبُ الْبَيْتَ، وَنَسْقِي الْحَاجَّ، وَنُفِكَ الْعَائِي. فَأَنْزَلَ اللَّهُ رَدًّا عَلَيْهِ. لَكِنْ فِي آخِرِ الْآيَةِ دَلَالَةٌ أَنَّهُ لَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ فِي الْعَبَّاسِ عَلَى مَا قَالُوا لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿أَوَّلَتْكَ حَيْطَتُ أَعْمَلْتُمْ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿وَفِي الْآخِرَةِ خَلَّدْتُمْ﴾ وَالْعَبَّاسُ قَدْ أَسْلَمَ مِنْ بَعْدُ، فَلَا يَحْتَمِلُ هَذَا الْوَعِيدُ بَعْدَ الْإِسْلَامِ.

وَقَالَ غَيْرُهُمْ مِنْ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ أَيُّ مَا كَانَ بِالْمُشْرِكِينَ عِمَارَةُ مَسَاجِدِ اللَّهِ، إِنَّمَا كَانَ بِهِمْ خَرَابُ مَسَاجِدِ اللَّهِ؛ إِنَّ الْمَسَاجِدَ إِنَّمَا تَعْمُرُ بِالذِّكْرِ فِيهَا وَالصَّلَاةُ وَإِقَامَةُ الْخَيْرَاتِ كَقَوْلِهِ: ﴿فِي يَوْمٍ أَذْنُ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيَذْكُرَ فِيهَا أَسْمُهُ﴾ الْآيَةُ [النور: ٣٦]، وَهُمْ لَمْ يَعْمُرُوهَا لِذِكْرِ اسْمِ اللَّهِ فِيهَا، إِنَّمَا عَمَرُوهَا لِذِكْرِ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْتَانِ. فَكَانَ بِهِمْ خَرَابُ الْمَسْجِدِ لَا الْعِمَارَةَ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ عَلَى مَا عِنْدَهُمْ؛ لِأَنَّ الَّذِي مَنَعَهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ حُبُّهُمْ الدُّنْيَا وَمِثْلُهُمْ إِلَيْهَا، فَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَعْمُرُوهَا، يُتَّفَقُونَ^(٤)، وَيُضَيِّعُونَ أَمْوَالَهُمْ فِيهَا، وَلَا يَتَّقِعُونَ، مَنَعَهُمْ عَنِ التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ حُبُّهُمْ الدُّنْيَا وَشَهَوَاتُهُمْ وَمِثْلُهُمْ إِلَيْهَا. فَقَالَى مَا عِنْدَهُمْ مَا يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَعْمُرُوهَا.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ أَيُّ مَا كَانَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ، لِأَنَّهُمْ لَا يَتَّقِعُونَ بِهَا فِي الْآخِرَةِ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ. وَإِنَّمَا يُقْصَدُ بِعِمَارَةِ الْمَسَاجِدِ وَالْإِنْفَاقِ عَلَيْهَا الثَّوَابُ فِي الْآخِرَةِ، وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا، فَتَضَيِّعُ نَفَقَتَهُمْ فِي ذَلِكَ؛ إِذْ لَا مَقَاصِدَ لَهُمْ، وَلَا مَنَفَعَةَ. إِنَّمَا ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ. وَيَجُوزُ (لَهُ) بِمَعْنَى (عَلَيْهِ) كَقَوْلِهِ: ﴿إِنْ أَحْسَنْتَ أَحْسَنْتَ لِأَنْفُسِكَ وَإِنْ أَسَأْتَ فَكَأْسٌ لَكَ﴾ الْآيَةُ [الإسراء: ٧] أَيُّ فَعَلَيْهَا.

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ هَذَا: أَيُّ [مَا]^(٥) كَانَ بِالْمُشْرِكِ عِمَارَةُ [مَسَاجِدِ]^(٦) اللَّهِ إِنَّمَا تَكُونُ عِمَارَتُهَا بِمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ [الْآخِرِ]^(٧) لَا بِمَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ، وَكَفَرَ بِالْآخِرَةِ.

وقوله تعالى: ﴿شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ أَيُّ عَلَى نَفْسِ مُحَمَّدٍ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ؛ سَمَّاهُمْ أَنْفُسَهُمْ لِأَنَّهُمْ مِنْ قَرَابَتِهِمْ وَأَرْحَابِهِمْ، وَقَدْ سَمَّى اللَّهُ الْمُتَصِلِينَ بِهِمْ بِذَلِكَ كَقَوْلِهِ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [الآية: ١٢٨] وَقَوْلِهِ: ﴿فَلِمَؤَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١] فَعَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلِ يَحْتَمِلُ مَا ذَكَرْنَا أَوْ ﴿شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ عِنْدَ الضَّرُورَاتِ عِنْدَ نَزُولِ الْعَذَابِ بِهِمْ وَعِنْدَ الْهَلَاكِ كَقَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ الْآيَةُ [غافر: ٨٤ و٨٥] وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْأَحْوَالِ الَّتِي كَانُوا يَقْرَءُونَ بِالْكُفْرِ يَرْجِعُونَ عَنْ شَهَادَةِ عَلَيْهِمُ بِالْكُفْرِ.

[وقَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ^(٨): ﴿شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ شَهَدُ بِالْكُفْرِ عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّ خِلْقَتَهُمْ تَشْهَدُ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ، وَأَنْفُسُهُمْ تَشْهَدُ عَلَى فِعْلِهِمْ بِالْكُفْرِ، وَهُوَ مَا قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ [البقرة: ١٤] قِيلَ: بَلَى لِلْإِنْسَانِ مِنْ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ أَيْ يَبَانَ مِنْ نَفْسِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿حَيْطَتُ أَعْمَلْتُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ فِي قَوْمٍ مَاتُوا عَلَى الْكُفْرِ.

الآية ١٨

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [يَحْتَمِلُ]^(٩) الْوَجُوهَ الَّتِي ذَكَرْنَا فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٧] إِذْ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِمْ؛ فَذَلِكَ كُلُّهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، أَيُّ عَلَيْهِمْ عِمَارَةُ

(١) ساقطة من الأصل و م. (٢) ساقطة من الأصل و م. (٣) في الأصل و م: إنه. (٤) في الأصل و م: وينفقوها. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من الأصل و م. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من م، في الأصل: أي. (٩) ساقطة من الأصل و م.

المساجِد، وبهم تَعْمُرُ الْمَسَاجِدُ، وَهُمْ يَتَّبِعُونَ مَا يُغْمُرُوهَا [وقوله تعالى] ^(١) ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ قد ذَكَّرْنَا فِي مَا تَقَدَّمَ. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ صِلَةُ قَوْلِهِ: ﴿أَتَخْشَوْنَهُ فَإِنَّ اللَّهَ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣]. أَمَرَ أَنْ يَخْشَوْا اللَّهَ وَلَا يَخْشَوْا غَيْرَهُ. ثُمَّ ذَكَرَ هُنَا ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَوْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾.

وقال بعضهم: الْحَشْيَةُ الْعِبَادَةُ؛ كَأَنَّهُ قَالَ: وَلَمْ يَغْبُذْ إِلَّا اللَّهَ ﴿فَنَسُوا أَذُنَهُمْ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ وَالْأَخْيَرُ: عَسَى مِنَ اللَّهِ وَاجِبٌ أَيِ كَانُوا مُتَّقِينَ.

الآية ١٩ وقوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ لِلزَّكَاةِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فِي الْآيَةِ إِضْمَارٌ فِعْلِيٌّ أَوْ فَاعِلٌ لِكَيْ تَصِيحَ الْمُقَابَلَةُ؛ لِأَنَّهُ يُقَابَلُ فِعْلٌ بِفِعْلٍ أَوْ فَاعِلٌ بِفَاعِلٍ وَلَا فَاعِلٌ بِفِعْلٍ. فَهُنَا ذَكَرَ السِّقَايَةَ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ مُقَابِلَ ﴿كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾. فَهُوَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ لِلزَّكَاةِ﴾ كَلِمَتَانِ مَنْ ﴿كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾. أَوْ يُقَالُ: أَجَعَلْتُمْ الْقَائِمَ بِإِصْلَاحِ سِقَايَةِ الْحَاجِّ وَعَامِرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ لَتَكُونَ مُقَابَلَةً شَخْصٍ بِشَخْصٍ، أَوْ فِعْلٍ بِفِعْلٍ.

ثُمَّ لَا يَصِحُّ أَنْ يُجْمَعَ بَيْنَ الْكَافِرِ وَالْمُؤْمِنِ، فَيُقَالُ: لَا يَسْتَوِيَانِ عِنْدَ اللَّهِ/ ٢٠٩ - ب/ وَإِنْ كَانَ الْكَافِرُ قَدْ آمَنَ بِالْمَحَاسِنِ، إِلَّا أَنْ يُقَالَ: لَيْسَ مَنْ فَعَلَ مَحَاسِينَ فِي حَالِ كُفْرِهِ، ثُمَّ آمَنَ مِنْ بَعْدِهِ كَمَنْ فَعَلَ مَحَاسِينَ، وَهُوَ مُؤْمِنٌ. هَذَا يَجُوزُ أَنْ يُجْمَعَ، فَيُقَالُ: ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾.

وَأَمَّا الْكَافِرُ الَّذِي مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ، وَإِنْ عَمِلَ خَيْرَاتٍ، وَالْمُؤْمِنُ الَّذِي عَمِلَ الصَّالِحَاتِ، فَمَاتَ عَلَى ذَلِكَ، فَيُجْمَعُ؟ فَيُقَالُ: لَا يَسْتَوِيَانِ، فَلَا.

أَوْ أَنْ يُقَالَ بِالْجِهَادِ الَّذِي ذَكَرَ: لَا يَسْتَوِي مَنْ بَذَلَ نَفْسَهُ لِلْقَتْلِ وَالتَّلْفِ كَمَنْ سَقَى الْحَاجَّ، وَعَمَرَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، وَلَمْ يَبْذُلْ نَفْسَهُ لذلِكَ.

فَأَمَّا أَنْ يُقَالَ: لَا يَسْتَوِي الْكَافِرُ وَالْمُؤْمِنُ فَذلِكَ غَيْرُ مَحْصُلٍ؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يُقَابَلُ الشَّيْءُ بِالشَّيْءِ إِذَا قُرِبَ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ. وَأَمَّا عِنْدَ الْبُعْدِ مِنْهُ فَلَا يُقَالَ، وَلَا يُقَابَلُ.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ مَا دَامُوا فِي ظُلْمِهِمْ، وَمَا دَامُوا اخْتَارُوا الظُّلْمَ لَا يَهْدِيهِمْ وَقَدْ اخْتَارَهُمْ. أَوْ لِقَوْمٍ مَخْصُوصِينَ، وَقَدْ ذَكَّرْنَا مَعْنَاهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ.

الآية ٢٠ وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجْهَهُمْ لِلدِّينِ﴾ قَوْلُهُ: ﴿آمَنُوا﴾ أَيِ صَدَّقُوا رَسُولَ اللَّهِ فِي جَمِيعِ مَا يُخْبِرُ عَنْ اللَّهِ أَنَّهُ صَادِقٌ، وَفِي جَمِيعِ مَا دَعَاهُمْ ^(٢) إِلَيْهِ، وَأَمَرَهُمْ بِهِ، وَتَهَاوَمَ عَنْهُ أَنَّهُ مُحِقٌّ. وَإِلَّا كَانُوا مُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ لِقَوْلِهِمْ ^(٣): ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٢٣] وَقَوْلِهِمْ: ﴿هَؤُلَاءِ شَفَعْتُمْكُمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] كَانُوا مُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ، لَكِنَّهُمْ يَكْذِبُونَ لِلرُّسُلِ وَلِرِسَالَتِهِمْ.

[وقوله تعالى] ^(٤): ﴿وَهَاجَرُوا﴾ أَيِ فَارَقُوا آبَاءَهُمْ وَإِخْوَانَهُمْ وَعَشِيرَتَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَمَنَازِلَهُمْ وَبَلَدَهُمْ؛ هَاجَرُوا، [وَتَرَكُوا] ^(٥) جَمِيعَ مَا تُحِبُّ أَنْفُسُهُمْ، وَتَهَوَّاهُ، وَتَمِيلُ إِلَيْهِ الْقُلُوبُ، مَا ذَكَرَ فِي الْآيَةِ الَّتِي تَلِي ^(٦) هَذِهِ الْآيَةَ ^(٧).

وَفَارَقُوا ذلِكَ الْكُلَّ إِشْفَاقًا عَلَى دِينِهِمْ لِيَسْلَمَ مَالُوهُمُ أَعْطَوْا قَبْلَ الْإِسْلَامِ الدُّنْيَا، وَمَا فِيهَا، إِذْ أَوْعَدُوا بِكُلِّ رَعِيدٍ وَخَوْفٍ، مَا فَارَقُوا آبَاءَهُمْ وَإِخْوَانَهُمْ وَعَشَائِرَهُمْ وَأَوْلَادَهُمُ الَّذِينَ ذَكَرَ فِي الْآيَةِ.

ثُمَّ إِذَا أَسْلَمُوا فَارَقُوهُمْ، وَاجَابُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي ذلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَطَلَبًا لِرِضَاوَنِهِ لِيُعْلَمَ عَظَمُ قَدْرِ الدِّينِ فِي

(١) ساقطة من الأصل و م. (٢) في الأصل و م: دعا. (٣) في الأصل و م: كقولهم. (٤) ساقطة من الأصل و م. (٥) ساقطة من الأصل و م.

(٦) في الأصل و م: تلو. (٧) الآية المقصودة / ٢٤.

قُلُوبِهِمْ وَخَطِيرٌ مِّنْزِلَتِهِ عِنْدَهُمْ، وَلِيُعْلَمَ^(١) أَنْ يَحْنُ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَعْظَمُ وَأَشَدُّ مِنْ يَحْنِنَا؛ لِأَنْ يَحْنَهُمْ كَانَتْ عَلَى خِلَافٍ عَادَتِهِمْ وَخِلَافٍ مَا طَلِبُوا؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ مَطْبُوعٌ عَلَى حُبِّ مَا ذَكَرْنَا مَجْبُوعٌ عَلَيْهِ، فَهُمْ مَعَ ذَلِكَ تَرَكُوا، وَفَارَقُوا ذَلِكَ، وَتَحَمَّلُوا كَرَاهَةَ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ رَبِّهِمْ.

وَأَمَّا يَحْنُنَا فَإِنَّهَا عَلَى [مَا]^(٢) سَبَقَ مِنَ الْعَادَةِ، فَهِيَ أَهْوَنُ وَأَيْسَرُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَأْتِكُم مِّنْهُ وَأَنْتُمْ مُّنْكَرُونَ﴾ أَيِ بَذَلُوا لِلَّهِ أَلَدَّ الْأَشْيَاءِ وَأَحَبَّهَا مِنْ^(٣) الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: مَنْ صَدَقَ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ، وَهَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَجَاهَدَ الْعَدُوَّ [بِأَمْوَالِهِ وَنَفْسِهِ]^(٤) ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ مِنَ الَّذِي افْتَخَرَ بِعُمُرَانَ الْبَيْتِ وَسِقَايَةِ الْحَاجِّ، وَهُوَ كَفَارٌ. [وَلِذَلِكَ قَالَ]^(٥): ﴿أَجَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ لِتَرْارٍ كَرَّ أَمَّنْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ وَلَكِنَّ الْوَجْهَ فِي ذَلِكَ عِنْدَنَا وَمَعْنَى الْمُقَابَلَةِ أَوْلَئِكَ [الَّذِينَ]^(٦) ذَكَرَ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الَّذِينَ اسْلَمُوا، وَنَحْنُ^(٧).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ الْفَوْزُ هُوَ الظَّفَرُ فِي اللُّغَةِ؛ أَيِ أَوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ^(٨) بِنِعْمِ اللَّهِ وَكَرَامَتِهِ، وَالنَّاجُونَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَنَقَمَتِهِ.

الآية ٢١

[وَقَوْلُهُ تَعَالَى:]^(٩) ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ أَيِ بِالنَّصْرِ فِي الدُّنْيَا وَالْظَّفَرِ لَهُمْ عَلَى عَدُوِّهِمْ كَقَوْلِهِ ﴿فَتَلَوْتُمُوهُمْ بُعْدَهُمْ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ مُّضْرَكِكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٤] إِلَى آخِرِ مَا ذَكَرَ^(١٠) إِنَّمَا كَانَ بِرَحْمَتِهِ. وَيَحْتَمِلُ الثَّوَابَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَالْكَرَامَةَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرِضْوَانٍ﴾ أَيِ يُبَشِّرُهُمْ أَيْضاً: إِنْ رُبُّكُمْ، يُمْنِيكُمْ بِرِضْوَانِهِ^(١١) ﴿وَجَعَلَتْ لَكُمْ فِيهَا نَيْبًا مُّقِيمًا﴾ أَيِ يُبَشِّرُهُمْ بِجَنَاتٍ ﴿لَكُمْ فِيهَا نَيْبٌ مُّقِيمٌ﴾ دَائِمٌ، وَكَرَامَةٌ.

الآية ٢٢

[وَقَوْلُهُ تَعَالَى:]^(١٢) ﴿خَلِيلِينَ فِيهَا أَيْدٍ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ قَالَ الْحَسَنُ: مَا سَمَى اللَّهُ عَظِيماً فَهُوَ عَظِيمٌ لَا تُذَرُّ عَظَمَتُهُ.

الآية ٢٣

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيَنَّكَ الْآيَاتُ مَأْمُورًا لَا تَسْتَحْذَرُوا آيَاتَكُمْ وَلِئِنْ أَسْتَحْذَرُوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَوَلَّيْتُكُمْ فَالْوَلَايَةُ الْمَوَافَقَةُ لَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ فِي الدِّينِ. وَمَنْ تَوَلَّاهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ فَهُوَ مِنْهُمْ، وَهُوَ ظَالِمٌ، لَا شَكَّ. فَإِنْ كَانَ هَذَا فَهُوَ ظَالِمٌ، لَا شَكَّ. فَلَمْ يَكُنْ لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَوَلَّيْتُكُمْ فَالْوَلَايَةُ لَهُمْ الْفَلِيلُوتُ﴾ مَعْنَى.

وَتَحْتَمِلُ الْوَلَايَةُ إِظْهَارَ الْمَوَافَقَةِ لَهُمْ فِي الظَّاهِرِ عَلَى غَيْرِ حَقِيقَةٍ. لَكِنْ إِظْهَارٌ عَلَى غَيْرِ حَقِيقَةٍ يُبَاحُ فِي حَالِ اضْطِرَارٍ عِنْدَ خَوْفِ الْهَلَاكِ وَذَهَابِ الدِّينِ، فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ قَوْمٌ أَسْرَوْا الْإِيمَانَ فِي أَنْفُسِهِمْ، وَكَتَمُوهُ، وَأَظْهَرُوا^(١٣) الْمَوَافَقَةَ لَهُمْ فِي الظَّاهِرِ إِشْفَاقاً عَلَى دِينِهِمْ وَخَوْفاً عَلَى أَنْفُسِهِمْ، فَيُبَاحُ لَهُمْ ذَلِكَ لِمَا ذَكَرْنَا.

فَلَمَّا جَعَلَ اللَّهُ الْهِجْرَةَ، وَجَعَلَ لِلْمُؤْمِنِينَ مَأْوًى وَأَنْصَاراً يَلْجَأُونَ، وَيَأْوُونَ إِلَيْهِمْ لَمْ يُعَذِّرُوا فِي إِظْهَارِ الْمَوَافَقَةِ لَهُمْ، وَإِنْ كَانُوا فِي السَّرِّ لَيْسُوا عَلَى دِينِهِمْ، لِمَا ذَكَرْنَا.

فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَنْ أَجْرَى كَلِمَةَ الْكُفْرِ عَلَى لِسَانِهِ مِنْ غَيْرِ اضْطِرَارٍ يَصِيرُ كَافِراً عَلَى مَا جَعَلَ هَؤُلَاءِ أَوْلِيَاءَ الْكُفْرَةِ حَقِيقَةً ظَلَمَةً مِثْلَهُمْ، إِذَا تَوَلَّاهُمْ فِي الظَّاهِرِ، وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا فِي الْحَقِيقَةِ كَذَلِكَ. وَهَذَا أَشْبَهُ. وَهُوَ مَا قَالَ ﷺ: ﴿إِنَّ الْآيَةَ تَوَلَّيْتُكُمْ فَالْوَلَايَةُ عَلَيْهِمْ﴾ الْآيَةُ [النساء: ٩٧] لَمْ يُعَذِّرُوا فِي تَرْكِهِمُ الْهِجْرَةَ.

فَعَلَى ذَلِكَ هَؤُلَاءِ إِذَا أَظْهَرُوا الْمَوَافَقَةَ لَهُمْ بَعْدَ مَا جَعَلَ لَهُمُ الْمَأْوَى وَالْأَنْصَارَ صَارُوا هُمْ فِي الْحَقِيقَةِ. كَذَلِكَ نَهَانَا عَنْ

(١) الرواء ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم. بين. (٤) في الأصل وم. بأموالهم وأنفسهم. (٥) في الأصل وم. وكذلك قالوا. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، في الأصل: ويحقوا. (٨) في الأصل وم. الكافرون. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) أدرج بعدها في الأصل وم. كلمة. (١١) في الأصل وم. راض. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم. ويظهرون.

مُؤَالَاةِ الْكَفَرَةِ جُمْلَةً بِقَوْلِهِ: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ [آل عمران: ٢٨] وقوله^(١): ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ الْبَاقِينَ﴾ [المائدة: ٥١] وقوله^(٢): ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [المتحنة: ١].

هذا التَّهْيِي لَنَا فِي جُمْلَةِ الْكَافِرِينَ. ثُمَّ نَهَانَا عَنْ اتِّخَاذِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بِقَوْلِهِ^(٣): ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة: ٥١] ثُمَّ نَهَانَا أَنْ نُؤَالِيَ الْمُتَّصِلِينَ مِنَ الْآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْقَرَابَاتِ^(٤) لِمَا تَقَعُ الشُّبُهَةُ فِي مُؤَالَاةِ^(٥) الْمُتَّصِلِينَ بِهِمْ، فَحَصَّ التَّهْيِي فِيهِ. وَكَذَلِكَ تَخْصِصُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى لِمَا بَيَّنَّا وَبَيْنَهُمْ مُوَافَقَةً فِي التَّوْحِيدِ وَالْكِتَابِ، فَحَصَّ التَّهْيِي فِي ذَلِكَ.

ثُمَّ الْوَلَايَةُ الَّتِي نَهَانَا عَنْهَا تُخْرَجُ عَلَى وَجْهِ:

أَحَدُهَا: الْمَوَدَّةُ وَالْمَحَبَّةُ؛ أَيْ لَا تَوَدُّوهُمْ، وَلَا تُحِبُّوهُمْ.

وَالثَّانِي: أَلَّا تَتَّخِذَهُمْ مَوْضِعَ سِرِّنَا [وِبَطَانَتِنَا بِقَوْلِهِ^(٦)]: ﴿لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ﴾ [آل عمران: ١١٨].

وَالثَّلَاثُ: وَلَا يَأْتِ الطَّاعَةُ لَهُمْ؛ أَيْ لَا تُطِيعُوهُمْ بِقَوْلِهِ^(٧): ﴿إِنْ تُطِيعُوا قَرِيبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٠] وقوله: ﴿إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْشُرُوا بِرُدُّوكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٩].

نَهَانَا أَنْ نُحِبَّهُمْ، وَنَوَدُّهُمْ، وَنَهَانَا أَيْضًا أَنْ نَتَّخِذَهُمْ مَوْضِعَ سِرِّنَا، وَنُفْثِي إِلَيْهِمْ أَسْرَارَنَا، وَنَهَانَا أَنْ نُطِيعَهُمْ فِي مَا يَدْعُونَنَا إِلَيْهِ، وَيُسِرُّونَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، لِلْخِلَافِ الَّذِي بَيَّنَّا وَبَيْنَهُمْ فِي الدِّينِ.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ اسْتَجَبُوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾؛ أَيْ اخْتَارُوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ. وَالْمَحَبَّةُ ههنا مَحَبَّةُ الْإِخْتِيَارِ وَالْإِنَارِ.

الآية ٢٤

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ هُوَ مُقَابِلُ قَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَأْمُرُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ﴾ إِلَى آخِرِهِ [التوبة: ٢٠].

وقوله تعالى: ﴿إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ﴾ وَمَا ذَكَرَ؛ أَيْ إِنْ كَانَتْ طَاعَةُ هَؤُلَاءِ وَرِضَاهُمْ أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ وَرِضَاهُ وَأَحَبَّ مِنَ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ ﴿فَقَرَّبُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ هُوَ حَرْفُ وَعِيدٍ؛ أَيْ انْتَظَرُوا ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ أَيْ بِعَذَابِهِ.

قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ فِي فَتْحِ مَكَّةَ. وَذَلِكَ مَا ذَكَرَ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ﴾ الْآبَاءُ وَالْأَبْنَاءُ جَمِيعًا ﴿وَإِخْوَانَكُمْ﴾ الْإِخْوَانُ وَجَمِيعُ الْمُتَّصِلِينَ بِهِمْ. دَلِيلُهُ مَا ذَكَرَ فِي آخِرِهِ حَيْثُ قَالَ: ﴿إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ/ ٢١٠ - ١/ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ ذَكَرَ الْآبَاءَ وَالْأَزْوَاجَ وَالْعَشِيرَةَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: اكْتَسَبْتُمُوهَا. وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الْأَصَمُّ: ﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أَيْ أَمْوَالٌ جَعَلُوهَا حَلَالًا وَحَرَامًا، وَيَقُولُونَ: اللَّهُ إِذْ لَنَا فِي ذَلِكَ كَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِّنْ رِّزْقٍ فَجَعَلْتُمْ بَيْنَهُ حَرَامًا وَمَنْعَلًا قُلْ إِنَّ اللَّهَ آتَاكُم مِّنْهُ لَكُمْ﴾ [يونس: ٥٩] فِي ذَلِكَ؟ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ تَحْشُونَ كَسَادَهَا﴾ كَانُوا يَحْشُونَ قَوَاتِهَا وَدَهَابَهَا لَا الْكَسَادَ؛ إِذْ فِي الْهَجَرَةِ تَرْكُهَا رَأْسًا.

الآية ٢٥

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ أَيْ نَصَرَكُمُ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ؛ كَانَ فَرْعُكُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَنَصَرَكُمُ يَوْمَ حُنَيْنٍ أَيْضًا بَعْدَ مَا هَزَمَكُمُ الْعَدُوُّ، بِإِعْجَابِكُمْ [بِكُنْزِكُمْ الَّتِي صَرَفْتُمْ عَنْ^(٨)] الْفَرْعِ إِلَى اللَّهِ، ﴿إِذْ أَجَبْتُمْ كَثْرَتَكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾ يَغْنِي الْكَثْرَةُ؛ يُذَكِّرُهُمْ اللَّهُ بِمَنْتَهُ عَلَيْهِمْ وَقُضْلُهُ: أَنَّ النُّصْرَةَ وَالطُّفَرَ مَتَى كَانَ

(١) فِي الْأَصْلِ وَ م: كَقَوْلِهِ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَ م: وَقَالَ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَ م: كَقَوْلِهِ. (٤) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: الْقَرَابَاتِ. (٥) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: الْمَوَالَاةِ. (٦) فِي الْأَصْلِ: وَبَطَانَتَا كَقَوْلِهِ، فِي م: وَبَطَانَتَا كَقَوْلِهِ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَ م: كَقَوْلِهِ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَ م: الْكَثْرَةُ بِصَرَفِكُمْ.

إِنَّمَا كَانَ بِاللّهِ لَا يَكْثُرِيهِمْ وَقُوَّتِهِمْ؛ لَأَنَّهُ لَوْ كَانَ [بِالْكَثْرَةِ وَالْقُوَّةِ] لَمْ يَكُنْ لِلْمُسْلِمِينَ قُوَّةٌ وَكَثْرَةٌ مَا كَانَ يَوْمَ حُنَيْنٍ، ثُمَّ كَانَتْ الْهَزِيمَةُ عَلَيْهِمْ فِي الْإِبْتِدَاءِ لِإِعْجَابِهِمْ بِالْكَثْرَةِ وَاعْتِمَادِهِمْ عَلَيْهَا، لِيُعْلَمَ أَنَّ النُّصْرَةَ وَالظَّفَرَ إِنَّمَا يَكُونُ بِاللّهِ لَا بِالْقُوَّةِ وَالْكَثْرَةِ لَمَّا يَنْتَعِدُوا^(١) عَلَى الْكَثْرَةِ، وَلَا يَكْلُوا إِلَيْهَا.

فَإِنْ قِيلَ: قَدْ أَمَرْنَا بِأَخِذِ الْعُدَّةِ وَالْقُوَّةِ مَا اسْتَطَعْنَا بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] فَإِنَّمَا أَمَرْنَا بِمَا يُعْجِبُنَا، فَمَا مَعْنَى التَّنْهِي عَنِ الْإِعْجَابِ بِالْكَثْرَةِ وَالْقُوَّةِ؟ وَكَذَلِكَ نَهَانَا عَنِ التَّأْسِي بِمَا فَاتَنَا، وَنَهَانَا أَنْ نَفْرَحَ بِمَا يُؤْتِينَا، وَقَدْ كَلَّمْنَا الشُّكْرَ لِمَا آتَانَا وَالصَّبْرَ عَلَى مَا فَاتَ عَنَّا. فَلَوْ لَمْ نَفْرَحْ بِمَا آتَانَا لَمْ يَكُنْ مَعْنَاهُ الشُّكْرُ وَلَا الصَّبْرُ بِمَا فَاتَنَا، فَمَا مَعْنَاهُ؟

مَعْنَاهُ، وَاللّهُ أَعْلَمُ، أَنَّهُ نَهَانَا أَنْ نَفْرَحَ بِمَا يُؤْتِينَا لِنَفْسِ الْإِتْيَاءِ، وَنَتَأَسَّى لِنَفْسِ مَا يُصِيبُنَا، وَيَقْوَتُنَا، إِنَّمَا عَلَيْنَا أَنْ نَفْرَحَ بِفَضْلِ اللَّهِ وَمَنِّهِ الَّذِي مَنَّنَا عَلَيْنَا، وَخَصَّنَا بِهِ. وَعَلَى ذَلِكَ نَشْكُرُهُ، وَعَلَى ذَلِكَ الصَّبْرُ بِمَا يُصِيبُنَا، وَيَقْوَتُنَا، لِمَا جَعَلَ لَنَا لَذَلِكَ ثَوَابًا فِي الْآخِرَةِ وَاجْرَاءً عَظِيمًا.

وَكَذَلِكَ الْكَثْرَةُ أَمَرْنَا بِهَا، فَإِذَا آتَانَا ذَلِكَ يُعْجِبُنَا فَضْلُ اللَّهِ وَمِنَّتُهُ فِي ذَلِكَ الْكَثْرَةِ لَا الْكَثْرَةُ لِنَفْسِهَا وَالْقُوَّةُ، وَاللّهُ أَعْلَمُ. فَإِنْ قِيلَ: الْإِعْجَابُ بِالْكَثْرَةِ كَانَ مِنْ بَعْضِهِمْ لَا مِنَ الْكُلِّ، فَكَيْفَ هُزِمَ الْكُلُّ؟ وَكَذَلِكَ الْعِصْيَانُ يَوْمَ حُنَيْنٍ إِنَّمَا كَانَ مِنْ بَعْضٍ، كَيْفَ عَاقَبَ الْجَمِيعَ؟ قِيلَ: لِأَنَّ لَهُ أَنْ يُتْلَفَ الْكُلُّ ابْتِدَاءً.

أَلَا تَرَى فِي أَمْرِ الْوَاحِدِ الْقِيَامَ لِأَتْنَيْنِ؟ ثُمَّ فِي الْأَمْرِ بِالْجِهَادِ أَمْرٌ عَلَى غَيْرِ وَسْعٍ؟ وَلَا كَذَلِكَ فِي سَائِرِ الْعِبَادَاتِ؟ لَأَنَّهُ أَمْرُ الْوَاحِدِ الْقِيَامَ لِأَتْنَيْنِ مِنْهُمْ، وَلَيْسَ فِي وَسْعٍ أَحَدِ الْقِيَامَ لِأَتْنَيْنِ؛ فَهَرُ، وَاللّهُ أَعْلَمُ، لِمَا أَنَّ لَهُ أَنْ يُكَلَّفَ قَتْلَ أَنْفُسِهِمْ وَإِتْلَاقَهَا.

أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿وَلَوْ أَنَّا كُنْتُمْ عَلَيْهِمْ؟﴾ [الأنفال: ٦٦] وَلَوْ لَمْ يَجُزْ لَهُ أَنْ يُكْتَبَ قَتْلَ أَنْفُسِهِمْ لَمْ يَكُنْ لِيَذْكُرَهُ دَلَّ أَنَّ ذَلِكَ لَهُ، وَأَنَّ لَهُ أَنْ يُعْتَبَرَهُمْ، وَنُهْلِكَهُمْ. فَعَلَى ذَلِكَ أَنْ يَأْمُرَ بِقَتْلِ أَنْفُسِهِمْ، فَإِذَا كَانَ لَهُ ذَلِكَ؛ إِذْ فِي وَسْعِهِمْ قَتْلَ أَنْفُسِهِمْ، فَعَلَى ذَلِكَ أَنْ يُكَلَّفَ الْوَاحِدَ الْقِيَامَ لِأَتْنَيْنِ وَلِعَدِيدٍ، وَإِنْ كَانَ فِي ذَلِكَ تَلَفٌ أَنْفُسِهِمْ.

وَكَذَلِكَ أَمَرْنَا بِمُجَاهَدَةِ الشَّيْطَانِ عَدُوَّنَا، وَأَخْبَرْنَا أَنَّهُ يَرَانَا، وَلَا نَرَاهُمْ نَحْنُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُمْ يَرَانَكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا رَأْيَ لَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧] وَالمُحَارَبَةُ مَعَ عَدُوٍّ، لَا نَرَاهُ، وَهُوَ يَرَانَا، أَمْرٌ صَعْبٌ شَدِيدٌ. لَكِنْ عَلَّمْنَا أَسْبَابَ مَا نَحَارِبُ مَعَهُ، وَنُجَاهَهُ، فَتَغْلِبُهُ، وَقَالَ فِي الشَّيَاطِينِ: ﴿وَلَمَّا يَزْعِفَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَوِذْ بِاللّهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٠] وَقَالَ: ﴿إِنَّ أَلْيَنَ أَغْتَوَا إِذَا مَشَتْهُمْ طَلَيْفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكُّرًا﴾ [الأنفال: ٢٠١] عَلَّمْنَا أَسْبَابًا نُقَاتِلُ بِهَا الشَّيْطَانَ، فَتَغْلِبُهُ، وَنَقْهَرُهُ، وَمَا ذَكَرَ مِنْ ذِكْرِهِ لَا يَقُومُ هُوَ لِذَلِكَ^(٢).

وَكَذَلِكَ قَالَ فِي الْعَدُوِّ الَّذِي نَرَاهُ مِنَ الْبَشَرِ حَيْثُ قَالَ: ﴿إِذَا لَيْسَتْ بَيْنَهُ قَائِمَةٌ وَآذَكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأنفال: ٤٥] وَقَالَ: ﴿وَأَسِيرُوا إِلَى اللَّهِ مَعَ الْفَائِزِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦] قَدْ عَلَّمْنَا أَسْبَابَ الْجِهَادِ مَعَهُ، وَأَعْلَمْنَا الْجَيْلَ الَّتِي تُجِيرُ لِرِوَادِ الْقِيَامَ لِأَتْنَيْنِ فِصَاعِدًا، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ الْوَسْعُ^(٣) بِوَالْقُوَّةِ نَفْسِهَا، ثُمَّ الْفَرْقُ بَيْنَ الْجِهَادِ وَبَيْنَ غَيْرِهِ مِنَ الْعِبَادَاتِ لِمَا يَخْتَصِلُ أَنْ جَعَلَ الْجِهَادَ آيَةً مِنْ آيَاتِ الْحَقِّ وَالرَّسَالَةِ لِيُعْلَمَ الْخَلَائِقُ أَنَّ النُّصْرَةَ وَالظَّفَرَ كَانَ بِاللّهِ لَا بِغَيْرِهِ لِيُظْهَرَ الْحَقُّ مِنَ الْبَاطِلِ وَالْمُحَقُّ مِنَ الْمُبْطِلِ، وَاللّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَآقَاتُ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ هَذَا عَلَى التَّمْثِيلِ: يُقَالُ عِنْدَ شِدَّةِ الْحُزْنِ وَالْغَضَبِ وَعِنْدَ بُلُوغِهَا ﴿وَمَآقَاتُ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ يُقَالُ ذَلِكَ لِسَعَةِ الْأَرْضِ فِي أَوْهَامِ الْخَلْقِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلَ اللَّهُ سَيِّدَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: السَّيِّدَةُ الْمَلَائِكَةُ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا

الآية ٢٦

(١) ساقطة من م. (٢) من م، في الأصل: لك. (٣) في الأصل و م: الواسع.

جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشِّرْ لَكُمْ وَلِتُحْمِلَكُمْ يَوْمَئِذٍ بِالْآيَةِ [آل عمران: ١٢٦] وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿ثُمَّ أَرْزَلَهُ اللَّهُ سَكِينَةً﴾ أَي نَصْرَةً، وَقِيلَ: وَقَارَهُ وَرَحْمَتَهُ، وَقِيلَ: طُمَأْنِينَةً.

وَاضْلُهُ: سَكَنَتْ قُلُوبُهُمْ، وَاطْمَأْنَنْتْ بَعْدَ شِدَّةِ الْخَوْفِ وَالْحُزَنِ بَأْيٍ وَجُو مَا تَسْكُنُ بِالْمَلَانِكَةِ أَوْ بغيرِهِ، فَاسْكَنَ قَلْبَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَمَّا اسْتَدَّتْ عَلَيْهِ: رُجُوعُ أَصْحَابِهِ وَمُفَارَقَتُهُمْ إِنَاءً ﴿وَأَنْزَلَ جُودًا لَرَوْحِكَا﴾ وَهُمْ الْمَلَانِكَةُ ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بِالْقِتَالِ وَالْهَزِيمَةِ؛ وَذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ.

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ أَرْزَلَهُ اللَّهُ سَكِينَةً عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ دَلَالَةٌ تَقْضِي قَوْلَ الْمُعْتَزِلَةِ؛ لِأَنَّهُ سَمَّاهُمْ مُؤْمِنِينَ بَعْدَ مَا كَانَ مِنْهُمْ [مِنْ] ^(١) التَّوَلَّى. وَالتَّوَلَّى لَمْ يُخْرِجْهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ عَلَى مَا قَالَ.

[الآيتان ٢٧ و ٢٨] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ^(٢).

﴿يَتَابَهَا الَّذِينَ آمَنُوا وَلَكِنْ الْمُنْكَرُوتَ يَحْسُ فَلَا يَفْقَرُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَائِمِهِمْ هَكَذَا﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: النَّهْيُ عَنْ دُخُولِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ نَفْسِيهِ. وَعِنْدَنَا أَنَّ النَّهْيَ عَنْ دُخُولِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ نَهْيٌ عَنْ دُخُولِ مَكَّةَ نَفْسِيهِ لِلْحَجِّ وَإِقَامَةِ الْعِبَادَاتِ. دَلِيلُهُ [فِي] ^(٣) وَجُوه:

أَحَدُهَا: قَوْلُهُ: ﴿بَعْدَ عَائِمِهِمْ هَكَذَا﴾ وَلَوْ كَانَ لِدُخُولِ الْمَسْجِدِ لَكَانَ ذَلِكَ الْعَامُ أَحَقَّ فِي الْمَنْعِ مِنْ دُخُولِهِ فِي غَيْرِهِ. وَالثَّانِي: قَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عِبَلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وَخَوْفُ الْعِبَلَةِ إِنَّمَا يَكُونُ عَنْ دُخُولِ ^(٤) مَكَّةَ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ النَّهْيُ عَنْ دُخُولِ الْمَسْجِدِ نَفْسِيهِ لَكَانَ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُمْ يَخْضَرُونَ، وَيَدْخُلُونَ مَكَّةَ لِلتَّجَارَةِ، فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ.

وَالثَّالِثُ ^(٥): أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُ ذَكَرَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ لِمَا أَتَاهُمْ كَانُوا يَقْصِدُونَ الْبَيْتَ وَالْحَجَّ بِهِ، فَيَكُونُ النَّهْيُ عَنْ دُخُولِ الْمَسْجِدِ نَهْيًا عَنِ الْحَجِّ نَفْسِيهِ؛ وَهُوَ مَا رُوِيَ فِي الْخَبَرِ أَنَّهُ بَعَثَ عَلِيًّا فِي الْمَوْسِمِ بَارِزِيعَ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُنَادِيَ فِي النَّاسِ: «أَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُؤْمِنَةٌ، وَمَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ عَهْدٌ، فَاجْعَلْهُ إِلَى مُدَّتِهِ، فَإِنَّهُ» ^(٦) بَرِيءٌ مِنَ الشَّرِكِينَ وَرَسُولُهُ ^(٧) [التوبة: ٣] وَلَا يَطُوقَنَّ بِالْبَيْتِ غُرْيَانٌ، وَلَا يَحُجَّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ ^(٨) [البخاري: ٣٦٩].

فَالنَّهْيُ الَّذِي وَرَدَ عَنْ دُخُولِ الْمَسْجِدِ إِنَّمَا هُوَ نَهْيٌ عَنِ الْحَجِّ نَفْسِيهِ؛ لِأَنَّ الْبَيْتَ هُوَ الَّذِي يُقْصَدُ إِلَيْهِ فِيهِ. أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ الْآيَةِ [آل عمران: ٩٣] وَقَالَ ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ﴾ الْآيَةِ [البقرة: ١٥٨] وَقَالَ: ﴿وَلْيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْكَعْبَةِ﴾ [الحج: ٢٩] ذَكَرَ الْبَيْتَ، وَهُوَ الْمَقْصُودُ بِالْحَجِّ فِي الْإِسْلَامِ وَالْكَفْرِ جَمِيعًا. فَعَلَى ذَلِكَ خَرَجَ النَّهْيُ، لَكِنَّهُ ذَكَرَ الْمَسْجِدَ لِمَا أَنَّ الْبَيْتَ فِيهِ. فإِذَا كَانَ مَا ذَكَرْنَا.

فَإِنْ شِئْتَ فَاجْعَلْ آخِرَ الْآيَةِ تَفْسِيرَ أَوَّلِهَا [وَهُوَ] ^(٩) قَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عِبَلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وَهُوَ مَا ذَكَرْنَا أَنَّ النَّهْيَ لَوْ كَانَ لِدُخُولِ الْمَسْجِدِ نَفْسِيهِ دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الْبُقْعَةِ لَكَانَ لَيْسَ عَلَيْهِمْ خَوْفُ الْعِبَلَةِ؛ لِأَنَّهُمْ يَدْخُلُونَ مَكَّةَ، وَيَخْرُجُونَ فِيهَا، وَلَا يَدْخُلُونَ الْمَسْجِدَ.

وَإِنْ شِئْتَ فَاجْعَلْ أَوَّلَ الْآيَةِ تَفْسِيرَ آخِرِهَا، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿فَلَا يَفْقَرُوا/ ٢١٠ - ب/ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَائِمِهِمْ هَكَذَا﴾ وَهُوَ مَا ذَكَرْنَا. فَإِذَا كَانَ مَا ذَكَرْنَا دَلَّ أَنَّ الْمَشْرُكَ لَا يَدْخُلُ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، [وَوَحْيًا] ^(١٠) عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ. [يَدُلُّ أَيْضًا] ^(١١) عَلَى ذَلِكَ. فَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الذُّمَّةِ، وَالْعَبِيدُ مِنْهُمْ، فَلْيَسُوا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، بِدَاخِلِينَ فِي الْآيَةِ، إِذَا كَانُوا مَعْنَى لَا يَحُجُّ.

فَإِنْ قِيلَ: إِنَّهُ ^(١٢) رُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ أَنَّهُ نَادَى: [أَلَا لَا يَدْخُلُ الْحَرَمَ مُشْرِكٌ، وَلَمْ يَذْكُرِ الْحَجَّ، قِيلَ لَهُ:

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، في الأصل: دخوله. (٤) في الأصل وم. أو. (٥) أدرج هذا الخبر في تفسير الآية الخامسة (ص ١٠٩). (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل: أيضاً بدل. (٩) في الأصل وم: ان.

رُوي أنه قال: ناديت ألا يحج بعد العام مشرك، فيكون قوله: لا يدخل الحرم مشرك على الحج على ما ذكرنا. وقد روي عن رسول الله ﷺ [أنه]^(١) قال: «لا يقرب المشركون المسجد الحرام بعد عابهم هذا إلا أن يكون عبداً أو أمة، يُحتمل استثناء العبد والأمة لأن العبد لا يدخل للحج وإقامة العبادة إنما يدخل لخدمة المولى إذا كان مسلماً. وفي بغض الأخبار إلا أحداً من أهل الذمة» [السيوطي في الدر المنثور ٤/١٦٤] وفيه دلالة لقول أبي حنيفة: إن لا بأس للكافر أن يدخل المسجد. وقوله^(٢): «أريت لو أراد أن يسمع كلام الله ليؤمن، فيمنع عن ذلك، [ويروم المسمع]^(٣) إتيان ذلك المشرك، ليسمع كلامه، فيكون الأمر بإبلاغ المأمن لذلك. وقد ذكرنا أن ليس في ظاهر الآية دلالة النهي عن دخول المسجد بل المراد من ذكر المسجد ما ذكرنا من الحج وإقامة العبادة لغير الله.

ألا ترى إلى قول الله: ﴿وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامَ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَمَلُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ [الحج: ٢٥] وأن سبيل مكة كلها هذا السبيل؟ وكذلك قوله: ﴿ثُمَّ مَحَلَّهَا إِلَى آلِ بَيْتِ الْقَتِيبِ﴾ [الحج: ٢٣] والحرم كله منحر إلا أن المعنى في ذلك، والله أعلم، ما ذكرنا ألا يدخل المشركون حجاجاً.

ألا ترى أنا لا نعلم أن المشركين لم يزالوا مقيمين في الحرم بعد النداء، ولم ينجلوا عنه؟ وما يدل على ذلك أيضاً قول الله ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ [التوبة: ٧] فإن كان يغني به موضع العهد فإن ذلك العهد يوم الحديبية عند الشجرة فقد صار ذلك الموضع من المسجد الحرام، وهو في المسافة^(٤) بعيد منه الذين عاهدوا، فإنهم [كانوا يوم نادى]^(٥) علي عليه السلام فذلك خارج من مكة، لأن أهل مكة^(٦) قد كانوا قبل ذلك حين فتحها النبي محاصري المسجد الحرام، فلم لا خارج مكة [بل]^(٧) في الحرم وما حوله وقوله: «لا يقرب المسجد الحرام مشرك» يخرج على وجوه: أحدها: لا تدعوهم يقربوا المسجد الحرام، والثاني: قولوا لهم: لا تقربوا المسجد الحرام، والثالث: على اليسارة: أي إذا قلتم لهم ذلك فلا تقربوا بعد ذلك.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الشُّرُكُوتُ نَجَسٌ﴾ أي أفعال المشركين نجس، والعبادات التي يأتون فيها نجس، وهو ما ذكر حين^(٨) قال: ﴿إِنَّمَا الْفَنَرُ وَالْتَبِيرُ وَالْأَصَابُ وَالْأَلْهَمُ يَنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ [المائدة: ٩٠] صير عمل الشيطان رجساً. فعلى ذلك العبادات التي يقيمونها نجسة، فالتنهي عن الحج نهي عن إقامة العبادات لغير الله لأن تلك البقعة تزفت عن إقامة العبادات لغير الله.

ثم اختلف في^(٩) قوله: ﴿إِنَّمَا الشُّرُكُوتُ نَجَسٌ﴾ يخرج مخرج الذم، ولا يُحتمل أن يذموا، ويشتُموا بنجاسة الأحوال. دل أنه إنما لحقهم ذلك الذم بما اكتسبوا من الأفعال الذميمة، وهو كقوله: ﴿إِنَّمَا الْفَنَرُ وَالْتَبِيرُ وَالْأَصَابُ وَالْأَلْهَمُ يَنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ [المائدة: ٩٠] أخبر أن عمل الشيطان رجس ونجس. فعلى ذلك جائز أن يكون قوله: ﴿إِنَّمَا الشُّرُكُوتُ نَجَسٌ﴾ أي نجس^(١٠) الأفعال لأن ذلك من كسبهم، فاستوجبوا المذمة لكتسبهم. وأما الأحوال فلا صنع لهم فيها.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عِيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ قيل: خافوا من العيلة لما نفي المشركون من مكة لأن معاش أهل مكة إنما [كانت من الآفاق، وبأهل الآفاق]^(١١) كان سعيهم وتجارتهم. لكن الله وعد لهم السعة والغنى بقوله: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

قال بعضهم: دل قوله: ﴿إِنْ شَاءَ﴾ على أنه إنما وعد لهم الإغناء في بغض الأوقات، وقال بعضهم: قوله: ﴿إِنْ شَاءَ﴾ كان من رسول الله لأنه أمر رسوله [أن يقولوا]^(١٢) ﴿إِنْ شَاءَ﴾ وهو مأمور أن يستثنى في جميع [ما]^(١٣) يعده كقوله ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاغٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾ ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣ و ٢٤].

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم. وقال. (٣) في الأصل وم. ويوم. (٤) في م: المساجد. (٥) في الأصل وم: كان يوم بدر نادى.

(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: فيه. (١٠) في الأصل وم: نجسة. (١١) في الأصل: كان من الآفاق، في م: كان من الآفاق وبأهل الآفاق. (١٢) في الأصل: أنه يغنيهم، في م: أن يغنيهم. (١٣) في م، ساقطة من الأصل.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَأَكُمْ﴾ بهؤلاء الذين نُفِرُوا عَنْهُمْ^(١) لَأَنَّهُ حَبَّبَ إِلَيْهِمُ التَّجَارَةَ وَالْمَكَائِبَ. وَمَا يَتَّالُونَ [مِنْ] ^(٢) الْأَرْبَاحِ بِهَا؛ يَحْمِلُهُمْ ذَلِكَ عَلَى الْإِسْلَامِ فَيَسْلِمُونَ، فَيَدْخُلُونَ فِيهَا، يَحْمِلُهُمْ حُبُّ التَّجَارَةِ عَلَى الْإِسْلَامِ، فَيَكُونُ لَهُمْ بِهِمْ غِنًى كَمَا كَانَ يَحْمِلُهُمْ حُبُّ التَّجَارَةِ وَالرِّبْحِ عَلَى ^(٣) الْهَجْرَةِ بِقَوْلِهِ ^(٤): ﴿وَيَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ [التوبة: ٢٤] فَعَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ الْجَزِيَّةُ الَّتِي ذَكَرَهَا فِي الْآيَةِ [الَّتِي تَلِي] ^(٥) هَذِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ بِمَا أَضْمَرُوا مِنْ خَوْفِ الْعَيْلَةِ، أَوْ ^(٦) «عَلِيمٌ» بِمَا لَهُمْ وَعَلَيْهِمْ وَبِمَنْ يَكُونُ^(٧) لَهُمُ الْغِنَى «حَكِيمٌ» فِي أَمْرِهِ وَحُكْمِهِ.

[وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى] ^(٨): ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَكُمُ﴾ دَلَالَةُ إِثْبَاتِ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ لَأَنَّهُ مَعْلُومٌ أَنَّهُمْ أَضْمَرُوا ذَلِكَ فِي أَنْفُسِهِمْ، ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِذَلِكَ. دَلٌّ أَنَّهُ إِنَّمَا عَرَفَ ذَلِكَ بِاللَّهِ.

الآية ٢٩ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الْآيَةُ ذَكَرَ أَهْلَ الْكِتَابِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَهُمْ فِي الظَّاهِرِ يُبَيِّرُونَ بِوَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فِي الْمَعْنَى مِنْهُ.

قِيلَ: هُمْ، وَإِنْ آمَنُوا فِي الظَّاهِرِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَإِنَّمَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ، لَهُ وَلَدٌ، كَمَا ذَكَرَهُ عَلَى إِثْرِهِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] فَالْإِيمَانُ بِاللَّهِ، لَهُ وَلَدٌ، لَيْسَ بِإِيمَانٍ بِاللَّهِ، فَهُمْ غَيْرُ مُؤْمِنِينَ.

وَكَذَلِكَ آمَنُوا بِالْبَعْثِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلَكِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِالْمَوْعُودِ فِي الْآخِرَةِ. فَالْإِيمَانُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ بَغَيْرِ الْمَوْعُودِ فِيهِ لَيْسَ بِإِيمَانٍ بِهِ. أَوْ أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُمْ، وَإِنْ أَقْرَأُوا بِمَا ذَكَرْنَا، وَآمَنُوا بِهِ، فَقَدْ اسْتَحْلَوْا أَشْيَاءَ، حَرَّمَهَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَحَرَّمُوا أَشْيَاءَ، أَحَلَّهَا اللَّهُ لَهُمْ. وَمَنْ آمَنَ بِالْكِتَابِ كُلِّهَا وَالرَّسْلِ، وَلَمْ يُؤْمِنْ بِبَيَّةٍ مِنْهَا أَوْ بِرَسُولٍ مِنْهُمْ فَهُوَ غَيْرُ مُؤْمِنٍ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا مُصَدِّقٌ لَهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الْآيَةُ فَإِنْ قَالَ لَنَا مُلْحِدٌ: إِنَّكُمْ تُقَاتِلُونَ الْكَفَرَ لِلْكَفْرِ، ثُمَّ إِذَا أَغْطَوَكُمْ شَيْئاً مِنَ الْمَالِ تَرَكْتُمْ مُقَاتِلَتَهُمْ. فَلَوْ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُمْ لِذَلِكَ لَطَمَعَ فِي الدُّنْيَا لَكُمْ ثُمَّ لَا تَتْرُكُونَ [مُقَاتِلَتَهُمْ] لَشَيْءٍ، يَبْذُلُونَهُ لَكُمْ^(٩) وَكَذَلِكَ لَوْ كَانَتِ الْمُقَاتِلَةُ لِلْكَفْرِ نَفْسِهِ لَكَانَ النَّسَاءُ فِي ذَلِكَ وَالرِّجَالُ سَوَاءً؛ إِذْ هُمْ فِي الْكَفْرِ شِرْعٌ^(١٠) سَوَاءً. وَقَالُوا: لَوْ كَانَتِ الْمُقَاتِلَةُ مَعَهُمْ لِمَا ذَكَرْنَا، وَهُوَ حُكْمُهُ، وَالْأَمْرُ بِذَلِكَ حَكِيمٌ، لَكَانَ النَّاسُ جَمِيعاً فِي ذَلِكَ سَوَاءً، وَلَا يَتْرُكُونَ أَحداً بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، بَلْ يُقَاتِلُونَ أَبَداً، وَلَا يَرْضَوْنَ مِنْهُمْ غَيْرَهُ.

فَيُقَالُ لَهُمْ: إِنَّا لَا نُقَاتِلُ الْكَفَرَ لِلْكَفْرِ، وَلَكِنَّا نَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَإِنْ أَجَابُوا إِلَى ذَلِكَ، وَإِلَّا قَاتَلْنَاهُمْ لِيُضْطَرُّهُمْ الْقَتْلُ إِلَى الْإِسْلَامِ. لِهَذَا مَا تُقَاتِلُهُمْ لَا لِشَيْءٍ سِوَاهُ. فَإِذَا كَانَ فِي أَخْذِ الْجَزِيَّةِ مَعْنَى مَا نَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ: فَإِذَا قَبِلُوا ذَلِكَ تَرَكْنَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ لَعَلَّهُمْ / ٢١١ - أ / يَرْغَبُونَ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا رَأَوْا شَرَائِقَنَا وَأَحْكَامَنَا، لَا إِنَّا تَرَكْنَاهُمْ رَغْبَةً فِي مَا نَأْخُذُ مِنْهُمْ أَوْ ظَمَعاً فِي ذَلِكَ.

وَأَضْلَهُ الْمِخْنَةُ، إِذِ الدَّارُ دَارُ الْمِخْنَةِ لَيْسَتْ بِدَارِ الْجَزَاءِ، وَالْمِخْنَةُ تَكُونُ بِمُخْتَلَفِ الْأَشْيَاءِ لَا بِمَا يُتْلَفُهَا^(١١)؛ مَرَّةً يَمْتَحِنُهُمُ بِالْقَتْلِ، وَمَرَّةً بِأَخْذِ الْأَمْوَالِ، وَمَرَّةً بِالشَّدَائِدِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ﴾ الْآيَةُ [البقرة: ١٥٥] وَقَوْلِهِ: ﴿وَيَبْلُوَنَّهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨] وَنَحْوِ ذَلِكَ.

فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ مِخْنَةً لَا جَزَاءَ أَجَارَ ذَلِكَ حُكْمُهُ. وَأَمَّا قَوْلُهُمْ بَأَنَّا نُقَاتِلُ الرِّجَالَ، وَلَا نُقَاتِلُ النِّسَاءَ، وَنَسْتَرْفُهُنَّ؛ لِأَنَّهُنَّ

(١) فِي الْأَصْلِ وَمِنْهُ: عَنهُ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَمِنْهُ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَمِنْهُ: عَن. (٤) فِي الْأَصْلِ وَمِنْهُ: وَقَوْلُهُ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَمِنْهُ: تَتَلَوْنَ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَمِنْهُ: يَكُنْ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَمِنْهُ. (٨) فِي الْأَصْلِ: لِمُقَاتِلَتِهِمْ لَشَيْءٍ يَبْذُلُونَهُمْ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَمِنْهُ: شَرْعاً. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَمِنْهُ: تَلَفَهَا.

أَتَبَاعَ لِلرَّجَالِ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ وَخَدَّمَهُمْ لَهُمْ، فَإِذَا أَسْلَمُوا أَسْلَمْنَا. هَذَا مَعْرُوفٌ فِي مَا بَيْنَهُمْ؛ إِذْ هُنَّ فِي أَيْدِي الرِّجَالِ، يَفْعَلُونَ بِهِنَّ مَا شَاوُوا.

وَأَصْلُهُ: مَا ذَكَّرْنَا أَنَّ الْقِتَالَ مِحَنَةٌ، لَيْسَ هُوَ جَزَاءُ الْكُفْرِ؛ إِذِ الدَّارُ دَارُ الْمِحَنَةِ، فَلَهُ أَنْ يَمْتَحِنَ بَعْضًا بِالْقَتْلِ وَبَعْضًا بِأَخِذِ الْمَالِ [وَبَعْضًا] ^(١) لَا يَذَا وَلَا ذَاكَ. وَلَوْ كَانَ جَزَاءً لَسَوَى بَيْنَهُمْ، وَهُوَ التَّخْلِيدُ فِي النَّارِ أَبَدًا.

فَإِنْ قِيلَ: مَا الْحِكْمَةُ فِي أَخِذِ الْجَزْيَةِ مِنْ سَائِرِ الْكُفْرَةِ، إِذَا كَانُوا أَهْلَ الْكِتَابِ أَوْ الْمَجُوسِ، وَتَرَكُوا الْأَخِذَ مِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ؟ قِيلَ لَوْجُوه:

أَحَدُهَا: أَنَّ لَيْسَ لِمُشْرِكِي الْعَرَبِ دِينٌ يَدِينُونَ بِهِ، يُقَاتِلُونَ عَنْ ذَلِكَ الدِّينِ، وَلَا لَهُمْ أَصْلٌ يَتَّكِمُونَ عَلَيْهِ، وَيُحَاجُّونَ النَّاسَ بِالْجِجَاجِ الَّتِي لَهُمْ.

فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ أَمَكَّنَ إِقَامَةَ الْحُجَجِ عَلَى هَؤُلَاءِ وَالزَّامِ الْبَرَاهِينَ، وَلَا كَذَلِكَ مُشْرِكُو الْعَرَبِ؛ إِذْ لَا دِينَ لَهُمْ يُنْسَبُونَ إِلَيْهِ، وَمَذَاهِبَ يَدْعُونَ غَيْرَهُمْ إِلَيْهَا ^(٢) بِالْجِجَاجِ. وَأَمَكَّنَ فِي غَيْرِهِمْ. لِذَلِكَ افْتَرَقَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِذَلِكَ.

وَالثَّانِي: أَنَّهُمْ تَمَنَّوْا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ رَسُولٌ مِنْ جَنْسِهِمْ يَتَّبِعُونَهُ فِي مَا يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ، وَنَذِيرٌ يُجِيبُونَهُ، حَتَّى أَقْسَمُوا عَلَى ذَلِكَ، وَأَكَّدُوا الْقَوْلَ فِي ذَلِكَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٠٩] وَلَمْ يَكُنْ مِنْ غَيْرِهِمْ مِنَ الْكُفْرَةِ مَا كَانَ مِنْهُمْ.

فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَهُمْ يُقَاتِلُونَ أَبَدًا حَتَّى يُؤَفُّوا مَا وَعَدُوا كَقَوْلِهِ: ﴿نَقِيلُونَهُمْ أَوْ يَسْلَمُونَ﴾ [الفتح: ١٦].

وَالثَّلَاثُ: لِفَضْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ كَانَ مِنْهُمْ وَمِنْ جَنْسِهِمْ، فَلَا يُتْرَكُ أَحَدٌ فِي تِلْكَ الْبُقْعَةِ عَلَى غَيْرِ دِينِهِ.

وَأَمَكَّنَ أَنْ يَكُونَ وَجْهٌ آخَرُ؛ وَهُوَ أَنَّ مُشْرِكِي الْعَرَبِ فِي حَدِّ الْقَلِيلِ، أَمَكَّنَتْ الْمُقَاتَلَةُ مَعَهُمْ وَالْقِيَامُ لَهُمْ، فَلَا يَرْضَى مِنْهُمْ إِلَّا الْإِسْلَامَ. وَأَمَّا غَيْرُهُمْ مِنَ الْكُفْرَةِ فِي بَقَاعٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَهُمْ كَثِيرٌ، إِذَا اجْتَمَعُوا لَمْ يَكُنْ فِي وَسْعِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ الْقِيَامُ لَهُمْ وَالْقِتَالُ مَعَهُمْ، فَيُلْحَقُ الْمُسْلِمِينَ فِي ذَلِكَ ضَرَرٌ بَيِّنٌ. لِذَلِكَ كَانَ مَا ذَكَرَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الآية]. قَدْ ذَكَّرْنَا أَنَّهُمْ، وَإِنْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ غَيْرُ مُؤْمِنِينَ بِهِ؛ لِأَنَّ شَرْطَ إِيْمَانِهِمْ بِالْإِيْمَانِ بِالرَّسْلِ جَمِيعًا وَالْكِتَابِ أَجْمَعٍ. فَهُمْ قَدْ تَرَكُوا الْإِيْمَانَ بِبَعْضِ الرِّسْلِ. وَبِبَعْضِ الْكِتَابِ. وَمَنْ كَفَرَ بِرَسُولٍ مِنَ الرِّسْلِ أَوْ بِكِتَابٍ مِنَ الْكِتَابِ أَوْ بِحَرْفٍ مِنْهَا كَانَ كَافِرًا بِاللَّهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُجْرِمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ يَحْتَمِلُ أَنَّهُمْ لَا يُحَرِّمُونَ تَحْرِيفَ الْكِتَابِ وَكُتْمَانَهُ ^(٣) رَسُولُ اللَّهِ، وَاللَّهُ حَرَّمَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، أَوْ لَا يُحَرِّمُونَ عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ، وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ يُحَرِّمَانِ ^(٤) ذَلِكَ، أَوْ لَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنَ الْخَمْرِ وَالْخِنْزِيرِ وَغَيْرِهِمَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ وَهُوَ الْإِسْلَامُ، لِأَنَّهُ تَوَجُّهُ الْعُقُولِ كُلِّهَا، وَتَشْهَدُ ^(٥) [خَلْقَةُ الْخَلَائِقِ كُلِّهَا، أَوْ أَنْ يَقُولَ: لَا يَدِينُونَ دِينَ الَّذِي لَهُ الْحَقُّ، إِنَّمَا يَدِينُونَ الدِّينَ الَّذِي] ^(٦) لَا حَقَّ لَهُ، وَهُوَ دِينُ الشَّيْطَانِ، وَهُوَ مَا يَدْعُوهُمْ إِلَى عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، فَيُجِيبُونَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿حَقٌّ يَطْطَوْنَ الْجَزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ مُنْكَرُونَ﴾ يَحْتَمِلُ ^(٧) قَوْلُهُ: ﴿يَطْطَوْنَ الْجَزْيَةَ﴾ أَيِ يَقْبَلُوهَا لَا عَلَى الْإِعْطَاءِ نَفْسِهِ، وَهُوَ مَا ذَكَّرْنَا فِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ﴾ [التوبة: ٥ و ١١] وَهُوَ عَلَى الْقَبُولِ لَهَا لَا عَلَى الْفِعْلِ نَفْسِهِ. وَيَحْتَمِلُ نَفْسَ الْإِعْطَاءِ؛ وَهُوَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، لَمَّا جُعِلَتِ الْجَزْيَةُ لِحَقْنِ الدِّمَاءِ؛ تَقَدَّمَ ^(٨) لِيُحَقَّقَ بِهَا الدِّمَاءُ ^(٩).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَنْ يَدٍ وَهُمْ مُنْكَرُونَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ ^(١٠) عَنْ يَدٍ أَيِ لَا يُؤَخَّرُ قَبْضُهَا عَنْ وَقْتِ قَبُولِهَا، بَلْ تُؤَخَّذُ يَدًا بِيَدٍ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: إليه. (٣) في الأصل وم: نعت. (٤) في الأصل وم: يحرم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، ساقطة من الأصل وم: تقدم. (٧) في الأصل وم: ويحتمل. (٨) في الأصل وم: تقدم. (٩) من م، في الأصل: الدم.

وقال بعضهم: ﴿عَنْ يَدٍ﴾ أي عن قَهْرٍ وَعَلَبَةٍ. وقيل: ﴿عَنْ يَدٍ﴾ أي عَنْ طَوْعٍ وَطَيْبٍ. وقيل: عَنْ أَجْمَاعِهِمْ، لَكُنَّا لَا نَدْرِي مَا يَفْعَلُونَ بِالْجَمَاعَةِ^(١).

وقوله تعالى: ﴿صَحِيفَتُكَ﴾ قيل: ذَلِيلُونَ، وهو مِنَ الذَّلِّ؛ يُقَالُ: صَعَّرَ الرَّجُلُ يَصْعَعِرُ صَعَارًا، فهو صَاغِرٌ أي ذَلٌّ، فهو ذَلِيلٌ. وقيل: ﴿صَحِيفَتُكَ﴾ أي مَذْمُومُونَ^(٢). وعن ابن عباس رضي الله عنه [أنه قال]^(٣) يمشون بها تَلِينَ.

وأصله: الدَّلَّةُ التي ذَكَرَ الله في قوله: ﴿صُرِّتْ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةُ أَنْ مَا يَقُولُوا﴾ [آل عمران: ١١٢] فإذا قَبِلُوا ذلك فقد اذْهَبُوا الدَّلَّ والصَّنَارَ.

وقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ الآية. أما اليهود والنصارى، فلا خلاف بين أهل العلم في أن مَنْ بذلَ منهم الجزية أَخَذَتْ منه، [وأقرَّ به]^(٤) على دينه.

وأما المجوسُ فإنه يُؤْخَذُ منهم الجزيةُ لما رَوَى عَنْ عُمَرَ رضي الله عنه أنه قال: ما أدري ما أَصْنَعُ بِالْمَجُوسِ فَإِنَّهُمْ لَيْسُوا بِمُسْلِمِينَ وَلَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ.

قال عبد الرحمن بن عوف: اشْهَدُ أَنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يقول: «سُئِلُوا بِهِمْ سُنَّةُ أَهْلِ الْكِتَابِ» [البيهقي في الكبرى ١٨٩/٩١ و١٩٠]. وفي بعض الروايات. اشْهَدُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَخَذَ الْجَزْيَةَ مِنَ الْمَجُوسِ هُجْرًا.

وعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ أَخَذَا الْجَزْيَةَ مِنَ الْمَجُوسِ، وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: أَنَا أَعْلَمُ النَّاسِ بِهِمْ كَانُوا أَهْلَ كِتَابٍ يَقْرَؤُونَ، وَأَهْلَ عِلْمٍ يَدْرُسُونَ، فَتَنَعَ ذَلِكَ مِنْ صُدُورِهِمْ. وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنْ أَبِي مُوسَى [أنه]^(٥) قال: لَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ أَصْحَابِي أَخَذُوا الْجَزْيَةَ مِنَ الْمَجُوسِ مَا أَخَذْتُهَا.

وعَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ [أنه]^(٦) قال: كَتَبَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم إِلَى الْمَنْذَرِ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ اسْتَقْبَلَ قَبْلَتَنَا، وَصَلَّى صَلَاتَنَا، وَآكَلَ ذَبِيحَتَنَا، فَذَلِكَ الْمُسْلِمُ الَّذِي لَهُ ذِمَّةٌ رَسُولِي. وَمَنْ أَحَبَّ ذَلِكَ مِنَ الْمَجُوسِ فَهُوَ آمِنٌ. وَمَنْ أَبَى فَقَلْبُهُ الْجَزْيَةُ» [بنحوه عبد الرزاق الصنعاني في المصنف ٢٠١١٣].

وعلى ذلك مَضَتْ الْأَيْمَةُ، وَلَمْ يُتَكَّرْ أَحَدٌ مِنَ السَّلَفِ حَتَّى قَالَ قَوْمٌ مِنَ الْمَجُوسِ: إِنَّمَا أَخَذَتْ مِنْهُمْ الْجَزْيَةَ لِأَنَّهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ وَلَكِنَّ الْجَزْيَةَ تُؤْخَذُ مِنْهُمْ اتِّبَاعًا لِرَسُولِ اللَّهِ: «سُئِلُوا بِهِمْ سُنَّةُ أَهْلِ الْكِتَابِ غَيْرَ نَاكِحِي نِسَاءَهُمْ وَلَا أَكِلِي ذَبَائِحَهُمْ» [البيهقي في الكبرى ١٨٩/٩١ و١٩٠] وَرَوَى عَنْ الصَّحَابَةِ وَأَيْمَةُ الْهُدَى.

ثم الْمَسْأَلَةُ فِي تَقْدِيرِ الْجَزْيَةِ. رَوَى فِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم «أَنَّهُ بَعَثَ مُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ، فَقَالَ لَهُ: خُذْ مِنْ كُلِّ حَالِمٍ دِينَارًا أَوْ عِدْلَهُ مَعَايِرَ» [السيوطي في الدر المنثور ١٦٩/٤].

وَرَوَى عَنْ عُمَرَ رضي الله عنه أَنَّهُ بَعَثَ عِثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ حَتِيفًا إِلَى السَّوَادِ، وَأَمَرَ أَنْ يُضَعَ عَلَى أَهْلِ السَّوَادِ الْخَرَاجُ ثَمَانِيَةً وَأَرْبَعِينَ دِرْهَمًا أَوْ أَرْبَعَةً وَعِشْرِينَ دِرْهَمًا أَوْ اثْنَيْ عَشَرَ دِرْهَمًا، وَفِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ أَنَّهُ ضَرَبَ عَلَى أَهْلِ الذَّهَبِ أَرْبَعَةَ دَنَانِيرَ وَعَلَى أَهْلِ الْوَرَقِ أَرْبَعِينَ دِرْهَمًا مَعَ ذَلِكَ أَرْزَاقًا لِلْمُسْلِمِينَ وَضِيافَةً ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ.

وَأَصْحَابُنَا يَجْعَلُونَهُمْ ثَلَاثَ طَبَقَاتٍ: أَغْنِيَاءَ وَأَوْسَاطًا وَفُقَرَاءَ؛ فَيُؤْخَذُ مِنَ الْغَنِيِّ الْمُسِيرِ ثَمَانِيَةً وَأَرْبَعُونَ دِرْهَمًا وَمِنَ الْوَسْطِ أَرْبَعَةً وَعِشْرُونَ وَمِنَ الْفَقِيرِ الْمُخَارِفِ اثْنًا عَشَرَ دِرْهَمًا، وَفِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ أَرْبَعُونَ دِرْهَمًا أَوْ أَرْبَعَةَ دَنَانِيرَ وَضِيافَةً ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ أَوْ عِشْرُونَ دِرْهَمًا أَوْ دِينَارًا أَوْ هُوَ مَا ذَكَرْنَا ثَمَانِيَةً وَأَرْبَعُونَ بِغَيْرِ ضِيافَةٍ وَغَيْرِ مُؤْنَةٍ.

وَمَا رَوَى مِنْ أَرْبَعِينَ دِرْهَمًا أَوْ أَرْبَعَةَ دَنَانِيرَ مَعَ الضِّيافَةِ وَالرِّزْقِ الَّذِي ذُكِرَ فِي الْخَبَرِ، وَهَذَا مِنْ عُمَرَ بِحَضْرَةِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، فَلَمْ يَأْتِ عَنْ أَحَدٍ التَّكْيِيرُ عَلَيْهِ وَلَا الرَّدُّ، فَهُوَ كَالِاتِّفَاقِ مِنْهُمْ عَلَى ذَلِكَ.

(١) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: جَمَاعِهِمْ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: مَذْمُون. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) فِي الْأَصْلِ: وَأَقْرَب. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

ثم لا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عُمَرُ قَدَّرَ ذَلِكَ التَّقْدِيرَ رَأياً مِنْهُ لِأَنَّ الْمُقَدَّرَاتِ/ ٢١١ - ب/ وَالْمُعَذَّرَاتِ، سَبِيلُ مَعْرِفَتِهَا التَّوْقِيفُ وَالسَّمْعُ لَا الْعَقْلُ، فَهُوَ كَالْمَسْمُوعِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمَا رُوِيَ مِنْ حَدِيثٍ مُعَاذٍ حِينَ أَمَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ مِنْ كُلِّ حَالِمٍ دِينَاراً فَذَلِكَ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ أَمْرٌ بِذَلِكَ لِمَا كَانُوا أَهْلَ ضَعْفٍ وَفَقْرٍ عَلَى مَا رُوِيَ عَنْ عُمَرَ فِي الضَّعْفَاءِ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ وَالشَّامِ، وَلَيْسَ هُوَ الْحَدُّ الَّذِي لَا يُلْزَمُ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ لِمَا ذَكَرْنَا أَنَّ عُمَرَ أَلْزَمَ الْمَيَاسِيرَ أَكْثَرَ مِنْ دِينَارٍ، وَلَمْ يُنْكَرْ ذَلِكَ أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ. فَدَلَّ فَعَلُهُمْ عَلَى مَا وَصَفْنَاهُ.

ثم المسألة في تمييز أصحاب الطبقات بَيْنَ الْوَسْطِ وَالْفَقِيرِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: الْفَقِيرُ مِمَّنْ يَخْتَرِفُ، وَلَيْسَ لَهُ مَالٌ، يَجِبُ فِي مِثْلِهِ الزَّكَاةُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَهُمْ الْفُقَرَاءُ الْمُخْتَرِفُونَ، فَمَنْ كَانَ^(١) لَهُ أَقْلٌ مِنْ مِثْقَلِ دِرْهَمٍ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الطَّبَقَةِ.

والطبقة [الثانية^(٢)] أَنْ يَتَلَعَّ مَالُ الرَّجُلِ مِثْقَلِ دِرْهَمٍ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ إِذَا بَلَغَ مَالُهُ أَرْبَعَةَ آلَافٍ دِرْهَمٍ، وَزَادَ عَلَيْهَا، صَارَ مِنْ أَهْلِ الطَّبَقَةِ الثَّالِثَةِ، وَاخْتَجَّجُوا بِقَوْلِ^(٣) أَبِي طَالِبٍ ﷺ وَابْنِ عُمَرَ حِينَ^(٤) قَالَا: أَرْبَعَةُ آلَافٍ دِرْهَمٍ فَمَا ذُوْنَهَا نَفَقَةٌ وَمَا فَوْقَ ذَلِكَ كُنْزٌ. وَقَدْ يَجُوزُ أَنْ تُجْعَلَ الطَّبَقَةُ الثَّانِيَةُ مِنْ مَلَكٍ مِثْقَلِ دِرْهَمٍ إِلَى عَشْرَةِ آلَافٍ دِرْهَمٍ، وَمَا زَادَ عَلَى ذَلِكَ يُجْعَلُ مِنَ الطَّبَقَةِ الثَّالِثَةِ لِحَدِيثِ رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَرُوهُ أَبُو هُرَيْرَةَ: قَالَ: «مَنْ تَرَكَ عَشْرَةَ آلَافٍ دِرْهَمٍ جُعِلَتْ صَفَاتُهَا يُعَذَّبُ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [بَنَحْوِهِ مُسْلِمٌ ٩٨٧/٢٦].

ثم في قوله: «فَتَقَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ» دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْجَزْيَةَ إِنَّمَا تُؤْخَذُ مِمَّنْ يَجِبُ أَنْ يُقَاتَلَ، إِنْ لَمْ يَنْتَهِلْهَا، وَالنِّسَاءَ وَالصَّبِيَّانَ [لَا يُقَاتَلُونَ]^(٥)، وَلَا يُقَاتَلْنَ إِنْ ظَهَرَبَهُنَّ، فَلَا يَجِبُ أَنْ يُوَضَعَ عَلَيْهِمُ الْجَزْيَةُ بِدَلِيلِ الْكِتَابِ؛ إِذْ كَانَ اللَّهُ إِنَّمَا أَمَرَ أَنْ تُؤْخَذَ الْجَزْيَةُ مِمَّنْ يُقَاتَلُ.

وكذلك فَعَلَ عُمَرُ وَالْأَيْمَةُ بَعْدَهُ: رُوِيَ أَنَّ عُمَرَ ﷺ كَتَبَ إِلَى أَمِيرِ الْجِيوشِ لَا تُقَاتِلُوا إِلَّا مَنْ قَاتَلَكُمْ، وَلَا تُقَاتِلُوا الصَّبِيَّانَ وَالنِّسَاءَ، وَلَا تُقَاتِلُوا إِلَّا مَنْ جَرَتْ عَلَيْهِ الْمَوَاشِي. وَكَتَبَ إِلَى عَمَّالِهِ أَنْ يَضْرِبُوا الْجَزْيَةَ، وَلَا يَضْرِبُوهَا عَلَى النِّسَاءِ وَالصَّبِيَّانِ. وَفِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ أَنَّهُ كَتَبَ إِلَى أَمِيرِ الْأَجْنَادِ لَا تُضْرِبُوا^(٦) الْجَزْيَةَ إِلَّا عَلَى مَنْ جَرَتْ عَلَيْهِ الْمَوَاشِي. قَالَ: وَالْجَزْيَةُ أَرْبَعُونَ دِرْهَمًا أَوْ أَرْبَعَةُ دَنَانِيرَ.

وفي خَبَرٍ مُعَاذٍ دَلَالَةٌ لَذَلِكَ حِينَ^(٧) قَالَ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْيَمَنِ، وَأَمَرَنِي أَنْ آخُذَ مِنْ كُلِّ حَالِمٍ دِينَاراً أَوْ عِدْلَهُ مَعَاظِرَ؛ بَيْنَ مُعَاذٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَ ذَلِكَ مِنَ الرِّجَالِ دُونَ الصَّبِيَّانِ وَدُونَ النِّسَاءِ.

فَإِنْ قِيلَ: رُوِيَ عَنْ مُعَاذٍ أَنَّهُ^(٨) قَالَ: أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ آخُذَ مِنْ كُلِّ حَالِمٍ وَحَالِمَةٍ دِينَاراً. وَفِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ «خُذْ^(٩) مِنْ كُلِّ حَالِمٍ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى دِينَاراً» [السُّيُوطِيُّ فِي الدَّرِّ الْمَشْهُورِ ٤/١٦٩] فَإِنْ كَانَ هَذَا مُثَبَّتاً مُحْفَظاً فَهُوَ دَلِيلٌ لِمَا يُؤْخَذُ مِنَ نَصَارَى بَنِي تَغْلِبَ، وَيَكُونُ حُكْمُ نِسَاءِ الْعَرَبِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي مَا يُؤْخَذُ مِنْهُنَّ خِلَافَ نِسَاءِ الْعَجَمِ مِنْهُنَّ، أَوْ أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُ غَيْرُ مُحْفَظٍ لِمَا عَلِمَ الْإِثْمَةُ^(١٠) بِخِلَافِهِ لِأَنَّ الْوِفَاقَ قَدْ جَرَى عَلَى أَنْ لَا جَزْيَةَ عَلَى النِّسَاءِ. وَلَوْ كَانَ مُحْفَظاً لَطَهَّرَ الْعَمَلُ بِهِ، أَوْ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: «خُذْ مِنْ كُلِّ حَالِمٍ دِينَاراً» أَيْ خُذْ مِنْهُمَا دِينَاراً كَقَوْلِهِ «كُلُّ سَهْوٍ سَجْدَتَانِ» [أَبُو دَاوُدَ ١٠٣٨] لَا يُلْزَمُهُ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ.

ثم تُذَكَّرُ مِنْ ذَلِكَ مَسْأَلَةٌ، لَيْسَ فِي الْآيَةِ ذِكْرُهَا؛ وَهِيَ أَنَّ الْجَزْيَةَ إِذَا ضَرِبَتْ، فَدَخَلَتْ سَنَةٌ أُخْرَى قَبْلَ أَنْ يُؤْذَنَ بِهَا أُخِذَتْ مِنْهُ لِلْسَّنَةِ الثَّانِيَةِ، وَلَمْ تُؤْخَذْ لِلْسَّنَةِ الْمَاضِيَةِ، لَيْسَ كَسَائِرِ الدِّيُونِ. فَإِنْ قِيلَ: لَيْسَ الْخَرَاجُ يُطَالَبُ بِهِ مِنْ آخِرِهِ مِنْ سَنَةٍ إِلَى سَنَةٍ؟ قِيلَ: لَيْسَتْ الْجَزْيَةُ بِمِثْلِ الْخَرَاجِ، يَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ فِي أَرْضِهِ؛ فَهُوَ كَسَائِرِ الدِّيُونِ.

فَإِنْ قِيلَ: إِنَّ الْمَجُوسِيِّ^(١١) إِذَا أَسْلَمَ بَعْدَ مُضِيِّ السَّنَةِ طُولِبَ بِالْجَزْيَةِ لِلْسَّنَةِ الْمَاضِيَةِ. قِيلَ: رُوِيَ عَنْ عُمَرَ أَنَّهُ رَفَعَ الْجَزْيَةَ بِالْإِسْلَامِ، فَقَالَ: وَاللَّهِ إِنْ فِي الْإِسْلَامِ لَمَعَاذًا؛ إِنْ فَعَلَ تُرْفَعُ عَنْهُ الْجَزْيَةُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: كَانَتْ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: مِنْ قَوْلِ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٥) سَاقِطَةٌ مِنْ م. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: تَأْخُذُوا. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنْ آخُذَ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: الْأَمَةُ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: الْمَجُوسِ.

وروي في بعض الأخبار عن نبي الله ﷺ أنه قال: «ليس على مسلم جزية» [بنحوه الترمذي ٦٣٣] فمن طالبه بالجزية بعد الإسلام فقد خالف الخبر. فإن قال: إنما يزول عن المسلم ما كان عليه من الجزية في حال كفره لأنه صار إلى حال لا يجوز أن توضع عليه ابتداء، قيل: إن الدمي إذا اجتمع عليه جزية سنتين، فصار إلى حال لا يجوز أن يلزم في الابتداء في مثلها أكثر من اثني عشر درهماً لفقره لم يجز أن يلزم أكثر منها لأنه جعل حكم مستدير الجزية التي وجبت، فاسلم صاحبها، حكم الابتداء في توظيف الجزية عليه، فوجب أن يجعل حكم من آث عليه سنتان حكم ابتدائه.

واضله أن الجزية إنما جعلت لحقن الدم فإذا مضت سنة صار دمه محقوناً في السنة الماضية، لذلك لم تؤخذ. وقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ الخ تضمنت هذه الآية أحكاماً: منها الأمر بقتال من لم يؤمن بالله واليوم الآخر، وهم لا يؤمنون بالأميرين. لكنه يخرج على وجوه ثلاثة.

أحدها: أنهم مشبهة، ومن تشبيههم الله بخلقهم احتمل قلوبهم القول بالوليد؛ إذ الذين شهدوا من الخلائق على ذلك وجدوا بولد بعض من بعض. وإذا كان كذلك [فهم غير مؤمنين]^(١) في الحقيقة بالله الذي هو الحق حتى يؤمنوا به وأنه به تكون الآخرة دون الذي ادَّعوه.

والثاني: أن الذي جيل عليه الخلق هو تعظيم رسل الملوك وإجلالهم^(٢) حتى يؤخذ من بر الرسل بين ملوك قد ظهرت بينهم العداوة. فلما كذبوا رسول الله مع البراهين التي قد أعجزت الخلائق وشهادة كتبهم، وتظاهروا عن عرفوا أنهم مكذبون بكتبهم وبرسلهم على من صدق بذلك، ثبت أنهم في الحقيقة مكذبون جميع الرسل والكتب، وإن أظهروا الوفاق، وأن ذلك لا يكون إلا لتكذيب منهم بالله؛ يكون بإيمانهم بالله [ولا]^(٣) يكون بإيمانهم بالرسل.

وعلى ذلك روي عن رسول الله ﷺ في وفد عبد قيس أنه قال «أمر بأربع: أمركم بالإيمان بالله، ثم قال: أتدرون ما الإيمان بالله؟ أن تشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله» [البخاري ٥٣] فلذلك لم يكن إيمانهم بالله إيماناً حتى يؤمنوا برسول الله، وعلى هذا يحاربون.

والثالث: أن يكون نفى عنهم الإيمان نفى^(٤) منفعته الإيمان عنهم إذا قلَّ لمنفعة به الإيمان برسوله والقبول عنهم بالتعظيم. فإذا ظهرت منه هذه المنفعة، وتركوا القتال، ثم التزموا على قبول الجزية جائز، وإن كان الأمر قد تقدّم بالقتل من غير أن يكون دليل [أنا لأجل]^(٥) ذلك المال نقابل كما كتب على كل نفس الموت، ثم قد يتركون على ما هم عليه من اختلاف الأديان وتفرق الأهواء، وإن كان لا يدل ذلك على الأمر بما هم عليه والرضا بكفرهم ولا على القتال لأخذ تلك الأموال منهم.

ثم الأصل أن القتال لم يجعل ليكون عقوبة للكفر؛ إذ نوع القتال؛ ومعناه قد يوجد في الأخيار والأشرار جميعاً، وهو الموت. ثبت أنه لم يجعل لذلك، ولكن لوجهين:

[أحدهما]^(٦): أن يضطرهم على الإجابة إلى مافيه نجاتهم، وبه نيل كرامة الأبد، وكان ذلك بعد أن الزمناهم كل أنواع الحجج، فلم تنفعهم؛ قاتلناهم بما كان الذي يمنهم عن النظر في الحجج حب اللذات، وألذها الحياة، قاتلناهم حتى تأسوا من تلك اللذة المانعة عن النظر في الحجج والصادقة عن الإجابة، تزول عنهم.

وفي قبول الجزية قيل: /٢١٢- / بعض الذل والصغار الذي تنفر عنه الطباع، ويدعو إلى مافيه الرؤا، فينظرون في الحجج، ويقبلون^(٧) ما دُعوا إليه، فيكون به نجاتهم، وزيادة لنا في الكرامة.

والثاني: أن المحن كلها منقسمة على الحسنات والسينات والخيرات والشُرور، ولذلك جعلت بالموت والحياة، وعلى ذلك جميع أمور الدنيا هو الثقل على مختلف الأحوال. فمثله الدعاء إلى الإسلام يكون مرة بمحاجة إليه ومرة

(١) في الأصل وم: فهو غير مؤمن. (٢) في الأصل وم: وأجلتهم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل: عنهم. (٥) في الأصل وم: أما الأجل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: ويقبلوا.

باللسان ومرة بالترك، لا أن جُعل شيء من ذلك لشيء، ولكن بما عليه أمر المحن ليُتذكر به وجوه الدل في قوم على [ما^(١)] في علم الله من المصلحة وعلى ما عليه حق الحكمة.

ثم الفرق بين مشركي العرب وغيرهم يُخرج على وجوه:

أحدها: أنهم قد كانوا ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ أَهْدَى الْأُمَمِ﴾ [فاطر: ٤٢] فجاءهم، فكذبوه.

والثاني^(٢): ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ أَهْدَى الْأُمَمِ﴾ [الأنعام: ١٠٩] فجاءتهم آيات، فلم يؤمنوا، فاسترجعوا القتال إلى أن يقوا بالعهد الذي سبق والقسم الذي جاهدوا به، وليس لغيرهم هذا.

والثالث^(٣): على قوله: ﴿وَتَقَلَّبُ أَفْئِدَتُهُمْ وَابْتَدَرَهُمْ﴾ الآية [الأنعام: ١١٠]. فبين الإياس عن إيمانهم إلى أن يشاء الله. فهو يُخرج على وجهين:

أحدهما: الإياس من إيمانهم، وقبول الجزية ليخالطوا أهل شريعة الله، فيسمعوا منهم الحجاج، ويعاينوا الأفعال المحمودة في العقول والأخلاق الكريمة التي جاء بها الرسول، فيؤمنوا. وهؤلاء قد آيس الله عن إيمانهم، وأخبرهم أنهم يؤيسون أبداً. فلذلك لم يُعط لهم عهد وعلى ذلك ظهر نقضهم العقود مرة بعد مرة، والله أعلم.

والثاني: أنه استثنى فيهم ألا يؤمنوا بالآيات إلا أن يشاء الله. فلعل الله شاء أن يكون إيمانهم بالقتال خاصة، ففرض فيهم ذلك إلى أن يؤمنوا.

وروجه آخر أن رسول الله ﷺ هو بعث فيهم ومنهم. فأوجب لهم الفضيلة به ألا يقبل منهم غير الإيمان كما فضلت البعثة التي فيها بعث رسول الله ﷺ ومنها ألا يترك فيها غير المؤمنين تفضيلاً.

وروجه آخر أنهم قوم ليس لهم أسس ولا أئمة في الدين، إليهم يرجعون في التأسيس. ومعلوم أن لا قوام في العقول لأمر الدين إلا بالأئمة كالسياسات كلها والأمور؛ فيها القوام من الملك وغيره. بل إنما كانوا جروا على عاديهم، وقاتلوهم عن القبائل، فلا يرجعون في الحقيقة إلا إلى عادة خارجة عن التدبير. وغيرهم يرجعون إلى مذاهب أسست مما أسس أمر الديانات؛ فقد تعلقوا بضرب من ذلك؛ [فتركوا]^(٤) إذا خضعوا لا دفعوا، وإذا غنوا لهم بحق التبع، يتركون رجاء^(٥) أن يتأملوا؛ إذ لكل مذهب نظر، وليس لأولئك سوى^(٦) العادة وتقليد الآباء. ومن ذلك وصفه؛ لا ينظر، فيمهل للنظر، والله أعلم.

وايضاً أن لسان المذاهب أصولاً يتكثر أهلها، وفي الإقامة على القتال إلى الفناء يتصمّن بعض إلى بعض فيتناصرون، فيخاف على المسلمين بما به رجاء التكثر الفناء. والعرب [يقبل عدهم]^(٧) حتى لم يكونوا يقدرون على المناوأة إلا بمعونة أهل الكتاب وغيرهم، فامكن أن يضطروا به إلى القتل مع ما ليست لهم مذاهب معلومة؛ إذ لا يذكر في شيء من الكتب لهم مذاهب، وقد ذكر بجميع الفرق^(٨)؛ فإنما أمرهم على العادة، وقد تنزل العادات بما لا يعترض فيها ما يمنع الاستمرار عليها من القتال والحرب، فيتركونها.

وأهل المذاهب عندهم أنهم لزموا بالحجاج، ومثل ذلك لا يترك إلا بالحجاج، وذلك يكون بقبول الذمة والعهد. وايضاً أنه يمكن الزام^(٩) كل ذي مذهب بما يوجد في مذهبه ما يُثبت القول بالإسلام وبالعهد رجاء الوصول^(١٠) إليه، وليس لمشركي العرب ذلك إما لم يبين^(١١) مذهبهم على الحجاج أو السنة، إنما هو تقليد وعادة، والله أعلم.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: ثم. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من م. (٦) في الأصل وم: سواء. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: الفريق. (٩) في الأصل وم: الزم. (١٠) من م، في الأصل: لا. (١١) في م: بين.

الآية ٣٠

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ وقوله^(١) تعالى في آية أخرى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْقَطِعْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَجْرُ الْجِبَالُ مَذَا﴾ «أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا» [مريم: ٩٠ و ٩١] أَخْبَرَ أَنَّ السموات تكاد تنقطع منه وتنشق الأرض، وتجر الجبال لمظيم ما قالوا في الله سبحانه من الهتان والفرقة عليه أن له ولداً. ثم بين الذي ذكر ذلك، فقال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ فذكر الآية، وأخبر، والله أعلم، أنهم قالوا في الله ما قالوا لوجوه:

أحدها: دلالة إثبات رسالة محمد ﷺ لأن هؤلاء المتأخرين لم يقولوا هذا، ولكن إنما قال ذلك أوائلهم، ولكن كنتموا ذلك، فأخبر رسول الله ﷺ أن أوائلهم قالوا ذلك، وهم كانوا يكتُمون عن رسول الله ذلك، ليَعْلَمُوا أنه إنما عَلِمَ ذلك بالله. والثاني: يُخْبِرُ رسوله سَفَهَ أوائلهم، ويصبره على سَفَه هؤلاء ليصبر على سَفَههم وأذاهم. والثالث: يُخْبِرُ أنهم مُشَبَّهَةٌ لأنهم نسبوا المخلوق إليه، وقالوا: إن فلانا ابنه لما رأوا منه أشياء. فلولا أنهم عرفوا الله بمثل معرفتهم المخلوق، وإلا ما قالوا ذلك، ولا اعتقدوا من التشبيه وغير ذلك، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي ذلك قول قالوه بلا حجة ولا برهان، كانت لهم في ذلك، أو قالوا ذلك بأفواههم على غير شبهة، اغترضت لهم، فحملتهم^(٢) على ذلك.

وقوله تعالى: ﴿يُضَاهِي قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ يَحْتَمِلُ هذا أن قد كان قبل هؤلاء من قد قال مثل قول هؤلاء ﴿كَذَلِكَ يُعَيِّنُ اللَّهُ الْفَوَاقِ﴾ [البقرة: ٧٣] لَيْسَ أَنْ يُخَيِّمَ الْمَوْتَى كُلَّهُمْ إحياء كما أحيى ذلك القليل بضرب بغض من البقرة، ولكن يُخَيِّمُ إحياء، ذلك قوله: ﴿يُضَاهِي قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ في الكفر أنفسهم.

ويَحْتَمِلُ: ضاهى قول النصارى قول اليهود. والمضاهاة المشابهة والإشابة. وقوله: ﴿يُضَاهِي قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أن يشبه النصارى بقولهم [عن عيسى^(٣)] إنه ابن الله قول اليهود من قبل ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ فمضاهاة النصارى في عيسى اليهود قبلهم في عُزَيْر.

وقوله تعالى: ﴿فَتَلَّاهُمُ اللَّهُ أَنَّ يَوْفَكُونَ﴾ هذه الكلمة كلمة اللغز، تُسْتَعْمَلُ عند مناكير القول والفعل من غير حصول المنفعة.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّ يَوْفَكُونَ﴾ يَحْتَمِلُ مِنْ أَيْنَ يَوْفَكُونَ، وَيَقْتَرُونَ على الله على غير شبهة اغترضت لهم؟

ويَحْتَمِلُ ﴿أَنَّ يَوْفَكُونَ﴾ أي كيف يَوْفَكُونَ بلا منفعة تحصل لهم؟

الآية ٣١

وقوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا﴾ قيل: الاحبار هم العلماء، والرهبان العباد، وقيل: الاحبار أصحاب الصوامع من اليهود والرهبان من النصارى.

وقوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هذا في السفهاء والاتباع ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ في العلماء منهم والرؤساء، فاتخذوا الاتباع أولئك أرباباً يتبعونهم في جميع ما يَدْعُونَهُمْ إليه [ويأترون به]^(٤) فعلى ذلك هذا.

ويَحْتَمِلُ ما روي في الخبر، إن ثبت، أنهم لم يُعْبِدُوهُمْ، ولكنهم أحلوا لهم أشياء، حرّمها الله^(٥) عليهم، فاستحلّوها، أو حرّموا لهم أشياء، أحلّ الله ذلك لهم، فحرّموا ذلك. فقيل: اتّخذوهم أرباباً، والله أعلم، يُخْرِجُ هذا في الاحبار والرهبان على التمثيل، أي اتّخذوها^(٦) في الطاعة لهم والاتباع لأمرهم؛ كأنهم اتّخذوهم أرباباً لا على التحقيق [وهو ما ذكر من عبادتهم الشيطان لا أحد يقصد قصد عبادة الشيطان، لكن صاروا بالطاعة للشيطان والاتباع لأمره كأنهم

(١) في الأصل وم: وقال. (٢) في الأصل وم: تحملهم. (٣) في الأصل وم: لعيسى. (٤) في الأصل: ويأمرهم به، في م: ويأمرونهم.

(٥) ساقطة من الأصل وم: (٦) في الأصل وم: اتّخذونها.

عَبْدُهُ، وَأَمَّا فِي الْمَسِيحِ فَهُوَ عَلَى الْحَقِّيقِ^(١) لَأَنَّهُمْ قَالُوا: إِنَّهُ إِلَهُ، وَقَالُوا: ابْنُ إِلَهٍ. فَهُوَ يُخْرَجُ فِي الْمَسِيحِ عَلَى الْحَقِّيقِ وَفِي الْأَحْبَارِ وَالرَّهْبَانِ عَلَى التَّمَثِيلِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ يَحْتَمِلُ إِلَّا لِيُوحِدُوا إِلَهًا وَاحِدًا الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ. وَيَحْتَمِلُ أَي مَا أُمِرُوا أَنْ يَعْبُدُوا إِلَهًا [عَلَى مَا]^(٢) يَعْبُدُونَ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْتَانِ وَلَكِنْ أُمِرُوا أَنْ يَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا.

الآية ٣٢

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا/ ٢١٢- ب/ نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ قِيلَ: نُورُ اللَّهِ ذِكْرُ اللَّهِ وَتَوْحِيدُهُ، وَقِيلَ: نُورُ اللَّهِ الْقُرْآنُ، وَقِيلَ: نُورُ اللَّهِ هُوَ الْإِسْلَامُ. فَإِذَا كَانَ النُّورُ هُوَ الذِّكْرُ وَالتَّوْحِيدُ فَهُوَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْرِفُونَ ذِكْرَ اللَّهِ، وَلَا يَذْكُرُونَهُ، إِنَّمَا كَانُوا يَعْرِفُونَ ذِكْرَ الْأَصْنَامِ، وَإِيَّاهَا يَذْكُرُونَ^(٣)، وَيَحْقُّ الْقَرَابَةُ وَالرَّجْمُ يَتَنَاصَرُونَ [فِي مَا]^(٤) بَيْنَهُمْ. فَلَمَّا أَنْ بَعَثَ [اللَّهُ]^(٥) رَسُولَهُ مُحَمَّدًا [وَأَمَرَ] بَذِكْرِ اللَّهِ وَتَوْحِيدِهِ، وَأَمَرَ بِالتَّنَاصُرِ بِحَقِّ الدِّينِ أَرَادُوا أَنْ يُطْفِئُوا ذَلِكَ النُّورَ. وَمَنْ أَرَادَ بِنُورِ اللَّهِ الْقُرْآنَ أَرَادُوا إِطْفَاءَهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا هَذَا إِلَّا أُسْطُورُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الاحقاف: ١٧] وَقَوْلِهِ^(٦): ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: ١١٠] وَقَوْلِهِ^(٧): ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦] وَنَحْوِهِ. أَرَادُوا إِطْفَاءَهُ بِنَحْوِ مَا ذَكَرُوا^(٨): ﴿مَا هَذَا إِلَّا إِنْكَافٌ مُتَعَتِّقٌ﴾ [سبأ: ٤٣] وَقَوْلِهِمْ: ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ﴾ [الأنعام: ١٠٣]. وَمَنْ قَالَ: نُورُ اللَّهِ هُوَ الدِّينُ كَقَوْلِهِ: ﴿أَتَمَنَّ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢] وَقَوْلِهِ^(٩) تَعَالَى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ﴾ [النور: ٣٥] وَفِي^(١٠) حَرْفِ أَيْ: مِثْلُ نُورِ الْمُؤْمِنِ، وَمِثْلُهُ، أَرَادُوا إِطْفَاءَ هَذَا النُّورِ لِتَسْلَمَ لَهُمُ الْمَنَافِعُ الَّتِي كَانَتْ لَهُمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ: [يَحْتَمِلُ] ^(١١) «يُرِيدُونَ أَنْ» يَجْتَهِدُونَ أَنْ يُطْفِئُوهُ، فَمَا يَقْدِرُونَ عَلَى إِطْفَائِهِ. وَيَحْتَمِلُ «يُرِيدُونَ أَنْ» أَي يَخْتَالُونَ أَنْ يُطْفِئُوهُ بِأَسْبَابٍ يَتَكَلَّفُونَ، وَيَخْتَالُونَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَأْتِ اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُخَيَّرَ نُورُهُ﴾ بِالْحُجَجِ وَالْبِرَاهِمِينَ أَي بِالنُّشْرِ وَالْإِظْهَارِ، وَقَدْ أَتَمَّهُ كَقَوْلِهِ ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ وَقَدْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ.

الآية ٣٣

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ «بِالْهُدَى» هُدًى يَهْدِيهِمْ إِلَى مَا بِهِ تَكُونُ جَمِيعُ الْمَحَاسِنِ وَالْخَيْرَاتِ مَحَاسِنَ وَخَيْرَاتٍ؛ إِنَّمَا تَقُومُ بِالْإِيمَانِ، وَبِهِ يُنْتَفَعُ بِهَا، بَعَثَهُ لِذَلِكَ. وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: «بِالْهُدَى» وَهُوَ الْقُرْآنُ، يَهْدِيهِمْ، وَيُبَيِّنُ لَهُمُ الْمَحَاسِنَ مِنَ الْمَسَاوِي وَالْحَسَنَاتِ مِنَ السَّيِّئَاتِ، وَهُوَ يَهْدِيهِمْ إِلَى ذَلِكَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَدِينُ الْحَقِّ﴾ وَهُوَ دِينُ الْحَقِّ أَيِ الْإِيمَانِ الَّذِي يُصَيِّرُ الْمَحَاسِنَ مَحَاسِنَ وَالْخَيْرَاتِ خَيْرَاتٍ، هُوَ دِينُ الْحَقِّ، وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ «وَدِينُ الْحَقِّ» أَيِ دِينِ اللَّهِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَيَقُولُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ أَلَمُّ الْيَمِينِ﴾ [النور: ٢٥].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُظْهِرُ عَلَى الَّذِينَ كَفَلِهِمْ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهًا: يَحْتَمِلُ «يُظْهِرُ» رَسُولُهُ عَلَى أَهْلِ الدِّينِ كُلِّهِمْ^(١٢) بِالْحُجَجِ وَالْآيَاتِ، وَقَدْ^(١٣) أَظْهَرَهُ بِحَمْدِ اللَّهِ عَلَى الْأَدْيَانِ كُلِّهَا بِالْحُجَجِ وَالْبِرَاهِمِينَ حَتَّى لَمْ يَتَعَرَّضْ أَحَدٌ فِي شُبِّهِ، ذَلِكَ فَضْلًا [عَنْ أَنْ لَمْ]^(١٤) يَتَعَرَّضْ فِي إِبْطَالِهِ.

وَيَحْتَمِلُ «يُظْهِرُ عَلَى الَّذِينَ كَفَلِهِمْ بِالْقَهْرِ وَالْعَلْبَةِ وَالْإِذْلَالِ»، وَقَدْ^(١٥) كَانَ، حَتَّى خَضَعُوا كُلُّهُمْ، وَذَلُّوا، حَتَّى لَمْ يَبْقَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ مُشْرِكٌ وَلَا كَافِرٌ إِلَّا خَضَعَ لَهُ، وَصَارَ أَهْلُ الْكِتَابِ ذُلِيلِينَ صَاغِرِينَ فِي أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ. وَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ «يُظْهِرُ عَلَى الَّذِينَ كَفَلِهِمْ» فَهُوَ بِالْحُجَجِ وَالْبِرَاهِمِينَ كُلِّهَا. وَإِنْ كَانَ أَرَادَ بِهِ الدِّينَ أَنْ يُظْهِرَهُ عَلَى الْأَدْيَانِ كُلِّهَا فَتَبَدُّ لَمْ يَكُنْ، وَيَكُونُ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ، هُوَ الظَّاهِرُ عَلَى الْأَدْيَانِ كُلِّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

(١) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل م. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: يَذْكُرُونَهَا. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: فِيهَا. (٥) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: فَتَقَالَ: (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: فَتَقَالَ: (١١) الْوَارِ ساقطة فِي الْأَصْلِ وَم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: كَلَهُ. (١٤) فِي الْأَصْلِ وَم: فَقَدْ. (١٥) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنْ. (١٦) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: فَهُوَ.

وقوله تعالى ﴿عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ولم يقل على الأديان كلها فالدين يتأول الأديان كلها كقوله: ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ﴾ [الانفطار: ٦] يدخل فيه كل إنسان. وجائز أن يكون أدياناً مختلفة. وهو^(١) واحد لأن الكفر كله ملة واحدة [وهو دين]^(٢) الشيطان، فسماء بذلك.

الآية ٣٤

وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ الْأَنْجَارِ وَالرُّهَابِ﴾ قد ذكر.

وقوله تعالى: ﴿يَأْتِكُونُ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ لأنهم كانوا يأكلون أموالهم بما يحرفون كتاب الله، ويبدلون، كقوله: ﴿يَحْرِفُونَ الْحِكْمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [النساء: ٤٦] وقوله: ﴿وَلَا يَنْهَهُهُمْ لَقْرِيحًا يَلُودُنَ أَلْسِنَتُهُمْ بِالْكِتَابِ لِئَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ الآية [آل عمران: ٧٨] فهم إنما حرفوا ذلك، وبدلوه، لتسلم لهم تلك الأموال؛ فذلك أكل بباطل لأنهم خافوا ذهاب تلك المنافع والأموال إذا أسلموا.

فيجوز أن يكون إنما سماهم أرباباً في الآية الأولى لما جعلوا أموالهم أموالاً لأنفسهم وأنفسهم عبيداً لهم، فهم كالأرباب لهم.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَتَّقُوا اللَّهَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يختل أن يكون هذا صلة ما قال، ﴿يَأْتِكُونُ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي أخذوا أموالهم لصد الناس عن سبيل الله، وكنزوها، ولم يتقوها في سبيل الله، إنما أنفقوها لصد الناس عن سبيله.

ومن الناس من حمل الآية في منع الزكاة؛ روي في الأخبار عن رسول الله ﷺ وعن بعض الصحابة، رضوان الله عليهم أجمعين «أن كل مال أديت الزكاة عنه فهو ليس بكنز، وإن كان^(٣) تحت سبع أرضين، وكل مال لم تؤد زكاته^(٤) فهو كنز، وإن كان على وجه الأرض» [أبو داود ١٥٦٤] ومن أصحابنا من اشتد بلزوم ضم الفضة والذهب بغضه إلى بعض في الزكاة في هذه الآية لأنه ذكر كنز الذهب والفضة جميعاً، والحق الوعيد بترك الإنفاق من الفضة بقوله: ﴿وَلَا يَتَّقُوا اللَّهَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فلو لا أن الضم واجب، أو يكون المؤدَّى عن أحدهما مؤدَّى عن الآخر، وإلا لم يكن لذلك^(٥) معنى.

ثم في متعارف الناس أنهم يؤدُّون من الفضة عن الذهب لأن الذهب أعز عندهم، والفضة دونه.

ثم إن كانت الآية في الكفرة فهو في القبول كقوله: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥] وقوله: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [فصلت: ٧] وذلك على القول لا في الأداء نفسه.

الآية ٣٥

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ الآية جعل الله تعذيب الكفرة في الآخرة بالأسباب التي منع عنهم^(٦) عن طاعة الله، ودعوتهم إلى مخالفة أمره، ويجمع بينهما في النار كقوله: ﴿وَمَنْ يَعْشَ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦] وقوله: ﴿لَا تَحْزَنْ أَلِئِنَّ ظَلَمُوا وَآزَلْتَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢] ونحو ذلك. فعلى ذلك ما كنزوا ﴿يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ يعذبهم بها لما منع عنهم تلك الأموال عن طاعته، ودعوتهم إلى صد الناس عن سبيل الله، يجعل عذابهم في الآخرة بها.

ويختل قوله ﴿جِبَاهُهُمْ﴾ كناية عن التقديم إلى الآخرة أي لم يقدموها، ولم يتقوها في سبيل الله، وقوله: ﴿وَجُوبُهُمْ﴾ إما أخذوها مما يحل ومما لا يحل من كل جهة، وقوله: ﴿وُظُهُورُهُمْ﴾ إما أنفقوها في الصد عن سبيل الله.

ويختل ذكر هذا إحاطة العذاب بهم من كل الجهات كقوله: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ بَهَادٌ وَمِنْ قُرُونِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١] وقوله: ﴿لَهُمْ مِنْ قُرُونِهِمْ ثُلَلٌ مِنْ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ثُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦] أي يحيط العذاب بهم. فعلى ذلك هذا، والله أعلم، وكقوله: ﴿أَفَمَنْ يَبْقَى بِوَجْهِهِ سَوَاءٌ أَلْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الزمر: ٢٤] أي يحيط بهم حتى لا يقدروا على رفعه عن وجوههم.

(١) من م، في الأصل: فهو. (٢) من م، في الأصل: لان الكفر. (٣) في الأصل: رم: أدى. (٤) في الأصل: وم: الزكاة. (٥) في الأصل: وم: كذلك. (٦) في الأصل: وم: منعهم.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ عَلَيْهَا فِي نَارٍ جَهَنَّمَ﴾ الآية. روي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي حقها إلا جعلت له يوم القيامة صفائح، ثم أحيت عليها في نار جهنم، ثم يُكوى بها جبينه وجنبهته وظهوره ﴿وَيَوْمَ كَانَ يُقَادَرُ خَمِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] حتى يُقضى بين الناس فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار» [مسلم ٢٦/٩٨٧] وقال^(١): «ما من صاحب بقر ولا غنم لا يؤدي حقها إلا أتى يوم القيامة تظوره بأظلافها وتنطقه بقرونها» [بنحوه البخاري ١٤٠٢] ثم ذكر فيه ما ذكر في الأول، فقالوا^(٢): يا رسول الله فصاحب الخيل؟ قال: «هي لثلاث: لرجل أجز ولرجل ستر ولرجل وزر؛ فاما من ربطها عدّة في سبيل الله فإنه لو طوّل لها / ٢١٣ - / في مزج خصيب أو في روضة خصيبة كتب الله له عدّة ما أكلت حسنة وعدّة أزوايتها حسنة، ولو انقطع طولها له ذلك، فاستثنت شرفاً أو شرفين كتب الله له عدّة آثارها حسنة، ولو مرث بنهر نجّاج^(٣)، يريد السقي به، فشرّبت منه كتب الله له عدّة ما شرّبت حسنة. ومن ارتبطها فخراً وعزاً على المسلمين كانت له بوراً^(٤) يوم القيامة. ومن ارتبطها تغنياً وتغففاً، ثم لم ينس حق الله في رقابها وظهورها كانت له ميراثاً من النار يوم القيامة» [الطحاوي في شرح معاني الآثار ٥٣٣٧].

فإن ثبت هذا الخبر عن رسول الله ﷺ ففيه دلالة وجوب الزكاة في الخيل، وهو حجة لأبي حنيفة لأنه قال: «ثم لم ينس حق الله في رقابها وظهورها» والحق الذي في رقابها هو [الزكاة]، والذي في ظهورها هو^(٥) الجهاد عليها، والله أعلم.

الآية ٣٦

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ من الناس من يقول: إن الشهور كانت اتبست عليهم، واختلطت لكثرة ما كانوا يؤخرونها، ويقدمونها، حتى لو لم يكونوا يعرفون الشهور بعينها كل شهر على حدة.

فخطب رسول الله ﷺ بمكة بالموسم، فقال: «ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض. السنة اثنا عشر شهراً؛ منها أربعة حرم: ثلاثة متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرّم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان ثم قال لهم: أي بلد هو؟ وأي شهر هو؟ وأي يوم هو؟ قالوا: بلد حرام وشهر حرام ويوم حرام. ألا بئلت؟ قالوا: بلى، فقال: اللهم اشهد» [البخاري ٤٦٦٢] وفي بعض الأخبار زيادة؛ فقال: ألا وهاكأ الشيء زيادة في الكفر فيسئل به الذين كفروا» الآية [التوبة: ٣٧].

وقالوا: وذلك أنهم كانوا يجعلون صفر عاماً وحراماً عاماً خلافاً، فكان النسيء من الشيطان. وصفت رسول الله ﷺ في هذه الأحاديث الأشهر، وبينها، فدل ذلك على أن النبي كان يحرم القتال فيها على ما كان أهل الجاهلية يحرمونه. وزاد ذلك بياناً يعيب أصحاب النسيء إذ^(٦) كانوا يستحلون القتال في المحرم ويؤخرونه إلى صفر، فيحرمون صفر مكان المحرم، فعاب الله عليهم تحليل ما حرم من الشهر، وجعله زيادة في الكفر وقال: ﴿يُولَئِكَ عَامًا يُكَفِّرُونَ عَامًا يُولَئِكَ عِدَّةٌ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٣٧] أي عدة الأشهر الأربعة التي حرمها الله. وقال: ﴿يُولَئِكَ عِدَّةٌ مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ شَوْءٌ أَسْكَلَهُمْ﴾ [التوبة: ٣٧].

ومنهم من قال: إن الله جعل عدة الشهور اثني عشر [شهرًا]^(٧) بالأهلة على ما عرفت العرب على ما وقفوا على معرفة ذلك، ولم يوقف غيرهم، وإنما يعدون السنة بالأيام، والعرب تعرفها بالأهلة [على]^(٨) ما خلقها الله ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حَرْمٌ ذَلِكَ الَّذِينَ الْقَيْمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِ أَنْفُسَكُمْ﴾.

قال بعضهم: في الأشهر كلها لما جعل هذه الأشهر شهوداً عليهم يشهدون بما يعملون فيها من المعاصي والخيرات، وبها تنقضي آجالهم؛ يُخبر الآ تظلموا في هذه الأشهر التي تأتي بكم بكل خير وبكل نعمة، فإنها تنصرف بما يعملون فيها من الخير والشر.

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: قالوا. (٣) في الأصل وم: عجاج لا. (٤) في الأصل وم: وزر. (٥) من م، ساقطة من الأصل.

(٦) في م: إذا. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من م، ساقطة من الأصل.

وقال بعضهم : قوله ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي في الأربعة الحرم . خص الأربعة ، وإن كان الظلم في الأشهر كلها لا يُحمد على ما ^(١) [خص مكة بترك الظلم حراماً في الأماكن كلها كقوليه : ﴿سَوَاءٌ أَلَمِكُمْ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَمِ يُظْلَمْ﴾ الآية [الحج : ٢٥] أي لا تقابلوا فيها ؛ إذ كل ظلم .

وقوله تعالى : ﴿ذَلِكَ الَّذِينَ الْفَسِمُ﴾ قيل : ذلك الحساب حساب الأشهر قيم أي صحيح مستقيم على ما خلقه الله . وقيل : الحساب ، هو القضاء العادل .

وقوله تعالى : ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ كتاب الله اللوح المحفوظ على ما قيل : ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي في حكم الله ذلك .

وقوله تعالى ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ ما ذكرنا من اللوح المحفوظ : أن ذلك عند الله لم يُطلع عليه غيره . ويَحْتَمِلُ ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي في علمه على ما عرفته العرب ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُنَازِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ يَحْتَمِلُ قوله ﴿كَافَّةً﴾ أي مجتمعين ^(٢) أي قاتلوهم مجتمعين على ما يقابلونكم هم مجتمعين . ويَحْتَمِلُ ﴿كَافَّةً﴾ أي جماعة . ويَحْتَمِلُ ﴿كَافَّةً﴾ إلى الأبد إلى يوم القيامة ؛ أي قاتلوهم إلى الوقت الذي يقابلونكم ﴿كَافَّةً﴾ وأعلموا أن الله مع المؤمنين في النصر والمعونة .

الآية ٣٧

وقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ الرَّبُّ وَبِآيَاتِهِ يَتَنَبَّأُ بِكُمُ الْغَيْبُ﴾ الآية كان هذه الآية والتي ^(٣) قبلها : [وهي] ^(٤) قوله : ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ في مشركي العرب ، وسائر الآيات التي قبلها ، وهي ^(٥) قوله : ﴿اتَّخِذُوا أَسْبَاطَكُمْ وَرَبِّكُمْ أَزْكَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة : ٣١] وقوله : ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْيَارِ وَالرَّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ [التوبة : ٣٤] في أهل الكتاب .

يُخْبِرُ أن ملوك العرب اتَّخَذُوا أَنْفُسَهُمْ أَرْبَابًا وَالْأَتْبَاعَ عبيداً مِنْ دُونِ اللَّهِ حتى يتبعوهم ^(٦) في جميع ما يُجْلُونَهُ ، ويُحَرِّمُونَهُ كما أن اليهود والنصارى اتَّخَذُوا أَنْفُسَ أَوْلِيَّائِهِمْ عبيداً . فكانه قال للمؤمنين : إن ملوك العرب وأخبار اليهود ورهبان النصارى اتَّخَذُوا أَنْفُسَهُمْ أَرْبَابًا وَالْأَتْبَاعَ عبيداً ، فأنتم يا معشر المؤمنين لا تتخذوا أنفسكم أرباباً والأتباع عبيداً .

الآية ٣٨

ألا ترى أنه قال في الآية التي تلي ^(٧) هذه : ﴿يَتَأْتِيهَا الْبُزُوفُ مَاسِيًا﴾ الآية : ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَسَبَّحُوا لِلَّهِ فِي سُبُلِ اللَّهِ أَلَّا تَقْلُتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضَيْتُمْ؟﴾ قال بعضهم : الآية في المنافقين الذين تخلفوا عن رسول الله في غزوة تبوك كقوليه : ﴿وَمَنْ حَوْلَكُمُ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ الآية [التوبة : ١٠١] فيهم [من] ^(٨) ذكر ذلك الوعيد .

وقال بعضهم : الآية في المؤمنين أمروا أن ينفروا ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَلَّا تَقْلُتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ قيل : استغفلتم الثغر في سبيل الله ^(٩) [الله] وأقمتم . ويَحْتَمِلُ الثَّاقِلُ ، وهو ^(١٠) أن يروا من أنفسهم الثقل من غير أن قاموا كما يقال : يتصامم ، ويتعامى من غير أن كان به الصمم أو العمى ، ولكن لما يرى من نفسه ذلك .

وقال بعض أهل الأدب : قوله : ﴿أَلَّا تَقْلُتُمْ﴾ [أي تفاقمتم] ^(١١) وركنتم إلى المقام ، وذلك في القرآن كثير كقوليه : ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَذَارَكُمْ فِيهَا جَيْبًا﴾ [الأعراف : ٣٨] أي تداركوا .

وقوله تعالى : ﴿أَرَضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي ما متعكم في الدنيا قليل بما وعد أن يمتعكم في الآخرة .

(١) في الأصل : كله لا يحمد عاماً ، في م : كله لا يحمد على ما . (٢) في الأصل وم : مجتمعون . (٣) الواو ساقطة من الأصل وم . (٤) ساقطة من الأصل وم . (٥) في الأصل وم : وهو . (٦) في الأصل وم : يتبعونهم . (٧) في الأصل وم : تتلو . (٨) ساقطة من الأصل وم . (٩) من م ، ساقطة من الأصل . (١٠) الواو ساقطة من الأصل وم . (١١) من م ، ساقطة من الأصل .

أو أن يقال: متاع الحياة الدنيا من أولها إلى آخر ما تنتهي أقل^(١) من متاع الآخرة وكراماتها لأن كرامات الدنيا على شرف الزوال وكرامات الآخرة على الدوام أبداً
أو أن يقول: متاع الحياة الدنيا أقل^(٢) من متاع الآخرة لأن متاع الدنيا ومنافعها تشوبه الآفات والمضرات، ومتاع الآخرة لا تشوبه الآفات والمضرات.

وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَكُمُ الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية عاتب المؤمنين بالشاغل والإخلال^(٣) إلى الأرض ونهاهم عن الركون إلى الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّيُّ بِيَدِكُمْ﴾ أي لما أخذت أولئك الملوك من تحليل ما حرم الله وتحرير ما حلل الله زيادة في كفر أولئك أخذوا من وقت إحدائهم.

وقوله تعالى: ﴿يُسْأَلُ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يختل وجهين: يختل ﴿يُسْأَلُ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي يهلك به الذين كفروا أي الذين أخذوا. أو يختل ﴿يُسْأَلُ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي ما أخذت أولئك الملوك إنما أخذوا ليضل به الاتباع، يجلونه.

فأما ما ذكر في القصة أنهم كانوا يستحلون المحرم عاماً، فيصيبون فيه الدماء والأموال، ويحرمونه عاماً فلا يستحلون فيه الدماء والأموال.

وقوله تعالى: ﴿لِيُؤْطَقُوا﴾ ٢١٣ - ب/ عِدَّةً مَا حَرَّمَ اللَّهُ قِيلَ: لِيُؤْطَقُوا عِدَّةً مَا حَرَّمَ اللَّهُ: كَانَ عَنْدهُمْ أَنَّ التَّحْرِيمَ إِنَّمَا كَانَ بِعَدَدِ الْأَشْهُرِ لِلْأَشْهُرِ، فَحَفِظُوا عِدَّةَ الْأَشْهُرِ، وَلَمْ يَحْفَظُوا الْوَقْتَ. وَذَلِكَ تَأْوِيلُ قَوْلِهِ: ﴿لِيُؤْطَقُوا عِدَّةً مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ رَبُّكَ لَهُمْ سَوَاءٌ أَفْعَلْتُمْ﴾ أي زين تأخير المحلل وتقديم المحرم ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ قِيلَ: لَا يَهْدِيهِمْ وَقْتَ اخْتِيَارِهِمُ الْكُفْرَ، أَوْ لَا يَهْدِيهِمْ فِي الْآخِرَةِ طَرِيقَ الْجَنَّةِ لِكُفْرِهِمْ فِي الدُّنْيَا. وَقَدْ ذَكَرْنَا تَأْوِيلَهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ.

قال أبو عوسجة: النسيء التأخير؛ يقال: نَسَأْتُ الشَّهْرَ أَي أَخَّرْتُهُ، وَيُقَالُ: أَنْسَأَ اللَّهُ فِي أَجَلِكَ أَي أَخَّرَ اللَّهُ، وَقَوْلُهُ: ﴿لِيُؤْطَقُوا﴾ وَالْمَوَاطَاةُ: أَنْ يُدْخِلُوا شَهْرًا مَكَانَ شَهْرٍ، وَهُوَ التَّنَائُعُ؛ يُقَالُ: تَوَاطَأَ الْقَوْمُ عَلَى حَدِيثٍ كَذَا وَكَذَا أَي تَنَابَعُوا، وَوَاطَأْتُ فَلَانًا أَي تَابَعْتُهُ.

وقال القتيبي: النسيء التأخير، وكانوا يؤخرون تحريم المحرم منها سنة، ويحرمون غيره مكانه لحاجتهم إلى القتال فيه، ثم يردونه إلى التحريم في سنة^(٤) أخرى؛ كأنهم يستثنون ذلك ليواطئوا أي ليوافقوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ بِقَوْلٍ: إِذَا حَرَّمُوا مِنْ الشُّهُورِ عِدَّةَ الشُّهُورِ الْمُحَرَّمَةِ لَمْ يَنَالُوا أَنْ يُحِلُّوا الْحَرَامَ، وَيُحَرِّمُوا الْحَلَالَ.

الآية ٢٩ وقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْفَرُوا يَمُذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فَإِنْ كَانَتِ الْآيَةُ فِي الْمُنَافِقِينَ فَهِيَ ظَاهِرَةٌ، وَإِنْ كَانَتْ فِي الْمُؤْمِنِينَ فَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿إِلَّا تَنْفَرُوا يَمُذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يَجْلِبُ بِهِمْ. وَلَمْ يُبَيِّنْ مَا ذَلِكَ الْعَذَابُ؟

وقال بعضهم: شدد الله الوعيد في تركهم النفر والخروج في سبيل الله على ما شدد يندر في التولية الدبر بقوله: ﴿وَمَنْ يُؤْمَرْ بِالْفِئَاءِ فَلْيُؤْفِقْ وَلَا يُمْسِكْهُ إِلَّا مُسْحَقًا﴾ الآية [الأنفال: ١٦] غير أنه شدد يوم [بذرا]^(٥) لما لم يكن ملجأ، وكان يفارهم يفار نفاق. وههنا شدد لغير ذلك لوجوه:

أحدها: لما في تخلف المؤمنين عنه موضع العذر للمنافقين بالتخلف عنه أنهم [تخلفوا]^(٦) للعذر، فتحن تخلف أيضاً للعذر، ولنا في ذلك عذر.

والثاني: يكون للكفار موضع الاحتجاج عليهم؛ يقولون: إنهم يرغبوننا في الآخرة، ويحثوننا في ذلك، ثم إنهم ينفرون عن ذلك، ويرغبون عنه.

(١) في الأصل وم: قليل. (٢) في الأصل وم: قليل. (٣) في الأصل وم: بالخروج. (٤) في الأصل وم: صفة. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم.

والثالث: يكون في تخلفهم الشوكة على المسلمين؛ إذ يقولون^(١) إذا تخلفوا.

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [على ما استبدلكم يا أهل مكة، فينصروهم]^(٢) وقال بعض أهل التأويل: ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾^(٣) أي ينشئ قوماً غيركم. لكن تأويل الأول أشبه. ألا ترى أنه قال في آخره: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ؟﴾ [التوبة: ٤٠]

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْصُرُوهُ شَيْئًا﴾ هو ما ذكرنا أي لا تنصروا رسول الله بالتخلف عنه. وقال بعضهم: لا تنصروا الله شيئاً. والأول أشبه لما ذكرنا.

الآية ٤٠

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ يقول: إن لم تنصروا رسول الله، فالله ينصره على [ما]^(٤) نصره في الوقت الذي كان في الغار لم يكن معه أحد من البشر إلا واحد، فإن لم تنصروه فالله كافيه في النصر [على ما كفاه، ونصره]^(٥) في الحال التي لم يكن معه بشر إلا واحد. فاليوم، ألا ينصره ومعه من الأنصار والأعوان ما لا يخصى؟ وكان ما استنفرهم رسول الله، وأمرهم بالخروج إلى العدو، ولم يكن يستنفرهم لِمكان نفسيه؛ إذ يعلم أن الله كافيه في نصره، ولكن إنما يستنفرهم^(٦)، ويأمرهم لِمكان أنفسهم ليكتسبوا قرباً وثواباً عند الله ورضاه.

ألا ترى أنه قال: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوا بِذُنُوبِكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وقال: ﴿وَلَا تَنْصُرُوهُ شَيْئًا﴾؟ [التوبة: ٣٩] أي إن لم تنصروا، ولم تنصروا رسول الله، فلا تنصروه شيئاً، إذ الله كافيه في نصره. وإنما غايتهم بترك النفر والخروج ليتركوا إلى الدنيا، وحُبهم إياها هو الذي منعهم عن اتباع محمد، وهو الذي حملهم على الكفر بالله والتكذيب لرسوله وترك الإجابة له في ما يدعوهم إليه.

فيقول، والله أعلم، للمؤمنين: لا تركنوا إلى الدنيا، ولا ترضوا بها عن الآخرة ليمنعكم ذلك عن النفر والخروج إلى ما يأمركم رسول الله ﷺ على ما منع أولئك الكفرة على ما ذكرنا.

واضله: أنه إنما استنصرهم لا لحاجة له إلى نصرهم؛ إذ هو قادر أن ينصر رسوله بما شاء، لكن طلب منهم النصرة لِيكتسبوا بذلك ثواباً لأنفسهم وما ذكر في الأجل. وكذلك ما طلب منهم الشكر لِيُعْمِدُوا على نعيمه لحاجة له في ذلك، ولكن لِيستديموا النعمة، ويصلوا إلى الباقية الدائمة.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ واضطروه إلى الخروج حين هموا بقتله حتى خرج من بين أظهرهم.

وقوله تعالى: ﴿ثَانِيكًا آتَيْنِ﴾ أي لم يكن معه من البشر إلا واحد ليغلبوا أن النصر لم يكن باحداً من البشر، إنما كان بالله تعالى؛ إذ بالواحد لا تكون النصرة والحفظ من الوفاء أو يذكر فضل أبي بكر، وكان هو ثانيه في كل أمره.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ﴾ لم يكن حزن أبي بكر على نفسه، ولكن إشفافاً على رسول الله ﷺ أن يصاب. وكذلك روي في الخبر أنه قال لرسول الله: يا رسول الله إنك إن نضب يذهب دين الله، ولن يُعبد الله على وجه الأرض.

وفي بعض الأخبار أن أبا بكر كان يتكى إشفافاً على رسول الله، فقال له رسول الله: ما يتكىك؟ فقال ما ذكرنا، فقال له: يا أبا بكر: «ما ظنك باثنين، ثالثهما الله؟» [البخاري ٤٦٦٣].

وقيل: إنهما [لما]^(٧) أتيا باب الغار، سبق أبو بكر، فدخل الغار، وكان الغار معروفاً بالهوام، فآلقهما أبو بكر قديمه، فأطال ذلك، فقال: إن كان فيه شيء بدا [نادني، أو كلاماً]^(٨) نحو هذا، والله أعلم.

[وقوله]^(٩) تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ ليس ينهي عن الحزن، ولكن على تخفيف الأمر عليه، وتيسير الحال التي هو عليها.

(١) من م، في الأصل: يلقون. (٢) في الأصل: فينصرونه. (٣) ساقطة من م. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: يستنفر. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: لي أو كلام. (٩) ساقطة من الأصل وم.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتُهُ عَلَيْهِ﴾ قيل: أنزل سكينته على أبي بكر حين قال رسول الله ﷺ ما ظنك بانيين ثالثهما الله؟ حتى سكن قلب أبي بكر من الخوف على رسول الله. وقال بعضهم: أنزل السكينة على رسول الله؛ فهو يخرج على وجهين: أحدهما: أنه أنزل السكينة عليه^(١) حتى رأى هو جنوداً لم يروها هم حين^(٢) قال: ﴿وَأَيُّكُمْ يَجُتَوُّ لَمْ تَرَوْهَا﴾ والثاني: [أنه]^(٣) أنزل سكينته بالحجج والبراهين. لكنه إن كان ما ذكر فهو قد أنزل السكينة عليه في البدء، ولأنه كان رسول الله، لا يخاف سوى الله، وتعلم أنه ينصره. وكذلك روي عن ابن عباس [أنه]^(٤) قال: فأنزل سكينته على أبي بكر لأن النبي لم تزل السكينة معه، وهو أشبه. وقوله تعالى: ﴿وَأَيُّكُمْ يَجُتَوُّ لَمْ تَرَوْهَا﴾ يَحْتَمِلُ في ذلك الوقت، وَيَحْتَمِلُ في الغزوات التي نصره بالملائكة يوم بدر وغيره؛ يُخْبِرُ أنه قادر أن ينصره لا بالسر ليعلّموا أنه إنما يأمرهم بالتفري لا لينصر رسول الله، ولكن ليكتسبوا بذلك ما ذكرنا من الثواب.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ أي مكر الله بهم^(٥) ونصره رسوله هي العليا كقوله: ﴿وَرِثَ يَنْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية [الأنفال: ٣٠] وَيَحْتَمِلُ قوله: ﴿كَلِمَةُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ دينهم الذي يدينون به ومذهبهم الذي ينتحلونه ﴿السُّفْلَى﴾ أي جعل تلك السفلى بالحجج، وجعل دين محمد ﴿هِيَ الْعُلْيَا﴾ بالحجج والبراهين على ذلك على ما كان. وَيَحْتَمِلُ قوله ﴿كَلِمَةُ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى﴾ أي جعل أهل كلمة^(٦) ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هم السفلة^(٧) وأهل دين الله هم الأغلّون كقوله: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَغْلَوْنَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

الآية ٤١ وقوله تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ اخْتُلِفَ فِيهِ/ ٢١٤ - قيل: شباباً وشيوخاً، وقيل: مَرْضَى وأصحاء، وقيل: مشاغيل وغير مشاغيل، وقيل: فقراء وأغنياء، وقيل: نشاطاً وغير نشاط. وأصله: ﴿انْفِرُوا﴾ مستخفين ومستقلين؛ أي انفروا خفّ عليكم الخروج أو ثقل، وما ذكر أهل التأويل من الشيخرة والسفلى والفقير والمريض لأن ذلك بالذي يُثْقَلُ الخروج والنصر، وأصله ما ذكرنا ﴿انْفِرُوا﴾ خفّ عليكم ذلك أو ثقل. وقوله تعالى ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ انفروا خفّ على النفس أو ثقل، أو خفّ على الطبع، أو ثقل، أو خفّ على العقل أو ثقل.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في الدنيا والآخرة. أي اعلّموا أن ذلك خير لكم من المقام وترك التفري وإن كنتم تملكون.

الآية ٤٢ وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ﴾ قال بعض أهل التأويل: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾ أي غنيمة قريبة ﴿وسفراً قاصداً﴾ أي هيناً ﴿لَاتَّبَعُوكَ﴾ في غزواتك^(٨) ﴿ولكنكم بعدت عنهم الثقة﴾ يعني الميسر، وقيل: العرض: الدنيا ﴿وسفراً قاصداً﴾ ليس فيه مشقة.

وأصل قوله: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾ أي منافع حاضرة ﴿وسفراً قاصداً﴾ أي منافع غائبة، والعرض المنافع. يقول: لو كانت لهم منافع حاضرة أو منافع غير حاضرة ﴿لَاتَّبَعُوكَ﴾ في ما استتبعتمهم لأن عادتهم اتباع المنافع؛ يعني المنافقين كقوله: ﴿وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ [الحج: ١١] أخبر أنهم يعبدون الله على حرف؛ وهو ما ذكر ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ﴾ فمن عادتهم أنهم إنما يتبعون المنافع، وإليها يعملون.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من م. (٦) في الأصل وم: الكلمة. (٧) في الأصل وم: السفلى. (٨) في الأصل وم: غزائك.

وأما المؤمنون فإنهم يعبدون الله في كل حال: في حال السعة وفي حال الضيق، ويتبعون رسول الله، ولا يفارقونه، كانت لهم منافع، أو لم تكن، أصابتهم مشقة، أو لا؛ هم لا يفارقون رسول الله على كل حال.

وقوله تعالى: ﴿وَسَيَخْلِفُونَهُ أَتَى لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ أي لو كان لنا ظهر وسلاح ﴿لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ ولو كان [معنا]^(١) زاد وما نشتري ما نحارب به ﴿لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾.

ثم أخبر أن لهم استطاعة على ذلك، وأنهم كاذبون أنه لا استطاعة لهم حين^(٢) قال: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا لَهُ عُدَّةٌ﴾ [التوبة: ٤٦].

وقالت المعتزلة: دل قوله: ﴿لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ أن الاستطاعة تتقدم الفعل لأنه أخبر أنهم كاذبون في ما يقولون: إنه ليس معنا ما نشتري، وما نشتري به السلاح. لكننا نقول: إن الاستطاعة على وجهين: استطاعة الأسباب والأحوال واستطاعة الأفعال.

واستطاعة الأسباب والأحوال يجوز أن تتقدم، وهذه الاستطاعة هي استطاعة الأسباب والأحوال. ألا ترى أنه قال ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا لَهُ عُدَّةٌ﴾؟ [التوبة: ٤٦].

ومن قولهم أيضاً: أن استطاعة الأفعال لا تبقى أوقاتا. ثم إن هذه أخبر أنها كانت باقية أوقاتا. دل أنها استطاعة الأسباب والأحوال.

وقوله تعالى: ﴿يُحِلُّونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ قيل ﴿يُحِلُّونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ بإيمانهم الكاذبة أنهم لا يستطيعون. وقيل: ﴿يُحِلُّونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ بتزكيتهم الخروج لأنهم يقتلون إذا تركوا الخروج كقوله ﴿مَلْعُونَةٌ﴾ الآية [الأحزاب: ٦١]. ويختل ﴿يُحِلُّونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ في الآخرة ينفقهم في الدنيا.

الآية ٤٣

وقوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ بالتخلف ﴿حَقٌّ يَبَيِّنُ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمُ الْكَذِبِينَ﴾ أي يظلمك الله على نفاقهم، فيكون ذلك آية من آيات النبوة^(٣): إن لم تأذن لهم بالتخلف، أو إن تأذن^(٤) لهم يبين لك نفاقهم؛ لأنهم يتخلفون، ويفارقونك، وإن لم تأذن لهم، والذين صدقوا لا يفارقونك؛ فيبين هؤلاء من هؤلاء، ويظهر كذب هؤلاء من صدق هؤلاء المؤمنين.

وفي قوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ﴾ دلالة أن النبي إنما أذن لهم بالتخلف بلا أمر. وفيه دلالة العمل بالاجتهاد لأنه لو كان أذن لهم بالتخلف بالأمر لم تكن إجابته على الإذن. دل أنه إنما أذن لهم بالتخلف بالاجتهاد لما ظن أنهم إنما يستأذنونهم بالقعود للعذر.

فإن قيل: كيف عاتب رسول الله بما أذن لهم بالقعود، وقد أخبر أنه إنما كان يحكم بما أراه الله بقوله: ﴿لَتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَى اللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥] قيل: يختل أن إنما عاتبه على ترك [الأفضل لأن ترك]^(٥) الإذن لهم بالقعود أفضل من الإذن؛ إذ به يبين له الصادق من الكاذب، ويكون فيه آية من آيات الرسالة. ويجوز أن يعاتب على ترك الأفضل.

ويختل أن يكون قوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ تعليماً من الله أن كيف يعامل الناس بعضهم بغضاً؟ ليس على العتاب.

ومن الناس من استدلل على تفضيل رسول الله على غيره من الأنبياء، صلوات الله عليهم، بهذه الآية لأنه يذكر العفو، وكذلك في جميع ما ذكر من العتاب لم يذكر زلته، وذكر في سائر الأنبياء الزلات.

الآيتان ٤٤ و ٤٥

وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَنْدِثُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ بالتخلف لغير عذر ﴿إِنَّمَا يَسْتَنْدِثُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ بالقعود لغير عذر ﴿وَأَزَلَّتْ قُلُوبُهُمْ فَمَا فِي رَبِّهِمْ بَرْدَدٌ﴾.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) من م، في الأصل: الله. (٤) أدرج قبلها في الأصل وم: لم. (٥) من م، ساقطة من الأصل.

وعن الحسن [أنه]^(١) قال: ﴿لَا يَسْتَعْدُونَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿بَرَزُوا لَكَ﴾ نَسَخَهَا الآية التي في سورة النور: ﴿إِنَّمَا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا الْإِنِّ الَّذِينَ يَسْتَعْدُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَبُزُّونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الآية ٦٢] لكن هذا لا يُحْتَمَلُ لانه ذَكَرَ أَنَّ سورة التوبة مِنْ آخِرِ مَا نَزَلَتْ، أَوْ أَنَّهُمْ إِذَا كَانُوا فِي أَمْرِ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا إِلَّا بَعْدَ الْإِسْتِثْنَانِ لَأَنَّهُمْ كَانُوا يُظْهِرُونَ الْمَوَاقِفَ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الْأُمُورِ الْجَامِعَةِ، وَأَمَّا فِي الْخَلَوَاتِ فَلَا.

[الآية ٤٦] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا لَهُ عُدَّةً﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ عَلَى مَا قَالَه أَهْلُ التَّأْوِيلِ: أَمَرُوا بِالْخُرُوجِ وَالتَّأَهُبِ لِلْغَزْوِ؛ فَعَزَمُوا أَلَّا يَخْرُجُوا، فَعُوِيُوا عَلَى ذَلِكَ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ فِي جَمِيعِ الْغَزَوَاتِ؛ عَزَمُوا، وَاعْتَقَدُوا أَلَّا يَخْرُجُوا، وَلَا يَتَأَهَّبُوا لَهُ قَطُّ، فَقَالُوا: ﴿لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ [التوبة: ٤٢] فَاتَّخَذَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: ٤٢]^(٢) وَأَنَّهُمْ أَغْنَاءُ، لَكُنْهُمْ عَزَمُوا أَلَّا يَخْرُجُوا، وَلَا يُعِدُّوا لَهُ عُدَّةً، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ أَيْمَانَهُمْ﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿كَرِهَ اللَّهُ أَيْمَانَهُمْ﴾ أَي لَمْ يَرْضَ اللَّهُ بِخُرُوجِهِمْ وَأَيْمَانِهِمْ. ثُمَّ بَيَّنَّ الْوَجْهَ الَّذِي لَمْ يَرْضَ مَا ذَكَرَ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة: ٤٧] أَي فَساداً. لَمْ يُرِدِ اللَّهُ خُرُوجَهُمْ لِمَا عَلِمَ مِنْهُمْ أَنَّهُ لَا يَزِيدُ خُرُوجَهُمْ فِي الْجِهَادِ إِلَّا مَا ذَكَرَ مِنَ الْخَبَالِ وَالْفَسَادِ.

وقوله تعالى: ﴿فَنَبِّئْهُمْ﴾ قِيلَ: حَبَسَهُمْ؛ أَي إِذْ^(٣) عَلِمَ مِنْهُمْ أَنَّ خُرُوجَهُمْ وَأَيْمَانَهُمْ [لَا يَزِيدُهُمْ]^(٤) إِلَّا فَساداً حَبَسَهُمْ. وَيَحْتَمِلُ: أَنْ خَلَقَ مِنْهُمْ الْفِعْلَ الَّذِي كَانَ مِنَ الْكَسَلِ وَالتَّأَثُّلِ.

وفيه دلالة خَلَقَ اللَّهُ فِعْلَ الشَّرِّ. وَيَكُونُ فِي ذَلِكَ خَيْرٌ^(٥) لِعَبِيدِهِ، وَإِنْ كَانَ شَرًّا لَهُمْ. فَعَلَى ذَلِكَ خَلَقَ فِعْلَ الْمَعْصِيَةِ مِنَ الْعَاصِي^(٦)، وَهُوَ شَرُّ لَهُ، وَيَكُونُ ذَلِكَ خَيْرًا لِعَبِيدِهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ أَفَسُدُّوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿وَقِيلَ أَفَسُدُّوا﴾ لَمَّا اسْتَأْذَنُوا رَسُولَ اللَّهِ بِالْقَعْدِ أَوْ لَمَّا فِي ذَلِكَ عَلَى مَا وَقَعَ عِنْدَهُ أَنَّ لَهُمْ عُذْرًا فِي ذَلِكَ. وَإِنْ كَانَ مِنَ اللَّهِ ﷻ فَهُوَ عَلَى التَّهْدِيدِ وَالتَّوَعُّدِ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الشَّيْطَانِ؛ وَسُوسَ إِلَيْهِمْ أَنْ أَفْعُدُوا تَرْغِيًّا مِنْهُ إِيَّاهُمْ بِالْقَعْدِ وَالتَّخَلُّفِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[الآية ٤٧] وقوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ أَي لَوْ كَانُوا خَرَجُوا فِيكُمْ. أَلَّا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿وَلَكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ أَيْمَانَهُمْ فَنَبِّئْهُمْ﴾؟ [التوبة: ٤٦] دَلَّ هَذَا أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا خَرَجُوا. وَلَوْ كَانُوا خَرَجُوا لَمْ يَكُنْ نَبِّئْهُمْ. دَلَّ أَنَّهُ مَا ذَكَرْنَا وَالْإِنْبِعَاثُ هُوَ الْخُرُوجُ، وَكَذَلِكَ فِي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ: وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ خُرُوجَهُمْ، وَالتَّشْيِيطُ الْحَبْسُ. وَأَصْلُ التَّشْيِيطِ التَّثْمِيلُ.

وقال أبو عوسجة: الْإِنْبِعَاثُ هُوَ الْقِيَامُ، وَالْخَبَالُ: قِيلَ: الْفَسَادُ وَالشَّرُّ، وَقِيلَ: الْعَفْيُ، وَهُوَ وَاحِدٌ.

وقوله تعالى: ﴿مَا زَادُوكُمْ إِلَّا﴾ كَذَا. تَحْتَمِلُ/٢١٤ - ب/ زِيَادَةُ الْخَبَالِ وَجَوْهًا: تَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونُوا غُيُونًا لِلْعَدُوِّ، وَيُخْبِرُهُمْ عَنْ غَوْرَاتِ الْمُسْلِمِينَ؛ أَوْ كَانُوا يَجِئُونَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ بِقَوْلِهِمْ^(٧): ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣] [وَنَحْوُ ذَلِكَ]^(٨).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْضَعُوا مِلْكَكُمْ﴾ قِيلَ: هُوَ مِنْ إِضْغَاعِ الْإِبِلِ خِلَالَكُمْ، يَتَخَلَّلُ فِي مَا بَيْنَكُمْ. وَقِيلَ: ﴿وَلَا تَرْضَعُوا مِلْكَكُمْ﴾ أَي رَوَّاجِلَهُمْ حَتَّى يَدْخُلُوا بَيْنَكُمْ حَتَّى لَا يُصِيبَهُمْ^(٩) الْأَذَى؛ وَكَانُوا^(١٠) يَسْتَبِيرُونَ بِالْمُسْلِمِينَ لئَلَّا يُصِيبَهُمْ شَيْءٌ مِنَ الْبَلَاءِ وَالشَّدَةِ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: انهم كذبة. (٣) في م: إذا، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: لم يزدكم. (٥) في الأصل وم: خيراً. (٦) في الأصل وم: المعاصي. (٧) في الأصل وم: كقولهم. (٨) في الأصل: ونحو، في م: ونحوه. (٩) في الأصل وم: يصيبكم. (١٠) أدرج بعدها في الأصل وم: لا.

وقال القَتْبِيُّ: ﴿وَلَا وَصَّعُوا عَلَيْكُمْ﴾ مِنَ الْمَوْضِعِ، وهو سُرْعَةُ السَّيْرِ. وقال أبو عوسَجَةَ: هو مِنَ الْإِضْصَاعِ يَكُونُ عَلَى الْإِبِلِ. وهو عُنْدِي: مِنْ عَذْوِ الْإِبِلِ؛ يُقَالُ: أَوْضَعْتُ الْبَعِيرَ، وَرَكَّضْتُ الْفَرَسَ، وَأَجَرَيْتُ الْحِمَارَ، ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بَيْنَكُمْ. وقيل: الْخِلَالُ: الْقِتَالُ، وهو ما ذَكَرْنَا أَنَّهُمْ يُدْخِلُونَ فِيهِمُ النِّقْصَانَ وَالْقِتَالَ وَالْفُشْلَ.

وقوله تعالى: ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ قِيلَ يَبْغُونَ مِنْكُمْ الْفِتْنَةَ، وهو الشُّرْكُ الَّذِي كَانُوا هُمْ عَلَيْهِ. وَيَحْتَمِلُ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْقَتْلِ وَإِدْخَالِ الْفُشْلِ وَالْجُبْنِ فِيهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَكُمْ﴾ هَذَا يَحْتَمِلُ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ يَكُونُونَ سَمَاعاً وَخُبْرًا وَغِيوَنًا؛ يُخْبِرُونَهُمْ عَنْ غَوَايِ الْمُسْلِمِينَ وَضَعْفِهِمْ، وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿وَفِيكُمْ﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿سَمْعُونَ لَكُمْ﴾ الْآيَةُ: قِيلَ: إِنَّهُ كَانَ فِي أَصْحَابِ النَّبِيِّ أَهْلٌ مَحَبَّةٍ لَهُمْ وَطَاعَةٍ لِشَرَفِهِمْ فِيهِمْ.

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه [أنه^(١)] قَالَ: ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَكُمْ﴾ كَانَ الرَّجُلُ يَرَى الْجَمَاعَةَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَيَضْرِبُ دَابَّتَهُ حَتَّى يَدْخُلَ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ يَقُولُ: أَبْلَغْتُكُمْ مَا بَلَّغَنِي أَنَّ الْعَدُوَّ أَمَامَكُمْ غَوَرُوا الْمِيَاءَ، وَقَعَلُوا كَذَا، وَهَبْتُوا؟

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَكُمْ﴾ أَيِ فَبِكُمْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ قَعَدُوا، وَلَمْ يَخْرُجُوا، يَسْمَعُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لَمْ يَخْرُجُوا أَيْضاً مَا يَكْرَهُونَ؛ يَقُولُونَ: الدَّبْرَةُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنَ الْهَزِيمَةِ.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ أَيِ لَا عَنْ جَهْلِ أَهْلِهِمْ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ، وَلَكِنْ أَخْرَجَهُمْ لِيَوْمِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَخَسِبْ أَنَّ اللَّهَ غَفِلٌ﴾ الْآيَةُ [إبراهيم: ٤٢].

الآية ٤٨

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ آتَيْنَا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ﴾ تَحْتَمِلُ الْفِتْنَةُ الْوَجْهَيْنِ اللَّذَيْنِ ذَكَرْنَاهُمَا.

وقوله تعالى: ﴿وَقَلِّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ أَيِ تَكَلَّفُوا، وَاجْتَهِدُوا لِيُظْفِقُوا هَذَا النُّورَ ﴿حَقِّ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ قِيلَ: دِينَ اللَّهِ الْإِسْلَامَ. وَيَحْتَمِلُ حُجَّجَ اللَّهِ وَأِدْلَتُهُ، وهو ما ذَكَرَ: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُبَيِّنَ نُورَهُ﴾ [التوبة: ٣٢].

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ ﴿وَقَلِّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ ظَهراً لِيُظَنَّ لِيُنْكَرُوا بِرَسُولِ اللَّهِ، وَيَقْتُلُوهُ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَرَادَ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ الْآيَةُ [الأنفال: ٣٠].

[وقوله تعالى] ^(٢): ﴿وَقَلِّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ مَا ذَكَرْنَا مِنْ دِينِ اللَّهِ وَحُجَّجِهِ ﴿وَهُمْ كَاذِبُونَ﴾ لِذَلِكَ كَقَوْلِهِ: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [التوبة: ٣٣] فَظَهَرَ دِينَ الْإِسْلَامِ ﴿وَهُمْ كَاذِبُونَ﴾ لَهُ.

الآية ٤٩

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَفْئَدَنِي﴾ فِيهِ دَلَالَةٌ أَنَّهُ لَا كُلَّ الْمُنَافِقِينَ قَالُوا إِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ بَعْضُهُمْ، قَالَ

غَيْرَ هَذَا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا﴾ [قِيلَ فِيهِ بوجهين:

أحدهما:] ^(٣) قِيلَ: وَلَا تُؤْتِنِي، وَقِيلَ: وَلَا تُخْرِجَنِي، وَقِيلَ: وَلَا تُكَفِّرَنِي، وهو واحد. يقول: مَنْ قَالَ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا﴾ أَيِ لَا تَكُنْ سَبَبَ فِتْنَتِي وَمَعْصِيَتِي، أَيِ لَا تَأْمُرَنِي بِالْخُرُوجِ، وَلَكِنْ أَفْئَدَنِي بِالْقَعْدِ لِأَنَّكَ إِنْ أَمَرْتَنِي بِالْخُرُوجِ، وَلَمْ تَأْذَنْ بِالْقَعْدِ وَالتَّخَلُّفِ، فَقَعَدْتُ، وَتَخَلَّفْتُ، وَكُنْتُ عَاصِياً تَارِكاً لِأَمْرِكَ، فَكُنْتُ أَنْتَ سَبَبَ عِضْيَانِي وَفِتْنَتِي.

والثاني: قَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا﴾ أَيِ لَا تَأْمُرَنِي بِالسَّقَاةِ وَالشَّدَّةِ وَلَكِنْ بِالذَّعْوِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا عِبَادَ ذَوِي السَّعَةِ ^(٤) وَالرِّخَاءِ، حَيْثُ كَانُوا مَأْلُوكاً إِلَيْهِمْ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَبْغِي اللَّهُ عَلَى حَرْفٍ﴾ الْآيَةُ [الحج: ١١] يقول: لَا تَكُنْ سَبَبَ إِمْنِي وَانْقِلَابِي.

ومِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّ رَجُلًا مِنْهُمْ، يُقَالُ لَهُ: الْعَجْدُ بْنُ قَيْسٍ، قَالَ ^(٥): إِنِّي إِذَا رَأَيْتُ النِّسَاءَ لَمْ أَضْبِرْ حَتَّى أَفْتِنَ، وَلَكِنْ

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل: هم كانوا عباد السعة، ساقطة من م.

(٥) أدرجت في الأصل وم: قبل: يقال.

أَعْيُنِكَ بِمَالٍ. ففیه نَزَلَ قَوْلُهُ: ﴿قُلْ أَنْفَعُوا مَلُوعًا أَوْ كَرِهًا لَنْ يُنْقَلَ مِنْكُمْ﴾ [التوبة: ٥٣] وهو قول ابن عباس؛ يقول: لا تأمرني بالخروج فإني مولعٌ بالنساء، لا أضربُ إذا رأيتُهنَّ. ولا نَدري كيف كانت القصة؟ لكنَّ الوجهَ فيه ما ذكرنا آنفاً.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا﴾ أي ولا تَمْتَحِنِي بِالْمِخْنَةِ التي فيها الهلاكُ والمَشَقَّةُ، فقال: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ أي أَلَا فِي الْمَشَقَّةِ والبلاءِ والهلاكِ سَقَطُوا. هذا يدلُّ أنَّ أهلَ النِّفاقِ، هُمُ كَفَرُوا.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ أي أَلَا فِي الشَّرِّ وَالْإِثْمِ سَقَطُوا على تَأْوِيلٍ مَنْ تَأَوَّلَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا﴾ لا تُؤْنِسْنِي، ولا تُخْرِجْنِي. وعلى تَأْوِيلٍ مَنْ قَالَ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا﴾ لا تُشَقِّ عَلَيَّ، ولا تأمرني بالمَشَقَّةِ والشَّدَّةِ والضِّيقِ؛ يقول: أَلَا فِي الشَّدَّةِ والضِّيقِ يَسْقُطُونَ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا﴾ أي تُحِيطْ بِهِمْ حتى لا يَجِدُوا^(١) مَنَفَذًا ولا مَخْلَصًا، أو تُحِيطْ بِهِمْ مِنْ تَحْتٍ وَمِنْ قَوْقٍ وَأَمَامٍ وَخَلْفٍ وَبِئْسَ وَشَمَالٍ، تُحِيطْ بِهِمْ حتى تُصِيبَ كُلَّ جَارِحَةٍ مِنْهُمْ كَقَوْلِهِ: ﴿لَمْ يَنْ تَوْفِيهِمْ ظُلْمًا مِنْ أَلْسَانٍ﴾ [الزمر: ١٦] أَخْبَرَ أَنَّهَا تُحِيطْ بِهِمْ.

وفيه دلالةٌ أنَّ المنافقين هم كفارٌ لأنه ذَكَرَ في أَوَّلِ الآيَةِ صِفَةَ الْمُنَافِقِينَ، ثم أَخْبَرَ أَنَّ ﴿جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾.

الآية ٥٠

وقوله تعالى: ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ﴾ قيل: ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ﴾ أي الْغَنِيمَةُ وَالظَّفَرُ وَالنَّصْرُ عَلَى الْأَعْدَاءِ يُسُؤُّهُمْ ذَلِكَ ﴿وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ﴾ مُصِيبَةُ النِّكْبَةِ وَالْهَزِيمَةِ يَفْرَحُوا بِهَا، يَقُولُوا: ﴿قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ﴾ أي أَخَذْنَا أَمْرًا بِالْوَيْفَةِ وَالْإِخْتِيَاظِ حِينَ^(٢) لَمْ نَخْرُجْ مَعَهُمْ حَتَّى لَا يُصِيبَنَا مَا أَصَابَهُمْ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ﴾ أي قَدْ أَظْهَرْنَا الْمَوَافَقَةَ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الظَّاهِرِ، وَكُنَّا مَعَ الْكَافِرِينَ فِي السِّرِّ، وَالْيَأْنَاهُمْ^(٣) فِي الْحَقِيقَةِ. وهو ما ذَكَرَ مِنْ انْتِظَارِهِمْ أَحَدَ أَمْرَيْنِ فِي قَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنْ اللَّهِ قَالُوا أَنَّهُ تَكُنْ مَعَكُمْ﴾ [النساء: ١٤١].

[وقوله تعالى^(٤): ﴿وَيَسْتَوِلُّوا وَهُمْ فَرِحُوا﴾ وَيَحْتَمِلُ ﴿وَيَسْتَوِلُّوا﴾ أَوْلَئِكَ الْكُفْرَةُ ﴿وَهُمْ فَرِحُوا﴾.

وفي الآيَةِ دلالةٌ إِبْتِاطِ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ وَنُبُوءِيهِ لِأَنَّهُ مَعْلُومٌ أَنَّ مَا يَسُوءُهُمْ كَانُوا يُضْمِرُونَ، وَيَسْتَرُونَ عَنْهُمْ، ثُمَّ أَخْبَرَ عَمَّا أَسْرُوا، وَأَضْمَرُوا. دَلَّ أَنَّهُ إِنَّمَا عَلِمَ ذَلِكَ بِاللَّهِ.

الآية ٥١

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ أي قَضَى اللَّهُ لَنَا؛ أي لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا قَضَى اللَّهُ لَنَا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ أي مَا جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ، وهو قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَرِّبُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِمْ حَقًّا﴾ [التوبة: ١١١].

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ مِنَ الْكَرَامَةِ وَالْمَنْزِلَةِ وَالنِّعَمِ الدَّائِمَةِ فِي الْآخِرَةِ؛ أي لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا ذَلِكَ. وَإِنْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ تَفْرَحُونَ بِذَلِكَ فَذَلِكَ الَّذِي ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا﴾ أي هُوَ رَبُّنَا، وَنَحْنُ عَبِيدُهُ، يَكْتُبُ لَنَا مَا يَشَاءُ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ؛ أي مَا أَكْرَمَنَا اللَّهُ بِهِ^(٥)، أي مَا أَحَلَّ لَنَا، وَأَبَاحَ.

وَأَمَّا الْقَضَاءُ فَإِنَّهُ كُلُّ مَا يُقَالُ فِي مَا يَكُونُ لَهُمْ، وَإِنَّمَا يُقَالُ فِي مَا قَضَى عَلَيْهِمْ. وَأَمَّا الْكِتَابُ لَهُمْ فَهُوَ^(٦) فِي مَا [يَحْرُمُ عَلَيْهِمْ]^(٧) وَيُحِلُّ لَهُمْ، وَيُسَبِّحُ.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ: يَحْتَمِلُ عَلَى الْإِخْبَارِ؛ أي عَلَى اللَّهِ يَتَوَكَّلُ الْمُؤْمِنُونَ، لَا يَتَوَكَّلُونَ عَلَى غَيْرِهِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عَلَى الْأَمْرِ؛ أي عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: يَجِدُونَ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٣) الْوَاوُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: لَنَا. (٦) الْفَاءُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

الآية ٥٢

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ إِنَّمَا إِخْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ قال^(١) ابن عباس عليه السلام ﴿قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ إِنَّمَا إِخْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ يعني الشهادة والحياة والرزق الدائم والكرامة كقولهِ تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ الآية [آل عمران: ١٦٩].

وَيَحْتَمِلُ ﴿إِنَّمَا إِخْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ في الدنيا الغنيمة والظفر؛ يقول: ﴿هَلْ تَرْتَضُونَ إِنَّمَا إِخْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ إِمَّا الْحَيَاةَ الدائمة في الآخرة والرزق الحسن والكرامة، وإِمَّا الغنيمة والنصر في الدنيا: ﴿قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ إِنَّمَا إِخْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ وَتَحْتَمِلُ تَرْتَضُونَ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِندِهِ العذاب في الآخرة أَنْ قُتِلْتُمْ^(٢)، أو بأيدينا أي القتل^(٣) بأيدينا. ﴿فَتَرْتَضُوا﴾ [بنا الشر] ﴿إِنَّمَا مَعَكُمْ مُتَرْتَضُونَ﴾^(٤) العذاب بكم.

هُم/ ٢١٥ - ١/ كانوا لا يَرْضَوْنَ بنا إِلَّا الدَّوَايِرَ والهِلاك، وهو ما ذَكَرَ في آية أخرى حيث قال: ﴿وَيَرْتَضِ بَكُمُ الدَّوَايِرَ﴾ [التوبة: ٩٨] هُم كانوا لا يَرْضَوْنَ بنا الحُسْنَى، ولكن ما ذَكَرْنَا مِنَ الدَّوَايِرِ. لكن ذلك، وإن كَانَ عِنْدَ أَوْلَئِكَ الْمُنَافِقِينَ هَلَاكٌ ودائرة فهو للمُؤْمِنِينَ الْحُسْنَى في الآخرة.

الآية ٥٣

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ﴾ قال بعضهم: الآية في الجهاد، وإنَّ الْمُنَافِقِينَ كانوا يَأْمُرُونَ بِالْجِهَادِ وَالْقِتَالِ مَعَ الْكُفَرَةِ، على ما أَمَرَ أَهْلُ الْإِيمَانِ بِذَلِكَ. ثم مِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَخْرُجُ لِلْجِهَادِ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يُجَاهِدُ غَيْرَهُ، وَيَقْعُدُ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَخْرُجُ كَارِهًا، وَنَحْوُهُ. فَتَزَلْ قَوْلُهُ: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أي خوفًا ﴿لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ﴾.

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: الآية في الزكاة؛ إِنَّ اللَّهَ فَرَضَ الزَّكَاةَ فِي أَمْوَالِ الْمُؤْمِنِينَ. وَالْمُنَافِقُونَ قَدْ أَظْهَرُوا الْإِيمَانَ، وَكَانُوا يُنْفِقُونَ، وَيُؤَدُّونَ الزَّكَاةَ. لَكِنْ مِنْهُمْ مَنْ كَانَ يُؤَدِّي طَوْعًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤَدِّي كَرْهًا، فَقَالَ: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ﴾ لَأَنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرَوْنَ قُرْبَةً، وَكَانُوا يُنْفِقُونَ، وَهُمْ كَارِهُونَ فِي الْبَاطِنِ. أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾؟ [الآية: ٥٤]. دَلَّ أَنَّهُمْ كَانُوا يُنْفِقُونَ جَمِيعًا، وَهُمْ كَارِهُونَ لِذَلِكَ فِي الْبَاطِنِ^(٥). ثُمَّ بَيَّنَّ مَا بِهِ لَمْ يُتَقَبَلْ نَفَقَاتِهِمْ، وَهُوَ مَا ذَكَرَ ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾.

الآية ٥٤

وقال: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَّلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ﴾ الآية. في الآية وجهان:

أَحَدُهُمَا: دلالة إثبات رسالة محمد عليه السلام لأنه أَخْبَرَ أَنَّهُمْ ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كَسَالَى﴾ وَهُمْ فِي الظَّاهِرِ كَانُوا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ عَلَى مَا كَانَ يَأْتِي الْمُؤْمِنُونَ. ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ يَأْتُونَهَا كَسَالَى. دَلَّ [أَنَّهُ]^(٦) إِنَّمَا عَرَفَ ذَلِكَ بِاللَّهِ تَعَالَى. وَكَذَلِكَ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ يُنْفِقُونَ، وَهُمْ كَارِهُونَ لِذَلِكَ، وَكَانُوا يُنْفِقُونَ فِي الظَّاهِرِ مُرَآةً لِمُؤَافَقَتِهِمْ. ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ كَانُوا كَارِهِينَ لِذَلِكَ فِي السِّرِّ. دَلَّ أَنَّهُ إِنَّمَا عَلِمَ ذَلِكَ بِاللَّهِ تَعَالَى.

وَالثَّانِي: أَلَا تَقُومُ قُرْبَةً، وَلَا تُقَبَّلُ، إِلَّا عَلَى حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ؛ هُوَ شَرْطُ قِيَامِ هَذِهِ الْعِبَادَاتِ وَقَبُولِ الْقُرْبِ، لَا أَنَّ نَفْسَهَا إِيمَانٌ، لِأَنَّهُمْ يَظْهَرُونَ الْإِيمَانَ، وَيُسِرُّونَ الْكُفْرَ. دَلَّ أَنَّهُ مَا ذَكَرْنَا، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أي إِنَّكُمْ كُنْتُمْ فَاسِقِينَ. وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّكُمْ﴾ أي صِرْتُمْ فَاسِقِينَ بِمَا انْفَقْتُمْ، وَأَنْتُمْ كَارِهُونَ؛ إِذْ هُمْ قَدْ أَظْهَرُوا الْإِيمَانَ، ثُمَّ تَرَكُوهُ، كَقَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾ [المنافقون: ٣] أَخْبَرَ أَنَّهُمْ آمَنُوا، ثُمَّ كَفَرُوا، فَعَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلِ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كَسَالَى﴾ وَكَسَالَى، وَكَسَالَى فِيهِ لُغَاتٌ ثَلَاثٌ^(٧)، وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ؛ وَهُوَ أَنَّهُمْ لَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا مُسْتَهْلِكِينَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرَوْنَهَا قُرْبَةً.

(١) في الأصل وم: عن. (٢) من م، في الأصل: قُتِلْتُمْ. (٣) في م: القتل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: الباطل. (٦) من م، ساقطة في الأصل. (٧) في الأصل وم: ثلاثة.

الآية ٥٥

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: هو على التقديم والتأخير؛ كأنه قال: فلا تُعْجِبْكَ أموالُهُمْ ولا أولادُهُمْ في الحياة الدنيا إنما يريد الله لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْآخِرَةِ وفي الحياة الدنيا. والتعذيب في الدنيا، هو ما فُرض عليهم بالجهاد^(١)، وأمروا بالخروج للقتال، فكانَ يَشُقُّ ذلكَ عليهم، ويشدُّ، فذلك التعذيب لهم. وهو ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخْرَى: ﴿أَيُّحَةَ عَلَيْكُمْ إِذَا جَاءَ الْوَفْ رَأَيْتَهُمْ﴾ [الأحزاب: ١٩] أو التعذيب في الدنيا، هو القتل؛ يَقْتُلُونَ إِنْ لَمْ يَخْرُجُوا.

وفي الآية دلالة الرد على المغترلة لأنهم يقولون: لا يُعْطِي [الله]^(٢) أحداً شيئاً إلا ما هو أَصْلَحُ لَهُ في الدين، ثم قال لرسوله^(٣): ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ ولو كانَ لم يُعْطِهِمُ الأموال والأولاد إلا للخيرات والصلاح فذلك بعيد. فدلَّ أنه قد يعطي خلقه ما ليس بأصلحَ لهم في الدين، وكذلك في قوله: ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ﴾ ﴿تَارِجٍ لَّهُمْ فِي الْفَرِّجِ﴾ الآية [المؤمنون: ٥٥ و ٥٦] دلالة الرد على قولهم لأنه قال: ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ﴾ ﴿تَارِجٍ لَّهُمْ فِي الْفَرِّجِ﴾ ثم قال ﴿يَكُنْ لَا يَنْفَعُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٦] [أَنْ مَا]^(٤) يُمِدُّهُم بِهِ لا للخيرات. دلَّ أنه قد يعطي خلقه ما ليس هو بأصلحَ لهم في الدين.

وفي قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ دلالة الرد عليهم أيضاً لأنه أخبر أنه يعذبهم في الدنيا والآخرة، ولا يُعَذِّبُهُمْ مَجَاناً في ما لا فِعلَ لهم في ذلك. دلَّ أَنْ [لَهُ صُنْعاً]^(٥) في ذلك، وإنما يُعَذِّبُهُمْ بِفِعْلِ اكْتِسَابِهِ.

وفي قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ دلالة أن ليس كل ما يُعْطِيهِمْ لِيَرْحَمَهُم بِهِ، ولكن يُعْطِيهِمْ لِمَا عَلِيمٌ مِنْهُمْ: فَإِنْ كَانَ عَلِيمٌ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ يَسْتَعْمِلُونَ ما أعطاهم من الأموال وغيرها في ما فيه هلاكهم أعطاهم لذلك، ومن عَلِمَ منهم أنه يَسْتَعْمِلُهُ لِنَجَاتِهِ أعطاه لِيَرْحَمَهُ^(٦) به. فإنما أعطى كَلَّاً ما عَلِمَ أنه يكونُ منه^(٧)؛ لأنه لو أعطاهم على غير ما عَلِمَ منهم يكونُ^(٨) في إعطائِهِ مُخْطِئاً.

وقوله تعالى: ﴿وَتَزَهَّقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ قيل: تَخْرُجُ، وتَهْلِكُ خوفاً. قال أبو عوسجة: يُقَالُ: خَرَجْتُ نَفْسِي مِنْ قَبِي، وقيل: تَذَهَبُ، وكذلك قال أبو عبيد، تَزَهَّقُ أَي تَذَهَبُ^(٩).

وفي الآية دلالة إثبات رسالة رسول الله لأنه أخبر أن أنفُسَهُمْ تَزَهَّقُ ﴿وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ فكانَ ما ذَكَرَ. دلَّ أنه عَلِمَ ذلك بالله.

الآية ٥٦

وقوله تعالى: ﴿وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِيَّاهُمْ لَيْسَ لَهُمْ شَيْءٌ مِنْهُ﴾ في الباطن في الدين لأنهم كانوا منهم في الظاهر، وقال: ﴿وَمَا لَهُمْ يُكْفَرُ﴾ في الباطن في الدين ﴿وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾ أي يخافون القتل، فيُظْهِرُونَ المواقفةَ لهم.

الآية ٥٧

وقوله تعالى: ﴿لَوْ يَخْتَفُونَ مَلَجَأً أَوْ مَقْرَبَ أَوْ مُدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ﴾ قيل: لو وَجَدُوا جِزْراً أو مغارات؛ يعني الغيران في الجبال أو ﴿مُدْخَلًا﴾ أي سِرّاً في الأرض في الجبال ﴿لَوَلَّوْا إِلَيْهِ﴾ أي رَجَعُوا إِلَيْهِ ﴿وَهُمْ يَخْتَفُونَ﴾ أي يُسْعَوْنَ.

وعن ابن عباس رضي الله عنه المَلَجَأُ: الجِزْرُ في الجبال، والمغارات: الغيران، والمُدْخَلُ: السَّرْبُ. قال أبو عوسجة: المغارات مثل المَلَجَأِ، وهو شيء يَتَحَصَّنُونَ فيه، ومُدْخَلًا هو مَوْضِعٌ يَدْخُلُونَهُ أيضاً ﴿وَهُمْ يَخْتَفُونَ﴾ أي يُسْرِعُونَ. يُقَالُ: جَمَحَتِ الدابةُ، تَجْمَحُ جِمَاحاً، وهو جامعٌ، وهو من الإسراع.

وكذلك قال القُتَيْبِيُّ، وقال أبو معاوية: الجَمُوحُ الراكبُ رأسه وهواه. وقال بعضهم: قوله ﴿أَوْ مُدْخَلًا﴾ لو^(١٠) يجدون ناساً يَدْخُلُونَ بَيْنَهُمْ ﴿لَوَلَّوْا إِلَيْهِ﴾ دونكم.

(١) في الأصل وم: الجهاد. (٢) ساقطة من الأصل وم: لرسول الله. (٣) في الأصل وم: أنه. (٤) في الأصل وم: لهم صنع. (٥) في الأصل وم: ليرحمهم. (٦) في الأصل وم: منهم. (٧) أدرج في الأصل وم قبلها: أنه. (٨) في الأصل وم: ذهب. (٩) في الأصل وم: لا.

واصله : أنهم لو وجدوا مأمناً يامنون، ﴿لَوَلَّوْا إِلَيْهِ﴾ أي لصاروا إليه مُسرِعِينَ، ولا يُظهرون لكم الإيمان، ولكن ليس لهم ذلك، والله أعلم.

الآية ٥٨ وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ﴾ يعني المنافقين ﴿مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ اختلف فيه : قال بعضهم: ﴿يَلْمِزُكَ﴾ يزورك لِمَكَانِ الصَّدَقَاتِ طمعاً فيها [لِثَغْلِيهِ مِنْ] ^(١) الصدقات، ويلْمِزُكَ أي يزورك لِسَأْلِكَ مِنَ الصَّدَقَاتِ؛ أي إنما يزوروك لِمَكَانِ الصَّدَقَاتِ ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا﴾ وعظموك ^(٢)، وإن لم يُعْطِهِمْ ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ﴾ لأن إتيانهم رسول الله وزيارتهم إياه لِمَكَانِ الصَّدَقَةِ. فإذا لم يُعْطُوا منها شيئاً سخطوا.

ومنه من قال: قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ أي يظعن عليك في الصدقات أي في قِسْمَةِ الصدقات؛ روي عن أبي سعيد الخدري [أنه] ^(٣) قال: «بيننا رسول الله يقسم قسماً جاء» ^(٤) رجل يُقال له ابنُ ذي الخويصرة التميمي، فقال: اغدِل، فقال له النبي: «وذلك ومن يغدِل إذا لم اغدِل أنا؟ فقال عمر: ائذن لي يا رسول الله فأضرب عنقه، فقال له النبي: دعه، فإن له أصحاباً، يخفرون» ^(٥) أحدكم صلاته [مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم ليحسن صلاتهم وصيامهم، فيخفرون] ^(٦) صلاته عند صلاة أولئك، يمزقون من الدين كما يمزق السهم من الرميّة [البخاري ٣٦١٠]. ذكر ^(٧) حديثاً طويلاً، وهو كأنه كان من الخوارج، وهو الذي قتله علي بن أبي طالب عليه السلام.

الآية ٥٩ وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنَ الرِّزْقِ وَرَسُولُهُ مِنَ الصَّدَقَاتِ﴾ وقالوا حسبت أن الله سيؤتينا الله من فضله. [وقيل: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ﴾ من فضله] ^(٨) أي من دينه ﴿وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ كان خيراً لهم مما ظلموا في هذه الصدقات، وظعنوا رسول الله في ذلك.

وقال بعضهم: ﴿رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ﴾ من فضله مما رزق لهم مما فعلوا. وقال بعض أهل التأويل: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ﴾ من فضله أي من الصدقات التي كان أعطاها رسول الله منها، وإلى الله رغبوا لكان خيراً مما ظلموا في تلك الصدقات، وظعنوا رسول الله، وسخطوا عليه.

ونقرأ ﴿يَلْمِزُكَ﴾ ويلْمِزُكَ برفع الميم ^(٩). قال أبو عوسجة: اللَّمَزُ الغيبة، يُقال له: لَمَازٌ، ولا مِزٌ، وهَمَازٌ، وهامِزٌ. وقال القتبي: ﴿يَلْمِزُكَ﴾ يعيبك، وظعن عليك؛ يُقال: هَمَزْتُ فلاناً، وَلَمَزْتُه، إِذَا اغْتَبْتَهُ، وَغَيْبْتَهُ، وكذلك قول الله: ﴿وَلَيْلٌ لِكُلِّ هُمْزٍ لَمْرُزٍ﴾ [الهمزة: ١].

الآية ٦٠ وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَلْهَقْتُ لِلْفَقْرَاءِ وَالسَّكِينِ﴾ يشبه أن تكون الآية في بيان موضع الصدقة على ما تقدّم من الذكر بقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا﴾ الآية ما ذكر أن المنافقين كانوا ياتون رسول الله، ويسألونه من الصدقات، فإن أعطاهاهم رَضُوا منه، وإن لم يُعْطِهِمْ طعنوا فيه، وعابوا عليه. فبين أن الصدقات ليست لهؤلاء ولكن للفقراء من المسلمين والمساكين من المسلمين، وكذلك ما ذكر من الأصناف المُكَايِبِينَ والغارمين. أنها لهؤلاء من المسلمين لا لهم.

ويدل على ذلك ما جاء من الأخبار: روي عن رسول الله ﷺ أنه وضع صدقتين بأعيانها، حُمِلَتْ إليه في صنف واحد، ما روي أنه أعطى الأقرع بن حابس مئة من الإبل ^(١٠) وأعطى فلاناً كذا.

وروي عن الصحابة أنهم ^(١١) وضعوا الصدقة في صنف واحد؛ روي [عن] ^(١٢) حذيفة أنه قال: هؤلاء أهلها، ففي أي صنف وضعتها أجزاك، وعن ابن عباس أنه قال كذلك.

(١) في الأصل وم: لتعطيم. (٢) في الأصل وم: ويعظموك. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل: له فجا، في م: له فجا. (٥) في الأصل وم: يحتقر. (٦) في الأصل وم: إلى صلاته وصيامه إلى صيامه لحسن صلاته وصيامه فيحتقر. (٧) الضمير فيه يعود على أبي سعيد الخدري. (٨) ساقطة من م. (٩) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٣/ ٢٧. (١٠) انظر الحديث في البخاري ٣١٥٠. (١١) في الأصل وم: أنه. (١٢) من م، ساقطة من الأصل.

وعن عُمَرَ أَنَّهُ كَانَ إِذَا جَمَعَ صَدَقَاتِ الْمَوَاشِي وَالْبَقَرِ وَالغَنَمِ نَظَرَ مَا كَانَتْ ^(١) مُنْتَجِعَةً لِلنَّاسِ، فَيُعْطِي الْأَهْلَ عَلَى قَدْرِ مَا يَكْفِيهِمْ؛ فَكَانَ يُعْطِي الْعَشْرَةَ شَاةً لِلْبَيْتِ الْوَاحِدِ، ثُمَّ يَقُولُ: عَطِيَّةٌ تَكْفِي خَيْرٌ مِنْ عَطِيَّةٍ لَا تَكْفِي، أَوْ كَلَامًا ^(٢) نَحْوَ هَذَا، وَقَدْ رَوَى عَنْهُ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا رَدُّنَّ عَلَيْهِمُ الصَّدَقَةَ حَتَّى يَرَوْحَ عَلَى أَحَدِهِمْ مِثْلُ نَاقَةٍ أَوْ مِثْلَ بَعِيرٍ.

وعن عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام [أَنَّهُ] ^(٣) أَتَى بِصَدَقَةٍ عَنْ ذَلِكَ، فَبَعَثَهَا إِلَى أَهْلِ بَيْتٍ وَاحِدٍ.

هَؤُلَاءِ نَجَبَاءُ الصَّحَابَةِ اسْتَجَازُوا وَضَعَ الصَّدَقَةَ فِي صِنْفٍ وَاحِدٍ. وَلَوْ كَانَ حَقُّ كُلِّ صَدَقَةٍ أَنْ تُقَسَّمُ بَيْنَ هَؤُلَاءِ الْأَصْنَافِ الَّذِينَ ذَكَرَ بِالسُّوِّيَّةِ عَلَى مَا قَالَ الْقَوْمُ لِمَكَانٍ [مَا] ^(٤) قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾ بَيْنَ الْفُقَرَاءِ وَبَيْنَ مَنْ مَعَهُمْ مِنَ الْأَصْنَافِ كَمَا يُقَالُ: الْمِيرَاثُ لِقَرَابَةِ فَلَانٍ، أَيْ لَيْسَ لِلْأَجَنِيِّينَ فِي ذَلِكَ حَقٌّ.

وَإِذَا قِيلَ: الْمِيرَاثُ بَيْنَ قَرَابَةِ فَلَانٍ كَانَ لِكُلِّ فِي ذَلِكَ حَقٌّ لِأَنَّهُ خَرَفَ بَيْنَ يَقْتَضِي السُّوِّيَّةَ، وَقَوْلُهُ لَهُمْ يَقْتَضِي أَنَّهُ لَاحِقٌ فِيهِ لِغَيْرِهِمْ. أَلَا تَرَى أَنَّهُ يُقَالُ: الْخِلَافَةُ لَوْلَدِ الْعَبَّاسِ؛ يُرَادُ أَنَّهُ لَا حَظَّ فِيهَا لِغَيْرِهِمْ؟ وَالسَّقَايَةُ لِبَنِي هَاشِمٍ؟ وَنَحْوُهُ، لَيْسَ يُرَادُ ذَلِكَ أَنَّ لَاحِقَ لِغَيْرِهِمْ فِيهَا.

وَبَعْدُ فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ فِي الْآيَةِ: إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ بَيْنَ الْفُقَرَاءِ. وَبَيْنَ مَنْ ذَكَرَ مَعَهُمْ لَكَانَ لَا يَجِبُ قِسْمَةُ كُلِّ صَدَقَةٍ بَيْنَ هَؤُلَاءِ الْأَصْنَافِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْآيَةِ لِأَنَّهُ لَيْسَ لِلصَّدَقَاتِ انْقِطَاعٌ بَلْ لَهَا مَدَدٌ؛ إِذَا دُفِعَتْ صَدَقَةٌ وَاحِدَةً إِلَى صِنْفٍ وَاحِدٍ، فَإِذَا أَتَى بِصَدَقَةٍ أُخْرَى دُفِعَتْ إِلَى صِنْفٍ آخَرَ. هَكَذَا يُعْمَلُ فِي الْأَصْنَافِ كُلِّهَا.

وَبَعْدُ فَإِنَّهُ لَمْ يُذَكَّرْ عَنْ أَحَدٍ مِنَ الْأَيْمَةِ أَنَّهُ تَكَلَّفَ طَلَبَ هَؤُلَاءِ الْأَصْنَافِ، فَقَسَمَهَا بَيْنَهُمْ، وَكَذَلِكَ لَمْ يُذَكَّرْ عَنْ أَحَدٍ مِنْ أَرْبَابِ الْأَمْوَالِ [أَنَّهُ دَفَعَ] ^(٥) صَدَقَةً وَاحِدَةً بَيْنَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ ذَكَرَ، فَقَدْ لَمْ يَخْرُجْ عَلَى مَا ذَكَرْنَا لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ عَلَى تَسْوِيَةٍ كُلِّ صَدَقَةٍ بَيْنَهُمْ لَمْ يَجُزْ إِلَّا يُقَسِّمُوهَا كَذَلِكَ، وَيُضَيِّعُوا ^(٦) حَقَّ الْبَغْضِ مِنْ هَؤُلَاءِ.

وَبَعْدُ فَإِنَّهُ لَوْ تَكَلَّفَ الْإِمَامُ أَنْ يَنْظُرَ بِهَؤُلَاءِ الثَّمَانِيَةِ مَا قَدَّرَ عَلَى ذَلِكَ. دَلٌّ أَنَّهُ لَمْ يُخْرِجِ الْخِطَابَ عَلَى مَا تَوَهَّمْ خُصُومُنَا، وَلَئِنْ الْحَقُّ لَوْ كَانَ التَّسْوِيَةُ بَيْنَهُمْ فِي كُلِّ صَدَقَةٍ لَكَانَ إِذَا لَمْ يَجِدْ فِي بَلَدَةٍ مُكَاتِبِينَ أَوْ وَاحِدًا مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَصْنَافِ، فَيَجِبُ أَنْ يُسْقِطَ مِقْدَارَ حِصَّةٍ مَنْ لَمْ يَجِدْ مِنْ أَرْبَابِهَا، فَذَلِكَ بَعِيدٌ، فَقَدْ جَاءَ فِي الْخَبَرِ أَنَّهُ بَعَثَ مُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ، فَقَالَ لَهُ: خُذْ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ، وَرُدِّ فِي فُقَرَائِهِمْ، وَيَكْرَهُ إِخْرَاجَ صَدَقَةٍ كُلِّ بَلَدٍ إِلَى غَيْرِهِ مِنَ الْبُلْدَانِ.

ثُمَّ تَحْتَمِلُ الْآيَةُ جَمِيعَ الصَّدَقَاتِ الَّتِي يُتَصَدَّقُ بِهَا عَلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ مِنَ الْفَيءِ وَغَيْرِهِ، فَيَبَيَّنَ [اللَّهُ تَعَالَى] ^(٧) أَنَّ هَؤُلَاءِ مَوْضِعٌ لَذَلِكَ كُلُّهُ مِنْ نَحْوِ قَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَتَوْا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الْأَنْعَامُ: ١٤١] وَقَوْلِهِ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التَّوْبَةُ: ١٠٣] وَتَحْتَمِلُ زَكَاةَ الْأَمْوَالِ الْمَفْرُوضَةِ، وَالرَّجْعَ فِيهِ مَا ذَكَرْنَا.

فَإِنْ قِيلَ: إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا أَوْصَى، فَقَالَ: ثُلُثُ مَالِي لِفُلَانٍ وَفُلَانٍ لَيْسَ هُوَ مُقْسُومٌ بَيْنَهُمَا ^(٨) بِالسُّوِّيَّةِ مَا مَنَعَ أَنْ الْأَوَّلَ يَمْلِكُهُ؟ قِيلَ: لَا تُشْبِهُ الصَّدَقَاتُ الْوَصَايَا.

وَذَلِكَ أَنَّ الْوَصِيَّةَ إِنَّمَا وَقَعَتْ فِي مَالٍ مَعْلُومٍ لَا تَزِيدُ فِيهِ بَعْدَ مَوْتِ الْوَصِيِّ شَيْئًا، وَلَا يُتَوَهَّمُ لَهَا مَدَدٌ. وَالصَّدَقَاتُ يَزِيدُ بَغْضُهَا بَغْضًا، وَإِذَا فَنِيَ مَالٌ جَاءَ مَالٌ آخَرُ، وَإِذَا مَضَتْ سَنَةٌ جَاءَتْ سَنَةٌ أُخْرَى بِمَالٍ جَدِيدٍ. فَإِذَا دَفَعَ الْإِمَامُ صَدَقَةً بِجَمِيعِ مَا عِنْدَهُ إِلَى الْفُقَرَاءِ، ثُمَّ حَضَرَهُ غَارِمُونَ تَحْمَلُ ^(٩) إِلَيْهِ صَدَقَةٌ أُخْرَى، فَيُضْلِعُ بِذَلِكَ أَحْوَالَ الْجَمِيعِ لِمَا لَا انْقِطَاعَ لِلْأَمْوَالِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وَكَيْفَ تُقَسَّمُ الصَّدَقَةُ عَلَى ثَمَانِيَةِ أَشْهُمٍ؟ وَلَا خِلَافَ فِي أَنَّ لِلْعَامِلِينَ بِقَدْرِ عَمَلِهِمْ [سَهْمًا] ^(١٠)، زَادَ ذَلِكَ عَلَى الثُّمَنِ، أَوْ نَقَصَ مِنْهُ. فَإِذَا [زَادَ الثُّمَنُ فِي] ^(١١) الْقِسْمَةِ فِي بَغْضِ الْأَصْنَافِ زَادَ ^(١٢) فِي الْجَمِيعِ، فَأُعْطِيَ كُلُّ صِنْفٍ مِنْهُمْ قَدْرَ حَاجَتِهِ كَمَا أُعْطِيَ الْعَامِلُونَ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: كَانَ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: كَلَام. (٣) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنَّهُمْ دَفَعُوا. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيُضَيِّعُونَ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: بَيْنَهُمْ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: فَتَحْمَلُ. (١٠) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١١) فِي الْأَصْلِ زَالَتْ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: زَالَتْ.

وكَيْفَ يُصْنَعُ بِسَهْمِ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ، وَقَدْ ارْتَفَعَ ذَلِكَ، وَنُسِخَ؟ وَعَلَى ذَلِكَ جَاءَ عَنْ بَعْضِ الصَّحَابَةِ مِنْ نَحْوِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ أَنَّهُمْ لَمْ يُعْطَوْهُمْ^(١) شَيْئاً. أَلَيْسَ يُرَدُّ ذَلِكَ عَلَى سَائِرِ السَّهَامِ؟ إِذَا جَازَ أَنْ يُزَادَ عَلَى الثَّمَنِ فِي وَقْتٍ جَازَ أَنْ يُنْقَصَ^(٢) مِنْهُ فِي وَقْتٍ.

وفي قوله: ﴿وَالْمُؤَلَّفِينَ﴾ دلالة أن لا بأس للإئمة والقضاة أخذ الكفاية من بيت المال، ولكل عامل للمسلمين خذ كفايته ورزقه من ذلك إذا قرع نفسه لذلك، وكفها عن غيرها من المنافع والأعمال.

ثم اختلف في الفقراء والمساكين: قال بعضهم: الفقراء هم من المهاجرين كقوله: ﴿الْفُقَرَاءُ الْمُهَاجِرُونَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ [الحشر: ٨] والمساكين من الذين لم يهاجروا.

وقال بعضهم: الفقير الذي به زمانة، وهو محتاج، وقال بعضهم: الفقراء هم المتعففون الذين لا يخرجون، ولا يسألون الناس كقوله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُ الْجَاهِلُ أَغْنَىٰكَ مِنَ التَّعْفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣] والمساكين هم الذين يسألون. وكذلك قال الحسن.

وعن عمر [أنه]^(٣) قال: ليس المسكين الذي لا مال له، ولكن المسكين الذي لا يصيب المكسب.

وعن ابن عباس [أنه]^(٤) قال: فقراء المسلمين والمساكين الطوائفون، وهو قريب مما قاله الحسن.

وعن الأصم [أنه]^(٥) قال: الفقير الذي لا يسأل، وهو ما ذكرنا بذهاء، والمسكين الذي يسأل إذا احتاج، ونمسيك إذا استغنى.

وروي عن رسول الله ﷺ يروي أبو هريرة رضي الله عنه [أنه]^(٦) قال: «ليس المسكين هذا الطوائف الذي يطوف على الناس ترده اللقمة واللقمات والتمرات، قيل: فما المسكين يا رسول الله؟ قال: الذي لا يجد ما يغنيه، ولا يظن به، يتصدق عليه، ولا يقوم، فيسأل الناس» [البخاري ١٤٧٩] فهذا لو حيل/ ٢١٦ - / على ظاهره لدفع قول من قال: إن المسكين هو الذي لا يسأل الناس، ولكن يجوز أن يكون معناه، والله أعلم، أن الذي لا يسأل، وإن كان عندكم مسكيناً، فإن الذي لا يسأل أشد مسكنة منه. ولا يَحْتَمِلُ غير ذلك لأن الله قد سمى الذين لا يسألون الناس فقراء، ولا يجوز أن يجعل الحديث مخالفاً للآية ما أمكن أن يكون موافقاً لها.

قال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ الْمُتَّقِينَ﴾ «أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبٍ» [البلد: ١٥ و ١٦] فقوله: ﴿ذَا مَتْرَبٍ﴾ قيل: هو الذي لا حائل بينه وبين الثراب لفقرو. فذل بذلك، والله أعلم، على أن المسكين هو الشديد الفقر، والفقير هو الذي لا يملك شيئاً، ولم يبلغ في الفقر والضروية حال المسكين، وبذل على^(٧) ذلك قول عمر: ليس المسكين من لا مال له، ولكن المسكين من لا مكسب له، كأنه يقول: إن الذي لا مال له، وله مكسب، هو فقير، والمسكين أشد حالاً من الفقير، وليس له مال، ولا مكسب.

وإن حيل قول النبي ﷺ: «ليس المسكين الذي يسأل، ولكن المسكين الذي لا يظن به، ولا يسأل» [على أن الذي لا يظن به، هو أشد]^(٨) مسكنة من الآخر، وإن كان الآخر مسكيناً أيضاً، كان موافقاً للمعنى الذي ذكرنا؛ لأننا قلنا: إن المسكين هو الشديد الفقر، وقد يكون فقيراً، وإن لم يبلغ به الفقر مبلغ ضر الأول.

وقد يخرج قول من قال: إن المسكين الذي يخرج هذا المخرج لأن من شأن المسلم الفقير أنه يتحمل ما كانت له حيلة، ويتعفف، ولا يخرج، فيسأل، وله حيل. فخرج يد على شدة ضيقه وعلى الزيادة في سوء حاله. فكان القولان جميعاً يرجعان إلى معنى واحد. وإذا كان الفقير أحسن حالاً من المسكين لما ذكرنا فقد يجوز أن تدفع الصدقة إلى من له مال قليل لأنه فقير، وإن لم يكن حاله في فقره حال المسكين الذي لا يملك شيئاً، والله أعلم.

(١) في الأصل وم: يعطهم. (٢) في الأصل وم: يتقصوا. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: ل. (٨) في الأصل: هو أشد، في م: على أن الذي لا يظن به أشد.

وقوله تعالى: ﴿وَالْمَلِيَّانَ عَلَيْهِمَا﴾ اختلف فيه: قال [بعضهم]^(١): يُعْطَى لَهُمْ [ثَمَنُ الْوَفَاءِ]^(٢)، وقال بعضهم: يُعْطَى لَهُمْ قَدْرُ عَمَلَيْهِمْ، وقال بعضهم: يُعْطَى لَهُمْ قَدْرُ كِفَايَتِهِمْ وَعِيَالِهِمْ.

أما قول [مَنْ قَالَ]^(٣) يُعْطَى لَهُمُ الثَّمَنُ فلا^(٤) معنى له إما لا يجوز أن يَبْلُغَ الثَّمَنُ الْوَفَاءَ، وعَمَلُهُ لا يَبْلُغُ عَشْرَ عَشْرٍ ذَلِكَ. وَمَنْ قَالَ: يُعْطَى لَهُمْ قَدْرُ كِفَايَتِهِمْ وَكِفَايَةِ عِيَالِهِمْ فَهُوَ، والله أعلم، إذا كَانَ هُوَ لَا^(٥) تَسَلَّمَ نَفْسَهُ لِذَلِكَ، واستعمله الإمام في جميع أمور المسلمين. فإذا كَانَ كَذَلِكَ يُعْطَى لَهُ عِنْدَ ذَلِكَ الْكِفَايَةُ لَهُ وَلِعِيَالِهِ. وأما إذا تَوَلَّى شَيْئاً مِنْ تِلْكَ الْعَمَالَةِ فِي وَقْتٍ، فَيُعْطَى لَهُ الْكِفَايَةُ، فلا.

والأشبهُ عِنْدَنَا أَنْ يُعْطَى لَهُمْ قَدْرُ عَمَلَيْهِمْ، وهكذا الإمام إذا استعملَ أحداً في عملٍ من أعمالِ الْبَيْتِ فإنه يُعْطَى لَهُ قَدْرُ أَجْرِ عَمَلِهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ قد ذكرنا في ما تَقَدَّمَ أَنَّهُ عَلَيْهِ كَانَ يُعْطَى الرُّؤَسَاءُ مِنَ الْمُنَافِقِينَ مِنَ الصَّدَقَاتِ، يَتَأَلَّفُ بِهِ قُلُوبُهُمْ لِيُسَلِّمُوا عَلَى مَا رُوي أَنَّهُ كَانَ يُعْطَى فَلَاناً مِئَةً مِنَ الْإِبِلِ وَفَلَاناً كَذَا. وَرُوي أَنَّهُ قَسَمَ ذَهَبَةً فِي أَيْدِي مَقْرُوظِ بَعْثِهَا عَلَيْهِ مِنَ الْيَمَنِ بَيْنَ الْأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ وَبَيْنَ فَلَانٍ وَفَلَانٍ. والحديث في هذا كثيرٌ أَنَّ النَّبِيَّ كَانَ يَخْصُ بِهِ الرُّؤَسَاءَ مِنْهُمْ بِالْصَّدَقَةِ، يَتَأَلَّفُهُمْ، وَالْإِسْلَامُ فِي ضَعْفٍ، وَأَهْلُهُ فِي قِلَّةٍ، وَأُولَئِكَ كَثِيرٌ ذَوُو^(٦) قُوَّةٍ وَغَدَوَةٍ.

فَأَمَّا الْيَوْمَ فَقَدْ كَثُرَ أَهْلُ الْإِسْلَامِ، وَعَزَّ الدِّينُ، وَصَارَ أُولَئِكَ أَذْلَاءً بِحَمْدِ اللَّهِ فَقَدْ ارْتَفَعَ ذَلِكَ، وَذَهَبَ، إِذْ قَوِيَ الْمُسْلِمُونَ، وَكَثُرُوا، فَيَقَاتِلُونَ حَتَّى يُسَلِّمُوا.

وعلى ذلك جاء الخبرُ عَنْ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ عَلَيْهِمَا مَا دَلَّ عَلَى مَا ذَكَرْنَا؛ رُوي أَنَّ الْأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ وَعُيَيْنَةَ بْنَ جَحْضٍ جَاءَا^(٧) إِلَى أَبِي بَكْرٍ عَلَيْهِ فَقَالَا^(٨): يَا خَلِيفَةُ اللَّهِ إِنْ عِنْدَنَا أَرْضاً سَبْعَةَ، لَيْسَ فِيهَا كَلْبٌ وَلَا مَنَقَعَةٌ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُقْطِعْنَاهَا [فَأَقْطَعْهَا لِيَاهُمَا]^(٩) وَكُتِبَ لِهَمَا [بِذَلِكَ]^(١٠) عَلَيْهَا كِتَاباً، وَأَشْهَدَ عُمَرُ عَلَيْهِ، وَلَيْسَ فِي الْقَوْمِ^(١١)، فَاَنْظَلْنَا إِلَى عُمَرَ لِيُشْهِدَاهُ. فَلَمَّا سَمِعَ عُمَرُ مَا فِي الْكِتَابِ تَنَازَلَهُ^(١٢) مِنْ أَيْدِيهِمَا، ثُمَّ نَظَرَ فِيهِ، فَمَحَاهُ، فَتَذَمَّرَا، وَقَالَا^(١٣) لَهُ مَقَالَةٌ سَبْعَةٌ، وَقَالَ: إِنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَتَأَلَّفُكُمَا، وَالْإِسْلَامُ يَوْمئِذٍ قَلِيلٌ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَعَزَّ الْإِسْلَامَ، فَادْهَبَا، فَاجْهَدَا جَهْدَكُمَا، لَا أَرْعَى اللَّهُ عَلَيْكُمَا إِنْ رُعِيْتُمَا.

ونحنُ نذهبُ إِلَى هَذَا الْحَدِيثِ لِأَنَّ أَبَا بَكْرٍ لَمْ يُنْكِرْ عَلَى عُمَرَ قَوْلَهُ وَفَعَلَهُ، فَصَارَ ذَلِكَ وَفَاقاً مِنْهُ لَهُ، فَكَفَى بِقَوْلِهِمَا حُجَّةً لَنَا. وَلَنَا فِي ذَلِكَ وَجُوهٌ مِنَ الْحُجَجِ:

أَحَدُهَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُعَاهِدُ قَوْمًا، وَهُوَ إِلَى مُدَارَاتِهِمْ وَمُعَاهَدَتِهِمْ مُحْتَاجٌ لِمَا ذَكَرْنَا مِنْ قِلَّةِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ وَطَغْيِهِمْ. فَلَمَّا أَعَزَّ اللَّهُ الْإِسْلَامَ، وَكَثُرَ أَهْلُهُ رَدَّ إِلَى أَهْلِ الْعَهْدِ عَهْدَهُمْ، ثُمَّ أَمَرَ بِمُحَارَبَتِهِمْ جَمِيعًا.

وَالثَّانِي: مَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَتْ لِيُنِّي أَنْ يَكُونَ لَهُمْ أَمْرٌ حَتَّى يُخْرِجَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧] فَكَانَتْ الْحَالُ الثَّانِيَةُ الَّتِي فِيهَا الْإِسْلَامُ [كَثِيرًا]^(١٤)، وَقَوِيَ أَهْلُهُ، وَعَزَّوْا، مُخَالِفَةً لِلْحَالِ الْأَوَّلِ فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ، فَكَذَلِكَ أَمَرَ [الْمُنَافِقِينَ كَانُوا]^(١٥) جَانِزًا لِرُؤَسَاءِ فِي الْحَالِ الْأَوَّلِ مُحْظُورًا فِي الْحَالِ الثَّانِيَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وفي الآية دلالةٌ جَوَازِ النسخِ بِالْاجْتِهَادِ لِرَفْعِ الْمَعْنَى الَّذِي بِهِ كَانَ لِيُعْلَمَ أَنَّ النسخَ قَدْ يَكُونُ بِوُجُودِهِ.

وفي خبرِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ عَلَيْهِمَا دَلَالَةٌ أَنَّ إِذْنَ الْإِمَامِ شَرْطٌ فِي إِحْيَاءِ الْأَرْضِ الْمَوَاتِ، لَا تُمْلِكُ إِلَّا بِالْإِذْنِ لِأَنَّ ذَٰلِكَ الرَّجُلَيْنِ اللَّذَيْنِ أَتَى أَبَا بَكْرٍ، فَقَالَا: الْأَرْضُ، لَا كَلْبَ فِيهَا، وَلَا ذَلِكَ، صُورَةُ أَرْضِ الْمَوَاتِ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: الثمن. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من م. (٦) في الأصل وم: ذو. (٧) في الأصل وم: فلان جاؤوا. (٨) في الأصل وم: فقالوا. (٩) في الأصل وم: فأقطعنا لياهما. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: قوم. (١٢) في الأصل وم: فتنازله. (١٣) الواو ساقطة من الأصل. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل: المنافقين، في م: المنافق.

وقوله تعالى: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ [بوجوده]:

أحدها^(١): قَالَ بَعْضُهُمْ: معناه العِثْقُ، ويجوزُ أَنْ يُعْتَقَ عَنِ الزَّكَاةِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُمُ الْمُكَاتِبُونَ، يَسْتَأْذِنُونَهُمْ فِي كِتَابَتِهِمْ، وَقَالُوا: لَا يُشْبِهُ الْإِعْتَاقُ مَا يُدْفَعُ إِلَى الْمُكَاتِبِ، فَيُؤَدَّى، فَيُعْتَقُ؛ لِأَنَّ الْعِثْقَ لَيْسَ بِتَمْلِيكَ، وَإِنَّمَا هُوَ إِطَالُ مُلْكِكَ، وَمَا يُدْفَعُ إِلَى الْمُكَاتِبِ فَهُوَ تَمْلِيكَ. فَذَلِكَ مُخْتَلَفٌ. وَإِنَّمَا تَكُونُ الزَّكَاةُ زَكَاةً إِذَا زَالَتْ مِنْ مَالِكَ إِلَى مَالِكَ.

والثاني: أَنَّ الْعِثْقَ يُوجِبُ الْوَلَاءَ لِلْمُعْتَقِ؛ فَحَقُّهُ فِيهِ بَاقٍ، وَالَّذِي يُدْفَعُ فِيهِ الزَّكَاةُ إِلَى مُكَاتِبٍ لِغَيْرِهِ، وَلَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ بِذَلِكَ حَقٌّ، وَلَا يَجِبُ فِيهِ وَلَاءٌ، فَهُمَا مُخْتَلَفَانِ.

والثالث: وهو أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿وَالْفَكْرَيْنِ﴾ وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا، قَضَى مِنْ غَارِمٍ دَيْنَهُ بِغَيْرِ أَمْرِهِ، لَمْ يُجْزِهِ مِنْ زَكَاةِ مَالِهِ، وَإِنَّمَا تَكُونُ زَكَاةً إِذَا دَفَعَهَا إِلَى الْغَارِمِ. فَعِثْقُ الْمُزَكِّي الْعَبْدَ بِمَنْزِلَةِ قَضَاءِ دَيْنِ الْغَارِمِ لِأَنَّهُ لَا يَحْتَاجُ فِي وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِلَى قَبُولِ مَنْ الْغَارِمِينَ وَالْعَبْدَ، وَإِعْطَاءِ الْمُكَاتِبِ فِي الزَّكَاةِ كَدَفْعِهِ لِيَاهَا إِلَى الْغَارِمِ لِأَنَّهُ قَدْ دَفَعَهَا إِلَيْهِ فِي كِلَا الْحَالَيْنِ إِلَى مَنْ قَبِلَهَا مِنْهُ مِنْ زَكَاةٍ، وَقَبْضَهَا.

وفي ذلك وَجْهٌ آخَرُ؛ وَذَلِكَ: أَنَّ اشْتِرَاءَ عَبْدٍ مِنْ رَجُلٍ لِأَعْتَقَهُ، فَقَدْ صَارَ ثَمَنُهُ دَيْنًا فِي دَمْتِي قَبْلَ أَنْ أَنْقُذَ الْمَالَ. فَلِذَا قَضَيْتُهُ فَإِنَّمَا أَقْضِيهِ عَنْ دَيْمِي دَيْنًا، قَدْ لَزِمَنِي. وَلَا يَجُوزُ أَنْ أَقْضِي عَنْ دَيْمِي.

وقوله تعالى: ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قِيلَ: هُمُ الْغَزَاةُ. وَيَحْتَمِلُ ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أَيِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ؛ إِنَّ كُلَّ مَنْ سَعَى فِي طَاعَةِ وَسَبِيلِ الْخَيْرَاتِ فَإِنَّهُ دَاخِلٌ فِي ذَلِكَ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنِّي السَّبِيلُ﴾ قِيلَ: الضَّيْفُ، يَنْزِلُ بِهِ، وَقِيلَ: هُوَ الْمَارُّ عَلَيْكَ، وَإِنْ كَانَ غَيْثًا، الْمُنْقَطِعُ عَنْ مَالِهِ.

وقوله تعالى: ﴿فَرِيضَةً مِنْ اللَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ بَيَانًا مِنَ اللَّهِ، وَأَعْلَاهَا أَهْلُ الصَّدَقَاتِ مِنْهُمْ مِنْ غَيْرِهِمْ. وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿فَرِيضَةً مِنْ اللَّهِ﴾ أَيِ وَاجِبًا مِنَ اللَّهِ وَقَرْضًا ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ﴾.

الآية ٦١

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ، وَلَمْ يُبَيِّنْ بِمَا كَانُوا يُؤْذُونَ؛ فَيَحْتَمِلُ: ﴿يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾ بِتَكْذِيبِهِمْ إِيَّاهُ وَتَرْكِهِمْ الْإِجَابَةَ لَهُ وَالطَّاعَةَ فِي مَا يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ، وَيَحْتَمِلُ يُؤْذُونَهُ بِكَلِمَاتٍ يُسْمِعُونَهُ بِظَنِّهِ يَطْلَعُونَهُ^(٢)، وَيَعْيِبُونَ عَلَيْهِ.

[وقوله تعالى^(٣)]: ﴿وَيَقُولُوا هُوَ أَدْنَى﴾ قِيلَ: الْأَدْنَى هُوَ الَّذِي يَقْبَلُ الْعُذْرَ مِمَّنْ اغْتَذَرَ إِلَيْهِ، وَيَسْمَعُ مِنْهُ، سَوَاءً كَانَ لَهُ عُذْرٌ أَمْ لَا^(٤) لَا عُذْرَ لَهُ لِكُرْمِهِ وَشَرَفِهِ وَحُسْنِ خُلُقِهِ. ٢١٦ - ب/ فَظَنَّ أَوْلَئِكَ لَمَّا رَأَوْهُ أَنَّهُ كَانَ يُعَامِلُهُمْ مَعَامَلَةَ أَهْلِ الْكُرْمِ وَالشَّرَفِ وَالْمَجْدِ أَنَّهُ إِنَّمَا يُعَامِلُهُمْ هَذِهِ الْمَعَامَلَةَ لِسَلَامَةِ قَلْبِهِ وَصِغَرِ هِمَّتِهِ وَقُصُورِ يَدَيْهِ، وَهُمْ كَانُوا أَهْلَ كِبَرٍ وَأَتْقَى، قَالُوا: ﴿هُوَ أَدْنَى﴾ نَقُولُ مَا شِئْنَا، ثُمَّ نَخْلُفُ، وَنَعْتَذِرُ إِلَيْهِ، فَيُصَدِّقُنَا، وَيَقْبَلُ عُذْرَنَا.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿أَدْنَى خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أَيِ الَّذِي يَقْبَلُ الْعُذْرَ، وَيَسْمَعُ ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ مِنَ الَّذِي لَا يَقْبَلُ وَلَا يَسْمَعُ، فَكَيْفَ تُؤْذُونَهُ، وَتَطْلَعُونَهُ، وَتَعْيِبُونَ، وَلَا تُصَدِّقُونَ، وَلَا تُؤْمِنُونَ بِهِ؟ يُخْبِرُ عَنْ سَفَاهِهِمْ.

قَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ: الَّذِي مَنْ قَالَ لَهُ شَيْئًا، أَوْ حَدَّثَهُ حَدِيثًا صَدَّقَهُ، وَاسْتَمَعَ مِنْهُ، وَكَذَلِكَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَدِّقُ كُلَّ مَنْ قَالَ لَهُ شَيْئًا، أَوْ حَدَّثَهُ حَدِيثًا، وَاسْتَمَعَ مِنْهُ لِكُرْمِهِ وَشَرَفِهِ وَمَجْدِهِ وَحُسْنِ خُلُقِهِ لَا^(٥) لِمَا ظَنَّ أَوْلَئِكَ.

وقيل: ﴿وَيَقُولُوا هُوَ أَدْنَى﴾ أَيِ لِيُسِّرَ فِي نَفْسِهِ، وَيَكْتُمَ، وَلَا يُكَافِي مَنْ آذَاهُ، وَلَا يُجَازِيَهُ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَدْنَى خَيْرٌ لَكُمْ يَوْمَئِذٍ بِاللَّهِ يُؤْمِنُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قَالَ^(٦) بَعْضُهُمْ: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ أَيِ يُصَدِّقُ بِاللَّهِ بِمَا يَنْزِلُ عَلَيْهِ مِنْ آيَاتِهِ ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ أَيِ يُصَدِّقُهُمْ فِي مَا يَبَيِّنُهُمْ مِنْ شَهَادَاتِهِمْ وَإِيمَانِهِمْ عَلَى حَقِّهِمْ وَقُرُوجِهِمْ وَأُمُورِهِمْ.

(١) ساقطة من الأصل و م. (٢) من م، في الأصل: يظنون. (٣) ساقطة من الأصل و م. (٤) في الأصل و م: أو. (٥) أدرجت في م بعد: لما. (٦) في الأصل و م: وقال.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ يَصْدَقُهُ بما يُخْبِرُهُ مِنْ سِرِّ الْمُنَافِقِينَ وما اسْتَكْتَمُوهُ مِنْهُ مِنَ الْكَيْدِ لَهُ وَالْمَكْرِ بِهِ ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ بما يُخْبِرُونَهُ مِنْ قِيلِ أَوْلَئِكَ الْمُنَافِقِينَ مِنَ الظَّالِمِينَ فِيهِ وَالْعَيْبِ عَلَيْهِ. وَالْإِيمَانُ^(١): هُوَ التَّصَدِيقُ بِجَمِيعِ^(٢) مَا فِيهِ، وَالْإِيمَانُ لَهُ مِنْ خَبَرِهِ وَحَدِيثِهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فِي مَا يَشْهَدُونَ فِي الْآخِرَةِ لَهُ بِالتَّبْلِيغِ إِلَيْهِمْ كَقَوْلِهِ: ﴿فَلَنَسْتَأْذِنَ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَأْذِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦] أَوْ يَكُونُ قَوْلُهُ ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيِ يَوْمُنُ بِالْمُؤْمِنِينَ فِي مَا بَيْنَهُمْ بِالْأَخْوَةِ فِي الدِّينِ كَقَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَرُّوهُمْ فِي الَّذِينَ﴾ [التوبة: ١١].

وقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ كَانَ ﷺ رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ لِمَا اسْتَفْقَدَهُمْ مِنَ الْكُفْرِ إِلَى الْإِيمَانِ وَمِنْ الْهَلَاكِ إِلَى النِّجَاةِ؛ يَشْفَعُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ بِإِيمَانِهِمْ فِي الدُّنْيَا.

[وقوله تعالى]^(٣): ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فِي الْآخِرَةِ بَقِيَّةٌ مِنَ الْآيَةِ الْأُولَى.

وقوله تعالى: ﴿وَالْفَكْرِمِينَ﴾ جَعَلَ اللَّهُ الْغَارِمَ مَرُوضاً لِلصَّدَقَةِ، وَهُوَ الَّذِي عَلَيْهِ الدَّيْنُ وَالْغُرْمُ مِنْ أَيِّ وَجْهِ لِحَقِّهِ عَلَى ذَلِكَ. رَوَى فِي الْخَبَرِ عَنْ نَبِيِّ اللَّهِ [أَنَّهُ]^(٤) قَالَ: «إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَجِلُ [لِغَنِيٍّ إِلَّا لِاحْدَى ثَلَاثٍ]^(٥): فَقَرْمٌ مُذْقِعٌ أَوْ غَرْمٌ مُفْطِيعٌ أَوْ لِيْذِي دَمٍ مُوجِعٌ» [بَنَحْوِهِ التِّرْمِذِيُّ ٦٥٣] وَفِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ «أَنَّ الصَّدَقَةَ لَا [تَجِلُ لِغَنِيٍّ إِلَّا لِخَمْسَةٍ: لِعَامِلٍ]^(٦) عَلَيْهَا، أَوْ رَجُلٍ اشْتَرَاهَا أَوْ غَارِمٍ أَوْ غَازٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ [أَوْ مُسْكِينٍ تُصَدَّقُ عَلَيْهِ مِنْهَا، فَأَهْدَى مِنْهَا لِغَنِيٍّ]^(٧)» [بَنَحْوِهِ ابْنُ مَاجَةَ ١٨٤١]. وَرَوَى عَنِ الْحَسَنِ وَالحُسَيْنِ وَابْنِ عُثْمَرَ وَابْنِ جَعْفَرَ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَهُمْ شَيْئًا، فَقَالُوا: «إِنْ كَانَتْ مَسْأَلَتُكَ فِي إِحْدَى ثَلَاثٍ فَقَدْ وَجَبَ حَقُّكَ: فِي فَقَرٍ مُذْقِعٍ أَوْ غَرْمٍ مُفْطِيعٍ أَوْ دَمٍ مُوجِعٍ».

هَذِهِ الْأَخْبَارُ كُلُّهَا تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْغَارِمَ مَوْضِعٌ لِلصَّدَقَةِ؛ قَلَّ دَيْنُهُ، أَوْ كَثُرَ. فَإِنْ قِيلَ فِي الْخَبَرِ: أَوْ غَرْمٌ مُفْطِيعٌ: قِيلَ لَا خِلَافَ بَيْنَهُمْ فِي أَنَّ مَنْ دَيْنُهُ غَيْرُ مُفْطِيعٍ فَلَهُ أَنْ يَأْخُذَ بِقَدْرِ دَيْنِهِ مِنَ الصَّدَقَةِ. فَهَذَا يَدُلُّ أَنَّ الَّذِي رَوَى فِي الْخَبَرِ إِنَّمَا هُوَ لِكِرَاهَةِ الْمَسْأَلَةِ لَا عَلَى التَّحْرِيمِ. وَهَكَذَا نَقَوْلُ: «إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَجِلُ لَهُ إِذَا كَانَ غَرْمُهُ غَيْرَ مُفْطِيعٍ، وَلَكِنْ يَجِلُّ وَضَعُهُ فِيهِ وَآخِذُهُ لَهُ».

وقوله تعالى: ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هُوَ مَا ذَكَرْنَا أَنَّهُ الْمُتَقَطِّعُ عَنْ مَالِهِ، جَعَلَهُ اللَّهُ مَوْضِعاً لِلصَّدَقَةِ. فَإِنْ كَانَ غَنِيًّا فِي مَقَامِهِ لِلْحَاجَةِ الَّتِي بَدَتْ لَهُ. وَعَلَى ذَلِكَ رَوَى عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ [أَنَّهُ]^(٨) قَالَ: «لَا تَجِلُ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ إِلَّا لِغَازٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ أَوْ رَجُلٍ لَهُ جَارٌ مُسْكِينٌ، تُصَدَّقُ عَلَيْهِ، فَأَهْدَى لَهُ» [أَبُو دَاوُدَ ١٦٣٥].

وَفِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ عَنْهُ مَا ذَكَرْنَا [أَنَّهُ]^(٩) قَالَ: «لَا تَجِلُ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ إِلَّا لِخَمْسَةٍ» وَفِيهِ: «أَوْ فَقِيرٍ تُصَدَّقُ عَلَيْهِ فَأَهْدَاهَا لِغَنِيٍّ» [أَبُو دَاوُدَ ١٦٦٥] وَقَدْ يَكُونُ الرَّجُلُ غَنِيًّا بَأَنْ يَكُونَ لَهُ دَارٌ يَسْكُنُهَا وَمَتَاعٌ تَهَيَّأَ^(١٠)، وَثِيَابٌ، غَزَمٌ عَلَى الْخُرُوجِ فِي سَفَرٍ غَزَوٍ، اخْتِاجٌ إِلَى^(١١) آلَاتٍ سَفَرِهِ وَسِلَاحٍ يَسْتَعْمِلُهُ فِي غَزْوِهِ وَمَرْكَبٍ يَغْزُو عَلَيْهِ وَخَادِمٍ لِيَسْتَعْنِي بِخِذْمَتِهِ مَا^(١٢) لَمْ يَكُنْ مُحْتَاجاً إِلَيْهِ فِي حَالِ إِقَامَتِهِ، فَيَجُوزُ أَنْ يُعْطَى مِنَ الصَّدَقَةِ مَا يَسْتَعْنِي بِهِ فِي حَوَائِجِهِ الَّتِي يُحْدِثُهَا سَفَرُهُ^(١٣).

فَهُوَ فِي مَقَامِهِ غَنِيٌّ بِمَا يَمْلِكُهُ لِأَنَّهُ غَيْرُ مُحْتَاجٍ حِينَئِذٍ إِلَى مَا وَصَفْنَا، وَهُوَ فِي حَالِ سَفَرِهِ غَيْرُ غَنِيٍّ، فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ: «لَا تَجِلُ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ إِلَّا لِغَازٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» عَلَى مَنْ كَانَ غَنِيًّا فِي حَالِ مُقَامِهِ، فَيُعْطَى بَعْضُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ لِسَفَرِهِ لِمَا أُخْدِتَ لَهُ السَّفَرُ مِنَ الْحَاجَةِ.

أَلَا تَرَى أَنَّ الرَّجُلَ قَدْ يَكُونُ لَهُ الْمَتَاعُ لَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ، وَالدَّابَّةُ لَا يَرْكَبُهَا، فَإِذَا صَارَ ذَلِكَ مِثْقَى دَرَاهِمٍ لَمْ يَجُزْ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ مِنَ الزَّكَاةِ، فَإِنْ عَرَّضَ لَهُ مَرَضٌ أَوْ سَفَرٌ، فَاخْتِاجٌ إِلَى دَابَّةٍ لِيَرْكَبَهَا فَإِنَّهُ^(١٤) يَخْرُجُ مِنَ الْغِنَى بِمَا حَدَّثَ لَهُ مِنَ الْحَاجَةِ إِلَى الرُّكُوبِ، وَكَانَ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ مِنَ الصَّدَقَةِ عِنْدَنَا لَا يَسْتَعْنِي عَمَّا هُوَ لَهُ، وَإِنَّمَا الْغِنَى مِنَ اسْتَعْنَى عَمَّا يَمْلِكُهُ؟

(١) فِي الْأَصْلِ: وَالْإِيمَانُ بَآخِرُ، فِي م: وَلَا إِيْمَانُ بَآخِرُ. (٢) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: جَمِيعُ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ: إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ مِنْ، فِي م: إِلَّا إِحْدَى ثَلَاثٍ مِنْ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: يَجِلُ إِلَّا لِخَمْسٍ لِلْعَامِلِ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: يَتَهَيَّأُ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: مِنْ. (١٢) أُدْرِجَ قَبْلَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: إِلَى. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: لِسَفَرِهِ. (١٤) الْفَاءُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

فكذلك الغارم على العرف قد تخذت له الحاجة إلى أكثر مما يملك، وتصير^(١) بمن يجوز أن يعان، وإن كان ملكه الذي كان به غنياً قبل ذلك لم ينقص. فهذا، والله أعلم، يُحتمل.

وابن السبيل أيضاً ما ذكرنا أيضاً من الخبر ألا تجل الصدقة لغني إلا لابن السبيل ومن ذكر معه.

وعلى ذلك اتفاق الأئمة^(٢)، وهو ما قيل: المجتاز من أرض إلى أرض. وعن ابن عباس رضي الله عنه في تأويل قوله: ﴿إِلَّا عَابِرِ سَبِيلٍ﴾ هو المسافر، وهو ما ذكرنا أنه المنقطع عن ماله، وإن كان غنياً في مقامه، والفقير الذي يجوز أن يغطي من الصدقة بما روي عن الحسن بن علي رضي الله عنه [أنه]^(٣) قال: قال رسول الله ﷺ: «اللسائل حق»، وإن جاء على فارس، [أبو داود: ١٦٦٥] وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ [أنه]^(٤) قال: «لا يسأل عبد أو أحد مسألة، وله ما يغنيه إلا جاءت يوم القيامة خدوشاً أو كدوحاً في وجهه»، قال: يارسول الله وماذا يغنيه؟ أو ما أغناه؟ قال: «خمسون درهماً أو حسابها من الذهب» [عن ابن مسعود: أبو داود ١٦٦٦].

وفي بعض الأخبار: «من سأل، وله أربعون درهماً، فقد ألحف» [النسائي ٩٨/٥] وعن علي وعبد الله [أنهما]^(٥) قالوا: لا تجل الصدقة لمن له خمسون درهماً أو عوضها من الذهب، وعن عمر كذلك. وعن ابن عباس [أنه]^(٦) قال: «سأل رجل رسول الله ﷺ فقال: إن لي أربعين^(٧) درهماً، مستكبر أنا؟ قال نعم» [أبو داود ١٦٣٤].

وفي بعض الأخبار عن أبي هريرة [أنه]^(٨) قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوي» وفي بعض الأخبار «لقوي مكتسب» [أبو داود ١٦٣٣] وإنما يحتمل قوله: «لا تجل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوي» [تخريجها على]^(٩) الرّجرج عن العرض على الصدقة والمسألة عليها.

ألا ترى أن النبي ﷺ قال «إن الصدقة لا تجل لغني إلا لثلاث» فذكر أحدها «أو فقر مذموم» فذلك يبيح لذي المرة السوي أن يقبل؟

ألا ترى أن الرجلين^(١٠) اللذين سألا رسول الله ﷺ قال لهما: «إن شئتما أعطيتهما؟ فلو كان حراماً عليهما ما أعطاهما الحرام، ولكن ذلك على الرّجرج عن المسألة.

وروي عن سلمان أنه حمل إلى رسول الله صدقة، فقال لأصحابه: كلوا، ولم يأكل، هو، ولا يتوهم متوهم أن أصحابه كانوا زمنى، فهذا يبين أن النبي أراد الرّجرج عن المسألة والتعرض لها في حال الضرورة لا على التحريم لها، وأن من أخذها، وله أقل من مئتي درهم، أو قيمتها، قلّه في ما يملك سداد من عيش، فذلك مكروه.

ألا ترى أنه روي عن الحسن أنه قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ ٢١٧ - ١ / يأخذون الصدقة، ولأحدهم من السلاح والكرع والعقار قيمة عشرة آلاف درهم، فهذا حسن، والتعفف عنها أحسن لقول رسول الله ﷺ «من استغنى أغناه الله، ومن استغنى أعفاه الله» [النسائي ٩٨/٥]. وقوله: «لأن يأخذ أحدكم خبلاً فيختطب خير له من أن يسأل الناس شيئاً: أعطوه، أو متعوه» [البخاري ١٤٧١].

الآية ٦٢

وقوله تعالى: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُشْرِكُمْ﴾ بما حلفوا عليه. ذكر بعض أهل التأويل: أن الانصار مشت إليهم؟ يعني إلى المنافقين، فقالوا: نُعَيِّرُونَا^(١١) وما نزل فيكم، حتى متى؟ فكانوا يخلفون للانصار: والله ما كان شيء من ذلك، فأكذبهم الله، فقال: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ﴾ ما كان الذي بَلَّغَكُمْ ﴿لِيُشْرِكُمْ﴾ بما حلفوا ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ﴾ منكم يا معشر الانصار ﴿أَنْ يُرْشَوْهُ﴾ حين^(١٢) اطلع على ما حلفوا، وهم كذبة ﴿إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ يقول: ولكن لبسوا بمصدقين.

(١) في الأصل و م: وصار. (٢) في الأصل و م: الأمة. (٣) ساقطة من الأصل و م. (٤) ساقطة من الأصل و م. (٥) ساقطة من الأصل و م. (٦) ساقطة من الأصل و م. (٧) في الأصل و م: أربعون. (٨) ساقطة من الأصل و م. (٩) في الأصل و م: خرج عن. (١٠) في الأصل الرجل، في م: الرجلان. (١١) في الأصل و م: غيرنا. (١٢) في الأصل و م: حيث.

والأشبه أن تكون الآية نزلت في معاينة جرث بين المؤمنين والمنافقين باستهزاء كان منهم برسول الله أو طعن فيه أو استهزاء بدين الله، فاعتذروا إليهم، وحلفوا على ذلك ليرضوا، فقال: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ حقيقة، ولكن ليسوا بمؤمنين.

وأما ما قاله بعض أهل التأويل: أن رجلاً من المنافقين قال: والله لئن كان ما يقول محمد حقاً فلنخن شر من الحمر، فسميها رجل من المسلمين، فآخبر بذلك رسول الله، فدعاه، فقال: ما حملك على الذي قلت؟ فحلفت، والتعن ما قاله، فنزل قوله: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ﴾.

هذا لو كان ما ذكر لكانوا يخلفون لرسول الله، لا يخلفون لهم. دل أن الآية في غير ما ذكر.

ويذكر عن ابن عباس أن الآية نزلت في ناس من المنافقين، تخلفوا عن رسول الله في غزوة تبوك، فجعلوا يخلفون لرسول الله حين رجع أنهم لا يتخلفون عنه أبداً. وكذلك قال غيره من أهل التأويل: لو^(١) كان ما قالوا لكانوا يخلفون لرسول الله، ليرضوه^(٢) لا للمؤمنين.

دل أن الأشبه ما ذكرنا، وفيه وجوه:

أحدها: أن فيه دلالة تحقيق رسالته ﷺ ليعلموا أنه حق حين^(٣) اطلع عليه بما أسروا في أنفسهم، وكنتموا من المكربين وأنواع السفه.

والثاني: ليحذروا، ويمتنعوا عن مثله والمعاودة إليه، لما علموا أنه يطلع على جميع ما يسيرون عنه، ويكتمون.

والثالث: [أن فيه]^(٤) تنبيهاً للمؤمنين وتعليماً لهم منه بأنه إذا وقع لهم مثل ذلك لا يشتغلوا بالحلف طلب^(٥) إرضاء بعضهم بعضاً، ولكن يتوبون إلى الله، ويطلبون بمرضاته.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾ ذكر نفسه ورسوله، ثم أضاف الرضا إلى رسوله بقوله: ﴿أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾ ولم يقل: أحق أن يرضوهما. فهو، والله أعلم، لأنهم إذا أرضوا رسوله ﷺ، كان في إرضائهم رسوله إرضاء الله؛ وهو ما ذكر أنهم دُعوا إلى الله ورسوله.

ثم أضاف الحكم إلى رسوله لأنهم إنما دُعوا أن يحكم الرسول بينهم بقوله^(٦): ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾ لأن الخلاف والحيانة كان في حق الله وفي حق رسوله، لم يكن في حق المؤمنين. لذلك قال: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾ من المؤمنين.

ثم ذكر مخاطبة الله ورسوله، ثم اقتصر على إرضاء رسوله لأنهم لم يقصدوا قصد مخالفة رسوله، أو أن يكون ذكر إرضاء أحدهما لأن في إرضاء رسوله إرضاء الرب كقوله: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

الآية ٦٣ وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكْلَمُوا أَنَّهُمْ مِنْ يُكَادُّ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ في الآية دلالة أنهم علموا أنهم معاندون^(٧) في ضيعتهم، وعلموا أن من عاند، وكابر بغير حق ﴿فَأَن تَارَ جَهَنَّمَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يُكَادُّ اللَّهُ﴾ يَحْتَمِلُ يُعَانِدُ الله، وقيل: يُشَاقِقِ الله، ويُخَالِفِ الله، وهو واحد.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكْلَمُوا﴾ يُخْرِجُ على وجهين:

أحدهما: أي قد علموا ﴿أَنَّهُمْ مِنْ يُكَادُّ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَأَن تَارَ جَهَنَّمَ﴾ ما ذكر، لكنهم عاندوا بالخلاف^(٨) والمحادثة مع عليهم.

(١) أدرج قبلها في الأصل و م: ولكن. (٢) في الأصل و م: ويرضونه. (٣) في الأصل و م: حيث. (٤) ساقطة في الأصل و م. (٥) من م، في الأصل و م: طلباً. (٦) في الأصل و م: وقوله. (٧) في الأصل و م: معاندين. (٨) الباء ساقطة من الأصل و م.

والثاني: أي علموا ﴿أَنْتُمْ مَنْ يُكَادِرُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَاَتَى كَلِمَةً﴾ ما ذكرنا أن حُرْفَ الاستِغْهَامِ مِنَ اللَّهِ يُخْرِجُ عَلَى الْإِجَابِ وَالْإِلْزَامِ.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ: يَحْتَمِلُ الْخِزْيُ^(١) الْفَضِيحَةُ الْعَظِيمَةُ فِي الدُّنْيَا، وَيَحْتَمِلُ ﴿ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ فِي الْآخِرَةِ^(٢) نَارُ جَهَنَّمَ خِزْيٌ عَظِيمٌ.

الآية ٦٤ وقوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُتَّقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ ﴿يَحْذَرُ الْمُتَّقُونَ﴾ عَلَى^(٣) الْحَقِّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَحْذَرُوا لِمَا أَظْلَعَهُمْ^(٤) اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِرَارًا [على ما]^(٥) أَسْرَوْا، وَكَتَمُوا، وَيَحْتَمِلُ عَلَى الْخَبَرِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ لِكَثْرَةِ مَا أَظْلَعَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ سَرَائِرِهِمْ وَسَفْهِهِمْ.

وقوله تعالى: ﴿قُلِ اسْتَغْفِرُوا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ غَفِيرٌ﴾ فَهُوَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، لَيْسَ عَلَى الْأَمْرِ، وَلَكِنْ عَلَى الْوَعِيدِ؛ يَقُولُ: اسْتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ مُظْهِرٌ وَمُبَيِّنٌ مَا أَسْرَرْتُمْ، وَكَتَمْتُمْ مِنَ الْعَيْبِ وَالْإِسْتِغْهَاءِ بِرَسُولِهِ وَالظُّعْنِ فِيهِ.

الآية ٦٥ وقوله تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ ذَكَرَ السُّؤَالَ، وَلَمْ يَبَيِّنْ عَمَّ^(٦) يَسْأَلُهُمْ. وَلَكِنْ فِي الْجَوَابِ بَيَانٌ أَنَّ السُّؤَالَ إِنَّمَا كَانَ عَلَى الْإِسْتِغْهَاءِ حِينَ^(٧) قَالَ: ﴿قُلِ يَا اللَّهُ وَآلِيَّهُ وَرُسُلُهُ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ ذَكَرَ أَنَّ فِرْعَانَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ كَانُوا اخْتَفَوْا فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ لِيَمُرَّ رَسُولُ اللَّهِ، [وهو راجع]^(٨) مِنَ الْغَزْوِ، فَيَقْتُلُونَهُ، فَأَظْلَعَ اللَّهُ نَبِيَّهُ عَلَى إجماعِهِمْ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا ذَا؟ فَقَالَ: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾.

وَذَكَرَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ أَنَّ النَّبِيَّ لَمَّا رَجَعَ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ، بَيْنَا هُوَ يَسِيرُ إِذَا^(٩) هُوَ بِرَهْطٍ يَسِيرُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ، يَضْحَكُونَ، وَيَسْتَهْزِئُونَ بِهِ^(١٠)، فَأَظْلَعَ اللَّهُ رَسُولَهُ أَنَّهُمْ يَسْتَهْزِئُونَ بِاللَّهِ وَكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ، فَقَالَ: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ وَقِيلَ بَعْضُ ذَلِكَ. وَقِيلَ: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ أَي لَوْ سَأَلْتَهُمْ مَا تَقُولُونَ؟ يَقُولُونَ^(١١) لَكَ مَا يَخُوضُ فِيهِ الرُّكْبُ إِذَا سَارُوا، وَلَيْسَ لَنَا إِلَى مَعْرِفَةِ كَيْفِيَةِ اسْتِغْهَائِهِمْ حَاجَةٌ وَلَا مَا هِيَ سِوَى أَنْ فِي مَا ذُكِرَ لَنَا مِنْ خَبَرِ الْمُنَافِقِينَ تَنْبِيهًُا^(١٢) لِلْمُؤْمِنِينَ وَتَحْذِيرًا^(١٣) لَهُمْ لِيَحْذَرُوا إِسْرَارَ مَا لَمْ يُظْهِرُوا عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ، لِيَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مُطَّلِعٌ عَلَى مَا يُسِرُّونَ، وَيُضْمِرُونَ.

وقوله تعالى: ﴿قُلِ يَا اللَّهُ وَآلِيَّهُ وَرُسُلُهُ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ قَوْلُهُ: ﴿يَا اللَّهُ﴾ تَحْتَمِلُ الْإِضَافَةَ إِلَى نَفْسِهِ إِضَافَةً إِلَى نَفْسِ الْمُؤْمِنِينَ لِأَنَّهُ لَا أَحَدٌ يَقْصِدُ قَصْدَ الْإِسْتِغْهَاءِ بِاللَّهِ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا يَسْتَهْزِئُونَ بِالْأَحْكَامِ، فَأَضَافَتْ الْإِسْتِغْهَاءَ إِلَى الْآيَاتِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تُصِكُّهُمْ ضِرَارًا لِمَعْنَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تُلَاحِظُوا عَائِتِ اللَّهِ هُزُوءًا﴾ [البقرة: ٢٣١] هُمْ لَمْ يَسْخَرُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوءًا، وَلَكِنْ هَزَرُوا بِالْأَحْكَامِ الَّتِي لَهَا آيَاتٌ. أَضَافَ الْهُزْءَ إِلَى آيَاتِهِ. وَمِنْ اسْتَحْفَ بِحُكْمٍ مِنَ الْأَحْكَامِ^(١٤) الَّتِي لَهَا آيَاتٌ كَانَ [ذَلِكَ]^(١٥) اسْتِخْفَافًا بِآيَاتِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٦٦ وقوله تعالى: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بِمَا عَاهَدْتُمْ لَنَا لَا تَعْتَذِرُوا فَإِنَّهُ لَا يَقْبَلُ اعْتِذَارَكُمْ لِمَا لَا عُدْرَ لَكُمْ فِي مَا تَعْتَذِرُونَ بَعْدَ مَا قُلْتُمْ: إِنَّهُ أَذْنٌ لِمَا ظَهَرَ مِنْكُمْ مِنْ﴾ [الْخِلَافِ وَالْكَذِبِ فِي ذَلِكَ كَقَوْلِهِ: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ بَيَّنَّا اللَّهُ مِنْ نَجَابَتِكُمْ﴾ [التوبة: ٩٤] أَخْبَرَ أَنَّهُ لَا يُصَدِّقُهُمْ فِي مَا اعْتَذَرُوا لِمَا ظَهَرَ كَذِبُهُمْ، وَبَيَّنَّ خِلَافَهُمْ.

وقوله تعالى/ ٢١٧ - ب/ ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ بِمَا عَاهَدْتُمْ لَنَا لَا تَعْتَذِرُوا فَإِنَّهُ لَا يَقْبَلُ اعْتِذَارَكُمْ لِمَا لَا عُدْرَ لَكُمْ فِي مَا تَعْتَذِرُونَ بَعْدَ مَا قُلْتُمْ: إِنَّهُ أَذْنٌ لِمَا ظَهَرَ مِنْكُمْ مِنْ﴾ [الْخِلَافِ وَالْكَذِبِ فِي ذَلِكَ كَقَوْلِهِ: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ بَيَّنَّا اللَّهُ مِنْ نَجَابَتِكُمْ﴾ [التوبة: ٩٤] أَخْبَرَ أَنَّهُ لَا يُصَدِّقُهُمْ فِي مَا اعْتَذَرُوا لِمَا ظَهَرَ كَذِبُهُمْ، وَبَيَّنَّ خِلَافَهُمْ.

(١) أَدْرَجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: أَي. (٢) أَدْرَجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: أَي. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: أَي. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: أطلع. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: مِمَّا. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: مِم. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيَرْجِع. (٩) فِي م، إِذ. (١٠) فِي الْأَصْلِ: بَكَ، سَاقِطَةٌ مِنْ م. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: فَيَقُولُونَ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: تَنْبِيهِ. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَتَحْذِير. (١٤) فِي الْأَصْلِ وَم: أَحْكَام. (١٥) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَنُفَّ عَنْ طَافِقٍ مِنْكُمْ تُدْزِبُ طَائِفَةً﴾ قال بعضهم: قوله: ﴿إِنْ تَنُفَّ عَنْ طَافِقٍ﴾ وذلك أن المنافقين قد آمن منهم [مَنْ آمَنَ] ^(١) بعد النفاق، وتاب، فأخبر أنه إن يغف عنهم يعذب الطائفة الذين لم يؤمنوا ولم يتوبوا. وقيل: ﴿إِنْ تَنُفَّ عَنْ طَافِقٍ مِنْكُمْ تُدْزِبُ طَائِفَةً﴾ لأن المنافقين [منهم] ^(٢) من قد مات على الكفر، فوعد العفو عمن مات على الإيمان كقولهِ: ﴿وَيُغْفِرُ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٤] أخبر أنه إن شاء تاب عليهم. فقوله: ﴿إِنْ تَنُفَّ عَنْ طَافِقٍ﴾ التي يتوب عليهم.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَلِلَّهِ وَمَا لِي بِهِ وَرَسُولِهِ﴾ يَحْتَمِلُ وجهين:

أحدهما: على الإيجاب أي يفعلون بالله ورسوله ذلك.

والثاني ^(٣): على التوعيد والتوبيخ: أبالله يفعلون هذا؟ والله أعلم.

الآية ٦٧ وقوله تعالى: ﴿الْمُتَّقُونَ وَالْمُتَّقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ ذكر في أهل الإيمان ﴿بَشَرٌ أُولَئِكَ بَشَرٌ﴾ بقوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَشَرٌ أُولَئِكَ بَشَرٌ﴾ [التوبة: ٧١] وذكر في الكافرين الولاية لبعضهم ببعض بقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٣] وقال في المنافقين: ﴿بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾.

فهو، والله أعلم، أن لأهل الإيمان ديناً ^(٤) يدينون به، ويتناصرون به، ويدعون الناس إليه، وأهل الكفر يدينون أيضاً بدين، يتناصرون به، ويعاونون ^(٥) بعضهم بعضاً. فصار لكل واحد من الفريقين موالاة في ما بينهم موالاة الدين. وأما المنافقون فإنهم لا دين لهم، يدينون به، ولا مذهب، يتحلقونه، ولا يناصرون بعضهم بعضاً، ولا يعاونون بعضهم بعضاً ولا يجري بينهم التناصر ^(٦) والتعاون. وإنما هم عباد النعمة والسعة؛ ما لروا حيثما مالت النعمة والسعة، فلا موالاة في ما بينهم لما ذكرنا.

وفي قوله ﴿وَالْمُتَّقَاتُ﴾ دلالة أن من نافق بالتقليد لآخر [ومن] ^(٧) نافق لا بتقليد سواء في استيجاب الاسم والتغذيب في ذلك والوعيد؛ لأن النساء هن ^(٨) أتباع وأهل تقليد للرجال. ثم سوى بينهم وبين النساء في الاسم والوعيد.

وقوله تعالى: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ﴾ يَحْتَمِلُ قوله ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ﴾ أي ما تُنْكِرُهُ العقول، وهو الشرك بالله والخلاف له ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ أي ينهون عما تُعرفه العقول، وتُسَخِّصُهُ، وهو التوحيد لله والإيمان به. ويدخل في ذلك كل خير وحسن، وفي المنكر يدخل الشرك وكل مُغْصِيَةٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ قيل ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ عن الإنفاق في سبيل الخير. لكن يَحْتَمِلُ أن يكون على التمثيل لا على تحقيق قبض اليد، ولكن على كف النفس ومنعها من الاشتغال بالخيرات وخوضها فيها وفي جميع الطاعات. ولكنه ذكر باليد لما بالأيدي يعمل، وبها ^(٩) تُكَسَّبُ الخيرات والسيئات كقوله: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [ذلك بما قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ] [آل عمران: ١٨١ و ١٨٢]. وذلك مما لم تُقدِّمه الأيدي، ولا كَسَبْتُمْ، لكنه ذكر القلب لما ذكرنا أنه باليد ما يُقَدَّمُ، وبها يُقْبَضُ في الشاهد.

وجائز أن يكون ما ذكر من قبض كناية عن بخلهم وقلة إنفاقهم في الجهاد كقوله: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤].

وقوله تعالى: ﴿سُئِلُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ قيل [فيه بوجوه]:

أحدها ^(١٠): جَعَلُوا الله كَالشَّيْءِ الْمُنْسِي، لا يذكرونه أبداً، فَنَسِيَهُمْ؛ أي جعلهم كالمُنْسِيين في الآخرة من رَحْمَةِ لا ينالونها.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: ويحتمل. (٤) في الأصل وم: دين. (٥) في الأصل وم: ويتعاون. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: من. (٩) أدرج قبلها في الأصل بها، في م: بها. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

والثاني^(١): «يَحْتَمِلُ» نَسُوا اللَّهَ أَي نَسُوا نِعَمَ اللَّهِ الَّتِي أَنْعَمَهَا عَلَيْهِمْ، فَلَمْ يَشْكُرُوهَا، فَتَسِيَّهُمْ عَلَى الْمُجَازَاةِ لِذَلِكَ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ نَسْيًا كَمَا سَمِيَ جَزَاءَ السَّيِّئَةِ سَيِّئَةً، وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الثَّانِي سَيِّئَةً، فَعَلَى ذَلِكَ ذَكَرَ النِّسْيَانَ عَلَى مُجَازَاةِ النِّسْيَانِ، وَإِنْ لَمْ يَحْتَمِلِ النِّسْيَانَ.

والثالث: «نَسُوا اللَّهَ» أَي سُؤَالِ الْمَعُونَةِ وَالنُّصْرَةِ وَسُؤَالِ التَّوْفِيقِ «فَتَسِيَّهُمْ» اللَّهُ، أَي لَمْ يَنْصُرْهُمْ، وَلَمْ يُوقِفْهُمْ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ» فَإِنْ قِيلَ: اسْمُ التَّفَاقِ أَشْرٌ وَأَقْبَحُ مِنْ اسْمِ الْفِسْقِ، فَمَا مَعْنَى ذِكْرِ الْفِسْقِ لَهُمْ؟ فَهُوَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يُظْهِرُونَ الْمَوَافَقَةَ لِلْمُؤْمِنِينَ بِاللِّسَانِ، فَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى مَا أَظْهَرُوا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَأَنْ يَكُونَ اسْمُ التَّفَاقِ أَشْرٌ وَأَقْبَحُ عِنْدَ النَّاسِ مِنْ اسْمِ الْفِسْقِ فَعِنْدَهُمْ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ اسْمُ الْفِسْقِ أَكْبَرَ فِي الْقُبْحِ، أَوْ سَمَاءُهُمْ فَاسِقِينَ لِمَا أَنَّ كُلَّ أَهْلِ هَذِهِ الْأَدْيَانِ يَأْتُونَ مِنَ النَّسَبَةِ إِلَى الْفِسْقِ وَالنِّسْبَةِ بِهِ، أَوْ أَنْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ أَهْلُ نِفَاقٍ، وَلَا يَعْرِفُونَ أَنَّهُمْ فَسَقَةٌ. وَأَصْلُ الْفِسْقِ هُوَ الْخُرُوجُ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ.

الآية ٦٨

وقوله تعالى: «وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ الْكَفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ» وَعَدَ لَهُمْ نَارَ جَهَنَّمَ. كَانَ جَهَنَّمَ، هِيَ الْمَكَانُ الَّذِي يُعَذَّبُونَ فِيهِ، وَالنَّارُ فِيهِ بِهَا يُعَذَّبُونَ «خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ» جَزَاءُ لَصْنِيْعِهِمْ. يَقُولُ الرَّجُلُ لِأَخْرَجَ: حَسْبُكَ كَذَا، أَي كَفَاكَ ذَلِكَ جَزَاءً لَكَ.

وقوله تعالى: «وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ» قِيلَ: اللَّعْنُ، هُوَ الطَّرْدُ فِي اللُّغَةِ؛ أَي طَرَدَهُمْ عَنْ رَحْمَتِهِ «وَلَهُمْ عَذَابٌ مُؤِيمٌ» لَا يَبَارِقُهُمُ الْبَتَّةُ.

الآية ٦٩

وقوله تعالى: «كَذَّيْبٌ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً» أَي هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ^(٢) وَالْكَفَرَةُ «كَذَّيْبٌ مِنْ قَبْلِكُمْ» وَلَمْ يُبَيِّنْ كَأُولَئِكَ فِي مَاذَا؟ وَلَكِنْ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ «كَذَّيْبٌ مِنْ قَبْلِكُمْ» كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً «وَبَطْشًا» وَأَكْثَرُ أَنْزَلًا وَأَوَّلَدًا.

وفي^(٣) الشَّاهِدِ إِنَّمَا يُدْفَعُ الْعَذَابُ أَوْ الْعُقُوبَةُ بِهَذَا. وَبِهِ يَتَنَاصَرُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، ثُمَّ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى دَفْعِ ذَلِكَ. هَذَا قَدْ قِيلَ. وَقِيلَ: «كَذَّيْبٌ مِنْ قَبْلِكُمْ» أَي صِرْتُمْ وَمَا اخْتَرْتُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ كَمَا صَارَ أُولَئِكَ فِي مَا اخْتَارُوا مِنَ الْأَعْمَالِ وَكُلِّ أَنْوَاعِ الْخِلَافِ لِلَّهِ وَتَكْذِيبِ الرِّسْلِ وَتَعَاطِي مَا لَا يَجِلُّ، فَصِرْتُمْ أَنْتُمْ كَمَا صَارُوا هُمْ. [وقوله تعالى]^(٤): «فَاسْتَشْتَمُوا بِخَلْفَيْهِمْ» كَمَا اسْتَشْتَمَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْفَيْهِمْ. قِيلَ: اسْتَشْتَمُوا بِخَلْفَيْهِمْ؛ أَي أَكَلْتُمْ أَنْتُمْ الدُّنْيَا بِدِينِكُمْ كَمَا أَكَلَ أُولَئِكَ الدُّنْيَا بِدِينِهِمْ.

وقيل: «فَاسْتَشْتَمُوا بِخَلْفَيْهِمْ» أَي بِنَسَبِهِمْ مِنَ الدُّنْيَا، وَلَمْ يُقَدِّمُوا شَيْئًا لِلْآخِرَةِ، وَالْخَلَاقُ النَّصِيبُ كَقَوْلِهِ: «أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ» [آل عمران: ٧٧] أَي لَا نَصِيبَ لَهُمْ. وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: الْخَلَاقُ الدِّينُ، وَكَذَلِكَ قَالَ الْحَسَنُ فِي قَوْلِهِ: «بِخَلْفَيْهِمْ» أَي بِدِينِهِمْ.

وقوله تعالى: «وَحُضِّنْتُمْ كَالَّذِي خَسَاؤًا» أَي خُضِّنْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْبَاطِلِ وَالتَّكْذِيبِ كَالَّذِي خَاضَ أُولَئِكَ مِنَ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ. قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: قَوْلُهُ «وَحُضِّنْتُمْ» أَي لَعِبْتُمْ «كَالَّذِي خَسَاؤًا» أَي لَعِبُوا بِالتَّكْذِيبِ.

[وقوله تعالى]^(٥): «أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ» فَلَا ثَوَابَ لَهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لِأَنَّهُمَا كَانَتْ فِي غَيْرِ إِيْمَانٍ. فَثَوَابُ الْأَعْمَالِ إِنَّمَا يَكُونُ فِي الْآخِرَةِ بِالْإِيْمَانِ «وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ» خُسْرَانًا بَيِّنًا. وَبُطْلَانُ أَعْمَالِهِمْ فِي الدُّنْيَا لِمَا لَا يَقْبَلُ وَاحِدٌ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِ صَنِيعَهُمْ لِأَنَّهُمْ يُرَوْنَ مِنْ أَنْفُسِهِمُ الْمَوَافَقَةَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا، وَمَا كَانُوا مَعَ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ كَقَوْلِهِ: «مُتَّبِعِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ» [النساء: ١٤٣]

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: الْمُنَافِقِينَ. (٣) الْوَاوُ سَاقِطَةٌ مِنْ م. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

الآية ٧٠

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوَّوْا نُوحًا وَعَادًا﴾ إلى آخره. يَحْتَمِلُ هذا وجهين:

أحدهما: قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ﴾ أي قد أتاهم خبر ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ وما حلَّ بهم وما انتقم الله منهم بتكذيبهم الرسل وسعيهم في قتلهم وإهلاكهم، وهم من جنس أنفُسِكُمْ وأشدُّ قُوَّةً ويطشاً منكم، وأنتم تقلدونهم في ذلك. ثم حلَّ بهم ما حلَّ بتكذيبهم والخلاف لهم. فأنتم دونهم في كل شيء، وأقلُّ منهم في القوة والبطش، أولى بذلك أن يُصيبكم.

والثاني^(١): يَحْتَمِلُ قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ وما حلَّ بهم كقولهِ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى﴾ [البقرة: ٢٤٣...] كذا، أي سترى. فعلى ذلك هذا يَحْتَمِلُ، وهو حرف وعيد: يُحَذِّرُهُمْ ما حلَّ بأولئك لِيَمْتَنِعُوا عن مثل صنيعهم.

وقوله/٢١٨- أ/ تعالى: ﴿وَالْمُؤَيَّدَاتُ أَنْتُمْ رَسُولُهُمْ بِالنَّبَاتِ﴾ قال أهل التأويل في قريات لوط: مُؤَيَّدَاتُ أي مُقْلَبَاتُ.

قال القسبي: التَّفَكَّتْ: انقلبت، وقال أبو عوسجة ﴿وَالْمُؤَيَّدَاتُ﴾ هي من الإفك، وهو الصِّرف [كقوله تعالى] ^(٢): ﴿أَنْ يُوَفَّكَوْكَ﴾ [المائدة: ٧٥...] أي يضرِفون. وقال بعضهم ﴿وَالْمُؤَيَّدَاتُ﴾ المكذبات ﴿أَنْتُمْ رَسُولُهُمْ بِالنَّبَاتِ﴾ فكذبوهم، فأهلكوا، وهو من الانقلاب. كأنه أشبه، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ بتغذيبهم إياهم، وهم غير مُستوجِبِينَ لذلك العذاب ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حين^(٣) كَذَّبُوا رُسُلَهُ، وردوا ما [جاؤهم به]^(٤) من البينات والبراهين.

الآية ٧١

وقوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ يَحْتَمِلُ قوله: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ على الإيجاب والإخبار أنَّ الدين الذي اعتقدوا، وتمسكوا به، يوجب لهم الولاية، وتصير بعضهم أولياء بعض كقولهِ: ﴿إِذَا كُنْتُمْ أَعْدَاءُ قَالَتْ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ الآية [آل عمران: ١٠٣] وقولهِ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] ونحوه؛ فهي أخوة الدين وولايته. ويَحْتَمِلُ قوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ على الأمر؛ أي اتَّخَذُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءَ بَعْضٍ، ولا تَتَّخِذُوا غَيْرَهُمْ أَوْلِيَاءَ كقولهِ: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة: ٥١] وقولهِ: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الممتحنة: ١] نهى المؤمنين أن يتَّخِذُوا أَوْلِيَاءَ مِنْ غَيْرِهِمْ. فكانه أمر أن يتَّخِذَ الْمُؤْمِنُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً أَوْلِيَاءَ، ولا يتَّخِذُوا مِنْ غَيْرِهِمْ. ثم تَحْتَمِلُ الولاية وجهين:

[أحدهما]^(٥): ولاية روحانية، وهي ولاية في الدين، تُوجب مُراعاة حقوق تحديث بالدين الذي جمَعَهُمْ وحفظها. والثانية: ولاية نفسانية، وهي الولاية التي تكون في الأنفس والأموال من نحو ولاية النكاح والميراث وغيره؛ فهذه الولاية هي الولاية النفسانية التي كانت بالرَّجْمِ والنَّسَبِ. فإذا اجتمعوا في دين واحد وجبت تلك الولاية لهم، وهي الولاية نفسها.

والولاية الروحانية هي المحبة والمودة، فيجب [مُراعاة الدين بها]^(٦) وتعامله. وهذا كما تقول: حياة روحانية وحياة جسدية. والحياة الروحانية، هي العلم والآداب، ترى أشياء، وتعرفها من بُعد. والحياة الجسدية، وهي الروح الذي به يخيا الجسد، ويدهاب ويموت الجسد، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿يَا مُرُوءِدُ بِالْمَعْرُوفِ﴾ يَحْتَمِلُ المعروف الذي توجبهُ العقول، وهو التوحيد لله والإيمان به، ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ ينهون عما تنكيره^(٧) العقول، وهو الشرك بالله والتكذيب له. وهذا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هو في ما بين الكفرة، يأمرهم المؤمنون بذلك، ويدعونهم إلى ذلك، وينهونهم^(٨) عن ضد ذلك، وإن كان في ما بين المؤمنين،

(١) في الأصل وم: و. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: جاؤوا بهم. (٥) ساقطة من الأصل وم.

(٦) في الأصل وم: مراعاته بالدين. (٧) في الأصل وم: تنكر به. (٨) في الأصل وم: وينهاهم.

فهو أمر شرع، يأمر بعضهم بغضاً بما جاء به الشرع، وينهاه عما لم يَجِئ به الشرع، أو يأمر بعضهم بغضاً بكل خير وبر، وينهى عن كل شر ومغصية.

[وقوله تعالى^(١)]: ﴿رَيْبُكُمْ مِنَ الصَّلَاةِ وَرُؤُوسِ الزَّكَاةِ وَرُطْبُوعِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ في كل أمره ونهيهِ ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ وَعَدَّ أَنَّهُ يَرْحَمُهُمْ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ قيل: ﴿عَزِيزٌ﴾ تَرَى آثارَ عِزِّهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ ﴿حَكِيمٌ﴾ تَرَى آثارَ رَحْمَتِهِ وَتَدْبِيرِهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ.

الآية ٧٢ وقوله تعالى: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ وَلَجِبَةٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾.

وقوله تعالى ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي رضا الله عنهم أكبر من كل ما أعطاهم لأن فيه حياة الروح، ولذلك، وما أعطاهم من الجنة والمسكن الطيب في حياة الجسد؛ لأنه لا تؤثر زيادة في الجسد. وكذلك العِزُّ والحمدُ وذِكْرُهُ^(٢) الحسن: فيه حياة الروح ولذلك؛ إذ ليس فيه زيادة في الجسد، إنما هو فرح وسرور، يدخل فيه. وإذا أصابه شيء من الدُّلِّ، وسمع مكروهاً، جزئ، واهتم من غير أن يتألم جسده، أو يجد المأ وشدة في نفسه، وذلك لما أصاب روحه، ولم^(٣) يُصِبْ جسده.

واضحه أن العمل في الدنيا لطلب مرضاة الله، ومرضاته أكبر من العمل، يُطلب ثوابه، لأن العمل لطلب الثواب أمر له. فالذي قام بأداء ما عليه أعظم درجة وأكبر فضلاً من الذي قام بعمل ما له [ثواب]^(٤) لأن كل واحد يعمل ما له [ثواب]^(٥) وله فيه نفع. ولا كل واحد يعمل لغيره. لذلك كان ما ذكر.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ لأنه فوز ونجاة، لا خوف بعده، ولا هوان، ولا ذل.

الآية ٧٣ وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ جَاهَدُوا الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ يَحْتَمِلُ الأمرُ بالجهادِ الفريقين جميعاً جهاداً بالسيف. وَيَحْتَمِلُ مُجَاهَدَةً بِالْحَجَجِ والبراهين الفريقين جميعاً. وَيَحْتَمِلُ^(٦) أيضاً الأمرُ بالمُجَاهَدَةِ الْكُفَّارَ؛ يُجَاهِدُهُمْ بالسيف، وَيُغْلِظُ الْقَوْلَ، وَيُشَدِّدُهُ عَلَى الْمُنَافِقِينَ، وَيَقِيمُ عَلَيْهِمُ الْحُدُودَ.

فإن كان على مُجَاهَدَةِ الْفَرِيقَيْنِ جميعاً بالسيف فهو، والله أعلم في المنافقين الذين انفصلوا عن المؤمنين، وخرجوا من بين أظهرهم، وأظهروا الخلاف للمؤمنين بعد ما أظهروا الموافقة لهم. فأمثال هؤلاء يُجَاهَدُونَ بالسيف، وَيُقَاتِلُونَ بِهِ. وهو كقوله: ﴿لَئِنْ لَّمْ يَنُوحُوا الْمُتَّقِينَ﴾ إلى قوله: ﴿مُلْعُونِينَ﴾ الآية [الأحزاب: ٦٠ و ٦١] أخبر أنهم يؤخذون، ويُقتلون أينما وجدوا. فَيُشَبِّهُ أَنْ تَكُونَ الْآيَةُ فِي الْأَمْرِ بِالْجِهَادِ فِي هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ^(٧).

وَيَحْتَمِلُ وجهاً آخر، وهو أن الْمُنَافِقِينَ كانوا يظعنون في رسول الله، ويعيون عليه، فأطلع الله رسوله على ذلك، وهم قد علموا أن الله أطلعهم على ما يظعنون فيه، ويذكرونه بسوء، فيقول، والله أعلم: جاهدوهم إذا طعنوا فيك، وذكروا بسوء بعد ذلك.

وإن كان الأمر على الْمُجَاهَدَةِ بِالْحَجَجِ، فهو ﷺ قد كان حاجَّ الْفَرِيقَيْنِ جميعاً بِالْحَجَجِ، وخاصة سورة ﴿بَرَاءة﴾ إنما نزلت في مُحَاجَّةِ^(٨) الْمُنَافِقِينَ [وَيَحْتَمِلُ الأمرُ بِالْجِهَادِ فِي الْكُفَّارِ خاصة، وفي الْمُنَافِقِينَ^(٩) تغليظ القول والتشديد وإقامة الحدود التي^(١٠) ذكّرنا والتعزير إذا ارتكبوا شيئاً مما يجب فيه الحد والتعزير، والله أعلم بذلك لما أقاموا بين أظهر المؤمنين مظهرين لهم الموافقة.

الآية ٧٤ وقوله تعالى: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي شَأْنِ

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) الواو ساقطة من الأصل. (٧) من م، في الأصل: المنافقون. (٨) في الأصل وم: المحاجة. (٩) من م ساقطة من الأصل (١٠) في الأصل وم: الذي.

رجلٍ مُنافيٍّ قال^(١) يوماً^(٢) [والله لئن كان ما يقول محمد حقاً فَلَنتَحْنُ شَرَّ مِنَ الْحَمِيرِ. فَسَمِعَ^(٣) ذَلِكَ غُلَامٌ، وَهُوَ رَيْبُ ذَلِكَ الْقَائِلِ، فَقَالَ لَهُ: تَبُّ إِلَى اللَّهِ، وَجَاءَ هَذَا الْغُلَامُ إِلَى النَّبِيِّ، فَأَخْبَرَهُ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ، فَأَتَاهُ، فَجَعَلَ يَخْلِفُ مَا قَالَ ذَلِكَ. فَتَرَلَّتِ الْآيَةُ فِيهِ: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾.

لكن غير هذا لكانه أشبه لأن الآية: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ وقول الرجل: لئن كان ما يقول محمد حقاً فَلَنتَحْنُ شَرَّ مِنَ الْحَمِيرِ، هذا القول ليس هو كلام ذمٍّ بذمِّه نفسه. ويَعْدُ فَإِنَّ الْآيَةَ ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ هو^(٤) قول جماعة.

وقيل: [نزلت الآية]^(٥) في شأن عبد الله بن أبي؛ قال لأصحابه: والله ما مثَلُنَا [ومثَلُ^(٦) محمدٍ إلا كما قال القائل: سَمْنٌ كَلْبِكَ يَا كُنُكُكُ، وَقَالَ ﴿لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرَابُ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨] فَأَخْبَرَ النَّبِيُّ بِذَلِكَ، فَذَعَاهُ فَسَأَلَهُ، فَجَعَلَ يَخْلِفُ بِاللَّهِ مَا قَالَهُ.

لكن يُشبهه أن تكون الآية صلة قوله: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ الآية [التوبة: ٦٥] كانوا يَسْتَهْزِئُونَ بِاللَّهِ وَبِآيَاتِهِ وَبِرَسُولِهِ، وَالِاسْتِهْزَاءُ بِذَلِكَ كُفْرٌ. وَإِنْ قَالُوا قَوْلَ كُفْرٍ، لَمْ يُبَيِّنْ لَنَا ذَلِكَ فَلَا نَفْسُرُهُ أَنَّهُمْ قَالُوا كَذَا لِمَا لَيْسَ لَنَا إِلَى مَعْرِفَةِ ذَلِكَ الْقَوْلِ الَّذِي قَالُوهُ حَاجَةٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَكَفَرُوا بِتَدْرِيسِهِ﴾ يَحْتَمِلُ كَفَرُوا بِتَدْرِيسِهِ مَا اسْلَمُوا إِسْلَامَ حَقِيقَةٍ. وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ ﴿بِتَدْرِيسِهِ﴾ بَعْدَ^(٧) مَا أَظْهَرُوا الْإِسْلَامَ؛ أَيِ رَجَعُوا عَمَّا أَظْهَرُوا مِنَ الْإِسْلَامِ.

وفي الآية دلالة أن الإسلام والإيمان واحد [لأنه]^(٨) قال: ﴿وَكَفَرُوا بِتَدْرِيسِهِ﴾ وقال ٢١٨ - ب/ في آية أُخْرَى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ يَبْغِ غَيْرَ مَا قَبِلَ بِهِ﴾ ثم قال: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بِتَدْرِيسِهِمْ﴾ ﴿ثُمَّ أَزْوَاجُهمْ﴾ [آل عمران: ٨٥/٩٠] فدل أن الإسلام والإيمان واحد.

وقوله تعالى: ﴿وَقَتُّوا بِمَا نَزَّلْنَا﴾ قيل هَمُّوا بِقَتْلِ رَسُولِ اللَّهِ وَالْمَكْرِ بِهِ، فَلَمْ يَنَالُوا مَا هَمُّوا بِهِ. وفيه دلالة إثبات الرسالة له، لأنهم أَسَرُّوا مَا هَمُّوا بِهِ، ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ ذَلِكَ، وَهُوَ غَيْبٌ، دَلَّ أَنَّهُ بِاللَّهِ عَلِيمٌ ذَلِكَ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ قال بعض أهل التأويل: إن الرجل الذي قال ذلك تاب عن ذلك، فَقَبِلَ مِنْهُ ذَلِكَ، وَكَانَ لَهُ قَتْلٌ فِي الْإِسْلَامِ، فَوَدَّاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأَعْطَاهُ وَبَتَهُ، فَاسْتَفْنَى بِذَلِكَ.

وقال ابن عباس: ﷺ ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعْطِي الْمُنَافِقِينَ مِنَ الْعَنَائِمِ وَالصَّدَقَاتِ، يَقُولُ ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا﴾ مَا أَعْطَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْغَنِيمَةِ وَالصَّدَقَةِ.

وقوله تعالى ﴿نَقَمُوا﴾ قال بعض أهل الأدب: أبو معاوية وغيره: نَقَمُوا أَيِ طَعَنُوا، فِيهِ لُغَتَانِ؛ نَقَمُوا بِالْحَقْفِضِ، وَنَقَمُوا بِالنُّضْبِ؛ يُقَالُ: نَقِمَ يَنْقُمُ بِكَسْرِ الْقَافِ فَهُوَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، يَقُولُ: مَا طَعَنُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَمَا ذَكَّرُوهُ بِسُوءٍ ﴿إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ﴾ لأنهم لو كانوا أهل قَفَرٍ وَحَاجَةٍ مَا^(٩) اجْتَرَأُوا عَلَى الطَّعْنِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، وَمَا ذَكَّرُوهُ بِسُوءٍ، وَلَكِنْ طَعَنُوا عَلَيْهِ لَمَّا أَغْنَاهُمْ اللَّهُ. وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ مَا عَامَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَامَلَةَ الْكِرَامِ، وَيَسُطُّ إِلَيْهِمْ حَتَّى قَالُوا: ﴿هُوَ أَذْنُ﴾ [التوبة: ٦١] يَقْبَلُ الْعَذْرَ، فَلِذَلِكَ حَمَلَهُمْ عَلَى الطَّعْنِ.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَتُوبَا بِكَ خَيْرًا لَمْ تَكُنْ فِيهِ أَنْ الْمُنَافِقِينَ يَقْبَلُ مِنْهُمْ التَّوْبَةَ﴾ ﴿وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يَعْذِبْنَهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿يَتَوَلَّوْا﴾ بَعْدَ مَا اسْلَمُوا، وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿يَتَوَلَّوْا﴾ أَيِ دَامُوا عَلَى الْكُفْرِ وَالنَّفَاقِ ﴿يَعْذِبْنَهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بِمَا ذَكَّرْنَا: فِي الدُّنْيَا الْأَمْرَ بِالْجِهَادِ وَالْقَتْلِ وَالْخَوْفِ. هَذَا التَّعْذِيبُ فِي الدُّنْيَا. وَالتَّعْذِيبُ فِي الْآخِرَةِ ظَاهِرٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضَيْنِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾. قَدْ ذَكَّرْنَا هَذَا فِي مَوْضِعٍ غَيْرِ هَذَا.

(١) من م، في الأصل: قالوا. (٢) من هنا يبدأ النقص من م وسيتهي ص ٤٣٥، انظر الحاشية الرابعة فيها. (٣) في الأصل: فسمعه. (٤) في الأصل: فهو. (٥) في الأصل: نزل. (٦) ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل: وما.

الآية ٧٥

وقوله تعالى: ﴿وَمِنهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِذَا مَاتْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: نَزَلَتْ الْآيَةُ فِي ثَغْلَبَةَ بْنِ حَاطِبٍ؛ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَدْعُوَ اللَّهَ لِيَرْزُقَهُ مَالًا، وَقَالَ: ﴿لَئِذَا مَاتْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

ومِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ؛ إِنَّهُ كَانَ لَهُ أَمْوَالٌ فِي الشَّامِ، قَالَ: ﴿لَئِذَا مَاتْنَا﴾ تِلْكَ الْأَمْوَالِ لِأَصْدَقَتْنِ، وَأَكُنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ. فَقَدْ آتَاهُ اللَّهُ تِلْكَ الْأَمْوَالِ، فَبَخِلَ، وَمَنَعَ مَا وَعَدَ.

ومِنْهُمْ مَنْ قَالَ: نَزَلَتْ فِي الْمُنَافِقِينَ جُمْلَةً، لَيْسَتْ فِي شَأْنٍ وَاحِدٍ مَنْصُوصٍ مُشَارٍ إِلَيْهِ، وَلَكِنْ فِي الْمُنَافِقِينَ جُمْلَةً. وَهَكَذَا كَانَتْ عَادَتُهُمْ أَنَّهُمْ إِذَا وَعَدُوا شَيْئًا أَخْلَفُوا، وَلَمْ يُوفُوا الْوَعْدَ.

ثُمَّ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿وَمِنهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ﴾ أَنَّهُ كَانَ مُنَافِقًا وَقَدْ مَاتَ وَعَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَاهُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ لَيَصَّدَّقَنَّ. وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مُنَافِقًا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، لَكِنَّهُ صَارَ بِمَا بَخِلَ، وَكَذَبَ، وَاعْتَقَدَ الْخِلَافَ، وَاسْتَحْلَلَ الْخُلْفَ لِمَا وَعَدَ [فَصَارَ] ^(١) مُنَافِقًا.

فَإِنْ كَانَ إِنَّمَا صَارَ مُنَافِقًا بِمَا بَخِلَ، [وَاسْتَحْلَلَ، وَامْتَنَعَ، يَكُنْ] ^(٢) قَوْلُهُ ﴿فَاعْقِبْنَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٧] أَيْ صَارَ فِي قُلُوبِهِمْ نِفَاقٌ ^(٣). وَإِنْ كَانَ مُنَافِقًا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ يَكُنْ ^(٤) قَوْلُهُ ﴿فَاعْقِبْنَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أَيْ أَعَقِبْنَهُمْ الدَّوَامَ عَلَى النِّفَاقِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ بِبَخْلِهِمْ وَمَنَعِهِمْ مَا وَعَدُوا. فَيَكُونُ هَذَا قَوْلُهُ: ﴿وَمِنهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ الْآيَةُ [التوبة: ٥٨].

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿وَمِنهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ [التوبة: ٧٧-٧٥] دَلَالَةٌ أَنَّ النُّذُورَ تَلَزَمُ أَهْلِهَا، وَيَجِبُ الْوَفَاءُ بِهَا، وَيُؤَاخِذُونَ بِهَا إِنْ تَرَكُوا الْوَفَاءَ، وَيَكْفُرُونَ إِنْ اسْتَحْلَلُوا نَقْضَ مَا عَاهَدُوا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَهوَ عَلَى تَأْوِيلٍ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ كَانَ مُنَافِقًا وَفُتِنَ. وَيَحْتَمِلُ ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أَيْ مِنَ الشَّاكِرِينَ. وَكَذَلِكَ ذَكَرَ فِي الْخَبَرِ أَنَّ ثَغْلَبَةَ [بَنَ حَاطِبِ الْأَنْصَارِيِّ] ^(٥) لَمَّا سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَسْأَلَ اللَّهَ لَهُ مَالًا، قَالَ ^(٦) لَهُ «قَلِيلٌ تُؤَدِّي شُكْرَهُ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ لَا تُؤَدِّي حَقَّهُ» [ابن جرير الطبري في تفسيره: ج ١٠/ ١٨٩] أَوْ كَلَامًا ^(٧) مِنْ نَحْوِ هَذَا.

الآية ٧٦

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا مَاتَ مِنْهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِدِينِهِمْ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿وَتَوَلَّوْا﴾ عَنْ وِفَائِهِ مَا وَعَدُوا، أَوْ ﴿وَتَوَلَّوْا﴾ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ، أَوْ ﴿وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ عَمَّا وَعَدُوا، وَعَاهَدُوا أَنْ يُوفُوا.

الآية ٧٧

وقوله تعالى: ﴿فَاعْقِبْنَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: أَثَابَهُمْ نِفَاقًا بِمَا بَخِلُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَعَقِبْنَهُمْ الدَّوَامَ عَلَى النِّفَاقِ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ. يَتَّبِعُنِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَجْتَنِبَ الْكَذْبَ وَالْخُلْفَ فِي الْوَعْدِ فَإِنَّهُ سَبَبُ النِّفَاقِ، أَوْ نَوْعٌ مِنَ النِّفَاقِ. وَعَلَى ذَلِكَ رُويَ فِي الْخَبَرِ: «إِنْ اجْتَنَبُوا الْكَذْبَ فَإِنَّهُ بَابٌ مِنَ النِّفَاقِ، وَعَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ فَإِنَّهُ بَابٌ مِنَ الْإِيمَانِ» [السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٤٨].

وَفِي بَعْضِهَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا: مَنْ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ» [البخاري ٣٤] وَفِي بَعْضِهَا: «وَإِذَا التَّيَمَّنَ خَانَ».

فَإِنْ قِيلَ: إِنَّ أَوْلَادَ يَعْقُوبَ التَّيَمَّنُوا، فَخَانُوا، وَحَدَّثُوا، فَكَذَّبُوا، بِقَوْلِهِمْ ﴿فَأَكَلَهُ الذَّنْبُ﴾ [يوسف: ١٧] وَوَعَدُوا، فَاخْلَفُوا، فَتَرَى أَنَّهُمْ نَافِقُونَ. قِيلَ: مَا رُويَ أَنَّ مَنْ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ فِي أَمْرِ الدِّينِ، وَأَمَّا الْكَذِبُ فِي غَيْرِ أَمْرِ الدِّينِ فَإِنَّهُ لَا يَوْجِبُ النِّفَاقَ. وَفِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ لَا يَتَصَّنَّ بِالسُّؤَالِ فِي شَيْءٍ عَلَى غَيْرِ طَلَبِ الْخَيْرَةِ فِي ذَلِكَ مِنَ اللَّهِ.

أَلَا تَرَى أَنَّ ثَغْلَبَةَ [بَنَ حَاطِبِ الْأَنْصَارِيِّ] ^(٨) لَمَّا أَلْعَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي السُّؤَالِ أَنْ يَسْأَلَ رَبَّهُ لِيَرْزُقَهُ مَالًا فَعَلَ ^(٩)، فَاعْتَبَهُ اللَّهُ النِّفَاقَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؟ وَأَنَّ ^(١٠) أَوْلَادَ يَعْقُوبَ، قَدْ قَدَّمُوا التَّوْبَةَ وَالْإِصْلَاحَ قَبْلَ صَنِيعِهِمْ الَّذِي صَنَعُوا عَلَى خَوْفٍ مِنْهُمْ بِمَا فَعَلُوا، فَلَمْ يَصِيرُوا مُنَافِقِينَ؟

(١) ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل: واستحل له والمنع فيكون. (٣) في الأصل: نفاقًا. (٤) في الأصل: فيكون. (٥) ساقطة من الأصل.

(٦) في الأصل: فقال. (٧) في الأصل: كلام. (٨) ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل: ففعل. (١٠) في الأصل: ولان.

وأصله أن اغتصاب الكذب واستحلال الخلاف لما عهدوا الخلف في الرغد هو الموجب للنفاق. فإما نزل فإلغ الوفاء على غير استحلال منه فلا يوجب ما ذكر، والله أعلم.

الآية ٧٨ وقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتُمْ أَنكُمُ اللَّهُ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ يَحْتَمِلُ هذا وجهين:

[أحدهما] ^(١): أن قد عَلِمُوا ﴿أَرَأَيْتُمْ أَنكُمُ اللَّهُ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ لكثرة ما يُطْلِعُ رسوله على ما أَسْرَوْا مِنَ الخلاف له وَذَكَرَهُمُ السوء في رسول الله ﷺ.

والثاني: ﴿أَرَأَيْتُمْ أَنكُمُ اللَّهُ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾، وَيُطْلِعُ ^(٢) رسوله على سِرِّهِمْ وَنَجْوَاهُمْ؟ فأتروا الطعن في رسول الله ﷺ وَذَكَرَ السوء فيه والخلاف له.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ أي غَلَابُ الْغُيُوبِ، أو ﴿عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ بما يكونُ غَائِباً ^(٣) عَنِ الْخَلْقِ؛ وَعَلَامٌ ^(٤) لَيْسَ شَيْءٌ، يَغِيبُ عَنْهُ مَا غَابَ عَنِ الْخَلْقِ وَمَالِمُ يَغِيبُ، عِنْدَهُ بِمَحَلٍّ وَاحِدٍ، أو عَلَامٌ بما يكونُ أَبَداً فِي الْأَوَاقَاتِ الَّتِي يَكُونُ.

وفيه دلالة أنه لم يزلَ عَلَاماً لَأَنَّهُ عَلِمَ الْغَيْبَ هو ما عَلِمَ أَنَّهُ يَكُونُ لا ما عَلِمَ، وهو كائن. دَلَّ أَنَّهُ كَانَ لَمْ يَزَلْ عَالِماً لِمَا ذَكَرْنَا.

الآية ٧٩ وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ الْآيَةُ؛ يُشَبِّهُ أَنْ تَكُونَ الْآيَةُ صِلَةً قَوْلِهِ: ﴿وَمِنْهُمْ مَن عَاهَدَ اللَّهُ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَتَوَلَّوْا﴾ [التوبة: ٧٦] إِنَّ أَهْلَ النِّفَاقِ كَانُوا أَهْلَ بُخْلِ، لَا يُنْفِقُونَ إِلَّا مُرَاةً وَسُمْعَةً، فَطَلَبُوا بِمَنِ اتَّفَقَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَتَصَدَّقَ / ٢١٩ - أ/ طَلَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ، فَقَالُوا: إِنَّهُمْ أَنْفَقُوا، وَتَصَدَّقُوا مُرَاةً وَسُمْعَةً.

ذَكَرَ فِي بَعْضِ الْقِصَصِ أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ أَتَى بِنِصْفِ مَالِهِ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، يَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ، وَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ هَذَا نِصْفُ مَالِي أَتَيْتُكَ بِهِ، وَتَرَكْتُ نِصْفَهُ لِعِيَالِي، فَدَعَا لَهُ نَبِيُّ اللَّهِ أَنْ يُبَارِكَ فِي مَا أُعْطِيَ، وَفِي مَا أَمْسَكَ، فَلَمَزَهُ الْمُنَافِقُونَ، وَقَالُوا: مَا أُعْطِيَ إِلَّا رِيَاءً وَسُمْعَةً. وَجَاءَ رَجُلٌ آخَرُ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ بِصَاعٍ مِنْ تَمْرٍ، فَتَشَرَّهُ فِي تَمْرِ الصَّدَقَةِ، فَقَالَ لَهُ نَبِيُّ اللَّهِ خَيْرًا، وَدَعَا لَهُ، فَقَالَ الْمُنَافِقُونَ: إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنْ صَاعٍ هَذَا. فَذَلِكَ لَمَزُهُمْ.

فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ يَعْنِي الَّذِي جَاءَ بِصَاعٍ. قَالَ الْقَتَّابِيُّ: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ﴾ أَيِ يَعْبُونَ الْمُطَّوِّعِينَ بِالصَّدَقَةِ ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ أَيِ طَاقَتَهُمْ، وَالْجُهْدُ الطَّاقَةُ، وَقَالَ: وَالْجُهْدُ الْمَشَقَّةُ.

وَقَالَ أَبُو عَوَسَجَةَ: الْجُهْدُ إِنْفَاقُ الرَّجُلِ مِنَ الشَّيْءِ الْقَلِيلِ؛ يُقَالُ: جَهَّدَ الرَّجُلُ إِذَا كَانَ مِنَ الضَّعْفِ أَوْ الْفَقْرِ، وَيُقَالُ: جَهَّدَ فِي الْعَمَلِ يَجْهَدُ جُهْدًا، فَهُوَ إِذَا بَلَغَ فِي الْعَمَلِ. قَالَ: أَبُو عُبَيْدٍ: الْجُهْدُ الطَّاقَةُ وَكَذَلِكَ قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ. وَفِي الْآيَةِ مَعْنَانِ: أَحَدُهُمَا: دَلَالَةُ إِثْبَاتِ رِسَالَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِأَنَّهُ مَعْلُومٌ أَنَّ مَا كَانَ مِنْهُمْ ^(٥) مِنَ اللَّمَزِ لَمْ يَكُنْ ظَاهِرًا، وَلَكِنْ كَانَ سِرًّا، ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ رَسُولُهُ بِذَلِكَ. دَلَّ أَنَّهُ إِنَّمَا عَرَفَ ذَلِكَ بِاللَّهِ.

والثاني: أَنَّ الْأُمُورَ الَّتِي فِي مَا بَيْنَ الْخَلْقِ تُحْمَلُ عَلَى ظَوَاهِرِهَا، وَإِنْ كَانَ فِي الْبَاطِنِ عَلَى خِلَافِ الظَّاهِرِ حِينَ غُوبُوا هُمْ بِمَا طَعَنُوا فِيهِمْ بِالرِّيَاءِ وَالسُّمْعَةِ لِيَعْلَمُوا أَنَّ الْأُمُورَ الَّتِي مَا بَيْنَ الْخَلْقِ تُحْمَلُ عَلَى ظَوَاهِرِهَا، وَلَا يُنْظَرُ فِيهَا إِلَى غَيْرِ ظَاهِرِهَا.

والحقيقة هو ما بَطَّنَ، وَأَسْرَوْا بِهِ، يَخْلُصُ الْعَمَلُ لِلَّهِ. وَالسِّرُّ هُوَ مَا يُسَرُّ الْمَرْءُ فِي نَفْسِهِ، وَالتَّجْوَى اجْتِمَاعُ جَمَاعَةٍ عَلَى تَجْوَى مِنَ الْأَرْضِ أَيْ الْمُرْتَفِعِ مِنَ الْمَكَانِ.

(١) ساقطة من الأصل. (٢) الواو ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل: غائب. (٤) في الأصل: وإلا. (٥) في الأصل: منه. (٦) في الأصل: حيث.

وقوله تعالى: ﴿يَسْتَخِرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ قال بعضهم: إن من اعتذر إلى آخر، فقبل عذره على علم من المعتذر إليه أنه لا عذر له في ما يعتذر إليه، وأنه كاذب في ذلك، فقبول المعتذر إليه ما يعتذر من المعتذر سُخْرِيَّةٌ مِنَ الْمُعْتَذِرِ إِلَيْهِ مِنَ^(١) المعتذر.

وقال بعضهم: قوله: ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ أي يخزيهم جزاء السُخْرِيَّةِ، فسُمي جزاء [السُخْرِيَّةِ]^(٢) باسم السُخْرِيَّةِ، وإن لم يكن الجزاء سُخْرِيَّةً كما سُمي جزاء السَّيِّئَةِ سَيِّئَةً، وإن لم تكن الثانية سَيِّئَةً. وكذلك سُمي جزاء الإغتياء، وإن لم يكن الثاني اغتياء. فعلى ذلك سُمي جزاء السُخْرِيَّةِ سُخْرِيَّةً، وإن لم تكن سُخْرِيَّةً.

ويَحْتَمِلُ قوله ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ أي سَخِرَ أولياء الله منهم، فأضيف إليه. وكذلك يَحْتَمِلُ قوله ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥] [أي]^(٣) أوليائه، وقوله ﴿أَرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نَصْرَكُمْ﴾ [الحديد: ١٣] فذلك استهزاء بهم. وكذلك جائز في اللغة: إضافة الشيء إلى آخر، والمراد^(٤) منه غير المضاف إليه.

الآية ٨٠

وقوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ قال عامة أهل التأويل: إنه لما مات عبد الله بن أبي أراد رسول الله ﷺ أن يصلِّي عليه، فأخذ عمر بن الخطاب بشوبه، فقال: ما أمرك الله بهذا، قال: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ فقال «قد خيرني ربي، فقال: افعل، أو لا تفعل» [ابن جرير الطبري في تفسيره: ٢٠٠/١٠].

وفي بعض الروايات قال له عمر: لا تَسْتَغْفِرْ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ نَهَاكَ عَنْ هَذَا، فقال «يا عمر أفلا استغفر إحدى وسبعين مرة؟» [السيوطي في الدر المنثور: ٢٥٢/٤] أو كلاماً نحوه هذا. فانزل الله عند ذلك: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [المنافقون: ٦].

لكن هذا يبعد؛ يفهم رسول الله ﷺ من الآية التحذير، وعمر يمنع عن ذلك، ولا يجوز أن يفهم التحذير في ذلك، أو يخرج ذلك على التحذير، أو تكون هذه منسوخة بالتي في المنافقين لأنه وعيد، والوعيد لا يَحْتَمِلُ الشَّخْصَ.

والوجه فيه، والله أعلم: إن استغفرت لهم فإن استغفارك ليس بالذي يرى، فلا يجاب، لكنهم قوم كفروا بالله ورسوله، وقد تعلم من حُكْمِي ألا أغفر لمن^(٥) مات على ذلك، [وذلك]^(٦) يخرج على الإغتيار لرسوله في ذلك والنهي له عن الاستغفار لهم كقوله: ﴿مَا كُنَّا لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ﴾ [التوبة: ١١٣] وقد علم شرك المنافقين وكفرهم بالله ورسوله، فنهاه عن الاستغفار لهم؛ إذ لا يَحْتَمِلُ أن يكون ذلك قبل أن يُظْلِعَ رسوله على كفرهم. قدل أنه بعد العلم بذلك نهاه.

وفيه دلالة نفص قول المعتزلة في قولهم: إن صاحب الكبيرة لا يغفر له لأنه أخبر أنه لا يغفر لهم بما ﴿كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ قدل [أنه]^(٧) إن لم يكن كفر بالله ورسوله فإنه يغفر له، وإن له الشفاعة، وصاحب الكبيرة ليس بكافر. دل أنه ما ذكرنا.

ثم طلب المغفرة من الله والشفاعة لغير يحيى ألا يكون إلا للخواص من الخلق، وهم الرسل والأنبياء، على ما يكون في الشاهد لا ترفع إلى ملوك الأرض الحاجة لغيرهم إلا للخواص^(٨) لهم، ولا يشفعون إلا لأهل^(٩) الشرف عندهم والمترلة.

لكن الله تعالى إذن لنا في [الاستغفار لغيرنا]^(١٠) بقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: ١٠] وقوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [المنافقون: ٦].

ويَحْتَمِلُ قوله ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي سواء عندهم: استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم، ويكون طلب استغفارهم من

(١) في الأصل: إلى. (٢) ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل. (٤) الروا ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل: من. (٦) ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل: الخواص. (٩) في الأصل: أهل. (١٠) في الأصل: استغفار غيرنا.

رسول الله استهزاء منهم له بقوله ^(١) ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَعْلَوْنَا فَنَشْتَفِقُ لَكَ﴾ [الفتح: ١١]. يُخْرِجُ قَوْلُهُمْ ﴿فَنَشْتَفِقُ لَكَ﴾ مُخْرِجَ الْإِسْتِهْزَاءِ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ.

وَيَحْتَمِلُ ذِكْرُ السَّبْعِينَ لَأَنَّ السَّبْعِينَ هُوَ النِّهَايَةُ وَالْغَايَةُ فِي الْإِسْتِغْفَارِ عَلَى مَا رُوِيَ أَنَّهُ كَانَ يَسْتَغْفِرُ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعِينَ مَرَّةً اسْتِغْفَارًا. فَأَخْبَرَ أَنَّكَ، وَإِنْ انْتَهَيْتَ [إِلَى] ^(٢) النِّهَايَةِ فِيهِ لَا يُغْفَرُ لَهُمْ، وَلَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ وَقَدْ اخْتَارَهُمُ الْفِسْقَ، أَوْ لَا يَهْدِيهِمْ طَرِيقَ الْجَنَّةِ فِي الْآخِرَةِ لِفَسَقِهِمْ فِي الدُّنْيَا إِذَا مَاتُوا عَلَى ذَلِكَ.

الآية ٨١

وقوله تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ الْآيَةُ جَمَعُوا؛ أَغْنَى الْمُنَافِقِينَ جَمِيعَ خِصَالِ الشَّرِّ الَّتِي فَعَلُوا:

أَخَذَهَا: مَا ذَكَرَ مِنْ فَرَحِهِمْ بِالتَّخَلُّفِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ.

وَالثَّانِي: كَرَاهَتُهُمُ الْجِهَادَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ وَيُخَلِّفُهُمْ بِأَمْوَالِهِمْ.

وَالثَّالِثُ: صَدُّهُمْ النَّاسَ عَنِ الْجِهَادِ وَالْخُرُوجِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِقَوْلِهِمْ: ﴿لَا تَنِيرُوا فِي الْحَرْبِ﴾ جَمَعَ اللَّهُ جَمِيعَ خِصَالِ الْمُنَافِقِينَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ.

وقوله تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ﴾ ذَكَرَ الْمُخَلَّفِينَ ^(٣)، وَهُمْ كَانُوا مُتَخَلِّفِينَ فِي الْحَقِيقَةِ، لَكِنَّهُ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ ^(٤):

[أَخَذَهُمَا: هُمَا] ^(٥) مُخَلَّفُونَ؛ خَلَّفَهُمُ اللَّهُ لِمَا ذَكَرَ أَنَّ خُرُوجَهُمْ لَا يَزِيدُهُمْ ﴿إِلَّا خَبَالًا﴾ وَأَنَّهُمْ يَنْبَغُونَ ﴿الْفِتْنَةَ﴾

[التوبة: ٤٧] خَلَّفَهُمُ اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ ^(٦) ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا لَهُ عُدَّةٌ وَلَكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ أَيْمَانَهُمْ فَتَبَطَّوهُمْ﴾

[التوبة: ٤٦] قِيلَ: حَبَسَهُمْ.

فَعَلَى ذَلِكَ [هُم] ^(٧) مُخَلَّفُونَ؛ خَلَّفَهُمُ اللَّهُ لِمَا عَلِمَ أَنَّ خُرُوجَهُمْ لَا يَزِيدُهُمْ ﴿إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة: ٤٧] وَفَسَادًا.

[وَالثَّانِي: يَحْتَمِلُ هُمَا] ^(٨) مُخَلَّفُونَ؛ خَلَّفَهُمُ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ لِأَنَّهُمْ لَوْ أَرَادُوا أَنْ يُخْرِجُوهُمْ كَرِهًا لَقَدَّرُوا عَلَى ذَلِكَ،

فَهُمْ كَالْمُخَلَّفِينَ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ لِمَا لَوْ أَرَادُوا إِخْرَاجَهُمْ أَخْرَجُوهُمْ، وَإِنْ كَانُوا ^(٩) مُتَخَلِّفِينَ فِي الْحَقِيقَةِ.

وقوله تعالى: ﴿بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ أَي مُخَالَفَةً رَسُولِ اللَّهِ. وَقُرِئَ خَلَفَ رَسُولِ اللَّهِ ^(١٠) أَي فَرَحُوا بِمَقْعَدِهِمْ بَعْدَ

خُرُوجِ رَسُولِ اللَّهِ.

وقوله تعالى: ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾ يَحْتَمِلُ الْقَعْدَ أَيْ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَهُ. وَيَحْتَمِلُ ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾ أَي مَوْضِعَ قُعُودِهِمْ، وَهُوَ مَنَازِلُهُمْ

وَأَوْطَانُهُمْ، ﴿وَكَرِهُوا أَنْ يُبْتَدَأَ بِأَمْوَالِهِمْ﴾ بَخْلَهُمْ وَخِلَافَتَهُمُ الَّذِي فِي قُلُوبِهِمْ.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَنِيرُوا فِي الْحَرْبِ﴾ ٢١٩ - ب/ هَذَا فِي الظَّاهِرِ يُخْرِجُ عَلَى إِظْهَارِ الشَّفَقَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَلَكِنْ [لَمْ

يَكُونُوا] ^(١١) أَرَادُوا ذَلِكَ، إِنَّمَا أَرَادُوا حَبْسَهُمْ عَنِ الْخُرُوجِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. لَكِنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَمْتَنِعُونَ عَنِ الْخُرُوجِ إِلَى الْعَزْوِ،

وَكَانُوا يَخْتَالُونَ فِي مَنَعِهِمُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ الْخُرُوجِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَوْ أَطْلَقُوا الْقَوْلَ فِي الْمَنَعِ، وَصَرَّحُوا، لَفَهِمَ الْمُؤْمِنُونَ ^(١٢)

ذَلِكَ، وَيُظَاهِرُ نِفَاقَهُمْ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُمْ ﴿لَا تَنِيرُوا فِي الْحَرْبِ﴾ قَالُوا ذَلِكَ لِاتِّبَاعِهِمْ لَا لِلْمُؤْمِنِينَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَقَالُوا لَا يُخَوِّنُهُمْ إِذَا صَرَبُوا فِي الْأَرْضِ

أَوْ كَانُوا غُرَى﴾ [آل عمران: ١٥٦].

(١) فِي الْأَصْلِ: حَيْثُ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٣) فِي الْأَصْلِ: الْمُخَلَّفُونَ. (٤) هُنَا يَنْتَهِي النِّقْصُ مِنْ م الَّذِي أَشْرْنَا إِلَى بَدَايَتِهِ فِي بَدءِ تَفْسِيرِ

الْآيَةِ (٧٤) مِنَ السُّورَةِ. قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ. قَالَ يَوْمًا [يَوْمًا] (٢) وَاللَّهُ لَعَنَ. ص ٤٣١، انْظُرِ الْحَاشِيَةَ الثَّانِيَةَ فِيهَا. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَ

م. (٦) فِي الْأَصْلِ وَ: كَقَوْلِهِ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَ: م. (٨) فِي م: وَيَحْتَمِلُ، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَ: م: كَانَ. (١٠) انْظُرِ

مَعْجَمَ الْقُرْآنِ الْقَرْآنِيَةِ ج ٣/ ٣٤. (١١) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: لَا يَكُنْ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَ: الْمُؤْمِنِينَ.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ أي لو كانوا يفقهون ما أنزل على رسول الله لعلهم أن نار جهنم أشد حراً من حر الدنيا، أو لو كانوا يفقهون أنهم لم يخلقوا في الدنيا للدنيا خاصة، ولكن خلقهم فيها ليمنجنهم، ليعلموا أن الموعود في الآخرة أشد مما امتحنوا في الدنيا.

الآية ٨٢

وقوله تعالى: ﴿لَيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلَيَبْكُوا كَثِيراً﴾ بضمه أن يكون الضحك كناية عن الفرح والسرور، والبكاء كناية عن الحزن؛ يقول: افرحوا، وسرّوا قليلاً، فستحزنون^(١) في الآخرة طويلاً كثيراً. وأمكن أن يكون على حقيقة الضحك لأنهم كانوا يضحكون، ويستهنون بالمؤمنين في الدنيا؛ يقول: ضحكوا قليلاً لأن الدنيا قليلة، تنقطع، وسيكون^(٢) كثيراً في الآخرة لأنها لا تنقطع ﴿جَزَاءً يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

الآية ٨٣

وقوله تعالى: ﴿إِن رَّجِمَكَ اللَّهُ إِنَّ طَائِفَةً مِنْهُمْ فُتِنَتْ فَرَأَتُكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ دل قوله ﴿رَجِمَكَ اللَّهُ﴾ أن ليس كل متخلف عنه في ذلك، هو^(٣) منافق، ولا كل المنافقين امتنعوا، وتخلّفوا عنه.

وقوله تعالى: ﴿فَأَسْتَفْزِزُكُم بِالْخُرُوجِ فَقُلْ لَّنْ نَخْرُجَ مَعَ أَبَدَا وَلَن نَقْتُلُوا مَعَ عَدُوًّا﴾ لأنه أخبر أن خروجهم معهم لا يزيدهم إلا خيلاً [التوبة: ٤٧] وفساداً؛ فيقول: ﴿لَن نَخْرُجَ مَعَ أَبَدَا وَلَن نَقْتُلُوا مَعَ عَدُوًّا﴾ إنك رؤيتهم بالعمود أول سرّهم أي عويّوا بالعمود أول سرّهم ليفاتهم.

وقوله تعالى: ﴿فَقُلْ لَّنْ نَخْرُجَ مَعَ أَبَدَا﴾ أي لن أذن لكم أن نخرجوا مع أبداً، ولن أذن لكم أن نقتلوا مع عدوّاً، ويختلّ ﴿لَن نَخْرُجَ﴾ أي وإن^(٤) أذن لك بالخروج فلن نخرجوا أبداً ﴿فَأَقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ قيل: مع المتخلفين، وهم المنافقون [على^(٥)] ما ذكر. ويختلّ: أن أقعدوا مع أصحاب الأعداء. وقال بغضهم [أقعدوا]^(٦) مع النساء والزمنى، وهو واحد.

الآية ٨٤

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدَا﴾ يعني المنافقين ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ وذكر في بغض القصة أنه لما مات عبد الله بن أبي جاء^(٧) ابنه إلى رسول الله، فقال: يا رسول الله إن أبي مات، وأوصانا أن نكفنه بقميصك^(٨) وأن نصلّي عليه، فخلع النبي قميصه، فأعطاه، ومشى، فصلّى، وقام على قبره. وروي في بعض الأخبار أنه صلى عليه، والبسة قميصه. وقيل له: تلبس عدوّ الله قميصك، وقال: إني لأرجو أن يسلم بقميصي من بني الخزرج ألف^(٩) [ابن جرير الطبري في تفسيره ١٩٩/١٠] فذكر أنه لما فعل ذلك أسلم ألف رجل من المنافقين.

وروي أنه لم يصل عليه. فلا ندري كيف كان الأمر بعد أن جاء النهي عن الصلاة على المنافقين بقوله: ﴿وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدَا﴾ ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وقاتوا وهم فاسقون سماءهم فسقة، واسم الكفرة أقبح وأدّم، لكنهم جمّعوا مع الكفر أنواع الفسق ليعلّم أن اعتقادهم الكفر والمذهب الذي يذهبون إليه؛ إنما اعتقدوا لهوهم؛ إذ الفسق مما يحرمه كل مذهب ودين، وكل يأنف عن الفسق، ويتبرأ منه، ولا كذلك الكفر؛ لأن كل من آمن بشيء كفر بغيره. واصل الفسق هو الخروج عن الأمر، والله أعلم.

الآية ٨٥

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجِدَكَ أَمْوَالُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا﴾ قال بعضهم من أهل التأويل: إنه على التقديم والتأخير؛ كأنه قال: ولا تعجبك أموالهم وأولادهم في الدنيا إنما يريد الله أن يعذبهم في الآخرة. وفيه نقض قول المعتزلة في الأصلح، وقد ذكرنا الوجه الذي يدل على نقض قولهم في ما تقدّم، ويختلّ قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا﴾ القتال، والحروف التي أمروا فيها ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثَقِفُوا أُثْدُوا وَقَتِلُوا قَتِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦١] التعذيب الذي ذكر لأنهم يصيرون مقتولين.

وقوله تعالى: ﴿وَتَرَهَقَ أَنْفُسُهُمْ﴾ تذهب، وتهلك ﴿وَهُمْ كَافِرُونَ﴾

(١) في الأصل وم: وتحزنون. (٢) في الأصل وم: ويكون. (٣) في الأصل وم: فهو. (٤) في الأصل وم: و. (٥) ساقطة من الأصل وم.

(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: فجاء. (٨) من م، ساقطة من الأصل.

الآية ٨٦

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْزَلْتُ سُورَةً أَنْ مَآيُنَا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ﴾ أَي ﴿وَإِذَا أَنْزَلْتُ سُورَةً﴾ فِيهَا ﴿أَنْ مَآيُنَا﴾ لَا إِنِّهَا تَنْزِيلُ سُورَةٍ بِهَذَا الْحَرْفِ، وَلَكِنْ فِيهَا ذِكْرٌ ﴿أَنْ مَآيُنَا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ﴾ وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا أَنْزَلْتُ سُورَةً تُحْكِمُكُمْ وَذُكِّرَ فِيهَا الْفِتَالُ﴾ [محمد: ٢٠]. وقوله: ﴿أَنْ مَآيُنَا بِاللَّهِ﴾ بِقُلُوبِكُمْ^(١) لَأَنَّهُمْ قَدْ أَظْهَرُوا الْإِيمَانَ بِاللِّسَانِ، وَهُمْ لَمْ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ حَقِيقَةً.

وقوله تعالى: ﴿اسْتَنْذَكْتُ أُولَئِكَ أَطْلُولُ بِنَهْتِهِ﴾ قِيلَ ﴿أُولَئِكَ أَطْلُولُ﴾ هُمُ أَهْلُ الْغِنَى وَالسَّعَةِ، وَقِيلَ ﴿أُولَئِكَ أَطْلُولُ﴾ أَهْلُ الْفَضْلِ وَالشَّرَفِ الَّذِينَ كَانُوا يَصُدُّونَ لَأَرَائِهِمْ، وَيَنْظُرُونَ إِلَى تَدْبِيرِهِمْ، وَقَدْ كَانَ فِي أَهْلِ النِّفَاقِ أَهْلُ السَّعَةِ وَالْغِنَى وَأَهْلُ النَّظَرِ وَالتَّدْبِيرِ.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا دَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَتِيلِينَ﴾ اسْتَأْذَنُوا الْقُعُودَ عَنِ الْجِهَادِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، لِمَا كَانُوا يُؤَالُونَ أَهْلَ الْكُفْرِ سِرًّا، فَكَرِهُوا الْقِتَالَ مَعَ الْأَوْلِيَاءِ، أَوْ كَانُوا يَتَخَلَّفُونَ، وَيَمْتَنِعُونَ عَنِ الْخُرُوجِ إِلَى الْقِتَالِ.

وَأَمَّا أَهْلُ الْإِيمَانِ فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا يَعْمَلُونَ لِلْعَوَاقِبِ، وَكَذَلِكَ أَهْلُ الْكُفْرِ إِنَّمَا يُقَاتِلُونَ أَهْلَ الْإِيمَانِ [وَأَمَّا الْمُنَافِقُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْمُلُونَ غَنِيمَةً فِي الْعَاقِبَةِ]^(٢) لَكِنَّهُمْ كَانُوا يَسْتَأْذِنُونَ الْقُعُودَ، وَيَكُونُونَ مَعَ الْقَاعِذِينَ، [يَزُونَ]^(٣) مِنْ أَنْفُسِهِمْ أَنْ لَهُمُ الْعُذْرُ فِي الْقُعُودِ.

ثم قوله: ﴿وَقَالُوا دَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَتِيلِينَ﴾ يَحْتَمِلُ مَعَ الْقَتِيلِينَ مِنَ الضَّعْفَاءِ وَالْمَرْضَى وَالصُّبْيَانِ حَتَّى إِذَا أَتَاهُمُ الْعَدُوُّ مِنْ بَعْدِ مَا خَرَجَ الرِّجَالُ مِنْهُمْ إِلَى قِتَالِ الْعَدُوِّ، عَنْ هَؤُلَاءِ، أَوْ يَكُونُ قَوْلُهُمْ: ﴿دَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَتِيلِينَ﴾ مِنْ أَهْلِ الْعُذْرِ؛ يَزُونَ أَنْفُسَهُمْ أَنَّهُمْ أَهْلُ الْعُذْرِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ عُذْرٌ فِي ذَلِكَ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ يُونُسَ عَوْدَةً وَمَا هِيَ بِعَوْدَةٍ﴾ الْآيَةُ [الْأَحْزَابُ: ١٣] فَعَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلِ يَحْتَمِلُ هَذَا.

الآية ٨٧

وقوله تعالى: ﴿رَسُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ قِيلَ: مَعَ النَّسَاءِ، فَهَذَا حَرْفٌ تَغْيِيرٍ وَتَوْبِيخٍ؛ أَي رَسُوا بِأَنْ يَكُونُوا فِي مَشَاهِدِ النَّسَاءِ دُونَ مَشَاهِدِ الرِّجَالِ.

وقوله تعالى: ﴿وَطَلَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهَمٌ لَا يَقْفَهُونَ﴾ إِنَّ^(٤) لِلْإِيمَانِ نُورًا تُبْصِرُ بِهِ عَوَاقِبُ الْأُمُورِ، وَيُرْفَعُ الْحِجَابُ وَالسُّتُرُ مِنَ الْقُلُوبِ وَمِنْ الْأُمُورِ، فَتَرَاهَا بَادِيَةً ظَاهِرَةً. وَلِلْكَفْرِ ظُلْمَةٌ تَسْتُرُ الظَّاهِرَ مِنَ الْأُمُورِ وَالْبَادِيَّ مِنْهَا، فَتَسْتُرُ تِلْكَ الظُّلْمَةُ قَلْبَهُ، فَذَلِكَ الظُّلْمَةُ، وَقَدْ ذَكَّرْنَا الْوَجْهَ فِيهِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ ﴿فَهَمٌ لَا يَقْفَهُونَ﴾ مَا يَلْحَقُهُمْ مِنَ التَّغْيِيرِ بِرِضَائِهِمْ بِالْقُعُودِ مَعَ الْخَوَالِفِ. وَالْفِقْهُ هُوَ مَعْرِفَةُ الشَّيْءِ بِمَعْنَاهُ الدَّالُّ عَلَى نَظِيرِهِ، مَتَعَتْ^(٥) تِلْكَ الظُّلْمَةُ أَنْ تُعْرِفَ الْأَشْيَاءَ بِمَعَانِيهَا وَيَنْظُرَ فِيهَا لِلْحِجَابِ الَّذِي ذَكَّرْنَا.

الآية ٨٨

وقوله تعالى: ﴿لَنْ يَكُنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَهْدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ يَقُولُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: إِنَّ الرِّسُولَ وَالَّذِينَ حَقَّقُوا الْإِيمَانَ وَالتَّصَدِيقَ ﴿جَهْدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ أَي بِذَلُّوا أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ لِتَضَرِّ دِينَ اللَّهِ وَإِظْهَارِ سَبِيلِهِ، وَلَمْ يَنْخَلُوا كَمَا يَخَلُّ أَهْلُ النِّفَاقِ فِي بَذْلِ أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي نَصْرِ دِينِهِ بِالْمُجَاهَدَةِ مَعَ أَعْدَائِهِ، وَلَمْ يَحَقِّقُوا الْإِيمَانَ وَالتَّصَدِيقَ.

ثُمَّ اخْتَبَرَ أَنَّ لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ حَقَّقُوا الْإِيمَانَ وَالتَّصَدِيقَ، وَبَذَلُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، وَجَاهَدُوا بِهَا فِي نَصْرِ دِينِ اللَّهِ وَإِظْهَارِ سَبِيلِهِ ﴿لَكُمْ الْخَيْرَاتُ﴾. قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿لَكُمْ الْخَيْرَاتُ﴾ الذِّكْرُ فِي الدُّنْيَا وَالتَّشَاءُ الْحَسَنُ وَسُلُوكُ النَّاسِ طَرِيقَهُمْ، وَفِي الْآخِرَةِ ٢٢٠ - ١/ الشُّوَابُ وَالْجَزَاءُ. وَقِيلَ: ﴿لَكُمْ الْخَيْرَاتُ﴾ فِي الْآخِرَةِ لِمَا بَذَلُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ فِي نَصْرِ دِينِهِ وَالمُجَاهَدَةِ مَعَ عَدُوِّهِ. وَقِيلَ: ﴿لَكُمْ الْخَيْرَاتُ﴾ الْحُورُ الْعِينُ كَقَوْلِهِ ﴿فِيَنَ خَيْرٌ حَسَنًا﴾ [الرَّحْمَنُ: ٧٠] وَاللَّهُ أَعْلَمُ. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الْمُفْلِحُ هُوَ الَّذِي يَنْظُرُ بِحَاجَةٍ؛ وَقَدْ يُقَالُ: أَفْلَحَ، وَقَدْ ذَكَّرْنَا هَذَا فِي مَا تَقَدَّمَ.

(١) فِي الْأَصْلِ رَمَ: بِقُلُوبِهِمْ. (٢) فِي الْأَصْلِ رَمَ: إِمَّا غَنِيمَةً فِي الْعَاقِبَةِ يَتَأْمَلُونَ. (٣) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٤) مِنْ فِي الْأَصْلِ: أَي. (٥) فِي الْأَصْلِ رَمَ: مَنَعَ.

الآية ٨٩

وقوله تعالى: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَكُمْ جَنَّتَ بَحْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ لِيُعْلَمَ أَنَّ الْعِظَمَ لَيْسَ يَقَعُ فِي مَا فِيهِ الْغِلْظُ وَالْكثَافَةُ، وَلَكِنَّ الْقَدْرَ وَالْمَنْزِلَةَ.

الآية ٩٠

وقوله تعالى: ﴿وَبَلَّغَ الْمُعْذِرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ مِنْ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: ﴿الْمُعْذِرُونَ﴾ هُمُ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَ الْقَعُودَ، وَلَا عُذْرَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ. وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: ﴿الْمُعْذِرُونَ﴾ هُمُ الَّذِينَ لَهُمْ عُذْرٌ، وَبِهِمْ عِلَّةٌ. وَبَعْضُهُمْ قَالَ: ﴿الْمُعْذِرُونَ﴾ هُمُ الْمُعْذِرُونَ.

وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه أَنَّهُ قَرَأَ: الْمُعْذِرُونَ ^(١) بِالْخَفِيفِ، وَقَالَ: لَعَنَ اللَّهُ الْمُعْذِرِينَ؛ كَأَنَّهُ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ الْمُعْذِرَ هُوَ الَّذِي لَهُ عُذْرٌ، وَالْمُعْذِرُ بِالتَّشْدِيدِ الَّذِي لَا عُذْرَ لَهُ، لِذَلِكَ لَعَنَ الْمُعْذِرَ.

قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ: وَأَكْثَرُ كَلَامِ الْعَرَبِ الْمُعْذِرُ هُوَ الَّذِي لَهُ عُذْرٌ وَهُوَ قَوْلُهُمْ: قَدْ أَغْذَرَ مَنْ أَنْذَرَ.

وَقَالَ عَوْسَجَةُ: الْمُعْذِرُ بِالتَّشْدِيدِ الَّذِي لَا يُنَاصِحُ، إِنَّمَا يَرِيدُ أَنْ يُعْذَرَ، وَيُقَالُ: عُذِرْتُ فِي الْأَمْرِ إِذَا لَمْ أَبَالِغْ ^(٢) فِيهِ، وَأَغْذَرْتُ فِي الْأَمْرِ أَيِ الْبَالِغُ فِيهِ.

وَقَالَ الْقُتَيْبِيُّ: ﴿الْمُعْذِرُونَ﴾ بِالتَّشْدِيدِ هُمُ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ، إِنَّمَا يَغْرِضُونَ مَا لَا يَرِيدُونَ أَنْ يَفْعَلُوهُ، يُقَالُ: عُذِرْتُ فِي الْأَمْرِ إِذَا قَصُرْتُ، وَأَغْذَرْتُ: جَدَدْتُ.

ثُمَّ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: ذَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ أَهْلَ النِّفَاقِ كَانُوا صِنْفَيْنِ؛ صِنْفٌ كَانُوا يَسْتَأْذِنُونَ الْقَعُودَ، وَصِنْفٌ لَا يَسْتَأْذِنُونَ، وَلَكِنْ يَقْعُدُونَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَبَلَّغَ الْمُعْذِرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَدْ أَلَّيْنِ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ذَلَّ قَوْلُهُ: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عَلَى أَنَّ مِنْ أَهْلِ النِّفَاقِ مَنْ قَدْ آمَنَ، وَتَابَ، وَأَنَّ مَنْ تَابَ يَقْبَلُ مِنْهُ لَأَنَّهُ قَالَ: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وَلَمْ يَقُلْ سَيُصِيبُهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْمُعْذِرُونَ بِالتَّخْفِيفِ: هُمُ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ لَهُمْ الْعُذْرُ وَالتَّخَلُّفُ؛ أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ لِيَنْظُرَ فِي أَمْرِهِمُ الْاَوْفَى: إِنْ كَانَ الْخُرُوجُ لَهُمْ أَوْفَى يَخْرُجُوا ^(٣)، وَإِنْ كَانَ الْقَعُودُ أَوْفَى يَقْعُدُوا ^(٤). يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ الْآيَةُ الَّتِي تَلِي هَذِهِ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ﴾ الْآيَةُ [التوبة: ٩١]

فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ اخْتَمَلَ أَنْ يَكُونَ آيَةٌ وَاحِدَةً فِي الْفَرِيقَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ: إِذَا قُرِئَ بِالتَّخْفِيفِ فَهِيَ فِي الَّذِينَ لَهُمْ عُذْرٌ، وَإِذَا قُرِئَ بِالتَّشْدِيدِ كَانَتْ فِي الَّذِينَ لَا عُذْرَ لَهُمْ؟ قِيلَ: تَصِيرُ عَلَى اخْتِلَافِ الْقِرَاءَةِ كَانَتَيْنِ ^(٥) فِي حَالَتَيْنِ وَوَقْتَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ.

وَأِنْ كَانَ تَأْوِيلُ الْمُعْذِرِ بِالتَّشْدِيدِ فَهُوَ ^(٦) الَّذِي يَقْعُدُ، وَلَا عُذْرَ لَهُ، وَالْمُعْذِرُ بِالتَّخْفِيفِ هُوَ الَّذِي لَهُ [عُذْرٌ، وَإِنْ] ^(٧) كَانَ تَأْوِيلُ إِحْدَى الْقِرَاءَتَيْنِ عَلَى ضِدِّ ^(٨) الْأُخْرَى كَانَ لَهُمْ عُذْرٌ فِي حَالٍ، وَلَا عُذْرَ لَهُمْ فِي حَالٍ أُخْرَى. وَإِلَّا لَا يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ الْقِرَاءَتَانِ جَمِيعاً فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ، وَتَأْوِيلُهُمَا عَلَى الْإِخْتِلَافِ الَّذِي ذَكَرُوا، وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿رَبَّنَا بَلِّغْنَا بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ [سبا: ١٩] وَقَوْلِهِ ^(٩) رَبَّنَا بِالرَّفْعِ ^(١٠) بَاعِذْ ﴿بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾: أَحْذَهُمَا عَلَى الدَّعَاءِ، وَالْآخَرُ عَلَى الْإِيجَابِ، هُمَا آيَتَانِ، صَارَتَا آيَةً وَاحِدَةً لِاخْتِلَافِ الْقِرَاءَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٩١

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ﴾ لَوْلَمْ يَذْكُرِ الْمَرْضَى وَلَا الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ لَكَانَ الْمَفْهُومُ مِنْ قَوْلِهِ ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ الْمَرِيضَ وَالَّذِي لَا يَجِدُ مَا يُنْفِقُ، وَكَذَلِكَ إِذَا ذَكَرَ الْمَرِيضَ كَانَ فِي ذِكْرِهِ مَا يُفْهَمُ مِنْهُ كُلُّ ضَعِيفٍ وَكُلُّ مَا لَا يَجِدُ مَا يُنْفِقُ، وَفِي كُلِّ حَرْفٍ مِنْ هَذَا الْحَرْفِ مَا يُفْهَمُ مِنْهُ مَعْنَى الْآخَرِ. فَلَمَّا ذَكَرَ دَلَّ أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ ذِكْرِ الضُّعَفَاءِ الرُّمْنَى مِنْ نَحْوِ الْأَعْمَى وَالْأَعْرَجِ، فَكَانَ كَقَوْلِهِ ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ﴾ [النور: ٦١] فَتَكُونُ الْآيَتَانِ وَاحِدَةً؛ أَغْنَى مَعْنَاهُمَا وَاحِدًا.

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٣/ ٣٥. (٢) في الأصل وم: يبالغ. (٣) يخرجون. (٤) في الأصل وم: يقعدون. (٥) في م: كائنين. (٦) الغاء ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: عذراً و. (٨) في الأصل وم: ضدي. (٩) في الأصل وم: و. (١٠) انظر معجم القراءات القرآنية ١٥٥/٥.

وفيه دلالة أن ليس في ذكر عددٍ من الأشياء خطرٌ دخولٍ غير المذكور إذا كان في مغناه. ولهذا قال أصحابنا: إن ليس في ما ذكر رسول الله عذراً^(١) في الربا بقوله «والحنطة بالحنطة والذهب بالذهب والفضة بالفضة» [بنحوه مسلم ١٥٨٧]. على أنه لا لمعنى ورد، ولا تدخل فيه ما لم يذكر لما ذكرنا أنه لو ذكر الضعفاء لذكر المريض والأعمى والأعرج وجميع من ضُفِّت عن الخروج من أنواع الأعداء.

ثم لم يدل ما ذكر من العدد وتخصيصه على أنه لا لمعنى ذكر. فعلى ذلك خبر الربا.

ثم جعل العمى والعرج والمرضى وعدم الثقة ونحوه عذراً في ترك الخروج، ولم يجعل شدة الحر وبُعد المسافة ونحوه عذراً بقوله: «وقالوا لا تنفروا في الحر قل نأر جهنم أشد حراً» [التوبة: ٨١].

واضله، والله أعلم [في وجهين]:

أحدهما: [٢] أن كل ما لم يعمل في المنع عن الخروج لشهوة أو لطمع، يزجر نيله من التجارة ونحوها لم يكن ذلك عذراً في ترك الخروج؛ إذ شدة الحر وبُعد السفر وخوف العدو مما لا يمنعهم عن الخروج للتجارة، فلم يصير ذلك عذراً لهم بالتخلف عن الخروج للجهاد. وأما حال المرضى والزمانة وعدم الثقة بمنع، ويعجزهم عن الخروج في كل ما يهتدون، ويشتبهون، صار ذلك عذراً لهم بالتخلف عن الخروج للجهاد.

والثاني: أن كل ما يُقدَّر على دفعه بحال لم يجعل ذلك عذراً في التخلف، وكل ما لا سبيل لهم إلى دفعه فهو عذر. والحر وبُعد السفر وخوف العدو يجوز أن يُدفع، فيصير كأن ليس [عذراً]^(٣). وهو ما ذكر: «قل نأر جهنم أشد حراً» [التوبة: ٨١]. فإذا ذكر شدة حر جهنم وبُعد سفر الآخرة وأحواله هان عليه الخروج، وسهل، فازتفع ذلك. فلذلك صار أحدهما عذراً، والآخر لا، والله أعلم.

وقوله تعالى: «إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ» قيل: لم يَخْدَعُوا أحداً في دينه، ولم يُعْشُوا في دنياه، وقيل: «إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ» أي أطاعوا الله ورسوله في الحضرة، ولم يتركوا طاعته.

وقوله تعالى: «وَاللَّهُ عَشُورٌ رَحِيمٌ» بتركهم الخروج وتخليفهم عن الجهاد مع الأعداء.

الآية ٩٢ وقوله تعالى: «وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ» ذكر في بغض الأخبار عن النبي ﷺ [أنه^(٤)] قال: «لولا أن أشق على أمتي» أو قال: «على المؤمنين، ولأخرجت في كل سرية بعثتها لأنهم لا يجدون ما يُنفقون فيخرجوا»^(٥)، ولا أجدهم ما أحملهم عليه، فيشق عليهم مفارقتهم إيانا، فلا خرج بتركهم الخروج إذا لم يجدوا ما يُنفقون ولا ما يُحملون^(٦) عليه [بنحوه أحمد ٢/٢٤٥].

الآية ٩٣ ثم قال: «إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ» يجدون ما يُنفقون، فيتركون الخروج بقوله: «إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ» يعني النساء «وَطَلَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» هذا قد ذكر هنا «وَطَلَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» [وذكر في الآية الأولى: «وَطَلَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» [التوبة: ٨٧]]^(٧) والفقه هو معرفة الشيء بغيره، والعلم هو وقوع العلم لا بغيره. ولذلك يقال: الله عالم، ولا يجوز أن يقال فقيه. فأخبر أنهم لا عرفوا الشيء بغيره ولا بنفسه عناداً منهم ومكابرة.

الآية ٩٤ وقوله تعالى: «يَسْتَأْذِنُ الْإِنِّكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَسْتَأْذِنُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ» فيه إنباء عما يقول لهم المنافقون إذا رجعوا إليهم وتعليم من الله لرسوله والمؤمنين ما يقول لهم وماذا يجيبون لهم، فقال: «يَسْتَأْذِنُ الْإِنِّكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَسْتَأْذِنُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ» أي لن تصدقكم بما تعتذرون أي بما تظهرون/ ٢٢٠ - ب/ لأنفسكم من العذر. وقوله: «لَا تَسْتَأْذِنُوا» ليس على النبي، ولكن على التوبيخ.

(١) في الأصل وم: عدداً. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: فيخرجون.

(٥) في الأصل وم: يحمل. (٦) ساقطة من الأصل.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ نَبَأَ اللَّهُ مِنْ أَنْبَارِكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿قَدْ نَبَأَ اللَّهُ مِنْ أَنْبَارِكُمْ﴾ أَنْكُمْ لَا تَضْلُحُونَ أَبَدًا كَمَا قَالَ: ﴿إِنَّهُمْ رَجَسٌ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ﴾ [التوبة: ٩٥] وَقِيلَ: ﴿قَدْ نَبَأَ اللَّهُ مِنْ أَنْبَارِكُمْ﴾ حِينَ قَالَ لَهُمْ ﴿لَوْ حَرَجُوا فِكرًا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿يَبْتَغُونَكَ الْفِتْنَةَ﴾ [التوبة: ٤٧] وَقَالُوا: وَهَذَا الَّذِي ﴿قَدْ نَبَأَ اللَّهُ مِنْ أَنْبَارِكُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ فِي مَا تَسْتَأْنِفُونَ. وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ أَي سَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ بَاطِلًا، أَوْ يَقُولُ: سَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ؛ أَي يَجْزِيكُمْ جَزَاءَ عَمَلِكُمْ وَرَسُولُهُ، وَالْمُؤْمِنُونَ يَشْهَدُونَ عَلَيْكُمْ بِذَلِكَ.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَرْدُونَ إِلَيَّ عَنِ النَّبِيِّ وَالشَّهَدَةِ﴾ قَدْ ذَكَرْنَا أَنْ لَيْسَ شَيْءٌ يَغِيبُ عَنْهُ، أَوْ يَكُونُ شَيْءٌ عَنْهُ أَظْهَرَ مِنْ شَيْءٍ، وَلَكِنْ مَا يَغِيبُ عَنِ الْخَلْقِ وَمَا لَا يَغِيبُ عَنْهُ بِمَحَلٍّ وَاحِدٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَيُنِذِرُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يُخْرِجُ عَلَى الْوَعِيدِ.

الآية ٩٥

وقوله تعالى: ﴿سَيَحْمِلُونَ لَكُمْ لَعْنَهُ إِذَا أَفْلَحْتُمْ إِلَيْهِمْ لِيُتَعَرَّضُوا عَنْهُمْ﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ ﴿لِيُتَعَرَّضُوا عَنْهُمْ﴾ أَي لِيَتَجَاوَزُوا عَنْهُمْ، وَلَا تُكَافِرُوهُمْ، فَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ لِيَا سَأَلُوا مِنَ الْمُجَاوِزَةِ عَنْهُمْ وَتَرَكِ الْمَكَافَاتِ. وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ ﴿لِيُتَعَرَّضُوا عَنْهُمْ فَاغْرَضُوا عَنْهُمْ﴾ أَي لَا تُحَاجُّوهُمْ، وَلَا تَسْتَغْلُوا بِهِمْ، فَإِنَّهُمْ لَا يَضْلُحُونَ أَبَدًا، ﴿إِنَّهُمْ رَجَسٌ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

الآية ٩٦

وقوله تعالى: ﴿يَحْمِلُونَ لَكُمْ لَعْنَهُ لِيَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ وَتَقَبَّلُوا^(١) مِنْهُمْ مَا يُظْهِرُونَ مِنَ الْعَذْرِ، ثُمَّ اخْبَرَ أَنْكُمْ إِنْ رَضِيتُمْ مِنْهُمْ، وَقَبِلْتُمْ مَا يَذْكُرُونَ مِنْ عَذْرِهِمْ ﴿فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَا يَرْضَى﴾ عَنْهُمْ لِمَا يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا عُذْرَ لَهُمْ فِي مَا يُظْهِرُونَ لَكُمْ مِنَ الْعَذْرِ، وَاللَّهُ أَغْلَمُ، لَيْسَ عَلَى النَّبِيِّ عَنْ إِرْضَاءِ أَوْلَئِكَ لِأَنْ إِرْضَاءَ الْخَلْقِ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْحَلْفِ، وَمَا يَكُونُ مِنَ الظَّاهِرِ، وَلَكِنَّ النَّبِيَّ عَنْ تَرْكِ الْمَوَافَقَةِ فِي الْبَاطِنِ، وَفِيهِ يَتَحَقَّقُ رِضَا اللَّهِ.

الآية ٩٧

وقوله تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ لِيَحْتَمِلَ وَجْهًا:

أَحَدُهَا^(٢): [أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ دَعَا كُفَرَاءَ الْمَدِينَةِ، فَأَتَّاسَ مِنْ إِيْمَانِهِمْ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنْهُمْ رَجَسٌ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ﴾ الْآيَةَ. فَلَمَّا أُويسَ مِنْ إِيْمَانٍ هَؤُلَاءِ أَقْبَلَ نَحْوَ طَائِفَةٍ مِنَ الْأَعْرَابِ الَّذِينَ كَانُوا بِقُرْبِ الْمَدِينَةِ وَحَوَالِيهَا، [فَاخْبَرَهُ اللَّهُ]^(٣) أَنَّهُمْ ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ.

وَالثَّانِي^(٤): أَنَّهُ أَرَادَ بِالْأَعْرَابِ جَمْلَةً أَنَّهُمْ: أَيِ الْكُفَرَاءِ مِنْهُمْ وَأَهْلِ النِّفَاقِ ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ وَالْمَدِينِ؛ كَانُوا يَسْمَعُونَ الْآيَاتِ وَالْحُجَجَ، وَيَخَالِطُونَ أَهْلَ رَحْمَةٍ وَأَهْلَ مَوَدَّةٍ. وَأَمَّا الْأَعْرَابُ وَأَهْلُ الْبَادِيَةِ، كَانُوا لَا يَسْمَعُونَ الْآيَاتِ وَالْحُجَجَ، وَلَا خَالَطُوا أَهْلَ رَحْمَةٍ وَرَأْفَةٍ، فَهُمْ^(٥) أَفْسَى قُلُوبًا وَأَضْيَقُ صُدُورًا، وَأَهْلُ الْمَدِينِ وَالْأَمْصَارِ أَلْيَنُ قُلُوبًا وَأَوْسَعُ صُدُورًا؛ فَهُمْ أَسْرَعُ لِلْإِجَابَةِ، وَأَوْلَئِكَ أَبْعَدُ وَابْطَأُ إِجَابَةً.

[وَالثَّالِثُ^(٦): أَنَّهُمْ وَصِفُوا بِفَضْلِ الْجَهْلِ مَا لَمْ يَوْصَفَ بِهِ أَهْلُ الْمُدُنِ وَالْأَمْصَارِ]^(٧) بِذَلِكَ.

[رُويَ فِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ]^(٨) عَنْ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ [أَنَّهُ]^(٩) قَالَ: «لَا يُؤْمِنُكُمْ أَعْرَابِيٌّ» وَفِي بَعْضِهَا: «لَا يُؤْمِنُ أَعْرَابِيٌّ مُهَاجِرٌ» [البيهقي فِي الْكِبَرِيِّ ١٧١/٣] وَفِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ: «مَنْ بَدَأَ جَفَا» [أَحْمَدُ ٣٧١/٢].

وَذَلِكَ، وَاللَّهُ أَغْلَمُ، لِأَنَّهُمْ لَا يَدْخُلُونَ الْأَمْصَارَ لِيَتَأَدَّبُوا، وَيَتَعَلَّمُوا^(١٠) الْأَدَبَ. فَإِذَا كَانُوا كَذَلِكَ فَهُمْ أَجْهَلُ. وَالْإِيْمَانُ هُوَ التَّصَدِيقُ، وَالتَّصَدِيقُ إِنَّمَا يَكُونُ بَعْدَ الْعِلْمِ لِأَنَّهُ مَا لَمْ يُعْلَمْ لَا يُصَدَّقُ. فَإِذَا كَانُوا بِالْجَهْلِ مَا وَصَفْنَا كَانُوا أَشَدَّ إِنْكَارًا وَتَكْذِيبًا مِنْ غَيْرِهِمْ، وَهُوَ مَا ذَكَرَ.

(١) فِي الْأَصْلِ م: وَتَقَبَّلُوا. (٢) فِي الْأَصْلِ م: وَهُوَ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ م. (٤) فِي الْأَصْلِ م: وَيَحْتَمِلُ. (٥) فِي الْأَصْلِ م: فَهَؤُلَاءِ. (٦) فِي الْأَصْلِ: وَالثَّانِي. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ م. (٨) فِي الْأَصْلِ م: مَا رُوي. (٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ م. (١٠) فِي الْأَصْلِ م: وَيَتَعَلَّمُونَ.

[وقوله تعالى^(١)]: ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ وَصَفُهُمْ بِالْجَهْلِ بِكَوْنِ التَّكْذِيبِ، وبِالْعِلْمِ التَّصْدِيقِ، وهو ما ذَكَّرْنَا. وَاجْدَرُ وَاخْلُقْ وَآخَرَى وَاحِدٌ.

وقوله تعالى: ﴿حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: هُمْ أَقْلُ عِلْمًا بِالسَّنَنِ، وَقِيلَ: بِالْفَرَائِضِ. وَيُقَالُ: الْحُدُودُ مَا بَيَّنَّ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَمَعْصِيَتِهِ.

وَاضْلُهُ أَنَّهُمْ أَهْلُ جَهْلِ بِجَمِيعِ الْأَوَامِرِ وَالْمَنَاهِي وَجَمِيعِ الْأَدَابِ وَمَا لَا يَحِلُّ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أَيِ عَلَى عِلْمٍ بِمَا يَكُونُ مِنْهُمْ؛ خَلَقَهُمْ ﴿حَكِيمٌ﴾ حِينَ^(٢) وَضَعَ الْخَلَائِقَ بِمَوْضِعٍ يَدُلُّ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَالْوَهْدِيَّةِ لَوْ تَدَبَّرُوا فِيهِمْ وَنَظَرُوا.

الآية ٩٨ وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا﴾ أَيِ كَانَ لَا يُنْفِقُ حِسْبَةً. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: يُنْفِقُ، وَلَا يَرَاهُ حَقًّا، إِنَّمَا يَرَاهُ غُرْمًا يَلْحَقُهُ وَغُرْمًا يُغْرِمُهُ. وَاضْلُهُ أَنَّهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُوا حَقِيقَةَ أَنَّهُمْ وَمَا حَوْتُهُ أَيْدِيهِمْ لِلَّهِ، لَيْسَ لَهُمْ، لَمْ يَعْدُوا ذَلِكَ غُرْمًا غَرِمُوا، وَتَبِعَةً لِحَقِّقَتِهِمْ. وَلَكِنْ لَمَّا لَمْ يَرَوْا لِلَّهِ تَعَالَى فِي أُمُورِهِمْ حَقًّا، وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ أُمُورَهُمْ لِلَّهِ حَقِيقَةً، لَا لَهُمْ، عَدُّوا ذَلِكَ غُرْمًا وَتَبِعَةً.

وقوله تعالى: ﴿وَيَتَرَبَّصُّ بِكُرِّ الدَّوَابِّ عَلَيْهِمْ دَائِرَةً﴾ قِيلَ: الدَّوَابُّ هِيَ انْقِلَابُ الْأَمْرِ، وَهُوَ مِنَ الدَّوَرَانِ. ثُمَّ يَخْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿وَيَتَرَبَّصُّ بِكُرِّ الدَّوَابِّ﴾ مَا قَالَ بَعْضُهُمْ^(٣): مَوْتُ مُحَمَّدٍ. وَقِيلَ: ﴿الدَّوَابِّ﴾ دَوَائِرُ الزَّمَانِ وَخَوَادِئُهَا ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةً السَّوَةِ﴾ أَيِ عَلَيْهِمْ انْقِلَابُ الْأَمْرِ، وَعَلَيْهِمْ مَا يَتَرَبَّصُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٩٧] لَيْسَ عَلَى حَقِيقَةِ الْإِنْزَالِ مِنْ مَوْضِعٍ، وَلَكِنْ عَلَى خَلْقِ ذَلِكَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْثَمِرِ﴾ [الزمر: ٦] كَذَا [وكقوله^(٤)]: ﴿يَتَّبِعُ آدَمَ قَدْ أَنْزَلَ عَلَيْكَ لِيَأْسَ﴾ [الأعراف: ٢٦].

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ لِمَا قَالُوا^(٥) ﴿عَلَيْدٌ﴾ بِمَا أَسْرُوا، وَأَضْمَرُوا.

الآية ٩٩ وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ﴾ ذَكَرَ فِي الْآيَةِ أَنَّ ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ لِيَعْلَمَ أَنَّ قَوْلَهُ ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ [التوبة: ٩٧] كَانَ فِي طَائِفَةٍ مُشَارٍ إِلَيْهَا لَا كُلِّ الْأَعْرَابِ لِأَنَّهُ ذَكَرَ هَهُنَا أَنَّ مِنْهُمْ مَن يُنْفِقُ ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ﴾ وَذَكَرَ [فِي^(٦)] الْآيَةِ الْأُولَى أَنَّ مِنْهُمْ ﴿مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا﴾ [التوبة: ٩٨] أَيِ لَا يَرَاهُ حَقًّا وَاجِبًا، وَلَكِنْ غُرْمًا يَلْحَقُهُ، وَمِنْهُمْ مَن يَرَى ذَلِكَ حَقًّا لِلَّهِ وَاجِبًا فِي أُمُورِهِمْ، فَيَجْعَلُونَ ذَلِكَ قُرْبَةً لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ، وَأُولَئِكَ يَرَوْنَ غُرْمًا لِحَقِّقَتِهِمْ لَا قُرْبَةً.

ثُمَّ فِي الْآيَةِ خَوْفُ دُخُولِ الْمُؤْمِنِينَ [الَّذِينَ لَا يُؤْذُونَ الزَّكَاءَ، وَلَا يُنْفِقُونَ]^(٧) فِي وَعِيدِ هَذِهِ الْآيَةِ، وَخَوْفُ لِحُوقِ التَّفَاقِ [بِهِمْ]^(٨) لِأَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ يَتَّخِذُونَ مَا يُنْفِقُونَ مَغْرَمًا؛ فَمَنْ تَرَكَ آدَاءَ [الزَّكَاءِ]^(٩) فَإِنَّمَا يَتْرُكُ لِأَنَّهُ لَا يَرَى ذَلِكَ حَقًّا لِأَنَّهُ لَوْ رَأَى ذَلِكَ حَقًّا وَاجِبًا لَأَدَّاهُ عَلَى مَا آدَى غَيْرُهُ مِنَ الْحَقُوقِ، أَوْ لَوْ كَانَ مُوقِنًا بِالْبَيْتِ لِأَنْفَقَ، وَجَعَلَ ذَلِكَ قُرْبَةً لَهُ عِنْدَ اللَّهِ لِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّمَا يُنْفِقُونَ، وَيَعْمَلُ لِلْعَاقِبَةِ. فَإِذَا تَرَكَ ذَلِكَ يُخَافُ دُخُولَهُ فِي وَعِيدِ الْآيَةِ وَلِحُوقِ اسْمِ التَّفَاقِ بِهِ، وَإِنْ كُنَّا لَا نَشْهَدُ عَلَيْهِ ذَلِكَ.

وقوله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: جَعَلُوا مَا أَنْفَقُوا قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ بِصَلَوَاتِ الرَّسُولِ لِأَنَّهُمْ إِذَا أَنْفَقُوا كَانَ الرَّسُولُ يَدْعُو لَهُمْ بِذَلِكَ، وَيَسْتَغْفِرُ، فَكَانَ ذَلِكَ لَهُمْ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ بِاسْتِغْفَارِ الرَّسُولِ وَدَعَائِهِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: جَعَلُوا مَا أَنْفَقُوا وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ، وَيَكُونُ لَهُمْ مَا أَنْفَقُوا قُرْبَةً عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ طُمَآنِينَةً وَبِرَاءَةً مِنَ التَّفَاقِ لِأَنَّ الرَّسُولَ كَانَ لَا يَدْعُو لِأَهْلِ الْكُفْرِ وَالتَّفَاقِ. فَإِذَا دَعَا لَهُوْلَاءِ، وَصَلَّى عَلَيْهِمْ كَانَ ذَلِكَ

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) من م، في الأصل: بعضهم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: قال.

(٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) أدرجت هذه العبارة في الأصل وم بعد كلمة الآية. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم.

طمانينة لقلوبهم وعلماً لهم للبراءة من النفاق. وعلى ذلك يُخرج قوله: ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣] أي تسكن قلوبهم بصلاة الرسول، وتطمئن بأنهم ليسوا من أهل النفاق وأنهم برّاء من ذلك، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا فُرْقَةٌ لَّهُمْ﴾ ذكر هذا مقابل ما ذكر في الآية الأولى، وهو قوله: ﴿وَيَتَرَبَّصُّ بَكُمْ الذَّاكِرُونَ عَلَيْهِمْ ذَابِرَةُ السَّوْءِ﴾ [التوبة: ٩٨] أخبر هناك^(١) / ٢٢١ - / أن ما يتربصون هم بهم من الدوائر عليهم ذلك. وهنا أخبر أن ما يتفوق المؤمنون، ويظلمون بذلك فُرْقَةٌ عند الله ﴿إِنَّمَا فُرْقَةٌ لَّهُمْ﴾.

ثم وعد لهم الجنة بقوله: ﴿سَيَدْخُلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ أي جنته. سَمَى جَنَّتَهُ رَحْمَةً لِمَا بِرَحْمَتِهِ يَدْخُلُونَ لَا اسْتِجَاباً لَهُمْ مِنْهُ بِذَلِكَ بَلْ رَحْمَةً مِنْهُ وَقَضَاءً ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لِمَا كَانَ مِنْهُمْ مِنَ الْمَسَاوِي وَالشُّرُكِ إِذَا تَابُوا، وَأَمِنُوا ﴿رَحِيمٌ﴾ حِينَ لَمْ يُوَاجِدْهُمْ بِذَلِكَ.

الآية ١٠٠ وقوله تعالى: ﴿وَالسَّيِّفُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ﴾ يَحْتَمِلُ هَذَا أَنْ يَكُونَ مَرْبُوطاً مَعْطُوفاً عَلَى قَوْلِهِ ﴿سَيَدْخُلُهُمُ اللَّهُ﴾ مَعَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ؛ أَيِ أُولَئِكَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ أُولَئِكَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ يُدْخِلُهُمْ فِي الْجَنَّةِ مَعَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عَلَى الْإِنْتِدَاءِ [لا]^(٢) عَلَى الْعَطْفِ عَلَى الْأَوَّلِ.

ثم اختلف فيه: قَالَ بَعْضُهُمْ ﴿وَالسَّيِّفُونَ الْأَوَّلُونَ﴾ فِي الْإِسْلَامِ وَالنُّصْرَةِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْأَوَّلُونَ فِي الْهِجْرَةِ وَالنُّصْرَةِ ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ﴾ عَلَى تَأْوِيلٍ مَنْ جَعَلَ السَّابِقَةَ فِي الْإِسْلَامِ، وَعَلَى تَأْوِيلٍ مَنْ جَعَلَ عَلَى الْهِجْرَةِ ﴿اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ﴾ يَجْعَلُهُمْ فَرِيقَيْنِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارَ، وَلَا يَجْعَلُ طَبَقَةً ثَلَاثَةً. وَأَمَّا قِرَاءَةُ^(٣) الْعَامَةِ مِنَ الْقُرْآنِ فَهِيَ عَلَى اثْبَاتِ الْوَاوِ وَجَعَلِ طَبَقَةً ثَلَاثَةً.

ثم منهم مَنْ قَالَ مِنْ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: ﴿وَالسَّيِّفُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ هُمُ الَّذِينَ بَايَعُوا بَيْعَةَ الرُّضْوَانِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُمُ الَّذِينَ صَلَّوْا الْقِبْلَتَيْنِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ ﴿وَالسَّيِّفُونَ﴾ إِلَى الْإِسْلَامِ ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ﴾ عَلَى دِينِهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿بِإِحْسَنٍ﴾.

ثم خصوصاً تسمية أهل المدينة أنصاراً، وَإِنْ كَانُوا هُمُ وَالْمُهَاجِرُونَ جَمِيعاً نَصَرُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَكَانُوا أَنْصَاراً لَهُمْ^(٤)، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، لِأَنَّهُمْ نَصَرُوا الْمُهَاجِرِينَ حِينَ^(٥) أَوْوَهُمْ، وَأَنْزَلُوهُمْ فِي مَنَازِلِهِمْ وَأَوْطَانِهِمْ، وَبَذَلُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ لَهُمْ، وَإِنْ كَانُوا جَمِيعاً فِي النَّصْرِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ شُرْعاً سَوَاءً.

ثم فِي الْآيَةِ دَلَالَةُ الرَّدِّ عَلَى الرُّوَافِضِ لِأَنَّهُمْ يَجْعَلُونَ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَهَوَلاءَ ﷺ ظُلَمَةً لَا عَلَى الْحَقِّ بِتَوَلِّيهِمْ أَمْرَ الْإِمَامَةِ وَالْخِلَافَةِ لِأَنَّهُ مَعْلُومٌ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي مَا ذَكَرَ ﷺ يَقُولُهُ: ﴿مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّ اللَّهَ رَاضٍ عَنْهُمْ، وَأَنَّهُمْ رَاضُونَ عَنْهُ. دَلٌّ أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى حَقٍّ وَصَوَابٍ مِنَ الْأَمْرِ، وَأَنَّ مَنْ وَصَفَهُمْ بِالظُّلْمِ وَالتَّعَدِّيِّ هُوَ الظَّالِمُ، وَالتَّعَدِّيُّ وَاضِعُ الشَّيْءِ [فِي]^(٦) غَيْرِ مَوْضِعِهِ.

وفيه جواز تقليد الصحابة والأنبياء لهم والإقتداء بهم لأنه مدح ﷺ مِنْ أَتْبَعَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارَ يَقُولُهُ: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ﴾.

ثم أخبر عن جُمْلَتِهِمْ أَنَّ اللَّهَ رَاضٍ عَنْهُمْ. دَلٌّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَنَّ التَّقْلِيدَ لَهُمْ لَازِمٌ، وَالْإِقْتِدَاءُ بِهِمْ وَاجِبٌ، وَإِذَا أَخْبَرُوا [بِخَيْرٍ]^(٧) أَوْ حَدَّثُوا بِحَدِيثٍ يَجِبُ الْعَمَلُ بِهِ، وَلَا يَسَعُ تَرْكُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٠١ وقوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُتَشَفِّعُونَ وَمِنَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾ أَخْبَرَ أَنَّ مِنْ حَوْلِهِمْ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: هُنَا. (٢) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٣) انْظُرْ مَعْجَمَ الْقُرْآنِيَّةِ ج ٣/ ٣٨. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: لَ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ.

﴿مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ أيضاً ﴿مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى الْإِنْفَاقِ﴾. فقال بعضهم: المراد في الشيء هو النهاية في الشر. وقال بعضهم: ﴿مَرَدُوا عَلَى الْإِنْفَاقِ﴾ أي ثبثوا عليه، وقاموا^(١) وقال بعضهم: ﴿مَرَدُوا﴾ أي عتروا ﴿عَلَى الْإِنْفَاقِ﴾ وبالفعل فيه

أخبر أنهم ليشدة مكروهم وخذاعهم وعتوهم ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ تَحَنُّنًا لِّمَنَّهُمْ﴾ لأن من المنافقين من كان يعرفهم الرسول في لحن القول، ومنهم من كان يعرفهم في صلاته كقوله: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى﴾ [النساء: ١٤٢]، ومنهم من كان يعرف نفاقه في تخلفه عن رسول الله؛ يعني عن الغزو. فاجترأ أن هؤلاء ليشدة عتوهم ومكروهم وفضل خداعهم لا تعرف نفاقهم، نحن نعرف نفاقهم.

ثم أخبر أنه يعدبهم مرتين؛ قال بعضهم: القتل والسبي، وعن الحسن [أنه]^(٢) قال: عذاب في الدنيا وعذاب في القبر، وقال بعضهم: يعدبهم بالجوع مرتين. وقال أبو بكر الأصم: قوله ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ﴾ القتل والسبي قبل الموت، والعذاب الآخر يعدبون في القبر ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾.

ونسبه أن يكون تعذيبه إياهم مرتين [حين أمروا بالإنفاق]^(٣) على المؤمنين، وبينهم وبين المؤمنين عداوة، وأمروا أيضاً بالقتال مع الكفار، وهم أولياؤهم. هذا أحد العذابين لأنهم أمروا بالإنفاق على أعدائهم، وأمروا أيضاً أن يقاتلوا أولياءهم. والعذاب الثاني: القتل في القتال.

فإن قيل: لم يذكر أن منافقاً قتل قيل: لم يذكر لعلهم كانوا لا يعرفونهم لقوله: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ إذا لم يعرفوا فكيف يقتلون^(٤) كما يقتل غيرهم من المؤمنين؟ والله أعلم.

وقال بعضهم: ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ﴾ عند الموت: ضرب الملائكة الوجوه والأدبار كقوله: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأُخْرَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠] وفي القبر منكر ونكير ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ في الآخرة.

الآية ١٠٢

وقوله تعالى: ﴿وَالْآخَرُونَ اتَّقُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ قال عامة أهل التأويل: الآية نزلت في أبي لُبَابَةَ وأصحابه [لأنهم تخلفوا]^(٥) عن غزوة تبوك عن رسول الله، فذموا على ذلك، واغترفوا، ورجعوا عن ذلك، وتابوا، فقبل الله توبتهم، ووعد لهم المغفرة بقوله: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وذكر في بعض القصص أنه لما رجع رسول الله عن غزوته تلك جاء هؤلاء الذين تخلفوا عنه بأموالهم إلى رسول الله، فقالوا: يا رسول الله هذه أموالنا التي خلقتنا عنك، فخذها، فقال: لم أؤمر بذلك، فنزل [قوله تعالى]^(٦): ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ وهذا الوعد لكل مسلم ارتكب ذنباً لم يخرج به من الإيمان، ثم ندم على ذلك، وتاب، وترجى^(٧)، والله أعلم، أن يكون في عذ هذه الآية لأنه ذكر المؤمنين، وما هم عليه، وذكر المنافقين وما هم عليه، ثم ذكر الذين خلطوا أعمالهم الصالحة بأعمالهم السيئة، ثم ندموا على ما فعلوا، وتابوا. وعد الله لهم قبول التوبة والمغفرة.

الآية ١٠٣

وقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ اختلف في هذه الصدقة التي أمر الله تعالى رسوله بأخذها من أموالهم: قال بعضهم: هي صدقة فريضة. ثم اختلف فيها: أي^(٨) فريضة هي؟ فقال بعضهم: فريضة زكاة الأموال، وقال بعضهم: هي فريضة كفارة المأثم؛ وذلك أن أولئك الذين تخلفوا عن رسول الله عن غزوة تبوك ندموا على تخلفهم، فلما رجع رسول الله ﷺ جاؤوا بأموالهم، فقالوا له: تصدق بأموالنا عنا فإن أموالنا هي التي خلقتنا عنك، فأمر الله رسوله أن يأخذ منهم ذلك، ويتصدق بها كفارة لما ارتكبوا.

(١) من م، في الأصل: وداموا. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حيث أخذوا بالإنفاق. (٤) في الأصل وم: فيقتلون. (٥) في الأصل وم: تخلفون. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: أية.

ومن قال: هي قريضة زكاة المال لما روي عن أبي أمامة [الباهلي أنه]^(١) قال «إن ثعلبة بن حاطب [الأنصاري]^(٢) أتى رسول الله، فقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالا، قال رسول الله ﷺ ونحك يا ثعلبة قليل تؤذي شكره خير من كثير لا تطيقه، ثم جاءه، فقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالا، قال: ونحك يا ثعلبة أما ترضى أن تكون مثل رسول الله، لو سألت الله أن يسيل الجبال علي ذهباً لساأت، ثم أتاه، فقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالا، فوالله لئن أتاني الله مالا لأوتين كل ذي حق حقه، فدعا له، فقال: اللهم ارزق ثعلبة ثلاث مرات^(٣). وذكر أنه اتخذ غنماً، فنمت كنا ينمو الدود حتى ضاقت عليه المدينة، فتتحنى بها، وكان يصلي الصلوات كلها مع رسول الله، ويخرج إليها، ثم ضاقت عليه مراعي المدينة، فتتحنى بها / ٢٢١ - ب/ فكان يصلي الظهر والعصر مع رسول الله ﷺ ثم يتبعها، ثم تتحنى بها، فكان يصلي الجمعة مع رسول الله، ثم بلغ أمره إلى أن يترك الجمعة والجماعات، فتتحنى بها يتلقى^(٤) الركب، فيسألهم عن الخبر عما أنزل على رسول الله ﷺ «خذ من أموالهم صدقة» الآية، فبعث رسول الله ﷺ على الصدقة رجلين، فكتب لهما فرائض، وأمرهما أن يسعيان في الناس، ويأخذا صدقاتهم، وأن يمرا بثعلبة ورجل من بني سليم، فيأخذا صدقاتهما، فخرجا يصدقان الناس، فمرا بالسليبي، فأقرأه كتاب رسول الله، فاطاع بالصدقة، ومرا بثعلبة، فأقرأه كتاب رسول الله، فقال: والله ما أدري؟ ما هذه إلا جزية أو أخت الجزية. فإذا فرغتما فمرا بي، فلما فرغا من الناس مراه، فقال لهما مثل مقالته الأولى، وقال: انطلقا، فإني سألقى رسول الله ﷺ فأنزل الله: «ومنهم من عهد الله لئلا آتينا من فضله» إلى قوله «فأعقبهم نفاق في قلوبهم» [التوبة: ٧٧-٧٥] [ابن جرير الطبري في تفسيره: ١٠/ ١٨٩] إلى هذا ذهب عامة أهل التاويل: أنها نزلت في شأن ثعلبة.

ومنهم من قال ما ذكرنا أنها نزلت في شأن أهل تبوك الذين^(٥) تخلفوا عن رسول الله.

ومنهم من قال: الصدقة التي أمر الله رسوله^(٦) أن يأخذها من أموالهم هي صدقة تطوع وتبرع وهي ما ذكر أن رسول الله ﷺ كان يحث الناس على الإنفاق في غزوة تبوك، فجاء عبد الرحمن بن عوف بكذا، [وفلان بكذا]^(٧)، فأخذها منهم، وفيهم^(٨) نزل قوله «الذين يلقونكم المطففين من المؤمنين في الصدقات» [التوبة: ٧٩].

ومنهم من قال: هو في كل صدقة تطوع، قلت الصدقة، أو كثرت؛ أمر رسوله أن يأخذ من أموالهم ما رأى، لا يأخذ الكل لأن أخذ الكل يحوجهم، ويشغلهم عن جميع الطاعات والعبادات. ولكن أمر أن يأخذ قدر ما منها [ومن]^(٩) طائفة مقدار ما يكفر ما ارتكبوا من المآثم.

وقوله تعالى: «تطهرهم وتزكهم»^(١٠) إن كانت صدقة الزكاة فهي تطهر أئامهم التي لحقتهم بذلك «وتزكهم» قيل: وتصلحهم، وهو ظاهر، وإن كانت صدقة تطوع فهي متا بطهر أيضاً، وتزكهم لما ينفي عنهم البخل، ويؤدي إلى الجود والكرم. ألا ترى أنه مدح من أعطى، وذم من بخل، ومنع بقوله: «فأما من أعطى» الآية [الليل: ٥] «وأما من بخل» الآية [الليل: ٨].

وقوله تعالى: «وصل عليهم إن منك سكن لمنهم» قال بعضهم: كان رسول الله ﷺ إذا أتى أحد بصدقة دعا له، واستغفر. وكان لا يستغفر لأهل النفاق. وكانت قلوبهم تسكن، وتطمئن باستغفار النبي لما علموا بذلك أنهم ليسوا من أهل النفاق. وهذا يحتمل.

ويحتمل وجهاً آخر، وهو أن الله أمر رسوله أن يستغفر لهم، ويصلي عليهم. ثم لا يحتمل أن يأمره بذلك، فلا يفعل، أو يفعل^(١١)، فلا يجيبه، فكانت قلوبهم تسكن وتطمئن، باستغفار النبي لهم^(١٢) لما قبلت توبتهم، وكفرت سيئاتهم، والله أعلم. [وقوله تعالى]^(١٣): «والله سميع عليم» قد ذكرنا هذا غير مرة.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: ويتلقى. (٤) من م، في الأصل: الذي. (٥) من م، في الأصل: ورسوله. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: وفيه. (٨) في الأصل وم: و. (٩) في الأصل وم: فعل. (١٠) في الأصل وم: ليأهم. (١١) ساقطة من الأصل وم.

وفي قوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾ دلالة أن الصدقة إذا وقعت في يد المتولي والعامل عليها سقطت عن أربابها، وإن لم تقع في أيدي الفقراء، ولم تصل إليهم لأن النبي كان لا يحل له^(١) صدقة [ثم أخبر]^(٢) أنه إذا أخذها منهم كانت طهارة لهم وتزكية عن أربابها.

وفيه استدلال لمحمد بن الحسن في الوقف أن الواقف إذا وقف، وأخرجته من يده، وجعله في يدي^(٣) آخر من لا حق له في ذلك كان جائزاً، وكان^(٤) وقفاً صحيحاً.

ومن الناس من استدلل بهذه الآية على أن للإمام أن يطالب بزكاة الأموال. وكذلك مضت السنة من رسول الله ﷺ في بعث المصدقين إلى أحياء العرب والبلدان والآفاق لأخذ صدقات الأنعام والمواشي في مواضعها. وعلى ذلك فعل الأئمة من بعده أبو بكر وعمر والأئمة الراشدون. وظهر العمل بذلك من بعدهم إلى هذا الوقت حتى قال أبو بكر لما امتنعت العرب من إعطائهم الزكاة: والله لو متعوني عقلاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ حاربتهم عليها. فذلك يؤيد ما ذكرنا من مطالبة أصحاب الأنعام والمواشي بزكاة أنعامهم ومواشيهم.

وقد بين الله تعالى وجوب ذلك بياناً شافياً بقوله: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ فجعل للعالمين عليها حقاً. فلو لم يكن على الإمام أن يطالب بصدقات^(٥) الأنعام في أماكنها، وكان أداء ذلك إلى أرباب الأموال ما كان لذكر العالمين^(٦) وجه. ولم يبلغنا أن النبي بعث في مطالبة المسلمين بزكاة الورق وأموال التجارة، ولكن الناس كانوا يعطون ذلك، أو من حملة منهم إلى الأئمة يقبلون ما يحمل إليهم منه، ولا يسألون أحداً عن مبلغ ملكه، ولا يطالبونه به إلا ما كان من تزجيه عمر العشار في الأطراف.

وكان ذلك منه عندنا، والله أعلم، للتخفيف عن بعده عن داره، وشق عليه، أن يحمل صدقته إلى إمامه. فجعل في كل طرف من الأطراف عشاراً لتجار أهل الحرب والذمة، وأمر أن يأخذ^(٧) من تجار المسلمين ما يدفعونه إليه. وكان ذلك من عمر تخفيفاً على المسلمين [لا أن]^(٨) على الإمام مطالبة أرباب الأموال أموال العيين وأموال التجارة بأداء الزكاة سوى المواشي والأنعام فإن مطالبة ذلك إلى الأئمة إلا أن يأتي أحد منهم الإمام بشيء من ذلك فيقبله منه، ولا يتعدى ما جرث به السنة إلى غيره، والله أعلم.

الآية ١٠٤ وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَلْمِزُوا أَنْ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ يختم قولهُ: ﴿أَلَمْ يَلْمِزُوا﴾ أي قد علموا أن الله يقبل توبة من تاب، ويختم على الأمر؛ أي أعلموا ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ ويختم^(٩) قوله: ﴿أَلَمْ يَلْمِزُوا أَنْ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ﴾ بمن تاب ﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾؟ قيل: يقبل.

وتشبه إضافة الأخذ إلى نفسه إضافته إلى رسوله بقوله ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ وذلك كثير في القرآن.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ قال أبو بكر الأصم: ﴿التَّوَّابُ﴾ هو صفة العاني، وهو اسم للتأديب. والتَّوَّابُ عندنا هو الموفق للتوبة. ثم الكافر إذا أسلم، وتاب، لم يلزم مع التوبة [كفارة أخرى سوى التوبة]^(١٠) وإن كان ارتكب مساوئ وفواحش سوى الشرك والكفر. والمسلم إذا ارتكب مساوئ لزمته التوبة والكفارة جميعاً؛ وذلك لأن المسلم لما أسلم اعتقد حفظ ما لزمه من الشرائع؛ فإذا ارتكب ما ذكر خرج [عن]^(١١) شرايعه، وأدخل نقصاناً في ما اعتقد حفظه؛ فإذا ترك حفظه أدخل^(١٢) فيه النقصان الذي أدخل فيه.

وأما الكافر فليس عليه شيء من الشرائع؛ إنما عليه أن يتوب عن الشرك، ويأتي بالإيمان؛ لذلك افترقا.

الآية ١٠٥ وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا بِرَأْيِ اللَّهِ عَمَلَكُمْ رِسَالَةٌ﴾ اختلِف فيه: قال بعضهم: ذلك في الدين

(١) من م، في الأصل: لهم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: أيدي. (٤) من م، في الأصل: أو يكون. (٥) الباء ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، في الأصل: العالمين. (٧) في الأصل وم: يأخذوا. (٨) في م: لأن. (٩) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: فادخل.

تَخْلَفُوا^(١) عَنْ تَبَوُّكَ، ثُمَّ نَدِمُوا ، وَتَابُوا عَنْ ذَلِكَ، فَتَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ؛ يَقُولُ: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا بِمَا يَدْرِي اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾. أَيِ إِنْ عَذَّبْتُمْ إِلَى مَا عَنْهُ تُبْتُمْ، وَهُوَ التَّخَلُّفُ، يُطْلِعُ اللَّهُ رَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ عَلَى ذَلِكَ ﴿وَسَرُّدُونَ إِلَى عَلِيمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾.

وقَالَ بَعْضُهُمْ: الْآيَةُ فِي الْمَنَافِقِينَ؛ يَقُولُ: اْعْمَلُوا فِي مَا تُنَافِقُونَ^(٢) فَإِنَّ اللَّهَ يُظْلِعُ رَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ عَلَى نِفَائِكُمْ، فَتَنْتَضِحُونَ حِينَ^(٣) يُظْلِعُونَ عَلَى سَرَائِرِكُمْ/ ٢٢٢- أ/ وَتَسْتَرُدُّونَ إِلَى [مَا أَعَدَّ لَكُمْ عَالِمٌ]^(٤) الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ؛ أَيِ تُرَدُّونَ إِلَى مَا أَعَدَّ لَكُمْ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴿يَنْتَشِرُ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أَيِ يَجْزِيكُمْ جَزَاءَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ.

يُخْرِجُ ذَلِكَ عَلَى الْوَعِيدِ. وَذَكَرَ فِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ شَهِدَ جَنَازَةً، وَالْمُؤْمِنُونَ أَيْضاً شَهِدُوهَا، فَأَنشَى عَلَيْهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَجِبَتْ، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا وَجِبَتْ؟ قَالَ: الْمَلَائِكَةُ شَهِدَاءُ اللَّهِ فِي السَّمَاءِ، وَأَنْتُمْ شُهِدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ، فَإِذَا شَهِدْتُمْ وَجِبَتْ، ثُمَّ قَرَأَ قَوْلَهُ: ﴿وَقُلْ أَتَمَلَّؤُا مَسِيرِي أَنَّ اللَّهَ عَلَّمَكَ رَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ فَإِنْ ثَبَتَ هَذَا ففِيهِ دَلَالَةٌ جَوَازُ الْإِجْمَاعِ لِأَنَّهُ قَالَ: الْمَلَائِكَةُ شَهِدَاءُ اللَّهِ فِي [السَّمَاءِ، وَأَنْتُمْ شُهِدَاءُ اللَّهِ فِي] ^(٥) الْأَرْضِ، فَإِذَا شَهِدْتُمْ وَجِبَتْ. فَإِذَا [شَهِدَ الْمُؤْمِنُونَ] ^(٦) عَلَى شَرٍّ فَهُوَ شَرٌّ، وَإِذَا شَهِدُوا عَلَى خَيْرٍ فَهُوَ خَيْرٌ. فَعَلَى ذَلِكَ إِذَا شَهِدُوا عَلَى حُكْمٍ يَلْزَمُ الْعَمَلُ بِهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا مَا يَأْمُرُ اللَّهُ وَعَزَّوْهُمْ وَعَلَّمَكُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ليس على الأمر أن يقول لهم جميعاً: اعملوا كذا، ولكن أن^(٧) كل من يلقنه هذه الآية يتفكر فيها، ويتدبر، فلا يقدم على عمل لا يستحسنه أن يكون رسول الله والمؤمنون بحضرة^(٨)، فإذا خلا به لا يعمل.

وكذلك قوله: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١] ليس على الأمر بالسَّيْرِ في الأرض، ولكن على الأمر بالتَّفَكُّر والتَّذَبُّر في ما نَزَلَ بهم بالتكذيب، وكذلك قوله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] ليس على الأمر أن يقول لهم ذلك، ولكن [على أن] ^(٩) يَتَفَكَّر كُلُّ فِيه أنه واحد.

الآية ١٠٦ وقوله تعالى: ﴿وَالْآخِرُونَ مُرْجُونَ لَأَمْرُ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ قال بعضهم: هو صِلَةُ قوله: ﴿وَالْآخِرُونَ أَتَوْا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: ١٠٢] كانوا موقوفين مخبوسين، لا يدرون ما يحكم الله فيهم أيعذبهم أم^(١) يتوب عليهم؟ فنزل قوله: ﴿وَالْآخِرُونَ أَتَوْا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ وقال بعضهم: هو صِلَةُ قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا﴾ وقال بعضهم: قوله: ﴿وَالْآخِرُونَ مُرْجُونَ لَأَمْرُ اللَّهِ﴾ قال: هم الثلاثة الذين تخلفوا.

وقال أبو عوسجة: ﴿وَأَخْرَجَ مُرْجُونَ لَأَمْرِ اللَّهِ﴾ أي محبوبون؛ يقال: أَرَجَيْتُهُ أَي حَبَسْتُهُ. وقال القُتَيْبِيُّ: ﴿مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾ أي مُرْجُونَ عَلَى أَمْرِهِ؛ كَأَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنْهُ لِلرُّكُونِ إِلَى الدُّنْيَا، وَرَغَبَةً فِيهَا؛ وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ، وَالْآيَةُ الَّتِي كَانَتْ قَبْلَ هَذِهِ الْآيَةِ فِي الْمُتَأَفِّقِينَ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا لِلرُّكُونِ فِي الدُّنْيَا وَكُفْرًا وَنِفَاقًا.

الآية ١٠٧ وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنه أنَّ الْمُنَافِقِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا، فلما فَرَّغُوا مِنْهُ جَاوُوا إِلَى نَبِيِّ اللَّهِ، وَهُوَ يَتَجَهَّرُ لِعَزْوَةِ تَبُوكَ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ بَنَيْنَا مَسْجِدًا لِذِي الْعِلَّةِ وَالْحَاجَةِ وَاللَّيْلَةِ الْمَطِيرَةِ، وَإِنَّا نَحِبُّ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ تَأْتِيَنَا، فَتُصَلِّيَ فِيهِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: أَنَا عَلَى سَفَرٍ وَحَالٍ شُغْلٍ، وَلَوْ قَدِمْنَا مِنْ سَفَرِنَا أَتَيْنَاكُمْ، فَصَلَّيْنَا لَكُمْ فِيهِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَانْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾ الْآيَةَ أَخْبَرَ فِيهِ أَنَّهُمْ لَمْ يَقْصِدُوا بِنَاءَ مَسْجِدِهِمْ ذَلِكَ مَا ذَكَرُوا أَنَّا بَنَيْنَاهُ لِذِي الْعِلَّةِ وَالْحَاجَةِ وَاللَّيْلَةِ الْمَطِيرَةِ وَالِإِشْفَاقِ عَلَى الدِّينِ وَحِفْظِ الصَّلَاةِ بِالْجَمَاعَةِ، وَلَكِنْ يَقْصِدُونَ بِهِ ضَرًّا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ لَكُمْ خُزُنًا وَنَقِيرًا﴾ يَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿وَنَقِيرًا﴾ تَفْسِيرًا لِقَوْلِهِ ﴿خُزُنًا﴾ تَقْصِدُونَ

(١) في الأصل وم: تخلفون. (٢) في الأصل وم: تستأنفون. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل: ما أعد لكم، في م: عالم. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: شهدوا. (٧) ساقطة من م. (٨) في الأصل وم: بحضرته. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: أو.

بِنَاءِ الْمَسْجِدِ ﴿الَّذِي بَنَا رَبِّي﴾ [التوبة: ١١٠] أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمُ الْعَدُوُّ وَجَدَهُمْ مَتَّعَتَيْنِ، فَيَكُونُ أَيْسَرًا وَهَوْنًا عَلَيْهِمْ فِي الْكُسْرِ عَلَيْهِمْ وَالظَّفَرِ بِهِمْ مِنْ أَنْ كَانُوا مَجْمُوعِينَ.

رَوَى عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَنْ يُغْلَبَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا كَلِمَتُهُمْ وَاحِدَةٌ» [أبو داود ٢٦١١]. [وَقَالَ تَعَالَى] ^(١): «وَلَا تَقْرَأُوا وَلَا تَكُونُوا يَمَنَةً اللَّهُ عَلَيْكُمْ» [آل عمران: ١٠٣] جَعَلَ الْإِجْتِمَاعَ فِي الدُّنْيَا نِعْمَةً، وَنَهَاكَمُ عَنِ التَّفَرُّقِ، وَهُمْ كَانُوا يَقْصِدُونَ بِذَلِكَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ ضَعْفَةٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ، فَيُلْسِسُوا ^(٢) عَلَيْهِمُ الدِّينَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ لِسَانٍ وَجَدَلٍ، وَذَلِكَ كُلُّهُ كُفْرٌ عَلَى مَا ذَكَرَ.

وفيه دلالة إثبات رسالة نبينا محمد ﷺ لأنه معلوم أنهم أسروا، واضمروا في ما بينهم من الضرار والكفر والتفريق بين المؤمنين، فأطلع الله نبيه على ما أسروا ليُعلم أنه إنما عَرَفَ ذَلِكَ بِاللَّهِ تَعَالَى.

وقوله تعالى: ﴿وَلِرِصَادَا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أَي بَنُوا ذَلِكَ الْمَسْجِدَ إِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ.

قَالَ عَامَةُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: هُوَ أَبُو عَامِرٍ [الرَّاهِبُ] ^(٣)؛ [ذَكَرَ أَنَّ أَبَا عَامِرٍ] ^(٤) حَارَبَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَرَّ مِنْهُ، فَقَالَ لِلْمَنَافِقِينَ ^(٥): «ابْنُوا مَسْجِدًا، وَاسْتَعِدُّوا، فَإِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى قَيْصَرَ بِالشَّامِ، فَأَتِ بِجُنْدٍ، فَتُخْرِجُ مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ مِنَ الْمَدِينَةِ، فَذَهَبَ إِلَى قَيْصَرَ بِالشَّامِ، فَبَنُوا مَسْجِدًا إِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ؛ يَعْنِي أَبَا عَامِرٍ ^(٦).

قَالَ الْقُتَيْبِيُّ: ﴿بِنَاءُ﴾ أَي مَضَارَّةٌ ﴿وَلِرِصَادَا﴾ أَي تَرْقُبًا بِالْعِدَاوَةِ. وَقَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ: ﴿بِنَاءُ﴾ مَضَارَّةٌ ﴿وَلِرِصَادَا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أَي وَقُوفًا وَانْتِظَارًا لِلْفُرْصَةِ لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ.

وقوله تعالى: ﴿وَلِيُخْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا﴾ أَي خَلَفُوا مَا أَرَدْنَا بِاتِّخَاذِ الْمَسْجِدِ ﴿إِلَّا الْخُسْفَى﴾ وَالْخَيْرِ ﴿وَاللَّهُ يَنْهَدُ عَنْهُمْ لَكُذِبُونَ﴾ فِيهِ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَى إِثْبَاتِ الرِّسَالَةِ.

الآية ١٠٨ وقوله تعالى: ﴿لَا تَقْرَأُوا فِيهِ أَبَدًا﴾ قِيلَ: لَا تُصَلِّ فِيهِ لِأَنَّهُمْ سَأَلُوهُ أَنْ يُصَلِّيَ فِيهِ، وَقِيلَ: ﴿لَا تَقْرَأُوا﴾ أَي لَا تَأْتِيهِ، وَلَا تَدْخُلْ، وَهُوَ وَاحِدٌ.

[وقوله تعالى] ^(٧): «لَمَسْجِدُ أُيُسَرَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوْلَى يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ» قَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ مَسْجِدُ قُبَاءَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ مَسْجِدُ رَسُولِ اللَّهِ. وَرَوَى عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ [أَنَّهُ] ^(٨) قَالَ: اخْتَصِمَ، أَوْ قَالَ: اخْتَصَمْنَا [فِي] ^(٩) الْمَسْجِدِ الَّذِي أُسَسَ عَلَى التَّقْوَى، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ «هُوَ مَسْجِدِي هَذَا» [الترمذي ٣٠٩٩] «هُوَ مَسْجِدُكُمْ هَذَا» [مسلم ١٣٩٨/٥١٤] وَعَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ [أَنَّهُ] ^(١٠) قَالَ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُئِلَ عَنِ الْمَسْجِدِ الَّذِي أُسَسَ عَلَى التَّقْوَى، فَقَالَ: «هُوَ مَسْجِدِي هَذَا». وَظَاهِرُ مَا ذَكَرَ أَنْ يَكُونَ مَسْجِدَ قُبَاءَ لِأَنَّهُ ذَكَرَ لَمَّا نَزَلَ ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحْيَوْنَ أَنْ يَنْظُرُوا وَاللَّهُ يُحْيِي الْمَظْهَرِينَ﴾ قَالَ لِأَهْلِ قُبَاءَ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحْسَنَ عَلَيْكُمْ الشَّاءَ، فَمَاذَا تَضْمَعُونَ؟» قَالُوا: إِنَّا نَغْشِلُ عَنْآ أَثَرَ الْغَائِطِ أَوْ الْبَوْلِ [أحمد ٤٢٢/٣] وَفِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا نَجِدُ مَكْتُوبًا عَلَيْنَا فِي التَّوْرَةِ الْإِسْتِنْجَاءَ بِالْمَاءِ فَلَا نَدْعُهُ، فَقَالَ: لَا تَدْعُوهُ [السيوطي في الدر المنثور ٢٩٠/٤].

وقوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحْيَوْنَ أَنْ يَنْظُرُوا﴾ يَحْتَمِلُ أَي فِيهِ رِجَالٌ يُؤْثِرُونَ التَّظَهُّرَ بِالْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ وَالصَّلَاةِ فِيهِ، وَفِي كُلِّ مَسْجِدٍ هَذَا فِيهِ فَهُوَ مُؤَسَّسٌ عَلَى التَّقْوَى أَيْ تَقْوَى الشَّرِّ وَالْخِلَافِ لِأَمْرِ اللَّهِ وَمَنَاهِيهِ، أَوْ يَقُولُ: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحْيَوْنَ﴾ أَي يُؤْثِرُونَ التَّظَهُّرَ بِالتَّقْوَى وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ عَلَى غَيْرِهَا مِنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي تُتَجَسَّهَمُ. وَيَحْتَمِلُ مَا ذَكَرَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ مِنَ التَّظَهُّرِ مِنَ الْأَقْدَارِ وَالْأَنْجَاسِ؛ كَأَنَّهُ قَالَ: فِيهِ رِجَالٌ يُؤْثِرُونَ الْإِبْلَاحَ فِي التَّظَهُّرِ مِنَ الْأَقْدَارِ وَالْأَنْجَاسِ الَّتِي تُصَيَّبُ مِنْهَا.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقُولُهُ. (٢) فِي الْأَصْلِ م: فِيلِيُون. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٥) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: لِلْمَنَافِقِ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: عَمْر. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٠) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

الآية ١٠٩

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسْرَعَ بُيُوتَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ ۖ أَي عَلَى الطَّاعَةِ لِلَّهِ وَالْإِخْلَاصِ لَهُ ۖ وَرِضْوَانٍ لَهُ ۖ وَطَلَبِ مَرْضَاتِهِ ۖ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسْرَعَ بُيُوتَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرْئٍ هَارٍ ۖ أَي بَنَى لِلْإِخْتِلَافِ وَالتَّفْرِيقِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ بِاللَّهِ.

هذا المثلُّ مُقَابَلَةٌ^(١) مَكَانٍ بِمَكَانٍ؛ يَقُولُ: مَنْ بَنَى بِنَاءً^(٢) عَلَى قَرَارٍ مِنَ الْأَرْضِ مِمَّا يُقَرُّ بِهِ، وَيُنْتَفَعُ بِهِ خَيْرٌ مِمَّنْ بَنَى بِنَاءً عَلَى الْمَكَانِ الَّذِي لَا يُقَرُّ بِهِ، وَيُؤْذِي إِلَى الْهَلَاكِ، وَلَا يُنْتَفَعُ بِهِ. وَالْأَوَّلُ مُقَابَلَةٌ^(٣) فِعْلٍ بِفِعْلٍ؛ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَافًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا ۚ ٢٢٢ - ب/ يَتَّخِذُونَ الْكُفْرَ﴾ [التوبة: ١٠٧] كَالَّذِي بَنَى لِضِدِّ ذَلِكَ؛ أَي لَيْسَا بِسَوَاءٍ. ثُمَّ قَوْلُهُ^(٤): ﴿لَتَسْجُدَ أَسْرَعَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَلَّا يُوْرَ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ﴾ [التوبة: ١٠٨] هَذَا مُقَابَلَةٌ فِعْلٍ بِفِعْلٍ؛ يَقُولُ: الَّذِينَ بَنَوْا الْمَسْجِدَ عَلَى الطَّاعَةِ لِلَّهِ وَالْإِخْلَاصِ لَهُ وَطَلَبِ مَرْضَاتِهِ وَالْإِجْتِمَاعِ فِيهِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ بَنَى لِلْكَفْرِ بِاللَّهِ وَالتَّفْرِيقِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالضَّرَارِ^(٥) بِهِمْ؟ هَذَا مُقَابَلَةٌ فِعْلٍ بِفِعْلٍ.

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسْرَعَ بُيُوتَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسْرَعَ بُيُوتَهُ عَلَى شَفَا جُرْئٍ هَارٍ ۖ هَذَا مُقَابَلَةٌ^(٦) مَكَانٍ بِمَكَانٍ كَمَا^(٧) ذَكَرْنَا. وَالْأَسُّ وَالْأَسْسُ وَالتَّاسِيسُ وَالْأَسَاسُ وَاجِدٌ.

وقوله تعالى: ﴿شَفَا جُرْئٍ هَارٍ﴾ قَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ: ﴿شَفَا جُرْئٍ هَارٍ﴾ قَالَ: شَفَاهُ قَمُهُ، وَالْجَمْعُ شِفَاهٌ، وَجُرْفٌ أَرْضٌ يَسِيلُ فِيهَا السَّيْلُ حَتَّى يَخْفِرَهَا، وَالْجُرْفَةُ جَمْعٌ، وَالْهَارِي الْهَشُّ الَّذِي لَيْسَ يَضْلُبُ، وَيُقَالُ: أَنْهَارٌ يَنْهَارُ أَيِ انْهَدَمَ يَنْهَدِمُ، وَيُقَالُ: رَجُلٌ هَارٍ؛ أَيِ ضَعِيفٌ، وَارْضٌ هَشَّةٌ أَيِ رَخْوَةٌ سَرِيعَةُ الْإِنْهَادِ، وَالْهَشُّ الرُّخْوُ.

وَقَالَ الْقُتَيْبِيُّ: ﴿شَفَا جُرْئٍ هَارٍ﴾ أَيِ جُرْفٍ هَائِرٍ، وَالْجُرْفُ مَا يَنْجَرِفُ بِالسَّيُولِ [مِنْ] ^(٨) الْأَوْدِيَةِ، وَالْهَائِرُ السَّاقِطُ، وَمَنْهُ يُقَالُ: تَهَوَّرَ الْبِنَاءُ إِذَا سَقَطَ، وَأَنْهَارَ.

وَقَالَ أَبُو عُيَيْدَةَ: ﴿شَفَا جُرْئٍ هَارٍ﴾ الشَّفَا هُوَ الشَّفِيرُ، وَالْجُرْفُ مَا تَجَرَّفَتْ بِالسَّيُولِ ^(٩) مِنَ الْأَوْدِيَةِ، وَهَارٍ يُرِيدُ هَائِرٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَنْهَارٌ يَجْرِي فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: خَسَفَ اللَّهُ مَسْجِدَهُمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ. وَفِي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ: فَخَرَّ مِنْ قَوَاعِدِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، وَقَالَ: حُرِقَتْ فِيهِ بُقْعَةٌ، قَرِئَ مِنْهَا دُخَانٌ، سَطَعَ، وَقَالَ: [فَهَوَىٰ بِنَاؤُهُمْ] ^(١٠) الَّذِي بَنَوْا فِي نَارٍ. وَلَا نَذِيرِي كَيْفَ هُوَ؟ وَمَا مَعْنَاهُ؟

الآية ١١٠

وقوله تعالى: ﴿لَا يَرَا لُبِّيْثُهُمْ الَّذِي بَرَّأ رِبِّيَّهٖ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿بَرَّأ رِبِّيَّهٖ﴾] ^(١١) أَيِ حَسْرَةٍ وَنَدَامَةٍ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: رِبِّيَّةٌ أَيِ شُكَا وَرَبِيًّا.

وَمَنْ قَالَ: حَسْرَةٌ وَنَدَامَةٌ فَهُوَ عَلَى وَجْهَيْنِ: يَحْتَمِلُ أَنْهُمْ تَابُوا، وَتَدَبَّرُوا عَلَى مَا صَنَعُوا، وَيَحْتَمِلُ: حَسْرَةٌ وَنَدَامَةٌ لِمَا اقْتَضَحُوا بِمَا صَنَعُوا وَبِمَا ^(١٢) أَرَادُوا بِقَوْلِهِ ﴿وَاللَّهُ بِشَهَادَتِهِمْ لَكَذِبُهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٧].

وَمَنْ قَالَ: [﴿رِبِّيَّةٌ﴾ أَيِ] ^(١٣) شُكَا وَنِفَاقًا ﴿لَا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ إِلَى الْمَمَاتِ [أَرَادَ أَنْهُمْ] ^(١٤) عَلَى الشُّكِّ وَالتَّفَاقِ [إِلَى] ^(١٥) الْمَوْتِ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ [التوبة: ٧٧]. وَأَصْلُ الرِّبِّيَّةِ الشُّكُّ؛ يُقَالُ: فُلَانٌ مُرِيبٌ إِذَا كَانَتْ بِهِ تَهْمَةٌ.

وقوله تعالى: ﴿لَا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ هَذَا أَيْضًا عَلَى وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: عَلَى التَّمْثِيلِ: أَنَّ الْخَوْفَ وَالْحُزْنَ إِذَا بَلَغَ غَايَتَهُ يُقَالُ: فُلَانٌ مُنْقَطِعُ الْقَلْبِ.

[وَالثَّانِي: عَلَى التَّوْعِيدِ كَقَوْلِهِ: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾] ^(١٦).

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: مُقَابِل. (٢) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: فُلَان. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: مُقَابِل. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: قَالَ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَضَوًّا. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: مُقَابِل. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: لِمَا. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: مِنَ السَّيُول. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: يَهْرِي بَيْنَانَهُمْ. (١١) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١٢) أَدْرَجَ قَبْلَهَا فِي الْأَصْلِ: وَيَحْتَمِل. (١٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٤) فِي الْأَصْلِ وَم: أَيِ هَم. (١٥) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم، انْظُرْ مَا ذَكَرَ الْمُؤَلِّفُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَاتِ: ٧٥ وَ ٧٦ وَ ٧٧ مِنَ السُّورَةِ.

الآية ١١١

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ ﴿اشْتَرَى﴾ أَيِ اسْتَأْمَرَ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿اشْتَرَى﴾ خَبَرٌ، وَلَكِنْ يَحْتَمِلُ الْإِسْتِيَامَ، أَيِ اسْتَأْمَرَ أَنْ يَبْذُلُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ لِيَجْعَلَ لَهُمُ اللَّهُ الْجَنَّةَ. ثُمَّ بَيَّنَّ، فَقَالَ: ﴿يُبْذِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ خَبَرًا عَنْ قَوْمٍ بَاعُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَهْجَاتِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٠٧] وقوله: ﴿الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقْتَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٤] فَإِذَا صَارُوا بِائِعِينَ أَنْفُسَهُمْ كَانَ اللَّهُ مُشْتَرِيهَا مِنْهُمْ.

ثُمَّ بَيَّنَّ أَنْ كَيْفَ يَبَاعُ؟ وَكَيْفَ يُشْرَى؟ فَقَالَ: ﴿يُبْذِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ أَيِ يَقْتُلُونَ الْعَدُوَّ، وَيُقْتَلُونَ أَيِ يَقْتُلُهُمُ الْعَدُوُّ. وَقَدْ قُرِئَ الْأَوَّلُ بِالرَّفْعِ فَيُقْتَلُونَ وَالثَّانِي بِنَصْبِ الْيَاءِ [وَيُقْتَلُونَ] ^(١)؛ فَهُوَ لَيْسَ عَلَى الْجَمْعِ: أَنْ يُقْتَلُوا، وَيُقْتَلُوا، وَلَكِنْ أَنْ يَقْتُلُوا الْعَدُوَّ، أَوْ يَقْتُلَهُمُ الْعَدُوُّ. وَأَيُّهُمَا كَانَ، أَوْ يَقَاتِلُونَ، وَإِنْ لَمْ يَقْتُلُوا كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يُقْتَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٤] وقوله ^(٢) ﴿مَلَأْنَا لَكُمُ الْعِلْمَ بِحُجْرَتِكَ مِنْ عِلَالِ آلِهِ﴾ ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَنُجَاهُكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ الآية [الصف: ١٠ و ١١] سَمَّى الْإِيمَانَ بِاللَّهِ وَالْمُجَاهَدَةَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تِجَارَةً.

ثُمَّ قَالَ: ﴿بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ بِحَقِّ الرِّغْدِ لَهُمْ فَضْلًا مِنْهُ لَا بِحَقِّ الْبَذْلِ.

ثُمَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ ذَكَرَ شَرَى أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ مِنْهُمْ؛ وَأَنْفُسَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ لِلَّهِ، [لَهُ] ^(٣) أَنْ يَأْخُذَ مِنْهُمْ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، وَأَنْ يُثْلِفَهُمْ بَأْيَ وَجْهِ مَا شَاءَ، لَكِنَّهُ عَامِلٌ عِبَادَةُ مُعَامَلَةٌ مِنْ لَا مُلْكَ لَهُ فِي ذَلِكَ، وَلَا حَقٌّ، كَرَمًا مِنْهُ وَجُودًا.

وَوَعَدَ لَهُمْ عَلَى ذَلِكَ أَجْرًا وَبَدَلًا. وَكَذَلِكَ مَا ذَكَرَ مِنَ الْقَرْضِ لَهُ، وَوَعَدَ لَهُمْ عَلَى ذَلِكَ الْأَجْرَ مُضَاعَفًا، وَكَذَلِكَ مَا وَعَدَ لَهُمْ مِنَ الثَّوَابِ فِي مَا يَعْمَلُونَ لِأَنْفُسِهِمْ كَالْعَامِلِينَ لَهُ حِينَ ^(٤) قَالَ: ﴿جَزَاءً يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الواقعة: ٢٤] وَقَالَ: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠] وَنَحْوُهُ؛ وَإِنْ كَانُوا فِي الْحَقِيقَةِ عَامِلِينَ لِأَنْفُسِهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾ الآية [الإسراء: ٧].

ذَكَرَ مَا ذَكَرَ فَضْلًا مِنْهُ وَإِكْرَامًا؛ إِذْ هِيَ لَهُ حَقٌّ فِي الْحَقِيقَةِ، وَهُوَ كَمَا قَالَ: ﴿لَنْ يَبَالَ اللَّهُ لِحُومِهَا وَلَا بِمَاؤُمَا وَلَكِنْ بِآلِهِمُ الْقَوَى مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧] فَإِنَّمَا يَطْلُبُ مِنْهُمْ بَذْلَ أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ.

أَوْ ذَكَرَ، وَاللَّهُ أَغْلَمُ، شَرَى مَا لَهُ فِي الْحَقِيقَةِ لِيَعْلَمَ الْخَلْقُ أَنَّ كَيْفَ يَعَامِلُ النَّاسُ بَعْضُهُمْ [بَغْضًا] ^(٥)، وَكَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥] عَامِلُهُمْ مُعَامَلَةٌ مِنْ لَا حَقَّ لَهُ فِي أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ لِيُعَامِلَ ^(٦) النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَغْضًا فِي أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ كَمَنْ لَا حَقَّ لَهُ فِي ذَلِكَ.

وقوله تعالى: ﴿وَعَدَا عَلَيْهِمْ حَقًّا﴾ أَيِ وَعْدًا وَاجِبًا ﴿فِي النَّوْزَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ﴾ أَيِ وَعَدَ ذَلِكَ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ. وَفِي خَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ: عَهْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ.

وقوله تعالى: ﴿وَعَدَا عَلَيْهِمْ حَقًّا فِي النَّوْزَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ﴾ هَذِهِ الْآيَةُ تَنْقُضُ قَوْلَ مَنْ يَقُولُ بَأَنَّ الْإِنْجِيلَ عَلَى التَّخْفِيفِ وَالتَّيْسِيرِ، وَالتَّوْرَةَ بِالشَّدَائِدِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿فَنَاسَتْ ظُلُمَةً مِنْ بَيْتِ إِسْرَافٍ وَكَفَرَتْ ظُلُمَةً﴾ [الصف: ١٤] وَكَذَلِكَ مَذْكُورٌ فِي حُكْمِ الْإِنْجِيلِ، إِلَّا أَنْ يُقَالَ بَأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَعَدَا عَلَيْهِمْ حَقًّا فِي النَّوْزَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ أَيِ كَانَ هَذَا مَذْكُورًا لِهَذِهِ الْأُمَّةِ، وَمَا ذَكَرَ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ؟﴾ هَذَا عَلَى أَنَّ قَوْلَهُ ﴿اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ الْآيَةُ إِنَّمَا هِيَ عَهْدٌ إِلَيْهِمْ حِينَ ^(٧) قَالَ: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ؟﴾ أَيِ لَا أَحَدٌ أَوْفَى وَأَصْدَقُ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ إِنْ ^(٨) وَفِئْتُمْ أَنْتُمْ بِعَهْدِهِ الَّذِي عَهْدَ إِلَيْكُمْ ^(٩)، وَاللَّهُ أَغْلَمُ.

(١) ساقطة من الأصل وم. انظر معجم القراءات القرآنية ج ٣/ ٤٦. (٢) في الأصل وم: وقال. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث.

(٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) اللام ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) من م، في الأصل: أي. (٩) في الأصل وم: عليكم.

وقوله تعالى: ﴿فَاسْتَشِيرُوا بِرَأْيِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾ يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ الْإِسْتِشَارُ الَّذِي ذَكَرَ وَقْتُ الْمَوْتِ أَنْ يَقُولَ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴿فَاسْتَشِيرُوا بِرَأْيِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾ فِي الْحَيَاةِ. هَذَا يَدُلُّ أَنَّ الْبَيْعَ يَكُونُ بَيْعاً بِالْبَدَلِ، وَإِنْ لَمْ يُتْلَفْظْ بِلَفْظَةِ الْبَيْعِ، وَقَدْ ذَكَرْنَا فِي مَا تَقَدَّمَ أَنَّ الْأَحْكَامَ لَمْ تَتَعَلَّقْ بِالْأَلْفَاظِ وَالْأَسَامِي، إِنَّمَا عُلِّقَتْ بِمَعَانِيهَا؛ فَإِذَا وَجِدْتَ الْمَعَانِي حُكِمَ بِهَا ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْقَوْرُ الْمَظْمُونُ﴾ [الذي^(١) ذَكَرَ

الآية ١١٢ وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْعَذَابِ﴾ إِلَى آخِرِهِ، قَالَ بَعْضُهُمْ: عَلَى الصَّلَةِ بِالْأَوَّلِ فِي مَا ذَكَرَ مِنَ الشَّرِّ وَالْوَعْدِ لَهُمُ الْجَنَّةُ إِذَا كَانُوا عَلَى الْوَصْفِ الَّذِي ذَكَرَ. وَكَذَلِكَ ذُكِرَ فِي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي [بْنِ كَعْبٍ]^(٢) أَنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ التَّائِبِينَ الْعَابِدِينَ الْحَامِدِينَ^(٣) عَلَى الصَّلَةِ بِالْأَوَّلِ بِالْكَسْرِ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَالْمُحْفَظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ قَرَأَهَا: وَالْقَائِمِينَ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ ﴿أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾.

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: عَلَى الْإِبْتِدَاءِ بِالرَّفْعِ: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْعَذَابِ﴾ إِلَى آخِرِهِ. وَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ الشَّرَاءُ الَّذِي ذَكَرَ فِي أَوَّلِ^(٤) الْآيَةِ، وَمَا وَعَدَ لَهُمْ بِبَدْلِ أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ فِي الْجِهَادِ يَكُونُ ذَلِكَ أَيْضاً فِي غَيْرِهِ مِنَ الطَّاعَاتِ وَالْخَيْرَاتِ مِنْ بَدْلِ النَّفْسِ لِلَّهِ فِي مَا ذَكَرَ مِنَ الْعِبَادَةِ لَهُ وَالْجِهَادِ. وَمَا ذَكَرَ فِي الْآيَةِ فَهُوَ بَائِعٌ نَفْسَهُ مِنْهُ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ أَتَيْكَاءَ مَهْكَاتٍ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٠٧] وَنَحْوَهُ.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يَحْتَمِلُ: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مِنَ الشَّرْكِ أَوْ مِنْ جَمِيعِ الْمَعَاصِي/ ٢٢٣ - ١/ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يَحْتَمِلُ الْمُوحِدِينَ^(٥)، وَيَحْتَمِلُ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ جَمِيعَ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ. وَ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قِيلَ: الشَّاكِرُونَ، وَقِيلَ: الْمُشْنُونَ عَلَى اللَّهِ.

فَإِنْ كَانَ قَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مِنَ الْعِبَادَةِ [يَكُنِ] ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الْمُشْنِينَ^(٦) عَلَى اللَّهِ لِأَنَّ الْعِبَادَاتِ كُلَّهَا شُكْرٌ. وَإِنْ كَانَ قَوْلُهُ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الْمُوحِدِينَ [يَكُنِ] قَوْلُهُ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الشَّاكِرِينَ^(٧) النَّعَمَ الَّتِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ.

[وقوله تعالى]^(٨): ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قِيلَ: الصَّائِمُونَ. وَعَلَى ذَلِكَ رُويَ عَنْ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ السَّائِحِينَ، فَقَالَ: هُمُ الصَّائِمُونَ، وَقَالَ: «وَسِيَاخَةُ أُمِّي الصَّيَامُ» [القرطبي في تفسيره: ١٨٩/٤].

وَقَالَ الْقُتَيْبِيُّ: وَأَصْلُ السَّائِحِ: الذَّاهِبُ فِي الْأَرْضِ، وَمِنْهُ يُقَالُ: سَائِحٌ إِذَا جَرَى، وَذَهَبَ، وَالسَّائِحُ فِي الْأَرْضِ مُنْتَبِعٌ مِنَ الشَّهَوَاتِ، فَشَبَّهَ الصَّائِمَ^(٩) بِهِ لِإِمْسَاكِهِ فِي صَوْمِهِ عَنِ الْمَقْطَعِ وَالْمَشْرِبِ وَجَمِيعِ اللَّذَاتِ.

وَقَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ: هُمُ الَّذِينَ يَمْضُونَ عَلَى وَجْهِهِمْ فِي الْأَرْضِ، لَيْسَتْ [لَهُمْ]^(١٠) مَنَازِلُ؛ يُقَالُ: سَاحَ يَسِيحُ سَيْحاً وَسِيَاخَةً.

[وقوله تعالى]^(١١): ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قِيلَ: الْمُصَلُّونَ، وَقِيلَ: الْخَاضِعُونَ لِلَّهِ، وَالْخَاضِعُونَ لَهُ، وَكَذَلِكَ ذُكِرَ فِي حَرْفِ حَفْصَةَ.

[وقوله تعالى]^(١٢): ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يَحْتَمِلُ التَّوْحِيدَ؛ أَيِ آمَرُونَ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ، وَيَحْتَمِلُ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بِالتَّوْحِيدِ لَهُمْ بِالْخَيْرَاتِ كُلِّهَا ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَنِ الشُّكْرِ﴾ الشُّكْرُ، وَيَحْتَمِلُ كُلَّ مَغْصِيَةٍ.

[وقوله تعالى]^(١٣): ﴿وَالْمُحْفَظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: لِفَرَائِضِ اللَّهِ الَّتِي فَرَضَهَا عَلَى عِبَادِهِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لِسُنَنِ اللَّهِ، وَهُمْ^(١٤) حَافِظُونَ جَمِيعَ أَحْكَامِ اللَّهِ، لَا يُجَاوِزُونَ مَا حَدَّ لَهُمْ، وَلَا يُفَرِّطُونَ فِيهَا.

[وقوله تعالى]^(١٥): ﴿وَيَنْتَهِرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يَحْتَمِلُ الْبَشَارَةَ لِهَوْلَاءِ الَّذِينَ سَبَقَ ذِكْرُهُمْ، وَيَحْتَمِلُ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ؛ أَيِ بَشَرِ جَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿يَأْنِ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٧] وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٣/ ٤٧. (٤) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: الْأَوَّل. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: الْمُوحِدُونَ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: فَيَكُونُ الْمُشْنُونَ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: يَكُونُ قَوْلُهُ الشَّاكِرُونَ. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: الصَّيَام. (١٠) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَلَكِنْ. (١٥) ساقطة من الأصل وم.

الآية ١١٣

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ دَلَّتْ الآيةُ بِمَا نَهَانَا أَنْ نَسْتَغْفِرَ لِمَنْ عَلِمْنَا أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لِمَا أَنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ لَهُ لِمَا عَلِمَ أَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ. فَعَلَى مَا عَلِمْنَا أَنَّهُ لَا يَغْفِرُ لَهُ لِمَنْ نَسْتَغْفِرُ لَهُ، وَلَمْ^(١) يَجْزُ لَنَا أَنْ نَقُولَ: [لَهُ]^(٢) إِنَّهُ أَرَادَ الْإِيمَانَ لِمَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ أَبَدًا كَمَا لَمْ يَجِبْ أَنْ نَسْتَغْفِرَ^(٣) لِمَنْ وَجَبَتْ لَهُ النَّارُ. فَهَذَا يَنْقُضُ عَلَى الْمُعْتَرِزَةِ قَوْلَهُمْ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَرَادَ لِكُلِّ كَافِرٍ الْإِيمَانَ، لَكِنَّهُ لَمْ يُؤْمِنِ.

ثُمَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ قَالَ بَغُضُ أَهْلِ التَّوْبِيلِ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدِ اسْتَغْفَرَ لِأَحَدٍ وَالِدَيْهِ، وَذَكَرَ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى أَبِي طَالِبٍ عَمِّهِ، فَدَعَاهُ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَأَبَى، ثُمَّ اسْتَغْفَرَ لَهُ، وَقَالَ: لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْهُ، أَوْ كَلَامٌ نَحْوُ هَذَا، فَتَرَدَّدَ قَوْلُهُ: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى﴾ الآية.

قَالَ الْحَسَنُ: لَا يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ رَسُولٌ مِنْ رُسُلِ اللَّهِ لَا يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ لِلْكَافِرِ؛ إِذْ فِي الْعَقْلِ وَالْحِكْمَةِ أَلَّا يَغْفِرَ لَهُ وَالتَّعْذِيبُ لَهُ أَبَدًا.

وَعِنْدَنَا فِي الْحِكْمَةِ تَعْذِيبُ الْكَافِرِ أَبَدًا وَأَلَّا يُغْفَرَ [لَهُ]^(٤) لِيُوجِبَ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ فِي ذَلِكَ تَسْوِيَةً بَيْنَ الْعَدُوِّ وَوَلِيِّهِ؛ فَهُوَ لَيْسَ بِحِكْمَةٍ^(٥)؛ إِذْ فِي الْحِكْمَةِ التَّمْيِيزُ بَيْنَهُمَا.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ إِذَا عَبْدَ غَيْرِ اللَّهِ مَعَهُ إِنَّمَا يَغْبُدُ غَيْرُهُ لِجَهْلِهِ، وَتِلْكَ الْجَهَالَةُ لَا تَرْفَعُ أَبَدًا؛ لِأَنَّهُ إِذَا غُفِرَ لَهُ، فَيَقَعُ عِنْدَهُ أَنَّهُ إِنَّمَا جُزِيَ [بِمَا جُزِيَ]^(٦) وَغُفِرَ لِعِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ.

وَالثَّالِثُ: أَنَّهُ لَوْ غُفِرَ لِلْكَافِرِ لَذَهَبَتْ حِكْمَةُ الْأَفْعَالِ؛ لِأَنَّ الْأَفْعَالَ إِنَّمَا يُؤْمَرُ بِهَا لِعَوَاقِبِ تَتَأَمَّلُ: إِمَّا حَمْدًا وَإِمَّا دَمًا. فَإِذَا غُفِرَ لَهُ حُمِدَ بِأَفْعَالٍ كَانِ الْحَقُّ لَهُ الذَّمُّ بِهَا. فَفِي [ذَلِكَ]^(٧) خُرُوجُهَا عَنِ الْحِكْمَةِ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسْتَغْفِرُ لِلْمُتَافِقِينَ قَبْلَ أَنْ يَتَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُمْ مُتَافِقُونَ. فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ نِفَاقُهُمْ كَفَّ عَنِ [اسْتَغْفَارِهِ لَهُمْ]^(٨). فَامَّا أَنْ يَسْتَغْفِرَ لِلْكَافِرِ عَلَى عِلْمٍ مِنْهُ أَنَّهُ كَافِرٌ فَلَا يُحْتَمَلُ عَلَى مَا يَقُولُهُ بَعْضُ أَهْلِ التَّوْبِيلِ: إِنَّهُ اسْتَغْفَرَ لِعَمِّهِ وَلِأَحَدٍ وَالِدَيْهِ.

الآية ١١٤

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانِ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ قَالَ بَغُضُهُمْ: وَغَدَهُ إِيَّاهُ الْإِسْلَامُ، فَكَانَ اسْتَغْفَارُهُ لِأَبِيهِ عَلَى وَغْدِ الْإِسْلَامِ، فَإِنَّمَا كَانَ اسْتَغْفَارُهُ بَعْدَ إِسْلَامِهِ.

أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ﴾ ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾؟ [إِبْرَاهِيمَ: ٤٠ و ٤١] فَإِنَّمَا طَلَبَ لَهُ الْمَغْفِرَةَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَقَدْ كَانَ وَعْدَ لَهُ الْإِسْلَامُ، لِذَلِكَ كَانَ اسْتَغْفَرَ لَهُ. أَلَا تَرَى أَنَّهُ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِذْ^(٩) تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ [بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا فَتَرَكُونَ﴾ [الْأَنْعَامُ: ٧٨]]^(١٠).

وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ طَلَبَ السَّبَبِ الَّذِي بِهِ مِنْهُ يَسْتَوْجِبُ الْمَغْفِرَةَ، وَهُوَ التَّوْحِيدُ، وَهُوَ كَقَوْلِ هُودٍ لِقَوْمِهِ: ﴿رَبِّكُمْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هُود: ٥٢] وَكَقَوْلِ نُوحٍ: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نُوح: ١٠] لَيْسَ بِأَمْرِهِمْ أَنْ يَقُولُوا: نَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، وَلَكِنْ بِأَمْرِهِمْ بِالْإِسْلَامِ لِيَغْفَرَ لَهُمْ، وَيَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الْمَغْفِرَةِ. فَعَلَى ذَلِكَ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَاصْفِرْ لِأَيِّ اللَّهِ كَانَ مِنَ الْمَسْأَلِينَ﴾ [الشعراء: ٨٦] أَيِ أَغْطِ السَّبَبَ الَّذِي بِهِ يَسْتَوْجِبُ الْمَغْفِرَةَ؛ وَهُوَ التَّوْحِيدُ. كَانَ سُؤَالُهُ سُؤَالَ التَّوْحِيدِ؛ إِذْ لَا يَحِلُّ طَلَبُ الْمَغْفِرَةِ لِلْكَافِرِ، وَفِي الْحِكْمَةِ لَا يَجُوزُ أَنْ يُغْفَرَ لَهُ.

فَإِنْ قِيلَ: فَإِنْ كَانَ عَلَى مَا ذَكَرْتُمْ فَكَيْفَ^(١١) اسْتَشْنَى ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ بَعْدَ مَا أَخْبَرَ لَنَا أَنَّ فِي إِبْرَاهِيمَ

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: يغفر. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: بحكيم. (٦) في الأصل: به بما جزى. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: استغفروهم. (٩) في الأصل وم: إذا. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) الغاء ساقطة من الأصل وم.

فَذَوِّقُوا بَقُولِهِ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾؟ [الممتحنة: ٤] قِيلَ: يَخْتَمِلُ الْإِسْتِثْنَاءُ: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ أَي حَتَّى نَعْلَمَ الْمَعْنَى مِنْ اسْتِغْفَارِهِ لِأَبَا لَا نَعْرِفُ مُرَادَ إِبْرَاهِيمَ مِنْ اسْتِغْفَارِهِ لِأَبِيهِ. وَكَذَلِكَ اسْتِغْفَارُ الْأَنْبِيَاءِ ﷺ لِقَوْمِهِمْ وَالتَّصْلِيلَ بِهِمْ، فَاسْتَشْنَى ذَلِكَ إِلَى أَنْ نَعْلَمَ مُرَادَهُمْ مِنْ اسْتِغْفَارِهِمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ قِيلَ: الْأَوَّاهُ الدَّعَاءُ. وَعَلَى ذَلِكَ رُويَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الْأَوَّاهِ، وَقَالَ: الدَّعَاءُ الْخَاشِعُ الْمُنْتَزِعُ. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ [أَنَّهُ] ^(١) قَالَ: الْأَوَّاهُ الْمُؤْمِنُ، وَقِيلَ: الْأَوَّاهُ الْفَقِيهُ الْمُوقِنُ، وَقِيلَ: الْمُسِيخُ، وَقِيلَ: الْأَوَّاهُ الْمُنَاوُؤُ حُزْنًا وَخَوْفًا.

و ﴿حَلِيمٌ﴾ قِيلَ: الْحَكِيمُ ضِدُّ السَّفِيهِ، وَقِيلَ: الْعَلِيمُ وَالْحَلِيمُ هُوَ الَّذِي لَا يَغْضَبُ، وَلَا يَسْفَهُ عِنْدَ سَفَوِ السَّفِيهِ.

الآية ١١٥ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلْفَةٌ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّى يَسْتَأْذِنَ لَهُمْ مَا يَنْقُوتُ﴾ اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: الْآيَةُ فِي اسْتِغْفَارِ الْمُؤْمِنِينَ لِلْمُشْرِكِينَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْآيَةُ فِي نَسْخِ الْأَحْكَامِ وَالشَّرَائِعِ الَّتِي تَخْتَمِلُ النُّسْخَ.

فَإِنْ كَانَ فِي [الْإِسْتِغْفَارِ لِلْمُشْرِكِينَ] ^(٢) فَإِنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ نَسْخٌ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَسْبِقْ لَهُمُ الْأَمْرُ بِالْإِسْتِغْفَارِ وَلَا الْإِبَاحَةُ لَهُمْ فِي ذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ قَالَ: مَا كَانَ اللَّهُ لِيَجْعَلَ قَوْمًا ضَلَالًا بِالْإِسْتِغْفَارِ بَعْدَ إِذْ جَعَلَهُمْ مُهْتَدِينَ حَتَّى يَعْلَمُوا بِالنَّهْيِ عَنْ ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَهُوَ يَخْتَمِلُ مَا ذَكَرْنَا مِنْ اسْتِغْفَارِهِمْ لِلْمُشْرِكِينَ قَبْلَ أَنْ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ؛ يَقُولُ: لَا يَجْعَلُهُمْ ضَلَالًا بِذَلِكَ ﴿حَتَّى يَسْتَأْذِنَ لَهُمْ مَا يَنْقُوتُ﴾.

وَأِنْ كَانَ فِي نَسْخِ الْأَحْكَامِ فَكَانَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، قَالَ: مَا كَانَ اللَّهُ لِيَجْعَلَ قَوْمًا ضَلَالًا جَهَالًا يَفْعَلُهُمُ الَّذِي فَعَلُوا بِالْأَمْرِ ﴿حَتَّى يَسْتَأْذِنَ لَهُمْ مَا يَنْقُوتُ﴾ أَي حَتَّى يَعْلَمُوا بِالَّذِي يُلْزِمُهُمُ الْإِنْتِهَاءُ عَنْهُ، وَهُوَ النُّسْخُ.

هَذَا فِي الْأَحْكَامِ الَّتِي تَخْتَمِلُ النُّسْخَ وَأَمَّا الْأَحْكَامُ الَّتِي لَا تَخْتَمِلُ النُّسْخَ فَلَا. وَأَضْلُهُ: إِنْ كُلُّ مَا كَانَ فِي الْعَقْلِ امْتِنَاعٌ نَسْخِهِ فَإِنَّهُ لَا يَرُدُّ فِيهِ النُّسْخُ، وَكُلُّ مَا كَانَ فِي الْعَقْلِ لَا امْتِنَاعَ عَلَى نَسْخِهِ فَإِنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَرُدَّ فِيهِ النُّسْخُ.

ثُمَّ الْمَسْأَلَةُ فِي مَا عَمِلُوا بِالْمُنْسُوحِ قَبْلَ الْعِلْمِ بِهِ بِالنُّسْخِ: مَا حَالُ الْعَمَلِ الَّذِي عَمِلُوا بِهِ؟ يَخْرُجُونَ، وَيَأْتُمُونَ فِي عَمَلِهِمْ بِذَلِكَ فِي حَالِ نَسْخِهِ، وَيُثَابُونَ، وَيُؤْجَرُونَ عَلَى ذَلِكَ. فَإِنْ كَانَ الْفِعْلُ فِعْلًا طَاعَةً وَقُرْبَةً فَإِنَّهُ يَثَابُ فِي قَضِيهِ وَفِعْلِهِ/ ٢٢٣ - ب، وَلَا يَخْرُجُ مِنْهُ.

وَلَكِنْ إِنْ ^(٣) كَانَ الْفِعْلُ لَيْسَ بِفِعْلِ قُرْبَةٍ وَطَاعَةٍ، وَلَكِنْ فِعْلُ جُلٍّ وَحُرْمَةٍ فَإِنَّهُ فِي فِعْلِهِ قَبْلَ بُلُوغِ الْعِلْمِ بِنَسْخِهِ لَا يَخْرُجُ فِي فِعْلِهِ نَحْوُ مَا رُويَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ، ثُمَّ آتَاهُمْ آيَةُ فَقَالَ: أَلَا إِنَّ الْخَمْرَ قَدْ حُرِّمَتْ، فَصَبُّوْهَا، وَكَفُّوا عَنْهَا. فَهُمْ فِي شُرْبِهِمْ بَعْدَ التَّحْرِيمِ قَبْلَ بُلُوغِ الْخَبَرِ إِلَيْهِمْ لَا يَخْرُجُونَ.

وَأَمَّا الْفِعْلُ الَّذِي هُوَ فِعْلُ قُرْبَةٍ وَطَاعَةٍ فَإِنَّ لَهُمُ الْقُرْبَةَ فِي فِعْلِهِمْ، وَهُوَ الصَّلَاةُ، وَنَحْوُهُ مَا رُويَ أَنَّ نَفَرًا كَانُوا يُصَلُّونَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَمَرَّ عَلَيْهِمْ مَارٌّ، فَقَالَ: أَلَا إِنَّ الْقِبْلَةَ قَدْ حَوَّلْتُ، وَهُمْ فِي الرُّكُوعِ، إِلَى الْكَعْبَةِ، فَتَحَوَّلُوا نَحْوَهَا، فَخَبَرُوا عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ، فَلَمْ يَأْمُرْهُمْ بِالْإِعَادَةِ لِأَنَّ الْفِعْلَ فِعْلُ قُرْبَةٍ وَطَاعَةٍ. فَالطَّاعَةُ وَالْقُرْبَةُ مَوْجُودَةٌ فِي فِعْلِهِمْ لِأَنَّ الْأَفْعَالَ الَّتِي قُرِضَتْ لَمْ تُقْرِضْ لِنَفْسِ الْأَفْعَالِ، إِنَّمَا قُرِضَتْ لِلطَّاعَةِ وَالْقُرْبَةِ لِهِيَ فِيهَا. فَإِنَّهُ يُؤْجَرُ عَلَى ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ بِمَا فِيهِ مَصَالِحُ الْخَلْقِ وَمَا لَيْسَ فِيهِ. كَانَ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، خَرَجَ لِانْكَارِ مَنْ أَنْكَرَ النُّسْخَ فِي الشَّرَائِعِ. يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ بِمَا فِيهِ مَصَالِحُ الْخَلْقِ، وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ. وَفِي النَّاسِخِ مَصَالِحٌ لَهُمْ، وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ.

الآية ١١٦ وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَمَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أَي كَمَا لَهُ أَنْ يُمِيتَ بَعْدَ الْحَيَاةِ، وَيُحْيِيَ بَعْدَ الْمَوْتِ فَلَهُ أَنْ يَتَعَبَّدَ لَهُمْ فِي حَالِ عِبَادَةٍ وَفِي حَالِ عِبَادَةٍ أُخْرَى.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: استغفار المشركين. (٣) في الأصل وم: فان.

الآية ١١٧

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ الآية؛ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ لِزَلَاتٍ سَبَقَتْ مِنْهُمْ وَلِهَفَوَاتٍ تَقَدَّمَتْ مِنْ غَيْرِ أَنْ كَانَ مِنْهُمْ زَلَاتٌ؛ فِي هَذَا يَتَخَيَّرُ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، وَهَفَوَاتٍ.

أَمَّا التَّوْبَةُ عَلَى النَّبِيِّ بِقَوْلِهِ: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الْإِثْمُ صَدَقُوا﴾ [التوبة: ٤٣] وَعَلَى^(١) الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ بِمَا^(٢) كَانَ مِنْهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ وَيَوْمَ^(٣) حُنَيْنٍ بِقَوْلِهِ^(٤): ﴿إِنَّمَا أَسْرَلَهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٥] وَقَالَ بَعْضُهُمْ: تَابَ عَلَيْهِمْ لِهَفَوَاتٍ كَانَتْ مِنْهُمْ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ؛ هُمَا أَنْ يَنْصَرِفُوا فِي وَقْتٍ غَيْرِ وَقْتِ الْإِنْصِرَافِ.

وَيُسَبِّحُ أَنْ تَكُونَ التَّوْبَةُ الَّتِي ذَكَرَ عَلَى وَجْهَيْنِ سِوَى مَا ذَكَرُوا:

[أَحَدُهُمَا: هُوَ]^(٥): أَنَّهُ تَابَ عَلَيْهِمْ؛ أَيِ جَدَّدَ عَلَيْهِمُ التَّوْبَةَ لِلِهَفَوَاتٍ الَّتِي تَقَدَّمَتْ أَوْ لِلثَّبَاتِ عَلَيْهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ كَانَ مِنْهُمْ فِي الْحُدُوثِ شَيْءٌ. وَلَكِنْ يَكُونُ لَذَلِكَ حُكْمُ التَّجْدِيدِ وَالثَّبَاتِ عَلَيْهَا، فَيَكُونُ كَسُؤَالِ الْهَدَى، وَهُمْ عَلَى الْهَدَى كَقَوْلِهِ ﷺ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] وَقَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ آمَنُوا مَعَنَا وَمِنُونَا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النساء: ١٣٦] أَيِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا فِي مَا مَضَى مِنَ الْوَقْتِ [آمَنُوا]^(٦) أَوْ اثْبُتُوا فِي ذَلِكَ. فَعَلَى ذَلِكَ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ أَيِ جَدَّدَ عَلَيْهِمُ التَّوْبَةَ مِنْ غَيْرِ أَنْ كَانَ مِنْهُمْ هَفْوَةٌ، أَوْ ثَبَّتَهُمْ عَلَى التَّوْبَةِ الَّتِي كَانَتْ مِنْهُمْ.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ ذَكَرَ التَّوْبَةَ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ حِينَ^(٧) صَبَرُوا عَلَى مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الشَّدَائِدِ وَالْجَهْدِ كَشَفَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَشْيَاءَ كَانَتْ مَسْتَوْرَةً عَنْهُمْ^(٨)، وَجَلَّ لَهُمْ أَعْظِيَّةٌ كَانَتْ لَا تَتَجَلَّى لَهُمْ مِنْ قَبْلُ.

لَكِنْ انْجَلَى ذَلِكَ لَهُمْ، وَانْكَشَفَ لَصَبْرِهِمْ عَلَى الشَّدَائِدِ الَّتِي أَصَابَتْهُمْ [كَقَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ﴾]^(٩) [البقرة: ١٥٦] لَمَّا صَبَرُوا عَلَى مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْمَصَائِبِ [ازدادوا هُمُ]^(١٠) تَفْوِيضًا [وَتَسْلِيمًا لِلْأَمْرِ]^(١١) وَالْمَرْجِعِ إِلَيْهِ، وَكَقَوْلِهِ: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ الآية [التغابن: ١١] زَادَ^(١٢) لَهُمْ بِمَا صَبَرُوا هَدًى، وَتَجَلَّى لَهُمْ أَشْيَاءٌ، لَمْ تَكُنْ مِنْ قَبْلُ.

فَعَلَى ذَلِكَ تَحْتَمِلُ التَّوْبَةُ الَّتِي ذَكَرَ أَنَّهُمْ لَمَّا صَبَرُوا عَلَى مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الشَّدَّةِ وَالْجَهْدِ تَجَلَّى لَهُمْ أَشْيَاءُ كَانَتْ مُخْفَاةً، وَاللَّهُ أَعْلَمُ؛ فَإِنَّهُ ذَكَرَ ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَرِيغُ قُلُوبُ قَرِيبٍ مِنْهُمْ﴾ وَلَمْ يَذْكُرْ أَنَّهَا زَاعَتْ، وَذَكَرَ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ، وَلَمْ يَذْكُرْ قُلُوبَ الْكُلِّ كَمَا ذَكَرْنَا.

وَيَحْتَمِلُ ذِكْرُ التَّوْبَةِ عَلَى النَّبِيِّ الْإِسْرَاقَ^(١٣) لَهُ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ غَيْرِ أَنْ كَانَ لَهُ ذَنْبٌ؛ لِأَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّ ذَنْبَهُ مَغْفُورٌ بِقَوْلِهِ: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] فَهُوَ كَمَا أَشْرَكَهُ فِي الْإِسْتِغْفَارِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩] أَمْرُهُ بِالْإِسْتِغْفَارِ لِذُنُوبِهِ عَلَى الْإِسْرَاقِ لَهُ مَعَ اسْتِغْفَارِ الْمُؤْمِنِينَ؛ إِذْ أَخْبَرَ أَنَّهُ غَفَرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ.

وَالتَّوْبَةُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى تُخْرِجُ عَلَى وَجْهِ:

أَحَدُهَا: التَّوْفِيقُ؛ وَقَفَّهْمُ لِلتَّوْبَةِ، وَآكَرَمَهُمْ بِهَا، كَقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة: ١١٨] أَيِ وَقَفَّهْمُ لِلتَّوْبَةِ، فَتَابُوا.

وَالثَّانِي: التَّوْبَةُ مِنْهُ قَبُولُهَا مِنْهُمْ؛ أَيِ يَقْبَلُ مِنْهُمْ التَّوْبَةَ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨].

وَالثَّلَاثُ: تَابَ عَلَيْهِمْ؛ أَيِ تَجَاوَزَ عَنْهُمْ، وَعَفَا، وَصَفَحَ عَنْهُمْ.

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) الباء ساقطة من الأصل وم. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وقوله. (٥) في الأصل وم: وهو. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: عندهم. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل: ازدادهم، في م: ازداد لهم. (١١) في الأصل وم: وتسليم الأمر. (١٢) في الأصل وم: ازداد لهم. (١٣) أدرج قبلها في الأصل وم: على.

على هذه الوجوه الثلاثة تُخَرَّجُ إضافة التوبة إلى الله.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أَنْتَبَهُوا فِي سَاعَةِ الْمُسْرَةِ﴾ قيل: في غسرة النِّفَقَةِ، وغسرة الظُّهْرِ.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ بَدَا مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ بَيْنَهُمْ﴾ ذُكِرَ في بَعْضِ الْقِصَصِ أَنَّهُ قَدْ أَصَابَهُمْ مِنَ الْجَهْدِ وَالشَّدَةِ، حَتَّى إِنَّ الرُّجُلَيْنِ لَيُفْسِمَانِ الثَّمَرَةَ بَيْنَهُمَا، وَكَانَتِ الثَّمَرَةُ يَتَدَاوِلُونَ بَيْنَهُمْ، يَمُصُّهَا هَذَا، ثُمَّ يَشْرَبُ عَلَيْهَا الْمَاءَ، ثُمَّ يَمُصُّهَا هَذَا. ذُكِرَ نَحْوُ هَذَا، وَلَكِنْ لَا نَدْرِي كَيْفَ كَانَ الْأَمْرُ؟ سَوَى أَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّ قُلُوبَهُمْ كَادَتْ تَزِيغُ مِنَ الْجَهْدِ.

الآية ١١٨

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ عن التوبة نحو قوله: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ كانوا يَتَّبِعُونَ وَيَدْعُونَ اللَّهَ، حَتَّى تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، فَتَابُوا.

وقال قائلون: ﴿ظَلَمُوا﴾ عن رسول الله لما تَقَدَّمَ الْقَوْمُ، فَهُمْ الْمُخَلَّفُونَ بِتَقَدُّمِ أَوْلَئِكَ، وَقَالَ قَائِلُونَ: ﴿ظَلَمُوا﴾ خَلَفَهُمُ اللَّهُ؛ أَيِ خَلَفَهُمْ.

وَيُسَبِّحُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ هُمُ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا^(١)، فَلَجَحُوا رَسُولَ اللَّهِ، وَهُوَ مَا ذَكَّرْنَا.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ [يَحْتَمِلُ هَذَا عَلَى التَّحْقِيقِ]^(٢) وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عَلَى التَّمْثِيلِ، وَلِلتَّحْقِيقِ وَجْهَانِ:

أَحَدُهُمَا: ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ أَنَّهُمْ شَدُّوا أَنْفُسَهُمْ بِالسَّوَارِي وَالْأَسْطُوانَاتِ، وَأَتَوْا بِأَمْوَالِهِمْ الَّتِي مَنَعَتْهُمْ عَنِ الْخُرُوجِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، وَتَصَدَّقُوا بِالْأَرْضِ الَّتِي مَنَعَتْهُمْ عَنِ الْخُرُوجِ، وَضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بَعْدَ مَا كَانَتْ عَلَيْهِمْ مُتَّسِعَةً؛ يَتَسَمَّوْنَ فِيهَا؛ لِأَنَّهُ ذُكِرَ فِي الْقِصَّةِ أَنَّ وَاحِدًا مِنْ هَؤُلَاءِ مِمَّا حَبَسَتْهُ أَرْضُهُ عَنِ الْخُرُوجِ، فَتَصَدَّقَ بِهَا عَلَى الْفُقَرَاءِ، وَكَانَ لَهُ التَّوَسُّعُ بِتِلْكَ الْأَرْضِ، ثُمَّ ضَاقَتْ عَلَيْهِ.

وَالثَّانِي: ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ لَمَّا حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ عَنْ أَرْضِيهِمْ، وَتَرَكُوا شَهَوَاتِهِمْ وَأَمَانِيَهُمْ وَمَا يَتَلَذَّذُونَ بِهِ. فَذَلِكَ ضِيقُ الْأَرْضِ ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ لَمَّا شَدُّوا أَنْفُسَهُمْ بِالْأَسْطُوانَاتِ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عَلَى التَّمْثِيلِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْخَوْفَ إِذَا اشْتَدَّ عَلَى الْإِنْسَانِ، وَبَلَغَ غَايَتَهُ، حَتَّى يَمْنَعَهُ مِنَ الْقَرَارِ فِي الْأَرْضِ وَالتَّلَذُّذِ فِيهَا، يُقَالُ: ضَاقَتْ عَلَيْهِ الْأَرْضُ بِسَعَتِهَا، وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ لِمَا ذُكِرَ: كَانَ النَّاسُ لَا يَكْلُمُونَهُمْ، وَلَا يُخَالِطُونَهُمْ، وَلَا يُبَايَعُونَهُمْ، وَلَا يَكْلُمُهُمْ أَهَالِيَهُمْ.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّوْا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ظَنُّوا أَنْ لَا نَجَاةَ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ إِلَّا عَفْوُهُ؛ أَيِ اتَّقَوْا أَنْ لَا مَخْلَصَ لَهُمْ وَلَا اخْتِرَازَ لَهُمْ مِنْ عِقَابِهِ. وَقِيلَ: ﴿وَعَلَّوْا أَنْ لَا مَلْجَأَ﴾ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ؛ لِأَنَّهُ ذُكِرَ أَنَّهُمْ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ/ ٢٢٤ - / التَّجَاوُزَ عَنْ ذَلِكَ، فَلَمْ يَجِبْهُمْ، فَأَبَقُوا عِنْدَ ذَلِكَ أَنَّ الْفَرَجَ وَالْمَلْجَأَ إِلَى اللَّهِ، لَا إِلَى أَحَدٍ دُونَهُ.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ أَيِ وَقَّعَهُمُ التَّوْبَةَ، فَتَابُوا ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ أَيِ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ، أَيِ قَابِلُهَا.

الآية ١١٩

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ فِي ظَاهِرِ الْآيَةِ أَنَّ قَوْمًا عُرِفُوا بِالصِّدْقِ، فَأَمَرُوا بِالْكُونِ مَعَهُمْ. وَيُسَبِّحُ أَنْ يَكُونَ أَمْرٌ هَؤُلَاءِ [الَّذِينَ]^(٣) تَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ بِالْكُونِ مَعَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ كَانُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ.

وفيه دلالة على أَنَّ الْإِجْمَاعَ حُجَّةٌ؛ لِأَنَّهُ أَمَرَ بِالْكُونِ مَعَ الصَّادِقِينَ فِي دِينِ اللَّهِ. فَلَوْ لَمْ يُلْزِمُهُمْ قَبُولُ قَوْلِهِمْ لَمْ يَكُنْ لِلْأَمْرِ بِالْكُونِ مَعَهُمْ وَجْهٌ. وَفِي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ وَهُوَ ظَاهِرٌ.

وقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهًا:

(١) فِي الْأَصْلِ وَ م: تَخَلَّفُوا. (٢) م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وَ م.

أخذها: اخفطوا الله في حقّه، ولا تضيّعوه، ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ في وفاء ذلك وحفظه.
والثاني^(١): اتقوا ما في ترك ما امتحنكم به من الخروج والجهاد مع رسول الله ﷺ وغير ذلك من المحن.
والثالث^(٢) يقول: اتقوا مخالفة الله ورسوله في ما يأمركم به، وكونوا مع الموافقين لأمره، والله أعلم.

الآية ١٢٠

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾ يشبه أن يكون هذا صلة ما سبق منهم من المباينة والعهود التي جرت بينهم وبين رسول الله. يقول، والله أعلم ﴿مَا كَانَ﴾ أي لم يكن ﴿لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾ بعد ما قبلوا النضر له والمعونة، وبايعوه على ذلك. هذا مُحْتَمَلٌ وَيَحْتَمِلُ وجهاً آخر؛ وهو أن يكون صلة ما ذكر على إثره، وهو قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا عَمَلَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يقول، والله أعلم: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾ [ما جعل كل^(٣)] ما يصيبهم في أنفسهم من العناء والشدة وفي أموالهم من الثقصان وما يتفقون من الثقة قليلة كانت أو كثيرة، أو يصيبون من العدو ومن القتل والغنيمه إلا كتب لهم بذلك العمل الصالح؛ أي ما كان ينبغي لهم أن يتخلفوا عنه، وقد كتب لهم بكل ما يصيبهم من الشدة والعناء وما يصيبون من الخير العمل الصالح والأجر لهم، والله أعلم. أو يقول: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ إذا اختلفوا من رسول الله أن يتخلفوا عنه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾. يَحْتَمِلُ قوله: ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ أي ولا يرغبوا بالتخلف عن نفسه. يقال: جاء فلان بنفسه، ورأيت أنا بعيني، ونحوه؛ أي جاء هو، ورأى هو. فعلى ذلك هذا ﴿وَلَا يَرْغَبُوا﴾ أي ما كان ينبغي لهم أن يرغبوا عن رسول الله. وَيَحْتَمِلُ: ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ أي لا تفتشهم عن نفسه. وذلك جائز [على^(٤)] ما ذكرنا.
وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ قيل: عطش ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ [قيل: هو^(٥)] العناء والمشقة ﴿وَلَا عَمَلَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي مجاعة ﴿وَلَا يَكْثُرُونَ مَوَاطِنًا يَصِيحُ الْكُفَّارُ﴾ قال بغضهم: ولا ينفقون موقفاً، وقال بغضهم: هو من الوطء، الشيء الذي يوطأ ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً﴾ قيل: [قتلاً فيهم^(٦)] وإغارة عليهم ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِمْ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ أي يكتب ما لهم وما عليهم: العمل الصالح مكان من تخلف منهم مخافة أن يصيبه ما ذكر من العناء والشدة؛ يقول: كتب لهم بكل ما يصيبهم العمل الصالح ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

الآية ١٢١

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُفْقِرُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ هو ما ذكرنا أنه يجزيهم بكل ما يصيبهم من الشدة والعناء في أنفسهم وفي أموالهم من الثقصان، وما يتفقون ﴿يَجْزِيهِمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَسْكُونُ﴾ أي يجزيهم لإصلاح أعمالهم وأحسنها، ولا يجزيهم لسيئاتهم؛ وهو كقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبْلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ [الأحقاف: ١٦] أخبر أنه يتقبل منهم أحسن ما عملوا، ويكفر عنهم سيئاتهم. فعلى ذلك الأول؛ يُخْبِرُ أنه يجزيهم أحسن ما عملوا في الغزو، ويتجاوز عن سيئاتهم.
فعلى ذلك الأول؛ يُخْبِرُ أنه يجزيهم أحسن ما عملوا في الغزو، ويتجاوز عن سيئاتهم.

الآية ١٢٢

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِیَنْفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ الآية اختلف أهل التأويل: قال بغضهم: إن نبي الله كان إذا خرج للغزو خرجوا جميعاً، فتبقى المدينة خالية من الرجال، فنهى الله عن ذلك، وقال: ما ينبغي للمؤمنين أن ينفروا كافة مع رسول الله ﷺ ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾. وقال بغضهم: كان رسول الله ﷺ إذا بعث سرية خرجوا جميعاً، فبقي هو وحده، لم يبق معه أحد ومن يشهد التَّنْزِيلَ يُخْبِرُ^(٧) أولئك [حين يحضرون]^(٨).

(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: وقد جعل بكل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في م: فيهم، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: منهم. (٧) في الأصل وم: ليخبروا. (٨) في الأصل وم: حضروا.

وقال آخرون: الآية في الوفود؛ وذلك أن الوفود إذا قَدِمُوا مِنَ الْآفَاقِ الْمَدِينَةَ قَدِمُوا مَعَ النِّسَاءِ وَالذَّرَارِيِّ جَمِيعاً، فَأَمَرُوا أَنْ يَنْفِرَ^(١) الرِّجَالُ مِنْهُمْ دُونَ النِّسَاءِ وَالذَّرَارِيِّ، وَمِنْ كُلِّ قَوْمٍ نَفَرٌ ﴿لِيَسْتَفْقَهُوا فِي الدِّينِ﴾.
ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّتَفْقَهُوا كَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ نَهَى الْكُلَّ أَنْ يَنْفِرُوا، وَأَمَرَ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى بِنَفْرِ الْكُلِّ بِقَوْلِهِ: ﴿فَأَنْفِرُوا نِفَارَ أَوْ أَنْفِرُوا جَمِيعاً﴾ [النساء: ٧٨] فَهُوَ يُخْرِجُ عَلَى وَجْهَيْنِ؛ اخِذَهُمَا: أَمَرَ بِالنَّفْرِ الْجَمِيعِ عِنْدَ قَلَّةِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَكُونَ لَهُمُ الْكِفَايَةُ مَعَ الْعَدُوِّ.
وَالثَّانِي: أَمَرَ بِنَفْرِ الْكُلِّ عِنْدَ النَّفِيرِ.

فَتَكُونُ إِحْدَى الْآيَتَيْنِ فِي حَالَةِ النَّفِيرِ، وَالْآخَرَى فِي^(٢) غَيْرِ حَالِ النَّفِيرِ وَمَا ذَكَرْنَا فِي وَقْتِ الْقِلَّةِ وَالْكَثَرَةِ.
فَمَنْ يَقُولُ: الْآيَةُ فِي الَّذِينَ كَانُوا يَخْرُجُونَ جَمِيعاً مَعَ رَسُولِ اللَّهِ إِذَا خَرَجَ؛ كَأَنَّهُ نَهَى عَنِ الْخُرُوجِ جُمْلَةً مَعَ رَسُولِ اللَّهِ خَوْفاً عَلَى أَهْلِيهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ، لَعَلَّ الْعَدُوَّ سَبَاهُمْ، وَآخَذَ أَمْوَالَهُمْ. يَقُولُ اللَّهُ: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّتَفْقَهُوا كَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ أَي هَلَا نَفَرَتْ^(٣) طَائِفَةٌ مِنْهُمْ، فَيُخْبِرُوا الْكَفَّارَ الْمُقِيمِينَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنَ النَّصْرِ وَالْمَعْرِفَةِ وَالْهَزِيمَةِ عَلَى الْكَفَّارِ الَّذِينَ قَاتَلُوا رَسُولَ اللَّهِ، فَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَبَ دَعَائِهِمْ إِلَى السَّلَامِ. وَإِلَى هَذَا يَذْهَبُ الْحَسَنُ وَالْأَصَمُّ.
وَيَقُولُونَ: إِنْ هَذِهِ الْآيَةُ تَسَحَّبَتِ الْآيَةُ الَّتِي [قَبْلَهَا، وَهِيَ]^(٤) قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾ يَقُولُ الْحَسَنُ: إِنَّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَخْرُجُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذَا خَرَجَ، فَيَقُولُ: هَذَا مَنْسُوخٌ بِالْآيَةِ الَّتِي تَلِيهَا ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ الْآيَةُ.

وَمَنْ يَقُولُ بَأَنَّ الْآيَةَ فِي الْوَفُودِ الَّذِينَ كَانُوا يَأْتُونَ رَسُولَ اللَّهِ الْمَدِينَةَ بِالنِّسَاءِ وَالذَّرَارِيِّ فَالْنَهْيُ لِدَلَالَةِ لِمَا كَانُوا يُضَيِّقُونَ عَلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ أَوْطَانَهُمْ، وَيُغْلَوْنَ أَسْعَارَهُمْ وَنَحْوِهِ؛ يَقُولُ: الْآيَةُ فِي الَّذِينَ خَرَجُوا، أَوْ نَفَرُوا مَعَ السَّرَايَا؛ نَهَاهُمْ عَنْ خُرُوجِ الْكُلِّ لِمَا لَعَلَّهُ إِذَا نَزَلَ عَلَى رَسُولِهِ شَيْئاً، فَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ أَحَدٌ يُبَلِّغُهُ إِلَيْهِ^(٥)، ثُمَّ يُبَلِّغُ إِلَى مَنْ هُوَ غَائِبٌ عَنْهُ، ضَاعَ ذَلِكَ، فَيَقُولُ: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّتَفْقَهُوا كَلِمَاتِ اللَّهِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾ أَي لِيُعَلِّمُوا قَوْمَهُمْ مَا نَزَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَلِيُبَلِّغُوا ذَلِكَ إِلَى مَنْ غَابَ عَنْهُ.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ قِيلَ: مِنْ كُلِّ غُضْبَةٍ وَمِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ وَمِنْ كُلِّ حَيٍّ.
فَفِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ سَقُوطِ فَرَضِ السَّفَرِ لِتَعَلُّمِ الْعِلْمِ وَالتَّفَقُّهِ فِي الدِّينِ عَنِ الْكُلِّ إِذَا قَامَ بَعْضُ بِذَلِكَ / ٢٢٤ - ب / يَخْرُجُونَ، وَيَتَعَلَّمُونَ ثُمَّ يُعَلِّمُونَ قَوْمَهُمْ لِأَنَّهُ قَالَ ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ الْآيَةُ.
وَفِيهِ أَيْضاً دَلَالَةٌ سَقُوطِ فَرَضِ الْجِهَادِ عَنِ الْجَمَاعَةِ إِذَا قَامَ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ. وَفِيهِ دَلَالَةٌ لِّزُومِ الْعَمَلِ بِخَبَرِ الْآحَادِ، وَإِنْ اخْتَلَفَ الْغَلَطُ؛ لِأَنَّ مَا ذَكَرَ مِنَ الطَّائِفَةِ يَحْتَمِلُ أَنْ يَجْتَمِعُوا عَلَى ذَلِكَ كَذِباً أَوْ غَلَطاً، ثُمَّ أَلْزَمَ قَوْمَهُمْ قَبُولَ خَبَرِ، وَإِنْ اخْتَلَفَ الْغَلَطُ وَالْكَذِبُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ وَالْآيَةُ تُخْرِجُ عَلَى وَجْهَيْنِ:
اخِذَهُمَا: أَنَّ أَهْلَ بَلَدَةٍ وَأَهْلَ قَبِيلَةٍ يَخْتَارُونَ مَنْ يَصْلُحُ لِلتَّفَقُّهِ فِي الدِّينِ وَالتَّعَلُّمِ، فَيَنْفِرُ، حَتَّى إِذَا تَفَقَّهَ، وَتَعَلَّمَ، وَرَجَعَ إِلَى [قَوْمِهِ، عَلَّمَهُمْ]^(٦)

وَالثَّانِي: [أَنَّ]^(٧) يَأْمُرُ مَنْ يَصْلُحُ لِلتَّفَقُّهِ بِالتَّخَلُّفِ عَنِ الْجِهَادِ إِذَا كَانَ بِهِمْ غُنْيَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا^(٨) عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ، فَيُنْذِرُوا^(٩) قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا [إِلَيْهِمْ مِنْ غَزْوِهِمْ]^(١٠).

الآيَةُ ١٢٣ وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا نَبِّئُوا الَّذِينَ يَلُوكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: الْآيَةُ قَبْلَ أَنْ يَنْزَلَ قَوْلُهُ: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦] كَانَ الْأَمْرُ بِالْقِتَالِ بِالْأَذْنَى، ثُمَّ جَاءَ الْأَمْرُ بِقِتَالِ الْكُفَّارِ عَامَّةً.

(١) مَنْ م، فِي الْأَصْلِ: يَنْفِرُوا. (٢) أَدْرَجَ قَبْلَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: أَنَهَا. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: نَفَر. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: قَبْلَهُ وَهُوَ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: إِلَيْهِمْ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: قَوْمَهُمْ فَيُعَلِّمُهُمْ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: لِيَتَفَقَّهُ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: فَيُنْذِرُوا. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: إِلَيْهِ مِنْ غَزَائِهِمْ.

وقال بغضهم: إن رسول الله ﷺ كان إذا غزا ربما كان تجاور كفاراً، وتركهم وراءه، وقاتل^(١) غيرهم ليكون ذلك آية ليبتئوه، ولنعلم أنه لا يبالي بمن يقاتل، ولا يخاف من تركهم وراءه. ثم أمر الله المؤمنين أن يقاتلوا الأقرب فالأقرب منهم والأدنى، وآلا يتركوا العدو وراءهم.

إلى هذا ذهب بعض أهل التأويل. وأمكن أن يكون هذا تعليماً^(٢) من الله المؤمنين أمر الحرب وأسبابه كما علمهم جميع ما يقع لهم من الحاجة إلى أسباب الحرب في غير آية من القرآن: من ذلك قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَيْسَتْ فِيكُمْ فَاثْبُتُوا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأنفال: ٤٥] وقوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَيْسَتْ أَلَيْتُ كَفَرُوا زَعَمًا﴾ الآية [الأنفال: ١٥] وقوله: ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ الآية [الأنفال: ٦٠] وغير ذلك من الآيات، أو يَحْتَمِلُ أن يكون أمر يقاتل الأقرب منهم كسائر العبادات.

وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَقْتُلُوا الَّذِينَ يَكُونُ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ يُخْرِجُ على وجهين: أحدهما: ما ذكرنا أنه يُخْرِجُ على أمر القتال منه للمؤمنين.

والثاني: إنباء عن دوام الجهاد والقتال مع الأعداء أبداً [لأنهم كلما فتحوا ناحية، وقاتلوا^(٤)] قوماً صار الذين بقوا وراء هؤلاء الذين يلوونهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ قيل: شدة عليهم. وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي [بْنِ كَعْبٍ]^(٥): ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أي شدة. ويُقْرَأُ غِلْظَةً بِرَفْعِ الْعَيْنِ^(٦)، ويُقْرَأُ ﴿غِلْظَةً﴾ بِكَسْرِهَا؛ وهما لغتان [ومعانيهما واحدة]^(٧) ﴿وَأَعْلَتُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي من اتقى الخلاف له [وعدا]^(٨) بالنصر لهم على عدوهم.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ يُخْرِجُ على وجهين^(٩):

أحدهما: ما ذكرنا أن الخلاف له في ما علمهم من أمر الحرب يكون معهم بالنصر.

والثاني: معهم في التوفيق والهداية.

والثالث: في الجزاء.

الآية ١٢٤ وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ آيُكُمْ زَادَتْهُ هِذِهِ﴾ [فيه وجهان:

أحدهما]: قال أهل التأويل: قوله: ﴿فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ آيُكُمْ زَادَتْهُ هِذِهِ﴾ يعني: يقول المنافقون بغضهم ليتغص إذا خلوا عن المؤمنين ﴿آيُكُمْ زَادَتْهُ هِذِهِ﴾ استهزاء منهم بها وسخرية، فأجاب الله تعالى.

الآية ١٢٥ فقال: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَمٌ﴾ أي شك ونفاق ﴿فَرَادَتْهُمْ يَجَسًا﴾ أي تكديماً وكُفراً إلى تكذيبهم الذي كان منهم؛ لأن أهل النفاق^(١١) والكفر ليسوا هم بأهل إنصاف؛ يقبلون الحجة والدلالة إذا قامت عليهم، إنما همهم العناد والتكذيب ورد الحجة والدلائل [فكلما زاد لهم]^(١٢) الحجة والبراهين [ازدادوا همهم]^(١٣) عناداً في التكذيب والرد.

وأما أهل الإيمان فإن همهم قبول الحجة والإنصاف؛ فكلما ازداد^(١٤) لهم الحجة والبراهين [ازدادوا همهم]^(١٥) إيماناً وتضديقاً على ما كان لهم. ثم قوله: ﴿فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ زادتهم ثباتاً ودواماً على ما كانوا من قبل بما قدّمتم^(١٦) لهم من الحجة والبراهين.

(١) في الأصل وم: ويقاتل. (٢) في الأصل وم: تعليم. (٣) في الأصل وم: وقوله. (٤) في الأصل وم: لأنه كلما فتح ناحية و. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) انظر معجم القراءات ج ٣/ ٥٢. (٧) في الأصل وم: ومعانيها واحد. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: وجوه. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل: فلما زادوا، في م: فكلما زادوا. (١٢) في الأصل وم: ازداد. (١٣) في الأصل وم: ازداد لهم. (١٤) في الأصل وم: قامت.

وكذلك ازداد لأهل النفاق والكفر بها الثبات على العناد في تكذيب الحُجج والآيات.
والثاني: زادتْهم^(١) إيماناً بالتفسير على إيمانهم بالجملة، وإن كانوا مُصدِّقين لذلك كله جملةً. فإذا نزلتْ لهم نوازل وفرائض ازدادَ لهم التصديق والثبات.

وأصله أنه لوما^(٢) كانَ منهم من الإيمان والتصديق لكانَ هذا منهم ابتداءً وإحداثاً تصديق. وكذلك لو لم يكن من أهل النفاق ما سبق من العناد لكانَ ذلك منهم إحداثاً تكذيباً وعناداً. فإذا كانَ منهم ما ذكرنا كانَ ذلك زيادةً على ما كانَ لِمَا ذكرنا.

وقال بعضهم: يزداد لأهل الإيمان خيرات ولأهل النفاق شر. ولكن هو واحد، وهو ما ذكرنا.

وقوله تعالى: ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَانًا...﴾ ﴿زَادَتْهُمْ يَحْسَابًا﴾ يُخْرِجُ على وجهين:

أحدهما: زادتْ للمؤمنين إيماناً على الذي كانَ لهم من الإيمان والتصديق.

والثاني: زادتْ^(٣) لهم حُجَّةً وبرهاناً لِمَا كانَ.

وكذلك يزداد لأهل النفاق ضد ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَمَرَّتْ يَسْتَيْشِرُونَ﴾ قيل: يَفْرَحُونَ بِنُزُولِهَا.

ثم إضافة الزيادة إلى السورة بقوله: ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ لوجهين:

أحدهما: أضيف إليها الزيادة على ما أضيف الغرور إلى الدنيا؛ وهو ما^(٤) ذكرنا أنه يبدو منها لهم التزيين ما لو كان من دون الأفعال والتفكير كانَ ذلك غروراً.

والثاني: أضاف التزيين إليها لِمَا بها اغترار أهلها، وكذلك إضافة الزيادة إلى السورة لِمَا بها ازدادَ لهم التكذيب والكفر، وازدادَ لأهل الإيمان بها [التصديق، فأضيف^(٥) الزيادة إليها.

وقال بعضهم ما ذكرنا أنها حُجَّةٌ ودلالة، فبالحُجَّةِ يزداد لأهل الإيمان التصديق^(٦) [٧] إذ هم قد اعتقدوا قبول الحُجج والدلائل.

وأما أهل النفاق والكفر فإنهم أهلُ عنادٍ ومكابرة، إذ قد اعتقدوا العناد وردَّ الحُجج، فكلما ازدادَ لهم [الحُجج ازدادوا]^(٨) عناداً وكُفراً.

وقال أبو بكر الأصم: إنما أضيفت الزيادة إليها لأنها كانت سبب الزيادة. وقد تُضاف الأشياء إلى أسبابها كما تُضاف إلى حقيقة الأفعال. ولكن يُحتمل أن تكون السورة التي نزلت سبباً لزيادة الكفر، لكن الوجه فيه ما ذكرنا، والله أعلم.

الآية ١٣٦

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَارٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ قيل: يُتَلَوْنَ بالجهاد والغزو، فَيَتَخَلَّفُونَ عنه، فَيُظْهِرُ بذلك نفاقَهُمْ وكُفْرَهُمْ، وقيل: يُتَلَوْنَ بالشدة والجوع، فَيُظْهِرُ أيضاً بذلك نفاقَهُمْ كقوله ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَبْغِي اللَّهَ عَلَى حَرِّ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ. وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ وقيل: ﴿يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَارٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ ذلك^(٩) أنهم كانوا إذا خلوا تكلموا بالكفر في ما بينهم، ثم إذا أتوا النبي أخبرهم بما تكلموا به في الخلوة، فَيَفْتَنُصَحُونَ.

بذلك افتتنائهم بإيمانهم وابتلاؤهم لهم؛ كانَ يُظْهِرُ بما ذكر نفاقَهُمْ مَرَّةً في الجهاد في سبيل الله ومَرَّةً بالشدة والخوف ومَرَّةً بما يُطْلِعُ الله نبيَّهُ [على ما]^(١٠) يَضْمُرُونَ، وَيَتَكَلَّمُونَ بِهِ.

(١) في الأصل و م: ازداد لهم. (٢) من م، في الأصل: لولا. (٣) في الأصل و م: زاد. (٤) في الأصل و م: لما. (٥) في م: فأضيف. (٦) في م: بها. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل و م. (٩) في الأصل و م: وذلك. (١٠) في الأصل و م: فما.

وَتَحْتَمِلُ هَذِهِ الْآيَةُ الْوَجُوهَ الثَّلَاثَةَ: الْجِهَادَ مَعَهُ وَالْإِثْلَاءَ بِالشَّدَائِدِ وَالْإِفْرَاقَ. وَتَحْتَمِلُ إِظْهَارَ الْأَسْرَارِ الَّتِي أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ وَالْإِفْتِصَاحَ بِمَا أَخْفَوْا. فَإِنَّ^(١) كَانَ هَذَا فَذَلِكَ مِمَّا يَكْثُرُ مِنْهُمْ؛ أَعْنِي كِتْمَانَ الثَّفَاقِ وَإِسْرَارَ الْخِلَافِ لَهُمْ، وَإِنْ كَانَ^(٢) ذِكْرُ الْمَرَّةِ وَالْمَرَّتَيْنِ يَرْجِعُ [إِلَى]^(٣) الْإِفْتِصَاحِ وَالْإِظْهَارِ فَذَلِكَ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ فِي الْعَامِ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ عَنْ نِفَاقِهِمْ ﴿وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ مَا^(٤) مَا ابْتَلَوْا مِنَ الْإِفْتِصَاحِ وَظُهُورِ الثَّفَاقِ مِنْهُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٣٧

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ مَلَ يَرَنَّكُمْ مِنْ أَعْدٍ ثَمَّ أَنْصَرَفُوا مَرَفَكَ اللَّهِ فَلَوْبِهِمْ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: الْآيَةُ صِلَةُ قَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَيَنْهَرُ مَنْ يَقُولُ أَيْكُمْ زَادَتْهُ هَؤُلَاءِ إِيْمَانًا﴾ / ٢٢٥ - أ / أَي كَانَ ﴿نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ ثُمَّ يَقُولُونَ مَا ذَكَرَ ﴿فَيَنْهَرُ مَنْ يَقُولُ﴾ إِذَا كَانَتْ السُّورَةُ الَّتِي نَزَلَتْ حُجَّةً فِي إِظْهَارِ الدِّينِ وَالْإِيمَانِ يَسْمَعُونَ، وَيَقُولُونَ ﴿أَيْكُمْ زَادَتْهُ هَؤُلَاءِ إِيْمَانًا﴾ وَإِذَا نَزَلَتْ فِي إِظْهَارِ نِفَاقِهِمْ وَافْتِصَاحِهِمْ ﴿نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ مَلَ يَرَنَّكُمْ مِنْ أَعْدٍ ثَمَّ أَنْصَرَفُوا﴾ وَلَا يَسْمَعُونَ مِنْهُ السُّورَةُ إِشْفَاقًا لئَلَّا يَظْهَرَ نِفَاقُهُمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَرَفَكَ اللَّهِ فَلَوْبِهِمْ﴾ يَحْتَمِلُ خَلَقَ اللَّهُ مِنْهُمْ أَنْصَرَفَهُمْ، فَاضَافَ^(٥) إِلَيْهِ الصَّرْفَ. وَيُسَبِّهُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿مَرَفَكَ اللَّهِ فَلَوْبِهِمْ﴾ عُقُوبَةً؛ أَي عَاقِبَهُمُ اللَّهُ بِصَرْفِ قُلُوبِهِمْ بِإِعْتِقَادِهِمُ الْعِيَادَ وَرَدَّهِمُ الْحُجَجَ، وَتَرْكِهِمُ الْقَبُولَ.

الآية ١٣٨

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ اخْتَلِيفَ فِيهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ مِنَ الْبَشَرِ، وَهُوَ ائْتِنَانٌ مِنْهُ عَلَيْهِمْ حِينَ^(٦) بَعَثَ الرَّسُولَ مِنَ الْبَشَرِ، وَلَهُ أَنْ يَبْعَثَ مِنْ غَيْرِ الْبَشَرِ، لَكِنَّهُ بَعَثَ مِنَ الْبَشَرِ لِيَعْرِفُوا الْآيَاتِ الَّتِي يَأْتِي بِهَا مِنَ التَّمْوِيهَاتِ لِأَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ مَبْلَغَ وَسْعِ الْبَشَرِ فِي الْأَشْيَاءِ فِي التَّعْلِيمِ عَرَفُوا أَنَّهَا آيَاتٌ لَا تَمْوِيهَاتٌ مَعَ مَا^(٧) أَنْ يَتَأَلَّفَ كُلُّ جَنْسٍ بِجَنْسِهِ، وَيَنْفَرُ مِنْ غَيْرِ جَنْسِهِ. هَذَا ظَاهِرٌ فِي الْخِلَافِ أَنْ كُلَّ ذِي جَنْسٍ يَأْتِي جَنْسُهُ^(٨)، وَلَا يَأْتِي غَيْرَ^(٩) جَنْسِهِ، فَبَعَثَ الرَّسُولَ مِنَ الْبَشَرِ وَمِنْ جَنْسِهِمْ لِيَتَأَلَّفُوا بِهِ، وَيَقْبَلُوا مِنْهُ مَا يَأْتِيهِمْ بِهِ، وَيُجِيبُوا^(١٠) إِلَى مَا يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ أَي مِنَ الْمَكَانِ الَّذِي أَنْتُمْ فِيهِ، وَهُوَ الْحَرَمُ. وَقَالَ آخَرُونَ: ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ أَي مِنْ أَنْسَابِكُمْ، هُوَ أَيْضاً مَوْضِعُ الْاِئْتِنَانِ عَلَيْهِمْ حِينَ^(١١) بَعَثَهُ مِنْ أَنْسَابِهِمْ؛ يَعْرِفُونَ نَسَبَهُ وَمَوْلَدَهُ وَمَنْشَأَهُ^(١٢) مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ سَلِيماً مِنْ جَمِيعِ الْآفَاتِ بَرِيئاً مِنْ جَمِيعِ الْمَطَاعِينَ وَالْغُيُوبِ لِأَنَّ الْمَرَّةَ إِذَا كَانَ مَوْلَدُهُ وَمَنْشَأُهُ فِي قُبُلَةٍ أَوْ فِي مَكَانٍ لَا يُعْرَفُ لَهُ النَّسَبُ رُبَّمَا يَتِمَكَّنُ فِيهِ الطَّعْنُ وَالْعَيْبُ، وَيَقَعُ التَّنَاقُزُ فِي نَسَبِهِ لِجَهْلِهِمْ بِنَسَبِهِ وَمَوْلَدِهِ وَمَنْشَأِهِ^(١٣) عَلَى السَّلَامَةِ وَالصَّحَّةِ وَالْبَرَاءَةِ مِنَ الْغُيُوبِ.

فَبَعَثَ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ لئَلَّا يَتِمَكَّنَ فِيهِ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْمَطَاعِينَ، وَلَا يُعْرَفَ شَيْءٌ مِنَ الْغُيُوبِ وَالْآفَاتِ الَّتِي ذَكَرْنَا فِيهِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ مِنَ الْعَرَبِ أُمِّيًّا كَمَا هُمْ، لَا يَكْتُبُ، وَلَا يَحْطُ بِبَيِّنِيهِ عَلَى مَا وَصَفَهُ فِي كِتَابِهِ ﴿الَّذِي الْأُمِّيُّ الَّذِي يَحْدُوثُهُ﴾ الْآيَةُ [الْأَعْرَافُ: ١٥٧] وَقَالَ: ﴿وَلَا يَحْطُ بِبَيِّنِيهِ إِذَا لَزَزَتْ أَلْسِنُ الْبَطُلُونَ﴾ [الْعَنْكَبُوتُ: ٤٨] وَذَلِكَ أَنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ تَتَمَنَّى أَنْ يَبْعَثَ رَسُولٌ مِنْهُمْ يَقُولُهُمْ^(١٤) ﴿لَيْتَ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لِيَكُونُوا أَهْدَى مِنْ إِهْدَى الْأُمِّيِّ﴾ [فَاطِرُ: ٤٢] ذَكَرَ مَجِيءَ الرَّسُولِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ لِيَكُونَ ائْتِدَافُ الْمَطَاعِينَ الَّتِي طَعَنُوا فِيهِ وَالْآفَاتِ الَّتِي ذَكَرُوا فِيهِ وَالْبَرَاءَةِ مِنَ الْغُيُوبِ الَّتِي قَرَعُوا بِهَا^(١٥) مِنْ نَحْوِ السَّحْرِ وَالْكَهَانَةِ وَالْجُنُونِ وَالْإِفْتِرَاءِ عَلَى اللَّهِ، وَأَقْرَبَ إِلَى الْمَعْرِفَةِ بِأَنَّهُ رَسُولٌ لِأَنَّهُ لَمَّا يَأْتِيهِمْ مِنَ الْآيَاتِ وَالْحُجَجِ يَعْرِفُونَ أَنَّهَا سَمَاوِيَّةٌ لَمَّا عَرَفُوا أَنَّهُ لَمْ يَتَعَلَّمِ السَّحَرَ، وَلَا أَخَذُوا عَلَيْهِ كَذِباً^(١٦) قَطُّ، وَلَا جُنَّ قَطُّ بِمَا كَانَ نَشَأَ فِي مَا بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: لَكِنْ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: لَكِنْ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: بَمَا. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: فَاضِيفَ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ م. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: بِجَنْسِهِ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: بِغَيْرِ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيُجِيبُهُمْ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (١٢) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: نَشَأَتْ. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: بِهِ. (١٤) فِي الْأَصْلِ وَم: بِقَوْلِهِ. (١٥) فِي الْأَصْلِ وَم: بِكَذِبِ. (١٦) فِي الْأَصْلِ وَم: بِكَذِبِ.

وقوله تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ قيل: شديد عليه ما أغتتكم؛ أي ما ضيق عليكم، وقال القتيبي: العنت الضيق، وقال بعضهم: العنت الإنم؛ أي شديد عليه ما أنتم، وقال أبو عوسجة: هو إلى الإنم أقرب، وهو يختل كل إنم: الكفر وغيره. ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ قال بعضهم على من لم يسلم أن يسلم، ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ بالهدى والرشد ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ رَحْمَةُ الدين والإسلام لا رَحْمَةُ الطبع.

قال الشيخ أبو منصور الماتريدي^(١)، رَحِمَهُ اللهُ، في قوله: ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ سَمَاءُ بِفَعْلِهِ الْعَمَلِ الْحَسَنِ وَبِرَأْفَتِهِ وَرَحْمَتِهِ بِذَلِكَ؛ أي استحق ذلك الإسم بفعله. وإنما سَمَاءُ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ عَمَلُهُ كَانَ لِلَّهِ لَمْ يَكُنْ عَمَلُهُ لِنَفْسِهِ شَيْئاً، وكذلك مَالُهُ وَاجْتِسَابُهُ بِهِ؛ فلذلك لم يَكُنْ مَالُهُ مِيراثاً بَيْنَ وَرَثَتِهِ.

الآية ١٢٩ وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي أغرضوا [عن]^(٢) إجابتك ودُعائك إِيَّاهُمْ إلى الإيمان والتوحيد ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ﴾ أي يكفيني الله ﴿إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

ويختل قوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عنك، وَرَدُّوا إِيَّابَتَكَ والطاعة لك والإنقياد، وَمَمُّوا أَنْ^(٣) يكيدوك، وَيَمَكُّرُوا بِكَ ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي على [ما]^(٤) وَعَدَنِي مِنَ النَّصْرِ وَالظَّفَرِ، تَوَكَّلْتُ أَيِ اتَّكَلْتُ عَلَى وَعْدِهِ، وَوَكَّلْتُ أَمْرِي إِلَى اللهِ.

ويختل قوله ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عَنْ نُصْرَتِكَ وَمَعُونَتِكَ عَلَى الْأَعْدَاءِ ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ﴾ فِي النَّصْرِ وَالْمَعُونَةِ عَلَى الْأَعْدَاءِ، وَيَكْفِينِي عَلَيْهِمْ. هذا في هذا^(٥) الموضع أقرب لأنه ذَكَرَ عَلَى إِثْرِ ذِكْرِ الْمُنَافِقِينَ. وَيَخْتَلُّ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْإِعْرَاضِ عَنِ التَّوْحِيدِ وَالْإِجَابَةِ لَهُ.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ قيل^(٦): هو رَبُّ الْمُلْكِ الْعَظِيمِ؛ أي كُلُّ مُلْكٍ عِنْدَ مُلْكِهِ صَغِيرٌ، لَيْسَ بِمُلْكٍ. فَإِنْ كَانَ الْعَرْشُ هُوَ السَّرِيرِ عَلَى مَا قَالَهُ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، [فَالسَّرِيرُ هُوَ]^(٧) الَّذِي يُكْرَمُ بِهِ الْأَخْيَارُ مِنَ الْخَلَائِقِ وَالْأَبْرَارِ مِنْهُمْ، وَقَدْ ذَكَرْنَا [مَافِيهِ الْكِفَايَةُ]^(٨) فِي مَا تَقَدَّمَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.



(١) في الأصل: ماتريدي، ساقطة من م. (٢) ساقطة من الأصل و م. (٣) في الأصل و م: أي. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من م. (٦) من م، في الأصل: أي كل. (٧) في الأصل و م: السرير. (٨) من م، في الأصل: فيه.

سورة يونس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الآية ١

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي تَلَّى بَآيَاتِ الْأُنْبِيَاءِ﴾ قد ذكرنا الوجه في الحروف المقطعات في صدر الكتاب.
وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ قال بغضهم: ﴿الْحَكِيمِ﴾ هو الله؛ كأنه قال: الكتاب آيات الله. وقال بغضهم: ﴿الْحَكِيمِ﴾ هو صفة القرآن. والكتاب يختل وجهين:

أحدهما^(١): أنه: سماء حكيماً فعلاً بمعنى أنه مُحْكَمٌ. وجائز تسمية المفعول باسم الفاعل نحو قَتَلَ بِمَعْنَى مَقْتُولٍ وجريح بمعنى مجروح ونحو ذلك: فيه الحلال والحرام والأمر والنهي، أو مُحْكَمٌ مُتَّقَنٌ مُبَرِّءٌ^(٢) مِنَ الْبَاطِلِ وَالْكَذِبِ وَالْإِخْتِلَافِ. وهو ما وصفه تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ الآية [فصلت: ٤٢].

والثاني: [أنه سماء]^(٣) حكيماً لما أن من تأمل فيه، ونظر، وفهم ما أودع فيه، وأدرك، صار حكيماً، وهو ما وصفه تعالى، وسماء مجيداً^(٤): أي من تأملته، ونظر فيه، صار مجيداً شريفاً. والحكيم هو المصيب في الحقيقة إن كان صفة القرآن أو صفة الله^(٥)؛ فهو حكيم واضح كل شيء موضعه. فإن كان صفة القرآن فهو كذلك أيضاً واضح كل شيء موضعه.

وقوله تعالى: ﴿يَخْتَلِ آيَاتِ الْكِتَابِ الْمَعْرُوفِ﴾ ويختل الحجاج والبراهين أي حجاج الكتاب المعروف، ويختل الحجاج والبراهين أي حجاج الكتاب المعروف، وقد تقدم ذكر الآيات في غير موضع، والله أعلم.

الآية ٢

وقوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ يختل/ ٢٢٥ - ب/ وجهين؛ يختل أي قد عجبوا ﴿أَن أَوْحَيْتَ إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ﴾ ويختل أي عجبوا ﴿أَن أَوْحَيْتَ إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ﴾ على الاستثنا.

كانوا يعجبون من ثلاث: من إنزال القرآن على رجل منهم بعجز الخلائق عن إتيان مثله، ويعجبون من الوحي إلى رجل منهم، ومن إرساله رسولا من بين الكل أو من البشر كقوله: ﴿أَمَّا أَنَا فَأَنْزِلُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [الأنعام: ١١٠] وقوله: ﴿أَمَّا أَنَا فَأَنْزِلُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [الأنعام: ١١٠] وقوله: ﴿أَمَّا أَنَا فَأَنْزِلُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [الأنعام: ١١٠]. وكانوا يعجبون من البعث كقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ أَنْبِيَآءٍ قَدْ كُنُوا فِيهَا كَاذِبِينَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

ثم يختل قوله: ﴿إِن رَجُلٍ مِنْهُمْ﴾ أي من البشر؛ أي لا يعجبون أن أوحينا إلى رجل من البشر؛ فإن الإحياء إلى من هو من البشر أبلغ في الحجاج وأقطع للعذر وأقرب إلى الرأفة والرحمة؛ لأن البشر يعرفون خروج ما هو خارج عن طوق البشر ووسعهم، ولا يعرفون ذلك من غير جوهرهم وغير جنسهم، ويألف كل جنس جنسه^(٦). وكل جوهر جوهره^(٧)، ولا يألف غير جوهره ولا غير جنسه. فإذا كان ما وصفنا كان بعث الرسول من جنس المبعوث [إليه]^(٨) وجوهرهم أبلغ في الحجاج وأقطع للعذر وأقرب إلى الرأفة والرحمة.

ويختل قوله: ﴿أَن أَوْحَيْتَ إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ﴾ أي من الأميين؛ أي لا يعجبوا ﴿أَن أَوْحَيْتَ إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ﴾ أي أمي فإن ذلك أبلغ في التعريف والحجاج لأنه بعث أمياً، لم يعرفوه بدراسة الكتب المتقدمة أو تلاوة شيء منها، ولا عرفوه اختلف إلى أحد منهم يتعلم^(٩) كتبهم، ولا عرف أنه كتب شيئاً، أو خط خطاً قط.

(١) في الأصل وم: يحتمل. (٢) في الأصل وم: مبرم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) إشارة إلى قوله تعالى ﴿يَلْهَوْا زُكُوفَ عَيْدِكُمْ﴾ [البروج: ٢١] وقوله ﴿قَدْ أَفْرَأَيْنَ الْتَجِيدَ﴾ [ق: ١]. (٥) ساقطة من م. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: بجنسه. (٨) في الأصل وم: بجوهره. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: في تعليم.

ثم اخبر عما [في] ^(١) كتبهم على موافقة ما فيها، وكانت كتبهم بغير لسانيه. دل [هذا] ^(٢) أنه إنما عرفت ذلك بالله تعالى. فذلك أبلغ في إثبات الرسالة والحجاج، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿أَنذِرِ النَّاسَ﴾ قال بغضهم: الإنذار يكون في كل مكروه مرهوب، والبشارة في كل محبوب مرغوب. وقال بغضهم: ﴿أَنذِرِ النَّاسَ﴾ يعني الكفار بالنار ﴿وَكَثِيرَ الْذِينَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾.

اختلفوا في قوله: ﴿أَنَّهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾. قال بغضهم: إن لهم الجنة عند ربهم. وقيل: إن لهم الأعمال الصالحة، يقدمون عليها. وقيل: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ محمد ﷺ يشفع لهم عند ربهم. وقيل: إن لهم الأعمال الصالحة، قدموها بين أيديهم. [وقيل] ^(٣) ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي سلف خير أو سلف وعد، وعد لهم بذلك، وكل ^(٤) أصله من القدم.

قال أبو عوسجة: يقال في الكلام: لفلان عندي قدم صدق وند صدق؛ أي نعمة قد أسلفها إلي. وقال الفتي: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يعني عملاً صالحاً قدموه.

وعن ابن عباس رضي الله عنه [أنه] ^(٥) قال: ما سبق لهم من السعادة في الذكر الأول؛ فمن ^(٦) قال ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ هو الشفاعة؛ فالقدم كناية عن الشفاعة أي واقعة، ومن قال: وعد ثواب أعمالهم؛ فقد ^(٧) تقدم لهم وعد حق وصدق.

ويختلج ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي ثبت قدمهم، لا تنزل على ما وصف من ثبوت قدم المؤمنين وقرارها ^(٨)، وتنزل قدم الكافرين كقوله: ﴿تَنَزَّلُ قَدَمٌ بَدَأَ ثَوْبَهَا﴾ [النحل: ٩٤].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّكَ هَذَا لَسِحْرٌ مُّثِينٌ﴾ ومن قرأ لسخر ^(٩) غنى هذا القرآن، ومن قرأ ﴿لَسِحْرٌ﴾ بالالف غنى به النبي.

ثم السحر هو الذي يترأى في الظاهر أنه حق، وهو في الحقيقة باطل، ثم هو يأخذ الأبصار، ويأخذ العقول. فاما الذي يأخذ الأبصار فهو ^(١٠) ما يترأى الشيء على غير ما هو في الحقيقة، والذي يأخذ العقول هو أن يذهب بعقله، فيصير مجنوناً كقول ^(١١) فرعون لموسى: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى سَحْرًا﴾ [الإسراء: ١٠١] أي مجنوناً. لكن هؤلاء لم يريدوا بقوله: ﴿لَسِحْرٌ مُّثِينٌ﴾ السحر الذي يأخذ [العقول]، ولكن أرادوا السحر الذي يأخذ ^(١٢) الأبصار. يقولون ^(١٣): إنه وإن كان أخذ الأبصار في الظاهر فهو لا شيء في الحقيقة، ولكن في قولهم: ﴿إِنَّكَ هَذَا لَسِحْرٌ مُّثِينٌ﴾ دليل أنهم عجزوا عن ردّه، وعرفوا أنه حق، ولكنهم أرادوا الثموية على الناس كقول فرعون لسخرته حين ^(١٤) آمنوا برب موسى: ﴿إِنَّهُ لَكَيْبَرُكَمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [طه: ٧١] أراد أن يموت على الناس، والله أعلم.

الآية ٣

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ إن القوم [كانوا] ^(١٥) يعبدون الأصنام والأوثان، ويتخذون الأحيار والرهبان أرباباً من دون الله، يقول [لهم] ^(١٦): إن ربكم الذي يستحق العبادة والألوهية هو الذي خلقكم، وخلق السموات والأرض، لا الذي تعبدهم.

وقوله تعالى: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْمَرْقِيِّ﴾ قد تقدم ذكره في صدر الكتاب.

وقوله تعالى: ﴿يَذِيرُ الْأَمْرَ﴾ هو ^(١٧) أيضاً على الأول: إن الذي يستحق صرف العبادة إليه وتوجيه ^(١٨) الشكر إليه هو الذي يذير الأمر في مصالح الخلق في جر المنافع إليهم ودفع المضار عنهم لا الذين لا يملكون المنافع إلى أنفسهم أو دفع المضار عنهم فضلاً ^(١٩) يملكون [أجراً ما] ^(٢٠) إلى من يعبدهم أو دفع المضار عنهم.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وكان. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: من. (٦) في الأصل وم: أي. (٧) في الأصل وم: والقرار. (٨) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٣/ ٥٨. (٩) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: وقال. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: يقول. (١٣) من م، ساقطة من الأصل. (١٤) من م، ساقطة من الأصل. (١٥) من م، ساقطة من الأصل. (١٦) في الأصل وم: وهو. (١٧) الوار ساقطة من الأصل وم. (١٨) في الأصل وم: إن. (١٩) في الأصل وم: أجراً. (٢٠) في م، في الأصل: أجراً.

قال بعض أهل التأويل: ﴿يَذَرُ الْأَمْرَ﴾ أي يقضيه، والتدبير والقضاء واحد، وقال بعضهم: يُدَبِّرُ يَقْدَرُ، وهو ما ذكرنا: التدبير والتقدير سواء.

وقوله تعالى: ﴿مَا مِنْ شَيْعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ الشفيع هو ذو المنزلة والقدر عند الذي يشفع إليه، لا أحد في الشاهد يشفع لآخر إلا بعد أن يكون الشفيع عند الذي يشفع إليه ذا منزلة وقدر. فإذا كان كذلك فمع ذلك أيضاً لا يشفع إلا من بعد ما إذن له بالشفاعة لمن جاء بالتوحيد.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ يقول: ذلكم الذي يستحق العباداة هو ربكم الذي خلقكم، وخلق السموات والأرض، ودبر أموركم ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ ولا تعبدوا الذي لا يملك شيئاً من ذلك ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أنه هو المستحق للعبادة، وهو المستوجب للشكر لا الذين تعبدون أنتم، أو يقول^(١) ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أن الذي خلقكم، وخلق السموات والأرض هو ربكم، وهو مدبر أمور الخلائق في مصالحهم في دنياهم ودينهم لا الذين^(٢) تعبدون من دون الله، والله أعلم.

الآية ٤

وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ إليه مرجع الخلائق كلها في جميع الأوقات، لكنه خص ذلك اليوم بالمرجع إليه لما أن الخلائق كلها يعلمون يومئذ أنهم راجعون إليه. وكذلك قوله: ﴿وَرَوَّعُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [إبراهيم: ٢١] هم بارزون له في الدنيا والآخرة، لكنهم يومئذ يعرفون، ويقررون بالبروز له. وكذلك [قوله]^(٣): ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الحج: ٥٦] الملك لله في الدنيا والآخرة وفي الأوقات جميعاً، لكنه خص ذلك اليوم^(٤) لما لا ينزع في الملك في ذلك اليوم، وفي الدنيا من قد نازع في ملكه.

هذا، والله أعلم، وجه التخصيص لذلك اليوم بالملك، وإن كان الملك له في الدارين جميعاً. فعلى ذلك المرجع، أو سمي البعث رجوعاً إليه لما المقصود من إنشائه البعث، فسماه بذلك لما ذكرنا؛ لأنه لو لم يكن المقصود من إنشائه [إياهم سوى الإنشاء]^(٥) والإفناء كان خلقه عبثاً باطلاً كقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]. وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ يَحْتَمِلُ ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ البعث الذي ذكر ﴿إِنَّهُمْ يَدَّأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ وَيَحْتَمِلُ ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ من الثواب والعقاب في الآخرة الثواب للمحسنين منهم والعقاب للمسيء.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَدَّأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أي عرفت أنه هو الذي برأكم والخلق جميعاً، وكذلك هو يعيدكم بعد إفنائكم؛ إذ بدء الشيء على غير مثال أشد عندكم من إعادته على مثال كقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَدَّأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ ٢٢٦ - ١ / وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ [الروم: ٢٧] أي إعادة الشيء أهون عنده^(٦) من بدئه.

وقوله تعالى: ﴿يَجْزِي الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ قيل بالعدل، لكن ما يجزيهم إنما يجزيهم إفضالاً وإحساناً استيجاباً واستحقاقاً.

ثم يَحْتَمِلُ قوله ﴿بِالْقِسْطِ﴾ وجوهاً:

أحدها: أنه يجزي المحسنين جزاء الإحسان والمسيء جزاء الإساءة، ويفصل بين الولي والعدو في الآخرة في الجزاء، ويجعل للولي علامة وأثر يعرف بها من العدو؛ إذ لم يفصل في الدنيا بين الأولياء والأعداء في الرزق وما يساق إليهم من النعيم، ولم يجعل علامة، يعرف بها الولي من العدو، وجعل في الآخرة ذلك حتى يعرف هذا من هذا. فهذا العدل الذي ذكرنا يشبه أن يكون هو ذلك.

والثاني^(٧): يَحْتَمِلُ القسط الوزن؛ أي يجزيهم بالوزن على تغديل النوع بالنوع لا على القدر؛ أي يجزي بالحسنة قدراً لا يزيد على ذلك، ولكن يجزي للخير خيراً وللحسنة حسنة وللسيئة سيئة.

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: أن. (٢) في الأصل وم: الذي. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) أدرج بعدها في الأصل: الذي. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: عندكم. (٧) في الأصل وم: و.

والثالث^(١): يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿يَجْزِي الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بِالْعَدْلِ؛ أَي يَجْزِي الَّذِينَ عَمِلُوا بِالْعَدْلِ، لَمْ يَجُورُوا فِيهِ، وَلَا جَاوَزُوا الْحَدَّ الَّذِي حُدَّ لَهُمْ، وَلَكِنْ عَمِلُوا بِالْعَدْلِ فِيهِ.

وَيُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ عَلَى تَقْدِيمِ الْعَدْلِ؛ أَي يَجْزِي الَّذِينَ عَمِلُوا بِالْعَدْلِ؛ أَي لَا يُعَذِّبُهُمْ فِي النَّارِ إِذَا آمَنُوا. ثُمَّ الَّذِينَ^(٢) عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يُؤْفِقُهُمْ أَجُورَهُمْ، وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ، وَاللَّهُ أَغْلَمُ بِالصَّوَابِ مِنْ ذَلِكَ.

وقوله تعالى: ﴿يَجْزِي الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ أَي يَجْزِيهِمْ فِي الْآخِرَةِ بِمَا أَقْسَطُوا فِي الدُّنْيَا، وَعَدَلُوا؛ وَيَكُونُ الْقِسْطُ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ نَعْتًا لَهُمْ، وَإِنْ كَانَ مَا ذَكَرَ مِنَ الْقِسْطِ رَاجِعًا إِلَى اللَّهِ وَوَضْعًا لَهُ فَهُوَ يُخْرِجُ عَلَى وَجْهِهِ:

أَحَدُهَا: يَجْزِي فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْعَدْلِ؛ يَجْزِيهِمْ^(٣) لِإِحْسَانِهِمْ جَزَاءَهُمْ الْإِحْسَانَ، وَيُكَفِّرُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ تَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ [الْأَحْقَافُ: ١٦] وَقَوْلِهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ﴾ [النِّسَاءُ: ٤٨..]

وَالثَّانِي: يَجْزِيهِمْ بِالْفَضْلِ؛ إِذِ الْعَدْلُ هُوَ وَضْعُ الشَّيْءِ مَوْضِعَهُ؛ أَي يَضَعُ الْفَضْلَ فِي أَهْلِهِ، لَا يَضَعُهُ فِي غَيْرِ أَهْلِهِ، وَوَضْعُ الْفَضْلِ فِي أَهْلِ الْإِيمَانِ عَدْلٌ؛ إِذْ هُمْ أَهْلُ لَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَيُؤْتِي كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هُود: ٣].

وَالثَّالِثُ: الْعَدْلُ الَّذِي هُوَ مُقَابِلُ الْإِحْسَانِ، وَهُوَ الْفَضْلُ لَا الْعَدْلُ الَّذِي هُوَ ضِدُّ الْجَوْرِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ الْإِنْسَانِ﴾ فِي الْعَدْلِ الَّذِي هُوَ ضِدُّ الْجَوْرِ، فِي مِثْلِ هَذَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَعْدِلُوا بَيْنَهُنَّ^(٤). فَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يَجْزِي الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بِالْعَدْلِ الَّذِي هُوَ مُقَابِلُ الْإِحْسَانِ، وَهُوَ^(٥) الْفَضْلُ؛ إِذْ لِلْفَضْلِ دَرَجَاتٌ. وَأَضْلُهُ: أَنَّ جَزَاءَ الْآخِرَةِ كُلُّهُ إِفْضَالٌ وَإِحْسَانٌ وَإِنْعَامٌ لَا اسْتِحْقَاقٌ وَاسْتِجَابَةٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ قِيلَ: الْحَمِيمُ الشَّرَابُ الَّذِي انْتَهَى حَرُّهُ غَائِبَةٌ.

الآية ٥

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ ذَكَرَ فِي الشَّمْسِ الضِّيَاءَ وَالْقَمَرَ النُّورَ. فَهُوَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، لِأَنَّ اللَّيْلَ مُظْلِمٌ، يَظْهَرُ نُورُ الْقَمَرِ فِيهِ، وَيَغْلِبُ عَلَى ظُلْمَةِ اللَّيْلِ، وَيَقْهَرُهَا. وَأَمَّا النَّهَارُ فَهُوَ مُبْصِرٌ عَلَى مَا ذَكَرَهُ ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يُونُس: ٦٧]. جَعَلَ فِيهِ النُّورَ، فَلَوْ جَعَلَ فِي الشَّمْسِ النُّورَ خَاصَّةً لَكَانَ [لَا]^(٦) يَظْهَرُ نُورُ الشَّمْسِ خَاصَّةً، وَلَا غَلَبَ نُورُهَا عَلَى نُورِ النَّهَارِ، فَكَانَتْ تَذْهَبُ الْمَنَافِعُ الَّتِي جَعَلَ فِيهَا، وَجَعَلَ بِإِظْفَافِهَا ضِيَاءً، لِيُظْهَرَ نُورُهَا عَلَى نُورِ النَّهَارِ، وَيَغْلِبَهُ، لِيُظْهَرَ الْمَنَافِعُ الَّتِي جَعَلَ فِيهَا لِلْخَلْقِ، وَهُوَ مَا ذَكَرَ أَنَّهُ ﴿مَدَّ الظِّلَّ﴾ [الْفُرْقَانُ: ٤٥].

وَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا [وَلَوْ كَانَ سَاكِنًا]^(٧) مُمْتَدًّا عَلَى مَا جَعَلَ بِقَوْلِهِ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ [الْفُرْقَانُ: ٤٥] لَكَانَ لَا يُعْرِفُ الظِّلَّ. ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ جَعَلَ الشَّمْسَ دَلِيلًا عَلَيْهِ لِيُعْرِفَ بِهَا الظِّلَّ الْمَمْدُودَ [فَتَسْحَبُ الشَّمْسُ ذَلِكَ الْمَمْدُودَ]^(٨) وَشَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ، فَصَارَتْ الشَّمْسُ يُعْرِفُ بِهَا الظِّلَّ، وَبِهَا يَظْهَرُ ذَلِكَ الضِّيَاءُ الَّذِي فِي الشَّمْسِ كَانَ يُوَعْرِفُ نُورُهَا مِنْ نُورِ [النَّهَارِ]^(٩) وَبِهِ يُوَصَّلُ إِلَى مَنَافِعِ الشَّمْسِ. وَلَوْ كَانَ نُورًا لَكَانَ لَا يُعْرِفُ وَلَا يَظْهَرُ؛ إِذْ لَا يَغْلِبُ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ، وَاللَّهُ أَغْلَمُ، وَلَا تُعْرِفُ آيَةُ الشَّمْسِ أَنَّهَا^(١٠) آيَةُ النَّهَارِ.

ثُمَّ جَعَلَ آيَةَ الشَّمْسِ غَالِبَةً عَلَى جَمِيعِ الْآيَاتِ؛ لَا تُبْصِرُ النُّجُومُ بِالنَّهَارِ أَصْلًا، وَالْقَمَرُ، وَإِنْ كَانَ يُبْصِرُ، وَيُرَى بِحَالٍ فَإِنَّ نُورَ الشَّمْسِ قَدْ يَغْلِبُهُ، وَيَقْهَرُهُ، حَتَّى لَا يَظْهَرَ أَبَدًا.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدَرُوا مَنَازِلَ لِّئَلَّامُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ﴾ يُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ التَّقْدِيرُ الَّذِي ذَكَرَ لَهُمَا جَمِيعًا، وَيُعْرِفَ الْحِسَابَ وَعَدَدُ السِّنِينَ بِهِمَا جَمِيعًا، وَكَذَلِكَ ذُكِرَ فِي حَرْفِ حَقِصَةٍ: وَقَدَرَهُمَا مَنَازِلَ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: لِلَّذِينَ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: يَجْزِي. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: بَيْنَهُمْ. (٥) الْوَاقِعَةُ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) م: سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٧) م: سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٨) م: م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٩) م: م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١٠) فِي الْأَصْلِ: فِي، سَاقِطَةٌ مِنَ م.

وجائز أن يكون [جَعَلَ] ^(١) الشمس بالذي تُعَرَفُ بها أوقات الصلاة والأزمنة من الشتاء والصيف، لا يُعَرَفُ ذلك بالقمر، وجعل في القمر معرفة الشهور والسنين، وفي الشمس معرفة أوقات الصلاة والأزمنة، لا تُعَرَفُ الشهور والسنون [بها] ^(٢) إلا بعد جهد، وبالقمر لا تُعَرَفُ أوقات الصلاة والأزمنة.

جعل الله في الشمس منفعتين: منفعة القلب ومعرفة الأزمنة، ومنفعة نضج الأشياء ونفعها، وفي القمر منفعتين أيضاً: إحداهما ^(٣) معرفة حساب الأيام والشهور والسنين والثانية ^(٤) منفعة نضج الأنزال والأشياء.

وقوله تعالى: ﴿لَتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ ليس أن يُعَرَفَ هذا بهما، ولا يُعَرَفَ غيره، بل يُعَرَفُ ما ذكره وأشياء كثيرة.

وقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ قال أبو بكر الأصم الكيساني: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي ما خلق الله ذلك إلا وقد جعل فيه دلالة معرفته. وقال قائلون: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي ما خلق الله ذلك إلا وقد جعل فيه الشهادة له على الخلق، وهي شهادة الخدائية والألوهية. وقال بعضهم: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا﴾ بالامر الكائن لا محالة، وهو البعث.

ويحتمل قوله: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي بالحكمة، لم يخلق ذلك عبثاً باطلاً، وهو كقوله ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا﴾ [ص: ٢٧] ولكن بحكمة.

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُ الْآيَتِ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ قيل: يبين، أو يضرها لقوم ينتفعون بعلمهم. إنما ذكر الآيات في ما ذكر الآيات ﴿لِقَوْمٍ يَقُولُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤ أو ١٦٥] و﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣ و ٤] و﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٨] الآيات التي ينتفعون بها، ويعقلون الشيء؛ إنما يعقلون، يكون للذي ينتفع به لا للذي لا ينتفع به.

الآية ٦

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ آية البعث ودلالة تدبير صانعهما.

أما دلالة البعث [فهي] ^(٥) أن كل واحد منهما إذا جاء ذهب الآخر، وفيه، حتى لا يبقى له الآخر، ثم يتجددان، ويتحدان، على ذلك أمرهما، ويثلف كل واحد منهما صاحبه حتى لا يبقى له الآخر. فمن قدر على ما ذكرنا قدر على بعثهم وإنشائهم بعد الموت بعد ما صاروا تراباً.

وأما دلالة التدبير فهي ^(٦) جريانها وسيرهما على سنن واحد وتقدير واحد من غير تغيير يقع فيهما أو تفاوت أو نقصان يقع فيهما أو زيادة، وإن كان أحدهما يدخل في الآخر.

دل ما ذكرنا أنهما إنما يجريان، ويختلفان على سنن واحد وجريان واحد، وفيهما ^(٧) تدبير غير ذاتي وعلم أزلي وأنه واحد، إذ لو كان التدبير [فيهما لعدو] ^(٨)؛ لكانا يختلفان، ولا يجريان على قدر واحد من غير تفاوت. [وما فيهما من تغيير] ^(٩) أو نقصان أو زيادة دل أنه [تقدير] ^(١٠) واحد، وبالله التوفيق.

وفي ذلك دلالة وخدائية منشيئهما وخالقيهما لأنه أنشأهما، وبيئتهما، وجعل منافع أحدهما متصلة بمنافع الآخر على بعد ما بينتهما. دل أن منشيئهما واحد؛ إذ لو كان فعل/ ٢٢٦ - ب/ عدد منع كل فعله عن الوصول بالآخر على ما هو فعل ملوك الأرض.

وقوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ مخالفة الله، ويتقون جميع الشرور والمساوي.

الآية ٧

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْآيَةَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ قال قائلون: ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ من الرجال؛ أي لا يرجون

(١) و (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم. (٤) في الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم. هو.

(٧) في الأصل وم. أن فيهما. (٨) في الأصل وم. فيها العدد. (٩) في الأصل وم. أن فيهما تدبير. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

مَا وَعَدَ الْخَلْقَ مِنَ الثَّوَابِ، وَلَا يَزْعِبُونَ فِي مَا يُرْجَى، وَيُظَمَعُ مِنَ الرِّغَابِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿لَا يَزْعِبُونَ لِقَاءَنَا﴾ أَي لَا يَخَافُونَ لِقَاءَنَا، وَمَا مِنْ خَوْفٍ إِلَّا فِيهِ رَجَاءٌ، وَمَا مِنْ رَجَاءٍ إِلَّا فِيهِ خَوْفٌ؛ لِأَنَّ الْخَوْفَ الَّذِي لَا رَجَاءَ فِيهِ، هُوَ إِيَّاسٌ، وَالرَّجَاءُ الَّذِي لَا خَوْفَ فِيهِ أَمْنٌ. لَكِنَّ الْغَالِبَ فِي الْحَسَنَاتِ وَالْخَيْرَاتِ الرَّجَاءُ، وَفِيهِ خَوْفٌ، وَالْغَالِبُ فِي السَّيِّئَاتِ وَالشَّرُورِ الْخَوْفُ، وَفِيهِ أَذْنَى الرَّجَاءِ، وَهُوَ مَا ذَكَّرْنَا فِي الشُّكْرِ وَالصَّبْرِ أَنَهُمَا وَاحِدٌ؛ لِأَنَّ الصَّبْرَ هُوَ كَفُّ النَّفْسِ عَنِ الشَّهَوَاتِ وَاللَّهَوَاتِ، وَالشُّكْرُ هُوَ اسْتِعْمَالُهَا فِي الْخَيْرَاتِ. فَإِذَا كَفَّهَا عَنِ الشَّهَوَاتِ اسْتَعْمَلَهَا فِي الْخَيْرَاتِ.

لِذَلِكَ قُلْنَا: إِنَّهُمَا فِي الْحَقِيقَةِ وَاحِدٌ؛ لِأَنَّ الشُّكْرَ هُوَ الْقَبُولُ، وَكَذَلِكَ الصَّبْرُ أَيْضاً. غَيْرَ أَنَّ الشُّكْرَ فِي قَبُولِ النِّعَمِ وَالصَّبْرَ فِي قَبُولِ الْبَلَايَا وَالْمَصَائِبِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، يَصِيرُ كَأَنَّهُ قَالَ: إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرَزُّوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْمَالِ الَّذِي هُم بِهِ يَكْتُمُونَ﴾ أَيِ اخْتَارُوا الْمَقَامَ فِي مَا عَمِلُوا بِهَا، كَانَهُمْ مُقِيمُونَ فِيهَا أَبَداً. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَابِنَا غَافِلُونَ﴾.

الآية ٨

﴿أُولَٰئِكَ مَأْوَهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ مِنْ رَدِّهِمُ الْآيَاتِ وَكُفْرِهِمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرَزُّوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْمَالِ الَّذِي هُم بِهِ يَكْتُمُونَ﴾ يَخْتُمُونَ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: سَرُّوا بِهَا، وَآثَرُوا مُحَاسِنَ الدُّنْيَا عَلَى ثَوَابِ الْآخِرَةِ.

وَالثَّانِي: رِضَاهُمْ بِالدُّنْيَا وَالطَّمَانِينَةِ فِيهَا، مَنَعَاهُمْ^(١) عَنِ التَّفَكُّرِ وَالنَّظَرِ فِي أَمْرِ الْآخِرَةِ.

الآية ٩

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ يَكْتُمُونَ﴾ هُمُ الَّذِينَ هُمْ يَكْتُمُونَ بِأَيْمَانِهِمْ يَخْتُمُونَ وَجْهًا:

[أَحَدُهُمَا]^(٢): يَخْتُمُونَ بِأَيْمَانِهِمْ فِي الدُّنْيَا طَرِيقَ الْجَنَّةِ فِي الْآخِرَةِ، وَهُوَ مَعْنَى مَا ذُكِرَ فِي الْقِصَّةِ: أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا خَرَجَ مِنَ الْقَبْرِ يُصَوِّرُ لَهُ عَمَلَهُ فِي صُورَةِ حَسَنَةٍ.

وَالثَّانِي: هُمْ يَكْتُمُونَ بِأَيْمَانِهِمْ فَيَصِيرُونَ مُهْتَدِينَ^(٣) بِهَدَايَةِ إِيَّاهُمْ.

وَالثَّلَاثُ^(٤): يُشَبِّهُ هُمْ يَكْتُمُونَ بِأَيْمَانِهِمْ يَذْعُوهُمْ إِلَى الْخَيْرَاتِ فِي الدُّنْيَا بِإِيْمَانِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فَهَذَا عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ لِأَنَّهُمْ يَمْتَنِعُونَ عَنْ تَسْمِيَةِ صَاحِبِ الْكِبِيرَةِ مُؤْمِنًا، وَمَعَهُ إِيْمَانٌ، فَيَلْزَمُهُمْ أَنْ يَمْتَنِعُوا عَمَّا وَعَدَ لَهُ، وَإِنْ كَانَ مَعَهُ إِيْمَانٌ، فَإِنَّ ذِكْرَ لَهُ الْوَعْدَ مَعَ هَذَا لَزِمَهُمْ أَنْ يُسَمُّوهُ مُؤْمِنًا لِمَا مَعَهُ مِنَ الْإِيْمَانِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ يَقُولُ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: مِنْ تَحْتِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَقَدْ ذَكَّرْنَا هَذَا.

الآية ١٠

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ قَالَ قَائِلُونَ: قَوْلُهُ: ﴿دَعْوَاهُمْ﴾ دَعَاؤُ الْإِيْمَانِ أَيْ يَدْعُونَ فِي

الْآخِرَةِ [دَعَاؤُ الْإِيْمَانِ إِلَى التَّوْحِيدِ لِلَّهِ وَالتَّنْزِيهِ] ^(٥) لَهُ كَمَا دَعَا ^(٦) فِي الدُّنْيَا [إِلَى] ^(٧) وَحِدَانِيَةِ اللَّهِ، وَتَزَاهُوهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ هُوَ حَرْفٌ تَنْزِيهِ وَتَبَرُّعٌ الرَّبِّ عَنِ الْأَشْيَاءِ ^(٨) وَجَمِيعِ الْأَقَاتِ الَّتِي وَصَفَتْهُ الْمُشَبِّهَةُ الْمُلْحَدَةُ. فَهَذَا يَدُلُّ أَنَّ مَا خَرَجَ مُخْرَجَ الدَّعَاوِ فَإِنَّهُ لَا يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الدُّوَرِ.

وَقَالَ عَامَّةُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: هُوَ مِنَ الدَّعَاءِ لَا مِنَ الدَّعَاوِ؛ يَقُولُونَ: إِنَّهُمْ إِذَا اشْتَهَوْا طَعَامًا أَوْ شَرَابًا، وَتَمَنَّوْا شَيْئًا، أَدْعَا ^(٩) بِقَوْلِ: ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ فَيُؤْتُونَ مَا تَمَنَّوْا، وَاشْتَهَوْا. وَلَكِنْ ذُكِرَ أَلَّا تَنْقَطِعَ اللَّذَاتُ فِي الْجَنَّةِ، وَلَوْ كَانَ مَا يَقُولُونَ لَكَانَ فِيهِ انْقِطَاعُ اللَّذَاتِ وَالشَّهَوَاتِ إِلَّا أَنْ يُقَالَ إِنَّهُمْ يُلْهَمُونَ شَهَوَاتٍ وَأَمَانِيَّ، فَيَسْتَهْوُونَ: قَالَ ^(١٠) اللَّهُ ﷻ: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُنَّ أَنْفُسُكُمْ﴾ [فَصَلَتْ: ٣١] [وَقَالَ] ^(١١): ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مِمَّا يُبْتَلَوْنَ بِهِ﴾ [وَالْوَاقِعَةُ: ٢٠ و ٢١] وَلَا نَعْلَمُ مَا أَرَادَ بِهِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَ: م: مَنَعَهُمْ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَ: م. (٣) فِي الْأَصْلِ وَ: م: مُهْتَدُونَ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَ: م. (٥) فِي الْأَصْلِ: التَّوْحِيدُ لِلَّهِ وَالتَّنْزِيلُ، فِي: م: وَالتَّوْحِيدُ لِلَّهِ وَالتَّنْزِيهِ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَ: م: أَدْعَا. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَ: م. (٨) فِي الْأَصْلِ وَ: م: الْأَشْيَاءُ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَ: م: فَيَدْعُونَ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَ: م: وَقَالَ. (١١) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَ: م.

وقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ يُخْرِجُ عَلَى وجوه:

أحدها: يُخْبِرُ أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مِنَ الْعِبَادَاتِ شَيْءٌ سِوَى التَّوْحِيدِ.

والثاني: يَقُولُونَ ذَلِكَ لِتَعْظِيمِ مَا رَأَوْا مِنَ النَّعِيمِ وَعَجِيبِ مَا عَانُوا.

والثالث: شُكْرًا لِمَا أَعْطَاهُمْ مِنَ الْوَالِدِ النَّعِيمِ وَالْأَطْعِمَةِ.

وقوله تعالى: ﴿وَيَحْيِيهِمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَأْتُونَ مِنَ الْوَالِدِ النَّعِيمِ بِمَا اشْتَهَوْا، وَيُسَلِّمُونَ عَلَيْهِمْ، وَيَزِدُّونَ السَّلَامَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ. فَذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿وَيَحْيِيهِمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ فَإِذَا طَعِمُوا، وَفَرَّغُوا، قَالُوا عِنْدَ ذَلِكَ: ﴿إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ مِنْ أَهْلِ التَّأْوِيلِ.

وَيُسَبِّحُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿وَيَحْيِيهِمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ الْكَلَامُ^(١) الَّذِي لَا عَيْبَ فِيهِ، وَلَا مَقْطَعٌ، أَيْ كَلَامٌ بَغْضِيقُهُمْ لِبَغْضِ مُنْزَعَةٍ مَنفِيٍّ عَنْ جَمِيعِ الثُّبُوبِ وَالْمَطَاعِينَ كَقَوْلِهِ: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَقَاً إِلَّا سَلَامًا﴾ الْآيَةُ [مريم: ٦٢] وَقَوْلِهِ: ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَامًا﴾ [الواقعة: ٢٦] وَنَحْوُهُ.

وقوله تعالى: ﴿وَهَآئِذْ دَعَوْهُمْ أَنْ آتِ الْهَيْدَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: يَقُولُونَ عَلَى إِثْرِ قَرَأَتِهِمْ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ذَلِكَ. وَقَالَ الْحَسَنُ: إِنَّ اللَّهَ رَضِيَ مِنْ عِبَادِهِ بِالشُّكْرِ لِمَا أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وَيُسَبِّحُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿وَهَآئِذْ دَعَوْهُمْ﴾ أَيْ دَعَاوَهُمْ فِي الْآخِرَةِ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ كَمَا كَانَ دَعَاوَهُمْ فِي الدُّنْيَا ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

الآية ١١

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَعْجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾ كَانَ الْآيَةُ عَلَى الْإِضْمَارِ؛ كَأَنَّهُ قَالَ ﴿وَلَوْ يَعْجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ﴾ إِذَا اسْتَعْجَلُوهُ كَمَا يُعَجَّلُ لَهُمُ الْخَيْرُ إِذَا اسْتَعْجَلُوهُ ﴿لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾ لِأَنَّهُ لَيْسَ يَذْكُرُ فِي ظَاهِرِ الْآيَةِ اسْتِعْجَالَهُمُ الشَّرَّ، إِنَّمَا يَذْكُرُ [تَعْجِيلَهُ الْخَيْرِ وَلَكِنْ]^(٢) فِيهِ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْإِضْمَارِ إِضْمَارَ اسْتِعْجَالِ، وَهُوَ مَا ذَكَرْنَا فِي غَيْرِ آيَةٍ^(٣) مِنَ الْقُرْآنِ اسْتِعْجَالَهُمُ الْعَذَابَ كَقَوْلِهِ: ﴿أَلَمْ أَنْرَ أَنَّ اللَّهَ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١] وَقَوْلِهِ ﴿وَأَنْتُمْ نَارًا عَلَيْهَا جِجَارَةٌ﴾ الْآيَةُ [هود: ٨٢] وَنَحْوُ^(٤) ذَلِكَ.

كَانُوا يَسْتَعْجِلُونَ الْعَذَابَ اسْتِعْجَالًا تَضَرُّعًا، فَيَقُولُ: لَوْ عَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ إِذَا اسْتَعْجَلُوهُ كَمَا يُعَجَّلُ لَهُمُ الْخَيْرُ إِذَا اسْتَعْجَلُوهُ ﴿لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾ يَقُولُ: لَهْلِكُوا، أَوْ قُتِلُوا. هَذَا التَّأْوِيلُ فِي أَهْلِ الْكُفْرِ خَاصَّةً عِنْدَ اسْتِعْجَالِهِمُ الْعَذَابَ اسْتِعْجَالًا تَضَرُّعًا وَسُؤَالَ.

وَيُسَبِّحُ أَنْ يَكُونَ هَذَا فِي جُمْلَةِ الْخَلْقِ عَلَى غَيْرِ تَضَرُّعٍ سُؤَالٍ، وَلَكِنْ عِنْدَ ارْتِكَابِهِمُ الشَّرَّ يَقُولُ: ﴿وَلَوْ يَعْجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ﴾ بِاِكْتِسَابِهِمُ الشَّرَّ بِارْتِكَابِهِمْ إِيَّاهُ وَفَتْ اِكْتِسَابِهِمْ [كَمَا يُعَجَّلُ لَهُمُ الْخَيْرُ وَفَتْ اِكْتِسَابِهِمُ الْخَيْرَ]^(٥) ﴿لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾ لَهُمْ جَزَاءُ شَرِّهِمْ وَفَتْ اِكْتِسَابِهِمُ الشَّرَّ كَمَا يُعَجَّلُ لَهُمْ جَزَاءُ خَيْرِهِمْ؛ لَكَانَ مَا يَسْتَوْجِبُونَ بِارْتِكَابِهِمُ الشَّرَّ وَفَتْ فِعْلِهِمْ إِيَّاهُ ﴿لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾ لَكِنَّهُ لَمْ يُعَجَّلْ لَهُمْ ذَلِكَ، وَأَخَّرَهُ إِلَى الْمُدَّةِ الَّتِي جَعَلَ لِأَجَالِهِمْ.

وَيُمْكِنُ رَجْعُ آخِرُ، وَهُوَ مَا يَدْعُو بَغْضِيقَهُمْ عَلَى بَغْضِ اللَّعْنِ وَالْخِزْيِ؛ يَقُولُ الرَّجُلُ عِنْدَ شِدَّةِ الْغَضَبِ: اللَّهُمَّ افْعُزْ فَلَانًا، اللَّهُمَّ اخْزِهِ وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنَ الدَّعَوَاتِ. يَقُولُ: لَوْ عَجَّلَ لَهُمْ هَذَا كَمَا يُعَجَّلُ لَهُمْ عِنْدَ دَعَاءِ بَعْضِهِمْ لِبَغْضِ بِالرَّحْمَةِ وَالسَّعَةِ ﴿لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾ يَكُونُ هَذَا عَلَى وَجْهِ ثَلَاثَةٍ:

أَحَدُهَا: اسْتِعْجَالُ سُؤَالٍ وَتَضَرُّعٍ [وَهُوَ]^(٦) الَّذِي ذَكَرْنَا.

وَالثَّانِي: بِأَفْعَالِهِمْ وَارْتِكَابِهِمُ الشَّرَّ [وَقَدْ]^(٧) ارْتِكَابِهِمْ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَالْكَلَامُ. (٢) فِي الْأَصْلِ: تَعْجِيلٌ وَلَكِنْ مَا. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: آي. (٤) فِي الْأَصْلِ: وَنَحْوُهُ.

(٥) سَاقِطَةٌ مِنْ م. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) سَاقِطَةٌ مِنْ م.

والثالث: في الأسباب التي بها يرتكبون، وَيَقُولُونَ.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ لِيَوْمِ يَوْمِ الْبَاقِ﴾ لا يُقَدَّم، ولا يُؤَخَّر، وهو ما ذَكَرَ ﴿لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾

[الأعراف: ٣٤..]

وقوله تعالى: ﴿فَتَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَقْمَرُونَ﴾ هو ما ذَكَرْنَا أَنَّ مِنْ جَحْمَتِهِ إِلَّا يُعَاقِبُ أَحَدًا مِنْ الْكُفَرَةِ فِي الْكُفْرِ بِصُنْعِهِ الَّذِي صَنَعَ، وقد يُعَجَّلُ لَهُمْ جَزَاءُ خِيَارَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا لِمَا سَأَلَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَنْوَاعِ النِّعَمِ. ولكن مِنْ جَحْمَتِهِ أَنْ يُؤَخَّرَ عُقُوبَتُهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. فذلِكَ تَأْوِيلُهُ^(١)، والله أعلم.

الآية ١٢

وقوله تعالى/ ٢٢٧ - ١: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَا لِحِطِّهِ أَوْ قَائِدًا أَوْ فَأْتِمًا﴾ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: جَمِيعُ مَا ذَكَرَ فِي الْقُرْآنِ الْإِنْسَانُ فَالْمُرَادُ مِنْهُ الْكَافِرُ. مِنْ ذلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ [الانشقاق: ٦] وقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّلَهُ رَبُّكَ الْكِبِيرُ﴾ [الانفطار: ٦] وقوله: ﴿وَالْقَصِيرُ﴾ [إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَشِيرٌ] [العصر: ١ و٢] ونحوه.

لكنْ هذا لا نَعْلَمُ أَنَّهُ ارَادَ بِهِ الْكَافِرَ. فَلْيَنْ كَانْ مَا ذَكَرُوا فَإِنَّ أَهْلَ الْإِيمَانِ يَدْخُلُونَ فِي هَذَا الْخُطَابِ إِذَا كَانَ مِنْهُمْ مَا يَكُونُ مِنَ الْكُفَرَةِ؛ لِأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ مَنْ يَقْبَلُ عَلَى الدَّعَاءِ وَالتَّضَرُّعِ إِلَى اللَّهِ عِنْدَ مَسِّ الْحَاجَةِ وَالشَّدَةِ. فإِذَا انْجَلَى ذلِكَ، وَانْكَشَفَ عَنْهُ، تَرَكَ ذلِكَ الدَّعَاءَ الَّذِي كَانَ دَعَا وَذلِكَ التَّضَرُّعُ الَّذِي كَانَ يَتَضَرَّعُ إِلَيْهِ، فَدَخَلَ فِي ذلِكَ.

ثم قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿دَعَا لِحِطِّهِ أَوْ قَائِدًا أَوْ فَأْتِمًا﴾ لَيْسَ عَلَى إِرَادَةِ حَقِيقَةِ الْجَنْبِ وَالْقُعُودِ وَالْقِيَامِ، وَلَكِنْ عَلَى الدَّعَاءِ فِي كُلِّ حَالٍ؛ أَيِ يَدْعُوهُ [الْكُفَرَةُ]^(٢) لَمَّا عَرَفُوا أَنَّ الَّذِينَ^(٣) كَانُوا يَتَعَبَّدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ دَفْعَ مَا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الشَّدَائِدِ وَالْمَضَارِّ أَقْبَلُوا عَلَى اللَّهِ بِالتَّضَرُّعِ وَالدَّعَاءِ إِلَيْهِ فِي كَشْفِ ذلِكَ عَنْهُمْ.

ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ سَفَهِهِمْ وَشِدَّةِ تَعَتُّبِهِمْ وَعَوْدِهِمْ إِلَى الْخِلَالِ الَّتِي كَانُوا [عَلَيْهَا]^(٤) مِنْ قَبْلُ، فَقَالَ: ﴿وَلَقَدْ كُشِفْنَا عَنْهُ صُورٌ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِنَّمَا صُورٌ كَسَمُومٌ﴾ يَقُولُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: ﴿مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا﴾ قَدْ نَسِينَا فِي الرِّخَاءِ كَأَن لَمْ يَغْرِفْنَا. وَإِنَّ التَّعَدِّيَّ عَنِ الْحَذِّ الَّذِي جُعِلَ لَهُ هُوَ^(٥) وَضَعُ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ فِي [الْمَوَاضِعِ الَّتِي]^(٦) لَا يَنْتَفِعُونَ فِي عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَغَيْرِهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٣

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ فَإِنْ قِيلَ: قَدْ أَهْلَكَ مَنْ ظَلَمَ وَمَنْ لَمْ يَظْلِمْ، فَمَا يُعْلَمُ مَنْ أَهْلَكَ مِنَ الظَّالِمَةِ أَنَّهُ إِنَّمَا أَهْلَكَهُمْ لِظُلْمِهِمْ، أَوْ أَهْلَكَ لِصَلَاحِ مَنْ لَمْ يَظْلِمْ، قِيلَ لَهُ: أَهْلَكَ الظَّالِمَةُ إِهْلَاكَ اسْتِصْالٍ وَعُقُوبَةٍ، وَأَهْلَكَ مَنْ لَمْ يَظْلِمْ لَا إِهْلَاكَ عُقُوبَةٍ وَاسْتِصْالٍ، إِنَّمَا هُوَ إِهْلَاكَ بِأَجَالِهِمُ الَّتِي جَعَلَ لَهُمْ.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [أَنَّهُ]^(٧) إِنَّمَا أَهْلَكَ أَوْلَئِكَ بِسُؤَالِهِمُ الَّذِي سَأَلُوا سُؤَالَ تَعَتُّبِ رُسُلِهِمُ الْآيَاتِ. فإِذَا جَاؤُوا بِتِلْكَ الْآيَاتِ كَذَّبُوهَا، فَأَهْلِكُوا عِنْدَ ذلِكَ.

فَانْتُمْ يَا أَهْلَ مَكَّةَ إِذَا سَأَلْتُمْ رَسُولَكُمْ الْآيَةَ، ثُمَّ كَذَّبْتُمُوهَا^(٨)، لَتَعَذِّبُنَا كَمَا عَذَّبَ أَوْلَئِكَ، إِذْ مِنْ جَحْمَتِهِ الْإِهْلَاكَ عَلَى إِثْرِ السُّؤَالِ؛ كَأَنَّهُ يَنْهَى أَهْلَ مَكَّةَ عَنْ سُؤَالِ الْآيَاتِ لِأَنَّ^(٩) عَلَى إِثْرِ الْإِهْلَاكَ إِذَا لَمْ يَقْبَلُوهَا.

وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ تَحْتَمِلُ الْبَيِّنَاتُ الَّتِي تُبَيِّنُ مَا يُؤْتَى وَمَا يُنْقَى، وَقَدْ ذَكَرْنَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ ﴿وَمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ يُخْبِرُ رَسُولَهُ أَنَّهُمْ، وَإِنْ سَأَلُوا الْآيَاتِ، فإِذَا جِئَتْ بِهَا فَإِنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ؛ يَعْنِي أَهْلَ مَكَّةَ ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ كُلَّ مُجْرِمٍ.

الآية ١٤

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ مِنْ بَدْلِهِمْ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿خَلِيفَةً﴾ أَيِ جَعَلَ أَنْفُسَكُمْ خَلْفَ أَنْفُسِ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُهْلِكْهُمْ. يُخْرِجُ هَذَا مُخْرِجَ تَذْكِيرِ النِّعْمَةِ وَالْإِمْتِنَانِ وَالرَّحْمَةِ؛ يُذَكِّرُهُمْ أَنَّهُ لَوْ شَاءَ أَهْلَكَ الْكُلَّ، فَلَا يَكُونُ هَؤُلَاءِ خَلْفَ أَوْلَئِكَ. وَلَكِنْ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ أَبْقَاكُمْ.

(١) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: تَأْوِيلُ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: الَّذِي. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَهُوَ.

(٦) فِي الْأَصْلِ وَم: الْمَوْضِعُ الَّذِي. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: كَذَّبُوهَا. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: فَان.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ﴾ [أُولَئِكَ فِي الْمِخْنَةِ وَالْعِبَادَةِ؛ أَي جَعَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْمِخْنَةِ وَالْعِبَادَةِ كَمَا كَانَ عَلَى آبَائِكُمْ مِنَ الْمِخْنَةِ وَالْعِبَادَةِ. وَشِبْهُهُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ﴾^(١) الَّذِينَ لَمْ يَظْلِمُوا، فَكَيْفَ لَا تَتَّبِعُونَهُمْ؟ لِأَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَدْ أَهْلَكَهُمْ، فَانْتُمْ خَلَائِفُ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يَظْلِمُوا، أَوْ يُكَذِّبُوا الرُّسُلَ، فَكَيْفَ لَا تَتَّبِعُونَهُمْ؟ كَانَهُمْ ادَّعَوْا أَنْ آبَاءَهُمْ كَانُوا عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ، وَأَنَّهُمْ عَلَى مَذَاهِبِ آبَائِهِمْ.

يَقُولُ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أَي لَسْتُ أَنَا بِأَوَّلِ رَسُولٍ أُرْسِلْتُ إِلَيْكُمْ، بَلْ لَمْ يَزَلِ اللَّهُ يَرْسِلُ رُسُلًا فِي الْأُمَمِ، فَكَانَ فِيهِ لَهُمْ اتِّبَاعٌ يَتَّبِعُونَ رُسُلَهُمْ إِلَى مَا يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ، وَيُجِيبُونَهُمْ، فَاتَّبِعُونِي أَنْتُمْ يَا أَهْلَ مَكَّةَ فِي مَا دُعِيتُمْ إِلَيْهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَقْعَلُونَ﴾ لَمْ يَزَلِ اللَّهُ عَالِمًا بِمَا كَانَ، وَيَكُونُ مِنْهُمْ مِنَ الْمَعْصِيَةِ وَالطَّاعَةِ، وَلَكِنْ لِيَعْلَمَهُمْ عُصَاةً وَمُطِيعِينَ؛ لِأَنَّ الْمَعْصِيَةَ إِنَّمَا تَكُونُ بَعْدَ مَا يَكُونُ النَّهْيُ، وَالطَّاعَةُ إِنَّمَا تَكُونُ بِالْأَمْرِ، فَيَتَّبِعُونَكُمْ، وَيَعْلَمُكُمْ عُصَاةً كَمَا عَلِمَ أَنَّهُ يَكُونُ مِنْكُمْ الطَّاعَةُ. وَقَدْ ذَكَرْنَا أَمْثَالَ هَذَا فِي مَا تَقَدَّمَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٥

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَغَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ الْبَيِّنَاتُ قَدْ ذَكَرْنَا فِي غَيْرِ مَوَاضِعَ، وَالْبَيِّنَاتُ هِيَ الَّتِي تُبَيِّنُ أَنَّهَا آيَاتُ نَزَلَتْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، لَمْ يَخْتَرِعْهَا أَحَدٌ مِنَ الْخَلَائِقِ.

وقد ذكرنا قوله أيضاً: ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ وقوله تعالى: ﴿أَنْتَ بِشَرِّ النَّاسِ هَذَا أَوْ يَدَّبَّطِرُ﴾ يُشْبِهُهُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُمْ: ﴿أَنْتَ بِشَرِّ النَّاسِ هَذَا أَوْ يَدَّبَّطِرُ﴾ أَلَا تَرَى أَنَّهُ [لَمَّا]^(٢) قَالَ: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَ مِنْ يَلْقَائِي نَفْسِي﴾؟ إِنَّمَا^(٣) أَجَابَهُمْ فِي التَّبْدِيلِ. دَلَّ أَنَّ السُّؤَالَ كَانَ سُؤَالَ تَبْدِيلٍ، وَلَكِنْ كَانُوا يَسْأَلُونَ سُؤَالَ اسْتِهْزَاءٍ وَتَكْذِيبٍ.

ثُمَّ اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي التَّبْدِيلِ الَّذِي سَالُوا: قَالَ بَعْضُهُمْ: سَالُوا أَنْ يُبَدَّلَ، وَيَجْعَلَ مَكَانَ آيَةِ الْعَذَابِ آيَةُ الرَّحْمَةِ، لَوْ بَدَّلَ أَحْكَامَهُ. وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿أَنْتَ بِشَرِّ النَّاسِ هَذَا﴾ أَي بَدَّلَ أَحْكَامَهُ، وَاتَّزَكَ رُسْمَهُ.

وَيَحْتَمِلُ مَا ذَكَرْنَا أَنَّهُمْ سَالُوا أَنْ يَتَلَوَّ مَكَانَ آيَةِ الْعَذَابِ آيَةُ الرَّحْمَةِ وَمَكَانَ مَا فِيهِ سَبُّ آلِهِمْ مَذْحِجًا، وَنَحْوَ ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ مَا أَرَادَ بِالتَّبْدِيلِ تَبْدِيلَ الْأَحْكَامِ وَتَبْدِيلَ الرُّسْمِ وَالنُّظْمِ إِنَّمَا نَعْلَمُ ذَلِكَ بِالسَّمَاعِ.

ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ لَا يَقُولُ، وَلَا يَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحِي اللَّهُ، وَيُؤْمِنُ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَ مِنْ يَلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رِيقَ عَذَابِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ إِنْ تَرَكْتُ تَبْلِيغَ مَا أُمِرْتُ بِالتَّبْلِيغِ إِلَيْكُمْ. وَهَذَا كُلُّهُ مِنْ عَرَفِ رَبِّهِ خَافَهُ إِنْ عَصَاهُ، وَخَالَفَ^(٤) أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ، وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ رَبَّهُ لَمْ يَخَفْهُ إِنْ عَصَاهُ، وَخَالَفَ [أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ]^(٥).

وقوله تعالى: ﴿أَنْتَ بِشَرِّ النَّاسِ هَذَا أَوْ يَدَّبَّطِرُ﴾ سَأَلَهُمْ سُؤَالَ تَعْتِيبٍ وَاسْتِهْزَاءٍ لِأَنَّهُ مُنْفَعَةٌ لَهُمْ لَوَاتِي بِغَيْرِهِ، وَيَدَّبَّطِرُ سَوَى مَا فِي هَذَا. وَلَوْ جَازَ لَهُمْ هَذَا السُّؤَالُ لَجَازَ ذَلِكَ فِي كُلِّ مَا أَتَى وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ، فَذَلِكَ مِمَّا [لَا]^(٦) يَنْقُطُ أَبَدًا، وَلَا غَايَةَ، وَلَا نِهَايَةَ [لَهُ، وَهُوَ سُؤَالٌ]^(٧) تَعْتِيبٌ وَاسْتِهْزَاءٌ.

الآية ١٦

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَأْتُكُمْ يَوْمًا﴾ هُوَ صِلَةٌ مَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِ حِينَ^(٨) قَالُوا: ﴿أَنْتَ بِشَرِّ النَّاسِ هَذَا أَوْ يَدَّبَّطِرُ﴾ قَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ هَذَا [يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ]^(٩):

يَحْتَمِلُ أَنَّهُمْ سَالُوهُ أَنْ يُبَدَّلَ أَحْكَامُهُ عَلَى تَرْكِ رُسْمِهِ وَنُظْمِهِ.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿أَنْتَ بِشَرِّ النَّاسِ هَذَا أَوْ يَدَّبَّطِرُ﴾ أَي أَرْفَعُ رُسْمَهُ وَنُظْمَهُ وَأَحْكَامَهُ، كَانَهُمْ ادَّعَوْا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ اخْتِرَاعَ هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ نَفْسِهِ وَاخْتِلَافَهُ مِنْ عِنْدِهِ، فَقَالَ: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ﴾ تَأْوِيلُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، لَوْ شَاءَ اللَّهُ أَلَّا يُظْهِرَ دِينَهُ فَيَكُنْ مَا^(١٠) أَلْزَمَهُ حُجَّةٌ، وَلَا يَعْتَنِي إِلَيْكُمْ رَسُولًا ﴿مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَأْتُكُمْ يَوْمًا﴾ أَي وَلَا أَعْلَمُكُمْ بِهِ.

(١) ساقطة من م. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، في الأصل: ان. (٤) الوار ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: فسؤال. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: ولا.

وَيَخْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿وَلَا أَدْرِيكُمْ يَوْمَهُ﴾ ولا أعلمكم ما فيه من الأحكام، أي يقول ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ لم يوح إلي، ولا أمرني بتبليغ ما أوحى إلي إليكم ولا بالدعاء إلى ما أمرني أن أدعوكم إليه.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ﴾ فلو لم يشأ أن [اتلوه ما تلوته]^(١). دل أن ما شاء الله كان، وما لم يشأ الله لم يكن. وذلك يراد على الْمُعْتَرِلة قولهم: شاء الله أن يؤمن الخلائق كلهم، فلم^(٢) يؤمنوا، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ﴾ فلم ادع ما ادعي الحال، ولا تلو ما اتلو ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي لم اخترع هذا من نفسي، ولكن أوحى إلي؛ إذ لو كان اختراعاً مِنِّي لَكَانَ ذَلِكَ مِنِّي ما مضى من الوقت، وكُنْتُ لَابِثًا فِيكُمْ. فإذا لم يكن ذلك مني ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ٢٢٧ - ب/ أي لم اخترع من نفسي.

يَخْتَمِلُ هَذَا الْكَلَامُ وَجُوهًا:

أحدها: أنهم لما ادعوا عليه الإختراع من عنده قال: إني قد ﴿لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي قَبْلَ أَنْ يُوحَى هَذَا إِلَيَّ؛ فلم تروني خَطَطْتُ بِمِثْلِي، ولا اخْتَلَفْتُ إِلَى أَحَدٍ فِي التَّعْلِيمِ وَالدراسة، فكيف اخترع من عندي، والتأليف لا يَلْتَمِزُ، ولا يَتِمُّ إِلَّا بِسَبَابٍ مُتَقَدِّمَةٍ؟

والثاني: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا﴾ سين لم تعرفوني، ولا رأيتموني كَذَبْتُ قَطُّ، فكيف افترى على الله، واخترع القرآن من عند نفسي؟ ألا ترى أنه قال على إثره: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾؟ [يونس: ١٧].

والثالث: يَخْتَمِلُ قَوْلُهُ ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ﴾ فلم اسمع أحدا ادعى البعث، ولا أقام حجة عليه، وأنا قد ادعيتُ البعث، واقمتُ على ذلك حجة ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [بند]^(٣) هذا إني لم اخترع من عند نفسي؟

الآية ١٧ وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ يُشَبِّهُهُ أَنْ [يَكُونَ]^(٤) هَذَا صَلَةٌ قَوْلُهُ: ﴿أَنْتَ بِشَرِّ الْإِنْسَانِ عَدُوًّا أَوْ بَدَلَهُ﴾ أي كيف تطلبون مِنِّي إثبات غيره وتبدل أحكامه، وأنتم^(٥) تعرفون قُبْحَ الكَذِبِ وفُحْشَهُ؟ فكيف تسألونني الإفتراء على الله وتكذيب آياته.

ويَخْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ صَلَةٌ مَا ادَّعَا عَلَيْهِ^(٦) أنه افتراء من عند نفسه؛ يقول: إنكم لم تأخذوني بكذب قط ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا﴾ فكيف تنسبونني إلى الكذب على الله، وقد عرفتكم قُبْحَ الكَذِبِ على الله وفُحْشَهُ. وَيَخْتَمِلُ [أَنْ يَكُونَ]^(٧) على الإبتداء.

ثم قد ذكرنا أن قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ استفهام، وجوابه^(٨) ما قاله أهل التأويل: لا أحد أبين ظُلْمًا وأفحش ﴿مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ لأن تفسيره ما قالوه، وقد ذكرنا هذا في غير موضع. ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ الإفتراء على الله تكذيب بآياته، وتكذيب آياته افتراء على الله.

الآية ١٨ وقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ يَخْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

[أحدهما]^(٩): ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾ لو تركوا عبادته ﴿وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ إن عبده.

والثاني: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾ ما يملكون الضرر بهم ﴿وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ أي ولا يملكون جر النفع إليهم.

يُسَفِّهُهُمْ فِي عِبَادَتِهِمْ مَنْ لَا يَمْلِكُ دَفْعَ الضَّرِّ عَنْهُمْ^(١٠)، وَلَا يَمْلِكُ جَرَّ النَّفْعِ [إِلَيْهِمْ]^(١١) وتركهم عبادة من به يكون جميع منافعهم وغذائهم، ومنه يكون كل خوف وضرر، والله أعلم.

(١) في الأصل وم: يتلو ما تلاه. (٢) الغاء ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: وقد. (٦) في الأصل وم: إليه. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: فجوابه. (٩) ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: بهم. (١١) ساقطة من الأصل وم.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ هذا القولُ مِنْهُمْ تَقْلِيداً^(١) لآبَائِهِمْ كَقَوْلِهِمْ: ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا﴾ وَاللَّهُ أَشْرَقُ بِهَا [الأعراف: ٢٨] ظَنُّوا أَنَّ آبَاءَهُمْ لِمَا [لَمْ يَتْرَكُوا]^(٢) مَا هُمْ عَلَيْهِ لَمْ يُعَذِّبُوا، وَأَنَّهُمْ عَلَى الْحَقِّ، وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ رَضِيَ بِذَلِكَ، أَوْ قَالُوا ذَلِكَ لِمَا [لَمْ]^(٣) يَرَوْا أَنْفُسَهُمْ أَهْلًا لِعِبَادَةِ اللَّهِ وَالْقِيَامِ بِخِدْمَتِهِ، وَقَدْ يَكُونُ مِثْلُ هَذَا فِي مَلُوكِ الْأَرْضِ؛ إِذْ كُلُّ أَحَدٍ لَا [يَرَى]^(٤) نَفْسَهُ، يَضْلُحُ لِيَخْدُمَةَ الْمَلِكِ، فَيَخْدُمُ مَنْ دُونَهُ الْمُتَصِلِينَ بِهِ رَجَاءً أَنْ يَكُونَ مَنْ خَدَمَهُ شَفِيعاً لَهُ عِنْدَ الْمَلِكِ. فَعَلَى ذَلِكَ هَؤُلَاءِ ظَنُّوا^(٥) أَنَّ عِبَادَتَهُمْ هَؤُلَاءِ تُقَرِّبُهُمْ ﴿إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣] وَيَكُونُونَ^(٦)، لَهُمْ شُفَعَاءُ ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنتِئَزَعْتُمْ اللَّهَ يَمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [فيه وجهان: أَخْذُهُمَا]^(٧) يَقُولُ: ﴿قُلْ أَنتِئَزَعْتُمْ اللَّهَ يَمَا لَا يَعْلَمُ﴾ أَي تَعْلَمُونَ أَنَّهُ عَالِمٌ؛ أَي أَتَعْلَمُونَ مَنْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ يَعْلَمُ مَا ذَكَرَ، وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ذَلِكَ، وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَكَانَ هُوَ أَعْلَمُ بِهِ مِنْكُمْ. والثاني: أَنْ تَقُولُوا مَا لَا يَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ كَمَا تَقُولُونَ كَقَوْلِ النَّاسِ: مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ، وَمَا لَا يَشَاءُ لَا يَكُونُ؛ أَي وَمَا يَشَاءُ إِلَّا يَكُونُ لَا يَكُونُ.

وقوله تعالى: ﴿سُبْحَنَهُ﴾ كَلِمَةٌ جُعِلَتْ لِجَلَالِ اللَّهِ عَمَّا لَا يَحْتَمِلُهُ غَيْرُهُ^(٨) مِنَ الْأَشْكَالِ وَالْأَصْدَادِ وَمِنْ الْعُيُوبِ وَالْآفَاتِ، وَهُوَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ يَتَوَجَّهُ إِلَى وَجْهَيْنِ:

أَخْذُهُمَا: إِذَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مَا ذَكَرَ ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ فَيَقُولُ ﴿سُبْحَنَهُ﴾ أَنْ يَجْعَلَ لِمِثَالِ أَوْلَئِكَ شَفَاعَةً عِنْدَهُ؛ إِذِ الشَّفِيعُ أَنَّهُ يَكُونُ مَنْ لَهُ مَنْزِلَةٌ وَقَدْرٌ عِنْدَ مَنْ يَشْفَعُ لَهُ، وَالْمَنْزِلَةُ تَكُونُ لِلْعَبْدِ بِمَا يَتَّبِعُهُ. [أَمَّا]^(٩) هُمْ فَيَقُومُونَ بِتَوْفِيرٍ مَا يَحْتَمِلُ وَشُغْلُهُمْ مِنَ الْعِبَادَةِ. فَأَمَّا مَنْ لَا يَحْتَمِلُ التَّعَبُّدَ فَهُوَ بَعِيدٌ عَمَّا ذَكَرَ ﴿سُبْحَنَهُ﴾ أَنْ يَجْعَلَ الشَّفَاعَةَ لِمَنْ ذَكَرَ دُونَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ، وَهُمْ قَدْ أَخْبَرُوا أَنَّهُ لَا تَمْلِكُ ضَرَرًا وَلَا نَفْعًا، وَفِي الشَّفَاعَةِ ذَلِكَ.

والثاني: أَنْ يَكُونَ عَمَّا أَشْرَكُوا فِي الْعِبَادَةِ، فَسُبْحَانَهُ عَنْ أَنْ يَكُونَ مَعَهُ مَعْبُودٌ، أَوْ يَأْذَنَ لِأَحَدٍ بِعِبَادَةِ غَيْرِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٩

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أَي أَهْلُ مَكَّةَ، كَانُوا كُلُّهُمْ أَهْلَ شِرْكِ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ، لَمْ يَكُنْ فِيهِمُ الْيَهُودِيَّةُ وَلَا النَّصْرَانِيَّةُ وَلَا شَيْءٌ مِنْ اخْتِلَافِ الْمَذَاهِبِ. فَلَمَّا بُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ اخْتَلَفُوا: فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ، وَصَدَّقَهُ، وَاخْتَلَصَ دِينَهُ لِلَّهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ عَانَدَ، وَكَابَرَ فِي تَكْذِيبِهِ بَعْدَ أَنْ عَرَفَ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ شَكَّ فِيهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَنْظُرْ فِي أَمْرِهِ قَطُّ، وَلَا تَفَكَّرَ فِيهِ، فَضَارُوا أَرْبَعَ فِرَقٍ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ بِالْفِطْرَةِ؛ أَي كَانُوا جَمِيعاً عَلَى الْفِطْرَةِ، وَفِي فِطْرَةِ كُلِّ الشَّهَادَةِ عَلَى وَحْدَانِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَالْوَهْبِيَّةِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَهُ اسْتَلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: ٨٣] وَقَوْلِهِ: ﴿فِطَرَتِ اللَّهِ أَلَى فِطْرِ النَّاسِ عَلَيَّهَا﴾ فِي خَلْقِهِ كُلِّ أَحَدٍ الشَّهَادَةَ لِلَّهِ بِالْوَحْدَانِيَّةِ لَهُ وَالْوَهْبِيَّةِ.

﴿فَاخْتَلَفُوا﴾ فَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ عَلَى تِلْكَ الْفِطْرَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَذَّبَ، وَاخْتَارَ الْكُفْرَ، وَهُوَ مَا رُوِيَ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ إِلَّا أَنْ أَبَوَيْهُ يَهُودَانِيَّةً، وَيُنَصْرَانِيَّةً» [البخاري ١٣٨٥] أَخْبَرَ أَنَّهُمْ عَلَى الْفِطْرَةِ لَوْ تَرَكُوا عَلَى ذَلِكَ، [لَكِنْ]^(١٠) أَبَوَايِهِ يَمْنَعَانِيهِ عَنِ الْكُفْرِ عَلَيْهَا.

وقيل: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أَي كَانَ الْخِلَافُ جُمْلَةً أَسَمَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا حَلِيمٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أَسَمٌ أَشَابَكُمْ﴾ [الأنعام: ٣٨] كَأَنَّهُ يُعَاتِبُ هَذِهِ الْأُمَّةَ؛ يَقُولُ: إِنَّ الْأُمَّةَ مَعَ اخْتِلَافِ جَوَاهِرِهَا وَأَجْنَاسِهَا كَانُوا

(١) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: تَقْلِيد. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: تَرَكُوا. (٣) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٤) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٥) فِي الْأَصْلِ: طَعَمُوا، فِي م: طَعَمُوا. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيَكُونُوا. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) الْهَاءُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٠) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ.

خاضعين لله مُخْلِصِينَ لَهُ، فَأَنْتُمْ أَيُّهَا النَّاسُ أُمَّةٌ مِنْ بَلَدِكَ الْأَمَمِ، فَكَيْفَ اخْتَلَفْتُمْ، وَاشْرَكْتُمْ غَيْرَهُ فِي الْوَهْبِيِّ وَرَبِّيَّةٍ مَعَ مَا رَغِبَ فِيكُمْ مِنَ الْعَقْلِ^(١) وَالتَّمْيِيزِ بَيْنَ مَا هُوَ حِكْمَةٌ، وَمَا هُوَ سَفَهٌ، وَقَضَّلَكُمُ عَلَى غَيْرِهَا مِنَ الْأَمَمِ فِي خَلْقِ مَا خَلَقَ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي^(٢) الْأَرْضِ لَكُمْ، وَسَخَّرَ لَكُمُ ذَلِكَ كُلُّهُ مَا لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ بِغَيْرِهَا مِنَ الْأَمَمِ؟

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ مِنْ أَهْلِ التَّوِيلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانَ الْكَاشِ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ زَمَنَ نُوحٍ، وَمَنْ دَخَلَ مَعَهُ فِي السَّفِينَةِ كَانُوا عَلَى دِينٍ وَاحِدٍ، فَاخْتَلَفُوا بَعْدَ مَا خَرَجُوا، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ [كَانُوا زَمَنَ] (٣) آدَمَ، فَاخْتَلَفَ أَوْلَادُهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: [كَانُوا زَمَنَ] (٤) إِبْرَاهِيمَ. لَكِنَّا نَشْهَدُ كَيْفَ كَانَ الْأَمْرُ، فَلَا نَعْلَمُ إِلَّا بِخَيْرٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُتِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [فيه وجهان: أحدهما] (٥): قِيلَ: لَوْلَا أَنَّ مِنْ حِكْمِهِ إِلَّا يُعَذَّبُ هَذِهِ الْأُمَّةَ عِنْدَ تَكْذِيبِهِمُ الْآيَاتِ [إِذَا سَأَلُوهَا] (٦) وَلَكِنْ أُخِّرَ تَعَذِّبُ هَذِهِ الْأُمَّةَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

والثاني: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ إِلَّا يَسْتَأْصِلُ هَذِهِ الْأُمَّةَ عِنْدَ تَكْذِيبِ الرِّسْلِ وَالْعِنَادِ لَهُمْ.

أَحَدُ التَّوِيلَيْنِ فِي تَرْكِ اسْتِصَالِهِمْ، وَالْآخَرُ فِي تَأْخِيرِ الْعَذَابِ إِلَى وَقْتٍ.

وقوله تعالى: ﴿لَفُتِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بَيَانٌ يَضْطَرُّهُمْ إِلَى الْقَبُولِ.

الآية ٢٠ وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ جَوَابُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، مَا ذَكَرَ ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ إِلَّا يُعَذَّبُ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِتَكْذِيبِ الْآيَاتِ عِنْدَ السُّؤَالِ. / ٢٢٨ - ١/

وقوله تعالى: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ أَيِ إِنْكُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ عِلْمَ الْغَيْبِ لِلَّهِ، وَقَدْ أُنْزِلَ مِنَ الْآيَاتِ مَا يُبَيِّنُ، وَيَدُلُّ عَلَى رِسَالَتِي.

وقوله تعالى: ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ قِيلَ: انْتَظِرُوا هَلَاقِي إِنِّي مُنْتَظَرٌ هَلَائِكُمْ؛ لَأَنَّهُمْ كَانُوا يُوعِدُونَهُ الْهَلَاقَ. وَقِيلَ: انْتَظِرُوا مَوَاعِدَ الشَّيْطَانِ إِنِّي مُنْتَظَرٌ مَوَاعِدَ^(٧) اللَّهِ، وَهُوَ حَرْفٌ وَعِيدٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٢١ وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا آتَيْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ مَرَّةٍ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ قَالَ أَهْلُ التَّوِيلِ ﴿آتَيْنَا النَّاسَ﴾ يَعْنِي أَهْلَ مَكَّةَ إِذَا أَصَابَهُمْ سَعَةٌ وَفَرَحَ وَنَجَاةٌ مِمَّا يَخَافُونَ عَادُوا إِلَى مَا كَانُوا مِنَ التَّكْذِيبِ وَعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ. وَلَكِنْ أَهْلُ مَكَّةَ وَغَيْرُهُمْ كَانُوا^(٨) إِذَا أَيْسُوا مِمَّا يَعْبُدُونَ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ فَرَعُوا إِلَى اللَّهِ، يُخْلِصُونَ^(٩) لَهُ الدِّينَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَاؤُ اللَّهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ﴾ الْآيَةُ [العنكبوت: ٦٥] وَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ الْآيَةُ [يونس: ١٢] وَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُمْ مُبِينِينَ إِلَيْهِ﴾ الْآيَةُ [الروم: ٢٣] وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ مِمَّا يَكْثُرُ عَدُّهَا، كَانَتْ عَادَتُهُمْ الْفَرْعُ إِلَى اللَّهِ عِنْدَ إِصَابَتِهِمُ الشَّدَائِدَ وَالْبَلَايَا لِجَلْبِهِمْ أَنَّ الْأَصْنَامَ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا لَا تَدْفَعُ عَنْهُمْ ذَلِكَ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ الْمَكْرُ فِي الْآيَاتِ تَكْذِيبُهَا وَرَدُّهَا. فَيُشَبِّهُ أَنْ تَكُونَ الْآيَةُ هَهُنَا [فِي مُحَمَّدٍ كَمَا كَانَ] (١٠) مِنْ أَوَّلِ أَمْرِهِ إِلَى آخِرِهِ آيَةً، فَمَكَّرُوا بِهِ لَمَّا هَمُّوا بِقَتْلِهِ غَيْرَ مَرَّةٍ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الْآيَةُ [الأنفال: ٣٠]

وَيَحْتَمِلُ سَائِرَ الْآيَاتِ وَالْحُجَجِ؛ مَكَّرُوا فِيهَا، أَيِ كَذَّبُوهَا، وَرَدُّوهَا ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ الْمَكْرُ الْأَخْذُ مِنْ غَيْرٍ أَنْ يَعْلَمَ هُوَ بِهِ. يَقُولُ: ﴿اللَّهُ أَسْرَعُ﴾ أَخْذًا، يَأْخُذُكُمْ^(١١)، وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ بِهِ، وَلَا تَقْدِرُونَ أَنْ تَأْخُذُوا رَسُولَ اللَّهِ، وَتَمْكُرُوا بِهِ إِلَّا وَهُوَ يَعْلَمُ بِذَلِكَ، وَهُوَ أَسْرَعُ أَخْذًا مِنْكُمْ ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُوبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ فَهُمُ الْحَقُّظَةُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: الْقَوْلُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَمَا فِي. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) م: م، فِي الْأَصْلِ: عِنْدَ السُّؤَالِ. (٧) أَدْرَجَ قَبْلَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: فِي. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنْهُمْ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيَخْلُصُونَ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: مُحَمَّدًا كَمَا هُوَ. (١١) م: فِي الْأَصْلِ: يَأْخُذُهُمْ.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ أي أَسْرَعُ [جزاء ومَكْرًا] ^(١) مِنْكُمْ وَأَسْرَعُ أَخْذًا مِنْ حَيْثُ لَا تَعْلَمُونَ أَنْتُمْ. وقال بعض أهل اللغة: المَكْرُ بالآيات هو الرُّدُّ والجُحودُ لها، وقال بعضهم: استهزاء بها، فهو واحد، والله أعلم.

الآية ٢٢ وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ اختُلف فيه؛ قال بعضهم: قوله ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ﴾ أي هو الذي سَخَّرَ لَكُمْ ما به ^(٢) تَسِيرُونَ في البرِّ والبحرِ، وهو الدُّوَابُّ والسُّفُنُ التي تُقَطِّعُ بها البراري والبحارُ، وهو كقولهِ ﴿لَتَسْتَخْرِجُنَّ عَنْ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٣].

وقيل: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [أي سَخَّرَ لَكُمْ البرَّ والبحرَ، وهما] ^(٣) مَكَانُ الْخَوْفِ والهِلاكِ؛ أي حَفِظَكُمْ [فيهما حتى تَقْضُوا] ^(٤) فيهما حوائِجَكُمْ، وليس في وَسْعِ الْخَلْقِ حِفْظُ البراري والبحارِ عَمَّا فِيهما مِنَ الْأَهْوَالِ، فَقَوْلِي اللَّهِ تعالى بِقَضَائِهِ حِفْظُ السَّائِرِينَ [فيهما حتى يَقْضُوا] ^(٥) فيهما حوائِجَهُمْ، وهو كقولهِ: ﴿هُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [النحل: ١٤] إلى آخِرِ مَا ذَكَرَ [مِنْ] ^(٦) أَنْوَاعِ الْمَنَافِعِ.

فلولا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَهُمْ ذَلِكَ، وَحَفِظَهُمْ فِيهِ، وَإِلَّا لَمْ يَكُنْ فِي وَسْعِهِمْ ^(٧) الْقِيَامُ بِذَلِكَ وَحِفْظُ أَنْفُسِهِمْ فِيهِ مِنَ الْأَهْوَالِ التي فِيهِ يُذَكِّرُهُمْ نِعْمَةً وَمِنَّةً التي أَنْعَمَها لِيُوجِبَهُوا شُكْرَ نِعْمِهِ إِلَيْهِ.

ثم قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ يَحْتَمِلُ: يَخْلُقُ، وَيُنْشِئُ سَيْرَكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وهو كقولهِ: ﴿وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سَيْرًا فِيهَا لَيَالٍ﴾ الآية [سبا: ١٨] والتقديرُ هو التَّخْلِيقُ، وَالْمُقَدَّرُ الْمَخْلُوقُ.

ففيه دلالةٌ خَلَقَ أَعْمَالِ الْخَلْقِ لِأَنَّ السَّيْرَ هو فِعْلُ الْخَلْقِ، أَضَافَهُ إِلَى نَفْسِهِ، دَلٌّ أَنَّهُ مُنْشِئُ فَعْلِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَيُشَبِّهُهُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ لَمْ يُرْذِ بِهِ الْبَرُّ وَالْبَحْرُ نَفْسَهُمَا ^(٨)، وَلَكِنَّهُ أَرَادَ تَذْكِيرَ نِعْمِهِ عَلَيْهِمْ فِي كُلِّ حَالٍ وَكُلِّ وَقْتٍ لِيَشْكُرُوا لَهُ فِي كُلِّ حَالٍ، وهو كقولهِ: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الروم: ٤١] لَمْ يُرْذِ بِهِ الْبَرُّ وَالْبَحْرُ نَفْسَهُمَا ^(٩)، وَلَكِنْ أَرَادَ الْمَكَانَ الَّذِي فِيهِ الْحَيَاءُ وَالْمَكَانَ الَّذِي لَا مَيَاةَ فِيهِ، أَيْ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْأَمَاكِينِ كُلِّهَا. فَعَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلِ يُذَكِّرُهُمْ نِعْمَةً التي أَنْعَمَها عَلَيْهِمْ فِي الْأَمَاكِينِ كُلِّهَا وَالْأَحْوَالِ جَمِيعًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَّتْ بِرِيحٍ طَبِئَةٍ﴾ أي تجري بِهِمُ السُّفُنُ بِرِيحٍ طَبِئَةٍ؛ يُخْبِرُ أَنَّ السُّفُنَ لَيْسَتْ تَجْرِي فِي الْبَحَارِ بِجَرَيَانِ الْمَاءِ لِأَنَّهَا مَاءٌ رَاكِدٌ فِي الظَّاهِرِ، لَكِنَّ الرِّيحَ هي التي تُجْرِيهَا، وَتُسَيِّرُهَا، وَكَذَلِكَ الْأَمْوَاجُ التي تَكُونُ فِيهَا لَيْسَتْ لِشِدَّةِ جَرَيَانِ الْمَاءِ، وَلَكِنَّ الرِّيحَ هي التي تَهَيِّجُ [الأمواجَ، وَتَرْعَجُهَا لَا نَفْسَ الْمَاءِ] ﴿وَتَرِيحُوا بِهَا﴾ قِيلَ: ﴿وَتَرِيحُوا بِهَا﴾ وَسُرُّوا.

وقوله تعالى: ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْتُ﴾ ^(١٠) أَخْبَرَ أَنَّ الرِّيحَ [مِنْهَا مَا] ^(١١) هي طَبِئَةٌ تَجْرِي ^(١٢) بِهَا السُّفُنُ، وَمِنْهَا مَا هي عَاصِفَةٌ قَاصِفَةٌ، تَكْسِيرٌ، وَتُفَرِّقُ السُّفُنَ، وَتُهْلِكُ أَهْلَهَا، لِتُعْلِمَ أَنَّ الْأَشْيَاءَ تَضْلُعُ مَرَّةً، وَتَفْسُدُ أُخْرَى لَا لِأَنْفُسِهَا، وَلَكِنْ لِحِفْظِ الْحُدُودِ فِيهَا، وَكَذَلِكَ الْمَاءُ مَرَّةً يَضْلُعُ، وَمَرَّةً يَفْسُدُ؛ وَذَلِكَ إِذَا حُفِظَ فِي الْحَدِّ صَلَاحٌ ^(١٣)، وَإِنْ لَمْ يُحْفَظْ فَسَدٌ ^(١٤)، وَإِلَّا لَا يَحْتَمِلُ الشَّيْءُ الْوَاحِدُ لِنَفْسِهِ [أَنَّ] ^(١٥) يَضْلُعُ مَرَّةً، وَتَفْسُدُ تَارَةً وَلَكِنْ لِحِفْظِ الْحُدُودِ فِيهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّوْا أَنْتُمْ أَحْبَبَ بِهِمْ﴾ قِيلَ: أَيْقَنُوا أَنَّهُمْ مُهْلِكُونَ، وَلَكِنَّ الْإِيْقَانَ بِالشَّيْءِ الَّذِي يُصِيبُ بِهِ فِي حَادِثِ الْأَوْقَاتِ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْخَبَرِ لِأَنَّهُ لَا نَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يَضْرِبُ ذَلِكَ عَنْهُمْ، فَلَا يَقَعُ الْإِيْقَانُ، وَلَكِنْ جَعَلَ غَالِبَ الظَّنِّ فِيهِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ كَالْإِيْقَانِ بِهِ.

(١) في الأصل وم: الجزاء والمكر. (٢) ساقطة من م. (٣) في الأصل: وهو، في م: أي سخر لكم البر والبحر وهو. (٤) في الأصل وم: فيها حتى قضيتن. (٥) في الأصل وم: قضوا. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: وسعه. (٨) في الأصل وم: نفسه. (٩) في الأصل وم: أنفسهما. (١٠) ساقطة من م. (١١) في الأصل وم: إما. (١٢) أدرج قبلها في الأصل م: هي. (١٣) في الأصل وم: أصلح. (١٤) في الأصل وم: أفسده. (١٥) ساقطة من الأصل وم.

أَلَا تَرَى أَنَّ اللَّهَ أَبَاحَ الْمَيِّتَةَ فِي حَالِ الضَّرُورَةِ لِغَالِبِ الظَّنِّ؛ إِذْ قَدْ يَجُوزُ إِلَّا يُهْلِكَ بِذَلِكَ؟
وكذا ما أُبِيحَ لِلْمُكْرِهِ بِالْقَتْلِ أَنْ يُجْرِيَ كَلِمَةُ الْكُفْرِ عَلَى لِسَانِهِ لِغَالِبِ الظَّنِّ؟ وَإِلَّا لَيْسَ يَعْلَمُ بِالِإِحَاطَةِ أَنَّهُ يَقْتُلُهُ لَا مُحَالَةً.
لَكِنْ جَعَلَ لِغَالِبِ الظَّنِّ فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ حُكْمَ الْيَقِينِ وَالِإِحَاطَةِ. فَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُمْ: أَيَقْنُوا أَنَّهُمْ أَحْبَطَ بِهِمْ لِغَالِبِ الظَّنِّ.
وقوله تعالى: ﴿دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ إِنَّهُمْ لَمَّا أَيْسَرُوا مِنَ الْأَصْنَامِ الَّتِي عَبَدُوهَا فِي دَفْعِ مَا حَلَّ بِهِمْ عَنْهُمْ فَرَعَوْا إِلَى اللَّهِ، وَأَخْلَصُوا الدِّعَاءَ لَهُ، وَقَالُوا: ﴿لَيْنَ آمَنَّا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾

الآية ٢٣

ثم أَخْبَرَ عَنْ سَفَهِهِمْ بَعُودِهِمْ إِلَى مَا كَانُوا [عليه]^(١) مِنْ قَبْلُ: ﴿فَلَمَّا أَتَيْنَهُمْ إِذَا هُمْ يَبْتُغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ وهكذا كَانَتْ عَادَتُهُمْ؛ كَانُوا يَفْرَعُونَ إِلَى اللَّهِ عِنْدَ خَوْفِ الْهَلَاكِ وَالْإِيَّاسِ^(٢) مِنَ الْهَيْبَةِ الَّتِي عَبَدُوهَا، وَيُخْلِصُونَ الدِّعَاءَ. فَإِذَا كَشَفَتْ ذَلِكَ الْكَرْبَ عَنْهُمْ، وَدَفَعَ، عَادُوا إِلَى مَا كَانُوا [عليه]^(٣) مِنْ قَبْلُ. وَالبُغْيُ فِي الْأَرْضِ هُوَ الْفَسَادُ فِيهَا.
وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ مَنَعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ يَخْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ أَيِ [بَغْيٍ]^(٤) بَغْضِكُمْ عَلَى بَغْضٍ. وَيَخْتَمِلُ ﴿عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ أَيِ حَاصِلُ بَغْيِكُمْ يَرْجِعُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ. وَالبُغْيُ هُوَ الظُّلْمُ.

فَإِنْ كَانَ التَّأْوِيلُ فِي قَوْلِهِ ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ حَاصِلُ^(٥) بَغْيِكُمْ يَرْجِعُ إِلَى أَنْفُسِكُمْ فِي الْعَاقِبَةِ فَيَكُونُ الْوَعْدُ لَهُمْ فِي ذَلِكَ بَعِينِهِ. وَإِنْ كَانَ التَّأْوِيلُ [بَغْيٍ]^(٦) بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ فَيَكُونُ الْوَعْدُ فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ إِنَّمَا مَرَجَعَكُمْ فَتُنْفِقُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَسْكُرُونَ﴾ هَذَا قَدْ ذَكَّرْنَا، وَهُوَ حَرْفُ وَعِيدٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٢٤

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ الْغُرْحَاءِ الَّتِي تَنْبُتُ فِي الْأَرْضِ﴾ الْآيَةُ: فِي ضَرْبِ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِالزُّرْعِ الَّذِي ذَكَرَ بوجوه: قَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فِي سُرْعَةِ فَنَائِهَا وَانْقِطَاعِهَا وَوَجْهِ زَوَالِهَا مَثَلُ ذَلِكَ الزُّرْعِ الَّذِي ذَكَرَ فِي سُرْعَةِ هَلَاكِهِ وَانْقِطَاعِهِ وَزَوَالِهِ عَنْ صَاحِبِهِ أَوْ أَنْ يُقَالَ: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فِي مَا يُسِرُّ، وَيَهْجَى، مَثَلُ صَاحِبِ^(٧) ٢٢٨ - ب/ الزُّرْعِ الَّذِي ذَكَرَ فِي مَا سُرُّ بِهِ، وَابْتِهَاجٍ، ثُمَّ كَانَ مَا ذَكَرَ ﴿كَأَن لَّمْ تَقَنَّ بِالْأَمْنِ﴾.

وقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي مَا يُنْفِقُونَ فِيهَا مَثَلُ صَاحِبِ الزُّرْعِ الَّذِي ذَكَرَ، يُنْفِقُ عَلَيْهِ لِمَا يَأْمُلُ مِنَ الْمَنَافِعِ، وَيَنْظِمُ مِنْهُ، ثُمَّ كَانَ. وَلَوْ عَلِمَ فِي الْإِبْتِدَاءِ أَنْ أَمْرَ [زُرْعِهِ يُؤُولُ]^(٨)، وَيَصِيرُ إِلَى مَا صَارَ لَكَانَ لَا يُنْفِقُ. فَعَلَى ذَلِكَ صَاحِبُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لَوْ عَلِمَ أَنَّ عَاقِبَةَ أَمْرِ تَفْقِيهِ تَصِيرُ حَسْرَةً عَلَيْهِ وَنَدَامَةً مَا أَنْفَقَ كَمَا أَنَّ صَاحِبَ الزُّرْعِ الَّذِي ذَكَرَ لَوْ عَلِمَ أَنَّ عَاقِبَتَهُ كَمَا كَانَ مَا أَنْفَقَ عَلَيْهِ، أَوْ [لَوْ]^(٩) عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَنْتَفِعُ بِهِ مَا أَنْفَقَ تِلْكَ التَّفَقُّةَ؛ أَيِ لَوْ عَلِمَ أَنَّ سُورَتَهُ وَابْتِهَاجَهُ بِهِ لَا يَبْقَى، وَلَا يَدُومُ إِلَى آخِرَتِهِ^(١٠) مَا تَكَلَّفَ ذَلِكَ، أَوْ لَوْ عَلِمَ أَنَّهَا تَزُولُ عَنْهُ، وَتَنْقَطِعُ فِي تِلْكَ السَّرْعَةِ مَا أَنْفَقَ ذَلِكَ وَمَا تَكَلَّفَ: وَيَخْتَمِلُ ضَرْبُ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِمَا ذَكَرَ مِنَ النَّبَاتِ وَجِهَيْنِ:

أَخَذَهُمَا: [أَنَّهُ يُعْبَرُ]^(١١) عَنْ سُرْعَةِ زَوَالِهَا وَانْقِطَاعِهَا بِالنَّبَاتِ^(١٢).

وَالثَّانِي: [أَنَّهُ] تَغْيِيرٌ فِي أَذْنَى مُدَّةٍ وَوَقْتٍ.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَحُسْنَتْ، فَانْظُرْ مِنْ أَلْوَانِ النَّبَاتِ.

وقَالَ أَبُو عَوَسَجَةَ [زُخْرُفَهَا] زَيَّنَتْهَا مِنَ الثَّنْبِ، وَ [حَسْبِيدًا] أَيِ مَحْصُودًا كَمَا يَحْصُدُ الْحَصَادُ الزُّرْعَ ﴿كَأَن لَّمْ تَقَنَّ بِالْأَمْنِ﴾ أَيِ لَمْ تَعِشْ، وَالْمَغَانِي هِيَ^(١٣) الْمَوَاضِعُ الَّتِي يَعِشُ فِيهَا النَّاسُ. قَالَ: وَوَاحِدُ الْمَغَانِي الْمَغْنَى.

وقَالَ الْقُتَيْبِيُّ: وَأَصْلُ الزُّخْرُفِ الدُّعْبُ، يُقَالُ لِلثَّقَشِ وَالذَّهَبِ، وَكُلُّ شَيْءٍ زُيِّنَ زُخْرُفٌ. وَقَالَ: ﴿كَأَن لَّمْ تَقَنَّ بِالْأَمْنِ﴾ وَالْمَغَانِي الْمَنَازِلُ، وَاجِدُهَا مَغْنَى.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم. والأيس. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) أدرج قبلها من الأصل وم. أي. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل: زرعه يول، في م: زرع يومل. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: آخره. (١٠) في الأصل وم: ان يغير. (١١) في الأصل وم: كالنبات. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: هو.

وقال بعضهم: ﴿كَانَ لَمْ تَقَدْ بِالْأَمْسِ﴾ أي لم تنعم، وقيل: لم تعمّر^(١)، وقال بعضهم: هو من الغنى؛ أي لم تكن غنياً بالأمس، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَهَا اتَّبَعُوا لَبُذِرُوا عَنْ ثَرَاتِهِمْ أَتَرَىٰ أَنَّهُمْ لَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي ظن أهل الدنيا في ما يُنفقون أنهم قادرون على تلك التَّفَقُّة كما [ظن]^(٢) صاحب الزرع أنه قادر على ذلك الزرع.

وقوله تعالى: ﴿أَتَنْهَاهُمْ أَمْ أَنْتَ خَشْيَةٌ إِيَّاهُمْ﴾ قيل: عذابنا: سماء^(٣) أمراً لأنه بأمره [أناها، وقيل]^(٤): إنه لم يأتيه عن غفلة وسهو، ولكن عن علم وأمر عظة لهم وتنبهها. ألا ترى أنه قال: ﴿كَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْأَمْثَالَ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؟ كأن الآيات في هذا الموضع الموعظة أي في ما ذكر من ضرب مثل الحياة الدنيا بالنبات والزرع الذي ذكر عظة وتنبه لمن تفكر فيه، والله أعلم.

الآية ٢٥

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾ اختلِف فيه: قيل: الجنة هي^(٥) السلام، الله أضافها إلى نفسه كقوله: ﴿وَأَنَّ السَّجْدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨] فأضاف الجنة إلى السلام، إن كانت دار السلام هي الجنة؛ فهو، والله أعلم، لأن المساجد هي أمكنة تقام فيها القرب، والجنة هي مكان اللذة وقضاء الشهوة، أضافها^(٦) إلى السلام لما ينسلم أهلها من جميع الآفات. والمساجد خصت بالإضافة إلى الله لأنها أمكنة تقام فيها القرب.

وقال بعضهم: دار السلام الإسلام. ثم يتخيل كل واحد من التأويلين [ووجوهاً]:

أحدهما^(٧): بما سُمي الإسلام دار السلام [سُمي الجنة]^(٨) دار السلام لأنه يأمن، وينسلم كل من دخل فيه [أمن]^(٩) من جميع الأهوال والآفات التي تكون.

والثاني: [بما]^(١٠) سُمي الإسلام دار السلام أضافه^(١١) إلى نفسه كقوله: ﴿أَمَّنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ الآية [الزمر: ٢٢] أخبر أنه ﴿عَلَىٰ ثَوْرٍ مِّنْ رَبِّي﴾ [الزمر: ٢٢] فعلى ذلك إضافة الإسلام لأن كل من دخل الجنة سلّم، وأمن من الأهوال كلها والآفات جميعاً.

والثالث^(١٢): دار الجنة والسلام [الله؛ أضافها]^(١٣) إليه لأنها دار أوليائه، وقد تُضاف إلى الله على إرادة أوليائه، والله أعلم.

وروي في بعض الأخبار عن أبي قلابة أن النبي ﷺ قال: «قيل لي لئنم غيبك ولتغفل قلبك، ولتسمع أذنك، فنامت عيني، وغفل قلبي، وسمعت أذني، ثم قيل لي: سيّد بنى داراً، وجعل مائدة، وأرسل داعياً، فمن أجاب الداعي دخل الدار، وأكل من المائدة، ورضي عنه السيّد، ومن لم يجب لم يدخل الدار، ولم يأكل من المائدة، ولم يرض عنه السيّد» [الدارمي ١١] فالله السيّد، والدار الإسلام، والمائدة الجنة، والداعي محمد ﷺ.

إن ثبت هذا الخبر ففيه أن الدار الإسلام على ما قاله بعض أهل التأويل في خبر آخر عن جابر بن عبد الله: قال «خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً، فقال: رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي وميكائيل عند رجلي، قال أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلاً، فقال: اسمع سمعت أذنك، واغفل عقل قلبك؛ إنما مثلك ومثل أمثلك كمثلك ملك اتخذ داراً، ثم بنى فيها بنياناً، فأتته، ثم جعل فيها مائدة، ثم بعث رسولا يدعو الناس إلى طعامه، فمنهم من أجاب الرسول، ومنهم من تركه. فالله الملك، والدار الإسلام، والبيت الجنة، وأنت يا محمد الرسول من أجابك دخل الإسلام، ومن دخل الإسلام دخل الجنة، ومن دخل الجنة أكل ما فيها» [الترمذي: ٢٨٦٠] يدل أيضاً إن ثبت أن الدار التي ذكر في الآية هو الإسلام، والله أعلم.

(١) في الأصل: نعم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: سمى. (٤) في الأصل وم: آناه. و. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: فأضافها. (٧) في الأصل وم: وجهين. (٨) في الأصل وم: والجنة كذلك سُمي الإسلام. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) الهاء ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: والثاني. (١٣) في الأصل وم: الله أضاف.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوًا إِلَيْكَ نَارَ النَّارِ﴾ الآية دُكِّرَ الإِسْتِثْنَاءُ فِي الْهَدَايَةِ، وَلَمْ يَذْكُرْ فِي الدَّعَاءِ لِيُعْلِمَ أَنَّ لَا كُلَّ مَنْ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ يَهْدِيهِ، وَإِنَّمَا يَهْدِي ^(١) مَنْ يَعْلَمُ مِنْهُ أَنَّهُ يَخْتَارُ الْهَدَى. وَذَلِكَ عَلَى الْقَدَرِيَّةِ.

ثُمَّ الْهَدَى عَلَى وُجُوهِ ثَلَاثَةٍ:

أَحَدُهَا: الدَّعَاءُ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] والثاني: هُوَ الْبَيَانُ كَقَوْلِهِ ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ [الأعراف: ٥٢] يَغْنِي الْقُرْآنَ. وَالثَّالِثُ: التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ؛ إِذَا وَفَّقَ اهْتَدَى، وَالْهُدَى هَهُنَا التَّوْفِيقُ.

الآية ٢٦ وقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمَتَّيِّدٍ زِيَادَةٌ﴾ اخْتَلِفَ فِيهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ فِي الدُّنْيَا لَهُمْ الْحُسْنَى فِي الْآخِرَةِ جَزَاءُ ذَلِكَ الْإِحْسَانِ، وَهِيَ الْجَنَّةُ، سَمِيَ الْجَنَّةُ الْحُسْنَى لِأَنَّهَا جَزَاءُ الْإِحْسَانِ كَمَا سَمِيَ النَّارُ الشُّوْأَى كَقَوْلِهِ: ﴿أَسْأَأُ النَّارِ﴾ [الروم: ١٠] لِأَنَّهَا جَزَاءُ الشُّوْءِ كَقَوْلِهِ: ﴿مَثَلُ جَزَاءِ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

[وقوله تعالى] ^(٢): ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ قِيلَ: الْمَحَبَّةُ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ، يُحِبُّ كُلُّ مُحْسِنٍ، وَهِيَ لَهُ فِي قُلُوبِ النَّاسِ؛ يَهَابُهُ كُلُّ أَحَدٍ عَلَى غَيْرِ سُلْطَانٍ لَهُ.

وَقَالَ قَائِلُونَ: قَوْلُهُ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمَتَّيِّدٍ زِيَادَةٌ﴾ أَيِ مِثْلُ تِلْكَ الْحَسَنَةِ ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ أَيِ مِثْلُ تِلْكَ الْحَسَنَةِ ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ التَّضْعِيفُ حَتَّى تَكُونَ عَشْرًا، أَوْ سَبْعَ مِثَّةٍ، وَمَا شَاءَ اللَّهُ. يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سِنْفَةٍ يَبْلُغُهَا﴾ [يونس: ٢٧].

وَقَالَ قَائِلُونَ: قَوْلُهُ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمَتَّيِّدٍ زِيَادَةٌ﴾ الرُّؤْيَةُ: رُؤْيَةُ الرَّبِّ وَالنَّظَرُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجِئُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [يَا نَازِعَاتُ] [القيامة: ٢٢ و ٢٣]

وَقَالَ قَائِلُونَ: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ قَبُولُ حَسَنَاتِهِ مَعَ مَا فِيهَا مِنَ الْخَلِيطِ بِالسَّيِّئَاتِ يَقْبَلُ حَسَنَاتِهِ بِفَضْلِهِ، وَإِنْ كَانَتْ تَشَوُّبُهَا السَّيِّئَاتُ، وَرِضَاءُ مَنْ؛ وَذَلِكَ طَرِيقَةُ الْفَضْلِ وَالْإِحْسَانِ، إِذْ قَدْ سَبَقَ مِنَ النَّعْمِ مَا لَا يَقْدِرُ الْقِيَامُ عَلَى وَفَاءِ نِعْمَةٍ مِنْهَا طَوْلَ عُمْرِهِ.

وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام [أَنَّهُ] ^(٣) قَالَ: الزِّيَادَةُ غُرْفَةٌ مِنْ لَوْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ، لَهَا أَرْبَعَةُ أَبْوَابٍ. فَلَا تَدْرِي مَا الزِّيَادَةُ الَّتِي ذَكَرَهَا عليه السلام فِي الْآيَةِ إِلَّا بِالْخَبَرِ عَنِ اللَّهِ.

وَقَالَ قَائِلُونَ: ﴿لِمَتَّيِّدٍ﴾ مَا تَقْدِرُ الْعُقُولُ، وَتُذَكِّرُهَا، وَتَصَوِّرُهَا. وَأَمَّا الزِّيَادَةُ فَهِيَ الَّتِي لَا تَقْدِرُهَا الْعُقُولُ، وَلَا تُذَكِّرُهَا، وَلَا تَصَوِّرُهَا الْأَوْهَامُ كَقَوْلِهِ عليه السلام «مَا لَا عَيْنٌ، رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ» [مسلم ٢٨٢٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزِفُّهُمُ وَجْهُهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذَلَّةٌ﴾ قِيلَ: لَا يَغْشَى وَجْهَهُمُ النَّارُ وَالزَّهَجُ عَلَى مَا وَصَفَ وَجْهَ أَهْلِ النَّارِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَجِئُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [عبس: ٤٠ و ٤١].

وَلَكِنْ عَلَى مَا وَصَفَ وَجْهَ أَهْلِ الْجَنَّةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَجِئُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ / ٢٢٩ - مُتَّفِقَةٌ﴾ [صَاحِبَةُ مُتَّفِقَةٍ] [عبس: ٣٨ و ٣٩] وَتِلْكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَثَارُ إِحْسَانِهِمُ الَّتِي أَحْسَنُوا فِي الدُّنْيَا، وَلَمَّا لَمْ يَرَوْا النَّعْمَ الَّتِي كَانَتْ لَهُمْ مِنْ سِوَاهُ، وَلَمْ يَضْرِفُوا شُكْرَهَا إِلَى غَيْرِهِ. ﴿أَوَّلَيْكَ أَحْسَنُ لِمَتَّيِّدٍ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

وَالْقَبْرَةُ وَالْقَتْرَةُ الَّتِي ذَكَرَ لِأَهْلِ النَّارِ هِيَ أَثَارُ السَّيِّئَاتِ الَّتِي عَمِلُوهَا فِي الدُّنْيَا مِنْ عِبَادَتِهِمْ دُونَ اللَّهِ وَضَرْفِهِمْ شُكْرَ النَّعْمِ إِلَى غَيْرِهِ؛ نَحْوُ ذَلِكَ مِنْ صَنِيعِهِمُ الَّذِي صَنَعُوا فِي الدُّنْيَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٢٧ وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سِنْفَةٍ يَبْلُغُهَا﴾ جَزَاءُ سَبْعَةِ مِمَّا تُوجِبُهُ الْحِكْمَةُ أَنْ يُعْزَى بِبِغْلِيهَا. وَأَمَّا جَزَاءُ الْإِحْسَانِ وَالْخَيْرِ فَطَرِيقُ ^(٤) وَجُوبِهِ [الْإِفْضَالُ وَالْإِحْسَانُ، لَيْسَ طَرِيقُ وَجُوبِهِ] ^(٥) الْحِكْمَةُ؛ إِذْ سَبَقَ مِنَ اللَّهِ إِلَى كُلِّ أَحَدٍ مِنَ النَّعْمِ مَا لَيْسَ فِي وَسْعِهِ الْقِيَامُ بِمُكَافَاةٍ وَاحِدَةٍ مِنْهَا عُمْرُهُ، وَإِنْ طَالَ، وَاجْتَهَدَ كُلُّ جَهْدِهِ فَضْلًا أَنْ يَسْتَرْجِبَ قَبْلَهُ جَزَاءَ مَا كَانَ مِنْهُ مِنَ الْخَيْرَاتِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَ: يَهْدِيهِ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَ: م. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَ: م. (٤) الْفَاءُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَ: م. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ م.

وقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَاهُمْ ذُلَّهُ﴾ هو ما ذَكَرَ مِنْ آثَارِ السَّيِّئَاتِ الَّتِي عَمِلُوهَا^(١) فِي الدُّنْيَا ذُلًّا وَهَوَانًا لَهُمْ ﴿مَّا لَكُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، كَانُوا يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ رَجَاءً أَنْ يَكُونُوا لَهُمْ شَفَعَاءَ، فَاجْتَبَرُوا أَنْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ عَذَابِ [اللَّهِ]^(٢) مَا نَعْنِي ذَلِكَ عَنْهُمْ كَقَوْلِهِمْ: ﴿مَتَّوَلَاءَ شَفَعْتُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الآية: ١٨]

وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّا أَفْسَيْتَ وَجْوهَهُمْ قَطْعًا مِنْ أَلِيلٍ﴾ قِيلَ: أَلْبَسْتَ، وَأَغْطَيْتَ، قَطْعًا مُثَقَّلًا^(٣) وَمُخَفَّفًا قَطْعًا؛ قِيلَ: الْقِطْعُ بِالتَّخْفِيفِ هُوَ جَمْعُ الْقِطْعَةِ، وَالْقِطْعُ بِالتَّخْفِيفِ جُزْءٌ مِنَ اللَّيْلِ. يُقَالُ: سِرْنَا بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ أَيْ بِجُزْءٍ مِنَ اللَّيْلِ، وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَنزِلْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ [هود: ٨١] أَيْ بِجُزْءٍ مِنْهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ شَبَّهَ وَجْوهَهُمْ بِظُلْمَةِ اللَّيْلِ، وَلَمْ يُشَبَّهْ بِسَوَادِ الْوُجُوهِ عَلَى مَا يَكُونُ مِنْ سَوَادِ الْوُجُوهِ فِي الدُّنْيَا، فَذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَنَّ سَوَادَ الْوُجُوهِ عَلَى مَا يَكُونُ فِي الدُّنْيَا لَا يَبْلُغُ مِنَ الْقُبْحِ غَايَتَهُ؛ إِذْ قَدْ يَرْعُبُ مَنْ كَانَ جَنْسُهُ وَنَوْعُهُ فِي ذَلِكَ، وَيَحْسُنُ ذَلِكَ عِنْدَهُ. فَإِذَا كَانَتْ الرِّغْبَةُ قَدْ تَقَعُ لِبَعْضِهِمْ فِي بَعْضٍ لَمْ يَبْلُغْ فِي الْقُبْحِ غَايَتَهُ. وَأَمَّا ظُلْمَةُ اللَّيْلِ فَإِنَّ الطَّبَاعَ تَنْفَرُ عَنْهَا، وَلَا تَقَعُ الرِّغْبَةُ بِحَالٍ. لِذَلِكَ شَبَّهَ وَجْوهَ أَهْلِ النَّارِ بِهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[الآية ٢٨] [وقوله تعالى]^(٤): ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: يَعْنِي الْعَابِدَ [وَالْمَعْبُودِينَ الَّذِينَ]^(٥) عَبَدُوا دُونَهُ. وَلَكِنْ يَحْشُرُ الْخَلَائِقَ جَمِيعًا ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ﴾. وَقَوْلُهُ ﴿مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ﴾ هَذَا الْحَرْفُ هُوَ حَرْفُ وَعِيدٍ. يُقَالُ: مَكَانَكَ أَنْتَ كَذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ هَذَا الْحَرْفُ يَجُوزُ أَنْ يُسْتَغْمَلَ فِي الْكَرَامَاتِ وَبِرِّ بَعْضِهِمْ. وَلَكِنْ إِنَّمَا يُعْرَفُ ذَا الْمَقْدَمَاتِ. فَمَا تَقَدَّمَ هُنَا يَدُلُّ أَنَّهُ لَمْ يُرَدْ بِهِ الْكَرَامَةُ، وَلَكِنْ أَرَادَ بِهِ الْوَعِيدَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿فَرَفَقْنَا بَيْنَهُمُ الْوَادِعَاتِ﴾ قِيلَ: فَرَفَقْنَا بَيْنَهُمْ أَيْ بَيْنَ الْعَابِدِ وَالْمَعْبُودِ. ثُمَّ يَحْتَمِلُ التَّفْرِيقُ بَيْنَهُمْ وَجْهًا: أَحَدُهَا: فَرَفَقْنَا بَيْنَهُمْ فِي الْحِسَابِ مِمَّا عَمِلَ وَمِمَّا صَحِبَ.

وَالثَّانِي: يَحْتَمِلُ فَرَفَقْنَا بَيْنَهُمْ لَمَّا ظَلِمُوا بِعِبَادَتِهِمْ إِيَّاهَا الشَّفَاعَةَ أَنْ يَكُونُوا لَهُمْ شَفَعَاءَ عِنْدَ اللَّهِ، فَفَرَّقَ بَيْنَهُمْ فِي الشَّفَاعَةِ. وَالثَّلَاثُ^(٦): يَحْتَمِلُ فَرَفَقْنَا بَيْنَهُمْ فِي مَا ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَقْتَرُونَ، فَصَارَ مَا عَبَدُوا تَرَابًا، وَهُمْ فِي النَّارِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ﴾ [يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا]^(٧) سَمَاهُمْ شُرَكَاءَ، وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا شُرَكَاءَ فِي الْحَقِيقَةِ لَمَّا عِنْدَهُمْ أَنَّهُمْ شُرَكَاءُ كَمَا سَمَى الْأَصْنَامَ آلِهَةً لَمَّا عِنْدَهُمْ أَنَّهُمْ آلِهَةٌ.

وَالثَّانِي: ﴿شُرَكَاءُهُمْ﴾ لَمَّا أَشْرَكُوها فِي الْعِبَادَةِ، فَهُمْ شُرَكَاءُهُمْ.

[وقوله تعالى]^(٨): ﴿مَّا كُنْتُمْ إِِنَّا نَعْبُدُونَ﴾ يُنْطَقُ اللَّهُ هَذِهِ الْأَصْنَامَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي خَلْقِهَا التَّنْقُطُ فِي الدُّنْيَا كَقَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ عَذَابًا أَخْبَرَاءَ﴾ [الزلزلة: ٤] وَقَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ نَقُصُّ عَنْهُمْ آلِيَتَهُمْ وَأَلْيَتِهِمْ﴾ [النور: ٢٤] أَنْطَقَهُمْ لِيشْهَدُوا عَلَيْهِمْ ﴿مَّا كُنْتُمْ إِِنَّا نَعْبُدُونَ﴾

وَيَحْتَمِلُ^(٩) الْمَلَائِكَةُ أَنْ يَكُونُوا عَلَيْهِمْ شُهَدَاءَ^(١٠) لِأَنَّ فِيهِمْ مَنْ يَعْبُدُ الْمَلَائِكَةَ؛ أَنْكُرُوا أَنْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ لِأَنَّ الْعِبَادَةَ لِأَخَرٍ إِنَّمَا تَكُونُ عِبَادَةً إِذَا كَانَ مِنَ الْمَعْبُودِ أَمْرٌ بِهَا.

وَكَانَتْ عِبَادَتُهُمْ الْأَصْنَامَ عِبَادَةً لِلشَّيْطَانِ لِأَنَّهُ هُوَ الْأَمْرُ لَهُمْ بِالْعِبَادَةِ لِلْأَصْنَامِ كَقَوْلِهِ ﴿يَتَّبِعُونَ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ [مريم: ٤٤] وَلَا أَحَدٌ يَقْصِدُ قَصْدَ عِبَادَةِ الشَّيْطَانِ، لَكِنَّهُ لَمَّا كَانَ الْأَمْرُ لَهُمْ بِالْعِبَادَةِ لِلْأَصْنَامِ صَارَ كَأَنَّهُمْ عَبَدُوهُ، وَإِنْ لَمْ يَقْصِدُوهُ.

وَيَحْتَمِلُ مَا ذَكَرَ مِنَ الْإِنْكَارِ مِنَ الْأَصْنَامِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: عَمِلُوهَا. (٢) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٣) يَقْصِدُ مُحَرَّكَ، انْظُرْ مَعْجَمَ الْقُرْآنِ ح ٧١/٣. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ: الْمَعْبُودُ الَّذِي، فِي م: وَالْمَعْبُودُ الَّذِي. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) الْوَاوُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: الَّذِينَ أَنْكُرُوا.

الآية ٢٩ وقوله تعالى: ﴿كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي كفى الله القاضي والحاكم بيننا وبينكم، إنا لم نأمركم بعبادتنا، وهو العالم بأننا ﴿كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغْفِيلِينَ﴾.

الآية ٣٠ وقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَنَ قِيلَ: عِنْدَ ذَلِكَ، وَقِيلَ: يَوْمَئِذٍ أَيَّ يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَقَوْلُهُ يَتْلُو بِالْيَاءِ، وَ﴿تَبْلُوا﴾ بِالتَّاءِ^(١)؛ وَقِيلَ: تَقْرَأُ فِي الصُّحُفِ مَا كُتِبَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ، ﴿يَتْلُوا﴾ بِالتَّاءِ مِنَ الْإِبْلَاءِ؛ يُقَالُ: بَلَوْتُهُ، وَابْتَلَيْتُهُ وَاحِدًا، وَخَبَرْتُهُ، وَاخْتَبَرْتُهُ أَيْضًا. وَقِيلَ: تَبْلُو تَجِدُ، وَتَعْلَمُ كُلُّ نَفْسٍ مَا قَدَّمَتْ مِنَ الْأَعْمَالِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقَّ﴾ قِيلَ: مَلِكُهُمُ الْحَقُّ لِأَنَّهُ غَيْرُهُ مِنَ الْآلِهَةِ الَّتِي عَبَدُوهَا قَدْ بَطَلَ عَنْهُمْ، وَضَلَّ فِي الْآخِرَةِ. وَيَخْتَمِلُ ﴿رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقَّ﴾ أَيَّ حَقٍّ مَا تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا قَدَّمَتْ مِنْ أَعْمَالِهَا، أَوْ حَقٍّ أَنْ تَقْرَأَ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ ﴿وَمَضَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ مِنَ الْعِبَادَةِ لِلْأَصْنَامِ وَقَوْلِ الْكُفْرِ [وقوله تعالى]^(٢): ﴿رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقَّ﴾ يَخْتَمِلُ الرَّجْهَيْنِ:

أَحْذَرُهُمَا^(٣): رُدُّوْا إِلَى مَا أَعَدَّ لَهُمْ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ.

وَالثَّانِي: رُدُّوْا إِلَى أَمْرِ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ لَا إِلَى أَمْرِ الْأَصْنَامِ الَّتِي كَانُوا يَغْبُدُونَهَا.

الآية ٣١ وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَتَنْتَ بِنِكَ السَّمْعِ وَالْأَبْصَرِ﴾ الآية يُحَاجُّهُمْ، يَغْنِي أَهْلَ مَكَّةَ فِي التَّوْحِيدِ لِأَنَّهَا مَكَّةٌ.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية أَيَّ مَنْ يُدَبِّرُ [الرِّزْقَ فِي السَّمَاءِ، وَمَنْ يُدَبِّرُ الرِّزْقَ]^(٤) فِي الْأَرْضِ؟ يَخْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحْذَرُهُمَا^(٥): مَنْ نَزَّلَ لَكُمْ الرِّزْقَ مِنَ السَّمَاءِ، وَمَنْ يَسْتَخْرِجُ لَكُمْ الرِّزْقَ [مِنَ الْأَرْضِ]^(٦)؟

وَالثَّانِي: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيَّ مَنْ يُدَبِّرُ الرِّزْقَ فِي السَّمَاءِ، وَمَنْ يُدَبِّرُ الرِّزْقَ فِي الْأَرْضِ؟ لَا أَحَدٌ يَمْلِكُ اسْتِثْنَاءَ الرِّزْقِ مِنَ السَّمَاءِ وَاسْتِخْرَاجَ الرِّزْقِ مِنَ الْأَرْضِ. وَكَذَلِكَ لَا أَحَدٌ يَمْلِكُ تَدْبِيرَهُ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ سِوَاهُ، وَلَا أَحَدٌ يَمْلِكُ إِثْنَاءَ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ، وَلَا^(٧) أَحَدٌ يَمْلِكُ إِخْرَاجَ الْمَيْتِ مِنَ الْحَيِّ وَلَا تَدْبِيرَ الْأَمْرِ؛ يَعْرِفُونَ حَقِيقَةَ مَا هِيَ السَّمْعُ وَالْبَصَرُ، وَلَا [يَعْرِفُونَ كَيْفِيَّتَهَا]^(٨)، فَكَيْفَ يَمْلِكُونَ إِثْنَاءَ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَنَضْبَهُمَا؟ وَلَا يَمْلِكُ أَحَدٌ سِوَاهُ إِصْلَاحَ مَا ذَكَرَ إِذَا فَسَدَ ذَلِكَ. فَأَقْرَأُوا أَنَّهُ لَا يَمْلِكُ أَحَدٌ سِوَى اللَّهِ ذَلِكَ، وَهُوَ قَوْلُهُمْ: ﴿نَسْأَلُونَ اللَّهَ فَقُلْ أَفَلَا تَنْقُونَ﴾ بِوَائِقِهِ وَنَقْمَتِهِ.

أَوْ يَقُولُ: ﴿أَفَلَا تَنْقُونَ﴾ عِبَادَةٌ غَيْرُهُ دُونَهُ وَإِشْرَاكَ غَيْرُهُ فِي الْوَهْيِ وَرُبُوبِيَّتِهِ؟ أَوْ يَقُولُ^(٩): ﴿أَفَلَا تَنْقُونَ﴾ صَرَفَ شُكْرِهِ إِلَى غَيْرِهِ، وَقَدْ أَقْرَأْتُمْ أَنَّهُ الْمُتَعِمُّ عَلَيْكُمْ هَذِهِ [النَّعْمَ]^(١٠) لَا مَنْ تَعْبُدُونَ دُونَهُ؟ أَوْ يَقُولُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: إِذَا عَرَفْتُمْ مَا ذَكَرَ ﴿أَفَلَا تَنْقُونَ﴾ مُخَالَفَتُهُ وَعِصْيَانُهُ؟

فَإِذَا أَقْرَأُوا أَنَّ الَّذِي يَمْلِكُ تَدْبِيرَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَهُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ وَالْقِيَامَ بِشُكْرِهِ، فَإِذَا ضَيَّعُوا ذَلِكَ جَمَعَهُمْ عَلَيْهِ اسْمُ الضَّلَالِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالَةُ﴾ [يونس: ٣٢]

الآية ٣٢ وقوله تعالى: ﴿فَذَلِكُنَّ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أَيَّ ذَلِكَمُ الَّذِي ذَكَرَ رَبُّكُمْ بِالْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ﴾ [الذي]^(١١) هُوَ حَقٌّ بِالْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ ﴿إِلَّا الضَّلَالَةُ﴾ لِأَنَّ مَا لَا حُجَجَ لَهُ، وَلَا بُرْهَانَ، فَهُوَ الضَّلَالَةُ.

وقوله تعالى ﴿فَأَنْتَ تُصْرِفُونَ﴾ عَنْ عِبَادَتِهِ إِلَى عِبَادَةِ غَيْرِهِ؟ أَوْ ﴿فَأَنْتَ تُصْرِفُونَ﴾ عَنْ شُكْرِ الْمُتَعِمِّ إِلَى شُكْرِ غَيْرِ الْمُتَعِمِّ، أَوْ يَقُولُ: فَأَنْتَ تَعْدِلُونَ مَنْ لَا يَمْلِكُ مَا ذَكَرَ بِمَنْ يَمْلِكُ؟ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ح ٣/ ٧٢. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: أعني. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: أي. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: يكتفيهما. (٩) في الأصل وم: يقولون. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) من م، ساقطة من الأصل.

الآية ٢٣

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ لِكُلِّ رِيَكٍ حَقَّتْ وَجَبَتْ، وَقِيلَ: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ لِكُلِّ رِيَكٍ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ خَتَمُوا بِالْفَسْقِ ﴿أَنْتُمْ لَا تَوْتُونَ﴾ أَي لَا يَتَّقِعُونَ بِإِيمَانِهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ.

وقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ رِيَكٍ﴾ يَخْتَمِلُ وَجْهَيْنِ؛ يَخْتَمِلُ ﴿لِكُلِّ رِيَكٍ﴾ حُجَجَ ٢٢٩ - ب/ رِيَكٍ، وَيَخْتَمِلُ^(١) بُرَاهِينَهُ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا.

الآية ٢٤

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَدْعُوا مَعَكُمْ ثُمَّ يُبَدِّلُ﴾ قَالَ عَامَةُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: ﴿ثُمَّ يُبَدِّلُ﴾ الْبَغْثُ بَعْدَ الْمَوْتِ؛ أَي لَا أَحَدٌ مِنْ شُرَكَائِكُمْ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ يَمْلِكُ بَذْءَ الْخَلْقِ وَلَا بَعْثَهُ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ ﴿ثُمَّ يُبَدِّلُ﴾ لَا يَخْتَمِلُ الْبَغْثُ لَأَنَّهُمْ كَانُوا لَا يَقْرُونَ بِالْبَغْثِ، فَلَا يَخْتَمِلُ الْإِخْتِجَاعُ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ. وَلَكِنْ قَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ يُبَدِّلُ﴾ مَا سِوَى الْبَشَرِ لَأَنَّهُمْ كَانُوا إِنَّمَا يُنْكِرُونَ إِعَادَةَ الْبَشَرِ. فَأَمَّا إِعَادَةُ غَيْرِهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ [فَلَا يُنْكِرُونَهَا]^(٢) نَحْوُ إِعَادَةِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَإِعَادَةَ الْأَنْزَالِ وَالنَّبَاتِ وَنَحْوِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يُشَاهِدُونَهَا؛ أَي ﴿ثُمَّ يُبَدِّلُ﴾ مِثْلُهُ: اللَّيْلُ لَيْلًا مِثْلَهُ وَالنَّهَارُ نَهَارًا مِثْلَهُ؛ وَكَذَلِكَ الْخَلَائِقُ تَقْنَى، ثُمَّ [يُعِيدُهَا مِثْلَهَا]^(٣) فَإِذَا تَبَتَّ فِي غَيْرِ الْبَشَرِ تَبَتَّ فِي الْبَشَرِ.

وَيَخْتَمِلُ الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا عِنْدَنَا الْبَغْثُ وَأَشْيَاءٌ مِثْلُهُ لِأَنَّهُ تَعْلِيمٌ مِنْهُمْ لَهْمُ. أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَسْبُدُوا لِلْفَلَقِ ثُمَّ يُبَدِّلُ فَاكُنْ تَوَكُّوْنَ﴾؟ قِيلَ: تَكْذِبُونَ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ، وَقَدْ عَرَفْتُمْ أَنَّهُ هُوَ بَدْءُ الْخَلْقِ، ثُمَّ يُعِيدُهُ، لَا أَحَدٌ يَمْلِكُ ذَلِكَ.

أَلَا تَرَى أَنَّهُ اخْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِمَا^(٤) يُلْزِمُهُمْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ الْآيَةُ؟ [البقرة: ٢٨]

الآية ٢٥

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ يَخْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ يَدْعُو إِلَى الْحَقِّ. فَإِذَا كَانَ هَؤُلَاءِ الْأَصْنَامُ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا لَا يَمْلِكُونَ الدَّعَاءَ إِلَى شَيْءٍ، وَلَا يَمْلِكُونَ الضَّرَّ وَالنَّفْعَ، وَمِنْ الْخَلَائِقِ مَنْ لَا يَمْلِكُ النَّفْعَ وَالضَّرَّ، وَيَمْلِكُ الدَّعَاءَ إِلَى خَيْرٍ أَوْ إِلَى نَفْعٍ، فَهَؤُلَاءِ دُونَ الْخَلَائِقِ جَمِيعًا؛ إِذْ لَا يَمْلِكُونَ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا، فَكَيْفَ يَمْلِكُونَ [الدَّعَاءَ إِلَى شَيْءٍ]^(٥)؟ يُبَيِّنُ سَفَهَهُمْ بِعِبَادَتِهِمْ هَؤُلَاءِ الْأَصْنَامَ لِيُعْلَمَ أَنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا.

وَيَخْتَمِلُ قَوْلُهُ ﴿مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ أَي يُبَيِّنُ، وَيُقِيمُ الدَّلَائِلَ وَالْبُرَاهِينَ عَلَى اسْتِحْقَاقِ الْعِبَادَةِ لَهُمْ؟ فَإِذَا لَمْ يَمْلِكُوا الدَّعَاءَ إِلَى الْعِبَادَةِ لَهُمْ فَكَيْفَ يَمْلِكُونَ نَصْبَ الدَّلَائِلِ وَالْحُجَجِ عَلَى اسْتِحْقَاقِ الْعِبَادَةِ؟

[وقوله تعالى]^(٦): ﴿قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ أَخْبَرَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يَهْدِي لِلْحَقِّ. ثُمَّ يَخْتَمِلُ الْوَجْهَيْنِ اللَّذَيْنِ ذَكَرْنَا: هُوَ يَمْلِكُ الدَّعَاءَ إِلَى الْحَقِّ، وَيُقِيمُ^(٧) الدَّلَائِلَ وَالْحُجَجَ عَلَى مَا دَعَا^(٨) إِلَيْهِ، وَهُوَ يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ لَهُ وَالرَّبُوبِيَّةَ.

[وقوله تعالى]^(٩): ﴿أَفَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ الَّذِي يُبَيِّنُ الْبُرَاهِينَ وَالْحُجَجَ ﴿أَحَقُّ أَنْ يَنْبَغَ أَنْ لَا يَهْدِيَ﴾؟ أَي لَا يُبَيِّنُ، وَلَا يَدْعُو ﴿إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ﴾ فَإِنْ قِيلَ: مَا مَعْنَى الْإِسْتِثْنَاءِ، وَهُوَ^(١٠)، وَإِنْ هُدِيَ لَا يَهْتَدِ^(١١)؟ قِيلَ: يُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ هَذَا صَلَةً مَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿مَا كُنْتُمْ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ﴾ [يونس: ٢٨] يُنْطَفِئُهُمُ اللَّهُ ﷻ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَشْهَدُونَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ لَمْ يَأْمُرُوهُمْ بِالْعِبَادَةِ لَهُمْ، وَلَا دَعَوْهُمْ لِإِسْرَافِهِمْ فِي الْعِبَادَةِ، فَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ﴾ لِيُحْلِلَهُمُ اللَّهُ بِحَيْثُ يَهْتَدُونَ إِذَا هُدُوا، وَيُجِيبُونَ إِذَا دُعُوا ﴿فَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾؟ بِالْجَوْرِ وَضَرْفِ الْعِبَادَةِ وَالشُّكْرِ إِلَى مَنْ لَا يَمْلِكُ مَا ذَكَرَ.

وقوله تعالى: ﴿أَتَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ﴾ لَا يَخْتَمِلُ الصَّنَمُ وَالْوَتْنُ الْإِهْتِدَاءَ، وَإِنْ هُدِيَ، وَلَكِنْ الْمُرَادُ مِنْهُ الْإِنْسَانُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ﴾ إِلَّا أَنْ يُحْمَلَ الصَّنَمُ، وَيُوضَعَ. فَأَمَّا أَنْ يَهْتَدِيَ هُوَ بِنَفْسِهِ فَلَا. لَكِنْ يَخْتَمِلُ مَا ذَكَرْنَا إِذَا صَبَّرَهُ بِحَيْثُ يَتَكَلَّمُ وَمِنْ جَنْسٍ مَا يَنْطِقُ، وَأَيْذَنْ لَهُ فِي النَّطْقِ، اخْتَمَلَ الْإِجَابَةَ وَالْإِهْتِدَاءَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَ: وَ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَ: يَنْكُرُونَهُ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَ: يَعِيدُ مِثْلَهُ. (٤) الْبَاءُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَ: (٥) فِي الْأَصْلِ وَ: الضَّرُّ وَالنَّفْعُ. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَ: (٧) فِي الْأَصْلِ وَ: وَيُقِيمُوا. (٨) فِي الْأَصْلِ وَ: دَعَا. (٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَ: (١٠) فِي الْأَصْلِ وَ: وَهِيَ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَ: يَهْتَدِي.

الآية ٣٦

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ قال بعضهم: هذا في الأئمة والرؤساء منهم حين^(١) عبدوا الأصنام والأوثان، وقالوا: ﴿وَمَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٢٣] وقالوا: ﴿هَؤُلَاءِ شَفَعُونَكَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] ونحو ذلك من القول؛ يقول: ﴿وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ﴾ في عبادتهم بأنهم يكونون لهم شفعاء عند الله ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ ظنوه.

وقال بعضهم: هذا في الاتباع والعوام، ليس في الأئمة؛ وذلك^(٢) أن الأئمة قد عرفوا البراهين والحجج التي قامت عليهم والآيات التي جاء بها رسول الله ﷺ لكن ما قالوا: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: ١١٠]... وقالوا ما هذا إِلَّا إِنْكَارٌ مُتَعَدٍّ﴾ [سبا: ٤٣] وقالوا^(٣): ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُنَا﴾ ونحو ذلك من الكلام؛ أرادوا أن يلبسوا على العوام، ويشبهوا عليهم، فاتبع العوام^(٤) الأئمة في ما قالوا وأنه كذا، وصدقوهم. يقول: ﴿وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ ظنوا.

ويشبه أن يكون قوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ﴾ يعني أهل مكة أهل الأوائل والأسلاف في عبادة الأصنام والأوثان ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ لأنهم عبدوا الأصنام [وهم]^(٥) يقولون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ مِثْلِ هَٰذَا﴾ الآية [الزخرف: ٢٢ و٢٣] وآبائنا كذلك يفعلون. ثم أخبر أن ﴿الظَّنَّ لَا يَقْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ أي الظن لا يذكرك به الحق باليقين ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ هو حرف وعيد ليكونوا أبدأ على حذر.

الآية ٣٧

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَنْ يَقْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قال بعضهم: هو صلة قوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّهُ بَشَرٌ نَحْنُ غَيْرُ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٥] فيقول: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَنْ يَقْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ كقوله ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَحْتِ يَدَيَّ نَفِيسٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾ [يونس: ١٥].

وقال بعضهم: إن كفار قريش قالوا: إن محمداً افترى هذا القرآن من عند نفسه، وتقول من نفسه، فقال ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَنْ يَقْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أن يضاف إلى غيره، أو يخلق ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي يصدق هذا القرآن الكتب التي كانت من قبل. ولو كان محمداً هو الذي افترأ، واختلقه من عند نفسه، لكان خرج هو وسائر الكتب المتقدمة مختلفة؛ إذ لم يعرف محمداً سائر الكتب المتقدمة؛ إذ كانت بغير لسانه، ولم يكن له اختلاف إلى من يعرفها ليتعلم. ثم خرج هو، أعني القرآن، مصادقاً وموافقاً للكتب. دل أنه من عند الله جاء كقوله: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَلَوْا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَحْطُمُ بِبَيِّنَاتٍ﴾ الآية [المنكوت: ٤٨].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَنْ يَقْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [يُخْرِجُ عَلَىٰ وَجْهَيْنِ:

أحدهما: ما كان هذا القرآن بالذي يختلج الافتراء من دون الله]^(٦) لإخروجه عن طرق البشر ووسعهم؛ فذلك بالذي يجبل كونه مفترى بجهوه.

والثاني: لما أودع فيه الحكمة والصدق يدل على كونه من عند الله؛ إذ كلام غيره يختلج السفة والكذب، ويختلج الاختلاق. [وقوله تعالى]^(٧): ﴿وَتَفْصِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ قيل: فيه بيان الكتب التي نزلت قبله وتماها^(٨). إن هذا، وإن كان في اللفظ مختلفاً فهو في الحكمة والصدق مبين موافق للأول. وقيل: ﴿وَتَفْصِيلُ الْكِتَابِ﴾ أي تفصيل ما كتبت لهم، وما عليهم. أو أن يقال: إلى الله تفصيل الكتاب ليس إلى غيره ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أنه من عند رب العالمين، أو يقال: مفصل في اللوح المحفوظ.

الآية ٣٨

وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ يقول: إن كان محمداً افترأ من عند نفسه فأتوا انتم بمثل؛ إذ لسانه ولسانكم واحد، فأنتم قد عرفتم بالفرية والكذب، ومحمداً لم يعرف به قط، ولا أخذ عليه كذب قط، فأنتم أولى أن تأتوا بسورة مثله.

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) الواو ساقطة من م. (٣) في الأصل وم: و. (٤) أدرج بعدما في الأصل وم: إلى. (٥) في الأصل وم: و. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: يقول. (٨) في الأصل وم: وتماها.

[وقوله تعالى] ^(١): اخْتَلَفَ فِيهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: اذْعُوا آلِهَتَكُمْ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا لِيُعِينُوكُمْ عَلَى إِتْيَانِ مِثْلِهِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: اذْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ أَي مَنِ لِسَانُهُ مِثْلُ لِسَانِكُمْ لِيُعِينُوكُمْ عَلَى ذَلِكَ، أَوْ يَقُولُ: اسْتَعِينُوا بِدِرَاسَةِ الْكُتُبِ لِتُعِينَكُمْ ^(٢) عَلَى مِثْلِهِ **﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾** أَنَّ مُحَمَّدًا افْتَرَاهُ مِنْ نَفْسِهِ. فَذَلَّ تَرَكُ اشْتِغَالِهِمْ بِذَلِكَ عَلَى أَنَّهُمْ قَدْ عَرَفُوا أَنَّهُ لَيْسَ بِمُفْتَرَى وَأَنَّهُ سَمَاوِيٌّ.

الآية ٢٩ وقوله تعالى: **﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِإِلَهِهِ﴾** قَالَ بَعْضُهُمْ: مَا لَمْ يَحْفَظُوا نَظْمَهُ وَلَا لَفْظَهُ، وَلَا نَظَرُوا فِيهِ، وَلَا تَدَبَّرُوا لِيَعْلَمُوا **﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِإِلَهِهِ﴾** بِالْبَدِيهَةِ. وَالشَّيْءُ / ٢٣٠ - / إِنَّمَا يُعْرِفُ كَذِبُهُ وَصِدْقُهُ بِالنَّظَرِ فِيهِ وَالتَّفَكُّرِ وَالتَّدَبُّرِ لَا بِالْبَدِيهَةِ.

فَذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، تَأْوِيلُ قَوْلِهِ **﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِإِلَهِهِ﴾** كَذَّبُوا عَلَى عِلْمٍ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ كَذَبُوا فِي مَا يَقُولُونَ، وَيَتَقُولُونَ أَنَّهُ مُفْتَرَى لَيْسَ بِمُنْزَلٍ **﴿وَلَمَّا يَأْتِيهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾** أَي وَلَمَّا يَأْتِيهِمُ الْعِلْمُ بِتَأْوِيلِهِ أَي بِتَأْوِيلِ الْقُرْآنِ.

وَمَعْنَاهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَنَّهُمْ كَذَّبُوهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ حَفِظُوا نَظْمَهُ، وَوَعَا لَفْظَهُ، وَلَا أَتَاهُمُ الْعِلْمُ بِعَاقِبَتِهِ وَآخِرِهِ.

قِيلَ: التَّأْوِيلُ هُوَ رَدُّ كُلِّ شَيْءٍ إِلَى أَوَّلِيَّةِ الْأَمْرِ. وَقَالَتِ الْحِكْمَاءُ: التَّأْوِيلُ آخِرُ كُلِّ فِعْلٍ: هُوَ قَضَى فِي أَوَّلِهِ، وَقَضَى كُلِّ شَيْءٍ فِي أَوَّلِهِ هُوَ آخِرُ فِي فِعْلِهِ أَوْ نَحْوِهِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: **﴿وَلَمَّا يَأْتِيهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾** مَا ^(٣) وَعَدَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ **﴿تَأْوِيلُ الْقُرْآنِ بِمَا يَكُونَ مِنْهُ فِي الدُّنْيَا وَبِمَا يَكُونَ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهُوَ الْعَذَابُ الَّذِي وَعَدَ﴾**

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: **﴿تَأْوِيلُهُ﴾** ثَوَابُهُ، وَقِيلَ: عَاقِبَتُهُ. وَقَالَ الْوَاقِدِيُّ: لَمْ يَأْتِيهِمْ عَاقِبَةُ بَيَانِ مَا وَعَدَ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْوَعِيدِ.

وَأَصْلُ التَّأْوِيلِ هُوَ النَّظَرُ إِلَى مَا تَوَوَّلَ عَاقِبَةُ الْأَمْرِ.

وقوله تعالى: **﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾** [يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا] ^(٤): أَي كَذَلِكَ كَذَّبَ الْأُمَمُ السَّالِفَةُ رُسُلَهُمْ كَمَا كَذَّبَ كُفَرَاءُ مَكَّةَ رُسُلَهُمْ؛ أَي لَسْتَ أَنْتَ بِأَوَّلِ مُكَذِّبٍ، بَلْ كُذِّبَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِنْ إِخْوَانِكَ لِيَكُونَ لَهُ التَّسْلِي عَمَّا هُوَ فِيهِ مِنْ تَكْذِيبِهِمْ إِيَّاهُ وَرَدُّهُمْ عَلَيْهِ أَنَّهُ يَنْزِلُ بِهِمْ مَا نَزَلَ بِأَوْلَئِكَ، إِنَّهُمْ أَقَامُوا عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ.

وَالثَّانِي: أَنْ يَكُونَ الْخُطَابُ، وَإِنْ كَانَ خَارِجًا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَهُوَ رَاجِعٌ إِلَى قَوْمِهِ، يَأْمُرُ بِالنَّظَرِ فِي مَا نَزَلَ بِالْأُمَمِ السَّالِفَةِ، وَأَنْ يَتَأَمَّلُوا أَحْوَالَهُمْ لِيَكُونَ ذَلِكَ سَبَبًا لِرَجْرِهِمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ.

وقوله تعالى: **﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾** بِالتَّكْذِيبِ؛ أَي كَيْفَ يُعَاقِبُونَ، وَتُعَذِّبُونَ؟ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٤٠ وقوله تعالى: **﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾** قِيلَ: أَهْلُ مَكَّةَ مَنْ يُؤْمِنُ بِهَذَا الْقُرْآنِ، **﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ﴾** وَهُمْ كَذَلِكَ كَانَ ^(٥) مِنْهُمْ مَنْ قَدْ آمَنَ بِهِ، **﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ﴾** أَي مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ. وَيَحْتَمِلُ عَلَى الْوَعِيدِ فِي مَا يُسْتَقْبَلُ؛ أَي مِنْهُمْ مَنْ أَهْلُ [مَكَّةَ] ^(٦) مَنْ يُؤْمِنُ بِهَذَا الْقُرْآنِ **﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ﴾**، وَهُمْ كَذَلِكَ كَانَ ^(٧) مِنْهُمْ مَنْ قَدْ آمَنَ بِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: وَهِيَ فِي الْيَهُودِ لَيْسُوا ^(٨) مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، وَظَاهِرُهُ أَنْ تَكُونَ فِي كُفَرَاءِ [مَكَّةَ] ^(٩). وَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُ عَائِثَةَ أَهْلِ التَّأْوِيلِ؛ كَانَ يُخْرِجُ عَلَى الْبَشَارَةِ أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ لَثَلَا يَقْطَعُ، وَيَمْنَعُ دَعَاءَهُمْ، وَأَخْبَرَ أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ يُؤْيِسُهُ حَتَّى لَا يَشْتَدَّ حَزَنُهُ عَلَى كُفْرِهِمْ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ هَذَا: أَي مِنْهُمْ مَنْ قَدْ يُؤْلَدُ مِنْ بَعْدُ، وَيُؤْمِنُ ^(١٠)، وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْلَدُ، فَلَا يُؤْمِنُ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: ليعينوكم. (٣) أدرج قبلها في الأصل وم: قال. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: كانوا.

(٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: كانوا. (٨) في الأصل وم: ليست. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: ومن يؤمن.

وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ يُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ أَي عَلَى عِلْمٍ بِمَا يَكُونُ مِنْهُمْ مِنَ الْفَسَادِ؛ خَلَقَهُمْ، وَأَنْشَأَهُمْ لَيْسَ^(١) عَنْ غَفْلَةٍ وَجَهْلٍ بِالْفَسَادِ، وَلَكِنْ عَنْ عِلْمٍ بِذَلِكَ لِمَا لَا يَضُرُّهُ فُسَادُ مُفْسِدٍ، وَلَا يَنْفَعُهُ صَلَاحُ مُصْلِحٍ، إِنَّمَا عَلَيْهِمْ ضَرَرُ فُسَادِهِمْ، وَلَهُمْ مَنَفَعَةُ صَلَاحِهِمْ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عَلَى الْوَعِيدِ أَي عَالَمٌ بِفُسَادِهِمْ، فَيَجْزِيهِمْ جَزَاءَ الْفَسَادِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٤١

وقوله تعالى: ﴿إِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ تَأْوِيلُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: أَي إِنْ كَذَّبْتُ فِي مَا أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّهُ جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَلِي عَمَلِي فِي مَا أَبْلَغْتُكُمْ أَي فَعَلْتِي وَرَزَرُ عَمَلِي ﴿وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ أَي فَعَلْيَكُمْ جُزْءُ مَا رَدَدْتُمْ عَلَيَّ فِي مَا بَلَّغْتُكُمْ عَنِ اللَّهِ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ اقْرَأْ قُلْ إِنْ اقْرَأْتُمْ فَقُلْ إِبْرَاهِيمَ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [هود: ٣٥] أَي عَلَيَّ جُزْءُ مَا اقْتَرَيْتَ إِنْ اقْتَرَيْتَ، وَعَلَيْكُمْ جُزْءُ مَا رَدَدْتُمْ عَلَيَّ فِي مَا بَلَّغْتُكُمْ عَنِ اللَّهِ.

وَيَحْتَمِلُ مَا قَالَهُ أَهْلُ التَّأْوِيلِ ﴿لِي عَمَلٍ﴾ أَي لِي دِينِي ﴿وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ أَي وَلَكُمْ دِينُكُمْ؛ أَنْتُمْ بَرِيثُونَ مِمَّا أَعْمَلُ، وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ.

تَأْوِيلُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَي أَنَا لَا أَخْذُ بِمَا دِنْتُمْ أَنْتُمْ، وَلَا أَنْتُمْ مُؤَاخَذُونَ بِمَا دِنْتُ أَنَا، وَعَمِلْتُ^(٢)، وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٥٢] وكَقَوْلِهِ: ﴿فَلَيْتَ تَرَأَوْهُمُ فَائِئًا عَلَيْهِ مَا جُمِلَ﴾ [النور: ٥٤] وكَقَوْلِهِ^(٣) ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [المائدة: ٩٩] وكَقَوْلِهِ ﴿قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أُبْرِئُكُمْ﴾ [الآية: سبأ: ٢٥].

الآية ٤٢

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ أَخْبَرَ أَنَّ مِنْهُمْ مَن يَسْتَمِعُ إِلَيْهِ؛ يَعْنِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ تَعَالَى وَإِلَى مَا يَتْلُو مِنَ الْقُرْآنِ، لَكِنَّهُ يُخْبِرُ أَنَّهُ لَا كُلُّ مُسْتَمِعٍ إِلَى شَيْءٍ يَنْتَفِعُ بِمَا يَسْتَمِعُ، أَوْ يَغْفُلُ مَا يَسْتَمِعُ، وَيَفْهَمُ. إِنَّمَا يَنْتَفِعُ بِالِاسْتِمَاعِ إِلَيْهِ، وَيُغْفِلُ قَدْرُ الْمَقْصُودِ وَالْحَاجَةِ إِلَيْهِ.

وَمِنْهُمْ مَن كَانُوا يَسْتَمِعُونَ لِمَعَانٍ: مَرَّةً يَسْتَمِعُونَ بِقَبُولِ الْقَوْلِ لَهُمْ وَالْمَنْزِلَةِ، وَمِنْهُمْ مَن كَانَ يَسْتَمِعُ إِلَيْهِ لِيُسْمِعَ غَيْرَهُ كَقَوْلِهِ: ﴿سَتَجِدُونَ لِكُلِّ قَوْمٍ لِقَوْمٍ آخَرِينَ﴾ [المائدة: ٤١] وَمِنْهُمْ مَن كَانَ يَسْمَعُهُ، وَيُطِيعُهُ فِي ذَلِكَ، فَإِذَا خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ غَيْرُهُ، وَبَذَلَهُ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ [النساء: ٨١] وَمِنْهُمْ مَن كَانَ يَسْتَمِعُ إِلَيْهِ اسْتِهْزَاءً مِنْهُ وَطَلَبَ الطُّغْيَانِ فِيهِ وَالْعَيْبِ؛ كَانُوا مُخْتَلِفِينَ فِي الْإِسْتِمَاعِ.

ثُمَّ نَفَى عَنْهُمْ السَّمْعَ وَالْعَقْلَ وَالْبَصَرَ لَوَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: مَا ذَكَّرْنَا أَنَّهُمْ لِمَا لَمْ يَنْتَفِعُوا بِأَسْمَاعِهِمْ وَعُقُولِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ، وَبِهَذِهِ^(٤) الْحَوَاسِ انْتِفَاعٌ، كَمَنْ^(٥) لَيْسَتْ لَهُ هَذِهِ الْحَوَاسِ إِنَّمَا جُعِلَتْ لِيَنْتَفِعَ بِهَا لَا لِتَرْكَ سُدَى، لَا يَنْتَفِعَ بِهَا.

وَالثَّانِي: كَانَ الْعَقْلُ وَالسَّمْعُ وَالْبَصَرُ، وَهَذِهِ يَكُونُ مِنْهَا مُكْتَسَبٌ^(٦) وَمِنْهَا مَا يَكُونُ غَرِيزَةً. فَهَمْ تَرَكُوا الْحِسَابَ ذَلِكَ.

يَحْتَمِلُ نَفْيُ هَذِهِ الْحَوَاسِ لِهَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ اللَّذَيْنِ ذَكَّرْتُهُمَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ نَفَى عَنْهُمْ لَا يَسْتَمِعُ الْعَقْلَ حِينَ^(٧) قَالَ: ﴿لَا يَقُولُونَ﴾ وَنَفَى عَنْهُمْ الْإِهْتِدَاءَ وَالْإِبْصَارَ بِتَرْكِ النَّظَرِ.

الآية ٤٣

فَقَالَ: ﴿أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرَ وَلَوْ كَانُوا لَا يَتَّخِذُونَ﴾ لِأَنَّ الْبَصَرَ يُوصِلُ إِلَى اهْتِدَاءِ الطَّرِيقِ وَالسَّلُوكِ فِيهَا.

أَلَا تَرَى أَنَّ الْبَهَائِمَ قَدْ تُبْصِرُ الطَّرِيقَ، وَتَسْلُكُ بِهَا، وَتَنْقِي بِهَا الْمَهَالِكَ، وَلَا تَغْفُلُ لِمَا لَيْسَ لَهَا سَمْعُ الْعَقْلِ، فَلَا تَغْفُلُ لِمَا يَسْمِعُ الْقَلْبُ؛ [إِذْ بِالْعَقْلِ]^(٨) وَبِظَاهِرِ الْبَصَرِ تُبْصِرُ الْأَشْيَاءَ.

الآية ٤٤

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الشَّيْئَاتِ وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ يُخْبِرُ أَنَّ مَا حَلَّ بِأُولَئِكَ مِنْ عَذَابِ اسْتِصْصَالٍ وَعُقُوبَةٍ إِنَّمَا حَلَّ بِظُلْمِهِمْ [لَا]^(٩) مِنْ اللَّهِ تَعَالَى.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَلَيْسَ. (٢) الْوَاوُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم: (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٤) فِي م: وَهَذِهِ. (٥) الْكَافُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

(٦) فِي الْأَصْلِ وَم: مُكْتَسَبٌ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: بِعَقْلِ. (٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

الآية ٤٥

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّرِ بَلِشْرًا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ﴾ قَالَ [بَعْضُهُمْ] ^(١) فِي قُبُورِهِمْ ﴿يَتَكَلَّمُونَ بَيْنَهُمْ﴾ إِذَا خَرَجُوا مِنْ قُبُورِهِمْ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ مِنْ أَهْلِ التَّوِيلِ: ﴿كَأَن لَّرِ بَلِشْرًا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ﴾ فِي الدُّنْيَا.

وَأَصْلُهُ: كَانَهُمْ اسْتَقَلُّوا طُولَ مُقَامِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَمَا أَنْعَمُوا فِيهَا لِمَا عَانَتُوا مِنْ أَهْوَالِ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَشِدَائِدِهِ؛ وَاسْتَقَلُّوا لَبْنُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَمُقَامَهُمْ لَطُولَ مُقَامِهِمْ فِي الْآخِرَةِ وَالْعَذَابِ.

وفيه وجه ثانٍ، وهو أَنَّ يُذَكَّرَ مِنْ شِدَّةِ سَفَهِهِمْ وَغَايَةِ جَهْلِهِمْ أَنَّ مَا بَعْدَهُمْ مِنَ الْحَشْرِ وَالْعَذَابِ الْأَبَدِ كَانَهُمْ لَا يَلْبِثُونَ فِيهَا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ حَتَّى لَا يَنَالُوا ^(٢) مَا يَلْحَقُهُمْ مِنْ ذَلِكَ وَمَا يَسْتَوْجِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْعَذَابِ بِاِكْتِسَابِهِمْ تِلْكَ الْأَسْبَابَ.

وقوله تعالى: ﴿يَتَكَلَّمُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أَيِ يَعْرِفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَلَى قَدَرٍ مَا يَتَّبَرَأُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، ثُمَّ يُفَرِّقُ بَيْنَهُمْ كَقَوْلِهِ: ﴿زَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٢٨] أَيِ فَرَّقْنَا بَيْنَهُمْ.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِفَلَانٍ يُفْلَهُ أَفَلَا يَلْقَئُ اللَّهَ﴾ أَيِ خَسِرُوا بِمَا وَعَدُوا فِي الْآخِرَةِ مِنَ النَّعْمِ الدَّائِمَةِ بِتَرْكِ اِكْتِسَابِهِمْ إِيَّاهَا إِذْ قَدْ أُعْطُوا مَا يَكْتَسِبُونَ بِوَعْدِ الْآخِرَةِ، فَاسْتَسَبُوا مَا بِهِ خَسِرُوا ذَلِكَ. فَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ [البقرة: ١٧٥] عَلَى اِكْتِسَابِ مَا بِهِ يَسْتَوْجِبُونَ النَّارَ.

الآية ٤٦

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْيَاكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ ٢٣٠ - ب/ أَوْ تَوَقَّعَكَ حَرْفٌ إِمَّا حَرْفُ شَكٍّ، وَكَذَلِكَ حَرْفٌ أَوْ. وَلَكِنْ يَكُونُ تَأْوِيلُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، عَلَى حَذْفٍ مَا وَاضِمَارِ حَرْفٍ إِنْ؛ كَأَن يَقُولَ: إِنْ أَرَيْنَاكَ [فَإِنَّمَا تُرِيكَ] ^(٣) بَعْضَ مَا نَعِدُهُمْ لَا كُلَّ مَا نَعِدُهُمْ ﴿أَوْ تَوَقَّعَكَ﴾ وَلَا تُرِيكَ شَيْئًا، أَوْ أَنَّ يَكُونَ [مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّا تُرِيكَ بَعْضًا] ^(٤) مَا نَعِدُهُمْ أَيِ لَقَدْ تُرِيكَ بَعْضَ مَا نَعِدُهُمْ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٨]

فَعَلَى هَذَا التَّوِيلِ يُرِيدُ بَعْضَ مَا يَعِدُهُمْ، وَلَا يُرِيدُ كُلَّ مَا وَعَدَهُمْ. وَعَلَى التَّوِيلِ الْأَوَّلِ إِنْ أَرَاهُ فَإِنَّمَا ^(٥) يُرِيدُ بَعْضَ ذَلِكَ، أَوْ لَا ^(٦) يُرِيدُ شَيْئًا.

فَإِنْ قِيلَ: حَرْفٌ إِمَّا شَكٍّ وَكَذَلِكَ حَرْفٌ أَوْ، كَيْفَ تَسْتَقِيمُ إِضَافَتُهُ إِلَى اللَّهِ، وَهُوَ عَالِمٌ بِمَا كَانَ، وَيَكُونُ، وَإِنَّمَا تَسْتَقِيمُ إِضَافَتُهُ إِلَى اللَّهِ، وَهُوَ عَالِمٌ بِمَا كَانَ، وَيَكُونُ، وَإِنَّمَا تَسْتَقِيمُ إِضَافَتُهُ إِلَى مَنْ يَجْهَلُ الْعَوَاقِبَ؟ قِيلَ: جَمِيعُ حُرُوفِ الشَّكِّ الَّتِي أُضِيفَتْ إِلَى اللَّهِ هِيَ عَلَى الْيَقِينِ وَالْوُجُوبِ نَحْوُ حَرْفِ عَسَى وَلَعَلَّ وَنَحْوِ ذَلِكَ. فَعَلَى ذَلِكَ حَرْفٌ إِمَّا وَ أَوْ، أَيِ ^(٧) هُوَ لَمْ يَزَلْ عَالِمًا بِمَا كَانَ، وَيَكُونُ فِي أَوَقَاتِهِ.

وَأَمَّا حَرْفُ الْإِسْتِفْهَامِ وَالشَّكِّ فَيُخْرِجُ عَلَى مُخْرَجِ الْإِيجَابِ وَالْإِلْزَامِ عَلَى مَا ذَكَرْنَا فِي حَرْفِ الشَّكِّ، أَوْ يَكُونُ رَسُولُ اللَّهِ وَعَدًا أَنْ يُرِيدَهُمْ شَيْئًا، فَقَالَ عِنْدَ ذَلِكَ: ﴿وَلَا تَرْيَاكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَوَقَّعَكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ يَقُولُ ^(٨): لَيْسَ إِلَيْكَ مَا وَعَدْتَهُمْ، إِنَّمَا ذَلِكَ إِلَيْنَا كَقَوْلِهِ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]

وقوله تعالى: ﴿فَالِإِنَّا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ هَذَا يَحْتَمِلُ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ لَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَا فَعَلُوا مِنَ التَّكْذِيبِ بِالْآيَاتِ وَرُدِّهَا، وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ﴾ [الأنعام: ١٩] وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ عَالِمٌ بِمَا يَفْعَلُ، لَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ، وَهُوَ وَعِيدٌ كَقَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ بِصِيرٍ يَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحجرات: ١٨]، [وقوله] ^(٩): ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩] وَنَحْوُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٤٧

وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَنَا أُولُو رَسُولٍ﴾ أَيِ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِي مَا خَلَا رَسُولُ اللَّهِ بُعِثَ إِلَيْهِمْ؛ لَسْتُ أَنَا أَوَّلُ رَسُولٍ بُعِثَ إِلَيْكُمْ كَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٩]

[وقوله تعالى] ^(١٠): ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُتِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ أَيِ يَقْضَى بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ يَحْتَمِلُ هَذَا وَجْهَيْنِ:

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: ينالون. (٣) في الأصل وم: إنما ترينك. (٤) في الأصل وم: قوله: إن ترينك بعد. (٥) في الأصل وم: إنما. (٦) في الأصل وم: ولا. (٧) في الأصل وم: و. (٨) أدرج قبلها في الأصل وم: شيئاً. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: عليه.

يُخْتَمِلُ: ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ أي يُقْضَى بَيْنَ الرُّسُلِ وَبَيْنَ الْأُمَمِ بِالْعَدْلِ بِمَا كَانَ مِنَ الرُّسُلِ مِنْ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ إِلَيْهِمْ وَالِدَعَاءِ إِلَى دِينِ اللَّهِ وَمِنْ الْأُمَمِ مِنَ التَّكْذِيبِ لِلرُّسُلِ وَالرَّدِّ لِلآيَاتِ؛ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْعَدْلِ ﴿وَمَنْ لَا يَظْلُمُونَ﴾ لَا يُزَادُ عَلَى مَا كَانَ، وَلَا يُنْقُصُ.

وَيُخْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿قُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أَيِ يُهْلِكُ الْمُكَذِّبُونَ مِنْهُمْ، وَيُنْجِي مَنْ صَدَقَهُمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية [يونس: ١٠٣]. وَيَجُوزُ أَنْ يُقْضَى بَيْنَ الْمُعْرِضِينَ وَبَيْنَ الْمُجِيبِينَ وَالْمُطِيعِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

الآية ٤٨

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وذلك أنهم لما أوعدهم العذاب قال: ﴿وَأَنَا رُسُلُكَ بَعَثَ إِلَيْكَ تَوَاتُرًا﴾ مِنَ الْعَذَابِ فَقَالُوا: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ الَّذِي تُوَعِدُنَا يَا مُحَمَّدُ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا بِأَنَّ الْعَذَابَ نَازِلٌ بِنَا فِي الدُّنْيَا، وَهُوَ عَلَى التَّوَاتُؤِ الثَّانِي الَّذِي ذَكَرْنَا: لَقَدْ نُرِيكَ بَعْضَ مَا وَعَدْتَهُمْ.

الآية ٤٩

فقال: ﴿قُلْ لَا أَتْلَاكِ لِنَفْسِي مَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ وَلَا أَمْلِكُ جَرَّ مَنْفَعَةٍ إِلَيْهَا. يَقُولُ: لَا أَقْدِرُ عَلَى أَنْ أُوقِعَ عَنْ نَفْسِي سُوءًا حِينَ يَنْزِلُ بِي، وَلَا أَمْلِكُ أَنْ أُسَوِّقَ إِلَيْهَا خَيْرًا بِنَفْعَةٍ. فَإِذَا لَمْ أَمْلِكْ هَذَا كَيْفَ أَمْلِكُ إِنْزَالَ الْعَذَابِ عَلَيْكُمْ؟ إِنَّمَا ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ، هُوَ الْمَالِكُ لَهُ^(١) وَالْقَادِرُ عَلَى ذَلِكَ، لَا يَمْلِكُ أَحَدٌ ذَلِكَ سِوَاهُ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ [الكهف: ١١٠].

وقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَجِزُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ﴾ أَيِ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى تَقْدِيمِهِ: لَيْسَ عَلَى أَنَّهُمْ لَا يَبْطِلُونَ تَأْخِيرَهُ وَلَا تَقْدِيمَهُ، فَيَسْأَلُونَ ذَلِكَ، وَلَكِنْ لَا يُؤَخَّرُ إِذَا جَاءَ، وَلَا يَقْدَمُ قَبْلَ أَجَلِهِ.

وفيه دلالة ألا يَهْلِكُ أَحَدٌ قَبْلَ أَجَلِهِ؛ وَهُوَ رَدٌّ عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ حِينَ^(٢) قَالُوا: مَنْ قَتَلَ آخَرَ فَإِنَّمَا قَتَلَهُ قَبْلَ أَجَلِهِ، وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿فَلَا يَسْتَجِزُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ﴾ وَهُمْ يَقُولُونَ: يَسْتَفِيدُونَ، وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ.

الآية ٥٠

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُمْ بَيِّنَاتٌ أَوْ تَنَارًا تَلَظَّى لَا يَسْتَجِزُ مِنْهُ الشَّكْرُونَ﴾ يَقُولُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: أَيِ^(٣) مَنْفَعَةٍ لَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ؟ لَا مَنْفَعَةٌ لَكُمْ فِي ذَلِكَ، بَلْ فِيهِ ضَرَرٌ لَكُمْ. فَاسْتَعْجَالٌ مَا لَا مَنْفَعَةَ فِيهِ سَفَهٌ وَجَهْلٌ، يُسَفِّهُهُمْ فِي سُؤَالِهِمُ الْعَذَابَ، وَيُخْبِرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَا يَسْتَجِزُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ﴾ أَنَّ عَذَابَ اللَّهِ إِذَا نَزَلَ، وَجَاءَ وَقْتُهُ، لَا يَمْلِكُ أَحَدٌ تَقْدِيمَهُ وَلَا تَأْخِيرَهُ، وَلَا يُخْتَمَلُ اسْتِقْدَامُهُ وَلَا اسْتِخَارُهُ بِالْقَدْرِ وَالْمَنْزِلَةِ كَمَا لَا يُخْتَمَلُ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا التَّقْدِيمُ وَالتَّأْخِيرُ بِالشَّفَاعَةِ وَالْفِدَاءِ.

وَيَذَكِّرُ عَجْزَهُ فِي إِنْزَالِ الْعَذَابِ عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلْ لَا أَتْلَاكِ لِنَفْسِي مَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾

الآية ٥١

وقوله تعالى: ﴿أَتُزَكَّىٰ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنُكُمْ بِرَبِّهِمْ ءَلَمْ يَكُنْ قِيلَ: أَيِ الْعَذَابِ إِذَا نَزَلَ بِكُمْ ءَامَنُكُمْ بِهِ الْآنَ. يُخْبِرُ عَنْهُمْ إِذَا نَزَلَ بِهِمُ الْعَذَابُ يُؤْمِنُونَ.

ثُمَّ يَخْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿ءَامَنُكُمْ بِرَبِّهِمْ﴾ أَيِ بِاللَّهِ وَبِرُسُولِهِ كَقَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ [غافر: ٨٤] ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّ إِيْمَانَهُمْ لَا يَنْفَعُهُمْ عِنْدَ مَعَانِيَتِهِمُ الْعَذَابَ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ [غافر: ٨٥] وَقَوْلِهِ: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

وَيُخْتَمِلُ قَوْلُهُ ﴿ءَامَنُكُمْ بِرَبِّهِمْ ءَلَمْ يَكُنْ قِيلَ: أَيِ الْعَذَابِ لِأَنَّهُمْ يُكْذِبُونَ رَسُولَ اللَّهِ فِي مَا يَدْعُوهُمْ بِالْعَذَابِ، وَهُمْ يَسْتَعْجِلُونَ بِهِ اسْتِهْزَاءً وَتَكْذِيبًا. فَإِذَا نَزَلَ بِهِمْ ءَامَنُوا، أَيِ صَدَّقُوا بِذَلِكَ الْعَذَابِ؛ يَقُولُ ﴿ءَامَنُكُمْ بِرَبِّهِمْ ءَلَمْ يَكُنْ قِيلَ: أَيِ الْعَذَابِ لِأَنَّهُمْ يُكْذِبُونَ رَسُولَ اللَّهِ فِي مَا يَدْعُوهُمْ بِالْعَذَابِ، وَهُمْ يَسْتَعْجِلُونَ بِهِ اسْتِهْزَاءً وَتَكْذِيبًا. أَنَّهُ غَيْرُ نَازِلٍ بِكُمْ ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٥٢

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا قِيلَ: اشْكُوا فِي آلِهَتِكُمْ رَبُّوهُمْ وَوُجُوهَهُمْ غَيْرُهُمْ﴾ ذُوقُوا عَذَابَ الْفُلْجِ لِأَنَّهُمْ يُخْلَدُونَ فِيهِ؛ يُقَالُ ذَلِكَ بَعْدَ مَا أُدْخِلُوا النَّارَ ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أَيِ لَا تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كَسَبْتُمْ فِي الدُّنْيَا.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: عَلَيْهِ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: آيَةٌ.

الآية ٥٢

وقوله تعالى: ﴿وَسْتَخِيرُكَ﴾ أي سَتَسْتَخِيرُكَ ﴿أَحَقُّ هُوَ﴾ يَحْتَمِلُ هذا وجوها:

يَحْتَمِلُ قوله: ﴿أَحَقُّ هُوَ﴾ العذاب الذي كان يوعدهم أنه ينزل بهم على ما قاله أهل التأويل، ثم قال: ﴿قُلْ إِي وَرَقَ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ أي قل نعم وربّي إنه لَحَقٌّ أنه نازل بكم ﴿وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي بفايتين عنه ولا سابقين له. ويَحْتَمِلُ قوله: ﴿أَحَقُّ هُوَ﴾ ما يدعوهم إليه من التوحيد كقولهم لإبراهيم: ﴿أَجِثْنَا بِالْحَقِّ أَرَأَيْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾ ﴿قَالَ بَلْ زَكَّرَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾ الآية [الأنبياء: ٥٥ و ٥٦] فعلى ذلك قولهم: ﴿أَحَقُّ هُوَ﴾ ثم أخبر ﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ بقوله ﴿إِي وَرَقَ إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ غائبين فائتين عنه.

ويَحْتَمِلُ الآيات أو محمداً أو القرآن ﴿أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَقَ﴾ قل نعم إنه لَحَقٌّ كقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنْتُمْ نَحْنُ فَزُورُوا قَالَهُمْ إِنَّهُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْكَذَّابِينَ﴾ [البقرة: ٦٧] أخبر أن ما يأمرهم به، ويدعوهم [إليه] ليس هو زوراً ولا لُغياً، ولكن حق أمر من الله تعالى. فعلى ذلك قوله: ﴿أَحَقُّ هُوَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَسْتَخِيرُكَ أَحَقُّ هُوَ﴾ هذا الحرف يَحْتَمِلُ أن يكون من الشاكين منهم في ذلك؛ طلبوا منه أنه [أحق ذلك أم] لا؟ ومن المعاندين به كقوله: ﴿يَسْتَخِيرُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ [الشورى: ١٨] كانوا فريقاً ثلاثة: فريق قد آمنوا به، وفريق قد شكروا فيه، وفريق قد كذبوه.

الآية ٥٤

وقوله ٢٣١ - ٢٣٢ / تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ ظِلْمٌ مَّا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ﴾ يُخْبِرُ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ يَفْذُونَ، وَيَذْلُونَ جميع ما في الأرض، لو قدروا عليه عند نزول العذاب بهم لَشِدَّةُ العذاب، ولو كان الذي منعهم عن الإيمان هو حُبُّهم الدنيا، وبُغْضُهم عليها وما فيها بقوله: ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاتَّبَعُوا رِجْسَهَا﴾ [يونس: ٧].

وقوله تعالى: ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ الندامة لا تكون إلا سراً بالقلب؛ فكانه قال: حققوا الندامة في قلوبهم على^(٣) ما كان منهم من التكذيب بالآيات والعناد في ردّها.

وقال بعضهم: ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ﴾ أي أظهرها الندامة، وهو ما يُسْتَعْمَلُ في الإظهار والإخفاء كقوله: شَغِبَ جَنَحٌ وشَغِبَ قَرْقٌ ونحوه. ويُعَدُّ فإنه إذا أَسَرَ في نفسه لا بد من أن يضع ذلك في آخر، ويُخْبِرُهُ بذلك. فذلك منه إظهار.

وقوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ يَنْتَهُمُ بِالْقِسْطِ﴾ يَحْتَمِلُ قوله ﴿وَوُضِعَ يَنْتَهُمُ بِالْقِسْطِ﴾ ما تُوجِبُهُ الحكمة؛ لأنَّ الْحِكْمَةَ توجب تغليب كل كافر نعمة وكل قائل في الله ما لا يليق به، أو أن يكون تفسير قوله: ﴿بِالْقِسْطِ﴾ ما ذَكَرَ ﴿وَمَنْ لَا يَظْلَمُونَ﴾. ويَحْتَمِلُ قوله ﴿بِالْقِسْطِ﴾^(٤) ما ذَكَرَ ﴿أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَبِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤] والقِسْطُ هو العدل، وهم يومئذ عَرَفُوا أنه كان يُقْضَىٰ بالعدل في الدنيا والآخرة، والله أعلم.

الآية ٥٥

وقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي إن ما في السموات والأرض [للّهِ]^(٥) كلُّهُمْ عبيده وإماؤه ومُلْكُهُ لا لِمَنْ تَعْبُدُونَ دُونَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْتَانِ. فَمَنْ عِنْدَ مَنْ يَمْلِكُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ اطْلُبُوا ذَلِكَ مِنْهُ لَا^(٦) مِنْ عِنْدِ مَنْ لَا يَمْلِكُ. يَبَيِّنُ سَفَهَهُمْ فِي ظَلَمِهِمُ الدُّنْيَا مِنْ عِنْدِ مَنْ يَعْلَمُونَ أنه لا يملك ذلك، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ في كل وعيد ووعد إنه كائن لا محالة عذاباً أو رَحْمَةً ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يَتَّقِعُونَ بِعِلْمِهِمْ. فَتَقَى عَنْهُمْ الْعِلْمُ، وَإِنْ عَلِمُوا، لِمَا لَمْ يَتَّقِعُوا بِهِ.

ويَحْتَمِلُ قوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لم يكتسبوا سَبَبَ الْعِلْمِ، وهو التأويل والتَّظَرُّ في آيَاتِهِ وَحُجَجِهِ، وَيَحْتَمِلُ تَقَى الْعِلْمَ عَنْهُمْ لِمَا^(٧) يُغْطُوا أسباب الْعِلْمِ، فلم يَعْلَمُوا. فَإِنْ كَانَ عَلَى هذا فيكونون مغذورين، وإن كان على الوجهين الأولين فلا عُذْرَ لَهُمْ في ذلك.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل و م: حق ذلك أو. (٣) ساقطة من م. (٤) ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من م. (٦) في الأصل وم: لأن. (٧) ساقطة من الأصل وم.

وفي قوله: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ دلالة إثبات البعث من وجهين:

أحدهما: في ما يذكر من قدرته من [خلق] ^(١) السموات والأرض وما بينهما يغفلتاهما وكشافتاهما وشدتهما وعظم خلقتهما. وأن تلك القدرة خارجة عن وسع البشر وتوهميه. فمن قدر على ذلك فهو قادر على إحياء الخلق بعد فنائهم.

والثاني: يُخبر عن حكمته من تعليق منافع الأرض بالسماء على بُعد ما بينهما والإفضال على الخلق بأنواع النعم التي تكبر [على] ^(٢) الإحصاء، وأن كل شيء منها قد وُضِعَ مواضعها.

فلا يَحْتَمِلُ مَنْ هذا وَضْعُهُ في الحكمة [أن] ^(٣) يَخْلُقَ الشيء عبثاً باطلاً، ولو كان ^(٤) للفناء، لا حياة بعده، كان يكون خارجاً عن الحكمة، فظهر أنه خلقهم لأمر أراد بهم، والله أعلم.

الآية ٥٦

وقوله تعالى: ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي تَعْلَمُونَ أنه هو أحياء الأحياء، ومميت الأموات أيضاً [بقوله]: ^(٥) ﴿ثُمَّ يُيَسِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨] فإذا عَرَفْتُمْ أنه يُمِيتُ الأحياء، وهو يُحْيِي الأموات، لا غير ^(٦)، فاعلموا أنه هو يَتَعَنِّكُمْ ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ألزمتهم الحجة دلالة بالكائن، ثم أخبر عما يكون بالحجة التي ذكر.

الآية ٥٧

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وهو هذا القرآن. قال بعضهم: الموعظة النهي كقوله ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَقُولُوا لِمَنْ لَيْسَ بِهِ أَحَدٌ﴾ [النور: ١٧] قيل: نهاكم أن تعودوا لِمَنْ لَيْسَ بِهِ أَحَدٌ. وقال آخرون: الموعظة هي التي تدعو إلى كل مرغوب، وتزجر عن كل مرهوب. وقال بعضهم: العظة هي التي تليق كل قلب قاسٍ، وتجلي كل قاتم ^(٧) مظلم. وفي القرآن جميع ما ذكر؛ فيه النهي، وفيه الدعاء إلى كل مرغوب والزجر عن كل مرهوب، وهو يُلِينُ القلوب القاسية [ويُذِيعُ العيون اليابسة] ^(٨) ويجلي الصدور المظلمة [إذا تأملوا فيه، ونظروا، وتفكروا] ^(٩) تفكير المسترشدين وطالب الحق. وقيل: الموعظة هي التي [تلين] ^(١٠) القلوب القاسية وتذيع العيون اليابسة، وتجلي الصدور المظلمة ^(١١).

وقوله تعالى: ﴿وَشِفَاءَ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾ إن للذين آفات وأدواء تُضُرُّ به، وتُلِفُّه كما لهذه الأبدان آفات وأمراض، تعمل في إتلافها وإهلاكها. ثم جعلت لآفات الأبدان وأمراضها أدوية، تُشْفِي بها الأبدان الموقوفة المريضة. فعلى ذلك جعل هذا القرآن لهذا الدين دواء يُداوى به، فيذهب بآفات الدين وأمراضه كما تعمل الأدوية في دفع آفات الأبدان وأمراضها. لذلك سمَّاه مَوْعِظَةً وَشِفَاءً لِمَا فِي الصُّدُورِ، والله أعلم.

وقوله تعالى ﴿وَهْدًى وَرَحْمَةً﴾ قيل هدى من الضلالة ورحمة من عذابه. أو يقول: ﴿وَهْدًى وَرَحْمَةً﴾ أي يدعو إلى كل خير، ويهدي إليه ﴿وَرَحْمَةً﴾ لمن تبعه هو ﴿وَرَحْمَةً﴾ لمن اتبعه، وتمسك به، وعمى وضلال لمن خالفه، وترك اتباعه، وهو ما ذكر ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤] وقال: ﴿فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [التوبة: ١٢٤] أي زادت المؤمنين إيماناً إلى إيمانهم، وقال ^(١٢): ﴿فَرَادَتْهُمْ رِجْسًا﴾ أي زادت الكافرين رجساً ﴿إِلَّا وَجْهًا﴾ [التوبة: ١٢٥] والله أعلم.

الآية ٥٨

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَقْنِزِ اللَّهُ وَيَرْحِمِهِ﴾ قال بعضهم: فضل الله ورحمته القرآن، وقال قائلون: فضل القرآن ورحمته الإيمان، وفيه أنه بإنزال القرآن مفضل؛ إذ له ألا يُنَزَّلَ، وفيه أن أهل الفترة يؤاخذون في حال فترتهم، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا كَانَ مِنْكُمْ خَيْرٌ مِمَّا يَحْمَدُونَ﴾ أي في حكم ما ^(١٣) ذكر ﴿هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَحْمَدُونَ﴾ من الدنيا. وقال بعضهم: قوله: ﴿قُلْ يَقْنِزِ اللَّهُ وَيَرْحِمِهِ﴾ إنما خاطب المؤمنين؛ يقول للمؤمنين ﴿يَقْنِزِ اللَّهُ﴾ الإسلام ﴿وَيَرْحِمِهِ﴾ يعني القرآن ﴿فَإِذَا كَانَ مِنْكُمْ الْخَيْرُ﴾ يعني المؤمنين ﴿هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَحْمَدُونَ﴾ يعني ما يجمع الكفار من الأموال من الذهب والفضة وغيرهما ^(١٤).

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: كانوا. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: قاس. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل: و. (٩) ساقطة من الأصل. (١٠) ساقطة من الأصل. (١١) ساقطة من م. (١٢) في الأصل وم: و. (١٣) في الأصل وم: بما. (١٤) في الأصل وم: وغيره.

الآية ٥٩

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾ أَضَافَ إِنْزَالَهُ إِلَى السَّمَاءِ، وَإِنْ كَانَتْ الْأَرْزَاقُ إِنَّمَا تَخْرُجُ مِنَ الْأَرْضِ لِمَا كَانَتْ أَسْبَابُهَا مُتَعَلِّقَةً بِالسَّمَاءِ [بِهَا^(١) يَكُونُ تُضْجُ الْأَنْزَالِ وَتَنْعُ الْأَعْنَابِ^(٢) وَاصْلَاحُ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا؛ يَعْنِي أَسْبَابَ الْأَرْزَاقِ مِنْ نَحْوِ الْمَطَرِ الَّذِي بِهِ تُنْبِتُ الْأَرْضُ النَّبَاتَ، وَبِهِ تَخْرُجُ جَمِيعُ أَنْوَاعِ الْخَرْجِ^(٣) مِمَّا يَكُونُ فِيهِ غِذَاءُ الْبَشَرِ وَالْذُّوَابِ، وَمِنْ نَحْوِ الشَّمْسِ الَّتِي^(٤) بِهَا تَنْضِجُ الْأَنْزَالُ، وَبِهَا تَنْعُ الْأَعْنَابُ وَجَمِيعُ الْفَوَاكِحِ، وَنَحْوِهِ.

أَضَافَ ذَلِكَ إِلَى السَّمَاءِ لِمَا ذَكَّرْنَا، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿وَرَبِّ السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُرْعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢] أَيِ أَسْبَابِ ذَلِكَ فِي السَّمَاءِ، لَا أَنْ عَيْنَ ذَلِكَ فِي السَّمَاءِ.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾ أَيِ مَا خَلَقَ اللَّهُ، وَكَذَلِكَ جَمِيعُ مَا يُضَافُ إِلَى اللَّهِ إِنَّمَا يُضَافُ إِلَيْهِ بِحَقِّ الْخَلْقِ؛ أَيِ خَلْقِهِ مُنْزَلًا كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَخًا وَمِنْ تَحْتِهَا أَنْهَارٌ﴾ [الزمر: ٦]. وَنَحْوُ ذَلِكَ أَيِ خَلْقِ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ مَا ذَكَرَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُ مِنْكُمْ حَرَامًا وَحَلَالًا﴾ قَالَ^(٥) بَعْضُهُمْ: مَا حَرَّمُوا مِنَ الْبَحِيرَةِ وَالسَّائِبَةِ وَالْوَصِيلَةِ وَمَا ذَكَرَ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ وَالْمَائِدَةِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَا حَرَّمُوا لِلْإِلَهِاتِ الَّتِي كَانُوا عِبْدُوهَا أَيِ جَعَلُوهَا لِلْأَنْعَامِ، وَهُوَ مَا ذَكَرَ فِي الْأَنْعَامِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَيْبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعِيَّتِهِ وَهَذَا لَشُرَكَائِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦] نَحْوُ مَا ذَكَّرْنَا فِي الْآيَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَن تَقْتُلُوا﴾ أَيِ ﴿وَاللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ فِي تَحْرِيمِ مَا حَرَّمْتُمْ وَتَحْلِيلِ مَا حَلَلْتُمْ ﴿أَن تَقْتُلُوا﴾ وَذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ نَزَلَتْ فِي مُحَاجَّةِ أَهْلِ مَكَّةَ، وَهُمْ لَمْ يَكُونُوا/ ٢٣١ - ب/ مُؤْمِنِينَ بِالرَّسْلِ وَالْكِتَابِ. وَإِنَّمَا يُوصَلُ إِلَى مَعْرِفَةِ الْمُحَرَّمِ وَالْمُحَلَّلِ بِالرَّسْلِ وَالْكِتَابِ وَالْخَبَرِ عَنِ اللَّهِ، وَهُمْ لَمْ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ بِوَاحِدٍ مِمَّا ذَكَّرْنَا، فَكَيْفَ جَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا، وَأَنْتُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِمَا^(٦) بِهِ يُعَرَّفُ الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ؟ فَكَيْفَ حَرَّمْتُمْ مَا أَحَلَّ لَكُمْ أَوْ أَحَلَلْتُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ؟ يُخْبِرُ عَنْ سَفَهِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ عَلَى اللَّهِ. فَإِذَا اجْتَرَأُوا أَنْ يَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ [فَهُمْ عَلَى^(٧) غَيْرِهِ اجْتِرَاءً، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٦٠

وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَنَ الَّذِينَ يَقْتُلُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ أَوْعَدُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهُمْ كَانُوا لَا يُؤْمِنُونَ بِالْبَعْثِ؟ قِيلَ: قَدْ أَلْزَمَهُمُ الْحُجَّةُ؛ [إِذَا^(٨) يَكُونُ الْبَعْثُ بِمَا أَظْهَرَ مِنْ كَذِبِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ عَلَى اللَّهِ فِي التَّحْرِيمِ وَالتَّحْلِيلِ، فَذَلِكَ يُظْهِرُ كَذِبَهُمْ بِتَكْذِيبِهِمُ الْبَعْثَ.

وَيَعْدُ فَإِنَّهُ قَدْ يُوعَدُ الْمَرْءُ بِمَا لَا يَتَّقَنُ بِهِ، وَيُخَوَّفُ مِنْهُ^(٩)، وَيُحَذَّرُ، وَإِنْ لَمْ يُحِظْ بِعِلْمِهِ بِهِ، فَكَذَلِكَ هَذَا. وَيَعْدُ فَإِنَّهُ قَدْ جَعَلَ فِي عَقُولِهِمْ مَا يُلْزِمُهُمُ الْإِيمَانَ بِالْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ لِلْأَعْمَالِ؛ إِذْ لَيْسَ مِنَ الْحِكْمَةِ خَلْقُ الْخَلْقِ لِلْفَنَاءِ خَاصَّةً.

وَيَحْتَمِلُ وَجْهًا آخَرَ، وَهُوَ أَنْ يَقُولَ: ﴿وَمَا عَلَنَ الَّذِينَ يَقْتُلُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ لَوْ خَرَجَ الْأَمْرُ حَقًّا، وَكَانَ صِدْقًا عَلَى مَا أَخْبَرَ رَسُولُ اللَّهِ، وَقَالَ: عَنِ الْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ لِمَا ائْتَسَبُوا؟

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ هُوَ ذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ مِنْ جِهَةِ مَا سَاقَ إِلَى الْكُلِّ مِنَ الرِّزْقِ كَافِرُهُمْ وَمُؤْمِنُهُمْ وَأَنْوَاعِ النَّعَمِ، وَمَا أَخَّرَ عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى وَقْتٍ، أَوْ لِمَا بَعَثَ إِلَيْهِمُ الرِّسْلَ وَالْكِتَابَ مِنْ غَيْرِ أَنْ كَانَ مِنْهُمْ إِلَى اللَّهِ سَابِقَةٌ صُنْعٌ، يَسْتَوْجِبُونَ بِهِ ذَلِكَ. وَمِنْ ذَلِكَ خُصُوصُ فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، لَيْسَ ذَلِكَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ لِقَضَائِهِ وَمَا أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: الأعشاب. (٣) في الأصل وم: الخارج. (٤) في الأصل وم: الذي. (٥) في الأصل وم: وقال. (٦) في الأصل وم: ما. (٧) في الأصل وم: فعلى. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: عليه.

الآية ٦١

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ قال بعضهم من أهل التأويل: ﴿في شأنٍ﴾: في أمرِكَ وحالاتِكَ ﴿وَمَا تَتَلَوُا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ﴾ تَبْلُغُهُمُ الرسالة.

وقال بعضهم: قوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ أي في عبادة ﴿وَمَا تَتَلَوُا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ﴾ تَبْلُغُهُمُ به الرسالة ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ يُخَاطَبُ نَبِيُّهُ تَنْبِيْهَا مِنْهُ وَإِقَاطًا. والمراد منه هو وغيره.

الآ تَرَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ أعمالَكُمُ^(١) جميعاً؟ في ذلك يُخْبِرُ أَنْكُمْ فِي كُلِّ أَمْرٍ يَكُونُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ رَبِّكُمْ، وفي كلِّ أَمْرٍ يَبْنِيكُمْ وَبَيْنَ النَّاسِ فَاللهُ لَكُمْ وَعَلَيْكُمْ شُهُودًا، وكلُّ عملٍ تَعْمَلُونَ لَكُمْ وَعَلَيْكُمْ ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ يَنْبَهُهُمْ، ويوقظهم ليكونوا على حَذَرٍ أَبَدًا مُتَنَبِّهِينَ. وقيل: تُكْثِرُونَ ﴿فِيهِ﴾ وَكُلُّهُ وَاحِدٌ.

ثم يَحْتَمِلُ ﴿فِيهِ﴾ في الحقِّ، وَيَحْتَمِلُ في الدينِ، وَيَحْتَمِلُ في القرآنِ، وَيَحْتَمِلُ في رسولِ الله. يقول: أنا شاهدٌ في ما تَخُوضُونَ وفي ما تَقُولُونَ في رسولِ الله أو في دينِهِ أو في ما يَتَلَوُ عَلَيْكُمْ ﴿وَمَا يَمْرُؤٌ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ لَا يَمْرُؤٌ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ [في الأرض]^(٢) وَلَا في السماءِ في لا أَمْرٍ فِيهِ وَلَا نَهْيٍ وَلَا كُفْلَةٍ. فالذي فِيهِ السُّؤَالُ وَالْأَمْرُ وَالنَّهْيُ وَالْكُفْلَةُ أُخْرَى وَأُولَى الْآ^(٣) يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَمْرُؤٌ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ هو تَحْذِيرٌ وَتَخْوِيفٌ بِتَمْثِيلٍ، لا وَعِيدٌ بِتَقْرِيرٍ وَتَضَرِيعٍ؛ لِأَنَّ الْوَعِيدَ عَلَى وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا عَلَى التَّمْثِيلِ^(٤) وَالْآخَرُ عَلَى التَّقْرِيرِ فِي عَيْنِهِ وَالتَّضَرِيعِ^(٥).

وقوله تعالى ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ قيل: ما قُلُ^(٦)، وما كَثُرَ ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ أي إِلَّا في اللوحِ المحفوظِ ﴿مُبِينٍ﴾ وَيَحْتَمِلُ: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أي في الكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ مِنَ السَّمَاءِ، واللهُ أَعْلَمُ.

وقال أبو بكرٍ الْأَصَمُّ في قوله ﴿إِذْ يَقُولُونَ بِإِيهٍ﴾ أي تَتَشِيرُونَ فِيهِ، وتَأْوِيلُهُ: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ﴾ تَتَشِيرُونَ فِيهِ ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾.

الآية ٦٢

وقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ قالتِ الْمُعْتَرِلةُ: دَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ أَصْحَابَ الْكِبَائِرِ لَيْسُوا بِمُؤْمِنِينَ لِأَنَّهُمْ لَوْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ لَكَانُوا أَوْلِيَاءَ اللَّهِ، وَكَانُوا^(٧) لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ، وَلَا حُزْنٌ. فإذا كَانَ فَلَا^(٨) شَكُّ أَنَّ عَلَى أَصْحَابِ الْكِبَائِرِ [خَوْفًا وَحُزْنًا]^(٩) في وَقْتٍ دُونَ وَقْتٍ وَلَيْسَ فِي الْآيَةِ أَنْ لَيْسَ عَلَى أَوْلِيَاءِ اللَّهِ خَوْفٌ وَلَا حُزْنٌ مِنَ أَوَّلِ الْأَمْرِ إِلَى آخِرِهِ.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ عَلَى مَا يَكُونُ لِأَهْلِ الدُّنْيَا فِي الدُّنْيَا مِنَ الْخَوْفِ وَالْحُزَنِ. إِنَّمَا خَوْفُهُمْ وَحُزْنُهُمْ لِعَاقِبَتِهِمْ.

وَيُسَبِّهُ أَنْ ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ في الْجَنَّةِ. وهكذا يَكُونُ إِذَا دَخَلُوا الْجَنَّةَ يَأْمَنُونَ مِنْ جَمِيعِ مَا يَنْتَظِعُهُمْ^(١٠).

الآية ٦٣

[وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾]^(١١) قَالَ بَعْضُهُمْ: أَوْلِيَاءُ اللَّهِ هُمُ أَهْلُ التَّوْحِيدِ، لَكِنَّ تِلْكَ الْبَيِّنَةُ وَذَلِكَ الرَّغْدُ لِأَهْلِ^(١٢) التَّوْحِيدِ فِي الْإِغْتِقَادِ وَالْوَفَاءِ جَمِيعًا لَا لِأَهْلِ الْإِعْتِقَادِ خَاصَّةً.

الآية ٦٤

وقوله تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ. وَعَلَى ذَلِكَ رُويَتِ الْأَخْبَارُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ، فَفَسَّرَهَا^(١٣) بِالرُّؤْيَا الصَّالِحَةِ. فَإِنْ ثَبَتَ فَهُوَ الْحَقُّ. وَقَالَ^(١٤) بَعْضُهُمْ: لَا تَحْتَمِلُ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ لِأَنَّهُ نَسَقَ الْبُشْرَى فِي الْآخِرَةِ عَلَى الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلَا شَكُّ أَنَّهُ لَا يَكُونُ فِي الْآخِرَةِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ. وَلَكِنْ إِنْ ثَبَتَ مَا ذَكَرْنَا فِي الْحَبَرِ فَهُوَ ذَلِكَ.

(١) في الأصل وم: عملهم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، في الأصل: لا. (٤) في الأصل وم: التمثال. (٥) في الأصل وم: وتصريح. (٦) من م، في الأصل: قال. (٧) في الأصل وم: لكان. (٨) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: خوف وحزن. (١٠) في الأصل وم: ينفعهم. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: كأهل. (١٣) في الأصل وم: ففسر. (١٤) الواو ساقطة من الأصل وم.

وَيْسِبُهُ أَنْ تَكُونَ الْبِشَارَةُ الَّتِي ذَكَرَ هُنَا نَحْوُ قَوْلِهِ ﴿لَمَّ الْبَشَرُ بَنِيَّ عِبَادَ﴾ ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ﴾ الآية [الزمر: ١٧ و ١٨] وقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صَدَقَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢٠] وقوله ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَيِّنُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الشورى: ٢٣] وأمثال ذلك.

وقال بعض أهل التأويل: ﴿لَهُمُ الْبَشَرُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يُشْرَهُمُ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ الْمَوْتِ، ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ الجنة، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ مِنْ وَغْدِهِ وَوَعِيدِهِ. وَذَلِكَ مِمَّا لَا تَبْدِيلَ، وَلَا تَحْوِيلَ. وَيَحْتَمِلُ ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ الْقُرْآنَ؛ لَا تَبْدِيلَ لِمَا فِيهِ مِنَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ وَغَيْرِهِ. وَيَحْتَمِلُ: لَا تَبْدِيلَ لِمَا مَضَى مِنْ سُنَنِهِ فِي الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ مِنَ الْهَلَاكِ وَالْإِسْتِصَالِ بِتَكْذِيبِهِمُ الرِّسَالَ وَالْآيَاتِ كَقَوْلِهِ: ﴿فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣] وقوله: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ أَي لَا تَبْدِيلَ لِبَشَرِ الَّذِينَ ذَكَرَ هُؤُلَاءِ الَّذِينَ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ. وَيَحْتَمِلُ لَا تَبْدِيلَ لِحُجَجِ اللَّهِ وَبَرَاهِينِهِ، أَوْ لَا تَبْدِيلَ لَوَعْدِ اللَّهِ وَوَعِيدِهِ وَنَحْوِهِ^(١)، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْقَوْرُ الْعَظِيمُ﴾ أَي ﴿ذَلِكَ﴾ الْبَشَرُ، هُوَ الْقَوْرُ الْعَظِيمُ، أَوْ ﴿ذَلِكَ﴾ الدِّينُ ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿هُوَ الْقَوْرُ الْعَظِيمُ﴾ إِذْ لَا خَوْفَ بَعْدَهُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ مِنْ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّارِ، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ الْجَنَّةِ أَبَدًا. [وهذا]^(٢) الْوَجْهُ فِيهِ مَا ذَكَرْنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٦٥

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿قَوْلُهُمْ﴾ مَا قَالُوا فِي اللَّهِ مَا^(٣) لَا يَلِيقُ بِهِ مِنَ الْوَلَدِ وَالشَّرِيكِ؛ يَقُولُ: لَا يَحْزَنُكَ ذَلِكَ ﴿إِنَّ الْبِرَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾. وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ﴾ الَّذِي قَالُوا فِي الْقُرْآنِ: إِنَّهُ سِحْرٌ، وَإِنَّهُ مُفْتَرٍ، أَوْ [الذي]^(٤) قَالُوا فِي رَسُولِ اللَّهِ: إِنَّهُ سَاحِرٌ، وَإِنَّهُ يَفْتَرِي عَلَى اللَّهِ كَذِبًا.

وَيْسِبُهُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ﴾ مَكْرَهُمُ الَّذِي مَكَّرُوا بِهِ وَكَيْدَهُمُ الَّذِي كَادُوهُ. وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ الْبِرَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أَي إِنَّ الْبِرَّةَ فِي الْمَكْرِ وَالْكَيدِ لِلَّهِ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٤٢]؛ أَي مَكْرُهُ يَنْقُضُ مَكْرَهُمْ، وَيَمْنَعُهُ، وَكَيْدُهُ يَنْسُخُ كَيْدَهُمْ.

فَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ الْبِرَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أَي يَنْقُضُ جَمِيعَ مَا يَمْكُرُونَ/ ٢٣٢ - بَكَ، وَيَكِيدُونَ لَكَ. وَالْبِرَّةُ الْقُوَّةُ. يَقُولُ: إِنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ؛ يَنْصُرُكَ عَلَى أَعْدَاكَ، وَيُدْفَعُ عَنْكَ كَيْدَهُمْ وَمَكْرَهُمُ الَّذِي هَمُّوا بِكَ ﴿هُوَ السَّيِّعُ الْغَالِي﴾ لِقَوْلِهِمُ الَّذِي قَالُوا: ﴿الْغَالِي﴾ بِمَصَالِحِهِمْ، أَوْ ﴿السَّيِّعُ﴾ الْمَجِيبُ لِلدَّعَاءِ ﴿الْغَالِي﴾ بِمَا يَكُونُ مِنْهُمْ.

الآية ٦٦

وقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ أَي تَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ: كُلُّهُمْ عِبِيدُهُ وَإِمَاؤُهُ، فَكَيْفَ قُلْتُمْ: إِنَّ فُلَانًا وَلَدُهُ؟ وَإِنَّ لَهُ شَرِيكًا؟ وَلَا أَحَدَ مِنْكُمْ يَتَّخِذُ مِنْ عِبِيدِهِ وَإِمَائِهِ وَلَدًا وَلَا شَرِيكًا كَقَوْلِهِ: ﴿صَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ الآية [الروم: ٢٨] فَعَلَى ذَلِكَ هَذَا. وَكَيْفَ يَحْتَمِلُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا، وَلَهُ مُلْكٌ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ؟ وَإِنَّمَا يَتَّخِذُ فِي الشَّاهِدِ الْوَلَدَ لِأَحَدَى خِصَالٍ ثَلَاثٍ: إِمَّا لِلْإِسْتِصَالِ عَلَى غَيْرِهِ، وَإِمَّا لِحَاجَةِ تَمَسُّهِ، وَإِمَّا لَوَحْشَةِ أَصَابَتِهِ.

فَهُوَ غَنِيٌّ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ؛ لَا حَاجَةَ تَمَسُّهُ، فَكَيْفَ نَسَبْتُمُ الْوَلَدَ إِلَيْهِ وَالشَّرِيكَ؟ وَمَا قَالُوا فِيهِ مِمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ، وَقَدْ ذَكَرْنَا هَذَا فِي مَا تَقَدَّمَ. وَيُخَيِّرُ^(٥) عَنْ غِنَا عَمَّا يَأْمُرُهُمْ، وَنَهَاهُمْ، وَتَعَبُّدُهُمْ؛ أَي لَيْسَ بِأَمْرٍ، وَنَهْيٍ، وَتَعَبُّدٍ بِأَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ، وَنَسَبَتُهُمْ بِأَنْوَاعِ الْبَحْنِ لِحَاجَةِ لَهُ أَوْ لِمَنْفَعَةٍ لَهُ فِي ذَلِكَ، وَلَكِنْ لِمَنْفَعَةٍ لَهُمْ فِي ذَلِكَ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْجُدْ لِلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ﴾ أَي مَا يَسْجُدُونَ فِي مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنَ الشُّرَكَاءِ

(١) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: وَنَحْوُ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم. بِمَا. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: يَخِيَرُهُ.

بالْحُجَجِ والبراهين أو الكتابِ يَتَّقِينَ أو رسولٍ، إنما يَتَّبِعُونَ بِالْظَّنِّ وَالْحَذَرِ ﴿وَأَن هُمْ إِلَّا بَخْرُصُونَ﴾ أي ما هُمْ إِلَّا يَكْذِبُونَ في ما يَتَّبِعُونَ بدعائِهِمْ دونَ الله لأنَّهُمْ كانوا أَهْلَ شِرْكَ لم يكونوا أَهْلَ كتابٍ ولا آمَنُوا برسولٍ، فهم قد عَرَفُوا أَنَّهُمْ مُفْتَرُونَ كاذِبُونَ في اتِّبَاعِهِمْ دونَ الله؛ إذ سَبِيلُ مَعْرِفَةِ ذَلِكَ الكتابِ أو الرسولِ، ولم يكنْ لَهُمْ واحدٌ مِنْ ذَلِكَ، واللهُ أَعْلَمُ.

الآية ٦٧

وقوله تعالى: ﴿مَوَّالَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ يُبْصِرُ فِيهِ، وقال في آيةٍ أُخْرَى: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ [الفصص: ٧٣] يعني في النهار، فهو في مَوْضِعِ الْإِمْتِنَانِ وتذكير النعم؛ يَسْتَأْدِي بِذَلِكَ شُكْرًا ما أَنْعَمَ عَلَيْهِ.

وفيه أَنَّ اللَّيْلَ والنَّهَارَ يَجْرِيَانِ على التدبير والتقدير لأنهما لو كانا يَجْرِيَانِ على غيرِ تدبيرٍ ولا تقديرٍ لكانا لا يَجْرِيَانِ على تقديرٍ واحدٍ [ولا سَنَيْنِ واحدٍ]^(١) ولكانَ يَدْخُلُ فِيهِمَا الزيادةُ والنقصانُ، ولا يَجْرِيَانِ على تقديرٍ واحدٍ، وإنَّ كَانَ يَدْخُلُ بَعْضُهُ في بَعْضٍ، فدلَّ جَرَيَانُهُمَا على تقديرٍ واحدٍ أَنَّهُمَا يَجْرِيَانِ على تدبيرٍ آخَرَ فِيهِمَا، إذ لو كَانَ على غيرِ تدبيرٍ [لكانا]^(٢) يَجْرِيَانِ على انحرافٍ على الزيادةِ والنقصانِ على القِلَّةِ والكثرةِ.

وفيه أيضاً أَنَّ مُدَبِّرَهُمَا واحدٌ لأنه لو كَانَ مُدَبِّرَهُمَا عَدَدًا لكانَ إِذَا غَلَبَ أَحَدُهُمَا الْآخَرُ دَامَتْ غَلَبَتُهُ، ولا يَصِيرُ الْغَالِبُ مغلوبًا والمغلوبُ غالبًا. فإذا صَارَ ذَلِكَ ما ذَكَّرْنَا دَلَّ أَنَّ مُدَبِّرَهُمَا واحدٌ لا عَدَدٌ.

وفيه دلالةُ البعثِ بَعْدَ الموتِ لأنَّ كُلَّ واحدٍ مِنْهُمَا إِذَا جَاءَ أَتَلَفَ صَاحِبَهُ تَلَفًا حَتَّى لَا يَبْقَى لَهُ أَثَرٌ، ولا شَيْءٌ مِنْهُ، ثم يَكُونُ مِثْلَهُ حَتَّى يَخْتَلِفَ الذَّاهِبُ مِنَ^(٣) الحادثِ لا الْأَوَّلِ مِنَ الثاني. فَدَلَّ أَنَّ الَّذِي قَدَّرَ على إِنْشَاءِ لَيْلٍ قد ذَهَبَ أَثَرُهُ^(٤) واضلَّهُ قَادِرٌ على البعثِ، وَمَنْ قَدَّرَ على إحدَاثِ نهارٍ، قد^(٥) فَنِيَ، وهَلْكَ قَادِرٌ على إحدَاثِ ما ذَكَّرْنَا مِنَ الموتِ.

وفيه أَنَّ الشَّيْءَ إِذَا كَانَ وَجُوبُهُ بِشَرْطَيْنِ^(٦) لم يَجِبْ إِذَا عَدِمَ أَحَدُهُمَا لأنه قَالَ ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ وإنما يُبْصِرُ بنورِ الْبَصَرِ ونورِ النَّهَارِ جَمِيعًا لأنه إِذَا فَاتَ أَحَدُ الثَّوَرَيْنِ لم يُبْصِرْ شَيْءٌ مِنَ النُّورِ نورِ الْبَصَرِ أو^(٧) نورِ النَّهَارِ. دَلَّ أَنَّ الْحُكْمَ إِذَا وَجَبَ بِشَرْطَيْنِ لَا يُوجِبُ إِلَّا بِاجْتِمَاعِهِمَا جَمِيعًا: اللَّيْلُ يُسْتَرُّ وَجُوهَ الْأَشْيَاءِ لأنه لَا يَرَى نَفْسَهُ، والنَّهَارُ يَكْشِفُ وَجُوهَ الْأَشْيَاءِ، وفي اللَّيْلِ تُسْتَرُّ وَجُوهَ الْأَشْيَاءِ دَلَالَةٌ أَنَّ الْحُكْمَ إِذَا كَانَ وَجُوبُهُ بِشَرْطَيْنِ يَجُوزُ صُنْعُهُ بِعِلَّةٍ واحدةٍ لأنه يُسْتَرُّ نورُ النَّهَارِ ونورُ الْبَصَرِ جَمِيعًا.

وفي قوله: ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ وجوهٌ مِنَ الدلالةِ:

أحدها: ما ذَكَّرْنَا مِنَ تذكيرِ النعمِ؛ يدْعُوهُمْ بِهِ إلى شُكْرِهِ، وَيُنْهَاهُمْ عَنِ الْكُفْرَانِ.

والثاني^(٨): فيه تذكيرُ الْقُدْرَةِ لَهُ حِينَ^(٩) أَنْشَأَ هَذَا، وَأَخَذَتْهُ، وَأَتَلَفَ الْآخَرَ. فَمَنْ قَدَّرَ على هَذَا لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ.

والثالث^(١٠): فيه دليلُ السُّلْطَانِ حِينَ^(١١) يَأْخُذُهُمْ، وَيُسَيِّرُ عَلَيْهِمُ الْأَشْيَاءَ شَاوُوا، أو أَبَوْا. وكذلك النَّهَارُ بِأَتْيِهِمْ حَتَّى يَكْشِفَ وَجُوهَ الْأَشْيَاءِ، وَيَجْلِي، شَاوُوا، أو أَبَوْا.

والرابع^(١٢): فيه دليلُ التدبيرِ والعِلْمِ لِمَا ذَكَّرْنَا مِنْ اتِّسَاقِ جَرَيَانِهِمَا على سَنَيْنِ واحدٍ وَمَجْرَى واحدٍ.

والخامس^(١٣): فيه دلالةٌ وَحْدَانِيَّةٌ مُنْشِئُهُمَا؛ يَبَيِّنُ ههنا في ما جَعَلَ اللَّيْلَ حِينَ^(١٤) قَالَ: ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ أَخْبَرَ أَنَّهُ جَعَلَ اللَّيْلَ لِلسُّكُونِ والراحةِ. فدلَّ ذِكْرُ السُّكُونِ في اللَّيْلِ على أَنَّهُ جَعَلَ النَّهَارَ لِلْعِيشِ وَطَلَبِ الْعِيشِ. أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ في النَّهَارِ ﴿مُبْصِرًا﴾؟ أَيِ يُبْصِرُونَ فِيهِ ما يَعِيشُونَ، وهو ما ذَكَّرَ في آيةٍ أُخْرَى: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ الآية [الفصص: ٧٣].

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في م: و. (٤) ساقطة من م. (٥) في م: وقد. (٦) في الأصل وم: بشينين. (٧) من م، في الأصل: أي. (٨) في الأصل وم: و. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: و. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) في الأصل وم: و. (١٣) في الأصل وم: و. (١٤) في الأصل وم: حيث.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ ولم يقل: يُبْصِرُونَ. فظاهر ما سَبَقَ مِنَ الذِّكْرِ يَجِبُ أَنْ يُقَالَ: لِقَوْمٍ يُبْصِرُونَ لَأَنَّهُ قَالَ: ﴿وَاللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَوْلَهُ﴾ لكن يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ ﴿يَسْمَعُونَ﴾ أَي يَقُولُونَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الْقَوْمَ وَلَوْ كَانُوا لَا يَقُولُونَ﴾ [يونس: ٤٢] وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿يَسْمَعُونَ﴾ أَي يُجِيبُونَ كَقَوْلِهِ ﴿يَسْمَعُونَ﴾ [١١] فَمَسْمُوعٌ حَمِيدُهُ [البخاري ٦٩٠] أَي أَجَابَ اللَّهُ.

الآية ٦٨

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: أَرَادُوا بِقَوْلِهِمْ ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ حَقِيقَةَ الْوَلَدِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَيَحْتَمِلُونَ لِلَّهِ الْإِنْتِبَاطَ﴾ [النحل: ٥٧] وقوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١٨] كَذَا [وقوله] (٢): ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ (٣) [التوبة: ٣٠] كَذَا، فَتَرَى هَهُنَا نَفْسَهُ عَمَّا يَقُولُونَ بِقَوْلِهِ: ﴿سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ إِنَّهُ لَمْ يَلِدْ أَحَدًا، وَلَا وَلِدَ هُوَ مِنْ أَحَدٍ. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَمْ يَكُنْ لَكَ وَلَدٌ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: ٣] إِذْ فِي الشَّاهِدِ لَا يَخْلُو إِمَّا أَنْ يَكُونَ وَلِدٌ مِنْ آخَرٍ أَوْ وَالِدًا (٤)، وَالْخَلْقُ كُلُّهُ لَا يَخْلُو مِنْ هَذَا، فَخَبِرَ أَنَّهُ لَمْ يَلِدْ هُوَ أَحَدًا، وَلَا وَلِدَ مِنْ أَحَدٍ.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ تَأْوِيلُهُ، وَاللَّهُ أَغْلَمُ، أَنَّ فِي الشَّاهِدِ مَنِ اتَّخَذَ وَلَدًا إِمَّا يَتَّخِذُ لِأَحَدٍ وَجْهَ ثَلَاثَةٍ: إِمَّا لِحَاجَةِ تَمَسُّهِ، أَوْ لِشَهْوَةِ تَغْلِيْبِهِ، أَوْ لِمَا يَسْتَنْصِرُ بِهِ عَلَى آخَرٍ مِمَّا يَخَافُهُ. فَإِذَا كَانَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمُلْكُ مَا فِيهِمَا: كُلُّهُمْ عَبِيدُهُ وَإِمَاؤُهُ فَلَا حَاجَةَ تَقَعُ لَهُ إِلَى الْوَلَدِ؛ إِذْ هُوَ الْغَنِيُّ، وَلَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

وَمِنْ هَذَا وَصْفُهُ فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى الْوَلَدِ، وَلَأَنَّهُ لَا أَحَدٌ فِي الشَّاهِدِ يَحْتَمِلُ طَبْعُهُ اتِّخَاذَ الْوَلَدِ مِنْ عَبِيدِهِ وَإِمَائِهِ، فَإِذَا كَانَ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ، الْخَلْقُ: كُلُّهُمْ عَبِيدُهُ وَإِمَاؤُهُ، كَيْفَ اخْتَمَلَ اتِّخَاذَ الْوَلَدِ مِنْهُمْ لَوْ جَازَ؟ وَقَدْ بَيَّنَّا إِحَالَتهُ (٥) ذَلِكَ وَفَسَادَهُ، وَلَأَنَّ الْوَلَدَ يَكُونُ مِنْ شَكْلِ الْوَالِدِ وَمِنْ جَنْبِهِ كَالشَّرِيكِ يَكُونُ مِنْ شَكْلِ الشَّرِيكِ وَمِنْ جَنْبِهِ، فَكَانَ نَفْيُ الشَّرِيكِ نَفْيَ الْوَلَدِ لِأَنَّ مَعْنَاهُمَا وَاحِدٌ، وَكُلُّ ذِي شَكْلٍ، لَهُ ضِدٌّ أَوْ شَكْلٌ، فَإِنَّهُ لَا رُبُوبِيَّةَ لَهُ وَلَا أَلُوهِيَّةَ.

وقال بعضهم: قولهم: ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ لَمْ يُرِيدُوا حَقِيقَةَ الْوَلَدِ، وَلَكِنْ أَرَادُوا مَنَزِلَةَ الْوَلَدِ وَكَرَامَتَهُ، فَهُوَ أَيْضًا مَنَفِيُّ عَنْهُ لِأَنَّ مَنْ لَا يَحْتَمِلُ الْحَقِيقَةَ؛ أَعْنِي حَقِيقَةَ الْوَلَدِ، امْتَنَعَ عَنْ مَنَزِلَتِهِ وَكَرَامَتِهِ لِأَنَّ الْحَقِيقَةَ انْتَفَتْ لِعَيْبٍ يَدْخُلُ فِيهِ. فَإِذَا ثَبَتَتْ لَهُ مَنَزِلَةُ تِلْكَ الْحَقِيقَةِ وَالْكَرَامَةِ [دَخَلَتْ فِيهِ عِنْدِيذٌ] (٥) الْحَقِيقَةُ.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾ قِيلَ: مَا عِنْدَكُمْ مِنْ حُجَّةٍ عَلَى مَا تَقُولُونَ: إِنَّ لَهُ وَلَدًا لِأَنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ تَقْلِيدٍ لِأَبَائِهِمْ وَأَسْلَافِهِمْ، وَكَانُوا لَا يَزِيدُونَ بِالرُّسُلِ وَالْكِتَابِ وَالْحُجَجِ. وَإِنَّمَا كَانَ يُسْتَفَادُ ذَلِكَ مِنْ جِهَةِ الرِّسَالَةِ وَالْكِتَابِ، وَمَنْ كَانُوا يَنْكُرُونَ ذَلِكَ.

وقوله تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ / ٢٣٢ - ب/ أَي تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ: اتَّخَذَ الْوَلَدَ مَا تَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَمْ يَتَّخِذْ.

الآية ٦٩

[وقوله تعالى] (٦): ﴿قُلْ إِنَّ الدِّينَ بَقَرَةٌ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ﴾ هُوَ مَا ذَكَرْنَا أَنَّهُمْ عَلِمُوا أَنَّهُ لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا، لَكِنْ مَنْ قَالُوا ذَلِكَ أَفْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ﴿لَا يَقْلِبُوهَا﴾ فِي الْآخِرَةِ لِمَا طَمِعُوا فِي الدُّنْيَا بِعِبَادَتِهِمْ دُونَ اللَّهِ الْأَصْنَامَ بِقَوْلِهِمْ: ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٢٣] وقولهم (٧): ﴿هَؤُلَاءِ شَفَعْتُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] ﴿لَا يَقْلِبُوهَا﴾ أَي لَا يَظْفَرُونَ بِمَا طَمِعُوا فِي الْآخِرَةِ.

الآية ٧٠

[وقوله تعالى] (٨): ﴿مَنْعَ فِي الدُّنْيَا﴾ أَي ذَلِكَ لَهُمْ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا، لَيْسَ لَهُمْ مَتَاعٌ فِي الْآخِرَةِ ﴿ثُمَّ إِنَّا مَرْجِعُهُمْ﴾ [يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم. والد. (٤) في الأصل وم: إحالته. (٥) في الأصل وم: دخل فيه عبيد. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: وقوله. (٨) ساقطة من الأصل وم.

أَحَدُهُمَا: ^(١) يَخَاطِبُ رَسُولَهُ بِذَلِكَ، لَمْ يَخَاطِبْهُمْ: إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ. فَهُوَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، لَمَّا اشْتَدَّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ مَا افْتَرَوْا بِهِ عَلَى اللَّهِ يَقُولُ: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ فَنَجْزِيهِمْ جَزَاءَ فِرْيَتِهِمْ.

والثاني: يَقُولُ: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُنْفِثُهُمُ الَّتْدَابَ الشَّدِيدَ﴾ لَا مَا طَمِعُوا مِنَ الشَّفَاعَةِ عِنْدَنَا وَالزَّلْزَلَى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٧١ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْتَ عَلَيْنَهُمُ نَبَأُ نُوحٍ﴾ أَيُ خَبْرُهُ وَحْدَيْتُهُ ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوُّوا إِنَّ كَانَ كِبَرٌ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِّرِي يَتَذَكَّرُ اللَّهُ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنْ كَانَ كِبَرٌ عَلَيْكُمْ طَوْلُ مَقَامِي وَمُكْنِي فِيكُمْ وَدُعَائِي إِيَّاكُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَإِطَاعَتِكُمْ ^(٢) لَهُ وَتَذَكِّرِي إِيَّاكُمْ بِآيَاتِهِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ ﴿وَتَذَكِّرِي﴾ بِغَدَائِهِ بِتَرْكِكُمْ إِيَّائِي وَدُعَائِي.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿إِنْ كَانَ كِبَرٌ عَلَيْكُمْ مَقَامِي﴾ بِمَا أَدْعُو ^(٣) مِنَ الرِّسَالَةِ ﴿وَتَذَكِّرِي يَتَذَكَّرُ اللَّهُ﴾ أَيُ بِحُجَجِ اللَّهِ عَلَى مَا أَدْعُو ^(٤) مِنَ الرِّسَالَةِ.

وقوله ^(٥) تَعَالَى: ﴿وَأَنْتَ عَلَيْنَهُمُ نَبَأُ نُوحٍ﴾ فِيهِ وَجْهٌ:

أَحَدُهُمَا: أَنْتَ مُنَابَذَةٌ نُوحٍ قَوْمَهُ وَمَا أَرَادُوا بِهِ مِنَ الْكَيْدِ وَالْمَكْرِ بِهِ،

وَالثَّانِي: أَذْكَرُ عَوَاقِبِ قَوْمِ نُوحٍ وَمَا حَلَّ بِهِمْ مِنْ سُوءِ مُعَامَلَتِهِمْ رَسُولَهُمْ.

وَالثَّلَاثُ: أَذْكَرُ لَهُمْ عَوَاقِبُ ^(٦) مُتَّبِعِي قَوْمِهِ وَمُخَالِفِيهِ ^(٧).

وقوله تَعَالَى: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: أَيُ اجْتَمِعُوا أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ، ثُمَّ كِيدُونِي ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أَيُ اجْعَلُوا مَا تُرِيدُونَ مِنَ الْكَيْدِ وَالْمَكْرِ فِي ظَاهِرٍ غَيْرِ مُلْتَبِسٍ وَلَا مُشْتَبِهٍ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ﴾ أَيُ ائْتَمُّوا أَمْرَكُمْ، وَادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ. وَكَذَلِكَ رُويَ فِي حَرْفِ أَبِي [بْنِ كَعْبٍ] ^(٨) ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ﴾ وَادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيْكَ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ أَيُ اقْضُوا مَا أَنْتُمْ قَاضُونَ.

وقَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أَيُ لَا يَكْبُرُ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ. وَقَالَ الْكِسَائِيُّ: هُوَ مِنَ التَّغْطِيَةِ وَاللُّبْسِ؛ أَيُ لَا تَغْطُوهُ، وَلَا تَلْبِسُوهُ، اجْعَلُوا كَلِمَتَكُمْ ظَاهِرَةً وَاحِدَةً.

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه [أَنَّهُ] ^(٩) قَالَ: لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ اغْتِمَامًا عَلَيْكُمْ، أَيُ فَرِّجُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ كَقَوْلِهِ ﴿مَنْ كَانَتْ بَطْنُ أَنْ لَنْ يَصْرَهُ اللَّهُ﴾ الْآيَةُ [الحج: ١٥]

وقوله تَعَالَى: ﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيْكَ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ أَيُ اجْعَلُوا بِي مَا تُرِيدُونَ، وَلَا تُنْظِرُونِي، وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ [طه: ٧٢] وَقَالَ الْكِسَائِيُّ: هُوَ الْإِنْهَاءُ وَالْإِبْلَغُ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْكَ بَيِّنَاتٍ لِنُؤْيِلَ﴾ الْآيَةُ [الإسراء: ٤] [وَقَوْلِهِ: ^(١٠) ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [الحجر: ٦٦] [أَيُ أَنْهَيْنَا إِلَيْهِ] ^(١١) وَأَبْلَغْنَا إِلَيْهِ.

وقَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ: إِنْ شِئْتَ جَعَلْتَهَا فُلْمَةً فَلَا يُصِرُّونَ أَمْرَهُمْ؛ يَغْنِي غُمَّةً، وَإِنْ شِئْتَ جَعَلْتَهَا شُكًا، وَاشْتِقَاقُ الْغُمَّةِ مِنَ غَمٍّ يَغْمُ غَمًّا أَيْ عَطَى يُعْطَى، تَقُولُ: غَمَمْتُ رَأْسَهُ أَيْ عَطَيْتُهُ ﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيْكَ﴾ أَيُ افْعَلُوا بِي مَا أَرَدْتُمْ.

وَفِي قَوْلِ نُوحٍ لِقَوْمِهِ: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ وَقَوْلِ هُودٍ: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ﴾ [هود: ٥٥] وَقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ: ﴿قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ﴾ [الأعراف: ١٩٥] دَلَالَةٌ إِبْرَائِيلَ رَسَالَتِهِمْ لِأَنَّهُمْ قَالُوا ذَلِكَ لِقَوْمِهِمْ، وَهُمْ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ، وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ أَنْصَارٌ وَلَا أَعْوَانٌ. دَلَّ أَنَّهُمْ إِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ اغْتِمَادًا عَلَى اللَّهِ وَاتِّكَالًا [عَلَى مَعُونَتِهِ] ^(١٢) وَنُصْرَتِهِ إِيَّاهُمْ.

وقَالَ بَعْضُهُمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيْكَ﴾ أَيُ فَافْرَعُوا إِلَيَّ، أَنْ يُقَالَ: قَضَى فَرَعٌ، وَهُوَ قَوْلُ أَبِي بَكْرٍ الْأَصَمِّ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وإطاعته. (٣) في الأصل وم: ادعى. (٤) في الأصل وم: ادعى. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) أدرج قبلها في الأصل وم: لا. (٧) في الأصل وم: ومخالفة. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: بمعونته.

[وقال بعضهم: قوله: (١)] ﴿ثُمَّ أَفْتَضْنَا إِلَيْكَ﴾ كقوليه: ﴿فَرَأَى إِلَيْكَ أَهْلِيهِ﴾ [الذاريات: ٢٦] وقوليه (٢): ﴿فَرَأَى إِلَيْكَ أَهْلِيهِمْ﴾ [الصافات: ٩١] ونحوه.

الآية ٧٢ وقوله تعالى: ﴿إِن قَوْلُنَا مِمَّا سَأَلْتُكَ مِنْ أَجَرٍ﴾ التَّوَلَّى اسْمٌ لِأَمْرَيْنِ: اسْمٌ لِلإِعْرَاضِ وَالإِذْبَارِ كقوليه: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَكَنَ فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٠٥] واسْمٌ لِلإِقْبَالِ وَالْقَبُولِ أَيْضاً كقوليه: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّى اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية [المائدة: ٥٦] ونحوه.

فَهُنَا يَحْتَمِلُ الْأَمْرَيْنِ جَمِيعاً:

أَحَدُهُمَا (٣): ﴿إِن قَوْلُنَا﴾ أَيِ اقْبَلْتُمْ، وَقَبِلْتُمْ مَا أَعْرَضَهُ عَلَيْكُمْ، وَادْعَوْكُمْ إِلَيْهِ ﴿فَمَّا سَأَلْتُكَ مِنْ أَجَرٍ﴾ إِنِ اجْتَرَى إِلَّا عَلَى اللَّهِ.

والثاني (٤): إِن كَانَ فِي الإِعْرَاضِ فَكَأَنَّهُ يَقُولُ: كَيْفَ أَعْرَضْتُمْ عَنْ قَبُولِي، وَلَمْ أَسْأَلْكُمْ عَلَى ذَلِكَ أَجْراً، فَيَكُونُ لَكُمْ عَذْرٌ فِي الإِعْرَاضِ وَالرَّدِّ كقوليه ﴿أَمْ تَسْأَلُنَا أَجْراً﴾ الآية؟ [الطور: ٤٠] أَيِ لَمْ أَسْأَلْكُمْ [أَجْراً] (٥) عَلَى مَا أَعْرَضَهُ عَلَيْكُمْ، وَادْعَوْكُمْ إِلَيْهِ حَتَّى يَنْقُلَ عَلَيْكُمْ ذَلِكَ الْغُرْمَ عَنِ الإِجَابَةِ.

فَفي هَذِهِ الْآيَةِ وَغَيْرِهَا دَلَالَةٌ مَنْعُ اخْتِزَاجِ الْأَجْرِ عَلَى تَعْلِيمِ الْقُرْآنِ وَالْعِلْمِ لِأَنَّهُ لَوْ جَازَ اخْتِزَاجُ الْأَجْرِ عَلَى ذَلِكَ لَكَانَ لَهُمْ عَذْرٌ (٦) إِلَّا يَبْدُلُوا ذَلِكَ، وَلَا يَتَعَلَّمُوا شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ، وَفِي ذَلِكَ هَذِهِ شَرَائِعُ اللَّهِ وَإِسْقَاطُهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمِرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أَيِ مُسْلِمِماً نَفْسِي إِلَى اللَّهِ سَالِماً لَا أَجْعَلُ لِأَحَدٍ سِوَاهُ فِيهَا حَقّاً وَلَا حَقّاً، وَأَمِرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُخْلِصِينَ لِلَّهِ وَالْخَاضِعِينَ لَهُ. يَحْتَمِلُ ذَلِكَ كُلَّهُ.

الآية ٧٣ وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ يَغْنِي نَوْحاً، كَذَّبَهُ قَوْمُهُ فِي مَا ادَّعَى مِنَ الرِّسَالَةِ أَوْ مَا أَنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ أَوْ مَا أَوْعَدَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ بِتَكْذِيبِهِمْ إِيَّاهُ ﴿فَنَجَّيْنَاهُ﴾ يَغْنِي نَوْحاً ﴿وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾ أَيِ مَنْ رَكِبَ مَعَهُ الْفُلْكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿وَجَمَلْنَاهُمْ خَلْقاً﴾ أَيِ خَلَفَ قَوْمَ أَهْلِكُوا، وَاسْتَوْصَلُوا بِالتَّكْذِيبِ.

[وقوله تعالى] (٧): ﴿وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ تَحْتَمِلُ الْآيَاتُ الْحُجَجَ وَالْبَرَاهِينَ الَّتِي أَقَامَهَا عَلَى (٨) مَا ادَّعَا عَلَى الرِّسَالَةِ. وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الْعَذَابَ الَّذِي أَوْعَدَهُمْ بِتَكْذِيبِهِمْ إِيَّاهُ فِي مَا وَعَدَ.

وقوله تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَذَّبُوا﴾ كَانَ إِنْذَارُ الْقَرِيقَيْنِ جَمِيعاً الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ (٩) كقوليه: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ [يس: ١١] فَإِذَا كَانَ مَا ذَكَّرْنَا فَيَكُونُ تَأْوِيلُهُ: فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَنْ أَجَابَ وَمَنْ لَمْ يُجِبْ؟ عَاقِبَةُ مَنْ أَجَابَ الثَّوَابُ وَعَاقِبَةُ مَنْ لَمْ يُجِبْ الْعَذَابُ.

وَيَحْتَمِلُ ﴿الَّذِينَ﴾ الَّذِينَ لَمْ يَقْبَلُوا الْإِنْذَارَ، وَلَمْ يُجِيبُوا؛ أَيِ انظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَتُهُمْ بِالْهَلَاكِ وَالِاسْتِصْصَالِ، وَيَكُونُ تَأْوِيلُ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ [يس: ١١] أَيِ إِنَّمَا يَقْبَلُ الْإِنْذَارَ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ، أَيِ إِنَّمَا يَنْتَفِعُ بِالْإِنْذَارِ مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ. وَأَمَّا مَنْ لَمْ يَتَّبِعِ الذِّكْرَ فَلَمْ (١٠) يَنْتَفِعْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٧٤ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً﴾ أَيِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ﴿رُسُلًا إِلَيْكُمْ﴾ أَيِ بَعَثْنَا إِلَى كُلِّ قَوْمٍ رَسُولاً [أَيِ إِنَّهُ بَعَثَ الرُّسُلَ إِلَى أَقْوَامِهِمْ وَاحِداً] (١١) عَلَى إِفْرِ وَاحِدٍ ﴿لَمَّا كُفِرُوا بِالْآيَاتِ﴾ تَحْتَمِلُ الْبَيِّنَاتُ الْحُجَجَ وَالْبَرَاهِينَ الَّتِي أَقَامَهَا عَلَى مَا ادَّعَا عَلَى (١٢) الرِّسَالَةِ وَالنُّبُوَّةِ، وَتَحْتَمِلُ الْبَيِّنَاتُ بَيَاناً مَا عَلَيْهِمْ أَنْ يَأْتُوا وَيَتَّقُوا، وَتَحْتَمِلُ الْبَيِّنَاتُ [أَيِ] أَخْبَرُوا، وَأَنْبِئُوا قَوْمَهُمْ (١٣) بِالْعَذَابِ أَنَّهُ نَازِلٌ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيَعْضُهُمْ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: عَذْرًا. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: مَنْ. (٩) أُدْرِجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: جَمِيعاً. (١٠) الْفَاءُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١١) فِي الْأَصْلِ: إِلَّا أَنَّهُ بَعَثَ الرُّسُلَ إِلَى قَوْمِهِمْ وَلَكِنْ وَاحِداً، فِي م: إِلَّا أَنَّهُ بَعَثَ الرُّسُلَ قَوْمَهُمْ وَلَكِنْ وَاحِدًا. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: مَنْ. (١٣) فِي الْأَصْلِ: بِمَا أَخْبَرُوا وَأَنْبَأُوهُمْ مَعَهُمْ، فِي م: بِمَا أَخْبَرُوهُمْ وَأَنْبَأُوا قَوْمَهُمْ.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ قال بعضهم: ما كان كفار مكة ليؤمنوا وليصدقوا بالبينات كما لم يصدق بها^(١) أوائلهم، وقال بعضهم: ﴿بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ بغيث الرسل. فيه دلالة أن أهل الفترة يؤخذون بالتكذيب في حال الفترة.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ إِيْنَانِ الْبَيِّنَاتِ؛ أَيِ مَا كَانُوا يُؤْمِنُونَ بَعْدَ مَا جَاؤُوهُمْ^(٢) بِالْبَيِّنَاتِ بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ مَجِيءِ الْبَيِّنَاتِ.

[وقوله تعالى] (٣): ﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي هكذا نطبع على قلوب أهل مكة كما طبعنا على قلوب أوائلهم؛ علم أنهم لا يقبلون الآيات، ولا يؤمنون بها. والاعتداء هو الظلم مع العناد والمجاوزة عن الحد الذي جعل.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ ٢٣٣ - أ/ بِمَا كَذَّبُوا بِهِ، مِنْ قَبْلُ ﴿هُوَ يُخْرِجُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: ﴿فَمَا كَانُوا لِلْيَوْمِثَةِ﴾ بِالْبَيِّنَاتِ إِذَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ عَلَى السُّؤَالِ. وَهَكَذَا عَادَتْهُمْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآيَاتِ إِذَا أَتَتْهُمْ ^(٤) عَلَى السُّؤَالِ.

والثاني: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ﴾ على علم منهم أنها آيات وأنه رسول، والله أعلم.

[illegible]

﴿الآية ٧٦﴾ وقوله تعالى: ﴿لَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ: ﴿لَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ أَيِ الْحُجَجِ وَالْآيَاتِ ﴿مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا﴾ يَعْنُونَ الْحُجَجَ وَالْبَرَاهِينَ الَّتِي [جَاءَهُمْ بِهَا] ^(٥) مُوسَى ﴿لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ يُسْمَوْنَ الْحُجَجَ وَالْبَرَاهِينَ سِحْرًا لِمَا أَنَّ السَّحْرَ عِنْدَهُمْ بَاطِلٌ، لِذَلِكَ قَالُوا [عَنِ الْحُجَجِ] ^(٦): إِنَّهَا سِحْرٌ، وَذَلِكَ تَمْوِيهِ مِنْهُمْ، يُمَوِّهُونَ عَلَى النَّاسِ لئَلَّا يَظْهَرَ الْحَقُّ عِنْدَهُمْ، فَيَتَّبِعُوهُ ^(٧).

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْحَقُّ هُوَ الْإِسْلَامُ وَالِدِينُ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩] ﴿قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ يَغْنَوْنَ الْحُجَّجَ وَالْآيَاتِ الَّتِي [جَاءَهُمْ بِهَا لِلدِّينِ لِأَنَّهُ جَاءَ بِالدِّينِ] ^(٨) وَجَاءَهُمْ أَيْضاً بِحُجَجِ الدِّينِ وَآيَاتِهِ، قَالُوا [عَنْ حُجَّجٍ] ^(٩) الدِّينِ وَالْإِسْلَامَ: [إِنَّهَا سِحْرٌ] ^(١٠). فَبِهَا تَأْوِيلَيْنِ جَمِيعاً سَمَّوُا الْحُجَّجَ سِحْرًا.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ أي بأمرنا، وكذلك قوله: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩] أي الإسلام هو الدين الذي أمر الله به لا أنه يفهم للعبد مكان، [يَسْتَقِيلُ مِنْ مَكَانٍ] ^(١١) إلى مكان. ولكن معنى العبد معنى الأمر. وعلى هذا يخرج قوله: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ يعني الملائكة ^(١٢) لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ [الأعراف: ٢٠٦] أي إن الذين بأمر ربك يعبدونه، ولا يستكبرون عن عبادته لما أنه لم يفهم من مجيء الحق من عنده مكان. فعلى ذلك لا يجوز أن يفهم من قوله: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٢٠٦] المكان [أو قُرب] ^(١٣) المكان منه. ولكن التأويل ما ذكرنا أن المفهوم من عند الله أمره، والله أعلم.

الآية ٧٧ وقوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا﴾ والحق ما ذكرنا ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ الإفلاج هو الظفر بالحاجة. يقول: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ أي لا يظفرون بالحاجة، ولا يغلبون^(١٣) لأن السحر باطل، ولا يغلب الباطل، بل الحق هو الغالب، والسحر هو المغلوب على ما غلب الحق الذي جاء به موسى السحر الذي جاء به^(١٤)

(١) في الأصل وم: به. (٢) في الأصل وم: جاؤا. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: أتاهم. (٥) في الأصل وم: جاء بهم. (٦) في الأصل وم: للحجج. (٧) في الأصل وم: فيتبعونه. (٨) في م: جاء بها للدين. (٩) في الأصل وم: لحجج. (١٠) في الأصل وم: سحراً. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: أقرب. (١٣) في الأصل وم: يغلب. (١٤) ساقطة من الأصل وم.

سَحَرَةُ فِرْعَوْنَ. أو يقول: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ في الآخرة يسخرهم في الدنيا، ويَحْتَمِلُ قوله: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ يسخرهم في حال يسخرهم كقوليه: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١ و٢٢] وقوليه^(١) ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٧ و١٨] أي لا يُفْلِحُونَ بِظُلْمِهِمْ في حال ظُلْمِهِمْ. وأما إذا تَرَكَوا الظلم فقد أفلحوا. فعلى ذلك السحرة إذا تَرَكَوا السحر فقد أفلحوا، والله أعلم.

الآية ٧٨ وقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْلَمَ أَكُنَّا بِظِلْمِكُمْ أَوْ لَا تَأْتِنَا كُذَّابًا أَوْ لَدُنَّا كَذِبًا أَوْ أَجِئْتَنَا بِبُرْهَانٍ﴾. قال القتيبي: لَفَتْ فلاناً عن كذا إذا صرّفته، والإلتفات منه، وهو الإنصراف. وقال أبو عوسجة: ﴿لِنَعْلَمَ أَكُنَّا بِظِلْمِكُمْ أَوْ لَا تَأْتِنَا كُذَّابًا أَوْ لَدُنَّا كَذِبًا أَوْ أَجِئْتَنَا بِبُرْهَانٍ﴾. لَفَتْه تَلَفَتْه لَفَتْ.

وقوله تعالى: ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَى آلِهَاتِنَا﴾ من عبادة الأصنام والأوثان. ويَحْتَمِلُ ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَى آلِهَاتِنَا﴾ من عبادة فرعون والطاعة له ﴿وَتَكُونُ لَكُمْ الْكَرِيهَاتُ فِي الْأَرْضِ﴾ قال أهل التأويل: الكبرياء المُلْكُ والسلطان والشرف، أي المُلْكُ الذي كان لِفِرْعَوْنَ والسلطان يكون لكما باتباع الناس لكما لأن كل متبوع مطاع مُعْظَم مُشْرِف.

ويَحْتَمِلُ قوله: ﴿وَتَكُونُ لَكُمْ الْكَرِيهَاتُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي الألوهية التي [كان يدعيها]^(٢) فرعون لنفسه لكما لأن عندهم أن كل من أطيع، وأتبع، فقد عبد، ونُصِبَ إلهاً ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي بمصدقين في ما تدعوننا^(٣) من الرسالة.

الآية ٧٩ وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَدْعُونِي أَعْتَبُ بِكُلِّ سَاحِرٍ غَيْرِي﴾ هذا من فرعون يَنْقُضُ ما ادّعى من الألوهية لما^(٤) أظهر الحاجة إلى غيره^(٥)، ولا يجوز أن يكون المحتاج إلهاً.

الآيتان ٨٠ و٨١ وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّثْقَلُونَ﴾ ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرَ إِنَّ اللَّهَ سَابِطٌ﴾ أي سَيَبْطُلُ عَمَلُ السَّحَرِ الذي قَصَدُوا به؛ أي يجعله^(٦) مغلوباً كقوليه: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ [يونس: ٧٧] ولا يظفرون بالحاجة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلُ الْمُفْسِدِينَ﴾ هو ما ذكرنا، أي لا يجعلهم بأعمالهم الفاسدة صالحين، أو لا يجعل أعمالهم الفاسدة صالحة. وقال بعضهم ﴿لَا يَصْلِحُ﴾ أي لا يَرْضَى بِعَمَلِ الْمُفْسِدِينَ.

الآية ٨٢ وقوله تعالى: ﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكُلِّ مِثْقَلٍ ذَرَّةٍ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ ذكر أنه^(٧) يُحِقُّ الحق، والحق حق، وإن لم يَحِقُّ الحق، وذكر ذلك في الباطل ليُبْطِلَ الباطل، والباطل باطل، وإن لم يَبْطُلْ، ولكن يَحْتَمِلُ قوله ﴿يُحِقُّ الْحَقَّ وَيُبْطِلُ الْبَاطِلَ﴾ [الأنفال: ٨] [أي ليَجْعَلَ الحق^(٨) في الابتداء حقاً، ويَجْعَلَ الباطل في الابتداء باطلاً، فيكون باطلاً بباطاله الباطل^(٩)].

وبتحقيقه الحق يكون حقاً، ويقال^(١٠): مَدَاهُ، فافتدى، وأصله، فَضْلٌ؛ أي بهديتيه افتدى، وبإضلاله ضل. فعلى ذلك بإبطاله الباطل بطل، وبتحقيقه الحق حق، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿يَكْفُرُ بِهِ﴾ يَحْتَمِلُ^(١١) ﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكُلِّ مِثْقَلٍ ذَرَّةٍ﴾ ما وعد موسى قومه من العذاب وما وعد من النعمة لهم كقوليه: ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَ لَكُم مَّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠]

الآية ٨٣ وقوله تعالى: ﴿فَمَّا آمَنَ لُؤْلُؤُا دَاوُدَ مِنْ قَوْمِهِ﴾ يَحْتَمِلُ قوله: ﴿مِنْ قَوْمِهِ﴾ من قوم موسى لما قيل: إن موسى كان من أولاد إسرائيل، فهم من دُرَيْتِهِ. من هذا الوجه يقال: أهل بيت فلان، وإن لم يكن البيت له. ويَحْتَمِلُ قوله ﴿إِلَّا دَاوُدَ مِنْ قَوْمِهِ﴾ من قوم فرعون، فهو نُسِبَ إليه لما ذكرنا.

وقال أهل التأويل: أراد بالذرية القليل منهم؛ أي ما آمن منهم إلا القليل، ولكن لا ندري ذلك.

وقوله تعالى: ﴿فَمَّا آمَنَ لُؤْلُؤُا دَاوُدَ مِنْ قَوْمِهِ﴾ يَحْتَمِلُ قوله ﴿فَمَّا آمَنَ﴾ من آمن ﴿مِنْ قَوْمِهِ﴾

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: كانت يدعي. (٣) في الأصل: تدعون، في م: تدعوننا. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) من م، في الأصل: غير. (٦) في الأصل وم: يجعلوه. (٧) في الأصل وم: أن. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) أدرج بعدها في الأصل وم: يكون باطلاً. (١٠) في الأصل وم: وهو يقال. (١١) أدرج قبلها في الأصل وم: يحتمل وجوهاً.

قَوْمِهِ. عَنْ خَوْفٍ يَنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِكَتِهِ أَي آمَنُوا، وَإِنْ خَافُوا مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ. وَيَحْتَمِلُ مَا تَرَكَ مِنْ قَوْمِهِ الْإِيمَانُ بِمُوسَى مَنْ تَرَكَ إِلَّا عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ ﴿أَنْ يَقْتُلَهُمْ﴾ أَي يَقْتُلُهُمْ، وَيُعَذِّبُهُمْ.

ففيه دلالة أَنَّ الخوف لا يُغْذِرُ المَرَّةَ في ترك الإيمان حقيقةً، وَإِنْ كَانَ يُغْذِرُ في ترك إظهاره لِأَنَّ التَّصْدِيقَ يَكُونُ بِالْقَلْبِ، وَلَا أَحَدٌ مِنَ الْخَلَائِقِ يَطْلُعُ عَلَى ذَلِكَ. لِذَلِكَ لَمْ يُغْذِرْ فِي تَرْكِ إِيْمَانِهِ ^(١) لِأَنَّهُ يَقْدِرُ عَلَى إِسْرَارِهِ. أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾؟ [غافر: ٢٨] كَانَ مُؤْمِنًا فِي مَا بَيْنَهُ [وَبَيْنَ] ^(٢) رَبِّهِ، وَلَكِنْ ^(٣) لَمْ يَظْهَرْ [إِيْمَانُهُ] ^(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ فِرْعَوْنَ لَمَّا لِي الْأَرْضِ﴾ وهو ما قَالَ ﷺ ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤] أَي قَهَرَ، وَغَلَبَ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ ﴿وَلَنْ لِي مِنَ الشَّرِيفِينَ﴾

الآية ٨٤

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى بَقَوْمٍ إِنْ كُنْتُمْ مَأْمَنُونَ بِاللَّهِ فَاعْلَمُوا أَنَّ كُنْتُمْ تُسْلِيُونَ﴾ فيه دلالة أَنَّ الْإِيمَانَ وَالْإِسْلَامَ وَاحِدٌ فِي الْحَقِيقَةِ لِأَنَّهُ بَدَأَ بِالْإِيمَانِ بِقَوْلِهِ ﴿إِنْ كُنْتُمْ مَأْمَنُونَ بِاللَّهِ فَاعْلَمُوا﴾ وَخَتَمَ بِالْإِسْلَامِ بِقَوْلِهِ ^(٥) ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُسْلِيُونَ﴾ دَلَّ أَنَّهُمَا وَاحِدٌ.

فَالْإِيمَانُ ^(٦) اغْتِفَادٌ وَتَرْكٌ ^(٧) تَضْيِيعٌ كُلُّ حَقٍّ، وَالْإِسْلَامُ اغْتِفَادُ كُلِّ حَقٍّ وَتَرْكُ تَضْيِيعِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَالْإِسْلَامُ هُوَ جَعْلُ كُلِّ شَيْءٍ فِي مَا فِيهَا مِنَ الشَّهَادَةِ لِلَّهِ بِالرُّبُوبِيَّةِ لَهُ وَالْأُلُوهِيَّةِ.

وقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ كُنْتُمْ تُسْلِيُونَ﴾ يَحْتَمِلُ هَذَا وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا ^(٨): أَنْ يَكُونَ قَالَ ذَلِكَ لَمَّا خَافُوا مَوَاعِيدَ فِرْعَوْنَ وَغُفَوَاتِهِ كَقَوْلِهِ لِلْمَسْحُورَةِ لَمَّا آمَنُوا ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَنْزِلُكُمْ مِنْ ظُلُمٍ﴾ الْآيَةِ [الأعراف: ١٢٤] فَقَالَ عِنْدَ ذَلِكَ ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ كُنْتُمْ تُسْلِيُونَ﴾ فِي ذَنْعِ ذَلِكَ ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الآية ٨٥]

[وَالثَّانِي: مَا قَالَ] ^(٩) ﴿عَنْ خَوْفٍ يَنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِكَتِهِ أَنْ يَقْتُلَهُمْ﴾ لَمَّا ^(١٠) قِيلَ: / ٢٣٣ - ب/ يَقْتُلُهُمْ ^(١١)، وَيُعَذِّبُهُمْ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٨٥

[وقوله تعالى: ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾] ^(١٢) هَذَا يُخْرِجُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَي لَا تَجْعَلْ لَهُمْ عَلَيْنَا الظُّفْرَ وَالنَّظَرَ فَيُظَنُّوا ^(١٣) أَنَّهُمْ عَلَى هُدًى وَعَلَى حَقٍّ ^(١٤)، وَنَحْنُ عَلَى ضَلَالٍ وَبَاطِلٍ. وَالثَّانِي: لَا تَجْعَلْنَا تَحْتَ أَيْدِي الظَّالِمَةِ فَيُعَذِّبُونَا، فَيَكُونُ ذَلِكَ فِتْنَةً لَنَا وَمِخَنَةً عَلَى مَا فَعَلَ فِرْعَوْنُ بِالْمَسْحُورَةِ لَمَّا آمَنُوا.

الآية ٨٦

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَكُمْ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِينَ﴾ [أَيِ الظَّالِمِينَ] وَهَذَا ^(١٥) وَاحِدٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٨٧

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَبِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ الْآيَةِ يَحْتَمِلُ

وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ أَيِ اتَّخَذَا لِقَوْمِيكُمَا مَسَاجِدَ تُصَلُّونَ فِيهَا ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ﴾ أَيِ اجْعَلُوا فِي بُيُوتِكُمُ الَّتِي اتَّخَذْتُمُوهَا مَسَاجِدَ ﴿قِبْلَةً﴾ فَيَكُونُ قَوْلُهُ ^(١٦): ﴿تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ [الْأَمْرُ بِاتِّخَاذِ الْمَسَاجِدِ، وَيَكُونُ فِي قَوْلِهِ ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ الْأَمْرُ بِاتِّخَاذِ الْقِبْلَةِ فِي الْمَسَاجِدِ الَّتِي أَمَرَ بَيْنَانَا.

وَالثَّانِي: [يَحْتَمِلُ] ^(١٧) قَوْلُهُ: ﴿أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ ^(١٨) أَيِ اتَّخَذَا لِقَوْمِيكُمَا بِمِصْرَ مَسَاجِدَ عَلَى مَا ذَكَرْنَا.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: إِيْمَانُهُ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَإِنْ. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: هُوَ. (٧) الْوَاوُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: يَحْتَمِلُ. (٩) فِي الْأَصْلِ: يَحْتَمِلُ مَا قَالُوا. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: مَا. (١١) أُدْرِجَ قَبْلُهَا فِي الْأَصْلِ وَم: إِنْ. (١٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: فَيُظَنُّونَ. (١٤) فِي الْأَصْلِ وَم: خَوْفٍ. (١٥) فِي الْأَصْلِ وَم: فِيهِ قَوْلُهُ ﴿الظَّالِمِينَ﴾ وَ﴿الْكَافِينَ﴾. (١٦) فِي الْأَصْلِ وَم: اتَّخَذْتُمْ الْمَسَاجِدَ قِبْلَةً. (١٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١٨) سَاقِطَةٌ مِنْ م.

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي اجعلوا بيوتكم التي بنيتم لأنفسكم قبلة تتوجهون إليها. ويكون فيه دلالة أن نضب الجماعة واتخاذ المساجد والقبلة متوارثة ليست ببدعة لنا وفي شريعتنا خاصة، ويؤيد ما ذكرنا أن فيه الأمر باتخاذ المساجد.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ دل الأمر بإقامة الصلاة على أن الأمر بتبوت البيوت أمر باتخاذ المساجد، والآية التي ذكر فيها اتخاذ المساجد تخرج مخرج الإباحة لنا، وهو قوله: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ﴾ [النور: ٣٦] هو في الظاهر إباحة، وقيل^(١) هو أمر في الحقيقة، وإن كان في الظاهر إباحة. ألا ترى أنه قال: ﴿وَتَذَكَّرَ فِيهَا ائْتَمُّ يَسْخُ لَهُ فِيهَا﴾ الآية؟ [النور: ٣٦] ولا شك أن ذكر اسمه والتسيخ له أمر فيه، دل أنه ما ذكرنا، والله أعلم.

وأما أهل التأويل فإنهم قالوا: إنهم كانوا يخافون فرعون وملائه، فأمرُوا أن يجعلوا في بيوتهم مساجد مستقبلة الكعبة، يصلون فيها سرّاً خوفاً من فرعون، هذا يَحْتَمِلُ إذا كان قبل هلاك فرعون وقبل أن يستولوا على مصر. وإذا كان بعد هلاكه وتعد ما استولوا، وملكوا، على مصر وأهلها فالأمر فيه ما ذكرنا أمر باتخاذ المساجد ونضب الجماعات فيه وإقامة الصلاة فيها.

وقال بعضهم من أهل التأويل: وجهوا بيوتكم ومساجدكم نحو القبلة. لكن هذا بعيد لأنه لا يكون بيتاً إلا وتكون جهة من جهاته إلى القبلة، فلا تغنى له، والوجه فيه ما ذكرنا.

ويَحْتَمِلُ الأمر بتبوت البيوت لقوميهما بمصر وجعل البيوت قبلة وجهين:

أحدهما: الأمر بالانفصال من فرعون وقومه حتى إذا أرادوا الخروج من عندهم قدروا على ذلك، ولا يكون المرور عليهم. وكان ذلك الانفصال؛ إنما كان من جهة القبلة.

والثاني: ما ذكر [أنهم]^(٢) أرادوا أن يعتزلوهم حتى يتهيا لهم الصلاة فيها، وكانت^(٣) لا تتهيأ لهم في بيوت فرعون.

وقوله تعالى: ﴿وَنَبِّئِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يَحْتَمِلُ البشارة في الآخرة [بالجنة]^(٤) وأنواع النعم، ويَحْتَمِلُ أن يبشرهم بالملك في الدنيا والظفر على فرعون وأنواع النعم بعد ما أصابته^(٥) الشدائد من فرعون كقوله: ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا تَمْ يُؤْتِ آسَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠].

وقال أبو عروسة: قوله: ﴿أَن تَبَوَّءَ لِقَوْمِكُمَا﴾ تهيئاً من التهيئة؛ أي هيئاً لهم موضعاً كقوله: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبَآءَ صِدْقٍ﴾ [يونس: ٩٣] أي هيئنا لهم مهياً صدق.

الآية ٨٨

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ مَآبَتِ فِرْعَوْنُ وَمَلَأَهُ زِينَةً﴾ يَحْتَمِلُ قوله «زينة» من أنواع ما آتاهم من الأنزال والنبات كقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَغْبَذَ الْأَرْضُ زُفْرُهَا وَأَزْيَنَتْ﴾ [يونس: ٢٤] ونحوه. ويَحْتَمِلُ الزينة التي كانوا يتزينون بها من المراكب والملبس وما يتحلون بها من أنواع الحلي وأموال كثيرة سوى ذلك.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا يُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ﴾ قالت المعتزلة: تأويل قوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَآبَتِ فِرْعَوْنُ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَنزَلْنَا فِي لَحْيَتِهِ الذَّنْبَ رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ﴾ أي آتاهم لثلاً يضلوا الناس عن سبيله، ولكن أضلوهم، وقالوا: هذا كما يقال: لم يك هذا كذا [لِتَفْعَلَ كذا]^(٦)، ولكن فعلت، ونحوه من الكلام.

ولكن عندنا هو ما ذكرنا: هي^(٧) الأموال، وما ذكر: ﴿يُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ﴾ لأنه إذا علم أنهم يضلون الناس عن سبيله ما آتاهم ليضلوا، وهو كما ذكرنا في قوله: ﴿إِنَّمَا تَمَلُّ لَمْ يَزِدْهُمُ دُونًا إِسْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨] وقوله: ﴿فَتَارِعَ لَمْ فِي الْفِتْرِ﴾ الآية [المؤمنون: ٥٦] وأمثاله كذا^(٨)، والله أعلم.

(١) في الأصل وم: قيل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وكان. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: أصابوا.

(٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: هم. (٨) في الأصل وم: فكذا.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَخْرِسْ عَلَىٰ أَمْرِيهِمْ وَأَشْدِدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ يَحْتَمِلُ هذا وجهين:

أحدهما^(١): أي ﴿أَخْرِسْ عَلَىٰ أَمْرِيهِمْ﴾ واجعل في قلوبهم قساوةً وغِلظةً، تنفّر الاتباعَ وَمَنْ يَقْلُدْ مِنْ اتِّبَاعِهِمْ^(٢) فيكون ذلك أهونَ علينا في استنقاذ الاتباع وأدعى لهم إلى الإيمان؛ أعني بالاتباع^(٣) مَنْ يَقْلُدُهُمْ، ويكون ذلك سبباً لإبعادهم عن اتباعهم وتقليدهم إياهم، هذا وجه.

والثاني: قوله: ﴿رَبَّنَا أَخْرِسْ عَلَىٰ أَمْرِيهِمْ وَأَشْدِدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي اجعل ذلك آيةً تُضطرّهم إلى الإيمان، فإنهم لم يؤمنوا بالآيات التي أرسلها عليهم من الطوفان والجراد وما ذُكر من البلايا. فيكون قوله: ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ هذا من ظنّس الأموال وقساوة القلوب وشِدَّتِها، والله أعلم.

قال بعض أهل التأويل: ﴿وَأَشْدِدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ واطبّعها ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ وهو الفرق، عند ذلك يؤمنون. أما بهذه الآيات فلا يَحْتَمِلُ إذا كان ۞ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، فَيَسَّعُ لَهُ هذا الدعاء. وأما ما قَبْلَ أَنْ يُخْبِرَهُ بذلك فلا يَسَّعُ لَهُ أَنْ يَدْعُو بهذا، وهو إنما أرسله عليهم لِيَدْعُوهُمْ إلى الإيمان.

والظنّس: قال أبو عوسجة: هو الذهابُ بها، أي اذهب بها. قال القُتَيْبِيُّ: قوله: ﴿رَبَّنَا أَخْرِسْ عَلَىٰ أَمْرِيهِمْ﴾ أي أهْلِكها، وهو من قولك: ظنّس الطريق؛ إذا عفا، ودرَس. وقال غيره: الظنّس هو المسخ، وهو^(٤) كقوله ﴿لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ﴾ [يس: ٦٦] أي مَسَخْنَاهُمْ، وقال بعضهم: الظنّس هو التغيُّيرُ عَنْ جَوْهَرِهَا. دعا موسى بهذا الدعاء بالأمير [وهو]^(٥) آيس من إيمانهم، وهو كقول نوح: ﴿لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذِكْرًا﴾ ﴿إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ﴾ الآية [نوح: ٢٦ و٢٧] عند الإياس منهم. فَعَلَى ذلك موسى، والله أعلم.

الآية ٨٩

وقوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتِ دَعْوَتُكُمَا﴾ قال بعضهم: إن موسى كان يدعو، وهارون يؤمّن على دعائه، فقال الله ۞ ﴿قَدْ أُجِيبَتِ دَعْوَتُكُمَا﴾ سَمَى كلامهما^(٦) دعاء. ولهذا قال محمد بن الحسن، رحمه الله، في بعض كتبه: إن الإمام يدعو في القنوت في الوتر، والقوم يؤمّنون.

وقوله تعالى: ﴿فَاسْتَجِيبَا﴾ على الرسالة وما أمرتكما به ﴿وَلَا تَتَّبِعَا سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهو كقوله لمحمد ۞ ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨] ونحوه. وإن كان العلمُ مُحِيطاً أَنَّ الأنبياء، صلوات الله عليهم، لا يتبعون سبيل أولئك، ولا يتبعون أهواءهم لما عَصَمَهُمْ ۞ ولكن ذُكِرَ هذا، والله أعلم، لِيُعْلِمَ أَنَّ الْعِصْمَةَ لَا تُزِيلُ النَّهْيَ وَالْأَمْرَ، بل تَزِيدُ حُظْرًا وَنَهْيًا، والله أعلم.

الآية ٩٠

وقوله تعالى: ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَيْنَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ﴾ هذا ظاهر. وفي قوله ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ﴾ دلالةٌ خَلْقِ أفعال العبادِ لأنه أضاف إلى نفسه؛ جاوز بهم، وبنو إسرائيل هم الذين تجاوزوا. دل ذلك أنه خالقُ فعلهم.

وأما قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا آدَرَكَهُ الْفَرَقُ﴾ أي حتى إذا غرق لأنه ذُكِرَ في بعض القصص أن فرعون لما ساحل البحر، فرأى البحرَ مُتَفَرِّجاً، قال^(٧): إنما انفرجَ / ٢٣٤ - البحر لي، فلما دخلَ غرق، فعِنْدَ ذلك قال غريقاً ﴿مَا أَنتَ أَتَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي مَآسَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ثم إيمانه لم يقبل في ذلك الوقت لوجهين:

أحدهما: لما يَحْتَمِلُ أَنْ يكون إيمانه عند رؤية البأس وخوف الهلاك، فهو إيمان دفع البأس لا إيمان حقيقة، وهو على ما أَخْبَرَ عَنْ إيمان الكفرة في الآخرة لما عاينوا العذاب كقولهم: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْكَ أَبْكَلِ﴾ [إبراهيم: ٤٤] وكقوله ﴿رَبِّ أَنْجُونِي﴾ ﴿لَمَلَحَ أَعْمَلُ سَلِيمًا فِيمَا رَكَّتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩ و١٠٠] وكقولهم ﴿فَاتَّبَعْنَا نَقَلَ سَلِيمًا﴾ [السجدة: ١٢] وكقولهم:

(١) في الأصل وم: يحتمل. (٢) أدرج بعدها في الأصل وم: وتقليدهم. (٣) الباء ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: و. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: كلها. (٧) في الأصل وم: فقال.

﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧] وامثاله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا هُمْ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] فما عاينوا هم من العذاب أكبر وأشد مما عاين فرعون.

ثم أخبر أنهم ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا هُمْ عَنْهُ﴾ إلى ما كانوا يفعلون، لكنهم قالوا ذلك قول دفع. فعلى ذلك إيمان فرعون إيمان دفع البأس عن نفسه لا إيمان حقيقة واختيار.

والثاني: إن الإيمان والإسلام هو تسليم النفس إلى الله، فإذا آمن في وقت خرجت نفسه من يده لم يصير مسلماً نفسه إلى الله؛ إذ نفسه ليست في يده، ولذلك لم يقبل الإيمان في ذلك الوقت وقت الإشراف على الهلاك.

ويحتمل وجهاً آخر، وهو أن الإيمان بالله لا يكون بالإستدلال بالشاهد على الغائب في ذلك الوقت؛ إذ لا يكون ذلك إلا بالنظر والتفكير، وفي ذلك الوقت لا يمكن النظر والتفكير. لذلك لم يكن إيمان حقيقة، والله أعلم.

الآيتان ٩١ و ٩٢ [وقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْفٰسِقِينَ﴾^(١)] وقوله^(٢) تعالى: ﴿قَالَتِمْ نُنَجِّيكَ يَدَيَكِ﴾ قيل [فيه بروجو:

أحدها]^(٣) قوله: ﴿نُنَجِّيكَ﴾ من النجوة، أي نلقيك على النجوة، وهو مكان الإرتفاع والإشراف ليراه كل أحد أنه ملك ليظهر لهم أنه لم يكن إلهاً على ما ادعى، وأن^(٤) سائر أبدان قومه لم تلق على النجوة، ولكن بقيت في البحر.

والثاني: قوله^(٥): ﴿نُنَجِّيكَ﴾ أي نخرجك من البحر، لا نتركك فيه ﴿لَنَكُونَنَّ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾.

والثالث: ﴿نُنَجِّيكَ يَدَيَكِ﴾ ولا تنج بذك روحك لأنه ذكر في القصة أنهم لما [غرقوا هروا]^(٦) إلى النار كقولوه: ﴿مِمَّا خَطَبْتِهِمْ أَرْغَوْا فَأَدْخَلُوا نَارًا﴾ [نوح: ٢٥]؛ إنه أخبر [أنه]^(٧) لم يهو جسده بروجو إلى النار، ولكن أخرج بدنه^(٨)، وهوت روحه إلى النار مع سائر قومه، والله أعلم، ليرى جسده، ويظهر كذبه، ولا يشتبه أمره عليهم.

وقوله تعالى: ﴿لَنَكُونَنَّ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾ يحتمل وجهين: يحتمل ليكون هلاك آية، فلا يدعي أحد الربوبية والألوهية مثل ما ادعى هو، أو يقول: ﴿لَنَكُونَنَّ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾ أي من شاهدك كذلك غريقاً ملقى كان آية له.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَيْدًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَلْفِيلِ﴾ قال بعض أهل التاويل: يعني أهل مكة ﴿عَنْ آيَاتِنَا لَلْفِيلِ﴾ عن هلاك فرعون، وقومه لما قالوا ﴿مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرٍ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مِينٌ﴾ [سبا: ٤٣] يقول: هم غافلون عما أصاب أولئك؛ إذ مثل هذا لا يفترى، أعني هذه القصص.

ويحتمل: ﴿وَإِنَّ كَيْدًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَلْفِيلِ﴾ أي كثيراً منهم كانوا غافلين عما أصابهم. والعقلة تكون على وجهين:

أحدهما: عقلة إعراض وعناد بعد العلم ومعرفة أن ذلك حق.

والثاني: [عقلة ترك]^(٩) النظر والتفكير، فكلا الوجهين مذموم.

الآية ٩٣

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرٰءِيلَ مَبْوَءَ صِدْقٍ﴾ قال عامة أهل التاويل: بؤانا: أنزلنا بني إسرائيل منزلاً صديق. وقال بعضهم: بؤانا: هيأنا لبني إسرائيل ﴿مَبْوَءَ صِدْقٍ﴾ مهياً صديقاً حسناً كقولوه: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ نُبِؤُوكَ الْفٰثِرِينَ﴾ الآية [آل عمران: ١٢١] أي نبئ المؤمنين. وقال بعضهم: قوله: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرٰءِيلَ مَبْوَءَ صِدْقٍ﴾ أي مكناهم تمكين صديق، وهو كقولوه: ﴿وَرِيدُكَ أَنْ تَمَنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضِيقُوا فِي الْأَرْضِ وَتَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَتَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ ﴿وَتُسَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية [القصص: ٦٥] يحتمل ما ذكر من الثبوت التمكن الذي ذكر في هذه الآية.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: و أما قوله. (٣) في الأصل وم: بروجو. (٤) في الأصل وم: وأما. (٥) في الأصل وم: قيل. (٦) في الأصل: هروا غرقوا، في م: هم وغرقوا. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: بدنه. (٩) في الأصل وم: يغفل بترك.

وقوله تعالى: ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ اللَّيْلِ مَنِّ سِدْقٍ أَيْ حُسْنٍ، وَيَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ آخَرَيْنِ.

أحدهما: أنه وَعَدَ لَهُمْ أَنْ يُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ، فَانْجَزَ ذَلِكَ الْوَعْدَ، فَهُوَ مُبَوِّأٌ صِدْقٍ أَيْ مُمَكَّنٌ^(١) صِدْقٍ حِينَ^(٢) أَنْجَزَ ذَلِكَ الْوَعْدَ، وَصَدَّقَ الْوَعْدَ مَا ذَكَرَ ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَاعُونَ﴾ الآية [الأعراف: ١٣٧]

والثاني: ﴿مُبَوِّأٌ صِدْقٍ﴾ أَيْ مُبَوِّأٌ أَهْلُ صِدْقٍ لِأَنَّ الشَّامَ كَانَ لَمْ يَزَلْ مُنْزِلُ أَهْلِ صِدْقٍ، وَعَلَى هَذَا يُخْرِجُ قَوْلُهُ: ﴿وَقُلْ رَبِّ ادْخُلْنِي مَدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ﴾ الآية [الإسراء: ٨٠] أَيْ أَخْرِجْنِي مَخْرَجَ أَهْلِ صِدْقٍ، وَادْخُلْنِي مَدْخَلَ أَهْلِ صِدْقٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ اللَّيْلِ مَنِّ سِدْقٍ﴾ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: يَعْنِي الْمَنِّ وَالسَّلْوَى، وَلَكِنَّ الْقَلِيَّاتِ هِيَ الَّتِي طَابَتْ بِهَا الْأَنْفُسُ مِمَّا حَلَّ بِالشَّرْعِ مِمَّا لَا تَبَعَةَ عَلَى أَرْبَابِهَا مِمَّا لَمْ يَغْصَصْ فِيهَا.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْيَوْمُ﴾ أَيْ فَمَا اخْتَلَفُوا فِي الدِّينِ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ أَنَّهُ حَقٌّ، وَقِيلَ: فَمَا اخْتَلَفُوا فِي مُحَمَّدٍ فِي أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، وَقِيلَ: فَمَا اخْتَلَفُوا فِي الْقُرْآنِ وَالْآيَاتِ الَّتِي أَنْزَلَهَا عَلَى رَسُولِهِ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ. وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا﴾ فِي مُوسَى أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ الآية ظاهرة مِنَ الْوُجُوهِ الَّتِي ذَكَرْتُ^(٣).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أحدهما: الجزاء والثواب، والثاني: فِي تَبْيِينِ الْحَقِّ وَالْمُبْطَلِ.

الآية ٩٤

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَتَنَلِ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ الْكِتَابَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: الْخَطَابُ بِهِ الْمُرَادُ بِرَسُولِ اللَّهِ: إِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَخْبَرْتَهُمْ، وَأَنْبَأْتَهُمْ. فَمَنْ قَالَ: الْخَطَابُ لِرَسُولِ اللَّهِ وَالْمُرَادُ بِهِ غَيْرُهُ، فَهُوَ^(٤) مَا ظَهَرَ فِي النَّاسِ [أَنَّهُ يُخَاطَبُ]^(٥) مَنْ هُوَ أَعْظَمُ مُنْزَلَةً عَنْدهُمْ وَقُدْرًا، وَيُرِيدُ^(٦) بِهِ غَيْرُهُ، وَإِلَّا لَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ رَسُولُ اللَّهِ يُشَكُّ فِي مَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ قَطُّ، أَوْ يَرْتَابُ، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا يَلْمِزُكَ الْكَافِرُ أَكْثَرُ مِنْ أَكْثَرِ أَهْلِ الْإِسْرَاءِ﴾ الآية [الإسراء: ٢٣] وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ فِي وَقْتِ مَا خَاطَبَ بِهِ لَمْ يَكُنْ أَبَوَاءَ حَيِّينَ^(٧). دَلٌّ أَنَّهُ أَرَادَ بِهِ غَيْرَهُ.

فَعَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلِ. وَمَنْ قَالَ: الْخَطَابُ وَالْمُرَادُ بِهِ مَنْ حَضَرَ رَسُولُ اللَّهِ يَقُولُ: إِنْ الْوَفْدَ مِنَ الْكُفْرَةِ كَانُوا يَتَقَدَّمُونَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، فَيَسْأَلُونَهُ شَيْئًا، فَيُخَاطَبُ الَّذِي^(٨) يَتَقَدَّمُ، وَكَانَ يَحْضُرُهُ الْوَفْدَ وَالْجَمَاعَةَ، يَقُولُ: ﴿إِن كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَتَنَلِ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ الْكِتَابَ﴾

وقوله تعالى: ﴿أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ هُوَ مُنْزَلٌ إِلَيْهِ؛ إِذْ كُلُّ مُنْزَلٍ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ [هُوَ مُنْزَلٌ]^(٩) عَلَيْهِ وَإِلَيْهِ وَإِلَى كُلِّ أَحَدٍ لِقَوْلِهِ: ﴿أَتَيْنَا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٣] أَمَرَ بِاتِّبَاعِ مَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ. دَلٌّ أَنَّ كُلَّ مُنْزَلٍ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ مُنْزَلٌ^(١٠) عَلَيْهِمْ.

وَمَنْ قَالَ: الْخَطَابُ لِرَسُولِ اللَّهِ، وَالْمُرَادُ بِهِ غَيْرُهُ لِمَا^(١١) لَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ رَسُولُ اللَّهِ يُشَكُّ فِي شَيْءٍ مِمَّا أَنْزَلَ إِلَيْهِ، وَلَكِنَّهُ يُرِيدُ بِهِ التَّقْرِيرَ عَنْدهُ^(١٢) لِقَوْلِ الْكَفَّارِ: الَّذِي يُلْقِي عَلَى مُحَمَّدٍ شَيْطَانًا، فَيُرِيدُ بِهِ التَّقْرِيرَ عَنْدهُ، أَوْ يُخَاطَبُ بِهِ كُلُّ شَاكٍّ كَقَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا عَزَاكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦] هُوَ يُخَاطَبُ إِنْسَانًا، وَلَكِنَّ الْمُرَادَ مِنْهُ كُلُّ إِنْسَانٍ/ ٢٣٤ - ب/ مَغْرُورٍ وَكُلُّ كَافِرٍ، وَذَلِكَ جَائِزٌ فِي الْقُرْآنِ، كَثِيرٌ أَنْ يُخَاطَبَ كَلًّا فِي تَقْيِيدِهِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: تَمْكِين. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: ذَكَر. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَهُوَ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنَّهُمْ مُخَاطَبُونَ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيُرِيدُونَ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: أَحْيَاء. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: الَّذِينَ. (٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: نَزَلَ. (١١) فِي الْأَصْلِ: مَا، فِي م: مِمَّا. (١٢) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: عَنْهُ.

وَمَنْ قَالَ: خَاطَبَ بِهِ رَسُولُهُ، وَارَادَهُ أَيْضًا، وَهُوَ كَانَ فِي الْإِبْتِدَاءِ عَلَى غَيْرِ يَقِينٍ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ أَوْ لَا كَقَوْلِهِ: ﴿مَا كُنْتُ نَذِيرًا مَّا أَلْكَتِبْتُ وَلَا الْإِيمَنُ﴾ [الشورى: ٥٢] فَقَالَ ﴿فَإِنْ كُنْتُ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْتُ إِلَيْكَ فَغَنِّي الْوَيْلُ يَوْمَ يَقْرَأُ الْكِتَابُ﴾ الْإِنْبَاءُ الَّتِي أَخْبَرْتَهُمْ، وَأَنْبَأْتَهُمْ، وَادَّعَيْتَ أَنَّهَا أُوحِيَتْ إِلَيْكَ [يُخْبِرُوكَ أَنَّهَا عَلَى مَا أَخْبَرْتَهُمْ] ^(١).

وقوله تعالى: ﴿فَغَنِّي الْوَيْلُ يَوْمَ يَقْرَأُ الْكِتَابُ مِنْ قَبْلِكَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: فَاسْأَلْ أَهْلَ الْكِتَابِ مِنْهُمْ [يُخْبِرُوكَ أَنَّهُ] ^(٢) مَكْتُوبٌ عَنْدهُمْ كَقَوْلِهِ: ﴿يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ﴾ الْآيَةُ [الأعراف: ١٥٧]

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ قِيلَ: الْحَقُّ: الْقُرْآنُ، جَاءَ مِنْ رَبِّكَ، وَقِيلَ: جَاءَ الْبَيَانُ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ الشَّاكِّينَ.

الآية ٩٥ [وقوله تعالى] ^(٣): ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا يَتَّيَنُّ اللَّهُ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ هُوَ مَا ذَكَرْنَا أَنَّهُ يَرِيدُ بِالْخِطَابِ غَيْرُهُ، وَإِلَّا لَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ رَسُولُ اللَّهِ مِنَ الشَّاكِّينَ أَوْ يَكُونَ مِنَ الَّذِينَ يُكْذِبُونَ بآيَاتِ اللَّهِ أَوْ يَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ.

الآية ٩٦ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قَوْلُهُ: ﴿حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ هُوَ قَوْلُهُ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْإِنْسِ أجمعين﴾ [هود: ١١٩]... هَذَا يَكُونُ فِي الْخَتْمِ: مَنْ يُخْتَمُ بِهِ؛ يَعْنِي بِالْكَفْرِ، فَقَدْ حَقَّتْ [عليه] ^(٤) كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ أَوْ ﴿حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ مَا ذَكَرَ فِي آيَةٍ أُخْرَى ﴿أَوَلَيْكَ يَأْتِلُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ الْآيَةُ [الأعراف: ٣٧] وَكَلِمَةُ رَبِّكَ مَا ذَكَرَ ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمِطْرَ﴾ [الأنعام: ١١١].

وقوله تعالى: ﴿حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أَي عِلْمُ رَبِّكَ بِأَحْوَالِهِمْ، أَي مَنْ كَانَ عِلْمُهُ أَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ وَقَدْ اخْتَارَهُ الْكَفْرَ كَقَوْلِهِ: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَ هَادِيَ لَمْ﴾ [الأعراف: ١٨٦] وَقَدْ اخْتَارَهُ الْكَفْرَ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] وَقَدْ اخْتَارَهُ الظُّلْمَ وَنَحْوُ ذَلِكَ.

فَالنَّازِلُ الْأَوَّلُ: يَرْجِعُ إِلَى الْخَتْمِ بِهِ، وَالثَّانِي: إِلَى وَقْتٍ مَنْ يَثْبُتُ عَلَيْهِ عِلْمُ رَبِّهِ أَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ.

الآية ٩٧ وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ قِيلَ: فِي الدُّنْيَا إِيْمَانٌ دَفَعَ الْعَذَابَ، وَيَحْتَمِلُ: فِي الْآخِرَةِ ^(٥)، وَقَدْ ذَكَرْنَا هَذَا.

الآية ٩٨ وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ غِيَابَ الْغُرَى﴾ الْآيَةُ؛ أَي لَمْ تَكُنِ الْقَرْيَةُ آمَنَتْ عِنْدَ مُعَايِنَةِ الْبَاسِ [وَلَمْ يَكُنْ] ^(٦) إِيْمَانُهَا نَفَعَهَا، إِلَّا إِيْمَانُ قَوْمِ يُونُسَ فَإِنَّهُمْ آمَنُوا إِيْمَانًا حَقِيقَةً، وَعَلِمَ اللَّهُ صِدْقَهُمْ فِي ^(٧) إِيْمَانِهِمْ، فَتَفَعَّلَهُمْ إِيْمَانُهُمْ. هَذَا يُخْرِجُ عَلَى وَجْهِ:

أَخَذَهَا: أَنَّ سَائِرَ الْقُرَى كَانَ إِيْمَانُهَا عِنْدَ إِقْبَالِ الْعَذَابِ إِلَيْهِمْ وَوُقُوعِهِ عَلَيْهِمْ، فَلَمْ يَنْفَعَهُمْ إِيْمَانُهُمْ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ فَإِنَّ إِيْمَانَهُمْ إِنَّمَا كَانَ [بِتَخْوِيفِ الْعَذَابِ، فَتَفَعَّلَهُمْ] ^(٨).

وَالثَّانِي: يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْمُ يُونُسَ كَانَ نَزُولُ الْعَذَابِ بِهِمْ عَلَى التَّخْيِيرِ وَالتَّمَكِينِ: إِنَّ قَبِلُوا الْإِيْمَانَ، وَآمَنُوا، دَفَعَ الْعَذَابَ عَنْهُمْ، وَإِنْ لَمْ يَقْبَلُوا أَنْزَلَ بِهِمْ.

وَالثَّالِثُ: كَانَ ^(٩) إِيْمَانُ سَائِرِ الْقُرَى بَعْدَ [مَا] ^(١٠) عَايَنُوا مُقَامَهُمْ فِي النَّارِ، فَكَانَ ^(١١) إِيْمَانُهُمْ إِيْمَانًا اضْطِرَارِيًّا، وَقَوْمُ يُونُسَ آمَنُوا قَبْلَ أَنْ يُعَايِنُوا ذَلِكَ.

وُشِبَهُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ﴾ بَعْدَ وَقُوعِ الْعَذَابِ وَالْبَاسِ ﴿فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ فَإِنَّهُمْ آمَنُوا

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: لِيُخْبِرُوكُمْ عَلَى مَا أَخْبَرْتُمْ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: يَخْبِرُونَكَ لِأَنَّهُ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: الدُّنْيَا. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: مَنْ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: لِتَخْوِيفِ الْعَذَابِ فَيَنْفَعُهُمْ. (٩) أَدْرَجَ قَبْلَهَا فِي م: إِنَّمَا. (١٠) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: فَيَكُونُ.

[قَبْلَ أَنْ يُعَايِنُوا] ^(١) العذاب قَبْلَ أَنْ يَقَعَ بِهِمْ، وَإِيمَانُ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّمَا كَانَ بَعْدَ مَا عَرَفُوا وَبَعْدَ مَا خَرَجَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْ أَيْدِيهِمْ، فَلَمْ يُقْبَلْ. وَإِيمَانُ قَوْمِ يُونُسَ كَانَ [قَبْلَ] ^(٢) أَنْ يَقَعَ الْعَذَابُ بِهِمْ، وَأَنْفُسُهُمْ فِي أَيْدِيهِمْ بَعْدَ، فَقَبِلَ، وَهُوَ مَا ذَكَرَ ﴿وَأَنَّا نَنفَخُ الْبَلِّ قَوْفَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ الآية [الأعراف: ١٧١] آمَنُوا عِنْدَمَا عَايَنُوا قَبْلَ أَنْ يَقَعَ بِهِمْ [العذاب] ^(٣) وسائر الأمم الخالية كَانَ مِنْهُمْ الْإِيمَانُ بَعْدَ وَقْعِ الْعَذَابِ بِهِمْ مِنْ نَحْوِ عَادٍ وَثَمُودَ وَأَمْثَالِهِ. وَأَصْلُهُ مَا ذَكَرْنَا آنفًا.

وقوله تعالى: ﴿لَنَّا مَآسُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قوله ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ﴾ الوعد بحلول العذاب بهم، وعذاب الخِزْيِ هو العذاب الفاضح، والـ خِزْيُ هو العذاب.

الآية ٩٩ وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جِئًا﴾ قَالَتِ الْمُعْتَرِلَةُ: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ مَشِيئَةُ الْإِخْتِيَارِ، لَكُنْهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا، وَاسْتَدَلُّوا عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

فَيَقَالُ لَهُمْ: إِنَّ مَشِيئَةَ الْإِخْتِيَارِ هِيَ الظَّاهِرَةُ عِنْدَكُمْ، وَمَشِيئَةُ الْجَبْرِ وَالْقَهْرِ غَايِبَةٌ. فإِذَا وَجَدَ مِنْهُ مَشِيئَةَ الْإِخْتِيَارِ، فَلَمْ يُؤْمِنُوا، وَلَمْ تَنْفُذْ مَشِيئَتَهُ فِيهِمْ، كَيْفَ يُصَدِّقُ هُوَ فِي الْإِخْبَارِ عَنِ الْمَشِيئَةِ الَّتِي هِيَ غَايِبَةٌ أَنَهَا لَوْ كَانَتْ لَا مَنَآ؟ هَذَا فَاسِدٌ عَلَى قَوْلِهِمْ.

وَبَعْدُ فَإِنَّ الْمَشِيئَةَ لَوْ كَانَتْ مَشِيئَةَ الْقَهْرِ لَكَانُوا مُؤْمِنِينَ بِتِلْكَ الْمَشِيئَةِ وَفِي خَلْقِهِ لِأَنَّ كُلَّ كَافِرٍ مُؤْمِنٌ بِخَلْقِهِ لِأَنَّ خَلْقَهُ كُلِّ أَحَدٍ تَشْهَدُ عَلَى وَحْدَانِيَةِ اللَّهِ. فَإِذَا كَانَ مُؤْمِنِينَ بِالْخَلْقَةِ.

ثُمَّ إِنَّهُ لَوْ شَاءَ لَا مَنَآ؛ دَلَّ أَنَّهُ لَمْ يُرِدْ بِهِ مَشِيئَةَ الْإِخْتِيَارِ.

وَتَأْوِيلُهُ عِنْدَنَا هُوَ أَنَّ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى لُطْفًا، لَوْ أَعْطَاهُمْ كُلَّهُمْ لَا مَنَآ جَمِيعًا، لَكِنَّهُ إِنْ عَلِمَ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ شَاءَ الْإِيمَانِ.

ثُمَّ لَا يَخْتَمِلُ أَنْ يَتَحَقَّقَ الْإِيمَانُ بِالْقَهْرِ لِأَنَّهُ عَمَلُ الْقَلْبِ، وَالْجَبْرِ وَالْإِكْرَاهِ لَا يَعْمَلُ عَلَى الْقَلْبِ؛ فَهُوَ إِنْ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامِ الْإِيمَانِ فَلَا يَكُونُ مُؤْمِنًا حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَلْبِ. فَيَكُونُ التَّأْوِيلُ عَلَى قَوْلِهِمْ: وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ فَلَا يُؤْمِنُونَ. فَهَذَا مُتَنَاقِضٌ فَاسِدٌ.

وَبَعْدُ فَإِنَّ الْإِيمَانِ لَا يَكُونُ فِي حَالِ الْإِكْرَاهِ وَالْإِجْبَارِ لِأَنَّ الْإِكْرَاهَ يُزِيلُ الْفِعْلَ عَنِ الْمُكْرَهِ كَأَنَّ لَا فِعْلَ لَهُ فِي الْحُكْمِ.

وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾. فَإِنْ قِيلَ: أَلَيْسَ قَالَ اللَّهُ ﴿تَقْتُلُونَهُمْ أَوْ يَسْتَلِيمُونَ﴾ [الفتح: ١٦] حَتَّى يُسْلِمُوا، وَذَلِكَ إِكْرَاهٌ، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» [البخاري: ٢٥] فَذَلِكَ إِكْرَاهٌ، فَكَيْفَ يَجْمَعُ بَيْنَ آيَتَيْنِ؟ قِيلَ: لَوْجَهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: مَا ذَكَرَ أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ مَكِّيَّةٌ، وَقَوْلُهُ: ﴿تَقْتُلُونَهُمْ أَوْ يَسْلِمُونَ﴾ مَدِينِيَّةٌ، فَيَخْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أَي لَا تُكْرِهُهُمْ، ثُمَّ أَمَرَ بِالْمَدِينَةِ بِالْقِتَالِ وَالْحَرْبِ وَالْإِكْرَاهِ عَلَيْهِ.

وَالثَّانِي: يَجُوزُ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَ الْآيَتَيْنِ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿تَقْتُلُونَهُمْ أَوْ يَسْلِمُونَ﴾ أَي تُقَاتِلُونَهُمْ حَتَّى يَقُولُوا قَوْلَ إِسْلَامٍ، وَيَتَكَلَّمُوا بِكَلَامِ الْإِيمَانِ؛ دَلِيلُهُ مَا رَوَى «حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»

وَالْقَوْلُ بِقَوْلٍ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عَلَى غَيْرِ حَقِيقَةِ ذَلِكَ فِي الْقَلْبِ لَيْسَ بِإِيمَانٍ. وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ وَبِالْإِكْرَاهِ لَا يَكُونُونَ مُؤْمِنِينَ حَقِيقَةً لِأَنَّهُ عَمَلُ الْقَلْبِ، وَالْإِكْرَاهُ مِمَّا لَا يَعْمَلُ عَلَيْهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَتَأْوِيلُ ^(٤) قَوْلِهِ: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ﴾؟ أَي لَا تَمْلِكُ أَنْ تُكْرِهُهُمْ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَشِدَّةِ جُرْئِهِ وَرَغْبَتِهِ ^(٥) فِي إِيْمَانِهِمْ كَادَ أَنْ يَكْرِهُهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ إِشْفَاقًا عَلَيْهِمْ كَقَوْلِهِ: ﴿لَمَّا بَلَغَ نَحْسَهُ آلَ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣].

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: إِذَا عَايَنُوا. (٢) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: تَأْوِيلُهُ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَرَغْبَةٍ.

الآية ١٠٠

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ قيل: بِمَشِيقَةِ اللَّهِ، وقيل: بِعِلْمِ [الله] ^(١) وإيرادته، وهو ما ذكرنا: ٢٣٥ - ١ / لا تؤمن نفس إلا بمشيقة الله وإرادته في ذلك. ولا يَحْتَمِلُ قوله ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ سوى المشيقة والإرادة لأنه كم من مأمور بالإيمان لم يؤمن؟ فلم يَحْتَمِلِ الأمر. ولا يَحْتَمِلُ الإباحة؛ لا يباح ترك الإيمان في حال. [وأصله ما ذكرنا لأنه لا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ~~الله~~ يَعْلَمُ مِنْ خَلْقِهِ اخْتِيَارَهُ عِدَاوَتَهُ وَالْخِلَافَ لَهُ، وَيَسْأَلُهُمْ ^(٢) الْوِلَايَةَ؛ يُخْرِجُ ذَلِكَ مُخْرَجَ الْعَجْزِ لِأَنَّهُ فِي الشَّاهِدِ اخْتِيَارٌ ^(٣) عِدَاوَةٌ أَحَدٍ، وَالْآخَرُ يَخْتَارُ وَلَايَتَهُ؛ إِنَّهُ إِنَّمَا يَخْتَارُ لِيُضَعِّفَهُ وَعَجْزُهُ فِيهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ ^(٤).]

وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ قيل [ويَجْعَلُ] ^(٥) الإثم على الذين لا يَعْقِلُونَ، وقيل: وَيَجْعَلُ العذاب على الذين لا يَعْقِلُونَ؛ أي لا يَسْتَعْمِلُونَ عقولهم حتى يَعْقِلُوا ^(٦)، أو على الذين لا يَتَّقِعُونَ بعقولهم. وقال بعضهم في قوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا﴾ عند نزول العذاب ﴿إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ﴾ وقال بعضهم: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا﴾ إذا رأَتْ بأسنا فكانت مثل قوم يونس، فإنهم آمنوا حين رأوا ^(٧) العذاب.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ قيل: وما كان لنفس في علم الله أنها لا تؤمن، فتؤمن؛ أي لا تؤمن نفس في علم الله أنها لا تؤمن، إنما يؤمن [من] ^(٨) في علم الله أنه يؤمن. وأما مَنْ في علم الله أنه لا يؤمن فلا يؤمن. وقيل: وما كان لنفس؛ أي لا تؤمن نفس إلا بِمَشِيقَةِ اللَّهِ؛ أي إذا آمنت إنما تؤمن بِمَشِيقَةِ اللَّهِ؛ ما تَفْعَلُ إنما تَفْعَلُ بِمَشِيقَةِ اللَّهِ. كقوله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [التكوير: ٢٩] وقال بعضهم: قوله. بِإِذْنِ اللَّهِ؛ أي بأمر الله، فمعناه: إذا آمنت إنما تؤمن بأمره، لا تؤمن بغير أمره. فالأول أقرب، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي يَجْعَلُ جزاء الرِّجْسِ، أي يَجْعَلُ جزاء الكُفْرِ على الذين لا يَعْقِلُونَ، أي الذين لا يَتَّقِعُونَ بعقولهم، والله أعلم.

الآية ١٠١

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تاويله، والله أعلم، أي انظروا إلى آثار نعيم وإحسانه التي في السموات والأرض [تشكروه] ^(٩)؛ يقول: انظروا إلى رُبُوبِيَّتِهِ وَأَلُوهِيَّتِهِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ^(١٠) فَتُوحِّدُوهُ، وتؤمنوا به، أو يقول: انظروا إلى آثار سُلْطَانِهِ وَقُدْرَاتِهِ، فتخافوا نَقْمَتَهُ وَعِقَابَهُ، أو انظروا إلى أجناس الخَلْقِ وَأَسَاقِيهِ عَلَى تَقْدِيرٍ وَاحِدٍ لِيَذْلِكُمْ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ، وَتُخَوِّذَكُمْ ذَلِكَ [ما] ^(١١) شَيْءٌ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَقَعُ عَلَيْهِ الْبَصَرُ إِلَّا وَفِيهِ دَلَالَةُ الرُّبُوبِيَّةِ حَتَّى طَرَفَةُ الْعَيْنِ وَلَحْظَةُ الْبَصَرِ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يَحْتَمِلُ وجوهاً: [أحدها] ^(١٢): ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ﴾ مَهْمُ الْمُكَابَرَةِ وَالْمُعَانَدَةِ، إِنَّمَا تُغْنِي الْآيَاتُ مَنْ هُمُ الْقَبُولُ وَالْإِنْقِيَادُ. وَأَمَّا مَنْ هُمُ الْمُكَابَرَةُ وَالْعِنَادُ فَلَا تُغْنِي، وهو كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا زَلَّلْنَا آلِيَهُمُ النَّاصِيحَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْتَوَقُّ﴾ الآية [الأنعام: ١١١].

والثاني ^(١٣): ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ﴾ [في الآخرة] ^(١٤) عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ في الدنيا، إِنَّمَا تُنْفَعُ، وتُغْنِي لقوم يؤمنون، وأما مَنْ لا يؤمن فلا تُغْنِي.

والثالث: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ﴾ يَحْتَمِلُ ^(١٥) الرُّسُلَ، وَيَحْتَمِلُ الْمَوَاعِيدَ ^(١٦) التي أوعدوا، والأحوال التي تَغَيَّرَتْ عَلَى أَوَائِلِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) أدرج في الأصل وم قبلها: من. (٤) أدرجت هذه العبارة في الصفحة التالية أيضاً بعد: حين رأوا العذاب فحفنوها. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: يعقلون. (٧) في الأصل وم: يروا. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) أدرج قبلها في الأصل: لكن. (١٠) ساقطة من م. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: ويحتمل. (١٤) في الأصل: والآخرة. (١٥) أدرج قبلها في الأصل: ثم النذر. (١٦) في الأصل: وم: الوعيد.

الآية ١٠٢

وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ آبَارِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ﴾ يوماً مِنَ الهلاكِ ﴿إِلَّا مِثْلَ آبَارِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي إلا مثل [ما انتظر] ^(١) الذين مِنْ قَبْلِهِمْ برسُلِهِمْ مِنَ الهلاكِ. فهو يُخْرِجُ على التوبيخ لا يُنْتَظَرُ هلاك الرسلِ وذهاب أمرِهِمْ.

وَيَحْتَمِلُ وجهاً آخرَ ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ﴾ مِنْ نزولِ العذابِ بِهِمْ إلا مثلَ ما انتظر أولئك مِنْ نزولِ العذابِ بِهِمْ؟ إلى هذا يذهب بعض أهل التأويل.

وَيَحْتَمِلُ قوله: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ﴾ مِنْ تأخيرِهِمْ الإيمانَ إلى وقتِ نزولِ العذابِ بِهِمْ. فهذا يُخْرِجُ على الإياسِ مِنْ إيمانِهِمْ؛ أي لا يُؤْمِنُونَ إلى ذلك الوقتِ الذي لا يَنْفَعُهُمْ إيمانُهُمْ فيه، والوجهُ الأوَّلُ على التوبيخِ والتعييرِ. وقوله تعالى: ﴿قُلْ فَانظُرُوا إِلَى مَعَكُمْ مِنْ السَّاعِطِينَ﴾ ذلك.

الآية ١٠٣

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَبْغِي رَسُولَنَا بِالَّذِينَ آمَنُوا﴾ قوله: ﴿ثُمَّ نَبْغِي﴾ أي أنجينا الرسلَ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ لأنه لم يكن بعده رسولٌ. وتاويلُهُ، والله أعلمُ [أنهُ وَعَدَ] ^(٢) أَنْ يُنْجِي الرسلَ والذين آمَنوا ﴿حَقًّا عَلَيْنَا﴾ أَنْ تُنْجِيَ مَا وَعَدْنَا أَنْ تُنْجِيَ الرسلَ، والله أعلمُ ^(٣).

الآية ١٠٤

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي﴾ [قوله] ﴿إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي﴾ الذي أدِينُ بِهِ، أو ﴿إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي﴾ ^(٤) الذي أدعوكم إليه ﴿فَلَا أَقْبُدُ الَّذِينَ تَمُودُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ إذا شَكَّكُمْ في ديني الذي أدعوكم إليه كُنْتُمْ شاكِّينَ في دينكم الذي أنتم عليه. [فتركهم ديني الذي أنا عليه بالشكِّ ودعاهم إلى دينهم] ^(٥) بالشكِّ [يُظْهِرُ] ^(٦) سَفَهَهُمْ بِتَرْكِهِمْ إجابته بالشكِّ ^(٧) ودعائهم إياه بالشكِّ [لأنَّ الشكَّ] ^(٨) يُوجِبُ الوقفَ في الأشياءِ، ولا يُوجِبُ الدعاءَ إليه ويُظْلَمُ غَيْرُهُ ^(٩).

هذا، والله أعلمُ، مُحْتَمَلٌ، وهو يُخْرِجُ على وجهين أيضاً: أحدهما على الإضمارِ، والآخرُ على المُنايَدةِ.

والإضمارُ ما دَكرنا ﴿إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي﴾ الذي أدِينُ بِهِ [وَأدعوكم إليه، فإنا لا أشكُّ فيه. هذا وجهُ الإضمارِ.

وَوَجْهُ المُنايَدةِ يقولُ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي﴾ ممَّا أعبدُ، وأدِينُ بِهِ ^(١٠) فلا تعبدون ذلك، ولا تدينون بِهِ، فإنا لا أعبدُ ما تعبدون، ولا أدِينُ بما تدينون، وهو كقوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦].

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ أَعْبُدْ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَقَّكُمْ﴾ والتَّوَقَّى هو النهاية والغاية في الإضمارِ، وما تَعْبُدُونَ مِنَ الأصنامِ دونه لا يَمْلِكُونَ [الْمَنْفَعَةَ] ^(١١) ولا الإضرارَ لَكُمْ إِنْ لم تَعْبُدوها، يُظْهِرُ ^(١٢) سَفَهَهُمْ، وَيُلْزِمُهُمُ الحجةَ [وهي أَنْ] ^(١٣) الذي يَتَوَقَّأَكُمْ هو المُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ، لا الأصنامُ التي تَعْبُدونها.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ قوله: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ كقوله: ﴿وَإِنْ لِيَاسَ لَيْنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٢٣] وقوله ^(١٤) ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ٨١]... فَعَلَى ذلك هذا. وَيَحْتَمِلُ الإيمانَ نَفْسَهُ على ما نَهَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَالشَّاكِّينَ. فَعَلَى ذلك أَمِرُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُخْلِصِينَ لَهُ الْمُسْلِمِينَ أَنْفُسَهُمْ، والله أعلمُ.

الآية ١٠٥

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَفَرُّ وَتَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ أي أَمِرْتُ أَنْ أَقِيمَ نَفْسِي لِلَّهِ خَالِصَةً سَالِمَةً لا أَشْرِكُ فِيهَا غَيْرَهُ ولا أَجْعَلُ لِسِوَاهُ فيها نصيباً، أو يقولُ ^(١٥): إني أَمِرْتُ أَنْ أَقِيمَ نَفْسِي على ما عليها شهادةُ خَلْقِهَا؛ إذ خَلَقَهُ كُلَّ نَفْسٍ تَشْهَدُ على وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ وَأُلُوْهِيَّتِهِ، أو يقولُ: ﴿أَفَرُّ﴾ وَجْهٌ أَشْرَكَ لِمَا تَدِينُ بِهِ، وَتُقِيمُ عَلَيْهِ ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ هذا ما دَكرنا، والله أعلمُ.

(١) في الأصل: اياهم نظروا، في م: ما نظروا. (٢) في م: وعده. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م: فتركتم ديني الذي أنتم عليه، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل: يذكر. (٧) ساقطة من م. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) أدرج بعدها في الأصل وم: لا الشك. (١٠) ساقطة من م. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: يذكر. (١٣) في م: أن، ساقطة من الأصل. (١٤) الروا ساقطة من الأصل وم. (١٥) أدرج قبلها في الأصل وم: أنه.

الآية ١٠٦

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ﴾ إِنَّ أَطْفَعَهُ، وَلَا يَضُرُّكَ إِنْ تَرَكْتَ إِبَابَهُ وَطَاعَتَهُ.
وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ لَا تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ جَزَاءَ الْمَنْفَعَةِ، وَيَحْتَمِلُ الدَّعَاءَ نَفْسَهُ؛ أَي لَا تَسْمُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهًا.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ مَلَكَ فَإِنَّكَ إِذَا مَنِ الظَّالِمِينَ﴾ ذَكَرَ ههنا الظلمَ إِنْ فَعَلَ مَا ذَكَرَ، وَالْمُرَادُ مِنْهُ الشُّرْكُ. وَذَكَرَ فِي قِصَّةِ آدَمَ وَحَوَّاءَ ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥]... وَقَدْ قَرَّبَا، وَلَمْ يَكُونَا مُشْرِكَيْنِ إِنَّمَا كَانَا عَاصِيَيْنِ^(١) لِيُعْلَمَ أَنَّ لَيْسَ فِي الْمَوَافَقَةِ فِي الْأَسْمَاءِ مُوَافَقَةً فِي الْحَقَائِقِ وَالْمَعَانِي، إِنَّمَا تَكُونُ الْمَوَافَقَةُ فِي الْحَقَائِقِ فِي مُوَافَقَةِ ٢٣٥ - ب/ الْأَسْبَابِ. لِذَلِكَ كَانَ مَا ذَكَرَ^(٢)، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٠٧

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَسْأَلْكَ اللَّهُ بِخَيْرٍ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ فِيهِ نَهْيُ الرَّجَاءِ وَالطَّمَعِ إِلَى مَنْ دُونَهُ إِذْ أَخْبَرَ أَنَّهُ لَا يَوْجِدُ ذَلِكَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَزِدْكَ يَخْرَ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ أَخْبَرَ أَنَّهُ [إِنْ]^(٤) أَرَادَ خَيْرًا وَفَضْلًا فَلَا رَادَّ لَذَلِكَ الْفَضْلِ وَالْخَيْرِ. وَالْإِيمَانُ مِنْ أَعْظَمِ الْخَيْرَاتِ وَأَفْضَلِهَا. فَإِذَا أَرَادَ [اللَّهُ بِوَ]^(٥) الْإِنْسَانَ كَانَ، لَا يَمْلِكُ أَحَدٌ دَفْعَ مَا أَرَادَ وَلَا رَدَّهُ. دَلَّ أَنَّهُ إِذَا أَرَادَ الْإِيمَانَ لِأَحَدٍ كَانَ مُؤْمِنًا.

فَهُوَ يَنْقُضُ عَلَى الْمَعْتَزِلَةِ قَوْلَهُمْ^(٦): إِنَّهُ أَرَادَ الْإِيمَانَ لِلْخَلْقِ كُلِّهِمْ لَكِنَهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا؛ إِذْ أَخْبَرَ أَنَّهُ [إِذَا]^(٧) أَرَادَ بِوَ خَيْرًا ﴿فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ وَهُمْ يَقُولُونَ: بَلْ يَمْلِكُ الْعَبْدُ رَدَّ مَا أَرَادَ لَهُ وَدَفْعَهُ.

وَبِاللَّهِ الْعِصْمَةُ. وَفِيهِ أَنْ لَيْسَ عَلَى اللَّهِ فِعْلُ ذَلِكَ^(٨)؛ أَعْنِي فِعْلَ الْخَيْرَاتِ لِأَنَّهُ سَمَاءُ فَضْلًا، وَالْفَضْلُ هُوَ فِعْلٌ مَا لَيْسَ عَلَيْهِ، وَهُوَ الْمَفْهُومُ فِي النَّاسِ أَنَّ مَا عَلَيْهِمْ مِنَ الْفِعْلِ لَا يَسْمُونَهُ فَضْلًا، إِنَّمَا يَسْمُونُ الْفَضْلَ مَا لَيْسَ عَلَيْهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.
وقوله تعالى: ﴿يُصِيبُ بِوَيْءٍ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ يُصِيبُ بِوَيْءٍ مَن يَشَاءُ مِنَ الْفَضْلِ وَالْخَيْرِ أَوْ الشَّرِّ.

وَفِيهِ تَخْصِصُ بَعْضٍ عَلَى بَعْضٍ حِينَ^(٩) قَالَ: ﴿يُصِيبُ بِوَيْءٍ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ لَا يُعْجَلُ بِالْعُقُوبَةِ.
الآية ١٠٨ وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ قِيلَ: الْحَقُّ مُحَمَّدٌ ﷺ وَقِيلَ: الْحَقُّ الْقُرْآنُ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْهِ.

وَأَمَكَّنَ أَنْ يَكُونَ الْحَقُّ هُوَ الدِّينَ الَّذِي كَانَ^(١٠) يَدْعُوهُمْ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْهِ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي﴾ [الآية: ١٠٤] فَيُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ الْحَقُّ هُوَ الدِّينَ [حِينَ]^(١١) شَكُّوا فِيهِ؛ أَي قَدْ جَاءَكُمْ مَا يُزِيلُ عَنْكُمْ ذَلِكَ الشَّكَّ، إِنْ لَمْ تَكْأُفِرُوا، لَمَّا أَقَامَ عَلَيْهِمُ الْحُجَجَ وَالْبَرَاهِينَ.

وَيَحْتَمِلُ الْحَقُّ مُحَمَّدًا ﷺ عَلَى مَا ذَكَرَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ [مِنْ أَوَّلِ نُشُوبِهِ إِلَى آخِرِ عُمرِهِ]^(١٢) وَيَحْتَمِلُ الْحَقُّ [الْقُرْآنَ]^(١٣) عَلَى مَا ذَكَرَهُ بَعْضُهُمْ، وَهُوَ مَا ذَكَرَ: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢] سَمَاءُ بِأَسْمَاءٍ مُخْتَلِفَةٍ؛ سَمَاءُ حَقًّا، وَسَمَاءُ نُورًا وَشِفَاءً وَرَحْمَةً وَهُدًى وَنُحُوءً. وَفِيهِ كُلُّ مَا ذَكَرَ؛ مَنْ تَأَمَّلَهُ، وَتَفَكَّرَ فِيهِ، تَمَسَّكَ^(١٤) بِهِ.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَمَدَدْنِي فَإِنَّا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ حُجُوبٌ وَمَنْ صَلَ فَإِنَّمَا يَتَبَدَّلُ الْغَيْبُ﴾ أَي مَنْ أَمَدَدْنِي فَإِنَّمَا مَنَفَعَةُ اهْتِدَائِهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ صَلَ فَإِنَّمَا يَرْجِعُ ضَلَالِيهِ إِلَيْهِ ضَلَالَةً عَلَيْهِ؛ أَي يَأْمُرُ، وَيَنْهَى، لَا^(١٥) لِمَنْفَعَةٍ تَخْصُلُ لَهُ أَوْ لِحَاجَةٍ نَفْسِيَّةٍ، إِنَّمَا يَأْمُرُ، وَيَنْهَى لِمَنْفَعَةِ الْخَلْقِ وَلِحَاجَتِهِمْ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: عَصَا. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: ذَكَرُوا. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: إِذَا. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ قَالُوا. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ: لِهَذَا، فِي م: لَهُمْ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: كَانُوا. (١١) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: فِي أَوَّلِ نُشُوبِهِ إِلَى آخِرِهِ. (١٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَتَمَسَّكَ. (١٥) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: لَيْسَ بِأَمْرٍ وَنَهْيٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِمُكِيلٍ﴾ أي مُسَلِّط. قَالَ بعضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: هو مَنْسُوخٌ؛ نَسَخَتْهُ آيَةُ الْقِتَالِ. لَكِنَّهُ لَا يَخْتَمِلُ، وَإِنْ كَانَ مَأْمُورًا بِالْقِتَالِ فَهُوَ لَيْسَ بِمُكِيلٍ وَلَا مُسَلِّطٍ عَلَيَّ حِفْظِ أَعْمَالِهِمْ. إِنَّمَا عَلَيْهِ التَّبْلِيغُ كَقَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا عَلِمْتَ أَنَّكَ﴾ [آل عمران: ٢٠] وكَقَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا تَوَلَّوْا فَأَنَّمَا عَلَيْكَ مَا حِجْلٌ وَعَلَيْكُم مَّا مِثْلُكُمْ﴾ [النور: ٥٤] وكَقَوْلِهِ: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ الآية: [الأنعام: ٥٢]

الآية ١٠٩ وقوله تعالى: ﴿وَأَنبِئْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ يَخْتَمِلُ الْقُرْآنَ وَغَيْرَهُ مِنَ الرُّوحِيِّ غَيْرِ الْقُرْآنِ.

وقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ أي اصْبِرْ عَلَىٰ أَذَاهُمْ لَأَنَّهُمْ كَانُوا يُؤْذُونَهُ، وَيَقُولُونَ فِيهِ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ. يَقُولُ: اصْبِرْ عَلَىٰ أَذَاهُمْ، وَلَا تَفْجَلْ عَلَيْهِمْ بِالْعُقُوبَةِ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِالْعُقُوبَةِ وَقَدْ عَقُوبَتِهِ ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْمُنْكَرِينَ﴾ وَاصْبِرْ عَلَىٰ تَكْذِيبِهِمْ إِيَّاكَ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ مُكْذِبَيْكَ ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْمُنْكَرِينَ﴾ وَاصْبِرْ عَلَىٰ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ وَالْقِيَامِ كَمَا أَمَرَتْ بِهِ، وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ.



السورة التي ذكر فيها هود

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

الآية ١

قوله تعالى: ﴿الرَّ كُنْتُ أَهَيْتُ ثُمَّ قُلْتُ﴾ قَالَ الْحَسَنُ ﴿أَهَيْتُ﴾ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ ﴿ثُمَّ قُلْتُ﴾ بِالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ ﴿أَهَيْتُ﴾ حَتَّى لَا يَأْتِيَهَا الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهَا وَلَا مِنْ خَلْفِهَا، وَلَا يَمْلِكُ أَحَدٌ التَّبْدِيلَ ﴿ثُمَّ قُلْتُ﴾ يَبْنِي مَا يُؤْتَى، وَمَا يُتَّقَى، أَوْ يَبْنِي مَا لَهُمْ، وَمَا عَلَيْهِمْ، وَمَا لِلَّهِ عَلَيْهِمْ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿أَهَيْتُ﴾ فَلَمْ تَنْسَخْ ﴿ثُمَّ قُلْتُ﴾ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ.

وقيل: ﴿قُلْتُ﴾ أَي فُرِّقْتُ فِي الْإِنْزَالِ؛ أَنْزِلَ شَيْءٌ بَعْدَ شَيْءٍ عَلَى قَدَرِ النَّوَازِلِ وَالْأَسْبَابِ؛ فَلَمْ يَنْزِلْ جُمْلَةً لِأَنَّهُ لَوْ أَنْزَلَ جُمْلَةً لَا خِتَاجُوا أَنْ يَعْرِفُوا لِكُلِّ سَبَبٍ وَشَأْنَةٍ وَخُصُوصَةٍ وَعُمُومَةٍ.

فإذا أَنْزَلَ مُتَّفَقًا فِي أَوْقَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ عَلَى النَّوَازِلِ وَالْأَسْبَابِ عَرَفُوا ذَلِكَ عَلَى غَيْرِ إِعْلَامٍ وَلَا بَيَانٍ. وَالتَّفْصِيلُ اسْمُ التَّفْرِيقِ وَاسْمُ التَّيْسِينِ. وَذَلِكَ يَحْتَمِلُ الْمَعْنَيْنِ جَمِيعًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿أَهَيْتُ﴾ أَي أَحْكَمْتُ حَتَّى [لا] ^(١) يَرِدَ عَلَيْهَا النُّقْصُ وَالْإِنْقِصَاصُ، أَوْ ﴿أَهَيْتُ﴾ حَتَّى لَا يَمْلِكُ أَحَدٌ التَّبْدِيلَ وَالتَّغْيِيرَ، أَوْ ﴿أَهَيْتُ﴾ عَنْ أَنْ يَقَعَ فِيهَا الْإِخْتِلَافُ.

وقال بَعْضُهُمْ: ﴿أَهَيْتُ﴾ بِالْفَرَائِضِ ﴿ثُمَّ قُلْتُ﴾ بِالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ.

ثم الآياتُ تَحْتَمِلُ وَجْهًا: أَحَدُهَا: الْبَعْرُ، وَالثَّانِي: الْحُجُجُ، وَالثَّالِثُ: الْعَلَامَاتُ ^(٢). ثُمَّ الْآيَةُ كُلُّ كَلِمَةٍ فِي الْقُرْآنِ تَمُتُّ، فَهِيَ عِبْرَةٌ أَوْ حُجَّةٌ أَوْ عِلْمٌ لَا تَخْلُو مِنْ أَحَدٍ هَذِهِ الرُّجُوهُ الثَّلَاثَةُ.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ مِنْ عِنْدِ حَكِيمٍ خَبِيرٍ جَاءَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ.

الآية ٢

وقوله تعالى: ﴿أَلَا تَقْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُرَّهَةٌ زَيْدٌ وَبَشِيرٌ﴾ أَي مِنَ اللَّهِ يُنْذِرُ مَنْ يُنْذِرُ، وَمِنْ عِنْدِهِ يُبَشِّرُ مَنْ اتَّبَعَ، وَيُنْذِرُ مَنْ خَالَفَ.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا تَقْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ فِي شَهَادَةِ خَلْقَتِكُمْ هُوَ الْمُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ. وَتَحْتَمِلُ ﴿أَلَا تَقْبُدُوا﴾ أَي أَلَا تَوْحَدُوا إِلَّا الَّذِي فِي شَهَادَةِ خَلْقَتِكُمْ وَحْدَانِيَّتِهِ.

الآية ٣

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ إِنْ كَانَتْ الْآيَةُ فِي الْكُفَارِ فَيَكُونُ قَوْلُهُ ﴿أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ أَي أَسْلِمُوا ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ أَي ارْجِعُوا إِلَيْهِ عَنْ كُلِّ مَعْصِيَةٍ وَكُلِّ مَأْثِمٍ تَأْتُمُونَهُ ^(٣). وَإِنْ كَانَ فِي الْمُسْلِمِينَ فَهُوَ ظَاهِرٌ، وَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿أَسْتَغْفِرُوا﴾ وَقَوْلُهُ ^(٤): ﴿تُوبُوا﴾ وَاحِدًا.

وقوله تعالى: ﴿يَتَمَتَّعُ مَتَاعًا حَسَنًا﴾ أَي يَتَمَتَّعُ فِي الدُّنْيَا مَتَاعًا، تَسْتَحْسِنُونَ فِي الْآخِرَةِ ذَلِكَ التَّمَتُّعُ. وَأَمَّا الْكُفَارُ فَإِنَّهُمْ لَا يَسْتَحْسِنُونَ فِي الْآخِرَةِ مَا مُتَّعُوا فِي الدُّنْيَا لِأَنَّهُمْ تَمَتَّعُوا فِي الدُّنْيَا [لِلدُّنْيَا، وَالْمُؤْمِنُ مَا يَتَمَتَّعُ بِهِ فِي الدُّنْيَا إِنَّمَا يَتَمَتَّعُ بِهِ] ^(٥) لَأَمْرِ الْآخِرَةِ وَالتَّزْوِيدِ لَهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَيُؤْتِي كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿وَيُؤْتِي كُلَّ ذِي فَضْلٍ﴾ فِي الدُّنْيَا جِزَاءَ فَضْلِهِ فِي الْآخِرَةِ.

(١) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: الْعَلَامَةُ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: تَأْتُونَهَا. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٥) ساقطة من الأصل وم.

وَيَخْتِمِلُ ﴿رَبُّنَا﴾ بِمَنْعَتِي أَنِّي، أَيِ مَا أَتَى كُلُّ ذِي فَضْلٍ فِي الدُّنْيَا إِنَّمَا أَنَا أَهْلُ بَفْضِهِ. وَيَخْتِمِلُ^(١) قَوْلُهُ: ﴿وَرَبُّنَا كُلُّ ذِي فَضْلٍ﴾ أَيِ ﴿وَرَبُّنَا كُلُّ ذِي فَضْلٍ﴾ فِي دِينِهِ فِي الدُّنْيَا ﴿فَضْلُهُ﴾ فِي الْآخِرَةِ، أَوْ يَقُولُ: ﴿وَرَبُّنَا كُلُّ ذِي فَضْلٍ﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿فَضْلُهُ﴾ لِأَنَّ أَهْلَ الْفَضْلِ فِي الدُّنْيَا هُمُ أَهْلُ الْفَضْلِ فِي الْآخِرَةِ.

[وقوله تعالى] ^(٢): ﴿وَإِنْ قَوْلَا﴾ وَلَمْ يُسَلِّمُوا ﴿فَإِنَّ أَخَافَ عَلَيْكَ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ الآية ظاهرة. وَقَالَ فِي مَوَاضِعِ^(٣) أُخَرِ: ﴿عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩ والشعراء: ١٣٥ والأحقاف: ٢١] هَذَا لِمَا يَكْبُرُ عَلَى الْخَلْقِ، وَيَغْظُمُ ذَلِكَ الْيَوْمُ. قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْفِقْهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَلَّا يَكُنْ أَتَىكَ﴾ أَيُّكُمْ ثُمَّ قِيلَتْ: دَلَالَةُ تَأْخِيرِ الْبَيَانِ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿أَتَىكَ﴾ أَيُّكُمْ ثُمَّ قِيلَتْ: وَحَرْفُ ثُمَّ/ ٢٣٦ - أ/ مِنْ حُرُوفِ التَّرْتِيبِ، فِيهِ^(٤) جَوَازُ تَأْخِيرِ الْبَيَانِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٤

وقوله تعالى: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أَيِ إِلَى مَا وَعَدَ لَكُمْ مَرْجِعُكُمْ مِنْ وَعْدٍ وَعَظِيمٍ ﴿وَعَوَّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أَيِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ مَا وَعَدَ وَأَوْعَدَ قَدِيرٌ.

الآية ٥

وقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ سُوءَ ظَنِّهِمْ لِيَسْتَخَفُّوا مِنْهُ﴾ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَدَادٍ [أَنَّهُ قَالَ]^(٥): كَانَ أَحَدُهُمْ إِذَا مَرَّ بِالنَّبِيِّ تَغَشَّى بِشَوْبِهِ، وَحَتَّى صَدْرُهُ، وَقَالَ قَتَادَةُ: كَانُوا يُخَنُّونَ صُدُورَهُمْ لِكَيْلَا يَسْمَعُوا كِتَابَ اللَّهِ وَذِكْرَهُ.

قَالَ بَعْضُهُمْ: نَزَلَتْ الْآيَةُ فِي رَجُلٍ يُقَالُ لَهُ: الْأَخْنَسُ بْنُ شُرَيْبٍ الثَّقَفِيُّ؛ كَانَ يُجَالِسُ النَّبِيَّ، وَيُظْهِرُ لَهُ أَمْرًا حَسَنًا، وَكَانَ حَسَنَ الْمَنْظَرِ حَسَنَ الْحَدِيثِ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعْجِبُهُ حَدِيثُهُ، [وَيُفَرِّغُهُ فِي]^(٦) مَجْلِسِهِ، وَكَانَ يُضْمِرُ خِلَافَ مَا يُظْهِرُهُ، فَانْزَلَ اللَّهُ: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ سُوءَ ظَنِّهِمْ﴾ يَقُولُ: يَكْتُمُونَ مَا فِي صُدُورِهِمْ، وَيَسْتَرُونَ، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ.

وَأَصْلُ ثَنِيَّةِ الصَّدْرِ هُوَ أَنْ يُضْمَّ أَحَدُ طَرَفَيْ الصَّدْرِ إِلَى الْآخِرِ لِيَكُونَ مَا أَضْمَرَ أَسْرًا وَاخْفَى. وَيُشَبِّهُ مَا ذَكَرَ مِنْ ثَنِي الصَّدْرِ أَنْ يَكُونَ كِنَايَةً عَنْ ضَبْقِ الصَّدْرِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُصْلِحَ يَجْعَلْ صَدْرَهُ صَيِّقًا حَرِيًّا﴾ [الأنعام: ١٢٥] أَوْ كِنَايَةً^(٧) عَنِ الْكِبَرِ كَقَوْلِهِ: ﴿ثَانِي عَطْفِهِ. لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية [الحج: ٩].

وَكَانَ أَصْلُهُ الْمِيلَ إِلَى غَيْرِهِ، وَهُوَ مَا قَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ: ﴿يَتَّبِعُونَ سُوءَ ظَنِّهِمْ﴾ أَيِ يَعْمَلُونَ إِلَى غَيْرِهِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿ثَانِي عَطْفِهِ﴾. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيَسْتَخَفُّوا مِنْهُ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: مِنَ اللَّهِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿مِنْهُ﴾ أَيِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ. لَكِنْ إِنْ كَانَتْ الْآيَةُ فِي الْمُنَافِقِينَ عَلَى مَا ذَكَرَهُ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ فَهِيَ الْإِسْتِسْرَارُ وَالِاسْتِتَارُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يُظْهِرُونَ الْمَوَاقِفَةَ، وَيُضْمِرُونَ لَهُ الْعِدَاوَةَ، وَإِنْ كَانَتْ الْآيَةُ فِي الْمُشْرِكِينَ فَهِيَ الْإِسْتِسْرَارُ وَالِاسْتِتَارُ مِنَ اللَّهِ لِأَنَّهُمْ لَا يُبَالُونَ الْخِلَافَ لِرَسُولِ اللَّهِ وَإِظْهَارَ الْعِدَاوَةِ، وَعِنْدَهُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَطْلُعُ [عَلَى]^(٨) مَا يُبَيِّرُونَ، وَيُضْمِرُونَ فِي قُلُوبِهِمْ، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ يَعْلَمُ مَا أَسْرَوْا، وَمَا أَعْلَنُوا.

وَفِيهِ^(٩) دَلَالَةُ إِثْبَاتِ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يُبَيِّرُونَ ذَلِكَ، وَيُضْمِرُونَ، فَأَخْبَرَهُمْ بِذَلِكَ بِاللَّهِ تَعَالَى.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا جِئَ بِتَنْفُسٍ يَآئِهْمُ﴾ أَيِ يَسْتَرُونَ بِهَا. قَالَ الْحَسَنُ: ﴿جِئَ بِتَنْفُسٍ يَآئِهْمُ﴾ فِي ظِلْمَةِ اللَّيْلِ وَفِي أَجَوَابِ بَيوتِهِمْ يَعْلَمُ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ مَا يُبَيِّرُونَ، وَمَا يُعْلِنُونَ.

وَأَصْلُهُ أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ هَذِهِ الصُّدُورَ وَالْقُلُوبَ، وَالشَّيَابَ هُمُ الَّذِينَ نَسَجُوهَا، وَاجْتَسَبُوهَا، ثُمَّ لَا يَمْلِكُونَ الْإِسْتِتَارَ بِمَا كَسَبُوا هُمْ، فَلِأَنَّ لَا يَمْلِكُوا^(١٠) الْإِسْتِتَارَ بِمَا تَوَلَّى هُوَ إِنْشَاءَهُ أَحَقُّ.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا جِئَ بِتَنْفُسٍ يَآئِهْمُ﴾: ﴿أَلَا﴾ إِنَّمَا هُوَ تَأْكِيدُ الْكَلَامِ، وَهُوَ قَوْلُ أَبِي عُيَيْدَةَ وَغَيْرِهِ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَذَاتُ الصُّدُورِ﴾ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ عَلِيمٌ [بِمَا فِي]^(١١) الصُّدُورِ لَكِنَّهُ يُشَبِّهُ أَنْ [يَكُونَ]^(١٢) قَوْلُهُ: ﴿عَلَيْهِمْ يَذَاتُ الصُّدُورِ﴾ كِنَايَةً^(١٣) عَنْ صُدُورِهَا تَدْبِيرٌ وَتَمْيِيزٌ، [وَهِيَ صُدُورُ]^(١٤) الْبَشَرِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم: (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: مَوْضِع. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: فَنِيهِ. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم: (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيَقْرَأُ بِهِ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: عِبَارَةٌ. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم: (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: فَنِيهِ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: يَمْلِكُونَ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: بِلَذَاتِ. (١٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم: (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: عِبَارَةٌ. (١٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَهُوَ.

الآية ٦

وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: عَنَى بِالدَّابَّةِ الْمُتَحَنِّ بِهَا، وَهِيَ الْبَشَرُ. وَأَمَّا غَيْرُهُ مِنَ الدَّوَابِّ فَقَدْ سَحَرَهُ^(٢) لِلْمُتَحَنِّ بِهِ. وَقَالَ قَائِلُونَ: أَرَادَ كُلَّ دَابَّةٍ تَذُبُّ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مِنَ الْمُتَحَنِّ بِهِ وَغَيْرِهِ. وَتَمَامُهُ ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ جَعَلَ قِيَامَهَا وَحَيَاتَهَا بِالرِّزْقِ ﴿إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾. إِنِشَاءُ ذَلِكَ الرِّزْقِ لَهَا. ثُمَّ مِنَ الرِّزْقِ مَا جَعَلَهُ بِسَبَبٍ، وَمِنْهُ مَا جَعَلَهُ بِغَيْرِ سَبَبٍ.

وقوله تعالى ﴿إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ^(٣) أَيْضاً: قَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ: ﴿عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ أَيْ عَلَى اللَّهِ إِنْشَاءُ رِزْقِهَا، وَخَلْقُهُ لَهَا الَّذِي بِهِ قِيَامُهَا وَحَيَاتُهَا، وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَقَدْ أَنَمَلْنَا رِزْقَكُمْ﴾ [الذاريات: ٢٢] أَيْ يُنْشِئُهُ، وَيَخْلُقُ رِزْقَنَا بِسَبَبٍ مِنَ السَّمَاءِ مِنَ الْمَطَرِ وَغَيْرِهِ. فَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ أَيْ عَلَى اللَّهِ إِنْشَاءُ رِزْقِهَا وَخَلْقُهُ لَهَا. وَقِيلَ: ﴿عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ أَيْ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَبْلُغَ إِلَيْهَا رِزْقُهَا، وَمَا قَدَّرَ لَهَا، وَمَا بِهِ مَعَاشُهَا.

ثُمَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: مَا جَاءَهَا مِنَ الرِّزْقِ إِنَّمَا جَاءَ مِنَ اللَّهِ، لَمْ يَأْتِهَا مِنْ غَيْرِهِ، وَ ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ بِمَعْنَى مِنَ اللَّهِ. وَذَلِكَ جَائِزٌ فِي اللُّغَةِ كَقَوْلِهِ ﴿إِذَا أَكَلُوا عَلَى النَّارِ﴾ [المطففين: ٢] وَهُوَ قَوْلٌ مُجَاهِدٌ.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ ﴿عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ أَيْ عَلَى اللَّهِ وِفَاءً مَا وَعَدَ، وَقَدْ كَانَ وَعَدَ أَنْ يَرْزُقَهَا، فَعَلَيْهِ وِفَاءٌ وَغِيْهُ وَإِنْجَاؤُهُ. وَيَحْتَمِلُ وَجْهًا آخَرَ، وَهُوَ أَنَّهُ لَمَّا خَلَقَهَا لِيُقِيَّتْهَا^(٤) إِلَى وَقْتٍ عَلَيْهِ إِبْلَاجٌ مَا بِهِ تَعِيشُ إِلَى ذَلِكَ الْوَقْتِ وَالْأَجَلِ الَّذِي خَلَقَهَا لَهُ^(٥) لِيُقِيَّتْهَا إِلَى ذَلِكَ [الوقت] ^(٦). وَبَعْضُهُ قَرِيبٌ مِنْ بَعْضٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَيَسَّرَ مَنَاقِبَهُمْ﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ ﴿مَنَاقِبَهُمْ﴾ بِاللَّيْلِ ﴿وَيَسَّرَ مَنَاقِبَهُمْ﴾ بِالنَّهَارِ فِي مَعَاشِهَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْمُسْتَقَرُّ: الرَّجْمُ، وَالْمُسْتَوْدَعُ: الصُّلْبُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْمُسْتَقَرُّ الصُّلْبُ، وَالْمُسْتَوْدَعُ الرَّجْمُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْمُسْتَقَرُّ الْمُتَقَلَّبُ فِي الدُّنْيَا، وَالْمُسْتَوْدَعُ مَثْوَاهَا فِي الْآخِرَةِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ يَتْلَمُّ مَنَاقِبَكُمْ﴾ فِي الدُّنْيَا وَتَحْرُكُكُمْ فِي مَعَاشِكُمْ ﴿وَيَسَّرَ مَنَاقِبَهُمْ﴾ [محمد: ١٩] أَيْ قَرَارَكُمْ وَمَقَامَكُمْ فِي الْآخِرَةِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿مَنَاقِبَهُمْ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿وَيَسَّرَ مَنَاقِبَهُمْ﴾ فِي الْقَبْرِ.

وَيُسَبِّهُ أَنْ يَكُونَ هَذَا [إخباراً] ^(٧) عَنِ الْعِلْمِ بِهَا فِي كُلِّ حَالٍ [فِي حَالٍ] ^(٨) سُكُونِهَا وَفِي حَالِ حَرَكَتِهَا لِأَنَّهَا لَا تَخْلُو؛ إِمَّا أَنْ تَكُونَ سَاكِنَةً تَارَةً أَوْ مُتَحَرِّكَةً تَارَةً أُخْرَى ^(٩) أَيْ يَتْلَمُّ عَنْهَا كُلَّ أَحْوَالِهَا ^(١٠).

وَيُسَبِّهُ أَنْ يَكُونَ صِلَةً مَا تَقَدَّمَ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ مَذَازَهُمْ لِيَسْتَخَفُوا مِنْهُ﴾ الْآيَةُ [الآية: ٥] يُخْبِرُ أَنَّهُ إِذَا لَمْ يَخَفْ عَلَيْهِ كَوْنُ كُلِّ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ ﴿وَمَا يَقْبِضُ إِلَّا أَرْجَامَهُ﴾ [الرعد: ٨] وَمَا اسْتَوْدَعَ فِي الْأَصْلَابِ، كَيْفَ يَخْفَى عَلَيْهِ أَعْمَالُكُمْ الَّتِي عَلَيْهَا الْعِقَابُ، وَلَكُمْ بِهَا الثَّوَابُ، وَفِيهَا الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ؟ وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَ ﴿كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أَيْ مُبَيَّنٍّ فِي كِتَابِهِ؛ قِيلَ: فِي اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ، وَيَحْتَمِلُ الْقُرْآنَ وَغَيْرَهُ.

الآية ٧

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ ﴿قُلْ أَيْتُكُمْ لَتَكْفُرُنَّ بِاللَّهِ الَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩] وَقَالَ: ﴿فَقَسَّصْنَهُنَّ سَبْعَ سَعَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢] وَقَالَ: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ [فصلت: ١٠] يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ جَعَلَ لِلْأَرْضِ ^(١١) يَوْمَيْنِ يَوْمًا لَوْجُودِهَا وَيَوْمًا لِعَدَمِهَا، وَكَذَلِكَ السَّمَاءَ جَعَلَ يَوْمًا لَوْجُودِهَا وَيَوْمًا لِعَدَمِهَا كَقَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ الْآيَةُ [إبراهيم: ٤٨] وَكَقَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِ لِلْكِتَابِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] [وَكَقَوْلِهِ] ^(١٢): ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالسَّحَابِ﴾ [الفرقان: ٢٥] وَكَذَلِكَ مَا بَيْنَهُمَا؛ جَعَلَ يَوْمًا لَوْجُودِهَا وَيَوْمًا لِعَدَمِهَا، فَيَكُونُ الْيَوْمُ ^(١٣) السَّابِعُ يَوْمَ الْبَعْثِ؛ يَكُونُ لِكُلِّ مَنْ [تِلْكَ] يَوْمَانِ: يَوْمٌ لَوْجُودِهَا وَيَوْمٌ ^(١٤) لِعَدَمِهَا. وَقَدْ ذَكَرْنَا شَيْئاً فِي ذَلِكَ مِمَّا اخْتَمَلَ وَسُغِنَا فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ ^(١٥).

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَهُوَ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: سَحَرَهَا. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنَّهُ يَقِيَّتْهَا. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: حَالِهَا. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: الْأَرْضُ. (١٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: يَوْمٌ. (١٤) فِي الْأَصْلِ وَم: ذَلِكَ يَوْمَيْنِ يَوْمًا لَوْجُودِهَا وَيَوْمًا. (١٥) الْمَقْصُودُ الْآيَةُ (٤٥).

وفي الآية دلالة أن السماء والأرض دخلتا تحت الأوقات بقوله: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ إذ الأيام عند الناس إنما هي مضي الأوقات. فإن دخلنا^(١) تحت الأوقات فليستنا بأزليتين [لا]^(٢) على ما يقول بعض المُلجدة: إنهما [أزليتان كانتا]^(٣) كذلك، والله أعلم.

وجائز أن يكون اليوم السابع هو اليوم الذي [خلق]^(٤) المُمْتَحَن فيه، وهو المقصود في خلق ما ذَكَرَ مِنَ الأشياء؛ أعني البشر.

وقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ إن كان العرش اسم المُلْك والسلطان على ما قال بعض أهل التأويل فتأويله، والله أعلم، كان أظهر مُلكه عن الماء [و] ﴿عَلَى﴾^(٥) بِمَعْنَى عَنْ، وذلك جائز في اللغة، لأنه بالماء ظهور كل شيء وبذوه كقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وإن كان العرش اسم السرير والكرسي على ما قاله بعض الناس فهو عرش المُلْك وسريته؛ خَلَقَهُ لِيُكْرِمَ بِهِ أوليائه، لِيُمْتَحِنَ ملائكته بِحَمْلِهِ وَالْخِدْمَةِ لَهُ على ما يكون لملوك الأرض سُرُرًا^(٦) يَسْتَخْدِمُونَ خَدَمَهُمْ فِي ذَلِكَ.

وهو خلق من خلايقه أضافه إليه كما تُضاف الأشياء إليه مرةً بالإجمال جُملةً، ومرةً^(٧) بالإشارة ٢٣٦ - ب/ والافراد. ولكن ما أُضيف إليه بالإشارة فهو على تعظيم ذلك الشيء، وما أُضيف إليه الأشياء بالإجمال والإرسال فهو على ذكر عظمته وكبريائه كقوله: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٠٧] ونحوه، فيه ذكر سلطانيه وعظمته وقوله: ﴿بَيِّنَاتٍ لِّلطَّالِّينَ﴾ [البقرة: ١٢٥] وقوله^(٨): ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ [الحج: ١٨] ونحوه^(٩) يُخْرِجُ على تعظيم البيت والمساجد، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوكُم بِأَنكُم أَتَّسَرُّ عَمَلَكُمْ﴾ أي خلق السموات والأرض وما فيها لِيُمْتَحِنَ، لم يخلق هذه الأشياء لأنفسها إنما خلقها لِيُمْتَحِنَ فيها كقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [الجاثية: ١٣] لَأَنَّ خَلْقَهَا لَأَنْفُسِهَا عَبَثٌ، [لا أنها]^(١٠) مخلوقة للفناء خاصة. فكل مخلوق للفناء خاصة فهو عَبَثٌ. لذلك كان ما ذكرنا، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِن قُلْتُ إِنكُم تَبْعُونَنِي مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لِقَوْلِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ قوله: ﴿وَلَكِن قُلْتُ إِنكُم تَبْعُونَنِي مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ﴾ هذا القول نفسه ﴿إِنكُم تَبْعُونَنِي مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ﴾ ليس [ما]^(١١) يقولون: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ولكن إذا أخبرهم أنهم مبعوثون من بعد الموت، وأقام الحجج والبراهين على البعث، حينئذ قالوا [عز حُجَج] ^(١٢) البعث وبراهينه: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.

وَيَحْتَمِلُ وجهاً آخر، وهو أن يَذْكُرَ سَفَهَهُمْ أنهم اعتادوا نسبة كل شيء إلى السحر حتى الأشياء التي لا تَحْتَمِلُ السحر، وهي^(١٣) الأخبار لأن السحر في قلب الأشياء، وأما في ما يُخْبِرُ عن شيء يكون فلا.

الآية ٨

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِن أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى آثَرِ مَعْدُودَةٍ﴾ قيل: إلى وقت معلوم، هو البعث كرامة، والله أعلم، لأنه وقت به تنقضي آجال الأمم جميعاً ﴿لِقَوْلِكَ مَا يَحْسِبُهُ﴾ أي كانوا يقولون: ما يحبس عنا العذاب الذي يعدنا، لم نزل عادتهم استعجال العذاب، استهزاءً به^(١٤).

وقوله تعالى: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ ذلك إذا جاء لا يملك أحد صرفه عنهم كقوله: ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَكِيلٌ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: ٥١] وقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٤] ونحوه.

وقوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ قيل: نزل بهم، وقيل: يحق عليهم^(١٥) ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ جزاء استهزائهم بالرسول والكتاب.

(١) في الأصل وم: دخلت. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: أزليتين كانتا. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: سرير. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) أدرج بعدما في الأصل وم: وهو. (١٠) في الأصل وم: لأنها. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: الحجج. (١٣) في الأصل وم: وهو. (١٤) و (١٥) في الأصل وم: بهم.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ أي لا يُصْرَف عنهم شفاعَةٌ مَنْ طَلَبُوا بِشَفَاعَتِهِ كَقَوْلِهِ ^(١): ﴿وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لَعَلَّهُمْ يُصْرَفُونَ﴾ [يس: ٧٤] ونَحْوُ ذَلِكَ لَأَنَّهُمْ كَانُوا يَغْبُدُونَ الْأَصْنَامَ رَجَاءً أَنْ تَشْفَعَ لَهُمْ.

الآية ٩

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ قيل: سَعَةً فِي الْمَالِ وَنِعْمَةً ﴿ثُمَّ نَرَعْنَهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَتُوشُ كُفُورًا﴾ أَيَسُهُ ذَهَابَ ذَلِكَ الْمَالِ عَنْهُ وَنَزَعُهُ مِنْهُ، [وَعَدَمُ عَوْدِ] ^(٢) ذَلِكَ إِلَيْهِ يُقِيطُهُ ^(٣).

وَالْإِيَّاسُ قَدْ يَكُونُ كُفُورًا كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِيَنَّ مِنْ رِجِّهِ إِلَهٌ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُ لَيَتُوشُ﴾ فِي حَالِ ذَهَابِ النِّعْمَةِ، وَ ﴿كُفُورًا﴾ فِي حَالِ النِّعْمَةِ وَالسَّعَةِ؛ ﴿كُفُورًا﴾ لَمَّا رَأَى نَزَعَ ذَلِكَ الْمَالِ وَالسَّعَةِ مِنْهُ جَوْرًا وَظُلْمًا فَهُوَ كُفُورٌ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ [أَنَّهُ] ^(٤) قَالَ: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ يَعْنِي الْكَافِرَ ﴿مِنَّا رَحْمَةً﴾ يَقُولُ: نِعْمَةُ الْعَافِيَةِ وَسَعَةُ الْمَالِ وَمَا يُسْرَبُ ﴿ثُمَّ نَرَعْنَهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَتُوشُ كُفُورًا﴾ يَعْنِي [أَنْتَوَاطًا أَيْسًا] ^(٥) مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم: ٣٦].

الآية ١٠

[وَقَوْلُهُ تَعَالَى] ^(٦): ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَفْقُرَنَّ دَهْبُ السَّيِّئَاتِ عَنِّي إِنَّهُ لَفَنِحٌ فَخُورٌ﴾ الْفَرْخُ هُوَ الرِّجَالُ كَقَوْلِهِ: ﴿وَرِحْرًا يَلْبُؤُهُ الذَّنْبُ﴾ [الرعد: ٢٦] أَيْ رَضُوا بِهَا. وَقِيلَ: الْفَرْخُ الْبَطْرُ؛ يَنْظُرُ فِي حَالِ السَّعَةِ وَالرَّخَاءِ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصاص: ٧٦] وَالْفَرْخُ قَدْ يَبْلُغُ كُفُورًا، وَيَكُونُ الْفَرْخُ سُورًا، وَلَا يَكُونُ كُفُورًا.

[وَقَوْلُهُ تَعَالَى] ^(٧): ﴿فَخُورٌ﴾ يَفْتَخِرُ عَلَى الْفُقَرَاءِ بِالْمَالِ الَّذِي أُعْطِيَ، أَوْ يَفْتَخِرُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ بِالْكَذِبِ. وَكَذَلِكَ كَانَتْ عَادَةُ رُؤَسَائِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا ذَوِي مَالٍ وَسَعَةٍ، فَلَا يَزُونَ الرِّسَالَةَ تَكُونُ فِي مَنْ دُونَهُمْ فِي الْمَالِ كَقَوْلِهِمْ: ﴿لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْفَرِثِيِّينَ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] وَكَقَوْلِهِمْ: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا﴾ [سبا: ٣٥] وَنَحْوُهُ. وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿لَيَتُوشُ﴾ فِي حَالِ الشَّدَةِ ﴿كُفُورًا﴾ اللَّهُ فِي [حَالِ النِّعْمَةِ] ^(٨) وَالرَّخَاءِ.

وَأَصْلُهُ أَنَّهُمْ ^(٩) كَانُوا لَا يَنْظُرُونَ فِي [حَالِ] ^(١٠) النِّعَمِ وَالرَّخَاءِ إِلَى مَنْ أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا [كَانُوا] ^(١١) يَنْظُرُونَ إِلَى أَعْيُنِ النِّعَمِ وَأَنْفُسِهَا. لِذَلِكَ حَمَلَهُمْ عَلَى الْإِيَّاسِ وَالْقُنُوطِ، وَإِعْطَاؤُهُمْ إِيَّاهَا عَلَى الْكُفْرَانِ وَالْفَرْحِ وَالْفَخْرِ. وَلَوْ نَظَرُوا فِي تِلْكَ النِّعَمِ إِلَى الْمُنْعِمِ لَمْ يَقَعْ لَهُمُ الْإِيَّاسُ ^(١٢) عِنْدَ التَّرَعُّعِ وَلَا الْكُفْرَانُ وَالْفَرْحُ عِنْدَ الثَّيْلِ، بَلْ يُصِيرُونَ عِنْدَ التَّرَعُّعِ مِنْ أَيْدِيهِمْ، وَيَشْكُرُونَ لِلْمُنْعِمِ عَلَيْهِمْ فِي حَالِ الثَّيْلِ.

الآية ١١

ثُمَّ اسْتَشْنَى، فَقَالَ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أَيْ آمَنُوا عَلَى مَا ذَكَرَ فِي غَيْرِ وَاحِدٍ ^(١٣) مِنَ الْآيَاتِ [كَقَوْلِهِ] ^(١٤): ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الشعراء: ٢٢٧] وَكَقَوْلِهِ ^(١٥): ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَشِيرٌ﴾ ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [العصر: ٣٢] يَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ عَنِ الْمَعَاصِي، فَلَمْ يَرْتَكِبُواهَا ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أَيْ الطَّاعَاتِ، وَالْإِيمَانُ نَفْسُهُ هُوَ اغْتِفَادُ الْإِنْجِيَاءِ عَنِ الْمَعَاصِي كُلِّهَا وَاتَّقَاءُ ^(١٦) جَمِيعِ مَا يُذْخِلُ نَقْصًا [فِي الطَّاعَاتِ] ^(١٧) وَإِتْيَانُ الطَّاعَاتِ جَمِيعًا.

وَهَكَذَا يَغْتَفِدُ كُلُّ مُؤْمِنٍ أَنْ يَتَّقِيَ، وَيَنْتَهِي [عَنْ] ^(١٨) كُلِّ مَعْصِيَةٍ، وَيَأْتِي بِكُلِّ طَاعَةٍ، وَيَعْمَلُ بِهَا. هَذَا اغْتِفَادُ كُلِّ مُؤْمِنٍ، وَحَقِيقَتُهُ وَفَاءُ ^(١٩) ذَلِكَ كُلِّهِ.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لِمَا ارْتَكَبُوا مِنَ الصُّغَارِ مِنَ الذُّنُوبِ، وَانْتَهَوْا عَنِ الْكِبَائِرِ مِنْهَا ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ عَلَى مَا أَتَوْا، وَعَمِلُوا مِنَ الْكِبَائِرِ مِنَ الطَّاعَاتِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: قَوْلُهُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: عَنِ الْعَوْدِ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيَقْنَطُهُ. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: قُنُوطٌ أَيْسَ وَاقْنَطُهُ. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: نِعْمَةٍ. (٩) أَدْرَجَ قَبْلَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: وَذَلِكَ. (١٠) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١١) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: إِيَّاسٍ. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَاحِدٌ. (١٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٥) الْوَائِي سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَالْإِتْقَانُ. (١٧) فِي الْأَصْلِ وَم: فِيهَا. (١٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٩) فِي الْأَصْلِ وَم: الْوَفَاءُ.

وَيَخْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ السَّخَرُ فِي الدُّنْيَا؛ سَخَّرَ عَلَيْهِمْ تِلْكَ الذُّنُوبَ فِي الدُّنْيَا، فَلَمْ يُظْلِعْ عَلَيْهَا الْخَلْقَ، ﴿وَأَجْرٌ كَثِيرٌ﴾ بِمَا أَظْهَرَ مِنْهُمْ مَا كَانَ مِنَ الطَّاعَاتِ وَالْخَيْرَاتِ حَتَّى نَظَرَ النَّاسُ إِلَيْهِمْ بِعَيْنِ تَعْظِيمٍ^(١) بِمَا ظَهَرَ مِنْهُمْ مِنَ الْخَيْرَاتِ، [وَأَخْفَى عَلَيْهِمْ مَا]^(٢) اِزْتَكَبُوا مِنَ الْمَعَاصِي. وَهَذَا التَّأْوِيلُ يَكُونُ فِي الدُّنْيَا، وَالْأَوَّلُ فِي الْآخِرَةِ.

الآية ١٢

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَكَ تَارِكًا بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ حَرْفٌ لَعَلَّ يَخْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

[أَحَدُهُمَا: يَخْتَمِلُ]^(٣) التَّنْهِي؛ أَي لَا تَتْرُكْ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ، وَإِنْ كَانَ مَعْلُومًا أَنَّهُ لَا يَتْرُكُ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الشُّرَكِيِّ﴾ [الأنعام: ١٤] [وقوله:]^(٤) ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٤٧] وَأَمَّا الْيُحَىٰ^(٥)، نَهَاءٌ، وَإِنْ كَانَ مَعْلُومًا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا اخْتَمَلَ التَّنْهِي كَمَا يَقُولُ^(٦) الرَّجُلُ لآخَرٍ: لَعَلَّكَ تُرِيدُ أَنْ تَفْعَلَ كَذَا، فَيَكُونُ^(٧) نَهَاءٌ عَنْ ذَلِكَ.

وَالثَّانِي: يُقَالُ عِنْدَ الْقَرَبِ مِنَ الْفِعْلِ وَالذُّنُوبِ مِنْهُ كَقَوْلِهِ: ﴿لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ ذَيْنًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤] يُقَالُ: حَرْفٌ كَادَ عِنْدَ الْمِيلِ إِلَيْهِ وَالْقَرَبِ مِنْهُ طَمَعًا مِنْهُ فِي إِيْمَانِهِمْ. ذَلِكَ فِي مَا يَجِلُّ لَهُ التَّرْكُ، وَذَلِكَ مَا قِيلَ مِنْ نَحْوِ سَبِّ آلِهَتِهِمْ وَذِكْرِ الْعَيْبِ فِيهَا، وَيَجِلُّ لَهُ تَرْكُ سَبِّ آلِهَتِهِمْ وَشَتَائِهَا.

وَكذلك يُخْرِجُ قَوْلُهُ: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَقَسِّكَ﴾ [الشعراء: ٣] عَلَى هَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ:

[أَحَدُهُمَا]^(٨): عَلَى الْمَنْعِ: أَلَّا يَخْمِلَ عَلَى نَفْسِهِ إِشْفَاقًا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَّا يُؤْمِنُوا لِمَا يُوجِبُ تَلَفَهُ.

وَالثَّانِي: عَلَى التَّخْفِيفِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [النحل: ١٢٧]. [وقوله]^(٩): ﴿وَلَا تَحْزَنْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ [القصاص: ٧] هُوَ عَلَى التَّخْفِيفِ لَيْسَ عَلَى التَّنْهِي.

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا تَرَكَ تَارِكًا﴾ الْآيَةُ وَجْهٌ آخَرٌ، وَهُوَ نَهْيٌ يُخْرِجُ مُخْرِجَ الْبِشَارَةِ مِمَّا كَانَ يَخَافُ مِنْ ضَيْقِ صَدْرِهِ وَاشْتِغَالِ قَلْبِهِ عِنْدَ سُوءِ مَعَامَلَتِهِمْ إِيَّاهُ [فِي وَجْهَيْنِ]:

أَحَدُهُمَا: مَا يَقَعُ^(١٠) لَهُ فِيهِ فِي إِبْلَاحٍ مَا أَمَرَ بِتَلْيِغِهِ [البشارة]^(١١)، فَأَمَنَهُ اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ، وَعَصَمَهُ.

وَالْوَجْهَ الثَّانِي: فِي التَّنْهِي عَنْ ذَلِكَ هُوَ مَا يَقَعُ لَهُ فِيهِ الرَّجَاءُ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْأَخْيَارَ إِذَا ابْتُلُوا بِالْأَشْرَارِ، وَقَدْ يُؤْذَنُ لَهُ فِي حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ بِتَأْخِيرِ التَّلْيِغِ، / ٢٣٧ - أ / فَأَيَّاسُهُ عَنْ ذَلِكَ، وَكَلَّفَهُ بِتَلْيِغٍ مَا أَمَرَ لَهُ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ.

[وقوله تعالى:]^(١٢) ﴿بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ يَخْتَمِلُ مَا ذَكَرَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ مِنْ سَبِّ آلِهَتِهِمْ وَعَيْبِهَا وَمَا تَدْعُو إِلَيْهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَضَاقَ بِهِ صَدْرُكَ﴾ يَضِيقُ صَدْرُهُ بِمَا يَقُولُونَ لَهُ اسْتَهِزَاءً. وَكَذَلِكَ الْحَقُّ أَنَّ كُلَّ مَنْ اسْتَهِزَأَ بِهِ يَضِيقُ^(١٣) صَدْرُهُ، أَوْ يَضِيقُ صَدْرُهُ لِمَا لَا يَقْدِرُ عَلَى إِتْيَانِ مَا طَلَبُوا مِنْهُ مِنَ الْمُلْكِ وَإِزَالِ الْمَلِكِ وَقَدْ وَعَدُوا أَنْ يُؤْمِنُوا إِنْ فَعَلَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ لَأَنْ لَلْكَتَنَزِ وَالْمَلِكُ مَحَلًّا^(١٤) فِي قُلُوبِ أَوْلَئِكَ وَقَدْ رَأَى^(١٥)، فَقَالُوا: ﴿لَوْلَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا﴾ [فَيُعْظَمُوهُ، وَيُضَدِّقُوا مَا يُوحَىٰ إِلَيْهِ]^(١٦) وَيَدْعُو. وَكَذَلِكَ الْمَلِكُ لَهُ مَحَلٌّ عَظِيمٌ عِنْدَهُمْ؛ إِذَا كَانَ مَعَهُ عَظَمُوهُ، وَضَدَّقُوهُ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ عَلَى إِثْرِ قَوْلِهِمْ: ﴿لَوْلَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ أَي ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ لَيْسَ عَلَيْكَ إِتْيَانُ مَا سَأَلُوا، إِنَّمَا ذَلِكَ تَحَكُّمٌ مِنْهُمْ عَلَى اللَّهِ وَأَمَانِي، فَعَلَيْكَ إِبْلَاحُ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى: ٤٨] ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أَي حَفِظَ لِكُلِّ مَا يَقُولُونَ فَيْكَ، وَيَتَّقَوْهُونَ بِهِ، أَوْ هُوَ الرُّكْبَانُ أَوْ الْحَفِظُ لَا أَنْتَ كَقَوْلِهِ: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢] [وقوله:] ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِرُكْبِلٍ﴾ [الأنعام: ١٠٧] وَنَحْوُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: عَظِيم. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَخَفِيَ عَلَيْهِمْ بِمَا. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: بِحْتَمَلٍ عَلَى. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَأَمَثَالُهُ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: يُقَالُ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: فَهَر. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: فَيَقَعُ. (١١) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٣) اِدْرَجَ فِي الْأَصْلِ وَم قَبْلُهَا: أَنْ. (١٤) فِي الْأَصْلِ وَم: مَحَلٌّ. (١٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَدَّرَ. (١٦) فِي الْأَصْلِ وَم: فَيُعْظَمُونَهُ فَيَصْدُقُ مَا يُوحَىٰ.

الآية ١٣

وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ﴾ أي قالوا: إنه افتراء، أي محمد افتري هذا القرآن من عند نفسه ﴿قُلْ﴾ يا محمد إن [كُنْتُ افْتَرَيْتُهُ] ^(١) على ما تقولون ﴿فَأَنذَرْتُ﴾ انتم ﴿بِمَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مَفْرُوتٍ﴾ لانكم اقدر على الافتراء من محمد لانكم قد عودتم انفسكم الكذب والافتراء، ومحمد لم تأخذه بكدب قط، ولا ظهر منه افتراء. فمن عود نفسه الافتراء والكذب اقدر عليه ممن لم يعرف [ذلك] ^(٢) قط. ﴿فَأَنذَرْتُ بِمَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مَفْرُوتٍ وَأَدْعُوا﴾ ايضاً شهداءكم من الجن والإنس ﴿مَنْ اسْتَفْطَشَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعينوكم ^(٣) على إتيان مثله ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنه افتراء من عنده.

أو يقول ﴿فَأَنذَرْتُ بِمَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مَفْرُوتٍ﴾ أي إن محمداً قد جاء بسور فيها ^(٤) أنباء ما أسررتم، وأخفيتم ما لا سبيل إلى معرفة ذلك والإطلاع عليه إلا من جهة الوحي من السماء وإطلاع الله إياه ﴿فَأَنذَرْتُ﴾ انتم ﴿بِمَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مَفْرُوتٍ﴾ فيها أنباء ما أضمر هو، وأسر، وأطلعتم ^(٥) انتم على سرايره [كما] ^(٦) أطلع هو على سرائركم. ﴿وَأَدْعُوا مَنِ اسْتَفْطَشَ مِنْ تَعْبُدُونَ﴾ من دون الله من آلهة ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنه افتراء.

أو يقول: إن لسانكم مثل لسان محمد، فإن قدر هو على الافتراء افتراء مثله من عنده، وتقدرون انتم على الافتراء مثله، فأثروا به، وادعوا ايضاً من لسانه مثل لسانكم حتى يعينوكم على ذلك ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنه افتراء، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُ بِمَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مَفْرُوتٍ﴾ وقوله ^(٧) تعالى في موضع آخر ﴿فَأَنذَرْتُ بِمَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣] قال بعضهم [قوله] ^(٨): ﴿بِمَشْرِ سُوْرٍ﴾ نزل قبل [قوله]: ﴿فَأَنذَرْتُ بِمَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ﴾ ولم يقدروا على مثله ^(٩): دُعُوا أَوْلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمَشْرِ سُوْرٍ، فلما عجزوا عن ذلك عند ذلك قال ^(١٠) لهم: ﴿فَأَنذَرْتُ بِمَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُ بِمَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مَفْرُوتٍ﴾ [إن قيل: كيف ذكر ﴿فَأَنذَرْتُ بِمَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مَفْرُوتٍ﴾] ^(١١) قيل: معناه: إن كان هذا مما يَحْتَمِلُ الافتراء على ما تزعمون فأثروا بمثله انتم لانكم اقدر على الافتراء من محمد، فإن لم تقدروا [لم تقدروا] ^(١٢) أحد على ذلك.

الآية ١٤

وقوله تعالى: ﴿فَالَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ [يَحْتَمِلُ وَجْهين]:

أحدهما: ^(١٣) فإن لم تقدروا انتم، ولم يجيبوكم أولئك على الإعانة على البيان مثله ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وبإمره آتاه، ومن عنده نزل، ليس بمفتري على ما تزعمون ﴿وَأَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا ألوهية لمن تعبدون دونه من الأصنام والأوثان.

والثاني: ﴿فَالَمْ يَسْتَجِيبُوا﴾ يا أصحاب رسول الله، ولم تقدروا على مثله ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ومن عنده نزل على التنبية والتذكير لهم. وإن كانوا عليموا أنه من عنده نزل كقوله: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] على التنبية والتذكير ليس على أنه يعلم. فعلى ذلك الأول.

وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ أُنْشِئْتُمْ﴾ خاضعون له مخلصون. وعلى التأويل الأول على حقيقة الإسلام والإيمان، والله أعلم.

الآية ١٥

وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ الآية [اختلِفَ فيه: قال بعضهم: الآية] ^(١٤) في أهل الإيمان الذين ^(١٥) عملوا الصالحات مُرَاةً لِّلْخَلْقِ، يقول ﴿تَوَفَّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ [من الذكر فيها] ^(١٦) والشرف، وما طلبوا بأعمالهم في الدنيا من المباحات [وغيرها آتاهم] ^(١٧) الله في الدنيا جزاء لتلك الأعمال التي عملوها، وأبطل ما كانوا يعملون لأنهم عملوا لغير الله، فلا يجزون في الآخرة بأعمالهم تلك. وإلى هذا يذهب ابن عباس.

(١) في الأصل وم: كان افتراء. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: يعينونكم (٤) في الأصل وم: فيه. (٥) في الأصل وم: وتطلعون. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: وقال. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: ولم يقدروا على مثله، وقوله: ﴿فَأَنذَرْتُ بِمَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ﴾. (١٠) في الأصل وم: قيل. (١١) ساقطة من م. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) في الأصل وم: أي (١٤) من م: ساقطة من الأصل. (١٥) في الأصل وم: الذي. (١٦) من م، ساقطة من الأصل. (١٧) في الأصل وم: وغيره آتاه.

وروي في بعض الأخبار: «أن نبي الله ﷺ سُئِلَ: ما بال العبد المعروف بالخير يُشَدَّدُ عليه عند الموت، والرجل المعروف بالشر يُهَيَّوَنَ عليه الموت؟ فقال: المؤمن تكون له ذنوب، فيُجَازَى بها عند موته، فيُقْضَى إلى الله في الآخرة، ولا ذَنْبَ عليه، والكافر يكون له الحسنات، فيجَازَى عند الموت؛ يُخَفَّفُ عنه كُربُ الموت، ثم يُقْضَى إلى الآخرة، وليست له حَسَنَةٌ» [بتحوه السيوطي في الدر المنثور ج ٤/٤٠٨ و ٤٠٩] أو كلامٌ نحوه.

وقال بعضهم: الآية في أهل الكفر؛ يَعْمَلُونَ أَعْمَالاً في الظاهرِ صالحةً نَحْوَ التَّصَدَّقِ عَلَى الْفُقَرَاءِ وَعِمَارَاتِ الطَّرِيقِ وَاتِّخَاذِ الْقَنَاظِرِ وَالرِّبَاطَاتِ^(١)، هي في الظاهرِ صالحةٌ، يقول: ﴿تَوَفَّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ نَوْفٌ لَهُمْ جزاء أعمالهم التي عَمِلُوهَا في الدنيا: لا تُنْقِصُ منها شيئاً، فهو ما وَسَّعَ عَلَيْهِمُ الدُّنْيَا.

وجائز أن يكون قوله: ﴿تَوَفَّ إِلَيْهِمْ﴾ أي نَزُدُ^(٢) إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمُ التي عَمِلُوهَا، فلا تَقْبَلُهَا^(٣)، ويكون إيفاء أعمالهم الرَّدَّ.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَبْخُسُونَ﴾ أي لا يُنْقِصُونَ ما قَدَّرَ لَهُمْ مِنَ الرِّزْقِ إِلَى انْقِضَاءِ مُدَّتِهِمْ وَأَجَالِهِمْ بِشَرِكِهِمْ بِاللَّهِ.

الآية ١٦ وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّكَارُ﴾ [لأن من]^(٤) إذا رأى فيها لم يُخْلِصْهَا لِلَّهِ، وَضِيعَ أَمْرُهُ، وَكُلُّ مَنْ ضِيعَ أَمْرُ اللَّهِ وَفَرِضَتْهُ يَسْتَوْجِبُ التَّعْذِيبَ عَلَيْهِ، وَلَهُ الْعَفْوُ، وَلَيْسَ فِي الْآيَةِ أَنَّهُ لَا مُحَالَةَ يُعَذِّبُهُمْ بِعَمَلِهِمُ الْمُرَاءَاةَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [هود: ١٤] فيه دلالةٌ نَقْضِ قَوْلِ الْجَهْمِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ بِتَفْهِيمِ الْعِلْمِ عَنِ اللَّهِ. وَفِي الْآيَةِ إِثْبَاتُ الْعِلْمِ لَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿أُنْزِلَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

الآية ١٧ وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَتْرَفٍ مِنْ رَبِّهِ. وَتَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ قوله: ﴿أَفَمَنْ﴾ حَرْفٌ يَقْتَضِي الْجَوَابَ لَهُ، [وهو لم]^(٥) يُخْرِجُ فِي الظَّاهِرِ لِأَنَّ جَوَابَهُ أَنْ يَقُولَ: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَتْرَفٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ كَمَنْ لَيْسَ عَلَى يَتْرَفٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَا قَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧] وَكَقَوْلِهِ: ﴿أَفَمَنْ يَمْلِكُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَهْوَى﴾ [الرعد: ١٩] لَا يَعْلَمُ. فَعَلَى ذَلِكَ جَوَابُ قَوْلِهِ: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَتْرَفٍ﴾ كَمَنْ لَا يَكُونُ عَلَى يَتْرَفٍ مِنْ رَبِّهِ.

لكنَّ الجواب عندنا يكون على وجوه: مرَّةٌ يكون بالتصريح، وهو ما ذَكَرْنَا، وَمرَّةٌ بالإشارة، وَمرَّةٌ بالكِنَايَةِ عَلَى غَيْرِ تَصْرِيحٍ.

ثم منهم مَنْ يَجْعَلُ جَوَابَهُ مَا تَقَدَّمَ، وهو قوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ الآية أي لا يكون كذلك. ومنهم مَنْ يَجْعَلُ جَوَابَهُ فِي مَا تَأَخَّرَ، وهو قوله: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ كَأَنَّهُ يَقُولُ: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَتْرَفٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ كَمَنْ يَكْفُرُ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ؛ أَي لَا يَكُونُ كَذَلِكَ. وَقَالُوا: يَجُوزُ تَقْدِيمُ الْجَوَابِ وَتَأْخِيرُهُ كَقَوْلِهِ: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَتِيلٌ مَاتَ أَلَيْلٍ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَرَزَقَهَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩] لَمْ يُخْرِجْ لِهَذَا جَوَابًا بِالتَّصْرِيحِ.

ثم اختلفوا في جوابه في ما تأخَّرَ في قوله: / ٢٣٧ - ب/ ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَتْلُونَ وَالَّذِينَ لَا يَتْلُونَ﴾ ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَتِيلٌ مَاتَ أَلَيْلٍ﴾ [الزمر: ٩] وَصَفَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ، فَكَأَنَّهُ يَقُولُ: أَفَمَنْ يَعْلَمُ كَمَنْ لَا يَعْلَمُ.

ومنهم مَنْ يَجْعَلُ جَوَابَهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُبِينًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ لَبَّى مَا كَانَ يَدْعُوَ إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٨] يَقُولُ: أَمِنْ^(٦) جَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا، وَأَضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ، وَصَارَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ كَمَنْ هُوَ قَائِمٌ؟ أَي لَيْسَ بِسَوَاءٍ.

وقال مقاتل: لَيْسَ الَّذِي عَلَى بَيَانٍ مِنْ رَبِّهِ كَالَّذِي مَوَّعِدُهُ النَّارُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) من م، في الأصل: الريات. (٢) من م، في الأصل: يرد. (٣) في الأصل: يرد. (٤) في الأصل: وم. لأنه. (٥) في م: لم، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل: وم.

وجائز أن يكون على طرح الالف: فَمَنْ ﴿كَانَ عَلَى يَمِينٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ وَتَلَّوْهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَى ﴿الآية﴾ يقول: فَمَنْ كَانَ عَلَى يَمَانٍ مِنْ رَبِّهِ أُولَئِكَ يَوْمَنُونَ بِهِ.

وقوله تعالى: ﴿كَانَ عَلَى يَمِينٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ وَتَلَّوْهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴿قَالَ بَعْضُهُمْ﴾: كَانَ عَلَى دِينٍ مِنْ رَبِّهِ، أَي مَنْ كَانَ عَلَى دِينٍ مِنْ ^(١)الله، ﴿وَتَلَّوْهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ يَتْلُو لِمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الدِّينِ شَاهِدٌ مِنْهُ كَمَنْ كَانَ عَلَى دِينِ الشَّيْطَانِ، وَلَا شَاهِدَ لَهُ عَلَيْهِ.

وقال بعضهم: قوله ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَمِينٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ أَي عَلَى بُرْهَانٍ مِنْ رَبِّهِ وَحُجَجٍ ﴿وَتَلَّوْهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ عَلَى ذَلِكَ كَمَنْ لَا عَلَى بُرْهَانٍ مِنْ رَبِّهِ وَلَا حُجَجٍ وَشَاهِدَ لَهُ عَلَى ذَلِكَ؟

ثم قال بعضهم: قوله: ﴿وَتَلَّوْهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ جبريلُ أَوْ مَلَكٌ غَيْرُهُ، يَتْلُو عَلَيْهِ الْقُرْآنَ. وقال بعضهم: ﴿وَتَلَّوْهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ هُوَ الْقُرْآنُ وَنَحْوُهُ.

ثم قوله: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَمِينٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ يَحْتَمِلُ أَصْحَابُ عِيسَى الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ﴾ كَتَبَ مُوسَى ﴿أَصْحَابُ التَّوْرَةِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ﴾ ﴿أُولَئِكَ يَوْمَنُونَ بِهِ﴾ أَي هَؤُلَاءِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ هُمُ الَّذِينَ يَوْمَنُونَ بِمُحَمَّدٍ عَلَيْهِ [أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ] ^(٢) وَبِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ﴾ كَتَبَ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴿قِيلَ فِيهِ بوجوه﴾:

قِيلَ: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ﴾ مِنْ قَبْلِ الْقُرْآنِ ﴿كَتَبَ مُوسَى﴾ جَاءَ بِهِ جبريلُ إِلَى موسى كَمَا جَاءَ بِهِذَا الْقُرْآنُ ﴿إِمَامًا﴾ يُقْتَدَى بِهِ ﴿وَرَحْمَةً﴾ مِنَ الْعَذَابِ لَهُمْ.

ويَحْتَمِلُ قوله: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ﴾ كَتَبَ مُوسَى التَّوْرَةَ ﴿إِمَامًا﴾ فِيهَا أَنْبَاءُ هَذَا الْقُرْآنِ وَأَنْبَاءُ مُحَمَّدٍ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ كَقَوْلِهِ: ﴿الَّذِي يَحْدُوكُمْ مَكُونًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وقوله: ﴿يَتَرَفُّونَ أَنْبَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦] وَأَمْثَالُهُمَا ^(٣).

ويَحْتَمِلُ قوله: ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾] ^(٤): كَانَ كِتَابُ مُوسَى، وَهُوَ التَّوْرَةُ، إِمَامًا يُقْتَدَى بِهِ، وَكَانَ رَحْمَةً أُولَئِكَ [الَّذِينَ] ^(٥) يَوْمَنُونَ بِهِ. قَالَ: أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَغَيْرِهِمْ.

ويَحْتَمِلُ قوله: ﴿أُولَئِكَ يَوْمَنُونَ بِهِ﴾ أَي مُؤْمِنُو ^(٦) أَهْلِ التَّوْرَةِ؛ يَوْمَنُونَ بِالْقُرْآنِ، وَيُقْتَدُونَ بِهِ كَمَا آمَنُوا بِالتَّوْرَةِ، وَاقْتَدُوا بِهَا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾ أَي بِالْقُرْآنِ ﴿مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ الْأَحْزَابُ: الْفِرَقُ وَالْأَصْنَافُ.

يَحْتَمِلُ ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾ أَي بِالْقُرْآنِ مِنَ الْفِرَقِ، وَيَحْتَمِلُ ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾ أَي بِمُحَمَّدٍ، وَيَحْتَمِلُ الدِّينَ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴿فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ إِنْ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ. وَأَمَّا إِذَا أَسْلَمَ، وَمَاتَ عَلَى الْإِسْلَامِ، فَلَا تَكُونُ النَّارُ مَوْعِدَهُ.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾ يَحْتَمِلُ الْوَجْهَ ^(٧) الثَّلَاثَةُ الَّتِي ^(٨) ذَكَرْنَا مِنَ الدِّينِ وَالْقُرْآنِ وَالنَّبِيِّ [وَيَحْتَمِلُ الْخُطَابَ نَفْسَهُ، وَيَحْتَمِلُ] ^(٩) غَيْرَهُ لِمَا ذَكَرْنَا فِي قَوْلِهِ ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٧]... [وقوله] ^(١٠): ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤]... [وقوله] ^(١١): ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥] وَأَمْثَالُهَا ^(١٢). فَكَذَلِكَ هَذَا. وَقَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ الْعِصْمَةَ لَا تَزِيلُ النَّهْيَ وَالْأَمْرَ، بَلْ تَزِيدُهُمَا، لِأَنَّ بِالْعِصْمَةِ تَظْهَرُ مُوَافَقَةُ الْأَمْرِ وَمُخَالَفَةُ النَّهْيِ وَالْمَحْظُورِ.

(١) ساقطة من م. (٢) في الأصل: الصلاة والسلام، في م: أفضل الصلاة. (٣) في الأصل وم: وأمثاله. (٤) في الأصل: وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ إِمَامًا وَرَحْمَةً، ساقطة من م. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: مؤمني. (٧) ادرج قبل هذه الكلمة في الأصل وم: في قوله. (٨) في الأصل وم: الذي. (٩) في الأصل وم: يحتمل هو نفسه ويحتمل الخطاب. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: وأمثاله.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَمَقْرِنٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ يَحْتَمِلُ الدِّينَ الَّذِي [هو] ^(١) عليه، ويدعوهم إليه، ويحتملُ هو نفسه الحق من ربه ^(٢) ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

الآية ١٨

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ هو ما ذكرنا أن لا أحد أظلم على نفسه ممن أخذ نفسه من معبوده، وشغلها في عبادة من لا يملك نفعاً إن عبده، ولا ضرراً إن ترك عبادته. أو يقول: لا أحد أظلم على نفسه ممن اتقى الطاهرة في عذاب الله ونقمته أبداً بافترائه على الله، وبالله العصمة والقوة. وفي التأويل: لا أحد أظلم على نفسه ممن افترى على الله كذباً معني ^(٣): لا أحد أفسد ظمناً ممن افترى على الله كذباً بعد معرفته أن جميع ماله من الله.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي أولئك الذين تعرض أعمالهم على أنفسهم عند ربهم؛ فإن واقفت أعمالهم ما في شهادة خلقهم أدخلوا الجنة، وإن خالفت أعمالهم شهادة خلقهم أدخلوا النار.

تعرض على أنفسهم عند ربهم لأن الله عالم بما كان منهم من الأعمال والأقوال ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي عند ربهم كقوله ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَقُولُ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٢٧ و ٣٠] أي عند ربهم؛ وتأويله ما ذكرنا: يتعرضون على ربهم لأنفسهم لأنهم إنما يؤمنون، ويؤمنون، ويؤمنون لأنفسهم ولمنفعة أنفسهم؛ فيكون عرضهم لهم؛ أو أن يكون قوله: ﴿أَوَلَيْكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أولئك يتعرضون على [ما] ^(٤) وعدهم ربهم؛ في الدنيا، أو يقول: ﴿أَوَلَيْكَ يُعْرَضُونَ﴾ لأنفسهم ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ من غير غيبة كانت ^(٥) منه، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَّبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ اختلِف فيه: قيل: الأشهاد الرسل والأنبياء، وقال بعضهم: الأشهاد الملائكة، وقال بعضهم: الأشهاد المؤمنون.

فمن قال: هم الأنبياء والمؤمنون فهو كقوله ^(٦): ﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] وكقوله ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] ومن قال: هم الملائكة [فهو] ^(٧) كقوله ﴿مَا يَلْفُظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] وكقوله: ﴿وَلَا عَلَىٰكُمْ حَافِظِينَ﴾ [كراماً كفيين] [الانفطار: ١٠ و ١١] ونحوه. ومعناه، والله أعلم: تعرض أعمالهم وأقوالهم على أنفسهم؛ فإن افترأ بها بعثوا إلى النار، وإن أنكروها ^(٨) يشهد عليهم ما ذكرنا ^(٩) من الشهداء، فإن أنكروا ذلك فعند ذلك تشهد عليهم جوارحهم كقوله: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْسُلُهُمْ﴾ [الأنعام: ٢٤]

ويحتمل أن تكون الملائكة نادوا في ملائكة الخلق قبل أن يدخلوا النار: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم. ويحتمل ما ذكرنا ^(١٠) في شهادة الذين كانوا موكلين بكتابة أعمالهم وأقوالهم، يخبرون بما كتبوا ^(١١) في الكتب.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ اللعنة: قال بعضهم: هي الطرد عن جميع المنافع، والإبعاد عن رحمة الله في الدنيا وفي الآخرة عن ثوابه. وقال بعضهم: اللعنة: هي العذاب.

الآية ١٩

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يَصُدُّونَ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ: [يَحْتَمِلُ أَنْ يُعْرِضُوا] ^(١٢) هم بأنفسهم عن دين الله، ويحتمل صرف الناس عن دين الله. لكنه يتبين ذلك بالمصدر أنه أراد ذا أو ذا؛ يقال في الإعراض بنفسه: صدَّ يصدُّ صدوداً كقوله ﴿يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١]، ويقال في صرف غيرهِ: صدَّ يصدُّ صدّاً.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قال بعضهم: بغي ^(١٣) على دين الله بالجور، وقال بعضهم: ينعون من النساء: الميل عن دين الله إلى دينهم، فذلك هو بغي. المعوج كل سبيل غير سبيل [الله] ^(١٤) فهو عوج وبغي؛ كأنه قال: ينعون سبيلاً غير سبيل الله ﴿يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ في الدنيا.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: ربك. (٣) في الأصل وم: وفي المعنى. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: كان. (٦) من م، في الأصل: لقوله. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: أنكروا. (٩) في الأصل وم: ذكر. (١٠) في الأصل وم: ذكر. (١١) من م، في الأصل: يكتبوا. (١٢) في الأصل: إذا عرضوا، في م: أن عرضوا. (١٣) في الأصل وم: بقاء. (١٤) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٢٠

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ [يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ

أحدهما^(١): أولئك لم يكونوا مُعْجِزِي اللَّهِ فِي الدُّنْيَا مِنْ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ، وَيَنْتَقِمَ مِنْهُمْ، إِنْ شَاءَ.

والثاني: أولئك لم يكونوا سابقِي اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ فِي دَفْعِ الْعَذَابِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ.

وجائز أَنْ تَكُونَ الْآيَةُ فِي الْإِيمَةِ مِنْهُمْ وَالْجَبَابِرَةِ؛ يُخْبِرُ أَنَّهُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ فِي مَا يَرِيدُ مِنْهُمْ مِنَ التَّعْذِيبِ لَهُمْ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ هم حَسِبُوا أَنَّ أُولَئِكَ الَّذِينَ عَبَدُوا دُونَ اللَّهِ يَكُونُونَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ لَانَهُمْ/ ٢٣٨- ١/ يَقُولُونَ: ﴿هَؤُلَاءِ شَفَعْنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، وَيَقُولُونَ^(٢): ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٢٣] كانوا يَظْلَمُونَ فِي شَفَاعَةِ الْأَصْنَامِ الَّتِي يَغْبُدُونَهَا، وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ يَكُونُونَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ، فَأَخْبَرَ أَنَّ لَيْسَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ عَلَى [مَا]^(٣) فَلْتُوا، وَحَسِبُوا، بَلْ يَكُونُونَ لَهُمْ أَعْدَاءُ كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا خِشِيَ النَّاسُ أَنَّ كُفْلًا لَمْ آتَهُ﴾ الْآيَةُ [الاحقاف: ٦] وَأَمثالُهُ كَثِيرٌ كَقَوْلِهِ^(٤): ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْمِزُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥] وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ [مريم: ٨١] أَيْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَا طَلَبُوا، وَكَقَوْلِهِ^(٥): ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِبِعَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢] صَارُوا لَهُمْ أَعْدَاءُ عَلَى مَا ذَكَرَ.

وَيَحْتَمِلُ ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ أَيْ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ مِنْ اتَّخَذُوا أَوْلِيَاءَ كَقَوْلِهِ: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨] وَنَحْوَهُ.

وقوله تعالى: ﴿يُضَاعَفْ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ يَذُلُّ عَلَى أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [هود: ١٩] فِي الْإِيمَةِ الَّذِينَ صَرَفُوا النَّاسَ عَنْ دِينِ اللَّهِ لِأَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ ﴿يُضَاعَفْ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ وَهُوَ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أحدهما: لِمَا ضَلُّوهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ، وَالْآخَرُ لِمَا صَرَفُوا النَّاسَ عَنْ دِينِ اللَّهِ.

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَظِيلُونَ﴾ وَمَا كَانُوا يَبْصُرُونَ قَالَ الْمُعْتَرِضُ: فِيهِ وَجْهَانِ^(٦):

أحدهما: أَنَّهُمْ كَانُوا يَسْمَعُونَ، وَيَبْصُرُونَ، لَكِنْهُمْ قَالُوا: لَا يَسْتَظِيلُونَ السَّمْعَ، وَلَا يَبْصُرُونَ اسْتِثْقَالًا مِنْهُمْ لِذَلِكَ، وَهُوَ كَمَا يَقُولُ [الْقَائِلُ]^(٧): مَا اسْتَطِيعَ أَنْ أَنْظَرَ إِلَى فَلَانٍ، وَلَا أَسْمَعَ كَلَامَهُ، وَهُوَ نَاطِرٌ إِلَيْهِ، سَامِعٌ كَلَامَهُ. فَعَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلِ: كَانُوا يَسْمَعُونَ، وَيَبْصُرُونَ، لَكِنْهُمْ كَانُوا يَسْتَظِيلُونَ السَّمْعَ وَالنَّظَرَ إِلَيْهِمْ [فَنَفَى عَنْهُمْ]^(٨) ذَلِكَ.

والثاني: كَانُوا لَا يَسْتَظِيلُونَ السَّمْعَ؛ أَيْ كَانُوا كَانَهُمْ لَا يَسْتَظِيلُونَ السَّمْعَ، وَلَا النَّظَرَ، وَهُوَ مَا أَخْبَرَ ﴿مَنْ يَكْمُ عَنْكُمْ﴾ [البقرة: ١٨ و ١٧١] كَانُوا يَتَّعَامُونَ [وَيَتَعَامُونَ عَنْ] ^(٩) الْحَقِّ.

وَأَمَّا عِنْدَنَا فَالْجَوَابُ^(١٠) لِلتَّأْوِيلِ: الْأَوَّلِ: أَنَّهُمْ لَا يَسْتَظِيلُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يَبْصُرُونَ. السَّمْعُ سَمْعُ الرَّحْمَةِ، وَالنَّظَرُ إِلَيْهِ بِعَيْنِ الرَّحْمَةِ وَالْقَبُولِ. فَهُمْ مِنْ ذَلِكَ الرَّجَاءِ كَانُوا لَا يَسْتَظِيلُونَ.

والثاني: يَحْتَمِلُ سَمْعَ الْقَلْبِ وَبَصَرَ الْقَلْبِ، وَهُمْ كَانُوا لَا يَسْتَظِيلُونَ السَّمْعَ سَمْعَ الْقَلْبِ وَبَصَرَ الْقَلْبِ كَقَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّمَا لَا تَمَسُّ الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَمَسُّ الْقُلُوبُ أَلَمْ يَكُنْ فِي السُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وهذه الْإِسْطَاعَةُ عِنْدَنَا هِيَ اسْتَطَاعَةُ الْفِعْلِ لَا اسْتَطَاعَةُ الْأَحْوَالِ؛ إِذْ جَوَارِحُهُمْ كَانَتْ سَلِيمَةً صَحِيحَةً. فَدَلَّ أَنَّهَا الْإِسْطَاعَةُ الَّتِي يَكُونُ بِهَا الْفِعْلُ لِمَا ذَكَرْنَا.

وَفِي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ ^(١١) ﴿يُضَاعَفْ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ بِمَا كَانُوا يَسْتَظِيلُونَ السَّمْعَ. ثُمَّ سُئِلَ الْحَسَنُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: هُوَ قَوْلُ اللَّهِ: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غَظٍّ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَظِيلُونَ سَمَاءَ﴾ [الكهف: ١٠١] إِذَا سَجِعُوا الْوَحْيَ تَقَنَّعُوا فِي نِيَابِهِمْ، فَلَمْ يَسْتَظِيلُوا أَحْتِمَالًا ذَلِكَ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: أَيْ (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٣) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَكَقَوْلِهِ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلِهِ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَجْهَيْنِ. (٧) ساقطة من الأصل وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: فَفَاهِم. (٩) فِي م: وَيَتَعَامُونَ، ساقطة من الأصل. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: الْجَوَابِ.

وفي حَرْفِ حَفْصَةٍ: وما كانوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ بالواو. وأما في حَرْفِ ابنِ مسعودٍ فظاهر^(١) تأويله: ﴿يُضَنَّفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ بما كانوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ، فلم يَسْمَعُوا عِنْدًا وإبطالاً.

وأضله: ما كانوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ الْمُكْتَسَبَ والبَصَرَ الْمُكْتَسَبَ عِنْدَنَا. وما ذُكِرَ مِنَ السَّمْعِ والبَصَرِ هو السَّمْعُ الْمُكْتَسَبُ والبَصَرُ الْمُكْتَسَبُ لَأَنَّ سَمْعَ الْآخِرَةِ وَحَيَاتَهَا مُكْتَسَبَانِ^(٢)، وَحَيَاةُ الدُّنْيَا وَالسَّمْعُ وَالْبَصَرُ [فِيهَا]^(٣) مخلوقة.

الآية ٢١ وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ في الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ أَمَا فِي الدُّنْيَا فَعِبَادَتُهُمْ^(٤) غَيْرَ مَغْبُودِهِمُ الَّذِي كَانَ مِنْهُ جَمِيعُ النِّعَمِ وَالْمَنَافِعِ، وَمَا لِحَفْظِهِمْ بِذَلِكَ مِنَ الدُّلِّ وَالصَّغَارِ.

وأما في الْآخِرَةِ فَالْعَذَابُ وَالْهُوَانُ الدَّائِمُ بَدَلًا عَنِ النَّعِيمِ الدَّائِمِ ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ﴾ أَي بَطَلَ عَنْهُمْ ﴿مَا كَانُوا يَقْتَرُونَ﴾ [مِنْ قَوْلِهِمْ]^(٥): ﴿هَؤُلَاءِ شَفَعْتُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] ﴿وقولهم﴾^(٦): ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الآية [الزمر: ٣] وَأَمْثَالِهِمَا^(٧).

الآية ٢٢ وقوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ﴾ قَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ ﴿لَا جَرَمَ﴾ وَاجِبٌ مِنَ الْكَلَامِ؛ أَيِ الْحَقِّ ﴿أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ﴾ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿لَا جَرَمَ﴾ أَي نَعَمْ ﴿أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ﴾

وَقَالَ الْفَرَاءُ: قَوْلُهُ ﴿لَا جَرَمَ﴾ أَي لَا بُدَّ، وَلَكِنَّ النَّاسَ أَكْثَرُوا اسْتِعْمَالَهُ، فَصَارَ فِي مُتَعَارِفِهِمْ حَقًّا، وَلَا بُدَّ [أَنَّ]^(٨) فِي الْحَقِيقَةِ حَقًّا؛ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ لَا بُدَّ فَهُوَ حَقٌّ.

الآية ٢٣ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ تَأْوِيلُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بِاللَّهِ وَبِجَمِيعِ مَا أُنْزِلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وَلَزِمُوا ذَلِكَ حَتَّى صَارُوا إِلَى اللَّهِ أَوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ. وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ لَقَارٌ لِّمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢] أَي مَنْ تَابَ مِنَ الشُّرْكِ، وَآمَنَ بِاللَّهِ ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ أَي ثُمَّ لَزِمَ ذَلِكَ حَتَّى صَارَ إِلَى هَكَذَا. فَعَلَىٰ ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ لَزِمُوا ذَلِكَ كُلَّهُ حَتَّى صَارُوا إِلَى اللَّهِ.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ ﴿ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ سُنَنَ الدِّينِ: أَوْلَئِكَ كَذَا.

وقوله تعالى: ﴿وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: الْإِخْبَاتُ التَّخَشُّعُ وَالتَّوَاضُّعُ أَي تَخَشَّعُوا، وَتَوَاضَّعُوا فَرَقًا مِنْ رَبِّهِمْ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: اخْبَتُوا أَيِ اضْمَأَتُوا عَلَىٰ ذَلِكَ، أَوْلَئِكَ كَذَا.

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه [أَنَّهُ قَالَ: اخْبَتُوا]^(٩): خَافُوا مِنْ رَبِّهِمْ. وَقَالَ الْقُتَيْبِيُّ: اخْبَتُوا أَيِ تَوَاضَّعُوا لِرَبِّهِمْ، وَقَالَ: الْإِخْبَاتُ التَّوَاضُّعُ وَالْوَقَارُ. وَقَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ: الْإِخْبَاتُ التَّوْبَةُ، وَالْمُخْبِتُ النَّائِبُ. وَقَالَ غَيْرُهُمْ: الْإِخْبَاتُ هُوَ التَّوَاضُّعُ وَالْخُشُوعُ فَمَعْنَاهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: أَيِ تَوَاضَّعُوا، وَخَشَّعُوا بِالْإِجَابَةِ إِلَىٰ مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ رَبُّهُمْ، وَتَدَبَّعُوا إِلَيْهِ.

الآية ٢٤ وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ﴾ أَيِ الصَّنَفَيْنِ^(١٠) الَّذِينَ سَبَقَ وَصْفُهُمَا، وَهُوَ قَوْلُهُ ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ [الآية: ١٥] فَهُوَ وَصَفُ الْكَافِرِ. وَالْفَرِيقُ الْآخَرُ قَوْلُهُ: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتْنٍ مِّنْ رَبِّهِ﴾ إِلَىٰ آخِرِ مَا ذَكَرَ [الآية: ١٧] وَفِيهِ وَصَفُ الْمُؤْمِنِ.

أَوْ يَكُونُ وَصَفُ الْكَافِرِ مَا ذَكَرَ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَقْتَرُونَ﴾ [الآيات: ٢١-١٨] هُوَ وَصَفُ أَجِدِ الْفَرِيقَيْنِ، وَهُمُ الْكُفَّارُ.

وَالْفَرِيقُ الْآخَرُ مَا ذَكَرَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الآية: ٢٣].

(١) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: مكتسبة. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم. و. (٧) في الأصل وم. وأمثاله. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: اخبتوا قال. (١٠) من م، في الأصل: صنفين.

هذا، والله أعلم، [وَصَفَتْ] ^(١) الفريقين اللذين ضَرَبَ مَثَلَهُمَا بِالْأَعْمَى والبَصِيرِ والسَّمِيعِ [وَالْأَصَمِّ] ^(٢). ثم وَجَّهَ ضَرْبَ مَثَلِ الْكَافِرِ بِالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ، والمؤمنين بالبصير والسَّمِيعِ.

فهو، والله أعلم، أَنَّ الْكَافِرَ أَعْمَى الْقَلْبِ وَأَصَمُّ السَّمْعِ؛ لَمْ يُبْصِرْ مَا غَابَ عَنْهُ مِنَ الْمَوْعُودِ، وَلَا يَسْمَعُ مَا غَابَ عَنْهُ مِنَ الْمَوْعُودِ، وَإِنَّمَا أَبْصَرَ ظَوَاهِرَ الْأَمْرِ، وَكَذَلِكَ إِنَّمَا سَمِعَ ظَوَاهِرَ مِنَ الْأُمُورِ وَبَادِيَهَا، لَمْ يَنْظُرْ إِلَى الْغَائِبِ [مِنَ الْمَوْعُودِ، وَلَا يَسْمَعُ ذَلِكَ، وَهُوَ لَمْ يُخْلَقْ لِمَعْرِفَةِ ذَلِكَ الظَّاهِرِ خَاصَّةً، وَإِنَّمَا خُلِقَ لِمَا وَعَدَ] ^(٣) فِي الْغَائِبِ.

وَالْمُؤْمِنُ أَبْصَرَ ذَلِكَ الْغَائِبِ] ^(٤) وَسَمِعَ مَا غَابَ مِنَ الْمَوْعُودِ، فيقول: كَمَا يَسْتَوِي ^(٥) عِنْدَكُمْ فِي الظَّاهِرِ الْبَصِيرُ وَالْأَعْمَى وَالسَّمِيعُ وَالْأَصَمُّ، لَمْ يُسَوِّ ^(٦) مَنْ كَانَ عَمِيَ الْقَلْبَ بِمَنْ ^(٧) كَانَ بَصِيرَ الْقَلْبِ بِذَلِكَ، وَلَمْ يُسَوِّ ^(٨) أَيْضاً مَنْ يُوَصِّمُ الْقَلْبَ بِمَنْ كَانَ سَمِيعاً بِذَلِكَ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ^(٩) أَنَّهُمَا لَمْ يَسْتَوِيا ^(١٠).

أَوْ يَقُولُ: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أَيِ أَفَلَا تَتَعَطَّوْنَ بِمَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ [وَتَنْتَهَوْنَ عَمَّا تُنْهَوْنَ] ^(١١)؟ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ وَجُوهٌ مِنَ الْأَسْئَلَةِ:

أَخَذَهَا: أَنْ يُقَالَ: كَيْفَ اخْتَجَّ عَلَيْهِمْ، [وَهُمْ عَلَى] ^(١٢) مَا ذَكَرَ أَنَّهُمْ عُثْيَانٌ وَصُمٌّ أَوْ كَالْعُمْيَانِ وَالصُّمِّ، وَلَا يُكَلِّفُ الْأَعْمَى الْإِبْصَارَ وَالنَّظَرَ وَلَا الْأَصَمُّ السَّمَاعَ؟

وَالثَّانِي: [كَيْفَ] ^(١٣) يَقُولُونَ إِنَّا بُصْرَاءُ وَسُمَعَاءُ، لَيْسَ بِنَا صُمٌّ وَلَا عَمَى، بَلْ أَنْتُمْ الْعُمْيَانُ وَالصُّمُّ؟ ٢٣٨ - ب/

وَالثَّلَاثُ: كَيْفَ ذَكَرَ الْمَثَلَ لَهُمْ، وَهُمْ لَا يَتَفَكَّرُونَ، وَلَا يَنْظُرُونَ فِي الْمَثَلِ، وَلَا يَلْتَفِتُونَ إِلَيْهِ؟

أَمَّا جَوَابُ الْأَوَّلِ بِأَنَّهُ اخْتَجَّ عَلَيْهِمْ لِأَنَّهُمْ تَرَكُوا احْتِسَابَ بَصَرِ الْآخِرَةِ ^(١٤) وَسَمَاعِ سَمْعِ الْآخِرَةِ، فَتَنَّى عَنْهُمْ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْحَيَاةَ [فَهُوَ] ^(١٥) لِأَنَّهُ يُبْصِرُ الْمَخْلُوقَ، فَيَكْتَسِبُ بَصَرًا فِي الدِّينِ وَسَمْعًا فِي أَمْرِ الدِّينِ وَحَيَاةَ الدِّينِ، [فَيُبْصِرُ بِذَلِكَ] ^(١٦) مُكْتَسِبًا الْحَيَاةَ الدَّائِمَةَ وَالْبَصَرَ الدَّائِمَ وَالسَّمْعَ الدَّائِمَ، فَيَكُونُونَ فِي الْآخِرَةِ بُصْرَاءَ سَمَعَاءَ أَحْيَاءَ كَقَوْلِهِ: ﴿أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]. نَفَى مِنْهُمْ هَذِهِ الْحَوَاسَّ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَنْتَفِعُوا بِهَا لِأَنَّ هَذِهِ الْحَوَاسَّ إِنَّمَا أُنْشِئَتْ لَهُمْ، وَخُلِقَتْ، لِيَنْتَفِعُوا بِهَا، وَهُوَ الْمَقْصُودُ بِإِنْشَائِهَا. فَإِذَا تَرَكُوا الْإِنْتِفَاعَ بِهَا [صَارَتْ] ^(١٧) كَأَنَّهَا لَيْسَتْ لَهُمْ.

وَأَمَّا جَوَابُ [الثاني، وهو] ^(١٨) مَا قَالُوا: إِنَّا بُصْرَاءُ وَسُمَعَاءُ، وَأَنْتُمْ الْعُمْيَانُ وَالصُّمُّ، [ففيه وجهان]:

أَحَدُهُمَا: يُقَالُ] ^(١٩) لَهُمْ: إِنَّ أَهْلَ الْإِسْلَامِ إِذَا سَمِعُوا ذَلِكَ فَقَدْ ^(٢٠) اشْتَغَلُوا بِالتَّفَكُّرِ فِي مَا قَرَعَ أَسْمَاعَهُمْ مِنَ الْآيَاتِ وَالتَّنْظَرِ فِيهَا، وَأَنْتُمْ [لا، بَلْ تَعَامَيْتُمْ عَنْهَا، وَتَصَامَمْتُمْ. وَدَلَّ] ^(٢١) تَفَكُّيرُهُمْ وَنَظَرُهُمْ فِيهَا عَلَى أَنَّهُمْ بُصْرَاءُ وَسُمَعَاءُ وَأَحْيَاءُ، وَأَنْتُمْ يَا أَهْلَ الْكُفْرِ الْعُمْيَانُ وَالصُّمُّ وَالْأُمُوتُ.

وَالثَّانِي: أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ إِنَّمَا نَزَلَتْ فِي مُحَاجَّةِ أَهْلِ مَكَّةَ، وَهُمْ قَدْ عَلِمُوا أَنَّ آبَاءَهُمْ لَوْ يَكُونُوا حُكَمَاءَ وَلَا [عُلَمَاءَ، وَلَمْ] ^(٢٢) يَكُونُوا مَا ذَكَرَ بُصْرَاءَ وَلَا أَحْيَاءَ وَلَا سُمَعَاءَ، فَصَارُوا صُغًا عُثْيَانًا أُمُوتًا.

وَلِأَنَّ أَحَدَ الْفَرِيقَيْنِ، لَا مَحَالَةَ مَا ذَكَرَ، نَحْنُ أَوْ هُمْ، ثُمَّ قَدْ اسْتَوُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، وَفِي الْعَقْلِ وَالْحِكْمَةِ التَّفَرِيقُ بَيْنَهُمَا، دَلَّ ^(٢٣) أَنَّهُمْ بِمَا ذَكَرَ أَوْلَى.

وَأَمَّا جَوَابُ ذِكْرِ الْمَثَلِ لَهُمْ عَلَى عِلْمِ مَنْهُمْ أَنَّهُمْ لَا يَقْبَلُونَ الْمَثَلَ، وَلَا يَنْظُرُونَ [فيه، فهو لأنه] ^(٢٤) ذِكْرُ لَأَهْلِ الْإِسْلَامِ وَلِأَنَّ ذِكْرَ الْمَثَلِ أَنَّهُمْ رُبَّمَا يَبْعَثُهُمْ عَلَى النَّظَرِ فِيهِ وَالتَّفَكُّرِ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في م: وعدوا. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: يسبق. (٦) في الأصل وم: يستو. (٧) في الأصل وم: بما. (٨) في الأصل وم: يستو. (٩) في الأصل وم: يستويان. (١٠) في الأصل وم: وتنتهون عما تنتهون. (١١) في الأصل وم: وهو. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) من م، في الأصل: الآخر. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل: مكتسب، في م: فيصير بذلك مكتسب. (١٦) ساقطة من الأصل وم. (١٧) ساقطة من الأصل وم. (١٨) في الأصل وم: فيقال. (١٩) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٢٠) في الأصل: الإبل تعاموا عنها وتصاموا فذل، في م: لا بل تعاموا عنها وتصاموا فذل. (٢١) في الأصل وم: عالماً فلم. (٢٢) في الأصل وم: فذل. (٢٣) في الأصل وم: بأنه.

الآية ٢٥

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ أَخْبَرَ أَنَّهُ أَرْسَلَهُ إِلَىٰ قَوْمِهِ، وَلَمْ يُفْهَمْ مِنْهُ الْإِرْسَالُ مِنْ مَكَانٍ إِلَىٰ مَكَانٍ. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] وَلَمْ يَكُنْ مَجِيئُهُ مِنْ مَكَانٍ. فَهَذَا يَدُلُّ أَنَّهُ لَا يُفْهَمْ مِنْ ذِكْرِ الْمَجِيءِ الْإِنْتِقَالَ مِنْ مَكَانٍ إِلَىٰ مَكَانٍ، وَكَذَلِكَ الْإِرْسَالُ.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أَي نَذِيرٌ لِمَنْ عَصَى بِالنَّارِ، وَعِقَابُهُ بَيْنَ الْإِنذَارِ.

الآية ٢٦

وقوله تعالى: ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أَي لَا تَجْعَلُوا عِبَادَتَكُمْ إِلَّا لِمُعْبُودٍ، هُوَ مُعْبُودٌ بِشَهَادَةِ خَلْقَتِكُمْ [التي] ^(١) تَشْهَدُ عَلَىٰ أَنَّهُ هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ لَا مَنْ تَعْبُدُونَ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ تَعَالَىٰ أَي وَحْدُوا اللَّهَ، وَلَا تُضَرِّفُوا الْأُلُوهِيَّةَ إِلَىٰ غَيْرِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ أَضَافَ الْإِلَهَ إِلَى الْيَوْمِ، وَالْيَوْمُ لَيْسَ بِمَوْظِعٍ، لَكِنَّهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، [أَضَافَهُ إِلَيْهِ لِمَا فِيهِ مَا يُؤْلِمُ كَقَوْلِهِ: ^(٢) ﴿وَحَصَلَ أَلِيلٌ سَكَنًا﴾ [الأنعام: ٩٦] وَاللَّيْلُ لَا يَسْكُنُ، وَلَا يُوصَفُ [بِالسُّكُونِ] ^(٣) لَكِنَّهُ يَسْكُنُ فِيهِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ ^(٤): ﴿وَالنَّهَارُ مُبْعِرٌ﴾ [يونس: ٦٧] وَالنَّهَارُ لَا يُبْعِرُ، لَكِنَّهُ يُبْعِرُ فِيهِ. فَعَلَىٰ ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ لِمَا فِيهِ يَكُونُ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ أَيِ الْخَوْفِ فِي غَيْرِهِ لَا يَكُونُ فِي الْحَقِيقَةِ خَوْفًا، وَكَذَلِكَ الرَّجَاءُ فِي غَيْرِهِ لَا يَكُونُ فِي الْحَقِيقَةِ رَجَاءً، وَفِي نَفْسِهِ يَكُونُ فِي الْحَقِيقَةِ خَوْفًا وَرَجَاءً لِمَا يَلْحَقُهُ ضَرَرٌ فِي نَفْسِهِ إِنْ [حَلَّ بِهِ ذَلِكَ لَا بِغَيْرِهِ، وَلَا] ^(٥) يَلْحَقُهُ نَفْعٌ، فَيَكُونُ الْخَوْفُ فِي نَفْسِهِ حَقِيقَةً خَوْفٍ، وَالرَّجَاءُ حَقِيقَةً رَجَاءً.

وَأَمَّا فِي غَيْرِهِ [فَلَا] ^(٦) لِمَا لَا يَلْحَقُهُ ضَرَرٌ، وَإِنْ حَلَّ ذَلِكَ [بِغَيْرِهِ فَلَا] ^(٧) يَنَالُ مِنَ النَّفْعِ فِي الرَّجَاءِ إِنْ نَالَ ذَلِكَ الْغَيْرُ.

لَكِنَّهُ يُخْرِجُ عَلَىٰ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: عَلَى الْعِلْمِ أَيِ إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّهُ يَنْزِلُ بِكُمْ الْعَذَابُ نَحْوُ قَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْتِهِمَا﴾ [النساء: ٣٥] أَيِ عِلْمَتُمْ وَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ إِلَّا يُنَبِّئُكُمْ حُذُودَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٢٩] أَيِ فَإِنْ عِلْمَتُمْ أَنْ يُفْصِحَا حُدُودَ اللَّهِ.

وَالثَّانِي: يَخَافُ عَلَيْكُمْ إِشْفَاقًا مِنْهُ لِأَنَّ الْخَلْقَ جُعِلُوا عَلَىٰ أَنْ يَتَأَلَّمُوا [بَعْضُ] ^(٨) بِمَا يَجِلُّ بِغَيْرِهِ حَتَّى لَا يَكُونَ فِي وَسْعٍ بَعْضُ أَنْ يَزُوا ذَلِكَ فِي غَيْرِهِمْ ^(٩).

عَلَى هَذَيْنِ الرَّجْعَيْنِ يُخْرِجُ الْخَوْفُ عَلَى الْغَيْرِ ^(١٠). وَفِي الْخَوْفِ رَجَاءً، وَفِي الرَّجَاءِ خَوْفٌ لِأَنَّ الْخَوْفَ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ رَجَاءٌ فَهُوَ إِيَّاسٌ، وَقَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿لَا يَأْنِسُ مِنْ رَدِّهِ إِلَهُ الْقَوْمِ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] وَالرَّجَاءُ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ خَوْفٌ فَهُوَ ائْتِنٌ، وَقَالَ اللَّهُ ﷻ: ^(١١): ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

الآية ٢٧

وقوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ قِيلَ: أَشْرَافُ قَوْمِهِ وَأَيْمَنُهُمْ ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ وَكَذَلِكَ قَالَ عَامَّةُ الْقَوْمِ لِرُسُلِهِمُ الَّذِينَ بُعِثُوا إِلَيْهِمْ ﴿مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ [يس: ١٥] كَانَ هَذَا اخْتِجَاجَهُمْ فِي رَدِّ الرِّسَالَةِ، يَحْتَجُّونَ عَلَى الرُّسُلِ، فَيَقُولُونَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: إِنَّ الرُّسُلَ فِي الشَّاهِدِ إِنَّمَا يَجِئُونَ مِنْ عِنْدِ الْمُرْسَلِ، وَأَنْتُمْ نَشَأْتُمْ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِنَا، لَمْ تَأْتُونَا مِنْ أَحَدٍ فِي الظَّاهِرِ، وَالرُّسُولُ هُوَ الَّذِي يَأْتِي مِنْ عِنْدِ غَيْرٍ، وَيَكُونُ لِلرُّسُلِ خُصُوصِيَّةٌ عِنْدَ الْمُرْسَلِ، وَلَا نَرَىٰ لَكَ خُصُوصِيَّةً لَا فِي الْخَلْقَةِ وَلَا فِي الْقُدْرَةِ وَالْعَمَالِ وَغَيْرِهِ. فَكَيْفَ بُعِثْتُمْ إِلَيْنَا رُسُلًا دُونَ أَنْ تُبَيِّنَ نَحْنُ إِلَيْكُمْ رُسُلًا، إِذْ أَنْتُمْ وَنَحْنُ فِي الْخَلْقَةِ سَوَاءٌ، وَفِي الْأُمُورِ الظَّاهِرَةِ سَوَاءٌ؟ أَوْ نَحْوَهُ ^(١٢) مِنَ الْكَلَامِ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أضاف إليه لما فيه يؤلم وكقوله. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: قال. (٥) في الأصل وم: جعل به ذلك لغيره. و. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: لغيره لا. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: غيره. (١٠) في الأصل وم: غيره. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) من م، في الأصل: نحو.

واخْتَجُوا عَلَى رُسُلِهِمْ فِي رَدِّ الرِّسَالَةِ، وَكَذَلِكَ كَانَتْ ^(١) عَادَةُ الْكَافِرَةِ؛ كَانُوا يَقُولُونَ: إِذَا لَرِمْتَهُمُ الْحُجَّةُ، وَأَقِمْتَ ^(٢) عَلَيْهِمْ، نَسَبُوهَا إِلَى السَّحَرِ، وَنَسَبُوا الرُّسُلَ أَنَّهُمْ بَشَرٌ مِثْلُهُمْ.

فجواب هذا كله ما ذكر: ﴿إِنْ تَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١١] وما قال لهم نوح: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَنْتَوٍ مِنْ رَبِّي وَآلَتْنِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِي﴾ [هود: ٢٨].

يمثل هذا يختج عليهم، ويقال أيضاً: إنكم لا تتكبرون فضل الله وتخصيص بعض على بعض يفضل الدين والرسالة؟ وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ آلِ الْذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ كَذِبُوا فِيكَ﴾ اختجوا أيضاً في ردِّ الرسالة؛ يقولون: إن الأراذل هم أتباع لكل من دعاهم، وأهل طاعة لكل متبوع، فليس في اتباع الأراذل إياك والضعفاء دلالة ثبوت رسالتك؛ إذ هم يتبعون بلا دليل ولا حجة، وهم فروع وأتباع لغير، ولم يتبعك أحد من الأصول.

لكن يقال: إن هؤلاء الأراذل لما اتبعوا الرسل، ولم يتبعوا الأئمة والرؤساء الذين معهم الأموال والدنيا، ولم يكن في أيدي الرسل ثم ذلك، ثم تركوا اتباع أولئك، وفي أيديهم ما يدعونه إليه، واتباعوا الرسل دل أنهم اتبعوا الرسل [بالحجج والبراهين] ^(٣) التي أقاموها عليهم أو نحوها ^(٤).

والأراذل قيل: هم السفلة والضعفاء، وقال القتيبي: أراذلنا شراؤنا.

[وقوله تعالى] ^(٥): ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ قال بعضهم: ظاهر الرأي، من قولك: بدا لي ما كان خفياً، وقال بعضهم: ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ من قولك: بدا لي ما كان خفياً، وقال بعضهم: خفيف الرأي، لا يعرفون حقائق الأمور، وإنما يعرفون ظواهرها كأنهم يقولون: إنما اتبعك من كان خفيف الرأي وباديه، لم يتبعك ^(٦) من يعرف حقائق الأمور والأصول.

وقد قرئ ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ بالهمز ^(٧)، وقد قرئ بغير همز. ومن قرأ بالهمز فهو من الابتداء أي في أول الرأي وابتدائه، لا ينظر في عواقب الأمور. ومن قرأ بغير همز فهو من الظهور أي ظاهر الرأي ^(٨) على تفكير ونظر فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْكُمُ الْآيَةَ﴾ الآية؛ يحتمل هذا أي فضل ^(٩) في الخلقة أو في ملك أو مال ولا في شيء. ولكن جواب هذا ما سبق.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ تَطْلُكُمُ كَذِبَاتٌ﴾ هكذا كانت عادة الكفرة يردون دلالات الرسل والحجج بالظن، لم يردوا بحقيقة ظهرت.

الآية ٢٨

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَتْلُو آيَاتِهِمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَنْتَوٍ مِنْ رَبِّي أَوْ عَلَىٰ حُجَّةٍ وَبِرَهَانٍ فِي مَا آتَانِي مِنْ رَحْمَتِهِ. وَالرَّحْمَةُ تَحْتَمِلُ الثَّبُوهَ لَأَنَّهُمْ كَانُوا يَنْكُرُونَ/ ٢٣٩ - أ/ رسالته لما أنه بشرٌ مِثْلُهُمْ، فكيف خصَّ هو بها دونهم، وهو مِثْلُهُمْ؟

فيقول: ﴿وَأَلَتْنِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِي﴾ أي الثبوة. وآتاني أيضاً على ذلك بيته وحجة. وتحتمل الرحمة الدين الذي كان يدعونه إليه، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿عُمِّيَّتٌ عَلَيْكُمْ﴾ قرئ بالتخفيف والتشديد؛ [فمن قرأ بالتخفيف فهو يعني] ^(١٠) أي لست أو التبت عليك حين ^(١١) أغرضتم عنه؛ ومن قرأ بالتشديد ﴿عُمِّيَّتٌ عَلَيْكُمْ﴾ يرجع إلى الاتباع والسفلة أي عميت عليهم: القادة والرؤساء ^(١٢) ولست، وعميت بالتخفيف أي التبت، وعمي، على القادة والرؤساء.

(١) في الأصل وم: كان. (٢) في الأصل وم: أقيم. (٣) في الأصل وم: بالهجة والبرهان. (٤) في الأصل وم: نحوه. (٥) ساقطة من الأصل: وم. (٦) في الأصل وم: يتبعوك. (٧) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٣/ ١٠٦. (٨) في الأصل وم: بالرأي. (٩) في الأصل وم: فضلاً. (١٠) ساقطة من الأصل وم، انظر معجم القراءات القرآنية ج ٣/ ١٠٧. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) أدرج بعدها في الأصل وم: منهم.

وقوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ كُفُورًا﴾ أي أنوجهها عليكم؟ وهي التي ذكر أنه أتاه^(١) البينة التي ذكر أيضاً والدين الذي كان يدعوهم إليه، أي لا نوجهها عليكم، ولا نلزمها ﴿وَأَنْتُمْ كُفُورُونَ﴾ بلا حجة ولا برهان ﴿وَأَنْتُمْ كُفُورُونَ﴾ أي لا نلزمها لكم بلا حجة شتم، أو ابتهم، ولكن بحجة. وفيه أن الدين لا يقبل بالإكراه.

الآية ٢٩ وقوله تعالى: ﴿وَنَقُورَ لَا أَتْلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَكُمْ﴾ [يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أحدهما: ^(٢) على تبليغ الرسالة إليكم أو على إقامة الحجة على ما [أَبْلَغُكُمْ مِنْ] ^(٣) الرسالة أو على الدين الذي ادعوكم^(٤) إليه؛ أي لا أسألكم على ذلك أجراً. فلماذا تفرضون عماً ادعوكم إليه، وأقيم عليكم ليكون لكم الإختجاج أو الإغتيار؟ وكذلك يخرج قوله: ﴿أَمْ تَنْتَهِمُ آمَرَ فَمَنْ مَقَرُّكُمْ مُنْقَلُونَ﴾ [الطور: ٤٠ والقلم: ٤٦] أي لا نسألكم^(٥) أجراً على ما نبلغه إليكم، وتدعوكم إليه، فَيَمْنَعُكُمْ ثَقُلَ ذَلِكَ الْعَرْمُ إِبَابَكُمْ إِيَّاهُ.

فَعَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلِ؛ ذَكَرَ هَذَا لِأَنَّهُ مَا يَلْحَقُ الْإِنْسَانَ مِنَ الضَّرَرِ إِنَّمَا يَمْنَعُهُ مِنَ الْإِذْعَانِ لِلْحَقِّ^(٦) وَالْإِقْبَالِ إِلَيْهِ وَالْقِيَامِ بِوَفَائِهِ، أَوْ يَمْنَعُ ذَلِكَ بِمَا لَا يَتَيَّنُّ لَهُ الْحَقُّ لئلا يكون لهم الإختجاج والإغتيار عند الله، وإن لم يكن لهم حجة كقوله ﴿إِنَّمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] ليس على أنه إذا سألهم على ذلك أجراً يكون لهم عذر في رد ذلك وترك الإجابة؛ إذ لله أن يَكْلِفَهُمُ الإجابة والطاعة له.

والثاني بقوله: ﴿لَا أَتْلُكُمْ﴾ على ما ادعوكم إليه، وأبلغه إليكم ما لا مع حاجتي وقلة مالي، فَيَقَعَ عِنْدَكُمْ أَنِّي ادعوكم إليه رغبة في ما في أيديكم من الأموال أو لِمَنْفَعَةٍ نَفْسِي، بل إنما ادعوكم إليه لِمَنْفَعَةٍ أَنْفُسِكُمْ.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ أي ما أجري إلا على الله في ذلك ليس عليكم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فيه دلالة: كأنهم كانوا سألوا رسولهم أن يتخذ لهم مجلساً على جدوة، ويُفَرِّدَ لَهُمْ ذَلِكَ دُونَ الْأَرَادِلِ وَالضُّعَفَاءِ، وهو كقوله: ﴿وَلَا تَقْرُرُ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعُدُوَّةِ وَالْمِيثَةِ﴾ [الأنعام: ٥٢].

وقال أهل التأويل: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي ما أنا بالذي لا أقبل الإيمان من الأراذل والضعفاء مثلكم^(٧). لِقَوْلِهِمُ الَّذِي^(٨) قالوا: ﴿وَمَا زِلْتَ أَتَيْتَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاؤُنَا بِأَدْوَى الرَّأْيِ﴾ [هود: ٢٧] لأنهم يقولون: اتبعك الأراذل ظاهراً، وأما في الباطن فليسوا على ذلك. ولذلك قال: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَوِجُ آيَاتِهِمْ اللَّهُ خَيْرٌ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [هود: ٣١] يعني ما في قلوب السفلة، فيقول: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ظاهراً: الله أعلم بما في قلوبهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ﴾ [يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ.

أحدهما: أي ملأوا ربهم، فيشكون مني إليه في رد إيمانهم، ويخاصمونني في ذلك، ويطالبونني في طرد إياهم.

والثاني: ﴿إِنَّهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ﴾ ظاهراً كان إيمانهم أو باطناً؛ أي في أي حال هم ملأوا ربهم، فيجزئهم بما هم عليه كقوله ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ [الشعراء: ١١٣].

وقوله تعالى: ﴿وَلَكَيْفَ أَنْزَلُوا قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾ [يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ] ما ادعوكم إليه، أو ﴿يَجْهَلُونَ﴾ في قولكم: إنهم آمنوا، وأتبعوا في ظاهر الحال، وأما في السر فلا، أو ﴿يَجْهَلُونَ﴾ ما يلحقني في طردكم.

الآية ٣٠ وقوله تعالى: ﴿وَنَقُورَ مَنْ يَصُورُنِي مِنَ اللَّهِ﴾ أي من يمنعني من عذاب الله إن أنا طردتهم على ما تدعونني إليه، أو من يمنعني من عذاب الله إن لم أقبل منهم الإيمان ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أنه لا يسمع^(٩) لي بما^(١٠) تدعونني إليه من طرد هؤلاء أو رد إيمانهم، أو ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فتؤمنوا^(١١).

(١) في الأصل وم: اتاها. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: ادعي من. (٤) في الأصل وم: يدعوكم. (٥) في الأصل وم: تسألهم. (٦) في الأصل وم: بالحق. (٧) في الأصل وم: عندكم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: يسمع. (١٠) في الأصل وم: ما. (١١) في الأصل وم: فتؤمنون.

وما روي في حرف أبي بن كعب: أنزلهمكموها شطر أنفسنا؛ فمنا: أنزلهمكموها نحو أنفسنا، وأنتم قوم معايدون. وفي حرف ابن عباس: أنزلهمكموها من شطر أنفسنا؛ أي من تلقاء أنفسنا؛ أي لا تقدر أن تزلهمكم ذلك من تلقاء أنفسنا، وأنتم كارهون لذلك.

الآية ٣١ وقوله تعالى: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ يُخْرِجُ عَلَى وجوه.

أحدها: يقول: ليس عندي خزائن الله والسعة، فأبذل لكم لتؤمنوا رغبة في المال والسعة. والثاني: يقول: ليس عندي سعة، فيقع عندكم أنني أَدْعُوكم إلى ما أَدْعُوكم إليه أفتعلاً لا رغبة في المال على ما يفعل المفتعلون للرغبة في المال، ولكن لتعلموا أنني مكلف في ذلك. والثالث: يختل ما ذكرنا من أسئلة كانت منهم^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ هذا القول منه لهم يختل الوجهين: أحدهما: أنه قال ذلك على إثر أمور، [والثاني: أنه قال ذلك على إثر]^(٢) أسئلة كانت منهم من نحو قولهم: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كُتُبًا أَوْ جَاءَهُمْ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ [الآية: ١٢] وقولهم لرسول الله ﷺ: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تَنْجُرَنَا مِنَ الْأَرْضِ بِنُوحٍ﴾ ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ﴾ [الإسراء: ٩٠ و ٩١]. وقولهم: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ ذُرُوبٍ﴾ [الإسراء: ٩٣] وأمثال ما كان منهم، فيقول لهم: ليس عندي، ويدي، إنما ذلك عند الله ويديه.

[وقوله تعالى]^(٣): ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ يختل أن يكونوا^(٤) سألوه أن يخبرهم عن أمور تستقبلهم قبل أن تستقبلهم، إن كانت شراً يُعَدُّوا^(٥) له في دفعه، وإن كانت منافع يستقبلوها^(٦)، ويتأهبوا لها. فيقول لهم: ذا غيب، فانا لا أعلم الغيب، إنما أعلم في ذلك إلى الله.

[وقوله تعالى]^(٧): ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ أعلم أخبار السماء والأمور التي فيها ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ [الكهف: ١١٠] وفصلت: ٦].

وعن ابن عباس رضي الله عنه^(٨) قال: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ أي مفاتيح الله في الرزق. فهذا كانهم سألوه السعة ليتبعوه^(٩)، فيقول: ليس عندي ذلك.

ويختل أن يكون قال لهم الرسول هذا ليدفع الشبه عنهم؛ وذلك أن من الكفار من اتخذ الرسول إلهاً، فعبدوه بعد ما عاينوا أنه من البشر، ومنهم من قال: إنه ابن الله، ومنهم من قال: إنه ملك، وكانوا يعبدون الملائكة، [وكان يخبرهم]^(١٠) عن أشياء غابت عنهم، وظنوا أنه إنما علم ذلك لأنه إله، فيقول لهم ذلك ليدفع عنهم تلك الشبه، ويتبرأ من ذلك.

ولذلك قال عيسى: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ مَآئِنِيَ الْكِتَابِ وَحَمِلْتُ ثِقْلًا﴾ [مريم: ٣٠ و ٣١] هو ﷺ كان يعلم في نفسه أنه عبد الله، ولكن يقول لئلا ينسبوه إلى الألوهية والرؤوبية على ما نسبوا إليه، فأقر بالعبودية له، والله أعلم بذلك.

وقال بعض أهل التأويل: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ أي مفاتيح الله بأنه يهدي السفلة دونكم ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ أي لا أقول: إن عندي غيب ذلك. إن الله يهديهم، وهم مؤمنون في السر. وذلك كقولهم: ﴿وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَمْشَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١٢] وقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ من الصدق ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ أي إنما أنا بشر كقولهم^(١١): ﴿مَا زِلْنَاكَ إِلَّا بَشَرًا﴾ [الآية: ٢٧] إلى آخر الآية.

ثم قال: ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَوِجَ آفُسُهُمْ﴾ قيل: الذين حقرتهم، يعني السفلة والأتباع.

(١) ذلك في تفسير الآية/ ٢٤. (٢) في الأصل: وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل: وم. يكون. (٥) في الأصل: وم. كان شراً فيعدوا. (٦) في الأصل: وم. فيستقبلوها. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل: وم. فيتبعونه. (١٠) في الأصل: وم. وكانوا يخبرونهم. (١١) في الأصل: وم. لقولهم.

وقال ابن عباس: الذين لم تأخذهم ﴿أَعْيُنَكُمْ أَنْ يُوَفِّيَهُمُ اللَّهُ حَبْرًا﴾ يعني إيماناً ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ / ٢٣٩ - ب / من الصديق ﴿إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ لهم إن لم أقبل منهم الإيمان، أو طردتهم، والله أعلم.

الآية ٣٢

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا بَشَرٌ مِثْلُنا فَجَدَلْنَا فَكْثَرْنَا حِجْلًا﴾ قالوا ذلك لأنه قد كان طال عمره، وهو بين أظهرهم، ويدعوهم إلى الإيمان، فأكثر ججاجه ومجادلته إياهم، فقالوا: ﴿فَأَكْثَرْتَ حِجْلًا فَأَيْنَا بِمَا تَدْعُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وكان يعدهم العذاب إن لم يجيبوه كقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْيُسْرِ﴾ [الآية: ٢٦] وما كان وعد لهم في غير آية من القرآن إن لم يجيبوه، فقالوا: ﴿فَأَيْنَا بِمَا تَدْعُنَا﴾ من العذاب.

الآية ٣٣

فقال: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُعْجِزٍ﴾ أي ليس لي إتيان ذلك، إنما ذلك إلى الله؛ إن شاء عجل، وإن شاء أخر إلى ما بعد الموت؛ وهو كقول رسول الله لقوميه: ﴿لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعِجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ٥٨].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُعْجِزٍ﴾ أي لا تعجزون الله عن تغذيبكم، فتفتنون عنه. وقيل: وما أنتم بسابقي الله بأعمالكم الخبيثة حتى [لا] ^(١) يجزيكم بها، وهو واحد، والله أعلم.

الآية ٣٤

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَنْفَعُكَ نَصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ تأويله، والله أعلم، لا ينفعكم دعائي إلى ما به نجاتكم ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ أي لا ينفعكم نصحي لكم إن كان الله [يريد] ^(٢) أن يغويكم في نار جهنم. ويكون ^(٣) القوي العذاب كقوله: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا﴾ [مريم: ٥٩] أي عذاب جهنم ونحوه من الكلام.

وأما عندنا فهو على ما أخبر: إن كان الله يريد إغواء قوم أبداً فهم في الغواية. وأصله أن الله [إن] ^(٤) أراد غواية من في علمه أنه يختار الغواية والضلال اختار عداوته. ولا يجوز أن يريد هو هداية من يعلم أنه يختار عداوته لأن ذلك يكون من الضنف أن يختار المرأة ولاية من يختار عداوته. فدل أنه لم يريد الهداية لمن علم منه اختيار الغواية والضلال.

ثم إضافة الإغواء والإزاعة والإضلال إلى الله تخرج على وجهين:

أحدهما: أنه ينشئ ذلك الفعل منهم عياً وزيغاً وضلالاً لأن فعلهم فعل غواية وزيغ.

والثاني: أنه خذلهم، ولم يوفقهم، ولم يرشدهم، ولم يغصمهم، ولا سددهم. فمن ذلك الوجه ليس فعله فعل الذم عليه حتى يخرج بالإضافة إلى الخلق ومن الإضافة إلى الخلق يكون على الذم لأن فعلهم نفس فعل الغواية والضلال، فاستوجبوا الذم عليه بذلك.

والإغواء من الخلق هو الدعاء إلى ذلك أو الأمر به، فهو مذموم، يذمون على ذلك، وليس على [الله] ^(٥) ذلك، وليس من الله من هذا الوجه. ولكن على الوجهين اللذين ذكرناهما.

وفي قوله: ﴿وَلَا يَنْفَعُكَ نَصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ دلالة تعليق الشرط على الشرط.

الآية ٣٥

وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ أي بل يقولون ﴿أَفْتَرَيْنَاهُ﴾ من عند نفسه ﴿قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُمْ فَمَلَكٌ بِرِئَاسَةٍ﴾ ^(٦) ^(٧) ^(٨) ^(٩) ^(١٠) ^(١١) ^(١٢) ^(١٣) ^(١٤) ^(١٥) ^(١٦) ^(١٧) ^(١٨) ^(١٩) ^(٢٠) ^(٢١) ^(٢٢) ^(٢٣) ^(٢٤) ^(٢٥) ^(٢٦) ^(٢٧) ^(٢٨) ^(٢٩) ^(٣٠) ^(٣١) ^(٣٢) ^(٣٣) ^(٣٤) ^(٣٥) ^(٣٦) ^(٣٧) ^(٣٨) ^(٣٩) ^(٤٠) ^(٤١) ^(٤٢) ^(٤٣) ^(٤٤) ^(٤٥) ^(٤٦) ^(٤٧) ^(٤٨) ^(٤٩) ^(٥٠) ^(٥١) ^(٥٢) ^(٥٣) ^(٥٤) ^(٥٥) ^(٥٦) ^(٥٧) ^(٥٨) ^(٥٩) ^(٦٠) ^(٦١) ^(٦٢) ^(٦٣) ^(٦٤) ^(٦٥) ^(٦٦) ^(٦٧) ^(٦٨) ^(٦٩) ^(٧٠) ^(٧١) ^(٧٢) ^(٧٣) ^(٧٤) ^(٧٥) ^(٧٦) ^(٧٧) ^(٧٨) ^(٧٩) ^(٨٠) ^(٨١) ^(٨٢) ^(٨٣) ^(٨٤) ^(٨٥) ^(٨٦) ^(٨٧) ^(٨٨) ^(٨٩) ^(٩٠) ^(٩١) ^(٩٢) ^(٩٣) ^(٩٤) ^(٩٥) ^(٩٦) ^(٩٧) ^(٩٨) ^(٩٩) ^(١٠٠) ^(١٠١) ^(١٠٢) ^(١٠٣) ^(١٠٤) ^(١٠٥) ^(١٠٦) ^(١٠٧) ^(١٠٨) ^(١٠٩) ^(١١٠) ^(١١١) ^(١١٢) ^(١١٣) ^(١١٤) ^(١١٥) ^(١١٦) ^(١١٧) ^(١١٨) ^(١١٩) ^(١٢٠) ^(١٢١) ^(١٢٢) ^(١٢٣) ^(١٢٤) ^(١٢٥) ^(١٢٦) ^(١٢٧) ^(١٢٨) ^(١٢٩) ^(١٣٠) ^(١٣١) ^(١٣٢) ^(١٣٣) ^(١٣٤) ^(١٣٥) ^(١٣٦) ^(١٣٧) ^(١٣٨) ^(١٣٩) ^(١٤٠) ^(١٤١) ^(١٤٢) ^(١٤٣) ^(١٤٤) ^(١٤٥) ^(١٤٦) ^(١٤٧) ^(١٤٨) ^(١٤٩) ^(١٥٠) ^(١٥١) ^(١٥٢) ^(١٥٣) ^(١٥٤) ^(١٥٥) ^(١٥٦) ^(١٥٧) ^(١٥٨) ^(١٥٩) ^(١٦٠) ^(١٦١) ^(١٦٢) ^(١٦٣) ^(١٦٤) ^(١٦٥) ^(١٦٦) ^(١٦٧) ^(١٦٨) ^(١٦٩) ^(١٧٠) ^(١٧١) ^(١٧٢) ^(١٧٣) ^(١٧٤) ^(١٧٥) ^(١٧٦) ^(١٧٧) ^(١٧٨) ^(١٧٩) ^(١٨٠) ^(١٨١) ^(١٨٢) ^(١٨٣) ^(١٨٤) ^(١٨٥) ^(١٨٦) ^(١٨٧) ^(١٨٨) ^(١٨٩) ^(١٩٠) ^(١٩١) ^(١٩٢) ^(١٩٣) ^(١٩٤) ^(١٩٥) ^(١٩٦) ^(١٩٧) ^(١٩٨) ^(١٩٩) ^(٢٠٠) ^(٢٠١) ^(٢٠٢) ^(٢٠٣) ^(٢٠٤) ^(٢٠٥) ^(٢٠٦) ^(٢٠٧) ^(٢٠٨) ^(٢٠٩) ^(٢١٠) ^(٢١١) ^(٢١٢) ^(٢١٣) ^(٢١٤) ^(٢١٥) ^(٢١٦) ^(٢١٧) ^(٢١٨) ^(٢١٩) ^(٢٢٠) ^(٢٢١) ^(٢٢٢) ^(٢٢٣) ^(٢٢٤) ^(٢٢٥) ^(٢٢٦) ^(٢٢٧) ^(٢٢٨) ^(٢٢٩) ^(٢٣٠) ^(٢٣١) ^(٢٣٢) ^(٢٣٣) ^(٢٣٤) ^(٢٣٥) ^(٢٣٦) ^(٢٣٧) ^(٢٣٨) ^(٢٣٩) ^(٢٤٠) ^(٢٤١) ^(٢٤٢) ^(٢٤٣) ^(٢٤٤) ^(٢٤٥) ^(٢٤٦) ^(٢٤٧) ^(٢٤٨) ^(٢٤٩) ^(٢٥٠) ^(٢٥١) ^(٢٥٢) ^(٢٥٣) ^(٢٥٤) ^(٢٥٥) ^(٢٥٦) ^(٢٥٧) ^(٢٥٨) ^(٢٥٩) ^(٢٦٠) ^(٢٦١) ^(٢٦٢) ^(٢٦٣) ^(٢٦٤) ^(٢٦٥) ^(٢٦٦) ^(٢٦٧) ^(٢٦٨) ^(٢٦٩) ^(٢٧٠) ^(٢٧١) ^(٢٧٢) ^(٢٧٣) ^(٢٧٤) ^(٢٧٥) ^(٢٧٦) ^(٢٧٧) ^(٢٧٨) ^(٢٧٩) ^(٢٨٠) ^(٢٨١) ^(٢٨٢) ^(٢٨٣) ^(٢٨٤) ^(٢٨٥) ^(٢٨٦) ^(٢٨٧) ^(٢٨٨) ^(٢٨٩) ^(٢٩٠) ^(٢٩١) ^(٢٩٢) ^(٢٩٣) ^(٢٩٤) ^(٢٩٥) ^(٢٩٦) ^(٢٩٧) ^(٢٩٨) ^(٢٩٩) ^(٣٠٠) ^(٣٠١) ^(٣٠٢) ^(٣٠٣) ^(٣٠٤) ^(٣٠٥) ^(٣٠٦) ^(٣٠٧) ^(٣٠٨) ^(٣٠٩) ^(٣١٠) ^(٣١١) ^(٣١٢) ^(٣١٣) ^(٣١٤) ^(٣١٥) ^(٣١٦) ^(٣١٧) ^(٣١٨) ^(٣١٩) ^(٣٢٠) ^(٣٢١) ^(٣٢٢) ^(٣٢٣) ^(٣٢٤) ^(٣٢٥) ^(٣٢٦) ^(٣٢٧) ^(٣٢٨) ^(٣٢٩) ^(٣٣٠) ^(٣٣١) ^(٣٣٢) ^(٣٣٣) ^(٣٣٤) ^(٣٣٥) ^(٣٣٦) ^(٣٣٧) ^(٣٣٨) ^(٣٣٩) ^(٣٤٠) ^(٣٤١) ^(٣٤٢) ^(٣٤٣) ^(٣٤٤) ^(٣٤٥) ^(٣٤٦) ^(٣٤٧) ^(٣٤٨) ^(٣٤٩) ^(٣٥٠) ^(٣٥١) ^(٣٥٢) ^(٣٥٣) ^(٣٥٤) ^(٣٥٥) ^(٣٥٦) ^(٣٥٧) ^(٣٥٨) ^(٣٥٩) ^(٣٦٠) ^(٣٦١) ^(٣٦٢) ^(٣٦٣) ^(٣٦٤) ^(٣٦٥) ^(٣٦٦) ^(٣٦٧) ^(٣٦٨) ^(٣٦٩) ^(٣٧٠) ^(٣٧١) ^(٣٧٢) ^(٣٧٣) ^(٣٧٤) ^(٣٧٥) ^(٣٧٦) ^(٣٧٧) ^(٣٧٨) ^(٣٧٩) ^(٣٨٠) ^(٣٨١) ^(٣٨٢) ^(٣٨٣) ^(٣٨٤) ^(٣٨٥) ^(٣٨٦) ^(٣٨٧) ^(٣٨٨) ^(٣٨٩) ^(٣٩٠) ^(٣٩١) ^(٣٩٢) ^(٣٩٣) ^(٣٩٤) ^(٣٩٥) ^(٣٩٦) ^(٣٩٧) ^(٣٩٨) ^(٣٩٩) ^(٤٠٠) ^(٤٠١) ^(٤٠٢) ^(٤٠٣) ^(٤٠٤) ^(٤٠٥) ^(٤٠٦) ^(٤٠٧) ^(٤٠٨) ^(٤٠٩) ^(٤١٠) ^(٤١١) ^(٤١٢) ^(٤١٣) ^(٤١٤) ^(٤١٥) ^(٤١٦) ^(٤١٧) ^(٤١٨) ^(٤١٩) ^(٤٢٠) ^(٤٢١) ^(٤٢٢) ^(٤٢٣) ^(٤٢٤) ^(٤٢٥) ^(٤٢٦) ^(٤٢٧) ^(٤٢٨) ^(٤٢٩) ^(٤٣٠) ^(٤٣١) ^(٤٣٢) ^(٤٣٣) ^(٤٣٤) ^(٤٣٥) ^(٤٣٦) ^(٤٣٧) ^(٤٣٨) ^(٤٣٩) ^(٤٤٠) ^(٤٤١) ^(٤٤٢) ^(٤٤٣) ^(٤٤٤) ^(٤٤٥) ^(٤٤٦) ^(٤٤٧) ^(٤٤٨) ^(٤٤٩) ^(٤٥٠) ^(٤٥١) ^(٤٥٢) ^(٤٥٣) ^(٤٥٤) ^(٤٥٥) ^(٤٥٦) ^(٤٥٧) ^(٤٥٨) ^(٤٥٩) ^(٤٦٠) ^(٤٦١) ^(٤٦٢) ^(٤٦٣) ^(٤٦٤) ^(٤٦٥) ^(٤٦٦) ^(٤٦٧) ^(٤٦٨) ^(٤٦٩) ^(٤٧٠) ^(٤٧١) ^(٤٧٢) ^(٤٧٣) ^(٤٧٤) ^(٤٧٥) ^(٤٧٦) ^(٤٧٧) ^(٤٧٨) ^(٤٧٩) ^(٤٨٠) ^(٤٨١) ^(٤٨٢) ^(٤٨٣) ^(٤٨٤) ^(٤٨٥) ^(٤٨٦) ^(٤٨٧) ^(٤٨٨) ^(٤٨٩) ^(٤٩٠) ^(٤٩١) ^(٤٩٢) ^(٤٩٣) ^(٤٩٤) ^(٤٩٥) ^(٤٩٦) ^(٤٩٧) ^(٤٩٨) ^(٤٩٩) ^(٥٠٠) ^(٥٠١) ^(٥٠٢) ^(٥٠٣) ^(٥٠٤) ^(٥٠٥) ^(٥٠٦) ^(٥٠٧) ^(٥٠٨) ^(٥٠٩) ^(٥١٠) ^(٥١١) ^(٥١٢) ^(٥١٣) ^(٥١٤) ^(٥١٥) ^(٥١٦) ^(٥١٧) ^(٥١٨) ^(٥١٩) ^(٥٢٠) ^(٥٢١) ^(٥٢٢) ^(٥٢٣) ^(٥٢٤) ^(٥٢٥) ^(٥٢٦) ^(٥٢٧) ^(٥٢٨) ^(٥٢٩) ^(٥٣٠) ^(٥٣١) ^(٥٣٢) ^(٥٣٣) ^(٥٣٤) ^(٥٣٥) ^(٥٣٦) ^(٥٣٧) ^(٥٣٨) ^(٥٣٩) ^(٥٤٠) ^(٥٤١) ^(٥٤٢) ^(٥٤٣) ^(٥٤٤) ^(٥٤٥) ^(٥٤٦) ^(٥٤٧) ^(٥٤٨) ^(٥٤٩) ^(٥٥٠) ^(٥٥١) ^(٥٥٢) ^(٥٥٣) ^(٥٥٤) ^(٥٥٥) ^(٥٥٦) ^(٥٥٧) ^(٥٥٨) ^(٥٥٩) ^(٥٦٠) ^(٥٦١) ^(٥٦٢) ^(٥٦٣) ^(٥٦٤) ^(٥٦٥) ^(٥٦٦) ^(٥٦٧) ^(٥٦٨) ^(٥٦٩) ^(٥٧٠) ^(٥٧١) ^(٥٧٢) ^(٥٧٣) ^(٥٧٤) ^(٥٧٥) ^(٥٧٦) ^(٥٧٧) ^(٥٧٨) ^(٥٧٩) ^(٥٨٠) ^(٥٨١) ^(٥٨٢) ^(٥٨٣) ^(٥٨٤) ^(٥٨٥) ^(٥٨٦) ^(٥٨٧) ^(٥٨٨) ^(٥٨٩) ^(٥٩٠) ^(٥٩١) ^(٥٩٢) ^(٥٩٣) ^(٥٩٤) ^(٥٩٥) ^(٥٩٦) ^(٥٩٧) ^(٥٩٨) ^(٥٩٩) ^(٦٠٠) ^(٦٠١) ^(٦٠٢) ^(٦٠٣) ^(٦٠٤) ^(٦٠٥) ^(٦٠٦) ^(٦٠٧) ^(٦٠٨) ^(٦٠٩) ^(٦١٠) ^(٦١١) ^(٦١٢) ^(٦١٣) ^(٦١٤) ^(٦١٥) ^(٦١٦) ^(٦١٧) ^(٦١٨) ^(٦١٩) ^(٦٢٠) ^(٦٢١) ^(٦٢٢) ^(٦٢٣) ^(٦٢٤) ^(٦٢٥) ^(٦٢٦) ^(٦٢٧) ^(٦٢٨) ^(٦٢٩) ^(٦٣٠) ^(٦٣١) ^(٦٣٢) ^(٦٣٣) ^(٦٣٤) ^(٦٣٥) ^(٦٣٦) ^(٦٣٧) ^(٦٣٨) ^(٦٣٩) ^(٦٤٠) ^(٦٤١) ^(٦٤٢) ^(٦٤٣) ^(٦٤٤) ^(٦٤٥) ^(٦٤٦) ^(٦٤٧) ^(٦٤٨) ^(٦٤٩) ^(٦٥٠) ^(٦٥١) ^(٦٥٢) ^(٦٥٣) ^(٦٥٤) ^(٦٥٥) ^(٦٥٦) ^(٦٥٧) ^(٦٥٨) ^(٦٥٩) ^(٦٦٠) ^(٦٦١) ^(٦٦٢) ^(٦٦٣) ^(٦٦٤) ^(٦٦٥) ^(٦٦٦) ^(٦٦٧) ^(٦٦٨) ^(٦٦٩) ^(٦٧٠) ^(٦٧١) ^(٦٧٢) ^(٦٧٣) ^(٦٧٤) ^(٦٧٥) ^(٦٧٦) ^(٦٧٧) ^(٦٧٨) ^(٦٧٩) ^(٦٨٠) ^(٦٨١) ^(٦٨٢) ^(٦٨٣) ^(٦٨٤) ^(٦٨٥) ^(٦٨٦) ^(٦٨٧) ^(٦٨٨) ^(٦٨٩) ^(٦٩٠) ^(٦٩١) ^(٦٩٢) ^(٦٩٣) ^(٦٩٤) ^(٦٩٥) ^(٦٩٦) ^(٦٩٧) ^(٦٩٨) ^(٦٩٩) ^(٧٠٠) ^(٧٠١) ^(٧٠٢) ^(٧٠٣) ^(٧٠٤) ^(٧٠٥) ^(٧٠٦) ^(٧٠٧) ^(٧٠٨) ^(٧٠٩) ^(٧١٠) ^(٧١١) ^(٧١٢) ^(٧١٣) ^(٧١٤) ^(٧١٥) ^(٧١٦) ^(٧١٧) ^(٧١٨) ^(٧١٩) ^(٧٢٠) ^(٧٢١) ^(٧٢٢) ^(٧٢٣) ^(٧٢٤) ^(٧٢٥) ^(٧٢٦) ^(٧٢٧) ^(٧٢٨) ^(٧٢٩) ^(٧٣٠) ^(٧٣١) ^(٧٣٢) ^(٧٣٣) ^(٧٣٤) ^(٧٣٥) ^(٧٣٦) ^(٧٣٧) ^(٧٣٨) ^(٧٣٩) ^(٧٤٠) ^(٧٤١) ^(٧٤٢) ^(٧٤٣) ^(٧٤٤) ^(٧٤٥) ^(٧٤٦) ^(٧٤٧) ^(٧٤٨) ^(٧٤٩) ^(٧٥٠) ^(٧٥١) ^(٧٥٢) ^(٧٥٣) ^(٧٥٤) ^(٧٥٥) ^(٧٥٦) ^(٧٥٧) ^(٧٥٨) ^(٧٥٩) ^(٧٦٠) ^(٧٦١) ^(٧٦٢) ^(٧٦٣) ^(٧٦٤) ^(٧٦٥) ^(٧٦٦) ^(٧٦٧) ^(٧٦٨) ^(٧٦٩) ^(٧٧٠) ^(٧٧١) ^(٧٧٢) ^(٧٧٣) ^(٧٧٤) ^(٧٧٥) ^(٧٧٦) ^(٧٧٧) ^(٧٧٨) ^(٧٧٩) ^(٧٨٠) ^(٧٨١) ^(٧٨٢) ^(٧٨٣) ^(٧٨٤) ^(٧٨٥) ^(٧٨٦) ^(٧٨٧) ^(٧٨٨) ^(٧٨٩) ^(٧٩٠) ^(٧٩١) ^(٧٩٢) ^(٧٩٣) ^(٧٩٤) ^(٧٩٥) ^(٧٩٦) ^(٧٩٧) ^(٧٩٨) ^(٧٩٩) ^(٨٠٠) ^(٨٠١) ^(٨٠٢) ^(٨٠٣) ^(٨٠٤) ^(٨٠٥) ^(٨٠٦) ^(٨٠٧) ^(٨٠٨) ^(٨٠٩) ^(٨١٠) ^(٨١١) ^(٨١٢) ^(٨١٣) ^(٨١٤) ^(٨١٥) ^(٨١٦) ^(٨١٧) ^(٨١٨) ^(٨١٩) ^(٨٢٠) ^(٨٢١) ^(٨٢٢) ^(٨٢٣) ^(٨٢٤) ^(٨٢٥) ^(٨٢٦) ^(٨٢٧) ^(٨٢٨) ^(٨٢٩) ^(٨٣٠) ^(٨٣١) ^(٨٣٢) ^(٨٣٣) ^(٨٣٤) ^(٨٣٥) ^(٨٣٦) ^(٨٣٧) ^(٨٣٨) ^(٨٣٩) ^(٨٤٠) ^(٨٤١) ^(٨٤٢) ^(٨٤٣) ^(٨٤٤) ^(٨٤٥) ^(٨٤٦) ^(٨٤٧) ^(٨٤٨) ^(٨٤٩) ^(٨٥٠) ^(٨٥١) ^(٨٥٢) ^(٨٥٣) ^(٨٥٤) ^(٨٥٥) ^(٨٥٦) ^(٨٥٧) ^(٨٥٨) ^(٨٥٩) ^(٨٦٠) ^(٨٦١) ^(٨٦٢) ^(٨٦٣) ^(٨٦٤) ^(٨٦٥) ^(٨٦٦) ^(٨٦٧) ^(٨٦٨) ^(٨٦٩) ^(٨٧٠) ^(٨٧١) ^(٨٧٢) ^(٨٧٣) ^(٨٧٤) ^(٨٧٥) ^(٨٧٦) ^(٨٧٧) ^(٨٧٨) ^(٨٧٩) ^(٨٨٠) ^(٨٨١) ^(٨٨٢) ^(٨٨٣) ^(٨٨٤) ^(٨٨٥) ^(٨٨٦) ^(٨٨٧) ^(٨٨٨) ^(٨٨٩) ^(٨٩٠) ^(٨٩١) ^(٨٩٢) ^(٨٩٣) ^(٨٩٤) ^(٨٩٥) ^(٨٩٦) ^(٨٩٧) ^(٨٩٨) ^(٨٩٩) ^(٩٠٠) ^(٩٠١) ^(٩٠٢) ^(٩٠٣) ^(٩٠٤) ^(٩٠٥) ^(٩٠٦) ^(٩٠٧) ^(٩٠٨) ^{(٩٠٩)</}

[وقوله تعالى] ^(١): ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا يُشْرِكُونَ﴾ مغناه، والله أعلم، أي لا تؤاخذوني أنتم بجرم أفتري إن افتريته، وأنا لا آخذ بأجرامكم كقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾ [النور: ٥٤] وكقوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٥٢] فعلى ذلك إجرامي.

وأمكن أن يكون هذا القول لهم لما آيس من إيمانهم كقوله: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ [الشورى: ١٥] لما آيس من إيمانهم، وانقطع طمعه ورجاؤه عن إسلامهم قال لهم ذلك: أن لا حاجة بيننا وبينكم بعد هذا، والله أعلم.

الآية ٣٦

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْنَا أَن نَّبَيِّنْ لَّكَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ قال بعضهم: إن نوحاً عليه السلام لم يذغ على قومه بالهلاك مادام يزوج، ويظلمع من قومه الإيمان، فإذا آيس، وانقطع رجاءه فحينئذ دعا عليهم بالهلاك بقوله ^(٢): ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ أي أحداً ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يَبْغُلُوا عِبَادَكَ﴾ الآية [نوح: ٢٦ و ٢٧] وعرفت الإياس من إيمانهم بقوله: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْنَا أَن نَّبَيِّنْ لَّكَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ الآية، وكذلك سائر الأنبياء والرسل لم يؤذن لهم بالدعاء على قومهم بالهلاك والخروج من بين أظهرهم ماداموا يزوجون، ويظلمعون منهم الإيمان والإجابة لهم، إذا آيسوا، وانقطع رجاءهم وظمعتهم عن ذلك. فعند ذلك أذن لهم بالدعاء عليهم بالهلاك والخروج من بين أظهرهم.

وفي قوله: ﴿لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ دلالة أن للإيمان حُكْمَ التَّجَدُّدِ والابتداء في كل وقت وكل حال لأنه أخبر أن الذي قد آمن قد يؤمن في حادث الوقت. وعلى ذلك تُخرج الزيادات التي ذكرت في الإيمان [كقوله] ^(٣): ﴿فَرَادَتْهُمُ ابْنَتَا﴾ [التوبة: ١٢٤] ونحوه، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قيل: لا تحزن بما كانوا يفعلون. فهو يَحْتَمِلُ وجهين:

أحدهما: لا تحزن بكفرهم بالله وتكذيبهم إياك، ليس على النهي عن الحزن في ذلك، ولكن على دفع الحزن عنه والتسلي به لأن الأنبياء عليه السلام كانوا يحزنون بكفر قومهم بالله وجعلهم أنفسهم أعداء له كقوله: ﴿فَلَمَّا كَانَتْ آنْفَىٰ﴾ [الكهف: ٦ والشعراء: ٣] وقوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ [فاطر: ٨] وأمثاله.

كان الأنبياء عليه السلام أشد الناس حُزناً بكفر قومهم بالله وتكذيبهم آياته وأشدهم رغبة في إيمانهم. وكان حُزْنُهُمْ لم يكن على هلاكهم. ألا ترى أن نوحاً دعا عليهم بالهلاك، وكذلك سائر الأنبياء عليه السلام [كان حُزْنُهُمْ] ^(٤) لِمَكَانٍ كُفِرَ بِهِمْ بالله وتكذيبهم آياته لا لِمَكَانٍ هُلِكَ بِهِمْ إشفافاً على أنفسهم؟

والثاني: قوله: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يَحْتَمِلُ أنهم كانوا هموا قتلهم والمكر به، فقال: لا تحزن بما كانوا يستعملون في هلاكك، فإني كافيتهم.

قال أبو عوسجة: قوله: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ هو من الحزن؛ يقال: يَبْتَئِسُ ابْتِئاساً؛ وقال ^(٥) الكسائي: أيضاً ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ أي لا تحزن؛ هو من البأس، يقال: لا تَبْتَئِسْ بهذا الأمر.

الآية ٣٧

وقوله تعالى: ﴿وَأَصْنَعُ الْفُلَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيُنَا﴾ قال بعض أهل التأويل: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ بأمرنا ﴿وَوَحْيُنَا﴾. وقال بعضهم: يَنْظُرُنَا وَمَرَأَى مِنَّا.

ولكنه ^(٦) عندنا يَحْتَمِلُ وجهين:

أحدهما: قوله ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ أي بحفظنا ورعايتنا؛ يقال: عَيْنُ اللَّهِ عَلَيْكَ، أي جفطه عليك. ثم لا يفهم من قوله: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ [العَيْنُ نَفْسُهَا عَلَى مَا يُفْهَمُ] ^(٧) من قوله: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ [آل عمران: ١٨٢ والأنفال: ٥١] ولكن ذكر الأيدي لما في الشاهد أن ما يُقَدَّمُ باليد، ويكتسب باليد. فعلى ذلك ذكر العين لما بالعين يُحَفَظُ في الشاهد.

(١) ساقطة من الأصل رم. (٢) في الأصل رم: كقوله. (٣) ساقطة من الأصل رم. (٤) في الأصل رم: إن حزنهم كان. (٥) سقطت الواو من الأصل رم. (٦) في الأصل رم: ولكن. (٧) في الأصل رم: نفس العين على ما لا يفهم.

والثاني: قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا جَاءْنَاكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بإعلامنا أيذك لأنه لولا تعليم الله إياه اتَّخَذَ السفينةَ ونَجَّيْنَاهَا لَمْ يَكُنْ لَيَعْرِفَ أَنَّ كَيْفَ يَتَّخِذُ؟ وكيف يَنْجُو، إِنَّمَا عَرَفَ ذَلِكَ بِتَعْلِيمِ اللَّهِ إِيَّاهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُخْرَجُونَ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

[أحدهما] (١): يَحْتَمِلُ أَي لَا تَشْفَعْ إِلَيَّ فِي نَجَاةِ ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُخْرَجُونَ﴾ فِي حُكْمِ اللَّهِ.

والثاني: لَا تُخَاطِبُنِي فِي هِدَايَةِ الَّذِينَ هُمْ فِي حُكْمِ اللَّهِ أَنَّهُمْ يَمُوتُونَ ظَلَمَةً؛ أَي لَا تُشَاكِلْنِي إِيْمَانًا مَنْ فِي عِلْمِ اللَّهِ أَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ. وفيه نَهْيٌ [عَنِ] (٢) السَّوَالِ عَمَّا فِي عِلْمِ اللَّهِ أَنَّهُ لَا يَكُونُ لِأَنَّهُ ٢٤٠ - ١/ إِذَا أَخْبَرَ أَنَّهُ لَا يَكُونُ، أَوْ لَا يَفْعَلُ، فَإِذَا سَأَلَهُ كَانَ يَسْأَلُهُ أَنْ يَكْذِبَ خَبَرَهُ أَنَّهُ لَا يَكُونُ.

وفيه أَنَّ مَنْ أَرَادَ اللَّهُ إِيْمَانَهُ (٣) آمَنَ، وَمَنْ لَمْ يُرِدْ إِيْمَانَهُ لَا يُؤْمِنُ.

الآية ٣٨

وقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا الْفُلَّكَ وَكَلَّمَا مَرْعِيًّا مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ﴾ الْمَلَأَ هُمُ الْأَشْرَافُ وَالرُّؤَسَاءُ مِنْ قَوْمِهِ ﴿سَخِرُوا مِنْهُ﴾ هُمُ الَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُ.

قَالَ بَعْضُهُمْ: سَخِرْتُهُمْ مِنْهُ أَنْ قَالُوا: صَارَ تَجَارًا بَعْدَ مَا ادَّعَى لِنَفْسِهِ الرِّسَالَةَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: سَخِرْتُهُمْ مِنْهُ لَمَّا رَأَوْهُ يَتَّخِذُ الْفُلَّكَ، وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ بَحْرٌ، وَلَا وَادٍ، وَلَا مِيَاءٌ جَارِيَةٌ، إِنَّمَا هِيَ أَبَارٌ لَهُمْ، فَقَالُوا: يَتَّخِذُ (٤) السَّفِينَةَ لِيُسِيرَ فِي الْبَرَارِيِّ وَالْمَغَاوِرِ، وَنَحْوَهُ مِنَ الْكَلَامِ. وَقَالَ: ﴿إِنَّا نَسْخَرُهُ مِنْ قَوْمِنَا فَاتَّخَذُوا مِنْكُمْ سَخِرْتُهُمْ مِنْهُمْ أَنَّهُ إِذَا رَكِبُوا الْفُلَّكَ، وَرَأَوْهُمْ يَفْرَقُونَ، قَالُوا: كُنْتُمْ عَلَى حَقٍّ وَعَلَى هُدًى، وَنَحْوَهُ مِنَ الْكَلَامِ.

لَكِنْ هَذَا لَا يُعْلَمُ، وَلَا حَاجَةٌ لَنَا إِلَى مَعْرِفَةِ سَخِرْتُهُمْ أَنْ كَيْفَ كَانَتْ؟ سِوَى أَنْ فِيهِ سَخِرْتُهُ مِنْهُ.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّا نَسْخَرُهُ مِنْكُمْ﴾ أَي نَجْزِيهِمْ جَزَاءَ سَخِرْتُهُمْ.

الآية ٣٩

وقوله تعالى: ﴿تَسَوَّفَ تَقْلَمُونَ﴾ هُوَ وَعِيدٌ؛ أَي سَوْفَ تَعْلَمُونَ أَنَّ حَاصِلَ سَخِرْتُهُمْ رَجَعَ إِلَيْكُمْ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ الْآيَةُ [البقرة: ٩٠] أَي سَوْفَ تَعْلَمُونَ إِذَا نَجَّيْنَا نَحْنُ، وَغَرَّقْنَاكُمْ أَنْتُمْ ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أَي عَذَابٌ يَفْضَحُهُ، وَيُهْلِكُهُ، وَهُوَ الْعَرَقُ ﴿وَيَجِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ أَي عَذَابٌ يَدُومُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ هُوَ عَذَابُ الْآخِرَةِ كَقَوْلِهِ: ﴿أَغْرَقْنَا فَاذْهَبُوا نَارًا﴾ [نوح: ٢٥].

وَأَمَّا قَوْلُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: إِنَّ سَفِينَةَ نُوحٍ كَانَتْ طَوَّلَهَا كَذَا، وَعَرْضُهَا كَذَا، فَلَيْسَ لَنَا بِذَلِكَ عِلْمٌ، وَلَا حَاجَةٌ لَنَا إِلَى مَعْرِفَةِ ذَلِكَ. فَإِنْ صَحَّ ذَلِكَ فَهُوَ مَا قَالُوا، وَقَوْلُهُمْ: كَانَ لَهَا ثَلَاثَةُ أَبْوَابٍ وَثَلَاثَةُ أَطْبَاقٍ. فَذَلِكَ أَيْضًا لَا نَعْرِفُهُ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

الآية ٤٠

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ قَوْلُهُ: ﴿جَاءَ أَمْرُنَا﴾ أَي جَاءَ وَقْتُ أَمْرِنَا بِالْعَذَابِ الَّذِي اسْتَعْجَلُوهُ كَقَوْلِهِمْ: ﴿فَأَيْنَا يَمَّا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [هود: ٣٢] وَكَذَلِكَ كَانَتْ عَادَةُ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ اسْتِعْجَالِ الْعَذَابِ مِنْ رُسُلِهِمْ.

سَمَّى الْعَذَابَ أَمْرًا لِلَّهِ لِمَا لَا صُنْعَ لِأَحَدٍ فِيهِ، وَكَذَلِكَ الْمَرَضُ سَمَاءُ أَمْرٍ لِلَّهِ لِمَا لَا صُنْعَ لِأَحَدٍ مِنَ الْخَلَائِقِ فِيهِ، وَسَمَّى الصَّلَاةَ أَمْرًا لِلَّهِ لِمَا بِأَمْرِهِ يُصَلَّى.

وقوله تعالى: ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ قَالَ أَبُو عَرَسَجَةَ ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ يُقَالُ إِذَا فَارَ الْمَاءُ إِذَا خَرَجَ يَقُورُ قُورًا أَي عَلَى كَمَا تَغْلِي الْقِدْرُ، وَتَضِدُّقُهُ [قَوْلُهُ] (٦): ﴿وَيَحِي تَنْوَرُ﴾ ﴿تَكَادُ﴾ [الملك: ٨٧] قَالُوا: فَارَ أَي خَرَجَ، وَظَهَرَ.

وَالْتَّنُّورُ اخْتَلِفَ فِيهِ؛ قَالَ بَعْضُهُمْ: التَّنُّورُ هُوَ وَجْهُ الْأَرْضِ؛ قَالُوا: إِذَا رَأَيْتَ الْمَاءَ قَدْ خَرَجَ، وَتَبَّعَ، وَظَهَرَ عَلَى وَجْهِهِ

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: إيمان أحد. (٤) في الأصل وم: يتخذوا. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، ساقطة من الأصل.

الأرض، فَارْكَبْ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: التَّنُورُ هو التَّنُورُ الخابِزَةُ التي يُخَبَزُ فيها؛ قالوا: إِذَا رَأَيْتَ الْمَاءَ تَبَعَ مِنْ تَنُورِكَ فَارْكَبْ؛ قالوا: كَانَ الْمَاءُ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ، وَيَنْبُعُ مِنَ الْأَرْضِ كَقَوْلِهِ: ﴿فَتَنَحَّ الْأَوْبَ السَّمَاءُ بِمَاؤُ مَتَهْرِ﴾ ﴿وَجَرْنَا الْأَرْضَ عُبُوكَا﴾ [القمر: ١١ و ١٢] لَكِنْ جَعَلَ عَلَامَةً وَقْتَ رَكُوبِهِ السَّفِينَةَ هُوَ خُرُوجُ الْمَاءِ مِنَ الْأَرْضِ، وَنَبْعُهُ مِنْهَا.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ آتَيْنِ﴾ وَيَحْتَمِلُ هَذَا وَجْهَيْنِ: يَحْتَمِلُ أَنْ كُنَّا قُلْنَا لَهُ إِذَا فَارَ التَّنُورُ ﴿أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ آتَيْنِ﴾ وَيَحْتَمِلُ أَنْ قُلْنَا لَهُ وَقْتُ قَوْرِ الْمَاءِ مِنَ التَّنُورِ ﴿أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ آتَيْنِ﴾ الزَّوْجُ هُوَ اسْمٌ فَرْدٍ لِدِي شَفْعٍ، لَيْسَ هُوَ اسْمُ الشَّفْعِ حَتَّى يُقَالَ عِنْدَ الْاجْتِمَاعِ ذَلِكَ، وَلَكِنْ مَا ذَكَّرْنَا أَنَّهُ اسْمٌ لِدِي شَفْعٍ؛ كَأَنَّ الْإِنَاثَ صِنْفٌ وَزَوْجٌ، وَالذَّكَورَ صِنْفٌ وَزَوْجٌ، فَيَكُونُ الذَّكَرُ وَالْأُنْثَى زَوْجَيْنِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿زَوْجَيْنِ آتَيْنِ﴾ أَيِ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى. ثُمَّ يَحْتَمِلُ زَوْجَيْنِ مِنْ ذَوِي الْأَرْوَاحِ الَّتِي يَكُونُ لَهُمُ النَّسْلُ لثَلَاثَ نَقْطِيعٍ نَسْلُهُمْ، وَيَحْتَمِلُ ذَوِي الْأَرْوَاحِ وَغَيْرَهَا^(١)، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ ﴿وَأَهْلَكَ﴾ أَرَادَ أَهْلَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ؛ يَقُولُ ﴿أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ آتَيْنِ﴾ وَأَحْمِلْ أَهْلَكَ أَيْضاً ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ أَيِ إِلَّا مَنْ كَانَ فِي عِلْمِ اللَّهِ أَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ، وَإِلَّا مَنْ كَانَ فِي عِلْمِ اللَّهِ أَنَّهُ يَهْلِكُ.

وقَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ: ﴿وَأَهْلَكَ﴾ أَرَادَ أَهْلَهُ خَاصَّةً، ثُمَّ اسْتَشْنَى مِنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ، وَهَمَا^(٢) ابْنُهُ وَزَوْجَتُهُ، وَهَمَا مِنْ أَهْلِهِ. لَا تَرَى أَنَّهُ ذَكَرَ مَنْ آمَنَ مَعَهُ؛ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ آمَنَ﴾ أَيِ أَحْمِلْ أَهْلَكَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ مِنْ أَهْلِكَ وَغَيْرِهِ^(٣) إِنَّهُ فِي الْهَالِكِينَ؟ أَوْ يَقُولُ: ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ إِنَّهُ لَا يُؤْمِنُ؛ فَهَذَا يَدُلُّ أَنَّ فِي أَهْلِهِ مَنْ كَانَ ظَالِمًا كَافِرًا حِينَ^(٤) اسْتَشْنَى مِنْ أَهْلِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[وقوله تعالى]^(٥): ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ يَذْكُرُ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، تَذْكِيرًا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْهُ وَنِعْمَةً الَّتِي أَنْعَمَهَا عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ نُوْحًا ﷺ مَعَ طَوْلِ مُكُتَبِهِ بَيْنَ أَظْهَرِ قَوْمِيهِ وَكَثْرَةِ دُعَائِهِ قَوْمَهُ إِلَى دِينِ اللَّهِ وَمَوَاعِظِهِ لَمْ يُؤْمِنْ إِلَّا الْقَلِيلُ مِنْهُمْ. وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَ قَلَّةِ مُكُتَبِهِ وَقَصْرِ عُمرِهِ آمَنَ مِنْ قَوْمِيهِ الْكَثِيرُ؛ يُعْرِفُهُ نِعْمَةً عَلَيْهِ.

وفيه دلالة رد قول من يقول: إِنَّ الْمَوَاعِظَ إِنَّمَا تَنْفَعُ الْمَوْعُظَ عَلَى قَدْرِ اسْتِعْمَالِ الْوَاعِظِ، وَلَيْسَ هَكَذَا، وَلَكِنْ عَلَى قَدْرِ قَبُولِ الْمَوْعُظِ إِيَّاهَا وَقَدْرِ الْإِقْبَالِ إِلَيْهَا؛ لِأَنَّ نُوْحًا ﷺ كَانَ أَشَدَّ النَّاسِ اسْتِعْمَالًا لِلْمَوَاعِظِ وَأَكْثَرَهُمْ، ثُمَّ لَمْ يُؤْمِنْ مِنْ قَوْمِهِ إِلَّا الْقَلِيلُ. دَلٌّ أَنَّهُ لَيْسَ لِمَا فَهِمُوا، وَلَكِنْ لِمَا ذَكَّرْنَا.

وَأَمَّا مَا ذَكَرَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ أَنَّهُ حَمَلَ فِي السَّفِينَةِ حَبَاتِ الْعِنَبِ، فَأَخَذَهُ إِبْلِيسُ، فَلَمْ يُعْطِهِ، إِلَّا أَنْ يُعْطِيَ^(٦) لَهُ الشَّرَكَةُ، فَذَلِكَ شَيْءٌ، لَا عِلْمَ لَنَا بِهِ. فَإِنْ ثَبَتَ ذَلِكَ فَيَكُونُ فِيهِ دَلَالَةٌ أَنَّ لَيْسَ لَهُ فِي سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَسْرِيَةِ نَصِيبٌ، إِنَّمَا يَكُونُ لَهُ فِي مَا يُخْرُجُ مِنَ الْعِنَبِ وَتَقْدِيرِ الثَّلَثِ وَالثَّلَاثِينَ، إِنَّمَا يَكُونُ فِي عَصِيرِ الْعِنَبِ خَاصَّةً، لَيْسَ فِي غَيْرِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٤١ وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ بَحْرِنَهَا وَمُرْسَاهَا﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ بَحْرِنَهَا وَمُرْسَاهَا﴾ أَنَّهُ قَالَ لَهُمْ نُوْحٌ ﴿ارْكَبُوا فِيهَا﴾ وَقُولُوا^(٧): ﴿بِسْمِ اللَّهِ بَحْرِنَهَا وَمُرْسَاهَا﴾ وَهُوَ كَقَوْلِ النَّاسِ: بِسْمِ اللَّهِ مِنْ أَوَّلِهِ عَلَى مَا يُقَالُ، وَيَذْكُرُ اسْمُ اللَّهِ فِي افْتِتَاحِ كُلِّ أَمْرٍ وَكُلِّ عَمَلٍ مِنْ رَكُوبٍ وَنَزُولٍ وَغَيْرِهِ.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ بَحْرِنَهَا وَمُرْسَاهَا﴾ أَيِ بِاللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا، أَيِ بِهِ تَجْرِي، وَبِهِ تَرْسُو، وَإِنَّهُ لَيْسَ كَسَائِرِ السُّفُنِ الَّتِي بَاهِلِهَا تُجْرِي، وَبِهِمْ تَقِفُ، وَهُمْ الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ، وَيَتَكَلَّفُونَ إِجْرَاءَهَا وَوُقُوفَهَا. وَأَمَّا سَفِينَةُ نُوْحٍ كَانَتْ جَرِيَّتُهَا بِاللَّهِ، وَبِهِ رُسُوهَا، لَا صُنْعَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿إِن رَّبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ هُوَ ظَاهِرٌ [أَنْ مَنْ]^(٨) آمَنَ بِهِ، وَصَدَّقَ رَسُولَهُ، يَنْجُو^(٩) مِنَ الْغَرَقِ وَالْهَلَاكِ.

(١) فِي الْأَصْلِ: غَيْرُهُ، فِي م: وَغَيْرُهُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَهُوَ. (٣) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: غَيْرُهُ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٥) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: أَعْطَى. (٧) الْوَارِ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: لَمَنْ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: يَنْجِيهِ.

الآية ٤٢

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَجْعِي فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ هذا يدل على ما ذكرنا أنها كانت بالله تجري، وبه ترسو، حين^(١) لم يخافوا العرق [مع]^(٢) ما كان من الأمواج.

وأما سائر السفن فإن أهلها خافوا من أمواجها لما كانوا هم الذين يتولون، ويتكلفون إجراءها ووقوفها، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَجْعِي فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ هذا يدل على أنها كانت آية لأن الأمواج تمنع من جريان السفينة وسيرها. فإذا أخبر أنها لم تمنع هذه من جريانها دل أنه أراد أن تصير آية لهم.

وقوله تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾ يختل قوله: ﴿وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾ أي بمنزل من نوح، أو كان بمنزل من السفينة، أو ما كان.

وقوله تعالى: ﴿يَبْقَىٰ زَكَاةً مَّا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ يختل ﴿وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ فتعرق^(٣)، أو ﴿وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ لينعم الله.

الآية ٤٣

وقوله تعالى: ﴿قَالَ سَتَدُعُنِي إِلَىٰ جَبَلٍ﴾ أي سأنضم/ ٢٤٠ - ب/ ﴿إِلَىٰ جَبَلٍ يَمْصُغِي مِنَ الْمَاءِ﴾ طر مسكين أن هذا الماء كثير من المياه التي يسلم منها^(٤) بالالتجاء إلى الجبال. فآخيرة^(٥) أنه ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي من عذاب الله.

سمى عذابه أمر الله لما ذكرنا [أن]^(٦) أمر الله أمر تكوين لأنه هو النهاية في الاختجاج كقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ﴾ الآية [التحل: ٤٠] وهو كما يسمى البعث لقاء الله لأنه هو النهاية في الاختجاج على من يترك البعث. فعلى ذلك سمي عذابه أمر الله، وهو أمر تكوين لأنه هو النهاية في الاختجاج على من يترك العذاب.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ الله يهديه إياه؛ إلا من سبقت له الرحمة من الله بالهداية له والنجاة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَالٍ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ﴾ يختل قوله: ﴿بَيْنَهُمَا﴾ بين [نوح وبين ابنه]^(٧). ويختل بينه وبين السفينة ﴿وَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ يختل صار من المغرقين. ويختل كان في علم الله أنه يفرق.

وهذا يدل على أن قوله في إبليس: إنه ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [ص: ٧٤] أنه يخرج على وجهين:

أحدهما: أنه كان في علم الله أنه يكفر.

والثاني^(٨): صار من الكافرين كما ذكر ﴿وَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ ولم يكن من المغرقين في الأزل.

الآية ٤٤

وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلُغِي مَاءَكَ وَنَسَمَةَ آتِلِي﴾ قال بعضهم: عاد كل ماء إلى من حيث خرج: ما أرسل من السماء عاد إليها، وما خرج من الأرض غاص في الأرض، وغار فيها. وقال بعضهم: لا، ولكن أمسكت السماء عن إرساله، وأمسكت الأرض عن نبيه.

وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلُغِي مَاءَكَ وَنَسَمَةَ آتِلِي﴾ ليس على القول لهم، ولكن الله أمسكهما عن إرساله ونبيه. ويختل على القول منهم لهم باللطف وجعل فيهم ما يفهم هذا ﴿وَفِيضَ الْمَاءِ﴾ أي غار الماء في الأرض ﴿وَفِي الْأَمْثَرِ﴾ بهلاك قوم نوح. ويختل على التكوين على ما ذكر ﴿وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ أي استقرت على الجودي، وهو جبل ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي هلاكاً. ويختل ﴿بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ من رحمة الله.

وقال الفتي: ﴿وَمُرْسَهَا﴾ أي موقعها^(٩)، وقوله تعالى: ﴿يَمْصُغِي مِنَ الْمَاءِ﴾ يمتص من الماء، وقوله^(١٠): ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ قال الفتي: لا معصوم اليوم من عذاب الله كقوله: ﴿بَيْنَ مَلَوٍ دَائِي﴾ [الطارق: ٦] أي مدفوق.

واضله: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي لا شيء يمنع اليوم من نزول عذاب الله عليهم، ولا دافع لهم منه.

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: لتعرق. (٤) في الأصل وم: إليها. (٥) في الأصل وم: فآخيرة.

(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: ابنه وبين نوح. (٨) في الأصل وم: أو. (٩) في الأصل وم: تقف. (١٠) في الأصل وم: و.

الآيتان ٤٥ و ٤٦ وقوله تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ الآية، فقال ﴿يَبْنُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾.

هذا، والله أعلم كان عند نوح أن ابنه كان على دينه لما لعله كان يظهر الموافقة له، وإلا لا يَحْتَمِلُ أن يقول ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ ويسأله نجاته، وقد سبق منه النهي في سؤال بفيه [حين قال: ^(١) ﴿وَلَا تُخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُصْرَفُونَ﴾] [هود: ٣٧].

ولا يَحْتَمِلُ أن يكون يعلم أنه على غير دينه، ثم يسأل له النجاة بعد ما نهاه عن المخاطبة في الذين ظلموا، فقال: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ في الباطن والسر، وإلا خُرج هذا القول مُخْرَجَ تكذيب رسول.

لكن الوجه فيه ما ذكرنا أنه كان في الظاهر عنده أنه على دينه لما كان يظهر له الموافقة، وكان لا يعرف ما يضميره، فسأله على الظاهر الذي عنده أنه على دينه لما كان يظهر له الموافقة، وكان لا يعرف ما يضميره، فسأله على الظاهر الذي عنده.

وكذلك أهل النفاق كانوا يظهرُونَ الموافقة لرسول ^(٢) الله ﷺ وأصحابه، ويضميرون [الخلافة لهم] ^(٣)، وكانوا لا يعرفون نفاقهم إلا بعد إطلاع الله إياه.

فَعَلَى ذلك نوح كان [لا] ^(٤) يعرف ما يضمير؛ لذلك خُرج سؤاله، فقال: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ الذين ^(٥) وعد النجاة لهم، أو ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ لأنه لم يؤمن بي، ولم يصدقك في ما أخبرت ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ روي عن رسول الله ﷺ أنه كان يقرأ: عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ بِغَيْرِ تَنْوِينٍ ^(٦).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قرأ ﴿عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ بالتَّوْنِينِ. فَمَنْ قرأ بالنصب عَمِلَ ^(٧) غير صالح أي إن ابنك عَمِلَ غير صالح. وَمَنْ قرأ: عَمَلٌ فَمَعْنَاهُ ^(٨)، والله أعلم، أن سؤالك عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ بالتَّوْنِينِ. وكلٌّ [من] ^(٩) القراءتين يجوز أن يصرف إلى ابني أي أنه عَمِلَ غير صالح، وهو عَمَلُ الكُفْرِ، وعَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ أي الذي كانوا عليه عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ ثم قوله ^(١٠): ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ هذا في الظاهر يُخْرِجُ على التكذيب له. لكن الوجه فيه أنه من أهلك على ما عندك، وليس من أهلك في ما بَشَرْتُكَ من نجاة أهلك.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ يَحْتَمِلُ [وجهين]:

[أحدهما] ^(١١): وإن وعدك بإغراق الظلمة حق.

والثاني ^(١٢): وإن وعدك بنجاة المؤمنين حق ﴿وَأَنْتَ أَكْبَرُ الْمُرْسَلِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَتْلُوا مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ يَحْتَمِلُ هذا نهياً عن سؤال مما لم يؤذن له من بعد، لأن الأنبياء ﷺ كانوا لا يسألون شيئاً إلا بعد الإذن لهم في السؤال، وإن كان يسع لهم السؤال، أو أن يكون عتاباً لما سبق، والأنبياء ﷺ كانوا يعاتبون في أشياء تحلُّ بهم. ذلك نحو قوله لرسول الله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ [التوبة: ٤٣] وقد كان منه الأمر بالعود والنهي عن الخروج بقوله: ﴿فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾ [التوبة: ٨٣] ونحوه.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ هو كما نهى رسول الله ﷺ ﴿فَلَا تَكُونُوا مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥] وأمثاله، وإن كان معلوماً أنه لا يكون من الجاهلين، وهو ما ذكرنا أن العِصْمَةَ لا تمنع النهي عن الشيء، بل النهي يظهر العِصْمَةَ.

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) أدرج قبلها في الأصل وم العبارة التالية: وكان لا يعرف ما يضميره فسأله على الظاهر الذي عنده. وكذلك أهل النفاق يظهرُونَ. (٣) في الأصل: الخلافة له، في م: الخلاف له. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: الذي. (٦) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٣/ ١١٤. (٧) من م، في الأصل: بالنصب على. (٨) في الأصل وم: يكون معناه. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: قال. (١١) ساقطة من م. (١٢) من م، ساقطة من الأصل.

الآية ٤٧

وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ إني أعوذ بك أن أعود إلى سؤال، لا أعلم بالإذن في السؤال. هذا يُحتمل.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ إن لم تغفر لي بالعصمة من العود إلى مثله ﴿أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ هذا يشبه أن يكون ذكر هذا إما لا يستوجبون القرآن والرحمة إلا برحمة الله وفضله على ما روي عن رسول الله أنه قال: «لن تدخل الجنة إلا برحمة الله، قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته» [مسلم ٧١/٢٨١٦ و ٧٨/٢٨١٨].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي﴾ هو طلب المغفرة بالكناية، وهو أبلغ وأخبر [من قوله^(١)]: اللهم اغفر لي؛ كأن في قوله ﴿وَلَا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي﴾ قطع المغفرة عن^(٢) غيره، وإخباراً^(٣) ألا يملك أحد ذلك، وليس في قوله ﴿اغْفِرْ لِي﴾ [الأعراف: ١٥١..] قطع كون ذلك عن غيره. لذلك كان ذلك أبلغ من هذا. وكذلك سؤال آدم وحواء المغفرة حين^(٤) قال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ الآية [الأعراف: ٢٣] هو سؤال بالكناية، فهو أبلغ في السؤال.

الآية ٤٨

وقوله تعالى: ﴿قِيلَ يَتُوحَّ أَقِطْ﴾ قال بعضهم: أي انزل من الجودي إلى مكان قرار الأرض. وقال بعضهم: قوله: ﴿أَقِطْ﴾ أي انزل، وأقم على المقام، وامكث في المكان، ليس على الهبوط من مكان مرتفع إلى مكان منخفض.

وقوله تعالى: ﴿أَقِطْ يَسْكُرُ مِنَّا وَبَرَكَتٍ عَلَيْكَ﴾ السلامة [هي أن يسلم من^(٥) الشرور والآفات، والبركة هي نيل كل خير وبر على غير تبعة. ثم هما في التحصيل واحد؛ لأنه إذا سلم [المؤمن من^(٦)] كل شر وأقوا نال كل خير وبر، وإذا نال كل خير سلم من^(٧) كل شر. هما في الحقيقة واحد، لكنهما في العبارة مختلفان، وهما^(٨) كالبر والتقوى من العبد: البر هو كسب كل خير، والتقوى هو اتقاء كل شر ومعصية؛ هما في العبارة مختلفان، وفي الحقيقة واحد؛ لأنه إذا اتقى كل شر عمل كل خير وبر، وإذا كسب كل خير وبر اتقى كل معصية وشر.

وعلى ذلك يخرج الشكر والصبر؛ [فالصبر^(٩)] هو كف النفس عن كل مائمه، ٢٤١ - أ / والشكر هو استعمال النفس في كل طاعة. هما أيضاً في العبارة مختلفان، وفي الحقيقة واحد؛ لأنه إذا كف نفسه عن كل مائمه واستعملها في الطاعة كفها عن كل مائمه ومعصية.

وعلى ذلك يخرج الإسلام والإيمان: الإسلام [هو تسليم^(١٠)] النفس لله خالصة سالمة، لا تجعل لغيره فيها حقاً، والإيمان هو أن يصدق الله بالربوبية في نفسه وفي كل شيء، وهما في الحقيقة واحد، وفي العبارة مختلفان؛ لأنه إذا جعل نفسه وكل شيء سالماً لله أقر بالربوبية في نفسه وفي كل شيء، وإذا صدقه، وأقر له بالربوبية في نفسه، [وجعل نفسه وكل شيء لله فقد آمن^(١١)]. هذه الأشياء في العبارة مختلفة وفي التحصيل واحد.

ثم قوله تعالى: ﴿أَقِطْ يَسْكُرُ مِنَّا﴾ [يحتمل وجهين:

أحدهما^(١٢)]: جائز أن يكون جواب قوله ﴿وَلَا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي﴾ أمته بما^(١٣) خاف، وطلب منه المغفرة والرحمة.

والثاني: السلام^(١٤) منه هو الثناء الحسن كقوله ﴿سَلِّمْ عَلَيَّ نَجِّ فِي الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٩].

وقوله تعالى: ﴿وَبَرَكَتٍ عَلَيْكَ﴾ يحتمل أن يكون جواب قوله: ﴿أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكاً﴾ [المؤمنون: ٢٩] والبركة هو اسم كل خير لا انقطاع له، أو اسم كل شيء لا تبعة له عليه فيه.

(١) في الأصل وم: عن قولهم. (٢) في الأصل وم: من. (٣) في الأصل وم: وأخبار. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: هو أن يسلم عن. (٦) في الأصل وم: عن. (٧) في الأصل وم: عن. (٨) في الأصل وم: مختلف، وهو. (٩) في م: الصبر، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل: هو التسليم، في م: تسليم. (١١) في الأصل وم: وكل شيء جعلها لله وكل شيء له. (١٢) في الأصل وم: و. (١٣) في الأصل وم: عما. (١٤) في الأصل وم: السلامة.

ثم قوله: ﴿يَسْلَمُ رِئَا وَرَكَعَتَا عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمِّهِمْ وَمَنْ مَعَهُمْ﴾ وأَمَّا سَمِعْتُمْ عَلَىٰ قَوْلِ بَعْضِ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: ذَلِكَ السَّلَامُ لِمَا سَلِمُوا مِنَ الْغَرَقِ، والبركات ما نالوا في الدنيا مِنَ الْخَيْرَاتِ وَالْمَنَافِعِ. وعلى قَوْلِ بَعْضِهِمْ: السَّلَامُ والبركات جميعاً في الآخرة.

ثم جَعَلَ ﷻ المؤمن والكافر مُشْتَرَكَيْنِ فِي مَنَافِعِ الدُّنْيَا وَبَرَكَاتِهَا، وَجَعَلَ مَنَافِعَ الْآخِرَةِ وَبَرَكَاتِهَا لِلْمُؤْمِنِينَ خَاصَّةً بِقَوْلِهِ: ﴿الْمُنِيبَةُ لِلْمُنَافِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨] وهود: ٤٩ والقصاص: ٨٣] ويقول: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢] أَشْرَكَ الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ فِي زِينَةِ الدُّنْيَا، ثُمَّ جَعَلَهَا لِلْمُؤْمِنِينَ خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

فذلك قوله: ﴿وَأَمَّا سَمِعْتُمْ ثُمَّ يَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أَخْبَرَ أَنَّهُ يَمْتَعُهُمْ، ثُمَّ يُصِيبُهُمْ عَذَابُ الْيَمِّ، وَيَمْتَعُ الْمُؤْمِنُ أَيْضاً فِي هَذِهِ الدُّنْيَا بِأَنْوَاعِ الْمَنَافِعِ.

ثم أَخْبَرَ أَنَّ ﴿الْمُنِيبَةَ لِلْمُنَافِقِينَ﴾ ثُمَّ جَعَلَ الْعَاقِبَةَ بِإِزَاءِ مَا جَعَلَ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيمًا؛ أَعْنِي الْكُفْرَةَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وقوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ أُمِّهِمْ وَمَنْ مَعَهُمْ﴾ ولم يَكُنْ مَعَ نُوحٍ أُمُّهُ يَوْمَئِذٍ، إِنَّمَا كَانَ^(٣) مَعَهُ نَفَرٌ، وَلَكِنَّهُ أَرَادَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، الْأُمُّ الَّتِي كَانُوا مِنْ بَعْدِهِ. كَأَنَّهُ قَالَ: وَعَلَىٰ أُمِّهِمْ يَكُونُونَ مِنْ بَعْدِكَ.

فهذا يَدُلُّ أَنَّ دِينَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ ﷺ [دِينٌ وَاحِدٌ]^(٤) وَإِنْ اخْتَلَفَتْ شَرَائِطُهُمْ لِأَنَّ تِلْكَ الْأُمُّ لَمْ يَكُونُوا بِأَنْفُسِهِمْ مَعَ نُوحٍ، وَلَا كَانُوا مَعَهُ فِي الْعِبَادَاتِ الَّتِي كَانَ فِيهَا نُوحٌ. دَلَّ أَنَّهُمْ كَانُوا جَمِيعاً عَلَىٰ دِينِهِ، وَهُوَ وَاحِدٌ، وَعَلَىٰ ذَلِكَ يُخْرِجُ دَعَاؤُهُ ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِرَبِّئِي﴾ الْآيَةُ [نوح: ٢٨] دَعَاءٌ بِالْمَغْفِرَةِ لَهُ وَلِكُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ، يَكُونُ مِنْ بَعْدِهِ، وَكَذَلِكَ يَلْحَقُ كُلُّ^(٥) كَافِرٍ دَعَاؤُهُ ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح: ٢٨].

الآية ٤٩ وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيًا إِلَيْكَ﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿تِلْكَ﴾ أَيَّ قِصَّةِ نُوحٍ ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيًا إِلَيْكَ﴾ غَابَتْ عَنْكَ، لَمْ تَشْهَدْهَا، وَلَمْ تَعْلَمْهَا ﴿أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾.

إِنْ كَانَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ قِصَّةُ نُوحٍ خَاصَّةً وَأَنْبَاؤُهُ كَانَ يَجِيءُ أَنْ يَقُولَ: هَذِهِ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ، نُوحِيهَا إِلَيْكَ، لَكِنَّهُ كَانَ عَلَى الْإِضْمَارِ؛ أَيَّ هَذِهِ الْأَنْبَاءِ تِلْكَ الْأَنْبَاءُ الَّتِي ذُكِرَتْ فِي كُتُبِهِمْ. وَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ هَذِهِ وَغَيْرُهَا مِنَ الْأَنْبَاءِ [كَانَ]^(٦) يَصِيرُ كَأَنَّهُ قَالَ: هَذِهِ مِنْ تِلْكَ الْأَنْبَاءِ.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ الْقِصَصَ كُلَّهَا قِصَّةَ نُوحٍ وَغَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ غَابَتْ عَنْكَ، لَمْ تَشْهَدْهَا، وَلَا تَعْلَمْهَا ﴿أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾ خَصَّ قَوْمَهُ لِأَنَّ غَيْرَهُ مِنَ الْأَقْوَامِ قَدْ كَانُوا عَرَفُوا تِلْكَ الْأَنْبَاءَ، فَيُخْبِرُونَهُمْ، فَيَعْرِفُونَ بِهِ صِدْقَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وفيه دلالة إثبات رسالة محمد ﷺ لِأَنَّهُ أَخْبَرَهُمْ عَلَى مَا أَخْبَرَ أُولَئِكَ الَّذِينَ عَرَفُوا تِلْكَ الْأَنْبَاءَ بِكَسْبِهِمْ لِيُعْلِمَ أَنَّهُ إِنَّمَا عَرَفَ ذَلِكَ بِاللَّهِ؛ إِذْ تِلْكَ الْأَنْبَاءُ كَانَتْ بِغَيْرِ لِسَانٍ، وَلَمْ يُعْرِفْ أَنَّهُ اخْتَلَفَ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ. دَلَّ أَنَّهُ إِنَّمَا عَرَفَ بِاللَّهِ تَعَالَى.

وقوله تعالى ﴿فَاصْبِرْ﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿فَاصْبِرْ﴾ عَلَىٰ تَكْذِيبِهِمْ إِيَّاكَ وَعَلَىٰ إِذَاهُمْ، أَوْ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَمَرْتُ، وَنَهَيْتُ، أَوْ اصْبِرْ عَلَىٰ [مَا]^(٧) صَبَرَ إِخْوَانُكَ مِنْ قَبْلِ قَوْلِهِ ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَرْشِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] وَنَحْوُهُ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنِيبَةَ لِلْمُنَافِقِينَ﴾ يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿لِلْمُنَافِقِينَ﴾ الَّذِينَ اتَّقَوْا الشُّرْكَ، وَالَّذِينَ^(٨) اتَّقَوْا الشُّرْكَ وَالْمَعَاصِيَ كُلَّهَا. وَالْأَشْبَهُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنْهُ اتِّقَاءُ الشُّرْكِ لِأَنَّهُ ذَكَرَ بِإِزَاءِ قَوْلِهِ: ﴿وَأَمَّا سَمِعْتُمْ ثُمَّ يَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فَهُوَ فِي الْعَقْدِ أَشْبَهُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: الْإِسْلَام. (٢) أَدْرَجَ قَبْلَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: ثُمَّ قَالَ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: كَانُوا. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: عَمَّا. (٥) أَدْرَجَ قَبْلَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: عَلَى. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَأَمَّا الَّذِينَ.

وقال بغض أهل التاويل في قوله: ﴿أَقِظْ يَسْلَرْ﴾ مِنَ السَّفِينَةِ ﴿يَسْلَرْ مِتًا﴾ قَسَلَمَهُ اللَّهُ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْغَرَقِ ﴿وَبَرَكْتَ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أَمْرِ مِمَّنْ مَمَلَكٌ﴾ يعني بالبركة أنهم توالدوا، وكثروا، بعدما خرجوا من السفينة.

وعن ابن عباس رضي الله عنه [أنه قال^(١)] في قوله: ﴿وَبَرَكْتَ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أَمْرِ مِمَّنْ مَمَلَكٌ﴾ مِمَّنْ سَبَقَ لَهُ فِي عِلْمِ اللَّهِ الْبَرَكَاتُ وَالسَّعَادَةُ مِنَ النَّبِيِّينَ وَغَيْرِهِمْ.

الآية ٥٠ وقوله تعالى: ﴿وَإِلَّا عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ، صَلَوةُ قَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [الآية: ٢٥] فيقول: وقد أرسلنا هوداً إلى عادِ أخاهم.

ثم يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ ﴿أَخَاهُمْ﴾ الْأُخُوَّةَ؛ تَكُونُ عَلَى وَجْهِ:

أَخُودَهَا: أُخُوَّةٌ جِنْسٍ؛ يُقَالُ: هَذَا أَخُو هَذَا [نَحْوُ مُضْرَاعِي الْبَابِ؛ يُقَالُ لِأَخِيهِمَا: هَذَا أَخُو هَذَا]^(٢) وَنَحْوُ أَحَدِ زَوْجَيْ الْخُفِّ وَأَمثَالِهِ.

وَالثَّانِيَةُ^(٣): أُخُوَّةٌ فِي النَّسَبِ.

وَالثَّلَاثَةُ^(٤): أُخُوَّةٌ فِي الدِّينِ كَقَوْلِهِ ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ٤٩] فَهُوَ [إِنْ]^(٥) لَمْ يَكُنْ أَخًا لَهُمْ فِي الدِّينِ فَهُوَ يَحْتَمِلُ أَنَّهُ أَخُوهُمْ فِي الْجِنْسِ وَفِي النَّسَبِ لِأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ يَنْسَبُونَ إِلَى آدَمَ، فَيُقَالُ: بَنُو آدَمَ مَعَ بُعْدِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ. فَعَلَى ذَلِكَ يَكُونُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ إِخُوَّةٌ مَعَ بُعْدِ النَّسَبِ الَّذِي بَيْنَهُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿يَنْفَرُوا أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ عِزَّةٌ﴾ يُعْبَدُ؛ أَيِ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ لَيْسُوا بِالْهَةِ، لَا يَسْتَحِقُّونَ الْعِبَادَةَ. إِنَّمَا الْإِلَهَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ الَّذِي خَلَقَكُمْ، وَخَلَقَ لَكُمْ الْأَشْيَاءَ.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ أَيِ مَا أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ. لَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هُوَ^(٦) قَدْ قَالَ لَهُمْ هَذَا فِي أَوَّلِ مَا دَعَاهُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ وَفِي أَوَّلِ مَا رَدُّوا إِيَّاهُ، وَكَذَّبُوهُ، [لِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ]^(٧) أَمَرُوا بِلَيْنِ الْقَوْلِ لَهُمْ وَتَذْكِيرِ النِّعَةِ عَلَيْهِمْ كَقَوْلِهِ لِمُوسَى وَهَارُونَ حِينَ^(٨) بَعَثَهُمَا إِلَى فِرْعَوْنَ بِقَوْلِهِ: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَلَّا﴾ [الآية: ٤٤] وَلَكِنْ كَانَهُ قَالَ لَهُمْ ذَلِكَ لِمَا سَبَقَ مِنْهُ إِلَيْهِمْ دَعَاءُ غَيْرِ مَرَّةٍ، وَأَقَامَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ وَالْبَرَاهِينَ، فَرَدُّوهُمَا. فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ لَهُمْ هَذَا حِينَ^(٩) ﴿قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [الآية: ٥٣].

وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ يَحْتَمِلُ فِي تَسْمِيَّتِهِمُ الْأَصْنَامَ الَّتِي عْبَدُوهَا؛ يَقُولُ ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ فِي ذَلِكَ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ سَمَّاهُمْ مُفْتَرِينَ^(١٠) فِي مَا قَالُوا: اللَّهُ أَمْرُهُمْ بِذَلِكَ: أَنْتُمْ أَفْتَرَيْتُمْ فِي مَا ادَّعَيْتُمْ الْأَمْرَ بِذَلِكَ،^(١١) أَوْ مُفْتَرُونَ فِي إِنْكَارِكُمْ^(١٢) الْبَغْتِ وَالرَّسَالَةَ.

الآية ٥١ وقوله تعالى: ﴿يَنْفَرُوا لَا أَشْتَكُرُ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَىٰ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ هَذَا قَدْ ذُكِرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ؛ يَقُولُ لَهُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، إِنِّي لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَى مَا أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ أَجْرًا يَمْنَعُكُمْ ثَقُلَ ذَلِكَ الْأَجْرُ وَعِزُّهُ عَنِ الْإِجَابَةِ. فَمَا الَّذِي يَمْنَعُكُمْ عَنِ الْإِجَابَةِ لِي، وَلَا يَحْمِلُكُمْ^(١٣) عَلَى الرَّدِّ؟ بَلْ أَدْعُوكُمْ [إِلَى مَا أَدْعُوكُمْ]^(١٤) إِلَيْهِ مَا تَرْغَبُونَ فِيهِ، فَكَيْفَ يَمْنَعُكُمْ عَنِ الْإِجَابَةِ وَالنَّظَرِ فِي مَا أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ بِآيَاتٍ وَحُجَجٍ، جِثْتُ بِهَا؟ ﴿أَفَلَا تَعْلَمُونَ﴾ أَنَّهُمَا آيَاتٌ وَحُجَجٌ ٢٤١ - ب/ وَنَحْوُهَا^(١٥)

أَوْ يَقُولُ: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أَنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ، وَأَنَّهُ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَخَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَمُنْشِئُهُ؟

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: لأحدهما. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: و. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: لأنهم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: مفترئون. (١١) إشارة إلى قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَالُوا وَبَدَّلْنَا عَلَيْنَا وَكَلَامَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] (١٢) في الأصل وم: إنكارهم. (١٣) في الأصل وم: ويحملكم. (١٤) في الأصل: على ما أَدْعُوكم، ساقطة من م. (١٥) في الأصل وم: ونحوه.

الآية ٥٢

وقوله تعالى: ﴿وَتَقَوِّرُوا رِبِّكُمْ ثُمَّ قُوتُوا إِلَيْهِ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ [وقوله^(١)] ﴿ثُمَّ قُوتُوا إِلَيْهِ﴾ واحداً، وَيَحْتَمِلُ عَلَى التَّقْدِيمِ والتَّأْخِيرِ: تَوَبُوا إِلَيْهِ، ثُمَّ اسْتَغْفِرُوا مَا كَانَ مِنْكُمْ مِنَ الْمَسَاوِي: أَيِ أَقْبَلُوا إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ، وَانْتَدَمُوا عَلَى أَعْمَالِكُمْ.

وقوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ مَعْلُومٌ أَنَّ هُوداً لَمْ يَرِدْ بِقَوْلِهِ: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ أَنْ يَقُولُوا: نَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، وَلَكِنْ أَمَرُهُمْ أَنْ يَطْلُبُوا السَّبَبَ الَّذِي يُوجِبُ لَهُمُ الْمَغْفِرَةَ، وَيُجِزُّ، وَهُوَ التَّوْحِيدُ. كَانَهُ قَالَ: وَخُذُوا رَبَّكُمْ، وَآمِنُوا بِهِ، ثُمَّ تَوَبُوا إِلَيْهِ، أَوْ يَقُولُ: اظْلُبُوا الْمَغْفِرَةَ بِالْإِنْتِهَاءِ عَنِ الْكُفْرِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

وقوله تعالى: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ يَدْرَاراً وَرِزْقاً قُوَّةً إِلَى قُوتِكُمْ﴾ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: إِنَّهُ كَانَ قَدْ انْقَطَعَ عَنْهُمْ الْمَطَرُ، وَانْقَطَعَ نَسْلُهُمْ، فَأَخْبَرَ أَنْكُمْ إِنْ تُبْنِمَ إِلَى اللَّهِ، وَاسْتَغْفَرْتُمْ رَبَّكُمْ ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ يَدْرَاراً﴾ الْآيَةَ حَتَّى تَتَسَاءَلُوا، وَتَتَوَالَدُوا.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ يَدْرَاراً﴾ أَيِ يَزِدُّكُمْ قُوَّةً [فِي] أَعْمَالِكُمْ إِلَى قُوَّةِ أَبْدَانِكُمْ لِأَنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ قُوَّةٍ وَاهِلٍ بَطْنٍ بِقَوْلِهِمْ: ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

وَيَحْتَمِلُ عَلَى الْإِنْتِدَاءِ: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ يَدْرَاراً﴾ يَزِدُّكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوتِكُمْ:

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا﴾ عَمَّا أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ، فَتَكُونُوا ﴿مُحْرِمِينَ﴾ الْمَجْرَمُ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ: هُوَ الْوَقَابُ فِي الْإِنْمِ، وَقِيلَ: هُوَ الْمُكْتَسِبُ.

الآية ٥٣

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ عَلَى مَا تَدْعُونَا إِلَيْهِ أَوْ عَلَى مَا تَدْعِي مِنَ الرِّسَالَةِ؛ فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ لَهُمْ هُودٌ: ﴿إِنْ أَشَرُ إِلَّا مُنْهُوْكَ﴾ [الآية: ٥٠] [وقالوا^(٢)]: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا﴾ أَيِ مَا نَحْنُ بِتَارِكِي عِبَادَةِ آلِهَتِنَا ﴿عَنْ قَوْلِكَ﴾ أَيِ بِقَوْلِكَ. كَانَ لَا يَدْعُوهُمْ هُودٌ إِلَى تَرْكِ عِبَادَةِ آلِهَتِهِمْ بِقَوْلِهِ خَاصَّةً، وَلَكِنْ قَدْ دَعَاهُمْ، وَأَقَامَ عَلَى فِسَادِ [تِلْكَ الْعِبَادَةِ] ^(٣) الْحُجَجِ وَالْبِرَاهِينِ. لَكِنَّهُمْ قَالُوا مُتَعَتِّينَ مُكَابِرِينَ ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ فِي مَا تَدْعُونَا إِلَيْهِ، وَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَغْبُدُ آبَاؤُنَا.

الآية ٥٤

وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَقُولْ إِلَّا اعْتَرَفْتَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ قِيلَ: هُوَ كَانَ يُسَبِّحُ آلِهَتَهُمْ، وَيَذْكُرُهُمْ بِالْعَيْبِ، فَيَقُولُونَ: إِنَّهُ يَغْتَرِّيكَ مِنْ [ذِكْرِ بَعْضِ آلِهَتِنَا سُوءٍ، أَوْ تُصِيبُكَ] ^(٤) بِجُنُونٍ أَوْ خَبَلٍ، فَلَا نُحِبُّ أَنْ يُصِيبَكَ مِنْهَا [شَيْءٌ] ^(٥)، فَاجْتَنِبْنَهَا سَالِماً. فَذَلِكَ يُخْرِجُ مِنْهُمْ مُخْرَجَ الْإِمْتِنَانِ؛ أَيِ إِنَّمَا نَنْهَاكَ عَنْ سَبِّ آلِهَتِنَا وَذِكْرِ الْعَيْبِ فِيهَا إِشْفَاقاً عَلَيْكَ لِئَلَّا يُصِيبَكَ شَيْءٌ مِنْهَا.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالُوا: شَتَمْتَ آلِهَتَنَا، فَخَبَلْتَكِ، وَأَصَابَتْكِ بِالْجُنُونِ؛ فَتَأْوِيلُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: أَنَّكَ إِنَّمَا تَدْعُونَا إِلَيْهِ، وَتَدْعِي مَا تَدْعِي لِمَا أَصَابَتْكَ آلِهَتُنَا بِسُوءٍ، وَاعْتَرَفْتَ بِجُنُونٍ؛ كَانُوا يُخَوِّفُونَهُ أَنْ تُصِيبَهُ ^(٦) آلِهَتُهُمْ بِسُوءٍ بِتَرْكِ عِبَادَتِهَا عَلَى مَا كَانُوا يَزُجُّونَ، وَيَطْمَعُونَ بِعِبَادَتِهِمْ إِيَّاهَا وَشَفَاعَتِهَا ^(٧) لَهُمْ.

[وقوله تعالى^(٨)]: ﴿قَالَ إِنَّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ بِهِ، وَتَعْبُدُونَهُ مِنَ الْآلِهَةِ.

الآية ٥٥

وَاشْهَدُوا أَنْتُمْ أَيْضاً بَأَنِّي بَرِيءٌ مِنْ ذَلِكَ [وقوله تعالى^(٩)]: ﴿تَكِيدُونِي جَمِيعاً﴾ أَنْتُمْ وَالْهَيْكُكُمْ فِي مَا تَدْعُونَنِي مِنَ الْهَلَاكِ وَالسُّوءِ ﴿ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِي﴾ أَيِ لَا تُؤَمِّلُونَنِي فِي ذَلِكَ.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿تَكِيدُونِي جَمِيعاً﴾ أَنْتُمْ وَالْهَيْكُكُمْ جَمِيعاً [يقول^(١٠)]: اغْمَلُوا أَنْتُمْ وَالْهَيْكُكُمْ جَمِيعاً الَّتِي تَزْعُمُونَ أَنَّهَا

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: ذلك. (٥) في الأصل وم: بعض آلِهَتِنَا بِسُوءٍ أَوْ يُصِيبُكَ. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: نصيب. (٨) في الأصل وم: شفاعتهم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) من م، ساقطة من الأصل.

خَبَلْتَنِي وَاجْتَبْتَنِي ﴿ثُمَّ لَا تُظِرُّونِي﴾ أي لا تمهلوني. وهذا من أشد آيات النبوة لأنه يقول [لهم، وهو بين أظهرهم وجيداً، فلولا أنه يقول^(١)] ذلك لهم بقوة من الله والاعتماد له عليه والانتصار به، وإلا ما اجتراً أحد أن يقول بمثل هذا بين أعدائيه.

علم أنه قال ذلك بالله تعالى، وكذلك قول رسول الله: ﴿قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ﴾ [الآية: الأعراف: ١٩٥] وقول نوح ﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُظِرُّونِي﴾ [يونس: ٧١] وقول شعيب ﴿وَيَقُولُوا أَعْمَلُوا عَلَى مَكَائِكُمْ﴾ [الآية: ٩٣] وأمثاله قالوا ذلك بين أظهر الأعداء، ولم يكن معهم أنصار ولا أعوان. دل أنهم قالوا ذلك بالله، وذلك من آيات النبوة.

الآية ٥٦

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ﴾ أي قرضت أمري إليه، أو وكلته جميع أعمالي^(٢)، أو وثقت به، واغتمذت عليه في ما توعدوني من الهلاك، أو توكلت عليه في دفع ما أوعدتموني ﴿رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ أي كيف توعدوني بالهتكم التي تعدون؟ ﴿وَلَا تَخَافُوكُمْ أَنْتُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ﴾ [الأنعام: ٨١].

وقوله تعالى: ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذٌ بِنَاصِيئَةٍ﴾ يعنيها متى شاء. وقوله: ﴿وَآخِذٌ بِنَاصِيئَةٍ﴾ أي في ملكه وسلطانه، يقال: فلان آخذ بخلقوم فلان، وفلان بقبضة فلان، ليس أنه في قبضته بنفسه، وآخذ بخلقوم فلان، ولكن يراد أنه في سلطانه وفي ملكه وفي قبضته ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي على الذي أمرني ربي، ودعاني إليه. أو يكون قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي إن الذي أمرني ربي، ودعاني إليه، هو صراط مستقيم كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤].

وقال أبو عوسجة: الإغتراء هو الأخذ؛ يقال: اغترته الحمى، أي أخذته، وقال القتيبي: الإغتراء الإصابة؛ يقول: ﴿إِلَّا أَغْتَرَيْتَكَ﴾ إلا أصابك، يقال: اغتريت أصبت، وهو ما ذكرنا.

الآية ٥٧

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾ يحتمل على الإصمارة؛ أي فإن تولوا عن إجابتي وطاعتك [فقل: قد أبلغتكم]^(٣) رسالات ربي لأن قوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ إنما هو خبر، وقوله: ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ﴾ خطاب. وامكن أن يكونا جميعاً على الخطاب؛ يقول: فإن توليتم عن إجابتي في ما أَدْعُوكُمْ إليه ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾ وليس عليّ إلا تبليغ الرسالة إليكم كقوله: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَاسُ أَلْبَاسٍ﴾ [النور: ٥٤] وكقوله: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا أَلْبَاسٌ﴾ [الشورى: ٤٨] يقول: إنما عليّ إبلاغ الرسالة إليكم، ليس عليّ جزم توليكم عن إجابتي كقوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ مَا حَمَلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حَمَلْتُمْ﴾ [النور: ٥٤] ونحوه، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَسَنَخْلُقُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ﴾ خلقكم لأنهم كانوا يقولون: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥] يقول، والله أعلم: إن قوة أبدانكم وبطشكم، لا يعجز الله عن إهلاككم. وفيه أن عاداً ليسوا هم النهاية في العالم، بل يكون بعدهم قوم غيرهم، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئاً﴾ [يحتمل وجوهاً:

أحدها^(٤): لا تضرّونه بتولييتكم عن إجابتي وردكم رسالة الله إليكم؛ ليس كملوك الأرض إذا تولى عنهم خدمتهم وحشمهم ضرهم ذلك.

والثاني: ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ﴾ كما يضر ملوك الأرض بالقتال والحرب بعضهم بعضاً.

والثالث: ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئاً﴾ لأنه لا منفعة له^(٥) في ما يدعوكم حتى يضره ذلك؛ إذ ليس يدعوكم إلى ما يدعو لحاجة نفسه ولا لمنفعة له^(٦)، إنما يأمركم، ويدعوكم لحاجة أنفسكم والمنفعة لكم.

والرابع^(٧): أن يكون ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئاً﴾ جواب قوله: ﴿تَكِيدُونِي جَمِيعاً﴾ [الآية: هود: ٥٥].

[وقوله تعالى^(٨): ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَافِظٌ﴾ لا يخفى عليه شيء، وإن لطف، فكيف يخفى عليه أعمالكم وأحوالكم

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: في جميع عملي إليه. (٣) في الأصل: فقال: قد أبلغتكم، في م: فقل قد أبلغتكم. (٤) في الأصل وم: أي. (٥) أدرج بعدها في الأصل وم: فيه. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: ويحتمل. (٨) ساقطة من الأصل وم.

مع ظهورها وبذوها؟ أو يقول: إن ربي على كل شيء حفيظ، فيجزى عليه؛ أي لا يذهب عنه شيء، أي لا يفوته، والله أعلم.

الآية ٥٨

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَهْلَنَا بِنَجَاتٍ هُودًا﴾ قوله: ﴿جَاءَ أَهْلَنَا﴾ أمر تكوين لا أمر تفضي الساعة كقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] فعلى ذلك هذا هو أمر تكوين، وقد ذكرناه.

وقوله تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ هذا يدل أن من نجا فلانما نجا برحمة منه، لا بعلمه.

وعلى ذلك روي في الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال لا يدخل أحد الجنة إلا برحمة الله، قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمّدني الله برحمته [مسلم ٧١/٢٨١٦ و. و. ٧٨/٢٨١٨] لا على ما يقول المعتزلة: إن من نجا فلانما ينجو بعلمه لا برحمته.

ثم يَحْتَمِلُ قوله: ﴿بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ [وجهين:

أحدهما^(١): الرحمة ههنا [هود أي رحمهم به حين بعثه]^(٢) إليهم رسلاً، فنجا من أتبعه، فإن كان هذا ففيه أن أهل الفترة معاقبون في حال لأنه أخبر أن من نجا فلانما نجا بهود، فدل أنهم معاقبون قبل بعث الرسل إليهم.

والثاني^(٣): قوله ﴿بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ أي بتوفيق منا إياهم نجا من نجا منهم.

[وقوله تعالى]^(٤): ﴿وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ قال بعضهم: نجّيناهم من العذاب الذي أهلك هؤلاء. ويَحْتَمِلُ أن يكون على الوعد أي يُنجيهم في الآخرة ﴿مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

الآية ٥٩

وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَمَدُوا﴾ أي وتلك أهل قرية عاد ﴿جَمَدُوا بِأَيِّتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ والكفر^(٥) بالآيات كُفّر بجميع الرسل، والكفر بواحد من الرسل كُفّر بالرسل جميعاً، وبالله التوفيق؛ لأن كل واحد من الرسل، يدعو إلى الإيمان بالله وبجميع الرسل. فالإيمان بواحد منهم إيمان بالله وبجميع الرسل والآيات، والكفر بواحدة^(٦) منها كُفّر بالله وبجميع الرسل.

وإنما كان الكفر بالآيات كُفراً بالله لأن الله إنما يُعَرِّفُ من جهة الآيات، والكفر بالآيات كُفراً به.

وقوله تعالى: ﴿وَأَتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ قيل: أخبر أنهم اتبعوا أمر الجبابرة، وأطاعوهم، وتركوا اتباع الرسل، وطاعتهم. قيل: [الجبار]^(٧) هو المتجبر الذي يتجبر على الرسل، ويتكبر عليهم؛ لأن الرؤساء منهم كانوا يتجبرون على الرسل، ويتكبرون. والاتباع اتبعوا الرؤساء في عملهم.

قال أبو عوسجة: الجبار هو المتجبر، والعنيد هو المعاند المخالف، وقال الفتي: العنود والعنيد والمعاند المعارض لك بالخلاف عليك، وقال أبو عبيدة: العنيد والمعاند هو الجبار.

الآية ٦٠

وقوله تعالى: ﴿وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَمَنَّةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ قال بعضهم: اللمنة هو العذاب؛ أي أتبعوا في الدنيا وفي الآخرة [العذاب]^(٨) كقوله ﴿أَلَا لَمَنَّةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨] أي عذاب الله.

وقوله تعالى: ﴿وَأَتَّبِعُوا﴾ أي ألحقوا. وقيل: إن اللمن هو الطرد، طردوا من رحمة الله حتى لا ينالوها^(٩) لا في الدنيا ولا في الآخرة ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ أي الأبعد من رحمة الله.

الآية ٦١

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا خِطَابًا مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ﴾ هو ما ذكرناه؛ أي أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً، وقوله: ﴿أَخَاهُمْ﴾ قد ذكرنا أيضاً أن الأخوة تنجى إلى وجوه ثلاثة: أخوة في الدين وأخوة الجنس وأخوة في النسب.

(١) في الأصل وم: وجوها. (٢) في الأصل وم: هوداً أي رحمهم به حيث بعث. (٣) في الأصل وم: ويحتمل. (٤) في الأصل وم: والثالث. (٥) في الأصل وم: بالكفر. (٦) في الأصل وم: بواحد. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: ينالونها.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَتَزَوَّرُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ إِنَّ الرُّسُلَ جَمِيعًا، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، أَوَّلَ مَا دَعَا قَوْمَهُمْ إِنَّمَا دَعَا إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ، وَجَعَلَ الْعِبَادَةَ لَهُ لِأَنَّهُ غَيْرُهَا ^(١) مِنَ الْعِبَادَاتِ إِنَّمَا تَقُومُ بِالتَّوْحِيدِ، وَكَانَ أَوَّلَ مَا دَعَا قَوْمَهُمْ إِلَيْهِ لَمْ يَزَلْ عَادَةَ الرُّسُلِ، وَعَلَّمُوهُمْ ^(٢) الدِّعَاءَ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَالْعِبَادَةَ لَهُ.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: ﴿هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ يَقُولُ: هُوَ خَلَقَكُمْ مِنْ آدَمَ، وَخَلَقَ آدَمَ مِنَ الْأَرْضِ. لَكِنَّهُ أَضَافَ خَلَقَ الْخَلَائِقِ إِلَيْهَا كَمَا أَضَافَ فِي قَوْلِهِ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ﴾ [الاعراف: ١٨٩] أَخْبَرَ أَنَّهُ خَلَقَنَا مِنْ نَفْسِهِ آي آدَمَ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ أَنْفُسُنَا فِيهِ.

فَعَلَى ذَلِكَ إِضَافَتُهُ إِيَّانَا بِالْخَلْقِ مِنَ الْأَرْضِ، وَإِنْ لَمْ يَخْلُقْ أَنْفُسَنَا مِنْهَا؛ أَيِ خَلَقَ أَصْلَنَا، وَأَنْشَأَهُ مِنَ الْأَرْضِ، فَأَضَافَ إِنْشَاءَنَا إِلَى مَا أَنْشَأَ أَصْلَنَا.

وَيُسَبِّحُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ أَيِ جَعَلَ نَشَأَ الْخَلَائِقِ كُلِّهِمْ وَنَمَاءَهُمْ وَحَيَاتَهُمْ وَمَعَاشَهُمْ بِالْخَارِجِ مِنَ الْأَرْضِ؛ إِذْ بِهِ نَشَأَتْهُمْ وَنَمَاءَتْهُمْ وَحَيَاتُهُمْ وَقَوَامُهُمْ مِنْهَا.

وقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: أَسَكَنْكُمْ فِيهَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: اسْتَخْلَفَكُمْ فِيهَا، وَقَالَ غَيْرُهُمْ ^(٣): قَوْلُهُ ﴿وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أَيِ جَعَلَ لَكُمْ عُمَارَ الْأَرْضِ؛ تَعْمَرُونَهَا [لِلْمَعَادِ كُمْ وَمَعَاشِكُمْ] ^(٤) جَعَلَ عِمَارَةَ هَذِهِ الْأَرْضِ إِلَى الْخَلْقِ؛ هُمْ الَّذِينَ يَقُومُونَ بِعِمَارَتِهَا وَبِنَائِهَا وَأَنْوَاعِ الْإِنْتِفَاعِ بِهَا، وَيَرْجِعُ كُلُّهُ إِلَى وَاحِدٍ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أَيِ جَعَلَ عُمرَكُمْ طَوِيلًا.

وقوله تعالى: ﴿فَأَسْتَغْفِرُهُ ثُمَّ تَوَلَّى إِلَيْهِ﴾ هَذَا قَدْ ذَكَرْنَا فِي مَا تَقَدَّمَ فِي قِصَّةِ نُوحٍ: أَيِ كُونِهَا بِحَالٍ، يَغْفِرُ لَكُمْ هُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] كَانَهُ قَالَ: فَإِنْ انْتَهَوْا عَنِ الْكُفْرِ يُغْفَرْ لَهُمْ ^(٥).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ لِيَحْفَظَ الْخَلَائِقِ، أَوْ قَرِيبٌ لِمَنْ أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ وَأَمَّنَّا بِهِمْ ^(٦)، أَوْ قَرِيبٌ إِلَى كُلِّ مَنْ يَفْزَعُ إِلَيْهِ، مُجِيبٌ لِدُعَاءِ كُلِّ دَاعٍ، اسْتَجَابَ لَهُ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ [البقرة: ١٨٦] وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَأَذِّنْ لِلْبَيْتِ﴾ [البقرة: ٤٠].

الآية ٦٢

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَصْلِحْ فَدَكَّنْتُ فِيْنَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُمْ: ﴿فَدَكَّنْتُ فِيْنَا مَرْجُوًّا﴾ كُنْتُ تَرْحَمُ الضُّعَفَاءَ، وَتَعُوذُ الْمَرْضَى، وَنَحْوَهُ مِنَ الْكَلَامِ، فَالسَّاعَةُ صِرَتْ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ.

وقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿فَدَكَّنْتُ فِيْنَا مَرْجُوًّا﴾ كُنَّا نَرْجُو أَنْ تَرْجِعَ إِلَى دِينِنَا قَبْلَ هَذَا الَّذِي تَدْعُونَا إِلَيْهِ، فَالسَّاعَةُ صِرَتْ، تَشْتُمُ إِلَيْنَا، وَتَذَكِّرُهَا بِعَيْبٍ ﴿أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ أَيِ مَا كُنَّا نَعْرِفُ أَنَّ آبَاءَنَا عِنْدَكَ مُقْبَاهٌ مِنْ قَبْلِ هَذَا، فَالسَّاعَةُ تُسَفِّهُ أَحْلَامَهُمْ فِي عِبَادَتِهِمْ الْأَصْنَامَ ﴿وَأِنَّا لَنَبِيُّ شَيْءٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ سُرِيبٌ﴾ أَوْ كَانُوا يَذْكُرُونَ هَذَا لَهُ اخْتِجَاجًا لَهُمْ عَلَيْهِ فِي مَا دَعَاهُمْ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِمْ إِيَّاهُ، فَقَالُوا: إِنَّا عَلَى يَقِينٍ أَنَّ آبَاءَنَا قَدْ عَبَدُوا هَذِهِ الْأَصْنَامَ ﴿وَأِنَّا لَنَبِيُّ شَيْءٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ سُرِيبٌ﴾ أَيِ يُرِيدُنَا أَمْرُكَ وَدُعَاؤُكَ لَنَا إِلَى هَذَا الدِّينِ.

قَدْ قِيلَ هَذَا، وَلَكِنَّا لَا نَعْلَمُ مَا كَانُوا يَرْجُونَ فِيهِ، وَمَا الْمَعْنَى الَّذِي قَالُوا لَهُ: ﴿فَدَكَّنْتُ فِيْنَا مَرْجُوًّا﴾ سَوِيًّا أَنَا نَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ مَرْجُوًّا فِيهِمْ فِي الْعَقْلِ وَالِدِّينِ وَالْعِلْمِ وَالْبَصِيرَةِ وَنَحْوِهِ؟ فَكَانَ مَرْجُوًّا فِيهِمْ بِالْأَشْيَاءِ الَّتِي ذَكَرْنَا. هَذَا [مَا] ^(٧) نَعْلَمُ، وَلَا نَعْلَمُ مَا عَنَى أُولَئِكَ بِقَوْلِهِمْ ﴿فَدَكَّنْتُ فِيْنَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٦٣

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَتَزَوَّرُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَنِ يَتَنَّهُ﴾ [يَخْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا] ^(٨) أَيِ كُنْتُ عَلَى حُجَّةٍ وَبُرْهَانٍ وَبَيَانٍ مِنْ رَبِّي فِي مَا أَدْعُوكُمْ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَضَرْفِ الْعِبَادَةِ إِلَيْهِ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: غَيْرِهِ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَعَلَّمَهُمْ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: غَيْرِهِ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: لِمَعَادِهِمْ وَمَعَاشِهِمْ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: لَكُمْ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَأَمَّنَّا. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

والثاني: قوله: ﴿قَالَ يَتَقَوَّمُ أَرَيْتَ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَمِينٍ مِّن رَّبِّي وَأَنْتَنِي مِنْهُ رَحِمَةً﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ ﴿وَأَنْتَنِي مِنْهُ رَحِمَةً﴾ أَيِ اتَّانِي هُدًى وَنُبُوَّةً مِنْ عِنْدِهِ ﴿فَمَنْ يَضُرُّنِي مِنَ اللَّهِ﴾ أَيِ مَنْ يَمْنَعُنِي مِنَ عَذَابِ اللَّهِ ﴿إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ وَرَجَعْتُ إِلَىٰ دِينِكُمْ؟ أَيِ لَا أَحَدٌ يَضُرُّنِي لَوْ أَجَبْتُكُمْ إِلَىٰ مَا دَعَوْتُمُونِي إِلَيْهِ؛ أَيِ لَا أَحَدٌ يَضُرُّنِي دُونَ اللَّهِ لَوْ أَجَبْتُكُمْ، وَأَطَعْتُكُمْ فِي مَا دَعَوْتُمُونِي إِلَيْهِ. ثم الذي دَعَوَهُ إِلَيْهِ يَحْتَمِلُ تَرْكُ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ إِلَيْهِمْ أَوْ دَعْوَتَهُ إِلَىٰ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ الَّتِي عَبَدُوهَا.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْيِيرٍ﴾ قِيلَ فِيهِ بوجوه: قِيلَ: فَمَا تَزِيدُونَنِي بِمُجَادَلَتِكُمْ إِيَّايَ فِي مَا تُجَادِلُونَنِي إِلَّا خُسْرَانًا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَمَا تَزِيدُونَنِي بِمَعْصِيَتِكُمْ إِيَّايَ إِلَّا خُسْرَانًا لِأَنْفُسِكُمْ. وَقَالَ الْقَتَّابِيُّ: ﴿غَيْرَ تَخْيِيرٍ﴾ أَيِ ^(١) غَيْرَ نَقْصَانٍ. وَقَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ: ﴿غَيْرَ تَخْيِيرٍ﴾ هُوَ مِنَ الْخُسْرَانِ؛ خَسْرَتُهُ أَيِ الزَّمَنَةُ الْخُسْرَانُ.

وقوله تعالى: ﴿وَيَتَقَوَّمُ هَذِهِ. نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ﴾ قَالَ لَهُمْ هَذَا حِينَ سَالُوا مِنْهُ الْآيَةَ، فَقَالَ: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ أَيِ لَكُمْ الْآيَةُ ^(٢) الَّتِي سَأَلْتُمُوهَا مِنَ الرِّسَالَةِ.

وقوله تعالى: ﴿نَاقَةُ اللَّهِ﴾ أَضَافَهَا ^(٣) إِلَيْهِ لِخُصُوصِيَّةِ كَانَتْ فِيهَا، / ٢٤٢ - ب/ نَحْنُ لَا نَعْرِفُهَا ^(٤). لَيْسَتْ تِلْكَ الْخُصُوصِيَّةُ فِي غَيْرِهَا مِنَ النَّوْقِ لَمَّا جَعَلَهَا آيَةً لِّرِسَالَتِهِ وَنُبُوَّتِهِ خَارِجَةً عَمَّا عَابَتُوا مِنَ النَّوْقِ، وَشَاهَدُوهَا. وَهَكَذَا كَانَتْ آيَاتُ الرُّسُلِ؛ كَانَتْ خَارِجَةً عَنِ وَسْعِ الْبَشَرِ. وَطَرَفُهُمْ لِيُعْلَمَ أَنَّهَا سَمَآوِيَّةٌ.

ثم لَا نَعْرِفُ [لَهَا خُصُوصِيَّةً سِوَى] ^(٥) عِظَمِ جَنْسِهَا وَغِلْظِ بَدَنِهَا حِينَ ^(٦) قَسَمَ الشَّرْبُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهَا حَتَّىٰ جَعَلَ يَوْمًا لَهَا وَيَوْمًا لَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿فَمَا يَزِيدُ وَلَكُزْ يَزِيدُ يَوْمَ تَمُوتُ﴾ [الشعراء: ١٥٥] وَلَمْ يَقْسِمِ مَرَاعِيَهَا بَيْنَهَا وَبَيْنَهُمْ بِقَوْلِهِ ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ﴾.

وَأَمَّا مَا قَالَهُ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّهَا خَرَجَتْ مِنْ صَخْرَةٍ كَذَا وَأَنَّهَا كَانَتْ تَحْلِبُ كُلَّ يَوْمٍ كَذَا، وَأَشْيَاءَ أُخْرَىٰ ذَكَرُوهَا، فَإِنَّا لَا نَعْرِفُ ذَلِكَ، وَلَا نَقْطَعُ الْقَوْلَ فِيهِ: إِنَّهُ كَانَ كَذَلِكَ سِوَىٰ أَنَا نَعْرِفُ أَنَّ لَهَا خُصُوصِيَّةً ^(٧)، لَيْسَتْ تِلْكَ الْخُصُوصِيَّةُ لِغَيْرِهَا مِنَ النَّوْقِ. وَلَوْ كَانَتْ لَنَا حَاجَةٌ ^(٨) إِلَىٰ تِلْكَ الْخُصُوصِيَّةِ لَبَيَّنَّا لَنَا.

وَأَضْلُهُ مَا ذَكَرْنَا أَنَّهُ إِذَا أُضِيفَتْ ^(٩) جُزْئِيَّةُ الْأَشْيَاءِ إِلَى اللَّهِ فِيهِ ^(١٠) عَلَىٰ تَعْظِيمِ تِلْكَ الْجُزْئِيَّاتِ الْمُضَافَةِ إِلَيْهِ، وَإِذَا [أُضِيفَتْ كُلِّيَّةُ الْأَشْيَاءِ إِلَيْهِ] ^(١١) فِيهِ عَلَىٰ إِرَادَةِ التَّعْظِيمِ لِلَّهِ وَالتَّجْجِيلِ لَهُ نَحْوُ قَوْلِهِ: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ﴾ [البقرة: ١٠٧...]. ^(١٢)

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ﴾ نَهَاهُمْ [أَنْ يَمْسُوهَا] ^(١٣) بِسُوءٍ، وَلَمْ يَبَيِّنْ مَا ذَلِكَ السُّوءُ، فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ [شَيْئًا عَرَفُوهُ، وَنَهَاهُمْ عَنْهُ] ^(١٤).

وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: ﴿وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ﴾ أَيِ لَا تَغْفِرُوهَا ﴿فَاتَّخَذُوا عَذَابَ قَرْيَةٍ﴾ كَانَ ^(١٥) ذَلِكَ عَلَىٰ إِنْشَاءِ غَفْرِهِمْ النَّاقَةَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ حِينَ ^(١٦) قَالَ: ﴿فَمَقَرُّوهَا فَقَالَ تَمْسُوهَا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [الآية: ٦٥] وَمَا ذُكِرَ أَيْضًا أَنَّ وُجُوهَهُمْ أَضْفَرَتْ فِي الْيَوْمِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ اخْمَرَتْ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي، ثُمَّ اسْوَدَّتْ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ، ثُمَّ نَزَلَ بِهِمُ الْعَذَابُ فِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ، فَكَذَلِكَ أَيْضًا مَا لَا نَعْرِفُهُ.

وقوله تعالى: ﴿عَذَابَ قَرْيَةٍ﴾ قِيلَ: سَرِيعًا؛ لَا تُنْهَلُوا حَتَّىٰ تَعَذَّبُوا.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَعَدُّ﴾ مِنَ اللَّهِ ﴿غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ لَيْسَ فِيهِ كَذِبٌ. وَكَانَ عَذَابُهُمْ إِنَّمَا نَزَلَ عَلَىٰ إِنْشَاءِ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: آيَةً. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: أَضَافَ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: نَعْرِفُ ذَلِكَ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنَّهُ خُصُوصِيَّةٌ كَانَتْ لَهَا. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٧) أَدْرَجَ قَبْلُهَا فِي الْأَصْلِ وَم: كَانَتْ. (٨) أَدْرَجَتْ فِي الْأَصْلِ وَم: بَعْدَ: الْخُصُوصِيَّةِ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: أُضِيفَ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: فَهُوَ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: أُضِيفَ إِلَىٰ كُلِّيَّةِ الْأَشْيَاءِ. (١٢) أَدْرَجَ بَعْدَ هَذَا الْقَوْلِ فِي الْأَصْلِ وَم: وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَنَحْوُهُ. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: يَمْسُوهَا. (١٤) فِي الْأَصْلِ وَم: شَيْءٌ عَرَفُوا هُمُ وَنَهَاهُمْ عَنْ ذَلِكَ. (١٥) أَدْرَجَ قَبْلُهَا فِي الْأَصْلِ وَم: لَمَّا. (١٦) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ.

السؤال الآي؛ سألوا ذلك، فلما أن جاءهم بها كذبوها، فنزل بهم العذاب، وهكذا السنة في الأمم السالفة أنهم إذا سألوا الآية، فجاءتهم، فلم يؤمنوا بها، نزل بهم العذاب، وهو قوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَالآيَاتُ تَوَدُّ الْآفَاقَ مُبِيرَةً فَقُلْمُوا بِهَا﴾ الآية [الإسراء: ٥٩] والله أعلم.

الآية ٦٦

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ أي جاء ما أمر به كما يقال: جاء وغد رينا، أي جاء موعود ربنا لأنَّ وغده وأمره لا يجيء، ولكن جاء ما أمر به وما وعد به، وهو العذاب. أو يقول: جاء أي أتى وقت وقوع ما أمر به، وعد، وهو العذاب الذي وعد، وأمر به، والله أعلم، ﴿فَجَعَلْنَا صِلَابًا لِلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ رِجْعًا مَشْكُومًا﴾ ينعمه منا أو بفضل منا. وقد ذكرنا هذا في ما تقدم.

وقوله تعالى: ﴿رَمَيْنَ خِزْيَ يَوْمِيذٍ﴾ قيل: الخزي العذاب الذي يفضحهم، وقيل: كل عذاب فهو خزي؛ أي نجاههم من خزي ذلك اليوم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَيْكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ قيل: ﴿الْقَوِيُّ﴾ هو الذي لا يعجزه شيء، و﴿الْعَزِيزُ﴾ هو الذي يذل من دونه، وقيل: ﴿الْقَوِيُّ﴾ المنتقم المنتصر^(١) لأوليائه من أعدائه، ﴿الْعَزِيزُ﴾ هو المنيع في ملكه وسلطانه الذي لا يعجزه شيء^(٢).

الآية ٦٧

وقوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ قيل: عذابهم كان صيحة؛ صاح بهم جبريل، وقيل: الصيحة الصاعقة؛ وكل عذاب فهو صيحة. لكن لا ندري كيف كان؟ أو أن يكون عذابهم قدر صيحة لسرعة وقوعه بهم، أو ما يسمى ذلك العذاب صيحة [بما رأوا]^(٣) ما يصيحون في ما بينهم، أو ما ذكرنا.

وقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَنِينًا﴾ قال ههنا ﴿دِيَارِهِمْ جَنِينًا﴾ وقال في سورة الأعراف ﴿دَارِهِمْ جَنِينًا﴾ [الآيتين: ٧٨ و ٩١ والعنكبوت: ٣٧] والقصة واحدة. قال بعضهم: دارهم قراهم، وديارهم منازلهم. ولكن هو واحد، أصبحوا جانيبين في دارهم ومنازلهم، سواء.

وقوله تعالى: ﴿جَنِينًا﴾ قيل: جامدين موتى. وأصل قوله: ﴿جَنِينًا﴾ أي منكبين على وجوههم؛ يقال: جثم الطائر إذا انكب على وجهه مخافة الصيد. وقد ذكرنا في ما تقدم.

الآية ٦٨

وقوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَتَذَكَّرْ﴾ قيل: كأن لم يعيشوا فيها، وقيل: كأن لم يغمروا فيها. وأصله: أنهم صاروا كأن لم يكونوا فيها لما لا يذكرون بعد هلاكهم، فصاروا من [حين كانوا]^(٤) لم يكونوا. وأما الأخيار والأبرار فإنهم وإن ماتت أبدانهم، وصارت كأن لم تكن، ففي الذكر كانهم أحياء حين^(٥) تذكروا بعد موتهم.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَوَدَّاهُ كَفَرًا﴾ قيل: كفروا نعمة ربهم، أو كفروا بآيات ربهم. فذلك كله كفر بالله.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا بَعْدَ إِسْرَافٍ﴾ أي ﴿إِلَّا بَعْدَ إِسْرَافٍ﴾ من رحمة الله.

الآية ٦٩

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلًا إِلَى إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشِيرَةِ﴾ اختلّفوا في هذه البشارة؛ قال بعضهم: جاؤهم ببشارة إسحاق وحافيه^(٦)، وهو قوله: ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ وَمِنْ دُونِهِ إِسْحَاقَ يَتَقَوَّبُ﴾ [الآية: ٧١]، وقال بعضهم: جاؤا ببشارة إهلاك قوم لوط وإنجاء لوط وأهله؛ قيل: لأن لوطاً كان ابن أخيه إبراهيم، وكان لوط، فزع إلى الله بسوء عمله وقومه وصنيعهم، ودعا بالنجاة منهم، وهو قوله: ﴿إِنِّي لَمَعْلُومٌ مِنَ الْغَالِينَ﴾ الآية [الشعراء: ١٦٨] حتى ذكر في بغض القصة أن سارة قالت لإبراهيم: ضم ابن أخيك إلى نفسك فإن قومه يعدّبونه، كأنها عرفت أنه لا يتركهم على ما هم عليه بسوء عملهم.

(١) من م، في الأصل: المنتظر. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: لما راوه. (٤) في الأصل وم: حيث كان. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: وحافد.

قالوا بالبشارتين جميعاً بشارة الولد والحافيد وبشارة هلاك قوم لوط ونجاة لوط وأهليه. إلى هذا يذعَبُ بغض أهل التأويل.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا سَلْنَا قَالَ سَلِمٌ﴾ هذا يدلُّ أنَّ السلام هو سُنَّةُ الأنبياء والرُّسل والملائكة. في الدنيا والآخرة، لم تُخصَّ هذه الأمة، بل كانت ^(١) سُنَّةُ الرُّسل الماضية والأمة السالفة. هو تَجِيئة أهل الجنة كقولهِ ^(٢): ﴿سَلِمٌ عَلَيْكُمْ وَلِنَبْرِ﴾ [الزمر: ٧٣] ونحوه. هذا يدلُّ ما ذكرنا.

ثم انتصاب قوله: ﴿سَلِمٌ﴾ وارتفاع الثاني لأنَّ الأول انتصب لوقوع القول كقولك: قال: قولاً، [وارتفع الثاني] ^(٣) حكاية لقولهم.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا لَيْتَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ وقوله: ﴿فَمَا لَيْتَ أَنْ جَاءَ﴾ أي مَالَيْتَ عندهم حتى اشتغل بتقديم شيء إليهم، وإلا قد يكون في ذبح العجل وشويه لَيْتٌ إلا أن يكون العجل مشوياً. فإن لم يكن مشوياً فتأويله ما ذكرنا أن لم يَلْبِثْ عندهم في المؤانسة والحديث معهم على ما يفعل مع الأضياف حتى جاء بما ذكر.

وفيه ما ذكرنا من الأدب، وفيه دلالة في من نزل به ضيف ألا يشتغل بالسؤال عن أحوال ضيفه: من أين؟ وإلى أين؟ وما حاجتهم؟ ولكن يشتغل بقراهم وإزاحة حاجتهم؛ لأن إبراهيم، صلوات الله تعالى عليه، إنما اشتغل بقراهم، لم يشتغل بالسؤال عن أحوالهم، ولكن اشتغل بما ذكر: ﴿أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ وهذا هو الأدب للضيف ^(٤). ألا ترى أنه لو كان سأل عن أحوالهم، فعرف أنهم من الملائكة لكان لا يشتغل بما ذكر إذا عرف أنهم من الملائكة، لا يتناولون شيئاً من الطعام؟

وقوله تعالى: ﴿بِعِجْلٍ/ ٢٤٣ - أ/ حَنِيذٍ﴾ قال بعضهم: الحنيد السمين، وهو ما ذكر في موضع آخر ﴿فَمَا بِعِجْلٍ سَيْنٍ﴾ [الذاريات: ٢٦]. وقال بعضهم: الحنيد المشوي الذي حُذِيَ في الأرض؛ حُنِذَ قَحْمِي: شُوي بالحجر المحمي. وقال بعضهم: الحنيد هو المشوي الذي يسيل منه الماء. وقال ابن عباس: هو نضيج، الحنيد النضيج.

الآية ٧٠ وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَّرَهُمْ﴾ قال بعضهم: نكَّرَهُمْ أي أنكرَهُمْ، واشتكرَهُمْ واحد، وهو من الإنكار؛ أي لم يعرفَهُمْ، ظنَّ أنهم لصوص لأنَّ اللصوص من عاديتهم أنهم كانوا إذا أرادوا السرقة من قوم لم يتناولوا من طعامهم، ولم يأكلوا شيئاً عندهم.

وقيل: ﴿نَكَّرَهُمْ﴾ أنهم من البشر ﴿وَأَرْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ قال بعضهم: خاف لما ظنَّ أنهم سراق ولصوص حين ^(٥) لم يتناولوا شيئاً مما قدَّم إليهم.

وقال بعضهم: ﴿خِيفَةً﴾ أي وخشة، أي اضمرَّ وخشة حين ^(٦) لم يتناولوا [شيئاً مما] ^(٧) قرب إليهم، فحينئذ علم أنهم ليسوا من البشر لأن منزل إبراهيم كان ينأى عن البلد، ولا ^(٨) ينزله أحد من البشر إلا وقد احتاج إلى الطعام. فلما لم يتناولوا علم أنهم ليسوا من البشر، فما جاؤوا إلا لأمر عظيم لتغذيب قوم وهلاكهم، فخاف لذلك.

فقالوا ﴿لَا تَخَفْ إِنَّا أَزِيلَنَّكَ إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ﴾ وقال في موضع آخر: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرْهُمْ بِقُلُوبِهِمْ...﴾ ﴿قَالَ قَتَا حَطَبُكُمُ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٨.. ٣١] يذكُر ههنا أن قولهم: ﴿إِنَّا أَزِيلَنَّكَ﴾ على إثر سؤال، وفي ما نحن فيه، لا كذلك.

فالمعنى فيه، والله أعلم، أن ذلك كان على إثر سؤال إبراهيم بقوله: ﴿قَتَا حَطَبُكُمُ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ لكنه جمع ذلك في ما نحن فيه بالحكاية عن قولهم، وإن كان مفصلاً عنه، وخرجت الحكاية في موضع آخر على ما كان في الحقيقة. وذلك مستقيم في كلام العرب، والله أعلم.

(١) من م، في الأصل: كان. (٢) في الأصل وم: بقوله. (٣) في الأصل وم: والثاني. (٤) في الأصل وم: بالضيف. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في م: شيئاً. (٨) في الأصل وم: ولم.

الآية ٧١

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا أَنْتُمْ قَائِمَةٌ فَضَجَّكُمُ﴾ قال بعضهم: ﴿قَائِمَةٌ﴾ على رؤوس الأضياف لأنها كانت عجوزاً، ولا بأس لعجز ذلك. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ﴾؟ الآية [النور: ٦٠]

وقال بعضهم: ﴿قَائِمَةٌ﴾ من وراء الباب. لكن لسنا ندري أي ذلك كان؟

وقوله تعالى: ﴿فَضَجَّكُمُ﴾ قال بعضهم: ضججت تعجباً من خوف إبراهيم أنهم لصوص، وهم كانوا ثلاثة أو أربعة دون عشرة، وكان خدّم إبراهيم عليه السلام يبلغ عددهم ثلاثمائة على ما ذكر في القصة: ضججت تعجباً أنه كيف يخاف من نفر، عددهم دون عشرة، وعنده من الخدّم ما يبلغ عددهم ما ذكرنا؟

وقال بعضهم: ضججت مما بشروها بالولد، وقد بلغت سنّها ما بلغت من الكبر، وهو كذلك، وقالت: أحق أن ألد وقد كبرت في السن كذا؟

وقال بعضهم: ضججت أي حاضت من قولهم: ضججت الأرنب إذا حاضت، وهو قول ابن عباس وعكرمة. وقال الفراء: ضججت: حاضت غير مسموع ولا مغروب.

فعلّى ناويل من قال: إنها ضججت تعجباً مما بشرت بالولد فهو على التقديم والتأخير؛ كأنه قال: فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، فضججت.

وقال بعضهم: ضججت سروراً بالأمن منهم، وهو قوله تعالى ﴿وَمِنَ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ فضججت. وقال بعضهم: ضججت: ظاهر هذا أنها بشرت بإسحاق ومن وراء أولاد إسحاق بأولاد^(١) يعقوب، ولكن لم يكن يعقوب ولد من إبراهيم، إنما ولد من إسحاق، وهو حافد إبراهيم، ابن إسحاق.

فتأويله: من وراء إسحاق حافد، وإنما الإشارة بالولد وبالحافد. وهو كقوله: ﴿وَوَقَّعْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٢] وقال في هذه السورة ﴿وَأَمَّا أَنْتُمْ قَائِمَةٌ فَضَجَّكُمُ﴾ وقال في موضع آخر ﴿فَأَقْبَلَ بَتْرُوكُ فِي مَرَّةٍ فَصَكَ وَجْهَهَا﴾ [الذاريات: ٢٩].

فلأن كان على ما قالوا أنها كانت قائمة وراء الباب فيكون إقبالها خروجها إلى القوم. وإن كان قيامها على رؤوسهم فيكون معنى الإقبال في ضرب وجهها وضجها، لكن ذلك [ليس] من القدم، لكنه على الإقبال بفعل ما أخرعها من ضك وجهها، والله أعلم.

الآية ٧٢

وقوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَتْلُقَ إِلَيْهِ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَتْلَى شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَقٌّ عَجِيبٌ﴾ هي لم تتعجب [من] ^(٣) قدرة الله أنه قادر على أن يهب الولد في كل وقت، ولكنها تعجبت لما رأت العادة في النساء والرجال أنهم إذا بلغت المبلغ الذي [كانا هما عليه] ^(٤) لم يلدوا. فتعجبها أنها لم تلد في الحال التي هما عليها أو يردا ^(٥) إلى حال الشباب. فعند ذلك يولد لهما ^(٦)، وكلاهما عجب بحيث الخروج على خلاف العادة لا بحيث قدرة الرب، وهو كما ذكرنا من قول زكريا: ﴿أَنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ [آل عمران: ٤٠] وفي موضع آخر: ﴿وَقَدْ بَلَغْتَ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨] قوله: ﴿أَنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ في الحال التي أنا عليها أو يرد إلي شبابي. فعلى ذلك قولها: ﴿إِلَيْهِ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَتْلَى شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَقٌّ عَجِيبٌ﴾.

الآية ٧٣

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَنْتَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ قال أهل التأويل: أنتجبين من قدرة الله [على] ^(٧) هذا.

وقوله تعالى: ﴿رَحِمَتْ اللَّهُ الَّذِينَ عَلَى هَذَا صِلَةٌ قَوْلِهِ﴾ ^(٨) لأنهم لم يقولوا سلاماً حسب، لم يزيدوا على هذا، بل زادوا. فكانهم قالوا: سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أو قالوا: سلام الله ورحمته

(١) في الأصل وم: بولاد. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: كانوا هم. (٤) في الأصل وم: تردان.

(٥) في الأصل وم: هما. (٦) ساقطة من الأصل وم.

وَبَرَكَاةُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ بِالنِّصَبِ، [كَأَنَّهُمْ قَالُوا:] ^(١) يَا أَهْلَ الْبَيْتِ كَقَوْلِهِ ﷺ حِينَ ^(٢) قَالَ: «تَرَكْتُ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ كِتَابَ اللَّهِ وَعِزَّتِي أَهْلَ بَيْتِي» [الترمذي ٣٧٨٦] أَي يَا أَهْلَ بَيْتِي.

[وقوله تعالى:] ^(٣) «إِنَّهُ حَيِّدٌ حَيِّدٌ يَحْتَمِلُ» حَيِّدٌ الذي يَقْبَلُ الْبَسِيرَ مِنَ الْمَعْرُوفِ، وَيُعْطِي الْجَزِيلَ كَالشُّكُورِ. وَالْمَجِيدُ مِنَ الْمَجْدِ وَالشَّرَفِ. وَقِيلَ: الْحَمِيدُ الْمَخْمُودُ، وَالْمَجِيدُ الْمَاجِدُ، وَهُوَ الْكَرِيمُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٧٤ وقوله تعالى: «فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ» هُوَ الْفَرْقُ وَالْفَرْعُ الذي دَخَلَ فِيهِ بِمَجِيءِ الْمَلَائِكَةِ «وَجَاءَتْهُ الْبَشَرَاءُ» فِي الْوَلَدِ وَالْحَافِدِ وَفِي نَجَاةِ لُوطٍ وَأَهْلِهِ، وَهُوَ مَا ذَكَرْنَا فِي قَوْلِهِ «وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلًا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشَرَةِ» [هود: ٦٩] وقوله تعالى: «يَحْدِثُ فِي قَوْمِ لُوطٍ» قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّوَابِلِ: مُجَادَلَتُهُ إِيَّاهُمْ فِي قَوْمِ لُوطٍ مَا ذَكَرَ فِي الْقِصَّةِ أَنَّهُ قَالَ لَهُمْ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ فِيهِمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ كَذَا أُنْعَذِبُونَهُمْ؟ قَالُوا: لَا، وَنَحْوُهُ مِنَ الْكَلَامِ.

فَإِنْ ثَبَتَ هَذَا، وَإِلَّا لَا نَعْلَمُ مُجَادَلَتَهُ إِيَّاهُمْ فِي دَفْعِ الْعَذَابِ عَنْهُمْ أَوْ تَأْخِيرِهِ؛ دَلِيلُهُ قَوْلُهُ: «يَكَاذِبُهُمْ أَغْرَضَ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَمِنَ عَذَابٍ غَيْرِ مُرْدُودٍ».

وَنَحْتَمِلُ مُجَادَلَتَهُ إِيَّاهُمْ فِي اسْتِيقَاءِ قَوْمِ لُوطٍ شَفَقَةً عَلَيْهِمْ وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يُؤْمِنُونَ، وَيَقْبَلُونَ مَا يُدْعَوْنَ إِلَيْهِ لئَلَّا يَنْزِلَ بِهِمْ عَذَابٌ ^(٤) مَا أَوْعَدُوا؛ يَتَشَفَّعُ إِلَيْهِمْ، لِيَسْأَلُوا رَبَّهُمْ أَنْ يُبَيِّهَهُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٧٥ وقوله تعالى: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ» قِيلَ: الْحَلِيمُ هُوَ الَّذِي لَا يُكَافِي مَنْ ظَلَمَهُ، وَلَا يُجَازِيهِ بِهِ، أَوْ يَحْلُمُ عَنْ سَفْوِ كُلِّ سَفِيءٍ.

وَالْأَوَّاهُ ^(٥) الْمُوقِنُ بِلَقَاءِ الْحَبَشِ، وَقِيلَ: الْأَوَّاهُ الْمُتَأَوُّهُ، وَهُوَ الدُّعَاءُ وَكَثِيرُ الدُّعَاءِ. وَقِيلَ: الْأَوَّاهُ: الْمُتَّقِي الَّذِي لَا يَقْتَرُ لِسَانَهُ عَنْ ذِكْرِهِ. وَقِيلَ: الْأَوَّاهُ الْحَزِينُ فِي مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ. جَمَعَ فِي هَذِهِ الْأَحْرُفِ الثَّلَاثَةِ: جَمِيعَ أَنْوَاعِ الْخَيْرِ وَالطَّاعَةِ مَا كَانَ فِي مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْخَلْقِ حِينَ ^(٦) ذَكَرَ أَنَّهُ حَلِيمٌ وَأَنَّهُ أَوَّاهٌ وَأَنَّهُ مُنِيبٌ.

وَالْمُنِيبُ: قِيلَ: الْمُخْلِصُ لِلَّهِ، وَقِيلَ: هُوَ الْمُقْبِلُ إِلَى اللَّهِ بِقَلْبِهِ وَبَدَنِهِ، وَقَدْ ذَكَرْنَا هَذَا فِي سُورَةِ التَّوْبَةِ ^(٧).

الآية ٧٦ وقوله تعالى: «يَكَاذِبُهُمْ أَغْرَضَ عَنْ هَذَا» يَعْنِي عَنِ الْمُجَادَلَةِ الَّتِي كَانَ يُجَادِلُهُمْ «إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ» أَي جَاءَ مَا أَمَرَ بِهِ رَبُّكَ، وَجَاءَ مَوْعِدُ [رَبِّكَ] ^(٨) «وَلَا تَنْهَمُ/ ٢٤٣ - ب/ مَا نَبِيَّهُمْ عَذَابٌ غَيْرُ مُرْدُودٍ»، أَي غَيْرُ مَذْفُوعٍ، لَا يَحْتَمِلُ الرَّدَّ بِالشَّفَاعَةِ. وَنَحْتَمِلُ قَوْلَهُ «يَكَاذِبُهُمْ أَغْرَضَ عَنْ هَذَا» عَنِ الْمُجَادَلَةِ الَّتِي ذَكَرَ «إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ» بِالْإِنْصِرَافِ وَالرَّجُوعِ عَنْكَ. وَنَحْتَمِلُ «جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ» مِنْ إِنْزَالِ الْعَذَابِ بِهِمْ.

الآية ٧٧ وقوله تعالى: «وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلًا لُوطًا بَيِّنَاتٍ» بَيِّنَاتٍ أَي سَاءَ مَجِيئُهُمْ وَمَكَانُهُمْ وَكُزْمُهُمْ لِصَنِيعِ قَوْمِهِ بِالْغُرْبَاءِ مَخَافَةَ أَنْ يَفْضَحُوهُمْ «وَصَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا» أَي لَمْ يَذِرْ كَيْفَ يَصْنَعُ بِهِمْ؟ وَكَيْفَ يَحْتَالُ لِيَذْفَعَ عَنْ ضَيْفِهِ سَوْءَ قَوْمِهِ؟

وَالذَّرْعُ هُوَ الْمَقْدِرَةُ وَالْقُوَّةُ؛ أَي ضَاقَتْ ^(٩) مَقْدِرَتُهُ وَقُوَّتُهُ «وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ» قِيلَ: قَطِيعٌ شَدِيدٌ لِأَنَّهُ يَوْمٌ يَهْتِكُ الْأَسْتَارَ، وَيَفْضَحُ الرِّجَالَ. وَفِيهِ دَلِيلُ جَوَازِ الْإِجْتِهَادِ لِأَنَّهُ قَالَ: «يَوْمٌ عَصِيبٌ» فَبَعْدَ لَمْ تَظْهَرَ لَهُ شِدَّتُهُ، لَكِنَّهُ قَالَ: اجْتِهَادًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ قَوْلُهُ تَعَالَى «وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلًا لُوطًا بَيِّنَاتٍ» بَيِّنَاتٍ وَصَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا بِسَوْءِ صَنِيعِ قَوْمِهِ بِأَضْيَافِهِ. الْحَرْفَانِ جَمِيعًا يَنْصَرِفَانِ ^(١٠) إِلَى لُوطٍ لِمَكَانِ قَوْمِهِ وَلِمَكَانِ ^(١١) أَضْيَافِهِ؛ أَوْ يَكُونُ أَحَدُ الْحَرْفَيْنِ لِمَكَانِ ضَيْفِهِ وَالْآخَرُ لِمَكَانِ قَوْمِهِ ^(١٢) وَمَا يَنْزِلُ بِقَوْمِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: كَأَنَّهُ قَالَ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: الْعَذَابُ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَأَوَّاهُ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٧) فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ (١١٤) مِنْهَا. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: ضَاقَ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: يَنْصَرِفُ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَلِمَكَانِ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: ضَيْفِهِ.

الآية ٧٨

وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: يُسْرِعُونَ إِلَيْهِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أَي يُهْرَولُونَ إِلَيْهِ، وَهُوَ سَيْرٌ بَيْنَ السَّغِيِّ وَبَيْنَ الْمَشْيِ، بَيْنَ يَتَيْنِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أَي يُرَوِّعُونَ إِلَيْهِ؛ مِنْ الرُّوعِ أَي فَزَعِينَ إِلَيْهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَبْلِ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ هَذَا يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

[أَحَدُهُمَا: يَحْتَمِلُ^(١)] مِنْ قَبْلِ أَنْ يَبْعَثَ لوطُ رَسُولًا إِلَيْهِمْ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ.

وَالثَّانِي^(٢): يَحْتَمِلُ مِنْ قَبْلِ نُزُولِ الْأَصْيَافِ بِلوطٍ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ. وَالسَّيِّئَاتُ تَحْتَمِلُ الشُّرْكَ وَغَيْرَهُ مِنَ الْقَوَاحِشِ الَّتِي يَرْتَكِبُونَهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَتْلُو هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ اخْتَلَفَ فِي قَوْلِهِ: ﴿بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: أَرَادَ بَنَاتِ قَوْمِهِ لِأَنَّ الرُّسُلَ هُمْ كَالْآبَاءِ لِأَوْلَادِهِمْ قَوْمِهِمْ؛ يُنْسَبُونَ إِلَيْهِمْ. أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ: ﴿الَّتِي أُولَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُمْ أَهْلُهَا﴾؟ [الاحزاب: ٦] وَفِي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ عليه السلام هُوَ أَبٌ لَهُمْ مِمَّا أَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ، وَالنَّبِيُّ أَبٌ^(٣) لَهُمْ. فَعَلَى ذَلِكَ يَحْتَمِلُ قَوْلَ لوطٍ: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ أَرَادَ بَنَاتِ قَوْمِهِ، فَتَسَبَّهْنَ إِلَى نَفْسِهِ لِمَا ذَكَرْنَا أَنَّهُ كَالْأَبِ لَهُمْ.

ثُمَّ يَحْتَمِلُ مَعْنَى جَعَلَ النَّبِيُّ أَوْلَادًا^(٤) قَوْمِهِ كَالْأَبِ وَأَزْوَاجِهِ كَالْأُمَّهَاتِ^(٥) وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: نُسِبُوا إِلَيْهِ لِلشَّفَقَةِ؛ هُوَ أَشْفَقَ بِهِمْ مِنَ الْآبِ وَالْأُمِّ.

وَالثَّانِي^(٦): لِحَقِّ التَّرْبِيَةِ وَتَعْلِيمِ الدِّينِ كَالْأَبِ لَهُمْ، فَهُوَ أَوْلَى بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ لِهَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَرَادَ بَنَاتِ نَفْسِهِ. ثُمَّ اخْتَلَفَ فِيهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: كَانَ ذَلِكَ مِنْهُ تَعْرِيفًا^(٧) لَهُمْ لِلنِّكَاحِ بِقَوْلِهِ: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ نِكَاحًا إِنْ كُنْتُمْ مَا تِلْبِينَ لِلْإِيمَانِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: هُوَ تَعْرِيفٌ مِنْهُ لِمَا هُوَ زِنَى عِنْدَهُمْ، لَا أَنَّهُ عَرَّضَ ذَلِكَ عِنْدَ نَفْسِهِ.

وَهَذَا كَمَا يَقُولُونَ: إِنْ مِنْ أَكْرَهٍ أَنْ يَشْتُمَ مُحَمَّدًا صلى الله عليه وسلم فَلَا بَأْسَ بِأَنْ يَشْتُمَ، وَيَقْصِدُ بِشْتُمِهِ مُحَمَّدًا آخَرَ، يَحِلُّ لَهُ شْتُمُهُ، وَإِنْ كَانَ عِنْدَ الْمُكْرِهِ أَنَّهُ يَشْتُمُ رَسُولَ اللَّهِ بَعْدَ أَنْ أَخْطَرَ الشَّائِمُ فِي قَلْبِهِ غَيْرَهُ.

وَكَذَلِكَ إِنْ أَكْرَهَ عَلَى أَنْ يَشْتُمَ الْإِلَهَ، يَقْصِدُ^(٨) بِالشُّتْمِ شَتْمَ آلِهِتِهِمْ، وَإِنْ كَانَ عِنْدَهُمْ أَنَّهُ إِنَّمَا يَشْتُمُ إِلَهَهُ الَّذِي يَغْبُذُهُ.

فَعَلَى ذَلِكَ يَحْتَمِلُ قَوْلَ لوطٍ: ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ تَعْرِيفٌ زِنَى عِنْدَهُمْ، وَإِنْ كَانَ عِنْدَهُ أَنَّهُ لَيْسَ لِذَلِكَ بِقَصْدٍ.

وَقَالَ قَائِلُونَ: قَالَ هَذَا لِئَرَاهُمْ قُبِيحَ الْفِعْلِ الَّذِي كَانُوا يَقْصِدُونَ بِأَصْيَافِهِ لِأَنَّ الزُّنَى كَانَ عِنْدَهُمْ مُحَرَّمًا^(٩)، فَعَرَّضَ عَلَيْهِمْ بَنَاتِهِ لِيَعْرِفُوا قُبِيحَ ذَلِكَ الْفِعْلِ حِينَ^(١٠) اخْتَمَلَ قَلْبُهُ فِي بَنَاتِهِ وَلَمْ يَحْتَمِلْهُ^(١١) فِي أَصْيَافِهِ لِيَمْتَنِعُوا عَنْ ذَلِكَ.

أَوْ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَالَ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ كِلَاهُمَا لَا يَحِلَّانِ، لَكِنَّ أَحَدَهُمَا أَيْسَرُ وَأَهْوَنُ، وَيَجُوزُ الْجَمْعُ بَيْنَ شَرِّينِ، فَيُقَالُ: هَذَا أَظْهَرُ وَأَحْلَى مِنْ هَذَا، وَهَذَا أَيْسَرُ مِنْ هَذَا وَأَهْوَنُ، وَإِنْ كَانَ كِلَاهُمَا شَرِّينِ. فَالزُّنَى، وَإِنْ كَانَ حَرَامًا فَذَلِكَ مِمَّا يَحِلُّ، وَأَدْبَارُ الرِّجَالِ لَا تَحِلُّ بِحَالٍ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُمْ كَانُوا يَخْطُبُونَ بَنَاتِهِ، وَكَانَ أَبِي أَنْ يُزَوِّجَهُنَّ مِنْهُمْ لِمَا لَمْ يَكُونُوا أَكْفَاءَ^(١٢) لَهُنَّ، ثُمَّ عَرَّضَ عَلَيْهِمْ [ذَلِكَ]^(١٣) فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ لِيَعْلَمُوا قُبِيحَ ذَلِكَ الْفِعْلِ الَّذِي قَصَدُوا بِأَصْيَافِهِ، أَوْ كَلَامًا^(١٤) نَحْوَ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْا فِي صَنَائِفِهِ﴾ وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿فَلَا تَنْصَرِفُوا﴾ [الحجر: ٦٨] لِيُعْلِمَ أَنَّ الْإِخْرَاءَ هُوَ الْفَضِيحَةُ. هَذَا يَدُلُّ أَنَّ الْخِزْيَ هُوَ الَّذِي يَقْضَحُ مَنْ نَزَلَ بِهِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: قَوْلُهُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: أَبَا. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: لِأَوْلَادِهِ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: كَالْأُمِّ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: تَعْرِيفٌ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: فَيَقْصِدُ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: مُحَرَّمٌ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: يَحْتَمِلُ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: كَفُوا. (١٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٤) فِي الْأَصْلِ وَم: كَلَامٌ.

وقوله تعالى: ﴿الَيْسَ يَنْكَرُ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ قال بعضهم: هم أن يزوج بغض بناته من يصدُر لرايه، فيمنعهم عنه؛ كأنه يقول: اليس منكم من يزهد؟ ويصدُر لرايه؟

وقوله تعالى: ﴿الَيْسَ يَنْكَرُ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ أي ليس منكم رجل يقبل الموعظة؟ ويُرشدكم؟ ويعظكم؟ أو يقول: ﴿الَيْسَ يَنْكَرُ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ على النفي، فيمنعهم عما يريدون، ويقصدون.

الآية ٧٩ وقوله تعالى: ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ على التأويلين اللذين ذكرناهما: الأول حق^(١) النكاح والثاني^(٢) حق الاستمتاع. وفي بعض التأويلات: ﴿مِنْ حَقٍّ﴾ من حاجة له. وبذلك يقول عامة أهل التأويل: ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أي من حاجة ﴿وَلَيْكَ لَنَعْلَمُ مَا يُرِيدُ﴾ ينعنون الأضياف.

الآية ٨٠ [وقوله تعالى]^(٣): ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ﴾ أي قُوَّة في نفسي ﴿أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ قيل: عشيرته، والرُّكنُ الشديد عند العرب العشيرة؛ يقول: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ﴾ في نفسي وعشيرتي^(٤) يعينوني لقائتكم. فيه دلالة أن من رأى [من]^(٥) آخر فاحشة فله أن يقاها.

وقوله تعالى: ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ تأويله، والله أعلم: إنك تعلم أن ليس لنا في بناتك من حق كما ليس لنا في أضيافك حق، فكيف [تمنعنا عنهم]^(٦) وتعرض علينا بناتك؟ فهن في ما ليس لنا فيهن حق كأولئك، والله أعلم.

الآية ٨١

[وقوله تعالى]^(٧): ﴿قَالُوا يَلُوْطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ قيل: قالوا ذلك للوط: ﴿لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ لما طُبِسَتْ أعيُنهم، وهو كقولهم: ﴿وَلَقَدْ زَادُوا عَنْ صَبِيهِمْ فَلَمَّسَتْ أَعْيُنُهُمْ فَذَرُوهَا عَنْكَ وَتَذَرِ﴾ [القمر: ٣٧] وقال قائلون: قالوا ذلك للوط حين طُبِسَتْ أعيُنهم: إن ضيفك سحرنا ابصارنا، فسُتْغَلِمَ غداً ما تلقى أنت وأهلك، فقالوا عند ذلك: ﴿لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ بسوء غداً بأنهم يهلكون.

ودل قوله: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ على أنهم قد هموا للوط، وأعدوه، حتى قال ما قال. ألا ترى أن الملائكة قالوا له: إنهم ﴿لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾؟ فهذا ما ذكرنا.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنزِلْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ قيل: قِطْعٌ مِنَ اللَّيْلِ آخره، وهو وقت السحر، وقيل: هو ثلث الليل أو رُبْعُهُ مِنَ آخِرِهِ، وهو واحد، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَلْقَئُ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا﴾ قيل: لا يتخلف أحد منكم إلا أمرًا، فإنها تتخلف، ويصحبها ما أصاب أولئك. وقال بعضهم: ﴿وَلَا يَلْقَئُ﴾ من الالتفات والنظر؛ قيل: لا يترك أحد متابعتك إلا أمرًا، فإنها لا تتبعلك، فيصحبها ما أصاب أولئك.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَلْقَئُ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا﴾ يتخيل النفي عن الالتفات؛ كأنه يقول: لا يلقئ أحد. ويتخيل الخبر: كأنه يقول: لا يلقئ منكم أحد إلا من ذكر/ ٢٤٤ - ١؛ وهي^(٨) زوجته، فذلك علامة لخلافها له. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصَّبْحُ﴾ [فقال لوط]^(٩): ﴿الَيْسَ الصَّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ كأن لوطاً استبطن الصبح لعذابهم، فقال^(١٠): ﴿الَيْسَ الصَّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ هذا من لوط لا يُحْتَمَلُ أن يكون قال ذلك، وهو بين أظهرهم، ويعلم أن قراء ستغلب أعلاها أسفلها وأسفلها أعلاها. ولكن قال، والله أعلم، بعدما أخرجوه وأمله من بين أظهرهم. فعند ذلك قال ما قال، واستبطن وقت نزول العذاب بهم، والله أعلم.

الآية ٨٢

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ يتخيل جاء الأمر بالمراد بأمري، أو أمره هو جعله عاليها سافلها.

(١) في الأصل وم: الحق. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: عشيرة. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، في الأصل: تمنعها. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: وهو. (٩) و(١٠) في الأصل وم: فقالوا.

ثم قال أهل التأويل: قوله: ﴿جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَاقِلَهَا﴾ أَدْخَلَ جَبْرِيلُ جَنَاحَهُ تَحْتَ قُرَيَاتِ لُوطٍ، فَرَفَعَهَا إِلَى السَّمَاءِ، ثُمَّ قَلَبَهَا، فَجَعَلَ مَا هُوَ أَعْلَاهَا أَسْفَلَهَا، فَهَوَتْ إِلَى الْأَرْضِ. فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَالْمُؤَنَّفَكَةُ أَمْوِي﴾ [النجم: ٥٣] قِيلَ: أَمْوَاهَا جَبْرِيلُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ. وَامْتَكَنَ أَنْ تَكُونَ إِذْ أَهْلَكْنَاهُمْ جَعَلْنَاهُمْ تَحْتَ الْأَرْضِ، فَذَلِكَ جَعَلَ أَعْلَاهَا أَسْفَلَهَا.

لَكِنَّ أَهْلَ التَّأْوِيلِ حَمَلُوا عَلَى مَا ذَكَّرْنَا، وَاجْتَمَعُوا عَلَى ذَلِكَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَلَبْتُ الْقُرَى، وَجَعَلَ أَعْلَاهَا أَسْفَلَهَا عَلَى مَا ذَكَّرْنَا، وَأَرْسَلْتُ الْحِجَارَةَ عَلَى مَنْ كَانَ غَائِبًا عَنْهَا.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْظَرْنَا عَلَيْهَا حِكْمَةً مِنْ سِجِيلٍ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: أَمْطَرْنَا الْحِجَارَةَ عَلَيْهَا، ثُمَّ قَلَبْنَا جَبْرِيلُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَمْطَرْنَا عَلَيْهَا الْحِجَارَةَ بَعْدَ مَا قَلَبْنَا جَبْرِيلُ، فَسَوَّاهَا، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ كَانَ غَائِبًا عَنْ بَلَدِهِ [جَاءَهُ حَجَرٌ مَكْتُوبٌ عَلَيْهِ] (١) اسْمُهُ، فَقَتَلَهُ حَيْثُ كَانَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ سِجِيلٍ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: السِّجِيلُ هُوَ اسْمُ الْمَكَانِ الَّذِي مِنْهُ رَفَعَ الْحَجَرُ الَّذِي أَمْطَرَهُ (٢). قَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ طَبَقٌ مَطْبُوعٌ كَالْأَجْرِ. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ [أَنَّهُ] (٣) قَالَ: [سَنُكَ وَجَلْ] (٤) «مَشْهُورٌ» نُفِذَ الْحَجَرُ بِالطَّيْنِ وَالْصَّقِ بَعْضُهُ يَنْغُصُ.

الآية ٨٢

[وقوله تعالى] (٥): ﴿مُتَلَمِّةٌ مَحْطَطَةٌ بِالْأَسْوَدِ وَالْحُمْرَةِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: «مُتَوَمِّةٌ» أَي مَكْتُوبًا عَلَيْهَا اسْمُ صَاحِبِهَا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ مِنَ الظَّالِمِينَ يَبْعِدُ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: مَا هِيَ مِنَ ظَلَمَةِ قَوْمِ لُوطٍ يَبْعِدُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَا هِيَ مِنَ ظَالِمِي أَهْلِ مَكَّةَ وَخَوَالِيهِمْ يَبْعِدُ؛ أَي عَذَابُ اللَّهِ لَيْسَ يَبْعِدُ؛ يُعَذِّبُهُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ ﴿وَمَا مِنْ مِنَ الظَّالِمِينَ يَبْعِدُ﴾ أَي تِلْكَ الْقُرَى وَالْأَمَكُنَةُ الَّتِي أَهْلُكَ أَهْلُهَا لَيْسَتْ يَبْعِدُ مِنْ مُشْرِكِي أَهْلِ مَكَّةَ، وَهُوَ مَا ذَكَرَ: ﴿وَلَا تُكْرَهُ لَتُرَوْنَ عَلَيْهِمْ مُصِيبِينَ﴾ [الصافات: ١٣٧].

وفيه تذكيرٌ منه عَلَى هَذِهِ الْأَمَةِ حِينَ (٦) لَمْ يَجْعَلْ عَذَابَهُمْ عَذَابَ اسْتِنْصَالٍ بِحَيْثُ لَا يَمْلِكُونَ الْعَوْدَ عَنْهُ (٧) وَالرَّجُوعَ، وَلَكِنْ جَعَلَ عَذَابَهُمُ الْجَهَادَ حَتَّى لَوْ أَرَادُوا الرَّجُوعَ عَنْهُ مَا مَلَكُوا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٨٤

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أَي إِلَى مَدِينَةٍ أَرْسَلْنَا ﴿لَنَاهِزُ شُعْبًا﴾ قَالَ يَنْقُورُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ. هَذَا قَدْ ذَكَّرْنَا فِي مَا تَقَدَّمَ: أَنَّ كُلَّ نَبِيٍّ أَوَّلَ مَا دَعَا قَوْمَهُ إِنَّمَا دَعَا إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَجَعَلَ الْعِبَادَةَ لَهُ.

وفي قوله: ﴿لَنَاهِزُ شُعْبًا﴾ وَمَا ذَكَرَ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْأُخُوَّةِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الرُّسُلَ مِنْ قَبْلِ كَانُوا مِنَ الْبَشَرِ مِنْ جِنْسِ قَوْمِيهِمْ لَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ حِينَ (٨) قَالَ: ﴿لَنَاهِزُ شُعْبًا﴾ وَمَعْلُومٌ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا إِخْوَةً لَهُمْ فِي الدِّينِ.

وفيه أَنَّ الْأُخُوَّةَ لَا تُوجِبُ فَضِيلَةَ الْمُوَاخِي لَهُ؛ لِأَنَّ الرُّسُلَ إِخْوَةُ أُولَئِكَ الْأَقْوَامِ، وَهُمْ كَفَرُوا. وَذَلِكَ يَرُدُّ قَوْلَ الرُّوَافِضِ فِي تَفْضِيلِ عَلِيٍّ عَلَى أَبِي بَكْرٍ بِالْمُوَاخَاةِ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ وَبَيْنَ عَلِيٍّ. وَالْخُلَّةُ تُوجِبُ الْفَضِيلَةَ. وَقَدْ جَاءَ عَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «لَوْ أَتَّخَذْتُ سِوَى رَبِّي خَلِيلًا لَأَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا» [بَنَحْوِهِ مُسْلِمٌ ٥٣٢].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْكَيْدَ وَالْمِيزَانَ﴾ ذَكَرَ أَنَّهُمْ يُنْقِصُونَ الْمِيزَانَ وَالْمِيزَانَ، وَلَا يُؤْفُونَ النَّاسَ حَقُّوهُمْ، فَتَهَاكُمُ عَنْ ذَلِكَ، فَهُوَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، لَوْجَهَيْنِ:

أَخَذْنَاهُمَا: أَنَّهُمْ إِنَّمَا نُهُوا عَنْ ذَلِكَ بِحَقِّ الرَّبِّ لِأَنَّ النِّقْصَانَ إِذَا كَانَ بِرِضَا مِنْ صَاحِبِهِ يَجُوزُ، فَذَلِكَ أَنَّهُ إِنَّمَا تَهَاكُمُ بِحَقِّ الرَّبِّ، وَفِيهِمَا يَجْرِي الرَّبُّ.

والثَّانِي: فِيهِ أَنَّ هَبَةَ الْمُشْتَرِي لِلْبَائِعِ وَتَقْلَبُهُ قَبْلَ قَبْضِهِ عَلَى قِيَامِ الْبَيْعِ فِي مَا يَتَنَاهَا غَيْرُ جَائِزٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: جَاءَتْ عَجَلًا مَكْتُوبٌ عَلَيْهَا. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: أَمْطَرْنَا. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) هَذِهِ عِبَارَةٌ فَارْسِيَّةٌ، مَعْنَاهَا: حَجَرٌ وَطِينٌ، أَنْظَرَ تَفْسِيرَ الطَّبْرِيِّ ج ١٥ / ٤٣٤. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٧) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: عَنْهُمْ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَرْسَلْتُكُمْ بِخَيْرٍ﴾ قيل: في سعة من المال، وقيل: في رخص من السعة، وإنما يحمل المرء على النقصان والظلم على آخر عزة الشيء وضيق الحال، فكيف تُنقصون أنتم في حال السعة ورخص السعة؟ أو يقول ﴿إِنِّي أَرْسَلْتُكُمْ بِخَيْرٍ﴾ في غير هذا، فلا تظلموا الناس في هذا، وتمنعوا حقوقهم.

[وقوله تعالى^(١)] ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ تُحِيطُ﴾ أي يوم يحيط بهم العذاب. إن كانت الإحاطة مضافة إلى اليوم فهو مُحِيط بالكل، وإن كانت الإحاطة مضافة إلى العذاب فهو مُحِيط بالكفرة خاصة. وهو، والله أعلم، أنه ما من جراحة ظاهرة وباطنة إلا وقد يُصيبها العذاب، ويحيط بها، ليس كعذاب الدنيا، يأخذ جزءاً دون جزء، بل يحيط به.

والنهي^(٢) بتخصيص النقصان [في^(٣)] الكيل والميزان لا يدل على أنه لم يكن فيه من المآثم والأجرام سوى ذلك، لكنه خص هذا لما كان الظاهر فيهم نقصان الكيل والوزن، فذكر ذلك، وهو ما خص قوم لوط بقوله: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ يَنِ الْغَوَايِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٥] [وقوله^(٤)] ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَلْحَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا﴾ الآية [العنكبوت: ٢٨].

ذكر هذا، وخصهم على أنهم لم يكونوا يأتون من الفواحش غيرها، لكن خص هذا لأن الظاهر فيهم هذا. فعلى ذلك نقصان الكيل والميزان في قوم شعيب، والله أعلم.

الآية ٨٥ وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُوا أَزُوقُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ خص المكيال والميزان لما كانوا يظفون المكيال، ويُقصون الميزان، رغبة فيهما، وفيهما يجري الربا لما ذكرنا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ فيه دلالة أن المشتري يملك المبيع قبل أن يقبض لأنه قال: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أضاف إلى الناس أشياءهم. فلو كان لا يملك لم تكن أشياء الناس، إنما كانت أشياء^(٥)، وإنما نقص ماله.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ وهو ما ذكر في موضع آخر ﴿وَلَا تَقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٨٥، ٨٦].

الآية ٨٦ وقوله تعالى: ﴿يَقِيْتُ اللَّهُ خَيْرَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ قال بعضهم: ما أبقي الله لكم من نوابه في الآخرة خير لكم إن آمنتم به، وأظعنموه، مما تجمعون من الأموال. وقال بعضهم: ﴿يَقِيْتُ اللَّهُ خَيْرَ لَكُمْ﴾ أي ما جعل لكم مما يُجَلُّ خيراً لكم مما يحرم عليكم من نقصان الكيل والوزن إن كنتم مؤمنين بالخلال أو بالآخرة. وقال بعضهم: طاعة الله، وهي^(٦) ما يأمركم به، ويدعوكم إليه خيراً لكم مما تفعلون.

وقال الحسن: رزق الله خيراً لكم من بخسكم الناس حقوقهم. لكن هذا يرجع إلى ما ذكرنا، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِمَفْظٍ﴾ يَحْطِلُ [وجهين:

أحدهما^(٧)]: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِمَفْظٍ﴾ أي لست أشهد ببيعائكم وأشريتكم حتى أعلم ببخسكم الناس المكيال والميزان. لكن إنما عرف ذلك بالله. وفيه دلالة إثبات رسالته.

والثاني: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِمَفْظٍ﴾ أي بمسلسط عليكم؛ إنما أبلغ إليكم كقولهم: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾.

[المائدة: ٩٩]

الآية ٨٧ وقوله تعالى: ﴿يَنْشَعِبُ أَمْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يُعْبَدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ قال بعض أهل التأويل ﴿أَمْلَاتُكَ﴾ أقرءك تأمرُك هذا.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أشياءهم. (٦) في الأصل وم: وهو. (٧) ساقطة من الأصل وم.

وقال ابن عباس: قالوا ذلك له لأن شعيياً كان يُكثِر الصلاة، كأنه يُخَرِّج على الإضمار؛ يقولون: أصلاتك تأمرُك بأن تأمرنا بترك عبادة ما عبد آباؤنا.

وقوله تعالى: ﴿أَمَلُّوْا نَفْسَكُمْ﴾ [يَحْتَمِلُ: صلاتك وصلواتك] ^(١): أن يكون له صلاة معروفة، يفعلها / ٢٤٤ - ب، فيقولون: أصلاتك التي تفعلها تأمرُك أن تترك كذا؟ أو صلاة واحدة تُكثِرُها؟ فقالوا ذلك. فتخصيص الصلاة من بين غيرها من الطاعات لما لعلها كانت من أظهر طاعاته عندهم، فقالوا له هذا. ثم يَحْتَمِلُ وجهين:

أحدهما: كأنهم قالوا: ﴿أَمَلُّوْا نَفْسَكُمْ﴾ تأمرُك أن تترك ما يعبد آباؤنا، أو أن تفعل كذا على التثنية له [أو التجهيل] ^(٢) كمن يوبخ آخر، ويسفّهه، ويقول: أعلمك يأمرُك بذلك؟ وإيمانك يأمرُك. هذا كقوله ﴿يَسْأَلُكُمْ بِهِ﴾ [البقرة: ٩٣] ونحوه من الكلام يُخَرِّج على التثنية له أو التجهيل.

والثاني: يقال ذلك على الإنكار؛ يقول الرجل لآخر: إيمانك يأمرُك بذلك، أو علمك يأمرُك بهذا؛ أي لا يأمرُك بذلك، يَحْتَمِلُ قول هؤلاء: ﴿أَمَلُّوْا نَفْسَكُمْ﴾ تأمرُك أن تترك ما يعبد آباؤنا أو أن تفعل في أمرنا ما نشئوا، أي لا يأمرُك بذلك هذا إذا كانت الصلاة التي ذكروها مرضية عندهم. فإن لم تكن مرضيةً للتأويل هو الأول.

وقوله تعالى: ﴿أَمَلُّوْا نَفْسَكُمْ﴾ الآية: حُبب إليهم تقليد آباؤهم في عبادة الأصنام، واتباعهم إياهم ^(٣)، والأموال التي كانت لهم، فمَنَعَهُمْ هذا ^(٤) عن النظر في الحجج والآيات لما حُبب إليهم ذلك. وهكذا جميع الكفرة إنما مَنَعَهُمْ عن النظر في آيات الله والتأمل في حُججه أخذ هذه الوجوه التي ذكرنا: حُب الذات ^(٥) ودوام الرغبات والميل إلى الشهوات. ظنوا أنهم لو اتبعوا رسل الله، وأجابوه إلى ما دعوه إلى لذهب عنهم ذلك.

ثم قوله تعالى: ﴿أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ يَحْتَمِلُ قضاء جميع الشهوات، ويَحْتَمِلُ ما ذكر من نقصان المكيال والميزان [ما يقولون: أموالنا] ^(٦) ليس لأحد فيها حق، نفعل فيها ما نشاء.

وقال بعضهم: قوله: ﴿أَوْ أَنْ تَفْعَلَ﴾ [الالف صلة] ^(٧) و﴿أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ قال [بعض] ^(٨) أهل التأويل: قالوا ذلك له استهزاء به وسخرية؛ كنوا بالحليم عن السفه وبالرشيد عن الضال؛ أي أنت السفه حين ^(٩) سفهت آباءنا في عبادتهم الأصنام، الضال حين ^(١٠) تركت ملتهم ومذهبهم.

وقال بعضهم: على التثني والإنكار: أي ما أنت الحليم الرشيد. وثبته أن يكون على حقيقة الوصف له بالحلم والرشد لأنهم لم يأخذوا عليه كذباً قط، ولا رأوه على خلاف ولا على سفاهة قط، فقالوا: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ أي كنت هكذا، فكيف تركت ذلك؟ وهو ما قال قوم صالح لصالح حين ^(١١) قالوا: ﴿يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِتْنًا مَرْجُومًا﴾ [الآية: ٦٢].

الآية ٨٨

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَنْفَوِرُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ أي على علم وبيان وحجج وبرهان من ربي: أي تعلمون أنني كنت على بيان من ربي وحجج ورزقي منه رزقاً حسناً يَحْتَمِلُ هذا منه ما كان ما قال [ذلك النبي صالح] ^(١٢) ﴿وَأَنْتَ رَحِمَةٌ مِنْ عِنْدِي﴾ [الآية: ٢٨] أي قال: هو رزقي رزقاً حسناً: الدين والهدى والثبوة على ما ذكرنا. وأمكن أن يكون الرزق الحسن هو الأموال الحلال الطيبة التي لا تبعة عليه [فيها] ^(١٣)، فقال ذلك، وما رزقي أولئك عليهم تبعة في ذلك لأنهم اكتسبوها من وجوه لا يحل.

(١) في الأصل وم: وقوله: صلاتك وصلواتك يحتمل. (٢) ساقطة من م. (٣) في الأصل وم: آباءهم. (٤) في الأصل وم: هذان. (٥) في الأصل وم: اللذات. (٦) في الأصل: يقولون أموالنا لما، في م: يقولون أموالنا. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في م: بعضهم من. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: أولئك الأنبياء. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

[وقوله تعالى^(١): ﴿وَمَا أَرِيدُ أَنْ أَخَالِفَكُمْ إِلَّا مَا أَنهَضَكُمْ عَنْهُ﴾ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ: قَالَ لَهُمْ ذَلِكَ بِإِزَاءِ مَا قَالُوا فِي مَا ذَكَرَ فِي الْأَعْرَافِ ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ بِشَعْبٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَوْمِنَا أَوْ لَنَمُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الآية ٨٨] يقول: أَدْعُوَكُمْ إِلَى الْإِيمَانِ، وَأَنهَأَكُمْ عَنِ الْكُفْرِ بِهِ، ثُمَّ ارْتَكَبَ مَا أَنهَأَكُمْ عَنْهُ، وَاتَّزَكَ مَا أَدْعُوَكُمْ إِلَيْهِ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: لَمْ أَكُنْ أَنهَأَكُمْ عَنْ أَمْرٍ، وَارْتَكَبْتُهُ، وَهُوَ وَاحِدٌ ﴿إِنْ أَرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ﴾ وَفِيهِ دَلَالَةٌ أَنَّ الْإِسْطَاعَةَ تَكُونُ مَعَ الْفِعْلِ، لَا تَخْلُو؛ إِمَّا أَنْ يَكُونَ أَرَادَ اسْطِطَاعَةَ الْإِرَادَةِ أَوْ اسْطِطَاعَةَ الْفِعْلِ، فَكَيْفَ مَا كَانَ، فَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ يُرِيدُ لَهُمْ مِنَ الصَّلَاحِ مَا اسْطِطَاعَ، فَفِيهِ مَا ذَكَرَ.

وَهُوَ يَنْقُضُ عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ مَذْهَبَهُمْ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: الْإِسْطَاعَةُ تَتَقَدَّمُ عَلَى الْفِعْلِ، وَهِيَ لَا تَبْقَى وَقْتَيْنِ، فَيَصِيرُ قَوْلُهُمْ إِرَادَةَ الصَّلَاحِ لَهُمْ بِمَا عُذِمَ مِنَ الْإِسْطَاعَةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: التَّوْفِيقُ هُوَ صِفَةُ كُلِّ مُطِيعٍ، وَالْخِذْلَانُ هُوَ صِفَةُ كُلِّ عَاصٍ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: التَّوْفِيقُ هُوَ مَا يُوَافِقُ قَوْلُهُ فِعْلُهُ فِي الطَّاعَةِ، وَالْخِذْلَانُ هُوَ مَا يُفَرِّقُ بَيْنَ قَوْلِهِ وَفِعْلِهِ فِي الْمَعْصِيَةِ.

وَقَالَ الْحُسَيْنُ النَّجَّارُ: التَّوْفِيقُ هُوَ قُدْرَةُ كُلِّ خَيْرٍ وَطَاعَةٍ، وَالْخِذْلَانُ هُوَ قُدْرَةُ كُلِّ شَرٍّ وَمَعْصِيَةٍ.

وَعِنْدَنَا: التَّوْفِيقُ هُوَ أَنْ يُؤَفَّقَ بَيْنَ عَمَلِ الْخَيْرِ وَالْإِسْطَاعَةِ، وَالْخِذْلَانُ هُوَ أَنْ يُفَرَّقَ بَيْنَ عَمَلِ الْخَيْرِ وَالْإِسْطَاعَةِ، أَوْ أَنْ يَقُولَ: هُوَ أَنْ يُؤَفَّقَ بَيْنَ عَمَلِ الشَّرِّ وَالْإِسْطَاعَةِ، وَهُمَا وَاحِدٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أَيِ عَلَيْهِ اعْتَمَدْتُ فِي جَمِيعِ أَمْرِي ﴿وَالَيْهِ أُنِيبُ﴾ أَيِ ارْجِعْ، أَوْ يَقُولُ: إِلَيْهِ أَقْبِلُ بِالطَّاعَةِ.

الآية ٨٩ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ﴾ بِالْفَرْقِ ﴿أَوْ قَوْمَ هُودٍ﴾ بِالرَّيْحِ الصَّرْصِرِ ﴿أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ﴾ بِالضَّيْحَةِ عَلَى مَا ذَكَرَ. قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ أَيِ لَا يَحْمِلَنَّكُمْ ﴿شِقَاقِي﴾ قِيلَ: خِلَافِي ﴿أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ﴾ أَوْلَئِكَ. وَقِيلَ: لَا يُكْسِبَنَّكُمْ عِدَاوَتِي.

وَقَالَ الْحَسَنُ: ﴿شِقَاقِي﴾ ضَرَارِي. لَكِنْ يَرْجَعُ إِلَى مَعْنَى وَاحِدٍ لِأَنَّهُ إِذَا ثَبَّتَتِ الْعِدَاوَةُ ثَبَّتَتِ الْمُخَالَفَةُ وَالْبُغْضُ وَالضَّرَرُ، فَكُلُّ مَا ذُكِرَ فَهُوَ وَاحِدٌ. وَأَصْلُ الْجُرْمِ الْإِثْمُ وَالْكُسْبُ.

ثُمَّ يُخْرِجُ إِذَارَةً لِأَنَّهُمْ يَمُنُّونَ بِهَلَكٍ مِنَ الْأَمَمِ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ قَوْمَ شُعَيْبٍ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْبَغْيِ وَالْقِيَامَةِ، فَأَنْذَرَهُمْ بِمَنْ هَلَكَ مِنَ الْأَمَمِ السَّالِفَةِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ [لَا]^(٢) يَنْذَرُهُمْ بِالْبَغْيِ لَكَانَ لَا يَنْجَعُ فِيهِمْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ.

وَالثَّانِي: أَنْذَرَهُمْ بِأَوْلَئِكَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يُقْلَدُونَ آبَاءَهُمْ فِي عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَيَتَّبِعُونَهُمْ، فَيَقُولُ: إِنَّكُمْ تُقْلَدُونَ آبَاءَكُمْ، وَتَتَّبِعُونَهُمْ فِي عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، فَاتَّبِعُوهُمْ أَيْضاً بِمَا بَلَغَ^(٣) إِلَيْكُمْ مِنْ هَلَاكِ أَوْلَئِكَ بِعِبَادَتِهِمْ الْأَوْثَانِ وَتَكْذِيبِهِمُ الرِّسْلَ. فَإِذَا قُلَّدْتُمُوهُمْ فِي ذَلِكَ فَهَلَا تُقْلَدُونَهُمْ، وَتَتَّبِعُونَهُمْ فِي مَا أَصَابَهُمْ. أَوْ يَقُولُ: إِنَّكُمْ تُقْلَدُونَ آبَاءَكُمْ الَّذِينَ عَبَدُوا الْأَوْثَانِ، وَقَدْ هَلَكُوا، فَلَا تُقْلَدُونَ مَنْ لَمْ يَعْْبُدْهَا^(٤) مِنْهُمْ، وَنَجَا، وَقَدْ عَرَفْتُمْ أَنَّ مَنْ هَلَكَ [مِنْهُمْ بِمِثْلِ هَلَكِ؟]^(٥) وَمَنْ نَجَا مِنْهُمْ^(٦) بِمِثْلِ نَجَا؟ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا قَوْمٌ لُوطٍ يَنْصُرُكُمْ بِعَبِيدٍ﴾ أَيِ [إِنْ]^(٧) نَسِيتُمْ مَنْ مَضَى مِنْهُمْ فَلَا تَنْسُوا^(٨) مَا نَزَلَ بِقَوْمِ لُوطٍ، وَلَيْسُوا هُمْ بِعَبِيدٍ مِنْكُمْ.

الآية ٩٠ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ أَيِ اظْلُبُوا السَّبَبَ الَّذِي يَصْنَعُ لَكُمْ الْمَغْفِرَةَ مِنْ رَبِّكُمْ، وَهُوَ التَّوْحِيدُ ﴿ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾ أَيِ ارْجِعُوا إِلَيْهِ، وَلَا تَعُودُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ.

(١) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: بَلَّغُوا. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: يَعْبُد. (٥) فِي م: مِنْكُمْ بِمِثْلِ هَلَكِ، ساقطة من الأصل. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: مَعَكُمْ. (٧) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: تَنْسُونَ.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ثَوَّبُوا إِلَيْهِ﴾ أي ارجعوا إليه رجوعاً حتى لا تعودوا إلى مثل صنيعكم أبداً ﴿إِنَّ رَبَّ رَحِيمٌ﴾ يَرْحَمُ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ^(١) ﴿وَرُدُّوهُ﴾ [يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ]:

أحدهما: [٢] أي حق أن تودوا منه كل شيء وكل إحسان. والناس جُبلوا على حب من أحسن إليهم.

والثاني: ﴿وَرُدُّوهُ﴾ لِمَنْ تَوَسَّلَ إِلَيْهِ، وَتَقَرَّبَ.

الآية ٩١

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَسْتَعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا نَقُولُ﴾ قوله: ﴿مَا نَفَقَهُ﴾ يَحْتَمِلُ مَا نَفَقَهُمْ، وَمَا نَعْقِلُ ﴿كَثِيرًا﴾ مِمَّا نَقُولُ لِأَنَّ كَلَامَكَ كَلَامٌ مُجَانِنٌ، وَهَذِهِ هِيَ عَادَةُ الْقَوْمِ؛ كَانُوا يَنْسِيُونَ الرُّسُلَ إِلَى الْجُنُونِ. وَيَحْتَمِلُ ﴿مَا نَفَقَهُ﴾ مَا نَقْبَلُ ﴿كَثِيرًا مِمَّا نَقُولُ﴾ فَإِنْ كَانَ عَلَى الْفَهْمِ فَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠] وَهُمْ كَانُوا قَرِيبَيْنِ:

[فريق] (٣) كَانُوا يَقُولُونَ: قُلُوبُنَا أَوْعِيَةُ الْعِلْمِ كَقَوْلِهِمْ: ﴿قُلُوبُنَا غُلَّتْ﴾ [البقرة: ٨٨] فَإِنْ كَانَ مَا نَقُولُ حَقًّا نَفَقَهُمْ، وَنَعْقِلُ كَمَا نَعْقِلُ غَيْرَهُ، وَفَرِيقٌ ٢٤٥ - أ/ قَالُوا: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَكَ إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ [فصلت: ٥] كَانُوا يَغْفِلُونَ أَنَّهُمْ لَا يَفْهَمُونَ، وَلَا يَنْفَقُهُونَ، لِأَنَّ قُلُوبَهُمْ فِي أَكِنَّةٍ، وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ.

والفريق الأول يقولون: إِنَّ قُلُوبَنَا أَوْعِيَةُ لِلْعِلْمِ. فَلَوْ كَانَ [قَوْلُكَ] (٤) حَقًّا لَعَقَلْنَا (٥) كَمَا عَقَلْنَا غَيْرَهُ، فَهَؤُلَاءِ يَضْرِبُونَ الْعَيْبَ إِلَى الرُّسُولِ وَأُولَئِكَ إِلَى أَنْفُسِهِمْ. فَعَلَى ذَلِكَ قَوْمٌ شُعِيبٌ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَرَنَّكَ يَصَيفًا﴾ يَحْتَمِلُ هَذَا وَجْهَيْنِ

أحدهما: أَيِ إِنَّكَ لَسْتَ مِنْ كِبَرَاتِنَا وَأَجَلَّتِنَا، إِنَّمَا أَنْتَ مِنْ أَوْسَاطِنَا. وَعَلَى ذَلِكَ الْأَنْبِيَاءُ إِنَّمَا بُعِثُوا مِنْ أَوْسَاطِ النَّاسِ لَا مِنْ كِبَرَاتِهِمْ فِي أَمْرِ الدُّنْيَا. فَالْقَوِيُّ وَالْعَزِيزُ عِنْدَ أُولَئِكَ الْقَوْمِ مَنْ عِنْدَهُ الدُّنْيَا وَالْمَالُ. وَأَمَّا مَنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ الْمَالُ فَهُوَ عِنْدَهُمْ ضَعِيفٌ ذَلِيلٌ، لِأَنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ الدِّينَ، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ. لِذَلِكَ قَالُوا مَا قَالُوا.

والثاني: لَسْتَ أَنْتَ بِذِي قُوَّةٍ وَبَطْشٍ فِي نَفْسِكَ، وَقَدْ ذُكِرَ أَنَّهُ كَانَ ضَعِيفًا فِي بَصَرِهِ وَنَفْسِهِ. يَحْتَمِلُ وَصْفُهُمْ [إِيَّاهُ] (٦) بِالضَّعِيفِ لِهَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ أَيِ قَبِيلَتِكَ وَقَبِيلَ: عَشِيرَتُكَ ﴿لَرَجَمْنَاكَ﴾ الرَّجْمُ يَحْتَمِلُ الْقَتْلَ، وَيَحْتَمِلُ اللَّعْنَ وَالشَّتْمَ.

ثُمَّ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ وَجْهَيْنِ

أحدهما: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ أَيِ لَوْلَا حُرْمَةُ رَهْطِكَ لَرَجَمْنَاكَ كَأَنَّهُمْ كَانُوا يُحَرِّمُونَ [رَجْمَهُ] (٧) لِمُوافَقَةِ رَهْطِهِ إِيَّاهُمْ فِي الْعِبَادَةِ؛ أَعْنِي عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ، وَعَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ.

والثاني: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ خَوْفًا مِنْهُمْ لِمَا ذُكِرَ أَنَّهُ كَانَ كَثِيرَ الْعَشِيرَةِ وَالْقَبِيلَةِ، كَانُوا يَخَافُونَ عَشِيرَتَهُ، فَلَمْ يُؤْذَوْهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ أَيِ مَا أَنْتَ [مِنْ] (٨) أَجَلَّتِنَا وَكِبَرَاتِنَا، إِنَّمَا أَنْتَ مِنْ أَوْسَاطِنَا، [لَسْتَ] (٩) عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ، لِأَنَّ الْعَزِيزَ عِنْدَهُمْ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ الْمَالُ وَالدُّنْيَا، لَا يَعْرِفُونَ الْعِزَّ بِغَيْرِ ذَلِكَ، وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَ شُعَيْبٍ الدُّنْيَا، لِذَلِكَ نَسَبُوهُ إِلَى مَا ذُكِّرُوا (١٠)، أَوْ أَنْتَ ذَلِيلٌ عِنْدَنَا، لَسْتَ بِعَزِيزٍ. فَيَكُونُ صِلَةُ قَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّا لَنَرَنَّكَ يَصَيفًا﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٩٢

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَنْفَرُوا لِيُحِيطُوا أَصْرًا عَلَيْهِمْ مِنَ اللَّهِ﴾ هَذَا يُخْرِجُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

(١) أدرج بعدها في الأصل وم: والله يرحمه. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: لعقل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: ذكر.

[أخذهما:] ^(١) يَحْتَمِلُ: يا قومِ ارْهَطِي اعْظُمُ حَقًّا عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاکْثُرْ حُرْمَةً حَتَّى تَرَكَتُمْ مَا أَوْعَدْتُمُونِي مِنَ الثَّقَمَةِ لِحَقِّهِمْ وَحُرْمَتِهِمْ؟

والثاني: قوله: ﴿قَالَ يَنْفُورُ اَرْهَطِيْ اَعَزُّ عَلَيْكُمْ﴾ أي اَرْهَطِيْ اشدُّ خَوْفًا عَلَيْكُمْ وَاکْثُرْ نِكَايَةً مِّنَ اللَّهِ؛ لَأَنَا قُلْنَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْتُكَ﴾ إِنَّهُ يُخْرِجُ عَلَى وَجْهَيْنِ؛ أَحَدُهُمَا: الإِخْتِرَامُ لِرَهْطِهِ لِمُوَافَقَتِهِمْ إِيَّاهُمْ فِي جَمِيعِ مَا هُمْ عَلَيْهِ وَالْمُسَاعَدَةُ لَهُمْ. والثاني: عَلَى الْخَوْفِ وَالنَّكَايَةِ لِقَوَّتِهِمْ وَكَثْرَتِهِمْ وَفَضْلِ بَطْشِهِمْ تَرَكَوْا مَا أَوْعَدُوا لَهُ خَوْفًا مِّن رَّهْطِهِ.

فَقَالَ: خَوْفُكُمْ مِّن رَّهْطِيْ أَشَدُّ وَاکْثُرْ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْخَوْفِ مِّنَ اللَّهِ، وَقَدْ بَلَّغْتُكُمْ مِّنْ نِّكَايَةِ اللَّهِ وَنَقَمَتِهِ مَا ^(٢) حَلَّ بِالْأَمَمِ الْمَاضِيَةِ، أَوْ حُرْمَةِ رَهْطِيْ عِنْدَكُمْ وَحَقُّهُمْ اعْظُمُ مِّنْ حَقِّ اللَّهِ وَحُرْمَتِهِ، وَأَنْتُمْ ^(٣) تَعْلَمُونَ إِحْسَانَهُ إِلَيْكُمْ وَإِنْعَامَهُ عَلَيْكُمْ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْزَدْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيَّ﴾ قَالَ بَغْضُهُمْ: ﴿وَأَعْزَدْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيَّ﴾ أَي حَمَلْتُمُوهُ عَلَى ظَهْرِكُمْ. وَحَمَلْتُمْ إِيَّاهُ عَلَى ظَهْرِهِمْ إِسْخَاطُهُمْ إِيَّاهُ. قَالَ: تَقُولُ الْعَرَبُ: حَمَلَ النَّاسَ عَلَى ظَهْرِهِ، أَي اسْخَطَهُمْ عَلَى نَفْسِهِ. وَلَكِنْ لَا نَدْرِي أَقِيلَ هَذَا، أَمْ لَا؟ فَإِنْ قِيلَ: هَذَا فَهُوَ مُخْتَمَلٌ مَا قَالَ، وَهُوَ قَوْلُ أَبِي بَكْرٍ الْأَصَمِّ.

وقال غيره من أهل التأويل: قوله: ﴿وَأَعْزَدْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيَّ﴾ أَي تَبَذَّتُمْ اللَّهَ وَرَاءَ ظَهْرِكُمْ أَي تَبَذَّتُمْ حَقَّ اللَّهِ وَكِتَابَهُ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَرَاءَ ظَهْرِكُمْ، لَا تَعْلَمُونَ بِهِ، وَلَا تَكْتَرِثُونَ إِلَيْهِ؛ هُوَ كَالْمَنْبُودِ وَرَاءَ ظَهْرِكُمْ.

هذا عَلَى التَّمْثِيلِ، أَي جَعَلُوا أَمْرَ اللَّهِ وَدِينَهُ الَّذِي دُعُوا إِلَيْهِ كَالْمَنْبُودِ وَرَاءَ ظَهْرِهِمْ، لَا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، وَلَا يَكْتَرِثُونَ. وَمَا ذَكَرَ فِي قَوْلِهِ: ﴿تَكْمَصُ عَلَى عَيْبِهِ﴾ [الأنفال: ٤٨] وقوله: ﴿أَنقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤] عَلَى التَّمْثِيلِ؛ أَي الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ فِي الْقُبْحِ كَالْإِنْقِلَابِ عَلَى الْأَعْقَابِ.

[وقوله تعالى:] ^(٤) ﴿إِنَّ رَبِّيَ يَمَّا تَمَلُّونَ مُحِيطٌ﴾ هَذَا يُخْرِجُ عَلَى وَجْهَيْنِ أَيْضًا: أَي إِنَّ رَبِّيَ بِمَا تَعْمَلُونَ مِنَ الْأَعْمَالِ الْخَبِيْثَةِ مُحِيطٌ، فَيَجْزِيْكُمْ بِهَا، أَوْ يَقُولُ: إِنَّ رَبِّيَ بِمَا تَعْمَلُونَ مِنَ الْكَيْدِ بِرَسُولِ اللَّهِ وَالْمَكْرِ بِهِ مُحِيطٌ، فَيَنْصُرُهُ عَلَيْكُمْ.

الآية ٩٢

وقوله تعالى: ﴿وَيَنْفُورُ اَعْمَلُوا عَلَى مَكَائِكُمْ إِنِّي عَنِِلٌ﴾ هَذَا يُخْرِجُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ كُونُوا عَلَى دِينِكُمْ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ، وَأَنَا أَكُونُ عَلَى دِينِي كَقَوْلِهِ: ﴿لَكَزْ دِينَكَوْ وَلِي دِينِي﴾ [الكافرون: ٦] لِأَنَّ قَوْمَ شُعَيْبٍ قَالُوا لِشُعَيْبٍ: ﴿أَتُخْرِجُكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَةٍ أَوْ لِنَعُوْدَنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨] فَقَالَ لَهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ: وَهَذَا إِنَّمَا يَقَالُ عِنْدَ [الإِيَّاسِ مِنْ] ^(٥) إِيْمَانِهِمْ كَقَوْلِهِ: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [الشورى: ١٥] وَأَمَّا هُوَ.

والثاني: قوله: ﴿اَعْمَلُوا عَلَى مَكَائِكُمْ إِنِّي عَنِِلٌ﴾ أَي اَعْمَلُوا فِي كَيْدِي وَالْمَكْرِ فِي هَلَاقِي ﴿إِنِّي عَنِِلٌ﴾ ذَلِكَ بِكُمْ. وَهُوَ كَمَا قَالَ غَيْرُهُ مِنَ الرُّسُلِ: ﴿فَيَكِيدُونِي جِيْعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ﴾ [الآية: ٥٥] وقوله: ﴿فَأَنْظِرُونَا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ [الأعراف: ٧١] وَنَحْوُهُ.

وقوله تعالى: ﴿سَوْفَ تَمْلُؤُونَ﴾ فِي الْعَاقِبَةِ وَعِيْدٌ ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أَوْ ﴿سَوْفَ تَمْلُؤُونَ﴾ فِي الْعَاقِبَةِ مَنْ يَأْتِي مِنَّا عَذَابٌ يُخْزِيهِ، نَحْنُ أَمْ ^(٦) أَنْتُمْ؟ مَنْ هُوَ كَاذِبٌ؟ وَتَعْلَمُونَ فِي الْعَاقِبَةِ مِنَ الْكَاذِبِ مِنَّا، نَحْنُ أَمْ ^(٧) أَنْتُمْ؟ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ يَدَّعِي عَلَى الْفَرِيقِ الْآخَرِ الْكَذِبَ وَالْإِفْرَاءَ عَلَى اللَّهِ، فَيَقُولُ ﴿سَوْفَ تَمْلُؤُونَ﴾ فِي الْعَاقِبَةِ مِنَ الْكَاذِبِ مِنَّا وَالْمُفْثَرِي عَلَى اللَّهِ؟ وَالصَّادِقُ عَلَيْهِ ﴿وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ ارْتَقِبُوا هَلَاقِي، وَأَنَا ارْتَقِبُ هَلَاقَكُمْ، أَوْ ارْتَقِبُوا لِمَنِ الْعَاقِبَةُ مِنَّا، لَنَا أَمْ ^(٨) لَكُمْ، ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٩٤

وقوله تعالى: ﴿وَلَكَّا جَاةٌ أَمْرًا نَحْنُ نَحْنُ شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ هَذَا، قَدْ ذَكَرْنَا فِي مَا تَقَدَّمَ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنذَرْتُ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْئَةَ﴾ قِيلَ: الصَّيْئَةُ صَيْحَةُ جَبْرِيلَ؛ أَي هَلَكُوا بِصَيْحَتِهِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الصَّيْحَةُ اسْمُ كُلِّ عَذَابٍ، وَكَذَلِكَ الرَّجْفَةُ. سَمَّى الْعَذَابَ بِأَسْمَاءٍ مُخْتَلَفَةٍ، مَرَّةً صَاعِقَةً، وَمَرَّةً صَيْحَةً، وَمَرَّةً رَجْفَةً.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم. في ما. (٣) في الأصل وم. وقد. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم. الآيس عن. (٦) و(٧) و(٨) في الأصل وم. أو.

الآية ٩٥

وقوله تعالى: ﴿تَأْسَبُحُوا فِي دِيَارِهِمْ حَنِينًا﴾ ﴿كَانَ لَرَبِّنَا إِلَهًُا بَعْدًا لِمَنَيْنَ كَمَا بَدَتِ ثَمُودُ﴾ هذا أيضاً قد ذكرنا في ما تقدم.

قال بعض أهل التأويل: قوله: ﴿أَلَا بَعْدًا لِمَنَيْنَ﴾ في الهلاك ﴿كَما بَدَتِ ثَمُودُ﴾ كما أهلكت ثمود لأن كل واحد منهما هلك بالصيحة. فَمِنْ ثَمَّ اخْتَصَّ ذَكَرُ ثَمُودٍ مِنْ بَيْنِ الْأَمَمِ.

وعن ابن عباس رضي الله عنه [أنه قال] ^(١) لم يُعَذَّبْ بعداب واحد إلا قوم شعيب وصالح. فاما قوم صالح فأخذتهم الصيحة من تحتهم، وقوم شعيب من فوقهم، قال: فَنَشَأَتْ لَهُمْ سَحَابَةٌ، فِيهَا عَذَابُهُمْ، فَلَمْ يَعْلَمُوا، كَهَيْئَةِ الظَّلَّةِ، فِيهَا رِيحٌ. فَلَمَّا رَأَوْهَا أَتَوْهَا يَسْتَظِلُّونَ تَحْتَهَا مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ، فَسَالَ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ.

فذلك قوله: ﴿أَلَا بَعْدًا لِمَنَيْنَ﴾ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴿كَما بَدَتِ ثَمُودُ﴾ مِنْ رَحْمَتِهِ. وَيَحْتَمِلُ الْهَلَاكُ الَّذِي ذَكَرْنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٩٦

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ واحداً ^(٢) على التكرار. فَإِنْ كَانَتْ الْآيَاتُ هِيَ ^(٣) الْأُمُورُ وَالْمَنَاهِي وَمَا يُؤْتَى وَمَا يُتَّقَى. فَقَوْلُهُ: ﴿وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ هِيَ الْحُجُجُ وَالْبَرَاهِينُ عَلَى ذَلِكَ.

الآية ٩٧

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ فِرْعَوْنٌ وَمَلَكِي﴾ قد ذكرنا أَنَّ الْمَلَأَ هُوَ اسْمُ الْجَمَاعَةِ وَاسْمُ الْأَجَلَّةِ وَالْأَشْرَافِ. وَهُوَ كَانَ مَبْعُوثاً إِلَى الْأَشْرَافِ مِنْ قَوْمِهِ وَإِلَى الْجَمَاعَةِ جَمِيعاً؛ خَصَّ بَعَثَهُ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَكِيهِ، وَإِنْ كَانَ مَبْعُوثاً إِلَى الْكُلِّ ^(٤) ٢٤٥ - ب/ لِمَا عُرِفَ فِي الْمُلُوكِ أَنَّهُمْ إِنَّمَا يُخَاطَبُونَ الْكِبَرَاءَ مِنْهُمْ وَالْأَشْرَافَ، وَإِنْ كَانَ الْمَقْصُودُ مِنَ الْخُطَابِ الْكُلُّ.

وقوله تعالى: ﴿فَأَتَيْنَا أَثَرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَثَرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ مَا ذَكَرَ فِي حَمِّ الْمُؤْمِنِ حِينَ ^(٥) قَالَ: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [الآية: ٢٩] فَطَاعُوا فِرْعَوْنَ فِي قَوْلِهِ.

يَقُولُ اللَّهُ: ﴿وَمَا أَثَرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ أَيْ يَهْدِي. أَوْ يَقُولُ: مَا الْأَمْرُ الَّذِي عَلَيْهِ فِرْعَوْنُ بِرَشِيدٍ، بَلْ هُوَ ضَلَالٌ.

ولكن عندنا أنهم أطاعوا فِرْعَوْنَ فِي جَمِيعِ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ فِي عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَغَيْرِهِ، وَهُوَ مَا ذَكَرْنَا ﴿فَأَسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤] وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَثَرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ أَي لَيْسَ يَهْدِي، بَلْ كَانَ أَمْرُهُ [ضلالاً؛ إِذْ] ^(٦) كَانَ هُوَ ضَالاً مُضِلّاً.

الآية ٩٨

وقوله تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: أَي صَارَ قُدَّامَهُمْ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: يَقْدُمُ قَوْمَهُ إِلَى النَّارِ حَتَّى يُورِدَهُمْ إِلَى النَّارِ. وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ﴾ أَي يَكُونُ إِمَاماً لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ، يَتَّبِعُونَ أَثَرَهُ كَمَا كَانَ إِمَامَهُمْ فِي الدُّنْيَا، فَاتَّبَعُوهُ كَقَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِسْمِهِ﴾ [الإسراء: ٧١] وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَذْعُرُونَ إِلَى الْفِرَارِ﴾ [القصص: ٤١] أَخْبَرَ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ أَيْمَةً لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ.

وَيُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ أَي دَعَاهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَأَمَرَهُمْ بِأَمُورٍ، تَوْرَدُهُمُ النَّارَ، تِلْكَ الْأَعْمَالُ؛ ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ [البقرة: ١٧٥] أَي مَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى عَمَلِ أَهْلِ النَّارِ. قَالَ بَعْضُهُمْ: يَتَّبِعُونَهُ حَتَّى يَدْخُلَهُمُ النَّارَ.

وقوله تعالى: ﴿وَيَنفَسَ الْوَرْدُ الْمَرُورُ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: يَنْفَسُ الْمَدْخَلُ الْمَدْخُولُ، وَالْوَرْدُ هُوَ الدَّخُولُ، وَالْمَرُورُ الْمَدْخُولُ. سَمَّى الْجَزَاءَ بِاسْمِ سَبَبِهِ.

قال ابن عباس رضي الله عنه جميع ما ذكر في القرآن من ورود فهو دخول منهم كقوله: ﴿وَيَنفَسَ الْوَرْدُ الْمَرُورُ﴾ وقوله: ﴿وَلَنْ يَنْفَكُوا وَلَا يَرْدُّهَا﴾ [مريم: ٧١] وقوله: ﴿أَنشُرْ لَهَا وَرَدَت﴾ [الأنبياء: ٩٨] [وقوله: ^(٧) ﴿وَسَوْفَ الْمَجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا﴾ [مريم: ٨٦] فقال، والله [أعلم: ^(٨) ﴿لَيَرْدُّهَا كُلُّ بَرٍّ وَفَاجِرٍ﴾ ثُمَّ تَنَجَّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا﴾ [مريم: ٧٢].

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: واحد. (٣) من م، في الأصل: فهي. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل: ضلال حيث، في م: ضلالاً حيث. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٩٩

وقوله تعالى: ﴿وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَبَرَكَةً الْيَتِيمَ﴾ تَحْتَمِلُ اللعنة في الدنيا العذاب الذي نَزَلَ بِهِمْ، وَتَحْتَمِلُ لَعْنُ الْخَلَائِقِ أَيْضاً مَنْ رَأَهُمْ يَلْعَنُهُمْ، وَمَنْ ذَكَرَهُمْ، وَفِي الْآخِرَةِ يَحْتَمِلُ الْوَجْهَيْنِ جَمِيعاً؛ يَحْتَمِلُ يَعْذِبُونَ فِي الْآخِرَةِ أَيْضاً كَمَا عَذَّبُوا فِي الدُّنْيَا، وَيَحْتَمِلُ لَعْنُ الْخَلَائِقِ أَيْضاً: مَنْ رَأَهُمْ، [يَلْعَنُهُمْ] ^(١).

وَاللَّعْنُ هُوَ الطَّرْدُ فِي اللُّغَةِ؛ طَرَدُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَلَمْ يُرَحِّمُوا فِي عَذَابِ الدُّنْيَا، وَلَا يُرَحِّمُونَ فِي عَذَابِ الْآخِرَةِ.

وقوله تعالى: ﴿يَنْسُ الرِّفْدَ الْمَرْفُودُ﴾ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ [رَفَدَهُ أَنْ قَالَ: ^(٢) ﴿يَنْسُ الرِّفْدَ الْمَرْفُودُ﴾ يَقُولُ: لَعْنَةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. قَالَ قَتَادَةُ: تَرَادَفَتْ عَلَيْهِمْ لَعْنَتَانِ مِنَ اللَّهِ لَعْنَةُ الدُّنْيَا وَلَعْنَةُ الْآخِرَةِ، وَلَكِنْ [عَلَى] ^(٣) زَعِيمِهِمْ بِحَيْثُ أَنْ يُقَالَ: الرَّذْفُ مِنَ التَّرَادُفِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الرَّذْفُ الْعَوْنُ، وَهُوَ قَوْلُ الْقُتَيْبِيِّ. وَقَالَ الْقُتَيْبِيُّ: الرِّفْدُ الْعَطِيَّةُ وَالْمَرْفُودُ الْمُعْطَى؛ يَقَالُ: رَفَدْتُهُ إِذَا أَعْطَيْتُهُ، وَأَعْتَنَتْهُ، كَمَا يُقَالُ: بَشَسَ الْعَطَاءُ الْمُعْطَى. وَلِلَّذَلِكَ قَالَ أَبُو عَرَسَةَ: بَشَسَ مَا أُعْطُوا، وَأَعْيَنُوا، وَبَشَسَ الْمُعْطَى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٠٠

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِدٌ وَحَصِيدٌ﴾ قَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى﴾ ذَلِكَ مَا سَبَقَ مِنْ ذِكْرِ الْقُرَى وَالْقُرُونِ ^(٤) فِي هَذِهِ السُّورَةِ مِنْ أَنْبَاءِ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ لِتُعَلِّمَ بِهَا رِسَالَتَكَ، وَلِتَكُونَ آيَةً لِنُبُوءَتِكَ لِأَنَّكَ لَمْ تُشَاهِدْهَا، وَلَا اخْتَلَفْتَ ^(٥) لِأَحَدٍ مِنْهُمْ، فَتَعَلَّمْتَ مِنْهُمْ، وَلَا كَانَتْ الْكُتُبُ بِلِسَانِكَ، فَيَقُولُونَ: نَظَرْتَ فِيهَا، فَاتَّخَذْتَ ذَلِكَ مِنْهَا، ثُمَّ أَتَيْتَ عَلَى مَا كَانَ، وَقَصَصْتَ عَلَيْهِمْ لِتُعَلِّمَ أَنَّكَ إِنَّمَا عَرَفْتَ بِاللَّهِ، فَتَكُونَ آيَةً لِرِسَالَتِكَ.

وقوله تعالى: ﴿قَائِدٌ وَحَصِيدٌ﴾ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: هَهُنَا قَائِدٌ تَرَى [مَكَانَهُ، وَتَنْتَظِرُ إِلَيْهِ، وَمِنْهُ] ^(٦) حَصِيدٌ لَا تَرَى لَهُ أَثَرًا وَلَا مَكَانًا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَائِدٌ أَيْ خَاوِيَةٌ عَلَى عُروِشِهَا، وَحَصِيدٌ مُسْتَأَصَلَةٌ.

وَعَنِ الْحَسَنِ [أَنَّهُ] ^(٧) قَالَ: ﴿مِنْهَا قَائِدٌ﴾ وَمَا حَصَدَ اللَّهُ أَكْثَرُ؛ أَيْ مَا أَهْلَكَ اللَّهُ مِنَ الْقُرَى أَكْثَرَ.

وَأَصْلُهُ عِنْدَنَا: ﴿مِنْهَا قَائِدٌ﴾ نَحْوُ قُرَى عَادَ وَثَمُودَ وَمَذْيَنَ؛ أَهْلَكَ أَهْلَهَا، وَبَقِيَتْ الْقُرَى لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ؛ لِأَنَّهُ يَقُولُ فِي قُرَى عَادَ: ﴿فَأَسْبَحُوا لَا يَزِيهَ إِلَّا مَنْكِبُهُمْ﴾ الْآيَةُ [الْأَحْقَافَ: ٢٥]. وَمِنْهَا حَصِيدٌ مَا أَهْلَكَ أَهْلَهَا وَالْقُرَى جَمِيعاً نَحْوُ قَوْمِ نُوحٍ أَهْلِكُوا بَنِيَانِهِمْ وَنَحْوُ قُرَيَاتٍ قَوْمِ لُوطٍ أَهْلِكْتَ بِأَهْلِهَا أَيْضاً حَتَّى لَمْ يَبْقَ لَا الْإِهْلُ وَلَا الْبَنِيَانُ. فَذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ تَأْوِيلُ قَوْلِهِ: ﴿مِنْهَا قَائِدٌ﴾ هَلَكَ أَهْلُهَا، وَبَقِيَ الْبَنِيَانُ ﴿وَحَصِيدٌ﴾ هُوَ مَا أَهْلَكَ الْبَنِيَانُ بِأَهْلِهِ حَتَّى لَمْ يَبْقَ لَهُ ^(٨) أَثَرٌ.

وفيه وجوه ثلاثة:

أَحَدُهَا: [أَنَّهُ] ^(٩) آيَةُ الرِّسَالَةِ.

[وَالثَّانِي: أَنَّهُ] ^(١٠) عِبَرَةٌ لِأَهْلِ التَّقْوَى، وَهُوَ مَا ذَكَرَ فِي آخِرِهِ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ [هود: ١٠٣].

[وَالثَّلَاثُ: أَنَّهُ زَجْرٌ] ^(١١) لِأَهْلِ الشُّرْكِ وَالْكَفْرِ لِأَنَّهُمْ يَذْكُرُونَ مَا نَزَلَ بِأُولَئِكَ، فَيَتَزَجَّرُونَ عَنْ صَنِيعِهِمْ فِيهِ. هَذِهِ الْوُجُوهُ الَّتِي ذَكَرَهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٠١

وقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْتُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ قَوْلُهُ ^(١٢) ﴿وَمَا ظَلَمْتُمْ﴾ فِيهِ وَجْهَانِ:

أَحَدُهُمَا ^(١٣): لَمْ يَظْلِمْنَاهُمْ لِأَنَّهُمْ وَبَنِيَانُهُمْ مُلْكُ اللَّهِ تَعَالَى، وَكُلُّ ذِي مُلْكٍ لَهُ أَنْ يَهْلِكَ مُلْكُهُ، وَلَا يُوصَفُ بِالظُّلْمِ مَنْ أَتْلَفَ مُلْكَهُ. وَهُمْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ [وَهِيَ] ^(١٤) لَيْسَتْ لَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ، وَكَذَلِكَ بَنِيَانُهُمْ، وَمَنْ أَتْلَفَ مُلْكَ غَيْرِهِ فَهُوَ ظَالِمٌ.

وَالثَّانِي: أَنَّ الظُّلْمَ وَضْعُ الشَّيْءِ [فِي] ^(١٥) غَيْرِ مَوْضِعِهِ. يَقُولُ: وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ؛ إِذْ يَسْتَوْجِبُونَ ذَلِكَ بِمَا ارْتَكَبُوا،

(١) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٤) المقصود قوله تعالى: ﴿قُلُوبًا كَانَتْ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَيْنِكُمْ﴾ [الآية: ١١٦]. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: اخْتَلَفَ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: مَكَانَهَا وَتَنْتَظِرُ إِلَيْهَا وَمِنْهَا. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: لَهَا. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَزَجْرًا. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: أَيْ. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) ساقطة من الأصل وم.

فلم نَضِعْ العذابَ في غير موضعِهِ، بل هُم الذين وَضَعُوا أَنْفُسَهُمْ في غير موضعِها حين^(١) صَرَفُوا إلى غير ما لِيَكُهَا، وَعَبَدُوا غَيْرَهُ، فهو ظَلَمٌ. هذا التأويلُ في أنفُسِهِمْ. وأما البُنيانُ فهو أنه إذا جعلَهُ لَهُمْ، فإذا هَلَكُوا هُم أَهْلُكَ ما جُعِلَ لَهُمْ، إنما أَبْقَى لَهُمْ ما داموا. فأما إذا بادوا هُم فلا مَعْنَى لِبَقَاءِ البُنيانِ.

وما ذَكَرَ مِنْ ظَلَمِهِمْ أَنْفُسَهُمْ يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحدها: ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِعِبَادَتِهِمْ غيرَ الله.

والثاني: ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِصَرْفِهِمْ النَّاسَ وَصَدَّهُمْ عَنْ سَبِيلِ الله عَنْ عِبَادَةِ الله وتوحيده إلى عِبَادَةِ غيرِ الله.

والثالث: ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِسؤالِهِم العذابَ.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ في هذا وجهان:

أحدهما: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي﴾ عِبَدُوهَا ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أي عذابَ رَبِّكَ كقولِهِمْ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ الآية [الزمر: ٣] يُخَيَّرُ أَنْ عِبَادَتُهُمُ الأصنامَ لَا تَنْفَعُهُمُ الْمَنَفَعَةُ الَّتِي ظَلَمُوا.

والثاني: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ﴾ أَنْفُسُ آلِهَتِهِمْ في دفعِ العذابِ عَنْهُمْ في أَخْرَجَ حَالٍ إِلَيْهَا لِيَعْجِزَهُمْ في أنفُسِهِمْ وَضَعْفِهِمْ كقولِهِمْ: ﴿هَؤُلَاءِ شَفَعْتُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] فإذا لم يَمْلِكُوا ذَلِكَ في وقتِ الحاجةِ إِلَيْهِمْ فَكَيْفَ يَمْلِكُونَ في غَيْرِهِ مِنْ الحَالِ؟ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ يَحْتَمِلُ ما زَادَتْ^(٢) عِبَادَتُهُمْ إِيَّاهَا غَيْرَ تَتْبِيبٍ، أو ما زَادَتْ^(٣) آلِهَتُهُمُ الَّتِي عِبَدُوهَا غَيْرَ تَتْبِيبٍ. والتَتْبِيبُ: قَالَ عَامَّةُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: هو التَّخْصِيرُ. وَقَالَ أَبُو عَوَسَجَةَ: ﴿غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ غَيْرَ فَسَادٍ، والتَتْبِيبُ الفَسَادُ. وكذلك قَالَ في قولِهِ: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ [غافر: ٣٧] أي فسادٍ وَقَالَ غَيْرُهُ: إِلَّا فِي خَسَارٍ. وَقَالَ غَيْرُ تَخْصِيرٍ، وكذلك قالوا في قولِهِ: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١] أي خَسِرَتْ. وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: ﴿غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ غَيْرَ تَذْمِيرٍ وَأَهْلَاكٍ، وكذلك قالوا في قولِهِ: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١] وكذلك قالوا في [قَوْلِ النَّاسِ]^(٤) تَبَّا لَكَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: غَيْرَ شَرٍّ، والتَتْبِيبُ الشَّرُّ، والتَّبُّ الشَّرُّ والخُسْرَانُ، وهما واحدٌ.

الآية ١٠٢ وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ﴾ أي هكذا يَأْخُذُ/٢٤٦ - ١/ كُفَّارَ هَذِهِ الْأُمَّةِ كما أَخَذَ أَوَّلَكَ؛ أي كما عَذَّبْنَا الْأُمَّةَ الْخَالِيَةَ، وهي ظالِمَةٌ مُشْرِكَةٌ كَافِرَةٌ، كذلك عَذَابُ^(٥) هَذِهِ الْأُمَّةِ، لَيْسَ^(٦) فِيهِ رَحْمَةٌ ﴿إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ﴾ إِنَّ أَخْذَهُ بِالْعَذَابِ أَلَمٌ شَدِيدٌ. الْأَخْذُ نَفْسُهُ يَوْصَفُ بِالشَّدَةِ، وَلَكِنْ لَا يَوْصَفُ بِالْأَلَمِ، وَالْعَذَابُ يَوْصَفُ بِالْأَلَمِ وَالشَّدَةِ. دَلَّ أَنْ الْأَخْذَ أَخْذٌ بِعَذَابٍ، والله أعلم.

الآية ١٠٣ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ هو ما ذَكَرْنَا؛ فِيهِ عِبْرَةٌ لِأَهْلِ التَّقْوَى وَلِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ يَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ﴾ خَصَّ النَّاسَ بِالذِّكْرِ، وَإِنْ كَانَ الْجَمْعُ لَهُمْ وَلِغَيْرِهِمْ؛ لِأَنَّ الْآيَةَ الَّتِي ذَكَرَ تَكُونُ لَهُمْ آيَةً أَوْ لِمَا هُمْ الْمَقْصُودُونَ بِالْجَمْعِ وَبِذَلِكَ الْيَوْمِ، والله أعلم.

قيل: يُجْمَعُ فِيهِ الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ ﴿وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: يَشْهَدُهُ أَهْلُ السَّمَاءِ وَأَهْلُ الْأَرْضِ لِلْعَرْضِ وَالْحِسَابِ، والله أعلم.

الآية ١٠٤ وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُؤْخِرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُعَدَّدٍ﴾ أي ما تُؤْخِرُهُمُ الْعَذَابُ مِنْ هَذِهِ ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مُعَدَّدٍ﴾ وَذَكَرَ هَذَا، وَاللهُ أَعْلَمُ، جَوَابٌ مَا اسْتَفْجَلُوهُ بِقَوْلِهِمْ: ﴿فَأَنْطَرُوا عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ أَنْتَقْنَا بِعَذَابِ آلِهَةٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: زاد. (٣) في الأصل وم: زاد. (٤) في الأصل وم: قوله. (٥) في الأصل: العذاب، في م: نعلب. (٦) في الأصل وم: و.

وَنَحْوِهِ. فَقَالَ: وَمَا نُوَخَّرُ الْعَذَابَ عَنْهُمْ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّغَدُوْدٍ، إِلَّا لِيُؤْتِيَ مَوْقُوفٍ، أَي لَأَجَلٍ مُّعَدُوْدٍ عِنْدَ اللَّهِ. وَلَوْ كَانَ مَا ذَكَرَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَنَّهُ سَبْعَةُ آلَافٍ، فَيَكُونُ مُّغَدُوْدًا عِنْدَ النَّاسِ، وَيَكُونُ وَقْتُ الْقِيَامَةِ مُّعْلُوْمًا عَلَى قَوْلِهِ، وَقَدْ أَخْبَرَ: ﴿لَا يَحِيطُ بِاَلْوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٠٥ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُنَّ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أَي لَا تَكَلِّمُنَّ نَفْسٌ بِالشَّفَاعَةِ لِأَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِهِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨] لَا تَكَلِّمُنَّ نَفْسٌ لِأَهْوَالِ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلِفَزَعِهِ كَقَوْلِهِ: ﴿مُتَهَلِّمِينَ مُّقْبِلِينَ رُؤُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاتٍ﴾ [إبراهيم: ٤٣] وَكَقَوْلِهِ^(١): ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [عم: ٣٨]، أَوْ ﴿لَا تَكَلِّمُنَّ نَفْسٌ مِنْ الْأَجَلَةِ وَالْعِظْمَاءِ لِأَحَدٍ مِنْ دُونِهِمْ بِالشَّفَاعَةِ﴾ [إِلَّا بِإِذْنِهِ] وَهُوَ مَا ذَكَرْنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ بِأَعْمَالِهِ^(٢) الْخَبِيثَةِ الَّتِي إِذَا اخْتَارَهَا، وَعَمِلَهَا، أَدْخَلَتْهُ النَّارَ، وَمِنْهُمْ سَعِيدٌ بِمَا أَكْرَمَ مِنَ الطَّاعَةِ وَالْخَيْرَاتِ الَّتِي إِذَا اخْتَارَهَا، وَعَمِلَهَا، أَدْخَلَتْهُ الْجَنَّةَ. وَكُلُّ عَمَلٍ يَغْمَلُ، فَيَدْخُلُهُ الْجَنَّةَ، فَهُوَ سَعِيدٌ. وَكُلُّ عَمَلٍ يَغْمَلُ، فَيَدْخُلُهُ النَّارَ، فَهُوَ شَقِيٌّ بِهِ.

رُويَ فِي ذَلِكَ خَبَرٌ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ «رُويَ عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [أَنَّهُ قَالَ]^(٣): سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ فَعَلَامَ^(٤) نَعْمَلُ؟ عَلَى شَيْءٍ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ أَوْ شَيْءٍ لَمْ يَفْرُغْ مِنْهُ؟ قَالَ: بَلْ عَلَى شَيْءٍ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ، وَجَرَتْ بِهِ الْأَقْلَامُ يَا عُمَرُ، وَلَكِنْ كُلُّ مُسَيَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ» [مسلم ٢٦٤٩] فَإِنْ ثَبَتَ فَهُوَ يَدُلُّ لِمَا ذَكَرْنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٠٦ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَيُنَادُونَ عَنِ الْيَأْسِ﴾ لِمَا ذَكَرَ^(٥) «لَمْ يَمْ يَمْ زَيْدٌ وَشَيْئٌ» قَالَ بَعْضُهُمْ: الزَّيْفُ هُوَ كَزْفِيرِ الْجِمَارِ فِي الصَّدْرِ، وَهُوَ أَوَّلُ مَا يَنْهَقُ، وَأَمَّا الشَّهِيقُ فَهُوَ كَشَهيقِ الْحِمَارِ فِي الْحَلْقِ، فَهُوَ آخِرُ مَا يَفْرُغُ مِنْ نَهيقِهِ، فَهُوَ شَهيقٌ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الزَّيْفُ هُوَ مَا لَا يُفْهَمُ مِنْهُ شَيْءٌ، إِنَّمَا هُوَ كَالْأَنِينِ وَالْجَزَعِ مِنْ شَيْءٍ يُصِيبُهُ، لَا يُبَيِّنُ مِنْهُ، كَقَوْلِهِ: ﴿يَجْعَلُونَ لِمَا تَنْبَغُ زَيْفًا﴾ [الفرقان: ١٢] وَالشَّهِيقُ هُوَ مَا يَرْتَفِعُ مِنْهُ الصَّوْتُ، يُسَمَّى شَهيقًا.

وَيَتَحَمَّلُ مَا ذَكَرَ مِنَ الزَّيْفِ وَالشَّهِيقِ أَنَّهُمْ يَصِيرُونَ بَعْدَ كَثْرَةِ دَعَائِهِمْ وَنِدَائِهِمْ حَتَّى يَكُونَ مِنْهُمْ الزَّيْفُ وَالشَّهِيقُ لَا يُفْهَمُ كَصَوْتِ الدَّوَابِّ إِذَا أَصَابَهَا أَلَمٌ.

الآية ١٠٧ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ عَنِ الْحَسَنِ [أَنَّهُ]^(٦) قَالَ: مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ تُبَدَّلُ وَتُبَدِّلُ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ﴾ [الفرقان: ٢٥] [وَقَوْلِهِ]^(٧): ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِ لِلْكَتُوبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وَقَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ عَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨] وَنَحْوُهُ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ: ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ إِنَّمَا [هُوَ]^(٨) صَلََةُ الْكَلَامِ؛ كَأَنَّهُ قَالَ: خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ ذَلِكَ. وَقَدْ يَتَكَلَّمُ بِمِثْلِ هَذَا عَلَى الصَّلَةِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: يَدُومُ لَهُمُ الْعَذَابُ أَبَدًا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ [لِأَهْلِ الدُّنْيَا مَا دَامُوا فِيهَا لِأَنَّهُمَا إِنَّمَا يَفْتَنَانِ بَعْدَ فَنَاءِ أَهْلِهِمَا، وَيَبْعَثُ إِحْيَاءَ الْأَهْلِ وَالْبَعْثُ، فَأَخْبَرَ أَنَّ الْعَذَابَ يَدُومُ لَهُمْ كَمَا تَدُومُ لِأَهْلِ الدُّنْيَا السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ]^(٩) وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ أَي مَا دَامَتِ سَمَاءُ الْجَنَّةِ وَأَرْضُ الْجَنَّةِ وَسَمَاءُ النَّارِ وَأَرْضُ النَّارِ لَكِنْ ذَكَرَ هَذَا لِئَلَّا يَتَوَهَّمُ أَهْلُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ قَبْلَ هَلَاكِ سَمَائِهِمَا وَأَرْضِهَا عَلَى مَا يَتَوَهَّمُ هَلَاكُ أَهْلِ الدُّنْيَا قَبْلَ هَلَاكِ سَمَائِهَا وَأَرْضِهَا.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ أَي مَا دَامَتِ الْأَرْضُ أَرْضًا وَالسَّمَاءُ سَمَاءً يَتَكَلَّمُونَ عَلَى مَا بَعْدَ مِنْ أَوْهَابِهِمْ فَنَاقَهَا أَوْ عَلَى الصَّلَةِ؛ يَقُولُ الرَّجُلُ لِأَخَرٍ: لَا أَكَلِّمُكَ مَا دَامَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، أَي أَبَدًا. هَذَا تَأْوِيلُ قَوْلِهِ: ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾

(١) الرواء ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: بأعمال. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: فعلى من. (٥) في الأصل وم: ذكرنا. (٦) و(٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) و(٩) ساقطة من م.

وَأَمَّا قَوْلُهُ ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ [فقد^(١)] قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ نَاسًا مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ يُعَذِّبُونَ فِي النَّارِ عَلَى قَدْرِ ذُنُوبِهِمْ وَخَطَايَاهُمْ، ثُمَّ يُخْرِجُونَ مِنْهَا.

وقد رُوِيَ فِي ذَلِكَ، رُوِيَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ وَأَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ [أَنَّهُ^(٢)] قَالَ: «الْإِسْتِثْنَاءُ فِي الْآيَتَيْنِ كِلْتَاهُمَا لِأَهْلِ الْجَنَّةِ» [البیهقي في البعث والنشور ٦٠٤] يَعْنِي الَّذِينَ يُخْرِجُونَ مِنَ النَّارِ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ يَقُولُ: لَمْ يَشْفَوْا شَقَاءَ مَنْ يَخْلُدُ فِي النَّارِ قَالَ فِي الَّذِينَ سَعِدُوا ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ هُم أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يَنَالُوا مِنَ السَّعَادَةِ مَا نَالَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الَّذِينَ لَمْ يَدْخُلُوا النَّارَ.

وَفِي بَعْضِهَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَمَّا مَنْ يُرِيدُ اللَّهُ إِخْرَاجَهُ مِنَ النَّارِ فَإِنَّهُمْ يُمَاتُونَ إِمَاتَةً» وَقَالَ فِي خَبَرٍ آخَرَ: «أَمَّا مَنْ يُرِيدُ اللَّهُ لَهُ الْخُلُودَ فَلَا يُخْرِجُ مِنْهَا» [بنحوه عن ابن عباس: البیهقي في البعث والنشور ٦٠٦] وَأَمْثَالُ هَذَا مِنَ الْأَخْبَارِ. فَإِنَّ ثَبْتَ هَذَا فَهُوَ الْمُعْتَمَدُ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ أَيُّ قَدْ شَاءَ لِأَهْلِ النَّارِ الْأَبَدِ وَالْخُلُودِ، وَشَاءَ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ ﴿عَطَاةٌ غَيْرَ مَحْدُودَةٍ﴾ [هود: ١٠٨] أَيُّ غَيْرَ مُنْقَطِعٍ. وَيُؤَيِّدُ هَذَا التَّأْوِيلَ مَا ذَكَرَ فِي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي [بْنِ كَعْبٍ^(٣)] «مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ» فِي الْآيَتَيْنِ، وَفِي الْأُولَى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ وَفِي الْآخَرَى: «مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاةٌ غَيْرَ مَحْدُودَةٍ» وَكَذَلِكَ ذَكَرَ فِي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي [بْنِ كَعْبٍ^(٤)] أَنَّهُمَا لَمْ يَذْكُرَا^(٥) الثَّنَاءَ فِي أَهْلِ الْجَنَّةِ.

وَأَصْلُ هَذَا مَا ذَكَرَ أَبُو عُبَيْدٍ قَالَ: الْإِسْتِثْنَاءُ الَّذِي هُوَ فِي أَهْلِ السَّعَادَةِ فَهُوَ الْمُشْكِلُ لِأَنَّهُ يُقَالُ: كَيْفَ يَسْتَثْنِي، وَقَدْ وَعَدَهُمْ خُلُودَ الْأَبَدِ فِي الْجَنَّةِ. وَقَالَ فِي ذَلِكَ أَقْوَالٌ لَا أُدْرِي إِلَى مَنْ [يُسْنِدُهَا؟] إِلَّا أَنَّ لَهَا مَخَارِجَ^(٦) فِي كَلَامِ الْعَرَبِ وَشَوَاهِدَ فِي الْأَثَارِ.

وَأَمَّا يَتَكَلَّمُ النَّاسُ فِي هَذَا عَلَى مَعَانِي الْعَرَبِيَّةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، بِمَا أَرَادَ.

قَالَ: فَأَخَذَ هَذِهِ الْوُجُوهُ فِي الْإِسْتِثْنَاءِ فِي مَا يُقَالُ: كَالرَّجُلِ يُوجِبُ عَلَى نَفْسِهِ الشَّيْءَ، ثُمَّ يَقُولُ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَعَزَمَهُ ضَمِيرُهُ مَعَ اسْتِثْنَائِهِ أَنَّهُ فَاعِلُهُ، لَا يُرِيدُ غَيْرَهُ

وَمِمَّا^(٧) يَقْوِي هَذَا الْمَذْهَبَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لَتَدْخُلَنَّ السَّجْدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مَائِمَتٍ مُخْلِفينَ رُءُوسَكُمْ﴾ [الفتح: ٢٧] فَاسْتَثْنَى، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُمْ دَاخِلُوهُ الْبَيْتَ.

وَمِنْهُ مَا رُوِيَ فِي حَدِيثِ مَكَّةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ قَالَ: «وَلَا تَحِلُّ لِقَطْعَتُهَا إِلَّا لِمُنْشِدٍ» [البخاري ١٨٣٣] وَقَالَ بَعْضُهُمْ: اسْتَثْنَى الْمُنْشِدَ/ ٢٤٦ - ب/، وَهِيَ لَا تَحِلُّ لَهُ كَمَا لَا تَحِلُّ لِغَيْرِهِ.

وَالْوَجْهُ الثَّانِي: بِأَنْ يَكُونَ إِلَّا فِي مَعْنَى سِوَى؛ فَإِنَّ الْعَرَبَ تَفْعَلُ ذَلِكَ، تَقُولُ: عَلَيْكَ أَلْفُ دَرَاهِمٍ مِنْ قَبْلِ كَذَا وَكَذَا إِلَّا الْأَلْفَ الَّتِي قَبْلَ ذَلِكَ، أَيْ سِوَى الْأَلْفِ الَّتِي قَبْلَ ذَلِكَ. فَيَكُونُ الْمَعْنَى عَلَى هَذَا أَنَّهُ وَعَدَهُمْ خُلُودَ الْأَبَدِ سِوَى مَا أَعَدَّ لَهُمْ مِنَ الزِّيَادَةِ فِي الْكِرَامَةِ وَالْمَنْزِلَةِ الَّتِي لَمْ يَذْكُرْهَا لَهُمْ.

وَمِمَّا يَقْوِي هَذَا التَّأْوِيلَ مَا رُوِيَ عَنْ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ [أَنَّهُ^(٨)] قَالَ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، بَلَاءَ الَّذِي مَا أَظْلَعْتُمْ عَلَيْهِ. ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾» [الآية [السجدة: ١٧] [مسلم: ٢٨٢٤]. أَلَا تَرَى أَنَّ هَهُنَا مِنَ الزِّيَادَةِ مَا لَمْ يُظْلَعْهُمْ عَلَيْهِ؟

وَالْوَجْهُ الثَّالِثُ: أَنْ يَكُونَ الْإِسْتِثْنَاءُ مِنْ خُلُودِهِمْ فِي الْجَنَّةِ اخْتِصَاصَهُمْ عَنْهَا مَا بَيْنَ الْبَعْثِ وَالْحِسَابِ. وَقَدْ قِيلَ مَا ذَكَّرْنَا أَنَّهُ مَا بَيْنَ الْمَوْتِ وَالْبَعْثِ، وَهُوَ الْبَرْزَخُ الَّذِي ذَكَرَ إِلَى أَنْ يَصِيرُوا إِلَى الْجَنَّةِ، ثُمَّ هُوَ خُلُودُ الْأَبَدِ؛ يَقُولُ: فَلَمْ

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: يذكر (٦) في الأصل: يسند إلا لها مخارجا، في م: يسند إلا أن لها مخارجا. (٧) في الأصل وم: وهما. (٨) ساقطة من الأصل وم.

يَغْيَبُوا عَنِ الْجَنَّةِ إِلَّا يُقَدَّرُ إِقَامَتُهُمْ فِي الْحِسَابِ. وَمَا يُقْوِي هَذَا الْمَذْهَبَ مَا قِيلَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ رَأَاهُمْ بَرْزَخٌ إِنْ بَرَّ يُمْئُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠] قِيلَ: مَا بَيَّنَّ الْمَوْتَ وَالْبَعْثَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِذَلِكَ.

الآية ١٠٨ وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَوَيْ الْجَنَّةِ﴾ فَقَدْ اخْتَلَفَ الْقُرَّاءُ فِي قِرَاءَتِهَا؛ قَرَأَهَا الْكِسَائِيُّ وَحَمْزُهُ بَضَمُ السَّيْنِ: سُعِدُوا، وَأَمَّا أَبُو عَمْرٍو وَأَهْلُ الْمَدِينَةِ وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْقُرَّاءِ [فَقَدْ] ^(١) قَرَأُوا بِفَتْحِ السَّيْنِ ^(٢): سَعِدُوا عَلَى قِيَاسِ شَقْوَا. قَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ: لَا أَعْرِفُ: سَعِدُوا بَضَمُ السَّيْنِ، وَإِنَّمَا هُوَ بِفَتْحِ السَّيْنِ.

وَقَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ: ﴿غَيْرَ مُجْدُوذٍ﴾ أَيِ غَيْرِ مُقْطَرِعٍ كَقَوْلِهِ: ﴿فَجَمَلَهُمْ جُدَاذًا﴾ [الأنبياء: ٥٨] أَيِ قُطَاعًا. وَقَدْ ذَكَرْنَا قَوْلَهُمْ فِي الزَّيْفِ وَالشَّهْقِ عَلَى قَدْرِ حِفْظِنَا لَهُ.

الآية ١٠٩ وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَبْدُؤُا هَؤُلَاءُ مَا يَمْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَبْدُؤُا آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ تَأْوِيلُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: لَا تَكُنْ يَا مُحَمَّدُ فِي شَكٍّ بَأَنَّ هَؤُلَاءِ قَدْ بَلَّغُوا فِي عِبَادَتِهِمُ الْأَصْنَامَ وَالْأَوْتَانَ الْحَدَّ الَّذِي بَلَغَ آبَاؤُهُمْ فِي عِبَادَتِهِمُ الْأَصْنَامَ وَالْأَوْتَانَ، فَأَهْلِكُوا: إِذْ بَلَّغُوا ذَلِكَ الْحَدَّ. فَهَؤُلَاءِ أَيْضًا قَدْ بَلَّغُوا ذَلِكَ الْمَبْلَغَ أَيِ مَبْلَغِ الْهَلَاكِ، لَكِنَّ اللَّهَ بِرَحْمَتِهِ وَقُضِيهِ آخِرَ عَنْهُمْ [العذاب] ^(٣) إِلَى وَقْتٍ.

أَوْ يُقَالُ: إِنَّ هَؤُلَاءِ قَدْ بَلَّغُوا فِي الْعِبَادَةِ لِغَيْرِ اللَّهِ بَعْدَ نَزُولِ الْقُرْآنِ وَالْحُجَّةِ الْمَبْلَغَ الَّذِي بَلَغَ آبَاؤُهُمْ قَبْلَ نَزُولِ الْحُجَّةِ وَالْبِرْهَانِ فِي عِبَادَتِهِمْ غَيْرِ اللَّهِ.

أَوْ كَانَ [قَوْلُهُ] ^(٤) فِي قَوْمٍ قَدْ أَظْهَرُوا الْمُوَافَقَةَ لَهُمْ، وَكَانُوا يَمْبُدُونَ الْأَصْنَامَ فِي السِّرِّ عَلَى مَا كَانَ يَبْدُؤُا آبَاؤُهُمْ، فَقَالَ: هَؤُلَاءِ، وَإِنْ أَظْهَرُوا الْمُوَافَقَةَ لَكَ فَقَدْ بَلَّغُوا بِضَعِيعِهِمْ فِي السِّرِّ مَبْلَغَ آبَائِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. هَذَا يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: إِخْبَارٌ عَنْ قَوْمٍ خَاصٍّ أَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ أَحَدٌ مِنْهُمْ لِيَجْعَلَ شُغْلَهُمْ بِغَيْرِهِمْ.

وَالثَّانِي: إِخْبَارٌ أَنَّ يَوْمَئِذٍ جَمِيعُ قَوْمِكَ كَمَا لَمْ يُؤْمِنِ قَوْمُ مُوسَى بِاجْتَمَاعِهِمْ. بَلْ قَدْ آمَنَ مِنْهُمْ فَرِيقٌ، وَلَمْ يُؤْمِنِ فَرِيقٌ، فَغَلَى ذَلِكَ يَكُونُ قَوْمُكَ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنُوسٍ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ: ﴿وَأَنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيبُهُمْ﴾ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْأَرْزَاقِ، وَمَا قَدَّرَ لَهُمْ مِنَ النَّعَمِ ﴿غَيْرَ مَنُوسٍ﴾ وَلَا يُنْقَضُ مَا قَدَّرَ لَهُمْ؛ أَيِ لَا يَهْلِكُونَ حَتَّى يُؤْفَى لَهُمْ.

وَقَالَ قَائِلُونَ: ﴿وَأَنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيبُهُمْ﴾ بِأَعْمَالِهِمْ غَيْرَ مُنْقُوصٍ؛ أَيِ لَا يُنْقَصُونَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ شَيْئًا، وَلَا يُزَادُونَ عَلَيْهِ ^(٥)؛ إِنْ كَانَ حَسَنًا فَحَسَنٌ، وَإِنْ كَانَ شَرًّا فَشَرٌّ؛ هُوَ عَلَى الْجَزَاءِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ: ﴿وَأَنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيبُهُمْ﴾ يَقُولُ: إِنَّا نُؤْفَى لَهُمْ حَظُّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ فِي الْآخِرَةِ ﴿غَيْرَ مَنُوسٍ﴾. عَنْهُمْ ذَلِكَ الْعَذَابُ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنُوسٍ﴾ إِنْ كَانَ التَّأْوِيلُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَبْدُؤُا هَؤُلَاءُ مَا يَمْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَبْدُؤُا آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ عَلَى الْإِيَّاسِ مِنْ قَوْمٍ، عَلِمَ اللَّهُ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، فَيَكُونُ تَأْوِيلُهُ مَا ذَكَرَ فِي آيَةِ أُخْرَى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ﴾ [هود: ١٥]

وَإِنْ كَانَ الثَّانِي فَهُوَ مَا ذَكَرَ فِي آيَةِ أُخْرَى: ﴿وَأَنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيبُهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ﴾ [هود: ١١١]

الآية ١١٠ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أَيِ التَّوْرَةِ ﴿فَاخْتَلَفَ فِيهِ﴾ أَيِ اخْتَلَفَ فِي الْكِتَابِ. وَالِاخْتِلَافُ فِيهِ يَحْتَمِلُ وَجُوهًا ثَلَاثَةً:

أَحَدُهَا: فِي الْإِيمَانِ بِهِ وَالْكَفْرِ؛ مِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ.

وَالثَّانِي: اخْتَلَفُوا فِيهِ فِي الزِّيَادَةِ وَالنَّقْصَانِ وَالتَّبْدِيلِ وَالتَّحْوِيلِ وَالتَّخْرِيفِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَنَّا مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُونِ أَلْسِنَتَهُمُ

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ٣/ ١٣٥. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: عليهم.

بِالْكِتَابِ ﴿الآية [آل عمران: ٧٨] وكقوليه: ﴿قَوْلِيلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٧٩] وكقوليه: ﴿يَحْرِفُونَ الْقَلَمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [النساء: ٤٦] وأمثاله مِنَ الآيات.

والوجه الثالث: مِنَ الاختلاف: اختلافهم^(١) في تأويله وفي معناه بَعْدَ ما آمَنُوا به، وقيلوه. فالاختلاف في التأويل مِمَّا اخْتَمَلَ كتابنا. وأما التَّبدِيلُ والتَّخْرِيفُ والزيادةُ والتَّنْقِصَانُ فإنه لا يَحْتَمِلُ لِمَا ضَمِنَ اللهُ حِفْظَ هذا الكتابِ بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] وقوليه^(٢): ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ﴾ الآية [فصلت: ٤٢] وجعله مُتَشِيرًا على ألسِنِ الناسِ وقلوبهم، حتى مَنْ زَادَ، أو نَقَصَ، أو بَدَّلَ، أو حَرَّفَ شيئاً، أو قَدَّمَ، أو أَخَّرَ، عُرِفَ ذَلِكَ.

فهو، والله أعلم، لا يَحْتَمِلُ هذا: نَسْخُهَا، ولا شَرَائِعُهُ تَبْدِيلُهَا وأما الكُتُبُ السَّالِفَةُ فإنما جَعَلَ حِفْظُهَا إِلَيْهِمْ بقوله: ﴿بِمَا أَسْتَخْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٤] فهو، والله أعلم، لِمَا اخْتَمَلَ شَرَائِعُهَا وَأَحْكَامُهَا بِنَسْخِهَا وَتَبْدِيلِهَا، لذلك كَانَ الْأَمْرُ مَا ذَكَرْنَا قَوْلَهُ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ﴾ ذَكَرَ هذا لِرَسُولِ اللهِ، يُصْبِرُهُ على مَا اخْتَلَفَ قَوْمُهُ فِي الْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ؛ يَقُولُ: وقد اخْتَلَفَ فِي مَا أَنْزَلَ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكَ كَمَا اخْتَلَفَ فِي مَا أَنْزَلَ عَلَيْكَ. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُتِحَ بَيْنَهُمْ﴾ بالهلاكِ هلاكِ اسْتِثْصَالِ واستيعابِ.

وكلمته التي سَبَقَتْ تَحْتَمِلُ [وجوهاً]:

أحدها^(٣): ما كَانَ مِنْ حَكِيمِهِ أَنْ يَخْتُمَ الرِّسَالَةَ بِمُحَمَّدٍ، وَأَنْ يَجْعَلَهُ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ، وَأَمْتُهُ آخِرُ الْأُمَمِ؛ بِهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ؛ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ كَلِمَتُهُ الَّتِي ذَكَرَ هذا الَّذِي ذَكَرْنَا.

والثاني^(٤): أَنْ كَانَ مِنْ حَكِيمِهِ أَنَّهُمْ إِذَا اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ وَالدينِ، وَصَارُوا بِحَيْثُ لَا يَهْتَدُونَ إِلَى شَيْءٍ، وَلَا يَجِدُونَ سَبِيلًا إِلَى الدينِ أَنْ يَنْبَغَتْ رِسَالًا، يُبَيِّنُ لَهُمُ الدينَ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى؛ لَوْلَا هذا الْحُكْمُ سَبَقَ، وَإِلَّا لَفُتِحَ بَيْنَهُمْ بِالْهَلَاكِ.

والثالث: لَوْلَا مَا سَبَقَ مِنْهُ أَنْ يُؤَخَّرَ الْعَذَابُ عَنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَى وَقْتٍ، وَإِلَّا لَفُتِحَ بَيْنَهُمْ بِالْهَلَاكِ

والرابع^(٥): تَحْتَمِلُ الْكَلِمَةُ الَّتِي ذَكَرَ أَنَّهَا سَبَقَتْ فِي قَوْمِ مُوسَى، وَهُوَ أَنَّهُ لَا يُهْلِكُهُمْ بَعْدَ الْغَرَقِ إِهْلَاكِ اسْتِثْصَالِ، وَالتَّوْرَةَ إِنَّمَا أَنْزَلْتَ مِنْ بَعْدِ [الْعَرَقِ]^(٦)، وَقَدْ آمَنَ مِنْ ﴿قَوْرٍ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٩] وقوله تعالى: ﴿وَرَأَيْتُمْ لَيْسَ شَيْءٌ مِنْهُمْ سَبَقَ﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلَهُ: ﴿لَيْسَ شَيْءٌ مِنْهُمْ سَبَقَ﴾ فِي الدينِ ﴿مُرِيبٌ﴾.

وقال بعضهم: ﴿لَيْسَ شَيْءٌ مِنْ الْعَذَابِ ﴿مُرِيبٌ﴾ وَقَدْ ذَكَرْنَا الْفَرْقَ بَيْنَ الشُّكِّ وَالرَّيبِ فِي مَا تَقَدَّمَ.

الآية ١١١ وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَلَّا لَمَّا يُؤْفِقُهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ﴾ فِي الْآخِرَةِ؛ إِنْ كَانَ شَرًّا فَشَرًّا، وَإِنْ كَانَ حَسَنًا فَحَسَنًا. وَمَنْ قَرَأَ لَمَّا بِالتَّشْدِيدِ فَإِنَّهُ^(٧) يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أحدهما: إِلَّا.

والثاني: لَمَّا أَي لَمَّا اجْتَمَعَ فِيهَا مِمَاتٌ؛ طَرِحَتْ الْوَاحِدَةُ، وَأُذِغِمَتْ إِحْدَاهُمَا فِي الْآخَرَى.

وقوله تعالى: / ٢٤٧ - / ﴿إِنَّهُمْ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ هُوَ وَعِيدٌ.

الآية ١١٢ وقوله تعالى: ﴿فَأَسْتَقِيمَ كَمَا أَمَرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا﴾ وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ ﴿فَلِلَّذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِيمَ كَمَا أَمَرْتَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ: ﴿فَأَسْتَقِيمَ كَمَا أَمَرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ الْإِسْتِقَامَةُ هُوَ التَّوْحِيدُ، أَيِ اسْتَقِيمَ عَلَيْهِ حَتَّى تَأْتِيَ بِهِ رَبُّكَ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الذِّكْرَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقِيمُوا﴾ [فصلت: ٣٠] عَلَى ذَلِكَ حَتَّى أَتَوْا عَلَى اللهِ بِهِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: اخْتَلَفُوا. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَتَحْتَمِلُ وَجْهًا آخَرَ وَهُوَ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُتِحَ بَيْنَهُمْ﴾ (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ، انْظُرْ مَعْجَمَ الْقُرْآنِ ص ٣٥١.

وقال بعضهم: ﴿قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَيْنَاهُمْ﴾ بما تَضَمَّنَ قوله: ﴿رَبَّنَا اللَّهُ﴾ لأنَّ قوله: ﴿رَبَّنَا اللَّهُ﴾ إقرار منه له بالربوبية، فيجعل [المرء] ^(١) في نفسه وجميع أموره الربوبية لله والألوهية له، ويأتي ما يجب أن يؤتى، وينتهي عما ^(٢) يجب ما ينتهي، ويتبع جميع أوامره ونواهيه، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَاسْتَفْتِمُوهُ﴾ لرسول الله [الذي] ^(٣) يَحْتَمِلُ على تبليغ الرسالة إليهم. وقوله: ﴿فَاسْتَفْتِمُوهُ كَمَا أَمَرْتُ﴾ يُخْرِجُ على وجهين:

أحدهما: استفتيهم على ما ﴿أَمَرْتُ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ أيضاً لِيَسْتَفْتِيَهُمْ على ما أمروا.

والثاني: يقول: امض إلى ما أمرت؛ حَرَفُ كَمَا يُخْرِجُ على هذين الوجهين [اللذين] ^(٤) ذَكَرْنَا؛ على ما أمرت، وإلى ما أمرت.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ مِنَ الشَّرِكِ ادعوهم على أن يَسْتَفْتِيَهُمْ على ما أمروا، ودُعُوا ^(٥) بلسانهم ﴿وَلَا تَقْلُبُوا﴾ وقال بعضهم: الطغيان هو المُجَاوِزَةُ عَنِ الْحَدِّ الذي جُعِلَ له.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ بِمَا تَقْلُبُونَ بَصِيرٌ﴾ هذا وعيد.

الآية ١١٣ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزْكُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ قال الحسن: هو صلة قوله: ﴿فَاسْتَفْتِمُوهُ كَمَا أَمَرْتُ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَقْلُبُوا﴾ ﴿وَلَا تَزْكُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ قال الحسن: بينهما دين الله؛ بين الركون إلى الظلمة والطغيان في النعمة.

الآية، وإن كانت في أهل الشرك، فهي فيهم، وفي غيرهم من الظلمة؛ إن كل من ركن إلى الظلمة، يُطِيعُهُمْ، أو يَدُودُهُمْ، فهو يُخَوِّفُ ^(٦) أن يكون في وعيد هذه الآية ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ في دفع العذاب عنكم ^(٧) أو إحداث نفع لكم ^(٨) ﴿ثُمَّ لَا تَعْمَلُونَ﴾ لا ناصِر لكم ^(٩) دونه، ولا مانع، والله أعلم.

وتأويل قوله: ﴿وَلَا تَزْكُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ في ظلمهم وفي ما يدعونكم إليه ﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ الآية.

وقال بعض أهل التأويل: نَزَلَ قوله: ﴿وَلَا تَزْكُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ في رسول الله حين دعاه أهل الشرك، ولا تَلَحُّقُوا بهم.

الآية ١١٤ وقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ أَيْلٍ﴾ ظاهر هذا أن يكون [في ما] ^(١٠) ذَكَرَ صَلَوَاتِ ثلاث: صلاة الفجر في الطرف الأول، وصلاة العصر في الطرف الأخير، ﴿وَزُلْفَا مِنْ أَيْلٍ﴾ صلاة المغرب، لأنه ذَكَرَ زُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ، والزُلْفَا القُرْبُ، لأنَّ الزُّلْفَةَ، هي القُرْبَةُ والوسيلة، ويكون ^(١١) قوله ﴿وَزُلْفَا مِنْ أَيْلٍ﴾ أي قريباً من طرف النهار [وقريباً من طرف] ^(١٢) الليل، وهو المغرب.

ويكون ذكر سائر الصلوات في قوله: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ [الإسراء: ٧٨] ذَكَرَ ذُلُوكَ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ، ذَكَرَ ذُلُوكَ الشَّمْسِ، وهو زوال الشمس، وغَسَقَ اللَّيْلِ، [وهو] ^(١٣) العشاء، أو في قوله ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٧ و ١٨].

﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ صلاة العصر و ﴿حِينَ تُصْبِحُونَ﴾ صلاة الفجر ﴿وَعَشِيًّا﴾ صلاة العشاء ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ صلاة الظهر. وليس لصلاة المغرب ذكر في الآية، لكنها ذُكِرَتْ في قوله ﴿وَزُلْفَا مِنْ أَيْلٍ﴾.

وقال بعضهم ﴿وَزُلْفَا مِنْ أَيْلٍ﴾ ساعات من الليل. إلا أن بعض أهل التأويل صَرَفُوهَا إِلَى الصَّلَوَاتِ الخمس، وقالوا: قوله: ﴿طَرَفَيِ النَّهَارِ﴾ صلاة الصبح والظهر ^(١٤) والعصر ﴿وَزُلْفَا مِنْ أَيْلٍ﴾ صلاة المغرب والعشاء.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم. ما. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم. وادوا. (٦) في الأصل وم. يخاف. (٧) في الأصل وم. عنهم. (٨) في الأصل م م: لهم. (٩) في الأصل وم: لهم. (١٠) من م، في الأصل: فيها. (١١) في الأصل وم: ليكون. (١٢) في الأصل وم: من. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) الواو ساقطة من الأصل وم.

وَقَالَ الْحَسَنُ: هُمَا زُفْتَانِ مِنَ اللَّيْلِ صَلَاةُ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ. عَلَى ذَلِكَ جَاءَتِ الْآثَارُ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ﴾ السَّيِّئَاتِ ﴿الْحَسَنَاتُ هِيَ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ. «وَرُويَ أَنَّ رَجُلًا أَصَابَ مِنْ امْرَأَةٍ كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا الْجَمَاعَ، فَتَدِمَ عَلَى ذَلِكَ، فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ، فَسَأَلَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: مَا أَدْرِي مَا أَرَدْتُ عَلَيْكَ حَتَّى يَأْتِيَ فِيكَ شَيْءٌ مِنَ اللَّهِ. قَالَ فَبَيْنَمَا هُمَا^(١) كَذَلِكَ إِذْ حَضَرَتِ الصَّلَاةُ، فَلَمَّا قَرَعَ مِنْ صَلَاتِهِ نَزَلَ عَلَيْهِ جَبْرَيْلُ، فَقَالَ ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ﴾ غَدَاةً وَعَشِيَّةً: صَلَاةُ الْغَدَاةِ وَالظُّهْرِ وَالْعَصْرِ ﴿وَزُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ﴾ صَلَاةُ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ يَعْنِي الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ ﴿ذَكَرَى لِلذَّكْرَيْنِ﴾ قَالَ: تَوْبَةٌ لِلثَّانِبِ، فَقَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ. أَخَاصُّ لَكَ، أَمْ عَامٌّ؟ قَالَ: لَا بَلْ عَامٌّ لِلنَّاسِ كُلِّهِمْ» [ابن حبان: ١٧٣٠] فَإِنْ ثَبَتَ هَذَا فَهُوَ الْأَصْلُ فِي ذَلِكَ.

وعَنْ عُمَانَ فِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ الْحَسَنَاتُ» يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴿فَقَالُوا: فَمَا الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ يَا عُمَانُ؟ فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ» [أحمد: ١/٧١].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ [أَنَّهُ^(٢)] قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «الصَّلَوَاتُ كَفَّارَةٌ لِلْخَطَايَا، وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ» ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [بنحوه عَنْ أَنَسٍ: أَبُو نَعِيمٍ فِي الْحَلِيقَةِ ٢٥٠/٩]

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ [فِي قَوْلِهِ^(٣)] ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [أَنَّهُ^(٤)] قَالَ: الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ. وَعَنْ جَابِرٍ [أَنَّهُ^(٥)] قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ كَمَثَلِ نَهْرٍ جَارٍ عَلَى بَابٍ أَحَدُكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ» [مسلم ٦٦٨] وَالْأَخْبَارُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فِيهِ ذِكْرُ أَرْبَعِ صَلَوَاتٍ؛ يَقُولُ: ﴿طَرَفِي النَّهَارِ﴾ الْفَجْرُ وَالْعَصْرُ ﴿وَزُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ﴾ الْمَغْرِبُ وَالْعِشَاءُ. وَقَدْ جَاءَتِ الْآثَارُ فِي أَنَّ الْحَسَنَاتِ هُنَّ^(٦) خَمْسُ صَلَوَاتٍ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: فَعَلُ الصَّلَوَاتِ نَفْسِهَا، وَهُوَ مَا ذَكَّرْنَا مِنَ الْأَخْبَارِ إِنْ ثَبَّتَ.

وقوله تعالى: ﴿يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: نَفْسُ الصَّلَاةِ لَا تُكَفِّرُ، وَلَكِنْ تُذَكِّرُ مَا ارْتَكَبْتَ مِنَ الذُّنُوبِ، فَيَتَذَكَّرُ عَلَيْهَا، فَذَلِكَ يُكَفِّرُ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنِ الصَّلَاةُ تَنَعَّنَ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ الْآيَةُ [العنكبوت: ٤٥]؛ أَخْبَرَ أَنَّ الصَّلَاةَ تَنْتَهِي، وَلَا تَنْتَهِي إِلَّا بَعْدَ أَنْ تُذَكَّرَ ذَلِكَ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿تَنَعَّنَ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ أَيُّ مَا دَامَ فِيهَا. وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ الصَّلَوَاتِ وَغَيْرَهَا مِنَ الْحَسَنَاتِ، وَفِيهِ^(٧) إِخْبَارٌ أَنَّ مِنَ الْحَسَنَاتِ [مَا]^(٨) تُكَفِّرُ شَيْئًا مِنَ السَّيِّئَاتِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّكْرَيْنِ﴾ ذَلِكَ الَّذِي سَبَقَ ذِكْرُهُ^(٩) ذِكْرَى: عِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ.

الآية ١١٥ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ظَاهِرٌ مَا ذَكَرَ مِنَ الْكَلَامِ أَنْ يَقُولَ: فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الصَّابِرِينَ لِأَنَّهُ ذَكَرَ الصَّبْرَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَصْبِرْ﴾.

لَكِنْ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ الصَّبْرَ مِنَ الشُّرُورِ كُلِّهَا ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ بَلْ يَجْزِيهِمْ جَزَاءَ حَسَنَاتِهِمْ. أَوْ يَقُولُ: ﴿وَأَصْبِرْ﴾ عَلَى آدَاءِ مَا كُفِّتَ مِنَ الطَّاعَاتِ أَوْ تَبْلِيغِ مَا كُفِّتَ [مِنْ]^(١٠) التَّبْلِيغِ إِلَيْهِمْ.

وَيَحْتَمِلُ وَجْهًا آخَرَ: ﴿وَأَصْبِرْ﴾ عَلَى آذَاهُمْ، وَلَا تُكَافِئُهُمْ، [فَقَدْ أَحْسَنَتْ إِلَيْهِمْ] ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ وَيَصِلُهُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: هُم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، فِي الْأَصْلِ: مِنْ. (٧) الْوَاوُ ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: ذَكَرَهَا. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

قَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ: قَوْلُهُ: ﴿وَزُلْزَلًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ سَاعَاتٍ مِّنَ اللَّيْلِ، وَقَالَ: الزَّلْفُ الْقُرْبَةُ، وَالزَّلْفَةُ الْقُرْبَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى [١]: ﴿وَإِنَّ لَّمْ عِنْدَنَا لُزْلٌ﴾ [ص: ٢٥ و ٤٠] أَيْ الْقُرْبَى [٢].

وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: الزَّلْفُ [مُفْرَدُهَا] زَلْفَةٌ [٣] وَهِيَ السَّاعَةُ، وَهِيَ الْمُنْزِلَةُ.

الآية ١١٦ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَتَهَوَّتْ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ظَاهِرُ هَذَا يُخْرِجُ عَلَى الْمُعَاتَبَةِ وَالنَّبِيهِ ٢٤٧ - ب/ وَالتَّذْكِيرِ لِأَنَّهُ يَقُولُ: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ﴾ أَيْ لَمْ لَا يَكُونُ [٤] كَذَا؟ فَلَيْسَ ثُمَّ مِنْ أَوْلَئِكَ مَن يُعَاتَبُ أَوْ يُنَبِّه. لَكِنَّا تُخْرِجُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ﴾ أَيْ فَهَلَا كَانُوا ذَوِي بَقِيَّةٍ ﴿يَتَهَوَّتْ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ مَعْنَاهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، هَلَا كَثُرَ أَهْلُ الْإِسْلَامِ فِيهِمْ حَتَّى يَقْدِرُوا عَلَى النَّهْيِ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ؛ لِأَنَّهُمْ إِذَا كَانُوا قَلِيلًا لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى النَّهْيِ عَنِ الْفَسَادِ، نَحْوُ لُوطٍ وَآدَمَ، كَانُوا عَدَدًا قَلِيلًا، كَيْفَ كَانَ يَقْدِرُ عَلَى النَّهْيِ عَنِ الْفَسَادِ أَوْ الْمَنْعِ عَنْ ذَلِكَ؟ وَكَتُوجَ أَيْضًا كَانَ مَعَهُ [نَفَرٌ قَلِيلٌ] [٥] عَدَدُهُمْ، لَمْ يَقْدِرْ عَلَى مَنْعِ قَوْمِهِ عَنِ الْفَسَادِ، وَنَحْوَهُ.

فَإِذَا كَانَ فَكَانَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، يَقُولُ: هَلَا كَثُرَ أَهْلُ الْإِسْلَامِ ﴿أُولُوا بَقِيَّةَ يَتَهَوَّتْ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾؟

وَالثَّانِي: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أَيْ قَدْ كَانَ مِنْهُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَنْهَوْا عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ، فَأَمْلِكُوا جَمِيعًا ﴿إِلَّا قَلِيلًا يَمْنَنُ أَمِينًا يَنْهَاهُمْ﴾. وَذَلِكَ الْقَلِيلُ قَدْ نَهَوَا عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ؛ فَيَجُوزُ بَيْنَ أَوْلَئِكَ حَاصِلُ هَذَا [الْقَلِيلِ] [٦] يُخْرِجُ عَلَى هَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ اللَّذَيْنِ ذَكَرْنَاهُمَا:

[أَحَدُهُمَا] [٧]: لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ ﴿أُولُوا بَقِيَّةَ يَتَهَوَّتْ عَنِ الْفَسَادِ﴾ عَلَى مَا قَالَهُ أَهْلُ التَّأْوِيلِ.

وَالثَّانِي: كَانَ فِيهِمْ أُولُو بَقِيَّةٍ، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَنْهَوْهُمْ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَإِنَّهُمْ قَدْ نَهَوْهُمْ عَنْ ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ هُوَ يُخْرِجُ [عَلَى وَجْهَيْنِ]:

أَحَدُهُمَا [٨]: بِخَتْمِ ﴿وَأَتَّبَعَ﴾ الْإِتْبَاعَ وَالسَّفْلَةَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَن أُتْرِفُوا فِيهِ مِنَ الْأَمْوَالِ؛ أَيْ [وَسَعَوْا عَلَيْهِمْ] [٩]، وَأَعْظَوْهُمْ الْأَمْوَالِ، وَهُمْ الْأَجَلَّةُ وَالْأَيْمَةُ مِنْهُمْ؛ أَيْ آتَرُوا أَتْبَاعَ الْأَيْمَةِ وَالْأَجَلَّةِ الَّذِينَ أُتْرِفُوا فِيهِ عَلَى أَتْبَاعِ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ.

وَالثَّانِي: ﴿وَأَتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وَهُمْ الْأَجَلَّةُ وَالْأَيْمَةُ ﴿مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ أَيْ أَعْظَوْا مِنَ الْأَمْوَالِ، آتَرُوا الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا عَلَى أَتْبَاعِ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ.

عَلَى أَحَدِ التَّأْوِيلَيْنِ يَرْجِعُ إِلَى السَّفْلَةِ وَالْإِتْبَاعِ، وَهُوَ الْأَوَّلُ. وَالثَّانِي إِلَى الْأَجَلَّةِ وَالْأَيْمَةِ، وَهُمْ آتَرُوا أَتْبَاعَ الدُّنْيَا عَلَى أَتْبَاعِ الرُّسُلِ، ثُمَّ تَبِعَهُمُ الْإِتْبَاعُ وَالسَّفْلَةُ فِي ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١١٧ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾ أَيْ مَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى إِهْلَاكَ اسْتِصْصَالٍ وَانْتِقَامٍ، وَأَهْلِهَا كُلُّهُمْ مُصْلِحُونَ. إِنَّمَا تُهْلِكُ الْقُرَى إِذَا كَانَ أَهْلُهَا كُلُّهُمْ مُفْسِدِينَ، أَوْ عَامَّةُ أَهْلِهَا مُفْسِدِينَ.

هَذَا يَدُلُّ أَنَّ الْحُكْمَ فِي الدَّارِ إِنَّمَا يَكُونُ بِغَلْبَةِ أَهْلِهَا، إِنْ كَانَ أَكْثَرُ أَهْلِهَا أَهْلُ الْإِسْلَامِ، فَالْحُكْمُ حُكْمُ الْإِسْلَامِ وَإِنْ كَانَ عَامَّةُ أَهْلِهَا أَهْلُ الْحَرْبِ وَالْكُفْرِ، فَالْحُكْمُ [١٠] حُكْمُهُمْ، وَلَا يُسَمَّى أَهْلُهَا كُلُّهُمْ بِالْكُفْرِ وَالْفَسَادِ إِذَا كَانَ أَكْثَرُ أَهْلِهَا مُصْلِحِينَ.

أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾؟ [الْعَنْكَبُوتُ: ٣٤] سَمَّى أَهْلَ قَرْيَةٍ، وَإِنْ كَانَ فِيهَا لُوطٌ، وَأَهْلُهُ مُصْلِحُونَ، لَمْ يَعْذُ لُوطٌ وَأَهْلُهُ مِنْ أَهْلِهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ﴾ أَيْ لَا يَكُونُ فِي إِهْلَاكِهِمْ ظَالِمًا. ثُمَّ يُخْرِجُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

(١) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: الْقُرْبَةُ. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: يَكُونُوا. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: يَقُل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٨) فِي م: وَجْهَيْنِ، ساقطة من الأصل. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: وَسِعَ إِلَيْهِمْ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: وَالْحُكْم.

أَخَذْنَاهُمْ: أَنْ الْخَلْقَ لَهُ، فَهُوَ بِإِهْلَاكِهِ لَمْ يَكُنْ ظَالِماً لِأَنَّهُ أَهْلَكَ مَالَهُ. والثاني: أَنَّهُ إِنَّمَا يُهْلِكُهُمْ بِظُلْمٍ كَانَ مِنْهُمْ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ١١٨].

الآية ١١٨

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَمَعَ النَّاسَ أَتَمَّةً وَاحِدَةً﴾ قَالَتِ الْمُعْتَرِلَةُ: هَذِهِ الْمَشِيتَةُ مَشِيتَةُ الْقَهْرِ وَالْقَسْرِ، وَذَلِكَ مِمَّا يَدْفَعُ الْمِخْنَةَ، وَتَزُولُ لَدَيْهِ الْمَثُوبَةُ وَالْعُقُوبَةُ، وَكَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً﴾ [يونس: ٩٩].

وَأَمَّا عِنْدَنَا فَلَوْ شَاءَ لَجَعَلْنَاهُمْ أَتَمَّةً وَاحِدَةً مَشِيتَةً لَا تَزُولُ مَعَهَا الْمِخْنَةُ. وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ خِصَالٌ:

أَخَذَهَا: أَنَّ اللَّهَ قَدْ عَرَّفَنَا الْإِيمَانَ وَالِدِينَ الَّذِي يَقَعُ بِهِ اجْتِمَاعٌ، أَوْ فِيهِ الْإِخْتِلَافُ بِمَا رَغِبَ فِيْنَا مِنَ الْعُقُولِ الَّتِي بِهَا تُعْرَفُ حَقَائِقُ الْأَشْيَاءِ وَمُجَازَاتُهَا وَمَحَاسِنُ الْأُمُورِ وَقُبْحُهَا بِمَعُونَةِ السَّمْعِ أَوْ بِالتَّامُّلِ فِي مَا يَحْسُنُ بِالْأَمْرَيْنِ جَمِيعاً، أَنَّهُ ^(١) لَا يَكُونُ إِلَّا بِالْإِخْتِيَارِ، وَلَا يُوصِلُ إِلَى السَّبَبِ الَّذِي بِهِ يُدَانُ إِلَّا بِالْإِسْتِذْلَالِ أَوْ التَّغْلِيمِ؛ إِذْ هُوَ طَاعَةٌ وَتَضَدِيقٌ، وَذَلِكَ يَكُونُ مِمَّنْ لَا يُحْسِنُ، وَطَرِيقُهُ الْإِجْتِهَادُ وَكُلُّ ذِي أَضْدَادٍ الْقَسْرِ.

فَمَحَالٌ أَنْ يَبْعُدَ الْكُونُ، لَوْ شَاءَ، عَلَى وَجْهِ قَدْ عَرَّفْنَا أَنَّهُ لَا يَكُونُ سَمْعاً وَعَقْلاً. فَيَكُونُ فِي الْحَقِيقَةِ كَأَنَّهُ قَالَ لَوْ شَاءَ أَنْ يَكُونَ لَا يَكُونُ. عَلَى أَنَّ ذَا مَنْ يُقْبَلُ عَنْهُ هَذِهِ الدَّعْوَى عَلَى قَوْلِهِمْ، وَهُوَ مِنْذُ كَانَ الْخَلْقُ بَيِّنٌ أَنْ كَانَ فِي مَا شَاءَ إِثْبَاتُهُ مِنْ أَعْمَالِ الْخَلْقِ، فَلَمْ يَكُنْ، وَلَمْ يَشَأْ، فَكَانَ عَنْدهُمْ. فَهُوَ كَمَنْ ظَهَرَ عَجْزُهُ بِجَمِيعِ أَدِلَّةِ الْعَجْزِ، ثُمَّ يَدَّعِي أَنَّ لَهُ الْقُدْرَةَ؛ بِهَا يَقَهَّرُ مَا يَشَاءُ. فَذَلِكَ كَمَنْ لَا يَقُومُ لِلْإِنْتِصَابِ وَالنُّهُوضِ، فَيَدَّعِي أَنَّهُ يَقْدِرُ عَلَى الصُّمُودِ، أَوْ مَنْ لَا يَمْلِكُ إِمْسَاكَ مِثْلِ ذَرَّةٍ، أَنَّهُ مُمْلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ.

عَلَى أَنَّهُ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَيَجِيءُ أَنْ يَكُونَ يَقْدِرُ عَلَى فِعْلِ الْكُفْرِ وَالسَّفَةِ وَالْكَذِبِ؛ إِذْ مَنْ يَقْدِرُ عَلَى فِعْلِ شَيْءٍ، لَا يَقْدِرُ عَلَى فِعْلِ ضِدِّهِ عَنْدهُمْ، لَيْسَ ذَلِكَ بِقُدْرَةٍ.

ثُمَّ لَوْ كَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ بَلَاءً غَيْرَ تَضْيِيرٍ لَهُ فِعْلاً، لَكَانَ يَكُونُ فِي الْحَقِيقَةِ سَفِيهاً كَذُوباً. وَمَنْ كَانَ ذَلِكَ وَصْفُهُ فَهُوَ رَبٌّ، وَلَا حَكِيمٌ. وَمَنْ رُبُوبِيَّتُهُ تَحْتَ قُدْرَةٍ غَيْرِهِ، أَوْ حَكَمَتُهُ تَحْتَ حَكْمِ الْمُضَادَّاتِ فَهُوَ مُسَوِّوٌ عَمَّا يَقَعُ مُطَالِبٌ بِالْحُجَّةِ. فَاتَى يَكُونُ لِمَنْ ذَلِكَ وَصْفُهُ رُبُوبِيَّةٌ؟ جَلَّ عَنْ ذَلِكَ.

وَالثَّانِي: أَنَّ الَّذِي يَكُونُ بِالْقَهْرِ وَالْقَسْرِ يَكُونُ أَمْرُ الْخَلِيقَةِ لَا أَمْرُ فِعْلِ الْعَبْدِ؛ وَذَلِكَ فِي الْحَقِيقَةِ لِلَّهِ، لَا لِلْبَشَرِ، وَمَا هُوَ لَهُ مِنْ جِهَةِ الْخَلْقَةِ مَوْجُودٌ لِأَنَّ نَفْسَ كُلِّ أَحَدٍ، بِالْخَلْقَةِ مُؤَمَّنٌ. وَقَدْ شَاءَ اللَّهُ تِلْكَ الْمَشِيتَةَ. فَالْقَوْلُ بِهِ: لَوْ شَاءَ، لَا مَعْنَى لَهُ، بَلْ قَدْ شَاءَ، وَكَانَ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

وَالثَّالِثُ: أَنَّهُ وَعَدَ أَنْ لَوْ شَاءَ أَنْ يَجْعَلَ كَذَا، وَهُوَ، لَوْ فَعَلَ لَكَانَ يَجْعَلُ مَنْ قَدْ آمَنَ مِنْهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ مُؤَمَّنًا فِي الْمَجَازِ كَافِراً فِي الْحَقِيقَةِ؛ لِأَنَّهُمْ بِهَذَا يَصِيرُونَ أَتَمَّةً وَاحِدَةً؛ إِذْ صَارَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ مُؤْمِنِينَ بِالْإِخْتِيَارِ، لَا يَخْتَعِلُ أَنْ يَجْعَلَهُمْ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ، فَيَكُونُ مَخْمُوداً عَدَلاً، وَاللَّهُ الْمُؤَقِّ.

ثُمَّ الْأَصْلُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ جَعَلَ أَدِلَّةَ كُلِّ مَوْعِدٍ فِي الْحُسْنِ ظَاهِراً، وَكُلَّ مَقْدُورٍ عَلَيْهِ بِالْوَعْدِ، وَالِدَّعْوَى لَهُ مِمَّا جَبَلَ عَلَيْهِ أَمراً بَيِّنًا. وَهَذَا النَّوعُ مِنَ الْمَشِيتَةِ عَنْدهُمْ وَالِدَّعْوَى بِمَا جَعَلَ جَمِيعَ [ذَلِكَ] ^(٢) مَانِعاً لِأَنَّهُ يَكُونُ كَانَتْ، فَيَصِيرُ بِالَّذِي بِهِ ادَّعَى لِنَفْسِهِ مِنَ الْقُدْرَةِ مُكَذِّباً بِمَا جَعَلَ لِمَنْعِهِ مِنَ الْأَدِلَّةِ. وَمَنْ ذَلِكَ وَصْفُهُ فَهُوَ غَيْرُ حَكِيمٍ. جَلَّ اللَّهُ عَنْ هَذَا.

عَلَى أَنَّ الْمُتَّامِلَ بِمَا اخْتَبَرَ يَجِدُ حَقِيقَتَهُ دُونَ أَنْ يَحْتَاجَ إِلَى دَلِيلٍ يُوضِّحُ قُدْرَتَهُ عَلَى مَا ادَّعَى عَلَى بَقَاءِ الْمِخْنَةِ سَبِيلاً سَهْلاً بِحَمْدِ اللَّهِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى مَا ذَكَرُوا مِنَ الْمَكَابِرَةِ، وَهُوَ مَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أَتَمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الزخرف: ٣٣]. وَمَعْلُومٌ أَنَّهُمْ لَوْ كَفَرُوا جَمِيعاً بِمَا ذَكَرَ لَكَانُوا مُخْتَارِينَ، وَإِلَى مَا جَاؤُوا بِهِ غَيْرَ مُضْطَرِّينَ، وَإِذَا اسْتَقَامَ

(١) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: بِهِ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

كُونُهُمْ عَلَى دِينِ الْكُفْرِ بِذَلِكَ لَا يَحْتَمِلُ إِلَّا [أَنْ] ^(١) يُوْجِبَ ذَلِكَ بَعَثًا عَلَى الْإِيمَانِ لَوْ كَانُوا مُخْتَارِينَ، لِذَلِكَ يَسْتَقِيمُ كُونُهُمْ عَلَى دِينِ الْإِيمَانِ مُخْتَارِينَ، أَوْ لَوْ جَعَلَ ذَلِكَ لِلْمُؤْمِنِينَ، لَقَدَرُ ^(٢) عَلَى قَوْلِهِمْ أَنْ يَجْعَلَهُمْ كُفَّارًا بِالْمِخْنَةِ لَا يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَجْعَلَهُمْ مُؤْمِنِينَ بِهَا؛ لِأَنَّ ذَلِكَ وَصَفَ الْعَجْزِ عِنْدَهُمْ، وَإِنْ كَانَ لَا يَكُونُ كَذَلِكَ/ ٢٤٨ - أ/ عِنْدَنَا؛ لِأَنَّهُ يَسْتَقِيمُ الْقَوْلُ بِالْإِقْدَارِ عَلَى إِحْدَاثِ غَيْرِهِ.

ومحال القول على جعل غير قائما أو على إخراج غير إليه، لا يَحْتَمِلُ الوَصْفُ بالقُدْرَةِ على إغناء غيره عنه، وعليهم أوضح، إِذْ أَجَازُوا لَهُ الْقُدْرَةَ عَلَى كُلِّ حَرَكَةٍ لِلْعَبْدِ وَسُكُونٍ بِالْإِضْطِرَّارِ، وَلَمْ يُجَوِّزُوا فِي ذَلِكَ الْإِخْتِيَارَ اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا: لَا يُجَوِّزُ أَنْ يَكُونَ لِلْعَبْدِ غَيْرُ كَامِلِ الْقُدْرَةِ، وَهِيَ الْقُدْرَةُ عَلَى مُضَادَاتِ الْأَشْيَاءِ، وَاللَّهُ يُجَوِّزُ الْوَصْفَ لَهُ بِالْقُدْرَةِ النَاقِصَةِ فَيَكُونُ قَرِيبًا مِمَّا جَعَلُوا لِلْعَبْدِ قُدْرَةً ^(٣) عَلَى مَا يَجْهَلُ، وَيَجْعَلُهُ كَاذِبًا ^(٤) فِي مَا يُخْبِرُ عَلَى بَقَاءِ الرُّبُوبِيَّةِ لَهُ، وَاللَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى مِثْلِهِ فِي الْعَبْدِ عَلَى بَقَاءِ الْعُودَةِ لَهُ بِالْمِخْنَةِ، أَوْ بِمَا قَدَّرُوا لِلْعَبْدِ عَلَى إِهْلَاكِ مَنْ وَعَدَ اللَّهُ فِيهِ الْإِبْقَاءَ، وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ وَذَلِكَ فَضْلُهُ وَوَعْدُهُ لَهُ مَعَ ذَلِكَ أَنْ يُعْطِيَهُ كَذَا. فَيَأْتِي مُعَانِدٌ، فَيَقْتُلُ، وَيَمْنَعُ الرَّبَّ عَلَى إِنْجَازِ وَعْدِهِ. وَعَنْ سُلْطَانِ بَقَائِهِ. جَلَّ الرَّبُّ عَنْ هَذَا. وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِمْ فِي مَا يَضْرِبُ اللَّهُ لِنَبِيِّ أَوْ صَدِيقٍ أَجَلًا، يَرَى بِهِ مَضْلَحَةَ عِبَادِهِ، يَقْدِرُ الْكَافِرُ عَلَى قَتْلِهِ قَبْلَ مَجِيءِ ذَلِكَ الْأَجَلِ وَإِبْطَالِ مَا وَعَدَ وَالْإِبْقَاءَ بِمَا هُوَ صَنِيعُهُ مِنْ إِبْقَاءِ الْحَيَاةِ فِيهِ، وَلَا يَقْدِرُ اللَّهُ عَلَى إِنْجَازِ مَا وَعَدَ عَلَى مَا أَرَادَ. وَالْعَبْدُ يُحَالُهُ إِلَّا أَنْ يُعْجِزَهُ، أَوْ يُؤَيِّمَهُ، أَوْ يَجْعَلَهُ زَمِنًا، وَاللَّهُ وَالْمُسْتَعَانُ.

ثم الأصل أَنَّ كُلَّ مُرِيدٍ يَفْعَلُهُ فِي مَا فَعَلَهُ أَمْرٌ إِلَّا [أَنْ] ^(٥) يَكُونُ ذَلِكَ، وَهُوَ لَمْ يَكُنْ فَعَلَهُ إِلَّا لِذَلِكَ، يُوجِبُ أَحَدَ أَمْرَيْنِ فِي الْحِكْمَةِ: إِمَّا جَهْلًا بِالْعَوَاقِبِ وَإِمَّا ^(٦) خَطَأً بِالْفِعْلِ، كَمَنْ يَقْعَلُ فِعْلًا يَخْزَنُ عَلَيْهِ، يُلْحَقُهُ بِهِ مَكْرُوهٌ؛ فَهُوَ لَا يَفْعَلُهُ لَهُ؛ يُظْهِرُ فَاعِلُهُ أَنَّهُ عَنْ جَهْلِ فَعَلٍ، وَعَنِ الْخَطِئِ يُخْرِجُ فِعْلَهُ.

وعلى ذلك مَعْنَى التَّحْذِيرِ فِي الْخَلْقِ وَالتَّنبِيهِ بِقَوْلِهِمْ: لِدَوَا لِلْمَوْتِ، وَابْنُوا لِلْخَرَابِ، وَ: سَرَقَ لِنُفْطَعِ، [يَذُهُ] ^(٧) وَبَارَزَ لِيُقْتَلَ، مِنْ حَيْثُ كَانَ الثَّانِي مُتَّصِلًا بِالْأَوَّلِ، يُتَّبَعُ عَنِ الْعَقْلَةِ، عَلَى إِرَادَةِ التَّحْذِيرِ أَنَّهُ إِلَيْهِ يُوَوَّلُ أَمْرٌ فِعْلُهُ.

على ذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَالْقَلْعَةُ مَالٌ فَرَعَرَتْ﴾ الآية [القصص: ٨] أَوْ أَنْ يُقَالَ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ كَذَلِكَ فِي فِعْلِهِ عِنْدَ اللَّهِ، وَإِنْ جَهْلُهُ هُوَ، أَوْ يُوجِبُ السُّقَّةَ فِي الْفِعْلِ وَالْعَبَثِ، إِذْ هُوَ يَقْصِدُ بِفِعْلِهِ مَا يَغْلُمُ أَنَّهُ لَا يَكُونُ، أَوْ يَرِيدُ مَا يَتَيَقَّنُ أَنَّهُ لَا يَبْلُغُ. وَإِذْ كَانَ كَذَلِكَ فَأَعْطَاهُ اللَّهُ تَعَالَى الْقُدْرَةَ لِيُؤْمِنَ، أَوْ خَلَقَهُ لِيُعْبَدَ، وَأَرَادَ أَنَّهُ يَقْعَلُ ذَلِكَ، وَاخْتَارَ ذَلِكَ الْفِعْلَ، لِذَلِكَ يُوجِبُ ذَيْنَاكَ الْوَجْهَيْنِ، جَلَّ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَتَعَالَى.

وقد ثَبَتَ أَنَّ اللَّهَ عَالِمٌ بِالْعَوَاقِبِ مُتَعَالٍ عَنِ الْعَبَثِ، ثَبَتَ أَنَّهُ خَلَقَ، وَأَعْطَى مَا أَعْطَى لِمَا عَلِمَ أَنَّهُ يَكُونُ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ مَا يَكُونُ. وَعَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ يُخْرِجُ الْأَمْرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ الآية [الأعراف: ١٧٩] وَقَوْلِهِ: ﴿فَلَا تُشْجِكُ أَمْوَالُهُمْ﴾ الآية [التوبة: ٥٥ و ٨٥].

وقوله تَعَالَى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ تُخْلِفِينَ﴾ أَنَّهُ خَلَقَهُمْ لِلدِّينِ؛ عَلِمَ أَنَّهُمْ يَصِيرُونَ إِلَيْهِ مِنْ اخْتِلَافٍ أَوْ اتِّفَاقٍ أَوْ عِدَاوَةٍ أَوْ وَلَايَةٍ لَا يُرِيدُ غَيْرَ الَّذِي عَلِمَ، وَلَا يَغْلُمُ غَيْرَ الَّذِي يَكُونُ مِمَّنْ يَغْلُمُ مَا يَكُونُ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

الآية ١١٩ وَقَالَ الْمُعْتَزَلِيَّةُ: قَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ تُخْلِفِينَ﴾ ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ أَيُّ لِلرَّحْمَةِ خَلَقَهُمْ فَقَالَ بَعْضُ مُتَكَلِّمِي أَصْحَابِنَا: إِنَّ الرِّحْمَةَ تُذَكَّرُ بِالتَّالِيفِ، وَهُوَ إِنَّمَا ذَكَرَ بِالتَّذْكِيرِ حِينَ ^(٨) قَالَ: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [وَلَمْ يَقُلْ: وَلِئِنَّكَ خَلَقَهُمْ] ^(٩) ذَلَّ أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى مَا يَقُولُونَ.

قَالَ قَائِلُونَ: لِإِخْتِلَافِ خَلَقَهُمْ ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ صِلَةُ قَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧] أَيُّ خَلَقَهُمْ لِئَلَّا يُهْلِكَ ﴿الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: فيقدرون. (٣) في الأصل وم: قدراً. (٤) من م، في الأصل: كادكا. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: و. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) من م، ساقطة من الأصل.

وعندنا ما ذكرنا؛ أي خلقهم للذي علم أنه يكون منهم، وأنهم يصيرون إليه من الاختلاف أو الاتفاق، والعداوة أو^(١) الولاية، لا يخلقهم لغير الذي علم أنه يكون منهم، ولا يريد أيضاً غير ما علم أنهم يصيرون إليه، ولا يعلم غير ما يكون منهم، والله الموفق.

وتأويل المغترلة في قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أنها مشيئة القدر والقهر، فذلك بعيد لأنه لا يكون في حال القهر والإضطرار إيمان لأن من أكره، واضطر على الإيمان حتى آمن، فإنه لا يكون؛ إنما يكون الإيمان إيمانا في حال الاختيار؛ إذا آمن يختار ممتحنا فيه. فعند ذلك يكون إيمانه إيمانا. دل أن تأويلهم فاسد.

الآية ١٢٠ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْصُصْ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَتَيْتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ تأويله، والله أعلم، كل الذي نقص عليك، أو قصصنا عليك من أنباء الرسل [نبأ]^(٢) بعد نبأ ﴿مَا نَتَيْتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَا نَتَيْتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ يَحْتَمِلُ وجوها:

أحدها: ﴿نَتَيْتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ لما يَحْتَمِلُ أن نفسه كانت تنازعُه، وتناقضه بأن الذي أنزل، أو يأتي به ملك، أو كان ذلك من إحياء^(٣) الشيطان والقاؤه عليه وسأوسه، فَقَصَّ عليه من أنباء الرسل وأخبارهم ليكون له آية بَيِّنَةٌ [بَيِّنَةٌ]^(٤) وَبَيِّنَ رُؤْيُ، لِيَعْلَمَ أن ما أنزل عليه إنما هو ملك من الله لِيَذْفَعَ به نوازع نفسه وخطراته؛ إذ لا سبيل للشيطان إلى معرفة تلك الأنباء، ولا في وسعه إلقاؤها عليه، فيكون له بها طمأنينة قلبه، وهو كقول إبراهيم حين^(٥) قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ كُنْتُ نَفْسٌ إِبراهيمَ تَنَازَعُهُ فِي كَيْفِيَّةِ إحياء الموتى، فَسَأَلَ رَبَّهُ لِيُريَهُ ذَلِكَ لِيَطْمَئِنُّ بِذَلِكَ قَلْبُهُ، وَإِنْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى، وَأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ.

والثاني: قَصَّ عليه أنباء الرسل واحداً بعد واحد لِيُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَهُ لِيَعْلَمَ كَيْفِيَّةَ مُعَامَلَتِهِمْ، وماذا لقوا من قويمهم وكيف صبروا على أذاهم لِيُضَيِّرَ هو على ما صبر أولئك، ولِيُعَامِلَ هو قومَه بِعِثَلٍ مُعَامَلَتِهِمْ؟

ورُشِيَهُ أن يكون قوله: ﴿مَا نَتَيْتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ نبأ بعد نبأ لِيُنْظَرَ، وَيَتَفَكَّرَ [في]^(٦) كل نبأ وخبر، ويعرف ما فيه، فيكون ذلك أثبت في قلبه، وهو كقولهِ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِيُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢] بإنزال الآيات^(٧) واحدة بعد واحدة وسورة بعد سورة. وذلك أثبت في فؤاده من إنزاله جملة لأنه يزدحم في مسامعه وفؤاده. وإذا كان بالتتارقي نظر وتفكر فهو أثبت في قلبه وفؤاده، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾ قال بعضهم: ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ﴾ أي في هذه الأنباء التي قصها عليك؛ جاءك فيها ﴿الْحَقُّ﴾ وهو ما ذكرنا. وقال بعضهم: ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ﴾ أي في هذه الدنيا ﴿الْحَقُّ﴾ يعني الآيات والحجج والبراهين لرساليه ودينه ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي جاءك ما تعبط به قومك وتذكر به المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ خَصَّ المؤمنين بذلك لما تكون مَنَفَعَةُ الموعظة والذكرى^(٨) للمؤمنين، وإلا فهو موعظة وذكرى لكل.

الآية ١٢١ وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَغْمَلُوا عَنْ مَكَانَتِكُمْ﴾ المكانة المنزلة والقدرة. يقول: اغملوا أنتم على مكانتكم ومنزلاتكم التي عند أنبيائكم؛ كأنه يخاطب به الأشراف منهم والرؤساء ﴿إِنَّا عَمِلُونَا﴾ على المكانة والمنزلة لنا عند الله، فننظر أينما أرجح نحن أم^(٩) أنتم؟ وأينما أخسر نحن أم^(١٠) أنتم؟

وقوله تعالى: ﴿أَغْمَلُوا عَنْ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَا﴾ يُخْرِجُ على وجهين:

(١) في الأصل وم: و. (٢) ساقطة من الأصل وم: (٣) في الأصل وم: الجاء. (٤) ساقطة من الأصل وم: (٥) في الأصل وم: حيث.

(٦) ساقطة من الأصل وم: (٧) في الأصل وم: الآية. (٨) من م، في الأصل: وذكرى. (٩) و(١٠) في الأصل وم: أو.

أخذُهما: على التوبيخ/ ٢٤٨ - ب/ والتخويف عندما بَلَغَ في الججاج، فلم يَنْجَعْ فِيهِمْ، فَقَالَ ذَلِكَ^(١) كَقَوْلِهِ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] وَنَحْوُهُ.

والثاني: على الإعجاز لما أرادوا به مِنَ الْمَكْرِ وَالْكِيدِ بقَوْلِهِ: ﴿اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ﴾ اَعْمَلُوا مَا تُرِيدُونَ، وَاَنَا اَعْمَلُ.

الآية ١٣٢ وقوله تعالى: ﴿وَأَنْظِرُوا﴾ أَنْتُمْ بِنَا ﴿إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾ بِكُمْ ذَلِكَ. أو يقول هذا لما كانوا يُوعِدُونَهُ، وَيُخَوِّفُونَهُ، مِنْ أَنْوَاعِ الْوَعِيدِ، فيقول: ﴿وَأَنْظِرُوا﴾ بِنَا ذَلِكَ مَا تُخَوِّفُونَ بِنَا ﴿إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾ بِكُمْ مَا نُخَوِّفُكُمْ نَحْنُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٣٣ وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَيَّبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: وَلِلَّهِ غَيْبٌ نُزُولِ الْعَذَابِ وَغَيْبٌ مَا فِي الْأَرْضِ كَأَنَّهُ خَرَجَ جَوَابَ مَا سَأَلُوهُ مِنَ الْعَذَابِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَسَتَجِدُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ [العنكبوت: ٥٣] وكَقَوْلِهِ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨ و ٥٠] وكَقَوْلِهِ: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩] قَالَ^(٢): ﴿وَاللَّهُ غَيَّبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيِ عِلْمِ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ؛ وَهُوَ^(٣) كَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ لَوْ أَنِّي عِنْدِي مَا سَمِعْتُمُونَ بِهِ، لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ٥٨] وَأَمْثَالِهِ.

وَيُسَبِّحُ أَنْ يَكُونَ جَوَابَ مَا تَحْكُمُوا عَلَى اللَّهِ مِنْ إِنْزَالِ الْقُرْآنِ وَجَعَلَ الرِّسَالَةَ فِي غَيْرِهِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْشِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] وكَقَوْلِهِ^(٤): ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢] فَقَالَ: ﴿أَمَرٌ يَقِيمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمًا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ﴾ الْآيَةُ [الزخرف: ٣٢] وَقَالَ: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

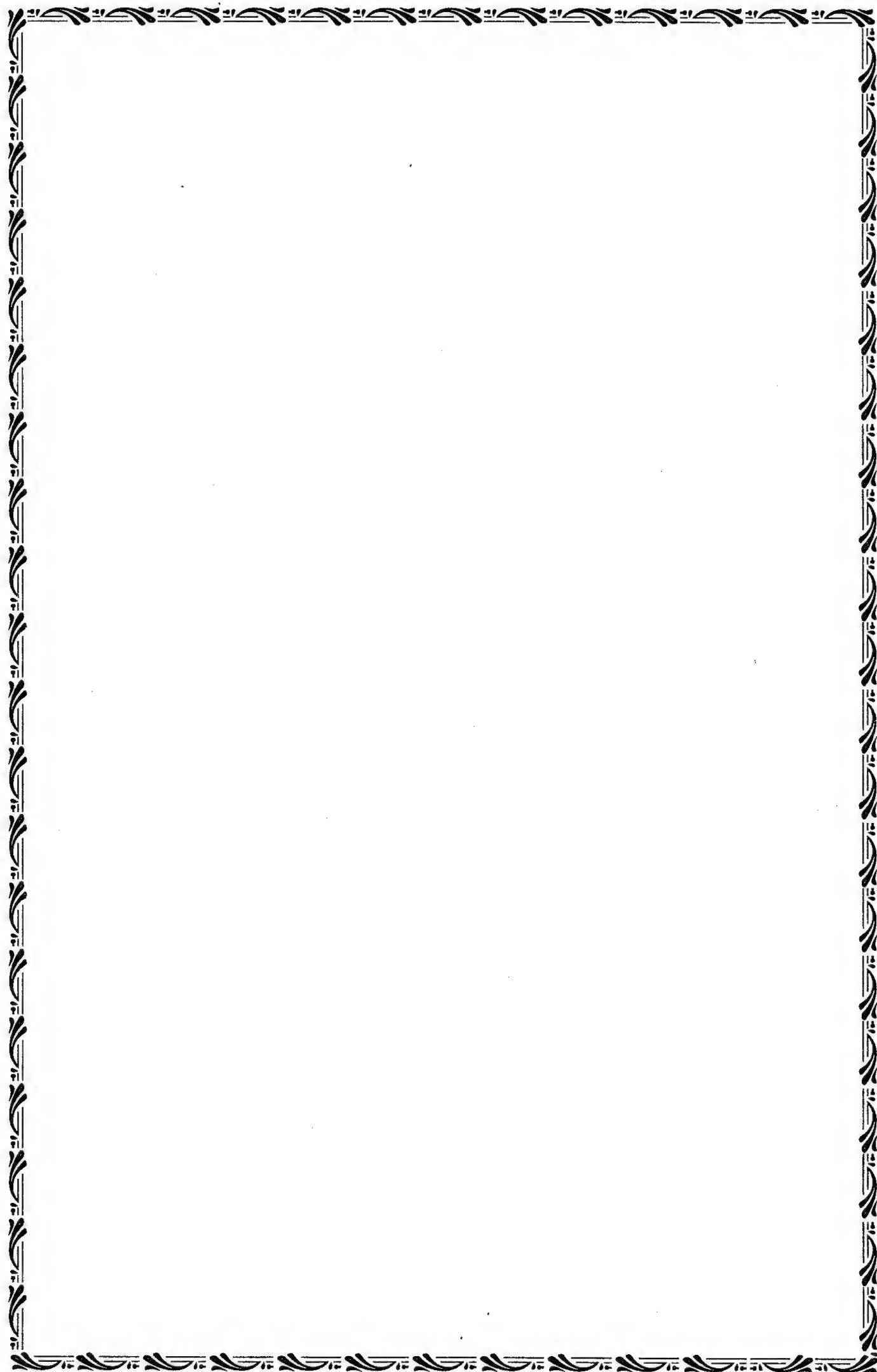
فَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ غَيَّبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لَا إِلَى الْخَلْقِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا أَرَادَ.

[وقوله تعالى]^(٥) ﴿وَلِإِيَّاهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ إِلَيْهِ يَرْجِعُ أَمْرُ الْخَلْقِ كُلُّهُ وَتَدْبِيرُهُمْ ﴿فَأَعْبَدْهُ﴾ أَيِ اغْبِذْهُ فِي خَاصِّ نَفْسِكَ ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ فِي تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ إِلَيْهِمْ؛ أَيِ لَا يَمْنَعُكَ كَيْدُهُمْ وَمَكْرُهُمْ بِكَ عَنْ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ، وَلَا تَخَافَنَّ مِنْهُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ يَحْفَظُكَ مِنْ كَيْدِهِمْ وَمَكْرِهِمْ بِكَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

[وقوله تعالى]^(٦): ﴿وَمَا رَبُّكَ بِفَعِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ هَذَا مَا يُؤَيِّدُ مَا ذَكَرْنَا؛ أَيِ مَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يُرِيدُونَ بِكَ مِنْ كَيْدِهِمْ وَمَكْرِهِمْ، بَلْ يَعْلَمُ ذَلِكَ، وَيَنْصُرُكَ، وَيَنْتَصِرُ مِنْهُمْ. وَهُوَ كَقَوْلِهِ لِمُوسَى وَهَارُونَ: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِيْنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ ﴿قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَفِرُطُ عَلَيْكَ أَوْ نَبْطِغُ﴾ ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمْ آتٍ﴾ [طه: ٤٤ و ٤٥ و ٤٦] أَيِ اسْمَعْ قَوْلَهُ وَجَوَابَهُ إِنَّا كَمَا، وَأَرَى مَا يَفْعَلُ؛ أَيِ انْصَرُّكُمَا، فَلَا تَخَافَا. فَعَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.



(١) أدرج قبلها في الأصل وم: عند. (٢) في الأصل وم: فقال. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: و. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم.



السورة التي ذكر فيها يوسف عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١

قوله^(١) تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُنْ أَلَيْسَ أَلَيْسَ﴾ ذكر ﴿يَلَاكُ﴾ وهي كلمة إشارة إلى شيء، سبق ذكره، ولم يتقدم فيه ذكر شيء يُشار إليه، وذكر آيات أيضاً، وليس هناك ذكر آيات أو شيء يكون آية في الظاهر. لكن يُشبه أن يكون قوله: ﴿يَلَاكُ﴾ بمعنى هذه آيات. ويجوز استعمال تلك مكان هذه على ما يجوز ذكر ذلك مكان هذا كقوله: ﴿المرء﴾ ﴿ذلك﴾ ﴿أَلَيْسَ أَلَيْسَ﴾ [البقرة: ١ و ٢] أي هذا الكتاب، أو أن يكون قوله: ﴿يَلَاكُ﴾ إشارة إلى ما في السماء أي الذي في السماء ﴿أَلَيْسَ أَلَيْسَ﴾ أو يقول: ﴿يَلَاكُ﴾ إشارة إلى ما في الكتب^(٢) المتقدمة، أي تلك آيات [الكتب المبيّنة، وتختل قوله^(٣) ﴿أَلَيْسَ أَلَيْسَ﴾ أنها آيات الرسالة، أو تبين أنها من عند الله.

وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ أَلَيْسَ﴾ هذا أيضاً يُشبه أن يُخرَج على وجهين:

أحدهما: إشارة إلى الحروف المقطعة المعجمة؛ فقال: إذا جمعت كانت ﴿يَلَاكُ أَلَيْسَ أَلَيْسَ﴾.

[والثاني]^(٤): أن يكون الله أراد أمراً لا نعلم ما أراد، فنقول: ﴿يَلَاكُ أَلَيْسَ أَلَيْسَ﴾ أي ذلك الذي أراد هو آيات الكتاب، والله أعلم بما أراد به.

وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ﴾ أي ليبين فيه الحلال والحرام وما يؤتى وما يتقى كقوله: ﴿يَنْبَأُ لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]. وقال بعضهم: ليبين بركته وهدايته ورشدته، أو ليبين فيه الحق من الباطل والعدل من^(٥) الجور.

والكتاب هو اسم ما يكتب؛ سمّا قرآنًا لما يقرأ، وكتاباً لما عن كتاب أخذ، ورفع، والقرآن لما قرئ عليه.

الآية ٢

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ قوله: ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ كناية عن الكتاب الذي تقدّم ذكره، ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أنزله بلسان العرب، ولا نذري بأي لسان كان في اللوح المحفوظ؟ غير أنه أخبر أنه أنزله بلسان العرب. وهكذا كل كتاب أنزل إنما أنزل بلسان المنزل عليهم، لم ينزل^(٦) بغير لسانهم.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ مالمكنم، وما عليكم، وما تأتون، وما تتقون، أو تعقلون أن هذه الأنباء التي يُخبركم بها محمد ﷺ من الله تعالى لأنها كانت في كتبهم بغير لسانه، فأخبر على ما كانت في كتبهم. دل أنه إنما عرفت ذلك بالله تعالى.

أو ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ بأن فيه شرفكم لأنكم تصيرون متبوعين لما يحتاج الناس إلى معرفة ما فيه، ولا يوصل لذلك^(٨) إلا بكم، فتكونون متبوعين، والناس أتباع لكم، وهو كقوله: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠] قال أهل التأويل: أي فيه شرفكم، والله أعلم.

الآية ٣

وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ قال بعضهم: قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ البيان ﴿يَمَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ وقال بعضهم: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ أي نخبرك أحسن ما في كتبهم من القصص وأحسن ما في كتبهم من الأنباء والأحاديث.

(١) من م، في الأصل: وقوله. (٢) في الأصل: الكتاب. (٣) في الأصل: الكتاب المبين. (٤) في الأصل: وم. أو. (٥) في الأصل: وم. ر. (٦) في الأصل: وم. بها. (٧) في الأصل: وم. ينزل. (٨) في الأصل: وم. ذلك.

وقوله تعالى: ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ أَصْدَقُهُ، وكذلك قوله^(١) ﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا﴾ [الزمر: ٢٣] وَأَحْسَنُ الْحَدِيثِ أَصْدَقُهُ؛ هُوَ أَحْسَنُ الْقَصَصِ، أَي أَصْدَقُهُ^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْفَنِيلِ﴾ عَنْ [هؤلاء الأنبياء]^(٣) وَعَنْ قَصَصِهِمْ. فَهَذَا يَدُلُّ أَنَّ الْإِيمَانَ إِيْمَانٌ^(٤) بِجَمَلَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ، وَإِنْ لَمْ تُعْرِفْ أَنْفُسُ الْأَنْبِيَاءِ وَأَنْفُسُ الرُّسُلِ وَأَسَامِيهِمْ لِأَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ كَانَ غَافِلًا عَنْ أَنْبَاءِهِمْ وَعَنْ قَصَصِهِمْ، وَلَا شَكَّ أَنَّهُ كَانَ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ مُخْلِصًا، وَبِاللهِ الْعَصْمَةِ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ كَلَامُ الرَّحْمَنِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ رضي الله عنه ﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا﴾ [الزمر: ٢٣] كَلَامُ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الَّتِي يُخْرِجُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ الَّذِي سَأَلُوا عَنْهُ رَسُولَ اللَّهِ صلوات الله عليه عَنْ قِصَّةِ يُوسُفَ وَصَبْرِهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمِصْرَ، وَقَدْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ بِالشَّامِ، فَقَالَ: تِلْكَ الْأَنْبَاءُ وَالْقِصَصُ يَجْعَلُهَا آيَاتٍ هَذِهِ السُّورَةُ الَّتِي هِيَ مِنَ الْكِتَابِ الْمُبِينِ.

وَالثَّانِي^(٥): ﴿تِلْكَ آيَاتُ﴾ حُجُجٌ وَبَرَاهِينُ رِسَالَةٍ^(٦) مُحَمَّدٍ صلوات الله عليه إِذْ هِيَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ عَنْهُمْ، يَعْلَمُ الْأَنْبَاءُ عَنْهَا بِاللَّهِ صلوات الله عليه.

الآية ٤

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ/ ٢٤٩ - ١/ يُوسُفُ لِأَيُّهِ يَتَأْتِي إِيَّيْ رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَجْدِينَ﴾ قَوْلُهُ: ﴿إِيَّيْ رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ إِنَّ إِخْوَةَ يُوسُفَ كَانُوا عُلَمَاءَ وَغِيُونَ الْأَرْضِ نُجُومًا يُقْتَدَى بِهِمْ، وَيُتَهْتَدَى^(٧)، إِذْ بِالنُّجُومِ يُقْتَدَى فِي الْأَرْضِ، وَبِهَا تُهْتَدَى^(٨) الطُّرُقُ وَالْمَسَالِكُ.

وَذَلَّ قَوْلُهُ: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ وَخُرَجَ عَلَى أَبِيهِ، أَنَّهُ كَانَ بِهِمَا جَمِيعُ مَنَافِعِ الْخَلْقِ، إِذْ بِهِمَا صَلَاحُ جَمِيعِ الْأَغْذِيَةِ فِي الْأَرْضِ، وَنُضْجُ جَمِيعِ الْفَوَاكِهِ، وَالْأَنْزَالُ، وَجَمِيعُ الْمَنَافِعِ الَّتِي [بِالنَّاسِ حَاجَةٌ إِلَيْهَا]^(٩).

وَذَلَّ قَوْلُهُ: ﴿إِيَّيْ رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَجْدِينَ﴾ أَنَّ الرُّؤْيَا تُخْرِجُ عَلَى عَيْنِ مَا رَأَى، وَتُخْرِجُ عَلَى غَيْرِهِ بِالْمَعْنَى الَّذِي يَتَّصِلُ بِهِ؛ لِأَنَّهُ رَأَى الْكَوَاكِبَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، فَخُرَجَ عَلَى إِخْوَتِهِ وَأَبِيهِ، وَكَانَ^(١٠) الْمُرَادُ بِالْكَوَكِبِ [وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ غَيْرَ الْكَوَكِبِ وَالشَّمْسِ]^(١١) وَالْقَمَرِ، وَذَلِكَ بِالْمَعْنَى. وَذَكَرَ السُّجُودَ، وَخُرَجَ عَلَى عَيْنِ السُّجُودِ وَحَقِيقَتِهِ، وَكَذَا مَا رَأَى إِبْرَاهِيمَ فِي الْمَنَامِ ذَبْحَ وَلَدِهِ، خُرَجَ الذَّبْحُ عَلَى حَقِيقَةِ [الذَّبْحِ وَهُوَ]^(١٢) ذَبْحُ الْكَبْشِ، وَرَأَى ابْنَهُ، وَكَانَ الْمُرَادُ مِنْهُ الْكَبْشُ.

فهذا أصلُ لنا؛ أَنَّ الْخُطَابَ يُخْرِجُ، وَالْمُرَادُ مِنْهُ عَلَى عَيْنِ ذَلِكَ الْخُطَابِ، لَا غَيْرُهُ، وَقَدْ يُخْرِجُ لِمَعْنَى فِيهِ. فَإِذَا اتَّصَلَ ذَلِكَ الْمَعْنَى [بِغَيْرِهِ وَجَبَ]^(١٣) ذَلِكَ الْحُكْمُ، وَفِيهِ جَوَازُ الْإِجْتِهَادِ وَطَلَبُ الْمَعْنَى فِي الْمُخَاطَبَاتِ، وَذَلِكَ مَا ظَهَرَ فِي النَّاسِ مِنْ تَعْبِيرِ الرُّؤْيَا عَلَى الْإِجْتِهَادِ يَدُلُّ عَلَى جَوَازِ الْعَمَلِ بِالْإِجْتِهَادِ.

وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: إِنَّ يُوسُفَ لَمَّا قَصَّ رُؤْيَاهُ عَلَى أَبِيهِ بَيْنَ يَدَيْ إِخْوَتِهِ قَالَ لَهُ: هَذِهِ رُؤْيَا النَّهَارِ، وَلَيْسَتْ^(١٤) بِشَيْءٍ، وَقَالَ لِيُوسُفَ فِي السَّرِّ: إِذَا رَأَيْتَ رُؤْيَا بَعْدَ هَذَا فَلَا تَقْصُصْهَا عَلَى إِخْوَتِكَ، لَكِنَّ هَذَا كَذِبٌ؛ فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُكَذِّبَ رَسُولُ اللَّهِ يَعْقُوبُ؛ يَقُولُ لَهُ: رُؤْيَا النَّهَارِ لَيْسَتْ^(١٥) بِشَيْءٍ، ثُمَّ يُعَبِّرُ لَهُ فِي السَّرِّ، وَلَا يُتَوَهَّمُ [فِي شَيْءٍ مِنْ نَبِيِّ مِنْ أَنْبِيَاءِ]^(١٦) اللَّهُ الْكَذِبُ، وَهُوَ كَذِبٌ، فَإِنْ كَانَ فَهُوَ بِالْأَمْرِ.

الآية ٥

وقوله تعالى: ﴿يَبْقَى لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ﴾، ذَلَّ قَوْلُهُ: ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ﴾ عَلَى أَنَّ مَا رَأَى يُوسُفَ مِنْ سَجُودِ الْكَوَكِبِ وَسُجُودِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ أَنَّهُ إِنَّمَا كَانَ رَأَى ذَلِكَ فِي الْمَنَامِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: قَوْل. (٢) أَدْرَجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: وَأَحْسَنَ الْحَدِيثِ أَصْدَقُهُ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: هَذِهِ الْأَنْبَاءُ. (٤) أَدْرَجَتْ فِي الْأَصْلِ وَم: بَعْدَ: وَالرُّسُلِ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: الرِّسَالَةُ. (٧) (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: يَهْتَدُونَ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: مَا بِالنَّاسِ حَاجَةٌ إِلَى ذَلِكَ. (١٠) الْوَاقِعُ سَاقِطٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: غَيْرِ الشَّمْسِ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: هُوَ. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: بَغِيرِ وَجِبَتْ. (١٤) فِي الْأَصْلِ وَم: لَيْسَ. (١٥) فِي الْأَصْلِ وَم: لَيْسَ. (١٦) فِي الْأَصْلِ وَم: عَلَى نَبِي.

وَيَذُلُّ مَا ذَكَرَ فِي آخِرِهِ أَيْضاً عَلَى ذَلِكَ، وهو قوله: ﴿يَتَأْتِيَ هَذَا تَأْوِيلَ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الآية: ١٠٠]
 ودلّ قوله: ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ أَنَّ يَعْقُوبَ إِنَّمَا عَرَفَ ذَلِكَ بِالْوَحْيِ حِينَ^(١) قَطَعَ الْقَوْلَ فِي
 قَوْلِهِ: ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ وَلَمْ يَسْتَشِرْ فِي ذَلِكَ، وَقَدْ فَعَلُوا بِهِ مَا قَالَ.

وفيه دلالة أَنَّ إِخْوَتَهُ قَدْ كَانُوا يَعْرِفُونَ تَغْيِيرَ الرُّؤْيَا، وَكَانُوا عُلَمَاءَ حُكَمَاءَ حِينَ^(٢) قَالَ: ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ﴾
 لَأَنَّهُمْ لَوْ كَانُوا لَا يَعْرِفُونَ تَأْوِيلَهَا، وَلَا عَلِمُوا تَغْيِيرَهَا، لَمْ يَكُنْ لِيُنْهَاهُ عَنْ أَنْ يَقْصُصَ عَلَى إِخْوَتِهِ؛ لِأَنَّهُ، لَوْ قَصَّهَا، أَوْ لَمْ
 يَقْصُهَا، إِذَا لَمْ يَعْلَمُوا، سَوَاءً.

وفيه دلالة أَنَّ الْإِخْ يَتَّهَمُ^(٣) فِي أَخِيهِ، وَيَكُونُ مِنَ الْإِخِ الْخِيَانَةُ إِلَى أَخِيهِ، وَالْأَبُ وَالْأُمُّ لَا يَتَّهَمَانِ فِي الْإِبْنِ، وَالْوَلَدُ لَا
 يَتَّهَمُ فِي وَالِدَيْهِ، وَلَا يَكُونُ مِنْ بَعْضٍ إِلَى بَعْضٍ خِيَانَةً فِي الْغَالِبِ؛ لِأَنَّ يَعْقُوبَ نَهَى وَلَدَهُ يُوسُفَ أَنْ يَقْصُصَهَا عَلَى إِخْوَتِهِ،
 وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ إِذَا عَلِمُوا بِذَلِكَ كَادُوهُ، وَحَسَدُوهُ، وَلَمْ يَنْهَهُ بِمِثْلِهِ فِي أُمِّهِ. وَدَلَّ أَنَّ الْإِخْ لَا يَتَّهَمُ فِي [شَهَادَتِهِ لِأَخِيهِ، وَيَتَّهَمُ
 الْأَبُ وَالْأُمُّ]^(٤) فِي شَهَادَتِهِمَا لِوَلَدِهِمَا، وَكَذَلِكَ الْوَلَدُ فِي [شَهَادَتِهِ لِوَالِدَيْهِ]^(٥).

ولهذا قَالَ أَصْحَابُنَا: إِنَّ شَهَادَةَ الْوَالِدِ لِوَلَدِهِ لَا تُقْبَلُ، وَكَذَلِكَ شَهَادَةُ الْوَلَدِ لِوَالِدَيْهِ، وَشَهَادَةُ الْإِخِ لِأَخِيهِ تُقْبَلُ، لِمَا
 يَنْتَفِعُ الْوَلَدُ بِمَالِ وَالِدَيْهِ، وَالْوَالِدُ بِمَالِ وَلَدِهِ، وَلَا يَنْتَفِعُ الْإِخُ بِمَالِ أَخِيهِ. وَكُلٌّ مِنْهُنَّ انْتَفَعُ بِمَالِ آخَرٍ أَنَّهُمْ فِي شَهَادَتِهِ، أَوْ لَمْ
 تُقْبَلْ شَهَادَتُهُ. وَكُلٌّ مِنْ لَمْ يَنْتَفِعْ بِهِ قُبِلَتْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ظَاهِرُ الْعَدَاوَةِ. وَقَالَ مُوسَى حِينَ قَتَلَ: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾
 [القصص: ١٥] بِذُو كُلِّ شَرٍّ يَكُونُ مِنَ الشَّيْطَانِ، يَقْذِفُ فِي الْقُلُوبِ، وَيَخْطِرُ فِي الصُّدُورِ، ثُمَّ تَكُونُ الْعَزِيمَةُ عَلَى ذَلِكَ،
 وَالْفِعْلُ مِنَ الْعَبْدِ، وَهُوَ مَا قَالَ: ﴿وَأَمَّا يَزْعُفَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٠] وَقَالَ: ﴿إِنَّ الدَّيْتِ
 اتَّقُوا إِذَا مَسَّهُمْ طَلِيفٌ﴾ [الآية: ٢٠١] وَالطَّيْفُ [وَالطَّائِفُ]^(٦) الْقَذْفُ وَالْوَسْوَسَةُ. فَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ ذَهَبَ. وَقِيلَ: الْكَيْدُ
 وَالْمَكْرُ سَوَاءٌ، وَهُوَ قَوْلُ أَبِي عَوَسَجَةَ.

وقال الْقُتَيْبِيُّ: الْكَيْدُ هُوَ الْإِخْتِيَالُ وَالْإِغْتِيَالُ، وَقِيلَ: الْكَيْدُ هُوَ أَنْ يُطْلَبَ لِيَصَالَ شَرٌّ بِهِ عَلَى غَيْرِ عِلْمٍ مِنْهُ، وَكَذَلِكَ الْمَكْرُ.
الآية ٦ وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا
 عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ تَأْوِيلَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَيِ كَمَا اجْتَبَى رَبُّكَ أَبَوَيْكَ بِالرَّسَالَةِ وَالتَّبُوءَةِ وَاصْطَفَاهُمَا^(٧) بِأَنْوَاعِ الْخَيْرَاتِ، وَأَتَمَّ
 نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ.

وَيُخْتَلِ قَوْلُهُ: ﴿يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ أَيِ كَمَا اجْتَبَاكَ رَبُّكَ بِالرُّؤْيَا الَّتِي أَرَاكَ تَفْعَلُ ذَلِكَ بِكَ.
 وقوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ قِيلَ: تَغْيِيرُ الرُّؤْيَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: عَلَّمَهُ تَأْوِيلَ الصُّحُفِ الَّتِي كَانَتْ
 لِإِبْرَاهِيمَ وَغَيْرِهِ، وَعَلَّمَهُ تَأْوِيلَ الصُّحُفِ وَالْأَحَادِيثِ.

وقوله تعالى: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ
 قَبْلُ إِزْرَاهِمَ وَاسْتَوْقَ﴾ حِينَ أَرَاهُ ذَبَحَ ابْنَهُ، فَجَعَلَ مَكَانَهُ كَبْشًا. فَعَلَى ذَلِكَ ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ وَيُسْجَدُ لَكَ إِخْوَتُكَ وَأَبَوَاكَ^(٨).

ثُمَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ اسْتَدَلَّ بِهَذَا أَنَّ الذَّبِيحَ كَانَ إِسْحَاقَ لِأَنَّهُ ذَكَرَ إِيْمَامَ نِعْمَتِهِ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ.
 وَدَلَّ قَوْلُهُ: ﴿وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ﴾ عَلَى أَنَّهُ قَدْ اجْتَبَاهُمْ بِالتَّبُوءَةِ مِنْ بَعْدُ؛ أَعْنِي أَوْلَادَ يَعْقُوبَ؛ لِأَنَّ وَلَدَهُ مِنْ آلِهِ. وَقَدْ أَخْبَرَ
 أَنَّ يَجْتَبِيَهُمْ، وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِمْ كَمَا فَعَلَ بِأَبَوَيْهِمْ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ. وَكَذَلِكَ رَوَى الْحَسَنُ أَنَّهُ قَالَ فِي إِخْوَةِ يُوسُفَ: نَبَّؤُوا بَعْدَ
 مَا صَنَعُوا بِيُوسُفَ مَا صَنَعُوا.

(١) فِي الْأَصْلِ رَمَ: حَيْثُ. (٢) فِي الْأَصْلِ رَمَ: حَيْثُ. (٣) أَدْرَجَ قَبْلَهَا فِي الْأَصْلِ: لَا. (٤) فِي مَ: شَهَادَةُ أَخِيهِ، وَيَتَّهَمُ الْأَبُ وَالْأُمُّ، سَاقِطَةٌ مِنَ
 الْأَصْلِ. (٥) فِي الْأَصْلِ رَمَ: وَالِدَيْهِ. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ رَمَ. (٧) فِي الْأَصْلِ رَمَ: وَاصْطَفَاهُمَا. (٨) فِي الْأَصْلِ رَمَ: وَأَبَوَيْكَ.

وقال بعضهم: تاويل الأحاديث العلم والكلام؛ قال: وكان يوسف أغبر الناس، وهو ما قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الآية: ٢٢].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ بما صنع بو إخوته، وعليهم بما ذكر من التمام ﴿حَكِيمٌ﴾ بوضع^(١) كل شيء موضعه، والله أعلم.

[الآية ٧] وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلِّسَّالِينَ﴾ الآية آية للسائل إذا كان السائل يسترشد، وكذلك القرآن كله، هو حجة وآية للمسترشدين. وأما المعتندين^(٢) فهو آية عليه.

ثم يَحْتَمِلُ قوله: ﴿آيَاتٌ لِلِّسَّالِينَ﴾ السائلين الذين سألوا على ما ذكر في بعض القصص لأن اليهود سألوا النبي عن أمر يوسف ونبيه، فأخبرهم بالحق في ذلك على ما كان؛ فهو آية لهم، إن ثبت ذلك.

ويَحْتَمِلُ قوله: ﴿آيَاتٌ لِلِّسَّالِينَ﴾ السائلين الذين يسألون من بعد إلى آخر الدهر عن نبي يوسف؛ كل من سأل عن خبره ونبيه، فهو آية له، إن ثبت ذلك.

ثم جعله^(٣) آيات يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحدهما: أنه جعل قصة يوسف ونبيه سورة، وتلك السورة هي آيات الكتاب على ما ذكر: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [الآية: ١] جعل قصة يوسف ونبيه آيات.

[والثاني: أنه جعله^(٤) آية أي حجة لبثوة رسوله ورسالته؛ لأن قصته ونبيه كان في كتبهم. بغير لسانه من غير ترجمة أحد منهم ولا تعليم / ٢٤٩ - ب/ ثم أخبرهم على ما كان في كتبهم من غير زيادة ولا نقصان. دل [أنه]^(٥) إنما علمه بالله تعالى ما أخذه من كتبهم، وهو ما ذكر في القصة أن اليهود سمعوا النبي يقرأ سورة يوسف، فقالوا^(٦): يا محمد من علمك؟ قال: الله علمنيها، فعجبوا من قراءته إياها على ما كانت في كتبهم، دل أنه إنما عرفها بالله.

والثالث^(٧): أنه يكون آية لمن سأل عن حجة رسالته، أو هي آية لمن سأل عنها، والله أعلم.

[الآية ٨] وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا لْيُوسُفَ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَّا وَغَضِبُوا عَلَيْهِ﴾ الآية دلالة أن لا بأس للرجل أن يَخْصُ بعض ولديه بالعطف عليه والميل إليه، إذا كان فيه معنى، ليس ذلك في غيره. ولهذا قال أصحابنا: إنه لا بأس للرجل أن يَخْصُ بعض ولديه بالهبة له أو الصدقة عليه، إذا لم يَفْضِدْ بها الجور على غيرهم من الأولاد.

ثم يَحْتَمِلُ تخصيص يعقوب يوسف وأخاه بالحب لهما وجوهاً:

أحدها: لما رأى فيهما من الضعف في [نفسيهما والعجز في بدنيهما ازداد^(٨) شفقته لهما، وعطفه عليهما لذلك، وهذا مما يكون في ما بين الخلق، وكان ذلك منه لهما ليصغريهما، وهذا أيضاً معروف في الناس: أن الصغار من الأولاد يكونون^(٩) عندهم أحب، وقلوبهم إليهم [أميل، وعليهم أعطف]^(١٠) ولهم أرحم من الكبار^(١١).

والثاني^(١٢): خَصَّهُما بذلك لِقْضَلِ خصوصية كانت لهما من جهة الدين أو العلم أو غيرهما^(١٣)؛ أمره الله بذلك لذلك من دون غيرهما.

والثالث^(١٤): لما يُشِيرُ يعقوب بنبوة يوسف، فكان يُفَضِّلُهُ على سائر أولاده، ويُؤَيِّرُهُ عليهم لذلك. وإنما ﴿قَالُوا لْيُوسُفَ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَّا﴾ بآثار تظهر عندهم، وإلا حقيقة المحبة لا تُعرف.

(١) في الأصل وم: وضع. (٢) في م: المتنعت. (٣) ادراج قبلها في الأصل: وجه. (٤) في الأصل وم: ويحتمل أيضاً أنه جعل. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، في الأصل: فقال. (٧) في الأصل وم: ثم يحتمل. (٨) في الأصل وم: لأنفسهم والعجز في أبدانها فازدادت. (٩) في الأصل وم: يكون. (١٠) في الأصل: وعليه، في م: أميل وعليه. (١١) في الأصل وم: الكبار. (١٢) في الأصل وم: أو. (١٣) في الأصل وم: غيره. (١٤) في الأصل وم: أو.

وقوله تعالى: ﴿وَتَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ قيل: العُصْبَةُ الجماعةُ، وقال أصحابنا: إِنَّ التَّشْعَةَ مع الإمامِ مَنَعَةٌ يَسْتَوْجِبُونَ مَا يَسْتَوْجِبُ السَّرِيَّةُ إِذَا دَخَلَتْ دَارَ الْحَرْبِ، فَغَنِمْتَ غَنَائِمَ، يُحْمَسُ مِنْهَا.

وقوله تعالى: ﴿وَتَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ آتَانَ لَفِي سَكَلٍ مُّبِينٍ﴾ لم يَغْنُوا ضلالَ الدين؛ إنما قالوا ذلك، والله أعلم، إنا جماعةٌ، نَقْدِرُ على دفعِ مَنْ يَرُومُ الضَّرَرَ بِهِ، وَيَقْصِدُ قَصْدَ الشَّرِّ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، وَنَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ؛ إِنَّا يَقُومُ مَعَاشُهُ وَأَسْبَابُهُ، فَكَيْفَ يُؤْثِرُ هَؤُلَاءِ عَلَيْنَا. وكذلك قوله: ﴿وَوَجَدَكَ مَتَّالًا مَقْدَى﴾ [الضحى: ٧] لم يُرِدْ بِهِ ضلالَ الدين، ولكن وجهاً آخر.

وقالوا: لَمَّا كَانَتْ [لَهُ] ^(١) مَنَافِعُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، لم تكن تلك المَنَافِعُ مِنْ يوسُفَ وأخيه. وأبدأً إنما يُؤْثِرُ المَرْءُ حُبَّ مَنْ لَهُ مَنَافِعُ مِنْ قِبَلِهِ لَا حُبَّ مِنْ لَا مَنَفَعَةَ لَهُ مِنْهُ، فهو فيه في ضلالٍ مُبِينٍ حين ^(٢) يُؤْثِرُ مَنْ لَا مَنَفَعَةَ لَهُ مِنْهُ عَلَى مَنْ كَانَتْ لَهُ مِنْهُ مَنَافِعُ وَأَمْثَالُهُ، والله أعلم.

الآية ٩

وقوله ^(٣) تعالى: ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ طَرْحُوهُ أَرْضًا يَحُلْ لَكُمْ وَجْهَ أَيْكُمُ﴾ لا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونُوا عَزَمُوا عَلَى قَتْلِهِ، وَلَكِنْ عَلَى الْمُشَاوَرَةِ فِي مَا بَيْنَهُمْ؛ نَفْعَلُ ذَا أَوْ ذَا، كَقَوْلِهِ ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠] لَيْسَ عَلَى وَاحِدٍ، وَلَكِنْ عَلَى الْمَشُورَةِ فِي مَا بَيْنَهُمْ. يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يَحُلْ لَكُمْ وَجْهَ أَيْكُمُ﴾ أَنَّهُمْ أَرَادُوا أَنْ يَخْلَوْا وَجْهَ أَبِيهِمْ لَهُمْ لَا قَتْلَهُ، إِنَّمَا أَرَادُوا غَيَّبَهُ عَنْهُ.

وقال بعضهم: ﴿يَحُلْ لَكُمْ وَجْهَ أَيْكُمُ﴾ أَي يَقْبَلُ عَلَيْكُمْ أَبُوكُمْ بِوَجْهِهِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَي يَفْرُغْ لَكُمْ مِنَ الشُّغْلِ يَوسُفَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَدُوٍّ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿صَالِحِينَ﴾ أَي تَائِبِينَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: تَكُونُوا صَالِحِينَ عِنْدَ أَبِيكُمْ مِنْ بَعْدِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: يَصْلُحُ أَمْرُكُمْ وَحَالُكُمْ مِنْ ^(٤) أَبِيكُمْ بَعْدَ ذَهَابِ يوسُفَ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونُوا قَوْمًا صَالِحِينَ فِي الْآخِرَةِ وَقَالَ [بَعْضُهُمْ]: ^(٥) إِنَّهُمْ ثَابُوا قَبْلَ أَنْ يَزْلُوا، فَيَعْصُوا ^(٦).

الآية ١٠

وقوله تعالى: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ قَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ: يَغْنِي قَعْرَ الْبَشْرِ، وَالْغِيَابَةُ: مَا يَغِيْبُهُ، وَيُؤَارِيهِ، وَالْجُبُّ الْبُئْرُ، وَالْجِبَابُ جَمْعُ.

وقَالَ أَبُو عُيَيْدَةَ: الْغِيَابَةُ: كُلُّ شَيْءٍ غَيَّبَ عَنْكَ شَيْئًا فَهُوَ غِيَابَةٌ.

وقوله تعالى: ﴿يَلْقَظُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ أَي يَرْفَعُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ، وَلِذَلِكَ يُقَالُ [عَنِ الطَّائِرِ] ^(٧) يَلْقَظُ الْحَبَّ، وَيَلْقَظُ أَي يَرْفَعُ. ^(٨) إِنْ كُنْتُمْ قَلِيلِينَ أَنْ تُغَيِّبُوهُ عَنْهُ.

وَأَمَّا قَوْلُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: إِنَّ قَوْلَهُ: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ قَالَهُ فُلَانٌ أَوْ فُلَانٌ فَذَلِكَ مِمَّا لَا نَعْرِفُهُ، وَلَيْسَ لَنَا إِلَى مَعْرِفَةِ ذَلِكَ حَاجَةٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ: السَّيَّارَةُ أَصْلُهَا مِنَ السَّيْرِ، هُوَ مِثْلُ الْمُسَافِرَةِ ^(٩)، وَهِيَ الْقَافِلَةُ؛ يَغْنِي الْعَمِيرُ. وَقِيلَ: الْجُبُّ الرِّكِيَّةُ الَّتِي لَمْ تُظَلَّ بِالْحِجَارَةِ، فَإِذَا طَوِيَتْ فَلَيْسَتْ ^(١٠) بِجُبٍّ.

الآية ١١

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَتَّاتَانَا مَا لَكَ لَا تَأْتِنَا عَنْ يُوسُفَ﴾ [دَلَّ قَوْلُهُمْ] ^(١١) ﴿مَا لَكَ لَا تَأْتِنَا عَنْ يُوسُفَ﴾ ^(١٢) عَلَى أَنَّهُمْ طَلَبُوا إِخْرَاجَهُ مِنْ أَبِيهِمْ غَيْرَ مَرَّةٍ؛ لِأَنَّ هَذَا الْكَلَامَ لَا يَتَكَلَّمُ بِهِ مُبْتَدَأٌ غَيْرَ مُسَابِقَةٍ شَيْءٍ مِنْ أَمْثَالِهِ، فَدَلَّ أَنَّهُمْ قَدْ اسْتَأْذَنُوهُ فِي إِخْرَاجِهِ غَيْرَ مَرَّةٍ ﴿وَرَأَيْنَا لَهُ تَنْصِحُونَ﴾ النَّاصِحُ هُوَ الدَّالُّ عَلَى كُلِّ خَيْرٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٢

وقوله تعالى: ﴿أَرْسَلَهُ مِمَّا عَدَا يَزْعَجَ وَوَلَّعَتْ رَأْيًا لَهُ لِحَافَتُونَ﴾ كَانَ يَعْقُوبُ خَافَ عَلَى نَفْسِهِ، أَعْنِي يوسُفَ، الضَّيْعَةُ بِتَرْكِهِنَّ حِفْظَهُ، فَأَمْتَرَهُ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِمْ: ﴿وَرَأَيْنَا لَهُ لِحَافَتُونَ﴾ وَخَافَ عَلَيْهِ الضَّيَاعُ مِنْ جِهَةِ الْجُوعِ بِتَرْكِهِنَّ

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: وقالوا. (٤) في الأصل وم: منه. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: ويعصوا. (٧) في الأصل وم: للطائر. (٨) في الأصل وم: المسافر. (٩) في الأصل وم: فليس. (١٠) في م: قوله. (١١) من م، ساقطة من الأصل.

حِفْظُهُ أَوْقَاتِ الْأَكْلِ، فَأَمَّنُوهُ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِمْ ﴿يَرْتَعْ﴾ أَي يَأْكُلُ، وَخَافَ قَلْبُهُ أَنْ يُكَلِّفُوهُ أَمْرًا يَشُقُّ عَلَيْهِ، وَيَشْتَدُّ، فَأَمَّنُوهُ ^(١) أَيْضًا عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِمْ: ﴿وَيَلْعَبُ﴾ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي اللَّعِبِ مَشَقَّةٌ وَلَا شِدَّةٌ. فَخَافَ عَلَيْهِ الضِّيَاعُ بِالْوَجْهِ الَّتِي ذَكَرَ، فَأَمَّنُوهُ ^(٢) عَلَى تِلْكَ الْوَجْهِ كُلِّهَا حَتَّى اسْتَنْقَذُوهُ مِنْ يَدَيْهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبُ﴾ [قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿يَرْتَعْ﴾ يَأْكُلُ ﴿وَيَلْعَبُ﴾ يَلْعَ] ^(٣) كَانَهُ خَرَجَ جَوَابًا [لِقَوْلِهِ] ^(٤) «قَالَ إِنِّي لَبِئْرُؤُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ» [يُوسُفُ: ١٣] قَالُوا لَهُ: لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ يَرْتَعْ، وَيَلْعَبُ، عَلَى التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿يَرْتَعْ﴾ يَنْسِيظُ ^(٥) «وَيَلْعَبُ» يَلْعَ وَقُرِئَ بِالنُّونِ ^(٦) «يَرْتَعْ وَيَلْعَبُ». قَالَ الْقُتَيْبِيُّ: نَرْتَعُ أَي نَأْكُلُ؛ يُقَالُ: رَتَعْتُ الْإِبِلَ إِذَا رَعَتْ، وَارْتَعْتُهَا إِذَا تَرَكْتُهَا تَرعى. وَيُقْرَأُ: نَرْتَعُ بِكَسْرِ الْعَيْنِ وَالْمُرَادُ مِنْهُ أَنْ نَتَحَارَسَ، وَيَرْعى بَعْضُنَا بَعْضًا، أَي نَحْفَظُهُ، وَمِنْهُ يُقَالُ: رَعَاكَ اللَّهُ أَي حَفِظَكَ اللَّهُ، وَقَالُوا: ﴿وَيَلْعَبُ﴾ فِي مَا يَجِلُّ، وَيَسَعُ، مِنْ نَحْوِ الْإِسْتِيقَاقِ وَغَيْرِهِ، وَهُوَ مَا ذَكَرُوا «إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِيقُ وَنَرْكَبُكَ يُونُسَ عِنْدَ مَتْنَعَا» [الْآيَةُ: ١٧] وَاللَّعِبُ فِي مِثْلِ هَذَا يَجِلُّ.

وَقَدْ رُوِيَ أَيْضًا فِي الْحَبَرِ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَجِلُّ اللَّعِبُ إِلَّا فِي ثَلَاثٍ: مُعَالَجَةُ الرَّجُلِ قَرَسَهُ أَوْ قَوْسَهُ وَمَلَاعِبَةُ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ» [بِنَحْوِ التِّرْمِذِيِّ ١٦٣٧] أَخْبَرَ أَنَّهُ لَا يَجِلُّ إِلَّا ثَلَاثٌ.

الآية ١٣

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «قَالَ إِنِّي لَبِئْرُؤُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ» قَالَ: إِنِّي لَبِئْرُؤُنِي عِنْدَ الْوَاقِعِ بِهِ وَالْغَائِبِ عَنْهُ مِنَ النُّعْمَةِ الَّتِي أَنْعَمَ عَلَيْهَا لَهُ، لِأَنَّهُ كَانَ نِعْمَةً عَظِيمَةً لَهُ. فَإِنَّ النَّظَرَ إِلَيْهِ وَذَكَرَ الْحُزْنَ عَلَى مَا فَاتَ عَنْهُ، وَذَكَرَ الْخَوْفَ لِمَا خَافَ وَقَعَهُ فِي وَقْتِ يَأْتِي، وَمَا سَيَقَعُ. فَهَذَا تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: «وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» [البقرة: ٦٢] لِأَنَّهُ مُوجِبٌ لِلْحَالِ غَيْرِ فَائِتٍ، «وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ» أَي يَخَافُونَ قُوَّتَهُ لِأَنَّ خَوْفَ قُوَّتِ النُّعْمَةِ يُنْغِصُ عَلَى صَاحِبِهَا النُّعْمَةَ، فَأَمَّنْتُهُمْ عَلَى ذَلِكَ. وَهُوَ مَا ذَكَرْنَا أَنَّ الْحُزْنَ يَكُونُ بِالْوَاقِعِ لِلْحَالِ، وَالْخَوْفُ عَلَى مَا سَيَقَعُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ» قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: كَانَ يَعْقُوبُ / ٢٥٠ - / رَأَى فِي الْمَنَامِ أَنَّ يُونُسَ أَخَذَهُ الذِّئْبَ، فَلِذَلِكَ ^(٧) قَالَ: «وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ» لَكِنَّ هَذَا لَا يُحْتَمَلُ لِأَنَّ رُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ، أَكْثَرُهَا صِدْقٌ وَحَقٌّ، فَلَا يُحْتَمَلُ أَنَّهُ رَأَى ذَلِكَ، ثُمَّ يَقُولُ: «وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ» أَوْ يَدَّعُوهُ يَدَّعُبُ مَعَهُمْ. لَكِنَّهُ خَافَ عَلَيْهِ أَكْلُ الذِّئْبِ عَلَى مَا يُخَافُ عَلَى الصَّبْيَانِ فِي الْمَفَاوِزِ وَالْبَرَارِي؛ إِذَا الْخَوْفُ عَلَى الصَّبْيَانِ فِي الْمَفَاوِزِ وَالْبَرَارِي، وَالضِّيَاعُ يَكُونُ بِالذِّئْبِ أَكْثَرَ مِنْ وَجْهِ آخَرٍ لِأَنَّهُ جَائِزٌ أَنْ يَقْتَرِسَهُ سَبْعٌ مِنَ السَّبَاعِ عِنْدَ مُعَاقَصَةِ إِخْوَتِهِ وَاشْتِغَالِهِمْ بِمَا ذَكَرَ مِنَ الْإِسْتِيقَاقِ، لَا يُحْتَمَلُ الضِّيَاعُ مِنَ النَّاسِ يَأْخُذُهُ وَاحِدٌ مِنْ بَيْنِ نَفَرٍ.

وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: إِنَّ قَوْلَهُ «وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ» كِنَايَةٌ عَنْ بَنِيهِ؛ أَيِ اخَافُ أَنْ تُهْلِكَوهُ، وَتُضَيِّعُوهُ.

الآية ١٤

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ» أَوَّلُ قُوَّةٍ «إِنَّا إِذَا لَعَنَيرُونَ» وَتَأْوِيلُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ «قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ» أَيِ جَمَاعَةٍ «إِنَّا إِذَا لَعَنَيرُونَ» أَيِ كَانَا نَحْنُ سَلَمْنَا إِلَى الذِّئْبِ، وَعَرَّضْنَا لِلضِّيَاعِ. هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، مَعْنَى الْخُسْرَانِ الَّذِي ذَكَرُوا، وَإِلَّا لَمْ يَلْحَقْهُمْ الْخُسْرَانُ إِذَا أَكَلَهُ الذِّئْبُ؛ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ بِهِمْ قُوَّةُ الْمَنْعِ، فَلَمْ يَمْنَعُوهُ، فَكَانَتْهُمْ ضَيَعَةٌ.

الآية ١٥

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «ثُمَّ دَهَبُوا بِهٖ وَاجْتَمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابِ الْجُبِّ» قَدْ ذَكَرْنَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَتْرَهِيمَ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» يَخْتَمِلُ قَوْلُهُ: «وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ» وَخِي نُبَوِّةٌ أَوْ وَخِي بِشَارَةِ النِّجَاةِ مِنْ ذَلِكَ الْجُبِّ أَوْ بِشَارَةِ الْمُلْكِ لَهُ وَالْعِزِّ.

ثُمَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: «لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَتْرَهِيمَ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» هُوَ قَوْلُ يُونُسَ حِينَ ^(٨) قَالَ لَهُمْ: «قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا قَعَلْتُمْ يُونُسَ

(١) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: فَأَمَّنُوا. (٢) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: فَأَمَّنُوا. (٣) فِي الْأَصْلِ: يَلْعَ، سَاقِطَةٌ مِنْ م. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي م: يَنْسِيظُ. (٦) مَعْجَمُ الْقُرْآنِ ج ٣/ ١٥٢. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: فَمِنْ نَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ.

وَأَخِيهِ ﴿الآية: [٨٩]﴾ **﴿قَالُوا لَوْلَا آتَاكَ لَئِنْ بُوُسْتُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾** [يوسف: الآية] هذا الذي نَبَّأَهُمْ يوسفُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿بذلك﴾.

وَيُشَبِّهُهُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ **﴿وَأَرْجِعْنَا إِلَيْهِ﴾** أي إلى يعقوب **﴿لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾** هو ما قال لهم: **﴿يَبْنَئِ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾** الآية [الآية: ٨٧] أَمَرَهُمْ أَنْ يَطْلُبُوهُ، وَيَتَحَسَّسُوا مِنْ أَمْرِهِ؛ كَانَهُ عَلِمَ أَنَّهُ حَتَّى كَقَوْلِهِ: **﴿وَأَرْجِعْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾** أَنَّهُ حَتَّى.

الَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: **﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾**؟ [الآية: ٩٤] ولهذا قَالَ حِينَ أَلْقِيَ الثَّوبَ عَلَى وَجْهِهِ، وَارْتَدَّ بَصِيرًا: **﴿وَأَعْلَمَ مِنْكَ اللَّهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾** [الآية: ٨٦] وذلك تَأْوِيلُ قَوْلِهِ: **﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾**. إِنْ كَانَتْ الْآيَةُ فِي يَعْقُوبَ، وَإِنْ كَانَتْ فِي يُوسُفَ فَهُوَ مَا ذَكَرْنَاهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٦ وقوله تعالى: **﴿وَبَكَاهُ آبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾** في الآية دلالتُ:

أحدها: أَنَّ مِنْ أَرْكَبَ صَغِيرَةٍ فَإِنَّهُ يُخَافُ عَلَيْهِ التَّعْذِيبَ، وَلَا يَصِيرُ كَافِرًا.

[والثاني: أَنَّ^(١)] مِنْ أَرْكَبَ كَبِيرَةٍ لَمْ يَخْرُجْ مِنَ الْإِيمَانِ؛ لِأَنَّ إِخْوَةَ يُوسُفَ هَمَّوْا بِقَتْلِ يُوسُفَ أَوْ طَرْجُوهُ فِي الْجُبِّ أَوْ التَّغْيِيبِ عَنْ وَجْهِ أَبِيهِ وَإِخْلَائِهِ عَنْهُ.

وذلك لَا يَخْلُو مِنْهُمْ: إِمَّا أَنْ يَكُونَ صَغِيرَةً وَإِمَّا^(٢) كَبِيرَةً.

فَإِنْ كَانَتْ صَغِيرَةً فَقَدْ اسْتَغْفَرُوا عَلَيْهَا بِقَوْلِهِمْ^(٣): **﴿يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾** الآية [الآية: ٩٧] دَلَّ أَنَّهُمْ إِنَّمَا اسْتَغْفَرُوا لِمَا خَافُوا الْعَذَابَ عَلَيْهَا.

وَأِنْ كَانَتْ كَبِيرَةً فَلَمْ يَخْرُجُوا مِنَ الْإِيمَانِ لِأَنَّهُمْ^(٤) صَارُوا أَنْبِيَاءَ مِنْ بَعْدُ، وَصَارُوا قَوْمًا صَالِحِينَ حِينَ^(٥) قَالُوا: **﴿وَنَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾** [الآية: ٩٩].

[والثالث^(٦)]: دَلَّ مَا ذَكَرْنَا عَلَى نَقْضِ الْمُعْتَرِثَةِ فِي صَاحِبِ الصَّغِيرَةِ: أَنَّ لَا تَعْذِيبَ عَلَيْهِ، وَفِي^(٧) صَاحِبِ الْكَبِيرَةِ: أَنَّهُ خَرَجَ مِنَ الْإِيمَانِ، وَنَقْضِ قَوْلِ الْخَوَارِجِ فِي قَوْلِهِمْ: إِنَّهُ إِذَا أَرْكَبَ كَبِيرَةً أَوْ صَغِيرَةً صَارَ بِهِ كَافِرًا أَوْ مُشْرِكًا.

والرابع^(٨): فِيهِ نَقْضُ قَوْلِ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ مَنْ كَذَبَ، أَوْ وَعَدَ، فَأَخْلَفَ، وَاتَّمَنَّى، فَخَانَ، يَصِيرُ^(٩) مُنَافِقًا؛ لِأَنَّ إِخْوَةَ يُوسُفَ اتَّمَنَوْا، فَخَانُوا، وَوَعَدُوا، فَأَخْلَفُوا، وَحَدَّثُوا، فَكَذَبُوا، فَلَمْ يَصِيرُوا مُنَافِقِينَ؛ لِأَنَّهُمْ قَالُوا: **﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾** [الآية: ١٧] وَلَمْ يَأْكُلْهُ، وَهُوَ كَذِبٌ، وَاتَّمَنَوْا، فَخَانُوا، حِينَ أَلْقَوْهُ فِي الْجُبِّ، وَوَعَدُوا أَنَّهُمْ يَحْفَظُونَهُ، وَلَمْ يَحْفَظُوهُ.

فَإِنْ قِيلَ: رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ «ثَلَاثٌ مِنْ عِلَامَاتِ النِّفَاقِ: مَنْ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا اتَّمَنَّى خَانَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ» [مسلم ٥٩] فَكَيْفَ يُوقَفُ بَيْنَ الْآيَةِ وَالْخَبَرِ؟ إِذْ هُوَ لَا يَحْتَمِلُ النَّسْخَ، لِأَنَّهُ خَبَرٌ، وَالْخَبَرُ لَا يَحْتَمِلُ النَّسْخَ؟ قِيلَ: يُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ فِي قَوْمٍ خَاصٍّ مِنَ الْكُفَرَةِ اتَّمَنَوْا بِمَا أَوْدَعَ اللَّهُ فِي التَّوْرَةِ مِنْ بَعَثِ مُحَمَّدٍ، فَغَيَّرُوهُ، وَوَعَدُوا أَنْ يُبَيِّنُوهُ، فَأَخْلَفُوا، وَكَتَمُوهُ، وَحَدَّثُوا أَنَّهُمْ يَبَيِّنُوهُ، فَكَذَبُوا. فَيَصِيرُ مُنَافِقًا بِمَا ذَكَرَ إِذَا كَانَ ذَلِكَ فِي أَمْرِ الدِّينِ، وَأَمَّا فِي غَيْرِهِ فَإِنَّهُ لَا يَصِيرُ مُنَافِقًا، وَلَا تَكُونُ تِلْكَ مِنْ أَعْلَامِ الْمُنَافِقِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٧ وقوله تعالى: **﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾** هذا القولُ مِنْهُمْ لَهُ فِي الظَّاهِرِ عَظِيمٌ لِأَنَّهُمْ قَالُوا: **﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا﴾** فِي هَذَا وَمَا كُنَّا صَادِقِينَ عِنْدَكَ مِنْ قَبْلُ فِي غَيْرِ هَذَا.

أَوْ يَكُونُ قَوْلُهُ: **﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا﴾** أَي تَتَّبِعُنَا، وَلَا تُصَدِّقُنَا؛ لِأَنَّهُ اتَّهَمَهُمْ حِينَ^(١٠) **﴿قَالَ إِنِّي لَبِئْسَ لَكُمْ بِإِيمَانٍ﴾** وَأَخَذَ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ [الآية: ١٣] فَاعْتَرَضَتْ لَهُ التَّهْمَةُ، وَلَيْسَ فِي الْإِتِّهَامِ تَكْذِيبٌ. إِنَّمَا هُوَ فِي الْوَقْفِ؛ لِأَنَّ مِنَ اتَّمَنَّى

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: بِقَوْلِهِ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم: (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: بَصِيرَ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ.

آخِرَ فِي شَيْءٍ، ثُمَّ اتَّهَمَهُ فِيهِ، لَا يَكُنْ^(١) فِي اتِّهَامِهِ إِيَّاهُ تَكْذِيبٌ. فَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُمْ: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا﴾ أَي تَتَّهَمُنَا لِمَا سَبَقَتْ مِنَّا^(٢) التَّهْمَةُ ﴿وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾.

عَلَى هَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ يُخْرِجُ تَأْوِيلَ الْآيَةِ، وَالْأَلَمَ يَجُزُّ أَنْ يَكُونَ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ يُكْذِبُ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ صَادِقٌ فِي خَبَرِهِ وَقَوْلِهِ.

فَإِنْ قِيلَ قَوْلُهُ: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ [الآية: ١٣] كَيْفَ كَذَلِكَ؟ وَقَدْ قَالَ لَهُ يَعْقُوبُ: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْنِبُكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُرِيكَ بِمِثَرٍ لَيْقَمَتِكَ عَلَيْكَ﴾ [الآية: ٦] فَكَيْفَ خَافَ أَكْلَ الذِّئْبِ وَالضِّيَاعِ؟ وَذَلِكَ لَا يُحْتَمَلُ أَنْ يَقُولَهُ^(٣) لَهُ إِلَّا بِعِلْمٍ مِنَ اللَّهِ وَالْوَحْيِ إِلَيْهِ. قِيلَ: يُحْتَمَلُ [ذَلِكَ بِوَجْهَيْنِ]:

أَحَدُهُمَا^(٤): أَنْ يَكُونَ مَا ذَكَرَ عَلَى شَرْطِ الْخَوْفِ أَنَّهُ يَخَافُ مِمَّا ذَكَرَ، فَيَكُونُ لَهُ مَا قَالَ مِنَ الْإِجْتِيَاءِ وَتَعْلِيمِ الْأَحَادِيثِ وَاتِّعَامِ النُّعْمَةِ عَلَيْهِ.

[وَالثَّانِي: أَنْ يَكُونَ^(٥) خَافَ ذَلِكَ عَلَى مَا خَافُوا جَمِيعاً مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الدِّينِ، وَإِنْ اغْتَضَمُوا عَمَّا خَافُوا جَمِيعاً: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إِبْرَاهِيم: ٣٥] وَمَعْلُومٌ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ لَا يَتَغَبَّدُ الْأَصْنَامَ، وَقَالَ يَوْسُفُ: ﴿رَفَعْنِي سُلَيْمًا وَالْحَقِيقَ بِالسَّلَامِ﴾ [الآية: ١٠١] وَمِثَالُهُ: هُوَ مَا ذَكَرْنَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ: أَنَّ الْعِصْمَةَ لَا تُزِيلُ الْخَوْفَ، وَلَا تُؤْمِنُ مِنْ^(٦) ارْتِكَابِ مُضَادَاتِهِ، بَلْ تَزِيدُ الْخَوْفَ عَلَى^(٧) الْأَخْيَارِ وَالْأَبْرَارِ؛ كَأَنَّ خَوْفَهُمْ وَاشْفَاقَهُمْ عَلَى دِينِهِمْ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿تَسْتَفْتِي﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: نَشْتَدُّ إِلَى الصَّيْدِ. وَقَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ: ﴿تَسْتَفْتِي﴾ هَذَا مِنَ السَّابِقِ أَي يَغْدُونَ حَتَّى يَنْظُرُوا إِلَيْهِمْ؛ يَسْتَفْتِي أَي يَتَقَدَّمُ مِنْ صَاحِبِهِ، وَيَعْلِيهِ فِي الْعَدُوِّ.

وَقَالَ الْقُتَيْبِيُّ: ﴿تَسْتَفْتِي﴾ أَي تَسْتَفْضِلُ: يُسَاقُ بِنَفْسِنَا بَعْضًا فِي الرَّمْيِ. يُقَالُ: سَابَقْتُهُ، فَسَبَقْتُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٨

وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَهُ عَلَى قَيْصِيهِ يَدْمِرُ كَذِبٌ﴾ الدَّمُ لَا يَكُونُ كَذِبًا، لَكِنَّهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، ﴿وَجَاءَهُ عَلَى قَيْصِيهِ يَدْمِرُ﴾ قَدْ كَذَّبُوا فِيهِ أَنَّهُ دَمُ يَوْسُفَ، وَأَنَّ الذِّئْبَ أَكَلَهُ، وَلَمْ يَكُنْ. وَقَالَ الْفَرَّاءُ: ﴿يَدْمِرُ كَذِبٌ﴾ يَدْمِرُ مَكْذُوبٌ؛ وَالْعَرَبُ قَدْ تَسْتَعْمِلُ الْمَضَرَّ فِي مَوْضِعِ الْمَفْعُولِ.

ثُمَّ ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ وَالتَّسْوِيلُ هُوَ التَّرْزِيقُ / ٢٥٠ - ب/ فِي اللَّغَةِ. وَتَأْوِيلُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: أَي زَيَّنْتَ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ، وَدَعَوْتُمْ إِلَى أَمْرِ تَفْصِلُونَ، وَتُفَرِّقُونَ بَيْنِي وَبَيْنَ ابْنِي. لَكِنَّا [لَا]^(٨) نَعْلَمُ مَا ذَلِكَ الْأَمْرُ الَّذِي زَيَّنْتَ أَنْفُسُكُمْ لَهُمْ. وَيُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿قَالَ يَبْنَؤُ لَا تَقْصُصْ رُءُوكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ [الآية: ٥] وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿فَصَبَّرَ جَبِيلٌ﴾ يَخْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

[أَحَدُهُمَا]:^(٩) ﴿فَصَبَّرَ﴾ لَا جَزَعَ فِيهِ ﴿جَبِيلٌ﴾ تَرْضَى بِمَا ابْتُلِيَنا بِهِ؛ لِأَنَّ الصَّبْرَ هُوَ كَفُّ النَّفْسِ عَنِ الْجَزَعِ بِذَلِكَ.

وَالثَّانِي^(١٠): ﴿جَبِيلٌ﴾ لَا مَكَافَاتٍ فِيهِ لِأَنَّهُمْ بِمَا فَعَلُوا بِيَوْسُفَ كَانُوا مُسْتَوْجِبِينَ لِلْمَكَافَاتِ، فَقَالَ: ﴿فَصَبَّرَ﴾ كَفُّ النَّفْسِ عَنِ الْجَزَعِ بِذَلِكَ، وَقَالَ^(١١): ﴿جَبِيلٌ﴾ لَا مُكَافَاةَ فِيهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ أَي وَبِاللَّهِ اسْتَعِينُ عَلَى الصَّبْرِ بِمَا تَصِفُونَ، أَوْ يَقُولُ: بِهِ اسْتَعِينُ عَلَى مَا تَقُولُونَ مِنَ الْكُذْبِ حِينَ تَزْعُمُونَ أَنَّ الذِّئْبَ أَكَلَهُ وَنَحْوَهُ.

الآية ١٩

وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ السَّيَّارَةُ هِيَ جَمَاعَةُ السَّائِرِينَ كَالْمَسَافِرَةِ^(١٢) ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾ الْوَارِدُ هُوَ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: يَكُونُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: مِنْ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: يَقُولُ. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: عَنْ. (٧) أُدْرِجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: ذَلِكَ. (٨) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: كَالْمَسَافِرِ.

طالب الماء ومُسْتَقِيهِ ﴿فَأَدَّى دَلْوَهُ﴾ أي أرسل دَلْوَهُ في البئر [فلما] ^(١) ﴿وَجَدَهُ﴾ ﴿قَالَ يَبَشِّرُنِي هَذَا عُلْمٌ﴾ قال بعضهم: ﴿يَبَشِّرُنِي﴾ هو اسم ذلك الرجل الذي كان مع المُدْلِي الدلو، فقال له: ﴿يَبَشِّرُنِي هَذَا عُلْمٌ﴾ كما يُقال: يا فلان هذا غلام. وقال بعضهم: هو من البشارة؛ كأنه قال: أبشِرْ بهذا الغلام.

وفي بعض القراءات ^(٢): ﴿يَا بُشْرَايَ﴾ على الإضافة ^(٣) إلى نفسه؛ فكأنه بَشَّرَ نفسه، أي البشِّر لي بهذا الغلام.

ويُشَبِّه أن يكون كناية كلام كان هنالك، لم يَبَيِّن لنا ذلك، والله أعلم بذلك، كقوله: ﴿وَقَاسَسَهُمَا﴾ [الأعراف: ٢١] أخير أنه أفسَم، لكن لم يَبَيِّن لنا ما ذلك القسم؟

وقوله تعالى: ﴿وَأَسْرَوْهُ يَتِمَّةً﴾ قال بعضهم: الأسرار هو اسم الإخفاء والإظهار جميعاً كقوله: ﴿وَأَسْرَوْا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾ [سبأ: ٢٣] أي أظهروا الندامة. فإن كان ما ذكر أنه اسم لهما جميعاً فكأنه قال: أظهروه ^(٤) بضاعة. فإن كان على حقيقة الإخفاء والأسرار ^(٥) فهو على الإضمار كأنه قال: ﴿وَأَسْرَوْهُ﴾ على ما كان، وأظهروا ﴿يَتِمَّةً﴾ لثلاث يطلب أصحابهم في ذلك شِرْكَةً ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَمْكُرُونَ﴾ أي عليم بما عمل إخوة يوسف بيوسف، أو عليم بما عمل السيارة من الأسرار والإظهار، والله أعلم.

الآية ٢٠

وقوله تعالى: ﴿وَمَرَوْهُ بِثَبَإٍ بِحْسٍ﴾ أي باعوه ﴿يَتِمَّ بِحْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ قال بعضهم: البَحْسُ هو الثَّقَصَانُ أي باعوه بِثَمَنِ لا يُباع مثله [بمثله] ^(٦). وقال بعضهم: البَحْسُ الظُّلْم؛ باعوه ^(٧) ظُلماً، وأخذوا ثَمَنَهُ ظُلماً لأنهم باعوه حراماً، وبيع الحرام حراماً، وأخذوا ثَمَنَهُ حراماً، لأن ثَمَنَ الحرام حرام.

وقال بعضهم: ﴿يَتِمَّ بِحْسٍ دَرَاهِمَ﴾ مُبَهَّرَجَةٌ وَزَيْفٌ ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ [حين باعوه] ^(٨) بِثَمَنِ الدُّونِ والثَّقَصَانُ بما لا يُباع مثله بِمِثْلِ ذلك الثَمَنِ خَشْيَةً أن يَجِيَهُمُ طالب لما علموا أن مثل هذا، لو كان مملوكاً لا يترك هكذا، لا يَظْلُبُ، فباعوه بأدنى ثَمَنِ يكون لهم، لا كما يبيع الرجل ملكه على رغبة منه خَشْيَةً الظُّلْبِ والاستِغْثَاذِ مِنْ أَيْدِيهِمْ.

وقال عامة أهل التأويل: قوله ﴿وَمَرَوْهُ بِثَبَإٍ بِحْسٍ﴾ إن إخوة يوسف هم الذين باعوه من السيارة

﴿يَتِمَّ بِحْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ أي لم يعرفوا منزلته ومكانه، والاول أشبه.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ أي كانوا في شرايته من الزاهدين، أي خافوا من الثمن أن كان مسروقاً.

الآية ٢١

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَمْرَأَتَيْهِ أَكْرِمِي مَوْتَهُ﴾ أي مقامه ومنزلته ﴿عَسَى أَنْ يَفْعَمَ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ إن صدق التجار ^(٩) أنه بضاعة عندهم ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ إن ظهر أنه مسروق وأنه حر لِمَا وَقَعَ عندهم أن البضاعة لا تُباع بِمِثْلِ ذلك الثمن باعوه.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ تأويله: كما مكَّنَّا ليوسف عند العزيز وامرأته ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الآية:

٢٢] نُمَكِّنُكَ عِنْدَ أَهْلِ الْأَرْضِ] ^(١٠). ولكن ذكر ﴿مَكَّنَّا﴾ على الخبر لأنه كان مُمَكَّنًا في هذا اليوم عند العزيز والمَلِكِ.

ويُشَبِّه أن يكون قوله ^(١١) ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ أي وكذلك جعلنا ليوسف مكاناً عند الناس وفي قلوبهم مكاناً ما خَذَلَهُ إخوته، ولم يعرفوا مكانه ومنزلته بعد ما كان شَيْبَةً المَمْلُوكِ عند أولئك، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَتُعْلِمَنَّ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ هذا قد ذكرناه في ما تقدّم.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ أي لا مردَّ لِقَضَائِهِ إذا قَضَى أمراً كان لقوله: ﴿لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ﴾ [الرعد: ٤١] ﴿وَلَنَكْثُرَنَّ الْأَنْبَاءَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: القراءة. (٣) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٣/ ١٥٧. (٤) في الأصل وم: أظهروا. (٥) من م، في الأصل: والإظهار. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: باعوا. (٨) في الأصل وم: حيث باعوا. (٩) من م، في الأصل: التجارة. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل وم: قولنا.

وقول أهل التاويل: إنه بيع بعشرين درهماً أو بعشرين وثيق؛ ذلك مما لا يعلم إلا بخبر سوى أن فيه أنه بيع بثمان الدون والثقصان بقوله: ﴿بَخْسٍ﴾ والبخس هو الثقصان. يقال: بَخَسْتُهُ أَي تَقَضَّيْتُهُ كقولهِ: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّكَاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥] وهو ما قال: ﴿وَلَا تَقْصُرُوا مِنَ الْكَفَالِ وَالْيَمِينِ﴾ [هود: ٨٤] وقيل: البخس الظلم والحرام، وقد ذكّرنا، والله أعلم.

الآية ٢٢

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ الأشد هو اشتداد كل شيء ونهايته^(١) في الكمال. ويختل^(٢) ﴿أَشُدَّهُ﴾ انتهاء بلوغه وانتهاء شبابه أو انتهاء عقله في التمام؛ لا يخلو من هذه الوجوه الثلاثة.

وقول أهل التاويل: ثمانين عشرة سنة إلى أربعين سنة لأنه بو يثم، ويكمل كل نوع من ذلك إلى ذلك، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿مَاتَتْهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ قوله ﴿حُكْمًا﴾ في^(٣) الناس ﴿وَعِلْمًا﴾ في الحكم. ويختل قوله ﴿مَاتَتْهُ حُكْمًا﴾ أي أعطينا^(٤) النبوة ﴿وَعِلْمًا﴾ علم الأحاديث وتاويلها على ما تقدّم ذكره؛ إذا أعطاه الحكم أعطاه العلم، وإذا أعطاه العلم أعطاه الحكم.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ يختل الإحسان في الأعمال أي [من]^(٥) عمل أعمالاً حسنة صالحة، ويختل الإحسان إلى الناس [والى النفس أي من]^(٥) أحسن إليهم، أو أحسن إلى نفسه؛ لا يخلو من الأوجه^(٦) الثلاثة. أو يكون قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي كذلك نجزى من أحسن صُحبة نعم الله وإحسانه، وقام بشكر ذلك كذلك أي مثل الذي جزاء يوسف لا يريد أن تجزي غيره عين ما جزى يوسف، ولكن يجزيه جزاء الإحسان.

الآية ٢٣

وقوله تعالى: ﴿وَرَزَوْتَهُ آلِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ دلّ قوله: ﴿فِي بَيْتِهَا﴾ أن البيت قد يجوز أن يضاف إلى المرأة، وإن كان البيت في الحقيقة لزوجها، على ما أضاف الله بيت زوجها إليها.

وقوله تعالى: ﴿وَرَزَوْتَهُ آلِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ المرادة قيل: هي الدعوة والطلبية ﴿وَرَزَوْتَهُ﴾ أي دَعَتْهُ إِلَى نَفْسِهَا^(٧). وقال أهل التاويل: رآوته، أي أرادته ﴿وَعَلَّقَتْ الْآبَرَبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾.

قيل: إن هذه الكلمة أخذت من الكتب المتقدمة، ليست بعريّة، ونحن لا نعرف ما أراد بها. لكن أهل التاويل: قال بعضهم: تهيات لك. وفي بعض القراءات: هُت^(٨) لك بالهمز؛ ومعناه ما ذكر؛ أي تهيات لك. ويشبه أن يكون قوله: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ ما أنا لك.

[وقوله تعالى]^(٩): ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ أي أعوذ بالله، وألجأ إليه ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ قال أهل التاويل: ﴿رَبِّي﴾ سيدي الذي اشتريته^(١٠) ﴿أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ أي أكرم مقامي ومكاني. دليله قوله لزوجته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَنِي﴾ [الآية: ٢١] هذا يدل أن قوله ﴿أَكْرِمِي/ ٢٥١ - أ/ مَثْوَنِي﴾ أي أحسني مثواه.

ولكن يشبه أن يكون أراد بقوله: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ ربه الذي خلقه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُلْحِقُ الظَّالِمُونَ بِظُلْمِهِمْ وَقَدْ ظَلَمُوا﴾ والمثوى: الموضع الذي يقوى فيه، والثواء: المقام، والثاوي: المقيم، ومعاذ الله. قيل: أعوذ بالله، وألجأ إليه، واتحصن به، ولا يُلْحِقُ الظَّالِمُونَ إذا ختموا بالظلم. وأما إذا انقلعوا عنه فقد أفلحوا.

الآية ٢٤

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَجَا بُرْهَنَ رَبِّهٖ﴾ أما ما قاله أهل التاويل: إنها أسلمت له ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ أي خلّ سراويله، وأمثال هذا، من الخرافات فهذا كله مما لا يحل أن يقال في شيء من ذلك.

(١) في الأصل رم: ونهاية. (٢) في الأصل رم: من. (٣) في الأصل رم: أعطينا. (٤) ساقطة من الأصل رم. (٥) في الأصل رم: أي. (٦) في الأصل رم: أوجه. (٧) في الأصل رم: نفسه. (٨) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٣/ ١٥٩. (٩) ساقطة من الأصل رم. (١٠) في الأصل رم: اشتراه.

والدلالة على فساد ذلك [في] (١) وجوه:

أحدها: قوله: ﴿هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ [الآية: ٢٦] ولو كان منه الإرادة والمراودة لم يكن ليقول ذلك عنها (٢)، ويبرئ نفسه من ذلك.

والثاني: قوله: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ [الآية: ٢٤] ولو كان شيء مما ذكروا من حل السراويل والجلوس بين رجلها لم يكن السوء مضروفاً عنه.

والثالث: قوله: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَتَى لَمْ أَخُنْ بِالنِّسَاءِ﴾ [الآية: ٥٢] ولو كان منه ما ذكروا لقد خائنه.

والرابع: [قول النسوة] (٣): ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ وقولها: ﴿الَّذِينَ حَصَّصَ الْحَقُّ أَنَا رَوَدُّنَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ [الآية: ٥١].

هذا كله يدل أن ما قاله أهل التأويل فاسد، لا يحل أن يتكلم فيه بشيء من ذلك. وليس في ظاهر الآية شيء مما قالوا من قليل ولا كثير؛ إذ ليس فيه سوى أن ﴿هَمَّتْ بِهِ﴾ و﴿هَمَّ بِهَا﴾.

ثم تختلج الآية وجوهاً عندنا:

أحدها: ﴿هَمَّتْ بِهِ﴾ مَمَّ: عَزَمَ ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ مَمَّ: خَطَرَ، ولا صُنِعَ للعبد في ما يخطر بالقلب، ولا مؤاخذه عليه، وهو قول الحسن.

والثاني: ﴿هَمَّتْ بِهِ﴾ مَمَّ الإرادة ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ مَمَّ دفع. لكنه يدخل عليه (٤) قوله: ﴿لَوْلَا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ لو كان مَمَّ بها مَمَّ دفع لم يكن لقوله: ﴿لَوْلَا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ معنى، لكنه يشبه أن يكون: مَمَّ بها ﴿مَمَّ بِقَتْلِهَا﴾ (٥) فإذا كان مَمَّ بِقَتْلِهَا، فرأى برهاناً ربِّه، تركها (٦) لما لا يحل قتلها.

[والثالث: كاد] (٧) يَهْمُ بها ﴿لَوْلَا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ على الشرط؛ كاد (٨) يَهْمُ بها لولا ما رأى من برهان ربِّه. وهو كقولهِ: ﴿وَلَوْلَا أَن بُنِيتُكَ لَقَدَّ كِدْتَ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤] لولا [أن] (٩) كان من تشييتنا إياك. وكذلك يخرج قول إبراهيم: ﴿بَلْ فَعَلَهُمْ كَيْدُكُمْ هَذَا فتنلوه من كائناتٍ يطوقون﴾ [الأنبياء: ٦٣] أي لو كان هو الذي ينطق لفعل هو.

ثم اختلف في قوله: ﴿لَوْلَا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ قال بعض أهل التأويل: رأى يعقوب عاصاً على شقيقه. وقال بعضهم: مثل له يعقوب، وصوّره، قرأه (١٠) عاصاً على إضبعه. وقال بعضهم: رأى آية من كتاب الله ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً﴾ [الإسراء: ٣٢]. هذا كله لا يدرى.

وأصل البرهان الحجة، أي لولا ما رأى من حجة الله، وإلا كان يَهْمُ بها، ولكن لا ندري ما تلك الحجة، والله أعلم بذلك.

والبرهان هو الحجة والآية: لولا أن رأى حجة ربِّه وبرهان ربِّه وآياته أو الرسالة. وتشبه الحجة النبوة (١١).

الآية ٢٥

وقوله تعالى: ﴿وَأَسْبَقَ أَبَابَ﴾ قال بعضهم: ﴿وَأَسْبَقَ أَبَابَ﴾ استبقت هي لتغلق الباب، واستبق هو ليخرج، ويبرئ. لكن قوله: لتغلق الباب لا يحتمل لأن الأبواب كانت مغلقة بقوله: ﴿وَعَلَقَتِ الْأَبْوَابَ﴾ ولكن استبقت هي لتخسبه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَلْفَيْ سَيْدَةٍ﴾ أي وجداً سيدها، هذا يدل أن قوله: ﴿إِنَّهُ رَفِيعَ أَخْسَنَ مَتَوَاتٍ﴾ [الآية: ٢٣] أي لم يرز به العزيز الذي اشتراه، ولكن [أراد] (١٢) العزيز الذي خلقه لأنه قال: سيدها، ولم يقل سيدهما.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: لها. (٣) في الأصل وم: قولها. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل: أو هم قتلها، في م: أي هم قتلها. (٦) في الأصل وم: فتركها. (٧) في الأصل وم: والثاني: كان. (٨) في الأصل وم: كان. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: فرأى. (١١) في الأصل وم: أي النبوة. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

وقوله تعالى: ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هذا يدلُّ أن الإرادة تكون مع الفعل لأنها كانت لا تتعلم إرادة ضميره، فإذا أخبرت عما عرفت من الميل وإظهار الفعل. وكذلك قول إخوة يوسف ﴿يُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْنَا﴾ [الآية: ٨] وكانوا هم لا يعرفون ما في ضميره من الحب سوى ما ظهر لهم من الميل إليه وإبداء الشفقة له. فهذا يدلُّ على ما ذكرنا من كون الإرادة مع الفعل، والله أعلم.

الآية ٢٦

وقوله تعالى: ﴿قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ أي دعنتني، والمرادة قد ذكرنا أنها هي الدغوة كقولهِ: ﴿سَرُّودٌ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ [الآية: ٦١] أي [سندعوه، ونطلب منه]^(١).

فإن قيل: كيف هتك سترها بقوله: ﴿هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾؟ قيل: ليس فيه هتك الستر عليها، بل فيه نفى العيب والظن عن نفسه. فالواجب على المرء أن ينفي العيب، وما يشينه عن نفسه على ما فعل يوسف.

وقوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَتْ قَيِّصُكُمْ قَدْ مِنْ كَذَا، وَإِنْ كَانَ كَذَا فَهُوَ كَذَا. قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّوِيلِ ذَلِكَ الشَّاهِدُ هُوَ ابْنُ عَمِّ لَهَا، رَجُلٌ حَلِيمٌ، يُقَالُ: كَذَا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: شَقُّ الْقَمِيصِ مِنْ دُبُرِ هُوَ الشَّاهِدُ وَأَمثَالُهُ. لَكِنْ هَذَا لَا يُعْلَمُ مَنْ كَانَ ذَلِكَ الشَّاهِدُ. وَقِيلَ: صَبِيٌّ فِي الْمَهْدِ. وَلَيْسَ لَنَا إِلَى مَعْرِفَةِ ذَلِكَ حَاجَةٌ.

الآية ٢٧

وقوله تعالى: ﴿إِنْ كَانَتْ قَيِّصُكُمْ قَدْ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾ ﴿وَإِنْ كَانَ قَيِّصُكُمْ قَدْ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ هذا لأن القميص إذا كان قد من قُبُلٍ فهو إنما [يَنقُذُ مِنْ دَفْعِهِ]^(٢) عن نفسها، وإذا كان القميص مقدوداً من دُبُرٍ فهو إنما يَنقُذُ^(٣) من جرّها إيّاه إلى نفسها لا من دفعها إيّاه عن نفسها. هذا هو الظاهر في العرف. لذلك قال الشاهد ﴿إِنْ كَانَتْ قَيِّصُكُمْ قَدْ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ﴾ فهو من كذا ﴿وَإِنْ كَانَ قَيِّصُكُمْ قَدْ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

الآية ٢٨

[وقوله تعالى]^(٤): ﴿فَلَمَّا رَأَى قَيِّصُكُمْ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ﴾ الآية استدلل على أنه إنما تَمَرَّقَ من جرّها إيّاه [إلى نفسها لا من دفعها إيّاه عن نفسها]^(٥).

ففيه دلالة جواز العمل بالاجتهاد لأن القميص في الغالب لا يَمَرَّقُ من دُبُرٍ إلا عن [جرٍّ من وراء]^(٦)، ولا من قُبُلٍ إلا عن دفعٍ من قُدَامٍ. لذلك دل على ما ذكرنا، والله أعلم، وإن كان يجوز أن يكون في الحقيقة على غير ذلك، لكن نظر إلى الغالب.

وقال أبو عوسجة: قوله: ﴿وَقَدَّتْ قَيِّصُكُمْ﴾ [الآية: ٢٥] أي شَقَّتْ وَمَرَّقَتْ، ومقدود أي مشقوق ﴿مِنْ دُبُرٍ﴾ أي من خلف، و﴿مِنْ قُبُلٍ﴾ أي من قُدَامٍ، وهو ماخوذ من القُبُلِ من قُبُلِ المِراء. وقوله: ﴿وَالْقِيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾ ولم يقل سَيِّدَهُمَا. فهذا يدلُّ على ما ذكرنا أي عند الباب، وهو ظاهر، أي وجد سَيِّدَهَا عند الباب.

وفي قوله: ﴿إِنْ كَانَتْ قَيِّصُكُمْ قَدْ مِنْ قُبُلٍ﴾ فهو كذا [وقوله]^(٧) ﴿وَإِنْ كَانَ قَيِّصُكُمْ قَدْ مِنْ دُبُرٍ﴾ فهو من كذا^(٨) دلالة يستدل بها [في مسائل]^(٩) لأصحابنا.

من ذلك قولهم: في حانوت فيه لؤلؤ وإهاب، تنازع فيه دَبَاغٌ وَلُؤْلُؤِيٌّ، فإنه يُفَضَّى باليد لكل واحد منهما في ذلك: لِلُؤْلُؤِيِّ بِاللُّؤْلُؤِ وَلِلدَّبَاغِ بِالْإِهَابِ، باليد يستدل بغالب الأمر، وظاهر اليد الغالبة، وإن كان يجوز في الحقيقة على خلاف الظاهر.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى قَيِّصُكُمْ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ يُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ كَيْدُهَا أَنَّهَا لَمَّا رَاوَدَتْهُ^(١٠) عن نفسه، وأمنت على إظهار ذلك وعدم^(١١) إفشائه عليه، أفشئت^(١٢) عليه ذلك. حين^(١٣) أبى إجابتها، فقالت: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ ب/ سُوءًا [الآية: ٢٥] ذلك القول منها من كيدهن.

(١) في الأصل وم: سندعونه ونطلب. (٢) في الأصل وم: يتقدم من دفعها. (٣) في الأصل وم: يتقدم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: لا من دفعها عن نفسه. (٦) في الأصل: دفع من وراء، في م: دفع من وراء. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: المسائل. (١٠) في الأصل وم: راودتها. (١١) في الأصل وم: و. (١٢) في الأصل وم: فافشئت. (١٣) في الأصل وم: حيث.

وأضل الكيد والمكر هو الأخذ على الأمن، والله أعلم.

وفي الآية دلائل لقول أصحابنا في المتاع، يختلف فيه الزوجان؛ فإن كان من متاع الرجال فهو في يد الرجل، وإن كان [من متاع النساء]^(١) فهو في يد المرأة، وهو^(٢) قول أبي يوسف ومحمد.

الآية ٢٩

وقوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ يحتمل قوله ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ أي عن قوله: ﴿هِيَ زَوَّجْتَنِي عَنْ نَفْسِي﴾ [الآية: ٢٦] ويشبه أن يكون قوله ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ عن جميع ما كان بينهما؛ أي استر عليها، ولا تهتك عليها سترها.

وقوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾ قال ليوسف ذلك القائل: ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ وقال للمرأة: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْفَاطِيئِينَ﴾ لما ظهر عنده أنها التي راودته، ودعته إلى^(٣) نفسها.

ثم اختلف في تأويل هذا القول: قال بعضهم: هو زوجها، قال ليوسف: ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ ولا تهتك عليها سترها، لكنهم قالوا: إنه كان قليل الغيرة.

وقال بعضهم: ذلك القائل هو رجل آخر، هو ابن عم لها، وهذا أشبه.

وقوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾ قال بعضهم: قال هذا لها لأنهم، وإن كانوا يعبدون الأصنام فإنما^(٤) يعبدونها لتقربهم^(٥) إلى الله ولقي حين^(٦) قال لها: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾ وقال بعضهم من أهل التأويل: قال^(٧): ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾ إلى زوجك لأنك^(٨) حنتيه.

فإن كان التأويل هذا يدل أن القائل ذلك^(٩) رجل آخر لا زوجها. وإن كان التأويل هو الأول فإنه يحتمل كليهما، أيها كان، والله أعلم.

الآية ٣٠

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ يشبه أن يكون استكنمت سراً عند نِسْوَةٍ في المدينة، فأفشين سراً عند أهل المدينة ليتلغ ذلك الخبر الملك، أو إن لم تكن أغلمت ذلك النسوة فلا بد من أن يعلم ذلك بعض خدوما، فالخادم أغلمت سراً، وأفشت عند نسوة في المدينة، فقلن عند ذلك: ﴿تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ أي تدعو عبداً إلى نفسها.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ قال بعضهم: الشغاف هو حجاب القلب وغلافه ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي بلغ حبها إياه الشغاف، والمشغوف: قيل: المجنون حباً، وهو من العشق.

قال الحسن: الشغف أن يكون قد بطن قلبها^(١٠) حبه، والشغف أن يكون مشغوقاً به.

قال أبو عوسجة: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي دخل الحب في شغاف القلب، وهو غطاؤه، وقال: من قرأها: شَغَفَهَا^(١١) حباً، أي ذهب بعقلها، أي عشقته^(١٢).

لكن هذا قول أولئك النسوة. فلا ندري ما أرذن بذلك. إنما ذلك خبر، أو خبر عن قول: قلن هن، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي صِلَىٰ ئِيْنٍ﴾ حين^(١٣) خانت زوجها، أو ﴿فِي صِلَىٰ ئِيْنٍ﴾ أي في حيرة من حبه، والله أعلم.

الآية ٣١

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ أي بقوليهن. المكر هو الأخذ في حال الأمن، وهو الخيانة في ما ائتمن، واستكنمت. فهذه كأنها استكنمت سراً وحبها ليوسف عن الناس، وأفشت ذلك النسوة في المدينة على أن يستكنمن عن الناس، فأفشين عليها ذلك، فذلك المكر الذي سمعت، والله أعلم.

(١) من م، في الأصل: متاع الناس. (٢) في الأصل وم: في. (٣) في الأصل وم: في. (٤) من م: في الأصل: كأنما. (٥) في الأصل وم: ليقرّبهم. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: قوله. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: لذلك. (١٠) في الأصل وم: لها. (١١) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٣/ ١٦٤. (١٢) في الأصل وم: عشقها. (١٣) في الأصل وم: حيث.

إلى هذا ذهب بعض أهل التأويل، وأمكن أن تكون المرأة لم تُفَسِّسْ سِرَّهَا إليهن، لكن بعض خدَمِها التي^(١) اطلعت على ذلك هي التي أفشيت إليهن، فلما سمعت ذلك منهن ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ إِمَّا تَتَوِشَّأُ ودُعَاءَ لِلزَّيْفَةِ وَإِمَّا اسْتِزَادَةً يَزِدْنَهَا. وأما قول أهل التأويل: إِنَّ النُّسْوَةَ كَانَتْ امْرَأَةً الْخَبَازِ وَالسَّاقِي، وَلَا [تَدْرِي مِمَّنْ]^(٢) فذلك لَا تَعْلَمُهُ، وليس لنا إلى معرفة ذلك حاجة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْنَتَ لَنَّا مِثْكَأ﴾ قَالَ الْحَسَنُ: مِثْكَأً: طَعَامًا وَشَرَابًا وَنُكَاةً. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْأَتْرُجُ وَالتَّرْنُجُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مِثْكَأً: وَسَائِدٌ وَمَا يَتَّكَأ عَلَيْهِ.

وقال أبو عوسجة: مِثْكَأً ممدوداً، يعني هَيَاثَ لِلْمَجْلِسِ مَا يَتَّكَأ عَلَيْهِ. وَمَنْ قَرَأَ مِثْكَأً^(٣) [مَقْصُوراً فَهُوَ]^(٤) الْأَتْرُجُ، وَطَعَامٌ عَلَى مَا قَالَ الْحَسَنُ. وَكَذَلِكَ قَالَ الْقُتَيْبِيُّ: قَالَ: وَيُقَالُ: الزَّماوَرُ.

وقوله تعالى: ﴿وَوَاتَتْ كُلَّ وَجْهٍ مِّنْهُنَّ سِجِّينًا﴾ أَيِ اعْطَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِجِّينًا، ظَاهِرٌ ﴿وَقَالَتْ أَخْرِجْ عَلَيْنَ فُلَانًا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْتُمْ﴾ ههنا كلام: أَنَّ كَيْفَ أَطَاعَ يُوسُفُ بِالْخُرُوجِ عَلَى النِّسَاءِ بِقَوْلِهَا إِلَيْهِ^(٥): ﴿أَخْرِجْ عَلَيْنَ﴾؟ فَذَلِكَ مِمَّا لَا يَحِلُّ. لَكِنَّهُ يُخْرِجُ عَلَى وَجْهِ: أَحَدُهَا: أَنَّهُ إِنَّمَا يُكْرَهُ الدُّخُولُ عَلَيْهِنَ وَالْخُلُوءُ بِهِنَ. وَأَمَّا الْخُرُوجُ عَلَيْهِنَ فَهُوَ لَيْسَ بِمَكْرُوهٍ؛ إِذْ فِيهِ الْخُرُوجُ [مِنْ عِنْدِهِنَّ]^(٦) لِأَنَّهُ إِذَا خَرَجَ عَلَيْهِنَ كَانَ يَقْدِرُ أَنْ يُخْرِجَ [مِنْ عِنْدِهِنَّ]^(٧). فَكَانَهُ لَهَا^(٨) إِذْنٌ لَهُ بِالْخُرُوجِ عَلَيْهِنَ خَرَجَ رَغْبَةً أَنْ يُخْرِجَ مِنْ عِنْدِهِنَّ إِذْ لَمْ يَقْدِرْ أَنْ يُخْرِجَ مِنَ الْبَيْتِ عَلَيْهِنَ بغيرِ إِذْنٍ مِنْهَا.

[وَالثَّانِي: الْأَمْرُ]^(٩) بِالْخُرُوجِ عَلَيْهِنَ أَفَادَ لَهُ إِذْنًا بِالْخُرُوجِ مِنَ الْبَيْتِ إِذْ لَا سَبِيلَ لَهُ إِلَى الْخُرُوجِ مِنْهُ بِلَا إِذْنٍ لَهُ مِنْهَا، فَخَرَجَ عَلَيْهِنَ ثَمَّةً مِنْ عِنْدِهِنَّ إِلَى غَيْرِهِ مِنَ الْمَكَانِ، وَذَلِكَ مِمَّا لَا يُكْرَهُ إِذَا كَانَ لَا سَبِيلَ إِلَى سِوَاهُ.

[وَالثَّالِثُ: يُشَبِّهُ]^(١٠) أَنْ يَكُونَ مِنْهَا الْأَمْرُ بِالْخُرُوجِ حَسَبًا إِذَا خَرَجَ، وَلَمْ تُقَلَّ عَلَيْهِنَ، وَلَمْ تُعْلَمَ يُوسُفُ أَنَّهَا تَأْمُرُهُ بِالْخُرُوجِ عَلَى النِّسَاءِ فَخَرَجَ. لَكِنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ عَنْ مَقْصُودِهَا، وَكَانَ مَقْصُودُهَا مِنَ الْأَمْرِ بِالْخُرُوجِ خُرُوجاً عَلَيْهِنَ، فَأَخْبَرَ عَنْ مَقْصُودِهَا بِقَوْلِهِ: ﴿وَقَالَتْ أَخْرِجْ عَلَيْنَ﴾ وَمِثْلُ هَذَا قَدْ يَكُونُ فِي الْكَلَامِ.

[وَالرَّابِعُ: جَائِزٌ]^(١١) أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿أَخْرِجْ عَلَيْنَ﴾ أَيِ عَنْهُنَّ، وَذَلِكَ جَائِزٌ فِي اللُّغَةِ: عَلَى مَكَانٍ عَنْ كَقَوْلِهِ ﴿إِذَا أَكَلُوا عَلَى آثَانٍ﴾ [المطففين: ٢] أَيِ عَنِ النَّاسِ، وَأَمْثَالُهُ كَثِيرٌ.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلَالَةٌ أَنَّ مُشْتَرِيَّ يُوسُفَ [كَانَ يَمْنَعُ يُوسُفَ]^(١٢) عَنْ أَنْ يُخْرِجَ إِلَى الْبَلَدِ وَالسُّوقِ وَمَنْ أَنْ يُخَالِطَهُ النَّاسُ إِمَّا إِشْفَاقًا عَلَى نَفْسِهِ، أَوْ لِئَلَّا تُفْتَنَ بِهِ النِّسَاءُ، أَوْ لِئَلَّا يُطْلِعَ عَلَى نَفْسِ يَعْقُوبَ لِمَا وَقَعَ عِنْدَهُ أَنَّهُ مَسْرُوقٌ. فَكَيْفَ مَا كَانَ فَبِهِ أَنْ عَلَى الْمَرْءِ أَنْ يَحْفَظَ وَلَدَهُ، أَوْ عَبْدَهُ إِشْفَاقًا عَلَيْهِ.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْتُمْ﴾ أَيِ أَكْبَرْتُمْ، وَأَعْظَمْتُمْ مِنْ حُسْنِهِ أَنْ يَكُونَ مِثْلُ هَذَا بَشَرًا. أَلَا تَرَى أَنَّهُمْ قُلْنَ: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ وَ﴿وَقُلْنَا لَأَيُّكُمْ﴾؟ قِيلَ: حَزْزُنٌ^(١٣) خَزَاً بِالسَّكِينِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿حَسَنَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾: ﴿حَسَنَ لِلَّهِ﴾ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: أَيِ مَعَاذَ اللَّهِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿حَسَنَ لِلَّهِ﴾ كَلِمَةٌ تَتَزَيَّدُ مِنَ الْقَيْحِ.

وَذَلِكَ هَذَا الْقَوْلُ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ كُنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ حِينَ^(١٤) قُلْنَ: ﴿حَسَنَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾. [وَذَلِكَ قَوْلُهُمْ]^(١٥): ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [أَنَّ الْمَلَكَ كَانَ، وَإِنْ لَمْ يَرَوْهُ، حَسَنًا]^(١٦) عِنْدَهُمْ، وَيَنْسَبُونَ^(١٧) كُلَّ حَسَنٍ إِلَى الْمَلَانِكَةِ، وَالشَّيْطَانُ، لَعَنَهُ اللَّهُ، قَبِيحٌ، فَتَنَسَبُوا كُلَّ قَبِيحٍ إِلَيْهِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: الَّذِي. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: أَدْرِي مِنْ مَادَا. (٣) انْظُرْ مَعْجَمَ الْقُرْآنِ ح ١٦٥/٣. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: مَقْصُورٌ هُوَ.

(٥) فِي الْأَصْلِ وَم: إِيَّاهُ. (٦) وَ(٧) فِي الْأَصْلِ وَم: مِنْهُنَّ. (٨) أَدْرَجَ قَبْلُهَا فِي الْأَصْلِ وَم: أَمَّا الْخُرُوجُ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: فَالْأَمْرُ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: يُشَبِّهُ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَجَائِزٌ. (١٢) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: خَزَا. (١٤) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (١٥) فِي الْأَصْلِ وَم: قَوْلُهُ. (١٦) فِي الْأَصْلِ وَم: كَانَ الْمَلَكُ وَإِنْ لَمْ يَرَوْهُ حَسَنٌ. (١٧) الْوَاوُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

وقوله^(١) تعالى: ﴿بَشِّرْهُ قَدْ أَرْسَلْنَا بِشْرِي^(٢)﴾ بالتوئين أي ما هذا بِمُشْتَرَى.

الآية ٢٢

وقوله تعالى: ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ﴾ بقوليهن: ﴿أَمَرَأَتِ الْعَزِيزِ تَزِيدُ فَلَمَّا عَنْ نَفْسِهِ﴾ أي إنكن لُمْتُنِي فيه/ ٢٥٢ - أ/ [أني راودته]^(٣) عن نفسه، وانتن قطعتن أيديكن إذ رأيته^(٤)، وانكرتن أن يكون هذا بشراً، فذلك أعظم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ أي دَعَوْتُهُ إِلَى نَفْسِي ﴿فَاسْتَعَصَمَ﴾ قيل: امْتَنَعَ كَقَوْلِهِ: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [هود: ٤٣] أي لا مانع.

ويُشَبِّهُ قَوْلَهُ: ﴿فَاسْتَعَصَمَ﴾ بالله أو بدينه وتبويته أو بعقله. هذا يدلُّ على أنه لم يكن منه ما قال أهل التأويل من حلِّ السراويل ونحوه حين^(٥) قَالَتْ ﴿فَاسْتَعَصَمَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ لَمْ يَقْعَلْ مَا مَأْمُرُهُ﴾ قَالَتْ ذَلِكَ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ ﴿لَيْسَ جَنَّتَ وَلَيْكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ يُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهَا ﴿لَيْسَ جَنَّتَ وَلَيْكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ فِي السَّجْنِ، أَوْ ﴿لَيْسَ جَنَّتَ وَلَيْكُونَا مِنَ الْمَذَلِّينَ﴾ الصَّغِيرِينَ [والصَّغِيرُ^(٦)] هُوَ الذَّلِيلُ لِأَنَّهُ قَالَ ﴿لَا تَرَأَيْتُهُ أَكْزَرِي مَثْوًى﴾ [الآية: ٢١] فَكَانَ مُكْرَماً عِنْدَهَا مُعْظِماً.

فلما [أبى ما راودته قَالَتْ]^(٧) ﴿لَيْسَ جَنَّتَ وَلَيْكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ أي مِنَ الذَّلِيلِينَ.

الآية ٢٣

وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَلَيْسَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ فِيهِ دَلَالَةٌ أَنَّهُ قَدْ كَانَ مِنْهُمْ مِنَ الْمُرَاوَدَةِ وَالِدَعَاءِ مَا كَانَ مِنْ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ مِنَ الْمُرَاوَدَةِ وَالِدَعَاءِ إِلَى نَفْسِهَا حِينَ^(٨) ﴿قَالَ رَبِّ أَلَيْسَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾.

أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي﴾؟ [الآية: ٥١] وَكَذَلِكَ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ﴾ [الآية: ٣٢] أَيْ كُنْتُن لُمْتُنَنِي فِيهِ أَنِّي رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ، وَانْتُنْ قَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ، وَقَوْلُ يَوْسُفَ: ﴿رَبِّ أَلَيْسَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ أَيْ ذَلِكَ الذَّلِيلُ وَالصَّغَارُ أَحَبُّ إِلَيَّ أَيْ أَثَرُ عِنْدِي وَأَخِيرُ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ؟ وَإِنْ كَانَ مَا يَدْعُونُهُ إِلَيْهِ تَهْوَاهُ نَفْسُهُ، وَتَمِيلُ إِلَيْهِ، وَتَحِبُّهُ. فَأَخِيرُ أَنْ السَّجْنَ أَحَبُّ إِلَيْهِ أَيْ أَثَرُ وَأَخِيرُ فِي الدِّينِ؛ إِذِ النَّفْسُ تَكْرَهُ السَّجْنَ، وَتَتَفَرَّقُ عَنْهُ.

أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْبَهِيلِينَ﴾؟ فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَا ﴿قَالَ رَبِّ أَلَيْسَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ إِنَّمَا أَرَادَ بِهِ مَحَبَّةَ الْإِخْتِيَارِ وَالْإِثَارِ فِي الدِّينِ لَا مَحَبَّةَ النَّفْسِ وَاخْتِيَارَهَا. بَلْ كَانَتِ النَّفْسُ تُحِبُّ، وَتَهْوَى مَا يَدْعُونُهُ إِلَيْهِ. دَلِيلُهُ قَوْلُهُ: ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْبَهِيلِينَ﴾.

وَلَيْسَ الدَّعَاءُ فِي قَوْلِهِ: ﴿رَبِّ أَلَيْسَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ كَمَا يَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ: إِنَّهُ إِنَّمَا وَقَعَ فِي السَّجْنِ لِأَنَّهُ سَأَلَ رَبَّهُ السَّجْنَ، فَاسْتَجَابَ^(٩) لَهُ فِي ذَلِكَ، وَلَكِنَّ الدَّعَاءَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ وَهُوَ كَقَوْلِ آدَمَ وَحَوَاءَ: ﴿قَالَ رَبَّنَا عَلَّمَنَا أَنْفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣].

لَيْسَ الدَّعَاءُ فِي قَوْلِهِمَا^(١٠): ﴿قَالَ رَبَّنَا عَلَّمَنَا أَنْفُسَنَا﴾ [لأنه إخبار عما كان منهم، إنما الدعاء في قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنَّا وَرَحْمَتًا لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَيْرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] وَكَذَلِكَ قَوْلُ نُوحٍ: ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَتِلَّكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ. عَلِّمْ وَلَا تَغَيِّرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَيْرِينَ﴾ [هود: ٤٧].

وَفِي^(١١) قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ دَلَالَةٌ أَنَّ عِنْدَ اللَّهِ لُطْفًا^(١٢)، لَمْ يَكُنْ أَغْطَى يَوْسُفَ ذَلِكَ؛ إِذْ لَوْ كَانَ أَعْطَاهُ لَكَانَ كَيْدُهُمْ وَشُرُّهُمْ مُصْرُوفًا [عنه حين]^(١٣) قَالَ: ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ وَلَوْ كَانَ أَغْطَى ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لِسُؤَالِهِ ذَلِكَ مَعْنًى.

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٣/ ١٦٨. (٣) من م، في الأصل: أراوده. (٤) في الأصل وم: رأيته. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: أنى ما راودته فقالت. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: فاستجيب. (١٠) في الأصل وم: قوله. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: لطف. (١٣) في الأصل وم: عند حيث.

فهذا ينقُضُ على الْمُعْتَرِلة قولُهُمْ حين^(١) قالوا: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَى كَلًّا فُذْرَةً كُلَّ طَاعَةٍ وَقُوَّةَ كُلِّ خَيْرٍ وَالذَّفْعَ عَنْ كُلِّ شَرٍّ. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْنَ﴾ أي لا أَخَذَ بِمَلِكُ صَرَفَ كَيْدِهِنَّ عَنِّي إِنْ^(٢) لَمْ تَصْرِفْهُ أَنْتَ. وكذلك قوله: ﴿وَلَا تَنْفِرْ لِي وَتَرَحَّمَنِي﴾ [هود: ٤٧] وهو أَبْلَغُ فِي الدَّعَاءِ مِنْ قَوْلِهِ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي.

وقوله تعالى: ﴿أَصْبُ إِلَيْنَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: أَمِلْ إِلَيْنِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَالَ: لَوْ لَمْ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ لَتَابَعْنَهُنَّ؛ وَيُقَالُ: الصُّبُّ هُوَ الْخُرُوجُ مِنَ الْأَمْرِ؛ يُقَالُ: كُلُّ مَنْ خَرَجَ مِنْ دِينِهِ فَقَدْ صَبَّ، وَبِهَذَا كَانَ الْمُشْرِكُونَ يُسَمُّونَ النَّبِيَّ ﷺ صَابِئًا، أَيْ خَرَجَ مِمَّا نَحْنُ عَلَيْهِ. وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الْأَصْبُ: الْأَصْبُ هُوَ الْأَمْرُ الْمُعْجَبُ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُ مِنَ الْفَاهِلِينَ﴾ أَيْ يَكُنْ فَعْلِي فَعْلُ الْجُهَالِ لَا فَعْلُ الْعُلَمَاءِ وَالْحُكَمَاءِ إِنْ لَمْ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ.

الآية ٣٤

وقوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ أَيْ أَجَابَ لَهُ رَبُّهُ، فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ.

هذا يدلُّ على أَنَّ الدَّعَاءَ كَانَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْنَ﴾ لَيْسَ فِي قَوْلِهِ: ﴿رَبِّ أَلَيْسَ لَكَ بِمَا يَدْعُوْنَ إِلَيْكَ﴾ إِنَّمَا هُوَ خَيْرٌ أَخْبَرَهُ حِينَ^(٣) أَخْبَرَ أَنَّهُ أَجَابَ لَهُ رَبُّهُ، فَصَرَفَ كَيْدَهُنَّ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ السَّمِيعُ لِكُلِّ قَوْلٍ وَكَلَامٍ، خَفِيًّا كَانَ عَلَى الْخَلْقِ أَوْ ظَاهِرًا. الْعَلِيمُ بِهِ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ دَلَالَةٌ أَنَّهُنَّ كُنَّ يَدْعُوْنَهُ إِلَى ذَلِكَ مِنْ وَجْهِ، كَانَ يَخْفَى^(٤) عَلَيْهِ، وَلَمْ يَشْفُرْ بِهِ، فَالْتَجَأَ إِلَى اللَّهِ فِي صَرْفِ ذَلِكَ عَنْهُ.

الآية ٣٥

[وقوله تعالى]: ﴿٥﴾: ﴿ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ فِي بَعْدِ مَا رَأَوُا الْأَنْثَى لَبْسَهُنَّ حَتَّى جِيْنَ﴾ ذَكَرَ فِي بَعْضِ الْقِصَصِ أَنَّهَا قَالَتْ لِزَوْجِهَا: مَا زَالَ يُوسُفُ يُرَاوِدُنِي عَنْ نَفْسِي، فَأَيِّتْ عَلَيْهِ، فَصَدَّقَهَا، فَحَبَسَهُ فِي السِّجْنِ.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْأَنْثَى﴾ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: هُوَ قَدْ الْقَمِصَ مِنْ دُبُرِهِ وَخَمَشَ الْوَجْهَ [وغير ذلك]^(٦).

ولكنه يُشْبِهُ أَنْ تَكُونَ الْآيَاتُ الَّتِي رَأَوْهَا، هِيَ آيَاتُ نُبُوءَتِهِ وَرِسَالَتِهِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: حَبَسُوهُ لِيَنْفُخُوا عَنِ الْمَرْأَةِ مَا رُمِيتَ بِهِ، وَلِيَنْقَطِعَ ذَلِكَ عَنِ النَّاسِ، وَيَمُوتَ ذَلِكَ الْخَبَرُ، وَيَذْهَبَ فِيهِ أَنَّهُمْ حَبَسُوهُ بَعْدَ مَا رَأَوْا آيَاتِ عَصَمَتِهِ وَبِرَائَتِهِ عَمَّا اتَّهَمُوهُ وَأَنَّهُمْ ظَلَمُوا فِي حَبْسِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٣٦

وقوله تعالى: ﴿وَوَدَّعَلَّ مَعَهُ أَلْيَحْزَنَ فَتَيَّانَ﴾ الْفَتَيَّانُ: قِيلَ: عَبْدَانِ^(٧) لِلْمَلِكِ، غَضِبَ عَلَيْهِمَا الْمَلِكُ ﴿قَالَ﴾ أَحَدُهُمَا إِنَّ أَرْنَتَ أَفْعُرَ خَمْرًا ﴿قَالَ بَعْضُهُمْ﴾ أَرْضٌ، يُدْعَى الْعِنَبُ بِهَا خَمْرًا، أَوْ سُمِّيَ خَمْرًا بِأَسْمِ سَبِيهِ أَوْ بِأَسْمِ أَصْلِهِ. وَجَائِزٌ فِي اللَّغَةِ تَسْمِيَةُ الشَّيْءِ بِأَسْمِ سَبِيهِ أَوْ بِأَسْمِ أَصْلِهِ.

[وقوله تعالى]: ﴿٨﴾: ﴿وَقَالَ الْآخَرُ إِنَّ أَرْنَتَ أَحْمِلُ قَوْكَ رَأْيِي خُبْرًا﴾ كَانَ أَحَدُهُمَا خَبَرًا لِلْمَلِكِ، وَالْآخَرُ سَاقِيَهُ ﴿يَتَنَبَّأُ بِأَوَّلِهِ﴾ إِنَّا نَرْنُكَ مِنَ الْمُتَحَنِّينَ ﴿قَالَ بَعْضُهُمْ﴾: إِحْسَانُهُ فِي السِّجْنِ لِمَا كَانُوا رَأَوْهُ يُدَاوِي الْمَرْضَى، وَيُعْزِي حَزِينَهُمْ، وَيَجْتَهِدُ فِي نَفْسِهِ فِي الْعِبَادَةِ لِرَبِّهِ. هَذَا يُحْتَمَلُ، [أَوْ]^(٩) لَعَلَّهُ كَانَ يَبْرُأُ أَهْلَ السِّجْنِ، وَيَصِلُهُمْ، وَيَجْتَهِدُ فِي الْعِبَادَةِ لِلَّهِ فِي الصَّلَاةِ لَهُ وَالصَّوْمِ وَأَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ الَّتِي تَكُونُ فِي مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ، فَسَمِيَهُ^(١٠) مُحْسِنًا لِذَلِكَ.

وَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ [مَا]^(١١) قالوا: ﴿إِنَّا نَرْنُكَ مِنَ الْمُتَحَنِّينَ﴾ لِمَا آتَاهُ رَبُّهُ سِيمَاءَ الْخَيْرِ وَأَثَارَهُ، أَوْ يَدْعُوهُمْ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَالْعِبَادَةِ لَهُ [وخلق أنفسهم]^(١٢) عَنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ وَالْإِنْتِرَاجِ مِنْ ذَلِكَ، فَسَمَوْهُ^(١٣) مُحْسِنًا لِذَلِكَ.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَرْنُكَ مِنَ الْمُتَحَنِّينَ﴾ لِمَا رَأَوْهُ أَحْسَنَ إِلَى أَهْلِ السِّجْنِ، وَيَحْتَمِلُ الْإِحْسَانُ هُنَا الْعِلْمَ: إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْعَالِمِينَ، وَهُوَ قَوْلُ الْفَرَّاءِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: لَوْ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٤) أَدْرَجَ قَبْلَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: لَا. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

(٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم: وَغَيْرِهِ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: عَبْدَيْنِ. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم:

فَسَمَاء. (١١) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَخَلَقَهُمْ. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: فَسَمِيَهُ.

وقوله تعالى: ﴿نَبْتَنَّا تَأْوِيلَهُ﴾ سَمَى التَّعْيِيرَ تَأْوِيلًا؛ لِأَنَّ التَّأْوِيلَ هُوَ الْإِخْبَارُ عَنِ الْعَوَاقِبِ. لِذَلِكَ سَمَّيَاهُ^(١) تَأْوِيلًا، ثُمَّ خَرَجَ تَأْوِيلَ الَّذِي كَانَ يَغْصِرُ الْخَمْرَ عَلَى الْعَوْدِ إِلَى مَا كَانَ فِي أَمْرِهِ مِنَ السُّقْيِ لِلْمَلِكِ، وَهُوَ كَانَ سَاقِيَهُ عَلَى مَا ذَكَّرْنَا. فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ دَامَ عَلَى أَمْرِهِ أَوَّلَ بِالْعَوْدِ إِلَى أَمْرِهِ الَّذِي كَانَ فِيهِ.

وَالْآخَرُ كَانَ خَبَازًا عَلَى مَا ذُكِّرَ، وَهُوَ إِنَّمَا كَانَ يَخْبِزُ لِلنَّاسِ. فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ حَمَلَ الْخُبْزَ عَلَى رَأْسِهِ، وَأَنَّهُ تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ، عَلِمَ أَنَّهُ يُخْرِجُ مِنَ الْأَمْرِ الَّذِي كَانَ فِيهِ. وَخُرُوجُهُ يَكُونُ بِهَلَاكِهِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ / ٢٥٢ - ب/ مِنْ قَبْلِ يَخْبِزُ لِلنَّاسِ، فَصَارَ يَخْبِزُ لِغَيْرِهِمْ. فَاسْتَدَلَّ بِذَلِكَ عَلَى خُرُوجِهِ مِنْ أَمْرِهِ وَعَمَلِهِ. لَكِنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ يُضْلَبُ لِأَنَّهُ كَانَ قَانِمًا مُتَّصِبًا، فَأَوَّلَ عَلَى مَا كَانَ أَمْرُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٣٧

وقوله تعالى: ﴿لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُزْقَاهُمَا إِلَّا يَأْتِيَكُمَا تَأْوِيلَهُ﴾ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، كَانَ يَقُولُ لَهُمْ ذَلِكَ لِيَعْرِفَهُمْ أَنَّ عِنْدَهُ عِلْمٌ مَا لَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ. فَعَلِمَ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ أُخْرَى أَنْ يَعْلَمَ ذَلِكَ. وَهَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، مِنْهُ اخْتِيَالٌ لِيَتَزَعَّهْمَ عَمَّا هُمْ فِيهِ بَيْنَ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ عِبَادَتِهِمْ غَيْرَ اللَّهِ، وَيُرَغِّبَهُمْ فِي تَوْحِيدِ اللَّهِ وَصَرْفِ الْعِبَادَةِ إِلَيْهِ.

ولهذا قال: ﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ هَذَا بِاللُّطْفِ مَا أَضَافَ إِلَيْهِ أَنَّهُ عَلَّمَهُ، وَإِلَّا بِاخْتِلَافِ الْمَلَائِكَةِ إِلَيْهِ، وَذَلِكَ لُطْفٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلرَّسَلِ، عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ تَأْوِيلُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَي لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ، رَأَيْتُمَا أَنَّ ذَلِكَ فِي الْمَنَامِ، إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِ ذَلِكَ [قَبْلَ أَنْ يَأْتِي ذَلِكَ]^(٢).

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ أَخْبَرَ أَنَّهُ تَرَكَ ﴿مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ لَيْسَ أَنَّهُ كَانَ فِيهَا، ثُمَّ تَرَكَهَا، وَلَكِنْ تَرَكَهَا ابْتِدَاءً مَا لَوْ لَمْ يَكُنْ تَرَكَهَا^(٣) كَانَ آخِذًا بِغَيْرِهَا.

وهو كقوله: ﴿رَفَعَ السَّمُوتَ﴾ [الرعد: ٢] لَيْسَ أَنَّهَا كَانَتْ مَوْضُوعَةً، فَرَفَعَهَا، وَلَكِنْ رَفَعَهَا أَوَّلَ مَا خَلَقَهَا، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ [الرحمن: ١٠] لَيْسَ أَنَّهَا [كَانَتْ مَرْفُوعَةً، ثُمَّ وَضَعَهَا، أَيِ انْشَاهَا]^(٤) مَرْفُوعَةً وَمَوْضُوعَةً، وَكَقَوْلِهِ ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] لَيْسَ أَنَّهُمْ كَانُوا فِيهَا، فَأَخْرَجَهُمْ، وَلَكِنْ غَضَمَهُمْ حَتَّى لَمْ يَدْخُلُوا فِيهَا. فَعَلَى ذَلِكَ الْآيَةُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٣٨

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُولَى: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ ﴿كَافِرُونَ﴾ [الآية: ٣٧] بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ [وَفِيهِ أَنْ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ]^(٥) فَهُوَ كَافِرٌ.

فَهَذَا يَنْقُضُ عَلَى الْمُعْتَرِجَةِ [قَوْلُهُمْ حِينَ]^(٦) جَعَلُوا بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ رُبَّةً ثَالِثَةً، وَيُؤَسِّفُ يُخْبِرُ أَنْ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ [وَالْيَوْمِ الْآخِرِ]^(٧) فَهُوَ كَافِرٌ. وَهُمْ يَقُولُونَ: صَاحِبُ الْكِبَرَةِ غَيْرُ مُؤْمِنٍ بِاللَّهِ، وَهُوَ لَيْسَ بِكَافِرٍ.

ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ تَرَكَ مِلَّةَ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ، وَاتَّبَعَ مِلَّةَ آبَائِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ ذَكَرَ. ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ مِلَّةِ آبَائِهِ، وَهِيَ^(٨) مَا ذَكَرَ: ﴿مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ تُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ عَرَّفَهُمْ مِلَّةَ آبَائِهِ وَدِينَهُمْ، وَهُوَ تَرْكُ الْإِشْرَاقِ بِاللَّهِ، وَجَعْلُ الْأُلُوهِيَّةِ لَهُ، وَصَرْفُ الْعِبَادَةِ إِلَيْهِ.

وَفِيهِ أَنَّ الْمِلَّةَ لَيْسَتْ إِلَّا مِلَّتَيْنِ: مِلَّةُ كُفْرٍ وَمِلَّةُ [إِسْلَامٍ]^(٩) وَأَخْبَرَ أَنَّ مَنْ لَمْ يَكُنْ فِي مِلَّةِ الْإِسْلَامِ كَانَ فِي مِلَّةِ الْكُفْرِ، ثُمَّ خَصَّ بِالذِّكْرِ هَؤُلَاءِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ لِأَنَّهُ هَؤُلَاءِ كَانُوا مُكْرَمِينَ عِنْدَ النَّاسِ كَافَّةً، كُلُّ أَهْلِ الدِّينِ يَدْعُونَ أَنَّهُمْ عَلَى دِينِ أَوْلَئِكَ، فَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: سَمَوَا. (٢) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٣) فِي الْأَصْلِ: فِيهِ ثُمَّ تَرَكَ، فِي م: فِيهِ ثُمَّ تَرَكَ وَلَكِنْ ابْتِدَاءً مَا لَوْ لَمْ يَكُنْ تَرَكَ.

(٤) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٥) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم:

وَهُوَ. (٩) فِي م: الْإِسْلَامُ، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ.

وَالْحَنِيفُ الْمُخْلِصُ لَيْسَ مَا تَزْعُمُونَ [أَنَّهُ غَيْرُ مُسْلِمٍ] ^(١) وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَتْ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧].

وفي قوله: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ دلالة أَنَّ الْكُفْرَ كُلَّهُ مِلَّةٌ وَاحِدَةٌ حِينَ ^(٢) أَخْبَرَ أَنَّهُ تَرَكَ ﴿مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ عَلَى اخْتِلَافِ مَذَاهِبِهِمْ.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ذَلِكَ الدِّينُ وَالْمِلَّةُ الَّتِي أَنَا عَلَيْهَا وَأَبَانِي مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ ﴿لَأَنَّهُ فَطَرَ النَّاسَ عَلَى فِطْرَةٍ، يَعْرِفُونَ وَخَدَائِيَّةَ اللَّهِ وَرُبُوبِيَّةَهُ بِعُقُولٍ، رَغَّبَ فِيهِمْ﴾ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿فَضَلَ اللَّهُ وَمَا رَغَّبَ فِيهِمْ مِنَ الْعُقُولِ. أَوْ ذَلِكَ الدِّينُ وَالْهُدَايَةُ الَّتِي أَعْطَاهُمْ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ، لَكِنَّ النَّاسَ يَتْرُكُونَ ذَلِكَ [الدِّينَ] ^(٣) وَتِلْكَ الْهُدَايَةُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٣٩ وقوله تعالى: ﴿يَصْحَبِي آلِ يَحْيَىٰ مَرْيَمُ أَتَرَاهُنَّ ضَالَّاتٍ سَبِيلٍ﴾ [فيه وجهان:

أحدهما: لَمَّا سُئِلَ يَوْسُفُ ^(٤) عَنْ تَأْوِيلِ الرُّؤْيَا دَعَاهُمْ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ، وَدَلَّاهُمْ عَلَيْهِ، فَقَالَ: ﴿ذَلِكَ مَا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ وَقَالَ: ﴿يَصْحَبِي آلِ يَحْيَىٰ مَرْيَمُ أَتَرَاهُنَّ ضَالَّاتٍ سَبِيلٍ﴾ أي عِبَادَةُ رَبِّ وَاحِدٍ وَإِرْضَاؤُهُ خَيْرٌ أَمِ عِبَادَةُ عَدَدٍ وَإِرْضَاءُ نَفَرٍ؛ لَأَنَّهُ إِذَا عَبْدَ بَعْضًا، وَاجْتَهَدَ فِي إِرْضَائِهِمْ أَشْخَطَ الْبَاقِينَ. فَلَا سَبِيلَ إِلَى الْوَصُولِ إِلَى مَقْصُودِهِ وَالظَّفَرِ بِحَاجَتِهِ إِذَا ^(٥) لَمْ يَقْدِرْ عَلَى إِرْضَائِهِمْ جَمِيعًا، وَإِنْ اجْتَهَدَ، وَأَمَّا الْوَاحِدُ فَإِنَّهُ يَقْدِرُ عَلَى إِرْضَائِهِ إِذَا ^(٦) لَا يَزَالُ فِي عِبَادَتِهِ وَإِرْضَائِهِ، فَيَصِلُ إِلَى حَاجَتِهِ وَالظَّفَرِ بِمَقْصُودِهِ.

والثاني: يُخْبِرُ أَنَّ الْوَاحِدَ الْقَهَّارَ يَقْهَرُ غَيْرَهُ مِنَ الْأَرْبَابِ وَمَنْ تَعْبُدُونَ. فَعِبَادَةُ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ عَدَدٍ مَقْهُورِينَ.

الآية ٤٠ وقوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ ﴿إِلَّا أَسْمَاءُ سَبَّحْتُمُوهَا﴾ أَلِهَةٌ ﴿أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ وَلَا يَسْتَحِقُّونَ الْعِبَادَةَ وَلَا التَّسْمِيَةَ بِالْأُلُوهِيَّةِ. إِنَّمَا الْمُسْتَحَقُّ لِذَلِكَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أَيِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى مَا عَبَدْتُمْ ^(٧)، وَسَمَّيْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ أَلِهَةً. مِنْ حُجَّةٍ [وَبِرْهَانٍ].

وقوله تعالى: ^(٨) ﴿إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أَيِ مَا الْحُكْمُ فِي الْأُلُوهِيَّةِ وَالرَّبُوبِيَّةِ وَالْعِبَادَةِ إِلَّا لِلَّهِ.

أَوْ يَقُولُ: مَا الْحُكْمُ فِي الْخَلْقِ إِلَّا لِلَّهِ كَقَوْلِهِ: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] أَيِ لَهُ الْخَلْقُ، وَلَهُ الْأَمْرُ فِي الْخَلْقِ. وَأَمَرَ الْأَوْثَانُ تَعْبُدُوا إِلَّا إِلَاهًا. حُكْمُهُ هَذَا أَمْرٌ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِلَاهًا.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الَّذِينَ أَلْقَيْنَا﴾ أَيِ عِبَادَةِ اللَّهِ وَتَوْحِيدِهِ هُوَ الدِّينُ الْقَيِّمُ؛ لَأَنَّهُ دِينٌ قَامَ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ وَالْبُرْهَانُ. وَأَمَّا سَائِرُ الْأَدْيَانِ فَلَيْسَتْ بِقَيِّمَةٍ؛ إِذْ لَا حُجَّةَ قَامَتْ عَلَيْهَا، وَلَا بُرْهَانَ. وَالْقَيِّمُ هُوَ الْقَائِمُ الَّذِي قَامَ بِحُجَّتِهِ وَبُرْهَانِهِ. وَقَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: الْقَيِّمُ الْمُسْتَقِيمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يَخْتَلِلُ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ لِمَا [لَمْ] ^(٩) يَتَفَكَّرُوا فِيهِ، وَلَمْ يَنْظُرُوا، فَلَمْ يَعْلَمُوا. وَلَوْ نَظَرُوا فِيهِ، وَتَفَكَّرُوا لَعَلِمُوا. وَهَذَا يَدُلُّ أَنَّ الْعُقُوبَةَ تُلْزِمُ، وَإِنْ جَهِلَ، إِنْ أَمَكَّنَ لَهُ الْعِلْمُ بِهِ، فَلَا عُذْرَ لَهُ فِي الْجَهْلِ إِذَا ^(١٠) أَمَكَّنَ لَهُ الْعِلْمُ.

[وَيَخْتَلِلُ] ^(١١): عَلِمُوا، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا بِعِلْمِهِمْ، فَتَفَقَّ عَنْهُمْ الْعِلْمُ لِذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٤١ وقوله تعالى: ﴿يَصْحَبِي آلِ يَحْيَىٰ مَرْيَمُ أَتَرَاهُنَّ ضَالَّاتٍ سَبِيلٍ﴾ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ حَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الظِّلُّ مِنْ رَأْسِهِ. هُوَ مَا ذَكَرْنَا أَنَّهُ أَوَّلُ رُؤْيَا السَّاقِي، وَغَيْرَهَا عَلَى الْعَوْدِ إِلَى مَا كَانَ مِنْ قَبْلُ لِمَا رَأَى أَنَّهُ كَانَ عَمِلَ عَلَى مَا كَانَ يَفْعَلُ مِنْ قَبْلُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنَّهُمْ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: يَوْسُفُ لَمَّا سُئِلَ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: إِذْ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: إِذْ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: عِبَدْتُمُوهُمْ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَلَا بُرْهَانَ. (٩) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: إِذْ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ.

وَعَبَّرَ رُؤْيَا الْخَبَارِ بِالْهَلَاكِ لِمَا رَأَى أَنَّهُ حَمَلَ الْخُبْرَ عَلَى رَأْيِهِ^(١). وَالْخُبْرُ إِذَا خَبَرَ الْخَبَارُ لَا يَحْمِلُهُ عَلَى رَأْيِهِ. فَرَأَى أَنَّهُ قَدْ انْتَهَى أَمْرُهُ أَنْ عَمِلَ عَلَى خِلَافِ مَا كَانَ يَعْمَلُ مِنْ قَبْلُ ﴿فَتَأْكُلُ الطَّلِيْءَ مِنْ رَأْيِهِ﴾ فَعَبَّرَ أَنَّهُ يُضْلَبُ ﴿فَتَأْكُلُ الطَّلِيْءَ مِنْ رَأْيِهِ﴾ لِمَا رَأَى أَنَّهُ حَمَلَ الْخُبْرَ عَلَى رَأْيِهِ، لِمَا كَانَ يَخْبُرُ مِنْ قَبْلُ لِلْعِبَادِ. فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ خَبَرَ لِيُغَيِّرَهُمْ^(٢) عَبَّرَ أَنَّهُ يُضْلَبُ ﴿فَتَأْكُلُ الطَّلِيْءَ مِنْ رَأْيِهِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَتَقِيَّ الْآثَرَ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: إِنَّهُ لَمَّا عَبَّرَ لِهَمَا رُؤْيَاهُمَا قَالَ الَّذِي عَبَّرَ لَهُ الصُّلْبَ وَالْقَتْلَ: لَمْ أَرْ شَيْئًا، إِنَّمَا كُنَّا نَلْعَبُ، فَقَالَ لِهَمَا يَوْسُفُ: ﴿فَتَقِيَّ الْآثَرَ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ أَيِ فَرَعٍ، وَانْتَهَى. لَكِنَّ هَذَا لَا يَعْلَمُ، أَفَالَا ذَلِكَ أَمْ لَمْ يَقُولَا سِوَى أَنْ فِيهِ أَنَّهُ عَبَّرَ رُؤْيَاهُمَا؟ وَكَانَ مَا عَبَّرَ لِهَمَا. وَقَدْ عَلِمَ ذَلِكَ بِتَعْلِيمٍ مِنَ اللَّهِ إِيَّاهُ بِقَوْلِهِ: ﴿ذَلِكُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ [الآية: ٣٧].

الآية ٤٢ وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: [إِنْ كَانَ الظَّانُّ]^(٣) الَّذِي صَدَّقَ، هُوَ ذَلِكَ الرَّجُلُ، كَانَ^(٤) الظَّنُّ فِي مَوْضِعِ الظَّنِّ ٢٥٣ - ١/ وَإِنْ كَانَ الظَّانُّ هُوَ يَوْسُفُ فَهُوَ عِلْمٌ وَيَقِينٌ؛ أَيِ عِلْمٌ وَابْتِقَانٌ ﴿أَنَّهُ نَاجٍ﴾ لِأَنَّهُ لَا يَحْتَمِلُ عَلَى حَقِيقَةِ الظَّنِّ مِنْ يَوْسُفَ. أَيِ وَقَالَ لِلَّذِي، نَاجٍ مِنْهُمَا، ظَنَّ أَنَّهُ يَذْكُرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ، وَهُوَ عَلَى التَّقْدِيمِ وَالتَّأخِيرِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾.

قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: إِنَّ يَوْسُفَ لَمَّا فَرَّغَ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ، وَطَلَبَ إِخْرَاجَهُ مِنَ السَّجْنِ مِنَ الْمَلِكِ أَنْسَاءَ اللَّهِ ذِكْرَهُ^(٥)، وَافْتَرَاهُ فِيهِ عَقُوبَةً لَهُ حِينَ رَجَا غَيْرَ رَبِّهِ. لَكِنَّ هَذَا لَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ يَوْسُفُ يَفْرَغُ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ، وَيُدْفَعُ قَلْبَهُ عَنِ اللَّهِ، وَيَشْغَلُهُ بِمَنْ دُونَهُ.

لَكِنَّهُ رَأَى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَنَّ اللَّهَ جَعَلَ سَبَبَ نَجَاتِهِ عَلَى يَدَيْهِ، وَأَنَّهُ بَقِيَ فِيهِ مَنَسِيَةً لِمَا عَلِمَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْهُ سَبَبٌ يُلْزِمُهُمُ الْحَبْسَ سِوَى الْإِعْتِدَارِ إِلَى النَّاسِ وَالْإِغْتِلَالِ لَهُمْ عَلَى نَفْسِي مَا افْتَرَقَتْ زَوْجَتُهُ، أَوْ لِيَنْقَطِعَ ذَلِكَ الْخَبْرُ عَنِ السُّنَنِ النَّاسِ، وَيَتَغَدَّ عَنْ أَوْهَامِهِمْ، فَرَأَى أَنَّهُ إِذَا ذَكَرَهُ لَعَلَّهُ أَخْرَجَهُ مِنْ ذَلِكَ لَمَّا رَأَى أَنَّهُ جَعَلَ سَبَبَ نَجَاتِهِ عَلَى يَدَيْهِ لِأَنَّهُ رَأَى ذَلِكَ مِنْهُ، [وَفَرَّغَ قَلْبَهُ إِلَى]^(٦) اللَّهِ.

وَهَكَذَا جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى أُمُورَ الدُّنْيَا كُلَّهَا، وَعَلَى ذَلِكَ تَعَبَّدَ عِبَادُهُ بِاسْتِعْمَالِ الْأَسْبَابِ مَعَ اعْتِقَادِ الْقَلْبِ الْقَدَرِ مِنَ اللَّهِ نَحْوَ مَا جَعَلَ الْأَنْزَالَ وَالزَّرَاعَةَ بِأَسْبَابٍ يَكْتَسِبُونَهَا وَنَحْوَ الْأَسْلِحَةِ الَّتِي اتَّخَذُوهَا^(٧) لِلْحَرْبِ وَالْقِتَالِ بِهَا مِمَّا يَكْثُرُ عَدَدُ ذَلِكَ. وَإِنَّمَا يُحَارِبُونَ بِاللَّهِ، وَبِهِ يُقَاتِلُونَ، وَمِنْ عِنْدِهِ يُنْصَرُونَ. وَقَدْ أَمَرَ بِذَلِكَ^(٨) كُلُّهُ وَبِتِلْكَ الْأَسْبَابِ، فَقَالَ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ فَعَلَ هَذَا كَانَ فَرَّغَ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ، أَوْ رَأَى النَّصْرَ وَالنَّجَاةَ مِنْ ذَلِكَ الشَّيْءِ وَالسَّبَبِ، بَلْ رَأَى ذَلِكَ كُلَّهُ مِنَ اللَّهِ وَمِنْ عِنْدِهِ. فَعَلَى ذَلِكَ يَوْسُفُ. لَا يَجُوزُ أَنْ يُتَوَهَّمُ أَنَّهُ فَرَّغَ إِلَى مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ، وَرَأَى نَجَاتَهُ مِنْ عِنْدِ ذَلِكَ، وَلَكِنْ لِلْوَجْهِ الَّذِي ذَكَرْنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ لَعَلِّي حُسِبْتُ بِمَا عَلِمَ مِنْهُ وَبِغَيْرِ أَمْرِهِ، لِأَنَّ تِلْكَ الْمَرَأَةَ الَّتِي أَوْعَدَتْ لَهُ السَّجْنَ، فَوَقَّعَتْ عِنْدَهُ أَنَّهَا الَّتِي احْتَالَتْ فِي حُبْسِهِ، فَقَالَ لِذَلِكَ مَا قَالَ.

وَالثَّانِي: يَقُولُ: أَذْكُرْنِي بِالَّذِي رَأَيْتَ مِنِّي، وَسَمِعْتَ، لِأَنَّهُ دَعَاهُمَا فِي السَّجْنِ إِلَى التَّوْحِيدِ حِينَ^(٩) قَالَ: ﴿أَزْيَابٌ مُتَنَزِّلَاتٌ خَيْرٌ أَرَأَيْتُمْ إِلَّا الْوَاحِدَ الْقَهَّارَ﴾ [الآية: ٣٩].

(١) فِي الْأَصْلِ رَمَى: الرَّاسُ. (٢) فِي الْأَصْلِ رَمَى: لِيُغَيِّرَهُ. (٣) فِي الْأَصْلِ رَمَى: يَهْلِكُ. (٤) فِي الْأَصْلِ رَمَى: ظَنَنْ. (٥) فِي الْأَصْلِ رَمَى: فَكَانَ. (٦) فِي الْأَصْلِ رَمَى: وَفِيهِ. (٧) فِي الْأَصْلِ رَمَى: وَرَفَعَ قَلْبَهُ عَنْ. (٨) فِي الْأَصْلِ رَمَى: اتَّخَذَتْ. (٩) فِي الْأَصْلِ رَمَى: ذَلِكَ. (١٠) فِي الْأَصْلِ رَمَى: حَيْثُ.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنسَنَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: أَنَسَى الشَّيْطَانُ يَوْسُفَ دُعَاءَ رَبِّهِ الَّذِي أَنشَأَهُ، وَخَلَقَهُ، فَلَمْ يَذْغُ رَبَّهُ الَّذِي هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ رَبٌّ.

وقَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ: ﴿فَأَنسَنَهُ الشَّيْطَانُ﴾ [أَنَسَى الشَّيْطَانُ] ^(١) الَّذِي قَالَ لَهُ يَوْسُفُ ﴿أَذْكُرُنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ ذِكْرَ رَبِّهِ، وَهَذَا أَشْبَهُ. وَالْأَوَّلُ بَعِيدٌ لِأَنَّهُ قَالَ فِي آخِرِهِ: ﴿وَأَذْكُرْ بَعْدَ أَنتَهُ﴾ أَي بَعْدَ حِينٍ ﴿أَنَا أَنُنِّثُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُون﴾ [الآية: ٤٥] دَلَّ هَذَا أَنَّهُ إِنَّمَا أَنَسَى الشَّيْطَانُ ذَلِكَ ^(٢) الرَّجُلَ، فَلَمْ يَذْكُرْهُ عِنْدَهُ حِينَئِذٍ.

وقَالَ بَعْضُهُمْ: لَمْ يُثْبِتِ الشَّيْطَانُ، وَلَكِنْ تَرَكَهُ عَمْدًا، فَلَمْ يَذْكُرْهُ عِنْدَهُ لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْمَقَالِ، فَيَزِدُّهُ غَضَبًا عَلَيْهِ، فَتَرَكَهُ عَمْدًا إِلَى أَنْ جَاءَ وَقْتُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، لِأَنَّهُ بَذَّ كُلَّ شَرٍّ يَكُونُ مِنَ الشَّيْطَانِ. وَأَضَافَ الْإِنْسَانَ إِلَى الشَّيْطَانِ، وَكَذَلِكَ قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَمَا أَنَسَيْنِي إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾ [الكهف: ٦٣] فَهُوَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، لِأَنَّهُ بَذَّ كُلَّ شَرٍّ يَكُونُ مِنَ الشَّيْطَانِ، لِأَنَّهُ يُخْطِرُ بِإِلَهِهِ، وَيَقْدِفُ فِي قَلْبِهِ، وَيُؤَسِّسُهُ، ثُمَّ يَكُونُ مِنَ الْعَبِيدِ الْعَزِيمَةِ عَلَى ذَلِكَ وَالْفِعْلُ.

وَفَائِدَةُ النِّسَابِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، هِيَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرَادَ أَنْ يُظَاهِرَ آيَةَ رِسَالَتِهِ وَحُجَّةَ بُرْهَانِهِ بِكَوْنِهِ ^(٣) فِي السَّجَنِ، وَيُظَاهِرَ بَرَاءَتَهُ فِي شَأْنِ تِلْكَ الْمَرَاةِ بِشَهَادَةِ أُولَئِكَ النَّسَوَانِ، وَذَلِكَ عِلْمُ الْأَحَادِيثِ الَّتِي ذَكَرَ وَالرُّؤْيَا الَّتِي عَبَّرَهَا.

وقوله تعالى: ﴿فَلَيْتَ فِي السَّجَنِ بِضَعِ سِنِينَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: خَمْسَ سِنِينَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: سَبْعَ سِنِينَ، وَنَحْوُ ذَلِكَ. وَلَكِنْ لَا نَعْلَمُ ذَلِكَ، وَلَيْسَ لَنَا إِلَى مَعْرِفَةِ ذَلِكَ حَاجَةٌ سِوَى أَنَّهُ فِيهِ أَنَّهُ لَيْتَ فِيهِ حِينَئِذٍ.

وقَالَ أَبُو بَكْرِ الْأَصَمُّ: قَوْلُهُ: صَاحِبَا ^(٤) السَّجَنِ بِالْأَلِفِ. فَلَمَّا لَمْ يَقُلْ هَذَا دَلَّ أَنَّهُ أَضَافَ إِلَى نَفْسِهِ؛ كَأَنَّهُ قَالَ: يَا صَاحِبَيَّ فِي السَّجَنِ، لِأَنَّهُمَا كَانَا مَعَهُ فِي السَّجَنِ.

وقوله تعالى: ﴿فَقُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ قِيلَ: قَرَعَ، وَقِيلَ: انْتَهَى الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ، وَأَنْتَهِيَ [الْأَمْرُ] ^(٥) كَقَوْلِهِ: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْنِ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الْإِسْرَاءُ: ٤] وَقَوْلِهِ ^(٦): ﴿فَقُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ كَأَنَّهُ بَلَغَ إِلَيْهِمَا وَخِيَا إِلَيْهِ وَأَمْرًا ^(٧) بِهِ؛ أَي هُوَ كَانَتْ مِنْ غَيْرِ رَجُوعٍ يَكُونُ ^(٨) مِنْهُمَا عَلَى مَا يَقُولُهُ أَهْلُ التَّأْوِيلِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٤٢ وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ أَلَيْكَ إِتِيَّ أَرَأَيْتَ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ ذَكَرَ أَنَّهُ رَأَى لَوْلَيْسَ فِيهِ ذِكْرُ أَنَّهُ رَأَى ^(٩) فِي الْمَنَامِ. وَلَكِنْ ذَكَرَ فِي آخِرِهِ ^(١٠) الرُّؤْيَا. دَلَّ أَنَّهُ رَأَى فِي الْمَنَامِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَفْتَوِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنْتُ لِلرُّؤْيَا شَكْرًا﴾ وَفِيهِ أَنَّ مِنَ الرُّؤْيَا مَا هُوَ حَقٌّ ^(١١)، وَلَهَا حَقِيقَةٌ، وَمِنْهَا [مَا هُوَ] ^(١٢) بَاطِلٌ، لَا حَقِيقَةَ لَهَا؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿أَفْتَوِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنْتُ لِلرُّؤْيَا شَكْرًا﴾ ﴿قَالُوا أَصْنَعْتَ آخِلِينَ﴾ [الآية: ٤٤].

فَكَانَتْ الرُّؤْيَا، هِيَ حَقٌّ، وَلَهَا حَقِيقَةٌ بِتَأْوِيلِ عَوَاقِبِهَا. وَقَوْلُهُ ^(١٣): ﴿أَصْنَعْتَ آخِلِينَ﴾ لَا حَقِيقَةَ لَهَا.

وقوله تعالى: ﴿إِتِيَّ أَرَأَيْتَ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾ أَمَّا الْبَقَرَاتُ فَهِيَ ^(١٤) السَّنُونُ، وَالسَّمَانُ هِيَ الْمُخْصِبَاتُ الْوَاسِعَاتُ ﴿يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ الْعِجَافُ مِنَ الْمُجْدِبَاتِ ﴿وَسَبْعٌ سُبُلَاتٍ خُضِرَ﴾ السُّبُلَاتُ سُنْبُلَاتٌ، وَ﴿خُضِرَ﴾ عِبَارَةٌ عَمَّا يُخْضَدُ ﴿وَأَخْرَ يَابِسَتٍ﴾ عِبَارَةٌ عَمَّا لَا يُخْضَدُ.

وفيه ^(١٥) دَلَالَةٌ أَنَّ مِنَ الرُّؤْيَا مَا تَكُونُ مُصَرِّحًا [بِهَا مُشَارًا] ^(١٦) إِلَيْهَا، تُعَرِّفُ بِالْبَدِيهَةِ، وَمِنْهَا مَا تَكُونُ [عِبَارَةً مُبْهَمَةً غَيْرَ مُفَسَّرَةٍ] ^(١٧) لَا نَعْلَمُ إِلَّا بِالنَّظَرِ فِيهَا وَالتَّفَكُّرِ وَالتَّأَمُّلِ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿أَرَأَيْتَ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾ وَ﴿سَبْعٌ﴾ هُوَ سَبْعٌ، لَا غَيْرَ، وَ﴿بَقَرَاتٍ﴾ هُنَّ كُنَايَةٌ عَنِ السِّنِينَ، وَ﴿سِمَانٍ﴾ كُنَايَةٌ عَنِ الْخَضْبِ وَالسَّعَةِ ﴿يَأْكُلُهُنَّ﴾ عَلَى حَقِيقَةِ الْأَكْلِ. وَكَذَلِكَ ﴿سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ السَّبْعُ هُوَ سَبْعٌ، لَا غَيْرَ، وَ﴿عِجَافٌ﴾ كُنَايَةٌ عَنِ الشَّدَّةِ وَالْجَذْبِ ﴿وَسَبْعٌ سُبُلَاتٍ﴾ هُنَّ عَيْنُ السَّنِبِلَاتِ، وَ﴿خُضِرَ﴾ هُنَّ كُنَايَةٌ عَمَّا يُخْضَدُ، وَ﴿وَأَخْرَ يَابِسَتٍ﴾ كُنَايَةٌ عَمَّا لَا يَكُونُ فِيهِ مَا يُخْضَدُ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) أدرج قبلها في الأصل وم: على. (٣) في م: يكون. (٤) أدرج قبلها في الأصل وم: يا. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: وأمر. (٨) في الأصل وم: كان. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) من م، في الأصل: آخر. (١١) من م، في الأصل: أحق. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: و. (١٤) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٦) في الأصل: مشار، في م: مشارا. (١٧) في الأصل وم: كناية مبهما غير مفسر.

ففيه أن من الخطاب ما يكون مَصْرَحاً [يو^(١)] مُبَيَّنًا مُشَاراً إليه، يُفهم المراد منه بالبديهة وَثَقَ قَرَعَ الخطاب السَّمْعَ، ومنه ما يكون مُبْهَمًا غَيْرَ مُفَسَّرٍ. فهو على وجهين:

[أحدهما]^(٢): ما يفهم بالنظر والتفكير.

[والثاني]: لا يفهم بالبديهة ولا بالنظر والتأمل فيه والتفكير^(٣) [إلا ببيان، يُقرَنُ به سِوَى ذلك.

على هذا تُخَرَّجُ المُخاطَبَاتُ في ما بين الله وبين الخلق، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِ فِي رَأْيِنِي إِنْ كُنْتُ لِلزُّلُمَةِ مُعْبُوتًا﴾ خاطب الأشراف من قومه والعلماء بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِ فِي رَأْيِنِي﴾ على ما ذكرنا في ما تقدَّم أَنَّ الْمَلَأَ هو اسمٌ للأشراف منهم والرؤساء. وهكذا العادة في الملوك أنهم إنما يُخاطَبُونَ أعقَلُهُمْ وأَعَظَمُهُمْ منزلةً عندهم وأَكْرَمَ [مَثْوًى لهم]^(٤).

وذلك قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِ فِي رَأْيِنِي إِنْ كُنْتُ لِلزُّلُمَةِ مُعْبُوتًا﴾ أنه إنما رأى ذلك في السماء، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿أَفْتُونِ فِي رَأْيِنِي﴾ الآية كأنه نهاهم أن يتكلفوا التفسير للرؤيا التي رآها، إذا لم يكن لهم بها علم، وكذلك الواجب على كل من سئل^(٥) عن شيء، لا يعلم، ألا يشتغل به، ولا يتكلف علمه، إذا لم يكن له به علم، حين^(٦) قال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِ فِي رَأْيِنِي إِنْ كُنْتُ لِلزُّلُمَةِ مُعْبُوتًا﴾ ٢٥٣ - ب/ تَعْبُوتُ.

الآية ٤٤

وقوله تعالى: ﴿أَضَلُّتُ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ قال بعضهم: أباطيل أحلام كاذبة^(٧)، وقال بعضهم: أخلاط أحلام كاذبة^(٨)، مثل أضغاث النبات تُجَمَّعُ، فيكون فيها ضروبٌ مختلفة، وهو كما قيل في قوله: ﴿وَعَذِّبْنَا بِكَ بِرَأْيِنَا فَتَرَبَّصْ﴾ وَلَا تَحْتَسِبْ. [ص: ٤٤] أي جماعة من أغصان الشجر، وقال بعضهم: ﴿أَضَلُّتُ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ الضُّغْتُ والأضغاث ما لا يكون له تاويل، ويُقال لِتَوَعُّدٍ مِنَ الْكَلَامِ^(٩): ضُغْتُ، وهو الحلفاء شبه البردي وغيره. وقيل: إِنَّ الضُّغْتُ والأحلام، هما اسمان لشيء، لا معنى له، ولا تاويل، وهما واحد، وأصل الأحلام يُخَرَّجُ^(١٠) من وجهين:

أحدهما: العقول؛ دليله قوله: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَعُوا بِهَذَا﴾ [الطور: ٣٢] أي عقولهم ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الطور: ٣٢].

والثاني: من الإحتمال، وهو ما ذكرنا من الحُلم كقوله: ﴿وَلَا يَلْعَلُ الْاِخْتِلَامُ يَنْكُمُ الْعِلْمُ﴾ الآية [النور: ٥٩] فَيُشَبَّهُ أَنْ يَكُونَ يُخَرَّجُ على هذا؛ لأنَّ الصَّيِّ ما لم يَعْقِلْ لا يَلْعَبُ به الشيطان، ولا يَحْتَمِلُ؛ كأنَّ الإحتمال هو من لعب الشيطان به، فَسَمِيَ الرُّؤْيَا الْبَاطِلَةَ الْكَاذِبَةَ أَحْلَامًا؛ لأنها من لعب الشيطان به كما سَمِيَ احْتِلَامَ الصَّيِّ حُلْمًا؛ لأنه إذا بَلَغَ العقل لعب به الشيطان.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَخْلَامِ بِصَالِحِينَ﴾ يَحْتَمِلُ قوله: ﴿وَمَا تَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَخْلَامِ بِصَالِحِينَ﴾ إما لا تاويل لها كقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨] وقوله: ﴿فَمَا تَعْلَمُ شَقَمَةُ النَّفِيِّينَ﴾ [المدثر: ٤٨] أي لا شفيع لهم.

ويَحْتَمِلُ قوله: ﴿وَمَا تَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَخْلَامِ بِصَالِحِينَ﴾ لها تاويل، ولكن نَحْنُ لَا نَعْلَمُهُ^(١١)، والله أعلم.

الآية ٤٥

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا مِنَ الْهَلَاكِ، وَهُوَ السَّاقِي الَّذِي ذَكَرَ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ بِمَدِّ أَمْعٍ﴾ أي تَذَكَّرْ بِمَدِّ أَمْعٍ. [قال بعضهم: الأُمَّة^(١٢)] ههنا الحين؛ أي ذَكَرْ بِمَدِّ جِينٍ وَوَقْتُ كقوله: ﴿وَلَكِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أَنتُمْ مَعْدُودُونَ﴾ [هود: ٨] قيل جِين وَوَقْتُ مَعْدُود.

وقال الحسن: ﴿وَأَذْكُرْ بِمَدِّ أَمْعٍ﴾ من الناس، ويُقَرَأُ: بِمَدِّ أَمْعٍ وَأَمْعٍ^(١٣).

قال أبو عوسجة: الأُمَّة النسيان والسُّهْوُ؛ أي تَذَكَّرْ بِمَدِّ نِسْيَانٍ وَسُهْوٍ كقوله: ﴿فَأَسْأَلُ النَّبِيطَ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: مثوهم. (٥) في الأصل وم: سال. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) (٨) في الأصل وم: الكاذبة. (٩) في الأصل وم: الكلام. (١٠) في الأصل وم: كان يخرج. (١١) في الأصل وم: نعلمها. (١٢) في م: قال الأمة، ساقطة من الأصل. (١٣) انظر غريب القرآن للسجستاني ص ١٢٣ ومعجم القراءات القرآنية ١٧٣/٣.

[الآية: ٤٢]، يُقَالُ فِي^(١) الكلام: أَمَةٌ يَأْمُهُ أَهْمًا، فهو أَمَةٌ، وأَمَةٌ أي نَسَبٌ، والأُمَّةُ مِنَ الأُمَمِ والقُرُونِ التي مَضَتْ، والإمَّةُ النُّعْمَةُ، والإِمَمُ جَمْعٌ، والإمَّةُ أيضاً الدينُ والسُّنَّةُ كقولِهِ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ [أُمَةٌ: ١] ﴿وَلَنَا عَلَى آثَرِهِمْ مُنْقَدِرَاتٌ﴾ [الزخرف: ٢٢ و٢٣] أي على دين، ويُقَالُ: الأُمَّةُ القَامَةُ أيضاً؛ يُقَالُ: فلانَ حَسَنُ الأُمَّةِ أي حَسَنُ القَامَةِ، ويقالُ: الأُمَمُ القُرْبُ.

فهو يَحْتَمِلُ ههنا الوجهَيْنِ اللَّذَيْنِ ذَكَرْنَاهُمَا؛ أي ذَكَرَ بَعْدَ [أُمَةٌ بِالضَّمِّ]^(٢) حِينَ وَوَقَّتْ، أو بَعْدَ نِسْيَانٍ: مَنْ قَرَأَهُ بِالنُّضْبِ [أُمَةٌ]^(٣) والله أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿أَنَا أَنبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ﴾ معناه: أنا أَنبِئُكُمْ بِبَيَانِ تَأْوِيلِهِ، لا لِأَنَّهُ كَانَ يُنَبِّئُهُمْ هُوَ بِنَفْسِهِ.

أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿فَأَرْسِلُونِي﴾ ﴿يُوسُفُ﴾؟

الآية ٤٦

[وقوله تعالى: ﴿يُوسُفُ﴾]^(٤) فيه إضمارُ كَانَهُ قَالَ: فَأَرْسِلُونِي إلى يوسف. وليس في تلاوة الآية أنه أُرْسِلَ إليه، ولا إتيَانُهُ إليه، ولكن فيه دليلٌ [أنَّهُ]^(٥) أُرْسِلَ إليه، فاتاه، فلما أتاه قَالَ لَهُ: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ قيل: الصِّدِّيقُ هو كَثِيرُ الصَّدَقِ كما يُقَالُ: شَرِيفٌ وَفَسِيقٌ وَيَسْقِيٌّ وَيَسْقِيٌّ إِذَا كَثُرَ ذَلِكَ مِنْهُ.

والصِّدِّيقُ الذي لم يُؤْخَذْ عَلَيْهِ كَذِبٌ قَطُّ، أو سَمَاءُ صِدِّيقاً لِمَا عَرَفَتْ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، وهو ما قَالَ فِي إِبْرَاهِيمَ [وَادْرِسَ]^(٦): ﴿إِنَّكَ كَانَتْ صِدِّيقاً نَبِيّاً﴾ [مريم: ٤١ و٥٦].

أو يَقُولُ: ﴿أَنَا أَنبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ﴾ [الآية: ٤٥] أي أنا أَعْلَمُ مِنْهُ، فَأَنبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ.

وقوله تعالى: ﴿أَفَيْنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ يَسَوَانِ بِأَكْثَلُهُنَّ سَبْعَ عَجَائٍ وَسَبْعَ سُكُكٍ خَضِرٍ وَأَخْرَ يَابَسَتٍ﴾ فافتأها لَهُ، وَعَبَّرَهَا عَلَيْهِ، وهو ما ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابَّا﴾ [الآية: ٨] [الآية: ٤٧] وقوله: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تَحْصِرُونَ﴾ [الآية: ٤٨] هذا تعبيرٌ رُؤْيَا الْمَلِكِ الذي سَأَلَهُ.

وقوله تعالى: ﴿لَمَّا أَتَيْنَاكَ إِلَى آتَايَ لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحدها^(٧): يَعْلَمُونَ أَنَّ هَذِهِ الرُّؤْيَا حَقٌّ، وَلَهَا حَقِيقَةٌ، لَيْسَ كَمَا قَالَ أَوْلَئِكَ: ﴿أَشْنَعْتَ أَكْثَرٌ﴾ [الآية: ٤٤].

والثاني: يَعْلَمُونَ فَضْلَكَ عَلَى غَيْرِكَ^(٨) مِنَ النَّاسِ.

[والثالث: يَعْلَمُونَ أَنَّكَ]^(٩) تَصْلُحُ لِحَاجَتِهِمْ التي فِي حَالِ يَقْظَتِهِمْ، فَيَرْفَعُونَهَا إِلَيْكَ، كَمَا صَلَّحْتَ لِمَا كَانَ لَهُمْ فِي

حَالِ نَوْمِهِمْ.

الآية ٤٧

[وقوله تعالى: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابَّا مَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُبُلِهِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾]^(١٠) عَلَّمَهُمُ الزَّرَاعَةَ وَجَمَعَ الطَّاعَاتِ وَالْإِذْخَارَ؛ أَنْ كَيْفَ تُذَخَّرُ حَتَّى تَبْقَى إِلَى ذَلِكَ الرَّقَبِ؟ فَقَالَ: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابَّا﴾.

قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿دَابَّا﴾ أي دَائِماً، أي تُدَاوِمُونَ الزَّرَاعَةَ فِيهَا. وَقَالَ أَبُو عَرَسَجَةَ: ﴿دَابَّا﴾ مِنَ الدَّوْبِ، وهو^(١١) الْجِدُّ وَالتَّعَبُ. وَقَالَ الْفَتْيُّ ﴿دَابَّا﴾ أي جِدّاً فِي الزَّرَاعَةِ وَمُتَابَعَةً. وَكُلُّهُ وَاحِدٌ.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُبُلِهِ﴾ لا تُنْقَرُوه^(١٢) لِأَنَّ ذَلِكَ أَنْبَى لَهُ مِنْهُ إِذَا نُقِيَ^(١٣)، وَمُمِيزٌ ﴿إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ فَتَنْقَرُوهُ إِنْ شِئْتُمْ أَيْ قَدَرُوا مَا تَأْكُلُونَ.

الآية ٤٨

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ قيل: مُجْدِبَاتٌ مِنَ الشَّدَوِ ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ﴾ أي مَا ادَّخَرْتُمْ ﴿لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تَحْصِرُونَ﴾ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: تَذَخَّرُونَ. وَقَالَ أَبُو عَرَسَجَةَ: أَخَصَّنَتْهُ: أَيِ ادَّخَرَتْهُ.

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: منه. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج ١٠٧/٦ و ١٠٨. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: إلى آخر ما ذكر. (٩) في الأصل وم: يحتمل. (١٠) في الأصل وم: غيرهم. (١١) في الأصل: أو يعلمون فضلك، في م: أو يعلمون أنك. (١٢) في الأصل وم: ثم. (١٣) في الأصل وم: من. (١٤) في الأصل وم: لا تنقروا. (١٥) في الأصل وم: بقي.

الآية ٤٩

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَاقِيَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ يَوْمٍ فِيهِ يَأْتِي النَّاسُ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: هو مِنَ الْغَيْثِ، وهو المطر؛ أي يُمَطَّرُونَ. وقيل يُعَاثُونَ بالمطر مِنَ الإغَاثَةِ وَالْعَوْثِ.

وقوله تعالى: ﴿وَفِيهِ يَصْعِرُونَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: هو من عَصَرَ الْأَعْنَابَ وَالذُّهْنَ وَالزَّيْتِ وَغَيْرِهِ؛ إنما هو إخبار عن الخضبِ والسَّعَةِ. وقال بَعْضُهُمْ: قوله: ﴿يَصْعِرُونَ﴾ أي يَنْجُونَ؛ يقول: مِنَ الْعَصْرِ؛ يعني الْمَلْجَأَ؛ أي يَلْجِزُونَ إِلَى الْغَيْثِ، وَالْعَصْرَةُ الْمَنْجَاءُ، وهو قول أبي عبيدة.

وأما قول غيره من أهل الأدب والتأويل فهو مِنَ الْعَصْرِ، ويعني عَصَرَ الْعِنَبِ وَغَيْرِهِ، والله أعلم.

الآية ٥٠

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِيَنِي يَوْمَ﴾ يعني يوسف.

[وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ آتِنِي إِذْ رَأَيْتَ نَشَأَهُ مَا بَالَ الْيَسُوءِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ فيه دلالة أن قول يوسف^(١) للرجل: ﴿أَذْكَرْتَنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ إنما طلب بذلك براءة نفسه في ما اتهم به، ليس كما قاله أهل التأويل؛ لأنه لو كان غير ذلك [لَكَانَ]^(٢) لا يَرُدُّ الرُّسُولَ إِلَيْهِ.

وقوله تعالى: ﴿نَشَأَهُ مَا بَالَ الْيَسُوءِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ يَحْتَمِلُ هَذَا وَجْهَيْنِ:

أحدهما: أَمَّنْ عَلَى كَيْدِهِمْ بَعْدَ أَمْرٍ رَجَعْنَ عَلَى ذَلِكَ؟

والثاني: لِيَعْلَمَ الْمَلِكُ بَرَاءَتَهُ مِمَّا قُرِفَ بِهِ، وَاتَّهِمَ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي يَبْعِثُ عَلَيْنَ﴾ أَنَّهُمْ كَذَبُوا.

الآية ٥١

ثم قال لهم الملك: ﴿مَا خَطْبُكُمْ إِذْ رَوَدْتُمْ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾ هَذَا يُدَلُّ أَنَّ الْمَلِكَ قَدْ عَلِمَ أَنَّهُمْ رَاوَدُوا يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ؛ لِأَنَّهُ قَالَ مَا خَطْبُكُمْ إِذْ رَوَدْتُمْ؟ وَلَمْ يَقُلْ لَهُمْ: أَرَاوَدْتُمْ أَمْ لَا؟ وَلَكِنَّهُ قَطَعَ الْقَوْلَ فِيهِ.

وقوله تعالى: ﴿قُلْنَا حَسْبُ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ بَدَأَ بِهِمْ حَتَّى أَفْرَزَ أَنَّهُ كَانَ بَرِيئاً مِمَّا قُرِفَ بِهِ، وَاتَّهِمَ. ثُمَّ أَفْرَزَتْ امْرَأَةُ الْمَلِكِ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَّا أَفَرَّ السُّوءُ، فَقَالَتْ: ﴿أَلَفَنَّا حَسَبَ الْحَقِّ﴾ قِيلَ: الْآنَ تَبَيَّنَ الْحَقُّ، وَتَحَقَّقَ ﴿أَنَّا رَوَدْتُمُ عَنْ نَفْسِهِ وَرَأَيْتُمُ الْفِتْنَةَ﴾ فِي قَوْلِهِ ﴿هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ [الآية: ٢٦].

وقوله تعالى: ﴿مَا خَطْبُكُمْ؟ مَا شَأْنُكُمْ؟ وَأَمْرُكُمْ؟ وَالْحَطْبُ الشَّأْنُ﴾ إِذْ رَوَدْتُمْ؟ قَدْ ذَكَرْنَاهُ.

وقوله تعالى: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: الرَّئْيُ. وَلَكِنْ قَوْلُهُ: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ هُوَ الَّذِي قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا؟ [الآية: ٢٥] هُوَ ذَلِكَ السُّوءُ [الَّذِي]^(٣) قَالَتْ: إِنَّهُ أَرَادَ بِهِ بِهَا. قُلْنَا: مَا عَلِمْنَا مِنْ ذَلِكَ.

وقوله تعالى: ﴿أَلَفَنَّا حَسَبَ الْحَقِّ﴾ قَدْ ذَكَرْنَا أَنَّهُ تَبَيَّنَ الْحَقُّ.

وفي قوله تعالى: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ دَلَالَةٌ أَنَّ لَمْ يَكُنْ مِنْهُ مَا قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ مِنْ حُلِّ السَّرَاوِيلِ وَغَيْرِهِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ مِنْهُ ذَلِكَ لَكُنَّ قَدْ عَلِمْنَا مِنْهُ السُّوءَ.

الآية ٥٢

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾. قَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ﴾ الرَّدُّ الَّذِي كَانَ مِنْهُ، وَتَرَكُ الْإِجَابَةَ لِرَسُولِ الْمَلِكِ^(٤) حِينَ^(٥) قَالَ: ﴿أَتُؤْتِيَنِي يَوْمَ﴾ [٢٥٤ - ١/ يَوْمَ] [الآية: ٥٠] ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ فِي أَهْلِهِ إِذَا غَابَ عَنِّي [كَانَ]^(٦) رَدًّا لِقَوْلِهَا: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا؟﴾ [الآية: ٢٥] وَتَصْدِيقاً لِقَوْلِهِ حِينَ^(٧) قَالَ: ﴿هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ [الآية: ٢٦].

وقال بعض أهل التأويل: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ﴾ يعني الزوج ﴿بِالْغَيْبِ﴾ لَكِنَّ هَذَا بَعِيدٌ لِأَنَّهُ^(٨) قَدْ عَلِمَ يُوسُفُ أَنَّ اللَّهَ

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، في الأصل: الله. (٤) في الأصل وم: حيث.

(٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: أنه.

قد عَلِمَ أَنَّهُ لَمْ يَخُنْهُ بِالْغَيْبِ. وَقَوْلُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ لَمَّا قَالَ يَوْسُفُ: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ قَالَ لَهُ الْمَلِكُ: وَلَا حِينَ هَمَمْتُ مَا هَمَمْتُ؟ فَقَالَ: ﴿وَمَا أَتَرَىٰ نَفْسِي إِلَّا النَّفْسَ لَأَثَّارُ﴾ بِالشَّوْءِ ﴿[الآية: ٥٣]﴾ هَذَا مِمَّا لَا نَعْلَمُهُ، وَقَدْ ذَكَرْنَا التَّأْوِيلَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ هَمَمْتُ يَوْمَ﴾ وَهَمَّ بِهَا مَا يَجِلُّ وَيَسَعُ أَنْ يُتَكَلَّمَ بِهِ وَفَسَادُ تَأْوِيلِ أَهْلِ التَّأْوِيلِ مِنَ الْوُجُوهِ الَّتِي ذَكَرْنَا.

الآية ٥٣

وَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَتَرَىٰ نَفْسِي إِلَّا النَّفْسَ لَأَثَّارُ﴾ بِالشَّوْءِ إِلَّا مَا رَجَعَ رَجْعًا أَيَّ عَصَمَ رَبِّي، وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنَّهُ إِنَّمَا^(١) قَالَ: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ لِمَا عَصَمَنِي اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ عَصَمَنِي لَكُنْتُ خُنْتُهُ^(٢): ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَثَّارُ﴾ بِالشَّوْءِ إِلَّا مَا رَجَعَ رَجْعًا أَيَّ مَا عَصَمَ رَبِّي؛ لِأَنَّ النَّفْسَ جُبِلَتْ، وَطَبِيعَتُ عَلَى الْمِيلِ إِلَى الشَّهَوَاتِ وَاللَّذَاتِ وَالْهَوَىٰ فِيهَا وَالرَّغْبَةِ وَالتَّوْفَىٰ عَنِ الْمَكْرُوهَاتِ وَالشَّدَائِدِ.

أَلَا تَرَىٰ أَنَّهُ قَالَ: ﴿وَلَمَّا مَنَّ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ. وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ﴾ [الْبَغْيَةِ هِيَ الْتَأْوِيلُ] [النازعات: ٤٠ و ٤١] [وقال]^(٣): ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ﴾ [وَأَمَّا الْخَيْرُ الدُّنْيَا] [فَإِنَّ الْخَيْرَ هِيَ الْتَأْوِيلُ] [النازعات: ٣٧ و ٣٨ و ٣٩] فَأَبَتْ^(٤) لِلنَّفْسِ الْهَوَىٰ وَلِيُثَارَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهَا؟

هَذَا يَدُلُّ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿قَالَ رَبِّ السَّيِّئُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [الآية: ٣٣] هُوَ مَحَبَّةُ الْإِخْتِيَارِ وَالْإِثَارِ فِي الدِّينِ لَا مَا تَخْتَارُ النَّفْسُ، وَتُؤَيِّرُ؛ أَيْ تَخْتَارُ، وَتُؤَيِّرُ مَا هُوَ أَلَدُّ وَأَشْهَى، وَتَتَفَرَّقُ عَنِ الشَّدَائِدِ وَالْمَكْرُوهَاتِ، عَلَى هَذَا طَبِيعَتُ، وَجُبِلَتْ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ أَيَّ لَا يَجْعَلُ فِعْلَ الْكَيْدِ وَالْخِيَانَةِ هُدًى وَرُشْدًا، إِنَّمَا يَجْعَلُ فِعْلَ الْكَيْدِ وَالْخِيَانَةِ ضَلَالًا وَغَوَايَةً.

الآية ٥٤

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤَيِّرُ بِهِ مَسْتَلْطَفَةً لِنَفْسِي﴾ أَضْدَرُّ لِرَأْيِهِ، وَأَطِيعُ أَمْرَهُ. فِي هَذَا يَقَعُ اسْتِخْلَاصُهُ إِنَاءً، وَلِذَلِكَ قَالَ: ﴿مَكَّنَّا يَوْسُفَ﴾ [الآية: ٥٦ و ٥٧] لَا أَنْ يَجْعَلَهُ لِحَاجَةِ نَفْسِهِ خَالصًا دُونَ النَّاسِ، لَا يُشْرِكُ غَيْرُهُ. وَفِيهِ^(٥) دَلَالَةٌ مَا ذَكَرَ فِي حَرْفِ حَفْصَةٍ: إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مُطَاعٌ أَمِينٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ وَلَمْ يَذْكُرْ فِيهِ أَنَّهُ أَتَى بِهِ، وَلَكِنْ قَالَ: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ فَهَذَا يَدُلُّ أَنَّهُ قَدْ أَتَى بِهِ، وَإِنْ لَمْ يَذْكُرْ أَنَّهُ أَتَى بِهِ حِينَ^(٦) قَالَ: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ قِيلَ: الْمَكِينُ الْوَجِيهَ، وَقِيلَ: الْمَكِينُ الْأَمِينُ الْمَرْضِيُّ عِنْدَنَا وَالْأَمِينُ عَلَى مَا اسْتَأْمَنَّاكَ.

الآية ٥٥

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ سَأَلَ هَذَا لِمَا عَلِمَ أَنَّهُ لَيْسَ فِي وَسْعِهِمُ الْقِيَامَ بِإِصْلَاحِ ذَلِكَ الطَّعَامِ، وَعَلِمَ أَنَّهُ لَوْ وَلَّى غَيْرَهُ الْخَزَائِنَ لَمْ يَعْرِفْ إِنْزَالِ النَّاسِ مَنَازِلَهُمْ فِي تَقْدِيمِ مَنْ يَجِبُ تَقْدِيمُهُ، وَالْقِيَامَ بِحَاجَةِ الْأَحْقِّ مِنْ غَيْرِهِ، وَعَلِمَ أَنَّهُ إِبْرَاهِيمُ يَرْجِعُ، وَتَقَعُ خَوَانِجُ أَكْثَرِ النَّاسِ [فِي] مَنَازِلِهِمْ، وَبِهِ قَوَامُ أَبْدَانِهِمْ، فَسَأَلَهُ لِيَقُومَ بِذَلِكَ كُلُّهُ، وَعَلَى يَدَيْهِ يَجْرِي

وَكَذَلِكَ قَالَ: ﴿إِنِّي حَفِيطٌ عَلَيْهِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿حَفِيطٌ﴾ بِمَا وَلِيْتُ عَلَيْهِ بِأَمْرِهِ. وَقِيلَ: ﴿حَفِيطٌ﴾ لِمَا فِي الْأَرْضِ [مِنْ] غَلَّةٍ عَلَيْهِ بِهَا.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿حَفِيطٌ﴾ لِمَا تَحْتَ يَدَيَّ عَلَيْهِ بِالنَّاسِ. وَقِيلَ: ﴿حَفِيطٌ﴾ بِصَبْرِ بِتَقْدِيرِهِ عَلَيْهِ بِسَاعَاتِ الْجُوعِ حِينَ يَقَعُ [إِنِّي حَفِيطٌ] لِمَا اسْتَحْفِظْتُ عَلَيْهِ بِخَوَانِجِ النَّاسِ، أَوْ عَلَيْهِ بِتَقْدِيمِ الْأَحْقِّ.

الآية ٥٦

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا يَوْسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ يَقُولُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: كَمَا بَرَأْنَا يَوْسُفَ مِمَّا قُرِفَ بِهِ، وَأَظْهَرْنَا بَرَاءَتَهُ مِنْهُ مَكَّنَّا لَهُ

فِي الْأَرْضِ حَتَّى اخْتِاجَ أَهْلُ نَوَاحِي مِصْرَ وَأَهْلُ الْأَفَاقِ إِلَيْهِ. أَوْ أَنْ يُقَالَ: كَمَا حَفِظْنَاهُ، وَأَنْجَيْنَاهُ مِمَّا قَصَدَ بِهِ إِخْرَاقَهُ مِنَ الْهَلَاكِ، مَكَّنَّا لَهُ^(٩) فِي الْأَرْضِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: لَمَّا. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: أَخُونَهُ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) الْفَاءُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) الْوَائِ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: تَمَكَّنَ.

وجائز أن يكون قوله: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ جوابه كما مَكَّنَّا لِيُوسُفَ بعد ما [أَخْرَجْنَاهُ مَنَّا] ^(١) عليه، بالإبراء والضم، كذلك نَمَكَّنَكَ في الأرض، وتؤدي بعدما أَخْرَجَكَ، وَمِنْ [عَلَيْكَ، أَبْوَيْكَ] ^(٢).

وقوله تعالى: ﴿يَبْتَغُوا مِنَّا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ أي يَنْزِلُ منها حيث يشاء، أو يَسْكُنُ منها حيث يشاء.

وقوله تعالى: ﴿فُعِيبُ بِرَحْمَتِنَا مِنْ شَاءَ﴾ يَحْتَمِلُ قوله: ﴿بِرَحْمَتِنَا﴾ سَعَةً الدنيا ونعيمها كقوله: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر: ٢] وَيَحْتَمِلُ ﴿بِرَحْمَتِنَا﴾ أَمْرَ الدين مِنَ التَّوْبَةِ والعِصْمَةِ.

وهو على المعتزلة؛ لأنهم يقولون: ليس [لله] ^(٣) أن يَخْتَصَّ أحداً برحمته، ولا يُصِيبَ مِنْ رَحْمَتِهِ إنساناً دون إنسان.

وعلى قولهم: لم يكن من الله إلى [رسوله] ^(٤) مِنَ الرحمة إلا وكان لإبليس مثله.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي [لا] ^(٥) تُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ صُحْبَةَ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا؛ أي نُجْزِيهِ جَزَاءَ إِحْسَانِهِ، أو يقول: وَلَا تُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ صُحْبَةَ نِعَمِ اللَّهِ، وَتَقَبَّلَهَا ^(٦) بالشكر له.

الآية ٥٧

وقوله تعالى: ﴿وَلَا جَزَاءُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي ثَوَابُ الْآخِرَةِ وَأَجْرُهَا خَيْرٌ لَهُمْ مِنْ ثَوَابِ الدُّنْيَا وَأَجْرُهَا.

وقوله تعالى: ﴿آمَنُوا﴾ صَدَّقُوا ﴿وَكَاوُوا يَتَّقُونَ﴾ الشُّرَكَ، أو ﴿آمَنُوا﴾ صَدَّقُوا ﴿وَكَاوُوا يَتَّقُونَ﴾ المعاصي والفواحش.

الآية ٥٨

وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُبَلِّغَ أَمْرَ يُوسُفَ فِي مَا أَرَادَ أَنْ يُبَلِّغَ جَعَلَهُمْ بَحِيثٌ لَا يَعْرِفُونَهُ. لِذَلِكَ قَالَ: ﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ أي لَا يَعْرِفُونَهُ كقوله: ﴿قَوْمٌ شُكْرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٥] أي غَيْرُ مَعْرُوفِينَ عِنْدَ إِبْرَاهِيمَ؛ وَالْمُنْكَرُ هُوَ الَّذِي لَا يَعْرِفُ فِي الشَّرْعِ وَلَا فِي الْعَقْلِ.

الآية ٥٩

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ﴾ أي أَعْطَى لَهُمُ الطَّعَامَ الَّذِي طَلَبُوا مِنْهُ.

قال أبو عوسجة: الْجِهَازُ الْمَتَاعُ، وَالْجِهَازُ أَيْضاً مَتَاعُ الْمَرْأَةِ الَّتِي تُجَهِّزُ بِهِ، وَلَا يُقَالُ: جِهَازٌ يَخْفِضُ الْجِيمَ.

وقال أهل التأويل: إِنَّ يُوسُفَ ﷺ قَالَ لَهُمْ حِينَ دَخَلُوا عَلَيْهِ: أَنْتُمْ عِيُونَ، بَعَثَكُمْ مَلَائِكَتُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَى أَهْلِ مِصْرَ، ثُمَّ تَأْتُونَهُ بِالْخَبَرِ، وَتَأْتُونَنَا بِكَذَا، ذَلِكَ مِمَّا لَا نَعْلَمُهُ أَنَّهُ قَدْ كَانَ؛ أَقَالَ ^(٧) لَهُمْ ذَلِكَ أَمْ لَا؟ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْكَلِمَاتِ الَّتِي قَالُوا: إِنَّهُ قَالَ لَهُمْ كَذَا، وَقَالُوا هُمْ لَهُ: [كُنَّا كَذَا] ^(٨) رجلاً، فَهَلْكَ مِنَّا كَذَا، وَلَنَا أَبْ كَذَا. مِثْلُ هَذَا لَا يَكُونُ [إِلَّا] ^(٩) كَلَامَ بَعْضِ الْعَوَامِّ الْغَوَاةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَتَأْتُونِي بِأَجْ لَكُمْ مِنْ أَيْكُمُ الْآ تَرَوْتَ أَتِي أَوْيَ الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ وَمِثْلُ هَذَا لَا يُحْتَمَلُ أَنْ يَقُولَهُ يُوسُفُ ابْتِدَاءً عَلَى غَيْرِ سَبَبٍ أَوْ كَلَامٍ، كَانَ هُنَالِكَ، لَكِنَّهُ لَمْ يَذْكُرِ الَّذِي كَانَ، وَنَحْنُ لَا نَعْرِفُ مَا الَّذِي كَانَ هُنَالِكَ فِي مَا بَيْنَهُمْ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِي﴾ [الآية: ٦٠].

أَمَّا أَهْلُ التَّأْوِيلِ فَإِنَّهُمْ قَالُوا: قَالَ لَهُمْ: ﴿أَتَأْتُونِي بِأَجْ لَكُمْ مِنْ أَيْكُمُ﴾ إِلَى آخِرِ مَا ذَكَرَ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا قَالَ: إِنَّكُمْ جِئْتُمْ عِيُوناً لِمَلَائِكَتِكُمْ، فَأَمَرَ بِخَبَرِهِمْ، فَقَالُوا: نَحْنُ بَنُو يَعْقُوبَ النَّبِيِّ، وَكُنَّا اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا، فَهَلْكَ مِنَّا رَجُلٌ فِي الْقَتْلِ، وَوَجَدْنَا عَلَى قَمِيصِهِ دَمًا، فَاتَيْنَا أَبَانَا، فَقُلْنَا كَذَا. وَقَدْ خَلَفْنَا عِنْدَ أَبِينَا أَخَاهُ مِنْ أُمِّهِ الَّذِي هَلَكَ. فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ لَهُمْ: ﴿أَتَأْتُونِي بِأَجْ لَكُمْ مِنْ أَيْكُمُ الْآ تَرَوْتَ أَتِي أَوْيَ الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾.

لَكِنْ هَذَا الَّذِي ذَكَرُوا ^(١٠) لَا يَكُونُ سَبَباً لِقَوْلِهِ، وَلَا جَوَاباً. وَقَدْ ذَكَرْنَا / ٢٥٤ - ب/ أَنَّهُ لَا يَصِحُّ هَذَا الْكَلَامُ مُبْتَدَأً. لَكِنَّا نَعْلَمُ بِالتَّعْقُلِ أَنَّهُ كَانَ هُنَالِكَ سَبَبٌ وَمَعْنَى، أَمَرَ يُوسُفَ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ ذَلِكَ. وَإِلَّا لَا يُحْتَمَلُ أَنْ [قَالَ] ^(١١) لَهُمْ يُوسُفُ: ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِي﴾ [الآية: ٦٠] وَهُوَ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ أَبَاهُ يَعْقُوبَ يَخْتَاجُ إِلَى طَعَامٍ، وَيَعْرِفُ حَاجَتَهُمْ فِي ذَلِكَ. هَذَا لَا يَسَعُ إِلَّا بِسَبَبٍ، كَانَ ثُمَّ، فَأَمَرَ يُوسُفَ بِذَلِكَ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: أَحْجَجَ مِنْ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: عَلَيْهِ أَبَوَاكَ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٥) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَلْبُهَا. (٧) الْهَمْزَةُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: كَذَا وَكَذَا. (٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٠) فِي م: ذَكَرَ. (١١) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

الآية ٦٠

وقوله تعالى: ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ في ما يُسْتَقْبَلُ؛ [إلا أن] ^(١) تاتوني، والله أعلم.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿أَلَا تَرَوْتَ أَنِّي أَرْفِي الْكَيْلَ﴾ وجهين:

أحدهما: قال ذلك لهم: إنه يُوفي لهم الكيل؛ لأن أهل ذلك المكان كانوا، يُنْقِصُونَ، وَيُخْسِرُونَ الكَيْلَ في الضيق، فقال هو: ﴿أَلَا تَرَوْتَ أَنِّي أَرْفِي الْكَيْلَ﴾ ولا أُنْخَسُ.

والثاني: ﴿أَلَا تَرَوْتَ أَنِّي أَرْفِي الْكَيْلَ﴾ على غير المُحَاجَّةِ، وكان يُجْعَلُ لغيرهم الطعام على المُحَاجَّةِ لضيق الطعام، ﴿أَنِّي أَرْفِي الْكَيْلَ﴾ على قَدْرِ الحاجة.

[وقوله تعالى] ^(٢): ﴿وَأَنَا خَيْرَ الْمُنْزِلِينَ﴾ في الإحسان إليكم والتوسيع عليكم؛ لأن أهل ذلك المكان لا يُحْسِنُونَ إلى النازلين بهم، ولا يُوسعون عليهم لضيق الطعام.

وكان قولُه تعالى: ﴿أَلَا تَرَوْتَ أَنِّي أَرْفِي الْكَيْلَ﴾ مُؤَخَّرٌ عن قوله: ﴿فَإِنْ لَرَأَوْهُ تَأْتِي بِهِ﴾، فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ، كأنه ﴿قَالَ أَتَأْتُونِي بِأَجْ لَكُمْ مِنْ أَيْكُمُ﴾ ﴿فَإِنْ لَرَأَوْهُ تَأْتِي بِهِ﴾، فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ، فعند ذلك قال: ﴿أَلَا تَرَوْتَ أَنِّي أَرْفِي الْكَيْلَ﴾ والله أعلم.

الآية ٦١

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا سَرَّوْهُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَنَعْلَمُونَ﴾ هذا الكلام في الظاهر، ليس هو جواب قول يوسف، لو ليس قولهم ^(٣) ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُونَ﴾ جواباً؛ فلا يَحْتَمِلُ حين ^(٤) ﴿قَالَ أَتَأْتُونِي بِأَجْ لَكُمْ مِنْ أَيْكُمُ﴾ جوابه ^(٥) أن يقولوا له: نأتي به، أو لا نأتي. فإما أن يُجْعَلَ قولهم: ﴿قَالُوا سَرَّوْهُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَنَعْلَمُونَ﴾ جواباً له فلا يَحْتَمِلُ مع ما [في قولهم] ^(٦): ﴿سَرَّوْهُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ [من اضطراب أنهم] ^(٧) يَمْلِكُونَ أو لا يَمْلِكُونَ، قولهم: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُونَ﴾ على القطع.

لكن يُشَبَّه أن يُخْرَجَ على وجهين:

أحدهما: على الإضمار: ﴿سَرَّوْهُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ فإن أَوْدَنَ لَهُ ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

[والثاني] ^(٨): على التقديم والتأخير؛ يكون جواب؟ قوله: ﴿أَتَأْتُونِي بِأَجْ لَكُمْ﴾ في قولهم: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُونَ﴾ ثم قالوا ما يَنْهَمُ: ﴿سَرَّوْهُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾.

على هذين الوجهين يُشَبَّه أن يُخْرَجَ، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿سَرَّوْهُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ قال أبو عوسجة: المُرَاوَدَةُ المُمَارَسَةُ، وهي شِبْهُ المُخَادَعَةِ، وهي المُعَالَجَةُ. وقيل: ﴿سَرَّوْهُ﴾ أي سَجَّدَ، وَسْتَظَلَّبَ.

الآية ٦٢

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِفَتَاهِهِ﴾ وَلِفَتَيْتِهِ ^(٩). الفَتَيْتَةُ: الخَدَمُ، والفِتْيَانُ: المَمَالِيكُ ﴿اجْعَلُوا بِسَعَتِهِمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾ قيل ^(١٠): اجْعَلُوا دَرَاهِمَهُمْ في أَوْعِيَّتِهِمْ. في الآية دلالة أن الهبة، قد تَصَحَّحَ، وإن لم يُصْرَحْ بها، إذا وَقَعَتْ ^(١١) في يَدَيِ الموهوب، له، وَتَبَضُّعُهُ بيان ^(١٢)، وإن لم يُعْلَمَ هو بذلك وَتَمَّ ما جُعِلَ له. لأن يوسف جَعَلَ بِضَاعَتَهُمْ في رِحَالِهِمْ هِبَةً لَهُمْ منه، وهم لم يَعْلَمُوا بذلك، [وقت ما جَعَلَ يوسف ذلك ملكاً لهم] ^(١٣).

ولهذا قال أصحابنا: إن مَنْ وَضَعَ [ماله في طريق] ^(١٤) مِنْ طَرَفِي الْمُسْلِمِينَ لِيَكُونَ ذَلِكَ مُلْكاً لِمَنْ رَفَعَهُ، كان ما فَعَلَ، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ لَعُنَ الْمَصْرُوتُونَ إِذَا أَتَوْا بِهَا إِذَا أَتَوْا بِهَا إِذَا أَتَوْا بِهَا﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهين:

(١) في الأصل وم: أي لا. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: وجوابه. (٦) في الأصل وم: أن في قلوبهم. (٧) في الأصل وم: اضطرب. (٨) في الأصل وم: أو. (٩) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٣/ ١٧٨. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل وم: وقع. (١٢) ساقطة من م. (١٣) في الأصل وم: وهو وقت ما جعل ذلك لهم ملكاً ليوسف. (١٤) من م، ساقطة من الأصل.

أخذهما: يرجعون مخافة أن يعرفوا بالسرقة.

والثاني: ما قاله أهل التأويل: لما تحوّث يوسف الآ^(١) يكون عند أبيه من الورق ما يرجعون به مرة أخرى، فجعل دراهمهم في أوعيتهم لكي يرجعوا إليه^(٢)، فلا يخسبهم عنه^(٣) عدم الدراهم لأنهم كانوا أهل ما يشبه.

الآية ٦٣ وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ في ما يستقبل، ويستأنف، لقوله: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَأْتِنِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ [الآية: ٦٠] ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَنًا نَّكَتِلْ وَإِنَّا لَمُ لَحَافِظُونَ﴾ بالنون أقرب لأنهم قالوا: ﴿مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَاَرْسِلْ مَعَنَا آخَنًا نَّكَتِلْ﴾ يشبه: يكتل هو إن أرسلته.

[وقوله تعالى^(٤)]: ﴿وَإِنَّا لَمُ لَحَافِظُونَ﴾ لا يَحْتَمِلُ أَنْ يَقُولُوا هَذَا مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ، كَانَ هُنَاكَ [أَكْثَرُ]^(٥) مِنْ خَوْفِ خَافَ عَلَيْهِ أَبُوهُمْ مِنْ نَاجِيَتِهِمْ، وَتَهْمَةٌ مِمَّا اتَّهَمَهُمْ، لِأَنَّهُ كَانَ أَحَاهُمْ^(٦) مِنْ أَبِيهِمْ، خَافَ عَلَيْهِ أَنْ يُضَيِّعُوهُ، أَوْ إِنْ اسْتَقْبَلَهُ أَمْرٌ [لَا يُعِينُهُ]^(٧) أَوْ أَمْرٌ كَانَ لَمْ يَذْكُرُوهُ^(٨). وَلَسْنَا نَدْرِي مَا ذَلِكَ الْمَعْنَى؟ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِذَلِكَ.

الآية ٦٤ [وقوله تعالى^(٩)]: ﴿قَالَ هَلْ ءَسَيْتُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَسَيْتُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾ وفي حرف ابن مسعود عليه السلام هل تحفظونه إلا كما حفظتم أخاه يوسف من قبل. في هذا دلالة أن من ظهرت منه تهمة أو خيانة في أمر يجوز أن يتهم في ما لم يظهر [منه شيء حين]^(١٠) اتهمهم يعقوب في بنيامين بخيانة كانت منهم في يوسف، وإن لم يظهر له منهم في أخيه شيء، وهو حجة لأصحابنا أن من ظهر فسقه في شيء أو كذبه في شيء صار مخروح الشهادة في غيره.

وقوله تعالى: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ أي إن أرسله فإنما اعتمد على حفظ الله، وإليه أكل حفظه^(١١)، لست اعتمد على حفظكم ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ أي بكل مكروب ومهلوف أرحم من كل راحم. لأن كل من يرحم إنما يرحم^(١٢) برحمته نالها منه، والله أعلم.

الآية ٦٥ وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ زُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ هذا قد ذكرنا.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبُئُكَ﴾ سوى الشئ؛ فقد رُدَّ إلينا دراهمنا. أو يكون قوله: ﴿مَا نَبُئُكَ﴾ وراء هذا أكبر شيء، إنما نبئ ثمن بعير واحد، و﴿ذَلِكَ كَيْلٌ بَعِيرٍ﴾ لأنه قد زُدَّتْ بِضَاعَتُنَا، وهي ثمن عشرة بعير.

[وقوله تعالى^(١٣)]: ﴿وَنَبِّئْ أَهْلَنَا وَنَحْفَظْ أَخَاكَا وَتَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ [إنهم ذكروا]^(١٤) أن يوسف كان لا يعطي كل رجل إلا جمل بعير واحد، ولا يعطي أكثر من ذلك، فقالوا: ﴿وَتَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ به ومن أجله.

[وقوله تعالى^(١٥)]: ﴿ذَلِكَ كَيْلٌ بَعِيرٍ﴾ قال بعضهم: ﴿ذَلِكَ كَيْلٌ بَعِيرٍ﴾ أي سريع، لا خبس فيه. وقال بعضهم: ﴿ذَلِكَ كَيْلٌ بَعِيرٍ﴾ أي يسير علينا الكيل، ولا يُخْبَسُ علينا الطعام، ولا يُثْقَلُ عليه ذلك لقوله^(١٦): ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرٌ؟﴾ ﴿فَإِنْ لَّمْ تَأْتِنِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ﴾ [الآية: ٥٩ و ٦٠] وقد حبسنا عنه، والله أعلم.

ويشبه أن يكون فيه وجه آخر أقرب مما قالوا: وهو أن قوله: ﴿ذَلِكَ كَيْلٌ بَعِيرٍ﴾ أي طلب ثمن كيل بعير واحد يسير، وتكلفه سهل، وهو ثمن كيل بعير بنيامين، والله أعلم.

الآية ٦٦ وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَنْ أَرْسِلَ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِي مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ أي حتى تؤتوني بمواثيق من الله ويعهود منه.

[وفي قوله تعالى: ﴿تَأْتِنِي بِهِ﴾]^(١٧) دلالة أنه وإن قال^(١٨): ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الآية: ٦٤] واغتمد في الحفظ [على الله، ورأى الحفظ]^(١٩) منه، لم يرسله معهم إلا بالمواثيق والعهود من الله. وهذا أمر ظاهر بين

(١) في الأصل وم: أن. (٢) في الأصل وم: إلينا. (٣) في الأصل وم: عنا. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: أخوهم. (٧) في الأصل وم: يعينونه. (٨) في الأصل وم: يذكر. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: شيء. (١١) أدرج قبلها في الأصل وم: في. (١٢) في الأصل وم: يرحمه. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: أنه ذكر. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) في الأصل وم: بقوله. (١٧) في الأصل وم: ﴿تَأْتِنِي بِهِ﴾ فيه. (١٨) في الأصل وم: كان. (١٩) من م، ساقطة من الأصل.

الناس، وإن كانَ اعْتِمَادُهُمْ عَلَى اللَّهِ، وَإِلَيْهِ يَكُونُ جَمِيعُ^(١) أُمُورِهِمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ، وَمِنْهُ يَرْوَنَ الْحِفْظَ، فَإِنَّهُ يَأْخُذُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضِ الْمَوَاقِيقِ وَالْعُهُودِ. فَعَلَى ذَلِكَ يَعْقُوبُ؛ إِنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّ اعْتِمَادَهُ وَتَوَكُّلَهُ^(٢) فِي حِفْظِ وَلَدِهِ عَلَى اللَّهِ، لَمْ يُرْسِلْهُ مَعَهُمْ إِلَّا بَعْدَ مَا أَخَذَ مِنْهُمْ الْعُهُودَ وَالْمَوَاقِيقَ [بِقَوْلِهِ]^(٣): ﴿تَأْتِيَنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يَحْطَأَ بِكُمْ﴾ أَيِ إِلَّا أَنْ يَجْمَعَكُمْ أَمْرٌ، وَيُعْمَلُ بِكُمْ الْهَلَاكُ / ٢٥٥ - أ / جَمِيعاً، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَكُونُونَ مَعْذُورِينَ. وَأَمَّا أَنْ يُخَصَّ بِهِ أَمْرٌ فَلَا؛ أَيِ^(٤) إِلَّا يَجِيءُ أَمْرٌ عَظِيمٌ، يَنْتَعِكُمْ عَنْ رَدِّهِ [إِلَيَّ]^(٥) كَأَنَّهُ خَافَ عَلَيْهِ مِنَ الْمَلِكِ [حِينَ طَلَبَ مِنْهُمْ]^(٦) أَنْ يَأْتُوهُ بِهِ.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوَاقِيقَهُمْ قَالَ﴾ يَعْقُوبُ ﴿اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أَيِ اللَّهُ عَلَى الْمَوَاقِيقِ وَالْعُهُودِ الَّتِي أَخَذْتُهَا مِنْكُمْ شَهِيدٌ. أَوْ يَقُولُ: اللَّهُ لَهُ حَفِيزٌ كَمَا قَالَ: ﴿فَاللَّهُ خَبِيرٌ حَفِيزٌ﴾ [الآية: ٦٤] وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٦٧

وقوله تعالى: ﴿بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ مِنْ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: إِنَّ يَعْقُوبَ خَافَ عَلَيْهِمُ الْعَيْنَ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا ذَوِي ضُورَةٍ وَجَمَالٍ وَبَهَاءٍ، فَخَشِيَ عَلَيْهِمُ الْعَيْنَ، لِذَلِكَ أَمَرَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوا مُتَفَرِّقِينَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: خَشِيَ عَلَيْهِمُ الْبَيَاتَ وَالْهَلَاكَ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ قُوَّةٍ وَمَنْعَةٍ، فَيَخَافُهُمْ أَهْلُ الْبَلَدِ، وَيُفَرِّقُونَ مِنْهُمْ [خَوْفًا]^(٧) السَّرِقَةَ، فَأَمَرَهُمْ بِالتَّفَرُّقِ، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ. فَإِذَا كَانُوا مُتَفَرِّقِينَ فَلَا يَهْلِكُ^(٨) الْكُلُّ، وَإِنَّمَا يَهْلِكُ بَعْضٌ وَيَنْجُو بَعْضٌ، أَوْ لَا يُذْرَى، مَا أَرَادَ بِهَذَا.

وقال بَعْضُهُمْ: عَلِمَ يَعْقُوبُ أَنَّهُمْ لَا يَهْلِكُونَ لِمَا رَأَى يَوْسُفُ مِنَ الرُّؤْيَا أَنْ يَسْجُدَ لَهُ إِخْوَتُهُ، وَلَكِنْ خَافَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَصِيبَهُمُ النُّكْبَةُ، لِذَلِكَ أَمَرَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ أَوْ سَبْكٍ مُتَفَرِّقَةٍ أَوْ مِنْ طُرُقٍ مُتَفَرِّقَةٍ، أَوْ مَا قَالُوا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَغْنَى عَنْكُمْ رِزْقَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أَيِ لَا أَدْفَعُ عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَصَابَكُمْ نَكْبَةٌ أَوْ عَيْنٌ.

فَإِنْ قِيلَ: لَوْ كَانَ أَمْرُهُ إِيَّاهُمْ بِالتَّفَرُّقِ لَخَوْفِ الْعَيْنِ أَوْ لَخَوْفِ أَهْلِ الْبَلَدِ مِنْهُمْ السَّرِقَةُ وَالْإِغَارَةُ كَيْفَ لَمْ يَأْمُرْهُمْ بِذَلِكَ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى؟ لَمْ يَخْشَ ذَلِكَ لِمَا قَدْ يَقَعُ [فِي] الْإِجْتِمَاعِ مَا ذَكَرَ ابْنُ عَبَّاسٍ رحمته الله أَنَّهُ يَخَافُهُمْ أَهْلُ الْبَلَدِ إِذَا رَأَوْهُمْ مُجْتَمِعِينَ أَنَّهُمْ لَصُورٌ، وَأَنَّهُمْ كَذَا.

[قِيلَ: إِنْ يَكُنْ]^(٩) فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى لَمْ يَخْشَ ذَلِكَ لِمَا قَدْ يَقَعُ الْإِجْتِمَاعُ فِي أَمْثَالِ ذَلِكَ مِنَ الرُّفَقَاءِ وَالصَّحَابَةِ فَلَا يَكُونُ فِي ذَلِكَ الْخَوْفُ الَّذِي ذَكَرُوا، وَإِذَا عَادُوا فِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ قَدْ يَحْتَمِلُ ذَلِكَ الْخَوْفُ مِنَ الْعَيْنِ وَغَيْرِهِ إِذَا عَلِمَ أَهْلُ الْبَلَدِ ذَلِكَ الْعَدَدَ تَحْتَ أَبٍ وَاحِدٍ. أَوْ أَمَرَهُمْ بِالتَّفَرُّقِ [فِي الْأَبْوَابِ لِمَخْنَةِ]^(١٠)، امْتَحَنَ بِذَلِكَ، وَأَمَرَ بِهِ، أَوْ لِمَنْعَتِي غَابَ عَنَّا. لَا نَحْتَاجُ إِلَيْهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَغْنَى عَنْكُمْ رِزْقَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أَيِ لَا أَدْفَعُ عَنْكُمْ بِمَا أَحْتَالُ مَا قَدَّرَ اللَّهُ، وَقَضَاهُ، أَنْ يُصِيبَكُمْ؛ [إِنَّهُ]^(١١) يُصِيبُكُمْ، لَا مَحَالَةَ، وَيَنْزِلُ بِكُمْ ﴿إِنْ أَلْحَمَّكُمْ﴾ أَيِ مَا الْحُكْمُ فِي ذَلِكَ ﴿وَلَا لِلَّهِ﴾ مَا فِي حُكْمِهِ وَقَضَائِهِ أَنْ يُصِيبَكُمْ، يُصِيبُكُمْ^(١٢)، لَا مَحَالَةَ.

وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ هَذَا أَصْلُ كُلِّ أَمْرٍ يَخَافُ الْمَرءُ: أَنْ يَأْخُذَ بِالْحَذَرِ، وَيَتَوَكَّلَ مَعَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ عَلَى مَا أَمَرَ يَعْقُوبُ عليه السلام بَنِيهِ بِالْحَذَرِ فِي ذَلِكَ. ثُمَّ التَّوَكُّلُ^(١٣) عَلَى اللَّهِ. وَالْحَذَرُ هُوَ الْعَادَةُ فِي الْخَلْقِ، وَالتَّوَكُّلُ تَفْوِضُ الْأَمْرِ إِلَى اللَّهِ، وَالْإِعْتِمَادُ عَلَيْهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٦٨

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ﴾ مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ﴿مَا كَانَتْ بُغْيَى عَنْهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أَيِ مَا كَانَ يَدْفَعُ عَنْهُمْ مَا حَكَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَنْ يُصِيبَهُمْ.

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: في. (٢) في الأصل وم: وكلامه. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: والثاني. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: حيث طلب منكم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: يهلكون. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: ولكن أن يكون. (١١) في الأصل وم: الأبواب بمحنة. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: فيصيبكم. (١٤) في الأصل وم: توكل.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسٍ يَمُقُّوبَ قَضْنَهَا﴾ الحاجة في النفس أحد شيئين: إما الرغبة وإما الرهبة كقوله: ﴿وَلَا يَحْدُرُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً﴾ [الحشر: ٩] فعلى ذلك حاجة يعقوب، لا تخلو إما أن كانت رغبة منه في تفرقهم وإما^(١) رهبة في اجتماعهم قضى تلك الحاجة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَدُوْ عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ يشبه أن يكون هذا صلة ما قال يعقوب لبنيه: ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَحِيدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ أي وإنه لَدُوْ عِلْمٍ لِّمَا أَمَرَهُمُ بالدخول على التفرق ونهاهم^(٢) عن الاجتماع ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما^(٣) أراد بقوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَحِيدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾.

وعن ابن عباس^(٤) [أنه قال: ^(٥)]: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ آبُوهُمْ﴾ من السكك المتفرقة ﴿مَّا كَانَتْ بُغْيَ عَنْهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ من قضاء الله شيئاً ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسٍ يَمُقُّوبَ قَضْنَهَا﴾ يقول: إذاها، فتكلم بها ﴿وَأَنَّهُ لَدُوْ عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ يقول: حافظاً لِمَا عَلَّمْنَاهُ.

وقيل: حافظاً له عالماً به. وقيل: ﴿وَأَنَّهُ لَدُوْ عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ أي [عمل بجميع]^(٥) ما علم، وانتفع به ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لم ينتفعوا بما علموا.

ويختلج قوله: ﴿وَأَنَّهُ لَدُوْ عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ بقصة يوسف من أولها إلى آخرها لِمَا أَخْبَرْنَاهُ ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

وجائز أن يكون قوله: ﴿وَأَنَّهُ لَدُوْ عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ أي ما أصاب من الحزن بذهاب يوسف وأخيه وما أصابه من الشدة والنكبة لم يؤثر ذلك في علمه الذي عَلَّمْنَاهُ، وإن أثر ذلك في نفسه وبذنه، أي علمه بما عَلَّمْنَاهُ بعد ما أصابه كهر ما كان قبل ذلك، لم يعمل فيه، ولم يؤثر.

وعن الحسن في ما ظن^(٦) في قول يعقوب لبنيه ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَحِيدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ [أنه]^(٧) قال: أما والله ما كانت به طيرة، تطير بها، ولكن قد علم، أو ظن، أن يوسف سيلقى أخاه، فيقول: ﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾ [الآية: ٦٩].

وأكثر أهل التأويل قالوا: قوله: ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسٍ يَمُقُّوبَ قَضْنَهَا﴾ أي خيفة العين على بنيه لجمالهم وحسن صورهم أو لِمَا يَكُونُ لواحد كذا وكذا من البنين، فيقصِدُونَ قَضْنَهُمُ [بالكناية فيهم على ما]^(٨) ذكرنا، أو ما أراد بذلك، والله أعلم.

الآية ٦٩ وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَتْ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ هذا يختلج وجهين: يختلج أنهم لما دخلوا البلد الذي فيه دعا يوسف أخاه، وضمه إليه. ويختلج أنهم [لما]^(٩) دخلوا جميعاً على يوسف، فضم أخاه إلى نفسه، ﴿قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾.

قال بعض أهل التأويل، لم يقل له أنا أخوك بالنسبة، ولكنه قال: أنا أخوك، مكان أخيك الهالك.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ يقول: لا تحزن ﴿يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ هذا يختلج وجهين: لا تبتئس بما كان عمل إخوتك؛ كأنه لما دعا، فضمه إلى نفسه، شكا إليه عن إخوته، فقال عند ذلك: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. ويختلج: فلا تبتئس بما سيفعل^(١٠) بك هؤلاء، أي خدمه وعماله؛ كأنه أخبره بما كان يريد أن يكيد بهم من جعل الصاع في رحله، فقال: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بك، لأنه يجوز أن يجعل أخاه متهماً، يعترف به من غير أن يظهر منه شيء، وقد أخبره أنه أخوه، والله أعلم. دل أنه يريد أن يعلمه بما يريد أن يكيد بهم ليكون هو على علم من ذلك.

الآية ٧٠ وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَمَعَ إِلَيْهِمْ فِي رَمْلِ آيِهِ﴾ قيل: هي الإناء الذي كان يشرب فيه الملك. وقيل: هو الصاع الذي كان يكال به الطعام. ولكن لا نعلم ما كان ذلك سوى أنا نعلم أنها كانت ذات قيمة وثمن.

(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: والنهي. (٣) أدرج قبلها في الأصل وم: أنه. (٤) ساقطة من الأصل وم: (٥) في الأصل: محل بجمع، في م: محل بجميع. (٦) في الأصل وم: أظن. (٧) ساقطة من الأصل وم: (٨) في الأصل: بالكناية عليهم لما، في م: بالكناية عليهم لما. (٩) ساقطة من الأصل وم: (١٠) في الأصل وم: يعمل.

أَلَا تَرَى أَنَّ ذَلِكَ الرَّسُولَ قَالَ: ﴿وَلَمَنْ جَاءَ بِهِ جِمْلَ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ [الآية: ٧٢] فلو لا أنها كانت ذات قيمة ونعم لم يُعط لمن جاء بها^(١) جِمْلَ بَعِيرٍ، وكانت^(٢) قيمة الطعام عندهم في ذلك الوقت ما كانت^(٣).

[وقوله تعالى: ^(٤)]: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ أي نادى مُنادٍ ﴿إِنتَهَا أَلِيمٌ إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾ لا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ يَوْسُفُ يَأْمُرُ رَسُولَهُ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ ﴿إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾ وقد عَلِمَ أَنَّهُمْ لَيْسُوا بِسَارِقِينَ. ولكن قال لهم ذلك المنادي، فآذاه، والله أعلم، ﴿إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾ مِنْ نَفْسِهِ، وهو مِنْ بَعْضِ مَنْ يَتَوَلَّى كَيْلَ الطَّعَامِ لِلنَّاسِ^(٥)، وأمثاله لا يُبَالُونَ الْكَذِبَ.

أو قال لهم ذلك قوم، كانوا يَحْضَرَتِهِمْ: ﴿إِنتَهَا أَلِيمٌ إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾، أو يكون على الاستفهام والتقرير. فإن كان هذا فهو يُحْتَمَلُ مِنْ يَوْسُفَ، وأما مِنْ غَيْرِهِ فلا؛ لأنه كَذِبٌ.

وَضَمَّ يَوْسُفَ أَخَاهُ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ: يَحْتَمِلُ لِمَكَانِ سَوَالِهِ إِيَّاهُمْ أَنْ يَأْتُوا بِهِ، أو لِمَكَانِ فَضْلِهِ وَمَنْزِلَتِهِ لِيَعْلَمُوا^(٦) أَنَّ مَا كَانَ لِيَوْسُفَ وَأَخِيهِ عِنْدَ أَبِيهِمْ مِنْ فَضْلِ / ٢٥٥ - ب / المحبة والمنزلة مِنَ اللَّهِ إِذْ جَعَلَ ذَلِكَ لَهُمَا عِنْدَ الْمَلِكِ وَغَيْرِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآيتان ٧١ و ٧٢ وقوله تعالى: ﴿قَالُوا وَقَبِّلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ﴾ ﴿قَالُوا نَقْذُ صُرَاغَ الْمَلِكِ﴾ أي إناء الملك؛ سَمَاءُ مَرَّةٍ صَاعاً وَمَرَّةً سِقَايَةً، فيجوزُ أَنْ يُسْتَعْمَلَ فِي الْأَمْرَيْنِ جَمِيعاً، فِي الْإِسْتِغْنَاءِ وَالْكَيْلِ جَمِيعاً. قَالُوا لِمَنَادِيهِ: مَاذَا تَفْقَدُونَ؟

قَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ: أَيِ اضْلَلْتُمْ؛ يُقَالُ: افْتَقَدْتُكَ، وَتَفَقَّدْتُكَ، أَيِ نَعَهْدُكَ. وَقَالَ الْقُتَيْبِيُّ: ﴿فَلَا تَبْتَيْسُ﴾ هُوَ مِنَ الْبُؤْسِ، وَالسِّقَايَةُ الْمِكْيَالُ، وَقِيلَ: مَشْرَبَةُ الْمَلِكِ، وَصُرَاغُ الْمَلِكِ وَصَاعُهُ وَاحِدٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَنْ جَاءَ بِهِ جِمْلَ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ قِيلَ: ضَمِينٌ لِذَلِكَ الطَّعَامِ وَكَفِيلٌ بِهِ. وَالزَّعِيمُ كَأَنَّهُ أَيْضاً اسْمُ لِرئيسِ مِنَ الْقَوْمِ.

الآية ٧٣ وقوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفَيْدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وَجْهًا:

[أحدهما: ^(٧)] أَنَّهُمْ قَالُوا: ذَلِكَ لَأَنَّكُمْ رَدَدْتُمْ إِلَيْنَا الدَّرَاهِمَ، وَجَعَلْتُمْ فِي أَوْعِيَّتِنَا، ثُمَّ رَدَدْنَا مَخَافَةَ أَنْ تُفْرَقَ بِالسَّرِقَةِ وَالْفَسَادِ. فَكَيْفَ تَقْرِفُونَا بِهَذَا؟

والثاني: أَنَّكُمْ تَعْلَمُونَ أَنَا أَبْنَاءُ النَّبِيِّ، وَالرَّسُولُ وَالْأَنْبِيَاءُ لَا يَكُونُ مِنْهُمْ السَّرِقَةُ وَالْفَسَادُ فِي الْأَرْضِ، وَمِثْلُ هَذَا لَمْ يَظْهَرْ فِي أَهْلِ بَيْتِنَا قَطُّ، وَلَا قُرْفُنَا بِهِ، فَكَيْفَ تَقْرِفُونَا بِهَذَا؟

والثالث: أَنَّكُمْ تَرَوْنَا صَوَامِينَ قَوَامِينَ. وَمَنْ هَذَا فَعَلَهُ فَإِنَّهُ لَا يَتَّهَمُ بِالسَّرِقَةِ.

والرابع^(٨): أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفَيْدَ فِي الْأَرْضِ﴾ لَمَّا رَأَوْهُمْ دَخَلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ. وَلَوْ كَانُوا سَرَاقًا لَدَخَلُوا مَجْمُوعِينَ، لِأَنَّ عَادَةَ السَّرَاقِ الْإِجْتِمَاعُ لَا التَّفَرُّقُ.

الآية ٧٤ [وقوله تعالى: ^(٩)]: ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ أَيِ إِنْ كَانَ فِيكُمْ مَنْ يَكْذِبُ، وَيُظْهَرُ ذَلِكَ مِنْهُ فَمَا جَزَاؤُهُ؟

الآية ٧٥ ﴿قَالُوا جَزَاؤُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ هَذَا يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ: يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ أَيِ يَصِيرُ رَقِيقًا مَمْلُوكًا بِهَا لَهُ، وَيَحْتَمِلُ^(١٠) يَصِيرُ مَحْبُوسًا بِهَا عِنْدَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٧٦ وقوله تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتَيْهِ قَبْلَ وَعَاءِ آخِيهِ﴾ ظَاهِرُ هَذَا الْكَلَامِ أَنَّ يَكُونَ يَوْسُفُ هُوَ الَّذِي فَتَّشَ أَوْعِيَّتَهُمْ، وَطَلَبَ ذَلِكَ فِيهَا حِينَ^(١١) نُسِبَ ذَلِكَ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿قَبْلَ وَعَاءِ آخِيهِ﴾ لَكِنَّهُ نُسِبَ إِلَيْهِ [لأنه]^(١٢) بِأَمْرِهِ؛ إِذْ الْمُلُوكُ لَا يَأْتُونَ ذَلِكَ بَأَنْفُسِهِمْ.

(١) فِي الْأَصْلِ رَم: بِهِ. (٢) فِي الْأَصْلِ رَم: الطَّعَامُ وَكَانَ. (٣) فِي الْأَصْلِ رَم: كَانَ. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ رَم. (٥) فِي الْأَصْلِ رَم: عَلَى النَّاسِ. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ م. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ رَم. (٨) فِي الْأَصْلِ رَم: أَوْ. (٩) فِي الْأَصْلِ رَم: ثُمَّ. (١٠) فِي الْأَصْلِ رَم: أَوْ. (١١) فِي الْأَصْلِ رَم: حَيْثُ. (١٢) فِي الْأَصْلِ رَم: لَمَّا.

وفيه أنه قد فصل بينهم وبين بنيامين؛ سَمَى هذا أخاه، ولم يُسم أولئك بقوله ﴿بِأَوَعَيْنِهِمْ قَبْلَ وَعَايِهِ﴾ وهو يُخْرِجُ على وجهين.

أحدهما: أنه قد ذَكَرَ هذا أنه أخوه حين^(١) قَالَ لَهُ: ﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾ [الآية: ٦٩]، ولم يذكر أولئك، فَسَمَى هذا أخاً لَهُ، وَنَسَبَهُ إِلَيْهِ بِالْأُخُوَّةِ لِمَا كَانَ ذَكَرَ لَهُ، ولم يُسم أولئك لِمَا لم يذكر لهم أنه أخوهم.

والثاني: أنه لم يكن لهذا؛ أعني بنيامين [في حق^(٢)] يوسف سوء صنيع، ولا شريك، بل هو على الأخوة والصداقة التي كانت بينه وبينه. وأما أولئك؛ أعني غيره من الإخوة، فقد كان منهم إليه ما كان من سوء صنيعهم وقبح فعالهم، فَخَرَجَ ذلك مُخْرِجَ التَّبَرِّي مِنَ الْأُخُوَّةِ بِسُوءِ مَا كَانَ إِلَيْهِ.

وهو كقوله تعالى لنوح عليه السلام حين قال: ﴿رَبِّ إِنِّي آتِي مِنْ أَمَلٍ﴾ ﴿يَسْتَوْحِ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٥ و ٤٦] نَحَى أَنْ يَكُونَ مِنْ أَهْلِهِ بِسُوءِ عَمَلِهِ، وَفَعَلَهُ غَيْرُ صَالِحٍ.

فَعَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلِ، يُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ عَلَى هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَايَ أَخِيهِ﴾ دل هذا أنه قد كان منه أيضاً التفتيش والطلب في وعاء أخيه على ما كان في أوَعَيْنِهِمْ، لَا يَسْتَخْرِجُهَا عَلَى غَيْرِ تَفْتِيْشٍ.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَذَبَ يُوسُفَ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهين:

أحدهما^(٣): ﴿كَذَلِكَ كَذَبَ يُوسُفَ﴾ أي عَلَّمْنَا يوسف من أوَّل الأمر إلى آخره ما يَكِيدُ، وَيَحْتَالُ فِي إِمْسَاكِ أَخِيهِ عِنْدَهُ وَمَنْعِهِ عَنْهُمْ [لئلا يَخْلُو^(٤)] لهم وجه أبيهم جزاء ما طلبوا هم أَنْ يَخْلُوَ لَهُمْ وَجْهَ أَبِيهِمْ بِتَغْيِيبِ يوسف عن أبيه لَأَنْ أَبَاهُمْ قَالَ: ﴿حَقٌّ تُؤْتُونَ مَوَافِقًا مِنْ اللَّهِ لَمَّا تُنَاقِضُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَحْمِلَ يَكْمًا﴾ [الآية: ٦٦] فلما بَلَغَهُ ذَلِكَ الْخَبَرُ تَوَلَّى عَنْهُمْ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَتَكَسَّبُونَ عَلَى يُوسُفَ﴾ [الآية: ٨٤].

هذا والله أعلم، جزاء كيدهم الذي كادوا بيوسف لِيَخْلُوَ لَهُمْ وَجْهَ أَبِيهِمْ، لِيَتَوَلَّى عَنْهُمْ أَبَوَهُمْ. هذا يُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ.

والثاني: ﴿كَذَلِكَ كَذَبَ يُوسُفَ﴾ أي عَلَّمْنَاهُ أَنْ كَيْفَ يُفْتَشُّ أَوْعَيْنَهُمْ لئلا يَشْعُرُوا عَنْ عِلْمِ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَايَ أَخِيهِ لَا عَنْ جَهْلِ وَظَنٍّ؟ عَلَّمْنَاهُ^(٥) الْبِدَايَةَ فِي التَفْتِيْشِ بِأَوْعَيْنِهِمْ لئلا يَقَعَ عِنْدَهُمْ أَنَّهُ عَنْ عِلْمٍ وَتَقِينٍ يَأْخُذُهُ.

يُشَبِّهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَنْ يُخْرِجَ قَوْلُهُ: ﴿كَذَلِكَ كَذَبَ يُوسُفَ﴾ عَلَى هَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ، أَوْ ﴿كَذَلِكَ كَذَبَ يُوسُفَ﴾ بِالْكَيدِ بِهِمْ جَزَاءَ مَا عَمِلُوا بِحَقِّهِ لَمَّا اِهْتَمُّوا بِإِمْسَاكِ أَخِيهِمْ.

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَخِي أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ أي فِي حُكْمِ الْمَلِكِ؛ ذَكَرَ أَنَّ حُكْمَ إِخْوَةِ يوسف وقضاءهم فيهم أَنَّ مَنْ سَرَقَ يَكُنْ^(٦) عَبْدًا بِسَرِقَتِهِ لِلْمَسْرُوقِ، وَبُسْتَعْنِدَ^(٧) بِسَرِقَتِهِ. وَمِنْ حُكْمِ الْمَلِكِ أَنْ يُعْرَمَ^(٨) السَّارِقُ ضِعْفِي مَا سَرَقَ، وَيُضْرَبَ، وَيُؤَدَّبَ، ثُمَّ يُخْلَى عَنْهُ. وَلَا نَعْلَمُ مَا حُكْمُ الْمَلِكِ فِي السَّرِقَةِ سِوَى أَنَّهُ اخْبَرَ أَنْ لَيْسَ لَهُ اخْذُ أَخِيهِ فِي دِينِ الْمَلِكِ.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أَنْ يَجْعَلَ ذَلِكَ الْحُكْمَ حُكْمَ الْمَلِكِ، أَوْ يَجْعَلَ لَهُ حَقَّ الْاِخْذِ وَخَبِيئِهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ فِي حُكْمِهِ، أَوْ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ عَلَى مَا كَانَ الْأَنْبِيَاءُ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، وَسَلَامُهُ، يَذْكُرُونَ الثَّنِيَا عَلَى حَقِيقَةِ الْمَشِيئَةِ، أَوْ يَقُولُ: إِلَّا أَنْ يَكُونَ فِي عِلْمِ اللَّهِ مِنْي زَلَّةٌ، فَاسْتَوْجِبَ عِنْدَ ذَلِكَ الْكُونَ فِي دِينِ^(٩) الْمَلِكِ، فَيَشَاءَ مَا عِلِمَ مِنْي.

وكذلك قول إبراهيم حين^(١٠) قَالَ: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ [الأنعام: ٨٠] أي لَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِنْي مَا اسْتَوْجِبَ ذَلِكَ بِزَلَّةٍ، فَيَشَاءَ اللَّهُ ذَلِكَ مِنْي.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: لِمَكَان. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: يَحْتَمِل. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: لِأَنْ يَخْلُو. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: لِعِلْمِهِ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: يَكُون. (٧) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: وَيُسْتَعْنِد. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: يَفْرَق. (٩) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: ذَلِكَ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث.

وقوله تعالى: ﴿تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ﴾ الدرجاتُ هُنَّ الفضائلُ؛ تَرْفَعُ بَعْضُهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ بِالنَّبُوَّةِ وَالْعِلْمِ وَفِي كُلِّ شَيْءٍ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ مَا مِنْ عَالِمٍ، وَإِنْ لَطَفَ عِلْمُهُ، وَكَثُرَ إِلَّا وَقَدْ يَكُونُ فَوْقَهُ مَنْ هُوَ أَطْفُ عِلْمًا مِنْهُ وَاحْتَرَفَ وَأَعْلَمَ فِي شَيْءٍ. أَوْ يَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ؛ يُعَلِّمُهُمُ الْعِلْمَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَمَنْ يَقُولُ: إِنَّهُ عَالِمٌ، [وَهُوَ لَا يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ] ^(١) يَخْتَجُّ بِظَاهِرِ هَذِهِ الْآيَةِ حِينَ ^(٢) قَالَ: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ أَثْبَتَ لِغَيْرِهِ الْعِلْمَ، وَلَمْ يَذْكُرْهُ ^(٣) لِنَفْسِهِ؛ كَانَهُ ^(٤) قَالَ: [إِنَّهُ ذُو عِلْمٍ. وَلَوْ قَالَ إِنَّهُ] ^(٥) عَلِيمٌ أَثْبَتَ الْعِلْمَ [لِنَفْسِهِ لِأَنَّهُ] ^(٦) إِذَا قَالَ: وَفَوْقَ كُلِّ الْعُلَمَاءِ عَلِيمٌ يَكُونُ كَذَلِكَ.

الآية ٧٧

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: كَانَتْ سَرِقَتُهُ أَنَّهُ كَانَ صَنَمٌ مِنْ ذَهَبٍ لِجَدِّهِ أَبِي أُمِّيهِ، يَعْبُدُهُ، فَسَرَقَ ذَلِكَ لَثَلَا يَعْبُدُهُ دُونَ اللَّهِ، وَلَكِنَّا لَا نَعْلَمُ ذَلِكَ، وَنَعْلَمُ أَنَّهُمْ كَذَّبُوا فِي قَوْلِهِمْ: ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ وَارَادُوا أَنْ يَتَّبِعُوا مِنْهُ، وَيَتَّبِعُوا ذَلِكَ [عَنِ] ^(٧) أَنْفُسِهِمْ لِيَعْلَمَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْهُمْ.

[وقوله تعالى] ^(٨): ﴿فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ. وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانٍ﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ قِيلَ إِنَّ يَوْسُفَ أَسْرَ [هَذِهِ الْكَلِمَةُ] ^(٩) فِي نَفْسِهِ، وَلَمْ يُظْهِرْهَا لَهُمْ، أَوْ أَسْرَ ^(١٠) مَا اتَّهَمُوهُ بِالسَّرِقَةِ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ [قَوْلُهُمْ] ^(١١): ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ خَاطَبُوا بِهِ أَخَاهُ بَنِيَامِينَ دُونَ يَوْسُفَ / ٢٥٦ - أ /

﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ يَقُولُونَ فِي مَا بَيْنَهُمْ وَقَدْ ذَكَرَ فِي بَعْضِ الْحُرُوفِ: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ بِالتَّشْدِيدِ ^(١٢). فَإِنْ ثَبَتَ فَالتَّأْوِيلُ هُوَ لِقَوْلِهِمْ: وَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ ﴿أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانٍ﴾ أَيِ أَنْتُمْ أَشْرُّ صُنْعًا بِيَوْسُفَ ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ مِنَ الْكَذِبِ أَنَّهُ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ.

الآية ٧٨

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَكُونُ أَلْفًا مِائَةً أَوْ كَثِيرًا فَخُذْ أَمَدًا مَكَانَهُ﴾ أَرَادُوا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَنْ يُرْفُوا قَلْبَهُ بِهَذَا ﴿إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ لِمَا يَكُونُ قَلْبُ الشَّيْخِ لَوْلِيهِ الصَّغِيرُ أَمِيلٌ، وَيَكُونُ عِنْدَهُ أَثَرٌ وَاحْتَرَفَ مَنَزَلَةً ﴿فَخُذْ أَمَدًا مَكَانَهُ﴾ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ لِمَا أَحْسَنَ إِلَيْهِمْ فِي الْكَيْلِ وَالْإِنزَالِ فِي الْمَنْزِلِ وَالضِّيَافَةِ وَالْقَرَى؛ قَدْ رَأَوْهُ، وَعَلِمُوهُ مُحْسِنًا.

الآية ٧٩

وقوله تعالى: ﴿قَالَ مَكَادَ اللَّهُ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعًا عِنْدَهُ﴾ قِيلَ: هَذَا قَوْلُ يَوْسُفَ: ﴿مَكَادَ اللَّهُ﴾ أَيِ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ، وَنَحْبِسَ، بِالسَّرِقَةِ ﴿إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعًا عِنْدَهُ﴾.

[فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ تَعَوَّذَ عَلَى تَرْكِ أَخِيهِ وَاحِذٍ غَيْرِهِ مَكَانَهُ، وَلَمْ يَكُنْ وَجِبَ لَهُ حَقُّ الْأَخِيذِ، إِذْ لَمْ تَكُنْ سَرِقَةً، وَإِنَّمَا يَتَعَوَّذُ عَلَى تَرْكِ مَا لَا يَسَعُ تَرْكُهُ؟] قِيلَ: إِنَّهُ لَمْ يَتَعَوَّذْ عَلَى تَرْكِ أَخِيهِ، إِنَّمَا تَعَوَّذَ عَلَى غَيْرِ مَا وَجَدَ الْمَتَاعَ عِنْدَهُ ﴿إِنَّا إِذَا لَنَالِمُسُورًا﴾ عِنْدَكُمْ لَوْ أَخَذْنَا غَيْرَ مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعًا عِنْدَهُ. إِذْ فِي حَكْمِهِمْ أَخْذَ مَنْ سَرَقَ بِالسَّرِقَةِ ^(١٣) وَالْحَبْسَ بِهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٨٠

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ﴾ قِيلَ: أَيْسُوا مِنْ أَنْ يُرَدَّ إِلَيْهِمْ أَخُوهُمْ ﴿وَحَلَّصُوا نَجَاتًا﴾ قِيلَ: خَلَّوْا مِنَ النَّاسِ، وَخَلَّصُوا مِنْهُمْ، يَتَنَاجَوْنَ فِي مَا بَيْنَهُمْ فِي أَمْرِ أَخِيهِمْ أَوْ فِي الْإِنْصِرَافِ إِلَى آبِيهِمْ أَوْ فِي الْمَقَامِ فِيهِ.

[وقوله تعالى] ^(١٤): ﴿قَالَ كَيْفَ هُمْ أَلَمْ تَسْلَمُوا أَنْ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: ﴿كَيْفَ هُمْ﴾ فِي الْعَقْلِ، لَيْسَ فِي السَّنِّ، وَهُوَ فَلَانٌ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ يَهُودَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ شَمْعُونُ، وَلَكِنْ لَا نَعْلَمُ مَنْ كَانَ قَاتِلُ هَذَا لَهُمْ؟

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: لَا يَعْلَمُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: يَذْكُرُ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: بَلْ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: عَلِيمٌ لَكِنَّهُ إِذَا قَالَ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَلَئِنْ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) فِي م: هَذَا الْقَوْلُ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: أَسْرُوا. (١١) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٢) (١٣) (١٤) فِي م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

ولا نحتاج إلى معرفة ذلك سوى أن فيه: ﴿قَالَ كَيْفَهُمْ﴾ إما أن كان كبيرهم في العقل وإما^(١) كبيرهم في السن ﴿أَلَمْ تَلْمَوْا أُنْكَ أَبَاكُمْ﴾ ألم تلعنوا؟ أو لم تروا؟ حرفان يستعملان في أحد أمرين: في الأمر: أن اعلّموا كذا، أو في موضع التنبيه والتقرير. وهنا كأنه قال ذلك على التقرير والتنبيه؛ أي قد علمتم ﴿أُنْكَ أَبَاكُمْ﴾ قد أخذ عليكم مؤثراً من الله ومن قبل ما فرطت في يوسف.

هذا يدل أن التأويل في قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ هو^(٢) أن يمتكنكم أمر، ويجمعكم، فتهلكوا^(٣) فيه جميعاً وليس كما قال بعض أهل التأويل: إلا أن يجيء ما يمنعكم عن ردّه؛ إلا أن تغلبوا، فتعجزوا عن ردّه لأنه قد جاء ما يمنعهم عن ردّه. ثم أبى أكبرهم الرجوع إلى أبيه. دل أن التأويل هو هذا.

ومن يقول: إن التأويل في قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ إلا أن يجيء ما يمنعكم عن الرد استدل بقوله: ﴿أَرْجِعُوا إِلَيَّ أَيُّكُمْ فَقُولُوا يَتَابَعًا إِنَّكَ سَرَقٌ﴾ [الآية: ٨١] فلو كان على ما يعمهم لم يكن ليأمرهم بالرجوع إلى أبيهم. دل أنه ما ذكر.

وأما أهل التأويل الأول [فهم]^(٤) يقولون: إن قوله: ﴿أَرْجِعُوا إِلَيَّ أَيُّكُمْ﴾ ليس على الأمر، ولكن [على الخبر]^(٥) إذا رجعتكم إلى أيكم فقولوا يتابعاً إِنَّكَ سَرَقٌ وكذلك يخرج قوله: ﴿وَنَسِلَ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ ليس على الأمر، ولكن [على الخبر]^(٦) لو سألت أهل القرية وأهل العير لأخبروك أنه كما قلنا.

فعلّى ذلك قوله: ﴿أَرْجِعُوا﴾ ليس على الأمر ولكن [على الخبر]^(٧) لو رجعتكم إليه فقولوا كذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُ﴾ أي من قبل ما ضيغتم أمر أيكم في يوسف، أو ضيغتم [أمر]^(٨) الله ووعده ﴿يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ هذا يختلج وجهين.

يختلج ﴿حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ بالرجوع إليه إذا ظهر عنده عُذْرُنَا وَصَدَقْنَا في أمر أبيه.

ويختلج^(٩): ﴿حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ بالمنازعة في القتال مع المليك حتى استنقذ أخي، واستخلصه منه ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ في الرجوع^(١٠) أو في القتال معه ﴿وَهُوَ خَيْرٌ﴾: ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ بإظهار عُذْرُنَا وَصَدَقْنَا عند أبينا ﴿وَهُوَ خَيْرٌ﴾ في إظهار العذر لأنه [إذا حكم بإظهار العذر]^(١١) ظهر ذلك في الخلق جميعاً.

وكذلك حكم غيره لأن من حكم بحكم يجوز، فإنما يحكم بحكم، هو حكم الله ﴿وَهُوَ خَيْرٌ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

وكذلك قوله: ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الآيتان: ٦٤ و ٩٢] لأن من رحم [أحداً]^(١٢) من الخلق فإنما يرحم برحمته ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

الآية ٨١

وقوله تعالى: ﴿أَرْجِعُوا إِلَيَّ أَيُّكُمْ﴾ يختلج على الأمر على ما هو في الظاهر، ويختلج ما ذكرنا؛ أي لو رجعتكم إليه ﴿فَقُولُوا يَتَابَعًا إِنَّكَ سَرَقٌ﴾ يشبه أن يكون هذا منه تعريضاً في التخطئة على ما كان يؤثره على غيره من الأولاد، أي الذي كنت تؤثرون علينا بالمحبة وميل القلب إليه قد سرق.

ويشبه أن يكون ليس على التعريض، ولكن على الإخبار على ما ظهر عندهم من ظاهر الأمر ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ بما أخرج المتاع من وعائه ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ هذا على التأويل الذي قيل في قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أي يمتكنكم، ويجمعكم؛ أي ما كنا نعلم وقت إعطاء العهد^(١٣) والميثاق أنه يسرق، وإلا لم نعطيك العهد على ذلك.

ويختلج ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ وقت ما أخرج المتاع من وعائه، واتهم أنه سرق، أم^(١٤) لم يسرق؟ أم^(١٥) هو وضع الصاع في رجليه أو غيره وضع؟ أي ما كنا نعلم في الابتداء أن الأمر يرجع إلى هذا. وإلا لم نخرجه معنا.

(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: هؤلاء. (٣) في الأصل وم: فتهلكون. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: أو. (١٠) أدرج بعدها في الأصل وم: أيضاً. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: الوقت. (١٣) في الأصل وم: الوقت. (١٤) في الأصل وم: أو. (١٥) في الأصل وم: أو.

الآية ٨٢

وقوله تعالى: ﴿وَسَكَلَ الْقَرِيَّةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا بِهَا﴾ أي [لو] ^(١) سألت أهل القرية وأهل العير لأخبروك أنه على ما نقول ﴿وَأَنَا لَصَادِقُونَ﴾ على ذلك على ما ظهر لنا من استخراج الإناء من وعائه، والله أعلم.

الآية ٨٣

وقوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّكَ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْ؟﴾ فإن قيل: كيف قال لهم ﴿قَالَ بَلْ سَوَّكَ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْ؟﴾ وجعل ما أخبروه من تسويل أنفسهم وتزيينها [وهم لم يخالفوه] ^(٢) في ما أمرهم في أمر بنيامين، ولا تركوا شيئاً مما أمرهم به؟

وليس هذا كالأول الذي قال لهم في أمر يوسف ﴿بَلْ سَوَّكَ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْ؟﴾ [الآية: ١٨] لأنه قد كان منهم خلاف لما أمرهم به، والسعي إلى إهلاكه، فكان ما ذكر من تسويل أنفسهم وتزيينها في موضع التسويل والتزيين. وأما ههنا فلم يأت منهم إليه خلاف ولا ترك لأمره.

فكيف قال: ﴿بَلْ سَوَّكَ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْ؟﴾ قيل ^(٣) يشبه أن يكون قال ذلك لأنهم لما اتهموا جميعاً بالسرقة، فقيل: ﴿إِنَّمَا لَسَرِقُونَ﴾ [الآية: ٧٠] ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتَنَا لِتُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ [الآية: ٧٣] قطعوا فيه القول: إنهم لم يكونوا سارقين، وهو كان فيهم.

فكيف قطعتم فيه القول بالسرقة ﴿إِنَّمَا أَنْتَ سَرَقٌ؟﴾ ﴿بَلْ سَوَّكَ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْ؟﴾ من البغض والعداوة من الإيثار له ويوسف [عليكم والميل إليهما دونكم حين] ^(٤) ﴿قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ غُصْبَةٌ﴾ [الآية: ٨] والله أعلم. فسوّك لكم أنفسكم ببغضكم وعداوتكم حتى تركتم الفحص عن حاله وأمره [إذ لا] ^(٥) كل من وجد في رخله شيء يكون هو واضع ذلك الشيء، بل قد يَضَعُه ^(٦) غيره فيه على غير علم منه.

وقوله تعالى: ﴿فَصَدَّ بَيْدٌ﴾ قد ذكرناه.

وقوله تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنَّ بِهِمْ جَمِيعًا﴾ قال أهل التأويل: قال: ﴿يَأْتِيَنَّ بِهِمْ جَمِيعًا﴾ لأنهم صاروا جماعة: يوسف، وبنيامين أخوه، ويهوذا، وشمعون، قد تخلفا بسبب حبس يوسف أخاه، أو يوسف وأخوه.

وقال بعض أهل التأويل: إن جبريل أتى يعقوب على أحسن صورة، فسأله عن يوسف: أفني الأحياء [هو أم في الأموات] ^(٧) فقال: بل هو في الأحياء، فقال عند ذلك: ﴿عَسَى/ ٢٥٦ - ب/ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنَّ بِهِمْ جَمِيعًا﴾ أو عليم يعقوب أن يوسف في الأحياء، وأنه غير هالك، لما رأى يوسف من الرؤيا من سجود الكواكب والشمس والقمر له عليم أنه في الأحياء، وأنه لا يهلك إلا بعد خروج رؤياه، وغير ذلك من الدلائل.

لكنه كان لا يعلم أين هو، فقال ذلك: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

الآية ٨٤

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ أي أغرض عنهم، وعاتبهم، حين أخبروه أن ابنه سرق ﴿وَقَالَ يَتَأَسَّفُ عَلَى يُوسُفَ﴾ قيل: يا حزنا على يوسف، وقيل: يا جزعا [على يوسف] ^(٨).

وقال القتيبي: الأسف أشد الحسرة، وأصله أن الأسف أنه النهاية في الحزن إذا بلغ غايته ونهايته؛ يقال: أسف، وهو النهاية في الغضب أيضاً كقوله: ﴿فَلَمَّا سَأَلْتُنَا أَيُّ غَضَبِنَا﴾ أي أغضبونا ﴿أَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥].

وقوله تعالى: ﴿يَتَأَسَّفُ عَلَى يُوسُفَ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ [لا] ^(٩) على إظهار القول باللسان، ولكن إخبار عما في ضميره، وذلك جائز كقوله: ﴿إِنَّمَا تُطْمِئِنُّ بِرَبِّكَ إِلَهُ﴾ [الإنسان: ٩] أخبر عما في قلوبهم لأن قالوا ذلك باللسان. ويَحْتَمِلُ القول به على غير قصد منه.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم. ولم يخالفوا هم. (٣) في الأصل وم. لكن. (٤) في الأصل وم. عليهم والميل إليها دونهم حيث. (٥) في الأصل وم. إلا. (٦) في الأصل وم. يضع. (٧) في الأصل: أم الأموات، في م: أم في الأموات. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) م، ساقطة من الأصل.

وقوله تعالى: ﴿تَهُوَ كَظِيمٌ﴾ الكَظِيمُ^(١) هو كَفَّ النفسِ عَنِ الْجَزَعِ، وَتَرْدِيدُ الْحُزْنِ فِي الْجَوْفِ عَلَى غَيْرِ إِظْهَارٍ فِي أَعْمَالِهِ^(٢). وَالْجَزَعُ هُوَ مَا ظَهَرَ فِي أَعْمَالِهِ، وَالَّذِي يَهِيْجُ الْقَضْبَ؛ إِلَّا أَنَّ الْحُزْنَ يَكُونُ عَلَى مَنْ قُوَّةُهُ، وَالْقَضْبُ [عَلَى] مَنْ تَخَتَّ يَدُهُ، وَسَبَبُ هَيَجَانِهَا وَاحِدٌ، أَوْ أَنْ يَكُونَ الْكَظِيمُ هُوَ الَّذِي يَسْتُرُ، وَيُعْطِي [فِي الْقَلْبِ مَا]^(٣) حَلَّ بِهِ. وَالْهَمُّ هُوَ مَا يَتَنَبَّثُ عَلَى الْقَضْدِ مِنْ [مُبَاشَرَةٍ سَبَبٍ دَفْعِيٍّ، وَهُوَ مَا خُوِذَ مِنْ]^(٤) الْهَمُّ بِهِ. وَالْحُزْنُ هُوَ مَا يُؤَثِّرُ التَّغْيِيرَ فِي الْخِلْقَةِ، وَلَا يَظْهَرُ فِي الْأَفْعَالِ. وَالْجَزَعُ يَظْهَرُ فِي الْأَفْعَالِ، وَلَا يُغَيِّرُ الْخِلْقَةَ عَنْ حَالِهَا. لِذَلِكَ [عَمِلَ الْحُزْنُ]^(٥) فِي ضَعْفِ نَفْسِ يَعْقُوبَ، وَعَمِلَ فِي [إِهْلَاكِ بَعْضِهِ حِينَ]^(٦) ذَهَبَتْ عَيْنَاهُ، وَابْتِضَّتْ مِنَ الْحُزْنِ. وَالْكَظِيمُ مَا ذَكَّرْنَا؛ هُوَ الَّذِي يُرَدِّدُ الْحُزْنَ فِي جَوْفِهِ، وَلَا يُظْهِرُهُ^(٧)، وَيَكْفُهُ عَنِ الْجَزَعِ.

الآية ٨٥

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ﴾ يَمِينُهُمْ مَكَانَ: وَاللَّهُ، أَوْ بِاللَّهِ. وَكَذَلِكَ قَالَ إِبْرَاهِيمُ: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَانَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٥٧].

وقوله تعالى: ﴿تَقَرُّوا تَذَكُّرُ يَوْسُفَ﴾ أَي لَا تَزَالْ تَذَكُّرُ يَوْسُفَ، وَلَا تَنْسَى ذِكْرَهُ، حَتَّى تَسْلُوَ مِنْ حُزْنِكَ^(٨) كَانَهُمْ دَعَوْهُ إِلَى السَّلْوِ مِنْ حُزْنِهِ، لِأَنَّهُ بِالذِّكْرِ يَتَجَدَّدُ الْحُزْنُ، وَيَخْدُثُ، فَقَالُوا لَهُ: لَا تَزَالْ ﴿تَذَكُّرُ يَوْسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَسًا﴾ قِيلَ: ذَيْفًا، وَقِيلَ: ﴿حَرَسًا﴾ هَرَمًا.

وَأَصْلُ الْحَرَضِ الضَّعْفُ ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ كَذَلِكَ صَارَ يَعْقُوبُ: ضَعُفَ بَدَنُهُ مِنَ الْحُزْنِ، وَصَارَ بَعْضُ بَدَنِهِ مِنَ الْهَالِكِينَ حِينَ^(٩) ابْتِضَّتْ عَيْنَاهُ، وَذَهَبَتْ^(١٠) مِنَ الْحُزْنِ.

الآية ٨٦

وقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُرَزِي إِلَى اللَّهِ﴾ قَالَ الْقُتَيْبِيُّ: الْحَرَضُ الدَّنْفُ وَالْبَثُّ أَشَدُّ الْحُزْنِ؛ لِأَنَّ صَاحِبَهُ لَا يَضِيرُ عَلَيْهِ حَتَّى يَبْثُ أَي يَشْكُوهُ. وَكَذَلِكَ رَوَى فِي الْخَبَرِ: «مَنْ بَثَّ لَمْ يَضِيرْ» [ابن جرير الطبري في تفسيره ٤٨/٨] أَي شَكَا. وَمَا ذَكَرَ مِنَ الشَّكَايَةِ إِلَى اللَّهِ لَيْسَ عَلَى إِظْهَارِ ذَلِكَ بِاللِّسَانِ وَلَكِنْ [عَلَى]^(١١) إِمْسَاكِ فِي الْقَلْبِ. وَقَالَ الْحَسَنُ: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي﴾ أَي حَاجَتِي ﴿وَحُرَزِي إِلَى اللَّهِ﴾.

وَيُسَبِّحُ أَنْ يَكُونَ الْبَثُّ وَالْحُزْنُ وَاحِدًا، ذَكَرَهُ^(١٢) عَلَى التَّكَرُّارِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْحَرَضُ الَّذِي ذَهَبَ عَقْلُهُ مِنَ الْكِبَرِ ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ قَتَمُوا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: قَوْلُهُ: ﴿وَأَعْلَمَ مِنَ اللَّهِ﴾ مِنْ تَخْفِيقِ رُؤْيَا يَوْسُفَ أَنَّهُ كَانَتْ ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أَنْتُمْ، وَأَنَا سَتَسْجُدُ [لَهُ]^(١٣).

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَوْلُهُ: ﴿وَأَعْلَمَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أَنَّهُ حَيٌّ، لَمْ يَمُتْ، وَهُوَ مَا ذَكَرَ أَنَّهُ كَانَ يَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَعْلَمُونَ هُمْ.

وَيُسَبِّحُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿وَأَعْلَمَ مِنَ اللَّهِ﴾ أَي انْتَفِعَ بِعِلْمِ مَا لَا تَتَفَعَّلُونَ أَنْتُمْ.

وَأَصْلُهُ: أَنَّ إِخْوَةَ يَوْسُفَ لَوْ عَلِمُوا أَنَّ أَمْرَ يَوْسُفَ يَنْلُغُ مَا يَنْلُغُ مِنَ الْمُلْكِ وَالْعِزِّ مَا قَصَدُوا قَصْدَ تَغْيِيْبِهِ عَنْ وَالِدِهِ، وَلَا سَعَوْا فِيهِ فِي مَا سَعَوْا مِنْ إِفْسَادِ أَمْرِهِ. لَكِنَّهُمْ لَمْ يَعْلَمُوا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَوْ عَلِمَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، لَمْ يُبَيِّنْ مَا لَا يَعْلَمُونَ هُمْ كَقَوْلِ إِبْرَاهِيمَ^(١٤).

وَمَا ذَكَرَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ أَنَّ يَعْقُوبَ قَالَ كَذَا مِنَ النَّبَاحِ عَلَى يَوْسُفَ وَالْجَزَعِ عَلَيْهِ، لَا يَحْتَمِلُ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ قَالَ حِينَ أَخْبَرُوهُ بِذَلِكَ ﴿فَصَبَّرَ جَمِيلٌ﴾. وَمَا ذَكَرُوا هُمْ مِنْهُ، لَيْسَ هُوَ بِصَبْرٍ، فَضْلًا أَنْ يَكُونَ جَمِيلًا.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: الْكَظِيمُ. (٢) أَدْرَجَ قَبْلَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: غَيْرُ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: الْقَلْبُ إِذَا. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: الْهَلَاكُ بَعْضُهُ حَيْثُ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: يَظْهَرُ. (٩) حُزْنُهُ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: ذَهَبَ. (١٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: ذَكَرَ. (١٤) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١٥) لَعَلَّهُ يُبَشِّرُ إِلَى الْآيَاتِ (٥٤) وَ(٥٦) وَ(٥٧) مِنْ سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ.

الآية ٨٧

وقوله تعالى: ﴿يَتَّبِعْ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ قال أهل التأويل: ﴿تَحَسَّسُوا﴾ اطلبوه، واستخبروا عنه وعن أخيه. لكنَّ غيرَ هذا كأنه أقرب، وهو من وقوع الجس عليه؛ كأنه قال: اذهبوا، فانظروا إليه وإلى أخيه؛ لأنهم إن لم يكونوا يَعْلَمُونَ أنَّ يوسفَ أين هو؟ فَلَقَدْ كانوا يَعْلَمُونَ مِنْ حال أخيه بنيامين أنه أين هو؟

فلو كان على الطَّلَبِ والبَحْثِ والاستِخْبَارِ على ما قاله أهل التأويل: إنَّ اِخْتِمَلَ في يوسفَ فذلك لا يُحْتَمَلُ في أخيه؛ إذ هم كانوا يَعْلَمُونَ مكانه، وأين هو؟ وإذ كانوا لا يَعْلَمُونَ مكانَ يوسفَ، ولا أين هو؟ وهو إنما أَمَرَهُمْ أن يَتَحَسَّسُوا عنهما جميعاً. فدلَّ، والله أعلم، أنه من وقوع الجسُ والبَصَرِ عليهما لا من البَحْثِ والطَّلَبِ، والله أعلم.

فكانه عَلِمَ بالوحي أنه هنالك، وأخاه^(١) معه. لكنه لم يُخْبِرْ بنييه أنه هنالك لِمَا عَلِمَ أنهم يَتَكاسَلُونَ، وَيَتَأَقِلُونَ عن الذهابِ إليه، وإنما أَمَرَهُمْ^(٢) بذلك أَمْرَ تَعْرِيضٍ لا أَمْرَ تَصْرِيحٍ.

ويُحْتَمَلُ^(٣) أن يكونَ قوله: ﴿تَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ﴾ على الإضمارِ، أي تَحَسَّسُوا أَمْرَ^(٤) يوسفَ، واسألوا منه ردَّ أخيه لِمَا عَلِمَ أنَّ أخاه يكونُ معه.

وقال عامةُ أهلِ التأويل: إنما قالَ لهم هذا، وَعَلِمَ أنه في الأحياءِ لأنه رأى مَلَكَ المَوْتِ، فقال له: هل قَبِضْتَ رُوحَ يوسفَ ممَّا قَبِضْتَ مِنَ الأرواحِ؟ قال: لا.

وقال بعضهم: رأى في المنامَ مَلَكَ المَوْتِ، فقال له ما ذَكَّرْنَا، فعندَ ذلك قالَ هذا القول.

لكننا نقول: إنه كانَ عالماً [أنه]^(٥) في الأحياءِ، ليسَ بهالكِ، لِمَا رأى [يوسفَ]^(٦) مِنَ الرُّؤْيَا وَغَيْرِهَا^(٧)، فَعَلِمَ أنه لا يَهْلِكُ إِلَّا بَعْدَ خُرُوجِ رُؤْيَا عَلَى الصِّدْقِ والْحَقِّ. لكنه لم يَكُنْ يَعْلَمُ أنه أين هو من قَبْلُ، ثم عَلِمَ مِنْ بَعْدِ الْوَحْيِ عَنْ مَكَانِهِ وحالِهِ؟ فَأَمَرَ بَنِيهِ أَنْ يَأْتَوْهُ، فَيَنْظُرُوا إِلَيْهِ وإلى أخيه.

وأصلُ هذا أنَّ ما حلَّ بِيَعْقُوبَ مِنْ قَوْبِ يوسفَ وَغِيْبَتِهِ عَنْهُ مِخْنَةً، امْتَحَنَتْهُ رَبُّهُ، وَبَلَّيَتْهُ، ابْتِلَاؤُهُ بِهَا؛ [مِمَّا يَبْتَلِي الأَخْيَارَ]^(٨).

أَلَا تَرَى أنَّ يوسفَ لو أرادَ أن يَعْلِمَ أباهُ يَعْقُوبَ عَنْ مَكَانِهِ وحالِهِ لَقَدَّرَ عَلَيْهِ؛ لأنه كانَ يَعْلَمُ بمكانِ أبيه؟ وإنَّ يَعْقُوبَ لا يَعْلَمُ بمكانِ يوسفَ، فلم يَعْلَمْهُ^(٩) إِلَّا بَعْدَ الأَمْرِ بالإعلامِ، والله أعلم؟

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَجْعِ اللَّهِ﴾ قيلَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَجْعِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ أَخْبَرَ أنه لا يَتَأَسُّ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ؛ مَنْ آمَنَ يَعْلَمُ أنه مُتَقَلَّبٌ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ وَرِغْمَتِهِ. وَأَمَّا الْكَافِرُ فَإِنَّهُ لَا يَعْرِفُ رَحْمَةَ اللَّهِ وَلَا تَقَلُّبَهُ فِي رَحْمَتِهِ، فَيَتَأَسُّ مِنْ رَحْمَتِهِ.

نَهَاهُمْ عن الإيَّاسِ لِمَا كانَ عِنْدَهُمْ أنه هالِكٌ حينَ^(١٠) ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْكَبِيرِ﴾ [الآية: ٩٥] لَمَّا قالَ لهم: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ وأخوه كانَ مَخْبُوساً بالسَّرِقَةِ. والمَخْبُوسُ لا يُرَدُّ فِي حُكْمِهِمْ.

أو يقول: نَهَاهُمْ، وإنَّ لم يكونوا آيسين، ثم يقول: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَجْعِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾.

خَبَّرَ عن الله؛ أَخْبَرَ أنه ﴿لَا يَأْتِسُ مِنْ رَجْعِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ وكذلك ما بَشَّرَ إِبْرَاهِيمَ بِالْوَلَدِ حينَ^(١١) /٢٥٧- / ﴿قَالُوا بَشِّرْكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُتَطِيعِينَ﴾ [الحجر: ٥٥] نَهَاهُ عن القنوطِ. ولا يُحْتَمَلُ أن يكونَ إِبْرَاهِيمُ قَانِطاً مِنْ^(١٢) ذلك، لكنه نَهَاهُ، ثم أَخْبَرَ، فقال: ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

والآيةُ تُرَدُّ عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ قَوْلُهُمْ لِقَوْلِهِمْ: إِنَّ صَاحِبَ الْكَبِيرَةِ خَالِدٌ^(١٣) مُخَلَّدٌ فِي النَّارِ، وإنه ليسَ بكافرٍ، وهو آيسٌ على

(١) في الأصل: وم. وأخوه. (٢) من م، في الأصل: أخبرهم. (٣) في الأصل: وم. أو. (٤) في الأصل: وم. من. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل: وم. وغيره. (٨) في الأصل: وم. يبتلي بذلك حسرة عليهما. (٩) في الأصل: وم. يفعله. (١٠) في الأصل: وم. حيث. (١١) في الأصل: وم. حيث. (١٢) في الأصل: وم. عن. (١٣) في الأصل: وم. خالداً.

قولهم من روح الله^(١)، وقد أخبر أنه ﴿لَا يَأْتِسُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾^(٢).

الآية ٨٨

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ أي على يوسف ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ سَمَوْهُ عَزِيزاً لِمَا لَعَلَّهُمْ يُسْمُونَ كُلَّ مَلِكٍ عَزِيزاً، أَوْ سَمَوْهُ عَزِيزاً لِمَا كَانَ عِنْدَ الْمَلِكِ^(٣) عَزِيزاً بقوله: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ [الآية: ٢١] أو^(٤) لِمَا كَانَ لِلنَّاسِ إِلَيْهِ حَاجَةً بِالطَّعَامِ الَّذِي فِي يَدِهِ، وَهُوَ كَانَ غَنِيّاً عَمَّا فِي أَيْدِيهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقولهم: ﴿مَسَنَا وَأَهْلَنَا الْفُتْرُ﴾ قَالَ أَهْلُ التَّوِيلِ: أَصَابَنَا الشَّدَّةُ وَالْبَلَاءُ وَالْجُوعُ ﴿وَحِشْنَا يَضَعَعُ مَرْجَلُهُ﴾ قِيلَ: دَرَاهِمُ نَفَايَةِ مُبْهَرَجٍ، لَا تَنْفَقُ فِي الطَّعَامِ، كَاسِدَةٌ، لِأَنَّهُ كَانَ فِي عِزَّةٍ، وَتَنْفَقُ فِي غَيْرِهِ.

وقَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ ﴿وَحِشْنَا يَضَعَعُ مَرْجَلُهُ﴾ أَي قَلِيلَةٌ، وَكَذَلِكَ قَالَ الْقُتَيْبِيُّ: أَي قَلِيلَةٌ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ عليه السلام هِيَ الْوَزْقُ الرَّدِيئَةُ، لَا تَنْفَقُ حَتَّى تُوَضَّعَ. وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: الْإِزْجَاءُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ الدَّفْعُ وَالسَّوْقُ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَنْزِيهِ سَحَابًا﴾ [النور: ٤٣] أَي يَسُوقُ، وَيَذْفَعُ.

وقَالَ بَعْضُهُمْ: جَاؤُوا بِسَمْنٍ وَصُوفٍ، وَقِيلَ جَاؤُوا بِصُنُوبَرٍ وَحَبِّ^(٥) الْخَضِرَاءِ، أَوْ أَمْثَالِ هَذَا. وَيُشَبَّهُ أَنْ يَكُونَ [قَوْلُهُمْ]^(٦): ﴿مَرْجَلُهُ﴾ كَمَا يُقَالُ: تُرْجَى يَوْمًا يَوْمًا.

وقوله تعالى: ﴿فَأَوْفُوا لَنَا الْكَيْلَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: أَوْفٍ لَنَا الْكَيْلَ بِسَعْرِ الْجِيَادِ، وَتَأْخُذُ الثَّقَايَةُ، وَتَكِيلُ لَنَا الطَّعَامَ بِسَعْرِ الْجِيَادِ. وَلَكِنْ قَوْلُهُ: ﴿فَأَوْفُوا لَنَا الْكَيْلَ﴾ أَي سَلِّمُوا لَنَا الْكَيْلَ تَامًا لِأَنَّ الْإِيْفَاءَ هُوَ التَّسْلِيمُ عَلَى الْوَفَاءِ كَقَوْلِهِ: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْيَمَانَ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

[وقوله تعالى]^(٧): ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ بِفَضْلِ مَا بَيْنَ الثَّمَنِ فِي الْوِزْنِ، وَقِيلَ: مَا بَيْنَ الْكَيْلَيْنِ.

وقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ أَي رُدُّ لَنَا شَيْئاً، يَكُونُ ذَلِكَ صَدَقَةً لَنَا مِنْكَ. لَكِنْ يُشَبَّهُ عَلَى مَا قَالُوا، وَطَلَبُوا مِنْهُ، الصَّدَقَةُ حِطُّ الثَّمَنِ، لِأَنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَجُلُّ لِلْأَنْبِيَاءِ، وَيجوزُ الْحِطُّ لِأَوْلَادِهِمْ^(٨)، وَيجوزُ حِطُّ مَنْ لَا تَجُوزُ صَدَقَتُهُ نَحْوَ الْعَبْدِ الْمَأْذُونِ لَهُ فِي التَّجَارَةِ؛ يَجُوزُ حِطُّهُ، وَلَا تَجُوزُ صَدَقَتُهُ. وَكَذَلِكَ نَبِيُّ اللَّهِ كَانَ يَجُوزُ الشَّرَاءُ لَهُ^(٩) بَدُونِ نَمِيهِ، وَلَا تَجُلُّ لَهُ الصَّدَقَةُ.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿مَسَنَا وَأَهْلَنَا الْفُتْرُ﴾ بِذَهَابِ بَصَرِ أَبِيهِمْ، مَسَّهُمْ بِذَلِكَ وَأَهْلُهُمُ الضُّرُّ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ أَي رُدُّ عَلَيْنَا بِنِيَامِينَ لَعَلَّ اللَّهَ يَرُدُّ بَصَرَهُ عَلَيْهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [قَالَ أَهْلُ التَّوِيلِ: إِنْ كَانُوا عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ، فَكَانَهُمْ ظَنُّوا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ]^(١٠) وَلَوْ أَنَّهُمْ ظَنُّوا أَنَّهُ^(١١) مُسْلِمٌ لَقَالُوا: إِنَّ اللَّهَ يَجْزِيكَ بِالصَّدَقَةِ.

الآية ٨٩

وقوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ﴾ هُوَ ظَاهِرٌ لَا يَحْتَاجُ إِلَى ذِكْرِهِ. وَأَمَّا مَا فَعَلُوا بِأَخِيهِ [فَقَدْ]^(١٢) قَالَ أَهْلُ التَّوِيلِ: هُوَ مَا قَالُوا: إِنَّهُ سَرَقَ، لَكِنْهُمْ لَمْ يَقُولُوا إِلَّا قَدَّرَ مَا ظَهَرَ عِنْدَهُمْ، فَلَمْ يَلْحَقْهُمْ بِذَلِكَ الْقَوْلِ فَضْلُ تَغْيِيرٍ. لَكِنْ يُشَبَّهُ أَنْ يَكُونُوا آذَوْهُ بِأَنْوَاعِ الْأَذَى، وَلَا شَكَّ أَنَّهُمْ كَانُوا يَبْغُضُونَ يَوْسُفَ وَأَخَاهُ حِينَ^(١٣) ﴿قَالُوا لِيُوسُفَ وَأَقْرَبُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْكَ﴾ [الآية: ٨]. وَقَوْلُهُ: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ﴾ قَدْ كَانُوا عَلِمُوا هُمْ مَا فَعَلُوا بِيُوسُفَ، لَكِنَّهُ كَانَهُ قَالَ: هَلْ تَذْكُرُونَ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ أَوْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ذَلِكَ نَاسُونَ^(١٤)؟

يَقُولُ لَهُمْ: اذْكُرُوا مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ، وَتَوَبُّوا إِلَى اللَّهِ عَنْ ذَلِكَ، وَلَا تَكُونُوا جَاهِلِينَ عَنْ ذَلِكَ. أَوْ يَقُولُ لَهُمْ: هَلْ رَجَعْتُمْ، وَتُبْتُمْ عَنْ ذَلِكَ، أَمْ^(١٥) أَنْتُمْ بَعْدُ فِيهِ.

(١) أدرجت بعدها العبارة التالية: وهم يقولون إن صاحب الكبيرة آيس من روح الله. (٢) أدرجت بعدها العبارة التالية: وهم يقولون إن صاحب الكبيرة آيس من روح الله وهو ليس بكافر في الأصل وم. (٣) في الأصل وم: ذلك. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: وجبة. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: لهم. (٩) أدرجت في م قبل: الشراء. (١٠) من م، في الأصل: إن كانوا على دين الإسلام. (١١) من م، في الأصل أنهم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: حيث. (١٤) في الأصل وم: يائسون. (١٥) في الأصل وم: أو.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَنْتَرَجَ جَبَلُوتَ﴾ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: ﴿إِذْ أَنْتَرَجَ جَبَلُوتَ﴾ أَي مُذْنِبُونَ. وَلَكِنْ [عِنْدَنَا] ^(١) ﴿إِذْ أَنْتَرَجَ جَبَلُوتَ﴾ قَدَّرَ يَوْسُفَ وَمَنْزَلَتَهُ، لِأَنَّهُمْ لَوْ عَلِمُوا مَا قَدَّرَ يَوْسُفَ عِنْدَ اللَّهِ؟ وَمَا مَنْزِلَتُهُ؟ مَا ﴿قَالُوا لِيُوسُفَ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا﴾ [الآية: ٨] وَمَا خَطَبُوا أَبَاهُمْ فِي حُبِّ إِبْرَاهِيمَ حِينَ ^(٢) قَالُوا: ﴿إِنَّا أَتَيْنَا لِيُوسُفَ وَأَخُوهُ﴾ [الآية: ٨] وَمَا فَعَلُوا [بِهِ] مَا فَعَلُوا ^(٣) وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٩٠ [وقوله تعالى] ^(٤): ﴿قَالُوا لَوْلَا آيَاتُكَ يَا يُوسُفَ﴾ كَانَهُمْ عَرَفُوا أَنَّهُ يَوْسُفَ، يَقُولُ يَوْسُفَ لَهُمْ: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا نَعْلَمُ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [الآية: ٨٩] أَوْ عَرَفُوا بِقَوْلِ أَبِيهِمْ حِينَ ^(٥) قَالَ: ﴿يَبْنَؤُا أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [الآية: ٨٧] [أَوْ] ^(٦) لَمَّا ذَكَرَ أَخَاهُ، وَرَأَوْهُ مَعَهُ، عَرَفُوا أَنَّهُ يَوْسُفَ. لِذَلِكَ قَالُوا [ذَلِكَ] ^(٧) وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[وقوله تعالى] ^(٨): ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفَ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ يَخْتَمِلْ﴾ [مَنْ يَتَّقِ] مَعَاصِيَهُ ﴿وَيَصْبِرْ﴾ عَلَى بَلَايَاهُ، أَوْ [مَنْ] ^(٩) اتَّقَى مَنَاهِيَهُ، وَصَبَرَ عَلَى آدَاءِ مَا أَمَرَ بِهِ، أَوْ مَنِ اتَّقَى، وَصَبَرَ، فَقَدْ أَحْسَنَ، أَوْ يَقُولُ: إِنَّهُ مَن يَتَّقِ الْجَفَا، وَيَصْبِرْ عَلَى الْبَلَاءِ، فَقَدْ أَحْسَنَ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُتَحِينَ﴾. وَيُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿وَتَصَدَّقَ عَلَيْنَا﴾ أَي رُدُّ أَخَانَا عَلَيْنَا، وَهُوَ مَا ذَكَرْنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٩١ وقوله تعالى: ﴿قَالُوا نَأَلُّهُ لَقَدْ آتَيْنَاكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ قَسَمَ قَدْ اغْتَادُوهُ فِي فَخْوَى كَلَامِهِمْ عَلَى غَيْرِ إِرَادَةِ يَمِينٍ بِذَلِكَ. هَكَذَا عَادَةُ الْعَرَبِ، وَإِلَّا كَانَ يَعْلَمُ يَوْسُفَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ آثَرَهُ عَلَيْهِمْ.

وَيُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ الْقَسَمُ هَهُنَا عَلَى تَأْكِيدِ مَعْرِفَتِهِمْ فَضْلَهُ وَمَنْزِلَتَهُ؛ أَي لَمْ تَزَلْ [كَمَا] ^(١٠) كُنْتَ مُؤَثِّرًا مَفْضَلًا عَلَيْنَا.

[وقوله تعالى] ^(١١): ﴿وَلَا تَكُنَّا لَخَطِئِينَ﴾ أَي وَقَدْ كُنَّا خَاطِئِينَ فِي مَا كَانَ مِنَّا إِلَيْكَ مِنَ الصَّنِيعِ.

[وَيَخْتَمِلُ] ^(١٢) أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُمْ ^(١٣) ﴿وَأَتَيْنَاكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ فِي مَا ﴿قَالُوا لِيُوسُفَ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا﴾ [الآية: ٨] أَوْ لِمَا كَانَ يُؤَثِّرُهُمَا عَلَيْهِمْ قَالُوا ^(١٤): كُنْتَ مُؤَثِّرًا [عَلَيْنَا] ^(١٥) عَلَى مَا كَانَ أَبُونَا يُؤَثِّرُكَ عَلَيْنَا، وَقَدْ كُنَّا خَاطِئِينَ.

الآية ٩٢ فقال يوسف: ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ قَالَ الْقَتِيبِيُّ: قَوْلُهُ: ﴿لَا تَتْرِبَ﴾ أَي لَا تَغْيِّرَ عَلَيْكُمْ بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ بِمَا صَنَعْتُمْ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ أَي لَا تَغْيِصَ عَلَيْكُمْ.

وقيل: أَصْلُ التَّرِيبِ الْإِفْسَادُ؛ يَقَالُ: تَرَبَّ عَلَيْنَا الْأَمْرُ أَفْسَدَهُ.

وقال أَبُو عَوْسَجَةَ: التَّرِيبُ الْمَلَامَةُ؛ يَقُولُ: لَا لَوْمَ عَلَيْكُمْ فِي صَنِيعِكُمْ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ أَي لَا أُغَيِّرْكُمْ بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ أَبَدًا، وَلَا أُعِيدُهُ ^(١٦) عَلَيْكُمْ.

وَهُوَ يَخْتَمِلُ هَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: لَا تَغْيِرَ عَلَيْكُمْ، وَلَا مَلَامَةً؛ أَي لَيْسَ فِي الْعَقْلِ تَغْيِيرٌ، وَلَا مَلَامَةٌ إِذْ أَتَيْتُمْ، وَأَقْرَبُتُمْ بِالْخَطَا.

وهكذا كُلُّ مَنْ أَذْنَبَ ذَنْبًا، أَوْ أَزْكَبَ كَبِيرَةً، ثُمَّ انْتَرَعَ عَنْهَا، وَتَابَ مِنْهَا، لَا يُغَيَّرُ هُوَ عَلَيْهَا، وَلَا يُلَامُ. وَكَذَلِكَ قِيلَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَنْتَابِرُوا بِلِقَائِي﴾ [الحجرات: ١١] ذَكَرَ أَنَّهُمْ كَانُوا يُغَيِّرُونَ أَهْلَ الْكُفْرِ فِي كُفْرِهِمْ، وَيُنَابِزُونَهُمْ، ثُمَّ اسْلَمُوا، فَتَنَّهُوا أَنْ يُنَابِزُوهُمْ، وَيَضَعُوا بِهِمْ مِثْلَ صَنِيعِهِمْ بِهِمْ فِي كُفْرِهِمْ. وَلَوْ وَجَبَ التَّغْيِيرُ وَالْمَلَامَةُ بَعْدَ الْإِنْتِزَاعِ عَنْهُ وَالتَّوْبَةِ، أَوْ جَازَ ^(١٧) ذَلِكَ لَكَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ مُغَيَّرِينَ مَلَامِينَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ الْكُفْرِ فِي الْإِبْتِدَاءِ. فَهَذَا مِمَّا لَا يَجِلُّ فِي الْعَقْلِ.

وَالثَّانِي قَوْلُهُ: ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ لَا أُغَيِّرْكُمْ عَلَى مَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه أَي لَا ذِكْرَ مَا كَانَ مِنْكُمْ إِلَيْنَا. أَمْتُهُمْ عَنْ أَنْ

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث.

(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

(١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: قوله. (١٤) في الأصل وم: فقالوا. (١٥) ساقطة من الأصل وم.

(١٦) في الأصل وم: أعبره. (١٧) في الأصل وم: يجوز.

يذكر شيئاً مما كان منهم إليه. ولذلك قال: ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ تَرْغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ [الآية: ١٠٠] دَكَرَ / ٢٥٧ - ب / أن الشيطان هو الذي فعل ما كان بينه وبين إخوته. وكذلك فعل حين^(١) قال: ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ تَرْغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ أضاف ذلك إلى الشيطان، ولم يُصِفَ إلى إخوته.

وقوله تعالى: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ قَطَعَ فِيهِ الْقَوْلَ بِالمَغْفِرَةِ حينَ أَقْرَأُوا بِالْخَطَايَا، وتابوا عما فعلوا. وهكذا كلُّ مَنْ تابَ عَنْ ذَنْبٍ ارْتَكَبَهُ، وَتَرْغَ عَنْهُ، أَنْ يَقْطَعَ الْقَوْلَ فِيهِ بِالمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ.

وقوله تعالى: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ يُخْرِجُ عَلَى الدَّعَاءِ لَهُمْ وَعَلَى الْإِخْبَارِ بِالرُّوحِ أَنَّهُ يَغْفِرُ لَهُمْ، أَوْ قَدْ غَفَرَ لَهُمْ، أَوْ يَقُولُ: اسْتَغْفِرُوا اللَّهَ [مِنْ]^(٢) الذي كَانَ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَكُمْ يَغْفِرُ لَكُمْ ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ لِأَنَّ كُلَّ مَنْ يَرْحَمُ مِنَ الْخَلَائِقِ إِنَّمَا يَرْحَمُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ إِلَيْهِ. فَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ بِمَا قُلْنَا عَلَى مَا قُلْنَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْمُنْكَرِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧] لَأَنَّ مَنْ يَحْكُمُ مِنَ الْخَلَائِقِ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا يَحْكُمُ بِحُكْمٍ نَالَهُ مِنْهُ.

الآية ٩٣ وقوله تعالى: ﴿اذْهَبُوا بِمِصْرِي هَذَا فَأَقْرَأُوا عَلَى وَجْهِ أَبِي بَاصِرًا﴾ دَلَّ هَذَا مِنْ يَوْسُفَ حِينَ^(٣) قَطَعَ فِيهِ الْقَوْلَ: إِنَّهُ يَصِيرُ بَصِيرًا أَنَّهُ [بِأَمْرِهِ]^(٤) قَالَ هَذَا لَا عَنْ رَأْيٍ مِنْهُ وَاجْتِهَادٍ إِذْ قَطَعَ الْقَوْلَ فِيهِ: إِنَّهُ إِذَا أَلْقِيَ عَلَى وَجْهِهِ يَصِيرُ بَصِيرًا.

وقوله تعالى: ﴿بَصِيرًا﴾ هَذَا يُخْرِجُ عَلَى وَجْهِينَ.

أحدهما: [بَصِيرًا]^(٥) ﴿بَصِيرًا﴾ عَلَى مَا ذَكَرْنَا.

والثاني: بِأَتَيْنِي ﴿بَصِيرًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَتُونِي بِأَقْلَامِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أَرَادَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، حِينَ^(٦) أَمَرَهُمْ أَنْ يَأْتُوا بِأَهْلِهِمْ أَجْمَعِينَ أَنْ يَبْرُرَهُمْ، وَيُكْرِمَهُمْ، حِينَ تَابُوا عَمَّا فَعَلُوا بِهِ، وَأَقْرَأُوا بِالْخَطِ فِي أَمْرِهِ.

الآية ٩٤ وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَ الْيُوسُفَ قِيلَ: خَرَجْتَ، وَفَضَلْتَ، وَانْفَضَلْتَ وَاحِدًا﴾ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ قَالَ أَهْلُ التَّوِيلِ: كَانَ بَيْنَهُمَا ثَمَانُونَ^(٧) فَرَسَخًا، تُغْبَرُ بَيْنَ مِصْرَ وَبَيْنَ كَنْعَانَ مَكَانَ يَعْقُوبَ. وَقِيلَ: مَسِيرَةُ أَيَّامٍ [قَدَّرُ مَا]^(٨) بَيْنَ الْكُوفَةِ وَالْبَصْرَةِ. وَلَا حَاجَةَ لَنَا إِلَى مَعْرِفَةِ ذَلِكَ: أَنْ كَمْ كَانَ بَيْنَهُمَا مِوَى أَنَا نَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ أَيَّامٍ.

ثُمَّ وَجَدَ يَعْقُوبُ رِيحَ يَوْسُفَ مِنْ ذَلِكَ الْمَكَانِ، وَلَمْ يَجِدْ غَيْرَهُ مِمَّنْ كَانَ مَعَهُ، فَذَلِكَ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، حِينَ^(٩) وَجَدَ رِيحَهُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ، لَمْ يَجِدْ ذَلِكَ غَيْرَهُ. وَذَلِكَ مِنْ آيَاتِ^(١٠) الْإِشَارَةِ وَالسُّرُورِ الَّذِي يَدْخُلُ فِيهِ بِقُدُومِهِ.

قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّوِيلِ: ذَلِكَ الْقَمِيصُ هُوَ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ، كَانَ اللَّهُ كَسَاهُ إِبْرَاهِيمُ إِسْحَاقَ، وَكَسَاهُ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ، وَكَسَاهُ [يَعْقُوبَ]^(١١) يَوْسُفَ. كَذَلِكَ وَجَدَ رِيحَهُ لِأَنَّهُ كَانَ مِنْ ثِيَابِ الْجَنَّةِ. فَهُوَ، وَإِنْ ثَبَتَ مَا قَالُوا، [أَنَّهُ آيَةٌ]^(١٢)، وَلَمْ يَجِدْ غَيْرَهُ، وَكَانَ أَيْضًا هُوَ لَا يَجِدُ ذَلِكَ الرِّيحَ قَبْلَ فُصُولِ الْعِيرِ، وَكَانَ [ذَلِكَ الْقَمِيصُ]^(١٣) مَعَ يَوْسُفَ. اخْتَمَلَ مَا قَالُوا، أَوْ اخْتَمَلَ أَنْ يَكُونَ قَمِيصًا [مِنْ قَمِيصِهِ]^(١٤) وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ قِيلَ: تُخَرِّفُونِ، وَقِيلَ: تُهَرِّمُونِ، وَقِيلَ: تُكْذِبُونِ، وَقِيلَ: تُضْعِفُونِ، وَقِيلَ: تُعْجِزُونِ، وَقِيلَ: تُجْهَلُونَ، وَقِيلَ: تُسَفِّهُونَ، وَقِيلَ: تُحَمِّقُونَ، وَقِيلَ: لَوْلَا أَنْ تَقُولُوا: ذَهَبَ عَقْلُكَ.

وَالْمُفَنِّدُ مَعْرُوفٌ عِنْدَ النَّاسِ، هُوَ الَّذِي يَتْلُغُ فِي الْكِبَرِ غَايَتَهُ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيءُ لَكَ أَتَزُولُ الْأُمُورُ﴾ [النحل: ٧٠].

وقوله تعالى: ﴿لَوْلَا﴾ إِذَا كَانَ عَلَى الْإِيتِدَاءِ فَهُوَ عَلَى النَّهْيِ، أَيْ لَا تُفَنِّدُونِ، وَإِذَا كَانَ عَلَى الْخَبَرِ فَهُوَ عَلَى التَّنْفِي كَقَوْلِهِ: ﴿لَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾ [يونس: ٩٨] أَيْ لَمْ يَنْفَعِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: ثَمَانِينَ. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: أُنَارَ. (١١) م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: فَذَلِكَ. (١٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

الآية ٩٥

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ عَظِيمٍ﴾ هو ما ذكرنا أنه يمين اعتادوه في كلامهم على غير إرادة القسم به ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ عَظِيمٍ﴾ قيل: في حب يوسف وذكره القديم. كان عندهم بأنه هالك، لذلك^(١) أنكروا عليه، وخطووه في ما يجد من ريجو، وعنده أنه في الأحياء^(٢). لذلك كان ما ذكروا، والله أعلم.

الآية ٩٦

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْفَهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بِصِيرًا﴾ أي رجع بصيراً على ما قال أهل التاويل: البشير كان يهوذا، وقيل: البريد، ولا ندرى من كان. وليس بنا إلى معرفة ذلك حاجة سوى أن المدفوع إليه الثوب، كان واحداً، وإن قال في الإيذاء: ﴿أَذْهَبُوا بِمِصْرَىٰ هَذَا فَالْقُوهُ عَلَىٰ رِجْلَيْهِ﴾ [الآية: ٩٣].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنَّي أَظُنُّ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال بعض أهل التاويل: ذلك أن يعقوب قال لهم قبل ذلك: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَخُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الآية: ٨٦] أنتم من تصديق رؤيا يوسف، وأنه حي، وكان يعلم هو من الله أشياء [لا يعلمونها]^(٣).

الآيتان ٩٧ و٩٨

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ ﴿قَالَ﴾ يعقوب ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ طلبوا من أبيهم الاستغفار، فأخّر لهم^(٤) ذلك إلى وقت^(٥)، وطلبوا من يوسف العفو، وأقروا له بالخطيئة والذنب، فعفا^(٦) عنهم وقت سؤالهم العفو.

فمن الناس من يقول: إنما أخّر يعقوب الاستغفار، وعفا عنهم يوسف، لأن قلب الشاب يكون أليق وأرق من قلب الشيخ، لذلك كان ما كان. لكن هذا ليس بشيء، إنما يكون هذا في عوام من الناس. أما الأنبياء، كلما مضى وقت فتزداد قلوبهم ليلاً ورقة وخشوعاً.

ومنهم من يقول: إنما كان كذلك لأن وجد يعقوب كان أكثر من وجد يوسف، لذلك كان أجابهم يوسف وقت سؤالهم العفو، وأخّر^(٧) يعقوب إلى وقت.

قال الشيخ أبو منصور، رحمه الله: والوجه فيه عندنا، والله أعلم، أنهم إنما سألوا يعقوب، وطلبوا منه الاستغفار من ربهم ليكون لهم شافعاً، فأخّر ذلك إلى وقت الاستغفار والشفاعة؛ إذ ليست^(٨) كل الأوقات تكون وقتاً للاستغفار. وطلبوا من يوسف العفو منه، فعفا وقت طلبهم منه العفو.

لهذا الوجه يحتل أن يخرج معناه، والله أعلم، وأن يكون يعقوب أخّر الاستغفار لأن الذنب في ذلك كان بينهم وبين ربهم، وأخّر [الاستغفار]^(٩) إلى أن يحيى الإذن من ربّه. وأما الذنب في يوسف [فهو]^(١٠) في ما بينهم وبين يوسف، فعفا عنهم من ساعته.

ويحتل قوله: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ إن استغفرتهم أنتم، أو ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ إذا جاء وقته. فهو ما قال ابن عباس رضي الله عنه إنه أخّر [إلى]^(١١) وقت الاستغفار إلى السحر، أو أن يكون أخّر إلى أن يقدم شيئاً بين يدي الاستغفار والشفاعة ليكون أسرع إجابة.

الآية ٩٩

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَىٰ أَوْتِيهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَايِينَ﴾ ظاهر هذا أن يوسف كان تلقاهم خارجاً من المصير، فقال لهم: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَايِينَ﴾ ثم لما دخلوا المصير آوى إلى نفسه أبويه، وضمهما إليه.

ويشبه أن يكون قال لهم هذا القول وقت ما قال لهم: ﴿وَأَتَوْبُ بِأَفْئِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الآية: ٩٣]. ثم جاؤوا هم،

(١) في الأصل وم: لذكر. (٢) في الأصل وم: الأخبار. (٣) في الأصل وم: ما لا يعلمون هم. (٤) في الأصل وم: هم. (٥) من م، في الأصل: الوقت. (٦) من م، في الأصل: ضعفاً. (٧) في الأصل وم: وأخر. (٨) في الأصل وم: ليس. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) أدرج في الأصل وم. (١٢) أدرج في الأصل وم قبلها قوله تعالى: ﴿وَدَخَلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَايِينَ﴾.

وَدَخَلُوا مِصْرَ، صَمَّ إِلَيْهِ أَبَوَاهُ، وَأَمْرُهُ^(١) إِيَّاهُمْ أَنْ يَدْخُلُوا مِصْرَ آمِنِينَ لَأَنَّ الْمِصْرَ كَانَتْ أَهْلُهُ أَهْلَ كُفْرٍ، فَكَانَهُمْ خَافُوا الْمَلِكَ الَّذِي كَانَتْ فِيهِ، فَذَكَرَ لَهُمُ الْأَمْنَ لذلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَذِكْرُ الثُّبَاتِ فِيهِ لَأَنَّهُ وَعَدَ مِنْهُ وَعَدَ لَهُمْ، وَالْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانُوا [لا] ^(٢) يَعْدُونَ شَيْئًا إِلَّا وَيَسْتَنْتُونَ فِي آخِرِهِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنْ فَعَلْتُ ذَلِكَ غَدًا﴾ [آلَا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ] [الكهف: ٢٣ و ٢٤] وَإِنَّمَا ذَكَرَ الثُّبَاتِ فِي الْأَمْنِ، لَمْ يَذْكُرْهُ^(٣) فِي الدَّخُولِ، لَأَنَّ الدَّخُولَ مِنْهُ أَمْرٌ، وَمَا ذَكَرَ مِنَ الْأَمْنِ، فَهُوَ وَعْدٌ، فَهُوَ مَا ذَكَرْنَا أَنَّهُ يُسْتَنْتَى فِي الْوَعْدِ، وَلَا يُسْتَنْتَى فِي الْأَمْرِ.

الآية ١٠٠

وقوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ / ٢٥٨ - أ / يُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿ءَاوَيْتُ إِلَيْهِ أَبَوَيَّ﴾ هو ما ذَكَرَ مِنْ رَفَعِهِ إِيَّاهُمَا عَلَى الْعَرْشِ، وَخَصَّ بِالذِّكْرِ^(٤) أَبَوَيْهِ بِالرَّفْعِ عَلَى الْعَرْشِ.

فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ رَفَعَ أَبَوَيْهِ وَإِخْوَتَهُ^(٥) جَمِيعًا لَأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَرْفَعْهُمْ، وَقَدْ كَانَ قَدْ عَفَا عَنْهُمْ لَمَّا أَقْرَأُوا بِالْحَطْلِ، وَقَالَ: ﴿لَا تَنْزِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ [الآية: ٩٢] لَكَانَ يَقَعُ عَنْدهُمْ أَنَّهُ قَدْ بَقِيَ شَيْءٌ مِمَّا كَانَ مِنْهُمْ إِلَيْهِ. لَكِنَّهُ خَصَّ أَبَوَيْهِ بِالذِّكْرِ مِنْهُمْ، وَمَجَّدَهُمَا، عَلَى مَا يُخَصُّ الْأَشْرَافَ وَالْأَعَاضِمَ نَحْوَ قَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ نُبِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ [هود: ٩٦ و ٩٧] وَنَحْوَهُ.

وَدَلَّ رَفْعُ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ عَلَى أَنَّ اتِّخَاذَ الْعَرْشِ وَالْجُلُوسَ عَلَيْهِ لَا بَأْسَ بِهِ؛ إِذْ لَوْ كَانَ لَا يَجِلُّ، وَلَا يُبَاحُ ذلِكَ لَكَانَ يَوْسُفُ لَا يَتَّخِذُهُ، وَلَا كَانَ يَعْقُوبُ يَجْلِسُ عَلَيْهِ. دَلَّ ذلِكَ مِنْهُمَا أَنَّ ذلِكَ مُبَاحٌ، لَا بَأْسَ بِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَحَرَّوْا لَمْ سُبْحًا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ مِنْ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: كَانَتْ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي مَا بَيْنَهُمُ السُّجُودَ [يَسْجُدُ]^(٦) بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ مَكَانَ مَا يُسَلِّمُ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ. وَأَمَّا الْيَوْمَ فَهُوَ غَيْرُ مُبَاحٍ، وَإِنَّمَا التَّحِيَّةُ فِي السَّلَامِ. لَكِنَّ السُّجُودَ لِدُونِ اللَّهِ لَيْسَ يُكْرَهُ لِنَفْسِ السُّجُودِ، وَإِنَّمَا يُكْرَهُ، وَيُنْهَى عَمَّا فِي السُّجُودِ، وَهُوَ الْعِبَادَةُ.

وَالْتَسْفُلُ لَا يَجِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَجْعَلَ الْعِبَادَةَ وَالتَّسْفُلَ لَهُ دُونَ اللَّهِ. وَأَمَّا نَفْسُ السُّجُودِ فَإِنَّهُ كَالْقِيَامِ وَالْقُعُودِ وَغَيْرِهِ مِنْ الْأَحْوَالِ يَكُونُ فِيهَا الْمَرَادُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿وَحَرَّوْا لَمْ سُبْحًا﴾ أَيِ خَرَّوْا لَهُ خَاضِعِينَ لَهُ ذَلِيلِينَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَحَرَّوْا لَمْ سُبْحًا﴾ أَيِ خَرَّوْا لَهُ سُبْحًا شُكْرًا لَهُ لِمَا جَمَعَ بَيْنَهُمْ، وَرَفَعَ مَا كَانَ بَيْنَهُمْ، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَتَابَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ أَيِ حَقَّقَ تِلْكَ الرُّؤْيَا الَّتِي رَأَيْتُهَا مِنْ قَبْلُ، وَجَعَلَهَا صِدْقًا. رَأَى يَوْسُفُ رُؤْيَاهُ [فَتَحَقَّقَتْ]^(٧) بَعْدَ حِينٍ وَوَقْتُ وَزَمَانٍ طَوِيلٍ.

فَهَذَا يَدُلُّ أَنَّ الْخُطَابَ إِذَا قَرَعَ السَّمْعَ يَجُوزُ أَنْ يَأْتِيَ بَيَانُهُ^(٨) مِنْ بَعْدِ حِينٍ وَزَمَانٍ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَقْرُونًا بِهِ. وَلَيْسَ فِي تَأْخُرِ بَيَانِ الْخُطَابِ تَلَيُّسٌ وَلَا تَشْبِيهُ عَلَى مَا قَالَ بَعْضُ النَّاسِ.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بَ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: سُجِنْتُ، وَحُسِنَتْ، وَأَمثالُهُ مِمَّا كَانَ ابْتِلَاءُ اللَّهِ بِهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ قِيلَ: مِنَ الْبَادِيَةِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ بَادِيَةِ أَصْحَابِ الْمَوَاشِي.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ تَرْغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: تَرْغَ أَيِ فَرَّقَ؛ بَعْدَ مَا فَرَّقَ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي. وَكَانَ التَّرْغُ هُوَ الْإِفْسَادُ عَلَى مَا ذَكَرَهُ أَهْلُ التَّأْوِيلِ؛ أَيِ بَعْدَ مَا أَفْسَدَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي. وَأَضَافَتْ ذلِكَ إِلَى الشَّيْطَانِ لِمَا كَانَ قَالَ لَهُمْ: ﴿لَا تَنْزِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ [الآية: ٩٢] حِينَ أَقْرَأُوا لَهُ بِالْفَضْلِ وَالْحَطْلِ فِي فِعْلِهِمْ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾ لَطِيفٌ هُوَ اسْمٌ لِشَيْئَيْنِ:

[أحدهما:]^(٩) اسْمُ الْبِرِّ وَالْعَطْفِ. يُقَالُ: فُلَانٌ لَطِيفٌ أَيِ بَارٌّ عَاطِفٌ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَأَمْرُهُمْ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: يَذْكُرُ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: يَذْكُرُ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَالْإِخْوَةُ.

(٦) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: بَيَانُهُ. (٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

الثاني: يُقَالُ: لَطِيفٌ أَيُّ عَالَمٍ بِمَا يَلْطَفُ مِنَ الْأَشْيَاءِ، وَيَضَعُرُّ كَمَا يَعْلَمُ بِمَا يَعْظُمُ، وَيَجَسُّمُ، أَوْ يُقَالُ: لَطِيفٌ أَيُّ يَعْلَمُ الْمُسْتَوْرَ مِنَ الْأُمُورِ الْخَفِيَّةِ عَلَى الْخَلْقِ كَمَا يَعْلَمُ الظَّاهِرَةَ مِنْهَا وَالْبَادِيَةَ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ، ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ الْغَيْبَ وَهُوَ الْغَنِيُّ﴾ [طه: ٧].

يُقَالُ: إِنَّهُ عَظِيمٌ وَلَطِيفٌ لِيُعْلَمَ أَنَّ لَيْسَ يَفْهَمُ مِنْ عَظَمِهِ مَا يَفْهَمُ مِنْ عَظَمِ الْخَلْقِ؛ إِذْ لَا يَجُوزُ فِي [أَحَدٍ مِنْ] ^(١) الْخَلْقِ أَنْ يَكُونَ عَظِيمًا لَطِيفًا، وَيَجُوزُ فِي اللَّهِ لِيُعْلَمَ أَنَّ مَا يَفْهَمُ مِنْ هَذَا غَيْرُ مَا يَفْهَمُ مِنَ الْآخِرِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ بِمَا كَانَ، وَيَكُونُ، وَمَا ظَهَرَ، وَمَا بَطَّنَ، وَمَا يُسَرُّ، وَمَا يُغْلَنُ، وَبِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ: بِعَوَاقِبِ الْأُمُورِ وَبِدَايَتِهَا ﴿الْحَكِيمُ﴾ حَكَمَ يَعْلَمُ، وَوَضَعَ كُلَّ شَيْءٍ مَوْضِعَهُ، لَمْ يَحْكَمْ بِجَهْلٍ وَلَا غَفْلَةٍ وَلَا سَفَهٍ عَلَى مَا يَحْكُمُ الْخَلْقُ. تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ غُلُوًّا كَبِيرًا.

ثَلَاثُ آيَاتٍ فِي سُورَةِ يُوسُفَ عَلَى الْمَعْتَزَلَةِ: قَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْنَّ﴾ [الآية: ٣٣] أَخْبَرَ أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَصْرِفْ عَنْهُ ^(٢) كَيْدَهُنَّ مَالَ إِلَيْهِنَّ، وَهَمْ يَقُولُونَ: قَدْ صَرَفَ عَنْ كُلِّ أَحَدٍ السُّوءَ وَالْكَيْدَ، لَكِنْ لَمْ يَصْرِفْ عَنْهُ.

كَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالشُّوْءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [الآية: ٥٣] أَخْبَرَ [أَنَّهُ] ^(٣) إِذَا رَحِمَهُ امْتَنَعَ عَنِ السُّوءِ وَالْأَمْرِ بِهِ، وَهَمْ يَقُولُونَ: إِنَّهُ، وَإِنْ رَحِمَهُ ^(٤)، لَا يَمْتَنِعُ عَنِ السُّوءِ وَلَا الْأَمْرِ بِهِ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ﴾ [الآية: ٥٦] وَهَمْ يَقُولُونَ: لَيْسَ لَهُ أَنْ يُصِيبَ أَحَدًا دُونَ أَحَدٍ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَلَا أَنْ يَخْصَّ أَحَدًا بِذَلِكَ.

الآية ١٠١ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ قَالَ أَبُو بَكْرِ الْأَصْمُ: ذَكَرَ ﴿مِنَ الْمُلْكِ﴾ لِأَنَّهُ لَمْ يُؤْتِهِ كُلُّ الْمُلْكِ، إِذْ كَانَ فَوْقَهُ مُلْكٌ أَكْبَرُ مِنْهُ. لَكِنْ لَا لِهَذَا ذَكَرَ ﴿مِنَ الْمُلْكِ﴾ إِذْ مَعْلُومٌ أَنَّهُ لَمْ يُؤْتِ لِأَحَدٍ كُلِّ مُلْكٍ الدُّنْيَا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦] وَيَكُونُ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ مُلُوكٌ. وَقَالَ مُقَاتِلٌ: مِنْ صَلَةٍ؛ كَأَنَّهُ قَالَ: رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي الْمُلْكَ ^(٥).

لَكِنَّ الرُّجُوعَ فِيهِ مَا ذَكَرْنَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِمَّا تَأْوِيلُ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ رَبِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ إِلَى آخِرِ مَا ذَكَرَ قَدْ تَمَّ [عَلَى دَعَائِهِ وَسُؤَالِهِ] ^(٦) رَبُّهُ مَا سَأَلَ إِحْسَانَهُ إِلَيْهِ وَمَحَابِدَهُ وَصَنَائِعَهُ لِيَكُونَ ذَلِكَ لَهُ وَسِيلَةً إِلَى رَبِّهِ فِي الْإِجَابَةِ.

وَفِي ذَلِكَ دَلَالَةٌ نَقَضَ قَوْلَ الْمَعْتَزَلَةِ مِنْ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: يَقُولُونَ: إِنَّ كُلَّ أَحَدٍ، شَفِيعُهُ عَمَلُهُ، فَيُوسَفُ لَمْ يَذْكُرْ مَا كَانَ مِنْهُ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا، فَافْعَلْ بِي كَذَا، وَلَكِنْ ذَكَرَ نِعَمَ اللَّهِ وَإِحْسَانَهُ إِلَيْهِ.

وَالثَّانِي: مِنْ قَوْلِهِمْ: إِنَّهُ لَا يُؤْتِي أَحَدًا مُلْكًا وَلَا نُبُوَّةً إِلَّا بَعْدَ الْإِسْتِخْفَاقِ، وَمِنْ قَوْلِهِمْ: إِنَّ كُلَّ أَحَدٍ هُوَ الْمُتَعَلِّمُ، لَا ^(٧) أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ أَحَدًا. وَقَدْ أَضَافَ يُوسُفُ التَّعْلِيمَ إِلَى اللَّهِ حِينَ ^(٨) قَالَ: ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِمَّا تَأْوِيلُ الْأَحَادِيثِ﴾ وَهَمْ يَقُولُونَ: لَمْ يَعْلَمْهُ، وَلَكِنْ هُوَ تَعَلَّمَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِمَّا تَأْوِيلُ الْأَحَادِيثِ﴾ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: تَعْبِيرُ الرُّوْيَا، وَلَكِنَّ الْأَحَادِيثَ، هِيَ الْأَنْبَاءُ، وَالتَّأْوِيلُ هُوَ عِلْمُ الْعَاقِبَةِ، وَعِلْمُ مَا يَأْوُلُ إِلَيْهِ الْأَمْرُ؛ كَأَنَّهُ قَالَ: عَلَّمْتَنِي مُسْتَقَرَّ الْأَنْبَاءِ وَنَهَائِهَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِكُلِّ نَبَرٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام: ٦٧] وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: عني. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: رحم. (٥) أدرج قبلها في الأصل وم: من. (٦) في الأصل وم: دعاءه سؤاله. (٧) من م، في الأصل: لا. (٨) في الأصل وم: حيث.

وقوله تعالى: ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كأنه على النداء والدعاء ذَكَرَ؛ يا فاطر السموات والأرض، لذلك انتصب.
وقوله تعالى: ﴿أَنْتَ وَلِيُّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ تَأْوِيلُهُ: أَنْتَ وَلِيُّ نِعْمَتِي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كَمَا يُقَالُ:
فُلَانٌ وَلِيُّ نِعْمَةٍ فُلَانٍ، وَيَحْتَمِلُ: أَنْتَ أَوَّلَى بِي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، أَوْ أَنْتَ رَبِّي وَسَيِّدِي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وقوله تعالى: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ تَمَتَّى ﷺ الشُّوقُ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْإِخْلَاصِ لِلَّهِ ^(١) وَالْإِلْحَاقُ
بِالصَّالِحِينَ. فَهُوَ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بِذَلِكَ، أَنَّ اللَّهَ قَدْ آتَاهُ النِّهَايَةَ فِي الشَّرَفِ وَالْمَجْدِ فِي الدُّنْيَا دِينًا وَدُنْيَا لِأَنَّ نِهَآيَةَ الشَّرَفِ
فِي الدِّينِ، هِيَ النُّبُوَّةُ وَالرِّسَالَةُ، وَنِهَآيَةُ الشَّرَفِ فِي الدُّنْيَا الْمُلْكُ، فَاحْبَبَ لَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِثْلُهُ، فَقَالَ: ﴿تَوَفَّنِي
مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾.

ثُمَّ يَحْتَمِلُ سَوَالُهُ أَنْ يُلْحِقَهُ بِالصَّالِحِينَ بِكُلِّ صَالِحٍ، وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ سَأَلَهُ أَنْ يُلْحِقَهُ بِالصَّالِحِينَ بِأَبَائِهِ وَأَجْدَادِهِ وَبِجَمِيعِ
الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ.

وقوله تعالى: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ هُوَ يَنْقُضُ عَلَى الْمَعْتَزِلَةِ أَيْضًا لِأَنَّ مِنْ ^(٢) قَوْلِهِمْ: أَنَّهُ أُعْطِيَ كُلَّ أَحَدٍ،
لَيْسَ لَهُ إِلَّا يَتَوَقَّاهُ مُسْلِمًا؛ فَيَكُونُ فِي دَعَائِهِ عَابِتًا عَلَى قَوْلِهِمْ: لَا يَمْلِكُ أَنْ يَتَوَقَّاهُ مُسْلِمًا لِأَنَّ مِنْ قَوْلِهِمْ: أَنَّهُ أُعْطِيَ كُلَّ أَحَدٍ
مَا بِهِ يَكُونُ مُؤْمِنًا حَتَّى لَمْ يُبْقِ عِنْدَهُ شَيْئًا، وَمَنْ سَأَلَ / ٢٥٨ - ب/ آخَرَ شَيْئًا، يَغْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ عِنْدَهُ، فَهُوَ يَهْزَأُ بِهِ، أَوْ يَكُونُ
كَاتِمًا ^(٣) النِّعْمَةَ، وَفِي كِتْمَانِ النِّعْمَةِ كُفْرَانُهَا.

الآية ١٠٢ وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ الْآيَةُ ﴿ذَلِكَ﴾ أَيِ خَبَرِ يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ، وَقَصَصُهُمُ الَّتِي
قَصَصْنَا عَلَيْكَ، وَاخْبَرْنَاكَ، مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ لَمْ تَشْهَدْهَا أَنْتَ، وَلَمْ تَحْضُرْهَا لِقَوْلِهِ: ﴿مَا كُنْتُ تَعْلَمُهَا أَنْتَ
وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ [هود: ٤٩] لِيُعْلَمَ أَنَّكَ إِنَّمَا عَلِمْتَ، وَعَرَفْتَهَا، بِاللَّهِ وَخِيَا، لِيَذْلُكُ عَلَى رِسَالَتِكَ وَنُبُوءَتِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.
وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ بِأَيِّهِمْ وَأَخِيهِمْ. أَمَّا مَكْرُهُمْ بِأَيِّهِمْ [فَهُوَ حِينَ] ^(٤) ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا
مَا لَكَ لَا تَأْتِنَا عَلَى يُسُوفَ وَإِنَّا لَمُتَّصِحُونَ﴾ [الآية: ١١] أَخْبَرُوهُ أَنَّهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ، فَخَانُوهُ، وَمَكْرُهُمْ بِأَخِيهِمْ حِينَ ^(٥) قَالُوا
﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبَ وَإِنَّا لَهُ لَنَحْفُظُونَ﴾ [الآية: ١٢] ضَمِينًا لَهُ الْخِفَظُ، فَلَمْ [يَحْفَظُوهُ، بَلْ مَكَّرُوا بِهِمَا] ^(٦) جَمِيعًا.
وَالْمَكْرُ هُوَ الْإِخْتِيَالُ فِي اللُّغَةِ وَالْأَخْذُ عَلَى جِهَةِ الْأَمْنِ، [وَقَدْ فَعَلُوهُ] ^(٧) بِأَيِّهِمْ يَعْقُوبَ وَأَخِيهِمْ يُوسُفَ ﷺ.

الآية ١٠٣ وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أَيِ مَا أَكْثَرَ النَّاسِ بِمُؤْمِنِينَ، وَلَوْ حَرَصْتَ يَا
مُحَمَّدُ أَنْ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦] كَانَ النَّبِيُّ ﷺ
بَلَّغَ مِنْ شَفَقَتِهِ وَرَحْمَتِهِ عَلَى الْخَلْقِ وَرَغْبَتِهِ فِي إِيْمَانِهِمْ حَتَّى كَادَتْ نَفْسُهُ تَهْلِكُ فِي ذَلِكَ [حَتَّى قَالَ لَهُ] ^(٨) ﴿فَلَمَّا لَكَ بِخُجْرَتِكَ
نَفْسَكَ﴾ الْآيَةُ [الكهف: ٦، والشعراء: ٣] وَقَالَ ^(٩) ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ [فاطر: ٨] [وَقَالَ:] ^(١٠) ﴿وَلَا تَحْزَنْ
عَلَيْهِمْ﴾ [النحل: ١٢٧].

كَانَ حِرْصُهُ عَلَى إِيْمَانِهِمْ بَلَّغَ مَا ذَكَرَ حَتَّى خَفَّفَ ذَلِكَ عَلَيْهِ بِهَذِهِ الْآيَةِ.

وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ﴾ يَعْنِي أَهْلَ مَكَّةَ ﴿وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ وَهُمْ كَذَلِكَ
كَانُوا؛ كَانَ أَكْثَرُهُمْ غَيْرَ مُؤْمِنِينَ، وَأَهْلُ مَكَّةَ وَغَيْرُهُمْ سَوَاءً، كُلُّهُمْ كَذَلِكَ كَانُوا.

الآية ١٠٤ وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أَيِ عَلَى مَا تُبَلِّغُ إِلَيْهِمْ، وَتَدْعُوهُمْ إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَجَعَلَ الْعِبَادَةَ لَهُ
وَتَوْجِيهَ الشُّكْرِ إِلَيْهِ، لَا تَسْأَلُهُمْ عَلَى ذَلِكَ أَجْرًا. فَمَا الَّذِي يَمْنَعُهُمْ عَنِ الْإِجَابَةِ لَكَ وَالِاتِّمَارِ بِأَمْرِكَ؟

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: بِاللَّهِ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: كِتْمَان. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٦) فِي
الْأَصْلِ وَم: يَحْفَظُوا مَكْرُوبًا بِهَا. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: قَدْ فَعَلُوا هُمْ، فِي م: وَقَدْ فَعَلُوا هُمْ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث قَالَ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم:
وَقَوْلُهُ. (١٠) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

هذا يدلُّ أنه لا يجوز أخذ الآخر على الطاعات والعبادات [حينَ نهاه، وأمره أن] ^(١) لا يسألهم على ما يُبلغهم ^(٢) أجراً، وهو لم يتولَّ تبليغ جميع ما أمره ^(٣) بتبليغه بنفسه إلى الخلق كافة بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾ الآية [سبا: ٢٨] ولكنه [تولَّى التبليغ إلى البعض، وتولَّى البعض غيره بقوله ﷺ] ^(٤): «ألا فليبلغ الشاهد الغائب» [البخاري: ١٠٥].

[فإنه إذا] ^(٥) لم يُجزَّ له أخذ الآخر في ما يُبلغ هو فالذي كان مأموراً أن يُبلغ عنه أيضاً لا [يُجزَّ له] ^(٦) أن يأخذ الآخر [على] ^(٧) ما يُبلغ.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ وجهان:

أحدهما: أنه ليس يسألهم على الذي يُبلغه، ويدعُوهم [إليه] ^(٨) أجراً، حتى يَنفَع بذلك ذلك ويُثَقِّلَه عن الإجابة.

والثاني: إخبار أن ليس له أن يأخذ، وأن يَجْمَع مِنَ الدُّنْيَا شيئاً كقوله تعالى: ﴿لَا تَدْنُ عَيْنُكَ﴾ الآية [الحجر: ٨٨].

ومعلوم أنه ﴿لَا تَدْنُ عَيْنُكَ إِلَّا مَا﴾ لا يَجُلُّ، فيكون النهي [عن أخذ غير] ^(٩) المباح.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ أي هذا القرآن الذي تُبَلِّغُهُمْ ليس إلا ذِكْرٌ للعالمين، وهو عِظَةٌ للعالمين،

أو هو نفسه عِظَةٌ وذِكْرٌ للعالمين؛ أعني النبي ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ أي شَرَفٌ وذِكْرٌ لِمَنِ اتَّبَعَهُ، [وقام بـ] ^(١٠)، وهو ما ذَكَرَ في آية أخرى:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧] وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٧٧] أي مُنْفَعَةٌ لِمَنِ اتَّبَعَهُ، فعلى ذلك هذا.

الآية ١٠٥

وقوله تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِنَ آيَةٍ﴾ الآية؛ أي كم من آية ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال بعض أهل التاويل:

الآيات التي في السماء: الشمس والقمر والنجوم والسحاب وأمثالها ^(١١)، والآيات التي في الأرض: من نحو الجبال والأنهار والبحار والمدائن ونحوها. لكن السماء نفسها آية، والأرض نفسها وما يخرج منها آية من النبات ﴿يَمْزُجُهُمْ عَلَيْهِمْ﴾ وهم عنها مُعْرِضُونَ أي هم عنها مُعْرِضُونَ عما جعلت من آيات لأنها إنما جعلت آيات لِيُوحِدَانِيَّةُ الله وألوهيته. فهم عما جعلت من آيات مُعْرِضُونَ، وباللغة الهداية والعظمة.

وقال بعضهم في قوله: ﴿وَكَايْنٍ مِنَ آيَةٍ﴾ أي كم من دليل وعلامة على وَحْدَانِيَّةِ الله في خلق السموات والأرض، وهو قريب مما ذكرنا.

وقال بعضهم: آيات السماء ما ذكرنا من نحو الشمس والقمر والكواكب، وآيات الأرض مثل ^(١٢) آيات الأمم التي أهلكوا من قبل من نحو نوح وعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ممن قد أهلكوا ﴿يَمْزُجُهُمْ عَلَيْهِمْ﴾ ويَزَوِّجُهُمْ، ولا يَتَّعِظُونَ بهم.

والوجه فيه ما ذكرنا أنهم مُعْرِضُونَ عما جعلت تلك آيات، وإنما جعلت آيات لِيُوحِدَانِيَّةِ الله تعالى وألوهيته، أو مُعْرِضُونَ عَنِ التَّفَكُّرِ فيها والتَّنْظُرِ إعراض مُعَانِدَةٍ ومُكَابَرَةٍ.

ثم يَحْتَمِلُ الإِعْرَاضُ وجهين:

أحدهما: أغرضوا أي لم يَنْظُرُوا فيها، ولم يَتَفَكَّرُوا، لِيَذِلُّهُمْ على وَحْدَانِيَّةِ الله وألوهيته، وهو إعراض عنها.

والثاني: نَظَرُوا، وعَرَفُوا أنها آيات لِيُوحِدَانِيَّةِ، لكنهم أعرضوا مُكَابِرِينَ مُعَانِدِينَ: ليس في السموات ولا في الأرض شيء، وإن لَطَفَ، إلا وفيه دلالة على وَحْدَانِيَّةِ الله وألوهيته.

الآية ١٠٦

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ يُشْرِكُونَ﴾ يَحْتَمِلُ هذا وجهين:

(١) في الأصل وم: حيث نهى وأخبر أنه. (٢) في الأصل وم: يبلغ إليهم. (٣) في الأصل وم: أمر. (٤) في الأصل وم: ولي بعضه غيره كقوله تعالى. (٥) في الأصل وم: فإذا. (٦) في الأصل وم: يجوز. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: من أخذ. (١٠) في الأصل وم: وما قام. (١١) في الأصل وم: وأمثاله. (١٢) في الأصل وم: فمثل.

أحدهما: [إشراكاً] ^(١) في الإغتراف ^(٢) «وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ» بأنه الإله، وهم مُشْرِكُونَ الأصنام والأوثان في التَّشْبِيهِ، حين ^(٣) سَمَّوْهَا آلِهَةً كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ» كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْ شَيْءٍ [الإسراء: ٤٢]. والثاني: إشراك في الفعل أي «وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ» إلا وهم عَبَدُوا غَيْرَهُ مِنَ الأصنام والأوثان، أو يكون «وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ» تعالى بِلِسَانِهِمْ «إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ» بقلوبِهِمْ، أو يقول: «وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ» في النعمة أنها مِنَ اللَّهِ ﷻ «إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ» في الشكر لهُ تعالى.

الآية ١٠٧ وقوله تعالى: «أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَنَّ تَأْتِيهِمْ غَشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ» أَوْ تَأْتِيهِمُ السَّاعَةُ بَفْئَةٍ وَهُمْ لَا يُفْرُغُونَ أَي كَيْفَ آمَنُوا أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ اللَّهِ «أَوْ تَأْتِيهِمُ السَّاعَةُ بَفْئَةٍ» وقد سَمِعُوا بِإِتْيَانِ الْعَذَابِ بِمَنْ قَبْلَهُمْ وَهَلَاكِهِمْ، وقد جَاءَ مَا يُخَوِّفُهُمْ إِتْيَانُ السَّاعَةِ، وخافوا [بها؟ ولو] ^(٤) لم يَعْلَمُوا بِهَا حَقِيقَةً لَمَا تَرَكُوا الْعِلْمَ بِهَا تَرْكاً ^(٥) مُعَانِدَةً وَمُكَابِرَةً لَا تَرْكَ مِنْ ^(٦) لَمْ يَبَيِّنْ لَهُمْ وَمَنْ لَمْ يَأْتِ لَهُ التَّخْوِيفُ وَالْإِعْلَامُ؟

[وقوله تعالى] ^(٧): «غَشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ» قَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ، رَجَعَهُ اللَّهُ: أَي مُجَلَّلَةٌ تُغْشَاهُمْ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: «هَلْ أَتَاكَ خَبِيرٌ الْغَاشِيَةِ» [الغاشية: ١] وَهُوَ مَا يَأْتِيهِمْ مِنَ الْعَذَابِ، أَي عَذَابُ اللَّهِ ﷻ وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَلَكِنْ مَسَّنَّهِنَّ فَفَاحَةً مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ» [الأنبياء: ٤٦] يَجِبُ أَنْ يَكُونَ أَهْلُ الْإِسْلَامِ مُغْتَبِرِينَ بِقَوْلِهِ: «وَكَايْنٌ مِنَ آيَةٍ فِي السَّحَابِ وَالْأَرْضِ يَمْزُوتُ عَلَيْهَا» وَكَذَلِكَ بِقَوْلِهِ: «أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَنَّ تَأْتِيهِمْ غَشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ» أَوْ تَأْتِيهِمُ السَّاعَةُ بَفْئَةٍ «وَأَنْ كَانَتْ الْآيَاتُ نَزَلْنَا فِيهِمْ لَأَنْهُمْ يَمْزُورُونَ بِمَا ذَكَرْنَا مِنَ الْآيَاتِ، وَلَا يَغْتَبِرُونَ بِمَا ذَكَرْنَا» لِيَكُونُوا ^(٨) آمِنِينَ / ٢٥٩ - أ / مِنْ غَاشِيَةٍ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، سَبْحَانَهُ.

الآية ١٠٨ وقوله تعالى: «قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ» قِيلَ: السَّبِيلُ يُؤْنَتُ، وَيُذَكَّرُ، وَتَحْتَمِلُ هَذِهِ الطَّاعَةَ أَوْ الْعِبَادَةَ لِلَّهِ تَعَالَى. يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: «هَذِهِ سَبِيلِي» النَّبِيَّ أَنَا عَلَيْهَا، وَتَحْتَمِلُ «هَذِهِ سَبِيلِي» الَّتِي أَدْعُوكُمْ «إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي» الْبَصِيرَةُ الْعِلْمُ وَالْيَقَانُ وَالْحُجَّةُ الْثَبَتُ، أَي هَذِهِ سَبِيلِي الَّتِي أَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَيْهَا، إِنَّمَا أَدْعُوكُمْ «عَلَى بَصِيرَةٍ» أَي عَلَى عِلْمٍ وَبَيَانٍ وَحُجَّةٍ قَاطِعَةٍ وَبُرْهَانٍ نَبِيٍّ لَيْسَ كَسَائِرِ الْأَدْيَانِ الَّتِي يُدْعَى إِلَيْهَا عَلَى الْهَوَى وَالشَّهْوَةِ بِغَيْرِ حُجَّةٍ وَلَا بُرْهَانٍ «أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي» أَيْضاً فَإِنَّمَا يَدْعُوكُمْ ^(٩) أَيْضاً عَلَى حُجَّةٍ وَبُرْهَانٍ؛ إِذْ مَنْ يُجِيبُنِي فَإِنَّمَا يُجِيبُ عَلَى بَصِيرَةٍ وَبَيَانٍ وَحُجَّةٍ.

[وقوله تعالى] ^(١٠): «وَسَيَحْنُ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ» قِيلَ: هَذِهِ صِلَةُ قَوْلِهِ: «وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ» «وَسَيَحْنُ اللَّهُ» تَزْيِهَا لِمَا قَالُوا أَوْ تَبَرُّقَةً عَمَّا قَالُوا فِي اللَّهِ بِمَا لَا يَلِيقُ بِهِ «وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ» فِي الْوَهْيِ وَرُبُوبِيَّتِهِ غَيْرُهُ، أَوْ فِي عِبَادَتِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٠٩ وقوله تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ» ذَكَرَ رَجَالاً، وَاللَّهُ أَعْلَمُ؛ أَي لَمْ نَبْعَثْ رَسُولاً مِنْ قَبْلِ إِلَّا بَشَرًا، لَمْ نَبْعَثْ مَلَكًا وَلَا جِنًّا، فَكَيْفَ أَنْكَرْتُمْ رَسُولَ مُحَمَّدٍ [يَعْلَمُ] ^(١١) أَنَّهُ بَشَرٌ؟ وَلَمْ يَزَوْا رَسُولاً مِنْ قَبْلِ [وَلَمْ يَسْمَعُوا إِلَّا مِنْ] ^(١٢) الْبَشَرِ لِقَوْلِهِمْ: «أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا» [الإسراء: ٩٤] وَكَقَوْلِهِ: «وَلَوْ جَعَلْنَاهُ سُلَاطَةً لَجَعَلْنَاهُ رِجُلًا» [الأنعام: ٩].

هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، «إِلَّا رِجَالًا» مِثْلَكَ بَشَرًا لَا مَلَكًا وَلَا جِنًّا، أَوْ ذَكَرَ رَجَالاً لِأَنَّهُ لَمْ يَبْعَثْ امْرَأَةً رَسُولًا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى» أَي إِنَّمَا أَرْسَلْتُ جُمْلَةً مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ وَالْمُدُنِ، لَمْ يَبْعَثْنَاهُمْ ^(١٣) مِنْ أَهْلِ الْبُؤَادِي وَأَهْلِ الْبِرَارِي [وَأِنَّمَا أَرَادَ بِالْقُرَى] ^(١٤) الْأَمْصَارَ وَالْبُنْيَانَ. وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «وَصَرَفَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ» [النحل: ١١٢] قِيلَ: هِيَ مَكَّةُ. وَجَمِيعُ ^(١٥) مَا ذَكَرَ فِي الْقُرْآنِ مِنَ الْقَرْيَةِ وَالْقَرْيِ

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: عنها وأن. (٤) في الأصل وم: نزل. (٥) في الأصل وم: ما. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: وكذلك يكونون. (٨) في الأصل وم: يدعونكم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) من م، في الأصل: ولا سمعوا إلا به. (١٢) في الأصل وم: يبعثوا. (١٣) في الأصل: ولقرى، في م: إنما يريد. (١٤) الواو ساقطة من الأصل وم.

يريد به الأمصار والمدن. وإنما بعث الرسل والأنبياء من الأمصار، ولم يبعثهم من البوادي ومن أهل البراري لوجهين، والله أعلم:

أحدهما: لأن لأهل الأمصار والمدن اختلاطاً بأصناف الناس وامتزاجاً بأنواع الخلق، ويكون لهم تجارب بالخلق. فهم أعدل وأحلم وأبصر من أهل البادية والبرية؛ إذ اختلطهم وامتزاجهم إنما يكون [بالماشية وأنواع البهائم]^(١)، لذلك يعيشون من الأمصار دون البادية.

وبعد فإن الرسل يكون لهم أسباب وأعلام تتقدم عن وقت الرسالة، ويحتاج^(٢) إلى أن يظهر ذلك للخلق ليكون ذلك أسرع إلى الإجابة لهم وأدعى وأنفذ إلى القبول. فإذا كانوا من أهل البوادي لا يظهر ذلك في الخلق.

والثاني: لأنه^(٣) يراد من الرسالة إظهارها في الخلق في الآفاق والأطراف، والأمصار والمدن هي الأمكنة التي ينتاب الناس إليها في التجارة^(٤) وأنواع الحوائج من الآفاق والأطراف، فيظهر ذلك فيها، وفي أهل الآفاق والبوادي والبراري ليس يدخلها، ولا ينتاب إليها إلا الشاة من الناس، ولا تقضى فيها الحوائج، فلا تظهر في الخلق الرسالة وما يراد بها.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي لم ينظروا، ولم يتفكروا في من هلك من قبلهم من الأمم بتكذيبهم الرسل أن كيف كان عاقبتهم بالتكذيب في الدنيا ليمتنعوا عن تكذيب رسلهم؟ وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ الآية يخرج على وجهين:

أحدهما: أي قد ساروا، ونظروا كيف كان عاقبة المكذبين، لكنهم عاندوا، ولم يتغيروا.

والثاني: أي سيروا في الأرض، وانظروا، ولكن ليس على نفس السير في الأرض، ولكن على السؤال عما نزل بأولئك.

وقوله تعالى: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ الشرك أو خلاف الله ورسوله ﴿أَنَّا نَقُولُونَ﴾ أن ذلك أفضل وأخير ممن لم يتق ذلك^(٥)، والله أعلم.

الآية ١١٠ وقوله تعالى: ﴿حَقَّ إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا﴾ وكذبوا كلاهما لغتان^(٦).

قال بعضهم: أيسر الرسل من إيمان قومهم وعن تصديقهم الرسل. ثم يختلج استيأسهم من إيمانهم لكثرة ما رأوا من اغتيابهم الآيات وتفريطهم بردها^(٧)، أيسوا من إيمانهم، وكان إياهم بالخبر عن الله أنهم لا يؤمنون كقوله: ﴿وَأَوْرَثُوا﴾ شئ أنتم كن يؤمن من قومك إلا من قد آمن^(٨) الآية [هود: ٣٦] وأمثاله.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّوْا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا﴾ قال بعضهم: وظن^(٩) الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم لكثرة ما أصابهم من الشدائد، وطال عليهم البلاء، واستأخر النصر، فوقع عند الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم لكثرة ما أصابهم، وإن كان من الأعداء، فقد استيقن الرسل أنهم قد كذبوهم.

وروي عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة: قال: قلت^(١٠) أرأيت قول الله: ﴿حَقَّ إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا﴾؟ قال: فقالت^(١١): بل كذبهم قومهم، قال: قلت^(١٢) أرأيت قول الله: ﴿حَقَّ﴾ والله لقد استيقنوا أن قومهم قد كذبوا، وما هو بالظن. فقالت: يا عروة لقد استيقنوا بذلك. قال: قلت^(١٣): فلعلهم ظنوا أنهم قد كذبوا، قالت^(١٤): معاذ الله، لم تكن الرسل ليتظن ذلك برئها [قلت: فما] هذه الآية؟ قالت: هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم،

(١) في الأصل: الماشية وأنواع، في م: بالماشية في أنواع. (٢) في الأصل وم: يحتاج. (٣) في الأصل وم: أنه. (٤) في الأصل وم: التجارب. (٥) في الأصل وم: بذلك. (٦) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٣/ ١٩٧. (٧) من م، في الأصل: وردوها. (٨) من م، في الأصل: وظنوا. (٩) في م: فقلت. (١٠) في الأصل وم: فقال. (١١) في الأصل وم: قلت. (١٢) في الأصل وم: قلت. (١٣) في الأصل وم: قال. (١٤) في الأصل وم: وما.

وَصَدَّقُوهُمْ، وَطَالَ عَلَيْهِمُ الْبَلَاءُ، وَاسْتَأْخَرَ عَنْهُمْ النُّصْرَ، حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَتْ الرُّسُلُ مِنْهُمْ كَذِبُهُمْ مِنْ قَوْمِهِمْ، وَظَنُّوا أَنَّ أَتْبَاعَهُمْ قَدْ كَذَّبُوهُمْ، جَاءَهُمْ نَصْرُ اللَّهِ عِنْدَ ذَلِكَ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَتْ الرُّسُلُ مِنْ إِيْمَانِ قَوْمِهِمْ﴾ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا. وَظَنَّ قَوْمُهُمْ أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ كَذَّبُوا فِي مَا وَعَدُوا مِنَ الْعَذَابِ أَنَّهُ نَازِلٌ لَمَّا أَبْطَأَ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ﴾ أَي ظَنَّ قَوْمُهُمْ أَنَّ رُسُلَهُمْ قَدْ كَذَّبُوهُمْ خَبَرَ السَّمَاءِ ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾.

فَإِنْ كَانَتْ (١) الْآيَةُ فِي أَتْبَاعِ الرُّسُلِ عَلَى مَا ذَكَرَ بَعْضُهُمْ فَهِيَ كَقَوْلِهِ: ﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصَرَ اللَّهُ آلَا إِنْ نَصَرَ اللَّهُ قَرْبَةً﴾ [البقرة: ٢١٤] وَإِنْ كَانَتْ فِي غَيْرِهِمْ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ فَقَدْ جَاءَ الرُّسُلَ نَصْرُ اللَّهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَتُجِىءُ مِنْ نَشَأَةٍ﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. فَهُوَ فِي ظَاهِرِهِ خَبَرٌ عَلَى الْمُسْتَقْبَلِ أَنَّهُ يُنْجِي مَنْ يَشَاءُ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ.

وَنُشِئُهُ أَنْ يَكُونَ عَلَى الْخَبَرِ فِي أَوَّلِكَ. فَإِنْ كَانَ عَلَى هَذَا [فَإِنَّهُ يَجِيءُ] (٢) أَنْ يَكُونَ نَجِينًا مَنْ نَشَأَ مِنْهُمْ، [وَأَهْلَكُنَا مَنْ نَشَأَ مِنْهُمْ] (٣) لَكِنْ يَجُوزُ هَذَا فِي اللَّغَةِ، أَوْ يَكُونَ فِي الْآخِرَةِ؛ نَتَجِيءُ مَنْ نَشَأَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَرُدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أَي لَا يَرُدُّ عَذَابُنَا إِذَا نَزَلَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ يَخْتَمِلُ قَوْلُهُ ﴿فِي قَصَصِهِمْ﴾ قِصَّةَ يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ﴿عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ وَيَخْتَمِلُ قِصَصَ الرُّسُلِ وَالْأُمَمِ السَّالِفَةِ جَمِيعاً ﴿عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ وَالِإِغْتِبَارُ إِنَّمَا يَكُونُ لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَنْتَفِعُونَ بِلَبَّهِمْ وَعَقْلِهِمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾ يَخْتَمِلُ: أَي مَا حَدِيثُ مُحَمَّدٍ ﷺ وَمَا أَخْبَرَ مِنَ الْقِصَصِ وَأَخْبَارِ الرُّسُلِ وَالْأُمَمِ السَّالِفَةِ بِالَّذِي افْتَرَى، بَلْ إِنَّمَا أَخْبَرَ مَا كَانَ فِي الْكُتُبِ السَّالِفَةِ عَلَى غَيْرِ تَعَلُّمٍ مِنْهُ وَلَا دَرَسَةٍ. وَيَخْتَمِلُ مَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ بِالَّذِي يُقَدَّرُ / ٢٥٩ - ب/ أَنْ يُفْتَرَى

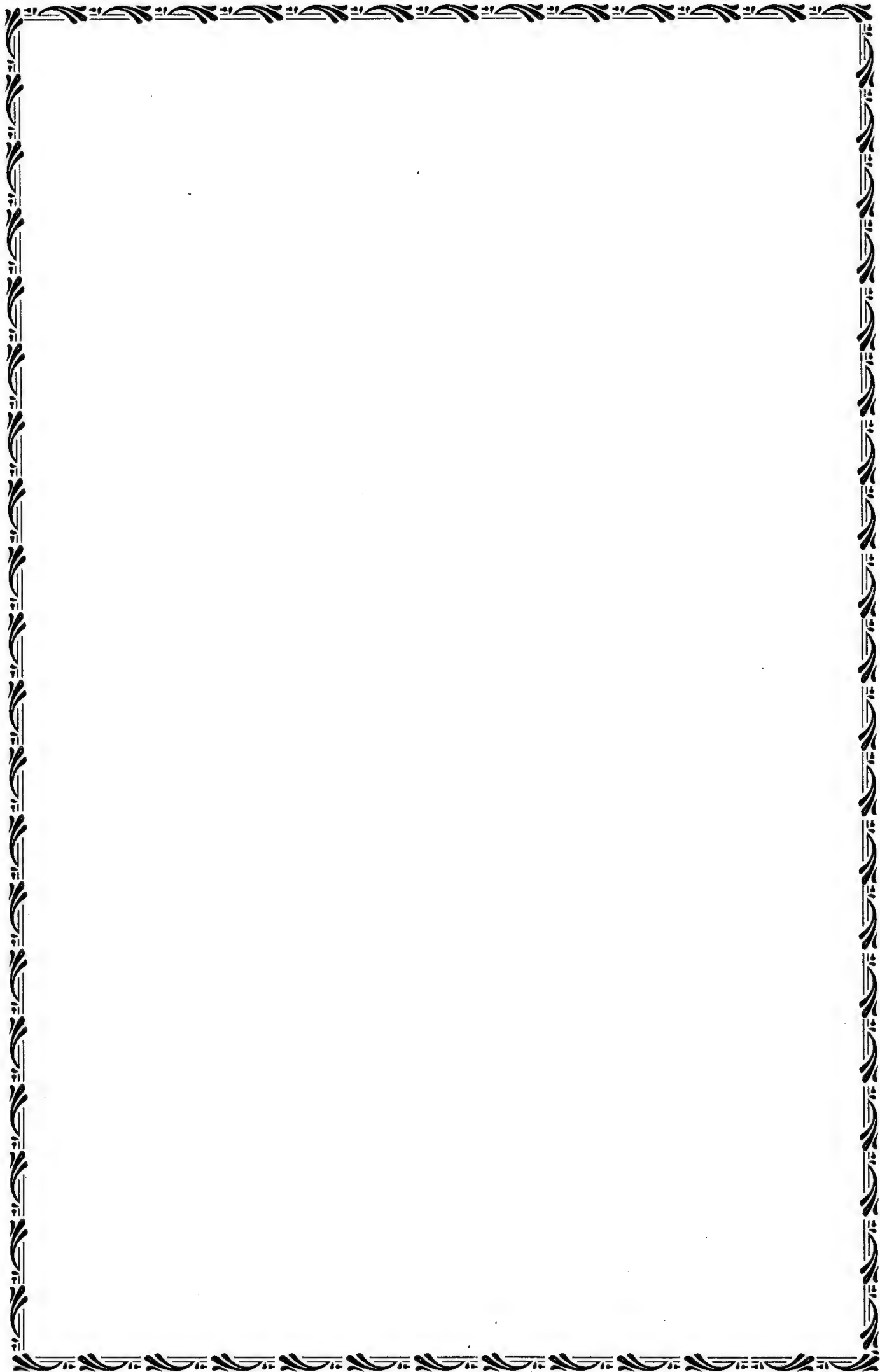
[وَقَوْلُهُ تَعَالَى]: (٤) ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أَي [هَذَا الْقُرْآنُ] (٥) الَّذِي نَزَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ [تَصْدِيقُ] (٦) الْكُتُبِ الَّتِي كَانَتْ مِنْ قَبْلُ ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أَي تَفْصِيلَ مَا لِلنَّاسِ حَاجَةٌ إِلَيْهِ (٧) ﴿وَهُدًى﴾ مِنَ الضَّلَالَةِ لِمَنْ اهْتَدَى ﴿وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

وَفِي مَا ذَكَرَ مِنْ قِصَّةِ يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ دَلَالَةُ التَّصْيِيرِ [لَهُ] (٨) عَلَى أَذَى قُرَيْشٍ؛ يَقُولُ: إِنَّ إِخْوَةَ يُوسُفَ مَعَ مُوَافَقَتِهِمْ إِيَّاهُ فِي الدِّينِ وَالتَّنَسُّبِ وَالْمُوَالَاةِ عَمِلُوا بِيُوسُفَ مَا عَمِلُوا مِنَ الْكَيْدِ وَالْمَكْرِ بِهِ. فَقَوْمُكَ مَعَ مُخَالَفَتِهِمْ إِيَّاكَ فِي الدِّينِ أُخْرَى أَنْ تُضَيِّرَ عَلَى أَذَاهُمْ.



(١) فِي الْأَصْلِ وَم: كَانَ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: فَيَجِيءُ. (٣) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: تَصْدِيقُ.

(٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: إِلَيْهِمْ. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.



سورة الرعد

ذكر أنها مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١

قوله تعالى: ﴿الَّذِي يَكُنِ الْكَتِبُ﴾ [فيه وجهان:

أحدهما: ^(١) يَحْتَمِلُ أن يكون قوله: ﴿الَّذِي﴾ كناية عن الأحرف الْمُقَطَّعة الْمُعْجَمَة، فيكون قوله: ﴿يَكُنِ الْكَتِبُ﴾ تفسير ﴿الَّذِي﴾ هذا هو الظاهر أن يقال في كل الحروف الْمُعْجَمَة والمُقَطَّعة أن يكون ما ذَكَرَ مِنْ بَعْدِهَا على إثرها كان تفسيراً لها. والثاني: يُشَبِّهُ أن يكون قوله: ﴿الَّذِي﴾ كناية عن الحجج والبراهين وسائر الكتب جَعَلْنَاهَا آيَاتِ الْقُرْآنِ وَحُجَجَهُ وَقَدْ ذَكَرْنَا الْقَوْلَ فِي الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعة فِي مَا تَقَدَّمَ.

[ثم] ^(٢) اخْتَلَفَ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَكُنِ الْكَتِبُ﴾ وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿يَكُنِ الْكَتِبُ﴾ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ وَسَائِرُ الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ هُوَ الْقُرْآنُ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿يَكُنِ الْكَتِبُ﴾ هُوَ الْقُرْآنُ. لَكِنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ.

وقوله تعالى: ﴿الْحَقُّ﴾ يَحْتَمِلُ هُوَ الْحَقُّ، أَي مُنْزَلٌ مِنَ اللَّهِ، لَيْسَ كَمَا قَالَ أَوْلَئِكَ: إِنَّهُ لَيْسَ مِنَ اللَّهِ، إِنَّمَا يَقُولُهُ مُحَمَّدٌ مِنْ تِلْكَ نَفْسِهِ. وَيَحْتَمِلُ الْحَقُّ أَي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: ٤٢] وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ، أَوْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ أَنَّهُ آيَاتُ اللَّهِ وَحُجَجُهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٢

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ﴾ قوله: ﴿رَفَعَ﴾ أَي أَنشَأَهَا مَرْفُوعَةً، لَا أَنَّهُ كَانَتْ مَوْضُوعَةً، فَرَفَعَهَا، وَلَكِنْ جَعَلَهَا فِي الْإِنْتِدَاءِ مَرْفُوعَةً، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ [الرحمن: ١٠] [وقوله] ^(٣) ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ [الرعد: ٣] [وقوله] ^(٤) ﴿وَالْيَمَالَ أَرْسَنَهَا﴾ [النازعات: ٣٢] وَنَحْوُ ذَلِكَ، أَي أَنشَأَهَا مَرْفُوعَةً مُحَدَدَةً، لَا أَنَّهُ كَانَتْ مَرْفُوعَةً، فَوَضَعَهَا، أَوْ كَانَتْ مُنْقَبِضَةً، فَبَسَطَهَا، وَلَكِنْ أَنشَأَهَا.

وقوله تعالى: ﴿يَغْيِرُ عَمِدَ تَرَوْنَهَا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: هِيَ بِعَمْدٍ، لَكِنْ لَا تَرَوْنَهَا، أَي تَرَوْنَهَا بِغَيْرِ عَمْدٍ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هِيَ بِغَيْرِ عَمْدٍ عَلَى مَا أَخْبَرَ، وَلَكِنَّ اللَّطْفَ وَالْأَعْجُوبَةَ فِي مَا يُنْسِكُهَا بِعَمْدٍ لَا تُرَى كَاللَّطْفِ وَالْأَعْجُوبَةِ فِي مَا يُنْسِكُهَا بِغَيْرِ عَمْدٍ، لِأَنَّ فِي الشَّاهِدِ لَمْ يُعْرِفْ، وَلَا قُدِّرَ عَلَى رَفْعِ سَقْفٍ، فِيهِ سَعَةٌ وَبُعْدٌ بِغَيْرِ عَمْدٍ، لَا تُرَى، لَكِنْ مَا يُرْفَعُ، إِنَّمَا يُرْفَعُ بِعَمْدٍ تُرَى. فَاللَّطْفُ فِي هَذَا كَاللَّطْفِ فِي الْآخِرِ.

وفيه دلالة قُدْرَتِهِ عَلَى الْبُعْثِ لِأَنَّهُ ذَكَرَ هَذَا، ثُمَّ قَالَ: ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ يَوْمَئِذٍ تُرْكِبُونَ﴾ [إن] ^(٥) مَنْ قَدَّرَ عَلَى رَفْعِ السَّمَاءِ مَعَ سَعَتِهَا وَبُعْدِهَا بِلَا عَمْدٍ لِقَادَرٍ عَلَى إِعَادَةِ الْخَلْقِ وَبَعْثِهِمْ وَإِحْيَائِهِمْ بَعْدَ الْمَوْتِ. بَلْ رَفَعَ السَّمَاءَ مَعَ سَعَتِهَا وَبُعْدِهَا بِلَا عَمْدٍ أَكْبَرُ مِنْ إِعَادَةِ الشَّيْءِ بَعْدَ فَنَائِهِ، إِذْ فِي الشَّاهِدِ مَنْ قَدْ يَقْدِرُ عَلَى إِعَادَةِ أَشْيَاءَ بَعْدَ فَنَائِهَا، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى رَفْعِ سَقْفٍ ذِي سَعَةٍ وَبُعْدٍ بِغَيْرِ عَمْدٍ. مِنْ ذَا الْوَجْهِ يُمَكِّنُ ^(٦) أَنْ يُحْتَجَّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: أمكن.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْغَرِيِّ﴾ لما لم يفهم من قوله ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْغَرِيِّ﴾ [وقوله: ﴿يَذُرُ الْأَمْزَ﴾^(١)] المكان، وإن كان في الشاهد يفهم عنه المكان إذا أضيف إلى المخلوق، لم يجوز أن يفهم [منه استواء الخالق]^(٢).
وبعد فإن في الشاهد إذا قيل: فلان استولى أمر بلدة كذا، فاستوى أمره، لم يفهم، منه نفاذ الأمر والسلطان والمشيئة. فعلى ذلك لم يجوز أن يفهم من الله إذا أضيف إليه [الاستواء]^(٣) المكان.

وأصله ما ذكرنا في ما تقدم أنه أخبر أنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] فهو في كل شيء وكل وجه لا يشبه الخلق، إذ الخلق في الشاهد، ليس يشبه بعضه بعضاً من جميع الجهات، إنما يشبه بعضهم بعضاً بجهة. ثم صاروا جميعاً أشكالا وأشباهاً بتلك الجهة التي [وقع بها التشابه]^(٤)، فإذن الله ﴿لَمَّا أَخْبَرَ أَنَّهُ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾﴾ [الشورى: ١١] دل أنه إنما نفى عنه الجهات التي يقع بها التشابه والمثل، فهو يخالف الخلق من جميع الوجوه. وهذه مسألة مذكورة في ما تقدم.

[ثم]^(٥) اختلف في العرش، قال بعضهم: العرش، هو الممتحنون [من الخلق]^(٦) بهم استوى تدبير إنشاء غيرهم من العالم، لأنهم هم المقصودون في إنشاء ذلك كله.

وقال بعضهم: العرش البعث، به استوى، وتم، إنشاء الخلائق ما لولا البعث يكون إنشاؤهم عبثاً باطلاً كقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] جعل عدم الرجوع إليه وإنشاءه الخلق عبثاً. وقال بعضهم: العرش، هو الملك؛ وبه تم ما ذكر. وقيل: هو سرير الملك.

وقوله تعالى: ﴿يَذُرُ الْأَمْزَ﴾ على ما في العقل أنه عن تدبير مدبر خراج، وعن علم وحكمة وضع ليس على الجفاف بلا تدبير ولا علم.

وقوله تعالى: ﴿يُقِيلُ الْآيَاتِ﴾ يَحْتَمِلُ: يُبَيِّنُ الْحُجَجَ وَالْبَرَاهِينَ، وَيَحْتَمِلُ: يُقِيلُ الْآيَاتِ أي آيات القرآن أنزلها بالتفريق، لا بمجموعة ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَافِرِينَ﴾ هو ما ذكرنا أن ما ذكر من الآيات والتدبير ورفع السماء بلا عمد دالة البعث والإحياء بعد الموت.

وقوله تعالى: ﴿يُلْقَىٰ رِيْقَكُمْ﴾ هو ما ذكرنا في قوله: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٤] وقوله: ﴿وَالَّذِي الْمَعِيرُ﴾ [المائدة: ١٨ و...] وقوله: ﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُؤُنَّ﴾ [غافر: ١٦] وأمثاله، والله أعلم.

الآية ٢ وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُؤُنَّ﴾ وقوله^(٨) في آية أخرى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠] وقوله^(٩) في موضع آخر: ﴿وَالَّذِي الْأَرْضُ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ٢٠] وكله واحد، وقوله^(١٠): ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [البقرة: ٢٢] يذكركم نعمته التي أنعمها عليهم.

[وقوله تعالى]^(١١) ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ أي بسطها ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ ذكر أنها بسطت على الماء، فكانت^(١٢) تكفو بأهلها، وتضطرب كما تكفو السفينة، فأرساها بالجبال الثقيل، فاستقرت، وثبتت. وذكر أنها مدت، وبسطت على الهواء، ثم أثبتها بما ذكر من الجبال. ولكن لو، كان، أنها ما ذكر لكان يجيء ألا يكون بالجبال ثباتها واستقرارها؛ لأن الأرض والجبال من طبيعتها التسفل والانحدار في الماء والهواء. فكلما زيد من ذلك النوع كان^(١٣) التسفل والانحدار أكثر وأزيد، فلا يكون^(١٤) بها الثبات والاستقرار، بل إنما يكون الثبات والاستقرار بشيء، من طبيعته العلو والارتفاع، فيمنع/ ٢٦٠ - أ ذلك الشيء، الذي طبيعته العلو، عن التسفل والانحدار إلا أن يقال: إنها كانت لا تسفل، ولا تتسرب، ولكن تضطرب،

(١) في الأصل وم: مدبر. (٢) في الأصل وم: من استوائه الخلق. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وقعت بينهم تشابه. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: ومصيرهم وبروزهم. (٨) في الأصل وم: وقال. (٩) في الأصل وم: وقال. (١٠) في الأصل وم: وقال. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: فكانت. (١٣) أدرج بعدها في الأصل وم: في. (١٤) في الأصل وم: فيكون.

وتמיד بأهلها على ما ذكره ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١] فَإِنْ كَانَ عَلَى هَذَا فِي الْجِبَالِ^(١) ثبَاتُهَا وَاسْتِقْرَارُهَا وَمَنْعُهَا عَنِ الاضطرابِ والميلانِ، وذكر^(٢) هذا لِيُعْلَمَ لَطْفُهُ وَقُدْرَتُهُ حِينَ^(٣) امْسَكَهَا بِشَيْءٍ، مِنْ طَبِيعِهِ [الْعُلُوُّ عَنِ^(٤) التَّسْفُلِ وَالْإِنْجِدَارِ، وَهِيَ فِي نَفْسِهَا كَذَلِكَ، لِيُعْلَمَ قُدْرَةُ اللَّهِ وَلَطْفُهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِذَلِكَ.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ أَيِ انشأها ممدودة [لا أنها]^(٥) كَانَتْ مَجْمُوعَةً فِي مَكَانٍ، فَبَسَطَهَا عَلَى مَا ذَكَرَ مِنْ رَفْعِ السَّمَاءِ وَنَحْوِهِ.

[وقوله تعالى]^(٦): ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا﴾ جَعَلَ اللَّهُ ﷻ الْأَشْيَاءَ أَكْثَرَهَا بِأَسْبَابٍ تَعْلِيمًا مِنْهُ الْخَلْقُ لِيَكُونَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ أَهْوًى، وَإِنْ كَانَ جَعَلَ الْأَشْيَاءَ عَلَيْهِ بِأَسْبَابٍ [وبغير أسباب]^(٧) سَوَاءً؛ إِذْ هُوَ قَادِرٌ بِذَاتِهِ. يَذْكُرُ هَذَا إِمَّا بِحَقِّ النِّعَمِ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَيْهِمْ مِنْ مَدِّ الْأَرْضِ أَوْ بَسْطِهَا وَإِبَاتِهَا بِالرَّوَاسِي الَّتِي ذَكَرَ، وَجَعَلَ الْأَنْهَارَ فِيهَا لِيَصِلُوا إِلَى الْإِنْتِفَاعِ بِهَا لِيَسْتَأْدِيَ بِذَلِكَ شُكْرَهُ، وَإِمَّا^(٨) بِحَقِّ الْإِخْبَارِ عَنْ قُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ لِأَنَّهُ جَعَلَ الْأَرْضَ بِحَيْثُ لَا يَدْخُلُ فِيهَا شَيْءٌ، فَاخْتَبَرَ أَنَّهُ أَدْخَلَ فِيهَا الْجِبَالَ مَعَ كَثَابَتِهَا وَعَظَمَتِهَا لِيُعْرِفَ قُدْرَتَهُ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْهَارًا﴾ أَيِ جَعَلَ فِيهَا أَنْهَارًا؛ اخْبَرَ أَنَّهُ^(٩) مَدَّ الْأَرْضَ، وَبَسَطَهَا، وَجَعَلَهَا مُسْتَقَرَّةً ثَابِتَةً لِيَقْرَؤُوا مِنْهَا عَلَيْهَا، ثُمَّ اخْبَرَ أَنَّهُ جَعَلَ فِيهَا أَنْهَارًا لِيَنْتَفِعُوا بِهَا مِنْ جَمِيعِ أَنْوَاعِ الْمَنَافِعِ، ثُمَّ اخْبَرَ أَنَّهُ جَعَلَ فِيهَا ﴿وَبَيْنَ كُلِّ الشَّرَافِ جَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ اثْنَيْنِ﴾ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: ﴿رَوَاسِيَ اثْنَيْنِ﴾ أَيِ لَوْنَيْنِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ذَوِي طَعْمَيْنِ [لَكِنْ]^(١٠) يَكُونُ فِيهَا الْوَلَانُ، أَكْثَرُ مِنْ اثْنَيْنِ: أَحْمَرٌ وَأَبْيَضٌ وَأَسْوَدٌ وَأَضْفَرٌ وَنَحْوُهَا. وَكَذَلِكَ الطَّعْمُ، يَكُونُ [حَامِضًا وَحُلُوءًا وَمُرًّا وَمَرًّا]^(١١) إِلَّا أَنْ يُقَالَ ﴿رَوَاسِيَ اثْنَيْنِ﴾ الطَّيِّبِ وَالْحَبِيبِ [فَلَا يَكُونُ لِهَمَا]^(١٢) ثَلَاثٌ. وَأَمَّا اللَّوْنُ فَإِنَّهُ يَكُونُ [ذَا الْوَلَانِ وَذَا]^(١٣) طَعْمٍ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الذَّكَرُ وَالْأُنْثَى، فَهَذَا يَصِحُّ إِذَا أَرَادَ بِهِ الشَّجَرَ؛ فَمَنْهُ مَا يُثْمِرُ، وَمَنْهُ مَا لَا يُثْمِرُ. فَالَّذِي يُثْمِرُ هُوَ الْأُنْثَى. وَالَّذِي لَا يُثْمِرُ هُوَ الذَّكَرُ. وَأَمَّا عَلَى غَيْرِ هَذَا فَهُوَ لَا يَصِحُّ.

وَأَصْلُ الزَّوْجَيْنِ: هُوَ اسْمُ أَشْكَالٍ وَأَمْثَالٍ، وَاسْمُ أَضْدَادٍ، فَفِيهِ دَلِيلُ نَفْيِ ذَلِكَ كُلِّهِ عَنِ اللَّهِ.

وَأَصْلُ الزَّوْجِ: هُوَ مَنْ لَهُ الْمَقَابِلُ مِنَ الْأَشْكَالِ وَالْأَضْدَادِ؛ اخْبَرَ أَنَّهُ جَعَلَ الْخَلْقَ كُلَّهُ ذَا أَشْكَالٍ وَأَضْدَادٍ مِنْ نَحْوِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالذَّكَرِ وَالْأُنْثَى؛ فَهُوَ فِي حَقِّ الْمَنَافِعِ كَشِيءٍ وَاحِدٍ، وَفِي حَقِّ أَنْفُسِهِمْ كَالْأَشْيَاءِ.

وقوله تعالى: ﴿يَنْشِئُ اللَّيْلُ الْهَارَ﴾ أَيِ يَذْهَبُ ظُلْمَةُ اللَّيْلِ بِضَوْءِ النَّهَارِ وَضَوْءُ النَّهَارِ بِظُلْمَةِ اللَّيْلِ، أَوْ يُلْبِسُ أَحَدَهُمَا الْآخَرَ، أَوْ يُعْطِي اللَّيْلُ مَا هُوَ [بَادٍ ظَاهِرٌ لِلْخَلْقِ بِالنَّهَارِ، وَيَكْشِفُ النَّهَارَ]^(١٤) مَا هُوَ مُسْتَوْرٌ خَفِيٌّ عَلَى الْخَلْقِ [بِاللَّيْلِ]^(١٥) وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْتَكِرُونَ﴾ فِي مَا ذَكَرَ دَلَالَةً الْبُعْثِ وَالْإِحْيَاءِ وَدَلَالَةً التَّدْبِيرِ وَالْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ وَدَلَالَةً الْوَحْدَانِيَّةِ لِقَوْمٍ يَعْتَكِرُونَ فِي آيَاتِهِ وَحُجَجِهِ لَا لِقَوْمٍ يُعَانِدُونَ آيَاتِهِ، وَيُكَابِرُونَهَا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْتَكِرُونَ﴾ ذَكَرَ أَنَّ الْآيَاتِ تَكُونُ آيَاتٍ لَهُمْ بِالتَّفَكُّرِ وَالنَّظَرِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، لَا أَنَّهُ^(١٦) تَصِيرُ آيَاتٍ مَجَانَةً^(١٧) بِالْبَدِيهِ، أَوْ يَقُولُ: إِنَّ مَنَفْعَةَ الْآيَاتِ تَكُونُ لِمَنْ تَفَكَّرَ فِيهَا لَا لِمَنْ تَرَكَ التَّفَكُّرَ وَالنَّظَرَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٤

وقوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجِئَتْ مِنْ غَتٍّ﴾ دَلَّ قَوْلُهُ: ﴿قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ﴾ أَنَّ التَّجَاوُزَ إِنَّمَا يَذْكُرُ، وَيَنْبَغُ، إِذَا كَانَتِ الْأَرْضُ أَرْضًا وَاحِدَةً فَإِنَّهُ لَا يُقَالُ فِيهَا الشَّرْكَةُ^(١٨)، فَهَذَا يُبَيِّنُ قَوْلَ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ التَّجَاوُزَ إِنَّمَا

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: بِالْجِبَالِ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ ذَكَرَ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: لَأَنَّهُ. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ يَذْكُرَ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنَّهُ. (١٠) مِنْ م، سَاقِطَةٌ فِي الْأَصْلِ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: حَامِضٌ وَحُلُوءٌ وَمَرٌّ وَمَزْ. (١٢) فِي الْأَصْلِ: قَدْ يَكُونُ، فِي م: فَلَا يَكُونُ. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: ذُو الْوَلَانِ وَذُر. (١٤) فِي الْأَصْلِ وَم: بِأَدْيَا ظَاهِرًا لِلْخَلْقِ وَبِالنَّهَارِ. (١٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٦) فِي الْأَصْلِ وَم: إِنْ. (١٧) فِي الْأَصْلِ وَم: مَجَانًا. (١٨) فِي الْأَصْلِ وَم: التَّجَاوُزَ.

يُذَكِّرُ فِي مَا فِيهِ الشَّرَكَةُ، فَتَجِبُ الشَّفَعَةُ فِي مَا فِيهِ الشَّرَكَةُ، وَأَمَّا فِي غَيْرِهِ فَلَا تَجِبُ. وَأَمَّا عِنْدَنَا فَهُوَ^(١) مَا ذَكَرَ ۖ أَنَّهُ إِنَّمَا أَثَبَّتَ التَّجَاوُزَ فِي الْأَرْضِ الَّتِي صَارَتْ قِطْعًا.

وقوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجِئَتْ مِنْ غَتٍّ﴾ القِطْعُ الْمُتَجَاوِرَاتُ هِيَ الْأَرْضُونَ الصَّوَاحِي الَّتِي تَصْلُحُ لِلزَّرْعِ ﴿وَعِزُّ صِنَوَانٍ﴾ الَّتِي تَنْبُتُ وَخَذَهَا. وَقِيلَ: ﴿صِنَوَانٍ﴾ هِيَ النَّخْلَةُ، تَخْرُجُ، فَإِذَا خَرَجَتْ انْشَعَبَتْ بَعْدَ خُرُوجِ الْأَصْلِ، فَهُوَ الصَّنَوَانُ، وَلِهَذَا قِيلَ: عَمَّ الرَّجُلُ صِنُو أَبِيهِ.

[وقوله تعالى]^(٢): ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ أَي يُسْقَى مَا ذَكَرَ مِنَ الزَّرْعِ وَالنَّخْلِ وَالْجَنَاتِ بِمَاءٍ وَاحِدٍ ﴿وَيُفَضَّلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْآكْلِ﴾ يُذَكِّرُ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنَّ جَوَاهِرَ الْأَرْضِ كُلَّهَا وَاحِدَةٌ، وَهِيَ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ^(٣) بَعْضُهَا بَعْضٍ، ثُمَّ هِيَ مُخْتَلِفَةٌ فِي حَقِّ الثَّمَارِ وَالْفَوَاكِهِ. وَكَذَلِكَ الْأَشْجَارُ وَالنَّخِيلُ كُلُّهَا مِنْ جَوْهَرٍ مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ، وَالْأَرْضُ فِي جَوْهَرِهَا [وَاحِدَةٌ]^(٤) وَتُسْقَى كُلُّهَا بِمَاءٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ تَخْرُجُ [الثَّمَارُ مُخْتَلِفَةً]^(٥) فِي الْوَانِيَا وَطَعُومِهَا وَطَبِيعِهَا وَخُبَيْثِهَا وَمَنَاطِرِهَا لِيُعْلَمَ أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ بِنَفْسِهَا وَلَا بِالْأَسْبَابِ الَّتِي جَعَلَهَا، وَلَكِنْ يُلَطِّفُ وَاحِدٌ مُدَبِّرٌ عَلِيمٌ حَكِيمٌ لِأَنَّهَا^(٦) لَوْ كَانَتْ بِأَنْفُسِهَا وَطَبَاعِهَا وَبِالْأَسْبَابِ لَكَانَتْ كُلُّهَا وَاحِدَةً مُتَّفِقَةً فِي طَبِيعِهَا وَخُبَيْثِهَا وَالْوَانِيَا وَطَعُومِهَا. فَلَمَّا لَمْ يَكُنْ مَا ذَكَرْنَا عَلَى لَوْنٍ وَاحِدٍ وَلَا طَعْمٍ وَاحِدٍ وَلَا مَنْظَرٍ وَاحِدٍ دَلَّ أَنَّهُ كَانَ بِتَدْبِيرٍ مُدَبِّرٍ وَاحِدٍ عَلِيمٍ لَطِيفٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيُفَضَّلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْآكْلِ﴾ قِيلَ فِي الْحَمْلِ: بَعْضُهَا أَكْثَرُ حِمْلًا مِنْ بَعْضٍ، وَبَعْضُهَا يَحْمِلُ، وَبَعْضُهَا لَا. وَلَكِنْ مَا ذَكَرْنَا فِي الطَّيِّبِ وَالْخَبِيثِ وَالطَّعْمِ وَاللَّوْنِ وَالْمَنْظَرِ مُفَضَّلُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ. وَأَصْلُهُ أَنَّ الْأَرْضَ وَاحِدَةً [قِطْعُهَا]^(٧) مُتَجَاوِرَةٌ مُتَّصِلَةٌ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، وَالْمَاءُ وَاحِدٌ أَيْضًا. ثُمَّ خَرَجَتْ الثَّمَارُ وَالْفَوَاكِهُ وَالزَّرُوعُ مُخْتَلِفَةً مُتَفَرِّقَةً لِيُعْلَمَ أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ هُوَ عَمَلُ الْأَرْضِ وَلَا عَمَلُ الْمَاءِ وَلَا عَمَلُ الْأَسْبَابِ وَالطَّبَاعِ، وَلَكِنْ بِاللَّطِيفِ مِنَ اللَّهِ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ بِالْمَاءِ أَوْ بِالْأَرْضِ أَوْ بِالْأَسْبَابِ أَوْ بِالطَّبَاعِ لَكَانَتْ مُتَّفِقَةً مُسْتَوِيَةً.

[وقوله تعالى]^(٨): ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ لِمَا ذَكَرْنَا مِنْ وَحْدَانِيَّتِهِ وَتَدْبِيرِهِ وَعِلْمِهِ وَحُكْمَتِهِ ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أَي لِقَوْمٍ هِمَّتُهُمُ الْعَقْلُ وَالْفَهْمُ وَالنَّظَرُ وَالتَّفَكُّرُ فِي الْآيَاتِ، لَا لِقَوْمٍ هِمَّتُهُمُ الْعِنَادُ وَالْمُكَابَرَةُ، أَوْ لِقَوْمٍ يَتَّقِعُونَ بِعَقْلِهِمْ وَعَمَلِهِمْ.

وَقَالَ الْحَسَنُ: هَذَا مَثَلٌ ضَرِبَ لِقُلُوبِ بَنِي آدَمَ: كَانَتْ الْأَرْضُ فِي الْأَصْلِ طِينَةً^(٩) وَاحِدَةً، فَسَطَحَهَا الرَّحْمَنُ، ثُمَّ بَطَّحَهَا، فَصَارَتْ الْأَرْضُ قِطْعًا مُتَجَاوِرَاتٍ، فَيَنْزِلُ عَلَيْهَا الْمَاءُ مِنَ السَّمَاءِ؛ فَتَخْرُجُ هَذِهِ زَهْرَتُهَا وَثَمَرَتُهَا وَشَجَرُهَا، وَتَخْرُجُ نَبَاتُهَا، وَتُخْبِي مَوَاتِيهَا، وَتَخْرُجُ هَذِهِ سَبَخُهَا وَمِلْحُهَا، وَكِلْتَاهُمَا تُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ؛ فَلَوْ كَانَ الْمَاءُ مَالِحًا قِيلَ: اسْتَشْبَحَتْ هَذِهِ مِنْ قَبْلِ الْمَاءِ.

كَذَلِكَ النَّاسُ، خُلِقُوا مِنْ آدَمَ ۖ ﴿فَيَنْزِلُ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ دُكْرَةٌ﴾^(١٠) وَاحِدَةً، فَتَرَقَّ قُلُوبُ^(١١)، فَتَخْشَعُ، وَتُخْضَعُ، وَتَقْسُو قُلُوبُ^(١٢)، فَتَسْهَوُ، وَتَلْهَوُ، وَتَجْفُو. / ٢٦٠ - ب/ أَوْ كَلَامُ نَحْوِهِ.

ثُمَّ قَالَ الْحَسَنُ: وَاللَّهُ مَا جَالَسَ الْقُرْآنَ أَحَدًا إِلَّا قَامَ مِنْ عِنْدِهِ بَزِيَادَةٌ أَوْ نَقْصَانٌ، ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْفُرْقَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبْ قَوْلُهُمْ﴾ قَالَ الْحَسَنُ: إِنْ تَعَجَّبَ يَا مُحَمَّدُ مِنْ تَكْذِيبِهِمْ إِيَّاكَ فِي الرِّسَالَةِ فَعَجَبْ قَوْلُهُمْ حِينَ^(١٣) قَالُوا: ﴿أَوَدَا كُنَّا تَرْبًا أَوْنَا لَيْ خَلْقِي جَدِيدٌ﴾.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ﴾ يَا مُحَمَّدُ مِمَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْقُرْآنِ كَقَوْلِهِ فِي الصَّافَاتِ: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ﴾ [الآية: ١٢] ﴿فَعَجَبْ قَوْلُهُمْ﴾ أَي فَاغْجَبْ أَيْضًا قَوْلُهُمْ؛ يَقُولُ: لَكِنَّ قَوْلَهُمْ أَعْجَبُ حِينَ قَالُوا ﴿أَوَدَا كُنَّا تَرْبًا أَوْنَا لَيْ خَلْقِي جَدِيدٌ﴾ تَكْذِيبًا لِلْبَيْتِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: هُوَ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) فِي م: مُتَجَاوِرَةٌ. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: مُخْتَلِفَةً. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: لَا أَنَّهَا. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) طِينَةٌ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: مِنَ السَّمَاءِ تَذَكُّرَةٌ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: قُلُوبًا. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ.

واصله، والله أعلم، يقول: **إِنْ عَجِبْتَ مِنْ^(١) قَوْلِهِمْ فِي تَكْذِيبِهِمْ إِيَّاكَ فِي الرِّسَالَةِ**، ولم تكن رسولا من قبل، فقولهم وإنكارهم قدرة الله على البعث والإحياء بعد الموت أعجب، إذ قد رأوا، وشاهدوا من قدرة الله وآياته بعد الهلاك أعجب من تكذيبهم ما لو تفكروا، وتأملوا، ولم يُعاندوا، وعرفوا أنه قادر على ذلك كله.

فَرَضْنَاهُمْ الله تعالى بالعجز وأنه لا يقدر على البعث والإحياء بعد الهلاك أعجب من تكذيبهم إياك في الرسالة. ولم يكن سبق منك إليهم ما يوجب رسالتك وتصديقك، وقد سبق من الله إليهم ما يعرفهم قدرته على ذلك أو على أكثر منه.

واصله، والله أعلم: **وَأَنْ تَعْجَبَ لِنِكَارِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ إِيَّاكَ**، ولم يكن منك إليهم حقيقة الهداية والنعم والآيات والحجج، وإنما كان منك البيان والدعاء، فأعجب قولهم في إنكارهم قدرة الله على البعث، وقولهم في الله ما قالوا فيه بعد معرفتهم حقيقة ذلك كله بالله إليهم، والله أعلم.

وقوله تعالى: **﴿وَأُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾** يشبه أن يكونوا لما كفروا بالبعث كان كفرهم بالبعث كفرا بالله لأنهم عرفوه عاجزا حين^(٢) قالوا: لا يقدر على بعث الخلق. ومن عرف ربه عاجزا فهو لم يعرف الرب [حقيقة والإله حقيقة]^(٣).

وقوله تعالى: **﴿وَأُولَئِكَ الْأَعْلَلُ فِيْ أَغْنَاهُمْ﴾** قال بعضهم: صار للكفرة في أعناقهم أغلال حين^(٤) أنكروا الرسالة في البشر، ثم جعلوا الأصنام والأوثان معبودهم، يعكفون لها، ويخضعون، هي الأغلال. وقال بعضهم: قوله: **﴿وَأُولَئِكَ الْأَعْلَلُ فِيْ أَغْنَاهُمْ﴾** في الآخرة كقوله: **﴿غَدُوهُ قَوْلِهِ: غَدُوهُ قَوْلُهُ﴾** الآية [الحاقة: ٣] **﴿وَأُولَئِكَ أَحْصَبَ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾**.

الآية ٦ وقوله تعالى: **﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالسِّنَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾** الاستغفال يكون على وجهين:

[أحدهما: الفعل نفسه.

والثاني: طلب الفعل]^(٥) كقوله تعالى: **﴿ادْعُونِيْ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾** [غافر: ٦٠] قيل: أجب لكم، وقوله تعالى: **﴿تَلْبَسْنِيْوْا لِيْ﴾** [البقرة: ١٨٦] أي فليجيئوا لي وقوله تعالى: **﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ﴾**.

فإن كان على طلب الفعل فهو ما سألوا رسول الله العذاب **﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾** [المعارج: ١] **﴿وَقَالُوا رَبَّنَا مَجْلٌ لَّنَا فَمَنْ بَلَّ يَوْمَ السَّابِ﴾** [ص: ١٦] وقولهم: **﴿إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَانْظُرْ عَلَيْنَا جُجَارًا مِنْ السَّمَاءِ﴾** [الأنفال: ٣٢] فبدؤوا بسؤالهم [العذاب قبل سؤالهم]^(٦) تأخيرها وإمهالها، وتأخير العذاب عنهم^(٧) من الحسنه، فاستعجلوا بهذا قبل هذا.

وإن كان الفعل نفسه فقوله: **﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ﴾** أي عجلوك يا محمد **﴿بِالسِّنَةِ﴾** إليك قبل أن تكون منهم إليك حسنة حين^(٨) كذبوك في الرسالة، وآدوك في نفسك، ولم يكن منهم إليك إحسان من قبل، والله أعلم بذلك. وقيل: **﴿بِالسِّنَةِ﴾** العذاب على ما ذكرنا **﴿بِالسِّنَةِ﴾** أي قبل العفو. وسؤالهم السينة والعذاب بجهل^(٩) منهم أنه رسول الله وأنه صادق في ما يخبر، ويوعد من العذاب. كانوا لا يسألون [العذاب]^(١٠) لأنهم يعلمون أن الله يقدر على أن ينزل عليهم العذاب، لكن سألوا ذلك بجهلهم بأنه رسول الله سؤال استهزاء وسخرية. وإن كان على هذا سؤالهم كان فيه دلالة أن العقوبة والعذاب قد يلزم من جهل الأمر، إذ كان سبيل العلم به بالنظر والتفكير، والله أعلم.

وقوله تعالى: **﴿وَقَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمُ السَّنَةُ﴾** قال بعضهم: العقوبات أي قد كان في الأمم الخالية العقوبات بسؤالهم العذاب والمعادنة في الآيات إذا جاءت. كأنه، والله أعلم، يصبر رسول الله على سفيه قومه^(١١) بسؤالهم العذاب والآيات ثم المعاندنة فيها؛ يقول: كان في الأمم الماضية سؤال العذاب والآيات ثم المعاندنة من بعد نزولها، فلزمت لهم العقوبات. فعلى ذلك هؤلاء.

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل: الحقيقة، في م: الحقيقة والآله الحقيقة. (٤) في الأصل وم: أغللا حيث. (٥) في الأصل وم: يكون طلب الفعل نفسه. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: عندهم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: يجعل. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: قومهم. (١٢) في الأصل وم: فنزلت.

وقال بعضهم ﴿الْمَثَلُ﴾ الأمثال والأشياء، وكذلك ذُكِرَ في حرف حَفْصَة: (وقد خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الأمثال) ما لو اغْتَبَرُوا بها كَانَ مَثَلًا لَهُمْ. ولكن لا يَغْتَبِرُونَ، فَيَمْتَنِعُهُمْ عَنْ أمثال ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَقْفَرٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ قال بعضهم: ﴿لَذُو مَقْفَرٍ﴾ أي ذو سَفَرٍ على ظُلْمِهِمْ وتأخير العذاب إلى وقت كقولِهِ: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢] وقوله ﴿وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ﴾ [هود: ١٠٤]. وقال بعضهم: ﴿لَذُو مَقْفَرٍ﴾ للكفار لِمَنْ لَمْ يَتُبْ، ومات على الظلم والشرك.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ للكفار؛ وعلى التأويل الأول: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ إذا عاقب.

الآية ٧

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ﴾ كقولِهِ^(١) في موضع آخر: ﴿فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥] وقوله في آية أخرى ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَنْزِلَ لَنَا مِنَ السَّمَاءِ مَائِدَةٌ﴾ [الأنبياء: ٩٠] إلى آخر ما ذُكِرَ.

فَيَحْتَمِلُ سَوَالُهُمُ الْآيَةَ كَمَا سَأَلَ^(٢) الْأَوَّلُونَ [عَيْنَ تِلْكَ الْآيَاتِ الَّتِي أَتَتْ بِهَا الرُّسُلُ الْأَوَّلُونَ]^(٣)؟ وَلَيْسَ عَلَيْهِ أَنْ يَأْتِيَ [عَيْنَ تِلْكَ الْآيَاتِ]^(٤) إِنَّمَا عَلَيْهِ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ تَخْرُجُ عَنْ غُرْفِهِمْ وَطَبَاعِهِمْ، وَالرُّسُلُ جَمِيعًا لَمْ يَأْتُوا بِآيَةٍ وَاحِدَةٍ إِنَّمَا جَاؤُوا بِآيَاتٍ مُّخْتَلِفَاتٍ؛ كُلُّ جَاءَ بِآيَةٍ سِوَى مَا جَاءَ بِهَا الْآخَرُ، فَقَالَ لَهُ: لَيْسَ عَلَيْكَ هَذَا ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ﴾.

[وَيَحْتَمِلُ سَوَالُهُمْ]^(٥) آيَاتِ سُؤَالِ الْإِغْتِنَادِ، لَدَيْهَا هَلَاكُهُمْ، عَلَى مَا قَعَلَ الْأَوَّلُونَ، فَقَالَ ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ﴾ قد كَفَى^(٦) هَذِهِ الْأُمَّةَ إِحْضَارُ آيَاتٍ وَإِنزَالُهَا، لَدَيْهَا هَلَاكُهُمْ، وَإِنْ كَانُوا هُمْ فِي سُؤَالِهِمُ الْآيَاتِ مُعَانِدِينَ لِأَنَّهُمْ قَدْ جَاءَ هُمْ مِنَ الْآيَاتِ عَلَى إِبْطَالِ رِسَالَتِهِ وَإِظْهَارِهَا^(٧) مَا كَفَّتْهُمْ، لَكِنَّهُمْ يُعَانِدُونَ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ﴾ لَا تَمْلِكُ إِيَّانَ الْآيَاتِ ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٠٩] كقولِهِ ﴿قُلْ لَوْ أَنِّي عِنْدِي مَا سَمِعْتُمُونَ بِهَذَا نُفُوحِ الْأَمْرِ﴾ الْآيَةَ [الأنعام: ٥٨] أَوْ يَقُولُ: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ﴾ لَيْسَ إِلَيْكَ إِنْشَاءُ الْآيَاتِ وَاخْتِرَاعُهَا ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٠٩].

وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أَي دَاعٍ يَدْعُو إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَدِينِهِ كقولِهِ: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ يَحْتَمِلُ، لِكُلِّ وَقْتٍ هَادٍ.

ثم اختلفوا [فِي]^(٨) أَنَّهُ مَنْ ذَلِكَ الدَّاعِي؟ قَالَ بَعْضُهُمْ: اللَّهُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: نَبِيُّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: دَاعٍ، دَلِيلُ سِوَى النَّبِيِّ، وَقَالَتِ الْبَاطِنِيَّةُ: هُوَ / ٢٦١ - / إِمَامٌ يَكُونُ مَعْصُومًا مِثْلَ النَّبِيِّ لِثَلَاثَةِ أَلْفٍ عَشَرَ عَامًا.

ولكن عندنا مَعْصُومًا [كَانَ أَوْ لَمْ يَكُنْ]^(٩) فَإِنَّ فِي الْقُرْآنِ مَا يَنْتَعُ عَنْ الزَّيْغِ، وَيَعْرِفُ ذَلِكَ مَنْ إِذَا زَاغَ، وَضَلَّ عَنِ الْحَقِّ ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أَي دَاعٍ، وَهُوَ كَمَا قَالَ ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]

الآية ٨

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى﴾ قِيلَ: يَعْلَمُ أَنَّهَا حَمَلَتْ أُنْثَى أَوْ ذَكَرًا، مُسْتَوِيًّا أَوْ غَيْرَ مُسْتَوِيٍّ مُؤَقَّتًا يُخْبِرُ عَنْ عِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ أَنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَلَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ.

فَإِنْ قِيلَ: هَذَا دَعْوَى، مَا الَّذِي يُعْلِمُنَا أَنَّهُ يَعْلَمُ ذَلِكَ؟ قِيلَ: اتِّسَاقُ تَدْبِيرِهِ وَلُطْفِهِ يَدُلُّ عَلَى عِلْمِ ذَلِكَ فِيهِ حِينَ^(١٠) رَبَّاهُ فِيهِ، وَإِنْشَاءُ مُسْتَوِيًّا غَيْرَ مُؤَقَّتٍ سَلِيمًا مِنَ الْآفَاتِ، وَنَمَاءُ الْحَوَائِجِ كُلِّهَا عَلَى الْإِسْتِوَاءِ؛ لَا يَكُونُ بَعْضُهَا أَنْقَصَ مِنْ بَعْضٍ، وَبَعْضُهَا أَكْثَرُ [مِنْ بَعْضٍ]^(١١) نَحْوُ الْعَيْنَيْنِ، تَرَاهُمَا مُسْتَوِيَّتَيْنِ، لَا زِيَادَةَ فِي إِحْدَاهُمَا دُونَ الْآخَرَى، بَلْ تَتَّمُوانِ عَلَى الْإِسْتِوَاءِ، وَكَذَلِكَ [الْيَدَانِ وَالرِّجْلَانِ وَالْأُذُنَانِ وَأَمْثَالُهَا]^(١٢).

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: أُرْسِلَ. (٣) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: بَعْضُ تِلْكَ الْآيَةِ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ سَأَلُوا. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: عَفَى. (٧) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: وَإِظْهَارًا. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (١١) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: الْيَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ وَالْأُذُنَيْنِ وَأَمْثَالُهُ.

فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى الْعِلْمِ لَهُ بِهِ وَالتَّدْبِيرِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَنْبِغُ الْأَزْكَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ أَي يَغْلَمُ مَا تَنْقُصُ ^(١) وَمَا تَزْدَادُ. قَالَ عَامَّةُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ ﴿وَمَا يَنْبِغُ الْأَزْكَامُ﴾ مَا تَنْقُصُ عَنِ تِسْعَةِ ^(٢) الْأَشْهُرِ ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ عَلَى تِسْعَةِ ^(٣) الْأَشْهُرِ؛ فَكَانَ الْحَسَنُ يَقُولُ: غِيضُوضَةُ الرَّحِمِ أَنْ تَضَعَ لِسِتَّةِ أَشْهُرٍ أَوْ ثَمَانِيَّةٍ، وَأَمَّا الزِّيَادَةُ فَمَا زَادَ عَلَى تِسْعَةِ أَشْهُرٍ.

وَفِي حَرْفِ أَبِي [بْنِ كَعْبٍ] ^(٤): (اللَّهُ يَغْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أَنْثَى وَمَا تَضَعُ). وَلَكِنْ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿وَمَا يَنْبِغُ الْأَزْكَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: ﴿وَمَا يَنْبِغُ الْأَزْكَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ أَي مَا لَا تَحْمِلُ شَيْئًا، وَهِيَ الَّتِي تَكُونُ عَقِيمًا لَا تَلِدُ، وَالْغِيضُوضَةُ تَكُونُ [فِي] ^(٥) ذَهَابِ الشَّيْءِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَيَغِيضُ الْمَاءُ﴾ [هُود: ٤٤] أَي ذَهَبَ. ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ أَي مَا تَحْمِلُ ﴿وَمَا يَنْبِغُ الْأَزْكَامُ﴾ فَتَلِدُ بِدُونِ الْوَقْتِ الَّذِي تَلِدُ النِّسَاءُ ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ فِي زِيَادَةِ عَدَدِ الْأَوْلَادِ وَنُقْصَائِهِمْ مَا تَحْمِلُ وَاحِدًا أَوْ أَكْثَرَ مِنْ وَاحِدٍ.

وَالثَّانِي ^(٦): يَكُونُ فِي زِيَادَةِ قَدْرِ الْوَلَدِ وَنُقْصَائِهِ؛ لِأَنَّ مِنَ الْوَلَدِ مَا يُصِيْبُهُ فِي الْبَطْنِ آفَةٌ، فَلَا يَزَالُ يَزْدَادُ، أَوْ لَهُ ^(٧) نَقْصَانٌ فِي الْبَطْنِ، وَمِنْهُ مَا يَنْمُو، وَيَزْدَادُ، وَأَمثَالُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[وَقَوْلُهُ تَعَالَى] ^(٨) ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ مُقَدَّرٌ بِالتَّقْدِيرِ، لَيْسَ عَلَى الْجَزَافِ عَلَى مَا يَكُونُ عِنْدَ الْخَلْقِ، وَلَكِنَّهُ بِتَقْدِيرِ وَتَدْبِيرِ.

الآية ٩

[وَقَوْلُهُ تَعَالَى] ^(٩): ﴿عَنِ الْقَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: لَا يَغِيْبُ عَنْهُ شَيْءٌ، وَلَكِنْ هُوَ عَالِمٌ بِالَّذِي يَغِيْبُ عَنِ الْخَلْقِ، وَيَشْهَدُهُ الْخَلْقُ؛ أَي مَا يَغِيْبُ عَنْهُمْ، وَمَا يَشْهَدُونَهُ، عِنْدَهُ بِمَحَلٍّ وَاحِدٍ فِي الْعِلْمِ بِهِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿عَنِ الْقَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ مَا غَابَ بِنَفْسِهِ، وَمَا شَهِدَ بِنَفْسِهِ، هُوَ مَا لَمْ يَوْجَدْ يَغْلَمُ ^(١٠) أَنَّهُ يَوْجَدُ أَوْ لَا يَوْجَدُ، وَإِذَا وَجِدَ كَيْفَ يَوْجَدُ؟ وَفِي أَيِّ وَقْتٍ يَوْجَدُ؟ وَمَا وَجِدَ ^(١١)، وَشَهِدَ بِعِلْمِهِ، يَغْلَمُهُ شَاهِدًا مَوْجُودًا؛ عَلَى هَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ يَجُوزُ أَنْ تُخْرَجَ الْآيَةُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَيَغْلَمُ مَا غَابَ عَنْهُمْ مِمَّا شَهِدُوا مِنْ نَحْوِ قُوَّةِ الطَّعَامِ وَالْقُوَّةِ الَّتِي فِي الْمَاءِ وَمَاهِيَةِ الْبَصَرِ وَالسَّمْعِ وَالْعَقْلِ وَالرُّوحِ وَكَيْفِيَّتِهَا. وَهَذَا كُلُّهُ مِمَّا غَابَ عَنِ الْخَلْقِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالَى﴾ الْمُتَعَالَى عَنْ جَمِيعِ مَا يَحْتَمِلُهُ الْخَلْقُ. يُقَالُ: هَذَا عَظِيمُ الْقَوْمِ وَكَبِيرُهُمْ، وَهَذَا وَاحِدُ زَمَانِهِ، لَا يَغْنُونَ [بِهِ عِظَمُ] ^(١٢) النَّفْسِ وَكِبَرَهُ أَوْ تَوَخَّذَهُ مِنْ حَيْثُ نَفَاذُ الْأَمْرِ لَهُ وَالْمَشِيئَةُ فِيهِمْ وَالْعِزُّ وَالسُّلْطَانُ وَذِلَّةُ ^(١٣) الْخَلْقِ وَالْخُضُوعُ لَهُ.

فَعَلَى ذَلِكَ لَا يُفْهَمُ فِي مَا وَصِفَ بِهِ مَا يُفْهَمُ مِنَ الْخَلْقِ مِنْ عِظَمِ الْجِسْمِ وَكِبَرِ النَّفْسِ، وَعَلَى ذَلِكَ مَا وَصِفَ هُوَ بِأَسْمَاءٍ لَا يَحْتَمِلُ ذَلِكَ فِي الْخَلْقِ؛ يُقَالُ: أَوَّلٌ وَآخِرٌ وَظَاهِرٌ وَبَاطِنٌ وَعَظِيمٌ وَلَطِيفٌ لِيُغْلَمَ أَنَّهُ لَيْسَ يُفْهَمُ مِمَّا أُضِيفَ إِلَيْهِ، وَوُصِفَ هُوَ بِهِ مَا يُفْهَمُ مِمَّا يُضَافُ إِلَى الْخَلْقِ، إِذْ مَنْ قِيلَ [عَنْهُ] ^(١٤) فِي الشَّاهِدِ: إِنَّهُ عَظِيمٌ، لَمْ يُقَلَّ: إِنَّهُ لَطِيفٌ، وَمَنْ قِيلَ: إِنَّهُ أَوَّلٌ، لَمْ يُقَلَّ: إِنَّهُ آخِرٌ، وَكَذَلِكَ الظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ إِذَا وَصِفَ بِأَحَدِهِمَا انْتَفَى عَنْهُ الْآخَرُ، وَكَذَلِكَ مِمَّا وَصِفَ بِهِ الْغَائِبُ، وَأُضِيفَ إِلَيْهِ، لِيُغْلَمَ أَنَّهُ لَا يُفْهَمُ مِمَّا يُوصَفُ هُوَ بِهِ، وَيُضَافُ إِلَيْهِ، مَا يُفْهَمُ مِمَّا وَصِفَ بِهِ الْخَلْقُ وَأُضِيفَ إِلَيْهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٠

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَوَاءٌ يَنْكَرُ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ﴾ فِي نَفْسِهِ فِي حَالِ انْفِرَادِهِ ﴿وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ لِغَيْرِهِ ^(١٥) ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِإِنْسِلٍ﴾ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ ﴿وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ قِيلَ: ظَاهِرٌ بِالنَّهَارِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: تَغِيضُ. (٢) وَ (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: التَّسْعَةُ. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: وَلَهُ. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: بَعْدَ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: جَد. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: عَظِيمٌ. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَلَهُ. (١٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٥) فِي الْأَصْلِ وَم: بِهِ. (١٦) فِي الْأَصْلِ وَم: بِغَيْرِهِ.

وقال بعضهم: ﴿وَسَارِبٌ يَّالْتَّهَارُ﴾ يكون في السَّرب، وهو الغار، بالنهار. وقال بعضهم: ﴿مُسْتَخْفٍ يَّالْتَّلِ﴾ [أي ساكن، بالليل] ^(١) مَقْرُهُ ﴿وَسَارِبٌ يَّالْتَّهَارُ﴾ أي مُتَصَرِّفٌ مُتَقَلِّبٌ بالنهار في حوائجه، [وقال بعضهم] ^(٢) هذا صلة ما تَقَدَّمَ، وهو قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ وقوله ^(٣) ﴿عَلَيْهِ الْقَيْبُ وَالشَّهَادَةُ﴾. يقول: أيضاً يَعْلَمُ ﴿مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ. وَمَنْ كَانَ مُسْتَخْفِيًا بِاللَّيْلِ أَوْ سَارِبًا بِالنَّهَارِ أَيْ يَعْلَمُ كُلُّ شَيْءٍ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِّمَّنْ ^(٤) عَمِلَ سِرًّا مِنَ الْخَلْقِ، أَوْ عَمِلَ ظَاهِرًا ^(٥) مِنْهُمْ. يَذْكُرُ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، لِيَكُونُوا عَلَى حَذَرٍ مِنَ الْمَعَاصِي، لِأَنَّ [مَنْ] ^(٦) عَلِمَ أَنَّ عَلَيْهِ رَقِيبًا حَفِيزًا فَيَكُونُ أَخَذَرًا وَخَوْفًا وَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ لَيْسَ عَلَيْهِ ذَلِكَ.

وقال مقاتل: ﴿سَوَاءٌ يَنْكَرُ﴾ عند الله ﴿مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ وسواء منكم من ﴿هُوَ مُسْتَخْفٍ يَّالْتَّلِ وَسَارِبٌ يَّالْتَّهَارُ﴾ أي مُسْتَخْفٍ بِالْمَعْصِيَةِ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ، أَوْ مُتَشَتِّرٌ بِتِلْكَ الْمَعْصِيَةِ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ، أَوْ مُتَشَتِّرٌ بِتِلْكَ الْمَعْصِيَةِ بِالنَّهَارِ، مُغْلِبٌ بِهَا فَعِلْمُ ذَلِكَ كُلِّهِ عِنْدَ اللَّهِ سَوَاءٌ؛ يَذْكُرُهُمْ ^(٧) أَمْرَيْنِ:

أحدهما: يَذْكُرُهُمْ نِعْمَةً الَّتِي أَنْعَمَهَا عَلَيْهِمْ مِنْ أَوَّلِ حَالِهِمْ إِلَى آخِرِ مَا يَنْتَهَوْنَ إِلَيْهِ لِيَسْتَادِيَ بِذَلِكَ شُكْرَهُ لِيَسْتَدِيمَ بِذَلِكَ تِلْكَ النِّعَمَ أَبَدًا مَا كَانُوا.

والثاني: يَذْكُرُهُمْ عِلْمَهُ بِجَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ لِيَكُونُوا أَبَدًا عَلَى حَذَرٍ مِنَ مَعَاصِيهِ وَالْخِلَافِ لَهُ.

أَمَّا عِلْمُهُ فَهُوَ ^(٨) مَا ذَكَرَ ﴿يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿سَوَاءٌ يَنْكَرُ﴾ الْآيَةُ [الآيات: ٨ و ٩ و ١٠] وَأَمَّا نِعْمُهُ [فَهِ] ^(٩) مَا ذَكَرَ ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الآية: ١١].

الآية ١١ وقوله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ﴾ قال بعضهم: هم الأمراء والشُّرَطُ الَّذِينَ يَحْفَظُونَهُ فِي ظَوَاهِرٍ مِنْ أَمْرِهِ؛ يُخْبِرُ أَنَّهُ مُحْفَظٌ عَلَيْهِ الْحَفِيَّاتُ مِنْ أَمْرِهِ حِينَ ^(١٠) قَالَ: ﴿سَوَاءٌ يَنْكَرُ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ الْآيَةُ؛ حِينَ أَخْبَرَ أَنَّهُ يَعْلَمُ ذَلِكَ، وَمُحْفَظٌ عَلَيْهِ [الْحَفِيَّاتُ وَ] ^(١١) الظواهرُ مِنْ أَمْرِهِ.

وقال بعضهم: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ﴾ الملائكة الذين يحفظونه. وعلى ذلك رَوَى فِي الْخَبَرِ عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - [أَنَّهُ] ^(١٢) قَالَ: «يَجْتَمِعُونَ فِيكُمْ عِنْدَ صَلَاةِ الصُّبْحِ وَعِنْدَ صَلَاةِ الْعَصْرِ» [ابن جرير الطبري في تفسيره: ١١٦/٨] [وقوله تعالى] ^(١٣) ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ مِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَيْدٌ﴾ [ق: ١٧]. قَالَ: الْحَسَنَاتُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَالسَّيِّئَاتُ مِنْ خَلْفِهِ، الَّذِي عَنْ يَمِينِهِ.

وقوله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ﴾ يَحْتَمِلُ أَيْ اللَّهُ مُعَقِّبَاتٌ يَحْفَظُونَهُ، وَيَحْتَمِلُ مِنْ كُلِّ ذَكَرٍ وَأُنْثَى، يَكُونُ مِثْلَهُ قَوْلُهُ: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ﴾ [الآية: ٨].

وقوله تعالى: ﴿يَحْفَظُونَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ ﴿يَحْفَظُونَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أَيْ يَحْفَظُونَ نَفْسَهُ مِنَ الْبَلَايَا وَالنَّكَابَاتِ الَّتِي تَنْزِلُ عَلَى بَنِي آدَمَ. فَإِنْ كَانَ فِي حِفْظِ نَفْسِهِ قَوْلُهُ ﴿مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أَيْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَبَلَايَاهُ ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَشْرُكَ﴾ [هود: ٤٠] وَهُوَ عَذَابُنَا.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿يَحْفَظُونَ﴾ يَحْفَظُونَ أَعْمَالَهُ بِأَمْرِ اللَّهِ. ثُمَّ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ الشُّرُورَ وَالسَّيِّئَاتِ. وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ مَا قَدَّمَ مِنَ الْأَعْمَالِ ﴿وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ مَا بَقِيَ، وَأَخَّرَ كَقَوْلِهِ: ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ٥] وَيَحْتَمِلُ ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ مَا مَضَى مِنَ الْوَقْتِ ﴿وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ مَا بَقِيَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ٢٦١ - ب/ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا يُقِيمُ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ يُشَبِّهُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ النِّعْمَةُ نِعْمَةً الدِّينِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ أَوْ الْقُرْآنِ أَوْ مَا كَانَ فِي أَمْرِ الدِّينِ، لَا يُغَيِّرُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ إِلَّا بِتَغْيِيرِ يَكُونُ مِنْهُمْ كَقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ أَنْصَرَوْهُ مُرَوِّعًا﴾ [التوبة: ١٢٧] وَكَقَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: ذكر. (٣) في الأصل وم: وما ذكر أنه. (٤) في الأصل وم: من. (٥) في الأصل وم: بظاهر. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: تذكيرهم. (٨) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِي النِّعْمَةِ الدُّنْيَاوِيَّةِ مِنَ الصَّحَّةِ وَالسَّلَامَةِ وَالْمَالِ، لَا يُغَيِّرُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ إِلَّا بِتَغْيِيرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ.

فَإِنْ قِيلَ: إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ قَدْ كَانُوا بُلُغُوا بِشِدَائِدِ وَبَلَايَا، وَلَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مِنْهُمْ فِي التَّغْيِيرِ، قِيلَ: أُبَدِلَتْ لَهُمْ مَكَانَ تِلْكَ النِّعْمَةِ خَيْرٌ مِنْهَا، فَلَيْسَ ذَلِكَ بِتَغْيِيرٍ، وَلَكِنْ لَمَّا ذَكَرْنَا أَنَّهُ أُبَدِلَتْ لَهُمْ مَكَانَ النِّعْمَةِ نِعْمَةٌ هِيَ خَيْرٌ مِنْهَا ثُمَّ [مَا] ^(١) كَانَ مِنَ النِّعْمِ وَالْأَفْضَالِ مِنَ الطَّاعَاتِ [التي] ^(٢) لَهَا حَقُّ التَّجَدُّدِ وَالْحُدُوثِ يَكُونُ التَّغْيِيرُ عَلَيْهِمْ حَالَةً اخْتِيَارِيَةً وَتَغْيِيرُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ.

وَأَمَّا الْأَفْعَالُ الَّتِي لَهَا حَقُّ الْبَقَاءِ فَيَكُونُ التَّغْيِيرُ مِنَ اللَّهِ مِنْ بَعْدُ، وَهِيَ ^(٣) مِنْ نَحْوِ السَّلَامَةِ وَالصَّحَّةِ وَالسَّعَةِ [والتي لَهَا] ^(٤) حَقُّ التَّجَدُّدِ وَالْحُدُوثِ الطَّاعَاتِ وَالْمَعَاصِي.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ﴾ الآية تَرُدُّ عَلَى الْمَعْتَرِزَةِ قَوْلُهُمْ، لَأَنْهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّهُ لَا يُرِيدُ إِلَّا مَا هُوَ أَصْلَحُ لَهُمْ فِي الدِّينِ، وَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ إِذَا أَرَادَ بِهِمْ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ. دَلَّ هَذَا أَنَّهُ قَدْ يُرِيدُ بِهِمْ الشُّوْءَ إِذَا غَيَّرُوا هُمَ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، أَرَادَ أَنْ يُغَيِّرَ عَلَيْهِمْ [وَتَرُدُّ أَيْضًا] ^(٥) عَلَى الْمَعْتَرِزَةِ قَوْلُهُمْ لَأَنْهُمْ يَقُولُونَ: يَمْلِكُ الْخَلْقُ دَفْعَ سُوءِ أَرَادَهُ اللَّهُ بِهِمْ، وَإِذَا أَرَادَ الْخَيْرَ يَمْلِكُونَ رَدَّ ذَلِكَ، وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿وَإِنْ يَرَوْكَ يُغَيِّرُ فَلَا رَادَّ لِغُيْرِهِ﴾ [يونس: ١٠٧] ويقول ^(٦): ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ أَي لَيْسَ [لَهُمْ مِنْ] ^(٧) دَفْعَ الْعَذَابِ الَّذِي أَرَادَ بِهِمْ وَلِيٌّ، يَدْفَعُ عَنْهُمْ، أَوْ نَصِيرٌ يَنْصُرُهُمْ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٠٧].

الآية ١٢

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْآزِفَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أَي مَخُوفًا وَمَظْمُوعًا، أَوْ تَخَافُونَ، وَتَطْمَعُونَ.

وَقَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: خَوْفًا لِلْمَسَافِرِ وَطَمَعًا لِلْمُقِيمِ. وَقِيلَ: خَوْفًا لِأَهْلِ الْبَيْتَانِ وَطَمَعًا لِأَهْلِ الْأَنْزَالِ.

وَعِنْدَنَا [يَطْمَعُونَ، وَيَخَافُونَ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ] ^(٨)، يَطْمَعُونَ نَفْعَهُ فِي وَقْتِ الْمَنْفَعَةِ، وَيَخَافُونَ ضَرَرَهُ فِي غَيْرِ وَقْتِ النِّفْعِ، أَوْ يَطْمَعُونَ نَفْعَهُ، وَيَخَافُونَ ضَرَرَهُ، أَوْ يَطْمَعُونَ مَضِيَّهُ، وَيَخَافُونَ نُزُولَهُ وَالضَّرَرَ بِهِ فِي غَيْرِ وَقْتِ النِّفْعِ وَنَحْوِهِ وَيَحْتَمِلُ وَجْهًا آخَرَ قَوْلُهُ ^(٩): ﴿يُرِيكُمْ الْآزِفَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أَي يُرِيكُمْ خَوْفًا مَوْعُودًا وَطَمَعًا مَوْعُودًا لِأَنَّ الْبَرْقَ نُورٌ وَنَارٌ، وَيَنْظُمُ النُّورُ الْمَوْعُودُ فِي الْجَنَّةِ، وَالنَّارُ تَخُوفُ النَّارِ الْمَوْعُودَةِ فِي الْآخِرَةِ [لَأَنَّ] ^(١٠) فِيهَا نَارًا. أَلَا تَرَى أَنَّهُ إِذَا اشْتَدَّ خِيفَ عَلَى [مَنْ] ^(١١) أَصَابَهُ؟

وقوله تعالى: ﴿وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ يُقَالُ: نَشَأَتِ السَّمَاءُ إِذَا ارْتَفَعَ الْعِيمُ فِيهَا، وَيُسَمَّى الْعِيمُ نَشَأً، وَقَوْلُهُ: أَنْشَأَ: أَي أَخَذَ فِيهِ، وَيُقَالُ: أَنْشَأَ اللَّهُ الْخَلْقَ: أَي خَلَقَهُمْ، نَشَأً: ارْتَفَعَ، وَأَنْشَأَ: رَفَعَ، وَهُوَ مِنْ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٣

[وقوله تعالى] ^(١٢): ﴿وَيَسْجُدُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ اخْتَلَفَ فِي الرَّعْدِ وَالْبَرْقِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ اسْمُ مَلَكٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُوَكَّلٌ بِالسَّحَابِ، صَوْتُهُ تَسْبِيحُهُ.

رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه [أَنَّهُ] ^(١٣) قَالَ: «أَقْبَلْتُ يَهُودَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ أَخْبِرْنَا عَنِ الرَّعْدِ، مَا هُوَ؟ قَالَ: مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُوَكَّلٌ بِالسَّحَابِ، مَعَهُ مَخَارِقُ مِنْ نَارٍ، يَسُوقُ بِهَا السَّحَابَ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ، فَقَالُوا: فَمَا هَذَا الصَّوْتُ الَّذِي نَسْمَعُ؟ قَالَ: زَجْرَةُ السَّحَابِ، إِذَا زَجَرَهُ، حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى حَيْثُ أَمَرَ، قَالُوا: صَدَقْتَ» [أحمد: ١/ ٢٧٤] فَإِنْ ثَبَتَ هَذَا فَهُوَ هُوَ.

(١) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَهُوَ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَالَّذِي. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) فِي م: يَطْمَعُونَ وَيَخَافُونَ قَوْمٌ وَاحِدٌ، ساقطة من الأصل. (٩) أَدْرَجَ قَبْلَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: فِي. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

وَعَنْ عَلِيٍّ عليه السلام أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الْبَرْقِ وَالرَّعْدِ، قَالَ: الرَّعْدُ الْمَلَكُ، وَالْبَرْقُ ضَرْبُ السَّحَابِ بِمِخْرَاقٍ مِنْ حَدِيدٍ. وَقِيلَ: الرَّعْدُ مَلَكٌ عَلَى مَا ذَكَرْنَا، يَزْجُرُ السَّحَابَ بِالتَّسْبِيحِ، وَيَسُوقُهُ. فَإِذَا شَدَّتْ سَحَابَةٌ ضَمَّهَا. وَإِذَا اشْتَدَّ غَضَبُهُ أَصْدَرَ^(١) مِنْ فِيهِ النَّارَ، فَهِيَ الصَّوَاعِقُ، وَقِيلَ: هُوَ الرِّيحُ، تُسَوِّقُ السَّحَابَ، [فَإِذَا تَرَاكَمَتِ السُّحُبُ]^(٢) فَلَمْ تَجِدْ مُنْفَذًا، صَوَّتَتْ، فَذَلِكَ صَوْتُهَا.

وَقَالَ بَغُضُ الْفَلَّاسِفَةِ: الرَّعْدُ اضْطِكَاكُ الْأَجْرَامِ، فَيَحْدُثُ [بِهَذَا صَوْتُ كَالْحَجَرِ]^(٣) يَصُكُّ الْحَجَرَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ مِنَ الْفَلَّاسِفَةِ: إِنَّمَا هِيَ رِيحٌ تَخْتَبِئُ تَحْتَ السَّحَابِ، فَتَضَعُهُ، فَذَلِكَ الصَّوْتُ مِنْهُ. وَأَيُّ شَيْءٍ كَانَ الرَّعْدُ: الْمَلَكُ أَوِ الرِّيحُ، أَوْ مَا كَانَ، فَالتَّسْبِيحُ يُحْتَمَلُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ عَلَى مَا أَخْبَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى: التَّسْبِيحُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ حِينَ^(٤) قَالَ: ﴿وَلَنْ يَنْ شَيْءٌ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤].

فَيَحْتَمِلُ تَسْبِيحُ الْخَلْقَةِ [مَا]^(٥) جَعَلَ فِي خَلْقِهِ كُلِّ شَيْءٍ حَمْدًا صَانِعِهِ وَبِرَاءَةً مُنْشِئِهِ مِنْ كُلِّ مَا وَصَفَهُ الْمُلْحِدُونَ وَدَلَالَةَ الْوَهْيَةِ وَرُبُوبِيَّتِهِ.

وَيَحْتَمِلُ التَّسْبِيحُ [مَا]^(٦) جَعَلَ فِي سِرِّيَّةِ كُلِّ شَيْءٍ تَسْبِيحَهُ وَتَنْزِيهَهُ مَا لَا يَفْهَمُهُ الْخَلْقُ.

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عليه السلام [أَنَّهُ]^(٧) قَالَ: «الرَّعْدُ مَلَكٌ، وَهَذَا تَسْبِيحُهُ، وَالْبَرْقُ سَوْطُهُ الَّذِي يُزْجِي بِهِ السَّحَابَ» [السيوطي في الدر المنثور ٤/٦٢٢] قِيلَ: أَمْثَالُ ذَلِكَ كَثِيرٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِذَلِكَ، وَلَيْسَ لَنَا إِلَى مَعْرِفَةِ ذَلِكَ حَاجَةٌ سِوَى أَنَّهُ هَوْلٌ هَائِلٌ، يَهْوِلُ الْخَلْقُ، وَيَذْكُرُهُمْ سُلْطَانُهُ وَعَظَمَتُهُ، وَلَوْ لَا أَنَّهُمْ اعْتَادُوا ذَلِكَ، وَالْأَمْرُ لَمْ تَقُمْ أَنْفُسُهُمْ لِسَمَاعِ ذَلِكَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ أَيُّ يَذْكُرُهُمْ سُلْطَانُهُ وَعَظَمَتُهُ، فَيَكُونُ ذَلِكَ تَسْبِيحَهُ وَمَا ذَكَرُوا مِنْ سُلْطَانِهِ وَعَظَمَتِهِ ﴿وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ أَيُّ تُسَبِّحُ الْمَلَائِكَةُ مِنْ خَوْفِهِ، [وَالرَّعْدُ يُسَبِّحُ]^(٨)، وَيُذَكِّرُ الْخَلْقَ عَظَمَةَ اللَّهِ وَسُلْطَانَهُ [فَيَذْكُرُ عَلَى]^(٩) الثَّناء عَلَيْهِ.

وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَهُ فِي مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَبِّهِمْ [مِنْ خِيفَتِهِ، أَيُّ مِنْ خَوْفِهِ]^(١٠) وَلَمْ يَذْكُرْ فِيهِمْ التَّسْبِيحُ بِحَمْدِهِ، وَذَكَرَ فِي الرِّعْدِ^(١١).

ثُمَّ الْخَوْفُ يُخْرِجُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: خَوْفٌ مِنْ عِقَابِهِ لِأَنَّهُ قَدْ جَاءَ فِيهِمْ الْوَعْدُ إِذَا زَلُّوا كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٢٩].

وَالثَّانِي: خَوْفٌ رَهْبَةٍ وَهَيْبَةٍ، لَا خَوْفٌ عَقُوبَةٍ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَصَفَهُمْ بِالطَّاعَةِ وَالِاسْتِسْلَامِ كَقَوْلِهِ: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التَّحْرِيم: ٦] وَقَوْلِهِ: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ. وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩] وَنَحْوَ ذَلِكَ.

ثُمَّ خَوْفُ الْهَيْبَةِ لَا يَزُولُ فِي الْآخِرَةِ، وَخَوْفُ الْعُقُوبَةِ يَزُولُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ﴾ قِيلَ: الصَّعْقَةُ الصَّبِيحَةُ الَّتِي فِيهَا مَوْتُ الْبَغْضِ وَذَهَابُ^(١٢) عَقْلِ الْبَعْضِ كَقَوْلِهِ: ﴿فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٨] وَقِيلَ: هِيَ اسْمُ الْعَذَابِ، وَقَدْ ذَكَرْنَا فِي مَا تَقَدَّمَ [مَا]^(١٣) ذَكَرَ فِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الرَّبِّ، فَجَاءَتْ صَاعِقَةٌ، فَأَخْرَقَتْهُ، وَنَزَلَ ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾ أَيُّ فِي تَوْحِيدِ اللَّهِ لِأَنَّ أَهْلَ الْكُفْرِ كُلَّهُمْ كَانَتْ مُجَادَلَتُهُمْ فِي تَوْحِيدِ اللَّهِ وَالْوَهْيَةِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: شَدِيدُ الْإِنْتِقَامِ وَالْعُقُوبَةِ. وَقِيلَ: شَدِيدُ الْقُوَّةِ، وَقِيلَ: شَدِيدُ الْأَخْذِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: صَارَ. (٢) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: هَذَا الصَّوْتُ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: الرَّعْدُ وَيُسَبِّحُ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: فَذَلِ. (١٠) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١١) أَدْرَجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ أَيُّ مِنْ خَوْفِهِ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيَذْهَبُ. (١٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

وقال القُتَيْبِيُّ: المِحَالُ مِنَ الكَيْدِ والمَكْرِ. وأصلُ المِحَالِ: الحيلةُ [لكن سَمِيَ باسمِ الأوَّلِ لَأَنَّهُ جَزَاءُ الحيلةِ] ^(١) فَيَكُونُ كَتَسْمِيَةِ جَزَاءِ السِّبَةِ سَيْفَةً، وَجَزَاءِ الإغْتِدَاءِ اغْتِدَاءً. والمَكْرُ مَا ذَكَرْنَا أَنَّهُ الأخْذُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ بِهِ. وقال أبو عَوْسَجَةَ: المِحَالُ عِنْدِي [مِنَ المَكْرِ] ^(٢).

وقال أبو عَوْسَجَةَ: ﴿مُعَيَّنَتْ﴾ الحَفَظَةُ الَّذِينَ ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١] يَحْفَظُونَهُ بِأَمْرِ اللَّهِ، وَيُقَالُ: عَقَبَهُ أَيِ حَفَظَهُ، وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا تُعَقِّبُ لِحُكْمِهِ﴾ [الرعد: ٤١] / ٢٦٢ - أ / فمعناه ^(٣) لَا رَادَّ لِحُكْمِهِ، قَالَ: وَيُقَالُ [فِي] ^(٤) غَيْرِ هَذَا: عَقَبَ فُلَانٌ فُلَانًا، أَيِ ذَهَبَ هُوَ، وَجَاءَ هَذَا، وَيُقَالُ: عَقَبْتُ أَيِ رَجَعْتُ، وَمَأْخُذُهُمَا مِنَ العَقَبِ وَيُقَالُ: رَجَعَ عَلَى عَقَبَيْهِ أَيِ مِنْ حَيْثُ جَاءَ.

وقال القُتَيْبِيُّ: ﴿لَمْ تُعَيَّنَتْ﴾ مَلَائِكَةُ يَعْقُبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، إِذَا مَضَى فَرِيقٌ خَلَفَ بَعْدَهُ فَرِيقٌ آخَرُ ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أَيِ بِأَمْرِ اللَّهِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ﴾ أَيِ وَلِيٍّ، مِثْلُ: قَادِرٌ، وَقَدِيرٌ، وَحَافِظٌ، وَحَفِيفٌ، وَذَلِكَ جَائِزٌ فِي اللُّغَةِ.

الآية ١٤

وقوله تعالى: ﴿لَمْ دَعَوْهُ لَمَقًى﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ.

[أحذُهُمَا] ^(٥): أَيِ لَهُ عِبَادَةُ الْحَقِّ، وَلَيْسَ لِمَنْ دُونَهُ عِبَادَةُ الْحَقِّ، أَيِ هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ، لَيْسَ مَنْ ^(٦) يُعْبَدُ دُونَهُ بِالَّذِي يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ، وَعِبَادَةُ الْحَقِّ لَهُ، لَيْسَتْ ^(٧) لِمَنْ دُونَهُ.

والثاني: ﴿لَمْ دَعَوْهُ لَمَقًى﴾ أَيِ لَهُ إِجَابَةُ دَعْوَةِ الْحَقِّ، لَيْسَ يَمْلِكُ مَنْ دُونَهُ إِجَابَةَ مَنْ دَعَا بِالْحَقِّ.

فَعَلَى التَّأْوِيلِ الأوَّلِ الدَّعْوَةُ الْعِبَادَةُ، وَعَلَى الثَّانِي الدَّعْوَةُ الْإِجَابَةُ. أَيِ لَهُ إِجَابَةُ دَعْوَةٍ مَنْ دَعَا بِالْحَقِّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

هُوَ يَمْلِكُ إِجَابَةَ دَعْوَةِ [الْحَقِّ] ^(٨). فَأَمَّا مَنْ عَبَدَ [إِلَهًا] ^(٩) دُونَهُ، وَدَعَا دُونَهُ فَلَا ^(١٠) يَمْلِكُ ذَلِكَ.

يَذُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾ أَيِ وَالَّذِينَ ^(١١) يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَمْلِكُونَ الْإِجَابَةَ، أَوْ لَا يَمْلِكُونَ مَا يَأْمُلُونَ مِنْ عِبَادَتِهِمْ الْأَصْنَامَ، فَيَكُونُ مِثْلُ مَا ذَكَرَ ﴿إِلَّا كَبَسِطَ كَفِّهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِلَاقِحِهِ﴾ وَجْهٌ ضَرْبُ مِثْلِ مَنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ بِبَاسِطِ كَفِّهِ إِلَى الْمَاءِ هُوَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، لَيْسَ مَنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفِّهِ إِلَى الْمَاءِ، فَيَدْعُو الْمَاءَ، فَلَا ^(١٢) يُجِيبُهُ الْمَاءُ. فَعَلَى ذَلِكَ مَنْ يَدْعُ الْأَصْنَامَ لَا تَمْلِكُ ^(١٣) إِجَابَتَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَوْ أَنْ يَكُونَ وَجْهٌ ضَرْبُ هَذَا الْمِثْلِ أَنْ مَنْ عَبَدَ دُونَ اللَّهِ، أَوْ دَعَا مِنْ دُونِهِ، لَيْسَ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفِّهِ إِلَى الْمَاءِ، وَهُوَ عَلَى بُعْدٍ مِنَ الْمَاءِ، فَكَمَا لَا يَصِلُ هُوَ إِلَى الْمَاءِ لَا يَصِلُ مَنْ عَبَدَ دُونَ اللَّهِ إِلَى مَا يَأْمُلُ، وَيَطْمَعُ، أَوْ يَحْتَمِلُ مِنْ وَجْهِ آخَرَ، وَهُوَ أَنَّ الْمَاءَ يُغْتَرَفُ إِذَا قُبِضَ الْكَفُّ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى الْإِغْتِرَافِ إِذَا بُسِطَ. فَعَلَى ذَلِكَ مَنْ عَبَدَ دُونَ اللَّهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا دَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أَيِ دَعَاؤُهُمْ وَعِبَادَتُهُمْ لَا يُعْقِبُ لَهُمْ إِلَّا الْخَسَارَ فِي الْآخِرَةِ، حَاصِلُهُ يُضِلُّ ذَلِكَ كُلَّهُ عَنْهُمْ، لَا يَصِلُونَ إِلَى مَا يَأْمُلُونَ بِالْإِعْدَاءِ وَالْعِبَادَةِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَسَلَتْ عَنْهُمْ تَابًا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٤]...

الآية ١٥

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَّوْهُ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿يَسْجُدُ﴾ عَلَى حَقِيقَةِ السَّجُودِ، يَسْجُدُ لَهُ الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ جَمِيعًا. أَمَّا الْمُؤْمِنُ فَإِنَّهُ يَسْجُدُ لَهُ بِالْإِخْتِيَارِ وَالطَّوْعِ. وَيَحْتَمِلُ مَا ذَكَرَ مِنَ السَّجُودِ وَجْهًا:

أحذُها: حَقِيقَةُ السَّجُودِ، فَإِنْ كَانَ هَذَا فَهُوَ فِي الْمُتَمَتِّحِينَ خَاصَّةً.

والثاني: سُجُودُ الْخَلْقَةِ، فَإِنْ كَانَ عَلَى هَذَا فَهُوَ فِي جَمِيعِ الْخَلَائِقِ؛ جَعَلَ اللَّهُ فِي خَلْقِهِ كُلِّ شَيْءٍ دَلَالَةً وَحِدَانِيَّتَهُ وَآيَةً أَلُوْهِيَّتِهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ.

(١) مَنْ م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: أي. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: يحتمل. (٦) في الأصل وم: ممن. (٧) في الأصل وم: ليس. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: لا. (١١) في الأصل وم: والذي. (١٢) في الأصل وم: فكما لا. (١٣) في الأصل وم: يملكون.

وَالثَّالِثُ: سُجُودُ الْأَحْوَالِ؛ فهو في المؤمن والكافر جميعاً. أمّا المؤمن فهو يَسْجُدُ لَهُ في كُلِّ حَالٍ. وأمّا الكافرُ فإنه يَسْجُدُ لَهُ، وَيَخْضَعُ في حَالِ الشَّدَّةِ وَالضَّيْقِ، ولا يَسْجُدُ لَهُ في حَالِ السَّعَةِ وَالرَّخَاءِ.

وَنُسَبِّهُ أَنْ يَكُونَ [في] ^(١) الكافر، يكون سجوده لله اختياراً وطوعاً حين ^(٢) قالوا ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣] وقالوا ^(٣): ﴿هَؤُلَاءِ شَفَعُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] إنهم، وإن عبدوا الأصنام، يرون السجود والعبادة لله. لكنه لم يقبل ذلك منهم لإشراكهم غيره في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَيُظِلُّهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ أي تَسْجُدُ ظِلُّهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ؛ يَنْتَقِلُ ظِلُّ كُلِّ أَحَدٍ بِانْتِقَالِ نَفْسِهِ؛ يَنْتَقِلُ حَيْثُ تَنْتَقِلُ نَفْسُهُ، فَذَكَرَ الْغُدُوَّ وَالْآصَالِ لِأَنَّهُ ^(٤) بِالْغُدُوِّ وَالْعِشِيِّ يَظْهَرُ الظِّلُّ.

وَيَخْتَمِلُ السُّجُودُ أَنَّهُ ﴿يَسْبُدُ﴾ أي يَخْضَعُ ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً﴾ فإن كَانَ عَلَى الْخُضُوعِ فَهُوَ فِي الْخِلَاقِ كُلِّهِمْ: فِي الْبَشَرِ وَغَيْرِ الْبَشَرِ، وَذِي الرُّوحِ وَغَيْرِ ذِي الرُّوحِ ﴿وَيُظِلُّهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ أي ظِلُّهُمْ تَخَضُّعٌ لَهُ أَيْضاً بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ.

وَيَخْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنَ السُّجُودِ سُجُودُ ^(٥) الْخَلْقَةِ، فَتَسْجُدُ لَهُ خَلْقَةُ كُلِّ أَحَدٍ. فإن قيل: ما معنى الْغُدُوِّ وَالْآصَالِ؟ قيل: يَخْتَمِلُ أَيْدَاءً دَائِماً لَيْسَ عَلَى [مُرَادٍ وَقْتٍ] ^(٦)، ولكن على الْأَوْقَاتِ كُلِّهَا.

الآية ١٦

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ﴾ أَمْرُهُ أَنْ يَسْأَلَهُمْ: مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؟ ثُمَّ أَمْرُهُ أَنْ يُجِيبَ هُوَ لَهُمْ، فيقول: ﴿اللَّهُ﴾ وهو في الظاهر دعوى: أَكْثَرُ مَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ دَعْوَى، وَبَعْضُهُ جِجَاجٌ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿لَا يَمْلِكُونَ لِنَفْسِهِمْ نَفْعاً﴾ وقوله: ﴿خَلَقُوا كَخَلْقِهِ﴾ لَأَنَّهُمْ يَقْرُونَ بهذا: لَا يَخْلُقُونَ كَخَلْقِهِ، وَلَا يَمْلِكُونَ دَفْعَ الضَّرِّ وَلَا جَرَّ النِّفْعِ.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ﴿قُلْ﴾ إنما أَمْرُهُ أَنْ يَسْأَلَهُمْ: مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؟ وَلَمْ يَقُلْ: مَنْ رَبُّكُمْ؟ فَإِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ يَسْأَلَهُمْ مَا لَا يَتَجَسَّرُونَ أَنْ يَقُولُوا: الْأَصْنَامُ الَّتِي يَعْبُدُونَهَا هِيَ أَرْبَابُ السَّمَاوَاتِ، فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَقُولُوا [أَنْ] ^(٧) اللَّهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ [فَإِذَا أَقْرَأُوا] ^(٨) بهذا أَنَّهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَقَدْ دَخَلَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، أَوِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّمَا خَلَقَهُمَا لِأَهْلِيَّهَا، فَإِذَا كَانَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كَانَ رَبُّ مَا فِيهِمَا.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ﴾ أَمْرُهُ أَنْ يَسْأَلَهُمْ وَأَنْ ^(٩) يَسْأَلَهُمْ بِالْإِجَابَةِ لِأَنَّهُ هُوَ السَّابِقُ بِكُلِّ خَيْرٍ، وَهُمْ يُجِيبُونَ لَهُ أَنَّهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ. دَلِيلُهُ حَرْفُ أَبِي إِبْنِ كَعْبٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنِ ^(١٠) مَسْعُودٍ وَحَفْصَةُ حِينَ ^(١١) قَرَأُوا: (مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَالُوا: اللَّهُ) يَدُلُّ أَنَّهُ أَمْرُهُ أَنْ يَسْأَلَهُمْ بِالْإِجَابَةِ كَمَا كَانَ هُوَ السَّابِقُ بِكُلِّ خَيْرٍ.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَأْتِدْعُونَ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يقول، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، إِذَا أَقْرَأْتُمْ أَنَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، هُوَ اللَّهُ، وَهُوَ الْإِلَهُ، فَكَيْفَ اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ هَذِهِ الْأَصْنَامَ آلِهَةً أَرْبَاباً، وَعَبَدْتُمُوها؟ أَوْ كَيْفَ جَعَلْتُمْ مَنْ لَيْسَ هُوَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَوْلَى مِنْ ^(١٢) أَقْرَأْتُمْ بِالْعِبَادَةِ لَهُ أَنَّهُ رَبُّهُمَا؟ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ لِنَفْسِهِمْ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً﴾ أي ^(١٣) لَا يَمْلِكُونَ نَفْعاً لِنَفْسِهِمْ وَلَا دَفْعَ الضَّرْرِ عَنْهَا، فَكَيْفَ يَمْلِكُونَ نَفْعَ غَيْرِهِمْ أَوْ دَفْعَ ضَرِّ عَنْ غَيْرِهِمْ؟ فَعَرَّفَهُمْ أَنَّهُمْ ^(١٤) لَا يَمْلِكُونَ ذَلِكَ، وَأَنَّ اللَّهَ، هُوَ الْمَالِكُ؟ فَكَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادَةَ مَنْ يَمْلِكُ ذَلِكَ، وَعَبَدْتُمْ مَنْ لَا يَمْلِكُ؟ فَيُخْرِجُ تَأْوِيلُهُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: يَقُولُ: ﴿لَا يَمْلِكُونَ لِنَفْسِهِمْ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً﴾ فَكَيْفَ اتَّخَذْتُمْ دُونَ اللَّهِ آلِهَةً؟

وَالثَّانِي: ﴿لَا يَمْلِكُونَ لِنَفْسِهِمْ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً﴾ مع وجود الحاجة، فَكَيْفَ تَعْبُدُونَ عَلَى رَجَاءِ النَّفْعِ لَكُمْ بِقَوْلِكُمْ ﴿هَؤُلَاءِ شَفَعُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾؟ [يونس: ١٨]؟

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: وقوله. (٤) أدرج قبلها في الأصل وم: أي. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: مراد وقت. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: أن. (١٠) في الأصل وم: وابن. (١١) في الأصل وم: من. (١٢) في الأصل وم: من. (١٣) في الأصل وم: أو. (١٤) في الأصل وم: أنه.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ أي تعلمون أن الأصنام التي تعبدونها عُمى^(١)، لا تبصر شيئاً، والله هو البصير، فكيف تركتم عبادة من يبصر، وعبدتم من لا يبصر؟ هل يستوي ذلك؟ أي لا يستوي، أو يقول لهم: إنكم عبادتكم الأصنام ظلمتكم بشفاعتهم عند الله، وهم عُمى، وأنتم بصراء، فهل رأيتم أعمى يقود بصيراً في الشاهد؟ رأيتم^(٢) من لا يبصر يكون / ٢٦٢ - ب/ دليلاً ليصير؟ فكيف ظلمتكم من الأصنام بذلك؟

وقال أهل التأويل: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ الأعمى الكافر، والبصير المؤمن ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ الظلمات الكفر، والنور الإيمان.

ووجه قولهم حين^(٣) شبهوا الكفر بالظلمة والإيمان بالنور لأن الظلمة تخجب، وتستتر كل شيء، والنور يرفع ذلك الحجاب وذلك الستر. فالإيمان له دلائل وحجج، ترفع تلك الحجب والستر، فينور به كل شيء، والكفر، ليس له حجج ودلائل، ترفع ذلك، فهو ظلمة، لم يضيء له شيئاً، والإيمان نور جين^(٤) أضاء به، ونور كل شيء بالدلائل والحجج التي ذكرنا. فصار الكافر كالأعمى، لا يبصر شيئاً، لأنه في الظلمة، والمؤمن كالبصير لأن^(٥) معه الدلائل والحجج.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ أي بل جعلوا لله شركاء في العبادة بعدما علموا أنهم لا يملكون نفعاً، إن عبدوها، ولا ضرراً، إن تركوا العبادة لها.

وقوله تعالى: ﴿خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ اللَّهُ بِالْمُلُوكِ عَلَيْهِمْ﴾ أي خلق هؤلاء الأصنام التي عبدوها، وأشركوها في ألوهيته، كخلق الله، فتشابه عليهم [خلقهم]^(٦) من خلق الأصنام، أي عرفوا أنها لم تخلق شيئاً كما خلق الله، فكيف أشركوا هذه الأصنام في عبادة الله وألوهيته؟ وهم كانوا^(٧) قد أقرؤا أن الله هو خالق كل شيء.

وهذا ينقض على المعتزلة قولهم حين^(٨) قالوا: إن الله لم يخلق أفعال الخلق، ولا يقدر على خلقها. فإذا كان الله لم يخلقها، فهم خلقوها على زعمهم، فيكون موضع تشابه الخلق عليهم على قولهم، فيدل على بطلان قولهم وفساد مذهبهم، والله الموفق.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ في السماوات والأرض ﴿وَمَرْؤُا الْوَحِيدِ الْقَهْرُ﴾ أي كل شيء تحت قدرته وقهره وسلطانه، والأصنام التي تعبدونها مقهورة مغلوبة.

الآية ١٧

وقوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾ إلى آخر ما ذكر من الأمثال إلى قوله ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ قال بعض أهل التأويل: هذا مثل ضربته الله لليقين والشك، فاحتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها.

فأما الشك فلا ينفع منه عمل، وأما اليقين فينفع الله به أهله؛ وهو قوله: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ وهو الشك ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ وهو اليقين.

وكما يجعل الحلي في النار، فيؤخذ خالصه، ويترك^(٩) خبيثه في النار، كذلك يقبل الله اليقين، ويترك الشك، وهو قول ابن عباس.

وقال قتادة: قوله ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ الصغير بصغره، والكبير بكبره. ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾ يقول: عالياً ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ^(١٠) عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَثْلِ الْإِنثَى﴾ كذلك يضر الله الحق والباطل فأما الزبد فَيَذْهَبُ جُفَاءً والجفاء ما يتعلق بالشجر من الزبد ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ فضرَبَ المثل للحق والباطل.

يقول، والله أعلم: كما اضمحل هذا الزبد الذي ظهر على فوق الماء، فصار جفاء، لا ينتفع به، ولا ترجى بركته،

(١) في الأصل وم: أنها أعمى. (٢) همزة الإستفهام ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) أدرج قبلها في الأصل وم: والمؤمن. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: كأنهم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: وينزل. (١٠) في الأصل وم: توقدون، وهي قراءة ابن كثير وابن عامر، انظر معجم القراءات القرآنية ج ٣/ ٢١٤.

كَذَلِكَ يَضْمَعُ الْبَاطِلُ عَنْ أَهْلِهِ كَمَا اضْمَحَلَّ هَذَا الرَّبْدُ، وَكَمَا مَكَثَ هَذَا الْمَاءُ فِي الْأَرْضِ، وَقَرَّ قَرَارُهَا، فَأَمْرَعَتْ، وَرُجِيَتْ بَرَكَتُهُ كَذَلِكَ، وَأَخْرَجَتْ لَهُ نَبَاتَهَا، كَذَلِكَ يَبْقَى الْحَقُّ لَأَهْلِهِ كَمَا يَبْقَى هَذَا الْمَاءُ فِي الْأَرْضِ.

[وقوله تعالى (١)]: ﴿وَمَا يُؤِيدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ آتِيَةً جَلِيَّةً﴾ يقول: يَبْقَى هَذَا الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ حِينَ أُدْخِلَ فِي النَّارِ، وَذَهَبَ خُبْنُهُ، كَذَلِكَ يَبْقَى الْحَقُّ لَأَهْلِهِ ﴿أَوْ مَتَّعَ﴾ يعني هذا الحديد والصفير الذي يُتَنَفَّعُ بِهِ، وَفِيهِ مَنَافِعُ.

يقول: كما بَقِيَ خَالِصُ هَذَا الْحَدِيدِ وَهَذَا الصَّفِيرِ حِينَ أُدْخِلَ النَّارَ، وَذَهَبَ خُبْنُهُ، كَذَلِكَ يَبْقَى الْحَقُّ لَأَهْلِهِ كَمَا بَقِيَ خَالِصُهُمَا.

وقال الكلبي: قوله: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ وهو القرآن، فَاحْتَمَلَهُ الْقُلُوبُ بِأَهْوَائِهَا: ذو (٢) اليقين على قَدَرِ يَقِينِهِ، وذو الشُّكِّ (٣) على قَدَرِ شُكِّهِ. فَاحْتَمَلَتِ الْأَهْوَاءُ بَاطِلًا كَثِيرًا وَجُفَاءً. فَالْمَاءُ هُوَ الْحَقُّ، وَالْأَوْدِيَةُ هِيَ الْقُلُوبُ، وَالسَّبِيلُ الْأَهْوَاءُ، وَالرَّبْدُ الْبَاطِلُ، وَالْحَقُّ الْمَتَاعُ وَالْجَلِيَّةُ.

قال: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الرِّبْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَكُفُّ فِي الْأَرْضِ﴾ فالرَّبْدُ، هو (٤) خُبْنُ الْحَدِيدِ، وَخُبْنُ الْمَتَاعِ هُوَ الْبَاطِلُ؛ مَنْ أَصَابَ مِنْ هَذَا لَمْ يُتَنَفَّعْ بِهِ، فَكَذَلِكَ الْبَاطِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُتَنَفَّعُ بِبَاطِلِهِ. وَأَمَّا الْجَلِيَّةُ وَالْمَاءُ وَالْمَتَاعُ، فَهُوَ الْحَقُّ، مَنْ أَصَابَ شَيْئًا مِنْهُ انْتَفَعَ بِهِ، وَكَذَلِكَ صَاحِبُ الْحَقِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُتَنَفَّعُ بِالْحَقِّ. وَأَمَّا الْجَلِيَّةُ فَالذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ، وَأَمَّا الْمَتَاعُ فَالصَّفِيرُ (٥) وَالْحَدِيدُ وَالرِّصَاصُ وَالنَّحَاسُ وَنَحْوُهُ، لَيْسَ شَيْءٌ مِنْ هَذَا يُتَنَفَّعُ بِهِ حَتَّى يَدْخُلَ النَّارَ، فَيَمِيزُ صَفْوَهُ مِنْ خُبْنِهِ.

وقال الحسين بن واقد: وهو قول مقاتل: ضَرَبَ اللَّهُ [مَثَلًا] (٦) الْكُفْرَ وَالْإِيمَانَ وَمَثَلَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ سَالَ الْوَادِي الْكَبِيرُ عَلَى قَدَرِ كِبَرِهِ، وَالصَّغِيرُ عَلَى صِغَرِهِ (٧) ﴿فَاحْتَمَلَ السَّبِيلُ رَيْدًا رَافِعًا﴾ أَيِ عَالِيًا.

ثم قال: ﴿وَمَا يُؤِيدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ آتِيَةً جَلِيَّةً﴾ [مِنْ] (٨) الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ. ثُمَّ قَالَ: ﴿أَوْ مَتَّعَ﴾ [مِنْ] (٩) السَّبَبِ وَالْحَدِيدِ وَالصَّفِيرِ وَالرِّصَاصِ ﴿رَبْدًا مِثْلَهُ﴾ أَيِ لِلْسَّبَبِ رَبْدٌ، لَا يُتَنَفَّعُ بِهِ، وَالْمَاءُ يُتَنَفَّعُ بِهِ، وَلِلْحَلِيِّ وَالْمَتَاعِ أَيْضًا رَبْدٌ مِثْلُ رَبْدِ السَّبَبِ، إِذَا أُدْخِلَ النَّارَ، وَهُوَ خُبْنُهُ، لَا يُتَنَفَّعُ بِهِ، وَالْحَلِيُّ وَالْمَتَاعُ مَا خَلَصَ مِنْهُمَا يُتَنَفَّعُ بِهِ.

فَمَثَلُ الْأَوْدِيَةِ مَثَلُ الْقُلُوبِ، وَمَثَلُ السَّبَبِ مَثَلُ الْأَهْوَاءِ، وَمَثَلُ الْمَاءِ وَالْحَلِيِّ وَالْمَتَاعِ الَّذِي لَا يُتَنَفَّعُ بِهِ مَثَلُ الْبَاطِلِ. فَكَمَا يُتَنَفَّعُ بِالْمَاءِ وَمَا خَلَصَ مِنَ الْحَلِيِّ وَالْمَتَاعِ الَّذِي يُتَنَفَّعُ بِهِ أَهْلُهُ (١٠) فِي الدُّنْيَا، فَكَذَلِكَ الْحَقُّ يُنْفَعُ أَهْلُهُ فِي الْآخِرَةِ. وَكَمَا لَا يُنْفَعُ الرَّبْدُ وَخُبْنُ الْحَلِيِّ وَخُبْنُ الْمَتَاعِ أَهْلُهُ فِي الدُّنْيَا، فَكَذَلِكَ الْبَاطِلُ لَا يُنْفَعُ أَهْلُهُ فِي الْآخِرَةِ ﴿كَذَلِكَ﴾ أَيِ هَكَذَا ﴿يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ أَيِ يُبَيِّنُ اللَّهُ مَا ذَكَرَ مِنْ مَثَلِ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ﴿فَأَمَّا الرِّبْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ قَالَ: يَعْنِي يَابَسًا، فَلَا يُتَنَفَّعُ بِهِ ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ مِنَ الْمَاءِ ﴿فَيَكُفُّ فِي الْأَرْضِ﴾ فَيَسْقُونَ، وَيَزْرَعُونَ عَلَيْهِ، وَيَتَنَفَّعُونَ بِهِ.

فهذه ثلاثة أمثال ضَرَبَهَا فِي مَثَلٍ وَاحِدٍ. يَقُولُ: هَكَذَا يُبَيِّنُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ وَالْأَشْبَاهَ ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا﴾ أَيِ أَجَابُوا ﴿لِرَبِّهِمْ﴾ فِي الدُّنْيَا بِالْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ ﴿الْحَسَنُ﴾ لَهُمْ، وَهِيَ الْجَنَّةُ فِي الْآخِرَةِ.

فَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلَ الْإِيمَانِ وَالْحَقِّ، وَوَصَفَهُمَا بِالشَّبَابِ وَالْقَرَارِ وَالطَّيْبِ بِالْأَرْضِ الطَّيِّبَةِ مَرَّةً [وَالشَّجَرَةِ الطَّيِّبَةِ] (١١) ثَانِيًا. وَضَرَبَ مَثَلَ الْكُفْرِ وَالْبَاطِلِ بِالْأَرْضِ الْخَبِيثَةِ وَالشَّجَرَةِ الْخَبِيثَةِ، وَوَصَفَهُمَا بِالْخُبْنِ وَالذَّهَابِ، فَقَالَ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا ۚ ۲٦٣ - أَلَمْ تَرَ كَيْفَ طَئِبَهُ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ ﴿تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ [إِبْرَاهِيمَ: ٢٤ وَ ٢٥] وَقَالَ: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ [إِبْرَاهِيمَ: ٢٦].

وقال: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ [الْأَعْرَافُ: ٥٨].

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم. دون. (٣) في الأصل وم. شك. (٤) في الأصل وم. و. (٥) في الأصل وم. فالصفرة.

(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم. صغرها. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم. أصله.

(١١) في الأصل وم. وشجرة طيبة.

وَضَرَبَ مَثَلَ الْمُؤْمِنِ مَرَّةً بِالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ [ثانياً] ^(١)، وَمَثَلُ الْكَافِرِ بِالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ [فَقَالَ] ^(٢) ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [هود: ٢٤]

وَضَرَبَ مَثَلُ الْكُفْرِ مَرَّةً بِالظُّلُمَاتِ وَمَرَّةً بِالرَّمَادِ وَالْمَوْتِ، وَمَثَلُ الْإِيمَانِ بِالنُّورِ وَالضِّيَاءِ وَالْحَيَاةِ وَنَحْوِهِ.

فهذه الأمثال [التي ضربها] ^(٣) الله ﷻ تُخْرِجُ كُلُّهَا مُخْرَجَ الدَّعْوَى فِي الظَّاهِرِ؛ إِذْ لَيْسَ فِيهَا بَيَانُ الْحَقِّ مِنْهَا وَبَيَانُ الْمُحَقِّ مِنْ غَيْرِ الْمُحَقِّ سِوَى أَنْ فِيهَا: هَلْ يَسْتَوِي ذَا مَعٍ ذَا؟ لَا يَسْتَوِي عَلَى مَا ذَكَرَ، وَهَلْ يَسْتَوِي الطَّيِّبُ وَالْخَبِيثُ، أَوِ الْبَصِيرُ [وَالْأَعْمَى، أَوِ السَّمِيعُ وَالْأَصَمُّ] ^(٤) أَوِ الْمَيِّتُ وَالْحَيُّ، أَوِ الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ وَأَمْثَالُهَا ^(٥)؟ وَكُلُّ أَهْلِ الْأَدْيَانِ، وَإِنْ اخْتَلَفَتْ مَذَاهِبُهُمْ ^(٦)؛ يَقُولُ: كُلُّ [الَّذِي] ^(٧) أَنَا عَلَيْهِ هُوَ الْحَقُّ، وَالْبَاطِلُ هُوَ الَّذِي عَلَيْهِ غَيْرِي، وَيَنْفِي كُلَّ عَنْ نَفْسِهِ الْعَمَى ^(٨) وَالصَّمَمَ وَكَوْنَهُ فِي ظُلْمَةٍ، وَيَدَّعِي كَوْنَهُ فِي النُّورِ، وَنَحْوَهُ.

فَلَيْسَ فِي نَفْسِ الْأَمْثَالِ الَّتِي ضُرِبَتْ بَيَانُ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ وَالْمُحَقِّ مِنْ غَيْرِهِ. فَذَلِكَ يُعَرِّفُ بِغَيْرِهَا بِالِدَلَالِ وَالْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ، وَهُوَ مَا ذَكَرَ ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٤٣] وَالْحَشْرِ: [٢١].

فَبِالدَّلَالِ وَالْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ يُعَرِّفُ الْحَقُّ مِنَ الْبَاطِلِ، وَالْمُحَقُّ مِنْ غَيْرِ الْمُحَقِّ. فَلِلْإِيمَانِ وَالْحَقِّ دَلَالٌ وَحُجَجٌ، يَعْرِفُ ذَوُو الْعُقُولِ بِالْعُقُولِ حُسْنَهُ وَطَيِّبَهُ وَمَا يَغْفُبُ مِنْ ثَمَرِهِ ^(٩)، وَيُبَيِّنُ قُبْحَ الْكُفْرِ وَالْبَاطِلِ لِذَوِي الْعُقُولِ بِالْعُقُولِ، وَاسْتِخْبَاءَهُمُ الْبَاطِلِ، وَمَا يَغْفُبُ لِأَهْلِهِ مِنَ الْخُبَيْثِ وَالْقُبْحِ وَالشَّرِّ.

وَقَالَ الْقَتَيْبِيُّ: ﴿رَبِّدَا رَبَّيَا﴾ أَيِ عَالِيَا عَلَى الْمَاءِ ﴿أَيُّقَاءَ حِلْيَةٍ﴾ أَيِ حَلْيٍ ﴿أَوْ مَنَاجٍ﴾ أَيْبَةٍ؛ يَغْنِي مِنْ فِلَزِ الْأَرْضِ وَجَوَاهِرِهَا مِثْلِ الرِّصَاصِ وَالْحَدِيدِ وَنَحْوِهِمَا ^(١٠) وَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ حِينَ ^(١١) يَلْعَلُهَا إِذَا أُذْيِبَتْ مِثْلُ رَبِّدِ الْمَاءِ، وَالْجَفَاءِ مَا رَمَى بِهِ الْوَادِي إِلَى جَنْبَاتِهِ، يُقَالُ: أَجْفَأَتِ الْقِدْرُ بِرَبِّدِهَا، إِذَا أَلْقَتْ رَبِّدَهَا عَنْهَا.

وَقَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ: ﴿رَبَّيَا﴾ أَيِ مُرْتَفِعَا فَوْقَ ظَهْرِ الْمَاءِ، وَيُقَالُ: أَرَبَدَ الْمَاءُ، إِذَا صَارَ لَهُ رَبْدٌ ﴿أَيُّقَاءَ حِلْيَةٍ﴾ هُوَ مِنَ الْحَلْيِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ مِمَّا يَتَحَلَّى بِهِ ﴿أَوْ مَنَاجٍ﴾ أَيِ بَاطِلًا لَا يَنْتَفِعُ بِهِ. وَأَمَّا الْجَفَاءُ فَهُوَ إِظْهَارُ التَّهَوُّنِ وَقِلَّةُ الْأُتْرَاقِ لَهُ وَالِاسْتِخْفَافُ. وَقَالَ: الْجَفَاءُ هُوَ الْغَثَاءُ، وَيُقَالُ: قَدْ أَنْجَفَى الْوَادِي، إِذَا عَلَا ذَلِكَ، ثُمَّ جَرَى بِهِ الْمَاءُ.

قَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ: وَالْغَثَاءُ عِنْدِي مَا حَمَلَهُ السَّيْلُ مِنَ الْعِيدَانِ وَالتَّنِيرِ وَمَا يُشْبِهُ ذَلِكَ.

وَقَالَ الْقَتَيْبِيُّ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾ [الاعلى: ٥] أَيْ يَسِئًا.

قَالَ أَبُو عَيْدَةَ: الْجَفَاءُ ^(١٢) الْجَمْدُ، وَيَذْهَبُ إِلَى أَنَّ الرَّبْدَ يَجْمَدُ، وَيَجْتَمِعُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ يَذْهَبُ بِمَائِهَا.

وَقَالَ الْفَرَّاءُ: ﴿يَذْهَبُ حُمَاءً﴾ أَيِ يَذْهَبُ سَرِيعًا كَمَا جَاءَ.

وَقَالَ الشَّيْخُ، رَحِمَهُ اللَّهُ: وَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ الْمَثَلُ الَّذِي ضَرَبَ بِالْمَاءِ، هُوَ لِلدِّينِ، وَهُوَ أَنَّ الدِّينَ الْحَقُّ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ وَاحِدٌ، لَكِنَّ النَّاسَ اتَّخَذُوا أَدْيَانًا مُتَفَرِّقَةً وَمَذَاهِبَ مُخْتَلِفَةً كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا أَتَّبِعُوا﴾ [الأنعام: ١٥٣].

فَالدِّينُ الَّذِي أَمَرَ لِسُلُوكِهِ وَاتِّبَاعِهِ وَاحِدٌ، وَهُوَ كَالْمَاءِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ وَاحِدٌ صَافٍ، وَهُوَ الْأَصْلُ، فَحَدَّثَ مِنْهُ أَشْيَاءٌ لَا يُغَبُّ [بِهَا، وَلَا] ^(١٣) يَكْتَرُثُ؛ فَعَلَى ذَلِكَ السَّبِيلُ [الْحَقُّ] ^(١٤) وَاحِدٌ، وَأَوْ أَنْ يَكُونَ وَجْهُ ضَرْبٍ مَثَلُهُ بِالْمَاءِ؛ وَهُوَ أَنَّ الْمَاءَ إِذَا أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ أَنْزَلَ طَيِّبًا عَذْبًا، لَكِنْ اخْتَلَفَتْ أَلْوَانُهُ وَطَعْمُهُ بِاخْتِلَافِ جَوَاهِرِ الْأَرْضِ، بَعْضُهُ خَرَجَ مَالِحًا أَجَاجًا، وَبَعْضُهُ مُرًّا، لَا يَنْتَفِعُ بِهِ، وَبَعْضُهُ عَذْبٌ، وَذَلِكَ عَلَى اخْتِلَافِ جَوَاهِرِ الْأَرْضِ، وَإِلَّا كَانَ الْمُتَنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ كُلُّهُ عَذْبٌ طَيِّبٌ، فَالَّذِي يَنْتَفِعُ بِهِ وَاحِدٌ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: ضرب. (٤) في الأصل وم: والسميع الأصم والأعمى. (٥) في الأصل وم: وأمثلة. (٦) في الأصل وم: مذهب هو. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: الأعمى. (٩) في الأصل وم: ثمرته. (١٠) في الأصل وم: ونحوه. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) من م، في الأصل: الجود. (١٣) في الأصل: به، في م: به ولا. (١٤) ساقطة من الأصل وم.

فَعَلَىٰ ذَٰلِكَ الدِّينُ الَّذِي يَنْتَفَعُ بِهِ وَاحِدٌ، والبواقي لَا يَنْتَفَعُ بِهَا كَالْمِاءِ الْمُرَّةِ وَالْمَالِحَةِ، أَوْ يَكُونُ غَيْرَ هَذَا، وَنَحْنُ لَا نَعْرِفُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٨

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ يَغْتَرِبُ اللَّهُ الْآثَالَ﴾ [لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ] أَي أَجَابُوا رَبَّهُمْ فِي مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ. وَإِنَّمَا دَعَاهُمْ إِلَى السَّبَبِ الَّذِي يوجب لَهُمْ دَارَ السَّلَامِ، وَهِيَ الْجَنَّةُ، بِقَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوكَ إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِيكَ مِنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥] دَعَاهُمْ إِلَى دَارِ السَّلَامِ، وَمَكَّنَ لَهُمْ مِنَ الْإِجَابَةِ لَهُ وَالرَّدِّ. فَمَنْ أَجَابَهُ فِي مَا دَعَاهُ كَانَ لَهُ دَارُ السَّلَامِ وَالْحُسْنَى الَّذِي ذَكَرَ.

وَمَنْ رَدَّ دَعَاهُ كَانَ لَهُ النَّارُ وَدَارُ الْهَوَانِ. فَأَيُّهُمَا اخْتَارَ [قُلَّة] ^(١) الموعودُ الَّذِي وَعِدَ؛ إِنْ اخْتَارَ إِبَابَتَهُ [إِلَى] ^(٢) مَا دَعَاهُ قُلَّةُ النِّعَمِ الدَّائِمِ الَّذِي وَعِدَ وَدَارُ ^(٣) السَّلَامِ، وَإِنْ اخْتَارَ الرَّدَّ وَتَرَكَ الْإِجَابَةَ قُلَّةُ مَا وَعِدَ مِنَ الْعَذَابِ الدَّائِمِ وَالْهَوَانِ. وَالْأَمْثَالُ الَّتِي ذَكَرَ أَنَّهَا [لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحَقِّ] ^(٤) هِيَ ^(٥) هَكَذَا لِلْمُؤْمِنِينَ، لِأَنَّهُمْ هُمُ الْمُتَنَفِّعُونَ بِهَا.

وَكَذَلِكَ مَا ذَكَرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴿وَلَقَدْ هَمَمْتُ لِلْفُتُورِ﴾ [النمل: ٧٧] وَأَمَّا عَلَى أَهْلِ الْكُفْرِ فَهُوَ عَمَى وَضَلَالٌ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَيَكْشِفُ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤] وَأَمَّا قُلُوبُ الْكُفَرَةِ ﴿فَرَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥] وَقَوْلُهُ ^(٦) ﴿فِي قُلُوبِهِمْ نَرَمُ فَرَادَهُمُ اللَّهُ مَرَمًا﴾ [البقرة: ١٠] وَأَمْثَالُهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ تَفَانُوا فِي الْأَرْضِ حَيًّا وَمَيِّتًا مَعَهُ﴾ أَي ضِعْفُهُ مَعَهُ ﴿لَافْتَدَرُوا يَوْمًا﴾ يَذْكُرُ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: أَنَّ الَّذِي ^(٧) كَانَ يَمْنَعُهُمْ مِنَ الْإِجَابَةِ إِلَى مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ رَغْبَتُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَمِثْلُهُمْ إِلَيْهَا، يَتَمَتَّعُونَ لَمَّا يَحُلُّ فِيهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالشَّدَائِدِ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا؛ أَنْ يَفْتَدُوا بِهِ.

[وَقَوْلُهُ تَعَالَى] ^(٨) ﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَوَدَّةٌ مِمَّنْ﴾ أَي يُحَاسِبُونَ حِسَابًا يَسُوؤُهُمْ، لِأَنَّ حَسَنَاتِهِمْ الَّتِي عَمِلُوهَا، وَظَمِعُوا بِالْإِنْفِاعِ بِهَا لَمْ تَنْفَعُهُمْ، بَلْ صَارَتْ كَالسَّرَابِ الَّذِي ذَكَرَ ﴿يَحْسَبُهُ الظَّلَمَةُ مَاءً حَقًّا إِذَا جَاءَهُ لَوْ يَجِدُهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩] وَلَمْ يَتَجَاوَزْ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴿وَمَا وَنَهُمْ جَهَنَّمَ وَيَنْسَ لِلْهَادِ﴾ الَّذِي يَأْوُونَ إِلَيْهِ، هُوَ ﴿جَهَنَّمَ وَيَنْسَ لِلْهَادِ﴾ لِمَا يَسُوؤُهُمْ ذَلِكَ.

الآية ١٩

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ أَنَّا نُزِيلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ أَلَمْ نَكُنْ مَرَّ أَمْسٍ﴾ أَي أَمَّنْ ^(٩) يَعْلَمُ الْحَقَّ حَقًّا كَمَنْ هُوَ يَعْمَى عَنْهُ، وَلَا [يَعْلَمُهُ حَقًّا] أَوْ أَمَّنْ ^(١٠) يَعْلَمُ الْحَقَّ أَنَّهُ حَقٌّ كَمَنْ يَعْلَمُهُ بِاطْلَاقٍ لَيْسَ بِسَوَاءٍ كَقَوْلِهِ: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَكْفُرُونَ وَالَّذِينَ لَا يَكْفُرُونَ﴾ [الزمر: ٩].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَنْذَرُكُمْ أَوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾ أَي إِنَّمَا يَنْذَرُكُمْ بِالتَّذْكِيرِ أَوْلَى الْأَلْبَابِ وَذَوُو الْعُقُولِ الَّذِينَ يَنْتَفِعُونَ بِعُقُولِهِمْ وَالْبَابِيهِمْ ^(١١).

الآية ٢٠

ثُمَّ بَيَّنَّ مَنْ هُمْ فَقَالَ: ﴿الَّذِينَ يُؤْثِرُونَ بَعْدَ اللَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ [عَهْدُ اللَّهِ] ^(١٢) عَهْدَ خَلْقِهِ ﴿يُؤْثِرُونَ﴾ مَا فِي خَلْقِهِمْ؛ إِذْ فِي خَلْقِهِ كُلِّ أَحَدٍ دَلَالَةٌ وَحِدَايَتُهُ وَشَهَادَةُ الرُّوْحَانِيَّةِ، فَوَقَوْا ذَلِكَ الْعَهْدَ.

وَيَحْتَمِلُ عَهْدُ اللَّهِ مَا جَرَى عَلَى أَلْسِنِ الرُّسُلِ، وَقَدْ ذَكَرْنَا هَذَا فِي مَا تَقَدَّمَ، وَهُوَ مَا ذَكَرَ فِي آيَةِ أُخْرَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ [آل عمران: ٨١] ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [آل عمران: ١٨٧] ﴿وَلَا تَقْضُوهُ أَلَيْسَ﴾ [الرعد: ٢٠] الْعَهْدُ وَالْمِيثَاقُ وَاحِدٌ، وَسَمِيَ الْعَهْدُ مِيثَاقًا لِأَنَّهُ يُوثِقُ الْمَرْءَ، وَيَمْنَعُهُ مِنَ الْإِسْتِغَالِ بِغَيْرِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٢١

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَعْلَمُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ الصَّلَاتُ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا أَنْ ^(١٣) تُوصَلَ عَلَى جِهَاتٍ وَمَرَاتِبٍ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: هو. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: الذين. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، في الأصل: أو. (٩) همزة الإستفهام ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: يعلم أو من. (١١) في الأصل وم: ولهم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) من م، في الأصل: أي.

أَمَّا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ [فَأَلَّا يُحِبُّ لَهُمْ] ^(١) إِلَّا مَا يُحِبُّ، وَلَا يَضْحَكُهُمْ إِلَّا بِمَا يُحِبُّ هُوَ أَنْ يُضْحَبَ.

وَأَمَّا فِي مَا بَيْنَهُ ٢٦٣ - ب/ وَبَيْنَ مُحَارِبِهِ فَإِنَّ ^(٢) يُؤَدِّي، وَيَحْفَظُ الْحَقُوقَ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لِبَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ، وَلَا يُضَيِّعُهَا.

وَأَمَّا فِي مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الرِّسْلِ فَهُوَ أَنْ مِنْ حَقِّهِمْ أَنْ يَوْصَلَ الْإِيمَانَ بِالنَّبِيِّينَ جَمِيعاً وَالْكِتَابَ كُلَّهَا. [هَذِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، الصَّلَاتُ] ^(٣) الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ أَنْ يَوْصَلَ بِهَا ﴿وَيَحْشُرُونَ رَبَّهُمْ﴾ إِمَّا فِي التَّقْصِيرِ فِي مَا أَمَرَ أَنْ يَوْصَلَ وَإِمَّا بِالتَّقْرِيطِ فِي ذَلِكَ وَتَرْكِ الصَّلَاةِ ﴿وَيَحْشُرُونَ سَوَاءَ الْحِسَابِ﴾ أَيِ شِدَّةِ الْحِسَابِ حِينَ لَمْ تَنْفَعَهُمْ حَسَنَاتُهُمْ، وَلَا يَتَجَاوَزُ عَنْ شَيْءٍ مِنْ سَيِّئَاتِهِمْ، فَذَلِكَ يَسْؤُرُهُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٢٢ وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا﴾ قد ذكرنا في ما تَقَدَّمَ أَنَّ الصَّبْرَ هُوَ كَفُّ النَّفْسِ وَحَبْسُهَا عَمَّا تَهْوَاهُ عَلَى مَا تَكْرَهُ، وَيُقْبَلُ عَلَيْهَا.

ثُمَّ يَحْتَمِلُ كَفُّهَا وَحَبْسُهَا عَنِ الْجَزَعِ وَعَلَى آدَاءِ مَا افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَأَمَرَهُمْ بِهَا، أَوْ كَفُّوا أَنْفُسَهُمْ، وَحَبَسُوهَا عَنِ الْمَعَاصِي. فَيَكُونُ الصَّبْرُ عَلَى الْوُجُوهِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي ذَكَرْنَا، اللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿أَتَيْغَا وَجْهُ رَبِّهِمْ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ: يَحْتَمِلُ اتِّغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ، وَيَحْتَمِلُ اتِّغَاءَ وَجْهِهِ، يَكُونُ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَهُوَ الْمَنْزِلَةُ وَالرَّفْعَةُ، وَلِذَلِكَ سَمِيَ الرَّفِيعُ مِنَ الْمَنْزِلَةِ وَجْهًا كَقَوْلِهِ: ^(٤) ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِهَاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥] أَيِ ذَا ^(٥) مَنْزِلَةٍ وَرَفْعَةٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وعلى ذَلِكَ يُخْرِجُ قَوْلُهُ: ﴿فَأَتَيْنَا تَوَلَّوْا فَجَاءَ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١١٥] أَيِ ثُمَّ الْجِهَةُ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ أَنْ يُتَوَجَّهَ إِلَيْهَا. فَعَلَى ذَلِكَ هَذَا ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ أَيِ ابْتِغَاءَ الْمَنْزِلَةِ وَالرَّفْعَةِ الَّتِي عِنْدَ رَبِّهِمْ وَابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ وَمَرْضَاتِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أَيِ دَاوَمُوا عَلَى إِقَامَتِهَا، لَيْسَ أَنَّهُمْ أَقَامُوهَا ^(٦) مَرَّةً، ثُمَّ تَرَكُوهَا، وَلَكِنْ دَاوَمُوا عَلَى إِقَامَتِهَا. وَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣] أَيِ دَاوَمُوا عَلَى إِقَامَتِهَا.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أَيِ جَعَلُوهَا قَائِمَةً أَبَدًا.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ يَحْتَمِلُ كُلَّ نَفَقَةٍ: الصَّدَقَةَ وَالزَّكَاةَ وَمَا يُنْفِقُ [الْمَرْءُ] ^(٧) عَلَى عِيَالِهِ وَوَلَدِهِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً، أَيِ يُنْفِقُ فِي كُلِّ وَقْتٍ سِرًّا مِنَ النَّاسِ وَعَلَانِيَةً مِنْهُمْ، أَيِ يُنْفِقُ عَلَى جَهْلٍ مِنَ النَّاسِ وَعَلَى عِلْمٍ مِنْهُمْ؛ يُنْفِقُونَ عَلَى كُلِّ حَالٍ، لَا يَمْنَعُهُمْ عِلْمُ النَّاسِ بِذَلِكَ عَنِ الْإِنْفَاقِ بَعْدَ أَنْ يَكُونَ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ.

وقوله تعالى: ﴿وَيَذَرُونِ الْيَتِيمَ﴾ أَيِ يَذْفَعُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ. ثُمَّ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَيِ يَدْفَعُونَ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ الْعَدَاوَةَ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَهُمْ كَقَوْلِهِ: ﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ الآية [فصلت: ٣٤].

وَالثَّانِي: ﴿وَيَذَرُونِ﴾ الْإِسَاءَةَ الَّتِي كَانَتْ لَهُمْ بِالْخَيْرِ إِلَيْهِمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَا يُكَافِئُونَ السَّيِّئَ بِالسَّيِّئِ وَالشَّرَّ بِالشَّرِّ، وَلَكِنْ يَدْفَعُونَهُ بِالْخَيْرِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَيَذَرُونِ الْيَتِيمَ﴾ أَيِ إِذَا سَفِهَ عَلَيْهِمْ حَلِمُوا، وَالسَّفَهَ سَيِّئَةٌ وَالْحِلْمُ حَسَنَةٌ.

[وقوله تعالى: ^(٨) ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَغْفِقْ الْآدَارُ﴾] يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا ^(٩): عُقْبَى أُولَئِكَ الَّذِينَ صَبَرُوا عَلَى مَا ذَكَرَ مِنْ وِفَاءِ الْعَهْدِ وَالصَّلَاةِ الَّتِي أُمِرُوا بِهَا أَنْ يَصْلُوا وَالصَّبْرَ عَلَى آدَاءِ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: أَلَا يُحِبُّهُمْ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنْ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: هَذَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ الصَّلَاةَ. (٤) فِي الْأَصْلِ: وَجْهًا كَقَوْلِهِ، فِي م: وَلِذَلِكَ سَمِيَ الرَّفِيعُ وَذُو مَنْزِلَةٍ وَجْهًا. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: ذُو. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: أَقَامُوا. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

ما أَمَرَ بِهِ، وافترض عليهم^(١) والانتهاء عما نهى عنه: الدار الذي دعاهم إليها بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّكِينِ﴾ [يونس: ٢٥].

والثاني: ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَغَيِّبْ الدَّارَ﴾ أي غُيِّبَ حَسَنَاتُهُمْ دَارُ الْجَنَّةِ ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَغَيِّبْ الدَّارَ﴾ الجنة. أو عاقبتهم دَارُ الْجَنَّةِ. ثم نَعَتْ تِلْكَ الدَّارَ، فقال: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا﴾ قال أهل التأويل: ﴿عَدْنٌ﴾ هو بطنان الجنة، وهو رَسطُها. وقال بعضهم: ﴿عَدْنٌ﴾ هو الإقامة، أي جَنَّاتٌ يقيمون فيها، يُقال: عَدَنَ أي أقام.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ﴾ فإن قيل: كيف خَصَّ بالذكر الآباء والأزواج والذرية؟ وهم قد دخلوا في قوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْتُونَ بِمَهْرٍ مِنْ آلِهِمْ﴾ [الآية: ٢٠] وفي قوله: ﴿يَعْمَلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِعَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ [الآيتين: ٢١ و ٢٢] فما معنى تخصيصهم بالذكر؟ [قيل]^(٢) هذا يَحْتَمِلُ [وجهين]:

أحدهما^(٣): أنهم أسلموا، فاخترموا أي ماتوا لما أسلموا، ولم يكن لهم مما ذَكَرَ مِنَ الْخَيْرَاتِ وَالْحَسَنَاتِ. فَاخْتَبَرْنَا هَؤُلَاءِ يَدْخُلُونَهَا، وَيُلْحَقُونَ بِأُولَئِكَ.

والثاني: لم يَلْغُوا الدَّرَجَةَ التي بَلَغَ أُولَئِكَ، فَاخْتَبَرْنَا أَنَّهُ يُلْغُوهُمْ دَرَجَةً أَوْلَئِكَ، وَيُلْحِقُهُمْ بِهِمْ^(٤) كقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الآية [الطور: ٢١] يضم بعضهم إلى بعض في الآخرة كما كانوا في الدنيا يضم كل ذي قريب في الدنيا قريبه إليه في الآخرة.

وفي قوله: ﴿وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ﴾ إلى آخر ما ذَكَرَ، وهو ما قال لنوح: ﴿إِنَّكَ لَئِنْ لَمْ تَهْتَدِ لَكُنَّ مِنْ أَهْلِ الْخَالِدِ﴾ [هود: ٤٦] دل هذا أن صلاحَ والدٍ أو قريبٍ لا يُجدي له نفعاً في الآخرة، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ هذا يَحْتَمِلُ [وجهين]: أحدهما^(٥): أن يكون لمقامهم ومنازلهم أبواب، فيدخل عليهم من كل باب مَلَكٌ. والثاني^(٦): أن يكون يأتي كل مَلَكٍ بالتحفة التي أتى بها الآخر على اختلاف خيراتهم وقدر أعمالهم من كل باب أي من كل نوع من الثخف. وفيه وجهان:

أحدهما: أن الملائكة يكونون خَدَمَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وفي ذلك تَفْضِيلٌ عَلَيْهِمْ. والثاني: أن يكونوا^(٧) على حَقِّ الْمُصَاحَبَةِ لَمَّا أَحْبَبُوا هُمْ أَهْلَ الْخَيْرِ مِنَ الْبَشَرِ فِي الدُّنْيَا، فَجَعَلَ اللَّهُ بَيْنَهُمُ الرُّفْقَةَ وَالصُّحْبَةَ فِي الْآخِرَةِ، والله أعلم بذلك.

الآية ٢٤ وقوله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ كقوله ﴿وَعَجَّزْتُمْ فِيهَا سُلُكُكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٣].

وقوله تعالى: ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ هو ما ذَكَرْنَا فِي قَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَغَيِّبْ الدَّارَ﴾.

الآية ٢٥ وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ الْعَهْدُ قَدْ ذَكَرْنَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ، وَكَذَلِكَ النِّقْضُ.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ كُلُّ حَرْفٍ مِنْ هَذِهِ الْحُرُوفِ يَقْتَضِي مَعْنَى الْحَرْفِ الْآخَرِ: إِذَا نَقَضُوا الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ فَقَدْ قَطَعُوا مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ، وَسَعَوْا فِي الْأَرْضِ بِالْفُسَادِ، وَإِذَا قَطَعُوا مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ نَقَضُوا الْعَهْدَ، وَسَعَوْا فِي الْأَرْضِ بِالْفُسَادِ إِلَّا أَنْ يُقَالَ: إِنَّ نَقْضَ الْعَهْدِ يَكُونُ بِالْإِعْتِقَادِ وَذَلِكَ يَكُونُ مِنْهُمْ وَبَيْنَ نَسَائِهِمْ، وَكَذَلِكَ قَطَعَ مَا أَمَرَ بِهِ أَمْرُ صَلَةِ الْإِيمَانِ بِالْتَّبَيُّنِ وَالْكِتَابِ جَمِيعاً.

فَإِنْ كَانَ صَلَةُ الْأَرْحَامِ فَهُوَ فِعْلٌ، وَالسُّغْيُ فِي الْأَرْضِ فِعْلٌ أَيْضاً مِنْ زِنَى أَوْ سَرِقَةٍ أَوْ قَطْعِ الطَّرِيقِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَعَاصِي.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَجُوهَا أَحَدُهَا. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَجُوهَا أَحَدُهَا. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: بِهِ. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) أُدْرِجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: يَحْتَمِلُ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ أَنْ يَكُونَ.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ ما ذكرنا من وَضْعِ الإيمان ببعض الرسل [وبكل الرسل وبجميع] ^(١) الكتب، وَيَحْتَمِلُ صِلَةَ الأرحام التي فرض عليهم ^(٢) صِلَتُهَا، فَقَطَعُوا ^(٣) وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَصِلُوا أَعْمَالَهُمْ بما اعتقدوا. وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ اللعنة هي الطرد في اللغة والإبعاد؛ كأنهم طردوا، وأبعدوا عن رحمة الله في الآخرة، أو طردوا، وأبعدوا من هداية الله وإرشاده في الدنيا ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ قد ذكرنا أنهم دُعُوا إلى دار، وحذروا عن دار؛ دُعُوا إلى دار الإسلام، فإن أجابوا فلهُمُ الحُسنى على ما ذكر، وحذروا / ٢٦٤ - أ / عَنْ دَارِ الْهَوَانِ، فلم يَحْذَرُوا ^(٤) دَارَ السَّوْءِ وَالْهَوَانِ، وَسَمَاهَا ^(٥) سُوءَ الدَّارِ لِمَا يَسُوءُ مَقَامَهُمْ فِيهَا، أَوْ ذَكَرَ لِأَهْلِ النَّارِ سُوءَ الدَّارِ مُقَابِلَ مَا ذَكَرَ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ حُسْنَ الْمَأْتِ وَحُسْنَ الثَّوَابِ وَالْحُسْنَى.

الآية ٢٦

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ يُرَغِّبُهُمْ فِي مَا عِنْدَهُ، وَيُؤَسِّسُهُمْ عَمَّا فِي أَيْدِي الْخَلْقِ، وَيَقْطَعُ رَجَاءَهُمْ عَنْ ذَلِكَ، لِأَنَّ الَّذِي كَانَ يَمْتَنِعُهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ، وَيَحْمِلُهُمْ عَلَى تَكْذِيبِ الرِّسْلِ وَتَرْكِ الْإِجَابَةِ، هَذِهِ الْأَمْوَالُ الَّتِي كَانَتْ فِي أَيْدِي أُولَئِكَ، وَبِهَا رَأَوْا دَوَامَ الرِّثَاسَةِ وَالْعِزِّ وَالشَّرَفِ لَهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، فَقَالَ: هُوَ الْبَاسِطُ لَذَلِكَ، الْقَاتِرُ [على] ^(٦) أُولَئِكَ، هُوَ يُوسِّعُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، وَيُقْتَرُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، لَيْسَ ذَلِكَ إِلَى الْخَلْقِ.

وَذَكَرَ أَنَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ أَوْلِيَائِهِ وَأَعْدَائِهِ، وَيُقْتَرُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ أَعْدَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ، لِيَتَعَلَّمُوا أَنَّ التَّوَسُّعَ فِي الدُّنْيَا أَوْ الْبَسْطَ لَا يَدُلُّ عَلَى الْوَلَايَةِ، وَلَا التَّقْيِيرُ وَالتَّضْيِيقُ [يدل] ^(٧) عَلَى الْعَدَاوَةِ، لَيْسَ كَمَا يَكُونُ فِي الشَّاهِدِ يُوسِّعُ عَلَى الْأَوْلِيَاءِ، وَيَبْسُطُ، وَيَضِيقُ عَلَى الْأَعْدَاءِ، لِأَنَّ التَّوَسُّعَ فِي الدُّنْيَا وَالتَّضْيِيقَ بِحَقِّ الْمِخْنَةِ فِي الْآخِرَةِ بِحَقِّ الْجَزَاءِ، وَيُسَوِّي فِي الْمِخْنَةِ الْوَلِيَّ وَالْعَدُوَّ، وَيَجْمَعُ بَيْنَهُمَا فِي الْمِخْنَةِ، وَيُفَرِّقُ بَيْنَهُمَا فِي الْجَزَاءِ.

وقوله تعالى: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ صِلَةً مَا تَقَدَّمَ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ [الرعد: ٢٥] وَيَفْرَحُونَ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

ثُمَّ الْفَرَحُ بِحَتْمِمْ وَجُوهًا: يَحْتَمِلُ ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أَي رَضُوا بِهَا كَقَوْلِهِ: ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا﴾ [يونس: ٧] أَوْ ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ سُورَرًا بِهَا.

فَإِنْ قِيلَ: إِنَّ الْمُؤْمِنَ قَدْ يُسَرُّ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا، قِيلَ: يُسَرُّ، وَلَكِنْ لَا يُلْهِمُهُ ^(٨) سُورُورُهُ بِهَا، وَلَا يَغْفُلُ عَنِ الْآخِرَةِ. وَأَمَّا الْكَافِرُ فَإِنَّهُ ^(٩) لِيَشْدُو سُورُورُهُ بِهَا وَفَرَحِهِ عَلَيْهَا يَلْهُو عَنِ الْآخِرَةِ وَعَنْ جَمِيعِ الطَّاعَاتِ. وَهَكَذَا يُعْرِفُ النَّاسُ أَنَّهُ إِذَا اشْتَدَّ بِالْمَرءِ السُّرُورُ بِالشَّيْءِ فَإِنَّهُ يَلْهُو عَنْ غَيْرِهِ، وَيَغْفُلُ عَنْهُ.

أَوْ يَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿وَفَرِحُوا﴾ أَي أَشْرُوا، وَبَطَرُوا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦] وَالْفَرَحُ هُوَ ^(١٠) الْأَمِيرُ أَوْ الْبَطَرُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ تَأْوِيلُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَي مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَعَ طَوِيلِ تَمَتُّعِهِمْ بِهَا [بِمُقَابِلَةِ تَمَتُّع] ^(١١) الْآخِرَةِ إِلَّا كَمَتَاعٍ سَاعَةٍ أَوْ كَمَتَاعٍ بِشْيءٍ يَسِيرٍ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿لَوْ بَلَّيْنَا إِلَّا عَيْنَةً أَوْ شَهَنًا﴾ [النَّازِعَات: ٤٦] وَكَقَوْلِهِ: ﴿لَوْ بَلَّيْنَا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ﴾ [يونس: ٤٥] يَظُنُّونَ مَعَ طَوِيلِ مَا مُتَّعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا عِنْدَ مَتَاعِ الْآخِرَةِ كَانَهُمْ مَا مُتَّعُوا بِهَا إِلَّا سَاعَةً.

فَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ وَهُوَ مَا ذَكَرَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨] عِنْدَ مَتَاعِ الْآخِرَةِ [لِأَنَّ مَتَاعَ الْآخِرَةِ] ^(١٢) وَنَعِيمَهَا دَائِمٌ مُتَّصِلٌ غَيْرُ مُنْقَطِعٍ، لَا يَشُوبُهُ أَفَقٌ وَلَا حُزْنٌ وَلَا خَوْفٌ، وَمَتَاعُ الدُّنْيَا مُنْقَطِعٌ غَيْرُ مُتَّصِلٍ مُشَوَّبٌ بِالْآفَاتِ وَالْأَحْزَانِ، لِذَلِكَ [كَانَ] ^(١٣) قَلِيلًا عِنْدَ مَتَاعِ الْآخِرَةِ وَنَعِيمِهَا.

وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ أَي إِلَّا لَهْوٌ وَبَاطِلٌ، لَكِنَّ الرُّجَا فِيهِ مَا ذَكَرْنَا.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: مَا لِكُلِّ وَجْمَعٍ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: صَلَّتْهُمْ قَطَعُوا ذَلِكَ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: يَحْذَرُ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ سَمَاهَا. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: يُلْهِمُ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: فَإِنَّهَا. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: وَهُوَ. (١٠) فِي الْأَصْلِ: يَتَمَتَّعُ، فِي م: تَمَتَّعُ. (١١) م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١٢) م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ.

الآية ٢٧

وقوله تعالى: ﴿وَقُولِ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّي﴾. يَحْتَمِلُ سَوَالُهُمُ الْآيَةَ نَفْسَ الْآيَاتِ الَّتِي أَتَتْ بِهَا الرُّسُلُ مِنْ قَبْلُ قَوْمَهُمْ، أَوْ سَالُوا آيَاتٍ سَمَّوْهَا كَقَوْلِهِ: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَكَ لَكَ حَقٌّ تَفْجُرُ لَنَا [مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا] وَكَقَوْلِهِ (١) «أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِنْ ذُرْوَيْهَا» [الإسراء: ٩٠ - ٩٣] إِلَى آخِرِ مَا ذَكَرَ مِنَ الْآيَاتِ سَالَوْهَا مِنْهُ، أَوْ سَالُوهُ آيَاتٍ تَضْطَرُّهُمْ، وَتَقْهَرُهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنْ نَشَأْ نُزِّلَ عَلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لَهَا خَضِيعِينَ﴾ [الشعراء: ٤].

وفيه دلالة أنه لو شاء لَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ آيَاتٍ لَأَمْنُوا كُلُّهُمْ بِهَا، وَاهْتَدَوْا [وَأَنَّ] (٢) عِنْدَهُ أَشْيَاءٌ لَوْ أَعْطَاهُمْ لَكَانَ ذَلِكَ سَبَبَ اهْتِدَائِهِمْ وَتَوَحُّدِهِمْ، وَكَذَلِكَ لَوْ أَعْطَى أَشْيَاءَ لَكَانَ ذَلِكَ سَبَبَ كُفْرِهِمْ جَمِيعًا كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوشِقَ سُقُفًا مِنْ فَضْلِ الْآيَةِ [الزخرف: ٣٣] لَكِنَّهُ لَا يَنْزِلُ الْآيَةَ عَلَى شَهَوَاتِهِمْ وَأَمَانِيهِمْ، وَلَكِنْ يَنْزِلُ أَشْيَاءَ تَكُونُ عِنْدَ التَّأَمُّلِ (٣) وَالنَّظَرِ حُجَّةً. فَمَنْ تَأَمَّلَ فِيهَا، وَتَفَكَّرَ، اهْتَدَى (٤)، وَأَمِنَ بِالْإِخْتِيَارِ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْهَا، وَلَمْ يَتَفَكَّرْ، ضَلَّ، وَزَاغَ، بِالْإِخْتِيَارِ.

وَيَحْتَمِلُ (٥) قَوْلُهُ: ﴿إِنْ نَشَأْ نُزِّلَ عَلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ﴾ أَيِ إِنْ نَشَأَ إِيْمَانُهُمْ وَاهْتِدَاءُهُمْ نَزَّلَ عَلَيْهِمْ آيَةً. وَذَلِكَ تَأْوِيلُ قَوْلِهِ عَلَى إِثْرِ سَوَالِهِمُ الْآيَةَ: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُعَلِّمُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ﴾ أَيِ يَنْزِلُ مِنَ الْآيَاتِ مَا يَهْتَدِي بِهَا الْمُنِيبُ إِلَيْهَا وَالْمُقْبِلُ، وَيُضِلُّ (٦) الْمُعْرِضَ عَنْهَا وَالصَّادِرَ بِالْإِخْتِيَارِ وَيَكُونُ اهْتِدَائُهُمْ بِالْإِخْتِيَارِ وَضَلَالَتُهُمْ بِالْإِخْتِيَارِ هُمْ لَا [بِاضْطِرَارِهِمْ وَتَقْهَرِهِمْ] (٧).

الآية ٢٨

أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾؟ وَهُوَ الْقِرْآنُ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ، وَهُوَ وَصَفُ الْمُقْبِلِ الْمُنِيبِ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ؛ تَسْكُنُ، وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِالتَّأَمُّلِ وَالتَّفَكُّرِ فِيهِ (٨).

وَأَصْلُهُ أَيْ اللَّهُ ﷻ شَاءَ هِدَايَةً (٩) مَنْ عَلِمَ أَنَّهُ يَخْتَارُ الْإِهْتِدَاءَ وَالْإِيمَانَ، وَشَاءَ ضَلَالًا مَنْ عَلِمَ أَنَّهُ يَخْتَارُ فِعْلَ الضَّلَالِ وَالزَّيْغِ؛ يَشَاءُ لِكُلِّ لِمَا عَلِمَ أَنَّهُ يَخْتَارُ ذَلِكَ.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ وَتَسْكُنُ إِلَيْهِ. وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: هُوَ فِي الْحَلْفِ فِي الْخُصُومَاتِ؛ أَلَا فِي الْحَلْفِ بِاللَّهِ تَطْمَئِنُّ، وَتَسْكُنُ قُلُوبُ الَّذِينَ آمَنُوا، لَا تَطْمَئِنُّ بِالْحَلْفِ بِغَيْرِ اللَّهِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَلَا بِالْقِرْآنِ وَبِمَا فِي الْقِرْآنِ مِنَ الثَّوَابِ تَسْكُنُ، وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُ الَّذِينَ آمَنُوا.

وَيُسَبِّحُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ أَنْ (١٠) تَفَرَّحَ، وَتَسْتَبْشِرُ قُلُوبُ الَّذِينَ آمَنُوا بِذِكْرِ اللَّهِ، أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَسْتَبْشِرُ، وَتَفَرَّحُ قُلُوبُ الَّذِينَ آمَنُوا؛ لِأَنَّهُ ذَكَرَ فِي الْكَفَرَةِ الْفَرَحَ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَفَرَحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الآية ٢٦] وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا، وَذَكَرَ فِي الْمُؤْمِنِينَ الْإِسْتِيشَارَ وَالْفَرَحَ بِذِكْرِ اللَّهِ، وَفِي أَوَّلِكَ ذَكَرَ أَنَّ قُلُوبَهُمْ تَسْتَبْشِرُ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ، وَتَسْتَبْشِرُ بِذِكْرِ مَنْ دُونَهُ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥] أَخْبَرَ ﷻ أَنَّ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ تَسْتَبْشِرُ، وَتَفَرَّحُ بِذِكْرِ اللَّهِ، وَقُلُوبُ أَوْلَئِكَ تَسْتَبْشِرُ [بِذِكْرِ اللَّهِ] (١١) وَتَسْتَبْشِرُ بِذِكْرِ [مَنْ] (١٢) دُونَهُ.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ يُخْرِجُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ لَهُمْ، وَذَكَرَ اللَّهُ لَهُمُ التَّوْفِيقَ وَالتَّسْدِيدَ وَالْعَصْمَةَ [وَنَحْوُ ذَلِكَ] (١٣).

وَالثَّانِي: ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ [ذَكَرًا] (١٤) إِحْسَانِيَّةً وَعَظَمِيَّةً وَجَلَالِيَّةً [وَنَحْوُ ذَلِكَ] (١٥).

الآية ٢٩

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسَنَ مَا أَجْرُهُمْ﴾ قِيلَ: هُوَ اسْمُ الْجَنَّةِ بِلِسَانِ الْحَبَشَةِ،

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: الْآيَةُ. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: التَّأْوِيلُ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: لَاهْتَدَى. (٥) الْوَاوُ ساقطة من الأصل. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيَضُرُّ. (٧) فِي م: بِالْإِضْطِرَارِ وَالْقَهَرِ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: فِيهَا. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: اهْتَدَى. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: أَيِ. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَنَحْوَهُ. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَنَحْوَهُ.

وقيل: بالهنديّة، وقيل [اسم شجرة] (١) في الجنة؛ أصلها في دار رسول الله ﷺ وأغصانها في دار آمنة، فإن كان هذا، وهو اسم شجرة، فذلك لا يستقيم إلا بقدمه، كان أهل الكتاب ادّعوا لأنفسهم، فأخبر أنها للذين / ٢٦٤ - ب/ آمنوا، لا لهم، كقولهم: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرًا﴾ [البقرة: ١١١] ثم قال ﷺ ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [البقرة: ١١٢].

ادّعوا الجنة لأنفسهم، فأخبر أنها ليست لهم، ولكن للذي أسلم، وأخلص وجهه لله. فعلى ذلك يشبه أن يكونوا ادّعوا طوبى لأنفسهم، فأخبر أنها ليست لهم، ولكن للذين آمنوا.

وإن كان في مشركي العرب، فهم يُنكرون البعث والجنة والنار، فيشبه أن يكونوا قالوا: إن كان بعث على ما يقولون، وجنة طوبى، فهي لنا كقوله: ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦].

وقال بعضهم: ﴿طوبى﴾ كلمة مدح الله بها ثوابهم، وغبطهم بها. وقال بعضهم: ﴿طوبى﴾ كرامة أعدها (٢) الله لأوليائه، وهي مذكورة في الكتب.

الآية ٣٠ وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ أُمَمٌ﴾ أي كما أرسلنا إلى أمت من قبلك رسلاً ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ أي كل رسول كان أرسل قبلك، كان أمير أن يقول ما ذكر، كذلك أرسلناك إلى قومك رسلاً، وإن كانوا يكفرون بالرحمن، فقل أنت ما قال أولئك الرسل ﴿رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ الآية. لم تخل أمة عن رسول كقوله: ﴿وَلَنْ يَمُنَّ أَهْلًا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

[وقوله تعالى] (٣): ﴿لَتَسْتَأْذِنُوا عَلَيْهِمُ الَّذِينَ أُوحِيََ إِلَيْكَ﴾ يشبه أن يكون هذا صلة قوله: ﴿لَوْلَا أَنْزَلْ عَلَيْهِ مَائِدَةً مِنْ رَبِّي﴾. [يونس: ٢٠] يقول: أرسلناك لتستأذنوا أبناء الرسل والأمم الذين كانوا من قبلك عليهم لتكون آية لرسالتك، لتعلموا أنك إنما علمت تلك الأنبياء بالله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ يقول، والله أعلم، هم يكفرون بالرحمن، وفي كل من الخلائق آية توحيد الله والوحي، ولا في كل الخلائق آية لرسالتك، وهم مع هذا كله يكفرون بالرحمن. فعلى ذلك يكفرون بآيات رسالتك.

وقال أبو بكر الأصم: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ هو صلة قوله: ﴿لَوْلَا أَنْزَلْ عَلَيْهِ مَائِدَةً مِنْ رَبِّي﴾. [الرعد: ٢٧] وكانوا أهل التثنية (٤) من الكبر فقال: لو جثتهم بقرآن ﴿شَرِيتُ بِهِ الْجِبَالَ أَوْ قَطَعْتُ بِهِ الْأَرْضَ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتِ﴾ [الآية: ٣١].

يقول: لو جثت بذلك كله كان أمرهم بالكذب والعناد. وهو كقوله: ﴿مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ الآية [الأنعام: ١١١] وقوله: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ الآية [الحجر: ١٤] يُخْبِرُ ﷺ عن عنادهم أنهم لا يؤمنون بالآية، وإن عظمت، إلا أن يشاء الله.

وقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا زَلَلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ﴾ [الأنعام: ١١١] أي الأمر لله من شاء أن يؤمن يؤمن، ومن شاء ألا يؤمن فلا يؤمن البتة.

وقال بعضهم: قوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ أي يكفرون باسم الرحمن لأنهم قالوا: إن محمداً كان يدعونا إلى عبادة الله وتوحيده، فالساعة يدعونا إلى عبادة الرحمن والوحي، فذلك عبادة اثنين، فقال: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي دعائي إلى عبادة الرحمن والوحي، هو دعائي إلى عبادة الله، هو واحد، ليس باثنين ولا عَدَد، كقوله: ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَدْعُوا الرِّحْمَنِ﴾ [الإسراء: ١١٠] أي عَدَدُ الأسماء لا يُوجب عَدَدَ [الذوات، بل] (٥) يكون لشيء واحد في الشاهد [له] (٦) أسماء مختلفة. فاختلاف الأسماء لا يُوجب اختلاف الذات، فعلى ذلك في الله.

(١) من م، في الأصل: شجر. (٢) في الأصل: رم: أعداء. (٣) ساقطة من الأصل: رم. (٤) في الأصل: رم: التعهد. (٥) في الأصل: رم: الذات. (٦) ساقطة من الأصل: رم.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الرَّحْمَنُ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ فِي الْكِتَابِ الْأَوَّلِ، قَالُوا: كَتَبَهَا رَسُولُ اللَّهِ، أَبَوَا أَنْ يُقْرَؤَا بِهِ، ﴿قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ [الفرقان: ٦٠] إِنْ لَا نَعْرِفُهُ، فَتَزَلْ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٣١

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ إِلَى آخِرِ مَا ذَكَرَ. قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: تَأْوِيلُهُ: لَوْ أَنَّ قُرْآنًا مَا غَيَّرَ قَرَأَتِكَ سَيَّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ مِنْ أَمَاكِيزِهَا ﴿أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمٌ بِهِ الْمَوْتُ﴾ لَفَعَلْنَا^(١) بِقُرْآنِكَ أَيْضًا ذَلِكَ. وَلَكِنْ لَمْ نَفْعَلْ بِكِتَابٍ مِنَ الْكِتَابِ الَّتِي أَنْزَلْنَاهَا عَلَى الرُّسُلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ، وَلَكِنْ شَيْءٌ أُعْطِيَتْهُ أَنْبِيَائِي وَرُسُلِي ﴿بَلْ يَلَوُ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾.

يَقُولُ: بَلْ جَمِيعُ ذَلِكَ الْأَمْرِ كَانَ مِنَ اللَّهِ، وَلَيْسَ مِنْ قِبَلِ الْقُرْآنِ، أَيْ لَوْ فَعَلَ بِالْقُرْآنِ ذَلِكَ كَانَ جَمِيعُ ذَلِكَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ يَلَوُ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ إِنْ شَاءَ فَعَلْ مَا سَأَلْتُمْ، وَإِنْ شَاءَ لَمْ يَفْعَلْ. وَنُشِبُهُ أَنْ يَكُونَ غَيْرُ هَذَا أَقْرَبَ أَنْ يَكُونَ صِلَةً مَا تَقَدَّمَ مِنْ سَوَالِهِمُ الْآيَاتِ، وَهُوَ قَوْلُهُ ﴿وَقَوْلُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ [الرعد: ٢٧] فَيَقُولُ: لَوْ أَنَّ قُرْآنَكَ الَّذِي تَقْرَأُ عَلَيْهِمْ سَيَّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمٌ بِهِ الْمَوْتُ لَمَا آمَنُوا بِكَ، وَلَمَّا صَدَّقَكَ عَلَى رِسَالَتِكَ عَلَى مَا لَا يُؤْمِنُونَ بِالرَّحْمَنِ، وَكُلٌّ مِنَ الْخِلَافِ لَهُ آيَةٌ لِيُوحِدَانِيَّتِهِ، يُخْبِرُ عَنْ شِدَّةِ تَعَتُّبِهِمْ وَتَمَرُّدِهِمْ فِي تَكْذِيبِهِمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ سَوَّالَهُمُ الْآيَةَ سَوَّالٌ تَعَتُّبٌ وَتَمَرُّدٌ، لَيْسَ سَوَّالٌ اسْتِزْشَادٌ وَاسْتِثْبَاءٌ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ أَيْ لَوْ أَنَّ قُرْآنًا مَا عَمِلَ مَا ذَكَرَ لَكَانَ هَذَا الْقُرْآنُ تَعْظِيمًا لِهَذَا الْقُرْآنِ، وَالتَّأْوِيلُ الَّذِي ذَكَرْنَا قَبْلَ هَذَا كَأَنَّهُ أَقْرَبُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِيسَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ هُوَ صِلَةٌ مَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ [الرعد: ٣٠] ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ الْآيَةَ؛ يَقُولُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ ﴿أَفَلَمْ يَأْتِيسَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ مِنْ إِيْمَانٍ مَنْ كَانَ عَلَى مَا وَصَفَ اللَّهُ؟ وَتَمَامُ هَذَا: كَانَ الْمُؤْمِنِينَ سَأَلُوا لَهُمُ الْآيَاتِ لِيُؤْمِنُوا كَمَا^(٢) سَأَلُوهُمْ آيَاتٍ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، فَيَقُولُ: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِيسَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ مِنْ إِيْمَانٍ هَؤُلَاءِ، وَهُوَ كَمَا قَالَ: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ [الأنعام: ١٠٩] كَانَ الْمُؤْمِنِينَ سَأَلُوا لَهُمُ الْآيَاتِ لِيُؤْمِنُوا، فَقَالَ: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩] أَيْ يُؤْمِنُونَ عَلَى طَرَحٍ ﴿لَا﴾ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِيسَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أَفَلَمْ يَتَّبِعِينَ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ لِكثْرَةِ مَا رَأَوْا مِنْهُمْ مِنَ الْعِنَادِ وَالْمُكَابَرَةِ؟ فَسَرُوا الْإِيَّاسَ بِالْعِلْمِ وَالْإِيَّاسَ^(٣) لِأَنَّ الْإِيَّاسَ إِذَا غَلَبَ يَعْمَلُ عَمَلُ الْعِلْمِ كَالْخَوْفِ، وَالظَّنُّ [وَنَحْوُ ذَلِكَ]^(٤) جَعَلُوهُ يَقِينًا وَعِلْمًا لِلْعَلَّةِ لِأَنَّهُ إِذَا غَلَبَ يَعْمَلُ عَمَلُ الْيَقِينِ وَالْعِلْمِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِيسَ﴾ أَيْ أَفَلَمْ يَعْلَمْ ﴿لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ أَنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ لَوْ شَاءَ.

قَالَتْ عَائِشَةُ: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِيسَ﴾ خَطَأٌ مِنَ الْكَاتِبِ إِنَّمَا هُوَ أَفَلَمْ يَتَّبِعِينَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ فَمَعْنَاهُ: أَيْ قَدْ يَتَّبِعِينَ لِلَّذِينَ آمَنُوا.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِيسَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أَيْ أَفَلَمْ يَعْلَمْ ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أَيْ قَدْ عَلِمَ ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أَنَّ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ وَاهْتَدَاءَهُمْ ﴿لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ لَأَمَنُوا، وَاهْتَدَوْا.

وَقَالَ صَاحِبُ [هَذَا]^(٥) التَّأْوِيلِ: جَائِزٌ^(٦) فِي اللَّغَةِ: يَتَّسُ يَعْلَمُ، وَذَكَرَ أَنَّهَا لُغَةٌ نَحْنُ وَغَيْرُهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِيسَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ مَقْطُوعٌ مِنْ قَوْلِهِ ﴿أَنَّ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ الْآيَةَ [وَقَوْلُهُ:

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: لَفَعَلْنَا. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: لَمَّا. (٣) الْإِيَّاسُ: الْقَهْرُ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَنَحْوَهُ. (٥) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٦) أَدْرَجَ قَبْلَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: إِنْ.

﴿أَنْ لَّوْ يَشَاءَ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ هذا^(١) موصول بما تقدّم من قوله: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ [الرعد: ٢٧] ثم قالوا [جواباً لما قالوا]^(٢).

كانه قال: ﴿لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ ولكن ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ﴾ [الآية: ٢٧] أي [مَنْ]^(٣) عَلِمَ مِنْهُ أَنَّهُ يَخْتَارُ الضَّلَالَ، وَيُؤَيِّرُهُ، يَشَاءُ ذَلِكَ لَهُ، وَمَنْ^(٤) عَلِمَ مِنْهُ أَنَّهُ يَخْتَارُ الْهُدَى يَشَاءُ / ٢٦٥ - ١ / [ذَلِكَ]^(٥) لَهُ. وَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿أَلَمْ يَأْتِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقطوعاً^(٦)، لا جواب له.

كانه قال: ﴿أَلَمْ يَأْتِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مِنْ إِيْمَانِهِمْ لَكثْرَةِ مَا رَأَوْا مِنْهُمْ مِنَ الْعِنَادِ وَالتَّعَتُّبِ بَعْدَ رُؤْيَيْهِمُ الْآيَاتِ وَالْحُجَجِ؛ كَأَنَّ أَهْلَ الْإِيْمَانِ وَالْإِسْلَامِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ الْآيَاتِ الَّتِي سَأَلُوا هُمْ رَغْبَةً فِي إِسْلَامِهِمْ وَإِسْفَاقاً عَلَيْهِمْ، فَيَقُولُ، وَاللَّهِ أَعْلَمُ، أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا الْإِيْسَاسُ مِنْ إِيْمَانِهِمْ؛ أَيِ قَدْ آنَ^(٧) لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَتَّسِعُوا مِنْ إِيْمَانِهِمْ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ أَنَّا زُلْنَا لَأَتَيْنَاهُمُ الْمَلَأَئِكَةَ﴾ [الأنعام: ١١١].

فَعَلَى ذَلِكَ هَذَا؛ يَقُولُ: قَدْ آنَ^(٨) لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَتَّسِعُوا مِنْ إِيْمَانِهِمْ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا، كَقَوْلِهِ: ﴿مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: الَّذِينَ حَازَبُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ﴿تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾ هِيَ اسْمٌ مَا يَفْرَغُ الْقُلُوبَ، وَيَكْثِرُهَا،

ثُمَّ قَرَعَهُمْ يَكُونُ بَعْدَ [وَقْتْلٍ وَغَيْرِهِ]^(٩) مِنَ الْهَزِيمَةِ [وَسَبِي دَرَارِهِمْ، وَغَنَمٍ]^(١٠) الْمُسْلِمِينَ أَمْوَالَهُمْ ﴿أَوْ تَحُلَّ قَرْيَا مِنْ دَارِهِمْ﴾.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَوْ تَكُونُ الْقَارِعَةُ بِجِيرَانِهِمُ الَّذِينَ قُرِبَ مِنْكُمْ دَارُهُمْ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا تَزَالُ سَرِيَّةٌ مِنْ سَرَايَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَحُلُّ بَعْضَهُمْ، أَوْ يَنْزِلُ هُوَ قَرِيبًا مِنْهُمْ ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ يَكُونُ بَوَجهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ يُظْفِرَهُ بِهِمْ جَمِيعًا، وَأَنْ يُورِثَ الْمُؤْمِنِينَ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ.

وَالثَّانِي: يَكُونُ وَعْدُ اللَّهِ فَتَحَ مَكَّةَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ [الفتح: ١٢] ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ﴾ مَا وَعَدَ رَسُولُهُ مِنَ الْفَتْحِ وَالتَّصْرِ وَغَيْرِهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾ مُحْتَمِلٌ مَا ذَكَرَ مِنْ إِصَابَةِ الْقَارِعَةِ الْجَوْعِ وَالشَّدَائِدِ الَّتِي أَصَابَتْهُمْ، وَيَحْتَمِلُ الْقِتَالَ وَالْحُرُوبَ الَّتِي [كَانَتْ بَيْنَهُ] ^(١١) وَبَيْنَهُمْ.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ تَحُلَّ قَرْيَا مِنْ دَارِهِمْ﴾ نَزُولُ السَّرَايَا يَقْرُبُ مِنْ دَارِهِمْ ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ فَتَحَ مَكَّةَ؛ أَيْ تَحُلُّ قَرْيَا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ مَا وَعَدَ اللَّهُ مِنْ فَتَحِ مَكَّةَ عَلَيْكَ، أَوْ يَكُونُ وَعْدُ اللَّهِ هُوَ الْبَعْثُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتُمْ بُرْسِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يَقُولُ: وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ بُرْسِلُ مِنْ قَبْلِكَ قَوْمُهُمْ كَمَا اسْتَهْزَأَ بِكَ قَوْمُكَ؛ يُعْزِي نَبِيَّهُ لِيُضَيِّرَ عَلَى كَذِبِهِمْ.

وقال أبو بكرٍ الْأَصَمُّ: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتُمْ بُرْسِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ مَنْ تَقَدَّمَ مِنَ الرُّسُلِ، سَأَلَهُمْ قَوْمُهُمُ الْآيَاتِ وَالْعَذَابَ بِالْهَزْوِ، ثُمَّ بَيَّنَّ بِهَذَا أَنَّ مَا سَأَلُوهُ مِنَ الْآيَةِ أَرَادُوا الْهَزْوَ، وَهُوَ صِلَةٌ مَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ [الرعد: ٢٧].

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يَقُولُ: أَمَلَيْتُهُمْ فِي كُفْرِهِمْ وَهَزْنِهِمْ. هَذَا يَدُلُّ أَنَّ تَأْخِيرَ الْعَذَابِ عَنْهُمْ لَا يُؤْمِنُهُمْ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَهَذَا. (٢) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) الْوَائِ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: مَقْطُوع. (٧) وَ(٨) فِي الْأَصْلِ وَم: أُنَى. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقِيلَ غَيْرُهُ، فِي م: وَقِيلَ غَيْرُهُ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيَسَى دَرَارِهِمْ وَيَغْنَم. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: كَانَ بَيْنَهُمْ.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُمُوهُمْ وَهُمْ آمَنُوا﴾ ﴿فَكَفَّكَ كَانَ عِقَابِ﴾ [يَحْتَمِلُ وجوهاً: أخذها يقول: أملتُ لهم] ^(١) جزاء ما كانوا يَهْزُؤُونَ منه.

[والثاني: ما] ^(٢) قال بعضهم ﴿فَكَفَّكَ كَانَ عِقَابِ﴾ فكيف عِقَابُ الله؟ أي شديد عقابه، وهو كقولهِ: ﴿وَكَايْنِ مِنْ قَرْيَةٍ أَتْلَيْتَ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ [الحج: ٤٨] وقيل: كيف رأيت عذابي لهم؟ أي اليس ^(٣) وجَدُّهُ شديداً؟
والثالث: ﴿فَكَفَّكَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي اليس ^(٤) ما أوعَدْتُمُ الرُّسُلَ مِنَ العذابِ كَانَ حقاً صِدْقاً.

الآية ٢٣

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ قال أبو بكر الأصم: يقول: مَنْ الذي ﴿هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾؟ الله أم شركاؤكم؟ فالقائم هو المُدَبِّرُ الحافظُ لكلِّ ما فيه الخلقُ.

ويُسَبِّهُ أن يكون تائيداً: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ﴾ أي حافظ وعالم ﴿عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أو بالرزق لهم والذفع عنهم كَمَنْ هو أَعْمَى عن ذلك من ذلك؟ ليسا يسواء كقولهِ: ﴿أَفَمَنْ يَمْلِكُ أَنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْمُنُّ﴾ الآية [الآية: ١٩] أو يقول: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ كَمَنْ هو غَيْرُهُ قائم عليه؟ ليسا يسواء.

وقال مقاتل: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ﴾ [على] ^(٥) رزقيهم وطعامهم، ثم قال: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ أي وضَعُوا لله شركاء، وعَبَدُوهَا، والله أحقُّ أن يُعْبَدَ مِنْ غَيْرِهِ. يقول الله ﷻ: أنا القائم على كلِّ نفسٍ أرزُقُهُمْ، وأطْعِمُهُمْ، أناكون أنا وشركاني الذين لا يعقلون ذلك سواء؟ والوجه فيه ما وَصَفْنَا: أَفَمَنْ هذا؟ ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي يَرْزُقُ، وَيَبْصِرُ، وَيَعْلَمُ ^(٦) ما تَعْمَلُ، وَيَكْتُبُ، [وَيَحْفَظُ] ^(٧) من أنواع البلايا ﴿كَفَنَ هُوَ أَعْمَى﴾ [الآية: ١٩] جاهل عاجز عن ذلك كله، أي ليس هذا كذلك، وَيُسَفِّهُهُمْ في إشراكهم الأصنام التي عَبَدُوهَا في الألوهية والعبادة، وهي بالوصف الذي ذَكَرَ ﴿كَفَنَ هُوَ أَعْمَى﴾ عاجز عن ذلك، أي ليسا يسواء.

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ في ما قَدَّرَ لها، وقَوَّاهَا، أو في الجزاء؛ يجزي على ما تَكْسِبُ. ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ في العبادة وفي تسميتهم آلهة، لا يَعْلَمُونَ ما كَسِبَ لها، ولا يَمْلِكُونَ جزاء ما كَسَبُوا لها أيضاً.

يُبَيِّنُ سَفَهُهُمْ في جَعْلِهِمْ هَذِهِ الأصنام والأوثان شركاء الله في العبادة وتسميتهم آلهة مع علمهم أنهم لا يَقْدِرُونَ، ولا يَمْلِكُونَ شيئاً من ذلك.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ سَوَّاهُ﴾ قال بغض أهل التائيل: قوله: ﴿قُلْ سَوَّاهُ﴾ بذلك الاسم، ولو سَوَّاهُمْ بِكُذِبٍ وباطلٍ وزورٍ.

وعندنا قوله: ﴿قُلْ سَوَّاهُ﴾ أي إن ^(٨) سَمَّيْتُمُوهَا آلهة، وَاتَّخَذْتُمُوهَا [مَعْبُودَاتٍ فَسَمَّوْهَا] ^(٩) أيضاً بأسماء سَمَّيْتُمُوهَا ^(١٠) الله مِنْ نَحْوِ الخالقي والرازقي والرحمن والرحيم [ونحو ذلك، يقول] ^(١١) والله أَعْلَمُ: إن ^(١٢) سَمَّيْتُمْ هَذِهِ الأصنام آلهة [ومَعْبُودَاتٍ فَسَمَّوْهَا] ^(١٣) أيضاً خالقاً ورازقاً ورحمناً ورحيماً، [وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ] ^(١٤) أنها ليست كذلك، والله أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ تَتَّبِعُونَ مَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾ [وَيَحْتَمِلُ وجهين:

أحدهما: ^(١٥) أي أم تَتَّبِعُونَ الله، وهو عالم بما في السماوات وما في الأرض، وعالم بكل شيء، أنه ^(١٦) لا يَعْلَمُ في

(١) في الأصل وم: يقول أملت بهم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: ليس. (٤) في الأصل وم: ليس. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: ويعمل. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: لو. (٩) في الأصل وم: معبودا فسومهم. (١٠) في الأصل: سميتهم. (١١) في الأصل وم: ونحوه. (١٢) في الأصل وم: لو. (١٣) في الأصل وم: ومعبودا سمومهم. (١٤) في الأصل وم: وهم يعلمون. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) في الأصل وم: وهو.

الأرض ما^(١) تقولون من الآلهة وما تصفونه بالشركاء؟ وكذلك يُخرج قوله: ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٨] أم تُنبئونه بما ليس في الأرض شيء مما تقولون، وتصفونه بالشركاء^(٢)؟ أي يقول: أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وهو عالم بكل شيء، وأنه^(٣) لا يعلم ما تقولون، وتُسَمُّونَهُ مِنَ الشُّرَكَاءِ [وغير ذلك] ^(٤).

والثاني: ﴿أَمْ تَنْبِئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي ليس في الأرض.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَظْهَرُ مِنَ الْقَوْلِ﴾ قال أهل التأويل: ﴿أَمْ يَظْهَرُ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أي بل يبطل من القول وزور. ونُسِبُهُ أَنْ يَكُونَ: ﴿أَمْ يَظْهَرُ مِنَ الْقَوْلِ﴾ بضعيف^(٥) من القول أو خفيف. يُسَمُّونَ الشَّيْءَ الَّذِي لَا حَقِيقَةَ لَهُ، وَلَا ثُبُوتَ^(٦)، ظاهراً بادياً كقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَزْوَاجُ بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ [هود: ٢٧] أي ضعيف الرأي خفيفة، لا حقيقة له، ولا قرار.

ويَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿أَمْ يَظْهَرُ مِنَ الْقَوْلِ﴾ فِي الْخَلْقِ وَالْأَسْلَافِ، أَيْ لَمْ يَظْهَرْ مَا يَقُولُونَ، وَيُضَيِّفُونَ: إِنْشَارَ هَذِهِ الْأَصْنَافِ وَتَسْمِيَتِهَا آلِهَةً وَمَعْبُودَاتٍ^(٧)، فَيَكُونُ ﴿بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ﴾ فِي مَوْضِعِ حَقِيقَةٍ وَيَقِينٍ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ﴾ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: ﴿مَكْرَهُمْ﴾ قَوْلُهُمُ الَّذِي قَالُوهُ مِنَ الْكَذِبِ وَالزُّورِ: إِنَّهَا آلِهَةٌ، وَإِنَّمَا شُرَكَاءُ اللَّهِ.

لَكِنْ يُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿مَكْرَهُمْ﴾ مَكْرَهُمُ^(٨) بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ^(٩) اخْتَالُوا حَيْلًا / ٢٦٥ - ب / لِيَقْتُلُوهُ لِيُثَلِّثَ يَظْهَرُ هَذَا الدِّينَ فِي الْأَرْضِ، وَيُظْفِرُوا^(١٠) هَذَا النُّورَ لِيَدُومَ عِزُّهُمْ وَشَرَفُهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنفال: ٣٠] وَالْمَكْرُ هُوَ الْإِخْتِيَالُ وَالْأَخْذُ مِنْ حَيْثُ الْأَمْنُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَصَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ صَدُّوا بِمَا^(١١) بِمَا عَلِمَ مِنْ مَكْرِهِمْ وَاخْتِيَارِهِمْ مَا اخْتَارُوا. وَالسَّبِيلُ الْمَطْلُوقُ سَبِيلُ اللَّهِ، وَإِلَّا كَانَتْ جَمِيعُ الْأَدْيَانِ وَالْمَذَاهِبِ تُسَمَّى سُبُلًا كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ مَنْ أَضَلَّهُ اللَّهُ فَلَا يَمْلِكُ أَحَدٌ هِدَايَتَهُ، [وَمَنْ]^(١٢) هِدَاةً فَلَا يَمْلِكُ أَحَدٌ إِضْلَالَهُ.

الآية ٢٤

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الْعَذَابُ لَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، يَحْتَمِلُ الْقَتْلَ وَالْقِتَالَ وَالْخَوْفَ وَالْجُوعَ وَأَنْوَاعَ الْبَلَايَا كَقَوْلِهِ: ﴿وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرِيبَةً كَانَتْ مَائِمَةً مَطْمِئِنَةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ [النحل: ١١٢].

وقوله تعالى: ﴿وَلِلْعَذَابِ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ أَيْ أَشَدُّ ﴿وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ رَاقٍ﴾ أَيْ مَا لَهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ يَقِيهِمْ مِنْ عَذَابِهِ.

الآية ٢٥

وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾ يَحْتَمِلُ وَصْفَ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ، أَوْ صِفَةَ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ، وَيَحْتَمِلُ الْجَنَّةَ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَرٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ^(١) الْآيَةُ [محمد: ١٥] يَقُولُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: كَشَبَّو النَّارِ الَّتِي وُعدَ الْكَافِرُونَ، أَيْ لَيْسَا بِشَبَّيْهَيْنِ وَلَا مَثِيلَيْنِ، لَا تَكُونُ هَذِهِ مَثَلُ هَذِهِ، وَلَا شَبَّيْهَتَهَا^(٢) كَقَوْلِهِ: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَرٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ الْآيَةُ [محمد: ١٥] يَقُولُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: الَّذِي وَصَفَهُ كَذَا مِنَ النَّعْمِ الدَّائِمَةِ كَالَّذِي يَكُونُ عَذَابُهُ وَوَصَفَهُ كَذَا؟ أَيْ لَا يَكُونُ، فَعَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلِ.

وقوله تعالى: ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أَكْثَرُ دَائِمَةٍ﴾ أَيْ تُعَارَفُ دَائِمَةً، لَا تَزُولُ، وَلَا تَنْقَطِعُ، لَيْسَ كَيْفَارِ الدُّنْيَا، إِلَّا وَهِيَ تَزُولُ، وَتَنْقَطِعُ فِي وَقْتٍ. فَخَبَّرَ أَنْ يُعَارَفُ الْآخِرَةُ، وَمَا فِيهَا مِنَ النَّعْمِ، دَائِمَةٌ بِأَقْبَتِهِ غَيْرُ زَائِلَةٍ وَلَا مُنْقَطِعَةٍ وَكَذَلِكَ عَذَابُهَا دَائِمٌ، لَا يَزُولُ ﴿وَيُظْلَمُهَا﴾ أَيْضًا.

(١) فِي م: مَاء. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: شَيْء. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَهوَ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَغَيْرِهِ. (٥) أَدْرَجَ قَبْلَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: أَيْ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: ثَابِت. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: مَعْبُودَات. (٨) أَدْرَجَ قَبْلَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: أَيْ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيُظْفِرُونَ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: لَمَّا. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: شَبَّيْهَا.

أَخْبَرَ أَنَّ ظِلَّ الْجَنَّةِ لَا يَزُولُ، وَلَا يَنْقَطِعُ، لَا يَكُونُ فِيهَا شَمْسٌ، يَزُولُ ظِلُّهَا بِزَوَالِهَا، وَصَفَ جَمِيعَ مَا فِيهَا بِالْدَوَامِ وَالْمُنْقَعَةِ؛ الظِّلُّ شَيْءٌ، لَا أَدَى فِيهِ، وَفِيهِ مَنَافِعٌ، وَالشَّمْسُ فِيهَا أَدَى وَمَنَافِعٌ، وَكَذَلِكَ جَمِيعُ مَا يَكُونُ مِنَ الْأَشْيَاءِ فِي الدُّنْيَا، يَكُونُ [فِيهَا مَنَافِعٌ وَمَضَارٌّ، وَإِنِّهَا] ^(١) تَزُولُ، وَتَنْقَطِعُ. فَأَخْبَرَ أَنَّ ظِلَّ الْآخِرَةِ، وَمَا فِيهَا مِنَ النِّعَمِ دَائِمَةٌ بَاقِيَةٌ غَيْرُ زَائِلَةٍ وَلَا مُنْقَطِعَةٍ، وَلَا مُضَرَّةٌ فِيهَا، لَيْسَ كَنِعِيمِ الدُّنْيَا وَظِلِّهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ ظاهر ^(٢) هذا أن تكون [عُقْبَى] ^(٣) الذين اتَّقَوْا الشُّرَكَ لَأَنَّهُ ذَكَرَ ﴿وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ أي جزاء وعُقْبَى ما ذُكِّرْنَا، أي تلك الجنة جزاء الذين اتَّقَوْا الشُّرَكَ، ﴿وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ أي جزاؤهم ^(٤) النار، أو عُقْبَى [هؤلاء الذين] ^(٥) اتَّقَوْا [الشُّرَكَ] ^(٦) الجنة، وعُقْبَى أولئك النار.

وقال بعضهم: ﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أي عاقبة أعمالهم وحسناتهم الجنة، وعاقبة أعمال الذين كفروا بتوحيد الله النار.

الآية ٣٦

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَلَكْتَبَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ يُشْبِهُ أَنْ تَكُونَ الْآيَةُ صِلَةً قَوْلِهِ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ [الآية: ٣٠] فَأَخْبَرَ ^(٧) ﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَلَكْتَبَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ.

ثم اختلف في قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَلَكْتَبَ﴾ قال بعضهم: أصحاب محمد فرحوا بما أنزل إلى رسول الله.

وقال بعضهم: ﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَلَكْتَبَ﴾ أهل التوراة ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ يَذْكُرُ هُنَا أَنَّهُمْ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ، وَيَذْكُرُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿مَا يَوْذُو الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ [البقرة: ١٠٥].

وقال بعضهم في موضع آخر: ﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَلَكْتَبَ يَتْلُوهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة: ١٢١] فَمَنْ تَلَا مِنْهُمْ الْكِتَابَ حَقَّ تِلَاوَتِهِ، وَلَمْ يُبَدِّلْهُ، وَلَمْ يُغَيِّرْهُ، فَهُوَ يُؤْمِنُ بِهِ، وَيَفْرَحُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَمَنْ غَيَّرَهُ، وَبَدَّلَهُ، فَهُوَ لَمْ يَفْرَحْ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَلَكْتَبَ﴾ تأويله، والله أعلم: والذين آتينا منافع الكتاب أولئك ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ وهو ما قال في آية أخرى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَلَكْتَبَ يَتْلُوهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ [البقرة: ١٢١] لِأَنَّهُمْ أَكْثَرُهُمْ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾ يَحْتَمِلُ أَهْلَ الْكِتَابِ؛ كَانُوا يُنْكِرُونَ بَعْضَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ، لَا يُنْكِرُونَ كُلَّ مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ، وَإِنَّمَا كَانُوا يُنْكِرُونَ بَعْضَهُ ^(٨) وَصَفَتُهُ لِأَنَّهُمْ كَتَمُوا بَعْضَهُ ^(٩) وَصَفَتُهُ الَّتِي فِي كِتَابِهِمْ.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾ مُشْرِكِي الْعَرَبِ، وَهُمْ أَيْضًا أَنْكَرُوا بَعْضَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ، وَهُوَ مَا ذَكَرَ ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ [الآية: ٣٠] وقوله: ﴿أَجْعَلِ الْأَلَمَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [ص: ٥] وَنَحْوُهُ، لَمْ يُنْكِرُوا كُلَّهُ.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أَشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا﴾ كَانَ هَذَا [الَّذِي] ^(١٠) قَالَ عَلَى إِثْرِ قَوْلِ كَانَ مِنْهُمْ؛ كَانَهُمْ دَعَوْهُ إِلَى أَنْ يُشَارِكَهُمْ فِي عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، أَوْ دَعَوْهُ أَنْ يَكُونَ عَلَى مَا كَانَ آبَاؤُهُمْ، فَقَالَ: ﴿وَالَيْهِ مَتَابٌ﴾.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿وَلَا أَشْرِكَ بِهِ﴾ [أَنَّهُ قَالَ ذَلِكَ فِي] ^(١١) نَفْسِهِ ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا﴾ يَقُولُ: إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ أَدْعُو غَيْرِي، ثُمَّ أَخَالَفَ، وَأَعْبَدُ غَيْرَهُ ﴿وَالَيْهِ مَتَابٌ﴾ أَيِ إِلَيْهِ الْمَرْجِعُ.

الآية ٣٧

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أُنْزِلَتْهُ﴾ أَيِ كَمَا عَلَّمْنَاكَ آدَابًا، وَأَعْطَيْنَاكَ النُّبُوَّةَ، كَذَلِكَ أُنْزِلْنَاكَ عَلَيْكَ ﴿حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ قِيلَ: حُكْمُهُ عَرَبِيَّةٌ، وَكَانَتِ الْعَرَبُ تَفْهَمُ ^(١٢) الْحِكْمَةَ، أَوْ أُنْزِلْنَا مَا فِيهِ حِكْمٌ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: مِنَ الْأَشْيَاءِ فِيهَا مَنَافِعٌ وَمَضَارٌّ إِنِّهَا. (٢) أَدْرَجَ قَبْلَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: أَيِ جِزَاءِ الْكَافِرِينَ النَّارِ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

(٤) فِي الْأَصْلِ وَم: جِزَاءً، فِي م: جِزَاؤُهُ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: هَذِهِ لِلَّذِينَ. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ م. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: نَعْتُهُ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: نَعْتُهُ. (٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: قَالَ ذَلِكَ مِنْ. (١١) أَدْرَجَ قَبْلَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: لَا.

وتفسير قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أُنزِلَتْ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ ما ذَكَرَ في آية أخرى، وهو قوله: ﴿الرَّيَّةُ الْكِتَابُ الْيُسُورُ﴾ و﴿إِنَّا أُنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [الآية: ١ و ٢] سَمِيَ الْقُرْآنَ حُكْمًا لِأَنَّهُ لِلْحُكْمِ [أُنزِلَتْ اللَّهُ] ^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْنِ أَنْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْبَيِّنَاتِ هَذَا يَدُلُّ أَنَّهُمْ كَانُوا يَدْعُونَ إِلَى أَنْ يُشَارِكَهُمْ فِي بَعْضِ مَا هُمْ فِيهِ﴾ مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ يَنْصُرُكَ، وَيَمْنَعُكَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ﴿وَلَا وَاقٍ﴾ بِعَيْكَ ^(٢) الْعَذَابِ.

الآية ٣٨ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَكُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: نَزَلَ هَذَا؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْيَهُودَ غَيَّرُوا رَسُولَ اللَّهِ، وَطَعَنُوهُ ^(٣) فِي كَثْرَةِ النِّسَاءِ وَالْأَوْلَادِ، وَقَالُوا: لَوْ كَانَ نَبِيًّا عَلَى مَا يُزْعَمُ لَكَانَ لَا يَتَمَتَّعُ بِالنِّسَاءِ، وَلَا يَطْلُبُ الْأَوْلَادَ، كَمَا يَقَعْلُهُ غَيْرُهُ، وَمَا كَانَتْ النَّبِيُّ تَشْغَلُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ الْآيَةُ: أَيِ الْإِسْتِمْنَاعِ بِالنِّسَاءِ، وَاسْتِكْثَارِهِ ^(٤) مِنْهُمْ لَمْ يَمْنَعُهُ ^(٥) عَنِ الْإِخْتِصَاصِ بِالنَّبِيِّ وَالرَّسَالَةِ عَلَى مَا لَمْ يَمْنَعْ غَيْرُهُ مِنَ الرُّسُلِ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أَيِ لَا يَمْلِكُونَ إِنْزَالَ الْآيَاتِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ. إِنَّمَا يَتَوَلَّى اللَّهُ إِنْزَالَهَا إِنْ ^(٦) شَاءَ ذَلِكَ، وَهُوَ قَوْلُ عِيسَى حِينَ ^(٧) قَالَ: ﴿وَأَرْسِلْهُ الْأَكْثَمَ وَالْأَبْرَمَ﴾ الْآيَةُ [آل عمران: ٤٩] أَخْبَرَ أَنَّ مَا يَأْتِي مِنَ الْآيَاتِ إِنَّمَا يَأْتِيهَا بِإِذْنِ اللَّهِ وَبِأَمْرِهِ لَا مِنْ نَفْسِهِ.

وَيَحْتَمِلُ ^(٨) أَنْ يَكُونَ جَوَابَ مَا ذَكَرَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ وَجَوَابَ غَيْرِ ذَلِكَ أَيْضًا، وَهُوَ طَعْنُهُمُ الرُّسُلَ بِالْأَكْلِ وَالشَّرْبِ وَالْمَشْيِ فِي الْأَسْوَاقِ، وَسَوَالُهُمُ الْآيَاتِ الَّتِي سَأَلُوهُمْ، وَجَوَابُ ٢٦٦ - أ / إِنْكَارُهُمُ الرُّسُلَ مِنَ الْبَشَرِ.

يقول: لَسْتُ أَنْتَ بِأَوَّلِ رَسُولٍ، طَعِنْتَ بِمَا طَعَنَكَ بِهِ قَوْمُكَ، وَلَكِنْ مَا كَانَ قَبْلَكَ رَسُولٌ طَعَنَهُمْ ^(٩) قَوْمُهُمْ بِمَا طَعَنَكَ ^(١٠) بِهِ قَوْمُكَ، وَسَأَلُوهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا سَأَلَكَ ^(١١) بِهِ قَوْمُكَ، فَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ لَهُمْ عُذْرًا فِي رَدِّ مَا رَدُّوا وَتَرْكِ مَا تَرَكُوا، بَلْ نَزَلَ بِهِمُ الْعَذَابُ، فَعَلَى ذَلِكَ قَوْمُكَ.

وقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ: قَالَ قَائِلُونَ: لِكُلِّ كِتَابٍ أَجَلٌ، وَهِيَ الْكِتَابُ الَّتِي أُنزِلَتْ عَلَى الرُّسُلِ، يُعْمَلُ بِهَا إِلَى وَقْتٍ ثُمَّ تُنْسَخُ، أَوْ يُتْرَكُ الْعَمَلُ بِهَا.

وقال قائلون: هُوَ مَا قَالَ: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أَيِ لِكُلِّ ذِي أَجَلٍ أَجَلُهُ إِلَى وَقْتِ اقْتِضَائِهِ، لَيْسَ يُرَادُ بِهِ الْكِتَابَةُ بِالْيَدِ، وَلَكِنْ الْإِثْبَاتُ كَقَوْلِهِ: ﴿أَوَلَيْكَ كُتِبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانُ﴾ [المجادلة: ٢٢] أَيِ اثْبَتَ، لَيْسَ أَنْ كُتِبَ هُنَاكَ بِالْيَدِ. فَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أَيِ إِبْثَاتٍ إِلَى وَقْتٍ.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ لِكُلِّ كِتَابٍ أَجَلٌ، أَيِ لِكُلِّ مَا كُتِبَ لَهُ الْأَجَلُ، وَجُعِلَ لَهُ الْوَقْتُ مِنَ الْعَذَابِ، يَنْزِلُ بِالْمُعَانِدِينَ ^(١٢)، وَالنَّصْرُ لِلرُّسُلِ، فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ قَبْلَ ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَلَا يَتَأَخَّرُ أَيْضًا عَنْ ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً﴾ الْآيَةُ [الأعراف: ٣٤].

الآية ٣٩ وقوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ قَالَ ^(١٣) قَائِلُونَ: قَوْلُهُ: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ الْمَحْوُ هَهُنَا إِنْ شَاءَ فِي الْإِبْدَاءِ يَمْحُو، لَيْسَ عَلَى أَنْ كَانَ مُثْبِتًا، فَمَحَاهُ ^(١٤)، وَلَكِنْ أَنْشَأَ هَكَذَا يَمْحُو، وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ آلِ لُوطٍ﴾ [الإسراء: ١٢] لَيْسَ أَنَّهُ كَانَ مُثْبِتًا كَذَا، ثُمَّ مَحَاهُ ^(١٥) وَلَكِنْ أَنْشَأَ فِي الْإِبْدَاءِ ^(١٦) يَمْحُو، وَكَقَوْلِهِ: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ﴾ [الرعد: ٢] لَيْسَ أَنَّهَا كَانَتْ مَوْضُوعَةً، ثُمَّ رَفَعَهَا، وَلَكِنْ أَنْشَأَهَا مُرْتَفِعَةً كَمَا هِيَ: فَعَلَى ذَلِكَ هَذَا.

ثُمَّ يَحْتَمِلُ ذَلِكَ الْأَعْمَالُ الَّتِي كَانَتْ مَغْفُورَةً فِي الْأَصْلِ مِنْ أَعْمَالِ الصِّبْيَانِ وَالْأَعْمَالِ الَّتِي لَا جَزَاءَ عَلَيْهَا.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: بقي. (٣) في الأصل وم: وطعنوا. (٤) في الأصل وم: واستكثروهم. (٥) في الأصل وم: يمنع. (٦) من م، في الأصل: إذا. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) الواو ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: طعن. (١٠) في الأصل وم: طعن. (١١) في الأصل وم: سأل. (١٢) في الأصل وم: من المعاندين. (١٣) أدرج قبلها في الأصل وم: ذلك. (١٤) في الأصل وم: فمحا. (١٥) في الأصل وم: محا. (١٦) في الأصل وم: الآية.

وقال قائلون: على إحداث مخو بعد إثبات، ثم يَحْتَمِلُ [ذلك وجوهاً]:

أحدها: يَمْخُو الله^(١) ما يَنْسَخُ مِنَ الأحكام: فهو على مخو الحكم به والعمل، ليس على مخو نفسه، وثبت: وهو ما لا يَنْسَخُ، ولا يترك العمل به والحكم.

والثاني^(٢): مخو الأحوال، وهو ما يَنْقُلُ، ويَحْوِلُ مِنْ حالٍ إلى حالٍ: مِنْ حالِ التُّظْفَةِ إلى حالِ العَلَقَةِ، وَمِنْ حالِ العَلَقَةِ إلى حالِ المَضَغَةِ؛ يَحْوِلُهُ، وَيَنْقُلُهُ مِنْ حالٍ إلى حالٍ أُخْرَى، فذلك هو المَخْوُ.

والثالث^(٣): هو ما يَحْتُمُّ بِهِ العُمَرُ [مِنْ] السَّعَادَةِ أو الشَّقَاوَةِ: إِذَا كَانَ كَافِراً، ثُمَّ اسْلَمَ فِي آخِرِ عُمُرِهِ، مُجِيتِ الأَعْمَالِ الَّتِي كَانَتْ لَهُ فِي حَالِ كُفْرِهِ، فَأَبْدَلَتْ حَسَنَاتٍ، وَإِذَا كَانَ مُسْلِماً، ثُمَّ خَتَمَ [عُمُرَهُ]^(٤) بِالْكَفْرِ مُجِيتِ أَعْمَالِهِ الَّتِي كَانَتْ لَهُ مِنَ الصَّالِحَاتِ، فَلَمْ يَنْتَفِعْ^(٥) بِهَا.

أو أَنْ يَكُونَ مَا ذَكَرَ مِنَ المَخْوِ والإِثْبَاتِ هُوَ مَا يَكْتُوبُ الحَفَظَةُ مِنَ الأَعْمَالِ، يُنْحَى عَنْهَا مَا لَا جَزَاءَ لَهَا وَلَا ثَوَابَ، وَيَبْقَى مَا لَهُ الْجَزَاءُ وَالثَوَابُ، وَيُتْرَكُ مَكْتُوباً كَمَا هُوَ.

أو أَنْ يَكُونَ لِلْخَلْقِ مَقَاصِدُ فِي أَعْمَالِهِمْ، وَالحَفَظَةُ لَا يَطْلُبُونَ عَلَى مَقَاصِدِهِمْ، فَيَكْتُبُونَ هُمْ مَا هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ حَسَنَةً بِقُضْدِهِ سَيِّئَةً عَلَى ظَاهِرٍ مَا عَمِلَ، أَوْ حَسَنَةً فِي الظَّاهِرِ، هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ سَيِّئَةً، فَيَغْفِرُ ذَلِكَ، فَيَجْعَلُ مَا هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ شَرًّا، وَفِي الظَّاهِرِ خَيْرٌ، شَرًّا بِالْقُضْدِ، وَمَا هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ خَيْرٌ، وَفِي الظَّاهِرِ شَرًّا، خَيْرًا، وَيَكُونُ فِي كِتَابَةِ الحَفَظَةِ، لَكُنْهُ مِنْ وَجْهِ آخَرَ، وَهُوَ أَنَّ الحَفَظَةَ يَكْتُبُونَ الأَعْمَالِ، ثُمَّ يُعَارِضُ ذَلِكَ بِمَا فِي اللُّوْحِ المَحْفُوظِ، فَيُنْحَى مِنْ كِتَابَةِ الحَفَظَةِ مِنَ الزِّيَادَةِ، وَيُثَبَّتُ فِيهَا مَا كَانَ مِنَ النُّقْصَانِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ هَذَا يَحْتَمِلُ ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ الَّذِي يُعَارِضُ بِهِ كِتَابَ الْمَلَائِكَةِ، وَيَحْتَمِلُ ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ الَّذِي تُسْتَنْسَخُ مِنْهُ الْكِتَابُ الَّتِي أَنْزَلَتْ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ، وَهُوَ اللُّوْحُ المَحْفُوظُ.

وفيه دلالة أَنَّ اخْتِلَافَ الْأَلْسِنِ، لَا يُوجِبُ تَغْيِيرَ الْمَعْنَى، لِأَنَّهُ لَا يُدْرَى أَنَّ تِلْكَ الْكِتَابِ فِي اللُّوْحِ المَحْفُوظِ بِأَيِّ لِسَانٍ هِيَ؟ ثُمَّ أَنْزَلَ مِنْهُ كُلُّ كِتَابٍ عَلَى لِسَانِ الرُّسُولِ الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ، وَكَذَلِكَ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ يَكْتُبُونَ أَعْمَالَ بَنِي آدَمَ، وَلَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكْتُبُوا بِلِسَانِ الْخَلْقِ، لِأَنَّهُ يَظْهَرُ، لَوْ كَانُوا يَكْتُبُونَ بِلِسَانٍ هَؤُلَاءِ. فَذَلَّ أَنْهُمْ إِنَّمَا يَكْتُبُونَ بِلِسَانِ أَنْفُسِهِمْ. فَهَذَا كُلُّهُ يَدُلُّ أَنَّ اخْتِلَافَ اللِّسَانِ لَا يُوجِبُ اخْتِلَافَ الْمَعْنَى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٤٠

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مَا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَوَفِّتُكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ كَانَهُ ﷻ طَمِعَ، أَوْ سَأَلَهُ أَنْ يُرِيَهُ جَمِيعَ مَا وَعَدَ لَهُ مِنْ إِنْزَالِ الْعَذَابِ عَلَيْهِمْ وَأَنْوَاعِ مَا وَعَدَ، فَقَالَ: إِنْ شِئْنَا ﴿نُرِيدُكَ بَعْضَ﴾ مَا وَعَدْنَا، وَإِنْ شِئْنَا ﴿نَوَفِّتُكَ﴾ وَلَمْ نُرِكَ ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ﴾ أَي لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ، أَي لَيْسَ إِلَيْكَ هَذَا ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ﴾ وَهُوَ كَقَوْلِهِ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

[وقوله تعالى]^(٦): ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ﴾ فَيُخْرِجُ مُخْرِجَ الْعِتَابِ وَالتَّوْبِخِ، لَيْسَ مُخْرِجَ الْوَعْدِ وَالْعِدَّةِ؛ إِذْ قَوْلُهُ: ذَا أَوْ ذَا بِحَرْفِ شَكٍّ، فَهُوَ يُخْرِجُ عَلَى الْوَعْدِ أَوْ عَلَى النَّهْيِ عَنْ سُؤَالِ كَانٍ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، فَإِنْ كَانَ عَلَى النَّهْيِ، فَكَأَنَّهُ نَهَاةٌ أَنْ يَسْأَلَ إِنْزَالَ الْعَذَابِ عَلَيْهِمْ [فهو]^(٨) يَقُولُ: إِنْ شِئْنَا أَنْزَلْنَا، وَإِنْ شِئْنَا لَمْ نُنْزِلْ.

وَأَنَّ كَانَ عَلَى الْوَعْدِ [فهو]^(٩) يَقُولُ: تُرِيدُكَ بَعْضَ مَا وَعَدْنَا، وَلَا تُرِيدُكَ كُلَّهُ، وَإِلَّا فَظَاهِرُهُ^(١٠) حَرْفُ شَكٍّ.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ يَحْتَمِلُ مَا وَعَدَ وَجَزَاءَهُ، وَيَحْتَمِلُ الْحِسَابَ الْمَعْرُوفَ الَّذِي يُحَاسِبُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَجُوهًا. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيَحْتَمِلُ الْمَخْوُ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيَحْتَمِلُ الْمَخْوُ أَيْضًا. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: يَنْتَفِعُوا. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: ظَاهِرُهُ.

الآية ٤١

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ قد ذكرنا في ما تقدم أنه إنما هو حرف تعجب وتنبه، فهو يُخَرَّجُ على وجهين: أحدهما: على الخبر؛ أي قد رأوا أنا فعلنا ما ذكرنا^(١).

والثاني: على الأمر، أي رُوا أنا فعلنا ما ذكرنا^(٢)، وهو ما ذكر من قوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الروم: ٩]. أي قد ساروا في الأرض، أي سيروا.

[وقوله تعالى] (٣): ﴿أَنَا نَأْيُ الْأَرْضِ تَنْفُسًا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ قال بعضهم: هو ما جعل من أرض الكفرة للمسلمين بالفتح لهم والتضر على أولئك والإخراج من سلطان أولئك الكفرة وأيديهم وإدخالها في أيدي المسلمين. فذلك النقصان، والله أعلم: لما وعد الله^(٤) لرسوله أن يريته بغض ما وعد لهم قال^(٥) الكفرة عند ذلك: أين ما وعد الله^(٦) أن يريك، فقال عند ذلك: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْيُ الْأَرْضِ تَنْفُسًا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أي: ألم يروا أنه جعل بغض ما كان لهم من الأرضين للمسلمين. فإذا قدر على جعل البغض الذي كان لهم لهؤلاء فإنه^(٧) لقادر أن يجعل الكل لهم، أفلا يفتخرون؟ هذا، والله أعلم، ما أراد بما ذكر من النقصان.

وقال قائلون: نقصان الأرض، موت فقهاءها وعلمائها وفنائهم^(٨) وجه هذا هو^(٩) أن الفقهاء والعلماء هم عماد الأرض، وأهلها^(١٠)، وبهم صلاح الأرض، فوصف الأرض بالنقصان بذهاب أهلها، وهو كما وصف الأرض بالفساد، وهو قوله: ﴿لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١] وقوله: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الروم: ٤١] فالأرض لا تفسد بنفسها، ولكن وصفت بالفساد لفساد أهلها.

فعلَى ذلك لا تنقص هي بنفسها، ولكن وصفت بالنقصان لذهاب أهلها وعمادها: فقهاءها وعلمائها.

ثم يَحْتَمِلُ ذهاب العلماء الْمُتَقَدِّمِينَ الذين تقدموا رسول الله في الأمم السالفة، وهم علماء أهل الكتاب. فنقول: ألا يفتخرون بأولئك الذين قبضوا، وتفتأوا، من علمائهم؟ فلا بد من رسول يعلمهم الآداب والعلوم، ويجدد لهم ما درس من الرسوم، ودعب من الآثار.

فكيف أنكروا رسالته؟ وفي بعث الرسول حدوث العلماء، وذلك وقت حدوث العلماء وزمانه.

فإن كان أراد العلماء المتأخرين وفقهاءهم [يُخْرِجُ ذَلِكَ مُخْرَجًا] (١١) التَّعْزِيَةَ لَهُ؛ أي تصير الأرض بحال، يوصف بالنقصان بذهاب العلماء/ ٢٦٦ - ب/ والفقهاء.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ﴾ قيل: لا راد لحكمه، وحكمه يَحْتَمِلُ العذاب الذي حَكَمَ على الكفرة. يقول: لا راد للعذاب الذي حَكَمَ عليهم، وهو كقولهِ: ﴿قُلْ رَبِّ أَعْمُرْ بِالْحَقِّ﴾ [الأنبياء: ١١٢] أي احكمم بالعذاب الذي حَكَمْتَ عليهم.

ويَحْتَمِلُ قوله: ﴿لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ﴾ أي لا يتعقب أحد حكمه، ولا يُعَقَّبُ أحد سلطانه، كما يكون في حكم الخلائق، يتعقب بعض عن بعض، وكما ذكر في الحَقِيقَةِ ﴿لَمْ يُعَقَّبَتْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ [الرعد: ١١] يتعقب بعض عن بعض في الحَقِيقَةِ وفي ما سلطوا، والله أعلم ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ هذا قد ذكرنا في غير موضع.

الآية ٤٢

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي مكر الذين من قبلهم برُسُلِهِمْ، كَمَكَّرِ هؤلاء بك، يُصَبِّرُ رسوله على أذاهم به، ثم يَحْتَمِلُ المَكْرَ وجهين:

أحدهما: مَكَّرُوا بنفسِهِ: هَمَّوا قَتْلَهُ وأهْلَكَهُ.

(١) و(٢) في الأصل وم: ذكر. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: فقال. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل: فقهاؤها وفنائها، في م: فقهاءها وعلمائها. (٩) في الأصل وم: وهو. (١٠) في الأصل وم: وأهلهم. (١١) في الأصل: فيخرج، في م: فيخرج ذلك مخرج.

والثاني: مَكَّرُوا بديني الذي دعاهم إليه، وأراد إظهاره، فَهَمُّوا^(١) هُم إطفاء ذلك وإبطاله، وكذلك ﴿مَكَّرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ برسلهم يُخْرِجُ على هذا، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ وهذا أيضاً يُخْرِجُ على وجهين:

أحدهما: يقول: فَلِلَّهِ جزاء المَكْرِ جميعاً؛ يَجْزِي كُلَّ بِمَكْرِهِ.

والثاني: أي الله حقيقة المَكْرِ؛ يأخذهم جميعاً بالحق من حيث لا يشعرون.

وأما هُم فإنما يأخذون^(٢) ما يأخذون لا بالحق، ولكن بالباطل، ولا يقدرون على الأخذ من حيث لا يشعرون إلا قليلاً من ذلك. فحقيقة المَكْرِ الذي هو مَكْرُ بالحق في الحقيقة لله، لا لهم.

ويَحْتَمِلُ قوله: ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ أي الله تدبير المَكْرِ جميعاً، إن شاء أمضاه وإن شاء منعه، إليه ذلك، لا إليهم، أو الله حقيقة المَكْرِ يَغْلِبُ مَكْرُهُ مَكْرَ أولئك.

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُ مَا تَكْتُمُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من خير أو شر ﴿وَسِعَ الْكُفْرُ لِمَنْ عَقِيَ الدَّارَ﴾ يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ عُقْبَى الدَّارِ معروفاً عندهم، وهي الجنة، فيكون صلة قولهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا﴾ [البقرة: ١١١] فيقول، والله أعلم: سَيَعْلَمُونَ هُم ﴿لِمَنْ عَقِيَ الدَّارَ﴾ أمي لهم، أم هي للمؤمنين؟ أو أن يكون جواب ﴿وَلَكِنْ رُودَتْ إِلَيْ رَبِّ لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦] لما رأوا أنفسهم^(٣) مُفْضِلِينَ في أمر الدنيا، ووسَّعَ عليهم الدنيا، ظَنُّوا أَنْ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ كَذَلِكَ، فقال ذلك جواباً لهم.

الآية ٤٣

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي قالوا ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ أي لم^(٤) يَنْعِثْكَ اللهُ رسولاً، وهم كانوا يقولون كَذَلِكَ لَهُ، أمره^(٥) أَنْ يَقُولَ لَهُمْ: ﴿كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي نَبِيٍّ، ورسول^(٦) اللهُ إِلَيْكُمْ بِالْآيَاتِ التي آتَى بها. أو كَانَ قَالَ لَهُمْ هذا لما بَالَعَ في الحجاج والبراهين في إثبات الرسالة والتبوء، فلم يَقْبَلُوا ذلك، فَأَيْسَ مِنْ تَصْدِيقِهِمْ. فعند ذلك قَالَ: ﴿كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ أي يَعْلَمُ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ؛ يعني التوراة [والإنجيل]^(٧) فَيَشْهَدُ أيضاً أَنِّي رسول، ونبي^(٨)، أي يَعْلَمُ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ أَنِّي على حق، وأني رسول الله، وهو كقولهِ: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ نَبِيٌّ أَن يَعْلَمَ عِلْمُكُمُ الْبَيْتَ بِإِسْرَاءِ﴾ [الشعراء: ١٩٧]^(٩) وقولهِ: ﴿قَسَمُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣، والأنبياء: ٧].

وَمَنْ قَرَأَ بِالْخَفْضِ: وَمِنْ عِنْدِهِ: ﴿عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ فتأويله، والله أعلم: أي مِنْ عِنْدِ اللهِ جاءَ عِلْمُ هذا الكتابِ ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: ٤٢] وكذلك رُوي في بَعْضِ الْأَخْبَارِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقْرَأُ وَمِنْ عِنْدِهِ ﴿عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ بِالْخَفْضِ.

وأما القراء جميعاً فإنهم يختارون بالنصب ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾.

قال أبو عبيد: وَمِنْ عِنْدِهِ بِخَفْضِ الميم والدال، وَرَفَعَ العين [عِلْمُ الْكِتَابِ]^(١٠)، قَالَ: لَا أَدْرِي عَمَّنْ هُوَ.

ورُوي عن عبد الله بن سلام أَنَّهُ قَالَ: فِي نَزَلٍ: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ هذا يُؤَيِّدُ أَنْ يُثَبِّتَ قَوْلَ أَهْلِ التَّأْوِيلِ حِينَ^(١١) قالوا: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ وَأَصْحَابُهُ [والله أعلم بالصواب]^(١٢).

تم بعون الله

المجلد الثاني

ويليه الثالث وأوله سورة إبراهيم

(١) في الأصل وم: هموا. (٢) في الأصل وم: يأخذوه. (٣) في الأصل وم: هم. (٤) في الأصل وم: لن. (٥) في الأصل وم: فأمره. (٦) الروا ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) الواو ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، في الأصل: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ يَنْ شَرَكًا بِهِمْ﴾ [الروم: ١٣]. (١٠) ساقطة من الأصل وم انظر معجم القراءات القرآنية ج ٣/ ٢٢٢. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) ساقطة من م.

٥.....	سورة المائدة
٩٥.....	سورة الأنعام
٢٠٥.....	سورة الأعراف
٣٢٩.....	سورة الأنفال
٣٧٩.....	سورة التوبة
٤٦١.....	سورة يونس
٥٠٧.....	سورة هود
٥٦٥.....	سورة يوسف
٦١٣.....	سورة الرعد